مِفتاح تحقيق التاريخ الإسلاميّ

كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلّى الله عليه وسلّم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم

محمد الصّادق ابراهيم عرجون

عميد كلّية أصول الدّين بجامعة الأزهر سابقاً

دار القلم

دمشق

الفهرس

هذا الكتاب
محمد صلى الله عليه وسلم
من نبعته إلى بعثته
مقدِّمات ممهِّدات

فتح وتقديم

تمهيد

الرسالات الإلّهية والعقل الإنساني

البيئة الطبيعية والاجتماعية

لحياة محمد ﷺ

مكة المكرمة ومكانتها

البيئة الاجتماعية

محمّد صلّى الله عليه وسلّم الإنسان
تسلسل الأحداث

أسرة محمد ﷺ
خصائصها ومكانتها في العرب

قصة حفر زمزم

قصة الذبيـح

عبد الله بن عبد المطلب

تزويج

عبد الله بن عبد المطلب من آمنة

قصة المتعرضة

لعبد الله بن عبد المطلب

قصة أصحاب الفيل

ميلاد محمد ﷺ وما احتف به من الأحداث

الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة
تحقيق تاريخي وتحليل علمي

إخبار أهل الكتاب ومُتَحنِّفة العرب
بمولد محمد ﷺ وبعثته

محمد صلى الله عليه وسلم في المهد

رضاعه عليه السلام

تحقيق قصة شق صدره

صلى الله عليه وسلم

محمد صلى الله عليه وسلم
في طفوليته

سفر محمد ﷺ إلى يثرب ووفاة أمه وهي عائدة به إلى مكة

محمد صلى الله عليه وسلم في كفالة جده

محمد صلى الله عليه وسلّم في كفالة أبي طالب

محمد صلى الله عليه وسلم في رحيله إلى الشام

تسببه ﷺ لعيشه

رعيه عليه السلام الغنم

محمد صلى الله عليه وسلّم بين أترابه

محمد صلى الله عليه وسلّم يشهد حرب كنانة وقيس في يوم الفجار

محمد صلّى الله عليه وسلّم يشهد حلف الفضول

محمد صلّى الله عليه وسلّم يعمل في بناء الكعبة

محمد صلّى الله عليه وسلّم
يتسامى عن دنس الجاهلية

محمد صلّى الله عليه وسلّم
يتجر في مال خديجة

تزوُّج محمد صلّى الله عليه وسلّم
خديجة رضي الله عنها

ظاهرتان في حياة محمد صلّى الله عليه وسلّم

الأولى: شظف العيش

تعبده صلّى الله عليه وسلّم قبل البعثـة

خصائص محمد صلّى الله عليه وسلّم فـي رسـالتـه لا تزال منهلاً لأقلام المفكرين

رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم
تنصف النبوة والأنبياء
وترد اعتبارها واعتبارهم

محمد صلّى الله عليه وسلّم
بين ميلادين
ميلاد بشرية وميلاد رسالة
بدء الوحي وقداسة النبوة
نظر وتحقيق

العلم هو العنوان الأول
في رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم

تحقيق
روايات بدء الوحي

بدء رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم
كان ميلاداً روحياً جديداً لحياته وحياة أمته
كمال بشرية محمد ﷺ
كان مهداً لميلاد رسالته

ميلاد رسالة محمد ﷺ

أقصوصة التردِّي من شواهق الجبال
أبطولة زائفة مضلّة

نظر ونقـد

من غار حراء إلى غار ثور
سير الرسالة إلى غايتها
في مدى هذه الخطوات المعدودة تم بناء أعظم رسالة إلى الحياة
الكفاح الصبور والصبر المكافح هما مادة بقاء هذه الرسالة
وعنصر نمائها وسر خلودها

نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم
كانت أول مراتب آصطفائه

بدء نزول القرآن العظيم
كان أول خطوات الرسالة

أسبق السُّبَّق إلى الإيمان

التحرك الإيجابي لسير الرسالة

الخطوات الأولى في سير الرسالة

تحقيق أول ما نزل من القرآن

الخطوة الثانية في سير الرسالة

الأمر بالإنذار العام

اختلاف سياق الروايات
في إسلام عمر

شموخ الإيمان في مدارك عمر

نفحات الإعجاز في إسلام عمر

الفهـرس

الهجرة إلى الحبشة

أثر من آثار حكمة الاستسرار بالدعوة

بيان موجز في بعض معاني سورة فُصِّلَت

منح في ثنايا المحن ٢٦٥

عام الحزن
وتوالي اشتداد المحن

رُزء الإسلام ونبيه ﷺ
بوفاة خديجة رضي الله عنها

رُزء الحمية القومية
بفقد أبي طالب

اختلاف الروايات في وقائع الإسراء والمعراج

مواكب الخير
تجني بواكير النصر في لقاءات الطلائع اليثربية

الباكورة الأولى
من طلائع النصر
طَلٌّ نديّ في لقاء
الكامل في قومه سُويد بن الصامت

الباكورة الثانية
من طلائع النصر بَرْقة غيث
في لقاء إياس بن معاذ

الباكورة الثالثة
من طلائع النصر
انهمار الغيث بالبيعة الأولى

الباكورة الرابعة
من طلائع النصر
بيعة العقبة الثانية

الباكورة الخامسة
من طلائع النصر
فتح الفتوح: بيعة العقبة الكبرى ٣٩١

هجرة النبي ﷺ

من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة

الهجرة النبوية

كيف بدأت ـ وكيف تمت ؟

تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها
كانت سياسية واجتماعية واقتصادية

العوامل السياسية
في دوافع الهجرة النبوية

العوامل الاجتماعية
في دوافع الهجرة النبوية

العوامل الاقتصادية
في دوافع الهجرة النبوية

كيف بدأت هجرة النبي ﷺ

تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

الفهـــرس

دعائم بناء الأمة الإسلامية
بعد تثبيت عقيدتها
الدعامة الأولى: بناء المسجد الأعظم بالمدينة

الدعامة الثانية

التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم هي المؤاخاة بين عناصر هذا المجتمع على الحب في الله

النوع الثاني من المؤاخاة
المؤاخاة الاجتماعية التكافلية

تحقيق نفي التوارث بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

المؤاخاة على الحب في الله
أقوى دعائم بناء حياة الأمة
فإذا وهت تآكل بنيانها

مؤاخاة الحب بين أفراد المجتمع المسلم
فتحت الطريق إلى بناء مجتمع مسلم
متكافل بحكم الميثاق الذي
أمر رسول الله ﷺ
بكتابته وتنفيـذه

الدعامة الثالثة
التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
في مستقبل حياته
هي الجهاد في سبيل الله

غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه
تحقيق الروايات في ذلك

المنهج النبوي
للجهاد في الإســلام

مشارق أنوار النصر من آفاق
بدر العظمى
منهج نبوي، ومجتمع مسلم

أعظم مواقف العبودية الضارعة
بين يدي الكبرياء الإلٓهي

هدفنا من الحديث عن الغزوات

تنزل النصر مع آيات السماء

شهود الملائكة غزوة بدر

هل باشرت الملائكة القتال مع المؤمنين في بدر أو غيرها؟

فرائد بدريّة

الفريدة الأولى

مشهد يمثل ذروة صدق الإيمان

الفريدة الثانية

ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله

الفريدة الثالثة

مقتل أبي جهل ـ لعنه الله ـ بسيوف ابني عفراء (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) شجاعة فدائية ـ إخوة بعضهم من بعض

الفريدة الرابعة

بلال مؤذن الإسلام يقضي على حياة ثاني طواغيت الكفر أمية بن خلف

الفريدة الخامسة

تجاذب الإيمان والعاطفة البشرية

يتمثل في نموذج الإيمان

موقف أبي حذيفة بن عتبة وهو يشهد نهاية أبيه

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم

أولياء إن استحبوا الكفر عن الإيمان ﴾

في الطريق من بدر إلى المدينة

(ولسوف يعطيك ربك فترضى)

وقائع وأحداث تسترفد تطبيق منهج الرسالة

في تربية المجتمع المسلم لحماية الدعوة ونشرها

قتل النضر بن الحارث
صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة

قتل لصيق قريش
عقبــة بــن أبــي مُعَيـط

* * *

قصة أبي العاص بن الربيع
صهر رسول الله ﷺ

عـرض وتحقيق ٤٧٩

قصة عمير بن وهب
وما تحويه من تدبير إلٰهيٍّ أكسب الدعوة قوة
في مسيرتها

قصة فداء أسرى بدر في القرآن الكريم
وموقف النبي ﷺ من أحداثها
بحث وتحقيق

غزوة أحـد

أحداثها وآثارها في تربية المجتمع المسلم

تشابه في بعض المواقف

بين بدر وأحد

كانت غزوة أحد منحة في طيات المحن

نماذج من بطولاتها أظهرتها الشدائد

١ ـ بطولة أبي دجانة

٢ ـ بطولة أنس بن النضر

٣ ـ بطولة طلحة بن عبيد الله

٤ ـ بطولة أبي طلحة: زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي

٥ ـ بطولة نسيبة بنت كعب الأنصارية

تحليل لما في غزوة أحد من تمحيص للإيمان

النبي صلّى الله عليه وسلّم
يدعو أصحابه إلى أرفع منازل العبودية

من لواحق غزوة أُحُد
المسير إلى حمراء الأسد

الفهـــرس

من بدر وأُحد إلى الحديبية

كانت غزوة بدر نموذجاً للسلوك المنهجي للمجتمع المسلم

كانت محنة (أُحُد) درساً تربوياً في حياة المجتمع المسلم

مراحل البحث في الغزوات

بَعْثُ الرّجيع

الاختلاف بين سياق البخاري وسياق ابن إسحاق
في قصتي (الرجيع) (وبئر معونة)

سرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان ابن
خالد بن نبيح وقتله

سرية بئر معونة ـ وهي بعثة القراء
أسبابها وأحداثها وآثارها

النسخ في القرآن من أخطر ما يجب التعمق في الحكم به بحث وتحقيق

هل نزل قرآن في شأن سرية القرّاء ثم نسخ؟؟؟

وقفة مع السهيلي وتحقيق أنه لا نسخ بغير بدل مناقشة رأيه فيما زعم من صحة روايات قرآن نزل ثم نسخ إلى غير بدل

غزوة الأحزاب وهي غزوة الخندق
أسبابها وأحداثها وآثارها
مشابه بينها وبين غزوة أُحُد
كانت شدائد أُحُد دروساً تربوية لبطولات
لم تهزها أعاصير المحنة

تحقيق تاريخ غزوة الأحزاب

أسباب غزوة الأحزاب ـ الخندق ـ ومن تجمع لها
من فلّال المشركين وفجّار الأخابث من اليهود

تنبيه إلى ما في أحداث هذه الغزوة
من معالم منهج الرسالة

قصة نُعَيم بن مسعود
وتخذيله الأحزاب عن موافقة المسلمين

بحث وتحقيق
في روايات قصة نعيم بن مسعود

مثل وشواهد من منهج الرسالة
في قصة نعيم بن مسعود

قصة حذيفة بن اليمان يوم الخندق
ودخوله بين الأحزاب ليأتي بأخبارهم

غزوة بني المصطلق ـ وهي غزوة المريسيع
أسبابها، وأحداثها، وأحاديثها، وآثارها

تحقيق سبب غزوة بني المصطلق

يُمن عائشة رضي الله عنها وبركتها
في نزول تشريع التيمم

محنة الإفك والبهتان
أخبث وأخطر مكايد النفاق ولؤم المنافقين

عبر الغيب في تصريف الأقدار

كيف بدأت هذه الغزوة؟ وكيف ختمت؟

إعراسه ﷺ بجويرية وإسلام قومها

معاهدة الحديبية

أسبابها ـ وأحداثها ـ وأحاديثها

وآثارها في سرعة نشر الدعوة

ما تضمنته من سياسة قيادية حكيمة

معالم منهج الفتوحات

بيان وتحقيق
يكشف عن أحكم سياسة في عقد هذه المعاهدة
ويبين ما تضمنته من معالم منهجية
في حياة المجتمع المسلم

شروط المعاهدة وبنودها

غزوة الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة
أسبابها ـ أحداثها ـ آثارها

قصة حاطب بن أبي بلتعة
وكتابه إلى قريش

مسير رسول الله ﷺ إلى مكة
في جيش كثير العدد قوي العدَّة

قصة ضنّ الأنصار
برسول الله صلّى الله عليه وسلّم
أن لا يفارقهم إلى غيرهم

مظاهر فرحة المؤمنين بدخول مكة
يوم الفتح الأعظم

خطبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم
يوم الفتح الأعظم

غزوة حنين
جموع هوازن وثقيف
درس تربوي في أقسى محنة
ينتهي إلى أعظم منحة

طلب فُـرّار هوازن وثقيف

موقف الأنصار من غنائم حنين وموقف النبي ﷺ منهم

ملاحقة فلول ثقيف في حصونهم وحصـــارهم بالطـــائف

غزوة تبوك ـ وهي غزوة العسرة
أسبابها ـ وأحداثها ـ وآثارها

موقف كعب بن مالك في تخلفه حتى تاب الله عليه كما يصوّره بأسلوبه

عبر واعظة في آيات تربية متلطفة

من روائع أحاديث الوفود
وتحقيق غرر أحداثها
نماذج تُصَوِّر ولا تستقصي

قدوم أول وفد لبني تميم
تحقيق أسباب قدومه وأحداثه وآثارها
في تربية المجتمع المسلم

وفد عبد القيس
حفاوة النبي ﷺ بقدومهم وإكرامهم
ثناؤه ﷺ عليهم وترحيبه بقدومهم
تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس
بيان سبب وفادة وفد عبد القيس
روايات أحاديثهم من الصحيحين وغيرهما
الأحداث والوقائع
معالم منهجية في هذه الأحداث تمثِّل نماذج في تربية المجتمع المسلم

تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس

بيان سبب وفادة وفد عبد القيس

ما جاء في وفد عبد القيس
من أحاديث وأحداث

قدوم وفد نصارى نجران
سبب وفادة وفدهم على النبي ﷺ
ورود قصتهم في القرآن والصحيحين وغيرهما
ما تضمنته هذه القصة من معالم منهج الرسالة في أحداثها ونماذجها التربوية

نصارى نجران

وموقفهم من الرسالة الإسلامية

كتاب النبي ﷺ

إلى أهل نجران يدعوهم إلى الإسلام

تعليق وبيان

نص كتاب رسول الله إلى أهل نجران في رواية البيهقي

مِفتاح تحقيق التاريخ الإسلاميّ

كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلّى الله عليه وسلّم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم

محمد الصّادق ابراهيم عرجون

عميد كلّية أصول الدّين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الأوّل

دار القلم

دمشق


محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الطبعة الثانية

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع
جدة: ٢١٤٦١ - ص. ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب
محمد رسول الله ﷺ
منهج ورسالة ـ بحث وتحقيق
فكرته ـ هدفه ـ مادته ـ منهجه

فكرة الكتاب

ليس هذا الكتاب حشداً لروايات أحداث السيرة النبوية، وجمعها من شتيت مؤلفاتها ودواوينها في مؤلف واحد، كما صنع كثير من الأعلام في جمع كتب أمّهات الحديث وغيرها من كتب الفنون التي شُهرت بالجوامع، ولكنه فكرة دراسيَّة للحقائق والمعاني التي تضمنتها وقائع السيرة.

وقد راودتني فكرة هذا البحث منذ زمن بعيد لا أستطيع تحديده تحديداً يقف به عند تأريخ معين باليوم والشهر والسنة، وإنما هي فكرة لمعت في ذهني فكانت أشبه بأشعة الشمس عند الإصباح، ثم لم تزل تعلو وتشتد في حياتي التوّاقة إلى البحث حتى استوت في كبدها شمساً وهّاجة بدّدت من أفق تفكيري سحائب التسليم المستسلم لكل ما أقرأ من كتب الأقدمين من أئمة أعلام الإسلام الذين تخصصوا في أحداث السيرة النبوية ورواياتها، والذين شُهروا برواية الحديث، والذين جمعوا في تفسير القرآن الحكيم روايات سميت تفسيراً بالمأثور.

وكانت قراءاتي متدرجة من مرحلة إلى مرحلة، وفي كل مرحلة وقفات للفكر متسائلة: أهذا صحيح؟ أهذا معقول؟ وكنت أُجيب نفسي عن تساؤلاتي بأجوبة مستسلمة لأصحاب الهالات المشهَّرة، لكن ذلك كثر كثرة خشيتها على تفكيري، وخشيتها على ديني وعقيدتي.

فرجعت إلى القرآن العظيم، واتخذته وحده الصديق الحميم الذي أصغي إليه وأحاول أن أفهم عنه، وصفّيت نفسي بقدر المستطاع عن الإنصات لغير جَرْسه، والاستماع لغير هَدْيه، ورسمت لنفسي مع القرآن العظيم خطة لأستخلص منه ما أستنقذ به نفسي من الاستسلام الموبق أيّاً كان المتكلم غير القرآن الحكيم في جميع ما جاء به، أو الرسول الأمين في كل ما ثبتت صحته بالرواية عنه بغير معارض أقوى منه.

وللقرآن الكريم منهج في بنائه الفني هو رأس إعجازه بهدايته التي أُنزل بها أمانة في عنق الأمة الإسلامية لتطبيقها واقعاً في حياة مجتمعها أينما حلّ من أرض الله، والإعجاز بالهداية هو معجزة القرآن الخالدة خلود العقل، أما الإعجاز الأسلوبي في براعة البيان وروعة الأداء فهو إعجاز خاص بمن يفهمه ويزنه بميزان ركائزه من البلاغة العربية التي ذهب أهلها بعد أن استعجموا، فلم يبق على ظهر الأرض من يقوم بحمل أمانته بالسليقة ولا بالتعلّم لما سـمّاه البلاغيون بلاغة وبراعة، وإنما هو شيء رسخ في قلوب المسلمين، لأن عجز أهل السليقة البيانية عن معارضته مع شدة وَخْد التحدي المتدرِّج حجةٌ على عَجْز من لم يكن من هذه السليقة البيانية بَسَبدٍ ولا لَبَدٍ، فهذا الإعجاز الأسلوبي في روعته مَعْبر للإعجاز بالهداية الباقية الخالدة، وبالهداية كان الإعجاز عامّاً شامـلاً للزمان والمكـان والأجيال والأفكار، وقد بيّنا ذلك في كتابنا (القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين) وأعني بالبناء الفني للقرآن العظيم هذا التنوّع في أداء المقاصد الشاملة لحاجات الحياة أفراداً وجماعات، عقيدة وتعبّداً، وتشريعاً وأنظمة اجتماعية وآداباً خلقية وتربية سلوكية.

وكانت اللبنة الأولى في هذا البناء الفني هي الحديث عن شخصية حامل رسالة القرآن ﷺ، وكان هذا الحديث منوّعاً لو جمعت آياته في إطار التصوّر الحسِّي لكانت هي (محمد رسول الله منهجاً ورسالة).

ومن هنا بدأتْ فكرة الكتاب، فبدأتُ من جديد أقرأ ما كتب عن محمد رسول الله في مؤلفات القدامى والمحدَثين، وأُحكِّم فيه القرآن بما جاء

فيه عن محمد رسول الله، فصادفتني فَجَوات ومهاوي في روايات أصحاب السِّيَر لا تنسجم مع هداية القرآن، وألحّ عليَّ الشك في هذه المؤلفات، وتوجَّهتُ إلى كتب الحديث أقرأ فيها عن محمد رسول الله، وإذا بي كلما أمعنت في القراءة كلما ازدادت عليّ مضايق الفكر من كثرة الاختلاف بين الروايات وكثرة الأغاليط في الحقائق والمعاني.

فعوّلت على أن أدرس حياة محمد رسول الله، لا محمد العبقري، ولا محمد البطل، وأسجل مما أقرأ بميزاني للروايات القائم على الموازنة بينها في صحة السند وصحة المتن، فأيّتها رجحت كفته في صحة السند والمتن قبلته وسجّلته، وبيّنت سبب قبوله بأمور نقلية وعقلية، غير أني وجدت باب المعجزات الكونية مقفلاً على العقل، فلا يصحّ أن يتحكم فيه، لأن العقل معزول عن تجاوزه حدوده في سُنن الله الخاصة، وباب المعجزات الكونية من هذا القبيل بشرط أن يصحّ صحة لا يعارضها ما هو أعلى منها، وجمعت مما سجّلت الكثير الطيب مستعيناً بالله الرحيم الودود.

هدف الكتاب

وقد كان أن تبلور في صدري هدف الكتاب، إذ وجدتني (متكيِّفاً) بروح ما جمعت وما سجّلت، وإذا بهذه الروح تشرق بشمسها في آفاق نفسي، وتلحُّ عليَّ أن أستخلص نور السيرة النبوية من ركام سُحُب الظلام الذي نَسَجَتْ بُرْدَه الروايات العاطفية والنقول التقليدية التي لا تقف أمام الحقائق بميزان العقل وتحقيق البحث.

ورجعت أقرأ ما جمعت وما سجّلت، وأُنقّيه من غَلَس الأساطير ليبرز منه منهج الرسالة في معالمها الواقعية في التطبيق السلوكي الشامل لعناصرها في الكليّات والجزئيات، وكان أن استوى هدف الكتاب على سُوقه في إطار إبراز معالم منهج الرسالة الخالدة في شخص محمد رسول الله ﷺ.

وفي هذا الفصل تتجلى قوة الصراع بين الحق والباطل، وبين الإيمان والعواطف؛ إذ قلّما صادفتني رواية في معناها وموضوعها لم تعارضها رواية

أو روايات أخرى!! وهنا تظهر عثرات الأكابر ذوي الهالات المشهَّرين في تاريخ التراث الإسلامي ولا سيما في رَصْد روايات السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثها، وتتغلّب العواطف على العقل، ويقف العقل كالمتهم البريء الذي لا يجد ناطقاً بحجته، وأخوض هذه اللـجّة حَذِراً من المزالق، وَجِلاً ممن أناقش، لأنه اقتعد ذروة الشهرة والاستسلام لما يقول، وحَسْبه عند المتعالمين أنه (فلان) ومَن الذي يردُّ على (فلان) روايته أو قوله؟!.

ولكني أطلتُ الوقوف، ثم استعنت الله، وقلت لنفسي: هذا دين به تَلْقين الله، وعنه تُسألين من الله تعالى فانظري: هذه الجنة ونعيمها، وهذه النار وجحيمها، وأنى لي بالصبر على النار، ولجأت إلى الله تعالى مستغيثاً أرجو رحمته، وعزم لي الأمر أن أكتب ما وصلت إليه باجتهادي، وسألته أن يرزقني حسن النيّة وقصد السبيل فيما إليه قصدت، وهو الغفور الودود، ولكني كنت أكتب متحوِّطاً لنفسي، ومتوقعاً لنقد الناقدين، متصدِّقاً بما ينالني مستغفراً لنفسي ولمن ظلمني، راجياً أن يقع هذا البحث موقع القبول الذي يفتح للباحثين أبواب الولوج إلى ساحة التراث الإسلامي المبتلى بالتشويه لتنقية الحقائق من غَلَس الأباطيل، حتى لا يكون لأعداء هذه الرسالة الطاهرة المطهَّرة سبيل إلى هدم معالمها بمعاول التدسيس في تراثها.

مـادة هذا الكتاب

كانت المادة التي بني منها صرح هذا الكتاب قريبة المنال، سهلة التناول، معروفة المعالم، لا تخفى على طلبة العلم بَلْهَ العلماء والأعلام، فهي: أولاً ـ القرآن الحكيم من بين دفتي المصحف، لا من تفاسير المفسِّرين التي قد يحوج البحث إلى النظر فيها، ولكن لا على أنها مصدر البحث ومرجع التحقيق، بل على أنها مُثُلٌ لما قيل، وفيها ما فيها.

والقرآن الحكيم عرض لكثير من أحداث السيرة النبوية ووقائعها، فهو فيما عرض إليه أصل الأصول، ومصدر النور، ليس وراء حجته حجة، ولا مع دليله دليل، ونصّه هو القاطع للخصومة، وقوله هو الفصل.

ثانياً ـ السنَّة المطهَّرة التي صحَّ نقلها عن رسول الله ﷺ لا تعارضها شبهة، وهذه الصحة لا تقف عند صحة السند، ولكن لا بدّ فيها من صحة المتن، بل إن صحة المتن أهم وأعظم، ونعني بصحة المتن عدم مخالفة ما يُروى لأصل من أصول الإسلام، دون لجوء إلى التأويلات المتعسِّفة، وعصمة الأنبياء في عقيدتنا أصل من أصول الإيمان والإسلام، فإذا جاءت رواية تمسّ من قريب أو بعيد عصمة محمد ﷺ وجب طرح هذه الرواية كان مَنْ كان راويها لأنه غير معصوم من الوهم والغلط.

منهج الكتاب

تَتبُّع النصوص في الموضوع الواحد والمسألة الواحدة بالنظر إلى ما فيها من اختلاف أورثها إيّاه مذهب القائلين بجواز رواية الحديث بالمعنى، وهو مذهب أدّى إلى ضياع كثير من التعبيرات النبويّة ـ هو الأساس الأول في منهج هذا الكتاب.

وفي إطار هذا المنهج بدأت البحث، وفي إطاره تكامل الكتاب الذي لا يجد فيه قارئه شيئاً غريباً عن معارفه التي قرأها في مصادر السيرة النبوية، لأن مادته التي بُني على أساسها هي الروايات المتداولة بين أهل العلم قديماً وحديثاً، ومن قبلها آيات القرآن العظيم التي جاءت متحدِّثة عن محمد رسول الله ﷺ في خطاب خاصٍّ في الوصف أو التوجيه ورسم طرائق تبليغ الرسالة، وبيان معالم التأسّي به ﷺ، أو جاءت متحدِّثة تعمّه بالخطاب مدخلة معه مجتمعه المسلم أينما كان وكيفما كان، أو جاءت متحدِّثة عن حوارٍ بينه ﷺ وبين غير مجتمعه من أهل الكتاب والمشركين، أو كانت حديثاً عن المجتمع المسلم وتربيته تربية سلوكية لتكون له وراثة التأسِّي به.

بَيْدَ أن القارىء سيجد في الكتاب تحقيقات وتعليقات، وبحوثاً تناقش هذه الروايات لتستخلص من أضابيرها الصحيح الذي يتفق مع نصوص القرآن العظيم، ويتفق مع حياة رسول الله ﷺ الإنسانية منذ ولادته إلى أن فارق دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، ويتفق مع ما ثبت عنه ﷺ ثبوتاً أقرب في صحته إلى القطع الذي لا يقبل الشبهات.

وهذه التحقيقات والتعليقات والبحوث هي في الحقيقة العنصر الأصيل في هدف الكتاب، وهي إذا جُرِّدَت من الكتاب كانت أضخم حجمًا، وأعظم قَدْراً من نصوص الروايات، ولكنها لارتباطها بالروايات ارتباطاً لا تنفصم عُراه، ولا تحلّ وثاقته يجعل من العسير القريب من المحال تجريدها عنها، لأن الكتاب حينئذٍ يفقد حقيقته التي بُني عليها.

ومن ثَمَّ بدأتُ الكتاب بمقدمات تمهيديّة عن (محمد ﷺ من نَبْعته إلى بَعْثَته) وهي مقدِّمات جرى فيها البحث عن الحياة الإنسانية التي عاشها محمد ﷺ بشراً بين قومه وأغصان دَوْحته القرشية، عربياً متكامل الخَلْق والخُلُق، متنائياً بعقله عن مزالق العبودية لغير الله.

وفي هذه المقدِّمات عرضتْ لنا روايات تتحدث عن إرهاصات كونية، لا يسارع العقل إلى تسليمها والإيمان بها، وهنا كان لنا موقف مع العقل و(العقلانيين) في مدى ما يمكن أن تصل إليه مدارك العقلِ من حقائق الكون العظيم، وهو بحث مفيد في الحديث مع هؤلاء الذين يؤلهون العقل، ويعطونه حقَّ التحكّم المطلق في أحداث الحياة والكون، بيّنا فيه بالأدلة والحجج الواضحة أن كثيراً جداً من حقائق هذه الحياة وهذا الكون العقلُ معزول عن إدراكه، لأنَّ العقل محدود التكوين، ومحدود الإدراك، ولكنّنا قلنا إنّ الاعتماد في مثل هذه الروايات على صحتها صحة ترفعها إلى إمكان القبول ردّاً إلى اقتدار الله تعالى، على أنّ ردّها في هذه المرحلة البشرية التي لم تكن معها نبوّة لا يخدش الإيمان في قليل أو كثير.

وقد عدنا لهذا البحث عند الحديث عن المعجزات الكونية التي ثبت وقوعها بعد الرسالة، فقد تكاثرت رواياتها تكاثراً يصعب معه ردّها، وهي من روايات الصحيح، وذكرنا في ذلك كثيراً من الأمثلة القائمة في حياة الناس أفراداً وجماعات، وهم بعلمائهم الكونيين عاجزون عن إدراك حقائقها ومعانيها ولكنهم ينتفعون بآثارها التجريبية، ووقفنا في صدد قبولها أو ردّها عند توثيق روايتها من الثقاة المشهود لهم بالعلم والفضل، ورأينا أن عدم قبولها لعجز العقل البشري عن الوصول إلى سنتها الخاصة التي قام عليها وجودها جرحة في إيمان المؤمن، لأن كثرتها في سياقات الصِّحاح يجعل

من الصعب جداً إنكارها أو التوقف مع العقل في عدم قبولها، لأن ذلك يفتح الباب أمام إنكار الغيبيات التي هي بعيدة المنال عن مدارك العقل، وكثير منها من أصول الإيمان.

وقد بدأنا البحث بعد هذه المقدِّمات بالحديث عن الوحي والنبوّة وحقيقتهما ومعناهما، ثم خصّصنا الحديث عن نبوّة محمد ﷺ، وناقشنا هنا بعض الأكابر ذوي الهالات المشهَّرة من علماء الإسلام في مؤلفاتهم التي نالت ما يشبه الإجماع على قبول ما روت وجمعت، كما ناقشنا قول الملاحدة فيما يعتري النبي ﷺ من قوة الروحانية حين تلقِّيه الوحي مناقشة علمية مستقاة من آيات القرآن الكريم، وومضات العقل، وآثار الهداية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في آثار دعوات الأنبياء والرسل، وهم صفوة الخلق في هذه الحياة.

وقد أقمنا بناء الكتاب على مرحلتين أصيلتين أجرينا الحديث في أحداثهما: المرحلة المكيّة، والمرحلة المدنية، وكانت في كل مرحلة منهما تحقيقات لأحداث وأحاديث، ولا سيما المرحلة المكية وما كان فيها من مواقف للنبي ﷺ في إيمانه برسالة نفسه ودعوته إلى الله، واشتداد الخطوب والكوارث عليه وعلى أصحابه، حتى أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ليخرجوا بالدعوة وتبليغ الرسالة إلى مجال يجدون فيه أرضاً يستنبتونها، وبيّنا بياناً شافياً أنّ هذه الهجرة كانت من أعظم السياسات الحكيمة التي ساس بها ﷺ مجتمعه، وبيّنا أن هذا المجتمع الذي كان طليعة لروّاد الدعوة من أهل الرسوخ في الإيمان واليقين لم يكن كما تقول بعض الروايات من الفقراء والعُبْدان والضّعْفى؛ بل كان فيهم كثرة غامرة من أعلياء بيوت قريش منافيّين، ومخزوميّين، وزُهريِّين، وأعلياء بعض القبائل التي كانت خارج مكة، وهنا كتبنا فصلاً مسهباً بسطنا فيه البحث في أخبث قصة اشتملت عليها أحداث السيرة، تلك هي قصة الزندقة الكبرى أضلولة (الغرانيق)، وقد أتينا في هذا البحث على ما يقرب من جميع ما قيل فيها إثباتاً لا يعتمد إلا على خيط العنكبوت، ونفياً اجتثّ جذورها، ورمى بها في هاوية الأباطيل التي كيد بها الإسلام وكتابه القرآن المجيد. وقد كان أغرب

ما صادفناه أنّنا وجدنا بين من يُثبتها ويتعصب لإثباتها ممن يُشار إليهم في الإصلاح الفكري في تاريخ الإسلام!! ثم ذكرنا مواقف قريش من النبي ﷺ، وموقف عمه أبي طالب في دفاعه عنه وحمايته، ومحاوراتهم معه، وردّ رسول الله ﷺ على عمه، وذكرنا موقفاً غريباً جداً في ليلة الهجرة وائتمار المشركين به ﷺ مما أشار إليها القرآن الكريم، ولم نجد في الروايات ذكراً قط لبني عبد مناف عامّة أو الهاشميين خاصّة إزاء هذا التآمر الدنيء، وتساءلنا: أين بنو عبد مناف، وأين الهاشميون؟ وهو موقف غريب جداً في إهمال أهم الأحداث والمواقف، ورأينا في حديث خروج رسول الله ﷺ من بيته ليلة الهجرة فَجَوات واسعة لم تسدّها الروايات بل اضطربت فيها اضطراباً واسع الأطراف، واعتمدنا حديث عائشة عند البخاري ووجدنا كثيراً من الروايات تخالف هذا الحديث وهو في القمة من الصحّة، وقد عالجنا ذلك معالجة علميّة رددنا فيها المواقع إلى مواطنها من البحث.

ثم بدأنا الرحلة إلى المدينة آخذين بركاب رسول الله ﷺ وصاحبه وصدِّيقه أبي بكر رضي الله عنه، ولم نُغفل حادثاً من حادثات الطريق كانت له أهمية في معالم منهج الرسالة دون تحقيق روايته وبحث وقائعه.

وتجاوبت آفاق المدينة وما حولها بوصول النبي ﷺ إلى قُباء، وكانت اللهفة تحمل أهل المدينة على الخروج إلى مشارفها ليتلقّوه ﷺ، وكان للقلم سبحات في وصف هذا اللقاء الأكرم من الرجال والنساء والأطفال، ونزل ﷺ حيث أنزله الله في أشرف بقعة من بقاع المدينة، وفيها بنى مسجده الشريف أول ما صنع من شيء، وقد أخذ بناء المسجد الشريف جولات من القلم فيها بحوث وتحقيقات أبرزت هذا المسجد كآية من آيات الله تعالى في تصوير معالم منهج الرسالة في بناء المساجد في العالم الإسلامي، ومقاصدها في بساطة بنائها وما يجب أن يكون فيها من مرافق إصلاحية.

ثم عقدنا فصلاً مطوّلاً للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاة تكافليّة في الترافق والتواصي والتواسي، وأبنّا موقف الأنصار من هذه المؤاخاة التكافليّة، ذلك الموقف الذي سجّله القرآن وبلغ به درجة الإيثار،

وناقشنا مزاعم القائلين بالتوارث بين المهاجرين والأنصار، وأبطلنا ذلك بالأدلة التاريخية، والوقائع النقلية.

ثم جاء الجهاد القتالي بعد أن استنفد جهاد الحجّة والمجادلة بالتي هي أحسن، وبيّنا أن المشركين هم الذين أشعلوا نار هذا الجهاد، وكان موقف النبي ﷺ منه موقف المدافع عن دعوته، دعوة الحق والهدى والنور والخير.

وبدأت الغزوات والبعوث والسرايا وعقد الألوية والرايات لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة وإزالة العوائق من طريقها، وقد رأينا أن استيعاب جميع الغزوات والبعوث والسرايا صعب جدّاً لا يمكن تحقيقه مع حاجته إلى استغراق زمنٍ طويل، فاخترنا أهم الغزوات للبحث والتحقيق، ووقفنا مع قضية أسرى بدر وما جاء في شأنها في القرآن من معاتبة على أخذ الفداء، وأبطلنا بالأدلة الواضحة مزاعم الذين أدخلوا النبي ﷺ في هذه المعاتبة، ثم قفّينا على الموقف في غزوة أُحد مبدأ ونهاية، وما كان فيها من أحداث وكوارث تحمّل منها النبي ﷺ أعظمها، ثم وقفنا مع آيات العتاب التي نزلت بها سورة آل عمران، وحلّلنا الآيات تحليلاً أبان أنها من أعظم معالم منهج الرسالة في علاقة القائد الأعظم بجيوشه وكتائبه، ثم تابعنا بقية ما اخترنا من الغزوات، وفي كل غزوة مواقف مثيرة تعثّرت فيها الروايات، فبذلنا جهداً مضنياً في تحقيق الحق، وعرضنا لقصة الإفك عرضاً كانت فيه آيات القرآن شمساً بدّدت ظلام النفاق في هذه المسألة الشائكة، واستبعدنا اعتماداً على بعض القرائن والشواهد أن يكون أحد ممن ثبتت له صحبة النبي ﷺ قد شرك في هذه الموبقة، ولم نزل نمشي مع الأحداث حتى جاءت معاهدة الحديبية، فأعطيناها حقّها من التحقيق والبحث، وأعقبها الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة الذي بلغت فيه سماحة النبي ﷺ ذروة الفضائل الإنسانية.

ثم عرضنا لغزوة حُنَين وما كان فيها من دروس لتربية المجتمع المسلم ردّت إليه كرامته وعزّته، وأنزل الله نصره على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وكانت مكارم رسول الله ﷺ في غنائم هذه الغزوة مع المؤلّفة قلوبهم ومع

ذوي الحاجة من عامّة المؤمنين مما لا يستطيع القلم أن يحيط بوصفه، واتصل ذلك بغزوة ثقيف وما كان للنبي ﷺ من سياسة حكيمة أنزلتهم من حصونهم وافدين إلى المدينة ليسلموا ويبايعوا رسول الله ﷺ، وفي غزوة حنين كان للأنصار موقف تولّى رسول الله بنفسه غسل صدورهم من آثاره.

ثم جاءت أعظم الغزوات جيشاً وأخطرها قَدْراً في مقصدها وأعظمها تضحية، تلك هي غزوة تبوك، وفي روايات أحداثها تحقيق وبحث يرفعان راية الحق والهداية، وقد ذكرت الروايات أموراً مختلفة في أسباب هذه الغزوة التي حشد لها النبي ﷺ طاقته البشرية، وبذل فيها أثرياء الصحابة وفقراؤهم أقصى ما استطاعوا من البذل في سبيل الله، وقد كان أبو بكر ذروة الباذلين فتبرع بجميع ما يملك، وقفّاه عمر وعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان بن عفان هو المثل المضروب في البذل الذي لم يلحقه فيه أحد، كما أنفق الذين لا يجدون إلا جهدهم من القليل الذي في أيديهم ما طابت به أنفسهم. وقد ذكر رواة السيرة في سبب هذه الغزوة روايات مختلفة متضاربة، فناقشناها مناقشة نقد وتمحيص وبحث وتحقيق، ولم يثبت لدينا منها سوى إشارة في رواية، أمسكنا بها وشرحناها شرحاً بيّنا به أن السبب الحقيقي لهذه الغزوة هو التطبيق العملي لعموم الرسالة، وتجريء العرب على الرومان والفرس، وقد كان اسماهما كفيلين ببثّ الرعب في قلوبهم استعظاماً لقوتها، وقد جعل النبي ﷺ هذا التطبيق العملي تفسيراً لقول الله تعالى: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار).

وقد كانت غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله ﷺ، ثم توالت بعدها وفادات وفود من بقي متربِّصاً من قبائل العرب، وقد اخترنا من أحاديث هذه الوفود ما صحّت روايته وإن اختلفت الأساليب، وما رأينا فيه شيئاً من معالم منهج الرسالة الذي هو الهدف الحقيقي للكتاب، ثم اخترنا من كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء داخل الجزيرة العربية وخارجها بعضها مما رأينا فيه من دروس التربية للأمة ما يجعله جديراً بالبحث والتسجيل.

ثم أفردنا لموقف اليهود من الإسلام ونبيِّه ومجتمعه باباً في الكتاب

أخَّرناه لنوحِّد الكلام على طوائفهم، لأنَّ ما شبّوا فيه وشابوا عليه من الغدر وخيانة العهود والنفاق والتآمر والمكر والكيد والحسد ورجس العقيدة ـ كان على سمة واحدة في جميع طوائفهم، وقد أبرزنا في هذا الكتاب الكثير من خلائقهم التي عاشوا ويعيشون بها في المجتمع الإنساني، ورددنا مزاعم الذين لا تقبل نفوسهم تماثل الجزاء فيما جازاهم به النبي ﷺ على غدرهم به وهو في دارهم ونقضهم العهود ليأسه من صلاح حالهم.

ثم جاء الحديث عن الشمائل النبوية والأخلاق الذاتية لرسول الله ﷺ مع الناس والحياة، ولم نشأ أن ندخل في مضائق الافتراءات الكافرة والأباطيل الملحدة حتى لا نفتح نوافذ الجدل والمراء للّذين طوَوا صدورهم على معاداة وإضعاف شأن المسلمين.

وبعد: فهذا إجمال يأخذ بيد من ينظر في سطوره إلى ساحة الكتاب الواسعة، ليقرأ متأنياً، يخوض في لجج قضاياه ومسائله التي نالها التحقيق والبحث، وهي كثيرة كثرة توائم ضخامة حجم الكتاب في وزنه كمّاً، وتلائم حقائق أحداثه ومعانيه كيفاً، عسى أن يجد فيه أهل العلم دافعاً يدفعهم إلى النظر والبحث في كتب التراث الإسلامي لتنقيتها من أوضار الأضاليل التي أدخلها على هذا التراث أعداء الإسلام قديماً، فقبلها أهل السلامة والاستسلام.

وهذا الكتاب لا يُعطي زمامه إلا لمن يقرأ متحرِّر الفكر، لا تخدعه الهالات والشهرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المؤلف
محمد الصادق إبراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين سابقاً
بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من نبعته إلى بعثته

مُقَدِّمَات ممهِّدَات

فتح وتقديم

ذرَّة من نفحات وصفه ﷺ

الحمد لله الذي اصطفى من ينابيع جوده نَبْع بدائعه، محمداً أكمل الخلق روحاً وعقلاً، وأقومهم بدناً ورَسْماً، وأعلاهم قَدْراً وذكراً، وأرفعهم فضلاً ونبلاً، وأشرفهم مجداً وعزاً، وأحسنهم خُلُقاً وخَلْقاً، وأصدقهم قولاً وفعلاً، وأصفاهم طويَّة وقلباً، وأطهرهم نيَّة وقصداً، وأهداهم طريقاً وهدياً، وأرشدهم سلوكاً ومنهجاً، وأسدّهم مسلكاً ورأياً، وأنبلهم غاية ومقصداً، وأكرمهم أصلاً ومحتداً، وأعزهم بيتاً ومنبعاً، وأعرقهم أرومة وجمعاً.

أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، وربَّاه فأكمل تربيته، آواه إلى كنف عزِّه في يتمه، وهداه من حَيْرة تعبّده إلى نور نبوته، وأغناه من عَيْلته فلم يحوجه لغير جوده، وشرح له صدره حتى انفسح لكتاب الكون علماً ومعرفة. ورفع له ذكره فقرنه إعزازاً له في تحقيق الإيمان به بذكره، وجعل محبته شطر الإيمان، واتِّباعه عنوان محبته، فلا إيمان يقيناً لمن لم يكن محمد ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين، ولا إيمان يقيناً لمن لم يكن هواه تبعاً لما جاء به من الهُدَى والعلم، ولن يغني في قبول الإيمان اتِّباع مع جَفْوة، أولئك يمرقون من الدين كما يَمْرق السهم من الرَّمِيَّة، ولن يفارق الإيمان صدق المحبة، فالاتِّباع المرضي عنواناً لمحبة الله هو الاتباع النابع من المحبة لنبيه ﷺ، ومن هنا كانت طاعته طاعته، وهديُه هديَه، ورضاه رضاه، وبيعتُه بيعتَه، وصراطُه صراطَه، خلع عليه حلل فيضه، وألبسه خِلَع رأفته ورحمته، فكان الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، وكان المرسل

محبة النبي ﷺ شطر الإيمان

رحمة للعالمين، وخصّه بالصلاة عليه، ومنح ملائكته ـ تشريفاً ـ هذا الفضل بين يديه، وأمر عباده المؤمنين أن يتخلَّقوا بخلقه الأعلى في سبحات الصلاة عليه، وجعل سلامهم عليه وصلة أرواحهم وصائل روحه، لينعموا بجنات ردِّه تسليمهم عليه، ولن يشقى من حظي من حبيب الله بردّ السلام عليه.

فصلوات الله، وصلوات الملأ الأعلى، وصلوات المؤمنين في عالم الغيب والشهادة أينما حلَّ الزمان بهم في مكان من الوجود على محمد المجتبى من أشرف أرومة، رسولاً لخير أمة كانت به بؤرةَ شمس الإنسانية ومشرق إشعاع الهداية الربانيَّة، والسلام الأكمل الأنضر ورحمة الله وبركاته عليه ما ذكر الله الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

إطار البحث

وبعد: فهذه سبحات متطفِّلة في بحار أنوار سيرة الصادق الأمين محمد سيد الوجود ﷺ، تصوِّر ملامح حياته تصويراً يجري مع الأحداث والوقائع، لتكون طرازاً من الأسلوب في تحقيق معالم ما أبرزه التاريخ الصادق المصدوق من مظاهر الكمال الإنساني في حقيقته الإنسانية ﷺ، التي يستطيع العقل البشري أن يدرك مشاهدها في آفاق الواقع التاريخي، دون اقتحام يتوثب الحُجُب تطلُّعاً إلى أنوار خصائصه الروحيَّة وكمالاته النبوية ﷺ، فذلك ما لا يدركه تصوُّر، ولا يلاحقه خيال، فالبصائر في أودية خصائصه حسيرة، والأبصار من دون وصفه كليلة، وقصارى غَلْوة الألسنة والأقلام في هذا المجال الوقوف عند طاقتها فيما تمدّها به العقول من رَشَحات نصوص الأحداث.

فهو ﷺ الحقيقة الكبرى للإنسانية المستخلَفة في الأرض، تستمد الأجيال في أعصرها المختلفة من هديه نوراً يضيء لها آفاق الحياة، ويشرح لها بقدر ما يطيق كل جيل من تحمّل أمانة الله في إدراك الحقائق الكونية ﴿ وقل الحمدلله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾[1].

والحديث في سيرته ﷺ عريض الجوانب، طويل المدَى، واسع الآفاق، عميق المَسْقَى، غزير المادة، تسابقت الأقلام في حَلْبته، وتنافست

(١) سورة النمل آية: (٩٣).

الأفكار في ديباجته، فالقدماء من المؤرِّخين والرواة والعلماء حدَّثوا ورَووا وكتبوا ما تناهت إليهم به الأحداث والوقائع من الحقائق، كما كتبوا غير ذلك من الأقاصيص التي لا تثبت للنقد والتمحيص.

تنوع رشحات الباحثين والكاتبين في السيرة المطهرة

وقد تعددت مناحيهم، واختلفت طرائقهم، وتباينت مذاهبهم، وجمعوا في دواوينهم الكثير مما ناء به كاهل التاريخ، فأطال بعضهم القصير، وكثَّر القليل، ودعم المتهافت، ولمَّ المنتثر، وضم المتفكِّك، واخترع ما لم يكن، وقصّ ما لُقِّن، وحكى ما رُوِّي، وكانت دواوينهم مراجع لمن جاء بعدهم، فالناقد الممحِّص تخيَّر فكتب، والعليم البصير حقَّق وتثبَّت، والصحفي الغَمْر تلقَّف وأتلف، والمتعالم الجهول رمرم وضمضم، والجحود الكنود الذي طَوَى كَشْحَه على مستكنة من الحقد الأسود للإسلام والمسلمين في الغرب والشرق أشاح عن الحق وأعرض، وتولَّى وأدبر، وعشي عن ضوئه فأدلج في دياجير الأباطيل وأوغل، وقال[1] للحق وتقوَّل، ونقل وتنقَّل، وزوَّق وبهرج، وزيَّف وهرّج.

وكان في أغمار المسلمين سمَّاعون لهم، عُبَّاد لصنم جحودهم، فركعوا سجّداً بين أيديهم، وسجدوا أذلة تحت أقدامهم، تباهياً بالعصرية، وتفاخراً بالتجديد، وتظاهراً بحرية التفكير، وتكلَّموا بلسان معبودهم، وكتبوا بقلمه، وترنَّموا بنغمه، ورقص على توقيعهم أتباع كل ناعق من ذوي الغرارة والجهالة، وفُتن بهم ذوو الثقافة الفجَّة والمعرفة الضحلة، فتشابهت قلوبهم وتواءمت أفكارهم، وأعرضوا عن بيِّنات التاريخ، وراحوا يحفرون بأظافر عقولهم الحاقدة في أرض الأكاذيب، ليتصيَّدوا من غثاء الروايات والأقاصيص ما يرضي أحقادهم، وتشبثوا بكل ما يخدش وجه الحقيقة التاريخية زوراً وبهتاناً، وتأولوا بأهوائهم وسوء مقاصدهم أحداثاً كانت في السيرة المطهَّرة عنوانات على السموِّ والشرف والفضل والنبل، فقلبوا حقائقها، وغيَّروا معالمها، وفرطحوا أديمها، وأبدَوا فيها وأعادوا، وآمنت منهم طائفة، وكفرت طائفة، غير أن المؤمنين منهم لم يستطيعوا التحرُّر

---

(١) هذا من قبيل قوله تعالى: ﴿أتقُولون للحق لما جاءكم﴾.

الكامل من عبودية التلمذة للمستشرقين والمستغربين من أعداء الإسلام، ولكنهم وقفوا يتنازعهم الإيمان القاهر بالحقيقة الكبرى ممثلة في جوهر الأحداث والوقائع التي كانت عناصر الحياة في الواقع التاريخي لهذه السيرة الطاهرة المطهَّرة، وتنازعتهم الرغبة الملحة في التظاهر بالتجديد والعصريَّة وحرِّية التفكير، وتنازعهم القصد إلى «مقاربة» المنهج الإستشراقي في رفض كل ما يتعارض مع رغائبهم من روايات التاريخ وأحداثه، وتصيُّد كل ما يوافق أهواءهم، أو يشيد نظرياتهم في توهين شأن الأحداث من هذه الروايات، ولو كانت مغرقة في حمأة الأباطيل على ما هو دأبهم في تدوين وفهم الأحداث التي تضمَّنتها مراجع التاريخ للسيرة النبوية المشرَّفة.

ولكن هؤلاء المقهورين بالإيمان استطاعوا أن يرضوا إيمانهم بمزيد من التحمُّس الإنشائي في أسلوب بالغ الروعة البيانية، بَيْدَ أن ذلك لم يعصمهم من تيار التشكيك، بل التكذيب لِما لم يفهموا من حقائق الأحداث في إطارها من النظام الكوني التي وقعت متلبِّسة به، وفي كثير من وقائع الإعجاز تشبثوا بمألوف العقول وقضايا العلم وسنن الكون العامة، وفي كثير من الأحداث الاجتماعية داروا وداوروا، ولفُّوا حول أنفسهم يغمغمون بالكلمات، ويجمجمون بالهمسات، ينظرون من طرف خفي إلى أساتذتهم وهم يغمزون بلذعات الحقد الأسود أديم السيرة المطهَّرة، توهماً منهم أنهم يستطيعون أن ينالوا من الشمس في عليائها ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون﴾[1].

منهج البحث وسنن الله العامة والخاصة

وعمود البحث في منهجنا هو ما أصَّلنا في كتبنا ومؤلفاتنا، ولاسيما التاريخية منها[2]: أننا نقرأ، ونقرأ حتى نظن أننا استوعبنا أو قاربنا، ثم نفحِّص ونمحِّص، ونوازن وننقد، ونعتمد ماتثبَّت لدينا صحته سنداً، ويدخل في وصيد القبول متناً وأصلاً، ولم يعارضه من مدركات العقل والعلم ما يعلو عليه، مع إيماننا بأن للعقل حداً يقف عنده، ولقضايا العلم

(١) سورة التوبة آية: (٣٢).

(٢) لنا في ذلك كتاب (خالد بن الوليد) وكتاب (عثمان بن عفان).

موضوعات تنتهي عندها، وهما محجوبان عن عالم الغيب، مقصّران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة، فكيف بعوالم ما وراء مظاهر الطبيعة في الكون؟!.

وسنن الله العامة التي أقام على دعائمها نظام الكون العام وترابط عوالمه ترابطاً متناسقاً تجري إلى جانبها سنن الله الخاصة التي تربط بوشائجها نظام بعض الأحداث عند مناسباتها متناسقة في وقوعها، وهذه وتلك محكومة بقهر القدرة الإلهية، واختيار المشيئة الربّانية.

مراحل الحياة في الاصطفاء المحمدي

وحديث السيرة النبوية يجري في ثلاث مراحل متميّزة بخصائصها، مترابطة بوحدة موضوعها.

المرحلة الأولى: هي مرحلة الإعداد الإلهي لتمهيد جو الحياة، وصهر العوامل المقوّمة لإبراز الحَدَث الجَلَل الذي يغيّر وجه التاريخ تغييراً أصيلاً شاملاً، وهذه هي مرحلة الاصطفاء لقنوات التجدُّد الإنساني من أعالي الذرى القدري إلى وادي الوجود الواقعي، وهي أيضاً مرحلة التربية والحضانة لمن سيحمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة، التي جاءت لتصحّح أغاليط الحياة في نظامها الاجتماعي، لتقيمه على دعائم التوحيد، توحيد الخالق، وتوحيد الإنسان، وتجعل من هذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية والفضائل الإنسانية.

وتمشياً مع منهجنا في البحث لم نبعد النجعة في تطلّب الأرومات الواغلة في الدوحة الإنسانية في أفنانها العربية، لأن المعالم البعيدة مطموسة في مهايع التاريخ، وقد اكتفينا في البحث أن نجعل بدأنا من فنن نبعة محمد ﷺ القريبة التي انبثق منها غصناه الزهراوان، متتبِّعين تسلسل الحوادث التي تنتهي ذرى أعاليها إلى رائد الرسالات الإلهية الموحدة، خليل الله، ورسوله أبي الأنبياء والمرسلين إبراهيم عليه السلام، الذي كان محمد ﷺ في سلسلة نسبه واسطة العقد، ولؤلؤة الجيد، وجوهرة القلادة في ميراث صادق الوعد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، حتى بلغ الكتاب أجله، وأشرق الوجود

بنور محمد ﷺ وليداً في مهد الاصطفاء الجامع لما يعرف من فضائل الحياة وكمالات البشرية.

وهذه المرحلة في تتابع سير الأحداث تمتد منذ ميلاد محمد ﷺ لمدى أربعين سنة عاشها محمد ﷺ إنساناً أكمل ما يكون الإنسان، عربياً في سماته وأخلاقه وفواضله بين قومه، يقاربهم في كل ما يشدّه إلى القيم الخلقية النابضة بالكمال، وينأى عنهم صاعداً في كل ما يخدش حياء الفضيلة، فكان فيهم المثل المضروب لأفضل الفضائل المقدسة في سجل الإنسانية. وكان بينهم نموذجاً يُحتذَى في مكارم الجبلَّة والتطبُّع، فهو منذ عرفوه وعرفهم «الصادق الأمين» والصدق والأمانة إطاران لأقدس محاسن الإنسان الاجتماعية في هذه الحياة، لأنهما مجمع الإحسان في الإنسان المدني بطبعه ورغائبه.

وأخيراً حط التاريخ المثقل بأوضار الوثنيات رحاله بالربوة الحمراء بمكة

لقد طالت رحلة الحياة على التاريخ وهو مستعبد مكبَّل بأغلال الطغيان «الامبراطوري» في عالم الإنسان، ذلك الطغيان الذي أثقل كاهله بما حمَّله من أوزار وأضاليل تاهت في زواياها المظلمة الحقيقة العظمى، حقيقة التوحيد، وعقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد التي تنساب من ينابيعها جداول الحرية الاجتماعية للإنسان في تفكيره وعيشه.

وظل التاريخ مشغولاً بتجميع ركام الوثنية الحطوط في أمم عُمِّرت الحياة دهوراً وأحقاباً وهو يقول عنها في إعجاب أبله: إنها بلغت من العلم والمعرفة الذُّرى، وتربَّعت على قمة «الفلسفة» وتسنَّمت آفاق التفكير الإنساني، وقدَّمت للحياة أرفع قضايا العلم، وأعلا قمم الحقائق في المعرفة.

مع أنها عاشت حياتها في حمأة الوثنية الهابطة، فعند كل أمة من أمم الجاهلية الأولى عشرات «الآلهة» التي تعبد من دون الله، وتقرِّب لها القرابين، وتنشب بينها الحروب المدمِّرة للشعوب باسم «الآلهة» من أجل شهوات الطغيان «الامبراطوري» الذي كان يستغل هذه الوثنية «الداعرة» ليعيث في الأرض فساداً باسم «الآلهة».

وتنبَّه التاريخ فاستيقظ من غمرات غفلاته، وحزم تراثه وحمله على

مناكبه، وسار به في سرعة خاطفة ميمِّماً مشرق الشمس، حتى إذا بلغ «الربوة الحمراء» في فيافي الجزيرة العربية ألقى عن كاهله أثقاله. والجزيرة العربية يومئذ في عزلة موحشة ونسيان شرود، ولكن ضربات المخاض القاسية التي كانت أنّاتها تؤذن بانفراجها عن الحدث الجليل ذكّرت التاريخ بها، فذهب إليها وهو يلهث مكدوداً، وألقى بثقله في أحضانها، على ربوتها في أرض أم القرى، وغط في نوم قلق مليء بالرؤى وأضغاث الأحلام، رجعاً لصدى ماضيه السحيق.

تيقظ التاريخ ليستجلي أسرار الحياة في رمال بطحاء مكة

وعلى صوت حفيف أقدام خافت في رمال الصحراء تيقّظ من غفوته، فانبعث من مرقده متكاسلاً يتمطّى ويمسح عن عينيه رماص الكرى، وإذا به مع نفسه وحيداً إلا من طفل في مهده يضغو من شدة العطش، وإلى جانبه امرأة رصينة مستور، لهفانة، لا تستقر نظرتها على شيء، حتى على طفلها المتضاغي في مهده، كأنها تخاف أن تنظر إليه، بَيْدَ أنها كانت تنوء تحت وطأة الآلام تعصر قلبها، وتحرق كبدها كلما حرّك الطفل قدميه يفحص بهما رمال الصحراء، كأنه يطلب شيئاً أودعه له فيها حفيظ أمين.

وانفجرت الرمال عن الوديعة، فإذا هي «زمزم» عين **لا تغيض!!** وصدق إلهام «هاجر» حين قالت لأبي الطفل الذي جاء به مع أمه إلى هذا الوادي الأجرد اليابس: آالله أمرك بهذا؟ قال الخليل عليه السلام: نعم، ولم يزد، ثم ولّى مسرعاً كأنه على موعد: إذن لا يضيِّعنا.

أجل ياأم إسماعيل لن يضيِّعكما الله، وفي صلب وليدك وديعة الوجود، وهدية السماء إلى الحياة بمن فيها وما فيها.

مناجاة اليقين في ضمير هاجر أم إسماعيل

أجل يا أم إسماعيل إن الله سيجدِّد بوليدك صادق الوعد ديباجة الحياة، وسيخلع عليها من جلابيب الفيض السماوي ما يحوِّل ظلامها نوراً، وجبالها مآذن، وهضابها منائر للهداية، ووديانها مساجد يتعبَّد في محاربها الموحدون، وآفاقها مراتع للحرية الإنسانية، يرتع في مسارحها المؤمنون بقداسة الحياة، وتتفلّق صخورها عن سر الأسرار في هذا الوجود، عن النور المخبوء في مشكاة كنز الغيب، عن كلمة الله وأمانته منذ كان آدم بين الطين والماء.

صبراً أم إسماعيل، إن إبراهيم عليه السلام خليل الله، وللخليل مع الخليل مناجاة ومصافاة، وفي المناجاة أسرار وأسرار، وفي المصافاة أضواء وأنوار، سوف تنفجر عنها رمال الحياة كما انفجرت عن «زمـزم» رمال الصحراء.

أجل يا أم إسماعيل، لقد جيء بك وبوليدك إلى هنا لتؤديا أمانة الله إلى الحياة في هذا الوادي «الصَّدْيان» لتكون الآية الإلٓهية أضخم من تراث التاريخ كلِّه في فلسفته وعلومه ومعارفه وتجاربه وأنظمته منذ وعى التاريخ حقيقة الحياة.

وافتر ثغر «هاجر» عن ابتسامة الرضى، وهي ترى واديها الأجرد المقفر يجذب إليه لثاماً من الناس، كانوا يمرون به من قبل فلا يجدون فيه أثراً للحياة.

وشبَّ إسماعيل وترعرع بين أطفال جرهم وشبابها عربياً خالصاً، ولمَّا استوت رجوليَّته أصهر فيهم إلى سيدهم، وجاء إبراهيم خليل الله عليه السلام زائراً ولده، ولقي إسماعيل أباه، وتحدَّثا حديث حنان الأبوة، ووَله البنوَّة، وأفضى خليل الله إلى ابنه إسماعيل بسر الحياة في رمال الصحراء التي كان قد أودعه فيها مع أمه في هذا الوادي الأجرد ليؤدِّيا أمانة الله إلى الحياة.

طلائع الأسرار في بناء الكعبة المشرفة

ونبَّأه بأمر الله في بناء بيته وقد بوَّأه الله مكانه من الربوة الحمراء، وبنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام «الكعبة المشرَّفة» بيتاً لله تعالى، ليكون رمزاً إلى الحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد في توحيد التوجُّه إلى الله الواحد الأحد، وتضرَّع خليل الله ودعا وأمَّن إسماعيل أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم ﴿ ربَّنا إني أسكَنْتُ من ذرِّيتي بوادٍ غير ذي زَرْعٍ عند بَيْتِك المحرَّم، ربَّنا ليقيموا الصلاةَ فاجعل أفئـدةً من النـاس تَهْـوِي إليهـم، وارزقهـم من الـثمـرات لـعلَّهـم يشكرون ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم آية (٣٧).

وهذه ضراعة داعية تنساب من قلب خليل الله إبراهيم لجوءاً إلى أرحم الراحمين أن يجعل من هذا الوادي الأفيح المقفر اليابس بلداً عامراً بذرية هذا الوليد الذي جاء به إلى هنا وحيداً إلا من أمه الراضية الوالهة - استجابة لأمر الله تعالى، ولَّما يعلم الخليل ما كتبه قلم القدر الحكيم في لوح الكون من أسرار تحجبها رمال الصحراء في هذا الوادي المجيد، ولكن إلهام «الخُلّة» في وحي النبوة ألقى إليه كلمة الله في رسالة التوحيد، تلك الرسالة التي حاف عليها تاريخ المجتمع البشري، فلم تجد لها في تراثه إلا سَمّ الخِيَاط مَنْفَذاً تنسرب منه متسلِّلة في مسارب الحياة.

وكانت هذه الضراعة الداعية دعـوة عامـة، تستهدف الاستقـرار والأمن، وجلب الرزق لذريَّة إسماعيل، وتبرز ما استسرَّ وراء سُجُف الغيب من تجلِّيات وأحداث تجعل من إسماعيل دَوْحَة تلقي بظلال أفنانها على جنبات الوادي الأجرد، فتحيله حياة حيَّة خالدة، تهوي إليه الأفئدة من أطراف الأرض، هائمة والهة بحب الحقيقة الكبرى في رمزها العظيم «الكعبة المشرَّفة» ﴿ وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت ألاَّ تشرك بي شيئاً، وطهِّر بيتيَ للطائفين والقائمين والركَّع السجود، وأذِّن في الناس بالحجِّ يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق ﴾[1].

واستجاب إبراهيم وإسماعيل لأمر الله، وطهَّرا بيت ربِّهما الذي جعله مثابةً للناس وأَمْناً، طهّراه من رَجَس الوثنية التي أثقلت كاهل التاريخ على طول مسيرته في حياة المجتمع البشري، ونادى إبراهيم في الناس بالحجِّ إلى بيت الله، وأبلغ الله النداءَ إلى أهله في عالمي الغيب والشهود، وأتَوا من كل فجٍّ عميق ملبِّين دعوة ربهم على لسان خليله إبراهيم، يتداولون عصرا بعد عصر، وجيلاً وراء جيل، تحقيقاً لوعد الله بقبول دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبَّل منّا إنك أنت السميع العليم ﴾[2].

---

(١) سورة الحج آيتا (٢٦، ٢٧).
(٢) سورة البقرة آية (١٢٧).

كانت الجهالة مع الكثرة وطول الزمن سبباً لنسيان التوحيد وشيوع الوثنيات

وتزاحفت القرون والعصر متواثبة، وهي تطوي بساط التاريخ، وتسوق الأجيال، جيلاً إثر جيل، وبلغت دعوة إبراهيم العامَّة مداها في الانتشار، وتكاثر ولد إسماعيل حتى كانوا غَمْرة العرب وجمهرتهم، وسادوا وتسيَّدوا وتشعَّبوا وتفرَّعوا، ملؤوا السَّهل والجبل، ونزلوا الوديان وتسنَّموا القُنَن.

بَيْدَ أنهم إذ كثر عديدهم نسوا دعوة أبيهم إبراهيم وهم في غمرة الحياة الجاهلة، وجهلوا منها الحقيقة الكبرى، حقيقة التوحيد، وأوغلوا في وثنية بليدة، وجعلوا من «بَنيَّة» إبراهيم وإسماعيل المطهَّرة «متحفاً» لوثنيتهم، يضاهؤون بها وثنية الفجور من قبلهم في أمم الفلسفة وتفكير الإشراك.

وتنفَّس الغيب، وبدت إشراقة الفجر الجديد ترسل أشعتها من أفق «الربوة الحمراء» وتعالى صوت الحق في ترنيمة الرسالة العظمى، رسالة التوحيد والعلم والطُّهر، علم الكتاب والحكمة، لا علم الهَلْوسة والفلسفة، ورتَّل القدر مرة أخرى ضراعة أخرى للخليل في دعوته الخاصة بعد أن حقَّق الله له دعوته العامة، وكانت هذه الدعوة الخاصة هي ميراث الحياة في خُلَّة الخليل، والعنوان المشرق في ملَّته الحنيفية والكلمة الباقية من نبوته ورسالته، وجاءت هذه الدعوة متوافقة تمام التوافق مع نَفَس الغيب في إشراقة الفجر، وتكلَّم الله جلَّ جلاله، وعزَّ سلطانه على لسان خليله يلهمه سرَّ الوجود في ضراعة خاصة يطلب بها إظهار مكنون الغيب حين يحين الحين ﴿ ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِكَ ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكِّيهم، إنَّك أنت العزيزُ الحكيمُ ﴾[1].

إلهام الله تعالى خليله دعوة إظهار سر الوجود

يقول الإمام ابن كثير: وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأمِّيين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجنّ.

وحان الحين، وكانت كلمة الله الخاتمة الخالدة في اصطفاء منابع السرِّ

(١) سورة البقرة آية (١٢٩).

وأشرق الفجر وتمت كلمات الله

الأعظم من دَوْحة الإنسانية، واستخلاص ثمرتها في معنى كلمة الله، وجاء التعبير البياني عن ذلك الاصطفاء على لسان المصطفى مصدِّقاً لما بين يديه « إنَّ اللهَ اصطفى كِنَانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم؛ فأنا دعوة أبي إبراهيم » وكان خلاصة «الخُلَّة» في نبوة الرسالة الخالدة من إسماعيل صادق الوعد محمداً الصادق الأمين. المبعوث رحمة للعالمين، بين يدي الساعة خاتماً للنبيين.

تمهيد

الرسالات الإلهية والعقل الإنساني

العقل هو المرشد الأول

مكانُ الرسالات الإلهية من الحياة مكانُ العقل الإنساني من أفراد البشر، والعقلُ هو المرشد الأول للإنسان، يهديه إلى سواء الطريق، وينير له ظلمات الوجود، ويفتح له مغاليق الكون، ويسدده في مسيره ضارباً في بيداء الزمن حتى يقضي ما قُدِّر له من بقاء.

وعلى قدر استعداده الفطري يكون كسبه من تجاريب الحياة، وعلى قدر ما يكسبه من تلك التجاريب تكون فائدته، وعلى قدر هذه الفائدة تكون مكانة الفرد في الجماعة ومكانته منها، ومن ثم يتدخل العقل بوساطة الفرد في إرشاد الجماعة وهدايتها وتسديدها والسمو بها صعداً في مدارج الرقي والكمال.

ليس لرقي الفرد والجماعة حد يقف العقل عنده

وإذا كانت الحياة لم تعرف حداً لرقي الفرد في الجماعة البشرية ينتهي إليه، فأحْرِ ألا يكون للجماعة نفسها حداً تقف عنده في رقيها، فالحياة متجددة، والمعارف الإنسانية متزايدة، والعقل البشري دائبُ العمل، وخزائن الكون لا تزال مغلقة، وأسراره ما برحت محجبة وحقائقه ما فتئت مجهولة.

وكيف يقف رقي الفرد أو الجماعة عند حد ومهمة العقل في الحياة هي كشف تلك الأسرار الكونية، ومعرفة حقائق الوجود واستخدامها في إفادة الإنسانية؟ ومن الغرور العقلي أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقرِّبه من الكمال المقدور

للبشرية، فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لا يزال أعظم بكثير جداً مما عُرف، والذي عُرف لا يزال الكثير منه مستخدماً في الحياة على غير جهته التي تفيد منها الحياة، فالجهاد أمام العقل واسع المدى فسيح الجنبات.

بيد أن هذه المعارف العقلية التي لا تنتهي عند حد في الأفراد والجماعات هي في الواقع المشهود محدودة المنزع، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون.

دور الرسالات الإلهية في قيادة العقل

وهنا يأتي دور من أدوار الرسالات الإلهية في قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة ومطبوعها ومداخل الوجود، وبواطن الحياة، بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوقها، إلى الخالق جلَّ شأنه، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه، وبالغ حكمته، وواسع علمه، وهيمنة إرادته، وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدلّ ـ بما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسُنن متوافقة، ومنافع متتابعة ـ على فضل الله ورحمته ولطفه وإحسانه وجوده وقهره وكبريائه ولطائف تدبيره.

وهذا مجال تنبيه وإرشاد تتجه فيه الرسالات الإلَهية إلى مخاطبة العقل لتوجيهه إلى تعرُّف جلال الكون وعظمة الوجود، وخطر الحياة ليقف منها على وشائج التكوين والإبداع التي تصل المخلوق بالخالق، وتربط بين أجزاء الوجود، وتكشف عما طوي فيها من منافع واستجابات لرغبات الإنسان المادية والروحية.

وكلما اتسعت معارف العقل عن حقائق الكون ازدادت استجابات الحياة له وقوي سلطانه في تسخير قوى الطبيعة فيما يفيد النوع الإنساني، ويرقّي عناصره، ويدعم قواه، ويهيء أمامه الفرص للتغلُّب على احتمال أعباء الحياة في ثقة واطمئنان.

حاجة العقل الإنساني إلى الرسالات الإلَهية لتهديه إلى المحجة

وليس العقل الإنساني بمعصوم من الزلل والخطأ، بل ربما كان من الحق أن يقال أنه كثير الخطأ والزلل، ولا سيما إذا ضعف أمام الغرائز والقوى الحيوانية واستجاب لدواعيها وخضع لسلطانها فإنه حينئذ يصبح أداة طيعة لهوى تلك الغرائز وعبداً لشهواتها تتحكم فيه وتوجهه في طريق أغراضها

وتصبح معارفه وسيلة من وسائلها في تلوين الحياة كما تشتهي وتريد.

سطوة الغرائز أشد عرامة من قوى العقل

وتاريخ الحياة والأحياء يدل على أن سلطان الغريزة كان أقوى في الأفراد والجماعات من سلطان العقل، ويدلّ على أن الحياة أسرع استجابة لنداء الغريزة من منطق العقل، وأسلس قياداً في يد الغرائز منها في يد العقل، والغرائز في الإنسان شبيه بعضها ببعض في مطالبها وغاياتها، ولكنها تختلف في الأفراد قوة وضعفاً، وظهوراً وكموناً، وليس العقل الإنساني على هذا الغرار في أفراد الإنسان، فهو مختلف فيهم أشد الاختلاف، وقلما يتفق عقل وعقل، فاتفاق الغرائز في الغايات يكسبها قوة في مطالبها وتنفيذ أغراضها، واختلاف العقول يوهن من سلطان العقل على الغرائز، والغرائز منافذ للقوى المادية تتنفس منها، ومن ثم نراها تشتط في تنفيذ رغائب الجسد وتحاول أن توجه قوى الحياة - حتى العليا منها - الى مقاصد مادية، لا وزن عندها للقيم الخلقية من العدل والرحمة والإيثار إلا إذا كانت وسيلة لنفع مادي وقضاء شهوة جسدية، فالظلم والقسوة والأثرة في لغة الغرائز ومنطق المادة الصماء تساوي العدل والرحمة والإيثار في كثير من الأحايين والأوقات.

فالغرائز إذا انطلقت على سجاياها وتغلَّبت على العقل كيَّفت أعمال الأفراد والجماعات على حسب ميولها وهواها، وخلعت على تصرفات الأشخاص والأشياء نعوتاً من لغتها حتى تصبح القوةُ الغاشمة هي الميزانَ الأعلى في شرعة الحياة، ولا فرق بين أن يكون هذا الميزان منصوباً على حشائش الأحراش والأدغال وعلى أبواب الكهوف والغيران، أو موضوعاً على بساط من سندس الحضارة الزائفة الملوثة بدماء الضعفاء، وهذا هو المنبع الذي نبعت منه المذاهب المادية الملحدة منذ قامت الحياة.

وهنا يأتي دور آخر للرسالات الإلٰهية هو دور إيقاظ العقل من ذهول سطوة الغرائز وإفساح المجال أمامه لتنظيم رغائبها في صورة تخضعها لموازين الأخلاق، وإعطاء الفضائل قيمتها في الحياة ووضع الرذائل في مواضعها منها حتى تقاس كل فضيلة أو رذيلة في أعمال الأفراد والجماعات بمقياسها العادل

الذي لا يعرف الغشّ والخداع[1].

عمل الرسالات الإلٓهية في دورها الأول مع العقل

فالدور الأول للرسالات الإلٓهية دور قيادة وتعليم، ومجالها في هذا الدور هو الحقائق الكلية والمعارف العليا، فهي التي تنبىء عن الغيب وتكشف عن حقائق كلية في صور واقعية وأمثال تقرِّبها إلى الواقع المشهود حتى تكون دانية إلى مجال العقل ومدركاته، وهي التي تتحدث عن الخالق ونعوت كماله، وعن فيض الحياة من خزائن رحمته، وعن عوالم السماء والأرواح، وعن الوحي والنبوة، وعن نظام الكون وقوانين ترابطه، وعن الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب.

ولا سبيل للعقل وحده إلى إدراك هذه الحقائق إدراكاً يتجاوب صداه مع الواقع الغيبي في هذا المجال، لأن الغيب محجوب عن الحسّ، والحسّ بأدواته المادية هو المشكاة التي يستضيء بمصباحها العقل، فيتهدى إلى أوليات من الحقائق يحمل عليها مثيلاتها بضرب من القياس والتشبيه، ومن هذه الحقائق تتولد القضايا العقلية المنتزعة من الوجود المشهود انتزاعاً مباشراً أو غير مباشر.

فالعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون خاضعاً للرسالات الإلٓهية، آخذاً عنها، وهي التي تمده وترشده وتهديه، فإذا استجاب لها أمن العثار والزلل، وإذا تأبّى عليها وقع في أغلال الغرائز، وانقلب عمله إلى استجابات مادية تصبّ المعارف العليا في قوالب وثنية تعتمد على التشبيه والتصوير، وتاريخ الفلسفات والأديان مليء بالشواهد الصادقة على ذلك.

مؤاخاة العقل للرسالات الإلٓهية

أما الدور الثاني للرسالات الإلٓهية فهو دور مؤاخاة العقل ومظاهرته

---

(1) في صدد تحديد موازين الأخلاق قد تعرض للباحث هنا مشكلة يراها بعض الباحثين الاجتماعيين من أعوص المشاكل، تلك هي مشكلة تحديد حقائق الفضائل بتحديد يميزها عن الرذائل، وهل ذلك من مهمة العقل وحده، أو له في ذلك شريك؟ وأي شيء هو ذلك الشريك؟ أو أن العقل لا شأن له في ذلك، ويجب أن ينحى عن هذه المرتبة، وإذا أُبعد العقل عن هذا المجال فأي كائن هو الذي توليه الحياة ثقتها؟ ولا يمكن أن يكون ذلك الكائن هو الغرائز وقد عرف شأنها، بيد أن جميع أهل الأديان والملل يطمئنون كل الاطمئنان إلى أن مرجع ذلك هو الرسالات الإلٓهية.

حتى يتغلب على جموح الغرائز ويكفكف من حدتها، ويطامن من غرورها، ويقلّل من اندفاعها، ويوجهها وجهة صالحة دون كبت يميتها أو انطلاق يفسدها.

ومجال هذا الدور هو الحياة الواقعية التي يحياها الأفراد والجماعات، وتحديد علاقة الفرد بالفرد، وعلاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالجماعة، بل علاقة الفرد والجماعة بالحياة والأحياء، وتنظيم هذه العلاقات على أسس من العدل تعطي كل ذي حق حقه وتشيع بين الأحياء الثقة والاطمئنان والتعاطف والتواسي والمحبة والإخاء.

والعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون هو المسيطر على الغرائز، يقودها بحكمته ويوجهها بسياسته، والرسالات الإلّهية هي المرشد العليم، والمستشار الأمين، والناصح الحكيم، وعلى ضوء إرشادها ونصحها ومشورتها يسير العقل في طريقه مؤدياً واجبه على أكمل وجه في الحياة.

التدرج في مراحل الحياة من خصائص العقل والرسالات الإلّهية

ولقد مرَّت الإنسانية بأطوار متعددة اختلفت عليها في تلك الأطوار الرسالات الإلّهية فكانت فيها معالم للتاريخ على تلك الأطوار، وكانت كل رسالة مبدأ لطور ونهاية لآخر. وقد احتفظت تلك الرسالات بخصائص ومميزات هي في الواقع خصائص ومميزات الأطوار التي سايرتها، ومن تلك الخصائص يعرف نصيب العقل الإنساني في تلك الأطوار، فهو مولود مع الإنسانية وخاضع لما تخضع له من حكم التدرُّج في طريق الاكتمال.

وكما مرَّت الإنسانية في مرحلة الطفولية الغريزية محكومة بالغرائز المنطلقة، مرّ معها العقل الإنساني في هذه المرحلة منطلقاً مع الغرائز يفتح لها أبواب المادية المجنونة الجائعة، وجاءت الرسالات الإلّهية في هذا الطور تومىء إلى الحقائق العليا ولا تفصح، وترمز ولا تصرح، تمشياً مع طاقة الإنسانية الساذجة، وحالة الطفولة التي يمرّ العقل بها في مرحلتها في هذا الطور من أطوار التاريخ البشري.

واستعراض الصور الجدلية التي يقصها التاريخ وتحدثنا بها كتب

في صور الجدل والحوار اللذين قصتهما كتب الرسالات القديمة دلالة على طفولية العقل يومئذ

الرسالات الإلٓهية عن أوائل الأنبياء والرسل ومتقدميهم في الزمن كنوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب مع أممهم؛ تدلنا على أن العقل البشري وقتئذ كان مدثَّراً في مهاد الطفولية، محاطاً بالغرائز تهدهده حتى يظل نائماً لصيقاً بالأرض محجوباً عن السماء.

وقد يكون هذا هو السبب فيما يقع من الوهم في صلاحية العقل وحده لإدراك الحقائق العليا إدراكاً مباشراً دون اعتماد على الحس، ولعل هذا الوهم يستند إلى تاريخ الفلسفات القديمة التي أطلقت للعقل أعنة السبح فيما وراء الطبيعة: في الخالق ونعوته، وفي عوالم الأرواح والملائكة والأفلاك والسموات، وفي الحياة وطريقة صدورها عن (الله) تعالى. ولا شك أن هذه حقائق عليا لا سبيل لتدخل الحس فيها، بل استقل العقل في خوض بحارها فغرق في أعماقها، ثم طفا وفي يديه قضايا ومعارف آمن بها وأقام عليها صَرْحَ أعرق فلسفاته القديمة، وهي الفلسفة الإغريقية التي ثقفها فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ففتنوا بها وكان عليها معوَّلُهم، وها هوذا العلم التجريبي وفلسفات العقل المتوثب وقد زعزعا أركان تلك الفلسفات القديمة.

قد يرى التاريخ أن الفلسفات أصلها رسالات إلٓهية حرفت

ونحن إذا تجاوزنا عن قول بعض مؤرخي الفلسفة القديمة كالقفطي: إن الفلسفة الإغريقية وليدة الفلسفة المصرية وهذه الفلسفة المصرية اعتمدت في أصلها على بقايا من الرسالات الإلٓهية كرسالة نبي الله ورسوله (إدريس) عليه السلام، وهو الذي تسميه الفلسفة (هرمس) فيكون ـ حينئذ ـ العقل فيها غير مستقل، وليست هذه القضايا من عمله وحده، بل اعتمد في أصلها على نبوات الرسالات الإلٓهية، إذا تجاوزنا عن ذلك ـ رغم أننا لا نجد سنداً تاريخياً يصحح رواية القفطي ـ فإننا لا نفقد أثر الحس واضحاً في كثير من قضايا هذه الفلسفة، وحسبنا أن نلقي نظرة على أهم قضاياها عند أبرع فلاسفتها، تلك هي قضية (الإلٓه) الخالق عند (أرسطو) فسوف نجد عمل الحس هنا سابقاً على عمل العقل، ولعل نظرية (العقول العشرة) التي فتنت بها هذه الفلسفة تعطينا صورة عن عمل الحسّ وقياس الغائب على الشاهد، وهذه النظرية (العقول العشرة) التي ابتدعها أرسطو أبرع فلاسفتهم تعتمد

على وجوب الوسائط في الخلق والتكوين وهذا من آثار عمل الحسّ في التفكير.

وكان هؤلاء الرسل الكرام يضيقون ذرعاً بهذه البلادة العقلية، وذلك التعبُّد الذليل للغرائز العمياء التي تستلهم المادة وتستهدي بها في أغراضها، وتستوحي الأرض في تحقيق مطالبها وتتصامم عن سماع صوت السماء، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أن منافذ الأمل قد سدت، وأبواب الرجاء في تخليص العقل من سلطان الغرائز وسيطرتها قد أوصدت لم يبق لهم إلا طلب التطهير العام بإفناء هؤلاء الميؤوس من هدايتهم وتحرير عقولهم، تطلعاً منهم إلى طور إنساني جديد، يتجدد به ميلاد الإنسانية بعقل يشبّ عن الطوق، وتتهيأ له وسائل التغلُّب للتفلت من أغلال الغرائز، مستعداً لفهم لغة فوق لغة الحس، تتحدث عن عوالم الغيب وموازين الأخلاق.

لم يخل العقل الإنساني من ومضات في إدراك شيء من الحقيقة الفكرية

ولقد كان للعقل الإنساني ومضات في هذا الطور من أطوار الحياة، إذا أنبهته الرسالات الإلٰهية تنبه، وأشرقت آفاقه بنور الحق في سرعة خاطفة، أما إذا غلبت عليه كثافة الغرائز المتحكمة فإنه سرعان ما ينكص على عقبيه، وعاد كأنه لم يبصر من الحق والهدى شيئاً.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في قصة إبراهيم رسول الله وخليله عليه الصلاة والسلام: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين* إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين* قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين* قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين* قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين* وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين* فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون* قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين* قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم* قالوا فَأْتُوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون* فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا

إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾[1].

وهذا تصوير بارع لمغالبة الطبيعة المادية القائمة في جبلة هؤلاء الوثنيين الملحدين للعقل الحبيس في أتون الغرائز، مع قارعات الحجج الإلهية وداويات النذر، فلم يبقَ أمام الرسالة الإلَهية إلا الأسف الحزين على إهدار كرامة العقل الذي بدأ يشب على رقدة المهد ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولايضركم؟! * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾[2].

وفي هذا الطور من أطوار الحياة حفل التاريخ الإنساني بأعمال عقلية، سجلها فيما ادخره من فلسفات كانت في نظره حقائق فكرية.

موقف العقل من شريعة التوراة وحامليها

وفي هذا الطور بدأت الرسالات الإلَهية تمزج بين الحقائق الكلية الإلَهية الحياة الواقعة والحوادث الجزئية التي تحيا مع الناس ويحيا الناس معها. وجاءت شريعة التوراة تتحدث عن الله تعالى، وعن الكون والخلق، والأنبياء والرسل، وعن الوحي وعن الملأ الأعلى مما لا يدركه الحسّ، وتتحدث عن حياة بعد هذه الحياة وعن الثواب والعقاب، وعن علاقة الناس بالخالق، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ونحو هذا من التشريع الذي لم يعهد في شرائع الرسالات السابقة.

بيد أن أسلوب التوراة في التعبير عن ذلك كله كان أسلوباً قائماً على الاستعانة بالحس، وتغمره الأمثلة والصور الحسية، ويقلّ فيه التجريد، بل يكاد ينعدم، وذلك مراعاة لأثر الرواسب الغريزية المستخفية في الطبيعة الإنسانية، ذلك الأثر الذي كان يطفو أحياناً على سطح الحياة في غفلة من العقل كفقاعات الهواء الفاسد التي تتنفس عنها مستنقعات النزيز.

وكان مظهر ذلك جيل بني إسرائيل، فهو جيل عرف من المعارف العليا كثيراً من الحقائق، وخاطبت فيه الرسالات الإلَهية العقل ـ على ظلمه

(١) سورة الأنبياء، آيات: ٥١ ـ ٦٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٦ ـ ٦٧.

عندهم ـ وشرعت له، وهو نفسه الجيل الذي تبلّد وأنكر كل معارفه العقلية في لحظة استعلى فيها سلطان الغرائز على العقل فحجبه عن السماء، وشده إلى الأرض، فنسي حتى تنكر لماضيه القريب، والقرآن الحكيم يصوِّر ذلك كله تصويراً بارعاً في قوله تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾[1].

تصوير القرآن الحكيم لموقف اليهود من العقل

فانظر. . ليس إلا مجاوزة البحر بهم ناجين من فرعون وعذابه، وكانوا قبل تلك المجاوزة المثل المضروب لعالم زمانهم في عرفان الحقائق العليا من توحيد الله ونعوت كماله وعوالم الغيب مما هو وراء الطبيعة، فنسوا كل شيء من هذه المعارف، وطمس على عقولهم فعادوا كأخبث ما كانت طبيعة مظلمة، وكأحط ما كان عقل سجيناً، وكأبلد ما كانت أمة من الناس، وكأجهل ما كان جيل في تاريخ البشرية.

أما ما جاءت به التوراة إليهم من التشريعات الجزئية للحوادث الواقعة في الحياة، فقد أحالته غرائزهم المادية المسعورة إلى رسوم استغلالية لا تقيم وزناً للقيم الخلقية، ولا للفضائل الإنسانية، ولم يبقَ ـ عند تطبيق هذه التشريعات ـ فَيْصل بين فضيلة ورذيلة، وأصبحت الحياة ـ في نظرهم ـ متجراً للاستغلال والمرابحة، كأنهم ولدوا بغير قلوب، وخلقوا بغير وجدان، فليس بين أحضانهم رائحة للعواطف الإنسانية في معاملة الناس من غير جنسهم، بل من أنفسهم.

تبلور حاجة الإنسانية إلى شريعة رحيمة

ومن ثم كانوا ـ وكانت الحياة من أجلهم ـ في أشد الحاجة إلى «ثورة» عاطفية حنون تنبع من وجدان مليء بحب الحياة وحب الأحياء، «ثورة» تعرف

(١) سورة الأعراف، آيات: ١٣٧ ـ ١٤٠.

الحق وتقدسه، ولكنها تلفه في غلالة الإيثار، وتعرف العدل مقدراً جلاله ولكنها تغلفه بالرحمة الحانية، وتعرف الإخاء وشيجة بين أبناء الإنسانية قاطبة، ولكنها تجعله مودة موصولة بالتسامح والسماحة.

«ثورة» تقوم في داخل كل نفس إنسانية، يسمع صوتها القلب والعقل وهي تقلب الضمير ظهراً لبطن، وتعرضه لشمس الحياة كما يعرفها الناس، عسى يستطيع أن يصنع من غلاظ الرقاب، قساة القلوب والأكباد أناساً يعيشون في دفء الشمس كما يعرفها سائر الناس.

وكان الله رؤوفاً رحيماً، فجاءهم بعيسى المسيح بن مريم عليه السلام، روحاً من الله وكلمة رحمته الودود، وأنزل عليه الإنجيل ترنيمات عاطفية باكية، ترمي بدموعها إلى مداخل قلوبهم لتطهِّرها من رجس غرائزهم المادية المظلمة، وتكفكف من غلواء نفوسهم الجامحة.

ولكن طبيعة اليهود لم تألف السماحة وتعاطف الرحمة، فمسخوا ترنيمات الرحمة الإنجيلية إلى وثنيات ترابية، فلسفتها لهم غرائزهم في صور مادية بعيدة كل البعد عن آفاق التفكير العقلي، بله التراحم العاطفي، فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا الحق تضليلاً وافتروا على الله الكذب، وجعلوا من المسيحية مسخاً غامضاً لا تسيغه العقول.

جاوة العقل في رحمة سماء بإمداده بشريعة كاملة في روحها وماديتها

ووقف العقل وحده في مكانه من الحياة، يتطلع مشدوهاً في رجاء وأمل إلى السماء يستهديها الرشد، ويسترشدها الهداية، ويسألها في ضراعة أن تمده بمددها في رسالة إلهية كاملة شاملة، توائم نضجه ورشده، تعرف الحق والعدل، وتتخذهما أساساً لبناء الحياة الكريمة، وتعرف السماحة والرحمة، وتجعلهما أساساً لبناء حياة الإخاء الإنساني، وتعرف قبل هذا وذاك فطرية العقيدة التي تعتمد في معرفة الله فاطر السموات والأرض على دراسة الكون في غير غموض ولا تلبيس، ولا تغمض عين العقل على قذى فلسفات جوفاء، ولا تقبل عليه وصاية من خارج تفكيره، بل تمنحه حرية الانطلاق الكامل في كل ما تملك قوته العمل في مجاله، وتحجزه حفاظاً عليه من متاهات الاسترسال فيما لا يستطيع ولا يطيق من عوالم الغيب التي

لا تخضع لسُنن البحث والتفكير، وإن كان الإيمان المطلق بها يعتمد على مقدمات تخضع للبحث الذي يجعل من نتائجها قضايا يطمئن العقل إلى الإيمان بها كإيمانه بأية قضية بحث من قضاياه.

وكان الله عليماً حكيماً فأنزل القرآن الحكيم تبياناً لكل شيء، وأرسل به نبيه محمداً ﷺ، وختم به رسالات السماء، وأبان فيه مكانة العلم والمعرفة، وجعل للعقل قيادهما، ومن هنا كان «العلم» بأوسع معانيه هو المعجزة الخالدة لهذه الرسالة الخاتمة. وفي ذلك يقول خاتم النبيين محمد ﷺ «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

البيئة الطبيعيّة والاجتماعيّة
لحياة محمد صلّى الله عليه وسلّم

البيئة الطبيعية لحياة محمد ﷺ هي الجزيرة العربية كلها بوجه عام، سماؤها وأرضها، شمالها وجنوبها، جبالها ووديانها، نجودها وتهائمها، وهي بوجه خاص شمال تلك الجزيرة المعروف بأرض الحجاز، وهي بوجه أخص «مكة» من أرض الحجاز.

والتاريخ الطبيعي عرف للجزيرة العربية في جملتها خصائص شاملة تشترك فيها جميع أجزائها، وعرف بعد ذلك خصائص فصلت الجنوب عن الشمال، وعرف خصائص امتازت بها أرض الحجاز، وخصائص امتازت بها مكة في موقعها من أرض الحجاز.

خصائص الجزيرة الطبيعية كلها تجمعت في حجازها وعاصمته

عاصرت تلك الخصائص الجزيرة العربية مفرقة بين شمالها وجنوبها آماداً طويلة، وأحقاباً متعددة، تدخل مع التاريخ في أعماقه البعيدة حتى تقف معه عند مجاهل العصور التي لم تتبين له معالمها ولم تزل تمخضها الحوادث وتدافعها الأحداث، وتمر مع الزمن في أطوار طبيعية حتى تبلورت إلى صورة واحدة مشت بالجنوب إلى الشمال، فمزجته به في خصائصه حتى صار كأنه هو، جدباً وشظف عيش، وقسوة طبيعية، وجفوة حياة وإكفهرار منظر، وعبوس جو، ولفح سموم، وكثرة تقلبات، وقلق إقامة وتطلعاً إلى السماء رجاء غيث، وتوثباً في أرجاء الأرض طلباً لمرعى أو قطرة ماء.

وهي بعد ذلك بيئة تدّرع الليل، وتأنس بالوحش، وتستضيء بالنجوم، وتطرب لصوت الرعد، يكنفها فضاء لا نهاية له، وتظلها سماء

لا تستقر على حال، تصفو مرة فتلمح بالليل نجومها! وتضحى بالنهار شمسها، وتغيم مرة فيسود أديمها وتتوارى كواكبها وتحتجب شمسها، ويكفهرّ أفقها، ويتجهَّم منظرها، أكنافها الجبال ومسارحها الوديان، لا صناعة تشذب من مظاهرها، ولا زراعة ترفه من جوها، وكل الأمل المرجو منها مرعى تجود به الطبيعة لتحيا عليه قطعان من إبل وشاء عليها قوام تلك البيئة القاسية.

وقد شهر ذلك عن الجزيرة العربية حتى عرفه جيرانهم من الفرس والرومان فزهدوا فيها مع طغيان روح الاستغلال الاستعماري في الدولتين، (يحدثنا ابن هشام في السيرة: إنه لما طال بلاء الحبشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرج الحبشة عنهم ويليهم هو، ويبعث لهم من شاء من الروم، فيكون له ملك اليمن، فلم يشكه[1]، فخرج حتى أتى النعمان ابن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النعمان إن لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقم حتى يكون ذلك ففعل فأدخله على كسرى، فقال له: أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة، فقال كسرى: أي الأغربة؟ الحبشة أم السند؟ فقال: بل الحبشة، فجئتك تنصرني ويكون ملك بلادي لك، قال كسرى: بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك.

* * *

هذه الخصائص الطبيعية كانت خلاصة ما انتهت إليه الأحداث الضخمة والحوادث الهائلة التي انتابت الجزيرة العربية في مدى الأحقاب المتوغلة في مجاهل التاريخ، تجمعت من أرجائها كلها وتلاقت في شمالها من أرض الحجاز، فكانت ـ فوق أنها خصائص الجزيرة كلها منذ بدأ انسياح القبائل الجنوبية إلى الشمال طلباً للعيش عقب انهيار سد مأرب وتخريب عمران اليمن ـ هي في الوقت ذاته خصائص بلاد الحجاز منذ عرفها التاريخ.

---

(١) يشكه: مضارع أشكاه إذا أزال شكايته.

مكة المكرمة ومكانتها

مكة في سماتها الطبيعية صورة صادقة لبيئة الجزيرة

أما «مكة» بلد محمد ﷺ وبيئته اللصيقة به فسمِّها قرية أو مدينة أو ما شئت من أسماء الأمكنة التي كانت موئلاً لاستقرار قبيل من الناس يضطربون فيه طلباً لوسائل الحياة والعيش، فيتسع لهم ويعطيهم ما تسمح به طبيعته، ويظهر أن أمر هذه التسمية يرجع إلى العرف ومصطلح الناس، وقد يختلف باختلاف الأزمنة والعصور، والقرآن الكريم أطلق عليها «بلداً» وسماها مرة «قرية» ومرة أخرى سماها «أم القرى» وأصول الاجتماع لا تأبى عليها اسم «المدينة». ومهما يكن من أمر ذلك كله فإنها منذ كانت فهي عاصمة الحجاز غير منازعة ولا مزاحمة، وإطلاق اسم المدينة عليها أقرب إلى تسمية القرآن لها «أم القرى» وأدنى إلى ما عُرف لها من مكانة واحترام قبل البعثة المحمدية وأشبه بما صارت إليه في الإسلام من منزلة دينية واجتماعية.

تلك المدينة التي كانت مسقط رأس محمد ﷺ، وموطن أسرته، ووطن قبيلته وصفها القرآن على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام بأنها (واد غير ذي زرع) فيما حكاه الله عنه بقوله: ﴿ربّنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم﴾[1] وهذا أصدق وصف وأجمع كلمة لخصائصها الطبيعية، فكلمة (واد) تصور أتم تصوير وضعها من الأرض، فهي منخفض تحيط به الجبال، وكلمة «غير ذي زرع» تعطيك أن هذا الوادي له طبيعة شحيحة أشد الشح بالماء، فهي لا تكاد تجود به نبعاً، وإذا جادت به غيثاً تفرق في غير كبير فائدة، وتعطيك نتيجة لذلك جدوبة الأرض وقحولتها، وتعطيك يبس الطبيعة وقسوتها، وتعطيك شظف الحياة وبؤس العيش، وتعطيك صرامة الجو، ولفح السموم، وهو وصف في جملته يدخل على

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

النفس يأساً، قلّما أن تجد وسيلة من وسائل العيش الرغيد، أو سبباً من أسباب الكسب الربيح في هذا البلد السجين بين شاهقات الجبال.

تدارك العناية الإلٰهية لمكة وصيرورتها حرماً مقدساً

لكن «مكة» بلد محمد ﷺ لم تستسلم للطبيعة تحبسها في واديها الأجرد، بين جبالها السود المكفهرة القاسية، بل تداركتها العناية الإلٰهية فأهدت إليها «الكعبة» بيت الله الحرام، فصارت بها «مكة» بلد الله الحرام، وكان الذي أقام الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل، وإبراهيم جد العرب الذي تنتهي إليه مفاخرهم، وإسماعيل أبوهم، وقد تعرب منذ كان، فلم يعرف غير العرب شعباً ولا غير جزيرة العرب وطناً، ولا غير «مكة» بلداً ـ كما روى البخاري ـ فحفظ الأبناء تراث الآباء، ورعى الأحفاد ذخيرة الأجداد، وعظَّم العرب كلهم «الكعبة» بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، وعظموا لتعظيمها «مكة» واتخذوها حرماً آمناً يقدسونه ويتحامون فيه المآثم وينزهونه عن وقوع المظالم، ويُؤَمِّنون فيه الخائف ويجبرون الكسير، وينصرون المظلوم، ويخافون الظلم فيه، روى ابن هشام أن سبيعة بنت لاجب قالت لابنها خالد ابن عبد مناف الكعبي تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغي فيها:

أبنيَّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنيَّ ولا يُغَرَّنْك الغرور
أبنيَّ من يظلم بمكة يَلْقَ أطراف الشرور
الله أمَّنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها والعصم تأمن من ثبير

يحجون إليها ويجتمعون في مواسمها، يتعبدون ويتجرون، ويجلبون إليها الأرزاق والسلع ويتبادلون ذلك فيما بينهم، فيصدر عنها من وردها بغير ما ورد، ويردها من صدر عنها بغير ما صدر، ثم اتخذوها مناراً لإذاعة مفاخرهم ومحكمة لتحاكمهم، وملجأً لضعفائهم، وملاذاً يلوذ به أصحاب التبعات والجرائر منهم، ومصدراً لمحالفاتهم وتعهداتهم، ووضعوا لذلك سنناً متبعة لا يحيدون عنها، ونظاماً مأثوراً يأثره الخلف عن السلف، من غيَّره أو انتهك حرمته فقد جاء بإحدى الكبر.

وهكذا أصبحت «مكة» شيئاً آخر غير كونها وادياً أجرد محصوراً بين الجبال، أصبحت متعبد العرب قاطبة، تهفو إليها قلوبهم تحنثاً فيها وتعبداً بالطواف حول بيتها المحرَّم، يقدسونها تقديساً لا يفوقه تقديس، ويفدون بيتها المعظَّم بالمهج والأرواح، روى ابن هشام أن أبرهة الأشرم ـ وكان والياً على اليمن من قبل النجاشي ـ كتب إلى النجاشي يقول له: إني بنيت لك ـ أيها الملك ـ كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب، فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النَّسَأة ـ قوم من العرب كان لهم النسيء في الأشهر الحرم ـ فدخل كنيسة أبرهة وقذَّرها، فلما بلغ ذلك أبرهة سأل عنه: من فعله؟ فقيل له: رجل من العرب، من أهل هذا البيت الذي يحج العرب إليه بمكة، فحلف أبرهة ليسيرن إلى هذا البيت حتى يهدمه وتجهز لذلك، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم.

تلك هي صورة مجملة تصور البيئة الطبيعية التي ولد فيها محمد ﷺ، والتي عاش بين أحضانها، وتلك هي خصائصها العامة والخاصة.

* * *

البيئة الاجتماعية

كانت البيئة الاجتماعية ثمرة البيئة الطبيعية

أما البيئة الاجتماعية التي نهد محمد ﷺ بين أعطافها، وشب في مدارجها، واستوى رجلاً في مجامعها فهي البيئة العربية التي تشمل جميع الشعوب والقبائل والبطون والعشائر ممن سكن الجزيرة العربية في جنوبها وشمالها، وتكلم بلغة العرب، ودان بأديانها، واعتقد عقائدها وتخلق بأخلاقها وتسنن بعاداتها، وتأثر بمن خالطها من الأمم والجماعات التي طرأت بتراثها الاجتماعي على جزيرتها، فهي أوسع مدى، وأشمل أثراً من البيئة الطبيعية، لأن خصائص البيئة الطبيعية مظاهر جامدة ترتبط بالأرض والسماء، والخصب والجدب، والجو والطبيعة، أما خصائص البيئة الاجتماعية فهي انعكاسات لمظاهر البيئة الطبيعية تظهر صورها وآثارها حية

في الإنسان الذي عاش فيها، وتقلب في أنحائها يتسبب لمعاشه، فهي على الحقيقة مجموعة أخلاق الناس وطبائعهم وعقائدهم ومظاهر حياتهم فيما يغلب عليهم من وسائل الحياة في صناعة أو تجارة أو زراعة أو استثمار حيوان، وما يتولد عن التنافس في ذلك من حرب أو سلم طلباً للمغالبة ودفاعاً عن البقاء، وأثر هذا في الأفراد والجماعات.

العقيدة أهم مظاهر البيئة الاجتماعية

وأول مظاهر البيئة الاجتماعية وأعمها مظهراً العقيدة الدينية وما ينشأ عنها من مناسك وتعبدات، وعنوان ذلك عند العرب قاطبة هو الوثنية التي تتمثل في عبادة المخلوقات من الكواكب وأصناف الحيوان والأشجار والأحجار، وهي وثنية جامدة بليدة في شكلها وموضوعها، لا تتفلسف ولا تتعالم، ولكنها تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصِّبة التي لا تسمع لصوت العقل ولا تصغي إلى الشعور ونداء الوجدان، وقد حكى القرآن عنهم هذا في معرض الرد عنهم على دعوتهم إلى الحق فقال: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾[1] ثم بكّتهم على هذه البلادة العقلية التي لا تناسب إنسانيتهم فقال: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[1] ثم مثَّلهم في سد طرائق الفهم والتعقل على أنفسهم وعدم تأملهم لما يسمعون، بالبهائم التي ينعق بها راعيها فتسمع الصوت ولا تفهم مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه فقال: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاء ونداء ﴾[1] ثم سجل عليهم أنهم لم يكتفوا بإلغاء عقولهم، ولكنهم ألغوا كذلك حواسهم فعطلوها عن عملها الجاد المفيد فقال: ﴿ صُمٌ بُكْمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾[1].

الأوثان في أشكالها تدخل في كل بيت من بيوتهم.

وقد دفعهم الفراغ عن جد الحياة إلى التفنن في وثنيتهم البلهاء، فنوعوها وعددوا آلهتها واتخذوا لها الأنصاب والتماثيل والأصنام والأوثان، وبنوا لها البيوت والمتعبدات حتى أصبح لكل قبيلة صنم أو تمثال في بيت خاص به تتعبد له وتذبح عنده قرابينها وتطوف به وتتقرب إليه بصدقاتها ونذورها، وتستقسم بأزلامها في كنفه ليأمرها أو ينهاها، بل لم يبق بيت من

---

(١) سورة البقرة، آيتا: ١٧٠ ـ ١٧١.

مظاهر بلادة الوثنية الجاهلية

بيوت العرب إلا اتخذ أهله صنماً يعبدونه، قال محمد بن إسحاق: (واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفر وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله) ومن هنا جاء عجبهم حينما دعاهم رسول الله ﷺ إلى التوحيد فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ: ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ قال هشام الكلبي في كتاب الأصنام: (واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم الدوار، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل ثلاثة أسافي قدره، وإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها).

وقد تبلغ البلاهة ببعضهم إلى أن يصنع صنمه من طعام يعجبه، يطوف به ويتنسك لديه مادام مستغنياً عنه، فإذا عضه الجوع عدا عليه فأكله، وقد يتنبه الوعي الداخلي في نفس أحدهم فيدرك في لحظة عابرة أنه ليس على شيء، ولكنه تنبُّه الخطرة الخاطفة لا تنبه العقل المتأمل والعقيدة المفكرة. روى محمد بن إسحاق وابن الكلبي أن رجلاً من بني ملكان ابن كنانة أقبل بإبل له كثيرة ليقفها على صنم لهم يقال له «سعد» وهو صخرة طويلة بفلاة من أرض جده التماس بركته ـ فيما يزعم ـ فلما رأت الإبل سعداً وكانت مرعية لا تركب ـ وكان يهراق عليه الدماء ـ نفرت منه، وذهبت في كل وجه، فغضب ربها وأخذ حجراً ورمى به سعداً ثم قال له: لا بارك الله فيك إلهاً، نفَّرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يُدعى لغيٍّ ولا رشد

وقال ابن الكلبي في كتاب الأصنام: وكان لمزينة صنم يقال له «نهم»

وبه كانت تسمى عبد نهم، وكان سادن نهم يسمى خزاعي بن عبد نهم من مزينة ثم من بني عداء، فلما سمع بالنبي ﷺ ثار إلى الصنم فكسره وأنشد يقول:

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عتيرة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها أهذا إله؟ أيكم ليس يعقل؟
أبَيْتُ فديني اليوم دين محمد إله السماء الماجد المتفضّل

وفي كتاب الأصنام أن امرأ القيس بن حِجْر لما أقبل يريد الغارة على بني أسد مر بذي الخلصة وكان صنماً بأرض تبالة، وكانت العرب تعظمه، وكانت له ثلاثة أقداح، الآمر والناهي، والمتربص - فاستقسم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له: (عضضت با. . أبيك لو كان أبوك قتل ما عوقتني) ثم غزا بني أسد فظفر بهم.

وإلى جانب هذه الوثنية البلهاء الغامرة كانت هناك قلة منثورة في أرجاء الجزيرة العربية تنفرد باعتقادات خاصة وتدين بديانات أخرى، فكانت اليهودية باليمن حتى غلبت عليها الحبشة فأدخلت فيها النصرانية التي عاشت بنجران حتى جاء الإسلام، ثم تحولت اليهودية إلى الحجاز فأقامت بيثرب وخيبر، وهناك لقيها الإسلام.

رشح من ندى الفطرة السليمة بلل بقطراته قلوب أفراد قلائل عزفوا عن هذه الوثنية البلهاء.

وفي غضون هذا الخضم الوثني كانت توجد حفنة من الناس تنكر على قومها التعبُّد للأحجار وتتطلع إلى الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت قد بقيت لها آثار باهتة لا تتضح منها معالمها، فتمسكت بأهدابها باحثة عن حقيقتها حتى جاء الإسلام فسمعوا ديباجة حديثة، ولم تتلبث بهم أعمارهم حتى يطلعوا على حقيقته، فمضوا على نياتهم وعقائدهم، قال محمد ابن إسحاق فيما يرويه ابن هشام في السيرة: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نَجِيًّا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد ابن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على

شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة ابن نوفل فاستحكم في النصرانية حتى علم علماً من أهل الكتاب، وأما عبيدالله ابن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر إلى الحبشة وهناك تنصّر ومات على نصرانيته، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم وتنصّر وأقام هناك، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح لها ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: لقد رأيت زيد ابن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته، وقد قال عنه النبي ﷺ: إنه يبعث أمة وحده، وفي رواية عند ابن سعد في الطبقات: إني رأيته يسحب ذيله في الجنة.

وكان من أثر بقاء آثار الحنيفية بين العرب أنهم كانوا يؤمنون بوجود الله، ويسندون إليه عظائم الأمور، وأن آلهتهم هذه إنما تقربهم إلى الله زلفى، كما حكى عنهم القرآن في قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله﴾[1] وفي قوله: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[2] وكان بعضهم يقول في تلبيته للحج: (لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك. إلا شريكاً تملكه وما ملك). وهكذا كانت الجزيرة العربية تموج بالشرك والوثنية في صور مختلفة ومظاهر متعددة، تتلاقى كلها في تفاهتها وسذاجة أوضاعها، وبعدها عن يقظة العقل والوجدان.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣.

كانت أخلاق العرب الجاهلية أثراً للبيئة

أما أخلاق العرب وعاداتهم الفاشية فيما بينهم فهي في الأغلب أخلاق وعادات تنبع من ينبوع عقائدهم الوثنية وبيئتهم الطبيعية، فخيرها يستوحي البيئة ومستلزماتها من الفاقة وضنك العيش وقسوة الحياة، فالنجدة والمروءة والوفاء بالعهد وصدق الحديث والشجاعة والكرم والسخاء والإيثار، والذود عن المحارم ورعاية الجوار، والحلم والصبر وسرعة الخاطر وصفاء البديهة وكل ما جرى هذا المجرى مما سجله تاريخهم ووعته أشعارهم وشاد به أدبهم فضائل كان لها عند العرب من المكانة ما لم يكن لها عند غيرهم من الأمم، ومن المعروف أن العرب ما كانوا يرجعون في ذلك إلى قانون خُلقي ولا نظريات نفسية ولا مراسم تربوية، ولكنهم كانوا يستلهمون دواعي البيئة التي تأويهم، ودوافع الحياة التي يحيونها، وتلك البيئة هي التي جعلت من هذه الفضائل أمهات المكارم التي تتفاخر بها العرب حتى أسرفت فيها إسرافاً أخرجها عن دائرة الفضائل الفطرية التي تقرها العقول السليمة وتحض على التحلي بها الرسالات الإلّهية.

وتلك البيئة نفسها هي التي جعلت من بعض رذائل الفطرة ومقابح العقول ومناهي الديانات السماوية فضائل محلية، فشرب الخمر والمقامرة، والفتك ونصر القريب الظالم، ووأد البنات وإكراه الإماء على البغاء تكسباً وما إليها مما كان فاشياً بين مجتمعات العرب وفي قبائلهم هي رذائل الفطرة النقية، ولكنها كانت عند العرب فضائل يتفاخرون بها، ويعيبون الذي لا يتحلى بحليتها.

وكان للعرب إلى جانب ذلك خرافات سخيفة يعتقدونها وخيالات ساقطة يقيمون حياتهم عليها، وهي في الأغلب وليدة البله في العقيدة الدينية والوثنية التي كانت شائعة بينهم، ومن خرافاتهم الاستقسام بالأزلام، وهي أقداح موضوعة عند سدنة الأصنام مكتوب عليها (افعل) و (لا تفعل) أو نحو ذلك مما يدل على المضي في المقصود أو العدول عنه، فإذا أراد أحدهم سفراً أو أمراً مما يعرض له في حياته ذهب إلى السادن وطلب إليه إخراج الأقداح ليأخذ منها واحداً يأتمر بما فيه ، ولها صور متعددة. ومن خرافاتهم التطير بالسوانح والبوارح من الطير. ومن سواقطهم طوافهم بالبيت عراة، وقد عدد

القرآن الكريم كثيراً من هذه الرذائل مبكتاً المتعلقين بها عائباً عليهم اعتقادها ناعياً عليهم سفاهة أحلامهم وركاكة عقولهم.

وقد قضت البيئة الطبيعية والفوضى الدينية وشيوع الخرافات أن تتوافر لدى العرب أسباب لإشعال نيران الحروب وإيقاد جذوة التطاحن قلما توافرت لأمة أخرى من الأمم، ولا يغلو من يقول إن حياة العرب في جاهليتهم كانت حياة لا تعرف الأمن والسلام، بل كانت حياة تخفق فوقها بنود الحرب والتقاتل، وكأنما ضنّت عليها الطبيعة بما يروي غلتها ويخصب أوديتها من نمير الماء فجادت عليها لتعوضها بصبيب الدماء، وكأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع ذلك الجيل من الناس، فمن العسير جداً على التاريخ أن يجد يوماً من أيام الناس مر على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال، فإذا لم يكن في الجنوب كان في الشمال، وإذا لم يكن في نجد كان في تهامة، وإذا لم يكن بين قبائل حِمْيَر كان بين نزار، وإذا لم يكن في ربيعة كان في قيس، وقد عدَّد المؤرخون أيام الوقائع الكبرى في الجزيرة العربية وذكروا أسبابها ونتائجها، فإذا بها راجعة إلى تغالب على مرعى، أو حماية جار، أو أخذ بثأر، أو مساعدة حليف، وكم من سبب تافه ألهب لظى حرب لبثت أعواماً يصطلي أوارها الناس، وحسبك أن تعرف أن روايات التاريخ الجاهلي تذكر أن حرب داحس والغبراء مكثت أربعين عاماً لا تخمد جمرتها، فلا يتحاجز الناس إلا ريثما يتهيئون لوثبة أخرى تعود فيها الحرب جذعة تأكل شباب المتقاتلين وشجعانهم، وحسبك أن تعلم أن سبب كل هذه الحرب الطويلة الدامية محاولة تغليب فرس على فرس في سباق، وحسبك أن تعلم أن حرباً بين بكر وتغلب دامت عشرات الأعوام وكان سببها إصابة ناقة البسوس وكانت جارة لجساس بن مرة البكري فقتل بها كليباً سيد تغلب ونشبت بين القبيلتين حرب شابت فيها الولدان.

وهكذا لا تكاد تنظر في تاريخ العرب قبل البعثة المحمدية إلاّ وتجد صفحات من الدماء صَبغتها على أديم جزيرتهم أسنة الرماح وظبات السيوف، وقد ولَّدت هذه الحروب العداوة بين قبائل العرب وبيوتاتهم، ففشى بينهم التقاطع والشحناء، وكان من أثر ذلك تعصب كل قبيلة لأفرادها والانتصار

لهم مهما بلغ شأنهم، ومن ثم ساد بين العرب في جاهليتهم النظام القبلي الذي يعطي الفرد من المكانة ما لم يعرف له في الأنظمة الاجتماعية التي تنسق فيها الجماعة على نسق نظامي يحكمه قانون ثابت وحكومة تقوم على تنفيذ ذلك القانون.

وقد استحكم هذا الوضع الفردي في الأسرة العربية، فحكمها الفرد وتحكم فيها، فنظام الزواج والمفارقة والمواريث وعلاقة أفراد الأسرة كلها قائمة على حكم الفرد الذي لا يرد حكمه، وما بالك بنظام يجعل من قوانينه حرمان المرأة أن تتصرف في شيء من أمرها؟ وما بالك بنظام يجعل من حق أكبر أبناء الرجل أن يخلف أباه على زوجته؟ وما بالك بنظام يرمي بالأسرة كلها بل بالقبيلة من أجل جريرة فرد من أفرادها، ولو كان ذلك الفرد صعلوكاً أو خليعاً؟!.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم الإنسان

تسلسل الأحداث

محمد ﷺ إنسان بكل معاني الإنسانية المكتملة في خصائصها

توجيه البحث في هذا الفصل:

المقصود من هذا الفصل هو تصوير شخصية سيدنا محمد ﷺ تصويراً تاريخياً يقوم على معرفة الأحداث والحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة في الحياة التي كانت تحياها بيئة محمد ﷺ الطبيعية والاجتماعية، والحياة التي كان يحياها محمد ﷺ نفسه في تلك البيئة، وبيان الأطوار التي مر فيها تاريخ محمد ﷺ مدى تلك الحياة، وبيان آثار تلك البيئة في بناء شخصية محمد ﷺ التاريخية، وبيان آثار محمد ﷺ في البيئة من ناحيته الذاتية كرجل من رجالات تلك البيئة، نشأ في أحضانها، وعاش بين عاداتها وأخلاقهـا، وشام[1] تفكيرها، ورأى عقائدها، وخالطها في حربها وسلمها، ثم بيان آثاره كإنسان مكتمل خصائص الإنسانية في احتمال أعباء الرسالة الإلهية التي يبعثه الله بها إلى الناس كافة، في أطوارها المختلفة.

محمد ﷺ عاش في بيئته بخصائصه فكان صورة فيها ولم يكن صورة منها

هذا التصوير يقتضينا أن ننظر في شخصية محمد الإنسان ﷺ لنتعرف عليه في نشأته وعيشه، كيف نشأ، وكيف عاش في بيئة لها خصائصها ومميزاتها الطبيعية والاجتماعية، وكل إنسان نشأ وعاش في بيئة فلا بد أن يأخذ منها وتأخذ منه، ويجاذبها وتجاذبه، وفي هذا التجاذب بين البيئة وأفراد مجتمعها تظهر مميزات الأفراد الذاتية التي تحميهم من التأثر بعوامل البيئة تأثراً كلياً قد تجعل الفرد صورة للبيئة وأثراً من آثارها ليس غير، كالآلة يصنعها صانعها

---

(١) شام تفكيرها: هو من قولهم: شام البرق إذا نظر إليه ليتعرف أين يقصد.

ليعمل بها ما يريد وهي مجردة من الإرادة والاختيار اللذين هما خصيصة الإنسان النابعة من إنسانيته، بيد أن هذه الخصيصة تتفاوت في أفراد الإنسان وهذا التفاوت هو فيصل الامتياز والتفوق في الشخصية المتكاملة، فما مدى أثر هذا التجاذب بين محمد ﷺ وبيئته في حياته مدى أربعين سنة قبل أن يُبعث نبياً، عاشها في قومه وبيئته أطواراً مختلفة مرهف الحسّ، قوي الوجدان، صادق الشعور، مشبوب الرجولية، فارع الشباب.

الخصيصة العظمى لمحمد ﷺ تتمثل في تربية الله له وتأديبه ليعده لحمل أمانة أعظم رسالة لانقاذ الإنسانية

وهذا التصوير يقتضينا أن ننظر بعد هذا إلى حياة محمد ﷺ الذي تولى الله فيها تربيته وأعده لرسالته الخاتمة الخالدة، فأدَّبه فأحسن تأديبه، لنتعرَّف على معالم تلك التربية الإلهية والإعداد الرباني والتأديب الرحماني الذي جعل الله به عبده محمداً ﷺ رحمة للعالمين.

وقد جرت سُنَّة الله في رسالاته الإلهية أن يُعِدَّ من يصطفيه لها في خلائقه وجوهر إنسانيته وخصائص رجوليته إعداداً خاصاً، يوائم بينه وبين ما انتدب إليه؛ حتى يستطيع القيام بما حُمِّل ويؤدي ما كلِّف، كما أشار إلى ذلك القرآن الحكيم في قوله: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

أسرة محمد صلى الله عليه وسلم
خصائصها ومكانتها في العرب

محمد ﷺ سليل أسرة جمعت أمجاد العرب في خلائقها

ونظرنا إلى محمد ﷺ الإنسان يدفع بنا إلى الوراء قليلاً قبل أن يكون محمد ﷺ شخصاً بين قومه، لنعرف النبعة التي انشقت عنه، ونعرف ماذا كان لها في شخصيته من أثر وراثي، أو أثر اجتماعي، ولسنا نعني هنا دوحته الكبرى «قريشاً» فهذه قد استوفت حظها من البحث، وإنما نعني فَرْعَيْها الفارعين وغصنيها الزاكيَيْنْ: «عبد مناف» و«زُهْرة» اللذين انفرجا عن محمد ﷺ، فعبد مناف غصن من الدوحة القرشية زكى وأينع فأثمر لسيدها عبد المطلب ابنه «عبداللّٰه» وزُهْرة غصنها الذي زهى ونما، فأثمر لوهب سيدها ابنته «آمنة»، وهاتان الثمرتان ضمهما القدر المغلف بأسرار الغيب على وساد من الحب الشفيف واللقاء الشريف في سنة عربية للزواج بين كرام العرب معروفة، وشرعة إلٰهيَّة منذ كان الناس مقدورة، فكان منهما «محمد» رسول الرحمة للعالمين. ووقوفنا عند «عبد مناف» و«زهرة» من بين أغصان الدوحة القرشية التي تجمعهما لأنهما نقطتان تجمع فيهما كثير من خصائص الأصل والنبعة الكبرى، حتى كأنهما أصل مع الأصل، أو فرع انتهت إليه خصائص الأصل، فعبد مناف ورث مجد أبيه قصي الذي يعتبر في تاريخ قريش عرق الثرى في إمداد أغصانها بأمجاد المناقب وأصول المكارم.

جده قصي كان ملكاً غير مملك إلا بخلائقه وجلائل أعماله

كان «قُصَي» بن كلاب أخا «زهرة» لأبيه وأمه، وكان في سن الفطام حين هلك أبوه، وكان «زهرة» قد بلغ مبلغ الرجال، فتزوجت أمهما رجلاً من قضاعة فارتحل بها إلى أرض قومه من مشارف الشام، فأخذت معها «قصياً» لصغره وتركت «زهرة» في قومه، ولما كبر قصي وبلغ مبلغ الرجال عاد إلى

بلده وقومه فوجد أخاه «زهرة» قد كبر وعمي، فتعرف إليه فعرفه بعد أن استوصفه. ووجد «قصي» أمر مكة بيد خزاعة فخطب إلى سيدها حُلَيل ابن حبشي ابنته «حُبَّي» فزوَّجه بها لمكان نسبه وشرفه، وكان «قصي» جلداً نهداً نسيباً، فكثر ماله وولده وانتشروا في مكة، وسمت نفسه فطمح إلى سيادة قومه، ورأى أنه أحقّ بالبيت وبأمر مكه من خزاعة فحاربهم مستعيناً بأخوته لأمه من قضاعة وانتزع أمر مكة من أيديهم، فشرف في قومه وساد، قال ابن هشام في سيرته: «كان قصي بن كلاب أول بني كعب ابن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكان شريف أهل مكة، لا ينازع فيها، فابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت، ففيها كان يكون أمر قريش كله، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، ولا يعقدون لواء حرب لهم مع قوم من غيرهم إلا في دار الندوة، يعقده لهم قصي، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار النَّدْوة، ولا تخرج لهم عير فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها؛ تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله ويتبعون أمره كالدين المتبع، وكان إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كله».

كان فرع عبد مناف أمجد أغصان دوحة قصي

ولما هلك قصي خلفه على أمر مكة ابنه «عبد مناف» لأن عبد الدار بكر قصي وكبير ولده كان ضعيفاً فائل الرأي، وكان إخوته قد شَرُفوا عليه، وكان أعلاهم كعباً في السيادة والشرف «عبد مناف» وقد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب[1]، وكان يقال له القمر من حسنه وله يقول الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت   فالمحّ خالصه لعبد مناف

أمجاد عبد مناف صيرته دوحة في نسب المكارم فكان أصلاً انتهى إليه محور القربى في تحديدها الإسلامي

وقد اجتمعت قريش على «عبد مناف» فاختط لها الرباع بمكة ووطد سلطانها عليها، وعلى عبد مناف اقتصر النبي ﷺ في بيان القرابة في قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ روى ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى على النبي ﷺ ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾

---

(١) الطبري جـ٢ ص ١٨٤.

خرج حتى علا المروة ثم قال: (يا آل فهر) فجاءته قريش، فقال أبو لهب ابن عبد المطلب: هذه فهر عندك فقل، فقال: (يا آل غالب) فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر، فقال: (يا آل لؤي بن غالب) فرجع بنو تيم بن الأدرم ابن غالب، فقال: (يا آل كعب بن لؤي) فرجع بنو عامر بن لؤي، فقال: (يا آل مرة بن كعب) فرجع بنو عدي بن كعب وبنو سهم وبنو جُمَح ابنا عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي، فقال: (يا آل كلاب بن مرة) فرجع بنو مخزوم ابن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة، فقال: (يا آل قصي) فرجع بنو زهرة ابن كلاب، فقال: (يا آل عبد مناف)، فرجع بنو عبد الدار بن قصي وبنو أسد ابن عبد العزى بن قصي، وبنو عبد بن قصي، فقال أبو لهب: هذه بنو عبد مناف عندك فقل، فقال رسول الله ﷺ: (إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم الأقربون من قريش، وإني لا أملك لكم من الله حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فأشهد بها لكم عند ربكم، فتدين لكم بها العرب وتذل لكم بها العجم) ورواه البخاري مختصراً قال ابن حجر في شرحه: ووقع عند البلاذري من وجه آخر عن ابن عباس أبين من هذا ـ ثم ساقه الحافظ موافقاً لرواية صاحب الطبقات، وكذلك رواه مسلم والإمام أحمد والبيهقي وغيرهم.

وهذا الحديث وحده يكفي سنداً لوقوفنا عند «عبد مناف» في تطلب الأصل القريب الذي ترجع إليه شخصية محمد ﷺ بالوراثة في بعض الخلائق والسجايا، فأنت ترى أن النبي ﷺ وهو في مقام بيان القرابة التي لها المقدمة في الإنذار حسماً للأطماع، والتي أوثرت من قبل الله العلي الأعلى بالسبق، لتعتمد على وشائج القربى في حميتها لحماية دعوته وحمايته لتجاوب ما بينه وبينهم من المشاركة في خصائص تنزع إلى عرق واحد ـ قد سلك مسلك التدرج في التخصيص، حتى إذا بلغ مجتمعها الحافل رآها سوية في «عبد مناف»، فأخبرهم أنهم أخص من يجتمع به في عرق من قريش، ولهذا التدرُّج الذي سلكه النبي ﷺ من الأعم إلى الأخص حكمة لطيفة تبين أن الخصائص المشتركة بين فروع الأصل الواحد موزعة على الفروع كلها بنسب متفاوتة، ولكنها قد تنتهي مجتمعة عند فرع ينزل منها منزل القلب من الشجرة،

وذلك الفرع هو الذي يسقي الأغصان المتفرعة عنه بجميع موارد الخصائص السابقة واللاحقة.

وهذا التفسير العملي للقرابة ـ في هذا المقام ـ يوحي بأن عبد مناف هو الفرع القرشي الذي تحدرت إليه جداول الخلائق الموروثة من أعراق آبائه، وهو الذي تقاطر فيه غيث «قصي» وأمجاده وانتهت إليه خصائصه، فنبل وساد ومجد في حياة أبيه على رغم صغر سنه وعلى رغم وصية أبيه لأخيه الأكبر «عبد الدار» بكر قصي بما كان لقصي من مناصب السيادة والشرف، وترك عبد مناف لهمته وفواضله. روى ابن الأثير قال: لما كبر قصي ورقّ وكان ولده «عبد الدار» أكبر ولده وكان ضعيفاً، وكان «عبد مناف» قد ساد في حياة أبيه، وكذلك إخوته، فقال قصي لعبد الدار: والله لألحقنك بهم فأعطاه دار الندوة، والحجابة ـ وهي حجابة الكعبة ـ، واللواء فهو كان يعقد لقريش ألويتهم، والسقاية كان يسقي الحجيج، والرفادة وهي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاما للحاج يأكله الفقراء.

لكنّ بني عبد مناف لم يرضهم أن تذهب منهم مكرمتا الجود والبذل، والسقاية والرفادة، فانتزعوهما من بني عبد الدار، وتركوا لهم من شارات المجد ما سواهما حتى جاء الإسلام فأقر حجابة الكعبة في بني عبد الدار، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجعل اللواء فيهم مع الحجابة فقال لهم: (إن الإسلام أوسع من ذلك)[1] وهو يشير بذلك إلى أن اللواء صار في الإسلام مرتبة من مراتب المسلمين عامة، ولم يعد منصباً من مناصب أمجاد قريش بل ولا عامة العرب، فانتزعه منهم وجعله لعامة المسلمين، وأقر السقاية والرفادة في بني عبد مناف يتوارثها الخلف منهم عن السلف، حتى أدركت أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس وتعاقبها الخلفاء من بعده.

أما «زُهْرة» الجد الأعلى للسيدة «آمنة» أم سيدنا محمد ﷺ فهو الأخ الأكبر لقصي والد عبد مناف، وقد أقام «زهرة» بمكة حياته كلها لم يفارقها

(١) ابن الأثير جـ٢ ص ١٠.

أما زهرة الجد الأعلى للسيدة آمنة أم خير الورى محمد ﷺ فكان الأخ الأكبر لقصي وكان أولاده مع أولاده في كل ما ينوب قريش

ولم يرحل عنها، ولما رجع قصي من بلاد قضاعة تعرف إليه فعرفه وأدناه، ولم يزل ولده مع ولده لا يفارقونهم، يدخلون معهم في كل حلف ويشاركونهم فيما يقومون به من عمل، فأول حلف عقده بنو عبد مناف «حلف المطيبين»، فكان بنو زهرة معهم على بني عبد الدار، قال ابن هشام في سيرته: (ثم إن بني عبد مناف بن قصي أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف، يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصيٌ جعل إليهم، وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر مع بني عبد مناف، وكان بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي مع بني عبد الدار، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة توكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين).

وكان بنو زهرة شركاء بني عبد مناف في نصيبهم عند تجزئة الكعبة لبنائها، حدَّث أبو جعفر الطبري عن محمد بن إسحاق قال: (ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة).

ترابط فرعي عبد مناف وزهرة دليل على تحلب خصائص الوراثة إلى فرعيهما

هذا الترابط الذي كان بين زهرة وعبد مناف هو الذي يوحي بجعل فرعيهما في قريش ملتقى ما تنقله الوراثة من الخصائص الإنسانية المنسابة مع تيار التوالد في الأشخاص.

بيد أن هناك فرقاً بين فرعي عبد مناف وزهرة في مقدار ما عند كل منهما من الجاذبية للخصائص والطباع، والتاريخ يذكر لبني عبد مناف خلائق القوة والصلابة والتمجد بالمكان وحب الشرف والسيادة والبذل ودقة الشعور وسرعة البداهة، وهي خصائص كانت كلها متوافرة في قصي جدهم الأعلى، فأخذها منه وراثة ابنه عبد مناف وأورثها عبد مناف بنيه من بعده، ويذكر

لبني زهرة الأناة والهدوء ورقة الحاشية وحب الثراء، وهي خصائص كانت طبعاً لأبيهم زهرة بن كلاب، ومنه تحدرت إلى ولده موزعة عليهم على حسب ما فيهم من استعداد مفطور.

والناظر إلى سيرة النسل المتجدد من عبد مناف، ولا سيما الفرع الذي انتهى إثماره إلى محمد ﷺ يجد صدق هذا في طباعهم وأحلامهم، والناظر في بني زهرة يجد كذلك خصائص أبيهم ممثلة في طبائعهم.

كان هاشم جد محمد ﷺ لأبيه صورة لخصائص الأمجاد المنافية

ومن ثم نقول ونحن مطمئنون: إن محمداً ﷺ انتهت إليه خلاصة ما انطوى عليه بيتا عبد مناف وزهرة من خلائق وطبائع وخصائص إنسانية؛ لأنك ـ بعد ما أجملناه لك من حديث عبد مناف وزهرة ـ إذا تقصَّيت التاريخ عرفت أن هاشماً بن عبد مناف جد محمد ﷺ هو الذي خلف أباه من دون إخوته أبناء عبد مناف ـ في شرفه ومكانته لتقارب ما بينهما من النوازع والأخلاق، فهاشم أول من سنَّ الرحلتين لتجارة قريش، كان يرحل على رأس عيرها في الشتاء إلى اليمن، وإلى الحبشة إلى النجاشي فيحبوه ويكرمه، وكانْ قد أخذ حلفاً لقريش من قيصر لأن تختلف بتجارتها إلى الشام في الصيف[1] وهي آمنة لا يتعرض لها أحد.

وكان هاشم على خلق أبيه في التمجد بالكرم والبذل، يقوم بالرفادة وإطعام الحاج في الموسم كله، وكان رجلاً موسراً، فإذا حضر الحج قام في قومه، فقال: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه وزوره، يأتون شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر كأنها القداح، فأقروهم واسقوهم، وكانت قريش ترافد على ذلك حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هاشم يخرج في كل عام مالاً كثيراً، ويقول: لو أن مالي يسع ذلك ما كلفتكم شيئاً، وكان يأمر بحياض من أدم ثم يسقي فيها الماء من البئار التي بمكة ـ والماء يومئذ قليل ـ، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة وجمْع، وكان

(١) ابن الأثير جـ ٢.

يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن والسويق والتمر إلى أن يصدروا من منى تنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم(١).

وذكر ابن سعد في الطبقات أن قريشاً أصابتهم سنوات ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له، فجعله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة فأطعم قومه والناس معهم حتى أشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الحياة بعد السنوات التي أصابتهم، فحسده أمية بن عبد شمس ابن أخيه، وهو الذي كان يساميه في بيت عبد مناف، وكان أمية ذا مال فتكلف أن يصنع مثل صنيع هاشم فعجز عنه، فتنافر إلى أحد حكام الجاهلية فنفر هاشماً وجلا أمية عن مكة إلى الشام عشر سنين فكان ذلك مبدأ العداوة بين بيتهما.

وكانت العرب لا تعرض لقوافل قريش إذا مرت على أحيائها وقبائلها، لأن هاشماً ألف العرب على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق(٢).

كان لهذه المكرمات والمناقب أثر خطير في مكانة عبد مناف وأبنائه عند جميع العرب، فعرفوا لهم فضلهم وقدَّروهم قدرهم، ونظروا إليهم نظرة فيها قداسة واحتشام، لم ينظروها لغيرهم ممن يساميهم من أبناء عمومتهم مع ما كان في أيديهم من مراتب المجد والشرف وشارات السيادة والتقدم مثلهم، لكن بني عبد مناف امتازوا بالصنائع والمكارم يسدونها إلى قومهم، واختيارهم من بين مراتب الشرف مرتبتي الرفادة والسقاية ـ وهما مظهر الجود والبذل ـ هو الذي زاد في مكانتهم ورفعهم في نظر العرب قاطبة، وهو الذي عقد لهم وشيجة المحبة والإعظام في قلوبهم.

أما عبد المطلب جد محمد الأدنى فكان أشبه بجده الأعلى قصي ابن كلاب في شرفه وتساميه وطموحه إلى عوالي الأمور، ومن غرائب هذا التشابه أن كلاً منهما نشأ بعيداً عن قومه وبلده في حضن أمه حتى اشتد ساعده وبلغ

(١) ابن سعد في الطبقات.

(٢) طبقات ابن سعد.

أما عبد المطلب جد محمد ﷺ فكان صورة جامعة لخصائص جديه قصي وعبد مناف

مبلغ الرجال وعرف أنه فرع الدوحة القرشية وابن هامتها، فتحمل إلى قومه وبلده، فاستقبله الشرف والمجد ودانت له السيادة. فقصي رحل إلى مكة فوجد أمرها بيد خزاعة وبني بكر، وليس لقريش منه شيء، فانتزعه منهما انتزاعاً، وأخذه غلاباً، فساد على أهل مكة وملّكه قومه عليهم فلا يصدرون إلا عن رأيه. وعبد المطلب نشأ في أخواله بني عدي بن النجار مع أمه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية، وكان أبوه هاشم رآها وهو في طريقه على المدينة ماراً بسوق النبط، فرأى امرأة حازمة جلدة تأمر بما يشترى ويباع لها، فأعجبته وعرف نسبها، وكانت لشرفها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، فتزوجها هاشم وشرطت الإقامة في قومها، فلما بنى بها حملت بعبد المطلب وسمته «شيبة» لبياض في شعر رأسه، وكان هاشم ارتحل في تجارته إلى الشام فمات بغزة، وشب عبد المطلب بين لِدَاته وأقرانه من فتيان يثرب، حتى كان يوماً مع غلمان من أخواله ينتضلون، فجعل كلما أصاب الهدف صاح مفتخراً: أنا ابن عمرو العلا أنا ابن سيد البطحاء، فسمعه ثابت بن المنذر أبو حسان بن ثابت الشاعر ـ وكان خليلاً لعمه المطلب ـ فلما قدم ثابت مكة معتمراً لقي المطلب، فقال له: لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالاً وهيبة وشرفاً!! لقد نظرت إليه وهو يناضل فتياناً من أخواله، فيدخل مرماتيه (سهميه) جميعاً في مثل راحتي هذه، ويقول كلما خسق (أصاب الهدف) أنا ابن عمرو العلا، فشغف المطلب بإحضاره إلى قومه وبلده، فأحضره ووقفه على ملك أبيه وسلمه إليه، ونازعه عمه نوفل بن عبد مناف في أشياء فاستعان بأخواله من بني النجار فردها عليه.

وكان المطلب أكبر من أخويه هاشم وعبد شمس، ولكن هاشماً كان سبقه إلى الشرف والسيادة فكانت بيده الرفادة والسقاية، فلما مات هاشم خلفه عليهما أخوه المطلب وكان جواداً كريماً، وكانت قريش تسميه الفياض لسماحته، وكان يتجر إلى اليمن والحبشة وهو الذي عقد لقريش حلفاً مع النجاشي في متجرها، وفي أرض اليمن بمكان يقال له ردمان هلك المطلب، فقام بعده عبد المطلب بن هاشم بالرفادة والسقاية.

قِصَّة حَفر زَمزَم

زمزم مكرمة من أعظم المكارم التي خص بها عبد المطلب

وفي حياة عبد المطلب حادثان مهمان يتصلان من قريب بسيرة محمد رسول الله ﷺ وتاريخه، أما الحادث الأول فهو (حفر زمزم)، واتصال هذا الحادث بتاريخ محمد ﷺ أن القدر انتهى به (أولاً) إلى إبراز، والده عبدالله في صورة تحاكي ما وقع لجده الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل في قصة الذبح والفداء، وإسماعيل وإبراهيم كانا مناط شرف قريش خاصة ومعقد مفاخر العرب عامة، فلهذه المحاكاة في القصة أثرها النفسي عند العرب عامة، ولقب عبدالله بالذبيح كما لُقِّب بذلك من قَبْله إسماعيل، وانتهى به (ثانياً) إلى جمع أبويه على أكرم أبوة وأطهر أمومة لخير مولود عرفه الوجود.

وحادث حفر زمزم كان له أثر خطير في ازدياد مكانة عبد المطلب رفعة وعلواً بين قومه وفي بلده بل بين العرب أجمعين، فقد يسَّر حفر زمزم الماء ـ وهو أعز شيء في وجود مكة ومنزلتها ـ على أهل الحرم وعلى الحجيج كله، وعلى عبد المطلب نفسه وهو صاحب مرتبتي الرفادة والسقاية من مراتب السؤدد والشرف في قريش جيران الله وسدنة بيته.

وكتب التاريخ والسيرة تلوِّن هذا الحادث بألوان مختلفة، يتدخل فيها الخيال أحياناً فيضفي عليها من بريقه اللامع ما يجعلها أقرب إلى باب القَصَص الفضفاض منها إلى الواقع المشهود، ولكن هناك أشياء في القصة لا يختلف فيها الرواة، ذلك أن عبد المطلب وقريشاً قاطبة كانوا على يقين أن بالحرم إلى جوار بيت جدهم إبراهيم بئر أبيهم إسماعيل، وهي عين ثرّارة لا تنزف أبداً، ولكن أين مكانها على التحديد من البيت؟ هذا ما حيَّرهم وصدَّهم عن التفكير فيها طول مدة التاريخ الغابرة. وهم يتهيَّبون أن يجعلوا

من ساحة البيت منطقة تفتيش وتنقيب عن شيء مهما بلغ عندهم من العزة؛ فإن عزة البيت وحرمته فوق عزته، وما أدراهم إن هم أقدموا على البحث ألّا تغضب عليهم آلهتهم التي أحاطوا بها البيت؟ بل ما يدريهم ألّا تضار جدران البيت من أثر المعاول والمساحي؟ لكن عبد المطلب كان أكثرهم شغلاً وتفكيراً في ذلك؛ لأنه صاحب السقاية مكرمته ومكرمة أبيه من قبله. وآبار مكة التي يستقي منها الماء للناس في الموسم الأعظم متناثرة متباعدة، وليست كلها غزيرة الماء مما يجعله يطمئن إلى كفاية الحجيج منها، وهو وحيد وليس معه إلا بكره الحارث، وبنو عبد شمس وبنو عبد الدار منافسوه في الشرف يتربصون به، وهنا تذكر الرواية التي لا اختلاف فيها أيضاً بين الرواة أن عبد المطلب أُري مكان زمزم مناماً. وإن كانت الرواية تختلف في أسلوب الرؤيا وكيفيتها، وذلك من الوجهة التاريخية لا يقف في طريق البحث، وأقرب الروايات وأوفاها رواية ابن سعد في الطبقات من طريق شيخه محمد ابن عمر الواقدي، وهي رواية عبد الملك بن هشام في سيرته عن محمد ابن إسحاق. وهذان المصدران من أقدم مصادر السيرة والتاريخ وعليهما معوّل من جاء بعدهما. فابن الأثير في كامله خالف إمامه أبا جعفر الطبري وتابعهما فيها.

قال ابن سعد: فلم يزل عبد المطلب مقيماً بمكة حتى أدرك، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً إلى أرض اليمن فهلك بردمان من أرض اليمن، فولي عبد المطلب بن هاشم بعده الرفادة والسقاية، فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم في حياض الأدم بمكة، فلما سُقي زمزم ترك السقي في الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها، وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة ليسقيهم، وكانت زمزم سقيا من الله، أتي في المنام مرات فأمر بحفرها ووصف له موضعها، فقيل له احفر طيبة[1] قال: وما طيبة؟ فلما كان الغد أتاه فقال: احفر بَرَّة، قال: وما برة؟ فلما كان الغد أتاه وهو نائم في مضجعه ذلك فقال: احفـر المضنونة، قال وما المضنونة؟ أبِنْ لي ما تقول، فلما كان الغد أتاه قال: احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: لا تنزح ولا تذمّ، تسقي

(١) طيبة، برة، المضنونة: هذه أسماء لبئر زمزم لوحظ فيها مضمناتها من المعاني كما فسرها صاحب النهاية.

الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم - قال: وكان غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم - وهي شرب لك ولولدك من بعدك، قال:

فغدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته معه ابنه الحارث بن عبد المطلب وليس له يومئذ ولد غيره، فجعل عبد المطلب يحفر بالمعول ويغرف بالمسحاة في المكتل، فيحمله الحارث فيلقيه خارجاً، فحفر ثلاثة أيام ثم بدا له الطوي فكبَّر، وقال: هذا طوي إسماعيل!! فعرفت قريش أنه قد أدرك الماء، فأتوه فقالوا: أشركنا فيه، فقال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خُصصت به دونكم، فاجعلوا بيننا وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هُزَيم - وكانت بمعان من أطراف الشام - فخرجوا إليها وخرج مع عبد المطلب عشرون رجلاً من بني عبد مناف وخرجت قريش بعشرين رجلاً من قبائلها، فلما كانوا بالقفير من أرض الشام أو حذوه فني ماء القوم جميعاً، فعطشوا، فقالوا لعبد المطلب: ما ترى؟ فقال: هو الموت، فليحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه فكلما مات رجل دفنه أصحابه حتى يكون آخرهم موتاً رجلاً واحداً فيموت ضيعة، فموت واحد ضيعة خير من أن تموتوا جميعاً، فحفروا ثم قعدوا ينتظرون، فقال عبد المطلب: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للعجز، ألا نضرب في الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض هذه البلاد فارتحلوا، وقام عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجر تحت خفها عين ماء عذب، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه وشربوا جميعاً، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلمُّوا إلى الماء الرواء فقد سقانا الله، فشربوا واستقوا وقالوا: قد قضى لك علينا والذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فوالله لا نخاصمك فيها أبداً، فرجع ورجعوا ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلَّوا بينه وبين زمزم.

تدخل الخيال في قصة حفر زمزم لا يحلها ولكنه يعطيها لوناً من ألوان البيئة العربية

هذه الرواية بخطوطها الجوهرية من الوجهة التاريخية لم يسقطها المؤرخون ولم يزيفها - فيما رأينا - أحد من القدامى، وهي من الوجهة النفسية بالنسبة لجوها الذي يحيطها به الرواة لا يأبى التاريخ الواقعي أن يشهدها، فليس فيها شيء تنكره حياة العرب في جاهليتهم، ولا سيما في قريش ومكة

خاصة، فهي حياة أحلام وكهانة ورؤى ومناجاة وأشباح وخوارق مادية وعجائب حسية، تشترك في تمثيلها كائنات مرئية وأخرى غير مرئية يؤمن العرب عامة وأهل مكة خاصة بقوتها وسلطانها.

وسواء لدى البحث أصحّت هذه الأقصوصة كلها أم بطلت كلها، أو صحّ بعضها وبطل بعضها، فإن كلمة التاريخ في مصادره العربية متفقة على أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كانت له عين ماء إلى جوار مكان البيت الحرام، أُغيث بها ليشرب هو وأمه في قصة مشهورة، عرضت لها الروايات الصحيحة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وقد رواها البخاري في صحيحه، وكذلك تتفق كلمة التاريخ على أن هذه العين طُمَّت، وسواء أكان طمها بفعل إنسان ـ على ما تنسبه الرواية لعمرو بن مضاض الجرهمي ـ أم بفعل الجو وأحداث الطبيعة وقلة الأيدي المستصلحة في ذلك المكان وتلك الأزمنة الغابرة. وكلمة التاريخ أيضاً متفقة على أن قريشاً لما سكنت مكة وعمرتها ودانت لها بسلطانها الديني تقاسمت مراتب الشرف في بيوتاتها، فكانت سقاية الحجيج في بني عبد مناف يتوارثونها حتى انتهت إلى عبد المطلب بن هاشم، وهو أحوج في موقفه هذا إلى الماء الغزير القريب، فما يمنع أن يكون قد دار في نفسه خاطر بئر جده إسماعيل، واعتلج فيها الشوق إلى العثور عليها وتملكه الشعور بذلك، فانعكس في وعيه الباطن فرأى في منامه ما رأى، وكان هاتفه من نفسه وإليها؟ وما يمنع أن يكون عبد المطلب قد أُلهم ذلك إلهاماً؟ أو تفرّسه فألقى إليه مناماً؟ وما يمنع أن يكون نُوجِيَ به في نومه كما يُناجي كلّ مشغول بأمر من الأمور بشيء مما يهجس في خاطره.

ليس في القصة بُعدٌ ولا إحالة من وجهة رؤيا المنام وهواتف عبد المطلب ومغالبته قريشاً فهذه كلها أمور جاهلية معروفة معهودة.

موقف الطبري من قصة حفر زمزم

بيد أننا نقف هنا وقفة متأملة مع شيخ مؤرخي الإسلام أبي جعفر الطبري، فإنه ـ رحمه الله ـ مرَّ على قصة حفر زمزم مرور الكرام فلم يحفل بعديد رواياتها كعادته في الإسهاب وتكثير الروايات في الحادث الواحد، واكتفى بقوله في صدد الحديث عن مكانة عبد المطلب: (وهو الذي كشف عن زمزم

بئر إسماعيل بن إبراهيم واستخرج ما كان فيها مدفوناً).

فما شأن أبي جعفر؟ فهل شك في القصة وتفاصيلها فأعرض عنها؟ لا نظن هذا، لأن أبا جعفر نفسه اعتمد على رواية محمد بن إسحاق في قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه إن بلغوا عشرة يمنعونه من قريش، هذه القصة مؤسسة على قصة حفر زمزم، وقد صرَّح بذلك أبو جعفر في قوله عن محمد بن إسحاق: كان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش في حفر زمزم ما لقي لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة، والذي لقيه عبد المطلب من قريش في حفر زمزم في رواية محمد بن إسحاق هو ما ذكره عنه ناقل سيرته عبد الملك ابن هشام في روايته المطابقة لرواية ابن سعد. ومهما يكن من أمر قصة حفر زمزم فإنها تقودنا إلى الحديث عن الذبيح عبدالله بن عبد المطلب أبي محمد ﷺ، وقصة نذر ذبحه وما انبثقت عنه من زواجه بآمنة بنت وَهبْ، ومن بينهما كان محمد ﷺ.

قصة الذبيح
عبدالله بن عبد المطلب

ارتباط حفر زمزم بقصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه

يتصل الحديث عن عبدالله بن عبد المطلب أبي محمد رسول الله ﷺ في كتب التاريخ بحديث حفر زمزم اتصالاً وثيقاً، فقد كان حفرها فيها يقول الرواة سبباً في نذر عبد المطلب ذبح أحد أبنائه تقرُّباً إلى الله، وكانت قصة الذبح مَعْبَراً إلى زواج عبدالله بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ، وبهذا يظهر اتصال الحديث اتصالاً مباشراً بتاريخ وسيرة محمد رسول الله ﷺ، وتظهر حكمة تحقيقنا لقصة زمزم لما لها من أثر واضح في مكانة عبد المطلب جد محمد ﷺ الذي رآه في طفوليته ورأى ما يتمتع به من الشرف والمجد، وهو الذي تعهده وكفله بعد وفاة أبيه، وكان عبد المطلب يتمجد بهذا الحفيد العظيم ويتفرَّس فيه مكنون الغيب عند ولادته فيسميه محمَّداً، فيقال له: ما هذا الاسم الذي ليس في أسماء آبائك؟ فيقول: سميته محمداً ليحمد في السماء والأرض، ويقول لأبنائه ـ وهم حافون حول فراشه في ظل الكعبة وقد أبى محمد ﷺ إلا أن يجلس فوق فراش جده، فيهمُّ أعمامه بتنحيته إعظاماً لمكان أبيهم شيخ قريش وسيدها ـ: دعوا ابني إنه ليؤنس ملكاً.

وحديث نذر عبد المطلب نحر أحد بنيه وإسهامه بينهم وطيران القرعة على سهم عبدالله كغيره من أحاديث التاريخ الجاهلي تعددت رواياته، واختلفت أساليبه في مصادر التاريخ العربي، ولوَّنه الرواة بألوان شتى، وهو في إجماله كالمجمع عليه في تلك المصادر.

وصفوة سياقته منها أن عبد المطلب بن هاشم لما احتفر زمزم وأخرج

صدق العزيمة على الوفاء بالنذر وطيران القرعة على عبدالله أحب وأعز ولد عبد المطلب إليه.

منها كنز جرهم نازعته قريش وطلبت أن تقاسمه وتشاركه في الماء، وكانت جرهم حين عزموا الخروج من مكة دفنوا غزالين من ذهب وسبعة أسياف قلعية (نسبة إلى بلدة بالهند تسمى قلوع) وخمسة أدراع سوابغ، فاستخرجها منها عبد المطلب، وكان يتألَّه ويعظِّم الظلم والفجور، فضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة، وعلَّق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة، وجعل المفتاح والقفل من ذهب، فحسدته قريش وجاءته كأنها تغازيه فحاكمها فظفر عليها، وكان وحيداً فيهم ليس له ولد سوى ابنه الحارث، فهاجت به لواعج الشوق إلى المكاثرة بالولد، فنذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم تقرُّباً إلى الله عند الكعبة، فلما توافى له بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم وأخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا له: أوفِ بنذرك، فأسهم بينهم وقال لسان أعظم أصنامهم (هبل) اضرب عليهم بالقداح، فضرب عليهم فخرج سهم عبدالله ـ وكان فيما يقول الرواة أصغر بني عبد المطلب وأحبهم إليه ـ فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة بيده الأخرى ثم أقبل به على مذبح قريش الذي تذبح فيه قربانها عند صنميها إساف ونائلة ليذبحه، قال الطبري: فقامت إليه قريش من أنديتها. فقالوا: ماذا تريد ياعبد المطلب؟ قال: أذبحه، فقالت قريش وبنوه: ـ أي بنو عبد المطلب إخوة عبدالله ـ والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا؟ فقال له المغيرة ابن عبدالله بن عمرو المخزومي ـ وكان عبدالله بن عبد المطلب ابن أخت القوم ـ: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وقال ابن سعد في الطبقات: ثم أخبر عبد المطلب أولاده بنذره ودعاهم إلى الوفاء به لله فما اختلف عليه منهم أحد، وقالوا: أوفِ بنذرك وافعل ما شئت، فقال: ليكتب كل رجل منكم اسمه في قدحه ففعلوا، فدخل عبد المطلب في جوف الكعبة وقال للسادن: اضرب بقداحهم، فضرب فخرج قدح عبدالله أولها ـ وكان عبد المطلب يحبه ـ، فأخذ بيده يقوده إلى المذبح ومعه المدية، فبكى بنات عبد المطلب، وكُنَّ قياماً، وقالت إحداهن لأبيها: أعذر فيه بأن تضرب في إبلك السوائم التي في الحرم، فقال للسادن: اضرب عليه

بالقداح وعلى عشرة من الإبل ـ وكانت الدية يومئذ عشراً من الإبل ـ فضرب فخرج القدح على عبدالله، فجعل يزيد عشراً عشراً كل ذلك يخرج القدح على عبدالله حتى كملت المائة، فضرب بالقداح فخرج على الإبل، فكبَّر عبد المطلب والناس معه، واحتمل بنات عبد المطلب أخاهنَّ عبدالله، وقدم عبد المطلب الإبل فنحرها بين الصفا والمروة.

اختلاف الروايات في قصة ذبح عبدالله.

وقال ابن سعد أيضاً من رواية ابن مِجْلَز: إن عبد المطلب أُتي في المنام فقيل له: احتفر، فقال: أين؟ فقيل له: مكان كذا وكذا، فلم يحتفر، فأُتي فقيل له: احتفر عند الفرث عند النمل عند مجلس خزاعة ونحوه، فاحتفر فوجد غزالاً وسلاحاً وأظفاراً، فقال قومه لما رأوا الغنيمة كأنهم يريدون أن يغازوه، فعند ذلك نذر لئن ولد له عشرة لينحرنَّ أحدهم، فلما ولد له عشرة وأراد ذبح عبدالله منعته بنو زهرة، وقالوا: أقرع بينه وبين كذا وكذا من الإبل، فأقرع فوقعت عليه سبع مرات وعلى الإبل مرة، ثم صار من أمره أن ترك ابنه ونحر الإبل.

وفي حديث رواه الحاكم في المستدرك عن معاوية بن أبي سفيان قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي فقال: يا رسول الله خلفتُ البلاد يابسة والماء يابساً هلك المال وضاع العيال، فعد عليّ ممَّا أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، قال معاوية ـ مبيناً من هما الذبيحان في قول الأعرابي ـ إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن يسر الأمر بها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبدالله، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا: أرضِ ربك وَافْدِ ابنك ففداه بمائة ناقة، فهو الذبيح الأول وإسماعيل الذبيح الثاني، أي في نسب النبي ﷺ.

هذه أربع روايات تتفق كلها على أصل قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه، وتختلف في سبب هذا النذر، فحديث معاوية الذي رواه الحاكم يجعل هذا النذر من قبيل الشكر على تسهيل أمر زمزم، وسائر الروايات يجعله من قبيل الشكر على منح عبد المطلب أولاده الذين منعوه من بغي

قريش وعدوانها، وتتفق هذه الروايات على أن عبدالله بن عبد المطلب هو الذي خرج سهمه ليكون الذبيح، وتختلف فيمن تصدّى لعبد المطلب فمنعه من ذبحه.

الاختلاف فيمن تصدى لعبد المطلب في تنفيذ عزمته

هل المتصدي أبناء عبد المطلب؟ كيف والرواية تذكر أنهم جميعاً أطاعوه حينما أخبرهم بنذره وقالوا له: افعل ما تشاء؟ ولكن العاطفة عند رؤية العزيمة وقيام قريش معهم يقرب ذلك ويجعله مقبولاً، أو المتصدي لعبد المطلب بناته، بكين لما رأين وسائل التنفيذ قائمة، وقالت إحداهن كالمنبِّهة لعقل عبد المطلب وعاطفته: أعذر فيه بإبلك السوائم في الحرم؟ أو المتصدي هم أخوال عبدالله من بني مخزوم يقدمهم شيخهم المغيرة بن عبدالله تعزيزاً بابن أختهم؟ أو هم بنو زهرة حلفاء بني عبد مناف؟. وهذه الرواية التي تسند منع عبد المطلب من ذبح عبدالله إلى بني زهرة أغرب الروايات وأعجبها، وهي رواية تلفت نظر الباحث إلى ما جاء بعد قصة الذبح مباشرة من زواج الذبيح عبدالله بآمنة بنت وهب سيد بني زهرة، فهل كان بين قيام بني زهرة دون ذبح عبدالله وإصهارهم إليه صلة؟.

رواية بني زهرة لون عاطفي

ولِمَ لا؟ وبنو زهرة منذ كانوا هم حلفاء بني عبد مناف وشركاؤهم فيما ينوبهم، وأقرب بطون قريش مودة إلى بني هاشم، والمعهود بين الناس طبيعة وعُرفاً أنه إذا كان بين بيتين من البيوتات صلة مودة وتحالف وناب أحدهما نائبة قام معه أهل مودته وحلفه متقدمين على سائر أقاربه توكيداً لمظهر المودة والحلف، فلما تصدى بنو زهرة ومنعوا عبد المطلب من ذبح ابنه وأجابهم إلى الفداء طاروا بالذبيح فرحين إلى بيوتهم احتفالاً بحياته وسروراً بنجاته، وفي غمرة السرور طارت الكلمات بالتهنئة والتحايا يتولاها سيد البيت وزعيمه، وكانت كلمات التودد والتحبب إلى الذبيح، وجرى حديث مداعبة الشباب بالمصاهرة، فتسمع الشيخ الهاشمي وأعجبه فنقلها جداً بينه وبين سيد زهرة توكيداً لمظاهر المودة على سنن الناس وعوائدهم، وأجاب سيد زهرة كما يجيب كل نبيل يدعى إلى مكرمة من كفء كريم، وارتفعت الكلمات إلى تحقيق موعود الله باصطفاء عبدالله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب قراراً لخير نسمة برأها الله في الوجود.

روایة تلوح علیها لوائح الوضع

وفي رواية عند الطبري عن عبدالله بن عباس أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها فجاءت عبدالله بن عمر، فقال لها عبدالله بن عمر: لا أعلم الله أمر في النذر إلا الوفاء، فقالت المرأة أفأنحر ابني؟ قال ابن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم، فلم يزدها عبدالله بن عمر على ذلك، فجاءت عبدالله بن عباس فاستفتته فقال: أمر الله بوفاء النذر ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم، وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافىَ له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافوا عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر فطارت القرعة على عبدالله بن عبد المطلب ـ وكان أحب الناس إلى عبد المطلب ـ فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل، فقال ابن عباس للمرأة فأرى أن تنحري مائة من الإبل مكان ابنك، فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة. فقال: ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا؛ إنه لا نذر في معصية الله، استغفري الله وتوبي إلى الله وتصدقي واعملي ما استطعت من الخير، أما أن تنحري ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فسرّ الناس بذلك وأعجبهم قول مروان، ورأوا أن قد أصاب الفتيا، فلم يزالوا يفتون ألاّ نذر في معصية الله.

نقد هذه الرواية.

وقد ذكرنا هذه الرواية استيفاء لعرض روايات قصة الذبيح، وهي رواية عجيبة لأنها تسند إلى رجلين من أعلام علماء الصحابة ورأسين من رؤوس العبادلة ـ اشتهرا بالفقه في الدين وحمل الشريعة والتصدُّر للفتيا، هما عبدالله بن عمر بن الخطاب وحبر الأمة عبدالله بن عباس ـ جهلاً بحكم شرعي يعلمه أقل الناس فقهاً في الدين، وتسند إلى عبدالله بن عمر أنه أفتى فلم يصب الفتيا، مع أن الرواية تقول إنه لم يزد على أنه بيَّن أن الله أمر في النذر بالوفاء ونهى عن قتل النفس، وهذا توقف في حكم المسألة وليس فتوى، وتسند إلى ابن عباس أنه أفتى المرأة بنحر مائة من الإبل مستدلاً بفعل عبد المطلب بن هاشم، ولم يقل أحد من أهل العلم في الإسلام أن فعل عبد المطلب حجة في دين الله، وأطمُّ من ذلك وأفحش أن هذه الرواية تسند الجهل بهذا الحكم الشرعي إلى عامة الأمة في الصدر الأول من الصحابة

وتلاميذهم؛ ماعدا مروان الذي كشف عن هذا الحكم ففرح الناس به وتعلموه يومئذ، ولم يزالوا من يوم مروان هذا فقط يفتون ألاَّ نذر في معصية الله، وليت شعري ما كانت فتواهم فيها يعرض لهم من نذر المعصية قبل وجود مروان وعلمه؟! هذه الرواية نجزم بعدم صحتها للوجوه التي ذكرناها، ولوائح الوضع السخيف عليها لائحة فلا يسوغ التعويل عليها في شيء.

الروايات كلها تتفق على مجمل قصة النذر وعزمة الذبح وأن الذبيح هو عبدالله أبو محمد ﷺ

والروايات في قصة عبدالله الذبيح تكاد تجمع على أن عبد المطلب أسهم بين بنيه لينحر أحدهم وفاء بنذره بعد أن بلغوا عشرة، وبعض الروايات يجعل بلوغهم عشرة هو مناط النذر؛ بل إن صاحب الطبقات من رواية الواقدي يعددهم بأسمائهم فيقول: فلما تكاملوا عشرة؛ فهم الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبدالله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس. وصاحب الطبقات نفسه يقول: فكان تزوج عبد المطلب ابن هشام وتزوّج عبدالله بن عبد المطلب في مجلس واحد، فولدت هالة بنت وهب لعبد المطلب حمزة بن عبد المطلب، فكان حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ في النسب وأخاه من الرضاعة، ومعلوم أن زواج عبدالله بآمنة وزواج عبد المطلب بهالة كانا بعد قصة الذبح، فكيف يكون أولاد عبد المطلب عند العزم على الوفاء بالنذر قد بلغوا عشرة وحمزة لم يولد بعد، والعباس أصغر من حمزة وكان حينئذ لا يزال غيباً من الغيب؟ وكيف يعد حمزة والعباس باسميهما في أولاد عبد المطلب الذين تكاملوا عشرة ليفي بنذره؟ وأعجب من ذلك أن الطبري وغيره يصرحون بأن عبدالله أصغر ولد أبيه، فكيف يكون أصغرهم وفيهم حمزة وهو لم يكن قد ولد يوم أن تزوج عبدالله؟ وعباس أصغر من حمزة، وكان لقربه من رسول الله ﷺ يشتبه على بعض الناس سنّهُ بسنِّهِ، فقد روي أنه سُئل بعد إسلامه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني وأنا أسنّ منه، وروي عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها وجيء به حتى نظرت إليه، وجعل النسوة يقلن لي: قبِّل أخاك فقبَّلته، فأين ميلاد العباس من ميلاد أخيه عبدالله والد رسول الله ﷺ.

هذا لون مما يدخل على الروايات من الغلط فيتناقله الرواة دون نقد

وتمحيص حتى يتقادم فلا يُعرف مخرجه أو يُتَمحل له، وهو كثير في روايات التاريخ الجاهلي، ولا تخلو منه روايات التاريخ الإسلامي، وقد انخدع به كثير من الباحثين المعاصرين ونحن ننبه على ما يعرض لنا منه في ثنايا البحث مما قد يصادم حقيقة تاريخية.

الاختلاف في عدد أولاد عبد المطلب ورأي القسطلاني والسهيلي

وقد عرض القسطلاني في مواهبه إلى نقد هذه الرواية ولكنه أبعد النجعة في محاولة المخرج، فقال: وقد استشكل بعض الناس أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزوجه بهالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس ولدا عبد المطلب إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وإنما كان أولاده عشرة بهما، قال السهيلي: ولا إشكال في هذا، فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه عليه السلام اثني عشر فإن صح هذا فلا إشكال في الخبر، وإن صحّ قول من قال: كانوا عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنيهم حقيقة لا مجازاً، فكان عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين أوفى بنذره.

ورواية الاثني عشر رواها ـ أيضاً ـ ابن سعد في الطبقات، ولكن من طريق ابن الكلبي، وقد اضطربت في ذكر الأسماء فبلغت بهم ثلاثة عشر لا اثني عشر كما ذكرت في الإجمال قبل التفصيل بتعديد الأسماء، فزادت على رواية الواقدي المتقدمة ثلاثة، هم: عبد الكعبة، وحجل[1] وقثم، والاعتماد على هذه الرواية في دفع الإشكال اعتماد على متكىء ضعيف، وأكثر الروايات المحددة تقف عند العشرة، ورواية الزيادة انفرد بها ابن الكلبي.

وزعْمُ أن الولد يقع على الولد وولده تكلف لا تحتمله حقائق التاريخ، وأقرب الروايات ـ رواية الحاكم في حديث معاوية الذي ذكرناه سابقاً، ومحصلها: أن عبد المطلب نذر نحر بعض ولده إن سهَّل الله له حفر زمزم هكذا دون تحديد لعدد أو تسمية لأحد، فلما تم له ما أراد أسهم بين ولـده

---

(١) في البداية والنهاية لابن كثير أن الغيداق لقب لحجل وليس اسماً لغيره، وفيه أن عبد الكعبة اسم المقوم وقيل هما اثنان، وفيه أن حِجْلا اسمه المغيرة وأن الغيداق لقب لرجل منهم اسمه نوفل وهو غير حجل.

الموجودين ومنهم عبدالله والد رسول الله ﷺ وكان أصغرهم وأحبهم إلى أبيه، فخرج سهمه لتتم المحنة وتجمل بعدها المنحة، فكان هو الذبيح المفدّى.

تزويج
عبدالله بن عبد المطلب من آمنة

تصوير لخوالج عبدالله ابن عبد المطلب وقد تمثل له موقف الذبح بيد أبيه.

وصلت قصة الذبيح إلى هذه النهاية لتبدأ بها قصة الحياة في صورة أكبر من عبد المطلب ونذره وسوائمه في الحرم، وأكبر من قريش وزمزم، تلك هي قصة التأذن بميلاد الإنسانية وتجديدها في أكمل صورة من صلة السماء بالأرض.

رُوِّع الفتى عبدالله بن عبد المطلب أيما ترويع وقد رأى من أبيه شيخ قريش وسيدها الجدَّ النافذ والعزيمة الصارمة في أمر ذبحه، ورأى الموت إلى جانب أبيه يرقبه ليختطفه من بين إخوته وأخواته اللائي بكين له وانتحبن عليه فزاده بكاؤهن ترويعاً، فتوزعت مشاعره، وتبددت أحاسيسه، وذهبت به الخوالج كل مذهب.

حياة البنوة امتداد لحياة الأبوة، هذا هو قانون الأزل للحياة، فلو كان أحد في هذا الوجود يملك أن يعطي من حياته وعمره شيئاً يضاف إلى حياة غيره لما وجد ـ عن صدق وجداني ـ من يجود بذلك من غير تلفت أو حساب سوى أب يسخو في إسراف ليمد في حياة ابنه وهو راض مغتبط، يملأه شعور داخلي في نفسه بأنه لم ينزل عن شيء من حياته لغيره، لأنه يتمثل في شخص ابنه ومثاله ذاته وشخصيته. ويرى في وجود ابنه وحياته وجوده وحياته، فأي إنسان لايُروَّع ولا يطيش صوابه وتتحطم أعصابه وهو يرى أباه أرحم الناس به وأحبهم إلى قلبه، وألصقهم بنفسه وأسرعهم إلى رغائبه وهواه، يمشي به على مشهد من هذه الدنيا ليذبحه على أبشع صورة وأشنع منظر مر على

إنسان في هذا الوجود؟.

أي شيء هذا الذي ينتظر عبدالله بن عبد المطلب؟ إنه الذبح، إنه دمه الزكي يتطاير من شفرة أبيه على أرض الحرم تقرُّباً لأحجار قريش، إنها إنسانيته الناطقة الضاحكة الجميلة تحال إلى.. إلى ماذا؟ إلى صورة بهيمة تذبح، وَمَنْ الذابح؟ إنه الوالد الذي صبت فيه الحياة أضخم ما تملك من ذخيرة في عصارة الشفقة والحب والرحمة والحنان، أي ابتلاء هذا؟ وارحمتاه للشيخ الوالد مرة، إنه يمشي إلى النهاية ليصبر أو ليذهب، ولكن وارحمتاه ألف مرة للشباب الفينان الذي سيهصر، والعود الريّان الذي سيذوي ويجف، ماذا من الأماني والآمال في خيال هذا الشباب الغض المقبل على زهرة الحياة ونضارتها التي ستقطعها عن الوجود الثري تلك اللحظة المشؤومة؟ وماذا من الرؤى والأحلام في عينيه الظامئتين لرحيق الحياة؟ بل ماذا من الأفكار والتقديرات يدور في رأس هذا الفتى الحيران؟

إنها لحظة ويسدل الستار على آخر فصول هذه الرواية الباكية الدامية، لحظة وينصرف النظّارة وينتهي كل شيء.

لمعات القدر من وراء الغيب أضاء للشيخ الظلام

لكن القدر المسيطر على منافذ الحياة كان أسرع من خوالج عبدالله الذبيح، وهواتف عبد المطلب وعزيمته وتضرعات أبنائه ودموع بناته، وكأن ضوءاً ساطعاً لمع فجأة فأنار زوايا نفس الشيخ الأسيف وكشف عن بصيرته وهو آخذ بيد ابنه الحبيب وفي يده الأخرى الشفرة المشحوذة يمشي به خُطى متثاقلة إلى مذبح قريش، يحدث نفسه والهمّ القاصم يعتلج فيها، ويصيح الوفاء، الوفاء، وإذا به يجأر إلى السماء بكل ما تملك الأبوة من حنو واسترحام: اللهم هو أو مائة من الإبل. بخٍ، بخٍ فداء فريد في ضخامته، فداء لم تعرفه العرب لعربي قبل عبدالله الذبيح، ولم تعرفه قريش قبل لمفدّي قبل أن تسخو به نفس عبد المطلب، فداء عظيماً لأنه لمفدى حبيب من أب يحترق قلبه أسىً وتذوب كبده هماً وأسفاً، قالوا: وتعطفت آلهة عبد المطلب وقبلت الفداء ونجا الذبيح عبدالله من الموت، وكان لابد أن ينجو، لأن القدر الكريم كان قد اختاره منذ الأزل ليكون مشرق ديباجة الحياة في صلة السماء

بالأرض لآخر مرة في حياة الأحياء، وما آلهة عبد المطلب إلا حفنات من رمال تلاصقت حجراً حوّم فوقه الشيطان.

نجا عبدالله من الموت وبقي له الفزع والروع يملآن حنايا نفسه، ويرسمان على ملامحه آثارهما وهو بعد شاب غض الإهاب لم يكمل الحلقة الثانية من عمره النضير أو جاوزها بشيء قليل، فأي شيء يعوضه ويرد إليه نفسه الذاهبة مع إبل الفداء؟ وأي شيء يبعث في قلبه السكون والطمأنينة، وأي شيء يعيد إليه مرح الشباب وينسيه آلام تلك الساعة الفادحة؟ لا شيء غير الزواج أمنية الشباب وأمله، ومسرح خواطره ورؤاه، ومجتمع لذاذاته وأحلامه. وصحَّت عزيمة الشيخ على أن يمسح بيد حنانه الأوصاب عن قلب ابنه الحبيب، ومضى في طريقه إلى حلفائه أبناء عمومته الأعلين بني زهرة يخطب لابنه الذبيح سيدة عقائل العرب آمنة بنت وهب سيد بني زهرة؟ وهنا يجيء دور التاريخ ليتحدث فنسمع منه، وتختلف رواياته في كثير من أمر هذا الزواج كعهدنا بهذا التاريخ، الظالم، المظلوم، في كل شيء من حوادثه، بَلْه الجاهلي منها.

سن عبدالله بن عبد المطلب عند زواجه

كانت سن عبدالله بن عبد المطلب يوم محنة الذبح سن شاب أقرب إلى الحداثة، ولكنها الحداثة الفارعة التي تسبق إليها الرجولية في سرعة مستعجلة، وهي سنه يوم أن خطب له أبوه آمنة بنت وهب، ويوم أن بنى بها فحملت برسول الله ﷺ، وتزويج هذا الصنف من الفتيان في هذه السن المبكرة يكون إما من قبيل التدليل والترف الناعم تزيداً في التحبب والتحنن، وإما من قبيل العطف والرحمة لإزاحة أثقال حادث فادح ألمَّ فأمضَّ، وقد تكون دواعي تزويج عبدالله الذبيح مزيجاً من اللونين، فهو أحب أبناء أبيه إليه، وقد ابتلي بأقسى ما يبتلى به إنسان، مع ما كان قد بلغ أبوه الشيخ من سن تبتدر فيها نهاية الآمال إلى حيز الوجود، فهو قد حمل فوق كاهله من ثقل غاربات الأيام والسنين ما يوحي إليه بما يسبق به الزمن في تحقيق رغائب الحياة لمن يحبهم.

والذين ذهبوا مذهب التحديد والضبط في تقدير سن عبدالله بن عبد

المطلب وقت تزويجه ـ وهو أمر يحف به الشك، لأن الحياة يومئذ لم يكن لديها من الوسائل ما يسمح بتحديد وضبط مثل هذه الأمور عند العرب ـ اختلفوا، فالطبري وابن الأثير يحدِّدان تلك السن تحديداً دقيقاً بما يقف بها عند الثامنة عشرة. قال ابن الأثير تبعاً لأبي جعفر: ولد عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لأربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان، وولد رسول الله ﷺ سنة اثنتين وأربعين من سلطانه إهـ. وقد اتفق الرواة على أن ميلاد رسول الله ﷺ كان في طي العام الذي تزوَّج فيه أبوه بأمه، فلم يكن بين بناء عبدالله الذبيح على آمنة بنت وهب ومولد رسول الله ﷺ سوى مدة الحمل، وهي على المحقق من الروايات تسعة أشهر كوامل، فتكون سن عبدالله ـ على هذه الرواية ـ ثماني عشرة سنة.

ويذهب ابن سعد في الطبقات إلى أن سن عبدالله بن عبد المطلب يوم وفاته كانت خمساً وعشرين سنة، وهو يصرح بأن وفاته كانت ورسول الله ﷺ يومئذ حمل في بطن أمه، ويتفق مع سائر الرواة في أن الحمل برسول الله ﷺ عقب تزوُّج أبيه بأمه، وعلى ذلك تكون سنة وفاة عبدالله أبي رسول الله ﷺ هي سنة تزوجه بأمه، فتكون سنّه ـ على هذه الرواية ـ حين تزويجه خمساً وعشرين سنة.

وقد اختار هذا الرأي ابن كثير في البداية والنهاية فقال: والمقصود أن أمه حين حملت به توفي عبدالله وهو حمل في بطن أمه على المشهور، قال محمد ابن سعد: حدثنا محمد بن عمر ـ هو الواقدي ـ حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي، وحدثنا سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: خرج عبدالله بن عبد المطلب إلى الشام، إلى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبدالله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال: أنا أتخلَّف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبدالله، فقالوا: خلَّفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي، ودفن في دار النابغة، فرجع إلى أبيه فأخبره، فوجد عليه

عبد المطلب وإخوته وأخواته وَجْداً شديداً، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل، ولعبدالله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة، قال الواقدي : هذا هو أثبت الأقوال في وفاة عبدالله وسنه عندنا.

ثم قال ابن كثير: والذي رجَّحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه.

قصة المتعرضة
لعبدالله بن عبد المطلب

كان من الطبيعي في بيئة قريش ومكة وحرمها بعد حادث نذر عبد المطلب وما انتهت إليه قصة الذبيح أن يستشرف كثيرات من النسوة إلى عبدالله بن عبد المطلب ليكون لهنّ وينجبن منه، فهو أنهد شباب الحرم وأشبّ ما يكون فتى في فتيان مكة، وأجمل رجال قريش وأنضرهم، وهو المختار لذلك الحادث الخطير الذي كان حديث قريش ومكة كلها في محافلها وبيوتها، إلى جانب ما كان يتناقله المحدثون في مجالس السمر ومحافل الملأ من أنباء وبشارات تلقفها التجار والسمار والمتألهون من أفواه الأحبار والرهبان وقارئي كتب الأقدمين عن نبي يبعث من العرب قد أظل الناسَ زمانُه، ومن أجدر بالنبوة وهي منصب ديني من قريش قطّان الحرم وجيران البيت؟ وَمَنْ أحق بها في قريش من بني عبد المطلب وهم أصحاب مراتب الشرف الديني في الحرم؟ بل مَنْ أحرى بها يحمل نورها من هذا الفتى الذي اختارته الإرادة العليا قرباناً وزلفى؟ والنساء أبداً مولعات بالغرائب والفرائد، فليس من المستغرب أن تعرض امرأة أو أكثر نفسها على عبدالله الذبيح عقب نجاته وفدائه، ولكن الله الذي ادخر ما حمل عبدالله من شرف نوراني ونور قدسي لأشـرف عقائل قريش آمنة بنت وهب هو الذي صانه عن الاستجابة إلى من تعرض له منهنّ.

اختلاف الروايات في المرأة المتعرضة

قال أبو جعفر الطبري وعبد الملك بن هشام: ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبدالله، فمر ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بني أسد يقال لها أم قتال، واسمها رقيقة أو قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى

وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد، وهي عند الكعبة، وكانت تنظر وتعتاف[1]، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبدالله؟ قال: مع أبي، قالت: لك عندي مثل الإبل التي نحرت عنك وقع عليّ الآن، قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة سناً وشرفاً فزوَّجه آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فدخل عليها مكانه حين ملكها فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال: ما لكِ لا تعرضين اليوم عليّ ما كنتِ عرضت عليّ بالأمس، فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة.

رأي آخر في المرأة المتعرضة

وقال ابن كثير في البداية والنهاية من طريق أبي بكر الخرائطي عن ابن عباس: لما انطلق عبد المطلب بابنه عبدالله ليزوجه مرّ به على كاهنة من أهل تبالة متهوِّدة قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوة في وجه عبدالله فقالت: يا فتى هل لك أن تقع عليّ الآن وأعطيك مائة من الإبل، فقال عبدالله:

أما الحرام فالممات دونه	والحل لا حلّ فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه	يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم مضى مع أبيه فزوَّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فأقام عندها ثلاثة أيام، ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة فأتاها فقالت: ما صنعت بعدي؟ فأخبرها، فقالت: والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون فيّ وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد، ثم أنشأت تقول:

---

(١) تعتاف: من العيافة، وهي التكهن وصدق الحدس والظن وزجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. قال ابن منظور في اللسان: وفي الحديث: إن عبدالله بن عبد المطلب أبا النبي ﷺ مر بامرأة تنظر وتعتاف فدعته إلى أن يستبضع منها فأبى

إني رأيت مخيلة لمعت فتلألأت بحناتم[1] القطر
فلمائها نور يضيء له ما حوله كإضاءة البدر
ورجوتها فخراً أبوء به ما كل قادح زنده يوري
للّه ما زُهرية سلبت ثوبيك ما استلبت وما تدري

وقالت أيضاً:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم أمينة إذ للباه يعتركانِ
كما غادر المصباح عند خموده فتائل قد ميثت[2] له بدهانِ

وروى ابن سعد في الطبقات قصة الخثعمية وذكر البيتين المنسوبين لعبدالله دون أن يذكر فيهما الشطر الأخير من البيت الثاني، وكأن هذا أشبه، أما الشعر المنسوب إلى الخثعمية فهو شبيه بموضعه، وفي بيتيها الأخيرين توضيح يشبه أن يكون طبيعياً لدوافع الرغبة في عبدالله بن عبد المطلب، فهو شاب مشبوب الحيوية، خصيب البدن، ريان الدم، قوي البنيان، جميل المحيا، باهر الطلعة، لايُرى في قريش فتى أحسن منه قامة ولا أوسم وسامة، ولا أحلى منه منظراً، ولا أعدل منه قدّاً، ولا أملح منه وجهاً، ولا أرفع منه حسباً ولا أعرق منه نسباً. وأما حديث النور الذي تقول الرواية أن النسوة المتعرضات له رأينه في وجهه فطلبن منه ما طلبن من أجله فهو قد يكون حديث الرغبة العارمة التي حركتها المناسبة في حادث الذبح والفداء، فتخيلت رواء الشباب وإشراق الجمال، وفخر الأحدوثة بهذا الحادث الفريد نوراً يبهر، وغرة تسطع، وليس بعجيب أن يكون عبدالله والد رسول الله ﷺ تميز بجمال فوق جمال أقرانه، وحسن فوق حسن لِداته، وحيوية أشب وأقوى من حيوية أمثاله؛ لما يحمل من بذرة النبوة التي استدارت في ذاته اكتمالاً فاستنارت على وجهه حسناً وجمالاً حسبه الراؤون غرة في وجهه تسطع أو نوراً في جبهته يلمع، وليس هو - في بديهة الرأي - شيئاً من أنوار الناس الحسية المعروفة، ولكنه نور روحي قدسي تمثل في قوة الحيوية الطافحة والجمال

(١) الحناتم: سحائب سود.
(٢) الميث: المرس والإذابة.

الغامر، والإشراق الباهر، فعبَّرت عنه كل رائية بما تمثلت أو تخيلت، وفي قول الخثعمية:

كما غادر المصباح عند خموده   فتائل قد ميثت له بدهانِ

لفتة فنية بديعة عميقة لا يقدر على تصويرها إلا أنثى امتازت في أنوثتها وعرفت من أمر الرجال ما لم يعرف غيرها من أمثالها، فعبدالله مرّ عليها في أول مروره مرافقاً لأبيه وهو ريان الشباب طافح الحيوية، ميَّاس الفتوة، بكر الرجولية، لم يعرف النساء ولا عرفه النساء، ولم تُعتصر حيويته، ولم يستلب شبابه ولا انتزع رواؤه، ولكنه بعد ذلك تزوَّج آمنة بنت وهب وهي أبرع فتاة في قريش، وللشباب عرامة وإسراف، فلما خرج من عند زوجه وكان قد أودعها سر النبوة ونورها، ومر بصاحبته المتعرضة أعرضت عنه بعد شغفها، وحدثته نفسه بما تحدث به نفس كل فتى في موقفه، وطلب إليها ما كانت طلبته منه بالأمس فأبت عليه لأنها عفيفة شريفة، كانت قد أرادت إلى شيء منه قد ذهب عنه، فما حاجتها به؟ أين تلك الحيوية الطافحة؟ وأين ذلك الشباب الريان؟ وأين إشراقة ذلك الجمال الفينان؟ وأين الحسن المشبوب في وجه عبدالله؟ لقد استلبته آمنة بنت وهب سرَّ جماله وحيويته فغادرته ذابلاً نعسان، وخامداً كسلان، ومعصوراً يابساً كما غادرت الفتائل الممروسة بالدهن المصباح عند خموده، ونفاد زيته، فما نفعها فيه وما فائدتها منه؟ لقد فازت به آمنة بنت وهب، وما كل قادح زنده يوري.

من أغرب روايات المتعرضة

وأغرب روايات المتعرضات رواية تذهب إلى أن عبدالله بن عبد المطلب كانت له زوجة مع آمنة أم رسول الله ﷺ، وهذه الزوجة هي التي عرضت عليه نفسها أو هو كان قد طلبها فأبطأت عليه فذهب إلى زوجه آمنة. روى الطبري عن محمد بن إسحاق أن عبدالله دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين، فخرج عنها فتوضأ[1] وغسل

---

(١) إن ثبتت هذه اللفظة فمعناها ـ من غير شك ـ الوضوء اللغوي الذي يعرفه العرب في جاهليتهم، ويكون عطف ما بعدها عليها عطف تفسير وتوضيح.

عنه ما كان به من أثر ذلك الطين وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها فحملت بمحمد ﷺ، ثم مر بامرأته تلك، فقال: هل لك؟ فقالت: لا، مررت بي وبين عينيك غرة فدعوتني فأبيت ودخلت على آمنة فذهبت بها. وهذه رواية تبدو عليها آثار الصنعة، ويظهر أن صانعيها وضعوها دفعاً لما تضافرت عليه الروايات من أن امرأة عرضت نفسها على عبدالله قبل زواجه بآمنة بنت وهب أن يستبضع منها ـ والاستبضاع نكاح الجاهلية معروف يقصد به نساؤهن الإنجاب ممن يرين عليه مخايل النجابة ـ ، فكأن واضعي هذه الرواية أرادوا المبالغة في تطهير والد رسول الله ﷺ أن يراد لهذا النكاح الذميم، وقد يرجّح هذا قول ابن كثير في تاريخه: وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبدالله قبل أن يجامع آمنة من النور، فودت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ وأنه قد أزفّ زمانه، فعرضت نفسها عليه، قال بعضهم: ليتزوجها، وهو أظهر.

فانظر إلى قوله عن بعضهم ليتزوجها واستظهاره لذلك تعلم أن زعمهم في المتعرضة أنها كانت زوجة لعبدالله مع آمنة حديث خيّله الإغراق في إرادة تصوُّن والد رسول الله ﷺ عن تلك الأنكحة الجاهلية الذميمة، ومن ثَمّ قال ابن كثير عقب ذلك: وهذه الصيانة لعبدالله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ فإنه كما قال الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

وأنت ترى أن الصيانة حاصلة ولو لم تكن المتعرضة زوجة لعبدالله مع أم رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى صانه عن إجابتها إلى ما أرادت، وادخر هذا الشرف فوضعه حيث أراد، وقد أنكر بعض الرواة والمؤرخين أن يكون لعبدالله بن عبد المطلب زوجة غير أم رسول الله ﷺ وجزم بأنه لم يتزوج غيرها، وهذا ما لا نشك فيه وهو رأي جمهور علماء السير والتاريخ.

ويظهر من تعدد الروايات واختلاف أسماء المتعرضات وأوصافهن أن قصة التعرض ربما تكررت مع أكثر من امرأة واحدة، وفي كلها حفظ الله والد رسوله ﷺ حتى وضع نوره حيث أراد.

تدخل الخيال الفضفاض في قصة زواج عبدالله بآمنة

وكأنما عز على الرواة أن يُخلو حديث زواج عبدالله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من طرافة الحب والقصص المترف الناعم، فأضفوا عليه لوناً من هذه الألوان الطريفة المستملحة في رواية زعمت أن آمنة بنت وهب حدثت بجمال عبدالله وحسنه فرغبت في زواجه فتزوجته، حكى الطبري عن الزهري قال: إن عبدالله بن عبد المطلب كان أجمل رجال قريش فذُكر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته وقيل لها: هل لك أن تَزَوَّجيه فتزوجته، فدخل بها وعلقت برسول الله ﷺ. قال الواقدي: هذا غلط، والمجتمع عليه عندنا في نكاح عبدالله بن عبد المطلب ما حدثنا به عبدالله بن جعفر الزهري عن أم بكر بنت المسور أن عبد المطلب جاء بابنه عبدالله فخطب على نفسه وعلى ابنه فتزوجا في مجلس واحد، فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وتزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

نقد الواقدي لرواية الخيال

ولولا هذا النقد الذي غلَّط به الواقدي ـ وهو من متقدمي الرواة ومؤرخيهم ـ هذه الرواية لقلنا إنها تكملة للرواية المشهورة، تتمشى معها في صورتها الطبيعية إلى أن خطب عبد المطلب آمنة بنت وهب لابنه عبدالله، فحدثها أبوها أو عمها ـ على اختلاف الروايات فيمن زوَّجها ـ عن خطيبها عبدالله بن عبد المطلب، وعن شبابه وجماله وحسن هيئته كالمرغب فيه حتى تأنس فلا تنفر وترضى فلا تأبى، فرغبت فيه بعلاً ورضيته زوجاً، وتلك سنة معروفة عند بعض العرب في استشارة بناتهن في أمر زواجهن وترك حرية اختيار الزوج لهن، ولكن نقد الواقدي وتغليطه الرواة في هذه الرواية يشعر بأن الرواة والمؤرخين يذكرون هذه الأقصوصة على أنها رواية مستقلة في بيان الطريقة التي وصلت بعبدالله أبي رسول الله ﷺ إلى زواج آمنة أمه عليه الصلاة والسلام.

ومهما يكن من شأن هذه الروايات فإن عبدالله بن عبد المطلب بنى بزوجه آمنة بنت وهب سيد بني زهرة في أهلها، فأقام عندها ثلاثاً، وكانت تلك السُنَّة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته في أهلها.

سفر عبدالله في تجارته إلى الشام ومحمد ﷺ جنين في بطن أمه

وكان عبدالله بن عبد المطلب يعيش على سنة آبائه الأماجد تاجراً سفَّاراً، يذهب مع تجار قريش في عيراتها إلى أسواق العرب ومتاجر اليمن والشام، ولم يكن واسع الثراء كأصحاب المضاربات والمرابين من تجار قريش، ولم يكن فقيراً يقعده الفقر عن أسباب الكسب والعمل للحياة من أشرف طرائقها، ولا سيما بعد زواجه، فقد أصبح مسؤولا عن بيت فيه زوجته التي وجب عليه أن يعولها ويقوم على واجباتها، وقد شعر بهذا شعوراً ملك عليه أحاسيسه حتى إنه لم يمهله - في أشهر الروايات - أن يقيم إلى جانب زوجته بعد أن بنى بها أكثر من أيام معدودات، ثم أذَّن مؤذن العير بالرحيل إلى الشام للتجارة، فخرج مع قومه مودعاً من أبيه الشيخ الأسيف وزوجته الحبيبة على جِدَّة عهده بها وإخوته وأخواته وهم يرقبون عودته، ولكن الأقدار التي تعلو بحكمتها على مدارك العقول أبت على عبدالله الذبيح أن يرجع من سفرته هذه ليشهد آمنة الزوجة الحبيبة وقد تنفس حملها عن أكرم مولود يشهد الحياة أول ما يشهدها يتيماً.

وفاة عبدالله ودفنه بالمدينة

وهكذا مات عبدالله بن عبد المطلب في هذه الرحلة وهو عائد من الشام ماراً بأخوال أبيه عبد المطلب بني عدي بن النجار، وهكذا دفن عبدالله أبو رسول الله ﷺ بيثرب مدينة الأسرار والأنوار، ومأوى المهاجرين والأنصار، ومهبط الوحي ومنزل الأحرار، ومثوى الكملة الأبرار.

ولأمر ما كانت المدينة المنورة مرقد عبدالله أبي محمد رسول الله ﷺ قبل أن يشهد الوجود طلعة محمد بن عبدالله ﷺ، ولأمر ما كانت من بعده مثوى محمد ﷺ، ولله تعالى حكمة فوق مدارك العقول والأفهام.

قِصَّة أصحَابِ الفِيْل

طبيعة المسالمة في قريش يمثلها زعيمها عبد المطلب

أما الحادث الثاني في حياة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ الذي وعدنا بالحديث عنه لأهميته في تاريخه فهو حادث أصحاب الفيل، فقد كان عبد المطلب هو صاحب كلمة قريش وزعيم مكة وسيدها الناطق عنها، وله مع أبرهة قائد جيش الفيل موقف غريب في ظاهره، بيد أنه كان حكمة وكياسة في حقيقته، وهذا الموقف يصور طبيعة المصالحة والتألّه في عبد المطلب خاصة وقريش عامة، ومن هنا كانت خصيصة قريش وامتيازها على العرب وزعامتها فيهم، ومن هنا كانت خصيصة عبد المطلب في قريش وشرفه وسيادته عليهم، فليست قريش من مساعِر الحروب في العرب، ولم يُعْنَون لها التاريخ في أيام حروب الجاهلية إلا ما أُلجئت إليه إلجاءً، ولم يكن ذلك عن ضعف فيها أو جبن عن لقاء أقرانها؛ ولكن طبيعة حياتها في حرم الله وجوار بيته هي التي صنعتها على هذه الصورة المسالمة، وكذلك لم يكن سيدها عبد المطلب ابن هاشم من رجالات الحروب وأبطال الغزو والقتال، بل كان رجل سلم وسلام، لأنه شيخ الحرم الذي يأمن فيه الخائف فلا يهاج، وينتصف فيه من الظالم للمظلوم، وقد غلبت هذه الطبيعة على قريش وعلى شيخها عبد المطلب في موقفهم من أصحاب الفيل.

سياسة الحكمة في موقف عبد المطلب من جيش الفيل صانت قريشاً

فهذا جيش جاء لغزو مكة وهدم بيتها المحرَّم وقريش سادنة البيت وصاحبة مجده. وعبد المطلب شريف قريش وسيدها، فما كان من قريش ولا كان من عبد المطلب نهوض للحرب ووقوف في وجه هذا الجيش المهاجم ليصدوه عن بلدهم وبيتهم، كما وقف في وجهه قبائل من العرب التي مر بها

في طريقه فعرفت وجهته فحاربته وهزمها، ومضى في طريقه إلى هدفه حتى دنا من مكة وتسامعت قريش وعبد المطلب بأخباره وعدده وعدته، فقالوا: لا طاقة لنا بحربه، وأشار عبد المطلب على قومه بالخروج من مكة وإخلائها صيانة لهم من عبث الجيش ومعرّته، فلجأوا إلى شعف الجبال تاركين البيت لرب البيت يحميه ويمنعه، لأن التعرُّض لحرب هذا الجيش إنما هو انتحار على أبشع صورة يسوق إليها التهور المغرور، وكان عبد المطلب في رأيه هذا أكيس من رجل يدفع بقومه إلى الانتحار في غير طائل، فسالم وخلص بقريش فلم يصبها ما أصاب غيرها من القبائل المتعرضة لهذا الجيش الكثيف، وقدر عبد المطلب في نفسه أن الله رب البيت سيحمي هذا البيت، وراح في قومه قبل أن يخرجوا عن مكة يدعون الله ويستنصرونه لبيته وحرمه.

تعزز مكانة قريش في العرب بموقفها وراء زعيمها عبد المطلب.

فلما جاء الله بنصره وأنزل نقمته على أعداء حرمه وبيته عرفت العرب لقريش هذه المكانة فقالوا: إنهم أهل الله وجيران بيته يحامي عنهم، وازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه لأنه أنقذهم وصان حرمتهم، وذاع صيته وصيت قريش في أرجاء الجزيرة، وتداول الناس الأحاديث عن عبد المطلب وعن أبنائه وقومه في قبائلهم وبيوتاتهم ومحافلهم وأسواقهم، وما صنع الله لهم، وقد اتصل ذلك بحديث ميلاد حفيد عبد المطلب محمد ﷺ ابن ولده الحبيب عبدالله الذبيح، وهذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسيرة وتاريخ رسول الله ﷺ على صورة تجلت في الامتنان عليه وعلى قومه وأمته بما صنع الله له ولبيته العتيق، فصانه وصان أهل جواره عن عبث الغزاة وفجورهم، ورد عليهم كيدهم في نحورهم، وأهلكهم هلاك استئصال بما لم تجربه عادة الناس، فكان إرهاصاً لمقدم محمد رسول الله ﷺ وبعثته، وأنزل الله في ذلك سورة من سور القرآن الكريم سجل فيها هذا الحادث خاصة أروع تسجيل في أوجز عبارة وأوضح أسلوب، فقال تعالى: ﴿ألم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بأصْحاب الفيل * ألَمْ يجعَل كيْدَهم في تضْليل * وأرْسَلَ عَلَيْهم طيراً أبابيل * تَرْميهم بحجارَة مِنْ سجِّيْل * فجعلهم كعصف مأكول﴾.

الإرهاص لمقدم محمد ﷺ بحادث إهلاك جيش الفيل.

هذا الحدث ماصاً لمقدم محمد ﷺ

وفي خطاب رسول الله ﷺ في مفتتح السورة بهذا الأسلوب التقريري التعجيبي، وانصباب الاستفهام على الرؤية وهو ﷺ لم يكن من شهود

الحادث عند وقوعه دليل على أن هذا الحادث كان معروفاً متعالماً مشهوراً بشهوده وآثاره لدى الخاصة والعامة، حتى كان الحديث عنه ممن شهدوه إلى من لم يشهدوه حديث رؤية وعلم يقين يستوي مع المشاهدة والعيان. وفي انصباب الاستفهام على رؤية كيفية فعل الله بهؤلاء الطغاة دون انصبابه على ذات الفعل أو أثره فقيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كيف فعل ربك ﴾ ولم يقل: ألم تر ما فعل أو آثار ما فعل ربك، إشارة إلى تهويل الحادث وإيذان بوقوعه على كيفية وحالة هي فوق مستوى ما عهده الناس وجرت به عادة فيما بينهم من طرائق وقوع الأحداث.

وإضافة الفعل المعجِّب عن طريقة وقوعه إلى الله بعنوان الربوبية المختصة بمحمد ﷺ على ما تقتضيه الإضافة إلى ضمير الخطاب له خاصة، دون ضمير غيره أو دون مشاركة معه رمز إلى مزيد اختصاص هذا الحادث به وأنه كان من أجله، ومن أجل رسالته، ومن هنا اتفقت كلمة أهل الاسلام ـ إلا من زاغ عن الجادة ـ على أن الله قدَّم هذا الحادث تشريفاً لخاتم أنبيائه وتعظيماً لشأنه. قال الإمام فخر الدين الرازي ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالَّةً على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالة على شرف محمد ﷺ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً لنبوتهم وإرهاصاً لها.

وإبهام ما فعل الله بهم في صدر الكلام ثم توضيحه وتفصيله في صورة الاستفهام التعجبي، والتعبير عن مقاصدهم الفاجرة بالكيد الدال على خفي التدبير وسيء المكر، وامتنان الله بجعل ذلك هباء مضيَّعاً لا يحظى منه صاحبه بطائل دليل على شدة قهر الله لهم وبطشه بهم، وعلى فظاعة ما كانوا يستهدفون من هدم بيت الله وتخريبه والعبث بحرمه وهتك حرمات قطانه وأهله. وفي العناية بالتنصيص على طريقة إهلاكهم وذكر ما أهلكوا به بعنوان متعارف في صورة لم تجر بها عادة، ولا تعارفها الناس فيما بينهم في كافة الحروب والغزوات وتجمعات الجيوش آية على أن هذه النهاية السريعة الخاطفة والصورة البشعة الهائلة التي انتهى بها هذا الحادث ليست من سنن الحياة المألوفة المكررة، ولكنها من سنن الوجود المدخرة، لأحيانها ومناسباتها، فهو معجزة لنبوة

محمد ﷺ مقدمة عليها إرهاصاً لها وتأنيساً بوقوعها، أعلم الله بها نبيه ممتناً به عليه عند تشريفه بدواعيها.

وإلا فمتى كان في معهود الناس ومتعارف الأحداث أن طيراً - بهذا العنوان الذي له صورة خاصة لدى من يسمعه - تفد جماعات في إثر جماعات، تحمل معها حجارة من طين يابس متحجِّر حتى كأنه طبخ بالنار، ثم تعمد هذه الجماعات من الطير إلى جماعات من الناس مخصوصة لا تتعداهم إلى غيرهم، فترميهم بما حملت من الحجارة فتصيب مقاتلهم إلا قليلاً ممن نجا سقيماً ليكون عنواناً على هول ما أنزل الله بهم من نقمة في هذا الحادث الجسيم!!. هذا هو الذي قال الله تعالى وقصّه علينا في صراحة لا تحتمل لبساً ولا تأويلاً، وقد آمن بهذا المؤمنون، وعلموا أن سنن الكون أجلّ من أن يحيط بها علمنا، وأخطر من أن تكون حبيسة في دائرة عقولنا المحدودة، وأنَّ منها سنناً عامة معهودة متعارفة، وأن منها سنناً خاصة تقع عندما تتهيأ لها دواعيها، وخوارق العادات التي يجريها الله على أيدي أنبيائه ورسله من سنن الكون الخاصة التي جعلها الله عنواناً على صدقهم وتكريمهم.

موقف الإيمان وموقف العقل والعقلانيين من هذا الحادث

أما الذين وقفت بهم عقولهم عند مألوف الناس واحتكموا في الحوادث إلى العادات الجارية المتكررة، وأرادوا أن يخضعوا سنن الله في الكون وإرادته في خلقه وسلطان قدرته عليهم إلى ما جرت به العادة وتعارفه الناس فقد فَظِع بهم أن يؤمنوا بهذا كما آمن المؤمنون بجلال الله وواسع قدرته ومحكم إرادته وعظيم سلطانه، وأبوا إلا تحريف كَلِمَ الله عن مواضعه وتأويل آياته الصريحة الصادقة، والتمسوا في الأمور العادية ملجأ للتأويل.

وفي قصة الفيل تشبثوا بالأوبئة العامة والأمراض الجائحة ليجدوا لهم مخرجاً في تأويلها حتى لا تكون من سنن الله الخاصة في الكون والمعجزات الباهرة لمحمد ﷺ، فتحدثوا عن الحصبة والجدري وراحوا يفسرون بهما هذا الحادث.

رأي الإمام الرازي

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جداً لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذّب الله تعالى بها الأمم أعذاراً ضعيفة، أما هذه الواقعة فلا تجري

فيها تلك الأعذار، لأنه ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يُقبل طير معها حجارة فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن يقال إنّه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب؛ فلما لم يكن؛ عَلِمْنَا أنه لاسبيل للطعن فيه.

وليس بلازم ـ على المحقق من مذاهب العلماء ـ أن تكون ـ أي المعجزات ـ مقرونة بالتحدي، بل من المعجزات ما يجب أن يكون مقروناً بالتحدي، وذلك ما جعله الله برهاناً على صدق مدّعي الرسالة كالقـرآن الكريم[1] بالنسبة لمحمد ﷺ، والعصا بالنسبة لموسى وإحياء الموتى بالنسبة لعيسى عليهما السلام. ومنها ما يكون لمحض التكريم والتشريف سابقاً للنبوة في زمانها ـ أو واقعاً في زمانها كجميع الآيات الحسية المادية التي أوتيها محمد ﷺ ولم يتحدَّ بها. والعمدة فيه اتفاقه مع القسم الأول في خرق العادة ومخالفة مجرى سنن الحياة المتكررة المعهودة؛ كتظليل الغمامة وشق الصدر وتسبيح الحصى وتكثير القليل من الطعام أو الماء مما وقع لنبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو بعدها ولم يتحـدّ به ولم يتخذه برهاناً على صدقه، وإنما جعله الله له تكريماً لمقامه وتشريفاً لقدره.

وقد أغرق رواة السيرة وقصاص التاريخ في رواية القصة فلوّنوها بألوان شتى، وأدخلوا عليها من الغرائب ما أوحى به الخيال الفضفاض. ونحن بعد أن شرحنا ما تضمنته سورة الفيل من سور القرآن الكريم ـ وهو أصدق وأحكم مصدر لما يقصه ويرويه من الدلائل والإشارات على مغزى القصة في السورة ومرماها وطريقة أدائها للحادث في مقدمته ونتائجه ودقيق

أقرب روايات القصة وأشبهها بالواقع

---

(١) وإنما انفرد القرآن الكريم من بين جميع المعجزات المحمدية بجعله برهان الصدق وقرنه بالتحدي لمناسبته لعموم الرسالة، لأن التحدي به عم ويعم جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة أما سائر المعجزات فإنها لم يشهدها إلا قوم بأعيانهم فليس فيها عموم التحدي فلم تجعل برهاناً عاماً على صدق الدعوى وإن كانت برهاناً لمن شهدها، ولم يعرف من طريق صحيح أن النبي ﷺ تعلق بهذه المعجزات المادية الصادقة الوقوع برهاناً على صدق رسالته.

عنايتها بنهايته التي هي محط العظة والاعتبار ـ نرى أن نلم إلمامة موجزة بأشبه روايات القصة وأقربها إلى الحق الواقعي في كتب السيرة والتاريخ.

الاختلاف في سبب هذا الحادث ـ رواية ابن إسحاق

وقد اختلفت الروايات في سبب هذا الحادث ومبعثه الذي هاجه وحرك إليه، فذهب جمهور الرواة إلى رواية محمد بن إسحاق المشهورة التي تزعم أن أبرهة الأشرم أمير الحبشة على اليمن رأى إقبال العرب على الحج إلى مكة لتعظيم الكعبة بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، فأراد أن يتقرَّب إلى سيده النجاشي ـ وكان تصرانياً ـ بصرف العرب عن مكة وكعبتها، فابتنى كنيسة صرف همه في زخرفتها وتزيينها وكتب إلى النجاشي: إني بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حاجّ العرب. فلما تسامع العرب بما صنع أبرهة اشتد عليهم، فذهب بعض المتحمسين من متدينيهم واحتال حتى دخل تلك الكنيسة فعبث بها وقذرها، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة ويطأن مكة.

رواية هشام الكلبي ومقاتل

وذهب هشام الكلبي ومقاتل بن سليمان إلى أن سبب حادث الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض الحبشة، فنزلوا على ساحل البحر إلى جوار بيعة للنصارى يسمونها الهيكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة ناراً فاحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره فاستشاط غضباً، فأتاه أبرهة بن الصباح وحجر بن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديون وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة.

توجيه إمكان إحدى هاتين الروايتين

هاتان الروايتان هما أمثل الروايات في سبب القصة، وكلتاهما محتملة الوقوع، فالرواية الأولى ترد السبب إلى دوافع سياسية واقتصادية، فالحبشة قوم متغلبون على هذا القطر العربي ـ اليمن ـ يحكمونه وهم أجانب عنه، لا يطمئنون إلى أهله ويتوجسون خيفة من اجتماعهم بإخوانهم عرب الشمال في أرض الحجاز، وهذه طبيعة كل متغلب أجنبي، فلما رأوا رحلات أهل اليمن في مواسم الحج خشوا مغبة ذلك على اقتصادهم وخافوا عاقبته على وجودهم، فأرادوا أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات فبنوا كنيستهم ليحج الناس إليها ويتحول اقتصاد الجزيرة وتجاراتها في مواسمها إلى بلادهم،

وبذلك يستطيعون مراقبة من تحدثه نفسه بالخروج على سياستهم المتغلبة تطلعاً إلى الحرية والاستقلال، إلى جانب ما قصد إليه أبرهة من استرضاء النجاشي والزلفى إليه.

والرواية الثانية ترد السبب إلى العصبية الدينية وتربطه بأرض الحبشة نفسها، وكانت الصلات التجارية بين العرب والحبشة معروفة، ونزول التجار بجوار الأديرة والبِيَع والهياكل مشهور، وعادة القوافل إذا نزلت منزلاً أن توقد النيران لتطعم وتستدفىء فإذا رحلوا لم يحملوا معهم جذوات الجمر في دفين الرماد، فإذا هبَّت الريح اتقدت وازدادت اشتعالا وسرت مع الريح، فاذا صادفت مسعراً تسعَّرت واستشرت فأهلكت ودمرت، وفي الهياكل والبيع أدهان القناديل ومجتمع الهشيم.

فإذا لحقت النيران بأوله لم تلبث حتى تأتي على آخره، ولعل هذا كان أثراً من آثار أولئك الفتية التجار من أبناء قريش الذين نزلوا بجوار بيعة الحبشة فاحترقت، وظن الحبشة بالعرب الظنون وأرادوا الثأر لبيعتهم، وعرفوا أن الكعبة هي هيكل العرب ومتعبدهم المقدَّس فأرادوا تخريبها، فكتب النجاشي إلى عامله على اليمن أو سار العامل بمن معه من الحبشان إلى مكة بجيش جرار يقدمه الفيلة وطليعتها أعظمها، فلما علم به العرب أعظموه وفظعوا به ورأوا قتاله وصدّه واجباً عليهم، فتصدى له بعض من كان في طريقه من قبائل العرب، وكان أول من خرج لجهاده ومقاتلته رجل من أشراف اليمن وأذوائهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من العرب، فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأخذ ذو نفر أسيراً، ثم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي على رأس قومه ومن تبعه من غيرهم، فقاتلوه فهزمهم أيضاً وأخذ نفيل أسيراً فكان دليل الحبشة في طريقهم، حتى إذا مروا بالطائف ألقت إليهم ثقيف بطاعتها وأرسلت معهم رجلاً يقال له أبو رغال يدلهم على الكعبة، فأنزلهم مكاناً قرب مكة يقال له المغمس وفيه مات أبو رغال فكان سبة على ثقيف، وذهبت طليعة الحبشة فاستاقت إلى أبرهة أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصابوا فيها مائتي بعير لعبد المطّلب بن هاشم - وهو يومئذ كبير قريش وسيدها -

موقف عبد المطلب من هذا الحادث

ثم بعث أبرهة إلى أهل مكة رجلاً يقال له حُنَاطة الحميري فقال لهم: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا إليّ بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فلما دخل رسول أبرهة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له رسولُ أبرهة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب فدخل على ذي نفر في مجلسه ـ وكان له صديقاً ـ قبل أن يدخل على أبرهة، فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً وعشياً؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظِّم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال عبد المطلب: حسبي.

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ومطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، فقال: أفعل، فكلّم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك ويستأذن عليك وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته؛ فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فأجلّه أبرهة وأعظمه ونزل عن سريره فجلس معه على بساطه قال له: حاجتك؟ فقال عبد المطلب: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال له أبرهة: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه، قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني، قال عبد المطلب:

أنت وذاك، فرد عليه إبله وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأمرهم بالخروج إلى شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم معرَّة الجيش، ثم قام عبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة فقال:

لاَهُمَّ إنّ العبد يمـ ـنع رَحْلَه فامنع حِلالك
لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحالهم غَدْواً محالك
إن يدخلوا البلد الحرا م فأمرٌ ما بدا لك

ثم انطلق مع قومه ينتظرون أبرهة ما هو فاعل بمكة إن دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه يقدمه أضخم أفياله، ثم وجهه إلى الحرم فسقط كالبارك، فضربوه ضرباً شديداً فلم ينهض، فوجهوه نحو اليمن وإلى كل جهة غير مكة فنهض يهرول، وأرسل الله عليهم طيراً يجيئهم جماعة في إثر جماعة ترميهم بحجارة، فأصابت مقاتلهم وخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة فجعل جسمه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره فمات بصنعاء.

التزيّد في القصة وفرطحتها بالخيال

هذا القدر من رواية القصة هو الذي أجمع عليه الرواة، وهو في مجموعه ليس فيه شيء يعسر على العقل الإيمان بوقوعه، لكن أهل الاغرام بالفضفضة والمبالغات السابحة في بحار الخيال الطيار تزيَّدوا في كثير من أطراف القصة وأطوارها تزيداً أخرجها عن الحقيقة التاريخية إلى حوادث التسلية والسَّمَر، ولا سيما في طرف الإعجاز منها، وهو الطرف الذي ارتفعت به قدرة الله عن الخضوع لنواميس العادة المتكررة وسنن الحياة المألوفة إلى أفق سنن الوجود الخاصة النادرة التي لا تجيء على وفق تلك النواميس العامة، فقد تحدث هؤلاء المتزيدون عن الطير المرسلة ووصفوها بأوصاف لم تُبْقِ لها من حقيقة الطير التي أخبر بها الله تعالى إلا رفرفة الأجنحة والسبح في فسيح الأرجاء، وفيما عدا ذلك فهي جامعة لأشكال جميع ما خلق الله من حيوان معروف أو غير معروف، ولم تنج من هذا التزيد الحجارة التي رمت بها هذه الطير أبرهة وقومه، فلم يكفهم ما وصفه الله بها، بل أضافوا إليها من الأوصاف الخيالية كل غريب وعجيب، ولم يرضهم إلا أن تكون مبعوثة من

جهنم ومكتوب على كل حجر منها اسم صاحبه، وهكذا مما جعل كثيراً من الناظرين والكاتبين في تفسير القرآن والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي إذا عرضوا لهذه القصة أجحفوا بالحقيقة التاريخية وردوا ما فيها من إعجاز قُصِد به التمهيد للنبوة والتشريف لصاحبها، ومن اختير لها، وذهبوا في تأويل النصوص مذاهب متعسفة خشية التسليم بهذه المبالغات الجوفاء التي لا تنقص شيئاً من حقيقة الإعجاز في القصة لو خلت عنها.

تعسف المتأولين كان ثمرة لتزيّد المتزيدين

فهؤلاء المؤوّلون يأبون أن يقبلوا ظاهر القرآن في أن الله تعالى أرسل على أبرهة وجيشه جماعات من الطير تحمل معها حجارة شديدة الصلابة ترميهم بها حتى هلكوا كما يفهمه العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالطير في لغة العرب عامة معروف المعنى، والحجارة كذلك معروفة المعنى، والقرآن إذ عبَّر بهما أراد إلى هذا المعنى المكشوف البيِّن المتبادر إلى فهم السامع، ويبعد أشد البعد أن يكون القرآن الكريم قد أراد إلى هذا التعسف الذي يُحمِّل الألفاظ معاني لم تعرف إلا بعد عدة قرون من نزول القرآن، فالمكروب الذي يريدون أن يجعلوه من محامل لفظ الطير في سورة الفيل إذا كان في عصرنا قد صار من الحقائق العلمية المسلمة فهو عند العرب وعامة المسلمين من الحقائق المجهولة التي يستحيل عليهم فهمها من كلمة (طير)، فتفسير القرآن به إسراف في التجني على اللغة وتعالم على السلف من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من أعلام العلماء في مدى القرون الماضية من تاريخ الإسلام إلى أن كشف العلم عن المكروب وحقيقته.

فإذا كان وزر المتزيدين في الروايات أنهم تزيدوا وأغرقوا، وقبلوا كل تافه وغثاء، فوزر المتأولين أنهم أجحفوا وتنقصوا وظلموا الحقيقة، وردوا ظاهر القرآن وصحيح الرواية لغير ضرورة ملجئة.

وإذا جاز التأويل في شيء من موضوعات القرآن الكريم وصرف ألفاظه عن معانيها الظاهرة المتبادرة لاعتياصها على بعض الأفهام؛ فالقصص القرآني أبعد ما يكون عن ذلك لأن ألفاظ هذا القصص من الوضوح والبيان بمكان رفيع، لأن المقصود الأول من القصص في القرآن هو العظة والعبرة

والتأسي، وذلك لا يتحقق إلا بألفاظ بينة المعاني واضحة الدلالة على مقصودها.

ولم يكتفِ بعض الكاتبين بالتأويل وصرف الألفاظ عن ظواهرها إنكاراً للإعجاز، ولكنه في سبيل الوصول إلى غرض معين أقحم على القصة عنصر الأوبئة العامة والأمراض الجائحة، وتحدث عن الحصبة والجدري وأن وباءهما تفشى في جيش أبرهة ففتك به، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وهذا بلا شك لون من ألوان المجازفة في الحكم على حقائق التاريخ، لأن هذا الزعم لا يستند على شيء من الروايات الثابتة وإنما يعتمد على روايات واهنة وافقت هوى عند هؤلاء المتأولين فتمسكوا بها، وهي مع ضعفها ذكرت الحصبة والجدري كأثر من آثار الإعجاز في الطريقة التي أنهت بها القدرة الإلهية الحادث على ما جاء في التعبير القرآني، وقد راج هذا الزعم على شيخ المفسِّرين أبي جعفر الطبري فقال: فأقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره فقذفت الحجارة عليهم، لا تصيب شيئاً إلا هشمته وإلا نفط ذلك الموضع، فكان ذلك أول ما كان الجدري والحصبة والأشجار المرة فأهمدتهم الحجارة، وروى الطبري أيضاً عن يعقوب بن عتيبة أنه حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وإنه أول ما رؤي بها مرار الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام، قال ابن الأثير: وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه، فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل منذ خلق الله العالم.

رواج أكذوبة حدوث الحصبة والجدري على الطبري

نقد ابن الأثير لهذه الخرافة

* * *

وفي حديث الفيل لا نحب أن نغفل هذه الرواية الغريبة التي يحكيها القرطبي في تفسيره فيقول: فحكي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبدالله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير فإذا القوم مشدوخين جميعاً، فرجع يركض فرسه كاشفاً عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب، وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً، فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً..

قصة غريبة يحكيها القرطبي

وهذه الحكاية إذا صحت ولم يكن قد وقع فيها تصحيف في الاسم دلت على أن عبدالله أبا محمد رسول الله ﷺ شهد حادث الفيل، وأنه كان في يومه شاباً جَلِداً يعتمد عليه، وكانت له دراية بالفروسية وخبرة بركوب الخيل فبعثه أبوه ليكشف حال جيش أبرهة بعد أن تركت لهم قريش مكة وتحرَّزت بشعف الجبال، فذهب وجاء يركض فرسه على هيئة يتعرف بها المجربون من رجالات قريش والعرب آية النجابة، وقد عرف ذلك أبوه فقال: إن ابني أفرس العرب، غير أن شهود عبدالله حادث الفيل لا يتفق إلا على أساس وقوع الحادث قبل زواجه بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ إذا أخذنا بالرواية المشهورة التي تزعم أن عبدالله لم يلبث بعد زواجه أن توفي، أما إذا كان شهوده الحادث بعد زواجه فلا يتم إلا على رواية من يذهب إلى أنه عاش حتى ولد رسول الله ﷺ وبلغ من العمر ثمانية وعشرين شهراً، أو حتى مضى من حمله سبعة أشهر على ما سنحققه عند الكلام على الميلاد النبوي إن شاء الله بعونه وتوفيقه.

ميلاد محمد ﷺ

وما احتف به من الأحداث

الصورة الفطرية في حمل آمنة بمحمد ﷺ

ترسم كتب السيرة ومصادر التاريخ ميلاد محمد ﷺ والحمل به في صورتين مختلفتين إحداهما فطرية طبيعية، لأن محمداً ﷺ فيها إنسان حملت به أمه كما تحمل سائر الأمهات ولدانهنَّ زماناً وحالة. روى القسطلاني في مواهبه عن أبي زكريا يحيى بن عائذ أنه قال: بقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء.

وكانت تقول: والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه.

ويقول القسطلاني أيضاً: واختلف أيضاً في مدة الحمل به، فقيل تسعة أشهر وقيل عشرة وقيل ثمانية، وقيل سبعة، وقيل ستة، وكل هذه الأزمنة محتملة في الحمل بالولدان لكثير من النساء في جميع العصور والبلدان، وما من زمن منها إلا وقد حفظ التاريخ وشهد الواقع أنه كان زمناً لحمل كثير من الولدان أو الولائد، فليس في شيء منها خصوصية لمحمد ﷺ تخرج بحمله عن معهود الناس وطبائع الحياة فيهم. وأكثر الرواة يذهبون إلى اختيار أبي زكريا في أن الحمل به ﷺ كان تسعة أشهر كاملة، وهذا ميل منهم إلى الواقع الفطري في تصوير زمان حمله ﷺ، وكذلك جرت الرواية في تصوير حالة الحمل به، فأمه لم تشعر لحمله بمشقة ولا وجدت له ثقلة، وكثير جداً من الولدان من لا تشقى بهم أمهاتهم في حملهن بهم، فلا يجدن للحمل ألماً ولا ثقلاً، بل كثيرات من الأمهات ولا سيما أبكارهن لا يشعرن بالحمل إلا بعد مضي زمنه لخفته عليهن وقوة بنيانهن، مع اعتدال مزاجهن، وكمال صحتهن.

فليس عجيباً أن تكون أم محمد ﷺ ـ وهو بكرها فلم تعرف الحمل قبله، وهو وحيدها فلم تحمل بعده ـ وقد حملت به فلم تشعر أنها حملت إلا حينها أنكرت رفع حيضتها، وليس غريباً ألاَّ تجد لحمله ثقلاً ولا وصباً مما يعتري كثيرات من النسوة والحاملات. قال ابن سعد في الطبقات: إن آمنة بنت وهب لما حملت برسول الله ﷺ كانت تقول: ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي وربما كانت ترفعني وتعود، وروى أيضاً من طريق شيخه الواقدي عن الزهري أنها قالت : لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته.

فليست خفة الحمل وعدم المشقة فيه مما يدخل في باب العجائب الخارقة لعادات الناس الجارية في مألوفاتهم، ولا هو مما يدخل في شيء من خصائص التكريم والتشريف، فهو أمر معهود مشهود مكرور لعامة الناس وخاصتهم.

وليس ثقل الحمل وظهور عوارضه اللاغبة مما يخرج عن سنن الحياة، ولا هو في شيء من دلائل عدم الرعاية الربانية للوليد وأمه، فإذا كان بعض الرواة قد روى خفة حمل آمنة برسول الله ﷺ فإن بعضاً آخر قد روى ثقله وشدته عليها حتى كانت تشكو منه لصواحباتها، روى الطبري وغيره من حديث العامري عن شدَّاد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال في جواب مساءلة العامري: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى بن مريم، وإني كنت بكر أمي، وإنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشتكي إلى صواحباتها ثقل ما تجد».

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ قالت: قد حملت الأولاد فما حملت سخلة أثقل منه. وهذه رواية شاذة منكرة وليس شذوذها ونكارتها لما اشتملت عليه من حديث ثقل الحمل وشدته لمناقضتها لِمَا رُوِيَ من طرق كثيرة في خفة الحمل به ويسره على أمه، ولكن لِمَا فيها من زعم أن آمنة بنت وهب حملت بغير وحيدها محمد بن عبدالله صلوات الله عليه، وهذا ما لا يشك في بطلانه جمهور الرواة والمؤرخين. قال

الواقدي معقباً على هذه الرواية الزائفة: وهذا مما لا يعرف عندنا ولا عند أهل العلم؛ لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبدالله بن عبد المطلب غير رسول الله ﷺ، ولولا كلام الواقدي لأمكن تخريج هذه الرواية على إفادتها مجرد ثقل الحمل، وذلك بأن تقرأ بضبط لفظ (حُمِّلْتُ) بالبناء للمفعول وتكون تعبيراً عن معاناة الحمل عند كل والدة، وتضبط لفظة فما (حملت) سخلة كذلك بالبناء للمفعول.

إنسانية محمد ﷺ في ميلاده

وهذه الصورة الفطرية الطبيعية تصور محمداً ﷺ في ميلاده إنساناً ولدته أمه في يسر وبهجة وضيئاً نظيفاً، حلو الملامح جميل المحيا كما تلد كثيراً من الولدان أمهاتهم، وتلقته على يديها قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف الزهرية كما يتلقى القابلات سائر الولدان، وقد بُشِّر به جده عبد المطلب ففرح به فرحاً شديداً، لأنه رأى فيه خلفاً من أبيه الحبيب، يرى في مطالعة محياه ذكريات الأبوة الحانية، فأخذه بين يديه ودخل به الكعبة، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه، وقد شارك عمومة محمد عليه السلام أباهم الشيخ فرحته بولادة ابن لأخيهم عبدالله الذبيح الذي ذهب فلم يعد، وقد عمَّهم الفرح وشملهم البشر فتصدقوا وأهدَوا وأعتقوا حتى من كشف الغيب عن عداواته لمحمد عليه السلام، فهذا عمه أبو لهب ـ وقد سجل القرآن في ذمه ما سجل ـ تذكر الرواية الصحيحة أنه لما بشرته مولاته ثُويبة بولادة النبي ﷺ أعتقها، وكانت بعد عتقها أول من أرضع رسول الله ﷺ مع عمه حمزة بن عبد المطلب قبل أن يسترضعا في بني سعد بلبن ابن لها يقال له مسروح، وشاركهما في لبنها أبو سلمة، وكان النبي عليه السلام يبرّها ويسأل عنها وعن أقاربها وفاء لها.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري عن عروة ابن الزبير عن زينب بنت أم سلمة أم المؤمنين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنهما قالت: يا رسول الله انكح أختي عزة بنت أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «أوتحبين ذلك؟» قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحبُّ من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: «فإن ذلك لا يحل لي» قالت: فإنا نحدَّث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، قال: «بنت

أم سلمة؟» قلت: نعم، قال: «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلَّت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن». زاد البخاري: قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله بشر حيبة[1] فقال له: ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم ألقَ بعدكم خيراً غير أني سُقيت في هذه بعتاقتي ثويبة، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

قال ابن كثير: قالوا: لأنه لما بشَّرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد ابن عبدالله ﷺ أعتقها من ساعته فُجوزِيَ بذلك لذلك. وقال القسطلاني في المواهب: وأرضعته ﷺ ثويبة عتيقة أبي لهب أعتقها حين بشَّرته بولادته عليه السلام.

يوم ميلاد محمد ﷺ وبعض أحواله عند الميلاد

وقد صح من طرق كثيرة أن محمداً عليه السلام ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل في زمن كسرى أنوشروان، ويقول أصحاب التوفيقات التاريخية إن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، ووراء ذلك خلاف عريض في زمن ميلاده يوماً وشهراً وعاماً لا طائل تحت استقصائه، ولكنه يشعر بصادق العناية في تقصِّي واستيفاء ما يتعلق بحياته ﷺ مما لم يتوافر في سيرة شخصية من شخصيات الأنبياء والرسل والقدِّيسين والقادة والمصلحين.

ومكان ولادته معروف بمكة مشهور، تقلبت عليه الأحداث فتغلب عليها حتى انتهى به الأمر إلى أن صار في عصرنا داراً للحديث، وقد كنت بمكة في سنة ١٣٧٠ الداخلة في سنة ١٣٧١هجرية، ورأيت أسس البناء عليه قائمة، وكانت التبرعات تجمع له من أجواد المسلمين، ولا شك أن هذا المكان كان جزءاً من دار جده عبد المطلب، انتقلت إليها آمنة وهي حامل به ﷺ، وقد عقَّ عنه جده عبد المطلب في يوم سابعه فرحاً بمولده. روى البيهقي عن

(١) الحيبة: الهم والحزن. قال في اللسان: وفي حديث عروة لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة أي بشر حال

أبي الحكم والتنوخي قال: فلما كان اليوم السابع ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا له قريشاً، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال: سميته محمداً، قالوا: فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض.

وفي رواية أن أمه حَدَّثت أنه قيل لها في النوم سمِّيه محمداً فسمَّته به، فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب وكان على فراشه في ظلّ الكعبة حوله ولده والملأ من قريش أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فأتاه هو ومن معه من ولده وقومه فنظر إليه، وحدثته آمنة برؤياها وما أمرت أن تسميه فسمَّاه بما قالت، وهذا الاسم لم يكن من الأسماء الذائعة المنتشرة بين العرب، ومن ثَمّ استغربه الملأ من قريش لما سألوا جده عن اسمه الذي سماه به فأخبرهم، ولكن التاريخ حفظ ذكر جماعة من العرب سُمُّوا بهذا الاسم تطلعاً إلى ما كان مستفيضاً على ألسنة أهل الكتاب والمتحنفين من ترقب ظهور نبي من بني إسماعيل يسمى بهذا الاسم. والله أعلم حيث يجعل رسالته.

تنفس محمد عليه الصلاة والسلام نسيم الحياة يتيماً فَقَدَ أباه قبل أن يشهد الوجود طلعته؛ فقد مات عبدالله بن عبد المطلب ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه، وقد ترك له خمساً من الإبل وقطعة من الغنم وجارية هي حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وقد أعتقها ﷺ وزوَّجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد، هذه هي الصورة الفطرية التي رسمتها كتب السيرة والتاريخ لميلاد محمد ﷺ في أشهر الروايات وأشبهها بالحق والواقع.

صورة العواطف المشبوبة بالحب تخضع للخيال

أما الصورة الأخرى التي رسمتها كتب السيرة ومصادر التاريخ لمحمد ﷺ في الحمل به وفي ميلاده فهي صورة مليئة بالأعاجيب والخوارق والمعجزات، وإن شئت قلتَ هي صورة كلها أعاجيب وخوارق ومعجزات، حتى ما كان من أمره ﷺ إنسانياً متمشياً مع الحياة الفطرية نجده في هذه الصورة المصنوعة قد انخرط في سلك الأعاجيب والخوارق المعجزة في منزع من التكلف في التأويل وضرب من التعسف في التخريج، فخفة الحمل به

على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارقة للعادة داخلة في باب الإرهاصات المعجزة، وثقلة الحمل به وشدته على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارجة عن مألوف الناس ومكرور عاداتهم، فهي إرهاص معجز لا يكون إلا لمن كتب في رقيم الأنبياء، وإذا اختلفت الروايات فجاء في بعضها خفة حمله على أمه وأنها لم تشعر بوجع ولا وحم وجاء في بعضها الآخر ثقل الحمل وشدته شدة تشكوها إلى صواحباتها، وجب أن يوفق بين هذه الروايات المتخالفة على أساس إثبات كل حالة، وعلى أن تكون كل حالة في وضع غير طبيعي لتكون إرهاصاً معجزاً، قال القسطلاني في المواهب بعد أن ساق حديث شداد بن أوس في مساءلة العامري لرسول الله ﷺ عن بدء شأنه:

ففيه أن أمه عليه السلام وجدت الثقل في حمله، وفي سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلاً، وجمع الحافظ أبو نعيم بينهما بأن الثقل به كان في ابتداء علوقها به والخفة عند استمرار الحمل به، فيكون على الحالين خارجاً عن المعتاد المعروف.

وللباحث ـ بداهة ـ أن يتساءل: ولماذا كل هذا التكلف؟ وما الحامل عليه؟ هل يضير سيرة محمد عليه الصلاة والسلام أن يكون في حمله إنساناً بشراً يخف حمله كما يخف حمل الولدان من الأناسي ويثقل ويشتد كما يثقل ويشتد حمل الأجنة من بني آدم؟ وهل يخدش النبوة أن يكون النبي في حمله جارياً على مقتضى طبيعة الأحياء؟.

الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة
تحقيق تاريخي وتحليل علمي

لله في كونه وملكه سنن عامة وسنن خاصة، لكل منها قوانينها وضوابطها

ليس من رأينا ولا في مذهبنا أن ننكر الإرهاصات المعجزة جموداً مع الجامدين المتعالين الذين يريدون أن يخضعوا جلال الألوهية وعظم سلطانها لسلطان عقولهم في حدود ما يعرفون من سنن الحياة، هذا غرور بليد لأن ما عرف من سنن الحياة تافه قليل إلى جانب ما لم يعرف. وحتى الذي عرف من سنن الحياة لا ينكر هذا الضرب من الخلق والتكوين الذي يراه من يقيسه إلى سنن الحياة العامة المألوفة المتكررة معجزاً خارقاً لقوانينها، وهو في نظامه وتكوينه وأسبابه خاضع لسنن خاصة تعرفها الحياة في أوقات ومناسبات خاصة، فهو في حقيقة أمره من سنن الله القائمة على أسباب ومناسبات مطّردة في بابها، وطرائقها.

رأينا في تقبل هذه الخوارق والآيات العجيبة

وإنما مذهبنا في تقبل هذه الإرهاصات أن تثبت بها الرواية ثبوتاً لا يحتمل الطعن والتجريح في سندها أو متنها على ما ذهبنا إليه في حادث الفيل اعتماداً على النص القرآني، فهل جاءت الرواية التاريخية في حادث الحمل بمحمد عليه الصلاة والسلام بهذا التفريق بين أول الحمل واستمراره بما يسوغ هذا التأويل، ولماذا لا يكون العكس صحيحاً فتكون خفة الحمل في أوله ويكون ثقله وشدته في استمراره؟ وهذا هو الموافق للفطرة التي فطر الناس عليها وبها يتم الجمع والتوافق بين الروايات والجمع بين الأحاديث إذا صحت بها الرواية كلها.

وهذه الأعاجيب والإرهاصات المعجزة لا تقف عند شخصية محمد

عليه الصلاة والسلام، فتجعله متكلماً في المهد ساجداً رافعاً إصبعيه إلى السماء كالمتضرع إلى غير ذلك. ولكنها تبدأ بأمه فتجعلها مكلَّمة في يقظتها مرة وفي منامها مرة أخرى بكلام طويل ترويه كتب السيرة ومصادر التاريخ من النثر والشعر، وتنتبه من نومها فتجد عند رأسها صحيفة من ذهب مكتوب فيها أبيات من الشعر تعويذة لوليدها، ثم تتلقى اسمه تلقياً، وتتنزل عليها الملائكة ساعة ولادتها فتمسح بأجنحتها على فؤادها فيذهب ما بها من أوجاع وآلام، وتُسقى شربة بيضاء ليست من شراب الدنيا، وتتنزل عليها نسوة كالنخل طوالاً فترعب منهن فيعرفنها بأنفسهن ليذهب عنها الروع، وإذا هُنَّ آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وطائفة من الحور العين، حتى إذا وضعته تنزلت عليها الملائكة عيانا في صور وألوان وأحوال غاية في العجب، وأخذوه منها وغيبوه عنها وطافوا به مشارق الأرض ومغاربها على الإنس والجن والملائكة والطيور والوحوش ليعرفوه، إلى شيء كثير وكثير جداً لا يحيط به الحصر.

والعجيب في هذه الأعاجيب والإرهاصات أنها لا تقف عند حد ولكنها تتصل بكل شيء، فهي في الأرض وفي السماء، وفي البر وفي البحر، ومع الإنس ومع الملائكة ومع الجن، وفي أرض العرب، وفي بلاد العجم، فإيوان كسرى ارتجس ليلة ميلاد محمد عليه السلام وسقطت منه أربعة عشر شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوه، ورأى الموبذان رؤيا أفزعت كسرى فأوفد عبد المسيح إلى سطيح فسجع له وهدر وحذر وأنذر، وبشرت وحوش المشرق وحوش المغرب، ونطقت الأصنام، وهتفت الأنعام، وتكلمت الجمادات إلى ما لا يحصى كثرة.

ولو أن باحثاً حاول أن ينسب هذه الإرهاصات المروية في حمله وولادته ﷺ إلى ما روي من معجزاته الكونية بعد نبوته ـ وهو وقت الحاجة إليها إن كانت إليها حاجة ـ لوجد الفارق شاسعاً والبون بعيداً في العدد والنوع والأسلوب، فهنا ـ في الحمل والولادة ـ يجد كثرة غامرة وأنواعاً مختلفة الألوان، وأسلوباً عنيفاً، وهناك ـ بعد النبوة ـ يجد عدداً محصوراً من المعجزات في أنواع متقاربة تكاد تكون محصورة في أسلوب هادىء يرمي إلى

تثبيت الإيمان والإيقاظ للوجدان إلى رحمة الله وواسع قدرته في تشريف رسوله وتكريمه بألوان من سنن الحياة الخاصة بمن اصطفاهم الله لهداية الخلق.

على أن أكثر روايات الإرهاصات في الحمل والميلاد يقفّيها رواتها بقولهم: لا أصل له أو شديد الضعف، أو مطعون فيه، أو متكلم فيه، ونحو ذلك مما يدل على أنه ما كان ينبغي أن تسوّد بمثله صحائف النور في السيرة العطرة لأكرم النبيين وسيد المرسلين.

وعلى ضوء ما أصّلناه للبحث عند الحديث على حادث الفيل، وما عرضنا له هنا في الأعاجيب والخوارق المعجزة نرى:

دعائم رأينا في وقوع السنن الخاصة

أولاً ـ إن وقوع حوادث كونية تخفى على العقول أسبابها وعواملها المنشئة ـ وهو ما نسميه بالأعاجيب ويسمى في مشهور عرف العلماء بالإرهاصات إن وقع قبل النبوة وبالمعجزات والآيات إن وقع في زمان النبوة ـ أمر قامت على جوازه ووقوعه الدلائل من النصوص القطعية في الكتب السماوية والنقول التاريخية التي بلغت في جملتها مبلغ التواتر القاطع، ومن البراهين العقلية التي تقرر هذه السنن الخاصة وقيوميّة الخالق عزَّ شأنه وإطلاق قدرته من قيود القوانين والعادات المعلومة في حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن كونية وقوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول، تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية والأعاجيب الإعجازية إذا تطلبتها أسبابها وحانت مناسباتها، والله فعّال لما يريد لا يسأل عما يفعل.

ثانياً ـ إن القرآن الكريم ـ وهو أثبت وأصدق نص تاريخي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ قصّ علينا في قصص الأنبياء بعض آياتهم المعجزة من الأحداث الكونية التي وقعت على أيديهم مما جرى مجرى التشريف والتكريم، ومما تحدَّوا به أقوامهم مما لا يمكن أن يدخل تحت سنة من سنن الحياة المعروفة للعقول والمعهودة في عادات الناس ومألوفهم، وقد سمَّى القرآن بعض تلك الآيات الكونية المتحدية براهين، فانقلاب عصى موسى حية تسعى، وإخراج يده بيضاء من غير سُوء، وانفلاق البحر له ولقومه، ونتق الجبل

فوقهم كالظلة، وإحياء عيسى للموتى، وإبراؤه للأكمه والأبرص، وإنباؤه قومه بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، وخلقه من غير أب، وإيتاء أمه مريم عليها السلام رزقاً دون حركة آلية أو تسبب مما بعث كافلها زكريا عليه السلام على التعجب، ونقل عرش بلقيس من المسافة البعيدة في أسرع من لمح البصر، وما وقع لأصحاب الكهف، وعدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام، وسائر آيات الأنبياء في قصصهم التي لا تحتمل تمحّلاً ولا تأويلاً، كل ذلك من الأعاجيب المعجزة والخوارق التي وقعت فعلاً وشهدها الوجود، واستفاضت بها روايات التاريخ بنقل الأجيال عن الأجيال منذ كانت النبوة لبني الإنسان إلى يوم الناس استفاضة تدفع بمنكريها إلى محابس الممرورين وذوي العته العقلي ونقص التكوين الإدراكي.

ثالثاً ـ إذا ثبت وقوع الأعاجيب المعجزة والحوادث الكونية الخارقة لمعروف العقول في سنن الحياة العامة فالنظر فيما يروى منها جملة في سيرة نبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو في زمنها يجري على سنن تلك الآيات وقوانينها، ويبقىٰ على الباحث النظر في إثبات أفراد تلك الحوادث والجزئيات التي سجلتها السيرة النبوية، فما ثبت منها بطريق صحيح السند صادق الرواية وجب قبوله والإذعان بوقوعه، لأن ردّه أو التشكّك فيه بعد ثبوته بهذه الطريقة التي لا طريق للإثبات التاريخي فوقها رد لبرهان العقل القاطع ورد لنص القرآن في إثبات الآيات المعجزة، ولا فرق بين آية وآية، ورد البرهان العقلي والنص القرآني إلحاد في دين الله أو جهل بسنن الحياة أو تشكيك في قدرة الله.

وما لم يثبت منها هذا الثبوت فنحن في حِلٍّ من إنكار وقوعه أو التوقف في الحكم عليه إثباتاً أو نفياً، والتوقف أسلم وأحكم ـ كما يقول علماؤنا ـ لأنه محتمل الثبوت، وقد قامت الدلائل في العلم التجريبي وفي وسائل البحث التاريخي على أن كثيراً مما كان ينكر من الحقائق العلمية والحوادث التاريخية أصبح ثابتاً مقرراً في بداهة العقول، وكثيراً ما كان يُزعم حقائق علمية ومقررات تاريخية صار في مهب الأساطير والخرافات، فالتسرع في الإنكار خطل في الرأي، والتسرع في التصديق قبل الإثبات غميزة في العقل.

قانون البحث في كل ما يتعلق بالآيات والأعاجيب

وعلى هذا الهدى جرينا ونجري في البحث بتوفيق الله تعالى، فنعرض لما يروى في السيرة العطرة من هذه الأعاجيب الكونية المعجزة نحاكمه إلى صحة السند وصدق الرواية، فإذا ثبت لهذه المحاكمة وفاز فيها بعنوان الوجود الواقعي سجلناه مؤمنين مذعنين، وإذا لم يثبت وطاحت به الرواية أو خانه السند الصحيح طرحناه حيث ينتهي غير آسفين.

وأعلى ذلك عندنا وأرفعه في منازل القبول والصدق القاطع ما يذكره القرآن في صراحة ظاهرة، أو يشير إليه إشارة لمَّاحة، وبين المرتبتين من الفرق ما بين الأسلوبين في التعبير، فلا يجوز التلبث في قبول المرتبة الأولى والإيمان بها، ولا يقبل أن يمشي التأويل إلى ساحتها، تشبثاً من المتأولين بمعروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق ومألوف سنن الحياة؛ لأن معروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق ومألوف سنن الحياة مخلوقة لله تعالى فهي محكومة بواسع قدرته ومطلق سلطانه في تعريف خلقه، فلا يسوغ في معروف العقول السليمة وقضايا العلم الصحيح وقوانين المنطق المستقيم أن تجعل حاكمة على خالقها، وإلا كانت الألوهية ضرباً من الوثنية التي يصطنعها الناس بعقولهم وعواطفهم وأخيلتهم.

والمسألة هنا ليست مسألة عقل يحكم أو منطق يقيس ويبرم ثم ينتهي كل شيء، وإنما هي مسألة عقل يبحث في أصل الإيجاد والإبداع، فإذا استقام له أن يقيم هذا الأصل على دعائم ثابتة جاءت الحوادث الجزئية بطبيعتها خاضعة لناموس الإيجاد والإبداع العام فقط دون أي ناموس آخر يحكمها في وجودها الجزئي.

أسلوب الإيجاد الإلهي غيب لا يعلمه مخلوق إلا عن طريق التمثيل والرمز.

وإذا صحَّ للعقل أن الإيجاد والإبداع صفة دائمة تقتضيها الألوهية وتجعلها سارية في ذرات الكون وجزئيات الوجود، ثم طلبنا إلى هذا العقل أن يحدد لنا أسلوب الألوهية في الإيجاد وطريقتها في التكوين والإبداع لم يَجِر جواباً لأنه أعجز من أن يصل إلى هذه الحقيقة وهي أبداً أمامه في كل لحظة من لحظات الحياة، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم في طرف من قصة إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿ وإذ قال إبراهيم رَبِّ أرني كيف تُحيي الموتى،

قال أوَلَـمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصُرْهُنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعْلَم ان الله عزيز حكيم ﴾[1] فإبراهيم عليه السلام مؤمن أرسخ الإيمان، موقن أشد الإيقان بأن إيجاد الحياة في الموتى إعادة أو بدءاً؛ صفة الإلهية الخالقة القادرة، ولكنه أراد إلى يقين آخر في معلوم جديد وهو أن يريه الله حالة الإيجاد والإبداع وأسلوبه وطريقته، ولذلك قيل له تطميناً لقلبه على طريق الاستفهام التقريري: أنت مؤمن بما هو كمال خلّتك ومنتهى مجال إنسانيتك في الاعتراف بقدرة الخالق على الإيجاد والإبداع، وهذا هو غاية مجال العقل الذي يجب أن يقف عنده، ثم أجيب إلى ما طلب بطريق الرمز التمثيلي إشارة إلى أن هذه مرتبة روحانية محضة فوق متعارف العقول.

سر جواب إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ فصرهن إليك ﴾

ولنا في هذه الآية فهم قائم على أساس ما قاله بعض الأئمة في تفسير (فصُرْهُنّ إليك) بمعنى ميلهن إليك بعقد أواصر المحبة الجاذبة من غير اختيار، فإذا تم هذا ففرقهن عنك في أماكن متباعدة وكن منهن بحيث يرينك ويسمعن نداءك، ثم ادعهن وافهم كيف يأتينك ساعيات إليك، ولله المثل الأعلى وهو عزيز لا يغلب، حكيم تصدر شؤونه على مقتضى حكمته في تدبير خلقه، وفي طي هذا الفهم أسرار لايباح نشرها إلا لأهل العلم الموقنين.

أما قول جمهور المفسرين إن معنى (فصرهن اليك) فقطعهن، فإنه إلى كونه يجعل المتعلق ـ وهو محط الإفادة ـ بمضيعة في البين، هو بمعزل عن المقصود من سوق السؤال والإجابة.

ما أشار إليه القرآن عن الآيات المعجزة أقرب إلى القبول

أما المرتبة الثانية، وهي الأعاجيب التي يشير إليها القرآن ولا يذكرها صراحة فإن تأيدت بروايات صحيحة السند من السنة النبوية كان حظها في الإيمان بها وقبولها مثل حظ سابقتها، لكن لا على أنها هي التفسير للنص القرآني قطعاً كما في المرتبة السابقة، بل على أنها وجه لتخريج النص وفهمه مع قيام صحة غيره من الوجوه المحتملة إذا استقام لها الدليل، وإن لم تجد لها

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٠.

عضداً قوياً من الرواية الصحيحة قبلنا ما يذكر فيها من تأويل قويم على أنه معنى راجح في الدلالة على استنباط ما تشير إليه من حادث كوني معجز دون أن ينفي صحة أن يكون هذا الحادث الكوني المشار اليه معنى من معاني النص المحتملة.

ودون ذلك مراتب أعلاها ما يروى في المصادر المعتبرة عند ذوي العلم بسند صحيح وطرق متعددة، وأدناها ما ينفرد بروايته مصدر ضعيف أو راوٍ لا يتحرز.

أما الآثار والأحاديث الموضوعات والأباطيل التي ينص الأئمة على وضعها واختلاقها فلا تصلح أن تكون في مراتب الاعتداد والحسبان.

والأمثلة على ما ذكرناه من المراتب كثيرة في السِّيرة النبوية، ولا تعوز الباحث، فهو يجدها أنَّى طلبها، وحادث الفيل أوضح مثال على ما ذكره القرآن الحكيم من الأعاجيب المعجزة في صراحة ظاهرة، ومن هنا بسطنا القول فيه بسطاً يجلِّي ما فيه من إعجاز يرد ما زعم فيه من تأويل يخرجه عن حقيقته المعجزة التي سيقت في القرآن للامتنان بها على محمد رسول الله ﷺ تشريفاً له وتكريماً، وتنويهاً بذكر قومه وبلده.

ويشارك حادث الفيل في هذه المرتبة قصة انشقاق القمر، فقد ذكرها القرآن في صراحة ظاهرة، وتضافرت على روايتها المصادر العالية في روايات ارتفعت على الصحة حتى كادت تكون متواترة، وسنعرض لها عند فرصتها من البحث.

وقصة شق صدره ﷺ وهو فطيم عند ظئره في بني سعد كما في بعض الروايات وهو المعوّل عليه المنصور عند الجمهور الأئمة، أو ليلة الإسراء به كما في بعض الروايات الأخرى، مثال للمرتبة الثانية من الأعاجيب الكونية التي أشار إليها القرآن إشارة لمَّاحة وتأيدت بروايات صحيحة الأسانيد، فقد ذكر كثير من المفسرين أن قول الله تعالى: ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ إشارة إلى هذه القصة المعجزة، وقد تأيد ذلك برواية لمسلم في صحيحه ذكر فيها قصة شق الصدر زمن الطفولية، وبرواية له وللبخاري في صحيحيهما ذكرا فيها

قصة شق الصدر ليلة الإسراء، وأورد الترمذي قصة شق الصدر في تفسير ألم نشرح، وسنعرض بشيء من البسط لهذه القصة أيضاً عند مناسبتها، ويدخل في هذا تظليل الغمامة وقصتها مروية في جامع الترمذي وغيره من كتب الحديث ودواوين السنة.

ومن قبيل المرتبة الثانية أنباء أهل الكتاب والآخذين عنهم من مُتَحنِّفة العرب ومتدينيهم بزمن مولده وبعثه والتنويه بذكره، لأن القرآن ذكر أنهم يجدون محمداً ﷺ بنعته واسمه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وقد جاءت الروايات الصحيحة عن أخبارهم بما علموا قبل أن يظهر شأنه ويدخلهم الحسد فيدفعهم إلى كتمان أمره ﷺ.

وقصص تكثير القليل من الطعام أو الماء حتى يكفي الجم الغفير من الناس طعاماً مشبعاً وشراباً روياً وطهوراً نقياً، وقصة تكلم البقرة التي حمل عليها صاحبها متاعه وركبها فقالت: (إني لم أخلق لهذا) أمثلة لأعلى مراتب ما لم يذكر في القرآن تصريحاً أو إشارة، ولكنه روي في المصادر المعتبرة بأسانيد صحيحة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما هذه القصص بروايات متعددة وطرق كثيرة، ورواها غيرهما من أصحاب السنن والصحاح.

حول حديث رد الشمس بعد غروبها على علي رضي الله عنه

وقصة رد الشمس يوم قريظة حتى تُصَلَّى العصر في وقتها تذكر في مصادر لا يتفق عليها مهرة النقّاد والمحدثين، فهي مثال لأدنى ما لم يذكره القرآن أو يشير اليه. فقد خرجها الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عميس ووثق رواتها، وضعّف ابن الجوزي حديثها بل كذبه وحكم بوضعه فقال: وغلو الرافضة في حب علي عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضله، منها أن غابت الشمس ففاتت علياً عليه السلام صلاة العصر فردت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد ولا يرد الوقت، ونضيف إلى ذلك أن الشمس لم ترد للنبي ﷺ ومعه جمهور أصحابه في إحدى سفراته، وقد نزلوا وادياً، فقال النبي ﷺ لبلال: (اكلألنا الفجر)، فناموا ونام بلال فلم يوقظه إلا حر الشمس، فرحلوا عن الوادي ثم صلّوا الصبح.

أما الموضوعات والأباطيل فأمثلتها أكثر من أن يعد منها، وفي قصص الميلاد نبع فياض لها.

سنن الله بمعناها الأعم لا تتبدل

وقد تمحك بعض الباحثين ـ في سبيل إنكار الأعاجيب والمعجزات الحسية ـ بالسنن الكونية وأخبار القرآن أن سنة الله لن تجد لها تبديلاً، وهذا إيهام مضلِّل، لأن سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً هي السنة الكونية بمعناها الأعم الأشمل التي تشمل السنن العامة مما يدخل في معروف العقل ومألوف العادة، والسنن الخاصة التي ترتفع فوق مستوى معروف العقول وتختص الألوهية بالإحاطة بأسبابها وأسلوب إيجادها، فالأعاجيب الكونية والمعجزات الخارقة لمألوف العادة عند مناسباتها من سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً.

وأدخل من هذا في الإيهام المضلِّل قول منكري المعجزات الكونية: إن حياة محمد ﷺ كانت كلها حياة إنسانية سامية، وإنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق.

عظمة محمد ﷺ المميزة له على سائر البشر من عظمة رسالته.

وهذا غلط أو مغالطة، أو هو من قول الحق الذي أريد به الباطل، لأن إنسانية حياة محمد ﷺ وسُمُوّها كلام لا يُتحدث به عن محمد رسول الله ﷺ وإنما يتحدث به عن محمد الإنسان العبقري العظيم المصلح، وما شاكل كل ذلك من كلمات وعنوانات براقة يقصد بها إلى صرف الأنظار عن خصيصة النبوة والرسالة التي ارتفع بها محمد ﷺ فوق سمو الإنسانية وكمالها، وهذه الخصيصة هي مناط عظمة النبي والرسول وليس مناط عظمته إنسانيته السامية، لأن هذا قدر يمكن دعوى الاشتراك فيه، لأنه مكسوب محصل، وقد أبان الله تعالى في القرآن الحكيم عن فيصل التفرقة بين الكمال البشري والكمال النبوي بما أفاد أن الكمال النبوي مرتبط بالوحي والرسالة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إنما أنا بشرٌ مثلكُم يوحى إليّ ﴾. أما النبوة والرسالة فهي هبة الخالق عز شأنه وإن كانت لا توهب إلا لمن كمل له السمو الإنساني، فهي معنى زائد فوق السمو الإنساني به يفضل الأنبياء والمرسلون سائر الإنسانيين الكملة، ولأمر ما وصف ابن الدغنة سيد القارة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما رواه البخاري ـ بما هو عين ما وصفته خديجة أم

المؤمنين رضي الله عنها محمداً ﷺ، وهي نعوت وخلال كانت له ﷺ قبل نبوته ورسالته، أي أنها أوصاف إنسانية سامية تدلّ على الكمال في الإنسانية وأن صاحبها بمعزل عن الانتكاس فيما يخدش الكمال الإنساني.

كمال الإنسانية صفة بشرية قد يشترك فيها كثيرون من العباقرة والمصلحين

فالإنسانية السامية لا تجعل صاحبها نبياً ولا رسولاً، ولا تدلّ وحدها على أن صاحبها نبي أو رسول، ولكنها قد تجعله عبقرياً أو مصلحاً أو عظيماً أو بطلاً، أو ما شئت من هذه النعوت التي هي أعلا ما تصل إليه الإنسانية من خصائص السمو المكسوب والكمال المفطور، ألا ترى أن محمداً ﷺ في سمو إنسانيته قد اختاره الله لمرتبة من الكمال الروحي فوق هذا السمو الإنساني هي مرتبة النبوة والرسالة، وبقي الصدِّيق في سموه الإنساني إنساناً صدِّيقاً أي إنساناً كاملاً، لك أن تقول إنه عبقري أو مصلح أو عظيم وأنت مطمئن إلى أنك لم تنقص كماله الإنساني ولم تخدش إنسانيته السامية، ولكنك إذا قلت عن محمد نبي الله ورسوله إنه عبقري أو مصلح أو عظيم أو بطل وأنت تريد أن تضعه موضعه من الكمال الوجودي كنت مجحفاً بالحقيقة العليا في هذا الكمال، وهي حقيقة النبوة والرسالة التي يمتاز بها النبي والرسول عن سائر الكَمَلة من بني الإنسان.

ومعاذ الله أن نقول إن إنسانية أبي بكر الصدِّيق أو إنسانية إنسان ما في الوجود يمكن أن تكون في ميزان واحد مع إنسانية النبي والرسول بله إنسانية خاتم النبيين محمد ﷺ، ولكنا أردنا إلى أن نقول: إن الصفات التي تواضع عليها الناس وجعلوها صفات الإنسانية السامية قد تكون هي صفات العبقريين والقادة والمصلحين والأبطال والعظماء من البشر، وليست هي خصيصة إنسانية الأنبياء والرسل التي هي سرّ الاختيار ومناط الاصطفاء في قول الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فمحمد ﷺ قبل نبوته إنسان كامل كانت حياته كلها إنسانية سامية، فهو عبقري ومصلح عظيم إلى ما شاكل ذلك من نعوت الكمال الإنساني الذي يفطر عليه أو يكسبه الإنسان بوصف إنسانيته، ولا ريب أن هذه النعوت ليست وقفاً على إنسان دون إنسان ممن أعدَّتهم الفطر لها وإن كانت الأفراد تتفاوت في مقادير التكمل فيها، فالذين أعدهم الله من كملة الإنسانية لتلقِّي فيض النبوة أكمل

وأسمى إنسانية ممن سواهم مع التفاوت فيما بينهم ﴿ تلك الرسل فضَّلْنا بعضَهم على بعض ﴾.

ومحمد ﷺ بعد نبوته نبي اصطفاه الله لرسالته ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا معنى فوق السمو الإنساني، له مقومات خاصة يعجز عن اللحاق بها جميع العباقرة والقادة والمصلحين من غير الأنبياء والمرسلين، فلا مدخل لسمو إنسانية محمد ﷺ في نبوته ورسالته إلا بقدر أن هذا الكمال الوهبي لا يجيء إلا فوق كمال فطري يزداد بالكسب والتحصيل واستقامة السلوك قبل مجيء النبوة والرسالة.

أما بعد مجيئها فالأمر أمرها ولا مدخل للإنسانية السامية إلا على أنها قالب يصب فيه التدبير الإلٓهي الأعلى.

وأما قول منكري المعجزات الحسية: إن محمداً ﷺ لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق، فهو إمعان في الإيهام المضلِّل لأن الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ليست مسألة كسبية يلجأ إليها الأنبياء ويحصِّلونها متى أرادوا وكيفما أرادوا، وإنما هي آيات الله يجريها على يد من يشاء من عباده الذين اصطفاهم لرسالته متى شاء وكيفما شاء.

ما ظهر من الآيات الحسية على يد النبي ﷺ كان تشريفاً وتكريماً له ﷺ ولم يكن للتحدي به

وقد جعل الله بعضها برهاناً على صدق من أجراها على يده وأُذِن في التحدي بها كما يبيِّنه قول الله تعالى بعد أن ذكر آية موسى عليه السلام: ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ﴾، وبعضها للتشريف والتكريم وتقرير الإيمان في نفوس بعض من تمر بهم لحظات من القلق النفسي لتطمئن قلوبهم وتسكن وجداناتهم كما في كثير من الآيات الكونية التي أوتيها نبينا محمد ﷺ، ولم يجعلها براهين على صدقه ولم يتحدّ بها اكتفاءً بالآية العظمى: القرآن العظيم، فمن ذلك ما رواه الترمذي عن سمرة ابن جندب قال: كنا مع رسول الله ﷺ نتداول في قصعة عن غدوة حتى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا: فما كانت تُمَدُّ؟ قال: من أي شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ها هنا، وأشار بيده إلى السماء. وما رواه عن علي بن أبي طالب قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله

جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليكم يا رسول الله، وكحديث حنين الجذع الذي كان يخطب إليه النبي ﷺ، روى البخاري والترمذي ـ واللفظ له ـ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خطب إلى لزق جذع، واتخذوا له منبراً فخطب عليه فحنّ الجذع حنين الناقة، فنزل النبي ﷺ فمسَّه فسكن. ومنه ما رواه الإمام البخاري من طريق مالك بن أنس عن إسحاق بن عبدالله ابن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال أنس: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم.

وقريب من هذا ـ وهو واضح في حكمة التأليف والترغيب ـ ما رواه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ وذكر أنهم ناموا عن صلاة الصبح حتى علت الشمس، فارتحلوا ثم نزلوا فصلّوا مع النبي ﷺ إلا أحدهم اعتزل فلم يصلِّ فسأله النبي ﷺ: «ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم؟» قال: أصابتني جنابة، ولا ماء، فقال «عليك بالصعيد فإنه يكفيك» ثم سار النبي ﷺ فشكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا علياً وآخر معه وقال لهما: «اذهبا فابتغيا الماء» فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها، فقال لها: أين الماء، قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفرنا خلوفاً، قالا لها: انطلقي إذاً، قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يقال له الصابىء، قالا: هو الذي تعنين، فانطلقت، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث، فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو السطيحتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء وقال: اذهب فأفرغه عليك، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وايم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لها» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوها في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها، قال

لها: «تعلمين ما رزأنا من مائك شيئاً، ولكن الله هو الذي أسقانا» فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابىء ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه ـ تعني السماء والأرض ـ أو إنّهُ لرسول الله حقاً، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرْم الذي هي منه، فقالت يوماً لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً، فهل لكم في الإسلام، فأطاعوها فدخلوا في الإسلام.

ففي هذه الآية العظيمة والأعجوبة المعجزة ما أدّى إلى إدخال قوم بجملتهم إلى الإسلام دون أن يحتاجوا إلى شيء مما يصنع مع غيرهم في قبول الدعوة والتصديق بها.

كان في القرآن غناء عن التحدي بغيره من الآيات الحسية التي قد تجذب إلى الإيمان من لم تبلغ عقولهم رشدها

والحق أن نبينا محمداً ﷺ كان في غنية بالقرآن الكريم ـ وهو معجزته الخالدة الغامرة القاهرة ـ عن التحدي بهذه الآيات الباهرات والأعاجيب المعجزات مع ثبوتها في جملتها ثبوتاً لا يشك فيه أهل الإيمان، لأنه لم يثبت بطريق قاطع أنه تحدى بحادث من هذه الحوادث العظيمة، فهي آيات تشريف له ﷺ وتنويه بذكره، وآيات تكريم لذوي الصدق من أمته، وآيات تثبيت لبعض المؤمنين، وآيات ترغيب وتأليف لبعض من في قلوبهم استعداد لقبول الهداية، ولكن عقولهم قد تقصر عن التعمق في فهم دلائل العقل ومرائي القرآن، فتجذبهم بعض هذه الآيات والأعاجيب إلى حظيرة الإيمان حتى تضيء عقولهم وأفئدتهم إلى ظل من الهداية ظليل. روى الترمذي عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بما أعرف أنك نبي؟ قال: «إن دعوت هذا العِذْق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: ارجع، فعاد، فأسلم الأعرابي. فهذا الأعرابي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب الإيمان والهداية، وهو على أعرابيته لا بد وأن يكون النبي ﷺ قد أدرك بما منحه الله من معرفة صادقة لخصائص النفوس البشرية أن هذا الرجل ليست لديه خصيصة التوجه إلى السمو المعنوي الذي امتاز به

القرآن فكان مناط إعجازه، وإنما هو من ذوي الإحساس المادي والعقل المقيد بأغلال الحواس، فاقتضت الحكمة أن يجري معه على مقدار استعداده، فأجابه إلى ما طلب وأراه هذه الآية التي تجذبه برسن حواسه إلى التصديق، فصدَّق وأسلم، وليس ذلك من التحدي بالمعجزة، ولكنه ترغيب وتأليف ورفع للأشواك من طريق السالكين المتوكئين على عصا الحس والمشاهدة، وهذا الأعرابي مثل لكثير من طوائف الناس وجماعاتهم في كل عصر وجيل.

إخبار أهل الكتاب ومُتحنِّفة العرب
بمولد محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبعثته

من الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة - التي تستند إلى روايات تاريخية صحيحة ترويها المصادر العالية من كتب الحديث والسنة ودواوين التاريخ، ويؤيدها القرآن الكريم بالإشارة إلى منابعها التي تستقى منها - بشائر أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإنباءاتهم بزمن مولده ﷺ ومبعثه، وبحثهم عن بلده وأسرته، وتعرُّف أخباره وأحواله والكشف عن أوصافه ونعوته اعتماداً على ما ذكرته كتبهم المقدسة وتناقله أخلافهم عن أسلافهم من التنويه بذكره والتصريح باسمه ودلائل وجوده وتعيين بعض خصائصه، مما لايقدم على إنكاره إلا ممار مكابر أو معاند جاحد.

وقد كان لذلك من المد والجزر في تيار الرسالة المحمدية ما سجله القرآن الحكيم في كثير من آياته البينات ففيهم نزل قوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] فهم قبل أن يستبين لهم حظهم من رسالته كانوا يظهرون ما عندهم من دلائل وأمارات يعرفون بها أمر محمد ﷺ معرفة لا يداخلها شك، ولما طغت عليهم نزغات البغي والحسد دفعتهم إلى كل خبيثة من خبائث الفجور والغدر، وكتمان ما علموا من الحق، وتحريف ما وجدوا من الآيات إلا من عصم الله من خيرتهم الذين استجابوا لله وللرسول.

وكان جهل العرب وشظف عيشهم مما مكن لليهود في حياتهم، فهم

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٦.

جهل العرب وشدة فقرهم مكنا اليهود من السيطرة الاقتصادية والعقلية عليهم

منذ نزلوا في جزيرة العرب وحلّوا بين أهلها مهاجرين استطاعوا أن يقبضوا على زمام الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية في يثرب البلد الذي توطنوه مع أهله من الأوس والخزرج، والذي صار فيما بعد مهاجر رسول الله ﷺ ومركز الدعوة الإسلامية وعاصمة الخلافة الراشدة.

كانت مكة محطاً تجارياً للقوافل الغادية والرائحة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، وبهذا كانت أعظم أسواق العرب ومتاجرهم، يؤمها أكابر التجار الذين كانت لهم صلات تجارية ببلاد الشام في شمال الجزيرة وببلاد اليمن في جنوبها، وقد كان هذان القطران معترك الاستعمار الأجنبي من الفرس والرومان، يتغالبون عليه، فغلب الرومان على الشام وأدخلوا إليه المسيحية التي كانت نيران الحروب مستعرة فيما بينها وبين أشتات اليهودية القابعة في أرض الميعاد، فانتهز أمراء الرومان الحاقدين على اليهود لفسادهم في الأرض فرصة المسيحية ـ الدين الجديد الذين اعتنقوه ـ ليتخذوا منه سيفاً يقضون به على أعدائهم الأقدمين من هؤلاء اليهود المتعصبين المفسدين، وأغرَوا بهم الشعب باسم الدين الجديد وهم من ورائه يمدونه بوسائل الاضطهاد والتعذيب والتقتيل حتى شعر اليهود أنهم في طريقهم إلى الفناء المحقق، فلم يجدوا بداً من الهجرة إلى مأوى بعيد يأوون إليه إبقاء على ما بقي لهم من أثر، فهاجروا إلى أبناء عمومتهم العرب، وكانت يثرب أقرب بلد وأنسبه في الجزيرة لهجرتهم لما فيها من حياة الاستقرار ووسائلها الزراعية والصناعية، واستقرَّ بهم المقام بعيداً عن مبعث الحماسة الدينية في مكة التي قد تحرك عليهم شراً أشد مما فروا منه، فحطُّوا بيثرب رحالهم وسرعان ما أصبحوا سادة الحياة الاقتصادية في هذا البلد العربي وأصبح أهله أجراء عندهم وعمّالاً لهم يعملون بأجور تسد منهم رمق الحياة.

حياة اليهود التجارية وصلتهم بمكة وتعاليهم بدينهم

وكان من الطبيعي أن تهاجر عصبية اليهود الدينية معهم إلى يثرب لأنها جزء من حياتهم، وكان من الطبيعي أن يرحلوا بتجارتهم إلى مكة أعظم أسواق العرب، ويتخذوا منها متسوقاً لتجارتهم ويقيم بها بعضهم للمضاربة والمرابحة، وكان من الطبيعي ألّا يتخلّوا عن شعائر دينهم وأن يقيموها بين

هؤلاء الوثنيين من العرب، وأن يتحدثوا إليهم حديثاً يهمز وثينهم في يسر، لا يهيجهم ولا يثيرهم ولكنه يتعالى عليهم في بعض الأمر بالتوحيد والنبوة المتوارثة في بني إسرائيل، وكان من الطبيعي أن ينقل عنهم هذا الحديث وأن يتسمع إليه كثير من الناس بين منكر ومتعجب ومفكر ومتأمل، وكان من الطبيعي أن تكون قريش في مكة هي أشد المتصلين باليهود الوافدين عليها للتجارة لمكانها التجاري والديني، وهما الأمران اللذان يعنيان اليهود حيثما حلُّوا، وإن كانوا أعنى بالناحية التجارية لجانبها المادي الذي يأخذ على اليهود مسالك الحياة فينظرون إليها أبداً من زاويته، ولا يتحرزون أن يجعلوا الدين وسيلة من وسائله إذا رأوا ميزان الحياة المادية يطلب إليهم ذلك.

ضعف اليهود كان يضطرهم للاحتماء بزعماء مكة

ومن المعروف أن رؤوس تجار قريش كانوا من بني عبد مناف ثم من بني هاشم، وكان عبد المطلب جد رسول الله ﷺ سيد بني هاشم، فكان تجار اليهود في مكة يجاورونه ويحتمون بجاهه. قال ابن الأثير: وكان لعبد المطلب جار يهودي يقال له «أذينة» يتجر وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية ـ وكان نديم عبد المطلب ـ فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن عمرو بن كعب التيمي، فلم يعرف عبد المطلب قاتله، فلم يزل يبحث حتى عرفهما وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية، فأتى حرباً ولامه وطلبهما منه فأخفاهما، فتغالظا في القول حتى تنافرا إلى النجاشي ثم إلى نفيل بن عبد العزى، فنفر عبد المطلب على حرب، فترك عبد المطلب منادمة حرب وأخذ منه مائة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودي وارتجع ماله إلّا شيئاً هلك فغرمه من ماله.

حرص قريش على وثنيتها حال بينها وبين الإصغاء إلى دين اليهود

وقد أخذت قريش عن عملائها من تجار اليهود بعض ذرائعهم في التكسب والتجارة، فشاعت فيهم المعاملات الربوية والمضاربات الفاحشة، ولكنهم تحامَوا أن يسمعوا لهم في أمر الدين لأنهم في وثنيتهم البليدة لا تتحرك عواطفهم إلى أمر الدين إلا من طريق عقائدهم التي تضمن لهم السيادة والشرف في حرمهم، روى ابن كثير أن أمية بن أبي الصلت قال في بعض أسفاره لأبي سفيان بن حرب: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء

النصارى إليه يتناهى علم الكتاب نسأله؟ قال أبو سفيان: قلت: لا أرى لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأجدنَّ منه، فذهب أمية وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليّ، فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه، قال: وإن، فإنك تسمع منه عجباً وتراه، ثم قال لي: أثقفي أنت؟ قلت: لا، ولكن قرشي، قال: فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم.

الاستشراف إلى ظهور نبي أظل زمانه

لكن نفراً قليلاً من متحنفة العرب أضراب ورقة بن نوفل، وزيد ابن عمرو، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش، والجارود بن المعلّى، كانوا بفطرتهم وبما يلقفوه من أفواه أهل الكتاب يتطلعون إلى السماء وينكرون بعقولهم وبما معهم من العلم ما عليه قومهم من سخافات وثنية، فكان قُسٌّ يقف بالأسواق والمجامع فيقول: أيها الناس، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه، وكان زيد يقول لقريش: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض الكلأ؛ ثم تذبحونها على غير اسم الله. وكانوا إذا سمعوا حديث النبوة والوحي والتوحيد اشرأبّت أنفسهم لتروي ظمأها الروحي في أرض قاحلة من الري العقلي مجدبة من الغذاء السماوي، ولكن اليهود قوم متزمتون أشد التزمُّت في ديانتهم متعصبون أشد التعصب ليهوديتهم لا يعنيهم إلا أن تبقى لهم، فيبقى لهم سلطانها وتراثها، فهم المنفردون في حياة أهل الديانات الذين لم يسعوا لنشر ديانتهم والدعوة إليها ولو واتتهم ألف فرصة وفرصة، فلم يعبأوا لهذا النفر المتعطش إلى التوحيد ليدخلوه في حظيرة ديانتهم، فبقي على فطرته منهم فريق يتطلع ويترقب ويسمع، وساح في الأرض منهم فريق فلقيته النصرانية الداعية لنفسها فعرف منها وأنكر، وهجم فريق فادّرعها وتوقف فريق حتى وافاه الأجل، وكما غلبت المسيحية على يد الرومان اليهود بالشام فدفعتهم إلى الهجرة والاستقرار ببلاد العرب، غلبتهم على يد الحبشة باليمن، ولكنها هنا أفنتهم واستقرت مكانهم، حتى سلط الله عليها الفرس فشتتوا شملها، وطاردوا أهلها فانزوى جمعهم بنجران حتى أدركهم الإسلام.

التغالب بين النصرانية واليهودية

كان لنشاط اليهود المادي أثر في نشر أحاديثهم الدينية

لم يكن للنصارى من الأثر في الجزيرة العربية مثل ما كان لليهود، لأن هؤلاء كانوا على اتصال بالحياة العملية المادية في التجارة والزراعة والصناعة بقدر ما تسمح به تصاريف الحياة، وهذا الاتصال كان أداة فعالة في تأثيرهم والأخذ عنهم والاستماع إليهم، فانتشر عنهم دون قصد منهم شيء عن ديانتهم ولا سيما فيما كانوا يترقبونه من أحداث كونية أخبرت عنها كتبهم، وبشارات بنبي يبعث تحدَّث بها أسلافهم، وأمارات ونعوت لهذا النبي روتها أسفارهم، فلما أظلَّهم زمانه أفصحوا عن مكنون أنفسهم، وأخبروا به علانية، وتناقلت أخباره الألسنة حتى وصل الأمر إلى المتحنفين والمعتافين والكهان، وذاعت القصص والأحاديث، فكان منها الصحيح الثابت، ومنها الضعيف الواهن، ومنها المكذوب الباطل.

أما النصارى فكانوا على عكس إخوانهم اليهود، فإذا كان في اليهود تزمت يرقى إلى الجمود في الدعوة الدينية ففي النصارى بحبحة واتساع، يدعون إلى دينهم ويبشرون به ويرغبون في إدخاله على من استطاعوا من جماعات الناس وإدخال من استطاعوا إدخالهم في حظيرته، بيد أنهم معتزلة منزوون في حياتهم العملية المادية، ولا شك أن أثر الحياة العملية أقوى في تجاوب الأفكار والنحل.

كانت النصرانية أخفت صوتاً في بلاد العرب من اليهودية

ومن هنا كان صوت النصرانية في بلاد العرب أخفت من صوت اليهودية، وكان النصارى فيها أضعف شأناً من اليهود، ولكن ذلك لم يمنع أن تمشي المسيحية إلى بعض القلوب والأفكار، فدان بها بعض المتحنِّفين كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، وتحدثوا بمثل ما كان يتحدث به اليهود من البشارات والأمارات والنعوت التي ذكرتها كتبهم المقدسة ورواها رهبانهم وقسيسوهم، وكثرت القصص والأخبار، فكان منها الثابت القوي، ومنها الزائف الضعيف.

على هذا الأساس قام هذا اللون من الروايات والقصص التي تحتل جانباً من السيرة النبوية متصلة بأسرة محمد ﷺ، ومتصلة بحمله وميلاده ومتصلة بحياته طفلاً وشاباً، ومتصلة به نبياً ورسولاً، وهنا يتحول هذا اللون

إلى ذلك العنف في الجدل والحجاج ويتحول إلى ذلك العنف في الحياة، وهنا عني به القرآن الكريم فقصَّ في شأن اليهود كثيراً وحكى من شأن النصارى كثيراً، وذكر في صراحة قاطعة أن محمداً ﷺ مكتوب في كتبهم بأخص أوصافه، وأنهم يجدونه فيها باسمه «أحمد» ويجدون أصول رسالته ودعائم شريعته، وفي ذلك يقول القرآن الكريم واصفاً للمتقين الذين كتب لهم الله رحمته: ﴿الذين يتبعون الرسولَ النبي الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيباتِ ويحرم عليهم الخبائثَ، ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم﴾[1].

القرآن يسجل على الطائفتين يقينهم بمعرفة محمد ﷺ لوجود نعوته في كتابيهم

فالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل هو محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي سليل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، واليهود والنصارى يعلمون هذا علم اليقين، والقرآن جبههم بقوله: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ﴾ ولا تزال أسفارهم بعدما أحلُّوا بها من التحريف والتبديل تحمل بعض هذه البشارات التي يسلِّطون عليها فاسد التأويل، وأنت تستطيع أن تأخذ إليك سفر التثنية من أسفار التوراة فتجد فيه هذا النص ﴿ أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ﴾ فأخوة بني إسرائيل هم العرب لأن جدهما إبراهيم عليه السلام، هذا إجماع تاريخي منا ومنهم ومن جميع أهل التاريخ في أرض الله فلا سبيل للشك فيه، ووسط العرب هم قريش ووسط قريش هاشم كما ورد في صحيح مسلم عن واثلة ابن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم» ولم يجيء نبي بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة جامعة بين العقيدة والتشريع مستقلة غير محمد عليه الصلاة والسلام، فهو النبي المماثل لموسى الذي خوطب بهذا النص، ولا معنى للأخوة لو كان هذا النبي الموعود

نص صريح من التوراة بأن محمداً ﷺ هو المبشر به

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

من بني إسرائيل كما يزعم المحرِّفون، لأنه حينئذ يكون من أنفسهم لا من إخوتهم، وجعل كلام الله في فمه كناية عن عدم تعاطي الكتابة والاعتماد على الحفظ والتلاوة، وهو معنى الأمية التي هي أخص أوصاف محمد رسول الله ﷺ، ويقول الله تعالى من سورة الصف: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾[1] وهذا نص صريح قاطع في أن عيسى عليه السلام بشر قومه برسالة رسول يجيء بعده اسمه أحمد، ولم يزعم أحد قط أن اسم أحمد سمي به رسول جاء بعد عيسى عليه السلام غير خاتم النبيين محمد بن عبدالله ﷺ.

علم أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ كان حجة على المشركين

وكما كانت هذه البشارات قائمة على نصوص قاطعة صريحة في التوراة والإنجيل يعلمها أتباعهما علماً يقيناً جعل الله هذا العلم آية على صدق محمد ﷺ في رسالته (فقال تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَهُم آيَةً أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾[2] فكان علم أهل الكتاب بصدق رسالة محمد لوجود نعته واسمه في كتبهم آية للمشركين على إثبات رسالته.

ومن هنا كانت الإنباءات التي ترويها المصادر المعتبرة بروايات صحيحة عن بعض الأحبار والرهبان، وما نقله عنهم المتحنفة والمعتافون عن زمن ميلاد النبي ﷺ وعن نعته وبعض خصائصه واسمه وبلده وبعثه ومهجره وما يلقى من قومه وما يتم به أمره، من قبيل الآيات والأعاجيب التي أشار إليها القرآن وتأيدت بروايات صحيحة، فهي من الآيات التي لا ترد ولا يتسلط عليها التأويل، ويجري مجراها ما ماثلها من الأخبار التي صاحبت حياة النبي ﷺ في أطواره المتعددة ولا سيما بعد البعثة، ذلك الوقت الذي تنبهت فيه عند اليهود حاسة المحافظة على البقاء نتيجة لتنبه الوعي القومي عند أصحاب الوطن الأصلاء من عرب الأوس والخزرج الذين استغلهم اليهود واستغلوا وطنهم استغلالاً اقتصادياً أنزلوهم فيه منزلة التابع الأجير، فلما لم يُجْدِهم إيقاد نيران

(١) سورة الصف، آية: ٦.
(٢) سورة الشعراء، آية: ١٩٧.

الفتن بينهم والسعي بالإفساد أرادوا أن يستغلوا هذه الظاهرة الدينية التي يتفوقون بها، ظاهرة الإخبار عن نبي يبعث وأن زمانه قد اقترب وأنه يدعو إلى التوحيد، ويحارب الوثنية والوثنيين، وأنهم ينتظرونه ليؤمنوا به ويكونوا في صفه ويكون في صفهم إلباً على هؤلاء العرب الوثنيين يقتلونهم معه، وبدأوا ينشرون هذه البشارات ويذيعون أخبار النبي ﷺ.

شواهد لها دلائلها (١)

روى البيهقي وأبو نعيم عن حسان بن ثابت قال: إني لَغُلام ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.

الشاهد (٢)

وروى الحافظ أبو نعيم في دلائل النبوة عن مالك بن سنان قال: جئت بني عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزىء به: ما صفته؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، في عينيه حمرة، يلبس الشملة ويركب البعير، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره، قال مالك: فرجعت إلى قومي بني خُدْرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع، فأسمع رجلاً منا يقول: ويوشع يقول هذا وحده؟ كل يهود يثرب يقولون هذا!!. قال مالك بن سنان: فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعاً فتذاكروا النبي ﷺ فقال الزبيرابن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره.

الشاهد (٣)

وروى ابن سعد عن عائشة أم المؤمنين بسند حسَّنه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري أنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: انظروا فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة أحمد الآخر، بين كتفيه علامة، فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم: ولد لعبدالله ابن عبد المطلب غلام فسماه جده محمَّداً، فالتقوا بعد من يومهم فأتوا اليهودي في منزله، فقالوا علمنا أنه ولد فينا مولود؟ قال: أبعد خبري أم قبله؟ قالوا:

بل قبله، قال: فاذهبوا بنا إليه فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه، فأخرجته إليهم فرأى الشامة في ظهره، فغشي على اليهودي ثم أفاق فقالوا: ويلك. مالك؟ قال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، وهذا مكتوب، يقتلهم ويبز أحبارهم، فازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معشر قريش، أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب.

الشاهد(٤)

وروى أيضاً عن عامر بن ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل، يقول: أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك، قلت: هلمّ، قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه بما نَعَتُّهُ لك ويقولون: لم يبق نبي غيره، قال عامر: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام، فرد عليه السلام ورحَّم عليه وقال: «قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً».

الشاهد(٥)

وروى الطبراني والبيهقي في محادثة طويلة بين أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان بن حرب، قال أمية: جئت هذا العالِم (راهباً نصرانياً) فسألته عن أشياء، ثم قلت: أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر، قال: هو رجل من العرب، قلت قد علمت أنه من العرب، فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجه العرب، قلت: وفينا بيت تحجه العرب، قال: هو من إخوتكم من قريش، فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط، وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه، قال أبوسفيان فإذا كان ما كان فصفه لي، قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم، ويصل الرحم، ويأمر بصلتها، وهو محوج كريم الطرفين،

متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة. قال أبو سفيان: فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً، فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة، فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلِّمون عليّ، ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبدالله وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلَّم عليّ ورحَّب بي، وسألني عن سفري ومقامي ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام، فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني؛ ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته، فقالت لي هند: أوَمَا علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله، فوقذتني وتذكَّرت قول النصراني، فرجفت حتى قالت لي هند: مالك؟ فانتبهت، فقلت: إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا، قالت: بلى والله إنه ليقولنَّ ذلك ويدعو إليه، وإن له لصحابة على دينه، فقلت: هذا هو الباطل.

قال: وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير، فسأرسل من يأخذها ولست بآخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى عليّ، وقال: إذن لا آخذها، قلت، فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إليّ بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره. قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقال لي: يا أبا سفيان قلت: ما تشاء قال: هل تذكر قول النصراني؟ قلت: أذكره، وقد كان، فقال: ومن؟ قلت: محمد بن عبدالله، قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبد المطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال: الله يعلم وأخذ يتصبب عرقاً، ثم قال: يا أبا سفيان لعلَّه؟ صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حي لأطلبنَّ من الله عز وجل في نصره عذراً، قال أبو سفيان: ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري، فقلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأؤمن برسول من غير

ثقيف أبداً، قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يُضربون ويحقَّرون، فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟ فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة.

الشاهد(٦) وكان النبي ﷺ يذكر أمية بن أبي الصلت ويستنشد شعره لما فيه من دلائل التوحيد والثناء على الله تعالى. روى مسلم والإمام أحمد عن عمر ابن الشريد عن أبيه قال: كنت ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لي: «أمعك من شعر أمية ابن أبي الصلت شيء؟» قلت نعم، قال: فأنشدني، فأنشدته بيتاً، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً: «إيه» حتى أنشدته مائة بيت، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن كاد يسلم».

الشاهد(٧) ويحدثنا ابن سعد في طبقاته عن بعض الأنصار أن يهود بني قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم ويعلِّمونه الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلينا، فلما ظهر رسول الله ﷺ حسدوا وبغَوا وقالوا: ليس به.

الشاهد(٨) وكان المشركون يَرون أن أهل الكتاب أعلم بهذا الشأن فكانوا يسألونهم، وكان هؤلاء يخبرون بما عندهم، روى ابن سعد عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقمة، وعقبة بن أبي مُعَيط وغيرهما إلى يهود يثرب. وقالوا لهم: سلوهم عن محمد، فقدموا المدينة فقالوا: أتيناكم لأمر حدث فينا، منا غلام يتيم فقير يقول قولاً عظيماً، يزعم أنه رسول الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، قالوا: صفوا لنا صفته، فوصفوه لهم، قالوا: فمن تبعه منكم؟ قالوا: سفلتنا، فضحك حبر منهم، وقال: هذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة.

الشاهد(٩) وقال ابن إسحاق: وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهَّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لمَّا تقارب من زمانه، أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فعمَّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

الشاهد(١٠) ثم بيَّن ابن إسحاق عن جماعة من الأنصار ما كان يتحدث به يهود

يثرب عن رسول الله ﷺ وسبب بغيهم وحسدهم وإنكارهم ما كانوا يعلنونه ويتدارسونه من ذكره، فقال: وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ما كنا نسمع من رجال يهود، كنّا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع منهم ذلك، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿ولمَّا جَاءَهم كتابٌ مِنْ عنْدِ الله مصدِّقٌ لِمَا معهم وَكَانوا من قَبْل يستفتحون على الذينَ كَفَرُوا فلَمَّا جاءَهم ما عَرِفوا كفروا به فلَعْنَةَ الله على الكَافرين ﴾[1].

هذا قليل من كثير من الروايات التي روتها كتب الدلائل النبوية ورواها بعض كتب الحديث والسنة، وقد اخترنا منها، وتحرينا ما وسعنا التحري أن نتحاشى الروايات التي يدخلها التزيد ويحوكها الخيال، فليس من الإنصاف التاريخي أن تهدر هذه الكثرة الغامرة من الروايات في هذا الجانب من السيرة النبوية تحت تأثير الإيهام بمعروف العقول وقضايا العلم وحكم المنطق ومتعارف سنن الحياة، وقد فرغنا من مناقشة هذا الإيهام في صدر بحث الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة، وأقمنا بذلك أصلاً نرد إليه ما يعرض في طريق البحث منه.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٨٩.

محمد صلى الله عليه وسلم في المهد

رضاعه عليه السلام

صبابة عبد المطلب بحفيده محمد ﷺ

كان لموت عبدالله بن عبد المطلب ـ أبي محمد ﷺ ـ في رحلته التي خرج إليها تاجراً وهو في مقتبل شبابه بُعَيْدَ حادث الذبح وبنائه بزوجه آمنة بنت وهب أم محمد ﷺ أثر من الحزن الفادح والألم الممض على نفس أبيه الشيخ، الذي أفنت السنون جَلَده وناء بأثقالها، فلما بشر بميلاد حفيده محمد ﷺ صبَّ به صبابته بأبيه من قبله ـ وكان أبو محمد ﷺ عبدالله أحبَّ أبناء عبد المطلب إليه ـ وحظي محمد ﷺ عند جده حظوة لم تكن لأحد من ولده، فأخذه من مهده بين يديه وطاف به حول الكعبة يباركه ويدعو له، ويستعذب النظر إليه في حنان الأبوة الثاكلة، ثم رده إلى أمه وعاد إلى مكانه في ظل البنيَّة المقدسة يفكر ويقدر، ويطلب له المراضع في نساء البوادي على عادة سكان المدن والقرى من العرب في استرضاع أولادهم في البادية اتقاء لوخامة المدن ووضر الحواضر، وتخريجاً في التعرب والتفاصح، وانتجاعاً لجو البادية صحة، وانطلاقاً مع مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء. وكانت المرضعات يردن مكة في المواسم تطلباً للرُّضع الذين يؤملن فيهم جِدَة وسعة من العطاء، وكان في قبائل العرب وبيوتاتهم بيوت وقبائل عُرفت بخصب الدر ونقاء الجو وصفاء الطبيعة وفصاحة اللهجة ونصاعة البيان ونقاء المربى. منهم بنو سعد بن بكر من قبيلة هوازن المعروفة بتعربها وفصاحتها، فلما ورد نساؤها مكة عُرض عليهن فيمن عرض من الرُّضع محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلنَ على غيره، وأعرضن عنه، لأنهن عرفنَ أنه يتيم، وكنَّ يرتجين وسيع العطايا وغامر المنح من آباء الأطفال، وكان في نساء بني سعد السيدة حليمة بنت

تطلب المراضع له ﷺ في نساء البادية

عرفان يتمه كان سبباً في عدم سرعة الإقبال لأخذه

عبدالله بن الحارث، ويظهر أنها كانت أرقَّهنَّ حالاً، فلم يرغب فيها آباء الأطفال وذووهم، وأصاب صواحباتها طلبتهن من الرضع وبقي محمد ﷺ بغير مرضع، وبقيت حليمة بغير رضيع، وعرض عليها فجعلت تقول: يتيم ولا مال له، وما عَسَتْ أمه أن تفعل.

حظ حليمة في سعادتها
تروبه قصتها

وهنا نترك الرواية التاريخية تحدثنا على لسان حليمة بما اتفق عليه الرواة أو قريب منه. روى ابن اسحاق بسنده عن جعفر بن أبي طالب قال: حُدّثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت: قدمتُ مكة في نسوة من بني سعد نلتمس بها الرضعاء في سنة شهباء[1]، فقدمتُ على أتان لي قمراء[2] كانت أذمت[3] بالركب، ومعي صبي لنا وشارف[4] لنا والله ما تبض[5] بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذّيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمّت بالركب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، فقدمنا مكة، فوالله ما علمتُ منا امرأة وإلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل إنه يتيم تركناه، قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزىٰ: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، فقال: لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة، فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي، وشرب أخوه (ولدها) حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل، فحلب

---

(١) سنة شهباء: لا خضرة أو لا مطر بها، والمراد أنها جدباء لندرة الخصب فيها.
(٢) أتان قمراء: هو من القمرة: لون إلى الخضرة أو بياض تشوبه كدرة.
(٣) أذمت بالركب، حبستهم لإعيائها وانقطاع سيرها. قال في اللسان: وفي حديث حليمة السعدية: فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها.
(٤) الشارف: الناقة المسنة الهرمة.
(٥) هو من قولهم بض الماء يبض إذا سال قليلاً.

ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا: ياحليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله تعالى يزيدنا خيراً، ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحبي ليقلنَ ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟! فأقول: نعم والله إنها لهي، فقلن والله إن لها شأناً حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحلب ما شئنا وما حوالينا أحد تبضُّ له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى أنهم ليقولون لرعاتهم ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا، فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتيْن، فكان يشب شباباً لا يشبّه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جَفْراً[1]، فقدمنا به على أمه ونحن أضنّ شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه قلت لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة، فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة، وفي رواية ابن سعد أن أمه آمنة هي التي طلبت رده معهم خشية عليه من وباء مكة، ويظهر أنه ليس بين الروايتين اختلاف حقيقي، لاحتمال أن تكون حليمة قدمت به على أمه زائرة فرأت صبابة أمه به، فخافت أن تحبسه عنها وقد استوفى أقصى أمد الرضاع، فعجّلت بطلب رده معها لتطمئن، فوجدت من أمه رغبة في رده معهم. قال ابن سعد: قال محمد بن عمر (الواقدي) عن أصحابه: مكث عندهم سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها، وأخبرتها

رواية ابن سعد في الطبقات والتوفيق بينها وبين رواية ابن إسحاق

(١) الجفر: الذي استغنى عن الرضاع وقوي على الأكل. وقد ساق ابن منظور في اللسان هذا الحديث فقال: وفي حديث حليمة ظئر النبي ﷺ قال: كان يشبّ في اليوم شباب الصبي في الشهر فبلغ ستاً وهو جفر، ثم قال: والجفر: الصبي إذا انتفخ لحمه وأكل وصارت له كرش، ويلاحظ أن في رواية ابن منظور مخالفة لرواية ابن إسحاق في تقدير الزمن.

حليمة خبره وما رأوا من بركته فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكوننَّ له شأن، فرجعت به.

رواية غريبة يحكيها ابن كثير

وحكى ابن كثير رواية فيها غرابة قال: ذُكر أنَّ عبد المطلب أمر ابنه عبدالله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه، وأقام عندها ست سنين تزيِّره جده في كل عام.

وغرابة هذه الرواية لما فيها من أن أبا رسول الله ﷺ كان موجوداً حين ميلاده، وأنه هو الذي استرضعه في بني سعد واستأجر له حليمة، وهي رواية لا تتفق إلا مع رواية أن أباه عاش حتى بلغ رسول الله ﷺ من عمره سبعة أشهر أو ثمانية وعشرين شهراً على ما ذكرناه سابقاً، وهما روايتان ضعيفتان، والرواية الثانية أن أباه توفي وهو جنين في بطن أمه، وهو قول الجمهور من المؤرخين ومؤلفي السيرة.

رواية لابن سعد

وذكر ابن سعد وغيره أن ظئره حليمة رأت بعد أن رجعت به إلى باديتها ـ وكانت لا تدعه يذهب بعيداً عنها ـ غمامة تظله، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت فأفزعها ذلك من أمره، فقدمت به على أمه لترده إليها وهو ابن خمس سنين فأضلَّها في الناس، فالتمسته فلم تجده فأتت عبد المطلب فأخبرته، فالتمسه عبد المطلب فلم يجده وجعل ينشده بأبيات من الشعر، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش، فأتيا به جده فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ثم رده إلى أمه آمنة.

وأخرى له أيضاً

وذكر ابن سعد أيضاً أن جماعة من اليهود مروا على ظئره حليمة ـ وكانت أمه آمنة قد أخبرتها ببعض شأنه وأوصتها بحفظه والحرص عليه ـ فقالت لهم: ألا تحدِّثوني عن ابني هذا، فإني حملته كذا، ووضعته كذا ورأيت كذا ـ كما وصفت أمه ـ فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت حليمة: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيماً لقتلناه، فذهبت به حليمة وقالت: كدت أخرِّب أمانتي..

وكان عمه حمزة مسترضعاً معه في بني سعد عند امرأة أخرى غير ظئر رسول الله ﷺ، قال ابن سعد: كان حمزة بن عبد المطلب رضيع رسول الله ﷺ، أرضعتهما امرأة من العرب، كان حمزة مسترضعاً له عند قوم من بني سعد بن بكر، وكانت أم حمزة قد أرضعت رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليمة. وقد سبق أن ثويبة جارية أبي لهب أرضعتهما وأبا سلمة فهما أخوا رسول الله ﷺ من الرضاع بلبن ثويبة ويزيد حمزة لبن السعدية.

هذه هي قصة رضاعه ﷺ في جملة رواياتها التي ترويها كتب السيرة، ولا يكاد كتاب منها يخلو عن طرف من أطرافها، حتى قال ابن كثير في تاريخه بعد أن روى حديث ابن إسحاق الذي صدَّرنا به ـ وهو أجمعها وأوفاها وعليه معول جمهرة المؤرخين ـ: وهذا الحديث قد رُوي من طرق أُخَر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

تحقيق ينفي الشك في قبول هذه الروايات

وليس في القصة على النهج الذي سقناها فيه ما يباعد بينها وبين الواقع التاريخي، فاسترضاع السادة من أهل الحواضر والمدن أبناءهم في البوادي، ووفود نساء البادية لأخذ الرُّضع، يرتجين الخير وسعة العطاء من آبائهم، وإحجامهن عن يتيم لم يعرف ثراؤه، واندفاع حليمة إلى أخذه بَعد أن لم تجد رضيعاً غيره ترجع به مع صواحباتها، وظهور البركة في در حليمة وغُنيمتها وشارفها، وشبابه شباباً ممتازاً في صحته ونموه عن لِداته وأقرانه من الأطفال والغلمان، ورده إلى أمه لزيارتها، وحرص ظئره على بقائه عندها لما رأت فيه من البركة والخير، وحرص أمه على ردِّه مع ظئره إلى البادية خشية عليه من وباء مكة التي تغص في المواسم بالوافدين عليها من الأصحاء والمرضى، وعناية أهل الكتاب من اليهود بشأنه وتطلُّبهم له، وحرص ظئره حليمة على تعرف أحواله، بعد حديث أمه معها عنه وعن مشاهداتها في أيام حمله وحين ولادته وفراستها في أنه سيكون لابنها شأن، ومساءلة حليمة اليهود عنه، وكتمها يتمه لتنجو به من غدرتهم التي انتووها، كل أولئك من الأمور التي لا ينكرها الواقع ولا تأباها سنن الحياة العامة.

ومن هنا نقول: إن هذه الصورة لمهد محمد ﷺ ورضاعه صورة فطرية

إنسانية مكملة لتلك الصورة الفطرية التي صورت حمله وميلاده تصويراً تاريخياً، وكما كان وراء تلك الصورة صورة أخرى مصنوعة لا تعرفها الفطرة الإنسانية ولا توائم السنن العامة للحياة؛ فكذلك وراء صورة مهده ورضاعه صورة لهما مليئة بالأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة، والفيصل في قبول هذه الخوارق هو ما أصَّلناه من النظر الممحص في سندها وصحة رواياتها، فإذا استقام لها ذلك قبلناها على أنها أثر من آثار القدرة الإلٰهية القاهرة، يكرم الله بها عبده ورسوله ﷺ كرامة تشريف.

تحقيق قصة شق صدره

صلى الله عليه وسلم

السنن العامة في نظام الحياة تأبى ذلك

شق الصدر من الإنسان حسياً، وإخراج قلبه المحس المعروف في التكوين الجسمي للإنسان بأنه لحمة صنوبرية الشكل في داخل القفص الصدري، وسطه مائلاً إلى الجهة اليسرى قليلاً في الأعم الأغلب، وتتصل به مفاتيح الحركة الدموية ومغاليقها، وقنواتها، ثم فتح هذا القلب فتحاً مادياً حسياً، وإخراج علقة دموية منه، وغسله بالماء، ثم إعادته إلى مكانه بعد خياطته، وخياطة الصدر، والتئامه مع بقاء الحياة الإنسانية بعد ذلك كله ـ كانت أموراً تأباها قوانين الحياة العامة، وتنكرها معارف العقول، وتردها أبسط قضايا العلم وبدائه المنطق في تاريخ الحياة.

فإذا وقعت وشهدتها الحياة الوجودية كانت من غير شك جارية على غير ما عرفته العقول من سنن الحياة، وعلى غير ما عرفه العلم التجريبي في قوانين الحياة، بل تكون جارية على سنن خاصة خارقة لمتعارف العقول، متخطية قضايا العلم في تجاربه الحسية.

والسنن الخاصة لا تنكره ولله في تدبير خلقه اختيار الاقتدار يفعل ما يشاء

وهذه السنن الخاصة لا ينكرها العقل، لأنه دائب البحث في أسرار الكون وسنن الله فيه، ولا يزال يكشف عن كثير من هذه الأسرار والسنن مما كان يجهله، ولم يقف هذا العقل عند هذه القضايا العلمية المعروفة له باعتبارها نهايات لمدركاته، ولم يؤمن بأنها هي الغاية لجولاته في الكون المحجب بسحائب الغيب، بل هو مؤمن أشد الإيمان أن وراء ما وصل إليه من حقائق أموراً كثيرة لم تكشف له، وهو دائب العمل في سبيل إدراك المجهول من حقائق الكون وسنن الله المنظمة لوجود هذا الكون العظيم.

والراسخون من علماء الكونيات يرون أن ما وصلوا إليه في الكشف عن بعض أسرار الحياة إنما هو قطرة من محيط العجائب الكونية والسنن الإلٓهية، ولم يدَّع أحد منهم أن العقل يستطيع أن يصل إلى مجهول الأسرار جميعها في هذا الكون العظيم.

وجيلنا اليوم ـ وهو في آخر القرن الرابع عشر الهجري، وآخر القرن العشرين الميلادي ـ يشهد أعمالاً في طب الجراحة وزرع الأعضاء الداخلية والخارجية في جسم الإنسان وسائر الحيوان، كانت في الماضي من المحالات في نظر العقل والعلم، ولا نذكر هذا لنفسِّر به المعجزات الإلٓهية التي يجريها الله تعالى على مقتضى سننه الخاصة تكريماً لأنبيائه ورسله؛ لأن شأن هذه المعجزات أن تجري على مقتضى سنن إلٓهية خاصة تختلف في أسلوبها وحقائقها مع أسلوب وحقائق السنن الإلٓهية العامة، وكلها من عند الله.

شأن آيات الله المعجزة فوق شأن العلم التجريبي

ومن ثَمَّ كان وقوع هذا الحدث الخطير لمحمد ﷺ من أعجب الأعاجيب الكونية، وأعظم خوارق السنن العامة، وأضخم الآيات الحسية التي تحيلها عادات الناس ومألوفاتهم، وتستبعدها العقول بالنظر لمعارفها من سنن الحياة العامة المتكررة، وبالنظر إلى قضايا العلم التجريبي.

ومجرد إحالة العادة المألوفة للناس في مجرى حياتهم العامة، ومجرد استبعاد العقول المقيدة بأغلال الحس والحواس، وسنن الحياة العامة المكررة لا يكفي كل ذلك للحكم بعدم الوقوع، وتبقى المسألة في دائر الإمكان، مستندة إلى سلطان القدرة الإلٓهية والإرادة الربانية التي لا تتقيد بسنن الحياة العامة، ومعروف العقول، وقضايا العلم، لأن الله تعالى الذي خلق هذه السنن العامة لنظام الحياة، وأوصل العقول إلى معارفها، وهداها إلى قضايا العلم، هو الذي يخلق سنناً خاصة لأحداث خاصة يجريها في أوقاتها ومناسباتها.

فليس من العدل العلمي، ولا من الإنصاف العقلي تحكيم متعارف العقول، وقضايا العلم، ومألوف الناس في عاداتهم وتجاربهم في سنن الله، وتقييدها بما عرف من قضايا تجريبية أو معارف عقلية.

تحكيم العقل تحكيمًا مطلقاً في إدراك الحقائق يبطل الإيمان بالغيبيات بل يبطل الديانات الإلٰهية

ولو حُكِّم متعارف العقول ومألوف العادات في فهم سنن الله تحكيماً مطلقاً لبطلت أصول الديانات السماوية، لأن العادات، ومتعارف العقول، وقوانين المنطق الإنساني لا تدرك حقيقة النبوة فتحيلها بصورتها الدينية، لأن النبوة قائمة على الوحي، وهو معنى لم تحدد حقيقته بغير الاتصال البشري بالملأ الأعلى الذي هو غيب مطلق في حقيقته، وطريق الاتصال به من قبل البشر، واتصاله بالبشر، وكل ما يعرفه العلم (الديني) عن الوحي أن يتم باتصال فرد من البشر يصطفيه الله لنبوته، بروح علوي، تسميه الشرائع السماوية (مَلَكاً)، وهو أمر يجهل العقل الإنساني حقيقته، وفي هذا الاتصال تتلقى الشخصية البشرية عن هذا الروح العلوي أموراً من قبل الله تعالى، هي شرائعه التي يتعبد بها خلقه، وينظم بها حياتهم ليقوم الناس بالقسط.

وهنا يتساءل العقل الإنساني: كيف يتصل فرد من البشر بما فيه من خصائص البشرية (بملك) بما له من خصائص الملكوتية؟ وكيف يتلقّى عنه ما يبلغه عن الله تعالى؟.

ثم يتساءل العقل مرة أخرى: كيف يتلقى اَلمَلَـك عن الله عز وجل ما يؤديه إلى آحاد البشر؟.

ولا ريب أن العقل سيقف أمام هذا التساؤل في جانبيه حائراً، لا يحير جواباً يطمئن إليه في حدود معارفه وقضايا علمه وأقيسة منطقه، ولا يخرجه من هذه الحَيْرة إلا التسليم والإقرار بأنه ليس من حقه أن يرفض جميع ما لم يعلم، ولا جميع ما لم يفهم، لأنه أمام نفسه يعلم أنه لم يحط خبراً بكل ما يمكن أن يعلم، وأن ما يجهله من سنن الكون أكثر بكثير مما علمه.

وإذا انتهى العقل إلى هذا الموقف وجب عليه أن يسلِّم بقوة القدرة الإلٰهية على الخلق والإبداع، واتساع سنن الله تعالى في الكون بما يستطيع أن يصل إليه من البراهين القاطعة على قهر القدرة الإلٰهية لقوانين الطبيعة، وما وصل إليه العلم والعقل من سنن الحياة في الكون، وأن يسلم بمطلق تصرفاتها ليسهل عليه الإيمان بما صح الإخبار به من أحداث لم تجر على

مقتضى معروف من العلم، وإنما جرت على مقتضى نمط خاص في سنن الله تعالى.

فالتقيُّد بحكم العادة المتكررة ومتعارف العقول، وقضايا العلم هادم لجميع أصول الديانات السماوية، فالذين يتشبثون بهذا التقييد في فهم حقائق الأحداث الكونية يجعلون من معارف العقل وقضايا العلم حواجز أمام فهم سنن الله تعالى في الكون، وهم عندئذ بين أمرين: إما إيمان ينتهي بهم إلى التسليم بالعجز عن إدراك بعض الحقائق الكونية التي جاءت بها الأديان السماوية بأخبار ثابتة الصحة عن طريق الرواية، وإما إلحاد ينكر جاحداً أصل الديانات الإلهية، فلا يبقى ـ في نظرهم ـ بين الحقائق الوجودية نبوة ولا رسالة من الله إلى الخلق، وهذا ما انتهى إليه ملاحدة الماديين من كل من حكَّم الحس وأنزل العقل عن منزلته إلى هاوية الحس المادي.

وجميع المؤمنين بالديانات السماوية ـ عامتهم وخاصتهم ـ يطمئنون إلى أن هذا اللون من العجز هو محض الإيمان الذي يأخذ بصاحبه إلى ساحة رضا الله تعالى، وهو في حقيقته تكريم للعلم والعقل.

منهج القرآن في فهم قضايا الحياة. والإيمان بها وشواهده القاطعة

(١) قصة زكريا

ورد ما يعتاص فهمه على العقول من الأحداث لعدم جريه على مقتضى معارف العقل وقضايا العلم إلى سلطان القدرة الإلٰهية في الخلق والإبداع، وإلى الإيمان بأن الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء كما يشاء هو نهج القرآن الكريم، ففي قصة زكريا عليه السلام حينما بُشِّر بأن الله تعالى سيرزقه غلاماً، وكان قد بلغ من الكبر سن اليأس والجفاف الذي لا يكون معه ولادة وإنجاب، وكانت امرأته عقيماً لا تلد، فتعجب من أمر نفسه أن يخرج منه ومن زوجه ولد ـ وهما على حالهما التي لا يظهر فيها سبب قريب أو بعيد لإخراج الولد منهما، وعبَّر عن تعجبه بما حكاه الله عنه في قوله: ﴿ قال ربِّ أنَّى يكوْنُ لي غلامٌ وَكَانَت امرأتي عَاقِراً وَقَد بَلَغْتُ من الكِبَرِ عتيًّا ﴾[١] فجذبه الله من دائرة الأسباب والتقيُّد بالسنن العامة، إلى حظيرة الإطلاق، والسنن الخاصة، فقال له: ﴿ كَذَلِكَ الله يَفْعَلُ ما يَشَاء ﴾ أي شأن الله في

(١) سورة مريم، آية: ٨.

الإيجاد والإبداع فوق الأسباب ومتعارف العقول والعادات، وكيف تقيده الأسباب والسنن وهو خالقها ومبدعها، فقدرته تعالى على إبراز الأحداث من الغيب إلى الوجود العيني لا تتقيد بأسباب جرت بها السنن العامة في نظام الكون، لأن وراء هذه الأسباب والسنن العامة أسباباً وسنناً خاصة يفعل بها ما يشاء كما يشاء متى شاء، ولذلك زاد نبيه زكريا تلطفاً في جذبه إلى حظيرة الإطلاق، فنبَّهه إلى ما هو أعظم من إيجاد الولد منه ومن زوجه وهما على حالهما من البعد عن الإنجاب فقال له: ﴿ هُوَ عليَّ هَينٌ وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شيئاً ﴾.

(٢) قصة مريم وولادتها عيسى من غير أب

وفي قصة مريم عليها السلام حينما بُشِّرت بالولد من غير أب عجبت من أمر نفسها أن تأتي بولد، وليس لها زوج يكون منه الولد في مجرى العادة ومتعارف العقول، وعبَّرت عن عجبها بما حكى الله عنها: ﴿ قالت رَبِّ أنَّى يَكُونُ لي وَلَد وَلَمْ يَمْسَسْني بشر ﴾[1] فنبَّهها الله تعالى إلى مطالع جلاله وعظيم قدرته حتى لا تقف مع الأسباب والسنن العامة ومتعارف العقول ومجريات العادة، فقال لها: ﴿ كذلك الله يَخْلق ما يشاء ﴾ أي أن شأن الله تعالى ألا تتقيد قدرته في إيجاد ما يشاء بما تعرفه العقول وتعهده العادات من أسباب، وإنما مرد أمره في الخلق والإبداع إلى قضائه، فإذا قضى الأمر كان ما قضاه بكلمته وحكمته ﴿ إذا قضى أمراً فإنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾.

(٣) قصة إبراهيم وزوجه سارة

وفي قصة إبراهيم عليه السلام وزوجه أم إسحاق عليه السلام لما بُشِّر بالولد من زوجه العجوز العقيم، وهو شيخ كبير عتا عن الإنجاب، عجبت امرأته من أمرها وأمر زوجها فرحة ضاحكة من شدة سرورها بالبشرى، وقالت معبِّرة عن عجبها لوقوفها آنئذ مع الأسباب والسنن العامة: ﴿ءَأَلِدُ وأنا عَجُوْز وَهَذا بَعْلي شَيْخَاً إن هَذَا لشيء عَجيْب ﴾[2] فنبهها الملائكة المبشرون إلى أن هذا الإنعام من أمر الله الذي لا يتقيد بظواهر الأسباب ولا ينبغي التعجُّب من أمر الله، لأن أمره جل شأنه فوق الأسباب والسنن العامة،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٤٧.

(٢) سورة هود، آية: ٧٢.

ومتعارف العقول، ومجاري العادات في الكون لأن الله تعالى يفعل من الأسباب والمسببات ما يريد.

فعلى الذين يؤلهون العقل، ويتعبَّدون لمعارفه، ويجمدون مع متكرر العادات أن يكفكفوا من غلوائهم في تفسير الأحداث الكونية في الإنسان وفي غيره من سائر الموجودات، فما اتضح لهم تفسيره واطمأنوا إليه قبلوه ـ بحمد الله ـ وإن لم يتضح لهم تفسير بعض الأحداث لاذوا بالتواضع العلمي، ووضعوا نصب أعينهم هذا القانون الإلّهي المعبِّر عن أصدق ما وصل إليه العقل والعلم، وما يمكن أن يصلا إليه ﴿ وما أُوتِيتُم مِن العِلْمِ إلا قليلا ﴾.

إن العقل والعلم يقرران مبدأ التواضع في البحث الكوني

وهم يعلمون أن العقل والعلم عجزا عن تفسير كثير من الحقائق الكونية، وهما دائبان على البحث ورائها، عساهما يصلان إلى شيء مما عجزا عنه.

وحسب الباحثين أن يقفوا مع العقل والعلم في أوج توثباتهما الفكرية والتجريبية ليعلموا ـ إن كان هناك وسيلة للعلم ـ ما شأن الحياة بأعم معانيها في الكون؟ وماذا بلغ العقل والعلم من الكشف عن حقيقتها ما هي؟ وما كنهها، والحياة بها كل شيء في الوجود، أو هي كل شيء، فإذا كان العقل والعلم لم يصلا إلى معرفة حقيقتها في عمومها، ولم يصلا إلى حقيقتها في الإنسان خاصة، فكيف يعطى العقل والعلم حق التحكم في تفسير الأحداث الدينية التي تستند إلى أمور غيبية لا تزال محجبة عنهما؟.

للعلم والعقل مكانتهما العظيمة ولكن في غير تبجّح وجموح

إن العلم والعقل لهما مكانتهما التي لا تجحد، وبهما تتقدم الحياة نحو الكشف عن المجهول، وعلى المعتصمين بالعلم والعقل أن يسيروا معهما في حدود مبلغ أمرهما، دون أن يتجاوزوا بهما طبيعتهما في تفسير الأحداث.

ونكرر ما قدمنا أن الفيصل في قبول ما يُروى من أحداث كونية، وأعاجيب دينية خارقة لنواميس السنن العامة في الكون مما جرى على أيدي أنبياء الله ورسله هو صحة الرواية صحة لا تتعرض لطعن في النقل أو تجريح في السند، ثم بعد ذلك وجوب التسليم بما صح الإخبار به، ورد إبداعه إلى الله تعالى، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته.

وقصة شق صدر محمد ﷺ سبيلها سبيل هذه الأحداث الكونية الدينية فما شأن الروايات التي تحدثت بها؟ وما مكانها من الاعتبار عند أهل النقد والتمحيص؟ .

تُروى هذه القصة في كتب السِّير والمغازي، ودواوين الحديث والسنة، وكتب التاريخ والطبقات بروايات مختلفة في زمانها ومكانها، وطريقة وقوعها، والحالة التي وقعت بها.

رواية شق الصدر الأشرف في حديث حليمة من رواية ابن إسحاق

ويشبه أن تكون كتب السير متفقة على رواية محمد بن إسحاق عن ظئر رسول الله ﷺ حليمة السعدية التي سقنا طرفاً منها عند الحديث عن رضاعه ﷺ، وفيها تتابع حليمة الحديث فتقول ـ كما في رواية الطبري وابن هشام، وابن الأثير، وابن كثير ـ : فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه في بَهْم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاه وشقَّا بطنه وهما يسوطانه، فخرجت أنا وأبوه نشتد فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو. . . قالت حليمة: فرجعنا إلى خبائنا وقال لي أبوه: والله يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك، فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي عليَّ، وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك، كما تحبين، قالت: ما هذا بشأنك فاصدقيني خبرك!! قالت حليمة: فلم تدعني حتى أخبرتها الخبر، قالت: قد تخوفت عليه الشيطان؟ فقلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإن لبنيَّ لشأناً.

تعقيب على هذه الرواية

هذه الرواية ساقها بنصها الإمام ابن كثير في تاريخه، وهو مؤرخ ناقد محص وقد عقب عليها ـ كما قدمنا ـ بقوله: وهذا الحديث قد رُوي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي، وليس هذا التعقيب تصحيحاً فنياً، فالشهرة والتداول بين أهل السير

والمغازي ليست عنواناً على صحة الحديث فنياً، وكتب السيرة والمغازي لم توصف عند أهل الشأن بالصحة، وربما كان أمرها عندهم أخف في درجات القبول لما فيها من الجمع بين الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والقوي والضعيف، وطريق تمييز هذا من ذاك هو الرجوع إلى كتب الحديث المعتبرة وأقاويل رجال النقد في رواة الحديث وسنده، وقبل ذلك لا يصح الحكم على ما فيها والأخذ به أو رفضه ورده.

رواية أخرى لابن إسحاق بعضها في الصحيح

وهذا هو محمد بن إسحاق صاحب هذه الرواية المشهورة المتداولة يروي من طريق آخر كما تنقله عنه المصادر المتقدمة نفسها فيقول: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بَهْم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقَّا بطني ثم استخرجا قلبي فشقَّاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه ردَّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم. ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم. قال ابن كثير معقباً على هذه الرواية: وهذا إسناد جيد قوي.

وإذا كان هذا إسناداً جيداً قوياً فالرواية به رواية جيدة قوية، وهي لا تختلف عن الرواية المشهورة المتداولة في أصل وقوع قصة شق الصدر بصورة معجزة خارقة لجميع ما عرف الناس من سنن الحياة العامة، فهي عاضدة للرواية المشهورة، وتزيد هذه الرواية أنها حديث مرفوع يحدث به النبي ﷺ عن نفسه.

هذه الرواية شاهد صدق على وقوع شق الصدر الأشرف

ومن مجموعهما نرى أن شق الصدر الشريف كان حادثاً واقعياً شهده الوجود بصورته المعجزة في بادية بني سعد، وأنه كان في أول أدوار طفولية محمد ﷺ وهو عند ظئره، والرواية المشهورة أوضح في ذلك، لأنها صرَّحت

أنه ﷺ ذهبت به ظئره لزيارة أمه بعد اكتمال رضاعه في سنتين وأنها استردته معها فردّ، وبعد رده بأشهر وقع حادث شق الصدر، فهو على اليقين بالنظر لهذه الرواية كان في أوائل العام الثالث من عمره ﷺ، وقد ذكر القسطلاني في المواهب أن القصة وقعت بعد مقدم ظئره به راجعة من عند أمه بشهر أو ثلاثة.

وما في الروايتين من اختلاف وراء ذلك فهو اختلاف الإجمال والتفصيل وليس بضارٍ شيئاً في جوهر الموضوع.

وقد جاءت قصة الشق في رواية مطوَّلة جداً من حديث شدَّاد بن أوس رواها أبو نُعيم في الدلائل ورواها الطبري في التاريخ والقسطلاني في المواهب وجمع غيرهم، وقد نقد هذه الرواية ابن كثير من جهة سندها فقال: وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح هذه القصة مطولة جداً، ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به، فهذا نقد فني يدل على أن ما ثبت بغير هذا السند صحيح الوقوع.

رواية أخرى لا مطعن فيها

وقد جاءت القصة أيضاً في حديث رواه أبو نعيم والإمام أحمد وصحَّحه الحاكم عن عتبة بن عبدالله أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْم لنا ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البَهْم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقَّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوَين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرَّاها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْه، فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخرّ علي بعضهم، فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها

بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبّس بي فقالت: أعيذك بالله، فرحلتْ بعيراً لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام.

تعقيب وتصويب

وهذه الرواية تتفق مع الروايتين السابقتين في جوهر الواقعة، وهو أنه ﷺ شق بطنه وأخرج منه قلبه فشق وغسل ثم أعيد، وخيط عليه وختم بخاتم النبوة، وذلك في أول طفوليته وهو عند ظئره في بادية بني سعد ابن بكر.

وتختلف معهما فيما حكته من أنه ﷺ هو الذي ذهب إلى ظئره وقد فَرِق مما وقع له فرقاً شديداً حتى خشي أن يكون قد لبّس عليه، فسكّنت ظئره روعه، وأعاذته بالله مما أشفق على نفسه منه، وأما الروايتان السابقتان فلم تعرض إحداهما لهذا ولعله من باب الاختصار، وعرضت له الرواية المشهورة فذكرت أن الذي ذهب فأخبر أمه هو أخوه من الرضاع وأن ظئره هي التي خافت عليه وردته إلى أمه بمكة.

أصح الروايات في القصة

قال ابن كثير: وثبت في صحيح مسلم من طريق حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان... فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء. فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعَون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

هذه رواية ارتفعت عن جميع ما سبقها من جهة علو السند وصحته وقوته، فحسبك بمصدرها أحد الصحيحين، وحسبك برواتها أنهم ممن اتفق على توثيقهم والرواية عنهم الشيخان البخاري ومسلم، فلا سبيل إلى التشكيك في وقوع القصة بعدها، وهي واضحة في أن القصة وقعت والنبي ﷺ في طفوليته يلعب مع الغلمان عند ظئره في بادية بني سعد.

رواية متسقة الأسلوب

وروى عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائده على مسند أبيه عن أبي هريرة قال: يا رسول الله، ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة؟ قال: إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذْ أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأخذاني فألصقاني لحلاوة القفا، ثم شقَّا بطني، وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري فيما أرى مفلوق، لا أجد له وجعاً، ثم قال: اشقق قلبه، فشق قلبي، فقال: أخرِج الغلَّ والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به، ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئاً كهيئة الفضة، ثم أخرج ذروراً كان معه فذرَّ عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغد، فرجعت بما لم أغدُ به من رحمتي للصغير ورقتي على الكبير.

تعقيب

وفي هذه الرواية مخالفة جوهرية في الزمن والسن التي كان عليها محمد ﷺ وقت وقوع القصة، فهي صريحة في أنها وقعت وسنه عشر سنوات، ولم يقل أحد أنه كان وهو في هذه السن لا يزال في بادية بني سعد، فالصحراء المذكورة هنا هي غير صحراء السعديين الذين كان مسترضعاً فيهم، فالمخالفة بين هذه الرواية والروايات السابقة في الزمان والمكان، ومن ثم جزم بعض العلماء بتعدد القصة، ولا نميل إلى مثل هذا.

ومن الروايات المحددة لسنه ﷺ وقت وقوع القصة رواية الواقدي عن أصحابه كما يرويها تلميذه محمد بن سعد في الطبقات قال: مكث عندهم - بني سعد - سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته، فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكوننَّ له شأن، فرجعت به، ولما بلغ أربع سنين كان يغدو مع أخيه وأخته في البَهْم قريباً من الحي، فأتاه الملكان هناك فشقا بطنه واستخرجا علقة سوداء فطرحاها وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال أحدهما للآخر: دعه فلو وُزِن بأمته كلها لوزنهم، وجاء أخوه يصيح بأمه: أدركي أخي القرشي، فخرجت أمه تعدو ومعها أبوه فيجد أن رسول الله ﷺ منتقع اللون، فنزلت

به إلى آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره، وقالت: إنا لا نرده إلا على جدع أنفنا، ثم رجعت به أيضاً فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً.

فهذه الرواية تخالف سابقاتها في تعيين سن محمد ﷺ وقت حدوث شق الصدر بأربع سنوات، وتجعله متصلاً بقصة رضاعه في بني سعد وتجعل باديتهم مكاناً للقصة، فهي موافقة للرواية المشهورة المتداولة فيما عدا تعيين السن، فالرواية المشهورة حددته بسنتين وأشهر، ورواية زوائد المسند حددته بعشر سنين، وهذه بأربع سنوات.

وقد وقف العلماء عند هذا الاختلاف بعد اطمئنانهم إلى سلامة السند في الروايات التي سقناها أن يدخله طعن ينزل بواحدة منها إلى الوضع والكذب، ولكنها تنتهي إلى درجة من الصحة والحسن متفاوتة القوة، فرجَّح فريق منهم بعض الروايات على بعض وجزم بأن القصة وقعت مرة واحدة في طفولية محمد ﷺ، وإلى ذلك جنح القاضي عياض، وهو إمام ضليع الإمامة في الحديث والسيرة ومعرفة الأسـانيد، وعارضه الإمام السهيلي مرتضياً أن القصة وقعت مرتين. قال ابن حجر في الفتح: وهو الصواب، ولعل مرد ذلك ما في الروايات من اختلاف جوهري في زمن القصة ومكانها مع عدم ضعف السند ضعفاً يقتضي إهداره وطرحه، وإلى تعدد القصة أكثر من مرة مال القسطلاني في المواهب فقال: وهذا الشق روي أنه وقع له عليه الصلاة والسلام مرات في حال طفوليته إرهاصاً، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص.

هذه الروايات والنقول والأقاويل كلها تدور على أساس أن شق الصدر وقع له ﷺ قبل بعثته بالرسالة، وأن ذلك كان في طفوليته فيما بين السنة الثالثة إلى السنة العاشرة من عمره المبارك، وأصح ما في ذلك وأهواه بالقبول رواية صحيح مسلم، وهي على إجمالها واضحة في إثبات القصة ثبـوتاً لايعتريه ريب ولا لبس، وواضحة في أن ذلك كان إرهاصاً معجزاً ولا يكون كذلك إلا إذا كان في حال اليقظة على الطريقة التي لا تبقى معها حياة في العادة ومتعارف الناس.

رواية تشعر بأن الأمر كان رؤيا منامية ووجه تأويلها وردها إلى الروايات الصحيحة

غير أن بعض الروايات جاءت فيها ألفاظ ربما كانت مشعرة بأن الأمر في القصة لم يخرج عن كونه رؤيا منام رآها رسول الله ﷺ، فقد جاء في رواية ابن عساكر من حديث عروة بن الزبير عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يارسول الله، كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي؟ قال: يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة، وساق الحديث حتى ذكر شق الصدر وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه إلى أن قال النبي ﷺ، فما هو إلا أن وليّا عني فكأنما أعاين الأمر معاينة، فهذا ظاهر في أن الأمر لم يكن معاينة محققة، ولكنه كان شبيهاً بالمعاينة من جهة، وفيه جميع ما جرى له وعدم ذهاب شيء عن وعيه منه، وفي هذه الرواية تعيين لمكان القصة وأنها كانت ببعض بطحاء مكة، ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أن هذه قصة أخرى غير قصة بادية بني سعد التي اتفق عليها الرواة، ولعل هذه كانت في مبدأ النبوة، وكان أول ما بدىء به ﷺ الرؤيا الصادقة، فتكون من هذا القبيل، وليس لهذه الكلمة الواردة في هذه الرواية قوة ردِّ جميع الروايات المتقدمة بما فيها رواية صحيح مسلم، وكلها صريحة في أن القصة وقعت وقوعاً مادياً في اليقظة من قبيل الإرهاص والإعجاز. على أن مكان العناية في الأمر أن شق الصدر معجزة من معجزات محمد ﷺ التي لم يقصد بها إلى التحدي ولم تجعل برهاناً على إثبات الرسالة، وأن النبي ﷺ لم يخبرها إلا جواباً لسائل، وهذا القدر ثابت في روايات توشك لكثرتها أن تجعل الحادث متواترة الحديث تواتراً معنوياً.

ومما يجزم الشك ويرفع الاشتباه ويزيل الالتباس ما رواه البخاري في حديث الإسراء عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، وهذا يطابق في المعنى حديث أبي ذر المتقدم.

وقد تكلم العلماء فأوسعوا في شرح ألفاظ القصة، وذكروا حكمتها وحكمة كل فعل روي فيها من الغسل بماء زمزم أو غيره، ونزع العلقة وذر السكينة وإدخال الإيمان والحكمة والرأفة والرحمة بما لا يدع مجالاً لمؤمن في

حقائق التاريخ لا تقيم وزناً لمكابرة «العقلانيين»

التوقف عن قبول القصة والإيمان بها، ولا عبرة بعدم اطمئنان المستشرقين وجماعة «العقلانيين» من الباحثين المعاصرين إلى القصة ووقوعها، فلو لم يكن في رواياتها إلا رواية الشيخين البخاري ومسلم لكانت في أعلى مراتب الصحة من ناحية السند. وأما غمز القصة بطفولية النبي ﷺ واستعظام ما حدث به على سنه في الرواية، فهذا من قبيل الإيهام المضلِّل، لأن تحديد السن لم تتفق عليه الروايات، على أننا نسأل عبيد الاستشراق والمستشرقين: ما قولكم في رواية البخاري وهي صريحة في أن القصة وقعت بعد النبوة ليلة الإسراء؟ والحديث معكم في وقوع القصة لا في زمانها ومكانها، لأن ذلك تحقيق تاريخي لا يضير البحث ألاّ تؤمنوا به، وكيف يستعظم تحدثه ﷺ على سنه، والأمر كله من قبيل الإعجاز؟ على أن تحدثه كان وهو نبي رسول، إذ سُئل من بعض أصحابه فأجاب بما جاء في الرواية.

والذي يعني البحث أن قصة شق الصدر حادث كوني ومعجزة عجيبة وقعت لنبينا محمد ﷺ وجاءتنا بها الروايات الصحيحة الثابتة، ولا يردها تشكيك مستشرق ولا مستغرب ولا (متعوقل) ولا متعالم، ولم يتخذ منها النبي ﷺ آية للتحدي والبرهنة على صدق رسالته كغيرها من المعجزات الكونية والخوارق العجيبة قبل البعثة أو بعدها، ونحن نعلم أن هذا اللون من الآيات المعجزة لو لم يذكر في سيرة نبينا محمد ﷺ لم ينقص من جلالها شيئاً، وأن معجزته العظمى الخالدة التي حملت بين طواياها التحدي بها هي القرآن العظيم، ولكن حقائق التاريخ يجب أن يرتفع بها البحث إلى قدس الحق بعيداً عن التعصب الحقود والتقليد الأبله، والتأثر بالنزعات المجافية لطبيعة الدين والإيمان به، وعلى الذين يؤرخون لمحمد ﷺ ويكتبون في سيرته أن يجعلوا نصب أعينهم أن محمداً ﷺ نبي من أنبياء الله ورسول من رسل الله، وأن عظمته في نبوته ورسالته لا في عبقريته وبطولته، فهو بالنبوة والرسالة قد سما على العبقرية والبطولة، وإنما فضله على إخوانه الأنبياء والمرسلين بما منحه الله تعالى من فضل في شريعته التي ختم الله الشرائع بها، وجعلها جامعة لجميع ما جاءت به الشرائع المتقدمة من خير وإصلاح وتهذيب مع زيادة ما يقتضيه تقدم الإنسانية في تفكيرها وعقلها وروحها

عظمة محمد ﷺ في رسالته الخالدة

وضميرها. ولعل هذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم بعد أن ذكر أُولي العزم من الرسل في آية ﴿ وَتِلْكَ حجَّتُنَا آتَيْنَاها إبْرَاهِيم عَلَى قَوْمِهِ ﴾ فقال تعالى: ﴿ أولئك الّذيْنَ هَدَى الله فبهداهم اقْتَدِه ﴾ فهُدى الجميع هُدى لمحمد ﷺ، فهو الجامع لما تفرق في جميع الأنبياء والمرسلين من الفضائل والمحامد، وإليه ينتهي خيرهم، وفي شريعته تنطوي شرائعهم، فهي خاتمة الشرائع وهو خاتم النبيين وإمام المرسلين.

محمد صلى الله عليه وسلم
في طفولته

لعل التصور المقارب للواقع التاريخي يستطيع أن يسعف القلم ليرسم صورة موجزة مقاربة لمطلع حياة طفولية نهدت في لفائف اليتم لأكرم من ضمه مهد في حياة البشرية، حتى يستشف البحث من وراء ذلك حقائق الوجود الواقعي في مشهد الحياة لهذه الشخصية الكريمة التي غيَّرت معالم الحياة في تاريخ البشرية.

يُتْم محمد ﷺ نعمة عظمى في طي محنة مهذِّبة

تولى الله أمر محمد ﷺ منذ أول لحظة حظي فيها الوجود بإشراق طلعته، فنشأه تنشئة جمع له فيها خصائص الفطرة الإنسانية في أعلى مراتبها وأرفع درجاتها، فلم يكله إلى أب يكفله ويربيه، وللأبوة أثرها على الطفولة وتوجيهها في الحياة، ومن ثم كان فقد محمد ﷺ أباه قبل أن يتنسم نسيم الوجود في هذه الدنيا العريضة نعمة من أجلِّ نعم الله، فهو لم يشهد أباه ولم يعرف عنه وعن شمائله وأخلاقه وعاداته ووسائله في عيشه إلا ما حدثته به أمه عنه في طفوليته وهي كسيرة القلب حزينة الفؤاد لفراق ذلك الزوج الحبيب والأب الكريم، ومحمد ﷺ يوم أن عقل هذا الحديث وتصور منه صورة أبيه كان قد أخذ سمتاً في الحياة لا تغيره الأحاديث، ولا تؤثر فيه الصور الذهنية المركبة من مجموعة قصص عمن كان وما كان؛ إلا كما يؤثر بريق التاريخ اللامع في توجيه أمة تكنفها عناصر الحياة بدوافعها الحية المتدفقة، وأي أثر لهذا البريق غير الإعجاب بالماضي الذي ذهب ولن يعود؟.

سوير لعاطفة الأمومة المتجاذبة بالألم والأمل

ولد محمد ﷺ يتيماً، ولم يستشعر عطف الأبوة يفيض به قلب والد فطره الله ـ كغيره من الوالدين ـ على لون من الحنان لم يعطه الله غير قلوب

الوالدين، وللطفولة إلهام تقرأ آياته في نظراتها الحالمة، وبسماتها الساهمة، وفي هذا الإلهام ضرب من الإدراك الخافت الذي يلمس به الطفل حنان الأبوة وعطفها، فترسم على فمه بسمة صادقة وعلى عينيه نظرة صافية صفاء الفطرة الخالية من الرسوم والأصداء، ولقد ارتسمت على فم محمد ﷺ تلك البسمة الصادقة، وطافته بعينيه تلك النظرة الصافية، ونظرت إليه أمه آمنة بنت وهب- وكانت قريبة عهد بفراق زوجها الحبيب- فجدد نظرها إليه في نفسها حزناً مبرحاً وألماً كظيماً، فرأت على ثغره ابتسامة متوهجة وفي عينيه تطلّع إلى السماء، ولعل خيالها المصور أسعفها فأراها في وجه وليدها المحبوب وجه والده الحبيب، وتنازعتها عاطفتان: عاطفة الوالدة وقد أشرق عليها وجه وليدها وقرة عينها، وعاطفة الزوجة فقدت زوجها الحبيب، ولكنها تتمثله وترى وجهه في وجه هذا الوليد الحبيب، وتغلبت عاطفة الأمومة الحانية على عاطفة الزوجية الودود، وضمت آمنة وليدها إلى صدرها، واختلطت عليها الأحاسيس واستنار وجهها وحن ثديها، فأرضعت ابنها، فكان لبنها أول غذاء غُذي به، ونمت عليه خلاياه، ثم تناولته بين يديها ثويبة أم مسروح جارية عمه أبي لهب فألقمته ثديها فرضع منه ما شاء من ري وشبع، وظل بين أمه وظئره الأولى مدة لم يذكر التاريخ تحديدها حتى أهَلَّ على مكة موسم المراضع، فقدم السعديات إليها يطلبن الرُّضَّع وفيهن حليمة بنت الحارث فكان محمد ﷺ نصيبها وكانت هي من حظه، وحملته وارتحلت به إلى باديتها، وكان الصدر الذي يضمه ليس صدر آمنة أمه، ولكنه صدر حليمة ظئره، وفرق كبير بين العاطفتين: عاطفة الأمومة الوالدة، وعاطفة الامومة المرضعة، فحرم حنان أمه بعد أن مضى القدر فحرمه عطف أبيه.

يُتْم بطرفيه في بيئة توحي بأقصى وثبات العقل في تعرف أسرار الحياة والكون

ذلك لون من اليتم الجديد، قضت به العادات المتوارثة فيها بين العرب، فهو قد حرم عاطفة الأبوة المشفقة، وبوعد من عاطفة الأمومة الحانية، ونشأ بعيداً عن بلده وقومه، وبلده حاضرة البلاد العربية، لها من طبيعة الحواضر ما يسمها بميسم اللين والدعة، وقومه أهل شرف وسيادة في بلده، وللشرف والسيادة آثارهما على الأخلاق والتطبُّع وتوجيه الغرائز والسلوك، نشأ في بادية بين قوم من العرب عرفوا بصفاء البيان، وفصاحة

اللسن، ضاق عيشهم وعصفتهم السنون، يعيشون في بادية ضاحية الأديم، تصهرها الشمس إذا أسفرت، وتتلألأ في سماء لياليها النجوم الزواهر، ويضيئها القمر المنير، ويزمجر في أرجائها الرعد، ويلمع في آفاقها البرق، وتهدر في وديانها العواصف وتطبعها الحياة بطابع قاس متقلب، تنتشر على صفحتها هنا وهناك خيام يأوي إليها فئام من الناس إذا هجع الليل، أو هجّر النهار، يسرحون بالبهم يرتادون لها المراعي وظلال الشجر وأعداد المياه ومجاري الوديان ومجتمع الأنهار والغُدُر، ومساقط الغيث ومنابت الكلأ، وذلك هو كل ما يشغل أهل هذه البيئة، وفيما سواه فراغ لا يملأه من العمل كثير ولا قليل، فهي بيئة تدعو إلى التأمل والتفكر، وتقليب النظر في ملكوت الله تعالى ومظاهر الوجود. ما وراء هذا الفضاء الأفيح؟ وما هذه القبة الزرقاء المتعاظمة في سعة آفاقها؟ وما هذه السابحات المتلألئات في أديمها؟ وما هذا الجرم الفضي الذي يبعث على هذه الأرض بأنواره المظللة بنسائم الأسحار؟ وما هذا اللهب المنبعث مع خيوط الضياء الوهاج من هذا الجرم النهاري السابح في آفاق السماء؟ وما الذي يمسك ذلك ويديره على هذا النظام المحكم البديع؟ وما هذا الصوت الهائل المزعج الذي يصحب دائماً الغيث مبشراً أو نذيراً؟ وما هذا الضوء الخاطف بلمعانه في أطراف السماء؟ وما هذه العواصف المزمجرة؟ وما الذي يهيجها ويحركها؟ وما هذه النباتات والأشجار في أشكالها وألوانها وروائحها وطعومها؟ من أين جاءت وكيف نبتت؟ ثم ما أنا؟ ومن أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ ثم ما هذه الحياة؟ وما هذا الوجود؟ ما مبدؤه؟ وما غايته؟ وهل فوقه قوة تدبره؟ وإرادة قاهرة تحركه؟ وما حقيقة تلك القوة المدبرة الحكيمة، وأنّى لنا بمعرفتها وأسلوب حكمتها وتدبيرها؟

انفعال خواطر محمد ﷺ وتأثر فطرته بجلال الطبيعة وجمال الكون

كل هذه أسئلة لا بد أن تمر على خاطر من يقيم في بيئة مثل البيئة التي كانت مهداً لمحمد ﷺ في بادية بني سعد بن بكر، ولا بد أن تنفعل لها الخواطر التي تمر بها، وتتأثر بها الفطر المصقولة التي جعل الله لها قابلية الانطباع لما يمر عليها، أما النفوس الصدئة والفطر الكثيفة فليس لها من ذلك الانفعال شيء، فكم من نفوس شهدت جلال الصحراء وجمالها كما شهدها

محمد ﷺ في طفوليته، ولكن قليل جداً هم الذين تأثروا بذلك الجلال الوجودي والجمال الكوني، وانفعلت له فطرهم كما تأثر محمد ﷺ وهو طفل لم يجاوز الخامسة من عمره، وحتى هذا القليل لم يكتب له طرف مما كتب التاريخ من تسبيحات الفكر في محاريب الوجود، بل ضلوا وضل ذكرهم في متاهات الصحراء، وبقي محمد ﷺ وحده على ربوة الوجود يجاذبه هذا الجلال ترانيم التقديس في صور من التأملات والتفكير.

رجع محمد ﷺ من بادية بني سعد إلى مكة بعد أن بلغ من عمره سنوات هي سن تبلغ فيها الطفولية أول مراحل الشباب، والشباب حماسة ونشاط وقوة وتطلع إلى معرفة كل مجهول، وأي شيء في حياة الصحراء مجهول؟ أليست الحياة فيها مكشوفة عريانة؟ الأرض وما عليها من جبال ووديان وحيوان ونبات، والسماء وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب، والجو بعواصفه وأمطاره ورعوده وبروقه، كلها أمور مرئية مشهودة، ولكن ما مبلغ علم الناس بها، لا شيء سوى هذه الظواهر المكرورة في كل وقت وحين، أما ما وراء ذلك فهو محجب مغلق، فأي شيء إذاً في حياة الصحراء معلوم؟.

الحيرة الفكرية أمام مظاهر الطبيعة وجلال الكون هي الآية الأولى في سِفر الوجود أمام محمد ﷺ

هذه الحيرة الفكرية هي الآية الأولى التي قرأها محمد ﷺ في كتاب الوجود على صفحة الصحراء، وهي التي رجع بها إلى مكة االسادرة في غي وثنيتها، السكرى بخمر أصنامها، المحجوبة عن التفكير في جمال الكون بتجارتها وأسواقها ومواسمها وأعيادها وعاداتها، فنظرت إليه ونظر إليها، نظرت إليه بمنظار وثنيتها فلم تره يمشي إلى أصنامها لاهياً كما يمشي أطفالها لاهية عابثة، بل رأت فيه طفلاً ينطوي على نفسه وكأنه يحمل من هموم الدنيا وأحزانها ما صرفه عن اللهو واللعب.

وارحمتا لهذا الصبي إنه يتيم، يرى لداته من الأطفال يرتمون في أحضان آبائهم فيضمونهم إلى صدورهم فيملأه الحزن ألّا يرى له أباً بين هؤلاء الآباء، كذلك فكرت مكة في نظرتها إلى محمد ﷺ في صمته وعزلته عن معابثها وملاهيها، ونظر إليها محمد ﷺ من خلال حيرته الفكرية، فرأى

صوراً هزلية، ورأى مسخاً للكرامة الإنسانية، ما هذه الأحجار المنحوتة؟ وما هذا الدوار بها؟ وما هذه القرابين؟ ولمن يتقرب بها؟ وفيم هذه الدماء المسفوكة؟ والمساكين غرقى؟ والفقراء جوعى لا يصلون إلى شيء ولا يصل إليهم شيء. ولكن ما حيلة محمد ﷺ وهو طفل في هذه الهامات الضخمة واللحى المسترسلة والرقاب الغليظة والأصوات المفزعة والمجد الزائف الموروث والشرف المؤثل؟! فهي التي تطوف بهذه الأحجار، وهي التي تدور وتتقرب، وهي التي تهذل وتمسخ، لو كان يسمع له لقال وتكلم، ولعله أن يكون.

وفي حياة محمد ﷺ الخاصة ما يشغله عن صخب مكة ولهوها العابث حول أحجارها وأوثانها، فليذهب إلى أمه ليسكن إلى ضمة صدرها وحنان قلبها، وقد كان يزورها مع ظئره فتخطف له الحديث خطفاً عن أبيه وأسرته وقومه وبلده.

حديث أم ثكلى إلى ولدها الحبيب

فأنت محمد بن عبدالله الكريم بن الكريم، أبوك أنضر فتيان مكة وأشبّها شباباً، وأعلاها ذكراً. هو الذي لم تنسَ مكة حادث فخره في قمة ذبحه، فأين هو؟ إنه.. وتخنق آمنة العبرة فلا تستطيع أن تمضي في الحديث، فينظر إليها وليدها الحبيب، فإذا هي سيالة بالعبرات المكتومة، فيرفع إليها وجهه النضير، أنتِ تبكين يا أماه؟ وتضم آمنة ابنها إلى صدرها ضمة توشك أن تطوي عليه جوانحها، ثم تعود إلى الحديث في طرف آخر منه. وهذا السيد العظيم الذي يلتف حوله الملأ من صناديد قريش يسمعون لقوله، ويبتدرون نظراته هو جدك شيبة الحمد عبد المطلب بن هاشم سيد الحرم وشريف مكة وكبير قريش. وهؤلاء الفتيان البهاليل المساميح حول هذا الشيخ في وقفة الإجلال له إنهم أعمامك وأخوة أبيك. وهؤلاء الصيد الأماجد الذين يملؤون السمع والبصر يغدون في طرقات مكة ويروحون في عنجهية واستعلاء إنهم قريش قومك وعشيرتك. وهذا البلد الأمين بلدك، فأنت ابن الأكرمين أهل الله وجيران بيته وسكان حرمه، تدين العرب بالطاعة لهم، وتسمع لقولهم وتعنو الجباه لحرمة بلدهم.

وعرف محمد ﷺ أنه يتيم وأن أباه ليس في غيبة لها أوبـة، ولكنه مضى إلى حيث لا يعود، ويخرج محمد ﷺ إلى حيث فراش جده في ظل الكعبة، فيلقى أعمامه حافّين حوله، ولما يخرج إليهم الشيخ العظيم، فيذهب ليجلس على مجلس جده ويأبى أن يجلس حيث أعمامه، فيهمّ أولئك الأعمام بتنحيته، ويلقاهم أبوهم في همّهم هذا فيأخذ بيد محمد ﷺ ويجلسه معه، ويمسح ظهره بيده ويظهر له رقة وحباً لم يكونا لأحد من ولده ويقول: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً.

سفر محمد ﷺ إلى يثرب ووفاة أمه
وهي عائدة به إلى مكة

رحلة وفاء وتعرّف وصلة رحم

ويرجع محمد ﷺ بعد مجلسه عند جده إلى أمه فتحدثه وتداعبه، وفيم يطيب الحديث بين آمنة وابنها الحبيب؟ إلا عن ذلك الراحل الأريب، ويتصل الحديث عن عبدالله وتختلس آمنة النظر إلى ابنها وفي عينيها عبرات، ويلمح محمد ﷺ وجه أمه تكسوه مسحة من الحزن الصامت وتلتقي عيناه بعينيها فتضمه إلى صدرها الحنون وتنسى أحزانها، وتقبل عليه في ابتسامة تعبر عن آمالها وأحلامها، وتخبره عن رحلة أبيه ووفاته والبلد الذي دفن فيه، وصلته بأهل ذلك البلد في شيء من التفصيل، فكأنما حنَّت نفسه إلى زيارة أقاربه في ذلك البلد الذي يحوي جدث أبيه، وكأنما صادف ذلك من نفس أمه رغبة موافقة ورأت في شبابه ـ وكان قد بلغ سنه ست سنوات ـ قوة على احتمال السفر، فتحملت به ومعه حاضنته أم أيمن التي أورثها له أبوه، فأزارته أخوال جده عبد المطلب، وهناك لعب مع لداته، ورآه يهود يثرب فتحدثوا عنه، وسمعتهم حاضنته فتوجست عليه منهم وأبلغت سيدتها فرحلوا عائدين إلى مكة، ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلاً من يثرب وقد بلغوا قرية «الأبواء» مرضت آمنة أم محمد ﷺ مرضاً بلَّغها الأجل، ودفنها هناك ابنها الحبيب وحاضنته أم أيمن وعادا على بعيريهما إلى مكة. قال ابن سعد في الطبقات: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه، وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة فأقامت به عندهم شهراً.

وفاة أمه ﷺ ودفنها بالأبواء وهي عائدة به إلى مكة

فكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أطم

ذكريات الطفولة لا تمحوها السنون

«قصر» بني عدي بن النجار بعد هجرته عرفه وقال: «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً كان يقع عليه» ونظر إلى الدار فقال: «هنا نزلت بي أمي» وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب، وأحسنت العَوْم في بئر بني عدي بن النجار».

وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه، فقالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: (هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته) فوعيت ذلك كله من كلامه، ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فقبرها هناك، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما، وكانت تحضنه مع أمه، ثم بعد أن ماتت، وقال القسطلاني في المواهب: وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه، وكان عليه السلام يقول: (أنتِ أمي بعد أمي).

نفثات حب يتنسمها القلم

لك الله يا سيدي يا رسول الله، خرجت في رفقة أمك الحبيبة شوقاً إلى زيارة بلد ضم جسد أبيك الذي لم يشهد إشراق طلعتك ولم تشهد شخصه في حياته، وكان قدر الله تعالى الحكيم رصداً لوالدتك في طريق عودتها بك إلى بلدك الحرام وجدك الشيخ العظيم، فجمع لك ربك يتم الأبوين، ليستخلصك بالتربية، ويصطنعك بالتأديب حتى تكون نشأتك ربانية وتأديبك إلهياً؛ فتتم لك النعمة وتعظم من الله عليك المنة، فتستأهل للخلود في آيات متعبدة متلوة آناء الليل وأطراف النهار ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيمًا فآوى. . . ﴾، فإذا اشتاقت نفسك الكريمة إلى توالي إتحاف الله لك بنعمة فلا يجولن بخاطرك، تلهفاً على ألطاف الملكوت أن ربك ودعك، ولا تتأسى لما يردده الجاحدون، فأنت الحبيب المحبوب، وأنت ربيب إحسان الربوبية منذ أن شرف الوجود بوجود نورك، فكيف يتركك ربك بعد مظهر الاصطفاء الأعظم وأنت فيه واسطة عقد الملكوت وروح الموجود، وما تركك وأنت بعدُ غلام في مكة لم تطالع من سفر الوجود إلا فاتحة الكتاب.

لك الله يا سيدي رسول الله، ألم يجدك ربك يتيماً فآواك إلى كنف عزته، وأي يتم أبلغ في النفس أثراً وأعمق في القلب ألماً من يتم يتلاحق فيه الأبوان قبل أن تشتد لصروف الحياة قناة الوليد؟ وأنت ذلك اليتيم الذي فقد أباه قبل وجوده، وفقد أمه في طلائع طفوليته ونماء عوده، لم تبك لفقد أبيك لأنك لم تكن لفقده شهيداً، ولكن أمك تموت على مشهد من عينك في بلد أنت فيه غريب، فوارحمتا لطفوليتك الغضة يهيضها فادح الأرزاء غربة، «ويتم» يلاحق يتماً. روى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت فيها ومحمد عليه السلام غلام يقع عند رأسها، فنظرت إلى وجهه ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كثير يفني، وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيراً وولدت طهراً.

أي أم محمد رسول الله ﷺ، أي سطر في كتاب الوجود أمليته على الكرام الكاتبين فنعّموا لك واستجابوا لقولك مؤمنين؟ وأية آية من سفر الخلود رتّلْتِها ساعة وداعك الدنيا الفانية وفيها ابنك الحبيب محمد ﷺ نور الوجود ورمز الخلود؟ وأي إلهام ألقى عليك هذه الكلمات في ساعة يعصر فيها الوجد قلب الحبيب، إنكِ قلتِ أنا ميتة وذكري باق، فقال الوجود: أجل يا أم محمد، وقلتِ: وقد تركت خيراً وولدت طهراً، فقالت السماء: نعم يا أم محمد، وكفاك ذكراً أنَّكِ أم محمد رسول رب العالمين، وكفاك فخراً أنكِ أم محمد أطهر المطهَّرين وسيد المرسلين.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم
في كفالة جده

صبابة جده به وحبه له

ودَفَن محمدٌ ﷺ أمه وعاد إلى مكة ومعه حاضنته وأمه بعد أمه السيدة البرة أم أيمن وقلبه ينفطر أسى وحزناً لفقد أمه التي كان يجد في أحضانها وأحاديثها ومناغاتها غذاء لطفوليته ونشوة لشبابه ، وتلقاه جده الشيخ المُلَقّى عبد المطلب فقرأ على صفحات وجهه أبلغ الحزن وأمضى الأسى، فرق له رقة لم يرقها على ولده، وصب به صبابة شديدة، وكان يقربه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان لا يأكل طعاماً إلا قال: عليَّ بابني . وكان يحرص عليه أشد الحرص لما كان يسمع من أهل الكتاب والمعتافين في شأنه. روى ابن سعد أن عبد المطلب قال لحاضنته أم أيمن: يا بركة لا تغفلي عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، وأن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة. وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب - وكانوا أهل عيافة وفطنة في معرفة الأثر والشيات الموروثة - احتفظ به - يعنون محمداً - فإنا لم نَرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء. وروى ابن سعد عن كندير بن سعيد عن أبيه قال: كنت أطوف بالبيت فإذا رجل يقول:

ربِّ ردَّ إلي راكبي محمدا   رده إليّ واصطنع عندي يدا

فقلت: من هذا؟ قالوا: عبد المطلب بن هاشم، بعث بابن ابن له في طلب إبل له ولم يبعث به في حاجة إلا نجح، فما لبثنا أن جاء فضمه إليه وقال: لا أبعث بك في حاجة. وروى ابن سعد من طريق خالد بن خداش

عن أبي مجلز قال: إن عبد المطلب، أو أبا طالب ـ شك خالد ـ لما مات عبدالله عطف على محمد ﷺ، فكان لا يسافر سفراً إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزله فأتاه فيه راهب فقال: إن فيكم رجلاً صالحاً، ثم قال: أين أبو هذا الغلام، فقال عبد المطلب، هأنذا وليه أو قيل: هذا وليه، قال، احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حسد، وإني أخشاهم عليه، قال عبد المطلب: ما أنت تقول ذاك ولكن الله يقوله، فرده، قال: اللهم إني أستودعك محمداً ثم إنه مات.

وذكرنا لهذه الرواية هنا ترجيح لجعلها خاصة بعبد المطلب لأنه كان أول كافل لحفيده بعد وفاة أبويه الكريمين، وقد مات عبد المطلب ورسول الله ﷺ غلام لم يجاوز الثامنة من عمره، وعبد المطلب هو الذي شهر بهذه الفواضل التي ذكرت رداً على الراهب في قوله: إن فيكم رجلاً صالحاً، وكان أبو طالب ـ مع شرفه في قومه ـ عائلاً لا تقوم أسباب عيشه بمثل ما كان يقوم به عبد المطلب من المكارم. وأما عمه أبو طالب فقد عاش حتى شرّف الله محمداً ﷺ برسالته ورأى مطالع الدعوة وكانت له في حمايتها قدم راسخة.

وفاة عبد المطلب
وأثرها في نفس محمد ﷺ

بقي محمد ﷺ في كفالة جده عبد المطلب بعد وفاة أمه يرعاه الله ويكلأه بكلاءته ويحفظه بعنايته نحو من سنتين؛ لأن وفاة أمه كانت وهو في السادسة من عمره على أرجح الروايات، فلما بلغ الثامنة كان جده قد نيف على المائة في أشهر الروايات، وحضره أجله فأوصى بالنبي ﷺ إلى عمه أبي طالب يحفظه ويحوطه لأنه كان شقيق عبدالله أبي رسول الله ﷺ، وقد سُئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال «نعم، أنا يومئذ ابن ثماني سنين» وقالت حاضنته أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب.

وكيف لا يبكي محمد عليه السلام وقد فقد بفقده جده عبد المطلب سيد قريش وشريفها وهو في طفوليته التي هي في مسيس الحاجة إلى اليد الحانية والنفس العاطفة والقلب المشفق، وكان قد لقي في جده كل ذلك وأكثر منه ـ الشخص الذي ملأ فراغ الأبوة والأمومة من حياة محمد ﷺ في هذه المرحلة التي تتغذى فيها الطفولية بالعواطف الصادقة والوجدانات المفعمة بالحنان والرحمة.

إن حياة عبد المطلب كانت في هذا الدور من حياة محمد ﷺ المهد الدافىء المظلل بظلال الأبوة الرحيمة والأمومة الوالهة، وقد أنزله من نفسه منزلاً لم ينزله أحداً من ولده، يحوطه بحبه ويرمقه بعطفه ويقدمه على بنيه، ويلازمه صبابة به فلا يفارقه في سفر أو إقامة، ويكون معه في نومه ويقظته لينسيه ألم اليتم ويمسح عنه الأحزان.

إن هذه الدموع المتحدرة من عيني محمد ﷺ وهو يودع جده العظيم في سفره الأبدي آيات من كتاب الوفاء ترتلها نفسه القديسة في صمتها الحزين.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم
في كفالة أبي طالب

أبو طالب يتأسى بأبيه عبد المطلب في حفاوته وحبه محمداً ﷺ

أوصى عبد المطلب عند موته إلى ولده أبي طالب أن يكفل محمداً ابن أخيه الذبيح، فكان أبو طالب عند ظن أبيه به في حدبه عليه، بل كان صورة منه في جميع ما كان يوليه من حب وعطف ورعاية، قال ابن سعد عن طريق شيخه الواقدي عن ابن عباس: وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحب محمداً حباً شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، وإذا خرج خرج معه، وصبَّ به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، وكان يخصه بالطعام دون بنيه، وإذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغدي عياله قال لهم: كما أنتم حتى يأتي ولدي، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك. وقال ابن سعد عن ابن القبطية: كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنية يتكىء عليها، فجاء النبي ﷺ فبسطها ثم استلقى عليها، فجاء أبو طالب فأراد أن يتكىء عليها فسأل عنها فقالوا: أخذها ابن أخيك، فقال: وحل البطحاء إن ابن أخي هذا ليحس بنعيم.

وهذا كله شبيه بما كان يصنعه عبد المطلب مع رسول الله ﷺ بل هو صورة منه، وكان أبو طالب يرى ذلك كله من أبيه، ويراه يرضى عن كل ما يصنع محمد ﷺ ويحب ذلك منه، فجرى أبو طالب في طريق والده الشيخ وهو القدوة العليا بين أشراف قريش، وقصة وسادة أبي طالب شبيهة بقصة فراش عبد المطلب في ظل الكعبة وجلوس رسول الله ﷺ عليه تطلباً لمعالي الأمور

وسمو المكانة في الحياة، وكثيراً ما يقرأ تاريخ حياة بعض الأطفال من أفعالهم الفطرية التي تبدو في غرائزهم الأولى، وقد رأى عبد المطلب في تسامي حفيده إلى مجلسه المحفوف بالجلال صورة من السمو الذي يكون عليه في مستقبله، ورأى أبو طالب نحو هذا فصوره كل منهما بما ألهمه إحساسه وشعوره.

وكان أبو طالب على غرار أسلافه من بني عبد مناف يشتغل بالتجارة، ويرحل في عيرات قريش وقوافلها في رحلتها إلى الشام واليمن، ويظهر أنه كان قليل الحظ في الربح الكثير، وكان مع ذلك كثير العيال، فشغله ذلك عن القيام بميراث أبيه في الرفادة واكتفى أبناء عبد المطلب بالسقاية التي وليها العباس وهو من أحدث إخوته سناً.

محمد صلى الله عليه وسلم
في رحيله إلى الشام

قصة الراهب وما فيها من الآيات والإرهاصات

ولما بلغ محمد ﷺ اثنتي عشرة سنة كان عمه أبو طالب يتهيأ للرحيل في تجارته إلى الشام، فتعلق به ليأخذه معه فرقّ له أبو طالب واصطحبه وقال: والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً. روى الترمذي في جامعه عن أبي موسى الأشعري قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت لهم، فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال: هذا سيد العالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به وكان هو (رسول الله) في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أنَّ هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنّا قد اخترنا خيرة بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم، قالوا: إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا، قال:

أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، فبايعوه وأقاموا معه، قال: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل ينشده حتى رده أبو طالب، وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد صحَّح الحاكم هذا الحديث، ورواه البيهقي وأبو بكر الخرائطي وابن عساكر، قال ابن كثير في البداية: وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له الضبي ويعرف بقراد، سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه، ومع هذا في حديثه هذا غرابة. قال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده.

رواة الحديث ومخرجوه ودرجته من الحسن أو الصحة

قال ابن كثير: قلت: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة؛ فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم سنة خيبر سنة سبع من الهجرة، وهذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة، الثاني: إن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا، الثالث: إن قوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً، إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشر وعمر بلال أقل من ذلك فأين كان أبو بكر إذ ذاك؟ ثم أين كان بلال؟ كلاهما غريب، اللهم إلا أن يقال: إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيراً إما بأن يكون سفره بعد هذا، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك اثنتي عشرة سنة غير محفوظ، وضعَّف الحافظ الذهبي الحديث لقوله في آخره: وبعث معه أبو بكر بلالاً، فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً ولا اشترى بلالاً، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: الحديث رجاله ثقات، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته.

نقد ابن كثير لبعض ما ورد في الحديث وإجابته عنه

رأي الذهبي وابن حجر في الحديث

جهابذة المحدثين وحذاق الناقدين قبلوا هذا الحديث ولم يردوه، وأعمقهم تعمقاً وأشدهم تشدداً وهو الحافظ الذهبي كان قصاراه أنه ضعفه من جهة ما فيه من كلمة ظنها لا تتفق مع تاريخ الواقعة، وقد خرّج الحافظ ابن حجر هذه الكلمة باحتمال أنها ليست من هذا الحديث وأنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر، وذهب ابن كثير في تخريجها إلى احتمال أن القصة كلها كانت ورسول الله ﷺ كان كبيراً ليتفق سنه مع ما جاءت به الرواية من إرسال أبي بكر الصديق بلالاً معه في طريق عودته، وهذا في نظر هؤلاء الناقدين يقتضي أن يكون أبو بكر رجلاً متأهلاً وبلال مملوكاً له.

ولا ندري ما الذي يوجب ذلك؟ وما الذي يُبْعد أن يكون أبو بكر خرج في هذه السفرة وهو غلام على مثل ما خرج عليه رسول الله ﷺ من تعلقه بعمه أبي طالب، فأخرجه معه صبابة به ومحبة له ورقة عليه، فيكون بعض آل أبي بكر أخرجه معه على نحو قريب من هذا، أو يكون أبو بكر قد آجر نفسه لبعض تجار قريش يكون معه حارساً أو مناولاً أو رسولاً كالذي نراه في متعارف الناس ومتصرفاتهم، وحينئذ فلا استغراب في وجوده في هذه الرحلة. ونظراً لتقارب سنه من سن رسول الله ﷺ كان بينهما من تقارب القلوب والإلفة ووشائج الصداقة ما يكون بين اللدات والأتراب، ولا سيما إذا توافقت المشارب في السفر والغربة، ولعل هذا كان أول شعاع من الضياء انبثق في أفق صداقتهما الخالدة.

وأما بلال فالاحتمال في وجوده في هذه السفرة أرجح وأقرب، إذ ما المانع أن يكون قد خرج في هذه السفرة على صغره ليخدم بعض سادته إذا كان قد استرق منذ طفولته، أو يكون خرج أجيراً مع بعض أهله أو غيرهم، ولما عرض حديث الراهب عن رسول الله ﷺ ونصح عمه أبا طالب ليرجع به إلى بلده خشية عليه من أعدائه الذين يبغونه الغوائل؛ رغب أبو بكر إلى بلال رغبة رفيق إلى رفيق ورضي ولي بلال إسعاداً لأبي طالب أن يكون بلال في صحبة رفيقهما محمداً في أوبته ليؤنسه، وكانت حال بلال تسمح بهذه الصحبة، فرحب بلال ورضي مغتبطاً أن يكون الرفيق الأنيس لمحمد ﷺ.

وهذا وضع طبيعي للحادث لا يحتاج إلى أن يتأهل أبو بكر أو يملك بلالاً أو يُوهِّم الرواة.

قصة الغمامة من الإرهاصات التي استفاض حديثها وهي من سنن الله الخاصة

وعلى أن الطعن في هذه الكلمة من الحديث لا يضير قصة تظليل الغمامة وما ذكر معها من عجائب كونية وخوارق معجزة، لأن جميع الرواة متفقون على صحتها وتوثيق رواتها، وقد قدمنا من البحث ما يكفي في تزييف رأي المتشبثين بسنن الحياة العامة ومعروف العقول وقضايا العلم والمنطق ليخلصوا من ذلك إلى جحود المعجزات الكونية في سيرة محمد ﷺ، بيد أن بعض الباحثين المتحررين من عبودية الاستشراق والتجديد الزائف وقفوا في بحوثهم مع الإنصاف لعقولهم في فهم عوالم الغيب وسنن الله تعالى في الملأ الأعلى، يقول المفكر الشهيد الباحث سيد قطب في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وإذ قُلْنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ يقول: من هم الملائكة؟ من هو إبليس؟ كيف قال لهم الله؟ كيف أجابوا؟ أين كان هذا الحوار؟ ومتى كان؟ وما الأسماء التي علمها الله لآدم؟ مَنْ الذين عرضهم الله على الملائكة فلم يعرفوا أسماءهم؟

هذه وأمثالها في القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا تفصيل.. كله غيب من الغيب الذي أسلفنا أن العقل البشري عنه محجوب، وأن الإيمان به صيانة للطاقة الفكرية من أن تتبدد في غير مجالها ومن أن تنفق عبثاً بلا جدوى، ومتى آمن العقل بالبديهة الأولى، بديهة أن الجزء لا يمكن أن يدرك الكل، وأن الذي خلق أعلم بما خلق ممن خلق. متى آمن العقل بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلق فأولى به إذن أن يدع هذا الغيب الذي لا يملك وسيلة لإدراكه.. أن يدعه لعالم الغيب والشهادة، لا استسلاماً جاهلاً أعمى، ولكن تسليماً بالبديهة العقلية الأولى، وإذا كان العقل لا يدرك هذا الغيب ولا يجد إلى الاطلاع عليه سبيلاً فليس معنى عجزه أن يتبجح وينكر، فالإنكار حكم يحتاج إلى برهان، واحترام العقل ذاته يقتضيه ألا ينكر إلا وقد أحاط علماً بما ينكره واستيقن من عدم وجوده.

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة، ولكن أخطر

منه وأضر التنكر للمجهول كله، وإنكاره، لأنه تنكر لتلك البديهة الأولى، وإنكار لطبيعة العقل وحدوده، وإقحام لهذا العقل في غير مجاله، وتبديد لطاقته في غير مجالها، وتطاول منه على حكم لا يملك أسانيده. إهـ.

تعليق وتثبيت

هذا كلام واضح مستقيم الحجة بيِّن المحجة، يستطيع كل قارىء وكل باحث أن يضعه إلى جانب كل آية كونية ومعجزة خارقة تثبت صحة الرواية وقوعهـا، فإذا هي حقيقة تاريخية يجب الإيمان بها دون توقف مع سنن الحياة ومعروف العقول وقضايا العلم ومقاييس المنطق، لأن كثيراً من الحقائق الواقعية ولا سيما الحقائق الروحية والمعاني الغيبية العليا التي تتعلق بالله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى ومظاهر ذلك في الحياة والأحياء وما يتصل به من النبوة والرسالة والوحي والملائكة والجن وسائر عالم الغيب والملأ الأعلى لا يخضع لسنن الحياة التي نعرفها ولا لمعارف العقول التي وصلت إليها.

وحديث الغمامة أجمع عليه رواة السيرة، ولم يذكر في كتب الحديث بأصح من رواية الترمذي المتقدمة، غير أن روايات أصحاب السير جاءت كلها خالية من الكلمة التي نقد من أجلها حديث الترمذي.

أوفى وأبسط رواية وفيها تسمية الراهب بما شهر وعرف

روى ابن سعد في الطبقات من طريق عبدالله بن جعفر الزهري وداود ابن الحصين قالا: لما خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ ـ وهو ابن ثنتي عشرة سنة ـ فلما نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا ببحيرا وكانوا كثيراً ما يمرون به لا يكلمهم، حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريباً من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعاماً ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة واخضلت أغصان الشجرة على النبي ﷺ حين استظل تحتها، فلما رأى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتى به وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيراً

ولا كبيراً حراً ولا عبداً، فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأنا يا بحيرا، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه ـ ليس في القوم أصغر منه في رحالهم ـ تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم يرَ الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم ويراها متخلفة على رسول الله ﷺ، قال بحيرا:

يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلف أحد إلاَّ غلام هو أحدث القوم سناً في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعامي، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أَنْفَسكم، فقال القوم هو والله أوسطنا نسباً وهو ابن أخي هذا الرجل ـ يعنون أبا طالب ـ وهو من ولد عبد المطلب، فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته.

فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما» قال: فبالله إلاّ أخبرتني عما أسألك عنه؟ قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، فقبل موضع الخاتم.

وقالت قريش إن لمحمد عند هذا الراهب لقدراً، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني قال: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال توفيت قريباً، قال: صدقت، ارجع بابن

أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبغنه عنتاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة.

فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعاً. وكان رجال من اليهود قد رأوا رسول الله ﷺ وعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرا فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهي، وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل، فصدقوه وتركوه، ورجع به أبو طالب فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه. وذكر ابن سعد من طريق عبد الرحمن بن أبزى، قال الراهب لأبي طالب: لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ها هنا، فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبي هذه الأمة وهو من العرب، واليهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل؛ فاحذر على ابن أخيك، ورواية ابن أبزى كالتكملة لرواية الزهري وابن حصين المطولة وهي أوفى الروايات وأضبطها في هذا الباب، وقد رواها الطبري وابن هشام وابن عساكر والبيهقي وأبو نعيم وابن الأثير وأبو الفداء وجم غفير مع اختلاف طفيف في بعض ألفاظها، وقد اخترنا رواية محمد بن سعد لحسن سياقتها ولطف مأتاها واستفائها ما تبعثر في مجموع الروايات سواها.

رواية أخرى لابن سعد تختلف في سياقها مع الرواية السابقة

وفي حديث ابن سعد من طريق محمد بن عقيل رواية تختلف مع هذه الرواية اختلافاً بيناً وليس فيها ذكر لقصة الغمامة؛ قال: أراد أبو طالب المسير إلى الشام، فقال له النبي ﷺ: «أي عم إلى من تخلفني ههنا؟ فما لي أم تكفلني ولا أحد يؤويني» فرق له ثم أردفه خلفه فخرج به فنزلوا على صاحب دير، فقال صاحب الدير: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال: ما هو بابنك ولا ينبغي أن يكون له أب حي، قال: ولِمَ؟ قال: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي، قال: وما النبي؟ قال الذي يوحى إليه من السماء فينبىء به أهل الأرض، قال: الله أجل مما تقول، قال: فاتق عليه اليهود، ثم خرج حتى نزل براهب صاحب دير أيضاً، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني قال: ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون له أب حي، قال: ولم ذلك؟ قال: لأن وجهه وجه نبي وعينه عين نبي، قال أبو طالب: سبحان الله، الله أجلّ مما

تقول، وقال: يا ابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ قال: «أي عم لا تنكر لله قدرة».

وجوه اختلاف بين الروايتين

هذه الرواية تذكر الوسيلة التي نفذ بها رجاء محمد عليه السلام إلى قلب عمه فرقّ له وصحبه في سفره، وهي وسيلة فيها من الاستعطاف والاسترحام ما يثير العواطف ويحرك الرحمة، وأي شيء أنفذ إلى قلب أبي طالب الذي تخيره عبد المطلب دون سائر بنيه وصياً على محمد يكفله ويرعاه من قول محمد عليه السلام: «أي عم إلى من تخلفني ههنا؟ فما لي أم تكفلني ولا أحد يؤويني».

وقفة للعقل مع بلادة الوثنية ليوقظها

وفي هذه الرواية أن أبا طالب مرّ براهب صاحب دير فحدثه عن ابن أخيه وذكر له أنه النبي المنتظر، فسأل أبو طالب: وما النبي؟ وأنّى لأبي طالب وغطارفة قريش أن يعلموا شيئاً عن النبوة والنبي؟ وهم في شغل من وثنيتهم المستحجرة، فلما بيّن له الراهب معنى النبي وأنه هو الذي يوحى إليه من السماء فينبىء أهل الأرض استعظم ذلك لأنه مربوط العقل والروح بالأرض؛ فلا يمكن له أن يعقل صلة أحد من البشر بالسماء، وتذكر الرواية أنه مر براهب آخر فجرى له معه مثل ما جرى مع الراهب الأول، ولكنه في هذه المرة التفت إلى ابن أخيه معجباً: يا ابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ ولكن محمداً في طفولته كان ذا قلب يفقه وعقل واسع الأفق درَّاك، فقال لعمه: «أي عم لا تنكر لله قدرة» وهي كلمة العقل الذي أعده الله منذ برأه لفهم الحقائق العليا والمعاني الإلٓهية التي تصله في تفكيره بعالم السماء، وأي عجب أن يتفضل خالق السماء والأرض والإنس والجن والملائكة فيوحي بكلمته إلى من يصطفيه من خلقه رسولاً يبلغها عنه إلى من يشاء؟ بل العجب كل العجب ألا يفعل ويترك خلقه يتعبدون لأحجار لا تبصر ولا تسمع ولا تغني عنهم من الله شيئاً، وتفكير أبي طالب هذا وهو من سادات قريش أرجح قبيلة في العرب ميزاناً يطلعنا على لون من حياة الجاهلية التي كان يحياها العرب قبل مشرق الإسلام، فالجاهلية الجاهلة تعظِّم الله عن أن يتصل بخلقه عن طريق وحيه ولا تعظمه عن التقرب إليه بعبادة الأحجار؟ هذا هو العجب يا ابن عبد المطلب، فلا تنكر لله قدرة.

ترجيح أن رواية الراهب بحيرا غير رواية راهب الدير

وليس في هذه الرواية ما يفيد أنها رواية الراهب بحيرا التي تذكر فيها قصة تظليل الغمامة وغيرها من العجائب الكونية والخوارق المعجـزة، ويميل بنا الظن إلى أنها رواية مستقلة في سفرة كانت قبل سفرة الراهب بحيرا، ويرشح ذلك أن أبا طالب كفل رسول الله ﷺ وسنه ثماني سنين، وسفرة بحيرا تذكر روايتها أن سن محمد عليه السلام كانت فيها اثنتي عشرة سنة، ويبعد جداً أن يبقى أبو طالب في مكة أربع سنوات لا يرحل فيها بتجارته وهو رجل قليل المال كثير العيال في حاجة إلى العمل المتواصل في تجارته ليحصل نفقات أولاده وأسرته وواجبات مكانه في قومه، وأيضاً فإن هذه الرواية اشتملت على هذه الكلمة التي توسل بها محمد عليه السلام إلى قلب عمه ليصحبه معه، وهي أقرب إلى أن تكون في مبدأ كفالته له لصغر سنه، وجدَّة أحزانه على جده وأمه، أما إذا بلغ اثنتي عشرة سنة فقد اشتد عوده ومرن على العمل؛ فتبعد أن تكون وسيلته إلى عمه هذا اللون من الاستعطاف الرقيق الرحيم، ولعل رغبـة محمد عليـه السلام في سفـرة الراهب بحيرا كانت لقصد مشاركته في العمل التجاري تمريناً ومساعدة لعمه لأن سنه إذ ذاك كانت مؤهلة للمشاركة والتمرين.

* * *

أثر هذه الرحلة في نفس محمد ﷺ

لم يكن من المعهود في حياة الناس ولا سيما الذين أوتوا عقولاً لماحة وقلوباً يقظة واعية وأرواحاً مشرقة مضيئة أن تمر بهم أحداث في طريقهم، ـ وهم بعيدون عن الجو الطبيعي والاجتماعي الذي عاشوا بين جنباته ـ ولا يكون لهذه الأحداث أثر في أنفسهم؛ خصوصاً إذا كانت الأحداث تمسهم من قريب أو بعيد، فلا بد أن سفر محمد ﷺ إلى الشام كان ذا أثر في نفسه، فهو قد رأى قوماً غير قومه وعادات غير عاداتهم وتفكيراً غير تفكيرهم وعقائد غير عقائدهم ومتعبدات غير متعبداتهم وأخلاقاً غير أخـلاقهم ومعيشة غـير معيشتهم وجواً غير جوهم وبلاداً غير بلدهم، وجرت أحاديث وأحداث كان هو محورها وقطب دائرتها، وكان محمد ﷺ من الذكاء والفطانة ولقانة القلب ولطف الخلق وإشراق الروح وضياء العقل وثقوب الذهن ورجاحة التفكير بالمكان الأرفع، فلا يمكن أن تمر به هذه الصور ثم لا تترك أثراً في نفسه

يرجع به إلى بلده ويأخذ حيزاً من حياته وتفكيره، ولكنه الأثر الذي تتسع له حياة طفل في الثانية عشرة من عمره، نشأ نشأة صقلها اليتم وهذَّبها كرم النحيزة وشرف الأصل وطهارة الأعراق، وعزة المنبت، مع رعاية الله وحفظه عن التدنس بدنس البيئة الجاهلية وأوضارها.

عاد محمد ﷺ إلى مكة من رحلته وقد علم ما تحدث به الرهبان عنه مما دعا عمه إلى الإسراع به خوفاً عليه من غوائل اليهود، فأي صورة ارتسمت في نفس محمد ﷺ لهذه الأحاديث التي تتحدث عن النبوة والوحي، وعن هذا الغلام اليتيم الأمي الذي سيكون نبي هذه الأمة، فما النبوة؟ وما الوحي؟ ومتى؟ وكيف؟ هذه أسئلة من الممكن القريب أن تكون دارت في تفكير محمد عليه السلام وهو عائد إلى مكة، وهو يرى أهلها يسبحون في عمياء الوثنية الجاهلة البليدة، وهو يعْتَزِلهم في أعيادهم ومواسمهم، وينأى بجانبه كارهاً مبغضاً لأصنامهم راثياً لأحوالهم متعجباً من ضلال عقولهم، ولكن هل حظي محمد عليه السلام من داخل نفسه أو مما يحيط به من عوامل وعوالم بجواب عن هذه الأسئلة؟.

ليس في حياته ﷺ قبل البعثة ما يشعر بشيء سوى أنه وُجِّه إلى لون من الحياة يملؤها الإحساس بعظمة الكون وعظمة مدبره جلَّ شأنه، والشعور بسلطان قدرته المبسوط على الوجود، ومن هنا كان جوابه على تعجيب عمه له من أقوال الرهبان وأحاديثهم عنه وعن نبوته «أي عم لا تنكر لله قدرة».

تسببه لعيشه

ورعيه عليه السلام للغنم

حكمة توفيقه ﷺ لهذا العمل في مقتبل رجولته

ومن هنا أيضاً كانت عزلته عن حياة قومه، تلك الحياة الصاخبة الجوفاء، ومن هنا كان ميله إلى الصحراء وفضائها الذي لا يتناهى، فما أشبه هذه الصحراء في امتدادها بالفكرة التي تملأ نفس محمد عليه السلام، ومن هنا كان ميله إلى الهدوء تحت ظلال الأشجار أو على قلل الجبال، ولكن محمداً عليه السلام شاب يستقبل الرجولية فلا بد له أن يعمل ليعيش شريفاً كريماً، فحسب عمه وما يحمل من ثقل عياله، وحسبه ما أسبغ عليه من حب ورعاية أبوية منذ حفظ وصية جده فيه، فليعمل محمد ﷺ بنفسه وليسع ليعيش من كده، فهو شاب كريم الأخلاق قوي البنيان قويم السيرة أمين محبوب بين قومه، كلهم يوده ويحب أن يعمل معه، ولكن أي عمل هذا الذي يرضي هدوء محمد ﷺ؟ إنه وهو طفل في المهد كان يخرج في بيداء بني سعد مع إخوته ولداته يرعون الغنم، فما أيسر هذا العمل وما أقربه إلى نفسه، إنه عمل يتيح له الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأشجار، ويتيح له لوناً من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى وزم قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري وتجنيب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف. وهذا لون من الحياة اختاره القدر الإلهي لكل من

اصطفاهم الله لرسالته في سياسة الخلق وتعليمهم شرائع الحياة الصالحة وأدب العبودية ومعرفة الخالق ودلائل قدرته في صنائعه، وقد ذكر القرآن قصة موسى عليه السلام مع بنتي الرجل الصالح وسقيه لهما أغنامهما وانتهاء القصة إلى تأجيره نفسه ثماني حجج يرعى فيها أغنام هذا الشيخ الذي تذكر الرواية التاريخية أنه شعيب نبي الله عليه السلام، وذكر نبينا محمد ﷺ عدداً من الأنبياء عملوا في شبابهم رعاة للغنم، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط».

وقد أفاد محمد عليه السلام من العمل الكريم خبرة بشؤون البادية ونباتها، فقد روي أن بعض أصحابه مر عليه بثمر الأراك فقال لهم: «عليكم بما اسود منه، فإني كنت أجتنيه إذ أنا راعي الغنم» قالوا: يا رسول الله ورعيتها؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها». وعن جابر بن عبدالله من حديث الزهري قال: كنا مع النبي ﷺ نجني الكباث[1] فقال: «عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، فإني كنت أجنيه، إذ كنت أرعى الغنم» قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها» وروى ابن سعد قال: كان بين أصحاب الغنم وبين أصحاب الإبل تنازع، فاستطال عليهم أصحاب الإبل، فبلغنا أن النبي ﷺ قال: «بعث موسى عليه السلام وهو راعي غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعي غنم، وبُعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد»[2].

---

(١) الكباث: نضيج الأراك.

(٢) أجياد: مكان بمكة كان مخصباً.

محمد صلى الله عليه وسلم بين أترابه

كان ﷺ مثلاً أعلا لكمال الشباب ومكارم الأخلاق

كان محمد ﷺ في طفوليته طفلاً كأحسن ما يكون الأطفال زكاءً ونشاطاً، وطهارة نفس وصفاء قريحة وتوقد ذهن وسرعة بديهة، وكان في شبابه شاباً كأفضل ما يكون الشباب رجاحة عقل وقوة أيّد واستواء بنية ودماثة خلق، فهو في طفوليته كان يخرج مع إخوته من الرضاعة في بني سعد يلعب معهم كما يلعب الأطفال، ويتحدث عن ذلك بعد بعثته فيقول: «فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن وادٍ مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة إذ أتانا رهط ثلاثة».

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يلعب مع الصبيان فأتاه آت فأخذه فشق بطنه، وكان جده عبد المطلب يقول لحاضنته بعد ما رأى وسمع تطلُّع أهل الكتاب إليه وأحاديثهم عنه: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني رأيته مع غلمان قريباً من السدرة. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة رأى ملاعب طفوليته فيها فذكرها وذكر من كان يلعب معه فيها وذكر ألواناً من اللعب والرياضة كان يطيب له ولأترابه من الفتيان والفتيات أن يتريضوا بها، فقد روي أنه لما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه وقال: «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً كان يقع عليه». وتحدث عن لون من الرياضة كان يظن ألا يعتني بها إلا أهل الأنهار وسكان سواحل البحار، وهي رياضة العوم والسباحة، ولكن الفطر السليمة يحبب إليها حتى في ألعابها كل لون محبب مفيد، وفي ذلك يقول النبي ﷺ متحدثاً عن طفوليته: «وأحسنت العوم في بئر بني عدي ابن

النجار» وكان يتحدث عن حفظ الله تعالى له في صغره ورياضة طفوليته فيقول: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم لا أراه لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك، فأخذته فشددته عليَّ ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي».

ولم يكن حفظ الله تعالى له عن بعض معايب الجاهلية ليصرفه عن مشاركة لداته وأقرانه من الغلمان والأطفال مع رعاية ما يرشد إليه من الخير والأدب، ففي هذا الحديث تراه يتحدث عن عادة شائعة بين أطفال البوادي والريف هي عادة التكشف والتعري في ألعابهم ورياضاتهم وبعض أعمالهم، وهي عادة تعيبها الآداب الراقية والعادات الحضرية المهذبة، وتنكرها عوارف المجتمعات الفاضلة، ومحمد ﷺ أرادته المقادير الإلٓهية ليكون في تمام رجوليته هادياً ومرشداً، والهداة المرشدون أكمل الناس أدباً وأرقاهم عادة وأحسنهم صنعاً، فطرة يفطرهم الله عليها وتأديباً يؤدّبهم الله به وإعداداً صالحاً يعدّهم له في منشئهم ومرباهم، ولكنه تأديب وإعداد لا يخرجهم عن طبيعة الإنسان التي فطرهم الله عليها. فمحمد ﷺ أخذ مع أقرانه في رياضتهم ينقل الحجارة على الصورة التي ألفها الغلمان في البوادي والحراج، وهم قد ألفوا التعري ليقوا بأزرهم أجسامهم الغضة من ألم الحجارة، فكانوا يضعونها على رقابهم يحملون عليها الحجارة فَأُرشِد بما شاء الله إلى أدب اجتماعي لا يصلح أن يجرد منه الهداة المرشدون في جميع مراحل حياتهم، فأسرع إلى الامتثال وأخذ عليه إزاره وأقبل على رياضته مع أترابه يحمل الحجارة على رقبته وإزاره عليه من بين أصحابه، ولم ينفصل عنهم ويهجر لعبتهم المحببة، بل آثر أن يبقى معهم وأن يستمر في رياضتهم متحملاً ألم حمل الحجارة دون وقاية في سبيل التكمل بهذا الأدب الاجتماعي النبيل.

وهكذا كانت طفولة محمد ﷺ طفولة مرحة محببة يحوطها الله تعالى برعايته ويرعاه فيها بعنايته فشب محفوظاً من أقذار الجاهلية وشناءتها ومعايبها لما يريد الله من كرامته ورسالته.

قال ابن سعد في الطبقات: وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد الله به من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رُئي ملاحياً ولا ممارياً أحداً حتى سماه قومه الأمين لما جمع الله له من الأمور الصالحة. وفي سيرة ابن هشام من طريق ابن إسحاق: فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

محمد صلى الله عليه وسلم

يشهد حرب كنانة وقيس في يوم الفجار

عظائم وتوافه كانت تثير الحروب

الحرب سُنّة من سنن العرب المألوفة التي قضت بها عليهم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية في بيئتهم الطبيعية التي وضعهم الله فيها، وتاريخهم مشحون بالحديث عنها وتعداد أيامها التي شهرت بين قبائلها، وأدبهم شعرُه ونثرُه مفعم بأخبارها نصراً وهزيمة شجاعة وجبناً فروسية وبطولة، حتى كادت تستوعب مناحي الحياة كلها. والمتقصي لأسباب تلك الحروب التي استأثرت بالحياة العربية وشغلت العرب في جزيرتهم بأنفسهم يجد في كثرتها توافه ما كانت تستأهل أن تكون دوافع إلى تسعير نيران قتال تأكل الرجال أكلاً، وتشرد الأطفال وترمِّل النساء وتذلّ الأعزاء وتفزع الآمنين، ولكنها الطبيعة والفراغ والحاجة هي التي تقف من وراء توافه الأمور فتزكيها ناراً تلتهب، بيد أن أياماً من أيام تلك الحروب كانت أسبابها تتصل بالكرامة القومية أو الدفاع عن النفس، فكانت جديرة أن تثبت في تاريخ العرب لتسجل لهذا الشعب الكريم طبيعة من طبائعه الغلابة، تلك هي طبيعة الأنفة، عن قبول الضيم والتسامي عن الرضا بالذل، كالذي نقرؤه في دواعي حرب ربيعة وبكر التي بدأت بقتل كليب سيد ربيعة في ناقة البسوس خالة جساس بن مرة، فإنه كان يكمن وراء ذلك استذلال كليب لبني عمومتهم من البكريين حتى امتلأت قلوبهم ولا سيما شبابهم بالضغينة والغيظ المحنق، فكان هذا الحادث التافه الصغير منفذاً إلى تلك العظائم المدمرة والحروب المستعرة رداً على كبرياء ربيعة في بطر كليبها وبأوه. وكالذي نقرأ في دوافع قتل حِجْر ملك كندة وأبي امرىء القيس الشاعر، فقد روى التاريخ من تعاليه واسبطراره

على بني أسد ما أحرق أكبادهم عليه غيظاً، فانتقموا بقتله لكرامتهم وشرفهم، واستعرت بين أسد وكندة حروب أفنت العديد من القبيلتين.

ومن هذا القبيل يوم فجار قيس وكنانة الذي شهده محمد ﷺ في شبابه مع عمومته، فقد قيل في سببه أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان قد تعود إرسال لطيمة (نوافج المسك) إلى سوق عكاظ لتباع هناك، وكان يتخذ لخفارتها في طريقها على أحياء العرب رجلًا من رجالات العرب مرهوبي السلطان، وكان عنده في مجلسه يومئذ البراض بن قيس الكناني ـ وكان رجلًا فاتكاً خليعاً قد خلعه قومه لكثرة شره ـ وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب القيسي المعروف بالرحال، فقال النعمان: من يجير لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ، فقال البراض: أبيت اللعن أنا أجيرها على كنانة، فقال النعمان: إنما أريد من يجيرها على كنانة وقيس، فقال عروة: أكلب خليع يجيرها لك أبيت اللعن؟ أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد، فغضب البراض وقال: وعلى كنانة تجيرها يا عروة؟ قال عروة: وعلى الناس كلهم.

فدفع النعمان لطيمته إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها، فتبعه البراض وتحينَّ غفلته فقتله، واستاق العير إلى عكاظ، وفي طريقه لقي بشر بن أبي حازم الأسدي الشاعر وأمره أن يلقي بالخبر إلى عبدالله ابن جدعان وحرب بن أمية في جماعة من رؤوس كنانة، فأخبرهم فخرجوا موائلين منكشفين إلى الحرم بعد أن ألقوا إلى سيد قيس البراء ابن مالك ملاعب الأسنة بخدعة حتى لا يستوحش هو وقومه وأهل السوق من خروجهم المفاجىء؟ فلما فشا الخبر واستيقنته قيس قال البراء: ما كنا من قريش إلا في خدعة!! وخرجت قيس في آثار كنانة فأدركوهم وقد دخلوا الحرم، فلم يقع بينهم هذا العام قتال، وقيل: بل أدركوهم قبل الحرم فاقتتلوا حتى دخلت كنانة الحرم مع الليل فحجز ذلك بينهم، وتواعدوا إلى مثل هذه الأيام من العام المقبل، وأخذ كل فريق يجمع جموعه، وفرقت قريش السلاح في كنانة وحلفائها من الأحابيش وخرجوا للموعد على كل بطن منهم قائد، وكان على

بني هاشم الزبير بن عبد المطلب وإخوته أبو طالب وحمزة والعباس ومعهم رسول الله ﷺ،وكانت سنه إذ ذاك فيما يرويه ابن هشام عن أبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء خمس عشرة سنة وفيما يرويه ابن إسحاق وابن سعد عشرين سنة، ولعل هذا الاختلاف منظور فيه إلى بداءة الحرب ونهايتها لأنها كما يقول المؤرخون مكثت أعواماً، فقد تكون سنّه عند بداءتها خمس عشرة سنة وبذلك أخذ ابن هشام، وتكون سنه عند نهايتها بالصلح بين الفريقين عشرين سنة وبذلك أخذ رواة ابن سعد، وقد كانت الجولة الأولى لقيس على كنانة، ثم عادت إلى كنانة فأسرفت في القتل من قيس وقتلوهم قتلاً ذريعاً حتى نادى عتبة بن ربيعة وهو يومئذ شاب ما كملت له ثلاثون سنة إلى الصلح،فاصطلحوا على أن تدي قريش ما قتلت فضلاً عن قتلى قيس ووضعت الحرب أوزارها.

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن شهوده الحرب في يوم الفجار. قال ابن هشام: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنبل على أعمامي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، وهذا الموقف يناسب ما ذكر في سنه باعتبار بداءة الحرب، وقد روى ابن سعد أنه ﷺ رمى فيها بأسهم، وهذا يلائم ما ذكر من سنه باعتبار نهاية الحرب. فقد ذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال وهو يذكر الفجار: «قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت».

محمد صلى الله عليه وسلم
يشهد حلف الفضول

كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به في الجاهلية وأشرفه في العرب، وكان بعد الفجار بأشهر، وأول من دعا إليه وقام بأمره الزبير ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً، فأبوا أن يعينوا على العاصي بن وائل وانتهروا الرجل الزبيدي، فلما رأى منهم الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ـ وقريش في أنديتهم حول الكعبة ـ فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا، فاجتمعت هاشم وزُهرة وتَيْم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بلّ بحر صوفة ومارسى ثبير وحراء مكانهما، وعلى التآسي في المعاش، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعزيه الغريب لذي الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

ويقول أيضاً:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

وقد شهد النبي ﷺ هذا الحلف وسنه عشرون سنة، وأثنى عليه حين ذكره في الإسلام، فقال فيما يرويه الواقدي عن جبير بن مطعم: «ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حُمْر النعم، وأني أغدر به، هاشم وزهرة وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، ولو دعيت به لأجبت، وهو حلف الفضول». وروى ابن كثير من طريق الحميدي عن سفيان ابن عيينة عن عبدالله عن محمد وعبدالرحمن ابني أبي بكرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وألا يعز[1] ظالم مظلوماً».

إقرار هذا الحلف وأمثاله في الإسلام

وقد بقي أثر هذا الحلف في الإسلام وتداعى به الحسين بن علي وعبدالله ابن الزبير والمسور بن مخرمة. روى ابن هشام عن محمد بن إسحاق أنه قال: كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وبين الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان ـ والوليد يومئذ أمير على المدينة، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فكأن الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له حسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال عبدالله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال حسين ما قال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً، وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيدالله التيمي فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي.

(١) يعز، ومنه المثل: من عزيز أي من غلب سلب.

محمد صلى الله عليه وسلم
يعمل في بناء الكعبة

مكان البيت وتعرضه لجوارف السيول

الناظر إلى موضع الكعبة المشرفة من مكة المكرمة يراها في مطمئن من الأرض تحيط بها الجبال من كل جانب؛ مما جعلها في الأزمنة الغابرة قبل أن يعمر ما حواليها بالبيوت والمساكن ومشيد البنيان عرضة لجوارف السيل، وقد حذرت قريش عواقب ذلك وخافت على البيت أن تهدمه السيول، فأقامت ردماً من حوله جعلوه مطلاً على البيت لحمايته، فكانت السيول تأتي من فوق هذا الردم حتى كادت تزيله، وكانت تعلوه حتى تدخل البيت فتصدَّع وخافوا أن ينهدم، وكانت أبواب البيت لاطئة بالأرض فسرقت خزائنه وهداياه التي كانت تهدى إليه فتلقى في بئر بداخله، فاجتمعت قريش وقالوا: لو بنينا بيت ربنا، وكان البيت شرفَهم وعزَّهم، فقسموه أرباعاً واقترعوا عليه، فوقع لبني عبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحِجْر، ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحِجْر إلى الركن اليماني، ووقع لسهم وجمح وعدي وعامر بن لؤي ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود، وقد شجعهم على بنائه أن سفينة مشحونة بمواد البناء من الرخام والخشب والحديد كان قيصر ملك الروم سرَّحها مع رجل رومي يقال له باقوم إلى بلاد الحبشة لبناء كنيستها التي أحرقها الفرس، فلما بلغت الشعبية وكانت مرفأ السفن قبل جدة لعبت بها العواصف فحطمتها، وتسامعت بها قريش فابتاعوا ما فيها، وكلموا باقوم فقدم معهم إلى مكة.

التفكير في بناء البيت وتقسيمه أرباعاً بين قبائل قريش

تنزيه البيت عن المال الحرام في بنائه

ولما أجمعوا أمرهم على هدم الكعبة وبنيانها قام فيهم أبو وهب عمرو ابن عابد بن عبد بن عمران بن مخزوم، وهو خال أبي رسول الله ﷺ وكان

رجلاً شريفاً ممدحاً فقال لهم: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس، ثم أخذوا في البناء على مواضعهم، فلما انتهوا إلى حيث يوضع الركن الأسود من البيت قالت كل قبيلة: نحن أحق بوضعه، واختلفوا حتى خافوا القتال، ثم جعلوا بينهم حكماً أول من يدخل من باب بني شيبة فيكون هو الذي يقضي بينهم، فكان أول داخل عليهم من ذلك الباب محمد ابن عبدالله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا بما يقضي بيننا، ثم أخبروه الخبر، فوضع رسول الله ﷺ رداءً وبسطه في الأرض ثم وضع الحجر فيه، ثم قال: ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل، فكان في ربع بني عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني أبو زمعة، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي، ثم قال رسول الله ﷺ: ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً، فرفعوه ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه، قال ابن سعد: فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي ﷺ حجراً يشد به الركن، فقال العباس بن عبد المطلب: لا، ونحاه وناول العباس رسول الله ﷺ حجراً فشد به الركن، فغضب النجدي حيث نُحِّي، فقال النبي ﷺ: إنه ليس يبني معنا في البيت إلا منا. فقال النجدي: يا عجباً لقوم أهل شرف وعقول وسِن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له، أما والله ليفوتنهم سبقاً وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً.

أعظم مكرمة في الجاهلية كانت خاصة برسول الله ﷺ وحكمته في حسم أخطر أمر

وقد بنت قريش البيت على أسسه التي هو عليها اليوم، وأخرجت منه الحِجْر قريباً من سبعة أذرع، وكان داخلاً فيه على قواعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما قصرت النفقة بقريش تركوا منه ما تركوا، روى الواقدي فيما ذكره عنه تلميذه محمد بن سعد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان الكعبة، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمَّ أريك ما تركوا منه» فأراها قريباً من سبعة أذرع في الحِجْر ثم قالت

أسس البيت اليوم على أسسه في بناء قريش

عائشة: قال رسول الله ﷺ في حديثه: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟» فقلت له لا أدري، قال: «تعززاً، لا يدخلها إلا من أرادوا» قال الواقدي: حدثني عبدالله ابن يزيد الهذلي عن سعيد بن عمر عن أبيه قال: رأيت قريشاً يفتحون البيت في الجاهلية يوم الإثنين ويوم الخميس، فكان حجابه يجلسون على بابه فيرقى الرجل، فإذا كانوا لا يريدون دخوله دفع فطرح فربما عطب. وقال ابن كثير في البداية: وقد كانوا أخرجوا منها الحِجْر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ قصرت بهم النفقة أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم، وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألم تري أن قومك قصرت بهم النفقة، ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وأدخلت فيها الحِجْر». ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ وجاءت في غاية البهاء والحسن كاملة على قواعد الخليل، لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً، يدخل الناس من باب ويخرجون من الآخر، فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذ ـ فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، فعمدوا إلى الحائط الشامي فحصوه فأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته في أرض الكعبة، فارتفع بابها، وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه، فلما كان زمن المهدي ـ أو أبيه المنصور ـ استشار مالكاً في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير، فقال مالك رحمه الله ـ : إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة، فتركها على ما هي عليه، فهي إلى الآن كذلك. قلت: وهي في هذه الأوصاف والنعوت التي ذكرها باقية إلى يومنا هذا سنة ١٣٧١ هجرية ـ حيث متّعنا الله بالنظر إليها في حجتنا الفريضة ـ زادها الله شرفاً وهيبة وجلالاً.

كان رسول الله ﷺ يعمل في بنائها مع عمومته، وينقل الحجارة إليها، روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق عن عمرو بن دينار عن جابر

عمل رسول الله ﷺ في بناء الكعبة مع عمومته وحفظه من أسواء الجاهلية .

ابن عبدالله يقول: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة، ففعل فخرَّ على الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: «إزاري» فشد عليه إزاره. وروى البيهقي عن عكرمة قال: حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال العباس: وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال ينقلون الحجارة وكانت النساء تنقل الشيد، فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة فإذا غشينا الناس اتزرنا، فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي فخرَّ منبطحاً على وجهه فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء، فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره فقال: «إني نهيت أن أمشي عرياناً» وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون، ولما رآه عمه أبو طالب يلبس إزاره قال له: يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك فقال: «ما أصابني ما أصابني إلا من التعري».

سنه ﷺ يوم بنيت الكعبة

وقد اختلفت الروايات في سن رسول الله ﷺ يوم أن بنت قريش الكعبة، فذهب محمد بن إسحاق إلى أنه كان قد بلغ خمساً وثلاثين سنة، وذلك بعد الفجار بخمسة عشر سنة، وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة، وفي عام الفيل ولد رسول الله ﷺ، وإلى رأي ابن إسحاق جنح جمهور المؤرخين ومؤلفي السير والمغازي، وذهب مجاهد وعروة ومحمد بن جبيرابن مطعم إلى أن سن رسول الله ﷺ كانت حين بنت قريش الكعبة خمساً وعشرين سنة، لأنهم ذكروا أن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة، وكان مبعثه ﷺ على رأس أربعين سنة من عمره، ولعل البيهقي في ذكره بناء الكعبة قبل تزويج خديجة ما إلى قول مجاهد ومن معه في وقوع بناء الكعبة سنة التزوج بخديجة، هذا في أول العام وذاك في آخره.

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتسامى عن دنس الجاهلية

صورة للتسامي الفطري نشأ عليها محمد ﷺ

لو أن قلماً عبقرياً تتبع حياة محمد ﷺ منذ ولادته إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين ليضعها في إطار يجمع بين ألوانها ويوحِّد بين أحداثها وحوادثها لإخراجها للحياة صورة إنسانية عربية فطرية؛ تمثل محمّداً ﷺ وقد ولدته أمه يتيماً تلقته بادية هوازن في بني سعد رضيعاً وفطيماً وغلاماً ناشئاً يخرج مع إخوته وأخواته رضاعاً يلعبون وراء بيوت الحي ويرتادون لأغنام قومهم المراعي ومشارع الماء وظلال الشجر، وفي هذه البادية المطلقة ينشأ على فصاحة البيان ورصانة المنطق وخصائص التعرب مما تَمَدَّح به في رجوليته فقال لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر».

وترده البادية بعد أن سما شباباً إلى مكة ليجد أمه وحيدة حزينة، ولكنها تجده غلاماً يسامي الفتيان في شبابه فيملأ سمعها وبصرها ويستحوذ على فراغ قلبها ويسرّي عنها أحزانها، وتحدثه عن أبيه ويغلبها الشوق لزيارة قبره فتتحمل به مع حاضنته إلى مثوى أبيه بيثرب، وهناك ينفسح له مجال الطفولة فيلعب مع لِدَاته وأترابه في ملاعب يذكرها بعد أن صارت يثرب المدينة المنورة بهجرته وهجرة أصحابه ونصرة أهلها لدعوته ورسالته، ويتحدث عن تلك الملاعب حديث الغبطة والتحبب، ويراه يهود يثرب مع حاضنته فيلحظونه، ويطوفون حوله ويتحدثون عنه، ويبلغ حديثهم مسامع أمه فتخشاهم عليه وهي به غريبة عن بلدها وبلده وأهلها وأهله، فتسرع عائدة به إلى مكة، وفي طريق عودتها يشهد محمد عليه السلام مرضها ووفاتها، ويسمع كلامها عنه ناطقة بأسرار الغيب، ويواريها قبرها، ويرجع مع حاضنته

الوفية الأمينة وحيداً بلا أم تكفله ولا أب يؤويه. ويتلقاه جده عطوفاً كريماً فيرعاه ويكفله حتى إذا بلغ ثماني سنين شهد موت هذا الجد العطوف، فبكى خلف سريره وهو يشيعه إلى مقره الأبدي، وعاد ليجد عمه صنو أبيه وشقيقه أبا طالب يفتح له ذراعيه ليضمه إلى صدره ويكون له نعم الكافل الحبيب، وفي هذه الكفالة ومحمد ﷺ شاب في مهد الشباب يبتهج أمثاله بالأعياد والمحافل والمواسم وما يجري فيها من مراسم وعادات وأساطير وخرافات وألعاب وسخافات تمثل العقيدة والأخلاق ومألوف العرف ومنحدر الوراثة، فيعتزلها إلا من مكارمها، ويعيش منطوياً على تفكيره.

ويلحظ أعمامه وعماته عليه انطواءً عن أعيادهم ومحافلهم ومراسم عقائدهم وطقوس عباداتهم، ورأوا فيه بغضة لآلهتهم وتجافياً عن تقديسها كما يقدسونها، فهو لا يطوف بها ولا يتمسح، ولا يتبرك بها ولا يقرِّب إليها، مع أنهم يرونه مع أترابه من الغلمان يلعبون ويمرحون بعيداً عن أعيادهم ومراسمهم، فحدثوه في ذلك حتى رؤي الغضب في وجه عمه ومحبِّه وكافله أبي طالب، وغضب عليه عماته غضباً شديداً فعاتبنه حتى حملنه على المشقة والعنت.

شواهد التسامي المحصن بالحفاوة الربانية

روى ابن سعد في الطبقات من طريق شيخه الواقدي عن عكرمة عن ابن عباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانت «بوانة» صنمًا تحضره قريش تعظمه، تنسك له النسائك ويحلقون رؤوسهم عنده يوماً إلى الليل، وذلك يوماً في السنة، وكان أبو طالب يحضر هذا اليوم مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً!! قالت أم أيمن: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً، فقال له عماته: ما دهاك؟ قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم» فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: «رأيت أني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي:

وراءك يا محمد، لا تمسه» قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.

وقد قدمنا في قصة بحيرا الراهب أنه لما رأى قريشاً تحلف باللات والعزى سأل رسول الله ﷺ بهما، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» وكذلك قدمنا قصة تعريه لنقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وأنه لُكِم لكمة وجيعة ليشد عليه إزاره، وقدمنا حديث البخاري في بناء الكعبة وتعريه مع عمه العباس لنقل الحجارة فلبط به فلما قام شد عليه إزاره، فقال له عمه: ما شأنك؟ فقال: «إني نهيت أن أمشي عرياناً» وروى البيهقي عن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ قال: كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ بالكعبة وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه» قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْه» قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

حفظه ﷺ من دواعي الشباب البريئة تصوناً

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين.

الشاهد الأول

روى ابن إسحاق والبيهقي والطبري عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي ابن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عزّ وجلّ فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى؟ فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر فضرب

الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عزّ وجلّ بنبوته».

الشاهد الثاني

ومن حديث رواه أبو نعيم: أن العباس بن عبد المطلب خرج في تجارة إلى اليمن في ركب فيهم أبو سفيان بن حرب، وكان أبو سفيان يجلس إلى حبر من اليهود، فسأله الحبر عن رسول الله ﷺ فلم يشفه أبو سفيان، قال العباس : فنادى الحبر فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منّا زعم أنه رسول الله ﷺ وأخبرك أنه عمه، وليس بعمه ولكن ابن عمه، وأنا عمه وأخو أبيه، قال: أخو أبيه؟ قلت: أخو أبيه، فأقبل على أبي سفيان فقال: صدق؟ قال: نعم صدق، فقلت: سلني، فإن كذبت رد عليّ، فأقبل عليّ فقال: نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة؟ قلت: لا، وإله عبد المطلب، ولا كذب ولاخان، وإنه كان اسمه عند قريش الأمين.

ولما خرج محمد ﷺ في مال خديجة ليتجر لها حضر سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء، فقال له الرجل: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط، وإني لأمر فأعرض عنهما» فصدقه الرجل وقال: القول قولك. وروى ابن سعد عن الربيع بن خُثَيْم قال: كان يُتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية ثم اختص في الإسلام.

وكان ﷺ مع تساميه عن دنس الجاهلية ومعايبها يشارك قومه في أعمال الخير والمكرمات، وقد سمعتَ قوله في حرب الفجار التي شهدها مع عمومته، وقوله في حلف الفضول الذي شهده في دار ابن جدعان مع أشراف قريش، وسمعتَ روايات التاريخ وصحيح الأحاديث في عمله في بناء الكعبة. وكان ﷺ كلما تقدمت به سنه واقترب من كمال الرجولية ويرى ما عليه قومه من ضلالة الوثنية زاد انطواء على نفسه، وفرّ من المجتمعات إلى الانفراد والعزلة كراهة لحياتهم وفراراً من أقذارهم وسقطاتهم.

مكان التسامي من الذروة

قال ابن كثير: وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه. وقال ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه - وكان من نسك قريش في الجاهلية - يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة.

وهكذا كانت نشأة محمد ﷺ منذ ولدته أمه إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين أكمل نشأة، تولاه الله تعالى فأدَّبه، ورباه فكمَّله، ورعاه فحفظه مما كان يغمر حياة قومه من وثنية وعادات مسترذلة، حتى غدا أكمل إنسان في بشريته، لم يستطع أحد أن يريبه في حياته أو يزن شبابه بغميزة أو ريبة على كثرة الخصوم والأعداء والمتربصين، فضلاً من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم.

محمد صلى الله عليه وسلم يتجر في مال خديجة

نظر في رواية تخالف ما سبق من الروايات

تختلف الروايات هل خرج محمد ﷺ إلى الشام تاجراً بعد خروجه مع عمه أبي طالب في سفرة بحيرا الراهب، وقبل خروجه عاملاً في مال خديجة بنت خويلد؟ فقد أخرج ابن منده عن ابن عباس أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة حتى نزل منزلاً فيه سِدْرةٌ، فقعد في ظلها وذهب أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شيء، فقال له: من الرجل الذي في ظل الشجرة؟ فقال له: محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبي، ما استظل تحت ظلها بعد عيسى إلا محمد ﷺ، ووقع في قلب أبي بكر الصديق فلما بعث النبي ﷺ اتبعه. قال ابن حجر في الإصابة: إن صحت هذه القصة فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب، وقد ضعَّف القسطلاني سند هذه الرواية، وضعف السند لا يلزمه انتفاء القصة، ونحن نميل إلى أنها سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب التي كانت فيها سن النبي ﷺ اثنتي عشرة سنة، والجمهور على أن أبا بكر الصديق لم يكن في تلك السفرة، وقد أجزنا وجوده فيها ولم نستبعده، أخذاً برواية الترمذي المتقدمة أما هذه السفرة فقد كانت فيها سن النبي ﷺ عشرين سنة، ولم يذكر فيها أبو طالب عم رسول الله ﷺ وذكر فيها أبو بكر، فالظاهر أن النبي ﷺ خرج في هذه السفرة مستقلاً يتجر لنفسه وكان يصحبه فيها أبو بكر مع من كان في العير من تجار قريش، وكان قبلها منذ عاد به عمه أبو طالب من سفرة بحيرا مقيماً بمكة يشتغل برعي الغنم ويشهد مع عمومته حلف الفضول وحرب الفجار،

فلما بلغ عمره عشرين سنة خرج في هذه السفرة مع عير قومه ليشتغل بالتجارة، ولعل هذه السفرة هي التمهيد الذي وجه خديجة إلى رغبتها في رسول الله ﷺ أن يتجر لها بمالها مع ما عرف به من الأمانة والصدق والعفة والسمو في الأخلاق، روى الطبري وابن هشام وابن كثير عن ابن إسحاق قال:

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله ﷺ، فخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش، من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعفت أو قريباً من ذلك، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين.

رواية تخالف رواية بحيرا وهي أحسن وأوفى مساقاً

هذه الرواية تفيد أن خديجة هي التي رغبت في استئجار رسول الله ﷺ، وهي التي طلبت إليه ذلك لما سمعته عن صفاته النبيلة وأخلاقه الحميدة، وتخالفها في ذلك رواية الواقدي عن نفيسة بنت منية أخت يعلى ابن منية، وهي عند ابن سيد الناس في (العيون) أتم سياقاً وأحسن مساقاً قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكاملت فيه من خصال الخير. قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألّحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت

خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ولكن لا نجد من ذلك بداً، وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «فلعلها ترسل إلّي في ذلك» فقال أبو طالب: إني أخاف أن تُولِّيَ غيرك فتطلب أمراً مدبراً، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له وقبل ذلك ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، ففعل رسول الله ﷺ ولقي أبا طالب فذكر له ذلك، فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدم الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له «نسطورا»، فاطلع الراهب إلى ميسرة ـ وكان يعرفه ـ فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال له: في عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه، قال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج، فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط وإني لأمر فأعرض عنهما» فقال الرجل: القول قولك ثم قال لميسرة ـ وخلا به ـ: يا ميسرة هذا نبي، تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعاً.

وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره، وكان الله عزّ وجلّ قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة فكان كأنه عبد لرسول الله ﷺ، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، فلما رجعوا فكانوا بمرِّ الظهران (واد قريب من مكة) قال ميسرة: يا محمد انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف لك ذلك؟ فتقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ـ وخديجة في علية لها معها نساء فيهن نُفيسة بنت منية ـ فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبرها بما ربحوا فسرت بذلك، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام، وأخبرها بقول الراهب نسطورا وقول الآخر الذي خالفه في البيع، وربحت في تجارتها ضعف ما كانت تربح، وأضعفت لرسول الله ﷺ ضعف ما سمَّت له.

نظر في رياض هذه الرواية

وفي هذه الرواية ضروب من المعاني التاريخية، فهي تذكر أن أبا طالب هو الذي رغب إلى محمد ﷺ أن يعرض نفسه على خديجة بعد أن مهَّد لهذه الرغبة بعذره وقلة ماله، وأن الزمان قد اشتد عليه والسنين المنكرة ألَّحت عليه وليس له مادة ثانية في بلده ولا تجارة بعيدة يرجوها، وبيّن له أنه يحرص عليه أشد الحرص ويذكر وصية بحيرا الراهب له في ألا يقدمه الشام حذر اليهود.

وهذا تصوير يقرب القصة من طبيعة النفوس والأشياء فيجعلها أقرب إلى الواقع التاريخي من تصوير رواية ابن إسحاق التي تقول أن خديجة هي التي بعثت إلى رسول الله ﷺ بادىء ذي بدء فعرضت عليه العمل في مالها. وفي هذه الرواية أيضاً لون من تصوير بعض خصائص الخلق الكريم الذي امتاز به محمد ﷺ، فعمه قد عرض عليه رغبته وحفها بلونين من الترغيب والإغراء، لون عاطفي ولون مادي، فالعاطفي تمثل في وصف حال أبي طالب من قلة المال واشتداد الزمان وكلب السنين. والمادي تمثل في إشعار محمد ﷺ أنه لا يرضى له أجراً مثل أجر غيره من الرجال، بل لا يرضى له دون ضعف رجل من الرجال، فما كان من محمد ﷺ إلا أن رد

على عمه في هدوء الرجل الذي يشعر أنه فوق هذه المغريات، فلا يعرض نفسه ولا يطلب من أحد شيئاً إلا أن يكون مكرمة من مكارم الرجال، وقد تلطف مع عمه وترك المجال في يده واكتفى بقوله: «فلعلها ترسل إليّ في ذلك»، ولكن أبا طالب حرصاً على منفعة مواتية يخشى إن هو تأنّى وتلبث أن تفوت فلا تعود، أظهر تخوفه ذلك لمحمد ﷺ عساه يبعث فيه شيئاً من اللهفة والحرص على عرض نفسه كما طلب منه فقال له: إني أخاف أن تُولي غيرك فتطلب أمراً مدبراً.

وبقي محمد ﷺ في موقفه من العزة والتسامي، فبلغ هذا الحوار خديجة، فرأت منفذاً أرسلت منه صوتها تدعو محمداً ﷺ وتعرض عليه العمل في مالها في إطار من التكريم والتعظيم يشعره أنها هي التي تتطلع إلى ذلك ولكنها ما كانت تعلم أنه يريده، فلما بلغ أبا طالب ما كان بين محمد ﷺ وخديجة من اتفاق فرح فرحاً شديداً، وقال لرسول الله ﷺ حين لقيه: هذا رزق ساقه الله إليك.

وفي هذه الرواية أيضاً ما يظهر من حرص عمومة رسول الله ﷺ وحذرهم اليهود، فقد علموا منذ سفرته الأولى وهو غلام في رفقة عمه أبي طالب وكان في العير معهم الحارث بن عبد المطلب من حديث الراهب بحيرا واليهود يعرفونه بأوصافه ويحسدونه على ما يأتيه الله من فضله، فهم يبغونه الغوائل لو قدروا عليه، فمن هنا كان أعمامه يوصون به أهل العير في هذه السفرة حتى يكون بنجوة من كيد اليهود، وقد قال له عمه أبو طالب ذلك في صراحة حين عرض عليه أمر خديجة ولكنه اعتذر إليه أنه لا يجد بداً من سفره، وقد حفظ الله رسوله وحاطه برعايته حتى كانت هذه السفرة بما كان فيها من الخير والبركة ذات أثر مبارك في حياة محمد ﷺ.

رواية في سفرة أخرى بمال خديجة

وذكر أبو جعفر الطبري وابن كثير وابن سيد الناس عن ابن شهاب الزهري أنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كبير مال استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش، فقال رسول الله وهو يحدث عنها: «ما رأيت من صاحبة لأجير خيراً من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا».

ولعل هذه الرواية تعني سفرة أخرى في مال خديجة قبل سفرة الشام التي اتفق عليها جمهور الرواة، فيكون رسول الله ﷺ قد آجر نفسه من خديجة ليعمل لها في مالها تاجراً مرتين، مرة إلى سوق حباشة بتهامة من أرض الجزيرة وهي أولاهما وكان فيها غير منفرد بل كان له رفيق من قريش يشاركه في العمل، ولعل هذا الرفيق هو الذي أشار إليه أبو طالب في قوله لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي قد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً ببكرين ولا نرضى لك بمثل ما أعطته.

ومرة أخرى إلى الشام، وهي الثانية التي كان فيها رسول الله ﷺ مستقلاً بالعمل وليس معه من جهة خديجة سوى غلامها ميسرة لخدمته، ويرشح ذلك ما رواه البيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص» فهذا الحديث صريح في أنه ﷺ سافر في مال خديجة سفرتين، ولم تحدد في الحديث الجهة التي كان إليها السفر، ورواية الجمهور حددت الشام، ورواية الزهري حددت سوق حباشة بتهامة، فتحمل كل سفرة على جهة بعينها لتتوافق روايات التاريخ، وظاهر قول أبي طالب المتقدم أن خديجة كانت قد تعاقدت مع القرشي ليسافر بمالها ببكرين، فلما علمت بما دار بين رسول الله ﷺ وعمه وعرفت رغبة أبي طالب في أن يلي رسول الله ﷺ العمل في مالها، واعتذرت عن سبقها إلى استئجار القرشي بقولها: ما علمت أنه يريد هذا، لم تر مانعاً من إشراك رسول الله ﷺ مع القرشي اغتناماً لفرصة استئجاره، حتى إذا أتيحت لها فرصة استقلاله بالعمل أسرعت إلى انتهازها في المرة الثانية وهي التي كان السفر فيها إلى الشام.

* * *

تزوّج محمّد صلّى الله عليه وسلّم
خديجة رضي الله عنها

ظواهر مرعبة اعتلجت في نفس خديجة رضي الله عنها

كان تقدير خديجة لمحمد ﷺ تقديراً واقعياً دافعاً لها على أن تفكِّر في شأنه تفكيراً آخر أكبر من كونه عاملاً في مالها يتجر لها فيه فتربح ويربح، إنها عرفت محمداً بما عرفه به قومه أميناً صدوق الحديث، عزوفاً عن الدنايا، طموحاً لعوالي الأمور، متسامياً بنفسه عن مغامز المروءة، كسوباً للخير، بل هي قد عرفت محمداً ﷺ أكثر مما عرفه قومه، عرفته عاملاً في مالها وصحبه في سفره غلامها الأمين ميسرة، فحدثها عن أخلاق محمد ﷺ في السفر والعمل، وحدثها عما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم، وحدثها عن تنبؤات الرهبان، وحدثها عن مظاهر رعاية الله تعالى له، ورأت هي من مظاهر الرعاية ما عجّبت منه نساءها، وذكرت حديثاً كان حدثها به يهودي في نسوة اجتمعن معها في عيد من أعياد قريش يتصل بمستقبل محمد ﷺ في الحياة ومستقبل الحياة على يد محمد ﷺ. قال الزرقاني في شرح المواهب: ذكر ابن إسحاق في المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي؛ فأيتكن استطاعت أن تكون له فراشاً فلتفعل، فحصبنَه وقبّحنَهُ وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك في نفسها، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هي قالت: إن كان ما قال اليهودي حقاً ما ذاك إلا هذا (تعني محمداً ﷺ) ثم هي امرأة خلية من الزوج، شريفة حسيبة، ذات مال كثير، يحتاج إلى يد أمينة تديره وتنميه، ومحمد ﷺ في ذروة الشرف من قومها، أليس هو ابن عبد المطلب شريف

اكتمال الرغبة في نفس خديجة أن تكون زوجاً لمحمد ﷺ

قريش وسيدها؟ وهو أنبل فتى وأعقله، وأعظمه أمانة وأكمله مروءة، وهو خليّ لم يتزوج وقد بلغ سن اكتمال الشباب، فما يمنعها أن تكون زوجاً له وما يمنعه أن يكون زوجاً لها؟ فلتدس إليه صديقة من صديقاتها اللائي يتنسمن رغباتها فتلقي إليه هذه الرغبة إلقاء عارضاً لتعرف مكانها من نفسه.

روى ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من عيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تزوَّج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به» قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي»؟ قلت: خديجة، قال «وكيف لي بذلك»؟ قلت: عليّ، قال: «فأنا أفعل» فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن آئتِ لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر، ودخل رسول الله ﷺ في عمومته فزوَّجه أحدهم، فقال عمرو بن أسد: هذا البضع لا يُقدع أنفه. وتزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

تلطف نفيسة بنت منية في عرض رغبة خديجة على محمد ﷺ

نظر وتعليق للبيان

في هذه الرواية أن خديجة هي التي تسامت بالرغبة في أن يكون محمد ﷺ زوجاً لها فدست إليه صديقتها نفيسة بنت منية، وفيها أن محمداً ﷺ كان واضح القصد، واضح العذر، فهو لم يتكلف التأبي على الزواج ولم يتظاهر بعدم حاجته إليه، بل لعله أبدى أنه في حاجة إليه ولكن يمنعه من الإقدام أن يده لا تملك ما يتزوج به، لقد وضح الطريق وسهلت مهمة الصديقة الأمينة ودُعِيَ محمد ﷺ إلى الجمال والمال والشرف والعقل والكمال، إلى خديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين فأجاب كفؤاً كريماً، وزوجها عمها وزوج محمداً ﷺ عمه، وكانت خديجة في سن اكتمال الأمومة وكان محمد ﷺ في سن اكتمال الشباب، وفي هذا من أسرار الموافقات

النفسية ما تضيق دون أدائه العبارة، لأن محمداً ﷺ كان ـ بعد ما مضى من عمره فيها قدر الله من ألوان الحياة الصارمة ـ إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرها أدنى منه حاجة إلى عاطفة الزوجة وحبها، وخديجة كانت هي الزوجة في حبها، وهي الأم في حنانها وبرها، ومن ثم كانت خديجة امرأة واحدة لم تتكرر في الحياة.

هذه الرواية في تزوُّج محمد ﷺ بخديجة هي أثبت الروايات وأوفاها، وهي صريحة في أن الذي زوَّجها منه هو عمها عمرو بن أسد، وهذا مروي في حديث عروة عن عائشة وحديث عكرمة عن ابن عباس. ففي حديث عائشة أن عمها عمرو بن أسد زوَّجها رسول الله ﷺ، وأن أباها مات قبل الفجار، وفي حديث ابن عباس: زوج عمرو بن أسد بن عبد العزى ابن قصي خديجة بنت خويلد النبي ﷺ وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق لأسد لصلبه يومئذ غيره.

رواية تسند الزواج إلى خويلد أبي خديجة

وروى البيهقي أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له ترباً وكنت له إلفاً وخدناً وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني فانصرفت إليها، ووقف لي رسول الله ﷺ، فقالت: أمَا لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: «بلى لعمري» فذكرت لها قول رسول الله ﷺ، فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا، وغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها فكلم أباه، وقد سقي خمراً، فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه وسأله أن يزوجه فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً، فقال: ما هذه الحلة؟ وما هذه الصفرة؟ وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عماراً: هذه حلة كساكها محمد بن عبدالله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة، فأنكر أن يكون زوَّجه، وخرج يصيح حتى جاء الحِجْر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاؤوه فكلموه. فقال: أين صاحبكم الذي

تزعمون أني زوَّجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ، فلما نظر إليه قال: إن كنت زوَّجته فسبيل ذلك، وإن لم أكن فعلت فقد زوَّجته.

رواية أخرى أيضاً مختلفة

وروى الطبري عن ابن شهاب الزهري قال: وكان الذي زوَّجها أباها خويلداً، وكانت التي مشت في ذلك مولاة مولدة من مولدات مكة، وكذلك عند ابن إسحاق، فقد جاء في روايته: لما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له ـ فيما يزعمون ـ: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليها، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة ابن عبد المطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها.

وقد ساق ابن سعد في الطبقات رواية البيهقي مختصرة عن أبي مجلز فقال: إن خديجة قالت لأختها انطلقي إلى محمد فاذكريني له، وإن أختها جاءت فأجابها بما شاء الله، وأنهم تواطؤوا على أن يتزوجها رسول الله ﷺ، وأن أبا خديجة سقي من الخمر حتى أخذت فيه ثم دعا محمداً ﷺ فزوجه، وألقيت على الشيخ حلة، فلما صحا قال: ما هذه الحلة؟ قالوا: كساكها ختنك محمد ﷺ، فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم رغبة؛ ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر ـ الواقدي ـ بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها الخمر حتى ثمل، ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة، فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟ قالت: زوَّجتني محمداً ﷺ قال: ما فعلت، أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل؟.

هذا نقد جيد جداً

قال الواقدي: فهذا كله عندنا غلط ووهل (وهم وضعف)، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار وأن عمها عمرو بن أسد زوَّجها رسول الله ﷺ.

ونقد الواقدي منصب على جميع الروايات التي أسندت تزويج خديجة من رسول الله ﷺ إلى أبيها خويلد وهو نقد تاريخي نسفها نسفاً ولم يقم لها وزناً، ولو لم ينهض الواقدي به لنادى بزيفها ما فيها من تدليس وخداع تأباه أخلاق العرب عامة، وتنأى عنه مكارم محمد ﷺ وتساميه عن هذه الأساليب المدلسة التي لم يعرف عنه في حياته أنه سلك قط سبيلها أو حام حولها.

رواية أخرى متقاربة القبول

قال الزرقاني في شرح المواهب: وفي سيرة الزهري ـ وهي أول سيرة ألفت في الإسلام ـ أنه ﷺ قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة: هَلُمَّ فلنتحدث عند خديجة، وكانت تكرمها وتتحفهما، فلما قاما من عندها جاءت امرأة فقالت له: جئت خاطباً يا محمد؟ قال: كلا، قالت: ولِمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤاً لها، فرجع ﷺ خاطباً لخديجة مستحيياً منها.

وهذه المرأة المذكورة في هذه الرواية تحتمل أن تكون هي أخت خديجة المذكورة في رواية عمار بن ياسر، ويحتمل أنها هي نفيسة بنت منية، ويحتمل أنها المولدة المذكورة في رواية الزهري عند الطبري، وهذا أقرب الاحتمالات لاتفاق مصدر الروايتين فيحمل المطلق منهما على المقيَّد، ويرد المبهم إلى المفسر.

نظر وتوضيح

وهذه الرواية تشير إلى أن حديثاً تهامس به المتصلات بخديجة من صواحباتها، فأرادت هذه المرأة الوسيطة أن يكون الهمس جهراً والرغبة حقيقة واقعية، فحدثت محمداً ﷺ إثر خروجه وصاحبه من عند خديجة لتشعره بالرغبة فيه حتى يقدم في غير تردد، وجعلت خديجة مثلاً في رفعة الشرف، وهي تقصدها بالحديث قصداً لا يشرك معها غيرها، ولكنها صاغت قصدها في عبارة لا يدرك لحنها إلا المفردون من الحذاق، ولما أدرك محمد ﷺ قصدها أدركه من الحياء ما يدرك الرجل الكريم، فرجع على استحياء منه خاطباً خديجة، وعند ابن سعد أن خديجة قالت له: اذهب إلى عمك فقل له: عجِّل إلينا بالغداة، فلما جاء قالت: يا أبا طالب ادخل على عمي فقل له يزوِّجني من ابن أخيك، فقال أبو طالب: هذا صنع الله.

خطبة أبي طالب الإملاكية في زواج محمد ﷺ خديجة بنت خويلد

وذكر المبرِّد أن أبا طالب خطب خطبة الإملاك فقال: الحمدلله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء (أصل) معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن برجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي عشرين بكرة، وفي رواية: وقد بذل لها من الصداق اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشا أي نصف أوقية، ووفق بعضهم بأن أبا طالب دفع البكرات من ماله ودفع رسول الله ﷺ الذهب من عنده فكان الجميع صداقاً لها، ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، فزوجها.

خطبة ورقة بن نوفل في حفل زواج محمد ﷺ

وفي المنتقى: فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل - وكان حاضراً في رؤوس مضر - فقال: الحمدلله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوَّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله على أربعمائة دينار، ثم سكت. فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.

وورقة ابن عم خديجة ومن أشراف قومها وذوي أسنانهم، فلا غرابة أن يقدموه في الرد على خطبة أبي طالب، وكأنما أحب أبو طالب أن يوثق العقد ويؤكد الرضا منهم فأحب أن يشارك عم خديجة ابن عمها، فأسرع عمها إلى إجابة أبي طالب إلى طلبته، وفي رواية أن أخاها عَمْراً هو الذي تولى زواجها.

والناظر في هذه الروايات يرى أن بعضها يكمل بعضاً وإن الرواة لما

اختلفت مصادرهم اختلفت عباراتهم ،وأخذ كل راوٍ بطرفٍ من القصة وحكاه كما سمع.

وقد أولم رسول الله ﷺ على زواجه بخديجة، وفرحت خديجة بهذا الزواج فرحاً شديداً، روي أن رسول الله ﷺ لما تزوجها ذهب ليخرج فقالت له: إلى أين يا محمد؟! اذهب وانحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس ففعل، وقال في المنتقى: فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن بالدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكراً من بكراتك وأطعم الناس، وهلم فقِل مع أهلك، فأطعم الناس ودخل ﷺ فقال معها، فأقر الله عينه، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال: الحمدلله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم.

ظاهرتان في حياة محمد صلى الله عليه وسلم

ظاهرتان اجتماعيتان كانتا تسودان حياة محمد ﷺ منذ أن ولد ثم نهد فشب عن الطوق، واستوى غلاماً يافعاً في شباب قريش وفتى سوياً بين فتيانهم، إلى أن اقترن بزوجه الطاهرة الأمينة الوفية السيدة خديجة بنت خويلد، وسنه إذ ذاك على أرجح روايات التاريخ خمس وعشرون سنة.

الأولى: شظف العيش

عرض وتحليل

أما الظاهرة الأولى فهي ظاهرة اجتماعية تسم البيئة العربية كلها بميسمها، وتعنون الحياة فيها بعنوانها، فهي ليست من الظواهر التي تعد من خصائص محمد ﷺ في شبابه إلا كما يحمل الفرد عنوان الجماعة لكونه منها بمكان الطرة من الكتاب، تلك هي ظاهرة شظف العيش وخلو اليد من حطام الدنيا، فقد ولد محمد ﷺ يتيماً لم يرث من أبيه غير خمسة أجمال وغنيمة وجارية، وهي شيء ضئيل بالنظر لما كانت تضطرب به مكة عامة وقريش خاصة من أموال مؤثلة أو تجارات مدبرة تدر الربح في المواسم والأسواق، وقد عرف التاريخ أن أظآر بني سعد ومرضعات هوازن أعرضن عن محمد ﷺ وهو ملتف بلفائفه في مهده، وقلن: يتيم لا مال له، فما عسى أن تصنع لنا أمه أو جده، وعرف التاريخ أن جده وعمه كفلاه حتى اشتدت قناته فآجر نفسه يرعى غنم أهله، وعرف أنه بعد ذلك آجر نفسه من خديجة ليعمل في مالها تاجراً لها، فليس في تاريخ شباب محمد ﷺ فترة تغير فيها وضعه المادي، بل ظل على حالة واحدة لازمته منذ ولادته، بل ربما كانت حاله في طفوليته أيسر منها في شبابه.

ولهذه الظاهرة أثرها العميق في تمحيص خصيصة الإنسانية العليا في الأفراد الذين تلزمهم أيام شبابهم، وهي أيام اجتماع قوى الاندفاع وعناصر الهوى النفسي، ونزغات المراهقات ومنافذ الغرائز المادية النهمة، ومسارب استطالة الشباب وطموحه، وهو تمحيص شاق أشد المشقة، ولاتبصر له إلا نفس قوية التركيب البنائي في جوهر تكوينها، ومن ثم كانت مثله التاريخية آحاداً من الأفذاذ في القرون والحقب، ومن عجائبه أنه يتجاوب في يسر مع النزعات الدينية الداعية إلى الإيمان بالغيب، فتكثر نسبياً أمثلته من النماذج الإنسانية الحية في أوقات تسود فيها الروحانية، فإذا عاشت شخصية إنسانية في عصر مادي وبيئة مادية وحياة مادية، ثم تعرَّضت لهذا الامتحان الفاتن الممحص،وخرجت منه كما خرج محمد ﷺ في شبابه أكمل الناس إنسانية وأعظمهم خلقاً وأضخمهم أمانة، وأبعدهم عما يشين مروءة الرجال، حتى ما يستطيع عدو بَلْه ولياً أن يقول فيه لو ولا وليت، ومن ثم كانت هذه الشخصية هي النموذج الأعلى لكمال خصيصة الإنسانية العليا في فرد من بني الإنسان.

الظاهرة الثانية
تكافؤ الخُلُق

هذه الظاهرة هي معجزة الحياة في الإنسان

أما الظاهرة الثانية فهي ظاهرة التكافؤ الخُلُقي في شخصية محمد ﷺ، ونعني بالتكافؤ الخلقي أن أخلاق محمد ﷺ كانت كلها تنبع من فطرته بنسب متفقة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وهكذا لا تجد له خُلُقاً في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها، ومن هنا كان جماع أمره عند قومه «الأمين» وهذا اسم يمثِّل التكافؤ الخلقي أصدق تمثيل.

هذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي، في شخصية محمد ﷺ يوشك أن يكون معجزة الحياة في الإنسان، لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشرية من كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى محمد ﷺ، وإذا ذكر غيره من النماذج العليا ذكره عنواناً لتبرير جزئي في بعض الأخلاق والفضائل، فهذا مثل مضروب في الصبر، وذاك في الحلم، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة، وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة، ولكنها تجتمع متكافئة في شخصية محمد ﷺ وهذا هو سر الإعجاز الإنساني في حياته ﷺ.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ معجزة الإنسان في الحياة لأن الشباب معترك الغرائز، وهي مختلفة الأغراض والغايات، فالتكافؤ الخلقي في الشباب ضرب من المحالات في متعارف الحياة، فإذا حققه الوجود الواقعي في شباب محمد ﷺ كان وجوده معجزة الإنسان في الحياة.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ مع ملازمة الظاهرة الاجتماعية الأولى لحياته في شبابه ضرب آخر من الإعجاز الإنساني في الحياة؛ لأن تلك الظاهرة الاجتماعية كانت قمينة أن تدعو الشباب إلى طيش الغرائز، فتنقلب به الفضائل إلى رذائل جامحة، فوجود ضابط نفسي يعصم الإنسان من الانزلاق وراء تيارات الغرائز في إبان قوتها العارمة هو الآية الكبرى على أن التكافؤ الخلقي الذي ينبع منه ذلك الضابط النفسي ليس من صنع الإنسان.

هذا التكافؤ الخلقي خصيصة محمد ﷺ

والتكافؤ الخلقي بهذا المقياس لم تعرفه الحياة الواقعية لإنسان غير محمد ﷺ، وهو في شباب محمد ﷺ مفطور مجبول، لم يصنعه علم ولا تثقيف لأن بيئة محمد ﷺ في شبابه لم تكن بيئة علم وثقافة، ومن الطبيعي أن تكون ثمرات هذا التكافؤ الخلقي محدودة بحدود البيئة التي عاش فيها، حتى إذا أتيح له أن يمتد ويتسع مع الرسالة العامة الخالدة امتد واتسع فكان هو العنوان الذي رسم به القرآن الكريم الفضيلة العليا في حياة محمد ﷺ، فقال في معرض الرد عنه مدافعاً ومادحاً: (وإنك لعلى خلق عظيم). وهذا التعبير في موضعه يكافىء تعبير الفطرة الملقى على ألسنة قومه في تسميته (الأمين)، فكما مثل (الأمين) التكافؤ الخلقي هناك أصدق تمثيل مثَّله هنا أي في دور الرسالة العامة الخالدة (الخلق العظيم) أصدق تمثيل، والفرق بين التعبيرين هو الفرق بين محمد المرسل رحمة للعالمين، ومحمد الشاب الأمين، وفي تعبير القرآن الكريم إشارة إلى عمل في التكافؤ فوق عمل الفطرة والجبلة، وهو أثر النبوة والرسالة، وهو معنى ما يشير إليه الأثر الشريف الذي رواه ابن الأثير في النهاية من قوله ﷺ: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، ولهذا الكلام بقية تذكر في شيء من التفصيل المقرون بالأمثلة الواقعية عند الحديث عن أخلاق محمد رسول الله ﷺ، وإنما قصدنا هنا إلى الإشارة العابرة لنبين أن الخلق الأصيل النابع من الفطرة لا تملك المؤثرات الطارئة أن تغيره، وأن هذا الخلق الأصيل النابع من الفطرة يستطيع أن يتغلب على الظواهر الاجتماعية ويوجهها في طريق الفضيلة، حتى تصبح تلك الظواهر عند صاحب هذا الخلق الأصيل النابع من الفطرة فضيلة من فضائله.

بين تعبير الفطرة الملهمة وتعبير القرآن عن خصيصة التكافؤ الخلقي في حياة محمد ﷺ

هكذا يصور التاريخ الواقعي شخصية محمد ﷺ في شبابه، حتى تزوج خديجة، وهي امرأة حسيبة شريفة كثيرة المال، عرفت محمداً ﷺ في شظف عيشه وقلة ذات يده، وعرفته في تكافؤه الخلقي، فرغبت فيه لهذه المعرفة، وتزوجته بعد هذه المعرفة، فأصبح ـ عرفاً ـ مالها ماله وثراؤها ثراءه، وغدا محمد ﷺ بين عشية وضحاها من أغنياء قريش، وذوي ثرواتها، ولكن محمداً ﷺ ظل بعد هذا الثراء الغامر كما كان منذ ولد ونهد وشب يعيش في شظف عيشه؛ لا من قلة المال في يده، بل لأن خصيصة التكافؤ الخلقي عنده طبعته على الزهادة في الحياة المادية المترهلة التي كانت تحياها مكة وتعيش فيها قريش، وطبعته على التسامي بنفسه عن المطامع التي تتحلب لها أشداق الماديين إذا هبط عليهم الثراء من غير كد ولا تعب.

لم تغير كثرة المال في يد محمد ﷺ تكافؤه الخلقي

فعملُ التكافؤ الخلقي هنا أبلغ من عمله هناك، لأن حياة محمد ﷺ قبل زواجه خديجة كانت حياة تقلل من الدنيا، لأنها كانت في يده قليلة أو لأنه لم يكن في يده منها شيء، فالفضيلة فيها في قوة الصبر على عدم التطلع إليها وتطلبها بما يُمِيِّل بميزان التكافؤ الخلقي فيبطل عمله، وحياته بعد زواج خديجة حياة تقلل من الدنيا وهي ملء يده، فالفضيلة فيها في قوة الصبر معها عن الانزلاق في غمرات المادية التي تدفع إلى الانزلاق فيها البيئة ومؤثراتها.

ومضى محمد ﷺ في حياته الجديدة أميناً مع نفسه، أميناً مع قومه، أميناً مع زوجه، أميناً لماضيه، أميناً لمستقبله، وبقي يعيش في ظاهرتيه من شظف العيش والتكافؤ الخلقي حتى كأن آخر حياة شبابه منهما صورة من أولها، وظل يتجر في مال زوجه خديجة، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن رحلات له خارج جزيرة العرب بعد زواجه.

كان محمد ﷺ يعمل في التجارة ويرد الأسواق الداخلية يبيع ويشتري

وحدثتنا الروايات أنه كان يأتي المواسم والأسواق الداخلية، يبيع ويشتري، ويلتمس معاشه فيها، فقد روى ابن كثير في مساءلة قريش وتعنتهم مع رسول الله ﷺ بطلب أنواع من الآيات وخوارق العادات على وجه العناد أنهم قالوا: إن كنت رسولاً ـ كما تزعم ـ فاسأل ربك أن يجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في

الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسها حتى نعرف فضل منزلتك من ربك.

وفي أحاديث قس بن ساعدة أن رسول الله ﷺ كان قبل البعثة يرد أسواق العرب عكاظ وذا المجاز ومجنة، وأنه رأى قساً فيها وسمع كلامه وهو يدعو الناس ويذكرهم نبياً أظلهم وقته وديناً خيراً من دينهم.

إعجاب أبي سفيان بعظمة خلق محمد ﷺ وعزوفه عن الدنيا

وقد ذكرنا فيما سبق حديث أبي سفيان وقصته مع أمية بن أبي الصلت وأنه قدم إلى مكة بعد سفره إلى اليمن تاجراً، فقال: فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون علي ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبدالله ـ وهند عندي تلاعب صبيانها ـ فسلم عليّ ورحَّب بي وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام فقلت لهند: والله إن هـذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته، قال أبو سفيان: فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي فأبى عليّ، وقال: إذن لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره.

تنسكه واعتزاله ﷺ المجتمع للتأمل في جلال الكون ومظاهر الطبيعة

فهذا ونحوه صريح في أن محمداً ﷺ كان في هذه المدة التي تقع بين زواجه وبعثته يتسبب لمعاشه بالتجارة على نهج قومه فيها، يباشرها بنفسه في الأسواق الداخلية ويؤاجر عليها أهل المعرفة في الرحلات الخارجية إلى اليمن أو الشام، ولم نر في شيء من الروايات أنه اشتغل بشيء آخر غير التجارة في التماس معاشه بعد زواجه، وكان كلما تقدمت به الحياة ازداد انطواء عن حياة الناس، وحُبِّب إليه الاعتزال والتنسُّك، فكان يتنسك في غار حراء يطعم المساكين ويفكر في جلال الوجود وعظمة الكون، ويتأمل فيما حوله من حال قومه وإغراقهم في وثنيتهم البليدة وماديتهم المظلمة، وينظر فيرى في طيات هذه الكُسُف الحالكة ومضات من نور تلمع هنا وهناك، في أشخاص هؤلاء المتحنفين ممن خالطوا أهل الكتاب فسمعوا عن الدين الحق شيئاً، فطلبوه عندهم فلم يجدوا معهم إلا أخلاطاً من تحريفات وتأويلات فاسدة لبّست

الحق بالباطل، وطلبوه في مجالات عقولهم وفطرهم فقصرت بهم عن الغاية، ولكنها رفعتهم من حضيض الوثنية إلى ضرب من المعرفة الحائرة أرفع درجاتها ما يتمثل في قول زيد بن عمرو بن نفيل: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحته، وكان زيد أمثل الطائفة وأعدلها أمراً، وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها، وكان يقول: آمنت بما آمن به إبراهيم، ويقول: أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، وقد شهد له النبي ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

تعبده صلى الله عليه وسلم
قبل البعثة

والذي يلفت النظر ويدعو إلى التأمل أن تتضافر روايات التاريخ بالحديث عن ورقة بن نوفل وتنصُّره، وزيد بن عمرو وتحنفه، وقس بن ساعدة وترهبه، وأمية بن أبي الصلت وتطلعه، ولكنها تسكت عن محمد ﷺ في هذه الفترة من شبابه، فلا تذكر عنه إلا أنه كان من نسك قريش، يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا قضى تحنفه نزل فطاف بالبيت ثم ألم بأهله وتزود لمثلها، وعاد إلى معتكفه.

منهج تعبده ﷺ قبل البعثة وأقوال العلماء

ومن هنا تعددت أقاويل العلماء وروايات التاريخ في تعبده على أي نهج كان؟ هل كان بطريق الاستغراق في التفكير والتأمل في ملكوت الله تعالى، ومظاهر الوجود وعجائبه مما يقطع العقل أنه لا يكون إلا عن قدرة قاهرة وإرادة مدبرة، وحكمة سامية، والخلوة في الغار مما يساعد على ذلك، ويكشف عن البصائر أسجاف القيود والحدود، ويعبر بها إلى آفاق الحقائق العليا حيث الدلائل القاهرة على وجود الله ووحدانيته وصمديته، وهذا هو الذي جنح إليه جمهور الأمة. وحذاق العلماء من السلف والخلف. قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم يأت تصريح بصفة تعبده بحراء، فيحتمل أنه أطلق على الخلوة بمجردها تعبداً، فإن الانعزال عن الناس ولا سيما من كان على باطل عبادةٌ، وعن ابن المرابط وغيره أنه ﷺ كان يتعبد بالفكر، وهذا هو قول الجمهور. وقال أيضاً: وفي تعبده قبل البعثة بشريعة أم لا قولان، الجمهور على الثاني أي أنه كان يتعبد بالفكر والاجتهاد فيما يصل إليه فكره من تقديس الله تعالى، وقال ابن كثير: وقد اختلف العلماء في تعبده عليه

السلام قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ قيل: شرع نوح، وقيل: شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به.

وهذا القول الأخير ـ وإن رجحه بعض الباحثين ـ لا طائل تحته، لأن الشرع هو ما شرع الله لأنبيائه ورسله بطريق الوحي إليهم، ولم يعرف في جزيرة العرب شرع أوحى الله به إلى رسول من أنبيائه وبقيت آثاره في أحاديث الناس التي يأثرونها سوى ما عرف من شرع إبراهيم وإسماعيل وأثرهما الخالد ببناء الكعبة المشرفة وجعلها بيتاً لله تعالى محجوجاً، يتعبد الناس بالطواف حوله والدعاء والتضرع عنده.

وسوى ما عرف من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام عن طريق اليهود والنصارى الذين كانوا يتواطنون أماكن من الجزيرة العربية في شمالها وجنوبها، وكانوا يتحدثون عن شرائعهم متفاخرين بها على وثنية الجمهور من العرب.

ولا طريق لإثبات شرع إلهي في هذه الجزيرة الحبيسة، بجبالها ووديانها وصحاريها القاحلة الجرداء غير ما كان يسمع من أفواه المتحنفين، الذين كانوا يتطلعون بفطرهم ـ التي أنكرت سخف ما كان من انحدار العقلية الجاهلية عند سواد الناس إلى وثنية بليدة مزرية بالعقل الإنساني ـ إلى لون من الهداية يرقى بعقولهم عن مستوى التعبد للأحجار والأشجار.

وغير ما كان يتحدث به رهبان النصارى وأحبار اليهود من أقاويل عن شرائعهم تحدثاً يغلفها بالتحفظ والغموض.

رأينا في تعبده ﷺ قبل البعثه

ونحن نميل مطمئنين إلى أن تعبده ﷺ في خلواته واعتزاله قبل مبعثه كان أساسه التفكر في آيات الله الكونية، والتأمل في مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلهي في نظام الوجود، وسيره على سنن متناسقة مقدَّرة، تدل على حكمة التدبير.

وكان في جانب منه قائماً على أساس ما ثبت عنده ﷺ من معالم الحنيفية

ملة جديه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ودليل ذلك القاطع ما التزمه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة والطواف بها على رغم ما كانت تعج به ساحاتها من الأصنام والأوثان التي كانت أبغض شيء إلى نفسه المطهَّرة، ولم يمنعه هذا البغض للأصنام والأوثان من التمسك بما ثبت عنده من شرعة تعظيم بيت الله المحرم الذي رفع قواعده جدَّاه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وهذا التعظيم للبيت لم يكن من قبيل عبادة التفكر التي أساسها سبحات العقل في مظاهر الكون وآياته الباهرة، وإنما كان من قبيل اتباع ملة إبراهيم فيما عرف أنه بقي منها في أعمال الناس وأذهانهم.

والعقل في منطقه بمعزل عن إدراك شرعية هذا التعبد وحكمته، فهو تعبُّد عملي شرعه الله في ملة إبراهيم عليه السلام، وعرفه محمد ﷺ قبل بعثته واطمأنت نفسه إلى شرعيته، فعبد الله به كما عبده بمحض التفكر والتأمل في بديع جلال الكون وما أودع الله فيه من آيات حتى جاءه الحق، وبعثه الله رسولاً إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، على رأس أربعين سنة من عمره الشريف المبارك، فصلوات الله وتسليماته وبركاته عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار ما تعاقب الليل والنهار.

خصائص محمد صلى الله عليه وسلم

في رسالته
لا تزال منهلاً لأقلام المفكرين

أضخم تراث فكري

لم يحفظ التاريخ في سجلاته أن عظيما من عظماء الوجود التاريخي في دنيا الإنسان منذ كانت هذه الحياة كَتب عنه الكاتبون، أو سجلت عنه الأحداث والوقائع مثل أو قريباً مما كُتب أو سُجِّل عن «محمد رسول الله ﷺ» كمًّا وكيفاً، وكثرة وتنويعاً.

فسيرته ﷺ في خصائص رسالته لم تزل ـ منذ بعثه الله رسولاً إلى كافة الناس ـ ميداناً لأقلام الكاتبين، وأسلات ألسن الباحثين، ومنهلاً لأفكار عباقرة المفكرين، ومجالاً فسيح الأرجاء لأحداث الحياة ووقائعها، وموردا لروَّاد المعرفة من أفذاذ المؤلفين.

أقلام المؤمنين

فقد كتب عنه ﷺ المؤمنون برسالته من العلماء والمفكرين، وحملة الأقلام من الباحثين، وتغنى بسيرته مداره الفصاحة من الأدباء، ومصاقع الشعراء، ومفوّهو الخطباء، مما استغرق أنفاس حياتهم في مدى ما مر من دوران الفلك، لا يفترون، ولا يستحسرون، تدفعهم أشواق المعرفة إلى الاستزادة من الغوص في أعماق خصائص رسالته، ليكشفوا عن مآثر خلودها في آفاق شمولها، ومواقع عمومها، ويبينوا عناصر الفضائل في سمو إنسانيتها، حتى ودَّعوا أقلامهم راحلين إلى الأبدية، ولمَّا يبلغوا من الحديث عن هذه الخصائص نقطة الانطلاق في بداية مبلغها من الهداية وسمو الغاية.

وقد حفظ التاريخ ـ راغماً على غير عادته مع الأنبياء والمرسلين ـ مما كتبوا في سجلاته شيئاً يجل عن الحصر، والذي فقدته الحياة مما كتبوا أضعاف

ما حفظه التاريخ.

أقلام غير المؤمنين

كما كتب عنه الذين لم يؤمنوا برسالته ﷺ الكثير البالغ قبولاً وإعجاباً، ورداً وانتقاداً، في دراسة باحثة متعمقة، مما حفلت به مكتبات العالم في شرق الأرض وغربها، ولا سيما في أوربّـة منذ نهضتها الفكرية التي غزت بها الشرق الإسلامي، وأرضعته أفكارها وثقافاتها، وعلومها ومعارفها، ومظاهر حضارتها، وأخلاقها وعوائدها، وشعاراتها في الحياة، وهي تقود من وراء ذلك جيوشها وأساطيلها، وتجاراتها، وصناعاتها وأموالها لتستأثر بخيرات هذا الشرق، وتستعمر أرضه، وتستعبد أهله.

كتب الطبقات والفهارس ودلالتها على ضخامة التراث

ونظرة في كتب الطبقات وتراجم العلماء والباحثين من أئمة المسلمين وأعلام مفكريهم، تكفي لبيان أن ما كتبه المؤمنون برسالته ﷺ كمًّا وكيفاً، كثرة وتنويعاً مما يفوق الحصر والحساب.

ونظرة في كتب الفهارس قديمها وحديثها، ما كان منها باللغة العربية، أو ما كان منها بلغة غير عربية تكفي لإعطاء المتطلعين إلى المعرفة أروع صورة في تقويم وتقدير مبلغ ما كتب في إطار الرسالة المحمدية، مما يمثل جلال الثروة الفكرية التي حظيت بها الحياة الإنسانية من آثار هذه الرسالة الخالدة.

ولو لم يكن من آثار خصائصها الفكرية إلا هذا الحشد التراثي في مكتبات العالم قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً، وفي خزائن العلم والمعرفة التي يملكها الأفراد والجماعات، والهيئات والطوائف في شتى بلاد العالم، لَكَفَى في إبراز القيمة الحقيقية لما بذلته الأقلام من تسجيل وتدوين في مجالات الفكر والعلم والفن، والبحث من كل ما دار حول محور رسالة محمد ﷺ.

وحسب الباحث في باب الإيمان بصدق ذلك أن يتيح لعقله، بل لخياله تصور ما كتب عن خصائص رسالة محمد ﷺ في هديها وإصلاحها، تصديقاً وتبياناً، وبحثاً وانتقاداً، وأخذاً ورداً، وجذباً وشداً، وإذاعة ونشراً، ونقاشاً وجدلاً، وحواراً وتحليلاً، ودرساً وتحقيقاً، لِيؤمن إيمان إيقان، ويعرف معرفة صدق أن رسالة محمد ﷺ كانت ولا تزال فتحاً جديداً أمام الفكر

رسالة محمد ﷺ فتح فكري جديد

الإنساني، أتاح له الانطلاق إلى لون جديد من المعرفة، لا يقف عند غاية، ولا تعرف الحياة له نهاية، لا يتوقف أمام عقبات، ولا تحول دون انطلاقه حواجز، ولكنه يقتحم الآفاق، ويثب إلى ذروات الشموخ والتطلع، ويغوص إلى أعماق الكون وأسرار الوجود، متطلعاً إلى مزيد من العلم والمعرفة، وفي وقائع التاريخ ومشهود رواياته ما يؤكد صدق هذه الحقيقة.

دلالة أحداث التاريخ على عظمة التراث الإسلامي ـ اندفاع جحافل التتار المدمرة

وحادثة اندفاع جحافل التتار على عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد ـ بموجاتها الساحقة المدمرة واحدةٌ من أحداث كثيرة حفل بها التاريخ ـ تُصوِّر مدى ضخامة ما كان من التراث الفكري الإسلامي في بغداد عاصمة الإسلام يومئذ، وهي واحدة من أخوات لها في أوطان المسلمين، في مجالات العلم والفكر والمعرفة.

وكان في مكتباتها من آثار أقلام علماء الإسلام ومفكريه وباحثيه، من المفسرين، والفقهاء، والمحدِّثين، والمتكلمين، والأصوليين، واللغويين، والأدباء، والمؤرخين، والناظرين في علوم الأوائل في الفلسفة والفلك، وآثار الفرق والمذاهب، والملل والنحل ما لا يمكن أن يحصره الحساب والتعداد.

عواصم الإسلام وما حوت من ضخامة التراث الإسلامي

وإذا ذُكرت «بغداد» بما كانت تحفل به مكتباتها العامة والخاصة من فنون المعرفة التي هي أثر من آثار الفكر في خصائص رسالة محمد ﷺ، فلا يمكن أن تغيب عن الذكر «القاهرة» و«قرطبة» و«دمشق» و«القسطنطينية» و«فاس» وغيرها من عواصم الفكر في سائر أقطار الإسلام وأوطانه.

وحشية أوربة في عواصم الأندلس الإسلامية

وليس بأهون دلالة على صدق هذه الحقيقة التاريخية في تقدير ضخامة التراث الإسلامي الذي كُتب عن خصائص رسالة محمد ﷺ كمّاً وكيفاً ما وقع على أيدي برابرة «الحضارة» الأوربية الحاقدة في عواصم الأندلس، حينما تألبت عصبيات الحقد الأسود على الإسلام، منتهزة فرصة تميّع الحكم الإسلامي وتفاهة الحاكمين باسم الإسلام في هذا الجانب من العالم الإسلامي، فمزقته شر ممزق، وفي غمرة هذا التمزق، وفي حومة هذا الضعف والهوان استولى أولئك الحاقدون، ومتعصبو الصليبية الحمقاء على ما كانت تعجّ به خزائن الفكر والعلم من آلاف الألوف من مؤلفات المفكرين

والباحثين في شتى مناحي الفكر وجوانب المعرفة، فنهبوا منها ما نقلوه إلى بلادهم وأوطانهم، وأحرقوا منها ما أحرقوا في جنون حاقد، وحقد مجنون، وذهبت هذه الثروة الفكرية الضخمة مع مُلك الأندلس إلى متاهات الفناء والضياع.

والذي وقع من السلب والنهب والتحريق والتدمير في مكتبات عواصم الإسلام الكبرى وقع مثله وأعظم منه في مكتبات العالم وخزائن العلم التي كانت منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي وغيره، عندما تعاوت ذئاب الفتن في داخل الكيان الإسلامي على أيدي الزنادقة من القرامطة والزنج والباطنية والروافض والصليبية الداخلية، والدول التي قامت على أنقاض دول غلبتها على أزمة الحكم، فدمَّرت آثارها الفكرية والعمرانية، ومحت من صفحة الوجود آثار علمائها ومفكِّريها، وغيَّرت أوضاعها ونظمها الاجتماعية.

وعلى الجملة فكل أثر فكري يتصل بالإسلام من قريب أو بعيد فهو حصيلة من حصائل الأقلام والأفكار التي كانت خصائص رسالة محمد ﷺ معينها الذي تنهل منه وتعل.

ومن هنا كان كل ما كُتب ويُكتب في مجال البحث الإسلامي بأية لغة من لغات الأمم والشعوب على أية صورة من صور البحث هو في لبابه جانب من جوانب خصائص محمد ﷺ في رسالته.

ازدياد الكتابة وتنوعها بين العلم المؤمن، والكفر الجهول في هذا القرن

فالذين كتبوا، والذين يكتبون في مستقبل الحياة عن «محمد رسول الله ﷺ» عاشوا ويعيشون في ظلال دائمة من نفحات الخلود في رسالته ﷺ التي لا ينضب معينها، ولا ينفد مدادها.

ولقد تضاعفت أضعافاً مضاعفة الكتابة عن رسالة محمد ﷺ في هذا القرن - الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي - ولا تزال في سمو وازدياد، وجرت أقلام الكاتبين والباحثين في الشرق والغرب من المسلمين وغير المسلمين بألوان من البحوث وضروب من الدراسات المختلفة نوعاً وكثرة، تواردت بين كتابة علمية مؤمنة، صادقة الإيمان عميقة الإدراك والتهدِّي، وكتابة علمية مؤمنة، ولكنها تتجر بالبحث، وتتملق الجماهير.

وكتابة لا تجهل، ولكنها متعصبة كافرة، تلحد في بحثها، حاقدة، سيئة القصد، متحيزة الهوى، تروح وتجيء في أودية من الضلال، تنكر المعروف، وتعرف المنكر، وتثير الشكوك والشبه وتعتصم بروايات الأباطيل الدخيلة تدعم بها أكاذيبها.

وكتابة كافرة جاهلة، تتبع كل ناعق، تنعب بالبهتان، بليدة التقليد، تساق بعصا العصبية العمياء.

وفي هذه الكتابات بألوانها واتجاهاتها كتابات دارسة، مبسوطة، فيها عمق وجدية في بعض جوانبها، وفيها سذاجة ضحلة في بعض نواحيها.

وفيها كتابات تعنى بالصور والشكل وزخرفة الإطار، تنسق اللمع البراقة من الأحداث مهتمة ببريقها، تنسيق بائع الورود ألوانها في الأصيص لتبهر الناظرين.

وهذا اللون من البحث المنسق المزخرف قد يرضي إحساس قارئه، ولكنه لا يرضي عقله، لأنها بحوث لا تبالي بالحقائق أن تجيء في إطارها أو لا تجيء.

وفيها كتابات تلفت نظر الذين يعرضون عن قراءة هذه البحوث في مظانها الأصيلة القديمة لصعوبة المسلك الكتابي في تلك المظان، وعدم العناية بالتنظيم في أسلوب القدامى من العلماء والباحثين، فتجذبهم هذه الكتابات المنسقة بتنظيمها النسقي إلى القراءة، وقد تدفع ببعض القراء إلى حب الاستزادة والتعمق، وربما وقفت بكثير من القارئين على مهيع الإرشاد إلى مفاتيح الهداية في الرسالة الخالدة، رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ. وهذا اللون من الكتابة لا يشبع نهم المستشرف لمعرفة الحقائق، المتطلع للبحث الجاد، ولكنها تفيده وتوجهه، وكأنها لافتة إعلان مضيء، يثير شوق القارىء إلى التطلع لمعرفة ما وراءها من حقائق فكرية، وأفكار علمية، وهذا ليس بالقليل من فوائد البحث ومنافعه.

وفيها كتابات أشبه ما تكون بسلعة غريبة تعرض في «السوق» تحت

تسابق الأقلام في مضمار الخصائص المحمدية

لافتة لامعة، فإذا عركتها بيد فكرك لتختبر ما فيها من حقائق لم تجد إلا كلمات ملتقطة من هنا وهناك لا تُحلي ولا تُمر.

ولا تزال أقلام الباحثين والكاتبين تتسابق في مضمار خصائص محمد ﷺ في رسالته وهدايتها، متخذة طرائق شتى من البحث في أسلوب يعتدل أحياناً، ويتعرج أحايين أخرى، وتختلف موضوعات الكتابة في دائرة تلك الخصائص، وإن كانت كلها أشبه بالروافد التي تنبع من منبع واحد، وتسير في أودية مختلفة أشد الاختلاف، فبعضها وسيع مترامي الجوانب، وبعضها ضيق متقارب الأطراف، وبعضها عميق غائص بعيد القرار، وبعضها ضحل قريب المستقر، ولكنها تنتهي كلها إلى مصب واحد، يرمي بزبدها وغثائها جفاء، ويمسك منها خصائل الحق، فيمزج بينها حتى يجعلها حقيقة واحدة، هي لباب الهداية وروح الرسالة في قيادة الحياة.

خلود الرسالة يمد الأقلام بكل جديد

وإذا كان التراث الإسلامي الذي اتخذ من خصائص رسالة محمد ﷺ محوره الذي دار حوله بهذه المثابة من الضخامة والعظمة فالذين يكتبون اليوم وغداً عن هذه الرسالة، وخصائصها وسيرة صاحبها خاتم النبيين ماذا يكتبون؟ أتراهم يجترُّون ما يجتنون من ثمار أولئك الكاتبين من القدامى والمُحْدثين؟ أم أنهم سيجدون لأقلامهم مراتع جديدة لم تنسرب إلى مروجها أقلام من تقدمهم؟.

وحينئذ يكتبون في خصائص رسالة محمد ﷺ وحقائقها، وفنون هدايتها جديداً، يبرزون به كوامن من أسرارها، وأسراراً من كوامن هدايتها، ويكتبون في خصائص محمد ﷺ التي أعده الله بها جبلة وكسباً لحمل عبء هذه الرسالة الشاملة الخالدة، ويكتبون في كشف الكثير مما توارى عن أعين الأقلام الباحثة من هذه الخصائص وراء سحب الإمكان الزمني، واقتدار العقول تحت تأثير البيئات والمجتمعات التي كان لها أثر في إبراز ما ظهر من تلك الخصائص.

أليست هذه الشمس التي تشرق على الحياة في كل يوم بهيئتها وصورتها المتكررة ، ويرى الناس منها أول ما يرون ضوءها الذي يكشف أسجاف

خصائص محمد ﷺ كالشمس تعطي الحياة في كل يوم جديداً

الظلام، لتظهر أمام أبصارهم جوانب الحياة في تقلباتهم على هذه الأرض، ثم يحسون حرارتها الدافئة في خيوط أشعتها الملتهبة - لا يعلم العامة منها أكثر من هذه الظواهر التي يفيدون منها في مختلف صوالحهم، وينتفعون بها في شتى منافعهم، في دائرة علمهم المحدود بمستوى ما بلغته معارفهم من حقائق الكون، ومظاهر الطبيعة، ومع ذلك كأنما هم منها في جديد عند إشراقة كل يوم، لم يكونوا يرونه ولا أحسوه من قبل.

فإشراقها على الحياة في جانب من جوانب هذا الكوكب الذي يحيا فوقه الناس حدث واحد في كل وحدة من وحدات الزمن في اصطلاح الحياة، ولكنه يتراءى جديداً يقبل على الأحياء والأشياء بتجدد الحياة وتقلباتها.

واحتجابها عن الحياة وراء الأفق في جانب آخر من جوانب الأرض حدث واحد في وحدة أخرى من وحدات الزمن، يُرى وكأنه جديد، وهو مقبل ومعه رهبة الليل وهدأته وسكونه، لتهدأ فيه الحياة، وتسكن حتى تستجمع عناصر حركتها مقبلة مع إشراقة الشمس من جديد بكل جديد، يتراءى أنه يولد مع الشمس كل يوم في كل مكان تشرق من أفقه.

وهذا الجديد «المتكرر» هو معترك أفكار العلماء والباحثين والمفكرين الذين لا يقفون مع ظواهر الأشياء في عناصر الكون، ولكنهم يحاولون أن ينفذوا إلى مداخلها وأعماقها ليعرفوا حقائقها، فلا يكتفون - بما اكتفى به العامة - من رؤية ضوء الشمس، يرونه بأبصارهم، ولا بحرارة أشعتها يحسونها بحواسهم، بل إنهم يجهدون في تعرف حقيقتها عن طريق تعرف خصائصها الذاتية التي تنشأ عنها هذه الظواهر.

وقد عرف العلماء والباحثون من خصائص الشمس الذاتية الكثير مما قصرت دون معرفته أنظار العامة بمداركها المحدودة، وهذا الكثير مما عرفه العلماء والباحثون هو الذي يفتح أمامهم في كل آن باباً جديداً من المعرفة والعلم بالمجهول، وكل باب جديد يُفتح يكشف عن منافذ للعلم والمعرفة التي تتجدد على مر الزمان في سائر الأمكنة والأوطان التي يأرز إليها العلم بفنونه وآلاته.

زيادة المعرفة تزيد التطلع إلى المجهول

وهكذا كلما ازداد العلماء والمفكرون معرفة بحقائق الكون ازدادوا تطلعاً إلى أبعد مما وصلوا إليه من العلم بالمجهول، ولا يزال العلم يكشف للفكر الإنساني عن جديد مجهول من خصائص الشمس يزيده علماً ومعرفة بحقيقتها الكونية كنموذج لظاهرة كونية تمد الحياة بقوة الحيوية المخصبة.

والشمس لا تزال ـ مع تعمق البحث وزيادة العلم والمعرفة بخصائصها ـ هي الشمس مشرقة وغاربة، لا تنقطع عنها سبحات الدراسة والبحث، ولا يتوقف العقل الإنساني عن النظر وراء ما يكشفه من خصائصها الكونية.

وهذه الشمس التي يبذل العقل الإنساني جهده في البحث عن خصائصها الكونية ـ ولن يصل إلى نهايتها ـ إن هي إلا شُميسة صغيرة إلى جانب أمهاتها الشموس الكبار، من مجموعة الكواكب والنجوم السابحة في فضاء الكون، محجوبة بأبعادها الشاسعة، وعظمتها الهائلة عن مجال الإدراك الحسي والعقلي، حتى يستطيع العلم ـ وهو سيَّار لا يتوقف ـ بوسائله المعروفة وغير المعروفة إبداع ما يشق طريقه لإخضاعها للنظر والدرس والبحث ليكشف عن خصائصها الكونية، وقد بدأ يعرف طريقه إلى أطراف المجهول، وهو دائب طموح إلى الوصول.

وهذه الشموس الكبار العظام التي تعبر الوجود بكل خصائصها الذاتية المجهولة في غير توقف إن هي إلا ذرات من عناصر هذا الكون الهائل في هذا الوجود العظيم.

وإذا كانت هذه الشموس بعظمتها الكونية مشهودة وغائبة هي ضياء الحياة المادية التي يعيش على ضوئها العالمون، وهم بعد ـ على دأب عالميهم وجدِّ باحثيهم في تعمق الدراسة ـ لم يبلغوا من معرفة خصائصها الذاتية وآثارها الكونية ومظاهر عناصرها الطبيعية إلا الشيء القليل الضئيل.

محمد ﷺ شمس الوجود الروحي

فمحمد ﷺ في خصائص رسالته الخالدة، وخصائص إنسانيته السامية هو شمس الوجود الروحي في هذا الكون المحجب بغلائل الجلال الإلَهي.

حظ العامة منه حظهم من شموس الوجود المادي، رأوا ضوء رسالته بأعين بصائرهم، فمشوا إلى نورها يستبشرون برحمتها، وأحسوا حرارة هدايتها فدلفوا لها يستظلون بعدلها.

والوجود الروحي الذي جعل الله تعالى محمداً ﷺ شمسه هو القوة الربانية المنبثة في ذرات الكون، تبث فيها الحياة، وتحركها حركتها المقدرة في كتاب الغيب، فلا تحيد عنها مسرعة ولا مبطئة.

فكما لا يزال العلماء والمفكرون والباحثون في جديد من شمس هذا الوجود المادي الحسي، يكشفون كل يوم من خصائصها الكونية الشيء بعد الشيء، فكذلك شأن العلماء والمفكرين والباحثين لا يزالون في جديد من خصائص رسالة محمد ﷺ وهدايتها، ولا يزالون في جديد من خصائص محمد ﷺ الروحية وشمائله الإنسانية التي أعده الله بها جبلة وتأدباً، ليكون خاتم النبيين، ورسولاً إلى العالمين برسالة شاملة عامة خالدة، يجد فيها كل جيل في كل زمان وفي كل مكان مطالب حياته الروحية، ومجال عقله وتفكيره ونظام حياته وعيشه، ووشائج علائقه في أفراده وجماعاته وأممه وشعوبه.

لا تزال خصائص محمد ﷺ في رسالته غيباً يمد الأفكار والعقول والأرواح

فما كُتب وما يُكتب عن رسالة محمد ﷺ في شمولها تشريعاً وهدياً، وعمومها زماناً ومكاناً، وأعصراً وأجيالاً، وفي خلودها بمعانيها وحقائقها، وأنظمة الحياة في تقنينها وأحكامها، وحِكَمها ودعائم قيمها الروحية، وأسلوبها في التعبير عن مقاصدها وأهدافها، ووسائلها، وطرائق منهجها في التوجيه والإرشاد لم يسجل إلا نقطة في خط الدراسة والبحث.

وما كُتب وما يُكتب عن شخصية محمد ﷺ في حياته وشمائله وأخلاقه وخلائقه، وإبراز خصائصه الإنسانية التي جبله الله عليها وأدَّبه بها لتكون عدته في اقتداره على حمل عبء رسالته الخاتمة لرسالات السماء، لم يأتِ ولن يأتي إلا على بعض معالم هدايته في رسالته، وإلا على بعض خصائصه في إنسانيته، وما حباه الله به من الكمالات البشرية، لأنه اختاره رسولاً إلى كافة الناس في كافة الأزمنة والأمكنة والأحوال.

فلا بد إذاً أن يكون لكل جيل من البشرية في كل زمان وفي كل مكان، وعلى أية حال من العلم والمعرفة حظّه من رسالته، وحظّه منه في دعوته وهدايته ومنهجه وشمائله، مهما اختلفت بالناس مناحي الحياة وطرائق التفكير، ومهما «تطورت» العلوم والمعارف ووسائلهما، ومهما تنوّعت أساليب الحياة الاجتماعية في المجتمع البشري، ومهما بلغ العقل الإنساني من مراتب النضج في التفكير.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم
تنصف النبوة والأنبياء
وترد اعتبارها واعتبارهم

جاء الله تعالى برسالة محمد ﷺ خاتمة للرسالات الإلٓهية، فجعل من خصائصها رد اعتبار النبوة وإنصافها من مظالم التاريخ البشري، ووضعها في مكانها الصحيح من حياة الناس والأشياء.

عناية القرآن العظيم والسنة بالنبوة والرسالات الإلهية

والذين يقرأون كتاب الرسالة المحمدية: القرآن العظيم، قراءة درس وتدبُّر، وبحث متعمِّق في معانيه وحقائقه الكونية وعقائده، وتشريعاته، ونظمه الاجتماعية، وأخلاقياته، ويقرأون السيرة النبوية في مصادرها الوثيقة قراءة إمعان وإنصاف، يعلمون أن هذا الكتاب الحكيم، وهذه السيرة الكريمة عُنيا أكثر ما عُنيا في نصوصهما بالنبوة والرسالات الإلٓهية، فأشادا بهما، وأعظما شأنهما، وجعلا معرفتهما والإيمان بهما شطر الإيمان الصحيح، فلا تكمل حقيقة إيمان مؤمن ـ في شرعة هذا الكتاب الكريم، وفي هَدْي سنة نبيه الأمين ـ إلا بمعرفة النبوة والإيمان بها، وتقديرها حق قدرها، ولا يكمل إيمان مؤمن إلا بمعرفة الرسالات الإلٓهية والإيمان بها، إيماناً لا يفرق بين أحد من رسل الله، ولا يتعصب لأحد منهم.

ونظرة إلى قصص الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، وفي أحاديث النبي ﷺ وعليهم، وما أنزل الله عليهم من عقائد التوحيد، والدعوة إلى إخلاص العبودية لله تعالى وحده، وعرض ما جرى لهم مع أممهم وأقوامهم وبيان ما كان في أقوامهم من رذائل الشرك والوثنية، ومنكرات الأخلاق، وسفساف الاجتماع، وتحذير الأنبياء والرسل لهم من عواقب هذه الخبائث، وإنذارهم بطش الله وبأسه، وما رمى الله به تلك الأمم من عذاب استأصل

به الظالمين، وقطع به دابر المعاندين، كما قال الله تعالى: ﴿ فكُلًّا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلْنَا عليه حاصباً، ومنهم من أخذَته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] ـ تبين مقدار العناية التي أضفاها القرآن العظيم والسنة المطهَّرة على النبوة ومكانتها، وعلى سيرة الأنبياء ومقام الرسالات والرسل من تعظيم وتقدير.

وقلما يجد الباحث سورة من سور القرآن المبين في طِوَله لا يجد فيها ذكراً للنبوة والأنبياء والرسل والرسالات، وقد يطول الحديث عن بعضهم في إسهاب تقتضيه المناسبة يكشف كثيراً من أحداث التاريخ؛ كما في قصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام، وقد يختصر الحديث عن بعضهم في إيجاز معبِّر أصدق تعبير، وفي القرآن سورة تسمى سورة الأنبياء.

القرآن الحكيم لا يكرر الحقائق ولكنه يستكملها في مناسباتها

والقرآن الحكيم لا يكرر الحقائق والمعاني، ولكنه يقصد إلى استكمال الحجة والموعظة عندما يتطلب جوّ الحديث تنويع البرهان والموعظة، فيذكر شيئاً مما جاء في موضع آخر من القصة، يجعله كالتمهيد ليضيف إليه ما لم يذكر هناك حتى تكتمل القصة في جوها ومناسبتها بما يقتضيه مقام الحديث عنها ومن هنا قال علماء البلاغة: لكل مقام مقال.

بَيْد أن الذين يقفون في سفح البحث القرآني ممن ليس لهم القدرة على السبح في محيطه، لا يرتفع نظرهم إلى حقيقة الأسلوب البياني في هذا الكتاب المبين، ولكنهم يرون لأول نظرة عابرة أنهم أمام قصص مكرورة، وسِيَر معادة، وآيات مرددة، وهذا ـ عند التأمل في سياق كل قصة ـ يبدو خيالاً واهماً، لا يركن إليه ويعتقده إلا من لم يكن له صبر على البحث لمعرفة الحقائق التاريخية في سير الأنبياء والمرسلين، وإلا من لم يعرف وثيق الوشائج التي تربط بين رسالة محمد ﷺ بكافة نبوات الأنبياء وسائر رسالات الرسل عليهم السلام.

---

(1) سورة العنكبوت، آية: ٤٠.

ألا ترى إلى هذا الكتاب الحكيم في صنيعه بقصة يوسف عليه السلام ـ وقد نزلت كما تقول روايات أسباب النزول ـ إجابة لطلب قَصّد القصة كاملة ـ فإنه لما استوفى أحداث القصة متكاملة في سورتها تحقيقاً للمطلوب، وإعجازاً للمعاندين، وتصديقاً للنبي ﷺ، لم يعد إليها في سورة أخرى من سورة إلا إشارة ورمزاً.

القرآن ينبه إلى غمط التاريخ حق النبوة

والقرآن الكريم وهو كتاب هداية وعبرة ـ في وزنه للحياة، وتقديره لحقائقها يقصد في قصص الأنبياء والرسل فيما يقصد إليه من معان وحقائق إلى تنبيه العقول والأفكار إلى ما وقع فيه التاريخ البشري من غمط ظالم لأعظم حقائق الحياة، وتقصير متعمد فيما كان يجب أن يكون في موضع الصدارة من صحائفه.

ومن ثَمَّ جعل القرآن الحكيم حديثه في عقائده وعباداته وتشريعاته، وآدابه وأخلاقياته، ونظمه في بيان علاقات الناس الاجتماعية، متصلاً أكمل اتصال بسيرة الأنبياء والمرسلين، لأنهم جميعاً لبنات في بناء الحضارة الإنسانية التي جاءت رسالة محمد ﷺ لتكميلها، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري ومسلم من قوله ﷺ: (مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كَمَثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة؟: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين).

السنة النبوية تبين عمل النبوة في بناء الحضارة

فهذا الحديث الشريف يضع النبوة في أفقها الواقعي من آفاق الحياة، ويضع حَمَلة لوائها من المُصْطَفَين لتلقي كلمات الله في ذروة بناة الحضارة الإنسانية التي تزاوج بين المادة والروح، ، مزاوجة يكتمل بها أثر كل منهما بأثر الاخر، حتى كأنهما حقيقة واحدة، هي التي تصنع الحياة، وتبني الحضارة الفكرية والمادية في صورة إنسانية موحدة الإحساس والشعور والاتجاه.

فالحضارة الإنسانية، أو الحياة الإنسانية المهذبة ـ في معنى هذا الحديث ـ بناءٌ وضع كل نبي من الأنبياء وكل رسول من الرسل لبنة في صرحه حتى استقام مشمخراً سامقاً في أجواز الحياة، مزيَّناً مجمَّلاً إلا موضع لبنة في زاوية

من زواياه لم توضع، وبقي مكانها فارغاً، ينقص من إعجاب الناس بالبناء وهم يطوفون به في «أطوار الحياة» ودورات الفلك، ويتمنون لو أن هذه اللبنة جاءت بحقيقتها وصورتها لتوضع في موضعها ليتكامل حسن البناء ويتم الإعجاب به، وجاءت اللبنة بحقيقتها الجامعة لكل ما في لبنات البناء من طبيعة ذراتها، فكانت دُرَّة البناء الفريدة، وهي محمداً ﷺ في رسالته الخالدة الخاتمة.

وفي حديث آخر يرويه مالك في الموطأ ويرويه أصحاب السنن يقول النبي ﷺ مبيناً ما قدَّمه إخوانه أنبياء الله ورسله للحياة من إصلاح وتقدم يقوم على القيم الروحية والفضائل الخلقية، ومبيناً مكانته منهم في رسالته الخاتمة، مكملاً ما أسَّسوا وما أقاموا من حضارات إنسانية: (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وفي هذا الحديث يبيِّن النبي ﷺ أن بناء الحضارة الذي أقامته النبوة بكلمات الله ووحيه ليس بناء مادياً كأبنية الناس في حضاراتهم المادية، ولكنه بناء روحاني يقوم على دعائم الأخلاق والفضائل ومحاسن الشيم والشمائل التي شيدوا بها بناء الحضارة الفكرية والاجتماعية.

وقد أبان الحديث عن عمل النبوة باعتبارها الحقيقة العظمى المسيطرة على التفكير في إقامة صرح البناء الحضاري، بإسهام كل نبي وكل رسول في إرساء هذا البناء حتى جاء محمد ﷺ وكمَّله برسالته الخالدة الخاتمة.

وهذا المعنى الذي أبان عنه الحديث هو إجمال لمعنى الحديث الأول، وفيه بيان المعاني والحقائق التي أقيم بناء الحضارة الإنسانية من لبناتها.

النبوة والرسالة أعظم وأقوى دوافع (التطور) الاجتماعي

والنبوة في عمومها حَرِيَّة أن تكون بمنزلة من التاريخ البشري ترفعها فوق كل منزلة من منازل حقائق الحياة وفضائلها، ورسالات الله تعالى إلى الناس لإخراجهم من ظلمات الضلالات إلى نور الهداية جديرة أن تكون بموضع من مسيرة الإنسانية، يسمو بها إلى أرفع مكان في ذروة تاريخ الحياة.

بَيْد أن التاريخ البشري لم ينصف النبوة، وهي أعظم مراتب الحضارة الفكرية، ولم يعط الرسالات الإلٓهية حقَّها من التقدير، وهي أجلّ صور الحياة في العلم والمعرفة، بل هي أبلغ وأقوى وأثبت دوافع «التطور» الاجتماعي في حياة الإنسانية.

نستعرض التاريخ منذ بدأ يكتب ويسجل أحداث الحياة في المجتمع البشري، فنجده شغل ـ حتى أتخم ـ بالفلسفة الوضعية التي هي في كثير من موضوعاتها وقضاياها حصيلة العقل الإنساني ـ وقد كان هذا العقل في مهد الطفولية الفكرية، لا يزال يحبو ـ وحصيلة الهَوَس الخيالي الجامح في كثير من مسائلها وبحوثها التي شغلت بجدلها العقيم قسطاً كبيراً من عمر الحياة، وكانت هذه الفلسفات تعج بأوضار الوثنيات التي كانت أساساً لما يسمى (الفن) ولا سيما في دائرة التصوير المجسم والنحت.

العقل وحده لم ولن يحسم من قضايا الفكر شيئاً.

لقد مضى على هذا العقل الإنساني وهو يفكر وينظِّر ويتحرك عشرات الألوف من السنين، ولكنه لم يصل إلى شيء في قضاياه التي استقل بها من شؤون الحياة والكون، بل إنه زادها تعقيداً وشتاتاً، ولم يستطع أن يحسم رأياً فيما شارك فيه من شؤون هذه الحياة ولم يقوَ على البتّ في قضايا الغيب التي جاءت النبوات بحقائقها إخباراً عن واقع مشهود، لأن النبوات تطير إلى هذا الغيب بأجنحة الوحي، والتلقّي عن الله تعالى خالق الغيب والشهادة، والعقل تعبد للحس وجعل منافذه وسيلته إلى إدراك الحقائق، والحس محدود الجوانب إذا تعداها سقط في هاوية الجحود والتشكيك.

ولو أن هذا العقل خفَّف من غلوائه واستقام على نهج النبوة يهتدي بهديها في موازين إدراكاته لكان له اليوم مع الحياة شأن غير شأنه الذي يعيش به، ويقود الحياة بزمامه، ولا يدري أحد ما تكون نهاية هذه القيادة القاصرة عن إدراك كثير من حقائق الحياة.

وكان بحسب العقل أن يتفقه فيما يقال له من وحي النبوات مما هو وراء الحس المادي، ويلائم بين مدركاته المادية وحقائق الوجود الكونية العظمى، ليظفر بلون من الشفافية والإشراق، يتيح له من معارف الغيب وحقائقه ما يتحرر به من أغلال الحس ومنافذه.

الوثنيات شَغَلت التاريخ بأوضاعها المادية

وإلى جانب شغل التاريخ بالفلسفة الوضعية بجانبيها نجده شغل بالمظاهر المادية في سائر جوانب الحياة، وملأ كثيراً من صفحاته بالحديث عن آثار الوثنيات وأصنامها وتماثيلها وأساطيرها وخرافات أهلها، وتناسى النبوة

وآثارها الفكرية والروحية وقيمها الأخلاقية، وتناسى الرسالات الإلٰهية وعملها في دفع عجلة الحضارة الإنسانية إلى التقدم الأدبي والرقي الفكري والسمو الخلقي، وحفاظها على القيم الأصيلة في توجيه العقل، وأقوم الطرق في (تطور) الفكر.

فكم من صفحات هذا التاريخ البشري الظالم ـ منذ كان ـ شغلها تاريخ النبوة؟ وكم من صفحات هذا التاريخ شغلها عمل الرسالات الإلٰهية في تقدم المجتمع البشري؟ إنها أقل من القليل.

قد يقبل في منطق الوثنيات وفنونها الأسطورية أن يشغل التاريخ البشري ـ وهو من أوضاع تلك الوثنيات ـ عن العناية بالنبوة والرسالات الإلٰهية، ويتعوض عنها الأباطيل والخرافات وأساطير الوثنيات عند الإغريق والفراعنة والكنعانيين، ومن إليهم من الأمم الراسبة في قاع حمأة الوثنيات، لأن النبوة إنما جاءت لتصحح أوضاع الحياة التي شوَّهتها الوثنيات بأباطيلها، وذلك بالقضاء على منطقها المهلهل، لتقيم صرح العقيدة التوحيدية التي تحرر الحياة من عبودية الأحجار والتماثيل تحت عنوان (الفن).

منطق الوثنيات يتغلب على منطق التوحيد عند مَنْ حرفوا كلمات الله

ولكن الذي لا يقبله منطق العقل المستقيم أن يتغلب منطق هذه الوثنيات المتهالكة على عقول الذين أوتوا منطق التوحيد على ألسنة الأنبياء والرسل، ونزلت عليهم كتب النبوات وأسفار الرسالات الإلٰهية، فبدلوا كلمها طواعية وعناداً، وحرَّفوا آياتها قصداً إلى أحط منطق في تاريخ الوثنيات.

فهذه التوراة كتاب موسى نبي الله ورسوله وكليمه، وهذا الإنجيل كتاب عيسى نبي الله ورسوله وروحه وكلمته، وهما اليوم بأيدي أخلاف من أوتوهما، فليرمِ إلى أي منهما أي عاقل بنظره، ليقرأ في صفحاتهما أحط ما يمكن أن تصور به الوثنية من بَهْت للنبوة والرسالات الإلٰهية في تصوير حياة أنبياء الله ورسله.

لم يكتف التاريخ البشري في إهماله أمر النبوات والرسالات الإلٰهية ليتعوض عنها بهذه الوثنيات وأقاصيصها، بل أضاف إليها ـ ليستغرق في ضلالاته ـ أنباء الطغاة من سفاكي دماء البشرية ومدمري عمران الحياة،

التاريخ في ظلمه للحياة جعل من أقاصيص أبطال المدمرين لمعالم الحياة موضع إعجاب وفخر

ومخربي بناء الحضارات الإنسانية، من أضراب الإسكندر المقدوني، وهانيبال، وبخت نصر، ونابليون، فجعل من أحاديثهم في معاركهم الظالمة أقاصيص الإعجاب ومفاخر البطولة، وهي في حقيقتها نزوات من الطغيان الأحمق الذي يرقص على طبول الخراب.

هذا التاريخ الظلوم المظلوم حمل على كاهله طوال أحقاب ما مرّ عليه من دورات الفلك أثقال الوثنيات بكفرياتها وإلحادها ومذاهبها، وأفكارها وأساطيرها، وآثارها المادية في تفصيل مسهب، بل في مبالغة وإغراق وأكاذيب، ولم يسمح بأسطر يكتبها في سجلاته عن النبوات والرسالات الإلّهية إلا بقدر ما يصلها بهذه الوثنيات في معاركها معها ونضالها ضدها.

أما بيان مكانة النبوة من الحياة، وبيان أعمالها في توجيه الحياة، وتهذيب الغرائز، وإرشاد العقل في سيره، وبيان ما يطيق إدراكه من معالم الغيب وحقائقه، وبيان أقدار الرسالات الإلّهية وجهاد الرسل في سبيل تقدم الحياة، وإقامة موازين العدالة، وإصلاح ما أفسده الطغاة بطغيانهم ومظالمهم، وكفاح البطولات الروحية، واصطبار المكافحين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين برسالاتهم على محن الجبروت وبلاء الطغيان، وفدائح الظلم ـ فأمر لا يعني هذا التاريخ البشري أن يفرد له بين صفحاته قدراً يعطيه حقه من التقدير والاعتزاز.

التاريخ يضع النبوة في صورة صوفية سلبية تفر من الحياة ومطالبها

وقد صوَّر التاريخ النبوة والرسالات الإلّهية في أسطره التي سمح بها في سجلاته للحديث عنها وعن حملتها من المصطَفَين على أنها مرشد لمن يريد اعتزال الحياة، ليعيش روحانياً قانعاً زاهداً، قعيد الكهوف والصوامع، جوعان ذا مسغبة، عريان ذا متربة، سموحاً لا يزاحم في معترك العيش، خانعاً في ذلة، مستسلماً لنوازل الحياة، شروداً نفوراً، يحيا ويموت دون أن تحسّ به الحياة.

والتاريخ بهذا التصوير الظالم يضع النبوة والرسالات الإلّهية في إطار من الصوفية السلبية، لا تعني الحياة في شيء، ولا تعنيها الحياة في شيء.

ومن هنا نشأت فكرة (الدين والدنيا). فالدين ـ عند هذا التاريخ

فكرة الدين والدنيا أثر من آثار تصوير التاريخ للنبوة في صورة سلبية.

الظلوم ـ هو السلبية الصوفية التي تعيش مع خيالات الأوهام، وأوهام الغيبيات، التي لا تحس ولا تمس، والدنيا ـ عند هذا التاريخ ـ هي كل المعاني والحقائق الإيجابية التي قامت على دعائمها فلسفة الوثنيات والإلحاد الفني، والتفكير المادي الكفور، وعلى أساسها قامت الحضارات المادية بكل أسوائها ومحاسنها.

رسالة محمد ﷺ صححت الأغاليط في تصوير حقيقة النبوة في صورة إيجابية نهضت وتنهض بالحياة.

وجاءت رسالة محمد ﷺ الخاتمة الخالدة لتصحح أغاليط التاريخ وتنصف النبوة والرسالات الإلّهية، وترد اعتبار الحقائق الكونية، فوضعت هذا التاريخ في مواجهة النبوة وأحداثها، ووضعت الحياة كلها أمام الرسالات الإلّهية وأعمالها، ووضعت الوثنيات وفلسفاتها في مكانها من منازل الجحود، فلم يستطع التاريخ بعد بعثة محمد ﷺ أن يلوي عنقه مشيحاً عن الحديث في النبوة ومكانتها في دنيا الناس والأشياء، ولم تستطع الحياة أن تُنْغِض رأسها متجاهلة مكانة الذين شُرِّفوا بقلائد النبوة من المصطَفين الأخيار، ولم تستطع الحياة أن تصعِّر خدَّها متغافلة متعامية عن أشعة الحق في رسالات رسل الله الذين بعثهم إلى الحياة نوراً يبدد ظلام القلوب، والعقول، والأرواح، ويهذب جموح الغرائز الإنسانية الضارية، ويشذِّب أشجار الأفكار الشائكة بشبهات الجهالة وأغلوطات الضلالة في أدمغة أحلاس هوس الفلسفة بما لا يعني شيئاً غير برطمة التعالي، وبأو الكبرياء المبرطمة في ألغاز مريبة غامضة، وألفاظ مظلمة قاتمة، تسبح في محيط خيالي لا مرفأ له، تستقر فيه حقيقة من حقائق الحياة في واقعها الوجودي الذي جاءت به النبوة والرسالات الإلّهية، وعرفت الحياة للدين معناه الشامل القويم الذي يعني المعاني والقيم والحقائق الإيجابية في منهج النبوة والرسالات الإلّهية، وعرفت الحياة ألا تقابل بين الدنيا والدين، وإنما التقابل الحق بين حياتين، هذه الحياة التي يحياها الناس والأشياء، وللدين فيها منهجه الأعم الأشمل، الذي استقاه من معين النبوة والرسالات الإلّهية، وحياة آتية لا ريب فيها، وللدين فيها معرفته التي تلقاها عن وحي النبوة ورسالات الله.

محمد صلى الله عليه وسلم

بين ميلادين

ميلاد بشرية وميلاد رسالة

بدء الوحي وقداسة النبوة

نظر وتحقيق

تأثر الروايات بجو المجتمع الذي ولد وأرسل فيه محمد ﷺ

الجو الذي بدأت فيه نبوة محمد ﷺ، وأشرقت في أفقه رسالته، بكل ما حوى من بيئة على حالها التي كانت عليها من طبيعة جبلية صحراوية جافة قاسية، يعيش فيها مجتمع بشري بأخلاقه وعاداته، وجهالاته، وبؤس عيشه، وضيق الحياة في وجهه، وتمزق وشائجه الاجتماعية، وتفاهة تفكيره، وبلادة حسه، وجمود مشاعره العقلية، وانغماسه في حمأة وثنيات مزرية، وانصرافه عن النظر في العلم والمعرفة وإخلاده إلى الأرض يعض صخورها، ويتعبد لأحجارها، ويهيم في جنبات ديانها ومفاوزها، ويتوثب ذرى أجْبُلها تطلعاً إلى أقصى آماله وأعظم أمانيه، إلى نبع ماء، أو منبت كلأ، لا يجاوز نظره مواطىء أقدامه، لا يحس بأحداث الحياة بعيدة عن أرضه ومضارب خيامه، ولا يشعر بتقلبات (التطور) في الأمم والشعوب من حوله، تشغله الحروب الداخلية المتواصلة، تسفك فيها الدماء، وتنهب الأموال، وترمل النساء سبايا، وتيتم الأطفال حيارى، وتتفانى القبائل، وتعيش فيها بقية السيف متربصة للآثار، ويفقد الأمن مع فقد الاستقرار - هو الجو الذي ولد فيه محمد بن عبدالله بن عبد المطلب قبل أربعين سنة من بعثته نبياً ورسولاً، من أبوين في أعز أرومة قرشية، بكل ما لهذا الجو من خصائص طبيعية، واجتماعية، وفكرية، وخلقية في جماعاته وأفراده.

وقد خلع هذا الجو بسماته ومعالمه ومظاهر الحياة فيه على ميلاد محمد البشري الكثير من المبالغات المغرقة، والروايات التي تصوغها مؤثرات البيئة في قصص المعجزات والخوارق والآيات والأعاجيب التي رويت وكتبت.

آثار الجو الذي ولد فيه محمد ﷺ على طمس معالم الحقائق في التاريخ

وتُحدِّث بها بعد تشريف الحياة بنبوته ورسالته، كما حققناه في بحث (محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته) وبيَّنا الصحيح الذي أثبتته الروايات الصادقة الواعية، وتركنا ما أرسلته العواطف إرسالاً دون سند قوي يدعمه، وأوضحنا هناك أن سيرة سيد الوجود محمد ﷺ ليست في حاجة إلى هذا النحو العاطفي من الروايات المتهافتة التي لا يقيِّم قناتها العلم وصدق الرواية، وذكرنا أن ما صح تاريخياً عن ولادته وحياته الكريمة قبل نبوته فيه أعظم غنية عما سواه، بياناً لكمال بشريته، وتصويراً لمدى ما منحه الله تعالى من فضائل الإنسانية في خلائقه وأخلاقه، فكان بها أكمل البشر إنسانية، وأرفعهم في فضائلها فضيلة، وأشرفهم في أمجادها مجداً وشرفاً، وأزكاهم نفساً، وأطهرهم قلباً، وأصفاهم روحاً، وأعلاهم في المكارم كعباً.

ووحدة الجو بكل ما حوى من خصائص في زمن ميلاد بشرية محمد ﷺ وزمن ميلاد رسالته، وبدء نبوته أضفى على ميلاد رسالته، وأحداث بدء الوحي بنبوته أموراً شبيهة بما أضفاه على ميلاد بشريته من روايات حملت كثيراً من سمات البيئة ومظاهرها التي لم تكن قد تهيأت لفهم حقائق النبوة والرسالات الإلٓهية، فقالت، وتقوَّلت، وحرفت وتأوَّلت، وجمحت وشطت، وبالغت وتزيدت، وأغرقت وأفرطت، وفرطت وأهملت، وجهلت وتجاهلت، وغفلت وتغافلت، واعتدلت وتعرَّجت، واستقامت ومالت، وتاهت الحقائق في منحنياتها، مما يفرض على الباحث في تعاريج هذه المنحنيات ضروباً من النظر الصبور، وضروباً من البحث المتعمق الجسور، وضروباً من الإدراك العليم، حتى يستطيع التقاط الحقائق من بين ركام الروايات، ليضعها نقية موحدة في إطار النبوة، متمثلاً قداستها بما وجب لها من العصمة التي لا يميل بها اختلاف الروايات، دون أن يستسلم عقله لطنطنة رنين أسماء الرواة، وهدير شهرتهم في علو الإسناد.

حاجة الروايات إلى دقة النظر الناقد لتمييز الصحيح من الزائف

بَيْد أن ما أُضفي على أحداث الميلاد البشري من روايات عاطفية تخيلت فتوسعت، لم يجد من عناية العلماء وجهابذة النقدة مثل ما أضفي على أحداث ميلاد الرسالة، لأن أحداث الميلاد البشري لا يضر فيها التكثر العاطفي إلا بمقدار بعده عن منهج الصدق في تصوير الحقائق التاريخية، لأن

حياة المصطَفَين للنبوة وتبليغ رسالات الله إلى عباده يجب أن تحاط من بدئها إلى نهايتها بجو من الصدق الطهور، تبياناً لمناهجهم في الحياة التي لا تقبل التزيد في روايات الأحداث، ولا ترضى عن التفريط في بيان ما كانوا عليه من سلوك وسمت يعكس بواطنهم على ظواهرهم توحيداً لعلانيتهم وسريرتهم، ليؤدوا إلى الحياة صورتهم كاملة في نبوتهم، ويؤدوا إلى الناس مناهجهم في الدعوة إلى الحق في مهايع تبليغ رسالات ربهم، وطرائق هدايتهم إلى معالم الحياة الكريمة الصالحة.

ميلاد الرسالة الإلٓهية لا يقبل وثبات العواطف

أما أحداث ميلاد الرسالة وبدء الوحي فهي أساس النبوة ودعائم الرسالة، والنبوة هي الحقيقة الإلٓهية الكبرى في ميلاد جديد للنبي، ميلاد روحاني، يصور ـ أساساً ـ شخصية النبي بوصفه الجديد، ويصوِّر حياته مع ربه الذي اختاره لتلقِّي كلماته ووحيه، ويصور حياته مع نفسه التي اصطفاها الله لتكون منزل أمره ونهيه، والرسالة هي الحقيقة الإلٓهية العظمى في ميلاد جديد للرسول، فوق ميلاد روحانية النبي، يصور شخصية الرسول بمظهر ولادته الجديدة، ويصور حياته مع ربه الذي اختاره سفيراً بينه وبين من شاء من عباده، يبلِّغهم عنه ضروب هدايته، ويصور حياته مع نفسه رسولاً يخرج الناس من ظلمات الجهالة والضلالة إلى نور العلم والهداية، ويصوِّر حياته مع الناس في طرائق دعوتهم إلى الله، ودعوتهم إلى الحق والخير.

فليس في هذه الأحداث التي يبدأ بها ميلاد النبوة والرسالة مجال ـ أي مجال ـ لغير الحق والصدق، وليس فيها مجال ـ أي مجال ـ للتزيد، والتأويل المحرف للحقائق تحريفاً يبعدها عن ساحة القداسة التي هي وصف ذاتي للنبوة والرسالة، وليس فيها مجال ـ أي مجال ـ لسبحات الخيال، وتخيلات الأفكار، وابتداع الآراء.

وميلاد النبوة والرسالة ببدء الوحي من أحداث الغيب التي أحاطها الله تعالى بقداسة تحميها من تقحم التقول فيها بغير علم، والعلم بها قصره الله على أخبار الأنبياء والمرسلين فلا مجال فيه للعقل وتجارب العلم.

فالروايات التي جاءت بأنباء ميلاد نبوة محمد ورسالته تحتاج إلى نظر

فاحص، وتأمل أمين، وتثبّت في صحة النقل، ولا سبيل إلى قبول ما لم يثبت إسناده إلى النبي ﷺ من وقائعها وأحداثها، والذي يثبت منها بإسناد صحيح يجب -أن يفهم في ظل ما يجب للنبوة والرسالة من قداسة العصمة عن شطحات العقول، وشطط الأفكار، فهمًا لا يخرجها عن دائرة الكمال الإنساني.

ميلاد البشرية قد يحتمل التصورات العاطفية

ومن ثَمَّ يتضح الفرق الشاسع بين النظر في روايات ميلاد بشرية محمد ﷺ وروايات ميلاد نبوته ورسالته.

فإشراق الوجود البشري كان ميلاداً (لمحمد بن عبدالله ابن عبد المطلب) في مهد أمه السيدة آمنة بنت وهب الزهرية القرشية، وإشراق الوجود النبوي ببدء الوحي كان ميلاداً (لمحمد رسول الله) وخاتم النبيين صلوات الله عليه.

وبين الميلادين في الفضل والشرف ما بين طفل خرج إلى الدنيا كما يولد أي طفل ـ في أشرف وأكرم بيت من بيوتات أعز قبيل في العرب ـ ثكل أباه قبل أن يتشرف الوجود بطلعته، وكان هذا الثكل جرحاً في قلب جده عبد المطلب، لأن عبدالله أبا محمد ﷺ كان أعز وأحب بني عبد المطلب عند عبد المطلب، فكان ميلاد محمد ﷺ بلسماً لجرح الثكل في قلب هذا الجد الذي أخذت منه السنون، فلم تبقِ له إلا قلباً يعمره حب بنيه الذين عزَّ بهم يوم أن سامته قريش خسف الذل في أمر زمزم.

وقد استقبل عبد المطلب حفيده ـ الذي ملأ فراغ قلبه من مكان أبيه ـ إذ بُشِّر به، ومعه بنوه بالحب والبهجة، فاغتبط بميلاده شاكراً، وسماه (محمداً).

وبين ميلاد رسالة عامة خالدة، اختار الله تعالى رسولها بعلمه وحكمته، وخلع عليه رداء تعظيمه، فجعله خير رسول لخير أمة أخرجت للناس، وختم به نبوته، وعمَّم برسالته شرائع وحيه، وخلَّد بدعوته الدعوة إلى وحدانيته، وشرف به ملكه وملكوته، وأفاض عليه من خواص غيبه في أخلاقه وخلائقه ما تعجز الأقلام والألسن عن الإحاطة بشيء من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

العلم هو العنوان الأول

في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

بدأت رسالة محمد ﷺ بأول وأعظم عنوان للعلم والمعرفة كتبه القدر الحكيم على أبرز لوحات التاريخ، يوم أن قالت السماء لنموذج الرسالات الإلٓهية الأعلى محمد ﷺ (اقرأ) هكذا مطلقة، بصيغة الأمر المطلق الذي لا يتقيد بمقروء معين من علوم البشر ومعارفهم وفنونهم وأفكارهم، ولا تتقيد بقراءة من كتاب مكتوب بما عرف الناس من طرائق الكتابة وأساليب تقييد العلم والمعارف الإنسانية، ولا تتقيد بزمن تقع فيه القراءة، ولا تتقيد بمكان معين تجري القراءة بين جنباته.

فهو طلب قراءة فحسب، والحقائق المطلقة لا يمكن أن تتحقق في واقع الحياة والوجود الحسي إلا في صورة من صور جزئياتها، وليس هنا مقروء معين يتحقق به طلب القراءة في جزئية منها.

بدء رسالة محمد ﷺ بطلب القراءة أعظم شهادة على مكانة العلم فيها

فهذا الطلب المطلق بهذه الصيغة (اقرأ) على ما احتف به من أحوال مفاجأة الوحي وجوّها صريح في تسجيل العنوان الأول لرسالة محمد ﷺ في لوحة الحياة بأخص خصائص خلودها، وشمولها شمولاً كاملاً، لا يفوته جيل من الناس، ولا زمن من الأزمان، ولا مكان من الأمكنة، ولا يندّ عنه علم من العلوم التي عرفها البشر في منحدرات «التطور» الإنساني، أو التي سيُفتح إلى معرفتها سبل لا عهد للعقل الإنساني بها فيما مضى من السنين والأحقاب، ولا تذهب عنه معرفة من المعارف التي كانت في ماضي الحياة، أو التي ستكون في مستقبلها.

ومعناه «كن قارئاً» فالمقروء في رسالة محمد ﷺ تحت عنوانها الأول (اقرأ) مقروء لا يقرؤه الناس، ولكنهم يقرأون عنه، وعلم لا يعلمونه تعلماً، ولكنهم يعلمون عنه، ومعرفة ليست في متعارف معارف الناس، ولكنهم يتطلعون إليها.

هو علم حقائق الموجودات المكتوب في كتاب «الكون» وسفر الحياة، وهو معرفة عناصر الكائنات مسطورة في صحف الطبيعة.

وقد تكرر هذا الأمر المطلق ـ في أول لقاء يقظي بأمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو اللقاء الذي بدأت به الرسالة ـ ثلاث مرات، بصورة واحدة، ولما جاء في المرة الرابعة مقروناً بما يقرأ لم يجيء متعلقاً بطلب القراءة على أنه هو المطلوب تحقيق قراءته بالأمر بطلبها، وإنما جاء مؤكداً لإطلاق الأمر وتحقيق القراءة في ذاتها على المعنى الذي ذكرناه.

فالنبي ﷺ في رده على هذا الطلب الغريب على حياته وطبيعة بشريته الخاصة نفى عن نفسه أنه يعرف القراءة، لا طبيعة وجبلّة، ولا تعلُّماً وكسباً، فهو أمي لم يسبق له قط أن قرأ ولا تعلم القراءة، ولا خطّ بيمينه كتاباً، ثم استبان من مخاطبه أمين الوحي (ماذا يقرأ) و(كيف يقرأ).

وليس وراء الأمر بالقراءة في أول وأبرز عنوان في إطار رسالة محمد ﷺ إلا أن يستعين ـ على تحقيق ما لم يعرف، ولا هو في طوقه ـ باسم ربه، وقد أبرز الاسم الكريم متعلقاً تعلقاً مباشراً بفعل الأمر المطلق بالقراءة، مضافاً إضافة تكريم وتشريف خاصة بخطاب مَنْ طلب منه أن يقرأ ما لم يخطه قلم بيمين إنسان، فقيل له (اقرأ باسم ربك).

وفي هذه الإضافة التكريمية لون من الحفاوة السابغة، تبث الطمأنينة ويقين الإيمان في قلب القارىء العظيم الذي سبقت له العناية، فتولته رعاية الربوبية وتعهدته بتربيتها الخاصة، وهو لا يعلم أنه المقصود وأعدته بتعليمه وتأديبه، تعليماً إلهياً، وأدباً ربانياً، لم يثافن معلماً قط، وهيَّأته لما يراد به، وما يراد منه، وهو لا يعلم أنه الرسول خاتم النبيين، فلا نبي بعده

﴿ وكذلك أوحينا إليكَ روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾[1].

وعموم المشيئة في الآية الكريمة مخصوص به ﷺ، ولكنها جاءت كما هي في الآية لتمثل إطلاق الألوهية في كمال إرادتها و﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[2].

معنى طلب القراءة ومقصودها من النبي الأمي

ولباب المعنى كن قارئاً إعجازاً، ولو لم تكن من القارئين تعلماً، اقرأ مستعيناً باسم ربك الذي أعدك بتربيته معلماً للدنيا، ولا تلتفتن إلى الأسباب، واذكر بقلبك وروحك وعقلك مَنْ خَلَقها وسببها، فأنت معلِّم بعلم مِنْ عندنا، عليم بعلم غير مكتوب في كتاب، كما يكتب العلماء المعلِّمون، وأنت قارىء كتابنا الذي كتبناه بقلم كلمتنا الخالقة المبدعة، في صحفنا التي خطَّها قلم قدرتنا في لوح الأزل، لتكون هذه القراءة خصيصتك إلى الأبد (اقرأ باسم ربك الذي خلق) والخلق من الله تعالى إبداع ما لم يشهد الوجود، وإيجاد ما لم يكن له قبل ذلك شهود.

وهذا العموم في المنفعل بالخلق يجعل فعل الخلق المطلق عن التقيد بذكر مفعوله متشوفاً لمتعلقه، لتحقيق معناه، وهو صالح لكل مخلوق، وليس منها فرد جنس أو فرد نوع، أو فرد شخص، بأولى أن يكون متعلقاً لفعل الخلق المطلق ـ لفظاً ـ من غيره دون سائر المخلوقات، أجناساً وأنواعاً وأفراداً، فهي كلها كالمذكورة في تعلق فعل الخلق بها، وهذا الإطلاق مغاير للإطلاق في فعل طلب القراءة الذي بدأت به الرسالة الخالدة، لأن فعل القراءة هناك لا يتطلب التقييد ولا يقبله، وفعل الخلق هنا يستدعيه عاماً شاملاً مضمراً كالمذكور.

والمنفعل بالخلق والإبداع عاماً عموماً شمولياً هو (الكون) كله على

(١) سورة الشورى، آية: ٥٢.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

إطلاقه وشموله في عناصر تكوينه وإبداعه، فهو بالنسبة لفعل الخلق مفعوله الذي يتحقق به، وبالنسبة لفعل القراءة مقروءه الذي لا يتوقف عليه تحققه، ولكن جوّ الأحداث يفرضه.

وهذه إشارة معيَّنة تشهد ـ بمقتضى إطلاق فعل القراءة عن متعلَّق معين ـ أن المأمور بقراءته المستعان عليه باسم (ربك) في اختصاصك بتربية النبوة الخاتمة، وفي تخصيصك بالإضافة التكريمية مع عموم واقع التربية لكل كائن ـ إنما هو كتاب الخلق والإبداع، وليس ذلك سوى حقائق الوجود مسطورة في كتاب (الكون) البديع.

تحقيق روايات
بدء الوحي

أكمل وأجود رواية في أحاديث بدء الوحي

روى البخاري في الجامع الصحيح في باب كيف بدأ الوحي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة أو الصادقة ـ كما في رواية كتابي التفسير والتعبير، من البخاري ـ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلاء، وكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه، وهو ـ أي ا لتحنث ـ التعبُّد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال (ما أنا بقارىء) قال: (فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: (زملوني، زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة ـ وفي كتابَيْ التفسير والتعبير ـ فقال: أيْ خديجة مالي؟ لقد خشيت على نفسي، فأخبرها الخبر (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن

عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك،فقال له ورقة يا ابن أخي: ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: (أوَمخرجيَّ هم؟) قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي).

إلى هنا ينتهي حديث يحيى بن بكير، عن الليث، عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين، وفي قول ورقة لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ماذا ترى؟ ما يفيد أن ورقة سبق إليه من العلم بحال النبي ﷺ ما جعله يسأل هذا السؤال عن خصوص ما يرى، وخديجة لم تذكر في حديثها لورقة أن محمداً ﷺ رأى شيئاً، وإنما قالت: اسمع من ابن أخيك، وهذا القول من أبعد احتمالاته أن يفهم منه: اسمع من ابن أخيك حديثه عما يرى، حتى يقول له ورقة: ماذا ترى؟ ولكن حديث أبي نعيم الآتي يدل على أن خديجة رضي الله عنها أخبرت ورقة إجمالاً بما رأى.

قال ابن حجر في الفتح عند شرح قوله:(ماذا ترى؟) فيه حذف يدل عليه سياق الكلام، وقد صرح به في دلائل النبوة لأبي نعيم بسندٍ حسنٍ إلى عبدالله بن شداد في هذه القصة، قال: فأتت به ورقة ابن عمها فأخبرته بالذي رأى، إهـ.

قلت: وهذا يدل على أن خديجة حدَّثت ورقة عن حال النبي ﷺ وعن الذي رآه، لذلك سأله: (ماذا ترى؟).

فمن المرجَّح أن يكون قد وصل إلى علم ورقة شيء عن حال النبي ﷺ في نبوته التي بدأت بالرؤيا الصادقة، وسماع الصوت والكلمة من الوحي، مع الإرهاصات والأعاجيب التي كان يراها النبي ﷺ قبل وحي

الغار في حديث عائشة رضي الله عنها، كتسليم الحجر عليه كما في حديث مسلم.

قصة مرسل أبي ميسرة أسبق من قصة الغار.

وقد ورد في حديث أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ما هو صريح في لقاء النبي ﷺ ورقة، وإخباره أنه إذا خلا وحده سمع نداء: يا محمد، يا محمد، وهذا غير حديث الغار الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم، وحديث أبي ميسرة رواه البيهقي في الدلائل، وقال عنه جلال السيوطي في (الإتقان): هذا مرسل رجاله ثقات، ونصه أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمر، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثم - أي وليس رسول الله ﷺ موجوداً بالمنزل - ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: (ومن أخبرك؟) قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصَّا عليه، فقال: (إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء من خلفي، يا محمد، فأنطلقُ هارباً في الأرض) فقال له: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، يا محمد، قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، حتى بلغ ولا الضالين، قل: لا إلّه إلا الله، فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له ورقة: اثبت، فأنا أشهد أنك الذي بَشَّر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدنَّ معك.

حديث أبي الأسود من طريق ابن لهيعة عن عائشة

وقريب من هذه الرواية ما حكاه ابن حجر في الفتح في شرحه لحديث عائشة قال: وقد وقع في رواية أبي الأسود عن عروة عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ كان أول شأنه يرى في المنام، وكان أول ما رأى جبريل بأجياد، فصرخ جبريل: (يا محمد)، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً، فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء، فقال: يا محمد، جبريل، جبريل. فهرب فدخل في الناس، فلم يرَ شيئاً، ثم خرج عنهم، فناداه، فهرب، ثم استعلن له جبريل

من قبل حراء. فذكر قصة إقرائه (اقرأ باسم ربك) ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر. وهذا من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود وابن لهيعة ضعيف.

روايات تؤيد حديث أبي الأسود

وقد ثبت في صحيح مسلم من وجه آخر عن عائشة مرفوعاً (لم أره ـ يعني جبريل ـ على صورته التي خلق عليها إلا مرتين) وبينّ أحمد في حديث ابن مسعود: أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خُلق عليها، والثانية عند المعراج.

وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة: لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد، وهذا يقوّي رواية ابن لهيعة، وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين، وإنما لم يضمّها إليهما لاحتمال أن لا يكون رآه فيها على تمام صورته، والعلم عند الله.

ووقع في السيرة التي جمعها سليمان التيمي، فرواها محمد بن عبد الأعلى عن ولده معتمر بن سليمان عن أبيه أن جبريل أتى النبي ﷺ في حراء، وأقرأه (اقرأ باسم ربك) ثم انصرف، فبقي متردداً، فأتاه من أمامه في صورته فرأى أمراً عظيمًا، انتهى كلام ابن حجر.

ولم يظهرْ لنا وجه قوله: وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين.

فقصة حديث أبي ميسرة قصة أخرى مغايرة لقصة الغار، وليس في قصة حديث أبي ميسرة لقاء الملك، وإنما فيها سماع النداء، مما كان يحدث من أمور النبوة قبل مفاجأة الملك في غار حراء، فلما حدَّث خديجة بما كان يسمع من النداء باسمه أرادت خديجة أن تخفف عنه روعة النداء المفاجىء الذي يسمعه في خلوته دون أن يرى من يهتف باسمه ويناديه، وذكرت له من أصول الفضائل التي جبله الله عليها ما يجعله بعيداً عن المخاوف التي أحدثتها في نفسه روعة المفاجأة بالنداء، فلما جاء الصديق أبو بكر رضي الله عنه، ولم يكن رسول الله ﷺ ساعتئذ موجوداً في البيت حدَّثته خديجة بخبر رسول الله ﷺ، وقالت له: اذهب مع محمد إلى ورقة، لِمَا كان معروفاً عنه من العلم الأول بالكتب الدينية، فذهب أبو بكر مع النبي ﷺ إلى ورقة،

وأخبره النبي ﷺ بما كان يسمع من النداء باسمه، وانطلاقه هارباً في الأرض، فطلب منه ورقة أن يثبت حتى يسمع ما يقوله له من يناديه، ثم يأتيه ليخبره، وسمع النداء مرة أخرى، وأمره مناديه أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، إلخ فاتحة الكتاب، وأن يقول: لا إلّه إلا الله. فأتى ورقة كما طلب منه وأخبره، فبشره ورقة بالنبوّة والرسالة.

ولسنا نقصد بسياق مرسل أبي ميسرة أن نضعه في ميزان مع مسند الشيخين، ولكنا سقناه لإشعاره بما يوضح قول ورقة ـ في حديث الشيخين ـ: يا ابن أخي ماذا ترى؟ في دلالته على أن ورقة كان على علم قبل انطلاق خديجة إليه مع رسول الله ﷺ ببعض حال النبي ﷺ في نبوته، وما كان يراه ويسمعه قبل أن تبدأ رسالته بقصة الغار المتفق عليها.

ومرسل أبي ميسرة مغاير كل المغايرة لحديث الغار الذي لقي فيه رسول الله ﷺ ملك الوحي يقظة وأقرأه أوائل سورة اقرأ، ففي مرسل أبي ميسرة ذكر النداء فقط دون أن يرى المنادي، وأن مناديه قال له: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين ، إلخ.

ولعل هذا المرسل هو مستند من زعم أن فاتحة الكتاب أول ما نزل من القرآن، وسيأتي تحقيق ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

مواضع سياق حديث بدء الوحي عند البخاري

أخرج البخاري حديث بدء الوحي في مواضع من كتابه (الجامع الصحيح) وسنكتفي بالحديث عن ثلاثة مواضع منها، لأنها أقرب في مواضعها إلى موضوعها.

(١) الموضع الأول: أول الكتاب، باب (كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو ثالث حديث في هذا الباب، الذي افتتحه البخاري بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إنما الأعمال بالنيات) وذكر بعده حديث الحارث بن هشام في سؤاله النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ وثلّث بحديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهو المقصود بالبحث).

وهذا الموضع الأول لحديث عائشة انتهى عند قوله: وفتر الوحي، ثم

ساق البخاري بعده مباشرة قول ابن شهاب الزهري، موصولاً بإسناد حديث عائشة: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبدالله الأنصاري، وذكر حديث نزول ﴿ يا أيها المدَّثر، قم فأنذر ﴾ إلى قوله: ﴿ والرجز فاهجر ﴾ فحَمي الوحي وتتابع.

(٢) الموضع الثاني: كتاب التفسير من (الجامع الصحيح) تفسير سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وهذا الموضع الثاني لحديث عائشة انتهى عند قوله: وفتر الوحي، بزيادة (فترة حتى حزن رسول الله ﷺ) ثم ساق البخاري عقبه مباشرة قول محمد بن شهاب الزهري - موصولاً بإسنادين؛ أحدهما إسناد حديث: كيف بدأ الوحي، وثانيهما إسناد لم يذكره البخاري في كتابه في غير هذا الموضع : فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، وساق حديث جابر في نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

(٣) الموضع الثالث: أول كتاب التعبير من (الجامع الصحيح) باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، وهذا الموضع الثالث لحديث عائشة رضي الله عنها انتهى عند قوله: وفتر الوحي، وقد ساقه البخاري بالإسناد الأول، عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري، ثم قرن به إسناداً آخر عن عبدالله بن محمد، عن عبد الرزاق عن معمر، قال الزهري إلخ.

وبعد انتهاء حديث عائشة رضي الله عنها عند قوله: وفتر الوحي، ساق البخاري بلاغ الزهري، وفيه بعد قوله: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

وواضح أن المواضع الثلاثة تتفق في اعتمادها على يحيى بن بكير شيخ البخاري، عن الليث بن سعد الفهمي فقيه مصر وإمامها، عن عقيل، عن

ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن خالته السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وتزيد رواية كتاب التفسير من الجامع الصحيح سنداً آخر غير سند يحيى بن بكير، ساق به البخاري الحديث مقروناً بالسند الأول، سند يحيى ابن بكير، فقال بعد أن ذكر السند الأول إلى ابن شهاب: وحدثني سعيد ابن مروان، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رِزْمة، أخبرنا أبو صالح سليمان ابن صالح الليثي الملقب سلمويه، حدثني عبدالله ـ هو ابن المبارك ـ عن يونس بن أبي يزيد، قال: أخبرني ابن شهاب أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت، ثم ساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، فترة حتى حزن رسول الله ﷺ.

وهذا السند الذي قرنه البخاري في هذا الموضع بالسند الأول، سند يحيى بن بكير هو الذي قلنا عنه: إن البخاري لم يذكره في كتابه في غير هذا الموضع، وقصدنا السند في جملته بمجموع رجاله وصورته، فإن سعيد بن أبي مروان، وابن أبي رِزْمة، وسلمويه، ليس لهم في البخاري ـ كما قال ابن حجر ـ سوى هذا الموضع، وسعيد بن أبي مروان من طبقة البخاري، وابن أبي رِزْمة من طبقة أحمد بن حنبل، فهو من شيوخ البخاري، وأبو صالح سلمويه كان من أخصَّاء عبدالله بن المبارك المكثرين عنه.

أما بقية رجال السند: عبدالله بن المبارك، ويونس بن أبي يزيد، فهما من رجال البخاري الذين أكثر من ذكرهم.

وتزيد رواية كتاب التعبير من الجامع الصحيح سنداً آخر ساق به البخاري الحديث مقروناً بالسند الأول ـ سند يحيى بن بكير ـ فقال البخاري: وحدثني عبدالله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: أول ما بُدِىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة...

ويتضح من النظر في رواية الحديث في مواضعه الثلاثة أن الرواية في

الموضعين الأول والثاني ليس بينهما اختلاف جوهري في نص الحديث وسياقه، سوى أن رواية الموضع الثاني التي هي رواية التفسير، تزيد بعد قوله: وفتر الوحي، قولها: فترة حتى حزن رسول الله ﷺ، وتنتهي بذلك.

رواية كتاب التعبير في صحيح البخاري وبلاغ الزهري فيها

أما رواية الموضع الثالث، وهي رواية كتاب التعبير من الجامع الصحيح فتزيد في النص بلاغ الزهري عن حزن النبي ﷺ الذي غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، كما ذكرناه فيما سبق.

قال العلامة ابن حجر في الفتح: وقوله هنا: فترة حتى حزن النبي ﷺ ـ فيما بلغنا ـ: هذا وما بعده ـ أي من إرادة التردي من رؤوس شواهق الجبال ـ من زيادة معمر على رواية عقيل ويونس.

ثم قال ابن حجر: وصنيع المؤلف يوهم ـ أي هنا في كتاب التعبير ـ أنه داخل في رواية عقيل ـ أي وهي الرواية التي ساق بها المؤلف الحديث في باب كيف بدأ الوحي، وليس فيها ـ أي في رواية عقيل هذه الزيادة ـ أي التي جاءت في بلاغ الزهري.

قال ابن حجر: وقد جرى على ذلك ـ أي عدم إدخال هذه الزيادة في رواية عقيل، كما يوهمه صنيع المؤلف ـ الحميدي في جمعه، فساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، ثم قال ـ أي الحميدي ـ : انتهى حديث عقيل المفرد عن ابن شهاب إلى حيث ذكرنا ـ أي إلى قوله: وفتر الوحي ـ وزاد عنه البخاري في حديثه المقترن بمعمر عن الزهري فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن، فساقه إلى آخره.

ثم قال ابن حجر: والذي عندي أن هذه الزيادة خاصة برواية معمر، فقد أخرج طريق عقيل أبو نعيم في مستخرجه من طريق أبي زُرْعة الرازي عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه في أول الكتاب بدونها، وأخرجه مقروناً هنا برواية معمر، وبين أن اللفظ لمعمر، وكذلك صرَّح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر، وأخرجه أحمد ومسلم والإسماعيلي وغيرهم وأبو نعيم أيضاً من طريق جمع من أصحاب الليث بدونها.

ثم إن القائل (فيما بلغنا) هو الزهري، ومعنى الكلام أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة، وهو من بلاغات الزهري، وليس موصولاً.

* * *

وحديث بدء الوحي خرَّجه أئمة الإسلام من المحدِّثين أصحاب الجوامع، والسنن، والمسندات، ودلائل النبوة، والمستخرجات، والمصنفات، ومدوني السيرة النبوية، وحفَّاظ أحداثها.

اختلاف روايات الحديث تجمعت زبدتها في روايات البخاري.

وقد اختلفت رواياتهم اختلافاً عريضاً، يكاد في بعضه لا يلتقي منه طرف بطرف، فبعضهم يزيد، وبعضهم ينقص، وبعضهم يقتصر على الموصول، وبعضهم يدرج في متن الحديث أشياء من اجتهاده وتفسيره، وبعضهم يلحق بالحديث بلاغات تبلغه عن شيوخه ومن في طبقتهم، ومن هم أعلى منهم، وبعضهم يرسل الحديث إرسالاً، وبعضهم يرفعه وبعضهم يخلط رواية برواية أخرى، وفيهم من يقتصد ويجوِّد.

وهكذا تتسع فجوة الاختلاف بين رواية ورواية، وكتاب وكتاب، بل بين موضع وموضع من كتاب واحد.

وقد انتهى بنا البحث ـ في حدود الاستطاعة ـ إلى أن زبدة الموضوع في أحاديث بدء الوحي تجمعت في روايات إمام الأئمة وشيخ شيوخ المحدثين الإمام البخاري في جامعه الصحيح، وزبدة الزبدة من هذه الروايات تجمعت في روايات المواضع الثلاثة التي بيَّناها فيما سبق.

ومن ثم رأينا أن ندير البحث في إطارها، وإذا عرض أمر لم يذكر في موضع منها، وذكره غير البخاري وكان لهذا الأمر أهمية في البحث عرضنا له، وبيَّنا ما تدعو إليه الحاجة منه، حتى يستوفي البحث أغراضه وينتهي إلى أهدافه في دائرة الإمكان والتوفيق.

أجمعت الروايات في حديث بدء الوحي أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، يراها في النوم فتجيء في اليقظة

كاملة تامة، واضحة كما رآها في النوم، لا يغيب عليه منها شيء كأنما نقشت في قلبه وعقله، وقد شبَّهت السيدة عائشة رضي الله عنها ـ وهي من أقوم أبناء العرب والمسلمين بالبيان العربي ـ ظهور رؤيا رسول الله ﷺ إذا استيقظ بها في كمال وضوحها بظهور ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهو تصوير بياني لا تنفلق دنيا العرب في ذرى فصاحتهم عن أبين منه.

وهذه الرؤيا الصادقة هي أول مراتب النبوة، وكأنما كانت هي الباعث المباشر على حبه ﷺ للخلوة واعتزال ضوضاء المجتمع، والأنس بالوحدة، لاستجماع الفكر والسبح في ملكوت الله وجلال بدائع صنعه، ولهذا جاءت بحرف الترتيب الرتبي المتعاقب في ريث ومهل، فقيل: ثم حُبِّب إليه الخلاء، أي أنه بعد اصطفائه بالنبوة وبدء معالمها بالرؤيا الصادقة حَبَّب الله تعالى إلى نفسه الطاهرة المطهَّرة الخلوة، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيلقي إليه من أعلام النبوة.

خلوة الغار كانت اعداداً لميلاد رسالته ﷺ

وقد اتخذ رسول الله ﷺ من غار حراء مختلى له ومتعبداً، لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق، استجماعاً لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية، تفرغاً لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود، وتمكيناً لأنوار النبوة من قلبه بالتأمل في مظاهر ملكوت الله.

وقد تحقق له ﷺ بهذه الخلوة من أنوار شهود جلال الله، وجمال قدسه ما كشف عن روحه العلية أغطية الكثافة البشرية، فكان ﷺ يرى الضوء، ويسمع الصوت، ويكلَّم، ويبشَّر، حتى بلغت به الأنوار القدسية آفاق الكمال النبوي، ووقف بها على الدرج الأعلى من مراتب النبوة، وأتم الله تعالى عليه وله نعمة الاستعداد الأسمى لتلقي رسالة الخلود، وجاءه الملك جبريل أمين الوحي مفاجئاً دون تمهيد لهذا اللقاء الذي لا يماثله لقاء قط بين متلاقيين من المخلوقات.

لقاء جبريل برسول الله لقاء بين طبيعتين مختلفتين في الطبيعة والتكوين

فهو لقاء بين طبيعتين مختلفتين في التكوين أشد الاختلاف، بين طبيعة مزدوجة الإبداع والخلق، فهي بشرية روحانية، هي طبيعة محمد نبي الله ﷺ، وطبيعة موحَّدة الإبداع في أعلى درجات الروحانية والاختصاص

العلوي هي طبيعة أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وليس بين إنسان من البشر بكل ما فيه من كمال البشرية وطبيعتها، وبين ملك بكل ما في طبيعته من روحانية لها اختصاصها القدسي في الملأ الأعلى ـ تناسب يقع به اللقاء لتلقي كلمات الله المنزلة من غيب عزه وجلاله، إلا إذا تغلب الجانب الروحاني من الطبيعة المزدوجة على الجانب البشري منها تحقيقاً للتناسب والمشاكلة.

فتحبيب الخلوة إلى النبي ﷺ بعد بدء النبوة بوحي الرؤيا الصادقة أشبه بحضانة لميلاد الرسالة في مهد الإعداد لطور الانتقال إلى تحمل أعبائها، والقيام بحق تبليغها عامة شاملة للإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، بما يختلف عليها من أجيال متتابعة، لا ينقطع توالدها البشري متواردة على مر الزمن.

ومن هنا يتجلى وجه المفاجأة في مجيء الحق، ولقاء الملَك، وطلب القراءة ممن لم يكن قط قارئاً، واستفراغ بشريته بالغط الملائكي المتكرر مع كل طلب للقراءة التي لم تكن بمفهومها المعهود ممكنة الحصول.

مفاجأة الملك والتماس حكمة الغط المتعدد

وكأن هذا الغط بصورته البليغة البالغة هو في حقيقته إذابةٌ لروابط العناصر الطبيعية البشرية عند محمد ﷺ دون إفنائها إفناء يفقدها وجودها، وإنما هو تفتيت لترابط عناصرها، حتى يخف وزنها إلى جانب الطبيعة الروحانية، لتشبعها بأنوار الجلال الإلهي، حتى تنفرد بالحركة الوجودية في تلقي الوحي اليقظي، وأخذ كلمات الله من حاملها الأمين.

وبقاء الطبيعة البشرية بحقيقتها الأصيلة وراء مشهد تلقّي الوحي اليقظي ضروري لتبليغ الرسالة، استجابة للتناسب بين الرسول والأمة، لأن كل جنس يأنس بجنسه، والجنس إلى الجنس أميل، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم في قول الله تعالى: ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿ قُل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من

(١) سورة الأنعام، آية: ٩.

السماء ملكاً رسولاً ﴾[1].

وإنما أقدر الله عزّ شأنه أنبياءه على رؤية المَلَك لتلقي الوحي عنه، بخلقه فيهم قدرة خاصة، مكّنهم بها من ذلك معجزة لهم لإبلاغهم رسالات الله، ليبلغوها إلى أممهم، وتلك القدرة هي ما قصدناه بتغليب جانب الطبيعة الروحانية على جانب الطبيعة البشرية، وإذابة روابط عناصرها، وتفتيت وشائجها الغرزية، لتنفرد الطبيعة الروحانية بقوة الوجود الخاص الذي يتحقق به تلقي الوحي عن الملك المرسل به من عند الله العزيز الحكيم.

وحديث بدء الوحي بدأ في جوّ المفاجأة بلا مهل، فطلب الملك من النبي ﷺ أن يقرأ، دون أن يذكر له مقروءاً يقرؤه، لأنه لم يزده على قوله: (اقرأ) هكذا أمر من فعل القراءة، مطلق عن التقيد بمقروء، أيِّ مقروء، فأجابه النبي ﷺ ـ كما تقضي به البداهة في جو المفاجأة التي لم يسبقها في هذا اللقاء تمهيد مؤنس ـ ينفي معرفته للقراءة، لأنه أمي لا يقرأ، فضمه الملك إليه ضمة شديدة، بالغة الشدة، عصره بها عصراً بلغ منه منتهى جهده وطاقة احتماله البشري، حتى ظن النبي ﷺ أن نفسه تقبض، ثم أرسله المَلَك وقال له مرة ثانية: (اقرأ) هكذا فعل أمر من القراءة، مطلق عن التقيد بمقروء ـ أيِّ مقروء ـ فأجابه النبي ﷺ هذه المرة مستفهماً ـ كما وقع صريحاً في مرسل عبيد بن عمير: (ماذا أقرأ؟) فأخذه الملك، وضمّه إليه ضمة ضاغطة، بلغت منه منتهى ما تحتمله بشريته، ثم أرسله، وقال له: (اقرأ) هكذا ـ أيضاً ـ فعل أمر من القراءة مطلق عن أي قيد بمفعول معين مما يُقرأ في معهود الحياة، فأجابه النبي ﷺ ـ كما جاء صريحاً في حديث أبي بكر ابن حزم، عند أبي بشر الدَّوْلابي ـ مستفهماً: (كيف أقرأ؟ وأنا لا أعرف القراءة، فكان هذا استفهاماً عن الحالة التي يصير بها النبي ﷺ قارئاً، وهو الأمي الذي لم يعرف القراءة قط، فأخذه الملك، وضمه إليه ضمة بالغة الشدة استفرغت منه جهده وطاقته، ثم أرسله وقال له: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي

---

(1) سورة الإسراء، آية: ٩٥.

خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وحدة صيغة الإجابة في حديث عائشة عند البخاري واختلافها في الروايات الأخرى

وحديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في مواضعه الثلاثة من الجامع الصحيح جاءت فيه إجابة النبي ﷺ بصيغة واحدة في المرات الثلاث التي طلب فيها الملك أن يقرأ، فكان يقول له في كل مرة: (اقرأ)، فيجيب النبي ﷺ: (ما أنا بقارىء)، وظاهر عبارة الإجابة يقتضي أن هذا نفي لمعرفة القراءة في المرات الثلاث.

وقد سلكنا في فهم الحديث مسلك المغايرة بين الإجابة في مراتبها الثلاث، أخذاً من نصوص حديثية كانت الإجابة فيها متغايرة في صيغتها، وكان ذلك موافقاً لما ذهب إليه كثير من باحثي العلماء الذين حاولوا فهم وحدة صيغة الإجابة في حديث البخاري في مواضعه الثلاثة، على أساس تغايرها في معانيها، بما يجعلها متوافقة مع النصوص الصريحة للإجابة المتغايرة في أحاديث أخرى عند غير البخاري، كما أشرنا إليه في حديثي عبيد ابن عمير وأبي بكر بن حزم عند الدَّوْلابي.

فلفظ (ما) في قول النبي ﷺ في المرة الأولى (ما أنا بقارىء) نافية، ومعنى الجواب حينئذ الإخبار بعدم معرفته القراءة بياناً لطبيعة أميته التي ولد بها، ونشأ عليها، أي ما أنا بعارف للقراءة ولا باشرتها قط لأني أمي، لم أكن قارئاً قط، ولا تعلَّمت قراءة حرف قط، كما جاء صريحاً في بعض الروايات (ما أُحْسِن أن أقرأ).

ولفظ (ما) في قول النبي ﷺ في المرة الثانية (ما أنا بقارىء) إستفهامية، يراد بها استبانة ما يقرؤه، ومعنى العبارة حينئذ: أخبرني أي شيء أقرأ؟ كما يوضحه مجيء العبارة بصيغة الاستفهام الصريح استخباراً عما يريد منه أن يقرأه في مرسل ابن عمير، فقد جاء فيه (ماذا أقرأ؟)، ويجب توحيد معنى الروايات وتفسير بعضها ببعض، فيرد المبهم إلى المفسر إتقاءً للتخالف والتضارب.

ولفظ (ما) في إجابة النبي ﷺ في المرة الثالثة بقوله: (ما أنا بقارىء) إستفهامية بمعنى (كيف)، فهي استخبار عن الحالة التي يكون بها النبي ﷺ قارئاً، لأن تحقيق القراءة منه ﷺ بعيد جداً عن حالته التي ولد عليها ونشأ بها، فهو أمي لم يباشر القراءة قط في حياته، ولا عرفها، فكيف يحققها استجابة لطلب طالبها، وقد جاءت العبارة بالاستفهام الصريح بكيف في حديث أبي بكر بن حزم الذي خرجه أبو بشر الدَّوْلابي، فقد جاء فيه: أن جبريل استعلن له، وبشره باصطفاء الله له رسولاً إلى العالمين، حتى اطمأن، ثم قال له: (اقرأ) فقال: (كيف أقرأ؟)، ولهذا جاء رد الملَك عليه بعد هذه المرة مبيناً له الحال التي يكون بها قارئاً، مع بقاء أميته، فقال له: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم ﴾ وهذا رد مناسب أكمل المناسبة للاستفهام عن الحال التي يصير بها النبي ﷺ قارئاً بعد بيان أنه لا يعرف القراءة، ولم يباشرها قط في حياته.

ومعنى الرد بهذه الآيات، وليس فيها ما يقرؤه النبي ﷺ استجابة لطلب القراءة المطلق: كن قارئاً إعجازاً وحقق القراءة وأنت على أميتك، مستعيناً باسم ربك الذي ربَّاك، وأعدك لرسالتك الخالدة، وليست قراءتك المطلوبة منك أن تقرأ كما يقرأ غيرك تعلُّماً، وإنما أن تقرأ كما يعلِّمك الله بعلمه الذي ربَّاك به في أحضان كرمه، وهو جلّ جلاله كما علَّم الإنسان بقلم البيان تعلُّماً سيعلمك بقلم الفضل والإحسان، لتكون معلم الدنيا برسالتك الخاتمة لرسالات السماء.

وقد اتفقت كلمة أئمة الإسلام، وأعلام علماء المسلمين في كافة الأعصر والأجيال، وذوي المعرفة من الحكماء في سائر أوطان الإسلام، أن الملَك الذي أخبر حديثُ بدء الوحي في جميع روايته أنه جاء إلى رسول الله محمد ﷺ في غار حراء يقظة مفاجأة، فقال له (اقرأ) هو الروح الأمين، جبريل أمين الوحي إلى سائر المرسلين.

وكان هذا أول لقاء يقظي بوحي قرآني بين سيدنا محمد رسول الله ﷺ والروح الأمين جبريل عليه السلام، وهو لقاء محجب بستور الغيب، لا يعلم

أحد دون رسول الله ﷺ على أية حال كان، وفي أية صورة لقي عليها الأمينُ الأمينَ عليهما أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

لقاء جبريل للنبي ﷺ في وحي اليقظة كان أكثر ما كان في صورة إنسانية

ولعل أقرب الأحوال والصور إلى القبول ـ إذا كان لا بد من الحدس والتظنن، ولا سيما في حال المفاجأة، وفي أول لقاء بينهما مع اختلاف الطبائع الخِلْقية ـ أن يكون هذا اللقاء وقع في صورة إنسانية تشكل فيها جبريل تأنيساً للنبي ﷺ، ورأفة به من شدة وقع المفاجأة، وما ينشأ عنها من الفزع، لرؤية ما لم يكن منتظر الوقوع.

وقد ذكرت الأحاديث الصحيحة ما يشهد لذلك بعد استقرار أمر الوحي، وتتابعه على مدى زمن الرسالة، فقد ثبت أن جبريل عليه السلام كان في بعض الأحيان يجيء إلى النبي ﷺ في صورة إنسانية تعرف للنبي ﷺ، ولمن يكون شاهداً من أصحابه، وقد جاء مرات في صورة دِحْية ابن خليفة الكلبي من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان دِحْية وسيماً وجيهاً، وقد رأت السيدة عائشة رضي الله عنها جبريل في هذه الصورة، فسألها النبي ﷺ عنه، فقالت: هو دحية، فقال لها النبي ﷺ (إنه جبريل).

كما كان يجيء في صورة إنسانية لا تعرف لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، كما في حديث سؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، وقول النبي ﷺ: (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم) كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وأخرج مسلم من طريق كَهْمَس في حديث عمر: بينا نحن ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذيه.. إلى أن قال في آخر الحديث: ثم مضى فلم يره أحد، فقال النبي ﷺ: «هذا جبريل أتى ليعلمكم دينكم».

ولا شك أن مجيئه مفاجأة في أول مراتب الوحي اليقظي بآيات من القرآن، هي أول ما أنزل على النبي ﷺ من الكتاب الحكيم، أحرى أن

يكون على صورة إنسانية مألوفة، وليس بلازم أن تكون هذه الصورة معروفة للنبي ﷺ.

ولذلك قال العلماء: أنَّ (أل) في لفظ (الملَك) من قوله (فجاءه الملك) لتعريف الماهية، لا للعهد، وأصل الكلام فجاء جاءٍ، وكان هذا الجائي ملَكاً، فأخبر عنه النبي ﷺ بحقيقة جنسه، لا بحقيقة ذاته وشخصه، لأنه لم يتقدم له معرفة به.

وفي التعبير عن أول شيء توجه به الملك إلى النبي ﷺ بقوله: فقال له: اقرأ، بالفاء دليل على سرعة المفاجأة بطلب القراءة، وأنها أعقبت مجيئه بغير فترة، وبهذا تكون المفاجأة تحققت مرتين متواليتين: الأولى في دخول الملك على النبي ﷺ مختلاه ومتعبده، دون تمهيد يشعر النبي ﷺ بأن أحداً سيدخل عليه في الغار، والثانية في أمره بالقراءة عقب دخوله عليه مباشرة، وفي كليهما نوع من المغامضة الباغتة المؤثرة على الطبيعة البشرية بما يهز كيانها هزاً يقحم عليها الرعب والفزع، ومن هنا كان فزع النبي ﷺ فزعاً بشرياً رجفت منه بوادره، وظهرت على بشريته آثاره، حتى هدأت نفسه، فتلقَّى رسالة ربه متثبتاً، مغموراً بأنوار شهود العزة الإلٰهية في يقين لا يداخله أدنى شك في اصطفائه رسولاً بعد اجتبائه نبياً من الصالحين.

عدم ذكر متعلق لفعل (اقرأ) يدل على أن القصد إلى تحقيق القراءة في ذاتها

وفي إطلاق الأمر بالقراءة، وذكر فعله مجرداً عن تعلقه بمفعول معين؛ مع تكرره ثلاث مرات بصورة الإطلاق عن التقييد بمقروء إشارة إلى أن المقصود من فعل الأمر بالقراءة تحصيل مطلق فعل القراءة، ومعناه: حقِّق القراءة، وكن قارئاً دون القصد إلى مقروء معين.

بَيْدَ أن جمهور المفسرين والمحدِّثين ذهبوا إلى أن فعل الأمر الذي فاجأ به الملك النبي ﷺ فقال له: اقرأ مقيد بقيد ملحوظ، قالوا: لأن الأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً، وقدروا هذا القيد فقالوا: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نُزِّل عليك، أو ما أمرت بقراءته.

ولم يكن آنئذ قد أوحى إليه شيء يُقرأ، فإن كان مقصودهم ما يوحى

إليه مستقبلاً فلا حاجة لتقديره والأمر به، لأن وحيه إليه ونزوله عليه مقتضٍ لقراءته وتبليغه.

كذلك لم يكن ساعتئذ قد نزل عليه شيء يقرؤه، ولا كان قد أمر بشيء أزيد من لفظ (اقرأ) مجرداً عن قيده بمقروء معين، فأين مكان القيد الملحوظ؟ وأنّى يمكن تعيينه؟ واختلافهم في تعيينه رجم بالغيب، لا يستدعيه النص.

ولذلك قال بعض العلماء: هو أمر لمجرد التنبيه والتيقظ، وهذا معنى انقطاعه عن التعلق بقيد زائد على مجرد الفعل.

حديث عبيد بن عمير لا يدل على قيد ملحوظ يتعلق به فعل القراءة

ولا وجه مطلقاً للتعلق بحديث عبيد بن عمير في أن القيد المتعلق به الفعل (اقرأ) مقدر ملحوظ اعتماداً على تقدم واقعة حديث عبيد زمناً على قصة الغار عند البخاري، بتقدير أن ما جاء في حديث عبيد مما أوحي إلى رسول الله ﷺ، فيكون هو قيداً لفعل الأمر (اقرأ) الذي فاجأ به الملك النبي ﷺ في لقاء الغار، ومعناه في تقدير المتعلقين به: اقرأ ما سبق أن أُوحِي إليك في رؤياك المنامية، قبل لقاء أمين وحينا بك في غار حراء.

لا وجه لهذا التعلق لأن الذي سبق في حديث عبيد بن عمير بوحي الرؤيا المنامية هو عين ما جاء في حديث الغار بوحي اليقظة، فقد جاء في حديث عبيد أنّ جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ وهو نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ وكرر عليه هذا الطلب والْغَتّ ثلاث مرات، ثم بعد المرة الثالثة قال له: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق..﴾ الآيات الخمس من أول سورة العلق ـ إلى قوله: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ ولا يوجد في هذه الرواية مقروء معين يتعلق به طلب القراءة، حتى يمكن أن يكون قيداً لفعل الأمر بالقراءة في حديث الغار بالإحالة عليه، لأن هذه الآيات هي نفسها التي جاءت في حديث الغار عند البخاري، والأمر في حديث عبيد بالقراءة مكرر ثلاث مرات بإطلاقه عن التعلق بقيد معين.

فلا وجه ـ كما قلنا ـ لتقدير قيد لفعل القراءة الذي بدأ به وحي

لا وجه لتقدير قيد يتعلق به فعل القراءة في طلب جبريل

الرسالة إلى رسول الله ﷺ يقظة في غار حراء، وهو حديث في أعلى درجات الصحة والثبوت لاتفاق جميع أئمة الحديث على روايته، وما جاء في وحي النبوة مناماً سبق اليقظة - إذا صح حديث عُبيد- وهو مرسل، لأن المقصود من الأمر بالقراءة مجرداً عن قيد بمقروء - كما هو نص المتن في الروايتين المنامية في مرسل عبيد، واليقظية في حديث الغار عند البخاري وسائر أئمة الحديث - حقّق القراءة، أي كن قارئاً، كما حققناه فيما سبق فيكون الفعل الطلبي (اقرأ) استعمل غير متعد إلى مفعول معين، لعدم تعلق القصد إلى مفعول معين، بل أريد منه توجيه النبي ﷺ إلى عنوان ولباب رسالته في عمومها الفكري، واعتمادها على العلم والمعرفة بأوسع مفهومها الذي جعلت القراءة في أمر النبي ﷺ بها في بدء رسالته علماً عليه وله.

ولعل هذا المعنى هو مراد من قال: إن الفعل (اقرأ) أمر لمجرد التنبيه والتيقظ.

أغرب ما قيل في بيان قول جبريل للنبي ﷺ (اقرأ)

ومن الغريب هنا ما قاله العلامة ابن حجر في الفتح عن شيخه البلقيني: قال شيخنا البلقيني رحمه الله تعالى: دلَّت القصة على أن مراد جبريل بهذا أن يقول النبي ﷺ نص ما قاله، وهو قوله: (اقرأ) أي التلفظ بهذا اللفظ (اقرأ)، ومن حق البحث أن يتساءل: ما هو وجه دلالة القصة على أن هذا الذي قاله الشيخ الإمام البلقيني هو مراد جبريل؟ وفي أي موضع منها جاءت هذه الدلالة؟ وهل هذا الاتجاه من قبيل ما قيل: إن المقصود من الفعل (اقرأ) مجرد التنبيه والتيقظ؟ أو هو رأي آخر؟ وحينئذ لا بـدَّ من التساؤل: ما الفائدة التي تترتب على ترديد النبي ﷺ هذا اللفظ؟ وأن يقول عين ما قاله الملك له (اقرأ) طالباً تحقيقه، أو تحقيق قيده الملحوظ، وقـد كان هذا الأمر وهو صادر من ملك الوحي طلباً موجهاً إلى من هو مطلوب منه، وهو موجه إلى النبي ﷺ، وهذا هو المقصود من مجيء الملك إلى النبي ﷺ.

وإذاً فما شأنه ومعناه حين يردده النبي ﷺ ويقول نص ما قاله الملك له (اقرأ)، ومن هو الموجَّه إليه، المخاطب به، المطلوب منه تحقيقه أو تحقيق متعلقه الملحوظ؟ أهو ملك الوحي؟ أم هو النبي ﷺ؟ والأول من أعجب العجب إذ يصير به المأمور آمراً، والآمر مأموراً، والثاني لا قيمة له إلا أن يكون تأكيداً

لطلب الملك منه، كمن يخاطب نفسه تهييجاً لها وحثاً على الاستجابة.

وقد أكثر البلقيني ـ كما نقله عنه تلميذه ابن حجر ـ من الاحتمالات والفروض في تقدير متعلق الفعل (اقرأ) الذي فاجأ الملك به النبي ﷺ، وهي احتمالات لم يذكر لها الشيخ سنداً من النقل، فبقيت في مهب التخرصات والظنون.

وقد يكون من أبعدها تقدير: اقرأ القرآن جملة، وبني على هذا التقدير الاحتمالي أن يكون القرآن نزل على رسول الله ﷺ جملة واحدة باعتبار، ثم نزل منجّماً باعتبار آخر.

ولا شك أن هذا الفرض الاحتمالي مناقض بظاهره لقول الله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبِّت به فؤادك، ورتلناه ترتيلاً ﴾[1].

ومحاولة الإجابة عن هذه المناقضة ضرب من التعسف في التأويل، لا داعي له، ولا مبرر لارتكابه.

حكمة تكرار طلب القراءة والغط

ولما نفى النبي ﷺ عن نفسه الشريفة معرفة القراءة، وأنه لا يحسن أن يقرأ، لأنه أمي لم يباشر القراءة قط، ولم يعرفها في حياته ـ ضمه جبريل إليه ضمة شديدة استفرغ بها بشريته، وأخلص بها روحانيته من التشابك المادي بالطبيعة البشرية، إخلاصاً استجمع به مشاعره وإحساساته، ومدارك عقله، ونبضات قلبه، وخلجات وجدانه، وإشراقات روحه، تحقيقاً للتناسب الروحاني بينه في طبيعته المزدوجة من البشرية والروحانية، وبين الطبيعة الملائكية الخالصة بروحانيتها، التي يتلقى عنها وحي رسالته، وإعداداً لقواه الذاتية لتقبل أثقال ما ينزل عليه من الوحي، وتهييئاً له لتحمل ما سيلْقَىٰ من مشاق تبليغ رسالته إلى كافة أفراد الإنسانية وجماعاتها، وأممها وشعوبها في أرجاء الأرض، وتوطيناً لنفسه على فدائح الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، وإخراج البشرية من ظلمات الظلم والجهالة الضالة إلى نور العلم والعدل والهدى والخير.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٣٢.

فلما بلغ منه جبريل عليه السلام تصفية طبيعته من كدورات البشرية بهذه الضمة الأولى أرسله وقال له: (اقرأ) هكذا ـ أيضاً ـ أمر مطلق عن التقيد بمقروء، فقال له النبي ﷺ ـ وقد دنا من روحانيته الملائكية بعض الدنو ـ مستخبراً: (ماذا أقرأ؟) كما جاء صريحاً في مرسل عبيد بن عمير، فأخذه جبريل إليه وضمه ضمة، لعلها أشد مما سبقها، بلغت منه غاية جهده وطاقة تحمله، ليستنفد ما بقي عنده من علائق البشرية المقيَّدة بعناصرها المادية انطلاق إشراقات روحانيته عن السبح في عوالم ملكوت الله، لتكميل إعداده لتلقي وحي اليقظة ومواجهة الملك فيما يظهر له من الصور والهيئات.

ثم أرسله، وقال له: (اقرأ) ولم يزده على صيغة الأمر المطلق عن التعلق بمقروء، فاستبانه النبي ﷺ عن الحالة التي يكون بها قارئاً، مع أميته التي ولد بها، ونشأ عليها منذ كان في حياته كلها، فكيف يصير قارئاً؟.

أشد حالات الوحي

فأخذه إليه جبريل، وضمه ضمة عصره بها عصراً ظن منه بنفسه الموت، لتستشف روحه، وهي في علوها وتغلبها على بشريته خطرات الوحي، فلا يندّ عنه منه حرف أو شيء، ولو لم يكن هناك تعبير بالألفاظ والكلمات، كما في بعض مراتب الوحي، وأشد حالات الوحي اليقظي التي أخبر عنها النبي ﷺ في حديث الحارث بن هشام عند البخاري، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال».

وهذه الحالة لا تستوعب الأذن المادية التعبير عنها، فهي حالة خاصة، متمحضة للروحانية، وإنما يدرك المقصود منها إدراكاً كاملاً بإشراق الروح، إشراقاً يذيب العلائق البشرية في طبيعة النبي ﷺ المزدوجة، وتبقى الروح في أعلى درجات شفافيتها، لترسم في مرآتها ما يلقى إليها من الملأ الأعلى بمشافهة الروح الأمين جبريل عليه السلام.

يقول العلامة ابن حجر في الفتح: وهي حالة يؤخذ فيها النبي ﷺ

عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخي، يحصل له عند تلقي الوحي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأحوال خص الله نبيه ببرزخ في الحياة، يلقي إليه فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار.

وهذا لا يمكن أن يقع في اليقظة لغير النبي ﷺ، وإن كان يقع شيء منه لبعض الصالحين في غيبة منامية، أو غير منامية، استمداداً من المقام النبوي، كما يشهد له حديث (رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

شدة وحي اليقظة على النبي ﷺ

ولذلك كانت هذه الحالة اليقظية أشد حالات الوحي كما يدل على ذلك تشبيهها بصلصلة الجرس، وهي صوت متدارك متتابع، لا تتميز وحداته، يسمعه السامع فلا يتبين منه تعبيراً عن حقيقة ما يلقى به من المعاني والحقائق، ولا يمكن أن يعي ما جاء به سوى النبي ﷺ الذي يكون حين هذا التلقي في حالة روحانية خالصة، لا سلطان لشيء من طبيعته البشرية على شيء منها، وبهذه الروحانية الخالصة في صفائها وإشراقها يستوعب كل ما يُلقى إليه من الوحي.

وقد وقع تشبيه هذه الحالة في بعض الأحاديث بِدَوِيِّ النحل، كما في حديث عمر رضي الله عنه في وصف مشهد منها، فقال: يُسمع عنده كدوي النحل.

قال العلماء: وهذه الصلصلة أو الدوي هو صوت الملك بالوحي، ولا تعارض بينهما، قال ابن حجر: فدويّ النحل لا يعارض صلصلة الجرس، لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين، كما قال عمر: يُسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة للنبي ﷺ، فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبَّهه هو ﷺ بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه.

وهي حالة خاصة بالنبي ﷺ تتغلب فيها روحانيته على بشريته ـ كما قلنا ـ ليتصف بصفة الملك، ليقع بينهما التناسب والتجانس ويتم التلقِّي على أكمل وجه وأثبته.

وقد اختص النبي ﷺ بكمال إدراكه لما يلقى إليه، وما يسمعه، وما يراه في هذه الحالة، فهو ﷺ - على ما يلقى من شدة - يكون في أكمل درجات الإدراك والفهم، والوعي والحفظ، وهذا معنى قوله في حديث الحارث بن هشام: (فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال).

وهذه الشدة التي يلقاها النبي ﷺ في هذه الحالة من حالات الوحي كانت أجمع لقلبه، وأوعى لسمعه، وأوعب لمداركه، لغلبة روحانيته فيها على بشريته، فيسمع ويعي بما لا يَعلم طريق إدراكه وفهمه، وأدائه إليه إلا الله رب العالمين.

وبالغطة الثالثة - التي ضمه بها إليه ملك الوحي فعصره حتى بلغ الجهد، بعد الاستفهام عن الكيفية التي يكون بها النبي ﷺ قارئاً تحقيقاً للأمر بمطلق القراءة، وهو الأمي الذي لا يحسن القراءة ولا يعرفها - كان قد استُكْمِل استعداد النبي ﷺ لتلقّي أول مراتب الوحي اليقظي مشافهة بمخاطبة الملك ومواجهته في صورته التي اختيرت له للمجيء فيها إلى رسول الله ﷺ.

القراءة المطلوبة من النبي ﷺ قراءة إعجاز، لا قراءة تعلم.

ولذلك جاءته الإجابة عن هذا الاستفهام، فقال له الملك تبليغاً عن الله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم* الذي علَّم بالقلم* علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وهذه الإجابة صريحة في مطابقتها للاستفهام عن بيان الكيفية التي يكون عليها النبي ﷺ قارئاً مع كونه أمياً لا يعرف القراءة، لأن القراءة شأن من تعلم القراءة في الألواح والصحف.

فكأنه قيل له في جواب استفهامه عن الحالة التي يكون بها قارئاً مع قيام موانعها في عرف الحياة ومألوفها: أنت لست كهيئة أحد من الناس، تقرأ بتعلُّم كما يقرؤون، وإنما أنت رسول الله اختارك على عينه، لتحمل إلى الحياة رسالته الخاتمة الخالدة، وجعل أميتك خصيصة نبوتك، وأرفع مظاهر معجزة رسالتك، وأعظم عنوان على صدقك في دعوتك، وأبلغ آية في

تحديك معانديك، فكن قارئاً، لا كما يقرأ الناس من كتب كتبتها أقلام أيديهم، ولكنك قارىء قراءة إعجاز للقارئين وغير القارئين.

هي قراءة فيض رباني، خصك به ربك الذي منه الخلق والإبداع، فهو الخالق المبدع المقتدر الذي ينبئك في أول مراتب وحيه القرآني إليك بأجلّ مظهر من مظاهر إبداعه، فهو الذي خلق الإنسان وأبدعه في أحسن تقويم، خلقه مما لا تتصور العقول ـ لو تركت لتصوراتها الذاتية ـ أن يكون منشأ خلقه وإبداعه، خلقه من «عَلَقْ» وهو أبعد ما يكون عن الصورة الإنسانية في تقويمها وخصائص صورتها.

ولكن كرم ربك في فيض رحمته، وسابغ جوده، هو الذي تتفجر منه ينابيع نعمه على جميع خلقه، وهذا تذكير أبدي دائم بنعمة الخلق والإبداع، وهما من أخص صفات الألوهية، جيء به مرتبطاً ـ في أول منازل الوحي القرآني ـ بعنوان الرسالة الخالدة (اقرأ) والقراءة تعني في إطلاقها الكلمة المكتوبة، والكلمة المسموعة، وهما أساس العلم والمعرفة بأوسع ما يكون لهما من معنى، وهذا الارتباط بين التذكير بنعمة الخلق والإبداع، وبين القراءة على إطلاقها يوحي بأن جماع الحكمة ولبابها في خلق الإنسان إنما هو العلم في أعلا درجات المعرفة، وأعمق منازل الإدراك، وأشمل مناحي الحياة في هذا الوجود.

ونعمة الخلق المطلق الشامل لكل مخلوق في هذا الكون، ونعمة خلق الإنسان بخاصة وهو المسخَّر له ما في السموات والأرض ـ أعظم وأجلّ نعم الله التي تستوجب دوام الشكر والتعبُّد لله الأكرم الذي لم يترك هذا الإنسان سدى، ولكنه تولّاه بفضله، وأفاض عليه أجلَّ نعمه، بعد نعمة خلقه، فعلَّمه من العلوم والمعارف ما جعله به سيد الحياة يسخرها بعلمه ويستخرج كنوزها بعقله، ويفيد منها بتجاربه، ويستثمرها بخبرته ومعارفه، ووهب له القلم آية من آيات بدائعه ووسيلة من وسائل حفظ خصيصته الفكرية، مسجلة في صحائف آثار الحياة على مر أزمنة خلودها، حتى لا تتبدد جهود أفكاره، وتذهب آثاره في كشف أسرار الكون ضياعاً.

وقد أخرج الله الإنسان إلى هذه الحياة وليداً ضعيفاً ساذجاً، لا يعلم شيئاً، ومنحه منافذ الإدراك والعلم من الحواس، وأجلُّها السمع والبصر، ووهبه معهما خزانة الفؤاد ليحفظ فيها علومه ومعارفه وتجاربه، فقال عز شأنه ممتناً عليه بهذه النعمة الجليلة ومذكِّراً له بأصل وجوده: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[1].

هل كان النبي ﷺ على معرفة بأن مفاجئه في الغار ملك من عند الله

وهنا قد يرد سؤال حام حوله بعض الباحثين من أئمة العلم، وهو: هل عرف النبي ﷺ أنَّ الذي فاجأه في متعبده، غار حراء، وقال له: (اقرأ) ملك مرسل إليه من عند الله؟.

وقد أجاب الذين بحثوا عن هذا السؤال بأجوبة تخمينية، لا تعتمد على أسس علمية نقلية أو عقلية، ولا نرى بنا حاجة إلى ذكرها، وليرجع إليها في مصادرها من يريدها، ونحن نعرض للموضوع من وجهة نظرنا، وعلى طريقتنا في أسلوب بحثنا.

والروايات الحديثية التي استطعنا الاطلاع عليها لم نجد فيها ما يفيد أن النبي ﷺ كان في بدء اللقاء المفاجىء يعرف أن مفاجئه بالدخول عليه في الغار، دون تمهيد، وقال له (اقرأ) ملَك من عند الله تعالى مرسل إليه، ليبلِّغه رسالة ربه.

ولكن قرائن الحال، وجو المفاجأة، وما جرى فيه من حوار، وما وقع من تكرار طلب القراءة بصورة واحدة مع تكرار الغط بحالة بالغة الشدة، ودخول الملَك على صورة لم يعرفها النبي ﷺ فيمن يعرف من الناس، مع سوابق الأحداث ـ يفيد أن النبي ﷺ كان يعرف أن محدِّثه المفاجىء بدخوله وتصرفه الذي وقع منه إليه ليس شخصاً ممن يعرفهم في قومه، أو فيمن رآهم من الناس، وأن مفاجأته بطلب القراءة منه دون تمهيد يؤنسه به، يؤكد تلك الصورة الغريبة التي طافت بخاطر رسول الله ﷺ حين المفاجأة، وبدء الحديث بطلب القراءة.

(١) سورة النحل، آية: ٧٨.

والروايات الحديثية الثابتة تفيد أن النبي ﷺ سبق إليه الوحي المنامي في الرؤيا الصادقة التي كان يراها في منامه فتجيء في يقظته محققة، جلية واضحة، ثابتة كفلق الصبح، وانبلاج ضوء النهار من بين غبش الظلام، كما جاء صريحاً في عدد من الأحاديث الصحيحة والروايات الثابتة التي قد ترتفع إلى مرتبة التواتر في معانيها.

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في حديثها: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ـ وفي رواية: الرؤيا الصالحة ـ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ـ إلى أن قالت: فجاءه الملك، فقال له: اقرأ.

النبوة أسبق من الرسالة

ولا شك أن مجيء الملك في غار حراء كان أول مراتب الوحي اليقظي بالرسالة، والتعبير عن مجيئه، بإدخال حرف (الفاء) في قول عائشة: (فجاءه الملك) يفيد أن مجيء الملك إلى النبي ﷺ في الغار كان بعد وقوع الوحي المنامي في الرؤيا الصادقة الصالحة الذي افتتحت به النبوة تأنيساً للنبي ﷺ، وإعداداً له لتلقي ما سيجيئه من وحي اليقظة بمجيء المَلَك إليه، فالتعقيب المستفاد من (الفاء) يفيد أن مجيء الملك إلى النبي ﷺ يقظة في غار حراء ـ وهو الذي بدأت به الرسالة ـ كان بعد الإيحاء إليه بالرؤيا الصادقة الذي بدأت به النبوة، فهو ﷺ كان قد نُبِّىء قبل إيحاء اليقظة الذي لقيه به الملك في الغار، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ)، فالنبوة سابقة بوحيها ومراتبه على الرسالة بوحيها الذي جمع بمراتبه بين حقيقة النبوة والرسالة.

لم ينزل شيء من القرآن في وحي منامي

ووحي الرسالة بدأ بنزول القرآن، ولم نعلم قط أن وحياً منامياً انفرد بتنزُّل شيء من القرآن الكريم، قال السيوطي في الإتقان: إن المَلَك يأتيه في النوم، وهل نزل عليه فيه قرآن أم لا، والأشبه أنه نزل كله يقظة، وحديث كتاب النمط الديباجي الذي رآه النبي ﷺ في منامه، وكان فيه كتاب ـ أي كتابة ـ لم يصرِّح فيه ولا في غيره ـ فيما نعلم ـ بأن ما كان من الكتابة في هذا النمط هو الآيات الخمس من أوائل سورة (اقرأ) أو غيرها من آي القرآن، ولم يذكر فيه أن جبريل حين جاءه مناماً بالنمط المكتوب قال له: اقرأ ما في

النمط من الكتاب، وإنما قال له (اقرأ) دون أن يذكر له مقروءاً، ولهذا كان رد النبي ﷺ على هذا الطلب: (ما أقرأ) وهو محتمل للنفي والاستفهام، وتكرر طلب القراءة مع الغت، وتكرر رد النبي ﷺ بالصيغة عينها (ما أقرأ) وهي على احتمالها لنفي معرفة القراءة، والاستفهام عن أي شيء يقرأ، وفي المرة الثالثة لطلب القراءة أفصح النبي ﷺ صراحة في ردِّه عن استخباره منه عن أي شيء يقرأ، فقال: (ماذا أقرأ؟)، فلو كانت الكتابة التي في النمط هي الآيات الأولى من سورة (اقرأ) ما صح هذا الاستفهام.

ولو سلم أن الكتابة التي في النمط هي الآيات الأولى من سورة (اِقرأ) وكانت هي المقصودة بقول جبريل عليه السلام (اقرأ) لم ينتقض ما قلناه من أنه لم يقع لنا العلم بانفراد الوحي المنامي بشيء من القرآن الكريم قط، لأن هذه الآيات كانت هي أول الوحي اليقظي، وهي التي أقرأها الملك للنبي ﷺ في مفاجأة الغار، فتكون قد نزلت بالوحي التمهيدي، وحي النبوة بالرؤيا الصادقة، ونزلت بالوحي اليقظي في بدء الرسالة، فلم ينفرد بها الوحي المنامي.

على أن حديث النمط مرسل مفرد، فلا تقوم به حجة على ادعاء نزول شيء من القرآن في النوم أمام الأحاديث الكثيرة التي تفيد كلها أن نزول جميع آيات القرآن وسوره كان بوحي اليقظة والمشافهة.

كان وحي النبوة تمهيداً لوحي الرسالة.

ووحي النبوة بالرؤيا الصادقة كان تمهيداً وتوطئة لوحي اليقظة، يحمل في طواياه نوعاً من معرفة النبي ﷺ لمن فاجأه في الغار، ولكنها معرفة لا تحدد صورة اللقاء، ولا تبين المعالم الذاتية لشخصية هذا المفاجىء، ولهذا قال العلماء: إن النبي ﷺ عبَّر عما عرفه فيما بعد أنه ملك، ومعرفته اليقينية به كانت بعد انصرافه من الغار منقلباً إلى أهله، وقد رآه في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

وحينئذ يكون جواب النبي ﷺ عن طلب القراءة في مراته المتعددة وما احتف به من الغط جواب العارف بأن من فاجأه في متعبده غار حراء طالباً منه هذا الطلب الغريب عن طبيعته ونشأته (اقرأ) هو من صور النبوة

المتدرجة في مدارج الوحي ومراتبه: من تمهيد بالمبشرات، والإرهاصات، وعجائب الخوارق والآيات، كتسليم الأحجار والأشجار عليه ﷺ، كما ثبت في حديث ابن عباس عند أبي بشر الدولابي، عن عكرمة أن ابن عباس قال: بعث الله محمداً ﷺ على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم... فلما قضى إليه الملك الذي أُمر به انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، لا يأتي على حجر ولا شجر إلا سلّم عليه، سلام عليكم يا رسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه قد فاز فوزاً عظيماً.

وكما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن).

والرؤيا الصادقة أجل مراتب التدرج في النبوة، وهي تأنيس للنبي ﷺ وتمهيد للقاء اليقظي الذي هو بدء وحي الرسالة.

حديث عبيد بن عمير أوفى روايات وحي النبوة الممهدة لوحي الرسالة.

وأوفى روايات الرؤيا الصادقة التي مهّدت للرسالة بوحيها اليقظي، وأتمها تفصيلاً، وأوضحها في التوطئة المتصلة برؤية الملك وابتداء نزول القرآن مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق، وهو من صحاح المراسيل.

قال الإمام قاضي المدينة المنورة عبيد بن عمير الليثي أحد كبار التابعين: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك ما تَحنَّث به قريش في الجاهلية - والتحنُّث التبرر - فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته، وذلك الشهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: (ما أقرأ) فغتّني به، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: (ما أقرأ)

فغتَّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: (اقرأ) قلت: (ماذا أقرأ؟) ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع، قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتاباً.

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء، يقول: يامحمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يامحمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً، ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مفضياً إليها، وفي رواية مضيفاً إليها، فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، فبلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمي، واثبت، فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها وكان قد تنصَّر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قدّوس، قدّوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع ما كان يصنع، بدأ بالكعبة، فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخي: أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي

نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولَتُكَذّبنّه، ولَتُؤذَيَنَّه، ولَتُقَاتَلَنَّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبَّل يأفوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

نظر وبحث في حديث عبيد بن عمير.

هذا الحديث الذي جوّده القاضي التابعي الثقة عبيد بن عمير يصور رؤيا منامية رآها رسول الله ﷺ، فيها كثير مما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة المحدثين في لقاء اليقظة بالغار، وفي هذه الصورة المنامية رأى النبي ﷺ جبريل أمين الوحي عليه السلام، ومعه نمط من ديباج فيه كتاب ـ أي كتابة ـ وقال له: اقرأ، فنفى النبي ﷺ عن نفسه معرفة القراءة، فغته جبريل، وكرر عليه الأمر بالقراءة والغتّ كما وقع في حديث الغار، ولكنه لم يقل له: اقرأ ما في النمط من مكتوب، بل قال له في المرة الرابعة: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

كما يصور هذا الحديث رؤية النبي ﷺ جبريل يقظة في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء وذلك بعد أن انتهت الرؤيا المنامية، وهبَّ ﷺ من نومه، ووجد في قلبه ما أُقرىء في نومه كأنما كُتب فيه، وخرج من متعبده منصرفاً إلى أهله، إلى أن توسط الجبل، وسمع صوت جبريل وهو يخاطبه، يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل.

ولا شك أن هذه الرؤيا المنامية وما وقع فيها من طلب القراءة والغتّ وتكرارهما كانت سابقة على اللقاء اليقظي في غار حراء، وقعت تمهيداً وتوطئة له، وتأنيساً للنبي ﷺ بلقاء اليقظة الذي بدأت به الرسالة، وإنزال القرآن الكريم.

يقول صاحب (عيون الأثر): وفي حديث عبيد بن عمير في خبر نزول جبريل عليه السلام قال رسول الله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم) فهذه حالة ـ أي من حالات الوحي ـ وحديث عائشة وغيرها أنه كان في اليقظة، فهذه حالة ثانية، ولا تعارض لجواز الجمع بينهما بوقوعهما معاً، ويكون الإتيان في النوم توطئة للإتيان في اليقظة، وقد قالت عائشة: أول ما بُدىء به عليه السلام

من الوحي الرؤيا الصادقة.

وجليٌّ من حديث عبيد بن عمير أن النبي ﷺ رأى جبريل في رؤياه المنامية، وجاءه بنمط مكتوب فيه كتابة، واستقرأه وغته، وأقرأه أول سورة (اقرأ)، وهذه الرؤيا المنامية درجة من درجات النبوة بمقتضى حديث عائشة وغيرها من أحاديث بدء الوحي.

ويقتضي توافق الروايات أن تكون هذه الرؤيا المنامية سابقة على اللقاء اليقظي في مفاجأة غار حراء، وقد قلنا ـ مكرراً ـ إن الرؤيا المنامية درجة من درجات النبوة، وإن اللقاء اليقظي الذي تم في مفاجأة الغار هو أول مراتب وحي الرسالة.

معنى كلمة رسالة في حديث عبيد

وما وقع في حديث عبيد من قوله: حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها (برسالته) يحتمل أنه يقصد بدأت الرسالة بلقاء اليقظة الذي تم في مفاجأة الغار، بعد وقوع الرؤيا المنامية، ولا مانع من وقوعهما في ليلة واحدة، بدأت بالرؤيا المنامية، وختمت بمفاجأة الغار ولقاء الملك يقظة وبدء نزول القرآن الكريم، أو في ليلتين متتاليتين، والمقصود تقارب الزمن بين اللقاءين.

وتكون رؤية الملك في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء وقعت بعد مفاجأة الغار حين انصراف النبي ﷺ راجعاً إلى بيته وأهله، كما يشير إلى هذا الاحتمال ما جاء في حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم، فإنه ذكر أن النبي ﷺ رأى في المنام رؤيا فشق ذلك عليه... إلى أن قال: ثم استعلن جبريل ـ أي ظهر للنبي ﷺ علانية يقظة ـ وهذه العلانية التي ظهر فيها جبريل هي لقاء المفاجأة في الغار، بدليل ما جاء في هذا الحديث نفسه من قوله: ثم قال له: (اقرأ) قال: (كيف أقرأ؟) قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم ﴾ وهذا عين ما جاء في لقاء الغار مع الاختصار في مرات طلب القراءة.

ويحتمل أن يكون عبيد قصد بكلمة (رسالته) مرتبة الوحي التي بدأت بها النبوة متدرجة في مراحل كمالياتها إلى أن بلغت مرتبة الرسالة، لأن نبوة

النبي ﷺ في مراتب درجاتها، وسبقها الرسالة كانت معبراً لرسالته ووصلة إليها، فأطلق عبيد على أكمل درجات النبوة الممهدة للرسالة عنوان الرسالة وسمَّاها باسمها، نظراً لما وقع في هذه الدرجة من درجات الكمال النبوي، مما أشبه ما وقع فيها ما وقع في أول لقاء يقظي في الغار حيث بدأت الرسالة، ولا سيما طلب القراءة والغتّ الذي انتهى بإقرائه الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ)، وهي عينها التي أقرأه إياها جبريل في لقاء اليقظة ومفاجأة الغار، بعد أن كرَّر عليه طلب القراءة والغط، والنبي ﷺ ينفي عن نفسه معرفة القراءة، ويستفهمه ماذا يقرأ، حتى أقرأه الآيات وانصرف عنه.

ورؤية النبي ﷺ لجبريل في حديث عبيد بنوعيها المنامي واليقظي في أوسط الجبل لا تحدد صورة خاصة يمكن الحكم عليها بأنها صورة جبريل في جميع أحوال مجيئه إلى النبي ﷺ يقظة أو مناماً، وإنما هي في كليهما حالة من حالات التشكل التي أعطي الملَك القدرة على التشكل فيها، وهي حالات لا يمكن حصرها في صور وأشكال معينة.

ولهذا لا يعرف أحد غير النبي ﷺ على أية صورة جاء الملك في أول لقاء يقظي في مفاجأة الغار، وصورة مجيئه السابق على مجيء الغار التي وقعت في حديث عبيد بن عمير من أنه كان في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء لا تعين الصورة في كافة حالات مجيئه يقظة أو مناماً.

النبي ﷺ كان على يقين أن مفاجئه في الغار ملك ثم عرف يقيناً أنه جبريل عليه السلام

بَيْد أن الذي يُقطع به أن النبي ﷺ عرف يقيناً أن مفاجئه بالدخول عليه في متعبده وطلب القراءة منه هو ملك مرسل إليه من عند الله، إذ لا يقبل في هذه المعرفة أدنى شك بعد ثبوت النبوة بدرجاتها المتفاوتة في كمالها، وأنه ﷺ عرف يقيناً بعد أن ذهبت عنه روعة المفاجأة، ودهشة ما احتفَّ بهذا اللقاء أن هذا الملك هو أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وذلك ظاهر في حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم عند الدولابي، قال: إنه كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى في المنام رؤيا، فشق ذلك عليه، فذكر ذلك لصاحبته خديجة بنت خويلد، فقالت له: أبشر، فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، فذكر لها أنه رأى أن بطنه أخرج فطُهِّر وغسِّل ثم

أعيد كما كان، قالت: هذا خير، فأبشر، ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه، وبشَّره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال له: اقرأ، قال (كيف أقرأ) قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم ﴾ فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله، وانصرف إلى أهله، فلما دخل على خديجة قال: «أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن»، فأخبرها بالذي جاءه من عند الله عزّ وجلّ، وسمع، فقالت له: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فاقبل الذي آتاك الله، وأبشر، فإنك رسول الله حقاً.

فقوله: ثم استعلن به جبريل أي ظهر له علانية يقظة بعد أن رآه مناماً في صورة التشكل التي أعطي القدرة عليها والظهور فيها مناماً أو يقظة، وقوله ﷺ لخديجة حينما دخل عليها: (أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن) - نصٌّ صريح قاطع بأن جبريل عليه السلام ظهر علانية يقظة للنبي ﷺ بعد مجيئه إليه في المنام، وأنه في هذا الاستعلان أقرأه أوائل سورة (اقرأ)، وهذا الاستعلان الذي أخبر به النبي ﷺ ظاهر جداً في أنه هو عين اللقاء اليقظي المفاجىء في غار حراء الذي جاء في حديث عائشة وغيرها عند البخاري وغيره، وبدأ به نزول القرآن الكريم، لأن نزول أوائل سورة (اقرأ) لم يرد، ولم يثبت في حديث سوى حديث عائشة رضي الله عنها عند كافة المحدِّثين، وهو حديث أجمع على صحته أئمة الإسلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين، أما حديث عبيد بن عمير في رؤيا المنام وإقراء النبي ﷺ هذه الآيات في النوم فهو حديث مرسل، لا تقوم به حجة على ادّعاء نزول شيء من القرآن مناماً كما أشرنا إليه فيما سبق، فحديث ابن أبي بكر بن حزم المؤيد لمعرفة النبي ﷺ أن مفاجئه في الغار ملك مرسل إليه من عند الله، وأنه هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، ظاهر - في جزئه الأخير الذي ذكر فيه استعلان جبريل - أنه وارد مورد حديث عائشة رضي الله عنها في لقاء الغار، لأنه في هذا الجزء أخبر ﷺ عن استعلان جبريل بعد رؤيا شق البطن وتطهيره وغسله في المنام، ويؤكد ذلك ما جاء في رواية ابن لَهيعة عن

أبي الأسود، عن عروة عن عائشة، وفيها: ثم استعلن له جبريل مِن قبل حِراء، فهذه الرواية عينت أن استعلان جبريل كان من جهة حراء.

ولم نعلم حديثاً ذكر ظهور جبريل علانية يقظة للنبي ﷺ، وطلب القراءة، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ) سوى حديث عائشة في لقاء الغار المتفق على روايته في جميع دواوين الحديث والسنة.

أما حديث عبيد بن عمير فكان الإقراء فيه مناماً ـ وهو مع إرساله ـ لا مدخل له هنا.

فحديث ابن أبي بكر بن حزم هو عين حديث عائشة رضي الله عنها، سيق مركباً من وحي منامي، ووحي يقظي ـ موجزاً مختصراً ـ مبيناً صورة من صور ما أجمل في حديث عائشة رضي الله عنها، من أن أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وهي صورة شق البطن، وتطهيره في حديث ابن أبي بكر بن حزم.

فالنبي ﷺ عرف يقيناً أن مفاجئه باللقاء الشخصي يقظة في غار حراء ملك مرسل إليه من عند الله لإبلاغه رسالة ربه، ثم عرف ـ يقيناً ـ بعد ذلك أنه أمين الوحي جبريل عليه السلام، فهو محدثه في الغار، ومستقرئه، ومستفرغ بشريته بالغط المتكرر بتكرر طلب القراءة، مع بالغ الشدة والجهد، ليفرغ في روحانيته من الخصائص العلوية ما يتناسب مع أرفع روحانية الملأ الأعلى، إعداداً له ﷺ لتلقِّي الوحي يقظة على أكمل صوره، وأعلا درجاته، وأرفع مراتبه، التي سيكون من ضروبها التلقي عن الله تعالى بغير واسطة كما جاء في أحاديث المعراج وفرض الصلاة ليلة الإسراء، كما قال الله تعالى: ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[1].

مراتب الوحي

وللوحي مراتب ودرجات كثيرة فصَّلها العلماء وأئمة البحث من أعلام الإسلام، وجمعها إجمالاً قول الله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عَـلِيٌّ

(١) سورة النجم، آية: ١٠.

حكيم ﴾[1] وقد ثبت منها لنبينا محمد ﷺ أجلها وأرفعها في مقامات القرب، ونحن نذكر منها ما ثبت ثبوتاً بيِّناً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة:

المرتبة الأولى

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان ـ كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديثها ـ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

المرتبة الثانية

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه وخاطره من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته».

المرتبة الثالثة

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعيَ عنه ما يقول، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً.

المرتبة الرابعة

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيلتبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، كما ثبت في حديث الحارث بن هشام.

المرتبة الخامسة

الخامسة: أن يرى النبي ﷺ الملك في صورته التي خُلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذه المرتبة وقعت للنبي ﷺ مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء، كما جاء في سورتي النجم والتكوير.

المرتبة السادسة

السادسة: ما أوحاه الله إليه كفاحاً منه إليه دون واسطة ملك، ووقع ذلك للنبي ﷺ وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها من الشرائع والفروض.

في طلب القراءة وتحققها مع الأمية الثابتة إعجاز بليغ

وفي طلب القراءة في وحي اليقظة وبدء الرسالة من النبي ﷺ وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا يحسنها، كما هي في مألوف الناس وطبيعتهم، لأنها لا تكون إلا بالتعلُّم والتثقيف، وهو ﷺ بما يقطع به تاريخ حياته لم يباشر تعلُّماً قط، ولم يثافن معلِّماً، ولا ثاقف مثقفاً ـ تنبيه على أن

---

(1) سورة الشورى، آية: ٥١.

قراءته التي يطلب منه تحقيقها لا تجري على سنن مألوف الناس في حياتهم البشرية، وإنما تحقق له القراءة بمحض الفيض الإلٓهي مستعيناً باسم ربه الذي جعل من قراءته وهو أمي معجزة رسالته، وهي رسالة لا تقف عند حدود طبيعته الشخصية في أميته، بل هي رسالة أساسها العلم والمعرفة، وأن علمه ومعارفه اللَّذين تعتمد عليهما رسالته الخاتمة لرسالات السماء، الخالدة بخلود الحياة، ليسا مما يتعارض مع وصفه الطبيعي في أميته التي جعلها الله خصيصته في رسالته، وجعلها مناط صدقه في دعوته، ودعامة معجزته في رسالته.

ولهذا فاجأه الملك يطلب القراءة بصيغة فعل الأمر، وكرر عليه هذا الطلب دون تغيير بزيادة متعلق للفعل حتى بلغ إفهامه أنه يكون قارئاً بقراءة لا تتنافى مع بقاء أكرم خصائصه في رسالته بوصف الأمية.

بدء رسالة محمد
صلّى الله عليه وسلّم
كان ميلاداً روحياً جديداً لحياته وحياة أمته

ومن هنا يسهل فهم ما وقع للنبي ﷺ - في ظل قداسة النبوة، وجلال الرسالة المستلزمين للعصمة - من ظواهر استعظام أمر رسالته في صورتها التي بدأ بها وحي اليقظة ومواجهة لقاء الملك، مع ما بينهما من اختلاف بعيد المدى في طبيعة خَلْقها.

ذلك أنه ﷺ علم يقيناً من هذا اللقاء، وما حف به، أنه قد ولد في يوم ذلك اللقاء ميلاداً روحياً جديداً، هو ميلاد رسالة خاتمة خالدة، تقتضيه طبيعتُها تغيير معالم الحياة كلها، وتجديد خَلْقها، والسير بها في مهايع لم يسبق لها سلوكها، وأنه ﷺ بهذا الميلاد الجديد حمل من الأعباء ما تنوء بحمله السموات والأرض والجبال، وأنه ﷺ سيعيش مدة رسالته بطبيعتين متلازمتين مختلفتين أشد الاختلاف في عناصر تكوينهما وآثارهما في حياته وحياة البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها، أو أنه ﷺ سيعيش بطبيعة مزدوجة في خصائص جانبيها الروحي والبشري.

كمال بشرية محمد
صلّى الله عليه وسلّم
كان مهداً لميلاد رسالته

الطبيعة الأولى: طبيعة بشريته التي ولد بها ميلاداً بشرياً، ونشأ عليها نشأة إنسانية، كما خلقه الله بخصائصها المادية، وعناصرها العقلية، ومداركها الفكرية، وحيويتها الروحية، على أكمل ما تكون طبيعة إنسان من الكمالات والفضائل الإنسانية، والمعالم البيئية، والمظاهر الاجتماعية في المجتمع الذي نهد فيه، وعاش بين أجوائه وتقلباته وأخلاقياته.

هذه الطبيعة هي التي عاش ويعيش بها ﷺ إنساناً مع الناس في حياتهم، يعاشرهم، ويتبادل معهم مطالب الحياة التي تقتضيها طبيعة البشر في دائرة أفضل الكمالات التي يمكن أن يكون عليها إنسان في حياته مع الناس والأشياء.

وهذه الكمالات الإنسانية هي التي نشأ عليها، وعرفت له في قومه وبلده، فتزوج وولد له بنون وبنات، وقام على رعاية أولاده وزوجه، وأصهر إلى أكرم قومه، وتعاون في أمور العيش وتكاليف الحياة وأعبائها مع أهله وجيرانه، وسائر قومه، يواسي قرابته، ويحسن إلى خدمه، ويكرم ضيفه، ويبر إخوانه وأصدقاءه، ويأكل، ويشرب، وينام ويصحو، ويغضب ويرضى ويحب ويكره، ويمرض ويستشفي، ويبيع ويشتري، ويستسلف ويستدين، ويعطي ويأخذ، ويسافر ويحضر، ويهدي ويقبل الإهداء، ويثيب على ما يقدم إليه من خير أفضل منه، ودود كريم، حيي حليم، رؤوف رحيم، يصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، وفيّ بالعهد، سليم الصدر، يعين الضعفاء،

ويضمد جراح المساكين، أغنى الناس بالقناعة، وأجودهم بالعطاء، يألف ويُؤلف، عزوف عن الدنيا، لا يزاحم عليها ولا يخاصم في شيء منها، رعى الغنم واتجر، أمين محبوب، يلجأ إليه قومه ويرضونه لحل معضلاتهم، ويشاركهم في أعمال الشرف والمروءة.

وهو ﷺ في ذلك كله من مآثر طبيعته البشرية لا بد أن يكون دائباً على تبليغ رسالة ربه، يدعو الناس ـ كل الناس ـ إلى الله تعالى، وإلى معرفته وتوحيده، والتعبُّد له وحده، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، يرغبهم في الخير، ويحببهم فيه، ويعدهم عليه عظيم ثواب الله، ويرهبهم من الشر وينفرهم من مقارفته، ويوعدهم على مواقعته بأليم عذاب الله وسخطه، يحبِّب الخلق في الخالق، ويعظِّم في أنفسهم نعمه عليهم، لا يُؤيسهم من رحمته، ولا يقنطهم من فضله وإحسانه، يستغفر للمذنبين ويفتح لهم أبواب الرجاء ويدعوهم إلى الإنابة والتوبة، ويحضهم على العمل لدنياهم كحضه لهم على أداء واجبات دينهم، يبغِّضهم في الكسل ويحبِّبهم في الكسب الحلال، ويقول لهم: (اليد العليا خير من اليد السفلى)، يكرم العلماء، ويعلِّم الجهلاء، ويعلي مكانة العلم والمعرفة ويقول: «إنما بعثت معلِّماً».

يجاهد أعداء الله، ويقيم للناس موازين العدل، وينشر بينهم رحمة الله، ويربط بين الأفراد والجماعات بأواصر الإخاء والمحبة، والتعاطف والمودة، ويدعو إلى المساواة، وإلى التعاون والإيثار، يعفو ويصفح، ويأمر بالصبر على الأذى، يرد السيئة بالحسنة، ويقابل الجهل بالحلم، إن كان في الناس كان كأحدهم يشاركهم أحاديثهم، ويضحك مما يضحكون منه، ويألم لما يألمون له، إلا أن تُنتهك حرمات الله، وإن كان وحده كان الله تعالى أنيسه، يتفكر في جلاله، ويتمثل عظمته، ويقرأ في كتاب الكون آثار اقتداره ورحمته.

وهكذا كان يقوم في ظل طبيعته البشرية بكل ما تتطلبه حياة الناس بما كان لهم من أعراف عادلة، وعادات فاضلة، وأخلاق عالية، وخلائق نبيلة،

في حدود كمالاته الإنسانية التي نشأ عليها جبلّة وتخلّقاً، مع عظيم قيامه بحق تبليغ رسالته، فلم يقع منه في حياته البشرية ما يفسد الفطرة الأصيلة النقية الطاهرة، لم يقع ما يغمط حق العقل الإنساني في إدراكاته ومعارفه، ولم يقع منه قط ما يخدش وجه الفضيلة، فهو ﷺ أكمل البشر خَلْقاً وخُلقاً، وأعدلهم عملاً، أرسله الله رحمة للعالمين بالهدى ودين الحق.

وهذه الطبيعة البشرية تعني شخصية محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، التي عرفه الناس عليها، وعرفته الحياة كلها بها، وعرفه التاريخ بخصائصها إنساناً من الناس، اصطفاه الله نبياً ورسولاً، بلَّغ الناس رسالة ربه، فهدى الله به من شاء من عباده ويهدي لرسالته من يشاء من خلقه.

فهي أحد جانبي طبيعته المزدوجة من عناصر البشرية وخصائصها المادية والروحية العامة التي لا يكون الإنسان إنساناً إلا بتكامل تلك الخصائص الإنسانية بشقيها المادي والروحي العام.

وبهذا التصوير يتبين وجه اعتبارها جانباً من جانبي الطبيعة المزدوجة لشخصية (محمد رسول الله)، وبالفواصل الخصائصية بينها وبين الجانب الروحاني يتبين وجه اعتبارها طبيعة مستقلة بالنسبة إلى خصائص الجانب الروحاني الذي اعتبرناه بالنظر إلى خصائصه طبيعة مستقلة، ولكن الوشائج التي تربط بين الجانبين أو الطبيعتين أقوى من الفواصل الخصائصية بينهما، فالجانبان أو الطبيعتان هما طبيعة واحدة تؤلف من عناصرهما شخصية (محمد رسول الله).

ميلاد رسالة محمد ﷺ

كان ميلاداً للحياة جدد معالمها

الطبيعة الثانية: طبيعة روحانية خالصة في روحانيتها هي التي ولد بها (محمد رسول الله) ﷺ ميلاداً روحانياً جديداً يوم أن تمَّ له أول لقاء بملك الوحي يقظة في غار حراء، ذلك الميلاد هو ميلاد رسالته بخصائصها في أكمل الكمالات الروحانية، وأعظم إشراقاتها العقلية، وأنوارها العلية، وتناسباتها الملائكية.

هذه الطبيعة الروحانية هي الميلاد الجديد، ميلاد (محمد رسول الله) ﷺ وإن شئت قلت: هي ميلاد رسالة محمد ﷺ، ذلك الميلاد الذي كان في الحقيقة ميلاداً للحياة، تجددت به معالمها، وتغيَّرت به طرائقها، واستقامت على سننه هدايتها، وقامت على دعائم منائره موازينها، واستنارت بنوره مسالكها، متدرجة في مراحل نموها الحضاري والفكري.

هذه الطبيعة الروحانية هي التي تلقَّى ويتلقَّى بها (محمد رسول الله) ﷺ عن الله تعالى ما يلقيه إليه الملك في وحي اليقظة والمواجهة، وهو ﷺ على أكمل مراتب إحساساته، وأتم درجات شعوره ويقظة مشاعره، وأعلى إدراكات عقله، وأضوأ إشراقات روحه، وأقرب منازل قربه.

وبهذه الطبيعة الروحانية كان يَلْقى محمد رسول الله ﷺ أمين الوحي جبريل عليه السلام في صور وتشكلات ملائكية مختلفة المظهر، تجلّ عن مدارك العقول، فلا يستطاع تحديدها بصورة معينة أو بشكل خاص يلتزمها في جميع لقاءاته بمحمد ﷺ.

وبهذه الطبيعة كان ﷺ يتقبل ما يُلقى إليه من ضروب الوحي في رسالته ليبلغه إلى الناس هداية ورحمة، ونوراً وبراً، وعدلاً ومحبة، وإخاء ومساواة، وإيثاراً ومواساة.

وهذه الطبيعة الروحانية باستعلائها على الطبيعة البشرية تذيب خصائص البشرية المادية عند رسول الله ﷺ؛ اتقاء لاستحواذها عليه وتغلُّب الخصائص الروحانية لتكون كاملة التجلِّي الباطن، مشرقة الشفافية، ليتحقق بها التناسب بين طبيعة الملك التي يلقاه عليها الروح الأمين في أكثر حالات وحي اليقظة، وبين طبيعة البشر التي تبقي للنبي ﷺ مظاهرها كاملة في تلقي وحي المشافهة إبقاء على مرتبة التناسب البشري في التبليغ.

المزاوجة بين الروحانية والبشرية خصيصة النبوة الخاتمة

هذه المزاوجة بين الطبيعة البشرية والطبيعة الروحانية خصيصة النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، رسالة محمد ﷺ، فلا تحجب قوة الإشراق الروحاني عنده منافذ الحس البشري من شخصيته، بل يبقى لكل طبيعة خصائصها عند التبليغ، فالنبي ﷺ في هذه المزاوجة بين الطبيعتين بشري المظهر، ملائكي المخبر، فهو مع الناس ببشريته الكاملة، وهو مع الملأ الأعلى بروحانيته الكاملة.

فهذه الطبيعة الروحانية مع أنها تذيب خصائص البشرية عند رسول الله ﷺ وتغلب عليها الخصائص الروحانية كاملة التجلي الباطني، والإدراك العقلي، والإشراق الروحي - لا تفقد بها بشريةُ رسول الله ﷺ عناصر الإدراك الحسي، والإحساس الشعوري، ولا تتأثر منافذ التصور بها، بل إن هذه المنافذ تكتسب قوة تكون بها في أكمل حالات التنبه، وأعلى مراتب الوعي، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في حديث الحارث بن هشام من رواية أم المؤمنين عائشة عند البخاري وغيره أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال».

وهذه الحالة التي تمثلها الطبيعة الروحانية عند النبي ﷺ أشبه في

تمثل الملك رجلا عكس لصورة التناسب عند النبي ﷺ وهو يتلقى الوحي

صورتها العكسية بحالة الملك حين يتمثل رجلاً فيكلم النبي ﷺ كما يكلم الرجل الرجل، فيعي عنه ما يقول، وهي الحالة المقابلة لحالة مجيء الملك في صورته الملائكية، وقد عبَّر عن هذه الحالة أيضاً رسول الله ﷺ في حديث الحارث عن عائشة رضي الله عنها فقال: (وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول).

والبحثُ عن تمثل ملك الوحي في صورة رجل ـ كيف يكون؟ وعلى أية حالة يقع، مما سبح فيه خيال بعض أهل العلم ـ خارجٌ عن نطاق التكليف العلمي، وهو بالتخرصات والتظنن أشبه.

وقد أشرنا ـ فيما سبق ـ إلى أن حالة تمثل الملك رجلاً أشبه عكسياً بحالة النبي ﷺ في تغلب روحانيته على بشريته، حين يلقى أمين الوحي جبريل عليه السلام مواجهة في اليقظة، ويشافهه بالوحي، ويكون التصرف والحكم حينئذ للطبيعة الروحانية التي يتلقى بها الوحي في هذه المرتبة من مراتبه، وتبقى الطبيعة البشرية كامنة كاملة للقيام بحق التناسب في تبليغ الوحي إلى الأمة.

وهذه الحالة التي عبَّرنا عنها بالمزاوجة بين الطبيعتين، الطبيعة البشرية والطبيعة الروحانية عند رسول الله ﷺ، أكمل في الوجود الواقعي، والعمل في التبليغ والأداء، لاحتفاظها بجانبي التلقِّي عن الملك والتبليغ إلى الأمة.

وتمثُّل جبريل عليه السلام في صورة رجل اختيار لشكل بشري تتغلب فيه مظاهر الطبيعة البشرية على مظاهر الطبيعة الملائكية التي هي باقية كامنة كاملة، كما بقيت طبيعة البشرية كامنة كاملة عند رسول الله ﷺ حين تلقي وحي اليقظة والمواجهة، وهذا التمثل يقع تأنيساً للنبي ﷺ.

ولعل هذه الحالة هي الحالة التي جاء بها الملك في غار حراء إلى رسول الله ﷺ في أول لقاء له به، فاستقرأه واستفرغ بالغط المتكرر بشريته، وأقرأه أوائل سورة (اِقرأ).

وتغلُّبُ مظاهر البشرية في حالة تمثل الملك رجلاً لا يقتضي تحول

روحانية الملك إلى طبيعة بشرية بعناصرها المادية، ونوافذ إدراكاتها الحسية، ولا يقتضي فناء الحقيقة الملائكية، بل إن طبيعة الملك الروحانية باقية حال التمثل في صورة بشرية على أكمل حالاتها التي لها في الملأ الأعلى، لكنها تكون حين التمثل مقيدة بالصورة التي اختار الملك التشكُّل فيها عند مجيئه إلى رسول الله ﷺ ليبلغه عن الله تعالى ما أمر بتبليغه ولا سيما إذا كان هذا التبليغ يتعلق بتعليم الناس أمر دينهم، وينتهي تقيُّدها بالصورة التي تمثلت في إهابها بانتهاء التبليغ والتعليم، كما ثبت في حديث تمثل جبريل عليه السلام في صورة رجل أعرابي، وسأل النبي ﷺ عن معالم الدين وأصوله، وكان الصحابة يهابون رسول الله ﷺ أن يسألوه، فلما استكمل ما جاء به لتعليمه الصحابة انصرف، فلم يُعرف أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم».

حقيقة الملكية كامنة في صورة تمثل الملك رجلاً

وقد كانت حالة تغلُّب الطبيعة الروحانية عند النبي ﷺ على الطبيعة البشرية أشد ما كان يلقاه رسول الله ﷺ في حالات الوحي، وهي التي عُبِّر عنها بصلصلة الجرس، ودوي النحل، وهي لا تكون إلا في وحي اليقظة.

بعض النصوص التي تصور شدة الوحي اليقظي.

وقد عبَّرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن هذه الشدة، فقالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصِم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وعبَّر عنها ما رواه هشام بن عروة قال: إن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها، فما تستطيع أن تحرك حتى يسري عنه.

وعبَّر عنها ما جاء في حديث أبي أروى الدَّوسي عند ابن سعد قال: رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها ينقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسري عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجُمان.

وعبَّر عنها ما جاء في حديث زيد بن ثابت قال: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي.

وعبَّر عنها ما جاء في حديث عبدالله بن عمرو عند الإمام أحمد قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض).

وعبَّر عنها ما جاء في حديث عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب وتربد وجهه.

وأجمل حديث ابن عباس عند البخاري التعبير عنها فقال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، ويشير إلى هذه الشدة قول الله تعالى: ﴿ إنَّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾[1] قال العلماء: عنى به الوحي بنزول القرآن عليه، وثقله فيما كان يجده من الشدة في تلقيه.

تعلق الملاحدة وأعداء الإسلام بمظاهر الشدة في وحي اليقظة

وقد تعلَّق بهذه الشدة التي كان يلقاها رسول الله ﷺ عند نزول الوحي عليه في يقظته ومواجهة الملك على حالة ملائكية، وما كان يظهر من آثار تلك الشدة على بشريته ﷺ ـ من نَحْو ارْبِدَاد وجهه الكريم، وما يعتريه من الكرب والبرحاء وتفصد جبينه بالعرق في اليوم الشديد البرد ـ قوم من أحلاس الشرك والنفاق وعبيد الإلحاد والكفر والاستشراق، قديماً وحديثاً، فنبذوا النبي ﷺ بألقاب السوء، وقالوا مجنون يُصرع، وتقوَّلوا عليه ليشككوا في نبوته ورسالته، مما أوحت به إليهم شياطينهم، من الكذب وقول الزور افتراء على الله ورسوله.

رد الله تعالى لهذه الفرية

وقد رد الله تعالى عليهم فريتهم وأكاذيبهم، بعد أن حكاها عنهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ أوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّة إن هو إلا نذير مبين﴾[2]، ففي هذه الآية الكريمة تصوير لتجني هؤلاء الفجرة من طغاة الكفرة، وجهالتهم الضالة، وأنهم قوم بُهْت، لا يصدر منهم القول عن نظر وتدبر ليعرفوا الحق من الباطل، وليست لهم بصائر يتفكرون بها في مبادىء الأمور وعواقبها، وقد أبرزت الآية الكريمة

(١) سورة المزمل، آية: ٥.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٤.

ذلك في أسلوب إنكاري مفعم بالتقريع والتوبيخ لما أهدروه من مدارك عقولهم، ولِدَمغهم بالكذب والبهتان، والتسجيل عليهم أنهم قالوا قولاً باطلاً، لو تفكروا فيه، وتدبروا مداخله ومخارجه لعلموا بطلانه بداهة.

ذلك أن مَنْ به مس من الجنون يصرعه ويتخبطه لا يمكن أن يصدر عنه كلام في أعلا درجات البراعة البيانية باعتراف غطارفة الفصاحة فيهم، وهو مع ذلك يحمل في عباراته أجلّ المعاني الإنسانية، وأسمى الحقائق الكونية، وأدق النظم الاجتماعية، وأصدق القضايا العقيدية، وأزكى الآداب الخُلقية، وأفضل الشرائع التعبدية، ثم يبقى دهره كله على أرفع سنن الاستقامة، وزكانة الرأي، وجودة التفكير، لا يخالف قولَه فعلُه، ولا تختلف آدابه وأخلاقه، يعرف له أعداؤه أمانته وصدق حديثه، وبره ووفاءه، وشجاعته ومكارم أخلاقه.

القرآن يتحدى الملاحدة

وها هوذا القرآن الحكيم، الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ منزلاً من عند الله قائم بين أظهركم وفي متناول أيديكم وعقولكم، فاقرأوه وتعمقوا فهمه، وحاولوا بكل ما أوتيتم من قوة، وادعوا معكم شهداءكم من شياطين الإنس والجن لتستخرجوا معنى متهافتاً يشعر بأن من أتى به بعيد عن استقامة المدارك العقلية، وقد تحدَّاهم القرآن بآياته فقال: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] والتدبُّر طلب المعنى بالقلب والعقل، وذلك هو ما يسميه منطق الفلسفة بالنظر والتعقل، ونتيجته هي العلم واليقين.

وتاريخ محمد ﷺ في حياته ورسالته آية صدق على كماله

وها هوذا تاريخ محمد ﷺ وأحاديثه وسنته وآدابه وأخلاقه وشريعته تحت أنظاركم فانظروا وتفكروا في جوانب ذلك كله، واستخرجوا منه ـ ولن تستطيعوا ـ ما يقيم عوج دعاواكم، وأود أباطيلكم، ولكنكم علمتم أن محمداً ﷺ أرسله الله تعالى ليقوض بنيان الكفر والنفاق، ويهدم صرح الإلحاد، وينذر الذين لووا رؤوسهم عن قبول الحق بعذاب الله وبأسه، والذين ينغضون اليوم رؤوسهم جحوداً وعصبية عمياء ببطش الله وعقابه

---

(١) سورة محمد، آية: ٢٤.

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[1].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾[2].

وهذه الآية الكريمة تجري في مَهْيَع أختها آية الأعراف، وتبدأ ببيان مهمة محمد ﷺ في رسالته التي أمر بتحقيقها في الحياة، فهو مرسل ليعظ الناس أن يقوموا لله الواحد الأحد على قدم العبودية، بإفراده بالتعبد له وحده، لا يشركون به شيئاً، جماعات وأفراداً، وهذه قضية فطرية من بدائه العقول، لا تحتاج إلا إلى موقف تذكير وكلمة واعظة، تحرك القلب إلى اليقظة والعقل إلى التنبه، فإذا استيقظ القلب، وتنبه العقل، وعادت الفطرة إلى استقامتها في توحيد الله فانظروا حينئذ في شأن محمد ورسالته، نظر تدبر وتفكر لتصلوا بهذا التدبر إلى العلم الذي لا يدخله شك، ويتجلَّى لكم أن محمداً أصح الناس عقلاً، وأصدقهم حديثاً، وأهداهم هدى، وأرشدهم رشداً، أليس بين أيديكم ما جاء به من شرائع وآداب، ونظم وأخلاق؟ فهل تجدون فيها ما يدلُّ من قريب أو بعيد على أن محمداً نزل عن ذروة الكمال العقلي، والآداب الاجتماعية التي عرفتها البشرية منذ كانت للكملة من المصطفين لرسالات الله تعالى؟.

ولكنه ﷺ بعثه الله نذيراً بين يدي عذاب شديد لمن أعرض عن النظر في آيات الله ولم يؤمن بربه وهو يرى ما بثه في الكون من دلائل وحدانيته وقهر قدرته وبالغ حكمته.

يقول الإمام الرازي في تفسيره: كان النبي ﷺ عند نزول الوحي تغشاه حالة عجيبة، فيتغير وجهه ويصفرّ لونه، وتعرض له حالة شبيهة بالغشي، فالجهال كانوا يقولون إنه جنون، فالله تعالى بيَّن في قوله تعالى:

---

(١) سورة النمل، آيتا: ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة سبأ، آية: ٤٦.

﴿ أَوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّة ﴾ أنه ليس به نوع من أنواع الجنون، وذلك لأنه عليه السلام كان يدعوهم إلى الله، ويقيم الدلائل القاطعة والبينات الباهرة بألفاظ فصيحة، بلغت في الفصاحة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضتها، وكان حَسَن الخُلق طيِّب العشرة، مرضي الطريقة، نقي السيرة، مواظباً على أعمال حسنة صار بسببها قدوة لعقلاء العالمين، ومن المعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن اجتهاده على الدعوة إلى الدين إنما كان لأنه نذير مبين، أرسله رب العالمين لترهيب الكافرين وترغيب المؤمنين.

ومن لطائف القرآن الكريم هنا أنه ذكر محمداً ﷺ في هذا المقام بعنوان (الصحبة) ليذكرهم بأنهم أعرف الناس به، وأنه لم يفارقهم، ولم يفارقوه، بل صحبهم وصحبوه، ولازمهم ولازموه، فهل عرفوا عنه طول حياته بينهم شيئاً يخدش إدراكاته العقلية وإحساساته ومشاعره الإنسانية؟ لقد صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1].

* * *

شعور النبي ﷺ بضخامة عبء رسالته

وقد شعر رسول الله ﷺ في حياته الجديدة التي بدأت بميلاد رسالته في مهد الوحي ، غار حراء شعوراً ملك كل جوانب نفسه، وملأ عليه كل ذرة من ذرات حسه وإدراكاته في كل حركة من حركات وجوده، منذ هذا اللقاء المفاجىء في غار حراء الذي بدأ به ميلاد رسالته ـ بضخامة العبء الذي أُلقي على عاتقه في تحمُّل أثقال الوحي اليقظي وشدائده التي تخرجه في أكثر أوقات رسالته إلى روحانية، تخلعه عن بشريته في شدة بالغة الجهد، تبلغ آثارها به أن يظن في كل مرة يوحى إليه وحي يقظة ومواجهة أن نفسه تقبض، وهذا وصف لشدة ما يلقاه النبي ﷺ من الغط واستفراغ بشريته.

وهو ﷺ قد أوتي من قوة الاحتمال والصبر على فوادح الشدائد ما لم

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٣.

يؤته أحد من البشر، فأي فوادح تلك التي تجعله ﷺ يظن عند نزولها به مع نزول الوحي أن الموت ينزل به؟.

إنها بلا شك شدائد ليس لبشر قوة على احتمالها، فهي ليست من جنس شدائد الحياة وفوادحها التي تقع للناس، فيصبرون عليها أو لا يصبرون.

امتنان الله تعالى على حبيبه محمد ﷺ بتخفيف عبء الرسالة عليه

ولكنها شدائد أثقال النبوة وأعباء الرسالة، ولعلها هي النعمة العظمى بعد نعمة النبوة والرسالة التي امتنّ الله عليه بوضع أثقالها عن عبده ورسوله وحبيبه، بعد أن استقرّ به المسير النبوي ووطّن نفسه على أن يعيش لرسالته، ويحتمل في سبيلها كل ما تأتي به الحياة من شدائد وفوادح، فقال تعالى: ﴿ ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك ﴾ وهذه السورة من المكيات السوابق، نزلت بعد سورة (والضحى) وفي بعض الروايات أنهما نزلتا معاً بكمالهما بعد فترة قصيرة من الوحي، ليلة أو ليلتين أو ثلاثاً، وعند بعض الشيعة أنهما سورة واحدة، ونسب هذا إلى طاوس وعمر ابن عبد العزيز، وردّه الرازي بحجة لا تسلّم له، والمعنى أن الله جل ذكره يقول لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: فلتهدأ نفسك وتقرّ عينك، فقد شرحنا لك صدرك، ووسعناه، بأنوار اليقين، فانفسح لتحمل أثقال الوحي، وأقدرناك على تحمُّل وزره وأعبائه مما لحق بك من الهيبة وفزع المفاجأة في أول لقاء بأمين وحينا جبريل، وقويناك على احتمال أعباء النبوة وأثقال الرسالة، بعد ما ناءت قوى بشريتك باحتمالها، فحططنا عنك أثقال فوادحها التي أثقلت أحمالها ظهرك، وجعلناك حمَّال آياتها بما آتيناك من قوى روحانية دعمت قوى بشريتك، وأقدرناك على القيام بتبليغ رسالتنا إلى خلقنا (ورفعنا لك ذكرك) فجعلناك خير رسول لخير أمة.

قال الفخر الرازي في تفسير (ووضعنا عنك وزرك) المراد تخفيف أعباء النبوة التي تثقّل من القيام بأمرها وحفظ موجباتها، والمحافظة على حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسَّرها عليه حتى تيسَّرت له.

وقال الشوكاني في تفسيرها: والمراد الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها، فسهَّل الله ذلك عليه، حتى تيسَّرت له.

إيمان النبي ﷺ برسالته أساس وجوب متابعته

هذا الشعور الذي غمر كيان رسول الله ﷺ بعظمة رسالته، وأثقال أعبائها، وحقوق أدائها، وواجبات تبليغها عامة شاملة للزمان والمكان والأجيال ـ هو الإيمان الخاص الذي امتدحه الله به، وجعله ذروة العوامل والأسباب في وجوب متابعته في عموم رسالته، فقال تعالى داعياً سائر المكلفين ممن تبلغهم دعوته: ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[1].

فقد ذكره الله تعالى في مقام الإشادة بذكره، والثناء عليه ومدحه، والدعوة إلى متابعته بأخص أوصافه في رسالته (النبي الأمي)، ثم بيَّن الله تعالى أن هذا النبي هو القدوة العامة العليا للإنسانية كلِّها، فيما دُعوا إليه من الإيمان، وأنه السابق إلى ذروته، فهو (الذي يؤمن بالله وكلماته) وكلمات الله هي شرائعه التي أنزلها متدرجة في مدارج الكمال في رسالاته إلى أنبيائه حتى انتهت إلى أكمل كمالها في الرسالة الخالدة، رسالة هذا (النبي الأمي) الذي يؤمن بكلمات الله كلها، وهي التي دُعِي كافة الناس إلى الإيمان بها، واتباع حاملها إليهم، ليسيروا في إيمانهم على نهجها، ليكونوا من المهتدين إلى الاستمساك بعروة الإيمان الوثقى التي لا تنفصم طاقات فتلها، وفي ذلك يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يُحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[2].

وهذا الإيمان الخاص به ﷺ غير الإيمان العام الذي يتصف به كل نبي

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

(٢) الآية نفسها.

ورسول من أنبياء الله ورسله، لأن الإيمان الخاص يمتاز عن الإيمان العام بخصائص تخصه ﷺ.

تشريف الأمة بوراثة التبليغ ومشاركتها في المدح والثناء

وهذا الشعور الغامر هو المظهر الأعلى للإيمان الخاص الذي كان به محمد ﷺ القدوة القصوى لأمته، ليسلكها معه في رياض نهجه في رسالته، لتكون داعية بدعوته ووارثة عنه تبليغ رسالته، كما قال تعالى لمجموع الأمة: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ﴾[1].

ومعنى الآية الكريمة: كونوا جميعاً[2] ياأيها الذين آمنوا بهذا النبي الأمي ـ الذي يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، ويضع عن أمته أثقال ما كان في الشرائع السابقة، ويرفع عنها أغلال أحكامها وشدائد تشريعاتها ـ دعاة إلى الخير وسماحة العمل، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، بقدر استطاعة كل مستطيع منكم، ووراثة عن رسولكم النبي الأمي الذي جعله الله قدوتكم العظمى، ثم ضمَّن وعدَه بفلاحهم بُشرى قيامهم بما أمروا به، وذلك بإبراز الجزاء في صورة الإخبار المحقق الواقع.

ولهذا أشرك الله الأمة مع نبيها، وأدخلها في رياض الثناء عليه فيما أنزله مدحاً له ولها بهذا الإيمان الخاص، فقال تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾[3].

وإيمان الرسول أصل بذاته، متلقى عن الله جلّ ذكره بالوحي، وإيمان الأمة فرع عنه متلقى عن الرسول ﷺ بالتبليغ، فهو مرتبة تعليم منه وتعلُّم منها، تتدرج بالأمة في مدارج العلم والمعرفة، وتتفاوت على حسب منازل

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤

(٢) هذا المعنى قائم على أساس أن مِنْ في قوله (منكم) بيانية لا تبعيضية لأن شريعة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تترك أحداً من الأمة دون تكليف ينهض به قدر طاقته واستعداده.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

الأفراد من الاستعداد والتلقي، وفي حدود هذا العلم يكون وزن الإيمان، ويكون التكليف.

تفاوت إيمان المؤمنين بتفاوت درجاتهم في العلم والمعرفة بالله تعالى

ومن هنا كان إيمان أبو بكر الصديق رضي الله عنه وازناً برجاحة إيمان جميع الأمة، لرسوخ علمه بالله تعالى رسوخاً كان به أثبت المؤمنين قلباً، وأشجعهم نفساً يوم زلزلت أقدام الأكابر، الفاروق عمر بن الخطاب فمن دونه، ومن هنا كان تكليفَ الصدِّيق بالخلافة عن رسول الله ﷺ، والبيعةُ في الإسلام تكليفٌ، فقام بالأمر قيام ثاني اثنين في تاريخ الدعوة إلى الله، فقد ردّ رسن الإسلام على غربه، وجمع الله به ما تفرَّق، ولَمَّ به ما تشعَّث في كارثة الكوارث، بفراق رسول الله ﷺ دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، ثم انبعاث الفتنة القاصمة، فتنة الردة، والمسلمون من باهظ صدمة الكارثة في ذهول مذهل، ومن مفاجأة الفتنة كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية.

وفي هذا الإطار تتوارد درجات سائر الصحابة في تفاوتها منزلة، وهم في جملتهم أبرّ الناس إيماناً، وأهداهم قلوباً، وأعلمهم بمعالم الإيمان وموجباته، وأرشدهم طريقة، وأسدهم منهجاً، وأحسنهم سمتاً، وأعرفهم بالله تعالى.

ومن تبعهم في إحسان التلقي علماً وعملاً، ومضى على سبيلهم من سائر المسلمين في صدق اليقين، والدعوة إلى الله، وإخلاص العبودية له، كان حظه من منازل الإيمان على قدر ما عنده من العلم والمعرفة.

إيمان النبي ﷺ إيمان شهود.

والتلقي عن الله عز شأنه بالوحي مرتبة من مراتب الإيمان، قد تكون أعلى مراتب الشهود التي تبلغ بصاحبها أرفع منازل القرب، بل هي أرفع هذه المراتب على الإطلاق حيث يشهد المتلقي عن الله حقائق الموجودات مسطورة في سجل الغيب مشدودة بأسباب المخلوقية إلى أفق الخالقية، فيؤمن بها إيمان من يشهد وجودها بروحه وعقله، وحسه ووجدانه إيماناً يبدو فيه الاختيار كالاضطرار، والتفصيل كالإجمال.

ومن هنا صحّ عن النبي ﷺ فيما يرويه الحاكم في مستدركه عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ آمن الرسول بما أنزل

إليه من ربه والمؤمنون﴾ على النبي ﷺ قال عن نفسه الكريمة (حُق له أن يؤمن) وفيما يرويه الطبري عن قتادة قال: ذكر أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: (ويحق له أن يؤمن) وجماع ما يمكن تَنوره من هذا الحديث في روايتيه ـ وراء ما يطوي من أسرار تعجز الأقلام عن تصويرها ـ أن قوة روحانية النبي ﷺ بعد ميلاد رسالته بلغت من الشفافية والاستجلاء مرتبة انفرد بها النبي ﷺ في الاطلاع على حقائق الموجودات في الملأ الأعلى، حيث منازل شهودها، وذلك هو الإيمان الذي لا يحتاج إلى برهان، إذ ليس وراء يقين الشهود يقين.

هذا الإيمان هو الأساس في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة

فإيمان النبي ﷺ برسالته، وتقديره لعظمتها، وعرفانه بأثقال أعبائها هو الأساس الذي يقوم على دعائمه بناءُ رسالته الخالدة، ولا أساس لها غيره، وقد بلغ النبي ﷺ بإيمانه أعزّ وأرفع مراتب المرسلين.

أخرج ابن أبي حاتم عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت﴿آمن الرسول﴾ . . . الآية قال جبريل للنبي ﷺ: (إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فَسَلْ تُعْطه).

وهذا الإيمان هو القوة التي أمد الله تعالى بها رسوله ﷺ منذ ميلاد رسالته، في أول لقاء يقظي لجبريل أمين الوحي في غار حراء، ليقويه ويقدره على تحمُّل أعباء رسالته، فحملها مؤمناً بها أشد وأقوى ما يكون إيمان، مغتبطاً بفضلها أعظم ما يكون اغتباط، وقام بأعبائها صبوراً شكوراً، صفوحاً كريماً، وفياً بعهدها وما يجب لها، دؤوباً على تبليغها ونشر هدايتها.

وإدخالُ الأمة مع رسولها في إطار الإيمان بأعباء الرسالة، ليسلكها معه في رياض نهجه في رسالته حفاوةٌ بالغة بهذه الأمة، وتكليف لها تكليف رسولها في وراثتها له في القيام بواجب الدعوة والتبليغ.

ونهج رسالة محمد ﷺ يطالب الرسول أصالة والأمة وراثة بتغيير حياة العالم كله في عقائده وتعبداته وأخلاقه، ونظمه الاجتماعية، وطرائق عيشه، وروابط أفراده وجماعاته، وأممه وشعوبه، وأنظمة حكمه، ومناهج سياسته، وتبصيره بحياته وما فيها من انحرافات، وتوجيهه إلى مسالك الهداية،

وإرشاده إلى منائر العدالة، وعقد أواصر الإخاء والمحبة، والتواسي بين سائر أبناء البشرية، وتوجيه الإدراكات العقلية في انطلاق متحرر إلى آفاق الكون على اتساع مداه، لتكشف عن آيات الله في عناصر هذا الكون وتماسك ذراته ومعرفة ما أودع الله في كل ذرة منها من خير ونفع للبشرية، لتتخذ من هذه المعرفة معراجاً إلى معرفة كمالات الله.

عوامل ارتياع رسول الله ﷺ

ومن هذا التكليف الذي حمل عبأه رسول الله ﷺ وحده في حياته، منفرداً بالقيام بأدائه، مؤمناً به أقوى ما يكون إيمان بعقيدة، وأرسخ ما تكون عقيدة آمن بها صاحبها، إيمان مشاهدة وشعور، وإدراك امتزج فيه عمل الحس بعمل العقل، وإشراق الروح بنور القلب والوجدان، مؤيداً بنصر الله، وبالقلة الصابرة المجاهدة من المؤمنين السابقين، الذين اتخذوا من إيمان رسول الله ﷺ معراجاً إلى السمو، استعذبوا فيه ما رمتهم به الحياة من بلاء الفوادح - يتجلى سر ما اعترى رسول الله ﷺ أول ما فوجىء بمعالم هذا التكليف، من رجفة فؤاده، ورعدة بوادره، وخشيته على نفسه من كل أثر رجع به من مفاجأة الغار إلى بيته وأهله ومأنسه، كما جاء في روايات الحديث، وهو ﷺ على يقين فوق كل يقين أنه نبي مرسل من عند الله لكافة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي بعض ما وقع له في هذه المفاجأة من عظائم الأحداث، بَلْه جميعه ما يجعله جديراً بأن يحدث هذه الهزة العنيفة في كيانه البشري ﷺ.

العامل الأول مفاجأة الملك على صورة لم تعلم حقيقتها بادىء الأمر

فالمفاجأة بالملك في خلوة الغار على صورتها الجاهدة المجهدة، التي لم تعلم حقيقتها، والنبي ﷺ مستغرق في سبحات تعبداته بالتفكر في جلال الله وعظمة ملكه وملكوته، وبديع خلقه، وعجيب صنعه، وما احتف بها من شدائد الغتّ، أو الغط، الضاغط، ببالغ عصراته، وتكراره بصورة متناهية في العنف إلى أقسى ما يطيقه احتمال رسول الله ﷺ، حتى كان يجيبه بما أجابه به عن استقرائه، افتداءً منه أن يعود إليه بمثل ما صنع به - حريةٌ أن تحدث من الآثار على بشرية النبي ﷺ ما أحدثت مما لم يمس روحانيته ومدارك عقله

بشيء قط، فقد كان وعيه لما ألقي إليه أكمل ما كان، وشعوره بما حدث له أتم ما كان.

العامل الثاني
استحضار أعباء تبليغ الرسالة

واستحضارُ رسول الله ﷺ أعباء ما كُلِّفه، وأثقال ما ينتظره في تبليغ رسالته إلى الخلق، التي لم يكن حينئذ قد بلغ تصوره نهايات جلالها، وعظمة امتدادها في عمومها وخلودها، وفي طبيعة عناصرها، وسائر مقوماتها، وضخامة آثارها في توجيه الحياة، وتغيير أحوال الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب، التي أصبحت كلها مدعوة إلى الإيمان برسالته، لتكون دستورهم المحكم في كافة جوانب حياتهم ـ حريٌ أن يحدث من الهزة في كيانه البشري ما أحدث، وهو ﷺ نَهَدَ، وشب، وعاش حياته كلها قبل مبعثه، ثم نُبِّىء وبُعث رسولاً بين قوم كانوا أبعد ما يكونون عن الاستجابة إلى دعوته، وقبول هدايته، والإيمان برسالته، التي تتعارض كل التعارض، وتتناقض أشد التناقض مع ما كانوا عليه من الانغماس في رذائل الوثنية، وجهالة البلادة العقلية، وفساد التفكير، ومهانة الشرك، وشرور المظالم، وبأو العنجهية، وجبروت الطغيان، وتفكُّك الروابط الإنسانية، وتحلل الوشائج الاجتماعية، وسفك الدماء لأتفه الأسباب، ونهب الأموال اغتصاباً، وانحلال الأخلاق، وانتشار الرعب غلاباً والانحطاط الاجتماعي، وضراوة البؤس وشراسة الفقر، وضراعة الذل خوف الاستبداد، وذل الضراعة خشية الطغيان، واستعباد الضعفاء، واستذلال العاجزين، واستغلال المحتاجين، والتعصب القبلي، وتغطرس الكبرياء فيمن يملكون حطام الدنيا من الأموال والمتاع، وشيوع عبيّة الجاهلية ومذامها، والتفاخر بِجِيف الآباء والأجداد، والتعظم برذائل الأخلاق، يقتلون أبناءهم خشية الإملاق، ويمنعونهم أن يؤاكلوهم خشية الفقر، يئدون البنات، ويقتلونهن أحياء على أبشع صورة تسمح بها أغلظ الأكباد وأجمد القلوب، خيفة العار، زعموا، يأكلون الميتة والدم وخشاش الأرض من الخنافس والجعلان والديدان، يجعلون لله تعالى ما يكرهون، وتصف ألسنتهم الكذب، إلى غير ذلك من أسواء الجاهلية وشرورها ومفاسدها التي سجلها التاريخ.

حالة المجتمع العربي في مطلع بعثة محمد ﷺ

وعموم رسالة محمد ﷺ يقتضيه أن يعد نفسه لمعرفة كافة الأمم أفراداً وجماعات في أرجاء الأرض، معرفة علم وخبرة، يعرف عقائدهم، وأخلاقهم، وعوائدهم، ونظمهم الاجتماعية، وطرائق عيشهم وتعاملهم، بل يقتضيه أن يعرف مداخل نفوسهم وطبائعهم ليكون تبليغ رسالته إليهم، ودعوتهم لهدايتها، وتطبيق تشريعاتها ملايماً لما يجب أن يكونوا عليه في ظل هذه الرسالة والإيمان بها، حتى لا تكون هناك نفرة تباعد بينهم وبين الاستجابة لها.

وليس من اليسير على من يدعو إلى إصلاح الحياة إصلاحاً جذرياً في الأمم والشعوب يبدأ من الأساس، من تصحيح العقيدة بتوحيد الله، وإفراده بالتعبُّد له تعالى، وتغيير النظم والأخلاق، وإقامة موازين العدالة والمساواة، وبث روح الثقة والإخاء، وتحقيق المحبة والمواساة بين الناس - إخراجُ الأمم والشعوب مما رسخ في طبائعهم، وقامت على دعائمه حياتهم سنين وأحقاباً، من العقائد والأخلاق والنظم، وإبدالهم به محاسن الشيم والفضائل؛ إلا إذا كان الداعية لهذا الإصلاح العام الشامل على أكبر قدر - يسمو به فوق أقدار من يدعوهم إلى رسالته - من الحكمة، والحنكة، والعلم، والخبرة بالنفوس والطبائع، مؤيداً بقوة قاهرة لقوى الحياة، قوياً في نفسه على تجرع مرارة الصبر، صبوراً على تحمل أفداح ما يلقى من بلاء وإيذاء، عليماً بما سيلقى في سبيل دعوته مقدراً جسامة ما يلقى، معداً له ما يقابله في مواجهة إيجابية، من غير عزلة وتنحّ عن ملاقاة الأحداث.

حالة المجتمع البشري خارج الجزيرة العربية

والذي وصفنا من حال قوم رسول الله ﷺ مَنْ دنا منهم ومَنْ بَعُدَ، لا يمثل إلا أقل القليل من أحوال غيرهم من سائر الأمم والشعوب الذين عاصروهم، فكانوا أسوأ حالاً من قومه الذين نهد بين أحضانهم، ثم بعثه الله فيهم رسولاً إلى الناس جميعاً برسالة عامة خاتمة خالدة، فأولئك كانوا أفسد عقيدة، وأحط أخلاقاً، وأعوج سيرة، وأبعد من الخير والصلاح طرقاً، لأن هؤلاء البعداء أضلَّهم الله على علم، فهم أشد عناداً، وأقسى قلوباً، وأكثر غروراً، وأعمق في الباطل أثراً، وأكثر في الكفر جدلاً، وآنس بالفجور، وآلف للمظالم والشرور، أولئك شرّ مكاناً وأضل سبيلاً.

ففي الشرق كان الفرس وزندقتهم الإباحية، وعبوديتهم للأباطرة، وكفرهم المغرور، وحضارتهم المادية، ووثنيتهم المتهاوية المتهدمة، في بقايا باهتة من الحكمة العقلية التي تناقلوا ألفاظها عن حكيمهم زرادشت وأضرابه ممن عاصره أو سبقه، ولكنهم ضلُّوا عن معانيها وأهدافها.

وفي الغرب الرومان ونظامهم الاجتماعي القائم على الإقطاع الفظيع، والاسترقاق الشنيع، في عقيدة كافرة، يغلِّفها الغموض وتحوطها الظلمات، مع شيوع الترف الفاجر، إلى جانب الفقر المهلك في ظل من التقنين الجائر، والتشريع المستعبد الظلوم.

ووراء هاتين الدولتين أو الأمتين ـ اللتين كانتا تتداولان سلطان الحكم في حياة الناس ـ قطعان من البشرية منتشرة هنا وهناك في الشرق والغرب لا تستهدف من حياتها شيئاً، تعيش وكأنها لا تعرف الحياة، ولا تعرفها الحياة، أشبه بسائمة الأنعام في مراعي الصحارى والوديان.

فما عسى محمد ﷺ يصنع بهذه المجتمعات الإنسانية الشاردة عن حظيرة الهداية الإلٓهية، الغارقة في بحار الضلال، السادرة في ظلام الغواية، لينقلها من حال ضلالها إلى هداية رسالته، وهو ﷺ وحيد مفرد، لا يجد إلى جانبه سمَّاعين لكلمة الحق، كلمة الله، قادرين على نصر الله ورسوله، مهتدين بهدى الله وهدى رسوله؟ وما تغني القلة القليلة المستضعفة التي سبقت إلى الإيمان به وبدعوته، وهم يسامـون سوء العذاب ولا يستطيعون الدفع عن أنفسهم، فضلاً عن نصرة عقيدتهم ورسالة رسولهم ﷺ.

موقف المجتمع في الداخل والخارج من رسالة الإسلام

وليت هذا المجتمع الشرير الفاسد وقف منه ﷺ موقفاً سلبياً، فكف عنه وعن الذين آمنوا به على خوف من قومهم يده فلم يؤذه، ولم يؤذهم، بل إنه ﷺ وجد عناداً جاحداً، وجحوداً عنيداً، واستكباراً في الأرض بغير الحق، ومقاومة جائرة، وتألباً ظالماً، وطغياناً ضارياً، وعداوة شرسة، ولدداً كافراً، وخصومة فاجرة، وإعراضاً مدبراً، كأنَّ في آذانهم وقراً، وكأن الحق والهدى عليهم عمى، يثنون صدورهم ليستخفوا منه، صُمٌّ بُكْم عُمْي فهم لا يعقلون.

ورسالته ﷺ تقوم على أساس تقويض بنيان الوثنية بجميع صورها، وكافة أشكالها ـ وثنية الأصنام والأحجار، ووثنية التماثيل والأوثان، ووثنية الحيوان والأشجار، ووثنية الشموس والنجوم والأقمار، ووثنية الرهبان والأحبار، ووثنية الملوك والأباطرة، ووثنية الزعامات والرياسة، ووثنية الاستبداد في الحكم، ووثنية المشيخات وتقديس الأشخاص، ووثنية التقاليد والوراثة، ووثنية المال والثراء الكفور، ووثنية الترف والانحلال، من كل ما يصرف القلب والعقل عن معرفة جلال الله، ويُظْلم الروح فلا ترى نور الله ـ لتبدلهم بكل ذلك عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى، فلا يعبد سواه ﴿ ألاَ لله الدين الخالص ﴾.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تقف حاجزاً قوياً يحول بين كافة الناس في أرجاء الأرض وبين رذائل الأخلاق المنتشرة في مجتمعاتهم، لتحويل هذه الرذائل إلى فضائل إنسانية، يحيون بها، ويعيشون في ظلالها، وتحيل تفككهم الاجتماعي روابط أخوية، تجمع كلمتهم على العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، يتراحمون بها ويتواسون، ولا بد لها أن تخرجهم من ظلمات الجهالة الفكرية، وخرافات الأساطير، وفراغ الحياة العقلية إلى نور العلم والمعرفة، ونهوض العمل الجادّ الذي يملأ فراغ الحياة بكل خير.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تثير في عقول الناس حركة متحفزة لتبدل الجمود الفكري ثورة عقلية، تنهض بالعقول والأفكار إلى آفاق الكشف عن أسرار الكون وما أودعه الله فيه من عبر وآيات وأسرار.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تطفىء ما يشتعل بين الناس من نيران الفتن والحروب بالقضاء على عواملها وأسبابها من التنافس المتظالم على وسائل العيش من أسوأ طرائقه بغير عمل شريف ولا كسب كريم، فتوجههم إلى التغلب على البؤس والفقر بالعمل الجاد الكريم في شتى مظانه الطيبة.

ولا بد لها أن تغرس في النفوس حب العدالة الاجتماعية، فيعرف كل فرد حقه وواجبه، وتعرف كل جماعة حقها وواجبها، وتعرف كل أمة كرامتها، وتعمل جاهدة على المحافظة عليها، وحمايتها.

ولا بد لها من تربية الناس على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، بالعلم والعمل، والقدوة الحية التي يرى فيها المثل الأعلى للهداية والإصلاح حتى تقوم الفضائل بين الناس مقام القانون.

تمثُّل هذه الأعباء في خاطر رسول الله ﷺ كان سبباً فيما وقع له من الارتياع

هذا التصور الذي ملأ خواطر رسول الله ﷺ لعبء الرسالة، وضخامة مسؤولياتها ـ إلى جانب مفاجأة المَلَك في الغار، وما حفَّ بها من شدائد ـ هو الذي بعث في نفس رسول الله ﷺ الانفعال الذي هزَّ كيانه فرجف منه فؤاده، وأُرعدت بوادره، وخشي على نفسه بعد ارتياعه من المفاجأة الملائكية ألّا تقوى بشريته التي لا بد له من أن يواجه الناس بها في تبليغ دعوته على تحمُّل أعباء ما شرّفه الله به من رسالته.

وقد تمثل في خاطره ﷺ ما لا بدّ له من التعرُّض له في سبيل قيامه بحق دعوته من عداوة الذين جعلوا من الشرور ومفاسد الحياة عُدَّتهم وعتادهم، وقد يكون دار في خلده ﷺ تساؤل مع نفسه بعد هذا التصور الضخم، المتزاحم بصور الأحداث، هل تقوى طبيعته البشرية التي يواجه بها الناس في دعوتهم إلى الاستجابة للإيمان برسالته وتقبل هديه على تحمُّل ما يصيبه من فوادح البلاء والمحن؟.

وهل يستطيع أن يصبر على ما يلقى من أذى، يبلغ به ما يبلغ في سبيل تبليغ رسالة ربه إلى كافة الناس في أرجاء الأرض، وهل يستطيع أن يدافع الذين يقفون في سبيله ـ وهو ماض في دعوته إلى الله ـ معوقين سير رسالته؟ وهل يستطيع أن يقاوم الذين يقاومون رسالته بكل ما يملكون من قوى شريرة ظالمة؟.

تصوير وتفسير ارتياعه وخشيته على نفسه ﷺ

كل ذلك ـ منذ اللحظة التي فَجئه فيها الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيها لم يُعلم من الصور والشكول والأحوال وبغته بطلب القراءة والغط ثلاث مرات، حتى بلغت منه ما بلغت من الجهد، إلى تصوره ﷺ لعبء عموم رسالته الذي توالت عليه نصوصه وأوامره في كثرة من السور المكية السوابق، فكانت من أول الأمر مقصورة التبليغ، مرعية الأعباء، وتصوره لحالة المجتمع البشري الخاص بقومه، والعام في أرجاء الأرض،

الذي يوجه إليه دعوته، ويبلغه رسالته، وتصوره ﷺ لما يجب عليه من القيام بحق تبليغ رسالته، وما يجب أن تحققه هذه الرسالة في حياة المجتمع من إخراجه من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ـ هو الذي رجف من أجله فؤاد رسول الله ﷺ، وهو الذي أُرعدت من تصوره بوادرُه، فرجع بما حُمِّلت نفسه الكريمة من آثار ذلك كله إلى بيته، وزوجه الأمينة، وزيرة الصدق، ومأنس الوفاء، يبدي لها ما ساور نفسه ودار بخَلَده، ومارأى وما سمع، وما سيلاقي في غمرة حياته الجديدة، حياة النبوة والرسالة بكل ما فيها من محن وشدائد وأهوال تذيب رواسي الجبال.

وهذا هو ما خشي على نفسه منه ﷺ، فقد أرعبته مفاجأة المَلَك، وهو ﷺ في سكون خلوته، وهدوء متعبده، وسَبْح فكره في ملكوت الله، واستغراق روحه في أنوار مطالعة بدائع صنع الله فهزَّت هذه المفاجأة بشريته ﷺ هزة عنيفة، وحُق لها أن تهزها، لأن اللقاء المفاجىء بين طبيعتين بينهما غاية التباين في عناصر تكوينهما لا يمكن أن يتحقق دون مظهر من مظاهر عدم التكافؤ في قوى الطبيعتين ومجلى صور لقائهما.

فإحدى الطبيعتين المتلاقيتين لقاء مغافصة روحانيةٌ عالية خالصة، لها في الملأ الأعلى وعالم الروحانيات مكانها الأسمى، ومقامها الأعلى، هي طبيعة الروح الأمين جبريل عليه السلام الذي وصفه القرآن الكريم بأنه (شديد القوى ذو مِرَّة) ووصفه بـ (ذي قوة عند ذي العرش مكين).

والطبيعة الثانية بشرية، لها خصاص الطبائع البشرية المادية، بروحانيتها المقيدة بخصائص البشرية المادية، وهذه الروحانية هي مبعث الحياة في الطبيعة البشرية، تمدها بألوان من خصائصها الروحية في الإدراك، والتفكير، والشعور، هي طبيعة محمد بن عبدالله ﷺ الذي وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿ رؤوف رحيم ﴾.

وقد حفَّ بهذه المفاجأة أمور من شدائد هذا اللقاء التي لا تطيقها طبيعةٌ بشريةٌ مهما كانت قوتها في دائرة بشريتها، كل أمر منها بمفرده حريّ أن يفزع ويرعب أقوى القوى البشرية، وهي قد اجتمعت على محمد ﷺ في

مفاجآت متتاليات متتابعات عرف منها أن الله تعالى اصطفاه رسولاً إلى الناس كافة، ليخرجهم من ظلمات حياتهم المتراكمة في حظائر الشرور والفساد إلى نور الهداية والرشاد.

وفي غمرة هذا الفزع الطبيعي، وقد تيقَّن محمد ﷺ اصطفاءه للرسالة العامة الخالدة، استوعبت مداركه وإحساساته ومشاعره تصور أعباء القيام بحق ما اختير له رسولاً، فخشي ألا يقوى على القيام بحق تبليغ رسالته، وخشيَ أن يشغله ما سيقع بينه وبين الناس حين يدعوهم إلى الله وإلى هَدْيه ـ وهم على ما هم عليه من ضلالة ضالّة ـ عن مطالعات تجليات شهود جلال الله والاستغراق في أنوار جماله العلي، بعدما تذوَّق بروحانيته الخاصة الوليدة في جو المفاجآت، بميلاد رسالته لذائذ هذا الشهود.

فرجف فؤاده، وأُرعدت بوادره، واهتز كيان بشريته، وأخذته سبحات فكرية في التطلع إلى فضل الله ورحمته يلتمس في حناياها برد عين اليقين، بتنزل إنعام الله عليه بالعون المسدد والنصر المؤزر، والنُّجح المؤثل.

* * *

لا يُفسَّر كلُّ ما يتعلق بالنبوة والوحي إلا في دائرة عصمة الأنبياء عليهم السلام

فكل ما كُتب، وكُل ما قيل في بيان أسباب رجفة فؤاده ﷺ وإرعاد بوادره، وكل ما قيل في تفسير ما أبدى لزوجه الأمينة الوفية السيدة خديجة حين عودته إليها من متعبده الذي حدث له فيه ما حدث، من خشية على نفسه غير ما قدمناه وما يجري مجراه في الحفاظ على قداسة النبوة وجلال الرسالة، كلام لا يليق ولا ينبغي أن يدوَّن في سجل نبوة محمد ﷺ خاتم النبيين، وسيد المرسلين، ولا يليق ولا ينبغي أن يكتب في صحائف رسالته الخالدة.

كما لا يليق ولا ينبغي أن يروى الكثير مما قيل تفسيراً لأحداث بدء الوحي، وميلاد الرسالة الخاتمة الخالدة مضافاً إلى الأحاديث النبوية، تزيداً بشيء لم يثبت عن النبي ﷺ أنه قاله أو حدَّث به عن نفسه، مهما يكن شأن قائله، وراويه.

وهذا موقف ضنك، صعب المرتقى، زلق المنحدر، لا يعرف ما دار فيه إلا صاحب شأنه محمد ﷺ، فإما علم عن يقين، وإما صمت أمين.

وفي بعض ما قيل هنا كلام لا يقوله من يرجو لله وقاراً في شرف النبوة عامة، ونبوة محمد ﷺ خاتم النبيين خاصة، ولا يقوله من يقدِّر جلال رسالات الله حق قدرها، ويعرف للمشرَّفين بها من المصطفين الأخيار مكانتهم عند الله.

التحذير من الانزلاق في قبول أغلاط الأكابر

وقد تحسن المقاصد والنيات، وتخطىء الأفكار والتصورات، وأغلاط الأكابر كبائر مَغْفُوَّة حملاً لها على سلامة القصد، ولكن لا يجوز ـ ديناً وعقلاً ـ أن تترك هذا الأغلاط تمشي إلى عقول الناس وقلوبهم فتهز عقائدهم، وتعرِّض إيمانهم لأعاصير الشكوك والريب، وتفتح للمتقوِّلين على الله ورسله، الجاحدين للديانات من أعداء الحق والخير، الحاقدين على رسالة الخلود، الخاتمة لرسالات السماء، رسالة محمد ﷺ، وما أكثرهم في حرد البهتان ـ أبواب المطاعن، والأباطيل، ومنافذ لتشكيك الذين لم تنفذ عقولهم إلى أعماق التفقه في فهم رسالات السماء، من الشباب الغض الذين لم يتح لهم دراسة دينية واعية، من أنصاف المثقفين الذين أخذوا ثقافتهم عن الملاحدة الملفقين.

النبوة أجل مراتب الحياة فلا يختار لها إلا الكملة الأعلون

فالنبوة أجلّ مراتب الحياة الإنسانية، وأعظم منازل المقربين عند الله، والله تعالى في جلال عزه وكَبِرياء قدسه لا يصطفي لنبوته ورسالاته من الناس إلا أكملهم عقولاً، وأقواهم نفوساً، وأضوأهم أرواحاً، وأنورهم قلوباً، وأثبتهم جأشاً، وأقدرهم على القيام بحق ما اختيروا له من النبوة والرسالة، فلا يمكن أن يعرِّضهم لما يخدش كمالاتهم البشرية، أو يمس من قريب أو بعيد مشاعرهم وإحساساتهم، أو ينقص من أقدارهم في خصائص البشرية السوية، في استقامة الخَلق والخُلق، وحسن العمل، ونظافة السلوك، وطهارة الباطن، لأنهم القدوة التي أمر الناس بمتابعتهم في جميع ما يصدر عنهم مما يدخل في دائرة التكاليف الشرعية، فلا يجوز مطلقاً أن يصدر عنهم أو ينسب إليهم ما يجعل الاقتداء بهم شرخاً في بناء الاستقامة السلوكية، يجعل شرائع

الله ورسالاته عرضة لطعن الطاعنين، وانحراف المنحرفين، ويشبّه على الناس طرائق الاقتداء في الخير والهدى والرشاد.

رسالة أكمل الأنبياء أكمل الرسالات الإلهيّة

ورسالةُ أكمل الأنبياء محمد خاتم النبيين ﷺ أكمل رسالات الله إلى خلقه، فلا يمكن لمن يعرف لهذه الرسالة الخالدة قدرها أن يتصور في المرسل بها، وحامل أمانتها أن يتعرض لما يمس كمالات بشريته، ولا أن يمس أي جانب من جوانب شخصيته في أطوار رسالته وتكاليفها.

وفي قول الله تعالى: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ عقيب قوله تعالى: ﴿ ما قَدَروا الله حقَّ قدره إن اللهَ لقوي عزيز ﴾[1] إشارة لمَّاحة إلى أن تجويز ما يمس قدسية رسالات الله في أشخاص حملتها من المصطفين من الناس بعيد أقصى البعد عن معرفة جلال الله، وقدره ـ سبحانه ـ حق قدره في علمه بحال من هم موضع حفاوته، واختيارهم سفراء بينه وبين خلقه، يبلّغونهم رسالاته، ويدعونهم إلى معرفته وتوحيده والعمل بأحكام شرائعه، وحياطة لأقدارهم، وحفظه لكمال ما كملهم به من أفضل الفضائل وأكمل الكمالات.

فما بالنا برسالة أكملهم كمالاً، وأفضلهم فضلاً، وأعلاهم قدراً، وأشرفهم شرفاً، وأقربهم قرباً، وأرفعهم منزلة، وأعلمهم بالله، وأتقاهم لله، وأخشاهم لله، وأكرمهم على الله، وأعزهم عند الله، وأهداهم سبيلاً، وأعمهم رسالة، وأشملهم دعوة إلى الله، وأحكمهم حكمة، وأيسرهم هدى، محمدٌ رسول الله ﷺ، خاتم النبيين وسيد المرسلين.

* * *

أم المؤمنين السيدة خديجة كانت أعرف بقدر محمد ﷺ

لقد كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها الزوجة الأمينة الوفية بفطرتها الأصيلة أعرف الناس بقدر محمد رسول الله ﷺ، وأعلمهم بجلال رسالته، وعظمة نبوته، وأشدهم إيقاناً بمقامه عند الله.

فهي رضي الله عنها إذ يعود إليها ﷺ من متعبده وخلوته إثر مفاجأة المَلَك

(١) سورة الحج، آيتا: ٧٤ ـ ٧٥.

له في غار حراء، ويتحدث إليهم، بعد أن استراح متزملاً، متدثراً في فراشه لتهدأ نفسه الكريمة من هول ما كابدت من عناء المفاجـأة وما احتف بها من الغط الجاهد المجهد، الذي هز بشريته هزاً بالغ الأثر في بدنه، ويقول لها: «أي خديجة: مالي؟ لقد خشيت على نفسي» ويخبرها خبر ما رأى وما سمع، يخبرها عن مجيء المَلَك له في غار حراء، ومفاجأته بهذا المجيء، وما جرى له معه من طلب القراءة والغتّ، وتكرار ذلك بأقصى ما تحتمل طاقته البشرية، وهو ﷺ ـ بلا شك ـ كانت بشريته ترزح تحت وطأة التعب المادي من شدة ما لقي في هذا اللقاء المفاجىء من هزة وارتياع، بمقتضى دواعي الطبيعة البشرية أينما كانت وكيفما كانت من الحياة في أرض الله ـ تسارع إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد في مكارم الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله تعالى بمحمد ﷺ في مواقف لم تكن من مواقف النبوة والرسالـة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم من أصحاب المروءات في خاصة البشر.

فتقول له ـ مستلهمة إيمانها الفطري، ومعرفتها بسنن الله في الخلق، وما يملك محمد ﷺ من رصيد المكارم الإنسانية ـ: كلاَّ، أي لا تخشَ شيئاً يعوقك عن الوصول إلى ما أُريد بك من الخير والشرف، وإنك لبالغ من فضل الله وإنعامه ما يبلغك أهداف ما حملت من أعباء الحق والهدى، ولن يخزيك الله أبداً، لأنه أعدك بما ألبسك من خلع المكارم الإنسانية، لتكون موضع نظره الرباني، ورعايته الصمدانية، فقد جمَّلك بأصول المكارم التي لا يمكن ـ في شرعة سنن الله الكونية ـ أن يخزى من يُحلَّى بها.

كلمات النور عنوان على الكمال المحمدي

إنك لتصدق الحديث، وتصل الـرحم، وتحمل الكَـلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتؤدي الأمانة.

وهذه الكلمات المشرقة بنور الإيمان الفطري، النابعـة من ضمير

الغيب، إلهاماً من وحي اليقين بمخايل الحقيقة الكبرى في تصور مستقبل محمد ﷺ، تضيف إلى يقين النبي ﷺ وثباته أمام الأحداث، ورباطة جأشه في ملاقاتها، تثبيتاً يزيده قوة إلى قوته، ويسرّي عنه ما ألمَّ بخياله، ويمسح عن خواطره ما عسى أن يكون طاف بها من تخوف العقبات في سبيل انطلاقه برسالته، بل إن خديجة رضي الله عنها تريه بهذه الكلمات المشرقة أنها تستبعد كل الاستبعاد ما هجس في نفسه ﷺ إشفاقاً أن تضعف قواه البشرية عن تحمل أثقال ما حُمِّل من أعباء الرسالة، وحرصاً منه ﷺ على تمكنه من تبليغ رسالة ربه، وتخطي ما تصوره من العقبات في سبيل ذلك التبليغ.

وتضيف هذه الكلمات المشرقة إلى ما تحلَّى به ﷺ من قوة اليقين والصبر ضروباً من المصابرة تزيد في شحنة عزيمته على المضي قدماً في طريق أداء واجبه نحو هذه الإنسانية المعذبة في الأرض، ليخرجها من ظلمات العبودية الوثنية بصورها وأشكالها الكافرة بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالتعبد له وحده، إلى نور التحرر والمساواة الإنسانية في الحقوق والواجبات.

وكانت كلمات الإيمان الفطري ـ من الزوجة الأمينة الوفية، وزيرة الصدق، ومأنس القلب والروح، أعقل نساء العالمين ـ تستشرف أفق مستقبل محمد رسول الله ﷺ في أطوار رسالته بأمل فسيح أفيح، موصول بأخص عناصر حياته الخلقية، وأفضل فضائل الإنسانية النبيلة مجموعة في طبيعة إنسان، ولد بها، وشب واكتهل عليها فكانت معالم لشخصيته بين قومه، يعرفونه بها عَلَماً مفرداً في اكتمالها فيه، وكماله فيها ولم يعرف فيهم أحدٌ اجتمعت له هذه الخصال دون أن يشوبها إفراط يخرج بها عن مقاييس الفضائل، أو يلحقها تفريط يقصِّر بها عن مدى محاسن الشمائل.

والماضي ـ أبداً ـ في حياة المصطفين المخلصين صحيفة تكتب فيها الحياة بقلم الغيب المكنون أنباء معالم مستقبلهم في رسالاتهم، والقادرون على قراءة ما كتب قلم الغيب في صحيفة المصطفين ليقرأوا في ضوئها معالم مستقبلهم أندرُ في وجودهم من وجود العقل الشفيف الذي يستشف بخاصة إدراكه ما وراء الحجب، فيلمح خيط القدر الحكيم، وهو يربط ماضي من

اختير لحمل أعباء الرسالة الإلٓهية بمستقبله المشرق بنور المدد الإلٓهي، ولن تظهر لهذا العقل الشفيف في استشفافه نقط المحن وفوادح النوازل على رقعة حياة هؤلاء المخلصين، لأن أشعة العزائم المنبعثة من آفاق رسالاتهم، وقوة الحق الممددة لأرواحهم تغطّي بظلالها النورانية نقط المحن ونوازل البلاء، فلا يراها الناظرون إلا ريثما يتحفز المخلصون إلى وثبات الإقدام في طريق عزائمهم المؤيدة بقوى الحق والخير، المستضيئة بنور الهدى والرشاد.

تفاضل الأنبياء والرسل بتفاضل رسالاتهم

ويتفاضل المخلصون في ذلك بتفاضل رسالاتهم، كما أخبر بذلك القرآن الكريم فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض ﴾[١] وقال عزَّ شأنه: ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض ﴾[٢] فيعطي كل صاحب رسالة من الفضل وقوة الصبر والمجاهدة على قدر رسالته، وما جعل الله فيها من عموم الخير والإصلاح والهداية، فعموم رسالة محمد ﷺ تشريعاً وزماناً ومكاناً، وأجيالاً، وإصلاحاً جعلها أفضل الرسالات الإلهية، وجعل رسولها أفضل رسل الله، وجعل أمته أفضل الأمم كما قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[٣] وذلك لما أعطيت من فضيلة الوراثة في التبليغ ضماناً لخصيصة العموم والخلود في رسالته، فكان له ﷺ من فضل قوة الصبر والاحتمال ما تميز به في مستقبل دعوته.

ومن ثم قال ربه تبارك وتعالى: ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[٤] فهو ﷺ مكلَّف أن يجمع إلى صبره صبر جميع أولي العزم من المرسلين، وإلى عزيمته في القيام بحق رسالته قُوى عزائمهم في قيامهم بحق رسالاتهم.

ومن هنا قيل له بعد ذكر الأكابر من المرسلين في معرض الثناء عليهم، والحفاوة بهم، وأن الله آتاهم الكتاب والحكم والنبوة: ﴿ أولئك الذين هدى

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٣.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٥.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.
(٤) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

الله فبهداهم اقْتَدِه ﴾[1] فهو ﷺ مأمور من ربه أن يجمع إلى هداه هدى أولئك الأكابر من المصطَفين المخلصين.

فالسيدة خديجة رضي الله عنها كانت صفوة الندرة في إلهامها قراءة ما كتب قلم الغيب في صحيفة ماضي محمد ﷺ من أنباء معالم مستقبله في رسالته، فترجمت بكلماتها النورانية عنوانات تلك المعالم في مستقبله نبياً ورسولاً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ولهذا كانت السيدة خديجة رضي الله عنها في سجل الرسالة المحمدية نفحة من نفحات المدد الإلهي لم تتكرر ولن تتكرر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

نظرات تحليلية في كلمات النور

قالت خديجة لمحمد ﷺ ـ وهي ترد على تساؤله الذي بدا فيه من الإشفاق على مستقبل دعوته التي كُلِّف تبليغها إلى الأحمر والأسود، تستبعد ما عسى أن يكون قد خطر في خواطره ـ: كلاَّ، يا أكمل الكملة، لن يقع لك ما تتخوفه على نفسك الزكية العلية من ضعف عن تحمل أعباء ما شرفك الله به من رسالة الخلود، ولن تعجز عن القيام بموجبات تبليغها، لأن الله تعالى هو الذي اختارك لها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد فطرك على أفضل ما فطر عليه أحداً من خلقه، فلن يخزيك أبداً، ولن يحزن قلبك العظيم بوقوع شيء مما تشفق منه وتخافه على نفسك، لأن فيك من خصال الجبلَّة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرضية، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائز الإنسانية ما يضمن لك الفوز ويحقق لك النُّجح والفلاح، وستظفر بطلبتك وتؤدي رسالتك، ويخلد ذكرك.

النورانية الأولى صدق الحديث

(١) فأنت الصدوق المصدَّق، وأنت الصادق الأمين، تصدق الحديث سجية، فلا يرد لك قول بشبهة مجانبة الحقيقة والواقع، فإذا قلت، قالت

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٠.

الدنيا من حولك: صدقت، فما جرب عليك أحد كذباً، فلا يماريك أو يجادلك فيما تقول ممار أو مجادل.

كيف وقد عرف لك ذلك قومك على صلفهم وعنجهيتهم، وخلافك عليهم في عوائدهم ووثنيتهم، فدعوك بينهم (الأمين) لا يعرفون لك لقباً غيره، وقد جهروا علانية في جمعهم معترفين له بهذه الخصلة النبيلة، خصلة الصدق في الحديث، شاهدين على أنفسهم له بها، حينما جمعهم لينذرهم قياماً بأمر الله في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1] فيما يرويه البخاري عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم».

وقد اعترف له بها طاغية الشرك، وقائد جحافله لحربه قبل أن يسلم: أبو سفيان بن حرب، كما جاء في حديث هرقل عند البخاري، قال أبو سفيان يحكي سؤال هرقل له عن أحواله وخلائقه ﷺ: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: قلت: لا، ثم قال هرقل يستعيد أسئلته لأبي سفيان وأجوبة أبي سفيان عنها، على مسمع وبينة من مشهد ركب قريش ليؤكد ما قيل: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن لِيَذَر الكذب على الناس، ويكذب على الله.

وقد سجل القرآن الكريم على هؤلاء المعاندين الذين يعترفون بالحق، وهم يكفرون به جحودهم وعنادهم بطراً واستكباراً، روى الطبري وغيره من حديث طويل أن الأخنس بن شريق التقى بأبي جهل، فخَلا به فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك، يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لقريش، فذلك قول الله تعالى: ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[1].

وفي حديث أبي ميسرة أن رسول الله ﷺ مرَّ بأبي جهل وأصحابه، فقالوا: يا محمد والله ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به، فنزلت الآية.

وصدقُ الحديث ينزل من الفضائل الإنسانية ـ التي تتخذها الحياة معبراً إلى إدراك قصى الغايات للنفوس السامية، المتسامية بسموها عن مطالب الأرض، وصغار الأماني ـ منزلة العنوان من الكتاب، يستسرع الناظر إليه إلى تعرف ما طوي عليه الكتاب من حقائق الفكر في متقلبات الحياة، أو منزلة الطرة من ناصية الغيداء، تجذب إليها أنظار المتطلعين الذين يستشرفون أنوار الجمال من آفاق الحياة.

فإذا كان الصدق سجية في حياة إنسان كان صدقه الذي لا تشتبه معالمه آية من آيات الله على أنه إنسان اكتملت خصائصه، واتسقت عناصر إنسانيته، فلا تميله الأهواء، ولا يخدعه غرور الحياة، فكلمته فصل، وقوله فرقان مبين.

وهكذا كانت سجية صدق الحديث في حياة محمد ﷺ، وهو يعيش بين أحضان مجتمعه إنساناً كغيره من رجالات قومه، لا يميزه عن آحادهم في عيشه وكده في سعيه ثراء مالي، ولا بطش بدني، ولا تسلط فكري، وإنما كان امتيازه بينهم أنه المثل الأعلى لمعالي المكارم، ومكارم المعالي، يعرفونه بالصادق الأمين أكثر مما يعرفونه باسمه، لا يمسهم في محافل رذائلهم، ولا يقرُب من أندية وثنياتهم، ولا ينزل من علياء استقامته إلى مباءات مفاسدهم وشرورهم، تسامى بنفسه ـ وهو بينهم كأحدهم ـ عن كل ما يخدش سيرته، أو يقتحم عليه سريرته، عاشرهم في شوارف حياتهم، وخالطهم فيما يأثرون من مفاخر الفضائل الإنسانية فيهم.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٣.

فكانت سجية صدق الحديث فيه عنواناً على ما طوى الغيب في كتاب مستقبله في رسالته الخالدة، وكشفت إشراقات إيمان أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عن مضامين ما طواه العنوان من جميل صنع الله به في أفضاله عليه بإحسانه إليه، وإسباغه أجلّ نعمه عليه، إذ أرسله رحمة للعالمين.

وكشفت تجارب هرقل في مخابر علمه ومعرفته بالعلم الأول وبشائر العارفين من أحباره ورهبانه عن أثر القوة المعبِّرة في تقمص الفطرة الصافية لفضيلة صدق الحديث في دلالتها على ما استبان له من صحة دعوة محمد ﷺ أنه رسول من الله إلى العالمين، فأنطقه الله تعالى بكلمة الحق، حيث قال لأبي سفيان ومن معه من قريش في مشهد من حاشيته وبطارقته: لم يكن ـ أي محمد ﷺ ـ لِيَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله، ثم قال هرقل تأكيداً ليقينه في صدق محمد ﷺ: فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت لقاءه؛ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

وكان القضاء لسوابق الأقدار، فبقي هرقل ـ مع هذا اليقين بصدق محمد ﷺ في نبوته ورسالته ـ مسربلاً بنصرانيته، مغلولاً بسلاسل ملكه.

وطارت خديجة رضي الله عنها بأجنحة الإيمان، وصدق المحبة، ويقين التوسم إلى ربض عليين، حيث أعد الله لها ما أعده للصديقين، والله يهدي من يشاء من عباده بفضله ويضلّ من يشاء بعدله وهو العزيز الحكيم.

النورانية الثانية صلة الرحم

(٢) وأنت يا أبا القاسم ـ صلوات الله وسلامه عليك ـ وصول للرحم، وصلةُ الرحم فضيلة إنسانية من أفضل وأشرف الفضائل الاجتماعية التي تربط الأفراد والأسر بوشائج الود والإخاء، تقرِّب البعيد، وتدني القصيّ، وترد الشارد، وتغسل الأحقاد، وتزرع المودات.

وتتجلى هذه الفضيلة الإنسانية في حسن المعاملة، وإحسان العشرة، ومشاركة البر، ومواساة الإحسان، وإيثار الفضل في المنافع، مع نقاء السريرة وبهجة العلانية، ومعاونة المحتاج، وتبادل الخيرات، والعفو عن الزلات.

وهي أقدر الفضائل على توثيق عرى المحبة بين ذوي القربى، تجمع

القلوب على الصفاء وتشدّ أواصر التآخي، تجمع حول من يتحلى بها، ويبذل في سبيلها الجود والرحمة، ينفق مما ملكت يمينه، ويبذل في غير مَنّ ولا رياء - ذوي رحمه وقرابته، بالتعاطف والتراحم، وسماحة المكارم، فيحبونه، ويحبون الخير عنده، يدافعون عنه إذا حاول أحد النيل منه، يبادلونه المنافع في غير أثرة ولا طمع، يخلصون له الود، ويشاركونه بأساءه ويقاسمونه سراءه يفرحون لفرحه، ويألمون لألمه، إن أحزنه شيء تعرفوا مصادره فدرؤوها عنه إن استطاعوا، فإن لم يستطيعوا كانوا معه في أحزانه حتى يسرّى عنه.

كذلك كانت هذه الفضيلة الاجتماعية مغروسة في خلائق محمد ﷺ، تجلّت آثارها واضحة في حياته قبل نبوته، فأحبه قومه، وأخلصوا الودّ له، يتنافسون في التقرُّب إليه، وهم أشرف أرومات العرب الذين تدين لهم بطونها وقبائلها بالإعزاز والاحترام.

والتفوا حوله بعد نبوته وهم لم يؤمنوا برسالته، وقد صدقوا في استجابتهم لدواعي هذه الفضيلة من محاسن شمائله، فدخلوا معه في حصار الشِّعب، مَنْ آمن منهم بدعوته، ومن لم يؤمن، وصبروا على بلاء هذا الحصار الظلوم وجهده، واحتملوا فيه ما حُملوا من الإجاعة والقطيعة وجهد البلاء، لا لمجرد العصبية القبلية والنخوة الجاهلية، فقد أبى أن يشارك في هذه المحنة القاسية أقرب أقربائه، وهم أشد العرب حمية جاهلية وتعصُّباً قبلياً، ولكن الذين قبلوا أن يستظلوا بلوائه في الترابط الرحمي إنما صنعوا ذلك تحقيقاً لمقتضيات التواصل مع من عرفوه أوصل الخليقة للرحم، وأبرّ الناس بذوي القربى، محمد ﷺ الصادق في وده ووصله، الأمين في حفاظه لوشائج القربى والرحم.

وفي حديث مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت

محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها». ومعنى ذلك أن كفركم وعدم قبولكم لدعوتي، والإيمان برسالتي، لا يمنعني من صلة رحمكم في الدنيا، ولا أغني عنكم في الآخرة من الله شيئاً لأن صلة الرحم ومودة ذوي القربى من أصول المكارم الإنسانية التي لا يحول دونها ـ في شرعة الفضائل ـ كفر ولا عصيان.

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلام» وهذا من لطيف الاستعارة وجوامع الكلم، يقول ﷺ: ندّوا أرحامكم وصلوها بالمودة والإحسان، ولو بأدنى ما لا يعجز عنه أحد، ولا تقطعوها فتيبس وتجف وشائجها، قال ابن الأثير في النهاية: وهم يطلقون النداوة على الصلة، كما يطلقون اليبس على القطيعة، لأنهم لما رأوا بعض الأشياء يتصل ويختلط بالنداوة، ويحصل بينها التجافي والتفرق باليبس استعاروا البل لمعنى الوصل، واليبس لمعنى القطيعة.

ولأمر ما جاء التنويه بشأن هذه المكرمة من أصول مكارم الأخلاق لموضعها من سجايا رسول الله ﷺ في القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[1]، فقد جعلت الآية الكريمة المودة في القربى وصلة الرحم أقصى ما يطلبه رسول الله ﷺ أجراً ومكافأة من قومه على ما جاءهم به من هدى وخير، فهو لا يسألهم مالاً يرزؤهم به، ولكنه يطلب إليهم أن يوادّوه ويصلوا رحمه بأرحامهم. قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالة ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم» وروى البخاري عنه قال: إن

(١) سورة الشورى، آية: ٢٣.

النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

وهذا تعظيم لفضيلة صلة الرحم، وهي خليقة من خلائق محمد ﷺ التي وصفته بها زوجه الأمينة الوفية خُلقاً قبل أن يبعث للناس رسولاً.

وقد جاءت رسالته ﷺ تحمل في هدايتها، وآدابها، وأخلاقها ترغيباً في التخلق بهذه المكرمة العظيمة بما لم تظفر به فضيلة من الفضائل الإنسانية التي ينتظمها عقد الفضائل الاجتماعية التي تربط وشائج المجتمع بأوثق عرى المودة والمحبة، فالقرآن الكريم يقرن تعظيم هذه الفضيلة بتعظيم الله جلّ شأنه في طلب اتقائه فيقول في مفتتح سورة النساء: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾، ويجعل قطعها وعدم وصلها عنواناً على الفساد في الأرض الذي تتقطع به حبال المودات والتآخي الإنساني، مما تتولد عنه الضغائن والأحقاد وسفك الدماء والمغالبة على المنافع والتظالم في جمعها، فيقول الله عزّ شأنه: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾[1]، وقد فسَّر النبي ﷺ الآية بما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه، قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن عزّ وجلّ ـ هذا تمثيل لمقام المستجير بمن يجيره من البغي والظلم ـ فقال: مَهْ: فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة ـ هذا يفسر التمثيل السابق ـ فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاكِ لك. قال رسول الله ﷺ (اقرأوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾ وفي رواية للبخاري أن الذي قال: اقرأوا إن شئتم، وتلا الآية؛ هو أبو هريرة رضي الله عنه.

وقد جعل النبي ﷺ عقاب قطيعة الرحم عِدْلاً لعقاب البغي وفجور الظلم، أخرج الأئمة أحمد، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه عن النبي ﷺ

---

(١) سورة محمد، آية: ٢٢.

قال: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

وعلى الجملة فهذا التعظيم لشأن فضيلة صلة الرحم التي جاءت في كلمات النور، إلهاماً للسيدة خديجة رضي الله عنها وصفاً لما تحلّى به محمد ﷺ من أصول المكارم التي لا يخزي الله جلّ ذكره من حلاه بها جبلة وطبعاً ـ ليس فوقه تعظيم لمكرمة من أصول المكارم الجبليَّة التي يهبها الله خُلُقاً وطبعاً لمن يشاء من عباده، لتكون له في حياته منائر يهتدي بها إليه المهتدون.

النورانية الثالثة تحمُّل الكَلّ

(٣) وتحمل الكل ؛ كلا، يا أبا القاسم ـ صلى الله عليك وسلم ـ فليفرغ روعك، ولتهدأ نفسك، فلن يخزيك الله أبداً، ولن يحزنك الله أبداً، وإنك لبَالغ بتوفيق ربك ما كتب لك في لوح الغيب من رفعة الذكر وبلوغ الأمل، فقد حلاَّك منذ خلقك فريداً في نحائزك ومكارم أخلاقك بما جعل لك به في كل قلب مكاناً من السؤدد والسمو والحب.

أليس قد حلاك بمجامع الرحمة، ومعاقد الرأفة، وعواطف الإحسان والإيثار، والشفقة على خلقه؟ فجعل في مكارم أخلاقك الكريمة أنك (تحمل الكَلّ) الضعيف الذي أعجزته الأيام والليالي، وأقعدته صروف الحياة عن النهوض بحال نفسه، فلم يستطع مزاحمة الضاربين في الأرض سعياً وراء متطلبات الحياة، ولم يستطع أن يقوم بضرورات عيشه إلا إذا أعانه ذو مقدرة من أهل المروءات وأصحاب المكارم، الذين يفعلون الخير لأنهم يرونه خيراً، وأنت يا أبا القاسم ـ صلى الله وسلم عليك ـ ذلك الكريم الذي فطره الله رؤوفاً رحيماً، فلن ترضى نفسك الكريمة وقلبك الرحيم أن ترى ضعيفاً أثقلت كاهله الحياة، فتخلف عن مسيرتها دون أن تمد إليه يد الرحمة بما ينعشه وينهض به في غير مَنّ ولا أذى.

والإحسان ـ أبداً ـ آسر لمن يقع عنده موقعه، وهؤلاء الضعفى الذي تنعشهم يدك الرحيمة، وتمسح عن كواهلهم أثقال العيش، وتُحيي في أنفسهم موات الأمل، وتنعش في أرواحهم رغائب العمل هم عدة الإيمان، لأن الإيمان يملك من رصيد الخير ما يعوض به هؤلاء عما فقدوه من قوة

الاقتدار على مماشاة الحياة، وهؤلاء الضعفى أملك للعمل الشكور يردون به الجميل، فالإحسان إليهم بحمل ضعفهم لينهضوا، أو ليُحفظوا من الضياع فضيلة مشكورة عندما تحين فرصة شكرها من غير الجاحدين لفضلى المكارم والمروءات.

وهؤلاء الضعفى هم أتباع الرسل، كما جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان وركب تجار قريش إذ قال مؤكداً حواره معهم: وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وفي هذا التوافق بين ما حمله الإلهام النوراني بالفراسة الصادقة، والتجربة الحكيمة في كلمات وزيرة الصدق الزوجة البرة الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنها، قبل أن تنتشر في آفاق الحياة أشعة شمس النبوة ـ وبين ما صدر من نبع المعارف الهرقلية العليمة بما في كتب الأحبار، وأناجيل الرهبان، وأنباء المبشرات بميلاد رسالة جديدة، قد أظل الناس زمانها ـ دلالة على أن السيدة خديجة كانت تستملي في كلماتها النورانية التي مسحت بها عن جبين رسول الله ﷺ قطرات العرق التي ساقطتها متاعب بشريته، وقد هاضها روع المفاجأة، وتصور أعباء الرسالة وفوادح تبليغها ـ صحائف الغيب التي قرأت في سطورها بنور إيمانها الفطري، وصادق فراستها، دلائل ما فطر الله تعالى عليه رسوله وحبيبه محمداً ﷺ، من التخلق بمعالي الأخلاق، وأحاسن الشمائل على معالم مستقبله في رسالته الخاتمة الخالدة.

ولأمر ما ربط الله تعالى بين مكارم أخلاقك الفطرية ـ يا أبا القاسم ـ قبل أن يبعثك للناس رسولاً، وبين حياة هؤلاء الضعفى في المجتمع البشري الظلوم، فجعلك ـ صلوات الله عليك ـ آسياً لجراحهم، وجابراً لكسير قلوبهم، أفينسَون أيادي رحمتك بهم، وهديك الفطري في الإحسان إليهم، بعد أن صرت هادياً نبياً، وداعياً رسولاً، تدعو إلى الله وحده، وإلى عدله ورحمته، وأنت في هداية فطرتك ومكارم أخلاقك، وفي هداية نبوتك ورحمة رسالتك لا ترجو منهم جزاء ولا شكوراً، ولا كانوا هم بمستطيعين لأحد جزاءً ولا شكوراً.

هذا ـ يا أبا القاسم ـ تدبير الغيب، ما كان لأحد فيه اختيار، فالله تعالى هو الذي فطرك رحيماً، خِلْقة لا كسباً، وطبعاً لا تطبُّعاً، وهو الذي جمَّلك بخُلق الشفقة على الخلق كافة، وهو الذي أوجدك في مجتمعك الذي نَهَدْت فيه، ونشأت بين أحضانه، وهو مجتمع يعيش في حياة تجعله أخصب أرض لزرع الإحسان والمكارم، لأنه مجتمع جهل حياة العدل، وعاش على جهالة الحياة وروابطها الاجتماعية الفسيحة، مجتمع استأثر بخبراته حفنة من غلاظ الأكباد، يأخذون ولا يعطون، ينهبون ولا يرعوون، فلا قانون يردع، ولا نظام يحكم.

فإذا جاءهم الله بك رحمة وهدى لتنقذ المعذَّبين في الأرض من ظلم الطغاة، وتقيم الحياة الإنسانية على دعائم الإخاء والمساواة، والرحمة والمواساة، يهجس في خاطرك أنك قد تضعف عن تحمل أعباء ما كلفته من عظائم الأعمال..

كلا، يا أبا القاسم ـ صلوات الله عليك ـ لن يخزيك الله أبداً، ولن يحزنك الله أبداً، فأنت قبل أن يأتيك أمر ربك برسالته حملت عبء الضعفى برحمتك الفطرية، فنهضت بهم، ورشتهم، ونعشت نفوسهم بالأمل في مستقبل يرفع خسيستهم، فكيف بك وأنت في هدى نبوتك ورسالتك رحمة مهداة للعالمين؟.

النورانية الرابعة
تكسب المعدوم

(٤) وتكسب المعدوم ـ كلَّا، يا أبا القاسم، لن يخزيك الله أبداً، ولن يحزنك الله أبداً، وكيف تخشى على نفسك الزكية بقاء أثر من رجة المفاجأة الملائكية، وتخشى على نفسك أن تُعوَّق دون تبليغ رسالتك، وأنت حبيب الله، صنعك على عينه، وطبعك على أخلاقه.

أليس قد جعل في أزله أن يكون القرآن الكريم ـ قبل أن يتشرف الوجود بسماع كلماته الإلٰهية ـ خُلُقك؟ وماذا في القرآن الحكيم غير أخلاق الله، وآدابه، وشرائعه، وحكمه وأحكامه؟.

فأنت ـ يا أبا القاسم صلوات الله عليك ـ الصورة المتحركة للقرآن

الناطق في صمته وسكونه، وأنت ـ يا أبا القاسم ـ القرآن المعلِّم حينما تهتز أسلات الألسن بآياته، مضيئة بنور القلوب والعقول والأرواح فهماً لرسالتك وهديك.

أوَليس من أخلاق القرآن سخاء الجود إلى ذروة الإيثار، وقد وصف به الرعيل الثاني من أخص صحابتك، فقيل فيهم ـ ثناء عليهم في مواساتهم لإخوتهم في الإيمان من الرعيل الأول ـ: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

فما بال الدنيا بك أنت الذي أدَّبتهم فتأدبوا بأدبك؟ وقد تأدبت أنت بأدب الله الذي تولَّاك ـ منذ كنت ـ بفواضل أدبه فأحسن تأديبك؟.

ومن في الوجود الكوني على خُلقِك الفطري الذي فطرك الله عليه من مكارم الجود؟ فأنت أجود الناس، ولأنت أجود بالخير من الريح المرسلة، أولست أنت الذي تظاهرت عليك بيِّنات الألسن بأنك تعطي عطاء من لا يخشى الفقر؟ أولست أنت الذي عرف لك قومك قبل أن يبعثك الله للناس رسولاً أن زادك في متحنثك شركة بينك وبين المساكين؟ لا، بل هو لهم منك، فإن أفضلوا أصبت منه ما يسد الرمق، ففي حديث عبيد بن عمير، وهو يحدث عن جوارك في غار حراء للتحنث شهراً أن من تحنثك وتعبدك في جوارك إطعامك من جاءك من المساكين.

وقد تعهد الله تعالى هذا الخلق الكريم في أخلاق محمد ﷺ بعد بعثه رسولاً، فكان أكرم من مشى على الأرض، وأجود من أعطى وهو يملك وسيلة للإعطاء، لا، بل إنه يعطي وهو لا يملك، ولكنه يحمل على نفسه، فيستسلف ويستدين حتى لا يقول (لا)؛ ففي الحديث أن رجلاً جاءه ﷺ فسأله، فقال له النبي ﷺ: «ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه» فقال عمر: ما كلَّفك الله ما لا تقتدر، فكره النبي ﷺ ذلك من قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله: أنفق ولا تَخَفْ من ذي

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

العرش إقلالا، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وعرف البِشْر في وجهه، وقال: «بهذا أُمرت» وفي حديث مسلم: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال لهم: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر.

يقول الإمام القسطلاني في (المواهب): وقد كان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع.

هذا هو محمل نورانية قول السيدة خديجة في كلمات النور التي استأنست بها من أخلاق محمد ﷺ الفطرية لتزيده تثبتاً في حلبة إنعام الله عليه برسالاته، فقالت له: إنك تكسب المعدم، أي أنك مفطور على السخاء والجود والكرم، فتعطي ذوي الحاجة المعدمين ما لا يمكن أن يمنحه غيرك، ولا تسمح به نفس غير نفسك العلية، فأنت أكرم العالمين، وأسخى الأكرمين.

والكرم مجمعة للقلوب، ومجلبة لمحبة النفوس، والكريم لا يضام، ولا يخزى، ولا يخذل، يملك بكرمه زمام محبة الأفئدة، ويستأسر مَنْ أكرمهم بإحسانه وفواضله، فيؤثرونه بمودتهم على كل محبوب، ولهذا كان أسرع الناس استجابة لدعوته ﷺ الفقراء والمساكين الذين وجدوا عنده المواساة والإيثار والرحمة، فأخلصوا له، وتقبلوا هديه بروح فدائية، قدموا لفدائها أرواحهم، وباعوا لله في سبيلها أنفسهم، وتحمَّلوا من فوادح الإيذاء والتعذيب ما لم يكن في طاقة بشر.

وقد كانوا بإخلاصهم في طليعة المؤمنين هم الأثر الحي - الذي صاحب الدعوة إلى الله في مراحلها وشدائدها، وانتصاراتها - لخلقه ﷺ ومكارم جوده الذي عبّرت عنه السيدة خديجة رضي الله عنها في كلمتها

النورانية المتوسمة في صحائف الغيب بالتأمل الشفيف الذي يقرأ كتاب المستقبل البعيد في لوح الماضي القريب.

النورانية الخامسة
تقري الضيف

(٥) تقري الضيف ـ كلَّا، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبداً، وكيف يخزيك ويحزنك وأنت في مكارم أخلاقك التي فطرك الله عليها أرفع الناس منزلة في مجتمع تهزه أريحية النبل في سباق المكارم؟.

فلئن كنت يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، أسخى الناس في شمول الجود وعموم الكرم، فأنت أجود من نفسك في أخص مجالات السخاء الآسر للقلوب والأرواح.

وهل يملك النفوس الأبية إلا تقليدها قلائد المجد في سخاء يملك عليها نخوتها التي تتمثل في لقاء الضيف ـ وهو يقبل على استحياء ـ ببشاشة الطبع البسام لمغارم المكارم؟.

ومغارم الجود عند ذوي الطبع الكريم مغانم، إذا انهملت غيوثها على أرض أصيلة التربة طيبة الأصالة، ولكنها خاشعة ظمئة، وهل أطيب أرضاً من قلب ضيف يقبل طامعاً، ولكنه متردد يخشى الجفلة، ويخاف الجفوة، فإذا سمع مرحباً تناهت عنده إليه المكارم.

ومن ثمَّ كان إكرام الضيف من أعظم الفضائل الإنسانية الاجتماعية، وهي وإن تداخلت في عموم مكارم الجود لكنها بخصائصها مستقلة الأثر في قوة اجتذاب القلوب، وأسر النفوس، ولا سيما إذا كانت في بيئة مثل البيئة التي نهد فيها محمد ﷺ، بيئة الصحارى والجبال، والوديان والقفار، الشحيحة بمطالب العيش، ووسائل الحياة.

ولهذا كانت فضيلة قرى الضيف موضع منافسة المتنافسين في صنائع المعروف، وكانت مما يتمدح بها أجواد العرب، ويتخذها شعراؤهم ممادح لأجاويدهم، يتخذون بها قلائد من الفضل المأثور في أعناق الذين يقصدون مكارمهم تحبباً إليهم، ونشراً لحسن الأحدوثة عنهم بين أقوامهم.

والضيف في البيئة العربية عابر سبيل، يبيت هنا، ويصبح هناك،

ويتحدث حيث يكون، والحديث مع الناس وإلى الناس فنون، وأحب فنونه إلى الأسماع، وأحلاها في الأذواق ما كان عن المكارم وصانعيها، وروادها، تنفسح لهم القلوب، وتهش لهم النفوس، وتهفو نحو من تحمله المكارم ذراها، وتشتاق إلى لقائه ورؤيته، وتتمنى لو كانت من حزبه أو أهله، وتتطلع إلى مشارف مكانه من حسن الأحدوثة، وتتحدث مع نفسها أحاديث الآمال المرجوة أن لو كانت تستطيع أن تكافئه على صنائعه، ولو لم يكونوا هم موضع إسدائها المباشر لأن الخير حبيب إلى كل نفس كريمة، والمكارم أواصر خلقية لا تعرف العصبية لدم، ولا لجنس، ومن يصنع الخير لا يعدم جوازيه.

فإكرام الضيف فضيلة اجتماعية تجمع القلوب على محبة من يتحلّى بها في غير تكلف ولا مراءاة، وتستجيب إلى دعوته إذا دعا إلى خير، وترهف الآذان إلى صوته إذا نادى إلى نجدة أو غوث، وتُصغي إلى قوله إذا تكلم، وتؤمن على رأيه إذا ارتأى، فهي من أصول المكارم التي تكسب صاحبها مودات القلوب، يحبه من يعرفه ومن لا يعرفه.

فإذْ تذكر السيدة خديجة رضي الله عنها هذه المكرمة في خلائق محمد ﷺ التي نهد بها، وعاش في مجتمعه على التخلق بخلقها، فإنها تقصد إلى أن الله تعالى في جلال حكمته، لا يمنحها إلا لمن يعلم أنه حقيق بآثارها الاجتماعية في التأييد والتوفيق، فيما يدعو إليه من الخير والهدى، فالمتحلي بها مع سائر أصول المكارم لن يخزيه الله أبداً، ولن يَخْذُلَه الله أبداً، وإن محمداً ﷺ لبالغ ـ بما طبعه الله عليه من أصول مكارم الأخلاق ـ ما كتب الله له في لوح حياته من قيامه بحق تبليغ رسالته على أبلغ وأقوى ما تؤدى به رسالة إلٓهية ناطها الله برسول أعده لأعباء هذه الرسالة.

النورانية السادسة الإعانة على نوائب الحق

(٦) وتعين على نوائب الحق ـ كلاً، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبداً، وكيف يخزيك ربك وهو الذي وهبك ـ منذ شَرَّف الوجود بطلعتك ـ فطرة جامعة لكل مكرمة وفضيلة؟ ولن يحزنك الله أبداً، وكيف يحزنك وهو الذي أعدك لحمل عبء أفضل رسالة خالدة، ختم بها رسالاته إلى خلقه؟ أليس الله عزّ شأنه هو الذي آواك إلى كنف رعايته،

وهو الذي تولّى تربيتك بأخص إنعاماته وفواضل إحسانه، فأدَّبك بأرفع آدابه، وهو الذي طبعك على أكرم خلائق الإنسانية، لتكون هادياً بإذنه، وداعياً إلى عدله ورحمته، ونصيراً للمظلومين من عباده، معواناً على إقرار الحق في موضعه، تردُّ إليه الشاردين عن ساحته، وتفرضه على الطغاة الذين يبغون في الأرض عتواً وكفراً.

كذلك أنت يا أبا القاسم ـ صلوات الله عليك ـ من أخص صفاتك أن تعين على نوائب الحق، فطرة فطرك الله عليها، وخليقة جبلك بها، فكيف يخزيك؟ وكيف يحزنك؟ والإعانة على نوائب الحق فضيلة الفضائل، ومكرمة المكارم، فهي أجمع الفضائل لسائرها، وهي أجمع موارد الخير ومصادره، وهي منقبة مناقب البر والمعروف.

يقول الإمام ابن حجر في الفتح: وقولها: وتعين على نوائب الحق، هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم من أصول المكارم وما لم يتقدم.

وقد كانت هذه الخليقة خُلقاً لمحمد ﷺ منذ شب عن طوق الطفولية، ومشى إلى الشباب مشاركاً رجالات قومه في صنع المكارم، فهو ﷺ ـ وكان في عنفوان الشباب، ابن عشرين سنة ـ يسمع أن عمه الزبير ابن عبد المطلب، يدعو إلى عقد حلف لنصرة المظلوم، والتآسي في المعاش، فاجتمعت له بنو هاشم، وزهرة، وتيم، في دار عبدالله بن جدعان، فيسرع ﷺ إلى مشاركتهم هذه المكرمة النبيلة، يدفعون بها الظلم عن المظلومين، ويعينون على نوائب الحق، ويتعاقدون متعاهدين بالله ليكونن مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه ما بل بحر صوفة، وسمّت قريش ذلك التعاقد (حلف الفضول).

وقد امتدح محمد ﷺ بعد بعثه رسولاً إلى الناس كافة هذا الحلف، وأخبر أنه حضره في دور إنشائه وشارك فيه قبل نبوته، ففي حديث جبير ابن مطعم عند ابن سعد في الطبقات قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حُمْر النَّعَم، وأني أغدر به، هاشم وزهرة

وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، لو دعيت به لأجبت، وهو حلف الفضول».

ومن شواهد هذه المكرمة، ومدد هذه الفضيلة ـ مكرمة إعانة محمد ﷺ على نوائب الحق، ونصرة المظلوم حتى يراح الحق إليه في رحاله ـ خبر الأراشي الذي ابتاع منه فرعون قريش أبو جهل إبلاً، ومطله أثمانها، ابتغاء بخسها أو غصبها، وقد وقف هذا الأراشيّ على ملأ القوم يستنصر غطارفتهم، ويستنجد أكابرهم لينصفوه من طاغيتهم، فدلّه شياطينهم على محمد ﷺ ـ استهزاء منهم ـ لما يعلمون من شدة العداوة بينه وبين فرعونهم الطاغية الظلوم، وكان رسول الله ﷺ لا يزال في مبتدأ دعوته، ومطلع رسالته، لم يستجب له إلا قلة قليلة من المستضعفين المضطهدين من أصحابه، وذهب الأراشي صاحب الإبل إلى محمد ﷺ وشكى إليه ظلم قريش في نموذجها الظلوم أبي جهل، قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاء أبا جهل إلى بيته، فضرب عليه بابه، فقال أبو جهل: من هذا؟ فقال رسول الله ﷺ مجيباً له «محمد» فخرج إليه أبو جهل وما في وجهه من رائحة، قد انتقع لونه ـ وكذلك يفعل جبن المستكبرين ـ فقال له رسول الله ﷺ: «أعطِ هذا حقه» قال أبو جهل: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدفعه إليه. وهذه الحادثة من أعظم دلائل شجاعة محمد ﷺ في الحق وللحق، فهو ﷺ إذْ يشكو الغريب المظلوم إليه ألد أعدائه، وأشْرَسَهم خلقاً، وأعتاهم ضراوة وشراً، وأطغاهم طغياناً وكفراً مستغيثاً به ـ لا يتلبث أن ينهض معه في سرعة وقوة لإعانته على ما نابه من تعرض حقه للضياع، وهذا هو معنى أنه يعين على نوائب الحق.

وإذا تأمل الناظر في هذه الحادثة علم أن لها من الآثار الاجتماعية ما يجعلها وأمثالها عَلَماً على المكارم التي يتغنى بها المجتمع فيما يأثره من أصول المكارم لمن نهض بعبئها، فكيف يخزي الله أو يخذل من طبعه على هذا الخلق الأكرم الذي يجمع القلوب على محبة صاحبه؟.

ومن شواهد هذه الفضيلة، فضيلة الإعانة على نوائب الحق، ما رواه

الواقدي عن يزيد بن رومان، قال: بينا رسول الله ﷺ جالساً في المسجد مع رجال من أصحابه أقبل رجل من زبيد، يقول: يا معشر قريش: كيف تدخل عليكم المادة، أو يجلب إليكم جلب، أو يحل تاجر بساحتكم، وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟ يقف على الحِلَق، حلقة، حلقة، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في صحبه، فقال رسول الله ﷺ: «من ظلمك؟» فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال، كانت خير إبله، فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم، فأكسد عليّ سلعتي وظلمني، قال رسول الله ﷺ: «وأين أجمالك؟» قال: هي هذه بالحَزْوَرَة، فقام رسول الله ﷺ، وقام معه أصحابه، فنظر إلى الأجمال فرأى أجمالاً فُرها، فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول الله ﷺ، فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيراً باعه وأعطى ثمنه أرامل بني عبد المطلب، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال: «ياعمرو، إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الإعرابي، فترى ما تكره» فجعل أبو جهل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله ﷺ.

وفي هذه الحادثة من دلائل ما تحلّى به محمد ﷺ من أصول المكارم جبلة وطبعاً، أنه كان نهّاضاً لنجدة المظلوم، وخُلُق النجدة شعبة من شعب مكرمة الإعانة على نوائب الحق، فهو ﷺ إذ يسمع استغاثة الرجل الغريب، يُظْلم في حرم الله، ينهض لإنصافه، لا يبالي أن يكون من ظلمه أطغى طغاة قريش، وأشر شريرها.

وهو ﷺ أملك الناس للغضب، لا يندفع مستغضباً يثير الحفائظ، ولكنه يسلك في إنصاف من ظلم في حرم الله طريق العدل والحق في هدوء الواثق، فيذهب إلى السوق، وينظر إلى الأجمال، ويساوم صاحبها سوماً يلحقه بالرضا، فيشتريها بالثمن الذي ارتضاه، ثم يبيعها فيربح ثمن بعير منها، ويعطي هذا الثمن أرامل بني عبد المطلب جرياً على نهجه في مكرمة صلة الرحم التي كانت من أصول المكارم التي جبل عليها رسول الله ﷺ، ثم يذهب ﷺ إلى الطاغية أبي جهل على سمع الملأ وبصره وهو جالس في

ناحية من السوق، ينظر ما صنع رسول الله ﷺ ويسمع سومه للزبيدي صاحب الأجمال، في ذلة ومهانة فلا ينبس بكلمة.

ولكن رسول الله ﷺ لا يتركه يستريح في خذلانه وذلته، بل يذهب إليه محذِّراً منذراً عاقبة طغيانه ومغبة ظلمه الغرباء الذين يفدون على مكة بلد الله الحرام، يبيعون ويشترون، ويقضون لباناتهم في أسواقها، فما كان من هذا المستكبر في الأرض فجوراً إلا أن تهانف تهانف الأطفال، وتهاوى على نفسه في مهانة الجبناء، وهو يرى قوة الحق تعلو في إنذار رسول الله ﷺ وتحذيره أن يعود لمثل صنيعه الكفور مع الغرباء الذين ليس في مكة قوة يستنصرون بها على من يظلمهم، وهو يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد.

والذين لا يعرفون قدر ما أكرم الله به محمداً ﷺ من الشجاعة في الحق ونجدة المستصرخين لطلب الغوث، والإعانة في نوائب الحق؛ يصرفون ما يُرى من هذه الأحداث إلى مجالات العجائب والمعجزات، ولسنا ممن ينفي ما يثبت منها بطريق صحيح.

ولكنا نرى أن وزن الأحداث بموازين طبيعة الاجتماع، وخصائص المجتمع الذي تقع تلك الأحداث في جنباته أسدّ وأحكم في مخاطبة الذين يجادلون في آيات الله اغتراراً بما يتقلبون فيه من علو متعَالِم واستكبار متفلسف، فمحمد ﷺ فنن من النبعة الهاشمية، وهم أعز وأرسخ قدماً في مماشي العرب وقبائلها من بني مخزوم قوم أبي جهل، على ما كان لهم من مكانة يسندها الثراء المالي المعروف لهم، فلا غرابة أن يعتز الحق بمحمد الهاشمي ﷺ، ويذل باطل أبي جهل المخزومي، فإن جاءت المعجزة مع ذلك إكراماً من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، وتأييداً له في قيامه لنصرة الحق، ودفع الظلم، وإنصاف من لجأ إليه يستنصره مستصرخاً لما أصابه في البلد الحرام الذي جعله الله تعالى أمناً لمن دخله من فجاج الأرض، لا يهاج ولا يفزَّع ـ كان ذلك توكيداً لفضل الله تعالى فيما جبل عليه رسوله محمداً ﷺ من مكارم الأخلاق التي جعلها بحكمته أساساً لقوة احتماله أعباء رسالته الخاتمة الخالدة، ولله تعالى أن يؤيد رسوله بما شاء من الآيات المعجزة.

النورانية السابعة أداء الأمانة

(٧) وتؤدي الأمانة ـ كلاَّ، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبداً، وأنت الذي فطرك الله على مكارم الأخلاق، وجمع لك أصولها التي تتفرع منها سائر الفضائل الإنسانية، فكيف يخذلك في أمره الذي اصطفاك للقيام به من بين سائر خلقه؟ وكيف يخزيك وأنت أمينه ورسوله إلى كافة خلقه، لتبلغهم رسالته وتدعوهم إلى وحدانيته، وتهديهم طريق الاستقامة في حياتهم، ليعيشوا في ظل عدله ورحمته، إخوة متحابين، يتواصلون بالصدق والأمانة في معاملاتهم وتعاشرهم، ويتواسَون بالرحمة والإحسان، ويتعاونون على البر والتقوى لا يتظالمون ولا يتخاونون.

ذلك منهجك في رسالتك ـ يا أبا القاسم ـ فمن أين يأتيك الخذلان؟ كلاَّ، يا أبا القاسم، فأنت الأمين في السماء، وأنت الأمين في الأرض، وقد رفع الله لك ذكرك، وسمَّاك على ألسنة قومك ـ ولما تُبعث فيهم رسولاً، ولما يكن أمر الإيمان بهَدْي رسالتك عندهم مذكوراً ـ (الأمين) والأمانة أجمع مكرمة لمكارم الأخلاق، ولن يكون أميناً قط من يفقد في أخلاقه مكرمة من المكارم، فالأمين هو ذو الخلق العظيم، الجامع لأشتات الفضائل، والأمين هو الكامل في استقامته مع نفسه، ومع جميع الخلق، تجمع القلوب على محبته، ويثق به من يعرفه ومن لا يعرفه، من شهده ومن غاب عنه، وهذه الثقة تظهره على أسرار الناس، فيعرفها كما يعرف علانيتهم، لا تخفى عليه منهم خافية يحفظهم في غيبهم كحفظه لهم في شهودهم، يأنسون به ويركنون إليه في أعمالهم ومصالحهم، ويأمنونه على أعز ما عندهم من ودائعهم المادية والقلبية، تهجس في خواطرهم الفكرة تريد متنفساً بالكلمة، فيخافونها إلا إذا كانت همساً لك، فإن رأيت خيراً أعنت عليه، وإن رأيت شراً نصحت وحذَّرت، وحجزت دون وقوعه، ويملك أحدهم الثمين من الأشياء، ويخشى عليه الضيعة، فلا يجد موثقاً أشد في نفسه يقيناً من مكارمك، وأنت (الأمين) فيودعه عندك، وقد يخفي أمره عن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

كلاَّ، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزنك الله أبداً في تبليغ رسالتك، وإنجاح هديك وكيف يخزنك وأنت الأمين عند الله وعند الناس؟

وقد كان خُلُق أداء الأمانة خُلُقاً أثيراً في مكارمك، فلم يعرف لقب (الأمين) على إطلاقه إلا لك.

وهل يوجد في تاريخ البشرية أقوى دلالة على تميزك بأداء الأمانة من إجماع بطون قريش على الرضا بحكمك وهم يبنون الكعبة المشرّفة أعز مفاخرهم، وقد اختلفوا اختلافاً شرعت فيه السيوف للقتال، فيمن يتولى وضع الحجر الأسود مكانه من ركنه في البناء؟ ثم توافقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من أبواب الحرم، فكنت أنت يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، محظوظ العناية الربَّانية، ذلك المُحَكَّم، ولم تكن يومئذ إلا محمد ابن عبدالله بن عبد المطلب غصن النبعة الهاشمية، فلا نبوة، ولا رسالة، فلما رآك القوم تهللوا بالبشر الوثيق، واطمأنت قلوبهم الواجفة في صدورهم، وسكنت إلا من خفقة الرضا، وقالوا بلسان موحد الثقة والقبول: هذا (الأمين) رضيناه حَكَماً، وحكمت بحكمتك حكماً أطفأ نيران الفتنة، وأصلح ذات بينهم، وجمع شملهم.

فهل كان ذلك لك إلا بفضل ما فطرك الله عليه من مكرمة المكارم، وفضيلة الفضائل، خُلُق الأمانة وأدائها؟ ذلك الخُلُق الذي تعارفه لك الناس في بلدك الحرام، عامتهم وخاصتهم، فجعلوك موئل ودائعهم، ومثوى أسرارهم، فوسعتهم صدقاً وأمانة وبراً، روى الإمام أحمد من حديث عليّ رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته فاجتمع له ثلاثون، فأكلوا وشربوا، وقال لهم: «من يضمن عني دَيْني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟» فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحراً، من يقوم بهذا؟.

وفي أحاديث الهجرة عند ابن إسحاق أن النبي ﷺ أخبر علياً بمخرجه، وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي عنده للناس، قال ابن إسحاق: وليس بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.

وفي هذين الحديثين أصدق دلالة على أن مكرمة أداء الأمانة بصورتها

الغامرة القوية التي لم تكن بها عند أحد من البشر فضيلة خُلُقية كانت في طبيعة محمد ﷺ التي ولد بها، ونهد عليها، ونشأ مفطوراً بفطرتها، لم يكسبها بنبوته ورسالته، وإن تكن النبوة والرسالة قد وثقتاها في خُلُقه، وزادتا من مظاهرها في أعماله وسلوكه، وجعلتاها دعامة من دعائم دعوته، وأساساً لهديه في رسالته.

فحديث عليّ رضي الله عنه عند الإمام أحمد ـ ورواه بمعناه بألفاظ تختلف قليلاً أو كثيراً، جمهور المحدِّثين ـ ظاهر في أن قصته كانت في مطلع الدعوة، وأوائل خطواتها، وأن مكرمة أداء الأمانة بقوتها الغامرة كانت معروفة بصورة عريضة عند كافة الناس في مجتمع محمد ﷺ الذي عاش فيه خُلُقاً له، قبل أن يبعث للناس رسولاً، وأنه كان في هذه المكرمة وسيع الباع، لا يدرك ذرعه، عظيم الأكناف كالبحر لا يدرك عمقه، ولهذا لما قال رسول الله ﷺ للقوم ما قال في شأن دَيْنه ومواعيده، قال له رجل من القوم، ينفي أن أحداً من الناس يستطيع أن يضع قدمه في ساحة مفاخر المكرمات موضع قدم رسول الله ﷺ: يا رسول الله أنت في مكارمك بحر، من يقدر أن يقوم مقامك في دَيْنك ومواعيدك؟ استعظاماً لما كان متصفاً به من المكارم، ولا سيما مكرمة أداء الأمانة التي جعلت منه موئلاً لأمانات الناس وودائعهم.

وحديث الهجرة ظاهر في بيان أن رسول الله ﷺ، وهو يمر بأحرج مرحلة مرت بها دعوته، وأصعب موقف مرَّ عليه في حياته، موقف ينتهي في أدمغة أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وتفكيرهم في التخلص من هذه الدعوة وصاحبها إلى أخبث تدبير ماكر، تحوكه أحقادهم، ومرحلة تنتهي في نظرهم إلى أبشع كيد متآمر على حياة أطهر من أقلَّته الأرض وأظلَّته السماء، محمد الأمين صلوات الله وسلامه عليه، أجمع فيها غطارفة الإجرام، وطغاة الكفر على اغتياله، وهو نائم على فراشه في بيته، لأنه يدعوهم إلى توحيد الله، وإقامة منائر عدله، ونشر آثار رحمته فيأتيه النبأ من السماء، ويستعد للخروج من داره وبلده مهاجراً إلى حيث يجد متنفساً لدعوته، وأرضاً طيبة لنشر رسالته، وقلوباً نقية لتقبل هديه، ونفوساً طاهرة مستعدة لنصرته ـ كان

موضع ثقة لدى سائر من عرفه مؤمناً برسالته أو غير مؤمن بها، ولكنهم جميعاً وأكثرهم إلْب عليه، يحاربون دعوته ويؤذونه وأصحابه ـ يأمنونه على أسرارهم وودائعهم من كل ما يخافون عليه، فهو (الأمين) منذ كان فيهم، لم تغير دعوته التي نافروه من أجلها من أمانته، بل زادت هذه الدعوة الخيِّرة المباركة الموحِّدة خلق الأمانة عنده ظهوراً ورسوخاً.

وها هوذا يفارقهم مُخْرجاً منهم، لأنه لم يجد فيهم بصائر تهتدي بهديه، بل لم يجد عندهم سلاماً يطمئن إلى العيش في ظله، ويخلّوا بينه وبين الناس يبلغهم دعوته، وينشر فيهم هديه ورسالته، وعنده أمانات وودائع لأعدائه وغير أعدائه، ولا بد في شرعة المكارم من ردِّها إليهم، فيخلِّف صفيَّه ورضيع تربيته علياً رضي الله عنه بعده ليؤدي عنه الودائع والأمانات التي عنده للناس.

فراسة الإلهام في كلمات السيدة خديجة

قال العلماء: إن خديجة رضي الله عنها لوثيق معرفتها بأخلاق محمد ﷺ الفطرية التي خبرتها فيه بتجاربها وفراستها، وبما كان يخصه به مجتمعه من الإكبار وحسن الأحدوثة ـ أقسمت على أن الله تعالى لن يخزيه، وأكَّدت ذلك بلفظ التأبيد، واستدلت بوحي عقلها الرصين على ما أقسمت عليه بأمر استقرائي، فوصفته بأصول مكارم الأخلاق، قالوا:

وإنما كان ما ذكرته خديجة أصولَ المكارم لأن الإحسان إما إلى الأقارب كما في صلة الرحم، وما يتفرع عنها من التعاطف والتراحم، أو إلى الأجانب، وذلك فيما عدا صلة الرحم وفروعها، من صدق الحديث وأداء الأمانة، وكسب المعدوم لمن يحتاج إلى المعونة من الضَّعَفَة، وإما على من يستقل بأمره، كما في مكرمة الإعانة على نوائب الحق، أو من لا يستقل بأمره كما في حمل الكَلّ الضعيف الذي لا يقوم بأمر نفسه.

وهذا الذي ذكره العلماء إجمال لما بسطناه في تحليل الكلمات النورانية التي تضم بين جوانحها من الحقائق والمعاني الكثير مما لا يمكن استقصاؤه، وهي التي استنبطت خديجة من اتصاف محمد ﷺ بحقائقها أنه لن يتعرض في

حياته للخزي قط. لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تطاول ولا تسامي.

وقد كانت كلمات السيدة خديجة رضي الله عنها نوعاً من فراسة الإلهام الذي ينظر إلى ما وراء الحجب، خففت بها عن رسول الله ﷺ ما شعر به من آثار المفاجأة الرهيبة، وقد آب إليها من خلوته ومتعبده في حراء، فرأت منه ﷺ حالاً من مشقة الجهد، لم تكن تراها عليه من قبل في أوباته إليها، ليتزود لخلوته، ويجدد ببيته وولده وزوجه عهد الحنان والحب الذي يعطيهأفضلما يعطي عامل من عوامل القوة النفسية من مدد يعينه على تحمل مشاق الوحدة في خلوته التي أحبها أشد الحب، لما يجد فيها من مجال لسبحات روحه وفكره في أجواز ملكوت الله، وجلال بدائع صنعه، وجلس إليها بعد أن هدأت نفسه، وحدَّثها وحدَّثته، وسمعت منه جديداً، لم تكن من قبل تسمعه منه، وكان في هذا الحديث نغم هامس بروحانية جديدة، تتلمس دفء الحنان في أحضان الوفاء.

فهو ﷺ منذ بلغ سن الرجولية كانت بشائر الغيب وإرهاصات النبوة تتوالى عليه قبل أن يُنبأ، وكانت خديجة رضي الله عنها على علم بالكثير من ذلك، وقد ثبت أنها رأت الغمامة تظلله ﷺ، وهو قادم بتجارتها من الشام، قبل أن يتزوجها، وحدثها غلامها ميسرة ـ وكانت قد بعثته معه ليقوم بخدمته في سفره ـ بما رأى وما شهد من الأعاجيب والآيات التي وقعت له ﷺ.

ثم نُبِّىء ﷺ بوحي الرؤيا الصادقة، يراها في منامه، فتجيء إذا استيقظ مثل فَلَق الصبح جلاءً ووضوحاً وإشراقاً، وتتابع وحي النبوة عليه في مراتبه المنامية والمبشرات، ولم يكن يبدو عليه من مشقة الإجهاد وتأثر بشريته مثل ما بدا عليه اليوم، وقد جاءها يرجف فؤاده وترعد بوادره، ويقول: زملوني دثروني.

آمال الفراسة النورانية وإلهام التوسم تتحقق

وكانت آمال خديجة رضي الله عنها منذ صارت زوجة محمد ﷺ في فضل الله عليه أعظم من أن تقف عند وحي النبوة برؤيا منام، بل كانت مشاعرها تحلق حوله في آفاق تطلعاتها إلى تجليات الملأ الأعلى له ﷺ في لقاء المواجهة ووحي اليقظة.

وها هو ذا صلوات الله عليه اليوم يُبعث للعالمين رسولاً، فيجيئه الحق، ويفجؤه الملَك رسولاً إليه من ربه، وإذا هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، جاء مستعلناً في يقظته بعد أن جاءه ممهداً في منامه، ومحمد ﷺ مستغرق في سبحات تفكيره، وحيد في خلوته، لا يتوقع مما وقع له شيئاً، وإذا بالمفاجأة الأخرى تأتي بعد مفاجأة البغتة في دخوله عليه خلوته بغير مهلة، فيقول له: اقرأ، وأنّى لمحمد صلوات الله عليه، وهو الأمي الذي ما عرف القراءة قط في حياته أن يقرأ؟ وماذا يقرأ؟ وكيف يقرأ؟ فما كان منه ﷺ إلا أن يقول الحق مبيناً عن ذات نفسه، ذاكراً حقيقة حاله بالنظر إلى ما طلب منه، وهو أمر لا يدخل في استطاعته: (ما أنا بقارىء).

وجاءت المفاجأة الجديدة في عنفها وشدتها، ويضمه الملك إليه ضمة غطه بها غطا بلغ منه أقصى ما في طبيعته من الطاقة والاحتمال، وخلص جبريل الأمين بروح محمد الأمين صلوات الله عليهما نجياً ليستفرغ بشريته، ويفرغ في روحانيته مزيداً من أنوار الملأ الأعلى ليخفف من الوشائج المادية التي تقيد سبحات روحه في إطارها البشري، لترتفع روحانيته بإشراقها المتجدد إلى ذروة المجانسة لطبائع الملأ الأعلى، لتتلقى أحاديث السماء في مشافهة الملك ولقاء اليقظة، واكتمال الحس والشعور.

ثم عاد إليه يطلب منه أن يقرأ، والموقف عند رسول الله محمد ﷺ هو الموقف منذ بدأت المفاجأة وكانت إجابته هي إجابته (ما أنا بقارىء) وعاد إليه بالغتّ والغط، وطلب القراءة ليظهره من أول وهلة على سر رسالته ليكون فيها الهادي العليم والرسول المعلم.

وسرّ رسالة محمد ﷺ المسطور في لوح الوجود ـ كما أسلفنا ـ هو العلم بأوسع وأعمق ما يتصور العلماء والمفكرون من أي أنحاء الحياة، ومن أي

العلم هو سر الرسالة الخاتمة الخالدة المسطور في لوح الوجود

جوانب الكون، وعلى أي نهج في التفكير.

ولهذا قال له جبريل عليه السلام ـ بعد أن أنهى ما أرسل به إليه في أول لقاء المواجهة بوحي اليقظة من إعداده روحانياً للنفوذ من حجب الغيب إلى الحقائق العليا، مسطورة في صفحة الوجود ـ: اقرأ، وأنت على خصيصتك في أخص أوصافك من نعت (الأمية) مستعيناً باسم ربك الخالق المبدع، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهو أعز خلقه وأكرمهم، وجعله بما علّمه سيد الحياة المسخرة له ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

فكان هذا بياناً لما طُلب منه مكرراً مؤكداً، وهو تحصيل حقيقة القراءة، دون نظر إلى الأسباب المألوفة عند القارئين المعلّمين العالمين، مستعيناً باسم من سبق إليك إحسانُه، فرباك على موائد فضله وإنعامه، ورعاك بكرمه قبل أن يتشرف الوجود بطلعتك، وهو ربك الأكرم الذي تجلّت مظاهر أكرميته في ظلال أسرار رسالتك العليمة المعلّمة، وهو الذي علّم بالقلم من تأهّل بفكره ليكون في زمرة العالمين، وذلك هو الإنسان مُظهرُ الإبداع الإلٰهي الأعظم في الوجود، فقد علّمه ما لم يعلم، وعلمك أنت، وجعلك مظهر الإشراق الروحاني الأكمل، ـ كما علّم الملأ الأعلى ـ بغير قلم ولا مداد، خصيصة لك، لتكون أميتك المظهر الأعظم في إعجاز رسالتك المعلمة، وجعل علمك بغير قلم مَدَدا لمن تعلموا بالقلم، تعلموا مما علمت، وهم صفوة الإنسانية، بل صفوة الوجود كله، فالتعليم بالقلم أعظم مظاهر الكرم الإلٰهي السابغ، ومن ثم كانت المنة بالتعليم بالقلم أعظم منن الله تعالى على الإنسان في الحياة، وكان الامتنان بها عليه في أول ما نزل من القرآن الكريم.

يقول الإمام قتادة: القلم نعمة من الله عزّ وجلّ عظيمة، لولاها لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدلّ على كمال كرمه بأن علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دُونت العلوم، ولا

قُيدت الحِكَم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كُتُب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا.

تحليل تفسيري لأول آيات نزلت من القرآن الكريم.

فقول الله جلّ ذكره في أول كلمة نزلت على رسول الله ﷺ:(اقرأ) أمر بتحصيل القراءة، وتحقيقها في وجود الحياة، وقوله عزّ شأنه:(وربك الأكرم) جملة مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله:(ما أنا بقارىء) وهو يريد أن القراءة شأن من يتعلَّمها، وأنا أمي ما كنت قارئاً قط، فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بتحصيل القراءة، وتحقيق وجودها هو الأكرم، فالأمر هنا بتحصيل القراءة تأكيد للأمر السابق في قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ والاستئناف بقوله: ﴿وربك الأكرم﴾ توجيه له ﷺ بأن يستمد العون على تحمل أعباء حياته الجديدة في رسالته التي ستكون بمقتضى إرهاصات المفاجأة وشدتها مليئة بالمفاجآت الفادحة، ومفعمة بكل جديد شاق، ولعل من أشقها وأصعبها العلم بكل ما ينبغي أن يعلم وهو خصيصة رسالتك المميزة لطبيعتها الهادية المنيرة ـ من ربه الأكرم الذي تعهده بتربيته وهو في غمرات مجتمعه، فصفَّاه من غله، وطهَّره من أدرانه، برعايته له في نشأته وليداً في مهده، فهيأ له رضاعاً في أكرم بادية في خير بيوتها خُلُقاً، وآواه طفلاً يتيماً، وتولاه بتأديبه وتربيته، وزرع محبته في قلوب جدّه وعمومته، فحنَوا عليه حدباً وإشفاقاً، وكنفه بكنفه، فكان شاباً أريباً، وحلّاه في رجوليته بأكمل خصائص الفضائل، فكان في قومه الصادق الأمين، وأعده لحمل أعباء رسالته، وهو مستغرق في وحدته بفكره وعقله وروحه في جلال الملكوت لا يعلم ما يراد به، حتى أبرزه للحياة درة يتيمة في كمال صفاته وأخلاقه ومكارمه وإشراق روحه، واستخلصه لنفسه نبياً حبيباً واصطفاه رسولاً رحمة مهداة للعالمين.

حديث هامس بشرح عظمة عبء الرسالة

وحدّث رسول الله ﷺ زوجه الوفية الأمينة عن خلجات ضميره وما هجس في حنايا نفسه وما شغل تفكيره إزاء ما ينتظره في مستقبل حياته من عظائم أمور، وكبريات الأحداث، وما يتطلبه هـذا المستقبل من عمـل دؤوب، وعزيمة صارمة، يجب أن تَقْهر الأحداث بقوتها، وصبر مشمر عن

طاقة من الإحتمال دونها طاقة الأرض والسماء، وقد مضى وقت النوم ﴿يا أيها المدَّثِّر قم فأنذر﴾.

ونهض ﷺ مستجيباً لأمر ربه، مشمِّراً عن عزيمة لا تفل، نُهُوض من لا يعرف السكون إلا متحفزاً ليتحرك، ولا يتحرك إلا وهو يفكر في مسالك ما حُمِّله من أعباء رسالة، ليس كمثلها رسالة من رسالات من سبقه من الأنبياء والمرسلين.

فالناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، من دنا منهم ومن بَعُدَ هم أمةُ دعوته، مكلف تبليغ رسالته لهم، واجب عليه أن يدعوهم إلى الإيمان بها ما بلغتهم دعوتها ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾[1] فهو رسول إلى العالمين، منذ اللحظة الأولى لتنزّل رسالته.

أهداف الدعوة ومقاصد الرسالة

ودعوته تستهدف إخراج الناس ـ كل الناس، بل إخراج الحياة بما فيها ومن فيها ـ من ظلمات الشرك وأوضار الوثنية في جميع صورها وأشكالها إلى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، مطهرين في عقائدهم وأفكارهم وتعبداتهم، نقية عقولهم وقلوبهم من دنس مواريث الآباء والأجداد، مصفّاة أرواحهم من ران الشرور والفساد، وإخراجهم من ظلمات التظالم والفساد إلى نور العدل والإصلاح.

وتستهدف دعوته ﷺ إلى جانب ذلك تخليصهم من رذائل الأخلاق، ليكونوا ربَّانيين في حياتهم وأخلاقهم، متحلِّين بالفضائل الإنسانية الكريمة، مستقيمي السلوك، خيِّرين في أعمالهم.

وتستهدف دعوته ﷺ تخليصهم من شراسة القسوة الطاغية التي يصب المتجبرون في الأرض سياط عذابها على الضعفاء والمستضعفين؛ اغتراراً بما في أيديهم من لعاعات الدنيا، واستجابة لما في دخائل أنفسهم من شرور الأنانية والاستئثار.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٩.

وتستهدف دعوته ﷺ تخليصهم من مساوىء الأنانية، وسيطرة الغرائز المادية في رغائبها وشهواتها، لتقيمهم أئمة في مشاهد الإيثار والإفضال في جوّ من الإخاء الإيماني الذي لا يعرف: هذا لي، وهذا لك، ولكنه يعرف مايقرؤه في دستور رسالته الخالدة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، والأخوة معناها المشاركة في جلب المنافع ودفع المضار، فالحياة ـ في شرعة الإخاء الإيماني ـ للناس جميعاً، لا يستأثر بشيء منها أحد، فمن احتاج منها أخذ بقدر حاجته وطاقته، ومن وجدها في يده جاد بها وأعطى.

هذه أهداف رسالة محمد ﷺ، وغاياتها ومقاصدها، جعلت العلم بجميع فنونه المادية والفكرية، والمعرفة بأنواعها التجريبية والعقلية وسيلة تحقيقها، لكن المجتمع البشري الذي أرسل فيه وإليه محمد ﷺ بجميع أممه وشعوبه، وجماعاته وأفراده لم يكن يعرف هذه الأهداف، ولا يحاول أن يعرفها، بل كان هذا المجتمع يعيش على نقائض هذه الأهداف الإصلاحية، التي تطلب في قوة حازمة وعزيمة صارمة من حاملي أمانتها، ووارثي تبليغ رسالتها أن يعملوا بكل ما أوتوا من طاقات وقوى على كسر حدة تلك النقائض، ليخرجوا الحياة بمن فيها وما فيها من ظلمات الأثرة وظلم الأنانية إلى نور الإيمان والهداية، وعدل المساواة والمواساة، بتطبيق دستور هذه الرسالة الخالدة في واقع الحياة، فكيف السبيل إلى ذلك؟ وما المخرج؟.

فداحة العبء

عبء فادح، وتكليف شاق، وجهد مثقل، ومفاجأة دون تمهيد، ولكنه تشريف دونه كل شرف في هذه الحياة، فهل في طاقة محمد ﷺ، وهو وحيد، محدود القوى البشرية أن يقوم بهذا العبء على بهظه؟ وهل في قدرته ﷺ احتمال مشقة هذا التكليف على رهقه؟ وهل، وهل، وهل، مما توارد على خواطره وشغل حيِّزاً من نفسه الشريفة، وتحدث به إلى زوجه، ومأنس نفسه، الوفية الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنها، حديث المتطلع إلى توكيد يقينه في فضل ربه ممن عرف سمو عقلها وفضل حبها، والثقة بفراستها وتوسمها، وسوابق تطلعاتها فيما كانت تشجعه وتسري به عنه.

وكانت منه ﷺ في حديثه إلى زوجه الكلمةُ المعبِّرة أبلغ وأصدق تعبير

عن كل هاجس هجس به ضميره ﷺ في صدد ارتياعه من مفاجأة الغار وتحمل أعباء الرسالة: (أي خديجة: مالي؟ لقد خشيت على نفسي) هكذا رواها مطلقة عن ذكر أي سبب لخشيته على نفسه، ودواعي تلك الخشية شيخ الدنيا في صدق الرواية، وفقه الحديث النبوي الإمام البخاري في ثلاثة مواضع من جامعه الصحيح: في باب (كيف بدأ الوحي) وفي كتاب التفسير ﴿سورة اقرأ﴾ وفي كتاب (التعبير)، فمن أين تسللت التقحمات التفسيرية لدواعي الخشية وأسبابها، ومن أي باب دلفت إلى ساحة القداسة النبوية التخرصات التفسيرية بالجنون تارة، وبالكهانة أخرى، ومحمد ﷺ نبي أوحي إليه بنوع أو أنواع من مراتب وحي النبوة قبل حادث الغار بثلاث سنوات ـ ومع النبوة العصمة ـ وحادث الغار هو الذي تحدث عنه إلى زوجه، وقال لها: (لقد خشيت على نفسي) بل لقد كان في بعض مراتب وحي النبوة بالرؤيا الصادقة أنه ﷺ ـ كما في حديث عبيد بن عمير ـ جاءه جبريل في منامه وأقرأه عين الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) التي أقرأها له في وحي اليقظة في غار حراء، مصحوبة بالغتّ، وتكرار طلب القراءة.

فهل يقيم العلم الصحيح وزناً لهذه الآراء التفسيـرية والأقـاويل التخرصية التي يقذف بها أصحابها ـ مهما كان شأنهم بين أهل العلم، وهم ليسوا بمعصومين ـ هنا وهناك، فتصيب النبوة في قداستها، ثم يأتي من بعدهم خلف حسنت نياتهم في قائلي تلك الأقاويل، فيتأولونها، ويتعسفون في التأويل، لتخريجها تنزيهاً لقائليها عن وصمة الخطأ في الرواية والنقل، أو الخطأ في قبول وتسليم ما قيل دون تأمل في معناه، وما يترتب عليه من عواقب وخيمة؟.

فهل كان مقام أصحاب تلك الأقاويل التخرصية في تنزيههم عن وصمة الخطأ والتماس المخارج لأقاويلهم أجلُّ وأعظم من مقام النبوة في صونها وتنزيهها عما يخدش قداستها ويمس جلالها؟.

وإذا كان النبي ـ أي نبي ـ بمعرض لهذه التقحمات التخرصية بعد تحقق نبوته بوحي ثابت فماذا بقي له من شرف الاصطفاء وقداسة النبوة

وما يجب لها من العصمة عن المزالق التي تهز الثقة بها؟ وكيف تمكن الثقة به وبما يقوله مبلِّغاً عن الله تعالى ما دامت هذه التخرصات تلاحقه في نبوته؟.

إننا لا نتردد في الجهر بالقول: أنه يجب ألا يقام لهذه التخرصات الاحتمالية ـ التي لم تستند إلى قول قاطع قاله رسول الله ﷺ ـ وزن في شرعة العلم ومنهاج النبوة، وسنن الله تعالى مع النبيين والمرسلين.

سبق بعض أجلة العلماء في تزييف هذه التخرصات المقحمة.

ولنا في بعض الأجلّة من حذاق المفكرين في معارف الإسلام ومبادئه أسوة في الجهر ببطلان هذه الأقاويل المتخرصة، ولكن من غلب عليهم حسن الظن وسلامة الطوية تشبثوا بهذه الأقاويل، وراحوا يتأولونها ويخرجونها، ويلتمسون لها التوجيه، يقول الإمام ابن حجر في الفتح: والخشية المذكورة اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولًا، وقد ساقها ابن حجر سرداً دون توجيه أو نقد، فيما عدا القول الأول، فقد نقده وأيد رأي أبي بكر بن العربي الفقيه في قطع الحكم ببطلانه، ولكن ابن حجر ساق كلام الإسماعيلي في توجيه هذا القول الباطل وقبوله، ونحن نورد هذه الأقوال مع التعليق والنقد والتوجيه لما يمكن أن يرجه منها، ونقف مع القول الأول بالبحث والإبطال، لأن الإمام ابن حجر لم يقتصر على موافقته وتأييده لأبي بكر بن العربي الفقيه في قطع الحكم ببطلان هذا القول، ولو فعل لكان في اقتصاره على البطلان تحصين عامة الباحثين من بعده عن الانزلاق في هاوية الاستسلام لهذه الأباطيل، ولكنه ساق بعد تأييده لرأي ابن العربي كلام الإسماعيلي في الدفاع عن هذا القول المتخرص، وتسويل قبوله.

ضرر هذه التخرصات وخطر الدفاع عنها

والإسماعيلي إمام له مكانته المرموقة، وشهرته بين أهل العلم، ولا سيما بين المحدثين ورجال الرواية، وحسبه أن الحاكم يقول عنه: كان واحد عصره، وشيخ المحدثين والفقهاء وأجلّهم رياسة.

وهذه المكانة العلمية لهذا الإمام هي التي توجب علينا مناقشة كلامه، وإبطال ما ينبغي إبطاله، خشية أن يستغله أعداء الإسلام من الملاحدة متشبثين بمكانة الرجل في فضله وعلمه، ويفتح لهم منافذ الطعن في النبوة

ورسالات الرسل عامة، ورسالة الإسلام خاصة، وأعداءُ الرسالات الإلّهية في هذا العصر المادي الكفور أكثرُ من أن يحصَوا دولاً وشعوباً، وأفراداً وجماعات، وحكاماً وزعماء، وهم أجرأ على الباطل الجَحود وأكفر، ولا يزال الإسلام يعاني من تعصب بعض المستشرقين المتسترين بغلالات العلم والبحث، ومن ورائهم سائر المبشرين بالصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، ولهؤلاء وأولئك مريدون وتلاميذ مقلِّدون، من أبناء جلدتنا، يتعالون تعالياً، ويتهانفون تقليداً، ينفخون في أبواق مدربيهم، وينشرون سمومهم في أفئدة الشباب المسلم ليفسدوا إيمانه وعقيدته.

لأن هذا الشباب ليس له من وسائل الحماية لإيمانه وعقيدته وأفكاره ما يمكِّنه من نقد الفِكَر الملحدة، وهو في كثرته الكاثرة لم يدرس مبادىء الإسلام في عقيدته وشريعته، ولم تتح له فرصة لهذه الدراسة، فجامعات الوطن الإسلامي شرقاً وغرباً لاتدرس الإسلام على حقيقته ولاتعرفه، وأساتذة هذه الجامعات تلاميذ أولئك المتعصبين ضد الإسلام، غرسوا في أفئدتهم الإلحاد الجهول، فلقنه هؤلاء لتلاميذهم الأغرار المخدوعين.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في سرد أقوال العلماء في المراد بالخشية:

الأقوال التي قيلت في المراد من الخشية وتوجيه ما يمكن أن يصح منها.

أولها ـ الجنون، وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرّحاً به في عدة طرق، وأبطله أبو بكر بن العربي، وحق له أن يبطل، لكن حمله الإسماعيلي على أن ذلك حصل له قبل حصول العلم الضروري له أن الذي جاءه مَلَك، وأنه من عند الله تعالى.

وهذا الكلام بسياقته صريح في أن ابن حجر جعل الجنون والكهانة أمراً واحداً، وقولاً واحداً، وهما في الواقع أمران، وقد يمكن اعتبارهما قولاً واحداً، قال بهما فريق من البُله الحمقى، على معنى تجويز هذا، وهذا، أي أنه ﷺ خشي على نفسه الجنون، أو خشي أن يكون ما رآه في الغار من جنس الكهانة، والجنون لا يجتمع مع الكهانة في شخص واحد، في زمن واحد، لأن الكهانة دهاء مشعبذ، يضحك من الناس ويشعوذ عليهم، فصاحبها شرير من أغزر الناس دهاء ومكراً، والجنون ذهاب العقل

واضطراب وتخليط في التفكير والعمل، ولو كانت الكهانة جنوناً ما استطاع أصحابها أن يضحكوا من الناس، ويلعبوا بعقول العقلاء، والكهانُ كانوا في الجاهلية محكَّمين في أمور الناس وحياتهم.

وكيفما كان الأمر فهما في مقام بيان المراد بالخشية من أبطل الباطل، وأمحل المحال منفردين أو مجتمعين.

ثانيها ـ الهاجس، ومعنى ذلك أن الخشية التي اعترت النبي ﷺ كانت من قبيل ما يهجس في النفس، أي يعرض لها بما يخيفها، عرضاً خاطراً، دون تحقق شيء مخيف، قال ابن حجر: وهذا باطل أيضاً، لأن الهاجس لا يستقر، والذي وقع للنبي ﷺ كان أمراً مستقراً ثابتاً، بدليل حصول المراجعة بينه وبين جبريل، والمراد مراجعته في طلب القراءة بقوله ثلاث مرات: (مُا أنا بقارىء).

ثالثها ـ الموت من شدة الرعب، ومعنى هذا أن النبي ﷺ حصل له من المفاجأة وما حف بها رعب شديد، بلغ به أنه خاف على نفسه الموت من شدة ما كابد وعـانى في الغط، وقد يؤيد هذا القول ما ورد في مرسل عبيد ابن عمير من قوله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: «ما أقرأ» «فغتني به حتى ظننت أنه الموت» فظن الموت من شدة الغتّ توجب شدة الرعب، فتكون خشية الموت من شدة الرعب الذي ترتب على شدة الغتّ جائزة الوقوع سائغة القبول.

ويكون إخباره ﷺ خديجة أنه خشي على نفسه معناه أنه خاف على نفسه الموت من شدة ما وقع له من تكرار الغط وشدته التي بلغت منه أقصى جهده واحتماله، نظير ما وقع له في رؤيا النوم.

رابعها ـ المرض، وقد جزم بهذا القول ابن أبي جمرة، ولعل معنى هذا القول أن النبي ﷺ خشي من شدة ما لقي من أثر المفاجأة وتكرار الغط البالغ نهاية الشدة ـ على نفسه المرض، وأن يقعده ذلك عن القيام بما كُلفه من تبليغ رسالة ربه، فيرجع هذا القول إلى معنى العجز عن حمل أعباء الرسالة، وهو بهذا التوجيه سائغ مقبول.

خامسها ـ دوام المرض، ويشبه أن يكون هذا القول هو القول السابق بتوجيهه الذي ذكرناه، ولم يعرف عن النبي ﷺ أنه كان يشكو مرضاً في أيام جواره في الغار حتى يخشى على نفسه دوام المرض، وإنما معنى هذا القول أن ما وقع له ﷺ من شدة الغط وروعة المفاجأة نال من بشريته بما أتعبه وأمرضه، وخشي على نفسه أن يدوم هذا المرض، فيعجز عن حمل أعباء الرسالة.

سادسها ـ العجز عن حمل أعباء الرسالة، وهذا هو القول السديد الذي ينبغي أن تؤول به الخشية ، والروايات بمنطوقها ومفهومها وجو الأحداث تؤيده، كما بيناه فيما سبق.

سابعها ـ العجز عن النظر إلى المَلَك من الرعب، وهذا القول يفيد أن الملك فاجأه بصورة غير بشرية فرعب منه، وخشي على نفسه أن يعجز عن النظر إليه لتلقي الوحي منه، وقد يتأيد هذا بما وقع للنبي ﷺ من الغَشْي حينما رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليها، وحينما رآه سادّاً الأفق وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض.

ثامنها ـ عدم الصبر على أذى قومه، وهذا القول يدخل في حيز القول بخشية العجز عن حمل أعباء الرسالة، فهو بسبب من أسبابه فهما كالقول الواحد.

تاسعها ـ أن يقتله قومه إذا بلَّغهم رسالة ربه، قال القسطلاني في المواهب وشارحه الزرقاني: ولا غرو في خشيته ذلك وإن كان سيد أهل اليقين، لأن ذلك مما يرجع إلى الطبع، فإنه بشر يخشى من القتل والأذية، كما يخشى البشر، ثم يهوِّن عليه الصبر في ذات الله كل خشية، ويجلب إلى قلبه كل شجاعة وقوة.

وهذا القول ـ في رأينا ـ يرجع أيضاً إلى خشية العجز عن حمل أعباء الرسالة وعدم الصبر على أذى قومه.

عاشرها ـ مفارقة الوطن، وهذا مما يمكن أن يكون قد دار في خلد

رسول الله ﷺ، وألمَّ بخاطره، فإن مجيئه لقومه بما يخالف ما هم عاكفون عليه، منغمسون في حمأته من وثنية وعوائد فاسدة وأخلاق مرذولة ونظم ظالمة، يجعلهم يضيقون به وبوجوده بينهم ليغير حياتهم وينقلهم إلى حياة تباعد بينهم وبين هذا الفساد الذي ألفوه وارتضوه لحياتهم وعاشوا به، فلا أقل من محاولة التخلص منه بإبعاده عنهم، وإخراجه من بلده ودياره، وذلك من أشق ما يكون على النفس، بدليل ما جاء في حديث ورقة بن نوفل حينما قال للنبي ﷺ: ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فاستعظم النبي ﷺ ذلك استعظاماً كبيراً، فقال منكِراً متعجباً: (أومخرجيّ هم؟) وهذا القول في بيان المراد من الخشية مما لا يمتنع قبوله.

حادي عشرها ـ تكذيبهم إياه، وهذا أمر طبيعي الوقوع، فخشيته ﷺ أن يكذِّبوه في دعوته وسيلة إلى توقع الأذى منهم، وحينئذ يدور في خواطره تساؤل: هل يصبر على أذاهم، ويقوى على الدأب في تبليغ رسالة ربه، غير مبال بما يكون منهم؟ أو لا يصبر على الأذى؛ فيعجز عن حمل أعباء رسالته؟.

ثاني عشرها ـ تعييرهم إياه، وهذا قول لا محصل له، لأن خشية التعيير لا تكون إلا إذا كان التعيير بأمر معيب، يسوء الإنسان في أخلاقه وسلوكه، والنبي ﷺ قد أتى قومه، وأتى العالمين بما لم يأت أحد من الأنبياء والمرسلين بمثله خيراً وبراً وهُدى وعدلاً ورحمة وطهارة عقيدة وسمو أدب، فَبِمَ يعيرونه؟ حتى يخشى هذا التعيير، ولا يمكن أن يقع ذلك منه ﷺ إلا إذا كان على معنى مجرد مخالفتهم لما كانوا عليه من سوء العقيدة ورذائل العادات التي ألفوها، وأصبح من العسير عليهم خروجهم منها، وقد يتأنس لذلك بخشيته ﷺ من تعييرهم إياه بمخالفتهم في كثير من أعرافهم وعاداتهم الباطلة كما وقع ذلك في خشيته ﷺ تعييرهم له بزواجه امرأة مولاه زيد بن حارثة الذي كان يدعى فيهم زيد بن محمد، فأخفى في نفسه ما أظهره الله زواجه بها قطعاً لدابر عادة فاسدة، وعرفه أنه سبحانه أحق بالخشية من الناس لأن الله يقول الحق، ويشرع لعباده الحق والعدل، وأولئك القوم الذين تخشاهم كانوا أولياء الشيطان شرع لهم الأباطيل والأضاليل، فتمسكوا بها وتأصلت في نفوسهم.

ولكن رسول الله ﷺ هو القدوة للمؤمنين في هدم أباطيل الشرك وأضاليل الوثنية ورذائل الجاهلية ومفاسدها، ولهذا جعله الله المثل المشهود في هدم هذه العادة الظالمة من عاداتهم المتأصلة في أخلاقهم، فزوجه السيدة زينب بنت جحش التي كانت زوجة لمولاه زيد الذي كان يدعى زيد بن محمد بالتبني بعد أن طلقها زيد، فكانت بهذا التشريع الحكيم إحدى أمهات المؤمنين.

ترجيح ابن حجر غير راجح

قال ابن حجر بعد سوقه لهذه الأقوال بهذا الترتيب التي أوردناها على نهجه: وأولى هذه الأقوال بالصواب، وأسلمها من الارتياب، القول الثالث واللذان بعده، وما عداها فهو معترض.

وبالتأمل في توجيهنا لهذه الأقوال يعرف القارىء ما في كلام الحافظ ابن حجر من ترجيحه القول الثالث، وهو كما في ترتيبه القول بأن المراد بالخشية الموت من شدة الرعب والقولين بعده في الترتيب، أي القول الرابع، بأن المراد بالخشية المرض، والقول الخامس في الترتيب بأن المراد بالخشية دوام المرض.

وهذه الأقوال التي رجحها الحافظ ابن حجر من أضعف الأقوال الاثني عشرة التي ذكرها، وقد يلمح الباحث أننا في توجيهنا سابقاً ولاحقاً نرجح القول السادس في ترتيب الحافظ، وهو أن المراد بالخشية العجز عن تحمل أعباء الرسالة، والقيام بتبليغها إلى الأمة، ويليه في ترجيحنا القول الثامن، وهو أن المراد بالخشية عدم الصبر على أذى قومه، وهذا القول متصل بمضمونه بخشية العجزِ عن تحمل أعباء الرسالة.

ولا ضير مطلقاً أن يخشى رسول الله ﷺ بعد يقينه في لقاء الغار أنه كُلِّف ما لم يكلفه أحد قبله ـ وقد بسطنا القول في ذلك ـ أن تقوم في سبيله بعض العوائق والعقبات التي قد تعجزه عن القيام بموجبات تبليغ رسالته وحماية دعوته، فأبدى ذلك لزوجه وسَكَن نفسه، الوفية الأمينة، فأخبرته بما ترى بفراستها وتوسمها في حياته وجبلته التي فطره الله عليها من المكارم الخلقية التي لا يخزي الله من حلّاه بها طبعاً وفطرة، فزادته تثبيتاً على ثباته،

ويقيناً على يقينه، فكأنها رضي الله عنها قد كشفت له عن أصالة فطرته في المكارم التي كان على أكمل يقين منها، وأتم معرفة بها، ظناً منها رضي الله عنها أن ما نال بشريته من روع المفاجأة وشعوره ببهظ ما كُلِّفه قد ضخّم في خواطره الأعباء التي تنتظره في مستقبل دعوته، بصورة جعلته ﷺ يخشى العوائق والعقبات، وهذا أمر طبيعي في البشرية فيما هو دون ذلك بمراحل ومراحل، وأحق من يزن الأحداث بميزان تقديرها حق قدرها رسل الله وأنبياؤه، وأحقهم بذلك أعمهم رسالة وأعظمهم دعوة خاتم النبيين محمد ﷺ.

ومن غريب ما وقع في هذا الموضع أن العلامة الزرقاني شارح مواهب القسطلاني ذكر القول في بيان المراد بالخشية: تعييرهم إياه قولاً رابعاً في الترتيب، ثم قال: قال الحافظ ـ أي ابن حجر ـ: وهذان القولان ـ أي القول بالموت من شدة الرعب، والقول بتعييرهم إياه ـ أولى بالصواب، وأسلمها من الارتياب، وهذا خلاف ما صرح به الحافظ ابن حجر في الفتح، وقد نقلنا عبارته قبل هذا التنقيح للأقوال، وقد رجح فيها القول الثالث والرابع والخامس في ترتيب سياقه، وقد أوضحنا ما يقتضيه البحث العلمي في هذه الأقوال.

وحسب القلم من حديث عن هذه الأقوال التي قيلت في بيان المراد من قوله ﷺ: (قد خشيت على نفسي) ما نثر من رشح مداده، فإن فيه ري الظمأ، وثلج البيان.

وقفة ناقدة في بيان زيف وبطلان القول الأول

بيد أن أول هذه الأقوال ـ في ترتيب الحافظ ابن حجر كما نقلناه عن الفتح، وهو القول الأحمق الذي زعم زاعمه أن المراد بالخشية الجنون، وأن يكون ما رآه ﷺ من جنس الكهانة ـ يشد القلم إليه لبيان زيفه وبطلانه، وحماقة قائله، وبَلَه من يقبله ويرتضيه قولاً، ويحكى في أعطر سيرة لأفضل الأنبياء وأشرف المرسلين مهما كانت شهرة قائله.

وقد كان في نقد الحذّاق من أئمة العلم لهذا القول الأحمق، وإبطاله وتزييفه ما يكفي لراحة القلب من همه وغمه، فقد أبطله الإمام الحاذق الفقيه

المفسر أبو بكر بن العربي، ولم يقم وزناً في موازين العلم لقائله، ولم يعبأ به باحثاً من الباحثين المفكرين، وقد شدّ أزر ابن العربي وأيده في قطعه الحكم ببطلانه الإمام الحافظ العلامة ابن حجر، فقال بعد أن ذكر إبطال ابن العربي له: وحق له أن يُبطل.

غير أن ابن حجر لم يشأ أن يترك هذا القول الأحمق تهوي به عواصف الإهمال إلى أودية الفناء، ولكنه أداء لحق استيفاء البحث ذكر أن هذا القول جاء مصرحاً به في عدة طرق، ولم يبين ما هو وزن هذه الطرق التي جاءت مصرحة بهذا القول الأحمق، ومن هو الذي أسند إليه التصريح به؟

وسيرى القارىء أن من هذه الروايات والطرق المتهافتة المتهاوية التي صرحت بهذا القول ما رواه ابن سعد عن شيخه الواقدي، وسنبين وزنها في نظر جهابذة المحدثين.

وإلى هنا ليس في أمر هذه الأقوال ما يحمل القلم على إطالة الوقوف معها، فقد بان أمرها، وانكشف سرها، وهان خطرها، ولكن الحافظ ابن حجر مع تأييده لبطلان هذا القول الأحمق ـ على رغم قوله: جاء مصرحاً به في عدة طرق، فلم يرفع لهذه الطرق رأساً، ولم يعبأ بها بحثاً، وابن حجر في عدم عبثه بهذه الروايات والطرق التي صرحت بهذا القول هو من هو في وزن البحث الحديثي، فموقفه هذا يكشف عن زيف هذه الطرق ويكشف عن زيغها، لأنه ليس من المعقول، ولا من المقبول في شرعة البحث العلمي أن تكون هذه الطرق أو بعضها يستند إلى شبه دليل يقيها التهافت والضعف، بل الزيف والبطلان، ثم يقف منها الحافظ ابن حجر موقف عدم الاعتداد بها وإهمالها، والجزمُ ببطلان القول التي جاءت مصرحة به ـ أعطى لهذا القول وزناً يخدع الأغرار الذين يقبلون أقوال الرجال بوزن أسمائهم في طبقات العلماء، لا بوزن آرائهم وأفكارهم في سجل البحث العلمي الذي يستهدف الحق، فنقل عن أبي بكر الإسماعيلي شيخ عصره في الحديث والفقه ـ كما يقول عنه الحاكم ـ أنه حمل هذا القول على أنه ـ أي خشية الجنون، وأن ما رآه ﷺ من جنس الكهانة ـ حصل للنبي ﷺ قبل أن

يحصل له العلم الضروري أن الذي جاءه ـ أي في الغار ـ ملك من عند الله.

مناقشة أبي بكر الإسماعيلي في تلمسه توجيه أفسد هذه الأقوال

ونحن عبر القرون نتخطى درجات الزمن، ونسأل الإمام أبا بكر الإسماعيلي، ومن يعتد بدعمه لهذا القول بعده من المفكرين والباحثين إلى يومنا هذا، وإلى يوم تتهدد فيه مكانة العقل الإنساني في جدية البحث العلمي، ولا سيما فيما يختص بأخطر أمور الدين والنبوة والرسالة عامة، ونبوة ورسالة الإسلام خاصة، ليكشف لعقلاء المفكرين عن حقيقة قوله: إن ذلك ـ أي خشية الجنون والكهانة ـ حصل للنبي ﷺ قبل أن يحصل العلم الضروري له أن الذي جاءه ملك، وأنه من عند الله تعالى، فنقول: في كم شهر، أو في كم سنة، يحصل العلم الضروري ـ أي الملجئ ـ للنبي ﷺ أن الذي جاءه في الغار ملَك، وأنه من عند الله تعالى؟، وأن ما رآه في الغار، وسمعه، وكابده من روعة المفاجأة، وطلب القراءة منه، وهو الأمي الذي لم يقرأ قط، وما تبع ذلك من الغط الشديد الذي بلغ منه الجهد حتى ظن أنه الموت، وتكرار ذلك ثلاث مرات، وإقرائه في المرة الرابعة خمس آيات من الكتاب الكريم، هي أوائل سورة (اقرأ) وهي أول ما نزل من القرآن العظيم، ورَجْعه بها إلى أهله محفوظة مذكورة ـ ليس من جنس الكهانة والجنون، وتلبيس الشياطين؟.

وقد كانت نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة قطعاً بأكثر من مرتبة من مراتب وحي النبوة، وأثبت هذه المراتب وأقواها وحي الرؤيا المنامية التي اتفقت عليها جميع الطرق والروايات وأجمعت عليها الأمة إجماعاً لم يعرف له مخالف، وكانت هذه المرتبة من وحي النبوة مع غيرها من المبشرات والإرهاصات أسبق زمناً ـ بمدة أقلها ستة أشهر كما خرجه البيهقي، وأكثرها ثلاث سنوات كما في حديث إسرافيل عند الشعبي ـ من حادث الغار الذي تلقّى فيه رسول الله ﷺ وحي المواجهة واليقظة بمفاجأة الملك، وطلب القراءة، والغط والمراجعة وبدء نزول القرآن العظيم بنزول أوائل سورة (اقرأ) مما بدأت به رسالة النبي ﷺ.

وأشهر روايات وحي النبوة بالرؤيا المنامية وأصحها ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري وغيره إذ تقول فيه: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ـ وفي رواية الصالحة ـ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

وهذا التعبير في أسلوب السيدة عائشة رضي الله عنها لا يقال في بيان الفصحى فيما وقع مرة أو مرتين وإنما يقال فيما يفيد الكثرة والتكرار.

الرؤيا الصادقة أول مراتب وحي النبوة

ومعنى هذا أن الرؤيا الصادقة كانت أول مرتبة في مراتب وحي نبوة محمد ﷺ، فكان ﷺ نبياً منذ بدأه الوحي بالرؤيا الصادقة، وقد ذكر البيهقي تحديداً لمدة وحي الرؤيا المنامية بستة أشهر، وهذا التحديد مما لا سبيل فيه للرأي والاجتهاد، ولا يمكن أن يقال بالظن والاستنباط، ولا بد في إثباته من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، فهو وحده الذي يعلمه ويخبر به، ومنزلة البيهقي في السنة وعلوم الحديث وفنون الرواية أرفع قدراً من أن يقول ذلك تقحماً وتخرصاً دون أن يكون قد ثبت عنده رفعه إلى رسول الله ﷺ.

حديث الشعبي يثبت النبوة قبل حادث الغار ثلاث سنوات

وقد روى ابن سعد في الطبقات، وابن سيد الناس في (عيون الأثر) وغيرهما من أئمة الحديث عن الشعبي بأسانيد متعددة، وطرق مختلفة قال عنها القسطلاني في المواهب نقلاً عن روض السهيلي: فقد ثبت في الطرق (الصحاح) أن رسول الله ﷺ وكِّلِ به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي، ثم وُكِل به جبريل فجاءه بالقرآن والوحي.

قال ابن سعد: فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر ـ الواقدي ـ فقال: ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ، وأن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل من حين نزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ.

وقد اعتمد السهيلي حديث الشعبي، ورجّحه ابن حجر على كلام الواقدي، فقال: إن الشعبي مثبت والمثبت مقدَّم على النافي.

وأنّى للواقدي أن يقرن بالشَّعبي أو يكون معه في ميزان؟ وكلام النقدة

وأهل الجرح والتعديل في الواقدي وضعفه معروف مشهور، وعدم معرفة أهل العلم ببلده أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ لا يصلح دليلاً على عدم صحة حديث الشعبي، فقد يكون هذا من العلم الذي لم يصل إلى أهل العلم في بلد أو وصلهم ولم يصل إليه منهم، وكم من العلم كان في بلد من بلاد الإسلام لم يصل إلى بلد آخر، وهذا النحو كان من مصادر اختلاف العلماء في الاجتهاد.

وترائي إسرافيل عليه السلام للنبي ﷺ وإتيانه إياه بالكلمة من الوحي ـ كما في حديث الشَّعبي ـ نبوة لا شك فيها، وإلا فكيف تُلقى الكلمة من الوحي لغير نبي؟.

حديث البيهقي يثبت النبوة قبل حادث الغار بستة أشهر

وإذا تجاوزنا عن التمسك بحديث الشَّعبي ـ وقد بيَّنا اعتماد السهيلي وتصحيحه وترجيح ابن حجر له ـ وهو صريح في أن مدة قرن إسرافيل به ﷺ، يظهر له، ويأتيه بالكلمة من الوحي ـ ثلاث سنوات كان فيها محمد ﷺ بيقين نبياً معصوماً، يوحى إليه، ولا سبيل للشك إلى قلبه، ولا سبيل للشيطان عليه، إذا تجاوزنا عن ذلك كان أثر البيهقي في تحديد مدة وحي الرؤيا المنامية بستة أشهر قائماً مستمسكاً يثبت نبوة محمد ﷺ وعصمته بما لا يدع مجالاً للشك، قبل وقوع المفاجأة في الغار ـ ووحيها اليقظي الذي جاءت في روايته (الخشية) وتقحّم المتخرصين في تفسير المراد منها ما تقحموا ـ بزمن طويل يكفي لأن يحصل فيه العلم الضروري وأكثر منه بأن ما رآه وسمعه وكابده في الغار أمر من عندالله ووحيه، لا يخشى منه على نفسه جنوناً ولا كهانة.

وقد بيَّن حديث عبيد بن عمير، وحديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم بصورة واضحة أسبقية وحي الرؤيا الصادقة؛ بما يشعر بطول مدتها قبل نزول وحي اليقظة في غار حراء الذي جاءت في قصته (الخشية)، فيكون فيهما تأييد لأثر البيهقي.

أفلا تكفي ستة أشهر ـ بَلْه ثلاث سنوات التي في حديث الشَّعبي ـ في أنوار النبوة ووحيها وإرهاصاتها وآياتها لحصول العلم الضروري للنبي ﷺ أن

الذي جاءه في الغار مفاجئاً، وغطَّه وأقرأه خمس آيات من القرآن العظيم هي أول ما نزل منه في أول سورة (اقرأ) ملَك، وأنه رسول من عند الله إليه، وأن هذا الرسول هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، كيف وقد قال النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها كما ثبت في حديث ابن حزم: «أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن».

وفي دلائل البيهقي من طريق أبي ميسرة مرسلاً أن النبي ﷺ قصَّ على خديجة ما رأى في المنام، فقالت له أبشر، فإن الله لن يصنع بك إلا خيراً، ثم أخبرها بما وقع له في النوم من شق البطن، فقالت له: أبشر إن هذا والله خير، ثم استعلن له جبريل، فقال لها: «أرأيتك الذي كنت رأيت في المنام فإنه جبريل استعلن لي بأن ربي أرسله إليّ» وأخبرها بما جاءه به، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فاقبل الذي جاءك من الله، فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقاً.

حديث أبي ميسرة يثبت أن النبي ﷺ كان على أكمل اليقين في علمه بأن من جاءه في الغار ملك من عند الله

وقد فرَّع الحافظ ابن حجر من هذا الحديث مسألة في أسبقية خديجة رضي الله عنها على جميع الناس إيماناً برسول الله ﷺ؛ مما يدل على قبوله عنده ـ وحسبك به في هذا المجال ـ فقال: هذا أصرح ما ورد في أنها أول الآدميين آمن برسول الله ﷺ.

فحديث أبي ميسرة عند البيهقي صريح في أن النبي ﷺ كان على أكمل اليقين بأن الذي جاءه في المنام وشق بطنه وأعاده، ثم استعلن له في مفاجأة الغار هو ملَك، وأنه رسول إليه من عند الله، بل كان على أكمل اليقين أنه هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا موافق تمام الموافقة لحديث ابن أبي بكر بن حزم، وهذه الموافقة تؤكد أن النبي ﷺ كان على أكمل العلم الضروري بأن الذي جاءه في الغار ملك، وأنه من عند الله، بل إنه هو جبريل أمين الوحي عليه السلام.

كيف وقد رآه معاينة، وشاهده جهرة عقب رؤياه مناماً في رؤيا نمط الديباج، وأقرأه الآيات الخمس التي أقرأه إياها في مفاجأة الغار كما ورد في حديث عبيد بن عمير من قوله ﷺ: «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من

الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

أفلا يكفي ذلك كله لحصول العلم الضروري عند محمد ﷺ أنه نبي يوحى إليه، وأن الله تعالى أرسل إليه الروح الأمين في صور من مراتب الوحي المنامي واليقظي ليخبره أنه رسول الله، وأن الذي يراه ويحدثه هو حامل كلمة الله إليه جبريل عليه السلام؟.

أولا يكفي ذلك كله لتحقيق العصمة العامة التي يجب أن يتصف بها كل نبي لله تعالى، فلا يعتريه مسّ من الشك في نبوته ووحي الله إليه، ولا يكون للشيطان عليه سبيل، يلبس عليه أمر ربه في وحيه ونبوته؟.

أولا يكفي ذلك كله ليملأ قلب محمد ﷺ يقيناً فوق مستوى العلم الضروري، فلا يختلج في نفسه أن رؤيته لملَك الوحي معاينة مواجهة ـ يحاوره ويراجعه، ويضمه إليه استفراغاً لبشريته مرات، ويشافهه بما أنزل عليه، فيقرئه خمس آيات بينات من القرآن المبين، هي في موضوعهن معجزة المعجزات ـ جنون أو من جنس الكهانة وعبث الشياطين.

صرخة في أذن التاريخ لتصحيح الأغاليط

يا أئمة العلم، يا سدنة الإيمان: ألا سمعتم إلى صوت العقل العليم، والإيمان الكريم، وهما يقولان لكم: انظروا عمن تتحدثون؟ وفيم تتحدثون؟ وإلى من تتحدثون؟ إنكم تتحدثون عن محمد رسول الله ﷺ، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وهو الذي صنع منكم سدنة لكعبة الإيمان في أمته، وهو الذي أطلعكم شموساً من آفاق دعوته وبه كنتم هداة بهداية رسالته، وأورثكم بعده نور شريعته، لتنيروا الطريق أمام الحياة، وتدرأوا عن العقول المشابه والشكوك، وهو الذي قعدتم باسمه وهَدْي نبوته مقاعدكم على ذرى التبجيل والإعزاز.

أفليس من بدائه حقه ﷺ في أعناقكم خاصة أن تقدِّروه حق قدره؟ وأن تعرفوا له مكانه من العصمة في وحي الله إليه منذ أول لحظة اصطفاه الله

فيها لنبوته؟ واستنبأه فيها بوحيه، وأن تعرفوا له منزلته من عين اليقين في كل ما رأى وسمع وكابد في أول مفاجأة بوحي اليقظة الذي بدأت به رسالته، ونزلت عليه في هذا الوحي اليقظي آيات من القرآن الحكيم بعد نبوته التي ظل مغموراً بأنوارها ثلاث سنوات، كما في حديث إسرافيل عند الشعبي، أو ستة أشهر، كما رواه البيهقي؟.

يا أئمة الهُدَى، وسدنة الإيمان، ألا قدَّرتم حين تحدثتم عن رسالة محمد ﷺ في أول مراتب وحيها أنكم لا تتحدثون عن مسألة فقهية يسوغ فيها اختلاف الاجتهاد، وقد يخف فيها الخطأ، ولكنكم تتحدثون في الوحي الذي تثبت به رسالات الله تعالى إلى المصطفين من أنبيائه ورسله ليكونوا سفراءه إلى خلقه، يبلغونهم عنه شرائعه وهداياته، وهذا الوحي لو دخله شيء ـ أدنى شيء ـ من الشك واحتمال التلبيس لما أمكن لأكثر العقول أن تطمئن إلى حصول يقين يزيح هذه الشكوك.

وقد انتهى الوحي لسائر الأنبياء والمرسلين إلى الوحي لخاتمهم محمد ﷺ، فإذا تعرض هذا الوحي المحمدي لأدنى شبهة لم يكن من الممكن استفتاح القلوب والعقول لهداية الرسالة الخاتمة لرسالات جميع المرسلين.

وإذا تعرض صاحب هذه الرسالة لشبهة شك في تلقيها ـ بَلْه الكَهانة والجنون ـ لم يكن هناك سبيل للإيمان بدعوته وتقبُّل هدى رسالته؛ لأن ضباب الشك يحجب أشعة العلم بالحق، ومع وجود هذا الضباب كيف يمكن إقناع الناظرين بوجود أشعة الحق من وراء هذا الضباب؟.

يا أعلام الهدى؟ هل فكَّرتم حين تحدثتم عن الوحي في مطلع رسالة محمد ﷺ، وهو ينزل عليه بآيات بينات افتتح بها نزول القرآن الكريم أنكم تتحدثون إلى المسلمين أمة محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى خاصتهم وعامتهم، علمائهم ومتعلميهم، وأغمارهم، وكل هؤلاء وضعوا في أذهانهم صوراً لكم من الإعجاب، وأحاطوها بالقداسة والإجلال، فكيف بهم وبكم وهم يرون بعضاً ممن ينتسب إلى الذروة في أمة محمد ﷺ رضي لدينه وعلمه وعقله أن ينسب إلى محمد ﷺ أنه شك في وحي ربه إليه

ـ ولو لحظة ـ وأنه خشي أن يكون هذا الوحي إليه جنوناً أو كهانة؟.

إن هذا التقحم المتخرص في تفسير بعض الألفاظ يفتح الأبواب لمن ولجوا إلى ساحة الإيمان ليخرجوا منها حتى يجدوا اليقين فيعودوا إليها معه، وأنَّى لهم باليقين مع احتمال الشك والتلبيس؟.

أعداء الإسلام يتسقطون هذه الفلتات الخاطئة

يا قادة الفكر في الإسلام، هلاَّ مددتم أنظاركم إلى آفاق الدعوة الإسلامية الشاملة أقطار الأرض وأجيال الإنسانية أينما حلوا وحيثما وجدوا، وعلمتم أن أحاديثكم التي تتحدثون بها بألسنتكم وأقلامكم عن رسالة الإسلام وحياة رسولها محمد ﷺ لا تقف عند مسامع المجتمع المسلم الذي قد يكون له من إيمانه بقداسة الرسالات الإلٓهية ما يحميه من الريب والاضطراب في عقيدته، ولكنه ينتشر في آفاق الحياة، فتسمعه آذان غير مسلمة، ويدخل عن طريقها إلى قلوب قد تحمل البغضة والعداوة للإسلام، ورسول الإسلام، وأصحاب هذه القلوب الحاقدة يقفون متربصين بهذا الدين ورسالته دوائر الفلتات الخاطئة التي تنزُّ بها أقلام وألسنة من وُضعوا من الإسلام موضع القيادة الفكرية، فإذا عثروا على فلتة خاطئة تنادَوا إليها، وطاروا بها فرحاً، وتجمعوا حولها، وجعلوا منها قضية فكرية يهاجمون بها الإسلام في رسالته وفي حياة رسوله، ولا سيما إذا كانت تلك الفلتة الخاطئة مما يتعلق بأصل أصول الإسلام، بالوحي الذي بدأت به رسالة الإسلام، ويتخذون منها مورداً للمطاعن التي تقوض دعائم الإيمان في نفوس الذين لم يرسخ إيمانهم، بله الذين في قلوبهم مرض من الذين يكثر بهم سواد المسلمين (الجغرافيين) وهم غثاء كغثاء السيل، لا يستطيعون رد شبهة ولا إقامة حجة.

وإذا كان هذا موقف الحاقدين على الإسلام، الشانئين لرسوله ﷺ كفراً وحسداً من عند أنفسهم من فلتات أقلامكم وألسنتكم فهناك موقف من لم تبلغهم دعوة الإسلام أصلاً، أو بلغتهم بلاغاً مشوّهاً محرفاً عن حقيقتها تحريفاً وشَوَهاً يصدان عن سبيلها والنظر في حقائقها ـ وما جاءت به من عقيدة نظرية وعبادات عملية، وآداب خلقية وتشريعات نظامية ـ تبغيضاً

فيه، وطعناً في رسالته التي جاء بها محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه.

وهؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام، أو بلغتهم في شَوَه وتحريف أسمع إلى صناديدهم، ومَنْ وسموه بالعلم والمعرفة من أحبارهم ورهبانهم وكهنتهم ممن يتزيا بزي أهل المعرفة، ويتسربل بسربالهم من مرتزقة الاستشراق والتبشير بالأضاليل الذين يتسقطون الفلتات الخاطئة من أقلام وأفواه الغافلين ممن اتسموا بسمات العلم في الإسلام، ويتلقفون الأخطاء يرجفون بها إرجاف الحقد الظلوم، يتزيدون فيها، وينشرونها هنا وهناك منسوبة إلى قائلها في جوّ من التهويل والطنطنة بأسماء من زعموا أنهم يمثلون الفكر المسلم.

هذه الفلتات الخاطئة تعصف بالعقول وتحرق القلوب

وتنزل آثار هذه الفلتات الخاطئة على قلوب المؤمنين برسالة الإسلام صواعق تحرقها، وعلى عقولهم عواصف تهزها بالشك المدمر، فتذيب عقائدهم، وتشرّد من طريق الإيمان برسالة الإسلام من لم تبلغه دعوته، وتتوتَّد عقبة كؤوداً في سبيل الداعين إلى هدايتها، يعسر عليهم زحزحتها ما دامت تلك الفلتات الخاطئة تحف بها.

يا سدنة الإيمان، ما كان يضركم في دينكم وعلمكم لو أنكم حبستم هذه الفلتات الخاطئة في داخل هواجسكم ولم تسمحوا لها أن تطل برأسها على الحياة الفكرية في معارف الإسلام؛ حتى لا يفتتن بها ضعاف العقول من الذين يخلعون عليكم جلابيب القداسة في عالم الإسلام، وحتى لا تكون فتنة تشعل نيران الحقد في مرضى القلوب الذين يتربصون بالإسلام الدوائر من أعدائه المتعصبين عليه وعلى أمته وأوطانه؟.

ومرة أخرى ما كان يضركم لو رددتم هذه الفلتات الخاطئة على من تولى كبرها، وتقحَّم تخرصها مهما كان شأنه؟ أكان ينقص رسالة الإسلام شيء تخافونه عليها لو لم تشت هذه الفلتات الخاطئة في تفسير بعض كلمات قد تكون مروية في بعض روايات الحديث، ولها مخارج من التفسير يبعدها عن نهج العصمة الواجبة للأنبياء، وتنأى بها عن مواقع الريب والشكوك في وحي الرسالة الخاتمة لرسالات السماء.

وكم من أحاديث وروايات سُمعت ورويت ثم أهملت ولم يقدَّر لها أن تثبت في سجل المعارف الإسلامية؟ وكم كان يحفظ شيخ الدنيا في الحديث الإمام البخاري من الروايات والأحاديث؟ وكم كان يحفظ غيره من شيوخه وتلاميذه، ومن سبقهم، ومن جاء بعدهم؟ إنهم وإنه كانوا يحفظون مئات الألوف مما يجل عن الحصر، وما الذي سجلوه في جوامعهم ودواوينهم مما حفظوا، إنه أقل من القليل وليس كل ما لم يثبتوه كان موضوعاً مكذوباً.

أفلو كانت هذه الفلتات التفسيرية أهملت عن قصد أو عن غير قصد أكان إهمالها وتركها يضر بالدين والعلم؟

يا هادي الطريق جرت، إنما هو والله الفجر أو البجر!!.

الإلحاد اليوم أطغى وأفتك بعقيدة المسلمين.

يا سدنة الإيمان، لو كنتم تعرفون ما تقاسي أمة الإسلام اليوم، وما يعانيه الإسلام من هجوم الإلحاد وطغيان الكفر «الجديد» ما رضيتم أن تثبتوا هذه الفلتات الخاطئة ولأرحتم أمتكم من آثارها القاسية.

إننا اليوم ـ حيث لا أنتم ـ نعاني من شدائد الإلحاد الحقود، والعداوة الكفور لإسلامنا ما لم يعرف مثله في تاريخ الإسلام، إننا اليوم حيث لا تستطيعون ـ وقد فارقتم الدنيا ـ تبيين ما نزَّت به ألسنة وأقلام، شحنت بها كتب التراث الإسلامي، تبييناً يرفع عنها الاحتمالات الضارة بالدين والدنيا، ويسد منافذ الشكوك في قداسة النبوة وجلال الرسالة الإلّهية، ويذود عن حمى عصمة الأنبياء والرسل، ويطهر ساحة الرسالة المحمدية الخاتمة عن دنس الأباطيل ورجس التلبيس والشك مما قد يتعلق به أعداؤها ـ وما كان أكثرهم ـ من شبهات وأضاليل تنزُّ بها تخرصات متقحمة ـ نقول جهرة بصورة عامة: إن من أوجب واجبات علماء الإسلام في يومنا هذا أن يعملوا جادين مسرعين على تنقية التراث الإسلامي ومؤلفاته في سائر فنونه، ولا سيما فن الحديث والسنة النبوية، وفن تفسير القرآن من الفلتات الخاطئة والأكاذيب الضالة المضلّة، التي دُسّت على الإسلام، أو قبلت رواياتها عقول بالغت في حسن الظن بالرواة والناقلين.

واجب علماء الأمة وأئمة الإسلام اليوم أن ينهضوا لتنقية التراث الإسلامي من الأغاليط والأضاليل

ولأن نخطىء في حذف ما عسى أن يكون صحيحاً ولكنه عسر الفهم، صعب التأويل خير من أن نبقى على فلتة خاطئة واحدة، أو دسيسة دخيلة واحدة، يتخذها أعداء الإسلام من ملاحدة العصر الكفور ذريعة للهجوم على حقائق الإسلام العقائدية أو التعبدية أو النظم الاجتماعية.

وبصورة خاصة إن كل ما قيل حول ما جاء في روايات بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ من كلام يشعر بأدنى شك في يقين رسول الله ﷺ بأن مَنْ جاءه في غار حراء يقظة، وأقرأه من القرآن أول ما أنزله الله تعالى عليه من أوائل سورة ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق﴾ هو جبريل أمين الله على وحيه إلى الأنبياء والمرسلين ـ هو كلام باطل لا تقبله عقول المؤمنين، وتقحّم في التأويل، وتخرص في الاستنباط يجب طرحه وإهماله، وتخليص دواوين السنة النبوية منه، تنزيهاً للرسالة المحمدية مما يخدش سموها وقداستها.

لم ترد كلمة خشيت على نفسي في أكثر الروايات

والكلمة التي وردت في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري: (لقد خشيت على نفسي) وزَعْمُ مَنْ زعم في تفسيرها ردّها إلى الكهانة والجنون لم ترد في كثير من روايات أحاديث بدء الوحي، فورودها في بعض الروايات مهما تكن مكانة وشأن من أوردها في روايته، ـ وهو غير معصوم عن الخطأ ودخول الخديعة عليه ـ لا يجوّز مطلقاً أن يلصق بها في تفسيرها وبيان المراد منها، وهو أمر ـ لو كان قد وقع ـ من أخص ما يجول في داخل نفس النبي ﷺ وهو لم يفصح عنه، ولا طريق لعلمه وراء ذلك ـ ما يتنافى مع ما يجب بداهة لمعنى العصمة، من التقحمات التفسيرية والتخرصات الباطلة، ما دام لها من منادح التأويل العَقُول والتفسير السويّ الطهور، ما يضعها موضعها من العلم والدين، ويصون قداسة النبوة بما يجب لها من الإعزاز والتكريم، ويحفظها عن الانزلاق في مهاوي الانحراف الذي يفتح على المسلمين منافذ التشكيك بما يلقيه أعداء الإسلام من المطاعن اعتماداً على تلك التخرصات التفسيرية الخاطئة والتقولات الباطلة.

ونحن نورد من الأحاديث التي وردت في موضوع بدء الوحي، وليس

فيها هذه الكلمة (خشيت على نفسي) أو ما يقرب من معناها ما يدغدغ الثقة بورودها حيث وردت، لأن عدم ذكرها في عدد من الأحاديث التي تتحدث عن بدء الوحي يجعل موقف الأئمة الذين لم يوردوها في رواياتهم موقف المتحفظ الذي لا يروي إلا ما ثبت عنده، وفهم معناه واهتدى إلى تأويله، وهذه الكلمة: إما أنها لم تثبت عندهم أصلاً، أو وردت عليهم ولكنهم لم يفهموا المقصود منها، لخفاء ذلك عليهم، إذ هو معنى يستقر في نفس النبي ﷺ، لم يفصح عنه في حديث صحيح، فكانوا بسكوتهم عن ذكرها أحوط لأنفسهم في دينهم وعلمهم، وأحوط للمسلمين في حوطهم من تسرب فتنة الشك إلى عقولهم وقلوبهم.

والكلمة ـ خشيت على نفسي ـ في ذاتها لا يتعلق بها غرض فكري أو شرعي، فتركها على فرض ثبوتها ـ لا يضير في نقص شيء من مهام الدين، فهؤلاء الذين تركوا هذه الكلمة في رواياتهم قد أقفلوا أمام المتربصين بالإسلام وأمام المتقولين عليه الباطل أبواب الأوهام والشكوك التفسيرية التي تثير الفتن الفكرية، وتهزّ العقيدة في إيمان جماهير المسلمين هزاً قد يقتلع جذورها من عقولهم وقلوبهم، ولا سيما الذين لم يتحصنوا فكرياً حصانة تصون الإيمان من لفحات العواصف الإلحادية والتعصُّب الحقود.

والذين ذكروا هذه الكلمة ـ خشيت على نفسي ـ في رواياتهم ـ وقد يكونون أرجح في ميزان الرواية ـ لثبوتها في منهجهم قد أدوا أمانة العلم، ولم يقتحموا سحائب الغيب ليقرؤوا ما عسى أن يكون لها من تقحم وتخرصات تفسيرية تهز العقيدة وتعصف بالإيمان.

وليس على واحدة من الطائفتين من سبيل، إنما السبيل على الذين تقحموا متخرصين في تفسير المراد من الخشية، حتى زعم بعضهم في تفسيرها وبيان المراد منها بما كان ويكون أمضى سلاح في يد أعداء الإسلام، ورسالة الإسلام ورسول الإسلام، وعلى الذين ظلموا أنفسهم فشمروا لتوجيه هذه المزاعم الفاسدة والدفاع عنها بما هو أفسد منها، وقد اخترنا سياقة ابن سيد الناس لهذه الأحاديث لجودتها.

حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم من رواية أبي بشر الدولابي

(١) روى ابن سيد الناس في (عيون الأثر) ـ وهو من أثبت علماء السيرة النبوية تحقيقاً وفقهاً في رواياتها، وأحاديثها ـ عن أبي بشر الدولابي بسنده إلى عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أنه كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى في المنام رؤيا فشق ذلك عليه، فذكر ذلك لصاحبته خديجة بنت خويلد فقالت: أبشر، فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، فذكر لها أنه رأى أن بطنه أخرج فطُهِّر وغسل، ثم أعيد كما كان، قالت: هذا خير فأبشر، ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليـه ـ وفي بعض الروايات ـ فأجلسني على درنوك ـ أي بساط له خمل ـ فيه الياقوت واللؤلؤ، وفي مرسل الزهري: فأجلسني عـلى مجلس كريم معجب ـ وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال: اقرأ، قال: (كيف أقرأ؟) قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم﴾ فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله، وانصرف إلى أهله، فلما دخل على خديجة قال: (أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن) أخبرها بالذي جاءه من الله عزّ وجلّ، وسمع، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فأقبل الذي آتاك الله، وأبشر، فإنك رسول الله حقاً.

تعليق وتحليل وبيان

فهذا الحديث الذي لم يطعن فيه أحد، ليس فيه أن رسول الله ﷺ لما انصرف إلى أهله، قال لخديجة وهو يحدثها بما رأى علانية، وما سمع جهرة (خشيت على نفسي)؛ بل هو صريح في أن النبي ﷺ عرف معرفة يقينية، وعلم علماً فوق العلم الضروري الذي يقع في إدراك الناس أن الذي سبق أن جاءه في النوم، وحدث به خديجة هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، قد استعلن له ـ أي ظهر له علانية في اليقظة ـ فأجلسه مجلساً عجيباً معظماً لقدره، وبشره مشافهة برسالة ربه حتى اطمأن رسول الله ﷺ، وأقرأه جبريل أوائل سورة (اقرأ). والاطمئنان في أسلوب العربية أجل من العلم الضروري الذي قد يقع نتيجة للبداهة التي قد تقتضيها العادات والأعراف السائدة في أي مجتمع من المجتمعات البشرية، أو نتيجة للبرهنة العقلية أو إدراك الحس ، وهذه أمور قد يعرض لها ما يحيلها علماً نظرياً يدخله الشك حتى

تدركه برهنة عقلية أخرى.

أما الاطمئنان فهو مشاهدة الحقائق كما هي في عين اليقين، فلا يمكن أن يدخله ما يغيرٌ من حقيقة مدركه في واقعه الوجودي، ولذلك لما سأل الخليل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه: كيف يحيي الموتى، قال له الله جلّ شأنه: ﴿أوَلَم تؤمن؟﴾ أي أنت في خِلّتك، ومكانتك من النبوة والرسالة أكمل الناس إيماناً، فالاستفهام معدول به عن حقيقته الاستخبارية، لأن ذلك محال في حق الله تعالى، وإنما أريد به التقرير والتعجيب، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: (بلى) أي أنا مؤمن بعقلي إيماناً لا يخالجه أدنى شك لما أريتني من آياتك في ملكوت السموات والأرض، ولكني أريد من مزيد فضلك ما هو أجلّ وأرفع درجة من الإيمان بالعقل الذي هو حظ كافة الأنبياء والمرسلين والحكماء من سائر المؤمنين، وأنا أريد إيمان الاطمئنان القلبي بشهود الروح في مرتبة عين اليقين.

أفكان خليل الله إبراهيم عليه السلام في إيمانه الذي طلب معه مرتبة الاطمئنان القلبي بشهود إبداع الله تعالى في إحياء الموتى غير حاصل له العلم الضروري في إيمانه بأن الله تعالى يحيي الموتى؟ هذا ما لا يمكن أن يهجس به خاطر مؤمن، ولا يقوله عاقل.

ولقد كان خليل الله إبراهيم عليه السلام في رسوخ إيمانه على أرفع درجات العلم الضروري، ولكنه عليه السلام طلب من الله عز شأنه مرتبة الاطمئنان القلبي، وهي مرتبة شهودية، أجلّ وأرفع مما يحققه العلم الضروري في رسوخ الإيمان، لأنه طلب من ربه عزّ شأنه أن يريه رؤية شهود كيفية إحيائه ـ جلّ ذكره ـ الموتى، وهذه مرتبة فوق مرتبة رسوخ الإيمان الذي ينتهي في تعاظمه إلى أكمل اليقين.

وهذا الاطمئنان القلبي في أكمل درجاته ـ الذي طلبه خليل الله إبراهيم عليه السلام، وهو مرتبة فوق مرتبة رسوخ الإيمان، وهي التي يعبِّر عنها الشهوديون أرباب القلوب بمرتبة «عين اليقين» ـ كان حال نبينا محمد ﷺ في لقائه بأمين الوحي جبريل عليه السلام يقظة في غار حراء، وهو اللقاء الذي

بدأ به نزول القرآن الكريم، وبدأت به رسالة محمد ﷺ.

وقد كان ﷺ منذ اتخذه الله نبياً بوحي الرؤيا الصادقة، وما تلاها من مراتب وحي النبوة أرسخ الأنبياء والمرسلين إيماناً، وكان في مرحلة نبوته يزداد يقيناً بفضل الله عليه فيما يرى ويسمع ويحدِّث حتى فجأه الحق، وجاءه الملك جبريل الأمين في غار حراء مستعلناً، مبشراً إياه برسالة ربه، حتى اطمأن، ثم قال له: اقرأ، قال: (كيف أقرأ؟) قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم ﴾.

فمرتبة الاطمئنان ـ كما هو نص حديث ابن حزم ـ تجددت له ﷺ مع رسوخ إيمانه عند استعلان جبريل له وتبشيره برسالة ربه حتى اطمأن، وصار مغموراً بأنوار الرسالة مكيفاً بخصائصها الروحانية، وهذا هو معنى ما جاء في حديث ابن حزم: فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

إذ لا معنى لقبوله رسالة ربه إلا التكيُّف الروحاني بخصائصها، ولا معنى لاتباعه الذي جاء به جبريل من عند الله إلا النهوض للقيام بواجبات الرسالة عملاً وتبليغاً.

فحديث عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم هو حديث الغار في جانب منه، دخله الاختصار في الرواية، ومفاجأة الملَك في الغار للنبي ﷺ ـ كما في حديث عائشة عند البخاري ومسلم ـ هي الاستعلان الذي جاء في حديث ابن حزم، وأخبر به النبي ﷺ خديجة في قوله: (أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن).

وفي هذا الاستعلان بشَّر جبريل محمداً ﷺ برسالة ربه حتى اطمأن رسول الله ﷺ إلى أن الله تعالى اصطفاه لرسالته، واطمأن إلى أن الذي رآه في المنام هو عين الملك الذي استعلن له في الغار، وأقرأه ما نزل من آيات القرآن، وهو أمين الوحي جبريل عليه السلام.

ويؤكد ذلك من نص الحديث اتصالُ طلب جبريل من النبي ﷺ

القراءة، ومراجعة النبي ﷺ له بقوله: (كيف أقرأ؟) فقال له: ﴿اقرأ باسم ربك ـ إلى قوله: علَّم بالقلم﴾ بالاستعلان بحرف الترتيب (ثم) المفيد للربط بين الاستعلان والإقراء، ففي عبارة الحديث: ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه، وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال: اقرأ.

وقد حققنا أن نزول أوائل سورة (اقرأ) لم يذكر قط في حديث صحيح متصل الإسناد غير حديث الغار، وبيَّنا أن ما جاء في مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق من نزولها في المنام لا يوازن ما أجمعت عليه جوامع الأئمة ومسانيد جهابذة المحدثين، وأوضحنا أن نزول جميع آيات القرآن الكريم لم يقع إلا في وحي اليقظة، ولم ينزل منه شيء في المنام، وما زُعم غير ذلك فهو ضعيف.

كما يؤكده ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها من رواية ابن لَهيعة عن أبي الأسود وعن عروة قالت: كان ﷺ أول ما رأى جبريل بأجياد، وصرخ: يا محمد، فنظر يميناً وشمالاً فلم يرَ شيئاً فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء، فقال جبريل: يا محمد، فهرب فدخل في الناس، فلم يرَ شيئاً، ثم خرج عنهم، فناداه فهرب، ثم استعلن له جبريل من قبل حِرَاء، وذكر قصة إقرائه ﴿اقرأ باسم ربك﴾.

وهذا يكاد يكون نصاً في إفادة أن حديث ابن حزم هو حديث عائشة في قصة الغار، في الجانب الأساسي منه، لقوله: ثم استعلن له جبريل من قبل حِراء، وذكر قصة إقرائه ﴿اقرأ باسم ربك﴾.

فاستعلان جبريل للنبي ﷺ من قبل حراء هنا هو ظهوره مفاجئة للنبي ﷺ في الغار، وإقرائه أوائل سورة (اقرأ) لم يقع إلا في أول لقاء يقظي، هو الذي فاجأ به جبريل رسول الله ﷺ في غار حراء، وطلب منه أن يقرأ، وراجعه النبي ﷺ بقوله: (ما أنا بقارىء)، وتكرر طلب القراءة مع الغط الذي بلغ الجهد ثلاث مرات، وانتهى في المرة الرابعة إلى نزول خمس

آيات من أول سورة اقرأ، ورجع بها رسول الله ﷺ إلى أهله قرير العين، مغموراً بأنوار رسالته، مطمئناً أكمل الاطمئنان إلى اصطفاء الله له اصطفاء كان به سيد العالمين.

أما احتمال أن يكون استعلان جبريل له ﷺ هو ظهوره له في صورة رجل صافٍ قدميه في أفق السماء كما جاء في حديث عبيد بن عمير عند ابن اسحاق ـ من قوله ﷺ: (فخرجت حتى إذا كنت وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل) ـ فهو احتمال بعيد، لأن ظهور جبريل للنبي ﷺ بعد خروجه إلى وسط الجبل في الصورة التي جاءت في مرسل عبيد لم يتصل بقصة إقرائه ﴿ إقرأ باسم ربك ﴾ كما اتصل الإستعلان من قبل حراء بها في حديث ابن حزم، واتصال الاستعلان بقصة الإقراء هو البرهان على أن استعلان جبريل للنبي ﷺ في حديث ابن حزم هو ظهور المَلَك المفاجىء في الغار كما جاءت به رواية عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما.

حديث ابن عباس

(٢) ثم روى ابن سيد الناس من طريق الدولابي أيضاً بسنده إلى ابن عباس قال: بعث الله عزّ وجلّ محمداً على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم.

قال ابن سيد الناس: فذكر نحو ما تقدم ـ أي مما جاء في حديث ابن حزم من قصة شق البطن، واستعلان جبريل للنبي ﷺ، وتبشيره برسالة ربه، حتى اطمأن، وإقرائه أوائل سورة (اقرأ) ـ ثم قال ابن سيد الناس: وفي آخره ـ أي آخر حديث ابن عباس ـ فلما قضى ـ أي جبريل ـ إليه ـ أي إلى رسول الله ﷺ ـ الذي أُمِر به ـ أي من الوحي والإِقراء ـ انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، لا يأتي على حجر ولا شجر إلا سلَّم عليه: سلام عليك يارسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه فاز فوزاً عظيمًا.

تعليق وتحليل

وهذا الحديث إلى ما فيه من التوافق بينه وبين حديث ابن حزم ـ في استعلان جبريل للنبي ﷺ وقصة إقرائه أوائل سورة (اقرأ) وعدم ورود كلمة (خشيت على نفسي) أو أي لفظ يحمل معناها ـ فإن فيه أصرح ما عبَّر عن ثبات جأش رسول الله ﷺ وكمال اطمئنانه على أن ما رأى وسمع في يقظته أمر من عند الله، جاء به إليه ملَك، هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، كما يدل عليه قول الحديث: (فلما قضى إليه الذي أمر به انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، موقناً أنه فاز فوزاً عظيماً).

أفيوقن رسول الله ﷺ بالفوز العظيم وهو شاكٌّ في حاله، وفيما رأى وسمع وقرأ، مُلَبَّس عليه، حتى يخشى على نفسه أن يكون ما كان له في وحي اليقظة من جنس الكهانة أو الجنن؟.

هذا من أبطل الباطل، وأمحل المحال، وما هو إلا تقحُّم على قدس النبوة، وجلال الرسالة بما لا ينبغي لحقهما من حرمة، بل هو تخرص على مقام رسول الله ﷺ في أكرم مواقفه.

حديث عبيد بن عمير

(٣) ثم روى ابن سيد الناس حديث عبيد بن عمير، وهو عند ابن إسحاق في السيرة، قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً ـ وكان ذلك مما تحنَّث به قريش في الجاهلية ـ والتحنث التبرر ـ فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته، وذلك الشهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حِراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: (ما أقرأ) فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني،

فقال: اقرأ، قلت (ما أقرأ)، فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: (ماذا أقرأ؟) ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع، قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني. وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتاباً، فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مفضياً إليها، فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثتُ رسلي في طلبك، فبلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمي واثبت فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان قد تنصَّر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قُدّوس قُدّوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة.

فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع ما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكذَّبنَّه، ولتُؤذَيَنَّه ولتُقاتلنَّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم

لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يأفوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

تعليق وتحليل

هذا الحديث من أشهر روايات أحاديث بدء الوحي، ومن أوفاها بذكر الأحداث، وأكثرها تفصيلاً للوقائع منذ بدء وحي النبـوة بالـرؤيا الصادقة.

وقد ذكرت فيه أشياء لم تذكر في غيره من الأحاديث، ولعل من أشدها على التأويل ما جاء فيه من إقراء النبي ﷺ في رؤيا المنام الآيات الخمس من أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهي الآيات التي بدأ بها نزول القرآن في وحي اليقظة بعار حراء، كما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها عند الشيخين وغيرهما.

توجيه وتأويل وبحث

وحديث عبيد بن عمير مرسل فلا يقاوم مسند عائشة الذي أجمع الأئمة على قبوله، ولعل ما ورد في حديث عبيد من قوله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم) قاصر على رؤيا نمط الديباج وما فيه من كتابة، ويكون قوله: فقال: (اقرأ) إلى آخر قصة إقرائه الآيات الخمس كلام غير متصل بقصة رؤيا النمط في النوم، وإنما هو بيان لما حدث بعد أن هبَّ من نومه ﷺ، واستعلن له جبريل، وطلب إليه أن يقرأ، وراجعه النبي ﷺ، وتكرر ذلك مع الغتّ، ثم أقرأه الآيات الخمس في وحي يقظي، كانت فيه المفاجأة ومجيء الحق، ثم خرج رسول الله ﷺ بعد أن قضى إليه جبريل الذي أُمر به وانصرف عنه، منقلباً إلى أهله، حتى إذا كان في وسط من الجبل تجلى له جبريل عليه السلام في صورة ملائكية، ليزيده تثبيتاً في أمر رسالته، وخاطبه مؤكداً له ما كان منه إليه في الغار، وأنه هو جبريل جاءه برسالة ربه.

وبهذا التوجيه يتفق مرسل عبيد في أصل مضمونه مع حديث عائشة رضي الله عنها في أن إقراء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ الآيات الخمس من أوائل سورة﴿اقرأ باسم ربك﴾ إنما كان في وحي اليقظة كغيره من جميع آيات القرآن الكريم).

قد يغلط الثقة

ويحتمل أن تكون عبارة (وأنا نائم) في حديث عبيد بن عمير من قبيل ما جاء في أول حديث الإسراء والمعراج من رواية شريك بن عبدالله بن أبي نمر من عبارة (وهو نائم في المسجد الحرام) وما جاء في آخره من عبارة (فاستيقظ وهو في المسجد الحرام) اللتين تفيدان أن الإسراء والمعراج كانا مناماً، قال الإمام ابن القيم في (الهدي النبوي): وقد غلَّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء. وقال الإمام النووي: وقع في رواية شريك لحديث الإسراء أوهام أنكرها العلماء.

ومما ذكر في حديث عبيد بيان أن الذي جاءه في متعبده مناماً هو أمين الوحي جبريل عليه السلام بغير شك ولا تلبيس، وكانت هذه الرؤيا الصادقة تمهيداً لاستعلانه له ولقائه في وحي اليقظة الذي جاءت قصته مفصلة في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما.

من فوائد حديث عبيد ابن عمير

ومما ذكر في حديث عبيد تعيينه شهر جوار رسول الله ﷺ تحنثه في غار حراء الذي بدأ فيه وحي اليقظة بعد وحي الرؤيا الصادقة، وأن الله تعالى أكرمه برسالته في ليلة من لياليه، هي الليلة المباركة، وهي ليلة القدر، كما سماها القرآن الكريم بأخباره أن إنزاله بدأ فيها، وأن جبريل أمين الوحي لقيه يقظة جهرة مستعلناً له، وهو خارج من متعبده في حراء، وكلمه مشافهة مخبراً إياه أنه رسول الله، وأن محدثه منذ اليوم في النوم واليقظة هو جبريل عليه السلام.

ومما ذكر في حديث عبيد رؤيا النبي ﷺ نمط الديباج الذي جاء به إليه جبريل، وما فيه من كتاب لم يصرِّح بحقيقتها ومضمونها، وليس في الحديث أن هذه الكتابة هي الآيات الخمس من أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ التي أقرأها إياه جبريل في وحي اليقظة بغار حراء.

ومن ثم يحتمل أن يكون الكتاب الذي كان في نمط الديباج شيئاً آخر من وحي الله تعالى إلى النبي ﷺ غير آيات سورة (اقرأ)، وهذا يتمشى مع

مذهب جمهور العلماء في أنه لم ينزل شيء من آيات القرآن الكريم في النوم، وأن القرآن جميعه نزل في وحي اليقظة.

وفي حديث عبيد أن النبي ﷺ لما وصل إلى بيته جلس إلى زوجه الوفية الأمينة التي كانت تنتظر أوبته في لهفة الشوق والقلق لتأخره عن موعد أوبته إلى أهله ـ جلسة الزوج المتلطف بزوجه مفضياً إليها، متحنناً عليها، متشوقاً إلى حنانها تسكبه في نفسه لتبدد عنه مظاهر روعة المفاجأة، فأخبرته بما كان منها من إرسال رسلها في طلبه، بعد أن أشعرته بلهفة الحرص عليه بقولها: يا أبا القاسم أين كنت؟ لأنها استبطأت عودته إلى بيته وأهله في موعده الذي كان يؤوب إليهم فيه.

وهنا بعد أن سكن روعه، وهدأت نفسه قال: (ثم حدثتها بالذي رأيت) فبشّرته، وأعربت له عن ذات نفسها في رجاوتها أن يكون نبي هذه الأمة.

وهذا الموضع من حديث عبيد هو المقابل للموضع الذي جاءت فيه عبارة (أي خديجة: مالي لقد خشيت على نفسي) في حديث عائشة عند البخاري، ولم تذكر فيه بنصّها، ولا بأية عبارة تشعر بما تضمنته من خوف رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون ملبساً عليه في أمره، وأن ما رآه وما سمعه أمور من جنس ما يرى ويسمع الكهان في وحي الشياطين إليهم، أو أنه كان نتيجة تغير في قواه العقلية كما زعم المتخرّصون من متقحّمي تفسير عبارة (لقد خشيت على نفسي) إذا صح ورودها في الحديث.

فهذا الحديث في خلوه من هذه العبارة (خشيت على نفسي) كغيره من الأحاديث التي لم ترد فيها بنصها ولا بما يحمل معناها أو يشتمل على مضمونها، وهي أحاديث كثيرة، متعددة الطرق والأسانيد، سليمة من الطعن بأنها باطلة موضوعة، وهو مستوعب لقصة بدء وحي النبوة بالرؤيا الصادقة في النوم، إلى بدء وحي الرسالة في اليقظة ببدء نزول القرآن الكريم، في أضخم عنوان لأعظم خصائص هذه الرسالة الخالدة ﴿ اقرأ

باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ واستعلان جبريل له ﷺ في صورة ملائكية وتأكيده له أنه رسول الله، وأن محدِّثه في النوم واليقظة هو أمين الوحي جبريل ـ يحمل في سياقته الدليل القاطع على أن ما اعترى رسول الله ﷺ من الروع الذي رجع به من متعبده إلى أهله، ترجف بوادره إنما كان أثراً من آثار المفاجأة التي ظهر له فيها جبريل بصورته الروحانية العليا، وأثراً من آثار الغط بقوة هذه الروحانية، ليستفرغ بشريته ويعده لمجانسة الملأ الأعلى في كمال روحاني لا تقيده وشائج البشرية، ليكون دائماً على أهبة اللقاء الروحاني في أعلا درجاته وأكمل مراتبه، وأرفع حالاته، وهو ﷺ على أكمل اليقين وأرسخ الاطمئنان باصطفاء الله تعالى له نبياً ورسولاً للعالمين.

في حديث عبيد دليل على براءة ساحة رسول الله ﷺ من الخشية على نفسه بالمعنى الذي جنح إليه المتخرصون

فلا خشية على نفسه داخلته لتمس قلبه وروحه، ولا خوف اعتراه من تلبيس عليه يحوم حول مداركه وقوى عقله، بل رجع من متعبده في حراء إلى أهله، وهو موقن أنه قد فاز فوزاً عظيماً.

مما يسترعي النظر في حديث عبيد

وفي هذا الحديث نكتة تسترعي نظر الفكر المتطلع إلى الحقائق ولو جاءت من وراء الكلمات، ذلك أن خديجة رضي الله عنها لم تكد ترجع إلى رسول الله ﷺ ـ وكان لا يزال في بيته ينتظر أوبتها من لقاء ابن عمها ورقة ابن نوفل لتؤكد بما تسمع منه ـ وكان ورقة عليماً بالمبشِّرات، وأنباء البعثة ـ فراستها، وأخبرت النبي ﷺ بما جرى بينها وبين ورقة من حديث بشأن ما رأى رسول الله وما سمع، فازداد ﷺ نوراً إلى نور يقينه، لما يعلمه من مكانة ورقة في العلم والمعرفة بما في التوراة والإنجيل من المبشرات ببعث رسول قد أظل الحياة مخرجه.

وعاد رسول الله ﷺ إلى جواره في متعبده بحراء، وهو الذي حدث له فيه ما حدث من مفاجأة اللقاء الملائكي يقظة، ولولا حلاوة هذا اللقاء في مذاق الروحانية التي أُشربها رسول الله ﷺ، ولولا عظم ما في هذا اللقاء

الملائكي من التجليات الربانية والأنوار العلوية، ولولا تطلعه ﷺ إلى مزيد من أنوار هذا اللقاء الملائكي، ما كان ليسرع بالعودة إلى هذا المتعبد، ولكنه ﷺ وهو مستغرق بأنوار رسالته التي بدأت بهذا اللقاء أراد أن يستعيد مع نفسه مشاهد هذا اللقاء، ويترقب المزيد من الأنوار.

فهل في منطق العقل أن يكون رسول الله ﷺ خشي على نفسه ما تخرص به المتخرصون، ثم يسرع إلى العودة إلى المكان الذي لقي فيه ما خشيه على نفسه في زعم المتخرصين؟.

إن بداهة العقل تأبى أن تقبل ذلك، وتنادي بأن أي إنسان توجَّس خيفة من شر حادث وقع له في مكان لا يمكن أن يعود إليه، وفي سرعة، وهو يملك الاختيار والإرادة.

ولكن رسول الله ﷺ عاد إلى غار حراء مسرعاً بُعَيد أن قضى حق أهله كعادته في خلواته، وهذا هو صريح الحديث في قوله: فلما قضى رسول الله ﷺ جواره ـ أي بعد عودته من بيته، وبعد مقابلة خديجة ورقة بن نوفل، وبعد إخبارها النبي ﷺ بما قال وانصرف ـ صنع ما كان يصنع من البدء بالطواف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة.

وهذا صريح في أن النبي ﷺ رجع ـ بعد إلمامه بأهله وتزوده لخلوته إلى جواره بغار حراء، وأنه أكمل مدة تحنثه التي اعتادها، ولم يذكر شيء وقع له ﷺ في مدة هذا الجوار.

وعودته ﷺ إلى جواره في متعبده بعد كل الذي جرى له من رؤية الملك مناماً ويقظة، وما رآه من عظمة خلق جبريل عليه السلام، وما سمعه منه من أمر الله ووحيه، وما حدَّث به زوجه الوفية الأمينة، وما قاله ورقة لها، وما قاله لرسول الله ﷺ في لقائه له وهو يطوف بالكعبة ـ دليل قاطع على ثباته ﷺ ورباطة جأشه، واطمئنانه ويقينه بفوزه برسالة ربه، ولقائه أمين الوحي جبريل عليه السلام، وأنه لم يشكّ قط في أمره، ولا لُبّس عليه لحظة

واحدة في شأنه، وأنه ﷺ في ثباته وهدوء نفسه، وهو راجع من جواره، يجري على سنته التي استنها منذ حُبّب إليه الخلاء في غار حراء، في صنع ما كان يصنع من قبل، يبدأ بالكعبة فيطوف بها قبل أن يدخل بيته، ويلقاه في هذا الطواف ورقة بن نوفل، ويطلب إليه متلطفاً أن يخبره بما رأى وما سمع، تأكيداً لما كان بينه وبين خديجة حين ذهبت إليه قبل هذه المرة، فيخبره رسول الله ﷺ وهو هادىء النفس مطمئن الخاطر - بالذي وقع له كما أخبرته به خديجة من قبل، فيصدقه ورقة، ويؤكد له ما أكده لخديجة في لقائها له، بأنه نبي هذه الأمة، ويزيده إخباراً ببعض ما سيلقاه في مستقبل رسالته من قومه من العداوة، وأنه سيُكذَّب، ويؤذى، ويقاتل، ويخرج من بلده ووطنه، مما كان رسول الله ﷺ يتوقع الكثير منه موطِّناً نفسه على الصبر والمصابرة.

بحث ونظر

رواية تقلب المعنى

جاء في رواية الحموي والمستملي في كتاب (التعبير) من الجامع الصحيح، وهي التي اعتمدها القسطلاني وعوَّل عليها في (المواهب): فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: (يا خديجة: مالي؟) وأخبرها الخبر، وقال: (قد خشيت عليّ) بياء مشددة هي ياء المتكلم، وهي رواية تسترعي النظر المتأمل، والبحث المتعمق، لأنها تحمل بأسلوبها المبادرة إلى أن تكون هذه الجملة خطاباً استفهامياً للإنكار التعجبي، وجهه النبي ﷺ إلى خديجة زوجه الوفية الأمينة، وهي أعرف الناس به، حينما عاد إليها بعد لقاء المَلَك في مفاجأة الغار وما جرى فيها من طلب القراءة والغط، وتكرار ذلك، وعليه آثار الروع والمشقة، حتى هدأت نفسه وذهب عنه أثر ما كان يجد، أخبرته خديجة بما كان منها من قلق الانتظار، والحرص واللهفة على أوبته في موعده الذي جرى عليه في خلواته، ولعلها قد دارت بخواطرها الهواجس، وخشيت عليه أن يكون قد حدث له من أحداث الحياة ما أخَّر أوبته في موعده، فقالت له معبِّرة عن حرصها ولهفتها: أين كنت يا أبا القاسم؟ وأخبرته أنها أرسلت رسلها في طلبه، ولكنهم عادوا إليها دون أن يعلموا عنه شيئاً، فزاد ذلك في قلقها عليه، ورأى رسول الله ﷺ ذلك على سيماء وجهها

ونظراتها المتلهفة، فقال لها ليخفف عنها ما ألمّ بها (مالي؟) استفهاماً إنكارياً لما بدا عليها من آثار القلق، ومعناه: لا شيء يستدعي منك هذا القلق الذي دعاك إلى إرسال رسلك في طلبي، وها أنت ذي تريني على أكمل حال، لولا بعض أثر جهد ما أخبرتك من مفاجأة الملك في حراء (قد خَشِيتِ عليَّ) بتاء المخاطبة المتصلة بفعل الخشية فاعلاً له، وبالياء المشددة مدخولة حرف الجر (على) وحذف همزة الاستفهام، أي أخشِيْتِ أنت علي أن يكون قد حدث لي شيء من أحداث الحياة عوَّقني عن الأوبة إليكم في موعدي؟.

كانت الخشية على رسول الله ﷺ من السيدة خديجة.

فالذي وقعت منه الخشية هو السيدة خديجة رضي الله عنها، ولهذا جاء ردها: كلا، أي لم أخشَ عليك شيئاً يضرك أو يسيء إليك، فأنت من لا يخشى عليه، لأنك الكريم الصدوق، الأمين المحبوب، الشجاع الذي لا يهاب الأحداث، الوَصول للرحم الذي يعطي فيغني، ويعين فيرفع، ويعطف فينعش، يكرم الضيف فيملكهم بإحسانه، فكيف أخشى عليك وقد جمع الله لك مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وفضائل الشمائل التي تحببك للقلوب، ولن يخزيك الله أبداً، ولن يصنع بك إلا خير ما يصنع بأحب عباده إليه.

ثم حدثها بعد أن طمأنها بما رأى وما سمع، وما كابد، وحدثها عن استعلان جبريل له، ومجيئه إليه بوحي ربه ورسالته ليسرها ويبشرها بتحقق رجاوتها بأنه نبي هذه الأمة، فابتهجت بما سمعت منه، وأرادت أن تزداد يقيناً فانطلقت ـ أولاً ـ حتى أتت غلاماً لعتبة بن ربيعة نصرانياً من أهل نينوى، يقال له عداس ـ كما عند سليمان التيمي وموسى بن عقبة ـ فقالت له: أذكرك الله إلّا ما أخبرتني هل عندكم علم من جبريل؟ فقال عداس: قدُّوس، قدُّوس، يا سيدة نساء قريش، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه، قال: هو أمين الله بينه وبين النبيين، وهو صاحب موسى وعيسى.

ثم انطلقت بعد حديثها مع عداس إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، لما

شهر عنه في مكة من العلم بما في التوراة والإنجيل وتباشير الأحبار والرهبان بما جاء في الكتابين من أوصاف محمد وبعثه نبياً ورسولاً للعالمين، وأن وقته قد أظلَّ الحياة بنفحاته، فأخبرت ورقة بخبر رسول الله ﷺ، وما رآه في غار حراء وما سمعه من المَلَك، فصنع ورقة ما صنع عدّاس من التقديس، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، وتمنى ورقة أن يعيش حتى يدرك انتشار الإسلام وجهاده ليكون جندياً من جنود الله، يجاهد في ظل لواء النبي ﷺ في سبيل إعلاء كلمة الله، ولكنه أدركته منيته، فلم يلبث بعد بعث النبي ﷺ إلا قليلاً، ثم توفي وفتر الوحي.

وجه إفادة رواية (خشيت عليَّ) ما فهمناه منها.

وموضع النظر في هذا البحث الجانبي أن أسلوب العبارة في رواية الحموي والمستملي التي عوَّل عليها الإمام القسطلاني في مواهبه، ومجيئها في قوله ﷺ: (خَشِيتِ عليّ) بياء المتكلم مدخولة لحرف الجر (على) يكاد يوجب اتجاه الفهم إلى أن هذا خطاب استفهامي حذف منه حرف الاستفهام، يوجهه النبي ﷺ إلى السيدة خديجة إنكاراً تعجبياً لحالها في قلقها ولهفتها على أوبته في موعده الذي ألفت عودته فيه في أوباته كلِّها من جواره إلى بيته وأهله ليتزود لعودته إلى جواره.

فإنه لم يعهد في أساليب العربية أن يقول الإنسان معبراً عما حدث له، وما يخشاه على نفسه وهو يخاطب غيره (خَشِيتُ عليّ) وإنما المعهود في أساليب الفصحى أن هذا التعبير يكون في أسلوب الاستفهام عما في نفس المخاطب بالنسبة للمتكلم بعبارة (خشيتِ عليّ) بحذف همزة الاستفهام، وهو حذف سائغ كثير الورود في أصح النصوص العربية الفصيحة.

وإنما جعلنا هذا الفهم بحثاً جانبياً لأننا لم نر أحداً من باحثي القدامى والمحدَثين اتجه إليه، فلم نرَ الجزم به رأياً اجتهادياً، ولكنا جعلناه بمعرض البحث، لعل أحداً من الباحثين يجد في روايات الحديث أو في كلام الشراح ما يؤيد هذا الفهم.

وأما رواية (خشيت على نفسي) فيمكن تأويلها ورجعها إلى ما فهمناه

ردرواية خشيت على نفسي إلى رواية خشيت عليّ لتوافق المعنى في القصة

في رواية (خشيت عليّ) لأن التعبير في مخاطبة من ظهرت عليه أمارات القلق واللهفة إنكاراً لهذا القلق والتلهف، وتعجباً من حصولهما بغير موجب يقتضيهما بعبارة (خشيتُ على نفسي) خطاباً استفهامياً إنكارياً محذوف حرف الاستفهام ـ سائغ الورود في فصيح الكلام، ويكون حينئذ من باب الإظهار في مقام الإضمار لنكتة بيان مورد الإنكار وسببه، فكأنه قيل لخديجة رضي الله عنها: (خشيتِ على نفسي؟) كيف وأنتِ أعلم الناس أن نفسي في قوة تكوينها الجبليِّ وما طبعت عليه من مكارم الأخلاق أبعد من أن تخشي عليها أن يصيبها من أحداث الحياة ما يضيرها أو يسيء إليها ولا سيما بعد قوله: (مالي؟) المعبر بأسلوب الاستفهام الإنكاري عن سلامته، وأنه لم يقع له شيء مما خشيته عليه، فجاءت الجملة (خشيت عليّ؟) بخطاب الاستفهام التعجبي تأكيداً له.

وكأن الحديث يمر في أسلوب الخطاب الموجه للسيدة خديجة رضي الله عنها، ويجيء معبراً عما رأته من آثار ارتياعه ورجف بوادره، وطلبه أن يدثَّر ليستريح وتهدأ نفسه، ويسترجع راحته، وكأنه قيل لها: أما ما رأيته من مظاهر المشقة والجهد فذلك أثر من آثار ما كنت حدثتك أني رأيت في منامي، وكان الذي رأيت ملَك الوحي جبريل أرسله إليّ ربي بوحي النبوة ثم استعلن لي، وبشَّرني بأني رسول الله حقاً، وأخبرني عن نفسه بأنه جبريل وأقرأني من كتاب ربي ما قرَّت به عيني.

وهذا التأويل لعبارة (خشيت على نفسي؟) يردها إلى تأويل عبارة (خشيت عليّ) باعتبارهما خطاباً إنكارياً تعجبياً موجهاً إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، فيتوافق المعنى في الروايتين، ويسلم الحديث من احتمالات التخرصات، ويبعد جداً رجع عبارة (خشيت عليّ) إلى عبارة (خشيت على نفسي) باعتبارهما معبِّرتين عن الإخبار بحال رسول الله ﷺ، وما أصابه من الروع والدهش لمفاجأة الملك له وغطه وإقرائه أول ما نزل عليه من كتاب الله تعالى.

وبهذا الفهم للعبارة في رواية الحموي والمستملي يسلم الحديث من أول

وهلة عن تقحمات تفسير المراد من الخشية باعتبارها أمراً وقع لرسول الله ﷺ، وأخبر به عن نفسه، لأنها في روايتها تخرج عن هذا الاحتمال، وتأخذ مكانها الصحيح في قصة بدء الوحي.

وسلامة الحديث من مصدر استنباط المستنبطين لأسباب الخشية ـ من الشك وأباطيل الكهانة وأكاذيب الجنن التي يجب تنزيه ساحة النبوة عن حومان هذه التقحمات حولها ـ بصرف هذا المصدر إلى أقرب احتمالاته، ويغني عن تخرصات المتخرصين، ويحفظ للنبوة قداستها، ويصون العصمة النبوية عن التقول بالباطل من أعداء الإسلام.

اختلاف الروايات لا ينافي وحدة الموضوع

والظاهر عند إمعان النظر في روايات الأحاديث الواردة في موضوع (بدء الوحي) أنها كلها تتحدث عن موضوع واحد، لكنها اختلفت في الروايات بالزيادة والنقص، وبعضها يكمل بعضاً، فيما يجب قبوله من معانيها وحقائق ما تتحدث عنه بما يتفق مع ما يجب للنبوة من قداسة، وما يجب للأنبياء من عصمة عامة في جانب التوحيد والإيمان، ومعرفة جلال الله وكمالاته، منذ تعهدهم الله تعالى بالتربية والرعاية، قبل أن يبعثهم برسالاته، وهذا ما يقضي به ويوجبه قول الله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ لأنه يتضمن في معناه وغايته أنه لا يمكن أن يجعل الله رسالته فيمن تدنس باطنه بالشك في أمر الله ووحيه، ولا من تدنس ظاهره بعبث الكهانة ووحي الشياطين، ولا من كانت قواه العقلية والروحية بمعرض التأثر المخل بموجبات الاستقامة ويقين الإيمان.

الحق لا يعرف بضخامة أسماء الرجال

ولا اعتبار بشذوذ من شذّ، فضلّ الطريق في تفسير نحو قول الله تعالى: ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فقال مقالة بشعة لا يقولها من يرجو لله في رسالاته ورسله وقاراً، ولا يقولها من يعلم من حياة محمد ﷺ ما تواتر من نمط نشأته في أرفع المكارم، وطهارة القلب والبعد عن دنس الجاهلية في عقائدهم وأخلاقهم، حتى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

وهذه مقالات شاردة عن أصول الإسلام، فيجب نبذها وبهرجتها، وإظهار بطلانها، ولا وزن للهالات التي تحوط أسماء أصحابها، لأن الحق حق

مهما تكن ضآلة مكانة قائله في هذه الحياة، والباطل باطل مهما تكن طنطنة اسم قـائله، والله تعالى يقول: ﴿ فليعلمن الله الذين صـدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾[1] و«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى».

فالنبي ﷺ قبل أن يفاجئه جبريل في غار حراء بوحي اليقظة كان نبياً بوحي الرؤيا الصادقة التي عرف بها معرفة يقين واطمئنان أنه نبي يوحى إليه، وأن الله تعالى اصطفاه لنبوته، وأن الذي كان يراه في منامه يلقي إليه من أمر الله ما يُرسل به إليه من عند الله هو أمين وحي الله للأنبياء جبريل عليه السلام، وأنه هو الذي فاجأه في الغار يقظة وطلب إليه أن يقرأ، وغطه حتى بلغ منه الجهد، وكرر عليه طلب القراءة والغط، بدليل قوله ﷺ لخديجة كما في حديث ابن أبي بكر بن حزم: **(أرأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام فإنه جبريل استعلن)**.

جبريل هو ملك الوحي في حالي النوم واليقظة

فجبريل عليه السلام بمقتضى هذا الحديث كان واسطة الوحي في الحالين: حال الرؤيا الصادقة في النوم التي تجيء في وضوحها مثل ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهي أولى مراتب وحي النبوة. وحال اليقظة التي كانت أولى مبتدآتها لقاء الغار الذي بدأ به وحي الرسالة، وهو لقاء ثبت قطعاً أنه وقع للنبي ﷺ وهو نبي يوحى إليه بوحي الرؤيا الصادقة التي جاءه فيها جبريل بأمر ربه، وهي سنة الله مع سائر النبيين، فقد روى أبو نعيم في الدلائل عن علقمة بن قيس صاحب عبدالله بن مسعود أنه قال: أول ما يؤتى الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي في اليقظة، وهذا الذي يقوله علقمة مما لا سبيل فيه للرأي والاجتهاد، ولا بد ـ إذا صح ـ من وروده عن النبي ﷺ، فهو في قوة المرفوع.

ولا يمكن أن يكون لقاء الملك في غار حراء للنبي ﷺ يقظة بعد تحقق نبوته في دائرة الشك والتلبيس على نحو ما رمرم به القشاشون من المتقحمين بالتخرصات الباطلة في تفسير بعض الكلمات الموهمة.

(١) سورة العنكبوت، آية: ٣.

النبوة لا يدخلها الشك والتلبيس

هذا من أبطل الباطل، لأن النبوة يجب أن تكون منذ أول مراتبها على أكمل درجات اليقين، وثلج الإيمان ورسوخه، وطمأنينة القلب التي لا تقبل أدنى شك أو تشكيك، ولا يدخل عليهـا تلبيس، ولا سيما في أخص خصائصها وأساس وجودها، وهو الوحي اليقظي الذي بدأت الرسالة به، فإذا جاءت بعض العبارات الموهمة لما لا ينبغي لجلال الرسالة في رواية صحيحة وجب صرفها عن احتمال إيهامها، وإعطائها معنى لائقاً بمكانها من كلام النبوة، وعبارة (خشيتُ على نفسي) وردت في بعض روايات البخاري مطلقة عن التفسير، وبيان سبب هذه الخشية، ولم يذكر معها ما يخدش حصن النبوة، فلا كهانة ولا جنن، ولا شك ولا تلبيس.

رواية واهية

بيد أننا وجدنا محمد بن سعد يروي في الطبقات عن شيخه محمد ابن عمر الواقدي بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: فبينا رسول الله ﷺ على ذلـك وهو بأجياد إذ ملَكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء، يصيح: يا محمد: أنا جبريل، يا محمد: أنا جبريل، فذعر رسول الله ﷺ من ذلك، وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء، فرجع سريعاً إلى خديجة، فأخبرها خبره، وقال: (يا خديجة: والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط، ولا الكهان، وإني أخشى أن أكون كاهناً) قالت: كلا، يا ابن عم، لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وإن خلقك لكريم، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهي أول مرة أتته، فأخبرته ما أخبرها به رسـول الله ﷺ، فقال ورقة: والله إن ابن عمك لصادق، وإن هذا لبدء نبوة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر، فمريه أن لا يجعل في نفسه إلا خيراً.

نقد وتحقيق

وهذه الرواية لا تَسْلم من النقد والاعتراض، فهي غير مقبولة، والبحث فيها من وجوه:

الأول ـ أن الواقدي ـ وهو محور هذه الرواية ـ مشهود عليه بالضعف، لا يعـول عليه جهابذة المحدثين، فروايته محل نظر، ولا سيما إذا خالفت غيرها من روايات الثقات، وهي قد خالفت جميع الروايات التي لم يرد فيها

عبارة (خشيت على نفسي)، وخالفت رواية البخاري وغيره من الأئمة الذين أوردوا في رواياتهم عبارة (خشيت على نفسي) مطلقة عن التفسير دون أن يذكر معها بغض الأصنام أو خوف الكهانة.

ثانياً ـ إن ما ذكر في هذه الرواية الواقدية بالنظر إلى لبّ الموضوع، وزبدة قصة (بدء الوحي) هو عين ما ذكر في غيرها من الروايات، لأن القصة واحدة في موضوعها، ووقائِعُها متلاحقة متقاربة في حقائقها، وأغلب الروايات الثابتة لم يرد فيها (خشيت على نفسي) بتة، فضلاً عن إلصاق الكهانة وبغض الأصنام، وهذه الروايات أصدق سنداً وأحكم معنى، وأجود سياقاً من رواية محمد بن سعد عن شيخه الواقدي، فلا وجه مطلقاً لقبول هذه الرواية المخلِّطة، لأنها لم توافق أصح الروايات، وهي رواية الشيخين: البخاري ومسلم في ورود عبارة (خشيت على نفسي) مطلقة عن تفسير المراد منها، ولم توافق سائر الروايات في عدم ورود عبارة (خشيت على نفسي) فيها أصالة، ولكنها خالفت ذلك كله وجاءت بشيء باطل منكر، وهو ذكرها للخشية مفسرة بالكهانة، ونسبة ذلك إلى النبي ﷺ أنه قاله لخديجة، وهذا هو الذي تشبَّث به المتخرصون في بيان سبب الخشية والمراد بها في رواية من ذكرها مطلقة كالبخاري ومسلم، مع إلصاق حديث بغض الأصنام والكهان، وهو حديث نافر الموضع، شاذ الجَلَب، قلق المستقر.

ولعل هذه الرواية الواقدية ومثيلاتها هي التي قصدها الإمام العلامة ابن حجر بقوله في شرح البخاري، وهو يحكي أقوال العلماء في بيان المراد من الخشية: أولها الجنون، وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرحاً به في عدة طرق، وقد عرفنا مما سبق أن حذّاق العلماء لم يعبأوا بهذه الطرق، وأبطلوا ما جاءت به من فرية ما فيها مرية، وكان ابن حجر في طليعة من صدق على بطلانها، فلتذهب مع أمثالها من الأباطيل الموضوعة الكاذبة، لتبقى ساحة النبوة مطهرة مقدسة بعصمة الأنبياء والمرسلين.

ثالثاً ـ كيف يخشى رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون كاهناً، وهو كما تقول الرواية الواقدية يبغضها بغضاً لم يبغضه شيئاً قط؟ وهذا البغض وإن

كان واقعاً راسخاً في خلق رسول الله ﷺ مركوزاً في طبعه وفطرته التي فطره الله عليها؛ تنزيهاً له عن شوائب الأباطيل والأضاليل، منذ تولاه الله برعايته وتربيته ـ لكن هذا البغض في مكانه من الرواية الواقدية جاوز موضعه من فطرة رسول الله ﷺ، واتخذ وضعاً مريباً واهناً في لحظة تاريخية من حياة رسول الله ﷺ، لأن هذه الرواية جعلت هذا البغض أبطولة يخشاها رسول الله ﷺ على نفسه، وهو في ذروة الطهر ويقين الإيمان، وهو يتلقّى وحي رسالته رحمة للعالمين.

رابعاً ـ ألا سأل الذين يتكثرون بهذه الروايات الباطلة، والذين يتخرصون في بيان المراد من الخشية أنفسهم، أين تقع الكهانة وزمزمتها، وأكاذيبها وأضاليلها من ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وهي الآيات البينات التي رجع بها رسول الله ﷺ إلى أهله، ترجف بوادره من استفراغ بشريته، وإفراغ روحانية الملأ الأعلى في روحانيته العلية، حتى تتم له مجانسة الروح الأمين في قوة روحانيته الملائكية ليتلقى منه وحي ربه له برسالته وآيات كتابه المبين؟ وهو ﷺ أعظم الناس عقلاً، وأطهرهم قلباً، وأزكاهم إدراكاً، فلا يعقل أن يرجع إلى أهله بهذه الآيات البيِّنات في سمو معانيها، ثم يداخله أدنى هاجس في كهانة.

خامساً ـ ما وجه إقحام هذه الرواية الواقدية بُغْضَ رسول الله ﷺ الأصنام بغضاً لم يبغضه شيئاً قط؟ هل خشي رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون ما رآه في الغار من مفاجأة الملك، والغط وإقرائه آيات من كتاب الله متصلاً بالأصنام كصلة الكهان بها، وأن ذلك من قبيل ربط الكهانة بالأصنام في تلقي زمزمتها وأكاذيبها، فخشي ﷺ على نفسه أن يكون كاهناً تسيِّره الأصنام؟.

إن اعتقاد ذلك من أكفر الكفر وأبطل الأباطيل، وبغض رسول الله ﷺ للأصنام أمر متعالم في حياته ونشأته قبل أن يبعث للناس رسولاً، يعرفه له العدو والصديق، ولم يتهم قط بأنه ﷺ مسّ صنماً، أو تمسح بوثن،

فلا معنى لذكر هذا البغض المتعارف في مقام تلقي رسول الله ﷺ وحي رسالة ربه وما حدث له في هذا المقام من مفاجآت انتهت بفوزه ﷺ فوزاً عظيماً برسالة ربه رحمة للعالمين.

سادساً ـ إذا كان النبي ﷺ يبغض الكهان والكهانة بغضه للأصنام، وهو بغض لم يبغضه شيئاً قط، وهذا واقعه ﷺ في حياته ـ فكيف يخشى على نفسه أن يكون كاهناً؟.

هل الكهانة أمر ينزل بالإنسان كرهاً منه، على غير رغبة منه فيه؟ والمعروف في تاريخ الكهانة عند سائر الأمم الجاهلة أن الكهانة منصب وثني شيطاني، مرموق عند أحلاس الشرك وعبيد الوثنيات، يطلبها ويحتال على كسبها ذوو الحيلة الخبيثة والشعوذة الخادعة الماكرة، ومن تستغويهم مردة الشياطين من ذوي الفطر الدنسة، والقلوب الفاجرة، والنفوس الشريرة، فكيف يخشى رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون كاهناً في أرفع لحظات حياته، وهو أطهر الأطهار، وأصدق الصادقين، وهو الذي قال له أعدى أعدائه: ما جرَّبنا عليك كذباً قط، والكذب أخص خصائص رجس الكهانة، وهو ﷺ الذي أجمع قومه على تلقيبه بالأمين، والأمانة في صورتها الخُلقية الكريمة أبعد صفات الإنسانية عن الكهانة والكهان، فلا يمكن أبداً أن يكون قد داخل خاطر رسول الله ﷺ شيء من هذه الأباطيل.

فهذه الرواية وضريباتها مما شحنت به بعض كتب التراث الإسلامي، يجب طرحها وتنقية السيرة النبوية من أوضارها، ويجب التنبيه على أضرارها وبطلانها.

* * *

مسلك حذاق العلماء في فهم العبارات الموهمة

وقد تنبه بعض حذَّاق العلماء من أئمة المحدِّثين إلى ما تنطوي عليه تقحمات المتخرصين في تفسير بعض الكلمات الموهمة من أضرار على عقيدة التوحيد، وتعريض قداسة النبوة والرسالات الإلهية، وعصمة الأنبياء والرسل لهزات التأويل المتعسف الذي قد ينقلب إلى تحريف، يتشبث به الذين في

قلوبهم مرض، ويزعزع الإيمان في نفوس الذين لم تكن لهم القدرة على دفع الشبه والتشكيكات المضلة من عامة المسلمين، ولا سيما شباب المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية عن الإسلام وأصوله، وهم في هذا العصر كثرة غامرة، نشأوا في ظل ضعف المجتمع الإسلامي وجهالته بدينه وتاريخه، ونُشِّئوا تنشئة غريبة عن أصول الإسلام وآدابه وشرائعه ونظمه، فكانوا غرباء عنه، وكانت تعاليمه غريبة عنهم.

فإذا تراءت لهم عن قصد أو غير قصد ألفاظ موهمة في بعض روايات الحديث المتعلقة بالعقيدة، أو أُرُوها لزعزعة ركائز الإيمان في أنفسهم، كان عجزهم عن دفع ما فيها من إيهام وسيلةً عاصفة، تعصف بعقائدهم، وتذيب إيمانهم، وإذا رأوا في كتب التراث الإسلامي، أو أُرُوا روايات تحكي أموراً لا تتفق مع أصول الإسلام، ولم تجد نقداً يبهرجها ويظهر زيفها، بل قد تجد دفاعاً عنها، وتعسفاً في تأويلها من بعض من حسنت ظنونهم فيمن ينقلون عنهم هذه الروايات، كانت تلك الروايات فتنة لهم في دينهم، تهز إيمانهم وتملأ قلوبهم وعقولهم شكــوكـاً وأوهــامـاً.

تنبه هؤلاء الأجلاء من أعلام علماء الإسلام إلى ما في الاتجاه المستسلم ـ الذي يقبل كل ما يُـروى لمجرد صحة السند في نظرهم ـ من خطر على العقيدة، وقصارى هؤلاء المستسلمين أن يتعسفوا في التأويل تعسفاً يزيد من بُعد المعنى، ويقلب التأويل إلى التحريف والتشويه.

بَيْد أن أولئك الأجلاء من حذّاق أعلام العلماء تصرفوا في توجيه ما ثبت من هذه الكلمات الموهمة توجيهاً يضعها في موضعها من معـالم الإيمان، ويصرفها عن مزالق التحريف الموبق إلى مدارك الملاءمة لما ينبغي أن يكون لها من دلالة على معنى يستقيم مع أصول الإسلام، ولا يتنافى مع قداسة النبوة والرسالات الإلٓهية، وعصمة الأنبياء والمرسلين.

يقول القاضي عياض: إن الخشية على نفسه ﷺ وقعت له أول ما رأى التباشير في النوم، ثم في اليقظة، وسمع الصوت، قبل لقاء الملك، فأما بعد مجيء الملك فلا يجوز عليه الشك، ولا يخشى من تسلط الشيطان.

ومن العجيب أن ينتهض الإمام النووي لتضعيف قول عياض، بحجة أن قول عياض خلاف صريح الحديث الذي بين سياقه أن الخشية كانت بعد الغط، وإتيانه (اقرأ).

وهذا التضعيف الذي ذهب إليه الإمام النووي هو الضعيف المردود، لأن ورود الخشية: في الحديث بعد الغط وإتيانه (اقرأ) لا يلزم منه أن الخشية على نفسه ﷺ كانت بعد الغط، وإتيانه (اقرأ) بل يحتمل - كما يقول الإمام بدر الدين العيني - إنه ﷺ أراد بإخبار السيدة خديجة رضي الله عنها بما كان قد حصل له سابقاً، حين كان يرى الضوء، ويسمع الصوت من التباشير والإرهاصات التي لم تكن معها نبوة، قبل مجيء الملك له في النوم بالرؤيا الصادقة التي بدأت بها النبوة، وفي اليقظة بلقاء الغار الذي بدأت به الرسالة.

لا أنه ﷺ خشي على نفسه حين لقاء المَلَك في وحي اليقظة بالغار، وظلت معه تلك الخشية ملازمة له إلى حين رجوعه إلى أهله، وإخبار خديجة بما رأى وما سمع وما أُقرِىء، وأنه قد فاز برسالة ربه.

ولا شك أن قول القاضي عياض هو القول الحق في هذا المقام، لأنه يتمشى مع أصح روايات الحديث في ورود عبارة (خشيت على نفسي) وهي رواية الشيخين، ويضع الخشية في موضعها ومورِدها الذي ينبغي أن ترد إليه، حيث لم تكن النبوة بعصمتها قد جاءته، ولا غرابة في وقوع الخشية منه ﷺ وهو يرى الضوء، ويسمع الصوت، وتسلم عليه الأحجار والأشجار قبل النبوة وعصمتها، إرهاصاً لما سيقع.

وهذه الخشية في موردها الصحيح أثر بشري يقع للأفراد إذا رأوا أو سمعوا أمراً غريباً، وقد ثبت في عدة أحاديث أنه ﷺ كان يسمع التسليم عليه من بعض الكائنات التي ليس من شأنها أن تتكلم كالأحجار والأشجار - وحسب البحث حديث مسلم في تسليم الحجر عليه ﷺ - فينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى متكلماً، وهذا شيء قد يهز البشرية ويروعها، وهو ما عبَّر عنه بالخشية، وهي في موردها الصحيح على قول القاضي عياض، ولا يمكن

أن يقبل في تأويلها وبيان المراد منها ما زعمه المتخرصون من الكهانة والجُنُن، كيف والله تعالى يقول لإبليس: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾[1] وهذا عقد سابق من الله تعالى أيأس به إبليس من أن يكون له في نَظِرته وتأخير بقائه في الدنيا للإغواء والإضلال سلطان على أحد من خواص عباد الله، وقد استثناهم إبليس نفسه من الوقوع في حبائل إغوائه فقال كما حكاه الله تعالى عنه: ﴿ إلا عبادك منهم المخلَصين ﴾[2] فكيف بأخص الخواص، وأفضل الأفضلين، محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين؟!.

ويدل لما ذهب إليه القاضي عياض، ويؤيده تأييداً واضحاً ما رواه ابن سعد في الطبقات بسند ليس فيه شيخه الواقدي، وهو من رواية عروة ابن الزبير قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يا خديجة: إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً» فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله، إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم.

ووجه دلالته على ما ذهب إليه عياض، وتأييده له أن هذا الحديث صريح في أن خشيته ﷺ أن يكون كاهناً جاءت في إخباره خديجة رضي الله عنها بها عقب رؤيته الضوء، وسماعه الصوت، وهما من التباشير والإرهاصات وذلك قبل أن يوحى إليه بالنبوة، ولين الحديث وضعفه لا يمنع التأييد، لأننا لم نسق هذا الأثر لإثبات أصل المسألة.

دعائم تأييد مسلك حذّاق العلماء

ويدل له أيضاً ويؤيده تأييداً قوياً ما رواه ابن سعد في الطبقات بسند ليس فيه الواقدي، قال: أخبرنا يحيى بن عباد، وعفان بن مسلم، قالا: حدثنا حماد بن سلمة - أحسبه عن ابن عباس - أن النبي ﷺ قال: «يا خديجة: إني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً، وإني أخشى أن يكون فيّ جُنُن» فقالت: لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبدالله، ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك، فقال: إن يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن يبعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأومن به، وفي قول ورقة: فإن

---

(١) سورة الحجر، آية: ٤٢.

(٢) سورة الحجر، آية: ٤٠.

يبعث وأنا حي دلالة على أن ذلك كان قبل البعث والنبوة.

ووجه دلالة هذا الحديث على ما ذهب إليه عياض، وتأييده له أن الحديث صريح في أن النبي ﷺ أخبر خديجة عن شيء من الإرهاصات والتباشير، يسمع الصوت، ويرى الضوء، ولا يرى صاحب الصوت ولا مصدر الضوء، وهذا شيء غريب على النفس الإنسانية، ولا سيما إذا كان الإنسان في خلوة بنفسه وعزلة عن الناس، مما يوجب الخشية والارتياع بمقتضى الطبع البشري، قبل مجيء النبوة، وتحقق عصمتها.

فهذان الحديثان ـ وقد سَلِم سندهما من ضعف الواقدي ـ صريحان في أن الخشية التي شعر بها النبي ﷺ، وأخبر بها خديجة رضي الله عنها كانت عند رؤية التباشير والإرهاصات، قبل أن يوحى إليه بالرؤيا الصادقة، وهي أول مراتب وحي النبوة، وحيث لم تكن النبوة؛ فلا مانع أن يخشى رسول الله ﷺ على نفسه من هذه الأمور الغريبة التي يراها ويسمعها، ولا يرى مصادرها، وذلك طبيعي بمقتضى الطبيعة البشرية التي كان يعيش بها رسول الله ﷺ في حياته إنساناً مع الناس، يخالطهم، ويتأثر بما يتأثرون، ويحوطه الله تعالى بحفظه ويتولاه برعايته من عواقب ذلك التأثر الطبيعي.

وكانت خديجة رضي الله عنها الزوجة الوفية الأمينة، مأنسه ﷺ، يجد في قلبها أصدق الحب والحنان، فحدثها بما رأى وسمع، وأخبرها بما شعر وأحس في مداخل نفسه الكريمة، ليجد عندها الكلمة الباسمة، تسرّي بها عنه، وتمسح بأهداب حنانها ما عسى أن يكون قد ألمَّ به، حتى إذا جاءته النبوة بأول مراتب وحيها في الرؤيا الصادقة، وغمرته أنوارها لم يبق عنده من أثر تلك الخشية شيء.

فإذا جاءه ﷺ الحق من ربه بأعظم رسالاته، وبعثه رحمة للعالمين، وخاتماً للنبيين، وافتتح رسالته بأجلّ ما أنزله على المرسلين ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وعاد إلى أهله من متعبده وخلوته قرير العين، رابط الجأش، راسخ اليقين، مطمئن القلب بفوزه بأعظم نعم الله

على الوجود بمن فيه وما فيه ـ قال المتخرصون ما قالوا من التحـريفات والتأويلات الفاسدة؟!.

ولكن حسبه ﷺ قول الله الرؤوف الرحيم: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم،عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ وقوله عزّ شأنه: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾.

أقصوصة التردّي من شواهق الجبال

أبطولة زائفة مُضلّة

تلك هي الأبطولة التي تنسب إلى رسول الله ﷺ محاولة قتل نفسه في مدة فترة الوحي التي تقول الأبطولة: إنه حزن فيها حزناً يائساً، حمله على عزيمة إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال ليقتلها، وهي أبطولة هزيلة منكرة، ألصقت إلصاقاً بأعظم وأجلّ كتب الحديث ودواوين السّنة المطهرة ـ ذلك الفحل، لا يقدع أنفه، صحيح البخاري ـ وسارت بسيرورته إلى عقول المسلمين، وشهرت بشهرته فيهم، ولم نعلم أن أحداً من علماء الأمة وأعلامها ـ على مدى القرون المتطاولة، منذ جمع البخاري صحيحه ـ رفع رأسه بإنكارها، أو أجرى قلمه بإبطالها، أو أطلق لسانه بتزييفها، وهي من أنكر المنكر، وأبطل الباطل، ينتشي فرحاً بها وبأمثالها أعداء الإسلام المتربصون به الدوائر، ويطرب لسماعها الملاحدة الجاحدون، الذين يتلمسون سقطات الروايات، تجري على أسلات الأقلام والألسنة في تراث الإسلام ولا سيما إذا سقطوا على تلك السقطات في كتب لها في أنفس المسلمين قدرها واحترامها، وتتنزل من قلوبهم منزلة التقديس والإعزاز، مروية عن أشخاص لهم هالات الإجلال والإكبار في تاريخ الإسلام.

أبطولة لم تجد من ينكرها

هذه الأبطولة ونظائرها مما يجب التوقف في قبولها، بل مما يجب رفضها وإبطالها، وإن تكن قد ألصقت بحديث ارتفع بصحة سنده ومكانة راويه ومخرجه عن مثارات الضعف الحديثي والوهن في الرواية.

أبطولة يجب رفضها وإنكارها

جاءت هذه الأبطولة ـ بلاغاً ـ في رواية كتاب (التعبير) من الجامع

الصحيح للإمام البخاري، ملصقاً بحديث (بدء الوحي) عن معمر، أو عن شيخه ابن شهاب الزهري، قال: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل، فقال: يا محمد: إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل فقال مثل ذلك.

هذا البلاغ اللصيق بحديث بدء الوحي باطل زائف، وذلك من وجوه:

وجوه إبطال هذا البلاغ الزائف - الوجه الأول -

الأول: أن القاضي عياضاً - وهو من جهابذة الحديث وأعلام أئمة السنة النبوية المطهرة، وهو صاحب الموقف السديد المحكم في توجيه عبارة (لقد خشيت على نفسي) الواردة في الحديث وتقحم المتخرصون في تفسيرها وبيان المراد منها كل صعب منكر، حتى جاءها عياض ووضعها في مكانها من قصة بدء الوحي - ضعّف هذا البلاغ بأن صاحبه: معمر أو الزهري لم يسنده، وهذا مطعن فيه من جهة سنده، فلا وجه لقبوله، بل ينبغي طرحه ورفضه، ودعوى أن عدم إسناده لا يقدح في صحته - كما يقول الزرقاني في شرح المواهب - دعوى واهية لا تقوم على قدم صحيحة، ولكنها تعتمد على فرض احتمالي بأن صاحب هذا البلاغ بلغه عن الثقات، لأنه هو ثقة، وكون صاحب البلاغ ثقة لا يدفعه عن جواز قبوله ما لم يكن، توهماً أنه كان، لأنه يحدِّث عمن سمع، وحسنُ الظن بمن يسمع منه قد يحجب موضع النقد فيما يسمع، وهذا الاحتمال قائم في حق الثقات الذين بلغه عنهم، - لو ثبتت ثقتهم - وتجرد ثقة من روى عنهم عنده لا يثبت الثقة له عند عموم المحدثين والنقاد، فقد يروى الثقة عن غير الثقة، لأنه في نظره وتقديره ثقة، وهو عند غيره ضعيف لا تُقبل روايته، على أنه لو كان من روى عنهم هذا الثقة ثقات عنده لَمَ دَلَّسهم وأخفاهم ولم يسمّهم وهو حافظ قادر على هذه التسمية؟ وهذه الأقصوصة سيقت بلاغاً، فهي من مرسلات الزهري وفي مرسلاته كلام عند النقاد، ومن أشدهم وأوثقهم في رفضها

وعدم قبولها إمام النقدة يحيى بن سعيد القطان، وسعة حفظ الزهري وإمامته في هذا لا يمنحه العصمة عن الغلط والوهم. والعصمة عن الخطأ والغلط والتوهم مفقودة في جميعهم، والمحكَّم في ذلك ليس مجرد الثقة فيمن يسمع منه بل يجب أن يكون المعوّل عليه مع ثقة من يسمع منه عدم مناقضة النص المسموع من الثقة لأي أصل من أصول الإيمان، فصحة المتن شرط مع صحة السند في قبول النص المسموع، بمعنى أن الحديث يجب أن يكون صحيح السند مروياً عن الثقات الضابطين، ويجب مع ذلك أن يكون صحيح المتن، أي النص الوارد بذلك السند الصحيح، فلا يتعارض مع أصل من أصول الإيمان المتفق عليها بين أئمة الدين والعلم، ولا يتعارض مع الدلائل الظاهرة التي تخالف مدلول النص المروي بالسند الصحيح.

هذا البلاغ يتعارض مع أصول الإيمان بالنبوة

وهذا البلاغ اللصيق ـ مع تسليم صحة سنده ـ بحجة أن صاحبه ثقة فلا يروي إلا عن الثقات يتعارض أولاً مع أصل أصول الإيمان، وهو عصمة الأنبياء والرسل، بمعنى حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم، وتفكيرهم وخواطرهم، وسائر أعمالهم، حفظاً كاملاً، فلا يقع منهم قط ما يشكك في نبوتهم ورسالاتهم، وهذا البلاغ المعمري أو الزهري لم يبق لعصمة النبي ﷺ مكاناً في مدة الحزن اليائس التي تقول أبطولة هذا البلاغ إنه ﷺ مكثها وهو يغدو مراراً كي يتردى من شواهق الجبال، ولا سيما على مذهب من يرى أن مدة فترة الوحي ـ وهي مدة الحزن اليائس ـ قد طالت إلى ثلاث سنوات، أو سنتين ونصف سنة، أو ستة أشهر، وفي هذا البلاغ الزائف تصريح بأن صاحبه يذهب مذهب من يرى طول مدة فترة الوحي، وهي مدة الحزن اليائس الذي زعمه هذا البلاغ الباطل على رسول الله ﷺ، لأن ما ذكر فيه من الغدو مراراً لكي يلقي بنفسه من ذرا الشواهق يقتضي طول المدة، ولا سيما مع تمثل جبريل له وقوله: أنا جبريل وأنت رسول الله حقاً أكثر من مرة.

ويتعارض هذا البلاغ ثانياً مع ما يجب أن يكون عليه النبي ﷺ من

رسوخ الإيمان بنبوته، وأكمل اليقين برسالته، ولا شك أن ما جاء في هذا البلاغ الباطل ـ من تبدِّي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ كلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منها نفسه، وقوله له: يا محمد: أنت رسول الله حقاً، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدَّى له جبريل عليه السلام، فقال مثل ذلك ـ يصور مدى ما بلغه ذلك الحزن اليائس ـ في زعم قائليه ـ من نفس النبي ﷺ حتى جعله يتشكك في تبدِّي جبريل له، وفي إخباره أنه رسول الله حقاً، فالنبي ﷺ ـ كما تصرح به عبارة هذا البلاغ ـ لم يكد يسكن جـأشه لتبدي جبريل له وإخباره أنه رسول الله حقاً ـ حتى يعود إلى عزيمته في إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال، فيتبدى له جبريل مرة أخرى، ويقول له: يـا محمد، أنت رسول الله حقاً.

فأين سكون جأشه الذي أحدثه في نفسه تبدِّي جبريل له وإخباره أنه رسول الله حقاً؟ وأين رسوخ إيمانه برسالة ربه التي شرفه بها قبل فترة الوحي وأنزل عليه في أول مراتب وحيها في غار حراء قرآناً يتلى، وعاش في أنوارها أي أنوار نبوته التي سبقت رسالته ﷺ طول هذه المدة، وهو ـ كما يقول البلاغ الزائف ـ يعود إلى عزيمته لإلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال إذا طالت عليه فترة الوحي.

وليس في هذا النقاش ـ الذي يكشف عن زيف هذا البلاغ، ويبين بطلان ما يحكيه من هذه الأبطولة الأسطورية، بياناً لتسامي ساحة رسول الله ﷺ عن هـذه الترهـات الباطلة ـ مـا يخيف بعض مهزوزي الفكـر التقليديين، من فتح أبواب التشكيك في روايات الثقات من أئمة الدين والعلم، الذين حفظوا على الأمة نصوص دينها، ونقلوا إليها سنّة نبيِّها ﷺ نقلاً نقياً محكماً، لأن أولئك الأئمة الأعلام لم يغفلوا عما قد يعتري الإنسان مهما كانت مكانته من الثقة، من الـوَهَل والنسيان والغلط، وهم الذين وضعوا ـ استنباطاً من الكتاب والسنّة ـ قواعد قبول النقول والروايات حماية للنصوص أن تدخلها الأباطيل، عن قصد أو عن غير قصد، إيماناً منهم بالقوة الذاتية للأصول الإسلامية التي لا يهزها نقد رواية، ولا إظهار خطأ راوٍ مهما كانت مكانته من الثقة والضبط.

لنا أسوة في مواقف الأئمة من عدم اعتدادهم بصحة السند وحدها

ونحن في نقاشنا هذا البلاغ إنما اقتدينا بأولئك الأئمة الأعلام فيما أسسوه من أصول وقواعد محكمة النسج، في ظلها وصلت إلينا نصوص السنة النبوية مصفّاة نقية من غلس الأباطيل، فإذا ندّ من شباك قواعدهم خيط من الشك والتلبيس وجد من تلك القواعد الأصولية منافذ لمن يلاحقه بحثاً ونقداً حتى يلقي به من ذرا شواهق الشكوك إلى مسارب الأباطيل، وأودية الفناء.

وحسبنا أن نذكر هنا ـ تأييداً لنقدنا في نقاشنا هذا البلاغ الزائف ـ موقف الإمام النووي من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري في أن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ إذ يقول: وأما ما روي عن جابر وغيره: أن أول ما نزل ﴿ يا أيُّها المدَّثر ﴾ فهو ضعيف، بل باطل بطلاناً ظاهراً، ولا تغتر بجلالة من نقل عنه، فإن المخالفين له هم الجماهير، ثم ليس إبطالنا قوله ـ أي قول جابر بن عبدالله ـ تقليداً للجماهير، بل تمسكاً بالدلائل الظاهرة. إهـ.

فأنت ترى أن الإمام النووي قد قطع الحكم ببطلان حديث جابر ـ ولم يقف عند تضعيفه ـ في أن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيُّها المدَّثر ﴾ وهو حديث من رواية أوثق الثقات، فهو صحيح السند بلا أدنى ريب، وفي ذلك يتساءل الزرقاني في شرح المواهب فيقول: فإن قلت كيف حكم النووي وغيره بالضعف، بل بالبطلان على المروي عن جابر مع صحة الطريق إليه؟ كيف وهو في أرفع الصحيح مروي الشيخين، قلت ـ أي الزرقاني مجيباً عن تساؤله: حكمه ـ أي النووي ـ إنما هو على نفس القول الذي صحت نسبته لقائله بصحة سنده إهـ.

وهذا الجواب عن التساؤل هو معنى قولنا: إن صحة المتن ـ أي النص ـ شرط مع صحة السند في قبول النص المسموع، فإذا صح السند وناقض المتنُ أصلاً من الأصول الإيمانية، أو خالف الدلائل الظاهرة ـ كما يقول النووي ـ فقد وجب الحكم ببطلان الحديث وعدم قبوله، ولا يغتر بجلالة

من نقل عنه، لأن جلالة من نقل عنه النص لا تفيد أكثر من توثيق السند وصحته، وذلك لا يكفي في قبول متن الحديث ونصه.

فالإمام النووي حكم ببطلان حديث جابر لمخالفته الدلائل الظاهرة، ومخالفته لما ذهب إليه الجماهير من العلماء، وحديث جابر من مسندات أرفع الصحيح، ونحن حين ناقشنا هذا البلاغ الزهري الزائف، وقطعنا ببطلانه ـ مع فرض تسليم صحة سنده، وقد علمنا أن القاضي عياضاً، وهو من جهابذة أئمة الحديث، قد طعن فيه بالضعف لأنه لم يسند ـ لم نقطع بهذا البطلان تقليداً لأحد، بل تمسكاً بالدلائل الظاهرة التي كان من أظهرها مخالفة هذا المتن لعصمة النبوة، وهي أصل من أصول الإيمان، ولِمَا يؤدي إليه هذا البلاغ من وجود الشك عند النبي ﷺ في تبدِّي جبريل له وإخباره بأنه رسول الله حقاً؛ بما كان منه بعد هذا التبدي والإخبار من العودة إلى عزيمة إلقاء نفسه ﷺ من ذرا شواهق الجبال.

وفرق كبير جداً بين الحكم بإبطال بلاغ لم يسلم من الطعن في سنده، وإن كان قد ألصق بأحد الصحيحين، وبين الحكم بإبطال حديث مسند من مرويات أرفع الصحيح، ينتهي إلى أحد أعلام الصحابة رضي الله عنهم.

وفرق كبير جداً بين قطع الحكم بإبطال بلاغ مطعون في سنده، ولا سبيل إلى تأويله، وصرفه عن مدلوله الذي يناقض العصمة التي لا تتحقق رسالة الرسل، ونبوة الأنبياء إلا بتحققها، ويناقض ما يجب أن يكون عليه النبي ﷺ من رسوخ الإيمان بنبوته، وأكمل اليقين في رسالته، وقد جعله هذا البلاغ الزائف ـ على رغم تبدي جبريل له وإخباره بأنه رسول الله حقاً ـ يعود بعد هذا التبدي والإخبار إلى عزيمته لكي يتردى من شواهق الجبال ـ وبين قطع الحكم بإبطال حديث موثق السند، وللعلماء منادح في تأويله، ومذاهب في تصحيح مدلوله بما يتفق مع مذهب الجماهير ويتفق مع الدلائل الظاهرة.

فلا يهولنَّ الناظرَ في بحثنا هذا نقاشُنا لهذا البلاغ وإبطالنا له، فيسد

على عقله منافذ الوصول إلى الحقيقة التي تنزه ساحة الرسالة الخالدة الخاتمة من هذه الأباطيل.

الحق لا يعرف بأقدار الرجال وإنما يعرف بنصاعة البرهان

وفي موقف الإمام النووي من حديث جابر زيادة نكتة من المعارف الإسلامية تدل على أن أصول الإسلام لا تقبل أن تتدخل مكانة من نقل عنه الحديث في قبوله، مهما كانت تلك المكانة في جلالتها، وهل هناك أجل في الرواية وأرفع في ثقة النقل من مكانة الصحابة، وخاصة أعلامهم الأجلّاء الذين يأتي في سلكهم الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما؟ وقد أبنّا موقف إمام من أئمة الدين والعلم ورواية الحديث، هو الإمام النووي، ومعه غيره من الأئمة من حديث جابر.

فلا موازنة بين بلاغ مطعون في سنده، مغلق عن التأويل متنُه ومدلول نصه الذي لا سبيل فيه لمحض الرأي، مروي عن تابعي صغير لم يسنده إلى قائل ـ كما هو صريح قوله ـ فيما بلغنا ـ دون أن يفصح عمَّن بلغه، وبين حديث موثق السند، مروي في أرفع الصحيح مسند إلى صحابي مشهور بالعلم، ولهذا الحديث مذاهب وطرق في التأويل، وتصحيح المدلول، كما سيأتي في بحث (أول ما نزل من القرآن).

ولا موازنة بين صحابي من أعلام الصحابة، أسند إليه الحديث الموثق في سنده، وبين تابعي صغير هو الإمام ابن شهاب الزهري أو تلميذه معمر، ولئن أمكن دخول الخطأ والوَهَل على الصحابي فدخوله على التابعي أو تلميذه أيسر وأقرب، فنقد هذا البلاغ وأمثاله من مدخول العلم لإبطاله، والكشف عن زيفه ليس بِدْعاً في معارف الإسلام وبحوث أئمته، بل هو أمر متعارف في تاريخ البحث الإسلامي، معبّد الطريق، محمود العاقبة.

والذي يمعن النظر في كتب الرجال، ودواوين الجرح والتعديل، وغربلة الحديث النبوي، وتنقية السنّة المطهَّرة من غلس الأباطيل، ووهَل الرواة يرى من ذلك العجب العجاب.

وقد عد العلماء هذا الاتجاه في النقد والبحث أحد مفاخر الأمة

الإسلامية التي حفظت عليها نقاء نصوصها وصحة نقولها، ولم يصبها من جرائه ما يخشاه عليها المهزوزون في تفكيرهم، التقليديون في علومهم ومعارفهم، وقد ثبت في صحاح الأحاديث أن بعض الصحابة وَهَّمَ بعضاً، فمن ذلك ما رواه أبو داود عن ابن عباس أنه قال: إن ابن عمر ـ والله يغفر له ـ أوهم.

أوثق الثقات في الإسلام الصحابة وقد وهّم بعضهم بعضا

كما ثبت في موطأ الإمام مالك رضي الله عنه أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها غلَّطت أبا هريرة رضي الله عنه في قوله بإفطار الصائم إذا أصبح جنباً: فقالت ـ وقد ذكر لها أن أبا هريرة يقول: من أصبح جنباً أفطر ذلك اليوم ـ ليس كما يقول أبو هريرة؛ فأشهد على رسول الله ﷺ أنه كان يصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يصوم ذلك اليوم، فلما ذكر لأبي هريرة قولُها قال: لا علم لي بذلك، إنما أخبرنيه مخبر، قال الإمام الفقيه أبو الوليد الباجي في شرح الموطأ: وقول عائشة رضي الله عنها: ليس كما قال أبو هريرة، هو الواجب من الرد، ليس فيه أذى لأبي هريرة، ولا تقصير عن إنكار الباطل.

أفكان أبو هريرة رضي الله عنه في سماعه ما سمع ممن أخبره بهذا الحكم غير ثقة؟ وهل كان مَنْ سمع منه أبو هريرة هذا الحكم الباطل غير ثقة؟ كلا، فأبو هريرة كان من أوثق حملة حديث رسول الله ﷺ وفقه السنة النبوية، فلا يحدِّث إلا عن ثقة، وقد عُرف باسمه وشخصه مَنْ سمع منه أبو هريرة ذلك الحكم، وهو الفضل بن العباس رضي الله عنهما، وهو نبع في رياض الصدق والثقة، ولكنه غير معصوم فأوهم، وتبعه في هذا التوهم أبو هريرة لثقته في صدقه وضبطه وفقهه في الدين، ولم ينقص ذلك من قدر الفضل في فضله، ولا حطّ من قدر أبي هريرة في علمه، وهل كانت عائشة رضي الله عنها في إنكارها على أبي هريرة ما قال من حكم باطل متجنية عليه، أو أنها قامت بما يجب عليها من إنكار الباطل.

بل ثبت فيما يرويه ابن سعد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهّلت الفاروق عمر، وابنه عبدالله بن عمر، لما قال الطبيب لعمر رضي الله

عنه بعد طعنته القاتلة: اعهد يا أمير المؤمنين بكى عليه القوم حين سمعوا، فقال: لا تبكوا علينا، من كان باكياً فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ: «يعذب الميت ببكاء أهله عليه»، فمن أجل ذلك كان عبدالله بن عمر لا يقر أن يُبْكى عنده على هالك من ولده ولا غيرهم، وكانت عائشة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ تقيم النوح على الهالك من أهلها، فَحُدِّثت بقول عمر عن رسول الله ﷺ، فقالت: يرحم الله عمر وابن عمر، فوالله ما كذبا، ولكن عمر وهَّل، إنما مرَّ رسول الله ﷺ على نُوَّح يبكون على هالك لهم، فقال: (إن هؤلاء يبكون، وإن صاحبهم ليعذب).

لا خوف على السنة خاصة وعلى الشريعة عامة من توهيم الأكابر في بعض ما رووا

وتغليط الأكابر بعضهم بعضاً نهج إسلامي، يقوم على دعائمه إحقاق الحق وإنكار الباطل، وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قولها: وَهَّل ابن عمر، أي ذهب وهمه إلى شيء غير مراد، أو سها وغلط، وثبت أن عبدالله ابن عمر قال في أنس بن مالك: وَهَّل أنس، أي غلط، فهؤلاء الأعلون في آفاق الثقة والصدق لم يروا في تخطئة بعضهم بعضاً ما يمس مكانتهم في الفضل، لأنهم يرون أنهم بمقتضى إنسانيتهم ليسوا معصومين عن الخطأ والوهم، ولم يفتح ذلك منافذ الخشية والخوف على رواية هؤلاء الأكابر ونقولهم، كما يزعم التقليديون مهزوزو التفكير، بل فتح أبواب الإعجاب والإجلال، ورسوخ الإيمان بعظمة الإسلام الذي ربى أهله على حب البحث لمعرفة الحق ببراهينه وموارده، وإنكار الباطل مهما كانت مصادره.

ومن لطائف الموافقات أن الإمام ابن شهاب الزهري نفسه صاحب بلاغ الحزن اليائس وَهَّل نافعاً مولى عبدالله بن عمر، وغلَّطه فيما حدَّث به عن مولاه في تفسير قول الله تعالى: ﴿نساؤكم حَرْث لكم﴾... الآية قال القاضي أبو بكر بن العربي: ويُرْوى عن الزهري أنه قال: وَهَّل العبد ـ يعني نافعاً ـ فيما روي عن ابن عمر في ذلك، ونافع في مكانته من الثقة والضبط ـ ولا سيما على مولاه عبدالله بن عمر ـ حلقة في سلسلة الذهب التي اتفق المحدثون على توثيق رجالها ورفع درجاتهم فوق سائر الثقات، ولم يمنع ذلك الإمام الزهري من الحكم عليه بالوهل والغلط، وليس الإمام الزهري على علو إمامته بأرفع

من درجة نافع في الثقة والضبط، فإذا غلَّط الزهري نافعاً ووهَّله في النقل عن مولاه عبدالله بن عمر، فلا عجب أن يُغلَّط الزهري ويوهَّم في بلاغ الحزن اليائس، دون أذى له، أو تقصير عن إنكار الباطل في بلاغ يناقض ما يجب للنبوة المرسلة من قداسة وعصمة، وما يجب لمحمد سيد الأنبياء وإمام المرسلين من توقير وإعظام في إيمانه بنبوته ويقينه برسالة ربه.

وللزهري أغلاط أخذها عليه الأئمة وليس لها مخرج إلا أنها من أوهامه. قال ابن عبد البر: وأما قول ابن شهاب الزهري أن المتكلم مع النبي ﷺ في حديث السهو في الصلاة أنه ذو الشمالين فلم يتابع عليه، وحمله الزهري على أنه المقتول يوم بدر وغلط فيه والغلط لا يسلم منه أحد.

وقال البيهقي: وَهَم الزهري في قوله ذي الشمالين وإنما ذو اليدين. وقال السهيلي في الروض: روى الزهري حديث التسليم من الركعتين وقال فيه: فقام ذو الشمالين، لم يروه أحد هكذا إلا الزهري ـ هو غلط عند أهل الحديث، وقال النووي: ذو اليدين اسمه الخرباق، وأما ذوالشمالين فهو عمير الخزاعي وهو غير المتكلم في حديث السهو. هذا قول جميع الحفاظ إلا الزهري وقد اتفقوا على تغليط الزهري في ذلك.

الوجه الثاني في إبطال هذا البلاغ الزائف

الثاني ـ هذا الوجه متفرع على الأساس الذي قام عليه الوجه الأول، وهو أن هذا البلاغ ضعيف لم يسنده صاحبه ـ كما قال القاضي عياض ـ والقول بأن عدم إسناده لا يقدح في صحته، اعتماداً على أن صاحبه ثقة لا يروي إلا عن الثقات، لا يدفع الاحتمال في ضعفه لعدم إسناده، ومجرد هذا الاحتمال كافٍ لرده وعدم قبوله، ولو كان راويه من أوثق الثقات الذين يفرض فيهم أنهم لا يروون إلا عن الثقات، لأن هذا الفرض لا يرفع أصل الاحتمال، ولو سُلِّم رفع الاحتمال وصح له سند موثق يبقى وراء ذلك احتمال وَهَل الثقة صاحب البلاغ، وتوهمه غلطاً وقوع ما لم يقع، أو احتمال وَهَل الثقة الذي سمع منه صاحب البلاغ، وقد أثبتنا ذلك عن بعض أكابر الثقات من أجلّة الصحابة وكبار التابعين، وأن بعضهم وَهَّل بعضاً ووهَّمه في مسائل أقل شأناً من هذا البلاغ الذي يجب إنكاره

وإبطاله، لأنه يتعلق بأصل إيمان النبي ﷺ بنبوته ويقينه برسالته التي يجب أن يقوم الإيمان بها على أكمل اليقين القاطع الذي لا يعتوره شك في أية لحظة من اللحظات، وهذا يقتضي رد بلاغ الحزن اليائس، وإبطاله وعدم قبوله ولو كان صحيح السند لمناقضته لأصول الإيمان والعقيدة.

فحمله على التوهم والغلط أدنى درجات رده وعَدمِ قبوله، إعمالاً لحسن الظن ـ بأن روايته في صحيح البخاري ـ وإن كانت بلاغاً ـ يعصمه عن تعمد الكذب.

الوجه الثالث في إبطاله

الثالث ـ أن ما جاء به هذا البلاغ الزائف من قوله: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من شواهق الجبال إلى آخره، مختلف فيه، هل هو من زيادة معمر على رواية عقيل عن ابن شهاب، أو هو داخل في رواية عقيل كما يوهمه صنيع البخاري.

قال العلامة ابن حجر في الفتح: وقد أبان ذلك الحميدي، فساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، ثم قال: انتهى حديث عقيل المفرد عن ابن شهاب، وزاد عنه البخاري في حديثه المقترن بمعمر عن الزهري، فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن، فساقه إلى آخره.

ثم قال ابن حجر: والذي عندي أن هذه الزيادة خاصة برواية معمر، فقد أخرج طريق عقيل أبو نعيم في مستخرجه من طريق أبي زرعة الرازي عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه في أول الكتاب بدونها، وأخرجه مقروناً هنا برواية معمر، وبين أن اللفظ لمعمر، وكذلك صرح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر، وأخرجه ـ أي الحديث ـ أحمد ومسلم والإسماعيلي وغيرهم، وأبو نعيم أيضاً من طريق جُمَيع من أصحاب الليث بدونها.

فهذا البلاغ الذي اشتمل على هذا التخرص الباطل لم يرد في طريق من طرق الحديث على كثرتها وكثرة من روى الحديث من الأئمة إلا في رواية معمر، وهذا التفرد يوجب ـ على الأقل ـ التوقف في قبوله، بل يوجب ردَّه وإبطاله لما فيه من القوادح، بتعريض النبوة لهزة الشك والارتياب، وتعريض

النبي ﷺ لقلق النفس واضطراب الضمير، وهزة الإيمان وحيرة اليقين.

الوجه الرابع في إبطال هذا البلاغ الزائف

الرابع ـ أن ما تضمنه هذا البلاغ الزائف يشمل أمرين:

أحدهما ظاهر محسوس، تمكن مشاهدته، والحكم بوجوده أو عدم وجوده بمقتضى إمكان مشاهدته حساً، وثانيهما باطن محجوب في داخل النفس، لا تمكن معرفته لأحد إلا بإخبار صاحبه الذي دار في نفسه أو إخبار من أظهرهم عليه بنقل ثابت عنه.

فذهاب النبي ﷺ إلى أعالي الجبال وشواهقها التي ألف الصعود إليها في أزمان خلواته وتطلعاته للتفكر في عجائب آيات الله الكونية، وبدائع ملكوته ، أمر محسوس، يمكن الحكم عليه برؤيته ومشاهدته، ولا حرج في أن يكون النبي ﷺ قد حزن في فترة الوحي اشتياقاً لأنوار الشهود الروحاني الأعلى الذي كان يغمره في أوقات نزول الوحي، ونزول آيات القرآن المبين ـ حزناً كان يغدو منه إلى ذرا الجبال التي كانت مأنس روحه، تطلعاً إلى آفاق أشواقه لشهود تجليات أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي سبق له أن تجلى في آفاقها بصورته الملائكية الروحانية العالية.

وكون هذا الذهاب إلى ذرا شواهق الجبال لقصد التردي منها ليقتل نفسه ـ كما هو نص عبارة البلاغ الزائف ـ أمر باطن محجوب بأستار الضمير في حنايا النفس، لا يعلمه ولا يطلع عليه إلا الله علّام الغيـوب، وإلا صاحبه الذي دار في حنايا نفسه، وعزم على تحقيقه عملياً، وإلا من يظهره عليه صاحبه العليم به بإخبار منه إليه.

ولم يثبت قط في حديث صحيح أن النبي ﷺ أخبر عن نفسه أنه كان في مدة فترة الوحي يذهب إلى قنن الجبال الشواهق وذراها ليرمي نفسه من فوقها انتحاراً لحزنه على فتور الوحي.

ولهذا كانت نسبة ذلك إلى النبي ﷺ منكراً من القول، وباطلاً من المحالات التي لا يقبلها عقل، ولا تتلاءم مع أصول الإيمان.

وما ورد في حديث ابن عباس عند ابن سعد والإمام أحمد من قوله ـ

أي ابن عباس ـ مكث النبي ﷺ (أياماً) بعد مجيء الوحي لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء أخرى، يريد أن يلقي نفسه، غير مسلَّم من وجوه.

ما جاء في حديث ابن عباس من قصة البلاغ الزائف غير مسلم

أولها ـ أن حديث ابن عباس من رواية الواقدي، وهو معروف بالضعف، لا يقبل الجهابذة من المحدِّثين روايته إلا إذا اعتضدت بروايات الثقات.

ثانيها ـ إذا صح سند الحديث إلى ابن عباس رضي الله عنهما فابن عباس لم يرفعه إلى النبي ﷺ، ولا إلى من سمعه من النبي ﷺ، فهو اجتهاد لا يعلم معتمده في أمر لا سبيل إلى معرفته إلا بإخبار من النبي ﷺ ولم يثبت هذا الإخبار، فالحديث موقوف على ابن عباس، فيكون في منزلة بلاغ الزهري ـ كما يؤخذ من كلام ابن حجر ـ يجب رفضه كرفض بلاغ الزهري، وإبطاله كإبطاله، ولعل هذا الحديث الضعيف في سنده الباطل في متنه ونصه هو مستند بلاغ الزهري، والزهري إمام موثق، فلا درك على البخاري في إلحاق بلاغه بجامعه من جهة توثيق السند، على أن البخاري لم يلحقه بجامعه إلا في موضع واحد فقط من مواضع حديث بدء الوحي، وهي متعددة فيه بالإسناد نفسه مقروناً بإسناد آخر تارة، وغير مقرون تارة أخرى، ولم يرد في تلك المواضع ذكر لهذا البلاغ الزائف إلا في كتاب (التعبير) بلاغاً، لا تأصيلاً.

وقد بيَّنا أن توثيق السند بتوثيق الرواة لا يلزم منه صحة متن الحديث، وقد استأنسنا بكلام الإمام النووي في قطعه الحكم بإبطال حديث جابر بأن أول ما نزل من القرآن ﴿يا أيها المدَّثر﴾ وهو من أرفع الصحيح، إذ هو مروي الشيخين، وله منادح في مجال التأويل.

ثالثها ـ أن حديث ابن عباس اشتمل على نص صريح في بيان المراد من فترة الوحي بأنها عدم رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام في مدتها، وهذا مخالف لما جزم به ابن حجر في الفتح من أن المراد بفترة الوحي تأخر نزول القرآن فقط، لا عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، وهذا أمر لا مدخل

فيه للاجتهاد والرأي، ولا يقال إلا عن نقل، فلا بد أن يكون ابن حجر قد اطَّلع على علة لضعف حديث ابن عباس، واطَّلع على نص فيما جزم به وذهب إليه.

رابعها ـ أن حديث ابن عباس جعل مدة فترة الوحي (أياماً) وأكثر الروايات لم يفصح عن مقدارها غير مرسل الشعبي الذي فهم منه بعض الناظرين أن مدة السنين الثلاث المذكورة فيه هي مدة فترة الوحي، وقد استبعدنا ذلك، وغير ما ذكر السهيلي أن مدة فترة الوحي جاءت في رواية مسندة أنها كانت سنتين ونصفاً، وهذا اختلاف يحتاج إلى ترجيح، فإن لم يكن فقد وجب الوقف عن إعمال بعض وترك الآخر.

* * *

تحدث رسول الله ﷺ عن فترة الوحي ولم يشر بكلمة واحدة عن قصة البلاغ الزائف

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ تحدث عن فترة الوحي، ولم ترد في كلامه كلمة واحدة، تشعر بما تقحَّمته هذه التخرصات الباطلة، والمزاعم الفاسدة التي جاءت في بلاغ الحزن اليائس من أنه ﷺ كان في مدة فترة الوحي يغدو إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها، لما انتابه من حزن يائس على فتور الوحي، ومعاذ الله أن يكون هذا المنكر قد دار في خلد محمد رسول الله سيد الخلق ﷺ.

أخرج الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما من الأئمة عن ابن شهاب الزهري قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر ابن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت[1] منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت لهم (زمِّلوني، زمِّلوني، فزمَّلوني)، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ إلى قوله: ﴿ والرجز فاهجر ﴾ ثم تتابع الوحي».

---

(١) أي رعبت حتى وقعت على الأرض.

ولعل الناظر في هذا البحث يعجب أن يكون هذا الحديث الصحيح، وهو يقص ما حدث للنبي ﷺ في فترة الوحي - وهي فترة الحزن اليائس في نص البلاغ الزائف - يرويه الزهري نفسه، وهو صاحب بلاغ التردي من ذرا شواهق الجبال، وليس في حديثه المسند الموثق بصحة سنده كلمة واحدة تشعر من قريب أو بعيد بما جاء في تخرصات البلاغ الذي لم يسند، فكيف، ومن أين عرف المتخرصون أن النبي ﷺ كان يغدو في فترة الوحي إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها؟ وهـو ﷺ وقد تحدث عن فترة الوحي لم يقل شيئاً من تلك المزاعم التي جاء بها البلاغ الزائف، ولو كان ﷺ قال شيئاً مما تخرص به ذلك البلاغ لنقل مرفوعاً إليه ﷺ نقلاً متواتراً أو مشهوراً، لا بلاغاً غير مسند؟ كيف ولو كان لذلك وجود في حياة النبي ﷺ لكان من أعظم الأحداث التي تتضافر الرواة والنقلة على روايته ونقله، ولكنه لم ينقل مرفوعاً، ولا روي مسنداً، فهو باطل منكر، ما كان ينبغي أن يلحق بالجامع الصحيح.

ولقد عرف أن النبي ﷺ كان يأنس إلى زوجه الوفية الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنها، أُنساً لم يأنسه بأحد سواها، فيحدثها بما يكون قد رأى وسمع في خلوته، بمتعبده أو في مرجعه إليها من غرائب الأحداث، وعجائب الآيات، وخوارق الإرهاصات التي كانت تتراءى له تبشيراً، فيجد عندها من مشاعر صدق الود والحنان ما يخفف من آثار ما عسى أن يكون قد شق عليه، فهل ثبت أنه ﷺ حدثها، أو هي قد عرفت من تغيرأحوال أنسه ولطفه أنه قد حزن - بعد أن جاءته رسالة ربه، ونزلت عليه آيات القرآن الكريم، ثم فتر عنه الوحي فترة - حزناً غدا منه مراراً إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها؟ كلا، لم يثبت، ولم يُرْوَ شيء من ذلك، وكانت السيدة خديجة في مكانتها من حياته ﷺ أقرب الناس وأجدرهم أن تعلم من حاله ﷺ ما يخفى على سائر الناس. وإذا لم يكن رسول الله ﷺ قد تحدث إلى مأنسه وزوجه الأمينة الوفية عن هذا الحزن اليائس المزعوم، حرصاً على شعورها من صدمة هذا الحزن المرير، فأين عُصبة أسبق السابقين إلى الإيمان برسالته ﷺ الذين لم تكن لهم في إيمانهم كبوة نَظِرة ولا كان لهم تلبث لحظة:

الصديق أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وسواهم من الصفوة الذين لازموا رسول الله ﷺ ملازمة لا يخفى عليهم معها من أمره وأحواله شيء، والبلاغ المزعوم يقول إن فترة الحزن اليائس قد طالت وتعدد فيها غدوه ﷺ إلى ذرا الشواهق ليلقي نفسه من فوقها.

فهل ثبت عن واحد من هؤلاء السابقين كلمة واحدة تشعر بشيء ـ مما زعمه بلاغ الحزن اليائس؟!.

إن أمر هذا البلاغ عجب من العجب لا يرويه أحد من أخص أخصاء السابقين الأولين ولا مَنْ جاء بعدهم في ملازمة رسول الله ﷺ، وبقي سراً مكتوماً حتى جاء معمر وشيخه الزهري فَكُشِف لهما حجابُه وتبدى لهما سِرُّه!!

إنه ﷺ لم يتحدث في حديث جابر حين تحدث عن فترة الوحي حتى عن مجرد حزن لحق به تأسفاً على هذه الفترة، بَلْه حزناً غدا منه مراراً إلى ذرا شواهق الجبال ليلقي نفسه من فوقها انتحاراً. إن حديث جابر في فترة الوحي تُرى فيه أقربُ المناسبات الأسلوبية للحديث عن الحزن على فترة الوحي، ففي قوله ﷺ: (ثم فتر عني الوحي فترة) مناسبةٌ لأن يقول ـ لو كان شيء مما زُعِم قد كان ـ فحزنت حزناً شديداً ضاقت عليّ فيه نفسي حتى كدت أن... ولكن أنَّى لشيء لم يكن قط أن يتحدث عنه أصدق الصادقين، ونحن لا نرى حرجاً أن يكون النبي ﷺ قد اعتراه شيء من الحزن في مدة فترة الوحي لانقطاع أنوار الشهود الروحي، ولا نرى حرجاً في أن النبي ﷺ كان يغدو إلى ذرا الجبال تطلعاً إلى آفاق أشواقه لتجليات أمين الوحي الذي عهد لقاءه في هذه الذرا.

وغدوُ النبي ﷺ إلى أعالي الجبال أمر محسوس يمكن الحكم بوقوعه لمن شاهده ببصره، أما كون هذا الغدو كان لقصد أن يلقي نفسه من شواهقها ـ كما هو زعم البلاغ الكاذب ـ فأمر باطني لا سبيل إلى معرفته إلا بالإخبار عنه منه ﷺ، وهذا ما لم يثبت قط.

الخامس ـ أن مدة فترة الوحي ـ وهي كما يجب أن تكون بمقتضى ما يفيده التعبير عنها بفترة الوحي المفيد بمنطوقه ومضمونه أن الوحي سبقها

بالنزول، ثم توقف وفتر فترة، ثم نزل بعد هذه الفترة وتتابع ـ هي الزمن الذي تأخر فيه الوحي عن رسول الله ﷺ بعد نزوله عليه يقظة في مفاجأة الغار، ونزول أوائل سورة (اقرأ) وقبل عوده إليه وتتابعه، ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أي هي زمن لم ينزل فيه الوحي، يقع بين زمنين، نزل في كل زمن منهما وحي يقظي بآيات من القرآن، فالزمن الأول الذي سبق فترة الوحي وتوقفه هو الزمن الذي بدأت فيه الرسالة بوحي اليقظة في مفاجأة الغار، التي نزل فيها خمس آيات من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ والزمن الثاني الذي تأخر عن فترة الوحي، وعاد فيه وحمي وتتابع، هو الزمن الذي بدأ فيه الأمر بالإنذار، والتشمير عن عزيمة النهوض والجد في تبليغ الرسالة، وقرع قلوب المشركين بزواجرها بنزول خمس آيات من أول سورة ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ ـ هذه المدة مختلف فيها اختلافاً غريباً، متباعد الأطراف، عريض الأكناف، وهو اختلاف شمل مقدار زمنها، كثرة وقلة، وطولاً وقِصراً، وشمل تعيين وقتها، متى كانت.

الوجه الخامس في بيان إبطال هذا البلاغ الزائف

ومن أغرب وأبعد أطراف هذا الاختلاف القول بأن مدة فترة الوحي هي المدة التي وردت في مرسل الشَّعْبي الذي خرّجه ابن سعد في الطبقات بطرق متعددة، تنتهي كلها إلى داود بن أبي هند، ورواه صاحب (عيون الأثر) ولم يذكر له إسناداً، بل اكتفى بقوله: وعن الشعبي أن رسول الله ﷺ وكِّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي، ثم وكّل به جبريل فجاءه بالقرآن.

زعم أن فترة الوحي هي السنون الثلاث التي وردت في مرسل الشعبي يفيد جداً

وهذا القول الغريب البعيد في تحديد مدة فترة الوحي صرح به القسطلاني في المواهب، ويؤخذ من قول ابن حجر في الفتح إذ يقول: وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين، وهي ما بين نزول (اقرأ) ونزول (يا أيها المدَّثر) عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، بل المراد تأخر نزول القرآن فقط.

وابن حجر يسوق هذا الكلام للرد على من ذهب إلى أن المراد بفترة الوحي عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ كما جاء مصرحاً به في حديث ابن

عباس عند ابن سعد من طريق الواقدي، قال: إن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي بحراء مكث (أياماً لا يرى جبريل).

بيد أن ابن حجر لم يقتصر في كلامه على القدر الذي يتضمن الرد الذي يقصده، ولكنه زاد في عبارته ذكر المدة المقدرة بثلاث سنين، وزاد تعيين وقت هذه المدة فقال: وهي ما بين نزول ﴿اقرأ﴾ ونزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾.

وهذا يفيد أن ابن حجر يرى أن مقدار مدة فترة الوحي هو ثلاث سنين، ويفيد أنه يرى أن وقت هذه المدة هو ما بين بدء الرسالة بنزول أول سورة (اقرأ) في مفاجأة الغار بوحي اليقظة، وبدء الأمر بالإنذار وتبليغ الرسالة بنزول أول سورة ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾.

ووجه غرابة هذا القول وبعده أن مدة الثلاث سنين لم ترد ـ فيما نعلم ـ في غير مرسل الشعبي، وهذا المرسل صريح في أن هذه المدة كانت في مبتدأ النبوة، قبل قصة المفاجأة في الغار، ونزول أوائل سورة (اقرأ) بزمن طويل، فهو يقول كما جاء في رواية ابن سعد: إن النبي ﷺ أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فكان معه إسرافيل ثلاث سنين ثم عزل عنه إسرافيل وأقرن به جبريل، وكما جاء في تاريخ الإمام أحمد عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين وكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، فقوله في رواية ابن سعد ثم عزل عنه إسرافيل، وأقرن به جبريل صريح في أن قَرْن إسرافيل به ﷺ كان قبل قرن جبريل به، وقرن جبريل به بدأ بمفاجأة الغار التي ابتدأ فيها إنزال القرآن، ويؤكد هذا قوله في رواية تاريخ أحمد بن حنبل: فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة.

ومن العجيب مع هذه النصوص الصريحة ما ذكره الزرقاني في شرح المواهب تعليقاً على قول القسطلاني مستدركاً على ابن القيم في ذكر مراتب الوحي: لكنه ـ أي ابن القيم ـ (لم يذكر نزول إسرافيل إليه بكلمات من

الوحي) فيقول الزرقاني: (بعدما أوحى إليه جبريل يأتيه بالكلمة من الوحي والشيء من الأفعال والآداب التي يعلمه إياها، كان بعد قرن جبريل به، وبعد نزول﴿اقرأ﴾وهذا مخالف لصريح نص مرسل الشعبي، فلا ندري من أين أخذه الزرقاني؟.

فهل هناك من ذهب إلى أن فترة الوحي ـ وهي كما يجب أن تكون، وكما عينها ابن حجر في عبارته ـ المدة التي بين نزول﴿اقرأ﴾ونزول سورة﴿يا أيها المدَّثر﴾ كانت ثلاث سنين مثل المدة التي وردت في مرسل الشعبي، ولكنها غيرها، ومتأخرة في الزمن عنها؟ وقول ابن حجر في عبارته: وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين ـ مَنْ قدرها بذلك؟ ـ وهي ما بين نزول﴿اقرأ﴾ ونزول ﴿يا أيهاالمدَّثر﴾ يشعر بأنها غير المدة المذكورة في مرسل الشعبي، وهي مختلفة معها زمناً وموضوعاً وهذا مما يزيد في غرابة هذا القول وبعده، ولا ندري من أين أخذه ابن حجر، وهو الإمام العلامة الثبت المؤمَّر في علم الحديث، وهو أجل من أن تذهب به خواطره إلى أن المدة المقدرة بثلاث سنين في مرسل الشعبي هي المدة التي كانت فيها فترة الوحي، وهي ما بين نزول﴿اقرأ﴾ونزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾ لأن مرسل الشعبي صريح في أن المدة المذكورة فيه كانت قطعاً قبل حادث الغار الذي نزلت فيه (اِقرأ) بزمن طويل، وأنها كانت في مبتدأ النبوة كالتمهيد للرسالة، وأن الذي وكل بالنبي ﷺ فيها هو إسرافيل، كان يتراءى له، ويأتيه بالكلمة من الوحي، وذلك قبل أن يوكل به جبريل ويجيئه بالقرآن، فهل أخذ ابن حجر ذلك من صنيع الإمام السهيلي الذي قال عنه ابن حجر إنه قد جمع به المختلف في مكثه ﷺ بمكة، وقوله ـ أي السهيلي ـ إنه جاء في بعض الروايات المسندة أن فترة الوحي كانت سنتين ونصفاً، وفي رواية أخرى إن مدة الرؤيا ستة أشهر ـ فجمع مدة ما قيل في الفترة من أنها سنتان ونصف إلى ما قيل في مدة الرؤيا الصادقة من أنها ستة أشهر، فخرج له ـ أي للسهيلي ـ ثلاث سنين، لكن هذا لا يفيد في توجيه كلام ابن حجر أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين كما هو صريح عبارته، لأن مدة الرؤيا الصادقة المقدرة في كلام السهيلي بستة

صنيع السهيلي
لا يحل المشكلة

أشهر كانت قطعاً قبل فترة الوحي بتحديد ابن حجر بزمن طويل باتفاق لا خلاف فيه.

والإمام السهيلي لم يقصد في صنيعه الذي جمع به المختلف في مكثه ﷺ بمكة إلى بيان مدة فترة الوحي، وهي التي كانت بين نزول ﴿اقرأ﴾ ونزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾ وأنها كانت ثلاث سنوات، كما في تقدير مدة مرسل الشعبي، فلا يزال التساؤل قائماً، من أين أخذ ابن حجر هذا القول الغريب؟ لعل أحداً من الباحثين يرشدنا إلى مأخذه، أو إلى حل مغلقه، وقد تبع القسطلاني في المواهب ابن حجر فقال: وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين، ونقل شارحه الزرقاني أقوالاً في مدة الفترة حكاها عن مغلطاي في الزهر، ففي تفسير ابن عباس أنها كانت أربعين يوماً، وفي تفسير ابن الجوزي ومعاني القرآن للزجاج أنها كانت خمسة عشر يوماً، وفي تفسير مقاتل أنها كانت ثلاثة أيام، قال مغلطاي: ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه.

تنبه ابن حجر إلى ما في كلامه من قلق

وكأن ابن حجر تنبه إلى ما في كلامه من القلق، فقال: «فائدة» وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحق، ولعل ابن حجر يقصد بهذا القول ذكر مستند لقوله في عبارته السابقة عن فترة الوحي أنها المدة المقدرة بثلاث سنين، ولكنه رجع فقال: ثم راجعت المنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد بن حنبل، ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة، وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن بلسانه.

وهذا نص في أن المذكور في تاريخ الإمام أحمد عن الشعبي هو عين مرسله عند ابن سعد، وجميع طرقه عنده تنتهي إلى داود بن أبي هند، كطريق الإمام أحمد في تاريخه مما يدل على أنه هو هو.

وإذا كان ذلك كذلك بطل النقل الذي قال عنه ابن حجر: «فائدة» وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي ثلاث سنين، لأن الثلاث سنين التي ذكرت في مرسل الشعبي ليست مدة فترة الوحي، بل

هي مدة سابقة عليها بزمن طويل، كانت في مبتدأ النبوة، وكان الموكل فيها بالنبي ﷺ هو إسرافيل، ومدة فترة الوحي كانت بعد أن وكل به جبريل، وبعد أن نزلت عليه آيات القرآن بلسانه قبل مدة فترة الوحي وبعدها، ومما يؤكد بطلان نقل ما وقع في تاريخ أحمد بن حنبل الذي ذكره ابن حجر على أنه «فائدة» أن المنقول عن الشعبي الذي راجعه ابن حجر من تاريخ أحمد ابن حنبل ليس فيه عبارة: وجزم به ابن إسحق،التي جاءت في نص الفائدة التي ذكرها ابن حجر، ويزيده تأكيداً أن ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر) قال: وفتر الوحي فترة لم يذكر لها ابن إسحاق مدة معينة، وهذا ينفي أن يكون ابن إسحق جزم بأن مدة فترة الوحي ثلاث سنين، وابن سيد الناس من ثقات رواة السيرة النبوية، ومن أقعد مدونيها في تحقيق أحداثها.

فالمدة المذكورة في حديث الشعبي عند ابن سعد هي نفس المدة المذكورة في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي، كما ثبت في مراجعة ابن حجر للمنقول عن الشعبي عند الإمام أحمد في تاريخه، وهذه المدة لا مدخل لها مطلقاً في مدة فترة الوحي التي تحدث عنها بلاغ الحزن اليائس في رواية معمر عن الزهري.

وقد تنبه إلى ذلك ابن حجر فصحَّح الوضع في أن مدة الثلاث سنين المذكورة في مرسل الشعبي لا علاقة لها بقدر مدة الفترة، فقال بعد أن ساق مراجعته للمنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد بن حنبل، الذي هو نفس مرسله عند ابن سعد: فيحسن بهذا المرسل ـ إن ثبت ـ الجمع بين القولين في قدر إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة، ولا يتعلق ذلك بقدر مدة الفترة.

شغل الباحثون من الأئمة عن تحقيق أمد فترة الوحي ووقتها بأمر جانبي

ومما يثير العجب أن يشغل الباحثون من المحدثين شراحاً ورواة لأحداث السيرة النبوية عن تحقيق فترة الوحي وقتاً وأمداً، بتحقيق مدة إقامة النبي ﷺ بمكة بعد بعثه وقبل هجرته، وتحديد سنه يوم جاءته النبوة، وتحديد سني عمره المبارك من يوم ميلاده إلى يوم انتقاله للرفيق الأعلى، مما كان سبباً في اضطراب البحث في فترة الوحي، وهي فترة أحق بتحقيق البحث العليم تحقيقاً يقطع فيها دابر الاختلاف، ويضعها في مكانها من تاريخ الأحداث في

السيرة النبوية لأنها هي فترة الحدث الذي اكتنفته أبطولة بلاغ الحزن اليائس، وأحاطته بأسطورة غدو النبي ﷺ مراراً إلى أعالي شواهق الجبال ليرميَ نفسه من ذراها انتحاراً لفتور الوحي عنه، خشية أن يكون هذا الفتور عقوبة من الله بسبب أمر مخالف وقع منه ﷺ، وهو لا يعلمه، ففعل ذلك بنفسه، كما يقول من لم ينكر بلاغ الحزن اليائس، فما كان ينبغي أن يطغى على بحثها وتحقيقها بحث وتحقيق سن النبي ﷺ يوم بدىء بالنبوة، وما يتصل بذلك من تحديد مدة إقامته ﷺ بمكة بعد المبعث وقبل الهجرة وتحديد سني عمره المبارك ﷺ، فيشغل محققي الباحثين من العلماء عن الوصول إلى كلمة الفصل فيها، ليظهر بتحقيقها مدى تخرص المتخرصين على مقام النبوة وقدس الرسالة.

* * *

سن النبي ﷺ يوم بعث ومدة إقامته بمكة وجملة عمره المبارك

ونحن لا ننكر أهمية وفائدة هذا البحث في سيرة محمد رسول الله ﷺ، وتحقق أحداثها، ولا يمكن أن يدور بخلدنا أن يخلو بحثنا من صورة لما قال علماؤنا في تحقيق سنه ﷺ يوم بدأت نبوته بالرؤيا الصادقة، وهي أول مراتب وحي النبوة، وتحقيق مدة إقامته ﷺ بمكة بعد بعثه رسولاً إلى العالمين وقبل هجرته من مكة إلى المدينة، وتحديد عمره المبارك منذ ولد ﷺ إلى أن فارق الدنيا إلى الرفيق الأعلى. والاختلاف في سنه ﷺ يوم نبىء، وفي مدة إقامته بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وفي تحديد سني عمره المبارك غريب، متباعد الأقطار، ونحن نذكر في تحقيق رواياته هنا استطراداً ما يوفق الله له.

فقد أخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي غالب الباهلي أنه شهد العلاء بن زياد العدوي، يسأل أنس بن مالك قال: يا أبا حمزة؟ بسن أي الرجال كان رسول الله ﷺ إذ بعث؟ قال أنس: كان ابن أربعين سنة، قال العلاء بن زيـاد ثم كان ماذا؟ قال أنس: كان بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، قال: هذا قول أنس إنه كان بمكة عشر سنين، ولم يكن يقوله غيره، ودعوى أن هذا لم يكن يقوله غير أنس غير مسلَّمة، فقد روي في البخاري عن عائشة وابن عباس في (باب وفاة النبي ﷺ) وأخرج هذا الحديث مسلم في صحيحه، فقال أنس فيه: بعثه الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين.

مذهب الجمهور في سنه ﷺ يوم بعث

فهذا الحديث صريح في تقرير أن البعث كان على رأس أربعين سنة من عمره ﷺ من يوم ميلاده، وهذا قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وغيرهم من السلف والخلف، قال السهيلي: هو الصحيح عن أهل السير والعلم بالأثر، وقال النووي: هو الصواب، وهو مروي في الصحيحين عن ابن عباس وأنس، وروي عن عطاء وابن المسيِّب، وجُبير بن مطعم، وروي عن قباث بن أشيم الصحابي.

وقال ابن القيم في (الهدي): فلما كمل له أربعون سنة أشرقت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده.

مذاهب أخرى في ذلك غريبة بعيدة

وخالف ذلك فريق من العلماء، اختلفت مذاهبهم، وافترقت كلمتهم، قال الزرقاني في شرحه مواهب القسطلاني: وفي تاريخ يعقوب ابن سفيان وغيره عن مكحول أنه ﷺ بعث بعد اثنتين وأربعين سنة، وقال الواقدي، وابن عاصم، والدولابي: بعث ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وفي كتاب العتقي: بعث ﷺ وهو ابن خمس وأربعين سنة، قال بعض العلماء: وقول الواقدي ورفيقيه، وما في كتاب العتقي شاذان، والثاني أشد شذوذاً.

وعند الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أنزل على النبي ﷺ - أي القرآن - وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وعندنا أن هذا ليس قول الواقدي ورفيقيه، لأن ابن عباس قال: أنزل عليه، وهذا بلا شك إنزال القرآن، وهو قد ابتدأ بمفاجأة الغار ونزول (اقرأ) وهذا مسبوق بالنبوة التي بدأت بوحي الرؤيا الصادقة، وقد حدد هذه المدة السابقة على إنزال القرآن مرسل الشعبي بثلاث سنين، فيكون ابتداء النبوة على رأس الأربعين من سنه ﷺ، وهذا موافق لحديث ابن عباس في الصحيحين، وهو قول الجمهور، أما قول الواقدي ورفيقيه فهو صريح بأن البعث كان وهو ابن ثلاث وأربعين، والبعث بإنزال النبوة كان قبل بدء الرسالة وإنزال القرآن الكريم.

أما تحديد مكثه ﷺ بمكة بعد بعثه وقبل هجرته، فقد اختلف فيه -

مدة إقامته ﷺ بعد البعثة واختلاف العلماء في ذلك.

أيضاً ـ اختلافاً عريضاً، لا يقل غرابة وبعد أطراف عن الخلاف في سنه ﷺ يوم جاءته النبوة، ففي حديث أنس بن مالك عند مسلم وابن سعد: أنه ﷺ أقام بمكة عشر سنين ـ أي بعد ابتداء نبوته، وقبل هجرته ـ وهذا موافق لحديث ابن عباس عند الإمام أحمد، كما قدمناه في كلامنا على سنه ﷺ عند بعثه وفيه: فمكث بمكة عشراً، وموافق لحديث عائشة وابن عباس عند البخاري في باب (وفاة النبي ﷺ) وفيه لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وهو مخالف لحديث ابن عباس عند مسلم أنه ﷺ مكث بمكة خمس عشرة سنة، ومخالف لحديثه الآخر عند البخاري ومسلم الذي جاء فيه أنه ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه.

قول الجمهور أصح الأقوال

وهذا قول جمهور العلماء من السلف والخلف، قال ابن حجر في الفتح: حديث ابن عباس: فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة أصح مما عند أحمد من وجه آخر عنه: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، فمكث بمكة عشراً، وأصح مما أخرجه مسلم من وجه آخر عنه: أنه ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة.

وفي صحيح مسلم رواية أخرى غير الرواية التي يقصدها ابن حجر في كلامه، لكنها متفقة معها في التصريح بأن مدة إقامته ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، وهي من رواية عمار مولى بني هاشم، قال: سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ فقال: ما كنت أحسب مثلك من قومه يخفى عليه ذلك، قال: قلت: إني سألت الناس فاختلفوا عليّ فأحببت أن أعلم قولك فيه، قال: أتحسب؟ قال: قلت: نعم، قال: أمسك، أربعين بعث لها، خمس عشرة يأمن ويخاف، وعشراً من مهاجره إلى المدينة. وقد وفق الطبري بين قول الجمهور وبين قول من قال: أقام بمكة بعد بعثه عشراً، فقال: فلعل الذين قالوا: كان مقامه بمكة بعد الوحي عشراً عدّوا مقامه بها من حين أتاه جبريل بالوحي من الله عزّ وجلّ، وأظهر الدعاء إلى توحيد الله، وعدّ الذين قالوا: كان مقامه ثلاث عشرة سنة من أول الوقت الذي استنبىء فيه وكان إسرافيل المقرون به، وهي السنون الثلاث التي لم يكن أمر فيها بإظهار الدعوة.

الخلاف في جملة عمره ﷺ وأصح الأقوال في ذلك

والخلاف في تحديد عمره المبارك ﷺ من ميلاده إلى أن فارق الدنيا وانتقل إلى الرفيق الأعلى، متفرع على الخلاف السابق في موضعين ـ أي في تقدير سنه يوم نبىء، وتقدير مدة إقامته بمكة ـ ففي صحيح مسلم عن أنس ابن مالك روايتان مختلفتان، إحداهما تقول: وتوفاه الله على رأس ستين سنة، والثانية تقول: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وهذه الرواية الثانية موافقة لما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري قالت: إن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وموافقه لحديث ابن عباس برواية عكرمة عند البخاري: قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ـ أي من ميلاده ـ فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين ـ أي أقام مهاجراً عشر سنين ـ ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، وموافق لحديث ابن عباس ـ أيضاً ـ برواية عمرو ابن دينار عند البخاري، قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال ابن حجر في الفتح: وهذا موافق لقول الجمهور، ثم قال ابن حجر: والحاصل أن كل من روي عنه من الصحابة ما يخالف المشهور، وهو ثلاث وستون جاء عنه المشهور، وهم ابن عباس، وعائشة، وأنس، ولم يختلف على معاوية أنه عاش ثلاثاً وستين، وبه جزم سعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد، وقال الإمام أحمد: هو الثبت عندنا.(ثم قال ابن حجر: وأكثر ما قيل في عمره أنه خمس وستون سنة أخرجه مسلم من طريق عمار ابن أبي عمار عن ابن عباس، ومثله لأحمد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، قال: قبض النبي ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

والقول بأن النبي ﷺ عاش خمساً وستين سنة كثرت روايته، عن ابن عباس، وتعددت طرقه، وهي طرق صحيحة ففي مسند الإمام أحمد من رواية حماد بن سلمة، قال: أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: أقام النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، بسبع سنين يرى الضوء والنور، ويسمع الصوت، وثماني سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً، فإذا أضيف

إلى ذلك أربعون سنة من ميلاده، بعث على رأسها كان جملة عمره المبارك خمساً وستين سنة، وفي المسند أيضاً من رواية خالد الحذاء عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

وفي المسند أيضاً من رواية يونس بن عبيد عن عمار بن أبي عمار قال: سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ قال ابن عباس: ما كنت أرى مثلك في قومه يخفى عليه ذلك؟ قال عمار: قلت: إني قد سألت الناس فاختلف عليّ، فأحببت أن أعلم قولك فيه، قال ابن عباس: أتحسب؟ قلت: نعم، قال: أمسك، أربعين بعث لها، وخمس عشرة أقام بمكة يأمن ويخاف، وعشراً مهاجراً بالمدينة.

وهذا الحديث من أبين الأدلة وأقواها في أن جملة عمره المبارك ﷺ في هذه الدنيا خمس وستون سنة، فهو صحيح السند، وفي أسلوبه ما يشعر بأنه كان أمراً متعالماً معروفاً، لا يخفى على مثل عمار في قومه، وفي أسلوبه ما يفيد أن عماراً كان حفياً بهذا الأمر، حريصاً على معرفته، فهو قد سأل أهل العلم فاختلفوا عليه، فأحب أن يعرف قول ابن عباس فيه، وابن عباس من أقوم قومه بالعلم والمعرفة، ولا سيما فيما يخص شأن النبي ﷺ في أمر قد يكون أهل بيته أعرف به وأقوم.

وقد تعددت طرق هذا الحديث في مسند أحمد، ورواه مسلم في صحيحه؛ فالقول به قول ينافس قول الجمهور في الصحة والقبول، وهو أقوى من قول أنس بن مالك في إحدى الروايتين عنه عند مسلم، من أن النبي ﷺ عاش ستين سنة الذي اقتصر عليه ابن سيد الناس في (عيون الأثر)، فقال بسنده إلى الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بنَ أبي عبد الرحمن، قال: حدثني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث على رأس الأربعين وقبض على رأس الستين، وما في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

وشذ قوم ذهبوا إلى أن عمر النبي ﷺ لم يبلغ ثلاثاً وستين سنة، وهؤلاء اختلفوا، فقالت طائفة: إنه ﷺ عاش اثنتين وستين سنة ونصفاً كما أخرجه ابن عساكر، وقالت طائفة أخرى كما روي عن عمر بن شَبَّة:

أنه ﷺ عاش إحدى أو اثنتين وستين سنة، ولم يعول الأئمة من السلف والخلف على هذه الأقوال لضعف رواياتها.

هذا الاختلاف أثر من آثار البيئة العربية قبل الإسلام

وهذا الاختلاف الكثير مترامي الأطراف ـ الذي صوَّرته الأقوال والمذاهب والروايات المتعددة في تحديد مقدار عمر النبي ﷺ، وتحديد مدة إقامته بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وتحديد سنه ﷺ يوم أن جاءته النبوة، من كل ما دعت المناسبة للاستطراد بذكره ـ نجده في أكثر الحوادث التي وقعت في حياته ﷺ منذ ميلاده إلى أن استقرت دعوته في المدينة المنورة، حيث بدأت حياة المجتمع الإسلامي تأخذ سمتاً جديداً من النظام الاجتماعي المترابط بوشائج الحقوق والواجبات، ذلك النظام الذي اقتضى تمييز الحقائق بأوقاتها وآمادها، وضبط الحوادث وتاريخ الوقائع بالكتابة أو ربطها بالمناسبات الكبرى التي لا تنسى، وقد تدرج ذلك في مدارج الدعوة وأحداثها ووقائعها ومن ثَمَّ عني الناس بضبط الوقائع وتأريخها، فقلَّت الخلافات، وأمكن الترجيح عند وجودها.

وواضح أن السبب الأقوى في كثرة الاختلاف، وآتساع أطرافه بين الرواة ونقلة الحوادث قبل استقرار حياة المجتمع الإسلامي بالمدينة المنورة هو ما كان معروفاً من طبيعة الأمة العربية في جاهليتها من عدم عنايتها بتسجيل الحوادث كتابة اعتماداً على ما وهبها الله من قوة الحفظ ونصاعة الذاكرة، فهي أمة أمية، لا تكتب ولا تقرأ، ولا تحسب، ولم تعرف لها أثارة من علم إلا ما كان موروثاً بالتجارب.

وقد تكاثرت عليها الوقائع والأحداث بمجيء الدعوة الإسلامية التي أذهلتها وأحدثت في حياتها جواً من الجذب والشد وعنف الحركة فكرياً ومادياً، فاضطرب حبل الرواية ونقل الحديث، وعسر ضبط الحوادث وتاريخها التي لم يخبر عنها رسول الله ﷺ، أما ما ثبت إخباره ﷺ عنه فهو كما أخبر عنه، ومثاله إخباره ﷺ عن يوم ولادته، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت، وفيه أنزل عليّ» فهذا نص صريح من أصح رواية عن تعيين يوم مولده ﷺ وهو ـ

مما يغلب على الظن ـ أنه من قبل الوحي فلا مجال فيه لرأي أحد من الناس.

* * *

ما ذكر في مرسل الشعبي لا يصلح أن يكون هو مدة فترة الوحي

وقد بيَّنا بما لا يدع مجالاً للشك أن مدة السنين الثلاث المذكورة في مرسل الشعبي لا تصلح أن تكون هي مدة فترة الوحي المقصودة في بلاغ الحزن اليائس، كما يُفهم من صنيع الإمام السهيلي في جمعه بين مختلف الأقوال في تحديد مدة إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وكما يفهم من كلام ابن حجر ونقاشه مع السهيلي.

وقد أشرنا إلى ما قد يبدو في كلام ابن حجر من التضارب، وبيَّنا أنه تنبه إلى ذلك وصرح بأن المدة المذكورة في مرسل الشعبي لا علاقة لها بقدر مدة فترة الوحي.

فالتحقيق أن مدة فترة الوحي التي كانت بين نزول (اقرأ) ونزول (يا أيها المدَّثر) كانت (أياماً) كما يظهر من ميل ابن حجر إليه؛ بل جزم به في تفسير سورة (والضحى) إذ قال: والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً، مستدلاً بحديث ابن عباس عن ابن سعد الذي جاء فيه نحو ما جاء في بلاغ الزهري.

ونحن لم نسلِّم هذا الحديث، وناقشناه كما ناقشنا بلاغ الزهري إنكاراً لما جاء فيه من أبطولة الحزن اليائس وما رتب عليها من أسطورة التردي من شواهق الجبال.

بيد أن عدم تسليمنا له لا يمنع من ترجيحنا لجنوح ابن حجر إلى أن مدة فترة الوحي كانت (أياماً)، بقطع النظر عن تمسكه في الاستدلال بهذا الحديث، وأنها كانت قطعاً بعد مفاجأة جبريل للنبي ﷺ في غار حراء ونزول أوائل سورة (اقرأ) وقبل نزول أوائل سورة (يا أيها المدثِّر).

والتعبير عن مدة فترة الوحي بأنها (أيام) ظاهر في إفادة تقليل المدة التي كانت زمناً لفتور الوحي، كما يدل لذلك ويؤكده ما جاء في حديث جابر

عند مسلم من قول النبي ﷺ: «ثم فتر عني - أي الوحي - فترة» فتأكيد الفعل بمصدره المنكر ظاهر في تقليل مدة الفترة.

تقليل مدة فترة الوحي هو المناسب لحكمتها الصحيحة.

وإذا كانت مدة فترة الوحي فيما حققناه، وفيما جنح إليه ابن حجر، ودلّ عليه صراحة حديث ابن عباس، وأكده حديث جابر، لا تعدو أن تكون (أياماً)؛ فهي بمعزل عن الطول الذي يحمل على الحزن اليائس ويدفع إلى محاولة قتل النفس بصورة يتأبى القلم عن وصفها، وهي أبعد من أن تبلغ هذا الطول، ولو كانت قد بلغته لكان الأقرب في التعبير عنه التصريح به ليكون أوفى بالتحديد والتقدير.

وإذا كانت مدة فترة الوحي في الاحتمال القريب الراجح أقل من أن تبلغ شهراً فهي أبعد من أن يقال فيها: (فإذا طالت عليه فترة الوحي) كما جاء في بلاغ معمر عن الزهري، وإذا بعدت عن استئهال وصفها بالطول فقد بعد جداً أن تبلغ الرغبة في تتابع الوحي بالنبي ﷺ حتى لا يفتر عنه (أياماً) أن يحزن حزناً يملؤه يأساً، حتى يغدو مراراً إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها.

بلاغ الحزن اليائس يقلب حكمة الله في التلطف بنبيه ﷺ.

ومن أعجب العجب أن يقلب هذا البلاغ حكمة الله تعالى في فتور الوحي، وتلطفه بنبيه وحبيبه ﷺ ليجمَّ نفسه، ويريح مشاعره وحواسه، ويمسح عنه آثار روع المفاجأة التي رجف منها فؤاده، وليزيده قوة في روحانيته، بما يعتلج بقلبه من التشوف وشدة الشوق إلى مطالع أنوار الملكوت وسبحات الشهود - إلى مأساة حزينة محزنة، وعقوبة قاصمة باخعة.

وقد يتساءل متسائل: هل روي أن النبي ﷺ حاول مثل هذه المحاولة بطريقة أخرى غير طريقة التردي من شواهق الجبال؟.

على شدة جهد البحث لم أعثر على شيء من ذلك في رواية صحيحة أو ضعيفة، وهنا يأتي تساؤل آخر: فلماذا إذاً هذا التصميم على هذه الطريقة؟ ولماذا استمر الاستمساك بها دون غيرها من المحاولات إذا كان القصد هو التخلُّص من الحياة حزناً على فتور الوحي؟، وهذا يؤكد أنه لم يقع شيء من

ذلك قط، وأن بلاغها أكذوبة باطلة.

الوجه السادس في إبطال البلاغ الزائف

السادس ـ كيف تبقى دوافع العزيمة على التردي من شواهق الجبال قائمة في نفس رسول الله ﷺ بعد أن تبدَّى له أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو يقول له: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن جأشه، وتقرّ نفسه، فيرجع عما كان قد عزم عليه من قاصمة عصمة النبوة، ومبددة معالم الإيمان بها، ثم يقال بعد ذلك في بلاغ الحزن اليائس: فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك؟.

أفما كان يكفي للقضاء نهائياً على دوافع عزيمة التردي من شواهق الجبال ـ لو كان لهذه العزيمة وجود في واقع حياة رسول الله ﷺ ـ تبدِّي جبريل في عظمة روحانيته، وجلال ملائكيته، ومقامه في الملأ الأعلى، وما أوتيه من قدرة التشكل في صور التجليات العظمى، وهو يقول لسيد الوجود: يا محمد، إنك رسول الله حقاً وأنا جبريل، ورسول الله ﷺ كان على أكمل اليقين في معرفته بعد مفاجأة الغار، وإنزال آيات القرآن، ولكن بلاغ الحزن اليائس لا يرى ذلك كافياً، بل يمضي في نسج خيوط الأبطولة فيقول: فإذا طالت على رسول الله ﷺ فترة الوحي غدا إلى ذرا الشواهق ليلقي نفسه من فوقها، ويدركه الأمين جبريل مرة أخرى، ويتبدى له بصورته الملائكية العظمى قائلاً: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، وأنا جبريل، حتى عاد الوحي وتتابع.

ماذا يسمى كل هذا في شرعة الإيمان؟ بَلْهَ في حق النبوة وقدر الرسالة حق قدرها؟.

أفٍّ للعقول التي لا ترتفع بإيمانها عن حضيض سبخات الأرض التي لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء؛ وأفٍّ للقلوب التي لا ترى عنوان كمال النبوة إلا على نونصة فتائل مصابيح العقول التي نفد زيتها، فهي تمتص عصارة ما علق في خيط الفتائل، وتمضي إلى حيث تلفظ آخر برقة في حياتها مستسلمة لأحضان الظلام في محيط الفناء.

لست أدري كيف أدخل إمام الدنيا في علم الحديث وفقهه، وتعمق

إلحاق البخاري هذا البلاغ الزائف في جامعه ليس دليلاً على صحته

أسراره الإمام محمد بن إسماعيل البخاري هذا البلاغ المعمري الزهري في جامعه، أصح جوامع الحديث، وأقوم دواوين السنة؟!

هل كان ذلك لمجرد الثقة بالإمام العليم محمد بن شهاب الزهري، وتلميذه معمر، وهما أهل للثقة في سعة حفظهما وضبطهما لما يرويانه مسنداً، بيد أنهما لم يسندا هذا البلاغ؟.

ولكن ألا كان في فقه البخاري، وغوصه على أسرار الحديث النبوي، وتبحره في معرفة نصوصه ومتونه، وما يمكن أن يكون قد دخل فيها من الوهل والوهم على بعض الرواة، مهما يكن شأنهم في سعة الحفظ والضبط، وهم غير معصومين من الخطأ والغلط والسهو والالتباس - ما يقف حاجزاً دون إدخاله هذا البلاغ في جامعه العظيم، الذي اتخذته الأمة الإسلامية كلها في مشارق الأرض ومغاربها، إماماً في دينها، ومعرفة وقائع وأحداث حياة نبيها، خاتم النبيين محمد ﷺ من أوثق طريق؟.

وقد أوضحنا بإسهاب الأدلة والبراهين التي توجب إنكار أن يكون مضمون هذا البلاغ قد وقع أصلاً في حياة الرسالة الخالدة الخاتمة، رسالة سيد الخلق محمد ﷺ.

فسبحان من تفرَّد بالكمال المطلق، ربنا الله الملك الحق المبين، وسبحان من خص أنبياءه ورسله وأصفياءه بالعصمة أن يقع منهم أو لهم في نبوتهم ورسالاتهم ما يمس جلال يقينهم ورسوخ إيمانهم بما أوتوا من ربهم.

وسبحان من خص سيد المرسلين وخاتم النبيين بكمال الروحانية في رسالته الخالدة، فكشف له بهذا الكمال ما أشهده من حقائق آيات الله في الكون، وعصمه في روحانيته من زلق الدهش وحيرة المفاجأة، وثبَّت فؤاده لتلقي كلمات الله العلي الأعلى، وأثنى عليه بكمال ما أدَّبه ثناء لم ينله غيره من الأنبياء والمرسلين، فقال جلّ شأنه يصف ما كمَّله به من أدب الشهود: ﴿ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾.

وليس لاختلاف الزمن في جلال النبوة وقدس الرسالة وزن يجعل

أولها غير آخرها في عصمة اليقين ورسوخ الإيمان، ومهمة التبليغ ووجوب المتابعة، لأن النبوة قبس من ومض الاصطفاء الإلّهي، يبدو في مشرقه خفياً، ثم يتبدى في إشراقه نوراً مبيناً، لا يختلف في حقيقته مبتداه عن منتهاه.

وكبوة الأكابر لا لعا لها، وعثرتهم قاصمة الظهر، وزلتهم مزلقة السالكين، ومدحضة الواردين، أُمِرنا باتقائها، فاللهم غفراً.

وكان من طلائع البداهة أن يشعر أولو العلم والفكر من باحثي الإسلام بما في هذا البلاغ الزائف من خطر مدمر لدعائم الإيمان، ولكنهم كعّوا عن إنكاره وإبطاله تهيباً لمس هالات الأكابر، وهم يتصورون ما يخلفه وراءه من مطاعن في أصل أصول الإيمان في النبوة، وعصمة الأنبياء في الرسالات الإلّهية والإيمان بها، في النبي ﷺ، وتصديقه في دعوته أنه رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق، بل في إيمانه هو ﷺ بدعوته، وتصديقه نفسه في رسالته، بل لقد انتهض فريق منهم للدفاع عن هذا البلاغ الزائف وما جاء فيه من تقحم على حمى النبوة وقدس الرسالة، نبوة محمد خاتم النبيين، ورسالة محمد سيد المرسلين ﷺ.

أبو بكر الإسماعيلي يحمل لواء الدفاع لتسويغ ما تضمنه بلاغ الحزن اليائس

وقد حمل لواء هذا الدفاع أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني، وقد سبقت لنا معه جولة طويلة في موقفه من تفسير (الخشية) التي وردت في قول النبي ﷺ لخديجة: (أي خديجة، مالي؟ قد خشيت على نفسي) تفسيراً يستوجب الشك والارتياب عند النبي ﷺ في نبوته ورسالته حتى احتاج إلى أن يشكو إلى خديجة حاله لتثبته، واحتاج إلى سماع كلام وَرَقَة ليوقن بالحق ويعترف به.

إن هذا الشك ـ كما يقول الإسماعيلي في تصويره لتمويه الطاعنين بزعمه ـ إذا جاز في حق النبي ﷺ مع معاينته للوحي ونزول القرآن عليه، فهو في حق غيره من المؤمنين والكافرين ممن لم يعاينوا معاينته، ولم يشاهدوا مشاهدته، أحرى بالجواز، وكان على الإسماعيلي أن يقول:

بل هو أحرى أن يفتن الناس، ويفسد عقائدهم، ويرعبل رغبات الراغبين في الإيمان، بل هو أحرى أن يعجز العقل عن تقبُّل الإيمان بصاحب

هذا الشك الذي يشك في أمر نفسه، وأحرى أن يعجز المنطق عن قدرة الدفاع عنه، وأحرى أن يفتح للملحدين أبواب الطعن في أعظم دعائم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي أصول الديانات السماوية كلها، بل هو أحرى أن ينسف أصول الإيمان نسفاً لا يبقي منها ولا يذر.

شمر أبو بكر الإسماعيلي للدفاع عن تفسير (الخشية) المريب المتقحم، وعن الدفاع عن بلاغ الحزن اليائس في كلام ساقه ابن حجر في الفتح، وقد استوفينا الرد على الإسماعيلي، وبهرجة مزاعمه في توجيه تفسير الخشية المتقحم - فيما سبق - بيد أن كلامه الذي ساقه ابن حجر تضمن تصويراً لتمويه الطاعنين على المحدثين في رواياتهم مثل هذا البلاغ الباطل، وفي إقحامهم تفسيرات باطلة على كلمات رويت عن النبي ﷺ، ولكن هذا التصوير الذي سماه الإسماعيلي (تمويهاً) لم يلق من أبي بكر الإسماعيلي إلا رداً متهافتاً، يتهاوى على نفسه ضعفاً وفساداً.

وقد رأينا استكمالاً للبحث أن نعرض لبيان تهافت كلامه وفساده، وأن نسوق عبارته كما ذكرها ابن حجر، ثم نبيِّن زيفها وتهافتها، وما فيها من المغالطة بضرب الأمثلة التي لا تستقيم مع الموضوع، حتى لا يفتن بها من يطلع عليها من المؤمنين والملحدين، لأن الأمر أمر النبوة، نبوة سيد الخلق نبينا محمد ﷺ، فلا يحتمل السلبية ولا المجاملة من أجل هالات فوق أسماء الرجال.

تصوير الإسماعيلي لطعن الطاعنين وإجابته عن ذلك.

قال الإسماعيلي: موّه بعض الطاعنين على المحدِّثين، فقال: كيف يجوز للنبي أن يرتاب في نبوته حتى يرجع إلى وَرَقَة، ويشكو لخديجة ما يخشاه، وحتى يوفي بذروة جبل ليلقي منها نفسه على ما جاء في رواية معمر، ثم قال الإسماعيلي: ولئن جاز أنه يرتاب مع معاينة النازل عليه من ربه، فكيف ينكر على من ارتاب فيما جاءه به مع عدم المعاينة؟.

قال الإسماعيلي: والجواب أن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذ قضى بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ

من الرؤيا الصادقة، ومحبة الخلوة والتعبُّد من ذلك، فلما فجئه الملك فجئه بغتة أمرٌ خالف العادة والمألوف، فنفر طبعه البشري منه، وهاله ذلك ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه، حتى إذا تدرج عليه وألفه استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي ألف تأنيسها له فأعلمها بما وقع له، فهوَّنت عليه خشيته بما عرفته من أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفتها بصدقه ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه أيقن بالحق واعترف به، ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي، ليتدرج فيه، ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعد إنك رسول من الله ومبعوث إلى عباده، فأشفق أن يكون ذلك أمر بدىء به، ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على نقل ما يرد عليه فتح الله له من أمره بما فتح.

ثم قال الإسماعيلي: ومثال ما وقع له في أول ما خوطب ولم يتحقق الحال على جليتها مثل رجل سمع آخر يقول: الحمد لله، فلم يتحقق أنه يقرأ، حتى إذا وصلها بما بعدها من الآيات تحقق أنه يقرأ.

وكذا لو سمع قائلاً يقول: خلت الديار، لم يتحقق أنه ينشد شعراً، حتى يقول: محلها ومقامها.

ثم قال الإسماعيلي: وأما إرادته ـ أي النبي ﷺ ـ إلقاء نفسه من رؤوس الجبال بعدما نبيء فلضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه..

نَظَرٌ وَنَقْد

الناظر في كلام أبي بكر الإسماعيلي ـ وتصويره لطعن الطاعنين الذي سمَّاه تمويهاً على المحدثين في روايتهم لهذا البلاغ اللصيق بالسيرة النبوية العطرة، وذكرهم تفسيرهم بعض كلمات وردت في بعض الأحاديث كتفسير المراد من كلمة (خشيت على نفسي) في حديث عائشة رضي الله عنها، بما تقحَّموه من معنى مستبشع فاسد مفسد، وإجابته عن طعن الطاعنين في المحدثين ـ يرى بشيء من التأمل المحكم المنصف أن هذا الطعن الذي نسج خيوطه أبو بكر الإسماعيلي في صورته المعبِّرة، يصور شيئاً من بعض ما يجول في حنايا أفكار أعداء الإسلام من الملاحدة، وأحلاس الوثنية العصرية، ويصور شيئاً من تفاهة التفكير عند ضعفاء الإيمان الذين قالوا آمنا بأفواههم وراثة (جغرافية) ولم تؤمن قلوبهم إلا إيمان جهالة بحقيقة الإسلام، وهم الكثرة الغامرة من مثقفي شباب المسلمين، ثقافة لا تعرف عن الإسلام إلا صورة شوهاء، محرفة بالأساطير والخرافات، مغلفة بالأضاليل والأباطيل.

ويصوِّر شيئاً من الألم الممض الكظيم في أنفس صادقي الإيمان من الغُيُر على كرامة الغر الميامين، الغطارفة البهاليل من أئمة المحدثين، حماة السنة المطهَّرة، ومداره الشريعة المكرمة الذين عرَّضهم بعضُ من حفظوا بعض تراثهم، ولم يتفقهوا فيه فقههم، فقالوا وتخرصوا وتقحَّموا، وأبوا إلا أن تكون أقوالهم وتفسيراتهم ورواياتهم التي لم تُسند سنة من السنة يجب قبولها وعدم التردد في الاطمئنان إليها.

ويرى الناظر بشيء من التأمل العليم المؤمن أن إجابة أبي بكر الإسماعيلي عن هذا الطعن الذي سمَّاه تمويهاً ضعيفة متهافتة، لا تصلح أن تكون رداً على ما صوَّره الإسماعيلي نفسه من مآخذ فيها فرضه كلاماً للطاعنين على المحدِّثين، وذلك من وجوه:

الوجه الأول في بيان ضعف وتهافت كلام الإسماعيلي

الأول: إن تصوير أبي بكر الإسماعيلي لمطاعن الطاعنين على المحدِّثين قد اكتسب قوة من واقع ما اكتسبته تلك المطاعن من قوة الإلزام للذين أقحموا على حمى السيرة النبوية المطهَّرة في مطالع اختصاصها بجلال النبوة وقدس الرسالة، تلك التخرصات في بلاغ الحزن اليائس، وفي تفسير (الخشية) بما يجب أن تنزَّه ساحة النبي ﷺ عن حومان مثله حول حصنها المنيع، ولا سيما في بلج صبحها، ومشرق نورها، فهو تصوير واقعي محكم، لا أثر للتمويه فيه، لأنه يمثل ما يهجم على العقول والقلوب بمجرد الشعور فيما يأتي:

أولاً ـ أن يكون النبي ﷺ، وقد اصطفاه الله لنبوته ورسالته ﴿والله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ بمعرض الضعف النفسي إلى درجة أن يخاف أن يكون كاهناً أو مجنوناً، عقب أشرف لحظة مرت على إنسان في الوجود، لحظة لقاء ملك الوحي في مفاجأة الغار، ونزول آيات القرآن الكريم في هذا اللقاء، وبعد أن يتبدَّى له الروح الأمين مخاطباً مرتين قائلاً: يا محمد!! أنت رسول الله، وأنا جبريل، وذلك قبل أن يرجع إلى أهله، ويخبرهم بما حدث له من الشرف العظيم، فلا يكفيه ذلك كله في التثبيت وحصول الإيقان بالحق، والاعتراف به، بل يحتاج إلى أن يشكو حاله إلى خديجة، فتهوِّن عليه خشيته، وتستظهر لهذا التهوين بكلام وَرَقَة الذي يسمعه النبي ﷺ منه، وعندئذ ـ فقط ـ يوقن بالحق، ويعترف به، كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في جوابه عن مطاعن الطاعنين على المحدثين.

هذا من أعجب العجب، وأغرب ما يطلب إلى العقول أن تقبله وتصدق بوقوعه في حياة سيد الخلق محمد ﷺ، وهو أمر ظاهر البطلان،

مظلم الأفق، لا يحتاج إلى نقاش لو تخلّت بعض العقول عن تعصب التفكير الطائفي في تخصصات العلوم والأفكار.

فهل كان كلام ورقة أعظم أثراً في إيجاد الإيقان وتحصيله للنبي ﷺ واعترافه بالحق من وحي النبوة بالرؤيا الصادقة، وما صحبها وتتابع بعدها من الآيات والإرهاصات ومراتب الوحي، ونزول القرآن، واستعلان أمين الوحي، ومخاطبته لرسول الله ﷺ جهرة مشافهة بأنه رسول الله، وقد أخبر النبي ﷺ خديجة باستعلانه له بعد رؤياه في منامه، فقال لها: «أرأيتك الذي كنت أحدثكِ أني رأيته فإنه جبريل قد استعلن».

وبهذه القوة الإلزامية التي اكتسبها تصوير أبي بكر الإسماعيلي لمطاعن الطاعنين على المحدِّثين كان تصويراً لا أثر فيه للتمويه، بل كان تصويراً واقعياً يمثل ما يهجم على العقول والقلوب بمجرد الشعور:

ثانياً ـ إن تصوير الإسماعيلي يقتضي أن رسول الله ﷺ حزن لفتور الوحي حزناً ملأه يأساً كظيماً مغلقاً، دفعه إلى أن يغدو مراراً إلى شواهق الجبال لكي يتردى من فوق ذراها تخلصاً من حياته الحزينة اليائسة، ويتبدّى له جبريل كلما أوفى بذروة جبل بعظمة خلقه الملائكي، وجلال روحانيته العليا، التي لا يمكن أن يشتبه بها الشيطان ليلبِّس على النبي ﷺ أمره.

ولم يقتصر تبدي جبريل على مجرد ظهوره، بل إنه يخاطب النبي ﷺ قائلاً: يا محمد!! إنك رسول الله، فيرجع رسول الله ﷺ عما كان قد عقد عليه عزمته ليقتل نفسه بالصورة التي رسمها بلاغ الحزن اليائس، ولكن رسول الله ﷺ لا يجد ـ على ما زعمه الإسماعيلي ـ في تبدي جبريل ومخاطبته في علانية وصراحة بأنه رسول الله ـ الإيقان والاعتراف بالحق الذي جاءه من عند ربه، اعترافاً وإيقاناً يمنعانه من معاودة العزيمة على التردي من قمم الشواهق (إذا طالت عليه فترة الوحي ـ في زعم قائليها ـ) فيتبدَّى له جبريل مرة أخرى، ويقول له: يا محمد، إنك رسول الله.

وعبارة بلاغ الحزن اليائس تقتضي بنصها الصريح تكرار الغُدُوّ إلى

شواهق الجبال للتردي من فوقها، وتقتضي تكرار تبدي جبريل للنبي ﷺ وبخاطبته بأنه رسول الله، فكم مرة غدا رسول الله إلى الشواهق كي يتردى من ذراها ليقتل نفسه؟ وكم مرة تبدّى له جبريل وخاطبه بأنه رسول الله؟ وفترة الوحي طويلة، طويلة في زعم بلاغ الحزن اليائس، فبكم يوم أو شهر أو سنة يقدر طولها، والنبي ﷺ فيها يغدو على تطاولها إلى شواهق الجبال ليرمي نفسه من أعاليها؟ وكم مرة تبدى له جبريل وهو يخاطبه: يا محمد إنك رسول الله؟! ومع ذلك كله ـ في زعم بلاغ الحزن اليائس ـ لا يجد رسول الله ﷺ الإيقان الذي يبدد من نفسه الشك في نبوته، وفي تصديق أمين الوحي في قوله مراراً له: إنك رسول الله، وكان رسول الله ﷺ قد وجد الإيقان واعترف بالحق حين سمع كلام ورقة ـ كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في إجابته عن طعن الطاعنين على المحدِّثين.

وأين ذهب هذا الإيقان والاعتراف بالحق الذي حصل للنبي ﷺ عقب سماعه كلام ورقة الذي لم ينشب أن توفي ـ كما في حديث البخاري ـ فلم يدرك فترة الوحي التي كانت بعد وفاته قطعاً، كما يدل على ذلك نص حديث عائشة الذي ألصق به بلاغ الحزن اليائس إلصاقاً غريباً، في قوله: ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي، وهذا صريح في أن فترة الوحي كانت بعد وفاة ورقة، وبعد أن حصل للنبي ﷺ الإيقان والاعتراف بالحق بسماع كلام ورقة، وفترة الوحي المتأخرة عن حصول الإيقان والاعتراف بالحق هي التي زعم فيها بلاغ الحزن اليائس ما زعم من تكرار غدوّ النبي ﷺ إلى الشواهق ليتردّى من أعاليها، وتكرار تبدي جبريل له، وتكرار قوله في مخاطبته له: إنك رسول الله.

فهل كان هذا الإيقان والاعتراف بالحق موجودَين عند النبي ﷺ في فترة الوحي، ومع وجودهما وقع فيها منه ما زعمه بلاغ الحزن اليائس؟.

وإذاً فما يسمى هذا في شرعة النبوات والرسالات الإلٰهية؟ أو كان ذلك الإيقان والاعتراف بالحق غير موجودَين عند النبي ﷺ في فترة الوحي ـ وفيها

كان نبياً رسولاً قطعاً ـ بل هما قد ذهبا بذهاب ورقة؟ وإذاً فماذا بقي من النبوة والرسالة؟.

إن بلاغ الحزن اليائس أبطولة منكرة، كسيحة، لا تقوم على ساق من واقع الحياة النبوية الطاهرة المطهَّرة، ونعوذ بجلال الله العلي الكبير أن نقبلها، فضلا أن نعتقدها في إيماننا بسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، ورضائنا بالإسلام ديناً، وبالعلم هادياً وإماماً، وبالعقل قائداً ومرشداً.

الوجه الثاني في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الثاني: ـ إن تجويز أدنى شك وارتياب على النبي ﷺ في رسوخ إيمانه بنبوته ورسالته، بعد ثبوت النبوة له بوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، وسبحه في غمرات أنوارها أمداً طويلاً، يوحى إليه فيه بمراتب وحيها، يُعلَّم، ويُكلَّم، ويسمع، ويرى من أعاجيب ربه، وآياته، مما أثبتته الأحاديث المسندة الصحيحة، وبعد ثبوت الرسالة له بلقاء أمين الوحي جبريل عليه السلام علانية في غار حراء في وحي اليقظة، وبدء نزول القرآن الكريم عليه، بخمس آيات من أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ـ لا يُبقي لغيره من كافة الخلق المرسل إليهم لدعوتهم إلى الإيمان به وبدعوته، دعوة الحق والتوحيد، ووجوب متابعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه، خيط عنكبوت يتعلقون به في قبول هذا الإيمان، بله صونه وحفظه من معاول الشبه والأضاليل، والدفاع عنه، ورد الأباطيل عن ساحته المنيرة بنور اليقين.

ذلك لأن صاحب الدعوة المعصوم بمقتضى ثبوت نبوته قبل لقاء الغار المفاجىء، إذا لم يكن عنده أكملُ اليقين في نبوته ورسالته وهو قد عاين ما ينزل عليه من آيات ربه، فكيف يستمسك بالإيمان به وبدعوته من لم يعاين شيئاً مما عاين صاحب الدعوة من الآيات، ونزول الذكر الحكيم، وهو يجد صاحب الدعوة يشك في حاله ويطلب التثبيت من غيره؟.

هذا ضرب من المحال في متعارف العقول، وهل للمرتاب في حاله، الشاك في أمر نفسه، اليائس في حزنه، يأساً دفعه مراراً إلى أن يحاول قتل نفسه للتخلُّص من حياته ـ قوةٌ من صدق الإيمان بدعوته، ينهض بها إلى

مواجهة الناس ودعوتهم للإيمان برسالته، وهي معلقة في فضـاء الشك والحيرة؟

لكن محمداً ﷺ كان أرسخ العالمين بالله إيماناً، وأعمقهم يقيناً، إيماناً ويقيناً كانا جناحَي نهضته بدعوته الخالدة، الخاتمة لدعوات السماء، فآمن به من آمن استجابة لصدق يقينه في دعوته وراسخ إيمانه برسالته.

الوجه الثالث في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الثالث: إن إجابة أبي بكر الإسماعيلي عن مطاعن الطاعنين على المحدِّثين بأن الله تعالى إذا قضى إيصال أمر جليل إلى الخلق قدم إليه ترشيحاً وتأسيساً، مسلَّمة في جملتها، ولكنها ضعيفة في تعليلها ودعامتها.

والأمر الجليل الذي قضى الله تعالى إيصاله إلى الخلق هنا هو رسالة محمد ﷺ، قد قدَّم لها النبوة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها، والنبوة سبقت الرسالة بأمد طويل، قيل إنه ستة أشهر كما حكاه البيهقي في الدلائل، وقيل إنها ثلاث سنين كما في مرسل الشعبي، وقيل إنها سنتان ونصف سنة، كما قال السهيلي إنه مروي مسند.

وأيما كان فهي ـ في أقل تقديرها ـ مدة كافية في أن تملأ قلب النبي ﷺ يقيناً لا يزعزعه شيء مهما كان هائلاً مفزعاً، في أنه نبي أوحي ويوحى إليه، وأنه لا بد أن يكون قد شاهد من وحي النبوة وأحداثها العظام في مداها قبل مجيء الرسالة إليه عجائب من آيات الله وعظائم أمره الإلّهي مما لا يبعد عن مجانسة أو مقاربة ما رآه في مفاجأة الغار.

فإذا فاجأه الوحي اليقظي بما يخالف مألوف الناس، ومألوفه هو ﷺ في وحي النبوة بالرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها، فلا مانع أن يفزع ويرعب للمفاجأة وهولها فزعاً معتصماً بنور النبوة، وقوة روحانيتها، ورعباً محفوفاً بالعصمـة التي تجب له منذ أول لحظة كان فيها نبياً اصطفاه الله لوحيه.

لكنه لا يجـوز عليه قط أن يفزع فزعاً ينسيه أنه نبي، ولا يجوز عليه أن يرعب رعباً يسلبه في لحظة من اللحظات اصطفاء الله له لنبوته ووحيه بما

يخرجه عن يقين الأنبياء إلى ارتياب المرتابين.

النبوة لا تمنع الأعراض البشرية التي لا تنافي العصمة

والنبوة مرتبة فوق جميع مراتب الكمال البشري، والرسالة مرتبة فوق جميع مراتب النبوات، فإذا ثبتت النبوة لمن يصطفيه الله تعالى لمرتبتها، ثم جاءه من ربه جلّ شأنه - وهو نبي يوحى إليه - ما ليس مألوفاً لبشريته قبل النبوة، فلا مانع أن يلحقه شيء من الفزع والرعب البشري، لكنه فزع أو رعب لا يمكن أن يكون كفزع ورعب من لم يكن نبياً.

وكذلك إذا ثبتت الرسالة لمن يصطفيه الله عزّ وجلّ من أنبيائه رسولاً، ثم جاءه من عند الله تعالى ما ليس مألوفاً لبشريته قبل أن يكون رسولاً فلا مانع أن يفزع ويرعب فزعاً ورعباً تقتضيه دواعي بشريته، لكنه لا يمكن أن يصل إلى درجة تخطِّي عصمة النبوة والرسالة، وقد بيَّنا أن هذا الفزع مرجعه خشية النبي ﷺ ألاّ يستطيع القيام بحقوق رسالته لما يقام في طريقه من عوائق وعقبات.

ومحمد ﷺ ثبتت له النبوة - قطعاً - قبل مفاجأة الغار، وقبل فترة الوحي، فإذا روي أنه فزع من هول المفاجأة وما حف بها فلا يجوز قط أن يقال: إنه فزع فزعاً أذهله عن مقام نبوته فلم يتمكن من التأمل، وخشي على نفسه أن يكون كاهناً أو أن يكون به جُنُن.

كما لا يجوز قط أن يقال عنه: إنه حزن على فتور الوحي حزناً أخرجه عن عصمة النبوة والرسالة، وحمله على محاولة قتل نفسه، وفترة الوحي طالت أو قصرت شأن من شؤون الله التي ينفرد بحكمتها.

ولا شكّ أن من بدائه العلم بالنبوة والرسالة، والإيمان بهما العلمَ بجلال الألوهية وإطلاق الإرادة الربانية في اختيارها وتصرفها الذي لا يحدّه أمر من الأمور، والأنبياء والرسل أعرف العارفين بجلال الله، فلا يتصور أن يقف منهم أحد، وفي طليعتهم سيد العالمين محمد خاتم النبيين، يعارض مشيئة الله تعالى ومطلق إرادته، وخصيصة الأنبياء والمرسلين التسليم المطلق لإرادة الله تعالى، والرضا بما تأتي به مشيئته عز شأنه.

وهذا مما يؤكد تأكيداً قوياً زيف بلاغ الحزن اليائس، ويشجب التفسير المتخرص للخشية في قوله ﷺ: (خشيت على نفسي)، ويرد ما كان من الحزن والخشية إلى مألوف الحياة في نوازع الطبيعة البشرية في خصائصها الإنسانية المجردة عن عوامل السمو الروحاني المتعالي عن تأثرات الغرائز البشرية والضعف الإنساني.

ولا ندري كيف لم يتمكن النبي ﷺ من التأمل في تلك الحال ـ كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في جوابه عن طعن الطاعنين على المحدِّثين ـ وهو ﷺ قد عاد إلى أهله بعد فجأة الغار وما جرى فيه، وطلب أن يلجأ إلى فراشه مزملاً مدثراً، ليستجم ويستريح من أثر غط الملك غطاً بلغ منه الجهد حتى ظن أنه الموت، ثم هدأت نفسه وربط جأشه، وحدَّث أهله بما رأى وما سمع، وما كان من شدة لقاء الملك، وما أقرأه من آيات القرآن الكريم.

ولا شك أنه ﷺ بعد هذا الهدوء النفسي قد زالت عنه ـ أو خفت ـ مشقة المفاجأة والغط الذي استفرغ بشريته وأكسبه قوة روحانية كان بها في أكمل مراتب اليقين بنبوته ورسالته.

بيد أن مفاجأة الغار قد أضافت إلى يقينه برسالته إمعاناً في التفكير للقيام بأعباء الرسالة التي عرف بهذا اللقاء اليقظي أنها أثقل تلقياً وأشد عبأ من النبوة، وعرف أنها أفدح تحملاً في التبليغ والدعوة، وهذا هو الذي بثه إلى خديجة رضي الله عنها، فشجعته بكلماتها النورانية، وفراستها الفطرية.

وإذا كانت النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ـ كما يقول أبو بكر الإسماعيلي، وهو حق لا يجادل فيه ـ لكنها تخلِّص الروح من أعظم علائقها المادية المعوقة للاتصال بالملأ الأعلى في شيء من المجانسة الروحانية ليحصل التناسب الروحاني عند بدء الرسالة بتلقي الوحي اليقظي ونزول القرآن الكريم.

فالنبوة وإن لم تزل طباع البشرية كلها، لكنها لا بد أن تزيل قدراً منها يحرر القوة الروحانية من سيطرة قوى الحس المادي في عناصر البشرية حتى

الفزع مما لم يُؤلف طبيعة بشرية بخلاف النفور فإنه صد شعوري ينافي اليقين.

تتمكن من مجانسة الملأ الأعلى في روحانيته العليا، لتتلقى عنه ما يأتي به الوحي اليقظي في مراتبه المختلفة.

وهذا العذر لا يمنع طروء الفزع والرعب مما لم يؤلف في الطباع البشرية، وفرق كبير جداً أن يُفزع مما لم يؤلف، وبين أن ينفر الطبع مما لم يؤلف، فالنبي ﷺ فزع ورعب مما لم تألفه بشريته من المفاجأة والغط والإقراء، ولكنه لم ينفر طبعه من ذلك، بل لقد كان هذا الذي فزع منه محبباً إليه شديد الرغبة فيه، والسبح في مشاهده، بدليل ما قدمناه من الأحاديث التي تثبت أن النبي ﷺ على أثر هدوء نفسه، وتحدثه إلى أهله بما حدث له، وتشجيعها له بكلمات النور الرباني، وذهابها به إلى ورقة، وسماعه كلام ورقة ـ عاد ﷺ إلى متعبده غار حراء، وهو المشهد الذي فاجأه فيه ملك الوحي وحدث له فيه ما حدث، فلو كان رسول الله ﷺ نافر الطبع مما وقع له في غار حراء لم يكن ليسرع إلى عودته إلى متعبده الذي شهد فيه ما حدث له من المفاجأة والإقراء، بل لو لم يكن رسول الله ﷺ محباً، شديد الرغبة والتشوّف إلى تلك المشاهد ما كان يعود إليها في مشهدها وساحة وقوعها في غار حراء، والنبي ﷺ سبق له أن رأى وشاهد من العجائب والإرهاصات قبل النبوة وبعدها ورأى من الآيات والمعجزات بعد النبوة ولم ينفر عنها طبعه، فقد سمع الأشجار والأحجار، ورأى تظليل الغمام، ورأى وسمع الصوت دون أن يعلم مصدر ما يرى وما يسمع، وهذه كلها أشياء لم يألفها طبعه، ولكن طبعه لم ينفر منها، بل كانت له مؤيدات ومبشرات.

قد يفزع النبي ﷺ من هول المفاجأة، وقد يرعب من رؤية الملك أول ما رآه عياناً في الصورة التي جاء بها إليه، ولا بد أن يكون فيها ضرب من الملائكية والروحانية العليا، وقد يرتاع من شدة الغط المتكرر الذي بلغ به جهده في كل مرة حتى إنه ظن الموت ـ كما ثبت في بعض الروايات ـ وقد يدهش فلا يتمكن من التأمل في جو المفاجأة وما تتابع فيها من الأحداث في حالته، ولكنه لا يمكن أن يستمر معه عدم التمكن من التأمل في حالته فيصل إلى أن يحصل له الشك في نبوته التي ثبتت له يقيناً، وعاش في أنوارها،

ومراتب وحيها ومشاهدها، ويحتاج إلى أن يشكو إلى خديجة رضي الله عنها حاله، ويخشى على نفسه أن يكون كاهناً أو أن يكون به جُنُن من تفسيرات المتخرِّصين للخشية، ويحتاج إلى أن يسمع من ورقة ما يثبِّته حتى يوقن بالحق ويعترف به، وأي باطل أبطل من تجويز ذلك على رسول الله ﷺ في مشرق رسالته؟

الوجه الرابع في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الرابع: ـ كيف تكون مدة فترة الوحي من مقدمات تأسيس النبوة، وهذه الفترة عبارة عن تأخُّر الوحي مدة من الزمان ليستجم فيها النبي ﷺ، ويذهب عنه ما كان وجده من روع المفاجأة ومكابدة الغط وهوله، وهذه المدة متأخرة جداً عن مجيء النبوة وتأسيسها، لأنها كانت باليقين القاطع بعد مفاجأة الغار ونزول أوائل سورة (اقرأ) وقبل نزول سورة (يا أيها المدَّثر).

والنبوة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها كانت مؤسسة ثابتة، مكتملة العناصر والمظاهر، قبل حادث الغار الذي أنزلت فيه آيات من أول سورة (اقرأ) بزمن مديد، وحادث الغار كان مبدأ لرسالة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه.

ثم كيف تشق فترة الوحي على النبي ﷺ ـ وهي فيما رجحه المحققون لا تتجاوز (أياماً) معدودات، كما جاء صريحاً في حديث ابن عباس ـ وقد كان النبي ﷺ في أشد الحاجة إليها، ليستريح من أثر ما لقي من شدة في حادث الغار، ويستجمع قواه الروحانية العالية التي أُفرغت عليه في لقاء الغار وضمة الملك، وإقرائه أول ما نزل من القرآن الكريم، استعداداً لتتابع الوحي ونزول القرآن وشرائع الإسلام؟

والحق أن فترة الوحي في زمنها الذي وقعت فيه، وفي مقدار أمدها كانت رحمة من الله تعالى بنبيه ﷺ، وتلطُّفاً به، وتشويقاً له، لتتشوف نفسه الكريمة إلى منازل القرب وتتابع الوحي، فهي ضرورة من ضرورات التدبير الإلٰهي الحكيم المحكم، ولون من التربية الخاصة التي تعاهد الله عزّ شأنه بها نبيه في حياته نبياً ورسولاً.

فلا مشقة في فترة الوحي على رسول الله ﷺ، ولكن رحمة ولطف

وتربية وإعداد لما ينتظر النبي ﷺ في مستقبل رسالته من شدائد التنزيل والتبليغ.

والمشقة إنما كانت أثراً من آثار مفاجأة الغار، وما وقع فيها للنبي ﷺ، وأما الحزن الذي جاء ذكره في حديث عائشة عند البخاري في تفسير سورة (اقرأ) فقد جاء مجرداً عن قصة محاولة التردي من شواهق الجبال، ففي هذا الحديث جاء قوله: (وفتر الوحي حتى حزن رسول الله ﷺ) وهو حزن تشوّف وشوق، لا حزن تخوف وشك.

الوجه الخامس في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الخامس: ـ كيف يمكن ـ بعد ثبوت النبوة له ﷺ قبل فترة الوحي بزمن طويل، وبعد استعلان جبريل له، ومخاطبته عياناً، وقد تجلّى له في وسط الجبل وهو عائد إلى أهله، بعد أن هبّ من رؤيا نمط الديباج قائلاً: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، كما ثبت في حديث عبيد بن عمير ـ أن يقال: إنما شق عليه فتور الوحي إذ لم يكن خوطب عن الله بعدُ إنك رسول الله؟ وإذاً فما شأن النبوة الثابتة له ﷺ قبل فترة الوحي بزمن طويل؟ أفلا يكفي ثبوتها له ﷺ في تثبيته واصطباره حتى يأتيه أمر من عند الله الذي اصطفاه بنبوته واختاره لرسالته؟.

وما شأن الأحاديث التي تثبت أن جبريل عليه السلام استعلن له قبل فترة الوحي، وتبدّى له في صور ملائكية مختلفة، مناماً ويقظة قبل حادث الغار وعقيبه مباشرة، وهو عائد إلى أهله، وخاطبه جهرة في يقظته قائلاً: يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل؟ وكيف يكون الخطاب المقصود من قول أبي بكر الإسماعيلي: (إنما شق عليه فتور الوحي إذ لم يكن قد خوطب بعدُ إنك رسول الله)؟ كيف وقد خوطب أكثر من مرة أنه رسول الله، وأن الذي رآه في المنام ثم استعلن له هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، وقد ذكر القسطلاني في المواهب كلام أبي بكر الاسماعيلي في تعليل حزن النبي ﷺ ولم ينسبه إليه، وردّه شارحه الزرقاني فقال: وقول المصنف: أو حزن على ما فاته من بشارة ورقة ولم يخاطب عن الله بأنه رسول الله ومبعوث إلى عباده. فيه ـ أي في كلام القسطلاني ـ أن في مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق أن جبريل ناداه: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

الوجه السادس في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

السادس: ـ ما معنى قول أبي بكر الإسماعيلي:

ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي ليتدرج فيه، ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعد إنك رسول الله، فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدىء به، ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يرد عليه فتح الله له من أمره بما فتح؟.

قد بيَّنا أن فترة الوحي أبعد ما تكون زمناً ووضعاً وموضوعاً من أن تكون مقدمة من مقدمات تأسيس النبوة، لأن فترة الوحي متأخرة جداً في زمن وقوعها ووضعها في إطار الرسالة بزمن مديد طويل عن ثبوت النبوة وتحققها بجميع عناصرها ومظاهرها، والمتأخر زمناً لا يصلح بداهة أن يكون تأسيساً للمتقدم.

وكذلك فترة الوحي أبعد ما تكون في موضوعها وحكمتها عن التدرج بالنبي ﷺ في الوحي ليمرن عليه، لأن الوحي وسائر شؤونه ليست من الشؤون الكسبية التي يتدرج الإنسان في مراتبها ودرجاتها حتى يمرن عليها، ولأن التدرج والمران يقتضيان تعدد فترات الوحي، حتى يتحقق المقصود منها، والمقطوع به أن فترة الوحي لم تتكرر، ولم تقع بصورتها المشهورة المقصودة عند الإطلاق إلا مرة واحدة.

فترة الوحي للمرض غير فترته في البلاغ الزائف.

أما فترة الوحي قبيل نزول سورة (والضحى) فهي فترة من نوع آخر كان سببها على الصحيح أن النبي ﷺ اشتكى فلم يقم لصلاته في جوف الليل، ليلة أو ليلتين، وكانت العوراء أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وزوج أبي لهب جارة سوء للنبي ﷺ، فلم تسمع صلاته حين اشتكى، فقالت كلاماً خبيثاً تعير به النبي ﷺ وتشمت به أن الله تعالى ودَّعه وقلاه، فأنزل الله تعالى حفاوة بنبيه ﷺ وردّاً لقالة السوء الخبيثة التي قالتها خبيثة أبي لهب، وهما من أعدى أعداء النبي ﷺ. سورتي (والضحى، وألم نشرح) كاملتين، روى البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن جندب ابن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو

ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾ وفي رواية فأنزل الله والضحى وألم نشرح بكمالهما.

وقد عرفنا بطلان قول أبي بكر الإسماعيلي: إذ لم يكن خوطب عن الله بعد أنك رسول من الله، وأثبتنا أنه كان قد خوطب بذلك قبل فترة الوحي، وقبل أن يأتي إلى أهله في عودته من مفاجأة الغار وتكرار الغط، وبعد أن أقرىء أوائل سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾، وذكرنا ردّ الزرقاني شارح المواهب على مؤلفها الإمام القسطلاني الذي ساق كلام الإسماعيلي ولم ينسبه إليه، مستدلاً على أن النبي ﷺ خوطب بأنه رسول الله بحديث عُبيد بن عمير عند ابن إسحق، وهوحديث وإن كان مرسلاً لكنه صحيح كما نص عليه الأئمة.

أما قول أبي بكر الإسماعيلي: فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدىء به، ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك، فهو كلام لا محصل له، لأنه مبني على ما أبطلناه من قضية التدرج والمران على الوحي، وعلى دعوى أنه لم يخاطب بأنه رسول الله.

ولم يتعين لنا مرجع اسم الإشارة في قول الإسماعيلي: فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدىء به، هل مرجعه بدء النبوة التي كان من مقدمات تأسيسها فترة الوحي؟ ـ في زعمه ـ وإذا كان ذلك كذلك كان المعنى أن النبي ﷺ فقد معالم النبوة، أو نسيها، أو ذهل عنها في غمرة الحزن اليائس المزعوم، فأشفق ـ حيث لا عاصم من نبوة ـ أن يكون فتور الوحي انقطاعاً أبدياً لأمر النبوة التي بدىء بها ثم صرفت عنه؟ ويدل لهذا ما ذكره ابن حجر من أن إرادة ترديه في المرة الأولى كانت ـ كما في صريح الخبر ـ حزناً على ما فاته من الأمر الذي بشَّره به ورقة، وهذا الأمر هو النبوة والرسالة، وقد ذكره القسطلاني.

أو أن مرجع اسم الإشارة فتور الوحي الذي شق على النبي ﷺ؟ وإذا صح هذا كان المعنى أن النبي ﷺ توهم أو قدَّر في نفسه شيئاً، فلما فتر

الوحي حزن حزناً يائساً على فوات ما توهم أو قدر، وأيما كان الأمر فهو أمر خطير تتزلزل له أقدام الراسخين، ولا يمكن أن تتقبله عقول العالمين، فكيف بعامة العقلاء وكافة المؤمنين.

الوجه السابع في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

السابع: ـ ما قيمة هذا التمثيل الذي جاء به أبو بكر الإسماعيلي ليبين عدم تمكن النبي ﷺ من تحقق حاله على جليتها حينما وقع له ما وقع في مفاجأة غار حراء، ورجع بآثار ما رأى وسمع وكابد من الفزع والروع إلى أهله، وطلب إليهم أن يدثروه في فراشه لتهدأ نفسه، ثم أخبر أهله بخبره وأبدى لخديجة رضي الله عنها وهي زوجه ومأنسه خشيته من ثقل ما كلفه من حمل أعباء الرسالة، فذكرت له ما هو عليه من مكارم الأخلاق وسواء الفطرة، واستقامة الجبلّة مما جرت سنة الله تعالى ألا يخزي من حلّاه بها، ثم أرادت خديجة أن تزداد تثبتاً وتقرّ عين رسول الله ﷺ بما يسمع من أهل العلم بالمبشرات، فتوجهت به إلى من عنده علم الكتاب الأول، إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان بذلك علياً، فحدثه النبي ﷺ، فصدّقه ورقة، وبشره بأن ما رأى وما سمع حق من عند الله، فليثبت لأمر الله، فإنه رسول الله ونبي هذه الأمة.

فهل حال النبي ﷺ في نبوته الثابتة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب الوحي قبل مفاجأة الملك له في غار حراء بمدة متطاولة، أقلها ستة أشهر، كما ذكره البيهقي في الدلائل ـ مثل حال من سمع شخصاً يقول: الحمدلله، ثم لم يتابع القراءة، فلم يَعلم سامعُه أنه يريد أن يقرأ إلا إذا وصلها بما بعدها من الآيات، فاذا وصلها تحقق أنه يقرأ؟ أو حاله ﷺ حال من سمع قائلاً يقول: خلت الديار، ولم يتابع الإنشاد، فلم يتحقق سامعُه أنه ينشد شعراً إلا إذا تابع الإنشاد وقال: محلها ومقامها.

غرابة ما ضربه الإسماعيلي من الأمثلة وعدم فائدته

هذا تمثيل عجيب غريب، وقياس لا محل له، فالنبي ﷺ نبيء وعرف معالم نبوته معرفة يقينية، ملأت عقله وقلبه، وروحه، قبل أن يفاجأ بلقاء الملك في غار حراء، وقد مضى على حاله في نبوته زمن طويل قبل هذا اللقاء، فهو ﷺ كان حين لقاء الملك في الغار وبعده متحققاً حاله على

جليتها، وأنه على أكمل اليقين أنه نبي اصطفاه الله بوحيه، وأيده بآياته، وتولاه برعايته.

فالذي سمعه ورآه وكابده في الغار من مشقة الغط، وبغتة اللقاء، وإقرائه آيات من القرآن ما هو إلا ضرب من ضروب الوحي ومشاهده التي ألف الكثير من شدائدها وهو مغمور بأنوار النبوة.

وإذا كانت شدة وحي النبوة بالرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب الوحي قبل مفاجأة الغار لا تبلغ أن تكون في مثل شدة وحي الرسالة ونزول القرآن التي كابدها النبي ﷺ في أول لقاء له بالملك يقظة، فان هذا التفاوت في الشدة وثقل التحمل مهما بلغت فوارقه لا يمكن أن يُذْهِب عن النبي ﷺ معالم نبوته التي رسخت في عقله وقلبه وروحه، حتى يتشكك ويرتاب فيما جاءه من وحي الرسالة، ويخشى أن يكون ما رآه في الغار من قبيل الكهانة، أو الجُنن، ويحتاج إلى أن يشكو حاله إلى خديجة رضي الله عنها، ويحتاج إلى سماع كلام ورقة ليحصل له الإيقان ويعترف بالحق.

فالنبوة بما يجب لها من العصمة وأرفع درجات اليقين، والمعرفة بأمر الله، تمنع منعاً باتاً أن يكون النبي ﷺ غير متحقق من حاله في أي مرتبة من مراتب الوحي مهما بلغت شدتها.

والذي حصل لرسول الله ﷺ من الفزع والروع لم يكن قط لفراغ نفسه من اليقين والمعرفة الحقة الصادقة بأنه نبي اصطفاه الله لوحيه، وإنما كان لما لقيه في وحي اليقظة من استفراغ بشريته من العلائق المادية التي تقيد الانطلاق الروحي لحصول المجانسة للملأ الأعلى في روحانيته العالية، حتى يتسنى تلقي وحي المشافهة عن أمين الوحي جبريل.

فأي محصل لهذا التمثيل؟ لا، بل نقول في تساؤل وتعجب دَهِش: هل يليق هذا التمثيل في موضعه وتحقيق المقصود منه؟

فهل حال النبي ﷺ في عدم تحققه حاله على جليتها في أول ما خوطب في وحي اليقظة ومفاجأة ملك الوحي في غار حراء، وقد كان ﷺ

في أرفع درجات اليقين بنبوته التي ثبتت له ثبوتاً قطعياً، وعاش في أنوارها وآياتها وعجائبها، قبل مفاجأة ملك الوحي، ويجري له معه ما جرى من طلب القراءة وتكرار الغط المجهد بشدته البالغة، وإقرائه أول ما أنزل الله عليه من القرآن الحكيم ـ كحال من سمع قائلاً يقول: الحمد لله، فلم يتحقق أنه يقرأ حتى يصل قوله: الحمد لله بما بعده من الآيات، فعندئذ فقط يتحقق سامعه أنه يقرأ؟.

كيف وبين الحالين من التفاوت والفروق ما بين يقين المعرفة، بما سبق لها من أسباب وطيدة راسخة، وبين جهالة تامة لا شعور معها بأي شيء سابق يتصل بقول القائل: الحمد لله، فسامع من قال الحمد لله، ليس لديه أدنى شعور بحال القائل: الحمد لله، إن كان يقرأ، أو كان يحمد الله، فقط، لأن جملة: الحمد لله، صالحة في ذاتها أن تكون بدءاً لقراءة، وصالحة أن تكون مجرد جملة لذكر الله بحمده، فسامعه في جهالة كاملة بحاله، لأنه لا يعرف شيئاً عن جلية حاله، إلا إذا وصل جملة: الحمد لله بما بعدها من الآيات، وحينئذ فقط يتحقق سامعه أنه يقرأ.

والنبي ﷺ كان قبل لقاء ملك الوحي في غار حراء، ومخاطبته على يقين كامل بأنه نبي اصطفاه الله بوحيه، وأيَّده وكرَّمه بآياته ومعجزاته، فإذا جاءته مرتبة من مراتب الوحي أشد وأثقل تحملاً من سائر مراتب وحي النبوة التي مرّ بها قبل هذا اللقاء المفاجىء في اليقظة، فلن يمحو ذلك من عقله، وقلبه وروحه أنه نبي معصوم، وأنه يعرض أن يأتيه من الوحي درجات ومراتب لم تسبق له في نوعها وطريقتها وشدتها.

فلا تماثل قط من قريب أو بعيد بين من يجهل الأمر جهلاً كلياً، ويسمع جملة محتملة لأن تكون بدء قراءة، ولأن تكون مجرد ذكر لله تعالى ـ فلا يتحقق سامعها أن قائلها يقرأ من القرآن إلا إذا وصلها قائلها بما بعدها من الآيات.

أو من يسمع جملة من بيت شعر، وهو يجهل حال قائلها جهلاً تاماً، فلا يتحقق أن قائل هذه الجملة ينشد شعراً حتى يقول قائل الجملة ما بعدها

من بيت الشعر، لأن سامع الجملتين: الحمد لله، وخلت الديار، في جهالة تامة بحال قائلهما، فهو معذور بجهله إذا لم يتحقق جلية أمر قائلهما - وبين حال من اصطفاه الله نبياً، وأوحى إليه ما أوحى، وعلمه من أمره ما شاء أن يعلمه، وأضفى عليه كامل رعايته في جميع لحظات حياته، وغمره بيقين الإيمان بنبوته في جميع أحواله، فلم ينسها أو يذهل عنها، أو يغفل عن مشاهدها.

فهذا التمثيل المغالط المغلوط ضربٌ من الإصرار على أن النبي ﷺ يجوز عليه أن يقع تحت وطأة الشك في نبوته، وأنه قد تخلّت عنه عواصم النبوة، وخشي على نفسه أن يكون كاهناً أو أن يكون به جُنن، لمجرد أن الوحي تدرج به من مراتب النبوة ووحيها إلى مراتب الرسالة ووحيها، ففوجىء بما ارتاعت له بشريته ساعة المفاجأة وشدة الغط، ولكنه سرعان ما هدأت نفسه، وذهب عنه الروع، وهو على يقينه من أمر ربه، ومعرفة حق رسالته.

ويتابع أبو بكر الإسماعيلي كلامه في هذه القضية الشائكة العصية، ويمضي في طريقه بعد أن أنهى القول فيما ظنه تشييداً لتأويل المراد من الخشية في قول النبي ﷺ لأهله بعد أن رجع إليهم مرتاعاً ترجف بوادره من هول ما رأى وسمع: (أي خديجة: مالي؟ خشيت على نفسي) بأبطل ما قيل في تأويلها وتفسيرها؛ إلى بيان الدوافع وراء ما زعم من إرادة النبي ﷺ إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال ليقتلها تخلصاً من حياته حزناً على فتور الوحي، فيقول: وأما إرادته إلقاء نفسه من رؤوس الجبال بعدما نبىء فلضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه.

الأنبياء أقوى الناس عزائم وأقوى الأنبياء عزيمة محمد ﷺ.

وهذا كلام موغل في التهافت والضعف، والغفلة عن عزائم النبوة وعواصمها التي يقيم الله تعالى على دعائمها بناء شخصية من يصطفيه لشرفها من عباده المخلصين.

ونبينا محمد ﷺ قد اصطفاه الله تعالى لنبوته الخاتمة ورسالته الخالدة،

وحقق له في بناء شخصيته الروحـانية وطبيعته البشرية أكمل وأرفع ما أعطى نبياً من أنبيائه من القوى والاستعداد ليجانسه بالملأ الأعلى في شهوده آيات الله في ملكوته، وبهذه القوى التي أعده بها روحياً علم من أمر الله ما لم يعلم أحد من البشر، ورأى من الحقائق الكونية ما لم يرَ مثله أحد من الأنبياء والمرسلين، وسمع عن الله تعالى ما خصه به من أسرار الخلق.

وقد ظلت هذه القوى الروحانية العليا في نماء وازدياد، وعلو واطراد، تنتقل به في مراتب الوحي، وتجليات الشهود، ومنازل القرب، حتى بلغ من فضل الله عليه أعلاها مقاماً، وأرفعها سمواً، وأجلها رفعة وتعظيماً، فكان خاتم النبيين وسيد العالمين، وإمام المرسلين.

فلا يقبل من أحد كائناً مَنْ كانٍ في دَوِيّ اسمه، وهالات رسمه أن يحاول ـ من أجل (بلاغ) لا سند له، أُلحق بجامع البخاري في موضع واحد من روايات حديث (كيف بدأ الوحي) مـع تعدد مـواضعه في الجـامع الصحيح، وفي غيره من كتب الجوامع ودواوين السنن والمسندات، إلحاقاً أشبه بإلحاق اللصيق الذي لا يعرف مورده ـ جرجرة الحديث في عماية مظلمة، فيقول عن سيد العالمين محمد ﷺ ـ إنه بعد ما نبيء ـ أراد أن يقتل نفسه حزناً على فتور الوحي.

وما قيمة النبوة التي اعترف بها أبو بكر الإسماعيلي في قوله: بعدما نبيء ـ إذا لم تعصم مَنْ تحلَّى بها عن تكرار عزيمة ارتكاب أشنع جرم في نفسه حزناً على ما فاته، ليتخلص من حياته، وخروجا على مجريات قضاء الله وقدره، والإيمان بقضاء الله وقدره، والتسليم لله فيما يشاء، والرضا بما يختار، من بدائه العلم لعامة المؤمنين، بَلْه الأنبياء المصطفين المخلصين.

وأي دافع يختلج في حنايا أنفس مزيفي الإيمان، تافهي الشخصيات، مظلمي الأرواح، ضعاف العقول، مرضى القلوب الذين يقتلون أنفسهم يأساً من حياتهم في لحظة تأزم نفسي، تمر عليهم فيها شدة من شدائد الحياة، تنوء بها أعصابهم، وتتهاوى قواهم أكثر مما زعم المتخرصون على سيد الوجود محمد ﷺ.

إن هذا التخرص لمن أبطل الباطل، وأنكر المنكر، وأوغل التقحم في متاهات المحال.

يستحيل أن يختار الله تعالى لرسالته ضعاف العزائم

وإذا كانت قوة النبي ﷺ تضعف عن تحمل ما حمل من أعباء النبوة فكيف اختاره الله تعالى لها، وهو سبحانه يقول فيما أنزله عليه: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

إن الذين يزعمون ضعف قوة محمد ﷺ عن تحمل ما حمله الله تعالى من أعباء النبوة وأثقالها إلى درجة يفقد معها مقومات البصر بعواقب الأمور - بَلْه عواصم النبوة - فيستولي عليه حزن اليأس القاتل؛ يقرؤون في تاريخ البشرية منذ كانت الحياة عن شجاعة وصبر، أو تشاجع وتصبُّر كثير ممن يوصفون بالبطولة أمام عواصف الأحداث، وعظائم الكوارث حتى تنجلي عنهم غمائمها، ويقرؤون في تاريخ كثير من علماء هذه الأمة وقواد جهادها كيف صبروا للفوادح والبلايا وهي تأخذ بحلاقيمهم، فلم تتزعزع شخصياتهم، ولم تضعف قواهم، ولم يجد الحزن اليائس سبيلاً إلى أنفسهم، وكيف تسامى كثير منهم في حومة المحن القاصمة عن اهتزاز قلوبهم هلعاً، واضطراب عقولهم جزعاً حتى مضوا صابرين موقنين بما حملوا من أمانة من أعباء الإيمان وأمانة الحق.

حسن الأحدوثة يحمل على الصبر والتصبر في البطولات البشرية فما الظن بالنبوة؟

ونجزم بمقتضى ما جبل الله تعالى عليه الطبائع البشرية من التّولّه بحسن الأحدوثة والتمدّح أنه لو قيل عن أحد هؤلاء الزاعمين ما زعموا - وكثير منهم أصحاب أسماء عريضة الدوي في آفاق التاريخ ودنيا الناس - أنه حزن حزناً يائساً يدفعه إلى قاصمة الظهر، منهية الحياة، من أجل مهم فاته، أو ظن أنه سيفوته أو خاف فواته، فعزم على قتل نفسه بأبشع ما يقتل به إنسان نفسه، وشرع في تنفيذ ذلك - لانتفض صارخاً متبرئاً مما أُبِن به، وزعم لنفسه أنه أشجع من أن تضعف شخصيته هذا الضعف الذليل، وأنه أصبر على الرزايا وعض الأحداث له بأنيابها من أن تخور عزيمته فيهرب من مواجهة أقداره.

فكيف استقام لهؤلاء الزاعمين حزن اليأس - وهم من هم في أمة

محمد ﷺ ـ أن يُزِنّوا سيد الخلق بضعف قوته عن تحمل ما حمل من أعباء النبوة ضعفاً يذهب بكل خصيصة في شجاعة قلبه وروحه، ويذهب بعواصم النبوة، ويذهب بجميع آثار وحيها وتأييد الله لها بالآيات والمعجزات، ويذهب بصبره وتصبره، ويزلزل كيان بشريته، فيحزن حزناً بلغ به مبلغاً غدا معه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، ويتبدى له أمين الوحي جبريل عليه السلام، فيخاطبه عياناً مشافهة: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيرجع عن عزيمته، ولكنه لا يلبث حتى يعود لمثل ما صنع، فيتبدّى له جبريل، ويقول له: يا محمد، إنك رسول الله حقاً.

إن هذه الأبطولة المتهافتة، والأسطورة الباطلة، والأضلولة التافهة، أبطولة البلاغ الزائف وأسطورة الحزن اليائس، وأضلولة التخرص المتقحّم التي تنسب عزيمة التردّي من ذرا الشواهق إلى سيد الوجود خاتم النبيين محمد ﷺ، لا يجوز في شرعة العقول السليمة فضلاً عن شرعة الإسلام المنيرة أن تسوّد بها صحائف أعطر سيرة لأعظم إنسان وأطهر مخلوق عرفته السماء والأرض، فيجب طرحها من أماكن تسويدها من صحائف النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، نبوة محمد أكرم الأولين والآخرين على الله، ورسالة محمد أعزّ خلق الله عند الله، مهما كان شأن من أقحمها على دواوين السنة وجوامع تحرير الحديث ـ بلاغاً ـ أو وصلاً مسنداً، ومداخل الغلط والخطأ والوهل والتوهم على الأكابر أكثر من أن تحصى.

والأصول الإسلامية تأبى هذه الأضلولة الأسطورية، وتشمئز من أسواء تعسفات تأويلاتها، وبذلُ أي جهد في تلمس مخرج لها جهـدٌ باطل، وعمل ضائع ووقت مهدر، ولم يجعل الله العصمة عن الخطأ المخدوع والغلط الخادع في الدين أصولاً وفروعاً لأحد كائناً من كان سوى الأنبياء والمرسلين.

ولو أن أبا بكر الإسماعيلي اقتصر في تعليل ما نُسب إلى النبي ﷺ من عزيمة التردي من ذرا الشواهق بعدما نبيء ـ حزناً على فتور الوحي (أياماً) على قوله: خوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً ـ لكان غير مقصي عن منازل التأويل المتعسف الذي ينزل في أدنى منازل

القبول الممرَّض، فيقال فيه (لا بأس) إن كان لا محيص عن قبول تأويل متعسف.

وأبو بكر الإسماعيلي يخلط بين ما يمكن أن يكون تأويلاً مقبولاً للخشية في قوله ﷺ: (خشيت على نفسي) عقيب عودته إلى أهله من مفاجأة الغار، فسقط في هاوية تأويلها مَنْ تقحم متخرصاً أن المراد بها أن يكون ما رآه في الغار من الكهانة أو الجنون، وانتهض الإسماعيلي لتلمس تسويغ هذا القول الفاسد والدفاع عنه بما ناقشناه فيه طويلاً، وأبطلناه إبطالاً دامغاً ـ وبين مالا يمكن أن يصلح تعليلاً لما نسب إلى النبي ﷺ من عزيمة التردي من ذرا الشواهق.

تمثيل مفسد فاسد لا محصل له

فقوله هنا: خوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً، يمكن أن يكون تأويلاً سائغاً للمراد من الخشية، فمكانه هناك، لا هنا.

ولكن الإسماعيلي يأبى إلا أن يؤكد التزامه قبول بلاغ الحزن اليائس، وتسويغ ما جاء فيه فيضرب لذلك مثلاً، فقال: كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه.

والعجيب أن أبا بكر الإسماعيلي ـ وهو من أئمة المحدثين ـ لا يقيم أبداً في مُثُله التي يضربها لبيان ما يقصد إليه وزناً لخصائص النبوة في امتيازاتها وآثارها، فالنبي ﷺ لا يزيد في مُثُل الإسماعيلي المضروبة عن رجل، أي رجل يطلب الراحة من غم ناله، فأراد أن يتخلص منه ويرتاح، ولو بإهلاكه نفسه، حتى إذا تفكر فيما يؤدي إليه الصبر من العواقب المحمودة، فإنه حينئذ يصبر وتستقر نفسه، ويعدل عن عزيمته، ولو كانت عزيمة الانتحار.

أليس هذا هو حال كل إنسان من المعرضين في الحياة لنزول الهموم والغموم بهم، وحلول الرزايا والبلاء بساحتهم، فيضيقون بها ذرعاً، وتضعف أنفسهم عن احتمالها، وتسد أمامهم أبواب الخلاص منها، ويملأ الحزن اليائس أفئدتهم، وتسود الحياة في أنظارهم، وتطفىء نور الإيمان ـ إن كانوا مؤمنين ـ من قلوبهم، وتظلم أرواحهم فلا يجدون سبيلاً لمواجهة الحياة

فيعمدون إلى الخلاص من حياتهم، ويقدِّمون على التي لاشـوى لها، فيقتلون أنفسهم.

وقد تتدخل أمور وعوامل لا مـدخل لـلإرادة فيها، فتـدرك هذا الإنسان، وهو يمشي إلى عزيمته، فتوقف سيره، وقد يطلع على هذه العزيمة وهي تمضي إلى طريق آثارها الفاجعة من يحاول ردّ صاحبها عن تنفيذها بما يهون عليه من شأن عواملها الباغتة، أو بما يعلمه من تكذّب ظنونه وأوهامه عليه، فيتنبه صاحب الحزن اليائس ويفيق من غمرات خواطره السوداء، ويعتصم بالصبر على ما نزل به مؤملاً في عاقبته المحمودة.

هذا تمثيل جانبه التوفيق، وباعدته الاستقامة، لأنه تمثيل مجحف أشد الإجحاف بما يجب للنبوة من قداسة وإجلال، وأبسط درجات تقديسها وإجلالها في أول مراتبها من الوحي استحضار أن الله تعالى استوجب العصمة لمن اصطفاه لها، فجعله معصوماً في باطنه وظاهره عن أي انحراف في غير جادتها، وحفظه عن الانزلاق لما ينافي موجبات القداسة والإجلال.

تمثيل يهدر خصائص النبوة

فكيف صحَّ تمثيل النبي ﷺ في محنة فترة الوحي برجل ـ أي رجل ـ كما هو صريح المثل المضروب، وهو ﷺ كان قد نبيء قبل هذه المحنة، ولكن المثل المضروب لم يفرض لوجود النبوة أثراً من الآثار الواقية من الانزلاق في هاوية الشك والارتياب.

ذلك الشك الذي يقتضيه لزوماً تفسير المراد من (الخشية) في حديث عائشة (قد خشيت على نفسي) بما تخرّصه المتخرصون في قول منحرف المنزع، إلى درجة إهدار عواصم عموم الإيمان عند عامة المؤمنين برسالة نبيِّنا محمد ﷺ، بل إلى درجة إهدار عواصم النبوة وقداستها.

بل يُزنُّ النبي ﷺ ـ وهو منبأ ـ بأنه خشي أن يكون ما رآه في مفاجأة الغار ولقاء ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإقرائه ما أنزل عليه من القرآن ـ من قبيل الكهانة أو الجنون.

وقد عرفنا أن أئمة الهدى والعلم أنكروا هذا القول الفاسد أشد

الإنكار، وأبطلوه أبلغ الإبطال، وقال عنه الإمام ابن حجر: وحق له أن يبطل، ولكن أبا بكر الإسماعيلي يندب نفسه وقلمه وفكره وعلمه للدفاع عن هذا القول الباطل، ويلتمس له تعاريج المسوغات في عماء ظلمات (العلم الضروري).

وقد بيَّنا أنه يستحيل تحقيق (العلم الضروري) بأكثر مما تحققه النبوة بوحيها وعواصمها، ولكن النبوة لم توضع في ميزان (العلم الضروري) في دفاع أبي بكر الإسماعيلي عن القول الزائف في بيان المراد من تفسير الخشية في قوله ﷺ لخديجة: (قد خشيت على نفسي).

وذلك الشك الذي يقتضيه لزوماً قاطعاً بلاغُ الحزن اليائس، وما تضمنه من تخرّصات على أشرف الخلق وأكرم المرسلين، محمد خاتم النبيين، تلك التخرصات التي جعلته ﷺ يعيش ـ بعدما نبىء وأرسل ـ زمناً لا يتهم بالقصر وقلة الساعات والأيام والشهور، بل ربما السنين، هو زمن فترة الوحي، بعد ابتداء نزول القرآن ـ يغدو في رائعة النهار مراراً وتكراراً إلى شواهق الجبال لكي يرمي نفسه من فوقها ليقتلها تخلصاً مما هو فيه من حزن يائس، ويتجلَّى له أمين الوحي جبريل عليه السلام عياناً في صورة ملائكية بروحانيته العليا، ويقول له: يامحمد!! إنك رسول الله حقاً، فلا يثنيه ذلك عن عزيمة التردِّي من الشواهق إلا ريثما يرجع، ويتوارى جبريل، ثم يعود إلى غدوِّه إلى الشواهق ليرميَ نفسه من فوقها، ويعود جبريل إلى التجلي والظهور مرة أخرى قائلاً له جهرة مشافهة: يامحمد!! إنك رسول الله حقاً.

تساؤل يشجب أثر المغالطة في هذا التمثيل

ومن حق أي عاقل ـ ولو لم يكن مؤمناً برسالة محمد ﷺ ـ أن يتساءل: هل كان النبي ﷺ وهو يغدو مراراً للتردي من شواهق الجبال موقناً بأنه نبي الله ورسوله إلى عباده؟ وهل كان لهذه النبوة المرسلة موجبات وعواصم تقتضيها طبيعتها الإلّهية التي جعلها الله من خصائصها، لتحفظ النبي ﷺ في تلقِّيه الوحي عن الله، وفي تبليغه إلى عباده ليتابعوه في تطبيق أحكامه وشرائعه، عن الانحراف عن جادة النبوة؟.

وجواب هذا التساؤل قطعي لا يعتريه ارتياب، فالنبي ﷺ مبلِّغ عن الله، تجب متابعته في كل ما يبلِّغه، فلو لم يكن في جميع لحظات حياته نبياً على أكمل اليقين بنبوته لجاز عليه أن لا يوقن بما يتلقاه من الوحي، ولو جاز عليه أن لا يوقن بما يتلقاه من الوحي لجاز أن يبلِّغ ما لا يوقن بأنه من عند الله، ولو جاز ذلك لانعدم اليقين بالشريعة كلها أصولها وفروعها، وهذا هو المحال بعينه. والباطل بمفاسده.

إذاً فكيف يجوز أن يقع ما زعم المتخرصون بتفسير (الخشية)، وبقبول بلاغ الحزن اليائس أنه وقع للنبي ﷺ من كل ما عرضنا له في البحث، وأبطلناه إبطالاً لا يترك له أثراً في محصلات العقول.

ويتفرع على هذا التساؤل تساؤل آخر، هل كان النبي ﷺ موقناً بأن الذي تجلَّى له وخاطبه: يا محمد إنك رسول الله حقاً مرتين أو مرات - كما يقتضيه قول المتخرِّصين في نص عبارة البلاغ الزائف، كلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل - هو أمين الوحي جبريل عليه السلام؟ وهذا ما يقتضيه صريح الحديث، وإذا كان موقناً بذلك فكيف عاد إلى عزيمة التردّي؟.

وإذا لم يكن النبي ﷺ موقناً بأن الذي تبدّى له هو أمين الوحي جبريل، فكيف تلقَّى عنه ما نزل من آيات القرآن في مفاجأة الغار قبل فترة الوحي؟ هل تغير عليه حاله؟ فعرفه وتيقن به في مفاجأة الغار، ولم يعرفه كلما أوفى بذروة جبل ليلقي نفسه من فوقها؟ وكيف اطمأن إلى حقيقته ووثق بالوحي يتلقاه منه بعد أن حمي الوحي وتتابع؟.

رواية تؤكد زيف بلاغ الحزن اليائس

ومما يؤكد بطلان بلاغ الحزن اليائس أن الإمام أبا جعفر الطبري يروي في تاريخه عن طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب الزهري نفسه - وهو عماد بلاغ إرادة التردي من شواهق الجبال حزناً على فتور الوحي - ما يفيد أن ما نسب للنبي ﷺ من إرادة إلقاء نفسه من رؤوس الجبال لا علاقة له بفترة الوحي، ولم يكن أثراً لحزن يائس يدفع النبي ﷺ إلى التخلُّص من حياته، وإنما كان متقدماً في زمنه على فتور الوحي، لأنه - كما يقول ابن حجر أخذاً من كلام الإسماعيلي - كان في ابتداء مجيء جبريل إلى

النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح: وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي - أي تعليله لإرادة النبي ﷺ إلقاء نفسه من رؤوس الجبال لضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفه مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً - فوقع قبل ذلك - أي قبل فترة الوحي - في ابتداء مجيء جبريل، ويمكن أن يؤخذ ما أخرجه الطبري من طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب، فذكر نحو حديث الباب، وفيه: فقال لي: يا محمد أنت رسول الله حقاً، قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل).

وذلك يحتمل أن يكون وقوعه في موضعين من مواضع قصة (بدء الوحي).

الموضع الأول - عند استعلان جبريل وظهوره علانية يقظة للنبي ﷺ عقب رؤياه المنامية وشق بطنه، كما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، قال: ثم استعلن به جبريل، وبشَّره برسالة ربه حتى اطمأن.

والموضع الثاني - عقيب خروجه من متعبده في حراء عائداً إلى أهله بعد قضاء جواره، كما جاء في حديث عبيد بن عمير، قال: «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل».

وكل واحد من هذين الموضعين متقدم في زمن وقوعه على فترة الوحي المعينة بزمن واقع بين نزول أوائل سورة (اقرأ) وبين نزول أوائل سورة (يا أيها المدَّثر) وهذا الزمن الواقع بعد نزول (اقرأ) وقبل نزول أوائل (يا أيها المدَّثر) هو الزمن الذي زعم فيه وقوع الحزن اليائس، وإرادة التردي من شواهق الجبال.

هل اختلف الأمر على الزهري أو على راوييه

فابن شهاب الزهري عينه في روايتي راوييه: معمر في حديث البخاري من كتاب (التعبير) من الجامع الصحيح، والنعمان بن راشد في حديث

الطبري، اختلف على نفسه، فأخبر مرة بلاغاً بما رواه عنه معمر، وأخبر مرة أخرى إرسالاً عن رسول الله ﷺ بما رواه عنه النعمان بن راشد، أو اختلف عليه راوياه: معمر والنعمان، فمعمر يروي عن الزهري بلاغاً أن الوحي فتر ـ بعد نزول أوائل (اقرأ) في أول لقاء يقظي مفاجىء للنبي ﷺ بجبريل في مفاجأة الغار ـ فترة حزن فيها النبي ﷺ حزناً غدا معه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، وهذا صريح في أن ما نسب للنبي ﷺ من إرادته إلقاء نفسه من رؤوس الجبال إنما كان في زمن فترة الوحي.

والنعمان بن راشد يروي عن الزهري نفسه مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه حين استعلن له جبريل وقال له: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) وهذا صريح في أن ذلك كان قبل فترة الوحي، ولا مدخل لهذه الفترة في أن يقول النبي ﷺ ذلك، فإن كان ما زعموا قد كان فليس زمن فترة الوحي زمناً له، وقد جعل في حديث معمر زمناً له، فتناقض واختلف.

ولا شك أن الاختلاف في الرواية والنقل عن شخصية واحدة في موضوع واحد إلى درجة التناقض الزمني يضعف من قيمة الرواية، ويرفع الثقة بها ويقضي بعدم قبولها، وإذا كان الأمر يرجع إلى الترجيح بين الروايتين فالمرسل الثقة أرجح من البلاغ، وهذا لا ينفي أن يكون المرسل ضعيفاً من جهة أخرى.

ولا نتوهم قط أن عاقلاً يذهب إلى تكرار الواقعة، فتكون كل رواية من الروايتين تحكي عن الزهري واقعة مستقلة بزمنها وموضوعها، لأن ذلك يتعاظم على الخيال أن يتصوره، فضلاً عن أن يصدقه ويتقبله، وإلا كانت حياة سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ أعجوبة في حياوات الناس، بَلْه الأنبياء والمرسلين، لأنه بمقتضى هذا التوهم يفقد كل خصيصة من خصائص النبوة، فكلما حزبه أمر أو اشتد عليه حادث لجأ إلى التخلص من الحياة، والنبوات كلها شدائد متتابعة، ومحن لازمة، وفدائح لازبة، وبلايا متوالية، وعدتها الصبر الصبور، ونبيِّنا محمد ﷺ سيد الصابرين: جمع الله له في خصائصه

صبر أولي العزم من الرسل، وأمره أن يتحلى به فقال له: ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ فمن المحال أن يقع له ما زُعم عليه بلاغاً أو إرسالاً، بَلْه أن يتكرر.

وجه تأكيد إبطال حديث النعمان بلاغ الزهري.

ووجه أن ما جاء في حديث النعمان بن راشد عند الطبري يؤكد بطلان بلاغ الحزن اليائس ـ زيادة على أن اختلاف الرواية عن شخصية واحدة وموضوع واحد يرفع الثقة بها ويوهنها ـ أن استعلان جبريل للنبي ﷺ في صورته الملائكية الهائلة، وهو يخاطبه عياناً يمكن أن يكون قد أفزع النبي ﷺ وأدهشه، لأنه منظر هائل لم يألفه النبي ﷺ قط في حياته قبل النبوة، ولا هو داخل قط في مألوف البشر قاطبة.

فليس من المستبعد أن يدهش ويفزع من هذا المنظر بمقتضى طبيعته البشرية، ولا سيما عقيب إفاقته ﷺ من روع شق بطنه الذي رآه في منامه، كما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، وهو الموضع الأول من مواضع احتمال وقوع ما ذكره الإسماعيلي في رأي ابن حجر، أو بعد خروجه من غار حراء عائداً إلى أهله بعد أن أتم جواره وبعد رؤياه نمط الديباج الذي غته به الملك حتى بلغ منه الجهد، وبعد إقرائه في تلك الرؤيا أوائل سورة (اقرأ) تمهيداً لمفاجأة الغار واللقاء اليقظي فيه، وهو الموضع الثاني من مواضع احتمال وقوع ما ذكره الإسماعيلي كما جاء في حديث عبيد بن عمير.

فالنبي ﷺ كان في هذين الموضعين معرضاً للدهش والفزع بمقتضى دوافع الطبيعة البشرية، فإذا لاحقه ﷺ وهو في دهشه وفزعه منظر تجلي جبريل وظهوره له في صورته الملائكية الهائلة، يخاطبه: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، ليخرجه من غمرة دهشه وخواطر فزعه البشري إلى حقيقة واقعه الروحاني، وموجبات رسالة ربه إلى عباده لم يكن غريباً أن يشتد دهشه، ويتضاعف فزعه في دائرة بشريته، ولكن لا يمكن أن يطغى دهشه وفزعه على موجبات نبوته التي يعيش في أنوارها، فهو ﷺ كان ساعتئذ نبياً يوحى إليه من ربه، يُكلَّم ويعلَّم، ويرى ويسمع من أنباء الغيب وعجائب الكون، فيجب أن يكون عنده من اليقين بنبوته ما يستحيل معه أن يبلغ به

الدهش والفزع من هول المنظر في ظهور جبريل له بصورته الملائكية ومخاطبته بأنه رسول الله، درجة تدفعه إلى ما لا يكون من الجزع والهلع عند كثير من خواص المؤمنين، بَلْه الأنبياء والمرسلين، فضلاً عن خاتم النبيين محمد ﷺ.

نبو كلمة الهمّ بالتردي وقلقها في حديث النعمان

فإقحام حديث النعمان بن راشد عن الزهري أبطولة تقويل النبي ﷺ وجبريل يخاطبه أنه رسول الله هذه الكلمة (فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) بيِّن القلق جداً في موضعه من الرواية، إذ لا يظهر لذكره هنا بعداً عن فترة الوحي، متقدماً عليها سبب يسوغ مجيئه سوى مجرد الدهش والفزع من هول منظر جبريل في تجليه وظهوره على صورته التي ظهر بها، وهذا وإن سوّغ شدة الدهش والفزع لأنه منظر لم تألفه الطبائع البشرية، لكنه لا يسوغ الإخبار دون مناسبة بما نسب للنبي ﷺ في زعم من قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) لأنه لا ارتباط مطلقاً بين ما يمكن أن يحصل من الفزع لرؤية صورة هائلة لملك الوحي وبين هذا القول المنسوب إلى النبي ﷺ بأنه قد هم أن يطرح نفسه من حالق جبل.

ولا شك أن شدة الدهش والفزع من رؤية الغرائب الهائلة المفزعة للطبيعة البشرية له آثاره التي تقع لكل من يشاهد شيئاً من هذه الغرائب المفاجئة.

وقد ذكر مرسل عبيد بن عمير الآثار الطبيعية المعقولة التي وقعت للنبي ﷺ من رؤيته منظر جبريل في صورته التي تبدَّى له فيها وهو خارج من جواره، حتى إذا كان في وسط من الجبل سمع صوتاً من السماء فرآه فقال النبي ﷺ: «فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي».

هذا هو الأثر الطبيعي المعقول لما يقع من الدهش والفزع عند مفاجأة المناظر الهائلة الغريبة.

أما أن يُلصق بالوقائع ما ليس معقولاً، ولا تقتضيه طبيعة الأحداث، فهذا ما لا تقبله العقول السليمة، ولا تقره الفطر النقية.

فترة الوحي كانت لطفاً من الله ورحمة بنبيه ﷺ

وإذا كانت المواضع التي يمكن أن تقع فيها شدة الدهش والفزع لأسبابها المعقولة لا تحتمل قط حديث التردي من شواهق الجبال، ففترة الوحي (أياماً) بمقتضى حديث ابن عباس، وكما جزم به ابن حجر في الفتح أبعد ما تكون عن ذلك، فهي إنما كانت لطفاً من الله بنبيه ﷺ ورحمة به، ليستجم من عناء ما لاقى من روع المفاجأة، وشدة الغط، لاستفراغ بشريته ليزداد تشوفاً وشوقاً إلى تتابع الوحي، وأخذه بقوة روحانية مجانسة لروحانية الملأ الأعلى وتثبيتاً له ﷺ، وتقوية لروحانيته على احتمال ما يتوالى من الله إليه حتى يتم استعداده لتبليغ رسالته إلى الخلق بصبر وقوة وشغف، ويقين لا يدانيه يقين في أن الله تعالى سيتم عليه ﷺ نعمته، فلم تكن مستوجبة لحصول هذا الحزن اليائس الذي يدفع إلى التخلص من الحياة بصورة تنفر منها طباع النفوس البشرية المستقيمة، فضلاً عن نفوس المصطفين لرسالات الله، وهداية الخلق، وفضلاً عن نفس سيد المرسلين محمد ﷺ.

أما ذكر الهمّ بالطرح من رؤوس الجبال منسوباً إلى النبي ﷺ في حديث النعمان بن راشد عن الزهري فقد يكون له تخيل وجه مناسبة، وهو الفزع المفاجىء من هول منظر جبريل في صورته التي تجلى بها للنبي ﷺ، لكن تحقق النبوة بمراتب وحيها وإشراق أنوارها، وموجبات قدسها وعواصم خصائصها كان عاصماً للنبي ﷺ من وقوع ذلك، فذكره في الحديث وَهْل عن عواصم النبوة وموجبات قداستها.

موقف تثبيت وبشارة لا موقف تغضب ويأس

ومما يزيد في نبوِّ القول المنسوب للنبي ﷺ وقلقه في موضعه من حديث النعمان أنه جاء عقب قول جبريل له: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، فلا مناسبة له في هذا الموضع الذي هو موضع غبطة وطمأنينة، ومسرة بإنعام الله، وبهجة بما نال من فضله، فكيف يجيء هذا القول المتغضب في موقف الرضا والشكر، فهل كان فزع النبي ﷺ من رؤية جبريل في صورته التي ظهر بها في أفق السماء هو الحامل له ﷺ على هذا القول، كيف وقد سبق للنبي ﷺ أنه رأى جبريل مناماً ثم استعلن له وبشّره برسالة ربه حتى اطمأن، كما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم وقد حدَّث خديجة بهذا

الاستعلان مغتبطاً به فقال لها: «أرأيتكِ الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام، فإنه جبريل استعلن لي بأن ربي أرسله إليّ» كما في رواية أبي ميسرة عند البيهقي، وقد بيَّنا أن الفزع وإن كان ممكن الوقوع لكنه لا يمكن أن يبلغ درجة تذهب معها عواصم النبوة.

وحديث النعمان بن راشد عند الطبري عن ابن شهاب الزهري يرى فيه ابن حجر أنه في أصل موضوعه وقصته هو عين حديث معمر عن الزهري عند البخاري في كتاب التعبير من الجامع الصحيح فيقول: وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي ـ أي في تعليله لإرادة إلقاء نفسه من رؤوس الجبال بضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفه مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً ـ فوقع قبل ذلك في ابتداء مجيء جبريل، ومعنى ذلك أن هذا التعليل أنسب بأن يكون تفسيراً لقول النبي ﷺ وهو يحدث أهله بخبر ما وقع له في غار حراء عند أول لقاء يقظي بجبريل: (قد خشيت على نفسي) ولا معنى لجعله تعليلاً ـ في زعم الزاعمين ـ لإرادة إلقاء نفسه من رؤوس الجبال، وقد بيَّنا في صدر البحث أن تفسير الخشية بذلك هو أرجح الأقوال من المراد منها، وإن كان ابن حجر رجَّح عليه غيره من الأقوال، وقد استوعبنا البحث في مكانه.

ثم قال ابن حجر: ويمكن أن يؤخذ مما أخرجه الطبري من طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب فذكر نحو حديث الباب، وفيه فقال لي: يا محمد أنت رسول الله حقاً، قال: (فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل).

وهذا هو موضع الدلالة من كلام ابن حجر على أنه يرى وحدة الموضوع والقصة في حديثي معمر والنعمان عن الزهري، وما يرى من الاختلاف بين الروايتين هو الحامل لابن حجر على التعبير بقوله: (فذكر نحو حديث الباب) إيثاراً للدقة في التعبير وأداء المعنى المقصود.

وفي ذلك ترشيح لما ذهبنا إليه من وحدة موضوع (بدء الوحي) وقصته في جميع الروايات مع اختلافها في تناول الوقائع والأحداث، وإن هذا

الاختلاف ليس اختلافاً في أصل الموضوع، وإنما هو أسلوب في الأداء أدَّت به كل رواية ما أتيح لراويها من القصة، وهي في مجموعها يكمل بعضها بعضاً، ويتألف منها جميعاً وحدة موضوعية تجمع وقائع القصة كلِّها.

اختلاف الروايات في قصة بدء الوحي لا ينافي وحدة الموضوع

ومن لطائف التوفيق أن الباحث لا يكاد يعثر على موضع من صميم الحقيقة اختلفت فيه الروايات، ويكاد يكون الاختلاف بينها محصوراً في الأمور التي أقحمت إقحاماً على موضوع القصة وحقائق أحداثها، مما نبهنا عليه وناقشناه في إسهاب، كتفسير (الخشية) والاختلاف في بيان المراد منها، وكأبطولة إرادة التردي من شواهق الجبال، وكنزول آيات أوائل سورة (اقرأ) مناماً، وما يجرى هذا المجرى في اختلاف الروايات، أو مما لم تكن البيئة مساعدة على تحقيق الحق فيه، كالاختلاف في سن البعث والإقامة بمكة، وجملة العمر النبوي المبارك مما حققناه بإسهاب رواية ومعنى، والتكلان على التوفيق.

ومن أعجب ما عجبنا له في سبحات هذا البحث أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ وهو حامل لواء الثورة الإصلاحية الدينية في هذا العصر على دعاة الأساطير والأبطولات الملصقة إلصاقاً بأصول الإسلام وفروعه في عقائده وتعبداته وتشريعه ـ يتقبل أبطولة الحزن اليائس، ويحكي مصدِّقاً أقصوصة إرادة التردي من رؤوس شواهق الجبال المنسوبة إلى رسول الله ﷺ في بلاغ معمر بن راشد عن شيخه ابن شهاب الزهري: ملحقاً بموضع واحد فقط من مواضع رواية البخاري في الجامع الصحيح المتعددة لحديث عائشة رضي الله عنها في (بدء الوحي).

موقف الأستاذ الشيخ محمد عبده من بلاغ الحزن اليائس

والأستاذ الإمام محمد عبده كان من أعرف الناس بآثار هذه الأبطولات التي أقحمت إقحاماً على المعارف الإسلامية وروايات السنة المطهَّرة، وكان من أحق أهل العلم والمعرفة برعبلة وإنكار هذه الأقصوصة وبهرجتها وإظهار بطلانها، بما كان له من فضل في رجحان عقله، وسعة علمه، وثقافاته الأجنبية، ومخالطاته لدعاة تلك الثقافات، وبحوثه معهم فيما يتقولونه على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، وما يهتبلونه من وجود هذه الأبطولات التي

تنسب لنبيِّنا خاتم النبيين محمد ﷺ أشياء هو منها براء، وهي أبعد ما تكون عن ساحته، وما كان ويكون لأمثال هذه الزائفات من خطر داهم على عقول الخاصة والعامة، ولا سيما ما ينشر عن طريق الاستشراق والمستشرقين والتبشير والمبشرين من أكاذيب وافتراءات تعتمد على أمثال هذه الأبطولات ووجودها في كتب إسلامية لها اعتبارها ولها قدرها العلمي في ميزان المعارف الإسلامية.

فالشيخ محمد عبده يقول في تفسير سورة (والضحى): وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً غدا منه كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وإخباره بأنه رسول الله حقاً.

وأبطولة إرادة التردي من شواهق الجبال لم تكن حديثاً مسنداً موصولاً، وإنما هي بلاغ حكاه معمر عن شيخه الزهري دون إسناد، وقد أشبعنا القول في مناقشة هذه الأبطولة وبيان بطلانها سنداً ومتناً في بحثنا مع أبي بكر الإسماعيلي.

موقف ينبو عنه مقام الشيخ في علمه وفضله

فتسليم الشيخ محمد عبده لرواية هذه الأبطولة وتقبلها وإطلاق حكايتها عن الصحيح لم يكن مما يلايم مكانة الشيخ في فضله وعلمه واستنارة عقله، وعرفانه بالآثار السيئة والأخطار الداهمة لهذه الأبطولات على العقول التي تنظر في معارف الإسلام، لتعرف منها خصائص رسوله ورسالته الخاتمة لرسالات السماء، عسى أن تهتدي بهديه وهديها.

وكيف رضي الشيخ عبده لعقله وتفكيره أن يتقبل ويسلِّم أن النبي ﷺ وهو نبي ورسول من عند الله أن يبلغ به الحزن على فتور الوحي درجة تفقده معالم نبوته وعواصم رسالته، فيحاول أن يقتل نفسه يأساً من حياته؟.

هذا من أعجب العجب، وأعجب منه أن يجيء من عالم ملأ اسمه قلوب المتطلِّعين إلى تنقية دواوين الإسلام وكتبه مما أقحم عليها، وأدخل فيها بحسن نية أو بسوء نية، من الشيخ الإمام محمد عبده في عصر يحس فيه المسلمون في شتى أقطارهم بحاجتهم الشديدة إلى النهوض إلى معرفة دينهم

معرفة صحيحة خالصة من الشوائب الدخيلة، كما أتاهم به نبيهم محمد ﷺ، وتلقّاه عنه أصحابه صافياً نقياً من الأساطير والأباطيل.

وللشيخ الإمام مواقف محمودة كثيرة، كان فيها أسوة للذين يحاولون أن يردوا الدين إلى نقائه وحيويته في النهوض بالأمة، اجتهد فيها لدينه ولأمته، فليس يكفي في قبول الحديث عنده صحة سنده، بل لا بد في قبول ذلك من صحة المتن بعدم معارضته لدلالة العقل.

ومن ذلك أنه توقف في قبول حديث لبيد بن الأعصم في سحر النبي ﷺ الذي رواه البخاري، بل صرَّح برفضه والإنكار له فقال في تفسير الفلق: وأما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ فيها إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون.

فهل كانت عصمة النبي ﷺ من تأثير السحر أعظم مقاماً ومكانة في العقيدة من عصمته من تأثير حزن يفقده معالم نبوته وعواصم رسالته، فيجعله يغدو مراراً لكي يقتل نفسه بإلقائها من أعلى شواهق الجبال حتى بعد أن تمثل له الملك وأخبره بأنه رسول الله حقاً؟ فإنه لم يكد يمتنع عما عزم عليه لتمثل الملك له، وإخباره له بأنه رسول الله حقاً حتى يعود مرة ومرة ليتردَّى من حالق جبل، كما يقول بلاغ الحزن اليائس.

وكلام الشيخ الإمام في موضعيه من تفسير سورة (والضحى) وتفسير سورة (العلق) صريح في إفادة أن فترة الوحي ـ التي زُعم فيها على النبي ﷺ أنه حزن حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من شواهق الجبال ـ هي الفترة التي كانت في ابتداء الوحي بعد مفاجأة الغار، ونزول أوائل سورة (إقرأ)، فليست هي الفترة التي كانت سبباً لنزول سورة (والضحى)، وأن هذه الفترة غير تلك كما تدل عليه ظواهر الحديث، وهو الذي ذهب إليه جمهور العلماء، قال الإمام ابن حجر في الفتح: والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول سورة (والضحى) غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً.

تأثر الشيخ بكلام بعض السابقين في مدة فترة الوحي

بيد أن من يمعن النظر في كلام الشيخ محمد عبده قد يظهر له منه ما يفيد أنه جعل فترة الوحي الذي حزن فيها النبي ﷺ حزناً غدا منه مراراً للتردي من رؤوس الجبال هي فترة الوحي التي سبقت نزول سورة (والضحى) وكانت سبباً لنزولها، ، فَهُما في رأيه عند التأمل فترة واحدة، قال الشيخ: اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه السورة ـ أي سورة (والضحى) ـ هو حصول فترة في توالي الوحي على النبي ﷺ فظن أو توهّم، أو قيل إن الله تركه وقلاه. . . إلى أن قال الشيخ: وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس الجبال، ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وإخباره بأنه رسول الله حقاً.

فسوق الشيخ قوله: وقد جاء في الصحيح إلخ دليل على أنه يرى أن الفترة التي كانت سبب نزول سورة (والضحى) هي الفترة التي جاءت في الصحيح بلاغاً عن الزهري، وفيها الحزن اليائس الذي غدا منه النبي ﷺ مراراً كي يتردى من شواهق الجبال.

غلط الشيخ في سبب نزول سورة والضحى

ثم يقول الشيخ الإمام محمد عبده: إنه ليس في نسق السورة ـ أي سورة (والضحى) ـ ما يشير إلى أن المشركين أو غيرهم كان بعرض من الخطاب، ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي فيقولوا أو يطعنوا؟.

أما الإشارة في نسق السورة ـ أي سورة والضحى ـ إلى أن المشركين كانوا بعرض من الخطاب، وإن كانت المواجهة به كانت لرسول الله ﷺ، وأنهم علموا فترة الوحي، فقالوا وطعنوا، فهي موجودة في أسلوب السورة وعبارتها وألفاظها.

ذلك أن القرآن الكريم كلام الله الحكيم الخبير، فأسلوبه وعباراته وألفاظه لا تقف عند سنن الإحسان البشري في براعة البيان، ولكنها تعلو فوق ذلك إلى درجة الإحسان الإعجازي، فلا يمكن أن يحل لفظ من خارج ألفاظ القرآن مكان لفظ من ألفاظه في نسقه البياني، لأن ألفاظ القرآن في نسق آياته هي التي وقع بها التحدي، وتم بها الإعجاز، فلا بد أن تكن ألفاظه متسقة أكمل اتساق مع المعاني التي قصد أداؤها بها، حتى كأن بين اللفظ

والمعنى نسباً وقربى دانية، وهذا يستبين بالموازنة بين أساليب البيان القرآني في تأدية مقاصده، فأسلوب البيان الزاجر المتوعد مغاير تمام المغايرة في ألفاظه القارعة لأسلوب البيان الموعد المرغب في ألفاظه الهامسة.

يلمح ذلك ويشعر به الناظر ذو الحس المرهف، والنظر الغواص المتعمق، فيحسُّه في جرس اللفظ ونسق العبارة واسترسال الأسلوب.

تحليل بياني يكشف عن سبب نزول سورة والضحى

فسورة (والضحى) بدأت بقسم من الله العلي الأعلى بأمرين متقابلين أكمل ما يكون التقابل: الضحى بإشراق ضوئه المشبوب المشع كالمتوقد، والليل في سجوه وتغطيته الحياة برداء إظلامه السّهوم، لتسكن بمن فيها وما فيها، وتخلد إلى أحضان الهدوء.

والقسم في القرآن الحكيم تنبيه وإيقاظ للمشاعر تدليلاً على أكمل العناية بالمقسم عليه لعزته وعلو شأنه عند المقسم ليكون كذلك عند المقسم له، وجاء المقسم عليه ردف القسم، فكان نفياً لتوديع أو ودع الله تعالى نبيه ﷺ، ونفياً لبغض الله العلي المتعالي لحبيبه محمد ﷺ.

والتوديع ترك خاص، فيه مفارقة وقطيعة بعد اجتماع ووصال، والودع ترك يشعر بالإهمال وعدم المبالاة، والقلى أشد البغض وأنكره، قد جعله القرآن الكريم عنواناً على أفظع أنواع الاشمئزاز والنفرة وأبشع الكراهية والبغض، فأجراه على لسان نبي الله ورسوله لوط عليه السلام في إنكاره على قومه واستبشاعه ما تسربلوه من أفحش الفحش وأسوأ السوء، فقال لهم: (إني لعملكم من القالين).

وإذ كان ذلك كذلك فلا يتسق مع جلال الأسلوب القرآني في روعة بيانه أن يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، وقد فتر عنه الوحي لسبب لا دخل لإرادته فيه، والوحي هو وصلته بالملأ الأعلى وطريقه إلى مشاهد ملكوت الله، واستجلائه آيات إبداعه في الكون ـ مغافصة دون تمهيد، مقسماً أعز قسم بأنه لم يترك نبيه وحبيبه ترك قطيعة وإهمال، ولا أبغضه بغضاً يباعده عن مقامات قربه ومنازل شهوده، بعد أن أحبه حباً لم يُنله أحداً غيره

من خلقه؛ لمجرد أن الله تعالى أراد أن يلقيَ الطمأنينة في نفس نبيه ﷺ ـ كما يقول الشيخ الإمام ـ وهذه الفترة للوحي التي كانت سبباً لنزول سورة (والضحى) لم تكن هي فترة القلق والخوف والفزع عند النبي ﷺ حتى تحتاج إلى إلقاء الطمأنينة في نفس النبي ﷺ، ولو فرضنا أن تكون به ﷺ حاجة إلى إلقاء الطمأنينة في نفسه، فليس مما يتسق مع سنة الله تعالى في مخاطبته نبيه محمداً ﷺ أن يفاجئه الوحي إثر فترة لم تكن أسبابها باختياره بهذه الشدة التي يشعر بها التعبير بلفظ (ودّع) و(قَلَى) وإن كانتا في حيز النفي، والنبي ﷺ كان في حاجة إلى التلطف به في الخطاب لمسح ما ألمّ به من قلق وخوف وفزع ـ كما يقول الشيخ الإمام ـ.

والشدة التي لاقاها النبي ﷺ في بدء الوحي ومفاجأة الغار إنما كانت لاستفراغ بشريته من العلائق المادية، وإعداده روحياً لتلقي وحي اليقظة ونزول القرآن الكريم، وشهود عوالم الملأ الأعلى، الذي أنست نفسه الشريفة بمطالعة أنواره وشهود آيات إبداعه.

وقد تم ذلك كله له ﷺ على أتم وأكمل مراتب الوحي اليقظي والمنامي، وصار ﷺ يعيش حياته كلها متشوفاً إلى لقاء أمين الوحي جبريل عليه السلام، متشوقاً إلى ما يلقيه إليه من وحي الله وأمره ووصاياه، ولذلك قال النبي ﷺ لما نزل عليه جبريل بسورة (والضحى) بعد فترة خفيفة فترها الوحي، لم يأته جبريل فيها «ما جئت حتى اشتقت إليك» فقال له جبريل: وأنا كنت أشد إليك شوقاً. ولكني عبد مأمور.

وليست فترة الوحي القصيرة الخفيفة التي نزلت بسببها سورة (والضحى) تنافح عن رسول الله ﷺ وتنضح عنه رشح تقولات أعدائه من المشركين، كالفترة السابقة في بدء الوحي، وهي التي طالت وحزن فيها النبي ﷺ حزن تشوق وتطلع إلى مثل ما رأى وما فهم عن الله، وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه، لا حزن يأس ـ كما زعمه الزاعمون ـ في تقبل بلاغ الزهري ومنافحتهم عنه.

وإذا كان الشوق يصحبه بمقتضى الطبيعة البشرية قلق نفسي، والقلق

يشوبه خوف وإشفاق، ألا تكون النهزة بلقاء المحبوب قد حانت، وقد يبلغ ذلك بصاحب الشوق والإشفاق مرتبة من التحذر وتأرجح التطلعات، وترقُّب الفرص شديدة، قد تبلغ به مضايق اليأس والقنوط، فتدفع إلى ما تدفع إليه من مواقف تخلخل الشخصية واهتزاز روابط التماسك في حيوتها، وتنزلق إلى عزيمة التخلص من الحياة.

عواصم النبوة أعظم من آثار القلق والإشفاق مهماكان مبلغها.

بَيْدَ أن هذا إن جاز على أي فرد من أفراد البشرية في مستوى الطبيعة التي لا يميزها عاصم من عواصم الامتياز المتسامي عن الانزلاق في حمأة الضعف البشري، فلن يكون أبداً مع تحقق النبوة وعواصمها، فالنبي ﷺ وإن كان بشراً من الناس في طبيعته الإنسانية، لكنه امتاز على سائر البشر بالوحي إليه واصطفائه بالنبوة، ولا بد أن يكون لهذا الامتياز أثره الواقي من انزلاقات الطبيعة البشرية، فلا يجوز عليه ﷺ ما جاز على غيره من أفراد البشر الذين لم تكن لهم خصائص هذا الامتياز الذي كانت النبوة والوحي عنواناً عليه، على ما جاء في القرآن الحكيم في قوله تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾.

وما جاء في الصحيح من الحزن اليائس الذي زُعم على النبي ﷺ، وما رتبوه عليه من آثار في إرادته التردي من شواهق الجبال، لم يكن حديثاً مسنداً إلى النبي ﷺ بسند موصول موثق، ولا إلى أحد من السابقين الذين عاشوا مع النبي ﷺ هذه الفترة، وإنما جاء بلاغاً عن ابن شهاب الزهري رواه عنه تلميذه معمر بن راشد، وألحقه البخاري بجامعه إلحاقاً في موضع واحد من مواضع روايته حديث (بدء الوحي) عن عائشة رضي الله عنها، وهي مواضع متعددة، ولم يروه غير البخاري من الأئمة الثقات وجهابذة المحدثين، وقد أبطلنا هذا البلاغ الزائف في قول مسهب، ربما لا يخلو من تكرار بعض النصوص لتأكيد زيفه وبهرجته، لما يؤدي إليه من أضرار ومفاسد، كما أوضحناه في كلامنا مع أبي بكر الإسماعيلي.

وقول الشيخ الإمام: ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي، فيقولوا أو يطعنوا؟ مردود بحديث جندب البجلي الذي رواه أصحاب

إنكار الشيخ علم المشركين بفترة الوحي التي كانت سبب نزول والضحى مردود بحديث البخاري وغيره.

الصحيح: البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير.

ونحن نتوقف في الحكم على الشيخ الإمام أنه اطّلع على هذا الحديث المتفق على صحته، وترك العمل به، إذ لا مقتضى لذلك، ولو اطّلع الشيخ على هذا الحديث وعلى غيره مما يجري مجراه في هذا الباب لعلم يقيناً أن من المشركين من كان جيران سوء وعداوة للنبي ﷺ، وكان في طليعتهم عمه أبو لهب وزوجه العوراء الخبيثة أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، حمالة الحطب، كما سماها القرآن، وكان هؤلاء الأعداء جيران السوء يؤذون رسول الله ﷺ ويتسمعون عليه، ويرقبون مدخله ومخرجه، وصحوه ونومه، وسائر حركاته وسكناته، وبيوت العرب يومئذ لم تكن كثيفة الحجاب، تمنع المتسمع من السمع، وتحجب الناظر من اللمح، وتحول دون المترقب أن يعرف، وكانوا يسمعون إلى قراءته في جوف الليل إذا قام لصلاة التهجد، فلما اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم لصلاته ليلتين أو ثلاثاً، وفقد جيران السوء صوته ﷺ بالقراءة في هذه الفترة ظنوا به ظن السوء، وتقوَّلوا عليه بالبهتان ما تقولوا من الشماتة والطعن، فأنزل الله تعالى عليه سورة (والضحى) تنافح عنه، تلطفاً به وتثبيتاً لفؤاده، وردّاً لتقوُّلات أعدائه وشانئيه، وتحريكاً لعوامل الشوق والتشوف إلى مثل ما عهد ورأى وسمع وذاق من حلاوة الاتصال بالملأ الأعلى من طريق الوحي.

ونحن نسوق حديث جندب بلفظ البخاري ليتبين منه أن المشركين كانوا قد علموا بفترة الوحي التي كانت سبباً لنزول سورة (والضحى)، قال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الأسود بن قيس، قال: سمعت جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى ﴾.

وهذا الحديث وإن لم يصرّح فيه بتعيين المرأة التي قالت للنبي ﷺ ما

قالت، لكن تعيينها بوصفها الخاص قد جاء في رواية الحاكم من طريق إسرائيل عن أبي إسحق، عن زيد بن أرقم قال: قالت امرأة أبي لهب لما مكث النبي ﷺ أياماً لم ينزل عليه الوحي: يا محمد: ما أرى شيطانك إلا قد قلاك، فنزلت ﴿والضحى﴾.

وما نظن أن الاختلاف الكثير بين الروايات في هذا الموضع هو الذي عدل بالشيخ الإمام عن الأخذ بهذا الحديث في إفادة علم المشركين بفترة الوحي، فقالوا ما قالوا، فأنزل الله تعالى ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾ حفاوة بنبيه ﷺ، وردّاً لافتراءات أعدائه، لأن هناك قدراً يكاد يكون متفقاً عليه بينها، وهو أن سورة (والضحى) نزلت بسبب فترة الوحي أياماً قلائل لأمر عرض لرسول الله ﷺ، فتحدث بذلك المشركون، حديث الشامت العائب المعيِّر، وتحدث غيرهم من المؤمنين حديث المشفق، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فتداركه الله بلطفه وتثبيته وتكذيب أعدائه وشانئيه، وتطمين أحبابه المؤمنين بهديه ورسالته بإنزال هذه السورة الكريمة التي تجبّه المفترين بنفي ما زعموه، وتعدد نِعم الله الخاصة على نبيه وحبيبه، وتبشِّره بأنه ﷺ لا يزال يزداد شرفاً في رفعة قدره، وفضلاً في علو شأنه، وأن مستقبل أمره أجلّ قدراً وشرفاً من حاضره وماضيه، وأن إنعام الله عليه في نهاياته أعظم من إنعامه عليه في بداياته، وأن الحفاوة به في مدارج رسالته، ومصاعد حياته خير له من مطالع اصطفائه، وكأن الله تعالى يقول له ﷺ:

تتمة تحليلية لبيان روعة الحفاوة بالنبي ﷺ في سورة والضحى وألم نشرح

فأنت أيها الحبيب لا تزال في إنعام يتلوه إنعام، ونعمة تتبعها نعم، منشورة مذكورة، تتحدث بها الحياة معك، لتكون قرة عين لك، ولمن صدقوا الإيمان بك، وغصصاً تعترض أنفاس شانئيك وجاحدي قدرك حسداً من عند أنفسهم ليموتوا بغيظهم، ويشرقوا بغصصهم، ألم أرفع لك ذكرك، فلا أذكر في أشرف مواضع ذكري إلا ذكرت معي؟ أوَلم أجعل الإيمان بك وتصديقك في رسالتك مشاطراً للإيمان بإلاهيَّتي فلا أقبل توحيدي إلا مقروناً بالاعتراف برسالتك، ولا أقبل تعبُّدي إلا من طريق دعوتك، أنت عبدي ورسولي إلى خلقي، اخترتك يتيماً فآويتك وتوليتك بكنف ربوبيتي، وحليتك

برحمتي، وجعلت خيرتك في أودية عبادتي، وقد عرفتني رباً كريماً وإلهاً أحداً فهديتك بنبوتي إلى محابِّ عبادتي، وباعدت بينك وبين الدنيا فلم أشغلك بها عني، فكنت فقيراً من حطامها فأغنيتك بي عنها، فكنت لي وحدي، فاليتامى ولائد نفسك، والسائلون ربائب حسك، فاعلم وعلِّم وتحدَّث بنعمة ربك ما شاءت لك عظمة خُلقك ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾.

مِنْ غَارِ حِرَاء إلى غَارِ ثَوْر

سير الرسالة إلى غايتها
في مدى هذه الخطوات المعدودة
تم بناء أعظم رسالة إلى الحياة
الكفاح الصبور والصبر المكافح هما مادة بقاء هذه الرسالة
وعنصر نمائها وسر خلودها

بين حراء وثور تم بناء صرح الرسالة الخالدة الخاتمة

بين طرفي مكة من الشمال إلى اليمين على قيد خطوات فلكية من غار حراء ـ على نحو فرسخين من شمال مكة على طريق الذاهب منها إلى منى ـ إلى غار ثور ـ على نحو ميلين من يمين مكة، على طريق الذاهب منها إلى اليمن ـ مشى الزمان بخطا يسرع مرة فيوسعها ويتئد أخرى فيقيدها، وهو يشهد بكل ما فيه من وعي وقوة ويقظة بناء صرح الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد ﷺ، عقيدة وتأصيلاً في كفاح صبور وصبر مكافح على مدى عشر سنين، منذ بدأت أنفاس الرسالة تستهل وجودها في الحياة، وتتنزل آياتها على قلب محمد رسول الله ﷺ في أعظم لقاء وأخطر مواجهة، تمت بين مصطفى الملأ الأعلى أمين أمناء الوحي جبريل عليه السلام، ومصطفى الكمال البشري أمين أمناء الله في تلقي كلمته محمد ﷺ؛ بعد اكتمال نبوته في مرحلتها الانفرادية بمراتب وحيها الخاص في مدى ثلاث سنين قبل استهلال الرسالة، لتكون تمهيداً لانطلاق الإنسانية إلى غايتها المقدورة لها في مدارج الكمال الفكري والاجتماعي مظللاً بإشراق الروح واستقامة العقل.

ولما اكتمل البناء العقيدي لهذه الرسالة الخالدة، ورسخت دعائمه، وتضافرت دلائله وبراهينه وتظاهرت آياته، تهاوت في سفحه الوثنيات متهالكة، تلفظ آخر أنفاسها، وقامت منائر التوحيد تعلن عن جلال الله تعالى وكبريائه، سامقة سامية، مشرقة مضيئة ـ تنادى الشرك بوثنياته

مستصرخاً جنده، جند الشيطان في بأس بليد، وتدبير جازم أثيم، وعناد جحود، توهماً من ذوي الرؤوس الخاوية والبطون المكتظة أن يصدوا بنفخ أفواههم تيار الإيمان بالحق، وهو يجري في محيط الحياة مزمجراً كاسحاً أوضار الوثنيات البليدة، شامخاً بعرنينه الأشم، باذخاً بفضله، فتخيلوا وخالوا، وتوهموا، وائتمروا وتجمعوا ليبلغوا أرباً صورة الحقد الكفور.

وكان رب محمد ﷺ لهم بالمرصاد، فأبلغه مكرهم وكيد تدبيرهم، وحاطه بعنايته، وتولاه برعايته حتى أبلغه مأمنه، وآواه إلى كنفه، وكنفه بمعيته في نهاية المقام التأسيسي لرسالته، وأدخله آمناً، بصحبة صدِّيقه في غار ثور على بعد خطوات من غار حراء حيث بدأ نور الرسالة يسطع هادياً مشرقاً، إذ بشَّره بنصره وإعلاء كلمته ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[1].

الدعامة الأولى للرسالة الخالدة هي الكلمة بأكمل أوصافها

كانت الدعامة الأولى في بناء صرح الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد ﷺ هي (الكلمة)، وهذه (الكلمة) في حقيقتها الإلٓهية، ومكانها من الرسالة، وواقعها من تاريخ الحياة كانت أضخم عنوان لأعظم حقيقة في وجود الحياة الإنسانية(وتطورها). هذه الحقيقة هي (العلم) بأوسع ما يمكن أن يتصوره خيال، أو يتسع له واقع الحياة في الوجود.

وكانت تلك (الكلمة) التي قام عليها بناء الرسالة الخالدة (اقرأ) وهي كلمة تعني في بنائها الخَلْق والإبداع، وتعني الخالق المبدع، وتعني مسرى هذا الخلق والإبداع.

وهي دعامة غريبة عجيبة، لم يسبق لها وجود في بناء الرسالات الإلٓهية التي سبقت رسالة محمد ﷺ، ولم يعرف تاريخ الرسالات الإلهية أن رسالة منها قام أساس بنائها على (الكلمة)، وهي في منطوقها كلمة واحدة، ولكنها بمضمونها تنطوي على حقائق الحياة والكون.

---

(١) سورة التوبة آية (٤٠).

هذه الكلمة (اقرأ) التي كانت مفتتح وحي الرسالة الخاتمة الخالدة، وكانت دعامة صرحها هي في نظر العقل دعامة عجيبة غريبة في جو مجيئها، لأنها كانت نبعاً نميراً في صحراء الحياة القاحلة الجدبة حساً ومعنى، فقد تفجرت من هذا النبع النمير عيون حياة جديدة، عريضة مخصبة، مادة وفكراً وروحانية، وسعت الدنيا بأقطارها وحذافيرها، عدلاً، ورحمة، وهدى، ونوراً، وعلماً، ومعرفة، وإصلاحاً، وخيراً، وبركة.

بل كانت تلك (الكلمة) بذرة دوحة في غيضة معشوشبة بغير زهر ولا ثمر، ولكنها ـ وهي تسقى من السماء ـ نمت جذورها، وتسامت أفنانها، وسمقت أغصانها وأزهرت فروعها، وأينعت ثمارها، وآتت أكلها كل حين بإذن باريها ومبدعها.

بل كانت تلك الكلمة شمساً في أفق الحياة أشرقت بأضوائها آفاق الكون، فأنارت الوجود على رحبه، وأدفأت المقرورين بحرارة أشعتها، وهَدَت الحيارى الشاردين من لفح المظالم في لذعات سموم الطغيان والاستبداد الظلوم، إلى ظل من العدل المواسي والتعاون المبرور والإخاء الكريم.

وهي دعامة عجيبة غريبة عن طبيعة الحياة التي اختيرت أرضها لتكون مثابة لبناء صرح هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، تلك هي أرض العرب ومستوطنهم في شبه جزيرتهم عامة، وأرض مكة في حجاز الجزيرة خاصة، وهي أرض لم تسمع آذان أهلها قط هذه الكلمة، ولا عرفوا معناها ومرماها، ولا خطّت شناترهم حرفاً من حروفها، فهم أمة أمية شبوا وعاشوا على المعارف الفطرية لا يقرؤون ولا يكتبون.

وهي دعامة عجيبة في اختيارها ليرتكز عليها بناء أعظم رسالة إلهية عامة، تخرج من أودية أمة أمية، لتخاطب دنيا الإنسانية في جميع أبنائها أينما وجدوا من أرجاء الأرض، لتخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم وضياء المعرفة، وفي أرض الإنسانية بعيداً عن هذه الجزيرة اليابسة في تفكيرها، الجافة في عيشها، علمٌ ومعرفة ونظم.

وهي دعامة عجيبة غريبة عن طبيعة النشأة التي نشأ عليها من اختير لحمل أمانة شرفها في بيئته وبلده، وقومه ومجتمعه، ذاك الأمين الأمي محمد ابن عبدالله القرشي المكي، الذي شرَّفه الله مخاطباً بهذه الكلمة (اقرأ) فجأة دون تمهيد في أغرب وأعجب لقاء مع أمين أمناء الوحي جبريل عليه السلام، إذ يدخل عليه في متعبده من جبل حراء، وهو وحيد، يسبح بفكره متأملاً في ملكوت الله، مطالعاً آيات ربه في مظاهر الكون وعجائبه، فيقول له أول ما يواجهه (اقرأ).

وليسبح الخيال ما شاء في تصوير هذا الموقف وأثره من الدهشة الصادقة، ولكنه لن يجد في موقف محمد ﷺ الهزة التي تقتضيها غرابة المفاجأة، ومفاجأة الطلب، بل سيجد رسوخاً في هدأة الرد على هذا الطلب العجيب الغريب، متمثلاً في صراحة الصدق، وصدق الصراحة، إذ يقول ما يجب أن يقال، متمشياً مع الحقيقة في واقع الحياة التي شب عليها في بيئته العامة والخاصة: (ما أنا بقارىء) يقصد إلى بيان أمره، ويترجم عن حاله في بيئته وبلده ومجتمعه، ونشأته إزاء هذا الطلب العجيب الغريب، وكأنه ﷺ يقول في رده الصادق الهادىء: «أنا ما كنت قط في حياتي قارئاً، وما كان لي من علم بقراءة، ولا خط يميني بقلم على قرطاس حرفاً قط، فكيف يُطلب مني أن أقرأ؟». وجاءه الرد الحاسم بعد محض الإعداد، فقيل له: ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فقرأ مستعيناً باسم ربه من لم يكن قارئاً بتعلُّم، وأصبح الأمي الذي لم يتعلم كما يتعلم الناس عليماً معلِّماً للدنيا، وصار (الأمي) بفطرته ونشأته صاحب سر الكتاب في كلمته (اقرأ)، وكانت قراءته إعجازاً تكوينياً، جمعت في لفظها المفرد جميع ما في سطور كتاب الكون من فيض ومدد.

* * *

تبيان وتحليل لاختيار الكلمة دعامة للرسالة الخالدة

والكلمة المقروءة لا بد أن تكون مكتوبة، ومن هنا كان اختيار كلمة (اقرأ) لتكون بما فيها من ومض الروحانية العليا دعامة لأساس رسالة محمد ﷺ، وهي رسالة عامة شاملة، خاتمة مهيمنة، فلا بد أن يقوم صرح بنائها على دعامة لها سر خلودها، دعامة فينانة، لا ينفد ماء نبعها، ولا

ينقطع مددها، أبدية الرفد، سرمدية الصفد، لا ينضب معينها، ولا ينشف عودها، ولا تيبس جذورها، فهي غضة نضرة ما بقيت الحياة، وهي دانية القطوف، ولود ودود، ظلّها ممدود، وأثرها في الحياتين محمود.

وكان لا بـد للاستعانة على تحقيق ما ليس بممكن نشأة وفطرة من تهيئة الجو للوجود إبداعاً، والإبداع أبلغ في الاقتدار، وأوسع مدى من إمكان النشأة والفطرة، ولهذا قيل للأمي بنشأة الفطرة: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق ﴾ فمجيء اسم (الرب) في مقام الاستعانة هنا له خصيصة الإيجاد المتدرج، والإبداع المترسل، لأن مادة لفظه مشتقة من نبعة التربية، وهي التي يرمز إليها إيجاداً وإبداعاًوعملاً اسم (الرب) المقتضي بمعناه تتابع التكوين المتدرج في تعهد مصلح، ورعاية سابغة.

وفي إضافة الاسم الكريم إلى عنوان الخطاب الموجه لأخص مخاطَب سرٌّ الاختصاص في مقام الاصطفاء.

ووصفُ (الرب) في شمولِ ما دلّت عليه مادة اللفظ من التربيـة والتعهد المصلح؛ بأنه الذي خلق، والخلقُ في مقام عدم الإمكان الفطري إبداع لم يسبق بمثال ـ تأنيسٌ بإمكان تحقيق ما ليس بممكن في مألوف الطبائع لتقبله النفوس مطمئنة إلى قهر الاقتدار الإلهي والإبداع الرباني مع ودادة اللطف وتحبب الرحمة.

ودائرة الإطلاق فسيحة الجنبات، مترامية الأطراف في تصور الخيال، وسيعة الأرجاء في ساحة الإمكان، ربما تاهت في معالمها ذاكيات العقول، وقُرّح الفِكَر، بل ربما ضل في متائهها ومنعرجات مسالكها حذاق الأدلّاء، وبصراء الخرِّيتين، فتقييد دائرة الإطلاق ببعض منازله وأقرب منادحه تقريب لآفاق الرجاء في الوصول إلى منائر الهداية ومعالم الرسالة.

وأقربُ منادح الخلق إبداعاً، وأدنى منازله إيجاداً خَلْقُ الإنسان، لأنه أقرب إلى نفسه وأدنى إلى حسه من كل دان قريب.

ومن هنا جاء تقييد الخَلْق في هذا المقام بخلق الإنسان، فقيل بعد

الإطلاق (خلق الإنسان)، وخلقُ الإنسان قد يساق على أنه إعجاز في الاقتدار، وقد يساق على أنه آية اقتدار في مقام الاستدلال ومنطق البرهان، واقتدارُ الإعجاز خارج عن دائرة منطق البرهنة والاستدلال، فلم يستدعه المقام. والاقتدارُ في مقام البرهنة ومنطق الاستدلال هو المقصود هنا بالبيان، ومن ثَمَّ جاء التقييد بعد الإطلاق، فقيل ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾.

ومهما تصرفت العقول والأفهام في معنى «العلق» لغة ومعرفة، ومهما كشف العلم من حقائق خلق الإنسان، ومنشئه في تقدير الله تعالى من هذه المادة، فإن خلقه منها ـ وجعلها مصدر إبداعه ـ وهو الكائن الذي خلقه الله في أحسن تقويم وأجمل صورة، وأعطاه فوق ذلك من سبحات إدراك عقله، وإشراق روحانيته، واستضاءة قلبه بنور الإيمان إذا لم تختلسه خُنَّس الشياطين ـ أمرٌ بيِّن في دلالته على الاقتدار الذي يقرب إلى مدارك العقول إمكان تحقيق ما كان من طلب ما لم يكن فطرة وتعلُّماً، فكان إعجازاً ومنَّة حققها الاقتدار الرباني بكرم الإنعام والرحمة.

وفي تخصيص الإضافة هنا بخصيصة الخطاب عينُ ما كان فيها عند مطلع المفاجأة بطلب القراءة؛ حيث قيل للمخصوص بالخطاب: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ من سر الاختصاص بالاصطفاء المحمدي لحمل أمانة شرف الرسالة الخاتمة الخالدة.

واختلافُ القيد هنا باختلاف الوصف عنه هناك آيةٌ على أخص مراتب الرعاية الربانية بمحمد ﷺ في مشرق رسالته، توطيداً لأكمل مراتب اليقين في نفسه ﷺ، حتى يكون إيمانه برسالة نفسه آية إعجازه في مستقبل حياته وإعداداً له لتحمل ما سَيَلْقى في سبيل تبليغ رسالته.

فقد كان الوصف هناك للاسم الكريم (الرب) في مطلع المفاجأة وطلب القراءة بالخالقية إطلاقاً وتقييداً، ليكون مظهراً للاقتدار الإبداعي، والإعجاز الامتناني. وجاء الوصف هنا للاسم الكريم (الرب) ببسط أردية الكرم الرباني على الحبيب المصطفى في أبلغ صوره وأعلى منازله، تحقيقاً لأرفع درجات الرعاية الروحانية والحفاوة السابغة التي لا تنتهي إلى غاية، تيسيراً

بأبدية التأييد الأكرم في خلود الرسالة، فقيل له: ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾.

ثم جاء الوصف الثاني هنا بما يجري في طبيعة الحياة مجرى الإلف والتعلم بالتعليم مع الامتنان بوسيلة هذا التعلم بالتعليم، وحذف متعلق فعل التعليم، فلم يذكر المتعلم إخراجاً للامتنان عن دائرة التخصيص إلى آفاق التعميم المطلق، إظهاراً لفضل رب محمد ﷺ الأكرم على أمة محمد ﷺ ـ وأمة محمد هنا في مقام الدعوة والامتنان الأعم الأشمل هي الإنسانية كلها ـ انسياباً من فضله عليه، فقيل: ﴿ الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

فهذا امتنان عام على الإنسانية كلها ـ وهي مدعوة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، أينما وجد منها فرداً وجماعة ـ منذ علَّم الله تعالى أنموذجها الأول آدم عليه السلام، تعليم استعداد مفطور، جعله في جبلته، واستجلى ظهوره في ذريته جيلاً بعد جيل.

بيد أن الله تعالى ادخر التعبد بشكره على هذه النعمة الشاملة لتقوم به خير أمة أخرجت من ضئضىء آدم عليه السلام، لتكون حاملة لأرفع أمانات التكليف التعبدية وهي أمانة (العلم) في أوسع مستوياته وأرحب ميادينه، وأعم فنونه ونظرياته، وأعمق حقائقه الكونية، وما عُبِد الله تعالى، ولن يُعبد بأجل وأعظم من عبادته بالعلم المؤمن.

* * *

وقد جرينا في بحثنا على أنَّ نزول الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) كان بدءاً لرسالة محمد ﷺ واستهلالاً لميلادها، ومفتتحاً لوحي نزول القرآن يقظة وهو أجلّ مراتب الوحي.

تقدم النبوة على الرسالة

وكانت نبوة محمد ﷺ متقدمة بمراتب وحيها وبين يدي رسالته، وكانت الرؤيا الصادقة في النوم أولَ مراتب وحي النبوة ـ كما هو صريح حديث عائشة في كيف بدأ الوحي ـ وقد تتابع وحي النبوة في دائرتها وزمنها حتى جاء وحي الرسالة في اليقظة بنزول القرآن الكريم وفجىء الحق، ومجيء الملك في

غار حراء، فاستقرأه وغطه، وأوحى إليه ما أوحى من آيات القرآن الكريم.

فالنبوة كانت توطئة وتمهيداً للرسالة، وإعداداً لشخصية النبي ﷺ روحياً لتلقي وحي الرسالة والاقتدار على حمل أمانتها تنزلاً في جميع مراتب وحيها، وتبليغاً في عمومها وشمولها زمناً ومكاناً وأجيالاً وأحوالاً وحقائق عقيدية، وتشريعات تعبدية ونظماً اجتماعية، وطرائق سلوكية، ومعارف فكرية، وتجارب عملية.

حقيّة النبوة وحقيقتها

والنبوة حالة شخصية من التربية الإلّهية بالوحي الخاص إلى من يصطفيه الله تعالى لمقامها من عباده، فهي تقصد إلى تربية بعض الأفراد وتهذيبهم تهذيباً يرفعهم فوق مستوى أفراد بيئاتهم وأحوال مجتمعاتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، ليكونوا بسلوكهم أسوة لمن تؤهله فطرته للتأسي بهم في حياتهم وموارد سلوكهم ومصادره.

فهي صورة من صور الوحي الإلّهي لا تعتمد تكليف التبليغ الذي إذا وقع فلا يقصد به الدعوة الواجبة وجوب التكاليف العقيدية والتعبدية، والتزامُ أصول الفضائل عملاً إيجابياً واجتناب الرذائل كفاً سلبياً، فالتبليغ إذا لم يكن شرطاً في تحقيق وحي النبوة فإن عدمه ليس شرطاً في وجود النبوة.

فالنبي ـ مطلق النبي ـ إنسان يختصه الله بتربيته وتهذيبه والإيحاء إليه بالتزام شرع إلّهي موجود، أو منشأ إنشاء ليعمل به في نفسه، مرتفعاً بها عقيدة وسلوكاً إلى آفاق تضعه فوق مستوى الفضائل الإنسانية في قومه ومجتمعه.

بيد أنه لا يمكن أن يتصور أن يوجد نبي في بيئة ومجتمع بشري منحرف في عقائده وتعبداته وسلوكه الاجتماعي، وتشيع في جنباته المظالم والفواحش والأسواء وهو يرى ويسمع وهو قادر على أن يأمر بالخير وينهى عن الشر ثم يسعه السكوت والاعتزال، فهذا بعيد عن التصور، ولا مناص لمن يَعْلم الخير والشر بتعليم الله تعالى من أن يدعو إلى فعل الخير وينفر من مقارفة الشر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولو كان غير مكلف تكليفاً تبليغياً خاصاً بهذه الدعوة.

فالنبوة ليست مرتبة سلبية من مراتب السلوك في الحياة، ولكنها مرتبة عملية إيجابية خاصة ليس لها أثر تكليفي بوجوب التبليغ، وإنما أثرها المباشر في التهذيب الخاص والتربية الشخصية، وقد يتعدى أثرها صاحبها بالتأسي به والاقتداء بأعماله وسلوكه في عموم دعوته إلى الخير والتنفير من الشر دون تكليف بالتبليغ.

كلام ابن تيمية في النبوة

يقول الإمام ابن تيمية في كتاب (النبوات): فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبىء بما أنبأه الله ـ أي دون تكليف تبليغ ـ فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال الله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾[1] وقوله: ﴿ من رسول ولا نبي ﴾. فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله... فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلون ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم، لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول.

فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فقوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق كالعالم ولهذا قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

* * *

حقيقة الرسالة ومعناها والفرق بينها وبين النبوة

أما الرسالة فهي إعداد وتكليف، إعداد لمن يصطفيه الله تعالى لهذه المكانة السامية من مراتب السمو البشري، بتعهده وتربيته تربية سلوكية يكون بها أكمل مجتمعه في خصائصه النفسية وفضائله الإنسانية، وخلائقه

(١) سورة الحج آية (٥٢).

البشرية، وهذا الإعداد هو معنى قوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

وتكليف يلزمه العمل عقداً وحركة بجميع ما يوحى إليه، وتبليغ ما يؤمر بتبليغه من حقائق رسالته إلى من كُلِّف تبليغهم.

وتبليغ الرسالة ليس مجرد عرض لهدايتها وحقائق وحيها، وإنما هو عرض يستلزم بياناً يبلغ من العقول مكامن اليقين والإقناع الذي لا تبقى للشبهة معه مكان، ومن هنا كان تبليغ الرسالة أول مراتب الجهاد، فهو جهاد بالحجة، وهو جدل تتوالى دلائله وتتّابع براهينه في جانبي الأمر والنهي، والطلب والترك، والإيجاب والسلب، سلباً في النهي عن الانحرافات العقيدية والتعبدية، والسلوك الاجتماعي في الأخلاق والمعاشرة والمعاملات بما يجب أن يفضي إلى القضاء على الانحرافات، ويقوض أسسها، ويهدم دعائمها المعششة في أوهام المدارك، ويمسح آثارها من لوح الحياة وواقع الوجود.

وإيجاباً في الأمر وطلب ما يجب أن يملأ فراغ العقول والقلوب والأرواح من عقيدة مستقيمة النهج يسيغها العقل ويثبتها، وينصرها الحس ويهضمها، ويرحب بها الوجدان ويتقبلها، ويهش لها الضمير الإنساني ويتشربها، وتعبدات ترتاح لها الفطر السليمة النقية، وأخلاق يرتضيها الشعور الإنساني المهذب، ومعاملات يسودها العدل ومودة الإخاء الإنساني، ومساواة في الحقوق والواجبات الإنسانية، وتراحم مواس، مع التذرع بالصبر المكافح، وعزيمة احتمال الأذى وفادح البلاء.

وقد يفضي الأمر بالمرسلين إلى جهاد المدافعة لأعداء الله وأعداء رسالاته المتربصين لتعويق سير دعوتهم إلى أهدافها من العقول والقلوب والأرواح.

وجهاد المنحرفين المعوقين لسير دعوات الرسل شرعة جميع الرسالات الإلهية، لكنها قد تختلف في أسلوب هذا الجهاد، وتتفاوت في تقدير أسبابه وعوامله وطبيعته وآثاره ونتائجه التي يقف عندها.

دليل تقدم نبوة نبينا محمد ﷺ على رسالته

وتقدم نبوة نبينا محمد ﷺ على رسالته مذهب كثير من أئمة العلم في الإسلام، وفي حديث عائشة رضي الله عنها الذي يدور عليه (بدء الوحي) ما يدل صراحة على هذا التقدم، فقد جاء فيه قولها رضي الله عنها: كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلَاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال (اقرأ).

وموضع الدلالة من هذا الحديث على سبق النبوة وتقديمها زمناً على الرسالة واضح في قول عائشة رضي الله عنها: كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة - أو الصالحة - وهذه الرؤيا هي أول مراتب وحي النبوة التي دخل بها محمد ﷺ ساحة الامتياز البشري والإعداد الروحاني الخاص توطئة وتمهيداً لمجيء الرسالة وتحمل أثقالها، ويؤكد هذه الدلالة قولها رضي الله عنها: ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء.

تحبيب الخلاء إلى النبي ﷺ بعد النبوة إعداد نفسي خاص لتلقي الرسالة

وهذا الخلاء الذي حُبِّب إليه ﷺ بعد أن نبىء كان لوناً من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلٰهية والتأديب الرباني في عموم أحواله، وهذا الإعداد الخاص أعظم درجة في آفاق الترقي الروحاني مما روي عنه ﷺ أنه كان يخلو قبل نبوته للتعبد بالتفكر - فيما رجحناه - في بديع ملكوت الله، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه ووحدة وجوده، وعظيم اقتداره، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه، وبما بقي نقياً من آثار شريعة جديه ابراهيم وإسماعيل، وأخص ذلك وأعرفه ما كان يداوم عليه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة، بالطواف حولها إذا عاد من خلوته كما جاء في حديث عبيد ابن عمير: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية - والتحنث التبرر - وكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك

كان أول ما يبدأ به انصرافه قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف سبعاً أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته.

لأن هذا الخلاء الذي كان قبل التحنث الخاص قبيل مجيء الملك كان أثراً من آثار طهارة الفطرة التي فطر عليها النبي ﷺ، وسلامتها ونقائها من تأثرات البيئة، أما خلاؤه في غار حراء الذي حُبِّب إليه بإلهام إلهي بعد أن نبىء فهو وسيلة ربانية اختارها الله تعالى لعبده محمد ﷺ، طريقة من طرائق التعهد التربوي لإعداده ﷺ لتحمل ما ينتظره من أعباء الرسالة، وأثقال تنزلها وفدائح تبليغها، ولهذا جاء التعبير عنه في الحديث بـ(حُبِّب إليه) للإشعار بأنه أمر روحاني، وجه إليه ﷺ توجيهاً إلهياً خاصاً، وإلهاماً ألهمه ليكون تمهيداً للقاء الملك، وليس امتداداً للخلاء الفطري، الذي كان يقصد به ﷺ اعتزال قومه، وتنائيه عن جاهليتهم، وكأن هذا الاعتزال تعبير منه ﷺ عن إنكاره لما كان ينغمس فيه مجتمع الجاهلية من ضلالات الشرك والوثنية، وتباعد عن أسوأ اعتقاداتهم وأباطيلهم كما كان يفعل بعض الحنفاء فيما يرويه التاريخ.

حكمة اختصاص غار حراء لخلوة النبي ﷺ

وقد ذكر القسطلاني في المواهب اللدنية ناقلاً عن ابن أبي جَمْرة حكمة اختصاص تحبب الله تعالى إلى رسوله ﷺ الخلاء في غار حراء دون غيره من الأماكن التي تصلح للخلوة، وهي كثيرة في جبال مكة ووديانها فقال مع بعض التصرف للبيان:

أولاً ـ إن غار حراء منزوٍ في انعطاف وميل عن طرق مرور الناس عليه، وهذا الوضع يزيد في تمكن المختلي فيه من البعد عن الناس وضوضاء الحياة، ويساعده على عدم مخالطتهم والتفرغ للتعبُّد، وهي أمور كان يقصد إليها النبي ﷺ في خلائه وتعبده بالتفكر في مصنوعات الله وبدائع ملكوته.

ولا شك أن البعد عن الناس وحركاتهم في تقلباتهم لطلب مصالحهم ومعاشهم أجمع للفكر وخواطر القلب، وأبلغ في عمق التفكر والتأمل، وأقرب إلى التهدي.

ثانياً ـ إن هذا الغار يقع في موقع يبصر منه المعتكف فيه بيت الله

المحرم ـ الكعبة المشرفة ـ والنظر إلى البيت الحرام عبادة، تذكر بأعظم متعبد بقي على تقلبات الحياة وصروفها، وقد طاول الزمن وغالبه، فاستطال عليه وغلبه، لأنه الأثر الثابت تاريخياً من تراث أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل، وهما جدّا محمد الأعلَيَان، إليهما يرتفع نسبه الشريف المحقق.

وقد بقي التعبد بتعظيم هذا البيت، والطواف حوله سنة متبعة من سنن الرسالات الإلٰهية التي أحيت رسالةُ محمد ﷺ معالمها الأصيلة، فجعلت من الطواف حول هذا البيت وتعظيمه أحد أركانها وشرعة في منهاج تعبداتها.

وبالتأمل فيما ذكرنا يتبين أن الخلاء في غار حراء يجمع ثلاث عبادات كانت كلها محققة ومقصودة للنبي ﷺ في خلائه به.

أولاها: الخلوة التامة التي لا يعكر صفوها صخب الحركة وضوضاؤها، يقول الزرقاني وهو يفسر الخلوة ويوضح ثمارها ونتائجها: هي أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يكون ـ أي المختلي ـ خليقاً بأن يكون قالبه ممراً للواردات من علوم الغيب، وأن يكون قلبه مقراً لها، وناهيك بالخلوة من عبادة!! لأنها تفرغ القلب من الشواغل، وتقطع المختلي عن الخلائق، وتريحه من شواغل الدنيا، وتفرغ المختلي لله تعالى، فيجد الوحي فيه متمكناً.

ثانيتها: التحنث، وفسر في حديث عائشة بالتعبد، وتقيده في الحديث بالليالي ذوات العدد ليس قيداً في حقيقته، وإنما هو قيد لواقعه في تحنث النبي ﷺ، وفسر في حديث عبيد بن عمير بالتبرر، ومعناه فعل البر والطاعة، وهو بمعنى التعبد.

ثالثتها: النظر إلى بيت الله المحرم، وهذا النظر عبادة، لأنه مذكر برب البيت، ومذكر بأعظم عمل مبارك قام به خليل الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام في رفع قواعد هذا البيت المعظَّم، استجابة لأمر الله تعالى.

وفيه سر آخر يكمن في اختصاص هذا البيت بنسبته الخاصة إلى رب العزة عزّ شأنه وإجذاب القلوب إليه، وتعلق الأرواح به. وقول القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري: إنما كان يخلو بغار حراء دون غيره لأن جده عبد المطلب كان أول من كان يخلو فيه من قريش - وكانوا يعظّمونه لجلالته وسنه، فتبعه على ذلك، فكان يخلو بمكان جده - كلام ما كان ينبغي أن يذكر، ولا يستأهل أن يعرج عليه في سيرة أكرم الأنبياء محمدﷺ، لأن الله تعالى عصمه منذ تولاه برعايته وآواه إلى كنفه عن متابعة جد أو أب أو عم ممن عاشوا وماتوا قبل بعثته.

وتعظيم قريش عبد المطلب جده ﷺ لمكانته بينهم وسنه فيهم إنما كان تعظيماً قومياً جاهلياً، لا يعبأ الله به، فلا يمكن أن يترك الله نبيه ﷺ؛ وهو الحفي به، المتولي بلطفه ورعايته تأديبه وتسديده في حياته كلها من مهده، وليداً وطفلاً، وناشئاً، وشاباً، ورجلاً كهلاً، ونبياً ورسولاً، ليتابع جده ويتأسى به في تعبده ومعرفة جلال خالقه، فيختار مكان تعبد هذا الجد - إذا صح أن هذا الجد كان يتعبد في هذا المكان - ليتحنث فيه، ولا سيما في التحنث الذي حُبِّب إليه بعد الرؤيا الصادقة التي جاءته بها النبوة.

وإذا كان عبد المطلب قد شهر بتعظيم قومه له لمكارم قومية وأخلاق عربية كان يتصف بها بينهم، فلم يعرف أنه كان من المتحنفين المشهورين في الجاهلية بمخالفة قومهم، ولو أنه عرف بذلك فلم يكن ليتخذه النبي ﷺ قدوة له ليتابعه في اتخاذ مكان تحنثه الجاهلي متعبـداً له يحببه الله إليه بعد أن نبىء بوحي الرؤيا الصادقة إعداداً لملاقاة الملك في وحي الرسالة.

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
كانت أول مراتب اصطفائه

كانت نبوة نبينا محمد ﷺ أول مراتب الاصطفاء المتسامي فوق مستوى آفاق البشرية المطلقة، تمهيداً لتلقي وحي الرسالة.

النبوة تمهيد وإعداد لوحي الرسالة

والنبوة مرتبة إعداد وتربية، وتوجيه وإرشاد، ويتنزل فيها الوحي بمراتبه الخاصة بها مناماً أو يقظة، معلِّماً هادياً، ليس فيه تشريع تكليف، ولا تكليف إبلاغ تشريع، وإنما هي خطوات من الإعداد التربوي لمن يصطفيه الله تعالى لمقامها متتابعة، ومعالم من التعليم والتأديب متتالية، وخطوات من إشراق التمهيد متوالية، أساسها الأصيل وهدفها الأخير في توطئتها لدعوة الرسالة بناءُ شخصية الرسول بناءً جديداً، تُطَوِّع فيه الطبيعة البشرية بكل ما أودع الله فيها من قوى مادية، خاصة وعامة، ظاهرة وباطنة، لتنفعل أمام القوى الروحانية العليا التي تفاض على الرسول في ميلاد رسالته، والتي يقصد الإعداد التربوي الخاص إلى إيجادها في شخصية الرسول في أقوى صورة علوية، يجانس الملأ الأعلى في قوة رحمانيته، ليتسنى له بهذا التجانس أن يتلقى كلمة الله ورسالته من أمين وحيه، وهو على درجة من قوة الروحانية المزاوجة للطبيعة البشرية، إبقاء على التجانس الملائم للتبليغ.

وهذه المزاوجة بين القوى الروحانية والطبيعة البشرية هي التي تمد الرسول بأعظم درجات الاحتمال لأعباء الرسالة، وأثقال تنزلها، وهي التي تمنحه قوة الصبر والمصابرة على فدائح التبليغ، وهذا هو فيصل الفرقان فيما بين النبوة والرسالة.

ومن هنا يظهر السر في ثقل وفداحة وحي الرسالة، وشدة وطأته على بشرية النبي ﷺ في جميع مراتبه، وفي يسر وحي النبوة، آثاره في سائر مراتبه.

شدائد وحي الرسالة ولا سيما في نزول القرآن

ولذلك كان بدء وحي الرسالة مستهل ميلادها، ومطلع شمسها ـ في مفاجأة الغار أول لقاء يقظي لأمين الوحي جبريل عليه السلام ـ أشد ما لقي النبي ﷺ من عنف وفداحة في مراتب الوحي.

ويتجلى ذلك في فجأة اللقاء، وبغتة الخطاب، وطلب القراءة، وهي أول كلمة يسمعها محمد ﷺ منذ ميلاده البشري في موضوعها، كلمة تلقى إليه في هذا اللقاء المفاجىء (اقرأ) دون توطئة أو تمهيد لهذا اللقاء وما جرى فيه، وأنَّ لمحمد ﷺ أن يقرأ، وهو الأمي الذي نهد في قوم أميين، من أمة أمية، لا تقرأ ولا تكتب، وهو الذي لم يعرف قط قراءة، ولا سمعت أذنه قط أن قيل له قبل هذه المفاجأة (اقرأ).

ويأخذه الملك ـ بعد أن أبان ﷺ عن طبيعته الأمية بقوله: (ما أنا بقارىء) ـ ويضمه إليه ضماً شديداً، يعصره عصراً، ويغطه غطاً ضغط بشريته حتى بلغ منه جهد هذه البشرية وذروة طاقتها، حتى ظن رسول الله ﷺ أن نفسه تقبض، كما جاء في حديث سؤال عبدالله بن عمرو عند الإمام أحمد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض».

ثم يرسله الملك من قبضته، ويعيد عليه طلب القراءة، والغط الضاغط العاصر المجهد، ويحاول رسول الله ﷺ أن يفتدي نفسه منه، ومما يلاقي من فداحة وشدة، كما جاء في حديث عبيد بن عمير إذ قال النبي ﷺ وهو يرد على طلب القراءة منه في المرة الثانية: «ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع». والملك لا يتركه حتى يستفرغ بشريته من علائقها المادية، ويفرغ في قلبه وروحه إشراقاً من الروحانية العالية، يعده به لتلقي وحي الرسالة وتنزل آيات القرآن الكريم، وهو أجلّ مراتب الوحي وأفدحها ثقلاً على طبيعة رسول الله ﷺ البشرية، كما أخبر بذلك

القرآن الكريم في قول الله عزّ شأنه: ﴿ إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾.

وثقل القرآن ليس أمراً حسياً توحي به ظلال العرف التي ظللت بها الكلمة، وإنما هو أمر معنوي، يرجع إلى سر إلٰهي وأمر روحاني لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وإنما الذي يظهر ويحس آثاره فيما كان يجده رسول الله ﷺ من ضروب الشدة، وقد أخبر الله تعالى به نبيه ﷺ تأنيساً له من وحشة ما يجده من الشدة التي كانت تعتريه حين تُلقى إليه آيات القرآن الكريم.

وأما الآثار الحسية التي كانت ترى على بشرية النبي ﷺ في وجهه الشريف وغيره من أعضاء بدنه في بعض مراتب الوحي، ولا سيما وحي آيات الوعيد والإنذار فمردها إلى حال حامل الوحي وأمينه ومؤدي رسالته إلى رسول الله ﷺ، وإلى الصورة التي كان يظهر فيها حين يلقي إليه الوحي، كما جاء في حديث سؤال الحارث بن هشام عند البخاري: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ» وكما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقاً.

* * *

أدلة تقدم النبوة وانفرادها قبل مجيء الرسالة

الدليل الأول: حديث إسرافيل عليه السلام في مرسل الشعبي - وقد صحّحه الأئمة - يفيد صراحة أن نبوة نبيِّنا محمد ﷺ متقدمة على رسالته، وقد استغرقت في تقدمها بمراتب وحيها مدة ثلاث سنين، وهي المدة التي قرن فيها بالنبي ﷺ إسرافيل، منذ نبيء وهو ابن أربعين سنة، فكان إسرافيل عليه السلام يتراءى له، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء من الأعمال والآداب، ثم استهلت رسالته بأول لقاء يقظي لقيه فيه جبريل عليه السلام في مفاجأة الغار، التي بدأ بها تنزل القرآن الحكيم بنزول أوائل سورة (اقرأ).

ويدلّ على تقدم نبوته ﷺ وانفرادها بمراتب وحيها قبل رسالته عدة أدلة:

نذكر منها ما تلوح دلالته ظاهرة، وقد سقنا أول هذه الأدلة، وهو مرسل الشعبي.

الدليل الثاني

الدليل الثاني: ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث ـ وهو العمدة في قصة بدء الوحي ـ أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ـ أو الصالحة ـ وهذا بيانٌ لبدء النبوة، وقد بيَّنَ حديث إسرافيل في مرسل الشعبي مدة النبوة التي سبقت بها الرسالة، كما بيَّنَ أسلوب التربية الإلٓهية والتعهد الرباني، والإعداد الروحاني، والتعليم الملائكي على يد إسرافيل عليه السلام في مدة النبوة، تمهيداً وتوطئة لوحي الرسالة الذي بدأ بنزول مطالع سورة (اقرأ).

فقد جاء في هذا الحديث: أنزلت النبوة عليه ـ محمد ﷺ ـ وهو ابن أربعين سنة، وعيَّن حديث عائشة رضي الله عنها بدء وحي النبوة بالرؤيا الصادقة ـأوالصالحةـ، ثم قال حديث الشعبي: فقرن به إسرافيل، وهذا التعبير المبدوء بفاء الترتيب والتعقيب واضح في إفادته أن نبوته ﷺ منذ بدأت بالرؤيا الصادقة في النوم قرن به فيها إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، يأتيه بالكلمة من الوحي، والشيء من العمل والآداب، ولم ينزل عليه قرآن على لسانه.

وفي حديث عائشة المتفق عليه بيان للغاية التي انتهى إليها انفراد النبوة بمراتب وحيها الخاصة، ومن هذه الغاية بدأت الرسالة بوحي اليقظة ونزول القرآن الحكيم، إذ قالت رضي الله عنها ـ بعد أن بينت معنى الرؤيا الصادقة التي بدأ بها وحي النبوة، بتفسيرها بوضوح تأويلها في واقع الحياة والأحداث ـ: حتى فجئه الحق، فجاءه الملك ـ أي جبريل ـ كما جاء مفسراً في حديث الشعبي إذ يقول: فلما مضت ثلاث سنين قرن به جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة.

وهذا ظاهر جداً في بيان الغاية التي انتهى عندها انفراد النبوة بمراتب وحيها الخاصة، وانتهى بها قرن إسرافيل به ﷺ، وهو أيضاً ظاهر جداً في

بيان بدء الرسالة، وأنه كان يقرن جبريل به، وبدء نزول القرآن على لسانه إلى تمام كمال رسالته ﷺ.

ومن ثَمّ توحّد وحي النبوة ووحي الرسالة، فدخلت مراتب وحي النبوة في مراتب وحي الرسالة، وبهذا التوحُّد بين مراتب وحي النبوة ومراتب وحي الرسالة، يقظة أو مناماً صار سيد الخلق وإمام الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ نبياً رسولاً، وبه ختم الله تعالى النبيين والمرسلين.

الدليل الثالث

الدليل الثالث: ما جاء في حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم بعد أن ذكر بدء أمر رسول الله ﷺ بالرؤيا الصادقة، وأن جبريل استعلن به، بعد تلك الرؤيا، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه تعظيماً له وتشريفاً لقدره، وبشّره برسالة ربه، حتى اطمأن رسول الله ﷺ، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ)، فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

فاستعلان جبريل، وظهوره يقظة للنبي ﷺ، وتعظيم مجلسه، وإقراؤه ما نزل إليه من القرآن هو عين ما جاء في حديث عائشة عند البخاري ومسلم، في مفاجأة الغار بتصرف في الأسلوب، وهذا لا تكاد تخلو منه روايات الحوادث والوقائع التي غلب عليها الرواية بالمعنى، فيؤدي كل راوٍ بأسلوبه وطريقته ما استقر عنده من المعنى الذي لا يختلف في جوهر الحديث عن رواية غيره.

بل إن في حديث ابن أبي بكر بن حزم تصريحاً لا يحتمل التأويل، ولا يقبل التظنن والشك، وذلك قوله: وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ولا يمكن أن يبشره برسالة ربه قبل أن يُرسل، ويؤكد ذلك قوله في الحديث: فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

أفكان رسول الله ﷺ قد قبل شيئاً لا وجود له؟ وإلى أي شيء اطمأن ﷺ إذا لم يكن هذا الشيء هو الرسالة التي بشره بها أمين الوحي جبريل، واتبعه فيما جاء به من عند الله؟.

ومحور الدلالة من هذا الحديث أن استعلان جبريل بالنبي ﷺ وتبشيره بالرسالة التي قبلها النبي ﷺ، واطمأن بها، وإقراءه أوائل سورة (اقرأ) هو عين ما جاء في حديث مفاجأة الغار، وهذا إنما كان بعد أن ثبتت النبوة منفردة بوحي الرؤيا الصادقة التي افتتح بها وحيها، سابقة على مجيء جبريل بالرسالة في ظهوره واستعلانه وتبشيره بالرسالة وإقرائه ما نزل إليه من القرآن كما جاء في الحديثين، حديث عائشة في مفاجأة الغار، وحديث ابن حزم في الاستعلان والتبشير والإقراء.

الدليل الرابع

الدليل الرابع: حديث ابن عباس، قال ابن سيد الناس في (عيون الأثر): وروينا من طريق الدولابي عن محمد بن عائذ، حدثنا محمد ابن شعيب، عن عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه عطاء بن أبي مسلم، عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعث الله عزّ وجلّ محمداً ﷺ على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم. فذكر نحو ما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، وفي آخره: فلما قضى إليه الذي أمر به انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، لا يأتي على حجر، ولا شجر، إلا سلم عليه، سلام عليك يا رسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه قد فاز فوزاً عظيماً.

ووجه الدلالة من هذا الحديث على تقدم النبوة وانفرادها بمراتب وحيها الخاصة قبل مجيء الرسالة، أنه صريح في أن أول شيء بدأ الله تعالى به رسوله ﷺ هو ما أراه إياه من النبوة، رؤيا في النوم، وهذا موافق تمام الموافقة لحديث ابن حزم في أن الرؤيا المنامية، وهي أولى مراتب وحي النبوة كانت سابقة على ظهور جبريل واستعلانه للنبي ﷺ، وتبشيره إياه برسالة ربه، وإقرائه أول ما نزل من آيات القرآن.

بل إن عبارة حديث ابن عباس أصرح في بيان أن الرؤيا التي أريها النبي ﷺ من النبوة، كما هو ظاهر قوله: أول ما أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم، وهو موافق لحديث عائشة المتفق عليه في قولها: إن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة... حتى فجئه الحق وجاءه الملك،

وقال له: (اقرأ) فقولها رضي الله عنها (من الوحي) في مقابل قوله (من النبوة).

الدليل الخامس

الدليل الخامس: ما جاء في حديث عبيد بن عمير من قوله ﷺ «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل».

وهذا بين في دلالته على تقدم النبوة بوحي الرؤيا في النوم على الرسالة التي بدأت بوحي اليقظة ونزول القرآن الكريم، كما يستفاد من قوله: (فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل) فإن معنى هذا الخروج المتبادر هو الخروج من غار حراء منصرفاً إلى أهله، وذلك أن النبي ﷺ كان في خلائه ومتعبده في حراء، ورأى في منامه ما رأى، ثم هب من نومه لينصرف إلى أهله، فلما توسط الجبل سمع النداء: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

وقد بيَّنا فيما سبق أن قصة بدء الوحي واحدة في موضوعها وأحداثها، لكن الروايات اختلفت في سوقها، فزاد بعضها وفصَّل، ونقص بعضها وأوجز، وكلها يكمل بعضها بعضاً، وهذا الاختلاف في التفصيل والإجمال، والإسهاب والإيجاز لا يخرجها عن وحدة موضوعها.

خلاصة هذا البحث

ذكرنا خمسة أدلة لبيان تقدم النبوة زمناً على الرسالة، وهذه الأدلة منتزعة من أحاديث نص الأئمة على صحتها، ولكنها رويت بأساليب مختلفة في تفاصيلها، متفقة في حقائقها وجملتها بيد أن هذا الاختلاف في التفصيل لا يذهب بوحدة الموضوع وخلاصته ـ كما قدمنا ـ.

والروايات كلها تفيد صراحة أن النبي ﷺ أنزلت عليه الرسالة بعد أن نُبِّىء بثلاث سنين ـ كما في مرسل الشعبي ـ أو أقل من ذلك، كما في غيره من الأحاديث ونصوص الأئمة.

ومرسل الشعبي صريح في أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ منذ بدأت نبوته

بالرؤيا الصادقة واستمر قرنه به ثلاث سنين، ولم ينزل على النبي ﷺ قرآن على لسان إسرافيل في مدة قرنه به، وإنما كان يلقي إليه الكلمة من الوحي، ويعلمه ما يؤمر به من الأدب والعمل.

ولما مضت سنوات قرن إسرافيل به بدأت رسالته وقرن به جبريل، وأنزل عليه القرآن نجوماً آيات وسوراً على لسانه مدة رسالته حتى رفع إلى الرفيق الأعلى.

وحديث عائشة المتفق عليه، وحديث عبيد بن عمير، وحديث ابن أبي بكر ابن حزم، وحديث ابن عباس كلها صريحة ومتوافقة في أن أول ما أنزل وأقرأه إياه جبريل عليه السلام في غار حراء خمس آيات من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ثم فتر الوحي فترة لم يتفق على تحديد مدتها، بل وقع فيها اختلاف متباعد الأطراف جداً، وقد بسطنا القول في ذلك عند مناسبته وموضعه، ورجحنا أن هذه الفترة لا تعدو أن تكون أياماً معدودة، وذكرنا هناك أن العلّامة مغلطاي وهو من أئمة العلم وحفاظ السيرة النبوية ووقائعها وأحداثها، رجح في كتاب (الزهر) أنها ثلاثة أيام فقط، وقال: ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه، وهذا التحديد مذكور مروي عن مقاتل في تفسيره، كما ذكره الزرقاني في سوقه عبارة مغلطاي التي نقلها للرد على السهيلي في زعمه تصحيح أن مدة فترة الوحي كانت سنتين ونصفاً، وهو ردٌّ بالأولى على تصريح مؤلف المواهب اللدنية العلّامة القسطلاني في قوله: وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين.

وهذا الاختلاف الواسع العريض في تباعد أطرافه، وترجيح مغلطاي أنها ثلاثة أيام فقط يؤكد لنا أبطولة بلاغ الحزن اليائس في هذه الفترة، وما احتف بها من تكرار الغدو للتردي من شواهق الجبال، وهي أسطورة باطلة، أشبعنا القول في بيان بطلانها بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة.

ضعف كلام من ضعّف مرسل الشعبي

والحكم على مرسل الشعبي بالضعف ـ مع تصحيح الأئمة إسناده إليه، وهو إمام أئمة هذا الشأن ـ لمجرد الإرسال مجازفة وتسرع في الحكم على النصوص، لا يستند إلى دليل، وإنكار الواقدي لهذا الحديث رده العلامة

الحافظ ابن حجر بأن الشعبي مثبت، والواقدي نافٍ، والمثبت مقدم عندهم على النافي إن لم يصحبه دليل نفيه.

وقد عرفنا أن إنكار الواقدي إنما يعتمد على مجرد أن أهل العلم ببلده لا يعرفون أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ، وأن علماء بلده، وأهل السيرة منهم يقولون لم يقرن بالنبي ﷺ غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ.

وقد رددنا كلام الواقدي ـ بالإضافة إلى رد العلاَّمة الحافظ ابن حجر ـ بأن عدم معرفة أهل العلم ببلده أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ لا يدل على عدم وقوعه، لأن عدم المعرفة لا يدلّ على عدم الوجود، إذ لا تلازم بينهما، وأهل العلم ببلد الواقدي طائفة من علماء الإسلام وأئمته لم تنته إليهم جميع ضروب العلم ومسائله وقضاياه، ولم تنته إليهم معرفة جميع الوقائع الإسلامية، فكم من علم بكثير من القضايا والحقائق عند بعض العلماء لا يوجد عند غيرهم، وبلد الواقدي ـ على كثرة أهل العلم فيه ـ لم يخرج عن كونه بلداً من بلاد العالم الإسلامية المليئة بالفضل والفضلاء من أئمة الإسلام وعلمائه، نتيجة تفرق أهل العلم فيها، وقد أخذ أهل كل بلد منهم ما انتهى إليهم من العلم والمعرفة.

وقرن جبريل بالنبي ﷺ منذ نزل عليه الوحي ـ كما في عبارة الواقدي ـ قد يعني وحي الرسالة الذي بدأ بنزول القرآن الكريم في مفاجأة الغار، وهذا مسلّم، واحتماله قائم، ولكنه لا ينفي قرن إسرافيل به ﷺ في مدة نبوته، وهي متقدمة على رسالته التي استهلت بالإقراء في مفاجأة الغار.

وَهْي زعم السيوطي وردّ ما يوهي أثر الشعبي

ولا وجه لرد الحافظ جلال الدين السيوطي على شيخ شيوخه العلامة الحافظ ابن حجر في ترجيحه مرسل الشعبي على إنكار الواقدي قرن إسرافيل بالنبي ﷺ بأنه ورد ما يوهي أثر الشعبي، وهو ما أخرجه مسلم، والنسائي، والحاكم، عن ابن عباس، قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً من السماء فوقه، فرفع جبريل طرفه إلى السماء، فقال: يا

محمد، هذا ملك قد نزل، لم ينزل إلى الأرض قط، فجاء - أي الملك - إلى النبي ﷺ، فسلم عليه، فقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة.

وقد ساق ابن كثير في مقدمة تفسيره حديث مسلم الذي اعتمد عليه السيوطي في وهي مرسل الشعبي فقال: روى مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث أبي الأحوص، سلام بن سليم، عن عمار بن زريق، عن عبدالله بن عبس بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب فتح من السماء، ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته. قال ابن كثير: هذا لفظ النسائي.

وادّعاء الحافظ السيوطي وَهْي مرسل الشعبي بهذا الحديث ادعاء عجيب، وزعم جد غريب، وإلاّ فأين موضع وَهْي أثر الشعبي - الذي صحح الأئمة إسناده إليه، والشعبي إمام مجمع على توثيقه، وعلو كعبه في صدق الرواية - من هذا الحديث؟ وهل يجوز أن يوهّى حديث ثبتت صحة إسناده إلى راويه المتفق على توثيقه بمجرد قول جماعة من العلماء - كما يقول الزرقاني في شرح المواهب - إن هذا الملك الذي نزل بهذه البشرى إلى النبي ﷺ، ولم ينزل قبل ذلك إلى الأرض هو إسرافيل، دون أن يرد لإسرافيل ذكر أي ذكر في الحديث؟ فمن أين لجماعة من العلماء الذين اعتمد السيوطي على قولهم أن هذا الملك هو إسرافيل؟ وهذا أمر لا سبيل إلى الاجتهاد فيه بالرأي، لأنه من الغيب الذي لا يُعلم إلا بإعلام الله تعالى لنبيه ﷺ ولم يثبت من طريق صحيح أن النبي ﷺ أخبر بذلك، وهو ﷺ الطريق الوحيد لإثبات هذا الإخبار.

ولعل الشبهة جاءت إلى الحافظ السيوطي، وإلى جماعة العلماء الذين اعتمد على قولهم، من حديث ابن عمر عند الطبراني، الذي ساقه الزرقاني

نقلاً عن السيوطي، فقال: عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لقد هبط عليَّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي ـ وهو إسرافيل ـ فقال: أنا رسول ربي إليك، أمرني أن أخبرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً، فنظرت إلى جبريل، فأومأ إليّ أن تواضع، فلو أني قلت: نبياً ملكاً لسارت معي الجبال ذهباً).

قال السيوطي: وهاتان القضيتان بعد ابتداء الوحي بسنين كما يعرف من سائر طرق الأحاديث، وهما ظاهرتان في أن إسرافيل لم ينزل إليه قبل ذلك، فكيف يصح قول الشعبي: أنه أتاه في ابتداء الوحي؟

وهذا أيضاً استنتاج غريب لأن حديث مسلم الذي رواه النسائي والحاكم قضية قائمة بذاتها في سندها وراويها من الصحابة، وهو ابن عباس، وفي معناها، ولم يذكر فيه شيء قط عن إسرافيل، باسمه أو نعته الخاص الذي يعيّنه من بين الملائكة المكرمين، وإذاً فلا دلالة في هذا الحديث من قريب أو بعيد على ما يوهي أثر الشعبي الصحيح إسناداً ورواية، فإقحامه للتدليل على ضعف أثر الشعبي مجازفة غريبة، بعيدة عن سداد العلم واستقامة البحث والاستدلال.

أما حديث ابن عمر الذي رواه الطبراني ـ إذا صح ـ فلا دلالة فيه مطلقاً على أن إسرافيل لم يقرن بالنبي ﷺ قبل قرن جبريل به منذ بدأ وحي الرسالة ونزول القرآن، وبالتالي لا دلالة فيه على أن إسرافيل لم يسبق له نزول على النبي ﷺ، وما جاء في الحديث منسوباً للنبي ﷺ من جملة «وهو إسرافيل» يحتمل أنه مدرج، وليس من كلام النبي ﷺ.

ولو سلمنا رفع هذه الجملة إلى النبي ﷺ، وأنها من كلامه، فليس في الحديث دلالة على مدَّعى الحافظ السيوطي وَهْي مرسل الشعبي، لأن النبي ﷺ قال ـ كما في عبارة الحديث ونصه ـ: «لقد هبط عليّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي» وهذا لا ينافي أن هذا الملك هبط على النبي ﷺ قبل نزوله هذا، وأنه قرن به مدة نبوته، لأن المنفي هبوط هذا الملك على نبي قبل نبيِّنا ﷺ، أما هبوطه عليه ﷺ فلم

يُنْفَ، لأن العبارة النبوية صادقة بنفي هبوطه على نبي غيره من الأنبياء قبله، ونفي هبوطه على أحد بعده، وهذا على تسليم صحة نسبة القول (وهو إسرافيل) إلى النبي ﷺ.

وواضح أن حديث الطبراني مخالف كل المخالفة لحديث مسلم والنسائي والحاكم في سنده وراويه ومعناه، لأن حديث مسلم مروي عن ابن عباس، وحديث الطبراني مروي عن ابن عمر، واختلافهما في المعنى ظاهر، لأن حديث مسلم والنسائي والحاكم وارد في إبلاغ بشرى وتكرمة للنبي ﷺ بأن الله تعالى اختصه بفاتحة الكتاب؛ وخواتيم سورة البقرة، ولأن حديث الطبراني وارد في تخيير النبي ﷺ بين أن يكون نبياً عبداً، أو نبياً ملكاً.

فالقضيتان مختلفتان أشد الاختلاف، فلا جامع بينهما للدلالة على وَهْي مرسل الشعبي، وذكر إسرافيل لم يرد قط في حديث مسلم والنسائي والحاكم، وهو قطعاً أصح وأرفع من حديث الطبراني إذا ثبتت صحته.

وكون هاتين القضيتين بعد ابتداء الوحي بسنين لا يفيد شيئاً في الموضوع، فذكره لا محصل له، وقول الحافظ السيوطي: وهما ظاهرتان في أن إسرافيل لم ينزل إليه قبل ذلك غير صحيح، وقوله أيضاً: فكيف يصح قول الشعبي: أنه ـ أي إسرافيل ـ أتاه في ابتداء الوحي؟ غير متجه ولا مسلّم.

وقد بيّنا وجه صحته، ووجه عدم تنافي الحديثين ـ حديث مسلم، وحديث الطبراني ـ لما يقتضيه أثر الشعبي من أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ في مدة نبوته منذ بدأ وحيها بالرؤيا الصادقة في النوم، قبل أن يفجأه الحق بمجيء جبريل له في غار حراء وقرنه به منذ يومئذ، ونزول القرآن على لسانه في عشرين سنة، مفتتحاً بأوائل ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

بدء نزول القرآن العظيم

كان أول خطوات الرسالة

كانت فجأة الحق بمفاجأة أمين الوحي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في خلائه متعبداً لربه في غار حراء، يَسْبح بفكره وإشراق روحه في آفاق التأمل في بدائع ملكوت الله - هي نقطة التحول في خط الاصطفاء من وحي النبوة إلى وحي الرسالة، إذ هي النقطة التي انتهى عندها خط انفراد النبوة بمراتب وحيها في مرحلة التميز الإنساني الذي اختص الله تعالى به عبده محمداً ﷺ في طبيعته الروحانية على سائر الطبائع البشرية، تخلقاً، وفكراً، وعملاً، وسلوكاً واستقامة نهجٍ في الحياة، بما حُبي به من وحي النبوة.

وكانت مفاجأة جبريل للنبي ﷺ بطلب القراءة - في أول لقاء يقظي بينهما إذ قال له (اقرأ) دون تمهيد لهذا الطلب الغريب على النبي ﷺ في حياته وطبيعته التي نهد وشب عليها - بدءاً لأول خطوات رسالته ﷺ، وإيذاناً بتحقق أعظم معجزاته، وأي معجزة أجلّ وأعظم، وأبقى على الدهر خلوداً من أن يصير الأمي بالفطرة قارئاً عليماً بغير تعلّم دراسي، يثافن فيه المعلمين، ويثاقف العلماء؟.

وقد نوَّه القرآن الحكيم بهذا الإعجاز الذي يدور على محور أمية محمد ﷺ، منكراً على الذين لجوّا في العناد الجَحُود، مجبهاً بوخز التقريع للذين لم يتيحوا لعقولهم فرصة التفكر في حياة محمد ﷺ التي كانت الأمية أظهر مظاهرها، وأبين خصائصها، وهم أعرف الناس به، مدخلاً، ومخرجاً، ظاهراً، وباطناً، وفيما صار إليه بعد بعثه رسولاً إلى العالمين، من العلم

الرباني الذي تلقّاه من وحي الله تعالى إليه، في شتى مناحي الحياة، عقيدة، وتعبداً، وهداية، وتوجيهاً، وإرشاداً، وتأسيساً لنظم الاجتماع والعدالة التي تقوم عليها روابط المجتمع البشري، أفراداً وجماعات، مع استقامة السلوك معتمداً على دعائم أفضل الفضائل الإنسانية وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا: ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله، قل ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يُوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به؛ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾[1] ويقول عزّ شأنه: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[2].

وكان من الطبيعي أن يكون رد النبي ﷺ - وهو في غمرة المفاجأة على هذا الطلب الغريب المفاجىء بقوله: «ما أنا بقارىء» - إرهاصاً لتبين مناط التحدي بمعجزة قراءته، وتقريراً برهانياً على صدقه في دعوته، وأساساً وطيداً لإيمانه برسالة نفسه واستظهاراً لمعالم التحدي، واستكشافاً لمنائر الهداية في سير الرسالة في آفاق التبليغ.

إيمان الرسول برسالته أرفع مراتب اليقين وأقوى دعائم النجاح في التبليغ

وإيمان الرسول برسالة نفسه أرفع مراتب اليقين وأعلا درجات التثبت، وأقوى دعائم المعرفة الكاشفة لجميع مصادر الرسالة ومواردها، وأجلى لجميع مداخل ومخارج الحقيقة الكبرى التي يؤمن بها الرسول بإيمانه برسالة نفسه.

ولا يبلغ هذا الإيمان مداه الذي يؤذن عنده للرسول - إذا بلغ إيمانه برسالته هذا المدى أن يبلِّغ عن الله جلّ جلاله، وعن أمناء وحيه من خواص الملأ الأعلى، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ما يوحى إليه من ربه - إلا إذا

(١) سورة يونس آيتا (١٥ - ١٦).
(٢) سورة الشورى آيتا (٥٢ - ٥٣).

عرف الرسول ربه تبارك وتعالى معرفة تكشف له عن حقيقة إرساله ورسالته انكشافاً شهودياً، لا يحتاج معه إلى دليل حسي أو برهان عقلي، حينئذ تكون المعجزة في دلالتها على صدق الإرسال والرسالة باباً من أبواب الشهود الفكري المطابق للشهود الروحي، وإلا إذا عرف الرسول الملأ الأعلى بأخصّ صفاتهم التعبدية طبعاً جِبلياً، وتطبعاً تكليفياً، وهذا خاص برسالة الخلود الخاتمة لرسالات السماء وهي الرسالة الوحيدة في سجلّ الرسالات الإلّهية التي تناول عمومها التكليفي عوالم الملأ الأعلى تعبداً مفطوراً بما يلائم طبيعتهم من شرائعها وتعبداتها.

إيمان الرسول برسالته هو المعجزة العظمى التي تدعم التحدي بأية معجزة أخرى

وإيمان الرسول برسالة نفسه على هذا الطراز الشهودي هو في الحقيقة المعجزة الكبرى التي يستند إليها الرسول في قوة التحدي بالمعجزة المميَّزة بخصائصها الإعجازية في المعجزات الحسية المادية المتقضّية بتقضي مهمتها في زمنها ورسالتها، أو الخصائص الفكرية الروحانية في المعجزة العلمية الخالدة، وهي القرآن الكريم.

لذلك كان إيمان الرسول برسالة نفسه نابعاً من داخل نفسه وطبيعته الروحانية التي يمدّه الله تعالى بها فوق طبيعته البشرية المفطور عليها إنساناً له أكمل الخصائص البشرية، تميزاً على كافة من يشاركه في أصل الفطرة الإنسانية من أفراد البشر، ليكون مُتَنَزَّلاً لوحي الرسالة، ومهبطاً لكلمة الله، تلقى إليه من وراء حجب البشرية، بلاغاً له خاصة، أولاً ليوقن إيقاناً شهودياً يسمو به إلى تجليات إلّهية، يستحيل أن يعتريها أدنى توقف من حيرة أو شك، وتكليفاً تبليغها إلى جميع أمته أفراداً وجماعات، مباشرة منه إليهم أو ألْسِنة ورثته من الدعاة القائمين على تبليغ رسالته ونشر دعوته.

فالرسول نفسه مدعو من نفسه بتكليف من الله تعالى للإيمان برسالة نفسه، بل هو أول مدعو لهذا الإيمان، وهو بعد هذا مكلَّف دعوة أمته على عمومها لتؤمن برسالته، إيماناً يدفعها إلى التصديق والإقرار والعمل بما يبلغها من شرائع هذه الرسالة التي آمن بها قبلها.

وهذا المدد ضرب من المدد الروحاني الذي يمد به الرسول، ليكون

معْبراً ممدوداً على متن الطبيعة البشرية المصطفاة، ليعبر الوحي على معبر استعدادها الشهودي إلى قلب الرسول ليعلم ما لم يكن يعلم، ويعلِّم ما علم و﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

أما المعجزات المتميزة بخصائصها الطبيعية فكرية أو مادية فهي أمر من الغيب المنزل، خارج عن نطاق شخصية الرسول في طبيعتيه البشرية والروحانية، تنزل جواباً برهانياً بمنطق العقل للسائلين، أو المتسائلين، فهي مدد من عالم الغيب، جاءت لتكون برهاناً على صدق الرسول للذين لا ترتفع طبائعهم إلى آفاق الإدراك الغيبي ممن يؤمنون بالرسول لأنه رسول، مكتفين بخصائصه السلوكية في حياته وأخلاقه، واستواء جانبيه، راضياً وغاضباً، وآمراً وناهياً، ومرغباً ومرهباً، والذين لا ترتفع طبائعهم إلى مستوى هذا الإدراك الغيبي الرفيع يحتاجون في رحلتهم الفكرية للإيمان بالرسول إلى مطايا عقلية أو حسية مادية على وقع خطوها إلى ساحات العقول والأفكار يؤمن عامة البشر، لأنها تحملهم إلى أودية المعرفة الهادية عن طريق التأمل البرهاني الذي تمدهم به خوارق العادات الفكرية أو المادية التي تعلو بأوضاعها الخاصة وقوانينها على أوضاع وقوانين الحياة العامة، وسنن الطبيعة المألوفة.

غلط المتفلسفة في معرفة حقيقة النبوة والرسالة

وقد غلط الفلاسفة المتنسبون إلى الإسلام في معرفة حقيقة النبوة والرسالة والوحي لإفراطهم في تقديس هوس الفلسفة اليونانية التي أبطل العلم التجريبي أكثر نظرياتها وآراء زعمائها، فتوهموا أن النبوة ضرب من التخيُّل إذا قوي واستكمل وجوده في الإنسان، وخلص من تأثير المحسوسات الواردة عليه من خارج طبيعته، وتحرر من قيود تأثير القوى الناطقة لاحت له حقائق الأشياء فيضاً يفيض عليه من ذات نفسه يقظة أو مناماً، وهذا هو النبوة والوحي عندهم.

فالوحي الذي تحقق به النبوة أو الرسالة هو في نظرهم فيض النفوس العليا الذي يكشف للنبي أو الرسول الحقائق يقظة أو مناماً برموز وأمثال من نظائرها في عالم الحس والشعور تنزلاً من فيض العقل الفعَّال على النفوس الصافية.

وقد تناقل ذلك خلفهم عن سلفهم، فذكره الفارابي في مدينته الفاضلة صريحاً مبسوطاً، لا يحتمل التأويل، لأنه صرّح في هذا الكتاب بأن النبوة فيض من جنس المنامات، ثم التقط فكرته من بعده ابن سينا في إشاراته، غير أنه حاول بلورتها في مرايا إسلامية، وتبناها بعدهما ابن مسكويه ـ وهو لا يجري في شوطهما إلا تقليداً لهما ـ في كتابيه الفوز الأكبر والأصغر ـ وكان تلميذاً أميناً لنظرية الفارابي، وحاول أن يحاكي ابن سينا في تقريب هذه الآراء الفيضية التخيلية من أصول الإسلام فلم يلحق بصاحبه، وتخلف وراءه مقلِّداً.

وقد تأثر ببعض فلتات هذا التفلسف الفيضي التخيلي أبو حامد الغزالي، فقال في كتابه «المنقذ من الضلال»: فالنبوة عبارة عن طور ـ إنساني ـ يحصل فيه عين لها نور، يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل... ومعك أنموذج منها، وهو مدركاتك في النوم، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الأنبياء، ولا سبيل إليها ببضاعة العقل ولا بالتجربة. وهذا كلام غريب جداً عن أصول الإسلام وشرائعه في النبوة والرسالة والوحي.

شواظ من إلحاد الباطنية

وفي مناهج متفلسفة التعليمية طامات وطامات اتكأ عليها الباطنية من الإسماعيلية وسائر طوائفهم من الملاحدة المحرِّفين لأصول الدين، وخاض في بحر هذه الترهات الفيضية التخيلية بعض من تأثر بنظريات التفلسف من المتصوفة، فغرق في خضمه فريق منهم، إلا من عصمه الله بمسبح الشريعة المطهَّرة، فساحل من قريب، وعاد إلى بر السلامة قبل أن يجرفه تيار التفلسف والمخرقة، ولعل من أمثل من نجا من هؤلاء الراغب الأصفهاني في «تفصيل النشأتين».

وقد صور أبو حيان التوحيدي في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» صورة من طامات إخوان الصفا في رسائلهم المتفلسفة على لسان شيخه أبي سليمان المنطقي، وهو شيخ سوء، مغموز في دينه، ومتهم بوضع رسائل إخوان الصفا، أو أنه أحد واضعيها ومقدمهم.

وسيرى القارىء في كلام أبي سليمان الذي يحكيه عنه تلميذه أبو حيان، أو الذي ينحله فينسب إليه نظرية الفيض والتخيل تصور بها حقيقة النبوة والوحي، وسيرى القارىء تصريح أبي سليمان المنطقي باعتقاده سمو منزلة الفلاسفة على الأنبياء، كما هو مشهور من مذهب الفارابي الذي دندن حوله ابن سينا، ولوّح ولم يصرِّح، وجمجم ولم يفصح، ولا يخفى على القارىء اختلاف الألفاظ ولف الأسلوب في إطار الرمزيـة، لأن المعاني المقصودة من وراء ما هنا وهناك واحدة.

ونحن نسوق من كلام أبي حيان في ليلته الرابعة عشرة من «الإمتاع» ما يصوِّر مذهب شيخه أبي سليمان، ولعله مذهبه ومذهب أصحابه من تلاميذ أبي سليمان، وهم - فيما يظهر لنا - «إخوان الصفا» أو من منتحلي مذهبهم المتفلسف الملحد.

كلام أبي حيان عن الفيض والتخيل منسوباً لشيخه أبي سليمان المنطقي

قال أبو حيان: سألت أبا سليمان عن السكينة، ما هي؟ فقال: السكائن كثيرة، طبيعية، ونفسية، وعقلية، وإلٓهية، ومجموعة من هـذه بأنصباء مختلفة، ومقادير متفاوتة ومتباعدة، والسكينة الطبيعية: اعتدال المزاج بتصالح الاسطقات، تحدث به لصاحبه شارة تسمى الوقار، ويكون للعقل فيها أثر باد، وهو زينة الرواء المقبول.

والسكينة النفسية: مماثلة الروية للبديهة، ومواطأة البديهة للروية، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة، يحدث بها لصاحبها سمت ظاهر، ورنو دائم، وإطراق لا وجوم معه، وغيبة لا غفلة معها، وشهامة لا طيش فيها.

والسكينة العقلية: حسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة، ومعنى هذا أن القابل مستغرق بقوة المقبول منه، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحق مع سكون الأطراف في أنواع الحركات.

والسكينة الإلٓهية لا عبارة عنها على التحديد، لأنها كالحلم في الانتباه، وكالإشارة في الحلم، وليست حلماً، ولا انتباهاً في الحقيقة، لأن هذين نعتان

محمودان في عالم السيلان والتبدُّل، جاريان على التخيل والتجوز، بزوائد لا ثبات لها، ونواقص لا مبالاة بها، روحانية في روحانية كما يقال «هذا صفو هذا» و«هذا صفو الصفو» ومن لحظ هذه الكيفية، وبوشر صدره بهذه الحقيقة استغنى عن رسوم محدودة بألف ولام، وحقائق مكنونة في عرض الكلام، وإذا جهلنا أشياء هي لأهل الأنس بلغات تفطروا عليها، وعبارات أنسوا بها، كيف نجد السبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها.

فعلى هذا الصمت أوجد للمراد من النطق، والتسليم أظفر بالبغية من البحث.

ثم يسوق أبو حيان سؤالاً من أحد أخصَّاء تلاميذ أبي سليمان المنطقي، هو أبو العباس البخاري، يقول فيه: فشيء كهذا بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر على جبلة بشرية وبنية طينية، وكمية مادية، وكيفية عنصرية؟.

أبو سليمان المنطقي يجمجم ثم غلب على باطنه فصرح وتكشف

فقال أبو سليمان، يجيب تلميذه: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استودع صاحبها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر ومساواته للعلانية، وغلبته بالتوحد، وانتظام كل صادر منه ووارد عليه.

وها هنا تمحى الجبلة البشرية، وتتبدد الجبلة الطينية، وتبيد الكمية المادية، وتعفو الكيفية العنصرية، ويكون السلطان والولاية، والتصريف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قدمنا وصفنا لها، واشتد وجدنا بها، وطال شوقنا إليها، ودام تحديقنا نحوها، واتصل رنونا إليها، وتناهت نجوانا بذكرها.

قال أبو سليمان لتلميذه: وهذا هو الخلع الذي سمعت بذكره، واللباس الذي سألت عنه، أعني خلع ما أنت منه إنسان، ولبس ما أنت به ملك.

الله المستغاث منكم، ما أشد بلواي بكم، لم لا تتحركون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه، ولم تسألون عما لا اطلاع لكم عليه؟ سلوا ربكم أعيناً بصيرة، وآذاناً واعية، وصدوراً طاهرة، وقوة متتابعة، فإنكم إذا منحتموها هديتم لها، وإذا حرمتموها قطعتم دونها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال أبو العباس البخاري لشيخه أبي سليمان المنطقي: وقد تركنا ياسيدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصباء مختلفة.

فقال أبو سليمان يرد على تلميذه: نعم، والسكينة المجموعة من كل ما سلف القول فيه تقاسمها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان، والغموض والبيان، والقلة والكثرة، والضعف والقوة.

وهذا يتبين بأن تقسم الطيش والحدة، والعجلة والخفة على أصحابها فتجد التفاوت ظاهراً، وكذلك إذا قسمت الهدوء والقرار والسكون والوقار على أهلها، فإنك تجد التباين مكشوفاً، والاختلاف ظاهراً.

أبو سليمان المنطقي يخلع عذار الرياء فيهوي إلى قعر من الإلحاد سحيق

ثم قال أبو سليمان: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشر، وليس لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسية، والعشرة البشرية، وإلا فهم في ذروة عالية ومحلة إلٰهية.

ثم قال: وأما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها، لأنها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصدق، والشبيه بالصدق، وللحق وللقرب من الحق، وللصحيح والتالي للصحيح، ثم يختلف بيانهم عن ذلك بالتعريض والإيضاح، والكناية والإفصاح، والتشبيه والاستعارة.

ثم قال أبو سليمان: فأما السكينة التي تتلو هذه فهي التي تظهر على طائفة تخلف الأنبياء وذلك أن بقايا قواهم يرثها الذين صحبوهم، واستضاءوا بنورهم، وفهموا عنهم، ولقنوا منهم، ودخلوا في زمرتهم، وحاكوهم في الشمائل والأخلاق، وسلكوا مناهجهم في القياد والسياق، وصلحوا سفراء بين الأبعدين، كما كانوا سجراء للأقربين، وهم الذين

يفسرون الغامض، ويوضحون المشكل، ويبسطون المطوي، ويشرحون المكني، ويبرزون المراد والمعنى، ويوطدون الأساس، ويرفعون الالتباس، وينفون الوحشة، ويحدثون الإيناس.

وأما السكينة الباقية فهي مفضوضة على أتباع هؤلاء بالسهام العلوية والمقادير العدلية، والمناسيب العقلية من غير جور ولا حيف، ولا انحراف ولا ميل.

فقال له تلميذه البخاري: أهي - أي السكينة - في معنى فاعلة أو مفعولة؟

فقال أبو سليمان: الفضاء أعرض مما تظن، وإن كان في غاية العرض، والذروة أعلى من أن ترام، وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض.

هي بوجه في معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها، وبوجه آخر في معنى مفعولة إذا شعرت بتأثرها، وبوجه آخر ليست من هذين القبيلين في شيء إذا لحظتها في معانيها قبل تأثيرها وتأثرها.

وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب بشائع العادة وقائم العرف والسكينة وراء ذلك كله بالحق والواجب والصحة والتمام، فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه، فإذا شهدت المخصوص بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكلة لعبارتك عن أخلاق رضية وأحوال مرضية، وإذا شهدت ذلك المعنى من معاني الحق كانت عبارتك متلجلجة، لا نظام لها ولا تعادل ولا اتساق على العادة الجارية والحالة الطارئة، فأجلّ ما ينبغي لطالب الحكمة، اللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر، ويكشف وينقر، ويستقصي ويسهر، ويسأل ويستبصر، حتى إذا بلغ هذه الآفاق، وشهد هذه الأعلام، ووجد الصواب الذي لا شوب فيه، وصادف اليقين الذي لا ريب معه، وعرف الاستبانة التي تغني عن البيان، وذاق المعنى الذي هو فوق العيان، أمسك وانتهى، ووقف واستغنى،

لا لعرض ظلام غشيه، ولكن لسلطان شعاع ملكه، لأن ذلك النور محيط بكل شيء دونه، ومستول على كل شيء تحته.

انكشاف الغطاء عن سوأة أفكار أبي سليمان وجماعته

قال أبو حيان التوحيدي في التعقيب على ما ساقه في هذا الفصل من كتاب (الإمتاع) من كلام أبي سليمان المنطقي أستاذه وأستاذ أصحابه، وهو تعقيب يكشف عن سوأة إلحاد خبيث، ويبين أن صاحب هذه الأفكار يدسّ من ورائها في حنايا صدره لوناً خبيثاً من الإلحاد المتدسس، وأن من خلفه من يلتقطون شذرات هذا الإلحاد لينظموا منه عقداً مكتوباً، وكتاباً مقروءاً للإضلال وتحريف كلم الله تعالى في رسالاته عن مواضعها، تستراً وراء التفلسف الأجوف والرمز المبرسم.

وفي هذا التعقيب البين يقول أبو حيان: وكان - أي أبو سليمان المنطقي - يقول في هذا الفن إذا جد به الكلام، وبدا منه المكتوم، وشرد عنه الخاطر ما لا يوعى بحفظ، ولا يروى بلفظ.

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثوره بهذه الحروف لفظاً لينظموا منه شذراً وعقداً، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا في تقويم ذلك، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهومهم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى، ولا يتحيرون في المنتهى.

* * *

تنبيه يكشف عن حقيقة هذا التفلسف الخبيث

وهذا كلام واضح المنحى، بيِّن المرمى، ولا يحتاج في فهم أهدافه وغاياته إلى كد الفكر على رغم تلففه في أكفان الرموز والمعمّيات، والإشارات المتغمضة، وجلابيب الهلوسة المتفلسفة، ولا سيما في الحديث عن السكينة الإلٓهية، وقول أبي سليمان المنطقي في وصفها: لا عبارة عنها على التحديد، لأنها كالحلم في الانتباه، وكالإشارة في الحلم، وأنها ليست حلماً ولا انتباهاً في الحقيقة.

والمتعارف عند جميع العقلاء الشعوريين أن الانتباه أعلى درجات التيقظ، وأرفع مراتب الشعور، وأجلى مظاهر الإحساس، فإذا لم تكن سكينة

أبي سليمان الإلٓهية حلماً في رؤى النوم حيث لا شعور ولا انتباه، وإذا لم تكن انتباهاً في أكمل درجات التيقظ والإحساس فماذا تكون تلك السكينة؟ وكيف تكون كالحلم في الانتباه مع أن الانتباه أرفع مراتب التيقظ، وأجلى درجات الحس والشعور؟ ولا يحلم في اليقظة إلا المبرسمون.

ومن بداهات العقل أن الحلم لا يكون إلا عند فقدان الشعور الذي هو أقوى معالم النوم، أو بالذهول المستغرق لمناطق الإحساس والشعور.

وقوله في الرد على سؤال تلميذه أبي العباس البخاري الذي كان من بين الجماعة كأنه مسعر إثارة لكوامن أبي سليمان ليسترسل في معمياته، وغوامض رموزه وإشاراته، عسى أن يكبو جواد حرصه على الغموض الرمزي، فيصرح بما يكنّ ويكتم.

فهذا البخاري يسأل شيخه أبا سليمان قائلاً: فشيء كهذا - أي السكينة الإلٓهية - بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر علىٰ جبلة طينية، وكمية مادية، وكيفية عنصرية - وهو يقصد بموضوع هذه الأوصاف ومصدوقها في الوجود الخارجي الإنسان في صورته البشرية بما لها من خصائص الشعور والإحساس والإدراك -.

فيجيبه أبو سليمان قائلاً: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استودع أصحابها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر، ومساواته للعلانية، وغلبته بالتوحُّد، وانتظام كل صادر منه، ووارد عليه.

وها هنا تمحّي الجبلة البشرية، وتتبدد الجبلة الطينية، وتبيد الكمية المادية، وتعفو الكيفية العنصرية، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قدمنا وصفنا لها، واشتد وجدنا بها، وطال شوقنا إليها، ودام تحديقنا نحوها، واتصل رنونا إليها، وتناهت نجوانا بذكرها.

قال: وهذا الامحاء ـ أي للجبلة الطينية، والإبادة للكمية المادية ـ هو الخلع الذي سمعت بذكره، واللباس الذي سألت عنه، أعني ـ أي أبو سليمان ـ خلع ما أنت منه إنسان، ولبس ما أنت به ملك.

وهذا الكلام من غرائب الرموز الإلحادية الباطنية، في تحريف الحقائق، وهو تفلسف ماكر مغرور لأن امحاء الجبلة الطينية، وإبادة الكمية المادية مع بقاء معالمها ورسومها في خلقة الإنسان وتكوينه البشري، وهيئته البدنية، وبقاء آثارها مشهودة في حركات الإنسان وسكناته، وعزته البشرية ضرب من المحال، لا يعقله إلا المبرسمون.

ولهذا استغاث أبو سليمان من توقف تلاميذه في فهم هذه المحالات المبرسمة، وسؤالهم إياه أن يكشف لهم عن رموزها ومعمياتها.

والطامة الكبرى في هذا الكلام الخبيث قول أبي سليمان: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشر، وليست لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسية، والعشرة البشرية، وإلا فهم في ذروة عالية، ومحلة إلَهية.

وهذا كلام يفضح مكنون الرموز الغامضة، والإشارات المعمّاة، في تفلسف أبي سليمان وعصابته، لأنه كلام تنفرج سوءاته عن سؤال يصطرخ في وجه أبي سليمان وجماعته من متفلسفة ملاحدة الباطنية:

من هم أولئك الأشخاص الذين هم في حقيقتهم الوجودية خلقة وإحساساً إنسانياً، وعشرة بشرية، بشر من البشر، ولكنهم بهذه الأخلوقة التي اختلقها أبو سليمان، وسماها السكينة الإلَهية، امتازوا عن سائر البشر، فصاروا فوق البشر، في ذروة عالية، و محلة إلَهية ـ كما زعم لهم أبو سليمان المنطقي، وشرذمته من المتفلسفة التحريفيين؟

أهم الأنبياء والرسل المصطفون لقيادة الإنسانية إلى ذروة كمالها المقدور؟ وهؤلاء الأنبياء والرسل هم في حقيقة الواقع الوجودي أعلى ذروة للإنسانية، روحانية، وعقلاً، وكمالاً بشرياً؟.

ولكن أبا سليمان المنطقي يأبى عليه إلحاده المتفلسف أن يكون أولئك الأشخاص الذين رفعتهم سكينته فوق مستوى ذروة البشر، هم صفوة الصفوة من الأنبياء والرسل، لأنه يرى في تفلسفه الباطني الملحد أن الأنبياء والرسل أحط مرتبة من أشخاص سكينته الذين هم في ذروة عالية، ومحلة إلْهية.

وإذا أخرج منطق تفلسف أبي سليمان المنطقي الأنبياء والرسل من زمرة أشخاص سكينته الإلْهية، وجعلهم في مرتبة أحط من مرتبة أشخاص هذه السكينة المزعومة عاد السؤال مستبيناً ليعرف حقيقة ومعالم أشخاص سكينته الذين اشتد وجده بهم، وطال شوقه إليهم، وتناهت نجواه بذكرهم، وهم ـ كما صرّح ـ ليسوا بأنبياء، وليسوا رسلاً لله تعالى، ولكنهم فوق الأنبياء والرسل؟.

والذين تمرسوا على كشف حجب الضلالات الرمزية في أساليب متفلسفة الباطنية، ومرنوا على أساليب متفلسفة عبيد الفلسفة اليونانية في إشارات (أبسال وسلامان) من الأحاجي والألغاز التي تطوي تحتها أشياء وأشياء، يعرفون أن أبا سليمان المنطقي وعصابته لا يقصدون بأشخاص سكينتهم الإلْهية الذين هم ـ في زعمهم ـ فوق مستوى ذروة البشرية، بأنبيائها ورسلها، إلا مؤلهيهم من الفلاسفة، الذين يرونهم ـ كما هو ظاهر في كتب أبي نصر الفارابي ومن تقيَّله ـ أفضل وأعلى منزلة من الأنبياء والرسل، لأن صناعتهم، وهي الفلسفة أجلّ ـ في نظرهم ـ من النبوة والرسالة، وإلا مؤلهي الحلولية الباطنية في اعتقادهم مخرقة الأئمة التعليمية المختفين في سراديب الجبال، يسبحون في العسل والماء.

وأيّما أراد أبو سليمان المنطقي وجماعة تلاميذه بأشخاص أخلوقتهم وسكينتهم من شراذم الإلحاد والضلال الكفور فأمرهم لا يخرج عن كشف سوء معتقدهم في فهم النبوة ومعرفة حقيقتها.

ويمضي أبو سليمان المنطقي في هذه الطامات الإلحادية، فيقول: أما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها، لأنها

مرتبات تنقسم بين النوم واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصدق، والشبيه بالصدق وللحق والقريب من الحق، وللصحيح، وبالتالي للصحيح.

وهذا كلام صريح في أن مرتبة الأنبياء في حظهم من سكينة أبي سليمان المنطقي وجماعته تالية لمرتبة المؤلهين من الفلاسفة وأئمة التعليميين، الذين هم ـ في نظر أبي سليمان ـ فوق البشر، بما فيهم الأنبياء والرسل.

ومرتبة الأنبياء من سكينة أبي سليمان فيها الصدق، والشبيه بالصدق، وفيها الحق وقريب من الحق، وفيها الصحيح والتالي للصحيح، ولا بد من سؤال عما هو هذا الشبيه بالصدق في مرتبة الأنبياء من سكينة أبي سليمان، وليس بصدق؟ أهو الكذب؟ أم شيء وراء الصدق والكذب، لا يوصف بالصدق ولا بالكذب، وإذاً فما هو؟.

ولا بد من السؤال عن هذا الأمر الذي ليس حقاً ولكنه قريب من الحق في حظ الأنبياء من مرتبة سكينة أبي سليمان، أهو الباطل؟ أم شيء وراء الحق والباطل، لا يوصف بأنه حق أو باطل، وإذاً فما هو؟.

ولا بد من السؤال عن هذا الشيء الذي ليس صحيحاً ولكنه تالٍ للصحيح؟ أهو الأمر الفاسد؟ أو هو شيء وراء الصحيح والفاسد، لا يوصف بالصحة ولا بالفساد، وإذاً فما هو؟.

والعقلاء قاطبة لا يعرفون في حقائق الأشياء حقيقة شبيهة بالصدق وليست صدقاً سوى الكذب المموه بالخداع والتغرير، ولا يعرفون شيئاً قريباً من الحق وليس حقاً سوى الباطل المغلف بالغموض والرموز، ولا يعرفون أمراً تالياً للصحيح وليس صحيحاً سوى الأمر الفاسد الملفوف بلفائف المخادعة.

فهل يعني أبو سليمان المنطقي أن حظ الأنبياء من سكينته أنهم في منزلة بين منزلتين، فلا هي صدق، ولا هي كذب، ولا هي حق، ولا هي باطل، ولا هي صحيح، ولا هي فاسد.

فإذا قيل لأبي سليمان: ما هي هذه المنزلة التي يحيا بها الأنبياء في

نبوتهم؟ صرخ أبو سليمان مستغيثاً يقول: واغوثاه منكم، لم لا تتحركون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه؟ ولم تسألون عما لا اطلاع لكم عليه؟؟ ما أشد بلواي بكم؟؟...

ونمضي مع أبي حيان التوحيدي في إمتاعه حتى نصل في حديث هذه الليلة إلى أبي سليمان عاري العقيدة، مكشوف سوأة التفكير، ينادي عليه أبو حيان فيقول: (وكان ـ أي أبو سليمان ـ يقول في هذا الفن إذا جد به الكلام، وبدا منه المكتوم، وشرد عليه الخاطر ما لا يوعى بحفظ، ولا يروى بلفظ، وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثوره بهذه الحروف لفظاً، لينظموا منه شذراً وعقداً، وكانوا إذا تلاقَوا اشتركوا في تقويم ذلك كله، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهوم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى ولا يتحيرون في المنتهى).

وهذه الفقر التي يصور بها أبو حيان حال شيخه أبي سليمان المنطقي أدق تصوير صريحة في أن أبا سليمان كان ينطوي على مستكنة من الإلحاد المتفلسف، وكان يجمجم لتلاميذه متدسساً بأفكاره ومذهبه، كتوماً بدخيلته ومعتقده، معتصماً بالرموز الغامضة والإشارات المعماة، حتى إذا سكر مع تلاميذه بخمرة الفكرة في خلوة الحديث الذي يستحوذ على عقله وقلبه، وروحه، وإحساساته ومشاعره بدا منه ما كان يكتم في صدره من إلحاد، وما يكنّ في دخيلته من ضلال، وشرد عنه الخاطر جامحاً لا يملكه لجام الإرادة، فيتكلم بأشياء لا توعى بحفظ فرقاً أن يند منه حرف ينم عنه، ويشير إليه، ولا تروى عنه بلفظ؛ جبانة عن التهمة بسوء الاعتقاد وضلال الإلحاد.

وإنما كان همّ تلاميذ أبي سليمان معه أن يتلقفوا منه ما عفا لهم من لفظ يرمي به ليشتركوا في تقويمه وتحبيره، ويتوافقوا على مفهومهم منه، دون منازعة أو اعتراض عليه، لئلا يضيق بهم ذرعاً، فيفوتهم ما استهدفه من فكرة ومعنى أرادهم به ليضبطوه وينشروه عنه دون تقيد بلفظه وعبارته.

وإلى هنا نكف عنان القلم مكتفين من ليلة أبي حيان عن شيخه أبي

سليمان وسكائنه وجمجمته وتدسسه بأفكاره إلى عقول تلاميذه بما نقلناه منها، ونبَّهنا عليه من مواطن التدسيس الفكري الذي انتهى بتعرية أبي سليمان المنطقي وعصابة تلاميذه، وكشف الغطاء عن إلحادهم الذي أبان عنه أبو سليمان في سكينته الإلَهية، وأفصح عنه أبو حيان في فقره التي صور بها حال شيخه أبي سليمان، وموقف تلاميذه من أفكاره وأحاديثه معهم، مما يجعلنا نرجح، بل نكاد نقطع أن أبا سليمان المنطقي وعصابة تلاميذه، وفي طليعتهم أبو حيان التوحيدي، صاحب (الإمتاع والمؤانسة) وصاحب (المقابسات)، هم هم «إخوان الصفا» الذين دبجوا بأقلامهم ما تلقفوه من تدسسات شيخهم المتفلسفة، وضلالاتهم الباطنية الملحدة، وأخرجوه للناس في رسائلهم المسمومة المشهورة، والله تعالى هو الكفيل بالمجازاة العادلة.

* * *

تفنيد ابن تيمية آراء الفلاسفة والباطنية الملاحدة في النبوة والوحي

وقد عرض الإمام ابن تيمية في مواضع متعددة من كتابه (النبوات) لآراء الفلاسفة ومن شاكلهم من أرباب الملل والمذاهب في فهم النبوة والوحي، ففندها، وكشف عن زيفها، وأبان بطلانها فقال: وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم، وهو المنام، فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها، وقد ضلّ بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق.

وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال، فما يأتي به الأنبياء من الآيات هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان، فالخبر بالغيب هو لاتصال نفوسهم بالنفس الفلكية التي يسمونها اللوح المحفوظ، وهذا يحصل للسحرة والممرورين والمصروعين.

ثم قال ابن تيمية: ولما أراد طائفة كأبي حامد الغزالي وغيره أن يقرر إمكان النبوة على أصلهم احتجوا بأن مبدأ الطب، ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الأنبياء، لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك... وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس وقوى النفس متفاوتة.

وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة، بل هو أجنبي عنها، وأبو حامد في

مثل معراج السالكين ونحوه يشير إلى أن العلم غاية، لا وسيلة، فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة، ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلسفة.

ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل، له معرفة وسلوك، وعلم بهذا، فقال: كلام أبي حامد يشوقك، فتسير خلفه، وهو يشوقك فتسير خلفه، منزلاً بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء.

تحقيق معنى النبوة والرسالة عند ابن تيمية

ثم قال ابن تيمية: والمقصود هنا الكلام على النبوة، فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبىء بما أنبأه الله، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول.

وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول... فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم... فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له كانوا رسلاً بإطلاق... فالنبي وإن كان مرسلاً بمعنى منبئاً لينبىء المؤمنين به لا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه... وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولاً وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة. انتهى ما أردنا من كلام الإمام ابن تيمية.

تبيان وتوضيح في معنى النبوة والوحي

فالنبوة في دين الإسلام هي إنباء الله تعالى من يصطفيه من الناس بطريق من طرق الوحي بما يشاء إنباءهم به من أمر، أو نهي، أو خبر، أو أدب وتوجيه وإرشاد، فإن كان هذا الإنباء تكليفاً بتبليغ ما أنبأه به إلى غيره من المكلفين بقبول دعوته كان بهذا التكليف التبليغي رسولاً على الإطلاق، وإن لم يكن هذا الإنباء تكليفاً بالتبليغ، على معنى أن الله تعالى أنبأه بما شاء من أمره، ولكنه لم يأمره بتبليغ ما أنبأه به إلى غيره وإنما طلب منه العمل به في خاصة نفسه ـ كان حينئذ نبياً بمعنى منبأ ومنبئاً عن الله تعالى، دون أن يكون

إنباؤه لغيره بما أنبىء به تكليفاً تبليغياً، فإن سمِّي حينئذ رسولاً فهي تسمية توسعية، وإطلاق عرفي خاص لأنه رسول إخبار، لا رسول تبليغ.

أما الوحي في دين الإسلام وشرعته فهو إنباء الله تعالى وإعلامه لمن يصطفيه لهذه المرتبة العلية في مراتب البشر بما يشاء من أمره بأية طرق من طرق الإنباء والإعلام، وهي الطرق التي هي مراتب الوحي وأنواعه التي عرفها علماء الإسلام تلقياً عن رسول الله ﷺ وهي إما منامية، رؤى صادقة، تجيء مثل فلق الصبح وضوحاً وجلاء، وإما يقظية، وتحتها مراتب، والمنامية هي أول مراتب الوحي، تأتي توطئة وتمهيداً لمراتب الوحي اليقظي، التي هي أكثر مراتب وحي الرسالة، وهي متفاوتة، وأعظمها مرتبة لقاء الملك يقظة بوحي القرآن الكريم، وكل ذلك من مراتب الوحي مندرج في قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنَّه عليّ حكيم﴾[1].

* * *

مرحلة انفراد النبوة لم ينزل فيها قرآن قط

في دائرة ما استطعنا الوصول إليه من البحث مطمئنين انتهينا إلى أن نبوة نبينا محمد ﷺ كانت متقدمة زمناً ووحياً على رسالته، وهذا قدر توافقنا فيه مع آراء جمع من محققي الأئمة الأعلام من السلف والخلف الذين أشرنا إلى أقوالهم في موضعها من البحث.

كما انتهينا إلى أن مرحلة انفراد النبوة بزمنها ومراتب وحيها ـ سواء أطالت كما في مرسل الشعبي وقرن إسرافيل بالنبي ﷺ في زمنها، الذي بلغ بها ثلاث سنين، أم قصرت كما في رواية دلائل البيهقي التي انتهت بها إلى ستة أشهر، وهي مدة الرؤيا المنامية الصادقة، وهي أول وأكثر مراتب وحي النبوة ـ لم ينزل فيها على النبي ﷺ شيء من القرآن، وأنها كانت توطئة وتمهيداً للرسالة ووحيها.

وقد بيَّن مُرسل الشعبي أن مرتبة النبوة كان الوحي فيها بالرؤيا

(١) سورة الشورى آية (٥١).

الصادقة، وسماع الكلمة والشيء من الوحي، تعليماً للنبي ﷺ، وتأديباً له بأدب الاصطفاء الذي تميز به على سائر البشر، وأن الذي قرن به في مدة انفراد النبوة من الملائكة هو إسرافيل عليه السلام، وأن جبريل عليه السلام لم يقرن به إلا حيث بدأت الرسالة ببدء نزول القرآن في وحي يقظي أنزل عليه فيه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربُّك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وهذا كان ترجيحاً منَّا لم نكن قد انفردنا به، ولكنه كان نتيجة بحث اطمأن إليه نظرنا في النصوص التي أوردنا منها عديداً من الأحاديث المثبتة لذلك.

لم ينزل قط قرآن في وحي منامي

وحديث الشعبي بقرن إسرافيل بالنبي ﷺ مدة نبوته صريح في أن مدة انفراد النبوة بزمنها ووحيها، لم ينزل فيها قرآن قط، وأن نزول القرآن ابتدأ وانتهى على لسان جبريل عليه السلام الذي قرن بالنبي ﷺ بعد انتهاء مدة انفراد النبوة، وبدء الرسالة، وكان بدء قرن جبريل بالنبي ﷺ في أول لقاء يقظي وقع في مفاجأة الغار التي نزل فيها أول ما نزل من القرآن على الإطلاق الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ).

وحديث الشعبي صحيح الإسناد إليه ـ كما صرح به شارح المواهب ـ معتمد عند المحققين من أئمة العلم وأعلام المحدثين، وإرساله لا يصلح أن يكون مطعناً لرده وعدم الأخذ به، لأن ما جاء من الأمور التي لا تقال بالرأي، والتي لا سبيل إلى الاجتهاد في مثلها، فلا بد أن يكون مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وأن الشعبي رواه عن صحابي تلقَّاه من النبي ﷺ، والشعبي من أوثق أئمة التابعين، فلا يردّ قوله إلا بما يعارضه معارضة لا مدفع لها من طريق من هو مثل الشعبي في الثقة أو من هو أوثق منه، ولم يقع لنا له معارض إلا ما جاء عن الواقدي، وقد أبنّا حاله في عدم صلاحيته لمعارضته.

وقد أوضحنا سبيل ما جاء في مرسل عبيد بن عمير من حديث نمط الديباج في النوم، إقراء جبريل النبي ﷺ الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة (اقرأ) والتي كانت بدءاً لنزول القرآن الكريم في أول لقاء يقظي لقي

فيه جبريل النبي ﷺ في مفاجأة الغار، وأوضحنا أن جمهور العلماء على أن القرآن الكريم لم ينزل منه شيء قط في النوم، وأنه نزل جميعه كله في وحي اليقظة، وما ورد من الروايات الموهمة لنزول شيء من آي القرآن في النوم كرواية نزول ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ ليس نصاً في ذلك، وهو سهل التأويل، فلا يعارض ما يشبه الإجماع.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله، فقال: «أنزل عليّ آنفاً سورة» فقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * إنَّا أعطيناك الكوثر * فصلِّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر ﴾.

قال الحافظ السيوطي في الإتقان: قال الإمام الرافعي في أماليه: فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة، وقالوا: من الوحي - أي وحي القرآن - ما يأتيه في النوم.. لكن الأشبه أن يقال: أن القرآن كله نزل في اليقظة... وقد يحمل ذلك - أي الإغفاءة - على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، ويقال لها: برحاء الوحي.

قال السيوطي: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه... وليس الإغفاء - أي في هذا الحديث - إغفاء نوم، بل هو الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، فقد ذكر العلماء أنه - ﷺ - كان يؤخذ عن الدنيا.

دعوى أن الرسالة بدأت بنزول ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ وأن النبوة بدأت بنزول ﴿ اقرأ ﴾ غير مسلَّمة

بَيْدَ أن بعض الباحثين في السيرة النبوية من علمائنا القائلين بانفراد النبوة متقدمة على الرسالة زمناً ووحياً يأتي في كلامهم أن رسالة النبي ﷺ بدأت بنزول قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ محتجين بورود صريح الأمر بالإنذار، وأن أوائل سورة (اقرأ) ليس فيها ما يدل على الإرسال وطلب التبليغ الذي هو خصيصة الرسالة.

ويصرح فريق منهم بأن نزول أوائل سورة (اقرأ) كان من وحي النبوة، بل كان - في رأي بعضهم - هو ابتداء النبوة، ثم فتر الوحي إلى أن

بدأت الرسالة بالأمر الصريح بالإنذار الذي جاء في الآية الثانية من سورة ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

وإلى هذا ذهب القسطلاني في مواهبه وشارحها الزرقاني، إذ قالا: فقد تبيَّن أن نبوته عليه الصلاة والسلام كانت متقدمة على إرساله، لأن نزول ﴿ قم فأنذر﴾ - أي الذي كان به بدء إرساله في رأيهم - إنما كان بعد الفترة الواقعة بعد النبوة، على ما ذهب إليه أبو عمر بن عبد البر، وحكاه أبو أسامة بن النقاش، وكان في نزول (اقرأ) نبوته، وفي أول سورة (المدّثر) إرساله بالنذارة والبشارة والتشريع، وهذا قطعاً متأخر عن الأول، لأنه لما كانت سورة (اقرأ) متضمنة لذكر أطوار الآدمي من الخلق والتعليم والإفهام ناسب أن تكون أول سورة أنزلت، وهذا هو الترتيب الطبيعي، وهو أن يذكر سبحانه وتعالى ما أسداه إلى نبيِّه عليه الصلاة والسلام من العلم والفهم، والحكمة والنبوة، ويمن عليه بذلك في معرض تعريف عباده بما أسداه إليهم من نعمة البيان الفهمي، والنطقي، والخطي، ثم يأمره سبحانه وتعالى أن يقوم فينذر عباده.

قال الزرقاني: فلهذه النكتة كانت النبوة سابقة، وقيل: هما متقارنان، وحكى تصحيحه عن بعض الشيوخ، ويؤيده أن الوضوء والصلاة كانا أول الوحي مع نزول (اقرأ)، فإن مفاده أنه لم يأمر خديجة وعلياً بهما إلا بعد الوحي إليه بذلك، وهذا عين الرسالة، وتأخر ظهورها لا يضر لجواز أنه أمر بالتبليغ حالاً لمن علم إجابته وعدم إبائه.

وقول صاحب المواهب: وكان في نزول (اقرأ) نبوته غير مسلَّم، لأن قول شارحه الزرقاني: ويؤيده أن الوضوء والصلاة إلى آخر ما ذكره في عبارته يرده ويثبت أن الرسالة بدأت بنزول أول ما نزل من القرآن، وهو أوائل سورة (اقرأ).

ولا وجه لقول الزرقاني: وتأخر إظهارها لا يضر، لأن وجودها وتحققها يقتضي إظهارها بالتبليغ، والأمر بالتبليغ عام لا يخص شخصاً دون شخص، ومن علم إجابته وعدم إبائه كان موجوداً تحت بصر النبي ﷺ

وسلطانه الاجتماعي، لأن خديجة كانت الزوج الوفية وكانت وزيرة الصدق في كل ما ينوب النبي ﷺ من أعباء رسالته، وعليّ رضي الله عنه كان في كنف الرعاية النبوية والتربية الأبوية، فإجابتهما من أول لحظة وعدم إبائهما متوافر الأسباب.

ولا سند لدعوى مقارنة الرسالة للنبوة التي صحَّحها بعض الشيوخ ـ كما قال الزرقاني ـ لأن حديث الشعبي وغيره من الأحاديث التي تفيد تقدم النبوة على الرسالة زمناً ووحياً يردّ هذه الدعوى، بل إن حديث عائشة عند الشيخين وغيرهما، وهو العمدة في أحاديث بدء الوحي يفهم منه تقدم النبوة على الرسالة، فقد جاء فيه قولها رضي الله عنها: (كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة. . . حتى فجئه الحق، فجاءه الملك، فقال له: «اقرأ»).

وهذا يفيد أنه ﷺ نبىء بأول مراتب وحي النبوة، وهي الرؤيا الصادقة، وأنه ﷺ دام على نبوته حتى فجئه الحق، وجاءه الملك بالرسالة في وحي اليقظة بشدته وقوة تنزله، وبما نزل به من آي القرآن الكريم، الذي بدأ بنزول أوائل سورة (اقرأ).

وقد قدمنا نصوص الأحاديث التي خوطب فيها النبي ﷺ بعد مفاجأة الغار وقبل نزول ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ بأنه رسول الله حقاً، وأن المخاطب له جبريل أمين الوحي، ولا تستقيم مخاطبته ﷺ بذلك في تكرار وتثبيت إلا إذا كانت الرسالة قد أنزلت عليه، وتجلبب جلباب نورها.

ونزول قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قم فأنذر ﴾ بعد فترة الوحي التي سبقها باتفاق نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ يدل على أن مطلق الرسالة كان قد سبق نزول هذا الأمر بالإنذار، ثم جاء هذا الأمر ليوجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى نوع من ضروب التبليغ قد يكون أشقها وأصعبها، وهذا النوع هو التخويف من بطش الله ونقمته وعذابه، وقد كانت البيئة، وهي تهوي في مهاوي الوثنية أحوج ما تكون إليه.

وإطلاق الإنذار من كل قيد يتعلق به يجعله بمعرض الامتثال على أية

صورة من صور الامتثال والإجابة، حتى جاء الوحي بمراتبه، وتعيين من اختارته العناية الإلهية ليكون أول من يفر إلى الله بقبول رسالاته، وقد تمثل ذلك في دعوة الخواص الذين يجيبون دون تردد، فكانوا هم أسبق السابقين إلى الإيمان بالرسالة وإنذارها.

أسبق السُّبَّق إلى الإيمان

ومن الطبيعي أن تكون طليعة هؤلاء السابقين زوج النبي ﷺ الوفية الأمينة أعقل نساء العالمين السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، التي كانت على أكمل المعرفة ببشائر نبوته ﷺ، بل كانت متطلِّعة إلى اصطفائه نبياً ورسولاً، حتى اختاره الله تعالى لنبوته ورسالته رحمة للعالمين.

خديجة أسبق السُّبَّق إلى الإسلام

وقد أجمع أهل العلم من أئمة الإسلام على أن خديجة رضي الله عنها كانت أول البشر قاطبة إيماناً بالله ورسوله، يقول ابن الأثير: لم يتقدمها رجل ولا امرأة بإجماع المسلمين، ويقول ابن إسحق: كانت خديجة أول من آمنت بالله ورسوله، وصدَّقت ما جاء من عند الله عزّ وجلّ، ووازرت النبي ﷺ على أمره، فخفَّف الله بذلك عن رسوله، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس.

ثم قَفَّى خديجة في السبق إلى حظيرة الإيمان برسالة محمد ﷺ ربيب النبوة، ورضيع ثديي الرسالة، المتقلب على فراش الإيمان، الناهد في مهد أكرم المكارم، عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

علي بن أبي طالب كان ثاني اثنين في السبق إلى الإسلام

آمن في سن الصبا قبل أن يبلغ الحلم، فشبّ معه الإيمان حتى خالط مشاعره ووجدانه وملأ قلبه، وأفعم بالنور روحه، وكانت العناية الربانية قد ساقته إلى حجر رسول الله ﷺ.

يقول ابن إسحاق: وكان من أنعم الله عليه أنه كان في حِجْر رسول

الله ﷺ قبل الإسلام، وذلك أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ : «يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً، فنكفيهما عنه» قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه عليّ وآمن به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم، واستغنى عنه.

وفي حديث عفيف الكندي أخي الأشعث بن قيس لأمه، وابن عمه أنه قال: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن، يشتري العطر ويبيعه أيام الموسم، فبينا أنا عند العباس بمنى فأتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأت، ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، فقلت: ويحك يا عباس، ما هذا الدين؟! قال: هذا دين محمد بن عبدالله، ابن أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي عليّ بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه، فقال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام: يا ليتني كنت رابعاً.

زيد بن حارثة الحِبّ كان ثالث ثلاثة في السبق إلى الإسلام

ثم كان ثالث أسبق السابقين إلى ساحة الهداية حِبّ رسول الله ﷺ ومولاه زيد بن حارثة الذي أفرده الله بأشرف الشرف، فذكره في القرآن الكريم باسمه، ممتناً عليه بإنعامه عليه بنعمة التوفيق إلى الإيمان في طليعة أسبق السابقين، وممتناً عليه بإنعام رسوله ﷺ بالحرية والولاية ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ﴾ قال ابن عبد البر: روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أحب الناس إليّ من أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه».

وزيد الحب من صميم العرب، وعُليا قبائلهم، وقد ذكر أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب نسبه من جهة أبيه عن ابن الكلبي وغيره في تفصيل وإسهاب حتى ألحقه بيعرب بن قحطان، وذكر نسبه من جهة أمه، وهي سعدى بنت ثعلبة من بني معن، وينتهي نسبها إلى طيء.

ثم روى أبو عمر عن ابن عباس وجميل بن يزيد الكلبي قال: خرجت سعدى بنت ثعلبة أم زيد بن حارثة ـ وهي امرأة من طيء ـ تزور قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القَيْن بن جسر في الجاهلية، فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد، فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلام يفعة فوافَوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له.

وقد حزن عليه أبوه وقومه حزناً جعلهم يضربون في الأرض بحثاً عنه، وكان ينشد في التفجع عليه الشعر، يبكي به غيبته التي لا يعرف لها نهاية، ولا يعرف لابنه فيها مستقراً أو مقاماً.

وقد روى أبو عمر وغيره من أشهر شعر التفجع عليه قوله:

بكيتُ على زيد ولم أدرِ ما فعل ... أحيٌّ يرجَّى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإن كنت سائلاً ... أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعري هل لك الدهر رجعة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
تـذكـرنيه الشمس عند طلوعهـا ... وتعرض ذكراه إذا قارب الطَّفَل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكـره ... فيا طول ما حزني عليه ويا وجل
سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حيـاتي أو تـأتي علـيَّ منـيـتي ... وكل امرىء فانٍ وإن غرّه الأمل
سـأوصي به قيسـاً وعمراً كليهـما ... وأوصي يزيد ثـمَّ من بعده جبل

وهذه الأسماء في البيت الأخير أسماء إخوة لزيد رضي الله عنه، قال ابن حجر في الإصابة: يعني بقيس وعمرو أخويه، وبيزيد أخا زيد لأمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل، وبجبل ولده الأكبر، وهو أيضاً أخو زيد

كما صرح به الحافظ ابن عبد البر في قوله: يعني جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر منه.

ولما حضر موسم الحج قدم ناس من قومه من كلب حجاجاً فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، فأراد أن يكفكف دموع أبيه وقومه ويخفف من لهفتهم عليه ببعث الطمأنينة إلى قلوبهم، وإعلامهم بحياته وسلامته وسعادته حيث يقيم في أرغد مقام، فقال للقوم الذين عرفوه وعرفهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليّ، فقال:

أحنُّ إلى قومي وإن كنت نائباً ... فإني قطين البيت عند المشاعر
فكفُّوا من الوجه الذي قد شجاكم ... ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة ... كرام معدٍّ كابراً عن كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه، وعند من هو، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ابنا شراحيل لفدائه، وقدما مكة فسألا عن النبي ﷺ، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكُّون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لك، قال النبي ﷺ «من هو؟» قالا: زيد بن حارثة، فقال ﷺ لهما: «أوَغَيْرَ ذلك» قالا: ما هو؟ قال ﷺ: «أدعوه فأخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً» قالا: أحسنت وزدتنا على النَّصَف، فدعاه النبي ﷺ فقال له: «هل تعرف هؤلاء؟» قال زيد: نعم، هذا أبي، وهذا عمي، قال النبي ﷺ: «فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما» قال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم، فقال أبوه حارثة وعمه كعب: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال زيد: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحجر فقال: «يا مَنْ حضر، اشهدوا أن زيداً ابني، يرثني وأرثه»

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما، فانصرفا، ودعي زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فنزلت (ادعوهم لآبائهم)، فدعي يومئذ زيد بن حارثة.

قال أبو عمر بن عبد البر: وذكر معمر في جامعه عن الزهري قال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة، وقال عبد الرزاق: وما أعلم أحداً ذكره غير الزهري، قال أبو عمر: وقد روي عن الزهري من وجوه أن أول من أسلم خديجة، وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة يَرِدُ على قول عبد الرزاق دعواه أن القول بعدم سبق أحد إلى الإسلام زيد بن حارثة لم يعلم أن أحداً ذكره غير الزهري: قلت: قد ذكره الواقدي بإسناد له عن سليمان ابن يسار، جازماً بذلك، وقاله زائدة أيضاً.

وعن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لزيد ابن حارثة: «يا زيد أنت مولاي، ومنِّي وإليَّ، وأحب الناس إليّ» أخرجه ابن سعد بإسناد حسن.

* * *

سبق أولاده ﷺ إلى الإسلام لا يحتاج إلى نص

ولم يذكر العلماء في هذا الصدد أسبقية أولاده الأطهار ﷺ إلى الإيمان برسالته والتصديق بدعوته، لأن أبناءه الذكور: القاسم، وعبدالله الملقَّب بالطيب والطاهر، وإبراهيم ابنه ﷺ من السيدة مارية بنت شمعون المصرية ـ ماتوا جميعاً في سن الطفولة.

وأما بناته ﷺ الطاهرات عليهنّ السلام: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن، وكنّ مع أمهن سيـدة نساء العالمين السيدة خديجة في طليعة أسبق السابقين والسابقات إلى ساحة الإيمان به ﷺ نبياً ورسولاً.

قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم يذكر بناته ﷺ ـ أي في السابقين ـ لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بهديه وسيرته.

وقد روى ابن إسحاق عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته، وفي رواية عنها قالت: أسلمت

رقية حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت حين بايع النساء، وأسلمت أم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن.

أما فاطمة رضي الله عنها فقد ولدت في أصح الروايات بعد البعثة بقليل، ونشأت على الإسلام وأتقى التقى، قال الزرقاني: والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهن إلى الإسلام، لأنه معلوم، وهو يقصد بهذا إلى أن ذلك نتيجة لازمة لزوماً قطعياً لنشأتهن بين أحضان أصدق وأكرم أبوة، وأفضل وأحنى أمومة، يأخذن عن أبيهن أكرم المكارم، وعن أمهن حصائل العقل الذي لا يوزن به عقل امرأة في السابقين ولا في اللاحقين.

فهنّ عليهن السلام في قَرَن مع أمهن السيدة خديجة، ينظمهن معها عِقْد أسبق السابقين والسابقات إلى الإسلام، والتصديق برسالة أبيهن سيد الخلق ﷺ، الذي كان أباً قبل أن يكون رسولاً، وقد كانت مكارم أخلاقه، وعظيم شهرته بها ورفيع صفاته التي تميز بها عن سائر بيئته وقومه بين أيديهن، يرينها رأي البصر والبصيرة، ويسمعنَ أحاديث الناس عنها، والولد على نهج أبيه وأمه ينشأ.

ولعل عدم ذكرهن عليهن السلام في السبق إلى الإسلام كان أثراً من آثار الجو العام للبيئة التي بزغت فيها شمس الإسلام ورسالته، فقد كُنَّ إذ ذاك في سن لا تعتد بها تلك البيئة في مواقف الإناث من كبريات الأحداث، إلى جانب موضعهن من أبوة رسول الله ﷺ، مما تقضي معه البداهة ألَّا يقفنَ موقفاً قصياً عن مطالع الإيمان ومشارق الرسالة، والتصديق بالدعوة التي ملأ نورها خدورهن، وساحات حركاتهن حول أمهنّ التي كانت وزيرة صدق لأبيهن ﷺ في مؤازرته على رسالته التي بعثه الله بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

أما ما حفَّ بأمهن من العناية الفائقة في ذكرها طليعة للسابقين والسابقات إلى الإسلام قاطبة فنظراً لما كان لها من المكانة الاجتماعية في قومها، فقد كانت منذ الجاهلية قبل أن تتشرف بزواج رسول الله ﷺ معروفة بالفضل والنبل ورفعة الشرف، وحسن الأحدوثة، ونظراً لما كان لها من الآثار

الحميدة الباهرة التي انفردت بها في مطلع شمس الرسالة، من شدها أزر رسول الله ﷺ والوقوف إلى جانبه في عزيمة فاقت في قوتها وصلابتها عزائم أبطال الرجال، فقد كانت رضي الله عنها تخفف عنه ﷺ شدائد التبليغ، وتهوِّن عليه فدائح ما يلقى في سبيل دعوته، وتزيده تثبيتاً على أمره مما جعلها دعامة من أقوى مساند الرسالة وانتشارها.

أبوبكر الصديق أول البشر إسلام دعوة وتبليغ

ثم آمن أول مدعو إلى الإسلام، فحلُ الملّة، وإمام الأمة، سيد المسلمين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين، الصدِّيق الأعظم، ثاني أول اثنين في أعظم منازل الفداء، وأجلّ مصادق الإيمان، من وسمه الله تعالى بأشرف الألقاب، قرآناً يتعبد به ويتلى إلى يوم القيامة، فجعله الصاحب الأخص بإضافة التكريم في الامتنان الأعظم على الحبيب الأكرم، يعرض تهييج الأمة على الكفاح المؤزر الذي ينتظرها بعد محنة أفظع مؤامرة في أخس وأدنأ خطة كافرة حاقدة، حيث بدأت الهجرة، وتبسَّمت التضحية في وجه الموت، بين فكَّي المنية في غار ثور، فداء للحبيب المحبوب، عنوان الحقيقة الكبرى، ونور الهداية العظمى، وشمس الرسالة الخاتمة، ومهبط أمين أمناء الوحي من الملأ الأعلى، ومجلى الروحانية العليا محمد رسول الله ﷺ: ﴿ إلاّ تنصروه فقد نصره الله؛ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا ﴾[1].

يقول الإمام الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر.

لله أنت يا صدِّيق رسول الله ﷺ: من مثلك في المؤمنين أتباع الأنبياء منذ نبأ الله آدم أبا البشر إلى أن أبرزك الله من ذريته أخص صاحب لأخص حبيب له عزّ وجلّ، محمد عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه؟ حسبك من شرف وفضل أن الله تعالى نظمك في سلك المعية الخاصة، بعد أن آنسك برشح من غيث شهود الحبيب، حيث رفعت حجب البشرية، وانطلق لسان الروحانية العليا يخاطبك من أفق الملأ الأعلى، ليلقي في قلبك وروحك باسم

(١) سورة التوبة آية (٤٠).

اليقين، وقد اهتزت منك مشاعر الإشفاق على نور الحياة أن تصيب شمسه عاصفة من عواصف الجحود الأصم الأعمى، فينطفىء شعاعها، ويسود الظلام آفاق الوجود.

وأحسّ ذلك منك سيد الوجود وهو مغمور بأنوار الشهود، وحيث كانت روحه تسبح في بحار التقديس مع أعلياء الملأ الأعلى، فألقى إليك درة من لآلىء شهوده ليثبتك على دعائم ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ فقال لك إذ قلت معبِّراً عن إشفاقك ما قلت: (لا تحزن إن الله معنا) فتنزلت عليك السكينة، وتجلت لك لوحة بسطورها اللوامع من وراء حجب الإشفاق، فقرأت وعرفت أنه ﷺ وإياك في رحلة عقد لواءها النصر المؤزر، وأيد الله رسوله بجنود من عوالم الغيب، لا تقع تحت طائلة رؤية العيون والأبصار، ولا تحتويها إلا بصائر المصطَفَين من الصدِّيقين.

روى الطبراني: أن علياً رضي الله عنه كان يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء صدِّيقاً، قال علماؤنا من السلف والخلف: وهذا حكمه الرفع إلى رسول الله ﷺ إذ لا مدخل للرأي والاستنباط في مثله.

* * *

طريقة للتوفيق بين القول بأسبقية إسلام أبي بكر والقول بأسبقية إسلام خديجة ومن أظلهم سقف بيتها

والقول بأسبقية السيدة خديجة وبناتها من سيدنا رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وأسبقية علي رضي الله عنه، وزيد بن حارثة، من كل من كان يظلهم سقف بيت رسول الله ﷺ في رعاية الزوجية، والأبوة، وحضانة التربية والولاء ـ لا يعارض قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومن جاء بعدهم من الأئمة بأسبقية الصديق أبي بكر رضي الله عنه جميع البشر إلى ساحة الإيمان برسول الله ﷺ، والتصديق برسالته، لأن إسلام أسرة رسول الله ﷺ: زوجه وبناته، وربيب رعايته وتربيته ابن عمه، ومولاه وحبه ـ كان إسلام الفطرة النقية الطاهرة، التي ولدت في مهد الإيمان، ونشأت بين أحضان النبوة، حيث شاهدت أكرم مكارم الأخلاق، ورأت معالم النبوة وآياتها الإرهاصية، تتجلى في حياة النبي ﷺ قبل نزولها، ثم رأت معالم الوحي، وسمعت آيات الله تتلى في بيتهم، والحكمة تتنزل

بينهم، وشهدت النبي ﷺ وهو الزوج الحبيب الأكرم، والأب الودود المحب الحبيب، والحاضن المربي الشفيق، والمولى الرحيم الرفيق، والمعلم المهذب المؤدب، والمشرِّع السمح الحكيم، والرسول المصداق الأمين، ينزل عليه الوحي بآيات الرسالة وشرائعها وأحكامها وآدابها، فإذا هو ﷺ صورة حية متحركة لهذه الآيات والشرائع والأحكام والآداب، فيأخذون عنه خلقه وعمله مشاهدة ومحاكاة، ويسمعون منه ما يأمر به ويرغب فيه من الخير وما ينهى عنه وينفِّر من مقاربته من الشر، فيتشربون من يقينه وإيمانه وحكمته وآدابه وشرائعه ما تطيق قلوبهم وأرواحهم حمله، وتترسم عقولهم ما تستطيع إدراكه من مشاهد النبوة والوحي، وإشراق الرسالة، وينهضون إلى القيام بجوارحهم أداء لما يطلب من الجوارح.

فسبق هؤلاء الغرِّ الميامين إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والتصديق برسالة النبي ﷺ فطري طبيعي، تقتضيه الفطرة النقية، والطبيعة الناهدة بين أحضان الخير والهدى، لأن في ذلك تحقيقاً لما يشهدونه في واقع حياة الأب والزوج والمربي، والرسول الصادق المصدق من أدب وخلق وعمل، ليصنعوا منه صورة أنفسهم وعقولهم وقلوبهم وأرواحهم ومشاعرهم وإحساساتهم تحبباً إليه، واستجابة له، وإيناساً لخوالجه، وتقرباً إلى الله تعالى.

وهذا هو أصدق ضروب الإيمان، فهو إيمان استجابة لدوافع الفطرة المطهَّرة التي لا تدفع، وهو إيمان ينبع من الامتزاج بحياة قام بنيانها على الإخلاص المؤمن بكل حركة يشهدونها من النبي ﷺ، لم يكن إيماناً عن دعوة تبليغية منه ﷺ لأسرته ومجتمع بيته وأهله لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى دعوة وتبليغ، ضرورة تكيّفهم بكل ما يرون ويسمعون في هذا البيت الكريم، وضرورة تقبلهم لكل ما يشهدون من الخير تقبل الفطرة النقية، وطبيعة النشأة الحاكية وتصديق الإيمان والإسلام.

ولم نَرَ في روايات الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته رواية تذكر أن النبي ﷺ دعا أهله وأفراد أسرته الخاصة المقيمين معه في ظل رعايته وتربيته ببيته تبليغاً لرسالته إليهم، لأنهم كانوا مدعوين بالفطرة والتربية، فأجابوا

بهذه الفطرة، وهذه التربية، وسبقوا إلى الإيمان والإسلام.

أما ما ورد في بعض الروايات من دعوة لعليّ رضي الله عنه إلى الإسلام، وتوقفه بعض الشيء، ثم أسرع إلى الإجابة وسبق إلى الإيمان في طليعة السابقين فلم تثبت لنا صحته، ولو فرضناه صحيحاً فهو من قبيل التثبيت والمساندة، لأن وجود عليّ رضي الله عنه في أحضان تربية النبي ﷺ مع أسرته في بيته وهو صبي كان لأمر خاص، قصد به إسعاد أبي طالب ومعاونته ـ وكان كثير العيال ـ في التخفيف عنه من عبء الأزمة المعاشية التي نزلت بقريش، ولم يكن هذا الوجود ليبعد علياً عن أبيه وإخوته وعمومته، وهم على شركهم إذ ذاك مقيمون، فكان رضي الله عنه في حاجة إلى التثبيت والمساندة بالدعوة والتبليغ.

أما إسلام أبي بكر رضي الله عنه فكان إسلام أول رجل حرّ مكلف، مدعو إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والتصديق برسالته، وكان إسلامه إسلام أول رجل حر مكلف بلَّغه النبي ﷺ رسالة ربه، فهو إسلام استجابة لدعوة النبي ﷺ وتبليغه رسالته. فأبو بكر رضي الله عنه كان أول مبلَّغ بالرسالة، وأول مدعو إلى الإسلام، فأسرع إلى تصديق النبي ﷺ دون تلبث أو تردد، وفي ذلك يقول النبي ﷺ كما ذكره ابن إسحاق: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر، ماعكم ـ تلبث ـ عنه حين ذكرته له» ومن ثم ألبسه الله تعالى خلعة الصدِّيقية، فلقب بالصدِّيق.

فأبو بكر رضي الله عنه آمن بالله ورسوله وصدق برسالة ربه لحظة أن دعي إلى الإسلام دون سؤال أو توقف أو حاجة إلى نظر، فكان أول البشر مدعواً إلى الإيمان، وكان أول الناس استجابة إلى الإسلام، لم يسبقه إليه أحد قط، دعي وبلغ واستجاب كما دعي هو وبلغ فأجاب، وسبق، وكان ثاني اثنين في الدعوة إلى الله ورسوله، كما كان ثاني اثنين في الهجرة إلى الله مع رسوله.

وبهذا الطريق في فهم الروايات والأوضاع يصح قول جمهور المسلمين:

إن أبا بكر الصديق كان أول الناس إسلاماً.

وقد ثبت في بعض الروايات أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سمع من ورقة بن نوفل ما سمعته خديجة رضي الله عنها من تبشير النبي ﷺ بأنه نبي هذه الأمة، وأن الله أرسله هادياً ومبشراً ونذيـراً، وأنه هو الذي بشر به عيسى بن مريم، وأنه على مثل ناموس موسى.

وفي بعض هذه الروايات تصريح بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ إلى ورقة في مشرق رسالته قبل أن يعرف عنها أحد من الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ شيئاً، سوى خديجة رضي الله عنها التي كانت تعرف كل شيء في مطلع إبانه وأول لحظات وجوده، بإحساساتها وتطلعاتها وتوسمها المتفرس، وكانت إنباءات النبي ﷺ بما يقع له من الأحـداث والآيات والعجائب والإرهاصات تجيء مؤكدة لحدسها وتفرسها، وزادها تأكيداً في يقينها بما كانت تتوقعه ما سمعته من ورقة بن نوفل عقيب مفاجأة الغار، ساعة عاد إليها رسول الله ﷺ ترجف بوادره من هول ما رأى وسمع، ومن شدة ما كان وتحمل، في أول لقاء يقظي لقيه فيه جبريل عليه السلام، وأوحى إليه من أمر ربه ما أوحى، وأقرأه أول ما أنزله الله عليه من كتابه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فأخبرها وقص عليها ما رأى وسمع، وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة، وحدَّثته بما حدثها به رسول الله ﷺ، فسمعت من ورقة ما صدَّق تفرسها، وأقرَّ عينها، وأكد توسمها وتطلعها في مستقبل محمد ﷺ ونبوته ورسالته، مسندة له بما تعلمه يقيناً صادقـاً من اتصافه ﷺ بأكرم مكارم الأخلاق التي لا يخزي الله صاحبها.

قال صاحب (عيون الأثر): وفي رواية يونس عن ابن إسحاق بسنده إلى أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر» قالت: معاذ الله: ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثَمَّ ذكرت خديجة له، فقالت:

يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال النبي ﷺ: «ومن أخبرك؟» قال: خديجة، فانطلقا إليه، وقصا عليه، فقال النبي ﷺ: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء من خلفي يا محمد، يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض» فقال له ورقة: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم اِئتني وأخبرني، فلما خــلا رسول الله ﷺ وحده ناداه يا محمد، يا محمد، قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. حتى بلغ: ولا الضالين، قل: لا إله إلا الله، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال ورقة: اثبت، وأبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشَّر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، فإنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

فلما توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنة، وعليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدَّقني».

ففي هذه الرواية تصريح يصدقه التاريخ بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أصفى الأصفياء لمحمد ﷺ، وكان ألصق الناس به قبل مبعثه، وأقواهم مودة، وأعظمهم صداقة، وأكثرهم له خلطة، وأشدهم امتزاجاً بروحه وعقله، وألزمهم عشرة، حتى كأنه أحد الأخصَّاء في أهله، يعلم من أمره وحاله ما لم يعلمه من لم يؤهله حياء الأدب - في ظل الرعاية والتربية وهيبة الأبوة، سناً وتجربة وتأثراً بسنن البيئة والمجتمع بما يكون بين الأكابر والأصاغر - لعلم مثله قبل أن يظهر ويتحدث به، وأن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت على أكمل المعرفة بما بين محمد ﷺ وأبي بكر من صفاء المودة، وامتزاج الإخاء والصداقة، مما يجعل أبا بكر أعلم الناس بأمره ﷺ، وأن لا حرج عندها من إخباره بما حدثها به النبي ﷺ مما وقع له، وأن تطلب منه أن يصحبه إلى ورقة ليسمع منه ما يقول، تأكيداً لفراستها وتوسماتها، وزيادة في تثبيت النبي ﷺ وتخفيف ما يجول في خواطره.

فلما حدثها رسول الله ﷺ بما حدث له من سماع النداء باسمه، دون

أن يرى من يهتف به ويناديه، وإشفاقه من ذلك؛ أرادت أن تزيح عن كاهله عبء ما علق بنفسه من القلق والخشية، وتزيده تثبيتاً فوق ما كانت تثبته به وتؤنسه لتفرج عنه ماألـمَّ بنفسه من أثر مفاجأته بأمور غريبة لا عهد له بمثلها.

وكانت خديجة رضي الله عنها قد زارت ابن عمها ورقة بن نوفل أول مرة بعد إذ فاجأها النبي ﷺ ترجف بوادره، وأخبرها بما حدث له في الغار، وحدَّثت ورقة بما حدثها به رسول الله ﷺ، وسمعت عنه بشارته لرسول الله ﷺ بأنه نبي مرسل.

وكان رسول الله ﷺ قائماً على تعبده في غار حراء، فلما وقع له ما وقع لم يقطع جواره وتعبده، بل ظل على ما كان عليه، مما يدل دلالة قاطعة على أن ما وقع في نفسه من الخشية، لم يكن قط خشية تمس مداركه أو شعوره، وذهب إلى خلائه، وقضى ما كان يقضيه من التعبد، وإطعام المساكين، متفكراً في آيات الله وآلائه، وعاد إلى أهله بعد أن سمع النداء باسمه، دون أن يرى من يناديه، وأخبر أهله جرياً على حميد عادته معهم في الأنس بهم، والإفضاء إليهم بما يحدث من أمره، فآنسته بما كانت تؤنسه به من حفاوة الله تعالى به، وما خصه به من مكارم الأخلاق وحميد الشمائل.

وكان أبو بكر رضي الله عنه دائم التنسم لعَرْف رسول الله ﷺ في تلمس لقائه، وكثرة التردد عليه في بيته، ليلقاه ويزود روحه وعقله بمشهده، ومطالعة مكارم أخلاقه. وجاء أبو بكر رضي الله عنه إلى بيت رسول الله ﷺ جرياً على سنته، وكان رسول الله ﷺ ساعة مجيء الصديق غير موجود في البيت، فقالت خديجة رضي الله عنها لأبي بكر: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما جاء رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال له: انطلق بنا إلى ورقة، ويظهر أن سيدنا رسول الله ﷺ كان حريصاً على أن يبقي ما أفضى به إلى زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها سراً لا يطَّلع عليه أحد، مهما تكن خصيصته به، حتى تنجلي شمسه، ولعله من هنا كان سؤاله للصدِّيق سؤالا لا يخلو من استغراب وعدم توقع، فقال له: (من أخبرك؟) كأنه ﷺ خشي تفلُّت الحديث وتسربه، لكن الصديق أخبره،

فقال: أخبرتني خديجة، فاطمأن النبي ﷺ، وتيقَّن أن الأمر لم يخرج عن دائرة أصفى الأصفياء وأخص الأصدقاء.

ولو لم تكن خديجة رضي الله عنها تعلم علم اليقين منتهى الرضا من نفس رسول الله ﷺ ما أخبرت الصدِّيق، ولا طلبت إليه أن يذهب مع رسول الله ﷺ إلى ورقة ليزداد بسماع كلامه وتبشيره باصطفاء الله له نبياً ورسولاً تثبيتاً في أمره، ويقيناً في حاله، ويذهب عن نفسه ما يجد من قلق وخشية.

ولا شك أن هذا يدل على كمال الأنس وأصفى صفاء المودة، وأخلص الصداقة بين النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، بدليل أن النبي ﷺ لم يبد عليه أدنى مظهر من مظاهر الإنكار وعدم الرضا لتعريف الصديق بأمر من أخصِّ أحواله، لم يفض لأحد قط سوى زوجه ومأنسه ووزيرة الصدق له في تحمل أعباء الرسالة، بل استجاب إلى طلب الصديق ومرافقته إلى ورقة بعد أن علم أن خديجة هي التي أخبرت أبا بكر بما حدث، فبشره ورقة وفرّج عنه، وازداد بكلامه تثبيتاً،وآمن به وصدق برسالته، وتمنى لو أنه أدرك الجهاد معه لينصره نصراً مؤزراً.

ومن ثم وقر الإيمان في قلب أبي بكر رضي الله عنه كما وقر في قلب الصديقة خديجة رضي الله عنها، فكانا أول لؤلؤتين في عقد دراري السابقين إلى الإسلام، وكانا أسبق السابقين إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وتصديقه فيما جاء به عن الله تعالى دون أدنى تردد أو توقف.

وقد كان لخديجة رضي الله عنها في مطالع إيمانها مشرق الرسالة سوابق لم تكن لأبي بكر رضي الله عنه ولا لغيره قط، وكانت لأبي بكر رضي الله عنه في مدى حياته الإيمانية، منذ دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام أول مدعو إليه، فأجاب دون تلبث إلى أن ردّ رسن الإسلام إلى غاربه في جهاد الردّة ـ سوابق لم تكن قط لأحد غيره من أتباع النبيين والمرسلين.

فلكل من السابقَيْن فضله الذي ينفرد بشرفه فلا يلحقه فيه لاحق.

وقد سبق أن ذكرنا أن العلاَّمة الحافظ الإمام ابن حجر العسقلاني استنبط من حديث أبي ميسرة أن خديجة رضي الله عنها أول الآدميين إيماناً برسول الله ﷺ، وأن هذا الحديث أصرح نص في ذلك.

وهذا الحديث نفسه الذي استنبط منه الحافظ العلامة هذا الحكم يحمل في غضون قصته كما عرضناه وأوضحنا معالمها دلائل أولية سبق الصديق أبي بكر رضي الله عنه إلى الإسلام بسيدنا رسول الله ﷺ والتصديق برسالته أوليَّة، لا نقول فيها أنه سبق فيها خديجة رضي الله عنها، ولكنها أوليَّة يحل عقدتها في مسابقته لها أنها أولية تشبه أولية المتكافئين في الشوط اللذين وصلا فيه إلى الغاية قَرنًا واحداً، أو أولية تشبه أولية المتكافئين في مسابقة امتحانية من التي يعبِّر عنها الفنيون في نظم المسابقات بأنها تكافؤ (مكرر) لم يسبق فيه أحد المتسابقين صاحبه، ولكنهما تساويا في درجات التقدم.

وهذه الأولية المتكافئة (المكررة) لا تخضع لحكم فواصل لحظات الزمن لتقارب لحظات التقدم أو التأخر إلا كما يخضع أثر يقين الفطرة الملازمة اللاقطة في مرآتها صور جزئيات الوقائع والأحداث ممثلة في إسلام خديجة الزوجة البرة الوفية الأمينة، وأثر يقين العقل الغوّاص في أعماق النفس والأحداث ممثلاً في إسلام أبي بكر وسرعة استجابته لدعوة النبي ﷺ أول من دعا لحظة التبليغ، لعلمه بموجبات الصدق عند رسول الله ﷺ.

يقول الزرقاني في شرح المواهب: ووقوع إسلام الصديق عقب إسلام خديجة، لأنه كان يتوقع ظهور نبوته عليه السلام، لما سمعه من ورقة، وكان ـ أي أبو بكر ـ يوماً عند حكيم بن حزام، إذ جاءت مولاة (جارية) له فقالت: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل، مثل موسى، فانسل أبو بكر حتى أتى النبي ﷺ، فأسلم.

وقول الزرقاني: أنه كان يتوقع ظهور نبوته عليه السلام لما سمعه من ورقة يدل على ما ذكرناه من مشاركة أبي بكر السيدة خديجة رضي الله عنهما في إشراق نور الإيمان في قلبهما لما سمعاه من ورقة.

فالسيدة خديجة رضي الله عنها كانت الزوجة الوفية الأمينة التي رزقها الله عقلاً لمَّاحاً، وفطنة صافية زاكية، لم يعرف تاريخ الإنسانية لها نداً في صدق وفائها وأمانة سرها، واستشراف عقلها إلى مطالعة أعماق النفوس البشرية، وعرفانها بآثار الفضائل والمكارم في صياغة الحياة الفردية والاجتماعية وموافقات تطلعاتها المتوسمة، وتفرساتها الألمعية.

كانت للنبي ﷺ وزيرة صدق، ومأنس تثبيت، وموئل تهوين للشدائد وتوهين للمصاعب، فلم يكن رسول الله ﷺ يسمع شيئاً يكرهه إلا فرَّج الله بها عنه، وزاده تثبيتاً ويقيناً في أمره، وقوة في احتماله وصبره.

وأبو بكر رضي الله عنه هو الصاحب الوفي، والصديق الأمين، والمؤمن القوي، لم يعرف التاريخ له نظيراً في قوة إيمانه، وشدة دفاعه عن رسول الله ﷺ، وتفديته بروحه وبذله نفسه وماله في سبيل عقيدته وإسلامه، عرف الحق فلم يستطع كتمانه، فكان أول من جهر به على سمع الملأ من طغاة الوثنية وأنضاء الشرك، فأوذي بكل ألوان الإيذاء حتى شارف الهلاك، فلم يصده ذلك عن قيامه مقامات الصدق، ولا وهن من عزيمته في ملازمته رسول الله ﷺ فهو أول في جميع أوليات الإسلام، وهو أسبق السابقين في سائر سوابق الإسلام.

وقد جاء على لسان رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ـ الثناء على أبي بكر رضي الله عنه بأقرب ما أثنى به ﷺ على السيدة خديجة في موقفين متماثلين، روى الطبراني أن النبي ﷺ قال للسيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت له في معرض ذكره ﷺ للسيدة خديجة ووفائه لذكراها بعد وفاتها: قد رزقك الله خيراً منها ـ تعني نفسها ـ «لا والله ما رزقني خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس».

ويروي هذا الحافظ ابن حجر بأتم من ذلك في (الإصابة)، وأخرجه أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) وعنه أسند الحافظ، قال أبو عمر بن عبد البر: وروي عن علي بن المديني، قال: أخبرني حماد بن أسامة عن مجالد،

عن عامر الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ذكر رسول الله ﷺ خديجة ذات يوم، فتناولتها، فقلت: عجوز، كذا، وكذا، قد أبدلك الله خيراً منها، قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني ولد غيرها» فقلت: والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم.

وفي رواية أخرى بسند آخر عن الشعبي عن مسروق أيضاً عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة رضي الله عنها، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغَيْرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً، فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب ـ ﷺ ـ حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء» قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً.

وفي حديث مغاضبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند البخاري في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟؟» وأخرج الطبراني وغيره أن النبي ﷺ قال: «ما أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر، واساني بنفسه وماله».

فهذه الأحاديث الشريفة تضع أمام أنظار الباحثين في حلبة التسابق الإيماني أساس التكافؤ في ميدان السبق على الإسلام بين أسبق سابِقَيْن، الصدِّيقَين، صدِّيق المؤمنين قاطبة وصدِّيقة المؤمنات طرًّا: أبي بكر وخديجة، رضي الله عنهما، ويبقى وراء ذلك التفرد المطلق العام والخاص لثاني اثنين إذ هما في الغار، غار ثور يوم الهجرة والنصر المؤزر والفداء الأغر الأكرم، الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه الذي اختاره الله أخص صاحب لنبيه ورسوله وحبيبه محمد ﷺ في أشد ما مرّ على الإسلام من شدائد المحن، وقد

نوّه النبي ﷺ بهذه الصحبة الخاصة، فذكرها بإضافة التكريم والتشريف والاختصاص فقال في حديث مغاضبة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: «فهل أنتم تاركو لي صاحبي» أخذاً من قول الله تعالى: ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾.

ولا شك أن الإضافة في الآية الكريمة، والحديث الشريف إضافة تخصيص تدلّ على منزلة من الصحبة أجلّ وأرفع من مطلق الصحبة العامة الثابتة بفضلها وشرفها لسائر الصحابة رضي الله عنهم.

فإسلام أبي بكر رضي الله عنه كان إسلام العقل العليم بدلائل الصدق، الموقن بموجبات الحق، الذي أسرع مجيباً داعي الله لحظة أدت أذُنه إلى عقله وقلبه وروحه نداء التبليغ والدعوة إلى الإيمان بالله عزّ وجل وتصديق رسوله ﷺ.

وإسلام أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها كان إسلام الفطرة النقية الصافية الزاكية المتطلعة إلى المستقبل في توسُّم الفراسة النورانية الصادقة، إلى موجبات الوقائع والأحداث وإرهاصات الآيات والدلائل المتعاقبة طوال حياة الزوج الحبيب، المفضي بروحه وعقله وقلبه وإحساساته ومشاعره في سره وعلانيته إلى روحها وعقلها وقلبها وإحساساتها ومشاعرها، في ملازمة لازمة لا يند عنها حادث من أحداث حياتها، ولا تذهب من تأملاتها وتفكيرهما واقعة من وقائعها.

وهذا السباق الظافر الميمون، الذي لم تقم له حلبة مسابقة تقصد إلى غايتها القُرَّح من جيادها كان قدراً مقدوراً، جمع في شوطه رجلاً وامرأة ليتم به عنوان الدعوة في شموله جانبي الإنسانية بطرفيها، ذكر وأنثى، فالمرأة في الإسلام شريكة الرجل في تكاليفه وأحكامه وشرائعه وآدابه، وكلٌّ مُيَسَّر لما خلق له.

التحرك الإيجابي لسير الرسالة

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول ثمرة جنية في دوحة تبليغ الرسالة

كان إسلام الصديق أبي بكر رضي الله عنه أول تحرك إيجابي في سير الرسالة، وأول أثر عملي للدعوة التبليغية للإيمان بالله تعالى، وتصديق رسوله فيما جاء به من الحق والهدى، وأول ثمرة جنية ظهرت في دوحة تبليغ الرسالة.

فقد آمن الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه لحظة دُعي إلى الإيمان، لم يتلبث لينظر، ولم يتوقف ليفكر ويعزم، ولم يتردد ليستشير ويستهدي، لأن دلائل صدق النبي ﷺ كانت متوافرة لديه، وكامنة في حنايا نفسه، ممتزجة بحسه وشعوره، تملأ قلبه وعقله وروحه.

وهنا يتجلى للمتأمل في أحداث الرسالة فيصل ما بين إيمان الفطرة النقية الصافية، التي نهد الإيمان معها، ونهضت معه، وهي ترى وتسمع شواهد الأحداث، ونداء الوقائع، ودلائل الإرهاصات، قبل تنزل الرسالة، وبين إيمان العقل العليم الذي دُعي بين يدي براهين الصدق فاستجاب، وبُلِّغ الرسالة فأجاب، ونظر فما استراب.

فإيمان الفطرة الذي سبقت به خديجة رضي الله عنها ومن معها في ساحة بيتها اطمئنان إلى نور الحق يغمر النفس، ويشغلها في حدود طاقتها بموجبات الإيمان الناشىء في مهد الرسالة، انتظاراً لما ينجلي عنه أفق الدعوة بظهور شمس الهداية، وإشراق أضوائها التي تظهر بها معالم الطريق إلى الله.

وإيمان العقل العليم، الذي دعى إلى التصديق بالرسالة، وهو مغمور

بأنوار دلائل صدق الداعي، وهداية الدعوة فلبى وأجاب، والذي بُلِّغ بالرسالة وهو يشهد بشائرها فاستجاب ـ إيقان بالحق الذي دعي إلى الإيمان به، وتحمل مسؤوليته في الدعوة إليه، وتبليغ رسالته.

ومن هنا قال الأجلَّاء من سلف الأمة وخلفها: إن أول الناس إسلاماً أبو بكر الصديق، وهم يعنون إيمان الدعاء إلى الله عزّ وجلّ، وتبليغ الرسالة، وتحمل مسؤولية النيابة والوراثة في هذا الدعاء والتبليغ، لتسير الرسالة في طريقها قوية متحركة مع الزمن حركة إيجابية، تجذب القلوب والعقول إلى ساحة الإيمان بالله والتصديق برسالة محمد ﷺ، وهكذا كان إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو منذ أجاب إلى الإسلام أقام نفسه داعياً إلى الله، يبلغ دعوة رسول الله ﷺ، متحملاً مسؤولية النيابة والوراثة في الدعوة والتبليغ.

وخصيصة أبي بكر رضي الله عنه في ذلك أنه كان أول من تحمَّل هذه المسؤولية، لأنه كان أول مؤمن يطيق حملها والقيام بأعبائها باعتباره الشخصية الوحيدة التي كانت بعرض التكليف بهذا التحمل إذ ذاك.

أما خديجة رضي الله عنها فمكانها من رسول الله ﷺ، وطبيعتها الأنثوية، ووضعها الاجتماعي في بيئاتها ومجتمعها لا تجعل لها سبيلاً إلى تحمل المسؤولية التكليفية في الدعوة والتبليغ، وأما عليّ رضي الله عنه فسنه يوم أن أسلم لا تؤهله لتحمل هذه المسؤولية لأنه أسلم وهو دون البلوغ، ومكان زيد بن حارثة من ولاية رسول الله ﷺ الخاصة أحرى أن لا تؤهله لتحمل مسؤولية التكليف بالدعوة والتبليغ يوم أن أسلم.

حديث عمرو ابن عبسة وتأويله بما لا يتنافى مع الواقع التاريخي

ولعل هذا هو تأويل حديث عمرو بن عبسة الذي أخرجه مسلم في صحيحه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ، قلت: يا رسول الله، من اتَّبعك على هذا الأمر؟ قال «اتبعني عليه رجلان، حر، وعبد، أبو بكر، وبلال» قال عمرو بن عبسة: فأسلمت عند ذلك، فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام.

قال علماؤنا: ولم يذكر علياً لصغره، ونقول: ولم يذكر خديجة وزيداً لما

بَيَّناه، ولعل هذا أيضاً هو تأويل ما ذكره البيهقي في الدلائل عن محمد ابن كعب القرظي، قال: إن أول من أسلم من هذه الأمة خديجة بنت خويلد، وأول رجلين أسلما أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأن أبا بكر أول من أظهر الإسلام، وأن علياً كان يكتم الإسلام فرقاً من أبيه.

أول فرض الصلاة قبل الخمس وأول من صلى مع رسول الله ﷺ

ويذكر البيهقي في دلائل النبوة عن محمد بن إسحق قوله: وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدَّق بما جاء به، قال البيهقي: قال ابن إسحق: ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ حين افترضت الصلاة - أي على النبي ﷺ، كما جاء صريحاً في سيرة ابن هشام المأخوذة عن سيرة ابن إسحاق، حيث قال: تحت عنوان «ابتداء فرض الصلاة» وافترضت الصلاة عليه وحيث قال: قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين.

والمراد مطلق الصلاة قبل فرض الخمس ليلة الإسراء، فهمز بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت له عين من ماء مزن، فتوضأ جبريل ومحمد عليهما السلام، ثم صلى ركعتين، وسجد أربع سجدات ثم رجع النبي ﷺ قد أقر الله عينه وطابت نفسه، وجاءه ما يحب من الله فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها العين، فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سراً.

رواية في تصوير أولية إسلام عليّ رضي الله عنه

ثم إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء بعد ذلك بيوم فوجدهما يصليان فقال علي: ما هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، وإلى عبادته، وكفر باللات والعزّى، فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدِّث به أبا طالب، وكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا علي إذا لم تسلم فاكتم» فمكث عليٌّ تلك الليلة حتى جاءه، فقال: ما عرضت علي يا محمد؟ فقال

رسول الله ﷺ «تشهد أن لا إله إلا الله وحده، ولا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد» ففعل عليّ وأسلم، ومكث عليّ يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم علي إسلامه ولم يظهره، وأسلم ابن حارثة.

وهذه الرواية اختصرها ابن هشام في سيرته المهذبة لسيرة ابن إسحاق بما لا يخل بشيء من مقصودها.

الترتيب الواقعي بين طلائع السابقين

فهذا الحديث بهذا السياق بين الدلالة على أن خديجة رضي الله عنها كانت أول من آمن بالله ورسوله إطلاقاً، لم يسبقها إلى تصديق النبي ﷺ، وإلى الإيمان بما جاء به من عند الله سابق قط، بيد أنها كانت في ظل طبيعتها كامرأة عربية في قمة الشرف، تعيش في بيئة لها أعرافها وعوائدها الاجتماعية، وأخلاقها التقليدية الموروثة، في جو كانت الرسالة فيه لمّا تزل في مطلع أشعة شمسها، لم ينتشر نورها، ولم تتقو بأنصارها، مع ملاحظة وجوب تفرغها لخدمة رسول الله ﷺ وقيامها بحق الزوجة الأمينة الوفية نحوه ﷺ، وقيامها بواجبات تربية أولادها أداء لحق الأمومة، ومواساتها له ﷺ في كل ما كان ينوبه من أعباء رسالته، وتخفيفها عنه آثار ما كان يلقى من الأذى في سبيل دعوته ـ غير متاح لها فرص تحمل مسؤولية الدعوة، وتبليغ الدعوة تبليغاً تكليفياً، وبقي إسلامها حقيقة ملأت فراغ نفسها في حدود قيامها بواجباتها كأوفى زوجة، وأصدق معين ووزير.

وهذا الحديث بهذا السياق صريح الدلالة على أن علياً رضي الله عنه كان ثاني خديجة في السبق إلى الإسلام، وهو في سن لم تبلغ به مبلغ التكليف، وتحمُّل مسؤولية الدعوة إلى الله، والقيام بموجبات تبليغها، مما أحوجه إلى التوقف وعدم الإقدام على قبول ما دُعي إليه من توحيد الله تعالى والكفر بالأوثان، وأنه ليس على استعداد لأن يقضي في أمر غريب عليه وعلى حياته وحياة قومه وبيته، لم يسمع به من قبل وأنه لا بد له من مؤامرة أبيه وتحديثه بما رأى وسمع من محمد ـ ﷺ ـ وأن النبي ﷺ كره ذلك منه، وخشي أن يفشيَ سره، قبل أن يظهر أمره، وطلب منه إذ لم يسلم أن يكتم عليه ما رأى، وأن لا يتحدث بما طلبه منه من الإيمان بالله، والكفر بالأوثان،

فكتم عليّ ذلك، ولم يحدِّث أباه بشيء مما رأى أو سمع، ولكن علياً رضي الله عنه بات ليلته تصطرع في نفسه الأفكار والهواجس، حتى إذا أصبح جاء إلى النبي ﷺ، واستعاده ما عرض عليه من الإسلام، فأسلم مكانه، غير أنه مكث يلقى رسول الله ﷺ، يتلقى منه نور الهداية ومعالم الإيمان، وهو يكتم إسلامه على خوف من أبيه وقومه.

وهذا الحديث يدل بسياقه ومفهومه على أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحبه رضي الله عنه كان ثالث السابقين إلى الإسلام، غير أن إسلامه كان يقف به في دائرة ما يفرضه عليه وضعه الاجتماعي من قيود لا تسمح له بتحمل مسؤولية التكليف التبليغي والقيام بواجبات الدعوة إلى الإيمان، وهو في مكانه من هذا الوضع الاجتماعي، وما توجبه عليه ولاية رسول الله ﷺ من حقوق وواجبات نحو هذه الولاية التي كان يحفها الحب الودود.

نتيجة البحث في التوفيق بين روايات السُّبَّق إلى الإسلام

فإذا ضمَّت دلالات هذا الحديث، وما كان على نحوه من الروايات في الدلالات على سبق خديجة وعلي وزيد رضي الله عنهم إلى الإسلام، إلى روايات إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتحمُّلـه منذ اللحظة التي أجـاب فيها داعي الله وأسلم وجهـه إلى الله تعالى مسؤوليـة التكليف التبليغي، والقيام بموجبات الدعوة إلى الله تعالى، وتصديق رسوله فيما جاء به من الهدى من عند الله، وأنه كان أول من أظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، متحملاً في سبيل ذلك صنوف البلاء والأذى ـ ظهر جلياً وجه ما ذهبنا إليه في التوفيق بين روايات السبق إلى الإسلام، توفيقاً يضع كل سابق في موضعه من واقع الحياة مشرق الإسلام ومطلع الهداية، بما استوجبه موقعه يوم أن أسلم عملاً في طرفي السلب والإيجاب، ولكل سابق خوالده في تاريخ الإسلام.

انتهض الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه فور إيمانه إلى الدعوة يحمل لواءها في ظل رسول الله ﷺ مشمِّراً في تبليغها بعد أن أظهر إسلامه على الملأ، فدعا إليها أوائل السابقين ممن وثق بإجابته لمعرفته باستعداده لتقبل الهداية، وكان أبو بكر رضي الله عنه ـ كما يقول ابن إسحاق في سيرته ـ رجلاً مألفاً لقومه، محبباً سَهْلاً، وكان عليماً نسّابة، أنسب قريش لقريش،

وأعلمها بها، وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً موسراً، سري التجارة، كريماً ذا خُلق ومعروف ومآثر في قومه وبلده، وصنائع في منتجعه، لا يجهله مجتمع عربي يحل في ساحته، وكان رجال قومه يحفون به، يأتونه، يخطبون وده، يألفونه لغير واحد من الأمر، ويعظمونه لعلمه وتجاربه، وحسن مجالسته، وقد جعلت منه هذه الصفات النبيلة عضداً قوياً للنبي ﷺ في مطلع شمس الإسلام، وركناً شديداً، تأوي إليه الدعوة منحدرة من آفاق رسول الله ﷺ إلى كنفه، وجعلت منه صدِّيقاً وفياً أميناً، يرفد رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته، ورسول الله ﷺ يومئذ وحيد، مثقل الأعباء لا يحف به خارج بيته من رجالات قومه من يؤمن برسالته ويدفع عنها من يعوق سيرها، ولا من يقف معه ردءاً يُصَدِّقه، بل كان ﷺ فريداً في تحمل أمانة رسالته والدعوة إليها وتبليغها، فاختار الله له الصدِّيق أبا بكر أوفى صديق، وجعل منه بعد رسول الله ﷺ أعظم داعية إلى دعوة الحق ورسالة الإسلام، يبلغها تأسياً برسول الله ﷺ، وأخذاً منه، وتلقياً عنه، فجعل أبو بكر يدعو من يثق به من بيوتات قومه، فأجاب دعوته، واستجاب له في غير تردد أو توقف خمسة نفر، كانوا عُمُد الدعوة، وركائز تبليغ الرسالة:

أوائل الذين استجابوا إلى دعوة الإسلام على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنهم

(١) عثمان بن عفان الأموي العبشمي، قال الزرقاني في شرح المواهب: أخرج أبو سعد في الشرف عن عثمان رضي الله عنه قال: كنت بفناء الكعبة، فقيل: أنكح محمد عتبة بن أبي لهب ابنته رقية، فدخلني حسرة ألا أكون سبقت إليها، فانصرفت إلى منزلي، فوجدت خالتي سعدى بنت كريز، فأخبرتني أن الله أرسل محمداً، وحثتني على اتباعه، وكان لي مجلس من الصدِّيق، فأصبته فيه وحده، فسألني عن تفكري فأخبرته بما سمعت من خالتي، وحثَّها لي على الإسلام، فما كان بأسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه عليّ، يحمل له أثواباً، فقام أبو بكر فسارَّه، فقعد ﷺ، ثم أقبل عليّ، فقال: «أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه» قال عثمان: فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية.

(٢) طلحة بن عبيد الله التيمي من رهط أبي بكر الصديق، أخرج

ابن سعد عنه قال: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سَلُـوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة: نعم، أنا، فقال: هل ظهر أحمد؟ قلت: من أحمد؟ قال: ابن عبدالله بن عبد المطلب هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخيل وحرّة وسباخ، فإياك وأن تسبق إليه.

فوقع في قلبي، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد الأمين تنبأ، قد تبعه ابن أبي قحافة، فخرجت حتى أتيت أبا بكر، فخرج بي إليه، فأسلمت فأخبرته بخبر الراهب. وقد روى هذه القصة الحافظ ابن حجر في الإصابة عن ابن سعد بسنده عن محمد ابن إبراهيم بن طلحة، عن طلحة رضي الله عنه.

(٣) الزبير بن العوام الأسدي، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ،أسلم صغيراً قبل أن يبلغ سن التكليف رضي الله عنه، قيل: أنه أسلم وسنه ثمان سنين، وهو قول ابنه عروة.

(٤) عبد الرحمن بن عوف الزهري، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم مستخفياً بدعوته، وهو أصغر من النبي ﷺ بعشر سنين.

(٥) سعد بن أبي وقاص الزهري، وكان رسول الله ﷺ يقول له: (أنت خالي) وفي حديث الترمذي عن جابر قال: أقبل سعد، فقال النبي ﷺ «هـذا خالي، فليرني امرؤ خاله» وقال ابن حجر: وقع في صحيح البخاري عنه أنه قال: لقد مكثت سبعة أيام وإني لثالث الإسلام، وقال ابن إسحق في مغازيه: كان أصحاب رسول الله ﷺ بمكة ـ أي مطلع شمس الإسلام ـ يستخفون بصلاتهم، فبينا سعد في شِعْب من شعاب مكة في نفر من الصحابة إذ ظهر عليهم المشركون، فنافروهم، وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بِلَحْيِ جمل فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام، وكان سعد رضي الله عنه أحد أربعة يعدون أشد أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن حجر: أخرج محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه بإسناد جيِّد عن ابن إسحاق قال: كان أشد أصحاب رسول

الله ﷺ أربعة: عمر، وعلي، والزبير، وسعد، وعن عائشة بنت سعد عن سعد قال: أسلمت وأنا ابن تسع عشرة سنة.

وجزم ابن عبد البر في الاستيعاب أن سعداً رضي الله عنه كان سابع سبعة في إسلامه.

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله وأيَّده وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، رجالاً ونساءً، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس سراً وعلانية، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد، والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام.

الخطواتُ الأولى في سَيْرِ الرّسَالة

جرينا في بحثنا ـ الذي اعتضدنا فيه بالأدلة الثابتة والروايات الحديثية الصحيحة، والذي استندنا فيه إلى معاني الأحداث وأسبابها وموقعها من التاريخ، ومكانها من الترتيب الزمني في تتابع الأحداث، والذي استأنسنا فيه بأقوال وآراء بعض الأئمة من أعلام الأمة ورواة السيرة وجهابذة المحدثين ـ على أن نبوة نبيِّنا محمد ﷺ كانت متقدمة زمناً ووحياً على رسالته، وذلك ذهاباً منَّا إلى ما تقتضيه حقيقة النبوة ومعناها في مفاهيم الحقائق الشرعية من أنها نوع من التربية الإلٓهية الخاصة للمصطَفَين لمرتبتها من البشر، تقصد إلى لون من التهذيب والإعداد الخاص، دون تكليف تبليغ شرع جديد، أو إحياء شرع كان معمولاً به، ثم طمست معالمه، أو دخله تحريف، وأن مراتب النبوة من الوحي لا تبلغ أن تكون فيها مرتبة في مثل مراتب وحي الرسالة اليقظي، إذ لم يعرف في تاريخ النبوات، ولا في تاريخ انفراد نبوة نبيِّنا محمد ﷺ التي بدأت بالرؤيا الصادقة، أن في مراتب وحي النبوة مرتبة تشبه أول مرتبة من مراتب وحي الرسالة، وهي ما وقع في أول لقاء النبي ﷺ بملك الوحي جبريل عليه السلام في غار حراء.

لقاء غار حراء صورة جديدة للوحي في معالمها وآثارها

هذا اللقاء الذي كان يسوده عنصر المفاجأة بشدته المبالغة من أول لحظة بدئه إلى نهايته، وهذا اللقاء هو المرة الأولى التي يلقى فيها جبريلُ أمينُ الوحي، وهو مسربل بروحانيته العلية محمداً ﷺ وهو مدثر ببشريته الزكية.

فهو لقاء بين طبيعتين مختلفتين أبعد اختلاف، من عالمين مختلفين أشد اختلاف، مختلفين في الحقيقة التكوينية، لقاء بين ملَك من أجل وأعظم عوالم

الملأ الأعلى، في علو روحانيته، وقدس نورانيته، وبين نبي من البشر، تتمثل فيه عناصر البشرية بأكمل أوصافها، وأتم خصائصها في الفضائل الإنسانية والمكارم الخلقية.

لقاء بين شخصيتين لا تجانس بينهما في طبيعتهما الأصليتين، ولا في وجودهما الكوني في عالميهما، وهو لقاء يقع فجأة دون توطئة ولا تمهيد، بل ولا سلام وإيناس، لقاءٌ يفجأ فيه النبي ﷺ، أو يُفجأ به؛ ولما يفق من روعة مباغتة الدخول عليه في خلائه دون توقع منه أو انتظار، وهو مستغرق في تأملاته الروحية، وسبحات فكره الكونية، وهي تجول به في مظاهر جلال الله بما أبدعه من بدائع ملكه وملكوته ـ بما لم يكن له قط في حسبان.

فهو أمي لم تغيِّر نبوته شيئاً من أميته، وإذا به يفاجأ بطلب يقتضيه الخروج عن طبيعته ونزع خصائص بشريته، وهو لا يدري كيف يكون ذلك، لأن الملك المفاجىء له في لقائه يبدؤه مباغتاً فيقول له: (اقرأ) وهذا الطلب في مفاجأته وجَوِّه وما احتف به من أروع ما يروع ويُفْزِع، ويرد النبي ﷺ على الملك بما تقتضيه طبيعة الحال، مبيناً أن تحقيق هذا الطلب ليس في طاقته واستطاعته، لأنه مباين لجبلته التي نشأ عليها وولد وعاش في أحضانها.

وأنَّى له أن يقرأ وهو ما عرف قط قراءة؟ فـ(ما أنا بقارىء)، فيأخذه الملك إليه أخذاً غير رفيق، يغطه فيه غطة شديدة، يعصره بها عصراً يبلغ منه أقصى جهده، ونهاية طاقة بشريته ثم يرسله ويقوله له: (اقرأ) ويرد النبي ﷺ، وهو لما يزل في روعة الغطة الأولى وشدتها، مسترفقاً مبيناً حاله وطبيعته، باسطاً عذره في عدم استطاعته تحقيق ما يطلب منه ويسأل: (كيف أقرأ؟) وهو لا يعرف القراءة فطرة وجبّلة، ولا كان له بالقراءة عهد قط، لا تعلماً وتلقياً، ويعود إليه الملك فيقول له: (اقرأ) فيرد النبي ﷺ مفتدياً نفسه أن يعود إليه بمثل ما كان منه إليه، من الغط والعصر الشديد، ويقول: «ماذا أقرأ؟» كما جاء في بعض الروايات صريحاً.

وهنا كان محمد ﷺ قد بلغ بروحانيته مقاماً جانس فيه الملأ الأعلى في

روحانيته، حيث استفرغت بشريته، وانطلقت روحانيته من عقال قيودها المادية التي كانت تقيد بها بشريته، فقال له الملك عندئذ: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم* علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وحي الرسالة نهج جديد في مراتب الوحي

فهذه المفاجآت الباغتة المتكررة، وهذه الشدة العاصرة التي تتمثل في الضم الضاغط والعصر العنيف من ملَك يصفه القرآن الحكيم بقوله: ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ ويصفه بأنه ﴿ شديد القوى ذو مرة ﴾ لإنسان بشر من الناس نبىء وأوحي إليه بوحي النبوة التي لم تبلغ في مراتب وحيها هذا المبلغ القوي العنيف الذي لقيه محمد ﷺ في مفاجآت الغار وأحداثه وشدائده.

وهذا الطلب الغريب العجيب الذي يطلب من النبي ﷺ القراءة، وهي أمر لم يكن في متناول طبيعته، ولا هو قد عرفه قط، ولا سمع به في حياته.

وهذه الآيات البيِّنات من أول سورة العلق التي تنزَّلت من سماء الجلال الإلَهي، فأوحاها الملَك إليه، وأقرأه إياها، فقرأها إعجازاً، ونزلت على قلبه برداً وسلاماً، وثبتت فيه كأنما كتب بها في كتاب، فحفظها وعاد بها إلى أهله قارئاً بعد أن لم يكن قارئاً، وبقيت في لوح الحياة علماً على الإعجاز البياني، ومناراً للإعجاز المادي الخارق لقوانين الطبيعة، وضياء من الإعجاز العقلي، ونوراً من الإعجاز العلمي الذي عبَّر عنه النبي ﷺ وهو يصف معجزته الخالدة، ويبين فيصل ما بينها وبين سائر معجزات الأنبياء والمرسلين روى البخاري عنه ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وهذه الآيات التي افتتح بها وحي القرآن الكريم كانت أول آيات من الذكر الحكيم شرفت بها آفاق الحياة على هذه الأرض، فهي أول ما نزل بإطلاق من آيات القرآن المبين وكلماته، لم يسبقها تنزلاً غيرها قط، وهي أول ما أوحي به إلى النبي ﷺ في لقاء المواجهة ووحي اليقظة.

كل ذلك كان نهجاً جديداً في الوحي إلى محمد ﷺ، تضمَّن أحداثاً لم تمر بمثلها حياته في نبوته، فهو إذاً ضرب من الوحي غير وحي النبوة، وهو فوق وحي النبوة بمضامينه وآثاره، وهو انتقال من مرتبة وحي النبوة إلى وحي الرسالة، وميلاد استهلت به الرسالة وجودها.

مقصد وحي الرسالة يختلف عن مقصد وحي النبوة

يقصد وحي النبوة إلى نوعٍ من التربية الخاصة، والتهذيب الشخصي لمن يصطفيه الله من عباده لتلقِّي أنبائه بما يشاء من وحيه وحكمته وشرائعه وآدابه، ليعملوا بذلك في خاصة أنفسهم تعبداً لله تعالى وأسوة يتأسى بهم في هديهم من يؤمن بهم ويتقبل التأسّي بهم، دون تكليف تبليغي بما أنبأهم الله به من وحيه إلا كما يطلب من كل من علم شيئاً من الخير والبر وحسن الأدب النفسي والعملي أن ينبىء به ويرغِّب فيه، وكل من علم شيئاً من الشرور وسوء الأدب والضلال أن ينهى عنه، وينفِّر منه، وهذا مندرج تحت عموم شرعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي شرعة إلٓهية إنسانية إصلاحية لم ينقطع نسبها عن جميع النبوات والرسالات، وورثها منهم القائمون بالقسط، الآمرون بالخير، الناهون عن مقارفة الشرور والآثام استصلاحاً لعامة الخلق في حياتهم الاجتماعية.

أما وحي الرسالة فهو وحي تكليف ـ يسبقه أو يقع معه وحي التربية الخاصة والتهذيب الشخصي ـ تبليغ ما أوحي إليهم، وأنبؤوا به من الله تعالى من شرائعه وأحكامه، وأخباره، وأمره، ونهيه وزجره وإنذاره، ووعده وترغيبه، ووعيده وترهيبه، وتخويفه وتحذيره، ومنازل رحمته، ومواقع إحسانه وفضله، وإنعامه وجوده.

فهو وحي يقصد أول ما يقصد إلى إصلاح الحياة، لتسير على نهج ما شرع الله لعباده، وهو وحي يجب فيه على الرسول أن يبلِّغ ما أُوحي به إليه لكل مدعوٍ إلى رسالته والإيمان بها، من كتب الله المنزلة وشرائعه المحكمة، مرتبطاً ذلك بالثواب والعقاب في دار الخلود والجزاء.

وبهذا يظهر بجلاء أن وحي الرسالة يتطلب إعداداً خاصاً في تربية الرسول ـ أيِّ رسول ـ منذ ميلاده، وتنسمه نسائم الحياة، فيتعهده الله تعالى

الإعداد للرسالة أبلغ تربية من الإعداد للنبوة

في تخيُّر نسبه وشرف قومه، ويتعهده في نشأته بنوع من التربية الذاتية، والرعاية الشخصية، حتى ينشأ نشأة فاضلة، متكملاً في آدابه وأخلاقه، متحلياً بأفضل الفضائل الإنسانية، متأدباً بأرفع الآداب السلوكية لأن الله تعالى اختاره ليكون قدوة يُقتدى بها في جميع ما يأتي وما يذر، وجميع ما ينهى عنه وما يأمر به، وجميع ما يرغب فيه وما يرهب منه.

ولا يمكن أن يجعل الله تعالى من أقامه مناراً للهداية والاقتداء به إلا في أكمل صورة من صور الكمال الإنساني في زمنه وعالمه الخاص والعام، وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فهذه الآية الكريمة تفيد صراحة أن وحي الرسالة يتطلب إعداداً خاصاً في النشأة وتربية السلوك والتحلِّي بالفضائل الإنسانية والتخلق بالمكارم الخلقية، والتميز بالشمائل الاجتماعية في قومه ومجتمعه، إلى درجة من السمو الروحاني لا يمكن أن تقع مجتمعة لغيره من أمته، لأنه بهذه الدرجة من السمو الروحاني يتلقى الرسول وحي ربه الذي يكلفه تبليغه إلى جميع من أرسل إليهم، والتبليغ يحتاج إلى قدر عظيم من العلم بطبائع الخلق، ومداخل النفوس البشرية ومخارجها، في ظواهر أحوالها وبواطنها، وقدر عظيم من العلم بتصاريف الحياة وتقلباتها، وإلى قدر عظيم من الفطنة وزكانة النفس وذكاء العقل، وإلى قدر عظيم من الشجاعة القلبية والتطهُّر الخلقي، ونظافة السلوك، والتميُّز بأكرم المكارم، ليكون ذلك داعية لتقبل ما يبلغه ويدعو إليه.

والذين يقرؤون سير الأنبياء والمرسلين يجدون مصداق ما قلنا مبثوثاً في مدارج حياتهم ولا سيما من قصّ الله تعالى علينا في القرآن أنباء حياتهم، وتصاريف عيشهم من واقع وجودهم.

شواهد واقعية تبين فضل الرعاية الربانية لحملة الرسالات على فضلها للمنفردين بالنبوة

ولعل من أبين ذلك ما نجده في قصة إبراهيم خليل الله عليه السلام، وما نجده في قصة موسى كليم الله ورسوله عليه السلام، وفي بيان ما تولاَّهما الله به من تربيته، وما تعهدهما به من رعايته، منذ طفولتيهما من ألوان التربية والإعداد، وتقويم السلوك، والتوجيه للتحلي بالفضائل، حتى شبَّا وبلغا مبلغ الكمال الإنساني، وبعثهما الله تعالى رسولين هاديين، فبلَّغا رسالات ربهما

بلاغاً كان للتعهد الإلّهي في تربيتهما بإعدادهما أثر قوي ظاهر.

بينما لا نجد مثل تلك الرعاية البالغة المتتابعة في حلقاتها في قصص الذين انفردوا بالنبوة ممن أعدوا إعداداً تهذيبياً خاصاً، لأن الرسل في أشد الحاجة إلى التأييد الإلّهي والرعاية الربانية في مظاهر السلوك لتصديقهم فيما يبلغون من رسالات الله وشرائعه، والتأسي بهم، والناس مختلفون في تفكيرهم ومداركهم، وعاداتهم، وأخلاقهم، ومشاربهم في الحياة.

وهذا الاختلاف يضع الرسل مع القبول تارة، والرد عليهم تارة أخرى، وفيمن يردون عليهم عناداً أو جهالة، وهذا يقتضي أن يكون الرسل على درجة من الإعداد الروحي الذي تستفرغ فيه البشرية وتظهر في أطواره شدائد الوحي، وعلى درجة من الصبر على فوادح البلاء، وعلى درجة من قوة الإقناع، وبراعة البيان، ما يجعلهم قادرين على تحمُّل أعباء التبليغ وأثقال تنزل الرسالات بمراتب وحيها، إيماناً بوعد الله تعالى لهم بالنصر على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين* إنهم لهم المنصورون﴾[1].

* * *

خصائص الرسالة المحمدية تقتضي تميّزاً وعناية في الإعداد الفطري والسلوكي على سائر الرسالات

وإذا كان هذا هو الواقع في حياة جميع رسل الرسالات الإلّهية قبل رسالة محمد ﷺ وهي رسالات خاصة لقوم أو جيل من الناس مخصوصين، جاءت بشرائع خاصة لزمن مخصوص، فهو أوجب ما يكون في واقع الرسالة الخاتمة الخالدة، العامة الشاملة، رسالة محمد ﷺ، خاتم الأنبياء وآخر المرسلين، لأن رسالته ﷺ في عمومها زمناً ومكاناً وأجيالاً، وتشريعاً، ونظاماً للحياة تتضاعف حاجتها إلى التميُّز على سائر الرسالات الإلّهية في طريقة إعداد حامل أمانتها، المصطفى لتلقي وحيها، وتنزّل كتابها الكريم، وتبليغ شرائعها وأحكامها، ونشر آدابها، وإقامة نظمها الاجتماعية في حياة الناس والأشياء، والجهاد في سبيل تأمين سيرها حتى تصل دعوتها إلى الداني والقاصي، وتعم هدايتها جميع من تبلغه دعوتها.

---

(١) سورة الصافات آيتا: (١٧١ ـ ١٧٢).

وقد سبق لنا أن صوَّرنا حالة العـالم المدعـو إلى الإيمان بـرسالـة محمد ﷺ، وما كان عليه من ضلالات وحماقات، وجهالات في العقيدة والأخلاق، وانحرافات في السلوك والنظم الاجتماعية، وما كان يشيع فيه من مظالم تسود حياة أممه وشعوبه، ودوله وممالكه، يستعبد فيها الأقوياء الضعفـاء، ويستغلّ الأغنياء الفقراء، ويستبيح الطغاة حرمات الإنسانية انتهاكاً لمقدسات الحياة الخاصة والعامة، وأن عموم رسالة محمد ﷺ وختمها للرسالات الإلٰهية يجعلها الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لإصلاح الحياة، وتبديل هذه المفاسد والشرور، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ومعنى ذلك أن رسالة محمد ﷺ جاءت لتحوِّل الإنسانية عن واقعها المظلم الظالم إلى حياة مضيئة مشرقة، تقوم معالمها على العدالة والتراحم، وترفع فيها منائر العلم والمعرفة، والهدى والإصلاح، حياة مليئة بالخير والبر، معتمدة على الإخاء الإنساني والمحبة والمواساة والتعاون.

ومن هنا كانت نبوته ﷺ متقدمة على رسالته زمناً ووحياً، لتكون أهم مرحلة من مراحل إعداده لتلقّي وحي الرسالة، وتحمُّل أمانة تبليغها، ونشر دعوتها، لأن نبوته ﷺ بالنسبة لرسالته كانت تمهيداً روحياً جعلها معبراً إلى آفاق وحي اليقظة الذي جعله الله تعالى من خصائص تنزُّل القرآن وبدء الرسالة.

أما إعداده ﷺ إعداداً إنسانياً جامعاً لجميع مراتب الكمال البشري، فيتجلى في فَطْره على صفاء الخليقة، وجَبْله على أكرم مكارم الفضائل، وتنشئته على أفضل الشمائل، وأحمد الأخلاق، وفي معرفته بالله تعالى معرفة عصمته منذ نشأته عن التدلّي إلى مفاسد الجاهلية وشرورها، وبغَّضت إليه عقائدها، وجعلت منه مثلاً مضروباً في المكارم بين قومه، وفي بلده ومجتمعه.

وبهذه المكارم التي كانت خلقاً له في حياته كلها رأت فيه السيدة الجليلة خديجة رضي الله عنها شواهد على صدق تطلعاتها المتوسمة، وفراستها الصادقة، وأنه ﷺ كان موضع الرعاية الربانية.

ومن ها هنا كانت شدائد وحي الرسالة التي لقيها رسول الله ﷺ في

مفاجآت الغار فيصلاً بين نبوته في حال انفرادها بزمنها ومراتب وحيها التي لم تبلغ مرتبة منها في الشدة، واستفراغ البشرية، والإعداد الروحاني الأعلى، ما بلغته أول مرتبة بدأ بها وحي الرسالة في أول لقاء يقظي تم بين أمين الوحي جبريل عليه السلام وبين النبي ﷺ.

شدائد وحي الرسالة كانت فيصلاً بين مرحلة انفراد النبوة ومرحلة ميلاد الرسالة

وقد كانت مفاجأة هذا اللقاء آخر نقطة انتهى عند بدئها خط انفراد النبوة بانتهاء زمنها مع انتهاء قرن إسرافيل به ﷺ، وكان ما وقع في هذا اللقاء من الأحداث والمفاجآت الإعجازية، وتنزل أول ما نزل من آيات القرآن الكريم هو أول نقطة بدأ بها خط رسالة محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

تحقيق أوّل مَا نزل مِنَ القُرآن

كان أول ما نزل من آي القرآن الكريم خمس آيات افتتح الله بها رسالة محمد ﷺ وهي الآيات التي افتتحت بها سورة العلق ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

إبداء بعض الحكمة باستهلال ميلاد الرسالة الخاتمة بأوائل سورة ﴿اقرأ﴾

بهذه الآيات بدأت رسالة محمد ﷺ، فكانت استهلالاً متوافقاً وهذه الرسالة الخاتمة الخالدة.

وبهذه الآيات بدأ نزول القرآن الكريم، فكانت أول آيات من الذكر الحكيم أقرأها أمين الوحي جبريل عليه السلام محمداً خاتم النبيين ﷺ في أول لقاء تم بينهما في غار حراء.

وبهذه الآيات وضع الله تعالى معالم الرسالة الإلٰهية الخاتمة الخالدة في عمومها المطلق وشمولها الأعم، مبيناً أنها رسالة العقل والعلم، وهما أعظم منن الله تعالى على الإنسان، وهو خيرته من خلقه، وأكرمهم عليه، فكانت هذه الآيات كالعنوان للكتاب، والطرة للإطار، والغرة في جبهة الإيحاء.

وبهذه الآيات، وجَّه الله تعالى أمة محمد ﷺ إلى ما يجب أن يكون هدفها في حياتها من تبليغ رسالة نبيِّها ﷺ، هذا الهدف الذي جعله الله منار الهداية في هذه الرسالة، هو هدف العلم والتعلُّم، وجعل القلم حارسه وحافظه ومسجله في سجلات الحياة، وجعل لكل جيل من أجيال الإنسانية نصيباً منه، ترتفع به الحياة إلى آفاق ما قدِّر لها من المعرفة والتقدم.

وبهذه الآيات، وما تضمنته من الإشادة بالعلم والقلم أبان الله تعالى لأمة الإسلام عن وسيلة تبليغها رسالتها إلى القاصي والداني في أقطار الأرض، لتعلم أن العلم والتعلُّم والكتابة بالقلم هي الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لتبليغ هذه الرسالة.

وبهذه الآيات أعطيت الأمة الإسلامية مفاتيح الإصلاح والهداية، لتعْلَم أول ما تَعْلَم أنه لا إصلاح بغير علم ومعرفة، فليس مع الجهالة خير، والجهل كله شر وفساد، ولتعلم بأن الهداية إلى معرفة الحق، واعتناقه، والحرص عليه، وإقامة منائره، والدعوة إليه لا تكون إلا مع العلم، ولا تتحقق آثارها في الحياة إلا بالعلم، والعلم لا ينمو وينتشر إلا إذا قيَّده القلم ونشره وبيَّنه وأعلن عنه.

وبهذه الآيات أخذت الأمة الإسلامية مقاليد خلافة الله في الأرض، لتقيم عليها موازين العدالة بين من وما تظلهم الحياة بظلها الوارف من الناس والأشياء، لأن خلافة الله في أرضه حينما تسربلها الإنسان ليقوم بأمانة حملها، وأبت السموات والأرضون والجبال أن تحملها، إنما كان ذلك خصيصة للإنسان لأنه منبع العلم ومهبط التعلُّم، فهو قد علِم فعلَّم، وكان العلم مصدر فوقه على الملائكة المكرمين.

تحليل يكشف عن مواطن الإعجاز الحسي والمعنوي وبراعة البيان في أسلوب هذه الآيات

وقد جاءت هذه الآيات ـ وهي أول آيات تنزَّلت من سماء الوحي ـ تحمل في كل كلمة من كلماتها أعظم مظهر من مظاهر التحدي، ليكون الإعجاز البياني في هداية الرسالة، ومعانيها، وحقائقها، وتوجيهاتها هو القوة التي تدفع سير الرسالة إلى آفاق الفكر العليا في أقطار الأرض.

وبهذا كانت هذه الآيات هي المعجزة الأولى للرسالة الخاتمة الخالدة، التي تحدَّت العقول والقلوب والأرواح، والألسن والقرائح، أن يأتوا بمثلها هداية، وأسلوباً، وتنزُّلاً.

ففيها الإعجاز الحسي يتراءى محققاً في واقع الحياة، رأي عين، وسمع أذن، بوجود ما هو في قوانين الطبيعة، ومألوف الحياة من أمحل المحال، ذلك أن يقرأ من لم يكن قارئاً قط، إعجازاً لا تعلُّماً.

وفيها الإعجاز الفكري الذي يواكب في وجوده الإعجاز الحسي، يجعل قراءة الأمي الذي لم يثافن عالماً قط، ولا جلس مجلس متعلِّم قط، إعجازاً يقوم على الاستناد إلى قوة الله تعالى وقهره لظواهر الأسباب والعلل، وإذابة العلائق بينها وبين مسبباتها ومعلولاتها فيما يخيل للعقول والأفهام، فكأنه قيل للنبي الأمي ﷺ: أنت لا تقرأ بقوتك وحولك، ولا تقرأ بتعلم كما يقرأ سائر القارئين، وإنما أنت تقرأ باسم ربك الذي تولَّاك بخصائص تربيته، وأعدَّك لحمل أمانة أعظم رسالاته، فهو الذي يقرئك إعجازاً لا تعلُّماً ودرساً، بل خَلْقاً وإبداعاً، لأنه الخالق، والخَلْق إبداع في الإيجاد لما ليس على مثال في الوجود الواقعي، فإذا تعلق الخلق بأبدع ما أبدع الخالق، وأحسن ما قومت قدرته في عوالم الحس والإبداع (خلق الإنسان) وخلق الإنسان بما فيه من آيات التكوين وبدائع التركيب الظاهر والباطن التي لا يحيط بها علم العلماء، ولا تكشفها مناظير المكبرات، هو الآية الكبرى على اقتدار الألوهية وإبداعها اقتداراً لا يدخل في حيِّز الإمكان لأي مخلوق.

ثم تأتي في الآيات معجزة المعجزات التي يدندن حولها العلم بكل بحوثه ومكتشفاته وآلاته ومخابره فيرتد عنها حسيراً، ليس في يده من حقيقتها شيء، تلك هي الإخبار عن الأصل الذي منه أنشىء الإنسان، والبذرة التي منها نبت هذا الكائن الذي لم يخلق الله تعالى أحسن ولا أقوم منه (من علق)، وليقل العلم في تفسير (العلق) ما يقول، وليكثر من البحث والدوران حول كشوفه، فلن يصل - إن وصل - إلى غير ما وصل إليه إخبار محمد النبي الأمي ﷺ في أول كلمة نزلت عليه وخوطب بها في مطلع رسالته، ليبلِّغها إلى الإنسان تعليماً وتعلُّماً، ليعرف ربه الذي خلقه فأبدعه في أحسن تقويم من أدنى ما يتصور منه الإيجاد لأعظم كائن في هذه الحياة.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك ببيان معالم هذه الرسالة الخالدة، الخاتمة لرسالات الله تعالى، ومعالمها هي العلم بكل ما فيه من هداية ونور ومعرفة.

والعلم لا ينزل على الناس غيثاً من السماء يتقاطر عليهم، فيتلقونه عبّاً، ولكنه يخضع لقوانين سنن الله تعالى في نظام الحياة، وفي متعارف هذه

منهج الرسالة في إعظام شأن العلم بأوسع معانيه وشتى فنونه ومعارفه

السنن الإلٓهية أن العلم يتنزَّل على الناس من سماء التعلُّم والفكر، وقد جعلت هذه السنن القلم آلة العلم التي يقيد بها ويسجل، وبهذا التقييد يتلقَّى الحاضر حصائل الفكر الماضي، ويمد الحاضر بهذه الحصائل الفكر المستقبل الذي لا يقف عند حدود هذه الحصائل، ولكنه يجعل منها مادة تربط بين أطوار الفكر وتوثباته، ويتخذ منها مدارج إلى آفاق المجهول المحجب، ليكشف عنه أغطية الجهالة، ويجعل منه أساساً لمرحلة فكرية جديدة، يستزيد فيها الفكر الإنساني معرفة بكثير من حقائق الوجود، ويتضاعف طموحه إلى كل جديد من ألوان المعرفة، والمعارف الكونية لا نهاية لها.

وهكذا يقود العلم ـ الذي جعله الله بشتى فنونه، واختلاف ألوانه ـ أعظم معالم الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد النبي الأمي ﷺ ـ العقلَ الإنساني إلى آفاق من التقدم الفكري، لا تقف عند غاية ولا تعرف لها نهاية، وهذا هو سر الأسرار في خلود هذه الرسالة، ووفائها بأقصى مطالب الحياة ورغائبها على مدى مرور الأزمان وتوالد الأجيال، واختلاف المنازل والأوطان.

والله تعالى إذْ يخبر نبيه الأمي في هذه الآيات التي أشرقت من أفقها شمس رسالته أنه أقرأه بغير تعلُّم ولا آلة إعجازاً تبدأ به رسالته، قد جعل من سنن الحياة العامة أن يكون العلم بالتعلُّم، وأنه جعل القلم آلة التعلُّم، ووسيلة قيد العلم وتسجيله، وصيانة له عن التبدُّد والزوال.

فليكن العلم في دائرة سنن الله في الحياة وقوانينها هو هدف أمة الإسلام من تبليغها رسالة الإسلام، لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة، وهو العنصر الحيوي في تكوين حقيقتها الهادية الراشدة، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها ﷺ.

منهج الرسالة في إعظام العلم إنما يعني العلم المؤمن

والعلم المؤمن باقتدار رب العالمين الذي خلق الإنسان وربَّاه على موائد كرمه وفضله إذا أخذ بزمام الحياة، وقادها بسلطان هدايته أدرك بها أقصى غايات الرشد والإصلاح، وجعل مفاتيح رقيها بيد الذين يؤمنون ويَعْلمون ويُعَلِّمون، وهؤلاء هم خلفاء الله تعالى في أرضه، يقوِّمون أود

الحياة، وينصبون على منحنيات جوادّها موازين الحق والعدل ومنائر الهداية، حتى لا تزلّ بالناس قدم، ويضعون فوق روابي مهايعها مصابيح المرحمة والمواساة، وتعاطف الإخاء الودود، لتقوم المحبة بينهم مقام قانون المحاسبة والجزاء.

العلم الكفور قد يرعد ويبرق ولكنه يصير إلى الزوال ولو بعد حين

أما العلم الكفور الذي لا يعرف يد الله على الحياة والأحياء، أو هو يعرفها ولكنه يتنكر لها جحوداً واستكباراً عنيداً يكنفه الطغيان، فهو ليس مما ينطوي تحت طائلة هذا الامتنان الأكرم، لأن هذا العلم الكفور أخذ عناصر وجوده من طينة الخبال والتدمير، فهو بمعرض الدثور والبوار، طال الزمن أو قصر، والآخرة عند ربك للمتقين.

وقد جاءت هذه الحقائق العظمى والمعاني السامية مصورة في أبرع صورة بيانية، سبقت بأسلوبها المعجز، لتتساوق في براعة صياغتها مع سمو مقاصدها.

اتساق الأسلوب ودقة التعبير في تركيب الآيات يصور التناسب الحسي والمعنوي في الأداء

فالتناسب الحركي في صورتيه الحسية والمعنوية بين القراءة والتربية في قوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ إعجازٌ بياني، بصورة ربط الفعل (اقرأ) بمتعلق خاص هو اسم (الرب) دون غيره من أسماء العزة والقهر، مما يدل على أن التناسق بين الفعل والاسم المتعلق به بما في معناهما من الحركة هو مناط الإعجاز.

والإضافة الخاصة لضمير المخاطب المخصوص بهذا الإنعام الأكرم، وهو النبي الأمي محمد ﷺ إعجازٌ بياني يصوره اقتضاء الخطاب شهوداً لمخاطب مظاهر الجود في الإنعام.

ووصف الاسم الكريم بإضافته الخاصة بالخالقية بأسلوب الجملة الموصولية بما فيها من تأكيد الإسناد وتقريره إعجازٌ بياني يصوره التناسب الأكمل بين معنى الخالقية والتربية التي يشعر اسم (الرب) بها، مع ما يفيده إطلاق الخالقية من عموم شمولي في الاقتدار الإلّهي في أخص صفات الربوبية من الإبداع والإيجاد.

وإعادة فعل الخلق بعد ذلك مقيداً بتعلقه بالإنسان بكل ما فيه من آيات وعجائب في التكوين، إعجازٌ بياني يصوره تخصيص الإنسان بجعله نموذج الإبداع دون غيره من سائر المبدعات الإلّهية، للتناسب المتكامل بينه وبين ما هو محور الدائرة في الإبداع هنا، وهو العلم والتعلُّم.

وذكر منشأ تخليق الإنسان في قوله تعالى: (من علق) لتأكيد مظاهر الاقتدار في الإبداع إعجاز بياني يصوره تقريب ما هو أبعد تصوراً في دائرة الإمكان العقلي.

وإعادة الفعل (اقرأ) واستئناف الجملة الاسمية بعده (وربك الأكرم) يذكر اسم (الرب) بإضافته التخصيصية، ووصفه بأعلى منازل الكرم وذروته بصيغة التفضيل إعجاز بياني، يصوره التناسق بين المعاني وقوالبها الأسلوبية التي أخرجت في إطارها، مع ما يفيده استئناف الجملة الاسمية بتأليفها الخاص ومجيئها بعد الفعل مباشرة من الإشعار بسببية مضمونها لتحقيق مضمون الفعل (اقرأ).

ووصف الاسم الكريم بإضافته الخاصة ونقبة الأعلى بالتعليم بأسلوب الجملة الموصولية ـ أيضاً ـ المقررة لمضمونها على أبلغ وجه، مع ذكر آلة التعليم (علَّم بالقلم) إعجاز بياني، يصوره ما ينطوي تحت الإيجاز المعبِّر عن كثرة المعاني والحقائق من الروعة فيما هو كالحجة البرهانية على الاقتدار الإلّهي في هذا المقام الأكرم.

وتختتم الآيات بقوله تعالى: ﴿ علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وفيه إعجاز بياني يصوره ما اشتمل عليه من إجمال أبهمت فيه الصور والحقائق التي يعلمها الإنسان، وهذه الصور والحقائق من الكثرة والتتابع بما لا يمكن أن تحل تحت إحصاء أو حصر، لأنها مستمرة الوجود على مدى توارد الأجيال و«تطور» الفكر، واختلاف الأحداث والنوازل، وتوالي الكشوف تبعاً لتحرك العقل نحو التعرف على عناصر الكون ومظاهر الطبيعة، تحقيقاً للإفادة من نعمة تسخير الكون للإنسان.

وفي التعبير بقوله: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ ـ هكذا بالفعل الماضي

المفيد لتحقق وقوع التعليم نظراً إلى ما هو مركوز في طبيعة الإنسان وفطرته المستعدة لتلقي ما يأتيها من صور الأفكار والأحداث مهما تكن كثرتها وعظمتها - إعجاز بياني يصوره جعل الإنسان معلَّمًا لكل ما لم يعلم، إقامة للاستعداد الفطري مقام الواقع المتحقق في وجود الحياة.

وهذا الاستعداد الفطري هو المنبع الذي يمد الإنسان بعلم ما لم يعلم على مدى مرور الحياة في فلك الأحداث والوقائع، وهو الذي يكشف الأغطية، بجلو سحب الحجب عن المجهول الذي لا بد أن يعلم ويظهر.

كلام ابن حجر في إبداء حكمة أولية نزول هذه الآيات

وقد حام حول حمى كشف أسرار الحكمة الإلهية في افتتاح نزول القرآن الحكيم، وابتداء رسالة النبي الأمي محمد ﷺ بهذه الآيات مَنْ أجرى قلمه في حلبة سباقها من القدامى والمحدَثين، فأشار بعضهم إلى قطرات من غيثها، يقول الإمام الحافظ ابن حجر في الفتح: والحكمة في هذه الأولية أن هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن، ففيها براعة الاستهلال، وهي جديرة أن تسمى عنوان القرآن، لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله.

وبيان كونها مشتملة على مقاصد القرآن أن هذه المقاصد تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار، وقد اشتملت الآيات على الأمر بالقراءة، والبداءة ببسم الله، وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله: ﴿ علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾. إهـ.

رأي الأستاذ الإمام محمد عبده في حكمة افتتاح نزول القرآن وابتداء الوحي بهذه الآيات

ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير سورة العلق: إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتداء الوحي بهذه الآيات الباهرات، فإن لم يهتدِ المسلمون بهذا الهُدى، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم، وكسر تلك الأبواب التي غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها في ظلمات الجهل، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين - أي فاتحة تنزله، وهي أوائل سورة العلق - ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع فلا أرشدهم الله أبداً. إهـ.

وهذا كلام واضح غاية الوضوح، وصريح إلى أقصى حدود الصراحة في القطع بأن هذه الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة العلق هي مفتتح كتاب الله، وابتداء وحي القرآن الكريم وهي فاتحة الكتاب المبين ـ أي فاتحة نزوله ـ فهي أول آيات نزلنَ منه إطلاقاً، فلم ينزل منه شيء قط، لا سورة الحمدلله فاتحة المصحف في ترتيب التلاوة، ولا أوائل سورة (المدَّثر) كما توهم في حديث جابر المتفق على صحته، ولا غير ذلك من آيات القرآن وسوره.

وقد صرح الأستاذ محمد عبده بما يرفع كل شك عن رأيه في ذلك، إذ قال في مطلع تفسير سورة العلق: وفي هذا ـ أي سياق حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي ـ دلالة على أن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ هو أول خطاب إلّهي وجه إلى النبي ﷺ، وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هي أم الكتاب كما بيناه في تفسيرها. إهـ.

تفسير المنار ينقل عن الأستاذ الإمام أن الفاتحة أول ما نزل إطلاقاً من القرآن

وهذا مخالف تمام المخالفة لما ذكره الأستاذ رشيد رضا في تفسير المنار نقلاً عن أستاذه الإمام محمد عبده، من أن الأستاذ الإمام محمد عبده قد رجَّح أن أول ما نزل على الإطلاق سورة فاتحة الكتاب ـ أي ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ولم يستثن قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾.

وكلام الأستاذ الإمام محمد عبده يحمل الدلالة الواضحة على أن تفسيره جزء (عم) متأخر عن تفسيره لبعض القرآن الكريم مبتدئاً من فاتحة المصحف (الحمد لله)، وهذا التفسير العام هو الذي ينقله أو يلخصه، أو يمثله في عبارته السيد رشيد رضا في تفسير المنار، وهذا بين في قول الأستاذ الإمام فيما نقلناه عنه: وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك ـ أي بعد نزول أوائل سورة العلق ـ هي أم الكتاب، كما بيَّناه في تفسيرها.

والأستاذ رشيد ـ وهو أقوم تلاميذ الإمام بفهم كلامه ومراميه ـ يؤكد رأيه فيما فهمه من كلامه من أنه يقول بأولية نزول سورة الفاتحة (الحمد لله) إطلاقاً دون استثناء أوائل سورة العلق أو غيرها من آيات وسور القرآن، وفي ذلك يقول في تفسير المنار: أما الأستاذ الإمام فقد رجح أن أول ما نزل على

الإطلاق سورة الفاتحة - أي (الحمد لله) ولم يستثن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك).

سياحة فكرية للإمام محمد عبده في إبداء حكمة أولية نزول أم الكتاب إطلاقاً

ثم قال الأستاذ رشيد رضا: ونزع - أي الأستاذ الإمام محمد عبده - في الاستدلال على ذلك منزعاً غريباً في حكمة القرآن وفقه الدين، فقال ما مثاله: ومن آية ذلك أن السنة الإلهية في هذا الكون، سواء أكان كون إيجاد، أو كون تشريع أن يظهر سبحانه الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً، وما مثل الهداية الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها تحتوي على جميع أصولها ثم تنمو بالتدرج، حتى تنبثق فروعها بعد أن تعظم دوحتها، ثم تجود عليك بثمرها.

والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها، ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة، ودلالة الحروف كقولهم: إن أسرار القرآن في الفاتحة وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان، ولا هو معقول في نفسه، وإنما هو من مخترعات الغُلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته، وهي البيان.

وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور:

أحدها - التوحيد، لأن الناس كانوا كلهم وثنيين، وإن كان بعضهم يدعي التوحيد.

ثانيها - وعْدُ من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة، والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتها، والوعيد كذلك يشمل نقمها وشقاءهما، فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الأرض، والعزة والسلطان والسيادة، وأوعد المخالفين بالخزي والعار في الدنيا، كما وعد بالجنة والنعيم، وأوعد بنار الجحيم في الآخرة.

ثالثها ـ العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب، وتثبته في النفوس.

رابعها ـ بيان سبيل السعادة، وكيفية السير فيه، الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة.

خامسها ـ قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدّوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظِهْرِيًّا، لأجل الاعتبار، واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.

هذه الأمور التي احتوى عليها القرآن، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية، والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب.

فأما التوحيد ففي قوله تعالى: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى، ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون، تستوجب الحمد، ومنها نعمة الخَلْق والإيجاد والتربية والتنمية، ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرَّح به بقوله: ﴿ رب العالمين ﴾ ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط، بل فيه معنى التربية والإنماء، وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق منه عزّ وجلّ، فليس في الكون متصرف بالإيجاد ولا بالإشقاء والإسعاد سواه.

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين، ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه، بل استكمله بقوله: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فاجتثّ بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم، وهي اتّخاذ أولياء من دون الله، تُعتقد لهم السلطة الغيبية ويُدعون لذلك من دون الله، ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا، ويتقرب بهم إلى الله زلفى، وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال.

وأما الوعد والوعيد: فالأول منهما مطوي في ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فذكر الرحمة في أول الكتاب ـ وهي التي وسعت كل شيء ـ وعدٌ

بالإحسان، وقد كررها مرة ثانية تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا، لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا.

وقوله: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ يتضمن الوعد والوعيد معاً، لأن معنى الدين الخضوع، أي أن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق، والسيادة التي لا نزاع فيها، حقيقة لا ادِّعاء، وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً، يرجو رحمته، ويخشى عذابه، وهذا يتضمن الوعد والوعيد.

أو معنى الدين الجزاء، وهو إما ثواب للمحسن، وإما عقاب للمسيء، وذلك وعد ووعيد وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك ﴿ الصراط المستقيم ﴾ وهو الذي من سلكه فاز، ومن تنكبه هلك، وذلك يستلزم الوعد والوعيد.

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ أوضح معناها بعض الإيضاح في بيان الأمر الرابع الذي يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي إنه قد وضع لنا صرّاطاً سيبينه ويحدده، وتكون السعادة في الاستقامة عليه، والشقاوة في الانحراف عنه، وهذه الاستقامة عليه روح العبادة، ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر ﴾.

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها، وروحُ العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجا لفضله، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف حركات اللسان والأعضاء، فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها، والصيام وأيامه، وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلَّفوا هذه الأعمال البدنية، وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلاً ما، وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة، ومنح العبادة الفكر والعبرة.

وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى: ﴿ صراط الذين أنعمت

عليهم ﴾ تصريح بأن هناك قوماً تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم، وصائح يصيح: ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها، واعتبروا بها، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبِهُداهم اقْتَدِهْ ﴾ حيث بيَّن أن القصص إنما هي للعظة والاعتبار، وفي قوله تعالى: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان، فريق ضلّ عن صراط الله، وفريق جاحد وعاند من يدعو إليه، فكان محفوفاً بالغضب الإلهي والخزي في هذه الحياة الدنيا.

وباقي القرآن يفصِّل لنا في أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يفيد العبرة، فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عناداً، والذين ضلُّوا فيه ضلالاً، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله.

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصِّلها القرآن تفصيلاً، فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع، وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول: إن النواة أم النخلة، فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة، لا كما قال بعضهم: أن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً، ويأتي بعدها الأولاد. إهـ ما ساقه السيد رشيد رضا في تمثيل كلام شيخه الأستاذ محمد عبده، وتصوير فكرته في إبداء حكمة أولية نزول الفاتحة إطلاقاً دون استثناء شيء من آي القرآن وسوره، لا أوائل ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ كما هو صريح حديث عائشة في بَدْء الوحي، ولا أوائل (المدَّثر) كما هو صريح حديث جابر عند مسلم والبخاري رحمهما الله تعالى.

نهج الإمام محمد عبده في بيان حكمة أولية نزول الفاتحة نهج شعري يلفه الخيال والرمزية

هذا النهج الذي نهجه الإمام محمد عبده، وحاول فيه أن يجعل سورة الفاتحة ﴿ الحمدلله رب العالمين ﴾ متضمنة إجمالاً لجميع ما احتواه القرآن المجيد من الحقائق والمعاني التشريعية والأصول العقيدية والنظم الاجتماعية، تفصيلاً في سوره وآياته ليثبت بذلك أن سورة الفاتحة أول ما نزل إطلاقاً لا يستثني أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ولا غيرها - نهج شعري، يلفه

الخيال من جوانبه، وهو لا يخرج في مباديه ونهاياته عن مذهب (الدمجين) الذين يُكرِهون الألفاظ والعبارات تعسفاً لاستخراج معاني متخيلة في حنايا عواطفهم، فيدمجون الحقائق المتناثرة في عبارات وأساليب وألفاظ قد تكون متباعدة المواقع في مناسباتها، ولكنها قد تكون قريبة النسب لبعضها في معانيها وأهدافها.

وهؤلاء (الدمجيون) هم الذين زعموا على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت.

والذين زعموا هذه القالة لم يسلكوا في تبيينها مسلك الإشاريين الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته البيانية في تقحمهم على حماه، واخترقوا قولهم: إن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، مما لا يعقل في نفسه، ولا يتصور في دائرة الخيال، وإنما سلكوا في تبيين ما نسب إلى عليّ رضي الله عنه مسلك بيان المعاني المختلفة، والحقائق المتعددة في (سورة الفاتحة). ولم يقولوا ـ كما قال الأستاذ محمد عبده ـ: إن (الفاتحة) تتضمن جميع ما في القرآن من الحقائق والمعاني، ولكنهم قالوا: إن (سورة الفاتحة) في إيجازها المعجز تتضمن ـ إذا بسطت عبارتها وفصِّلت حقائقها ومعانيها ـ الكثير من المعاني والحقائق الإيمانية، والأحكام الشرعية.

صة مزعومة تنسب
ـعليّ رضي الله عنه
سيراً دمجياً لسورة أم
الكتاب

يقول الحافظ جلال الدين السيوطي في «الإتقان»: إن الإمام ابن أبي جمرة قال في توضيح معنى ما نسب إلى عليّ رضي الله عنه من أنه لو شاء لأوقر سبعين بعيراً في تفسير (سورة الفاتحة)، قال ابن أبي جمرة: وبيان ذلك أنه إذا قال: الحمد لله رب العالمين، يحتاج إلى تبيين معنى الحمد، وما يتعلق بالاسم الجليل الذي هو الله، وما يليق به من التنزيه، ثم يحتاج إلى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وأعداده، وهي ألف عالم، أربعمائة في البحر، وستمائة في البر فيحتاج إلى بيان ذلك كله، فإذا قال: الرحمن الرحيم يحتاج إلى بيان الاسمين الجليلين، وما يليق بهما من الجلال، وما معناهما، ثم يحتاج إلى بيان جميع الأسماء والصفات، ثم يحتاج إلى بيان الحكمة في اختصاص

هذا الموضع بهذه الاسمين دون غيرهما.

فإذا قال: مالك يوم الدين، يحتاج إلى بيان ذلك اليوم، وما فيه من المواطن والأهوال وكيفية مستقره، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، يحتاج إلى بيان المعبود وجلالته، والعبادة وكيفيتها وصفتها، وأدائها على جميع أنواعها، والعابد في صفته، والاستعانة وأدائها وكيفيتها، فإذا قال: اِهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، يحتاج إلى بيان الهداية ما هي، والصراط المستقيم وأضداده، وتبيين المغضوب عليهم والضالين، وما يتعلق بهذا النوع، وتبيين المرضيّ عنهم وصفاتهم وطريقتهم.

فعلى هذه الوجوه يكون ما قاله عليّ من هذا القبيل.

وقصة إيقار عليّ رضي الله عنه سبعين بعيراً في تفسير أم الكتاب ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لو شاء؛ لا يُعرف لها سند يعوّل عليه، فهي أشبه أن تكون من تكذّب الروافض على الإمام رضي الله عنه، فلا مقام لها في بحث علمي، يفسَّر به القرآن الحكيم.

وبيان ابن أبي جمرة لما يمكن أن يحقق به ما زُعم على عليّ رضي الله عنه كلام لا يخرج عن طرائق الدجيين الذين يتكثرون من قضايا الخيال المتشابكة بخيوط الاستطراد، واجترار المسائل لأدنى مناسبة، وهو صنيع معروف في تاريخ تدوين العلوم والمعارف الإسلامية وغيرها منذ عصر التكثر، عصر النقل والرواية والاستطراد، والخروج من فن إلى فن، ومن مسألة إلى مسائل أخرى، فهو أشبه ما يكون بما عرف في العصور المحدثة بـ«دوائر المعارف» التي يحاول واضعوها أن يجمعوا كل شيء عن كل شيء، بيد أن هذه الدوائر لها نظامها الوضعي الخاص الذي يجعلها قواميس موسَّعة للمعرفة في نظام يجعل كل مسألة تحت أصولها الأبجدية أو الموضوعية، وليس فيها هذا «الدمج المَزْجيّ» الذي يدخل الشيء في الشيء وهو أبعد ما يكون منه.

ونهج ابن أبي جمرة في بيان إمكان تحقق ما نسب إلى عليّ رضي الله عنه ـ لو صحت القصة ـ أقرب إلى أن يكون نهجاً علمياً تفسر به فاتحة الكتاب

نهج ابن أبي جمرة في محاولة تفسير الفاتحة لبيان تجويز ما زعم على عليّ أقرب إلى العلم من نهج الشيخ محمد عبده

من النهج الذي سلكه الأستاذ محمد عبده فيما صوره عنه تلميذه السيد رشيد رضا، لأن نهج ابن أبي جمرة لم يدّع أن (سورة الفاتحة) في إيجازها المعجز تتضمن جميع حقائق ومعاني القرآن الحكيم كالذي زعمه الأستاذ محمد عبده، وأقام على دعائمه كلامه في بيان تضمن الفاتحة لذلك، وهذه الدعوى «الدمجية» هي التي يمكن أن تكون محتملة لأن يقال عنها: إنها تسلب القرآن الحكيم خاصيته، وهي البيان.

لأن خاصية البيان القرآني تقتضي أن تكون آياته وسوره مستقلة الأداء للحقائق الكونية التي تضمنها القرآن، وأن تكون مستقلة الأداء في تأسيس الإيمان بالله تعالى وصفاته العليا، وأسمائه الحسنى وموجبات الإيمان بها، وأن تكون مستقلة الأداء في التعبد الذي يقرِّب إلى الله تعالى بما شرعه في كتابه، وأن تكون مستقلة الأداء في إقامة دعائم النظم الاجتماعية التي تقوم على العدل والمرحمة بين أفراد المجتمع البشري وجماعاته، وأممه وشعوبه.

فلا تدمج الحقائق الكونية والمعاني الإيمانية، والشرائع التنظيمية إدماجاً يجعلها محصورة ـ ولو إجمالاً ـ في آيات سورة موجزة التعبير والأداء في موضوعها، لأن ذلك يفتح الطريق أمام الذين لم يشربوا روح الأسلوب البياني الذي اختص به القرآن، ليقولوا في إعجازه البياني ومعانيه وحقائقه وهدايته ما لا يتفق مع روعة البيان الإعجازي، وما لا يتفق مع عموم تشريعاته ونظمه وأساليب براهينه ودلائله الكونية، وأهدافه الإصلاحية، وخلود دعوته.

خلود إعجاز القرآن في خلود هدايته التي يتابع العلم الكشف عن حقائق آياتها

وسورة الفاتحة ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ يمكن التعبير عن حقائقها ومعانيها بعبارات لا تؤدِّي إلى بعض حقائق ومعاني القرآن في دائرة ما اشتملت عليه، لا ما اشتمل عليه القرآن، مهما أسهب في تفسيرها المفسرون، ومهما ولَّدوا فيها من المعاني، لأن القرآن العظيم كتاب فصلت آياته تبياناً لحقائق الإيمان والهداية، فلا يمكن تفسيره تفسيراً يكشف عن حقائقه كلها، ويكشف عن جميع معانيه في زمن معين، وجيل معين، لأن القرآن هو المعجزة العلمية العظمى الخالدة خلود رسالة محمد ﷺ.

فحقائق القرآن ومعانيه التي تحمل عموم هدايته خبيئة بيانه وأسلوبه وكلماته، يكشف عنها العلم في ظل «تطور» العقل الإنساني وتفكيره شيئاً فشيئاً على مدى قيام الحياة في هذا العالم المتوثب للتقدم في آفاق المعرفة المتجددة، كما قال الله جلّ شأنه: ﴿ خُلق الإنسان من عَجَل، سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾[١].

وكما قال عزّ وجلّ: ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾[٢] وكما قال جلّ وعلا: ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[٣].

والمتأمل في أسلوب هذه الآيات، التي نبعت من محيط الحقائق الكونية، واتخذها القرآن معبراً إلى بثّ هدايته، ومعرفة الله تعالى بوحدانيته وكمالاته الإلهية، وجاءت في أسلوب يكاد يكون موحد التعبير ـ يجد أنها تضمنت وعداً من الله تعالى مقرباً بإعانة العقل الإنساني حتى يتمكن من معرفة أسرار الكون التي أودع الدلالة عليها في آياته تعبيراً تارة، وإشارة تارة أخرى، ورمزاً في كثير من مواقعها مما يكشف عنه العلم على مدى تتابع الأجيال زمناً بعد زمن، لا ينقطع مدده، ولا تنتهي آثاره، حتى يتبين للناس أن هذا القرآن المبين بحقائقه ومعانيه وهدايته إنما أنزل على قلب محمد ﷺ النبي الأمي رسول الله وخاتم النبيين لهدايتهم إلى معرفة الله بمعرفة آياته، وبراهين حكمته، وستعرف أفئدتهم وعقولهم هذه الآيات عند كشفها كلما توافرت للعقل أسباب كشفها ووسائل معرفتها، فلا يستطيعون يومئذ إنكارها وجحدها، ولكنهم يستعجلون بما جبلوا عليه من غريزة الحرص على معرفة ما غاب عن حسهم وشعورهم، ولمّا تصل إليه عقولهم، فكل جيل من الناس في كل زمان ومكان له حظه من معرفة حقائق القرآن ومعانيه وهدايته، ودلائله وأسراره.

---

(١) سورة الأنبياء آية (٣٧).
(٢) سورة النمل آية (٩٣).
(٣) سورة فصلت آية (٥٣).

يقول الإمام فخر الدين الرازي: إن العجائب التي أودعها الله تعالى في آياته مما لا نهاية له، فهو تعالى يطلع خلقه على تلك العجائب زماناً، فزماناً، ومثاله: كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها فكلما أمعن النظر ازداد وقوفاً على تلك العجائب والغرائب. إهـ.

وقد أبان النبي ﷺ أروع إبانة عن خلود معجزته العظمى، وسر ذلك الخلود فيما أخرجه البخاري في صحيحه من قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

فهذا الحديث الثابت إعجازٌ في الإبانة عن معجزة القرآن وخلودها، وسر ذلك الخلود، لأنه جعل الوحي بالقرآن، وهو أمر علمي عقلي محض، لا أثر فيه للمادية التي تكره العقول على الإيمان بالمعجزة المادية ساعة التحدي بها، ثم تنقضي وتنتهي، كما في سائر معجزات الأنبياء والرسل السابقين، وإذا تقضت المعجزة المادية تقضّى معها أثرها، لأنها موقوتة محدودة.

أما معجزة القرآن فهي نفس ما أوحى الله به إلى نبيه محمد ﷺ، وهي نفس رسالته، وهي نفس هداية تلك الرسالة، فالتحدي بها قائم لا يتقضى ولا ينتهي، وأثرها في إقناع العقول وإنارة القلوب، وإشراق الأرواح قائم لا ينقطع، فلها في كل لحظة من كل يوم مهتدون بها، مقبلون على الإيمان بها واعتناقها، ومن ثم جاءت الرجاوة مترتبة على أسبابها ودواعيها في قول النبي ﷺ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

* * *

تحقيق القول في دعوى أولية نزول الفاتحة

والقول بأن (سورة الفاتحة) هي أول ما نزل من القرآن إطلاقاً قول مرجوح، بل مردود، قال عنه الإمام النووي: هو قول باطل، وبطلانه أظهر من أن يذكر. إهـ.

وقال البيهقي عن حديثه الذي استند إليه القائلون به: هو منقطع، أي والمنقطع من أقسام الضعيف، فلا تقوم به حجة.

وقد ذهب إلى هذا القول المرجوح من المفسرين جار الله الزمخشري، وجازف فنسبه إلى أكثر المفسرين، قال في الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت (اقرأ)، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب. إهـ.

وقد رد الحافظ ابن حجر في الفتح على الزمخشري ادّعاءه أولية نزول الفاتحة، فقال: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول ـ أي القول بأولية نزول (اقرأ) كما هو قول ابن عباس ومجاهد ـ وأما الذي نسبه الزمخشري إلى الأكثر فلم يقل به إلاّ عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول.

وحجة الزمخشري على ادّعائه أولية نزول الفاتحة ما أخرجه البيهقي في الدلائل، والواحدي في (أسباب النزول) من طريق يونس بن بُكَير عن يونس ابن عمرو عن أبيه، عن أبي ميسرة الهمداني، عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً» فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي، يا محمد، يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض» فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه، يا محمد، قل: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم* الحمد لله رب العالمين ـ حتى بلغ ـ ولا الضالين ﴾.

قال السيوطي في (الإتقان): هذا حديث مرسل، رجاله ثقات، وقال البيهقي: إن كان هذا الحديث محفوظاً من وجه غير هذا فيحتمل أن يكون خبراً عن نزول الفاتحة بعد ما نزلت (اقرأ) و(المدَّثر).

وقال القسطلاني في (المواهب): وأما حديث البيهقي، أن أول ما نزل

الفاتحة، كقول بعض المفسرين، فقال البيهقي: هذا حديث منقطع ـ أي فلا حجة فيه ـ لأن المنقطع من أقسام الضعيف، فإن كان محفوظاً من غير هذا الوجه فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد أن نزلت ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ و﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فلا حجة فيه للأولية المطلقة.

وقفة باحثة مع الأستاذ الإمام محمد عبده

ولعل الأستاذ الإمام محمد عبده نزع في قوله بأولية نزول الفاتحة إطلاقاً إلى هذا الحديث متقيِّلاً للزمخشري في دعواه هذه الأولية، والمسألة نقلية محضة، لا مدخل فيها للاجتهاد والرأي.

بيد أن الأستاذ الإمام أراد أن يدعم اختياره لهذا الرأي فنزع هذا المنزع الغريب في بيان حكمة القرآن وفقه الدين، فأسهب في بيان تضمن الفاتحة جميع حقائق ومعاني القرآن، وقصصه وأخباره وتشريعاته إسهاباً أدبياً لا يخلو من تكلف وتعسف في استخراج حقائق القرآن ومعانيه من عبارات آيات سورة الفاتحة.

وقد كان من الخير للعلم وسواء البحث أن يتسامى الأستاذ الإمام بقلمه إلى مقامه العلمي ومركزه الفكري وهو رائد الطليعة المجدِّدة في هذا القرن، ولا سيما في بيان حكمة القرآن، وتفسير المعاني التشريعية والتنظيمية وإبراز سنن الله في الاجتماع البشري من خلال آيات القرآن المبين.

ويظهر أن تلميذه السيد العلاَّمة الأستاذ رشيد رضا ـ وهو أنجب تلاميذه، وأقومهم على فهم القرآن الكريم فهماً يعتمد على معرفة بالسنة النبوية، وكان بنصوصها أقوم من شيخه ـ لم يطمئن كل الاطمئنان إلى منزع شيخه الأدبي الغريب في بيان حكمة القرآن وفقه الدين اللذين نزع بهما في بيانه حكمة أولية نزول الفاتحة، فقال في تقديم كلام شيخه: إنه نزع في الاستدلال على مذهبه أن سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن إطلاقاً منزعاً غريباً.

ثم قال الأستاذ رشيد رضا معقباً على كلام شيخه: وأقول الآن: هذا ما قاله الأستاذ الإمام مبسوطاً موضحاً، ويمكن أن يقال: إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحِكَم التي بيَّنها.

وها هنا ملاحظة تسترعي النظر والتأمل، ذلك أن كلام الشيخ رشيد رضا رحمه الله ليس فيه إشارة من قريب أو بعيد إلى ما جاء في تفسير جزء (عَمَّ) للأستاذ الإمام من تصريحه بأن نزول سورة العلق كان أول خطاب إلهي وُجِّه إلى النبي ﷺ، وهذا بينٌ لا يتخالجه شك في أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو الآيات الخمس من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهو الرأي الذي مضى عليه جمهور الصحابة والتابعين وأكثر الأئمة من علماء الأمة.

ثم قال الأستاذ الإمام: وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هي أم الكتاب كما بيَّناه في تفسيرها.

ولا ندري كيف كان ذلك، والشيخ رشيد رضا هو صاحب نقل وتصوير دروس الإمام في تفسيره العام على صفحات (المنار) نشراً في المجلة، وتفسيراً مدوناً في أسفار وأجزاء تفسير (المنار) وهو صاحب الإشراف الكامل علماً وعملاً في إخراج تفسير جزء (عَمَّ) مطبوعاً متداولاً في أيدي القارئين.

والذي ذكره الإمام في تفسير جزء (عَمَّ) كلام متقبّل لا يرده نقل صريح، ولا يأباه عقل عليم؛ ولا سيما إذا أدرج فيه ما يفيد أن الآيات الخمس من أول سورة ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كانت أسبق نزولاً من سورة الفاتحة، لأنها أول آيات نزلت بعد فترة الوحي، التي بدأت عقب نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وانتهت بنزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾، وهذه الفترة لم تتجاوز أياماً معدودات كما حققناه بحثاً وترجيحاً.

ولو أن الأستاذ الإمام محمد عبده جعل ما ذكره في بيانه الأدبي ـ الذي نزع فيه هذا المنزع الغريب في بيان حكمة أولية نزول سورة الفاتحة إطلاقاً ـ بياناً لحكمة الترتيب الإلهي بين سور القرآن في العرضتين الأخيرتين في رمضان من عام انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ـ حتى انتهى هذا الترتيب التوقيفي بين سور القرآن إلى المصحف الإمام الذي اتفقت عليه كلمة الأمة خلفاً عن سلف بجميع طوائفها، وهو لا يزال بين يديها متلواً مدروساً على ما رتبه رسول الله ﷺ في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام، والله

معهما يسمع ويرى ـ لكان ذلك من أمثل ما يقال في حكمة القرآن وفقه الدين، ولكان فيه ما يؤيد رأي جمهور العلماء من أن ترتيب السور على ما في المصحف الإمام توقيفي كترتيب الآيات.

وكان يكفي الأستاذَ الإمامَ محمد عبده كلماته الحكيمة التي قالها في بيان حكمة افتتاح نزول القرآن بأول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وأنها أول خطاب إلهي وُجِّه للنبي ﷺ، لتبقى في ميزانها الرجيح ـ إلى جانب ما قاله العلاّمة الحافظ ابن حجر في حكمة افتتاح نزول القرآن بها ـ صورة مشرقة في الإطار الفكري الذي وضعت فيه رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ.

ومن غرائب الأقوال في أولية نزول (سورة الفاتحة) ما نسبه بعض من لم يحسن التأمل في سَوْق الحقائق لمناسباتها، أخذاً من كلام أبي الحسن الواحدي في كتابه (أسباب نزول القرآن) إذ ذكر الواحديُّ حديث أبي ميسرة، وهو بصدد بيان مكية فاتحة الكتاب ـ وقد عرفنا أن هذا الحديث هو مستمسك القائلين بأولية نزول الفاتحة، ولعل هذا هو مصدر عدم التأمل عند من نسب القول بأولية نزول الفاتحة إلى عليّ رضي الله عنه ـ ثم قال الواحدي: وهذا ـ أي القول بمكية فاتحة الكتاب ـ قول علي بن أبي طالب، فذهب الوهم بمن لم يحسن التأمل إلى أولية نزول الفاتحة، فنسبه لعليّ رضي الله عنه، وظاهر عند التأمل أنه لا علاقة لهذا بأولية النزول.

والواحدي ذكر حديث أبي ميسرة بصدد بيان أن فاتحة الكتاب مكية النزول، رداً على من زعم أنها مدنية النزول، وهو قول منسوب إلى مجاهد، وقد عدّه العلماء هفوة عالم، لا يتابع عليها.

ثم قال الواحدي: ولا يسعنا القول أن رسول الله ﷺ قام بمكة بضع عشرة سنة يصلي بلا فاتحة الكتاب، هذا مما لا تقبله العقول.

* * *

والخلاف في أولية النزول بين ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وسورة الفاتحة، أيسر مورداً ومصدراً من الخلاف في أولية النزول بين ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾

و﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ لأن حديثي (اقرأ) و(المدَّثر) مرويان في الصحيح، رواهما الشيخان: البخاري ومسلم، وحديث أولية نزول (اقرأ) من رواية عائشة رضي الله عنها، وهو قولها كما أخرجه الحاكم في مستدركه والبيهقي في دلائله، وأنها كانت تقول: أول سورة نزلت من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهو قول أبي موسى الأشعري، كما أخرجه الطبراني في كبيره عن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى يقرئنا، فيجلسنا حِلَقاً، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ.

وشُهر القول به عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما، وقال به من التابعين عبيد بن عمير والزهري، ورواية عن مجاهد، وعليه جمهور المحدثين، والفقهاء.

تحقيق القول في زعم أولية نزول ﴿يا أيها المدثر

أما حديث أولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فمن رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما وهو قوله، وقد أخرجه الشيخان، البخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي، والإمام أحمد.

والبخاري رحمه الله أورد حديث جابر في صحيحه بطرق مختلفة الإسناد، وروايات متعددة، فقد رواه أولاً ـ عن يحيى بن موسى البلخي، قال: حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ قلت: يقولون: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أرَ شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثِّروني، وصبوا عليّ ماء بارداً، فدثروني، وصبوا عليّ ماء بارداً»، فنزلت: ﴿يا أيها المدَّثر. قم فأنذر﴾.

ورواه ثانياً ـ عن محمد بن بشار، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي وغيره ـ أي أبو داود الطيالسي ـ قالا ـ حدثنا حرب بن شداد، عن يحيى ابن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (جاورت بحراء)؛ثم أحال البخاري هذه الرواية على حديث لم يروه ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ وإنما رواه مسلم.

ورواه ثالثاً ـ فقال: باب قوله: (وربك فكبر) حدثنا إسحق ابن منصور، حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى، قال سألت أبا سلمة: أيُّ القرآن أُنزل أول؟ فقال: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فقلت: أنبئت أنه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فقلت: نبئت أنه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة، فقلت: دثّروني، وصبُّوا عليّ ماء بارداً»، وأُنزل عليّ ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر. وربك فكبِّر ﴾.

ورواه رابعاً ـ فقال: باب﴿وثيابك فطهِّر﴾حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، وحدثني عبدالله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً، فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني، فدثَّروني»، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ إلى ﴿ والرجز فاهجر ﴾.

ورواه خامساً ـ فقال: باب ﴿ والرجز فاهجر ﴾ حدثنا عبدالله ابن يوسف، حدثنا الليث عن عقيل، قال ابن شهاب: سمعت أبا سلمة قال:

أخبرني جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحِرَاء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني، فزمَّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ إلى ﴿ والرجز فاهجر ﴾ ـ قال أبو سلمة، والرجز: الأوثان ـ ثم حَمِيَ الوحي وتتابع».

غموص الحكمة في سوق الإمام البخاري روايات هذه القصة

هذا الصنيع الذي نهجه الإمام البخاري في سوقه روايات القصة عجيب، ولعله من أسرار جامعه التي لم تُكْشف عنها الحُجُب، فالقصة واحدة، تدور رواياتها كلها حول موضوع واحد، والسائل في الروايات الثلاث الأولى واحد، وهو يحيى بن أبي كثير، والمسؤول فيها واحد، هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، والمجيب فيها واحد، هو الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما.

وفي الرواية الرابعة والخامسة لم يُذكر يحيى بن أبي كثير، وإنما ذكر فيهما ابن شهاب الزهري مُخْبَراً من أبي سلمة بما حدثه به جابر عن رسول الله ﷺ.

فالروايات الخمس كلها تدور حول مسألة واحدة، هي (ما أول ما نزل من القرآن)، وجاءت عبارات الروايات متقاربة تقارباً شديداً، تكاد تكون موحدة، فما حكمة توزيع الروايات الموحدة المضمون وتفريقها على أبواب، كل باب تعنونه آية من الآيات الخمس، فيما عدا الرواية الأولى التي أخذت من الآيتين الأوليين ﴿ يا أيها المدَّثر * قم فأنذر ﴾ عنوانها دون تبويب؟.

فهل صنع الإمام البخاري ذلك لمجرد جمع طرق الرواية وأسانيدها المختلفة، فيما قبل يحيى والزهري تأكيداً لصحة الحديث؟.

فإذا صح هذا بقي السؤال عن حكمة جعل كل آية من الآيات الثلاث الأخيرة عنواناً لباب لم يذكر فيه سوى الحديث نفسه بلفظه ومضمونه ومعناه؟.

ومما هو أدخل في الغرابة وإثارة العجب سكوت الحافظ الإمام العيلم

ابن حجر ـ وهو قيِّم الجامع الصحيح وحلَّال مشكلاته، وفكَّاك طلسماته، وكشّاف خفاياه، ومظهر أسراره ـ عن بيان حكمة هذا الصنيع من الإمام البخاري.

والسؤال في الروايات الثلاث الأولى كان عن أول ما نزل من القرآن، والجواب فيها كان من أبي سلمة بأن أول ما نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ وجاءت معارضة يحيى بن أبي كثير لأبي سلمة، بذكره له ما هو متداول عند أهل العلم بينهم بأن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وبيان أبي سلمة في ردِّه على هذه المعارضة بأنه سأل جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك، وأنه أخبر جابراً بمثل ما قاله يحيى له في معارضته مما اشتهر وتُدوُول بين أهل العلم من أن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال له جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، وساق حديث تجلِّي جبريل للنبي ﷺ، وهو يناديه، فرفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء لمّا سمع النداء، فرأى شيئاً، ولم يعيِّن في هذه الرواية ما هو هذا الشيء الذي رآه النبي ﷺ، ونزلت ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾.

وفي الرواية الثالثة أن النبي ﷺ لما سمع النداء نظر عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه ثم قال: «فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض» وهذا القول من النبي ﷺ يفيد أن النبي ﷺ قد رأى من يعرفه، ومن سبق له لقياه ورؤيته، وليس ذلك إلا جبريل عليه السلام أمين الوحي، فهو الذي سبق له أن لقيه في غار حراء، وأقرأه الآيات الخمس من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

والروايات الثلاث الأولى تتفق في جوهر الموضوع، ولا تختلف إلا في أسلوب الأداء إيجازاً أو بسطاً مناسباً لا يخلو من فائدة.

أما الروايتان الرابعة والخامسة ففيهما أن الزهري أخبره أبو سلمة، وسمع منه ما حدثه به جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يحدِّث عن فترة الوحي، وساق البخاري في هاتين الروايتين الحديث، وقد جاء فيه (فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس أو قاعد على كرسي بين السماء

والأرض) وأن النبي ﷺ جئث من هَوْل ما رأى، وداخله شيء من الفزع لعظم المنظر وغرابته على الطبيعة البشرية، وقد عبَّر النبي ﷺ عن فزعه بقوله: «ففرقت منه» ثم ذهب إلى أهله، وقال لهم: «زمِّلوني، زمِّلوني» فزملوه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر * قم فأنذر﴾.

وبمقتضى وحدة القصة في موضوعها يجب رد بعض الروايات إلى بعض، على معنى أن تجعل كلها رواية واحدة، تتضمن خلاصة القصة باعتبارها وحدة في موضوعها، لينتهي ذلك إلى أن كل ما نقل عن جابر رضي الله عنه إنما كان حديثاً سمعه من النبي ﷺ وهو يحدِّث عن فترة الوحي، وعودته إليه بعد فترته، وأنه كان أول ما نزل في عودة الوحي بعد فترته ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ إلى قوله ﴿ والرجز فاهجر ﴾.

وجابر رضي الله عنه لم يتعرض مطلقاً في حديثه لنزول ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ولكنه لما سُئل عن أول ما نزل من القرآن أجاب بما عنده من العلم، ولما أُشعر بما يقوله أهل العلم من أن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ بيَّن أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يحدث عن مناسبة خاصة هي فترة الوحي، وكان في هذا الحديث عن الفترة ، فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها المدَّثر. قم فأنذر﴾ وهي التي افتتح بها الوحي بعد فترته وعودته إلى النبي ﷺ.

ولم يتعرض جابر رضي الله عنه في حديثه إلى نفي أو إثبات أن قرآناً نزل على النبي ﷺ قبل فترة الوحي، مع بيانه في نص الحديث أن النبي ﷺ رأى جبريل وعرفه، وأخبر عنه بالكناية في قوله ﷺ: «فإذا هو» وهذا بيِّن جداً في أنه ﷺ يعني بهذه الكناية شخصاً معروفاً له، كان قد سبق له أن لقيه ورآه وعرفه معرفة يقين وأنه اجتمع به، ويوضح ذلك ما جاء في الرواية الثانية من الروايتين الأخيرتين، وهي رواية الزهري، من التصريح بأخص أوصاف شخصية المُكْنَى عنه، إذ جاء فيها قول النبي ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء».

وإذا استعصى على الباحثين تأويل حديث جابر رضي الله عنه في

التوفيق بين روايات حديث جابر برد المبهم إلى المفسر

رواياته الثلاث الأولى عند البخاري رحمه الله تعالى، بما يجعله متفقاً مع رأي جمهور الأئمة من السلف في قولهم بأولية نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أولية مطلقة، لما في تلك الروايات الثلاث من مراجعة يحيى بن أبي كثير لأبي سلمة ـ أولاً ـ وإخباره بما يقوله أهل العلم من أولية نزول (اقرأ) بعد إجابة أبي سلمة له عن سؤاله: أيُّ القرآن نزل أولاً، فقال له أبو سلمة: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

ومن مراجعة أبي سلمة لجابر ـ ثانياً ـ وإخباره بما يقوله أهل العلم من أولية نزول (اقرأ) وقول جابر رضي الله عنه في الرد على أبي سلمة: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، وذكر له الحديث الذي سمعه من رسول الله ﷺ، وفيه أنه ﷺ لما قضى جواره واستبطن الوادي رأى الملك الذي كان قد رآه في غار حراء على عرش بين السماء والأرض، فرعب لما رأى من منظر هائل غير مألوف ولا متوقع، حتى هوى على الأرض، وذهب إلى أهله، فقال لهم: (دثِّروني) فدثَّروه، وأنزل الله عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ ـ إذا استعصى على الباحثين التوفيق لهذه المعارضات، فإنه لا يستعصي عليهم أن يردّوا ما في هذه الروايات الثلاث من إبهام وإجمال إلى ما جاء من التفسير والتفصيل ـ في روايتي الزهري ـ اللتين تحددان شخصية المرئي للنبي ﷺ في منظره وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض، وتحدِّدان المكان الذي سبق للنبي ﷺ أن لقي فيه هذا الشخص المرئي له في منظره الهائل، وهو مستبطن الوادي، وهذا المكان هو غار حراء، ويشير إلى ما جرى في هذا اللقاء من أحداث، كان أجلُّها وأعظمها وأظهرها هو افتتاح الرسالة بنزول أول ما نزل من القرآن الكريم، وهو الخمس آيات من أول سورة (اقرأ).

وعندئذ يظهر جلياً أن جابراً رضي الله عنه تحدث إذ تحدث إلى أبي سلمة في جواب سؤاله: عن أي القرآن نزل أولاً؟ وإخباره بقول أهل العلم أنهم يقولون: أول ما نزل ﴿اقرأ باسم ربك﴾ بما كان عنده من علم سمعه من رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عن فترة الوحي، وعن أول ما نزل من القرآن بعد انتهائها وعودة الوحي إليه ﷺ، وأن جابراً رضي الله عنه لم يتعرض مطلقاً في حديثه إلى أبي سلمة لقصة غار حراء قبل فترة الوحي،

وما جرى فيها من أحداث كانت معروفة لأهل العلم، من جمهور الصحابة، وما نزل فيها من قرآن، وهو الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) باتفاق.

ولعل جابراً لم يكن قد وصل إلى علمه شيء من قصة غار حراء، وما نظن أحداً يزعم أن كل صحابي يجب عليه أن يحيط علماً بجميع جزئيات وقائع الوحي.

أو لعل جابراً رضي الله عنه كان على علم بقصة الوحي في غار حراء، ولكنه لم يجعلها بمعرض حديثه لأبي سلمة في جواب سؤاله، لأن هذا الحديث كان في مناسبة خاصة، هي عودة الوحي بعد فترته، ولا شك أن أول ما نزل حينئذ هو ﴿يا أيها المدَّثر * قم فأنذر﴾ كما يدل عليه صراحة رواية الزهري بسنديها، التي جاء فيها عن جابر، قال: سمعت رسول الله ﷺ (وهو يحدث عن فترة الوحي) فهذا نص قاطع في تعيين مناسبة الحديث، ويؤكد ذلك ما جاء في هذه الرواية نفسها من قول النبي ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء»، فالحديث كان عن فترة الوحي، وفيه النص الصريح على أن الملك الذي نزل بعد فترة الوحي بآيات ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ هو الملك نفسه الذي جاء إلى النبي ﷺ في متعبده غار حراء، وأقرأه آيات أول سورة (اقرأ).

وعلى هذا يكون إخبار جابر لأبي سلمة بأول ما نزل من القرآن، إنما يعني أول ما نزل أول عودة الوحي بعد فترته، وكون آيات (اقرأ) نزلت قبل ذلك لم يكن بمعرض الحديث عنه، والمعارضات التي أوردها يحيى بن أبي كثير على أبي سلمة، وأوردها أبو سلمة على جابر، يقول أهل العلم في أولية نزولها، وردّ جابر لهذه المعارضات بما سمعه من رسول الله ﷺ منظور فيه إلى مناسبة الحديث وجوّه الذي جرى فيه، وهو التحدث عن فترة الوحي لا عن شيء قبلها.

وهذا الوجه في التوفيق بين الروايات أولى وأرجح من سائر وجوه التوفيق التي ذكرها في أجوبتهم من تعرضوا للنظر في هذا الموضع.

ويؤيد ما ذهبنا إليه قول العلاّمة الحافظ ابن حجر في الفتح: ودلّ

قوله: عن فترة الوحي، وقوله: الملك الذي جاءني بحراء على تأخر نزول سورة المدَّثر عن اقرأ، ولما خَلت رواية يحيى بن أبي كثير عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أول ما نزل ورواية الزهري هذه الصحيحة ترفع الإشكال.

ضعف الأجوبة عن حديث جابر. وكلام ابن حجر ومناقشته

ثم قال ابن حجر في تفسير سورة (اقرأ) من الفتح: ورواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر تدل على أن المراد بالأولية في قوله: أول ما نزل سورة (المدَّثر) أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لا أن المراد أولية مطلقة.

وهذا الكلام من الإمام ابن حجر يهدر المراجعة التي كانت ـ أولاً ـ بين يحيى بن أبي كثير، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والتي كانت ـ ثانياً ـ بين أبي سلمة وجابر، لأن هذه المراجعة تقطع بأن القضية كانت قضية أول ما نزل من القرآن إطلاقاً، إذ ليس في رواية من روايات المراجعات الثلاث ـ وهي التي صدَّر بها البخاري ـ ما يشعر قط بقيد يخصص الأولية بما بعد فترة الوحي، ولا بما هو أمر بالإنذار، بل إن نص الروايات يرد هذا التقييد، لأن كلاًّ من المتراجعَين، يحيى بن أبي كثير وأبي سلمة من جانب، وأبي سلمة وجابر من جانب آخر، حينما أخبر من صاحبه بأن أول ما نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ راجعه معارضاً لقوله بما نبيء به من أن أهل العلم يقولون: إن أول ما نزل ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهذا معناه التعارض في نظرهم.

ولو كان المراد بأولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ في حديث جابر أولية مخصوصة بأحد القيدين المذكورين في كلام ابن حجر لم يقع تعارض، والمتراجعان أولاً، وثانياً، من أجلّ وأعلم أئمة العلم والدين في سلف الأمة وخير قرونها، لا يخفى عليهم مكان التعارض من مكان التوافق.

ولا يمكن دفع هذا التعارض إلا بحمل ما في روايات المراجعة الثلاث من إبهام وإجمال على ما جاء في روايتي الزهري من تفسير وتوضيح وتفصيل، كما دل عليه قول ابن حجر: ودل قوله: عن فترة الوحي، وقوله: (الملك الذي جاءني بحراء) على تأخر نزول سورة (المدَّثر) عن (اقرأ)، ولما خَلَت رواية

يحيى بن أبي كثير ـ وهي رواية المراجعة الثلاث ـ عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أول ما نزل، ورواية الزهري هذه الصحيحة ترفع الإشكال.

فلو لم تخلُ روايات المراجعة الثلاث من ذكر القيدين المذكورين في روايتي الزهري لم يقع تعارض قط، لأن هذا التقييد يبين تخصيص أولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ بأنها بعد فترة الوحي.

أما التقييد بأن أولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ مخصوصة بما هو الأمر بالإنذار، فلا يفيد في دفع التعارض، لأن هذا التقييد لا يستفاد من روايتي الزهري، ولا تدلّان على أنه مقصود في تقييد الأولية به من قريب أو بعيد، فيكون مجرد دعوى، لا تجد لها سنداً يدعمها.

ضعف كلام الحافظ السيوطي في التوفيق والإجابة عن تعارض الروايات

ومن الإجابات الضعيفة للتوفيق ما قاله الحافظ جلال الدين السيوطي في «الإتقان» من أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبين سيدنا جابر أن سورة (المدَّثر) نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (اقرأ)، وهذا كلام ظاهر الضعف.

وزعم السيوطي أن ذلك يتأيّد بما في الصحيحين، وساق حديث الزهري الذي جاء فيه «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقال: الملك الذي جاءه بحراء، يدل على أن هذه القصة ـ أي قصة التحدث عن فترة الوحي التي نزل فيها ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ ـ متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها (اقرأ).

والقول بأن قصة نزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾ وقصة التحدث عن فترة الوحي متأخرة عن قصة حراء صحيح مسلَّم، ولكن الزعم بأن قصة حراء هي التي نزل فيها (اقـرأ) وهو صحيح مسلَّم أيضاً، لكن لا يلزم به من يقول بأولية نزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾.

وليس في حديث جابر بطرقه المختلفة، زهرية أو غير زهرية، ذكر لكون (اقرأ) نزلت في قصة حراء، وكل ما في حديث الزهري أن الشخص الذي رآه النبي ﷺ جالساً على كرسي بين السماء والأرض، وهو مستبطن

الوادي، هو الملك الذي جاءه بحراء، وليس في الحديث تعرُّض قط لما أوحي إليه ﷺ في هذه القصة من قرآن أو غيره.

وثبوت نزول (اقرأ) في حديث عائشة عند البخاري وغيره لا يلزم من يقول بأولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر﴾؛ لأن حديث عائشة لم يذكر في صدد قصة أولية ما نزل من القرآن إطلاقاً، فما في الصحيحين ليس فيه تأييد لهذا المدَّعى الذي ذهب إليه الحافظ السيوطي.

والمتأمل في هذه الأجوبة والتوفيقات يظهر له ضعفهاوعدم تماسكها، وحديث جابر صحيح ثابت بجميع طرقه ورواياته، وهو متعارض مع حديث عائشة رضي الله عنها في قصة حراء وهو حديث متفق على صحته وثبوته، متقدم في قصته وموضوعه تاريخياً على حديث جابر.

وإن لم يقصد بسياقه تحقيق أولية ما نزل من القرآن

وحديث عائشة رضي الله عنها صريح قاطع بنزول أوائل سورة (اقرأ) في أول وحي يقظي، بدأت به رسالة محمد ﷺ، في أول لقاء بينه وبين أمين الوحي جبريل عليه السلام، إذْ جاءه الحق، ففجأه به، وأقرأه أول ما أوحي إليه من القرآن في أول خطاب وُجِّه إليه ﷺ ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربُّك الأكرم* الذي علَّم بالقلم* علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

ثم فتر الوحي فترة غمر الشوق فيها إلى تنزُّله وتتابعه مشاعر النبي ﷺ ومداركه وإحساساته، وعظم تطلعه إليه، ولم ينقطع ﷺ عن جواره في متعبده بغار حراء، وبينما هو عائد إلى أهله بعد أن أكمل مدة جواره إذا جبريل الأمين يتجلَّى له في صورة روحانية عالية عظيمة، لم يعهدها رسول الله ﷺ، فرعب من هول ما رأى وشاهد، فلما بلغ إلى أهله قال: «دثِّروني. دثِّروني» فدثَّروه حتى ذهب عنه الروع، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر* قم فأنذر* وربَّك فكبِّر* وثيابك فطهِّر* والرجز فاهجر﴾ فكانت هذه الآيات أول ما نزل بعد فترة الوحي، ابتدأ بها عوده إليه، وحمي وتتابع، وقرت بذلك عين رسول الله ﷺ.

فجابر رضي الله عنه حينما سُئِل عن أول ما نزل من القرآن فهم من

السؤال أنه يقصد إلى أولية مطلقة، فأجاب بما عنده من علم سمعه من رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عن فترة الوحي، وما انتهت به من عوده وتتابعه، ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

ولم يثبت - فيما نعلم - أن سيدنا جابراً رضي الله عنه كان على علم بسبق نزول (اقرأ) نزولَ ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾، ولكن الاحتمال بالعلم قائم ليس هناك ما ينفيه، وقد فرضناه وأجبنا عنه.

ولعل النبي ﷺ حين سمعه جابر يتحدث عن فترة الوحي، ويذكر الملك الذي جاءه بحراء كان يتحدث عن قصة وحي الرسالة منذ بدأ وحيها بلقاء جبريل في غار حراء وما نزل عليه في هذا اللقاء من آيات سورة (اقرأ)، ثم عن فترة الوحي، وما كان فيها حتى تجلى له جبريل في صورته الروحانية الخاصة، ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فسمع جابر رضي الله عنه من النبي ﷺ آخر الحديث، وهو ما يختص بفترة الوحي ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ ولم يسمع أوله الذي يختص بقصة الغار، وما نزل فيها من آيات أوائل سورة (اقرأ)، فتحدث جابر إلى سائله عن أول ما نزل من القرآن بما سمع من النبي ﷺ، وظن أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أول ما نزل من القرآن إطلاقاً، وإلى نحو هذا يشير كلام الواحدي في كتابه (أسباب نزول القرآن) إذ يقول بعد أن روى حديث جابر من إخراج مسلم عن طريق الأوزاعي: وهذا ليس بمخالف لما ذكرناه أولاً؛ وذلك أن جابراً سمع من النبي ﷺ هذه القصة الأخيرة - أي قصة فترة الوحي ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ - ولم يسمع أولها - أي قصة الغار، ونزول (اقرأ) - فتوهَّم جابر أن سورة المدَّثر أول ما نزل، وليس كذلك، ولكنها أول ما نزل بعد (اقرأ).

مجازفة النووي في الحكم على حديث جابر بالبطلان

فحديث جابر في قوله بأولية نزول: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ صحيح ثابت، فالحكم عليه بالضعف، بَلْهَ البطلان - كما زعم الإمام النووي - مجازفة، وتعجل في الحكم.

ومقام الإمام النووي في فضله، وعلمه بالسنة النبوية، ودرجات الحديث صحة وضعفاً، وورعه وفقهه في الدين كان يقتضيه الريث والتعمق

في تطلب مخارج لهذا الحديث، وعدم بت الحكم على حديث مروي بأسانيد ثابتة صحيحة من أعلى درجات الصحة والثبوت، وحسبه أنه من مرويات الشيخين: البخاري ومسلم، فمن أين يأتيه الضعف؟ وكيف يمكن أن يحوم حوله حائمة من حائمات البطلان؟.

والحديث له مخارج تحميه عن مثل هذه الأحكام المتسرعة التي لم يأخذ البحث المتأنِّي فيها مداه الذي يتطلبه، والحكم على حديث صحيح ثابت الإسناد، متعدد الطرق الصحيحة والروايات المحققة السلامة من المطاعن بالضعف فضلاً عن البطلان، لا ينبغي اللجوء إليه إلا إذا كان الحديث مشتملاً على أمر يمس أصول العقيدة والإيمان، وإلا إذا ضاقت الحيل العلمية ومخارج البحث عن تأويله تأويلاً يحميه من سمات الضعف والبطلان.

وقد بيَّنا أن لحديث جابر رضي الله عنه في قوله بأولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ مخارج من التأويل العلمي الصحيح، ذكرها الأئمة من علماء الأمة، وعرضنا ما علمنا منها مع البحث والترجيح فيما سبق.

وقد رجَّحنا أن سيدنا جابراً رضي الله عنه سمع النبي ﷺ يتحدث عن فترة الوحي وذكر في حديثه عنها رؤيته الملك الذي كان قد جاءه بحراء، وأنه ذهب إلى أهله وقال لهم: «دثِّروني. دثِّروني» فدثَّروه، فأنزل الله عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر. قم فأنذر ﴾، ولم تكن قصة غار حراء التي نزلت فيها ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ قد بلغت جابراً رضي الله عنه، أو بلغته دون ما أوحي إليه فيها من آيات القرآن، فلما سُئل عن أول ما نزل من القرآن أخبر بما علم وسمع من النبي ﷺ، وسكت عما لم يعلم، فالحديث صحيح الإسناد، صحيح المعنى، وارد مورد علم المُخْبِر به، ولا تعرُّض فيه لنفي أسبقية نزول شيء من القرآن على نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

وزعمُ الإمام النووي أن حكمه بالبطلان على حديث جابر ليس تقليداً للجماهير، بل تمسكاً بالدلائل الظاهرة، ومن أصرحها حديث عائشة، وأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد فترة الوحي بعد نزول (اقرأ) غير مسلَّم، لأن جماهير العلماء مع عدم أخذهم بظاهر حديث جابر في أن أول ما نزل من

القرآن إطلاقاً ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ لم يحكموا ببطلانه بطلاناً ظاهراً، كما حكم النووي، وإنما سلكوا مسالك التأويل الذي يضع الحديث موضعه من القبول الذي لا يتعارض مع حديث عائشة الصريح بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

وليس في حديث جابر من رواية الزهري، الذي يقصده النووي بقوله: وإنما نزلت ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ بعد فترة الوحي، بعد نزول (اقرأ) كما صرَّح به في مواضع من حديث جابر نفسه، كقوله: وهو يحدِّث عن فترة الوحي، إلى أن قال: فأنزل الله ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ وقوله: فإذا الملك الذي جاءني بحراء... وقوله: فحمي الوحي وتتابع، أي بعد فترته ـ ما يفيد علم جابر رضي الله عنه بأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد (اقرأ)، وهذا هو محل النزاع، فأين تصريح حديث جابر بذلك؟ ولا دلالة لقوله: وهو يحدث عن فترة الوحي على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان مسبوقاً بنزول (اقرأ) إذ ليس في الحديث تعرض قط لنزول (اقرأ)، والحديث عن فترة الوحي لا يلزمه الحديث عن سبق نزول (اقرأ) لهذه الفترة، ولا يلزمه أن يكون جابر رضي الله عنه سمع هذا من رسول الله ﷺ.

وكذلك لا دلالة لقوله: فإذا الملك الذي جاءني بحراء على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان مسبوقاً بنزول (اقرأ)، كما أنه لا دلالة لقوله: فحمي الوحي وتتابع على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ الذي كان بعد فترة الوحي كان مسبوقاً بنزول (اقرأ) وهذا السبق هو محل الاستدلال.

والقضية بين حديث عائشة، وحديث جابر أن حديث عائشة قاطع بأن نزول (اقرأ) كان في لقاء حراء بين سيدنا رسول الله ﷺ، وأمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو أول لقاء بدأت به رسالة محمد ﷺ، وفي هذا اللقاء نزلت ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وقصة هذا اللقاء كانت قبل فترة الوحي، وأن حديث جابر في رواية الزهري قاطع بأن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان بعد فترة الوحي، فنزولها متأخر عن نزول (اقرأ) الذي دلّ عليه دلالة قاطعة حديث عائشة رضي الله عنها.

وجابر رضي الله عنه حينما سُئِل عن أول ما نزل من القرآن، وأخبر سائله بأنه ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان قد علم من حديث النبي ﷺ الذي سمعه عن فترة الوحي، المسبوقة بقصة غار حراء أن ملك الوحي وأمينه جبريل عليه السلام كان قد جاء النبي ﷺ في حراء، وأوحى إليه ما أوحى، ولم يسمع جابر في هذا الحديث الذي كان عن فترة الوحي شيئاً بخصوص ما أوحي إلى النبي ﷺ في غار حراء، فمن أين تجيء دلالة حديث جابر على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان بعد نزول اقرأ؟.

وفرق شاسع بين دلالة حديث جابر على أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد فترة الوحي، وهذه الفترة متأخرة عن قصة الغار، وبين دلالته على أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد (اقرأ) الذي هو المقصود للمستدل.

فالأول، وهو نزولها بعد فترة الوحي مسلَّمة دلالة حديث جابر عليه، لكنه لا مدخل له في تحقيق المقصود للمستدل، وهو أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد (اقرأ) أخذاً من حديث جابر، إذ ليس في حديث جابر دلالة عليه من قريب أو بعيد.

والثاني وهو نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ بعد نزول (اقرأ) ادّعاء لا سند له في حديث جابر المدَّعى دلالته عليه، وإن كان هو الواقع المدلول عليه بحديث عائشة رضي الله عنها.

فالحكم بالضعف، فضلاً عن البطلان أحرى أن ينصبَّ على كلام النووي في رد الحديث، والحكم عليه بهذا الحكم المتسرع الذي لا يستند إلى شبهة، بَلْه حجةً، لا إلى حديث صحّ صحة قاطعة عن صحابي جليل، وهو جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، الذي حدَّث إذْ سئل بما انتهى إلى علمه سماعاً من رسول الله ﷺ، وهو يحدث عن فترة الوحي التي كان أول ما نزل من القرآن عقيب انتهائها وأول عودة الوحي وتتابعه ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فظن أنها أول ما نزل، فأخبر بما علم، وما كان له من علم بما نزل من قرآن قبلها في غار حراء.

واحتمال علمه بما نزل قبلها له مخرج من التأويل الصحيح ـ كما ذكرناه

سابقاً ـ يباعد بين الحديث وبين الحكم عليه بالضعف، فضلاً عن البطلان.

مجازفة أخرى للنووي بالحكم على حديث أبي ميسرة بالبطلان

وقد حكم الإمام النووي بالبطلان ـ أيضاً ـ على حديث أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل الهمداني الذي استدلّ به من يقول بأولية نزول سورة (الفاتحة)، كالزمخشري ومن تبعه من المفسرين.

وحديث أبي ميسرة قال عنه السيوطي في «الإتقان» هذا مرسل، رجاله ثقات، وقال فيه البيهقي ـ وهو راويه في الدلائل ـ: إنه منقطع، والمنقطع من أقسام الضعيف، فإن كان الحديث محفوظاً من غير هذا الوجه فيحتمل أن يكون خبراً عن نزول فاتحة الكتاب بعد ما نزلت (اقرأ) و(المدَّثر) فلا حجة فيه للأولية المطلقة.

وهذا الاحتمال يحمي الحديث من الحكم عليه بالبطلان، لأن الحديث ليس فيه ما يدلّ على ادّعاء أولية مطلقة لنزول فاتحة الكتاب، فالاحتمال قائم، وهو يرد الحديث إلى تأويل سائغ صحيح، فلا يجوز الحكم عليه بالبطلان، وقد قدمنا الكلام على حديث أبي ميسرة نصًّا وتأويلاً بما فيه الكفاية.

أبعد وأغرب ما قيل في أولية ما نزل من القرآن

وأبعد ما قيل في أول ما نزل من القرآن، وأغربه ما ذكره أبوبكر ابن العربي في كتابه: (أحكام القرآن) وتابعه عليه القرطبي منسوباً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال أبو بكر بن العربي في تفسير سورة (اقرأ): القول في أول ما نزل من القرآن، وفيه أربعة أقوال: الأول ـ هذه السورة ـ أي سورة اقرأ، قالته عائشة، وابن عباس، وابن الزبير وغيرهم.

الثاني ـ أنه نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ قاله جابر.

الثالث ـ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما نزل من القرآن ﴿ قل تعالوا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾.

الرابع ـ قال أبو ميسرة الهمداني: أول ما نزل فاتحة الكتاب.

ثم قال ابن العربي: والصحيح ما رواه الأئمة، واللفظ للبخاري، ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي.

وقال القرطبي: في تفسير سورة (اقرأ): هذه السورة أول ما نزل من القرآن في قول معظم المفسرين، نزل بها جبريل على النبي ﷺ، وهو قائم على حراء، فعلَّمه خمس آيات من هذه السورة.

وقيل: إن أول ما نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ قاله جابر بن عبدالله.

وقيل: فاتحة الكتاب أول ما نزل، قاله أبو ميسرة الهمداني.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما نزل من القرآن ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ﴾.

ويظهر أن القول بأولية ﴿ قل تعالوا ﴾ في النزول يتصل بإسرائيليات كعب الأحبار وتفسيراته للكتب الإسرائيلية، فقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن كعب الأحبار أنه قال: أول ما نزل من التوراة عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ﴾ وأخرج أبو الشيخ والطبري عن عبدالله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب الأحبار رجلاً يقرأ ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾ فقال كعب: والذي نفس كعب بيده إن هذا لأول شيء في التوراة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ﴾.

وهذا قول غريب: لا يعرف له سند يوثق به ويعتمد عليه، فهو قول مرغوب عنه، لا تصح نسبته إلى عليّ رضي الله عنه، ولم نرَ أحداً ذكره سوى ابن العربي، الذي تقبَّله القرطبي، فذكره جازماً بنسبته إلى عليّ رضي الله عنه، كجزم ابن العربي.

ونسبة هذا القول إلى عليّ رضي الله عنه من قبيل ما أُكثر عليه من الآراء والأقاويل والروايات الإسرائيلية والفِرْقية التي يخترعها زعماء الفرق المنحرفة تأييداً لنحلهم ومذاهبهم.

أو هو من قبيل أوهام الرواة ـ إن صحَّت النسبة ـ الذين تشتبه عليهم الألفاظ المروية بالمعنى، وليس من المستبعد أن يكون مصدر هذه الأوهام حديث ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وحديث أبي الشيخ والطبري المرويان عن

كعب الأحبار، كما تقدم نصهما ـ إن صحت روايتهما.

ومكان الوهم فيهما ظاهر، ولا سيما إذا كانت الرواية بالمعنى، فقد كانوا يطلقون على التوراة الكتاب الأول، فتكون الرواية عن كعب في الحديث الأول: أول ما نزل من الكتاب، أو الكتاب الأول عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم﴾، وتكون الرواية عنه في الحديث الثاني، حين سمع هذه الآيات تُقرأ أن قال: إن هذا لأول شيء في الكتاب، أو الكتاب الأول، وحذف الوصف اختصاراً، وهو يعني التوراة، فأخذها من يرى الرواية بالمعنى، ورواها بلفظ الكتاب، وتوهَّم أحد الرواة أنه يعني بالكتاب القرآن الكريم، ثم نسبت إلى عليّ رضي الله عنه. والله تعالى أعلم بما هو الحق.

الخطوة الثانية في سير الرسالة
الأمر بالإنذار العام

ارتباط خصائص محمد الرسول ﷺ برسالته وإيمانه بهذه الرسالة

خصائص محمد ﷺ في رسالته لا يحيط بها مداد الأقلام، ولا يستوعبها تسلسل الأفكار، لخلودها بخلود الرسالة التي تضفي عليها هذا التسامي إلى آفاق العزة، ولعمومها آثاراً، وشمولها هدياً في كل زمان، وموطن ، وجيل في الحياة بمقتضى عموم الرسالة وشمولها.

ذلك أن لكل جيل من الناس في زمانه وعصره، وتفكيره، وعلمه، ومعارفه، ونظمه وتجاربه، حظه من معرفة خصائص محمد ﷺ في رسالته، ولكل عصر بما فيه من علم ومعرفة أسلوبه في فهم هذه الخصائص التي تستمد عناصرها المميزة لها على سائر الخصائص المميزة للمصطَفَين من أنبياء الله ورسله من طبيعة الرسالة التي أوتي محمد ﷺ هذه الخصائص من أجلها، إعداداً له للقيام بحقها وموجباتها الإصلاحية.

بيد أن معرفة هذه الخصائص بالقدر المقدور منها لكل من أجيال الإنسانية على امتداد الحياة وتتابع الأعصر، يستوجب التعمق، ودقة البحث في تتبع أطوار سير الرسالة ومعرفة أحداثها، وردِّ تلك الأحداث إلى أسبابها وعواملها، ومعرفة حِكَمها الروحانية والاجتماعية بقدر الطاقة البشرية، والوقوف معها عند آثارها وهدايتها، والاستظلال بظل هذه الهداية والعمل بتلك الآثار، تحقيقاً للتكيُّف الذاتي عند كل مؤمن بهذه الرسالة، ليكون بعمله وهديه صورة مجسمة لها متحركة، تمشي بين الناس، تنادي بلسان حالها عن نفسها، معربة عن حقيقتها العملية في قيادة الإنسانية إلى غايتها من الخير والإصلاح.

وأصل ذلك وعموده الوسيط معرفةُ مقدار صلة كل حادث من أحداث الرسالة بنفس محمد ﷺ، ومعرفة ارتباط كل حادث من حوادثها بإيمان محمد ﷺ برسالة نفسه إلى نفسه ـ أولاً ـ وإلى جميع العالمين ـ ثانياً.

لأن هذا الإيمان هو مصدر تلك الأحداث وموردها، ومعنى ذلك أن محمداً ﷺ في رسالته رسول يحيا مع الحياة والناس والأشياء بهذا الوصف الأكرم، وليس لذاته البشرية مظهر إلا بقدر التكافؤ المهيىء لأداء الرسالة أكمل ما يكون الأداء.

وبمعرفة هذا الارتباط بين إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه، وأحداث هذه الرسالة تتكشف الحجب عن تلك الخصائص التي تلاقي جوها الفكري والاجتماعي الملائم لظهورها في أي جيل من الأجيال، وفي أي عصر من عصور حياة الإنسانية على الأرض.

من هنا يبدأ البحث في تصوير أحداث الرسالة تصويراً تحليلياً، يضع كل حادث في مكانه من واقع الحياة، وموضعه من سير الرسالة في أطوارها التي مرَّت بها حتى اكتمل هديها، ويردّ كل حادث يعرض له البحث إلى أسبابه ودوافعه، وموجباته المعنوية والمادية، بقدر ما تصل إليه طاقة البحث، مع استظهار حِكْمة كل حادث يرى البحث أن له حِكْمة متاحة للنظر والإدراك والمعرفة.

وسيتجنب البحث الاعتماد على مجرد الروايات الواردة هنا وهناك من كتب السيرة إلا بعد تمحيصها سنداً ومتناً، فلا يقبل إلا ما يثبت سنداً، ولا يتعارض متناً مع أصول الإيمان.

وليس معنى ذلك أن البحث يزعم أنه سيتقصى ويستوعب الأحداث والوقائع، فذلك منال دونه إحصاء نجوم السماء.

* * *

بدأت رسالة محمد ﷺ بفجىء الحق له في غار حراء، إذ جاءه الملك فاستقرأه حتى استفرغ بشريته، واستصفى روحانيته، ثم أقرأه أول ما وجهه

بدء رسالة محمد ﷺ كان بأول خطاب قرآني وجه إليه من الله

الله إليه من خطاب قرآني فقال له: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وعاد محمد ﷺ من جواره في متعبده بحراء بهذه الآيات إلى أهله رسولاً إلى العالمين، وكانت معالم النبوة قد تحققت له قبل ذلك بمراتب وحيها الخاص، إعداداً وتمهيداً للرسالة، وشعر ﷺ بفداحة العبء الذي حمل أمانته، وتمثل له المستقبل بما فيه من شدائد الكفاح ومحن البلاء، وأثقال التبليغ، والدعوة إلى رسالته، ليخرج الحياة من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم وهداية الإيمان، وهو المنفرد وحده بتحمل هذا العبء أمام مجتمع يعجّ بألوان من الفساد الاجتماعي، والضلال العقيدي، والانحراف الخلقي ومظالم الاستبداد، وانتشار الأباطيل، وانتحال الأكاذيب.

مجتمع يعبد أصناماً نحتوها بأيديهم، يسفكون الدماء، ويؤلّهون المال والثراء ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقتحمون الشرور، وينكرون البعث والنشور.

رسالة محمد ﷺ نزلت لتهدم الشر، وتبني الخير

ورسالة محمد ﷺ تقتضيه أن يغيِّر ذلك كله، فعليه أن يهدم أطواد الشر، ويقوِّض معالم الفساد، ويقيم منائر التوحيد، ويقضي على الشرك، لتخلص العبادة بجميع مراتبها وصورها لله الواحد القهّار.

وعليه أن يقيم مكان كل باطل يمحوه حقاً يدعمه بالبرهان، ومكان كل ضلال يقتلع جذوره من العقول والقلوب والأرواح هدياً يشرق نوره، فتضيء به العقول، وترشد به القلوب، ومكان كل شر اجتماعي يبيده بدعوته وهديه خيراً يزرعه بعمله، ومكان كل ظلم يرعبله عدلاً ينشره.

ومكان كل رذيلة يمزق أديمها فضيلة يؤسسها، ومكان كل سيئة ينفّر منها إحساناً يحببه إلى النفوس لتتشرب محبته، ومكان كل عبث وفوضى اجتماعية تتهاوى أمام دعوته نظاماً يقوم الناس في ظله بالقسط والحق، ومكان كل تقاطع وتدابر إخاء ومواساة، بل إيثاراً وحباً، ومكان كل تسلط بالبغي والكبرياء الآثمة تراحماً ومساواة، ومكان الفرقة بدعوى الجاهلية وحدة

تقوم على دعائم الإخاء الإيماني في الإسلام.

وإذا كان هذا هو حال مجتمع قوم محمد ﷺ الذين كانوا أول مدعو إلى رسالته، وكان هذا هو حاله وموقفه ﷺ من هذا المجتمع المحصور في جزيرته وأرضه، بين جبالها ووديانها، فما شأن مجتمعات الدنيا وراء هذا المجتمع المليء بالمفاسد والشرور؟ وما حاله وموقفه ﷺ مع تلك المجتمعات الضخمة العريضة المنتشرة في أرجاء الأرض، وهي مدعوة بدعوته، مطلوب منه أن يبلغها رسالته؟.

لقد كانت تلك المجتمعات فيما وراء الجزيرة العربية أفسد حالاً من مجتمع قوم محمد ﷺ، وكانت أصلب في فسادها عوداً، وأقسى شكيمة، وأبعد في الضلال غوراً، وأعمق في الشر قراراً، ذلك لأن مجتمع قوم محمد ﷺ ضلّ طريق الحق والخير جهالة، وتلك المجتمعات ضلُّوا عناداً وبغياً وهم يعلمون، ولا ريب أن ضلال العلم أشد ترسباً في قرارات النفوس من ضلال الجهالة، ﴿ أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه، وأضلّه الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكّرون ﴾[1].

وكان ﷺ قد رأى ذَرْواً من حال أحد أكبر وأعظم مجتمعات الدنيا، وأكثرها علماً وحضارة ومعرفة ونظاماً اجتماعياً، رأى صورة لجانب من المجتمع الروماني في سفراته إلى الشام ـ وهي يومئذ رومانية البزة ـ مع عمه أبي طالب، وكان ﷺ يومئذ في ذروة الطفولية، ومطالع الشباب، ورأى هذه الصورة لهذا المجتمع الروماني مرة أخرى، يوم أن سافر بمال خديجة بنت خويلد، يتجر لها قبل أن يتزوج بها، وكان يومئذ في سواء الرجولية، وهو الذكي، اللبيب، اللمَّاح الأريب، الـذي يزن الأمـور بموازين الاستقـامة السلوكية، وقيم مكارم الأخلاق.

فإذا بذلك المجتمع المتحضر، مستغرق التفكير والعقيدة في خضم

---

(١) سورة الجاثية آية (٢٣).

آسن من الوثنية المفلسفة بالجدل الأجوف، حول الناسوت واللاهوت، والآب، والابن، وروح القدس، ثلاثة هي واحد، وواحد هو ثلاثة، وكأنما العقل الإنساني في غيبة أصحاب القبور، إلى جانب ما هو مستغرق فيه اجتماعياً من مستنقع السلوك المنحرف، الذي ينزُّ بالمفاسد الخلقية، والرذائل المقنعة، فهو مجتمع سادة وعبيد، سادة لا تقيد سلطانَ سيادتهم قوانينُ ولا أعراف، وعبيد ليس لهم من سمات الإنسانية إلا أنهم يتحركون في ظل القهر الفاجر، والبغي اللعين أداء لشهوات سادتهم.

وكان محمد ﷺ قد ترامى إليه من أحوال المجتمع الفارسي المغمور بظلمات الوثنية المادية الإباحية، مما تناقله أرباب الرحلات من تجار قريش وغيرهم، فإذا به مجتمع مشرك كفور، تتعبده الأباطرة والحكام والرؤساء، يستبيحون منه الحرمات، ويفتكون بمقومات الحياة فيه، ليس للشعب أفراداً وجماعات في نظامهم الاجتماعي وجودٌ إلا كما يوجد العبيد سُجَّداً في محاريب العبودية الذليلة، فهو مجتمع ينخر فيه سوس الانحلال وتتناوشه أعاصير الفناء.

وهذان المجتمعان: الروماني، والفارسي، كانا يومئذ عنوان الحياة المتحضرة، الزاخرة بصنوف الترف، وألوان المعارف، والنظم السياسية والاجتماعية، والأوضاع القانونية، والمبادلات المصلحية في التجارات والزراعات، وسائر المنافع والأعمال.

وهما أقرب الدنيا إلى جزيرة العرب التي اختارتها العناية الإلّهية لتكون مثابة لخاتمة رسالات السماء، واختارت من بين أقوامها محمداً ﷺ ليكون حامل أمانتها، والقيام بأعباء تبليغها، ليخرج بها الناس في مجتمعات الدنيا ـ تحقيقاً لعموم رسالته زمناً وجيلاً ـ من ظلمات الشرك والوثنية، بجميع مظاهرها وسائر معالمها، ومن الجهالة الضالة، والظلم والفساد، إلى نور التوحيد، والعلم، والعدل، والإصلاح، والخير، والحق، والهُدَى، ليقيم مجتمعاً موحَّد الإحساس بإنسانيته، موحَّد الشعور بإيمانه وعقيدته، وإخلاص التعبُّد لخالقه، موحَّد الآمال في مستقبله، متعاوناً في تفكيره، وبناء حضارته.

وأي مجتمع وراء هذه المجتمعات في أطراف الأرض، شرقها وغربها، جنوبها وشمالها كان يحمل خيراً في عقيدة أو سلوك خلقي، أو نظام اجتماعي، ضلت عنه شعوب هذه المجتمعات؟!.

لو كان ذلك لنقلته لوافح الرياح في دنيا الناس إلى هذه المجتمعات، ولعرف بسماته منسوباً إلى أصحابه الذين يعيشون في ظله.

وقد كشف الغيب عن أسواء في العقيدة، وشرور في التعبُّد، ورذائل في الأخلاق، وضلال في التفكير فاشٍ في شعوب تملأ أطراف المعمور من الأرض.

نعم كان لدى الإغريق فلسفات وفلاسفة، وعلوم ومعرفة، وكان لدى أساتذتهم الفراعنة علوم وطلسمات وسحر، وكان لدى قدماء الصين فن وحكمة، وكان لدى براهمة الهند ألوان من المعرفة المتصوفة المتزهدة، ولكن هذا كله لم يكن خيراً مما كان لدى الفرس والرومان من علوم وحضارة.

والتاريخ يذكر أن الرومان على عهد ظهور دعوة الإسلام كانوا ورثة الفلسفة الإغريقية والعلوم الفرعونية، فكانوا بما ورثوا على ما كانوا عليه من فساد اجتماعي وسوء عقيدة.

وقد كان الفراعنة مثلاً مضروباً في سوء كفرهم وشركهم بالله، واتخاذهم ملوكهم وحكامهم أرباباً يعبدونهم من دون الله تعالى، وها هي ذي آثارهم تحمل لعنات الشرك وعتو الكفر مرسومة فوق معبوداتهم التي صوروها في متاحفهم ومقابرهم.

أما فن الصين وحكمتها، ومعارف الهند وصوفيتها، فكانت خليطاً من مظاهر الحياة المادية وضروب الارتكاس الروحي والتزهد القاتل للحياة، ولم تؤثر في تلك الفنون والمعارف كلمة تدل على معرفتهم بالله وتوحيده، وإخلاص العبودية له، والناظر في طقوسهم الدينية وأوضاعهم التعبدية على ضوء كتبهم القديمة المقدسة عندهم لا يجد إلا أوضاعاً وثنية تسيء إلى السلوك الخلقي، والتقليد الجاهلي، ولا وزن لأية فلسفة وفن ومعرفة لا تقوم

على أساس العقيدة الإيمانية التي تعرف لله تعالى حقه في إخلاص العبودية له وحده.

* * *

تمثل محمد ﷺ ذلك كله في المجتمع البشري، وتمثل معه موجبات رسالته التي حمَّله الله تعالى أمانة تبليغها إلى هذا المجتمع في أقطار الأرض بادئاً بمجتمعه الخاص، في بلده وقومه وأمته العربية في جزيرتها القاحلة الجرداء، ذات الجبال القفرة التي تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، وتمثل إلى جانبه وحدته وتفرده، وهو يحمل على كاهله عبء ما كُلِّفه، فناءت بحمله قوى بشريته وهي قوى محكمة النسج، عظيمة الاحتمال، فكان لا بد له من قوة فوق قوى أقوى قوى البشرية لتكون عدته في سبيل الوفاء بحق أمانة رسالته تحملاً وأداء وتبليغاً بالقول والعمل والأسوة.

وعاد ﷺ من جواره في متعبده بحراء إلى بيته ليلمَّ بأهله، ويستنشق عبير الأنس من نسيم مودتهم، ويستروح روح التثبت من كلمات زوجه سيدة نساء العالمين، العاقلة اللبيبة، المتوسمة المتفرسة، السيدة خديجة رضي الله عنها، وهو يحمل في سماته ومشرق وجهه الكريم نور رسالته الخالدة، وفي قلبه وعقله صدق العزيمة على القيام بواجبه نحو رسالته.

معجزة التحدي في رسالة محمد ﷺ معجزة علمية روحانية

وكان أول ما نزل عليه من آيات بدأت بها رسالته هو بدء معجزته التي أمر أن يتحدى بها الإنس والجن، فعرف أنه انفرد من بين أنبياء الله ورسله بمعجزة مباينة لسائر معجزات الأنبياء والرسل، فهي ليست معجزة مادية تقسر الناس قسراً، وتأخذ العقول كَرْهاً إلى الاستجابة لدعوته والإيمان برسالته، فعرف أنها لا تكون عصا تنقلب ثعباناً يسعى، ويتلقف سحر السحرة الذين لم يملكوا أنفسهم أمام هذا التحدي القاهر حتى آمنوا برب هارون وموسى، وعرف محمد ﷺ أن معجزته المتحدية لا تكون إبراء أكمه، مُسح بصره، ولا إبراء أبرص استعصى برؤه على طب أبرع الأطباء في دنيا العلم، وأنها لا تكون إحياء ميت وُسِّد جسده أطباق الثرى، ولا نفخاً في صورة من طين، فتكون طيراً حياً يطير على مرأى أعين الناس وحسهم، ولا

ناقة تخرج من صخرة، وثقبها بين يديها يمشي ويرغو، ولا ناراً تفقد كل أثر وضع في طبيعتها قهراً لهذه الطبيعة، وتمزيقاً لنواميسها، ولا شيئاً يقلب أوضاع الحقائق المادية، ويغلل العقول بسلاسل العجز القاهر عن الوقوف أمامها مفكراً، متأملاً ليعلم ويعرف ويدرك ويفقه، ويستجيب إلى الإيمان بغير إكراه.

فمعجزة محمد ﷺ التي وقع بها التحدي كانت منذ أول لحظات وجودها معجزة علمية، تخاطب العقل وتتحدّاه، وتنادي القلب والوجدان، لا تكره أحداً على الإيمان بها لعجز عقله عن فهم حقيقتها، كالمعجزات المادية، ولكنها معجزة تدعو كل أحد إلى النظر فيها والتعمُّق في فهم حقائقها، وتدعوهم إلى الإيمان بها وبرسالتها وتصديق رسولها إذا تأملوها بعقولهم وقلوبهم وأرواحهم، ووجداناتهم، وفهموا ما جاءت به من علم نافع، وحكمة مسدّدة، ومعرفة فاضلة، وأدب يعتصم بعقيدة التوحيد لله تعالى، خالق كل شيء.

ومن هنا أخبر النبي ﷺ بفيصل ما بين حقيقة معجزته، ومعجزات إخوانه الأنبياء والمرسلين من قبله، وأخبر بآثار معجزته ومعجزاتهم في تحقيق الإيمان برسالته ورسالاتهم، فقال فيما يرويه الصحيح: «ما من نبي إلا أوتي ـ أي من المعجزات ـ ما على مثله آمن البشر ـ أي كرهاً وقهراً ـ وكان الذي أوتيته ـ أي المعجزة المتحدية ـ وحياً أوحاه الله إليّ ـ أي علماً وهداية ليس فيه قهر للعقول، ولا إكراه للنفوس ـ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

ومعنى ذلك أن معجزته خالدة بخلود رسالته، يتجدد إعجازها بتجدد الحياة في تفكيرها ومعارفها، وقد بسطنا القول في ذلك بسطاً مسهباً عند وقفتنا مع الذين فسروا (الخشية) تفسيرات متخرصة في قوله ﷺ لأهله: «لقد خشيت على نفسي» وهو يحدثهم عما حدث له في مفاجأة الغار، حيث بدأت رسالته، وأبدَى لهم في حديثه تخوفه أن تتكاءده العقبات وهو يبلِّغ رسالة ربه، وكان قد ظهر على سمته البشري أثر هذا التخوف، فشجعته زوجه

الوفية الأمينة، وذكرت له ما تعالم بين قومه من منن الله تعالى التي فطره عليها من مكارم الأخلاق، التي جرت سنة الله في خلقه ألا يخزي من يتحلَّى بشمائلها.

عزيمة الكفاح الصبور كانت عدة محمد ﷺ في تبليغ رسالته

وبهذا عرف محمد ﷺ أن رسالته رسالة كفاح صبور، ونضال شاق مرير، لا مجال للراحة في أداء واجباتها، وعرف ﷺ أن عليه في سبيل تبليغها إلى الناس وهم على ما هم عليه من شر وفساد أن يتحمل من فوادح البلاء، وشدائد الإيذاء بالقول والفعل من أعداء الحق والعدل والإيمان بالله الواحد الأحد ما تنوء بحمله الرواسي الشامخات.

ومن الطبيعي في تأثرات الطبائع البشرية أن يحدث هذا التفكير مع تمثل المشاق التي تعترض السير في تبليغ الرسالة أثره في سمات محمد ﷺ البشرية، فرُعب وأُرعد بدنه إشفاقاً على نفسه أن تقف العقبات المتمثلة في مجتمعه من رواسب الجاهلية دون بلوغ غايتها في أداء أقصى واجباته في تبليغ رسالته.

فطلب إلى أهله أن يزمِّلوه، ليهدأ روع تفكيره في أعباء ما ينتظره من شدائد المواجهة مع هذا المجتمع الفاسد المفسد، ويستجمع عزائمه لينهض بأثقال ما حُمِّل مهما تكن العقبات والحواجز، فزملوه حتى ذهب عنه ما كان يجده، ونهض عائداً إلى مأنسه الروحي، ومتعبده في حراء.

وفتر الوحي أياماً، لم ينزل عليه فيها قرآن، ليستجمّ ويكتمل إعداده نفسياً، ويزداد شوقه إلى تنزلات الوحي بآيات ربه، ويعظم تشوقه إليه، ويتسامى تطلعه إلى إشراقه، ليتلقَّاه بعزيمة صادقة، وقوة روحانية راسخة، ورغبة مصممة.

وقد تحقق ذلك كله في نفس رسول الله ﷺ حتى كان من شدة تشوقه إلى تنزلات الوحي، وتشوفه إلى تلقي آيات ربه، يذهب فيتنسم نسائمه في منازله، ويتردد عليها ليستطلع طلائعه في معاهد تنزله، وهو ﷺ على أكمل مراتب اليقين بفوزه بأعظم نعمة من ربه، برسالته الخاتمة الخالدة، حتى استحوذ الشوق على مشاعره وإحساساته، ومداركه، فلم يترك عنده مكاناً

لغيره، وكان ﷺ آنئذ كأنما عاد إليه حاله في مدى قوة بشريته المحدودة ساعة لقيه الأمين جبريل لأول مرة في مفاجأة الغار، روحانياً خالصاً، لم تقو بشريته على احتمال أشواقه للوحي الذي ارتفع به فوق آفاق الحياة، فكان إليه شوقه، وبه أنسه.

ولما أتم ﷺ جواره خرج من متعبده عائداً إلى بيته ليلمّ بأهله، فتبدى له جبريل عليه السلام في صورة روحانية عالية، هاله منظرها، لأنه لم يسبق له أن رآه على مثلها، ولا كان يتوقع أن يراه عليها، وهو في غمرة الشوق إليه والتشوُّف للقائه، فكانت مفاجأة أخرى، عاوده عندها ـ بمقتضى تأثراته البشرية ـ بعض ما كان وجده في المفاجأة الأولى مفاجأة الغار والغط، والإقراء، فرُعب، وانجلى عنه تجلِّي جبريل في صورته الملائكية، وذهب إلى أهله، وعلى سمات بشريته أثر ما كان من هذه المفاجأة، وقال لهم: (دثِّروني، دثِّروني) فدثَّروه، وجاءه جبريل بقوله تعالى: ﴿ يا أيها المدَّثر * قم فأنذر * وربك فكبِّر * وثيابك فطهِّر * والرجز فاهجر ﴾.

خمس آيات بدأ بها الوحي بعد فترته، كخمس آيات بدأ بها أول تجلياته، وكانت التجلِّيات التي افتتح بها تَنَزُّل التنزيل من سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ تصويراً لأخص خصائص الرسالة، التي تحمل عنوان الإعجاز البياني، إلى جانب الإعجاز المعنوي الفكري، في معجزة القرآن الكريم.

بيان يحقق معاني آيات بدء الوحي بعد فترته

وكانت آيات بدء عودة الوحي بعد فترته تهييجاً لعزيمة رسول الله ﷺ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربه، فيمضي قُدُماً بدعوته، لا يبالي العقبات والحواجز، كما كانت إثارة لحوافز الجد في الدعوة إلى الله تعالى.

كان هذا النداء المتلطف ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ إيذاناً بشحذ العزائم، وتوديعاً لأوقات النوم والراحة، والتلفف بأثواب الهجوع والتلبث، انتظاراً للأحداث يسوقها الزمن في سيره، فتتحكم بواقعها في سير الرسالة، التي يجب أن تنطلق في سيرها حرة من كل قيد، يقعد بها عن المضي إلى غايتها الإصلاحية.

كان هذا النداء المتلطِّف ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ المثير إشعاراً بطلب الجد الجاد في الأمر، جداً يسبق الأحداث، ولا ينتظرها ويسابق الزمن، ولا يني في حركته، متوثباً إلى غايته.

ولهذا جاء عقب هذا النداء المتلطف المثير الأمر الجازم بالنهوض، والتشمير المصمم، فقيل خطاباً للنبي ﷺ بوصفه الذي كان عليه ساعة المواجهة بالخطاب (قم) أي انهض بكل ما آتيناك من قوة العزم في حزم مشمِّر، ودع عنك ما أنت عليه من التدثُّر، لأن الأمر بالقيام في هذا المقام لا يراد منه مجرد النهوض، وترك التلفف في الثياب، وإنما يراد منه العزيمة الناهضة في قوة حازمة، تتحرك ماضية في اتجاه ما كُلِّفه من صدق العمل، تحقيقاً لأداء واجب التبليغ.

فتعقيب النداء المتلطف المثير الأمر بالقيام عنوان على أقصى ما يطلب من الاهتمام، ولهذا ربط به الأمر بالإنذار بحرف (الفاء) المقتضي ترتيبه على تحقيق القيام بمعناه المقصود، كما يرتبط الجواب بالشرط في الترتيب وتعليق الحصول في واقع الوجود.

والإنذار هو التخويف من بطش الله وانتقامه ممن يخالف عن أمره، ويلحد في آياته، ومجيء الأمر بالإنذار في الخطوة الثانية من ابتداء الرسالة بعنوانها الأخص ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ملايم أشد الملايمة، ومناسب أقوى المناسبة لحال المواجَهين بالدعوة، المطالبين بالإيمان بها في بوادر إشراقها، لأنه لم يكن فيهم من دواعي التبشير ما يقتضي إيناسهم بل هم أحوج إلى الإزعاج والإرهاب، ليقتلعهم من سوء ما ارتطموا فيه من أوحال وفساد حتى ينظروا في حالهم، ويتفكروا في مآلهم، عسى أن يلحقهم بعض الندم، فيفيقوا من سكرتهم ويستيقظوا من غفلتهم، ويتدبروا شأنهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فيفيئوا إلى ظل من الإيمان والهُدَى، ويجيبوا داعي الله، ويؤمنوا برسالته، ويهتدوا بهديه، ويعتصموا بحبل دعوته، تاركين ما هم عليه من وثنية بليدة، وضلالة جاهلة، وانحرافات خُلقية، وفساد اجتماعي، وتظالم فاجر، يستعبد فيه الغني الفقير، ويستبد فيه القوي بالضعيف.

وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التبشير في أول خطاب وُجِّه إلى النبي ﷺ بعد فترة الوحي إيذان بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والنضال المرير، ليكون ﷺ على يقين من أمر رسالته، فيما سيلقاه في سيرها، فيعد نفسه لتحمل ما ينوبه من صنوف البلاء والإيذاء، وليعلم ﷺ أن كفاحه يعتمد أول ما يعتمد على الحجة التي توقظ العقول من غفلتها، وأن نضاله يعتمد على الصبر والمصابرة، ليستطيع القضاء على الطغيان الفاجر الذي يملأ حياة أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وينقذ المعذبين في الأرض من المستضعفين، ويشعر أبناء الإنسانية قاطبة بحقهم في الحياة والعيش الكريم في ظل من الحرية الذاتية التي تشمل الفرد والجماعة والأمم والشعوب، حرية لا يعبد في ظلها إلا الله وحده يخرجهم بها من ظلمات الشرك ومفاسد الأخلاق إلى نور الإيمان والتوحيد ومكارم الفضائل.

ثم زادت الآيات في تقوية عزيمة النبي ﷺ، وشدِّ أزره، وحضِّه على المضي قُدُماً إلى غاية ما أُمِر به، غير عابىء بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها فقيل له: ﴿ وربَّك فكبِّر ﴾ أي لا تعظِّم شيئاً من أمور الخلق، ولا يتعاظمك منهم شيء، فلا تتهيب فعلاً من أفعالهم، ولا تخشى أحداً منهم، ولا تعظِّم إلا ربك الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فربَّاك على موائد فضله، ورعاك بإحسانه وجوده حتى أخرجك للناس نبياً ورسولاً، بعد أن أعدَّك خَلْقاً وخُلُقاً لتحمل أمانة أعظم رسالاته.

وفي إضافة الاسم الأكرم بعنوان الربوبية إلى ضمير الخطاب الموجه للنبي ﷺ تأنيسٌ له ﷺ في سير رسالته إلى غايتها، وتعريف له ﷺ بأنه في وحدته وانفراده بحمل عبء تبليغ دعوته، وما سيلاقيه في سبيلها، يأوي إلى ركن شديد، ويعتصم بقوة ربه القوي القهَّار، ذي البطش والانتقام من أعدائه وأعداء رسله، ورسالاته، ومن هنا يظهر سر تقديم الاسم الأكرم بإضافة التخصيص والتشريف على فعل الأمر المقرون بحرف (الفاء) في هذه الآية الكريمة ﴿ وربَّك فكبِّر ﴾ ليفيد أن كل تعظيم وتكبير وإجلال حق لله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقاته.

وفي هذه الإضافة أيضاً بهذا الأسلوب الحاصر، وعد كريم من الله تعالى، وحفاوة رحيمة برسوله محمد ﷺ، وتذكير له بنعم الله عليه، في سوابق فضله، ولواحق مننه وأنعامه، والتذكير بالنعمة يتطلب القيام بحق شكرها بما يتناسب مع قدرها.

وقول الله تعالى لنبيه ﷺ في الآية الرابعة من هذه الآيات البينات ﴿ وثيابك فطهِّر ﴾ تحضيض على قيامه في الإنذار قياماً طاهراً، زاكياً، إبقاء على ما فطر عليه من الكمال الخُلقي، وهو أعظم عون على النهوض المشمِّر في تبليغ الرسالة، فهو من تطهير النفس وتزكيتها، وتكميلها بأرفع الفضائل، وأكرم المكارم، لأن النبي ﷺ وهو الطاهر المطهَّر، النظيف المنظَّف، لا يقال له في أول خطوات سير الرسالة: طهِّر ثوبك، أي جلبابك الحسي الذي تستر به بدنك، وتتجمل به في حياتك مع الناس وتلبسه درءاً للفحة الحر، ولذعة القر، ولمَّا يدخل الناس في ساحة الإيمان، ولمَّا تنزل شرائع الإسلام من التطهير الحسي والنظافة المادية حتى يقال: إن هذا خطاب تُقصد به الأمة لإرشادها إلى التجمل والتنظُّف.

وإنما المقام مقام التسامي إلى آفاق الكمال المعنوي في تهذيب النفس، وإعدادها بأكمل الأخلاق الاجتماعية التي تشتد إليها حاجة الداعي إلى الإيمان برسالة الله تعالى، التي جاءت لتقوض دعائم الفساد التي يقوم عليها بناء المجتمع البشري يوم ذاك، ولتبنى مكانها دعائم تقوم عليها صروح الخير والإصلاح.

فكأنه قيل له ﷺ، فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتك في كمال إنسانيتك بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته ليعدَّك بها ليومك هذا أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخُلق الاجتماعي، صبراً، وحلماً، وعفواً، وإحساناً، ودؤوباً على الجد في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى، لا يثنيك إيذاء، ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء.

ثم ختمت الآيات الكريمات بما عاد بها إلى ما بدئت به من تهييج عزيمة النبي ﷺ وإثارة حوافز الجد والنَّصب في سبيل القيام بتبليغ رسالته، فقيل له: ﴿ والرجز فاهجر ﴾ أي إنك في تساميك عن النقائص، وتنائيك عن التدنس بصغائر الأمور التي تخدش إنسانيتك وتمس كمالك في رسالتك كالذي هجر أسباب ذلك تطهراً وتعبداً بعد أن كان له هذا التطهر جبلة وفطرة، فلتدم على ما أريد لك من الاتساق بين فطرتك في تطهرها، وبين كسبك هذا التطهُّر تعبُّداً وتكليفاً.

وتفسير (الرجز) بالأوثان في قول أبي سلمة بن عبد الرحمن ـ كما جاء في حديث البخاري ـ تفسير بأول وأهم ما يجب هجره والتباعد عنه تكليفاً وتعبداً، ولو كان مهجوراً فطرة وتطهُّراً، وفي التعبير بالهجر مع تحقق الترك والتباعد منه ﷺ لطيفة بيانية، لأن الترك الجبليّ الذي يكون أثراً من آثار الفطرة لا يقتضي وجود شعور به ونية تقصده، وأما الهجر فلا يتحقق معناه المقصود بالتكليف إلا إذا كان الترك مشعوراً به في القلب، مقصود الوقوع في الوجود، منوياً بالعزيمة وإرادة التحقق.

فكأنه قيل له ﷺ: ليكن قصدك ونيتك في تركك ما تركت فطرة وطبعاً هجره تكليفاً وتعبُّداً، لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك.

وهذا كله من قبيل الإعداد والإقدار على تحمُّل أعباء الرسالة، وأثقال التبليغ.

الاستمرار بالدعوة

بهذا الإعداد القوي، والتربية المحكمة، والدفع المتوثب، وتهييج العزيمة وشحذ الإرادة، وإثارة حوافز الجد الناهض، وصرامة التوجيه من كل ما اشتملت عليه آيات بدء عودة الوحي بعد فترته من دواعي التشمير للقيام بواجب تبليغ الرسالة، إلى جانب ما كان في فطرة النبي ﷺ، وجبلّته من خصائص الاصطفاء لرسالة الخلود ـ نهض محمد ﷺ ممتثلاً أمر ربه، مجيباً داعي الله في تبليغ رسالته.

وكان قد استجاب له ﷺ من قبل نزول آية الإنذار العـام، مطلع رسالته بفجىء الحق، ومجيء الملك إليه برسالة ربه في أول لقاء يقظي بغار حراء، ونزوَل أول ما أنزل الله تعالى من القرآن الكريم، إيذاناً بميلاد الرسالة، وبدء وحيها ـ أبو بكر الصديق، والسيدة خديجة رضي الله عنهما، واستجاب مع كل منهما خلصاؤه الذين سمعوا النبأ العظيم، فلم يسألوا عنه، ولم يتساءلوا، بل أسرعوا إلى الإيمان فآمنوا، وأصفياؤه الذين لم يترددوا في قبول دعوة الحق مذ سمعوا منادي الإيمان ينادي أن آمنوا بربكم فآمنوا، فدخل مع خديجة في بحبوحة الإيمان أهل بيت النبي ﷺ، بناته الطاهرات المطهَّرات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة سيدة نساء العالمين، وربيب النبوة وحضينها علي بن أبي طالب، والحِب زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فلم يكن في بيت رسول الله ﷺ إلّا مؤمن بدعوته، مصـدِّق برسالته، مغمور بأنوار هدايته منذ بدأت الرسالة بإنـزال ﴿ اقرأ بـاسم ربك ﴾.

ودخل بدعوة الصدِّيق رضي الله عنه إلى ساحة الإيمان من رفعهم الله تعالى إلى ذروة السبق، فقبلوا دعوة الحق، ممن أنس إليهم أبو بكر، وعرف فيهم مخايل العقل، فحدثهم عن الصادق الأمين محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من خير وهدى، اصطفاه لتبليغه للعالمين، فأسرعوا مجيبين، وأجابوا ملبِّين، وذهب بهم الصدِّيق إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا بين يديه إذ دعاهم إلى الهدى، فآمنوا بدعوته وصدَّقوا برسالته، فكانوا رعيل السبق إلى الإسلام، وطليعة الإيمان برسالة محمد ﷺ، فهم أسبق السابقين، بعد الصدِّيقَين أبي بكر وخديجة رضي الله عنهما، وبعد خواص البيت النبوي الكريم، وبهذا السبق كان هؤلاء السُّبق عمد الدعوة ودعائمها، وألسنة الصدق الداعية إليها.

حكمة الاستسرار بالدعوة

بيد أن رسول الله ﷺ رأى بتسديد الله وتوفيقه أن الحكمة تقتضيه في أول خطوات سير الدعوة أن لا يسرع إلى معالنة مجتمع قومه المتعزز بوثنيته، المتعظِّم بشروره ومفاسده الخُلقية والاجتماعية، وأن لا يجهر لهم بتبليغ رسالته إليهم، وأن يتخذ من بدء الإنذار العام تمهيداً يسري فيه صوت الدعوة إلى المجتمع هادئاً، هامساً، ليهيىء القلوب والأسماع التي تقبل الصيحة المدوية عندما تحين فرصتها في الغد القريب، فلتكن الخطوة الأولى في سير الرسالة، وامتثال الأمر بالإنذار العام بمثابة إلقاء البذر في الأرض الصالحة المستصلحة المتخيرة، رجاء أن تنبت وتثمر حتى تصل الدعوة هادئة قوية الجذب إليها إلى قلوب مستعدة لتقبل دعوة الحق، وإلى عقول مستنيرة بنور الفطرة الأصيلة الصافية، ليكون هؤلاء الذين سبقوا إلى الاستظلال بظلها ـ وهي غضة أقرب ما تكون عهداً بالسماء، تسري إلى القلوب والعقول والوجدان بدفعها الذاتي، وقوة تَسَرُّبها إلى شرايين الحياة في النفوس، كما يسري نمير الماء إلى أفئدة الظمأى في هجير الصحراء ولفح السموم ـ عدة كفاحها، وقوة دعمها، وصلابة عودها، عند الجهر بها للذين على قلوبهم أقفالها، عناداً، وجحوداً واستكباراً في الأرض بغير الحق، وهؤلاء المستكبرون هم الذين يحتاجون من الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ إلى صبر الكفاح، ومصابرة المحاجة، ونضال العناء ومجاهدة البغي، ومقاومة الظلم

الملحد، والاستبداد الكفور.

ومن ثَمَّ آثر رسول الله ﷺ الاستسرار بالدعوة، والاستخفاء بالتبليغ في مطلع سير الرسالة بعض الوقت، ليعدّ لها أرضاً صلبة تقف عليها في كفاحها ونضالها.

ولم يكن الاستخفاء بالدعوة واستسرارها موقفاً سلبياً لا حركة فيه، ولكنه كان أبلغ موقف إيجابي في دوافعه وآثاره، لأنه كان موقف التأسيس والإعداد، والتربية النضالية، والكفاح الصبور، وتخيُّر المواد لبناء المجتمع الإسلامي الذي تحيا في ظله الرسالة الخالدة، لتكون هذه المواد التي يبنى منها هذا المجتمع قوية التماسك، شديدة الصلابة في إيمانها، موحدة الحركة إلى غايتها، فلم يكن ﷺ وسُبَّق أصحابه يدعون في هذه المرحلة كلّ كفَّار عنيد، جوَّاظ جحود، وإنما كانوا يدعون من يأنسون إليه، ويرون في قلبه قبساً من نور الفطرة الأصيلة.

واتخذ رسول الله ﷺ من دار الأرقم عند أصل الصفا أول معهد لتعليم المسلمين أمور دينهم، وإقرائهم ما ينزل عليه من آي القرآن المبين، ويستقبل فيها من يقبل على الإسلام يريد اعتناقه.

وكان رسول الله ﷺ دائب الحركة، يدعو إلى الله، لا يستحسر، ولا يفتر، وكان يلمّ بالبيت الحرام كثيراً، يطوف به متعبداً إلى الله تعالى، والملأ من قريش قعود حول الكعبة، يسمرون في هجر وعبث.

وكانوا قد تسامعوا بدعوته، وصكَّت آذانهم معالم هدايته، وعرفوا الكثير ممن اتبعه وآمن به، فلم يبادروه بإنكار، ولكنهم كانوا إذا رأوه يطوف بالبيت اكتفوا بالإشارة إليه إذا مرَّ بهم في مجالسهم، يقولون: إن غلام بني عبد المطلب ليُكَلَّم من السماء، ولم يكن منهم إليه كبير أذى، ولا مناكرة.

وبهذه المسالمة التي كانت أثراً من آثار الحكمة في الاستسرار بالدعوة، تمكنت بها الدعوة في زمن استسرارها من السير إلى القلوب والعقول، فدلف إلى حظيرتها في دار استخفائها عدد غير قليل من فتيان قريش، وذوي

بيوتاتها، والوافدين على مكة من غير أهلها، من صادقي الإيمان أقوياء العقيدة، الذين تخشى قريش في عتوها شجاعتهم، وقوة بأسهم، فكان هؤلاء قوة للضعفاء والمستضعفين الذين آمنوا على حذر من قومهم أن يفتنوهم في دينهم.

أوّل صلاة قبل الفريضة العامّة

الصلاة الأولى قبل فرض الخمس ليلة الإسراء

يذكر رواة السيرة النبوية أن الله تعالى فرض على رسوله ﷺ صلاة أول ما أوحى إليه، كما يؤخذ من حديث أسامة بن زيد، عن أبيه زيد بن حارثة، فكان ﷺ يصلِّيها، ويعلِّمها أصحابه، وهم مستخفون بإيمانهم ودعوتهم إلى الله، فكان ﷺ إذا أراد أن يصلي ذهب إلى الشعاب ليصلي بعيداً عن أعين أعداء الله المشركين، أعداء الحق، وكذلك كان أصحابه يفعلون.

قال أبو جعفر الطبري: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا إلى الشِّعاب فاستخفَوا من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب النبي ﷺ في شِعْب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلُّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْي جمل، فشجَّه، فكان أول دم أهريق في الإسلام.

وذكر ابن إسحاق أن بعض أهل العلم حدَّثه أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل، فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلَّى بها رسول الله ﷺ

كما صلَّى به جبريل فصلَّت بصلاته.

قال ابن سيد الناس في «العيون» بعد أن أورد رواية ابن إسحاق: كذا ذكره ابن إسحاق مقطوعاً، وقد وصله الحارث بن أسامة، فرواه بسنده إلى الزهري عن عروة عن أسامة، عن أبيه زيد بن حارثة، ثم قال صاحب «العيون» ورويناه من طريق ابن ماجه عن إبراهيم بن محمد الفريابي، عن حسان بن عبدالله، عن ابن لَهيعة، عن عقيل عن الزهري بسنده بمعناه، قال: وقد روى عن البراء بن عازب، وابن عباس رضي الله عنهم وفي حديث ابن عباس: وكان ذلك أول من الفريضة.

وفي حديث عفيف الكندي الذي أخرجه صاحب «العيون» من طريق ابن إسحاق، وهو مخرَّج في سيرته، قال عفيف: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر، ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى، فأتاه رجل مجتمع فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلِّي، فخرجت امرأة فتوضَّأت، ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق، فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، فقلت: ويحك يا عباس: ما هذا الدين؟ قال: هذا دين محمد بن عبدالله ابن أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه. قال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام: يا ليتني كنت رابعاً.

وأخرج ابن إسحاق في سيرته أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شِعَاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا كذلك، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا.

أول دعوة أبي طالب إلى الإسلام

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال «أي عم؟ هذا دين الله، ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم أحق من بَذَلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه».

فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه، ولكن لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت.

قال ابن إسحاق: إن أبا طالب قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبتِ، آمنت برسول الله - ﷺ - وصدقت بما جاء به، وصلَّيت معه لله، واتبعته، فقال له أبوه: أما إنه لم يدعك إلّا إلى خير، فالزمه.

من آثار حكمة الاستسرار بالدعوة

في هذه الرواية من الحقائق والمعاني ما ينبغي التنبيه عليه، لاستشفاف حكمته، وتبينُّ أسبابه ودوافعه.

أولاً - إن النبي ﷺ في مدة استسراره بدعوته، وتبليغ رسالته كان يستخفي من عامة قومه، من قرب منهم، ومن بَعُد، وكان يقصر دعوته على من يأنس إليه ويطمئن إلى استجابته، أو يأمنه على كتمان ما عرض عليه، ويضمن صمته عن التحدُّث بما أفضى به إليه.

وكان أقرب قرباه إليه في عصبة النسب أعمامه، ولم يعرف أنه ﷺ

قصد إلى دعوة أحد منهم للإيمان برسالته في مدة استسراره بالدعوة إلى قبول رسالته واعتناق دينه.

وكان في طليعتهم والمقدم فيهم عمه صنو أبيه، أبو طالب الذي ورث زعامة بني هاشم بعد وفاة أبيه عبد المطلب، والذي انتقلت إليه كفالة ابن أخيه محمد بن عبدالله ﷺ وهو في مشرق طفوليته، بعد أن فقد أباه، وأمه، وجدّه، فحدب عليه، وصبَّ به وأحبه حباً شديداً، والتزمه فلم يفارقه في سفر أو إقامة، وكان يؤثره على جميع أبنائه، حتى شبّ محمد ﷺ في كنف هذه الرعاية الحانية، وبلغ مبلغ الرجال، فأثَّله عمه أبو طالب بتوجيهه إلى الاتجار بمال خديجة بنت خويلد الأسدية، سيدة نساء قومها يومئذ ثم زوَّجه بها، وأمهرها له من خاص ماله، وكان حب أبي طالب لابن أخيه محمد ﷺ يزداد وينمو، ووفاؤه بالحدب عليه ورعايته يتصاعد، ويسمو، حتى اختار الله محمداً نبياً، وبعثه لعباده رسولاً، فشَرِقَت ببعثته غطاريف الوثنية، وغُصَّت برسالته حلاقيم رؤوس الشرك، وشنفت به زعامات العتو والطغيان في قريش، واستشرى إليه شرهم، واشتعلت في صدورهم نيران أحقادهم، فقام دونه عمه أبو طالب، يدافع عنه، ويحمي حوزته، ويرد عنه، فلم يستطع أحلاس الشرك، وعبيد الوثنية أن ينالوا من محمد ﷺ نيلاً، حياة عمه أبي طالب، حتى إذا هلك أبو طالب امتدت إلى رسول الله ﷺ حينئذ سفاهة السفهاء بالإيذاء، وسوء القول، وكان النبي ﷺ يذكر لعمه هذا الموقف منه ومن دعوته ورسالته، فيقول: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» وهذا القول من النبي ﷺ يؤكد موقف عمه منه، حدباً، ورعاية، وحماية.

ثانياً ـ إن أبا طالب عاش ردحاً من الزمن في بعثة النبي ﷺ، قريباً من عشر سنين، وهو في هذه الفتـرة كما كان قبلها ظل على ما كان عليه، حباً لمحمد ﷺ، ووفاء له وحَدَباً عليه، وحماية له، وذوداً عنه، وهو ﷺ يؤدي رسالته، ويبلغها إلى من يستطيع إبلاغها إليه وأبو طالب على شركه ووثنيته، وهو أقرب قرابة محمد ﷺ إليه، لأنه أخو عبدالله أبي محمد ﷺ لأمه وأبيه،

وهو ألصقهم به، وألزمهم له، وأعرفهم بمدخله ومخرجه، فكان أعظمهم قياماً دونه والذود عنه، وأصدقهم عزيمة في التضحية من أجله، وأقواهم شكيمة في الوقوف إلى جانبه.

ومع ذلك كله لم يعرف أن النبي ﷺ آثره على سائر عمومته بدعوته إلى الإيمان برسالته مدة استسراره بدعوته.

وقد مكث النبي ﷺ مستسراً بدعوته قريباً من ثلاث سنين، وهذه الدعوة التي تقول هذه الرواية أن النبي ﷺ توجه بها إلى عمه أبي طالب، ودعاه فيها إلى دينه، دين الله تعالى وملائكته ورسله ودين أبي العرب إبراهيم الخليل عليه السلام، هي أول دعوة عرفت أن النبي ﷺ دعا فيها عمه إلى الهدى ودين الحق، وبذل النصيحة.

وهي ـ على ذلك ـ كانت أثراً من آثار لقاء المصادفة، لم تُستهدف بقصد بدياً، وإنما كانت ضرورة ساق إليها الاتفاق الذي لم يكن متوقعاً، كما تقتضيه الرواية.

وفي إجابة النبي ﷺ عن سؤال عمه: (ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟) لمحات من الإشفاق الرفيق، والرحمة الحانية، والحرص على اجتذاب قلب عمه إلى ساحة الإيمان، ليسلم وجهه لله تعالى ويخلع الأنداد، ويترك عبادة الأصنام، وشعائر الشرك والوثنية.

فقد دعاه النبي ﷺ إلى التصديق برسالته، وقبول هدى الله الذي بعثه به إلى عباده، بأسلوب جمع أحب ما يمكن أن يكون من طرائق الترغيب والإثارة العاطفية وإيقاظ العقل، من أجل ما اختص به أبو طالب من الحدب عليه في أوقات الشدة والأزمات، ليحرِّك في قلبه وعواطفه نوازع القربى، ويلفته إلى مفخرة مفاخر العرب في التاريخ بذكر منقبة الانتساب إلى إبراهيم خليل الله عليه السلام، فقد خصَّه النبي ﷺ بالذكر بعنوان أبوته للعرب، وخاصة قريشاً سادنة البيت الذي أقامه إبراهيم وابنه إسماعيل وجعله الله مثابة للناس وأمناً لأهله والوافدين عليه، ومرتفقاً لعيش قريش ورزقها، ومتَّجراً يهوي إليه الناس بما معهم من منافع يتبادلونها، ومحمدة وذكراً صالحاً في دنيا التاريخ.

ورد أبو طالب على رسول الله ﷺ في هدوء يلفه خوف قالة الناس، وأبى أن يجيب إلى الإسلام، وأدركته حمية الجاهلية وعصبية القومية، فقال: إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولم ينسَ أبو طالب مآثره مع ابن أخيه محمد ﷺ، ولم يكن ليجهل أبو طالب أن قومه سيعادون ابن أخيه إنكاراً لما جاء به من الهدى وينصبون له شواخص البغضاء والمقاومة على طريق سير رسالته، فواتته عصبيته الخاصة له في مواقفه السابقة فقال له: ولكن ـ أي مع عدم إجابتي لدعوتك وإقامتي على دين آبائي، مثل قومي ـ لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ، وقد وفى أبو طالب بوعده، واحتمل الشدائد والأزمات معرِّضاً نفسه وآله لأخطر المواقف مع قومه، دفاعاً عن محمد ﷺ.

رسالة محمد ﷺ إنسانية لا تعرف عصبيات القومية والقرابة

هذا وضع قد يبدو غريباً لمن لم يمعن النظر في جَوّ الأحداث، ويتعرَّف إلى أسبابها القريبة والبعيدة في تأمل متعمق، وفهم متفقه في الدوافع التي أفضت وتفضي إلى تلك الأحداث ومثيلاتها حتى يتبين للناظر حكمتها، وما تستهدفه من مقاصد وغايات.

فالنبي ﷺ أُمِر بالإنذار العام في أول آيات نزلت بعد فترة الوحي، إذ قيل له: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ وكان عمه أبو طالب أقرب الناس إليه، وألصقهم به، وأخلصهم له، فهو في بديِّ الرأي أحق الناس أن يُدعى أول من يدعى إلى الهدى والخير الذي جاء به ابن أخيه وأحب الناس إليه، وآثرهم عنده محمد ﷺ، وكان أبو طالب بذلك أحق من يبذل له محمد ﷺ النصيحة، لمواقفه الكريمة منه، منذ كان في كفالته وهو في مهاد طفوليته، حتى بعثه الله رحمة للعالمين.

ولكن الذي وقع ـ كما تصوره هذه الرواية وغيرها من روايات الدعوة ـ كان يُخفي وراءه حكمة التدبير في سياسة تبليغ الرسالة مدة الاستسرار بها، تلك الحكمة التي كانت تتطلب آثارها العملية تحقيق فكـرة الاستخفاء بالدعوة ريثما تتكون لها لبنات قوية المزج، شديدة التماسك في جو بعيد عن إثـارة المعوِّقات في طريق سير الرسالة، هذه اللبنات هي القوة الدافعة التي

يعتمد عليها بناء المجتمع الإيماني الجديد، الذي يحمل لواء رسالة محمد ﷺ، ويخوض به لجج النضال فيما ينتظر هذه الرسالة من كفاح مرير.

وقد يغلط هنا بعض الكاتبين والباحثين، فيعمم الحكم بأن الذين دخلوا في دين الله، وصدقوا برسالة محمد ﷺ في مدة الاستسرار بها من السابقين الأولين كانوا جميعاً من الضعفاء والمستضعفين والعبيد والفقراء والبائسين، وهذا غلط يجب التنبيه عليه.

إن الذين دخلوا في الإسلام مدة استسرار الدعوة لم يكونوا من الضعفاء والعبيد والمحرومين، وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته، وابن سيد الناس في «العيون» والقسطلاني في «المواهب» أسماء وأنساب هؤلاء السابقين الأوَّلين، حتى بلغوا عدداً كان يمكنهم به رد الاعتداء على أنفسهم، لو أنه كان قد أُذِن لهم في ذلك، ولكن دعوة محمد ﷺ إلى رسالته والإيمان بهديه لم تكن تقصد إلى إشعال نيران القتال في بيوتات قريش، التي دلف كثير من شبابها إلى الاستجابة لدعوة محمد ﷺ واتبعه على دينه، لأن هدف هذه الدعوة الهادية الكريمة كان فتح القلوب والعقول إليها وتقبلها.

ومن بداهات التاريخ أن عمومة النبي ﷺ، وخاصة زعيمهم وكبير قومه أبا طالب كانوا في الذروة من قريش، مكانة واحتراماً، وتأسياً بهم، وكانوا من العرب عامة في القمة سيادة وشرفاً، وتمجداً.

وقد جعلهم هذا الوضع القيادي أحرص العرب على التمسك بدين آبائهم، وتقاليدهم الجاهلية التي كانوا يقودون بها العرب بزمام الطواعية والاحترام، فهم بزعامتهم لقريش جيران البيت المعظَّم، وسدنة الكعبة المشرفة، يقومون على خدمة زائريها، وإكرام الوافدين عليها تنسكاً واتّجاراً، فحياتهم مرتبطة بهذا البيت، بيت أبيهم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وعيشهم موصول بمكانهم من هذا البيت المعظَّم.

وكانت قريش تعرف لنفسها هذه المكانة بين العرب، وكانت تتعظم بسكنى الحرم وتقول في تعظمها الذي لا يرده عليها أحد: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرم، وولاة البيت، وقطّان مكة، فليس لأحد من العرب مثل حقنا،

ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف العرب لأحد ما تعرفه لنا.

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بذلك، فرأى بتسديد الله وتوفيقه أن الحكمة في سياسة السير بالدعوة وتبليغ الرسالة أن لا يهاجم هذا المجتمع الغارق في شروره ووثنيته، بمعالنته بضلاله، ودعوته إلى خلع الوثنية وقد سيطت بلحمهم ودمائهم، ولا سيما أقرب الناس إليه عصبية، وأدناهم إلى الدفاع عنه حمية، وهم عمومته، وعلى رأسهم وفي طليعتهم عمه أبو طالب، زعيم قومه الذي حدب عليه، وكفله في طفوليته ويتمه، ورعاه في شبابه وفتوته، وشدَّ أزره في رجوليته؛ لأن في مهاجمتهم تحريكاً لدوافع المقاومة للدعوة في نفوسهم، والدعوة لا تزال في أول خطواتها، خشية أن تتعثر في سيرها، وأن تتكاءدها العقبات في طريقها، وهي لمَّا تزل وليدة لمَّا تثبت أقدامها، فآثر ﷺ الاستسرار بدعوته، وتبليغ رسالته، حرصاً منه على أن يكون سيرها مطّرداً، وئيداً، هادئاً، تمشي إلى القلوب والعقول بخطى ثابتة، حتى تتمكن من الإعلان عن نفسها، وظهورها في قوة ومنعة.

نُجح خطة الاستسرار بالدعوة

وقد أفلحت هذه الخطة الحكيمة خطة الاستسرار بالدعوة في مطلع شمسها، وظهرت آثارها فيما حققته من نجاح بعيد المدى، يتمثل في عدد وقوة إيمان من دلف إليها إيماناً بها وتصديقاً بهديها، وكان من هؤلاء السابقين الأولين عدد من أبناء الأسر ذات الوضع الاجتماعي المرموق في قريش وغيرها، وتسامع العرب بها في مواسمهم ومحافلهم وأسواقهم، ومضارب منازلهم، فأقبل إلى مكة فريق منهم يتحسس أخبارها، ويتعرَّف مكانها في خفية وحذر، حتى إذا بلغوا مأمنها في دارها ومعهدها دار الأرقم أسلموا لله تعالى، واتبعوا رسوله ﷺ واهتدوا بهديه، وصدقوا رسالته، وآمنوا بما جاء به من الحق.

قوّة إيمان السّابقين

وقد بلغت قوة الإيمان ببعض هؤلاء أن استولت عليهم حماسة الإيمان، فأبى إلا أن يعلن إسلامه على ملأ الشرك ومجتمع الكفر، دون أن يحسب أي حساب لما يناله من الأذى في سبيل إيمانه، وهذا كالذي صنعه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، فيما يرويه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ، قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم عِلْمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني. فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة فأتى المسجد، فالتمس النبي ﷺ، وهو لا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه عليّ، فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمر به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله، فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى كان اليوم الثالث، فعل مثل ذلك، فأقامه عليّ معه، ثم قال له: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل فأخبره، فقال: إنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ:

«ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» فقال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه، فقال: ويلكم: ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوا وثاروا إليه، فأكب عليه العباس فأنقذه.

وفي رواية أخرجها أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب بسنده عن أبي حمزة، عن ابن عباس، قال أبو ذر: وحييت رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فكنت أول من حيَّاه بتحية الإسلام، فقال: «وعليك السلام، من أنت؟» قلت: رجل من بني غفار، فعرض عليّ الإسلام، فأسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال لي رسول الله ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم، واكتم أمرك عن أهل مكة، فإني أخشاهم عليك» فقلت: والذي نفسي بيده لأصوتنَّ بها بين ظهرانيهم، وفي رواية: فرماني الناس حتى كأني نُصُبٌ أحمر.

وكالذي صنعه عبدالله بن مسعود فيما يرويه ابن إسحق عن عروة ابن الزبير قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني، فإن الله سيمنعني، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته ﴿الرحمن• علَّم القرآن﴾ ثم استقبلها يقرؤها، فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد - ﷺ - فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حَسْبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

إسلام حمزة بن عبد المطلب

إسلام حمزة كان من أعظم آثار الاستسرار بالدعوة

ولو لم يكن من آثار الاستسرار بالدعوة وسداد حكمتها إلا أنها جذبت في أول خطواتها إلى ساحة الإيمان برسالة محمد ﷺ أشجع رجلين كانا في قريش، بهما أعز الله دينه، وأعلى كلمته، وأيّد نبيه ﷺ، وقوّى جانبه، لكفاها نجحاً وتوفيقاً وسداداً.

فقد جذبت إلى ساحتها في السنة الثانية من بدء وحي الرسالة ـ كما قطع الحافظ ابن حجر به في (الإصابة) وصدَّر به أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) وتبعهما القسطلاني في (المواهب) أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة، أسد الله، وأسد رسوله، سيد الشهداء، مرعبل كتائب الشرك والوثنية في بدر، ورافع راية الإسلام والتوحيد، الفارس اُلمعْلَم أبا عمارة، حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاع، وابن خالته نسباً ومنزلة، فأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، ابنة عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف، أم سيد الخلق، محمد ﷺ.

وكان سبب إسلامه أن أخته صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ وأم الزبير بن العوام، ومعها جارية لعبدالله بن جدعان أخبرتاه، وهو عائد من قنصه وصيده أن أبا جهل بن هشام قد آذى ابن أخيه محمداً ـ ﷺ ـ وبالغ في تنقيصه، وهو جالس عند الصفا، فلم يكلمه محمد ﷺ، ولم يرد عليه سفاهته، فاحتمل الغضب والحمية حمزة رضي الله عنه، لِمَا أراد الله به من الكرامة، ولِمَا أراد لدينه ونبيه من الإعزاز، فخرج يشتد معدّاً لأبي جهل

الإيقاع به، فلما دخل المسجد لم يكلم أحداً على غير دأبه وعادته، ونظر إلى أبي جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه ضربه بقوسه، فشجه شجَّة منكرة، وقال له: أتشتمه وأنا على دينه؟ أقول ما يقول فَرُدّ عليّ إن استطعت، فحمي لأبي جهل رجال من قومه بني مخزوم، لينصروه، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً.

ومضى حمزة رضي الله عنه في طريق الإيمان، والذود عن الدعوة حتى بلغ مقاماً لم يبلغه غيره من المسلمين، فهو سيد الشهداء بشهادة سيد الخلق ﷺ، وهو أسد الله وأسد رسوله ﷺ، كان إسلامه عزاً للمسلمين، ومنعة وقوة للنبي ﷺ، أُخذت به قريش فأصابها المقيم المقعد، وشَرِقَت بإسلامه فكان شجاً في حلاقيمها، وأذل كبرياءها، وقتل كبراءها، وظهرت به الدعوة بعد استخفائها وأعلنت بصوته كلمة الحق بعد استتارها، وجهر بالتكبير لله تعالى على سمع طغاة الشرك، فأراهم حقارة عقولهم في حقارة معبوداتهم، وأراهم عزة الحق وانتصاره.

إسلام عُمر بن الخطّاب

ثم جذبت سياسة الاستسرار بالدعوة في مطلع شمسها وبدء أمرها ثاني العظيمين، فاروق الإسلام، وعز المسلمين، وعبقري الدنيا عمرابن الخطاب رضي الله عنه.

وقد اختلفت الروايات في سبب إسلامه اختلافاً عريض الجوانب، واسع المنتجع، بيد أنها كلها تتفق على أن بداية حركة إسلامه كانت عزيمة جاهلية مظلمة، خرج فيها شاهراً سيفه ليقتل رسالة الحق والهدى، رسالة الإسلام، ويئد الدعوة إلى الله، دعوة رسالة محمد ﷺ بقتل محمد ﷺ.

كما تتفق تلك الروايات على أن نهاية حركته المظلمة كانت نوراً وضياء، وهدى ورحمة، كانت آية من آيات الغيب المحجب، الذي تعجز العقول والقوى والقُدَر عن استشفاف حقائقه، كانت صورة من الإيمان المشرق المتوثب حماسة للحق، وقوة للإيمان والهدى.

فبداية عمر رضي الله عنه مع الإسلام ورسالته ـ التي انتهى بها القدر الحكيم عزاً للإسلام والمسلمين، وذلاً وخزياً للشرك والمشركين ـ كانت حمية جاهلية، وعزيمة جاحدة لمنطق العقل، مغرورة بتعبدها للوثنية، تناصر الشيطان، وتكفر بالرحمن، وكان السيف فيها هو صاحب الكلمة الفاصلة الناطق بحجتها، غاب فيها العقل عن منصته في الحكم على المدارك، وأظلم فيها القلب، فلم يشرق في أفقه شعاع من نور الحق.

أما نهاية عمر في حركته إلى دار الإسلام ومعهده، التي كتب الله

سطورها في سجل الخلود بمداد من النور، فكانت هدى ورحمة، وعزاً ونصراً، وفتحاً مبيناً، وإيماناً راسخاً، وصوتاً بشعار الإسلام وعنوانه جهيراً، فما أبعد ما بين البداية والنهاية، ولكنها المقادير تظهرها العناية.

وهكذا انخرط عمر رضي الله عنه في سلك المؤمنين أقوى ما كان مؤمن بدعوة، اعتنق عقيدتها وآمن بمبادئها وشرعتها، فكان إيمانه قوة للإسلام، وعزاً للمسلمين.

روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وكان ابن مسعود يقول: ما كنا نقدر أن نصلِّي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، وكان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً. وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر رضي الله عنه نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر رضي الله عنه.

كان إسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهما بثلاثة أيام، وكان رسول الله ﷺ يعرف شجاعة عمر، وشهامة رجوليته، ويعرف عبقريته في سواء تفكيره واستقامة طبعه، وجرأته على الجهر بما يعتقد، ووقوفه مع رأيه وكلمته، فكان يحب أن يهديه الله إلى الإسلام، ليكون له ناصراً، وتكون شجاعته قوة لهذا الدين الحق الذي بعث الله به نبيه رحمة للعالمين، فكان يدعو الله تعالى أن يهديه للإيمان، وأن يجعله درعاً من أدراع هذا الدين، يدرأ به عن المستضعفين ذل الاستضعاف وأذى المشركين، فيقول فيما أخرجه ابن ماجه، ورواه الحاكم وابن حبان عن عائشة وابن عباس: (اللهم أعز الإسلام ـ أو أيِّد الإسلام ـ بعمر بن الخطاب خاصة).

ضعف حديث ذكر أبي جهل في إعزاز الإسلام

وهذا الحديث يوهي ما أخرجه الترمذي والإمام أحمد من أن دعاء النبي ﷺ كان بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب».

وذلك الإيهاء من وجوه.

الوجه الأول

الأول ـ أن ذكر أبي جهل في هذا المقام بأقبح كنية له في الإسلام؛ نبذه بها المسلمون لكثرة ما كانوا يلقَونه من سفاهته وأذيته، ولبشاعة ما كان ينالهم منه من سوء وشر، ولسوء ما كان يتناول به رسول الله ﷺ من بذيء القول، وفجور الإيذاء ـ لا يتواءم مع المناسبة في مقام هذا الدعاء الأكرم الذي قصد به النبي ﷺ الضراعة إلى الله تعالى أن يختار لإعزاز دينه رجلاً يحبه، ويعلم فيه أنه خُلق على الاستعداد للتحلي بطهارة الإسلام ومكارمه وعزته.

وحديث الترمذي الذي يجمع بين الرجلين في الدعاء بأن يعز الله بأحدهما الإسلام مضطرب الألفاظ في الروايات، فقد رواه صاحب الصفوة بلفظ: «اللهم أعزّ الإسلام بعمرو ـ أي أبي جهل ـ أو عمر» ورواه ابن إسحاق عن خباب بن الأرت بلفظ: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب» ورواه ابن سيد الناس في «العيون» بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب» وهذا الاضطراب في ألفاظ الحديث يضعِّف روايته، ويوهي نصه.

هذا التشقيق لم يعرف في أساليب أفصح الفصحاء ﷺ

الوجه الثاني

الثاني ـ أن أبا جهل كان منذ جاء الإسلام لَعِين الله تعالى وملائكته، ولعين رسول الله ﷺ ولعين المسلمين، وعدوهم الألد، فقد عرف بأشد البغض، وأقبح الشنآن لرسول الله ﷺ، وكان مصداق قول الله تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾[1] كما فسرها به ابن عباس، فيما أخرجه عنه ابن مردويه.

وأبو جهل حري بهذا، فقد كان دائب مواقف لؤم الطبع، وخسة الفجور، وخبث الإيذاء للنبي ﷺ وأصحابه، وهو صاحب الطعنة الفاجرة الخبيثة التي طعن بها أم عمار بن ياسر، السيدة سمية أول شهيدة في الإسلام، وهو صاحب اليد الجبانة التي أطارت حلق أسماء بنت أبي بكر الصديق من أذنها، إذ تشاجع وهو يسألها عن أبيها يوم الهجرة، فصفعها ليشفي غلّ الخسة والهمة الساقطة في نفسه ونحيزته.

(١) سورة الفرقان آية (٣١).

وهذه أفعال لا تقع من رجل عربي، له من مروءة العرب أدنى حظ، وأحط نصيب، ولا تقع من رجل يعرف لرجوليته حقها عليه مهما بلغ به حقد الكفر، وخبث الجحود، فلا يتصور أن النبي ﷺ يدعو ربه متضرعاً إليه أن يؤيد دينه، دين العزة والكرامة والمروءة برجل يفقد العزة والكرامة والمروءة، ولا يتصور أن محمداً ﷺ المختار لتربية الإنسانية بأدب القرآن العظيم أن يدعو ربه أن يؤيد رسالته الهادية الراشدة بألد أعدائها، وأخبث شريريهم، وأفسد مفسديهم، وأحطّ من مشى على أرض الله في دنيا الناس.

الوجه الثالث

الثالث ـ أن أبا جهل كان مغموز الرجولية بين قومه، معروفاً في الجاهلية والإسلام بأحط وأقذر ما يتصف به إنسان، ولا يتصور أن النبي ﷺ يضرع إلى ربه داعياً أن يعزّ الله الإسلام دين العزة والكرامة بهذا المغموز في رجوليته بغميزة لا يبرأ من عارها مطعون بها.

الوجه الرابع

الرابع ـ إن جعل هذا الخبيث اللعين في ميزان مع عمر بن الخطاب، وهو من هو في جاهليته رجولية وفتوة وعزة، كان رجلاً مشهور الجد، كريم الرجولية، يتفتى ويتكارم، لم تعرف عنه غميزة تمس شخصيته في أخلاقه الإنسانية، ولم يعرف مع ما كان عليه في جاهليته التي لم تطل كثيراً مع الإسلام من الشدة والعنف في عداوة الإسلام ونبيه ﷺ والمؤمنين أنه آذى رسول الله ﷺ بخسائس من الإيذاء، كما عرف من هذا الخبيث الغميز أبي جهل من خسائس الإيذاء ـ لا يستقيم مع موازين الرجال، والتطلّع إليهم ليسهموا في معالي أمور الحياة وقيادتها، فلا يتصور أن يضع رسول الله ﷺ وهو المسدّد برعاية الله وتوفيقه العليم بالرجال وموازينهم، عمر بن الخطاب في كفة ميزان مع هذا الخبيث أبي جهل، وعمر بن الخطاب في جاهليته وشركه كان شريف المكانة، مقدّر العقل واستقامة الخُلق بين قومه، فكان سفير قريش، ومنافرها ومفاخرها في جاهليتها.

وإذا كان قصدُ النبي ﷺ بهذا الدعاء مجرد إعزاز الإسلام وتأييده، ولم ينظر إلى خصوص شخصية من يؤيد به الدين، فلماذا اقتصر رسول الله ﷺ في دعائه على أحد الرجلين غير معين؟ وهو ﷺ ـ بمقتضى ظاهر الرواية ـ

ما كان يعلم ساعة الدعاء أي الرجلين كان أحب إلى الله أن يُعِز به دينه ويؤيد به الإسلام، ولا أيهما يكون إسلامه عزاً لهذا الدين، فهل كان يضيق الإسلام بإسلام الرجلين وإعزازهما وتأييدهما له، والمسألة كانت مسألة رغبة من النبي ﷺ في أن يعز الله الدعوة ليقوى جانبها وتخرج من تخفِّيها، فهلاَّ كانت الدعوة عامة للرجلين، لإعزاز الدين بهما، وهذا بلا شك ـ لو صحّ وضع الرجلين في ميزان ـ أجدى وأنفع لتحقيق الرغبة في إعزاز الإسلام بهما.

إن أسلوب الدعوة التي أخرتها رواية الرجلين في إطاره يقتضي أن النبي ﷺ كان يشعر بأن أحد الرجلين فقط ـ غير معيَّن ـ هو الذي يتحقق به إعزاز الدين وتأييده، وأن الآخر ـ غير معيَّن ـ لا أمل فيه لإعزاز الدين، ولا رجاء منه في تأييده، فلا يجتمع الرجلان في إعزاز الدين، ومن ثم لم تجمعهما الدعوة ليكون الإعزاز والتأييد بهما مجتمعين، فمن أين جاء هذا الشعور الذي يقتضيه أسلوب الرواية؟ أمن طريق الوحي؟ فيكون النبي ﷺ قد تلقى عن الله ذلك، أم هو اجتهاد من رسول الله ﷺ؟.

أما الوحي فلم يُعْلَم لنا شأنه في هذا الحادث بخصوصه، وأما اجتهاد رسول الله ﷺ فلا يُدْرى حكمةُ تخصيص واحد من الرجلين بالدعاء ـ غير معين ـ وكان إسلامهما معاً ـ لو كان ممكناً تساويهما ـ أقوى إعزازاً وتأييداً للإسلام والمسلمين.

فلو كان لأبي جهل منفذ إلى رجاء الخير فيه أو منه لكانت دعوة النبي ﷺ للرجلين معاً أن يعزّ الله بهما معاً الإسلام، لا لأحدهما غير معين.

الوجه الخامس

الخامس ـ أن التخصيص بالنص على انفراد عمر بن الخطاب بدعوة النبي ﷺ أن يعزّ به خاصة الإسلام، في حديث عائشة الذي أخرجه الحاكم وصححه، وأقر تصحيحه الذهبي، وصرح بصحته الزرقاني في شرح المواهب، وفي حديث ابن عباس عند البزار وابن ماجه وابن حبان، ونصه: «اللهم أيِّد الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» ـ قاطع بأن أبا جهل لم يكن قط أهلاً لرجاوة النبي ﷺ، ولا كان أهلاً أن يدخل في رغبة إعزاز الدين كما

أقحمته الروايات التي تجمع بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وذكر السيوطي في الدرجة ٣ ص ٢٠١، ٢٠٢ عن عبد الله بن مسعود كما أخرجه الطبراني وابن مردويه قال ابن مسعود: فضل عمر رضي الله عنه الناس بأربع: وفيه: دعوة نبي الله ﷺ «اللهم أيد الإسلام بعمر».

والروايات المضطربة في نصوصها، المختلفة في ألفاظها وعباراتها التي تذكر الرجلين في دعوة النبي ﷺ عامة مبهمة، ورواية تخصيص عمر ابن الخطاب بالذكر منفرداً صريحة النص على تخصيصه، مفسرة واضحة، ولا شك أن الأخذ بالواضح المفسر المخصص لمطلوبه أحق بالقبول.

وقد حاول بعض الأئمة أن يوفق بين روايات ذكر الرجلين في الدعوة، ورواية تخصيص عمر رضي الله عنه بالذكر منفرداً في طلب إعزاز الدين به خاصة، فقال ابن عساكر أنه ﷺ دعا بالأول ـ أي الدعاء الذي ذُكِر فيه الرجلان ـ أولاً ـ فلما أوحى إليه أن أبا جهل لن يسلم خص عمر بدعائه.

وهذا التوفيق متوقف على العلم بأن الدعاء وقع من النبي ﷺ مرتين ـ كانت أولاهما بذكر الرجلين، قبل أن يعلم سيدنا رسول الله ﷺ بحال أبي جهل في كفره المقيم، وكانت ثانيتهما بتخصيص عمر بعد أن علم رسول الله ﷺ من طريق الوحي أن أبا جهل مطبوع على قلبه فلن يسلم أبداً، وأنّى لنا بهذا العلم الذي يفيد وقوع الدعاء مرتين مرتبتين، أولاهما جمعت الرجلين لعدم علم رسول الله ﷺ بحال أبي جهل وخَتْم الله على قلبه فلا يتوقع منه الإسلام فضلاً عن إعزازه به، وثانيتهما خصصت عمر بالذكر بعد أن علم رسول الله ﷺ بحال أبي جهل من طريق الوحي، ولو كان هذا العلم موجوداً لذكره العلماء وذكروا سنده.

الوجه السادس

السادس ـ أن أبا جهل كان عنيد الكفر، كفور العناد، حقود الجحود، خبيث الطبع، غليظ الكبد، فظاً جواظاً حسوداً حانقاً على الإسلام والمسلمين، مغيظ النفس، شانئاً للنبي ﷺ وآل بيته من بني عبد مناف. منذ اختارهم الله تعالى دوحة لانبثاق محمد ﷺ من نبعتهم، واصطفاه الله لرسالته، فشرفهم به شرفاً لا يلحق في الآخرين، ولم يسبق في الأولين.

وقد ثبت أن أبا جهل كان يقول عن النبي ﷺ كما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره: والله إني لأعلم أنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟ وفي هذا الجحود المغيظ، والحسد الكفور نزل قول الله تعالى: ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1].

ويروي ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية فعلوا مثل ما فعلوا في الليلة قبلها، ثم عادوا للّيلة الثالثة، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، فلما أصبح الأخنس بن شريـق أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة: والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد منها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك، ثم خرج الأخنس من عند أبي سفيان حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته، فقال: يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال أبو جهل: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا بالركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟؛ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه.

هذه القصة تبين خبيء ما يكنُّه قلب هذا الخبيث الكفور من الحقد العنيد، المنحدر من مواريث العصبية الجاهلية، التي لا تعرف للحق وزناً، ولا تعرف للخير والعدل طريقاً، فصاحباه أبو سفيان، والأخنس على كفرهما وشركهما لم يبد منهما شيء مثل الذي بدا من أحقاد هذا الطاغية الخبيث.

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٣).

ولقد صدق الله تعالى إذ يقول فيه وفي أمثاله من المكذبين حقداً وعناداً: ﴿ كذلك نَسْلُكُهُ في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلَت سُنَّةُ الأولين ﴾[1] قال الزمخشري في تفسيرها: على معنى أنه يلقيه ـ أي الذِّكر ـ في قلوبهم مُكَذَّبا مُسْتَهْزَأ به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها، قلت: كذلك أنزلناها باللئام، تعني مثل هذا الإنزال أنزلناها بهم مردودة، غير مقضية. إهـ.

وقال ابن المنير في «الإنصاف»: والمراد ـ والله أعلم ـ إقامة الحجة على المكذِّبين، بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم، وأدخله في سويدائها، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدِّقين فكذب به هؤلاء، وصدق به هؤلاء، كل على علم وفهم، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين.

ولذلك عقَّبه الله تعالى بقوله: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلُّوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[1] أي هؤلاء فهموا القرآن، وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم ووقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد، وشيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة. إهـ.

ومثل هذه الآيات أخوات لها كقوله تعالى: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾[2].

وكقوله عزّ شأنه: ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[3].

---

(١) سورة الحجر آيات (١٢ ـ ١٥).
(٢) سورة الشعراء آيتا (٢٠٠ ـ ٢٠١).
(٣) سورة الأنعام آية (٧).

ومن أدق ما يلفت النظر في هذه الآيات العنونة لهؤلاء المعاندين بوصف (الإجرام) ليفهم أن المقصود الأعظم بهذا المثابة إنما هم الزعماء الذين يتبعهم الناعقون من الرعاع الذين لا تدبر لهم لما يسمعون، وهؤلاء الزعماء هم الذين يقودون المقاومة للحق، لأنه إذا استقر وفهمته العقول هدم بنيان حياتهم الزائفة الحاقدة، من أمثال الخبيث أبي جهل وضربائه الذين يردون الحق وهم يعلمون أنه الحق عناداً وجحوداً، يحملهم عليه الحقد الكفور.

الوجه السابع

السابع ـ إن روايات أحاديث انفراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدعوة النبي ﷺ أن يعزّ بِهِ الإسلام وردت مضبوطة العبارة موحدة اللفظ، في صيغة واحدة، لم يدخلها الاضطراب باختلاف الألفاظ والعبارة، وهذا دليل على صحتها وثبوتها.

أما روايات الأحاديث التي جاء فيها ذكر الرجلين منسوباً إلى دعوة النبي ﷺ وضراعته إلى ربه أن يعزّ الإسلام بأحدهما، بأي اسم أو أي وصف فقد دخلها الاضطراب باختلاف الألفاظ والعبارات والأوصاف ـ كما نبهنا عليه.

فحديث الترمذي وهو أقواها رواية، روي بلفظ: «اللهم أعزّ الإسلام بأحب الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر» وروي بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب» قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وفي إسناده خارجة بن عبدالله صدوق، فيه مقال، وكفى بذلك إيهاءً له.

وحديث خباب بن الأرت روي فيما أخرجه الدارقطني بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بعمر، أو بعمرو بن هشام» وروي فيما أخرجه البزار بلفظ «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب».

فإدخال أبي جهل في دعوة النبي ﷺ لإعزاز الإسلام، تقحم ساق إليه الوهم والتخيل، ولعل هذا الوهم جاء من قبل بعض المستضعفين الذين اشتد عليهم الأذى، ولم تقو قلوبهم على احتمال الصبر، فحدّثوا أنفسهم بأمنية أن يهدي الله رجلاً قوياً للدخول في الإسلام، فيعتزون به، وتوهم من

توهم أن قسوة أبي جهل وعتوه وجبريته على الضعفاء والمستضعفين، تكون لهم قوة وعزاً، لو أن الله هداه إلى الإيمان برسالة الإسلام، ولم يعلموا من أمر أبي جهل ما كان يستبطنه من سوء سريرة وغميزة.

وكانت شدة أبي جهل على المسلمين مستفيضة الوقائع، خبيثة دنيئة، كصنيعه بأسماء بنت أبي بكر وهي صبية لم تتجاوز سن الطفولية، وقد جاء هذا الخبيث يسألها عن أبيها يوم الهجرة، فأخبرته صادقة، أنها لا تعرف أين أبوها، فرفع الجبن يد الفسولة والوضاعة النفسية وصفع بها أبو جهل الصبية صفعة أطارت شنفها من أذنها، وكذلك الجبناء إذا خلَوا بغير كفء يتشاجعون.

وكصنيع غميز الرجولية الخبيث في طعنه سمية أم عمار بن ياسر، وهي تعذَّب لتكفر بالإسلام طعنة لا يرفع يده بها إلا كل جبان فقد رجوليته، واستعاضها حقداً على الحياة، وهو أعجز من أن يجد لحقده متصرفاً إلا أجسام الضعفاء يمزقها بسياط الحقد اللئيم.

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وضعته الرواية الباطلة في كفة ميزان مع الخبيث الرعديد أبي جهل فقد كان في جاهليته شديداً على الإسلام والمسلمين، وعلى النبي ﷺ، وحسب شدته الجاهلية مقتاً أنه خرج بسيفه ليقتل رسول الله ﷺ، فرده القدر، وصنع منه رجل الدنيا إيماناً وعدلاً وسياسة وقوة في الحق.

وعمر يصف شدته على النبي ﷺ فيقول في إجمال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ. وتصف شدة عمر وقسوته على المسلمين أم عبدالله بنت أبي حثمة فيما يحكيه عنها ابن إسحق قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ، وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا وشدة علينا، فقال: إنَّه للانطلاق يا أم عبدالله؟ فقلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً، فقال: صحبكم الله!!.

قالت أم عبدالله: ورأيت له رقة، لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد

أحزنه خروجنا، فلما جاء عامر بن ربيعة - زوجها - قلت له: يا أبا عبدالله: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا؟ قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، قال عامر: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإسلام.

هذه غلظة عمر بن الخطاب وقسوته في جاهليته يصفها هو فيجمل، ويصفها من قاسى آثارها وعانى منها حتى يئس من صاحبها أن تدخل الهداية قلبه فيسلم، فأين تقع هذه القسوة الجاهلية في عمر بن الخطاب، وهي غلظة رجولية تدفع إليها حمية جاهلية من رجل مثل عمر من غلظة الجبن الحقود، يدفع إليها الحسد الموروث من إنسان فقد حياءه، ؛ فلا يستعرض قوته وبأسه إلا في صفع صبية لا تملك يومها الدفاع عن نفسها.

بل أين تقع شدة عمر وقسوته على أهل الإسلام في جاهليته، تلك الشدة التي خرجت من نفس ترق وتلين، حتى تصل إلى مرتبة الحزن لمفارقة من صبَّت عليهم قسوتها، فراراً بدينهم، وعقيدتهم في أرض الله حتى يجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً، فيقول لهم من قسا عليهم بالأمس: صحبكم الله، من قسوة رعديد، لا يملك من دواعي المروءة والترفع عن مخازي الرذائل، فيطعن امرأة ضعيفة، وهي تئن تحت سياط العذاب طعنة لا تقع من إنسان فيه ذرة من معالم الرجولية، بَلْه المروءة العربية، ولكن إذا ذهبت الرجولية مع الحياء لم يبق لثاكلها إلا عصارة الحقد الأسود، تفيض به نفسه، فيصبه على من لا يملك أن يدفع عن نفسه.

الوجه الثامن

الثامن - ومن أقطع ما يرد حديث ذكر الرجلين في الدعوة النبوية، ويؤكد الوهم في روايته، سواء جاء ذكرهما باسميهما أو وصفيهما ما رواه البخاري في أبواب الطهارة، والصلاة، والجزية، والجهاد، والمغازي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كان عليه الصلاة والسلام يصلِّي عند الكعبة، أو البيت، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم - هو اللعين أبوجهل، كما جاء مصرحاً به في رواية مسلم - ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها

وسلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم ـ هو عقبة بن أبي معيط ـ قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وإنما كان أشقاهم مع أن فيهم أبا جهل وهو أشد كفراً منه، وإيذاء للمصطفى ﷺ لاشتراكهم في الكفر والرضا، وانفراد عقبة بالمباشرة، ولذا قتلوا في الحرب، وقتل عقبةَ صبْراً.

وحكى ابن التين عن الداودي: أن الذي انبعث هو أبو جهل، فإن صحّ احتمل أن عقبة لما انبعث حمل أبا جهل شدَّةُ كُفره فانبعث على أثره حتى لا ينفرد بفخر الجريمة الفاجرة عند أكابر مجرميها عقبة، فأراد اللعين أبو جهل أن يكون شريكه في إثمها وفجورها.

فلما سجد ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، وضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلِقٌ إلى فاطمة، وهي يومئذ جويرية صغيرة، فأقبلت تسعى وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه وأقبلت تسبهم، وتشتمهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «اللهم عليك بقريش» وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم سمَّى وعيَّن وفصَّل، فقال: «اللهم عليك بأبي جهل عمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد» قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم ـ أي أكثرهم ـ صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: «وأتبع أصحاب القليب لعنة» قال الحافظ ابن حجر: وهذا يحتمل أن يكون من تمام الدعاء الماضي، فيكون فيه عَلَم عظيم من أعلام النبوة.

هذا الحديث الذي يرويه رواة أصح الحديث الإمامان البخاري ومسلم، وغيرهما من الأئمة، فيه تصريح بأن الخبيث أبا جهل رأى رسول الله ﷺ يصلِّي عند الكعبة، وملأ قريش زعماء الكفر وطغاة الشرك جلوس حول البيت، فتحرَّك في قلب هذا الكفّار العنيد حقد الجاهلية الموروث الجحود، وفجوره الكنود، فأغرى شياطين الوثنية بالنبي ﷺ، وتناوله بالسبّ والشتم الخبيث، وطلب إلى هؤلاء الأخابث أن يمدوا أيديهم بالسوء بعد أن

مدّوا ألسنتهم بالسفه والبذاء، لينالوا من رسول الله ﷺ، وطلب إليهم أن يأتوا بأقذار جزور فيطرحها على المصطفى ﷺ وهو ساجد، فانبعث إلى لعنة الله وسخطه أشقاهم عقبة بن أبي معيط ليباشر الجريمة الفاجرة، وكأنما حسده اللعين أبو جهل على انفراده بهذا الإثم الفاجر، فانبعث يلحق به، وجاءا معاً بأقذار الجزور وطرحاها بين كتفي رسول الله ﷺ وهو ساجد، فتضاحك ملأ الفجور استهزاء وسخرية حتى مال بعضهم على بعض تماجناً وفرحاً بما رأوا من سوء وفجور، ولم يجرؤ أحد أن يلقي القذر عن كتفي رسول الله ﷺ، حتى أتى الخبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فجاءت تسعى وهي طفلة صغيرة، فألقت القذر عن كتفي أبيها سيد الخلق ﷺ وهو ثابت في سجوده، لم يرفع رأسه تنزهاً أن تكون حركة من حركات تعبده لله تعالى في ظل هذا الفجور والإثم، وتطهيراً لصلاته أن تقع حركة من حركاتها على غير طهر وتطهر، ثم التفتت إليهم فاطمة تسبهم وتلعنهم، فما جرأ خبيث منهم أن يردّ عليها.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته دعا على أهل الفجور، فعمَّ وأجمل، فقال: «اللهم عليك بقريش) وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم خص وفصَّل وعيَّن، وسمى من المجرمين أعتاهم، وأشقاهم، فقال: (اللهم عليك بأبي جهل عمرو بن هشام» وفلان، وفلان، حتى ذكر منهم سبعة، كانوا هم أكابر مجرميها، ثم قال النبي ﷺ إعجازاً، وإخباراً عن الغيب بما هو كائن فكان كما قال: «وأتبع أصحاب القليب لعنة» وهذا كما يقول ابن حجر: عَلَم من أعظم أعلام النبوة، لأن هؤلاء الفجار قتلوا جميعاً يوم بدر، وسحبوا إلى القليب قليب بدر، وقتل أشقاهم عقبة بن أبي معيط صَبْراً، وقتل عمارة ابن الوليد بالحبشة شر قتلة.

فكيف يمكن أن يدعو النبي ﷺ ربه أن يعز الإسلام ويؤيده بأحد رجْلين، فيهما هذا الخبيث الكفَّار العنيد، والمؤذي لرسول الله ﷺ هذا الإيذاء الفاجر الذي دفع به ﷺ ـ وهو الحليم الصفوح ـ أن يدعو عليه بهذا الدعاء، الذي خصَّه فيه بعد التعميم، وعينه باسمه وكنيته فيمن ذكرهم بأسمائهم من الجارمين، بل إنه أخبره مواجهة أنه من المذبوحين؟.

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، فأخذهم بأيدي المؤمنين في أول وقعة من وقائع نصر الإسلام والمسلمين، وقعة بدر الكبرى، التي جاءوا إليها يقودهم اللعين أبو جهل، وقد انتفخ سحره بأواً وكبرياء حتى قتله أضعف المسلمين بدناً الغلام المُعَلَّم، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وقد فرح بقتله النبي ﷺ.

أخرج ابن عبد البر بسنده في الاستيعاب عن أبي عبيدة بن عبدالله ابن مسعود، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ يوم بدر، فقلت: إني قتلت أبا جهل، قال: «آلله الذي لا إله غيره لأنت قتلته؟» قلت: نعم، فاستخفه الفرح، ثم قال: «انطلق فأرنيه» قال: فانطلقت معه حتى قمت به على رأسه فقال: «الحمد لله الذي أخزاك، هذا فرعون هذه الأمة، جرّوه إلى القليب».

الوجه التاسع

التاسع ـ وأخرج البخاري عن عمرو بن العاص قال: ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوم أغرَوا به وهم في ظل الكعبة جلوس، وهو يصلّي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي معيط، فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه حتى وجب لركبتيه، وتصايح الناس، وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضَبُعِ رسول الله ﷺ وهو يقول: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته مرَّ بهم، فقال: «والذي نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلاّ بالذبح» فقال أبو جهل: يا محمد، ما كنت جهولاً، فقال النبي ﷺ: «وأنت منهم».

وأخرج البخاري هذا الحديث ـ أيضاً ـ عن عبدالله بن عمرو وقد سأله عروة بن الزبير عن أشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، فذكر نحوه.

فهذا الحديث الذي يرويه البخاري مرة عن عمرو بن العاص، ومرة أخرى عن ابنه عبدالله بن عمرو صريح في أن ملأ قريش، وفيهم غميز الرجولية أبو جهل، أغرَوا أشقاهم عقبة بن أبي معيط بقتل النبي ﷺ، كما جاء صريحاً في قول عمرو بن العاص: (ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوم أغروا به).

وفعل اللعين عقبة بن أبي مُعَيط فعلته الجارمة، وقام إلى النبي ﷺ

وخنقه خنقاً شديداً، كاد يقلب النهار ليلاً، والنور ظلاماً، لولا أن أسرع الله تعالى بأبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ بلغه الخبر الفظيع المفظع، فجاء يشتد وهو يبكي، فدفع عن رسول الله ﷺ، واشتبك مع ملأ الكفر والطغيان، فقال له النبي ﷺ: «دعهم يا أبا بكر، فوالذي نفسي بيده، إني بُعثت إليهم بالذبح». فأخذ ملأ قريش عن أنفسهم، وأصابهم ذهول واجم، ذهب بعقولهم لما سمعوا ما توعدهم به رسول الله ﷺ، وكان أشدهم فزعاً وأكثرهم رعباً رعديدهم غميز الرجولية أبا جهل، لتيقنهم من صدق محمد ﷺ، وأنه لا يقول قولاً إلا وقع تصديقه كما قال، وراح الجبن والخور، وسوء الانمياع تملي على الرعديد الفاجر كلمات الذلة، يتوجه بها إلى محمد ﷺ، يرفؤه، ويتملقه، ليخفف من إنذاره لهم وتوعده إياهم، بيوم يلقَون فيه التي لا شوى لها، فيقول غميز الرجولية وهو ينتفض رهبة من هول ما سمع وتمثل: يا محمد، ما كنتَ جهولاً، ويرد عليه محمد ﷺ في يقين شهود الغيب وكأنه واقع بهم، فيقول له: «أنت منهم». أي من المذبوحين بكفرهم وفجورهم، والله أعلم بما كان من هذا المتشاجع الكفور ساعة أن صكَّ أذنيه صوت الوعيد الذي خصه به الصادق المصدوق، محمد الأمين ﷺ بقوله: «أنت منهم».

فكيف يصح في ميزان عقل مستقيم، أو في ميزان الطبائع البشرية، بَلْه ميزان العدل والحق أن ينسب إلى النبي ﷺ أن يدعو ربه أن يعزّ دينه ويؤيده بأحد رجلين عُيِّنا باسميهما ووصفيهما، وأحدهما أخبث إنسان عرفته الحياة، وأسقط بشر في ميزان الرجولية وحمية الرجال، سداه ولحمته لؤم ومكر وكيد لدعوة الإسلام، والنبي ﷺ توعده بوعيد يقضي على احتمال إيمانه في مستقبل حياته؟.

هذا من أبعد ما يتصور وقوعه من النبي ﷺ، وهو المسدَّد بتوفيق الله الناطق بوحيه وإعلامه، وقد أخبر أن هذا اللعين أبا جهل ممَّن ختم الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

الوجه العاشر

العاشر ـ أن مما يلفت النظر في روايات ذكر الرجلين باسميهما أو

وصفيهما أن يعزّ الله الإسلام ويؤيده بأحدهما، أو بأحبهما إلى الله تعالى أن رواية زيد بن أسلم في حديث خبَّاب بن الأرت تعينِّ اليوم الذي دعا فيه رسول الله ﷺ بهذا الدعاء، فقد جاء في هذا الحديث أن عمر بن الخطاب لما وصل في قراءة الصحيفة التي وجدها عند أخته فاطمة بنت الخطاب، وزوجها ابن عمها سعيد بن زيد من سورة (طه) إلى قوله تعالى: ﴿ إنني أنا الله لا إلٰه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ قال: لا ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره، دُلّوني على محمد ـ ﷺ ـ فخرج القوم الذين كانوا في بيت أخته من مخابئهم في البيت التي اختبئوا فيها فرقاً من عمر، وكان فيهم خبَّاب بن الأرت يُقرئهم، يتبادرون بالتكبير استبشاراً لما سمعوا عمر يقول ما يقول، ويسأل عن النبي ﷺ ليسلم بين يديه، ثم قالوا لعمر إظهاراً لفرحهم بهدايته: أبشر يا ابن الخطاب، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: «اللهم أعزّ الإسلام بعمرو ـ أي أبي جهل ـ أو بعمر ـ أي ابن الخطاب» وإنا نرجو أن تكون دعوته لك، فأبشر.

وموضع لفت النظر في هذه الرواية أنها عينت يوم دعاء النبي ﷺ أن يعزّ الله الإسلام بأحد الرجلين، وأنها ذكرته باسمه في الأيام إذ قالت: دعا يوم الاثنين وهذا اليوم، يوم الاثنين في كلام الراوي لا يحتمل إلا يوم الاثنين من الأسبوع الذي دخل فيه عمر بن الخطاب بيت أخته وزوجها لينهنهما عن الذي بلغه من إسلامها، واتباعها لمحمد ﷺ، وهذا اليوم المعينّ لا يتعدّى أن يكون قد مضى عليه قبل إخبار الراوي عنه أكثر من ثلاثة أيام.

فمتى كان إذاً دعاء النبي ﷺ على ملأ قريش عامة وتوعدهم بالذبح وتخصيص أبي جهل منهم بأنه في المذبوحين المتوعدين بالهلاك على الكفر؟ المروي في أصحّ الصحيح؟.

هل كان هذا الدعاء وهذا التوعُّد، وهذا التعيين للخبيث أبي جهل بأنه في المذبوحين كافراً مخلّداً في جهنم بعد انصراف عمر بن الخطاب من بيت أخته وزوجها متوجهاً إلى رسول الله ﷺ ليسلم، وقد أسلم وأعلن إسلامه

وجهر به على الملأ، وفيهم اللعين غميز الرجولية أبو جهل مغيظاً مختنقاً من إسلام عمر رضي الله عنه؟

وهذا فرض غير معقول، لأنه بعد تحقق إسلام عمر بن الخطاب، وهو أحد الرجلين في رواية «اللهم أعزّ الإسلام بأحد الرجلين: عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب» لا يبقى معنى لهذا الدعاء والتوعد، مع الزعم أنه ﷺ دعا يوم الاثنين من أيام أسبوع الدعاء على الملأ وفيهم أبو جهل أن يعزّ الله الإسلام بأحد الرجلين، والمفروض أن أحدهما أسلم وأعلن إسلامه، والآخر مدعو عليه متوعد بالبقاء على الكفر، مذبوح به، أو كان هذا الدعاء والتوعُّد قبل إسلام عمر بن الخطاب، وهو قد أسلم غداة يوم الإثنين الذي وقع فيه الدعاء بإعزاز الإسلام بأحد الرجلين في زعم الرواية بذكرهما معاً بغير تعيين، وحينئذ لا يمكن أن يقع هذا الدعاء بإعزاز الإسلام وإدخال أبي جهل في معادلة مع عمر بن الخطاب، لأن الدعاء على أبي جهل بالذبح على الكفر قبل ذلك يخرجه من احتمال الإسلام بله إعزاز الإسلام به، لأنه مقطوع ببقائه على الكفر والعناد.

ويؤكد ذلك رواية ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن الأرقم أن النبي ﷺ قال في دار الأرقم ليلة الإثنين: «اللهم أعزّ الإسلام بـأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»،فجاء عمر بن الخطاب من الغد بكرة فأسلم في دار الأرقم.

وهذه الرواية تعين أن النبي ﷺ دعا أن يعزّ الله الإسلام بأحب الرجلين إليه كان ليلة الإثنين التي غدا عمر بن الخطاب في بكرتها إلى النبي ﷺ في دار الأرقم فأسلم بين يديه، وهي تفسر رواية خباب بن الأرت التي بشّر فيها عمر بأن النبي ﷺ دعا يوم الإثنين أن يعز الله الإسلام بأحد الرجلين، فكأنه قال: دعا بالأمس لأن عمر غدا بكرتها إلى النبي ﷺ في دار الأرقم فأسلم.

وإذاً فلا يعقل أن يكون النبي ﷺ قد دعا على أبي جهل في ضمن دعائه على ملأ قريش، ثم خصّصه بالوعيد فقال له: «أنت منهم» ثم يدعو

الله تعالى أن يعز بهذا اللعين المذبوح بكفره وعتوه أو بعمر بن الخطاب، أيهما غير معين الإسلام ويؤيده به، لأن دعاءه عليه وتوعده بالذبح على الكفر لا يلقى محلاً ولا يحقق غرضاً، بل هو غير جائز، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يدعو على إنسان بخصوصه دعاء يقتضي عقابه في الدنيا والآخرة، ويخبره بأنه سيكون في ضمن من بعث إليهم بالذبح على الكفر والعتو إلا إذا كان ﷺ واثقاً عن طريق الوحي أن ذلك الشخص المعين سيموت على كفره.

وإذا كان ذلك كذلك فأبو جهل يستحيل أن يكون ممن يحتمل أن يدخله رسول الله ﷺ في دعائه أن يعزّ الله الإسلام بأحد رجلين، ويجعله في ميزان مع عمر بن الخطاب الذي ما عكم أن سمع القرآن في بيت أخته، وقرأ آياته من صحيفتها التي كانت عندها حتى دخل الإيمان قلبه، فذهب من توّه إلى النبي ﷺ فأسلم وجهر بإسلامه.

وهذا كله يصحح حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ بقوله: «اللهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» ويوهي رواية ذكر الرجلين في دعاء النبي ﷺ.

فالصحيح الثابت أن النبي ﷺ قال مناجياً ربه في ضراعة الإشفاق والرحمة لأصحابه وهو ﷺ يراهم يؤذَون معتصمين بالصبر الجميل، لا يدفعون عن أنفسهم: «اللهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» وقد روى هذا الحديث ابن سيد الناس في «العيون» بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها مجرداً من ذكر القيد (خاصة) قال: «اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب».

وقد يبدو ذكر القيد (خاصة) في رواية من ذكره غريباً، ولعل حكمته - إذا صحت رواية ذكره - أن النبي ﷺ شعر بما يهجس في قلوب بعض أصحابه من الأماني والرغبات في أن الله تعالى يهدي لهم رجلاً ممن عرفتهم قريش بالشدة والبأس ولا سيما أولئك الذين يشتدون على المؤمنين، فأراد النبي ﷺ تقوية قلوب هذا البعض من أصحابه، فأعلن هذا الدعاء، وقيده بمن أعلمه الله به بالوحي، وأنه عمر بن الخطاب خاصة.

طلبُ إعزاز الدَّعوَة بإسلام عمر

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وألقى في قلب عمر الإيمان غداة إجابة دعاء النبي ﷺ فأسلم وأعزّ الله به الإسلام والمسلمين.

أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف منا القوم، وأنزل الله ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾.

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي حَسْبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن المسيِّب، وسعيد بن جبير، قالا: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وست نسوة، ثم أسلم عمر نزلت ﴿ يا أيها النبي حَسْبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾.

قال ابن كثير: وفي هذا نظر، لأن الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى الحبشة، وفي هذا النظر نظر، لأن مدنية الآية لم يذكر له ابن كثير سنداً يعتمد عليه، وكل ما يمكن التماسه لدعوى ابن كثير أن الآية من سورة الأنفال، والأنفال مدنية باتفاق، ولا يلزم من كون الآية تلاوة في سورة مدنية أن تكون الآية مدنية نزولاً، لأن مدنية السور ومكيتها باعتبار الغالب،

لا باعتبار جميع الآيات، وكثير من الآيات المدنية وضعت بالتوقيف في سور مكية، وكثير من الآيات المكية وضعت توقيفاً في سور مدنية، قال أبو القاسم القشيري: إن الآية ـ يا أيها النبي حَسْبك الله ـ مكية كتبت بأمر رسول الله ﷺ في سورة مدنية، وهذا الكلام أدق من كلام ابن كثير، لأن كلام القشيري يشعر بأنه ناقل وعنده سند نقله، إذ هذا الكلام بمعزل عن أن يقال بالرأي والاجتهاد.

عدد المسلمين يوم أسلم عمر بن الخطاب

وإسلام عمر كان بعد إسلام حمزة بأيام، وإسلام حمزة قديم، كان في مدة الاستسرار بالدعوة، والهجرة إلى الحبشة بدأت مبكرة قبل إسلام حمزة وعمر، وتعددت مرَّاتها.

وقصة عمر وهو على شركه مع أم عبدالله بنت حثمة، وهي تستعد إلى الهجرة مع زوجها تدل على أن إسلام عمر كان في مبتدئها، لأن عدد المسلمين قبل إسلام عمر كان يتراوح بين الثلاثين وكسرها، فلما أسلم عمر كمَّلهم أربعين. قال ابن إسحاق: أسلم عمر عقب الهجرة الأولى إلى الحبشة، وكان عدد من هاجر في هذه الهجرة الأولى عشرة رجال كما يقول ابن إسحاق، معهم أربع نسوة وخالفه ابن سيد الناس في «العيون» فجعل عددهم اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، قال: وكانت الهجرة إلى أرض الحبشة مرتين، فكان عدد المهاجرين في المرة الأولى اثني عشر رجلاً وأربع نسوة.

وتختلف الروايات في عدد المسلمين عند بدء الهجرة إلى الحبشة، وعند إسلام عمر، فرواية أنهم كانوا تسعة وثلاثين وكمَّلهم عمر أربعين، ذكرها ابن حجر في الفتح في ترجمة عمر، قال: روى ابن أبي خيثمة عن عمر قال: لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون، فكمَّلتهم أربعين، فأظهر الله دينه وأعزّ الإسلام.

قال العلماء: وهذا التقدير مرجعه إلى أن عمر إنما ذكر من عرفهم واطَّلع عليهم من المسلمين، وكان هناك عدد منهم لم يعرفه عمر ولا اطَّلع عليه، لأن غالب من أسلم في فترة استسرار الدعوة كان يخفي إسلامه، ثم إن عمر اقتصر في إخباره على الرجال، ولم يذكر النساء، لأنهن لا إعزاز للإسلام بهنّ

في مدة استسرار الدعوة، لضعفهن، والحرص على عدم ذكرهن، وتعريضهن للفتنة في دينهن.

وقد حدَّد ابن سعد في الطبقات عن سعيد بن المسيب الوقت الذي أسلم فيه عمر فقال: إن عمر أسلم في ذي الحجة سنة ستٍ من المبعث ـ أي من النبوة ـ وسنة اثنتين أو ثلاث من بدء الرسالة بعد حمزة بثلاثة أيام.

وقال القسطلاني في المواهب: وكان عدد المسلمين إذ ذاك ـ أي إذ أسلم عمر ـ بضعة وأربعين رجلاً. قال شارحه الزرقاني: وزادوا احدى عشرة امرأة، **وهذا قريب مما ذكره ابن سيِّد الناس في «العيون» فقد ذكر المؤمنين السابقين في مدة الاستسرار بالدعوة بأسمائهم وأنسابهم فقاربوا ستين شخصاً، ما بين رجل وامرأة.**

* * *

إسلام عمر يمثل خصائصه الذاتية

كان إسلام عمر بن الخطاب صورة لشخصيته، يمثل خصائصه النفسية والعقلية، والإرادية، كما يصورها تاريخ حياته، قوة، وشجاعة، وجرأة مقتحمة، وصراحة لا تعرف المداهنة، ولا المداورة، وإدراكاً مُلْهَماً، وفطنة ألمعية، ورجولية غلَّابة قاهرة.

فعمر رضي الله عنه قوي لا يسلم إلا إسلام الأقوياء، وعمر عبقري الإدراك فلا يسلم إلا إسلام العقل المفكر المستقيم، وعمر شجاع لا يسلم إسلام الجبناء الرعاديد، ولكنه يسلم إسلام ذوي الشجاعة الذين يعرفون لأنفسهم حقها في الكرامة والعزة، وعمر جريء لا يسلم إلا إسلام المقتحم الذي لا يهاب ما هناك من المخاطر، وعمر ألمعي الرأي، فلا يسلم إلا إسلام من شهد الحق بعقله وبصيرته فعرفه واهتدى إليه بنور تلك البصيرة وذلك العقل الدرَّاك المستقيم.

اختلاف سياق الروايات

في إسلام عمر

فلم يسلم عمر خوفاً ولا رَهَباً، ولم يسلم عمر طمعاً ولا رَغَباً، ولم يسلم تقليداً وتبعية، ولكنه أسلم مستقلاً حراً كريماً، فإسلام عمر إسلام إيمان وصدق، وقد تعددت الروايات في طريقة إسلامه.

روايات قصة إسلام عمر رضي الله عنه الرواية الأولى

١ ـ تقول بعض روايات بدء إسلام عمر ـ وهي من رواية ابن إسحاق: أنه خرج متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ، استجابة لتحريش قريش، وتدميرهم، وتطلعاً لسمعة الفتوة الجاهلية، أو طمعاً في جائزة أبي جهل التي جعلها لمن يقتل محمداً ﷺ، فلقيه في طريقه نعيم بن عبدالله النحَّام ـ وهو عَدَوي مثل عمر ـ.

بين نعيم وعمر

وكان نعيم يكتم إسلامه خوفاً من عمر وأمثاله من المتجبرين في قريش، فقال له: أين تريد يا عمر؟ ولا بد أن يكون نُعَيم قد قرأ في وجه عمر شيئاً جعله يسأل عمر عن وجهته، وأجاب عمر عن سؤال نُعَيم فقال: أريد محمداً، هذا الصابىء الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله..

فقال نُعَيم: قد والله غرتك نفسك من نفسك يا عمر!! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال عمر: وأي أهل بيتي؟ قال نعيم: خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، واتَّبعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

بين سعد بن أبي وقاص وعمر في طريق إسلام عمر

وفي رواية أن الذي لقيه في طريقه، وهو ماضٍ في عزيمته المظلمة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، قال سعد: أنت أحقر وأصغر من ذلك، فكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة ـ عمومة النبي ﷺ وخؤولته؟ ومنهم سعد بن أبي وقاص ـ وقد قتلت محمداً؟ قال عمر لسعد: ما أراك إلا قد صبأت، وتركت دينك الذي أنت عليه، قال سعد: نعم، إني أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فسلّ عمر سيفه، وكشف سعد عن سيفه، وشدّ كل واحد منهما على الآخر حتى كادا أن يختلطا، فقال سعد: أفلا أدلّك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه.

التوفيق بين الروايتين

ولا تنافي بين الروايتين لاحتمال أن يكون نُعَيم وسعد لقياه في طريقه، واحداً بعد آخر، وهو يخطو إلى عزيمته السوداء، فأخبراه بخبر أخته وَخَتنه ليصدّاه عن قصده، وتصرف كل منهما بما في إهابه، فسعد أسد من أُسد الله، يعرف له عمر قدر شجاعته وفتوة شبابه، فكان بينهما ما كان من تصادم كاد يودي إلى اختلاطهما قتالاً بسيفيهما، ونُعيم أحد المؤمنين الصادقين في إيمانهم الذين كانوا يستخفون خوف الفتنة في دينهم، ومع ذلك فقد وقف موقفاً كريماً، لأنه رأى الأمر يتعلق بالنبي ﷺ، فهدد عمر، وأراه أنه مغرور بنفسه عن نفسه، وأن عشيرة محمد ـ وهي من هي ـ لا تتركه يمشي على الأرض إذا هو نال من محمد ﷺ نيلاً يؤذيه، فضلاً عن قتله.

فلما سمع عمر ما جبهه به نُعَيم وسعد عن إسلام أخته وخَتَنه أُخذ عن نفسه، وذُهل عن عزيمته، فخنس عنها، وعاد عامداً إلى أهل بيته الذين أسلموا من وراء ظهره، وهو مخمور بغفلة العنجهية الجاهلية.

ودخل على أخته وختنه، فقال لأخته: يا عدوّة نفسها؟! بلغني أنك صبوت، وأخذ بلحية ابن عمه ختنه فبطش به، وجلس على صدره، فجاءته أخته لتخلّص زوجها منه فلطمها لطمة أدمت وجهها، فبكت، وقالت لهذا الجبار الباطش وهي معتصمة بقوة إيمانها: أتضربني يا عدو الله على أن أوحِّد

الله تعالى! لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب، فافعل ما كنت فاعلاً، فقد أسلمنا!!.

فارعوى عمر، وأخذ صحيفة كانت عند أخته وخَتَنه، فيها بعض سور من القرآن الكريم، آيات من أول سورة (الحديد)، وسورة (طه) وسورة (الحاقة) وسورة (التكوير)، فلما قرأ من القرآن ما قرأ ذهب عنه رجز الشيطان وفتح الله قلبه لنور الهداية، وقال: دلُّوني على محمد ـ ﷺ ـ حتى آتيه فأسلم، فقالوا له: هو في بيت أسفل الصفا ـ دار الأرقم ـ معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، قيل: من هذا؟ قال: قلت: عمر بن الخطاب وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، ولم يعلموا بإسلامي، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب، ونظر أحدهم من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه، ففزع ورجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذا عمر ابن الخطاب متوشحاً سيفه، فقال حمزة: فأْذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «إيذن له» فأذن له، ودخل وقد أخذ حمزة والزبير بضبعيه حتى أوقفاه بين يدي رسول الله ﷺ، فأخذ ﷺ بحجزته ثم جبذه جبذة شديدة، نتره بها نترة فما تمالك نفسه عمر أن وقع على ركبتيه وارتعدت فرائصه من هيبة رسول الله ﷺ، وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة» فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، فكبَّروا جميعاً تكبيرة واحدة سمعت بطرق مكة.

قال ابن إسحق عقب هذه الرواية: فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

الرواية الثانية في قصة إسلام عمر

٢ ـ ثم ذكر ابن اسحق رواية المكِّيين عن إسلام عمر فقال: وحدثني عبدالله ابن أبي نجيح المكي عن أصحابه: عطاء ومجاهد أو عمن روى ذلك أن

إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحَزْوَرة، فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك فجئتهم فلم أجد أحداً منهم فيه. . فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلَّى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلَّاه بين الركنين، الركن الأسود، والركن اليماني، فقلت حين رأيته: والله لو استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فقلت: لئن دنوتُ منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستقبله ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رقَّ قلبي له، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائمًا في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف، فتبعته حتى أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني، فظن رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأؤذيه، فنهمني ثم قال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟» قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر» ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات.

الرواية الثالثة

٣ ـ ذكر ابن سيد الناس في «العيون» بسنده عن أسلم مولى عمر قال: قال لنا عمر: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من بعض قريش، فقال لي: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، قلت: وماذاك؟ قال أختك قد صَبَت، فرجعت مغضباً، وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلم عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه، وقد ضم إلى زوج أختي رجلين، فجئت حتى قرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب، وكان القوم جلوساً يقرؤون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفَوا وتركوا أو

نسوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لي، فقلت لها: يا عدوة نفسها قد بلغني أنك صَبَوت، قال عمر: فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به، فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، ثم قالت: يا ابن الخطاب: ما كنت فَاعلاً فافعل، فقد أسلمت، فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه، فقالت: لا أعطيكه، لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهَّر، وهذا لا يمسه إلا المطهَّرون، فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلما مررت بالرحمن الرحيم ذُعرت ورميت الصحيفة من يدي، ثم رجعتْ إليّ نفسي، فإذا فيها ﴿ سبَّحَ لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ فكلما مررت باسم من أسماء الله عزّ وجلّ ذعرت، ثم ترجع إليّ نفسي، حتى بلغت ﴿ آمِنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه ﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فقلت: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوا مني، وحمدوا لله عزّ وجلّ، ثم قالوا: يا ابن الخطاب أبشر، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما بعمر بن الخطاب» ـ وقد وَهَّينا هذا الحديث بهذه الصورة ـ وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك، فأبشر.

بين قوة الإيمان ومهانة الكفر ـ عمر وأخته فاطمة

قال عمر: فلما أن عرفوا مني الصدق، قلت لهم: أخبروني بمكان رسول الله ﷺ، قالوا: هو في بيت في أسفل الصفا، ـ وصفوه ـ فخرجت حتى قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وعرفوا شدتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا إسلامي، فما اجترأ أحد أن يفتح الباب، فقال رسول الله ﷺ: «افتحوا له فإن يرد الله به خيراً يهده» ففتحوا لي، وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي ﷺ، فقال: «فأرسلوه» فأرسلوني، فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع قميصي فجبذني إليه، ثم قال: «أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده» قلت: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله، فكبَّر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة.

تنزل غيث الإيمان على قلب عمر

وقد كان الرجل إذا أسلم استخفى، ثم خرجت فكنت لا أشاء أن

أرى رجلاً إذا أسلم ضُرِب إلا رأيته، فلما رأيت ذلك قلت: لا أحب أن لا يصيبني ما يصيب المسلمين، فذهبت إلى خالي، وكان شريفاً فيهم، فقرعت الباب عليه، فقال: من هذا؟ قلت ابن الخطاب فخرج إليّ، فقلت: أشعرتَ أني قد صبوت، قال: نعم؟ قلت: نعم، قال: لا تفعل، قلت: بلى قد فعلت، قال: لا تفعل، فأجاف الباب دوني، وتركني، قلت: ما هذا بشيء، فخرجت حتى جئت رجلاً من عظماء قريش، فقرعت عليه الباب، قال: من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب، فخرج إليّ فقلت له: هل شعرت أني قد صبوت، فقال: أو فعلت؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل، قلت: قد فعلت، قال: لا تفعل، ثم قام فدخل فأجاف الباب دوني، فلما رأيت ذلك انصرفت، فقال لي رجل: تحب أن يعلم إسلامك؟ قلت: نعم، قال: فإذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت فلاناً لرجل لم يكن يكتم السر فأصغ إليه، فقل له فيما بينك وبينه: إني قد صبوت، فإنه سوف يظهر عليك ذلك، ويصيح ويعلنه، فلما اجتمع الناس في الحِجْر جئت إلى الرجل فدنوت منه، فأصغيت إليه فيما بيني وبينه، فقلت: أعلمتَ أني قد صبوت، فقال: أصبوت؟ قلت: نعم، فرفع صوته بأعلاه قال: ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. فما زال الناس يضربوني وأضربهم، فقال خالي: ما هذا؟ قيل: ابن الخطاب، فقام عليّ في الحجر، فأشار بكمه فقال: ألا إني قد أجرت ابن أختي فانكشف الناس عني، وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يُضرب إلا رأيته وأنا لا أُضرب، فقلت: ما هذا بشيء حتى يصيبني ما يصيب المسلمين، فأمهلت حتى إذا جلس الناس في الحجر وصلت إلى خالي، فقلت: اسمع، فقال: ما أسمع؟ قلت: جوارك رد عليك فقال: لا تفعل يا ابن أختي، قلت: بلى هو ذاك، فقال: ما شئت، فما زلت أُضرب وأَضرب حتى أعزّ الله الإسلام.

شموخ الإيمان في مدارك عمر

أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعقله وقلبه وروحه ووجدانه، وملأ الإسلام جوانب نفسه، وملك عليه شعوره وحواسه، فلم يرض لنفسه ما رضيه جمهور إخوانه: المؤمنين السابقين من الاستسرار بإسلامهم، ولم يرضَ لنفسه أن يظفر بالعافية، يعيش بين أحضانها، وإخوانه في الإسلام ينالهم من الأذى والبلاء ما تنوء به قواهم، وترزح تحت نيره قُدَرهم، يسامون سوء العذاب، يُضْربون، ويُشتمون، ويَسْفه عليهم السفهاء، ويستهزىء بهم المستهزئون، وأبى عمر إلا أن يعلن عن إسلامه، ويجهر بإيمانه على سمع ملأ قريش في أنديتهم ومجالسهم وهو أعرف بعنجهيتهم وجبريتهم، ليصيبه ما يصيب إخوانه المسلمين الذين حبسهم الخوف في دار الأرقم مستخفين بإيمانهم اتقاء بطش قريش وظلمها، حتى يجعل الله لهم من ضيقهم فرجاً، ومن عسر الحياة يسراً ومخرجاً.

روى ابن إسحاق عن نافع، عن عبدالله بن عمر قال: لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجُمَحي، فغدا عليه، وغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له: أعلمتَ يا جميل أني قد أسلمت، ودخلت في دين محمد - ﷺ - فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتّبعه عمر، واتبعتُ أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر خلفه: كذب، ولكني أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله،

فثاروا عليه، فما زال الناس يقاتلونه، ويقاتلهم حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئة رجل لقد تركناها لكم أو تتركوها لنا.

فبينما هم على ذلك إذْ أقبل شيخ من قريش عليه حُلّة حِبَرة، وقميص موشًى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، قال: فَمَه؟ رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون! أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم؟ هكذا، خلُّوا عن الرجل، فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه.

وفي رواية ذكرها الزرقاني في شرح المواهب أن أبا جهل رأى الناس، وهم يضاربون عمر، فقال: ما هذا؟ قالوا: ابن الخطاب قد صبأ، فقام أبو جهل على الحجر فقال: ألا إني قد أجرت ابن أختي ـ وأم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، بنت عمِّ أبي جهل، فهي أخته منزلة ـ فانكشف عني القوم، فكنت لا أزال أرى مسلماً يُضرب ولا يَضربني أحد، فقلت ألا يصيبني ما يصيب المسلمين؟ فأمهلت حتى جلس الناس في الحجر، فجئت إلى خالي ـ أبي جهل ـ فقلت: إسمع، قال: ما أسمع؟ قلت: جوارك رد عليك، قال: لا تفعل يا ابن أختي، قلت: بل هو رد عليك، فقال: ما شئت فافعل، فما زلت أَضرِب ويضربوني حتى أعزّ الله الإسلام.

لقد نكأ عمر بن الخطاب جرح الشرك، وفقأ عين الوثنية بإعلان إسلامه، وردّ جوار رأس الكفر أبي جهل ورضي بجوار الله تعالى، ليشارك إخوانه المؤمنين ما يلقَون من أذى في سبيل دينهم وعقيدتهم، وتجلبب قوة الإيمان، فَضُرب وضَرَبَ حتى أعيت به قريش، واستسلمت ذليلة أمام عزة الإيمان وقوته في نفس عمر رضي الله عنه.

إسلام عمر كان تمهيداً للجهر بالدعوة

وعمر رضي الله عنه ـ منذ أسلم ـ صاحب إلْهام، وموافقات، يراها بإلْهامه، فينزل القرآن بموافقته مصدِّقاً له فيما رأى توفيقاً من الله تعالى.

وتبدأ موافقات عمر، وتأتي طلائع إلْهامه وألمعيته، فيذهب إلى النبي ﷺ ـ بعد أن جلس بإيمانه في كل مجلس جلس فيه بالكفر، فطأطأت قريش أعناقها لإسلامه، ولم تستطع أن تنال من إيمانه شيئاً ـ يقول: يا رسول

الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ فيقول له النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم، وإن حييتم» فيقول عمر: ففيمَ الخفاء يا رسول الله، ونحن على الحق، وهم على الباطل؟ ويقول النبي ﷺ إشفاقاً على أصحابه، وتهييجاً لعزائم أولي القوة منهم: «يا عمر إنا قليل، قد رأيتَ ما لقينا» ويقول عمر: والذي بعثك بالحق نبياً لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان.

وأذِن الله تعالى لدعوة الإسلام أن تعلن عن نفسها، وأذن لرسولها ﷺ أن يجهر بها بعد أن تحققت حكمة الاستسرار بها، وبعد أن توافرت عوامل الجهر والإعلان، وأصبح المسلمون في قوة تمكنهم من الانتصاف لأنفسهم، فاستجاب رسول الله ﷺ لرغبة عمر في إظهار الدعوة والجهر بها، وأن ينادي الناس بأمره، وخرج رسول الله ﷺ ـ كما يقول عمر ـ في صفَّين من أصحابه، أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، ولنا كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، فنظرت إلينا قريش فأصابتهم كآبة لم تصبهم قط، ويومئذ سمَّى رسول الله ﷺ عمر (الفاروق).

ودخل الناس في دين الله أفراداً وجماعات، وفشا ذكر الإسلام بين الناس، وتحدثوا به في منازلهم وأنديتهم ومجالسهم، ومحافلهم، وأسواقهم ومواسمهم، وتمت كلمة الله، ومضت الرسالة الخالدة في سيرها تفتح القلوب، وتكافح أعداءها متدرِّعة بالصبر الجميل، وتنزّل نصر الله متدرجاً مع تدرج الوحي بالتشريع، حتى أكمل الله نعمته على عبده ورسوله وعلى المؤمنين.

نفحات الإعجاز في إسلام عمر

كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفحة من نفحات الإعجاز في رسالة محمد ﷺ، وكان آية من آيات الحكمة الربانية التي تُمسك بزمام هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، فتوجهها في سيرها ثابتة الخطا، وطيدة الأركان، راسخة الدعائم قوية البناء.

وإسلام عمر رضي الله عنه كان إعجازاً متعدد الجوانب، نديَّ الرغائب، ثريّ الحقائق، يتمثل في استحالة نفسية عمر وطبيعته الجاهلية، وخصائصه الوثنية ـ في لحظة من لحظات الزمن التي تمر بها الحياة، فتحمل معها فيما تحمل من الأحداث الجسيم الخطير، الذي تعجز العقول عن تعليله، وإدراك أسبابه ودوافعه، فلا تملك إلا أن ترده إلى الغيب، وتحيله إلى الأقدار، كأثر من آثار سلطانها على الحياة، وقهرها لقوانينها الطبيعية، وسننها الاجتماعية المألوفة لعقول الناس ومشاهداتهم الحسية ـ إلى نفسية جديدة، لا تعرف عمر الجاهلية، ولا يعرفها، نفسية خُلِقت إبداعاً، فاستحالت غلظتها الجافية المتحجرة، إلى قوة إنسانية رحيمة حانية، واستحالت قسوتها العارمة إلى هداية وعدل، ينصر الضعفى، ويضمِّد جراحهم، ويعز الحق ويؤيده.

لمحات من حياة عمر في جاهليته

كان عمر في جاهليته رجلاً من فتيان قريش، مشبوب القوى، قوي الشكيمة، حديد العزيمة، مرهوب الجانب، رهيب السمعة، لا يرام ما وراء ظهره، ولا تعرك أذنه، يعيش عيشة الفتيان الأغرار، التي لا

تستهدف إلا سمعة داوية في الأسواق والمحافل، يتردد صداها خوفاً منه ورهبة له، غارقاً في وثنية متبلدة، وشرك وضيع، يتشاطر مفتوناً بالخمر وندمانها، لا يشغله في حياته شاغل غير نفسه وأهوائها، حياة فارغة إلا من تفاهات جاهلية، يستهويه التردد على الأسواق ليصارع الأشدة من أقرانه.

يقول ابن سعد في الطبقات: إن أبا التيَّاح حدث في مجلس أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: لقي رجل راعياً فقال له: أشعرت أن ذلك الأعسر اليسر ـ يعني عمر بن الخطاب ـ قد أسلم؟ قال الراعي: الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟! قال: نعم، قال: أما والله ليوسعنَّهم خيراً أو ليوسعنَّهم شراً، فلما جاء الله تعالى بالإسلام، وبعث نبيه محمداً ﷺ رسولاً إلى العباد، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويقيم لهم معالم الهداية، وينصب لهم على جوادِّ الحياة منائر الحق والعدل، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم من غبش الوثنية والشرك، ليعرفوا ربهم عرفان صدق وإخلاص بتوحيده وإفراده بالعبادة والدعاء، ويعرفوا حق إنسانيتهم عليهم، فلا ينزلوا عن كرامتها لأحد من الخلق ـ كان عمر ابن الخطاب في طليعة المباعدين له، المشمِّرين عن سواعد الغرور والعنجهية لمناهضته، ومقاومة دعوته، فكان من أقسى الناس وأشدهم أذى لرسول الله ﷺ وأصحابه، كما أخبر عمر نفسه عن نفسه بذلك، فقد جاء في حديث مولاه أسلم قال: قال عمر: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، وقال حينما ذهب إلى دار الأرقم ليسلم على يدي رسول الله ﷺ: فقرعت الباب، قيل من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب، وقد عرفوا شدَّتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا بإسلامي.

وتقول أم عبدالله بنت أبي حثمة وهي تحدِّث عن عمر وقد أتاهم وهم يستعدون للهجرة إلى الحبشة: وكنا نلقى منه البلاء أذىً لنا، وشدَّة علينا، وتقول أم عبدالله. وقد حدثت زوجها عامر بن ربيعة عما رأته من رقة عمر لهم وهم على أهبة الهجرة، قال عامر: أطمعتِ في إسلامه؟

قالت: نعم، قال عامر: فلا يسلم هذا حتى يسلم حمار الخطاب، قالت أم عبدالله: يقول ذلك ـ أي زوجها عامر بن ربيعة ـ يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإسلام.

وكتب السيرة تروي أن عمر كان ممن غمس يده قبل أن يسلم في تعذيب المستضعفين من المسلمين، قالوا: كانت له جارية رومية تدعى (زِنِّيرة) سبقته إلى الإسلام، فكان يعذبها، ويشتد في تعذيبها والقسوة عليها، حتى أفقدها بصرها، وكان يشاركه في تعذيبها طاغية الكفر أبو جهل، لترجع عن إسلامها فتأبى ـ وهي صابرة محتسبة ـ إلا الإسلام.

روى ابن المنذر عن عون بن أبي شدَّاد قال: كان لعمر أمة أسلمت قبله، يقال لها (زِنِّيرة)، فكان يضربها على إسلامها حتى يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقتنا إليه (زِنِّيرة)، فأنزل الله في شأنها وشأنهم قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾[1].

وكان المشركون يقولون: ما أذهب بصرها إلا اللاَّت والعزّى، فتقول لهم (زِنِّيرة): هذا أمر من السماء وما يدري اللاَّت والعزَّى من يعبدهما، وربيّ قادر على أن يرد عليّ بصري، فردّ الله تعالى عليها بصرها.

و(زِنِّيرة) ممن أعتقهم أبو بكر الصديق رضي الله عنهم، بعد أن اشتراهم من الطغاة لينقذهم من أليم العذاب، ويذيقهم سعادة الحرية في ظل الإسلام.

وكأنما كانت هذه الغلظة القاسية مكبوتة في طبيعة عمر، لا يعبِّر عنها في حياته الجاهلية إلا تفتِّيه وتشطُّره في الأسواق والمحافل، وتخلقه بأخلاق الجاهلية التي كانوا يرونها شجاعة وأنفة.

تروي بعض كتب الأدب والتاريخ التي تحدثت عن رذيلة وأد البنات عند الجاهلية أن عمر في جاهليته كان ممن قارف هذه السيئة، فقد ذكروا

---

(١) سورة الأحقاف آية (١١).

أنه أخذ بنتاً له صغيرة، فأصحر بها متنائياً، وجعل يحفر لها ليدفنها حية، ويدسها في التراب، اتقاء عارها، وبينما هو يحفر لها، والطفلة إلى جانبه لا تدري ما يريد بها هذا الأب المتحجِّر القلب، إذا بشيء من غبار الحفير يتطاير إلى لحيته، فأخذت الطفلة مسوقة بعاطفة البنوة، وبراءة الطفولة تنفض عنه الغبار، وهو ماضٍ في عمله، لا تحركه إلا قسوة فقد معها حنان الأبوة ورحمة الطفولة، وعواطف الإنسانية.

ولم تكن هذه الأحداث الجاهلية لتشبع غريزة القسوة في طبعه ولا لتطفىء غلَّة تعطشه للبطش، ولا لترضي ميراثه المتحدر إليه من أبيه الخطاب وخؤولته المخزومية من أمثال أبي جهل.

وأقام عمر هو وأمثاله من شباب التفتي الوثني، والتشطر الجاهلي الكفور يترقبون الأحداث لينفثوا سموم غرائزهم، ويتنفسوا من أزمات الكبت الجاهلي، حتى جاء الإسلام بدعوته الهادية الرشيدة، التي كان أول طلائع أهدافها القضاء على كل أثر وثني، وهدم معالم الشرك بكل ألوانها، وأنواعها، وكل ما يتصل بها مبدأ ونهاية من رذائل وعادات وأخلاق، ونظم اجتماعية ظالمة.

ودلف إلى ساحة الإسلام إيماناً بدعوته، واعتناقاً لمبادىء رسالته عدد من شباب قريش وأبناء بيوتاتها ممن صفَت فطرهم، وزكَت عقولهم، فاستجابوا لدعوته، وآمنوا برسالته، واهتدَوا بهديه، ودخلوا مع رسول الله ﷺ دار الأرقم، أول دار اتخذها الإسلام داراً له، ومعهداً لدراساته وعلومه ومعارفه التي كانت تنزل على رسول الله ﷺ قرآناً يتلوه عليهم، ويبيِّن لهم طرائق هدايته..

ودخل معهم في ساحة الإيمان مسلمين، مهتدين بهُدى الله، مؤمنين برسالة نبيه محمد ﷺ، عدد من الأرقاء والمستضعفين ذوي القلوب الصافية من دغل الوثنيات وأرجاس الجاهلية، وذوي النفوس الصبورة على احتمال البلاء وشدة الأذى في سبيل إيمانهم وعقيدتهم، ممن أرمضهم الظلم الاجتماعي وشدخ يأفوخ إنسانيتهم طغيان الجاهلية، وبطش المتجبرين،

وبأو المستكبرين، وعتو أهل البغي والفجور، وصَلَف الكفر والجحود، وفسولة الشرك والوثنية.

قسوة عمر تَرَسُّب جاهلي موروث

وقسوة عمر بن الخطاب وغلظته في جاهليته التي عُرف بها بين قومه خاصة وفي قريش وغيرها بصفة عامة طبيعة موروثة، تحدرت إليه حتى ترسبت في نفسه من:

أولاً ـ عصبته وقومه بني عدي، الذين انبثق من دوحتهم فرعه في عمومته وخاصة بيته.

ثانياً ـ خؤولته بني مخزوم عامة، وآل المغيرة خاصة، لأن أمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، بنت أخي الوليد بن المغيرة، وبنت عم أبي جهل ابن هشام بن المغيرة.

فعصبة عمر بنو عدي كانوا في الجاهلية أقل عدداً في بطون قريش من سائرهم، وكانوا أقل ثراء وأموالاً منهم، وكانوا أضعف قريش حركة في تقلبات تجاراتها، وكانوا من أبعد بيوتها عن تولِّي المناصب الهامة في الجاهلية ـ ولا سيما المناصب التي تتصل بالكعبة المشرفة والبيت المحرَّم، وزواره، والوافدين لحجِّه من أقاصي البلاد العربية وأدانيها، من كل ما يستوجب ألواناً من المكارم والكرم، والإنفاق في سبيل الفخر والشرف ـ ما أورثهم كبتاً مغيظاً، وحنقاً مشوباً بشيء من الحقد الخفي، والكراهية المتربصة.

ومن ثَمَّ كانت الشدة الجافية، والحدَّة القاسية، وجفوة الطبع، مظهر ذلك الكبت المحنق الذي ملأ صدورهم، ولم يجدوا له متنفساً إلا أن يجعلوا ذلك الدسيس في طباعهم تعويضاً خلفياً عما فاتهم من كثرة العدد، وأمجاد التقدم في طلائع قريش، والثراء الفاحش عند بعضهم، وحركات المضاربة في رحلات التجارة التي لم يكن فيها لبني عدي كبير شأن، ولا ذكر مشهور.

وكأنما قُصد قصداً أن يوسد إليهم منصب السفارة والمنافرة بين

قريش ومن يخاصمها وينافرها من قبائل العرب، ليكف ذلك المنصب (المتعقل) من حدَّة بني عدي، ويفل من جفوتهم، ويجعلهم في حرصهم على الفَلَج لقومهم في المنافرات، والظفر لهم في المفاخرات أهدأ بحجتهم، وأعقل في سباق مآثر قومهم.

وأقرب الناس في عصبة بني عدي إلى عمر، وألصقهم به، وأدناهم منه أبوه، الخطاب الذي تحدَّر منه إليه مباشرة ميراث القسوة وجفاوة الطبع.

وليس وراء وصف عمر نفسه لأبيه في ميراث القسوة والغلظة وصف يفوقه أو يتقدم عليه، فعمر نفسه يصف أباه فيما يرويه ابن سعد في الطبقات عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أقبلنا مع عمر قافلين من مكة، حتى إذا كنا بشعاب ضجنان وقف الناس، فقال عمر: لقد رأيتني في هذا المكان وأنا في إبل الخطاب ـ وكان فظاً غليظاً ـ احتطب عليها مرة واختبط لها أخرى، ثم أصبحت يضرب الناس بجانبي، ليس فوقي أحد.

وعن سليمان بن يسار أيضاً قال: مرّ عمر بن الخطاب بضَجْنان، فقال: لقد رأيتني وإني لأرعى على الخطاب في هذا المكان، وكان ـ أي أبوه الخطاب ـ والله ما علمت فظاً غليظاً، ثم أصبحت إلَى أمر أمة محمد ﷺ.

أما خؤولة عمر من بني مخزوم عامة، وآل المغيرة خاصة ـ وفي طليعتهم الوليد بن المغيرة، الكفور العنيد، وابن أخيه أبو جهل الفاجر الكنود، وكان عمر يتشارق بخؤولته تفاخراً به، وتباهياً ببأوه وعنجهيته ـ فكانوا أولي بأس وعدد، وقوة ومدد، وغرور وكبرياء، جفاة غلاظ الأكباد، تيَّاهين بأموالهم وعددهم ومكانتهم من قومهم، مستكبرين في الأرض بغير الحق، يلون في مناصب قريش ومفاخرها منصب الحرب، ومفخرة الفروسية، يزاحمون بني عبد مناف وينافسونهم في مفاخر الجاهلية ومآثرها، يتسابقون فيها تسابق المضمرات في حلبة السباق.

فلما جاء الله تعالى لبني عبد مناف عامة وبني هاشم خاصة بواحدة؛

جُدِع لها أنف الكبرياء والغرور من مخزوم، وأرغمت عرانين آل المغيرة، وأذلّت معاطسهم، ونكست جباههم، فاصطفى من بني عبد مناف ثم من بني هاشم خير من مشى على الأرض إنساناً، وأفضل من بعث إلى العباد رسولاً، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم، ورَمِت لذلك أنف مخزوم، وانتفخ سحر غطاريفهم، وضرع عزهم، فشنِفوا لبني عبد مناف، واستزرعوا الحقد لهم في قلوبهم، وأرّثوا نيران الشنآن في صدورهم، فحملوا لواء العداوة والبغضاء لكل ما هو منافي، وتزعموا مناهضة الدعوة الإسلامية، ومقاومة الرسالة المحمدية، وكانوا بزعامة الكفور العنيد أبي جهل أعدى أعداء رسول الله ﷺ، وأشدهم إيذاء لأصحابه، فتذامروا مع كل من انضوى تحت لوائهم على الفتك بمن أسلم من رجالاتهم وشبابهم، وبمن اهتدى بهُدَى الله من الأرقاء والمستضعفين ليردوهم عن دينهم وعقيدتهم.

واستسرّ رسول الله ﷺ بدعوته، وهو ماض على أمر ربه، لا يرده عنه وعيد ولا إرهاب والدعوة تنمو وتزداد انتشاراً، والإسلام يفشو بين الناس، ويتحدثون به في مجالسهم، وكثر الداخلون في ساحته، وشعر غطاريف قريش، وأحلاس الشرك وعبيد الوثنية أن أرض مكة تميد تحت أقدامهم، وأنهم مهدّدون في حياتهم الجاهلية، وهي مرجع ثرواتهم، ومصدر نفوذهم، ومربح تجارتهم، وأن سلطانهم على المستضعفين والمحرومين قد آذن بالانحسار، يرونه بأبصارهم يهوي إلى هاوية الدمار والفناء، وأن محمداً ﷺ سيقلب عليهم أوضاع الحياة، وأن دعوته ستذهب بنفوذهم وتقوض عروش غطرستهم، وتهدم مكانتهم، وتضعضع أقدارهم، وتعبث بهيبتهم، وأن رسالته ستجعل من العبيد والأرقاء سادة، ومن المغمورين طلائع وقادة، وأنها ستبخع بَأْوَهم وعنجهيتهم، وتذل كبرياءهم وتردهم عن غرورهم وتعاليهم إلى شرعة المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، في ظل توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، والقضاء على الشرك بجميع أنواعه وضروبه وإزالة الفوارق الإنسانية في الحقوق والواجبات.

ضاقت الدنيا برؤوس البغي، وزعماء الشرك والوثنية، وسدّت في وجوههم منافذ الرأي لمقاومة محمد ﷺ ومناهضة دعوته، وعميت عليهم طرائق الوصول إلى صدّ تيار هذه الدعوة التي تزداد، وتنمو، ويزداد معتنقوها قوة وعدداً، بعد أن أفحمتهم حجتها، وفوّقت سهام براهينها إلى أباطيلهم وضلالاتهم الجاهلية، فنسفتها نسفاً؛ فأبلسوا حيارَى لا يدرون ما يفعلون، ودارت رؤوسهم فوق أعناقهم منكوسة التفكير، مرتكسة التدبير، كما تدور الرحى على الحصى، تسمع لها جعجعة ولا ترى لها طحناً، فلم يجدوا في كناناتهم بعد أن عجموا عيدانها المتكسرة إلا نصالاً من الوحشية الجاهلية المتعطشة للطغيان والفجور، فأخذ كل قوم منهم يتفننون في تعذيب من آمن بالله ورسوله من شبابهم وأرقّائهم، والمستضعفين من الرجال، فحبسوهم، وضيّقوا عليهم مسالك الحياة ليمنعوهم من الوصول إلى رسول الله ﷺ في دار الإسلام، دار الأرقم، ويحولوا بينهم وبين الاجتماع بإخوانهم المؤمنين ذوي المنعة والقوة الذاتية الذين لا تستطيع قوة البغي والضلال أن تنال منهم.

وأجاعوهم ليرغموهم على الكفر بدينهم دين الحق وعقيدتهم التي خالطت حلاوتها مشاعرهم وإحساساتهم، ومداركهم وامتزجت بدمائهم وأرواحهم، وأذاقوهم فادح البلاء وشديد الأذى، وصبُّوا عليهم ألوان التعذيب وساموهم سوء العذاب، فلم ينالوا من أحد منهم منالاً، بل كانوا في إيمانهم أثبت من شوامخ الرواسي، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يعزب عنها.

ورأى رسول الله ﷺ بتوفيق الله وتسديده، إشفاقاً على أصحابه، وإنقاذاً لهم مما يصيبهم من آلام وبلاء، لا طاقة لهم على احتماله، ولا طاقة لهم بدفعه أن يوجه أصحابه إلى الهجرة من هذا البلد الظالم أهله إلى حيث يأمنون على أنفسهم وعقيدتهم يعبدون ربهم مطمئنين، لا يستخفُّهم إرهاب ولا يستفزهم إيذاء وتعذيب، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً

مما أنتم فيه». فخرج من تمكن من الخروج عند ذلك، مهاجرين إلى أرض الحبشة.

مكر خبيث وتدبير خاسر

فاستشاط غضب قريش واشتد حنقهم، وضاعفوا الأذى على من بقي من المسلمين، ولم يتمكن من الهجرة، وأملى عليهم الشيطان أخبث رغائبه، واستهواهم بأشنع وساوسه، وأرجاسه، وألقى إليهم أبشع مكايده وأسوأ تدبيره ومكره، وائتمروا بينهم أن يقتلوا محمداً ـ ﷺ ـ وتنادى ملؤهم بهذا النعيق الأشأم، وقالوا في هُجر وسُعُر: مَنْ رجل يقتل محمداً ـ ﷺ ـ فقال عمر بن الخطاب ـ وكان هذا أول وآخر مظهر له مع الملأ ـ: أنا له، فقال المتهاتفون في فرحة بلهاء: أنت له يا عمر.

روى أبو نعيم في الدلائل عن طلحة وعائشة رضي الله عنهما عن عمر قال: إن أبا جهل رصد لمن يقتل محمداً ـ ﷺ ـ مائة ناقة حمراء وسوداء، وألف أوقية من فضة، قال عمر ـ وكأنه استعظم هذا الجُعْل، وخشي أن يخيس أبو جهل بوعده به، وأراد عمر أن يوثق الأمر، ويؤكد الالتزام ـ يا أبا الحكم الضمان صحيح؟ قال أبو جهل: نعم، قال عمر: فخرجت متقلداً سيفي، متنكباً كنانتي، أريد رسول الله ﷺ.

ولم يكن عمر في خروجه هذا يرى في نفسه، ولا يتصور في شعوره وإحساسه إلا أنه يمشي تلبية لرغائب ملأ قريش وطغاتها، ليحقق أخطر ما مشى فيه فتى من فتيانها وأشجع شجعانها، إنه يمشي والشيطان يقوده كالجمل المخشوش ليحقق له ممثلاً في أشباح الملأ أعز آماله.

إنه يمشي ليقتل محمدبن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمي المنافي، هذا الصابىء الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، وأقلق بالها، وحرمها الاستقرار.

وكان قصارى عمر في هذا الممشى أن يفوز بدوي هذه الأحدوثة الفاجرة، تتحدث بها عنه قريش ومن ورائها سائر قبائل العرب في مضاربها ومحافلها وأسواقها ومواسمها، ويفوز بما عزّ عليه أن يملك مثله في جاهليته

من رصد أبي جهل وهبته السخية لمن يقتل محمداً ﷺ؛ وعندئذ يكون عمر قد فاز أيضاً بمقعد بين ملأ قريش إلى جانب الوليد بن المغيرة، وخاله أبي جهل، وابن أبي مُعَيط، وابني خَلَف، أمية وأبيّ، وغيرهم من غطارفة الشرك وعبيد الوثنية.

خرج عمر ـ كما تقول بعض الروايات ـ متقلداً سيفه ليضرب ضربته التي ستقعده هذا المقعد الذي لم يحلم به أحد من قومه بني عدي، ويعود إلى ملأ قريش منتفخ الأوداج، ملطَّخاً بدم أعز فتى في بني عبد مناف، وهم أسد الشرى، لا ينامون على ضيم ولا يعفِّر جباههم ذل الرضا بالدنية، ولن يسلمه ملأ قريش إلى هؤلاء الأباة الهاشميين المنافيين الذين لم تُغمز لهم قناة ولا خُضدت شوكة، ولا ريموا بسوء كِيدُوا به إلا دفعوه بحدِّ سيوفهم وأسنة رماحهم.

هكذا كانت هواجس عمر في ممشاه هذا، ومن ورائه الملأ من أحلاس الكفر، وطغاة الوثنية، لا يملأ أدمغتهم إلا فتات متعفن من بقايا أشلاء جاهلية، تحفر قبرها بيدها، وهي تمشي إليه مجللة بالخزي والخذلان.

لم يكن عمر بن الخطاب في ممشاه هذا يعرف عن محمد ـ ﷺ ـ إلا أنه الصابىء، الذي فرَّق قريشاً، وها هي ذي قد جعلت الجعائل سخية في قتله، لتتخلص إلى فجورها وشركها ووثنيتها، واستبدادها بالضعفاء والمحرومين من عباد الله المعذبين في الأرض.

ولم يكن يمر بخاطر عمر ساعتئذ، ولا خطر في خياله أنه في ممشاه هذا أذلُّ، وأقمأ من أن يستطيع إطفاء ضوء الشمس وهي مشرقة الضحوة بنفخة مصدورة من فيه.

ولم يكن يهجس في نفس عمر يومئذ أنه في ممشاه هذا أضعف وأخسأ من أن يستطيع الفتك بالحياة وهي متجددة في عنفوان قوتها وشبابها.

ولم يكن لعمر يومئذ نظرٌ يدرك به أنه في ممشاه هذا كان مفتون الغرور، يريد أن يخنق الخير وهو في براعمه، ويبدل نهار الحياة المشرق ليلاً

دامساً، ونور الحق ظلاماً حالك السواد، مغبَّر الآفاق، تعوي فيه ذئاب الشياطين، ويملؤه عزيف المردة من أبالسة الأناسي، شاربي دماء البشر شراهة وآكلي أكبادهم ظلماً وبغياً وعدواناً.

ومضى عمر في وجهه متغضباً متجهماً، ولكنه لم يكد يمشي خطوات حجبته عن الملأ في مجالسهم ينتظرون النبأ العظيم، حتى لقيه أحد أبناء قومه بني عدي، نُعَيم بن عبدالله النحَّام، أحد السُّبق إلى الإسلام، فاستوقفه ـ وكأن نعيماً رأى في سمت عمر ومشيته القلق والاضطراب ـ سائلاً: أين تريد يا عمر، فقال عمر ـ وهو لا يعلم شيئاً عن سبق نعيم إلى الإسلام، وأنه يكلم منذ اللحظة الأولى جندياً من جنود الله الذين استجابوا لله ولرسوله، وملأ الإيمان برسالة محمد ﷺ قلوبهم، فكان أحبّ إليهم من أنفسهم وأبنائهم وآبائهم وأمهاتهم، يفدونه بأرواحهم وكل ما عزّ عندهم ـ أريد محمداً، هذا الصابىء، فأقتله. وضحكت الآفاق تهزأ بعمر وعزمته وسيفه، وكأنما سمع نُعَيم صدى سخرية الآفاق وهزئها بعمر في ممشاه وهو متقلِّد سيفه ليقتل محمداً ﷺ، وكان نُعَيم يخفي إسلامه من قومه عامة وفرقاً من عمر بخاصة، ولكن صَوْلة الإيمان، وجسامة الخطب في ممشى عمر جعلا من نعيم أسداً من أُسْدِ الله، وضع حياته فداء لرسول الله ﷺ، فلم يأبه لسيف عمر، ولم يبال بتجهمه وعزمته الخائرة، فوقف في وجهه يجبهه ويزجره بما لم يكن في حسبان عمر، فقال له: لبئس الممشى مشيت يا عمر: ولقد والله غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر، ففرطت، وأردت هلكة بني عدي، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمداً؟.

ولم يترك نعيم عمر يلتقط أنفاسه ويصحو من سكرة الغضب التي سقاه كأسها نعيم هذا الذي كان يفرق من عمر فرقاً يجعله لا يمر في طريق يمر به عمر، ولكنه بدهه بقاصمة الظهر التي تشغله عن غروره بنفسه وتعيده إلى صوابه، وتنسيه الملأ ووعودهم، وأبا جهل وجائزته، فقال له: أفلا ترجع إلى بيتك فتقيم أمرهم؟: فقال عمر فزعاً، ولمَّا يتم استفاقته من صدمة نُعَيم التي جبهه بها: وأي أهل بيتي؟ قال نعيم: ختنك وابن عمك سعيد ابن

زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

الإيمان يجدد الحياة في النفوس

سبحان الله!! ماذا صنع الإيمان بهذه النفوس الحبيسة في أرضها، بين شواهق الجبال المخيفة، والوديان القاحلة المقفرة من كل عيش وأمل، والمفاوز الممتدة في بؤس وجهالة، لا تعرف علماً، ولا تؤثر معرفة؟ وماذا يستطيع الإيمان بالحق أن يصنع بكل نفس خالطتها بشاشته، وامتزجت بها حقائقه؟.

إنه صنع ويصنع الإنسان، يجدد خلقه، ويعيده إلى ما في طبيعته الأصيلة من كمال بشري وقوة مهذبة، إنه صنع ويصنع في ظل رسالة محمد ﷺ الحياة الجادة، المستقيمة في صورة لا يعرفها تاريخها من قبل.

ليس في الأمر تخيُّل ولا مبالغة، ولكنه الواقع المشهود يملي حقائقه، لتسجل بالقلم عبرة وذكرى بعد أن آمنت الحياة بها إيماناً لا يداخله امتراء.

هذا نموذج من عمل الإيمان وأثره في النفوس التي لم تكن تحلم أن الأمل يناغيها في مهدها لتشب منه خلقاً آخر، يمسك بزمام الكون، فيوجهه مسخَّراً له إلى آفاق كان قبل هذا الإيمان أبعد ما يكون عنها، وهو تائه في بيداء الحياة، حيران يعيش منه من يعرف طعم العيش في ظل فلسفات وثنية مظلمة، يغلِّفها الغموض والإبهام، إلى آفاق الخير والهدى والنور والعدل والإصلاح، ومعرفة الله بجلال كمالاته وإشراق وحدانيته.

حقائق جديدة على هذه النفوس، ولكنها أصبحت هي خصائصها التي تحيا بها، وحياتها التي تنبع من داخل ضميرها فتجري فيه أنهراً، تسقي العقول والأرواح من نميرها، فتبدل بؤسها وشقاءها سعادة، وسخطها رضاً، وجهلها علماً ومعرفة، وخوفها أمناً، وظلمها عدلاً، وقسوتها رحمة، وتباغضها محبة، وتباعدها إخاء ومودة، وتفرقها تجمعاً ووحدة، يتواسى فيها الناس ويتراحمون.

نعيم بن عبدالله النحَّام العدوي رضي الله عنه ـ وهو رجل من بني

موقف نعيم النحام من عمر

عدي قوم عمر بن الخطاب، سبق إلى الإسلام فآمن بهدايته مع السابقين الأولين، وأخفى إيمانه وإسلامه فرقاً من بطش عمر، فتى فتيان قومه، ورعباً من قسوته الجاهلية وغلظته الوثنية على أهل الإسلام ـ يقف في وجه عمر إذ يراه متوشحاً سيفه، يمشي في عزيمة متجهمة، يطوي جوانحه على مستكنة من الكوارث قاصمة، وقارعة من القواصم مبيدة مدمرة، لا يبالي جبرية عمر وبطشه ولا يقيم وزناً لقسوته وغلظته، موقفاً يجبهه فيه، ويحقِّره أمام نفسه، بكل ما تعرف كلمة من تقريع وتحقير، ويريه في صراحة صارمة أنه في ممشاه هذا مغرور، مفتون، لا يعرف قدر نفسه.

فما هذا الذي أحال نعيماً الرجل المسلم الذي ظل مستخفياً بإسلامه رهبة ورعباً من عمر وقومه، حتى يقف من هذا العاتي الجبَّار، المغرور بنفسه هذا الموقف الذي يعنون شجاعة الأبطال في مواقف النضال؟.

إنه الإيمان، والإيمان فحسب، والإيمان ليس غير، الإيمان الذي بلغ من نُعَيم المسلم في لحظة لا تكاد تكون شيئاً في حساب الزمن، وسير الفلك، مبلغاً جعله يتصور في لمحة خيال طائر مفزع مرعب، أن عمر حقق عزيمته السوداء، وتصور نعيم مع خياله المزعج أن الحياة كلها أظلمت، فغارت نجومها، وأفل إلى غير عودة قمرها، وغابت إلى الأبد شمسها.

فمن عمر إذاً؟ وما جبريته وقسوته وبطشه؟ ومن نعيم وإسلامه؟ وما الحياة كلها في هذا الظلام الدامس؟ إنها الفناء الأبدي، والشقاء السرمدي، والعذاب الذي ليس فوقه عذاب.

وتجمعت عزائم الإيمان في قوتها فملأت جوانب نفس نعيم الرجل المسلم فحسب، فكانت فداء للنور والهدى، فداء لشمس الحياة محمد رسول الله ﷺ، واستحال نعيم المسلم المستخفي بإسلامه، الضعيف المستضعف قوة قاهرة، وشجاعة مزمجرة، أخذت بمجامع الجبرية الجاهلية في عمر ابن الخطاب فتى فتيان الوثنية ونترتها نترة جثا منها هذا العاتي الجبار المغرور بنفسه وفتوته، بين يدي نعيم المسلم الذي كان يُرْهبه عتو عمر في جاهليته، فيسأل

في ضراعة المخدوع عن نفسه وأهل بيته، فيقول: وأي أهل بيتي أسلم وتابع محمداً - ﷺ - على دينه؟.

وهنا بدأ الموقف يتغير بكل ما فيه من ملامح من مبتداه إلى منتهاه، فأخذت الحيرة التي فاجأت عمر بما لم يكن يمر بخلده، ولا يهجس به خاطره، فذهب عنه تجهمه، وسكن بعد تفزز، وهان بعد تعزز، ولان بعد تيبس، ونسي عزيمته السوداء، ونسي ملأ قريش وتحريشهم إياه، وتغريرهم به، ونسي وعد أبي جهل وجائزته، وذهبت فتوته شريدة في أودية الفناء، وذهب تشطُّره مع أعاصير الصحراء، ولم يبقَ في تصوره الحائر المهزوز إلا أمر أهله الذين هزأوا به وافتاتوا عليه، وهو فتى فتيان بني عدي، ووقف أمام شكوكه حيران مذهولاً، يتساءل: أحقاً أن أحداً من أهل بيتي أسلم وتابع محمداً ﷺ على دينه؟.

وعاد نُعَيم هادئاً وادعاً، يظلله إيمانه بالسكينة وبرد اليقين، فهو إذْ يقول لعمر: لبئس الممشى مشيت يا عمر، ولقد والله غرتك نفسك من نفسك يا عمر. . . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم - ليفلَّ من حدّه، ويكفكف من نزوته، ويصده عن غايته، وقد أفلح نعيم وكان ملهماً، فنكص عمر على عقبيه، وارتد راجعاً إلى بيت ختنه وأخته - يقول له بلسان الحياة كلها: أأنت يا عمر، وكل مؤهلاتك في دنيا الناس، غرور مفتون، وسيف مثلوم، وتشطّر جاهلي، وتسكع في الأسواق تصارع وتتفتّى، تستطيع أن تطفىء ضوء الشمس المشرقة في ضحوة النهار بنفخة من أنفك أو فيك؟.

وأين تقع أنت وقومك عمومة وخؤولة، وقريشك بملئها وأبي جهلها، والدنيا ومن فيها وما فيها من محمد رسول الله ﷺ، وهو جالس في دار الإسلام، دار الأرقم مع قلة من أصحابه الذين اهتدوا بهديه وآمنوا بدعوته وصدقوا برسالته، واتبعوه على دينه، يتدارسون معه كلمة الله التي سيملكون بها الدنيا (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

واستخذى صلف الجاهلية في نفس عمر أمام موقف نعيم وقوة إيمانه

وشجاعته، وارتد عامداً إلى بيت أخته وختنه، ليكشف ما عمي عليه، ويعرف حقيقة ما أُنبىء به.

سعد بن أبي وقاص وموقفه من عمر

ولكن نوازل الأحداث لم تتركه يمضي في طريقه، بل لاحقته بموقف قد يكون أقسى عليه وأبلغ أثراً في نفسه من موقف نعيم، فروايات هذه القصة التي تلاحق عمر في مخرجه المجلل بالظلام، ليقترف أخطر جرائم الإفساد في الأرض، بما طوى عليه صدره تأثراً بالإغراء الوحشي الذي تفقَّأ عنه الحقد الجاهلي الأسود، لا تقف عند لقاء نُعَيم وحديثه معه، حديثاً سدَّ عليه منافذ الرأي، وصدّه عما كان يريد أن يفعل من الإثم الذي وجهه إليه ملأ الفجور من أحلاس الشرك المهين، وعبيد الوثنية المتبلّدة.

ولكنها تحكي قصة لقاء آخر مع شخصية أخرى، كان حديثها أعنف وأمرّ، ووقعه أشد وأقسى على نفس عمر من حديث نعيم، ولا يبعد أن يتعدد لقاء عمر بأكثر من شخص واحد من المؤمنين، لقاء متقارب الزمن، وهو في طريقه إلى عزمته الجارمة، فيجري ما يجري من حديث، ربما لا يدري صاحبه ما سبق حديثه من حديث وحَدَث، لعبت فيه المصادفة دورها المقدور، وربما كان هناك ترتيب لهذه اللقاءات من جانب المؤمنين الذين كانوا لا ينامون على غرة، يحذرون كيد المشركين وخبيث مكرهم، ويعلمون ما يبيتون من أمر يريدون به الوقيعة بالمسلمين.

كل ذلك محتمل الوقوع، وقرائن القصة لا تقطع بنفي ولا إثبات في طريقة هذه اللقاءات التي تثبتها الروايات، ويظهر أن لقاء نعيم بعمر وما جرى بينهما من حديث، أدار رأس عمر، وهزّ كيانه، كان أسبق في لحظات الزمن من اللقاء الآخر الذي جرى فيه حديث أشبه في موضوعه وآثاره بحديث نعيم.

وكان عمر ساعة هذا اللقاء الثاني لا يزال في غمرة المفاجأة من لقاء نعيم وحديثه معه، مأخوذاً عن نفسه يترجَّح بين الشك الحائر، والظن المتربِّص، تدفعه اللهفة على تحقيق آماله في إغراء ملأ قريش، وجائزة أبي جهل، ويمسك به الأسف الممض على ضياع ثمرة هذا الإغراء الخبيث من

سمعة جاهلية داوية، وتأثّل مال، لم يكن يحلم به عمر في مرائيه وتخيلاته.

كان هذا اللقاء مع الأسد الخادر في عرينه، بطل بني زهرة، أخوال رسول الله ﷺ، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ويشعر سعد بفطنته ـ أو بما ترامى إليه من أنباء ممشى عمر ـ بما يدور في نفس عمر من وراء تجهمه، واحتقان وجهه بالغضب الثائر، وفي عنقه سيفه، وفي قلبه نار تتقد، وقد عرفت شدته على رسول الله ﷺ، وعلى أصحابه، فيقول له سعد: أين تريد يا عمر؟ فيقول عمر في هوج عارم من الغرور الجاهلي: أريد أن أقتل محمداً!! ويعاجله سعد في شجاعة وبأس، وذَرَب لسان أحد من سيف عمر، ليطامن من غطرسته، ويكسر حدة غروره، وسعد ـ إلى جانب قوة إيمانه ـ خال رسول الله ﷺ فيقول له: أنت أحقر وأصغر من ذلك!!.

ولم يشأ سعد أن يتسامى بإسلامه وقوة إيمانه فوق عقلية عمر الجاهلية، التي كانت تقوده إلى عزيمته الجارمة السوداء، وكأن سعداً استحضر في نفسه وهو يرد على عمر أن هذه المرحلة التي تمر بها دعوة الإسلام في استسرارها وتخفِّيها ليست مرحلة إثارة، فأراد أن ينهنه غروره، فنزل إلى منحدر تفكيره الجاهلي المتعزِّز بالعصبيات القبلية، فقال له: كيف تأمن بني هاشم ـ عمومة رسول الله ﷺ ـ وبني زهرة ـ خؤولة رسول الله ﷺ، وأسدهم الهصور سعد الذي يكلمه منذ اليوم ـ وقد قتلتَ محمداً؟.

وضاق عمر بهذه المجابهة، فقال لسعد: ما أراك إلا قد صبأت، وتركت دينك الذي أنت عليه، فقال سعد في صراحة الأبطال: نعم، إني أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فاستهوج عمر وسل سيفه مرعداً مزبداً، يظن أن سعداً كأحد المستضعفين الذين يتخذهم الطغاة مظهراً لجبروتهم، وإذا به يرى سعداً قد كشف عن سيفه، سعد يهاجمه ليوغر صدره، فيقول له: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه.

وسعد رضي الله عنه يعلم أن عمر وسيفه على عاتقه، وهو يمضي لعزيمته المتهاوية لن يستطيع ولو كانت الدنيا بحذافيرها تحمل معه سيفه أن

يوقف جري الأفلاك في مداراتها، ولا أن يعوق الأقدار وهي تمضي في قضائها، ولا أن يطاول النجوم في مواقعها، ولا أن يحوِّل مجرى أنهار الحياة، وهي تصب نميرها في أودية الهداية وينابيع الإيمان نوراً وشفاء إلى مستنقعات الوثنية الوبيئة بأخطر أمراض الحياة وأسقامها.

ولكن سعداً رضي الله عنه أراد أن يري عمر ومن وراءه من حثالات الفُتات الإنساني المتعفن، ممثَّلين في ملأ الفجور والكفر أن أمر محمد ﷺ لا يطاول ولا ينال لأنه نبع السماء، يدخل على الناس بهدايته كل مدخل، ويلج إليهم كل متولج، تحمله إليهم نسائم الإيمان، فإذا استطعموه وجدوا في حلاوته أنفسهم الشاردة، تعود إليهم صافية مطهَّرة، فليذهب عمر بسيفه إلى أهل بيته ليجد عندهم ذكر محمد ﷺ، وذكر دعوته الرشيدة الراشدة، وذكر رسالته الخاتمة الخالدة، وذكر كتابه وما أنزل إليه من النور والهدى والحق، مسطوراً بدموعهم على صفحات من النور إيماناً وهدى، ومعرفة بالله الواحد الأحد ﴿إنني أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾.

وعمر لا يعرف، كيف وأنّى، ومتى خلص هذا النور الهادىء الوديع إلى بيت أهله، فأحالهم إلى حقائقه الإيمانية رحمة وهدى؟ وذهب عمر من وجه محدثه سعد بن أبي وقاص وهو يتفصَّد غضباً، مخموراً بغروره الجاهلي، كأنما يطأ على جمر الغضا، ويمشي على شوك السعدان، وهو لا يدري ماذا أريد به، أو ماذا أريد له في غيب المقادير.

سبحان الله اللطيف لما يشاء!! هكذا في لحظة أشبه بنقطة نهاية الخط المستقيم تتحول النفس الإنسانية من النقيض إلى النقيض، وهكذا تتبدل الأفكار والعقول والقلوب والأرواح، والخصائص، والطبائع والترسبات الموروثة في لحظة ليس لها في حساب الزمن تقدير، من جاهلية شريرة، لا تعرف للخير معنى، ولا تتذوق له طعماً، إلى أفكار وعقول، وأرواح، وقلوب، وخصائص، وطبائع، مهدية، هادية، راشدة مرشدة، صالحة مصلحة، مؤمنة، مسلمة، خيِّرة برة، داعية إلى الله، عارفة بجلاله، عالمة بقهره وسلطانه، مستسلمة لأمره وحكمه، مصنوعة من عدله ورحمته.

بلى، كذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حياته بداية ونهاية، ومن هنا كان إسلام عمر رضي الله عنه نفحة من نفحات الإعجاز في رسالة محمد ﷺ.

عفواً، عفواً، أبا حفص، فلتغفر للقلم صولته في تصوير حقيقة تاريخية كانت.

وهنيئاً، هنيئاً، فاروق الإسلام، وعبقري الدنيا، ثاني اثنين ـ بعد رسول الله ﷺ ـ في دنيا الإيمان والعدل والهدى والخير، والإصلاح القائم على الحق، وإقامة الحياة على منهاج رسالة محمد ﷺ في صورة حية متحركة مع الناس والأشياء، كأنها هي في معانيها وحقائقها.

ولتسمح للقلم يسجد بين يديك متطامناً لعظمتك التي أبدعك عليها الإسلام بقوة دفعه، ونشّأك عليها محمد ﷺ في هديه، ودلّه، وسمته، وخُلقه، وعمله، فكنت المثل المضروب للسمو الإنساني المكسوب إلهاماً وعلماً، وعملاً، وهدياً، ودلاً، وسمتاً، وخُلُقاً، وقوة في الحق، وعبقرية في الرأي والعدل.

الإيمان أقوى من عتو الجاهلية

قال عمر يحدِّث عن تصرفه وما لقيه إذ وصل إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، فدخل عليها بوجه، وخرج عنها بوجه غير الوجه الذي دخل به: فجئت فقرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وكان القوم جلوساً ـ فيهم مقرئهم، خباب بن الأرت ـ يقرؤون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا فقامت المرأة ففتحت لي، فدخلت عليها، فقلت لها: يا عدوَّة نفسها، قد بلغني عنك أنك صبوت ثم ضربتها، وجاء زوجها سعيد بن زيد فبطش عمر بلحيته وضرب به الأرض، وجلس على صدره، فجاءته أخته لتكفه عن زوجها، فلطمها لطمة شجَّ بها وجهها حتى سال دمها، فبكت، بَيْد أنها استحالت قوة من الإيمان لا ترهب شيئاً من صنوف البلاء والأذى، وقالت لهذا الباطش الجبار: أتضربني يا عدو الله على أن أوحِّد الله؟ لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب، فافعل ما كنت فاعلاً.

قال عمر: ودخلت وأنا مغضب، وجلست على السرير، ونظرت فإذا كتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه، فقالت: لا أعطيكه، لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهَّر، وهذا لا يمسه إلاَّ المطهَّرون.

* * *

في هذا الإطار كانت صورة عمر بن الخطاب في جاهليته، وهي صورة تمثل خصائصه العربية الجاهلية تمثيلاً لا يفوته خط من الخطوط الأصيلة. في صورته التي كان يعيش بها في بيئته الخاصة بين قبيلته بني عدي في بيت أبيه الخطاب، يرعى عليه إبله، فيسومه سوء غلظته وقسوته، وفي بيئته العامة بين بطون قريش، ومجتمعات العرب في مواسم أسواقهم ومحافلهم.

فهو في هذه الصورة فتى بني عدي، يرثها في خصائصها الاجتماعية ويمثلها بين فتيان قريش وشبابهم فتوّة وتشطُّراً، ومغالبة للأقران، يصارعهم فيصرعهم، وينادم على الخمر فلا تفوته مجالسها، ويسارع إلى مفاخر الجاهلية ومفاتنها فيتجلببها ولو كانت من أرذل رذائل الإنسانية، يطنّ في أذنه أن بعض غطاريف العرب يئد البنات خيفة العار فيئدهن عمر مفاخرة وطموحاً للسيادة الجاهلية.

يرى القسوة والغلظة والجفوة في طباع قومه بني عدي تغطي ما فاتهم من مفاخر قريش ومناصبها فيدَّرعها طبيعة وخُلقاً، فينشأ قاسياً، فظاً، غليظ الطبع، شديد الجفوة، يخافه الناس، ويرهبه الضعفى اتقاء بطشه، ويساور الأقوياء تعابثاً وتفتيّاً، لا يُرى إلا متجهماً غضوباً، لم تعرف الابتسامة وجهه.

ويرث من خؤولته بني مخزوم عامَّة وآل المغيرة خاصة صلفهم وغرورهم، ويتخذ من خبيثهم أبي جهل مظهراً لخؤولتهم له، وفي آل المغيرة غير أبي جهل فتية سادة، وأبطال قادة، عرفت لهم قريش مكانتهم بين فتيتها وشبابها، ووسدت إليهم بعض أمرها، فلم يتخذ عمر منهم مظهراً لخؤولتهم له، ينتسب إليهم، كما اتخذ من أبي جهل مظهراً لهذه الخؤولة، لأن الآخرين

لم يكونوا في صلف أبي جهل، وتفكك طبيعته، وبأوه، واستكباره وتعاليه تصنُّعاً، يتظاهر بالصنيعة، يبتغي من ورائها السمعة والقالة، تطلعاً إلى زعامة بين ملأ قريش، يشاركهم أحاديثهم وأسمارهم في مجالسهم وأنديتهم حول البيت حتى أدخلوه في مشوراتهم وسائر ما ينوبهم من أحداث.

فأراد عمر أن يضاهئه ويجري على شوطه، لأنه وجد في طباعه وخصائصه ما يرضي طموحه الجاهلي ويعوضه عما فات قومه بني عدي من المكانة المرموقة في قريش ومناصبها الجاهلية.

وجاء الإسلام فكان المخزوميون، ولا سيما آل المغيرة منهم ألد أعدائه، يبغونه الغوائل ويتربصون به الدوائر، وكانوا أشد قريش إيذاء لرسول الله ﷺ وأصحابه، وكان أخبثهم لدداً وحقداً أبا جهل، لأن الإسلام جدع أنف كبريائه، وبخع طموحه، وقضى على منافسة قومه في المكارم لبني عبد مناف عامة، وبني هاشم خاصة، وقال كلمته المعبِّرة عن حقده على الإسلام ورسوله محمد ﷺ، وهو يحاور الأخنس بن شَريق، بعد أن استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف... حتى إذا تحاذَينا بالركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدِّقه.

ومن هذه الوراثة، وهذه المضاهأة كان عمر بن الخطاب في طليعة المباعدين للإسلام وكان من أشد الناس أذىً لرسول الله ﷺ، وأقساهم على أصحابه، فإذا انتهض الخبيث أبو جهل ليصب جام حقده على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه بكل ما يملك من وسائل الإيذاء، فلينهض عمر ابن أخته مضاهئاً لخاله، فيصب جام قسوته على المسلمين.

ويسمع عمر ملأ قريش، وفيهم خاله أبو جهل يقولون في ناديهم: مَنْ لمحمد يقتله؟ فيهتبلها عمر فرصة يكتسب بها مقعداً من مقاعد الزعامة الجاهلية، فيقول: أنا له، ويهش الأخابث لهذا الغرور الأبله فيقولون له ليضاعفوا من غروره: نعم، أنت له يا عمر، ويزيد خاله أبو جهل إغراء

وتغريراً، فيقول: ومائة ناقة حمراء، وألف أوقية فضة.

ويتوشح عمر سيفه، ويخرج يمشي لعزيمته السوداء، ويلقاه نعيم ابن عبدالله النحام العدوي، ثم سعد بن أبي وقاص الزهري، فيسخران منه سخرية كانت نقطة تحول في حياة عمر، لأنها أصابت مقاتل غروره، إذْ أخبراه بأن الإسلام ومتابعة محمد ﷺ قد دخل عليه بيته، وهو غافل لا يدري، ويعدل عمر إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، ويدخل متوعداً، مهدداً، يرغي ويزبد، يصب البقية الباقية في إهابه الجاهلي من مخلّفات ميراثه من الخطاب ومضاهاته لخاله أبي جهل قسوة وغلظة على أخته الضعيفة، فيلطمها لطمة شج بها وجهها فأدماه، وعلى زوجها ابن عمه سعيد بن زيد، فيبطش به، ويجلس على صدره، وتدرك المرأة وزوجها صولة الإيمان، وتملأ قلبيهما حلاوة الفداء في سبيل عقيدتهما، فيقولان لعمر: وهو في قسوته وتجهمه وجبريته: لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب، فاصنع ما أنت صانع.

تضاؤل العتو الجاهلي أمام قوة الإيمان

وهنا يتضاءل غرور عمر وبطشه، مستخذياً مخذولاً، ويفر عنه شيطانه، ويبقى عمر الإنسان وحده مجرداً إلا من عقله الأصيل، وقلبه العقول، وفطرته المطهرة، ويجلس عمر وقد ذهبت عنه خنزوانية الغضب، ويبصر في جلسته كتاباً أو صحيفة في ناحية من البيت، ويطلب إلى أخته أن تعطيه الكتاب أو الصحيفة فتأبى عليه، وتقول له: لا أعطيكها، وهنا تقع المعجزة بكل خصائصها العقلية والروحية والمادية، إذْ يقول عمر لأخته: ويحك! وقع في قلبي مما قلت، فأعطنيها أنظر إليها، وأعطيك من المواثيق أن لا أخونك حتى تحوذيها حيث شئت.

لقد تبدَّل الموقف، فخنع الجبَّار، واستبسل الإيمان، في إهاب امرأة ضعيفة، كانت إلى لحظة تبكي، لأن أخاها الذي دخل عليها متسربلاً غلظة الجاهلية، نفحها نفحة دمَّى بها وجهها، وليس لها ذنب إلا أنها وحَّدت الله تعالى وتركت عبادة الأصنام، وقالت فاطمة لأخيها وهو يتضرع إليها أن تعطيه الصحيفة: إنك رجس، لا تغتسل من الجنابة، فانطلق واغتسل وتطهَّر، فإنه كتاب لا يمسه إلا المطهَّرون، وخرج عمر طائعاً ليغتسل لأن الإيمان وقع في

قلبه، ويخرج خبَّاب بن الأرت من مخبئه، ويقول منكراً على تلميذته: أتدفعين كتاب الله إلى كافر؟ فترد التلميذة المتفقهة المتشرعة على معلِّمها ومقرئها: نعم، إني أرجو أن يهديَ الله أخي، ألم يقل عمر لأخته: قد وقع في قلبي مما قلت، فما الذي وقع في قلبه مما قالت؟ إنه الإيمان، ولكن خبَّاباً رضي الله عنه لم يسمع هذا من عمر، فأنكر على تلميذته أن تعرض كتاب الله للوقوع في يد كافر، ولكن تلميذته فاطمة بنت الخطاب رأت ـ ومن حقها أن ترى في فقه الإيمان والدين، والدعوة إلى الله، وهي ترجو أن يهديَ الله أخاها إلى الإيمان وقد سمعت منه ما أطمعها في إيمانه ـ أن تعطيه الصحيفة ليقرأ ما فيها من آيات القرآن.

وعمر ـ على ما كان عليه في جاهليته ـ لَمَّاح العقل، عبقري المدارك، أحوذي الفكر، ألمعي الرأي، لا تعزب عنه هداية القرآن، إذا قرعت آياته قلبه، ويعود عمر بعد تطهره واغتساله، وتعطيه أخته الصحيفة، ويقرأ ما فيها ـ وكان عمر قارئاً كاتباً ـ فإذا في الصحيفة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يقول عمر: فلما مررت بالرحمن الرحيم ذُعِرت ورميت بالصحيفة من يدي، ثم رَجَعت إليّ نفسي، وأخذت الصحيفة، فإذا فيها ـ كما تقول هذه الرواية ـ ﴿سَبَّح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فكلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذُعِرت، وجعل عمر يستعيد إليه نفسه، ويقرأ ﴿له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور، آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير. وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾[1].

(١) ثمان آيات من أول سورة (الحديد).

هكذا جاءت هذه الآيات من أول سورة الحديد في قصة إسلام عمر من رواية أسلم مولى عمر في مواهب القسطلاني وشارحها الزرقاني الذي أسند شيئاً منها إلى البزَّار، نقلاً عن روض السهيلي.

وفي رواية ابن عساكر، وأبي نُعيم عن ابن عباس، عن عمر، وفي رواية الدارقطني عن أنس عن عمر، أنه قال لأخته ومن معها: أرني هذا الكتاب، فقالت: ﴿لا يمسُّه إلا المطهَّرون﴾ فقمت فاغتسلت، فأخرجوا لي صحيفة فيها ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى * الرحمن على العرش استوى * له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لاإلّه إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[1] فعظُمَتْ في نفسي، وقلت: مِنْ هذا فَرَّت قريش، فأسلمت.

قال الزرقاني في شرح المواهب: وفي الصفوة: فلما بلغ - أي عمر - قوله تعالى: ﴿ إنني أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾[2] قال: ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره.

وأخرج ابن سعد في الطبقات بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: خرج عمر متقلداً سيفه، فلقيه رجل من بني زهرة - هو سعد بن أبي وقاص كما حكاه الزرقاني عن الصفوة، ووفق بينه وبين لقاء نعيم، فقال: ويحتمل أن يكونا لقياه معاً، فبلغاه إسلام أخته وختنه - قال الزهري - أي سعد ابن أبي وقاص -: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، قال الزهري: وكيف تأمن في بني هاشم، وبني زهرة، وقد قتلت محمداً؟ فقال عمر: ما أراك إلا صبوت، وتركت دينك الذي أنت عليه، قال الزهري، أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين، يقال له: خبَّاب، فلما سمع خبَّاب حسَّ عمر توارى في البيت، فدخل عمر على

---

(١) ثمان آيات من أول سورة (طه).

(٢) سورة طه آية (١٤).

أخته وختنه، فقال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ وكانوا يقرؤون سورة (طه) فقالا: ما عدا حديثاً تحدَّثناه بيننا، قال عمر: فلعلكما قد صبوتما، فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فنفحها بيده نفحة فدمَّى وجهها، فقالت وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فلما يئس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه ـ وكان عمر يقرأ الكتب ـ فقالت له أخته: إنك رجس و﴿لا يمسه إلا المطهَّرون﴾ فقم واغتسل أو توضأ، فقام عمر فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأه حتى انتهى إلى قوله: ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ فقال عمر: دلّوني على محمد، فلما سمع خباب بن الأرت قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس، ثم قال خباب: ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، وخرج إليه رسول الله ﷺ، وأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: «اللهم هذا عمر بن الخطاب اللهم أعزّ الدين بعمر بن الخطاب» فقال عمر: أشهد أنك رسول الله.

* * *

هذه هي قصة إسلام عمر بن الخطاب في خطوطها الأصيلة بداية ونهاية، في إجمال لا يغض من معالمها، فهي قصة تصور خصائص عمر في جاهليته، وتصور مباعدته للإسلام، إذْ جاء هذا الدين هادياً للحياة، ونوراً للعقول، وضياء للقلوب، وإشراقاً للأرواح، ونظاماً عادلاً، وأدباً حكيماً، وهي قصة تصور عمل الإيمان في داخل ضمير عمر، وهو يحاور أخته فاطمة بنت الخطاب في إسلامها، منكراً أن تكون قد أسلمت، وتابعت محمداً ﷺ، فتجبهه بإيمانها، فيقسو عليها، وينفحها نفحة تدمي وجهها، وتثور عوامل الإيمان في نفس هذه المرأة المؤمنة الضعيفة، فلا تملك إلا أن تفقأ عين كبرياء الجاهلية في وجه هذا المتجبِّر، فتقول: لقد أسلمنا رغم أنفك يا ابن الخطاب.

عمل الإيمان في داخل ضمير عمر

وهنا تنهار جاهلية عمر بكل ما فيها من عنجهية عاتية أمام قوة الإيمان وقهره، وينقلب الجبار العتيّ إنساناً هادئاً وديعاً، يتضرع إلى أخته المؤمنة الصادقة ويعطيها ما تحب من المواثيق على أنها إذا أعطته صحيفتها التي كانت تقرؤها ليردنّها إليها محفوظة حيث شاءت، وتنتهز أخته هذه الفرصة التي تعترك فيها الأزمات النفسية والعقلية في نفس عمر، فتلقي عليه درساً (جانبياً) يصور حلاوة الإسلام وجماله وسموه، ونقاء ظاهره، كصفاء باطنه، وتطلب إليه أن يعد نفسه حتى يكون أهلاً لمسّ هذه الصحيفة التي كتبت فيها آيات من القرآن العظيم، الذي أنزل على محمد ﷺ هدى ورحمة للعالمين، فليتطهَّر ليمسك بالصحيفة ويقرأ ما فيها، فيستجيب الرجل الرهيب في استسلام ورضا إلى طلب أخته في صدق إيمانها، بسمو هذا القرآن العظيم الذي لا يمسه إلا المطهَّرون.

ويذهب عمر، ويتطهَّر، ويعود إلى أخته بوجه تملأه الابتسامة المشرقة، فتعطيه الصحيفة وهي مغتبطة فرحة، وينظر عمر فيها ويقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ في آيات تمجِّد الله وتقدسه، فيهتز كيان عمر هزة تزلزل منها أركانه، وتتبدل نفسيته، ويستحيل عقله الجاهلي إلى قوة روحانية، تتعمق الحقائق وتستطعم المعاني، وتتذوق آثارها، فيقول: من هذا فرَّت قريش، ويمضي عمر قارئاً حتى يبلغ قول الله تعالى: ﴿إنني أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ فيرتفع بروحه إلى آفاق علوية ينفسح فيها مجال الفكر انفساحاً رحيباً يملأ قلبه سكينة وإيقاناً يقوده إلى المعرفة فيؤمن إيماناً علياً، ويقول: ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره.

فماذا بقي من حقيقة الإيمان وروافده لم يتولج إلى قلب عمر؟ ويسرع عمر عندئذ مستخبراً عن مكان النبي ﷺ ويذهب إليه جاثياً بين يديه مؤمناً مسلماً بعزيمة عرفت الحق فاعتنقته، ونفس ذاقت حلاوة الإيمان فاعتزت به وأعزته، وصدَّق الله تعالى دعوة نبيه ﷺ أن يعزّ الله الإسلام بعمر ابن الخطاب، فأعزّه به وأيّده.

قريش تفاجأ بإسلام عمر فتُكْبَت وتذل

ويسأل عمر رسول الله ﷺ أن يخرج في أصحابه على ملأ الكفر ليعلن للدنيا رسالته، ويجهر بدعوته، ويحاوره رسول الله ﷺ ليمتحن عزائم أصحابه، ويتعرف قوة يقينهم، ويزيدهم إيماناً على إيمانهم فيقول ﷺ لعمر: «إنا قليل قد رأيت ما لقينا» فكانت هذه الكلمة النبوية قوة انبعاث في أنفس جند الله، فحفُّوا برسول الله ﷺ في صفَّين، يتقدم أحدهما عمه حمزة أسد الله، وأسد رسوله، ويتقدم الآخر غيظ قريش، وشجا حلاقيمها عمر ابن الخطاب، وهم يكبِّرون الله بصوت واحد، هز أرض مكة، وتردد صداه في آفاقها ويرن رجعه من ذرى جبالها، وتمتلىء بنبراته ودياتها.

ويدلفون في جمعهم العظيم إلى المسجد، وملأ قريشٍ في أنديتهم ومجالسهم يهجرون، فلما نظروا إليهم أخذهم المقيم المقعد وكُبتوا، وذلُّوا، ووجموا مبلسين، وارتعدت فرائصهم وتزايلت عن أماكنها مفاصلهم، واضطربت قلوبهم واجفة بين أضلعهم، وجعلوا يستثبتون وجودهم، وأنهم أحياء يقظة، فأخذوا يمسحون رمص أعينهم، ليتحققوا من حقيقة ما يرون ويشهدون، وكأنهم كانوا في سُبات عميق، أو سكارى بغير رحيق.

ينظرون فلا يصدِّقون، ويحاولون مع أنفسهم أن يعرفوا: كيف، ومتى، ولماذا، استحال فتى قريش ابن الخطاب في لحظة إلى حريق مشبوب يشوي أكبادهم، وهو الذي كان منذ لحظة عنوان جبروتها وعتوها على محمد ﷺ ودعوته، وسوط قسوتها على أصحابه.

وَيْ؟ أليس هذا الذي يقف إلى يمين محمد ﷺ خفيض الجفن، لا يملأ عينه من النظر إليه حياء وحباً متقدماً أحد صفَّي المسلمين، متهللاً زجلاً بالتكبير والتوحيد هو عمر بن الخطاب الذي خرج من عندهم منذ لحظة متوشحاً سيفه ليفعل به الأفاعيل؟ فَمَا عَدا مما بَدا؟.

أجل، إنه عمر بن الخطاب بعينه، وفصه، جاء مع محمد ﷺ مؤمناً به، مصدِّقاً لدعوته، حامياً لجنده، يكيد قريشاً وينغل جراحها، بعد أن كان أملها المرجّى في مناهضة رسالة محمد ﷺ، وسيفها المصلت فوق رقاب أصحابه.

وها هوذا عمر بن الخطاب يصبح في لحظة بين أتباع محمد ﷺ رجل الإسلام، وبطل الدعوة الجديدة التي ستقوِّض بنيان الجاهلية، وتقضي قضاء مبرماً على الوثنية في شتى أشكالها، وتزيل الشرك على اختلاف ألوانه، وتهدم دعائم المجد المادّي الزائف، وتبخع الطغيان الظلوم، وتبني الحياة من جديد على أسس من العـدل والحق والمساواة بنياناً يجعل من الإنسانية كلِّها في إخائها وتعاطفها وتوادها وتعاونها على البر والتقوى جسداً واحداً، تتقمصه روح واحدة، هي روح البر والرحمة.

كذلك صار عمر بن الخطاب في الإسلام كله، الرجل الثاني في جميع أصحاب رسول الله ﷺ، تحقيقاً لقوله ﷺ شهادةً بفضله وفضل الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنهما فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس عن عليّ رضي الله عنهما قال وعمر على سريره بعد موته: والله ما خلَّفت أحداً أحبَّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذاك أني كنت أُكثر أسمع رسول الله ﷺ يقول: «جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر».

وفي حديث البقرة المتكلمة فعجب الناس وفزعوا، وقالوا: أبقرة تَكَلَّم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإني أؤمن به وأبو بكر وعمر» وما هما ثَمَّ، خرَّجه مسلم أيضاً.

فإذا كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه هو الرجل الأول في إعادة رسن الإسلام إلى غربه، وفي توطيد أركان الدعوة بعد أن تزلزلت الحياة الإسلامية بوفاة رسول الله ﷺ، وبما أعقب ذلك من تفكك عروة المجتمع الإسلامي وانفراط عصامه، بموقفه يومئذ من الخلافة والردة، موقفاً انفرد به في تاريخ الدنيا، حزماً، وعزماً، وقوة تدبير، وشجاعة قلب، واستقامة رأي، وعلو حجة، وسرعة حركة في التوجيه، وإحكام ضربات حاسمة، ردت العقول الثائرة إلى مرابضها، والعقول الفاترة إلى ثورتها، وسلطان الإسلام إلى أفقه، ووحدة المسلمين إلى منهجها في السير برسالة محمد ﷺ إلى غايتها وأهدافها في فتح القلوب، وإيقاظ العقول.

فإن عمر بن الخطاب كان هو الرجل الأول في إقامة دعائم دولة الإسلام نظاماً اجتماعياً وحكماً لم تعرف الدنيا له مِثْلاً في العدل، وإقامة الحق، واستقامة السلوك، وتطبيق أحكام الإسلام، على الأفراد مهما كان شأنهم، وعلى الجماعات مهما عظم خطرها، وفي تحقيق الأسوة المرئية للناس بأبصارهم في نفسه وولده وسائر أهل بيته وقرابته أولاً، وعامة المسلمين ثانياً في سواء من أمرهم، لا يتميز منهم أحد على أحد في أخذ الحق منه أو إعطائه له.

وعمر بن الخطاب أصبح بإسلامه عبقري الدنيا بشهادة رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري من قوله ﷺ: «فلم أر عبقرياً يفري فَرِيَّه».

فأي شيء يكون الإعجاز في صنع النفوس، وخلقها خلقاً جديداً، وإبداعها إبداعاً سوياً تتسامى به في تفكيرها وعملها وقوة إيمانها، إذا لم يكن هذا الذي كان لعمر بن الخطاب بإسلامه إعجازاً؟.

فإذا قلنا إن إسلام عمر بن الخطاب كان نفحة من نفحات الإعجاز في صنع النفوس الإنسانية في رسالة محمد ﷺ لم نكن نقصد إلى شيء من أساليب المجاز والرمز، ولا إلى شيء من المبالغة التعبيرية، ونصاعة البيان، في تصوير ما صار إليه عمر بن الخطاب بإسلامه بعد جاهليته من عظمة شخصية، وعبقرية فكرية، وألمعية عملية، لنضفي على هذا الحدث الخطير في تاريخ الحياة من الألوان ضرباً من الخيال الفضفاض، ولكنا قصدنا إلى حقيقة الإعجاز الإنساني الذي تميَّزت به هذه الرسالة الخالدة في صنع النفوس وتربية الرجال في مدارس آياتها ومعاهد آدابها، وهي بطبيعتها الإنسانية ومصدرها الإلهي في غُنْية عن التحدِّي بالمعجزات المادية التي تُكْرِه العقول على الإيمان بها، لأنها رسالة الإنسان جاءته لتكشف له الحجب عن حقيقته حتى يعرف نفسه ومكانه في الحياة، فهي رسالة تخاطب العقل والروح والقلب، وتحرك الوجدان، وتثير العواطف والشعور والإحساس.

هي رسالة الإنسان ليعرف الكون كله، أُنزلت لتطلب إلى العقل الإنساني في إغراء واعد، وتطلب إلى كل مدرك شعوري في الإنسان أن

يعمل بكل ما أوتي من وسائل وقوة علم ومعرفة ونظر وتفكير، وتجارب عملية، على استكشاف عناصر الكون الطبيعية، وأسراره الروحية، إظهاراً لآيات الله في كل ذرة من ذرات الحياة فيه ليهتدي بها الإنسان إلى:

أولاً ـ معرفة خالق هذا الكون، ومدبِّر نظامه، معرفة برهانية، لا تعتمد على منطق فرضي، يؤمن بأمور يتوهمها حقائق، وهي أوهام وأباطيل، ولكنها تعتمد على منطق الحق الذي تتضافر على الإيمان به قوى الإدراك في الإنسان، فيخالط بردُ يقينها جذوةَ الإدراك العقلي في أوج ذروتها.

ثانياً ـ معرفة مكانه من الحياة في هذا الكون العريض العميق، معرفة تقوده إلى أن يقرأ كتاب الكون، مستغرقاً في التأمل، ليتبين آيات الله تعالى في خلقه، وتدبيره، ليُخْلِص الإنسانُ التعبد لله وحده.

ثالثاً ـ معرفة طرائق الإفادة من عناصر الطبيعة في هذا الكون، ووضعها موضع العمل التجريبي، بجميع ما يكون في استطاعته من أسباب توصله إلى الحصول على أكبر قسط من هذه الإفادة.

مظاهر الإعجاز في إسلام عمر

والإعجاز الذي قصدناه في إسلام عمر هو الإعجاز الذي يحيي القلوب بعد موتها، فيبعثها من مرقدها حية مؤمنة بعد كفر، عالمة بعد جهالة، مهتدية بعد ضلالة، عاملة ناهضة، وكذلك كان إسلام عمر، أحيا قلبه بعد موته في جاهليته، فبعثه من مرقده في حمأة الوثنية، مؤمناً بالله وحده، عالماً بجلاله، مهتدياً بهديه، عاملاً نهَّاضاً في سبيل عقيدته.

وهو الإعجاز الذي يوقظ العقول الغطيطة في مهاد الضلال، لتدرك حقيقة الحياة على ضوء ما يسوق لها الإيمان بالله تعالى من إشراق ينير لها طريق السير في دروب الحياة، وكذلك صنع إسلام عمر بعقل عمر، فأيقظه من غفلته، وأراه الحياة كما يراها الإسلام في هديه ورسالته.

وهو الإعجاز الذي يحيل في لحظة من لحظات الزمن النفوس الجاحدة العاتية إلى نفوس مؤمنة وادعة تأخذ من الحياة لتعطي، وتعطي لتفيد، وتتحرك لتعلم، وتعلم لتعمل، وكذلك صنع إسلام عمر بنفس عمر، فقد

أحالها من جحود عاتٍ، وعتو جاحد إلى نفس مشرقة الإيمان، عظيمة الإخلاص، أعطت أكثر مما أخذت وأفادت أكثر مما استفادت، وتحركت فعلمت وعلّمت فعملت، فكانت في الإسلام أسوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وكانت مفخرة المفاخر في تربية الإسلام.

وهو الإعجاز الذي يبدّل في لحظة من لحظات الزمن القسوة الباغية في النفوس الطاغية، رحمة حانية ورقة عاطفة، وكذلك صنع إسلام عمر بشخصية عمر، فقد بدَّل قسوته وبغيه على أهل الحق والإيمان من المسلمين المستضعفين، رحمة ورأفة وإشفاقاً، وفي تاريخ عمر الإسلامي من الشواهد على ذلك ما لا يحصى عداً، وما لا يعرف لغيره من الرجال الذين أوتوا من السلطان والحكم ما أوتي عمر في الإسلام.

وهو الإعجاز الذي يجعل من الصلف المغرور، والغرور المفتون عزة وكرامة، وكذلك صنع إسلام عمر في طبيعة عمر، فجعل منه أعز رجل في أمة الإسلام وأكرمه، وجعل منه مربياً لهذه الأمة، يسوسها بالعزة والكرامة، ويربيها على الأنفة وإباء الضيم، يكره الخنوع، والذلّ، ويحب أن يرى فيها الشموخ والعزة.

وهو الإعجاز الذي يجعل من إنسان وُلد ونَهد، وشب في جاهلية حمقاء، وبيئة شريرة عمياء وحياة ضالة جهلاء، إماماً للإنسانية، يهتدي لها، ويهديها، ويقودها إلى أكمل مراتب الكمال في حياتها، وينهض بها إذْ يوسد إليه أمرها إلى أرقى درجات التحضر الكريم، يسوسها بعدله وحكمته، ويأسو جراحها برحمته، ويحمل عنها عبء مسؤوليتها بأرفع وأجلّ ما حمل عبقري مسؤولية أمة في حياتها.

وأخيراً هو الإعجاز الذي جعل من أمة الإسلام، أمة محمد ﷺ أمة محسودة لأن العناية الإلٰهية وهبت لها عمر بن الخطاب، ثاني الراشدين، ليقودها وهي في مطلع حياتها، تتحسس مواضع أقدامها، فكانت بعدله وسياسته وحكمته وقيادته خير أمة أخرجت للحياة في جميع مظاهر الإصلاح.

بهذا كله وأعظم منه قدراً، وأكثر عداً جاءت رسالة محمد ﷺ،

فكانت خاتمة الرسالات السماوية، بهذا كله، وأرفع منه وزناً، وأجلّ منه مرتبة، وأفضل معنى في مراتب الفكر والنظر، وفي مجالات أنظمة الحياة أُنزل كتابها القرآن العظيم على رسولها محمد خاتم النبيين ﷺ، فكان معجزتها الخالدة، وآياتها البينة، بمعانيه الإنسانية، وتشريعاته التعبدية، وسماحته العقيدية، ونظمه الاجتماعية، وهدايته التربوية، وآدابه الخُلقيـة وروعة أساليبه البيانية، وبراعة تحليله للنفوس البشرية، وكشف دخائلها، وشفائها من أسقامها.

لقد جمع الله تعالى لعمر بن الخطاب كل هذه الحقائق والمعاني، وصوَّر له كمالاتها في لحظة من الزمن انفجر منها في داخل بصيرته نور أضاء له ملكوت السموات والأرض، فقرأ من كتاب الكون أصول هدايته، ممثلة في الآيات الثماني من أول سورة (طه) التي كانت تضيء صحيفة أخته التي قرأها عندها، وكانت كل آية منها صورة لجانب من جوانب ملكوت الله تعالى، ورآها عمر في مرآة بصيرته، فآمن برسالة محمد ﷺ، واتَّبع هداه، وأسلم قلبَه ووجهَه لله رب العالمين.

بعونه تعالى تمَّ الجزء الأول من كتاب
«محمد رسول الله»
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

مِفتاح تحقيق التاريخ الإسلاميّ
كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم
منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم
محمد الصّادق ابراهيم عرجون
عميد كلّية أصول الدّين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق


محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٢

دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الهجرة إلى الحبشة

أثر من آثار حكمة الاستسرار بالدعوة

السابقون إلى الإسلام كان أكثرهم من علية قريش وشباب بيوتاتها

الذين استجابوا لله وللرسول من السابقين الأولين لم يكونوا كلهم ولا أكثرهم من الضعفاء والأرقّاء والفقراء وحواشي بيوتات مكة، وأتباعها الملتَقِطين فتات موائدها ـ كما شُهِر ذلك على ألسنة وأقلام السطحيين من الباحثين ـ بل كانوا في كثرتهم الكاثرة من صميم أبناء بيوت قريش وبطونها، وعِلْية شبابها.

وهم معروفون بأسمائهم وأنسابهم، وبيوتهم، وقبائلهم، فما شُهِر من أن الذين سبقوا إلى الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ، ومتابعته على دينه، وتصديق رسالته كانوا من الأرقاء والموالي، والمستضعفين والمحرومين كلام لا تحقيق فيه، فلا يصح أن يؤخذ على إطلاقه ـ اغتراراً بما فيه من بريق مناصرة الإسلام للضعفاء، وتخليص الأرقاء من رق العبودية الظالمة، وتحرير الفقراء من أغلال الاستغلال الاجتماعي الجائر ـ تأثراً بالمذاهب الاجتماعية الضالة الفاسدة التي غررت بطوائف الشعب الغرِّيرة الكادحة تحت اسم العمال والمحرومين، وأقاموا على دعائم هذا التغرير الخبيث الماكر الثورات الاجتماعية الخادعة الشريرة المفسدة الملحدة متمثلة في الشيوعية الفاجرة التي تسوق الشعوب بسياط من بشاعة القسوة والعذاب الذي لا يطاق.

فهذا وإن كان في واقع الإسلام ومبادئه وشرائعه التي أنزلها الله لتحقيق العدالة الاجتماعية ونصرة المظلوم وإتاحة العيش الكريم لكل إنسان على أرض الله، ولكنه ليس هو واقع السابقين الأولين من طلائع المؤمنين بدعوة

الإسلام الذي أسلموا مع رسول الله ﷺ، واستجابوا له أول من استجاب لدعوته، فكانوا أول من آمن برسالته واهتدوا بهديه، وكانوا اللبنات الأولى في بناء صرح هذا الدين القيِّم دين الإسلام.

وليس هو واقع الإسلام في هدايته العامة التي جاءت لهداية الإنسانية كلها وتحريرها من ربقة الشرك والوثنية وإدخالها في حظيرة التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبودية الخالصة.

وتخليصها من ذل الظلم الاجتماعي الذي فرضه عليها حفنة من الطغاة الظالمين فساقوها بسياط الظلم إلى مهاوي العبودية لهم ولما في أيديهم من حطام الدنيا.

فهذا رأي ـ على شهرته ـ مدخول، وضعه من يريد أن يقول أن الإسلام يتملَّق الضعفاء والأرقَّاء والمحرومين ليستنصر بهم في نشر دعوته ويخلصهم من الاستعباد الاجتماعي، فكانوا أسرع استجابة لدعوته وأشد إقبالاً على اعتناقه.

فلا يصح أن يَغفل الذين يكتبون عن صدارة الإسلام وطلائعه عن هذه الدخيلة المغلَّفة بالبريق في هذا الرأي، ولا يصح أن تُسلَّم لقائلها إلا بعد النظر فيها نظرة فاحصة، تتبين بها دوافعه الاجتماعية، وعوامله السياسية في سير الدعوة، مما أدى بكثير من كتَّاب السيرة النبوية قديماً وحديثاً إلى الإيمان بهذه القضية المشهَّرة، التي يردها واقع التاريخ وحقائق الأحداث التي احتفت بها.

بيان مكانة السابقين إلى الإسلام في أقوامهم وعشائرهم

بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً إلى العباد كافة، وأمره بالإنذار العام في قوله تعالى: ﴿قم فأنذر﴾، فنهض رسول الله ﷺ بأمر ربه، لا يبالي بما يلقاه من شديد الأذى، وفادح البلاء، لا يتَّقي أحداً من الناس.

ورأى ﷺ بتسديد الله وتوفيقه، وحكمة توجيه دعوته في سيرها، وتبليغ رسالته أن لا يبادي قومه بعداوة، وأن لا يعلن إليهم دعوته في أول خطواتها، وهو وحيد منفرد في قومه، ليس معه من ينصره منهم، ولا من

غيرهم، وهم جميعاً، ومن ورائهم سائر العرب، بل سائر الدنيا، إلْب على هذه الدعوة الهادية الراشدة، التي تعيب وثنيتهم، وتنعَى عليهم شركهم، وتسفِّه أحلامهم، وتسب آلهتهم، وتلقي بآبائهم وأسلافهم في نسب الجاهلية في نار جهنم خالدين، وتندِّد بحياتهم المادية الظالمة التي يحيونها دون رادع يردعهم عن فجور ظلم يرتكبونه، أو عتو بغي يأتونه، حيث لا قانون ولا دين، ولا نظام ولا ضمير.

ورسول الله ﷺ ماضٍ في دعوته، لا يصدّه عنها صادٌ، ولا يرده عن سبيلها رادٌّ، فاستجاب له أولَ من استجاب ـ بعد زوجه النجيبة، الأريبة، الحسيبة النسيبة، سيدة قومها جاهلية، وسيدة نساء العالمين إسلاماً، السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية ـ أبو بكر الصديق، العليم، العيلم، أعلم قريش بقريش وأحسابها ومفاخر بطونها المؤثل ثراء، المؤمل نجدة، صاحب حمائل قريش، وأثقالها في دياتها، وما ينوبها في منافراتها، الذي لا يرد قوله عندها، ولا تخذله إذا تحمل.

كان أبو بكر رضي الله عنه مذ دخل في الإسلام قوَّاماً بالدعوة إلى الله، ما دعا أحداً إلّا استجاب له، وما كان يدعو إلا من يستجيب له من أبناء قمم قريش، وذرى أحسابها، وشباب بيوتها.

غيظ قريش وحنقها على السابقين إلى الإيمان من شبابها

واتخذ رسول الله ﷺ من دار الأرقم في أصل الصفا دار دعوته ومعهد تلقِّي رسالته، جعلها مجمع السابقين إلى الإيمان من أصحابه، وأقبل عليه أهل الصدق من شباب قريش، وغير قريش مؤمنين بدعوته، متَّبعين له في دينه، مصدِّقين برسالته، مهتدين بهديه، أعزة في قومهم، كرماء على أنفسهم، وكثروا، وتكاثروا، وهم مستخفون مع رسول الله ﷺ، وشعرت بهم، وبخطرهم عليها وعلى حياتها الجاهلية قريش، ومادت الأرض تحت أقدامها، والتفت رجال كل بيت في قريش إلى أنفسهم وأسرهم، أبنائهم وإخوتهم، فإذا بهم يرون أن محمداً ﷺ قد اجتذب منهم زهرات شبابهم، ومصدر قوتهم وعدة مستقبلهم، فهم عنده ومعه مسلمون، مؤمنون، واعتنقوا عقيدته، عقيدة التوحيد، وهجروا آلهة آبائهم وأسلافهم، وسفَّهوا

معه أحلامهم، ووصموا بالدنية قومهم، وأصبحوا جند دعوة محمد ﷺ، وكتائب رسالته، ودخلوا معه بشظف العيش، ويبس الحياة وفقرها، بعد الترف والمتعة في بيوتهم بين أهليهم، وفارقوا المال والولد، والأخوة والآباء، والأمهات والزوجات، وتبدَّلوا بهم محمداً ﷺ وأصحابه، فهو أبوهم، وأصحابه إخوتهم، يسمعون له، ويقولون بقوله، لا يخالفون عن أمره، يلحظون موضع إشارته ويرمقون نظراته، ويتأدبون بأدبه، يحبونه أكثر مما يحبون أنفسهم، لا يترددون في تحقيق رغبة من رغباته، ولو كانت فيها حياة أحدهم، فكانوا منه، ومعه، بما لم يكونوا به من أمهاتهم وآبائهم، ومع أولادهم.

وطارت عقول قريش شعاعاً من أدمغتها إذْ تمثلوا هذا في واقعهم، ودارت أفئدتهم في حنايا أضلعهم، وتنفسوا الصُّعَداء غماً وهماً وكمداً، وما يغني غم الدنيا وهمها وكمدها شيئاً، فليركبوا رأس الشيطان فجوراً وعتواً، وبغياً وكفراً، وليفتكوا بكل من يقدرون عليه من فلذات أكبادهم الذين تابعوا محمداً ﷺ، ولتذهب رحمة الأبوة، وشفقة البنوة راغمة تحت أقدام آلهتهم لعلها ترضى عنهم.

إشارة رسول الله ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة

وبدأت فدائح البلاء تتوالى على هؤلاء المؤمنين بمحمد ﷺ ورسالته من أحب الناس لهم، وشعر رسول الله ﷺ بما ينال أصحابه من شديد الأذى وقواصم البلاء، ونظر إلى ما هو فيه من العافية لمكانه من الله تعالى، وبما وفق له الله تعالى من تسخير عمه أبي طالب لحمايته، وهو على دين قومه، وأنه ﷺ ليس بمستطيع أن يمنع أصحابه مما هم فيه من البلاء، وهم صابرون، محتسبون، لا يؤذن لهم برد الاعتداء لأنهم دعاة هداية، وأصحاب رسالة، أريدوا لتبليغها إلى الحياة كلها في أرض الله، ولن يستطيعوا أن يبلِّغوا رسالات ربهم إذا زجوا بأنفسهم في مضايق الإثارات والتدافع والتقاتل، فليصبروا، وليصابروا وليعفوا وليصفحوا، وليغضوا الطرف عن سفاهة السفهاء، وليغمضوا الأعين على قذى قسوة الآباء والأمهات، حتى يقضيَ الله تعالى بالفرج.

ولمعت بارقة الفرج من أفق الغيب، فإذا بها آية من آيات الله لنشر رسالته العامة الخالدة، في أرض غير أرض العتو والجبروت، بطريقة لا تلتزم خطة التبليغ في أرض العتو والجبروت.

لم تكن الهجرة فراراً بل كانت الهجرة لوناً من ألوان تبليغ الرسالة

فليبق ملأ قريش على كفره وعتوه، وفجوره وبغيه، ولتبقَ - إلى حين - قريش كلها في مكة مطموسة البصيرة، منقادة بسلطان ملئها من الطغاة الذين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، وليخرج المصطَفَون لتلقِّي آية الفرج إلى حيث يأمنون على أنفسهم الفتنة في دينهم، يعبدون ربهم في غير خوف ولا إزعاج، ويبلِّغون رسالته بلاغاً ترسم له العناية الإلٰهية طريقه في غير إثارة ولا استفزاز، فلا فرار، ولا هرب، ولكنها نقلة يُؤَدَّى فيها حق الدعوة بصورة من صور تبليغ الرسالة، فلتتصورها قريش ومن والاها فراراً وهرباً، وليتصورها أصحاب العقول السطحية - الذين لا يتعمقون الأحداث، ولا يأخذون في حسابهم النتائج مرتبطة بالمقدمات، ولكنهم ينظرون إلى الوقائع فرادى، منقطعة الصلات بين مباديها ونهاياتها - هجرة لمجرد الراحة من مس الأذى ومر العذاب، هجرة للأمن والسلام، والراحةُ والأمـنُ قد يكونان مقصودَين، ولكن قصدهما لا يمنع أن يؤاخيهما في القصد أساس الإيمان بالدعوة، بل لا يمنع أن يكون الأمن والراحة مقصودين تبعاً لأساس الإيمان بالدعوة، وهو تبليغها بصورة توائم الجو الجديد الذي تتنسمه الدعوة في رياحين حملتها.

وهل يستطيع من وجد الراحة والأمن وبيده دعوة تكلفه ألا يختزنها لنفسه، وأن يبلغها لكل من يستطيع إبلاغها له، أن يقعد دون قيامه بحق هذا التبليغ إذا سنحت له الفرصة في غير إزعاج أو إثارة لمن آووه، وأمَّنوه، وأراحوه؟.

إن المؤمنين الذين هاجروا إلى الله منتقلين من مكة إلى الحبشة يحملون في أفئدتهم آيات دعوتهم إلى الله، ويحملون معها دلائل حقها عليهم في تبليغها أينما وُجِدوا من أرض الله، فكيف إذا كانت هذه الأرض التي آوَوا إليها

أرض صدق وأمن، لا يجدون فيها ظلماً يزعجهم، ولا عداوة ترعبهم، ولا نفوساً تكره دعوتهم وتناهضها؟.

إنهم حينئذ يكونون مسؤولين عن تبليغ هذه الدعوة كلما وجدوا مجال التبليغ مهيئاً لكلمتهم كلمة الحق والخير، يجهرون بها في غير عنت لأحد، ولا إثارة للمزعجات، وهم آمنون مطمئنون.

وكذلك كانت الأرض التي وجَّههم إلى الهجرة إليها رسول الله ﷺ في قوله وهو يرى ما يصيب عليهم من البلاء: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

وفي حديث الزهري عند عبد الرزاق قال: لما كثر المسلمون وظهر الإيمان أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم، يعذبونهم، ويؤذونهم، ليردّوهم عن دينهم، قال: فبلغنا أن رسول الله قال لمن آمن به: «تفرقوا في أرض الله، فإن الله سيجمعكم» قالوا: إلى أين نذهب؟ قال «إلى هاهنا» وأشار بيده إلى أرض الحبشة، فهاجر إليها ذوو عدد منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه.

فهذه الهجرة ـ وهي أول هجرة في الإسلام ـ لم تكن فرار ضعف، ولا هرب جبن وخوف، ولكنها كانت نقلة قصد بها: ـ

من مقاصد هذه الهجرة
أولاً: البعد عن مواطن الفتنة

أولاً ـ البعد من مواطن الفتنة في الدين للذين لا يستطيعون ردّ الاعتداء تمسكاً بعرى الصبر، إلى أن تتمكن الدعوة من توطيد أقدامها في السير إلى غايتها قوية منتصفة، فهي هجرة إلى عودة، ونقلة إلى رجعة، ومخرج من ضيق إلى فرج.

ثانياً: البعد عن إثارة المعوقات في طريق الرسالة

ثانياً ـ البعد عن إثارة المعوِّقات في طريق سير الرسالة، وتبليغ دعوتها، لأن المؤمنين المهاجرين كانوا في كثرتهم من شباب قريش خاصة، وشباب قبائل العرب عامة، تملؤهم النخوة والحمية والأنفة من الرضا بالضيم، والاستسلام للظلم، وربما نفد صبرهم، وضاقت أنفسهم بما يلقَون من جَوْر

واستبداد بهم، فتدفعهم طبيعتهم البشرية، وحميتهم العربية إلى مقاومة الظلم، ورد الاعتداء، كما وقع في قصة سعد بن أبي وقاص، وكان يصلي مع بعض إخوانه المسلمين، مختفين، فاطَّلع عليهم بعض المشركين، فعيَّروهم بترك دين آبائهم، وعابوا عليهم اتباع محمد ﷺ، واعتناق دينه، والإيمان بدعوته، وتصديق رسالته، واستهزؤوا بهم، وضاربوهم، فلم يطق سعد صبراً، فضرب رجلاً منهم بلَحْيِ جمل، فشجَّه شجة منكرة، أدماه بها، فكان أول دم أهريق في الإسلام، وكادت الفتنة تتسع ويتصل القتال.

فلو تكرر ذلك ـ وفي المسلمين كثرة من أمثال سعد حمية وأنفة ـ لكان فيه شغل شاغل لرسول الله ﷺ، ولأصحابه عن السير بالدعوة في طريق التبليغ بعيدة عن المعوِّقات، ولكان فيه مصادمة لحكمة الاستسرار بالدعوة، لتجتذب إلى ساحتها أصحاب القلوب الواعية، والعقول السليمة الذين تتكون منهم كتائبها عندما تسنح الفرصة لظهورها والجهر بها، وهي قوية الشكيمة، ثابتة الدعائم، وطيدة الأركان.

ثالثاً: تخفيف الأزمات النفسية عن رسول الله ﷺ

ثالثاً ـ تخفيف الأزمات النفسية التي كانت ـ لو استمر المهاجرون في ابقائهم بمكة، لم يهاجروا ـ تضيف أعباء جديدة إلى الأعباء التي يتحملها رسول الله ﷺ في تلقِّي الوحي برسالته، وحمل أمانة تبليغها والإنذار بها، وهو يرى أصحابه يؤذَون أشد الأذى، ويعذَّبون أقسى العذاب، ولا يستطيع منعهم وحمايتهم مما يلاقون، دون أن يؤذن لهم في رد الاعتداء.

رابعاً: إفساح المجال أمام رسول الله ﷺ للسير بالدعوة في طريق التبليغ

رابعاً ـ إفساح المجال أمام رسول الله ﷺ للسير بالدعوة قُدُماً في طريق التبليغ، ولا شك أن هجرة من هاجر من المسلمين كان فيها هذا الإفساح الذي يخفف من الأعباء النفسية التي تشغل رسول الله ﷺ بالتفكُّر في أمرهم، وهم يتعرضون للفتنة في دينهم بما ينالهم في أنفسهم من شديد الأذى، وفادح البلاء.

والذين يقرؤون أسماء من هاجر إلى الحبشة أولاً، وثانياً، ويعرفون أنسابهم، وبيوتهم، وأحوالهم الاجتماعية، ومكانتهم في أقوامهم يعلم علم اليقين أن هجرتهم أرفع من أن تكون لمجرد الفرار من الأذى، أو لمجرد

الهرب مما يلقَون من البلاء، وإنما كانت هجرة قوم آمنوا بالله رباً وبنبيه محمد ﷺ رسولاً، فأوذوا بما لا طاقة لبشر على احتماله، ولم يجدوا للدفاع عن أنفسهم سبيلاً، لأنه لم يُؤْذَن لهم في رد الاعتداء، بل أُمروا بالصبر والصفح، لا عجزاً وضعفاً، ولكن حكمة تدبير، وسياسة تقدير.

وحسبنا في البرهنة على ما ذهبنا إليه أن الذين هاجروا إلى الحبشة، أولاً، وثانياً كانوا من أعزّ بيوت العرب وقبائلها، قريشٍ فمن دونها، ليس فيهم ضعيف أو مستضعف، ولا مولى، ولا تبع، والقلةُ التي لم تكن بهذه المثابة نسباً وعصبية، كانت منها حِلْفاً، وحليف القوم منهم نجدة وحماية.

قال ابن إسحاق: وكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف عثمان بن عفان، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

سجل المهاجرين برهان على أن هجرتهم لم تكن لمجرد الفرار

ثم ذكر ابن إسحاق سجلاً مسهباً مفصَّلاً بأسماء وأنساب جميع المهاجرين إلى الحبشة في مرتيها، الأولى، والثانية، وكانوا سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً، أكثرهم قرشيون من طلائع بيوتها وأشراف بطونها.

فهل من المعقول أن يخرج هذا العدد العظيم من الرجال، ذوي الأنفة والحمية عن بلادهم، وأهليهم، وعشائرهم، تاركين ديارهم وأموالهم وأولادهم، لمجرد الفرار والهرب من وجوه المشركين؟

أفما كان هذا العدد الكثير بمستطيع أن يتجمع أفراده، ويقفوا في وجه العدوان عليهم، ويردوه عنهم بقوة القتال خفية وعلانية؟

نعم، إنهم بالقياس إلى أعدائهم قلة عددية، وكان أقوامهم وعشائرهم يأخذونهم فرادى، يعذّب كل قوم من يسلم منهم، لكن هؤلاء المؤمنين كانوا مستطيعين ـ لو أرادوا ـ أن يكيدوا لأعدائهم ويجمعوا أمرهم للدفاع عن أنفسهم، ويغتالوا الكثير من رؤوسهم، ولو واجههم أعداؤهم في قتال لنالوا منهم، وساجلوهم، وانتصفوا، وفي الوقائع الجزئية ما يؤيد

ذلك، وقد أشرنا إلى قصة سعد بن أبي وقاص، وذكرنا غيرها من الحوادث التي استبسل فيها المؤمنون دفاعاً عن أنفسهم.

سياسة الاستسرار بالدعوة كانت حكيمة محكمة موفقة

وهذا كله يؤيد أن سياسة الحكمة التي سلكها رسول الله ﷺ بتوفيق الله في استسراره بالدعوة وهي مشرقة في أفق الحياة كانت سياسة حكيمة محكمة، أثمرت ثمراتها في تجميع قوة من المؤمنين الراسخين في إيمانهم، الصادقين في يقينهم، الذين تولاهم رسول الله ﷺ أول ما تولى بالتربية والتوجيه، حتى فشا الإسلام في مكة، وتسامع به الناس في أنديتهم ومحافلهم، وبدأت قريش- وهي سيدة مكة- تحس بخطر هذه القوة يدخل عليها في بيوتها، ويجتذب منها شبابها، ويأخذ بحلاقيمها، فشنّت على المؤمنين حرباً خسيسة، لا مواجهة فيها، ووقف المؤمنون من هذه الحرب الفاجرة موقف الصبر والاحتمال، بل موقف الصفح والعفو والاجمال، مما أدى أو كاد يؤدي إلى تجميد حركة الدعوة وإبلاغ الرسالة.

وفي نفوس المؤمنين قوى تتفاعل مكتومة مكبوتة، يراها رسول الله ﷺ، ويرى آثارها مرسومة على وجوه أصحابه، وهم من الشباب المفعم حماسة وقوة وحركة، وتحفزاً لرد الاعتداء، وهو ﷺ لم يُؤذن له بالمقاومة ورد الاعتداء بالقتال، فكان من أحكم التدبير، وحكمة السياسة أن يفتح ﷺ لأصحابه باب الهجرة، حتى يجدوا لأنفسهم متنفساً في حركاتهم وهم آمنون على أنفسهم، يعبدون ربهم وهم مطمئنون، لا يهيجهم أمر، ولا يفزعهم شيء، ولا شك أن هذا لون من ألوان السياسة في تبليغ الدعوة، بدأ هادئاً هامساً، فلما حُرِّك تحرك معبِّراً أصدق تعبير عن هداية الإسلام في أعظم محفل من محافل الحوار، الذي هيأ الله له أسبابه وعوامله ودوافعه، ونصب له معالمه وأقام منائره، وقد اقتضى هذا الحوار من المسلمين المهاجرين في أعظم فرصة سانحة أن يعرضوا رسالة نبيهم ﷺ، وحقيقة دينهم عرضاً حراً، أكمل ما تكون الحرية، صادقاً أبلغ ما يكون الصدق، يعقده ويشهده ملك البلاد التي آوتهم، ويحضره معه بطارقتها وأهل للعلم فيها، ويحضره ذوو رأيها

ووجوهها ويحضره راغمَيْن رسولا قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ليرد عليها هؤلاء المهاجرين، فيسمع هذا الحشد الحافل في صراحة وقوة صوت الإسلام، يعلن عن حقيقته، ويشرح دعوته، ويبلِّغ رسالته، فيؤمن من آمن، يؤمن الملك إيماناً يبخع به بأو الغرور، ويبطّ دمل الحقد في أنفس قريش ورسولَيْها إلى النجاشي، ويؤمن معه أهل العلم من البطارقة والقسيسين والرهبان، إيماناً تفيض معه أعينهم بدمع اليقين بأن ما سمعوه من متكلم المهاجرين وخطيبهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ، إنما يخرج من مشكاة موسى وعيسى عليهما السلام.

حديث أم سلمة عن قصة الهجرة

ومن أصح وأجمع وأجود ما عبّر عن قصة الهجرة إلى الحبشة، وما فيها من الحقائق والمعاني التي تجعلها أثراً من أعظم آثار حكمة الاستسرار بالدعوة، وتنأى بها عن مجرد الفرار والهرب، وتدخلها في طرائق التبليغ للرسالة التي سنّها رسول الله ﷺ بحكمة سياسته المحكمة الموفقة - حديث أم سلمة رضي الله عنها، وكانت إحدى المهاجرات مع زوجها أبي سَلَمة بن عبد الأسد المخزومي الذي ساقه ابن إسحق فأحسن وجوَّد.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن أبي بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي آمية ابن المغيرة زوج رسول الله ﷺ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار، النجاشي، أمنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فحملوا له أدَماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلاَّ أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله ابن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سَلاَه أن يسلمهم إليكما، قبل أن يكلمهم.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فخرجا حتى قدما على النجاشي،

ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته، قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلّماه، فقالا: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله ابن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقال بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشي، ثم قال: لا هاالله، إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوَهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول ـ والله ـ ما عَلِمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا ـ وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم، فقال لهم: ما هذا الدين الذي

قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

ـ قالت أم سلمة رضي الله عنها: فعدُّوا عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا وافتتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص)، فبكى والله النجاشي، حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

ثم قال لرسولي قريش: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فلما خرجا من عنده، قال عمرو ابن العاص: والله لآتينّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، فقال له عبدالله ابن أبي ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال عمرو: والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك؟ إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم، فسَلْهم عمّا يقولون فيه؟ فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت أم سلمة رضي الله عنها: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم، إذا سألكم عنه؟ قالوا:

نقول ـ والله ـ ما قال الله، وما جاءنا به نبيّنا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبدالله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله، حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله، ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ـ والشيوم الآمنون ـ من سبكم غرم، ما أحبّ أن لي دَبْراً من ذهب، وأنّي آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه، فخرج رسولا قريش من عنده مقبوحَين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار. إهـ حديث أم سلمة رضي الله عنها.

رواية تخالف حديث أم سلمة في قصة الهجرة إلى الحبشة

ويروي البيهقي في دلائل النبوة بسنده إلى كتاب المغازي لموسى ابن عقبة ما يخالف بعض المخالفة حديث أم سلمة فيقول: ثم إن قريشاً اختمرت رؤوسهم، واشتد مكرهم، وهموا بقتل رسول الله ﷺ، أو

إخراجه حين رأوا أصحابه يزدادون، ويكثرون، فعرضوا على قومه أن يعطوهم ديته، ويقتلوه، فأبى ذلك قومه، ومنع الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ بحمية رهطه، واشتدوا على أتباعه على دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبايلهم، فكانت فتنة شديدة، وزلزالاً شديداً، فمنهم من عصم الله، ومنهم من افتتن.

فلما فُعل بالمسلمين ذلك أمرهم رسول الله ﷺ حين دخل الشِّعب[1] مع بني عبد المطلب بالخروج إلى أرض الحبشة، وكان بأرض الحبشة ملك يقال له النجاشي، لا يظلم بأرضه أحد، وكان يثنى عليه مع ذلك كثيراً، فانطلق إليها عامتهم حين قهروا وخافوا الفتنة، ومكث رسول الله ﷺ فلم يبرح، وذلك قبل خروج جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم إلى أرض الحبشة، وأنهم خرجوا مرتين، ثم رجع الذين خرجوا في المرة الأولى قبل خروج جعفر وأصحابه.

ثم ذكر ابن عقبة سبب رجوعهم، وربطه بأكذوبة الغرانيق، التي وضعها الزنادقة، كما سنبينه ـ إن شاء الله ـ عند مناسبتها.

ثم قال البيهقي في سياق كلام ابن عقبة: وخرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في رهط من المسلمين عند ذلك ـ أي عند اشتداد الأذى على المسلمين بعد رجوع أصحاب الهجرة الأولى ـ فراراً بدينهم أن يفتنوا عنه إلى أرض الحبشة، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة ابن الوليد بن المغيرة، وأمروهما أن يسرعوا السير ففعلا، وأهدوا للنجاشي فرساً وجبَّة ديباج، وأهدَوا لعظماء الحبشة هدايا، فلما قدما على النجاشي قبل هداياهم، وأجلس عَمْراً على سريره، فقال عمرو: إن بأرضك رجالاً منا سفهاء، ليسوا على دينكم، ولا على ديننا، فادفعهم إلينا، فقال عظماء الحبشة للنجاشي: أجل، فادفعهم إليهم، فقال النجاشي: لا والله، لا

(١) المشهور أن الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة كانت قبل إسلام عمر بن الخطاب، وإسلام حمزة بن عبد المطلب، وإسلامهما كان في السنة السادسة من النبوة، والهجرة الأولى كما يقول ابن إسحاق كانت في السنة الخامسة، ودخول النبي ﷺ مع قومه شِعْب بني هاشم كان في سنة سبع أو ثمان من النبوة، فما ذكره ابن عقبة غير واضح.

أدفعهم إليهم حتى أكلمهم، وأعلم على أي شيء هم، فقال عمرو ابن العاص: هم أصحاب الرجل الذي خرج فينا، وسيخبرك بما يعرف من سفههم، وخـلافهم الحق أنهم لا يشهـدون أن عيسى ابن الله، ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك، كما يفعل من أتاك في سلطانك.

فأرسل النجاشي إلى جعفر وأصحابه، وأجلس النجاشي عمرو ابن العاص على سريره، فلم يسجد له جعفر، ولا أصحابه، وحيَّوه بالسلام، فقال عمرو وعمارة: ألم نخبرك خبـر القوم، والـذي يراد بـك؟ فقال النجاشي: ألا تحدثوني أيها الرهط: ما لكم لا تحيوني كما يحييني من أتاني من قومكم وأهل بلدكم؟ ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ وما دينكم؟ أنصارى أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفيهود أنتم؟ قالوا: لا، قال: فعلى دين قومكم؟ قالوا: لا، قال: فما دينكم؟ قالوا: الإسلام، قال: وما الإسلام؟ قالوا: نعبد الله وحده، لا شريك له ولا نشرك به شيئاً، قال: من جاءكم بهذا؟ قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا، قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، فأمرنا بالبر، والصدق، والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به، فصدَّقناه وعرفنا كلام الله تعالى، وعلمنا أن الذي جاء به من عند الله، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا، وعادَوا النبي ﷺ الصادق، وكذَّبوه، وأرادوا قتله، وأرادونا على عبادة الأوثان ففررنا إليك بديننا ودمائنا من قومنا، ولو أقرونا استقررنا.

فقال النجاشي: والله إن خرج هذا الأمر إلاّ من المشكاة التي خرج منها أمر موسى عليه السلام. قال جعفر: وأما التحية فإن رسولنا أخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام. فأمرنا بذلك، فحييناك بالذي يحيي به بعضنا بعضاً، وأما عيسى بن مريم عليه السلام، فهو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وابن العذراء البتول، فخفض النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، وقال: والله مازاد ابن مريم على هذا وزن هذا العود، فقال عظماء الحبشة: والله لئن سمعت هذا الحبشة لتخلعنَّك، فقال النجاشي: والله لا أقول في عيسى غير هذا أبداً، وما أطاع الله فيّ

حين رد إليّ ملكي، فأنا أطيع الناس في دين الله؛ معاذ الله من ذلك!!.

ثم قال النجاشي: أرجعوا إلى هذا هديته ـ يريد عمرو بن العاص ـ والله لو رشوني دَبْر ذهب ـ والدبر في لغة الحبشة الجبل ـ ما قبلته، وقال لجعفر وأصحابه: امكثوا، فإنكم سيوم ـ والسيوم الآمنون ـ قد منعكم الله عزّ وجل، وأمر بما يصلحهم من الرزق، وقال: من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد غرم، أي فقد عصاني.

ثم قال البيهقي في سياق كلام ابن عقبة: وكان الله عزّ وجلّ قد ألقى العداوة بين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد في مسيرهما قبل أن يقدما إلى النجاشي، ثم اصطلحا حين قدما على النجاشي ليدركا حاجتهما التي خرجا إليها من رد المسلمين، فلما أخطأهم ذلك رجعا إلى أشرٍّ ما كانا عليه من العداوة، وسوء ذات البين، فمكر عمرو بعمارة، فقال: يا عمارة إنك رجل جميل، فاذهب إلى امرأة النجاشي، فتحدَّث عندها إذا خرج زوجها، فإن ذلك عون لنا في حاجتنا، فراسلها عمارة حتى دخل عليها، فلما دخل عليها انطلق عمرو إلى النجاشي، فقال له: إن صاحبي هذا صاحب نساء، وإنه يريد أهلك، فاعلم علم ذلك، فبعث النجاشي فإذا عمارة عند امرأته، فأمر به فنفخ في إحليله، ثم ألقي في جـزيرة من البحر، فجن واستوحش مع الوحش، ورجع عمرو إلى مكة قد أهلك الله صاحبه، وخيَّب مسيره ومُنِعَتْه حاجتُه.

رواية الإمام أحمد في قصة الهجرة إلى الحبشة عن عبدالله بن مسعود

ويؤيد ما ساقه البيهقي من كتاب المغازي لابن عقبة ما رواه الإمام أحمد بسندٍ حسن، وصاحب (عيون الأثر) بسنده، والبيهقي بسنـده في الدلائل عن عبدالله بن مسعود فقال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً، ومعنا جعفر بن أبي طالب، وعثمان ابن مظعون، وبعثت قريش عمارة وعمرو بن العاص، وبعثوا معه بهدية إلى النجاشي فلما دخلا عليه سجدا له، وبعثا إليه بالهدية، وقالا: إن ناساً من قومنا رغبوا عن ديننا ونزلوا أرضك قال: وأين هم؟ قالا: هم في أرضك، فبعث إليهم النجاشي، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتَّبعوه حتى دخلوا

على النجاشي، فلم يسجدوا له، فقالوا: ما لكم لم تسجدوا للملك؟ فقال جعفر: إن الله عزّ وجلّ بعث إلينا نبيه فأمرنا أن لا نسجد إلا لله تبارك وتعالى، فقال النجاشي: وما ذاك؟ فأخبره، فقال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك في عيسى، قال: فما تقولون في عيسى وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله عزّ وجلّ: هو روح الله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد، فتناول النجاشي عوداً فقال: يا معشر القسيسين والرهبان، ما تزيدون على ما يقول هؤلاء ما تزن هذه ـ وأشار إلى العود ـ فمرحباً بكم، وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه نبي، لوددت أني عنده فأحمل نعليه، أو قال: أخدمه، فانزلوا حيث شئتم من أرضي.

بحث وتحقيق حول من كان رفيقاً لعمرو ابن العاص

فهذا الحديث فيه أن عمارة بن الوليد هو الذي كان رفيقاً لعمرو ابن العاص في بعثته إلى النجاشي ليرد على قريش جماعة المسلمين الذين هاجروا إليه ونزلوا أرضه، ولم يَرِد فيه قط ذكر لعبدالله بن أبي ربيعة.

وحديث أم سلمة صريح في أن عبدالله بن أبي ربيعة هو الذي كان رفيق عمرو في سفارته إلى النجاشي ولم يَرِد فيه ذكر قط لعمارة بن الوليد.

وكأن صاحب (عيون الأثر) تنبه إلى هذا التدافع بين الروايات، فأراد أن يدفع الاختلاف بينها فقال: وبعثت قريش في شأنهم إلى النجاشي مرتين: الأولى عند هجرتهم الأولى والثانية عقب وقعة بدر، وكان عمرو ابن العاص رسولاً في المرتين، ومعه في إحداهما عمارة بن الوليد، وفي الأخرى عبدالله بن أبي ربيعة المخزوميان.

وهذا كلام صريح في أن قريشاً بعثت في أثر المهاجرين إلى الحبشة مرتين في إحداهما كانت هجرتهم الأولى، وهي التي كانت في مدة استسرار الدعوة، قبل إسلام حمزة وعمر، والثانية كانت عقب وقعة بدر، وقد كانت هذه الوقعة الظافرة في السنة الثانية من الهجرة النبوية، فبينهما ـ على هذا التقدير ـ نحو من عشر سنوات، وهذا مستبعد جداً.

وقد كان عمرو بن العاص رسولاً في المرتين، كان في إحداهما عمارة

ابن الوليد رفيقاً لعمرو، وكان في الأخرى عبدالله بن أبي ربيعة هو الرفيق لعمرو، بيد أن صاحب (العيون) لم يوضح أي المرتين كان فيها عمارة رفيقاً لعمرو، وأيتهما كان فيها عبدالله بن أبي ربيعة هو الرفيق لعمرو، ولم يوضح ـ أيضاً ـ أي الرجلين هو الذي شهد حوار المهاجرين مع النجاشي، وحديث ابن مسعود، وحديث أم سلمة يثبت كل منهما للرجل الذي ذكر فيه مرافقاً لعمرو أنه هو الذي شهد هذا الحوار، وشارك عَمْراً فيه، وسار معه في مهمته التي كلفته قريش القيام بها فخاب سعيه، وقبح مرده إليها، وحديث أم سلمة صريح في أن هذا الرفيق هو عبدالله بن أبي ربيعة.

وكلام موسى بن عقبة الذي ساقه البيهقي، وحديث ابن مسعود في رواياته واردان في شأن الهجرة الثانية، لأن ابن مسعود لم يكن من أهل الهجرة الأولى، كما جزم ابن إسحاق، وكما هو صريح حديثه في رواياته في قوله: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو ثمانين رجلاً، ومعنا جعفر بن أبي طالب.

فهذا العدد، وفيهم جعفر رضي الله عنه كان بالقطع في الهجرة الثانية لأن الهجرة الأولى لم يزد فيها عدد المهاجرين على اثني عشر رجلاً، ولم يكن فيهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ذكر أسماءهم ابن إسحاق، وأم سلمة رضي الله عنها وإن كانت من أهل الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة لكنها ذكرت في حديثها أن جعفر بن أبي طالب كان هو خطيب المسلمين ومتكلمهم عند النجاشي، وجعفر كان بالقطع من أهل الهجرة الثانية، فحديث أم سلمة يحكي ما جرى في الهجرة الثانية كحديث ابن مسعود، فاختلافهما في أي الرجلين: عمارة بن الوليد، أو عبدالله ابن أبي ربيعة كان رفيقاً لعمرو بن العاص في سفارته التي وقع فيها الحوار بين النجاشي والمهاجرين باقٍ لم تُحلَّ عقدته.

وكأنما تنبَّه القسطلاني في (المواهب) إلى هذا الإشكال فأراد حل عقدته فقال في الكلام عن الهجرة الأولى: فلما رأت قريش استقرارهم ـ

أي المهاجرين ـ في الحبشة وأمنهم أرسلوا عمرو بن العاص، وعبدالله ابن أبي ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشي، وكان معهما عمارة ابن الوليد.

وصرح الزرقاني في شرح المواهب بأن عمارة لم يكن أصيلاً في سفارة قريش إلى النجاشي وإنما كان تابعاً لعمرو بن العاص، وابن أبي ربيعة فقال: ولم يذكر عمارة ـ أي في حديث ابن مسعود لأنه تبع لهما.

وحكى الزرقاني عن الشامية فقال: الصحيح أن في الهجرة الأولى عمارة، وفي الثانية عبدالله، ومعنى ذلك أن عمارة وعبدالله بن أبي ربيعة لم يجتمعا في بعثة واحدة مع عمرو بن العاص وهذا خلاف ما قاله القسطلاني، ويقتضي أن قريشاً بعثت في تطلُّب المهاجرين لردهم إليها تفتنهم في دينهم بعثتين، كان فيهما عمرو بن العاص رسولاً، يرافقه في أولاهما عمارة ابن الوليد وفي الثانية عبدالله بن أبي ربيعة.

بيد أن هذا لا يلتئم مع ما اتفقت عليه الروايات من وحدة الحوار الذي دار بين النجاشي من جانب وبين المهاجرين من جانب آخر، في موضوعه، وصورته التي جرى في إطارها، ونهايته التي انتهى إليها، وفي تعيين متكلم المسلمين المهاجرين، وهو في كل الروايات جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، بمشهد من مبعوثي قريش، وأحدهما على القطع عمرو بن العاص، وكان هو مُشْعل إغراء النجاشي وتحريشه.

لأنه يبعد جداً أن يتكرر هذا الحوار بصورته التي يحضر مجلسها الملك، وبطارقته، ورؤوس مملكته، وموضوعه الذي دار فيه والمتكلم عن المسلمين وخطيبهم؛ وهو في جميع الروايات جعفر بن أبي طالب الذي اتفقت الروايات على أنه كان من أهل الهجرة الثانية ولم يكن من أهل الهجرة الأولى، التي كانت قليلة العدد، قليلة الزمن المختص بها في مكث أهلها منفردين بالحبشة بعددهم القليل قبل أن يلحق بهم إخوانهم أصحاب الهجرة الثانية.

ولعل وحدة الحوار، وهو من أهم ما كان في هذه الهجرة، هو

الحامل للحافظ ابن حجر على الاقتصار في سيرته على أن عَمْراً وعمارة ذهبا في الهجرة الثانية، ولم يذكر الحافظ في سيرته ذهاباً لأحد من جهة قريش في الهجرة الأولى، وهذا موافق في ذكره عمارة رفيقاً لعمرو بن العاص لحديث عبدالله بن مسعود، ورواية موسى بن عقبة في مغازيه كما ساقها البيهقي في الدلائل.

والذي نرجحه ـ جمعاً بين الروايات ـ أن قريشاً بعثت في أثر المهاجرين إلى الحبشة من المسلمين بعثة واحدة، كانت في الهجرة الثانية التي بلغ فيها عدد المهاجرين من الرجال والنساء نحواً من اثنين ومائة بين رجل وامرأة، وكان فيها عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، مبعوثَين أصليين، وكان معهما رديفاً وتابعاً عمارة بن الوليد، وفي هذه الهجرة جرى الحوار المذكور في جميع الروايات بين النجاشي، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. لأن هذه الهجرة الثانية في كثرة عدد أفرادها، وشمولها لأكثر بيوت قريش وبطونها وعشائرها هي التي أشجَت قريشاً، وأخذها بسببها المقيم المقعد، ونزلت منها منزلة الغصة بالماء، فقد أهمتها أشد الاهتمام، وخشيت أن تكون منشراً للدعوة التي أمضتها، والرسالة التي أشجتها.

ويدخل في هذا الترجيح بداهة أن عمارة بن الوليد لم يكن موجوداً في مجلس الحوار بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، لما جرى بينه وبين عمرو بن العاص من شر وسوء ذات بين.

ومن هنا أغفلت ذكره رواية أم سلمة رضي الله عنها التي رواها مجوَّدة ابن إسحاق، لأنه لم تكن له مشاركة جادة، ولعله كان مشغولاً بعبثه الذي انتهى به إلى أبشع مصير، كما تحكيه الروايات مرة متصلاً بقصة عابثة يرويها أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه ولعلها أو تفاصيلها من نواسياته العابثة، ومرة في صورة سوء وثام، وشر بينه وبين عمرو اقتضى أن يكيد له عمرو، ويمكر به حتى قذفه إلى ذلك المصير المشؤوم، كما ذكره البيهقي عن مغازي ابن عقبة، وطوّل القصة السهيلي وأشار اليها القاضي عياض كما نقله عنه النووي في شرح مسلم.

بقي في البحث أن البيهقي في الدلائل ذكر بسنده إلى ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: إنما كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وهذه رواية غريبة بين روايات قصة الهجرة إلى الحبشة، لأن سائر الروايات ـ سواء التي تذكر عمارة بن الوليد، أو عبدالله بن أبي ربيعة، أو هما معاً في رفقة عمرو إلى النجاشي ـ تذكر أن الذي كان يكلم النجاشي نائباً عن المسلمين وخطيبهم هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكلها تذكر بالتفصيل ما كلَّم به جعفر النجاشي، وتذكر ما كان من أسئلة توجه بها النجاشي إلى المسلمين المهاجرين، وإلى متكلمهم جعفر، بناء على تحريض عمرو ورفيقه في بعثة قريش، وتذكر بالتفصيل والصراحة ما كان يجيب به جعفر عن هذه الأسئلة باتفاق بينه وبين إخوانه المسلمين، على مسمع من بطارقة النجاشي ورهبانه ورؤوس قومه ووجوه بلده، وعلى مسمع من رسولي قريش: عمرو، وصاحبه.

ورواية أن الذي كان يكلم النجاشي إنما هو عثمان بن عفان لم يعرِّج عليها الرواة، ولم نرَ من ذكرها غير البيهقي بهذا الأسلوب المبتسر، المختصر المجمل، وعثمان بن عفان كان أول من هاجر بأهله إلى الحبشة، وهو رضي الله عنه في مكانته من الإسلام وفضله في السبق إلى الهجرة وقدره بين قومه من قريش لا ينكر عليه أنه هو الذي كلَّم النجاشي، وأنه هو الذي أدَّى عن المسلمين المهاجرين، وتكلَّم بلسانهم.

لكن سوق هذه الرواية بهذه الصورة لا يجعلها في قوة الروايات المتعددة المفصلة التي أطبقت على أن المتكلم بلسان المسلمين هو خطيبهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

غير أن رواية عثمان هذه قد تحل مشكل الروايات التي تحكي أن بعث قريش إلى النجاشي كان مرتين إحداهما في الهجرة الأولى، والثانية في الهجرة الثانية، ومن المعروف المتعالم أن عثمان رضي الله عنه كان من أهل الهجرتين، وجعفراً رضي الله عنه كان من أهل الهجرة الثانية، ولم يكن في

أصحاب الهجرة الأولى، التي كان عدد أصحابها قليلاً اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وهذا العدد في قلته لا يقلق قريشاً إلا بمقدار ما تعرف من استقرارهم وأمنهم خشية أن يكونوا طليعة لهجرة غيرهم ونشر دعوتهم.

ومن ثم يمكن أن يتصور أن بعثة قريش الأولى وراء هذا العدد القليل من المسلمين المهاجرين كانت بعثة استطلاع وتعرف على حال هؤلاء المسلمين المهاجرين، ومدى استقرارهم ومدى ما وجدوا في مهاجرهم من الأمن على أنفسهم ودعوتهم، ولعل عمارة بن الوليد كان رفيقاً لعمرو ابن العاص في هذه الرحلة الأولى.

ولم تكن هذه البعثة الاستطلاعية تقصد إلى حتمية ردِّهم إلى قومهم وبلدهم، ولعله قد جرى حديث في شأنهم في هذا الجو الاستطلاعي لإغراء الحبشة بهم حتى يسيئوا جوارهم وتضيق صدورهم بما يجدون منهم في غربتهم، فيرجعوا إلى بلدهم وقومهم، وكان المتكلم عن المسلمين حينئذ هو عثمان رضي الله عنه، وبهذا تتمشى هذه الرواية مع الروايات الأخرى، ولا تنفي أن خطيب المهاجرين المتكلم بلسانهم في مجلس النجاشي وبطارقته ورؤوس بلده هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومما يؤكد هذا ويؤيده ما ورد أن النبي ﷺ كتب إلى النجاشي كتاباً خاصاً حمله إليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قبل أن يكتب إلى ملوك العالم ورؤساء القبائل كُتبَه التي دعاهم فيها إلى الإسلام بزمن مديد، لأن كُتبَه ﷺ إلى الملوك والرؤساء كانت بُعَيْد رجوعه من الحديبية وكتابه الخاص إلى النجاشي مع ابن عمه جعفر بن أبي طالب كان قبيل دخوله ﷺ مع المسلمين ومن آزرهم من بني هاشم والمطلب حمية شِعْب بني هاشم الذي أقاموا فيه محاصرين نحو ثلاث سنين.

وكتابه ﷺ مع جعفر إلى النجاشي كان للوصية بالمسلمين الذين هاجروا إلى بلده يرجون حسن جواره، والأمن والاستقرار في كنفه، بدليل أنه ﷺ حينما كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام كان أول من كتب إليه بذلك هو ملك الحبشة الذي خلف ملكها الذي أسلم على يدي جعفر،

وكتب بذلك إلى النبي ﷺ، وهذا النجاشي المسلم هو الذي صلّى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب حين أخبر بوفاته، وكان رسوله إلى النجاشي الثاني الذي كتب إليه يدعوه إلى الإسلام أسوة بملوك العالم هو عمرو ابن أمية الضمري.

ونص كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي الذي حمله معه إليه في هجرته جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه كان متضمناً - إلى جانب الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وعبودية عيسى عليه السلام ورسالته، وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم العذراء البتول - الوصية بالمسلمين، وأن النبي ﷺ بعث إليه ابن عمه جعفراً ونفراً من المسلمين، ليكرمهم، فهو كتاب خاص كان الهدف الأول منه هو الوصية بالمسلمين وإحسان جوارهم وإكرامهم ليأمنوا في جواره وهذا هو نص الكتاب كما ترويه كتب السيرة: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم، ملك الحبشة، سِلْم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً، ونفراً من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى».

نص كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي

وقد رد النجاشي على كتاب النبي ﷺ بكتاب أجاب فيه إلى الإسلام واستجاب إلى وصية النبي ﷺ بالمسلمين المهاجرين فأكرمهم، فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما

نص كتاب النجاشي إجابة لكتاب رسول الله ﷺ

ذكرت تفروقاً، انه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق: والسلام عليك يا رسول الله).

تحقيق في من هو النجاشي الذي كتب إليه النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب

أما كتابه ﷺ إلى النجاشي الثاني، وليس هو بالذي صلَّى عليه ﷺ، فإن هذا كان غير مسلم، وكان رسول رسول الله ﷺ إليه الذي حمله إليه هو عمرو بن أمية الضمري، فهو كتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، وهو في نصه لا يختلف كثيراً مع كتاب النجاشي الذي أسلم على يدي جعفر ابن أبي طالب سوى أن كتاب عمرو الضمري لم يتضمن ذكر جعفر بن أبي طالب وأصحابه والوصية بهم وإكرامهم، كما أورده ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) قال ابن القيم بعد أن ذكر أن النجاشي الذي توفي سنة تسع من الهجرة وخرج النبي ﷺ بالناس إلى المصلى، فصلَّى عليه، وكبَّر أربعاً - وهذا وَهَم - والله أعلم - قد خلط راويه، ولم يميز بين النجاشي الذي صلَّى عليه، وهو الذي آمن به وأكرم أصحابه وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعوه إلى الإسلام، فهما اثنان، وقد جاء ذلك مبيناً في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام، وحمل كتابه إليه عمرو ابن أمية الضمري، وليس هو بالذي صلى عليه.

وحديث الهجرة إلى الحبشة طويل الذيول، عريض الأكناف، متفاوت الأخبار، مختلف الروايات، وقد أتينا على ما بلغ جهد القلم من تحقيق روايات هذه الهجرة في مرَّتيها الأولى والثانية، وركَّزنا على أنها لم تكن هجرة لمجرد الفرار من الاضطهاد والتعذيب، ولا سيما في المرة الثانية التي استوعبت كثيراً من أبناء البيوتات وأشراف قريش، وإنما كانت هجرة للتخفيف عن رسول الله ﷺ في حرصه على أمن أصحابه، وعدم شغله نفسياً بأمرهم ليتفرغ للدعوة وتبليغ رسالته وهي في مضايق مراحلها وأشد أزماتها واستسراره بها، وكانت هجرة تبليغ ونشر للدعوة، تركت أثرها

بالحوار الصدوق الذي تولاه جعفر بن أبي طالب باسم سائر المسلمين المهاجرين، واستجاب لها النجاشي وأحباره ورهبانه، الذين فاضت أعينهم بالدمع مما سمعوا من الحق، وأنزل فيهم قرآناً يتلى ﴿ ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ﴾.

قِصَّةُ الغَرَانِيق

أكذوبة بلهاء متزندقة

أقحم بعض كتَّاب السيرة النبوية، وجماعة من المفسرين، وطوائف من المحدِّثين في كتبهم ودواوينهم ومؤلفاتهم أقصوصة (الغرانيق)، وألصقوها بهجرة الحبشة وجعلوها سبباً لعودة المهاجرين الأولين إلى مكة، وهي أقصوصة مختلقة باطلة في أصلها وفصلها، وأكذوبة خبيثة في جذورها وأغصانها، وفريَّة متزندقة اخترقها (غِرْنَوق) أبْله جهول، أو شيخ حاقد على الإسلام زنديق، أو منافق فاجر عربيد، ألقى بها إليه شيطان عابث مريد، يتلعَّب بعقول البُلْه المغفَّلين، الذين يتكثرون تعالُماً، ويتلقفون كل شوهاء فجور، فجَرَت إلى مجتمعات أعداء الإسلام، ومن كل يهودي خبيث، وكل ملحد عَتِيّ،وسرت منهم إلى كل مسلم أبْله مُغَرَّر، وكل متعالم مغفَّل، وكل جدلي متفيهق، وكل مغرور مخدوع بكواذب المدح والثناء، وكل حفَّاظ (صمام)، وكل جمَّاع لا يفقه ولا يتفقه، وكل جامد مقلد، وكل حَرْفِي متعصب، وكل مُلَبَّس عليه يزعم أنه مجتهد، وكل خابط هنا وهناك يتكذب، وكل حاطب في ظلمات الجهل، يتلقف (العلم) من وراء طنين الأسماء، دون تمحيص ناقد، أو بحث مُسَدَّد، وكل مدّع دعيٍّ، وكل متسقِّط يزعم أنه مجدِّد، وكل ملتقط يزعم أنه متنق، وكل مزهو بالغرور يزعم أنه وحيد دهره، وفريد عصره، بل واحد أمته، لو قيل له إن الشيطان يلبِّس عليك في علمك، فيوهمك ما ليس بحق أنه حق لانتفخت أوداجه غضباً لنفسه، ولكنه يقبل ويدافع دفاع المستميت عن قصة مزورة تهدم أصل أصول الإسلام وتخرق سياج النبوة، وتبطل عصمة الأنبياء اعتماداً على رمرمة من مراسيل واهية.

فباضت هذه الأكذوبة البلهاء بين أحضان هؤلاء، وفرَّخت في أعشاشهم، وزقزقت أفراخها في أوكارهم، وطارت بأجنحة الافتراء الأبله إلى آفاق التاريخ الإسلامي المظلوم، فتلقفها كل (راوندي) ملحد، وحملها كل زنديق مفسد، ليطعن بها في سويداء قلب القرآن الكريم الحكيم المحكم، ويفتك بخنجرها بالسنة المطهرة المبينة، وهما أصل أصول الإسلام اللذان قام على دعائمهما شامخُ صرح هذا الدين القيم، ليزعزع الثقة بأصلَيْه، فينفلت من أيدي المسلمين زمام دينهم الذي أنزله الله تعالى هدى ورحمة للعالمين، ليهدم به كل بناء للوثنية والإلحاد، ويقضي بهدايته على معالم الشرك والإفساد، ويضعضع بآياته كل تفلسف متزندق، وكل زندقة متفلسفة، ويقيم بشرائعه وأحكامه منائر التوحيد الخالص لله تعالى وحده وينشر بآدابه في آفاق الحياة نور الحق والخير.

هذه الأكذوبة (الغرنوقية الخبيثة) تريد من المسلمين أن يجعلوا من سيد المرسلين، خاتم الأنبياء محمد ﷺ ألعوبة في يد الشيطان، وأن يجعلوا منه ﷺ معبثة للشرك والمشركين، وأبطولة يرقص من حولها الملاحدة والحاقدون ولكن الله تعالى يأبى إلا أن يجعل من دينه، دين الإسلام الذي رضيه لأمة محمد ﷺ حصناً حصيناً لا تقتحمه الأباطيل والترهات، ولا تنطلي على حُذّاق حملته من الجهابذة زندقة المتزندقين، وقد أخبر سبحانه إخباراً لا يتخالجه الريب، ولا يحوم حول حماه الشك، بأنه هو الذي تولَّى بنفسه حفظه بحفظ دستوره (القرآن الحكيم المحكم)، فلا يدخل إلى ساحته افتراء المفترين، ولا يلج إلى حظيرة قدسه عبث الشياطين، فقال تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وليتأمل المتأملون في هذه الآية الحكيمة المحكمة وفي قول الله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدَى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾[1]. ليرَوا ما أضفى رب العزة تبارك وتعالى على كتابه القرآن الحكيم المحكم من حفاوة الاختصاص

---

(١) سورة المائدة آية (٤٤).

بتولي حفظه وإسناد ما أفاضه على التوراة من فضله، فوكل حفظه إلى الربانيين والأحبار.

قال أبو حيان في البحر: وقد أخذ الله على العلماء حفظ الكتاب ـ أي التوراة ـ من وجهين، أحدهما: حفظه في صدورهم ودرسه بألسنتهم، والثاني حفظه بالعمل بأحكامه واتباع شرائعه، وهؤلاء ضيَّعوا ما استحفظوا حتى تبدَّلت التوراة، وفي بناء الفعل للمفعول، وكون الفعل للطلب ما يدل على أنه تعالى لم يتكفل بحفظ التوراة، بل طلب منهم حفظها وكلَّفهم بذلك، فغيَّروا وبدَّلوا، وخالفوا أحكام الله، بخلاف كتابنا فإن الله تعالى تكفَّل بحفظه، فلا يمكن أن يقع فيه تبديل ولا تغيير، قال تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ أفلا يعقل الغِرْنوقيون؟.

هذه الأكذوبة الخبيثة البلهاء كانت إحدى الفِرى الحاقدة التي طوَّفت ببعض مؤلفات الجمَّاعين للغث والسمين، فرواها في غفلة من عقله وعلمه بعض المفسدين، وأُدخلت على بعض المحدِّثين، مغلَّفة بأغلفة الأسانيد، محاطة بهالات بريق الأسماء، فردَّدها بأساليب مختلفة وفرطحها كثير ممن تلقفها بالبله والغفلة، ورتعت في أسفار المؤرخين فأعادوا فيها وأبدوا، وزادوا ونقصوا، وأثبتوا وحذفوا، وشوَّهوا وزينوا، ومسخوا وحرفوا، وتلقاها القصَّاصون فغنَّوا بها، وكان إبليس هو عازف موسيقاها في أنديتهم ومجالسهم، ومصمصت لسماع أباطيلها شفاه الجاهلين من غوغاء العامة، وعامة الغوغاء الذين تَكْبُر في صدورهم الغرائب والأعاجيب من المضحكات المبكيات ـ فيهشون لها، ويتزاحمون على محافلها.

بيد أن هذه الأقصوصة الخبيثة والأكذوبة البلهاء لم تفلت من سياط النقد الممحص، فنهض إليها من الجهابذة المهرة، والحذَّاق العيالم من أئمة الإسلام المشهود لهم بالفضل والصدق والتبحر، والتفقه في الدين مَنْ طعنها في أقتل مقاتلها، فبهرج زيفها، وكشف عن سوأتها، وعرَّاها شوهاء متزندقة، وجلَّاها بلهاء ملحدة، وأظهرها فِرْية مستخبثة، ولكنها ظلت تعيش في أودية الشياطين، تتربص للوثبة، لتفسد على المجتمع المسلم

حياته الإيمانية بتشكيكه في أصل أصول دينه، ودستور حياته (القرآن الحكيم المحكم) وتزعزع ثقته في صدق نبيه، سيد الأنبياء والمرسلين، محمد خاتم النبيين ﷺ، ليصبح هذا المجتمع المسلم الذي اكتسح حياة الوثنية والإلحاد المشرك بهُدَى قرآنه وسنة نبيه ﷺ فريسة للإلحاد الجديد على ألْسنة المستشرقين والمبشرين الصليبيين واليهود السبائيين، والزنادقة الراونديين، والمتحللين من فجار الشيوعيين الذين عجزوا عن مواقفة القرآن في مواجهة فكرية ومحاجة علمية، فلاذوا إلى الافتراء يختلقونه وإلى الأباطيل يزرعونها في أرضه في غفلة من حراسه الغرّ الميامين، ليغيروا معالم هدايته، ويشوهوا حقائق دستوره، ويخلعوا عن نبيه سيد الأنبياء والمرسلين خلعة العصمة التي حفظه الله بها عن أي خطأ فيما يبلغه الرسول عن الله تعالى من الشرائع والأحكام إلى الخلق كافة، فكانت عاصماً له ﷺ من أن يكون للشيطان عليه سبيل، والعصمة عن الخطأ فيما يبلِّغه الرسول عن الله تعالى ثابتة بإجماع طوائف الأمة خَلَفاً عن سلف، لم يعرف في هذا مخالف إلا من أوَّل وحرَّف وبدَّل، وذلك أمره إلى الله، يتولى جزاءه بما يستحق من جزاء.

وسنحاول ـ بقدر الاستطاعة ـ أن نستوفي عرض الأقوال والآراء والمذاهب، والتأويلات والدلائل مما وقفنا عليه إثباتاً ونفياً في أمر هذه الأقصوصة دون تقيد بترتيب خاص، حتى نكشف عن باطلها أغطية البَلَه والغفلة، وأكنة المكر والحقد، وقد جمع الشيخ الحافظ جلال الدين السيوطي من روايات هذه الأقصوصة في كتابه (الدر المنثور) ما يكاد يكون استيعاباً لها، وأتى في جمعه لهذه الروايات على أكثر ما جمعه شيخ شيوخه الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتحه)، والسيوطي قَصّر نفسه على جمع الروايات، وإسنادها إلى من خرّجها، ولم يتدخل بشيء من البحث فيما وراء ذلك من إثبات القصة أو نفيها إلا قليلاً، وهو بهذا الصنيع كان أميناً مع طبيعته العلمية التي ينادي بها تاريخه الفكري وتصورها مؤلفاته المتكاثرة.

وأما الحافظ ابن حجر فكان موقفه من القصة ممثلاً لشخصيته العلمية التي يضفي عليها فوقه في الصناعة الحديثية هالة من الاقتدار

والتفرد على حفاظ عصره، مما غلب عليه العصبية الصناعية، فحكَّمها في إثبات أصل القصة من جهة روايات أحاديثها وأسانيدها، وبهذه البراعة الصناعية انتهض ليجعل من أقصوصة الغرانيق قصة لها أصل حديثي يحميها من الوضع والكذب، وهذه كبوة لا ندري ما الله صانع به من أجلها، ولعله تذكّر وأناب.

وقد تناول هذه الأقصوصة كثير من القدامى والمتأخرين، وكان منهم من له دراية بصناعة التحديث ونقد الروايات الحديثية، فأجاد في بيان زيف جميع روايات الأقصوصة، وما فيها من وهي ووهن ينسفانها نسفاً، ويذريان رميمها في مهب أعاصير الأباطيل، ولكنه كعّ عن الصراحة في الرد على من أثبتها من الأكابر ذوي الشهرة والرنين، وكل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ فهو وحده المعصوم عن أن يبلِّغ عن الله إلا ما هو حق وهدى.

والمتأمل في صنيع الجهابذة من جند الله ومهرة عيالم علوم تفسير القرآن والسنة وحذّاقها فقهاً وتفقهاً وصناعة في تزييف أقصوصة الغرانيق البلهاء وإبطالها في منابتها، واستحالة وقوعها ـ يجد هذا الصنيع أقوم مسلكاً، وأسد منهجاً، وأعمق منبعاً، وأرضى مصرفاً، وأصدق برهاناً، وأسطع حجة، وأضوأ مشرقاً، وأصفى مشرباً، وأعدل مقصداً، وأبدع مشرعاً، وأحق متقبلاً، وأعذب مذاقاً، وأحلى مورداً، وأنجع شفاء، وأقطع لجذور الفتنة، لأنه يجمع النظر المحكم من جميع جوانبه النقلية والعقلية، فلا يدع منها جانباً لغامز، ولا يترك فيها سبيلاً لقول متكذِّب.

ومن أعجب وأغرب ما استوقف أنظار البحث أن نجد إماماً له اليد الطولى في علوم القرآن وتفسيره، وعلوم السنة وفنونها وسائر معارف الإسلام النقلية والعقلية، والدفاع عنها وإحاطته علماً بأقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أرباب الفرق، ومذاهب الطوائف في الملل والنحل بما لم يعرف مثله لغيره من أئمة العلم، رواية وحفظاً وتفقهاً، وغوصاً على الحقائق والمعاني، وسوقاً للأدلة والبراهين ـ يجنح إلى القول بثبوت قصة

الغرانيق مروية عن السلف كما يزعم، ذلك هو الشيخ الإمام ابن تيمية، كما جاء ذلك في فتاويه.

وسنسوق كلامه ونناقشه ونناقش كلمات جاءت عن القصة من كلام تلميذه الشيخ العلاّمة ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان)، وهي كلمات عارضة ظاهرة في القول بثبوت قصة الغرانيق لم تقصد في سياقها إلى القصة إلا تبعاً.

ثم نسوق كلام الحافظ ابن حجر في (فتحه) وادِّعائه أن للقصة أصلاً يحميها من الوضع والكذب، ونكل مناقشته والرد عليه إلى ما يجيء في كلامنا عند عرض كلام الأئمة النافين لوقوع هذه القصة.

ومن أبشع ما وقفنا عليه في زعم ثبوت هذه الأكذوبة البلهاء كلام للشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الكردي، وقد ساق الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) كلام هذا الرجل وناقشه ورد عليه بما شفى وكفى، وسنقف مع كلام الشيخ الكوراني وقفة تعتمد على النظر فيما ساقه الآلوسي إثباتاً ونفياً، مع تحقيق بعض النقاط، وتوضيح بعض المواضع.

ثم نسوق أقوال الجهابذة من أئمة الإسلام وأعلامه، وحذَّاق علمائه الذين أنكروا وقوع هذه الأقصوصة الباطلة، وأثبتوا أنها من المحال وقوعه في حياة سيد المرسلين محمد ﷺ، وزيَّفوا رواياتها، وكشفوا عن خبْثِها وما تضمنته من شر مستطير وفساد كبير يجب أن تبرأ من شناعته ساحة الرسالة المحمدية الخاتمة الخالدة الهادية، لنسد على شياطين الإلحاد من أعداء الإسلام مداخلهم لإفساد عقائد هذا الدين القيِّم في نفس معتنقيه وزعزعة الثقة بكتابه المبين ورسوله الأمين ﷺ

سياق السيوطي لروايات القصة

ونبدأ ـ مستعينين بالله وحوله وقوته، مستجلبين توفيقه ـ بتقديم أكثر ما سرده السيوطي في كتابه (الدر المنثور) من روايات هذه الأقصوصة البلهاء، معقِّبين على ما نرى أنه في حاجة إلى التعقيب إفراغاً للحق في قالبه من أول أمره، حتى نتنهي بحول الله وقوته إلى دَرْج هذه الأكذوبة المتزندقة في أكفانها، لنلقي بها في وجه كل منافق زنديق، أو ملحد حاقد عربيد، أو جاهل أبله من المغفلين، أو عالم يكبو به جواد الغرور الأهوج في ساحة التعصب. وقد أورد السيوطي روايات كثيرة في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ نذكرها بحسب ترتيبه فيما يأتي:

الرواية الأولى

قال السيوطي:

أخرج عبد بن حُمَيد من طريق السُّدِّي عن أبي صالح قال: قام رسول الله ﷺ، فقال المشركون: إن ذكر آلهتنا بخير ذكرنا إلهه بخير، فألقى في أمنيته ﴿ أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ إنهن لفي الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، قال: فأنزل الله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ الآية: فقال ابن عباس: إنّ أمنيته أن يسلم قومه.

هذه رواية تنادي على نفسها بالبطلان، فقول أبي صالح: قام رسول

الله ﷺ، لا يُدْرى ما المراد منه؟ وهو محتمل لإرادة القيام إلى الصلاة وهي موطن لقراءة القرآن، ويحتمل قام على رؤوس المشركين يدعوهم إلى الله تعالى وتوحيده وخلع الأنداد والشركاء كما هو دأبه ﷺ، ويحتمل غير ذلك.
وقول أبي صالح: فألقى في أمنيته ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ إنهن لفي الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، كلام ملفّق لأنه خلط بين آيات الله تعالى المنزلة بالوحي لتوبيخ المشركين، والتنديد بآلهتهم الباطلة، وذلك قول الله تعالى: ﴿ أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ وبين ما هو محض الكذب والافتراء على الله وكتابه ونبيه ﷺ وذلك قول الزناديق: إنهن لفي الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى.
وجعل هذا كلهُ مُلْقىً في أمنية رسول الله ﷺ وقد أبهم المُلْقِي، وهذا الإبهام خدعة زندقية للإيهام بأن هذا كلهُ مُلقىً إلى رسول الله ﷺ عن طريق الوحي، ويدل لهذا أن الرواية لم تذكر تصويب جبريل لما نزل به من الوحي الصادق وهذا من أبطل الباطل وأفجر الكفر. فهذه رواية كاذبة باطلة لا تساوي عفطة عنز، غير أن فيها شيئاً يلفت النظر، ذلك هو تفسير الرواية عن ابن عباس لأمنية رسول الله ﷺ، فقالت: فقال ابن عباس: أمنيته ـ أي أمنية النبي ﷺ ـ أن يسلم قومه، وهذا ـ إذا صح عن ابن عباس، وهو حبر الأمة والصحابي الوحيد الذي ذكر في روايات هذه القصة ـ هو البيان الذي لا محيص عنه في تفسير الأمنية، لأنها من التمني وهو محبة الشيء والرغبة في حصوله ووقوعه، ولا شك أن كل نبي أو رسول يتمنى ويحب ويشتهي ويرغب أن يسلم قومه ويستجيبوا لدعوته ويؤمنوا برسالته، وهذا التفسير يرد دعوى من زعم أن السلف (كلهم) على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته كما هو صريح كلام ابن القيم في (إغاثة اللهفان) وإليه جنح شيخه في الفتاوى، ولم يرد في روايات القصة تعيين أحد من السلف بأنه فسر الأمنية بالتلاوة وتمنى بتلا، وهذا حبر الأمة يفسر الأمنية بحب إسلام قومه، وهو المعنى الموافق لاستعمالات اللغة وأوضاعها، والتمني بمعنى التلاوة لم يرد إلا في بيت منسوب لحسان ابن ثابت في رثاء عثمان بن عفان لم يعرف له سند صحيح؛ وسائر من كتب

سابقاً ولاحقاً لم يجدوا دليلاً لغوياً على تفسير الأمنية بالتلاوة سوى هذا البيت الذي يحتمل أنه مكذوب مصنوع، ولو كان ثَمَّة غيره لذكر وذاع، واستعمال القرآن الكريم للتمني في آيات كثيرة كله جاء بمعنى الرغبة والمحبة والاشتهاء، مثل قوله تعالى: ﴿ليس بأمانيِّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾ وقوله جلّ شأنه: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ﴾ وقوله: ﴿فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين﴾ وقوله: ﴿ولا يتمنَّونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾. فالعدولُ عن هذا الاستعمال الشائع إلى تمحّل معنى لم يذكر له دليل لغوي إلا بيت فذ منسوب لحسان حَمْلٌ لألفاظ القرآن الكريم على استعمال باطل أو بعيد متعسِّف.

ولفت النظر إلى هذا التفسير الصحيح للأمنية المذكور في هذه الرواية لم يكن تسليماً لصحتها، وإنما هو لبيان أن مختلقي أقصوصة الغرانيق أرادوا خداع العقول بإدخال الحبر ابن عباس في سندها لإيهام صحتها، وابن عباس أعلم الناس بشعر حسان رضي الله عنهما، فلو كان بيت حسان ثابتاً عند ابن عباس لاستشهد به على المعنى المزعوم للأمنية في الآية، وكل ما استطاعه المنتحلون لبيت الشعر المنسوب لحسان أن جعلوا منه بيتين متحدي الشطر الأول، وسيأتي إن شاء الله لذلك زيادة تحقيق.

الرواية الثانية

قال السيوطي:

أخرج البزار، والطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة بسند (رجاله ثقات) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ قرأ ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. ففرح المشركون بذلك وقالوا: قد ذكر آلهتنا، فجاء جبريل فقال: اقرأ عليَّ ما جئتك به، فقرأ ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. فقال - أي جبريل -: ماأتيتك بهذا، هذا من الشيطان، فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلّا إذا تمنّى﴾ إلى آخر الآية.

وهذه الرواية التي قال عنها السيوطي (بسند رجاله ثقات) معلولة بتردد الراوي في وصلها، قال أبو بكر البزار: لا نعلمه ـ أي هذا الحديث ـ يُروى متصلاً إلا بهذا الإسناد: أي يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال سعيد ابن جبير: فيما أحسبه، وهذا شك في وصل الحديث، ثم قال البزار: تفرَّد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور.

وما تفيد ثقة أمية بن خالد وشهرته والشك علة قادحة، فكيف يكون رواته ثقات؟.

وفي هذه الرواية مخالفة لسابقتها في نص الكلمة الخبيثة المزوَّرة، ففي الرواية السابقة جاء النص هكذا (إنَّهن لفي الغرانيق العلا) وفي هذه الرواية جاء النص هكذا (تلك الغرانيق العلا) وفي الرواية الأولى قام رسول الله ﷺ فقال المشركون: إن ذكر آلهتنا بخير، فألقي في أمنيته ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ إنهن لفي الغرانيق العُلَا، وإن شفاعتهنّ لترتجى، هكذا متصلة بالآيتين القرآنيتين قبلها، وهذا يفيد أن النبي ﷺ قرأ هاتين الكلمتين الخبيثتين متصلتين بآيتي القرآن الكريم على أنهما قرآن أنزل به الوحي، واعتقد ذلك، ولم ينزل عليه جبريل لتصويب الوحي وإبطال ما عداه من كلام الزنادقة الأخبثين، وإنما نزلت الآية لتبين سنةً من سنن الله في أنبيائه ورسله، وتسليط الشيطان عليهم حتى يتقوَّلوا على الله ما لم يقله لهم، وفي الرواية الثانية التي زعم السيوطي ثقة رجال سندها أن ابن عباس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أفرأيتم اللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، هكذا متصلة بآيتي القرآن الحكيم قبلهما، وأن النبي ﷺ هو الذي قرأ ذلك فخلط بين ما نزل عليه الوحي، وبين ما لم ينزل به، وإنما هو من الكذب الخبيث، فالروايتان ـ موثوقة السند في زعم موثقيها، ومهملة التوثيق ـ متفقتان على التقوُّل على رسول الله ﷺ أنه قرأ آيتي القرآن الحكيم في ذم الأوثان، وتوبيخ الوثنيين المشركين، وأنه وصلهما بالكلمة الكاذبة الخبيثة في مدح الأوثان، وهذا

أكذب الكذب على رسول الله ﷺ، يتبوأ متقوله مقعده من النار، وقد خلَت الرواية الأولى من ذكـر مجيء جبريل عليه السلام لتنبيه النبي ﷺ على ما زُعم عليه أنه أدخل في كلام الله ما ليس منه، وتصحيح النص القرآني كما جاء في الرواية الثانية من أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ، وقال له: اقـرأ عليَّ مـا جئتك بـه، فقرأ عليـه آيتي الأوثان المـوبختين للمشركين، ووصلهما بما زعم من الكلمتين الخبيثتين في مدح الأوثان، فنبهه جبريل عليه السلام أنه ما جاءه بهاتين الكلمتين الكاذبتين، وبيَّن له أنهما ليستا من القرآن، وقال له: ما أتيتك بهذا، هذا من الشيطان.

وهذا كله يقتضي بداهة أن هذه الرواية الباطلة ـ كسابقتها ـ تنسب إلى سيد المرسلين محمد ﷺ أنه لم يميز بين كلام الله تعالى الحكيم المحكم، وكلام الشيطان الكذوب المضلِّل، وأنه ﷺ مكث على اعتقاد قرآنية كلام الشيطان حتى جاءه جبريل عليـه السلام فنبهـه وبيَّن لـه أنّ هذا من الشيطان، وهذا أبشع الافتراء على الله ورسوله، افتراء يهدم الرسالة من أساسها، والرواية الأولى مثل أختها في البطلان تقتضي ما اقتضته وتزيد عليها أنها خلت من تنبيه جبريل، فأي ثقة تبقى بعد ذلك في أي نص من آيات القرآن الحكيم المحكم؟ لأن الاحتمال قائم في كل نص، ولا سيما على الرواية الأولى حيث لا تنبيه من ملك الوحي على صحة النص المنزل من عند الله، ولو ذكر التنبيه لاحتمل، فلا يرفع المحذور.

الرواية الثالثة

قال السيوطي:

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه (بسند صحيح) عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فلما بلغ هذا الموضع ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهنَّ لتُرتجى، قالوا ـ أي المشركون الوثنيون ـ: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، ثم جاءه جبريل بعد ذلك قال: اعرض عليّ ما جئتك به، فلما بلغ: تلك الغرانيق العلا،

وإن شفاعتهن لترتجى، قال له جبريل: لم آتك بهذا، هذا من الشيطان.

وهذه الرواية التي يقول عنها السيوطي: إنها جاءت (بسندٍ صحيح) هي نفس الرواية التي ثبت فيها الشك في وصلها عن ابن عباس، ـ فيما يظهر ـ والشك ـ كما قدمنا ـ علة قادحة تمنع صحة الرواية، وهي مستلزمة ـ بداهة ـ أن الشيطان استولى على رسول الله ﷺ فألقى على لسانه هاتين الكلمتين الكاذبتين الخبيثتين في مدح الأوثان، بعد ذم القرآن لها، وتقريع عابديها من الوثنيين المشركين، وأنه ﷺ وهو المبلِّغ عن الله رسالاته لم يميز هذا البهتان الشيطاني من الكلام الإلهي، وتقوّل هذا يسلب رسول الله ﷺ أخص خصائصه البشرية أولاً ـ في معرفته بخصائص القرآن الحكيم الأسلوبية وحقائقه المعنوية وأهدافه في الهداية التي نزل لتوطيد دعائمها، كما يسلب عنه نعوت النبوة وحقيقتها وما يجب لها من عصمة من وجبت له منذ أول لحظة ثبوتها بالوحي من الله.

فما قيمة زعم (صحة السند) مع هذه الالزامات المكفِّرة؟ فهذه الرواية باطلة كاذبة فيما تقوِّلته على رسول الله ﷺ، ولا عبرة بصحة سندها ـ إذا ثبتت هذه الصحة كيف ودون صحة سندها تناول نجوم السماء بأكف المشلولين ـ إنها رواية ترفع الثقة عن آيات القرآن الحكيم، وتذهب بخصيصة إعجازه البياني الذي أدركه أجلاف العرب فسجدوا عند سماعه، إعظاماً لبلاغته، وهم لم يؤمنوا به فإذا كان رسول الله ﷺ وهو أفصح البشر، وأقوم الخلق بفهم إعجاز القرآن، وهو ﷺ القيِّم على تنزيله وتبليغه وحفظه من التحريف والتبديل، الحفيظ على نصه ونظم تأليفه، العليم بحقائقه وهدايته ـ لا يميز بين كلمات هذا الكتاب الحكيم وآياته، وبين غثاء الشياطين وافترائهم، فمن إذاً بقي من الخلق إنسهم وجنهم ومَلَكهم وراء ذلك ليحفظ على هذا الكتاب الحكيم المحكم مقوِّمات صدقه، ودلائل إعجازه، ومعرفة هديه وبراعة أسلوبه، وتميز معانيه وحقائقه؟.

وليست صحة السند ـ إذا سُلِّمت ـ دليلاً على صحة ما يروى من الشرائع والأحكام، ولا سيما ما يتعلق منها بالعقيدة، وإنما يكمن وراء

صحة السند صحة كاملة النظرُ الممحص في صحة المتن، واستقامة النص على نهج الهداية وموافقة أصول الرسالة الخاتمة الخالدة، ومعرفة ما للقرآن من قداسة توجب ألّا يقبل أسلوبه ونظمه، وحقائق هدايته، ومعانيه التشريعية أن يدخل فيه ما ليس منه، ولا أن ينقص من آياته أو كلمه أو حروفه ما هو منه، ومعرفة ما للنبي ﷺ من عصمة توجب ألّا يتقوَّل على الله شيئاً، لا سهواً ولا عمداً، أو يقبل أن يتقول على الله تعالى ما لم يقل، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا من باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾[1] وهذا تهديد مرعب بلغ ذروة الوعيد، والزجر على وقوع تقوُّل شيء - أي شيء على الله - والمراد منه تنزيه ساحة النبي ﷺ عن وقوع مثله، قطعاً لأطماع الكافرين الوثنيين الذين كانوا يُعنتون النبي ﷺ بمقترحاتهم العنادية، بغياً وعتواً، وفجوراً في الكفر والضلال.

الرواية الرابعة

قال السيوطي:

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن طريق العوفي عن ابن عباس أن النبي ﷺ بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب، فجعل يتلوها فسمعه المشركون فقالوا: إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير، فدَنوا منه، فبينما هو يتلوها، وهو يقول: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان: أن تلك الغرانيق العلا، منها الشفاعة ترتجى، فعلق يتلوها، فنزل جبريل فنسخها، ثم قال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾.

وهذه الرواية تحمل دلائل بطلانها وكذبها في كل كلمة من كلماتها، فهي قد جعلت وقوع أقصوصة الغرانيق في حال تلبس النبي ﷺ بالصلاة، وأن الشيطان تسلط عليه وألقى إليه كلمتي الكفر الفاجر وهو يصلي، وأنه ﷺ علق بهما يتلوهما في آيات القرآن في ذم آلهة الوثنيين وتوبيخهم على اتخاذ هذه الأوثان شركاء لله تعالى، معتقداً أن هذا الكلام المفترى في خبثه

(١) الحاقة آيات (٤٤ - ٤٥ - ٤٦).

وكذبه وظهور ضلاله قرآن منزل من عند الله، ولم يميز بين افتراء الشيطان، وكلام الله الحكيم العليم حتى نبهه جبريل بنسخ كلام الشيطان.

والتعبير بالنسخ هنا إمعان في التضليل، لوروده في قوله تعالى: ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ وهذا من الإيهام لحمل النسخ في الآية على إزالة ما ألقى الشيطان في قراءة النبي ﷺ بزعم أن الأمنية هي التلاوة والقراءة، وهو المعنى البعيد ـ إذا صح أن الأمنية استعملت فيه لغة ـ، وهو مما لا دليل عليه سوى بيت الشعر الفذ المنسوب إلى حسان بن ثابت، ثم إن هذه الرواية جاءت بالكلمتين الكاذبتين الخبيثتين في أسلوب مغاير لأسلوبهما في الروايات السابقة، مما يدل على الكذب والتضليل والاضطراب..

وكل ذلك يستلزم رفع الثقة بآيات القرآن الحكيم، ويسلب النبي ﷺ حسه ببلاغة وبراعة بيانه الذي يباين به كل كلام سواه، ويسلبه العصمة عن التقوُّل على الله تعالى ما لم يقل، مما يوجب بطلانها وكذبها، وأن القصة من وضع الزنادقة وخبثاء اليهود وملاحدة المنافقين، وفي سند هذه الرواية العوفي، وهو كما يقول عنه الحافظ ابن حجر: صدوق، يخطىء كثيراً، شيعي مدلِّس.

الرواية الخامسة

قال السيوطي:

وأخرج ابن مردويه عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وعن طريق أبي بكر الهذلي، وأيوب عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن طريق سليمان التيمي عمن حدثه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم وهو بمكة فأتى على هذه الآية: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه إنهنّ الغرانيق العلى، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك﴾ الآية، وهذه الرواية واهية السند في طريقها الأول لأنها تعتمد على الكلبي الكذاب، عن أبي صالح الذي صرح الكلبي بأن كل ما حدَّث به عنه فهو كذب، وأبو صالح الذي يروي عنه الكلبي، عن ابن عباس لم يرَ ابن عباس كما

يقول ابن حبَّان، وفي طريقها الثاني. تعتمد على من لم يُسَمَّ، وفي طريقها الثالث تعتمد على أبي بكر الهذلي، الذي قال عنه الحافظ ابن حجر في (تقريب التهذيب): إخباري متروك الحديث، وقرن أيوب به ـ ولو كان السختياني ـ لا يفيد، لأن الحافظ ابن حجر بعد أن ساق الرواية بطرقها الثلاث في (الفتح) قال: وكلُّها ضعيف أو منقطع، مما يدل على أن هذا الطريق لا يصلح للاحتجاج بروايته.

وإذ قد ثبت زيف سند هذه الرواية فمتنها منكر زائف، لأن فيه أن الشيطان تسلَّط على رسول الله ﷺ وألقى على لسانه كلماته الخبيثة الكاذبة، ولا شك أن هذا باطل، بل محال، لأنه يناقض مقصود النبوة، ويبطل العصمة التي هي دعامة الثقة فيما يبلِّغه الرسول عن الله تعالى.

الرواية السادسة

قال السيوطي:

أخرج عبد بن حُمَيد وابن جرير من طريق يونس عن ابن شهاب، حدثني أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ سورة النجم، فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ قال: إن شفاعتهن ترتجى، وسها رسول الله ﷺ ففرح المشركون بذلك، فقال: ألا إنما كان ذلك من الشيطان، فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلّا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ حتى بلغ ﴿عذاب يوم عقيم﴾ قال السيوطي: (مرسل صحيح الإسناد). وهذا التعقيب لن يخدع أحداً من أهل العلم راسخي الإيمان، المتفقهين في دين الله، فصحة الإسناد وحدها ليست جوازاً لمرور متن الحديث إلى ساحة القبول، والعمل به، واعتقاد معانيه، والإيمان بهذه المعاني التي يفيدها والحقائق التي يقتضيها.

والمتأمل في هذه الرواية نصاً وروحاً وسنداً يرى دلائل بطلانها تلوح على كل كلمة منها، فهي أولاً مرسلة السند، والإرسال ـ ولا سيما في العقائد ـ موطن ضعف، لا يقبل إلا في الاحكام الفرعية عند من يقول بقبول المرسل، فإذا تخطَّينا السند وجدنا هذه الرواية تُقوِّل النبي ﷺ أنه هو

الذي أدخل الكلمة الكاذبة الخبيثة ـ وهي إحدى كلمتين قامت عليهما الأقصوصة الزندقية ـ على كلام الله تعالى، ومزجها به على أنها منه وحياً من الله تعالى، إذ تقول: قال: إن شفاعتهن ترتجى، ثم تعتذر الرواية عن هذا التقول على رسول الله ﷺ فتقول: وسها رسول الله ﷺ، ولم تبين موطن السهو، هل كان قبل زعمهم أنـه قال: أو بعـده؟ ثم تقول: ففـرح المشركون بذلك، فقال: «ألا إنما كان ذلك من الشيطان» وهذا من أبطل الباطل، وأكذب الكذب، لأن النبي ﷺ يستحيل عليه ـ وهو المعصوم ـ أن يمدح الأوثان، ويُدخل هذا المدح في آيات القرآن، لأن مجرد مدح الأوثان أكفر الكفر، وأخبث الشرك، فضلاً عن جعل هذا المدح قرآناً أوحي إليه، لظهور مناقضة ذلك لأعظم مقاصد الرسالة، لأن النبي ﷺ لم يرسل إلا لاقتلاع جذور الوثنية، وإبطال الشرك بجميع ألوانه ومظاهره، فكيف يتقول على الله في وحيه وقرآنه أنه مدح الأوثان، وقال بُعَيد ذمها وتوبيخ عابديها: أن شفاعتهن ترتجى، وهذا كل ما يقوله المشركون من الكفر الذي جاءت رسالـة محمد ﷺ لهـدمه وإزالـة معالمه من الحياة.

فالمشركون الوثنيون لا يدّعون لآلهتهم الإحياء والإماتة، ولا الخلق والرزق، وأمثال ذلك من عظائم خواص الإلٓهية، وإنما يدَّعون أن أوثانهم تشفع لهم عند الله ، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، كما حكى القرآن عنهم ذلك في قوله: ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وفي قوله: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلْفى ﴾ ولا يحمي هذه الرواية الكاذبة الباطلة عن طرحها في هاوية الوضع الزندقي في الكذب قول راويها: وسَهَا رسول الله ﷺ؛ لأن السهو فيما يبلِّغه الرسول عن الله ولا سيما في أصل أصول الإيمان ـ لا يجوز ولا يقع قط من الرسول لأنه يناقض المقصود من تصديقه بالمعجزة، وهذه الرواية الباطلة تقوّل رسول الله ﷺ أنه قال عقب تلاوتـه مباشرةً قول الله تعالى في ذم الأوثان وتقريع عابديها من أحلاس الـوثنية وغثاء الشرك: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ أن شفاعتهن ترتجى، وأن المشركين سمعوا منه ذلك ففرحوا توهماً أنه مدح آلهتهم، وهذا التقويل لرسول الله ﷺ هو أفجر الكفر وأخبث الكذب، وأيضاً لا يحمي هذه

الرواية الباطلة من طرحها في هاوية الأكاذيب قول راويها: إن الرسول ﷺ قال ـ بعد أن رأى فرح المشركين بمدح أوثانهم ـ: ألا إنما ذلك كان من الشيطان، لأن مجرد نسبة التقويل إلى رسول الله ﷺ بأنه قال على الله ما لم يقل، بنسبة قول الكلمة الخبيثة إليه كفر صريح، يزلزل الثقة في آيات القرآن، ثم ما الذي يثبت أن ما قالوه على لسان رسول الله ﷺ: ألا إنما ذلك كان من الشيطان ليس من قبيل السهو أيضاً؟ وعند ذلك تبقى الكلمة الخبيثة من غير نفي، وترتفع الثقة في كل ما يقوله رسول الله ﷺ بعد ذلك. فهذه الرواية باطلة متكذِّبة على رغم ادعاء صحة سندها المرسل.

الرواية السابعة

قال السيوطي:

أخرج ابن أبي حاتم عن طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب، وأخرجه البيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة ولم يذكر ابن شهاب، وأخرجه الطبراني ـ في الكبير ـ عن عروة مثله سواء. واللفظ عن رواية ابن أبي حاتم التي صدَّر بها السيوطي قال: لما أنزلت سورة النجم كان المشركون يقولون، لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكن لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى، بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم، وتكذيبهم، وأحزنته ضلالتهم، فكان يتمنى كفّ أذاهم، فلما أنزل الله سورة والنجم قال: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت، فقال: وإنهن لَهُنَّ الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لَهي التي ترتجى، فكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلَقت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك، ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة، فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول

ولا نبي﴾ الآيات، فلما بين الله قضاءه، وبرَّأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم للمسلمين، واشتدوا عليه.

هذه الرواية لا يعنينا منها في البحث إلا ذكرها لأقصوصة الغرانيق الكاذبة الباطلة، وقد ذكرت أن النبي ﷺ لما أنزل الله عليه سورة النجم قرأ في آياتها قول الله تعالى موبخاً لعابدي الأوثان: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ وكان معروفاً عنه ﷺ بغضه للأصنام والأوثان، وتسفيه عقول عابديها من دون الله تعالى، فكان ذلك مما يباعد بينه وبين قومه لعتو كفرهم وعنادهم وتأبيهم عن الانقياد للحق والإيمان بما جاءهم به من الهدى والنور، وكان ﷺ شديد الحرص على إدخالهم في حظيرة الإيمان، يتمنى هدايتهم، وكفّ أذاهم عنه وعن أصحابه، فلما أنزل الله تعالى عليه سورة النجم، وفيها ذكر طواغيتهم قالت الرواية: ألقى الشيطان عندها ـ أي عند ذكرها مذمومة في آيات القرآن ـ كلمات فقال: وإنهن لهن الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى، قال راوي الأقصوصة: فكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وجرت بها ألسنتهم يلهجون بتردادها مستبشرين فرحين، وهذا يدل على أن الرواية تتقوَّل على رسول الله ﷺ أنه قرأها متصلة بآيتي ذم الأوثان والطواغيت ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فتوهم أحلاس الوثنية أنها قرآن نزل به الوحي على رسول الله ﷺ، ففرحوا وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول؛ ودين قومه ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ـ وفشت كلمة الشيطان الخبيثة الفاجرة في أهل مكة، وأظهرها الشيطان وذاعت حتى بلغت أرض الحبشة، وبلغ المسلمين المهاجرين الأولين إلى الحبشة أن قومهم استجابوا للإيمان وهدأ ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وكانت الفتنة قد أطلّت برأسها في أرض الحبشة، ورأى المسلمون المهاجرون أن ينجوا بأنفسهم من شر هذه الفتنة التي وقعت بين ملك الحبشة وشعبه، وشجعهم ذيوع كذبة إيمان قومهم، وكفهم أيديهم عن أذى رسول الله ﷺ وأذى أصحابه، فتحملوا للعودة إلى وطنهم وعشائرهم، حتى بلغ منهم من بلغ مكة، أو قريباً منها،

فوضحت لهم الحقيقة وأن إيمان قومهم أكذوبة نفخ الشيطان فيها فترامت إليهم، ووجدوا قومهم على أشد مما كانوا فجوراً وكفراً وإيذاء لرسول الله ﷺ ولأصحابه، فدخل من دخل مكة في جوار، ولكن المشركين زادوا شراً واستشرى الإيذاء ولا سيما للوافدين من الحبشة، فتسللوا عائدين إلى مهاجرهم وصحبهم وتبعهم كثير من أهل الإيمان من أبناء قريش وغيرهم حتى كانوا في الحبشة جمعاً أخاف قريشاً، فأرسلت خلفهم رسلها لتردهم إليها، ولكن النجاشي أبى عليهم ذلك وسمع من المسلمين القرآن وآمن وآمن معه بطاركته ورهبانه وكثير من قومه، وراسل النبي ﷺ بإيمانه وهداياه، وفتح الله تعالى باب الهجرة إلى المدينة، فكانت نصراً وفتحاً مبيناً، أيّد الله بها دينه وأعزّ نبيه ﷺ والمؤمنين، وعاد مهاجرو الحبشة آمنين مطمئنين إلى الله وإلى رسوله فوجدوا الفتح والنصر يستقبلهم.

وهذه الرواية الكاذبة الباطلة تتفق مع أخواتها من الروايات الكاذبات في أن الشيطان استحوذ على النبي ﷺ وألقى إليه عند ذكر الطواغيت هاتين الكلمتين الخبيثتين، وأن النبي ﷺ تلاهما عقب آيتي ذم الأوثان مُدْخِلاً إياهما في وحي القرآن، وسمعهما المشركون وفرحوا وتباشروا. وتزيد هذه الرواية الباطلة على كذب أخواتها في التقوُّل على رسول الله ﷺ أنه كان على دين قومه من الشرك والوثنية - وحاشاه ﷺ - فهو الطاهر المطهَّر الذي لم يعرف عنه قط في حياته منذ ولد إلى أن شرفه الله تعالى بنبوته ورسالته أنه كان على دين قومه من الشرك والوثنية، ولا عرف عنه قط أنه مالأ قومه في شيء من عقائدهم الفاسدة الباطلة وعاداتهم الوثنية المستقبحة، بل الذي عرف عنه ﷺ واشتهر به أنه كان أبعد الناس من عقائد قومه وعاداتهم الجاهلية، وأنه اعتزلهم واعتزل محافلهم ومواسم أعيادهم، فلم يحضر لهم مشهداً، ولم يكثِّر لهم سواداً، وانفرد عنهم بنشأته الطاهرة المطهَّرة، التي لم يقارف فيها إثماً جاهلياً، في عقيدة أو خُلق أو سلوك، وقد اشتهر بين قومه بالصادق الأمين حتى بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين.

الرواية الثامنة

قال السيوطي:

أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن محمد بن كعب، ومحمد ابن قيس قالا: جلس رسول الله ﷺ في ناد من أندية قريش كثير أهلُه فتمنى[1] يومئذ ألاّ يأتيه من الله شيء، فيتفرقوا عنه، فأنزل الله عليه ﴿والنجم إذا هوى﴾ فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان عندها كلمتين: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم - أي النبي ﷺ - بها، ثم مضى فقرأ السورة كلها، ثم سجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعاً معه ورضوا بما تكلم به، فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فقال رسول الله ﷺ: «افتريتُ على الله، وقلتُ ما لم يقل» فأوحى الله إليه: ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إلى قوله ﴿نصيراً﴾ فما زال مغموماً مهموماً من شأن الكلمتين حتى نزلت ﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ الآية، فسُرِّي عنه وطابت نفسه.

هذه الرواية تخالف في سياقها وأسلوبها ما سبقها من الروايات بَيْدَ أنها تشتمل على ما اشتمل عليه غيرها من الروايات الكاذبة الباطلة، فهي تقول: إن النبي ﷺ جلس في ناد من أندية قريش، وهو حافل بطواغيتهم من عتاة الكفر، وأحلاس الوثنية والشرك، فتمنى ﷺ راغباً إلى ربه ألاّ يأتيه منه شيء ينفرهم عنه، ويزيد التباعد بينه وبينهم لحرصه ﷺ على إيمانهم، لما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة لعموم الخلق، فأنزل الله تعالى عليه سورة ﴿والنجم إذا هوى﴾ وفيها الحفاوة به ﷺ، وتعظيم شأنه وشأن ما ينزل عليه من الهدى والرحمة، ليظهر للمعاندين من طغاة الشرك أنه ﷺ إنما يدعو إلى الله بوحيه، ويبلغ رسالته بأمره، وأن ما يدعون من دون الله إشراكاً به سبحانه إنما هو ضلال بيّن، وشرك فاجر، لا يقره عقل، ولا نزل به من الله سلطان فقرأ عليهم ﷺ ما نزل عليه من آيات

---

(١) هل تحتمل (تمنى) هنا معنى (قرأ - أو تلا). لا، ولكن معناها أحب واشتهى، فلماذا تحمل كلمة تمنى في قوله تعالى: ﴿إذا تمنى﴾ على معنى (قرأ - أو تلا)؟

هذه السورة حتى بلغ قوله جلّ شأنه: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان الكلمتين الفاجرتين في مدح أصنامهم، فتكلم بهما رسول الله ﷺ.

وهنا يقف القلم مدهوشاً مذهولاً متسائلاً: كيف كانت استجابة الله تعالى لتمني نبيه وحبيبه، وشدة حرصه على إيمان قومه وألا يأتيه من ربه ما ينفرهم عنه، ويباعد بينه وبينهم من شدائد الوحي بتسفيه أحلامهم، وتحقير آلهتهم بهذه الصورة الكافرة الفاجرة الغريبة التي لا يمكن توقعها؟ هذا من أمحل المحل وأبطل الباطل؛ لأن النبي ﷺ اشتهى موقفاً سلبياً ورغب في هدنة تمكنه ﷺ من أن يجد من قومه أنساً إليه، يستمعون إلى ما جاءهم به من الهدى والنور، عسى أن يكون في ذلك وسيلة إلى انفتاح قلوبهم وعقولهم لينظروا ويتأملوا وهم في مهلة من الإثارة والاستفزاز.

كان الموقف يتطلب أن يجاب تمني النبي ﷺ واشتهائه عدم تنفيرهم من سماع الحق الذي أرسل به، بأن لا ينزل عليه من شدائد الوحي ما يزيد التنافر والتباعد، لا أن يجاب بتسليط الشيطان عليه وتخلّي العناية الإلٓهية عنه، فيقرئه الشيطان في ثنايا وحي الله إليه كلمات كافرة فاجرة، تمدح الأوثان، وتهدم أصل ما جاء به من التوحيد، وتجعل تلك الأوثان مرجوة الشفاعة، وهذا هو كفر المشركين الذي جاءت الرسالة لهدم بنيانه، واستئصال شأفته من الوجود.

لكن هذه الرواية الكاذبة الباطلة لا تستحي أن تقول: أن الشيطان ألقى الكلمتين الخبيثتين، وأن النبي ﷺ تكلم بهما في ثنايا ما أوحي إليه من آيات ربه في تحقير هذه الأوثان، وتسفيه أحلام عابديها، والعاكفين عليها من سفهاء المتعاقلين ومردة الوثنية على أنهما قرآن نزل إليه، ووحي من الله أتى إليه، دون أن تبدو منه ﷺ أية بادرة في إنكار هاتين الكلمتين الفاجرتين، بل مضى يتلوها مع آيات السورة حتى ختمها ثم سجد وسجد القوم جميعاً معه، ورضي الكافرون بما تكلم به من هاتين الكلمتين الفاجرتين، الخبيثتين، وفرحوا إذْ رأوا في ذلك أن محمداً ﷺ يمدح آلهتهم ويثبت لها شفاعة لهم، وهذا أقصى ما كانوا يتطلعون إليه ويرجونه من إبطال

رسالة محمد ﷺ، وتدعيم الشرك والوثنية.

ومضى من الزمن والله تعالى أعلم بقدره، والنبي ﷺ - في زعم هذه الأخلوقة - على اعتقاد أن هاتين الكلمتين مما أنزل الله عليه في وحيه بآيات القرآن الحكيم، ولم يتنبه ﷺ، لا من سياق الكلام، ولا سيما في معنى الكلمتين، الشيطانيتين من كفر وفجور حتى جاءه ملك الوحي جبريل عليه السلام، واستقرأه ما جاءه به من آيات السورة فقرأ ﷺ حتى بلغ الكلمتين الشيطانيتين، وقرأهما على أنهما مما نزل عليه من وحي الله تعالى، وعندئذ قال له جبريل: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فأخِذ النبي ﷺ وأصابه ما أصابه من هول الصدمة - فيما تزعم هذه الأبطولة - وقال يؤنب نفسه ويلومها افتريتُ على الله، وقلت ما لم يقل، وهذا التصوير الروائي الكذوب يقتضي - بداهة - أن النبي ﷺ وهو القيِّم على كتاب الله تعالى، وفهم مقاصده وأحكامه، وأسلوبه وبراعة بيانه واتساق نظمه، وبلوغه في استقامة معانيه الذروة، لم يفرق بين كلام الله تعالى المعجز بهدايته وحقائقه ومعانيه، وأسلوب نظمه واتساق سياق آياته وبراعة بيانه وتمييز مقاصده، وبين كلام الشيطان في كفره وفجوره، وإفساده وإضلاله، وهلهلة تلفيقاته، وأنه ﷺ مضى في السورة - وهي ليست من قصار السور في القرآن - يقرؤها ويقرأ مع آياتها هذا الغثاء الأحوى، والعصف المطروح في مساقط أقدام الشرك الوضيع، فلم يميز بين ما هو مدح للأوثان في هاتين الكلمتين الفاجرتين الكاذبتين، وبين ما هو ذم لها وتوبيخ لعابديها، وتقريع للعاكفين عليها في سياق الآيات وسباقها ولواحقها في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذاً قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ فكيف استقام عقلاً، وذوقاً، أن يأتي مدح الأوثان بما هو أعلا مقاصد مدحها - في نظر عابديها من المشركين - وبين ما هو ذمها وتوبيخ متخذيها آلهة؟ وكيف استقام عقلاً ومعرفة بحياة محمد ﷺ وبلوغه قمة الفصاحة والبلاغة أن يتوهم في حقه كإنسان عربي قرشي، تربى في أفصح قبائل العرب أن يتقبل ذوقه البياني إدخال هذه الهلهلة بين أوسق الكلام

فصاحة وأبرعه بلاغة، ويلبِّس عليه أنها منه بسبيل؟.

هذا هو الباطل المنفوش الذي لا يستقيم على قبوله وتصديقه عقل أقل الناس حظاً من التعقل، ولا يستقيم به ذوق أحط الناس تذوقاً للكلام ونسقه وباتساق نظمه؟ فكيف استقام لدى عقل وذوق سيد العقلاء، وأذوق الذائقين لبلاغة الكلام وبراعة البيان محمد ﷺ، حتى أدخل عليه بين آيات القرآن الحكيم المحكم ـ فيما تزعمه هذه الأكذوبة ـ هاتان الكلمتان الزريتان بعقل العقلاء اللتان ألقاهما الشيطان في قراءته حين أقرأه جبريل أمين الوحي سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾؟.

ثم تمعن هذه الرواية في خوض غمرات الباطل ممتطية أوهام الأكاذيب فتقول: إن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ بعد أن كشف له جبريل عليه السلام أنه ما جاءه بهاتين الكلمتين الكافرتين، وأنه ﷺ تنبه بتنبيه جبريل له فجعل يلوم نفسه لوماً شديداً، واستولى عليه الغم والحزن لما وقع منه ـ في زعم هذه الأبطولة ـ ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتريَ علينا غيره وإذاً لاتَّخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾.

وهذا افتراء على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ، لأن قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبَّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ صريح في تبرئة ساحته ﷺ عن مقاربة الركون إليهم فضلاً عن وقوع الركون، لأن جواب (لولا) يقتضي إذا كان مثبتاً ـ كما هنا ـ امتناع وقوعه لوقوع شرطه، أي يستلزم عدم وجوده لوجود شرطه، فمقاربة الركون إليهم لم تقع منه ﷺ، ولا شُمَّت رائحة الوجود الخارجي، فضلاً عن وجود الركون ذاته، لأنه ﷺ مقطوع بعصمته عن ذلك بإجماع عقلاء المسلمين.

قال الزمخشري في كشّافه: ولولا أن ثبتناك وعصمناك لقد كدت تركن إليهم، أي لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له، وفضل تثبيت.

وقال أبو حيان: في بحره: إن ابن عباس رضي الله عنه قال في تفسير الآية: كان الرسول ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه.

وقال البيضاوي في أنواره: والمعنى أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم، لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم، مع قوة الدواعي إليها عندهم.

هذه أفهام حذّاق أهل القرآن في تفسير آياته، وهي نماذج لما وراءها وما قبلها مما لم نذكره، ولكن البُلْه الذين يتكثرون بالروايات، ولا يعقلون ما يصح أن يقال منها وما لم يصح أن يُروى، لا ترتفع مداركهم إلى منازل حماة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ المعصوم، بل هم في شغل عن فقه الحقائق بتجميع الروايات.

ألا سأل هؤلاء المتكثرون في الروايات أنفسهم: كيف يصح في عقول العقلاء ما حرفت به هذه الرواية الباطلة الكاذبة من تقوّلها أن رسول الله ﷺ أدخل بهتان الكلمتين الخبيثتين اللتين ألقاهما الشيطان في آيات القرآن الحكيم، وأنه ﷺ قرأهما على أنهما من آيات الله المنزلة عليه، ومضى في قراءة السورة حتى ختمها وسجد من كان موجوداً معه حين قراءتها، واستمر على اعتقاد أنهما من آيات السورة المنزلة من عند الله حتى نبهه جبريل أنه لم يأته بهما، فاغتم رسول الله ﷺ وحزن، وجعل يلوم نفسه، وأنه قال على الله ما لم يقل؟ ثم تنزل هذه الآيات الثلاث المبرئة لساحته، المنزهة عن التقوُّل على الله لتخبر أنه ﷺ قد عصمه الله تعالى عن قرب الركون إلى المشركين؟.

وهل أبلغ في الركون إلى هؤلاء المشركين مما تقوّلته هذه الرواية المختلقة من أنه ﷺ قبل ما ألقاه الشيطان من مدح آلهة المشركين وأوثانهم، وتكلم به، وظل على اعتقاد أن هذا المدح الكفور لأوثان المشركين كان مما أنزل عليه من آيات السورة حتى أخبره جبريل أنه لم يجئه بهاتين الكلمتين الشيطانيتين.

فالله تعالى يخبر عن رسوله ﷺ أنه لم يفتن لحظة واحدة عن الذي أوحاه الله إليه من آياته، وأنه سبحانه وتعالى ثبّته بالعصمة عن مقاربة الركون إليهم، فضلاً عن وقوع الركون نفسه، والرواية الكاذبة تتقوّل عليه ﷺ أنه ركن إلى مدح أوثانهم وتكلم به، وظل على اعتقاده زمناً لم يكن بالقصير في مناسبته، حتى كشف له جبريل عليه السلام ما كان خافياً عليه من التلبيس والتضليل، سبحانك هذا بهتان عظيم؟؟ إن هذا لهو الضلال المبين والافتراء المفتَرى والكذب المختلق، والإلحاد المتزندق.

الرواية التاسعة

قال السيوطي:

وأخرج ابن جرير عن الضحاك أن النبي ﷺ وهو بمكة أنزل عليه في آلهة العرب، فجعل يتلو اللاّت والعزّى، ويكثر ترديدها فسمعه أهل مكة وهو يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك، ودنّوا يسمعون، فألقى الشيطان في تلاوته، تلك الغرانيق العلا، منها الشفاعة ترتجى، فقرأها النبي ﷺ كذلك فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾.

هذه رواية تنادي على نفسها بالتهافت وضعة الأسلوب، فهي رواية مخترقة زائفة، مخرقة الإهاب، ممزقة الأديم، مشوهة المعالم، ليس لها نسق أعجمي، ولا نظم عربي، أرأيت إلى قولها: أنزل عليه في آلهة العرب، تأمل لتعرف أن هذا كلام مبرسم، لا ينطق به إلا الممخرقون، ثم تأمل قول هذه الرواية المتهافتة: فجعل يتلو اللاّت والعزّى، ويكثر ترديدها، فسمعه أهل مكة وهو يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك ودنوا يسمعون.

أما أن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه في شأن آلهة العرب وأصنامهم وأوثانهم ذماً وتسفيهاً، وتقبيحاً وبياناً لضلال عابديها، فهذا ما أفعمت به جميع السور المكية، ولم تكن سورة النجم من أول ما أنزل منها، فلا وجه لهذا القول وتخصيص سورة النجم به، وأما قول الرواية المتهافتة: فجعل يتلو اللاّت والعزّى فما يُدْرَى ما تقصد الرواية بهذه التلاوة، فهل تقصد إلى أن النبي ﷺ جعل يردد على أسماع سامعيه من ملأ قريش وغيرهم اسمَيْ الصنمين اللاّت والعزّى هكذا أفراداً لا إخبار فيه، يقصد إلى الإفادة،

وهل هذا يسمى تلاوة؟ وهل هذا النحو من ترديد الأسماء مفردة، ولا سيما أسماء الأوثان والأصنام يفعله عاقل، فضلاً عن أعقل العقلاء، سيد المرسلين، محمد ﷺ؟ أو تقصد الرواية المتهافتة أنه ﷺ جعل يتلو الآيات التي يذكر فيها اللات والعزى ويرددها ليُسْمع المشركين ما فيها من إزراء على عقولهم وتسفيه لأحلامهم، وذم لأوثانهم، وإذاً فما الذي أفرح المشركين، وجعلهم يدنون منه ﷺ ليسمعوا ما يقول في آلهتهم وقد سمعوا منه قبل هذا ما ضاقوا به ذرعاً؟.

وهل كان إلقاء الشيطان كلمتيه الخبيثتين في مدح الأوثان، وأنها مرجوة الشفاعة لعابديها قبل فرحهم بما سمعوا من ذكر آلهتهم بما يكرهون من ذمها أو بعد هذا الفرح؟ وتفريع الرواية المتهافتة في أسلوبها المهلهل يشعر بأن فرحهم كان قبل إلقاء الشيطان لكفرياته.

ثم تقول هذه الرواية المتهافتة متكشفة عن عوارها وعارها: فقرأها النبي ﷺ ـ أي فِرْية الزندقة على لسان الشيطان ـ كذلك ـ أي كما ألقاها الشيطان ـ فجعلها رسول الله ﷺ قرآناً، فأنزل الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾. أفٍ لهذه العقول السقيمة التي لا تعي ما يخرج من خرائب إلحادها وزندقتها... محمد سيد المرسلين، وأفصح العالمين يقرأ كلام الشيطان وهو أكفر الكفر، وأفجر الفجور، على أنه قرآن نزل إليه فيما نزل من وحي الله إليه فيدخله تلبيساً عليه في القرآن.

هذا أسخف ما جاء به المبطلون، وأتفه ما تقوّله المتقولون، وليس هو من الباطل الكذوب فحسب، ولكنه من وضيع السخف السخيف، ولا يمكن أن يقبله أو يروج إلا على البُلْه المغفلين.

الرواية العاشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم بسند صحيح ـ كما يقول السيوطي ـ عن أبي العالية قال: قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو ذكرتَ آلهتنا في قولك قعدنا معك، فإنه ليس معك إلا أراذل الناس وضعفائهم،

فكانوا إذا رأونا عندك تحدث الناس بذلك، فأتوك، فقام يصلي، فقرأ والنجم حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثـالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق العلى، وشفاعتهن ترتضى، ومثلهن لا ينسى، فلما فرغ من ختم السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون، فبلغ الحبشة أن الناس قد أسلموا فشق ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾.

هذه الرواية صريحة في بطلان الأكذوبة البلهاء، أكذوبة الغرانيق، رغم دعوى صحـة إسناد إرسالها إلى أبي العالية الذي ألصقت به، وهي تنادي على نفسها بالوضع والتكذب، وضعها أعداء الإسلام من الزنادقة الخبثاء والمنافقين الجبناء، ليفتنوا بها ضعفاء العقول ذوي الإيمان الهش عن دينهم، ويشككوهم في عقيدتهم ورسالة نبيهم ﷺ، ويحرفوا كتابهم الحكيم المحكم الذي شهد له الله تعالى بأنه كتاب حكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، فقبلها وأمثـالها من الأكـذوبات بُلَهـاء الرواة من المتكثرين الجمّاعين لغثاء الأقاصيص، دون نظر يكشف ما فيها من زيف ملحد، وضلال كفور.

وأي ضلال أضلّ من التقـوُّل على سيـد المرسلين، محمـد خاتم النبيين ﷺ بأنه لُبِّس عليه فلم يميز بين كلام الله الحكيم وترهات الشيطان الرجيم، فيدخل في قراءته سورة النجم وهو واقف بين يدي الله يصلِّي، ويتلو من آيات القرآن ما ذم الله به الأوثان والأصنام، ويوبِّخ المشركين على اتخاذها آلهة تشفع لهم عند الله ـ كلاماً خبيثاً فاجراً كفـوراً تمـدَّح به الأوثان والأصنام التي ذمها الله تعالى في الآيات نفسها التي قرأها رسول الله ﷺ من سورة النجم وهو قائم يصلِّي، فتتقوّل هذه الرواية البلهاء عليه ﷺ بأنه أتبع آيات ذم الأوثان بهذيان تمدح به، وأنها مرجوة الشفاعة مرضيتها، وأن مثلهن لا ينسى لما لها من المكانة والزلفى ـــ في زعم عابديها ـ فالشيطان في هذه الرواية ـ صحيحة الإسناد في إرسالها إلى راويها ـ لم يلقِ كلامه الكفور عند قراءة النبي ﷺ ـ كما في الروايات التي منع رواتها

الحياء من هذا التقوُّل ـ وإنما افتجرت هذه الرواية أكذوبة أخرى في داخل الأكـذوبة الكبـرى، زاعمة أن النبي ﷺ هـو الذي ألحق هـذا الكلام الكذوب الملحد بآيات الله تعالى التي قرأها وهو يصلي، فتقوَّلت أنه ﷺ قرأ والنجم حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثـالثة الأخرى﴾ تلك الغرانيق... الخ هذا الهراء السخيف، وقد تطوعت هذه الرواية الفاجرة فأخرجت الشيطان من مثوى الفجور والكذب، فلم تذكره ـ كغيرها من روايات الأكذوبة ـ بأنه هو الذي ألقى في قراءة النبي ﷺ هذه الكلمات الفاجرات ـ ولكنها جعلت النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ هو الذي أدخلها في آيات الله تعالى، وقرأها على أنها قرآن منزل عليه، وقد أبت هذه الرواية الباطلة التي صُحح سند إرسالها إلا أن تمعن في الكذب، فزادت على غيرها من روايات الأقصوصة الغرنوقية كلمة لم تذكر في رواية قط، وهي قـول واضعيها من الزنادقة، ومثلهم ـ أي الأوثـان ـ لا ينسى، وهي كلمة مضحكة عابثة، لا معنى لها ـ حتى في زعم الزنادقة ـ وكأن الرواية لما لم تجعل هذا الكـلام الخبيث من إلقاء الشيـطان، بل جعلتـه من إلحاق النبي ﷺ، لم تشأ أن تحافظ على النص الخبيث في سائر الروايات، بل غيَّرته وجعلته (وشفاعتهم ترتضى) (ومثلهن لا ينسى)، والكذب ليس له سياج ولا لأصحابه حياء، إنهم يكذبون إلحاداً في آيات الله، لا يبـالـون أقالوا معقولاً أم معلولاً؟.

وأي إلحاد أكفر كفراً، وأفجر فجوراً من هذا التقوُّل الخبيث الذي يجعل من سيد الخلق محمد ﷺ أداة تتلعب برسالته وتعبث بأصل أصول هدايته؟ وتجعل من القرآن العظيم دستور هذه الرسالة الخاتمة لرسالات السماء معبثة للملحدين الزنادقة، يدخلون في آياته ما يناقض هدايته أشد المناقضة، ويفسد أسلوبه أشد الإفساد؟.

هذه الرواية التي يصحح الرواة سند إرسالها إلى أحد أئمة المحدِّثين هي أبشع فيما اشتملت عليه من تقوُّل من سائر سابقاتها، وقد تمطَّت في تعرجاتها، واستطالت في سيرها على ألسنة الأكـاذيب التي بلغ صداهـا

الحبشة، لتُلْقَى إلى المهاجرين الأولين أكذوبة أخرى تستنزلهم بها عن استقرارهم وأمنهم على أنفسهم ودينهم في هجرتهم، وتزعم لهم أن الناس في مكة قد أسلموا، وصفا الجو، فما بقاؤكم بعيدين مشردين عن وطنكم وأهلكم وعشائركم، فلتعودوا إليهم لتروا لعنات الشيطان تتساقط عليهم، وتسعر نيران فجورهم وكفرهم ويشتد أوارها على من بقي وراءكم من إخوانكم المؤمنين مع رسول الله ﷺ يشدون أزره، ويحتملون في سبيل عقيدتهم وإيمانهم صنوف الأذى والبلاء صابرين محتسبين.

وعاد المهاجرون الأولون، وهم قلة معدودة ميمِّمين شطر وطنهم، ولكنهم لم يكادوا يقربون من مكة حتى سمعوا قعقعة فوادح البلاء والأذى تزمجر فوق رؤوس إخوانهم المؤمنين، ودخلوا مكة يدفعهم الحنين إلى الأهل والولد والوطن، واستقبلهم الطغاة من قومهم، يتداولونهم بأنواع التعذيب، يصبُّونها عليهم صبًّا، وأيقنوا كذب ما صرخ به الشيطان بينهم من إسلام مشركي مكة، فتحينوا الفرص ليعودوا إلى مأمنهم في هجرتهم، وعادوا واستقروا، ولحق بهم جماعات كثيرة لم يكونوا قد هاجروا معهم هجرتهم الأولى، حتى نصر الله دينه ونبيه وعباده المؤمنين، وأذلّ الشيطان وشِرْكه، ودَحَر الكفر وحزبه، حتى كانت عودة جميع المهاجرين من أصحاب الهجرتين عودة ظافرة في ظل العزة الإسلامية والنصر المؤزر للإسلام والمسلمين.

وهذه الرواية هي الثانية من بين الروايات التي عرضنا لذكرها، تذكر بلوغ الخبر الكاذب أرض الحبشة مما كان سبباً في زعم الروايات لعودة المهاجرين الأولين، وهو سبب يكاد يجمع عليه رواة الأبطولة الغرنوقية، وقد سبقت هذه الرواية في ذكر بلوغ الخبر الكاذب الحبشة رواية ابن أبي حاتم عن طريق موسى بن عقبة.

وعودة المهاجرين الأولين من الحبشة إلى مكة حقيقة تاريخية، بيد أن ربطها بأكذوبة الغرانيق هو أكذوبة أخرى، أما السبب الحقيقي لعودة مهاجري الهجرة الأولى من الحبشة إلى مكة، وهو ما وقع في الحبشة من

الهرج والمرج، واشتعال نيران الفتن بين الشعب والملك في قصة ساقها ابن إسحاق عن طريق أم سلمة رضي الله عنها، فخاف المسلمون المهاجرون أن ينالهم من وراء ذلك سوء، يذهب بأمنهم واستقرارهم، فرحلوا عائدين إلى وطنهم، موطنين أنفسهم على تحمُّل ما يلقونه فيه من أذى الأهل والعشيرة في سبيل عقيدتهم ودينهم، حتى إذا استوثق الأمر للنجاشي في بلده وانجلت عن الحبشة سحائب الفتنة عاد المسلمون إلى الهجرة وهاجر معهم أضعاف أعدادهم، وكانوا دعاة لدينهم، مبلِّغين رسالة نبيهم ﷺ، ناشرين لدعوة الحق والهدى والنور.

الرواية الحادية عشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، قال: نزلت سورة النجم بمكة فقالت قريش: يا محمد إنه يجالسك الفقراء والمساكين، ويأتيك الناس من أقطار الأرض، فإن ذكرت آلهتنا بخير جالسناك، فقرأ رسول الله ﷺ سورة والنجم، فلما أتى على هذه الآية ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه: وهي الغرانيق العُلَى، شفاعتهن ترتجى، فلما فرغ من السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون إلا أبا أحيحة سعيد بن العاص، فإنه أخذ كفاً من تراب فسجد عليها، وقال: قد آن لابن أبي كبشة أن يذكر آلهتنا بخير، فبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا بالحبشة أن قريشاً قد أسلمت، فأرادوا أن يقبلوا، واشتد على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ما ألقى الشيطان على لسانه، فأنزل الله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ الآية...

هذه الرواية هي الرواية السابقة سنداً وتخريجاً، وإلصاقاً بأبي العالية، فهي مثل سابقتها من إخراج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، ولكنها تختلف مع سابقتها في سياق الأكذوبة، فالرواية السابقة تقوَّلت على النبي ﷺ أنه هو الذي أدخل الكلمتين الفاجرتين، مباشرة ـ في آيات القرآن، وهو يصلي، ولم يأتِ فيها للشيطان ذكر بأنه هو الذي ألقى

على لسان النبي ﷺ ما ألقى من الكفر.

وهذا الصنيع أدخلٍ في الزندقة والإلحاد، لأن كون النبي ﷺ، وهو واقف بين يدي ربه يصلّي، ويقرأ ما نزل عليه من آيات القرآن الحكيم يدخل في قراءته هذا الكلام الفاجر الكفور - ويمضي يقرأ فلا يتنبه إلى ما وقع من الطامة الكبرى حتى يختم السورة ويسجد في آخرها، ويشاركه في هذا السجود المشركون، لا تفسير له إلا أنه ﷺ سلب خصائص رسالته، بل بشريته، فلم يدر - وحاشاه ﷺ - الكفر من الإيمان، ولم يدر ما نزل عليه من وحي ربه في ذم الأوثان والأصنام، مما لم ينزل عليه من مدحها، وتحقيق رغائب عابديها في شفاعتها لهم، وزادت فتقوَّلت أن نص الكلام الكفور فيه ما ليس في غيره من الروايات فقالت: ومثلهن لا ينسى، وإن شفاعتهن ترتضى، وفي الرواية الأولى ربط الأكذوبة بالحبشة، وعودة مهاجريها الأولين، وفيها نص من صاحب (الدر) على صحة سندها إرسالاً إلى أبي العالية.

ولا يُدرى هل الروايتان رواية واحدة، دخلها التزيد والتصرف والاختلاق الملفَّق، فحكى واضع القصة هنا نسقاً ونصاً، وذكر هناك نسقاً ونصاً ليضلل ويخدع، أو أن الروايتين هما روايتان منفصلتان ألصقتا بأبي العالية دون علم من واضع إحدى الروايتين بأن القصة محمولة على أبي العالية، فوقع التكرار والاختلاق الكذوب.

ويؤكد هذا الاتجاه أن الرواية الأولى ذكر فيها السيوطي أنها صحيحة السند، مع أن السند لم يختلف في الروايتين، فلماذا ترك السيوطي النص على صحة السند في الرواية الثانية؟.

كما لا يُدرى لماذا ساق السيوطي في (الدر) هذه الرواية عقب الرواية السابقة مباشرة؟ ولعله رأى تعدد الرواية عن أبي العالية لاختلاف السياق والنص، وهذا يحمل في طياته أن أبا العالية حُمل الإسناد إليه في الروايتين، وهو منه بريء.

وكيفما يكن الأمر فهذه الرواية ظاهرة الفساد والبطلان، لأنها كغيرها

من روايات الأكذوبة البلهاء تتقول على النبي ﷺ بأن الشيطان لبَّس عليه، وألقى على لسانه أقبح الكفر في سجع سمج، وأنه ﷺ انطلى عليه ذلك، وقرأه معتقداً أنه من وحي الله، وأنه من آياته المنزلة عليه ﷺ في سورة النجم، وأنه ﷺ مضى في تلاوة السورة بعد إدخال هذا الفجور في آياتها حتى ختمها وسجد في آخرها، وسجد معه المسلمون والمشركون. وتزيد هذه الرواية في الأكذوبة أن أحد طواغيت الشرك وأحلاس الوثنية (أبا أحيحة) أبى أن يسجد استكباراً، وأخذ كفاً من تراب رفعه إلى وجهه وسجد عليه، وقال ينبذ النبي ﷺ بالألقاب: لقد آن لابن أبي كبشة ـ يعني محمداً رسول الله ﷺ ـ أن يذكر آلهتنا بخير.

ولم تكشف هذه الرواية الكاذبة متى تنبه النبي ﷺ إلى ما ألقاه الشيطان على لسانه من البهتان، ولم تذكر هذه الرواية ما ذكره غيرها من مجيء جبريل إليه ﷺ وتبيينه له أن هذا الكلام الخبيث ليس مما جاءه به، وعندئذ تنبه النبي ﷺ واشتد عليه وعلى أصحابه الأمر حتى طيَّب الله قلبه فأنزل عليه ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ الآية، وهذا الاضطراب ما يؤكد بطلانها.

الرواية الثانية عشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي عند المقام إذْ نعس، فألقى الشيطان على لسانه كلمة فتكلم بها، وتعلق بها المشركون عليه، وقال: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه ونعس: (إن شفاعتهن لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلى) فحفظها المشركون وأخبرهم الشيطان أن نبي الله ﷺ قد قرأها، فذلَّت بها ألسنتهم فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾، الآية، فدحر الله الشيطان ولقن نبيه حجته.

هذه رواية مهلهلة النسج، ممزقة الأديم، كذوبة المعنى، خبيثة المبنى، كافرة الهدف، تنادي على واضعها بتفاهة التعقل، وضحالة التفكير، فهي

تقول: بينا رسول الله ﷺ يصلِّي عند المقام إذ نعس، وهـذا معناه أن النعاس هجم عليه ﷺ وهو في حالة صلاة والنعاس ضرب من النوم، يُذهب الإحساس والشعور، فكيف يتصور وقوع ذلك من رسول الله ﷺ، في مطلع الدعوة واشتداد أزمتها، وهو ﷺ يناجي ربه في الصلاة؟.

وتقول الرواية عقب ذلك مباشرة: فألقى الشيطان على لسانه كلمة، فتكلم بها، وظاهر أسلوب الرواية يقتضي أن الشيطان ألقى كلمته على لسانه ﷺ وهو ناعس نائم، وأن النبي ﷺ تكلم بتلك الكلمة وهو ناعس نائم، وإلى هنا لم تذكر الرواية كلمة الشيطان التي ألقـاها عـلى لسان النبي ﷺ وتكلم بها، لكن الرواية تقول: وتعلق بها المشركون عليه وهذا يفيد أنها ألقيت وسمعت، وأن المشركين سمعوها وتعلَّقوا بها على رسول الله ﷺ، ثم تأتي الرواية فتقول: فقال ـ أي رسول الله ﷺ ـ : ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ثم تقول الرواية ـ المهلهلة ـ فألقى الشيطان على لسانه ونعس ـ وهذا قد تقدم في الرواية ـ (وإن شفاعتهن لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلى) وهذا نص في كلمة الشيطان مغاير لكل ما ورد في الروايات الأخرى، إذ فيه تقديم رجاوة شفاعة الأوثان عـلى وصفها بالغرانقة العلى، وفيه تغيير في هذا الوصف إذْ قيل فيه وإنها لمع الغرانيق العلى، والمذكور في الروايات الأخرى تلك هي الغرانقة العلى، فهذه الهلهلة الأسلوبية في سياق كلمة الشيطان المزعومة دليل على اضطراب النسج في وضع الأكذوبة البلهاء.

ثم تعود الرواية ـ المهلهلة ـ فتقول: فحفظها المشركون، وأخبرهم الشيطان أن النبي ﷺ قد قرأها فذلت بها ألسنتهم، وما قيمة هذه الطنطنة في إعادة ذلك، والإخبار بأن المشركين حفظوا الكلمة الشيطانية الفاجرة، وأن ألسنتهم زلَّت بها؟ أفكان متصوراً أن تعثر هذه الكلمة الكافرة على حفظ المشركين؟ أو كان من المتعاصى عليهم أن تلوكها ألسنتهم وترددها حتى يقال: ذلَّت بها ألسنتهم؟ ولكن الكذوب لحوح لجوج.

ثم لا يستحي الأبله المخدوع مختلق هذه الرواية أن يجعـل هذه

الرواية معبثة، فتقول: فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ الآية. فدحر الله الشيطان، ولقن نبيه حجته، فأين دحر الشيطان والرواية تقول: أنه ألقى على لسان النبي ﷺ كلمته الفاجرة، وأنه ﷺ قرأها، وأن المشركين فرحوا بها وتعلقوا بها. وأين هي الحجة التي لقنها الله تعالى نبيه ﷺ؟ أهي في زعمهم إنزال آية ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ والآية ـ على زعمهم ـ في تفسير الأمنية بالتلاوة تفيد أن جميع أنبياء الله ورسله سلط عليهم الشيطان، فألقى في تبليغهم رسالات ربهم الأكاذيب المكفرة الناقضة لأصل تلك الرسالات الإلٰهية؟.

الرواية الثالثة عشرة

قال السيوطي:

أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: قرأ رسول الله ﷺ ذات يوم ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذن قسمة ضِيزَى﴾ فألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ: تلك إذن في الغرانيق العلى، تلك إذن شفاعة ترتجى، ففزع رسول الله ﷺ، وجزع، فأوحى الله إليه ﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً ﴾ ثم أوحى إليه ففُرج عنه: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾.

هذه الرواية غريبة جداً في تلفيقها وتكذّبها، وهلهلة نسجها الذي يهوي بها إلى سحيق البطلان والبهتان، فليس لها بناء أسلوبي متماسك، وهي ـ كما ترى ـ قد أبعدت النجعة، وأوغلت في الخيال مخالفة سائر روايات الأخلوقة الغرنوقية، حيث وضعت كلمات الشيطان المزعومة في مكان من نصها القلق المضطرب، ينبو عنها، وتنبو عنه، لأن جميع الروايات في كذبها وبطلانها تضع كلمات الشيطان الكافرة عقب قول الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ وهذه الرواية المهلهلة وضعت كلمات الشيطان بعد ذلك بآيتين، هما قوله تعالى في تأكيد توبيخ

المشـركين، وتقـريعهم: ﴿ ألكم الذكـر ولـه الأنثى * تلك إذن قسمـة ضِيزَى ﴾ وهذا الوضع يدل على جهالة جاهلة، وبلاهة بلهاء.

وإذا كان وضع كلمات الشيطان المزعومة شديد النفرة في وضعه في سائر الروايات الكاذبة بعد قوله تعالى: ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لما يبدو فيه من قلق واضطراب ونفرة، فهو في وضعه في هذه الرواية الباطلة بعد قوله تعـالى: ﴿ تلك إذن قسمة ضِيـزَى ﴾ أشد نفـرة وقلقاً واضطراباً، لأن الكلمتين الخبيثتين قد يخدع بهما لأول وهلة نظرٌ غفول مغفَّل من ذوي البَله المغررين في وضعهما بعد ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لأن التقريع في قوله تعـالى: ﴿ أفرأيتم الـلّات والعزّى ﴾ المفهـوم من الاستفهام الإنكـاري المستفتـح به فعل الاستخبار الساخر من المخاطبين المشركين ﴿ أفرأيتم ﴾ لم يستوف مؤدّاه الذي يمنع الإيهام أن يلج إلى ساحته، وقد يعمد مأفون الفكر إلى تجريده من معناه البياني في إطار البلاغة القرآنية وينقله إلى معنى سوقي عامي، فيزعم له أنه مجرد استعلام، وحينئذ يأتي وضع الكلمتين الخبيثتين متسقاً خادعاً، وإن كان هذا الإيهام لا استقـرار له عند النظر الجائل في رياض البراعة البيانية، فهو سرعان ما يذهب بدداً ويتبدد ذهاباً مع قاصفات النظر الناقد الممحص.

أما وضع كلمات الشيطان الفاجرة ـ كما جاءت في هذه الرواية المهلهلة بعد قوله تعالى: ﴿ ألكم الذكر ولـه الأنثى * تلك إذن قسمة ضِيزىَ ﴾ فهو وضع غبي جهول، يدل على أن واضعه ـ على زنـدقته وإلحاده ـ لم يشم رائحة نظم الكلام واتساق نسقه، وهو من ضعف التفكير ومهانة الرأي، ووهن المعرفة بأساليب الكلام وبراعة البيان واتساق النظم في الكلام المستقيم، فضلاً عن الكلام البليغ المعجز بمكان الإنعام بمحافل عباقرة البيان.

ذلك لأن التقريع المؤدي بهمزة الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿ أفرأيتم اللّات والعزّى ﴾ قد تأكد ورفع عنه احتمال الإيهام في إرادة مجرد الاستخبار عند أول النظر، وتعيّن لما سبق له من الإنكار المقرع المجبه

بقوله تعالى الذي أعيد فيه الاستفهام الإنكاري بأداته نفسها: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ ثم بتسجيل أقبح الظلم عليهم ودمغهم به في الإخبار المعقب للاستفهام الموبخ ﴿تلك إذن قسمة ضِيزَى﴾ وحينئذ لا يلتئم في عقل قط أن يجيء بعد هذا ذلك الكلام الخبيث في مدح الأوثان وجعلها شفعاء ترتجى أو ترضى شفاعتها لما في ذلك من الكفر البواح، ولما فيه من موافقة المشركين على اعتقادهم، تلك الموافقة المتناقضة مع تقريعهم وتوبيخهم على اعتقاد أن هذه الأوثان شفعاؤهم عند الله.

ومن ثَمَّ كان سياق هذه الرواية المهلهلة عنوان كذبها وبطلانها، وبلاهة واضعيها من الزنادقة الملحدين ـ ولو رُكِّب لها ألف سند بآلاف الأسماء اللامعة بهالات الإكبار.

ولا معنى لهذا البيان التحليلي لأن نقف عند إقحام الرواية المهلهلة أن رسول الله ﷺ فزع وجزع، إذْ لا فزع ولا جزع، لأنه لا يوجد سبب للفزع والجزع، ولا معنى لإقحام قوله تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ لأنه لا مناسبة له إلا على حمل زندقي كفور، محال أن يجري على لسان مسلم في رواية محكمة النسج، صادقة التعبير، ذلك الحمل هو أن يكون القرآن العظيم قد جاء بتصديق المشركين في اعتقادهم أن هذه الأوثان والأصنام التي وصفها الشيطان في كلمته الخبيثة بأنها شفعاء لعابديها عند الله ملائكة تشفع لهم، ثم تناقض مع نفسه فرد عليهم بأن كثيراً من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً، وخص بذلك من في السموات ليكون ذلك أبلغ في ردع هؤلاء المشركين وإبطال اعتقادهم في زعم أن أوثانهم ملائكة تشفع لهم.

ثم تنتهي هذه الرواية الكاذبة بعد هذا التلفيق والهلهلة إلى ما انتهت إليه سائر أخواتها بالكذب والاختلاق، من أن الله تعالى أنزل قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ ليفرج عن النبي ﷺ ما نزل به من الهم والغم لتقوّله على الله ـ في زعم الرواية الباطلة ـ ما لم يقل،

وهذا تلبيس وخداع فاجر لتغطية عوار الكذب الذي جاءت به الـرواية كغيرها من روايات الأكذوبة الغرنوقية البلهاء.

الرواية الرابعة عشرة

قال السيوطي:

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: خرج النبي ﷺ إلى المسجد ليصلي، فبينما هو يقرأ إذ قال: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه، فقال: تلك الغرانقة العُلى، وإن شفاعتهن ترتجى، حتى إذا بلغ آخر السورة سجد وسجد أصحابه، وسجد المشركون لذكره آلهتهم، فلما رفع رأسه حملوه فاشتدوا به بين قطري مكة، يقولون نبي بني عبد مناف، حتى إذا جاءه جبريل عرض عليه، فقرأ ذينك الحرفين، فقال جبريل: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا؟؟؟، فاشتد عليه، فأنزل الله يطيب نفسه ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ الآيات.

ليت القلم الذي أرغم على حكاية هذا الغثاء العفن في عرض هذه الروايات المهلهلة الباطلة في أكذوبة الغرانيق البلهاء ـ مستغفراً باكياً ـ يتأتى له أن يضحك في غمرة الأسى والحزن على ضياع عقول الذين فقدوا خصائص إنسانيتهم، فهرفوا بكل متهافت سقيم من الـروايات إرضـاء لعواطف الحقد الأسود، الذي أفعمت به قلوبهم المريضة، شنفاً لهذا الدين القيِّم، دين الإسلام القويم، الذي أرسل به سيد المرسلين وإمام المتقين، محمد الأمين ﷺ.

وليت هذا القلم يستطيـع أن يربِّت عـلى أكتاف البُله المغفَّلين، المتكثرين من تلقف كل سواء في روايات داحضة من كل من هبَّ ودبّ، إشفاقاً عليهم من هول ما اجترحوا، وإشفاقاً على عقولهم التي قبلت هذه الروايات الباطلة، فسوَّدوا بسوادها بيـاض غفلتهم لسلامـة صدورهم، ليت، وليت!!.

بيد أن الأمر أمر عقيدة وإيمان، وأمر دين وإسلام، وأمر أمة تنتشر في أقطار الأرض وفي أدمغتها توقير وقداسة لناقلي روايات عقيدتها وشرائع

دينها، بل هو أمر هداية هادية منجية من عذاب الله، أو ضلالة ضالة مضلَّة، موبقة، أو أمر عقول عاقلة تفقه ما تقول وما يقال لها، أو أمر نزغات شيطانية عاتية، تطغى على الفكر فتفسده، أو أمر كتاب أنزله الله بالحق وللحق على رسول، ختم الله برسالته رسالات السماء، فعصمه أن يتقوَّل عليه شيئاً يبهت به كمال إلهيته.

فلا مكان للأضاحيك الماجنة، ولا محل فيه للمجانة العابثة، ولا مواضع للمجاملة والمداهنة، ولا سبيل فيه لمراعاة فلان وفلان، أو إغضاء عن هيان بن بيان، فهو جدٌّ كله، لا يقبل الهذل والهذيان، ولا هجر القول والخرافات، ولا تلج إلى ساحته الأساطير والأبطولات، ولا يُرضى بالسكوت عن المساس بأصوله الإيمانية، ولو كان ذلك المساس مغلفاً بأغلفة تحريف التأويل والإدهان، أو هالات الأسماء وطنطنة الأتباع.

هذه الرواية الممسوخة أكثر روايات الأكذوبة الغرنوقية البلهاء المتهاوية عبثاً وتلاعباً صبيانياً وتفاهة فكرية، فهي من أغرب روايات الأخلوقة الكاذبة، فيما جاءت به من الحركة البهلوانية المضحكة المبكية، السخيفة المستسخفة، التي لم تعرفها قط المجتمعات إذ ذاك، والتي لا تصدقها عقول الأطفال العابثين فضلاً عن الرجال العقلاء العالمين.

والسُّدي صاحبها وحامل لواء إرسالها، والمتولي كِبْر إسنادها إليه، قد قال فيه أئمة الجرح كلمتهم الفاصلة، وإليها المرجع والمصير إذا صح الحمل عليه، ونحن لا نعتقد أن أحداً من أهل العلم في الإسلام روى شيئاً أي شيء من أكذوبة الغرانيق البلهاء الفجور، وإنما حُمِل عليهم هذا الكذب زوراً وبهتاً لهم ليخدع به ذوو البله والغفلة المتكثرون.

يقول السُّدِّي ـ فيما تزعم هذه الرواية ـ: إن النبي ﷺ خرج ليصلي في المسجد، فبينما هو يقرأ (أي في الصلاة طبعاً) إذ قال: ﴿أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه كلمتيه الخبيثتين، ومضى رسول الله ﷺ في قراءته حتى بلغ آخر السورة، ولم يتنبه قط لما أدخل عليه الشيطان في قراءته لآيات القرآن من سورة النجم، ولما ختم

السورة وهو مكذوب عليه، ملبِّس في أمر قراءته سجد وسجد أصحابه، وسجد المشركون لذكر آلهتهم، وهذا معناه ـ بداهة ـ أن المشركين سمعوا ذكر آلهتهم والثناء على أوثانهم وأصنامهم فسجدوا لذلك، وهم متنبهون لذكر آلهتهم ومدحها والثناء عليها بأنها شفعاؤهم عند الله، والنبي ﷺ لم يتنبه لذلك، واستمر على اعتقاده أن الذي أدخله عليه الشيطان من مدح آلهة المشركين قرآن منزل عليه من عند الله حتى نبهه جبريل عليه السلام حين أتاه وعرض عليه ما جاءه به من آيات القرآن، فقرأ النبي ﷺ ـ فيما تزعم الرواية الكاذبة ـ الحرفين اللذين أدخلهما عليه الشيطان في العرض الذي عرضه على جبريل، وحينئذ قال له جبريل عليه السلام: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا، وحينئذ فقط تنبَّه النبي ﷺ إلى أنه تقوَّل على الله ما لم يقل، وما لم ينزل به عليه الوحي، وأنه أشرك الشيطان بإدخال كلامه في كلام الله تعالى، فاشتد عليه الأمر جداً، واغتم لذلك غماً شديداً، وهنا تقول الرواية الكاذبة: فأنزل الله عليه يطيب نفسه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ الآيات.

إلى هنا تكون هذه الرواية زائفة ماشية في خطا أخواتها الكاذبات الباطلات ومنعرجاتها، ولكنها لا ترضى أن تقف حيث وقفن، بل تقفز لتستأثر بموقف بهلواني مضحك سخيف، فتقول مستسخفة للعقول، مستخفة لعواطف الأغمار من جهلة الغوغاء وغوغاء الجهلة: فلما رفع رسول الله ﷺ ـ أي من الصلاة ـ حملوه وطاروا به مشتدين بين قطري مكة جيئة وروحة، يتنادون في بله وبلاهة، وطيش وعبث: هذا نبي بني عبد مناف؟! ولم تذكر الرواية شيئاً عن موقف النبي ﷺ من هذه الحركة البهلوانية، ولا شيئاً عن موقف عمومته، وهم يرونه مخطوفاً محمولاً على الأعناق، مطافاً به بين جنبات مكة فكيف أسلموه؟ ولم يستريبوا في هذه اللعبة البهلوانية الطائشة المريبة، وهم يعلمون أن محمداً ﷺ مطلوب لملأ قريش، ينتظرون به فرصة تمكِّنهم منه؟.

هذا لون من عبث الروايات الأسطورية المتكثرة، سقناه لا لنردّه، فهو مردود باطل، ولكن لأننا رأينا طائفة من أهل العلم تتشبث ببعض

هذه الروايات اغتراراً بكثرتها وتعدد أسانيدها، وتحاول تأويلها لتثبت أن لأقصوصة الغرنوقية أصلاً لا يجوز معه إنكارها وتكـذيبها، فهؤلاء هم الذين نقف معهم لئلا يخدع بكلامهم ومكانتهم من ليس له تعمق البحث ومعرفة الغث من السمين، والطيب من الخبيث، والرجس من الطاهر، والحق من الباطل.

إلى هنا نكتفي بهذا القدر من هذه الروايات التي ذكرناها، منقولة عن (الـدر المنثور) لجلال الدين السيوطيَ، ويشبه أن يكون السيوطي قد استوعب بها جميع أو أكثر ما جاء في أقصوصة الغرانيق الباطلة، والذي لم نذكره من الروايات ليس فيه ما يفوت ما ذكرناه، وقـد نبَّهنا في سـوق الروايات على ما نبه عليه السيوطي من صحة إسناد بعض الروايات إلى مرسلها، وليس فيها رواية قط متصلة الإسناد على وجه الصحة، ولم يذكر في جميع الروايات صحابي قط على وجه موثق، وما ذكر فيه باسم ابن عباس منها فكلها ضعيفة واهية خلا رواية سعيد بن جبير على الشك في إسنادها إلى الحبر ابن عباس، والشك يوهيها.

وسيأتي كلام الأئمة في تضعيف جميع روايات الأقصوصة من جهة السند، والبلاء كل البلاء، والطامة الكبرى في هذه القصة إنما يكمن في متونها، وأن هالات الإكبار التي أضفاهـا واضعـو الأكـذوبة عـلى بعض أسانيدها لا يغني عن زيف متونها في جميع رواياتها شيئاً، لأن الأسانيد طالما ركبها الوضاعون الكذابون، فأقحموا فيها بعض أهل العلم من الموثَّقين، لترويج متونها على البله المغفَّلين، وهذا كثيـراً معروف في كتب الجـرح والتعديل، قام به رجال صادقـو الإيمان، حـاذقو الفهم، مهـرة النقد، منحهم الله خصائص المعرفة في تمييز الأصيل من الدخيل، والغثّ من السمين، والحق من الباطل. وليس أحد سوى الأنبياء والمرسلين بمعصوم.

رأي الحافظ ابن حجر
في هذه الأكذوبة

عرض ابن حجر لأقصوصة الغـرانيق في الجزء الثـامن من (فتح الباري) بشرح صحيح البخاري عند قول المصنف: وقال ابن عباس في (إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته): إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته. قال ابن حجر: وصله ـ أي تفسير (تمنى) بحدّث ـ الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مقطعاً. قلنا: وعليّ بن أبي طلحة لم يلق ابن عباس ولم يأخذ عنه.

ثم قال ابن حجر في شرح قول البخاري: (ويقال: أمنيته، قراءته، إلا أماني يقرؤون ولا يكتبون) هو قول الفراء، قال: التمني التلاوة، قال ـ أي الفراء ـ: وقوله: لا يعلمون الكتاب إلا أماني، قال: الأماني: أن يفتعل الأحاديث، وكانت أحاديث يسمعونها من كبرائهم، وليست من كتاب الله، قال ـ أي الفرّاء ـ ومن شواهد ذلك قول الشاعر:

تمـــنّى كـتـــاب الله أول لـــيـلة　　تمنّي داوود الـزبـور عـلى رِسْـل

قال الفرّاء: والتمني حديث النفس، انتهى.

ثم قال ابن حجر: قال ابو جعفر النحاس في كتاب (معاني القرآن) له، بعد أن ساق رواية عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في تأويل الآية: هذا أحسن ما قيل في تأويل الآية، وأعلاه، وأجلُّه.

وتفسير ابن عباس في رواية البخاري (تمنى) بحدّث (وأمنيته) بحديثه أو قراءته مُعارض بحديثه عند عبد بن حُميد من طريق السُّدِّي ـ الكبير ـ

عن أبي صالح عن ابن عباس، إذ قال: إن أمنيته أن يسلم قومه، وهذا هو المعنى اللغوي المعروف المشهور لتفسير التمني والأمنية، فيتعين أنه المراد، وأن تفسير البخاري مؤول بحديث النفس، أي اشتهاء إسلام قومه، وإرادته، والرغبة فيه، وحبه، وحرصه على حصوله، فكان يحدث بذلك نفسه مشتهياً أن يراه محققاً، ويدل لهذا ما جاء في حديث محمد ابن كعب ومحمد بن قيس عند سعيد بن منصور وابن جرير، إذ قالا: جلس النبي ﷺ في نادٍ من أندية قريش كثيرٌ أهله، (فتمنى) يومئذ ألّا يأتيه شيء من الله ينفِّر قومه منه، فيتفرقوا عنه، فالتمني هنا صريح في أن المراد به رغبة النبي ﷺ واشتهاؤه ألّا ينزل عليه شيء ـ وهو في نادي القوم متمكن من دعوتهم وإسماعهم حجة الله وكلامه ـ ينفرهم منه.

وموقف البحث من كلام ابن حجر في معنى (التمني والأمنية) كما فهمه من صنيع الإمام البخاري يقتضينا أن نضع بين يدي أهل العلم ما يلفت نظرهم إلى ما فيه من احتمالات.

أولاً ـ إن رواية الإمام البخاري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ليست نصاً قاطعاً في تفسير التمني والأمنية بحديث اللسان بمعنى التلاوة والقراءة، لاحتمال أن يراد منه: إذا حدَّث ـ أي نفسه ـ برغائبه ومحابِّه واشتهائه إسلام قومه، كما جاء صريحاً عن ابن عباس في حديثه الذي أخرجه عبد بن حُمَيد عن طريق السُّدِّي عن أبي صالح، وفيه كما ساقه السيوطي في الدر فقال ابن عباس: إن أمنيته أن يسلم قومه.

ومعنى كلام ابن عباس في حديث ابن حميد يستلزم أن يرد المبهم في رواية البخاري إلى المفسر في رواية ابن حميد، وبهذا الرد يتوحد المعنى، وينتهي إلى أن معنى الآية أن الله تعالى يحكي أن من سنته مع أنبيائه ورسله وسنة هؤلاء الأنبياء والرسل في تبليغ رسالاتهم وإراداتهم إيمان من أرسلوا إليهم، وحبهم تحقيق هذا الإيمان وشدة حرصهم عليه، إنهم يحدثون أنفسهم برغائبهم في هداية أقوامهم متمنين أن يهديهم الله إلى

الإيمان، وأن الشيطان يضع العراقيل والمعوِّقات في طريق هداية أولئك الأقوام، ويلقي الشبه والأضاليل والشكوك بوسوسته في قلوبهم وتفكيرهم ليصدَّهم عن تقبُّل الإيمان والهداية والاستجابة إلى الله ورسله، وهذه هي أمنيات الأنبياء ورغائبهم، ولكن الله تعالى يبدد شبه الشيطان وأضاليله، ويزيلها بما يفتح في قلوب من يرد الله هدايته من سبل الهداية ويحكم آياته ودلائل هدايته في أنفس المهتدين بحكمته وواسع علمه ومحكم تدبيره.

ويدلّ على قيام هذا الاحتمال في تأويل كلام البخاري لحديث ابن عباس، بل ترجيحه أن البخاري رحمه الله حكى بُعيْده بصيغة التمريض والاستضعاف القول الذي يفيد بنصه أن معنى أمنيته قراءته، فقال: ويقال: أمنيته قراءته، وهذا ذكره البخاري في مقابل القول الأول الذي يحتمل التأويل بحديث النفس ليرجع الكلام في معنى التمني والأمنية إلى نهج موحَّد.

ثانياً ـ أن تفسير الفرّاء التمني بالتلاوة ـ كما صرح به ابن حجر ـ إنما هو تفسير بما هو بصلة من المعنى اللغوي الوضعي للتمني وما تصرف منه، وليس بياناً لمعنى لغوي وضعي، ويدلّ لذلك ما ساقه ابن منظور في (لسان العرب) من قول أبي منصور: والتلاوة سميت أمنية لأن تالي القرآن إذا مر بآية رحمة تمناها ـ أي رغب فيها ـ وأحب أن تكون، وإذا مرَّ بآية عذاب تمنى أن يوقَّاه ـ أي أحب أن يجعل الله بينه وبين هذا العذاب وقاية فلا يلحقه منه شيء.

فالمعنى الوضعي اللغوي الحقيقي للتمني والأمنية هو محبة الشيء والرغبة في حصوله، وتشهِّي وقوعه. وهذا المعنى المعروف المستعمل في كلام العرب المتداول في كلامهم شعراً ونثراً.

أما تفسير التمني بالتلاوة والقراءة على أنها معنى وضعي حقيقي فلم يعرف له شاهد قط إلا هذا البيت الفذّ من الشعر الذي تناقله الخلف عن السلف من الزاعمين أن معنى التمني التلاوة والقراءة، وبيت الشعر الذي اعتمد عليه أولئك الزاعمون منسوب في بعض الكتب إلى حسان ابن

ثابت، يقولون إنه قاله في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه: وهو قوله في زعم الزاعمين:

تمنَّى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

وابن منظور ساق هذا البيت، وقال: إنه في مرثية عثمان، ولم يسمِّ قائله، حساناً أو غيره، ثم قال ابن منظور: والتمني التلاوة، وتمنى إذا تلا وقرأ، ثم قال: وقال آخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة تمني داوود الزبور على رِسْل

وهذا استشهاد لا تثبت به المعاني اللغوية الحقيقية للألفاظ وإلا فكيف تعرف العرب في لغتها هذا المعنى - التلاوة والقراءة - للتمني وما تصرّف منه، ثم لا يوجد في كلامها شعرها ونثرها شواهد سوى هذا البيت الذي تلاعب به متلاعب فجعله بيتين، بتغيير شطره الثاني بكلام لا يكاد يلتئم مع شطره الأول، إلا بمجرد إرادة التلاوة من التمني في شطري البيت.

وقصائد حسان رضي الله عنه في رثاء عثمان مشكوك في نسبتها إليه لأن حساناً قد بلغ إذ ثورة الأشرار على عثمان من الكبر عتياً، فيبعد - كما يقول المتشككون، ومنهم بروكلمن في كتابه (تاريخ الأدب العربي) - أن تكون قدرة حسان الشعرية على هذه القوة التي تجلَّت في هذه القصائد على وتيرتها في الإجادة كما كانت أيام عنفوانه ونضجه عن النبي ﷺ، ورده على تهاجي الشعراء من قريش واليهود.

وقد ساق ابن منظور في (اللسان) شواهد من الحديث والآثار وكلام أئمة اللغة تدل على أن معنى (التمني والأمنية) هو الإرادة والمحبة والرغبة في حصول الشيء واشتهاء وقوعه، فقال: والتمني سؤال الرب في الحوائج، وفي الحديث «إذا تمنى أحدكم فليستكثر فإنما يسأل ربه»، قال ابن الأثير: التمنِّي اشتهاء حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون.

ثم نقل ابن منظور عن أبي بكر بن دريد صاحب الجمهرة قوله: تمنيت الشيء قدرته وأحببت أن يصير إليّ، ثم قال: قال الجوهري: وتمنَّى الشيء أراده... وتمنى الكتاب قرأه وكتبه، وهذا النص من إمام اللغة الجوهري صريح أن معنى التمني عند الإطلاق هو الإرادة والمحبة، ولا يستعمل بمعنى القراءة والتلاوة إلا مضافاً للكتاب.

فقول ابن منظور بعد ذلك: وفي التنزيل العزيز ﴿ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي قرأ وتلا، لا يتمشى مع نقله معنى التمني مطلقاً ومقيداً، ثم ساق البيت الفذّ المنسوب لحسان بن ثابت، والتمني في البيت مقيد (تمنى كتاب الله) وقال: والتمني التلاوة، وتمنى إذا تلا القرآن، ثم ذكر البيت الثاني غير منسوب، وفيه تقييد التمني بالكتاب.

والخلاصة أن تفسير البخاري التمني بما نقله عن ابن عباس غير ملزم لتعين تفسير (التمني) في الآية بالتلاوة والقراءة، وهو التفسير الذي كان مفتاحاً لباب اختلاق أكذوبة الغرانيق، وما اشتملت عليه من طامات وبلايا، لأن التمني جاء في الآية مطلقاً عن قيد الإضافة إلى الكتاب، فلم يذكر له مفعول قيد به، وتفسيره - كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري - بحدّث محتمل أن يكون معناه حدَّث نفسه برغبته واشتهائه هداية قومه، وهذا الاحتمال يتفق مع معنى (التمني) في تفسير ابن عباس عند ابن حميد فيجب المصير إليه، لأنه تفسير لغوي لا يرد. وبهذا البيان يظهر ألا وجه لما زعمه ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان) إذ قال: ومنها أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته. قال ابن القيم: والسلف (كلهم) - عجيب - على أن المعنى (تلا) ألقى الشيطان في تلاوته ثم ساق البيت الفذ، ولم ينسبه لحسان أو غيره.

زعم ابن القيِّم في قوله: إن السلف كلهم على معنى (تمنى) تلا مجازفة يعوزها التحقيق

تمـنَّى كتـاب الله أول لـيـلة ... وآخـره لاقـى حمـام المقـادر

فأين السلف (كلهم) - يا سدنة العلم - الذين هم على أن المعنى في الآية (تمنى) أي تلا، وأمنيته تلاوته! وابن القيم لم يذكر واحداً من السلف الذين زعم عليهم (كلهم) أنهم يقولون: أن معنى (تمنى) في الآية (تلا).

والسلف هم أمة الإسلام كلها في القرون الخيِّرة الثلاثة: الصحابة والتابعون وأتباع التابعين، والذي ذكره البخاري عن ابن عباس فقط قد عرفتَ وجهه ووجوب ردِّه إلى قوله الصريح في حديثه عند عبد بن حميد من قوله: أمنيته أن يسلم قومه.

ولعل ابن القيم أراد بالسلف (كلهم) الذين أسندت إليهم مراسيل أكذوبة الغرانيق من بعض المحدِّثين والرواة، وقد عرفنا سبيل هذه الروايات الباطلة الكاذبة، وحسن الظن بأهل العلم وحَمَلَة الرواية في الإسلام يجعلنا نجزم ببراءتهم من تلك الروايات الباطلة، وأنها حُملت عليهم حملاً لا يرضونه ولا يقولون بما حُمِّلوه.

* * *

وقد دلف ابن حجر من أبواب هذه الروايات الباطلة إلى موقف في قصة الغرانيق كان حرياً به في فضله وغزارة علمه بالروايات أن لا يُرَى فيه، ذلك أنه لم يكد ينتهي من تصريف معنى التمني والأمنيةتصريفاً انتهى به إلى الوقوف عند قول ابن عباس في سياق البخاري: (إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته) إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه - حتى أقحم أقصوصة الغرانيق التي لم يتعرض لها الإمام البخاري من قريب أو بعيد، إقحاماً يشعر بأنه يريد أن يقول شيئاً في موضوع يتحين له الفرصة، ولو على متن أبعد المناسبات، ولو أن الحافظ ابن حجر أهمل أقصوصة الغرانيق فلم يذكرها في فتحه، ما أحسّ أحد قط أن (الفتح) نقص شيئاً يجب أن يقال في شرح الجامع الصحيح للإمام البخاري، ولكن الحافظ ابن حجر رأى - وهو النحرير في روايات الحديث - أن الأقصوصة الغرنوقية احتلت في كتب الحديث ودواوين التفسير والسيرة النبوية مكاناً جدلياً كثر فيه الجذب والشد؛ فلا يستقيم في شرعة الصنعة الحديثية أن يخلو منها مؤلف عظيم في شرح أعظم كتاب في رواية الحديث مثل (الفتح) في شرح جامع الإمام البخاري.

وقد يُلتمس حسنُ الظن بفضل الحافظ ابن حجر عذراً له في إقحامه

هذه الأقصوصة الباطلة باعترافه ولجوئه إلى التأويل لما وقع فيها مما يستنكر، لاستحالة وقوعه من النبي ﷺ لمكان العصمة منه - أن الإمام البخاري ذكر تفسير ابن عباس للتمني في قوله تعالى: ﴿إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ قال: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه، ويقال: أمنيته قراءته.

فلعل الحافظ توهَّم أن البخاري يشير بهذا التفسير للفظ (التمني) ولفظ (الأمنية) إلى ما جاء في مراسيل القصة مما يتلاءم مع هذا التفسير، ولما كان البخاري لا يقيم وزناً للحديث المرسل في الاحتجاج به ولم يعرِّج على شيء من مراسيل القصة، ولم يشر إلى ذكرها قط، لأنها لم تثبت عنده في حديث صحيح على طريقته ونهجه في جامعه، والذي جاء عنها مسنداً إلى ابن عباس في حديث سعيد بن جبير دخله الشك في إسناده إلى ابن عباس من قول سعيد (فيما أحسب)، فلا تقوم به حجة لضعفه بهذا الشك.

وقد يشير إلى هذا في التماس العذر للحافظ ابن حجر لإقحامه أقصوصة الغرانيق في (الفتح) دون أن تدعو إليها ضرورة ملحة في فهم شيء يتوقف على ذكرها اعتماده على حديث سعيد بن جبير المتصل عن ابن عباس - وهو صاحب التفسير الذي ساقه البخاري في بيان معنى (التمني والأمنية) في آية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ - إذْ يقول الحافظ: وعلى تأويل ابن عباس هذا يحمل ما جاء عن سعيد بن جبير، وقد أخرجه ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة، عن أبي بشر عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة ﴿والنجم﴾ فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لترتجى: فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، ونزلت الآية، قلنا: وقد عرفنا أن لابن عباس رضي الله عنهما تأويلاً آخر في معنى (التمني) وهو تأويل صريح لا يحتمل غير ظاهر معناه، وهو التأويل الذي جاء في حديث عبد بن حميد في أول رواية ساقها السيوطي (في الدر) وتأويل ابن عباس هذا الذي حمل عليه ابن حجر حديث سعيد بن جبير

في قصة الغرانيق محتمل التأويل ـ كما حررناه ـ فلا وجه لحمل حديث سعيد بن جبير على أحد تأويلي ابن عباس لمعنى (التمني) وإهمال الآخر سوى أن هذا التأويل الذي فسر (التمني) بالتلاوة مَعْبر إلى قصة الغرانيق، فإن احتج لهذا التأويل بأنه من رواية البخاري، وهي أصح من كل رواية غيرها، قلنا: لا نعارض في ترجيح رواية البخاري على غيرها عند الإطلاق، لكن إذا لاح مرجِّح لغير رواية البخاري على روايته فقد وجب المصير إليها، وهنا ترجح رواية عبد بن حميد عن ابن عباس في تفسير (أمنيته) أن يسلم قومه بعدم الاحتمال لغير هذا المعنى الظاهر مع وجود الاحتمال في رواية البخاري بأن قوله: (تمنى إذا حدَّث) أي حدَّث نفسه باشتهائه إسلام قومه، وهذا المعنى هو ما ورد في حديث عبد بن حُمَيد، ولا شك أن ما لا يحتمل أولى وأحق مما يحتمل، فيجب حمل ما يحتمل التأويل على ما لا يحتمله.

ثم راح الحافظ ابن حجر يذكر مَنْ خرَّج حديث سعيد بن جبير، فقال: وقد أخرجه البزار، وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة، فقال في إسناده ـ أي الذي دخله الشك في وصله بابن عباس ـ: قال البزار تفرَّد بوصله أمية بن خالد ـ وهو ثقة مشهور ـ وقد عرفتَ أن ثقة أمية بن خالد وشهرته لا تفيد شيئاً مع التصريح بالشك في وصله بابن عباس في قول سعيد بن جبير: فيما أحسب ـ ولو أن الحافظ ابن حجر وقف عند حديث سعيد بن جبير الموصول عن طريق الثقة أمية بن خالد بابن عباس ـ مع الشك ـ في هذا الوصل لكان له بعض التعلق بما اعتذرنا به عنه؛ ولكنه مضى يسوق روايات واهية في مراسيل قصة الغرانيق، فقال بعد سوقه لكلام البزار في أن حديث ابن جبير لا يروى متصلاً إلا بالإسناد الذي تفرد فيه بوصله الثقة المشهور أمية بن خالد.

ثم قال ابن حجر: قال البزار وإنما يروى هذا ـ أي غير موصول ـ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. انتهى كلام البزار. ثم قال ابن حجر: والكلبي متروك، ولا يعتمد عليه، وقد أخرجه

النحّاس بسند آخر فيه الواقدي، وهو ضعيف، وذكره ابن إسحاق مطوّلاً، وأسنده عن محمد بن كعب، وكذلك عن موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب الزهري، وكذا ذكره أبو معشر في السيرة له، عن محمد ابن كعب القرظي ومحمد بن قيس، وأورده من طريقه الطبري، وأورده ابن أبي حاتم عن طريق أسباط عن السُّدِّي، ورواه ابن مردويه عن طريق عبَّاد ابن صهيب عن يحيى بن كثير، عن الكلبي، عن أبي صالح، وعن أبي بكر الهذلي وأيوب عن عكرمة، وسليمان التيمي عمَّن حدثه، ثلاثتهم عن ابن عباس، وأوردها ـ أي قصة الغرانيق ـ الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس.

قال الحافظ ابن حجر: ومعناهم كلهم واحد في ذلك، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير، إمَّا ضعيف، أو منقطع ـ أي فلا يحتج به هذا حكم صريح ـ إذا ضُمَّ إليه ما جاء من الشك في وصل حديث سعيد ابن جبير، وهو شك لا يبقي شيئاً يعتمد عليه في قبوله، يقطع بوهي ووهن أقصوصة الغرانقة الباطلة.

وهي قصة تتعلق بالعقيدة من جوانب مختلفة كل جانب منها يتطلب نصاً قاطعاً لا يكفي في أعلا درجاته إلا التواتر القاطع في اللفظ والمعنى وفي أدنى مراتبه الصحية المتفق عليها في حديث متصل إسناداً إلى النبي ﷺ، وهو في هذا الموضوع أمر متفق عليه بين جميع طوائف العلماء من المفسرين والمحدثين.

هذه القصة الخبيثة
تنسف العقيدة الإسلامية من جوانب متعددة

الجانب الأول

وأول تلك الجوانب جانب العصمة في التبليغ عن الله تعالى، وهذه العصمة في هذا الموضوع متفق عليها بين جميع طوائف الأمة وفرقها، وهذه القصة الغرنوقية تهدم جانب العصمة في التبليغ عن الله تعالى في جميع رواياتها التي كان أمثلها في رأي الحافظ ابن حجر رواية سعيد بن جبير، وهي رواية صريحة في أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ أكفر الكفر،

وأن النبي ﷺ بلَّغه عن الله تعالى، واستمر على اعتقاده حتى أكمل السورة وسجد في آخرها وسجد معه المشركون لأنه ذكر آلهتهم بخير، وما بين المكان المزعوم لكلمات الشيطان من السورة وبين آخرها عدة آيات تستغرق زمناً ليس بالقصير، ولم يتنبه في هذا الزمن النبي ﷺ إلى أنه أدخل في آيات الله كلمات كافرة، ولم يعرف في هذه الرواية متى تنبه ﷺ إلى ذلك الكفر في كلمات الشيطان، فأين العصمة وهي عنصر أولي في تحقيق النبوة والرسالة؟.

الجانب الثاني

وثاني تلك الجوانب وجوب تنزيه النبي ﷺ عن وصمة عدم التمييز بين كلام الله تعالى المعجز بحقائقه التوحيدية ومعانيه الإنسانية وأسلوبه ومبانيه، وبين كلام الشيطان المكفِّر بمعناه ومبناه المهلهل في أسلوبه وألفاظه، وهذه القصة في جميع رواياتها الباطلة قوَّلت النبي ﷺ على الله ما لم يقل، وبلَّغت عنه على لسان النبي ﷺ ما لم ينزل في آيات الله تعالى، وفي ذلك مخالفة لقوله تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾.

الجانب الثالث

وثالث تلك الجوانب وجوب توطيد الثقة بالنبي ﷺ فيما يبلِّغه عن الله تعالى حتى لا تكون الأمة فريسة للشك والحيرة فيما تسمع من نبيها ﷺ وما يبلِّغه لها عن الله تعالى، وإذا سمع الناس من النبي ﷺ كلمات الشرك الوثني بالثناء والمدح للأصنام في ثنايا ذمِّها واحتقار عابديها، فماذا يبقى لهم من الثقة بعد ذلك في أي بلاغ يسمعونه من نبيهم ﷺ؟!.

الحافظ ابن حجر يحكِّم الصنعة الحديثية في الحكم على قصة الغرانيق

بيد أن الحافظ ابن حجر ـ وقد غلبته الصنعة الحديثية ـ يأبى إلا أن يثبت قصة الغرانيق في روايتها الواهية الواهنة بل الباطلة الكاذبة، فيقول بعد تصريحه القاطع في الحكم على روايات القصة بالضعف والانقطاع ـ: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، مع أن لها طريقين آخرين مرسَلَين رجالهما على شرط الشيخين، أحدهما ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، فذكر نحوه، والثاني ما خرَّجه أيضاً عن طريق المعتمر ابن سليمان، وحمَّاد بن سلمة ـ فرَّقهما ـ عن داوود بن أبي هند عن أبي

العالية. ثم قال ابن حجر ممعناً في إثبات الأقصوصة الباطلة: وقد تجرأ أبو بكر بن العربي - كعادته - فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة، لا أصل لها. قال ابن حجر: وهو - أي قول ابن العربي - إطلاق مردود عليه، وكذا قول عياض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده وكذا قوله - أي عياض - ومَنْ حُملت عنه هذه القصة من التابعين، والمفسِّرين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب - أي من أصحاب النبي ﷺ، وأكثر الطرق عنهم - أي الذين حُملت عنهم القصة من التابعين والمفسرين - في ذلك ضعيفة واهية، وقد بيَّن البزار أنه لا يعرف - أي حديث في قصة الغرانيق - عن طريق يجوز ذكره إلا من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير مع الشك الذي وقع في وصله، وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه، قلنا: بل هو متهم بالكذب والسبائية، وهي زندقة مشهورة بهدم قواعد الإسلام، وقولها بإلٰهية عليّ رضي الله عنه، وهم دعائم الفتنة العثمانية التي انتهت بقتل ذي النورين مظلوماً شهيداً رضي الله عنه، ثم قال ابن حجر: ثم رده - أي حديث الغرانيق - عياض عن طريق النظر بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم، ولم ينقل ذلك، وجميع ذلك - أي كلام ابن العربي وعياض في رد أقصوصة الغرانيق - لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت، وتباينت مخارجها دلَّ ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرتُ - أي ابن حجر - أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض.

قال ابن حجر: وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها - أي في رواية القصة الغرنوقية - مما يستنكر وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته. انتهى المقصود من كلام ابن حجر، والكلام مع الحافظ ابن حجر في شأن هذه

الأقصوصة الغرنوقية يجري على وجوه.

مناقشة كلام ابن حجر في أقصوصة الغرانيق والرد عليه

الوجه الأول ـ يتعلق بروايات القصة، وقد ساقها الحافظ ـ كما ساقها السيوطي (في الدر) ـ ثم عقَّب عليها بقوله: وكلها سوى طريق سعيد ابن جبير إما ضعيف، وإما منقطع ـ أي فلا تقوم بها حجة ـ وهذا نص قاطع من ابن حجر على أن روايات هذه القصة الزندقية ضعيفة السند، واهية المخرج، لا تصلح للاحتجاج بها في أدنى أمور الدين الفرعية من أحكام النجاسات، وأمثالها، فضلاً عن أعلى أصوله العقيدية التي تتصل اتصالاً وثيقاً.

أولاً ـ بعقيدة التوحيد، وهي أساس الإسلام ولبابه ودعائم شرائعه لأن هذا الإسلام في رسالات الله تعالى كلها أول ما يستهدف إنما يستهدف إقامة معالم العقيدة التوحيدية وإبطال الشرك والوثنية.

وثانياً ـ بعصمة النبي ﷺ عن مخالفة أمر الله تعالى فيما يبلِّغه عنه فلا يزيد فيه شيئاً ولا ينقص منه شيئاً، لا عمداً ولا سهواً، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليه من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته ﴾ والزيادة على آيات القرآن في أثناء تلاوته تبليغ لما لم ينزله الله عليه، والنقص من آيات الله تعالى كتمان، وعدم تبليغ لما أنزل إليه من ربه، وقد ذكر الله في ذلك من الوعيد ما لم يبلغ معرفة كنهه إلا الله تعالى: وذلك قوله تعالى: ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل ـ أي بالزيادة على آياتنا أو بالنقص منها ـ لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾.

وهذا كله دون أن يتسلط عليه الشيطان فيلقي على لسانه في ثنايا تلاوته آيات الله المنزلة بالوحي أخبث كلمات الكفر التي تشيد بالأوثان مدحاً وتعظيمًا، في أثناء تلاوته لآيات الله الناعية على المشركين شركهم ووثنيتهم العائبة آلهتهم، المسفهة أحلامهم، فما الشأن إذا كانت الزيادة في آيات الله تعالى بتسلط الشيطان وإلقائه على لسان النبي ﷺ ما ينقض بنيان التوحيد من أساسه؟.

وثالثاً ـ الثقة في نصوص القرآن وآياته وأنها منزلة من عند الله لتقيم للناس معالم عقيدتهم، وتوطد بينهم شرائع عبوديتهم لله تعالى وحده، وتريهم حقائق الحياة في نظمها الاجتماعية قائمة على العدل والإخاء والرحمة.

ورابعاً ـ الثقة بوحي الله تعالى إلى رسله. فإذا فتح للشيطان أدنى منفذ للتسلط على رسل الله تعالى، وتلقينهم أخبث الكفر دون أن يتنبهوا إلى ما يلقَى إليهم من ذلك ويبلِّغوه إلى أممهم فيما يبلغونه عن الله تعالى، لم يبق للأمة ثقة فيما تسمع من رسولها، وهذا ـ بلا شك ـ هدم لدعوات الرسل وإبطال لرسالاتهم.

وخامساً ـ الثقة بنبينا سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ في معرفته بأسلوب القرآن ومعانيه، معرفة لا تسمو عليها معرفة أحد، لأنه القيِّم على تمييز أسلوبه وروعة بيانه، والمثل الأعلى في العلم بحقائقه الإيمانية، فإذا جاز أن يلقي إليه الشيطان كلمات أخبث الكفر في أثناء تلاوته لآيات الله تعالى الموطِّدة لدعائم التوحيد وهدم الوثنية والشرك ـ كما تزعم أقصوصة الغرانيق ـ على سمع جموع المسلمين، وبصر ملأ المشركين ثم لا يتنبه لذلك، ولا يميز بين ما هو قرآن كريم من عند الله وما هو كفر خبيث من إلقاء الشيطان ـ فماذا بقي لهذا الرسول من ثقة في نفوس المؤمنين به؟.

فقول الحافظ ابن حجر بعد سوقه كلام القاضيَين أبي بكر بن العربي، وعياض: وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دلَّ ذلك على أنَّ لها أصلاً ـ من أغرب قضايا العلم في منهج الإسلام، فالأمر يتعلق بأقصوصة إذا سلمت كانت معولاً هدَّاماً لأصل أصول الإسلام بل أصل أصول الدين كله في جميع رسالات الله تعالى إلى جميع أنبيائه ورسله، لأنها تطعن في عصمة الأنبياء، وتقرر أن الشيطان صاحب سلطان عليهم، يستولي على معاقد الوحي إليهم، فيلقِّنهم ويلقي إليهم ما ليس من وحي الله تعالى، وإنما هو من وحيه الكفور الخبيث المناقض لما أرسلوا به إلى الخلق من التوحيد وإبطال الشرك

والوثنية بجميع صورها وأشكالها، ثم يتقبل الرسل من الشيطان ما يلقي إليهم ويلقنهم ويعتقدونه، ويبلِّغونه في رسالاتهم على أنه منزَّلٌ إليهم من ربهم، حتى يُنَبَّهوا إلى أن ذلك ليس من آيات الله وإنما هو من إلقاء الشيطان على ألسنتهم، وهذا التنبيه قد يطول وقته وقد يقصر، ولا شك أن هذا يبلبل الثقة بالرسل في أنفس المؤمنين، ويزيد الكافرين رجساً إلى رجسهم وفتنة إلى فتنتهم، وإذا جاء التنبيه بتصحيح الموقف، والتفريق بين ما هو من آيات الله، وبين ما هو من إلقاء الشيطان، فأنّى لمن سمع الإلقاء من الشيطان يجري على لسان النبي في أول الأمر ثم يسمع التصحيح بعد ذلك أن يثق بأن هذا التصحيح ليس من تلاعب الشيطان وإلقائه؟ هذه مزلقة لا ينتهي من يقع فيها إلا إلى هاوية لا قرار لها.

وهذه الأقصوصة الكاذبة الهادمة لعقيدة التوحيد تأتي بها روايات واهية واهنة ضعيفة في أسانيدها التي اشتمل بعضها على أكذب الكذابين السبائيين، وأمثل هذه الروايات ما قام على الشك في وصله بابن عباس الذي دارت أكثر روايات القصة عليه وعلى تلاميذه مباشرة أو بالنقل عنهم، ولم يذكر فيها اسم واحد من الصحابة، وهم عشرات الألوف رضي الله عنهم سوى ابن عباس وهو في زمن نزول الآيات التي أقحمت عليها القصة كان في سن صغيرة جداً، أو لعله لم يكن ولد، ومعروف أن ابن عباس من شخصيات الإسلام الذين أُكثر عليهم وحُمِّلوا من الأكاذيب ما لم يُحْمل على سواهم من الصحابة، ورواية سعيد بن جبير عنه ـ وهي التي تشبَّث بها الحافظ ابن حجر ـ دخلها الشك فطاحت إلى أودية الوهن والضعف مع أخواتها من سائر روايات القصة، ومع ذلك كله يقول الحافظ ابن حجر: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً.

نعم للقصة أصل، بل أصول لا تجمعها بأصول الإسلام إلا خيوط الوهم أو نسج العنكبوت في تلافيف أدمغة أعداء الإسلام من الزنادقة، فهي قصة تفقَّأت عنها بيضة الزندقة، ثم نهدت إلى أدمغة البُله من المغرِّرين الذين أغرموا بكل غريب من أحاديث (المصاطب) والسمر يتكثرون بها للتعالي والتطاول في محافل المنافسة الباغية.

أما كثرة الطرق فلم يغب عن مختلقي القصة أن يختلقوه ليكون لهم تكأة عند الحرفيين من المتشبثين بالقواعد التي قعَّدوها، فأي مانع يمنع واضعي القصة من تكثير طرقها بمخارج متباينة ليضحكوا بها من الذين يجرون وراء سراب الروايات الغريبة؟.

على أن محققي العلماء لم يغفلوا عن هذه القواعد، بل قالوا: إن قاعدة الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دلَّت على أن موضوع الروايات له أصل ليست على عمومها، ففي باب العقائد لا يقبل إلا النص الصحيح الصريح القاطع بالتواتر أو بغيره من وسائل القطع والصحة، وفي غير أبواب العقائد من الأحكام الفرعية فإن هذه القاعدة مقيدة ـ كما يقول الإمام ابن الصلاح ـ بالضعف الذي يزيله ما يجبره، وذلك إذا كان الضعف ناشئاً عن ضعف حفظ الراوي، أما الضعف الذي لا يزول لقوته، وتقاعد الجابر عن جبره ومقاومته فلا وزن له، ولو جاء من سبعين طريقاً متباينة المخارج، وذلك كالضعف الذي ينشأ من كون الراوي متهماً بالكذب ـ كما في بعض روايات أقصوصة الغرانيق التي جاءت من طريق الكلبي وهو كذوب ولا تجوز الرواية عنه ـ ومثل ذلك كون الحديث شاذاً.

ثم قال الحافظ ابن حجر: وقد ذكرتُ أن ثلاثة أسانيد منها ـ أي من روايات قصة الغرانيق ـ على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض. قلنا: إن هذا التعميم في الاحتجاج بالمرسل عند من يقول به ومن لا يقول به غيرُ مسَلَّم، لأن الخلاف في الاحتجاج بالمرسل إنما هو في أحكام الفروع، ولا يمكن أن يكون جارياً في أصول العقائد، لأنها لا تثبت إلا بدليل قاطع ونص متواتر لفظاً ومعنى، والمرسل ضعيف عند جمهور المحدِّثين فكيف تثبت به عقيدة، ولا يتحقق أصل الإيمان إلا بدليل قاطع، والمرسل ضعيف وهو محل خلاف؟.

قال ابن عبد البر: فإذا حكى التابعي عمن لم يلقه لم يكن بد من معرفة الواسطة، إذ قد صح أن التابعين أو كثيراً منهم رووا عن الضعيف

وغير الضعيف. وقال ابن الصلاح في (علوم الحديث): ثم اعلم أن حكم المرسل حكم الحديث الضعيف إلا أن يصح مخرجه من وجه آخر، وما ذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه هو المذهب الذي استقر عليه آراء جماهير حفَّاظ الحديث ونقَّاد الأثر.

ثم قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر أن كثرة الطرق وتباين المخارج تدلّ على أن للقصة أصلاً، وبعد أن ذكر أن ثلاثة أسانيد من رواية القصة على شرط الصحيح وأنه يحتج بها من يحتج بالمرسل ومن لا يحتج به ـ: وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها ـ أي في قصة الغرانيق ـ مما يستنكر، وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته، قلنا: بل يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن سهواً كالعمد مطلقاً كانت الزيادة مغايرة لما جاء به من التوحيد أم لم تكن مغايرة، لأن العصمة فيما يبلِّغه عن الله تعالى عامة في العمد والسهو فيما وافق أو خالف، وإلا لارتفعت الثقة بسائر النصوص لجواز كون بعضها مما زيد سهواً.

ثم أخذ الحافظ ابن حجر يذكر التأويلات التي ذكرها المتأولون المثبتون للقصة الباطلة، وتبعهم في هذه التأويلات مَنْ ضعف عن حمل أمانة الحق ممن أنكروا القصة رواية ونظراً، ثم نكصوا على أعقابهم وذهبوا إلى التأويلات التي لا تتصل بنص الروايات كما سيأتي التنبيه على ذلك عند ذكر التأويلات وبيان فسادها. وكلام الحافظ ابن حجر في شأن أقصوصة الغرانيق الباطلة تضمَّن أمرين يرى البحث إبرازهما ليتبين الناظر فيه أنّ ابن حجر لم يقرر صحة هذه القصة الباطلة، وإنما نظر إلى روايات فأوهنها وحكم بضعفها، ولم يكن تشبثه بحديث ابن جبير عن ابن عباس مفيداً في نقض توهينه الروايات وإضعافها لأنه لاحق بها في الضعف بمقتضى ما دخله من الشك في وصله بابن عباس.

وليتبين الناظر في البحث أن ابن حجر يرى في القصة ما هو محال أن يقع من رسول الله ﷺ وهو الزيادة في القرآن عمداً أو سهواً، بيد أنه لم يشأ أن يقف عند هذه النتيجة التي كانت أمراً طبيعياً يسوق إليها البحث العلمي وينتهي بها إلى أن هذه الأقصوصة أكذوبة زندقية باطلة، ما كانت تستحق أن تجول ساحبة ذيولها في ساحة سيرة سيد المرسلين محمد ﷺ، ولكنه خضع لقواعد الصنعة وراح يتشبث بالتأويل فيما رآه محالاً، وحكى من ضروب هذا التأويل أقوالاً كلها بعيدة عن نص روايات القصة، ويظهر أن أصحاب التأويلات التي حكاها ابن حجر لم يلتفتوا إلى الروايات التي هي محور الإثبات والنفي لأصل القصة، وإنما فرضوا القصة واقعة وراحوا يتأولون وقوعها بما ينظمها في سلك أحداث الإسلام وتبعهم ابن حجر على ذلك. فاللّهم غَفْراً.

رأي الإمام ابن تيمية
في أكذوبة الغرانيق

الشيخ الإمام ابن تيمية أحد أعلام علماء الأمة الإسلامية اطّلاعاً على التراث الإسلامي وعلوم الإسلام ومعارفه: كتاباً وسنة، وفقهاً، واجتهاداً، وتحصيلاً، رزق حافظة في علوم الإسلام وروايات آثاره لم يؤت مثلّها إلا أفراد قلائل في تاريخ العلم والعلماء، وقد أودع حصيلة هذه الحافظة اللاقطة مؤلفاته الكثيرة التي يشبه أسلوبه فيها أسلوب الأمالي، بكثرة ما يغلب عليها من الاستطراد لأدنى المناسبات.

وقد عرض الإمام ابن تيمية لقصة الغرانيق في فتاويه التي صب فيها صيِّب علمه الغزير، ومعارفه الواسعة، في صورة استطرادية يعوزها التحقيق المتأنِّي والمستوعب للأدلة والبراهين والأسانيد وتسمية القائلين، ومصادر أقوالهم وآرائهم، ولكن الشيخ الإمام ابن تيمية اعتصم في كلامه على هذه القصة التي تفوق أهمية تحقيقها ومعرفة مدخلها ومخرجها من أصول الإسلام وحياة الرسول ﷺ كل ما وقف عنده اجتهاد الشيخ الإمام وخالف فيه مَنْ خالف من علماء عصره وتحمل في سبيله المحن وشدائدها ـ بالعمومات يلقيها قضايا مسلّمة، وهي أحوج ما تكون إلى البحث والتمحيص.

وذلك مثل قوله: والمأثور عن السلف يوافق القرآن، دون أن يذكر مَنْ مِن السلف أثر عنه هذا القول وذهب إليه؟ والسلف هم أصحاب النبي ﷺ وهم عشرات الألوف ومئاتها والتابعون، وهم ألوف الألوف

وتابعوهم من أهل القرون الثلاثة الذين شهد بخيريتهم على سائر الأمة الصادق المصدوق في الحديث الصحيح، ودون أن يعين الشيخ موضع الموافقة من القرآن ويبين وجهها.

ومثل قوله: والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة (النجم) بقوله: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، دون أن يبين الشيخ مرجع الضمير في (قوله) والمعروف في روايات القصة الغرنوقية الكاذبة أن هذه الزيادة المزعومة هي قول الشيطان ألقاها ـ كما تزعم الروايات الباطلة ـ على لسان النبي ﷺ، وتلاها النبي ﷺ في آيات الله المنزلة عليه، واعتقد قرآنيتها، وسجد في آخر السورة وسجد معه من حضره من المؤمنين والمشركين حتى نزل أمين الوحي ونبَّهه إلى ذلك.

ومثل قوله: أما الذين قرروا ما نقل عن السلف، فقالوا: هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه، دون أن يبين الشيخ من هم الذين قرروا ما نقل عن السلف، وهم بالطبع ليسوا من السلف لأنهم قرروا ما نقل عن السلف، دون أن يبين من هم هؤلاء السلف الذين نقلوا أقصوصة الغرانيق الكاذبة نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه، أهم الصحابة نقلوها عن النبي ﷺ أو شهدوا وقوعها؟ أم هم التابعون وتلاميذهم نقلوها عن أصحاب النبي ﷺ؟ وكم من هؤلاء وهؤلاء الذين قالوا بوقوع هذه الأكذوبة ونقلت عنهم نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه؟ وما طريق ثبوت ما نقلوه؟ وروايات القصة كلها مراسيل، وليس فيها حديث قط مسند إسناداً متصلاً إلى رسول الله ﷺ أنه أخبر بذلك عن نفسه، وجميع مراسيل الرواية واهية واهنة، كما قرر ذلك علماء الأمة بل ثبت أن في بعض أسانيدها أكذب الكذَّابين.

فيا ضيعة الإسناد الذي هو من أفخر مفاخر الأمة الإسلامية، ويا ضيعة ثبوت النقل، ويا ضيعة السنة النبوية إن كان نقل هذه الأقصوصة الخبيثة في مراسيلها الواهية الواهنة هو النقل الثابت الذي لا يمكن القدح فيه.

ومثل قوله: والقرآن يدل عليه ـ أي على النقل الثابت الذي لا يمكن القدح فيه ـ بقوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ﴾ الآيات. وكون هذه الآيات الكريمات دالَّة على نقل الأكذوبة الغرنوقية هو موضع النزاع؛ فكيف يستدل به على النقل الثابت ثبوتاً لا يمكن القدح فيه؟ وأين في هذه الآيات الدلالة على النقل الثابت ثبوتاً لا يمكَن القدح فيه؟ والآيات ليس فيها رائحة دلالة على شيء من قصة الغرانيق من قريب أو بعيد، ولولا ما افتراه الزنادقة، وقبله البُله المغرَّرون من روايات أسباب النزول ورووه في مراسيل كسيحة ألصقوها إلصاقاً بهذه الآيات، وحملوها على أسماء بعض أهل العلم ما كان للآيات الكريمات صلة بهذه الأقصوصة، فضلاً عن أن تدل عليها.

وقد فسَّر الآيات الكريمات كثير من جهابذة علماء الإسلام في تفاسيرهم المتداولة بين الأمة، ولم يظهر لهم قط حاجة إلى إلصاق القصة بتفسير الآيات، ومن هؤلاء المفسرين الجهابذة أبو حيان عصريٍّ ابن تيمية في تفسيره المسمى (بالبحر) ومنهم الإمام الشوكاني في تفسيره (فتح القدير)، ومنهم الإمام أبو بكر بن العربي في (أحكامه).

ومثل قوله: فقالوا ـ أي الذين قرروا ما نقل عن السلف ـ زعموا ـ الآثار في تفسيره هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث دون أن يبين الشيخ أين هي الآثار المعروفة الثابتة في كتب التفسير والحديث، هل يقصد الشيخ بهذه الآثار روايات أسباب النزول التي اشتملت على طامات الكفر والزندقة؟ إن كان هذا هو مقصود الشيخ فهذه الآثار قد زيَّفها الأئمة إسناداً ونظراً، وفيها مرويات الطبري عن بعض أسماء السلف، وهي روايات ـ كما قال ابن العربي ـ باطلة لا أصل لها أو هي آثار أخرى لا علم لأهل العلم بها؟.

هذه أمثلة من العمومات التي اعتصم بها الشيخ الإمام ابن تيمية في كلامه على قصة الغرانيق، عجَّلنا بها أمام سوق كلامه ومناقشته بشيء من التفصيل حتى يتبين الحق مشرفاً بنوره، ولا يحجبه دوي الشهرة عن إدراك البصائر.

عـرض الإمام ابن تيميـة في فتاويـه لأقصوصـة الغرانيق بصـورة استطرادية، أقحمها في كلامه وهـو يجيب على سؤال يتعلق بـدعوة (ذو النون)، نبي الله ورسوله يونس بن متى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، وهذه الدعوة المباركة هي ما حكاه الله عنه وهو في ظلمات بطن الحوت فقال تعالى: ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ إذْ تكلم الشيخ الإمام ابن تيمية على عصمة الأنبياء فقال فيما يتصل بإقحام القصة: والكلام في هذا المقام مبني على أصل وهو أن الأنبياء معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى: ﴿ قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدَوا وإن تولَّوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ وقال: ﴿ ولكنّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ وقال: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾.

ثم قال الإمام ابن تيمية: وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة... والعصمة فيما يبلِّغونه عن الله ثابتة، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين، ثم أكد الشيخ ذلك فقال: والذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً ـ أي من الكبائر والصغائر.

قلنا: وهذا الذي نسبه لجمهور الناس، وقال إنه الموافق للآثـار المنقولة عن السلف دون أن يسمِّي أحداً من السلف ودون أن يذكر نصاً واحداً من هذه الآثار المنسوبة للسلف هو عين ما قاله في صدر كلامه عن العصمة فيما يبلِّغونه عن الله، فظاهر كلامه أنه لا يفرق بين العصمة فيما يبلِّغونه عن الله، وبين العصمة عن سائر الذنوب كبائرها وصغائرها، في أن

العصمة لا تتعلق بوقوع الذنب ولكنها تتعلق بعدم الاستقرار في ذلك الذنب، أوعدم الإقرار عليه، وظاهر أن عدم الاستقرار في الخطأ، أو عدم الإقرار عليه لا يمنع الوقوع في الخطأ، ويؤيد ذلك أن القائلين بوقوع قصة الغرانيق ـ والشيخ مقرر لمذهبهم ومُسْنِدُه إلى السلف ـ زعموا أن الخطأ وقع فيما يبلِّغ عن الله، ولكنه لم يستقر بعد وقوعه، فليست للأنبياء عصمة تمنع من وقوع الخطأ، ومعنى هذا أن الأنبياء والرسل غير معصومين من وقوع جميع الذنوب كبائرها وصغائرها، سواء كان ذلك فيما يبلِّغونه عن الله أم كان في غير ما يبلِّغونه من سائر المعاصي والآثام، الكفر والكذب فما دونهما، وإنما هم معصومون من استقرار ما يقع من ذلك، فالذنوب على الإطلاق كبائر أو صغائر يجوز أن تقع منهم ويظلون على الخطأ الذي وقع منهم زمناً قد يطول أو قد يقصر، وهم في ذلك مبلِّغون لرسالات الله، آمرين بطاعته، ناهين عن معصيته، وهم متلبِّسون بما وقع منهم من خطأ في البلاغ أو في غيره حتى يُنبَّهوا ويرفع استقرار الخطأ.

وهذا من أبطل الباطل الذي لا يقول به قط أحد من أهل العلم في أمة الإسلام، لا من السلف ولا من الخلف، إلا هؤلاء الذين أُدخلت أكذوبة الغرانيق عليهم فصدَّقوها واعتقدوا وقوعها، وهي باطلة إسناداً ونظراً، بل هي من أكفر الكفر.

لكن الشيخ الإمام ابن تيمية يؤكد رأيه في أن العصمة للأنبياء والمرسلين إنما تكون عن استقرار الخطأ الذي يقع منهم، لا عن وقوعه فيقول: وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول.

قلنا: وهذا ادّعاء يفقد سنده من البرهان، لأن النظر في أقوال أعلام العلماء من الذين يقولون بالعصمة من السلف والخلف يفيد صراحة بأن العصمة ثابتة للأنبياء والمرسلين منذ اللحظة التي ينبئون فيها عن وقوع الخطأ منهم فيما يبلغونه عن الله تعالى، لا عن استقرار الخطأ بعد وقوعه ـ ـ كما يزعم الشيخ الإمام ـ، وهذا موضع اتفاق بين الأمة قاطبة ولم يعرف لأحد من أهل العلم خلاف في ذلك إلا خلاف الذين خُدعوا فتعلقوا بما

نسب لبعض أسماء من السلف ـ وهم منه براء ـ في إثبات الزيادة في سورة (النجم) بإلقاء الشيطان بعض كلمات الكفر والشرك على لسان النبي ﷺ في روايات مرسلة ليس فيها رواية واحدة مسندة إلى النبي ﷺ، ولا إلى أحد من أصحابه سوى حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد دخله الشك بقول سعيد: (فيما أحسب) عن ابن عباس، وهذا الشك ألْحق هذا المرسل بأخواته وَهْناً وضعفاً، فلم تبق له قوة الاحتجاج به عند من يقول بالاحتجاج بالمرسل، ولا عند من لا يقول بالاحتجاج به.

وهذا الخلاف في الاحتجاج بالمرسل إنما هو في أحكام الفروع، لا في أصول العقائد التي تدخل قصة الغرانيق في صميمها، وإنما الخلاف بين علماء الأمة في العصمة عن الخطأ في سائر الذنوب والمعاصي سوى التبليغ عن الله، وسوى الكفر والكذب في الأخبار، فهذه الذنوب كبائرها وصغائرها هي التي تنازع الناس في العصمة عنها، فقال الجمهور: هم معصومون بعد النبوة عن سائرها فلا تقع منهم قط، وقال فريق: هم معصومون من الاستقرار عما يقع منها لا عن وقوعها، وهذا تقرير لنظرية العصمة عن الخطأ في غير ما يبلغونه عن الله، وفي غير الكفر والكذب في الأخبار التي اتفقت كلمة الأمة على عدم وقوعها منهم، وتقرير النظرية لا يلزم منه الوقوع في الخطأ إذْ لا يلزم من جواز الوقوع الوقوع بالفعل، وتاريخ النبوات وحياة الأنبياء أصدق شاهد على ذلك.

قال أهل العلم: لو وقع من الأنبياء والمرسلين الخطأ فيما يبلِّغونه عن الله تعالى، أو وقع الكذب في الإخبار عن الله، بالزيادة أو النقص فيما أوحي إليهم لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ فهذا صريح في العصمة عن وقوع الخطأ فيما يبلغونه عن الله أو يخبرون به من الوحي، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته﴾.

فوقوع الزيادة فيما يبلغ عن الله تعالى أو النقص منه افتئات على الله

وعدم تبليغ لما أنزل إليه من ربه، يجعله غير مبلِّغ لرسالة الله لأنه بلَّغ شيئاً آخر لم يوح به إليه ولم ينزل من ربه، وإذا وقع هذا الخطأ ولم تمنع العصمة منه ـ والأمة مكلفة أن تقتدي بالنبي فيما يبلِّغه عن الله وأن تتأسى به في اعتقاد ما يبلِّغه وأن تعمل به متبعة له ـ كان ذلك دعوة إلى العمل بالخطأ الذي قد يكون كفراً ومناقضة لأصل الإيمان، كالزيادة في الوحي قرآناً أو غير قرآن من كل ما يناقض مقصود الرسالة حتى يتنبه النبي إلى ذلك الخطأ ويرفع استقراره الذي هو متعلق العصمة، وهذا التنبيه إلى أن يرفع استقرار الواقع لا يدري متى يكون، فقد يطول الزمن قبل مجيئه وقد يقصر، وإذا طال الزمن شيئاً فقد تعبَّدت الأمة في عقيدتها وشرائع إيمانها بالباطل مدة هذا الزمن الذي يسبق التنبيه ويرفع الاستقرار في الخطأ وهذا هدم لبنيان الرسالة من أساسه، ثم إذا جاء التنبيه لرفع استقرار الخطأ فبأي وسيلة تقع الثقة في أن هذا التنبيه على رفع استقرار الخطأ ليس خطأ ملبَّساً به على النبي كما لُبِّس عليه في وقوعه؟.

ثم سأل الإمام ابن تيمية نفسه سؤالاً فقال: ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته؟ قلنا: وهذا من الشيخ الإمام صَمْد إلى قرع باب أقصوصة الغرانيق دون تمهيد، وهو تشكك فيما قرر من أن العصمة إنما تكون عن الاستقرار في الخطأ لا عن وقوع الخطأ، وهو مقتض لجواز وقوع ما يستدرك من الخطأ في التبليغ ليرفع استقراره بالنسخ وإحكام الله آياته؛ فلا وجه معه لهذا السؤال إلا التأكيد لإزالة التشكك، والصَمْد إلى تقرير وقوع أكذوبة الغرانيق.

وهذا السؤال من الشيخ الإمام ابن تيمية وثبة إقحامية يَندّ عنها كلام الشيخ الإمام، وإلا فما وجه الصلة بين تقريره أن الأنبياء معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ـ وهذا حق يجب اعتقاده والإيمان به ـ وبين قوله: ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته وهو نص في القصد إلى أقصوصة الغرانيق؟ واتفاق الأمة على عصمة الأنبياء فيما يخبرون به عن الله وفيما

يبلغونه عنه ـ الذي ذكره الإمام ابن تيمية ـ إنما هو في وقوع الخطأ لا في الاستقرار عليه فالأمة متفقة على أنه يستحيل أن يقع من الأنبياء خطأ فيما يبلِّغونه عن الله بالزيادة أو النقص، فجعل العصمة التي هي محل اتفاق الأمة مانعة من الاستقرار في الخطأ وليست مانعة من وقوعه رأي لم يُعرف لأحد من أهل الحق في الأمة لا من السلف ولا من الخلف.

ويظهر من إقحام الشيخ الإمام ابن تيمية لقصة الغرانيق الباطلة في كلامه على عصمة الأنبياء أن جعل العصمة مانعة من الاستقرار في الخطأ وغير مانعة من وقوعه رأي يتسنى به تقرير وقوع قصة الغرانيق، ولذلك دلف إليها من هذا السؤال الذي سأله نفسه وهو قوله: (ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ الله ما ألقى الشيطان، ويحكم الله آياته) وزعم الشيخ الإمام أن المأثور عن السلف يوافق القرآن في ذلك ـ أي في وقوع الخطأ وصدوره من الأنبياء في التبليغ فيستدركه الله وينسخ ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته، وهذا كلام يستدعي سؤالاً مَنْ مِن السلف أثر عنه هذا الرأي؟ والسلف هم ـ كما هو معروف ـ أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وأتباعهم الذين شهد بخيريتهم الصادق المصدوق في حديث (خير القرون)، وهؤلاء جم غفير يزيدون على مئات الألوف، أفلا كان من وثاقة العلم وصحة النقل تسمية عدد من هؤلاء السلف الذين زُعم عليهم أنه أثر عنهم ذلك الرأي؟ وسؤال آخر أين هي موافقة القرآن لهذا الزعم الذي لم يستند إلى نص صحيح، وكلام الشيخ الإمام يدل على أن المقصود بموافقة القرآن ما جاء في مراسيل الروايات التي زعم لها أنها وردت في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ الآيات، وهي روايات واهية واهنة ضعيفة، بل باطلة مكذوبة حُملت حملاً على بعض أسماء من السلف، وقبلها بعض أهل الغفلة والبله، والمتعصبون من أهل الاجتهاد المتأخر.

ويرشح استدلالنا قول الإمام ابن تيمية: والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة (النجم) ـ نعوذ بالله من تلبيس الشياطين ـ بقوله ـ أي الشيطان: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن

لترتجى، وقالوا: إن هذا لم يثبت ـ وحق له أن ينكر ـ ومن علم أنه ثبت قال: هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم، ولم يلفظ به رسول الله ﷺ ـ. ولكن مراسيل الغرانيق وأخصها وأصحها في نظر من قَبِل الأكذوبة الخبيثة حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس تقول: إن الشيطان ألقى كلماته الكافرة الخبيثة على لسان النبي ﷺ، وأنه ﷺ تلاها فيما تُلي من آيات سورة (النجم) حتى ختم السورة وسجد وسجد معه من حضره من المؤمنين والمشركين، فمن أين للشيخ الإمام ابن تيمية قول من ثبتت عنده هذه الزيادة الخبيثة أنها ألقيت في مسامعهم ولم يلفظ النبي ﷺ بها، والروايات المزعومة كلها تذكر ما نقلناه من حديث سعيد بن جبير، وإذا كان النبي ﷺ لم يلفظ بهذه الزيادة الخبيثة الكافرة ـ وهو الحق الذي لا مرية فيه ـ فكيف كانت هذه الكلمات الشيطانية زيادة في سورة (النجم) والنبي ﷺ إنما تلا السورة كما أنزلها الله عليه، لم يزد فيها حرفاً، بَلْه كلمة، بَلْه كلمات خبيثة؟ ثم كيف يكون كلام شيطاني لم يلفظ به النبي ﷺ قط خطأ ينسب للنبي ﷺ، ويقال إنه زيادة في آيات القرآن يستدركها الله تعالى بالنسخ ويحكم آياته، وآياته محكمة، تلاها رسول الله ﷺ كما أنزلها الله تعالى، لم تقع فيها زيادة حرف واحد، بَلْه كلمات خبيثة كافرة، ويقال إنه خطأ وقع من النبي ﷺ ثم يستدركه الله تعالى بالنسخ؟ هذا منطق عجيب لا يعرفه منهج الإسلام ولا ندري ما الذي حمل الشيخ الإمام ابن تيمية ـ في واسع علمه ـ على إقحامه أكذوبة الغرانيق في كلامه على عصمة الأنبياء دون أن تقتضيها مناسبة أو تدعو إليها ضرورة، وهو يعلم ـ كما نظن ـ أنها أقصوصة كاذبة لم تثبت بسند متصل خال من الوهن والضعف عن صاحب ولا تابع إلا ما جاء في مراسيل باطلة مضطربة متضاربة في أسلوبها ومعانيها، حُملت حملاً على بعض أسماء التابعين، والشيخ الإمام ابن تيمية لا يقول إن الزيادة المزعومة على سورة (النجم) تَلَفَّظ النبي ﷺ، وإنما ألقيت في أسماع الكافرين إلقاء، وإذا كان هذا هكذا عند الشيخ فما وجود قصة الغرانيق وإثباتها عن السلف، وهي لا وجود لها بالنسبة للنبي ﷺ، أفما كان يجب إغفالها والاستهانة بها وعدم تحميل السلف ثقل إثباتها والطنطنة حولها؟.

ولكن الشيخ الإمام ابن تيمية يأبى إلا الإمعان في إثبات هذه الأكذوبة وإسناد إثباتها إلى السلف، فيقول ـ بعد أن وقف وقفة عند تفسير (تمنى وأمنيته) في اللغة بما حققنا القول فيه في كلامنا مع الحافظ ابن حجر ـ: وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا: هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه.

قلنا: هذا من أعجب العجب، فما هو هذا المنقول نقلاً ثابتاً عن السلف الذي لا يمكن القدح فيه؟ إن كان هذا المنقول عن السلف ولا سند له هو أن الشيطان ألقى في مسامع أوليائه من المشركين والوثنيين كلماته الخبيثة الكافرة، ولم يلفظ النبي ﷺ قط بها لأنه معصوم عن الزيادة فيما يبلغه عن الله تعالى، ولا سمعها المؤمنون، وهذا على خلاف ما جاءت به مراسيل الروايات المسندة إلى بعض السلف، فلا وجه قط للكلام على أكذوبة الغرانيق وإثباتها أو عدم إثباتها، لأنها حينئذ لا وجود لها بالنسبة لآيات القرآن، ولا بالنسبة للنبي ﷺ وعصمته، وإن كان هذا المنقول عن السلف نقلاً ثابتاً هو الذي جاءت به المراسيل الواهنة الواهية من أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ وهو يتلو سورة (النجم) كلماته الغرنوقية، والنبي ﷺ تلفَّظ بها وتلاها زيادة على ما أنزل من آيات السورة، وهو مخالف أتم المخالفة لما قال الشيخ الإمام ابن تيمية من أن الشيطان ألقى في مسامع أوليائه المشركين والنبي ﷺ لم يتلفظ بهذه الزيادة المزعومة على ما هو المنسوب إلى الذين قرروا ما نقل عن السلف ـ فهذا نقل يحتاج إلى إثبات، ولا إثبات له فهو باطل، وإلا فأين هو النقل الثابت الذي لا يمكن القدح فيه؟ أهو في هذه المراسيل الكسيحة الواهية التي جاءت بالطامات الهادمة لأصل من أصول الدين والرسالة، الطاعنة في عصمة النبي ﷺ، وفي الثقة فيما يبلِّغه عن الله؟ وهي روايات مطعونة في أسانيدها، لم يروها قط أحد من أهل الصحة.

ثم قال الشيخ ابن تيمية: والقرآن يدل عليه ـ أي على هذا النقل الثابت عن السلف الذي لا يمكن القدح فيه ـ بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا

من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ الآيات إلى قوله ﴿صراط مستقيم﴾ فقالوا ـ أي الذين قرروا ما نقل عن السلف المزعوم عليهم إثبات وقوع قصة الغرانيق في أبشع صورها ـ: الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة، في كتب التفسير والحديث.

قلنا: المذكور في الآثار المحمولة على بعض أسماء السلف ليس منها شيء قط في تفسير الآيات المذكورة، وإنما المزعوم لها أنها أسباب نزول الآيات، وفرق كبير جداً بين سبب النزول الذي يتعلق بحادث تنزيل الآية لبيان حكمه أو حاله، وبين تفسير الآية الذي يقصد إلى بيان حقائقها ومعانيها وأحكامها وتركيب ألفاظها وبراعة أسلوبها، والمعروف المستفيض عن الإمام أحمد بن حنبل وهو إمام الشيخ ابن تيمية درج على مذهبه وتمسك باجتهاده، وإن استقل في بعض المسائل: أن أسباب النزول مما لا أصل له.

والمذكور في جميع المراسيل المزعومة على السلف إسناداً هو أكذوبة الغرانيق بصور مختلفة مضطربة بالزيادة أو النقص والتحريف، ثم تقول الرواية: فنزلت الآية، ولا يمكن أن يعتبر سوق قصة ما صحيحة أو فاسدة تفسيراً للآية التي كانت القصة سبباً لنزولها.

وما الذي يعنيه الشيخ الإمام ابن تيمية بكتب التفسير والحديث التي ثبتت فيها هذه الآثار ثبوتاً لا يمكن القدح فيه؟ أهي كتب غير الكتب التي روت المراسيل الواهية الواهنة الباطلة التي لم يعرفها علماء الإسلام وانفرد بمعرفتها الشيخ ولم يسمِّ منها شيئاً يستدل به على وزنه بين دواوين التفسير والحديث؟ أم هي تلك الكتب نفسها التي روت أباطيل المراسيل في إثبات قصة الغرانيق الكاذبة؟ وهذه المراسيل كلها مطعون فيها إسناداً من أهل العلم بالرجال جرحاً وتعديلاً، وقد وجد في بعض أسانيدها أكذب الكاذبين وفي بعضها من قيل في مراسيله إنها ريح.

ثم قال الإمام ابن تيمية: والقرآن يوافق ذلك، فإن نسخ الله لما

يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها، ولم يلفظ به النبي ﷺ كما هو منزع ابن تيمية.

قلنا: إذا كان ما ألقاه الشيطان إنما كان ألقاه في أسماع أوليائه من المشركين ولم يكن ألقاه على لسان النبي ﷺ وتلاه فيما تلي من آيات السورة - كما هو صريح رواية المراسيل الواهية الواهنة المسندة إلى بعض السلف - فما الحاجة إلى نسخ كلام لم يلفظ به النبي ﷺ، ولم يدخل في آيات الله؟ وآيات الله على هذا النزع محكمة لم يدخلها من الباطل ما يحتاج إلى نسخ.

ومن ثم يجب أن يفهم من آيات الله في قوله: ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أنها ليست هي الآيات المتلوة من القرآن والمنزلة للتعبد بتلاوتها والتدبُّر في حِكَمها وأحكامها والعمل بشرائعها، لأن هذه الآيات محكمة محفوظة عن العبث فيها بالزيادة أو النقص، والتحريف والتبديل، بمقتضى وعد الله في قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ إنما المراد بآيات الله دلائل توحيده، وبراهين كمالات إلٰهيته، وصدق رُسُلِه، وتصديقهم بما يجريه على أيديهم من المعجزات الباهرات، وهي الآيات التي يلقي الشيطان في طريق دلالاتها على ما أنزلت فيه شبهه وأباطيله وضلالاته ووسوسته، ولا شك أن أمنية كل رسول هي إسلام قومه، كما فسرها ابن عباس في حديث عبد بن حُمَيد - فهي إرادته ورغائبه واشتهاؤه، ونسخ ما يلقي الشيطان من الشبهة والأضاليل في قلوب أوليائه من المشركين أو في قلوب ضعفاء الإيمان، وهو إبطال ذلك وإزالته بتقوية حجج الإيمان ودلائل النبوة والرسالة وإحكام آيات الله هو علو كلمة الله وإظهار براهينها بما يشاء من حكمته على وفق علمه المحيط وجلال عزته لأنه عليم حكيم عزيز.

العقل والنقل متطابقان على أنه لا سبيل للشيطان إلى التسلط على أنبياء الله ورسله

والنصوص الناطقة دلَّت عقلاً ونقلاً على أنه لا سبيل للشيطان قط على أنبياء الله ورسله لعصمتهم من تسلطه عليهم.

أما من جهة العقل فلأن الأمة مأمورة بالإجماع بمتابعة الرسل فيما يبلغونه لها عن الله تعالى، فلو لم يكن الرسل معصومين عن تسلط الشيطان وتلبيسه عليهم لجاز أن يدخل عليهم من الباطل والضلال والكفر ما ينقض ما جاؤوا به من الحق والتوحيد والهدى، وحينئذ بمقتضى وجوب عموم اتباعهم فيما جاؤوا به تكون الأمة مأمورة باتباعهم فيما ألقاه الشيطان إليهم من الباطل والضلال والشرك والكذب، حتى يرفع استقرار هذا الضلال بتنبيههم إلى أن هذا من عمل الشيطان وليس من عند الله، وكون الأمة مأمورة باتباعهم على هذا الباطل ينقض رسالاتهم من أساسها محال لأنه يناقض تمام المناقضة أصل رسالاتهم.

وأما من جهة النقل، فلقوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقوله حكاية عن إبليس في نفيه استطاعة التضليل لعباد الله المخلَصين: ﴿ إلا عبادك منهم المخلَصين ﴾ وبإزالة هذه الوساوس الشيطانية والشبه الإضلالية يتميز الحق وهو ما جاءت به الرسل من الهدى والتوحيد عن الباطل وهو ما يلقيه الشيطان من الوسوسة والأباطيل في أنفس المشركين والذين في قلوبهم مرض ليصدهم عن قبول الحق، وفي صدور ضعفاء المؤمنين ليشككهم في عقائد التوحيد والإيمان والهداية، وبهذا التمييز لا تختلط آيات الله ودلائل توحيده وبراهين صدق أنبيائه ورسله ومحكم شرائعه بغيرها من أباطيل الشُّبَه الشيطانية. ثم قال الإمام ابن تيمية: وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهراً يسمعه الناس لا باطناً في النفس.

قلنا: إذا كان ما ألقاه الشيطان إنما ألقاه في أسماع أوليائه من الكفرة الفجرة، ولم يلفظ به النبي ﷺ لعصمته عن تلبيس الشيطان ـ كما هو منزع الإمام ابن تيمية ـ وقد وقعت الفتنة بما سمعوه وهم بمعزل عن إحكام آيات الله ـ فلا قيمة لنسخ ما ألقاه الشيطان في مسامعهم، ولم يختلط بآيات الله الموحَى بها إلى الرسول لصونها وإحكامها عن زيادة الشيطان.

على أن قول الشيخ الإمام ابن تيمية: وجعل ما ألقى الشيطان فتنة

للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ظاهراً يسمعه الناس لا باطناً في النفس، دعوى مجردة من الدليل، لأن ما يلقي الشيطان من الشبهة والأضاليل في قلوب أعداء الإسلام أشد فتنة للقاسية قلوبهم من المشركين المعاندين والذين في قلوبهم مرض من المنافقين، لأن الشبهة والأضاليل تؤثر في القلب وتغطّيه بالران وظلمة الكفر وحيرة الشك وتؤثر في العقل فتفسد إدراكاته، وأما ما يسمع ظاهراً ففتنته ضعيفة موقوتة بسماعه والسماع لا يستقر أثره، بل يذهب مع تيارات النسيان، ونزغات الشيطان.

ثم قال الإمام ابن تيمية: والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل من نوع آخر من النسخ، وهذا النوع ـ أي الفتنة بإلقاء الشيطان في قراءة النبي ﷺ كلمات الكفر ومدح الأوثان، ثم نسخ ذلك بعد زمن قد يطول وقد يقصر ـ أدلّ على صدق الرسول، وبعده عن الهوى من ذلك النوع ـ أي النسخ الاصطلاحي المعروف في أصول الفقه المتفق على جوازه ووقوعه من جمهور الأئمة ولم يخالف فيه جوازاً أو وقوعاً سوى شذوذ من الناس، وقد شهر بهذه المخالفة أبو مسلم الأصفهاني ومن تقبّله من المتأخرين.

وهذا النوع هو المعروف بإزالة حكم شرعي بحكم شرعي آخر لحكمة تشريعية؛ كتخفيف الحكم الأول، أو انتهاء زمن العمل به، أو زوال أثر الحكم الأول، أو كون الحكم الثاني أزجر منه عند كثرة الفساد وشيوعه.

قلنا: إن جعل نوع نسخ ما ألقاه الشيطان من كلمات الكفر أدلّ على صدق الرسول من نوع النسخ الاصطلاحي أمر عجيب في قياس الاستقامة العلمية ومنطق العقل، وإلا فكيف يكون نسخ ما ألقى الشيطان من كلمات الشرك والكفر على لسان النبي ﷺ في قراءته لآيات الله بعد استقراره زمناً ما ـ وهو محال ـ أدل على صدق النبي ﷺ وبعده عن الهوى، وهذا النسخ بهذا المعنى يدل على أن النبي ﷺ قبل من الشيطان كلمات الكفر وأدخلها في آيات الله على أنها وحي الله تعالى وقرآنه، واستقر عنده

زمناً حتى نسخ وأزيل بوحي جديد!! ولو صحّ هذا وما زعمه الغرنوقيون ـ فماذا بقي للنبي ﷺ من معالم العصمة وثقة الأمة المأمورة بمتابعته في جميع ما يبلغه عن الله تعالى؛ وقد بلَّغها هذا الكفر الخبيث في زعم الغرنوقيين القائلين بثبوت أكذوبة الغرانيق كما جاءت بها المراسيل الواهية الباطلة، وما هو الضمان عند الأمة في أن تقبل وتصدق أن الوحي الناسخ لأكذوبة الشيطان هو وحي صادق من عند الله وليس من تلبيس الشيطان، وما هو الضمان عند الأمة فيما ينزل على النبي ﷺ بعد ذلك من الوحي لتتقبله وتتمثل لإحكامه تحقيقاً لوجوب المتابعة؟.

أما نسخ حكم شرعي بحكم شرعي آخر لحكمة اقتضت ذلك وكلاهما ـ بالقطع ـ من عند الله فهو الدال على صدق النبي ﷺ وبعده عن الهوى؛ لأن الناسخ والمنسوخ كلاهما من عند الله تعالى بوحيه القاطع بلا افتراء، وكلاهما شرع صادق واجب الامتثال في زمنه، وليس للشيطان فيه أي مدخل، والنبي ﷺ متبع في هذا النوع من النسخ أمر الله تعالى محقق لقول الله: ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ وقوله: ﴿ وما يَنطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾.

ثم قال الإمام ابن تيمية: فإنه ـ أي الرسول صلوات الله عليه وسلامه ـ إذا كان يأمر بأمر ثم يؤمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك، فإذا قال عن نفسه: إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق.

قلنا: هذا الكلام مغلق غامض، بل ظاهر التناقض، فعبارة الشيخ الإمام السابقة تقرر أن نوع النسخ فيما يلقيه الشيطان أدل على صدق النبي ﷺ وبعده عن الهوى، وعبارته هنا تقرر أن النبي ﷺ يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه، وكلاهما من عند الله، وهو مصدق في الأمرين ـ هذا مسلم في نوع النسخ الشرعي الذي هو إزالة حكم شرعي بحكم شرعي آخر لحكمة مقتضية لذلك.

أما نوع النسخ الذي أزال فيه الوحي الصادق حكماً شيطانياً بحكم إلٰهي منزل من عند الله ـ في زعم مثبتي أكذوبة الغرانيق ـ فإن النبي ﷺ لم يأمر فيه بأمر ثم أمر بخلافه، وإنما الذي زعمه مثبتو أكذوبة الغرانيق الخبيثة الباطلة أن الشيطان هو صاحب الأمر الأول بإلقائه ـ كما تقول روايات الأكذوبة ـ على لسان النبي ﷺ كلمات أخبث الكفر وأن النبي ﷺ قبل ذلك، وتلاه فيما تلا من آيات الله، واستقر ذلك عنده اعتقاداً حتى سجد في آخر السورة وسجد معه المشركون تعظيماً لآلهتهم التي مدحت بهذا الكلام الخبيث حتى نزل ملك الوحي بعد مضي قدر من الزمن، فاستقرأ النبي ﷺ آيات السورة التي جاء بها إليه فقرأ النبي ﷺ وزاد ـ في زعم مثبتي أكذوبة الغرانيق ـ كلمات الشيطان في مدح الأوثان، فنبهه جبريل عليه السلام وقال له: هذا من الشيطان فكيف ينسب للنبي ﷺ وهو المحفوظ بالعصمة من تلبيس الشيطان أنه يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه في قصة الغرانيق الكاذبة الباطلة؟ وكيف يكون مصدقاً في الأمرين؟ الأمر الأول، وهو زعم إلقاء الشيطان على لسانه أخبث الكفر، والأمر الثاني وهو إزالة هذا الضلال الكفور الذي يستحيل أن يكون النبي ﷺ قاله بَلْه أمر به، وإذا صدق في الأمرين في أكذوبة الغرانيق، فماذا يبقى له ﷺ من الثقة به في النفس لتتلقى عنه ما يبلغه من رسالته عن الله تعالى من الهداية؟.

وإذا قال بعد ذلك أنه أمر بالأمرين: أمر الحق الذي أزال به ما ألقاه الشيطان، وأمر الباطل الذي لبَّس به عليه الشيطان أن الأمر الثاني ـ أي الناسخ لما ألقاه الشيطان من الكفر والضلال هو من عند الله وأن الأمر الأول المنسوخ ليس كذلك ـ أي ليس من عند الله ـ فكيف يكون ذلك أدل على اعتماده الصدق وقوله الحق، ولا شك أن الأمر الأول كذب وافتراء على الله تعالى يستحيل وقوعه من النبي ﷺ.

فإذا قال الغرنوقيون أنه قد وقع فقد نسبوا الكذب المتعمد على الله إلى النبي ﷺ فيما بلَّغه عنه، فأين الصدق الذي يدلّ عليه؟ وإذا نسب إليه ﷺ الكذب في الأمر الأول المنسوخ فما برهان صدقه في الأمر الثاني

وهو الناسخ الذي نزل لمحو الباطل، وأنه ليس من عند الله، وإنما هو من عمل الشيطان وتلبيسه.

هذه كلها أباطيل حيكت من نسج الزندقة وأخبث الكفر، وخدع بها الأغرار - إن صحت بعض روايات المراسيل في أكذوبة الغرانيق - فكيف قبلها الشيخ الإمام ابن تيمية، وهو صاحب الرسوخ في فقه الرواية ونقد الأسانيد؟.

وقد انتهى الشيخ الإمام ابن تيمية إلى القول بأن الذين يثبتون العصمة بمعنى عدم وقوع الذنب من الأنبياء والمرسلين ولا سيما فيما يبلِّغونه عن الله تعالى تأولوا بمثل تأويلات (الجهمية) و(القدرية) و(الدهرية) لنصوص (الأسماء والصفات) ونصوص (القدر) ونصوص (المعاد)، بل أوسع الشيخ في التهمة للنافين وقوع الذنب من الأنبياء والرسل فرماهم (بالقرمطة) إلى أن قال: وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم.

وتهمة (الجهمية) و(القدرية) و(القرمطة) تهمة تقليدية شائعة، ولا سيما في عصر الشيخ الإمام ابن تيمية على ألسنة المنتحلين لطريقته ومذهبه، يُرمى بها كل من يفهم نصوص الأسماء والصفات فهماً تنزيهياً يليق بجلال الله وكمال ألوهيته.

وإنما عرضنا رأي الشيخ الإمام وناقشناه مناقشة تفصيلية بعدما منّ الله به في إبطال أقصوصة الغرانيق، لأن دوي سمعة الشيخ وهالات الإجلال من حوله جعل كثيراً من الناس لا يتفقهون فيما قيل، ولكنهم يكتفون بمن قال، فأردنا أن ننبه على ما في إثبات أكذوبة الغرانيق من خطورة على العقيدة التوحيدية التي كان الشيخ الإمام أحرص عليها، وعلى دعائمها بنى مريدوه والآخذون بآرائه مجده التاريخي بين أعلام أئمة علماء الأمة.

وقد ناقشنا رأي الشيخ الإمام في أقصوصة الغرانيق - مناقشة بحث

علمي وهي أشد هدماً للعقيدة التوحيدية من كثير من القضايا والمسائل التي قُرِن بها اسمه في اجتهادياته، ولقي في سبيلها كثيراً من البلاء والمحن - لئلا يقع في خطئها من يتمسك بالتقليد والاغترار بهالات الأسماء.

والبحث العلمي لا يقف هيَّاباً لهالات الأسماء وإنما يقف مع الحجة والبرهان، وقد حُذِّرنا من زلّة العالِم، وعثرةُ الأكابر لالعاً لها، والله يهدي من يشاء وإليه المصير.

جرأة ورأي متزيِّد أهوج
للمدعو إبراهيم الكوراني

للشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني أحد علماء القرن الحادي عشر الهجري رأي متزيِّد جريء أهوج حاول فيه تصحيح قصة الغرانيق الكاذبة الباطلة حتى كأنه هو واضعها، لم يكتف فيه بالبحث في أسانيد روايات القصة كما صنع غيره من مثبتيها، ولم يبال بما تؤدي إليه من معان خطيرة في سيرة سيد المرسلين، ولكنه تزيَّد باجتهاده، متعالماً، واختلق للقصة سبباً وحكمة لم يسبقه إليهما أحد من أهل العلم في ملة الإسلام، زعم أنها وقعت لهذا السبب بتلك الحكمة، وخف على نفسه ودينه أن يقيم منهما حَكَمًا على النبي ﷺ، ليكشف أنه ﷺ كان مفتقراً إلى (التأديب) لأنه افتات على إرادة الله وقدره، فأراد إيمان الناس جميعاً، والله لم يرد ذلك ولا قدّره، فكان ـ ﷺ ـ محلاً للتأديب والتصفية من آثار هذه الإرادة حتى تفنى إرادته في إرادة الله تعالى، فلا يريد إلا ما يريد الله ويقدِّره، فسلَّط الله عليه الشيطان ليغويه ويلقي على لسانه في أثناء تلاوته لآيات الله المنزلة من عند الله كلمات كافرة تمدح الأوثان، وتجعل منهم شفعاء لعابديهم، تُرْضى شفاعتهم وتُرْتجى، وإذا كان شيء غير أكفر الكفر يمكن أن يوصف به هذا الهوج الأحمق فليكن هذا الوصف مستعاراً لنعت موقف الكوراني، إبراهيم بن حسن، خاتمة المتزندقين في عصره.

فإذا قيل للشيخ إبراهيم الكوراني: إن الله تعالى عصم أنبياءه عن تسلط الشيطان عليهم وأخبر عن هذه العصمة في قوله تعالى: ﴿إن

عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[1] وقوله تعالى حاكياً على لسان إبليس استثناءهم من إغوائه: ﴿لأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[2] قال في تأويل آيات الله في فلسفة متزندقة لم يجرؤ أحد من مثبتي أبطولة الغرانيق على القول بمثله: إن السلطان المنفي هو الإغواء، أعني التلبيس المخل بأمر الدين وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه، وأما الإغواء غير المخل بأمر الدين فلا دليل على نفيه ولا إجماع على العصمة منه. إذاً هناك إغواءان للشيطان في زعم هذا الكوراني، إغواء يخل بأمر الدين، وإغواء لا يخل بأمر الدين، قلنا: أليس هذا تحريفاً في تفسير آيات الله تعالى المنزّهة لعباده المخلَصين عن تسلط الشيطان عليهم بإغوائه وإضلاله وتلبيسه، والآيات مطلقة في نفي سلطان الشيطان وإغوائه والإطلاق هو اللائق بعصمة الأنبياء، فمن أين للشيخ الكوراني هذا التقسيم المخترق، الذي جعل من إغواء الشيطان إغواء مخلاً بأمر الدين، هو فقط مخلٍ العصمة عند الشيخ الكوراني، وإغواء لا يخل بأمر الدين فليس هو مخلاً لعصمة تمنع من وقوعه وتسلط الشيطان على الأنبياء به؟ ثم كيف يكون إغواء الشيطان غير مخل بالدين وعداوة الشيطان كلها للإنسان مرجعها إلى إفساد الدين بتزيين الكفر والفسوق والعصيان؟.

وإذْ فرض الشيخ الكوراني هذا التقسيم المبتدع واقعاً، فليكن شرعاً وديناً تسري أحكامه على الناس الأنبياء فمن دونهم، وليكن الإغواء الذي لا يُخلّ بأمر الدين ـ وإن كان لا وجود له في واقع الحياة ـ هو الذي لا تتعلق به العصمة، وبه يتسلط الشيطان عليهم فيغويهم ويضلهم ويلبّس عليهم، ويريهم أن الشيطان ملكٌ، وأن الملك شيطان، وأن الأوثان آلهة تشفع لعابديها، وشفاعتها مرجوة مرتضاة.

وبهذا الإغواء ـ الذي لا يخل بأمر الدين ـ وقعت أخلوقة الغرانيق لتأديب النبي ﷺ على افتئاته على الله تعالى، وفرض إرادته في إيمان الناس

---

(1) سورة الحجر آية (٤٢).

(2) سورة ص آية (٨٢ ـ ٨٣).

جميعاً، مراغمة لإرادة الله تعالى الذي لم يرد إيمان جميع الناس ولا قدره.

هكذا منطق فلسفة الشيخ إبراهيم الكوراني المتزندقة الذي أدار به الكلام في أكذوبة الغرانيق المتزندقة، فالشيطان أغوى سيد الخلق محمداً ﷺ إغواء لا يخل بأمر الدين، ولبَّس عليه وأراه أنه أمين الوحي جبريل، وألقى على لسانه، وهوﷺ يتلو آيات الله تعالى المنزّلة عليه في سورة النجم، كلمات أخبث الكفر، تمدح الأوثان، وتؤكد أن لها شفاعة مرجوة مرتضاة، فيتقبل النبي ﷺ هذه الكلمات الخبيثة الكافرة على أنها مما نزل عليه من آيات الله ـ من قبيل الإغواء الذي لا يخل بأمر الدين في شرعة الشيخ إبراهيم الكوراني ـ ويبقى النبي ﷺ على هذا الإغواء زمناً لا يُدرى مدى طوله، حتى ينزل عليه أمين الوحي جبريل فيستقرئه ما أنزله عليه من آيات الله، فيقرأ النبي ﷺ الآيات من أول سورة النجم إلى قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ثم يقول بعدها: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فيقول أمين الوحي جبريل: ما جئتك بهذا، هذا من الشيطان.

هذا هو الإغواء التي تزعم أخلوقة الغرانيق في رواياتها الباطلة أنه وقع للنبي ﷺ لتأديبه في نظر فلسفة الشيخ الكوراني، وأنه لم يعصم منه، لأنه إغواء لا يخل بأمر الدين في شرعة الشيخ إبراهيم الكوراني. وإذا كانت زيادة كلمات الكفر بأبشع صورة في آيات القرآن الكريم إغواء غير مخل بأمر الدين والنبي ﷺ غير معصوم منه، فأين الإغواء المخل بأمر الدين الذي يعصم منه؟.

وقد انفرد الشيخ إبراهيم الكوراني في سبيل تصحيح أكذوبة الغرانيق الباطلة بأمرين لم يقل بهما أحد من متقدمي أهل العلم ولا متأخريهم.

الأمر الأول: هذا التقسيم لإغواء الشيطان إلى إغواء لا يخل بأمر الدين، فلا يعصم منه الأنبياء فمن دونهم، وإغواء يخل بأمر الدين فيعصم منه الأنبياء، فالقسم الأول يكون للشيطان فيه سلطانه المطلق الذي يعبث

في العقائد والعبادات وسائر الفضائل يضل به الأنبياء فمن دونهم من خُلَّص المؤمنين، والقسم الثاني هو المنفي فيه سلطان الشيطان في القران الكريم، وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه.

الأمر الثاني: أن الشيخ إبراهيم الكوراني في سبيل تصحيح أكذوبة الغرانيق الباطلة ابتدع حكمة لوقوعها بصورتها التي حكتها الروايات الواهية الواهنة، ولا ندري ـ وهو العالم الذي يصفه العلّامة الآلوسي بخاتمة المتأخرين ـ كيف خف على نفسه ودينه اختلاقها ورضيها على علمه ودينه لتصحيح أكذوبة ضالة مضلة كافرة خبيثة.

وكلام الشيخ إبراهيم الكوراني اعتمدنا في نقله ومناقشته على نقل العلّامة المفسّر الجامع شهاب الدين محمود الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) لأننا رأيناه يقول عنه (شيخنا)، ولكنه كان في سوق كلامه ومناقشته حر الكلمة منطقي الجدل، لا يمنعه توقير فضل (المشيخة) من الجهر بالحق.

قال الآلوسي: وذهب إلى صحة القصة ـ أي أكذوبة الغرانيق ـ الشيخ إبراهيم الكوراني ثم المدني، وذكر ـ أي الكوراني ـ بعد كلام طويل: أنه تحصَّل من ذلك أن الحديث ـ أي رواية قصة الغرانيق ـ أخرجه غير واحد من أهل الصحة ـ هذا كذب ـ وأنه رواه ثقاة بسند سليم ـ وهذا تضليل ـ متصل عن ابن عباس، وبثلاثة أسانيد صحيحة عن ثلاثة من التابعين من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، وهم سعيد بن جبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو العالية.

قلنا: وهذا استدلال فاسد، قد أشبعنا القول في بيان فساده عند الكلام على روايات الأكذوبة الغرنوقية التي ساقها السيوطي في كتابه (الدر المنثور) وهي روايات مستوعبة، وعند الحديث مع الإمامين: الحافظ ابن حجر، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وحسبنا في هذا التذكير بقول الحافظ ابن حجر ـ وهو القائل بأن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً ـ بعد أن ساق ما تخيَّر من روايات القصة وطرقها عن ابن عباس وتلاميذه: وكلها

سوى طريق سعيد بن جبير، إما ضعيف، وإما منقطع.

وما نظن أن أحداً يعتقد أن طائر خاتمة المتأخرين الشيخ إبراهيم الكوراني يقع في أفق الحافظ ابن حجر، وهو المتفق على إمامته في فنون الحديث والأثر، وله فيها المؤلفات التي تقوم عليها دراسة علوم الحديث في معاهد الإسلام وجامعاته.

وقد بيَّنا ضعف حديث سعيد بن جبير الذي استثناه الحافظ ابن حجر من حكمه على جميع روايات القصة بالضعف أو الانقطاع مما يسلبه صحة الاحتجاج به، وبيَّنا وجه ضعف حديث سعيد هذا بما دخل في طريقه عن سعيد بن جبير من الشك في اتصاله بالحبر ابن عباس، حيث قال فيه سعيد عن ابن عباس (فيما أحسب)، والشك من أقوى دلائل الضعف وعدم صحة الاحتجاج.

وحسبنا في رد ادعاء الشيخ إبراهيم الكوراني في قوله: إن حديث القصة الغرنوقية أخرجه غير واحد من أهل الصحة، وأنه رواه ثقاة بسند سليم متصل، قول الإمام **أبي بكر البيهقي**: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، فهل يقال هذا الكلام من إمام لا يختلف الناس في سعة علمه بالحديث وفنونه، في حديث يخرجه غير واحد من أهل الصحة، ويرويه ثقاة بسند سليم متصل؟.

وإذا كان في كلمة الإمام البيهقي إجمال فلنسق قول جهبذ المحدثين الشافي من داء الإجمال في شفائه؛ القاضي عياض بن موسى اليحصبي: يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ـ أي من أضراب الكوراني ـ.

هذا نص مفصل الكلمات في ردّ ادعاء الشيخ إبراهيم الكوراني، فالحديث لم يخرجه أحد قط من أهل الصحة، ولا رواه قط ثقة بسند

صحيح سليم من النقد والوهن، متصل بصحابي، فضلاً عن النبي ﷺ.

ونضيف إلى كلام هؤلاء الأئمة في ردِّ ادّعاء الشيخ إبراهيم الكوراني أن حديث الغرانيق أخرجه غير واحد من أهل الصحة ورواه ثقاة بسند سليم متصل ما سبق لنا؛ وهو كلام نرد به على كل من تمسك بمراسيل الروايات ـ ولو صحت أسانيدها ـ في تصحيح قصة الغرانيق، وقد قدمناه ولكنا نعيده لنؤكد أن قصة الغرانيق أكذوبة باطلة خبيثة من وضع الزنادقة أعداء الإسلام.

ذلك أن هذه الأقصوصة الغرنوقية أكذوبة أحاديثها كلها مرسلة، وأن الحديث المرسل من قبيل الضعيف عند جمهور المحدِّثين كما صرح به ابن الصلاح، والمتصل منها بابن عباس وهو حديث سعيد بن جبير دخله الشك، وهذا قطعاً يضعفه، ويوهن الاحتجاج به، وهو مع هذه العلة القادحة له علة أخرى، هي أنه موقوف على ابن عباس لم يرفع قط إلى النبي ﷺ.

وقصة الغرانيق تدخل في صميم العقيدة، لأنها تناقض التوحيد، وتبطل عصمة الأنبياء، وترفع الثقة بالنبوة والوحي، وكل ذلك لا يقبل في ثبوته حديث مرسل ولا حديث موقوف، بل ولا حديث آحادي صحيح متصل، وإنما يقبل فيه النص القطعي المتواتر لفظاً ومعنى.

وقد ذكر الآلوسي المفاسد التي تلزم على القول بأن النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان الملبِّس بالملك، ثم ذكر ردود الشيخ الكوراني عليها، ونحن نذكر هذه المفاسد ونذكر ردود الشيخ الكوراني عليها، ومناقشة الآلوسي له في ردوده، مضيفين إليه ما نوفق في فهمه، قال العلاّمة الآلوسي:

(١) **المفسدة الأولى**: تسلط الشيطان عليه، عليه الصلاة والسلام، وهو بالإجماع معصوم من الشيطان، ولا سيما في هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد وقد قال تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان

إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون؛ إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون ﴾[2].

قال الكوراني في رده على هذا الوجه من المفسدة: ان السلطان المنفي عن العباد المخلَّصين هو الإغواء - أعني التلبيس المخل بأمر الدين، وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه، وأما غير المخل فلا دليل على نفيه - قلنا: ولا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول - ولا إجماع على العصمة منه، قلنا: هذا افتراء، وإلا فأين من خالف؟.

وما هنا غير مخل لعدم منافاته للتوحيد، بل فيه تأديب وتصفية وترقية للحبيب الأعظم ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام تمنى الهدى للكل، وليس عليه، عليه الصلاة والسلام حالة الإلقاء تمنى هَدْي الكل المصادم للقَدَر المنافي لما هو الأكمل، ليترقى إلى الأكمل، وقد حصل ذلك بهذه المرة، ولذا لم يقع التلبيس مرة أخرى، بل يُرْسَل بعدُ من بين يديه ومن خلفه رصداً الخ . . .

وقد قدمنا بعض القول في مناقشة هذه المفسدة، وها نحن أولاء نسوق ما ساقه الآلوسي في رد هذه المفسدة مع ما يسنح للفكر فنضيفه إلى كلامه.

قال العلّامة الآلوسي في نقض اعتراض الكوراني على المفسدة الأولى: إن التلبيس بحيث يشتبه الأمر على النبي ﷺ فيعتقد أن الشيطان ملَك مخل بمقام النبوة ونقص فيه، فإن الولي الذي هو دونه عليه الصلاة والسلام بمراتب لا يكاد يخفى عليه الطائع من العاصي، فيدرك نور الطاعة وظلمة المعصية، فكيف بمن هو سيد الأنبياء ونور عيون قلوب الأولياء يلتبس عليه من هو محض نور بمن هو محض ديجور، . . . ولذلك قال المحققون: إن الأنبياء عليهم السلام ليس لهم خاطر شيطاني، وكون ذلك

(١) سورة الحجر آية (٤٢).
(٢) سورة النحل آيتا (٩٩ - ١٠٠).

ليس منه، بل كان مجرد إلقاء على اللسان دون القلب ممنوع ـ وإلا فما دليله؟ ـ ألا ترى أنه قال تعالى: ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ دون ألقى الشيطان على لسانه، وتسمية القراءة أمنية، لما أن القارىء يقدر الحروف في قلبه أولاً ثم يذكرها شيئاً فشيئاً، وأيضاً حفظه لذلك ﷺ إلى أن أمسى كما جاء في بعض الروايات، فنبهه جبريـل عليهما السلام ـ يبْعد كون الإلقاء على اللسان فقط، على أنا لو سلّمنا ذلك وقلنا: إن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ، ولم يلقِ في قلبه كما هو شأن الوحي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ وقلنا إن ذلك مما يعقل ـ للزم أن يعلم ﷺ من خلو قلبه واشتغال لسانه أن ذلك ليس من الوحي في شيء ولم يحتج إلى أن يعلمه جبريل عليه السلام، والقول بأنه لُبِّس عليه الحال عليه الصلاة والسلام للتأديب والترقية إلى المقام الأكمل في العبودية، وهو فناء إرادته ﷺ في إرادة مولاه عزّ وجلّ حيث تمنى إيمان الكل وحرص عليه، ولم يكن مراداً لله تعالى مما لاينبغي الالتفات إليه، لأن القائل به زعم أن التأديب بذلك كان بعد قوله: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سُلّماً في السماء فتـأتيهم بـآيـة، ولـو شـاء الله لجمعهم عـلى الهدى؛ فـلا تكـونن من الجاهلين﴾[1] ولا شك أن التأديب به لم يُبق ولم يذر، ولم يقرن بما فيه تسلية أصلاً، فإذا قيل ـ والعياذ بالله ـ إن ذلك لم ينجع فكيف ينجع ما دونه؟.

وأيضاً أية دلالة في الآية على (التأديب) وهي لم تخرج مخرج العتاب، بل مخرج التسلية على أبلغ وجه عما كان يفعل المشركون من السعي في إبطال الآيات، ولا نسلم أن ترتيب الإلقاء على التمني مع ما في السياق والسياق مما يدل على التسلية عن ذلك يجدي نفعاً في هذا الباب كما لا يخفى على ذوي الألباب.

ويرد على قوله: أنه بعد حصول التأديب بما ذكر كان يُرْسَل من بين

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٥).

يديه ومن خلفه رصد يحفظونه من إلقاء الشيطان، أنه لم يدل دليل على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك، بل الظاهر أن ذلك كان في جميع الأوقات، فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾[1] قال: كان النبي ﷺ إذا بُعث إليه الملك بالوحي بُعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان بالمَلَك، وقد ذكروا أن (كان) في ذلك للاستمرار.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة، وهذا صريح في ذلك، ولا شك أن الإلقاء عند من يقول به كان عند نزول الوحي، ثم ساق الآلوسي حديث ابن عباس من طريق العوفي عند ابن جرير وابن مردويه للاستدلال على أن الإلقاء كان عند نزول الوحي، وقد تقدم هذا الحديث في أحاديث الدر المنثور، ثم قال الآلوسي معقباً على الحديث: فعلى هذا ونحوه يكون الرصد موجوداً مع عدم ترتب أثر عليه... ثم أية فائدة في إنزال الرصد إذا لم يحصل به الحفظ؟ بل كيف يسمى رصداً.

(٢) المفسدة الثانية: من المفاسد اللازمة على القول بأن الناطق بما ألقاه الشيطان هو النبي ﷺ: زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه، وذلك مما يستحيل عليه، عليه الصلاة والسلام لمكان العصمة.

وأجاب الشيخ إبراهيم الكوراني على هذا الوجه من المفسدة فقال: إن المستحيل المنافي للعصمة أن يزيد ﷺ ـ أي في القرآن ـ من تلقاء نفسه ـ هذا افتراء ـ أي يزيد فيه ما يعلم أنه ليس منه، وما هنا ليس كذلك، لأنه عليه الصلاة والسلام إنما اتبع فيه الإلقاء الملبَّس عليه في حالة خاصة فقط تأديباً أن يعود لمثل تلك الحالة.

---

(١) سورة الجن آية (٢٧).

قال العلاّمة الآلوسي: وما ذكر في هذا الاعتراض - أي على المفسدة الأولى - يعلم منه ما في - الجواب الثاني من الاعتراض، وهو ظاهر.

ونحن نقول: يالله من علم يفرق بين زيادة في القرآن، يزيدها الشيطان، ويلقيها إلى النبي ﷺ، ويتقبلها النبي ﷺ على أنها من القرآن معتقداً قرآنيتها - كما يزعم الغرنوقيون من أمثال الكوراني - بعد أن لبّس عليه الشيطان وأراه أنه ملك الوحي، ويتلوها النبي ﷺ ملبِّساً بها على الأمة، ويدعوها - بمقتضى وجوب التأسي به ومتابعته فيما يبلغه عن الله تعالى - وهو في غمرة التلبيس عليه إلى اعتقاد ما فيها من الشرك ومدح الأوثان مما يناقض عقيدة التوحيد التي هي أساس للرسالة التي بعثه الله بها، هذا منطق مأفون.

وبين زيادة في القرآن تكون من النبي ﷺ - كما زعم الكوراني - فتجعل الزيادة الشيطانية الخبيثة ممكنة الوقوع بل واقعة - في زعم الغرنوقيين - ولا تنافي العصمة، والزيادة من النبي ﷺ - وهي مستحيلة الوقوع - هي التي تنافي العصمة، فالشيطان يزيد في القرآن ما يشاء من الكفر والشرك، والنبي ﷺ يتقبل زيادات الشيطان ويبلّغها لأمته على أنها من عند الله، وتسلب عنه ﷺ خاصة العلم بالقرآن وبراعة أسلوبه ومعانيه الإيمانية، وحقائقه التوحيدية.

هذا هو البلاء الذي ليس فوقه بلاء، وارحمة للإسلام والمسلمين من هذا العلم الكفور الذي يصيب كبد الإسلام فيزهق روحه ويقضي على أصوله تحت ظلال تكوير العمائم الضخمة.

وقد لمح العلاّمة الآلوسي أن ردّ الشيخ إبراهيم الكوراني على الوجه الثاني من المفاسد اللازم على صحة أخلوقة الغرانيق يحمل في طياته أن النبي ﷺ إذا قبل ما ألقى الشيطان على لسانه لم يكن على علم بإعجاز القرآن، فأخذ في بيان هذا فقال: وقد يقال أن إعجاز القرآن معلوم له ﷺ ضرورة كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري، بل قال القاضي: إن كل بليغ

أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يعلم ضرورة إعجازه، وذكر أن الإعجاز يتعلق بسورة أو قدرها من الكلام بحيث يتبين فيه تفاصيل قوى البلاغة.

فإذا كانت آية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر فهو معجز، وعلى هذا يمتنع أن يأتي الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً بمقدار أقصر سورة منه تشبهه في البلاغة، ومتى أتى أحد بما يزعم فيه ذلك لم تنفق سوقه عند رسول الله ﷺ، وكذا عند كل بليغ محيط بما تقدم، ولم يخف على الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا على ذلك البليغ عدم إعجازه، فلا يشتبه عنده بالقرآن أصلاً، ولا شك أن ما ألقى الشيطان على ما في بعض الروايات حروفه بقدرحروف سورة الكوثر، بل أزيد إن اعتبر الحرف المشدد بحرفين، وهو: وإنهن لهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن، لهي التي ترتجى، الوارد فيما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب.

فان كان ما ذكر مما يتعلق به الإعجاز، فإن كان معجزاً لزم أن يكون من الله تعالى لا من إلقاء عدوه ضرورة عجزه كسائر الجن والإنس عن الإتيان بذلك، وإن لم يكن مما يتعلق به الإعجاز فهو كلام غير يسير، يتنبه البليغ الحاذق إذا سمعه أثناء كلام فوقه بمراتب لكونه ليس منه، فيبعد كل البعد أن يخفى عليه، عليه الصلاة والسلام قصور بلاغته عن بلاغة شيء من آيات القرآن، سواء قلنا بتفاوتها في البلاغة كما اختاره أبو نصر القشيري وجماعة، أم قلنا بعدم التفاوت كما اختاره القاضي، فيعتقد أنه قرآن حتى ينبهه جبريل عليه السلام، لا سيما وقد تكررت على سمعه الشريف حلاوة الآيات، ومازجت لحمه ودمه، والواحد منا وإن لم يكن من البلاغة بمكان إذا سمع شعر شاعر وتكرر على سمعه يعلم إذا دُسَّ بيت أو شطر في قصيدة له أن ذلك ليس له، وقد يطالب بالدليل فلا يزيد على قوله: لأن النَفَس مختلف.

قال العلاّمة الآلوسي: وهذا البعد متحقق عندي على تقدير كون

الملقى ما في الرواية الشائعة: وهو تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، أيضاً لا سيما على قول جماعة إنَّ الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره من الجمل المفيدة، لقوله تعالى: ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ والقول بأن النبي ﷺ خفي عليه ذلك للتأديب فيه ما فيه، ولا يبعد استحقاق قائله للتأنيب، بل أبلغ التعزير، إذا لم يكن هذا الذي قاله الكوراني داخلاً في الإطار العام للارتداد عن الدين.

ونقول إذْ فتح العلاّمة الآلوسي باب الجزاء في هذه القالة الهوجاء إن القول بأن النبي ﷺ خفي عليه ذلك لتأديبه يستحق صاحبه أقصى مراتب التعزير، الذي يصح أن يبلغ به ما تبلغ خطورة الجرم وما يترتب عليها من آثار جسام، ولو انتهى إلى عقوبة الحدود المقدرة بتقدير الشرع.

(٣) **المفسدة الثالثة**: من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان: اعتقاده ﷺ ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه بعيد الالتئام متناقضاً، ممتزج المدح بالذم، وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يتساهل في نسبته للنبي ﷺ.

قلنا: وشناعة خطئه تظهر فيما يأتي: .

أولاً: نسبة النبي ﷺ إلى أنه لا يفرق في أسلوب الكلام بين كلام الله المعجز ببراعة أسلوبه وروعة بيانه وهو ﷺ القيِّم الأعلى، والعقل الأول في معرفة إعجاز القرآن، ذلك الإعجاز الذي عرفه آحاد الأعراب، وأفراد العرب فسجدوا له عند سماعه ولم يكونوا قد آمنوا به، فقد روي مشهوراً أن أحد الأعراب سمع قوله تعالى: ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ فسجد، فقيل له في ذلك، ولم يكن مؤمناً، فقال: إنما سجدت لروعة بلاغته، وقصة الوليد بن المغيرة، وقد سمع بعض آيات القرآن فقال قولته المشهورة: (والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما هو بقول بشر) وموقف عتبة ابن ربيعة حين سمع في وفادته إلى النبي ﷺ ليعرض عليه المال والجاه، والملك، ويكف عن تبليغ رسالته التي تسفه أحلام قريش وتعيب آباءهم،

وتسب آلهتهم ـ سورة فصلت، ورجع إلى قومه بوجه غير وجهه الذي فارقهم عليه لما لحقه من الأخذة والدهش لسماعه ما لم يسبق له أن سمع مثله روعة وبراعة وبلاغة ومعانٍ وحقائق كونية، وأمثالها من الأحداث المشهورة المعروفة في تاريخ مطلع الرسالة وأيام كفاحها الأولى في نضالها المرير.

هؤلاء الأجلاف أهل الجهالة الجاهلة، والوثنية الضالة، يدركون إعجاز القرآن ويفرقون بينه وبين سائر الكلام، ومحمد سيد البشر لقانة وعقلاً وأفضلهم فضلاً، وأنبلهم نفساً، وأصفاهم طبيعة، يُدخل عليه الشيطان أقبح الكلام عقيدة، وأسقطه أسلوباً، وأحطه معاني، فيتقبله ـ في زعم الغرنوقيين ـ ويعتقده قرآناً مع تهافته وعدم التئامه بما سبقه وما لحقه في ـ زعم الغرنوقيين ـ وما فيه من التناقض وامتزاج المدح بالذم، والكفر بالإيمان، والتوحيد بالشرك، هذا الذي لم يكن ولا يكون، وهو المستحيل عقلاً ونقلاً، ولا يعتقده مؤمن، ولا يقبله إلا عقل ممرور.

أما من جهة العقل فلما يلزمه لزوماً بيّناً من نسبة الجهل بإعجاز القرآن إلى النبي ﷺ، ولما يلزمه لزوماً بيناً من الافتراء على الله وتقويله ما لم يقل، وما ينزله في وحيه، ولما يلزمه لزوماً بيناً من سلب العصمة عن النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى، والعصمة في هذا مما أجمع عليه الناس سوى الغرنوقية، ولما يلزمه لزوماً بيّناً تبليغ الكفر في مدح الأوثان إلى الأمة، وهي مأمورة بالتأسي بالنبي ﷺ ومتابعته فيما يبلغه إليها، وهذا يتضمن هدم الرسالة التوحيدية، ويرفع أعلام الشرك، ولما يلزمه لزوماً بيناً من رفع الثقة بالنبي ﷺ والوحي كله فيما يستقبل من الزمان.

وأما من جهة النقل فلقوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ولما يلزمه من تصديقه للكافرين في قولهم عن القرآن: ﴿ بل افتراه ﴾[1] وفي قولهم: ﴿ افترى على الله كذباً ﴾[2] ولقوله تعالى: ﴿ ولو

(١) سورة الأنبياء آية (٥).
(٢) سورة الشورى آية (٢٤).

تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين﴾ ولقوله تعالى: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ وقوله: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ إلى كثير من النصوص القرآنية والآيات التي تتحدث عن تبليغ رسالة الله تعالى إلى الخلق صدقاً وعدلاً.

لكن الشيخ إبراهيم الكوراني وأئمته الغرنوقيين لا يقتنعون بهذا كله ويضربون به لفح الأعاصير في سبيل تصحيحهم أكذوبة الغرانيق، ولا نقتحم الغيب فنتظنن لالتقاط النيات والمقاصد وإلى الله الملتقى وهو عليم بذات الصدور.

ويرد الشيخ إبراهيم الكوراني على الوجه الثالث من وجوه المفاسد الغرنوقية، فيقول الألوسي: وما ذكره في الجواب عن الثالث من أنه لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول وهو دون الأول - إذا صح الخبر - لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد، فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلّاء، عارفون بالغثّ والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه، فلم يرووه إلا مردوداً ومما ألقى الشيطان إلى أوليائه معدوداً، وهم أكثر ممن قال بقبوله، ومنهم من هو أعلم منه، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين وفات ذلك القائل بالقبول، ولعمري إن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة - أي المغفلين -، ثم وفق الله تعالى جمعاً من خاصته لإبطاله لأهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على رسول الله ﷺ ثم نسخه سبحانه وتعالى كما يقوله الغرنوقيون؛ ولا سيما وهو مما لا يتوقف على صحته أمر ديني، ولا معنى آية، ولا، ولا، سوى أنها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد.

قلنا: وسوى أنها تفتح لأعداء الإسلام المتربصين به من الملاحدة وشراذم المستشرقين، ولمآثم المبشرين المتعصبين، وهم أكثر الناس عدداً وأقواهم عدة، وأقدرهم على ترويج الباطل بما يملكون من وسائل

الترويج، ولو لم يكن من فوائد القضاء عليها ودفنها في أحشاء مختلقيها سوى سدِّ هذا الباب الشرير المفسد لكفى فضلاً للأقلام التي تشرع أسنتها لهدم باطلها وتبيين خبثها.

ونضيف إلى نقض العلاّمة الآلوسي لرد الشيخ إبراهيم الكوراني دقيقة تهدم بنيان (الغرنقة) في كلام الشيخ الكوراني.

ذلك أنه يقول: لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول ـ أي في رواية القصة الغرنوقية ـ ومعنى ذلك أن النبي ﷺ لم يلبِّس عليه، ولم يُلْق الشيطان على لسانه شيئاً، ولم يسلب العصمة، ولكنه ﷺ ـ فيما يتصور الغرانقة حين يتأولون في روايات القصة ـ حين تلا ﷺ آيات ذم الأوثان وعابديها من المشركين الوثنيين بأسلوب الإنكار والتوبيخ في قول الله تعالى: ﴿ أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ عجب من شناعة أمرهم وقبح اعتقادهم وسوء قالتهم، فبين عن إنكاره وتعجبه بحكاية ما يصفون به أوثانهم بجملة استفهامية إنكارية مقرعة، محذوفة أداة الاستفهام، أو بجملة إخبار تحكي قولهم بحذف القول.

وهذا الذي ذهب إليه الشيخ الكوراني يهدم أصل اختراقه لأقصوصة (التأديب) الذي زعمه حكمة لتلبيس الشيطان في إلقائه كلمات الكفر على لسان النبي ﷺ كما هو نص مرسل سعيد بن جبير، أصح ما تمسك به الغرنوقيون.

وإذا كان ذلك كذلك فلا وجه لطنطنة الشيخ الكوراني بأخلوقة (التأديب) الجافية والتصفية والترقية، لأن لاحق كلامه هنا يهدم سابقه، وعندئذ يرجع الكلام إلى مجرد النظر في ثبوت صحة الحديث، وقد أثبتنا ضعفه بل بطلانه، وقال عنه الآلوسي: ودون إثبات صحته خرط القتاد، ويؤيد عدم ثبوته مخالفته لظواهر الآيات، فقد قال سبحانه في وصف القرآن: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] والمراد بالباطل ما كان باطلا في نفسه وذلك الملقى كذلك، وإن

---

(١) سورة فصلت، آية: ٤٢.

سوّغ نطق النبي ﷺ به تأويله بأحد التأويلين، والمراد بـ﴿ لا يـأتيه ﴾ استمرار النفي، لا نفي الاستمرار، وقال عزّ وجلّ: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فجيء بالجملة الإسمية مؤكدة بتأكيدين، ونسب الحفظ المحذوف متعلقه إفادة للعموم إلى ضمير العظمة، وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن مافيه، وقد استدل بالآية من استدل على حفظ القرآن من الزيادة أو النقص.

وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظ لأنه نسخ، ولم يبق إلا زماناً يسيراً لا يخلو عن نظر، والظاهر أنه وإن لم يناف الحفظ في الجملة ولكنه ينافي الحفظ المشار إليه في الآية على ما يقتضيه ذلك الاعتناء، ثم إن قيل بما روي، عن الضحاك من أن سورة الحج مدنية لزم بقاء ما ألقى الشيطان قرآناً في اعتقاد النبي ﷺ والمؤمنين زماناً طويلاً، والقول بذلك من الشناعة بمكان، بل هو أكبر من الشناعة، وأقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان.

وقال جلّ وعلا: ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ والظاهر أن الضمير لما ينطق به ﷺ مما يتعلق بالدين، ومن هنا أخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: كان جبريل ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، والمتبادر من لحن الخطاب أن جميع ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من ذلك ليس عن إلقاء شيطاني، كما أنه ليس عن هوى.

قال العلّامة الآلوسي: وبقيت آيات كثيرة أخرى في هذا الباب، ظواهرها تدل على المدّعي أيضاً، وتأويلُ جميع الظواهر الكثيرة لقول شرذمة قليلة بصحة الخبر المنافي لها مع قول جم غفير بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم، ولا يرتضيه الطبع المستقيم، ويبعد القول بثبوته أيضاً عدم إخراج أحد من المشايخ الكبار له في شيء من الكتب الستة، مع أنه مشتمل على قصة غريبة، وفي الطباع ميل إلى سماع الغريب وروايته.

(٤) **المفسدة الرابعة:** من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقى الشيطان من كلمات الكفر والشرك، أن يكون النبي ﷺ

قد اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك، وهو يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام على غير بصيرة فيما يوحى إليه، وفيما يبلغه عن الله تعالى، ويقتضي أيضاً جواز تصور الشيطان بصورة الملك، ملبِّساً على النبي ﷺ، ولا يصح ذلك ـ كما قال في الشفاء ـ لا في أول الرسالة ولا بعدها، والاعتماد في ذلك على دليل المعجزة.

وقال ابن العربي: تصور الشيطان في صورة المَلَك ملبِّساً على النبي ﷺ كتصوره في صورة النبي ملبِّساً على الخلق، وتسليط الله تعالى له على ذلك كتسليطه في هذا، فكيف يسوغ في لب سليم استجازة ذلك؟ ولكن الغرنوقيين استجازوه وقالوا بوقوعه لسيد الخلق خاتم النبيين، لأنه لاألباب لهم.

وأجاب الشيخ إبراهيم الكوراني على هذه المفسدة فقال: إن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون النبي ﷺ على غير بصيرة، فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة.

قلنا: أي (تأديب) هذا الذي يردده الكوراني وقد أبطل وجوده بوجود أساسه في زعمه، وكان أساسه التمسك بنص مرسل سعيد بن جبير وأمثاله من المراسيل الواهية الواهنة التي زعمت أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ كلمات الكفر الخبيث بمدح الأوثان، وأن النبي ﷺ نطق بما ألقاه الشيطان على لسانه، ملبِّساً عليه بأنه ملك الوحي، وملبساً عليه أن ما ألقاه على لسانه قرآن أوحى إليه به في البين من آيات سورة النجم، وكان هذا التلبيس (تأديباً) للنبي ﷺ وتصفية له، وترقية إلى الأكمل، لأنه ﷺ أراد إيمان الجميع، وهذا على خلاف إرادة الله وتقديره.

ثم ذهب الشيخ الكوراني في رده على الوجه الثالث من وجوه المفاسد في قصة الغرانيق إلى التملص من نص رواية المراسيل وقال: إنه لا بد من حمل الكلام الشيطاني على الاستفهام وحذف أداته، أو على إضمار القول من المشركين، وهذا بلا شك تطويح بمصدر (التأديب) إلى هاوية البطلان، لأنه حينئذ لا تلبيس على النبي ﷺ، فيكون المقام مقام (تأديب) كما زعم

من لم يرجُ لله وقاراً في عصمة الأنبياء.

على أن رد الشيخ الكوراني يحمل دلائل الإمعان والاستمساك بأن النبي ﷺ ليس معصوماً من تلبيس الشيطان، ولا من اشتباه ما يلقيه من خبيث الكلمات، وفجور الكفر بآيات القرآن، ويكون ﷺ مسلوب البصيرة في معرفة ما يوحى إليه من آيات الله وشرائعه، وليحكم على هذا أهل العقول من سائر الفرق والطوائف والنحل، لأنه أمر فوق إدراك العقول.

ولا وزن لتخصيصهم - الغرنوقيين - هذا السلب ببعض الأحوال، وهي كما يزعمون الحالة الموجبة (للتأديب) لأن ما جاز في بعض الأحوال، لادعاء سبب باطل له يجوز أن يكون في غيرها لادعاء سبب له، لأن سبب (التأديب) مختلق باطل لأنه مبني على باطل، وهو ادعاء أن النبي ﷺ أراد هدي الكل، وهذه الإرادة منافية لإرادة الله عدم هداية الكل، فاستحق النبي ﷺ - في زعم الكوراني - التأديب من أجل إرادته هدي الكل، والغرنوقيون يتحكمون في حياة النبي ﷺ، وفي إرادته، وفي تبليغ رسالته إلى الخلق، ليفرضوا كما فرض الخوارج المارقون من الدين نقائص توجب - في زعمهم - التأديب، ولا شك أن هذا منزع جاف منكر خبيث، هو بمنزع الخوارج الذين قال فيهم النبي ﷺ «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة» أشبه وألصق.

ثم قال الشيخ الكوراني: وأما قول عياض: لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملك، ويلبس عليه ﷺ، فإن أراد به أنه لا يصح أن يلبس تلبيساً قادحاً فهو مُسَلّم، لكنه لم يقع، وإن أراد مطلقاً ولو كان غير مخل فلا دليل عليه، ودليل المعجزة إنما ينفي الاشتباه المخل بأمر النبوة المنافي للتوحيد، القادح في العصمة، وما ذكر غير مخل، بل فيه تأديب.

وافتراءات أن في تلبيس الشيطان تلبيساً قادحاً مخلاً بالنبوة والعصمة، وتلبيساً غير قادح ولا مخل بالنبوة والعصمة، قد بيَّنا أنها فِرىً كاذبة مختلقة، ويستحيل أن يلبِّس الشيطان على النبي ﷺ ويريه أنه ملَك الوحي، ويعتقد ذلك النبي ﷺ وأن يلبس عليه - فيلقي على لسانه كلمات

الكفر والشرك، ويعتقدها النبي ﷺ حتى ينبه على افترائها.

وقد عرضنا فيما سبق لأخلوقة (التأديب) التي اخترقها الشيخ الكوراني عند تملصه من رأيه في أكذوبة الغرانيق، إذ هبَّ عندما سدت عليه المسالك إلى القول بأنه لا بد من حمل الكلام الشيطاني على الاستفهام أو إضمار القول، وحينئذ فلا إلقاء من الشيطان على لسان النبي ﷺ ولا تأديب لسيد الكاملين.

ثم قال الشيخ إبراهيم الكوراني: وأما ما ذكره ابن العربي فقياس مع الفارق، لأن تصور الشيطان في صورة النبي ﷺ مطلقاً منفي بالنص الصحيح، وتصوره في صورة النبي ملبِّساً على الخلق إغواء يعم، وهو سلطان منفي بالنص عن المخلصين، وأما تصوره في صورة المَلَك في حالة خاصة ملبِّساً على النبي ﷺ فليس من السلطان المنفي ولا بالتصور الممنوع. نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

سبحان الله.. تلبيس يغوي النبي ﷺ ويشبِّه عليه أخبث الكفر فيما ألقاه الشيطان ـ بزعم الغرنوقيين ـ بآيات الله من القرآن المجيد جائز عند الشيخ الكوراني (للتأديب)، وتلبيس يغوي العامة ممنوع منفي بالنص عن المخلَصين؟ فهل في دنيا العقل السليم أبشع من هذا أو أقبح اعتقاداً منه؟ ولكن التعصب لا يبالي بصاحبه أن يخر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق

(٥) **المفسدة الخامسة:** من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان على لسانه من كلمات الكفر ومدح الأوثان، التقول على الله إما عمداً، أو خطأ، أو سهواً، وكل ذلك محال في حقه ﷺ، وقد أجمعت الأمة ـ على ما قال القاضي عياض ـ على عصمته ﷺ فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال عن الأخبار، بخلاف الواقع لا قصداً ولا سهواً.

قال الشيخ الكوراني: التقوّل تكلف القول، ومن لا يتبع إلا ما

ألقي إليه من الله تعالى حقيقة، أو اعتقاداً ـ فاسداً ـ ناشئاً عن تلبيس غير مخل، لا تكلف للقول عنده، فلا تقوّل على الله تعالى أصلاً.

هذا منطق الغرنوقيين، فهم يرون أن قولاً لبَّس به الشيطان على النبي ﷺ، وأدخله عليه على أنه من القرآن، وبلغه النبي ﷺ للأمة كذلك بعد أن قبله واعتقده، وهو أخبث القول وأشده مناقضة لعقيدة التوحيد، وأسرعه هدماً ونقضاً لأصول الرسالة لا يعد ـ في نظر الغرنوقيين ـ تقوُّلاً على الله تعالى، لأن التقوُّل تكلف القول وهذا لا تكلف فيه، وإنما ألقي إليه إلقاء أشبه بالزحلقة، فلم يميز بينه وبين كلام الله المنزل بالوحي الصادق في إعجازه الأسلوبي والمعنوي رغم ما في القول المزحلق من الشيطان على لسان النبي ﷺ من مراغمة ومناقضة لحقائق القرآن وهدايته.

لكن المفسرين والثقاة من أئمة اللغة يأبون تخريج الغرنوقيين للفظ التقوّل في القرآن، ويقولون: التقوُّل هو الافتراء على الله، وتقويله ما لم يقل، قال أبو حيان في (البحر) ـ وهو من أساطين العربية وأئمة اللغة ـ والتقوُّل أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئاً لم يقله، فمن اتَّبع ما ألقي إليه ملبساً عليه أنه من عند الله، وليس هو من الله مفتر على الله، متقوِّل عليه لأنه قوَّله ما لم يقل.

وقال ابن منظـور في (لسان العرب): وأقوله ما لم يقل، وقوَّله ما لم يقل، كلاهما ادّعى عليه... وفي حديث سعيد بن المسيب حين قيل له: ما تقول في عثمان وعليّ رضي الله عنهما؟ فقال: أقول فيهم ما قوَّلني الله تعالى، ثم قرأ ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾[1] الآية. وفي حديث عليّ عليه السلام: سمع امرأة تندب عمر، فقال: أما والله ما قالته، ولكن قُوّلته، أي لقنته وألقى على لسانها... وتقوَّل فلان عليّ باطلاً، أي قال عليّ ما لم أكن قلت وكذب عليّ، ومنه قوله تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل ﴾.

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٠.

فزعم الشيخ الكوراني أنه لا تقوُّل أصلاً فيما ألقاه الشيطان من خبيث الكلم، وقبله النبي ﷺ - في زعمه - وبلَّغه إلى الأمة على أنه موحى إليه مراغمة لأهل اللغة، ومجازفة في قضايا العلم، بل هو تقوُّل منفي قطعاً وقوعه من رسول الله ﷺ بنص الآية، ومما يضحك الثكالى قياس الشيخ إبراهيم الكوراني قصة الغرانيق، وما وقع فيها من أكاذيب ومفاسد خطيرة على قصة السهو في الصلاة، ثم ختم هذه الأضحوكة فقال: فكما أن السهو للتشريع غير قادح في منصب النبوة كذلك الاشتباه في الإلقاء (للتأديب) غير قادح، ثم راح الشيخ الكوراني يتفلسف، فقال: وكما أن النطق بـ(لم أنس) مع تبين أنه عليه الصلاة والسلام قد نسي صدق، بناء على اعتقاد التمام سهواً، كذلك النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة على أنه قرآن بناء على اعتقاد أن المُلْقِي مَلَك صدق، ولا شيء من الصدق بالتقول، فلا شيء من النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة به.

أليس كذلك يقول أرسطو شيخ الفلسفة الكورانية والمنطق (الهلاهيلي)، وما بعد منطق أرسطو حجة لقائل، وقد نسي الشيخ الكوراني أن أرسطو وتلاميذه عجماً وعرباً يشترطون لصحة نتيجة القياس الأرسطي صحة قضاياه وصدقها، وقياس الشيخ الكوراني باطل، فالصغرى فيه كاذبة، لأن كون ما يلقي الشيطان من الكفر والشرك صدقاً بناءً على اعتقاد أن المُلْقي ملَك باطل، لأن المُلْقِي شيطان وليس ملكاً، والاعتقاد الفاسد لا يجعل الكذب والباطل صدقاً وحقاً، وإذ أبطلت صغرى قياس الشيخ الكوراني فقد انهدم بنيان قياسه كله، وتبرأ منه أرسطو وإخوانه من المتفلسفة العقلانيين.

(٦) **المفسدة السادسة**: من المفاسد اللازمة على كون النبي ﷺ هو الناطق بما ألقاه الشيطان على لسانه، الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يُؤْمَن فيه التبديل والتغيير، ولا يندفع هذا الإخلال بالوثوق بقوله: ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ لأن هذا القول ينسخ ما يلقي الشيطان يحتمل أنه - أي الناسخ - مما ألقاه الشيطان إذ لا فرق -كما قال العلاّمة البيضاوي-. قال الكوراني يرد على ذلك: لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند

الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، لأن وثوق كل منهم تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين، فإذا جزم بأمر أنه كذا جزموا به، وإذا رجع عن شيء بعد الجزم رجعوا عنه كما هو شأنهم في نسخ غير هذا من الآيات التي هي كلام الله تعالى لفظاً ومعنى، إذ قبل نسخ ما نسخ لفظه كانوا جازمين بأنهم متعبدون بتلاوته، وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم متعبدون بتـلاوته، وما نسخ حكمه كانوا جازمين بأنهم مكلفون بحكمه وبعد النسخ جزموا بأنهم مـا هم مكلفون به، فقول البيضاوي أن ذلك لا يندفع بقوله تعالى: ﴿فينسخ الله﴾ إلخ لأنه أيضاً يحتمله ليس بشيء، لأنه إن أراد أنه يحتمله عند الفرق الأربع المذكورة في الآيات وهم الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم، والذين أوتوا العلم، والذين آمنوا، فهو ممنوع لدلالة قوله تعالى: ﴿وليعلم﴾ إلخ على انتفاء الاحتمالين عند فريقين من الفرق الأربع بعد النسخ والإحكام، وإن أراد البيضاوي أنه يحتمله في الجملة أي عند بعض دون بعض فهو مسلم، وغير مضر لعدم إخلاله بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم، والذين آمنوا، وأما إخلاله بالنسبة إلى الفريقين الآخرين فهو مراد الله عزّ وجلّ.

قلنا: هذا الترديد فاسد، لأن قوله تعالى: ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ﴾ إلخ محتمل أن يكون من إلقاء الشيـطان، لأن جواز التلبيس والاشتباه رفع الثقة إطلاقاً وليس لنص دون نص، فكل ما يدّعي قرآنيته فالاحتمال قائم فيه، فلا ثقة عند أية فرقة من الفرق المذكورة في الآية لأن ثقة الذين أوتوا العلم، والذين آمنوا نابعة لوثوق منبوعهم، وهو في ـ زعم الغرنوقيين ـ ملبَّس عليه في المُلْقِي والمُلْقَى، فهو لا جزم عنده إلى أن يبين له بوحي جديد، وهو أيضاً موضع احتمال، وهكذا تصبـح ـ الرسـالة والوحي والنبي والقرآن ـ في زعم الغرنوقيين ـ معبثة وشكوكاً. قال العلاّمة الآلوسي: إنه إذا فتح باب التلبيس لا يوثق بالوثوق في شيء أصلاً، لجواز أن يكون كل وثوق ناشئاً عن تلبيس كالوثوق بأن: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى، قرآن، فلما تطرق الاحتمال إلى الوثوق جاز أن

يتطرق إلى الرجوع عنه، ولا يظهر فرق بينهما، فلا يعول حينئذ على جزم، ولا على رجوع.

وقول الكوراني فيما ذكره البيضاوي عليه الرحمة: ليس بشيء، هو ليس بشيء، لأن منع الاحتمال عند الفرق الأربع بعد القول بجواز التلبيس مكابرة، والآية التي ادّعى دلالتها على انتفاء الاحتمال عند الفريقين بعد النسخ والإحكام فيها ذلك الاحتمال، والحق أنه لا يكاد يفتح باب قبول الشرائع ما لم يسد هذا الباب، ولا يجدي نفعاً كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ والله عليم حكيم ﴾ آبية عن بقاء التلبيس، فلا أقل من أن يتوقف قبول معظم ما يجيء به النبي ﷺ إلى أن يتبين كونه ليس داخلاً في باب التلبيس، مع أنا نرى الصحابة رضي الله عنهم يسارعون إلى امتثال الأوامر عند إخباره ﷺ إياهم بوحي الله تعالى إليه بها من غير انتظار ما يجيء بعد ذلك فيها، مما يحقق أنها ليست عن تلبيس.

ثم قال العلاّمة المفسر شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، معقّباً على ما ساقه من أخبار هذه الأقصوصة الغرنوقية: وتوسط جمع في أمر هذه القصة، فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني كافأه الله بما يستحق من أنه ﷺ نطق بما نطق عمداً للتلبيس أنه وحي حاملاً له على خلاف ظاهره ـ مختلقاً ما يجافي الأدب مع رسول الله ﷺ في ادعائه أن هذا التلبيس كان (لتأديب) رسول الله ﷺ وهو سيد الكملة من الأنبياء والمرسلين الذي خصه ربه بأعظم الثناء، وبارع المدحة، فقال له يخاطبه مواجهة: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ـ ولم ينفوها بالكلية كما نفاها أجلة أثبات، قال الآلوسي: وإلى النفي كلية أميل، بل أثبتوها على وجه غير الوجه ـ الجافي المنتفج ـ الذي أثبته الكوراني، واختلفوا في إثباتهم للقصة على الوجه المغاير لإثبات الكوراني، على أوجه من التأويل وكلها أوجه مما لا ينبغي عندي أن يلتفت إليها.

ثم قال الآلوسي: وفي شرح الجوهرة الأوسط، أن حديث الغرانيق

ظاهره مخالف للقواطع. قال الآلوسي: وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب، وأظهرها فساداً أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصاً على إيمان قومه، ثم رجع عنها، ويجب على قائل ذلك التوبة، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعني قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلخ لا يتوقف على ثبوت أصل هذه القصة.

* * *

وإنما أطلنا رشاء القول في البحث مع الشيخين الإمامين: ابن تيمية وابن حجر لمكانهما من العلم والمعرفة، ولما لهما من التوقير والتقدير بين رعيل الأئمة الأعلام، دفعاً للخشية على قلوب كثير من المؤمنين خاصة وعامة أن يخونها الاعتقاد في مكانة الشيخين، فتذهب بها إلى هاوية من الحيرة والشك فيما تقتضيه هذه الأقصوصة الغرنوقية من مخاطر ومخاطر على العقيدة التوحيدية وأصول الإيمان ومعرفة قدر القرآن العظيم، وتقدير النبي ﷺ في قداسة نبوته ورسالته وفتح باب التقوُّل على الله وعلى كتابه ورسوله عند أعداء الإسلام. ولأن نغلط بعض الرواة أو نزيف رأي بعض أصحاب الشهرة الداوية التي تحمل فوق هاماتها هالات التقديس الذي لا يقبل النقد والمناقشة عند مقلِّديهم ـ خير ألف مرة من تسليم ما ينسب إليهم في هذه الأقصوصة الخبيثة الباطلة التي تعصف بالإيمان عصفاً يلقيه في مهاب الشكوك والحيرات.

فكل أحد سوى رسول الله ﷺ يجوز عليه الوهم والخطأ والنسيان، وقد وقى الله الأمة شر هذه الأقصوصة المتزندقة فلم تثبت برواية مسندة متصلة صحيحة، فلم يتدنس بروايتها صحابي قط، ولا تابعي من ذوي الثقة الأعلام.

أما مصابرتنا للشيخ الكوراني وبيان زيف كلامه وخروجه عن جادة الأدب مع رسول الله ﷺ وتهوره في حماقة لا يعرفها أهل العلم والإيمان، فخشية أن ينخدع بأباطيله وأكاذيبه من يقرأ كلامه في سياق الآلوسي الذي

كبا به جواد الحق فغلط، فقال في وصف هذا الكوراني: إنَّه خاتمة المحققين.

والله تعالى وحده العليم بالنيات، وهو المجازي بعدله على كل عمل اكتسبه عبد من عباده، والله يقول الحق ويهدي السبيل.

مذهب حذاق الأئمة في أكذوبة الغرانيق
رأي القاضي الأجل
أبي الفضل عياض بن موسى
ومناقشته

الإجماع على العصمة فيما يُبَلِّغ عن الله تعالى

كتب عياض رحمه الله في كتابه (الشفاء) فصلاً ممتعاً، تكلم فيه على عصمة النبي ﷺ، فكفى وشفى، وأقنع وأمتع.

ودحض كل شبهة تعلق بها ملحد، مريض القلب، لا يقر بالنبوات، ولا يعلم حقيقتها، ولا يقدرها قدرها، أو تشبث بأهدابها ضعيف الإيمان، واهن العقل، واهي العقيدة، جامد القريحة، سقيم الوجدان، أو تلقفها مغفل أبله ممن يحملون مخاطر العلم من طريق الرواية والتلقي عن كل تطليس أو تعمم.

وأقام منائر البرهان معالم في طريق الحق والهدى، إرشاداً لطالبيه، ودلالة لراغبيه، وأضاء مصابيح الحجة لتنير محجة السالكين إلى منازل أهل اليقين.

ومما جاء في هذا الفصل الذي جعله تمهيداً لتفنيد أكذوبة الغرانيق وإبطالها واقتلاع جذورها من أذهان مهازيل المعرفة بأصول الإسلام قولُ القاضي - مع بعض إيضاحات من كلام شارحيه: الخفاجي، والقاري -: قامت الدلائل الواضحة القاطعة العقلية والنقلية من الآيات والبراهين بصحة المعجزة على صدقه - ﷺ - فيما أخبر به، قال الخفاجي: والأصح أنها دلالة عقلية أظهر من الشمس.

وأجمعت الأمة على صدقه ﷺ، وصدق أخباره فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيما أمر بتبليغه من الأخبار عن مجيء شيء منها بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً، ولا سهواً ولا غلطاً.

أما تعمد الخلف ـ أي الكذب ـ في ذلك فمنتفٍ عنه بدليل المعجزة عقلاً، ونقلاً، القائمة مقام قول الله تعالى: صدق عبدي ورسولي فيما قال لكم وبلغكم عني بدليل معجزته التي هي برهان قاطع على صدق مدّعاه اتفاقاً بإطباق أهل ملة الإسلام، إجماعاً منهم على ذلك الإطباق الذي لم يوجد له مخالف منهم. قال الخفاجي: وسبيل تعريف الله تعالى عباده صدق رسالة رسوله بالآيات الخارقة للعادة كسبيل تعريفهم إلٰهيته بالآيات الدالة عليها، والتعريف بالقول تارة، وبالفعل أخرى كتعجيز الخلق عن معارضة القرآن المنزّل على نبيّنا ﷺ، ودلالة المعجزة على صدقه ـ ﷺ ـ دلالة عقلية.

ثم قال القاضي: وأما وقوع خبره على خلاف ما هو عليه فيما طريقه البلاغ على الغلط والسهو فمنتفٍ عنه بطريق انتفاء العمد عنه بالمعجزة، فلا يصدر عنه، ولا يقع منه ما يخالف الواقع، لا قصداً، ولا غلطاً، ولا سهواً بطريق من الطرق، فمعجزته ﷺ، كما دلّت على نبوته دلّت على صدقه، وعدم وقوع ذلك منه ﷺ ثابت بالإجماع، وورود الشرع في الآيات المتواترة والأحاديث الصحيحة الثابتة، وثبوت العصمة له ﷺ، لأنها تأبى عن نسبة ذلك إليه، لأنه نقيصة لا تليق.

لا اختلاف بين العلماء في مقتضى دليل المعجزة، والاعتماد على ما وقع عليه إجماع المسلمين أنه لا يجوز عليه ﷺ خلف في القول في إبلاغ الشريعة لا على وجه العمد، ولا على غير وجه العمد، ولا في حال الرضى أو السخط، والصحة أو المرض، وفي حديث عبدالله بن عمرو عند الإمام أحمد، وأبي داود، والحاكم قلت: يا رسول الله، أكتب عنك كلما أسمع منك؟ قال: «نعم» قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً».

ثم قال القاضي رحمه الله تعالى: إذا قامت المعجزة على صدقه ﷺ في كل ما أخبر به عن الله تعالى، وأنه لا يقول إلا حقاً، ولا يبلِّغ عن الله تعالى إلا صدقاً، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله: صدقتَ فيما قلتَ، وفي كل ما تذكره مخبراً به عني، وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم

ما أرسلت به إليكم مما أوحاه الله إلي وأمرني بتبليغه، وأبين لكم ما أنزله الله عليكم ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ و﴿ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ فلا يصح أن يوجد منه ﷺ في كل ما طريقه البلاغ عن الله تعالى خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان، فلو جوّزنا عليه ﷺ الغلط والسهو فيما يبلغه عن الله تعالى لما تميز لنا ـ أي هذا الغلط والسهو ـ من غيره، أو لما تميز الصواب من غيره، أو لما تميز خبر النبي ﷺ عن خبر غيره، ولاختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه في جميع ما جاء به من جميع أخباره وما يبلغه عن الله تعالى من غير تخصيص أمر دون أمر آخر، إذ لا دليل على التخصيص، فتنزيه النبي ﷺ عن أن يقع منه إخبار بما يخالف الواقع، قصداً أو غلطاً، أو سهواً، واجب الاعتقاد برهاناً قاطعاً، وإجماعاً متطابقاً من جميع الأمة، إهـ. ما قصدناه من فصل للعصمة.

ثم ذكر القاضي رضي الله عنه فصلاً مسهباً فصَّل فيه الكلام على أكذوبة الغرانيق البلهاء المتزندقة تفصيلاً أربى على اقتلاع أصولها، واجتثاث عروقها من نزيز مستنقعات البُلْه المتلقفين كل غُثاء وغث، بل تتبعها في مخابث منابتها، فاكتسحها فلم يبقِ لها أثراً في أضابير الكذب يدل عليها.

وإذا كان القاضي رحمه الله تعالى قد استنزل جواد قلمه، وأرخى له العنان في آخر كلامه، تنزلاً مع أهل الغفلة الذين خاضوا في آيات الله تعالى بالتأويل المحرف المنحرف بعد أن فرغ من سابغات الحجة والبراهين، فذلك نكسة سنقف معه عندما نصل إليها، كما وقفنا مع غيره ممن نكص على عقبيه بعد الظفر بالحجة والفلج بالغلبة، لنبين له أن الحق أجلّ من هالات المؤولين، والإسلام ونبيه، ونبوته، وقرآنه أقدس عند الله من الفروض والتخيلات.

سوق القاضي بعض الروايات الطاعنة في العصمة

قال القاضي رحمه الله: وقد تَوَجَّهَتْ ههنا لبعض الطاعنين في عصمة نبينا محمد ﷺ سؤالات من الملحدين. منها ما روي من أن النبي ﷺ ـ كما

أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وأبو حاتم عن سعيد بن جبير، بسند منقطع ـ: لما قرأ في الصلاة أو خارجها سورة (والنجم) قال ـ أي قرأ ـ ﴿ أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ قال ـ أي جرى على لسانه ـ أو قال قائل سمع ما قاله عند تلاوة النبي ﷺ للآية الكريمة: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى، ويروى: لترتضى، وفي رواية: إن شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلى، وفي رواية أخرى: والغرانقة العلى، تلك للشفاعة ترتجى.

فلما ختم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار، لما سمعوه أثنى على آلهتهم. ومن السؤالات الطاعنة ما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألقى على لسان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الكلمات، فسبق بها لسانه سهواً منه، ثم تنبَّه أو نبهه جبريل عليهما الصلاة والسلام لها.

وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان لحرصه على إيمان قومه تمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه، أو تمنى ألا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه من الطعن فيهم، وفي آلهتهم، ولم يزل ﷺ على تمنيه هذا حتى نزلت سورة النجم، فقرأها، وسجد في آخرها وسجد معه من حضره من المسلمين والكفار، ثم جاءه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة، فلما بلغ ﷺ في قراءته الكلمتين الشيطانيتين قاله له جبريل: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فحزن النبي ﷺ، فأنزل الله عليه تسلية له ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ الآية.

منهج القاضي في رد فرية الغرانيق
أولاً: ردها بتوهين أصلها ورواياتها

ثم مضى القاضي في سوق الروايات إلى أن قال: فاعلم ـ أكرمك الله ـ أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين.

أحدهما: في توهين أصله، وتضعيف روايته، والثاني: مبني على تسليمه تنزلاً، وإرخاء للعنان. أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به، وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل

صحيح وسقيم، ولقد صدق القاضي أبو بكر بن العلاء المالكي، حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف بعض نقلته، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه وقع في الصلاة، وآخر يقول: في نادي قومه، وآخر يقول: إن النبي ﷺ قال الكلمات الغرنوقية وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدَّث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه ﷺ، وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل عليه السلام قال له: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: إن النبي ﷺ لم يقرأ كلمات الشيطان، بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال جبريل: والله ما هكذا أنزلت، إلى غير ذلك من الأقوال المؤذنة بأن الشيطان له دخل في ذلك، مع أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وهذا كله صدر من اختلاف الرواة، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين كالزهري، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن هشام، وسعيد بن جبير، ومحمد بن قيس، لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب من أصحاب الرسول ﷺ، وأكثر الطرق التي رويت منها عنهم فيها واهية ضعيفة، والمرفوع منها حديث شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال فيما أحسب، الشك المذكور في متن الحديث وأصله.

قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا الإسناد، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغير أمية يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف هذا الحديث بروايته عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، فالحديث منقطع، فقد بين لك أبو بكر البزار أن هذا الحديث لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا الطريق الذي رواه منه شعبة، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه البزار وغيره من الأئمة من أنه لا يعرف من طريق غيره، مع اختلاف كلماته، واضطراب رواياته، وانقطاع سنده أو إرساله، والاختلاف في مواطن قراءته وكيفيته، أكان في الصلاة أم في نادي قومه، أو في سِنَته، أو حدّث به نفسه فسها وذكره، أو قاله الشيطان على لسانه، أو

أعلمهم به، وإنكار جبريل له عند عرضه عليه، مع وقوع الشك فيه الذي لا يوثق به، ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي فمما لا يجوز ذكره، لأن الكلبي لا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه وكثرة كذبه، ووضعه الأحاديث كما قال عنه ابن معين، وهو متهم في دينه، قال عنه ابن حِبَّان: أنه في الدين غير مبين وكذبه أظهر من أن يذكر.

ثم ذكر القاضي حديث البخاري في السجدة وليس فيه تعرض من قريب أو بعيد لأكذوبة الغرانيق، ونقل الخفاجي شارح الشفاء قول الكرماني: ما قيل من أن سبب ذلك إلقاء الشيطان في أثناء قراءته ﷺ وذكر آلهتهم لا يتجه عقلاً ونقلاً.

ثم قال الكرماني: وأما سجود الجن المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما فكأنه استند فيه إلى سماع منه ﷺ، لأنه لم يحضر القصة لصغر سنه، ومثله لا يطلع عليه وكشف ذلك له بعيد، ولعل الأقرب إلى الصواب أن ذلك من باب المبالغة في تعميم الساجدين. ثم قال الكرماني: والصحيح أن الشيطان ألقى ما ألقاه في أسماع المشركين، فتوهموا أنه ﷺ قاله مدحاً لآلهتهم وارتضاء لها فسجدوا معه، وهو لا ينافي عصمة رسول الله ﷺ.

قلنا: وهذا التأويل يرد عليه أنه كان يجب على النبي ﷺ عدم إقرارهم على ما توهموه، والتنبيه على أنه من الشيطان لأنه ﷺ لا يقر باطلاً ولا سيما إذا كان ماساً بالعقيدة.

ثم قال القاضي عياض: هذا توهينه - أي حديث الغرانيق - من جهة طريق النقل، وهنا ذكر الخفاجي كلام ابن حجر في نقده لكلام ابن العربي أن طرق هذا الحديث كلها باطلة ونقده كلام عياض أنه لم يُخَرِّج أحد من أهل الصحة هذا الحديث وليس له سند متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وأن من نقله من المفسرين وغيرهم لم يسنده أحد منهم ولا رفعه لصاحب بقوله: لا وجه له وعلل ذلك بما قدمناه.

ثم قال عياض: فأما توهينه - أي حديث الغرانيق - من جهة المعنى

ثانياً: توهين القصة من جهة العقل والمعنى

فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، قال القاري: قبل النبوة ولو قبل البلوغ فكيف يتصور وقوعها بعد تمام النبوة ونظام الرسالة -لا سيما وقت التلاوة ودرجها في القراءة؟ والمراد أن هذه الخصلة القبيحة الدنيئة من الرذالة وهي الدناءة والقول على الله بما لم يقله، ولا شيء أعظم رذالة وأحط دناءة من الافتراء لا سيما على الله عزّ وجلّ.

أما من تمنيه أن ينزل مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر، أو أن يتسوَّر عليه الشيطان ويتسلط عليه ويشبِّه عليه القرآن ويلبِّسه عليه ويخلط فيه ما ليس منه، حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه، ويستمر على اعتقاده حتى ينبهه جبريل عليه الصلاة والسلام، وذلك كله ممتنع في حقه عليه الصلاة والسلام ويقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر لأنه افتراء على الله وتبديل لكلامه بالزيادة فيه أو سهواً وهو ﷺ معصوم عن هذا كله بالإجماع، وقد قررنا بالبرهان -أي العقلي- والدليل القاطع والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً، ولا سهواً أو أن يتشبه ويتلبس عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه وقد قال تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ لقد كدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ الآية.

وجه ثان في توهين أكذوبة الغرانيق من جهة المعنى والعقل

(ووجه ثان) في توهين حديث الغرانيق، وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً؛ وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، متنافر النظم، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، يخذل بعضه بعضاً، ويضرب بعضه بعضاً، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، لكونهم بلغاء أصحاب سليقة مستقيمة وألسنة فصيحة، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه.

(ووجه ثالث) في توهين أكذوبة الغرانيق أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، والشمات بهم الفينة بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل رواية ودراية لركاكتها وتناقضها، فلو كان ذلك وقع وصحَّ لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة وعناداً في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة، وكذلك ما ورد في قصة القضية أي قضية الحديبية، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت، ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت، فما روي عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة، فدلَّ على بطلها، واجتثاث أصلها، ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدِّثين ليلبِّس على ضعفاء المسلمين الذين لم يقفوا على ما يناسب مقام النبوة وقدرها.

وجه ثالث في توهين هذه الأكذوبة من جهة المعنى والعقل

(ووجه رابع) في توهين القصة: ذكر الرواة لهذه القصة أن فيها نزلت ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ الآيتين، وهما تَرُدَّان الخبر الذي رووه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري على الله بخلطه في القرآن ما لم يوح إليه، وأنه لولا أن ثبته الله على الحق لكاد يركن إليهم بمدح آلهتهم واتباع هواهم، ولكنه ﷺ لم يفعل شيئاً من ذلك، فمضمون هذا أن الله تعالى عصمه من أن يفتري عليه ما لم يقله وثبَّته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيراً.

وجه رابع في توهين هذه الأقصوصة الخبيثة الغرنوقية

ورواة حديث الغرانيق يروون في أخبارهم الواهية أنه ﷺ زاد على الركون والافتراء مدح آلهتهم ـ وحاشاه الله من ذلك ـ وأنه قال عليه الصلاة والسلام: «افتريت على الله تعالى، وقلتَ ما لم يقل» هذا ضد مفهوم الآية، وهي تضعف الحديث لو صحّ فكيف والحال أنه لا صحة له، وهذا

المذكور في آية ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[1].

مناقشة القاضي في اتجاهه إلى التأويل في روايات القصة ومخاطرها

ثم قال القاضي عياض: وأما المأخذ الثاني في الكلام على مشكل حديث الغرانيق فمبنيٌّ على تسليم الحديث لو صح وقد أعاذنا الله من صحته. قلنا: هذه ردة في الفكر ونكوص عن الحق، وفتح لباب التشكيك والبلبلة، لأننا بعد أن أثبتنا بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة العقلية والنقلية سقوط جميع روايات هذه الأكذوبة البلهاء في أودية الوهن والضعف بل في هاوية الكذب والبطلان، فلا معنى أبداً لفرض ما لم يكن، ولا هو في معرض أن يكون، ولا سيما وقد أعاذنا الله تعالى بما نَصَب لنا من الآيات والدلائل القاطعة على عصمة النبي ﷺ من هذه الرذيلة الشنيعة التي أفسدت باختراعها عقائد كثير من المسلمين، فصدقوها في بلاهة وغفلة واستغفال، وانتهض بعض من وُسِموا بالعلم منهم إلى الدفاع عنها وتأويل رواياتها وتأويل وقوعها ـ في زعمهم ـ بما وضع في أيدي الملاحدة من أعداء الإسلام وزنادقة المتربصين بهذا الدين الدوائر، سلاحاً لمحاربة الإسلام.

هذا رجوع إلى الوراء ما كان ينبغي للقاضي الفاضل أن يرد حوضه، ولا أن يرمي بنفسه في مستنقعات نزيره الوبيء المتعفن بعد أن سبح في أنهار رياض الحق وعبّ من نميرها العذب، فكان بذلك أجلّ من حمل لواء الذود عن رسول الله ﷺ وأقام منائر عصمته، لينير الطريق للسالكين إلى معرفة قدره المنيف، حتى لا يشوب إيمانهم شَوْب من نزغات الزيغ عن الهوى.

وكان القاضي بنكوصه على عقبيه واستنزاله قلمه وفكره إلى حمأة الفروض والأوهام منتظماً في عقد من أبطلوا القصة الكاذبة المتزندقة

(١) سورة النساء، آية (١١٣).

الغرنوقية، ثم ارتدوا على أدبارهم إلى مزالق التأويل المحرِّف المنحرف، فكانوا بعد الضياء والنور والهداية كالسالكين في متاته المضلّات التي تشتبه معالمها وتتعرج فجاجها ومناكبها، فلا يصلون إلى نهاية إلا وهم راجعون إلى نقطة البداية، تقودهم في متائههم حيرة الباطل ومزالق الأكاذيب.

تأويلات القاضي وبطلانها

ثم قال القاضي في مأخذه التأويلي: ولكن على ذلك فقد أجاب عن ذلك ـ أي عن طامات هذه الأكذوبة الخبيثة ـ أئمة المسلمين ـ يا حسرتا ويا أسفا على جهد يبذل في باطل منهار من أئمة المسلمين ـ بأجوبة منها الغث والسمين ـ ولا والله ما فيها سمين قط ـ فمنها ما روى قتادة ومقاتل ـ لعله مقاتل بن سليمان الكذاب ـ أنه ﷺ أصابته سِنَة؟؟ عند قراءته سورة النجم فجرى هذا الكلام ـ الخبيث ـ تلك الغرانيق ـ على لسانه، أو نطق به من غير شعور ولا قصد لغلبة النوم عليه، عليه الصلاة والسلام، أفٍ لهذا العلم الجهول الضلول؟؟.

قال عياض: وهذا التأويل لا يصح إذ لا يجوز على النبي ﷺ أن يقع منه مثل ذلك في حالة من أحواله لا في يقظة ولا في منام، لأنه ﷺ كما ثبت صحيحاً تنام عيناه ولا ينام قلبه، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي عليه الشيطان لحفظ الله له في نومه ويقظته، لعصمته في جميع ما طريقه البلاغ عن الله تعالى من جميع العمد والسهو.

وفي قول الكلبي إن النبي ﷺ حدَّث نفسه فقال ذلك الشيطان على لسانه ـ بماذا حدَّث نفسه؟ ـ قال القاري: أي خطر في خاطره ـ والسؤال باق ما الذي خطر في خاطره؟ ـ قال القاري يبين قول عياض: فقال ذلك الشيطان أي الملقى في نفسه على لسانه أي سهواً، قال الدلجي: وهو باطل، إذ لم يجعل الله للشيطان عليه كغيره من الأنبياء سبيلاً، قال القاري: وأقول: لا يبعد أن يكون مراد الكلبي أن الشيطان قال ذلك على لسانه وفق صوته وحكاية بيانه، ولو صح هذا التأويل الفاسد لارتفعت الثقة بسائر النصوص القولية لجواز وجود هذا الاحتمال فيها . ثم نقول: ما الداعي إلى حسن الظن بهذا الكلبي إلى هذا الحد وهو كذوب متهم

برقة الدين وأنه سبائي، وقوله صريح في أن النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ حدَّث نفسه بما ألقى الشيطان على لسانه وهو كفر صريح، فلا يفيد فيه قول القاري شيئاً لأن محل الفجور فيه كون النبي ﷺ حدَّث نفسه بعين ما ألقاه الشيطان على لسانه من كلمات الكفر، وهو كفر بواح يستحيل أن يقع من النبي ﷺ سواء أكان إلقاء الشيطان محاكياً صوته وبيانه أو كان إدخالاً له في القرآن.

ثم قال عياض: وفي رواية ابن شهاب: وسها ﷺ في نطقه بذلك فلما أحس بذلك قال ﷺ: إنما ذلك من الشيطان، وكل هذا لا يصح أن يقوله ﷺ لا سهواً ولا قصداً لحفظ الله له عن مثله، ولا يصحّ أن يتقوَّله الشيطان على لسانه أي ينطق به محاكياً لقوله ونطقه، فيلبس الوحي بغيره لمنع الله تعالى عن تسلّطه عليه بمثله، ولما يقتضيه من رفع الثقة في كل وحي يأتيه بعد ذلك.

وقيل في الجواب عما ذكر: لعلَّ النبي ﷺ قاله ـ أي كلام الشيطان ـ في أثناء قراءته وتلاوته لسورة النجم على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار، والاستهزاء والسخرية وهذا أُسند إلى ابن الباقلاني[1] وابن العربي.

ثم قال عياض: والذي يظهر ويترجح في تأويل هذا الحديث ـ الباطل ـ عند ابن الباقلاني أو ابن العربي، وعند غيره من المحققين ـ أين هو التحقيق؟ ـ على فرض تسليمه ـ أي تسليم وقوعه منه ﷺ وأنه نطق بكلام الشيطان، معاذ الله أن يكون شيء من ذلك وقع من سيد المرسلين ـ أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً، ويفصِّل الآيات تفصيلاً في قراءته كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات، ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ، بحيث يسمعه من دنا منه إليه من الكفار، فظنوها ـ أي تلك الكلمات الشيطانية التي دسَّها الشيطان في تلاوة رسول الله ﷺ محاكياً لصوته ـ من قوله ﷺ، وأشاعوها ولم يقدح ذلك عند المسلمين، ولم يلتبس عليهم القرآن بغيره لحفظهم

(١) يراجع كتابه (نكت الانتصار).

السورة قبل ذلك ـ أي قبل اختلاق الشيطان كلماته الخبيثة ـ على ما أنزل الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها على ما عرف منه ﷺ. وهذا الكلام خطابي لا يفيد شيئاً، وفساده ظاهره، لأن الأمر لو كان كذلك لأدى إلى التلبيس.

قال القاري: ولا يخفى أن ما بين السكتات لا يتصور فيه جميع تلك الكلمات المختلقة، ويبعد كون كل كلمة في حال سكتة ـ قلنا: هذا كلام جيد معقول المعنى موافق لمألوف الناس، ولكن القاري أسرع فأفسد حسن هذا الكلام الجيد فقال: فالظاهر أنه بعد قراءته ﷺ ومذمته الأصنام بقوله: ﴿أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ وقع له عليه الصلاة والسلام سكتة طويلة لعارض من نحو شغله أو فكره، فانتهز الشيطان الفرصة وألقى تلك الجملة وسمعها الكفار دون الأبرار.

قلنا: فليتأمل العقلاء هذا الكلام الذي أراد به (القاري) تصحيح هذا الجواب الباطل الفاسد المفسد، وما فيه من تمحل غثّ لا يقبله إلا من قبل قصة الغرانيق وصدّقها في بلاهة ساهمة، ويزعم أن كلامه ليس كما توهم الدلجي بأن هذا قول غير مرضي لإيذانه بأن الشيطان كان له عليه سبيل بتمكنه من دسه خلال تلاوته كلام ربه، وكلام الدلجي ليس له دافع لقوة وروده، وليست المسألة مسألة محققين وأسماء طنانة.

وقد زاد القاري الطين بلّة، فقال: ولا يخفى أن شيخ الإسلام، خاتمة الحفاظ ابن حجر العسقلاني في شرحه للبخاري أطال في ثبوت هذه القصة ـ نعوذ بالله من الحور بعد الكور ـ وأن لها طرقاً صحيحة، وطرقاً أخرى كثيرة صريحة تدل على أصل القضية، فلا بد من تأويلها، وهذا أحسن ما قيل في التأويل، : إن الشيطان ألقى ذلك في سكتة من سكتاته، ولم يتفطن له عليه الصلاة والسلام. أفٍ لمشيخات وألقاب تقذف بأصحابها إلى هاوية تقليد أصحاب الألقاب والهالات، ولو كان في ذلك التقليد المتبلِّد هدم لبناء أصول الإيمان ـ وقد قدمنا مناقشة ابن حجر فيما ذهب إليه في روايات القصة الغرنوقية من تأويل محرَّف منحرف.

والحافظ ابن حجر بين أن روايات القصة كلها مرسلة ومنقطعة، وليس فيها حديث واحد متصل بإسناد صحيح سوى حديث سعيد ابن جبير عن ابن عباس مع الشك في متنه، وهذا الشك يُلحقه بسائر روايات القضية في الوهن والضعف، وبعض المراسيل التي صحَّحها ابن حجر إلى من أرسلوها لا تقوم بها حجة قط في الأمور الأصولية العقدية كعصمة الأنبياء والأخبار عن الله تعالى في الأمور البلاغية وعدم التقوُّل على الله في وحيه.

أما أن يكون هذا الذي زعمه (القاري) أحسن ما قيل في التأويل فهو كلام باطل كما بيَّنه الدلجي فيما حكاه عنه (القاري) وإن حاول أن يجعله غيره.

وقول (القاري): ولم يتفطن له ـ أي لقول الشيطان، تلك الغرانيق العلى ـ النبي ﷺ يحمل في طياته ما يحمل من سوء التقدير لمكانة النبي ﷺ وهو يتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم، ثم نتساءل ولا ننتظر جواباً: ما الذي شغل النبي ﷺ أو فكره حتى سكت سكتة طويلة تمكن الشيطان فيها من إلقاء تلك الجملة الكافرة الفاجرة؟ وكيف اختلفت عليها أسماع الأبرار عن أسماع الكفار؟ وكيف لم يتنبَّه ولم ينبه النبي ﷺ الناس إلى ما فيها من كفر وضلال، وهو بمقتضى بداهة كونه رسولاً يجب عليه ألا يسكت على ما يعلم أنه كان في مجلسه من أخبث الكفر؟.

ثم ذكر عياض عن موسى بن عقبة صاحب المغازي نحو هذا التأويل، ثم مضى القاضي عياض في تكميل كلامه على الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ فقال ـ وقد عثر ـ فمعنى (تمنى) تلا، ولم يجد كغيره من جميع من ذهب إلى هذا المعنى في التمني سوى الشاهد الفذ في اللغة جاهلية وإسلاماً، وهو البيت المنسوب إلى حسان بن ثابت.

والآية التي ذكرها وذكرها غيره وهي قوله تعالى: ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ حجة عليه وعليهم وقد تعلقوا منها بأوهى من بيت

العنكبوت، واضطروا إلى حمل الاستثناء على المنقطع الذي هو في حقيقته استدراك، وهذا خلاف الأصل في الاستثناء، والأماني في الآية جمع أمنية، وهي التشهِّي والرغبة فكأنه قيل في وصف أولئك اليهود: إنهم لا يعلمون كتابهم التوراة إلا تشهياً من عند أنفسهم ورغائب في بواطنهم، فيؤولون كتاب الله على مقتضاها جهلاً بالحق، ويكون الاستثناء حينئذ متصلاً لأنّ التشهِّي النفسي والرغائب المحبوبة من قبيل الإدراكات، وإن كانت باطلة.

ثم ذكر عياض تأويلاً في القصة الغرنوقية عن مجاهد جاء فيه أن الكلمة هي: والغرانقة العلى عطفاً على اللّات والعزّى، فتكون قرآناً نزل ثم نسخ. . . لتأويل المشركين على أن المراد به آلهتهم، مع أن المقصود بـه ـ على زعم الرواية الباطلة ـ الملائكة وشفاعتهم مرجوة.

قلنا: وقد قيل: كيف والمعطوف عليه مدخول الإنكار، فيكون المعطوف كذلك، أي مُنْكرٌ وشفاعة الملائكة لا تنكر، فهذا التأويل ـ كما قال الدلجي ـ مباين للمقام، ومنافٍ لسياق الكلام فلا يعوّل عليه. وحسبك أنه من تفسير الكلبي الوضاع الكذوب، فعدّ عن ذا كيف أكلك للضب.

وهو من أفسد ما قيل، لأن علم الله تعالى المحيط بما كان وما هو كائن وما يكون يأبى أن ينزل الله تعالى قرآناً يعلم أنه سيكون لحظة نزوله وسيلة إلى التلبيس والتضليل، ثم ينسخه ساعة نزوله، ولا يجدي في دفع هذا ما زينوه من البهرج في القول من أن الله نسخ كثيراً من تلاوة ما أنزله قرآناً وأبقى حكمه ليضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، لأن أشبه بكلام أغمار العامة والغوغاء الذين لا يعلمون شأن الله تعالى في هداية من يشاء من عباده، وإضلال من يشاء منهم، لأن ذلك الإضلال والهداية وضع إلّهي يجري على سنن الله تعالى في حكمة تدبير خلقه، فلا يضل إلا من أعذر إليه، ولا يهدي إلا من آتاه توفيقاً لفهم دلائله وبراهينه.

ثم ختم عياض كلامه في هذه القصة الخبيثة الكاذبة بذكر تأويل لا يتمشى على سياق رواية من روايات القصة، وإنما هو تأويل فرض فيه

ثبوت القصة على أي نحو من الثبوت، ثم روى أن إثباتها يقدح في تفكير مثبتيها ويدل على مرض قلوبهم وفساد عقولهم، لما تؤدي إليه من مخاطر ومحذورات، أو لما يظهر فيها من كذب أبله وإلحاد مستغفل فقال: وقيل: إن النبي ﷺ لما قرأ السورة وبلغ ذكر اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها، فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمات ليخلطوا في تلاوته ويشغبوا عليه على عادتهم، وقولهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون﴾ ونسب ذلك للشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه بين الغوغاء والدهماء، فحزن النبي ﷺ من كذبهم عليه ونسبتهم له أنه قد قاله افتراء عليه، فسلّاه الله تعالى بقوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ وهذا التأويل من أبعد تأويلات الباطل وأوهنها.

تأمل وأسف واعتبار

وإلى هنا يلتقط القلم أنفاسه ليقف متأملاً في حكمة الله تعالى في صنع الأفكار، وتوجيه المفكرين، على ضوء ما كتب القاضي عياض في (شفائه) عامة، وفي أقصوصة الغرانيق خاصة، فهو في شفائه آية من آيات العبقرية البشرية والسمو الفكري والتحصيل الذهني والأدب المعنوي واللفظي، والإقناع البرهاني والحماسة الإيمانية، والترسل الروحي، والإشراق القلبي، والاتساق المنطقي، والتنسيق البياني. كل ذلك في (الشفاء) كأنه منائر هداية للتعريف بقدر النبي ﷺ، ومعالمُ دلالة في مهايع السالكين إلى آفاق مشارف الذرى ليشهدوا بأبصار عقولهم، وبصائر قلوبهم وإشراق أرواحهم حقائق النبوة في نبوة محمد ﷺ، وحكمة الاصطفاء للرسالات الإلٓهية في رسالة محمد ﷺ بياناً لقول العزيز الحكيم: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

وهو في قصة الغرانيق قبس من شفائه، بدأ نوراً على نور، وهدى ورحمة وفرقاناً يفصل بين الحق والباطل، وبياناً مبيناً يصور في صدق وإخلاص إيمان العالِين وعِلْم المخلصين المؤمنين، والإيمان اتباع في محبة، ومحبة في تسليم «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»

« ولا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالديه » و« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما » وهذا الحب إيثار مطلق لا يوضع شيء قط معه في ميزان، فمجرد الاتباع لا يحقق الإيمان، وكم من متابعة خلت عن الحب أودت بالمتابعين وهوت بهم إلى قرار «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

وبهذه البداءة المنورة الهادية المهدية الصادقة المصدقة كان القاضي عياض أسوة لكل من جاء بعده من أهل الصدق والإخلاص في معرفة قدر النبي ﷺ، وفي اتباعه اتباعاً يغمره الحب العاقل، والمعرفة البرهانية، وكانت أقصوصة الغرانيق الخبيثة الكاذبة ابتلاء وامتحاناً وضع أسافيّه الزنادقة الملحدون ﴿ وليَعْلَمن الله الذين آمنوا وليَعْلَمن المنافقين ﴾، وهي قصة قديمة عاصرت هزيمة اليهود هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة، على أيدي طلائع المسلمين ومبادىء الإسلام وشرائعه في كتابه المبين وسنة رسوله الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه، وعاصرت هزيمة الوثنيين من الأعاجم الملحدين، وعاصرت فتنة الملاحدة السبئيين، والخوارج من الجفاة المتعربين، ثم مرت في حرائق الفتن الطائفية والسياسية تحدوها الانحرافات التأويلية في القرآن والجرأة على السنة النبوية ونصوصها من الأحاديث الصحيحة، حتى أدركها النفاق الباطني على أيدي القرامطة والإسماعيليين وإخوان الصفا ومن سعى سعيهم في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يؤيد دينه ويتم نوره ولو كره الملحدون، وكل طائفة من هؤلاء يمكن أن تكون أكذوبة الغرانيق من صنعها أو لها إسهام في افترائها.

وانتهض عياض وقد رأى هذا الركام الإلحادي في أكذوبة الغرانيق يخدع بعض من سلمت قلوبهم وبالغوا في إحسان الظن بكل رواية ولا سيما رواية من لهم رنين أسماء في سجل العلم الإسلامي، فقبلوا هذه الروايات، أو ألصقت بأسمائهم فقبلها من بعدهم ممن يُرى فيهم أسوة الاقتداء بهم، وانتشرت بين من يتعالى بالتحديث، فيجعل همه في تلقّي العالي والنازل من الأسانيد، ولا ينظر إلى المتون والنصوص وموافقتها لأصول الإيمان

ودعائم العقيدة أو عدم موافقتها، لذلك كما انتشرت على ألسنة المفسِّرين الجمَّاعين للغث والسمين، والغثاء والزبد، والخالص والمشوب، والصحيح والسقيم، والإسرائيليات الكاذبة المليئة بالمين والافتراء، والمؤرخين اللمامين من حاطبي الظلام الذين لا يبالي أحدهم أقبضت يده على صلّ وعقرب أو على لؤلؤة أو عقد من ذهب - ينخل ويفتش ويبحث ويناقش ويقيس ويزن، وينظر ويبرهن حتى أتى على جميع روايات الأكذوبة البلهاء فأمطرها وابلاً من سهام نقده، وأنزل عليها صيِّباً من سماء رسوخه في معرفة علوم النقد رواية ودراية حتى زيَّفها وبهرجها وفشّ ورمها، وبطَّ دملها، فسال منها صديد الكذب والضلال، وعم ولم يخص، جمع ولم يستثن، وباءت القصة وباء رواتها والمصدقين لها، المتشبثين برواياتها وقد صفَّرت أيديهم وخوى وفاضهم من شبهة يتعلقون بها أو وهم يتشبثون بـه في إمكان وجودها.

فما عدا مما بدا أيها القاضي الأجلّ وقد أكرمك الله بفضله وفضَّلك بإكرامه حتى ترتد متقهقراً، وتنكص على عقبيك لتفرض أمراً لم يكن قط في الوجود بأنه يمكن أن يكون قد كان؟ أفكنت - أيها القاضي العليم الأجل - عابثاً في بداءتك النيِّرة الصادقة، إذ زيفت بالحجة والبرهان والأدلة العقلية والنقلية جميع روايات الأكذوبة الغرنوقية البلهاء المتزندقة، ثم بدا لك بداء، فرجعت عن تحقيقك وبحثك وحججك وأدلتك وبراهينك؟ وخضت كالذي خاضوا في تأويلات محرَّفة منحرفة، تهدم ما بذلت من جهد صادق في تقويض دعائم هذه الأكذوبة الخبيثة، وأبنت فيه للناس المحجة حتى أبصرها المؤمنون بيضاء نقية ليلها كنهارها، فاطمأنوا عـلى عقيدتهم وإسلامهم وكتابهم، وعرفوا قدر نبيهم ﷺ بما منَّ الله عليك من فضله ووفقك لإقامة صرح الحق بإنعامه وإحسانه، والله يختص برحمته وفضله من يشاء من عباده، وهو جلّ شأنه ذو الفضل العظيم.

ورأيك أيها القاضي الأجلّ في بدايتك خير للإسلام والمسلمين من رأيك في نهايتك، ولله في خلقه شؤون، وهو ولي التوفيق.

رأي القسطلاني
صاحب المواهب وشارحه الزرقاني

وقد أسهب القسطلاني في المواهب اللدنية وشارحها الإمام الزرقاني فذهبا مذهب المنكرين للقصة القاطعين بنفيها في فاتحة كلامها، ثم ذهبا مع الناكصين المرتدين على أعقابهم للتأويل وفرض وقوع القصة الكاذبة، وقد اعتمدا على عياض في كلامه أولاً وآخراً وعلى نقل كلام ابن حجر في فتحه في كتاب التفسير من البخاري، وقد بيَّنا ما في ذلك من الخطأ والتعسف.

رأي أبي البركات النسفي

جرى العلاّمة النسفي على أن معنى (تمنى) قرأ، وذكر البيت (الفذ) المنسوب إلى حسان بن ثابت، وكذلك مشى في معنى (أمنيته) قال: تلاوته، ثم ذكر رواية قراءة النبي ﷺ سورة (والنجم) في نادي قومه حتى بلغ قوله (ومناة الثالثة الأخرى) فجرى على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى، ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه، وقيل نبهه جبريل عليه السلام، فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان، وهذا القول غير مرضي لأنه لا يخلو إما أن يتكلم النبي ﷺ بها عامداً وأنه لا يجوز لأنه كفر، ولأنه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها، أو أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه السلام جبراً بحيث لا يقدر على الامتناع منه، وهو ممتنع لأن الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره بقوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ففي حقه أولى، أو جرى ذلك على

لسانه سهواً وغفلة وهو مردود أيضاً لأنه لا يجوز مثل هذه الغفلة في حال تبليغ الوحي، ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله، ولأنه تعالى قال في وصفه المنزل عليه: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ وقال: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

فلما بطلت هذه الوجوه لم يبقَ إلا وجه واحد وهو أنه عليه السلام سكت عند قوله: (ومناة الثالثة الأخرى)، فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي ﷺ، فوقع عند بعضهم أنه عليه السلام هو الذي تكلم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي عليه السلام، وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي عليه السلام ويسمع كلامه.

وكلام النسفي رحمه الله تعالى مثل كلام غيره من العلماء الذين أنكروا وقوع القصة ولكنهم نكصوا على أعقابهم أمام تعدد رواياتها، فذهبوا إلى التأويل في كيفية وقوعها تأويلاً يبعدها عن الأخطار والمحذورات اللازمة لها في نظرهم، وهذا يدلنا على أن الطامة الكبرى في دفع هؤلاء العلماء إلى التأويلات تكمن في الروايات الباطلة، تلك الروايات التي فرضت نفسها ثم فرضت وقوع القصة بمفاسدها وأخطارها على أصل أصول الإيمان في العقيدة من جميع جوانبها، وهذا مسلك لا يعرفه الفكر المسلم.

على أن تأويل النسفي لم يأت في رواية من الروايات الباطلة التي تزعم وقوع القصة الكاذبة.

رأي الشوكاني

ذكر الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) الرواية الطويلة في سبب نزول الآية كما رواها محمد بن كعب القرظي مرسلة ثم عقَّب عليها فقال: قالوا: ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته ـ بل بطلانه ـ فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، ومع عدم الإمام فخر الدين الرازي من دلائل القرآن على البطلان، ثم قال

الشوكاني: قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل، ثم ذكر كلام البيهقي وطعنه في رواة القصة، ثم ذكر الشوكاني كلام ابن خزيمة كما أورده الرازي، فقال الشوكاني وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة، ثم ساق كلام القاضي عياض في الشفاء فقال: أجمعت الأمة فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً.

ومع ذلك كله فقد انضم الشوكاني إلى المتأولين الذين سبحوا في لجج التعسف والتأويل ـ على فرض وقوع القصة. وصحة الرواية.

ولا ندري ما الذي يحمل هؤلاء العلماء يرتدون بعد تقريرهم الحق على فرض باطل، هم الذين أبطلوه بالبراهين والدلائل الكثيرة، ثم يذهبون في متاته التأويل المتعسف؟.

إن أدلة بطلان هذه الأقصوصة الكاذبة الخبيثة إما أن تكون صحيحة يقتنع بها موردوها، وإما أن تكون زائفة أو مشكوكاً فيها، فإن كانت صحيحة فلا معنى أبداً للعدول عنها، وفتح باب التأويل الموبق للعقيدة، وإما أن تكون زائفة أو مشكوكاً فيها، فما كان ينبغي لمن يحترم عقله وعلمه التشبث بها وإيرادها في معرض البرهنة والتدليل. ولكن الأمر بيد الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وإليه المصير.

رأي البغوي

بدأ البغوي في تفسير آية ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ بقوله: قال ابن عباس، ومحمد ابن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين، ثم ساق حديث محمد بن كعب كما ساقه الطبري والسيوطي وليس فيه قال ابن عباس، وهو حديث طويل فيه ذكر رجوع مهاجري الحبشة الأولين إثر كذبة شيطانية، ثم أخذ البغوي في تفسير الآية فقال: إلا إذا تمنى، قال بعضهم: ـ أي ممن تقدم زمناً على البغوي ـ يعني أحبَّ شيئاً واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به ألقى

الشيطان في أمنيته ـ يعني مراده ـ وهذا التفسير يردّ على ابن القيم زعمه أن السلف (كلهم) على تفسير (تمنى) تلا وقرأ، ثم قال البغوي: وعن ابن عباس قال: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلاً، وما من نبي إلا تمنى أن يؤمن قومه ـ هذا جاء في حديث عبد بن حميد ـ ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه ما يرضى به قومه، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله تمنى يعني تلا وقرأ كتاب الله تعالى ألقى الشيطان في أمنيته يعني تلاوته، ثم أنشد البغوي الشاهد الفذ الذي ساقه جميع من ذهب إلى هذا المعنى وهو بيت منسوب إلى حسان ابن ثابت في شعر يزعمون أنه قاله في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

ثم أورد البغوي اعتراضاً على الرواية التي ساقها وأجاب عنه فقال: فإن قيل: كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ وكان معصوماً من الغلط في أصل الدين. ثم أجاب البغوي بأجوبة لا تخرج عن التأويلات التي ذكرها المتأولون وكلها بعيدة عن نصِّ رواياتهم وهي تأويلات باطلة.

كلام صاحب الإبريز
من مقال للشيخ محمد عبده

قال القاسمي نقلاً عن الشيخ محمد عبده: قال في الإبريز: العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين، فالحديث الذي يريد خرمها ونقضها لا يقبل على أي وجه جاء، وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الأخبار التي يجب القطع بكذبها، هذا لو فرض اتصال الحديث، فما ظنك بالمراسيل، وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام لا في أصول العقائد، ومعاقد الإيمان.

رأي ابن حزم
في كذب قصة الغرانيق وبطلانها

قال أبو محمد بن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل): والحديث الكاذب الذي لم يصح قط في قراءته عليه السلام في ﴿والنجم

إذا هوى﴾ وذكروا تلك الزيادة المفتراة، وأنها لهي الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى. . . ثم قال ابن حزم: وأما الحديث الذي فيه وإنهن الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى فكذب بحت موضوع لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد.

رأي العلاّمة صدِّيق حسن خان في كتابه (فتح البيان في مقاصد القرآن)

تلخيص ما ذكره في تفسيره (فتح البيان).

قال: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ معنى تمنى تشهًى وهيأ في نفسه ما يهواه، ثم ذكر عن الواحدي ما قاله المفسرون ورواياتهم التي ذكرت قصة الغرانيق، ثم قال: ولم يصح شيء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه ومع عدم صحته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، وساق آيات ذكرها المحققون في رد فرية الغرانيق.

وهنا في هامش الكتاب قال رجل فاضل من أهل العلم والإيمان لم نعرف عنه إلا أن اسمه (المطيعي) ولعله مصحح المطبعة ـ وكلامه يدل على أنه من أهل العلم ـ: هذه الرواية أدخلها على الإسلام يهودي، نُجَلِّي الغموض عنه وإن وثقه بعض الناس، فإن هذه الرواية تشجب هذا التوثيق وتحجبه، ذلك أن ابن سعد في الطبقات يرويها عن رجل يدعى عبدالله بن حنطب ليس له صحبة، والطبري يرويها عن محمد بن كعب القرظي كان أبوه من بني قريظة وأن النبي ﷺ أطلقه لأنه رآه دون ـ البلوغ، فتزوج وخلَّف محمداً هذا وقد ولد بعد وفاة النبي ﷺ.

قال (المطيعي) ومن هنا ندرك أن هذه الرواية لم يجرؤ واحد على إسنادها لأحد الصحابة رضوان الله عليهم، وربما تكون قد دُسّت من طريق بني قريظة، وكان إرسالهم إياها عن طريق ابن حنطب وابن كعب.

ونحن لا نسرع بالطعن على أحد لمجرد أنه من أصل يهودي، فقد

كان في مسلمي اليهود كثير من صادقي الإيمان، ولكنا نميل إلى أن هذه الأكذوبة أُلصقت إلصاقاً ببعض أهل الصدق من أئمة العلماء.

ثم حكى صدِّيق خان كلام البزار في عدم صحة نقـل الروايـة وإسنادها، وكلام البيهقي وكلام ابن خزيمة وكلام عياض وابن العربي وغيرهم ممن أنكر القصة.

وكلام صدِّيق خان مأخـوذ من كلام الشـوكاني في تفسيـره (فتح القدير) ولم يسنده إليه.

(رأي القاسمي)

قال محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) في قوله: ﴿ إلا إذا تمنَّى ﴾ أي رغب في انتشار دعوته وسرعة علو شريعته: ثم قال في قوله: ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي بما يصدّ عنها ويصرف المدعوين عن إجابتها. ثم قال: هذا هو الصواب في تفسير الآية، وهي غنية عن التطويل في التأويل، لولا ما أحوج المحقِّقين إلى ردِّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل.

ثم ساق القاسمي كلام ابن تيمية كما حكيناه من فتاويه.

ثم اعترض القاسمي على رأي ابن تيمية ونقده فقال: وفي كلامـه ـأي كلام ابن تيمية ـ نظر من وجوه:

أولاً: دعواه أن المأثور يوافق القرآن فإنه ذهاب إلى أن الإلقاء إلقاء في الآيات ولا تدل عليه الآية لا مطابقة ولا التزاماً، بل القول بذلك ينافي التنزيل منافاة النار للماء.

ثانياً: دعواه أن تلك الرواية نَقْلُها ثابت لا يمكن القدح فيه، فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدِّمين والمتأخرين، ويكفي أن تلميذه ابن كثير قال: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح، وتعداد طرقها بعد ضعف

أصلها لا يفيد، وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء.

ثالثاً: اعتراف ابن تيمية أن السؤال وارد على تقدير ثبوتها وإلقاء الشيطان ذلك في مسامعهم مما يبرهن أن فيها مغامز تنبذها العقول كما نبذتها صحة النقول.

رأي المفسّر اللغوي المحقق
أثير الدين أبي حيان

وهو رحمة الله عليه أحسن من سلك مسلك النجاة والبعد عن مزالق التفسخ الفكري، واعتصم بالتوفيق.

قال في كتابه العظيم (البحر) ونقله عنه تلميذه ابن أم مكتوم القيسي في (الدر اللقيط): لمَّا ذكر الله تعالى أنه يدافع عن الذين آمنوا، وأنه تعالى أذن للمؤمنين في القتال، وأنهم أُخرجوا من ديارهم، وذكر مسلاة رسول الله ﷺ بتكذيب من تقدم من الأمم لأنبيائهم، وما آل إليه أمرهم من الإهلاك إثر التكذيب وبعد الإمهال، وأمره أن ينادي الناس ويخبرهم أنه نذير لهم بعد أن استعجلوا بالعذاب، وأنه ليس له تقديم العذاب ولا تأخيره، ذكر له تعالى مسلاة ثانية باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء، وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم، متمنِّين لذلك، مثابرين عليه، وأنه ما منهم أحد إلا وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه، وبثٍّ ذلك إليهم وإلقائه في نفوسهم، كما أنه ﷺ كان من أحرص الناس على هدي قومه، وكان فيهم شياطين كالنضربن الحارث يلقون لقومهم وللوافدين عليهم شبهاً يثبطون بها عن الإسلام، ولذلك جاء قبل هذه الآية ﴿ والذين سعَوا في آياتنا معاجزين ﴾ وسعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من استمالوهم ونسب ذلك إلى الشيطان لأنه هو المغوي والمحرك شياطين الإنس للإغواء كما قال ﴿ لأغوينّهم ﴾.

وقيل: إن الشيطان هنا هو جنس يراد به شياطين الإنس، والضمير

في أمنيته عائد على الشيطان، أي في أمنية نفسه، أي بسبب أمنية نفسه، ومفعول ألقى محذوف لفهم المعنى وهو الشر والكفر، ومخالفة ذلك الرسول أو النبي لأن الشيطان ليس يلقي الخير.

ومعنى ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يزيل تلك الشبه شيئاً فشيئاً حتى يسلم الناس كما قال ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ ويحكم الله آياته أي معجزاته يظهرها محكمة لا لبس فيها، ليجعل ما يلقي الشيطان من تلك الشبه وزخارف القول فتنة لمريض القلب ولقاسيه، وليعلم من أوتي العلم أن ما تمنّى الرسول والنبي من هداية قومه وإيمانهم هو الحق.

ثم قال أبو حيان رحمه الله تعالى: وهذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله ﷺ إنما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنّوا.

وذكر المفسرون في كتبهم، ابن عطية، والزمخشري فمن قبلهما ومن بعدهما ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوباً إلى المعصوم صلوات الله عليه، وأطالوا في ذلك وفي تقريره سؤالاً وجواباً، وهي قصة سُئل عنها الإمام محمد بن اسحاق جامع السيرة النبوية ـ وهذا وهم وغلط من أبي حيان، والذي سُئل عن قصة الغرانيق فقال هذه الكلمة الفاصلة هو ابن إسحاق الحافظ الإمام ابن خزيمة صاحب الصحيح ـ فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنَّف في ذلك كتاباً كما صرح بذلك الرازي في تفسيره.

ثم قال أبو حيان: وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقال: إن رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثية شيء مما ذكروه فوجب اطّراحه، ولذلك نزّهت كتابي عن ذكره فيه.

والعجب من نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضلّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى ﴾ وقال تعالى آمراً لنبيه ـﷺ: ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء

نفسي، إن أتبع إلا ما يُوحى إليّ ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركن إليهم ﴾ الآية فالتثبيت واقع والمقاربة منفية، وقال تعالى: ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ وقال تعالى: ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾.

وهذه نصوص تشهد بعصمته ﷺ، وأما من جهة المعقول فلا يمكن ذلك لأن تجويزه يطرق إلى تجويزه في جميع الأحكام والشريعة، فلا يؤمن فيها التبديل والتغيير واستحالة ذلك معلومة.

قلنا: وهذا الذي ندين الله به ونعتقده، ونرجو من كرم الله تعالى أن يثبتنا عليه حتى نلقاه، وهو ولي التوفيق.

الجَهرُ بالدّعوَة
وكفاح النضال الصّبور

كان إسلام عمر ابن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب إرهاصاً للجهر بالدعوة

كان إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما والدعوة مستسرة في دار الأرقم إرهاصاً بدخول دعوة الإسلام الناشئة المتخفية دوراً جديداً، هو دور العلانية والجهارة، مع ما يصحبه من كفاح صبور ونضال مرير وأزمات شديدة متفاقمة، يصطدم بها محمد رسول الله ﷺ وأصحابه من القلة السابقة الذين آمنوا بالله ورسوله، متسللين تحت جنح الظلام، يمشون على أطراف أصابعهم حتى يصلوا إلى معهد الدعوة، أول معهد في الإسلام، في دار الأرقم، تحت ظل الصفا على مشهد من الكعبة المشرفة، وكان هذا المعهد الذي اختاره الله لرسوله ﷺ لبث دعوته همساً ومناجاة مصدر إشعاع الدعوة، ومشرق نورها، ومطلع هدايتها، ومنتزل إلهامها، ومَدْرس مدارساتها، ومهبط وحيها.

دار الأرقم أول معهد في الإسلام لدراسة حقائق هذا الدين القيم

يجلس فيه النبي ﷺ وحوله صفوة السُّبَق إلى الهدى ودين الحق، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بما يعلِّمه الله من وحيه وتنزيل كتابه، ويؤدبهم بأدبه النفسي الذي ربَّاه الله عليه، ونشأه على هديه، ويفقههم في الدين، ويرشدهم إلى مراشد الحياة، ومحاسنها، ويلقِّنهم بِسَمْته ودلِّه، وحركاته وسكناته، ونطقه وصمته، منازع الصبر والمصابرة، وضبط النفس، وشجاعة القلوب، ونقاء الباطن، وتحمل فوادح البلاء، والحلم مع المقدرة، والصفح والمغفرة، إعداداً لما ينتظرهم من شدائد الحياة، ومرارة الكفاح، وعنف النضال في سبيل نشر دعوتهم إلى الحق، وتبليغ رسالة نبيهم ﷺ إلى الدنيا بأقطارها، وأجيالها، أحمرها وأسودها.

مظهر قوة إيمان الرسول ﷺ برسالة نفسه

وكان هذا الدور الجديد أعظم مظهر لتجلي قوة إيمان رسول الله ﷺ برسالته، ذلك الإيمان الذي أعجز القوى الإرهابية في دنيا الشرك والوثنية أن تقف أمام عزيمة محمد ﷺ في تبليغ دعوته وهو يحمل راية نضالها وحيداً في وجه تألُّب أشرس قوى الأرض وأعتاها، حتى خرج بها على قوى الشر والطغيان معلناً صوتها، يدوِّي في أرجاء مكة، وملؤها متحلقون حول الكعبة يتهاجرون ويعبثون متضاحكين.

إقبال الصفوة على الإيمان بالدعوة الجديدة

وقد أقبل على الدعوة وهي في استخفائها الفرد بعد الفرد، والعدد القليل بعد العدد القليل، والزمرة بعد الزمرة، من أصفياء الفطرة، يتسللون إلى ساحتها لِواذاً في استخفاء متوجس، ومناجاة هامسة، وأصوات خافتة أشبه ما تكون بالرمز والإشارة، وحركات معبرة، وقلوب واجفة، لا ترهب الموت، ولكنها تخاف الفوت.

شَرَق قريش وغصصها بإسلام حمزة وعمر والجهر بالدعوة

فلما أسلم حمزة وعمر رضي الله عنهما ـ وهما فتيا قريش جراءة وشجاعة ـ شرقت بإسلامهما قريش، وغصّ به ملؤها من غطاريف الكفر وأحلاس الوثنية، واشرأبت أعناق المسلمين بالعزة والقوة، وأعز الله بإسلامهما دينه، وشد بهما عضد نبيه ﷺ، وخرج المسلمون من اختفائهم بدعوتهم، وأعلنوا عن إيمانهم وظهروا إلى الملأ بإسلامهم، وجهر صوتهم بتوحيد الله وتكبيره، وانتصفوا ممن أغلظ عليهم، وطافوا بالبيت المحرم علانية، وتحلَّقوا حوله يتحدثون في أمورهم، ويتشاورون في طرائق نشر دعوتهم، وكانوا من قبل لا يستطيعون الوصول إلى البيت الحرام إلا خفية في تسلل وتوجس وحذر.

واشتدت الأزمات، وتفاقمت الأحداث، واستشرى الأمر بين الطغيان الوثني وبين رسالة محمد ﷺ، وهي رسالة تستهدف الإيمان بالله إلهاً واحداً متفرداً بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير، فلا يعبد سواه ولا يدّعي معه آلهة أخرى، وهذا هو جانبها الإيجابي، كما تستهدف إزالة جميع ألوان الكفر والضلال، وتحرير العقول من أغلال الجهل وتراث الجاهلية، والإلحاد العلمي.

كان إسلام حمزة وعمر الثمرة الجنية لاستسرار الدعوة والجهر بها

وقد كان إسلام حمزة وعمر من أعظم ثمرات السياسة الحكيمة المحكمة التي سلكها رسول الله ﷺ في استسراره بدعوته، وتبليغ رسالته إلى من يتقبلها من قريب، دون عنت في الدعوة أو مبالغة في التبليغ، تمكيناً للرسالة أن تسري إلى العقول والقلوب في جو من الهدوء المطمئن، واليقين المؤمن، وراحة النفس، وسكون الضمير. ودون إثارة للمعوِّقات التي قد يلجأ إليها مناهضو الدعوة من زعماء الوثنية ومناصب الجاهلية الذين يخشَون على تراثهم وتقاليدهم البالية، ومواريثهم المشحونة بالغطرسة والكبرياء الجوفاء، أن تذهب بها الدعوة الجديدة، التي نادت أول ما نادت بالتوحيد، ومعرفة حق جلال الله في تفرُّده بالتعبد له، وإطلاق حرية الإنسان وإشعاره بحقيقة إنسانيته، وإرشاده إلى معرفة حقه في الحياة الحرة والعيش الكريم.

فاضطربت عقول أولئك الزعماء في رؤوسهم الخاوية إلا من البغي والبأو، والتكاثر من الأموال والأولاد وزخرف الدنيا، وحب السيطرة على الحياة، واستعباد الضعفاء واستضعاف الفقراء والكادحين، ورجفت قلوبهم الفارغة إلا من التعبد للأحجار والأصنام حينما رأوا محمداً رسول الله ﷺ يدخل عليهم المسجد - وهم متحلِّقون في مجالسهم العابثة اللاهية - في صفَّين من سُبَّق المسلمين الذين كانوا يستخفون بإسلامهم لئلا يثيروا العوائق أمام دعوتهم، ولعل الكثير منهم لم يكن يعرف الكثير من المسلمين الذين فاجؤوهم بتجمعهم حول رسول الله ﷺ، وعن يمينه عمر ابن الخطاب، وعن يساره حمزة بن عبد المطلب سيدا فتيان قريش وصاحبا أيْدها، وهم يكبِّرون الله تعالى في صوت جهير موحد، تجاوبت به أكناف مكة واهتزت له أرجاؤها، فأخذ ملأها أفكل أرعدهم وحل عرى مفاصلهم، وأصابهم المقيم المقعد من الهم والغم، وكبتوا، وران على وجوههم قتر الذل والخذلان، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلمًا.

فُشُو الإسلام وتحدث الناس به

وفشا الإسلام، وتحدَّث به الناس فيما بينهم، وسرت دعوته تقرع الآذان والقلوب، وأقبل عليه من كان أحجم عنه، ودخل كثير في رحابه أرسالاً، نساء ورجالاً، واشتد ساعد المسلمين، وقويت عزائمهم، وصبروا

على احتمال الأذى أكثر مما صبروا، وتعالى جهدهم، وتماسك جمعهم، وتحقق لهم ما كانوا قصدوا إليه واستهدفوه، وأتمّ الله تعالى على رسوله ﷺ نعمة ما كان يبغي من استسراره بدعوته في مطلعها، ذلك الاستسرار الذي استمر قريباً من ثلاث سنين، كانت محضناً لتربية الرعيل الأول من كتائب الإسلام.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجهر بدعوته، ويخرج من استخفائه، ويعلن عن رسالته، ويصدع بحقه باطل المضلِّين المبطلين، ويشقق بصوت دعوته قلوب أهل الشرك وعبيد الوثنية.

منهج الجهر بالدعوة

وكان من ألطاف التسديد الإلّهي، وسياسة الحكمة التي جرى عليها رسول الله ﷺ في تبليغ دعوته وسير رسالته أن جعل الجهر بها يسير في طريقين متوازيين، تمشياً مع سياسة الاستسرار وتحقيقاً لحكمته في تقوية الدعوة بإقبال المستعدين بنقاء فطرهم إلى قبولها والدخول في ساحتها مسالمين، لا يثيرون العوائق في طريقها.

الطريق الأول
في الجهر بالدعوة

حكمة البدء بإنذار الأقربين

كان هذا الطريق الحكيم المحكم هو الاتجاه بالدعوة في علانيتها والجهر إلى عشيرة النبي ﷺ الأقربين، فأنزل الله عليه ﷺ بعد أن اشتد ساعد الدعوة، وبلغت أشدها، ووقفت على قدميها، تعلن عن نفسها في قوة وصبر، قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم ﴾[1].

ذلك أن التوجه بالدعوة إلى الأقربين ـ وإنذارهم بطش الله وتخويفهم بأسه ونقمته إذا لم يستجيبوا إلى هدى الله والإيمان به، وإخلاص العبودية له تعالى، بخلع الأنداد والشركاء، والتطهر من أدران الوثنية ـ فيه حسم لأطماع الأبعدين، لأن الناس بمقتضى طبائعهم البشرية إذا رأوا

---

(١) سورة الشعراء، آيات: ٢١٤ ـ ٢١٧.

رسول الله ﷺ يبدأ أول ما يبدأ معلناً دعوته بإنذار أقرب الناس إليه، وتخويفهم، والتبري من أعمالهم إذا لم يستجيبوا إلى داعي الإيمان والهداية كان ذلك أدعى لغيرهم من الأبعدين أن لا يطمع منه ﷺ في مهادنته، فضلاً عن المداهنة، وهذا بلا شك ـ أقوى وأوكد للدعوة في بيان إصرارها وعمومها، وأبلغ في النفوس أثراً، لأن الإنذار والتخويف قد يدفع إليهما الإشفاق، وقد يدفع إليهما الحرص على تنبيه المشاعر والإحساسات الوجدانية في مداخل النفس الإنسانية لتوكيد أواصر القربى، وقد يدفع إليهما تحريك الحمية القومية وروابط القربى العصبية نفوراً من قبول الضيم في الصبر على أذى القريب ولا سيما في البيئات العربية التي تتعزز بنصرة القربى.

أظهر شواهد تجلي هذه الحكمة النبوية في وقائع التاريخ

وأظهر شاهد على ذلك ما وقع فكان سبباً لإسلام حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ كما بيّنا ذلك في قصة إسلامه رضي الله عنه، فقد كان الداعي الأول إليه هو الحمية القومية الغاضبة لدفع الإساءة التي وجهت ظلماً لابن أخيه محمد ﷺ من أحد أحلاس الغرور الوثني الفاجر، ولكن الله تعالى في تقديره الأزلي وغيبه المحجوب عن رؤى الناس جعل من هذه الحمية العصبية الخير كله لحمزة رضي الله عنه وللإسلام والمسلمين، فأسلم حمزة لِما أراده الله به من المنزلة التي لم تسامها منزلة في فضلها وشرفها عند الله فكان بها حمزة سيد الشهداء.

وكذلك ما وقع في جميع مواقف أبي طالب وحَدَبه على رسول الله ﷺ وحمايته له أن تمتد إليه يد بأذى، وقد جعل نحره دون نحر رسول الله ﷺ فداء لابن أخيه بدافع العصبية القومية والحمية القبلية، وظل على ذلك إلى آخر لحظة من حياته، وهو على دين قومه، وكانت قريش كلها تهاب أبا طالب وتحترمه، وتحسب لوجوده إلى جانب ابن أخيه محمد ﷺ حساباً منعها أن تقتحم حمايته ومنعته.

ومن أظهر شواهد ذلك موقف سائر المنافيين عامة وخاصة من بني هاشم والمطّلب ـ إلا ما كان من أبي لهب ـ وكانت كثرتهم على جاهليتهم في عقيدة الشرك والوثنية التي جاءت رسالة محمد ﷺ لهدمها وتقويض معالمها.

ذلك الموقف الذي تجلّى في حادث الحصار والمقاطعة ودخول شِعْب أبي طالب، وكتابة صحيفة المقاطعة التي تعاهدت فيها بطون قريش على مقاطعة كل من دخل مع رسول الله ﷺ الشعب مقاطعة تامة، وحصرهم حتى لا يصل إليهم شيء من ضروريات الحياة.

روايات البدء بإنذار الأقربين

وقد قام رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى، فأنذر أدنى الناس قرابة منه، روى البخاري ومسلم أنه لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ الآيات صعد النبي ﷺ الصفا، ثم نادى «ياصباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمّ، وخصّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

وأخرج مسلم ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قام فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم».

وهذه الأحاديث وغيرها في معناها كثير، مروي في الصحيح وفي غيره، وهي تفسر ما قام به رسول الله ﷺ في تنفيذ أمر ربه بإنذار قرابته، وتبين أن أحداً كائناً من كان قريباً أو بعيداً لا يخلِّصه من عذاب الله وسخطه إلا إيمانه بربه، وأن الناس جميعاً في هذا سواسية، لا تنفع قريباً قرابته، ولا يضر بعيداً بعدُه، فالخلق كلهم عباد الله وعياله، فمن آمن منهم بالله ورسوله ﷺ كان عند الله براً تقياً، ومن لم يؤمن بالله ورسوله كان عند الله فاجراً شقياً.

هذا هو الميزان الذي أقامه الله لوزن عباده عنده، قرباً وبُعْداً، ورحمة وسخطاً، وهو زبدة قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1].

وفي قوله ﷺ: «إن لكم رحماً سأبلها ببلالها» بيان أن الذي يملكه ﷺ لأقرب قرباه هو الصلة في الدنيا بمتاع الدنيا، ولهذا جاء مفسّراً في الحديث الثاني فقال ﷺ: «سلوني من مالي ما شئتم» فكان ذلك بياناً لما يملكه رسول الله ﷺ من صلة الود والقربى في الدنيا، وأن الخلاص من دينونة الله تعالى لا يكون إلا بالإيمان به إلٰهاً واحداً، وإخلاص العبودية له، وأما شفاعته ﷺ في الآخرة، فهي للمؤمنين خاصة، فلا يشفع النبي ﷺ لكافر قط، شفاعة تنقذه من عذاب الله، وتخرجه من النار، وتدخله الجنة، مهما تكن قرابته منه.

* * *

نظرة تحليلية في آيات البدء بإنذار الأقربين

وفي الآيات الكريمات من سياسة الدعوة إلى الله، وراء إنذار الأقربين بِرّاً بهم وتحريكاً لدوافع حمية القربى فيهم، الأمر بإلانة الجانب لعموم المؤمنين، سواء منهم من قرب في نسبه وعصبيته أو بَعُد، وهذا بيان لمكانة الخلق كلهم من ربهم، فهم جميعاً عباده، وليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب ولا قرابة حسب، وإنما هو الإيمان والعمل، وفي هذه الدائرة يختلف الناس اختلافاً واسعاً عريضاً في درجاتهم ومراتبهم من رضاء الله وإسعاده.

وفي الآيات تلطف بالذين يستجيبون إلى دعوة الإيمان، ويتبعون الرسول ﷺ تقوية لأواصر القرب الروحي وأخوة الإيمان، وأنها هي الأخوة التي اعتبرها الله تعالى صلة بين سائر المؤمنين كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[2] لأن ذلك يربط قلوبهم بالدعوة، ويملؤها بمحبة الداعي، ويعد نفوسهم للدفاع عن تبليغ الدعوة وافتداء الداعي والدعوة بكل ما يملكون من قوة وعمل.

وفي الآيات إعلان البراءة من عصيان من عصى، ولو كان أقرب

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.
(٢) سورة الحجرات. آية: ١٠.

القربى، فمن ساء عمله فلن يضرّ إلا نفسه، وأن قرابته من رسول الله ﷺ لا تحميه من سخط الله وعذابه.

وفي قوله تعالى: ﴿ فإن عصَوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ لطيفة بيانية من لطائف الأسلوب القرآني، فقد عُلِّقت البراءة في الآية بعمل من عصى، ولم تُعلَّق بشخصه وذاته، ولم تقل الآية فقل: إني بريء منكم، لأن ارتباط البراءة بالعمل دون ذوات العصاة وأشخاصهم لا يقطع أواصر القربى والبر بها في الدنيا، والعود إليها بالإحسان إليها في الدنيا والدين إذا عادت إلى الإيمان والطاعة للرسول، والإيمان هو الموجب للموالاة.

وفي ذلك تقرير لمبدأ اجتماعي عظيم، تقوم عليه دعائم الحياة الاجتماعية في الإسلام، لأن ربط الموالاة والنفرة بالعمل دون الأشخاص والذوات يفتح باب الأمل أمام الشاردين من دعوة الإيمان والطاعة لله ورسوله.

فالإنكار في الآية، والأمر بالبراءة إنما توجّه إلى العمل السيء، لا إلى العامل المسيء، وإن كان عمله السيء مرتبطاً به ما دام مقيماً عليه، لكن هذا الارتباط بين العامل وعمله ليس ارتباطاً تلازم، ولكنه ارتباط بأمر عارض يمكن الانفكاك عنه وتركه.

فإذا ترك العمل الموجب للنفرة، وحل محله عمل يوجب الموالاة عادت الموالاة وعاد معها، ما توجبه من التلطف وخفض الجناح وإلانة الجانب، وصفاء المودة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ ختاماً لآيات الأمر بالجهر بالدعوة وإنذار الأقربين إشعارٌ بما في هذا الجهر والإنذار من مشقة التبليغ، وأثقال المواجهة، وإيذان بما سيلقى رسول الله ﷺ من أذى وصد عن سبيل دعوته ومقاومة له، ومناهضة لرسالته من هؤلاء المنذَرين على قرابتهم، وتشابك أنسابهم بنسبه، وامتزاج عصبيتهم بحسبه، حتى لا يعتمد في تحمل أثقال دعوته إلى الله، وفي صبره على ما يلقى من المعاندين الشاردين عن حظيرة الإيمان والهداية ولو كانوا أقرب القربى، على غير الله

القوي القهار، العزيز الذي لا يغالب، الرحيم الذي لا يقطع إمداده عنه، وعن جميع حملة رسالاته، ووارثي عبء تبليغها، من الدعاة، الصادقين، والعلماء العاملين.

وهذا درس إلهي من أبلغ وأعمق دروس تربية الرسول ﷺ في تجرده تجرداً كاملاً من خطرات الاعتماد على قرابة أو عصبية، لأن روابط القرابة وحمية العصبية قد يعرض لها من ظواهر البيئة، واهتزازات المجتمع ما يفكها، ويزيل وصائلها، ولأن حمية العصبية قد يعرض لها من أسباب تنازعها ما يطفىء شعلتها، ويظلم قبسها، ويذيب وشائج تماسكها، ويحيلها أداة إزعاج، وذلك كما وقع من أبي لهب عم النبي ﷺ، فقد كان دون سائر بني عبد المطلب أعدى أعداء الدعوة الإسلامية، وأشد أعدائها أذى لرسولها ﷺ، لأن قرابة أبي لهب من رسول الله ﷺ تعرَّضت لظاهرة أفقدتها حيويتها في نفسه وشعوره وحسه، تلك الظاهرة ـ في رأينا ـ هي ارتباطه بالأسرة الأموية أو العبشمية ارتباطاً امتزاجياً، فقد كانت تحته زوجةً له وأماً لأولاده العوراء أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب الذي ظل قائداً لجيوش مناهضة الدعوة الإسلامية طوال زمن الكفاح والنضال، حتى أرغمته انتصارات الإسلام على الدخول فيه، ومات أبو لهب مراغماً مقهوراً، وكانت العوراء امرأة أبي لهب أسوأ مثل لأخبث عداوة لرسول الله ﷺ، وكان آلها من العبشميين عامة والأمويين خاصة هم حاملي لواء مناهضة الإسلام ورسالته، يكيدون لرسول الله ﷺ، ويؤذونه، فانزلق أبو لهب بحكم سيطرة زوجه العوراء على تفكيره ومشاعره، فأهدر عصبيته النسبية، وأمات في نفسه نخوة الحمية البيتية، وانفرد عن سائر أخوته وبني عمومته من الهاشميين بإعلان أخبث العداوة لابن أخيه محمد ﷺ الذي كان أعزّ وأحبّ إلى أعمامه من أنفسهم وأولادهم، فقد نشر هذا المتبوب لواء العداوة للإسلام ونبيه ﷺ منذ اللحظة التي اصطفاه الله نبياً، ثم بعثه إلى العباد رسولاً.

وقد تجلى ذلك في أول موقف وقفه النبي ﷺ لتنفيذ أمر الله تعالى له بالجهر بالدعوة، وكان المتبوب أبو لهب شر خلق الله موقفاً من الدعوة الإسلامية، كان يتبع النبي ﷺ وهو يمشي إلى منازل الناس ومحافلهم في

المواسم يدعوهم إلى الله تبليغاً لرسالته ليصدهم عن الاستماع إليه، ولو لم يكن لهذا الخبيث المتبوب من مواقف الخزي والعار سوى موقفه الذي يدلّ على فقدانه الشعور بالنخوة الهاشمية، والحمية العصبية، والغَيْرة النسبية والعزة البيتية بانحيازه إلى بطون قريش وتركه إخوته وبني عمومته يحصرون في شعب أبي طالب حصاراً اقتصادياً قاتلاً لكان حسبه هواناً وذلة في دنيا الأعزة الأكرمين.

الطريق الثاني

عموم الجهر بالدعوة وقوة أسلوبه

الجهر العام بالدعوة لكل من يستطيع صوتُ الدعوة أن يصل إليه من الناس، وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ﴾[1]. وبادى رسول الله ﷺ سائر قومه، وساكني بلده ومن يردها في الأسواق والمواسم بدعوته إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأنداد وترك عبادة الأصنام، وصدع بحقه باطلَهم، وشقق بقوة عقيدته وتوحيد ربه إهاب وثنيتهم، ولطم بتبليغ رسالته وجه شركهم، فسمعوا منه، وتحدثوا عنه، ولم يبعدوا عنه في أول ما أعلنهم بدعوته، ودعاهم إلى رسالته، ولم يردوا عليه أمره، ولم يعالنوه بشديد العداوة حتى عاب عقائدهم، وسخر من عقولهم، وهزأ بآلهتهم، وحط من شأن آبائهم الذين ورّثوهم عبادة الأوثان، فاتخذوها آلهة مع الله، وتلا عليهم في ذلك من بيان القرآن ما لم يكن لهم به عهد.

وما لم يكن لهم معه من صبر، فأعظموا ذلك وأنكروه أشد الإنكار، وحاولوا معه ﷺ أن يكف عن عيب آلهتهم، والسخرية من عقيدتهم، فلم يعتبهم ﷺ، ولم يقم لعتبهم وزناً، ولا ألقى إلى إنكارهم عليه بالاً، ومضى رسول الله ﷺ يقرع آذانهم ويدق أبواب قلوبهم، ويغمز عقولهم بقوارع آيات الله تعالى ونذره وزواجره، من السور المكية من القرآن العظيم، وفيها من التجبية والسخرية بهم، وقواطع البراهين على فساد عقولهم ومرض قلوبهم وباطل عقائدهم ما أثارهم على رسول الله ﷺ،

---

(١) سورة الحجر، آيات: ٩٤ـ ٩٥.

فتذامروا عليه وانتهضوا لمقاومته، والوقوف أمام دعوته.

ولكنهم كانوا يرون حَدَب عمه أبي طالب عليه، ودفاعه عنه، وحمايته له، وهم يعلمون مكانة أبي طالب فيهم، ويعلمون أن بني هاشم وأخوتهم بني المطلب لا يخالفون عن أمره ولا يخذلونه في مواقف الجد ونوازل الأحداث، وأنهم مناصروه على من ناوأه، أو حاول النيل منه، وهم أشد شكيمة في قومهم على من نابذهم العداوة واللدد.

لقاءات بين أبي طالب وزعماء قريش

فعمدت بطون قريش من العبشميين والمخزوميين، والسهميين والأسديين وغيرهم إلى أبي طالب، يلقّونه شاكين إليه ابن أخيه، ومشى إليه منهم رهط من رؤوسهم وزعمائهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة العبشميان، وأبو البختري، العاص بن هشام الأسدي، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزوميان، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجاج، والعاص ابن وائل السهميون وغيرهم، فقالوا له: يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال أبو طالب لهم قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ولم يبدُ منه لرسول الله ﷺ شيء يصده عن دعوته... وتبليغ رسالته، ومضى رسول الله ﷺ قُدُماً في طريقه بقوة لا تقهر، وعزيمة لا تفل، فزاد ذلك ملأ قريش سوءاً على سوئهم، وشري الأمر بين رسول الله ﷺ وبينهم، واشتد التأزم، وملأ الحنق قلوبهم، وتباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، وشنفوا له، وحض بعضهم بعضاً عليه ورأوا أن عمَّه أبا طالب لم يعتبهم في شأنه، وازداد حدبه عليه، وحرصه على منعه وحمايته.

فمشوا إليه مرة ثانية، يذكِّرونه بأمرهم معه، وما قالوه له في شكايتهم أول مرة، ويضيفون إلى ذلك لوناً من التهديد والوعيد، فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا،

وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم تركوه وانصرفوا عنه.

حيرة أبي طالب بين حميته وإرضاء قومه

وفكّر أبو طالب ودبّر، وقلّب الأمر، وعظم عليه هذا الموقف، وكبر عليه فراق قومه، وتمثّل طاقته بحربهم، وتبين له أنه لا طاقة له بمنازلتهم، وهم جميعاً إلْب عليه، مجتمعين متكالبين، ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ إلى هؤلاء السفكة، ولم يرض ضميره بخذلان ابن أخيه الذي أحبه وصبّ به صَبابة لم يكن شيء مثلها لأحد من ولده، وربّاه في كنفه، وحنا عليه حنواً جعله لا يطيق فراقه، وأعزه فوق معزة كل عزيز عنده.

وأي خذلان يكون وراء دعوة ابن أخيه إلى الكف عن تبليغ رسالته؟ ودارت. . الحيرة بأبي طالب، تشده تارة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، وعُمّي عليه أمره، واشتبكت في تفكيره مخارج الرأي، ثم اختار مضطراً مكرهاً أن يبقي على نفسه مع قومه، وأن يدعو ابن أخيه إلى الكف عن الإساءة إلى قومه، وأن يترك ما يغضبهم ويثير حفائظهم من عيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، وتضليل آبائهم.

أما رسالة محمد ﷺ فما يكون شأنها عند أبي طالب، وهو على دين قومه؟ وما مدى ما يبلغ إدراك أبي طالب ـ في شركه ووثنيته ـ من حقيقة رسالة محمد ﷺ؟ أيبلغ هذا المدى أن يجعلها في نفسه فوق إرضاء قومه، والإبقاء على نفسه معهم، فلا يفارقهم من أجل أمر هو لا يدين به؟ لا، ذلك طمع في غير مطمع، وخُلَّب برق بين السراب يلمع.

فليعرض الأمر على ابن أخيه، وليشعره بوعيد قومه وتهديدهم، عسى أن يلين جانبه، فأرسل إليه، وقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا، وكذا، وأشار إلى تهديدهم وتوعدهم إياه، وإنذارهم له بالمنازلة والحرب المبيرة التي لا تبقي عليه وعليهم، ثم استعطفه فقال: فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

أخرج الطبراني وأبو يعلى عن عقيل بن أبي طالب قال: جاءت

عزيمة النبوة أنقذت أبا طالب من حيرته

قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا ونادينا فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تكفَّه عنا فافعل، فقال لي: يا عقيل: التمس لي ابن عمك، فأخرجته من كبس - بيت صغير - من أكباس أبي طالب، فأقبل يمشي معي، يطلب الفيء، يمشي فيه، فلا يقدر عليه، حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال أبو طالب: يا ابن أخي، والله ما علمتُ أن كنت لي مطيعاً، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم، وفي ناديهم، تسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيت أن تكفّ عنهم؟ فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثتُ به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار».

فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين.

وأخرج البيهقي في الدلائل نحو ما ذكره ابن إسحاق في سيرته، وفي هذه الرواية أن أبا طالب قال للنبي ﷺ بعد أن ذكر له قومه في شكايتهم: فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فأكفف عن قومك ما يكرهون من قولك.

فظنَّ رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه في شأنه أمر وأنه خاذله ومسلمه، وأنه ضعف عن القيام معه، وعن حمايته، ونصرته، فقال له رسول الله ﷺ: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري؛ على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته».

ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى، ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال له أبو طالب: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

العجز عن التعبير أبلغ من التعبير العاجز

وهنا يقف القلم عن الحركة، فيجمد بين أناملي، ويجف مداده، ثم تعود إليه الحياة فيرتجف ارتجاف الطائر الذبيح، وعهدي به طيّع سلس القياد، ريان الفؤاد، بليل المداد، جوَّال سيال، لا يتوقف إذا أريد على الحركة، يجوب آفاق الفكر، ولاَّج إلى مداخل خباياها، صعَّاد إلى شواهقها، عليم بأوديتها، فما له هكذا يَجفُّ ويضطرب تارة؟ وما له يجمح

ويستعصي عن المقادة تارة أخرى؟.

رويدك يا (قلم) أفتراني أكرهك على أن تملك فوق طاقتك فتصور مرآة الوجود في قرطاس الحياة؟ أم تراني أستنزل لك الشمس من عليائها لتكتب بمداد أضوائها خلجات أعظم نفس في الوجود في أحرج لحظة تمر بالحياة؟.

هوِّن عليك يا (قلم) وهدِّىء من روعك فلا تضطرب بين أناملي، فليس عيباً أن تعجز عن تصوير ما ليس في دائرة الإمكان تصويره، ولا أن تعجز عن أن تبرز ما ليس بمستطاع إبرازه، ولئن عجزت أسلاتك عن تصوير ما يدور في روعك من خلجات الإعجاز الكوني ممثلاً في طوايا شخصية محمد الأمين ﷺ، فلك أسوة في الفكر، وهو أرحب منك منطلقاً في عجزه عن تصوير ذرة من خلجات هذا الموقف المعجز في تعبيره عن نفسه بمنطق صمته.

إي. وقَهْر الله لخلقه إن ذلك لحق؟؟ وماذا يكتب القلم؟ وماذا... يستطيع القرائح القرّح أن تملي عليه من حقائق الغيب المستقرة في ضمير محمد ﷺ ساعتئذ؟.

أترى لو كانت خيوط أشعة الشمس أقلاماً ولعابها الملتهب مداداً لهذه الأقلام أفكانت مستطيعة أن تعبِّر عن موقف محمد ﷺ في تلك اللحظات تعبيراً يصور بعض ما جال في خواطره، وسبح في حنايا نفسه؟.

عزائم المرسلين أرسخ من الرواسي الشامخات فكيف بعزيمة سيدهم؟

محمد رسول الله ﷺ يأمره الله تعالى أن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن دعوته، ويجهر بتبليغ رسالته، ويأمره أن يعرض عن المشركين المستهزئين به وبدعوته، وأن يجعلهم نبذاً ملقىً وراء ظهره، ومواطىء أقدامه، فلا يبالي بهم، ولا يقيم لزمجرة طغيانهم وزناً، ولا يفرض لوجودهم أمام عزيمته قدراً، ولا يحسب لهم حساباً يصده عن المضي في عزيمته، مبلِّغاً رسالة ربه، منذراً بطشه ونقمه لمن لم يستجب لندائه ودعوته.

فيمضي محمد ﷺ قُدُماً معلناً عن دعوته بكل ما يملك من وسيلة

يعرفها الإعلان والجهر في مجتمعه وبيئته وبلده وقومه، يناديهم وجه النهار من ذرى الجبال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

سبحات في رياض هذا الموقف الفريد

وكان له ﷺ في حدب عمه عليه وقيامه معه، ودفاعه عنه وحمايته له، ومنعته أن يؤذى عزاء وقوة، فيمشي إلى هذا العم ملأ قريش وطغاتها وذوو رأيها وغطارفها وزعماء دينها ودنياها، وهذا العم كان على ما هم عليه من باطل الكفر وضلال الشرك والوثنية، يطلبون إليه وهو في سنه وشرفه فيهم أن ينهى ابن أخيه عن قوله في عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده وخلع الأنداد والشركاء، أو يخلّي بينه وبينهم فيكفونه مؤنة هذا الموقف الآزم.. بقتل محمد ﷺ ويسدل الستار على الرواية، وينتهي العرض، ويتفرق المتفرجون إلى مجالس سمرهم، يهجرون بما كان وما يكون، وهذه دائماً نهاية كل تفكير يستمد جذوره من الجوع والشبع، وأصحابه يعيشون ببطونهم لبطونهم، فهو تفكير ضحل ساذج، بل تفكير طفلي، لا يعدو أن يكون عبثاً من «أعباث» الإنسان في مهد الحياة، فلا وزن عند أصحاب هذا التفكير البليد للرسالات الإلهية، ولا علم عندهم لحقائق هذه الرسالات وأهدافها في الحياة، ولا أدنى معرفة لديهم لمكانة رسل هذه الرسالات في الحياة، ولا تقدير لعزائم أولئك الرسل التي يولدون بها، وينشأون عليها، ويعملون بقوتها.

ويسمع أبو طالب ما عرضه عليه عباهلة قومه، فتأخذه الحَيْرة، ويملكه الذهول، فلا يدري أيقدم أم يحجم، فهؤلاء قريش، وغطارفة الحرم وعظماء مكة، وسدنة أموالها وتجارتها، يأتون إليه في إجماع يخيرونه بين خصلتين الموت أهون من قبول إحداهما.

يخيرونه بين أن ينهي ابن أخيه نهياً يصدّه عن قوله في تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، وهذا يعني في نظر الواقع أن يترك محمد ﷺ رسالته، ويتخلّى عن دعوته، وهذه هي التي لا شوى لها، أو يسلمه إليهم يقتلونه، وهذه ـ في نظر أبي طالب ـ هي الموت الأحمر.

وبين أن ينازلوه بالحرب حتى يهلك الفريقان أو أحدهما، وهذه التي

لا يطيقها أبو طالب وهو في مكانه من بني هاشم سناً وشرفاً وعزاً وطاعة.

وتذهب الحيرة بأبي طالب مذاهب من الشك والتردد، والضعف والتخاذل تارة، ومن العزم والقوة تارة أخرى، فقد عظم عليه فراق قومه ومنازلتهم وعداوتهم فضعف واستخزى، ثم داخلته نخوة العصبية الهاشمية فلم تطب نفسه بإسلام ابن أخيه الذي أحبه وأعزه، ورباه، وقام معه وحماه، إلى القوم يقتلونه.

وأي أرض تقلّه؟ وأي سماء تظله؟ وأي دار تؤويه؟ وأي حياة له ولبني أبيه بين قريش إذا أسلم محمداً ابن أخيه لأعدائه؟.

وفي حومة هذا الموقف الآزم أصابت الشيخ في غمرة الهرم نفحة من عذاب الحيرة الخانعة، والشك المذل، ودعا بابن أخيه محمد رسول الله ﷺ، وقال له: إن قومك جاؤوني، فخيَّروني بين موتتين: موتة ذليلة، يبقى ذلها ما بقيت الحياة، لا يفارق عارها هاشمياً أبد الآباد، وموتة عزيزة، يبقى عزها ما بقي الخلود.

ثم زاده في حديثه فكشف له عن ميله ورأيه في تفادي الموتتين، فقال خانعاً متخاذلاً وهو يحشرج: فابقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

وكان طبيعياً أن يحس محمد ﷺ أمام حشرجة عمه بهذا الرأي الذليل المتخاذل ضعف موقف عمه، فتبادر إليه أن عمه قد بدا له رأي جديد في موقفه منه، ومن نصرته، ومنعته وحمايته التي كان يحوطه بها، وأنه خضع لبعض الأمر فيما عرضه عليه قومه.

محمد ﷺ يملي على الحياة كتاب إنقاذها من ذل الاستعباد

لحظة واجمة كأنما أحسَّت الحياة فيها أن الفلك قد توقف عن دورانه، فعبرت فيها خواطر محمد ﷺ محيط دنيا الناس والأشياء إلى عِبْر الوجود اللانهائي، ورأى وسمع، ثم أملى على الكون، وهو يصغي إليه كلمته الفذّة المعبرة، التي ترجمتها إحساساته، وعبَّرت عنها مشاعره أصدق تعبير، ودمعه يتحلب من عينيه، مستعبراً يبكي رثاء ورحمة لهذه الحياة

المظلمة، التي جاءها لينيرها فتأبى إلا أن تعيش في الظلام أبد الدهر.

بيد أن محمداً ﷺ كان قد أعطى المصباح مضيئاً فلا يطفأ حتى تستنزل الشمس فتوضع عن يمينه، ويستنزل القمر فيوضع عن يساره، ويتغير مسار الكون في مواقع شموسه وأقماره ونجومه وأفلاكه، وهذا فوق المحال بمحالات.

ولكنها عزيمة محمد ﷺ تأبى إلا أن تقول لحياة الظلام: لا، وفي يدي المصباح مشتعلاً بضوء الهداية، لا بدّ لهذا الظلام أن يتبدد، وأن يملأ نور الله آفاق الحياة فيضيء السهل والجبل، ويغمر الأودية والشواهق، ويدخل البيوت، ويسري في الطرقات، ويتولّج في حنايا النفوس، وزوايا الضمائر، ويدلف إلى القلوب والعقول، ويوقظ الحياة من سباتها، ويصبح الكون ـ كما أراده الله ـ مسخراً للإنسان يستخرج آياته، ويكشف أغطية الجهل وظلام الوثنيات عن أسراره، ويعرف الإنسان حقيقته في هذه الحياة، ويعرف ربه حق معرفته، ويكفر بالطاغوت، ويؤمن بالحق والعدل، ليصحح وجوده ووجود الحياة كلها لتخوض بحار العلم والمعرفة، وتسبح في محيطاتها، وتطير في أجوازها بأجنحة من فيض الله وأمره.

دمعة محمد ﷺ كانت مداداً لكتاب إنقاذ الحياة من مهانة الذل

لقد كانت عَبْرة محمد ﷺ وهو يسمع من عمه صوت حشرجته ذليلاً خزيان مستسلماً لتلك الأشباح النخرة من رؤوس الكفر والضلال أعظم تعبير عن موقف كان فيه الحد الفاصل بين أن تمضي الدعوة إلى توحيد الله، وتطهير الأرض من رجس الشرك، في طريقها راسخة الدعائم، قوية العزائم، لا ترهب الموت تلقاه وهي في مسيرها، ولا تبالي الفوادح تصيبها وهي تسري دؤوبة إلى القلوب والعقول، لا يعوّقها عن مسيرها أصوات ارتطام الغثاء بشاطىء الفناء، وهو مدفوع بمد أمواج البأو الأجوف والغرور الأخرق، ولا يصدها عن وجهها حشرجة الاستسلام والاستخزاء تنكص بهذا الشيخ المعنّى الذي كان تكأة لحماية الدعوة حتى تقف على قدمين، وتسري بقوتها الذاتية إلى المشرقين والمغربين، وإذا به في لحظة وعيد وتهديد من الأشباح النخرة، يتخاذل، ويتخلى عن مكانه في شرف

الحمية العصبية والعزة القومية.

وبين أن تقف هذه الدعوة عن سيرها وتعجز عن الحركة وتتبدد مقوماتها، ويتركها حامل أثقالها وأمين أمانتها هملاً وعجزاً عن أدائها في غير حماية العصبية المتهاوية على لسان الشيخ المتآكل هرماً، وهو ينظر إليها يكنفها الظلام حتى يواريها الفناء.

وهكذا كان يتصور أعجاز النخل الخاوية التي تحملها أعناق الملأ من عباهلة قريش وغطارفها الذين مشوا إلى أبي طالب متوعدين مهددين، يتحرجونه ويضيقون عليه الخناق لينفض يده من حماية ابن أخيه الذي قام ليهدم بمعول دعوته صرح وثنيتهم المتداعية في بلادتها، المتهاوية بجهالتها المتهالكة بحماقتها.

ولكن «دمعة» محمد ﷺ وهو يسمع من عمه الشيخ كلمته المتخاذلة كانت مداداً لكتاب، معبراً أبلغ تعبير وأعمقه وأقواه عن عزيمة ماضية في قهرها لقوى الشر، لا تعرف التوقف والتردد، ولا تعرف المداهنة ولا المهادنة، بل تمضي قدماً، تنشر رايتها خفاقة على آفاق الحياة.

لقد أملى محمد ﷺ «سطراً» من كتاب إنقاذ الحياة بمداد «دمعته» في كلمته التي أجاب بها عمّه، فكانت عنواناً لكتاب عزيمته، وطوى سائر صفحات الكتاب في صدره ليلقيها على مسامع الكون في مناسباتها كلمة، كلمة، وسطراً، سطراً، وصفحة، صفحة في مجالات عزائمه القاهرة وإرادته المصممة الباهرة.

وانصرف محمد ﷺ عن عمه الذي كان يترنح ذهولاً يتفاعل في مداخل نفسه فيذيبها ألماً وحسرة، مولّياً عنه لا يأسى على فائت، ويترك عمه غارقاً في بحار تأملاته في كلمة محمد ﷺ التي لم يسمعها من قبل، ولم يعش جوها الأعلى قط، وسرعان ما يتغير الموقف وتسري نفحة من عزيمته ﷺ التي سطرت كتابها «بدمعته»، وينتفض الشيخ المترنح في ذهوله وكأنما خلق خلقاً جديداً، وزايلته كبرة الهرم، وعاد فتيّ العزيمة وامتلأ قلبه قوة، وإرادته أنفة، وراجعته عزة العصبية، فنادى ابن أخيه، وقال له: اذهب

يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

العظماء لا يبكون خوفاً ولكنهم يبكون رحمة وإشفاقاً للإنسانية المعذبة في الأرض

وي!! أهكذا تصنع (دمعة) تنهمل من عين باكية رحمة لقطيع الإنسانية تسوقه وحوش الطغيان، يحدوها نَهَم التكالب المادي وجشع التزاحم على حطام الدنيا وسحتها الذي تمتص به دماء القطيع حتى تنشفه، فتجعله أشباحاً من جلود تكسو عظاماً نخرة، قبل أن تسلمه إلى الجزار في مجزر الظلم والطغيان والفجور.

ولكن الفارغين من معاني الحياة، الجاهلين بأقدار عبرات العظماء ودموعهم؛ فضلاً عن عبرة أعظم العظماء ودموعه، محمد ﷺ، يسكبها حسرات على هذه الإنسانية المعذبة في الأرض، وهو رسول إنقاذها ينغضون رؤوسهم جهالة وتعجباً، ويقولون في أنفسهم: ما هذا الخيال الفضفاض؟ ولا والله ما خِلْت ولا تخليت، ولكني عرفت وتحققت، وإلا فأي فرق بين دمعة تنهمل من عين كسيرة، ذليلة، خانعة، تسام الخسف فترضى ودمعة من عين تخلَّت عنها جميع قوى الأرض، منحازة إلى وادي الظلم والظلام، وتحالفت ضدها كتائب شياطين الأرض ومردة الآفاق، وصاحب هذه الدمعة الحسرى وحيد منفرد، واقف على شفير هذا الوادي الظلوم المظلم، يعج بأشباح الفجور والطغيان، بيده شعلة الحياة مشرقة مضيئة يتلألأ نورها، ينادي نسائم الحياة هلمّوا إلي أهدِكم سبيل الرشاد، فيكون جزاؤه منه أن يرسلوا عليه وحوشهم ليأخذوه ـ لو استطاعوا ولن يستطيعوا ـ إلى واديهم الظلوم المظلم، فيأسى لهم، وتكاد نفسه الكريمة تذهب حسرات عليهم، وتنهمل من عينه (دمعة) راحمة مشفقة، يسري أثرها إلى من كان قد همّ أن يرمي بنفسه إلى ملأ الكفر والفجور ناسياً حميته ونخوته، وإذا به ينتشي من رشح تلك الحمية، وتثور نخوته المدافعة، ويتبدل في إراداته وعزيمته خلقاً جديداً، تتقمصه قوة عارمة، لا تبالي جموع الطغيان وشياطين الأرض، وكأنه بهذه العزيمة يمسح أعز «دمعة» من أعز عين، ويقول: يا ابن أخي، اذهب في مسالك الأرض وفجاجها، وقل ما أحببت على سمع من كره ومن أحب، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

قوة عزيمة رسول الله ﷺ تقلب الموقف على زعماء الوثنية

ويسرَّى عن النبي ﷺ ما كان قد ألمّ به وتزداد عزائمه قوة وإرادته صمْداً إلى أهدافها، ويمضي قوياً قادراً ومقدَّراً في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، يؤم القبائل والبطون في منازلهم ومحافلهم، وفي الأسواق والمواسم ومجامع الناس يدعوهم إلى الله، وتملأ صيحة الحق آذان قريش فتصكّها صكاً يذيب صماخها، ويذهب بها الحنق والتغضب كل مذهب إلا أن تذكر وعيدها وتهديدها أبا طالب بمنازلته إن لم ينهَ ابن أخيه عن تسفيه أحلامهم، وسب آلهتهم وعيب آبائهم، فهذا شيء نسيته أو تناسته أو جبنت أن تذكره أمام نفسها لئلا يغري بها سفهاءها وتكون لهم عليها به حجة.

وازدادت حمية أبي طالب في حَدَبه على رسول الله ﷺ وحمايته والقيام معه والوقوف إلى جانبه ومنعه من أعدائه وأعداء دعوته، وأشعل موقفه هذا نار الحمية في صدور بني هاشم، ووقفوا إلى جانبه عصبية لشيخهم أبي طالب.

ذكر ابن إسحاق أن أبا طالب قام في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب عدو الله.

ولكن بلادة الطبع في ملأ الوثنية المادية من غطاريف قريش، وجمود عقولهم، وتحجر مشاعرهم وإحساساتهم، وتلوث فطرهم، وموت قلوبهم، وعمى بصائرهم وجهالة مجتمعهم عدلت بهم عن موقف الشدة مع أبي طالب، وقد فقدوا شجاعة المواجهة بمنازلته إذ رأوه يجمع أمره على الاستهانة بوعيدهم الأجوف، وزمجرتهم الكاذبة، لأن.. كفكفة «دمعة» ابن أخيه أعز وأغلى وأرفع ميزاناً في حياته، وأجل قدراً عنده من قريش وعباهلتها، وأقوى أثراً في نفسه من قوتها وجبروتها، فلتفعل قريش بقوتها وغطرستها ما تشاء، فلن تستطيع أن تنال من محمد ﷺ منالاً، وأبو طالب حي يمشي على أرض مكة، وفي رجال بني هاشم عين تطرف.

وتخاذلت قريش، وداخلها الجبن والهلع، وراح ملؤها في تفكير بليد، وعقول مأخوذة عن سلامة التفكير، مستغرقة في جهالة جاهلية، لا تعرف من الدنيا إلا أن تأكل وتتجشأ، وترابي وتضارب، وتتكالب على الثراء السحوت، الذي تقيس به أقدار الرجال، فالرجل فيهم مهما عظم شأنه وزنه دية، تقدر بقطيع من الإبل والخراف، وليس للإنسان عندهم باعتبار إنسانيته ولا باعتبار فضائله النفسية، وشمائله الخلقية أية قيمة أو تقدير.

ومشّوا مسربلين بهذه البلادة المتعفِّنة يهزون رؤوسهم لغير شيء، يجرون وراءهم فضضاً من لعنة الله، تحلب من صلب لعين، أُطعم فأشبع فتجشأ تيهاً وغروراً ولان جلده، وبضض لحمه، ولمع شحمه من خلف إهابه، كأنه قعود تفرد بلبن حلوبة سائمة، ترتع في حمى كليب ربيعة، فحسبوه شيئاً في وزن الحياة، وتقدير القيم والأقدار، وجاؤا به إلى أبي طالب في شموخ مأفون، تكسو وجوههم ذلة التخاذل، يقولون له: هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه، فلك عقله ـ ديته ـ ونصره، واتخذه ولداً، فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك، ودين آبائك وفرّق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

أفٍ لهذه العقول البليدة المتحجِّرة و.... على تلك الرؤوس الخاوية والوجوه الذليلة: أين وعيدكم يا أحلاس الجبن بمنازلة أبي طالب؟ هل خلعت عزيمته قلوبكم من صدوركم فأصبحتم أشباحاً لا تفقهون؟.

إعجاز في التعبير عن قوة إيمان محمد ﷺ برسالته

لا، ولكن ضياء الحق أعشى أبصاركم، وقد كنتم من قبل عُمي البصائر، فلم تعرفوا للحق حقه، بل أرعبتكم قوته القاهرة ممثلة في قوة إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه، إيماناً لا يعدله في الكون كله شيء هذا الإيمان الذي عبَّر عنه محمد ﷺ وهو يقابل أفدح محنة في حياة الدعوة، أصدق تعبير، بكلمته الفذة التي لم تعرف الحياة لها مثيلاً، والتي لم ينطق بها قبله بأية صورة من روايتيها لسان، ولا صُوِّرت بها عزيمة، على مدى ما عرف

التاريخ من أحداث، إذ يقول فيما أخرجه الطبراني رداً على عمه في كلمته المستسلمة حين أخذه الهلع الجزوع: فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق: «والله - يا عم - ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعِثْتُ به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار» وإذ يقول فيما رواه ابن إسحاق في سيرته والبيهقي في دلائله: «والله - يا عم - لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

هذا الإيمان الذي امتزج بروح محمد ﷺ وعقله ومشاعره وإحساساته لم تعرف الحياة له نظيراً في قوته وسطوته، وعلو جهرته.

هذا الإيمان هو الذي ردَّ على أبي طالب شجاعته التي افتقدها في لحظة ضعف أذلَّته، فقال تلك المقالة المستسلمة المستخزية، فجاء هذا الإيمان مصوراً في كلمة محمد رسول الله ﷺ المعبِّرة عن عزيمته ليطهر أبا طالب من وضر الاستخزاء والاستسلام، فرجع إلى ابن أخيه بأعظم وأوفر وأقوى مما كان يوليه من الرعاية والحب، ويضفي عليه من الحماية والمنعة.

عودة أبي طالب إلى حميته زلزل أقدام الطغيان الأجوف في ملأ قريش

ولا بد أن يكون قد ترامى إلى الرؤوس الخاوية من ملأ الطغيان الأجوف في قريش ما كان بين أبي طالب وابن أخيه من محاورة انتهت إلى عهد موثق قطعه أبو طالب على نفسه لابن أخيه، بأن لا يسلمه إلى أحد وهو يتنفس في جو مكة.

ولا بد أن الرؤوس الخاوية قد شعرت بالقوة التي تجددت لدعوة محمد ﷺ في تبليغ رسالته، ولا بد أنها شعرت بالخطر يتهددها في وثنيتها وشركها، وفي طغيانها المادي، وسحتها وربوياتها وتجارتها ومضارباتها، فرجفت بهم الأرض من تحتهم، وهم في مجالسهم وأنديتهم، ونظر بعضهم إلى بعض بعيون زائغة، تدور نظراتها في سهوم وذهول كالذي يغشى عليه من الموت، وتملكهم الهلع والجزع، واستولى عليهم الرعب، واستحوذ على قلوبهم الجبن ومهانة الضعف، وضراعة الذل الحائر، فلم يفكروا قط في تنفيذ وعيدهم وتهديدهم أبا طالب بمنازلته وابن أخيه حتى يتفانى الفريقان،

ولكنهم دفنوا رؤوسهم الخاوية في رمال المهانة، وتكلموا بغير ألسنتهم بما ليس في قلوبهم، ثم استيقظوا من غطيط نومهم على فحيح الشيطان، وهو يدير رؤوسهم بهذه الأقصوصة السخيفة، أقصوصة عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، هذا الفتى المأفون المأفوك الذي أوقعه أفنه بين فكي الدهاء العَمْري الماكر في أحاديث الهجرة إلى الحبشة حتى قتله شر قتلة.

تقدير الرجولية في نظر الفارغين من فضائل الإنسانية

أهذا منتهى تقدير الرجولية في نظركم يابقايـا نفايات فتات الإنسانية المتعفن؟ تباً لهذه الحياة إن كان مثلها الأعلى في شبابها ورجوليتها وفتوة فتيانها جسامة بضّة، وجمال مظهر مائع، وميعة شباب تافه، وتمايل أعطاف مرذول.

مشى ملأ الوثنية المادية إلى أبي طالب منتفخة أوداجهم يقودون فتاهم بشحمه وبضاضة جسمه وهم يقولون له: قد جئناك بفتى قريش جمالاً ونسباً ونهادة، ندفعه إليك، فيكون لك نصره وميراثه، فخذه وادفع إلينا ابن أخيك نقتله، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة، ورجل برجل!!.

ونظر أبو طالب إلى هذه الأشباح النخرة التي تكلمه منذ اليوم، وهي تقود فتاها بنسعة الغرور الكذوب، وحدَّث أبو طالب نفسه هامساً متعجباً من هذه الرؤوس التي لم تركب في تلافيفها أدمغة تعقل، ولا دُسّ في صدورها قلوب تفقه، وما قيمة جسامة فتاكم وبضاضة جسمه وجماله وميعة شبابه، وتمايل عطفيه، وتضاحك شدقيه في ميزان الرجولية الجادة؟ وما قيمة ذلك في ميزان الفضائل الإنسانية التي تعتز بها الحياة في حساب مفاخرها فيمن تدخرهم لإنقـاذها من شروركم؟ أفلا تعقلون؟ بل ما قيمة فتاكم البض التياه في شرعة وشائج الطبيعة؟ أفلا تفقهون؟.

وكان أبو طالب قد استجمع أطراف عزائمه وراجعته حميته لابن أخيه، وزاده هذا العرض السخيف الأبله قوة وشموخاً، وتبدى له خذلان الطغيان وابتلاع الملأ من قريش تهديدهم ووعيدهم بمنازلته، وأنهم جاؤوه بدَنيّة الدنايا، ورذيلة الرذائل، وحطيطة الجبن.

ردُّ القمِ الفارغين حجراً غصوا به

وانتهض أبو طالب للرد عليهم رداً بدّد غرورهم الأبله وغمز قناة بلاهتهم، فقال لهم: لبئس ما تسومونني: أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً.

وفي رواية ذكرها القسطلاني في المواهب عن الإمام مقاتل بن سليمان أن أبا طالب قال لهم: رداً على عرضهم السخيف الأبله: حين تروح الإبل، فإن حنّت ناقة إلى غير فصيلها دفعته لكم، ثم قال لهم أبو طالب: إنكم تسومونني سوم العرير ـ أي الغريب، الدخيل، الذليل.

وكان المطعم بن عدي، وهو أنف من آناف الكفر الوثني، وطغيان الشرك والجحود، يشهد هذا الموقف ضمن ملأ قريش، فقال لأبي طالب: والله لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك.

وشري الشر، وحقب الأمر، وتنابذ الرجال، وبادى بعضهم بعضاً، وتذامرت قريش على أصحاب رسول الله ﷺ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ بعمه أبي طالب، وقام أبو طالب حين رأى شنف قريش وتغضبها وما تصنع بأبنائهم وأخوتهم الذين أسلموا، ليستعد ـ حرصاً على رسول الله ﷺ ـ أن تمتد إليه يد بسوء، وقرأت قريش على وجه أبي طالب عزمته التي سيلقاها بها إذا حدثتها نفسها بما زعمت من منازلته وحربه، فعدلت إلى المداهنة والاستعتاب.

ذكر ابن سعد في الطبقات عن شيخه الواقدي بأسانيد متعددة أن قريشاً قالت لأبي طالب بعد أن أعلن لها عزمته الصارمة في رده على بلاهتها بعرضها أقصوصة فتاها عمارة بن الوليد التي باءت بالخيبة والخسران: فأرسل إلى ابن أخيك فلنعطِه النَّصَف، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فجاء رسول الله ﷺ: فقال له عمه ـ على سمع رهط قريش ـ هؤلاء عمومتك، وأشراف قومك، وقد أرادوا ينصفونك، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اسمع» قالوا: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك وقال أبو

طالب ـ وكان هذا منتهى علمه برسالات الله ـ: قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطيّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم»؟: فقال أبو جهل ـ وكان سفيه القوم ومتكلمهم ـ: إن هذه الكلمة مربحة نعم وأبيك، لنقولنّها وعشراً أمثالها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله». فاشمأزوا، ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم إن هذا الشيء يراد، ثم قال بعضهم لبعض: لا نعود إليه أبداً ـ وما خير من أن يغتال محمد، فلما كان مساء تلك الليلة فقد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع أبو طالب فتياناً من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال لهم: ليأخذ كل منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل ـ فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد: أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً، فقال أبو طالب لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ، وهو في بيت عند الصفا، ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال يا ابن أخي: أين كنت؟ أكنت في خير؟ قال «نعم» قال أبو طالب: ادخل بيتك، فدخل رسول الله ﷺ بيته، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيده، فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون، فقال يا معشر قريش: هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة فقال: والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم، وكان أشدهم انكساراً أبو جهل لعنة الله عليه ما طلعت شمس.

عِبَر لمن يفقه ويعقل

في هذه القصة ـ وهي تفصيل في بعض جوانبها لما أجمل في غيرها من قصص الأحداث وإجمال لما فصل في غيرها ـ مجالات للعبرة تستأهل

الوقوف معها لبيان أوجه الاعتبار فيها.

أولاً: إنها تصور ما أصاب قريشاً من هلع وتخاذل بعد أن تيقّنت أن محمداً ﷺ لم يبال بغضبها، وبعد أن تجلّى لها موقف أبي طالب في عزمته القوية المجدَّدة، اشتداد حميته في مناصرة ابن أخيه، والتفاف بني هاشم وبني المطلب حوله في حميته ومناصرته، وأنه لم يقم وزناً لوعيدها وتهديدها فراحت تستعطف أبا طالب بعد ذلك التهديد المرعد، والوعيد المرعب، وتطلب إليه أن يصلح بينها وبين ابن أخيه، حتى تخرج من محنتها معه.

وقالوا لأبي طالب: أرسل إلى ابن أخيك لنعطه النَّصَف فأرسل أبو طالب فجاء رسول الله ﷺ يحمل في قلبه إيماناً برسالة نفسه لو وزن بجبال الأرض لوزنها، وكان هذا الإيمان هو عُدَّته في جميع المواقف والأزمات، وعرض عليه عمه في أسلوب استعطافي قائلاً ان أشراف قومه وعمومته أرادوا السواء معه والعدل بينه وبينهم.

فأجاب رسول الله ﷺ ـ وهو الذي لا يستهدف من رسالته ودعوته إلا أن يهدي الله به أول من يهدي من عباده قومه إلى النور الذي جاء به لهداية الإنسانية على أيديهم وراثة منه في تبليغ الرسالة والدعوة إليها ـ جواب الرسول الذي آمن برسالة نفسه إيماناً ليس وراءه متنفس لغيره.

فقال للقوم في ثقة مطمئنة، وأناة هادئة «قولوا أسمع» أي هاتوا ما عندكم مما زعمتموه سواء وَعَدْلاً بيني وبينكم، وأنا أسمع سماع تقدير لما تقولون.

فقالوا في بلادة جاهلة، وجهالة بليدة، وذلة مستخذية: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك، وهذه قولة كافرة جاحدة، تحمل إلى جحودها ذلة الرجوع عن العناد في مقاومة الدعوة إلى الله والتربص برسول الله ﷺ وأصحابه، وتحمل في أسلوبها لوناً من خزي التخاذل ألبسوه ثوباً من المهادنة المداهِنة.

وبدر عمه أبو طالب لأول سماعه كلام قومه: فقال معبِّراً بتفكير

وثنيته عن تهافته للخروج من مآزق مغاضبة قومه، أو التخلّي عن نصرة ابن أخيه والقيام معه: قد أنصفك القوم فاقبل منهم.

هذا الحكم من أبي طالب تحكمه العجلة المتلهفة على وقف الأزمة بين محمد رسول الله ﷺ ـ الذي وقف إلى جانبه يحميه ويدافع عنه حمية له وعصبية لها ـ وبين الملأ من زعماء قريش، تلك الأزمة التي استخزى لها في بعض مواقفه لولا عزيمة محمد ﷺ التي تجلّت في التعبير عن قوة إيمانه برسالة نفسه إيماناً خلق في نفس أبي طالب نخوة الحمية بعد أن صوّحت نبعتها، وجدَّد عنده قوة العصبية بعد أن كاد يفقدها، وبدل ضعفه قوة، واستسلامه شجاعة، فعاد إلى مكانه من الحمية المناصرة لابن أخيه، ووقف لملأ قريش يكيل لهم بكيلهم، ويسدّ عليهم منافذ النيل من محمد ﷺ وهو يمضي في نشر دعوته وتبليغ رسالته.

وأنّى لأبي طالب وهو على ملّة الأشياخ من قومه، يشاركهم وثنيتهم أن يدرك النَّصَف بين قوم جعلوا عنوان نصفهم وعدلهم الاستمساك بوثنيتهم وشركهم في بلادة عقلية بلهاء. وبين رسالة إلهية أساسها هدم هذه الوثنية البليدة، وتحرير العقول من أغلالها، وتطهير القلوب من أوضارها، وإقامة صرح توحيد الله، وإقراره بإخلاص في التعبُّد له وحده.

ولكن ملأ قريش هشُّوا لقول أبي طالب، وتوهموا أن الأمر قد تقارب، وأنهم خارجون من محنتهم، وأن أبا طالب ـ وهو السند لابن أخيه في نظرهم ـ قد أذعن لبعض أمرهم وأن محمداً ﷺ لا يخالف عن أمر عمه.

بَيْدَ أنهم جهلوا شأن محمد ﷺ في إيمانه برسالة نفسه، وجهلوا شأن رسالات الله وعزائم حاملي ألويتها، وأسرع محمد رسول الله ﷺ إلى كتاب رسالته يوجزه كله في كلمة واحدة، لا يريد من الدنيا ومن فيها غيرها.

هذه الكلمة هي خلاصة رسالات الله لجميع أنبيائه ورسله، وجميع ما وراء هذه الكلمة من شرائع وأحكام ونظم أمر متروك للأحداث

تفصِّله، وهي تجري في واقع الحياة وتستجيب له العقول السليمة والفِطر النيرة بعد استقرار خلاصة الرسالة وهدفها الأعظم في حنايا القلوب ومدارك العقول.

وجاء رده ﷺ على كلمة عمه وهشاشة القوم لها كاشفاً الغطاء عن خداع القوم وأنهم لا يريدون نَصَفاً ولا عدلاً، وإنما يريدون التحايل لوقف سير الرسالة وتعويق الدعوة عن مسيرتها التي أقلقت قريشاً سرعتُها وانتشارها.

وأراد رسول الله ﷺ أن يبين لهم أنهم إن كانوا جادِّين في زعمهم السَّواء والعدل، فليستجيبوا إلى كلمة واحدة إن تكلموا بها ملكوا بزمامها الدنيا شرقاً وغرباً، عجماً وعرباً، وهذه الكلمة الواحدة هي رسالة محمد ﷺ، ولا رسالة له غيرها، وهي دعوته، لا يدعو أحداً قط إلى أمر سواها، وهي هي رسالة جميع الأنبياء والمرسلين، فإن ارتبتم ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

واستخفَّ الطيش والغرور أشقى القوم وأخبثهم أبا جهل سفيه القوم ومتكلمهم فقال في رعونة البطر، وفجور الغرور: نعم، وأبيك، لنقولنَّها وعشر أمثالها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا لا إلّه إلّا الله» فاشمأزّ القوم، وقاموا شُرَّداً (كأنهم حمر مستنفرة. فرَّت من قسورة) وهم ينفِضون رؤوسهم جهالة وتعجباً، وينفضون ثيابهم بأواً واستكباراً، فكانوا كما صورهم القرآن الكريم حاكياً قولهم: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب* وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد* ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق﴾.

وفي الآيات المجيدة من مطلع سورة (ص) بيان لمنتهى جهالات أحلاس الوثنية وعبيد المال، وأنهم بلغوا من بلادة العقل أنهم يقلدون الملل المنحرفة عن الحق، يتخذونها إماماً في عقيدتهم الإلحادية المشركة ممن حرفوا كلم الله عن مواضعه، وجعلوا للكون آلهة، فلما قيل لهؤلاء الذين يعيشون

بعقلية مستعارة لا يملكون منها سوى ترداد ما سمعوا بغير تعقُّل ـ قولوا «لا إلّه إلا الله» لم تتسع بلادة عقولهم التقليدية المستعارة أن يكون إلّه الخلق إلّهاً واحداً، وعجبوا مما قيل لهم تقريراً لوحدانيته وتفرده بالإخلاص في التعبد له، ولهذا قالوا في تعجبهم من توحيد إلّه الكون: فكيف يسع الخلق كلهم إلّه واحد، وهم أمم وشعوب، وقبائل وبطون؟! فأنزل الله تعالى في تسفيه أحلامهم وبيان بلادة عقولهم هذه الآيات من سورة (ص) تنعي عليهم ما أهدروه من معالم إنسانيتهم وما فضَّلهم الله به عن البهائم من نعمة العقل.

ثانياً: إن النبي ﷺ لما سمع مقالتهم، وأدرك مخادعتهم وأنهم لا يريدون بما طلبوه سَواء ولا نَصَفة، وإنما يريدون تعويق الدعوة عن سيرها، أراد أن يضع أمام عقولهم صورة واضحة لحقيقة رسالته في أسلوب بيِّن موجز أشد ما يكون إيجازُ الإعجاز، لأن هذا هو واقع رسالة محمد رسول الله ﷺ، لعل هذا الأسلوب الموجز البيِّن يقتلع من قلوبهم سدود الجهالة البليدة المقلِّدة التي تعيش عالة على عقليات منحرفة ضالة، وتنزع من عقولهم حواجز البلادة التي تحجب عنهم ضياء الحق، فقال لعمه ـ في رواية ـ رداً على ما يطلبه ملأ قريش: «يا عم: أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟» فقال له عمه: وإلامَ تدعوهم؟ فقال ﷺ: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم» فعجَّل خبيث القوم أبو جهل من بين القوم وسأل عن هذه الكلمة التي ستجعل من قريش في ظل الإيمان برسالة محمد ﷺ ملوك الأرض، وسادة الدنيا؟ فلما دلَّهم رسول الله ﷺ على هذه الكلمة التي هي في حقيقتها روح رسالة محمد ﷺ وحقيقتها الأصلية الكاملة ـ استغضبوا ونفروا، وقاموا ينفضون ثيابهم تبرؤاً أن يكون قد علق بها شيء من نور التوحيد الذي يغشي أبصارهم ويزيدهم رجساً على رجسهم، وقالوا: سلنا غيرها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها».

فالنبي ﷺ في هذا الموقف لم يطلب منهم شيئاً أكثر من أن يخرجهم

مظهر من قوة إيمان النبي ﷺ برسالة نفسه

من ظلمات الجهالة العقلية وضلالات الوثنية إلى بؤرة الضياء الفكري والإشراق الروحي، ومنبع الهداية، فهو ﷺ لم يدعهم إلا إلى كلمة واحدة هي رأس الأمر كله في رسالته التي يدعو إليها، لأنه ﷺ لم يتعرض في موقفه هذا إلى مآثمهم الخُلقية، ولا إلى مفاسدهم الاجتماعية، ولا إلى مظاهر الطغيان وعتو الاستبداد التي يعيشون في ظلها، ولم يسألهم مالهم وثرواتهم، ولا سألهم شرفاً فيهم، فهم أعلم الناس برفعة شرفه وسمو حسبه، ولا سألهم أن يملكوه عليهم، وإنما عرض عليهم الدعامة العظمى التي تنبثق منها جميع فضائل رسالته سلباً وإيجاباً، لتيسير تقبلها والإيمان بها، ولكن الهدى هدى الله، فلم يقبلوا ما عرضه عليهم وانصرفوا وهم أشد عداوة له ولدداً بخصومته، وأضرى سفاهة، وأشرس أذى، وأخبث طوية.

عزيمة محمد ﷺ في تبليغ رسالته لم تعرف المهادنة، بلْه المداهنة

ثالثاً ـ إن هذه القصة ومثيلاتها تبين أن هذه المرحلة من الدعوة كانت مرحلة العزيمة الماضية القوية التي لا تتزحزح، والصبر الذي لا ينفد، والكفاح الذي لا يتردد، لأنها مرحلة التأسيس للعقيدة وبناء صرح الرسالة وإقامة دعائم الدعوة إلى الهدى والحق، فلو وهنت عزيمة المبلِّغ شيئاً من الوهن، فمالت إلى المهادنة، وتخلّى الصبر المكافح لحظة عنها، وتخففت من النضال نَفَساً واحداً لوجد خصومها مداخل إلى تعويقها عن سيرها وعرقلة مسيرتها.

وقد كان النبي ﷺ على أتم العلم بهذا كله، وقد أعدّ نفسه له ولأكثر منه، ومن وراء هذا العلم علمه ﷺ بما يملأ قلوب زعماء الوثنية من شرور ومفاسد، وبما تنطوي عليه جوانحهم من الحقد الأسود والشنآن الكظيم، فزاده ذلك صَمْداً في قوة إيمانه برسالته إيماناً تمثل إعجازه ومتانة نسجه وقهر عزته في كلمته المعجزة في إيجاز مُعَبِّر عن قوة هذا الإيمان بصورها المختلفة التي أخرجتها في إطارها الروايات الصحيحة في مناسباتها المتعددة، وكلها تنتهي إلى التعبير عن قوة إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه قوة لو تجمعت عليها قوى الأرض على أن تثنيه عن وجهه في تسيير دعوته

وتبليغ رسالته ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ذلك قوله ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» ولكن زعماء الوثنية المادية يعيشون ببطونهم لبطونهم وبشهواتهم لشهواتهم، فلا عقول تفكر، ولا قلوب لهم تفقه، فهم في حياتهم المادية المتحجرة لا يعرفون من وجوه الحياة وجوانبها إلا المال وجمعه، والاستكثار منه، ولا يعرفون منها إلا شهوات البهائم والاستغراق فيها، أقصى أمل أحدهم أن يأكل فلا يشبع، لا شرف لهم في تفكير، أشرف الشرف عندهم سيادة قبيلة، أو زعامة قرية، ومن ثم توهموا: أنّ محمداً ﷺ ممن تغريه هذه الماديات الحقيرة مهما عظم حجمها واعرضّت صورها، فعدلوا عن العناد الأجوف واللدد الخادع إلى الملاينة المستضعفة والمداهنة الفاجرة.

سفارة عتبة بن ربيعة لمفاوضة محمد ﷺ ليترك دعوته ورسالته لدنياهم الفاجرة

روى ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله عليه السلام جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، وفي رواية ابن أبي شيبة عن عبدالله بن عمر، ورواية أبي يعلى الموصلي عن جابر بن عبدالله بسند جيد أن نفراً من ملأ قريش اجتمعوا، فقالوا أنظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأتِ هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه. قالوا: لا نعلم أحداً غير عتبة ابن ربيعة.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقتَ به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلَّك تقبل منا بعضها، فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا

الوليد أسمع» قال عتبة: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

رد النبي ﷺ على تفاهات سفير ملأ قريش عتبة بن ربيعة

فلما فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني» قال عتبة: أفعل، قال رسول الله ﷺ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فُصِّلت آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ إلى قوله: ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾.

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال له رسول الله ﷺ: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» ثم رجع عتبة إلى أصحابه من ملأ الوثنية والشرك، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه: قال عتبة: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

ما قاله عتبة لقومه فيما سمعه من النبي ﷺ

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هذا الحديث منسوباً إلى مسند عبد ابن حُمَيد من طريق الزيال بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبدالله رضي الله

رواية أخرى في القصة ذكرها ابن كثير وعقَّب عليها مرجحاً رواية ابن إسحاق

عنها، وعقَّب عليه ابن كثير بقوله: وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى المَوْصلي في مسنده عن الزيَّال بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرَّحِم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلَّا من حاجة أصابته، فانطلِقوا بنا إليه، فانطلقوا إليه، فقال أبو جهل: ياعتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد، وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة، وأقسم ألَّا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله لقد علمتم أنِّي من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

قال ابن كثير: وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يَعْلىَ. وابنُ كثير يقصد بهذا التعقيب ما ساقه من طريق عبد بن حميد في مسنده بالسند الذي ساقه به البغوي مع بعض الاختلاف، في الأسلوب والألفاظ، ففي عبارات رواية عبد بن حميد ألفاظ غريبة منكرة.

ثم قال ابن كثير: وقد أورد الإمام محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة على خلاف هذا النمط، ثم ذكر رواية ابن إسحاق كما ذكرناها، وقال معقِّباً: وهذا السياق أشبه من الذي قبله.

رواية ثالثة تذكر أسماء الملأ الذين أشاروا بالمفاوضة مع النبي ﷺ

وقد أخرج هذه القصة العلاَّمة مُغلطاي في سيرته منسوبة إلى ملأ قريش مجتمعين وفيهم عتبة، كما أخرجها ابن إسحاق بعد روايته قصة عتبة منفرداً عن الملأ، فقال: عن سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة،

وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو البختري ابن هشام، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد ابن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أن قد بَدَا لهم فيها كلمهم فيه بداء، وكان حريصاً عليهم، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد؟ إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

واختلاف الروايتين في سياق القصة سنداً أو حالاً وأسلوباً وإجابة يفيد تكرار القصة وأنها وقعت مرتين أو أكثر، مرة في لقاء زعماء قريش مجتمعين وفيهم عتبة، ومرة في لقاء عتبة منفرداً عن الملأ، سواء كان هذا اللقاء الانفرادي باقتراح عتبة أو كان باقتراح الملأ، وفي كل من اللقاءين حكمة تتجلى في سياسة توجيه النبي ﷺ لسير دعوته وتبليغ رسالته، ولا مانع من وقوع اجتماع آخر بين رسول الله ﷺ وملأ طغاة قريش.

عِبَر القصة في رواياتها تصور أعمق منازل إيمان النبي ﷺ برسالة نفسه

لا يزال في هذا الموقف الذي طلبت فيه قريش مصالحة النبي ﷺ وإعطاءه النِّصَف والمعدلة ـ كما زعموا ـ عِبَر تنطق بقوة إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه قوة لا توزن بها قوة في الأرض، ولا يزحزحها عن هدفها ترغيب ولا ترهيب، ولا يقف أمامها وعد ولا وعيد، كما تنطق بصدقه ﷺ في دعوته ورسالته، وكما تنطق بصرامة عزيمته في هدوء الثقة ويقين الإيمان لتبليغ أمر ربه، وكما تنطق بما فطره الله عليه من سمو المكارم وعلو الخلق في مخاطبة محاوريه مهما كانت ضراوة عداوتهم، في أناة من التفكير وسداد الرأي والصبر الحليم والحلم الصبور، وكما تشهد بما آتاه الله من علم ومعرفة بدخائل النفوس وطبائعها والطب لأمراضها مما كان أساساً لدعائم نجاح سياسته في القيام بموجبات تبليغ رسالته، ونشر دعوته في هذه المرحلة التي كانت أشق مراحل الدعوة وتبليغ الرسالة، لأنها مرحلة الكفاح المرير والنضال الشديد، والأزمات الفادحة المتوالية بالأحداث المستعصية المستصعبة.

أحداث اللقاءات دروس تربوية

إن أحداث لقاءات زعماء قريش مع رسول الله ﷺ تارة ومع عمه أبي طالب تارات أخرى ليوقفوا تيار الإيمان بالدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، ويعوِّقوا سير الرسالة إلى أودية الحياة وساحات القلوب والعقول كانت دروساً تربوية، تلقاها رسول الله ﷺ فيما تلقى من تربية ربانية وتعليم إلّهي ليعده لتحمُّل أثقال القيام بواجبات تبليغ رسالته، ويعده إعداداً كاملاً، يستجمع به شجاعة الإيمان، وقوة الصبر، وبراعة العرض، وسداد الرأي، وجودة التفكير، وروعة البيان، دون أن تقوده إلى النجاح في القيام بموجبات رسالته معجزات مادية قاهرة، لا يملك معها العقل إلا الخضوع والاستسلام دون فهم ونظر.

رسالة محمد ﷺ رسالة عقل وتفكير وشعور وعدالة

ذلك لأن رسالة محمد ﷺ رسالة عقل وتفكير، وشعور وإحساس يوقظ الوجدان، ويحرِّك العواطف الإنسانية، حركة تقوم على الاقتناع والاطمئنان، رسالة لا تعرف إكراه العقل على أن يؤمن بما لا يقتنع به، ولا تعرف قسر الفكر على أن يدرك أو يتقبل ما لم يفهم، ولا تعرف خداع

الشعور ليؤمن بما لم يمس جوانب الرضا من العقل والقلب والروح ويستقر في شغافها.

رسالة لا تُدخل في قلب المؤمن بها إلا ما يثلج فؤاده، ويرضي ضميره، ويضيء جوانب روحه فيملؤها نوراً وهدى ويقيناً وحباً.

فهذا عتبة بن ربيعة رأس من رؤوس عباهلة قريش وسيد من سادتها في مكانه منهم رجلاً وعقلاً وتفكيراً وثراء وبيتاً وعشيرة، يرى ما تورط فيه قومه من أزمات ساحقة ماحقة تكاد تأتي على كل ما لقريش من مقومات في مكانتها عند العرب، لأن رجلاً منهم خيرَهم نسباً وحسباً ورجولية وخُلقاً وفضلاً وأمانة وصدقاً جاءهم بالهدى من عند الله بعد أن بلغ فيهم سن الكمال البشري الذي لا يرتد فيه الرجل عن سواء فطرته التي نهد عليها.

هذا الهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ لا تعرفه وثنيات قريش وديانات العرب قاطبة، ومن ورائهم أمم الأرض وشعوبها التي تدين بألوان من الوثنية المغلّفة وضروب من الشرك الملحد، تقوم كلها على الظلم والاستبداد والبغي والطغيان الكفور.

فجاءهم محمد ﷺ ـ وقومه أعرف الناس به صدقاً وأمانة ومكارم أخلاق ـ برسالة جماعها كلمة واحدة (لا إلّه إلا الله)، وطلب من الإنسانية كلها أن تتوحد في عقيدتها وسلوكها على أساسها، فإذا قالها الناس واعتقدوا وعلموا حقيقتها، وعملوا بمضمونها، واستهدفوا غايتها كانوا كما خلقهم الله إخوة متساويين في الحقوق والواجبات، لا يظلم قويُّهم ضعيفَهم، ولا يستبد قادرُهم بعاجزهم، ولا يطغى غنيُّهم على فقيرهم، ولا يستأثر أحد منهم بفضل في عيش كريم وحياة حرة عزيزة.

ولكن قريشاً ومنْ ورائهم جميع الماديين الملحدين في دين الله، الذين تعبدوا أنفسهم للدنيا وادياتها، واستغرقوا تفكيرهم في التفنن في طرائق حيازة حطام الدنيا والاستئثار به على الآخرين عُلُوّاً واستكباراً في الأرض؛ كانوا يعيشون على نظم ابتدعوها بغياً وعدواً تجعل من جمهرة المجتمع

الإنساني وكثرته الغامرة، وهم يموجون في بحرهم البشري الزاخر عبيداً لا يملكون من شأن الحياة شيئاً، ولا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، وتَمْلكهم كلُّ شيء.

وتجعل من قلة ضئيلة، وحفنة بشرية قليلة في عداد البشرية سادة يملكون في الحياة كل شيء، يملكون القوت ومصادره، ويملكون الماء وموارده، ويملكون الأرض وأرجاءها، ويملكون الهواء وأجواءه، ويملكون الفكر وخلجاته، ويملكون الحكم وسلطانه، ويملكون المال والثراء يملؤون بطونهم من دماء البشرية المصنوعة خبزاً ولحماً وفاكهة أو خمراً، ينامون على تجشؤ الأكراش الكظيظة، ويستيقظون على أنات المحرومين، وهي تلعنهم وتستنزل مقت الله وغضبه عليهم.

فكيف يريد هذا الرجل - محمد ﷺ - وحده منفرداً عن الدنيا بما فيها وما فيها أن يحوّل وجه الحياة إلى وجه جديد لا تعرفه حياة أولئك الطغاة في الأرض؟ وكيف يريد هذا الرجل وحده أن يغير وجه الحياة إلى وجه جديد لا تعرفه حياة أولئك الطغاة في الأرض؟ وكيف يريد هذا الرجل وحده أن يغير وجه التاريخ إلى وجهة لا تعرفها الوثنية المادية في عنجهيتها الجاهلية وإلحادها الوثني الأبله؟ ولا تعرفه معها شعوب الأرض وأممها المرتطمة في أوحال الشرك والوثنية المتعالمة.

صورة الحياة في نظر الوثنية المادية

محمد - ﷺ - هذا الذي ولد يتيماً، وشبّ مُقِلّاً في حطام الدنيا، كادحاً يعمل ويكسب قوته من كدِّ يديه، وعرق جبينه، فليس عنده من المال والثراء، وكنوز الدنيا وتجاراتها ومضارباتها ومرابحاتها شيء من الذي نملكه ونستعبد به الناس، ونسوقهم إلى طاعتنا بسياط الحاجة إليه وهو في أيدينا؟.

محمد - ﷺ - هذا يريد أن يسلبنا ملكنا وحياتنا الفارغة من المتاعب، ويسلبنا ما نحن فيه من شرف مترهل بطين، ويريد أن يبطَّ كروشنا بحد دعوته إلى الإخاء والمساواة؟ وأي إخاء هذا الذي يدعو إليه محمد ﷺ وجاءت به رسالته، الإخاء الذي يجعل من عبيدنا وخدمنا أخوة لنا،

يتساوون معنا في الحقوق والواجبات، يكون لهم بهذا الإخاء حقوق في أعناقنا، ويتكوَّن لهم علينا واجبات اجتماعية إنسانية، يجب أن نؤديها إليهم؟؟.

وأية مساواة تلك التي تنهض بهؤلاء المدقعين الفقراء المتهالكين جوعاً وعرياً إلى آفاق حياتنا شبعاً كظيظاً وسيادة متغطرسة متعالية،تشير ولا تتكلف الكلام فتستجيب الحياة لإشارتها؟.

حقد حانق ومادية بلهاء وتفكير كفور

تجمع أحلاس الشرك وغثاء الوثنيات من غطاريف قريش ونظروا في أمر محمد ﷺ وائتمروا بينهم ودبروا واستكبروا، وشنعوا به وشمروا لمقاومة دعوته بعد أن جهر بها، ودخل أصحابه المسجد، وصلوا عند الكعبة، وتحلقوا حولها، وقد كانوا يَسْتَخْفُون بإسلامهم، لا يستطيعون المعالنة بدعوتهم، وبعد أن كان محمد ﷺ لا يتعرض لآلهتهم يعيبها، ولا لأحلامهم يسفهها، ولا لآبائهم يضللهم، وإذا هو اليوم يعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويضلل آباءهم، فلا صبر لهم على ذلك، وكيف يصبرون على أمر فيه فناؤهم والقضاء عليهم؟.

واتفقوا على أن يبعث ملؤهم إلى محمد ﷺ يستعتبونه لعله يعتبهم، ويترك معالنتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم وعيب آلهتهم، ولكن محمداً ﷺ لم يبالهم، ولم يقم لعتبهم وزناً ولا جعل له شيئاً من تقدير.

عزيمة محمد ﷺ تقلب الموقف على ملأ قريش

ومشوا إلى عمه أبي طالب، وهم يرون حدبه عليه ومنعه أن يضام، وقيامه معه ونصره له، يتوهمون أن أمر ابن أخيه بيده، يملك أن يصده عن معالنة قومه بما هم عليه من سفه وبلادة في عقائدهم وأسواء مجتمعهم، فاستعتبوه ملاينة ثم مزجوا بالعتب التهديد والوعيد، فخضع أبو طالب لبعض أمرهم ولم تطب نفسه بفراقهم.

ووقف محمد ﷺ أمام ملأ قريش بعزيمة لا تفل وإيمان لا يوزن به إيمان أحد قط في السماء ولا في الأرض في ثباته ورسوخه وقوته، وقال لعمه ـ الذي كان يجتر ضعفه أمام عرض القوم ما زعموه نصفة وعدلاً

وهو ﷺ يستعبر باكياً رحمة لقطيع الإنسانية المعذبة في الأرض - كلمته التي تَصَنَّت لها فلك الكون وهو يجري، تلك الكلمة التي خلقت من عمه قوة بعد ضعفه أمام طغيان ملأ الوثنية المادية، حتى رد على وعيدهم بوثبة أعدَّها وأعد لها في شباب بني هاشم وبني المطلب، وثبة من حمية كاد يفتك بهم فيها فلا يبقي على أحد منهم أو يهلك هو وشباب بيته وأسرته.

وعرفت الوثنية المادية جدّ العزيمة في تدبير أبي طالب فنكصت على أعقابها، وتراجعت عن غرورها وتهديدها وراحت إلى أبي طالب تلاينه وتحاسنه، وتطلب منه أن يهادن بينها وبين ابن أخيه ويعطونه النصف والعدل، وأرسل أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فجاءه وعرضت قريش على لسان ملئها نَصَفَها الكفور، وعدلها الظلوم، ولم يترك رسول الله ﷺ هذه السانحة تمر دون أن يضع قريشاً وجهاً لوجه أمام خلاصة من رسالته وجماع دعوته في كلمة واحدة إذا قالوها مسلمين إليها وجوههم خالصة لحقّيتها اعتقاداً وعملاً دانت لهم بها الدنيا، فلما أظهرها لهم - بعد أن هشوا لسماعها واستجمعوا مشاعرهم وإحساساتهم لتعيها - نفروا واشمأزوا وقاموا منكسرين مدحورين، وراحوا يدبرون أمراً غير ما كانوا دبروا ومكروا ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾.

أول سفارة بين محمد ﷺ وقريش

وجلسوا في ناديهم وتآمروا فيما بينهم، وكان رسول الله ﷺ جالساً وحده في المسجد مجانباً لهم، وانتهض عاقلهم عتبة وعرض عليهم خطة أدارها في رأسه ينهي بها أزماتهم مع محمد ﷺ التي شغلتهم عن تجارتهم ومضارباتهم، وردوا على عتبة في لهفة المتورط يستنشق نسيم النجدة من سمائم الجحيم أو الغريق الذي يغشاه الموت من كل مكان فيتشبث بقشة يتوهمها متشبَّثاً ينجيه، فقالوا في صوت واحد: افعل أبا الوليد ما بدا لك وما رسمت في رأسك من خطة فيها إنقاذنا من هاويتنا التي ارتطمنا فيها.

وقام عتبة يمشي في تيه البأو الكذوب حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فحدَّثه - صادقاً - عن نبعة محمد بن عبدالله في الحسب والنسب، والبر والخير، ثم راح عتبة يكذب ويكذب - جاهلاً عنيداً - ويزعم على

دعوة محمد ﷺ ورسالته ما خيل له شيطان شركه ووثنيته المادية البليدة، وطلب إلى رسول الله ﷺ أن يصغي إليه يعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فتحل أزمة قريش، ويبوء عتبة عاقل قريش ببطولته الوثنية والإلحادية الكنود، فقال له رسول الله ﷺ في أناة وريث وهدوء والثقة المطمئنة بالإيمان الذي لا يداخله أدنى ريب: «قل يا أبا الوليد أسمع».

وتكلم عتبة يعرض أموره التي رسم خطتها في رأسه، وقام من نادي قومه إلى مجلس رسول الله ﷺ ليعرضها عليه. لعله يقبل بعضها فتنفذه له قريش وينتهي ما بينها وبينه من أزمات وشدائد.

عقلية أرضية بليدة

عرض عتبة على رسول الله ﷺ أربعة أمور أيّها شاء أعطيه في سبيل أن يكف عنهم، ويتوقف عن عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم.

أولها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به من دعوته إلى توحيد الله وخلع الأنداد، وترك عبادة الأصنام، مالاً جمعوا له من المال حتى يكون أكثر قريش مالاً وثراء.

ثانيها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به من رسالته شرفاً ولّوه عليهم وبايعوه سيداً لهم، فلا يقطعون أمراً من أمورهم دون أن يكون محمد ﷺ شاهده وصاحب الكلمة العليا فيه.

ثالثها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به ملكاً ملكوه عليهم، وجعلوا على مفرقه تاج الملك وبايعوه ملكاً على سائر قريش ومن ورائها جميع العرب الذين يدينون بتعظيم قريش التي جعلوا إلى بيتها بيت أبويها إبراهيم وإسماعيل حجهم وأكبر مواسمهم.

رابعها: وإن كان هذا الذي يأتي محمداً رِئياً وتابعاً من الجن، تسلط على مشاعره فلا يستطيع رده عنه وغلب عليه فلا يستطيع مقاومته والانفكاك عنه بذلوا في طلب الطب له من أموالهم حتى يبرؤه منه.

أفٍ لهذه الأدمغة التي نخرها سوس الوثنية البليدة المتهافتة، فأفسدها

حســاً ومعنى، فلم يبقَ في تلافيف خلاياها ذرة من تعقل وتفكير مستقيم.

يا ويح قريش من عقلائها؟ أهذا كل ما تمخضت عنه عقلية عتبة عاقل قريش لينهي به أزمتها مع محمد ﷺ.

ومرة أخرى أفٍ لهذه الجماجم النخرة التي تحملها رقاب عريضة الأقفية، ما هذا يا أبا الوليد؟ وأنت من أقرب قريش نسباً إلى محمد ﷺ وأعرف الناس بمدخله ومخرجه....

حياة محمد ﷺ مرآة للكمال البشري والسمو الروحي

محمد ﷺ رسول رب العالمين إلى البشرية كلها أمره الله تعالى أن ينذر أول من ينذر عشيرته الأقربين، فدعاهم وأبلغهم رسالة ربه أكمل وأرفق ما يكون التبليغ، ولم يسألهم أموالهم وما سألهم إلا المودة في القربى، وما كان محمد قط في حاجة إلى شرف فوق شرفه في قومه وبيته، وقريش كلها تعرف لـه هذا الفضل، وتذعن به لبيته ونبعته.

ولم يعرف عنه قط أنه تطلَّع إلى ملك الدنيا، فلم يحفظوا عنه قط أنه طلب إليهم أن يرأسوه عليهم أو يملكوه على بلدهم وبطونهم.

وما قدر الملك عليهم وعلى قريتهم وبلدهم، وهي التي يملكـون أمرها، وأي ملك هذا؟ ملك قرية متقاربة الأكتاف، ويقطعها الرجل مشياً في زمن لا يستغرق ساعة من نهار، ليس فيها من مظاهر الرياسة بله الملك سوى هذه العنجهيات الجوفاء تملأ الأدمغة النخرة، فمحمد ﷺ عاش منذ مهده وشبوبيته ورجوليته على سمع قومه وبصرهم، فلم يطلب من أحد منهم شيئاً مما يتصل بالدنيا، ولما بعثه الله تعالى برسالته رحمة للعالمين، لم يعنّت قومه ولم يسألهم دنياهم ولا زاحمهم عليها، وكان أبعد الناس عن زخرفها وحطامها والتكثر منها.

وإنما سألهم أن يطهروا أنفسهم وعقولهم وقلوبهم من رجس الوثنية، ووضر الشرك، سألهم أن يوحدوا الله في تعبدهم، وأن يخلعوا من أعناقهم عبادة الأحجار والأوثان، كل ذلـك في كلمة واحـدة إذا قالـوا وعملوا بمضمونها وحقيقتها ملكوا الدنيا بها.

ما مكة والعرب والأرض بمن عليها وما عليها في وزن رسالة محمد ﷺ؟

ولم يكن في دنيا مكة، ودنيا العرب، صاعدين ونازلين مشرِّقين ومغرِّبين، ولا كان في دنيا سائر الناس وراء العرب شمالاً وجنوباً رجل أصحّ عقلاً وأسدّ فكراً، وأطهر قلباً وأنور روحاً، وأكمل جسماً، وأعلا في نقاء البشرية وصفائها كعباً من محمد بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي الذي اختاره الله تعالى في أكمل البشرية سناً وعقلاً، وفكراً وقلباً وروحاً نبياً ورسولاً إلى العالمين، يدعوهم إلى الهدى، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ملأ المادية الوثنية من طواغيت قريش لم تقنعهم سفارة عتبة ابن ربيعة إلى محمد ﷺ بل شكّوا في صباءة عتبة، إذْ لم يرجع إليهم من سفارته أمماً، بل وَجَّه إلى بيته، ولم يخرج إليهم معتزلاً مجلس ناديهم فذهبوا إليه، وسألوه عن اعتزاله عنهم، وعنتوه في موقفه منهم، حتى أكرهوه على شيء لم يكنْ ليختاره لو كان له خيار، أكرهوه على أن يحلف أن لا يكلم محمداً ـ ﷺ ـ أبداً؟؟ عجب... عاجب، ومنطق منكوس.

أهذا منطق العقل ـ يا عاقل قريش، ومختارها لحل عقدة حياتها في أشد أزماتها؟ وما شأن محمد ﷺ في موقفك مع قومك، وموقف قومك منك؟ ولا سيما موقف غميز الرجولية، وطريد الكرامة، ولعين المروءات صاحبك أبي جهل، إذْ أحرجك وعنتك بكلماته الفاجرة حتى تخرج عن عقلك، وتقسم أن لا تكلم محمداً ﷺ أبداً؟ وهل خِلْتَ يا عاقل قريش فتخيلت أن محمداً ﷺ في حاجة إلى مكالمة عبيد المادية الوثنية، وأنت أحد ساداتهم، إن لم يؤمنوا بالله، ويكفروا بالطاغوت ويستمسكوا بعروة دعوته الوثقى، ويحرروا عقولهم وقلوبهم من التعبد للمادية الوثنية بشتى أشكالها؟.

أفما كانت العزة العربية والكرامة القرشية، والشهامة العبشمية تقتضيك بداهة أن يكون موقف المقاطعة، هذا الذي اتخذته لنفسك أو حُملت عليه حملاً، فوقفته من محمد ﷺ وهو لا دخل له في حرجك ـ أن يكون حريّاً به منك صاحبك غميز الرجولية أبو جهل، فهو الذي عيَّرك بالبطنة والبؤس والحاجة إلى طعام محمد ﷺ وطعام محمد ﷺ غير مضنون

به على عامة أو خاصة، وغير محجور على غني أو فقير، ولا ممنوع منه عاجز أو قدير، ولا يذاد عنه مسكين أو طريد، وكل طعام في ميزان الجود والمروءة علالة الدنيا وسد رمقها، فلا يقدره فوق ذلك إلا شح زريّ، وبخل شريّ، وضن بغيّ.

ولكنها المادية الوثنية في كل زمان ومكان وعصر ومصر لا تؤمن إلا وهي مشركة، ولا تعقل إلا وهي آفنة، ولا تتصرف إلا وهي مأفونة مخذولة.

وأين شجاعة عاقل قريش عتبة بن ربيعة التي كانت تحلّيه وفي ظلها اختارته قريش ليسفر بينها وبين محمد ﷺ ليخلصها من أزماتها؟.

تلك الشجاعة التي تبددت هباء في أعاصير الجبن والهلع عندما لقيه لعين الرجولية أبو جهل وهو يجبهه ويسخر منه ويهزأ به، حتى استنزله من أفق تَعَقُّله إلى مهاوي العصبية الجهول والعناد الكفور.

لقد عبَّر عتبة لقومه حين سألوه عن سفارته إلى محمد ﷺ وقد سمع منه ما سمع من آيات القرآن الحكيم تعبيراً أزكم أنوفهم حتى قال لهم صادقاً غير مصدَّق: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

فكرة ترابية واحدة للملأ الوثنية مجتمعين أو منفردين

وقد صنع ملأ المادية الوثنية من طواغيت قريش ما بدا لهم، فاجتمعوا في ناديهم، ونظر بعضهم إلى بعض، وطالت نظراتهم: لم يشفنا عتبة، وسحره محمد بكلامه، ولن يقدر على أن يسحرنا جميعاً، فلنلْقَه مجتمعين، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ يسعى مجدّاً، وهو يظن أن قد بدا لهم في أمر دعوتهم بداء من الخير والهداية، وكان ﷺ حريصاً عليهم يحب رشدهم، ويعزّ عليه عنتهم.

وكان الذي عرضوه عليه مجتمعين هو عين ما عرضه عتبة منفرداً؛ بَيْدَ أن النبي ﷺ قد أجاب الملأ مجتمعين بغير ما أجاب عتبة منفرداً.

وهنا يقف القلم متأملاً ليستبين وجه مغايرة إجابة النبي ﷺ في الموقفين؛ لأن في ذلك حكمة تمثل سياسة سير الدعوة وتبليغ الرسالة بما يدل

على سداد التفكير الذي حبي به رسول الله ﷺ، ومعرفته بما قامت عليه الطبائع البشرية من اختلاف في الإدراك في حالتي الاجتماع والانفراد.

كان القصد من الرد على عتبة منفرداً إزعاج ضميره ليستيقظ

أولاً: كان جواب النبي ﷺ على عرض عتبة في لقائه منفرداً سفيراً من ملأ المادية الوثنية أن قرأ عليه سورة فصلت، وهي من سوابق سور القرآن الكريم المكيات، وطلائع التنزيل، وهي نموذج من أرفع نماذج البيان القرآني في روعة الأسلوب وبراعة الإعجاز الشامل لإعجاز الأسلوب، وطرائق الأداء واتساق الصياغة البيانية، والشامل لإعجاز الهداية والحقائق الكونية، والمعاني الإصلاحية، والمعارف الفكرية، والعلوم العقلية، بما اشتملت عليه من عرض لآيات الكون في بعض جوانبه، وما تضمنته من رهبة الإنذار، وروعة الإرهاب للذين يلحدون في آيات الله، ويكفرون بما أنزل الله من كتاب يدعوهم إلى الرشد والخير، وبما حوته من حوار وحجاج، وقصص وأحداث، مليئة بالعبر التي توقظ الضمير، وتوجه العقل إلى النظر في آيات الله حتى يتبين للناظرين بعين الاعتبار أنّ الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق، جاءهم به من عند ربهم، مما يقتضينا أن نجمل في إيجاز معبر بيان حقائق هذه السورة الكريمة ومعانيها التي تجلّت فيها حكمة اختيار رسول الله ﷺ لها جواباً على عرض ما عرضه سفير طواغيت المادية الوثنية عتبة بن ربيعة عليه ﷺ ليقنعه باختيار مايشاء من لعاعات الدنيا فيعطاه، ويكف عن قريش ودعوتها إلى الله وتوحيده، فلا يسمعها في أنديتها قوارع رسالته، ولا يزعجها بشآبيب إنذاراته.

ومن البيِّن الذي لا يحتاج إلى توقف متأمل أن الأمور التي عرضها سفير قريش عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ ليختار منها ما يشاء، فتعطيه إيـاه قريش ثمناً لكفِّه عنها، وتركها غارقة في أرجاس ماديتها الوثنية وشركها الكفور ـ كانت أرفع مناصب الدنيا وأجلّ ما يطلبه الطامعون في زخارفها، الطامحون إلى مشارفها وعلوها.

فهي أمور مادية أرضية، ليس فيها رائحة من شرف العقل وكرامة الفكر، وإشراق الروح، انتزعها عباهلة المادية الوثنية من أعظم ما تسمو

إليه حياتهم المادية الظالمة المظلمة.

وقد أراد رسول الله ﷺ بقراءة هذه السورة الكريمة على مسامع سفير قريش عتبة بن ربيعة، وجعلها جواباً له عن عروضه المادية التي عرضها عليه ليختار منها ما يشاء أن يزعج ضميره ليستيقظ من غطيط نومه الوثني، ويفيق من سكرته الجاهلية، ويصحو من غفلة عنجهيته، وضلالات مواريثه، عسى أن يكون في ذلك فتح مغاليق قلبه وقلوب من وراءه من غطاريف الوثنية المادية، فتؤمن قلوبهم بما يتجلّى لها من الحق، وبما تعرف من حججه ودلائله، وبما تفقه من براهينه التي جاءهم بها رجل أميّ من أنفسهم، وهم أعرف به من معرفتهم بأبنائهم وأنفسهم.

ولا شك أن الحديث إلى رجل مفرداً أدعى إلى الأناة والتفهُّم وتعمُّق الفكر وبسط الحوار وتنوعه في أودية الإقناع والتثبت، ولا سيما إذا كان المتحدَّث إليه يحمل مخايل التعقل وحكمة التدبر لما يسمع، وقد كان الظن كذلك بعتبة، فقريش بعثته سفيرها إلى النبي ﷺ، لأنها رأته أعقلها وأعلمها بما هنالك من علومها ومعارفها التي تشفُّ لها عما تريد معرفته من محمد ودعوته.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ رأى بحكمة تسديد الله له في سير رسالته، وتوجيهه في تبليغ دعوته أن إسماع عتبة وحده شيئاً من آيات القرآن الحكيم فرصة لا تتاح مع الجموع المختلطة التي تَغْلب عليها أصوات الغوغاء، فترتفع على أفكار المتعقلين، وغالباً ما تكون الجموع الجماهيرية المختلطة جامعة إلى جانب الرجل المتفكِّر أعداداً من الحمقى والسفهاء المتسرعين بالكلمة يلقونها دون مبالاة بما تنتهي إليه والغوغاء لا يضبط لها رأي، ولا يقام لنعيقها ميزان، ولا يعرف لها تدبُّر في فكر أو رأي.

ومن هنا كانت الحكمة في إجابة عتبة عن مساءلاته وعروضه في اختصاصه بقراءة هذه السورة الكريمة، وقد تحقق مرمى نظر رسول الله ﷺ في تحقق أثر قراءة السورة في عقل عتبة وتفكيره، فنقله إلى قومه وملئهم،

وتأثر العقل ليس من وصائل تأثر القلب الذي يتولد منه الإيمان وتنبع من أرومته الهداية، فلم يؤمن عتبة ولكنه صدقهم إذ قال لهم: أنه سمع من محمد - ﷺ - كلاماً لم يسمع مثله قط.

بيان موجز في بعض معاني سورة فُصِّلَت

وسورة فصلت هي السورة الثانية من الحواميم السبع، وهي السورة الحادية والأربعون من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف الإمام الذي تداولته الأمة مجمعة عليه منذ نقله عثمان بن عفان بمشهد من أصحاب رسول الله ﷺ من صحف الصدِّيق أبي بكر، التي أخذها بإجماع الصحابة رضي الله عنهم مما كتب في صحف رسول الله ﷺ بأمره تحت سمعه وبصره.

والناظر في هذه السورة بعين التأمل البصير يرى أنها سورة تغلب على آياتها البرهنة الكونية، فهي قد بدأت بأن القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم، وهو الله رب العالمين الذي تولى تربية خلقه، ووصف الرحمة المستمد من هذين الاسمين الكريمين في مفتتح السورة اللذين يستوعبان التفضل بالإنعام ابتداء، ودوام الإحسان من غير انتهاء، فيه إشعار يستقبل المؤمن من أول وهلة بأن ما جاء في هذا الكتاب المجيد عامة وفي هذه السورة خاصة من أمر ونهي، ووعد ووعيد وترغيب وترهيب، وقصص وأحداث وآيات وعجائب، وتوجيه نظر إلى دلائل القدرة الإلهية في آيات الكون الآفاقية والأنفسية، إنما هو رحمة من الله تعالى بعباده يدعوهم بها لينقذهم من الظلمات إلى النور، ثم ويخرجهم من ضلالات الجهالة إلى هدى العلم والمعرفة.

ثم بيَّنت السورة أن هذا القرآن فصلت آياته بأسلوب عربي بيِّن يبشر وينذر، ثم تتحدث عن فريق من الناس صموا آذانهم عن سماع الحق، وأغلقوا دون هدايته قلوبهم عناداً واستكباراً في الأرض بغيرالحق، وأقاموا على عنادهم، وظلوا في طغيانهم يعمهون، فلم تتألفهم البشائر ولم تَرْدَعهم النذر، ثم ذكرت السورة أن محمداً ﷺ بشر مثل سائر البشر في

طبيعته البشرية، لا يمتاز عنهم بشيء سوى أنه رسول من الله يوحى إليه بتوحيد الله تعالى، فلا يطلب بما جاء به مالاً، ولا سيادة، ولا شرفاً، ولا ملكاً مما يتطلع إليه عبيد الدنيا، وإنما يطلب من عباد الله أن يستقيموا مع ربهم، فيفردوه بالعبادة ويستغفروه من الذنوب والآثام.

والسورة تخاطب هؤلاء المعـاندين بـأسلوب تعجّبي، ينكر عليهم موقفهم المتبلد بالجمود من قوارع الآيات ليوجه عقولهم إلى النظر في الآيات الأرضية.

أولاً: لقربها إلى نظر المخاطبين ثم تنتقل السورة إلى توجيه النظر.

ثانياً: إلى الآيات السماوية لظهور دلائلها لأبصارهم وسائر منافذ حسهم وحاجتها إلى التأمل الصادق المتعمق ببصائرهم، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءللسائلين * ثم استـوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهنَّ سبع سموات في يومين * وأوحى في كل سماء أمرها * وزيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1].

والآيات تذكر خلق الأرض في يومين برهاناً على التوحيـد وخلع الأنداد، وأن الله تعالى الذي أبدع بقدرته هذه الأرض هو رب العالمين، الذي رباهم على موائد فضله وإحسانه، وأنه تعالى حفظ الأرض بما جعل فوقها من الرواسي، وأنه بارك فيها بما أمدها من رحمته، وبما أنشأ فيها من ثمرات وزروع، جعلها قوتاً لعباده، وحفظاً لحياتهم، وتم ذلك في يومين، وقامت الأرض بما عليها وما فيها في أربعة أيام من أيام الله التي لا يعلم قدرها غيره سبحانه وتعالى.

ثم بينت الآيات أن الله تعالى بعلمه المحيط وقدرته القاهرة قصد

---

(١) سورة فصلت، آيات: ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢.

قصداً تكوينياً، فجعل السماء التي كانت دخاناً لا يتماسك ولا يستقر فسواها بقدرته بناء متماسكاً وسقفاً محفوظاً، في يومين من أيامه، وبذلك تم عدة أيام الخلق للسموات والأرض ستة أيام، وقد تكررت هذه العدة في القرآن الكريم، ثم قال لها بما شاء من كيفيات القول والإفهام، ومعها الأرض ائتيا بما فيكما من آيات وعجائب، وثمار وزروع وأنهار وعيون ومعادن وخيرات، وسائر مخلوقات الله من ملائكة وإنس وجن طوعاً، بإخراج ما أودعنا فيكما من أسرار وآيات لتكون دلائل لعبادنا على قدرتنا ورحمتنا وإنعامنا ليقوموا بحق شكر ما يكشفون منها ويتمتعون به في حياتهم.

وليست الأيام المذكورة في هذه الآيات ظرفاً لخلق الأرض والسموات والأقوات هي أيام حياتنا المعروفة في حساب الناس وأعرافهم بأسمائها وأقدارها الزمنية، ولكنها تقدير إلٰهي يُقرّب الله به إلى العقول تصور تسخير القوى الكونية للقدرة الإلٰهية بما تأنس به وتألفه في متعارفها.

أخرج أبو عبيد من طريق ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما عن (يوم كان مقداره ألف سنة) فقال له ابن عباس: فما (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)؟ فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما، وهذا من الحبر ابن عباس نظر متعمق في فهم القرآن وفي آياته.

ولما استتمت الآيات ذكر براهين القدرة الإلٰهية الحسية والعقلية السماوية والأرضية المقتضية ببداهة العقل توحيد الألوهية وتفريد الله تعالى خالق الأرض والسموات وما جعل فيها من آيات وأسرار بالتعبُّد له، ولم يبقَ لهؤلاء المعاندين الذين خوطبوا بالآيات المذكورة بالأسلوب التعجيبي عذر، ولم تقم لهم في كفرهم وجحودهم حجة ولا شبهة، جاءهم الوعيد يجلجل بالتهديد، والوعيد تخويف وإنذار لكل من يسلك مسلكهم، ويمشي في طريق إلحادهم وكفرهم ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ في تفصيل مرعب مخيف لما حلَّ بالمتمردين المعاندين من الأمم

السابقة، والعرب كانوا أقوم الناس بفهم القرآن وأعرفهم بحقائقه ومراميه، وزواجره ونواهيه، لأنه على سنة مخاطباتهم ومجاري أساليبهم نزل، وبلغتهم وطرائق صياغاتهم خاطبهم.

ولأمر مّا اختار رسول الله ﷺ هذه السورة الكريمة لتكون جواباً على محاورة عتبة له ﷺ في سفارته إليه إجابة لاختيار قريش له، لعلمه بالسحر والكهانة والشعر، فكان لها أثرها العميق في نفس عتبة.

ذكر القرطبي وابن كثير وغيرهما أن الزيال بن حرملة روى عن جابر بن عبدالله قال: قال الملأ من قريش وفيهم أبو جهل ـ وهو صاحب الكلام ـ: قد التبس علينا أمر محمد ـ ﷺ ـ فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر، وعلمت من ذلك علماً لا يخفى عليّ إن كان ذلك، فقالوا: إيته فحدثه، فأتى عتبة النبي ﷺ، فقال له: يا محمد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ كل ذلك ورسول الله ﷺ ساكت لا يرد عليه، ثم قال عتبة إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقّت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبتَ ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم إن في قريش ساحراً، وإن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل: إن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك.

فقال رسول الله ﷺ: «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم قال: «فاسمع مني» قال: يا ابن أخي قل أسمع، فافتتح النبي ﷺ سورة حم

السجدة، وهي سورة فُصِّلَت فقرأها على عتبة حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الله والرحم ليسكتنَّ.

وهنا تختلف الرواية، فابن كثير ومن معه، يقولون: فرجع عتبة إلى قريش، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلَّمون به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال نعم، لا والذي نصبها بنيَّة ما فهمت شيئاً مما قاله، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك؟؟ يكلمك الرجل بالعربية ولا تدري ما قال، قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

والقرطبي ورواية أخرى لابن كثير وغيره تقول: أن عتبة بعد أن سمع من رسول الله ﷺ ما سمع رجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه؟ فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلِّم محمداً أبداً، ثم قال: تعلمون والله أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما أتيته وقصصت عليه القصة أجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم عتبة ما سمع من رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فوالله لقد خفتُ أن ينزل بكم العذاب.

وقد قدَّمنا الرواية التي تذكر أن عتبة لما رجع إلى قريش في ناديها رأوه متغير السمت والسحنة، وأنهم لما سألوه انتهى بهم إلى قوله: فأطيعوني في هذه، وأنزلوها بي: خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بأيدي غيركم،

وإن كان مَلِكاً أو نبياً كنتم أسعد الناس به، لأن ملكه ملككم، وشرفه شرفكم، فقالوا هيهات: سحرك محمد يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما شئتم.

ثم تابعت السورة الكريمة هذا التهديد الدنيوي بتهديد أخروي، فصلت فيه بعض ما يحيق بالمعاندين الظالمين يوم القيامة من الفضوح وكشف الأستار بشهادة أعضائهم وحواسهم، وأردفت السورة ذلك كله ـ جرياً على سنة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، والإنذار بالتبشير ـ بذكر ما أعدَّه الله لأهل الاستقامة من ضروب الكرامة في دار النعيم، ثم عادت إلى تتميم ما بدأته من ذكر الآيات الكونية لتوكيد براهين القدرة الإلٰهية ودلائل التوحيد في لون آخر من الأسلوب والأداء ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾.

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ يابسة مقفرة ـ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ـ أي انبعثت فيها الحياة بعد مواتها ـ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾.

ثم وجهت السورة الكريمة نظر المفكرين إلى الذين يلحدون في آيات الله بتحريفها عن مواضعها من الصدق والحق إلى الأكاذيب والأباطيل، أو يلهمون النظر فيها ويعطلون حقائقها ومعانيها عن القيام بدورها في تكييف الحياة وتوجيهها، وصبَّت عليهم سياط تهديدها ووعيدها بأسلوب الإبهام الذي يطوي تحته ألواناً من العذاب ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفَون علينا ﴾.

ثم ختمت السورة هذا الاتجاه بقانون عام يقوم على أساسه نظام الحياة في ربط الجزاء بالعمل على أساس من العدل المطلق، الذي لا يحابي ولا يحيف ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾.

ثم عرضت السورة الكريمة نموذجاً للإنسان في أثرته وحبه لنفسه،

وبطره بالنعمة، ويأسه عند حلول النقمة، فإن قدر طغى واستكبر، وإن عجـز ذلّ وتصاغر، وهو في حاليه معرض عن الحق إعراض سفه وجهالة ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ ثم ذكرت هذا المعنى في أسلوب آخر ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾.

ومن ثَمّ خوطب الإنسان في نماذجه الضالة عن سواء السبيل فقالت السورة الكريمة: ﴿قل: أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضلُّ ممن هو في شقاق بعيد﴾ قال الإمام الرازي في تفسيره: **وتقدير** هذا الكلام: أنكم أيها المخاطبون المعاندون كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه ولم تنظروا فيه، وبالغتم في النفرة عنه، حتى قلتم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن المعلوم بداهة أن العلم بكون القرآن باطلاً ـ كما زعمتم ـ ليس علمًا بديهياً، فقبل ذكر الدليل والتأمل فيه يحتمل أن يكون صحيحاً، وبتقدير ذلك يكون إصراركم على دفعه وعدم قبوله من أعظم موجبات العقاب لأن العقل يوجب النظر في الدليل لمعرفة الحق.

ولما استكملت السورة وجوه الدلائل القاطعة مبثوثة في السموات والأرضين على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته، وظهر أن هؤلاء المعاندين كانوا نماذج للفطرة الفاسدة والعقول الجامدة على تقليد موروث الآباء في جهالة جاهلة، وأنهم لم يستفيدوا من كتاب الكون الذي عرض آياته القرآن الكريم عليهم، واستنهضهم للنظر فيها ـ نبهت السورة في خاتمتها إلى أن الله تعالى سيجعل من سلائل الإنسانية نماذج أخرى، يضيء عقولهم، فيكشف لهم بها عن آياته في آفاق الحياة، وجوانبها العلوية والسفلية، وعن آياته في أنفسهم وما انطوت عليه بنيتهم البدنية من أسرار التركيب، وبديع الخلق فيما ظهر منها وما بطن، وعن آياته فيما أودع أرواحهم من الأسرار النورانية، وما جعل في عقولهم من الإشراقات الفكرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وظاهر أن المراد بآيات الآفاق التي سيكشف الله

عنها للعقول التي ستأتي في نماذج المستقبل من سلائل الإنسانية (المتطورة)، والتي سيريهم إياها حتى يعلموا علم يقين عن تجربة وبرهان صادق هي الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وآيات عوالم العناصر، وآيات المواليد في أنواع المخلوقات السماوية والأرضية مما لا يزال مخبوءاً في غيب الإبداع الإلهي، وليس المراد هذه الآيات والأسرار التي عرفها العقل الإنساني وكشف عنها - كما يدل على ذلك تعبير القرآن بقوله ﴿ سنريهم ﴾ لأن هذا يدل على أن الله تعالى سيطلعهم على آيات وأسرار من عناصر الكون لم يكونوا قد رأوها، وهذا تسجيل قرآني (للتطور) الذي ينتاب الحياة كلها نتيجة لعمل العقل وتجارب العلم.

وإذا كان المسلمون قد جهلوا هذا وأهملوا سبله، وتركوه لغيرهم حتى ظهرت آثاره من آفاق غير آفاقهم، فهو حقيقة قررها القرآن ودعا إليها، والعلم لا وطن له، ولعل الله تعالى بمنه ولطفه يفتح عقول المسلمين وقلوبهم لينهضوا من كبوتهم حتى يلحقوا بقوافل الحياة، وهي تضرب في مسالك العلم صاعدة ونازلة، مشرِّقة ومغرِّبة.

والمراد بآيات الأنفس ما أودع الله فيها من بدائع عجائبه، وأسرار خلقه وإبداعه ولطيف حكمته.

يقول الإمام الرازي: والعجائب التي أودعها الله تعالى هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلع عباده على تلك العجائب زماناً فزماناً وحالاً بعد حال.

وقد أكثر القرآن الكريم جداً من ذكر آيات الله في الآفاق والأنفس، ونبَّه العقول والبصائر على النظر فيها والتأمل في بدائعها وما وراءها من بدائع محجوبة، ولكنها بمعرض الكشف الذي يقوم به العلم في وثباته التجريبية، يقول الله تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه

لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[1].

فآيات هذه السورة الكريمة جامعة لجوانب متعددة من أصول رسالة محمد ﷺ، ففيها بيان أساس العقيدة بتوحيد الله، وفيها بيان الرسالات الإلٰهية، وأن الرسل لم يخرجوا عن كونهم بشراً كسائر البشر، ولكن الله تعالى ميَّزهم بمنه عليهم أن اختارهم لرسالاته بتوحيده، وفي آيات هذه السورة الكريمة بيان أصول العبادات والمعاملات، وفيها التنويه بأصول الفضائل الخلقية، والآداب الاجتماعية ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم ﴾.

وفيها من الآيات والإشارة إلى وثبات العلم ما جعل العقل الإنساني كفيلاً بالكشف عنه في مستقبل الحياة وتوالي العصور والأزمنة، وتتابع الأجيال، وفيها بين ذلك وعد، وترهيب وترغيب، وفيها بيان لما حل بالمكذِّبين لرسالات الله المعاندين لرسله من الغابرين، ليكون في ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب.

وفي الحديث عن الآيات الكونية إشارة إلى انطلاق العقل ليفكر ويعمل بكل ما لديه من وسائل العلم وأساليب المعرفة، وينهض بكل ما أوتي من قوة ليكشف عن عجائب الكون وأسراره التي لا تزال محجبة في ضمير الغيب، وقد وعد الله تعالى بالكشف عنها عن طريق هذا العقل المتحرِّر من أغلال الجمود، كلما استقامت له وسائل علمية جديدة.

وهذه الآيات والعجائب الموعود بالكشف عنها في مستقبل زمن الخطاب المباشر وقت نزول القرآن المفهوم من قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا ﴾ يجب أن تكون شيئاً جديداً غير ظواهر الآيات المشهورة المعروفة لأولئك المخاطبين، كالليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والسماء والأرض في ظواهرها.

فهي إما خصائص في هذه الآيات المشهورة وراء تلك الظواهر، لم

---

(١) سورة الذاريات، آيات: ٢٠ - ٢٣.

تصل إليها عقول الغابرين، أو هي آيات في عوالم أخرى يخلقهـا الله ويكشف عنها العلم بأساليبه وطرائقه المتجددة ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾.

* * *

هذه السورة الكريمة من سور القرآن في إطارها الموجز الذي صوَّرنا به حقائقها ومعانيها كما تضمنتها آياتها، كانت هي الجواب عن مساءلة عتبة بن ربيعة، سفير ملأ قريش إلى النبي ﷺ لمكالمته، وعرض أموراً اتفق عليها ملأ قريش ليختار محمد ﷺ منها ما يشاء فيعطاه، ويكف عنها.

ولنهمل ـ قصداً ـ الحديث عن فوارق أدب المحاورة في تسامي المكارم، وكريم الخلق في ذرى الفضائل، مما تجلّى في موقف النبي ﷺ، وهو يستمع إلى عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش وسفير ملئها إلى رسول الله ﷺ، ليكلمه ويعرض عليه ما يستكفه عنهم، ومما تجلى في أسلوب الجهالة والعنجهية الذي اختاره عتبة في مكالمة رسول الله ﷺ منتزعاً من عقليته الجاهلية المادية الوثنية.

لأن محمداً رسول الله ﷺ الذي تولّى الله تعالى تربيته وتأديبه وتعليمه لا يسوغ في شرعة الإنصاف والحق أن يوضع في ميزان مع غير الأنبياء والمرسلين، بَلْه رجلاً من طواغيت الكفر وأحلاس الوثنية البليدة يستغرقه الغرور الجحود بمواريث الجاهلية.

ولكنا نمر إذ نمر على هُجْر عتبة ـ وهو يسائل النبي ﷺ عند فلان، وفلان أهو ـ أي محمد ﷺ ـ أفضل أم هـذا الفلان، أو ذاك العـلّان، ونصب عتبة من قبض الريح في بطحاء مكة ميزاناً يقيس به التفاضل بمقياس الجاهلية الدابرة ـ صامتين كما مر عليه سيدنا رسول الله ﷺ، وهو ساكت لا يرد على ما يسمع من تساؤل جهول، حتى فرغ عتبة من مكالمته وعروضه، فلم يزده رسول الله ﷺ على قوله: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ فاسمع».

وأرهف عتبة سمعه، وأعدّ مشاعره وحواسه لتصغي وتسمع، وتلا عليه النبي ﷺ هذه السورة الكريمة، وأخذ عتبة عن نفسه بتأثير ما يسمع مما لم يسمع مثله من قبل، وذهل وتحيّر ووجم محاولاً أن يتماسك ليستجمع شعوره وإحساسه، ونقف وقفة تأمل في موقف عتبة بعد أن استكمل سماع ما قرأ عليه رسول الله ﷺ من آيات السورة الكريمة.

فهو:

أولاً: قد فزع فزعاً شديداً، وانزعج انزعاجاً مرعباً دفعه بغير حسّ أو شعور إلى أن يندفع ليضع يده على فم رسول الله ﷺ يناشده الرحم أن يكف عن قراءته، وكان رسول الله ﷺ قد بلغ منها إنذارهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، خشية أن ينزل عليه وعلى قومه عذاب الصاعقة، ولإيقانه بأن محمداً ـ ﷺ ـ لا يكذب قط، وأنه إذا أخبر عن شيء وقع كما أخبر.

ثانياً: لما انصرف عتبة عن رسول الله ﷺ بعد أن أنهى مهمة سفارته اختلفت الروايات في كيفية انصرافه.

فقد روي أنه رجع أَمَماً إلى ملأ قريش وهم مجتمعون في انتظاره، ليسمعوا منه ما قال لمحمد ـ ﷺ ـ في محاورته إياه، وما قال له محمد ـ ﷺ ـ في رده عليه، فرأوه راجعاً إليهم بوجه غير الوجه الذي ذهب به من عندهم، وكأنه في ذهول عن نفسه، تكتنفه الحيرة من جميع جوانبه، فلما جلس إليهم ابتدروه بالسؤال: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني ما تركت شيئاً أرى أنكم ـ لو رأيتموه ـ تكلّمون به إلا كلمته به، قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، لقد سمعت منه قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، غير أني لم أفهم مما قال شيئاً غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب فقالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية، لا تدري ما قال!.

قال عتبة: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزته عزتكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال عتبة: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

وقد روي أن عتبة لما انصرف من عند النبي ﷺ رجع إلى أهله واحتبس في بيته ولم يخرج إلى ملأ قريش، فشكُّوا في أنه صبأ إلى محمد ﷺ، وتخوَّفوا ذلك لأن عتبة أحد ساداتهم، ولو قد أسلم لتبعه كثير، وأراد غميز الرجولية وألدّ أعداء النبي ﷺ أبو جهل بن هشام أن يثير حمية الجاهلية في نفس عتبة، ويشعل نيران العصبية في صدره، فذهب إليه في بيته وعيَّره بالفقر والحاجة، ولمزه بالبطنة والدناءة حتى استغضبه، وثار عتبة لحميته الجاهلية، وعاد إلى ملأ قريش أسوأ جاهلية وكفراً.

وظاهر من موقف عتبة ـ على أية رواية ـ أنه كان على اقتناع تام بصدق محمد ﷺ، وأنه فهم مما قرأ عليه رسول الله ﷺ ما يمكن لعربي مثله أن يفهمه من إفحام أسلوب القرآن، وروعة بيانه، وإعجاز أدائه، وما يبدو للناظر لأول وهلة من حقائقه القريبة في العقيدة ودلائلها والآداب وفنونها، ومعانيه السافرة في الأخلاق ومظاهر السلوك وطرائق التربية.

أما آياته الكونية وحقائقه العلمية فهي أبعد من أن تقع لفهم عتبة وأمثاله، وهذا هو الذي أوقع عتبة في الحيرة والدهش، فلم يفهم منه شيئاً سوى أنه ليس في متناول متكلم قط أن يقول مثله، وأنه ليس من قبيل ما تعارفوه بينهم في قوة التأثير، كالشعر والسحر، والكهانة، وإنما هو قول غريب على أسماعهم، لم يسمعوا مثله قط، مع أنه بلغتهم ولسانهم، وقد كان عتبة صادقاً في قوله: ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة، والذين لاموه، وعنَّفوه على عدم فهمه شيئاً مما سمع كانوا في جاهليتهم يعيشون مع لغتهم وأشعارها وخطبها ولم تقرع أسماعهم آيات القرآن، ولو سمعوا

ما فهموا، لأنهم لا يريدون أن يفهموا.

حكمة اختلاف الموقف مع ملأ قريش عنه مع عتبة بمفرده

ثالثاً: كان جواب النبي ﷺ لملأ قريش الذين لم تقنعهم سفارة أحد ساداتهم، عتبة بن ربيعة، بينهم وبين محمد ﷺ، ليكلمه ويعرف ما عنده، ويعرض عليه ما يستكفه به عنهم، فاجتمعوا وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم ليكلموه، فأسرع إليهم ظانًّا أن قد بدا لهم بداء فيما كلمهم من أمر دعوته ورسالته، ولعلهم يكونون قد ثابوا إلى رشدهم، وكان ﷺ حريصاً على هدايتهم محباً لرشدهم عزيزاً عليه عنتهم.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ رأى بحكمة تسديد الله له، وتوجيهه في سير دعوته وتبليغ رسالته أن إسماع عتبة منفرداً عن غوغاء قريش شيئاً من جوامع آيات القرآن فرصة لا تتاح مع الجموع المختلطة التي تجمع الغث والسمين، والأحمق والرزين، والسفيه والمتعقّل.

والغوغاء لا زمام لها تقاد به فكرياً، ومن العسير أن يضبط لها رأي، أو يعرف لها تدبير في فكر، وعتبة اختارته قريش لتعقله، ومعرفته بمظاهر جاهليتها العقلية، وكانت فيه أناة وبعد عن السفه والطيش.

وكانت محاورة الملأ للنبي - ﷺ - في صميم موضوعها هي عين ما تحدث به عتبة وعرضه على رسول الله ﷺ، فأجابهم بقوله: «ما بي ما تقولون»، وأفهمهم في صراحة هادئة وثقة مؤمنة وإيمان راسخ، وعزم وطيد، أنه ﷺ لا يطلب أموالهم، ولا الشرف فيهم ولا السؤدد والملك عليهم، وإنما جاء بما جاءهم به من الهدى لأن الله تعـالى بعثه إليهم رسولاً، وأنزل عليه كتاباً منيراً، وأمره أن يكون لهم بشيراً بملك الدنيا ونعيم الآخرة إن استجابوا لربهم وخالقهم، وخلعوا الأنداد والشركاء، وآمنوا برسالات الله، وصدَّقوا رسوله فيما جاءهم به وآزروه حتى يبلِّغ رسالته كما أمره أن يكون نذيراً لهم، يخوفهم نقم الله وبطشـه إن أعرضوا وتولَّوا مدبرين، وأقفلوا قلوبهم دون إشراق الحق، وغلَّفوا عقولهم بالجهالة والسفه، ولم يسمعوا كلام ربهم مؤمنين به مهتدين بهديه، مثل ما وقع للأمم الغابرة قبلهم الذين كذبوا رسلهم وآذوهم، وسفهوا عليهم، فأنزل

الله بهم نقمتــه، وأرسـل عليهم الصــواعق وصنــوف العــذاب حتى استأصلهم، فلم تُر لهم على ظهر الأرض من باقية.

وأفهم رسول الله ﷺ ملأ قريش أنه بلّغهم رسالات ربه، ونصح لهم، ودعاهم إلى الله تعالى، حريصاً على هدايتهم، محباً لرشدهم، وهذا أقصى ما يملكه لهم، فليس في طوقه أن يقسرهم على الإيمان برسالته، ولا أن يكرههم على قبول دعوته، وهم بعد هذا البلاغ أحرار، فإن قبلوا منه ما جاءهم به من النور والهدى والخير فهو حظهم في الدنيا والآخرة، وليس وراء هذا الحظ ذرة من خير، وإن ردّوه عليه صبر لأمر الله، في غير قلق ولا ضجر، ثابت العزيمة راسخ اليقين في إيمانه برسالة نفسه حتى يحكم الله بينه وبينهم بما يشاء، فقد يهديهم ويهدي بهم، أو يخرج من أصلابهم معاقل للهداية، وكتائب لتبليغ الرسالة، وجنوداً لحمل ألوية الدعوة إلى الله تعالى في أقطار الأرض وفجاج البلاد.

تعنّت ملأ الوثنية وعناد المشركين

ولما يئس ملأ قريش من استجابة النبي ﷺ لمطالبهم المادية الأرضية، ووقف مع إيمانه برسالة نفسه عند معاقد عزته وجميل صبره، مستمراً في تبليغ رسالته، قوّاماً بأمر دعوته، لا يفتر ولا يستحسر ـ لجأوا إلى التعنت واقتراح المطالب التي دفعهم إليها العناد الكفور، والحسد الحقود، فقالوا له: فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فلا تريد مالاً وثراء، ولا تريد شرفاً وسؤدداً، ولا تريد ملكاً وسلطاناً، فاسأل الله لنا أن يوسع علينا ديارنا وبلادنا، فَيُسَيِّر عنها الجبال التي تختنقها، ويفجر فيها الأنهار والينابيع، فلم يتحول رسول الله ﷺ عن موقفه في وثاقة إيمانه برسالة نفسه، وسمو أدبه في عبوديته لربه ومعرفته بجلاله، ولا اهتزت نفسه ذرة عن دعائم صبره ومضـاء عزيمتـه، فقال لهم: «ما بهذا بعثت إليكم» وأقام ﷺ في عزم مصمم على ما قاله لهم إذْ عرضوا عليـه دنياهم في الشرف والسيادة والملك والمـال والثراء، فـأبى أن يقبل منهم شيئـاً من أمورهم، فلما استيأسوا منه خلصوا نَجّيا، ينـزعون عـلى ركيّ الدهش والحيرة بقرب غريبة، فأدخلوا أنفسهم على حياة رسول الله ﷺ الخاصة، وأقحموا تافهات أفكارهم على عيشه وشأنه في صورة عاطفية مرذولة زائفة

مزورة، فقالوا له: فإذْ لم تقبل منا ما نطلب لأنفسنا وديارنا فخذ لنفسك، وسل ربك أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه.

رد رسول الله ﷺ على هذا التعنت الكفور يصور رحمته التي أرسل بها للعالمين

فقال لهم رسول الله ﷺ يرد عليهم هذا التطفل العاطفي الكذوب الأبله: «ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا» وكرر عليهم ما قاله في بيان هدف رسالته وصبره على فوادح تبليغها مهما يلقى في سبيلها من عنت وبلاء.

ولم يقف الحمق وخرق الرأي وسفه التفكير بملأ المادية الوثنية عند هذا الحد، ولكنهم اشتطُّوا على أنفسهم، وركبوا شيطان الجهالة وفجور الوثنية، فاستنزلوا على أنفسهم سخط الله ولعناته، فقالوا وهم في غمرة بأسهم: فأسقط السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فرد عليهم رسول الإيمان والرحمة ﷺ هذا الشطط المعتوه فقال: «ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل».

شطط العناد يؤدي إلى ذهاب العقول فيقول أصحابها ما لا يعون

وقد حكى الله عنهم أبشع من هذا فقال: ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[1] ولكن اللطيف الودود الذي أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ولم يرسله لعنة على المعاندين الجاحدين، جعل وجوده حصناً حصيناً من تنزل عذاب الاستئصال في الدنيا بهؤلاء المعاندين الجاحدين، فقال له عقيب تصوير بشاعتهم يرفع ذكره وينوّه بمقامه عنده: ﴿ وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم ﴾[2] وجعله أماناً ولو ظلُّوا على كفرهم وشركهم، ثم جعل توبتهم بالإيمان واستغفارهم لما سلف من كفرهم أماناً بعد النبي ﷺ فقال: ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾[2].

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وإذْ قالوا اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية. قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعائدته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها.

وجود النبي ﷺ بين أمته أمان لها من عذاب الاستئصال

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فيهم أمانان، النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار.

ألوان وضروب من تعنت المشركين يذكرها القرآن العظيم تبكيتاً لهم وفضحاً لتفاهة تفكيرهم

وقد ذكر القرآن الكريم تعنتاتهم في اقتراحاتهم المشتطة في مواضع متعددة من سوره وآياته، وأجاب عنها فأفحمهم وأبان عن جهالتهم وعنادهم، وركونهم إلى سفاف الدنيا في أعلا درجات طموحهم، وأرفع مراتب مطامعهم، وكشف عن خبيء نفوسهم، وأنهم قوم لا يعيشون إلا لبطونهم وشهواتهم، لا يرتفعون عن الأرض إلا ليقعوا على رؤوسهم في مهاويها، أخلدوا إلى الأرض لا يريمون عنها، فكانوا كالمعنيين بقول الله تعالى: ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذَّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون * من يهدِ الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون * ﴾[1].

حكى عنهم القرآن في سورة الإسراء صوراً من هذه الاقتراحات المتعنتة فقال: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً * ﴾[2].

والمتأمل فيما تعنَّتوا به رسول الله ﷺ واقترحوه عليه يرى الحماقة

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٨.

(٢) سورة الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

مائلة في كل حرف مما قالوا، وفي كل كلمة مما اقترحوا، ويرى خرق الرأي، وتفاهة التفكير تتنزى من رؤوسهم وتتقاطر من عقولهم صديد غباء، ويرى دناءة الطموح، وطموح الدناءة تتعرى مكشوفة السوءات بادية العورات في مقترحاتهم المتعنتة، فهم لم يطلبوا إلا ينابيع ماء تجري في أوديتهم، ولم يطلبوا إلا جناناً وحدائق من نخيل وعنب وأنهار تجري خلال تلك الجنات تسقيها، ويأكل منها تنابلة مكة وهم قعود يهجرون.

فإن لم يك هذا ولا ذاك فصواعق تُسقط السماء عليهم قطعاً تدمرهم كما دمرت إخوتهم الماديين الوثنيين قبلهم إذْ كذَّبوا رسل الله وكفروا برسالاته.

فإن لم تستجب ـ يا محمد ـ لبطوننا وهوس أفكارنا المادية المظلمة فخذ لنفسك من ربك، واطلب منه أن يغنيك عن النَّصَب والكد في سبيل المعاش كما ينصب ويكد سائر الناس، فليعطِك ربك عزاً دنيوياً، وترفاً في العيش، وتنعماً يرفِّهك في بيت منضَّد مزخرف بالزينة، مموَّه بالذهب مرقَّش بالفضة، منمنم بمتاع الدنيا وزينتها.

ويحكي عنهم القرآن في سورة الفرقان قولهم: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾[1].

فعقولهم المظلمة لا تستسيغ فهم رسول من عند الله يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى وإقامة موازين العدل في الأرض يعيش ببشريته كما يعيش سائر البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ليكسب عيشه من كده وعرق جبينه كما يكسب جميع الشرفاء في أرض الله أرزاقهم وأسباب عيشهم.

وهؤلاء الماديون الوثنيون لا يفهمون ما يقولون لأنهم يتناقضون مع أنفسهم، فهم قد عجبوا أن جاءهم رسول يأكل الطعام، وهم أرادوه أن يأكل كما يأكل سائر الناس، ولكن أرادوه أن يأكل من جنة دانية القطوف،

---

(١) سورة الفرقان، آيتا: ٧ ـ ٨.

يأكل منها وهو مستلقٍ على ظهره يناغي نجوم الليل، لا يتعب ولا يتحرك، فإن لم تكن جنة فكنز من الذهب ينفق منه ما يشاء، فلا ينفد ولا يبيد.

بلادة عقلية، وعقليات بليدة، لا تعرف من الحياة إلا الأكل والطعام والشراب، وحتى هذا الذي تعرفه وتعيش عليه وله لا تريده إلا عسلاً يقطر في أفواههم وهم نائمون، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[1] وكما قال عزّ شأنه: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[2].

ومن غلو هؤلاء الماديين الوثنيين، وإغراقهم في الطيش والسفه الجهول، وطمس بصائرهم عن معرفة جلال الله وقدرته حق قدرة تجاوزهم في تعنتهم كل حد بطلبهم من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالله تعالى تحيط به الملائكة جهرة حتى يعاينوه معاينة بأبصارهم، كأنما الله تعالى كائن يملكه الزمان والمكان كما يملك أصنامهم وأوثانهم المادية، تعالى الله عما يقول الجاهلون الظالمون علوًّا كبيراً.

تصوّرٌ ماديٌّ ترابيٌّ جهول، لا يدين به إلا عبيد الوثنية في كل عصر ومكان من الحياة، لأنهم لا يعرفون إلا المادة وصورها وأشكالها.

ومن هذا الغلو الجهول الفاجر ما رواه ابن إسحاق، قال: فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ـ وهو ابن عمة رسول الله ﷺ أمه عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال لرسول الله ﷺ: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله ـ كما تقول ـ ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون أنه فضلك عليهم، ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجِّل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل.

---

(١) سورة محمد، آية: ١٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلّماً ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتيني معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايْمُ الله لو فعلتَ ما ظننت أني أصدقك.

جنون وعته؟ وطغيان وسفه، فالماديون الوثنيون في كل زمان ومكان وجيل، لا يريدون بمقترحاتهم المتعنتة أدلَّة على صدق دعوة الحق، ولكنهم يريدون العناد الكفور، والكفر العنيد، تملَّكهم الحسد والحقد فعميت أبصارهم، وانطمست بصائرهم، وضلّوا عن رؤية الشمس وهي تخطف بأضوائها أبصارهم، وتحرق بلهبها أفئدتهم.

وقد أرشد الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد على تعنتاتهم المعبِّرة عن سفه عقولهم وفساد تفكيرهم أبلغ رد وأوجزه، وأقطعه لحجة المعاندين فقال له: ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ فهذا رد برهان قاطع، يتضمن:

أولاً ـ : تنزيه الله تعالى عن أن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو ربّ الخلق الذي ربَّاهم في أطوار خلقهم، وأطوار حياتهم، وهو رب محمد ﷺ الذي ربّاه لرسالته فأحسن تربيته وأرسله للناس هادياً، وعلَّمه ألا يسمع إلى تعنتاتهم التي لا تعرف لله وقاراً.

ثانياً: بيان أن محمداً ﷺ عبد من عباد الله، لا يزيد في بشريته على أي فرد من أفراد الناس، يجري عليه في بشريته ما يجري على سائر البشر، وإنما امتيازه الأعلى في اصطفاء الله تعالى له نبياً ورسولاً، يهدي إلى الحق ويدعو إلى الله، فليس له أن يتحكم على ربه فيسأله ما لم يأذن له به وما لم يكن داخلاً في إطار رسالته.

والذي تعنَّت به المعاندون بمقترحاتهم الفاجرة أمور لا يقدر عليها أحد من البشر، محمد ﷺ فمن دونه، وإذا كان سؤالهم يقصد إلى أن يطلب محمد ﷺ من الله أن يظهر هذه الأمور التي اقترحوها لتكون معجزة له تدل على صدقه فيما جاءهم به من عند الله ودعاهم إليه في رسالته ودعوته.

فهذا إمعان في التعنُّت لأن دلالة المعجزة قاطعة على صدق الرسول في أية معجزة يأتي بها متحدِّياً، وقد أتى محمد ﷺ بأعظم معجزة تحدّى بها العالمين، وهي القرآن الكريم الذي يتضمن الإعجاز، بما تضمنه من التحدِّي وتجبيه المعاندين فقال لهم: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين﴾[1] وقال جلّ شأنه: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[2] وقال عزّ وجهه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[3].

فهذا التحدي، وهذا التجبيه مع إبلاس المعاندين ونكوصهم على أعقابهم خائبين دليل قاطع على أن محمداً ﷺ استوفى أرفع درجات التحدي بمعجزته العظمى، ولم تظهر مطلقاً بادرة من بوادر المعارضة، فكان ذلك برهاناً قاطعاً على صدق الرسول، فلا معنى إذاً لطلب معجزات أخرى، والمعجزات المادية كالتي طلبها المعاندون تعنتاً ليست من مراقي الإعجاز في رسالة محمد ﷺ، لأن رسالته ﷺ رسالة علم وفكر وهدى وخلود، فمعجزتها يجب أن تكون معجزة عقلية علمية هادية خالدة، لا ينقطع التحدي بها زمناً من الأزمان، ولا جيلاً من الأجيال.

ولو كان كل متعنت يقترح شيئاً على الرسول تجب إجابته إلى اقتراحه لفتح باب العناد، واقترح كل معاند كفور العناد في كل وقت مقترحات يعنّت بها الرسول، فيصبح الأمر عبثاً وفوضى، وهذا إفساد للحياة.

وقد تعلق بعض الملاحدة بما في هذا الرد من إيجاز بليغ، فلم يفهم ما تضمنه من البرهان القطعي على صحته فقال: إن هذا جواب غير

---

(١) سورة البقرة، آيتا: ٢٣ - ٢٤.

(٢) سورة يونس، آية: ٣٨.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

مقنع. قال الإمام القرطبي: وقد غلطوا لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشر، لا أقدر على شيء مما سألتموني، وليس لي أن أتخيَّر على ربي، ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجز لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولجاز لكل إنسان أن يقول: لا أؤمن حتى أوتى خلاف ما طلب غيري مما يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله تعالى.

ومن لطيف هذا الرد القاطع المحكم، البليغ المفحم أنه جاء في المتواتر مقروءاً بالفعل الماضي: ﴿قال سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ وعلى هذه القراءة البديعة الحكيمة يكون المعنى في الرد على المعاندين المتعنتين أن رسول الله ﷺ يخبرهم عن نفسه وهم يتعنتونه بمقترحاتهم المادية المظلمة، معرضين عن الهدى إذ جاءهم أنه ما هو إلا بشر له خصائص البشر ومقوماتهم، ولكن الله تعالى اصطفاه رسولاً منه يدعو إلى توحيده، فهو عبد تدعوه عبوديته لله الواحد الأحد أن يقف من ربه موقف الأدب الأكمل، فلا يسأله إلا ما يأذن له في طلبه.

وهو رسول من عند الله تدعوه رسالته إلى أن يرتفع بأدبه مع الله تعالى إلى مقام التسليم والرضا بما يحكم ويريد، ولا معقِّب لحكمه، ولا راد لإرادته.

فالرسول ﷺ في هذا الرد على هذه القراءة المحكمة يبدأ رده على المعاندين المتعنتين بتنزيه الله تعالى عن توهمات المعاندين... ويضيف هذا التنزيه إلى اسم (الربّ) بإضافة الإكرام والتكريم، والشرف والتشريف فكأنه قيل: أنزِّه ربي الذي تعهدني بتربيته وفضله منذ خلقني، وأدَّبني برسالته منذ بعثني رحمة للعالمين عن تعنتات المتعنتين، لأنه الفعَّال لما يريد، إذا شاء شيئاً كان كما شاء، لا يعجزه شيء، يبدع الأشياء من غيب العدم بقدرته وبعثني رسولاً هادياً ومبشراً ونذيراً، وقد أنذرت المعاندين وحذَّرتهم

بطش الله ونقمته كما حذَّر الأنبياء من قبلي أممهم، وبشَّرتُ المؤمنين برحمة الله وفضله ورضوانه.

* * *

نهاية المفاوضة مع ملأ طغاة قريش ملأت قلوبهم حقداً وعتواً

انتهى موقف الحوار والمكالمة بين رسول الله ﷺ وملأ المادية الوثنية ممثلة في زعماء قريش، وهو الموقف الذي طلبه الملأ بعد أن تشكَّكوا في موقف سفيرهم عتبة بن ربيعة واتهموه بالصباءة إلى محمد ﷺ، وأنه سحره بلسانه ـ على هذه الصورة التي رسمناها رواية وتحقيقاً، وتحليلاً وشواهد، فحقب أمر الناس، وشري الشر بينهم، وتنابذ القوم، وتضاغنوا، وتباعدوا، وتذامرت قريش على رسول الله ﷺ، واشتد إيذاؤها له ولأصحابه، نتيجة لما أفعم نفوسهم من اليأس وخيبة الأمل، وأثراً لما ملأ قلوبهم من الحقد والاضطغان والحسد.

فقد يئست المادية الوثنية ممثلة في ملأ الطغاة من عباهلة قريش، بعد أن تجلّى لها موقف رسول الله ﷺ في حوارها معه ومكالمتها إياه، أن تجد عنده هوادة في عزيمة القيام بأمر دعوته، وصلابته في تبليغ رسالته، كما يئست أن تجد لها منفذاً فيما عرضته عليه من مظاهر دنياها في شتّى أشكالها، وأبلغ ما تطمح إليه النفوس (الترابية) من صورها وأشكالها وألوانها.

فأعرض عنها متسامياً في عبوديته ربه، مترفعاً برسالته عن دناءات دنيا المادية الوثنية من مال وثراء، وكنوز، وجنات وعيون، وزخرف وزينة، وشرف وسيادة، وملك وسلطان، وأبى عليهم إلا أن يقولوا كلمة واحدة (لا إله إلا الله)؛ فإذا قالوها ملكوا بها الدنيا من أطرافها، والحياة من أقطارها شرفاً حقيقياً، وسؤدداً وملكاً مؤثلاً.

موقف رسول الله ﷺ وأصحابه من فجور قريش كان أرفع مواقف الصبر الجميل

وقد قابل رسول الله ﷺ وأصحابه سفه قريش وإيذاءها بأجمل الصبر وأعلى مراتب العفو والغفران، والإعراض عن المجازاة، والصفح عن الإساءات مع المحاسنة والمصابرة. روى صاحب العيون، وأسنده في الفتح للزبير بن بكار والدار قطني، عن عروة بن الزبير، قال حدثني عمروابن

عثمان بن عفان عن أبيه عثمان بن عفان، قال: أكثر ما نالت قريش من رسول الله ﷺ أني رأيت يوماً ـ قال عمرو: ورأيت عيني عثمان بن عفان تذرفان من تذكر ذلك ـ قال عثمان بن عفان: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر، وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس: عُقْبَةَ بن أبي مُعَيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، فمر رسول الله ﷺ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فدنوت منه حتى وسطته، فكان بيني وبين أبي بكر، وأدخل أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعاً، فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «أنىّ ذلك».

موقف لعثمان ابن عفان يوزن بألف موقف من مواقف الشجاعة والإيمان

ثم مضى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعت في صدره، فوقع على أسته ـ واحدة لعثمان رضي الله عنه بألف ـ ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي مُعَيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ، وهو واقف، ثم قال: «أما والله لا تنتهون حتى يحلّ بكم عقابه عاجلاً».

قال عثمان: فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفكل، وهو يرتعد، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم أنتم لنبيكم» ثم انصرف إلى بيته، وتبعناه حتى انتهى إلى باب البيت ووقف على السدة، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «أبشروا فإن الله عزّ وجلّ مظهر دينه، ومتم كلمته، وناصر دينه، إن هؤلاءُ الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلاً».

موقف من أشد فجور طغاة قريش وشجاعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا. وروى البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ؟ قال: بينما النبي ﷺ في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ،

ثم قال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله). وقد ذكر البخاري هذا الحديث مرة أخرى عن عمرو بن العاص عن طريق هشام بن عروة عن أبيه عروة، والرواية المتقدمة من طريق يحيى بن عروة عن أبيه عروة، وقد جمع بين الروايتين الحافظ ابن حجر في الفتح، فقال: فيحتمل أن يكون عروة سأل ابن عمرو مرة وسأل أباه عمراً مرة أخرى.

رواية أخرى أتم في تفصيل هذه الواقعة

وذكر ابن إسحاق حديث يحيى بن عروة مجوّداً مطولاً فقال: حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عـروة بن الزبـير، عن عبدالله بن عمرو ابن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عدوانه؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، قد سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا. لقد صبرنا على أمر عظيم.

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك على وجه رسول الله ﷺ، ثم مضى فلما مرَّ بهم ثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك على وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح» فأخذت القومَ كلمتُه، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه الطير واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً، فانصرف النبي ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول: كذا، وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «نعم أنا الذي أقول ذلك»، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله

عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: (أتقتلون رجلاً يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه. قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط.

روايات مختصرة في تصوير فجور ملأ قريش

وأخرج البخاري من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: حدثني عمرو بن العاص: قال: ما رأيت قريشاً أرادوا قتل رسول الله ﷺ إلا يوماً أغروا به وهم في ظل الكعبة جلوس، وهو يصلي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي مُعَيط، فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه به حتى وجب لركبتيه، وتصايح الناس، وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبع رسول الله ﷺ من ردائه وهو يقول: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه، فلما قضى صلاته مرّ بهم فقال: «والذي نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح» فقال له أبو جهل: يا محمد: ما كنت جهولاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت منهم».

وأخرج البيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس عن فاطمة الزهراء عليها السلام، قالت: اجتمع المشركون في الحجر، فقالوا: إذا مر محمد ضربه كل رجل منا ضربة، فسمعت فاطمة عليها السلام، فأخبرته ـ أي أباها رسول الله ﷺ ـ فقال لها: «اسكتي يا بنية» ثم خرج فدخل عليهم فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا، قالت فاطمة عليها السلام: فأخذ النبي ﷺ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم، ثم قال: «شاهت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم إلا قتل يوم بدر كافراً.

وأخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس بن مالك قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غُشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم ؟؟ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، فتركوه وأقبلوا على أبي بكر.

وأخرج أبو يعلى من حديث أسماء بنت أبي بكر عن عروة بن الزبير، عن عمرو بن العاص قال: سُئلت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: ما أشد ما رأيت من المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان

المشركون قعوداً في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ أقبل رسول الله ﷺ فقاموا إليه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبي بكر رضي الله عنه: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له لغدائر أربعاً، وهو يقول: ويلكم: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبيِّنات من ربكم) فَلَهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد اشتدت عليهم المحن، وعظم البلاء، وتذامرت قريش على من في القبائل والبيوتات منهم، يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ويحبسونهم ويضربونهم ويجيعونهم، ويعطِّشونهم، ويوقعون بهم كل بلاء يرون أنه يمكن أن يصدهم عن دينهم، ويردهم عن عقيدتهم التوحيدية إلى كفر الوثنية والشرك المادي العنيد.

فكانوا يُلْقونهم في رمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، ومن قوي وصلب، فالمستضعفون كانوا لا يطيقون العذاب فيجيبونهم إلى الفتنة، والأقوياء كانوا أصبر على ما يصيبهم من التعذيب، متحمِّلين فادح البلاء وعظيم الإيذاء.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه من طريق سعيد ابن جبير، قال: قلت لعبدالله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما كانوا يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إنْ كانوا ليَضربون أحدَهم ويجيعونه ويعطِّشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة افتداء منهم بما يبلغون من جهده.

فدائية بلال لدينه وعقيدته ومواقفه الفذة في الصبر على أفدح البلاء

وقد اشتهر من هؤلاء المعذَّبين الصابرين أبطال كانوا غرة اليقين في جبين الإسلام، وأشهر من شهر منهم سيدنا بلال بن رباح مولى أبي بكر ومؤذن رسول الله ﷺ، فقد كان أمية بن خلف الجمحي يخرجه إذا حميت الظهيرة في رمضاء مكة، ويطرحه على ظهره في سعير البطحاء، ثم يأمر

بالصخرة العظيمة، وهي تتقد من شدة الحميم والحر، فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللاّت والعزّى، فيقول صادق الإيمان وطاهر القلب بلال وهو في حومة ذلك البلاء: أحد، أحد.

وقد مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ببلال مرة وهو على هذه الحال من العذاب، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية ابن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟؟.

وقال لعين المادية الوثنية أمية بن خلف لأبي بكر: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فاهتبلها أبو بكر نهزة سانحة، فقال: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، وهو على دينك أعطيكه به، قال أمية: قد قبلت: فقال أبو بكر: هو لك وأعطاه الغلام الأسود، وأخذ بلالاً فأعتقه لحظة أن ملكه.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعظِّم بلالاً ويقدِّر إيمانه وصبره حتى قال: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ـ يعني بلالاً ـ رضي الله عنهم أجمعين.

ممَّن شُهروا بأجمل الصبر النهديتان وحررهما أبو بكر

وممن شهر في بطولة الصبر واحتمال الأذى وشديد البلاء النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمرّ بهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها، وهي تقول لهما: والله لا أعتقكما أبداً، فسمع أبو بكر كلامها، فقال لها: حلٍّ يا أم فلان ـ أي تحللي من أليتك وقسمك ـ فقالت حل، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال الصديق رضي الله عنه: فبكم هما؟ قالت العبدرية: بكذا، وكذا، قال الصديق رضي الله عنه: قد أخذتهما، وهما حرتان، أرجعا لها طحينها، قالت النهديتان المعذبتان: أو نفرغ منه يا أبا بكر، ثم نرده إليها؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: وذلك لكما إن شئتما.

أما صنيع أبي بكر فهذا أمر فوق طاقة التقدير القلمي واللساني، وهو خلق في أبي بكر وُلد به مع إسلامه، وكان رضي الله عنه يتتبع

المستضعفين من العبيد والموالي فيشتريهم ويعتقهم لحظة شرائهم تقرباً إلى الله تعالى ونشراً للإسلام، حتى قال له أبوه عثمان أبو قحافة: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت، أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت إني أريد ما أريد! قال العلماء: يقصد أبو بكر أنه لا يريد شيئاً من أمور الدنيا، وإنما يريد وجه الله تعالى وهو خير حافظاً، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ وسيجنبها الاتقى * الذي يؤتي ماله يتزكّى * وما لأحد عنده من نعمة تُجزَى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾[1].

وروى أبو الحسن الواحدي عن ابن عباس من طريق عطاء: أن بلالاً لمّا أسلم ذهب إلى الأصنام فلحّ عليها وكان عبداً لعبدالله ابن جدعان، فشكى إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم، ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول: أحد، أحد، فمرّ به رسول الله ﷺ، فقال: «ينجيك أحد، أحد»، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاع به بلالاً، فقال المشركون ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليدٍ كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تُجْزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى ﴾.

وذكر القرطبي هذا الحديث مختصراً، ولم يذكر فيه عبدالله ابن جدعان، وإنما ذكر موافقة لابن إسحاق أمية بن خلف، فقال: روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس قال: عذَّب المشركون بلالاً، وبلال يقول: أحد، أحد، فمرّ به رسول الله ﷺ فقال: «أحد ـ يعني الله تعالى ـ ينجيك» ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر، إن بلالاً يعذَّب في الله» فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال: ألا تبيعني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده، فنزلت: ﴿ وما لأحد

---

(١) آخر سورة (والليل إذا يغشى).

عنده من نعمة تُجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى﴾.

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعنيه؟ فقال: نعم أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار، وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركاً، فحمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون له ماله، فأبى، فباعه أبو بكر ببلال، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليدٍ كانت لبلال عنده فنزلت: ﴿ وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى ﴾.

أدب إسلامي في مقابلة فجور وثني

وأما صنيع النهدية وابنتها، وقد أذاقتهما سيدتهما العبدرية سوء العذاب، وهي ترسلهما بطحينها وتتوعدهما مهددة بأنها لا تطلقهما من العذاب والرقّ أبداً، ويسمعها الصديق فيستحلّها يمينها، فتقول له: أنت أفسدتهما فخلصهما إن شئت، فبادر الصديق يسألها عن ثمنهما في تقديرها، فطلبت ما طلبت، فلم يماكسها أبو بكر فيما طلبت، بل أسرع فقال: قد أخذتهما وعجّل، فأتبع ذلك قوله: وهما حرَّتان، ثم أراد أبو بكر أن يشعر الجاريتين بما نالاه من حرية ويذيقهما سعادتها متعجلاً، فقال بعد أن حررهما: أرجعا لها طحينها.

وإلى هنا كانت الطبيعة البشرية المنطلقة من أغلال العبودية، المخلَّصة من بلاء العذاب المنقَذة من ذل الاستعباد مهيئة أن تستبد بها الفرحة، ويستفزها شعور الحرية وإحساس المساواة في الحقوق والواجبات بهاتين الجاريتين اللتين كانتا من لحظة تُفرض عليهما أحكام العبودية في صلف واستكبار من سيدتها الظالمة، وهي تتهدد وتتوعد، وتزمجر، وتنذر متحفزة للوثبة للرد على الظلم والتعالي على الظالمين، ولا أقل من أنهما كانتا ترميان بطحين هذه السيدة الظالمة التي ساوياها في الحرية وتساميا عليها بالإسلام بين يديها معرضتين ازوراراً، تنظران إليها شذراً.

ولكن أدب الإسلام ومكارم الأخلاق التي قامت دعائمه عليها ومعرفة الله تعالى بجلال وحدانيته أبت عليهما إلا أن يكونا متفضلتين

بالإحسان على من طالما أساءت إليهما، فقالتا لأبي بكر رضي الله عنه وهو يقول لهما بعد أن حررهما أرجعا إليها طحينها ليعجل لهما مذاق الحرية: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ فوسعهما خُلُق الصديق ورد ذلك لمشيئتهما فقال: ذلك لكما إن شئتما.

لله هذا الدين الحنيف في آدابه وفواضله، وشمائل فضائله، ولله قوم ادّرعوه عقيدة وعملاً، فهو دين يجعل من الفضائل قوى في طبيعته التي يقوم عليها التعامل بين الناس.

صبر خباب بن الأرت على أفجر البلاء

ومن شُهر بالبطولة الصابرة، والعفو الصفوح في هذه الفترة القاسية سيدنا خباب بن الأرت رضي الله عنه. روى ابن سعد في الطبقات عن الشعبي، قال: دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأجلسه في متكئه وقال: ما على وجه الأرض أحد أحقّ بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: بلال: فقال خباب: ما هو أحق مني، إن بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لي أحد يمنعني، فقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري فاتقيت الأرض بظهري، وعند أبي نعيم، أن خباباً قال لعمر: أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري.

من سادة الصابرين على أفدح البلاء أسرة ياسر أبي عمار

وقد كتبت أسرة ياسر بن عامر: ولديه عمار وعبدالله وأمهما سمية في سجل البطولة الفدائية آيات من الصبر الصبور واحتمال أشد الأذى والعذاب، وأفدح البلاء، كانت أسطراً من النور الفدائي والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة التي استناروا بضيائها، ومات ياسر رضي الله عنه تحت العذاب، وماتت سمية رضي الله عنها بطعنة فاجرة من غميز الرجولية أبي جهل، ورمي عبدالله فسقط ولم يبق منهم إلا عمار رضي الله عنه فكانت له آثار الصدق في جميع مواقف الإسلام والجهاد التي شهدها.

وكان يمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فيقول: « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » وقد كانت مواقف النبي ﷺ في قوة احتماله وعظيم

صبره على بلاء المعاندين من طغاة قريش وشدة أذاهم وسفه سفهائهم تثير في أنفس أصحابه مشاعر التصبُّر والمصابرة وألوان الرضا بما ينالهم من المحن والشدائد تأسياً به ﷺ، وكان إذا رأى من بعضهم ركوناً إلى الضجر وعدم الاحتمال أثار في قلوبهم قوة اليقين وفي نفوسهم قوة الصبر والاحتمال بما يضرب لهم من الأمثال، وما يقص عليهم من أنباء الذين أوذوا في سبيل الله من السابقين المؤمنين في القرون الخوالي والأمم الماضية، ويبشرهم بقرب الفرج والنصر والعزة.

روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة وقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: «قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله عزّ وجلّ، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

* * *

كان ما يلقى رسول الله ﷺ من شدة البلاء أقوى الدوافع على المضي قدماً في تبليغ رسالته

مضى رسول الله ﷺ في النهوض بدعوته، وتبليغ رسالته قوياً معزوماً له لا يبالي ما يلاقي من بلاء وعناء، أو سفه وإيذاء، لم يفتر لحظة، ولا وَنَى فترة.

وكان موقف العناد الكفور، والتعنُّت الجهول الذي وقفه منه ملأ قريش في مكالمتهم الجماعية المتعنتة حافزاً من حوافز الإقدام ودافعاً من دوافع القوة، وعاملاً من أقوى عوامل الإصرار الحازم والعزم الصارم، دفع رسول الله ﷺ إلى بسط مدى دعوته في أكناف مكة وما حولها من محلات العرب ومنازلهم ومجتمعاتهم ومحافل مواسمهم وأسواقهم.

فكان ﷺ لا يسمع برئيس قبيلة أو زعيم بيت أو عشيرة من بيوتات وعشائر العرب وبطونهم في منزل من منازل الوافدين على مكة للتجارة أو الحجّ إلا ذهب إليه يدعوه وقومه إلى الله ويناديه إلى الهدى اثتنا، ويسمعه

من آيات القرآن ما فيه شفاء للقلوب والأفئدة ونور للبصائر والأفكار، وكانت قريش بعد فشلها في مكالمته ﷺ، وما عرض عليه ملؤها من أمور الدنيا المادية تتبعه أينما ذهب، وحيثما ولّى لله وجهه أو نزل، فإذا سمعوه يدعو إلى الله تعالى بادروه بالتكذيب والاستهزاء، ورمَوه بالجنون والسحر، وكان أشدهم عليه في ذلك عمه المتبوب أبو لهب، يمشي وراءه وهو يقول للناس: إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم وهذا عار عليكم. وكان هذا من أشد ما أوذي به رسول الله ﷺ، لأن الناس كانوا في جاهليتهم أشد تمسكاً بمواريث الآباء والأجداد، وأشد حرصاً على التشبث بمراسم المادية الوثنية، لا يفهمون لأول وهلة إلا ما وافق تراثهم الجاهلي وعاداتهم التقليدية.

فإذا دعاهم رسول الله ﷺ إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأنداد، وإخلاص العبودية لله وحده والتحرر من أغلال التعبُّد للأصنام والزعماء والرؤساء، وبدر أبو لهب بتكذيبه والتحذير من قبول دعوته، سألوا عنه، فقالوا: من هذا وراءه يكذبه، فيقال عمه، وتسري هذه في الغوغاء والجماهير التي تعيش بعواطفها وشعور التبعية لكل ناعق، فيقولون معرضين عن هداية الإسلام: قوم الرجل أعلم به، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما أوذي أحد ما أوذيت» لأن كل أذية تلحق شخصه ﷺ في بدنه مهما عظمت وفدحت واشتد أثرها لا توضع قط في ميزان مع أية أذية تعترض طريق الدعوة، وتعوق تبليغ الرسالة مهما ضؤلت.

ومن هنا كان ما أوذي به اخوانه الأنبياء والمرسلون وأتباعهم في أبدانهم مع تناهي شدته وقسوته لا يقع موقع ما أوذي به ﷺ في تعويق رسالته، ووضع العقبات أمامها.

بيد أن جماهير القبائل العربية، وفيهم عقلاؤهم وحكماؤهم، وذوو رأيهم كانوا يرجعون من مواسمهم ولا حديث لهم إلا في شأن رسول الله ﷺ، وشأن دعوته من بعثه رسولاً من عند الله من الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق وعليا الشمائل.

وكان صدى ذلك يرجع في آفاق مكة فيصك آذان ملئها وزعمائها، ويلج إلى قلوبها وأفئدتها فيحرقها، فرعبت قريش رعباً شديداً، وداخلها خوف أقلقها، فأقامها وأقعدها، فهي قد فشلت في كل ما دبَّرت وقدَّرت في مناهضة دعوة محمد ﷺ، فقد مكرت به لتقتله، وقد دبَّرت له كل ما تمخَّضت عنه قرائح ملئها من السوء والتعذيب والإيذاء، ولكنه ها هي ذي ترى بأعينها دعوته تسري إلى العرب في منازلهم، ويتحدث الناس عنها، ويتجاوز الحديث عنها الغوغاء والجماهير إلى الحكماء والعقلاء وذوي الرأي من الشعراء والخطباء والحنفاء الذين أدركوا ذرواً من الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، فتعلَّقوا به انتظاراً لبعث خاتم الأنبياء والمرسلين.

رأي سوء من زعيم سوء: الوليد بن المغيرة

واجتمع ملأ قريش وعباهلتها إلى طاغيتهم، شيخ الكفر، أشيب بني مخزوم، ومديان العرب وصاحب ثرائهم، ومالك ناصية تجارتهم، وصاحب خزائن ربوياتهم وسحتهم: الوليد بن المغيرة، وكان الوليد قد عَتَا في سنه، فبلغ من الهرم عتياً، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً.

قال الملأ من قريش: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقول به.

قال الوليد: بل أنتم فقولوا أسمع - يريد أن يفيل آراءهم لتكون له الكلمة الأخيرة. قال الملأ من غضارف قريش: نقول: هو كاهن.

قال الطاغية الوليد: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قال الملأ من عباهلة قريش فنقول: هو مجنون.

قال الطاغية الوليد: ما هو بمجنون: لقد رأينا الجنون، وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

قال ملأ قريش: فنقول: هو شاعر.

قال الطاغية: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه، وهزجه، وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قال الملأ وقد ملأتهم الدهشة والحيرة: فنقول: هو ساحر.

قال الوليد: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قال الملأ وقد فرغ صبرهم، ونفد تفكيرهم، وعييت عقولهم، فما نقول ياأبا عبد شمس؟ فنطق الحق على لسان الطاغية في غيبة عتو الكفر والجحود فقال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا ـ أي الذي زعمتموه شيئاً ـ إلا عرف أنه باطل.

لكن شيطان العتو الجحود، وفجور المادية الوثنية الكنود التي يعيش في بلهنيتها أشيب قريش وعاتيها لم يلبث أن صحا في نفس الطاغية العنيد حتى أملص الوليد من خيوط النور التي شعشعت لحظة في أفق الحق، فأنطقت جدار الكفور العنيد بما أملته السماء من وصف دعوة محمد ﷺ ورسالته ومكانها الأدمغ من الوجود، وما تنزّلت به آياتها من حلاوة دانية القطوف للعقول والقلوب والأرواح، فعاد إلى عناده كفوراً يقول:

وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذّروه إياه، وذكروا لهم أمره.

ورد الله كيدهم في نحورهم فكانوا بما دبروا ومكروا أحمرة تحمل على ظهورها الدعوة إلى الله تنشرها في آفاق العرب

فصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في الآفاق، وسارت دعوته مع الشمس إلى كل منزل من منازل العرب، ودخلت كل حي من أحيائهم، وحلّت بكل محلة من محلاتهم، وانقلب مكر ملأ قريش وتدبير طاغيتها العنيد وبالاً عليهم وخيراً وبركة لمحمد ﷺ.

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الخير والهدى أتاح له منافذ الظهور من بين براثن أعتى مقومات الشرور، وذكر القرطبي أن عثمان بن مظعون قال: ما أسلمت ابتداء إلّا حياء من رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وأنا عنده، فاستقر الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: **يا ابن أخي** أعد؟ فأعدت، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر.

كاد أن يؤمن لولا عناد الكفر وسبق القدر

والوليد بن المغيرة: وهو من هو في عتو المادية الوثنية، وعناد الشرك، وتعاقل المحنّكين - يقرر في غير مواربة ولا مداورة أن محمداً ﷺ أبعد ما يكون أحد عن الكهانة وزمزمتها، وعن الجنون وخنقه ووسوسته، وعن الشعر وهزجه، وعن السحر ونفثه، وأن لقوله لحلاوة يتذوقها الأبْناء فصحاء العاربة، وأنه قول ثابت الأصل في أرض الحقيقة، راسخ الدعائم في آفاق الصدق والهدى، فهو كالعـذق - وهي النخلة التي ثبت أصلها ودنا جناها، وطاب فرعها - وصارح الوليد قومه بأن أي شيء من أباطيلكم في اتهام محمد بالسحر والجنون والكهانة والشعر أنتم قائلوه للناس باطل لا يقبل.

لكن عناد الكفر أبى على هذا العتل الجوّاظ أن يثبت على قالة الحق شيئاً من ثبات في لحظة من زمن، فسرعان ما نكص الوليد على عقبيه كما نكص الشيطان عن لهزمتيه - وكان قابضاً عليهما يقوده بهما إلى حتفه - إذ قال ما قال من الحق في وصف محمد رسول الله ﷺ، ووصف قوله الذي يتلوه على الناس بأن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة، وما هو بقول بشر، وناقض نفسه، فعاد يقوده الشيطان كالجمل المخشوش بزمام العناد الكفور والكفر العنيد، وقد فكَّر وقدَّر، وعبس وبَسَر، وأدبر معرضاً عن الحق، مستكبراً عن الإذعان له وقال: إن ما يقوله محمد ﷺ ما هو إلا سحر أثير لا يستطيع أحد أن يقول مثله، ألستم ترونه يفرِّق بهذا القول بين المرء وأبيه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته؟.

أخرج الحاكم وصحّحه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي

الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك له منكر، وأنك كاره له، قال: وماذا أقول: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، والله ما يشبه هذا الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه قولاً: قال الوليد: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾.

قال ابن كثير: والمذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله، وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس **قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة** فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج الوليد على قريش فقال يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة - يعني رسول الله ﷺ، وأبو كبشة لقب أبيه رضاعاً - : فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي مجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال له: ألم ترَ إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ قال الوليد: ألست أكثرهم مالاً؟ فقال له أبو جهل: إنهم يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا ابن أبي كبشة وما قوله إلا سحر يؤثر.

فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ - إلى قوله - ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾.

وذكر القرطبي قصة الوليد بن المغيرة مسندة فقال: لما نزل ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ إلى قوله ﴿ إليه المصير ﴾

ـ أي أول سورة غافر ـ وغيره يقول: حم السجدة أي سورة فصلت؛ سمعه الوليد يقرؤها فقال: والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما هو بقول بشر، فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبون قريش كلها، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزيناً، فقال له: مالي أراك حزيناً؟ فقال أبو جهل: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليد وقال: أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللّات والعزّى، ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا، والله، قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا، والله، قال: فتزعمون أنه كذّاب، فهل جربتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا، والله قال: فتزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهّن قط؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا، والله.

وكان النبي ﷺ يسمّى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما تقول فيه؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس وبسر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه.

تكرار قصة سماع الوليد القرآن وقوله في مدحه ما قال أرجح من وقوعها مرة واحدة

وقصدُ الوليد بن المغيرة باستماعه للقرآن، وقوله فيه لأول ما قرعت آياته قلبه وعقله ما قال من مدح وثناء ثم إنكاره كذباً بعدما فكّر في دنياه ومكانته من قومه، وتعيير أبي جهل له قصة تحتمل التكرار، وأنها وقعت له أكثر من مرة، وهذا هو الأظهر والأقرب إلى التوفيق بين روايات القصة، ولا سيما أنها روايات تختلف اختلافاً جوهرياً في تسمية من سمع منه الوليد القرآن، فبعض الروايات يقول: إن الوليد سمع رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ حم ﴾ السجدة، أو ﴿ حم ﴾ غافر، وبعضها يقول أن الوليد سمع أبا

بكر يقرأ فأصغى إليه، وبعضها يقول: إنه سمع عثمان بن مظعون، فهذا الاختلاف فيمن سمع منه الوليد القرآن اختلاف أساسي في القصة يؤكد تكرارها وأنه سمع من كل هؤلاء، وقد كان يعيش في لجج الحيرة والشك، وهذا يقتضيه أن يكرر سماعه لآيات القرآن، وأن يعدِّد الأشخاص يسمع منهم ليخرج من حيرته المظلمة وشكه المريب.

ويؤكد تكرار القصة اختلاف الروايات في الآيات التي سمعها الوليد، فبعض الروايات يذكر أنه سمع أول سورة (غافر) وبعضها يذكر أنه سمع أول سورة (فُصِّلت) كما سمعها عتبة في سفارته عن قريش إلى رسول الله ﷺ، وبعضها يذكر أنه سمع قول الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[1].

وتكرار قصة سماع الوليد للقرآن يشبه أن يكون أمراً طبيعياً؛ وخصوصاً أن الوليد في عتو كفره وجحوده ومكانته الراسية من المادية الوثنية لا يتعجل الحكم، ولا بد له من تكرار السماع وتعدد مصادره، لينظر مقدار الاختلاف والتوافق بين هذه المصادر في أسلوب ما يسمع وحقائقه ومعانيه ومقاصده، فلما وجد ما سمع أسلوباً ومعاني في الهداية وحقائق في التوحيد وأصول الفضائل جاء كلامه في جميع الروايات عن القرآن ووصفه متوافقاً متناسقاً، وجاء كلامه عن رسول الله ﷺ في معرفته بالصدق والأمانة، ومكارم الأخلاق، وبعده عن جميع ما زعمه عليه أعداؤه أعداء رسالته ودعوته من ملأ قريش موحَّداً لوثيق معرفة سائر قومه به.

الوليد في آيات القرآن نموذج للشر الخبيث في كل زمان ومكان

وقد جعل القرآن الحكيم على سنته ونهجه في تصوير الطبيعة البشرية في جانبيها جانبي الخير والشر، في نماذج من الأفراد والجماعات تمثل جوانب الخير والشر لتكون تلك النماذج مُثُلاًحية مضروبة للأجيال في كل زمان ومكان، ترى فيها نفسها، ليكون ذلك أدعى للتأسي في الخير، وأردع عن الوقوع في حمأة الشر - من هذا الطاغية العنيد، الوليد ابن المغيرة نموذجاً لأخبث نوع من الشر الأثيم في طبيعة البشر، ولا سيما وهو

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.

في مكانته من زعامة قومه وبلده، فنزل فيه وفي كل من كان على شاكلته في أجيال البشرية المتعاقبة من عناد للحق. وطغيان الكفر، وفجور الاستبداد، أينما وجد من أرض الله قول الله تعالى من سورة ﴿المدَّثر﴾: ﴿ ذَرْني ومن خلقت وحيداً ﴾ إلى قوله ﴿ إنْ هذا إلا قول البشر ﴾.

ثم أتبع القرآن الحكيم ذلك بذكر الجزاء العادل الذي ينتظر هؤلاء الأثمة الفجرة يقدمهم الوليد وأضرابه من نماذج الشر الأثيم، والعناد الكفور، فقال: ﴿سأصليه سقر﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لواحة البشر﴾.

أقوال بعض المفسرين أن الوليد هو المراد من قوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾

وكونُ الوليد بن المغيرة هو النموذج المقصود فيما جاء في هذه الآيات من خبائث الصفات، وأرذل الرذائل محل اتفاق إجماعي من المفسرين.

قال الإمام فخر الدين الرازي: أجمعوا على أن المراد هنا - أي باعتباره نموذجاً - الوليد بن المغيرة، وقال القرطبي: والمفسرون على أن المقصود هو الوليد بن المغيرة المخزومي وقال ابن كثير: وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله.

كان موقف الوليد ومن ورائه ملأ قريش بعد أن أنهى الوليد قصته لسان دعاية للنبي ﷺ ولرسالته

ولما انتهى الوليد إلى ما انتهى إليه من قول الزور والافتراء على الله ورسوله ﷺ فرح البلهاء من ملأ قريش وتفرقوا إلى السبل والطرقات، ومنافذ القادمين إلى مكة للتجارات أو للحج، يذكرون لهم أمر رسول الله ﷺ، ويحذِّرونهم منه، ولكن الله تعالى جعلهم ألسنةَ نشر ودعاية لدعوة الإسلام ورسالته، وسرى الحديث عن رسول الله ﷺ في الناس، يدخل إلى منازلهم، ويلج عليهم محافلهم وأنديتهم، وارتفع الهمس إلى جهرة القوة عن دعوة محمد ﷺ ورسالته التي جاء بها من عند الله ليقوم الناس فيما بينهم بالقسط في ظل عقيدة التوحيد، وخَلْع الأنداد، وإخلاص العبودية لله وحده، والتحرر الفكري والاجتماعي الذي يعطي كل إنسان حقه في العيش الكريم وحقه في إطلاق عقله وإضاءة قلبه وإشراق روحه.

واشرأبَّت الأنظار هنا وهناك تتطلع إلى رؤية النبي ﷺ والاستماع لما أُنزل عليه من القرآن المبين، فلما خرج إليهم بنفسه داعياً إلى الله، مبلِّغاً

رسالة ربه بعد أن سدَّت قريش منافذ قبول الهداية على نفسها، خرج مهيئاً للاستماع إليه، ولقي ﷺ الناس ودعاهم إلى الهدى، فكانوا بين مباعد، ومقارب، وقليل منهم من يفتح قلبه للهداية فيقبل الحق مؤمناً به، وكثير معرض ينظر ويتفكَّر.

جولة في هذه الآيات كما عرف عن معالم الشر الفاجر في نماذج الخبث البشري أينما كان

والآيات التي أجمع المفسرون على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ـ باعتباره نموذجاً لأخبث لون من شرور البشرية التي تنتابها في أجيالها المتعاقبة، وبيئاتها الاجتماعية المختلفة تأسياً بهؤلاء الشريرين من نماذج الانحراف البشري، الذين أوتوا من أسباب الدنيا مصادر قيادة الجماهير والغوغاء قيادة طغيان كفور، وفجور مستكبر، واستبداد ظلوم ـ تصف هذا الطاغية العنيد بأوصاف لا تقصد إلى اختصاصه بها، ولكنها تستهدف تصوير الشكول والصور في الأفراد والجماعات التي تصب في قوالبها هذه النماذج الخبيثة وتوضع في إطارها معالمه.

والآيات الحكيمة المحكمة تبدأ بلون من التهديد المرعب، زجراً لغرور الفجور الذي أفعمت به نفس هذا الطاغية العنيد، فيقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ـ وهو الذي واجه عتو طغيان هذا الكفور وطغيان أمثاله من أحلاس المادية الوثنية ـ: ﴿ ذَرْني ومن خلقت وحيداً ﴾ ليكون تهديد نماذج الفجور الوثني بما يصب عليهم من النكال والوبال وشدة العذاب مصحوباً بإشراق الأمل في نفس الداعي إلى الله رسوله الصادق الأمين محمد ﷺ، وحافزاً من حوافز الصبر على مكاره الطغاة وإذايتهم، ودافعاً من دوافع مضاء العزائم في المضي قدماً بسير الدعوة وتبليغ الرسالة، ووعداً بالنصر المؤزر على جند الباطل مهما تجمَّعوا وتألَّبوا، وعاملاً من عوامل تثبيت اليقين في نفوس عامة المؤمنين وهم في غمرة البلايا والمحن.

والتهديد في هذه الآية بيِّن في أسلوبها المعجز بروعة بيانه مع الإيجاز المحكم، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ يسلِّيه ويخفف عنه عبء ما لقي ويلقى من شدائد المحن في دعوة هؤلاء الفجار من عبيد الوثنية المادية المتهاوية، فكأنه قيل له ﷺ: لا تحمِّل نفسك نصب التفكير في صد تيار الطغيان في

هذا الفاجر الأثيم، ولا يمتلئن قلبك همّاً بدفع سفاهته وغروره، ولا تشغلنّ بالك به، وامض في طريقك هادياً مرشداً، ودعني وإياه فأنا وحدي كفيل بردعه ردعاً ينزل به نكال الآخرة والأولى.

أسلوب الآيات في تهديده المرعب جرى على المعهود في المخاطبات عند مناسباتها

وأسلوب الآيات في التهديد المزمجر جرى على المعهود في طرائق تخاطب الناس بعضهم مع بعض، وهو نهج القرآن في مخاطباته جرياً على السَّنَن المألوف، ليكون أفهم وأبلغ في الوصول إلى الغرض المقصود.

يقول الرجل القوي الحامي ذمار أمته، وهو يرى فاجراً يقتحم حماها، ويثلم شرفها، ويخدش كرامتها لمن يغار ولا يتمكن من ردِّ الفجور: دعني له وحدي، فأنا قدير على قهره وإذلاله والتنكيل به، ولله المثل الأعلى. ثم ذكرت الآيتان الثانية والثالثة ﴿ وجعلتُ له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً ﴾ إن هذا الطاغية الفاجر في كفره لم يكن طغيانه وفجوره عن مظاهر في حياته تدعوه إليهما، وإنما كان فجوره وطغيانه عن فطرة خبيثة مولودة معه تكفر الإنعام، وتنكر الإحسان، فهو قد أحسن الله إليه إحساناً غامراً، وأنعم عليه إنعاماً فائضاً، فجعل له مالاً ممدوداً، لا ينقطع، عمّ أصناف المال، وطمّ أرجاء الحياة، وكثر وغمر، ورزقه بنين كثيرين، يحتفون به، فلا يفارقونه لحاجة، فهم أغنياء بثراء أبيهم، وهو مأنوس بهم، فرح بوجودهم حوله، مستقر الرضا برؤيتهم.

كل وصف ورد في الآيات هو مَعْلم من معالم الفجور النموذجي الخبيث

وفي تخصيص الإنعام عليه بالبنين نكتة لطيفة بالنسبة لهذا الطاغية وبيئته ومجتمعه، وما كان معروفاً مشهّراً لدى قومه من كراهية إنجاب الإناث وحب إنجاب البنين، فكان حريّاً في شرعة الإنصاف أن يكون شكّاراً بنعمة الله عليه، ولكنه لخبيث فطرته وسوء نحيزته بدل نعمة الله عليه كفراً، وأحلّ نفسه وقومه دار البوار، فاستكبر وتجبر، وطغى بنعمة الله وفجر، وناهض الحق، وقاوم دعوة رسول الله ﷺ، فقد أفادت أن الله تعالى بسط له الجاه العريض، ومدّ له المال الكثير، ووطَّد له الرياسة في قومه، وأطال عمره فيهم وأعلى كلمته عندهم، فأتم عليه نعم المال والجاه والولد، وهذا هو الكمال عند أهل الدنيا، ولا سيما الماديون الوثنيون.

ثم جاءت الآية الخامسة: ﴿ثم يطمع أن أزيد﴾ تقرر أن هذا الطاغية العنيد ـ مع هذا السوء الذي أثقل طبيعة حياته ـ شره النفس، جموعاً للدنيا، منوعاً لا ينفقها في خير قط، طموع منهوم لا يشبع، لا يكاد يفرغ من جمع حتى يتجه إلى جمع، يطلب ذياه من عنده من المال والبنين وبسط العيش.

ثم جاءت الآية السادسة ﴿كلّا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ تزجره عن الانسياق مع مطامع نفسه الخبيثة، وهو على ما هو عليه من خبث الطوية ومكر السوء، ثم تقرر الآية الكريمة بعد هذا الزجر بيان الحكمة في إنكار طمعه في الزيادة، والتعجيب من حاله، وغروره في فجره وكفوره.

وفي الآية تيئيس له من الزيادة، ووعيد بالنقصان، ولهذا قال المفسِّرون ولم يزل الوليد في النقصان بعد قول الله تعالى: ﴿كلا﴾ حتى افتقر، وخرف، ومات كفوراً فقيراً.

خصائص هذا النموذج المعاند الخبيث

ووصفه في الآية بالعنيد لآيات الله بيان لشدة فجوره وطغيانه ومجاوزته كل عتو وإثم، فالعنيد مبالغة من العناد وهو مجاوزة الحد، وأريد به هنا الذي عرف الحق بقلبه وعقله وأنكره بقوله وفعله واعتقاده، استكباراً وغلواً في الجبروت والكفر، وفي تقديم المتعلق، ﴿لآياتنا﴾ على متعلقه ﴿عنيداً﴾ تخصيص، كأنه قيل وإنه عنيد لآياتنا نحن الذين أنعمنا عليه بشتى النعم، لا لآيات غيرنا ممن لم يكن في استطاعته أن ينعم عليه بشيء، وفي هذا التخصيص تسجيل لبالغ كفره، وشدة عتوه وفجوره وسوء عناده، قال الإمام الرازي: وفي هذه الآية إشارة إلى أمور كثيرة من صفاته: إحداها ـ أنه كان معانداً لجميع الدلائل الدالة على التوحيد والعدل والقدرة الإلهية وصحة النبوة، وصحة البعث، منكراً لها.

ثانيها ـ إن كفره كان كفر عناد، كان يعرف هذه الأشياء بقلبه، إلا أنه ينكرها بلسانه، وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر.

ثالثها ـ إن قوله تعالى: ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ يدل على أنه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة والصنعة الخبيثة.

رابعها ـ إن قوله تعالى: ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ يفيد أن تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى وبيناته، فإن تقديره إنه كان عنيداً لآياتنا، لا لآيات غيرنا، فتخصيصه هذا العناد لآيات الله تعالى، مع كونه تاركاً للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران وفساد الجبلّة.

ثم جاءت الآية السابعة ﴿سأرهقه صعوداً﴾ تقرر ما أعده الله لهذا الطاغية من سوء العذاب في الآخرة إلى جانب ما أرهقه به من سلب ما أنعم به عليه في الدنيا، كما أفادته كلمة الزجر ﴿كلا﴾ عن الطمع في الزيادة، وأنه سيعامل بنقيض مقصوده من النقصان والسلب بعد العطاء، والإرهاق تحميل الشدائد وتكليفه إياها، (الصَّعود) مثل لما يلقى المرهق من أثقال العذاب ومشاقه وصعائده مما لا يطاق مثله، وهو مأخوذ من قولهم عقبة صعود وكؤود أي شاقة المصعد، والمعنى أن الله تعالى توعَّد هذا الطاغية بأنه سيجد عذاباً شديداً لا يطيقه جزاء عناده في كفره وجحوده بإنعام الله عليه.

ثم ذكر الله تعالى حال هذا الطاغية في عتوه وعناده في كفره، وأن كفره كان كفراً مهيئاً مقصوداً مرتباً، قائماً على التفكير والتقدير، فالطاغية العنيد قد فكَّر وتدبَّر لا ليستبين الحق فيعتقده، والهدى فيتبعه، ويؤمن به، ولكنه فكَّر ودبَّر، وقدَّر وهيَّأ أموراً يرد بها الحق الذي عرفه، واعترف به، فقال تعالى: ﴿إنه فكَّر وقدَّر﴾ ثم عجب العقلاء من أمره في تفكيره وتدبيره، سخرية واستهزاء منه لأنه زعم أنه بتفكيره وتدبيره، وتهيئته ما هيىء في نفسه من لغو وفساد مما يؤثر في سير رسالة الحق، قال تعالى: ﴿فقُتل كيف قدَّر﴾ أي هلك وأهلك، وقُهر وغُلِب على أمره، وذل بعد عزة في قومه، وافتقر بعد الثراء والغنى، وطرد طرداً أبدياً من رحمة الله. ﴿كيف قدَّر﴾ على أي حال هيأ ما هيأ من الزور والبهتان وركيك التفكير وسفساف التدبير، ثم أكد الله تعالى قهره ولعنته وما باء به من الخسران، فقال جلّ شأنه: ﴿ثم قتل كيف قدَّر﴾ أي مع كونه هيأ في نفسه كلاماً يرد به على قومه في أمر محمد ﷺ يأثرونه عنه ويلقون به وفود

العرب محذِّرين، لم يستطع أن يقنع نفسه بما فكَّر وقدَّر ودبَّر وهيَّأ، فرجع وهو مغيظ محنق ينظر ويفرغ النظر في أمره ﷺ، ويطيل التفكير والتدبير، فيزداد غيظاً وحنقاً، وكلما اشتد غيظه وحنقه ضاقت به الدنيا، وضاق بها، وقهره الغيظ (عَبَس) وقطَّب جبينه، واسودَّ وجهه، واكفهرَّ سمته، وتغيَّر رسمه، و(بسر) كالحاً ممسوخاً عن إنسانيته، وأخذ عن نفسه وتفكيره، واستولى عليه الدهش، وتملكته الحَيْرة، فلم يدر ما يقول في أمر محمد ﷺ وهو قد أعلن على قومه جهراً، وأوهم من حوله وهَم يتسقطون رأيه، ويستنزلون وحي شيطانه أنهم ما من شيء يتهمون به محمداً ﷺ ممَّا زعموا عليه إلا عرف أنه باطل، وكأنه قد سدت دونه منافذ التفكير والتدبير والتقدير، فولَّى عن قومه معرضاً مستكبراً مغيظاً محنقاً، قد أحرق الحق قلبه، وهو يقول كمن يرمي بالقول رمياً لغير قصد، لا يبالي أن يكذب نفسه، ولا أن يكذبه قومه، ﴿ إنْ هذا إلا سحرٌ يؤثر ﴾ وكان قد قال لقومه وهو يحاورهم ويستطلع ما عندهم في أمر محمد ﷺ فيما قال لهم: يزعمون أن محمداً ساحر، لا، والله ما هو بساحر وقد رأينا السحَّار وسحرهمْ، فما هو بنَفْثهم ولا عَقْدهم.

لحظة من الخجل تغير رأي هذا الطاغية العنيد

وكأن الطاغية قد تداركه شيء من نفحات الإنسانية، فأخذه من الحياء والخجل ما يؤخذ الذين بقيت فيهم بقية من عقل، وتذكر أنه كان قد نفى السحر عن محمد ﷺ، فقال ما حكاه الله عنه: ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾.

قال الإمام الرازي: والمعنى إنّ هذا قول البشر، ينسب ذلك إلى أنه ملتقط من كلام غيره، ولو كان إلّا كما قال لتمكنوا من معارضته، إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة.

العناد أكبر طرائق الفجور

ثم قال الرازي: واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنما كان يقول هذا الكلام عناداً منه، لأنه روي عنه أنه لما سمع من رسول الله ﷺ (حم السجدة) وخرج من عند رسول الله ﷺ قال: سمعت من محمد ﷺ كلاماً ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه

لطلاوة، وإنه يعلو ولا يُعلى. فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله ههنا من إنه قول البشر إنما ذكره على سبيل التمرد والعناد لا على سبيل الاعتقاد، وفي سورة (ن) ـ وهي من طلائع السابقات المكيات في سور القرآن ـ آيات أقرب ما تكون في معانيها وأهدافها إلى آيات سورة (المدَّثر)، قرباً يكاد يكوِّن وحدة تؤلف نموذجاً متكامل الصورة في إبراز نوع من الطبائع البشرية، يمثل في الحياة أخبث أنواع الشرور الكامنة في نفوس بعض الأفراد والجماعات على مرّ الزمان واختلاف الأجيال وتطور الأفكار.

وقد نقلنا إجماع المفسِّرين على أن المقصود بآيات (المدَّثر) التي سقناها مبتدئة بقوله تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ باعتباره نموذجاً لأخبث أنواع الشرور النفسية والاجتماعية والعقلية هو الوليد بن المغيرة المخزومي.

وعلى أساس هذا النقل، وما توحي به الآيات، وما يعطيه جوها وأحداثها جرينا في تحليلنا للآيات وفي تفسيرها بما يظهر صورة النموذج البشري الشرير، فيجعله مثلاً مضروباً في شاهد الحياة ووقائع الأحداث في كل زمان، وكل مكان، وكل جيل من البشر.

وآيات سورة (ن) نزلت في الوليد عند الجمهور

بَيْد أن المفسِّرين اختلفوا في المراد من الآيات في سورة (ن) باعتباره نموذجاً لمعانيها وحقائقها وأهدافها وآثارها، قال الإمام القرطبي: ومعظم المفسِّرين على أن هذا أنزل في الوليد بن المغيرة وكان يطعم أهل منى حيساً ثلاثة أيام، وينادي: ألا، لا يوقدنّ أحد تحت برمة، ألا، لا يدخننّ أحد بكراع، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة، وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً، فقيل (مناع للخير) وفيه نزل ﴿وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾[1].

وإذا كان هذا الوصف ﴿ منّاع للخير﴾ وصفاً من أوصاف سورة (ن) تدمغه به القصة المذكورة التي تبين أنه ينفق ماله رئاء للناس،

(١) سورة فصلت، آيتا: ٦ ـ ٧.

جولة تحليلية في تفسير آيات سورة (ن) وما فيها من معالم نموذج الشر في البشر

وتسميعاً بذكره، فإن سائر الأوصاف المذكورة فيها منطبقة عليه، قال الله عزّ شأنه: ﴿ ولا تطع كل حلّاف مهين * همّاز مشّاء بنميم * منّاع للخير معتد أثيم * عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾.

هذه الآيات تضمنت عدة أوصاف وصف بها طاغية المادية الوثنية. وكان خاتم هذه الأوصاف يشبه أن يكون تعييناً بأخص الصفات للوليد بن المغيرة وأنه هو المراد هنا في آيات سورة (ن)، كما كان هو المراد هناك في آيات سورة (المدَّثر) باعتباره نموذجاً في الموضعين لأخبث أنواع الشر النفسي والاجتماعي في الطبائع البشرية، وهذا الوصف المعين بالاختصاص هو قوله تعالى: ﴿أَنْ كان ذا مال وبنين﴾ فلم يُعرف من طواغيت الوثنية في قريش بشهرته بكثرة المال والبنين مثل ما عرف وشهر الوليد بن المغيرة، وقد كان هذا الوصف محور فجوره وطغيانه الذي دارت عليه معاني آيات (المدَّثر) كما بيناه في تفسيرنا التحليلي لها.

وقد افتتحت آيات سورة (ن) بنهي النبي ﷺ نهي تعليم وتشريع عام عموم الأزمنة والأمكنة والأجيال والأحداث بعد تمهيد بنهي عام، أُجمل تحته أقبح وصف اتصف به إنسان، فقيل: ﴿ فلا تطع المكذِّبين ﴾ والمكذبون لرسالات الله هم الذين لا يرعون في حياتهم عهداً ولا يعرفون قانوناً، ولا يستمسكون بدين من أديان الحق وشرائع الهداية، ولا يطوون صدورهم على ضمائر تردعهم عن الانغماس في موبقات الحياة ومظالمها ومفاسدها.

وهذا النهي قصد به إلهاب شعور رسول الله ﷺ، وتهييج وجدانه؛ ليكون في موقفه من مداهنة الكافرين كعهد الحياة به أشد وأصلب، وأسمى من أن يتنزَّل إلى خداع رغائبهم.

المعلم الأول من خصائص نموذج الفجور

ثم جاء تفصيل بعض هذا الإجمال بتعيين نموذج الطبيعة البشرية بوصفه وخصائصه الشريرة المعينة له فقيل: ﴿ ولا تطع كلّ حلّاف مهين ﴾ والحلّاف مبالغة في كثرة الحلف وامتهان القسم فيما رخص وسفل وهان

واستهين، ولا يقع ذلك إلا ممن تولى حياة الدناءات وعاش فيها وهانت عليه إنسانيته وانثلمت كرامته، وانعدمت من النفوس الثقة به، وشهر بينهم بالكذب والغش والخداع والخيانة، وخبث الطوية، وملاحاة الناس في معاشرتهم والتحايل عليهم بما يكون وما لا يكون، وما ينبغي وما لا ينبغي.

وليس وراء ذلك وضاعة أو مهانة أو زراية بالنفس أو حقارة، أو ذلة ودناءة أو رذالة أو نذالة، فالتلازم بين المبالغة في الحلف وكثرته وامتهان القسم، وبين الوضاعة والمهانة في جميع صورها من رذائل الطباع وسفالة الأخلاق تلازم لا تنفك روابطه النفسية، حتى صار عنواناً على فساد الفطرة ودنس الطبيعة.

المعلم الثاني من خصائص هذا الطاغية

ثم جاء بعد هذا الوصف وصف آخر يحمل خصيصة دامغة لهذا الطاغية في صورته النموذجية ومعه قرينه الذي لا يفارقه، فكانا في تمثيل نموذج الإفساد في الأرض كأنهما غصنان من عوسجة الشر الوخيم، يرتبطان بما قدمته الآية الأولى من وصفي المهانة والمبالغة في كثرة الحلف ارتباط الفرع بأصله فقيل: ﴿همّاز مشّاء بنميم﴾ والهماز هو العيّاب الذي يتسقط العيوب فيلصقها بالبرآء، ويتلقطها من أفواه الشريرين ليضعها على هامات الخيِّرين، حتى يتساووا معه في شرِّيته، كما قال تعالى في وصف طبيعة هؤلاء الباغين للناس التورط في حمأة الشر والفساد معهم، حتى تعالَوا في سوء أطماعهم أن يتناولوا الشمس بأيديهم ليطفئوا نورها بأفواههم، فعَتوا عتواً كبيراً، وودّوا لو أن رسول الله ﷺ مالأهم ليمالئوه، وداهنهم فيداهنوه بعد أن دمغهم بتكذيب الأنبياء والمرسلين ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ وقد فسره أئمة السلف من أحبار الأمة بنحو هذا، فقال الربيع بن أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون، قال ابن عباس وعطية العوفي، والضحّاك والسُّدِّي: ودُّوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم لتكون معهم على سواء حتى لا يروا لك فضلاً عليهم، عن ابن عباس: ودُّوا لو ترخص فيرخصون.

وقد أخبر الله تعالى في سورة نزلت برسم هؤلاء المفسدين العيابين،

الهمازين للناس، بأن لهم الويل، أي الخزي والنكال في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ ويل لكل هُمَزة لمزة ﴾ قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة، ومعناه: أنهم الباغون للبراء العيب، الطعّانون في الأعراض، النهاشون للأنساب، الغمّازون للأخلاق، لهم ألسنة غذيت بالبذاء وسوء القول، لا يسلم منهم جليس ولا صاحب، مبغضون لكل من يعرفهم، كالمجزّم يفر منهم كل من يراهم، ففي مسند الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله عز وجل».

ولا يهمز الناس ويعيبهم إلا من كان في نفسه شريراً حقيراً، دنيء الطبع، ليس له من خلائق الخير شيء. ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت» ليس لهم من الشرف ما يردعهم عن الوقوع في الناس، لا يبالون أن يكون ما قد قالوا حقاً أو باطلاً.

والذي يشغل نفسه بتسقط ما يعيب به الناس ليشينهم في مجتمعهم، ويحقرهم بين قومهم، ويسقط مروءاتهم في بيئاتهم لا يزال رأيه وهجيراه الإفساد بين كل متوافقين، والتفريق بين كل متحابين، والتعكير بين كل متصافيَين، لأن ارتباط الناس بالتوافق والمحبة ومعاشراتهم بالمصافاة والمودة يغيظ الهماز المشاء بالنميمة، لسوء مخبره، وكراهيته لكل خير يرى عليه الناس.

وهذا هو المشاء بالنميمة الهمّاز اللّماز، وصاحب هذه الخليقة الدنيئة مبغض محقور في الدنيا، مطرود من رحمة الله في الآخرة، لا يريح رائحة الجنة، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتّات» والقتات: النمام، وروى الإمام أحمد في مسنده قال: مر رجل على حذيفة بن اليمان فقيل إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء، فقال حذيفة: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام».

المَعْلَم الثالث من خصائص نموذج الفجور والعناد

ثم عقبت الآية الكريمة من سورة (ن) هذه الأوصاف بثلاثة أوصاف تصم الطاغية العربيد بأخبث أوصاف نماذج الطبيعة الشريرة في طبائع البشر، فقيل: ﴿ منّاع للخير﴾ وهو قادر عليه يمسكه عن مواضع البر والإصلاح، وينفقه تبذيراً وإسرافاً في مواطن السوء والإفساد، فهو في حقيقته شحيح بخيل، لا تنتفع الحياة الصالحة من وجوده بشيء، ولا يصل إلى أحد منه خير يصدّ عن الحق، ويعاند الهدى، ثم هو بعد ذلك ﴿ معتد أثيم﴾ ظلوم كفار، لا يقف في ظلمه وتعدّيه عند حد، بل هو في بطشه واستبداده متجاوز لكل حد، مبطل كذوب، فاجر عنيد، كثير الإثم في محاربة الله ورسوله، لا يتوقى شراً، ولا يتحذر من* بغي ولا يتحرز من عتو، فهو مجمع القبائح والفضائح، وموئل الدنايا والرذائل.

المَعْلَم الرابع

ولا تنهي الآيات وصفها بهذه الأوصاف المهينة حتى تتلقّاه مما شوه خلق الله له في صورته وسمته وسحنته الخلقية، فقيل ﴿عُتُلٍّ﴾ أي جاف، غليظ الطبع، شره، بطين، أكول شروب، فاحش العشرة، متفحش سيء المعرفة، لئيم النفس، خبيث الطبع، حقود كنود، يخاصم في غير حق فيفجر، ويعتدي فلا يبالي أن يخون ويغدر، ثقيل الظل جحود، كفور لكل نعمة، نكّار لكل إحسان، وهو بعد ذلك الذي تقدم من أوصاف السوء والقبائح ﴿ زنيم ﴾ أي مشهر بلؤم الطبع ودناءة النفس، وسوء الخلق، يتحامى الناسُ القرب منه اتقاء بغيه وعدوانه وبذائه، وهذا الوصف القبيح الذي أربى في فحشه على فحش ما سبقه من نعوت الخبث والشر يجعل المتصف به يستشعر المهانة في نفسه، فيتكلف التعاظم الكذوب ليداري سوءاته، ويشمخ مستكبراً ليخفي مهانته، ويسرع إلى الظلم يرتكبه وإلى الطغيان يدّرعه ليغطي حقارته وضآلة شخصيته، فالزنيم هو الشرير الظلوم عظيم الشر الفَجور، الذي يأكل فلا يشبع، ويمنع الخير أن يصل إلى غيره، ولو كان آتياً من غيره، يمنع غيره أن يصل في سعيه إلى خير، وفي حديث زيد بن أسلم أن النبي ﷺ قال: «تبكي السماء من رجل أصح الله

المَعْلَم الخامس من خصائص نموذج الفجور

جسمه، ورحب جوفه، وأعطاه من الدنيا بعضاً، فكان للناس ظلوماً، فذلك العتل الزنيم».

وهذان الوصفان ﴿عتل زنيم﴾ متلازمان في وجودهما، فالزنيم عتل، والعتل زنيم، وهما جماع الرذائل والقبائح، روى مسلم في صحيحه عن حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟» قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «كل عتل جواظ مستكبر» وفي رواية عنه «كل جواظ زنيم متكبر».

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جوّاظ ولا جعظري، ولا العتل الزنيم» فقال رجل: ما الجواظ؟ وما الجعظري؟ وما العتل الزنيم؟

تفسير النبي ﷺ ليس بعده تفسير

فقال رسول الله ﷺ: «الجوّاظ الذي جمع ومنع، والجعظري: الغليظ والعتل... الزنيم: الشديد الخَلْق، الرحيب الجوف، المصحح، الأكول الشروب، الواجد للطعام، الظلوم للناس».

قال القرطبي: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العتل قد أربى على أقوال المفسرين، وكان من الحق على الإمام القرطبي أن يضيف إلى وصف ﴿العتل﴾ قرينه في الآية والواقع وصف ﴿الزنيم﴾ وهذا صريح في حديث مسلم في روايتيه، وفي حديث ابن مسعود، فالنبي ﷺ كما فسر (العتل) فسر الزنيم، وعند تفسيره ﷺ يجب الوقوف لغة ومعنى وحقيقة، ولا يصح مطلقاً تجاوزه إلى غيره من الآراء والأقوال.

تفسير الزنيم بمن ولد لغير رشدة لا يفسر به القرآن

ومن ثم أبى بعض أهل العلم تفسير ﴿الزنيم﴾ في الآية بالدَّعي الذي ولد لغيره وأُلحق بنسب رجل فعدّ في أبنائه، وقد أُبِن بهذا الوليد ابن المغيرة المخزومي، والذين أبَوا هذا التفسير من أهل العلم قالوا كما عبّر عنهم الإمام محمد بن إسحاق في سيرته: ولم يقل الله تعالى: زنيم لعيب في نسبه لأن الله لا يعيب أحداً بنسب، وهذا كلام حسن مستقيم الطريقة، يتلاءم مع أدب الإسلام وشرائعه.

وأنكاح الجاهلية فيها أشياء لا تدخل تحت ضابط اجتماعي يضبطها، ولا تتقيد بوضع ديني يوجهها، ففيها الصحيح المشروع، وفيها السفاح الباطل، فلا معنى لتخصيص إنسان بعينه، وتعييره بذلك، ومن ثم كان الأنكحة الموثوق بصحتها عرفاً وشهرة موضع شرف وفخر وفضيلة، ولذلك قال النبي ﷺ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء».

أسلوب القرآن يشعر بأن هذا الوصف مجمع الخبائث ورذائل البشر

وفي قول الله تعالى: ﴿ بعد ذلك ﴾ إشارة إلى أن وصف هذا الطاغية بالعتل الزنيم بعد وصفه بما تقدم من النقائص والقبائح قد جمعت له مخابث الصفات ومقابحها. ويقول الإمام الرازي: قوله: (بعد ذلك) معناه أنه بعد ما عد له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم، وهذا يدل على أن هذين الوصفين، وهو كونه عتلاً زنيماً أشد معايبه، لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على ارتكاب كل معصية.

المَعْلَم السادس

ثم جاء بعد هذه الأوصاف والمثالب ما يبين أن ما أوتيه هذا الطاغية من النعم فكفره وجحد إحسان الله إليه فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ كان ذا مال وبنين ﴾ هو الوصف الذي كان مظهر طغيانه وفجوره، واغتراره بما أوتي من نعم، وكفران النعمة إذا انضم إلى كفران المنعم كان من أعظم النقم الموجبة لمساخط الله وبطشه، والتي تودي بصاحبها فتهلكه من حيث يريد السلامة، وتذله من حيث يريد العزة.

وهذا الوصف كان هو الوصف المعين هنا في آيات سورة (ن) لإرادة الوليد بن المغيرة بموضوعيته لأوصاف الآيات كإرادته بموضوعية أوصاف آيات (المدثر)، لأن هذا الوصف كنفسه إذ جاء هناك في أوصاف الطاغية بصورة الامتنان في قوله تعالى: ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ﴾ ولم يشتهر في قريش بكثرة المال والبنين أحد شهرة الوليد بهما، وكل الذين ذكرهم المفسرون لنزول آيات (ن) فيهم: الأخنس بن شريق، والأسود ابن عبد المطلب الأسدي، وعبد الرحمن بن الأسود، وأبا جهل، لم يكن فيهم من عرف بما عرف به الوليد في كثرة المال والبنين.

فالوليد بن المغيرة هو نموذج الأوصاف والقبائح التي ذكرت في السورتين، سورة (المدثر) وسورة (ن)، فلا ينبغي العدول عن هذا الظاهر إلى أقاويل أخرى.

ثم عقَّبت الآيات هذه الأوصاف وما ختمت به من الغرور الفاجر بنعمة الله التي أضفاها عليه من المال الوفير وكثرة البنين ـ وهما نعمة النعم في الدنيا وزينتها التي يتنافس عليها أهلها ـ بما كان نتيجة طبيعية لتلك المثالب والنقائص الخُلُقية والخَلْقية والقبائح الاجتماعية، من اجترائه على خبيثة الخبائث بوصف آيات الله إذا تليت عليه وسمعها بأنها أساطير الأولين وخرافاتهم وتكذبهم في أسمارهم، وهذا كالذي جاء في سورة (المدثر) من قول الطاغية فيما حكاه الله عنه: ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر• إن هذا إلا قول البشر ﴾.

وهذا التوافق في المعنى بين ما جاء في سورة (المدثر) من وصف القرآن باطلاً بأنه سحر يؤثر، وأنه قول البشر، وبين ما جاء في سورة (ن) من وصفه باطلاً بأنه أساطير الأولين هو الدليل على أن الآيات في السورتين تعني نموذجاً واحداً للشرور، تمثل في شخص الوليد بن المغيرة المخزومي لما كان متوافراً فيه من عتو الطغيان وفجور الكفر والاغترار بما أوتي من مال وبنين.

إشهار نموذج الشرور والرذائل بما تشهر به البهائم

ثم بعد أن أنهت الآيات وصف الطاغية في عناده بالقبائح التي لازمته في حياته، ووصمته في تاريخه، وطاردته بعد هلاكه ذكر الله تعالى ما توعده به باعتباره نموذجاً لتلك القبائح من الخزي في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾.

ومعنى النموذجية في تصوير من اتصف بهذه القبائح أن كل ما يتصور أن يقع على الصورة الفردية لهذا النموذج هو واقع في الدنيا والآخرة بجميع من كان على شاكلته من الماديين الوثنيين، أينما وجدوا وحيثما كانوا في أي زمان ومكان ومن أي جيل.

والوسم في اللغة العلامة المحسوسة، تكون في الحيوان من كية

بالنار، أو خدش في عضو من أعضائه، أو قطع في أذنه يُعْلَم بها ليعرف، والخرطوم هو أنف الحيوان، ثم استعير لأنف الإنسان كما يستعار المشفر للشفة، وهذا لتقبيح الوصف به.

قال أبو العباس المبرد: وقد ذكر هنا ـ أي الخرطوم ـ على سبيل الاستخفاف، لأن التعبير عن أعضاء الإنسان بالأسماء الموضوعة لأشباه تلك من أعضاء الحيوانات يكون استخفافاً، كما يعبر عن شفاه الإنسان بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر.

والأنف أكرم موضع في وجه الإنسان، والوجه أشرف وأكرم عضو في جسم الإنسان، فالأنف أكرم وأشرف عضو في جميع أعضاء الإنسان، ولهذا كان مكان العزة، والأنفة والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وهي العزة والتسامي عن الدنايا والصغائر، وإباية الضيم والاستنكاف من الرذائل، ومن ذلك قولهم: الأنفة في الأنف، وقالوا: حمي أنفه، أي عز وتأبّى على المهانة، ومدحوا به فقالوا: فلان شامخ العرنين، والعرنين الأنف، وهذا كما قال القائل: شم العرانين، أخذاً من قول الشاعر شم الأنوف كريمة أحسابهم، كما ذموا به، فقالوا في الذليل المهين، الذي لا يدفع الضيم عن نفسه ولا عن حرمه: جدع أنفه، ورغم أنفه، أي ذل وخضع وقبل ما لم يكن مقبولاً.

والآية من قبيل الكناية، فالمقصود التعبير بالوسم وإرادة لازمه، وهو الشهرة، وهي هنا شهرة بالمذام والقبائح، لإفادة غاية الإذلال والمهانة في الدنيا والنكال والخزي وسوء العذاب في الآخرة.

قال الإمام الرازي: وعندي في معنى الآية احتمال، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة النبي ﷺ، وفي إنكار الدين الحق، والطعن فيه بسبب الأنفة والحمية، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبَّر عن هذا الاختصاص بقوله: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾.

فالمقصود بهذا الوعيد إشهار قبائح الطاغية وكسر شوكة عنجهيته

وغروره بتعرية نقائصه وكشف سوءاته؛ حتى يتعالمه الناس ويعرفونه بما دفعه به القرآن، فلا يخفى أمره على أحد كما لا تخفى الحيوانات الموسومة على خراطيمها.

قال القتيبي: تقول العرب للرجل يسب سبة قبيحة: قد وسم ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عار لا يفارقه.

ولا شك أن هذه المبالغة في مذمة هذا الطاغية العنيد بقيت على وجه الدهر تلازمه وتلاحقه بالخزي والإذلال في حياته، وباللعنات والنكال بعد هلاكه.

قال القرطبي: وكل هذا أنزل في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة.

وقد جرينا في عرض معاني هذه الآيات من سورة (ن) وبيان حقائقها في تحليل أبرز شخصية نموذجها بقبائحه ورذائله على قول معظم المفسرين الذين قالوا: إن المقصود بها هو عين المقصود بآيات سورة (المدثر) وهو الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد رجحنا هذا بما بيناه في الآيات هنا وهناك من توافق في المعنى، ولا سيما في الوصف الموحد في السورتين، بأنه صاحب مال وفير وبنين كثيرين، يتعزّز بهم وبمشاهدتهم، فإن هذا الوصف معين لإرادة هذا الطاغية في الموضعين، ومهما يكن من أمر فإن المقصود رسم صورة لنموذج من نماذج الطبيعة البشرية الشريرة في عتوها وعنادها للحق وصدِّها عن سبيله، ليكون هذا النموذج مثلاً مضروباً على مدى الأزمان والأجيال وتطور الأفكار.

من زعم أن نموذج الشرور والخبائث هو الأخنس بن شريق في سورة (ن) لم يبعد

فالذين يقولون من المفسرين: إن المقصود بآيات سورة (ن) هو الأخنس بن شَريق كما جنح إليه ابن إسحق، ورواه في السيرة عن الشَّعْبي والسُدِّي إنما قصد تعيين شخص بلغ من فساد الفطرة الإنسانية، ولؤم النحيزة، وعتو الجبرية، وفجور الغرور الوثني، والاستكبار العنجهي ليكون نموذجاً تتمثل فيه قبائح الطبيعة البشرية ورذائلها كما تمثلت في الوليد ابن

المغيرة الذي كان نموذجاً للخبائث التي وصفته بها آيات سورة (المدثر).

والأخنس بن شَريق من أكابر مجرمي أشراف ملأ المادية الوثنية المتعالية بسلطان فجور الكفر، وكان من النفر الذين عرفوا بالمبالغة في إيذاء رسول الله ﷺ، وإيذاء أصحابه، وكان مسموع الكلمة بين طواغيت الوثنية، فليس باطلاً أن يكون نموذجاً من نماذج هذه القبائح التي ذكرت في آيات سورة (ن)، لكنه لم يكن معروفاً بكثرة البنين ووفرة المال وغمرة الثراء الفاحش كما عرف بذلك الوليد بن المغيرة، فذكر هذا الوصف في خاتمة أوصاف نموذج الشر والإفساد يعكّر على إرادة الأخنس أو غيره من طواغيت قريش سوى الوليد بن المغيرة.

وكان الأخنس عديداً في بني زهرة، حليفاً لهم، وليس من أنفسهم، فلعل مَنْ ذكره نموذجاً للمثالب والنقائص المذكورة في آيات سورة (ن) وَهَل مغتراً بوصف (زنيم) باعتبار بعض معانيه، وهو اللصيق بالقوم الذي يعد فيهم وليس من دمهم وعصبتهم.

وكان الأخنس يجمع إلى فجور الكفر مكر النفاق وخبث المنافقين، قال جمع من المفسرين وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾[1].

والأخنس لقب لقب به هذا الطاغية الكفور، واسمه أُبيٌّ، وإنما لقب بالأخنس كما قيل لأنه خنس بحلفائه بني زهرة يوم بدر عن قتال رسول الله ﷺ.

قال القرطبي: وكان الأخنس رجلاً حلو القول والمنظر، فجاء بعد خنوسه بحلفائه إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام، وقال: الله يعلم أني

---

(١) سورة البقرة، آيات: ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر بزرع قوم من المسلمين وبحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر.

قال المهدوي: وفيه نزلت ﴿ولا تطع كل حلّاف مهين * همّاز مشاء بنميم﴾[1]، و﴿ويل لكل همزة لمزة﴾.

أما غير الأخنس من طغاة الوثنية الذين كانوا يتزعمون فجور الكفر ممن قيل فيهم إنهم كانوا نماذج للنقائص والقبائح التي عددتها آيات سورة (ن)، فهم أقل صولة من الأخنس في منافسة الوليد بن المغيرة وعناده وعتوه، وإن كانوا يغالبونه في سوء العداوة وفجور الظلم العاتي في الوقوف أمام تبليغ رسالة الله تعالى إلى عباده، وقد عُدَّ بعض هؤلاء الذين قيل إنهم نماذج القبائح في آيات (ن) في المستهزئين الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ فهلك طغاتهم بمهلكات عاجلة قضت عليهم وطهرت الأرض من شرورهم.

قال أبو عمر بن عبد البر: وكان المستهزئون الذين قال الله فيهم: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾[2] عمه أبا لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم ابن أبي العاص، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن الغيطلة السهمي، فكان جبريل مع رسول الله ﷺ فمر بهما من المستهزئين الوليد بن المغيرة، والأسود ابن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الغيطلة، واحداً بعد واحد، فشكاهم رسول الله ﷺ إلى جبريل، فقال: كُفيتهم، فهلكوا بضروب من البلاء قبل الهجرة.

وقد رجّحنا في تحقيقنا أن الوليد بن المغيرة كان هو أحق بتلك المخازي وأهلها من الأوصاف التي صورته نموذجاً للفجور العنيد والكبرياء العاتية في سورتي (المدثر) و(ن)، لأن بعض الأوصاف كانت في

---

(١) سورة (ن)، آيتا: ١٠ - ١١.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩٥.

واقعها خصيصة به، لا يزاحمه فيها الأخنس ولا غيره من طغاة المادية الوثنية.

منافسة النضر ابن الحارث الوليد ابن المغيرة في أخبث رذائل الشرور

وإذا انفرد الوليد بن المغيرة بغمرة الشر والفساد حتى جعلت منه نموذجاً لدنس الطبيعة البشرية، لكنه لم يُترك له الميدان يجول فيه ويصول وحده، مسعنجراً على أريكة الغرور في زعامة العتوّ والفجور، بل برز له قرن، يجاذبه رداء الطغيان حسداً أن ينفرد الوليد بن المغيرة بنقمة الحياة في معاداة الحق، وأن يستحوذ على لعنات الله تعالى وسخطه وحده دون مزاحم، فانبرى له شيطان الإفساد والفساد: النضر بن الحارث،الذي لم يرض له حسده وفجور كفره أن ينفرد الوليد بن المغيرة بزعامة الوثنية، فتجتمع له قريش ممثلة في ملئها ومن ورائهم سفهاؤها وغوغاؤها يستمعون إليه، وهو يملي عليهم ما يقابلون به وفود العرب الذين يؤمون الموسم، وهم يحدثونهم في شأن محمد ﷺ، ودعوته ورسالته خشية أن تسري هدايته إلى قبائل العرب في منازلهم ومجامع أحيائهم ومحافل مجتمعاتهم.

انتهض النضر بن الحارث بعد أن انفض سامر ملأ قريش الذين اجتمعوا فيه لمكالمة النبي ﷺ وعرضهم عليه ما عرضوا من علياء دنياهم: مالاً، وثراء، وشرفاً، وسيادة، ومُلكاً وسلطاناً، في سبيل أن يكف عنهم.

وكان النضر بن الحارث بعد أن سمع مقالة الوليد بن المغيرة لملأ قريش التي يلقون بها وفود العرب قد سمع غميز الرجولية أبا جهل يقول ستراً لموقف عمه الطاغية: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك، أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامضِ لما تريد.

فلما أصبح غميز الرجولية أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ لما كان يغدو إليه، فقام يصلِّي، وجلست قريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ

احتمل غميز الرجولية حجره، وأقبل به نحو رسول الله ﷺ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً، منتقعاً لونه مرعوباً، قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يديه، وقامت إليه رجال قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا، والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قَصَرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني.

تكذّب غميز الرجولية أبي جهل

وأبو جهل عربيد، يتكذّب، ورعديد يتكثَّر، ويدّعي ما ليس في طاقته، ولا يكون منه، وأنّى لغميز الرجولية أن يتماسك، ويتشاجع، ويسترجل، وسوابقه في الجبن والخور مع رسول الله ﷺ مروية عنه في حادث الأراشي الذي ظلمه حقه، وفي حادث صاحب الأجمال القرّح الذي سامه عليها سوماً ظلوماً ومنع الناس من سومه فوق ما ساومه عليه من وكس وتكسيد، فاستغاث الأراشي وصاحب الأجمال برسول الله ﷺ، فأغاثهما، وأرغم أبا جهل على إعطائهما حقهما وهو صاغر ذليل خزيان مخذول.

وقد رويت هذه القصة بصورة أخرى تجعلها عرضة للشك في بطولة أبي جهل الفاشلة التي تضفيها عليه الرواية السابقة، يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾[1] قيل: نزلت في أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلِّي ليرضخنَّ رأسه بحجر، فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه به، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده، فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غلت يداه إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى.

فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه، فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته

---

(١) سورة يس، آية: ٨.

ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، فقال: والله ما رأيته، ولقد سمعت صوته.

فقال الثالث: والله لأشدخنَّ أنا رأسه ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القهقرى، ينكص على عقبيه حتى خرّ على قفاه مغشياً عليه، فقيل له: ما شأنك؟ قال: شأني عظيم، قال: رأيت الرجل فلما دنوت منه، وإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت فحلاً قط أعظم منه، حال بيني وبينه، لو دنوت منه لأكلني.

ومهما يكن من أمر هذه القصة فهي تمثل في روايتها ظاهرة من ظواهر فشل ملأ المادية الوثنية في طغيانها وعتوها وغدرها تمثلاً هذا الفشل في عربدة غميز الرجولية أبي جهل بن هشام، أو غيره من ألد أعداء محمد ﷺ.

ولم يكن ذلك الفشل والعربدة المخزومية بخافية على شيطان شياطين قريش، النضر بن الحارث، لأن هذا النضر في خبثه وشيطنته كان أعرف قريش بلؤم أبي جهل وتكذبه وخوره وجبانته.

موقف النضر من أبي جهل وعمه الوليد

وعرف النضر أن أبا جهل كان في هذه الأقصوصة كدأبه متكذباً، خادعاً مخدوعاً، يتكثر متنفجاً، يحاول أن يغطِّي سوءات رجوليته على قومه، فقام النضر إلى قريش ليخرجها من ورطتها في الخضوع لزعامة الوليد ابن المغيرة، وتكذبات أبي جهل، فقال: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ـ وهذا غمز لما أشار به الوليد على قريش في تحذيرها وفود القبائل من محمد ﷺ، وغمز لأقصوصة أبي جهل ـ قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا، والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا، والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا، والله ما هو بشاعر، وقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا، والله ما هو

بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش: فانظروا في شأنكم. فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم.

وانتهى النضر من حديثه إلى ملأ قريش وقد بيّن لهم أن محمداً ﷺ ولد، ونهد، وشبّ بينهم على أكمل ما كان رجل من مكارم الأخلاق، وفضائل الشمائل، وهم جميعاً يعرفون له ذلك ولا ينكرونه، فلما استوى كهلاً، واكتمل عقلاً، وجاءهم بالهدى قالوا فيه ما تقوّلوا عليه من أمور ما هو منها في سبد ولا لبد.

بيد أن النضر لم يعرض على ملأ قريش شيئاً يقولونه في شأن محمد ﷺ كما عرض الوليد عليهم أن يقولوا: إن ما جاء به محمد ﷺ ما هو إلا سحر يؤثر.

وكأن النضر بعد أن فنّد كل أبطولة تتقوّلها قريش على محمد ﷺ كما فنّد الوليد ذلك من قبله لم يجد من متقبلات العقول أن يكذّب نفسه ويناقض قوله، كما كذب الوليد نفسه وناقض قوله، فهو قد نفى أن يكون محمد ﷺ ساحراً، وهذا يلزمه عقلاً ووضعاً أن لا يكون ما جاءهم به من القرآن الحكيم سحراً، فقولُ الوليد ـ بعد أن فكر، وقدّر: ونظر، وتدبر، وعبس وقطب، وبسر وكلح. . ـ: إن هذا إلا سحر يؤثر، تكذيب لنفسه وتناقض في قوله.

والنضر بهذا الموقف يغمز الزعامة المخزومية في شخص طاغيتها، ويفيّل رأيه، ويسخر من عمله ويهزأ بقوله الذي أشار به على قومه.

وسكت النضر، وترك الحيرة تسعى إلى عقول ملأ قريش لعلهم إليه يرجعون، وكان قد أضمر في نفسه أمراً منكراً أوحى به شيطان الفجور الوثني ليجرّ به قريشاً إلى الاعتراف بزعامته، ويقودها بمقود الخداع إلى أن تخلع زعامة مخزوم في شخص طاغيتها الوليد.

قال محمد بن إسحاق: وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي النبي ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسبنديار، فكان إذا

جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكّر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه فهلمَّ إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كل ما في القرآن من ذكر الأساطير ـ أي في وصف آياته بها ـ قد نزل في النضر بن الحارث.

والنضر بن الحارث بهذا الموقف يقف مزاحماً للوليد بن المغيرة زعيم الرجس والكفر في قريش عامة، وبني مخزوم خاصة في افترائه الكذب على الله، وتكذيب النبي ﷺ وزعمه أن القرآن الحكيم أساطير الأولين، وأحاديث الأقدمين في خرافاتهم وقصص أسمارهم، كما ذكر ذلك عنه القرآن الكريم، فقال: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملَى عليه بكرة وأصيلا﴾[1] وقائل ذلك هو هذا الشيطان المريد، النضر بن الحارث، وإنما نسب إليهم معه لموافقتهم له وتأثرهم أثره في الافتراء والكذب، محاكاة له فيما يزعم ويفتري.

وقد استحوذ هذا الشيطان اللعين بهذه الخرافات والأباطيل المعسولة على عقول السذج من سفهاء قريش وظنوا به العلم والمعرفة، ومن ورائهم ملأ الطغيان الوثني من أهل العتو والعناد وفجور الكفر، يسخرون بهم ويضحكون من بلاهتهم، ولكنهم لا يكذبونهم وهم يعلمون أنهم كاذبون.

وفادة النضر على رأس نماذج الشر إلى أخابث أحبار اليهود ليسألوهم عن محمد ﷺ

ولهذا لما جلس الشيطان المريد يقص عليهم أحاديث الخرافات والأباطيل قال له ملأ قريش: إن أحبار يهود أهل الكتاب الأول، وعندهم علم من علم الأنبياء ليس عندنا، وبعثوه إلى يهود المدينة، ومعه أشقى عتيّ كفور عقبة بن أبي مُعَيط، ليسألاهم عن محمد ﷺ وعن دعوته ورسالته، فذهبا إليهم، وقالا لهم: أنتم أهل التوراة فأخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقالت أحبار يهود لهما: اسألوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنّ، فإن أخبركم

(١) سورة الفرقان، آية: ٥.

بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فَرَوْا فيه رأيكم.

١ - سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجب.

٢ - وسلوه عن رجل طوَّاف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟

٣ - وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وصاحبه عقبة، تحفهما لعنات الله ومساخطه بعد أن قاما بمهمتهما مع أحبار يهود حتى قدما مكة على قريش فقالا - وقد ملكهما الغرور الفاجر، والزهو العتي لإتيانهما بما لم يأت به الطاغية الأفجر، الوليد ابن المغيرة -: يا معشر قريش، لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فقد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، وقالوا: فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فَرَوْا فيه رأيكم، فجاءت قريش بملئها وسفهائها، تجرر أذيال الغرور التياه، وتدّرع البطر والاستكبار، يقدمها الخبيثان، شيطاناها، وأشقياها: النضر وعقبة - إلى رسول الله ﷺ، نافجة أحضانها، منتفخة أوداجها، وذكروا له مسائل يهود مستخبرين عنها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن أي لم يقل ﷺ: إن شاء الله.

درس تربوي لتوجيه النبي ﷺ إلى الاعتصام في جميع أحواله بمشيئة الله

وهنا نجد درساً تربوياً إلٰهياً، فيما يتعهد به الله تعالى نبيه ورسوله ﷺ في تعليمه وتأديبه وتربيته حتى يكمله في خصائص الدعوة إلى الله تعالى، ليكون أسوة لأمته عامة وللقائمين بوراثة تبليغ رسالته عنه ﷺ من علماء الأمة وأعلام خاصة المصلحين.

فعدم ذكر رسول الله ﷺ المشيئة وهو يَعِد القوم بالرد على استخبارهم عن أسئلتهم التي لقنها لهم أهل العلم بالكتاب الأول من أحبار يهود، لم يكن منه ﷺ عن قصد متعمد، وإنما لعله كان عن نسيان دعت إليه دهشة المفاجأة، وجو الموقف، وشدته، ولم يكن يتوقع رسول الله ﷺ أن تأتيه قريش في جهالتها الوثنية المادية بمثل هذه المسائل

التاريخية العلمية الغامضة إلا على الذين لهم علم ومعرفة.

ويرشح هذا أن الله تعالى بعد أن أنهى درس تعليم نبيه ﷺ أن يكون رأيه في جميع أفعاله تعليق ذلك على مشيئة الله، لترتبط أعماله كلها بإرادة الله المطلقة التي لا تتقيد بزمان أو مكان أو مكانة شخص مهما كان مقامه من الله تعالى ـ قال لنبيه ﷺ: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾[1] لتكون في جميع أحوالك مستمداً أمداد الفَلَج والفوز من ربك القوي العليم الحكيم.

والنبي ﷺ في تبليغ رسالته قدوة لأمته في طرائق دعوتها إلى الله قياماً منها بوراثة التبليغ عنه ﷺ، ورسالته ﷺ علم وعمل، فالله تعالى يعلمه ما لم يكن يعلم، وقد امتن عليه بذلك في قوله تعالى: ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة، وعلّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[2] ويهديه إلى صالح العمل ليقف عنده، لا يجاوزه، لتكون أمته مهتدية بهديه، سائرة على قدمه.

حكمة احتباس الوحي لعدم ربط الوعد بالمشيئة

وهذه هي السبيل التي تلتمس في منعرجاتها الحكمة في احتباس الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فلم ينزل عليه بالإجابة عن أسئلة القوم في الموعد الذي حدّده رسول الله ﷺ دون أن يربطه بمشيئة الله تعالى، ثم جاءت الإجابة محكمة سديدة موفقة مستوفاة لما ينبغي أن يعلم في موضوعاتها.

فقد جاءت مفصلة مسهبة فيما يقتضي العلم تفصيلها كقصة الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وما فيها من أعاجيب وغرائب ودلائل على عظمة القدرة الإلهية. وكقصة الرجل الطوّاف في الأرض وما بلغ من مشارقها ومغاربها، وما لقي من أقوام وما أصلح من أمور، وما أقام من عدل وما أسدى من رحمة وإحسان.

وجاءت مجملة فيما يجب فيه الإجمال مما لا تطيق العقول إدراك تفاصيله، وهو الروح، وأنزل الله تعالى في قصة الفتية والرجل الطوّاف سورة بأكملها،

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٣.

من متوسط سور القرآن التي لا تعد في طواله، ولا تقرب أن تذكر في قصاره، هي سورة الكهف، وأنزل في مسألة الروح بعض آية ثم كمل الآية بالتنبيه إلى غرور الإنسان بما يعلم، وهو أقل من القليل في جنب ما لم يعلم، حتى يكفكف من هذا الغرور، ويبعثه ذلك إلى البحث والتعلم ليزداد علمًا ومعرفة مابقي في الحياة، وما بقيت له الحياة، فقال تعالى: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾(١).

وهذه إجابة فهمها من أعدّ الله تعالى عقله وقلبه وروحه لفهمها، واستغلقت على من حاول أن يقحم عقله مستقلاً منفرداً على مكنونات غيب الله في خلقه.

ومن هنا اتسع الخلاف جداً، وكثرت الآراء والأقاويل والمذاهب في الروح المسؤول عنها، ثم اتسع أكثر وأكثر في بيان معنى الروح وحقيقتها، الروح التي تكون بها حياة الانسان، حتى بلغت المذاهب فيها أكثر من مائة قول ورأي ومذهب.

والذين خاضوا في لجة هذا البحث دون أن يعتمدوا في سبحهم على هداية من الله تعالى قد ضلُّوا السبيل، فمنهم من غرق في اللجة، ومنهم من نجا عرياناً من اليقين.

وفي قصة الإجابة عن أسئلة أحبار يهود التي لقّنوها لشقيي قريش اللذين بعثتهما إليهـم ليسألاهم عن محمد ﷺ وصدقه في رسالته ـ كثرت الروايات واستطال رشاؤها واعرَضّ أديمها، ولا سيما في مقدار المدة التي حبس فيها الوحي عن رسول الله ﷺ حتى قدرت في أشهر الروايـات بخمسة عشر يوماً، وقد جاءت الإجابة وعرف صدقها، ولكن ملأ المادية الوثنية من طغاة قريش ظلُّوا على عتوهم الكفور حتى أذن الله تعالى بتطهير الأرض من أوضار من عَلِم الله منهم أنه عنيد الكفر، لا يؤوب إلى هدى، ولا يثوب إلى رشد.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٥.

مَنحٌ في ثنايا المِحَن

كانت هذه الفترة من سيْرْ الرسالة مشحونة بشدائد المحن، وفوادح البلاء وقف فيها رسول الله ﷺ وحده، يكافح في سبيل دعوته، وتبليغ رسالته صابراً محتسباً، لا يكل له عزم، ولا تعيَى له إرادة، ولا يمل ولا يفتر، ولا يهاب جموع أعدائه على كثرتهم الهائلة، ولا يبالي طغيان قوتهم الفاجرة، ولا يهتم بفجور مقاومتهم الطاغية. ولكنه عليه الصلاة والسلام كان نفّاذاً إلى هدفه، لا يكاد يخرج من محنة حتى يدخل في بلاء أشد وأعظم، ولا يلبث أن يودِّع حادثاً حتى تواجهه أحداث، وقوى الشر والجبرية الطاغية تتابعه أينما حلّ وحيثما توجه بدعوته، وأصحابه قلة يسومها طغاة المادية الوثنية سوء العذاب، ويذيقونها شديد الأذى، وهم صابرون محتسبون تأسياً برسول الله ﷺ في صبره وقوة عزمه، وانتظاراً للفرج من الله في وعده.

كان الإرجاف لوناً من ألوان معوقات سير الرسالة

وقد استنفد المشركون معهم كل لون من ألوان العذاب، فلم يصرفهم ذلك عن دينهم وعقيدتهم كما استنفدوا مع رسول الله ﷺ كل عتو فاجر، وكل حيلة وتهاون، وكل ترغيب وترهيب، فلم يقعده ذلك عن المضي قدماً في نشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى استيأس الطغاة من عزيمته أن تقف دون غايته، فعمدوا إلى تعويق سير الرسالة بنشر الإشاعات الكاذبة، والإرجاف الخبيث، يذيعونه في وفود القبائل العربية الوافدة على مكة لحضور الموسم، ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، فجعل من تدبير شرورهم وإفسادهم خيراً وإصلاحاً، وعادت الوفود إلى قبائلها وبطونها،

وعشائرها في منازلهم ومواطنهم، ومعهم ذكر من رسول الله ﷺ وما يدعو إليه من الخير والهدى ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وإقامة موازين العدل، وإخلاص العبادة لله تعالى وحده.

وسرى مع ذلك الحديث عناد قريش وطغيانها إلى الآذان في المواسم والمحافل التي تجمع ~ ع الخطباء والشعراء والتجار والمتحنفين، وتسربت إليهم الأنباء عن هَدْي رسول الله ﷺوسمته، ومقابلة الأذى بالعفو والصفح الجميل.

وسدت قريش بطغيانها على نفسها منافذ الإيمان وتقبل الحق، وعتت عن أمر ربها ورسالته، وبغت في الأرض بغير الحق، فلم يبقَ لديها مسرب للاهتداء، فأيأس الله تعالى رسوله ﷺمن رجاء إيمانهم، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي الى الأذقان فهم مقمحون• وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون• وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾[1].

وكان هذا بياناً من الله تعالى يعلن على مسامع الدنيا أن هؤلاء الأخابث من طغاة المادية الوثنية قد طبع الله على قلوبهم، فلن يهتدوا إذاً أبداً، وختم على سمعهم فلن يسمعوا سماع هداية ورشد أبداً، وطمس على أبصارهم فلن يبصروا دلائل عظمة الله ووحدانيته قائمة في مظاهر الطبيعة وآياته الكونية، وهي تنادي بلسان حالها قوية قاهرة، فهم عُمْيٌ، بكم، صم، لا يرجعون عن غيهم، وعتو كفرهم. وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعرض عنهم، وأن يتركهم إلى ما أقاموا أنفسهم له، وما وقفوا حياتهم عليه من العكوف على إرادة الدنيا وحطامها لا يريدون غيرها، فهم لا يرغبون في هدى، ولا يريدون حقاً، ولا يرضون أن يسود حياة الناس عدل ولا أن تتداركها رحمة، لأن الدنيا وجمعها كانت مبلغ علمهم بالحياة، ومنتهى غاياتهم منها، فهم في جهالة جاهلة، ووثنية بليدة، ومادية

---

(١) سورة يس، آيات: ٨ - ٩ - ١٠.

مظلمة، فقال الله عز شأنه لنبيه ﷺ: ﴿ فأعرض عمَّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، إن ربك هو أعلم بمَن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾[1] قيل: نزلت في النضر بن الحارث، شيطان الأساطير والخرافات والوليد بن المغيرة طاغية السحر المأثور، وهي من باب النماذج الممثلة لصور الشر والفساد الركيز في بعض الطبائع البشرية.

توجيه إلهي لسير الدعوة وتبليغ الرسالة

وكان هذا توجيهاً لرسول الله ﷺ إلى الانتقال بدعوته وتبليغ رسالته بعيداً عن عنجهية غطارفة قريش وهم غارقون في وثنيتهم الفاجرة التي يتاجرون بها العرب من وراء أسوار التنفج المستكبر، والتعالي العتي بأنهم سدنة البيت الحرام، ومطعمو الحاج. وكان هذا التوجيه نقطة تحول في سير الرسالة، انطلقت منه إلى آفاق أرحب من آفاق مكة وقريشها، وإلى جو أفسح من جو الطغيان الفاجر التي كانت تعيشه قريش في بلدها، فخرج رسول الله ﷺ يعرض نفسه ودعوته على الناس في منازلهم ويبلغهم رسالة ربهم في مجتمعات مواسمهم وأسواقهم، وقد أصبحوا في ذكرٍ منه ﷺ، وذكر من دعوته بما أحدثه طيش ملأ قريش في ترصدهم لقبائل العرب يحذرونهم منه ومن سحر كلامه، وفي الناس عقول، وللعقول وزن لما تسمع وما ترى، وقد أبى على كثير من العقلاء كرم إنسانيتهم أن يلغيَ عقله من أجل صيحات حاقدة تطلقها حناجر بعض الدعاة الى الشيطان من سفهاء قريش هنا وهناك، يعيبون بها محمداً ﷺ ويشوِّهون بها دعوته وما جاء به من الهدى والإصلاح، فليسمع العقلاء من محمد ﷺ ثم يحكموا له أو عليه، أما أن يقول الحاقدون من غثاء المادية الوثنية قولاً ثم يطلب إلى الناس من غير إعطائهم فرصة النظر الفاحص، والتدبر الباحث أن يأخذوا هذا القول مقطع الفصل؛ فهذا ما لا ينبغي للعاقل أن يقبله وأن يأخذ به نفسه.

---

(١) سورة النجم، آيتا: ٢٩ ـ ٣٠.

وقد كان لهذا التوجيه بالخروج بالدعوة إلى مجالها الفسيح ومواجهة العقول بها مواجهة مباشرة، بعيدة عن التأثير التقليدي لمواريث الوثنية المتحمسة في قريش وملأ طغاتها أثر واسع المدى، عظيم الخطر، وإن كان مختلفاً اختلافاً بعيد الأطراف، ولكنه كان ـ على ما لقي فيه رسول الله ﷺ وأصحابه من شدة ومحن كانت في بعض صورها أشد وأعنف مما لقوه من قريش في مكة ـ مليئاً بالخير والتقدم بالدعوة إلى خطواتها القوية الرصينة التي كانت أساساً لدعائم تكوين المجتمع المسلم، وتحديد خصائصه، وتحصين كيانه، وحماية وجوده.

وكان هذا التوجيه منفذاً من منافذ سريان الدعوة إلى العقول والقلوب اتخذ فيه سَيْرُ الرسالة سَمته إلى تثبيت أقدامها راسخة هادئة في صبر لا ينفد، وعزائم لا تفتر.

قصة الطفيل الدوسي
أثر من آثار هذا التوجيه

قال الإمام محمد بن إسحاق في سيرته: وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش ـ حين منعه الله منهم ـ يحذرونه الناس، ومن قدم عليهم من العرب.

كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدِّث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش ـ وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ـ فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلّمنه، ولا تسمعنّ منه شيئاً.

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه؛ حتى حشوت في أذنيّ كرسفاً حين غدوت إلى المسجد فرقاً من

أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل أبي؟؟ والله إني رجل لبيب شاعر، وما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يقوله حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا، وكذا ـ للذي قالوا ـ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددتُ أذني بكُرْسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرضْ عليَّ أمرك، قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا القرآن عليّ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.

آية إعجاز للطفيل مع قومه جمعهم الله بها على الإيمان

فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم، فيما أدعوهم إليه فقال ﷺ: «اللهم اجعل له آية».

قال الطفيل: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع نور بين عينيّ مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثْلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، فتحول فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

فلما نزلت أتاني أبي، ـ وكان شيخاً كبيراً ـ، فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني. قال: ولم يا بني؟ قلت: فإني أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، فقال أبي: أي بني.. فديني دينك، فقلت: فاذهب فاغتسل، وطهِّر ثيابك، ثم تعالَ حتى أعلمك ما علمت فذهب، فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال الطفيل: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلست منك، ولست مني، قالت: لم؟ بأبي أنت وأمي.. قلت: قد فرق الإسلام بيني وبينك، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قلت لها: اذهبي إلى حمى ذي الشرى فتطهري منه فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطئوا عليّ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة فقلت: يا رسول الله.. غلبتني دَوْس فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد دوساً، ارجع الى قومك فادعهم وارفق بهم».

فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين.

* * *

الخير ينبت في أرض جدباء فتخصب وتشرق بها شمس الهداية

هذه القصة - التي اتفقت كلمة رواة أحداث السيرة النبوية على حقائقها ومعانيها، ووقائعها فأثبتوا بهذا الوفاق ثبوتها وصحة وقائعها - واحدة من الأحداث التي كانت أثراً من آثار العتو الوثني الذي ادّرعه ملأ قريش وطغاتها في موقفهم من النبي ﷺ وهم يحذرون الناس منه، فجعلهم الله تعالى وهم راغمون كارهون ألسنة دعاية ونشر لدعوته وتبليغ رسالته، فانقلب عليهم قصدهم، ورد الله كيدهم في نحورهم.

وكان الطفيل الدوسي واحداً من ألبَّاء العرب وعقلائهم الذين لم يرضوا لأنفسهم الذلة والخنوع لطغيان ملأ قريش إذ تلقفوه في قَدَماته مكة وهم يعرفونه لبيباً حكيماً، ذا مكانة مرموقة في قومه وكلمة مسموعة فيهم، فخافوا عليه وعلى قومه أن تبلغهم دعوة محمد ﷺ وهداية رسالته، وأن يسمعوا شيئاً مما يتنزل عليه من كلام ربه نوراً وهدى للناس ورحمة

للعالمين، وهم أعلم الناس بروعة البيان القرآني، وسحر هدايته، وأثرها في العقول والقلوب.

فاستقبلوا الطفيل محذِّرين، مخوِّفين، مرجفين بالباطل والزور، واشتدوا في تخويف الطفيل وتحذيره من رسول الله ﷺ، ومن آثار الاستماع إليه، حتى خُدع الرجل في بادىء الرأي عن عقله، وهو يصف ذلك فيقول: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني كُرْسفاً (قُطْناً) فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله.

ولكن الخداع المضلل إذا غشَّى بصيرة العقل المستبصر لحظة أو لحظات فسرعان ما ينبلج في آفاقه ضوء الحقيقة مبدداً هذا الغشاء الأسود، ناشراً نور هدايته، فاتحاً أمام العقل أبواب الرغبة في معرفة حقيقة ما حُذِّره وخُوِّفه ليخبر الأمور بإدراكه ووسائله، لا بإدراك المحذِّرين المخوِّفين ويعرف الحقيقة بقلبه لا بقلوب الملقنين.

نور الهداية ينفذ إلى قلب الطفيل فيضيء قلوب قومه

وثاب الطفيل إلى نفسه، وأفاق من غشيته، وراجعه رشده، وأبى عليه عقله أن يستسلم لنزعة يغلفها الحقد الكفور في قلوب قوم يحاولون تضليل العقول، يصدونهم عن الهدى إذ جاءهم، وأبى الله إلا أن يقذف في عقل هذا الرجل اللبيب الحكيم نور التطلُّع إلى المعرفة الكريمة المتحررة من ذل التحذير وضعف التخويف، فأسمعه بعض قول رسول الله ﷺ.

قال الطفيل: فسمعته قولاً حسناً، وهنا تندّم الطفيل وتحزن ولاوم نفسه، كيف وهو الرجل اللبيب الحكيم الذي لا يخفى عليه التمييز بين الحسن والقبيح؟ فما يمنعه أن يسمع من محمد ﷺ ما يقول، ثم يحكم عليه أو لَهُ بعد ذلك بما يمليه عليه عقله الحكيم، فإن كان الذي سمع حسناً قبله ودان به، ولو ورمت آناف الملأ من قريش تغضُّباً عليه.

وانتظر الطفيل حتى انتهى رسول الله ﷺ من صلاته وانصرف إلى بيته، فتبعه الطفيل إليه ومعه عقله ولبابته حتى دخل عليه بيته، وحدّثه

حديث الملأ من طغاة قريش وتحذيرهم إياه من سماع قول رسول الله ﷺ، وأن الله تعالى أبى إلا أن يذهب بقولهم وتحذيرهم مع تصاريف الرياح، فتذروه حتى كأن لم يكن شيئاً، وأسمعه الله قول رسول الله ﷺ، فسمع قولاً حسناً، ما سمع قط قولاً أحسن منه ولا أمراً أعدل منه.

وطلب الطفيل بعد أن اقتنع عقله، وطابت نفسه، وتنوّر قلبه من رسول الله ﷺ أن يعرض عليه أمره، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلم الطفيل مكانه، وشهد شهادة الحق، وباءت قريش بالخيبة والخسران المبين، ووقع ما كانت تخافه وتحذره، وانفلت من عقال خداعها الرجل اللبيب الشاعر الذي تخشى لبابته وشاعريته، وأسلم الطفيل الدّوْسي الذي لم يكتفِ بأن يسلم وحده، ولكنه أراد الخير والهدى لأهله وقومه وهو زعيمهم المطاع فيهم، وأخبر رسول الله ﷺ أنه راجع إلى قومه، وداعيهم إلى الإسلام، وسأل رسول الله ﷺ أن يجعل الله له آية تعينه على قومه فيما يدعوهم إليه من الإيمان بالله ورسوله، ودعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اجعل له آية» فاستجاب الله دعاء نبيه محمد ﷺ، وجعل للطفيل آية نورانية، وبدأ الطفيل إذ حلّ بين قومه بدعوة أبيه وصاحبته إلى الإسلام، فأسلما وعلّمهما شرائع الدين التي عُلِّمها، ثم عمد إلى قومه وعشيرته فدعاهم إلى الإسلام فأبطؤا عليه، ورجع إلى رسول الله ﷺ بمكة، يشكو إليه غلبة قومه له وعدم استجابتهم لدعوته، وطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، ولكن رسول الله ﷺ ـ وهو المرسل رحمة للعالمين وهو الرؤوف الرحيم، وهو الرحمة المهداة إلى الحياة ـ أجاب الطفيل بغير ما يترقب، فدعا لقومه دوساً أن يهديهم الله وقال: «اللهم اهد دَوْساً» ولم يدعُ عليهم بهلاك يدمرهم أو عذاب ينزل بهم لإبطائهم في إجابة الداعي إلى الله، ثم أوصى الطفيل بأخص خصائص الدعاة إلى الله وما يجب عليهم أن يتخلّقوا به في حملهم راية الدعوة وتبليغ الرسالة، ذلك هو الرفق بعباد الله والشفقة على خلق الله، والرأفة بهم، والرحمة لهم، فقال له: «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم» ورجع الطفيل إلى قومه بوصية رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وإلى دينه، وكان بهم رفيقاً، فأجابوه،

قضهم بقضيضهم، رجالهم ونساؤهم، كبارهم وصغارهم، وأسلموا، ثم هاجروا، وأدركوا رسول الله ﷺ وقد فرغ من فتح خيبر، قائماً على غنائمها يقسمها بين جند الله وكتائب الجهاد في سبيل الله، وعرف سيدنا رسول الله ﷺ للطفيل وقومه مكانتهم في الإسلام بين صفوف المجاهدين لإعلاء كلمة الله تعالى، فأكرمهم وأسهم لهم من غنائم خيبر كإخوانهم المقاتلين في سبيل الله.

وبهذا كانت دَوْسٌ وزعيمها الطفيل كتيبة من كتائب الإسلام التي شاركت في هزيمة المادية الوثنية هزيمة منكرة، ونشرت راية التوحيد، وكسرت قناة الطغيان في ملأ قريش كسرة لم تقم لهم بعدها قائمة، فقد أخذتهم السيوف المسلمة في وقائعها المنتصرة، وطهرت البلد الحرام من رجس طغيانهم، وتعطَّف الله تعالى فأخرج من أصلابهم بطولات الدعوة والهداية والفتح المبين، وهكذا يخرج الله الحي من الميت وهو على كل شيء قدير.

مضاء عزيمة رسول الله وصبره
كانا أعظم عوامل نشر دعوته

هذا نموذج من سياسة الحكمة التي انتهجها رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته ونشر دعوته بعزيمة لا تعرف التردد في الأمور، وصبر يحتمل ما لا تحتمل شم الراسيات، أوذي ويؤذى فصبر، ويصبر على أذى السفهاء من غوغاء قريش، وسيم بالبلاء من ملئها فلم تفل له عزيمة، ومضى قُدُماً في عزيمة ماضية وصبر صبور، فكان ذلك من أعظم عوامل نشر الدعوة بين مجتمعات العرب في مواسمهم وأسواقهم ومنازلهم.

وكان هذا الصبر قوة تدفع بالدعوة إلى آفاق أوسع وأفسح من آفاق مكة وقريشها، وكأنما كان هذا الصبر المكافح يحمل الدعوة إلى الله في أشد أزماتها على أجنحة النصر المؤزر على رغم قوى الشر المؤلبة لمقاومتها.

وكان هذا الصبر الصبور مدداً من القوة لا ينفد، يمد الدعوة بقوة العزائم التي تنهض بها لتبلغ غايتها من العقول والقلوب في غير عجلة متسرعة.

وكان هذا الصبر الجميل يزيد قريشاً طغياناً وكفراً، وعتواً وعناداً، ويضاعف من أحقاد ملأ الطغاة واضطغانهم على رسول الله ﷺ، وعلى أصحابه، ولكنه كان يزيد في قوة إيمان المؤمنين، ويشجع رسول الله ﷺ على الخروج بدعوته من حصار مكة وأهلها وعشائرها التي تقودها الوثنية المادية العمياء بزمام العتو الكفور.

روى ابن سيد الناس في عيون الأثر بسنده عن جابر بن عبدالله

قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول: «ألا رجل يعرض عليّ قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي».

وفي حديث محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة بن عباد الدؤلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ يطوف على الناس قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فسألت من هذا الرجل؟ فقيل: أبو لهب.

وقد لقي رسول الله ﷺ كثيراً من وفود العرب، ورؤساء قبائلهم، وزعماء بطونهم وعشائرهم، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، فكانوا بين مقارب مهذّب الطبع ليّن المقادة، سهل المأخذ، حكيم اللسان، عَقول القلب. وبين بعيد مجانب، جوّاظ جاف، غليظ الطبع، ضيق العطن، عسر المسلك، سريع التغضب، نفور جهول.

حوار عَقُول

وكان ﷺ يصابر القوم، ويصبر على جفوة الجفاة منهم، ويقدّر المهذبين منهم قدرهم، ويعرف لهم مكانتهم، ولو لم يجيبوه إلى دعوته تشرعاً بمكارم الأخلاق.

وكان كثيراً ما يصحبه في لقاءاته وفود العرب في منازلهم من الموسم أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، ففي حديث عبدالله بن عباس عند صاحب العيون وغيره من رواية ابن إسحاق عن علي أنه خرج هو وأبو بكر رضي الله عنهما مع رسول الله ﷺ ليعرض نفسه ويبلغ رسالته إلى الناس في منازلهم، وقد لقوا قوماً من وجوه العرب ورؤساء عشائرهم فجلسوا إليهم، قال علي رضي الله عنه:

فضل أبي بكر في علمه وشمائله

وكان أبو بكر في كل خير مقدماً، وتكلم أبو بكر ـ وكان نسيج وحده في معرفة أنساب العرب وشمائلهم ـ وسأل: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان ابن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي..

هؤلاء غرر في قومهم، وفيهم مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً، وكانت له غديرتان، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر رضي الله عنه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جد، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللِّقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش. فقال أبو بكر: أوقد بلغكم أنه رسول الله، فها هوذا.

فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلامَ تدعو يا أخا قريش؟

عرض الإسلام واستطعام مفروق لمبادئه وزكانة عقله

فتقدم رسول الله فقال: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تأووني وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد».

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: أن لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون»[1].

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش:؟ فقال رسول الله ﷺ ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥١.
(٢) سورة النحل، آية: ٩٠.

فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذَّبوك، وظاهروا عليك.

أدب العشرة في تضافر الزعامات العاقلة

وكأن مفروقاً أراد أن يشرك في الكلام هانىء بن قبيصة، فقال: هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانىء: قد سمعنا مقالتك، يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر.

وكأنه أحبّ أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى ابن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر، وإنما نزلنا بين صيري اليمامة والسماوة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما هذان الصيران؟» فقال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدِثاً، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت، هو مما يكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم في الصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم؛ أتسبحون الله وتقدسونه.؟».

فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿يا

أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1].

ثم نهض رسول الله ﷺ. قال علي: فأخذ بيدي فقال: «يا أبا بكر. . يا أبا حسن. أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية؟ ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم».

بين رياض هذه القصة وحوارها

آيات من العبر

هذه القصة من غرر أحداث السيرة النبوية في مرحلة الكفاح الصبور والصبر المكافح؛ لأنها في إطارها الواقعي تصور خطوات من سير الرسالة، وهي في طريقها إلى الإعلان عن نفسها وأهدافها بين وفود العرب القادمين على مكة لحضور الموسم، بعد أن سبقها ذكرها إلى الناس بما أتته قريش من طيش أحمق ورعونة بلهاء في ترصدها القادمين أفراداً وجماعات، تحذّرهم رسول الله ﷺ أن يسمعوا منه، أو يكلموه، خشية أن يجتذبهم حديثه إلى متابعته والإيمان بدعوته، وتصديق رسالته.

وكأنما كان ذلك الطيش الأرعن الذي تورط فيه ملأ قريش بشؤم مشورة طاغيتهم الوليد بن المغيرة، وشيطانهم اللعين: النضر بن الحارث، وغميز الرجولية، فرعون هذه الأمة أبي جهل بن هشام ـ إيذاناً من الله تعالى أن تنطلق دعوة محمد ﷺ من حصار قريش، فتطرق أبواب العقول والقلوب على رغم أنف العتو العنيد الذي سيطر على عقلية ملأ قريش وطغاتها من أحلاس المادية الوثنية.

وقد حاولوا بكل ما يملكون من قوى مادية شريرة، وفجور دعائي عاتٍ عنيد أن يعوّقوا سير الرسالة ويوقفوا مدّ انسياح الدعوة إلى الله تعالى، وسلكوا في سبيل ذلك كل طريق استطاعوا أن يسلكوه، ولم يتركوا أمراً تخيلوه عائقاً يمكن أن يصدّ دعوة محمد ﷺ ويرد تيارها عن زحفه مزمجراً بقوة الحق وقهره إلا أتوَه وفعلوه.

---

(١) سورة الأحزاب، آيتا: ٤٥ ـ ٤٦.

ولكن محمداً ﷺ وقد حمّله الله تعالى مصباح الهداية مضيئاً، ينير له الطريق، ويكشف له مسالك السير برسالته قدماً لم يزل دؤوباً وهو منفرد وحيد، يجول في ميدان الكفاح وحده في قلة مستظلمة مستضعفة من أصحابه آمنوا به وبدعوته على خوف من بطش قومهم وجبروتهم ـ على نشر دعوته إلى توحيد الله ودينه القويم، يدعو إليه كل من لقيه ويلقاه من الناس في أي مكان وزمان ومجتمع.

ولما استيأس رسول الله ﷺ من قومه بعد أن بذل في سبيل هدايتهم كل جهد، فصبر على أذيتهم، وصابرهم، وحاسنهم، وأغضى على سفاهة سفهائهم، وفجور طغاتهم ـ خرج في أيام الموسم ومعه صاحبه وصدِّيقه أبو بكر، وربيبه، رضيع ثدي النبوة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، يعرض نفسه ودعوته إلى التوحيد والعدل على الناس، ويدعوهم إلى الإيمان به وإلى أن يؤوه، وينصروه على ظلم قريش وافترائها الكذب على الله، وتظاهرها على رسوله وهو قائم بأمر الله، ينشر دعوته، ويبلغ رسالته، فأفكت عليه وكذبته، واستغنت بالباطل من الكفر الفاجر، والوثنية المادية البليدة الظالمة المظلمة، وطرحت الحق وراءها ظهرياً ولم ترفع له رأساً، وأقامت على عتوها وعنادها تتربص برسول الله ﷺ الدوائر وتمكر به وبأصحابه وتؤذيه وتؤذيهم أبشع الإيذاء، متفننة في الإساءة إليهم وتعذيبهم، وهم صابرون محتسبون.

ولقي رسول الله ﷺ فيمن لقي من وفود الموسم وزعماء القبائل ورؤساء العشائر هؤلاء الغر البهاليل من شيبان بن ثعلبة، الذين يصفهم الصديق أبو بكر ـ وهو أعرف العرب بأنساب العرب وشمائلهم ـ فيقول وقد التفت إلى رسول الله ﷺ بعد أن استخبرهم فانتسبوا له: هؤلاء غرر في قومهم، وهذا التعبير في صدقه ودقته مليء بالصور التي تسترعي الانتباه، فهو لم يقل: غرر قومهم، تحفظاً أن يوغر صدر من عسى أن يكون في مستواهم أو أرفع قدراً منهم ولم يشهد مشهدهم.

وهو بهذا الأسلوب البارع قد أدى حق الروعة البيانية التي تفتح

قلوب هؤلاء الغر لما يرد عليهم من أحاديث الهداية والحق والعدل ومكارم الأخلاق، ولا توصد باب النظر دون غيرهم.

وكان مقدّم القوم مفروق بن عمرو، وهانىء بن قبيصة، والمثنى ابن حارثة، والنعمان بن شريك، وبدأ أبو بكر فأدار الحديث مع مفروق ابن عمرو، لغلبته على القوم جمالاً وبياناً، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، ورسول الله ﷺ يصغي ويسمع، ولا يتكلم، وقرناء مفـروق في زعامـة قومهم في تنبه يقظ يسمعون.

وسأل أبو بكر مفروقاً عن عدد قومه، وهو لا يريد بالطبع إحصاء عددياً لهم، ولكنه يريد أن يتعرف على مصدر القوة فيهم وفي حروبهم ليسمع رسول الله ﷺ حتى يعلم علم ما إليه قصد من منعة وحماية ونصرة وإيواء.

ومن البداهة أن مصدر القوة لتحقيق هذا الهدف إنما هم الرجال الأشداء، ذوو البأس والقوة وصدق اللقاء في معمعان الوغى ومواقـع النضال.

وأجاب مفروق بأن عدد المنعة والحمية فيهم يزيد على الألف ـ ولن يغلب الألف من قلّة ـ وكان لعدد الألف عند العرب روعة في التزيد به والتكثر، وهذا ما كانت بيئاتهم تقتضيه، فهم لم تكن لهم حروب عامة جامعة، وإنما كانت حروبهم جزئية محصورة متكافئة الأعداد.

وسأل أبو بكر رضي الله عنه مفروقاً عن المنعة والحمية فيهم ليعرف مقدار حرصهم على غيرة الجوار وحماية البيضة وحفظ الذمار.

فأجاب مفروق جواب الرجل العاقل الذي لا يستفزه الغرور الأهوج، ولا يتوثبه الطيش الأرعن، ولا تملكه الكبرياء الحمقاء، فلم يندفع إلى التكذب والادّعاء لما ليس هو بكائن عنده وعند قومه، فقال: علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد وصبر، وإذا كان لكل قوم جد يدّرعونه في مواقفهم، فلنا جدنا في جهدنا وصبرنا.

وسأل أبو بكر رضي الله عنه مفروقاً عن الحرب بينهم وبين عدوهم، ليستبين خصيصة قومه في لقائهم عدوهم، فوصف مفروق قومه وصفاً من أبدع ما يوصف به قوم في ميدان البطولة والشجاعة التي لا تتهور، ولا تتقاعس، ولكنها بطولة جد ساعة الجد، فتربو على أمدها في توجيه رحى الحرب إلى مصافِّهم في مصافِّ الأبطال.

فهم غضاب أشد ما يكون الغضب إذا لاقَوا عدوهم، والغضب شعلة من النار، وهم أشد ما يكونون اندفاعاً إلى اللقاء حين يغضبون، فلا يقوم لهم عدو، ولا يهزمون وهم سالمون، وزاد مفروق في وصف قومه وصفاً يعرّف به أنهم قوم يحبون الوغى في حومته، وأنهم يستعذبون الاقتحام فيه وتقبيل السيوف عند اللقاء، نشأة عليها نشأوا وتربية بها تربوا، يحبون السلاح والجياد أكثر من حبهم أفلاذ الأكباد.

وكان مفروق رجلاً عاقلاً رزيناً، لا تستفزه رعونة الزعامة في قومه، ولا يغره شرف محتده، بل يعلن أن النصر من عند الله، لا يجلبه قوة ولا شجاعة، ولا تجربة، وهو إلى أصحاب الجهد الصبور أقرب منه إلى أصحاب القوة الرعناء، والله تعالى يداول بين الناس، فيوم لك ويوم عليك، يديلنا مرة فينصرنا، ويديل علينا مرة أخرى، فينصر عدونا علينا، سنة الله في خلقه.

ثم التفت مفروق إلى أبي بكر بعد أن أنهى حديثه معه، وقال له: لعلك أخو قريش؟ - يعني رسول الله ﷺ - ولم يكن مفروق قد سبق له أن عرف رسول الله ﷺ قبل هذا المجلس، ولكن مفروقاً بدر أبا بكر بهذا التوقع لما كان قد بلغه من ذكر رسول الله ﷺ وذكر دعوته ورسالته.

وهنا تتجلى براعة أبي بكر رضي الله عنه في استرعاء الأنظار إلى التعرف على رسول الله ﷺتعرفاً يمكِّن له في القلوب والأبصار، حتى إذا أجرى الحديث معه جرى في واديه وقصده إذ يتولاه صاحب دعوته، فقال أبو بكر رضي الله عنه ليؤكد هذا التعرف، ويوجه الأسماع إلى الهدف الذي كان له هذا اللقاء، فقال: أوقد بلغكم أنه رسول الله؟ فها هوذا

مشيراً إلى رسول الله ﷺ.

فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك وفي هذه الجملة يتجلى صدق اليقين، وأدب النفس ورصانة العقل، وامتلاك زمام الأمر، لأن أبا بكر رضي الله عنه إذْ قال: أوقد بلغكم أنه رسول الله كان يتكلم بمنطق الإيمان الذي وقر في قلبه برسالة محمد ﷺ.

أما مفروق بن عمرو إذ قال: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فإنما كان يتكلم بمنطق عقله وأدبه، فهو لم يؤمن على كلام أبي بكر بأنهم بلغهم أن محمداً رسول الله، ولم ينفِ ما بلغهم من رسالته، ولم يصف رسول الله ﷺ بما يخدش ذكره أنه رسول الله، ولكنه قارب الصدق مع نفسه فقال: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، وهذا لا يُدخل مفروقاً في ساحة الإيمان برسالة محمد ﷺ ولا يخرجه من ساحة صدق الإخبار.

ثم أخذ مفروق في استكشاف حقيقة ما بلغه عن رسول الله ﷺ من ذكره أنه رسول الله، أرسله ليدعو الناس إلى توحيده، وخلع الأنداد والشركاء، بعد أن عرف شخص رسول الله ﷺ، فقال: إلى أي شيء تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺليأخذ بزمام الحوار الذي وصل إلى جوهره وغايته، فقال ﷺ: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤووني وتنصروني».

وهذا تصديق وتأكيد لقول مفروق: قد بلغنا أنه يذكر أنه رسول الله، وها هوذا صلّى الله عليه وسلم يذكر على سمع القوم وبصرهم، بل على سمع الدنيا وبصرها أنه رسول الله، ولكن الظالمين جحدوا آية الله في رسالته، فكذبوه، وتظاهروا على أمر الله، واستغنَوا بالباطل عن الحقّ.

وهذا هو ما دعا إليه قومه، لم يدعهم إلى شيء غيره، وهو ما دعا إليه الناس جميعاً، هي كلمة إذا قالوها سعدوا وأفلحوا، فهو ﷺ لم يطلب بدعوته مالاً وثراء، ولا شرفاً ولا سيادة ولا ملكاً وسلطاناً، ولكن الظالمين تظاهروا على أمر الله، فكذبوا رسوله إذْ دعاهم إلى توحيد خالقهم، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

أيهما العجاب أمركم الذي تعبدون فيه آلهة شتى، أم أمر محمد ﷺ الذي يدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد؛ ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾.

ورسالة الله دعوة إلى الحق، لا تقف إذا نُوهضت من أعداء الحق، ولا تستكين إذا حوصرت، بل يجب على الرسول أن يبحث لرسالته عن أرض خصبة التربة، ليحرثها بدعوته، ومِنَ الله تعالى الإنبات والزرع ﴿ أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾.

وهكذا كان هذا اللقاء بحثاً عن التربة الخصبة التي تأوي الرسول، وتنصر الرسالة إذا آمنت واهتدت.

وسمع مفروق وصحبه من رسول الله ﷺ الأساس الذي قامت عليه دعائم دعوته، وسمعوا الأساس الذي له خرج من بلده، وعن قومه، ليلقى الناس به في منازلهم، ليجد من يأويه وينصره على من ظلمه وكذبه وتظاهر على أمر الله، واستغنى بالباطل عن الحق.

وكأن مفروقاً وصحبه في بلادة وثنيتهم لم تهزهم هذه الدعوة إلى توحيد الله تعالى، فلم يرد متحدثهم على دعوة الإيواء والنصرة، ولكن مفروقاً انطلق يسأل ويستكشف ما وراء هذه الدعوة التوحيدية التي تخلعهم من وثنيتهم، فقال: وإلى أي شيء آخر تدعو يا أخا قريش؟

فانتقل به رسول الله ﷺ وبالحديث والحوار، وبمن يسمع من الشاهدين إلى أمر جامع بين دعوة التوحيد، والأمر بعليا الفضائل ومواطن الإحسان، وإلى النهي عن أصول الرذائل والشرور في المجتمع، فتلا عليه رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ﴾ الآية، وظل مفروق وصحبه على موقفهم مع وثنيتهم وتقاليدهم الجاهلية جامدين، لا تهتز مشاعرهم، ولا تتحرك عواطفهم.

وانتقل مفروق يستزيد من أمور دعوة رسول الله ﷺ، فقال يسأل: وإلى أي شيء ـ أيضاً ـ تدعو يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله

يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون».

وهنا ـ فقط ـ اهتزت أريحية كرم النحيزة في الرجل، وثارت عواطفه وتحرّك وجدانه وتأثرت مشاعره استطعاماً لمعاني الآية الكريمة، وتذوقاً لمكارمها وآدابها، فقال وهو منفعل بأثر ما مسّ قلبه: دعوت ـ والله ـ إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد كذّب قوم كذبوك وظاهروا عليك.

ولكن هذا الانفعال بمعنى الآية شيء والإيمان بالرسالة شيء آخر، لأن الإيمان بالرسالة يعتمد على إسلام الوجه لله تعالى، والإذعان المطلق لأمره ونهيه والدخول في ساحة طاعته دخولاً لا يخالجه شك، ولا تردد، ولا يحتاج إلى مشورة أحد، ولا الى استئذان أحد.

وموقف مفروق بن عمرو إلى هنا موقف تكرم مع نفسه، وأدب خلقي مع حياته، بيد أنه لا يرقى إلى آفاق الإيمان بالله ورسالاته، ولذلك التفت إلى صحبه وقرنائه في زعامته، وبدأ بصاحب دينهم وسادن وثنيتهم: هانىء بن قبيصة، لأن الأمر في هذا الحوار كان أمر دين ودعوة إلى رسالة إلهية، جاءت إلى الناس بدين جديد، يقتضيهم إذا آمنوا به أن يتركوا دينهم الذي هم عليه والذي تقلدوه وراثة عن آبائهم، فكان لا بد من مشاركة صاحب دينهم في الحوار والحديث، ليعرف رأيه فيما سمع من صاحب الدعوة الجديدة الذي سمعوا أنه يذكر عن نفسه أنه رسول الله، وأنهم سمعوا في هذا المجلس يدعو إلى جانب توحيد الله تعالى أنه رسول الله.

وها هم أولاء يرون رأي العين والقلب فيه، وفي سَمْته، وفيما يدعو إليه جديداً كل الجدة على ما اعتنقوه من وثنية بليدة مظلمة، وعلى ما ألفوه وعرفوه في الناس من أخلاق وشيم، فما عسى أن يكون رأى صاحب دينهم فيما رأى وفيما سمع.؟

فليتكلم هانىء بن قبيصة شيخ شيبان في سنه، وصاحب دينهم في

معرفته وعلمه بتقاليد جاهليتهم وشدة حرصهم على التمسك بوثنيتهم، وقد قدّمه مفروق إلى النبي ﷺ فقال: وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، ولعل مفروق بن عمرو أراد مع ذلك أن يستبين أثر ما جرى من الحوار بينه وبين رسول الله ﷺ في أنفس قرنائه في زعامة قومه، ولعله كان يطوي بين جوانحه شيئاً من الرضا بالدعوة الجديدة والدين الجديد، ولم يكن وهو مغلل بسلاسل الوثنية والزعامة يستطيع أن يبوح جهرة بمكنون سره، فأراد أن يعرف ما اختلج في أنفس أصحابه دون أن ينفرد بخلافهم.

وتكلم هانىء بن قبيصة، وكان عاقلاً، متأنياً، متزناً، حكيماً، أحكمته التجارب، فقال: إن تركهم دينهم الذي نهدوا في ظله، وشبّوا على تقاليده، وشابوا عليه، إلى دين جديد، مهما يكن شأن ما جاء به من مكارم الأخلاق ومحاسن العمل لمجرد مجلس جلسه إليهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم دعوته؛ وأبان عن شمائلها، وفضائل أصولها ومحاسن آدابها - لم تكن له مقدمات ممهدات ولا كانت له نهاية ينتهي إليها، وإنما كان أشبه بمجلس تعارف وتلاق، جمعتهم فيه برسول الله ﷺ المصادفة التي لم يكونوا هم يقصدونها، وقد سمعوا منه وسمع منهم، وقالوا وقيل لهم، وعرفوا وعرف منهم، ولم يكن ذلك بكافٍ - في نظرهم - لبتِّ الحكم في أمر قد يكون من أخطر أمور حياتهم وحياة قومهم يرونه زلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة، والأمر أكبر من أن يأخذ بالسرعة لاحتياجه إلى أناة وريث وتلبث ونظر، تُقلَّب فيه وجوه الرأي ويجول في أنحائه العقل جولات توزن فيها الأمور بأشباهها، وتقاس المنافع بالمضار، وإنما تكون الزلة مع العجلة.

ثم بيّن هانىء أن هذا الأمر لعظم خطره لا يعنيهم وحدهم، ولا يخصّهم من بين قومهم، بل هو أمرهم وأمر قومهم من ورائهم، والزعامة العادلة هي التي لا تفتات على الجمهرة فيما يعنيها من الأحداث في حياتها، ولا تستبد في تقرير مصير من قلّدوهم قلائد زعامتهم.

ولعل هانىء بن قبيصة أراد أن يعطي رسول الله ﷺ صورة تمثل زعامتهم لقومهم، وأنهم إن كانوا مطاعين فيهم، ولكنهم لا يفتاتون عليهم فيما يعمّهم، ولذلك قال: ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، لم يشهدوه ولم يبدوا فيه رأياً، لأن ذلك من المفاسد الاجتماعية التي تشتت جمع الجماعة، وتفرق شملها، وتبدد وحدتها، وتفتأ روابط الزعامة، وتحل عقدتها.

وكان هانىء كما كان صاحبه مفروق وقافاً مع وثنيته لم يقارب الإيمان بالدين الجديد، ولم يشرد منه، وسكت عن (لا) و(نعم)، ولكنه أخذ لنفسه الحيطة وأعطى لرسول الله ﷺ النِّصَف في عرف تقاليدهم الجاهلية، وهو في هذا العرف لا تثريب عليه لأنه رجل ما يزال سابحاً في غمرة زعامته الوثنية، فقال: ولكنّا نرجع إلى مستقرنا بين قومنا، ومستودع أسرارنا في ديارنا، وننظر فيما سمعنا منذ اليوم، وينظر معنا قومنا، ويرجع رسول الله ﷺ إلى رأيه في عرض دعوته وتبليغ رسالته إلى كل من يلقاه من الناس أداء لموجبات القيام بحق التبليغ وينظر فيما سمع منا، فلعل الله يجعل له منا رِدْءاً يصدقه ويجمع بيننا وبينه في ظل رأي قد غبَّ واستوى، والله من وراء ذلك بحكمته وعلمه وتدبيره.

ولم ينس هانىء ـ وهو حكيم القوم، وصاحب دينهم ـ أن النبي ﷺ ذكر أنه يدعوهم إلى أن يؤووه وينصروه، لأن قريشاً قومه وقفت منه موقف العداوة العنيدة، فلا يمكن أن ترضى بغير حرب مبيرة لمن يؤوي محمداً وينصره عليهم، فكان لا بد من سماع رأي القوة الحربية ممثلة في شخص قائدهم وصاحب حربهم، وحامل لواء كتائبهم في معاركهم، فليشركه في الرأي المثنّى بن حارثة شيخهم وصاحب حربهم.

وتكلم المثنى ـ وقادة الحروب من أقل الناس كلاماً في غير اختصاصهم ـ ولذلك أمَّن المثنى على كلام هانىء، ولكنه زاد على كلام هانىء عرض ما يخصه في معرفته تقدير القوة الحربية التي يخشونها إذا أجابوا دعوة رسول الله ﷺ أن يؤووه وينصروه، وبيَّن المثنى أن منازل قومه تقع بين

أنهار كسرى ومياه العرب، وأن أنهار كسرى لا سبيل الى اقتحامها والاعتداء على حرمتها وكسر حدودها، فذلك إذا وقع كان ذنباً لا يغفر، ولا يقبل فيه عذر لمعتذر، وأما مياه العرب فأمرها سهل، وذنبها مغفور، وعذرها مقبول، والقوة عليها مقدورة.

ثم بيّن المثنى السبب في صعوبة أمر أنهار كسرى، وأنها جاءت من قبل الوفاء بالعهد والمحافظة على زمام العقد، فهم قد نزلوا منازلهم على عهد أخذه عليهم كسرى: أن لا يحدِثوا حَدَثاً وأن لا يؤوا محدِثاً، والعرب من أوفى الأمم بعهد، وأحفظهم لحرمة عقد، وأبعدهم عن الخيانة والغدر.

ثم بيَّن المثنى أن دعوة رسول الله ﷺ بما قامت عليه من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده، وخلع الشرك والوثنية بكافة ضروبها وسائر ألوانها، وإقامة موازين العدل والمساواة بين أبناء البشر في أرجاء الأرض وأقطارها ـ أمر يكرهه الملوك وخاصة الأكاسرة الذي كانوا يستعبدون شعوبهم استعباد عبودية، يتألّهون بها عليهم فكسرى كان في قومه معبوداً من دون الله تعالى، وكان ملكه قائماً على الاستبداد المطلق.

والعرب ولا سيما المصاقبون للفرس يعلمون ذلك ويعلمون شدة حرص الأكاسرة على ملكهم في صورته الاجتماعية القائمة التي خضع لها شعبهم، وارتضاها حياة لهم، حتى أخرجهم الإسلام من ضيقها إلى سعة عدل الله ورحمته.

وقد حفظ تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ صورة من هذا الفجور الاستعبادي، وذلك حينما كتب النبي ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام فيمن كتب إليهم من ملوك الأرض، فكبر على كسرى أن يقوم لله تعالى قائم من العرب يدعو إلى توحيده ويأتي بدين جديد، يجعل هذا المستكبر على أسوة مع سائر البشر في المساواة والعدالة، فمزق كتاب النبي ﷺ، وتغضّب وثار وانتفخت أوداج الكبرياء فيه، وزمجر، وهدر وأرعد وأزبد، وبلغ النبي ﷺ موقفه هذا فدعا عليه أن يمزِّق الله ملكه، فكان أن سطا عليه ولده فقتله، ومزق الله ملك كسرى، وصارت فارس

ملكاً إسلامياً، يحمل راية العلم الإسلامي والمعرفة الإسلامية، والدعوه إلى الله تعالى.

والكلام الذي ذكره المثنى في صدد أنهار كسرها وتهيبهم لها يقصد به في صراحة لا تعـرف الالتواء والمـواربة، وهي خلق يغلب عـلى القادة الحربيين، بعد أن مهد له بوجوب المحافظة على العهد أن قوتهم لا تستطيع أن تقف أمام قوة كسرى في جبروته، والعهد الذي بينه وبين جيرانـه العرب، يعطيه حق أخذ من تحدثه نفسه بالاعتداء على أنهاره وما وراءها من أرض كسروية.

وكأن هذا جاء اعتذاراً قدمه المثنى صاحب حرب شيبان وقائدهم عن عدم إمكان إيواء محمد ﷺ وحمايته ونصرته على كسرى وقومه فيما يقع على حدود أنهاره وبلاده.

أما إذا كان الأمر خاصاً بمياه العرب فهم قادرون على حمايته في دائرتها، وهم على أكمل استعداد لإيوائه في ديارهم، وحمايته، ونصرته على من يناوئه من كافة العرب، قريش فمن سواها.

وهنا موقف. للنبوة، يصور عظمتها، ويصور قوة إيمان الرسـول برسالته، التي لا تتوقف عند حد أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، أو جنس من الأجناس، أو طائفة من البشر، أو نظام من النظم الاجتماعية في أي شكل من شكول الحكم، فذلك كله يجب أن يدخل في دائرة رسالة محمد ﷺ، فيجب أن تكون في سيرها منطلقة في وجوه الأرض تنشر دعوتها مهما كانت العقبـات التي تتكاءدهـا في طريقهـا، ومهما تكن قـوة العتو والجبروت التي تحاول تعويقها عن أهدافها.

ولهذا لما بيَّن المثنى بن حارثة صاحب حرب شيبان أنه لا سبيل إلى القدرة على اقتحام أنهار كسرى، وحماية من يتخطاها بأية دعوة ـ ولا سيما إذا كانت دعوة يكرهها الملوك، وفي طليعتهم الأكاسرة كـدعوة رسـول الله ﷺ، فإن حماية شيبان إذا آووه إلى ديارهم تكون حماية جزئية خاصة

بمياه العرب ـ تجلت عظمة النبوة وتعاظم جلال الرسالة، وترجم إيمان الرسول برسالة نفسه عن قوته ونفاذ عزيمته، وهذا الإيمان هو المعجزة العملية الخالدة لتبليغ الرسالة بلاغاً كاملاً واضحاً، والسير بها إلى غايتها، لتخرج الناس من ظلمات الجهالة والاستعباد إلى نور العلم وحرية العقيدة والعمل في الحياة.

وقد كان بيان المثنى صريحاً، متعقلاً، مقدراً للموقف من وجهة نظرهم، فكان صورة صادقة في صورته المعبِّرة عن صدق القصد، بأنه وقومه لا يستطيعون إيواء رسول الله ﷺ وحمايته ونصرته على كسرى، وهو ـ كما يعلمون ـ في قوته الحربية الهائلة، لكنهم قادرون على حمايته ونصرته مما يلي مياه العرب، وهذه حماية جزئية لا سلطان لها إلا على أضعف جوانب الحماية والنصرة.

ودعوة محمد ﷺ ورسالته دين الله الذي يعمّ أقطار الأرض في شرقها وغربها، ويعم جميع الأمم والشعوب والأجناس البشرية وممالكهم ودولهم، ويعم مقاومة القوى التي تقف في سبيل نشر الدعوة، مهما كانت، وكيفما كانت، ولا يمكن أن تتحقق نصرة دين الله وهو بهذا العموم إلا بحياطة عامة شاملة، لا تهاب أعظم القوى، ولا ترهب سلطاناً لأحد في الأرض غير سلطان الله تعالى.

ولهذا جاء رد رسول الله ﷺ على المثنى ردّاً جميلاً حازماً، مقدِّراً للقوم صدق صراحتهم، وهم يعلمون موقفه في وحدته، والتماس الإيواء والنصرة أينما وجد لها سبيلاً، فقد حدَّد ﷺ في ردِّه مهمة من ينبري لنصرة دين الله، وأنها يجب أن تكون عامة شاملة قوية قاهرة، لا تهاب قوة من قوى الأرض والبشر.

فالنبي ﷺ قدَّر للقوم إحسانهم في أسلوب حوارهم معه، وردَّهم عليه، وبين لهم أن جهدهم الجزئي في نصرة دين الله تعالى لن ينصره في دعوته وتبليغ رسالته، لأن دين الله في عمومه وخلوده وقوة سلطانه، وما جاء به من توحيد الله تعالى، وإخلاص العبودية له، وطرح عباده

المخلوقين كيفما كانوا، لن ينصره نصراً يحقق له أهدافه إلا من حاطه من جميع جوانبه لا يترك منه جانباً مكشوفاً، ولا ثغرة مهدرة، لا تحرسها قوة قادرة، تملك الدفاع عنها وترد اعتداء من يحاول اقتحامها مهما كانت قوته وسلطانه.

وقد أراد النبي ﷺ أن يعالج بحكمته مرض الخوف الذي ملأ صدور زعماء شيبان من كسرى وعتوه وجبروت قوته الحربية، ويهوِّن عليهم شأن هذه القوة التي يرهبونها، ويخافون سطوتها وبطشها، لينزع من قلوبهم المهابة منهم، فهي قوة منهارة أمام قوة الإيمان بعقيدة الحق، بل هي قوة ينخر فيها سوس الفناء، وستتهاوى أمام قوة الحق والعدل.

ولعل هؤلاء العرب الذين استضعفوا أنفسهم أمام قوة الأكاسرة سيكون لهم شرك وإسهام في كسر حدَّة هذه القوة المادية الباطشة بزمجرتها، الجوفاء في حقيقتها، لأنها لا ترتبط بقوة الإيمان بعقيدة الحق والعدل والإصلاح، وتحرير الإنسانية من براثن الاستعباد، وكذلك كل قوة لا تملك في روحانيتها هذا الارتباط العلوي محكوم عليها بالتفتت والزوال، وسيرثها الذين يقيمون دعائم قواهم على أسس من الإيمان والحق والعدل والإصلاح.

وقد حلَّق رسول الله ﷺ في آفاق الغيب، وقرأ في كتاب الكون وسنن الله في حياة المجتمع الإنساني أن قوى الشر لا بقاء لها، وقد أراد ﷺ أن يرفع هؤلاء القوم الذين أخلدوا إلى الأرض لا يريمونها على أجنحة الأمل الفسيح، ليعدهم نفسياً ليوم يأتيهم وهم يخوضون معارك الشرف والكرامة مع هؤلاء الأكاسرة باسم الإسلام والعدل، وأنهم سيكسرونهم ويورثهم الله تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشهم نساءهم، يستولدونهم جيلاً يجري في عروقه دمهم من أكرم ناحيتيه، ولا يكون ذلك إلا بقوة الإيمان بعقيدة الحق التي لا تطلب من صاحبها إلا حَوْطها بما يحفظها ويستديم صلتها بالله القوي الأعلى، مالك الملك، الذي يؤتي ملكه من يشاء من عباده، وينزعه ممن يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذل من يشاء،

فسبحانه تقدس، بنعمه وحمده، لا يطلب من عباده على إنعامه غير تسبيحه وتقديسه، فهل أنتم كذلك؟

وهنا بدر النعمان بن شريك - وكان يصغي ويسمع، ويعي ولا يتكلم - ورأى أن الحوار بلغ نهايته بهذه البشرى الكريمة، فقال: اللهم لك ذا.

وعند ذلك أراد النبي ﷺ إنباءهم إعجازاً ليجعل ذلك واقعاً وعداً من الله تعالى، فتلا عليهم ما خصه الله به من نعوت الحمد والكمال والمجد والنصر المؤزر في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[1].

وقد تحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، وفتحت فارس، وكان قائد فتحها الأول قائد شيبان وصاحب حربها المثنى بن حارثة، وكان أبو بكر الصديق في خلافته، تأتيه أخباره في غمرة حياة فارس بغاراته عليها واقتطاع أرضها فيعجب به قبل أن يعرفه.

ولما انتهى هذا المجلس إلى غايته نهض رسول الله ﷺ طيب النفس بما سمع ورأى من القوم، ليترك أثر المجلس يعتلج في صدورهم، لعلهم، وعساهم.

وقد أعرب - ﷺ - في أروع بيان وأبلغ أسلوب وأصدق كلام عن محاسن الأخلاق التي رآها في القوم، وهي من أخلاق العرب في جاهليتهم، وعن أدبهم الاجتماعي بعضهم مع بعض في حوارهم وإصغائهم وحسن استماعهم لما يجري من الحديث، وفي أسلوب مخاطبتهم له ﷺ وهم لمّا يؤمنوا به بعد، وحسن تناولهم للحديث معه ﷺ وفي صدق صراحتهم، وصراحة صدقهم، وفي تعقلهم، وتأتّيهم للأمور من مداخلها في ريث وأناة، فقال ﷺ وهو يشد على يدي صاحبيه: الصديق أبي بكر، وعلي بن أبي طالب: «أية أخلاق كانت للعرب في الجاهلية؟ ما أشرفها.. بها

---

(١) سورة الأحزاب، آيتا: ٤٥ - ٤٦.

يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم».

هذا لون من الأحداث التي عرضت للنبي ﷺ وهو يعرض نفسه على الناس في منازلهم يدعوهم إلى توحيد الله، ويبلِّغهم رسالات ربهم، وقد اخترنا ونختار منها ما كان له أثر قوي في دفع سير الرسالة إلى أهدافها، أو كان له أثر في بيان صور الكفاح الصبور الذي درج عليه رسول الله ﷺ في أطوار دعوته، ليكون من ذلك نماذج لورثة تبليغ الدعوة من بعده، يحتذونها، ومُثُلاً يتقلدونها، أداء لما قُلِّدوه من وجوب القيام بنشر دين الله في أرجاء الأرض.

محنة الحصار الاقتصادي

المقاطعة الظالمة

قوة عزيمة النبي ﷺ على المضي قُدُماً في المسير بدعوته أحفظت ملأ الكفر فأتمروا بقتله

لم يفتر رسول الله ﷺ لحظة واحدة عن القيام بأمر ربه في تبليغ رسالته، ونشر دعوته، وهو يلقّى من محن البلاء وفوادح الإيذاء وسفاهة السفهاء، وإقامة العقبات في سبيل سير الدعوة إلى أهدافها، والوصول بها إلى غايتها، صابراً محتسباً، عفواً صفوحاً، كريماً حليماً، مما جعل دعوة الحق والهداية تدخل إلى كل مجتمع ومحفل وناد في مواسم العرب وأسواقهم، حتى أصبح لها في كل قبيلة ذكر، وعند كل قوم أثر ومشهد، وتحدّث الناس عن هذه الدعوة بين موافق معجب ومخالف مقلد.

وقد أحفظ ذلك عتاولة الشرك وغطارفة الوثنية، وملأ الكفر من المستكبرين في قريش، فاشرأبت أعناق الحقد الأسود في قلوبهم، وتعرّجت طرائق المقاومة، وأبلسوا في متاته الحيرة، وعُمِّي عليهم الرأي، وغُميت عليهم دلائل الهداية، فلم يعرفوا إلا الشر وذرائعه، وإلّا سوء المكر ووسائله، وانتهَوا إلى مجثم الشيطان يستنزلون أوامره، وتلقوها من وحيه سوداء مظلمة، حاقدة مضطغنة، وراحوا يمكرون ويدبرون لينفذوا أبشع جريمة غادرة ختون، بعد أن أعيتهم مواقف العزيمة الصارمة الماضية التي لا ينحسر مدها، ولا يتوقف توثبها في ثبات ورسوخ من الإيقان الذي ملأ حياة محمد ﷺ، وحياة أصحابه معه، فاستهانوا بكل بلاء، واحتملوا كل إيذاء وتعذيب، وسخرية واستهزاء، فلم يبقَ أمام ظلم ذوي القربى إلا قاصمة الظهر، فقد طرقوا كل باب من أبواب الشر والفجور، فلم يُجْدهم شيئاً، وانتثروا آخر سهامهم، فلم يجدوا فيها إلا سهماً واحداً لم يجربوه،

ذلك أن يقتلوا محمداً ﷺ علانية ليجعلوا قومه بني هاشم أمام عاصفة لا قبل لهم بالوقوف أمام زمجرتها وتدميرها.

أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب الزهري فيما رواه عنه تلميذه موسى بن عقبة صاحب المغازي، قال: ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية

تدبير أبي طالب لحماية رسول الله ﷺ من الاغتيال

فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك، مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، وذلك في المحرم من السنة السابعة من النبوة.

ثم أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى الحبشة، وهذه هي الهجرة الثانية، ومن قوي على البقاء بمكة دخل مع النبي ﷺ وقومه الحصار بالشعب.

سبب كتابة الصحيفة الظالمة وغايتها

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، واجتمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم إلا أن يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

وكتبوا بمكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق ألّا يقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا محمداً ﷺ للقتل، فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يقدم مكّة، ولا بيعاً، إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ.

شدة حرص أبي طالب على حماية رسول الله ﷺ وتدبيره لذلك

وكان من شدة حرص أبي طالب على رسول الله ﷺ وبالغ حياطته وحفظه أنه كان مدة زمن الحصار إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه المعدّ لنومه حتى يرى ذلك من أراد به ﷺ مكراً لاغتياله، فإذا نوّم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه

فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

فلما كان رأس ثلاث سنين ـ أي من ابتداء دخولهم الشِّعْب ـ تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش، قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر، والبراءة منه.

آية الله في صحيفة المقاطعة الظالمة

وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي كان المكر فيها برسول الله ﷺ الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق.

ويقال: كانت معلقة في سقف البيت، ولم تترك اسماً لله عز وجل فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم، أو قطيعة رحم.

وفي رواية لصاحب العيون عن ابن هشام قال: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «يا عم إن ربي قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً لله إلا أثبتته، ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان».

سعي أبي طالب بما أخبره به رسول الله ﷺ من آية الله في صحيفة المقاطعة

قال أبو طالب: أربك أخبرك بهذا؟ قال (نعم) قال أبو طالب: فوالله ما يدخل عليك أحد، وأطلع الله عز وجل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد وهوحافل من قريش، فلما رأوهم عامدين إليهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء، فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ، فتكلم أبو طالب، فقال: قد حدثت أمور بينكم لم تذكر لكم، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ـ وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة، قبل أن يأتوا بها ـ فأتوا بالصحيفة معجبين بها، لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم، فوضعوها بينهم،

وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم وعشيرتكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نَصَف.

إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني أن الله عز وجل بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا، فوالله لا نسلمه أبداً حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم.

قالوا: رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب، قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم فارتكسوا، وعادوا بشرِّ ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين.

كاتب الصحيفة وما صبَّه الله عليه من بلاء

وهذه الرواية تقول: إن الصحيفة كانت عند هشام بن عمرو ابن الحارث العامري، وقيل هو كاتبها، والمعروف أن الصحيفة عُلِّقت في جوف الكعبة تأكيداً للتمسك بما فيها من عهود ومواثيق، وفي كاتبها بعد هذا القول اختلاف، قيل: إنه منصور بن عكرمة، وقيل: إنه بغيض ابن عامر، وقيل: إنه النضر بن الحارث، وفي هؤلاء الثلاثة قيل: فشَلَّت يده أو أصابعه.

قال السهيلي في «الروض»: وذكر أن منصور بن عكرمة كان كاتب الصحيفة فشَلَّت يده، وللنسَّاب من قريش في كاتب الصحيفة قولان، أحدهما أن كاتب الصحيفة هو بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والقول الثاني أنه منصور بن عبد بن شُرَحْبيل بن هاشم من بني عبد الدار، وهو خلاف ابن إسحاق الذي ذهب فيه إلى أن كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

قال السهيلي: ولم يذكر الزبير في كاتب الصحيفة غير هذين القولين، والزبيريون أعلم بأنساب قومهم.

شدة الحصار واحتمال المحاصرين وفجور المحاصرين

وقد كانت المحنة في هذا الحصار الظلوم شديدة، قاسية، موجعة، مؤلمة، قابلها المؤمنون بالصبر الجميل، والتحمل الكريم.

قال السهيلي: إنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، روي أنه قال: لقد جعت حتى إني وطئت على شيء فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن.

وفي رواية يونس: أن سعداً قال: خرجت ذات ليلة لأبول، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها، ثم رضضتها وسفسفتها بالماء، فقويت بها ثلاثاً.

وكان طغاة المشركين وهم مستغرقون في عتوهم وفجورهم إذا قدمت العير مكة يأتي أحد هؤلاء المحصورين السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله، فيقوم المتبوب بلعنة الله أبو لهب عدو الله فيقول: يا معشر التجار، غالُوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيزكّيهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً.

كاتبها ماحيها

ومن عجائب حكمة العليم الحكيم عز شأنه أن أحسن القوم بلاء، في كشف هذه الغمة ونقض الصحيفة الظالمة الفاجرة هو أشدهم لها في بدء أمرها حماسة، كاتبها كما قيل ـ والأمين على حفظها ـ كما قيل أيضاً ـ هشام بن عمرو بن لؤي، وأبوه عمرو أخو نضلة بن هاشم لأمه، الذي بدّل الله شدته على المؤمنين رأفة ورحمة، وجفاءه عطفاً، وقطيعته وصلاً، فكان من أوصل القوم للمؤمنين ومن معهم، وكان شريفاً في قومه ذا مروءة ونخوة.

كان ـ كما يقول ابن إسحاق ـ يأتي بالبعير ليلاً قد أوقره طعاماً حتى إذا أقبل به فم الشِّعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشِّعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بزاً أو براً فيفعل به مثل ذلك.

تحرك عواطف الحمية والقربى مزق صحيفة المقاطعة الظالمة

قال محمد بن سعد: كان هشام بن عمرو العامري أوصل قريش لبني هاشم حين حصروا في الشِّعْب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعاماً، فعلمت بذلك قريش، فمشَوا إليه حين أصبح فكلّموه في ذلك، فقال: إني غير عائد لشيء خالفكم فانصرفوا عنه، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم ليلاً حملاً أو حملين، فغالظته قريش وهمت به، فقال أبو سفيان ابن حرب: دعوه رجل وصل أهل رحمه، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا.

وهو أول من نهض في نقض الصحيفة الظالمة، جمع إليه من صناديد قريش ثلة لم يزل يفتل لهم في الذروة والغارب حتى استنزلهم إلى رأيه، فمشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، أخت أبي طالب، وعمة رسول الله ﷺ، وهذه سياسة في الرأي تدل على ثقوب فكره، وذكاء قريحته، وتأتِّيه للأمور من قبلتها ووجهها، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يباع لهم، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً.

فانظر إلى معرفته بدخائل النفوس وإثارة حفائظها لتقدم على ما تريد غير مبالية بما يكون من كوائن الأخطار في سبيل الوصول إلى الهدف.

فقال له زهير وقد استهواه منطقه: ويحكم يا هشام!! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال هشام: قد وجدت رجلاً قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب هشام إلى المطعم بن عدي، فقال له: يا مُطعِم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه، أما واللهِ لو أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً، قال مطعم: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال أنا، قال: ابغنا ثالثاً، قال قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعاً، فذهب هشام إلى أبي البَخْتَري ابن هشام، فقال له نحواً مما قال لمطعم بن عدي، فقال أبو البختري، وهل من أحد يعين على ذلك؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال ابغنا خامساً، فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابته وحقهم، فقال زمعة: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى له القوم. فاتعدوا خَطْم الحَجُون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدَوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشقق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!!

لؤم نحيزة أبي جهل جعله يقف موقفاً لئيماً

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبتَ والله لا تُشق! قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، مارضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري، صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به، قال المطعم ابن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال المخذول الفاجر أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تُشوور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم.).

وكانت تلك الوثبة في القيام لنقض الصحيفة الظالمة القاطعة بعد أن

أخبر رسول الله ﷺ عمه أبا طالب بما أخبر به بالوحي في شأن الصحيفة، وتحدث به أبو طالب إلى ملأ قريش، فوجدوه كما قال الصادق المصدوق، عندما أتوا بالصحيفة ونظروا فيها، فقالوا عناداً وفجوراً: هذا سحر، وعزموا على المضي في عتوهم وعنادهم ولكنهم فوجئوا بهشام بن عمرو ومن قام معه من صناديدهم ينكرون ما في هذه الصحيفة القاطعة من الظلم وغلظ الأكباد، وهمَّ المطعم بتشقيق الصحيفة، فلم يجدوا فيها إلا (باسمك اللهم) وباء ملأ قريش بالخزي والخذلان، ونصر الله رسوله ﷺ.

وقد استفحل فجور أبي جهل في هذه المحنة، فكان يترصد كل شيء يدخل إلى الشعب ليمنع ما عسى أن يكون فيه بعض الإسعاف للمحصورين، وهم يقاسون مع نسائهم وأطفالهم مرارة الجوع والعري في محبسهم وعزلتهم، فقد ذكر سائر الرواة أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام ابن خويلد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة، وهي في الشعب، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام، فقال: ما لك وله، قال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، قال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خَلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لحي بعير فضربه به فشجه ووطئه وطأً شديداً، وحمزة رضي الله عنه يرى ذلك، ويكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم، ورسول الله ﷺ على ذلك دائب يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وجهراً.

عودة النشاط إلى سير الدعوة

فلما انتهى أمر هذه الصحيفة الظالمة القاطعة وأفسدها الله بحكمته وتدبيره وجعل فسادها على أيدي قوم من صناديدهم وغطاريفهم، وفتَّ ذلك في أعضادهم، وفرق كلمتهم وجللهم بالعار والشنار خرج رسول الله ﷺ ورهطه، فعاشوا وخالطوا الناس، وعادت دعوة الإسلام إلى سيرتها الأولى، يحملها رسول الله ﷺ إلى مضارب القبائل ومجتمعات الناس في المواسم والأسواق، وكان ﷺ يخرج إلى محافل العرب يسأل عن أشراف الناس وساداتهم، ويجلس إليهم يدعوهم إلى إيوائه حتى يؤدي رسالة ربه،

فما كان يجد عند أحد منهم خيراً، يقولون له: وهم يردُّونه أقبح الرد: قوم الرجل أعلم به، حتى قيّض الله له من ادَّخرهم في أزل الغيب لنصرة دينه والتشرف بإيواء نبيه ﷺ، أولئك أنصار الله وأنصار رسوله وكتائب الإسلام.

عام الحزن
وتوالي اشتداد المحن

كان خروج النبي ﷺ من محنة الحصار، وتقاسم المشركين على فجور الكفر، هو ومن معه من المؤمنين الذي بَقوا في مكة، ولم يهاجروا مع إخوانهم أصحاب الهجرة الثانية إلى الحبشة ومن دخل معه من بني هاشم والمطلب حمية قومية، وهم على دين قومهم من الشرك والوثنية في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة بثلاث سنين.

وقد كان الدخول إلى الشِّعْب وبدء الحصار هلال المحرم سنة سبع من النبوة وكانت مدة هذا الحصار الظلوم ثلاث سنين في رواية موسى ابن عقبة، أو سنتين في رواية محمد بن سعد، وقد ذكر ابن إسحاق الروايتين على الشك، فقال: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، وقد كانت هذه المحنة لوناً من ألوان التربية التي تعهد الله تعالى بها نبيه محمداً ﷺ، ليعدّه لتحمل أثقال الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته، بما كان فيها من شدائد ومحن وتمحيص لعزائم أهل الإيمان.

كان خسران ملأ قريش وفجار عتوها غصصاً في حلاقيمهم زادهم عناداً وفجوراً

وقد حزَّ في أنفس طغاة الشرك أن يبوء بالخسران المبين تدبيرهم السيء، ومكرهم الحقود، إذْ ردّ الله تعالى كيدهم في نحورهم، وأحاق بهم سوء مكرهم، فشرقوا بما دبّروا وازدادوا عتواً في كفرهم وفجوراً في عتوهم، فافتنوا في تعذيب من تمكنوا من تعذيبه من المؤمنين، ومنعوهم من كل ما يحفظ عليهم ذماء الحياة ويسد الرمق، والمؤمنون صابرون محتسبون، لا يزيدهم هذا الطغيان إلا رسوخاً في يقينهم، وإيماناً بدينهم، واستمساكاً بعقيدتهم، واستشرى الحقد في صدور أحلاس الوثنية فأحرق قلوبهم، وزئر

كل قبيل منهم بكل من كان يمت إليهم من المؤمنين بصلة قرابة، أو ولاية أو حلف، فلم ينل ذلك من إيمانهم شيئاً، فكان هذا الثبات على الإيمان تحت أسواط التعذيب أغيظ لملأ الكفر من عتاة المشركين، ولا سيما أن النبي ﷺ بعد أن خرج بمن معه من المؤمنين من محنة الحصار مظفّراً قوياً، ماضي العزيمة، لا يصده عن المضي في نشر دعوته فادح البلاء، ولا يثنيه عن تبليغ رسالته زجمرة الطغيان ـ ازداد تحركه وازداد اتصاله بالناس في مجتمعاتهم ومحافلهم وأنديتهم، يدعوهم إلى الله، ويسمعهم آياته، فلم يكن ﷺ يسمع بمنزل شريف من أشراف العرب إلا جاءه ودعاه وقومه إلى الله، فازداد بذلك انتشار الدعوة، وتسامعوا بتفاصيل محنة الحصار وتقاسم الطغاة على الكفر والقطيعة، وعرفوا تأييد الله تعالى لنبيه ﷺ في نقض تلك الصحيفة الظالمة التي تعاهد فيها الظالمون، وتقاسموا على القتل والفتك بأبشع صوره، وذاع في أسواق العرب ومواسمهم ما وقع في الحصار من معجزات باهرات وآيات قاهرات.

مواقف الجمهرة من الدعوة

فمن الناس من كان يسمع النبي ﷺ ويُؤْخَذ بما يسمع من هداية فيحسن الرد، ويقف حائراً لا يخطو إلى ساحة الإيمان، ومنهم من كان يستمع إليه ﷺ ويسيء الرد في جفوة جاهلة وعنجهية فاجرة، وبأو مغرور، فيقول لهم النبي ﷺ: «إني لا أكره أحداً منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه، فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله عز وجل لي ولمن صحبني بما شاء الله» فلم يقبله أحد منهم.

إن في هذه الكلمات النبوية الشفافة من وداعة العرض وسموّ الإشفاق ما ينطق الشم الرواسي، ولكن الهدى هدى الله.

ومن الناس من طمع واشرأب للدنيا، ورأى في عرض النبي ﷺ نفسه عليهم في مضاربهم ومنازلهم يدعوهم إلى أن يؤوه ويحرزوه حتى يبلغ رسالة ربه فرصة سانحة لتحقيق مآربه من العلو في الأرض، فكان النبي ﷺ يفهمهم في هدوء ويقين أن أمره وأمر دعوته ورسالته ليس أمر

دنيا تحاز، ولا مطامع فيها تنجز، ولا مآرب من مظاهرها تحقق، وإنما أمره أمر دعوة إلى الله الحق، مالك الدنيا والآخرة، وهو ﷺ ليس له من الأمر شيء، والأمر كله بيد الله يضعه حيث يشاء، وهو ﷺ في أشد الحاجة إلى من يحرزه ويأويه ويحفظه مما يراد به من القتل والفتك، لكنه رسول الله - ﷺ -، ليس عليه إلا بلاغ رسالة الله، وليس له أن يعد أحداً بأن الأمر بعده له، لأن الملك لله تعالى يؤتيه من يشاء، وليس وراء ذلك منزلة من منازل الصدق والأمانة والإخلاص.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أنه ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له (بَيْحَرة) بن فراس: واللهِ لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال للنبي ﷺ: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال النبي ﷺ: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» قال (بَيْحَرَة): أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، فأبَوا عليه.

قال ابن إسحق: فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما كان في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟.

محن في دروس ودروس في محن ذاك هو منهج الدعوة إلى الله

هذه المحن القاسية كانت صيقلاً لعزائم المؤمنين، ومدداً لعزيمة رسول الله ﷺ، ودروساً للتربية في مستقبل الدعوة القريب والبعيد، وتأسيساً لمنهج الوراثة في الدعوة إلى الله.

ومن ثَمَّ لم تكن هذه المحن سوانح تمر، ولكنها كانت ثوابت تتوالى

صورها وتتتابع ألوانها، فلم تكن تمضي محنة حتى تتبعها شدة، ولم تكد تذهب شدة حتى تليها محنة، وكان الاعتصام بالصبر الصبور هو الدرع الحصينة التي يَئِل إليها رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم يعرف أن موقفاً من هذه المواقف استفزه ﷺ، فغير من هدوئه ووداعته، ولم يعرف أن أحداً من أصحابه الأولين آثر العافية على مرارة الصبر، والرضا بمحن البلاء.

ولهذا كان لا بد أن تستوفي المسيرة نصيبها من التمحيص الذي يصنع حياة المجتمع المسلم، ليقوى على الإمساك بزمام القيادة الإنسانية إلى آفاق العزة وصادق الإيمان بالله إلهاً واحداً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

رُزْء الإسلام ونبيه ﷺ
بوفاة خديجة رضي الله عنها

كانت خديجة رضي الله عنها أعرف الناس وأقدرهم على وزن ما حُمل رسول الله ﷺ من أمانة رسالته

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها وزيرة صدق للنبي ﷺ على دعوته، تواسيه وتخفف عنه مواجع ما يلقى من الناس، فيسكن إليها، وتطمئن نفسه إلى مواساتها، ويستعيد نشاطه بما تصبه في قلبه من حنان الزوجة التي تَقْدُر حياة هذا الزوج الأكرم قدرها، وتعرف له مكانته في حمله أعظم أمانة حملها كاهل بشر في الحياة، وقد شهدت منه في مشرق رسالته ما لم يشهده غيرها من الناس، فآمنت به وصدقته رسولاً أميناً لله تعالى، يتلقى وحيه ويبلّغ رسالته، فيلقى من البلاء ما تنوء تحت ثقله ثوابت الرواسي، فَتُنفِّس عنه وتشجعه وتعينه على الصبر، وتفتح له باب الأمل، وتمسح عن صدره ضائقات الصدور، وتعيد إليه البسمة الحانية، وتهمس له بلواطف العواطف، فينهض من عندها وهو أكمل الناس يقيناً وأرضاهم نفساً وأرهفهم حساً، وأقواهم عزيمة، وأصدقهم صبراً، وأرسخهم إيماناً برسالته، وأعرفهم بموجبات حمل هذه الرسالة وأرضاهم بتحمل أثقالها.

وقد قضت السيدة خديجة رضي الله عنها في كنف رسول الله ﷺ أشق مراحل الدعوة، فكانت حياتها معه أوفى حياة زوجة لزوجها، وأبر حياة شريكة لشريكها، كانت تشاركه مباهجه ومسراته، وتهيىء له أسباب تفرغه لعبادة ربه، تخدمه في بيته بقلبها وعقلها وروحها وبدنها، وترد عنه

عاديات الحياة بين قومه، حتى إذا جاءته النبوة بطلائعها ووحيها كانت أول من آمن به وصدقته وزادته من حبها وحنانها ما كان له نعم المعين في هذه المرحلة التي كانت مرحلة إعداد للرسالة الخاتمة الخالدة.

صورة وصفية للرسالة الخاتمة الخالدة

ورسالة محمد ﷺ ليست كالرسالات التي سبقتها في المنهج العملي، لأنها رسالة عامة خاتمة لجميع الرسالات الإلّهية، بدأت بعنف التصفية لعلائق البشرية بالطبيعة الروحانية التي يتلقى بها وحي التبليغ عن الملأ الأعلى ـ كما فصلناه عند الحديث عن بدء الوحي ـ، فارتاع النبي ﷺ من هذه المفاجآت العنيفة، ورُعِب لفرط ما لقي من الشدة وغرابة اللقاء والتلقِّي، وعاد إلى كنف الحنان والإشفاق التعاطفي في حياطة الوفاء الزوجي عند هذه الزوجة الوفية، وحدَّثها بما رأى، ولقي وتلقَّى، فعرفت بفراستها الواحية، وحسِّها المرهف، وشعورها المستشرف أن أمر هذا الزوج الأكرم لم يعد أمر حياة زوجية يملؤها الحنان والوفاء، ولكنها وثبت إلى حياة جديدة في معالمها التي تنبىء عنها إرهاصاتها، إلى حياة رسالة ورسول، حياة دعوة إلى ما لم تعرفه البيئة التي يعيش فيها محمد ﷺ، وما لم يعرفه المجتمع العام الذي يتقلب بين جنباته محمد ﷺ، إلى حياة تهدم وتبني، تهدم الشرك والوثنية، وتبني التوحيد، تهدم الظلم وتبني العدالة، تهدم الباطل في جميع صوره ومظاهره وتبني الحق بأدلته وبراهينه، تهدم الاستعباد المادي وتبني الحرية الروحانية، تهدم الشر وتبني الخير، تهدم التقليد البليد الأبله، وتبني انطلاق العقل إلى المعرفة والهداية.

تسامي خديجة بحياة الزوجية الوفية إلى حياة الصديقية المؤمنة

فلترتفع خديجة الصدّيقة الأولى بحياة الزوجية الوفية إلى حياة الصدّيقية العظمى حياة الإيمان بالرسالة والرسول، ولتنهض بالعبء المثقل في حياتها الجديدة مع زوجها رسول الله ﷺ، ولتكن معه وزيرة صدق، ورفيق إخلاص وفداء، ولتكتشف الطريق بأسلوبها الخاص لتزيده تثبيتاً في النهوض بحياته الجديدة، ولتضاعف له حبّها وحنانها وقد ذكر لها ﷺ مخاوفه من أن لا يستطيع النهوض بعبء ما حُمِّله في حياته الجديدة، فكشفت له ﷺ ما يعلمه من نفسه من أنه مجمع مكارم الأخلاق، وموئل الفضائل، ومنتجع

الشمائل، ومنبع المحامد، ومصدر الخير، هو الصادق الأمين، الـذي لا يُخْزى ولا يخذل، سنة الله في الحياة، فليفرغ روعه، وليزداد إيماناً بأنـه المنصور المنتصر، وليزداد يقيناً بأنه سينهض بعبء رسالته، لأن الله اجتباه لها و ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

ورقة يؤكد فراسات خديجة وتوسماتها في رسول الله ﷺ

وهؤلاء أهـل العلم الأول فلتـذهب خديجة إلى عليمهم وقارىء الكتاب الأول: ورقة بن نوفل، ليخبرها بما عنده بعد أن تحدثه بما رأت وسمعت، وكان تصديق ورقة آية من فراسة خديجة رضي الله عنها، وأنبأ ورقة محمداً ﷺبالنبأ العظيم، نبأ الرسالة الخاتمة وأثقالها، فكان ذلك إيذاناً لخديجة بأن حياة الدعة والراحة قد ولَّت، وأن حياة الجهاد والنضال والشدة قد بدأت، فلتكن وقفتها إلى جانب محمد ﷺ في حياته الجديدة، حياة الرسالة والرسول وقفة تتسامى إلى مستوى ما ينتظره من شدة وكفاح، وَصَدقت خديجة ما عاهدت الله عليه، بسبقها إلى الإيمان سبقاً لم يشاركها فيه أحد ولا يلحقها فيه أحد، ومضت رضي الله عنها في طريق هذا السبق تقفو أثر رسول الله ﷺ، وتتبع خطواته، لتحيط بخبره علماً، حريصة عليه أشد ما يكون حرص زوجة أمينة وفية على زوج حبيب، حفيظة عليه أشد ما يكون الحفظ من صدِّيقة راسخة اليقين برسالة رسول كريم.

ومرّت الحياة في ظل وفاء الزوجية وصدِّيقية الايمان بين محمد الزوج الحبيب، ومحمد الرسول الكريم، وبين خديجة الزوجة الوفية، وخديجة الصدّيقة المؤمنة، برسالة هذا الرسول الكريم.

عمل خديجة في بيتها بالوفاء الزوجي وتربية أولادها ونشر لواء الصديقية المؤمنة كان أعظم عمل تؤيد به الدعوة إلى الله

وبدأ الكفاح الصارم، والنضال العتيّ بين الحق والباطـل، الحق الذي تمثله رسالة محمد ﷺ والباطل الذي يصوره فجور الشرك والوثنية في ملأ الكفر، ولم يكن لخديجة في هذا الكفاح المرير صوت يسمع، لأنها رضي الله عنها كانت معتصمة بأدب أدبها الله به، وعلم علمها الله إياه، فهي زوج محمد ﷺ وأم ولده قبل أن تأتيه رسالة ربه، فعملها في البيت وهو عمل كبير عظيم، يسدي للرسالة فضلاً ويمدها بقوة، تستجدُّ بها ثباتها أمام عتو الكفر، لأن محمداً الرسول ﷺ أحوج ما يكون وهو يخوض نضالاً

مريراً في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى عاطفة الوفاء في زوجة صادقة الإيمان برسالته، تنسكب في قلبه برداً وسلاماً إذ يؤوب إلى بيته، فيحدث ويتحدث في جو عاطفي يظلله الإيمان والحب، وتهون عليه الصعاب وتجدد عزائمه، ويقوى صبره، ويجتمع أمره، ويخرج إلى حياة الناس مجتمع الإرادة، سوي الشخصية، مسيح الآلام، فسيح الآمال، رَويّ الفؤاد بالصفح والعفو والإحسان.

وبهذا الأدب الإلٓهي الذي اعتصمت بعواصمه خديجة رضي الله عنها عاشت في كنف محمد الزوج ﷺ، ومحمد الرسول ﷺ، تتقاسم معه الشعور بالسعادة في التطلع إلى آمال المستقبل في آفاق الحياة، وتقاسمه الإحساس بأعباء الحاضر وآلامه في ظل أثقال نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، معتصمة بالصبر الجميل تأسياً به ﷺ في مجالات الحياة فيما ترى بين يديها من حاله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه الرسالة بشدائدها، وقوة دفعها الذي استحوذ على إحساساته ومشاعره وسائر قواه الفكرية والروحية والبدنية.

حتى إذا بلغ طغيان أحلاس الشرك من ملأ الكفر ذروة الفجور العتيّ، إذ تعاقدوا فيما بينهم، وتعاهدوا بعد أن يئسوا من أن ينالوا من رسول الله ﷺ نيلاً، وكتبوا بهذا التعاهد وثيقة في صحيفة ظالمة، ضمنوها مقاطعة بني عبد مناف ممن يقف إلى جانب محمد ﷺ لنصره وحمايته من سوء ما يريد الطغاة الفجّار وسائر المؤمنين بدعوته المصدِّقين برسالته من غيرهم، فلا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ويمنعون عنهم كل ما يرفقهم في حصارهم، وأن لا تأخذهم بهم رأفة أبداً حتى يسلموا محمداً للقتل أو يموتوا صبراً.

ودخلت خديجة رضي الله عنها حصار الشعب مع زوجها محمد رسول الله ﷺ تشاركه آلام المحنة ومرارتها راضية صابرة محتسبة، وظلت معه تواسيه وتخفف عنه وقع هذا الظلم الفاجر بما تبديه من احتمال ورضا، وهو ﷺ ساكن القلب إلى وفائها ومودتها وحبها له حب جِدّ وإجلال، وحرص وحفاظ.

حتى قضى الله تعالى قضاءه في هذه المقاطعة الظالمة التي مكثت سيفاً مصلتاً على أعناق كل من يئل إلى محمد ﷺ إيماناً به وتصديقاً برسالته أو حمية قومية له، فمزقت صحيفتها بعد ثلاث سنين مِن كَتْبها بأيدي مَنْ كتبها، وقيام من عاهد على ما فيها من ظلم وفجور وقطيعة.

وخرج رسول الله ﷺ من هذا الحصار ظافراً منصوراً بما صنع الله له من تدبير حكيم مُحْكَم، يتابع سيره في نشر دعوته وتبليغ رسالته، وخرجت معه زوجه الوفية خديجة إلى بيتها تتابع سيرها في الحياة زوجة أمينة، مستظلة بظل الوفاء وصادق الإيمان.

موت خديجة وتسليم الله عليها وتبشيرها بالنعيم المقيم

ولكنها رضي الله عنها لم تلبث إلا قليلاً بعد الخروج من الحصار حتى لبّت نداء ربها راضية مرضية، مبشرة من سيد الخلق زوجها الحبيب الرسول الكريم بالنعيم المقيم في فراديس الجنان، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ وهو بغار حراء ـ كما عند الطبراني في رواية سعيد بن كثير ـ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبَشِّرْها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

قال ابن حجر في الفتح: زاد الطبراني في رواية سعيد بن كثير المذكورة: فقالت: هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام. وعند النسائي زيادة: وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته.

معرفتها بعظمة الله في ردها على سلامه عليها

قال ابن حجر في الفتح: قال العلماء: في هذه القصة دليل على وفور فقهها، لأنها لم تقل وعليه السلام كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون في التشهد: السلام على الله، فنهاهم النبي ﷺ، وقال: «إن الله هو السلام فقولوا: التحيات لله» فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين.

وقد مكثت عند رسول الله ﷺ زوجة أمينة وفية، رزقه الله منها جميع

ولده إلا إبراهيم عليه السلام فأمه السيدة مارية القبطية رضي الله عنها ـ خمساً وعشرين سنة.

قال الحافظ ابن حجر: وقد تقدم في أبواب بدء الوحي بيان تصديقها للنبي ﷺ في أول وهلة، ومن ثباتها في الأمر ما يدل على قوة يقينها، ووفور عقلها وصحة عزمها، لا جرم كانت أفضل نسائه، ثم قال ابن حجر: وروى الفاكهي في كتاب (مكة) عن أنس أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجــه إلى خديجة، فأذن له، وبعث معه جارية يقال لها (نبعة) فقال لها: انظري ما تقول له خديجة؟ قالت (نبعة) فرأيت عجباً، ما هـو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها، ثم قالت: بأبي وأمي، والله ما أفعل هذا لشيء، ولكن أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث، فإن تكن فاعرف حقي ومنزلتي، وادعُ الإله الذي يبعثك لي، قالت (نبعة) فقال لها: والله لئن كنتُ أنا هو قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً.

والظاهر أن هذه القصة ـ إذا صحت ـ كانت في فترة رغبة عمِّه في زواجه بها.

وإلى هنا يقف القلم قليلاً ليستشف مستشرفاً لآفاق الغيب ليـرى ما نال رسول الله ﷺ من شديد الأسى وبالغ الحزن على فقد لون من الوفاء الصدوق، والحب العقول الأمين، بفقد أوفى زوجة وأصدق صدّيقة بموت خديجة رضي الله عنها، وليعلم أية دعامة من دعائم الإخلاص الوفي، وقوة اليقين، ووفور العقل كانت في إهاب هذه الشخصية الصامتة الفريدة في حياة هذه الزوجة الأمينة الوفية والصدّيقة المؤمنة، وما كان لها من أثر في سير الرسالة فترة شدتها ومطلع إشراقها، بما كانت تضفيه على النبي ﷺ من حنان، يمسح عن جبينه عرق المشقة، مما كان يجده في تلقّيه وحي الرسالة وفي طريق تبليغه ما يوحي إليه، من الأذى وفادح البلاء.

ترى ماذا يستطيع القلم أن يكتب وهو سابح في آفاق هذه الحياة

الجديدة ليستشف ويرى ليسجل؟ أجل، إنها خديجة زوج محمد رسول الله ﷺ وأم ولده، وأول المؤمنين والمؤمنات به نبياً ورسولاً، الطاهرة الكاملة، وكفى، إذْ لا فخر وراء ذروة المجد والسؤدد الذي لا يتكرر في الحياة أبداً.

رُزْء الحمية القومية
بفقد أبي طالب

كان أبو طالب ـ واسمه عبدُ مناف بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ﷺ، أخو أبيه عبدالله بن عبد المطلب شقيقه لأبيه وأمه ـ وريث مكانة أبيه عبد المطلب في زعامة بني عبد مناف وهاشم سادة قريش القوّامين على خدمة البيت الحرام بمكة.

كفالة أبي طالب محمد ﷺ

وكان أبو طالب وصيّ أبيه في كفالة حفيده محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ بالقيام على رعايته وحفظه وحمايته، وكانت سن محمد ﷺ يوم مات جده عبد المطلب ثماني سنوات، وقد ضم أبو طالب ابن أخيه محمداً ﷺ إلى حضن كفالته، وجعله مع عياله، يحوطه ويحفظه ويحرص على راحته أشد الحرص، وقام بكفالته أحسن القيام، وأحبه حباً لم يحبه أحداً من ولده، وصبّ به صبابة شديدة. لم يكن يطيـق معها أن يفارقه، فكان ملازماً له في غدوه ورواحه وحلّه وترحاله، وسفره وإقامته، ونومه ويقظته، وقد ثبت أنه صحبه معه في بعض أسفاره للتجارة وهو غـلام يَفَعة، حتى شب محمد ﷺ في ظل هذه الكفالة شباباً روياً، ونشأ نشأة عزيزة كريمة حبيبة، واشتد ساعده، ويدرت رجوليته مبكرة، وشارك عمومته وأبناءهم في العمل ليكسب رزقه، وأبو طالب لا يغفل عنه لحظة، يسدّده في عمله ويوجهه في سعيه، راعياً، أو تاجراً، أو مقارضاً، واستوى شباب محمد ﷺ في ظل هذه الكفالة الموفقة، رجلاً ضرباً من الرجال لا تعرفه الجاهلية، في أخلاقها، وعاداتها، ومعارفها، فكان فيهم الأمين الصدوق، الوفي، الكريم الودود الألوف، وكان أبو طالب كثير العيال، قليل المال، وكان يهوي أن يرى ابن أخيه محمداً ﷺ يعيش عيشة سوية، لا يشعر فيها بضائقات الحياة وشظف العيش مع عياله.

تزويج محمد ﷺ خديجة بعد إتجاره في مالها

وكان أبو طالب يعرف أن خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية، الطاهرة الكاملة، وهي كثيرة المال واسعة الثراء، تقارض بعض من يقوم لها على الاتجار بمالها، وعرض على ابن أخيه محمد ﷺ أن يقوم على هذه المقارضة فيتجر لها في مالها على جُعْل تجعله له أفضل مما تعطي غيره، وأشار عليه بالذهاب إليها، وعرض نفسه عليها للقيام بمقارضتها في الاتجار بمالها، فأبت عليه عزة نفسه أن يقف في حياته من أجل كسب دنيوي موقفاً يشعر فيه بشيء ينزل به عن تساميه بالعزة والكرامة، وقرأ عمه على وجهه ذلك، فأرسل إلى خديجة في شأنه، فأسرعت مستجيبة تلبي طلب أبي طالب لما كانت تسمعه عن أمانة محمد ﷺ وصدقه وكرم أخلاقه، وأضعفت له في مكافأته على عمله في تجارتها، وكان ذلك مفتاحاً لخزائن الغيب التي ادخرها الله لمحمد ﷺ، وصدَّق الخُبْر الخَبَر، وعرفت خديجة عن محمد ﷺ ما لم يعرفه أحد غيرها، فخطبته لنفسها، وزوجه بها عمه أبو طالب، وأصدقها عنه صداق مثلها من العليَّات الشريفات، فكانت معه ﷺ كما كانت وفاء، وإخلاصاً، وحباً، ومواساة ثم إيماناً ويقيناً، وتطلعاً وفراسة قبل الرسالة وبعدها، حتى توفيت رضي الله عنها، حميدة رضية مرضية، مكرمة، لم يتزوج رسول الله ﷺ معها غيرها في مدى خمسة وعشرين عاماً عاشتها في كنف الزوجية معه، إكراماً لها، وحفاظاً على حبها، وصيانة لقلبها من الغَيْرة ونكد الضرائر، دلالة على عظم قدرها عنده ﷺ، ومزيد فضلها.

مواقف أبي طالب في حماية محمد ﷺ وهو يبلغ رسالة ربه

ولما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً إلى الناس كافة وقف ملأ الشرك والوثنية موقف العناد المستكبر، والمكابرة العاتية، والفجور الطاغي، فكذَّبوه، وآذَوه وأتمروا به ليقتلوه، ووقف عمه أبو طالب يذود عنه، وينصره ويحميه، بكل ما أوتي من وسيلة وقوة، جعل نحره دون نحره، وحياته فداء لحياته كما فصلنا ذلك في مواقفه الكثيرة، فلم ينالوا من رسول الله ﷺ نيلاً إلا في غيبة من عمه ونصيره، ورسول الله ﷺ دائب النهوض في نشر دعوته إلى الله وتوحيده، لا يصده عن سيره شيء، فلا يهاب وعيداً ولا يرهب زجرة، واشتد حقد المشركين، وتعددت شكاواهم إلى أبي طالب

من ابن أخيه الذي سفَّه أحلامهم، وضلَّل آباءهم، وسب آلهتهم، وعاب ديانتهم، فكان أبو طالب يردهم ردّاً رفيقاً ويكلم النبي ﷺ فيما كلَّموه في شأنه، فيرى منه عزيمة ماضية، لا يصدها عن وجهها صاد، ولا يردها عن مضيها راد، إيماناً منه ﷺ برسالة نفسه، ووجوب تبليغها إلى الناس، مهما تكن الحوائل والعقبات، فكانت هذه القوة القاهرة في عزيمة رسول الله ﷺ تنفض عن كاهل أبي طالب ما يثقله من أعباء الذود عن ابن أخيه في دعوته ورسالته، وتغسل عن قلبه ما يعتريه من الضعف والوهن أمام تألب قومه عليه، وتجَمّعهم ضده فيشتد في نصرة رسول الله ﷺ، ويعلن ذلك في شعره القوي الرصين، لا يبالي غضبة ملأ الشرك وتهديدهم.

ولأبي طالب في مواقفه هذه قصائد مشهورة تعد من غرر أجود الشعر العربي في أقوى عصوره، ومن أشهر ذلك لاميته الذائعة التي يقول فيها في مدح رسول الله ﷺ وحوطه وحمايته وحقيقة ما جاء به من رسالة خالدة.

كذبتم ـ وبيت الله ـ نُبْزَى محمداً ... ولمّا نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نُصرَّع حوله ... ونُذْهَل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وما ترك قوم ـ لا أبا لك ـ سيداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل

إلى أن قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل

إلى أن قال:

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أيُّ مؤمَّل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم، رشيد عادل غير طائشٍ ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذَّبٌ ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

إلى أن قال:

فأصبح فينا أحمد في أرومة | تقصّر عنه سَوْرةُ المتطاول
حَدِبت بنفسي دونه وحميته | ودافعت عنه بالذُّرى والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره | وأظهر ديناً حقه غير باطل

ومن قوله في قصيدة طويلة:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم | حتى أوسَّدَ في التراب دفينا

هذه صورة من مواقف أبي طالب في حياطته رسول الله ﷺ وحمايته ومناصرته والغضب له، إذا ضمت إلى مواقفه العظيمة منذ كفالته له ﷺ شاباً يافعاً، وغلاماً فارهاً، ورجلاً مسدداً عاملاً في الحياة، ثم نبياً ورسولاً، ائتلفت من ذلك كله صورة كاملة في إطار كفاح أبي طالب ونضاله دونه ﷺ للذود عنه وحمايته.

وقد توج أبو طالب مواقفه بأشرف موقف، وأنبله، وأشجعه، وأقواه، وأوجعه لقلوب الملأ الوثني عن طغاة المشركين.

ذلك هو موقفه في النهوض لكبح جماح المستكبرين المتمردين من عتاة الكفر وقد تقاسموا على قتل محمد ﷺ علانية، وموقفه للقضاء على صحيفة الفجور التي تعاهدت فيها قريش على استئصال شأفة بني عبد مناف صبراً في حصار الشعب لوقوفهم جانب أبي طالب، ينصرونه في مناصرته لمحمد ﷺ - بتجميعه رجالات قومه من بني هاشم الذين انضم إليهم بنو المطلب، ودخلوا معهم في هذا الحصار الظلوم مدة ثلاث سنين، وبتدبيره حياطة رسول الله ﷺ والحفاظ عليه وحمايته من الاغتيال والفتك به، حتى قضى الله أمره بنقض الصحيفة الفاجرة، وتمزيقها شر ممزق.

وخرج أبو طالب مع قومه ومن ناصرهم بخروج رسول الله ﷺ من الشّعب ظافراً منصوراً، مؤيداً من الله تعالى بما أيده به من معجزاته القاهرة، وآياته الباهرة، يتابع سيره في نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى الناس في محافلهم ومجتمعاتهم ومواسمهم وأسواقهم، يعرضها على كل شريف قوم يذكر له، لا يناله من الأذى ما يصده عن قصده وغايته، تهيباً لعمه وناصره أبي طالب، السيد المطاع في قومه، القوي في حميته وحمايته، الشجاع في

غضباته، الجسور في مواقفه.

كانت خديجة وأبو طالب دعامتين من دعائم سير الرسالة في أزماتها

وهكذا كان رسول الله ﷺ في مدى عشر سنوات من نبوته بين حماية قوية من قومه بزعامة عمه أبي طالب، وبين سكون ووفاء، وصدق مؤازرة من زوجه الأمينة الوفية السيدة خديجة رضي الله عنها.

ذاك يدفع عنه الأذى وينصره، ويحوطه ويحميه، وهو يجول بدعوته بين مجتمعات الأقوام، وتلك تمسح عنه بحنانها ووفائها وصدق مؤازرتها - إذا عاد إليها من جولاته داعياً إلى الله - ما عسى أن يكون قد ألم به من مساقط جهالة الجهلاء، أو من سفاهة السفهاء، حتى قضى الله عز وجل قضاءه الذي لا يرد، وتوفيت الزوجة الوفية الصديقة الأمينة خديجة رضي الله عنها بعيد الخروج من الحصار الظالم، ثم أعقبت وفاتها وفاة حامي حمى الحمية القومية، الناصر القوي لرسول الله ﷺ، وهو في عنفوان النضال ومرارة الكفاح بأيام قلائل، فاجتمع على رسول الله ﷺ من الهم والحزن بوفاتيهما على التوالي ما لا تطيق حمله الراسيات الشوامخ، وطمع في الإساءة إليه اليوم من لم يكن بالأمس طامعاً، ونال منه اليوم من لم يكن بالأمس نائلاً، ولهذا سمّي عام وفاتهما عام الحزن.

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت خديجة وزير صدق على الإسلام، وكان أبو طالب عضداً وناصراً على قومه، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله ﷺ بيته يقول: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» وعند البيهقي فرجع إلى بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول لها: «أي بنية!! لا تبكي، فإن الله عز وجل مانع أباك» وفي حديث هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعين عني حتى مات أبو طالب.»

ولم ينس رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب فضل مواقفه في الذود عنه

وحياطته ونصره، وكان ﷺ يحب إسلامه، ولكن الهداية بيد الله تعالى يؤتيها من يشاء بفضله، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[1].

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب منتعلاً بنعلين يغلي منهما دماغه» ولم يأله دعوة إلى الإسلام رجاء أن يوفق فيؤمن غير أن القدر كان قد سبق بما شاء الله، روى البخاري في الصحيح عن ابن المسيِّب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ـ وعنده أبو جهل ـ فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا بكلماته حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنه» فنزلت: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[2] ونزلت: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾.

وصية أبي طالب لقومه

وقد ظل أبو طالب على حدبه وحرصه على رسول الله ﷺ إلى آخر لحظة من حياته، بل أراد أن يبقى أثر ذلك له بعد وفاته، قال السهيلي في الروض: وحُكي عن هشام بن السائب أو ابنه أنه قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدّم الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكم بذلكم على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم أَلْب، وإني أوصيكم

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٦.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٣.

بتعظيم هذه البَنِيَّة فإن فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة، صِلُوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل وسعة في العدد، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكة القرون قبلكم، أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام. وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصدّيق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وايْمُ الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظَّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها، وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي. ثم هلك أبو طالب.

سعي رسول الله إلى الطائف لتبليغ رسالته

لقد سدت منافذ تبليغ الرسالة بمكة بعد وفاة خديجة وأبي طالب

بعد وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ الذي كان القوة البشرية القاهرة في حمايته ﷺ، والذود عنه، ومناصرته، خلا الجو لأحلاس الشرك، وفجار الوثنية في مكة التي أظلمت فجاجها أمام الدعوة إلى الله تعالى، وضاقت بمواسمها، وأسواقها، ومحافلها ومجتمعاتها، وأنديتها ومضارب القبائل في بطحائها على رسول الله ﷺ؟ فلم يجد فيها متنفساً لدعوته، ولا منتجعاً لتبليغ رسالته، لأن سفهاء قريش، ومن ورائهم من أهل العتو والطغيان طمعوا فيها لم يكونوا يطمعون فيه حياة أبي طالب، ونالوا من رسول الله ﷺ ما لم يكونوا نائليه منه، وهم يرون عمه أبا طالب ينهض بحميته الهاشمية لحمايته ومناصرته.

وكان لا بد لرسول الله ﷺ من السير قدماً في القيام بنشر دعوته وتبليغ رسالة ربه، وأرض الله واسعة وهي بجميع أرجائها ومواطنها منازل للدعوة إلى الحق والهدى، وأينما يُشْرِق النور فهناك الأفق الذي تطلع منه شمس الهداية، فلتذهب الدعوة إلى الله عز وجل مذاهبها في الأرض، حيث يتاح لها، ولتفارق مكة إلى عودة ظافرة، تطهرها من أرجاس الفجور في أشباح البأو العنيد والاستكبار البليد.

والنبي ﷺ ـ في حدود أقصى استطاعته، وأبلغ مدى طاقته عليه أن يدأب في تبليغ وحي الله تعالى إلى عباد الله، لا يني، ولا يتوقف، فإذا سدّت منافذ التبليغ في جانب من الأرض بقيت سائر الجوانب والمواطن مَهْيَعاً يجب سلوكه.

فمكة بمن فيها من العتاة المعاندين، والفجّار المستكبرين، وما فيها من مهانة الشرك، وأوثانه أبت أن تستجيب إلى الإيمان بدعوة الحق، وأبت أن تقبل هداية الله، وأعرضت مدبرة ماكرة، ووقفت سداً عنيداً دون نشر الدعوة إلى الحق، والخير، بل طغت وتجاوزت كل حد من العتو والفجور، ودبرت مؤتمرة لتفتك بالنبي ﷺ وتقتله غيلة وغدراً، لا لشيء إلا لأنه ﷺ يدعوهم إلى أن يقولوا ربنا الله وحده، لا ندّ له ولا شريك في ملكه ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾[1]

سوء رد زعماء الطائف على رسول الله ﷺ

ومن ثم سعى رسول الله ﷺ إلى الطائف ـ وفيها «ثقيف» وكانوا ـ كما قال المقريزي ـ أخواله، ولم تكن بينه وبينهم عداوة ـ يلتمس من أهلها النصرة والمنعة والاستجابة إلى توحيد الله وهدايته، فأقام فيهم ﷺ شهراً، يجتمع بساداتهم وأشرافهم، يدعوهم إلى قبول الحق ونصرته، قال ابن إسحاق: خرج إليها وحده ، وقال محمد بن سعد: كان معه مولاه وحبه زيد بن حارثة، وكان يقيه بنفسه ، ولما انتهى ﷺ من سبرها فلم يجبه إلى ما دعا إليه أحد عمد إلى نفر ثلاثة أخوة من سادتها وأشرافها، عبد يا ليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من النصرة على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فردوا عليه أقبح رد، في عنجهية جافية، وجهالة جاهلة، وغرور مستكبر، فقال له أحدهم: هو يمرط ـ أي يسرق ـ أثواب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

كانت ثقيف في كفرها الأم قوم في مكارم العرب

ثم قالوا له، وقد خافوا على أحداثهم منه: يا محمد اخرج من بلدنا، والحق بمحابك من الأرض، فقام رسول الله ﷺ، وقد يئس من

(١) سورة التوبة، آية: ٣٢.

خيرهم وخير بلدهم وطلب إليهم ﷺ إذْ تنكروا له ولدعوته ونصرتـه، وأساؤا الـرد عليه أن يكتموا أمره وأمرهم، وما كان منهم إليه من الغلظة وسوء الخلق وتنكب سبل المروءة والنخوة العربية، لئلا يبلغ الخبر قريشاً فيزئرهم عليه، ويشمتوا به، ويزيدهم عتواً وفجوراً، فكانوا في هذه ألأم قوم في مكرمة عربية إذ أفشوا في قومهم ما كان منهم إليه من سوء اللقاء، وزادوا في مقابحهم فأغروا به عبدانهم وسفهاءهم، يسبونه، ويصيحون به سخرية واستهزاء، حتى جمعوا عليه غوغاءهم وأشرارهم ودعّارهم، وقعدوا له صفين على طريقه وهو ﷺ خارج من بلدهم، فلما مرّ بين صفّيهم جعل لا يرفع رجليه، ولا يضعهما إلا رضخوه بالحجارة، حتى اختضبت نعلاه بالدماء.

وقد أمعنوا في لؤم الفجور، فكانوا إذا أزلقته الحجارة، واشتد به الألم قعد إلى الأرض ليتنسم شيئاً من الراحة، فيأخذون بعضديه فيقيمونه إمعاناً في القسوة والفجور، فإذا مشى عادوا إلى بشاعتهم في الإيذاء ورميه بالحجارة وهم يضحكون، حتى خلص منهم، إذ عمد إلى حـائط من حوائط الطائف، واستظل بظل حبلة من شجر العنب، وهو مكـروب موجع، تسيل رجلاه دماً.

تحرك الرحم عند عتبة وشيبة

وإذا في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما ﷺ كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله، فلما رأياه تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قِطْفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عدّاس ما أمراه به، ثم أقبل على رسول الله ﷺ حتى وضع الطبق وفيه قطف العنب بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضـع رسول الله ﷺ يده ليأكل قال: «بسم الله» ثم أكل.

قصة عداس مع رسول الله ﷺ على مشهد من عتبة وشيبة

فنظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أي البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟» قال عدّاس: نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال لـه رسول

الله ﷺ: «من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى» قال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى، والله لقد خرجت من نينوى، وما فيها عشرة يعرفون ما متى، فمن أين عرفته وأنت أمي من أمة أمية، قال ﷺ: «ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي» فأكب عدّاس على الرسول ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وعند البيهقي في الدلائل: وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً، فقال لعدّاس يبلغه رسالة ربه: «أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى» فلما أخبره ﷺ بما أوحى الله عز وجل من شأن يونس بن متى خر عدّاس ساجداً لرسول الله ﷺ، وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء، فلما أبصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا حتى جاءهما، فقالا له: ما شأنك سجدت لهذا الرجل وقبلّت قدميه، ولم نرك فعلت هذا بأحد منا؟ قال عدّاس: يا سيديّ ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمر عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا، يدعى يونس بن متى، فضحكا به، وقالا له: لا يفتنك عن دينك، فدينك خير من دينه.

وفي روض السهيلي أن عدّاساً لما أراد سيداه الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما فقال: أقتال ذلك الرجل الذي رأيت بحائطكما تريدان؟ والله ما تقوم له الجبال!

كان موقف اللؤم من كفار ثقيف أشد ما لقي رسول الله ﷺ

وفي صحيح البخاري في بدء الخلق ـ ومسلم في المغازي ـ والنسائي ـ في البعوث ـ من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال النبي ﷺ: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وأنا ملك الجبال، وقد

بعثني إليك ربك لتأمرني بما شئت وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً».

وقوله في الحديث (يوم العقبة) قال الزرقاني في شرح (المواهب) جزم المصنف بأنها التي في منى، وفيه ما فيه، فأين منى والطائف؟ ولذا قال شيخنا: لعل المراد بها هنا موضع مخصوص، اجتمع فيه بعبد يا ليل لا عقبة منى التي اجتمع فيها مع الأنصار.

دعاء كشف الكرب

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: فيما ذُكر لي.

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.»

قال الزرقاني في شرح المواهب: ورواه ـ أي هذا الدعاء ـ الطبراني في كتاب (الدعاء) وكذا في معجمه الكبير عن عبد الله بن جعفر، وقال: وهذا مرسل، لأن عبد الله بن جعفر ولد بالحبشة، فلم يدرك ما حدث به لقوله: لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ ماشياً إلى الطائف، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه فأتى ظل شجرة من عنب، فصلى ركعتين، ثم قال: «اللهم إليك أشكو» فذكر الدعاء بنحو ما ذكره ابن إسحاق.

جبن الأخنس وسهيل وشجاعة المطعم

ولما انصرف ﷺ عائداً إلى مكة بعد أن أقام بنخلة أياماً ذهب إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فكعَّ الأخنس فَرَقاً من قريش، فأبى أن يكون صاحب هذا الشرف العربي، وتعلَّل بعذر ملفوف

في غلالات الجبن والرعب، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث ﷺ إلى سهيل بن عمرو يطلب إليه أن يجيره، فاعتذر سهيل كذلك بما لم يكن له فيه معتذر، فقال: إن بني عمرو لا تجير على بني كعب، فبعث ﷺ إلى المطعم بن عدي، فأجابه إلى ما يريد في نخوة وشجاعة، ثم تسلح المطعم هو وأهل بيته، وخرجوا في أهبتهم إلى المسجد، فقال له أبو سفيان ابن حرب، وقد رأى منه استعداده القتالي: أمجير أم تابع؟ فقال المطعم: بل مجير، قال أبو سفيان: إذاً لا تخفر، قد أجرنا من أجرت، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلّى عنده، ثم انصرف إلى منزله.

قال الزرقاني: وفي جواب الأخنس وسهيل نظر، لأنهما لو لم يكونا ممن يجير لما سألهما رسول الله ﷺ ذلك ـ أي لمعرفته ﷺ لأعراف قومه وعاداتهم ـ كيف وعامر الذي هو جد سهيل، وكعب أخوان، أبوهما لؤي، فهما سواء في مكانهما، يجير أحدهما على الآخر.

وفاء لو وجد موضعاً للخير

وقد حفظ ﷺ للمطعم هذه البادرة المعبِّرة عن شجاعته ونخوته ـ وتغاضى رسول الله ﷺ عن سيئاته، ولا سيما شتمه له ﷺ صبيحة الإسراء بقوله: «كل أمرك قبل اليوم كان أمماً، هو يشهد أنك كاذب، فقال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيّاً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له».

وقد تحيّر بعض الناس في فهم حكمة دخول النبي ﷺ مكة في جوار كافر، كما تحيروا في فهم قوله ﷺ في المواسم: «من يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي» لأن النبي ﷺ سيد المتوكلين على الله وسيد الموقنين بنصر الله له وحمايته.

وهؤلاء غفلوا عن أن النبي ﷺ بشر من الناس، احتاج إلى أن ينزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ وقد كان قبل نزولها يتخذ حرساً، فلما نزلت صرف الحرس، كما غفلوا عن أن النبي ﷺ مشرِّع، وله أصحاب سيموا من العذاب ألواناً، فلو لم يكن ﷺ بفعله أسوة لهم لتعرضوا للفناء ولوقف سير الدعوة إلى الله، ولما أتيح له أن يلقى

الأنصار ويبايعهم على إيوائه ونصرته، فكانوا كتيبة الإسلام الأولى التي حقق الله على يديها أعظم انتصار فتح أمام الدعوة أبواب الدنيا، ولم يكن ذلك لينقص من يقين رسول الله ﷺ، وصدق اعتماده على الله شيئاً.

وهذه المرحلة المكية للدعوة كانت مرحلة كفاح ونضال تربى في أحضانها السابقون الأولون الذين ذاقوا مرارة الابتلاء؛ وذاقوا معها حلاوة الصبر والاحتمال، ولم تكن مرحلة معجزات تقهر الناس على الإيمان، وقد أبى رسول الله ﷺ ما جاء به إليه ملك الجبال من أمر الله له أن يكون في طوع أمر رسول الله ﷺ بإطباق الأخشبَيْن على أعداء الله الذين بالغوا في إيذائه ﷺ وقال: «ولكني آني بهم ليخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

وقد ذهب ابن الجوزي في إبراز حكمة الرضا بجوار الكافر، وحكمة قوله ﷺ في المواسم: «من يؤويني حتى أبلِّغ رسالة ربي» مذهباً لا يخلو من غموض متعسف، فقد ذكر لذلك حكمتَين: إحداهما اختبار المبتلَى، أي معاملته معاملة من يختبر، ليسكن قلبه إلى الرضا بالبلاء، فيؤدي القلب ما كلف به من ذلك، والحكمة الثانية بث الشبهة في خلال الحجج لثبات المجتهد في دفع الشبهة.

حفاوة الحبيب بالحبيب

الإسراء والمعراج

أعظم آيات الإعجاز الكوني لنبينا محمد
صلى الله عليه وسلم
بحث وتحقيق في رواياتها وأحداثها

كان الإسراء نفحة من نفحات الفرج بعد اشتداد الأزمات والمحن

هذه الآية العظيمة هي المعجزة الفريدة الخطيرة الحسية المادية التي كُتب بمداد نورها الحرف الأول في سطر الحفاوة الربانية الذي افتتحت به نفحات الفرج وانكشاف غمم المحن والبلاء، وضائقات المعوقّات التي كان يقيمها طغاة الشرك وعتاولة الوثنية أمام رسول الله ﷺ في طريق تبليغ رسالته ونشر دعوته، دعوة الهدى والنور، إعلاءً لكلمة الله، كلمة الحق والعدل والخير والإصلاح، والإخاء بين أبناء الإنسانية كافة، وزرع المحبة بين الناس من كل جنس ولون وجيل أينما وجدوا من أرض الله، لأن هذه الآية العظيمة جاءت بعد مقتضياتها التي كان من أظهرها عام الحزن، ذلك العام الذي ابتلي فيه رسول الله ﷺ بفقد زوجه ومأنس قلبه ومطمئن فؤاده، وزيرة الصدق له في دياجير المحن، وهي تخفف عنه آلامه، وتمسح عن نفسه ما كان يلمُّ به من حزن لما يلقاه من عتو الشرك وفجور الوثنية على أيدي أحلاسها من المستكبرين الطغاة ربائب الجهل الظلوم من ملأ قريش الذين كان يدعوهم إلى النجاة ويأبون إلا أن يكون مأواهم النار، لا يخفف عنهم من عذابها وما منها بمُخرجين.

تلك زوجه الصدِّيقة المصدَّقة الأمينة الطاهرة، سيدة نساء العالمين، السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ثم بفقد الحفيّ القوي، الحميّ الجريء، المطاع في قومه، العظيم في

جاهليته، الحدب المدافع عن رسول الله ﷺ حميةً قومية، العزيز في حسبه، الفارع في نسبه، الذي إذا دعا لنضال الحماية لدفع مذلة الضيم أجابته السيوف المنافية الهاشمية شاكية تأبى أن تقرّ في أغمادها حتى يُقضى بينها وبين من يتلمظ لعداوتها ويتعرض لملاقاتها وسخطها.

ذلك الفحل لا يقدع أنفه، ولا يطمع في مهادنته إذا استغُضِب، ولا ترام مداهنته إذا خودع: أبو طالب بن عبد المطلب سيد البطحاء، عم رسول الله ﷺ صنو أبيه، صاحب المواقف التي أرعبت أفئدة ملأ قريش، وروعت أمنهم، وذهبت باستقرارهم، وأذلت استكبارهم دفاعاً عن سياج العزة الهاشمية التي أبى عليها تعززها بالسؤدد والمجد والشرف في العرب قاطبة أن تقبل ضيماً في شخص وحيد الدنيا في عليا المكارم محمد الأمين ﷺ، حفيها، ونور حياتها ولباب أفئدتها، يهبُّون إذا أهبهم شيخهم أبو طالب، ويسكنون متحفزين إذا سكّنهم، فهم طوع إرادته ورهن إشارته.

كانت هاتان المحنتان المتعاقبتان في زمن يسير من أشد ما لقي رسول ﷺ من أحزان الدنيا، لأنه ﷺ فقد بفقدهما حنان الأنس، وعاطفة الحب في الزوج المحبة الأمينة، وفقد القوة الحامية والحدب في عمه الذي وقف إلى جانبه يدافع عنه ويقوّي عزيمته، ويرد عنه سفه السفهاء، وعتو الطغاة، وفجور الفجار.

ولا سيما قد كان فقدهما عقيب محنة مريرة قاسية، تجلّت فيها بشاعة اللؤم العتيّ وفظاعة الحقد الوثني، والاستكبار العنيد، تلك هي محنة الحصار الاقتصادي، والمقاطعة الصارمة، والإجاعة المميتة ثلاث سنين، بين البؤس والحرمان وأنين الأطفال ودموع النساء، وهذا الحصار الذي تعاهدت عليه قريش وأفقدها كل عاطفة حيوانية، بله إنسانية كان أشد على النبي ﷺ وأصحابه ـ ومن دخل معهم حمية من الهاشميين والمطّلبيين إيلاماً ومضاضة وقسوة ـ من سني يوسف، وكانت أيامها أظلم الحوالك في دنيا الظلم والفجور، حتى أكل المحصورون ما لم يؤكل، وصبروا على ما لم يصبر عليه الصُّبَّر من أولي البلاء والمحن، مع ما سبق ذلك من سفه سفهاء قريش

وفجور ملئها في إيذاء النبي ﷺ وأصحابه في صور متعددة وأشكال مختلفة تدل على حنق مغيظ وغيظ حانق حقود.

وكان من آثار فَقْد مأنس الوجدان في تبليغ الرسالة، وفقد قوة الحمية القومية أن خرج رسول الله ﷺ بعد يأسه من استجابة طغاة الوثنية البليدة لدعوة الحق والهدى، ويأسه ﷺ أن يتركوه يبلغ رسالات ربه ويخلّوا بينه وبين الناس في محافلهم وأسواقهم ومواسم تجمعاتهم ليدعوهم إلى الله الواحد الأحد الذي يجب أن يفرد بإخلاص العبادة - إلى الطائف حيث ثقيف ولفّها ليؤوه وينصروه حتى يبلّغ رسالته، فلقي منهم أفراداً وجماعات السفه الطائش، ولؤم الضيافة وشراسة الخلق ورذالة الطبع وخسة المروءة، فقد فَظِع بكبرائهم أن يسمعوا منه أنه رسول الله، وأنه يدعو إلى توحيد الله، وخلع الأصنام والأوثان، فأساؤا رده من أول وهلة، وتنمّروا له من أول كلمة، وأعلنوه بالخروج من بلدهم، وسلّطوا عليه عبدانهم وغلمانهم وسائر سفهائهم، فوقفوا له في طريق خروجه سِمَاطَين، يرمونه بالحجارة حتى أعيا من سوء ما لقي، فإذا قعد ليستريح من أوصاب الآلام أخذوا بضَبُعَيه وأقاموه إمعاناً في دناءة الهمة ولؤم الطباع، حتى بلغ مأمناً يهابه جبناء ثقيف، فرجعوا عنه، وعاد ﷺ إلى مكة وملؤها وسفهاؤها على أخبث ما كانوا من غيظ حقود.

وهكذا تجمعت غمامات الآلام عليه ﷺ وتكاثفت سحب العوائق أمام نهوضه بتبليغ رسالة ربه، وانتشر الشر في آفاق الحياة واحلولك الظلام في جنباتها، وتقاصر الأمل عن غايته، وضاقت حلقات العزائم عند كثير، واستحكم الشر في نفوس الشريرين، وتثاءب اليأس المظلم، وبقي رسول الله ﷺ وحيداً يقلّب وجهه في السماء انتظاراً للفرج وترقباً لانجلاء غمامات المحن والبلايا.

لقد كانت هذه المرحلة الكفاحية غير المتكافئة تمحيصاً للمؤمنين، ودروساً لتربية صدق العزائم عند طلائع السابقين، وإعداداً لكتائب الدعاة إلى الله تعالى في التأسّي برسول الله ﷺ، صبراً جميلاً، واحتمالاً لنوازل

البلاء، وتوجيهاً للأحداث بفكر حكيم محكم، وسياسة رحيمة، تجعل من العدو صديقاً حميماً، ومن السفيه الجهول حكيماً عليماً.

نداء القرب وتباشير النصر في ليلة الإسراء

وهنا سمع الأمين الحبيب محمد خاتم النبيين ﷺ صوت الأمل يجري في آفاق الحياة نغماً نشوان بحب الحق، وصريف أقلام الغيب في الملأ الأعلى يجري باستقدام الحبيب إلى سدّة التشريف الأعظم، والتكريم الأكرم، بأجلّ ما شُرِّف به المشرّفون، ونزل الأمين جبريل عليه السلام سفيراً إلى الحبيب، يحمل إليه رسالة الدعوة الطلبية الحفية المباركة، وأشرقت شمس الفرج تملأ بأشعتها السموات والأرض، وتوالت تباشير النصر في بدء بيعات اليثربيين الذي ادّخرهم الله تعالى لنصرة دينه وتأييد نبيه ﷺ حتى تمت البيعة الكبرى التي كانت شَجاً في حلاقيم عتاة المشركين من ملأ قريش وطغاتهم، فغصُّوا بها حقداً حانقاً تمثَّل في جنون تصرفاتهم مع أنصار الله الذين بايعوا رسول ﷺ على أن يكونوا كتائب دعوته جهاداً في سبيلها وجنداً لتبليغ رسالته.

وفي خضم هذا التباشير أسرى الله بعبده محمد ﷺ، وكان هو سبحانه وتعالى الذي أخذ بيد الحبيب فأبلغه منازل القرب كما شاء، وأحله مكانة لا مطمع لمخلوق فيها، بله فوقها كما أراد عز شأنه، وأراه من آياته وعجائب ملكه وملكوته ما لم يُرِه أحداً من خلقه، وعلّمه ما لم يعلم، وزاده رفعة وشرفاً، وأعطاه لنفسه ولأمته ما أرضى فؤاده وأثلج قلبه وبلّج بأنوار المعارف الخاصة روحه، وجعله أعلم العالمين بجلال الله وعظمة سلطانه، وخصّه من الحفاوة والحباء ما لا تستطيع الأقلام تسطيره، فهدى به وهدى له، وجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً.

وهكذا كانت آية الإسراء في جوها الخاص والعام بلسماً لجراح بشرية محمد ﷺ التي نالها أعداء الحق والخير بالإيذاء، وكانت سراجاً وهّاجاً أضاء الطريق أمام دعوته إلى الله الحق المبين، وكانت نوراً تبلج من آفاق العناية الربانية علماً ومعرفة، وشرفاً وفضلاً، ليقيم له ﷺ ولدعوته ورسالته الخالدة الخاتمة معالم الطريق الذي أسس على الكفاح الصبور في سبيل الحق والخير

والهدى والإصلاح، بغير إعجاز مادي يكره الناس على الاستجابة إلى الإيمان بالدعوة، ليكون ذلك رسماً لطريق الدعوة إلى الله أينما كانت، ومَعْلَماً للدعاة إلى الله حيثما كانوا وكيفما كانوا.

وهكذا كانت أيضاً آية الإسراء في حقيقتها ومقاصدها صورة جامعة للقدوة في العلم والمعرفة، والعمل لإصلاح الحياة، وبشرى بإنقضاء عهد البلاء والمحن، وابتداء عهد البناء والمعرفة، ومطالعة آيات الله في ملكوت السموات والأرض المسخرة للإنسان، وتحقيقاً لخلافة الأمة التي يربيها نبي الإسلام ﷺ بعقيدته وتعبداته وشرائعه وأحكامه، وسياسته، وآدابه، ونظمه ومناهجه في الحياة، لتقيم من هذه العقائد والتعبدات والشرائع والآداب والنظم والمناهج بناءً شامخاً تأوي إليه الإنسانية إخوة متحابين لتكون خير أمة أخرجت من ضمير الغيب للناس.

آية الإسراء تشريف وتكريم لسيد المرسلين

ومن ثَمّ كانت آية الإسراء أشرف آية مادية حسية أوتيها نبي من رسل الله، وهي أجلّ ما أعطيه محمد الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين من الآيات الحسية والكرامات المادية، وهي في فضلها وعظمة الحفاوة تالية للقرآن الكريم في روعة دلالتها على صدق نبوة محمد ﷺ، وعموم رسالته وخلودها، وماله عند الله من مكانة ورفعة شأن، ممّا فُضِّل به على جميع الأنبياء والمرسلين بعد القرآن العظيم.

وقد كانت آيات الأنبياء والمرسلين التي جعلها الله برهان صدقهم في دعواهم أنهم رسل من عند الله إلى أقوامهم، يدعونهم إلى توحيد الله وإلى الهدى والخير ـ آيات مادية حسية تخرق نواميس نظام الترابط المادي بصورة قاهرة لا طاقة للبشر ولو اجتمعوا بعلومهم وأفكارهم وتجاربهم وحيلهم على معارضتها بوسائلهم البشرية المادية، فلا يجدون ذريعة لردِّها وأعناقهم لها خاضعة إلا المكابرة والعناد.

وقد بيَّنا في بحث (محمد من نبعته إلى بعثته) الذي طبع مستقلاً، ثم جعلناه تمهيداً لهذا الكتاب (محمد رسول الله) أن آيات الأنبياء والمرسلين ومعجزاتهم إنما تجري على مقتضى سنن إلٓهية خاصة، لا سبيل لتحكم العقل

فيها وفي إدراك حقائقها وتعرف أسبابها، والعقل بمعزل تام عن تحكيمه في ثبوتها، وأوضحنا أن مدار التصديق بها على صحة ثبوتها هو الإخبار بها في واقع الوجود بسند صحيح، لا يعتريـه، ريب، ولا يعارض متنه أصل أثبت منه وأدخل في أصول الإسلام.

آيات الأنبياء والمرسلين كانت حسية مادية كما ذكرها القرآن العظيم

وقد ضرب الله تعالى المثل في القرآن لهذه الآيات الحسية المادية التي أوتيها مَنْ ذكروا في القرآن من أكابر المرسلين، وكان من أبينها وأكثرها ذكراً آيات موسى وعيسى عليهما السلام، وآياتهما أهدى الآيات الحسية المادية سبيلاً، وأظهرها إعجازاً، وأقواها حجة، وأبلغها أثراً، فعصـا موسى عليه السلام، لها خصائص سائر العصي في بعدها عن حلول نوع من الحياة فيها، وقد أخبر عنها موسى حين سئل من رب العزة ـ سؤال تأنيس وتمهيد، لا سؤال استخبار ـ بقوله: ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ بما يعلمه عنها من حقيقتها الأصيلة ومن الأسباب التي اتخذها لها فقال: ﴿ هي عصاي أتوكأ عليها وأهشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴾[1] من كل مأرب تؤديه عصا، فيدفع بها عن نفسه صولة عدو، ويقيمها عموداً ليسدل عليها ما يقيه الحر والبرد، ولكنها حينما أريد لها أن تجري على السنن الإلهية الخاصة خرجت عن طبيعة العصا التي لا تحلها الحياة إلى طبيعة أخرى قابلة للحياة، فانقلبت جانّا يتحرك، وثعباناً يلقف ما يأفك سحرة فرعون بكل ما فيه من وسائل مادية، وإلى أن ضرب بها موسى البحر فانفلق فلقتين، فكانت كل فلقة منه كالطود العظيم في قوة تماسك ذراته، والماء طبيعة سيّالة يستحيل عليه هذا التماسك في نواميس السنن العامة للكون. وإلى أن يضرب بها الحجر الصلد فينبجس منه الماء اثنتي عشرة عيناً لكل قوم من بني إسرائيل شرب معلوم منها.

وتصوير عيسى عليه السلام قطعة من الطين الذي له خصائص الطين، بكل ما فيها من بعد ومنافاة للحياة على هيئة طائر، ثم ينفخ فيه فيصير طائراً بإذن الله، يتحرك، ويطير، ويذهب ويجيء، ويأكل ويشرب،

---

(١) سورة طه آيتا (١٧، ١٨).

ويغرِّد ويرفرف. ومسُّه بيده الأكمه الذي لم ير النور ببصره قط يجعله بصيراً بإذن الله. ومسحه على الأبرص الذي ابتلي بداء عجز عنه طب عصره يشفيه من مرضه العضال، ونداؤه الميت الذي غبر عليه من الزمن ما غبر يقيمه من قبره بإذن الله إنساناً حياً، يتحرك ويمشي ويتكلم ويفكر ويخبر ويـرشد ويسترشد. والمقصود بذكر هذه الآيات التي وقعت على يد هذين الرسولين الكريمين بيان أن سنن الله في الكون لا يقيدها نظام الترابط الكوني في نواميس السنن العامة، وهكذا كانت آيات الأنبياء والرسل قبل رسـالة محمد ﷺ حسية مادية لأن مدارك الإنسان وقوى تفكيره كانت مجذوبة إلى الأرض بقوة التماسك العنصري في ترابط ذرات الكون.

تآخي النبوة والعقل جعل آية رسالة محمد ﷺ فكرية عقلية علمية خالدة

فلما بلغت النبوة مداها في التآخي مع العقل الإنساني ـ وهو قوة لا سلطان للمادة عليها ـ وبلغ العقل رشده واستوى تفكيره أرسل الله تعالى محمداً ﷺ برسالة كاملة المعالم في أصول العقائد والتعبدات وأنظمة الحياة ختم بها رسالات المرسلين، قامت على دعائم من القواعد والأصول العامة المحكمة جعلها هادية للعقل في مسيرته مع الحياة، يسترشد بها ليستخرج من أصولها أحكام الأحداث والوقائع المتجددة التي لا تتناهى، دون حاجة إلى الوقوف عند نص قد لا يفي بالمقصود.

ومن ثَمّ كانت خصيصة هذه الرسالة الخاتمة في خلودها بخلود الحيـاة في تآخيها مع العقل الإنساني الذي اكتمل رشده وشبّ عن طوق المحاكاة والتقليد والتبعية.

ومن هذه الخصيصة لهذه الرسالة الخاتمة في تآخيها مع العقل كان لا بد في آيات صدقها، وبراهين حقِّيتها، ودلائل إعجازها من أن تكون ملايمة لهذا التآخي العقلي، مناسبة له في منابعه الإدراكية، هادية له في أسس التشريع، مهتدية به في تطبيق الوقائع على تلك الأسس والأصول، وعندئذ لم يبقَ للإعجاز الحسي وآياته المادية قوة دلالته على حقيّة ما جاءت به من الهدى والخير، فكانت آيتها العظمى ومعجزتها الكبرى التي وقع بهـا التحدي والاستدلال على صدق حامل أمانتها آية عقلية، علمية، فكرية، يجد فيها

كل عقل مجاله الإدراكي، ويجد فيها كل عالم طريقه إلى المعرفة واليقين، ويجد فيها الفكر (المتطور) مجالاً لسبحات أطواره بعيداً عن الجمود المادي، ليستصفي من أصولها الحقّ خالصاً من شوائب الخداع والتضليل.

جاءت الرسالة الخالدة فكان القرآن العظيم هو آية التحدي العظمى لما فيه من مناهج الهداية

تلك هي آيات الكتاب المبين، القرآن العظيم، الجامع لمنازل الخير وجوامع الهدى والنور، الذي تحدّى بذاته وإعجازه كل عَيْلم عليم، وكل عقل محكم حكيم، وكل فكر غوّاص عميق، بما جاءت به آياته من حقائق ومعان هادية، ومقاصد مستهدفة للحق، كما تحدّى كل فصيح بليغ، وكل ذي بيان وبراعة في روعة الإحسان، بأسلوبه ونظمه وجزالة ألفاظه، ونصاعة جمله وكلماته، ونسق آياته، فكان آية الصدق على دعوى الرسالة الخالدة، بما فيه من ألوان الهداية، فهو معجزتها الكبرى وآيتها العظمى التي كانت به خاتمة الرسالات الإلّهية، فلا رسالة لله تعالى إلى الخلق بعدها، ولا كتاب ينزل بعد كتابها من السماء، وقد صب الله تعالى فيض إحسانه في آيات كتابها، خالدة لا تنتهي وباقية لا تنفد.

ومن هنا كانت فيوضات الله لا تنقطع ولكنها مستمرة سرمدية عن طريق آياتها في كتابها الحكيم المحكم، فالنظر فيه، وتدبر حقائقه ومعانيه، ومعرفة هدايته، والغوص على حِكَمه هي طرائق الإيمان، وهذه سبيل ممهدة للعقل، وطريق موطأة للفكر، يهتدي بها السالكون إلى مشارع الإيمان، وهي عامرة بالسائرين فيها الذين أقيمت لهم منائر الحق، ونصبت لهم معالم الهداية، وأنيرت لهم آفاقها، ليهتدوا بها في دياجير أوهام العلم التجريبي وتخيلاته وتخرصاته وظنونه إلى نور الحق واليقين.

لا تتوقف مسيرته، ولا تخلو عن الراغبين مشارعه، فهو داع مستجاب، وهادٍ خِرِّيت لا يضل الطريق أبداً، ومرشد لا يمل ولا يعيا، مشارعه مفعمة بالواردين، ومسالكه مليئة بالقاصدين، وروّاده قوافلهم متواصلة لا تنقطع، وداخلو ساحته متوافدون، لا قوة تدفعهم إليه إلا قوة الحق فيه، ولا وسائل تجذبهم إليه إلا وسيلة الرغبة فيه.

وإلى هذه الحقائق والمعاني أشار النبي ﷺ في قوله الجامع: «ما من

نبي من الأنبياء إلا أوتـي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ».

وإذا كان القرآن العظيم هو الآية العظمى والمعجزة الكبرى التي وقع بها التحدي للدلالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، ولا يزال هذا التحدي قائماً به إلى يوم القيامة في كل زمن ومكان وجيل من الناس مهما بلغت الحياة من أطوار التقدم العلمي، لما فيه من أبدية الهداية التي لا تنتهي كما انتهت الآيات الحسية المادية التي أوتيها رسل الله تعالى برهاناً على صدق دعواهم في رسالاتهم ـ فقد أوتي نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية وعجائب خرق نواميس الترابط المادي في عناصر الكون ما لم يؤتَ مثله كيفاً وكمّاً نبي من الأنبياء عليهم السلام.

لقد أوتي نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية ما لم يؤت مثله نبي رسول من رسل الله للتشريف والتكريم لا للتحدي

وجميع ما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية التي لم تدخل في إطار التحدِّي بها ثابتة مروية بروايات مسندة، وهي وإن اختلفت في أسانيدها قوة وصحة لكنها في جملتها بالغة مبلغ التواتر المعنوي القاطع الذي لا يستطيع أن يجادل في مجموعه مجادل أو ينكره منكر.

بَيْد أن منها آحاداً أُثبتت بأصح الأسانيد التي لا تقبل الطعن والمعارضة، وفي هذه الآحاد ما أشار إليه القرآن إشارة واضحة يجب الإيمان بظاهره، وليس هنا صارف يقضي بصرفها عن ظاهرها سوى تحكم عقول بعض «العقلانيين» الذين يؤلِّهون العقل، ولا يقفون به عند مخلوقيته التي تعزله عن التحكم المطلق في ملكوت الله تعالى، وذلك كآية انشقاق القمر؛ فقد أثبتها القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وقد جاءت بها أحاديث مسندة من أصح الصحيح بروايات الثقاة الضابطين المأمونين في إيمانهم وديانتهم، وهي مروية عن عدد من الصحابة يبلغ في جملته حدّ التواتر، فلا وجه لإنكارها سوى التعبد للعقل ونواميس الترابط في عناصر الكون، وهذه النواميس مخلوقة لله تعالى يفعل بها ما يشاء.

من هذه الآيات آية انشقاق القمر

آية نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ

وفي هذه الآحاد من الأحاديث ما لم يرد له ذكر في القرآن، ولكنه ثبت وقوعه بصحيح الأسانيد ثبوتاً لا يحتمل التأويل ولا يعتريه الشك وذلك:

أولاً ـ كأحاديث نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ على مرأى ومشهد من الصحابة في مرات مختلفة، وقد شرب منه العدد الكثير الذي لم تَجْرِ به عادة في زمن من الأزمان، ولا وقع مثله لأحد من الرسل والأنبياء، وتطهروا منه وملؤوا أوعيتهم وإداواتهم وأوانيهم وقربهم، وشاهده حديث قتادة عن أنس عند الشيخين، قال أنس: أتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمئة أو زهاء ثلاثمئة.

وحديث جابر عند البخاري في الحديبية، قال جابر: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ «ما لكم؟» قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك، قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا، قال الراوي عن جابر، فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. وفي هذه الآية، آية نبع الماء من أصابعه ﷺ حديث أبي قتادة عند مسلم وحديث معاذ عند مسلم أيضاً وفي بعضها طول لا يحتاج لذكره.

ويعلّق القاضي عياض على أحاديث هذه القصة فيقول: هذه القصة رواها الثقاة عند الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العسكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته.

آية تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الكثير

ثانياً ـ ومن هذه الآيات المعجزة الثابتة بأصح الأسانيد تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الذي يستحيل عادة أن يشبع مثلهُ بمثله، وشاهده حديث أم سُلَيم وأبي طلحة عن أنس عند الشيخين، وهو متعدد الطرق والسياق.

روى الشيخان عن أنس قال: قال أبو طلحة لأم سُلَيم: لقد سمعت

صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ. قال أنس: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، قال «بطعام» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سُلَيم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمِّي يا أم سُلَيم ما عندك» فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ وعصرت أم سليم عكّة فأَدَمَتْه، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً.

وحديث جابر في حفر الخندق عند الشيخين أيضاً، قال جابر: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خَمَصاً شديداً، فانكفأتُ إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت إليّ جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتُها وطحنت الشعير، وفرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته، فقلت: يا رسول ذبحنا بهيمة لنا وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سُؤراً فحيّ هلاّ بكم» فقال رسول الله ﷺ: «لا تنزلُنَّ برمتكم ولا تخبُزنَّ عجينكم حتى أجيء» فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلتِ، فأخرجتُ له عجينها فبصق فيه

وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق، وبارك، ثم قال: «ادعي خابزة فلتخبز معك، وقدمي من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف.

قال جابر: فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

آية حنين الجذع

ثالثاً ـ روايات حنين الجذع الذي كان يخطب إليه رسول الله ﷺ قبل أن يُعمل له المنبر، روى الشيخان عن جابر قال: كان جِذْع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار، حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه، قال القاضي عياض: وحديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، قال الشهاب الخفاجي، في بيان تواتره: لكثرة طرقه الصحيحة ونقل جماعة لا يمكن تواطئهم على الكذب، وقد رواه أصحاب الصحيح مسنداً كالبخاري ومسلم، وابن حبّان، وابن خزيمة، وما وصل إلى مثلهم بطرق متعددة صحيحة يكون متواتراً حقيقة لإجماع مَنْ بعدهم على صحتها، كما قاله ابن حجر رداً على ابن الصلاح في دعواه أن التواتر لا يكاد يوجد، ولعل ابن الصلاح يقصد التواتر اللفظي، أما التواتر المعنوي فهو محقق الوجود في السنّة، متعدد الوقائع.

وقال السهيلي في روضه: حديث خُوار الجذع وحنينه منقول بالتواتر، لكثرة من شاهد خواره، وكلهم قد نقل ذلك أو سمعه من غيره فلم ينكره أحد، قال عياض: ورواه من الصحابة بضعة عشر منهم: أبيّ بن كعب، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وأم سلمة، والمطّلب بن أبي وداعة، كلهم يحدِّث بمعنى هذا الحديث، وبعضهم يطنب في حديثه وبعضهم يوجز القول، ففي حديث أنس أن النبي ﷺ لما قعد على المنبر خار الجذع حتى ارتج المسجد لخواره، وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لِمَا رأوا به، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت، وفي رواية أبي بن كعب فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لِمَا فقد من الذكر، والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزناً على رسول الله ﷺ وآله وسلم» ثم أمر به

نبي الله ﷺ فدفن تحت المنبر. قال البيهقي عن الإمام الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ﷺ، فقيل له: أعطى عيسى إحياء الموتى، فقال أعطى محمداً الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حتى هُيِّيء له المنبر، فلما هُيِّيء له المنبر حنّ الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك.

استجابة الجمادات لدعائه لها وإتيانها له

رابعاً ـ أحاديث استجابة الجمادات لدعـائه وإتيـانها له، وشـاهده استجابة الشجرة له حين دعاها لتستره وقد أراد قضاء حاجته، فجاءت إليه تخد الأرض ثم رجعت إلى مكانها كما كانت، روى مسلم عن جابر قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «أنقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لاءم بينهما يعني جمعهما فقال: «التئما عليّ بإذن الله» فالتأمتا، قال جابر، فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي، فيبتعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة فإذا برسول الله ﷺ مقبلاً وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق.

وأخرج البغوي عن ابن أحمد، عن منيع، عن عبدالله بن عمرقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فَدَنا منه أعرابي، فقال له: «يا أعرابي أين تريد؟» قال: إلى أهلي: قال النبي ﷺ: «هل لك إلى خير؟» قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: «هذه السَّمُرة» وهي بشاطىء الوادي، فأقبلت تخدّ الأرض حتى وقفت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت ثم رجعت إلى مكانها. وهذا الحديث رواه الدارمي والبيهقي والبزار.

وفي حديث بريدة بن الحُصيب عند البزار مسنَداً: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: «قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك، فمالت

الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مُرْها فلترجع إلى منبتها، فرجعت، فدلّت عروقها فاستوت، فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك، قال رسول الله ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» قال الأعرابي: ائذن لي أقبل يديك ورجليك، فأذن له.

آيات إبراء المرضى ورد ما انفصل من أعضاء الإنسان

خامساً ـ أحاديث إبراء المرضى ورد ما انفصل من أعضاء الإنسان مما لا يمكن إعادته في العادة إلى مكانه صحيحاً، وشاهده ردّه ﷺ عين قتادة ابن النعمان حين أصيبت في غزوة أحد بسهم أسالها على خده وهو يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فأتى بها رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني أن تقذرني، فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردّها إلى موضعها، وقال: «اللهم اكسه جمالاً» وفي رواية: أنه أتى بها النبي ﷺ، فقال له ﷺ: «ما هذا يا قتادة؟» فقال: هذا ما ترى يا رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها ودعوت الله لك، فلم تفقد منها شيئاً» فقال: يا رسول الله إن الجنة أجر جزيل، وعطاء جليل جميل، ولكني أكره أن أعيّر بالعور، فرُدَّها إليّ واسأل الله لي الجنة، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه، وأحدّهما نظراً، ولا ترمد إذا رمدت الأخرى. وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن قتادة قال: كنت يوم أحد أتّقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي، فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه، فقال: «اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، واجعلها أحسن عينيه وأحدّهما».

وهذه القصة رويت موصولة عند ابن عدي والبيهقي، ومرسلة عند ابن اسحاق، ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة فهي من رواية الأكابر عن الأصاغر، ويروى أن حفيد قتادة عاصم بن عمر بن قتادة وفد على عمر ابن عبد العزيز، فقال له عمر: من أنت؟ فأجاب بديهة:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينهُ فـرُدّت بكف المصـطفى أيّما رد
فعـادت كما كـانت لأول أمـرهـا فيا حسن ما عين ويا حسن ماردّ

فقال عمر بن عبد العزيز:

تلك المكـارم لا قعبـان من لبن شِيبـا بمـاء فعـادا بَعْـدُ أبؤالا

حديث الأعمى الذي لقنه رسول الله ﷺ دعاء لرد بصره

وروى الترمذي، والحاكم والبيهقي وصحّحوه، والنسائي عن عثمان ابن حنيف: أن أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله لي أن يكشف عن بصري، فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق فتوضأ ثم صلِّ ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يـا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفِّعه فيّ» قال عثمان ابن حنيف، فرجع الأعمى وقد كشف الله عن بصره.

قال الخفاجي في شرح الشفاء: وهذا الحديث مسند صحيح، أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وكان ابن حنيف وبنوه يعلمونه الناس، وقد أخرجه البرهان الحلبي من طرق متعددة فلم يبق فيه شبهة فاحفظه.

وفي إيراد روايات هذه الأحاديث القاطعة ـ في دلالـة مجموعها على ما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية كثير منوع باهر ـ طول لا تقتضيه ضرورة، ويكفي فيه الشاهد والمثل، وهي مروية مشهورة في كتب الأئمة، وإنكارها مكابرة.

التحدي وقع قطعاً بالقرآن العظيم

غير أن هذه الآيات المعجزة والعجائب الخارقة للعادة على كثرتها وتنوعها، وصحة وقوع حوادثها لم يقع بها التحدِّي العام لإثبات دعوى الرسالة كما وقع بالقرآن الكريم الذي تحدّى العالمين، فكان هو بذاته ونصِّه موطن الدعوة والشاهد على صدقها شهـادة بلغت مبلغ اليقين، فقـد أهاب القرآن الكريم بغطارفة المشركين الوثنيين، وكانوا أرفع البشر فصاحة وأبلغهم بياناً، وأروعهم بلاغة، وأبرعهم منطقاً وأذربهم ألسنة، وأهداهم إلى طريق البراعة البيانية سبيلاً، وكانوا يدلُّون على الناس بصفاء قرائحهم وحدّة مداركهم، فتحداهم أن يأتوا بحديث مثله، آية فما فوقها، وقد تدرّج

معهم التحدي بعشر سور من مثله، ثم إلى سورة واحدة، ولم يتركهم بعد هذه المراتب المتدرجة حتى غمز قناتهم، وأذلّ استكبارهم، وسخر بغرورهم، وهزأ بتنفجهم وغطرستهم، فأنبأهم وهو يتحدّاهم بأنهم عاجزون عن معارضته عجزاً لا تواتيهم فيه قدرة على هذه المعارضة في آية صور التحدي المتدرج فقال لهم: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين﴾[1] ثم أيأسهم بما وخز عنجهيتهم وخزاً موجعاً لا أمل من ورائه قط في المعارضة، فقال الله عز شأنه لرسوله محمد ﷺ: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[2] وذكر الجن في هذه الآية بيان لبلوغ التحدي والتعجيز غاية يقف عندها غرور التفاصح الأجوف ذليلاً خزيان لا يبين.

فالآيات الحسية المادية التي أعطيها نبينا محمد ﷺ كانت تشريفاً وتكريماً له، وإشارة بمنزلته عند ربه، وتنبيهاً للغافلين الذين لم تتبوأ عقولهم مكانتها من الرشد في الإدراك، حتى تتكامل له ﷺ دعائم تبليغ رسالته في عمومها وخلودها ليجد فيها وفي وسائل عرضها كل عقل إنساني طلبته الملايمة لاستعداده، حتى إذا نهض من كبوة جهله واستشرف آفاق العلم والمعرفة وجد أمامه القرآن العظيم كتاباً محكماً حكيماً، صدوق الدلالة، عميق البرهنة، سيّال الفكرة، منطلق الحقائق، غزير المعاني، لطيف المأخذ، خالد التحدِّي، أبدي الإعجاز بهدايته، مهيمناً على كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون من آيات قاهرة على مثلها يؤمن البشر ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[3] ﴿كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً﴾[4].

* * *

---

(١) سورة البقرة آيتا (٢٣، ٢٤).

(٢) سورة الإسراء آية (٨٨).

(٣) سورة فصلت آية (٤٢).

(٤) أول سورة فصلت.

آية الإسراء أرفع مراتب التشريف والتكريم لمحمد ﷺ وجحودها مخرج عن ملة الإسلام لثبوتها بنص قرآني صريح

وقد كان فيما أوتيه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية آيات جمعت أرفع مراتب التشريف، وأعلى درجات التكريم، وأبلغ منازل التعظيم، لم يعط مثلها نبي من الأنبياء، انفردت بنص قرآني، أثبتها منوّهاً بخطر قدرها، وهو نص صريح لا يقبل التأويل، ولا يحتمل الجدل ذلك هو آية الإسراء، التي يقول الله تعالى في شأنها ممجداً ذاته المقدسة: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[1].

ومن ثَمِّ كان كان جحود وقوع آية الإسراء وإنكار وجودها مُخْرِجاً عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، لأنه إنكار لنص قرآني صريح، وخرق لإجماع الأمة إجماعاً لم يعرف له مخالف من كافة المسلمين، عامتهم وخاصتهم، والتأول في كيفية وقوع هذه الآية العجيبة العظيمة، وكونُها وقعت بالجسد والروح معاً، أي بالصورة البشرية التي يطلق عليها لفظ (عبد) كما هو اعتقاد جمهور المسلمين من عهد الصحابة، وهم مئات الألوف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو وقعت بالروح فقط، أو رؤيا منامية رآها ﷺ كما نسب إلى آحاد في روايات لا تقوم لها أسانيد - لا يخدش إجماع المسلمين على أن الله تعالى أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بإيلياء من أرض فلسطين بالشام في جزء من الليل، وهذا القدر هو المجمع عليه، وفيه النص القاطع بوقوع الإسراء وإرادة الله تعالى نبيه محمداً ﷺ ما رأى من آيات ربه فى ملكه وملكوته.

ولا شك أن قطع مسافة تضرب أكباد الإبل لقطعها شهراً مصعدة، وشهراً آيبة في جزء من الليل أمر خارق لنواميس الطبيعة وقوانينها ونظمها التي أقامها الله على سنن عامة في ترابط ذرات الكون وعناصره، تسير عليها منذ أوجد الله تعالى بقدرته هذا الكون العظيم.

والأمة مطبقة - إلا بعض روايات لم تثبت صحة أسانيدها عن أم

(١) أول سورة الإسراء.

الإجماع قائم على ثبوت الإسراء بالجسد والروح، أي بمحمد ﷺ وهو في أكمل كمال بشريته قبل أن تحدث روايات الروح والمنام

المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من الصحابة، وقولة عن الحسن بن أبي الحسن البصري - على أن الإسراء الذي أخبر به رب العزة مفتتحاً له بعَلَم التقديس الذي يرمز إلى عظمة الاقتدار الإلّهي، وأن قدرة الله تعالى لا يتعاظمها شيء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[1]، والافتتاح بالتقديس لا يقال إلا في الأمور المستبعدة عادة لتعاظمها، والتي لا تألفها مدارك العقول في متعارف الحياة وقد تنكرها لأول وهلة نظراً للسنن العامة التي قام عليها نظام الكون وطبيعة الترابط بين عناصره ومكوّناته، فإذا رُميت بسهم التأمل ومعرفة اقتدار الله تعالى وقهره لكل مخلوق له من مادة أو نظام رجعت العقول إلى التصديق والقبول ما لم يصدّها العناد المستكبر، وآمنت بأن لله تعالى في عظمة اقتداره وقهر سلطانه سنناً خاصة لها أسبابها ومناسباتها وأزمانها وأحداثها ودواعيها؛ لأن الألوهية الحقة القاهرة القادرة المدبرة الحكيمة لا تقيدها سنن مخلوقة لها مرئية أو معلومة لدى العقول أو معتادة في متعارف الحياة ومألوفاتها، بل إن هذه الألوهية الحقة تقتضي أن يكون الإطلاق الكامل حقاً لها في مشيئة كينونة ما تشاء كونه.

ولكن ذلك يجري على نظام خاص مقدّر - وهو ما سميناه بالسنن الخاصة التي تقتضيها مناسباتها في أزمانها وأشخاصها وأحداثها - شُرِّف به نبينا محمد ﷺ ووقع له بحالته الطبيعية الكاملة بشرية وروحاً، فلم تفقد روحُه جسمَه، ولم يفارق جسمُه روحَه، بل أسرى بهما رب العزة، وهذه الحالة الكاملة لشخص النبي ﷺ التي لا تفارق فيها الروحُ جسمَها المقدور لها الحياة به ومعه في تلازم امتزاجي لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى هي التي يطلق عليها في لغة العرب عند التفاهم، وفي عرف الناس كافة عند التعامل تعريفاً لها لفظ (عبد) كما جاء في آية الإسراء، ويتأكد ذلك بإضافة التشريف والتكريم لهذا العبد المكرّم التي خصه الله بها في هذا المقام، فقال: ﴿أسرى بعبده﴾ لاستشعار وقوع ما لم يكن في حسبان العقول، وقد جرى عرف

(١) سورة يس آخر آياتها.

القرآن الأسلوبي على ذلك فقال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ والقائم الذي يدعو الله هو الشخص المؤلف من روح وجسد، ويزيد ذلك تأكيداً تحديد مبدأ الإسراء ونهايته، وهذا في المتعارف لدى العقول لا يقال إلا في أمر مادي يفيده الانتقال من مكان إلى مكان.

فالإسراء كان قطعاً بمقتضى منطوق الآية الكريمة ومفهومها وإشاراتها ولوائحها بأكمل ما يطلق عليه لفظ (عبد) وهو شخص النبي ﷺ المكوّن من روحه وجسده، لم تفارق روحُه جسدَه، ولم يفقد جسدُه روحَه في جميع لحظات الرحلة المباركة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ذهاباً وأوبة، فلا وجه مطلقاً لصرف هذه الحقيقة عن وجهها الذي تدل عليه الآية دلالة بينة.

ارجح الأقوال في وقت وقوع الإسراء كما توحي به المناسبات

وقد اختلف أهل العلم في زمن الإسراء الذي وقع فيه اختلافاً عريضاً، والتحقيق الذي ذهب إليه حُذّاق الأئمة أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة بنحو سنة، ولم تكن آية الإسراء في أعاجيبها، وخرقها لنواميس الطبيعة، وما وقع فيها للنبي ﷺ من مشاهدة أسرار الكون والملكوت، وما تجلّى له فيها من مكنون الغيب المحجوب بأنوار الجلال الإلّهي عن خاصة المقربين مجرد رحلة عجيبة وآية معجزة، وإنما كانت مكرمة فريدة أتحف بها النبي ﷺ، وحفاوة من الألطاف الإلّهية شرف بها الحبيب، ودرساً تربوياً لبيان معالم مسيرة الرسالة في مستقبلها بعد أن بلغت من التمحيص مبلغاً أعدها للسير قُدُماً في طريق الجهاد المتكافىء؛ بل الجهاد القاهر الغلّاب في مقدمة التلطف الرباني بفتح أبواب الفرج والخلاص من مشاق الأذى وفوادح البلاء التي لقيها النبي ﷺ وأصحابه في فترة الكفاح الصبور من قومه في مكة من أحداث فردية وجماعية، كان من أشدها الحصار الظلوم، والخروج إلى الطائف والعودة منها بأثقال الآلام ووجيع الجراح، وفي محافل العرب في مواسمهم وأسواقهم، ومضارب خيامهم، وهو ﷺ يدعوهم إلى الله تعالى إلّهاً واحداً يجب أن يفرد بالعبادة والتقديس، وأن تخلع الأنداد من الأصنام والأوثان والزعامات، فيلقى منهم من شديد الإيذاء وضروب

السفاهة قولاً وفعلاً ما كان يقابله بالصفح والعفو والصبر الجميل، مما ختم بعام الحزن الذي فقد فيه ﷺ مأنس الفؤاد ووزير الصدق، والولي الناصر، والحفي الحمي، في وفاة زوجه الأمينة الصديقة، وزيرة الصدق، سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها، وفي وفاة عمه الذائد عن عرين قوميته حمية في مواقفه إلى جانب النبي ﷺ وهو يبلغ رسالة ربه.

كان الإسراء بقهره لقوى الطبيعة درساً إلهياً في صقل عزائم الدعاة إلى الله تعالى تأسياً بالنبي ﷺ

وقد كان هذا التشريف بالإسراء وما رأى فيه النبي ﷺ من الآيات الإلهية المبثوثة في ملكوت الله نقطة تحول في توجيه مسيرة الرسالة، وتقوية عزيمة النبي ﷺ في المضي بها قدماً، متخطياً العوائق والعقبات، مما انتهى في مكة تحت سمع وبصر غطارفتها وطغاة ملئها ببدء النصر المؤزر الذي كانت أولى حلقاته بيعة الأنصار الكبرى، والهجرة إلى المدينة حيث بدأ الجهاد الأعظم، وبدأ معه بناء الشريعة وتأسيس الدولة الإسلامية على يد رسول الله ﷺ، يحف به الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار.

وقد تضافرت النصوص القرآنية والحديثية على أن آية الإسراء كانت ضرباً من ضروب القهر الإلهي لنواميس الطبيعة ونظام ترابط عناصر الكون المادي، فهي رحلة بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء.

ثم أعقبتها رحلة والية لها متصلة بها، بدأت من المسجد الأقصى إلى السموات العلا، إلى سدرة المنتهى إلى حيث سمع محمد ﷺ صريف أقلام الغيب وهي تكتب مقادير الأشياء في حياة هذا الكون الذي لا يحيط به علماً إلا مكوّنه وخالقه وهو الله الذي لا إله إلا هو، وهذا المقام التشريفي ـ الذي أريد به إلباس النبي ﷺ خِلَع التكريم لتمسح عنه يد الإنعام الإلهي أثر ما لقي من فادح البلاء وشديد الأذى من قوم هم قومه ولكنهم فقدوا معالم الرحمة من قلوبهم ـ لا يحقق المعنى المقصود منه إلا إذا كان قد وقع بصورة تنفرد بإعجاز لا سبيل إلى أن يقع مثلها لأحد من البشر، وذلك أن يكون الإسراء كما هو صريح النصوص قد وقع لشخص النبي ﷺ وهو في كمال تكوينه جسداً وروحاً، يقظة في أجلى صورة من التنبه والإدراك الذي لا

آية الإسراء والمعراج لا تبلغ مداها في الإعجاز التشريعي إلّا إذا انفردت بصورة من الإعجاز لا يبلغها أحد من الخلق غير المشرَّف بها محمد ﷺ

تفوته لمحات الحفاوة في رؤية عجائب الملكوت، وإشاراتها ومقاصدها، لتكون منائر في سير الرسالة تنير لها وللسالكين إليها وحامليها والمهتدين بهديها الطريق، وهي تمسك بيدها زمام الإقدام لأمة حمّلها الله أمانة خلافة الأرض لتقيم عليها موازين العدل والرحمة، كما يشير إلى ذلك إشارة تكاد أن تكون تصريحاً لّماحاً قوله تعالى في وصف ثبات رسول الله ﷺ على أرفع مقامات الأدب السامي في مقام الشهود: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾[1].

وهذا ما أثبته القرآن الكريم، وفصلته الروايات الصحيحة المتضافرة، وأجمعت الأمة عليه زمن وقوعه، وهم الذين شاهدوا أحداثه، تصديقاً من المؤمنين وتكذيباً من الكافرين.

فالقول بأن الإسراء كان مناماً أو بالروح فقط قول مستحدث بعد انعقاد الإجماع قبله وليس لرواياته أسانيد ثابتة فلا وجه لذكره

فالقول بأن الإسراء كان مناماً في رؤيا رآها النبي ﷺ وهو نائم، كما هو منسوب للحسن بن أبي الحسن البصري ـ قول مستحدث لم يكن على عهد الصحابة والتابعين، ولم يثبت في روايات تُوازَن أسانيدُها في الصحة بأسانيد الروايات التي أخذت بها جماهير الأمة من أن الإسراء كان يقظة بجسد النبي ﷺ وروحه وهو في كمال بشريته يقظة وتنبّها.

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ وهي طليعة من نقل عنهم القول إن الإسراء كان بروح رسول الله ﷺ ـ لم تكن في زمن وقوع الإسراء على أي قول قاله العلماء في سنها وتوقيت الإسراء زوجة لرسول الله ﷺ، ولا كانت في سن من يضبط ضبط إتقان وحفظ، ورسول الله ﷺ لم يدخل بها إلا في المدينة في السنة الثانية، والإسراء كان بمكة، فسنها على أقرب الأقوال في زمن الإسراء من دخول النبي ﷺ بها لم تتجاوز السابعة، وعلى غير هذا القول في توقيت الإسراء لم تكن قد ولدت بعد، أو كانت في سن الطفولية، قريرة المهد.

والرواية عنها مضطربة في محط الاستدلال منها، إذ روي أنها قالت: ما فَقْدتُ جَسَدَه ببناء فعل فقدت للفاعل مسنداً إلى ضميرها، وهذه الرواية

(١) سورة النجم آية (١٧).

وهي أشهر الروايات غير مقبولة لأنها قطعاً لم تكن زوجه حين وقع الإسراء حتى يسوغ أن ينسب إليها أن تقول: ما فقدتُ جسد رسول الله ﷺ، وروي أنها قالت: ما فُقِد جسدُ رسول الله ﷺ ببناء فعل فُقِد للمجهول، وهذا يدل على أنها روت عن غيرها، ومن هذا الذي يستطيع أن يعم الأحوال والأوقات ويجزم بعدمٍ فقد جسد رسول الله ﷺ زمن الإسراء؟ ومن أين يأتي هذا الجزم إذا لم يكن مروياً عن رسول الله ﷺ، كما هو الواقع إذ لم يزعم أحد قط أن رسول الله ﷺ قال ذلك. وروي لم يفقد جسد رسول الله ﷺ بفعل مضارع مبني للمجهول، قال الخفاجي: قال التلمساني: وهي الأشبه بالصواب فهو إخبار منها عن غيرها، لأنه حينئذ لم تكن زوجته، بل لعلها لم توجد، قال القاضي عياض: فإذا لم تشاهد زمن الإسراء عائشة دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يرجح خبرها على خبر غيرها؟. فليس حديث عائشة بالثابت عنها، قال الخفاجي: لما في متنه من العلة القادحة وفي سنده محمد بن إسحاق، وقد ضعّفه مالك وغيره والأحاديث الأخرى أثبت منه.

حديث عائشة في الإسراء موضوع لرد الحديث الصحيح

قال الزرقاني في شرح المواهب بعد أن ذكر قول عياض: حديثها ليس بالثابت عنها: لما في متنه من علّة قادحة، وفي سنده من انقطاع وراوٍ مجهول، ثم قال الزرقاني: وقال ابن دحية في التنوير: إنه حديث موضوع عليها، وقال في معراجه الصغير، قال إمام الشافعية ابن سريج: هذا حديث لا يصح، وإنما وضع رداً للحديث الصحيح.

وإذا انتهى خبر عائشة رضي الله عنها في أن الإسراء كان بالروح فقط، وأنه لم يفقد جسد رسول الله ﷺ إلى هذه النتيجة ظهر أنه ليس لعائشة رضي الله عنها قول في الإسراء بالروح فقط أو بها مع الجسد، قال الزرقاني: بل الذي يدل عليه صحيح قولها أن الإسراء كان بجسده الشريف لإنكارها رؤيته لربه رؤية عين، ولو كانت عندها مناماً لم تنكره.

وإذا بقيت عائشة مع إجماع الصحابة، أو لم يكن لها قول في الموضوع بقي الإجماع صحيحاً ثابتاً، ولا يخدشه ما نسب إلى معاوية رضي الله عنه من قوله: إن الإسراء كان رؤيا رآها رسول الله ﷺ إذْ كان الإجماع منعقداً

قبل أن يدخل معاوية وسائر مسلمة الفتح في الإسلام، على أن الرواية عنه لم تثبت بسند صحيح وهي من رواية محمد بن إسحاق وقد عُرف حاله، وعلى فرض ثبوتها فهي اجتهاد متأخر عن الإجماع غير ملزم ولا ناقض للإجماع.

أما ما حُكي عن الحسن بن أبي الحسن البصري فهو أحرى بعدم الإلزام، بل بعدم القبول، لأن المروي عنه أنه كان يقول: كان ذلك في المنام رؤيا رآها، ومع القطع بأن رؤيا الأنبياء وحيٌ صادق، لكنها لا تخرج عن عموم الرؤى في أنها لا تستبعد في العقول، ولا يستغرب فيها رؤية الآيات والعجائب الغريبة، ولا تقتضي التكذيب، لأن آحاد الناس تقع منه ويرى من العجائب والغرائب أشياء يحدث عنها ولا يكذّب في أنه رآها في رؤياه المنامية، ولا يستنكر منه ما يحدث به، وقد ثبت أن كفار قريش أنكروا الإسراء، وكذّبوا النبي ﷺ إذ حدثهم أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً، وها هوذا يصبح معهم يحدثهم بما رأى مما يعرفونه، فلما عرفوا صدقه فيما أخبرهم به أعرضوا وقالوا: هذا سحر مبين، وهذا مما يرد به على رواية ما نسب لمعاوية رضي الله عنه، لأن الإسراء لو كان رؤيا منامية رآها رسول الله ﷺ ما أنكر عليه الإخبار به ولا كذب فيه ولا ارتد بعض حدثاء الإيمان من ضعفاء العقيدة.

والذين قالوا عن الحسن ما نسب إليه ذهبوا إلى أنه نزع بآية ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ وهذه الآية قد اختلف العلماء في المراد بالرؤيا فيها، فقيل: إنها رؤيا عام الحديبية، حين رأى رسول الله ﷺ أنه دخل المسجد الحرام فسافر قاصداً مكة معتمراً فصدّه المشركون، وافتتن الناس وتحيروا، ولم يثبت سوى الصدِّيق رضي الله عنه، لأن رؤياه ﷺ وحي صادق، فثبتهم ﷺ بقوله: «أقلت لكم في هذا العام»؟.

وقيل: إن المراد بالرؤيا في الآية رؤيا بدر، أراه جبريل مصارع القوم في غزوة بدر فأراها ﷺ الناس بقوله لهم واضعاً يده على الأرض: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان» وكان كما قال.

وإذا احتملت الرؤيا في الآية هذه الأوجه فلا تصلح متمسكاً للقول

بأن الإسراء كان مناماً، على أنه روي عن الحسن رحمه الله خلاف هذا القول، قال عياض: والمشهور عنه خلافه، قال الخفاجي: أي له قولان: أشهرهما أنه كان يقظة.

التحقيق أن الإجماع الصحيح قائم بلا نكير على أن الإسراء كان بمحمد ﷺ وهو في أكمل حالات بشريته روحاً وجسداً

وإذا تحرر هذا التحقيق لم يبق قائماً على دعائم الصحة التي لا مطعن فيها إلا إجماع الأمة، الصحابة ومن بعدهم من سلف العلماء ومن تبعهم في اعتقاد أن الإسراء من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء كان بشخص النبي ﷺ الكامل في بشريته وروحانيته، أي بجسده الشريف وروحه الأعظم، فإذا جاء بعد ذلك من ينتحل مذهباً مستحدثاً لم يصح عن أحد من الصحابة وهم قدوة الإسلام والمسلمين، فيرى أن الإسراء كان رؤيا منامية أو كان بالروح على مقتضى مذهب الانسلاخيين من المتصوفة والفلاسفة فلا يقام لانتحاله وزن ينقض به الإجماع.

أما المعراج من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، بل إلى ما فوق ذلك مما استأثر الله بعلمه وخص به نبيه محمداً ﷺ فلم يأت عنه في القرآن نص صريح يوقف عنده، وقد يكون في سورة النجم إشارة إليه بقوله تعالى:

المعراج ثابت بالروايات الصحيحة المشار إليها في سورة النجم مع الاختلاف في سياقاتها وحوادثها

﴿ولقد رآه نزلة أخرى*عند سدرة المنتهى﴾ والاتفاق قائم على الرائي، وهو محمد ﷺ وعلى المرئي وهو جبريل عليه السلام، وعلى أن سدرة المنتهى في السماء السادسة أو السابعة بمقتضى صريح الروايات الصحيحة التي رواها الأئمة الأثبات، الشيخان وغيرهم.

وقد جاءت الروايات الكثيرة التي تبلغ في جملتها مبلغ التواتر على أن الصلاة فرضت على النبي ﷺ ليلة المعراج، ولكن هذه الروايات وقع فيها اختلاف بالزيادة والنقص، والتأخير والتقديم، والإسهاب والإيجاز، وذكر ما رآه النبي ﷺ من عجائب الملك والملكوت، وما أُتحف به من مظاهر الحفاوة والتلطف كصلاته ﷺ إماماً بالأنبياء، فقد أثبتتها روايات كثيرة، ونفتها روايات دونها في الكثرة، وقد أنكرها حذيفة بن اليمان وهو من خواص الصحابة رضي الله عنهم، وكالاختلاف في عدد الأواني التي جيء له بها وما فيها من شراب بين اللبن والماء والخمر والعسل، كما اختلفت الروايات في

مكان إتيانه بها ﷺ هل كان في الأرض ببيت المقدس، أو كان في السماء، وكالاختلاف في أمكنة الأنبياء من السموات، وغير ذلك مما حَمَل بعض العلماء على القول بتعدد الإسراء والمعراج في ليال مختلفة وأزمنة متعددة.

محاولة التوفيق بين الروايات لتفادي القول بتعدد الإسراء والمعراج

وقد حاول كثير من العلماء التوفيق بين الروايات المختلفة ليجعل الاختلاف بينها شكلياً فقال ابن كثير: وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارة فيسوقه كله، وتارة يحذف عن مخاطبه بما هو الأنفع عنده، وهذا كما يرى تمحل لا يدفع الاضطراب في الروايات، وهو توفيق قائم على التخيل لا يستند إلى واقع مسنود بنص من هؤلاء الرواة أنهم قصدوا ذلك.

ثم رد ابن كثير على من ذهب إلى تعدد الإسراء لاختلاف الروايات، فقال: ومن جعل كل رواية إسراء على حدة، فقد أبعد جداً، وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء، وفي كل منها يُعَرَّف بهم، وفي كلها تفرض عليه الصلوات، فكيف يمكن أن يُدَّعى تعدد ذلك؟ هذا في غاية البعد والاستحالة.

وهذا الكلام أصله لابن القيم في الهدى النبوي، لا ندري أخذه ابن كثير منه أو هو من قبيل توافق الخواطر المتعاصرة؟

رد ابن القيم على الذين زعموا تعدد الإسراء والمعراج

قال ابن القيم يرد على الذين عددوا مرات الإسراء نظراً لاختلاف الروايات: وكان الإسراء مرة واحدة، وقيل مرتين: مرة يقظة، ومرة مناماً، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك، وقوله: ثم استيقظت وبين سائر الروايات، ومنهم من قال: بل كان هذا مرتين، مرة قبل الوحي لقوله في حديث شريك: وذلك قبل أن يوحى إليه، ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي ومرتين بعده.

ثم قال ابن القيم: وكل هذا خبط، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات

جعلوه مرة أخرى، فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع.

والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة، ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين ثم يتردد بين ربه وموسى حتى تصير خمساً، ثم يقول: أمضيتُ فريضتي وخفّفتُ عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطُّها عشراً عشراً.

وقد غلّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه ثم قال: وأخّر وزاد، ونقص ـ أي شريك ـ ولم يسرد الحديث ـ أي مسلم ـ فأجاد رحمه الله.

تشييد ابن القيم للقول بأن الإسراء كان بالروح بكلام فلسفي لا يوائم أسلوب الإسلام في الأحداث والوقائع

وابن القيم صرّح بأن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة يقظة بشخص رسول الله ﷺ، جسده وروحه.

ولكن ابن القيم شيّد القول بأن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط في محاولة حريصة تؤذن بميله إلى هذا القول، قال في الهدى: وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا: إنما كان الإسراء بروحه، ولم يفقد جسدُه ـ هذا النقل منسوب إلى عائشة رضي الله عنها، أما النقل عن معاوية رضي الله عنه فهو كما ذكره ابن كثير في البداية أنه كان إذا سئل عن ذلك قال: هي رؤيا صادقة رآها ـ قال ابن القيم: ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك ـ أي أن الإسراء كان بالروح فقط، كما هو المنسوب إلى عائشة رضي الله عنها، والمعروف عن الحسن تصريحه بأن الإسراء كان مناماً، وفرق كبير جداً بين ما نسبه ابن القيم إلى معاوية والحسن، وبين ما نسبته إليهما الروايات عنهما عند ابن إسحاق، وقد بيّنا ضعف الرواية بهذه الصورة عنهم، بل ذكرنا قول من قال: إن حديث عائشة موضوع عليها ـ.

ثم قال ابن القيم يشيّد هذا القول ويدعمه بكلام فلسفي، لا يجري على طرائق الشريعة في الملة الإسلامية: ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً ـ وهذا هو المنسوب في رواية ابن إسحاق الوحيدة

إلى معاوية والحسن وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده ـ أي كالمنسوب إلى عائشة رضي الله عنها ـ وبينهما فرق عظيم.

وعائشة ومعاوية لم يتفقا على القول أنه كان مناماً ـ بل هذا هو المنقول عن معاوية في رواية ابن إسحاق الوحيدة عنه أنه كان إذا سئل عن ذلك قال: هي رؤيا صادقة رآها، والرؤيا لا تكون إلا مناماً، فضم معاوية إلى عائشة في أنهما لم يقولا كان مناماً، وإنما قالا: أسري بروحه لا يتفق مع قولها: ولم يفقد جسده، كما لا يتفق مع المروي عن معاوية ـ قال ابن القيم: وفرق بين الأمرين، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة، فيرى كأنه قد عُرج به إلى السماء، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض، وروحه لم تصعد، ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب المثال.

والذين قالوا: عرج برسول الله ﷺ طائفتان، طائفة قالوا: عرج بروحه وبدنه، وطائفة قالت: عرج بروحه، ولم يفقد بدنه ـ قلنا: بل الذين قالوا: عرج برسول الله ﷺ ثلاث طوائف بمقتضى الروايات المنسوبة إليهم: طائفة قالت: عرج برسول الله ﷺ بروحه وبدنه يقظة، وهذا ما انعقد عليه إجماع الصحابة، لأن حديث عائشة موضوع عليها لرد الحديث الصحيح كما قال إمام الشافعية ابن سُرَيج، وطائفة نُسِب إليها القول بأنه عرج برسول الله ﷺ بروحه ولم يفقد جسده، وهذا باطل من القول نسب إلى عائشة رضي الله عنها، وهي في سن غير ضابطة أو هي لم تكن قد ولدت، فنسبة هذا القول الباطل إليها لا يحل عروة إجماع الصحابة قبل أن تظهر نسبة هذه القولة إليها، وطائفة ثالثة نُسِب إليها أنها قالت: كان الإسراء رؤيا رآها كما هو المنسوب إلى معاوية، أو رؤيا منامية كما هو المنسوب إلى الحسن البصري، وهذه الطائفة لم تَثْبت الرواية عنها بسند يعوّل عليه وينقض به الإجماع، لأنها لم يروها غير محمد بن إسحاق.

ثم أخذ ابن القيم يدير الكلام على القول الذي قيل فيه: إنه عرج برسول الله ﷺ بروحه فقط ولم يُفقد جسدُه، وهو قول لا وجود له إذ لم يقله أحد، بعد أن تبين أن حديث عائشة موضوع.

قال ابن القيم: وهؤلاء ـ أي الذي قالوا: عرج بروحه ولم يُفْقد بدنُه، وهم لا وجود لهم، بعد ثبوت وهن الحديث المنسوب إلى عائشة أو وضعه عليها، وهي الوحيدة التي نسب إليها الإسراء بالروح فقط ـ لم يريدوا أن المعراج كان مناماً ـ بل أرادوه وصرّحوا به في رواية ابن إسحاق الوحيدة منسوباً إلى معاوية والحسن، ولم يذكر عنهما أنهما قالا: عرج بروح رسول الله ﷺ، فنفي ما نسب إليهما وتقويلهما إن العروج كان بالروح فقط تبديل للقول وتحريف للرواية ـ وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة، وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السموات، سماء سماء حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدي الله عز وجل، فيأمر فيها بما يشاء، ثم تنزل إلى الأرض.

ثم قال ابن القيم: فالذي كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء ـ على هذا القول المزعوم ـ أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة، ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم، لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم بذلك، عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة ـ قلنا: ما دام رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد، فلماذا يصرف الإسراء عن كونه ـ كما هو الواقع ـ كان بالجسد والروح معاً، وهو الشخص الكامل بشرية وروحاً المعبر عنه في الآية بلفظ (عبدنا)؟ وبقاؤه على هذا المعنى المفهوم للعامة والخاصة أدخل في خرق العوائد ـ ومَنْ سواه لا ينال بذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة، فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت، وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء، ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به بحيث يرد السلام على من سلَّم عليه.

سؤال يهدم بناء ابن القيم من أساسه

ولا بد من التساؤل حينئذ أمام هذه الحماسة المتدفقة في تشييد بناء هذا القول المتداعي: هل كان هذا التصور للإسراء على قول القائلين بالروح

ولم يفقد جسَدُه ﷺ موجوداً في ذهن رسول الله ﷺ حين أخبر مجتمع الكفر من قريش برحلته الإعجازية، فاستمعوا له ما بين مصفق وضاحك وساخر، إنكاراً وتكذيباً لما قال لهم، وحين استوصفوه المسجد الأقصى، وكان رسول الله ﷺ لم يثبت في ذاكرته بعض أشياء منه فكرب كرباً شديداً، فجلّاه له رب العزة في الحِجْر، فجعل ينظر إليه ويخبر عمّا يسألون، فلما وافق وصفه ما عندهم مما عرفوه عن المسجد الأقصى لكثرة ترددهم عليه للتجارة وغيرها قال قائلهم: أما الوصف فقد صدق فيه؟

وهل المسلمون وهم يستمعون إلى نبيهم ﷺ يتحدث عن رحلته الإعجازية يفهمون أنها رحلة روح فقط تركت جسدها وانسلخت منه ثم عادت إليه؟ ففيم إذاً كان ارتداد المرتدين، وهم يعلمون أن الروح لها شأنها الخاص الذي لا تقيده الماديات، فتنطلق إلى أقصى المشرق ثم تعود إلى أقصى المغرب في لحظات من الزمن، وتُبَاشر من الأمور المادية ما يقتضي أعواماً وشهوراً لو كان حصوله حصولاً مادياً؟ وهل كان ملأ قريش حين استمعوا إليه ﷺ وهو يحدثهم عن رحلته وعجائب ما رأى فيها من آيات الله في ملكوته في طريقه ذهاباً وجيئة يفهمون أنها رحلة روح انسلخت عن جسدها وتركته حياً حتى عادت إليه وامتزجت به كما كان حالها قبل الرحلة؟ وإذاً ففيم كان الإنكار والتكذيب والاستسخار، وهم يعلمون أن الأرواح لا ينكر عليها قطع المسافات البعيدة جداً في زمن يسير، وقد قالوا في إنكارهم: إننا نضرب لها أكباد الإبل شهراً مصعدة وشهراً آيبة وأنت تقول: إنك ذهبت إليها في لحظة من ليل ثم عدت إلينا تحدثنا؟

وهل لهذا الطراز من التخيلات سند من أمثاله وشواهده في آثار الأنبياء ومعجزاتهم مثل ما وجد من الشواهد لنقل جسم عظيم من مكان قصيّ البعد في لحظة من ارتداد طرف العين، كنقل عرش ملكة سبأ، وهو ثابت بنص القرآن الكريم؟

وانسلاخ الروح عن الجسم وبقاؤه حياً ينتظرها هوس إشراقي متفلسف انتقل إلى بعض الفارغين من أدعياء التصوف الإشراقي الفلسفي،

وقد جاء في بعض شروح عينية ابن سينا أن بعض متقدمي متفلسفة الإشراق الوثنيين قال: انسلخت عن بدني فعرفت من أنا، فهل هذا الهوس المأفون يتفق في شيء مع منهج الإسلام وشريعته؟!

ومن العجيب أن الإمام ابن القيم افتتح حديثه عن الإسراء في كتابه (زاد المعاد في هَدْي خير العباد) بقوله: ثم أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكباً على البراق صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام.

فقوله على الصحيح دليل على أن مقابله ليس صحيحاً، وإذا كان ذلك كذلك ففي أي شيء كانت الحماسة لتشييد قول غير صحيح، وإهمال القول الصحيح لمجرد السرد وقصص الروايات؟

إن آية الإسراء والمعراج كانت إعجازاً من الله تعالى كرّم به نبيه وحبيبه محمداً ﷺ، أسرى به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء من الشام بروحه وجسده وهو ﷺ كامل البشرية، فأراه من عجائب آياته في ملكوته ما أراه، حفاوة به وتشريفاً له ولأمته، وعرج به ﷺ جسماً وروحاً في كامل بشريته، فسما في عروجه حتى سمع صريف أقلام الغيب تجري بمقادير الخلق في الكون، وفرضت عليه الصلاة، وأوتي من المنح الإلٰهية علماً وعملاً وبهاء ما لم يؤت مثله أحد من العالمين. هذا اعتقاد كافة المسلمين، وهو ما ندين الله عليه ونعتقده، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

اختلاف الروايات في وقائع الإسراء والمعراج

وقد اتسع اختلاف الروايات في حادث الإسراء والمعراج ووقائعه وأحداثه اتساعاً استعصى على المهرة من أئمة العلم في الإسلام ـ قديماً وحديثاً، مفسِّرين ومحدِّثين ونظّار ومتكلمين ومؤرخين ـ الجمعُ والتوفيق بين هذه الروايات، لما وقع فيها من زيادات ونقصان، وتقديم وتأخير، وإسهاب وإيجاز، وتناقض في الحوادث.

مجموع روايات البخاري في الإسراء والمعراج

فقد بلغ مجموع ما رواه البخاري في صحيحه نحواً من عشرين رواية عن ستة من الصحابة بين رواية للقصة كاملة، تجمع بين الإسراء والمعراج، وبين رواية مقتطعة من رواية أخرى، ورواية تفرد الإسراء عن المعراج، وأخرى تفرد المعراج عن الإسراء.

حديث أنس بن مالك من طريق إبراهيم ابن طهمان، ومن طريق شريك

ومن هذه الروايات حديث أنس بن مالك من طريق إبراهيم ابن طهمان، وهو مختلف مع حديث أبي هريرة من طريق عبدان في عدد الأقداح التي جيء بها إلى رسول الله ﷺ، وفي مكان إتيانه بها، ففي حديث أنس أنها ثلاثة أقداح، وأنه أُتي بها عند سدرة المنتهى، وأنها كانت من لبن وعسل وخمر، وفي حديث أبي هريرة أنها كانت قَدَحين من خمر ولبن وأنه أُتي بها في الأرض بإيلياء.

ومنها حديث أنس من طريق شريك بن عبدالله بن أبي نمر، وهو مختلف مع سائر الطرق والروايات في أمور جوهرية في الموضوع، لأن فيه أن الإسراء كان قبل البعث قبل أن يوحى إلى النبي ﷺ، أي قبل أن يُنبأ

ويبعث رسولاً، وفيه النص صراحة على أن الإسراء كان مناماً لقوله فيه، ثم استيقظ، وهو اختلاف مشهور وقد غلّط الأئمة شريكاً فيه، ولم تقبل هذه الزيادات لأنها تخالف ما عليه جمهور الأمة من الصحابة ومن بعدهم من أئمة العلم.

حديث أبي ذر الطويل وفيه قصة شق الصدر

ومنها حديث أبي ذر الطويل، وفيه قصة شق الصدر الشريف وغسله بماء زمزم، وأن العروج إلى السماء كان بعد حادثة شق الصدر وغسله، ولم يذكر فيه النزول ببيت المقدس ولا الصلاة فيه لا منفرداً ولا إماماً بالأنبياء، ولم يُثْبت فيه مكان أحد من الأنبياء سوى آدم في السماء الأولى، وإبراهيم في السادسة، وسائر الروايات تثبت إبراهيم في السابعة مع إثبات أمكنة غيرهما من الأنبياء في السموات سماء، سماء.

حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة

ومنها حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أحد الأنصار، وفيه قصة شق الصدر وأن جبريل انطلق به إلى السماء الدنيا، ولم يذكر نزوله بالمسجد الأقصى ولقاء الأنبياء والصلاة إماماً بهم، فهو في هذا كحديث أبي ذر، وفي حديث مالك بن صعصعة بكاء موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي، وقد تكلم العلماء في هذا البكاء، وفي وصف النبي ﷺ بأنه غلام، وفي كثرة من يدخل من أمته ﷺ بالنسبة إلى من يدخلها من أمة موسى عليه السلام بما يبرىء ساحة النبوة عن توهم مالا ينبغي بالنسبة لموسى رسول الله وكليمه.

حديث شريك من طريق عبد العزيز ابن عبدالله

ومنها حديث شريك من طريق عبد العزيز بن عبدالله، وفيه أن الكوثر نهر في سماء الدنيا، وفيه أن موسى في السماء السابعة بفضل كلام الله، وفيه: فقال موسى رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً، وقد وجّه العلماء هذا القول توجيهاً يليق بمكانة موسى عليه السلام وينفي توهُّم ما عسى أن يعلق بقلب ضعيف النظر في المعاني والحقائق من عامة المؤمنين.

وفيه: جاء نبينا ﷺ سدرة المنتهى، ودنا الجّبار رب العزة فتدلّى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وفيـه عند مراجعة موسى: فعلا به إلى الجبار وهو مكانه، وفي الهدي النبوي لابن القيم: فعلا به جبرائيل حتى أتى به الجّبار

تبارك وتعالى وهو في مكانه، وقد علّق عليه ابن القيم فقال: هذا لفظ البخاري في بعض الطرق، وقد بين بعض الأئمة أن الضمير في قوله: وهو في مكانه عائد على النبي ﷺ، أي مكان مناجاته ربه عز شأنه.

مجموع روايات مسلم في الإسراء والمعراج

أما الإمام مسلم فقد بلغ مجموع ما رواه في الإسراء والمعراج نحواً من ثماني عشرة رواية عن سبعة من الصحابة، منها حديث ثابت البُناني عن أنس بن مالك، وهو أجود الروايات في آية الإسراء والمعراج سياقة وترتيباً وجمعاً.

حديث أنس عن أبي ذر

ومنها حديث أنس عن أبي ذر من طريق حرملة بن يحيى التجيبي، وفيه: فأدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك، وفيه: فقال أنس بن مالك: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وعيسى، وموسى وإبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين، ولم يثبت كيف منازلهم فيها، وفيه: قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبّة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عُرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام».

وفيه بعد مراجعة موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى».

حديث أنس من رواية محمد بن المثنى

ومنها حديث أنس من رواية محمد بن المثنى، وفيه: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، وهو حديث مالك بن صعصعة وفيه: إذْ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأُتيت فانطُلِق بي، ثم ذكر قصة شق الصدر وغسله بماء زمزم، وفيه ذكر البراق ووصفه، وفيه فحملت عليه، ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا، وظاهر ذلك أن العروج إلى السماء كان مباشرة بعد شق الصدر وغسله، وأنه كان على البراق وفيه: ثم رفع لي البيت المعمور، وأنه أُتي بإناءين في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر.

ومنها حديث ثابت البناني وسليمان التيمي من طريق هدّاب بن خالد وشيبان بن فروخ عن أنس بن مالك، وفيه أن النبي ﷺ قال: «مررت على

موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره».

حديث ثابت البناني عن أنس من طريق هداب بن خالد وشيبان بن فروخ

وإذا اكتفينا من الصحيحين، وهما قمة الصحة في الإسناد، بهذا القدر من الاستشهاد على اختلاف الروايات، وكلها بأسانيد صحيحة لا مطعن في رواتها وجدنا في غيرهما اختلافاً أوسع وأعمق وأكثر أحداثاً ووقائع.

حديث ابن عباس عند أحمد من طريق قابوس عن أبيه

ففي مسند أحمد تجد حديث ابن عباس من طريق قابوس عن أبيه، وفيه بعض وقائع لم تذكر في غيره من الأحاديث، وفيه أن النبي ﷺ لما دخل المسجد الأقصى قام ليصلي فالتفت ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه، وفيه ذكر قَدَحين أتي بهما ﷺ في أحدهما لبن وفي الآخر عسل.

حديث حذيفة عند أحمد

وقد روى الإمام أحمد في مسنده حديث حذيفة بن اليمان، وفيه محاورة بينه وبين زرِّ بن حُبَيش، وفيه إنكار حذيفة دخول النبي ﷺ المسجد الأقصى والصلاة فيه، وكان حذيفة يقسم أنهما لم يزايلا البراق، وهذا إنكار لربطه في الصخرة كما في كثير من الروايات، وإنكار لدخوله ﷺ المسجد الأقصى، وإنكار للصلاة فيه.

في دلائل البيهقي روايات كثيرة مسهبة أمثلها حديث شداد بن أوس، وهو عند البزار والطبراني في الكبير، وهو خاص بالإسراء.

وفي دلائل البيهقي روايات كثيرة مطولة مسهبة جداً مشتملة على أحداث ووقائع لم تذكر في الصحيح، ومن أمثل ما رواه البيهقي في دلائله حديث شداد بن أوس ورواه البزار والطبراني في الكبير، وخرجه صاحب مجمع الزوائد وهو مقصور على الإسراء لم يذكر فيه شيء عن المعراج، وهو جواب سؤال من الصحابة، كيف أسري بك يا رسول الله، فقال: «صليت لأصحابي العتمة بمكة معتماً» وفيه أن النبي صلَّى ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام، وصلّى بمدين، عند شجرة موسى، وصلَّى بيثرب طيبة. وفيه أنه ﷺ رأى جهنم بوادي المدينة ـ أي مدينة بيت المقدس فوصفها لأصحابه، وفيه أنه ﷺ مرّ بعير قريش، وأنهم أضلوا بعيراً لهم جمعه فلان، وأنه سلم على أهل العير فعرفوا صوته، وفيه أن أبا بكر أتاه فسأله: أين كنت الليلة، فحدثه أنه أتى بيت المقدس الليلة، فعجب أبو بكر وقال: مسيرة شهر، فصفه لي فإني أعرفه، فوصفه له، وصدقه في كل كلمة حدثه بها، وقال: أشهد أنك رسول الله، وشاع الأمر في المشركين وظهر تكذيبهم،

فأخبرهم ﷺ أن من آية ذلك مروره بعيرهم ووصفها لهم وأنه يقدمها جمل أسود، عليه غرارتان سوداوان، وأخبرهم بوقت قدوم العير، فقدمت في الوقت الذي عيّنه لهم.

وقد علّق البيهقي على هذا الحديث فقال: إسناد صحيح، مع أن فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء ضعّفه النسائي، وقد روى ذلك مفرقاً في أحاديث غيره، ومن تفاريقه ما رواه البخاري عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سمعت جابر بن عبدالله الأنصاري يحدِّث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحِجْر فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»

* * *

هذا الاختلاف الواسع بين روايات الأحاديث لا يمكن التوفيق فيه إلّا بالترجيح بين هذه الروايات

هذا الاختلاف العريض في سياقات الأحاديث، وأساليبها، وأحداثها ووقائعها بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير لا يكفي فيها، ولا يشفي ظمأ المتطلّعين إلى حقائق العلم والدين، وقضايا المعرفة، ودعائم الإيمان بها ـ وقضيةُ الإسراء والمعراج من كبريات هذه القضايا العلمية الدينية، لأن الله تعالى لم يذكر آية مادية حسية مما كرّم به نبيه محمداً ﷺ بمثل ما ذكرها من التمدح بها وتعظيمها ورفع شأنها ـ ما حاوله بعض العلماء من التوفيق بينها، لأن بعض هذه الاختلافات تدخل في صميم الحقائق التي اشتمل عليها حادث الإسراء والمعراج، وهو من أعظم ما شرف الله به نبيه محمداً ﷺ من الآيات الحسية والكرامات المادية والمعجزات الصادقة المصدِّقة لدعوته في رسالته الخالدة العامة عموم الزمان والمكان والأجيال.

فهي آية من أعجب ما أوتي الأنبياء والرسل، رسمت في إطارها الإعجازي طريق مسير الرسالة في تشريعها وتطبيق أحكامها، بما شاهد فيها رسول الله ﷺ ورآه من آيات ربه في ملكوته رأي عين من عجائب الكون التي أوتيها رسول الله ﷺ في صور من عالم الغيب، تتضاءل أمام جلالها وعظمتها كل صور المشاهد الأرضية.

وهذه الإرادة لعجائب الملكوت هي في الحقيقة موطن الحفاوة

رؤية عجائب الملكوت بلسم لجراح الأزمات والشدائد ورسم لطريق الكفاح في مسير الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته

بالنبي ﷺ، ليمسح الله بها كل أثر لقيه ﷺ من آثار الفجور الوثني، وطغيان الشرك وعتو العناد، وبأو الاستكبار والبغي في معاملة هؤلاء الفجرة له ﷺ ولأصحابه، ليزداد ﷺ علماً بأن رسالته في عمومها الأشمل وخلودها المؤبد رسالة كفاح صبور أبدي مستمر ما قامت الحياة على هذه الأرض، وأنها دعوة نضال لا يعرف التوقف والمهادنة، لأنها دعوة تستهدف إخراج الإنسانية من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والعلم، وتطهير هذه الإنسانية من أوضار الشرك ورجس الوثنيات في كافة صورها وأشكالها مهما ألبست من لبوس العلم الزائف والمعرفة المتهافتة، وإنقاذ الحياة من ظلم الطغيان الممثل في جبروت المستعبدين للبشرية في صورة زعماء وحكام وأباطرة، وثراء في المال، يسخِّرونهم لقضاء شهواتهم الفاجرة، ويعملون على سرمدة الجهل فيهم لتدوم لهم طاعتهم وتسخيرهم عبيداً لا يعرفون طعم الحرية في حياتهم، حتى يعلم الناس كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها أن التأسِّي به ﷺ يتمثل في إقامة منهجه في رسالته علماً وعملاً وصبراً وجهاداً، وحتى يعلم وارثو منهجه في الدعوة إلى الحق من حملة أمانة دعوته ورسالته المنتصبين للدعوة لها أنهم يحملون أثقال ما حُمِّل رسول الله ﷺ في تطبيق منهجه على أنفسهم وأقرب المقربين إليهم، وأبعد الأبعدين عنهم، ليكونوا مُثُلاً حيَّة لحياته ﷺ في تبليغ رسالته، ونشر دعوته، تتحرك بين الناس حاملة لواء الوراثة النبوية يخفق في آفاق الأرض، منادين باسم السماء التي تنزلت منها تلك الرسالة الهادية: أن رسالة محمد ﷺ عقد لواء انتصارها على عتو المعاندين المستكبرين في الأرض في ظل سدرة المنتهى ليلة شرّفه الله بالإسراء والمعراج، وما عقد في السماء فلن يحلّ في الأرض، فلتسمع الدنيا بمن فيها وما فيها صوت الحق والخير والهدى في هذه الرسالة السرمدية، وليستجب الذين يسمعون إلى دعوة العدل والحب والإخاء الإنساني لله ولرسوله ﷺ، وهو يدعوهم لما يحييهم.

وعندئذ تتحقق لهؤلاء الدعاة إلى الله وراثة منهج محمد ﷺ في مشاهدة آثار آيات الله وأعاجيب ملكوته وأسرار ملكه في خزائنها من قلوب العباد، لأن كل قلب يفتح للحق والخير والتراحم الإنساني هو سماء من سماوات

البشرية، تنحدر منه غيوث بشائر الإيمان والهدى والإخاء المواسي، بل الإخاء المُؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

هكذا كان واقع رسالة محمد ﷺ في الحياة، بعد أن شرّفه الله تعالى بآية الإسراء والمعراج، لأنها كانت مبدأ التمكين في التطبيق العملي، وهكذا كان تطبيق منهجه ﷺ الذي رجع به من رحلة السماء بين الناس والأشياء.

الدعاة إلى الله في شرعة الإسلام هم الوارثون لمفاتيح القلوب لإدخال الهداية إلى حظائرها

فالدعاة إلى الله بأيديهم مفاتيح القلوب التي أنزلت مع محمد ﷺ من سماء العزة ليلة الإسراء والمعراج أمانة يتقلدها العلماء بالله في أعناقهم؛ ليؤدوها إلى أهلها منهجاً وسلوكاً كما أداها سيد المرسلين في حياته المباركة.

ويوم يتقاعس حاملو أمانة الوراثة في تبليغ الرسالة ونشر دعوة الحق والنور والهدى، مُخْلِدين إلى الأرض تلمظاً للدنيا وغروراً بزخارفها وشهواتها، وليس لهم منها إلا ما يتساقط من فتات موائد المفتونين بها من المترفين ـ لم يبق لهم من هذه الوراثة إلا عبء التحمل في الدنيا وعسير الحساب في الآخرة، وقد ضُربت ليلة الإسراء والمعراج لهم الأمثال لو كانوا يعقلون ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[1].

هذه حقائق يجب أن تستخلص من واقع آية الإسراء والمعراج ووقائعها وأحداثها في الأرض وفي السماء، والروايات في مجموعها على اختلافها تصور ذلك أكمل تصوير، ولكن الاختلافات الجزئية بينها توقع من لا تعمق له في فقه الدين في الحيرة، والحيرة قد تكون طريقاً إلى الشك، والشك هناك لا يقع في جملة الحوادث، لأن هذه الجملة قد تضافرت عليها الروايات، فلا سبيل إلى الشك فيها، والشك في بعض الجزئيات لا يمس جوهر الموضوع باعتباره آية من آيات الله التي امتن بها على نبيه محمد ﷺ ليطلعه من عوالم غيبه على ما يزداد به رسوخاً في يقينه، وما يكون له عوناً في طريقه.

ومن ثمّ لم نتتبع الجزئيات جزئية جزئية، لأننا وجدنا النفي والإثبات قد يتعاوران بعض الجزئيات، وليس في أيدينا ما نرجِّح به بعض الروايات

---

(1) سورة العنكبوت آية (٤٣).

على بعضها الآخر ووجدنا أن هذا التتبع يطول في غير طائل، وقد ذكرنا بعض الاختلافات في روايات الصحيحين، وهما في أعلى قمة الصحة السندية، ولن يصل غيرهما إلى درجتهما.

من أصح وأجود ما جاء من الروايات جامعاً بين الإسراء والمعراج في قرن واحد وزمن واحد

لذلك آثرنا أن نكتفي من هذه الروايات برواية من صحيح مسلم، جاءت جامعة بين وقوع الإسراء والمعراج في ليلة واحدة في سياق محرر سوّي الترتيب، ثابت الوقائع والأحداث، على ما هو اتفاق جمهرة المسلمين من السلف والخلف، وقد اختار هذه الرواية القاضي عياض.

وهو حديث جمع بين الإسراء والمعراج في سياق واحد وليلة واحدة، وقد ضبطت فيه الوقائع والأحداث والآيات التي أريها النبي ﷺ في الأرض وفي السموات على حد سواء.

حديث ثابت البناني عن أنس عند مسلم

ذلك هو حديث ثابت البُناني عن أنس بن مالك، وثابت من الحفاظ الضابطين المجمع على توثيقهم وضبطهم وجودة حفظهم وهو من أئمة المسلمين ديانة وصلاحاً وزهادة في الدنيا، والإمام مسلم روى هذا الحديث من طريق شيبان بن فرّوخ عن حمّاد بن سلمة قال: حدثنا ثابت البناني ـ قال الشهاب الخفاجي ـ رأس العلماء العابدين في عصره، أي عصر التابعين ـ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقال: من أنت؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا عليهم الصلاة والسلام، فرحّبا بي ودَعَوا لي

بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل؟ ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي، ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بادريس، فرحب بي ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: ﴿ورفعناه مكاناً عليّا﴾.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: «خمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف عن أمتي، فحطَّ عني خمساً، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن همّ

بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت له سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال ﷺ فقلت لموسى: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه». وقد ساق القاضي عياض في شفائه هذا الحديث، ثم علّق عليه بما قاله شيخه القاضي الحافظ ابن سكرة: جوّد ثابت هذا الحديث عن أنس رضي الله تعالى عنه ما شاء، وقد خلّط فيه غيره، لا سيما من رواية شريك بن أبي نمر، فقد ذكر شريك في أول حديثه قصة مجيء الملك وشق صدره وغسله بماء زمزم، وهذا إنما كان وهو صبي، وقد روى ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه من رواية حمّاد بن سلمة أيضاً مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره، وشقه قلبه، تلك القصة منفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس، فجوّد في القصتين، وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدرة المنتهى كان قصة واحدة، وأنه وصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه، ثم عرج به من هناك في نفس الليلة، فأزاح ثابت بروايتيه كل إشكال أوهمه غيره، كحديث يونس الأيلي القرشي عن ابن شهاب عن أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي فنزل جبريل ففرج صدري» الحديث، وكحديث قتادة بن دعامة السدوسي عن أنس، عن مالك بن صعصعة، وفي هذه الرواية تقديم وتأخير، وزيادة ونقص وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود.

تعليق ابن سكرة شيخ القاضي عياض على هذا الحديث بجودة السياق

ويليه في الجودة حديث قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة، وهو في البخاري، ولم يذكر فيه النزول بالمسجد الأقصى، ثم حديث أنس عن أبي ذر وهو أيضاً ليس فيه ذكر للإسراء بل هو خاص بالمعراج.

* * *

إلى هنا ونكف عنان القلم عن الاسترسال في تعاريج الروايات الكثيرة التي رويت في قصة آية الإسراء والمعراج بأسانيد لا تقوى على النقد

المحص، ولا تدعو إليها ضرورة في أداء حق الوفاء بالموضوع باعتباره أعظم آية حسية أكرم الله بها حبيبه ورسوله محمداً ﷺ، وفيما ذكرنا غنية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

مواكب الخير
تجني بواكير النصر

في لقاءات الطلائع اليثربية

المرحلة المكية لرسالة الإسلام كانت مرحلة كفاح صبور

كانت المرحلة المكية من مراحل رسالة الإسلام أشق مرحلة مر بها النبي ﷺ والسابقون من أصحابه وأشدها ابتلاء، وأعظمها محناً، وأقساها احتمالاً، لأنها كانت مرحلة تربية وإعداد، وكفاح ونضال، وصبر واحتمال، تحمّل فيها النبي ﷺ وأصحابه من السابقين الأولين ـ الذين جعلهم الله طلائع لكتائب الإيمان والجهاد، واتخذ منهم شموساً في آفاق الهداية وأنوارها ـ من صنوف البلاء والمحن وضروب الآلام والأذى وألوان الظلم الكفور، والعتو الأثيم والطغيان الفاجر، والفجور العنيد، والبأو المستكبر، والتنفج الكذوب، وسفاهة الغرور، وجهالة الغوغاء، ما لم تكن تحتمله الشامخات من الشم الشداد.

فهذه المرحلة لم تكن مرحلة إعجاز تتأيد به النبوة الخاتمة الخالدة، بتنزل القهر بما يستنزل الناس من آفاق عقولهم إلى التصديق كرهاً بما لم تفقهه عقولهم وهي منكوسة الإدراك، وما لم تؤمن به قلوبهم وهي غارقة في خضم عنادها العتيّ الظلوم واستكبارها الجهول الغشوم، ولكنها كانت مرحلة حِجَاج يخاطب العقول المبرأة من جهالة التقليد البليد، والعصبية الجاهلية الحمقاء.

ومن ثم لم يفقه رسالة الإسلام أولئك الذين عاشوا أصناماً في أشباح أناسي، وأنعاماً في هياكل آدمية لا يعنيهم من الحياة إلا إشباع شهواتهم، وعرضنة بطونهم، وانتفاخ كروشهم، وإلا أن يتكثروا في غرور أبله من زينة الدنيا وزخارفها، حتى عجبوا حين جاءتهم رسالة التوحيد مما لا يمكن أن يعجب منه عقل لم تستأسره محابّ الدنيا وحطامها، فقالوا إذ قيل لهم: ﴿إنما

إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علمًا﴾: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

وقد ذكرنا من أحداث البلاء، وفوادح الإيذاء التي كانت تصب على النبي ﷺ وأصحابه على أيدي الفجّار من الكفرة في هذه المرحلة المكية أمثلة وشواهد كثيرة في مناسباتها، تدل دلالة قاطعة على ما كانت تنطوي عليه جوانح هؤلاء الطغاة من الحقد والضغن، وما كانوا عليه من غلظ الأكباد، وقساوة القلوب، وعتو الفجور، وعلى ما كانت تنطوي عليه جوانح رسول الله ﷺ من عظيم الرأفة والرحمة، وسماحة الخلق، وكرم السجايا، والعفو والمغفرة، والصفح والإحسان إلى من أساء إليه، وعلى ما كان من تأسي أصحابه بأخلاقه من الصبر والتجلد للبلاء والإغضاء عن فجور السفهاء وجفوة الجهلاء، والتجاوز عن الإساءة، لأن الله تعالى أراد أن يجعل من هذه المرحلة المكية، محضناً لمكارم الأخلاق عند المؤمنين، فلم يأذن لهم سبحانه في رد الاعتداء باعتداء مثله، وإنما أمروا بالإعراض تكرماً، والإغضاء تفضلاً، وأن يقابلوا السيئة بالحسنة، والعذاب بالمغفرة ليتأسّى بهم من بعدهم من الدعاة إلى الله وحَمَلة أمانة نشر رسالة هذا الدين القيِّم، حتى يبلِّغوه إلى العالمين كما تلقَّوه من نبيهم ﷺ نوراً وهدى ورحمة، وشفاء من أمراض الأرواح والقلوب، وجمحات النفوس وشطحات العقول وشطط الغرائز، ووثبات الغرور.

وقد ظلت هذه المرحلة المكية على شدتها ومرارة قسوتها مدة ثلاثة عشر عاماً، وهي المدة التي أقامها رسول الله ﷺ منذ اصطفاه الله لنبوته، ثم اجتباه لرسالته، لم يهدأ لهيب أوارها، ولم تخمد شعلة نارها، والمؤمنون طوال هذا الزمن طيبو القلب رضا بما يصيبهم من نصب وبلاء وما ينزل بهم من محن وعذاب، لقوة يقينهم ومضاء عزائمهم، وما يرون على رغم ذلك من انتشار دعوتهم، والكافرون يضيقون ذرعاً، يكاد يبخعهم القلق النفسي والاضطراب الفكري وبلبلة الحياة مما يرون من عظم احتمال المؤمنين وصبرهم، ومما يرون من انتشار دعوة الإسلام ورسالة النبي ﷺ بين الخاصة والكافة.

ولقد كان من أشق وأقسى ما لقي النبي ﷺ في هذه المرحلة المكية على شمول شدتها وعموم قسوتها، وتوالي محنها، وتتابع أحداثها بما تحمّل من

البلاء والإيذاء محنة الطائف وسوء لقاء أهلها ـ أشرافاً وسفهاء ـ له ﷺ، وزاد في إيجاعها، وشدة إيلامها أنها جاءت والية لمحنة الحزن الموجع ـ بعد الحصار الباخع الظلوم ـ بوفاة الزوجة الوفية الأمينة الصدّيقة وزيرة الصدق، وسكن الفؤاد السيدة خديجة رضي الله عنها، ووفاة الحميم الحمي، الذائد القوي، الناصر الأبي، عم رسول الله ﷺ أبي طالب، الذي جعله الله تعالى بحكمته وفضله سنداً سنيداً وعماداً عميداً، ودعامة صليبة لحماية رسول الله ﷺ دون أن يؤمن به، ويذعن في تصديقه برسالته، بل ظل ـ وهو نهّاض بمناصرة رسول الله ﷺ ـ على دين الأشياخ من قومه، ولكنه لم يفتر لحظة عن حمايته، ورد عادية المتجبِّرين وسفاهة الجاهلين عنه وعن أصحابه.

تلك المحنة الحزينة المحزنة، الموجعة المؤلمة، التي حلَّت برسول الله ﷺ بوفاة هذين الحميمين اللذين لم يسد فراغهما في حياة النبي ﷺ جعلت سفهاء الغوغاء من قريش وفجار الوثنية من ملئها يمدُّون أيديهم بالأذى، وألسنتهم بالسوء إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، لا يردهم عن هذا الفجور راد، ولا يردعهم رادع، ولا يزجرهم زاجر، لأن عرين الحمية الهاشمية قد خلا من أسده بفقد أبي أشباله، وحامي حمى ذماره، فلم يعد لصوت زئيره زمجرة في وجه ذؤبان قريش وضبعانها، ولم تسمع له صيحة تفلق قلوب الطغاة المستكبرين.

ولئن كان القلم قد عجز عن وصف أهوال هذه المحنة الثقفية الطائفية المريرة التي جددت آلام محنة الحزن الوجيع بما لقى فيها رسول الله ﷺ من شدائد وأهوال على أيدي طغام أهلها من العبدان والغوغاء، وعلى أيدي سادتها من أبناء عبد كلال: عبد ياليل، وأخويه، مسعود وحبيب، وهو ﷺ بين بيوتهم في بلدهم يدعوهم إلى الله تعالى، وإلى توحيده، وإخلاص العبادة له، ويطلب إليهم أن يؤوه وينصروه على من خالفه من قومه حتى يبلغ رسالة ربه، أو وهو خارج من بلدهم مفارق لهم بعد أن يئس من خيرهم، وإبائهم أن يكتموا أمره معهم ـ فلقد كان المخرج منها معبراً إلى آفاق من مشارق الأمل المشرق بطلائع النصر المظفَّر في بدء مرحلة جديدة للرسالة الخالدة، تأوي فيها إلى كنف قوي، وركن شديد، يرهبه المتغطرسون من صنائع التعزز بمفاخر الوثنية الذليلة، ومهانة الشرك الأبله البليد.

الباكورة الأولى
من طلائع النصر
طَلٌّ نديّ في لقاء
الكامل في قومه سويد بن الصامت

قرابة عاطفة بين سويد وعبد المطلب وأسرة عمر بن الخطاب

سويد بن الصامت أوسي نجاري أنصاري، أمه ليلى بنت عمرو النجارية، أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، فسويد بن الصامت ابن خالة عبد المطلب، وكان سويد يُدعى في قومه الكامل، لقوة جَلَده، وبراعة شعره وحكمته، وتعقله، وشرفه في قومه، وبلده، وأصالة حسبه ونسبه، وزكانة تفكيره.

قال السهيلي في (روضه) وبنت سويد: زينب أو جليسة، أم عاتكة، أخت سعيد بن زيد امرأة عمر بن الخطاب، فسويد بن الصامت جد عاتكة لأمها.

وهذا الارتباط القوي القريب بجد رسول الله ﷺ عبد المطلب ابن هاشم، ثم بعمر بن الخطاب وأسرته ارتباط نسبي له قدره ومكانته في حياة الأفراد والجماعات، لأنه يمثل حلقة من حلقات التقارب الحسِّي والمعنوي القائم على وشائج الدم بين سادة يثرب وسادة مكة، يمكن أن يكون له اعتباره في تهيئة جو لدعوة محمد ﷺ ورسالته، يختلف عن جو مكة وموقفها من هذه الدعوة الكريمة والرسالة الخالدة، اختلافاً يسرع بالدعوة إلى الانتقال من حال الكفاح غير المتكافىء بين عصبة الحق ومجتمع الإيمان ممثَّلين في رسول الله ﷺ والسابقين الأولين من أصحابه، وعصبة العصبية القومية الحمقاء، ممثَّلة في ملأ المستكبرين من أحلاس الوثنية الفاجرة من طغاة قريش ـ إلى حال النضال المحسوب في نظر أولئك الملأ من المعاندين، لما يعرفون عن

أبناء يثرب من صدق اللقاء في الحروب التي عاشوا بين أحضانها وتربَّوا في ساحاتها وميادينها.

وكان سويد بن الصامت رجلاً عُرف بين قومه بالتعلق بشيء من إشراق العقل والتجمل ببعض الفضائل، وهو أول من لقيه رسول الله ﷺ من اليثربيين في وفادتهم إلى مكة حاجِّين أو معتمرين، أو مستحلفين، أو تجاراً موسميين، أو روّاد أسواق ومحافل منافرين ومفاخرين، أو مكثّرين لسواد الوافدين.

عرفان رسول الله ﷺ لفضل أخوال جده بني النجار

وكان النبي ﷺ يعرف هذا الفضل لأخوال جده عبد المطلب، ويعظِّم قرابتهم ويكرمهم لهذه القرابة، ففي حديث الهجرة عند الشيخين والإمام أحمد أن البراء بن عازب قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه، حتى قدمنا المدينة وتلَّقاه الناس، فخرجوا في الطرق على الأجاجير - أي الأسطح - واشتد الخدم والصبيان في الطرق يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد. قال أبو بكر: وتنازع القوم أيّهم ينزل عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الليلة على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك».

يقول العلاّمة ابن كثير: وكذلك نزوله عليه الصلاة والسلام في دار بني النجار واختيار الله له ذلك منقبة عظيمة لهم، وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعاً، كل دار محلّة مستقلة بمساكنها ونخيلها، وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله ﷺ دار بني مالك بن النجار، وفي حديث أنس عند الشيخين قال رسول الله ﷺ: «خير دور الأنصار بنو النجار».

تعقل سويد ودماثة خلقه أشعر رسول الله ﷺ بشيء من الراحة النفسية

وكان لقاء رسول الله ﷺ سويد بن الصامت أول لقاء وجد فيه النبي ﷺ شيئاً من التعقل، ولين الجانب، وتسهل الحديث مما أدخل على قلبه ﷺ شيئاً من الراحة، وبعث في نفسه الأمل في أن تجد دعوته إلى الله تعالى وتوحيده قبولاً عند من يُصغي إليها، ويفقهها مستطعماً لما يسمع من آياتها، بعد طول ما لقي من الجفاء، وسفاهة الجهالة، وقسوة الغرور، وسوء

الرد، وشناعة المواجهة وضروب الإيذاء، وفادح البلاء، وكثرة السخرية والاستهزاء، فقد كان ﷺ يعرض نفسه الكريمة على الناس متخيراً أشراف العرب الوافدين إلى مكة وساداتهم، فكان ﷺ لا يسمع بشريف قوم إلا أتاه وعرض نفسه عليه، ودعاه إلى الله تعالى، وقرأ عليه آيات القرآن الحكيم، وطلب منه أن يحمله إلى قومه ليؤوه وينصروه ويحرزوه مما يراد به من القتل حتى يبلِّغ رسالة ربه.

وكان سويد بن الصامت ممن قدم الموسم بعد رجوع رسول الله ﷺ من الطائف إلى مكة، وهو ﷺ مثقل بالآلام، يحمل من الهم والحزن ما يحمل لما صنعه معه أهل الطائف من سوء اللقاء، وقبح الرد عليه، وشدة ما أنزلوه به من فادح البلاء، وقد عُرض عليه ﷺ أخذُهم بذنوبهم لينزل الله عليهم بأسه، ويصب عليهم نقمات بطشه وسخطه، فأبى ﷺ تكرماً إلا أن يستأني بهم، رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً.

وخرج ﷺ إلى الناس في الموسم يدعوهم إلى الحق والهدى، والنور الذي أنزل عليه، ويقول كما جاء في حديث جابر عند البيهقي في الدلائل: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» فكان ذلك مما ذخر الله تعالى للأنصار، وأكرمهم به.

تلطف رسول الله ﷺ بسويد وحسن رد سويد عليه

وتصدى رسول الله ﷺ لسويد بن الصامت إذ علم بمقدمه ومكانه من قومه، فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام، فقال سويد لرسول الله ﷺ: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» فقال سويد: مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان ـ فقال رسول الله ﷺ «أعرضها عليّ» فعرضها سويد على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ بعد ما سمع من سويد ما عرضه عليه من حكمة لقمان: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله عز وجل عليّ، هو هدى ونور» وتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام، فأحسن سويد الرد، ولم يبعد من رسول الله ﷺ، وقال: إن هذا القول حسن.

ثم انصرف سويد عائداً إلى بلده يثرب، فقدمها على قومه، وفي نفسه

كان لقاء سويد لرسول الله وتحدثه إليه نافذة من نوافذ الهداية الصامتة

ما فيها من تأثر بما سمع من القرآن الكريم، ومن تأثير ما رأى من سمت رسول الله ﷺ وسمو أدبه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن دعوته، وجلال رسالته.

وقد رأى قوم سويد منه ما رأوا من تأثره بما رأى من رسول الله ﷺ وما سمع منه مرتسمة على وجهه، وفي نظراته وسبحات فكره، وتسامعوا بلقاء رسول الله ﷺ له واجتماعه به، وقد كان له عندهم صدى يرجع إلى أسماعهم ما تردد في مكة وعلى ألسنة العائدين من الموسم عن بعثة محمد ﷺ، ودار بينهم الهمس والرمز، وهم يشيرون إلى حكيمهم سويد ابن الصامت وما بدا عليه منذ قدم إليهم عائداً من الموسم من نظرات ساهمات، توحي بعمق التفكير فيما رأى من محمد ﷺ وما سمع منه، ومن همهمات يرددها، لا يدرون ما يقول فيها سوى أنهم وجدوا أنفسهم في خلواتهم يذكرون محمد بن عبدالله بن عبد المطلب سيد قريش وابن أختهم، وأنه مبعوث من الله تعالى برسالة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

بَيْدَ أن أهل يثرب من عرب الأوس والخزرج كانوا يعيشون في شحناء مبيدة، ويحيَون في بغضاء مدمرة، مما أرّث نيران التفرق والعداوة بين القبيلتين، فاحتربوا وتقاتلوا حتى كادوا يتفانون، وقد أدركت هذه الحروب سويداً فقتل فيها على يد الخزرجيين.

وكان رجال من قومه ممن يعرف ما كان عليه سويد من التعقل والحكمة، وممن عرف ما عاد به من مكة بعد لقاء رسول الله ﷺ، وممن تسمّع إلى همساته وهمهماته ونجواه إلى نفسه يقولون بعد أن أسلموا، وأصبحوا أنصار الله: إنّا لنرى سويداً قتل وهو مسلم، ومهما يكن من أمر هذا الرجل الحكيم فقد كان لقاؤه رسول الله ﷺ باكورة نصر الله تعالى لدعوة الإسلام، فتح الله بها نافذة من نوافذ عهد جديد، بدأت به الدعوة الإسلامية سيرها في طريق البناء والعمل لإقامة حياة عامة شاملة، يسودها العدل والرحمة والمواساة والإخاء.

الباكورة الثانية
من طلائع النصر بَرْقَة غيث
في لقاء إياس بن معاذ

أول لقاء أوسي كان قطرة الغيث الأولى

واشتدت الشحناء بين القبيلتين، وتعاظمت العداوة بين الفريقين، وتنادى كل قبيل منهم مستصرخاً يا لثارات الملأ، وسروات الرجال، واشتعلت نيران الحرب ضروساً، تأكل منهم الأخضر واليابس، وتفني الأبطال والشجعان من شيبهم وكهولهم، وعاش بقية السيف من الفريقين شباباً وبقايا أشباح ممن حطمتهم دائرات الحروب الطاحنة بين يتم مذل وترمل مُقِلّ، ملأ عرصات ديارهم بالأحزان، وفكر كل قبيل في الاستنصار على أعدائه بعقد المعاهدات الحربية، والتماس الأحلاف العسكرية ممن يرون فيهم قوة تزيد في قوتهم.

إياس بن معاذ كان لمعة برق الهداية التي انهمر غيثها

وكان الأوسيون قد بعثوا وفداً من رجالهم إلى مكة بزعامة أبي الحَيْسر، أنس بن رافع التماساً للحلف من قريش، لما بينهم وبين القرشيين من صلات نسبية، وكان مع أبي الحيسر فتية من قومه بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، وكان أحدث فتيان الوفد سناً، ولكنه كان أصفاهم فطرة، وأطهرهم نفساً، وأزكاهم عقلاً، فسمع بهم النبي ﷺ، وكانت عنده صورة من تعقّل سويد ولين جانبه، وهو أوسي مثلهم فأتاهم، وجلس إليهم وقد علم الذي جاؤا له من التماس الحلف على إخوانهم الخزرجيين من قريش، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذاك؟ قال ﷺ: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فابتدر حصيفهم إياس بن معاذ في حماسة الفتوة، وفتوة الشباب وكان غلاماً حَدَثاً،

فقال: يا قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دَعْنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم ثم انصرفوا إلى المدينة، ولم يتم لهم حلف.

وكانت بعد ذلك وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، وهي أشهر وقائعهم، وأضرى حروبهم، وأعظم أيامهم أثراً عليهم، قتل فيها أشرافهم وكبراؤهم وسَرَواتهم، وذوو الكبرياء والأنفة منهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم بعاث يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد افترق ملؤهم وقُتل سَرَاتهم.

وقد هلك إياس بن معاذ قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وظهور الإسلام بها، فلم يدرك رسول الله ﷺ، ولم يلقه بعد مجلسه في مكة حين لقي وفدهم بزعامة أبي الحيسر لالتماس الحلف من قريش، وقد دعاهم فيه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وأظهر إياس بن معاذ يومئذ ما وقر في صدره من ميل إلى دعوة النبي ﷺ، وقال كلمته المعبرة عن ميله مخاطباً الوافدين من قومه: يا قوم هذا ـ أي ما عرضه النبي ﷺ ـ والله خير مما جئتم له، ـ أي التماس الحلف من قريش.

قومه أعلم به

ذكر السهيلي في روضه، والبيهقي في دلائله، وابن كثير في بدايته عن محمود بن لبيد قال وهو يؤكد ما في قلب إياس من قبول الإسلام واستقراره عليه: فأخبرني من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله تعالى، ويكبِّره، ويحمده، ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكُّون أنه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

ومن ثَمَّ كان لقاء النبي ﷺ إياس بن معاذ، وموقف إياس من

دعوته ﷺ له وللوافدين معه إلى الإسلام أشبه ببرقة الغيث، التي تلمع في الأفق، لتؤذن العطاشى المقفرين بما يكون بعدها من الغيث المغيث، ينهمر فجّاجاً، فيفعم الشعاب والوديان، ويسقي الوهاد والكثبان، متنزلاً من ذرا الشم الراسيات، يهز الأرض، لتخرج أجنتها من بطونها ثماراً يانعة، وقطوفاً دانية، وحَباً متراكباً، وجنات من نبات شتّى، متشابه وغير متشابه، تجري من تحتها الأنهار، ريّاً للظامئين وطعاماً شهيّاً للساغبين، وفاكهة للمتخيرين، ومتعة للناظرين.

تتابع اللقاءات اليثربية وبدء البيعات

وكذلك كانت خطوات الدعوة إلى الله عز وجل في سيرها بعد لقاء إياس بن معاذ، فقد انهمر غيثها في لقاءات إيجابية، ومعاهدات عملية، ومبايعات صادقات مع الوافدين اليثربيين الذين كانوا أنصاراً لله وأنصار دينه، وأنصار نبيه ﷺ يحمونه وينصرونه حتى يبلغ رسالة ربه، يحاربون مَنْ حارب، ويسالمون مَنْ سالم، وقد جعلوا نحورهم دون نحره، يفدونه بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم، فلقبهم رسول الله ﷺ بأفخر لقب، وسماهم بأعز اسم في دنيا الإسلام بعد لقب الهجرة وعزها، سماهم الأنصار، وسميت (يثربهم) المدينة المنورة، وعاصمة الإسلام، وحصن كتائب الفتوح، وقلعة جحافل المجاهدين، وقاعدة دولة الإسلام.

الباكورة الثالثة
من طلائع النصر
انهمار الغيث بالبيعة الأولى

ارتفع الهمس فكان بين القوم نغمًا سرياً، وصوتاً ندياً

مات إياس بن معاذ وللإسلام ذكرٌ هامس بين أهل يثرب، ولرسول الله ﷺ متحدَّث أشبه بالرمز والإشارة، يتحدث عنه من سمع به ولم يره، فهو مشوق لرؤيته وسماع حديثه، ويتحدث عنه مَنْ رآه ولم يسمع منه فهو ريان الرغبة في سماعه، ويتحدث عنه من رآه وسمع منه فهو مأخوذ بحبه وحب ما جاء به، ولكنه وقف متأملاً فيما سمع، لا يتقدم ولا يتأخر، لا يُقبل فيؤمن، ولا يأبى فيعرض ويدبر، وسمع منه من إذْ رآه فازورَّ وأبى مستكبراً فلم يؤمن، ومات حسيراً مدحوراً.

وكل ذلك قد كان بعد أن آب إلى يثرب وفد أبي الحيسر، وفيهم إياس ابن معاذ، وهذا يوحي بالتشوف والتطلع إلى كشف الغطاء عن الحقيقة فيما يتهامس به الناس، ومضى موسم، وأقبل موسم، وأراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له.

وخرج رسول الله ﷺ كدأبه يعرض نفسه الكريمة على وفود قبائل العرب في محافلهم ومجتمعاتهم، ومضارب إقامتهم، يكلم كل شريف قوم يلقاه، ويذهب إلى كل سري من سَرَواتهم يسمع به، يدعوهم إلى الله، ويذكر لهم الإسلام وشرائعه، ويتلو عليهم القرآن رجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من الهدى والنور، فيحملوه إلى أقوامهم لينصروه على من ناوأه، ويؤوه ويحرزوه مما يراد به حتى يبلِّغ رسالة ربه التي منعته قريش من تبليغها، فكانوا يختلفون عليه فمنهم من كان يجفو ويسفه، ومنهم من كان يجهل ويسخر،

ومنهم من كان يمد يده ولسانه بالأذى وسوء الأدب، ومنهم من كان يستحي ويتقي قالة السوء، ولكنه لا يدفعها.

كان تنافس الأوس والخزرج في السبق إلى الهداية مما صنع الله لرسالته

وكان من أثر هذا الهمس بذكر الإسلام ونبيه ﷺ في جو يثرب ـ الذي استأثر به الأوسيون إثر عودة كاملهم وحكيمهم سويد بن الصامت، وعودة فتاهم العقول صفي الفطرة إياس بن معاذ من مكة، وما ارتسم على محياهما، ونمت عنه خفقات قلبيهما ـ أن انبعثت روح التنافس القبلي في أنفس الخزرجيين حتى لا ينفرد إخوتهم الأوسيون بمفاخر المستقبل في حياة الدعوة إلى الله، فنهض الخزرجيون إلى مكة في وفد يمثلهم، وهم على عزيمة الإيمان بهذا الداعي الأمين، الذي تهامس بالحديث عنه الأوسيون في دورهم، والذي كانت له في نفوسهم صورة من كثرة ما كانوا يسمعون عنه من مواليهم وحلفائهم اليهود أهل العلم بالكتاب الأول، الذي بشّر بالنبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، ونعت نبيها ورسولها بما كان له من النعوت والخصائص المميزة له.

بدايات المنح نهايات المحن

وبينما كان رسول الله ﷺ عند العقبة الأولى، عقبة الجمرة، يدعو الناس إلى الإسلام، إذ لقي رهطاً من اليثربيين الخزرجيين أراد الله بهم الهداية، وذخر لهم الخير، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، فقال ﷺ: «أمِن موالي يهود؟» أي حلفائهم، قالوا: نعم، قال ﷺ: «ألا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: من أنت؟ فانتسب اليهم رسول الله ﷺ، وأخبرهم خبره، قالوا: بلى، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان من صنع الله لهم، وحكمته ولطف تدبيره لرسوله ورسالته أن اليهود كانوا مع هؤلاء الخزرجيين وإخوتهم الأوسيين، يساكنونهم في بلادهم ويشاركونهم حياتهم في معاملاتهم، وكان اليهود أهل كتاب وعلم، وكان الخزرجيون وإخوتهم الأوسيون أهل شرك وأوثان، على كثرة عددهم وتعززهم بهذه الكثرة، وكانت لا تزال نيران الحروب مشتعلة بينهم وبين اليهود، فإذا قهروا اليهود وعزّوهم قال لهم اليهود يتوعدونهم: إن نبياً

سيبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، حتى نستأصلكم، كما قصَّ القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ولمَّا جاءهم كتاب من عند الله مصدِّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[1].

علم اليهود مع الحسد كان براق السرى في فوز الأنصار بالهداية

قال الحافظ السيوطي في (الدر المنثور): أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصاري، حدثني أشياخ منا، قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منّا، كان اليهود معنا، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب أوثان، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبياً يبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله تعالى رسوله ـ ﷺ ـ اتبعناه، وكفروا به، ففينا وفيهم أنزل الله: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾. الآية كلها، ثم قال الحافظ السيوطي: وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

اجتمع رسول الله ﷺ بهؤلاء الرهط الخزرجيين، فكلمهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فعرفوا نعته، مما عندهم من أقوال اليهود وأحاديثهم عنه، وأيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه عن الإسلام وشرائعه، وعرفوا حقيّة ما كانوا يسمعون من مواليهم وحلفائهم اليهود، فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله أنه للنبي الذي كانت توعدكم به اليهود، فلا يسبقنَّكم إليه، فأجابوا رسول الله ﷺ إلى ما دعاهم إليه وصدّقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وكانوا هم أول غيث النصر المنهمر بنشر الدعوة في بلدهم وبين أقوامهم، فأسلموا، وهم ستة نفر، أو ثمانية.

وكان فيهم رافع بن مالك بن العجلان الزرقي، وهو أول من أعلن

(١) سورة البقرة آية (٨٩).

إسلامه، قال ابن إسحاق: هو أول من قدم المدينة بسورة يوسف، ومسجدهم، مسجد بني زريق أول مسجد قرىء فيه القرآن، وكان النبي ﷺ يعجبه اعتدال قِبْلته، وكان رافع بن مالك حريصاً على أخذ القرآن من النبي وتلقِّيه عنه منذ لقيه بالعقبة، فقد أعطاه رسول الله ﷺ ـ كما حكاه الزرقاني في شرح المواهب ـ ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة وجمع قومه، فقرأ عليهم في موضع مسجدهم قبل أن يقام المسجد.

أول مسجد بالمدينة قرىء فيه القرآن هو مسجد بني زريق

وأخذ رسول الله ﷺ على من بايعوه من الخزرج أن يمنعوا ظهره حتى يبلِّغ رسالة ربه ـ أي إذا قدم عليهم ـ فقالوا: يا رسول الله قد علمت الذي بين الأوس والخزرج من الاختلاف وسفك الدماء ونحن حراص على ما أرشدك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا نشير عليك برأينا، فامكث على اسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله عز وجل أن يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم، فإنا اليوم متباغضون، متباعدون، وإنك إن تقدم علينا ولم نصطلح لا يكون لنا جماعة عليك، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل.

عقلاء حكماء ملؤوا دور الأنصار بالحديث عن الإسلام

فرضي رسول الله ﷺ بذلك منهم، فرجعوا إلى قومهم، فدعوهم سراً وأخبروهم برسول الله ﷺ، والذي بعثه الله به، وتلوا عليهم القرآن، حتى قل دار من دور الأنصار إلا قد أسلم فيها أناس.

وفي مواهب القسطلاني وشرحها للزرقاني أن النبي ﷺ لما قال لهم: «تمنعوا ظهري حتى أبلِّغ رسالة ربي» قالوا له: يا رسول الله إنما كانت «بعاث» عام أول، يوم من أيامنا، اقتتلنا فيه، فإن تقدم علينا ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعلَّ الله أن يصلح ذات بيننا، وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك، واتبعوك فلا أحد أعزَّمنك، وموعدك الموسم العام المقبل.

وانصرفوا إلى المدينة، فدعوا قومهم، وأخبروهم خبر رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الله ورسوله، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر رسول

الله ﷺ، وظهر الإسلام وانتشر، وتحدّث به الناس حديثاً معلناً جهيراً بعد الهمس والاستسرار.

والصحيح أن يوم (بُعاث) كان قبل الهجرة النبوية بخمسة أعوام، قتل فيه كبراؤهم الذين يأنفون أن يتبعوا غيرهم، والذين عسوا في الكفر على عادات الجاهلية وموروثاتها مستكبرين في الأرض، فأفناهم الله في وقائعهم التي كان آخرها وأفظعها يوم بعاث، ولم يبق إلا من لا يدفع عن نفسه ولا يسمع قوله، ولا يستضاء في المُدْلَهمات برأيه.

وخلا جو يثرب من الإغراء والتحريض على الحرب، وتأريث نيران الآثار، وأسرع شبابهم إلى الإسلام يدينون به ابتهاجاً بما منّ الله به عليهم من نعمة الهداية والتوفيق، وحلت الإلفة والإخاء محل التباغض والشحناء، فكانوا حملة لواء الدعوة إلى الله الذين أعز الله بهم نبيه ودينه، وسارت بهم فُلْك الهداية في يَمّ العزة لله ورسوله والمؤمنين.

الباكورة الرابعة
من طلائع النصر
بيعة العقبة الثانية

كانت هذه البيعة اللبنة الأولى في مسير الرسالة إلى المدينة المنورة

كان لقاء رسول الله ﷺ هؤلاء الرهط الخزرجيين، وإسلامهم، وبيعتهم النبي ﷺ على أن يمنعوا ظهره إذا وصل إليهم، وصدقُهم النصح له ﷺ في إخبارهم له بما هو واقع في قومهم بين قبيلتيهم من الأوس والخزرج من العداوة والشنآن والحروب المدمرة التي استباحت بيضاءهم، وأفنت خضراءهم، والتي كان أقربها ذكراً منهم أشهر أيامهم، وأشدها ضراوة فيهم، وقسوة عليهم بما أثخنوا فيه ـ من أعظم آيات الله وأبدع صنعه بما قدّمه الله تعالى لرسوله ﷺ من فضله وحكمة تدبيره، وخفّف به عنه شدة ما كان يلقى من الناس وهو يعرض نفسه الكريمة عليهم في مجتمعاتهم يدعوهم إلى الله، ويطلب إليهم أن يؤووه، ويحرزوه حماية له مما يراد به حتى يبلّغ رسالة ربه التي منعته قريش من تبليغها.

فاستبشر رسول الله ﷺ بذلك اللقاء، وقرّت به عينه واستيقن أن الله ناصره، ومنجز له وعده، لأنه سبحانه جعل له أنصاراً ساقهم إليه بحكمته في صورة متدرجة نامية، بدأت وليدة تكلؤها رعاية الله وتحوطها عنايته، ورسول الله ﷺ يرقبها من وراء سعيه الدؤوب لنشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى نهدت مشتدة السواعد، قوية الوثبة، عظيمة الانتشار، فكانت فتحاً مبيناً، ونصراً مؤزراً.

انصرف الرهط الخزرجي إلى يثربهم بعد هذه البيعة الممهدة، وبين قومهم ما بينهم من العداوة، فتحدثوا إلى قومهم حديثاً بعيداً عن غمرات الحروب وسفك الدماء، وثارات الأبطال الذين أفنتهم الحروب، بل

حدّثوهم عن محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، وسمو دعوته، وجلال رسالته، وما أخذه عليهم وما حدثوه به من صدق الحديث عن حال قومهم، وما بينهم من التباغض، والتباعد والفتن والحروب، والأخذ في إعداد أسباب التفاني تمسكاً بموروثات الجاهلية، وبما أمرهم به رسول الله ﷺ من نشر الهداية بين قومهم، والدعوة إلى إصلاح ذات بينهم، وإسماعهم آيات الله بتلاوتها عليهم ليستشعروا فضل الله عليهم، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، وينيبوا إلى ربهم، ويقلعوا عن مطاوعة الشيطان، ويفقهوا ما جاءهم به هذا الرسول الأمين من الخير والهدى، فيؤمنوا به ويجعلوا جهدهم في سبيل دعوته ونشر رسالته، عاملين بشرائعها، مستمسكين بآدابها وأخلاقها.

فصدقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، ووفوا بما وعدوا، وتتابع الغيث هطّالاً من سماء الهداية، فلم يكد يمر العام بموسمه، ويقبل العام الجديد بموسمه حتى وافى مكة اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الرهط الأول أهل البيعة الأولى الخزرجيين وسبعة قدموا معهم، فكان لقاؤهم رسول الله ﷺ أول لقاء لهم، فيما عدا أبو الهيثم بن التيِّهان، فإنه مذكور في رجال اللقاء الأول على رأي من ذكر أن الرهط كانوا ثمانية.

ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء الاثني عشر رجلاً الخزرجيين بايعهم رسول الله ﷺ بيعة أوسع إحكاماً، وأوكد توثقاً من بيعة من سبقهم الذين لم يذكر في بيعتهم سوى أن يمنعوا ظهره إذا قدم عليهم، أما هؤلاء الاثنا عشر فقد بايعهم ﷺ بيعة على وفق بيعة النساء التي نزلت آيتها بعد ذلك، إما في فتح مكة ـ كما يقول أبو حيان في (بحره) ـ أو في عام الحديبية ـ كما يقول ابن كثير ـ أخرج الشيخان عن عبادة بن الصامت ـ وكان أحد الاثني عشر ـ: بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدِّه فهو كفارة لـه، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر».

قال ابن إسحاق: فلما انصرف القوم عنه بعث معهم ﷺ مصعب ابن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. وفي عيون الأثر قال: فلما انصرفوا بعث رسول الله ﷺ معهم ابن أم مكتوم، ومصعب بن عمير، يعلِّم من أسلم منهم القرآن، ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام.

قال البيهقي في الدلائل بعد أن ذكر كلام ابن إسحاق المتقدم في بعث مصعب بن عمير معهم، قال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر أن رسول الله ﷺ إنما بعث مصعب بن عمير بعدهم، وإنما كتبوا إليه: أن الإسلام قد فشا فينا، فابعث إلينا رجلاً من أصحابك يقرئنا القرآن، ويفقهنا في الإسلام، ويقيمنا لسنته وشرائعه ويؤمنا في صلاتنا.

قال البيهقي في الدلائل: ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء، ورافع بن مالك: أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله، فإنه قَمِنٌ أن يُتّبع.

فبعث ﷺ مصعب بن عمير، وكان مصعب ينزل على أبي أمامة أسعد ابن زرارة، وكان مصعب يسمى بالمدينة المقرىء، وكان أبو أمامة يذهب بمصعب إلى دور الأنصار، يدعوهم إلى الإسلام، وتفقيه من أسلم منهم.

وقد لازم مصعب أسعد بن زرارة، يقيم معه في منزله، ويتساند معه في الدعوة إلى الله، يدخل به أسعد بن زرارة دور الأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله، ويذهب به إلى مجتمعاتهم، يصلِّي بهم إماماً، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويتلو عليهم القرآن ويدعو من لم يكن قد أسلم إلى الإسلام.

وكان مصعب رضي الله عنه عظيم البركة والخير على الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام، حصيف الرأي، صبوراً على ما يلقى من الأذى، عقولاً متأنياً، متأتياً للأمور من مداخلها، فهو من أعظم الدعاة إلى الله الذين ربّاهم رسول الله ﷺ، كان بعثه إلى المدينة المنورة مقرئاً معلماً، هادياً، داعياً إلى الخير، فتحاً مبيناً لانتشار الدعوة وتبليغ الرسالة.

فقد دخل على يديه من أهل المدينة المنورة أوسها وخزرجها عدد لا يحصى من الرجال والنساء، ودوّى صوت الإسلام في أرجائها جهيراً قوياً ببركة إخلاصه، وقوة إيمانه وحبه الله ورسوله، وهو أول من صلّى الجمعة في الإسلام بمن آمن من أهل المدينة، بإذن رسول الله ﷺ، كتب إليه النبي ﷺ يأمره بذلك.

كتاب النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير يأذن له في إقامة الجمعة بمن معه من المسلمين

وقد روى الإمام الدارقطني عن ابن عباس: أَذِن النبي ﷺ بإقامة الجمعة لأهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها، قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني: ولفظ الحديث عن ابن عباس: أذن رسول الله ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر ولم يستطع يجمع بمكة، ولا يبدي ذلك، فكتب إلى مصعب ابن عمير: «أما بعد: فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم»، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا زال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله بركعتين، قال ابن كثير: هذا حديث في إسناده غرابة.

ونسبة التجميع بأهل المدينة إلى أسعد بن زرارة يقول عنه البيهقي في التوفيق بين قول ابن شهاب الزهري، وقول عبد الرحمن بن كعب بن مالك: وكأن مصعباً جمع بهم بمغونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه.

روى البيهقي بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين كُفَّ بصره، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها استغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة، فمكثت حيناً أسمع ذلك منه، فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز، ألا أسأله؟ فقلت: يا أبتِ مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صلَّيت على أبي أمامة؟ فقال: أي بني، كان أسعد أول من جمّع بنا بالمدينة في هَزْم النبيت عند حرّة بني بياضة في بقيع يقال له بقيع الخضمات، قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً، قال ابن كثير: وقد روى هذا الحديث أبو داود، وابن ماجه.

من مواقف مصعب الخالدة في الدعوة إلى الله

ومن أبرع وأجل وأشجع مواقف مصعب رضي الله عنه التي فتح بها الطريق أمام الدعوة إلى الله فتحاً تسامت به، حتى دخلت القلوب وحررت العقول، وأشرقت بنورها الأرواح ما حدّث به الثقاة من رواة السيرة

والمتتبعون لسير الرسالة في مراحلها.

قالوا: خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يوماً إلى دار بني عبد الأشهل- وكانوا أهل إيمان ويقين وإخلاص، لم يعرف فيهم منافق أو منافقة- فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

قال صاحب (العيون): وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا بهما قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك!! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما من أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدّماً.

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رأى أسعد بن زرارة أسيد بن حضير مقبلاً إليهما قال لصاحبه مصعب: هذا سيد قومه، قد جاءك فاصدق الله فيه، فقال مصعب في هدوء رسوخ اليقين، وثقة الإخلاص: إن يجلس هذا أكلمه، فوقف عليهما أسيد بن حضير متشتّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

إسلام أسيد بن حضير على يد مصعب ابن عمير

فقال له مصعب في ثقة الإلهام: أو تجلس فتسمع إن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره، قال أسيد متعقلاً: أنصفت، ثم ركَّز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: - أي مصعب وأسعد بن زرارة -: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم تكلم أسيد فقال: ما أحسن هذا وأجمله!! كيف يصنع من أراد الدخول في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطَّهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلِّي، فقام أسيد بن حضير، فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ أسيد حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر

إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بوجه غير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمتُ الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، وقال: والله ما أراك أغنيت عنا شيئاً.

ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتِّماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمتَ مني هذا، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

وكان أسعد بن زرارة قد قال لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيّد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزل عنك ما تكره، قال: سعد بن معاذ: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه مصعب بن عمير الإسلام، وقرأ عليه القرآن قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطَّهر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تركع ركعتين.

إسلام سعد بن معاذ وسائر بني الأشهل على يد مصعب بن عمير

ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعهم أسيد بن حضير، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

قال أبو عمر بن عبد البر: حاشى الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت ابن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد، ولم يسجد لله

سجدة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

قال البيهقي في الدلائل من رواية موسى بن عقبة: فبينما مصعب ابن عمير يحدثهم ويقرأ عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ، فأتاهم في لأمته معه الرمح حتى وقف عليهم، فقال لأبي أمامة: علام تأتينا في دورنا بهذا الوحيد الغريب الطريد، يسفِّه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه، لا أراك بعدها تسيء من جوارنا، فقاموا ورجعوا.

ثم إنهم عادوا مرة أخرى لبئر بني مرق أو قريباً منها، فذكروا لسعد ابن معاذ الثانية فجاءهم، فتوعدهم وعيداً دون وعيده الأول، فلما رأى منه أسعد بن زرارة ليناً قال له: يا ابن خالة استمع من قوله، فإن سمعتَ منكراً فاردده بأهدى منه، وإن سمعت حقاً فأجب إليه، فقال سعد بن معاذ: ماذا تقول؟ فقرأ عليه مصعب بن عمير: ﴿حم * والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾.

فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف، فرجع وقد هداه الله ولم يظهر لأسعد بن زرارة ومصعب إسلامه حتى رجع إلى قومه، فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام، وأظهر لهم إسلامه، وقال: من شك منكم فيه فليأت بأهدى منه، فوالله لقد جاء بأمر لَتُحَزَنَّ فيه الرقاب، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه، فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها.

ثم إن بني النجار أخرجوا مصعب بن عمير، واشتدوا على أسعد ابن زرارة فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده يدعو آمنا، ويهدي الله على يديه حتى قلّ دار من دور الأنصار إلا قد أسلم أشرافها، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم وكان المسلمون أعز أهل المدينة.

الباكورة الخامسة
من طلائع النصر
فتح الفتوح: بيعة العقبة الكبرى

انتشر الإسلام في يثرب على يدي مصعب بن عمير، والذين بايعوا رسول الله ﷺ من الخزرجيين الاثني عشر على أن يمنعوه إذا قدم عليهم، وفي طليعتهم أحدثهم سناً أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي كان ساعد مصعب الأيمن، وعضده القوي، وكان مصعب قد اختاره فنزل عليه، فأحسن نزله، وكان يتنقل به بين دور الأنصار، فيدعو إلى الله من لم يكن أسلم، ويقرىء القرآن، ويعلم الشرائع والأحكام من كان قد أسلم، حتى أصبحت يثرب دار الإسلام المهيئة لتلقي أعظم حدث في تاريخ الدعوات الإلٓهية وتاريخ النبوات والرسالات بل في تاريخ الحياة.

وأدرك مصعب رضي الله عنه ومن معه من المؤمنين أن أفق الحياة في يثرب قد عمّه نور الهداية، وأشرقت في مطالعه شمس الرسالة الخالدة، وأن الأرض التي يقفون فوقها، وهم يحملون ألوية النصر قوية، صلبة، لا تسيخ فيها قدم، مؤمنة، وأن نسائم الأمل تسري من يثرب لتنعش النفوس التي أضناها الألم، وأن يثرب تفتح ذراعيها مرحبة بهجرة أولئك الذين يتقلبون على جمر المحن، ويكتوون بسعير فادح البلاء، وهم صابرون محتسبون، يرجون رحمة الله وفرجه، ويتطلعون إلى يثرب بعد بيعتيها اللتين مهدتا لدعوة الإسلام أرضاً خصبة تنبت فيها الهداية ويثمر فيها الإيمان.

وتصوّر مصعب رضي الله عنه ومن معه من المؤمنين رسول الله ﷺ وهو لا يزال في بطاح مكة الظالم أهلها يتبع الناس في منازلهم ومجتمعاتهم الموسمية، يقول لهم: «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلِّغ رسالة ربي، وله

تشوف مصعب ومن معه من المؤمنين إلى هجرة رسول الله إليهم

الجنة» فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، وهو ﷺ يمضي متنقلاً بين رحالهم، يشيرون إليه بالأصابع حتى بعث الله له طلائع النصر، تحمل رايات الأمل السريّ من الأوسيين، ثم إخوتهم الخزرجيين الذين بايعوه وعاهدوه على أن ينصروه وينصروا دعوته؛ نصراً يعزه ويعز رسالته ويفتح أمامه وأمامها أبواب المسير بكتائب الجهاد في سبيل نشر الخير والحق والهدى.

وها هي ذي دارهم (يثرب) لا تصبح ولا تمسي إلا على ذكر لرسول الله ﷺ، وذكر لدعوة الإسلام، وتلاوة للقرآن، وتبيين هدايته، وليس بين بيوتها بيت إلا وفيه مسلمون ومسلمات، كلهم يحبون الإسلام، ونبي الإسلام، وشرائع الإسلام، يفدون هذا الدين بأرواحهم وأموالهم، وفلذات أكبادهم.

فماذا بقي وراء ذلك مما يمنعهم من استقدام رسول الله ﷺ إليهم، وإلى بلدهم حيث يأوي ـ بعد الله عز وجل ـ إلى ركن شديد من محبتهم له وحرصهم عليه، ليفوا له بما عاهدوه عليه من النصرة والحماية والمنعة؟.

وماذا بقي وراء ذلك مما يحول بين بلدهم وبين أن تكون قلعة الإسلام الحصينة، وحصنه القوي الذي يأوي إلى كنفه المؤمنون المضطهدون، ليجدوا فيه عند إخوانهم أنصار الله المحبة والأثرة والإخاء المواسي، والمواساة المؤثرة، والحماية القوية، والقوة القاهرة للأعداء؟.

لا شيء، لا شيء بقي وراء ذلك، فالطريق ممهد والمنائر منصوبة، والمعالم واضحة، ولهفة اللقيا تملأ كل قلب، فليس إذاً إلا توجيه العزائم اليثربية إلى مكة الظالم أهلها لتفتح أبواب الشعاب والمغاور أمام أولئك المستضعفين في أرض البأو الكفور، والعتو الفجور، ليستنقذوهم من ظلم المستكبرين في الأرض، مهاجرين إلى إخوانهم أنصار الله ورسوله ﷺ، وإلى البلد الذي ادخر الله له هذا الخير العظيم، والذي أقبل على دعوة الإسلام فاحتضنها، فدوى صوته بين جنباتها قوياً نفاذاً.

وليس إذاً إلا أن يضعوا بين يدي رسول الله ﷺ صورة صادقة للإسلام في بلده وبين قومهم، في إطار يبين مدى انتشار الإسلام فيهم،

ومدى قوته في نفوسهم وإفعام القلوب بحبه والتنافس في التفقه في شرائعه وأحكامه.

وليس إذاً إلّا أن يلقوا رسول الله ﷺ في جمع من صفوة مؤمنيهم يمثل كل هذه الحقائق والمعاني ليضعوا بين يديه ﷺ صورة اللهفة المتطلعة إلى رؤية رسول الله ﷺ يطأ بقدمه الحبيبة أرضهم، ويدخل عليهم ديارهم هادياً مهدياً، داعياً إلى الله رسولاً نبياً، ويمشي بين أيديهم معلّماً رائداً إلى الخير والنور والهداية، مطمئناً مكفول المنعة عزيز الجانب، مرهوب الكلمة في الحق وللحق.

عزائم ماضية يقدرها رسول الله ﷺ حق قدرها

فليجمعوا أمرهم، وليأتمروا فيما بينهم ومعهم أستاذ الدعاة، أستاذهم القارىء المقرىء المجتبى من رسول الله ﷺ لإقرائهم وتعليمهم، وقد قرأوا وتعلموا، ولم يبق إلا أن يرحلوا إلى رسول الله ﷺ في جمع منهم مع أستاذهم ومعلمهم مصعب بن عمير ليطلبوا إلى رسول ﷺ أن يقدم إليهم ليتبوأ مكانه العلي الأعلى في آفاق قلوبهم، لينشر دعوته، ويبلّغ رسالته آمناً مطمئناً، عزيزاً قوياً، تحوطه كتائب المنعة وتفديه أرواح المؤمنين.

قال العلامة ابن كثير في «البداية»: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين مع حجّاج قومهم، وكانوا ـ كما قال الحاكم وغيره ـ خمسمائة من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعد المسلمون رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق حين أراد الله بهم من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله.

وفي حديث جابر عند الإمام أحمد: أن المسلمين من الأنصار ائتمروا فيما بينهم وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة، ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، قال ابن سعد: يزيدون رجلاً أو رجلين، وامرأتان، نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، وعند الحاكم: خمسة وسبعون نفساً، وليس هذا بخلاف لأن بعض الرواة يترك الكسر الذي فوق العقد، وبعضهم يذكره، ويترك النساء وبعضهم يذكره كاملاً.

وفي حديث كعب بن مالك من رواية ابنه عبدالله عنه وكان عبدالله ابن كعب من أعلم الأنصار.

قال: فلما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل نمنا مع قومنا في رحالنا، فلما استثقل الناس في النوم تسللنا تسلل القطا مستخفين حتى إذا اجتمعنا بالعقبة أتانا رسول الله ﷺ.

قال عروة بن الزبير وموسى بن عقبة: كانوا سبعين رجلاً وامرأة واحدة، منهم أربعون من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبابهم، أصغرهم أبو مسعود، وجابر بن عبدالله.

خطبة العباس بن عبد المطلب من رواية ابن إسحاق

وكان مع رسول الله ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس رسول الله ﷺ كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

خطبة العباس من رواية ابن سعد

قال ابن سعد: فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: (يا معشر الخزرج، إنكم دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعز الناس في عشيرته، يمنعه والله منا من كان على قوله، ومن لم يكن منا على قوله، منعة للحسب والشرف، وقد أبى محمداً الناسُ كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجَلَد وبصر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة،

ترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم، ولا تفرّقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه).

ثم قال ابن سعد: فقال البراء بن معرور: قد سمعنا ما قلت: وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ.

ثم قال ابن سعد: ويقال إن أبو الهيثم بن التّيهان أول من تكلم، فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، فقال: نقبله على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف.

ولغطوا، فقال العباس وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ: أخفوا جرسكم فإن علينا عيوناً، وقدّموا ذوي أسنانكم فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم. ثم بايعوا رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً، فلا يَجِدَنّ منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل» قال مالك بن أنس: حدثني شيخ من الأنصار: أن جبريل عليه السلام كان يشير له إلى من يجعله نقيباً، قال مالك: كنت أعجب كيف جاء من قبيلة رجلان ومن قبيلة، رجل حتى حدثني هذا الشيخ في أن جبريل كان يشير إليهم يوم البيعة، يوم العقبة.

وعند ابن سعد في الطبقات: فخرجوا وهم سبعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو رجلين، حضر الأوس والخزرج ـ أي جماعتهم ـ وهم خمسمائة حتى قدموا على رسول الله ﷺ بمكة، فسلموا عليه، ثم وعدهم منى أوسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل أن يوافوه في الشعب الأيمن، إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة، وأمرهم ألا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً، فخرج القوم بعد هدأة يتسللون الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع، معه العباس بن عبد المطلب ليس معه غيره.

فلما نظر العباس إلى القوم قال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي!! لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب وهؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث.

شرائط بيعة العقبة منهج وعهد

وفي حديث جابر فقالت الأنصار: يا رسول الله، علام نبايعك؟ فقال ﷺ: «بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة على العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم بيثرب، تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

عزائم تدك لقوتها الشمّ الرواسي

فقمنا نبايعه وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا ـ فقال أسعد بن زرارة: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم ـ أي من بلده مكة وقومه إلى يثرب بلدنا ـ وانحيازه إلينا مفارقة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مسّتكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة، فخذوه، وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله عز وجل.

فقال القوم: أمِط يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لانذر هذه البيعة، ولا نستقيلها وفي رواية عند ابن كثير في البداية: ولا نُسْلَبها أبداً، فقمنا إليه ﷺ نبايعه رجلاً، رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة.

وفي رواية أنهم قالوا: تكلم يا رسول الله، فتكلم رسول الله ﷺ ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغَّب في الإسلام، فأجبناه بالإيمان به، والتصديق له وقلنا له: يا رسول الله، خذ لربك ولنفسك، فقال ﷺ: «إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم» فأجابه البراء ابن معرور، فقال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحَلْقة، ورثناها كابراً عن كابر.

قول رسول الله للأنصار: أنا منكم وأنتم مني

فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم» فقال

البراء بن معرور: يا رسول الله ابسط يدك نبايعك، فقال النبي ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً» فأخرجوهم وصرخ الشيطان بأنفذ صوت وأبعده، فقال: يا أهل الجباجب - أي يا أهل المنازل - هل لكم في مذمَّم، - ما يقول محمد - والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم.

وعند ابن سعد في الطبقات: يا أهل الأخاشب هل لكم في محمد والصباة، قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة - أي شيطانها - هذا ابن أُزْيَب، أما والله لأفرغن لك يا عدو الله، ارفضُّوا إلى رحالكم» فقال العباس بن نضلة، أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك ارفضُّوا إلى رحالكم» فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلّة من قريش فيهم الحارث بن هشام، فتى شاب، وعليه نعلان جديدتان حتى جاؤونا في رحالنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم، فانبعث مَنْ هناك من قومنا من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما فعلناه، وأنا أنظر إلى أبي جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام وهو صامت وأنا صامت، فلما تثوّر القوم لينطلقوا قلت كلمة، كأني أريد أن أشركهم في الكلام: يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ فسمعني الفتى، فخلع نعليه فرمى بهما إليّ، وقال: والله لتلبسهما، فقال أبو جابر: مهلاً! أحفظت لعمر الله الرجل - يقول أخجلته - اردد عليه نعليه، فقلت: والله لا أردهما، والله إني لأرجو أن أستلبه.

ثم انصرف المشركون فأتوا عبدالله بن أبيّ فسألوه وكلموه فقال: إن هذا الأمر جسيم وما كان قومي ليتفّوتوا علي بمثله، فانصرفوا عنه.

بَلَه مخدوع وغفلة بلهاء

قال ابن اسحق: فلما تفرق الناس عن بيعة رسول الله ﷺ ليلة

العقبة، وكان الغد فتَّشت قريش عن الخبر وتنطسته فوجدوه حقاً، فانطلقوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة ومنذر بن عمرو، فأما منذر فتفلّت منهم وفاتهم فلم يقدروا عليه، وأما سعد بن عبادة فأوثقوه وشدّوا يديه بنسعة رحله إلى عنقه، وكان سعد بن عبادة كثير الشعر، فطفقوا يجذبونه بجمته ويصكونه ويلكزونه إلى أن جاءه مطعم بن عدي، والحارث بن أمية، بعد أن هتف باسميهما بإشارة أبي البختري، وكان المطعم والحارث يعرفان سعد ابن عبادة وذكرا له فضله عليهما في حراسة تجارتهما إذا مرّت بيثرب، فخلَّصا سعداً من أيدي مشركي قومهما، وأطلقاه وخليّا سبيله.

قصة استقبال البراء بن معرور الكعبة باجتهاده ورجوعه إلى قبلة رسول الله ﷺ بعد سؤاله في أمر هذا الاستقبال

في دلائل البيهقي من حديث عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: خرجنا في الحجة التي بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا، ومعنا البراء بن معرور كبيرنا وسيدنا، حتى إذا كنّا بظاهر البيداء قال: يا هؤلاء تعلمنَّ أني قد رأيت رأياً والله ما أدري توافقون عليه أم لا، فقلنا: وما هو يا أبا بشر؟ قال: إني قد رأيت أن أصلي إلى هذه البنيّة ولا أجعلها مني بظهر، فقلنا: لا والله لا تفعل، وما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلِّي إلا إلى الشام، قال: فإني والله لمصلٍّ إليها، فكان إذا حضرت الصلاة توجه إلى الكعبة، وتوجهنا إلى الشام حتى قدمنا مكة، فقال لي البراء: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي.

قال كعب: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، فلقينا رجل بالأبطح فقلنا، هل تدلنا على محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، فقال: وهل تعرفانه إن رأيتماه؟ فقلنا: لا والله ما نعرفه، ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ فقلنا: نعم، وقد كنا نعرفه، كان يختلف إلينا بالتجارة، فقال: إذا دخلتما المسجد فانظرا العباس فهو الرجل الذي معه، فدخلنا المسجد فإذا رسول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسين، فسلمنا ثم جلسنا، فقال رسول الله ﷺ: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال العباس: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ:

(الشاعر؟) قال العباس: نعم، فقال البراء: يا رسول الله إني كنت رأيت في سفري هذا رأياً، وقد أحببت أن أسألك عنه لتخبرني عما صنعت فيه قال رسول الله ﷺ: «وما ذاك»؟ قال البراء: رأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت على قبلة لوصبرت عليها» فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ.

* * *

بيعة العقبة الكبرى ومكانتها في الإسلام

عاد أنصار الله إلى بلدهم بعد أن تقلّدوا في أعناقهم هذه البيعة العظمى، مؤمنين أشد ما يكون الإيمان في قلوب ملأها الإخلاص واليقين، قوّامين بموجبات بيعتهم، أوفياء لعهودهم أكمل ما كان الوفاء بعهد، لا يشغلهم إلا ترقب وصول رسول الله ﷺ ليكونوا من حواليه سامعين مطيعين، يفدونه، ويفدون أصحابه بكل ما يملكون من وسائل الحياة.

فتح الفتوح

لقد كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي «فتح الفتوح» لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال.

فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها، لم يغب عن أنصار الله قدرها ووزنها في ميادين الحروب والقتال.

وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عالٍ مستكبر في الأرض حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإسلام.

لقد أخذ رسول الله ﷺ على هؤلاء الأنصار في هذه البيعة الكبرى ما

لم يأخذه على أحـد غيرهم قط، لا من جلدتهم من الذين سبقت لهم الحسنى فبايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان قبل هذه البيعة الكبرى بيعات كانت توطئة وتمهيداً لها، ولا من غير جلدتهم من الذين سبقوا إلى الإيمان منذ إشراق شمس هدايته في أفق مكة.

وبهذا كله كانت هذه البيعة العظمى حجر الأساس في بناء صرح دولة الإسلام على دعائم القوة المؤيدة للحق الناشرة لنور الهداية في الدعوة إلى الله تعالى، المقيمة لمنائر التوحيد في الأرض، المقوضة لركائز الظلم والاستبداد، الحاملة لألوية العدالة الاجتماعية، الداعية إلى التآخي بين الأمم والشعوب والجماعات والأفراد، المنادية بالمواساة والتراحم.

وبهذا كله كانت هذه البيعة الكبرى اللبنة الأساسية في تكوين كتائب الجهـاد لرد العـدوان والتناصف من الـظلمة المتجبـرين، ودفع الـظلم والاضطهاد الذي كان يصب على المؤمنين المستضعفين في مكة من الفجرة المستكبرين، جلاوزة الوثنية، وعتاولة الشرك.

قصة إسلام عمرو بن الجموح ودلالتها على قوة يقين الأنصار ومضحكات الوثنية

هذه القصة من أدل الدلائل على قوة يقين أهل البيعة الكبرى من الأنصار ورسوخ إيمانهم ووفائهم بما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، من إفراد الله بالعبودية له وحده، وتطهير أنفسهم وبيوتهم وأهليهم من رجس الشرك ووصمة الوثنية.

روى البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق من طريق عاصم بن عمر ابن قتادة قال: كان معاذ بن عمرو بن الجموح قد شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان أبوه عمرو سيداً من سادات بني سَلِمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له مناة - وهذه خصيصة من خصائص السيادة الجاهلية - فلما أسلم فتيان بني سلمة، معاذ ابن جبل، ومعاذ بن عمرو، وغيرهما كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذر الناس - أي ما يخرج منهم من الفضلات - منكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا في هذه الليلة، ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من يصنع هذا بك لأخزينّه، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فلما ألحُّوا عليه استخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهّره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسوا ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة،

فيهـا عذر الناس، وغدا عمرو فلم يجده فخرج يتبعه حتى وجده في البئر منكساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه فأسلم عمرو بن الجموح فحسن إسلامه، وقال حين أسلم، وعرف من الله ما عرف يذكر صنمه.

تـالله لـو كنتَ إلهـاً لم تـكـن   أنت وكلبٌ وَسْطَ بـير في قـرن

في أبيات تبين ما أضاء الله من بصيرته، وما هداه إليه من الإيمان، وما أنقذه من ضلالة الجاهلية، وأوضار الشرك، ورجس الوثنية.

وفي هذه القصة دلالة على ما كان قد بلغت إليه تفاهة مهزلة الوثنية وسخافة التفكير المشرك، كما تدل على ما صنعه الإيمان في قلوب الأنصار، ولا سيما شبابهم وفتيانهم الذين فتحت عيون بصائرهم على نور العقيدة التوحيدية بأول لقاء رأوا فيه النبي ﷺ وسمعوا منه من آيات القرآن المجيد، وما دعاهم إليه من الهدى والخير.

* * *

الإذن بجهاد الدفاع عن الحق ورد الاعتداء

وكان أول ما أنزل الله تعالى في جهاد الدفاع ورد الاعتداء قوله تعالى: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ لأن المسلمين قد تغيّر وضعهم الاجتماعي بقدوم الأنصار إلى مكة ولقاء رسول الله ﷺ لهم المرة بعد المرة، والعام بعد العام، ومبايعتهم له ﷺ بيعة بعد بيعة ـ وأصبحوا في منعة وقوة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم وحرية عقيدتهم وإسلامهم ودعوتهم إلى الحق، ومواجهة أعدائهم بالقتال لرد عدوانهم.

وهذا الإذن الدفاعي لم يكن إيجاباً للجهاد القتالي، بل هو كما سماه الله تعالى إذن لدفع العدوان يتقلد تطبيقه كل قادر على ردِّ ظلم الظالمين من الأفراد والجماعات، وليس فيه رفع لما تخلّق به المؤمنون من التسامح والتغاضي عن سفاهة السفهاء وجهالة الجاهلين، وإيذاء المؤذين، لأنه إذن لم يتجاوز مرتبة الجواز لما كان ممنوعاً عليهم، والجواز لا يرفع التفضل

والإحسان وهما من أخص أخلاق أهل الإيمان في شرعة الإسلام.

وهذا هو ظاهر الآية في تعليل الإذن للمؤمنين بدفع العدوان بأنهم ظُلِموا وهم مستضعفون، وأن الله تعالى أقدرهم بما تفضل به عليهم جزاء صبرهم واحتمالهم وتسامحهم بما جعل لهم من نصراء يمنعوهم من الظلم، ومهجر يأمنون فيه، ويرشح ذلك إبهام المأذون فيه للمؤمنين ليكون محطاً للاجتهاد والتقدير للمناسبات وما يحتف بها، وحساب عواقبها بالنسبة للدعوة إلى الله عز وجل.

وقد كان المسلمون الأولون مأمورين بالكف عن رد العدوان، ومأمورين بالصفح والمغفرة والعفو عن جهالة الجاهلين، والصبر على إيذاء المؤذين، لأن القوى الإسلامية كانت لا تزال في مهدها لم تشتد سواعدها للمقاومة والدفع، وكانت مشتتة لمّا تتجمع بعدُ في إطار نظام موحد، وكانت الضرورة المقتضية لعدم إثارة المعارك الجانبية، لا تزال قائمة في مجتمع مكة الظلوم، تتطلب الكثير من الصبر والاحتمال وضبط الأعصاب الثائرة، ليسد المؤمنون بصبرهم واحتمالهم ما ينزله بهم من فادح البلاء طغاة الفجور الوثني، والعتو المادي من المشركين - باب فتنة داخلية، لو اشتعلت نيرانها بمقابلة العدوان بمثله لعصفت بالمسلمين قبل أعدائهم، لأنهم كانوا قلة مستضعفة، وكان الكثير منهم من أبناء البيوتات القرشية، مما جعل أهليهم وعشائرهم متمكنين من تعذيبهم وصب صنوف البلاء عليهم، فلو لم يعتصم المسلمون بصبرهم واحتمالهم، وعدم المسارعة لرد العدوان لكان من أول نتائج هذه الفتنة الجائحة وقف سير الرسالة، وتعريض شباب الإسلام من السابقين الأولين للإفناء تحت سياط العذاب في داخل البيوت بين شراسة العشائر وضراوة المتجبرين، ولا سيما أنَّ كَلَب الطغاة وشنفهم في تعذيب المؤمنين قد ضوعف واشتد إثر البيعة الكبرى للأنصار، وتواصي الطغاة بتضييق الخناق والافتنان في تعذيب المؤمنين، خشية أن ينفلتوا من قبضتهم إلى الهجرة لإخوانهم الأنصار الذين تخشاهم قريش، وتقدِّر لهم قدرتهم في الحرب والقتال.

كان الإذن برد الاعتداء مدخلاً للأمل في أنفس المؤمنين

ولكن هذه الشدة الفاجرة فتحت أعين المستضعفين المعذبين إلى التطلع لإخوانهم الأنصار في بلدهم (يثرب)، وقد كان حالهم وما يلقّون من التعذيب وألوان البلاء يرمض رسول الله ﷺ ويحزنه أشد الحزن، ولا يجد سبيلاً للدفاع عنهم وحمايتهم، بيد أنه ﷺ كان منذ تمت له بيعة العقبة الكبرى يترقب الفرج يأتي منزلاً من عند الله، وكان يتطلع إلى مخرج ينقذ به أصحابه من هول ما يلقون من شدائد المحن، وقد أطمعهم الإذن في رد الاعتداء ودفع العدوان، فأدخل الأمل في قلوبهم، وبدا مَنْ قَوي منهم على رد العدوان يرده بأقوى منه وأشد، وخشي رسول الله ﷺ أن يندفع الفجّار المتجبرون من أعداء الإسلام وأحلاس الشرك وبأو الغرور إلى قاصمة الظهر، فيحاط بأصحابه في إطار صور فنائية، ففتح لهم باب الهجرة وقال لهم: «إني أُريت دار هجرتكم» وأمرهم ﷺ بالخروج إلى يثرب والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم أنصار الله، وأنصار دينه ورسوله وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم إخواناً، وداراً تأمنون بها».

وكان النبي ﷺ يقدر حق التقدير ما في البيعة الكبرى من عهود صادقة على بذل كل ما يملك الأنصار من قوى روحانية ومادية وتضحيات بالأرواح والأموال في سبيل الوفاء ببيعتهم وعهودهم التي عقدوها مع رسول الله ﷺ، على أنهم حرب لمن حارب، وسلم لمن سالم من جميع أهل الأرض عرباً أو عجماً.

كما كان رسول الله ﷺ يقدر حق التقدير ما في هجرة أصحابه من السابقين الأولين من المستضعفين المعذبين في مكة إلى إخوانهم الأنصار من توحيد جهود المسلمين وتجميع قواهم في مواجهة الطغيان الأحمق المغرور، والفجور الأرعن المفتون اللذين دأبت عليهما قوى الشر من المشركين.

ومن هنا كانت هذه البيعة الكبرى بيعة لا تعرف المداهنة، ولا تعترف بالمهادنة، لأنها بيعة على الحرب بين الحق والباطل، الحق في أعم وأضوأ صوره، والباطل في أحط وأرذل أشكاله، وهي حرب بين الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، وبين سماجة الشرك وبلادة الوثنية، حرب بين الظلم الظلوم

والعدل المواسي الرحيم، حرب بين الحرية الفاضلة والاستعباد المستكبر العنيد، حرب بين الروحانية الشفيفة التي يشرق نور الإيمان من آفاقها والمادية الحاقدة المظلمة التي تغشى قلوب الطغاة من المشركين.

لم يغب عن الأنصار ما تحمل بيعة العقبة من آثار جسام

وكان الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة الكبرى الفاصلة بين عهدين متباعدين يقدِّرون ما عاقدوا عليه رسول الله ﷺ من تعريض أنفسهم لأفدح البلاء، الموت فما دونه من محن الحياة، وكانوا يقدِّرون أنهم بايعوه على حرب الأحمر والأسود في سبيل نشر الدعوة إلى الله عز وجل، والذود عنها بكل قوة يملكونها، وإعلان كلمة الحق مدوية في آفاق الأرض وأقطارها لتكون كلمة الله هي العليا، وأنهم بايعوه ﷺ على منعه إذا قدم إليهم مما يمنع منه أعز ما تبذل دونه الأرواح والأموال.

فإذا قلنا أن هذه البيعة في دوافعها وآثارها وواقعها التاريخي هي (فتح الفتوح) فإنما قلنا ونقول حقاً واقعاً في حياة الإسلام، تشهد به الدلائل التاريخية في جهاد الإسلام، فهو حق لا تجوّز فيه، والتاريخ الإسلامي في تدرج وقائعه الجهادية يؤمن بذلك، ويعرف لهذه البيعة العظمى مكانها من سطوره التي كتبتها أقلام النصر المؤزر بمداد من النور والتضحية والفداء.

والقرآن الحكيم والسنة النبوية المطهّرة، وهما أصل الإسلام بيّنا ذلك وسجّلاه في نصوصهما، فآية الإذن بالدفاع للذين يقاتلون بسبب ما وقع عليهم من الظلم الفادح، وإخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله كانت أول آية نزلت لتفتح باب المدافعة للعدوان مع بقاء فضيلة التسامح، ثم أنزل الله أول ما أنزل بعد ذلك آية الانتصاف في القتال ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ فهذا التناسق الذي جاءت به الآية قيّده النص في جانب إلزام المسلمين بأنه يجب أن يكون القتال (في سبيل الله) فإذا لم يكن القتال (في سبيل الله) لقصد إعلاء كلمة الله لا يكون قتالاً جهادياً يُنْصَر به (الله) ولكنه يكون قتالاً دفاعياً، يدفع به العدوان والاعتداء، فيكون من قبيل ما انطوى تحت آية الإذن في المدافعة ورد العدوان.

وآية الانتصاف هذه قيل أنها نزلت ـ في قول بعض المفسرين ـ بعد آية الترغيب في الجهاد إذا توافرت أسبابه، وهي قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ التي نزلت لتأكيد البيعة الكبرى، وقد فرح بها الأنصار فرحاً شديداً، وهي وإن كانت في نظام التلاوة موضوعة في سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من القرآن فذلك لا يمنع أنها مكية النزول، وهذا كثير في القرآن، وإنما تحكمه المناسبات المعنوية في سياق الآيات في نظم التلاوة.

القتال لحماية العقيدة والحق الإلهي الذي كانت به أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس

ثم حسم أمر الجهاد القتالي بعد أن هاجر من هاجر من مكة إلى المدينة من السابقين الأولين، وتوحدت صفوف المسلمين، وقويت سواعدهم، واشتدت قناتهم، فنزل قول الله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ فهذا أمر بالقتال غير مشروط إلا بشرط أن لا تكون فتنة للمؤمنين عن دينهم وعقيدتهم تلك الفتنة التي كان يباشرها طغاة المشركين في صور بلغت النهاية في شناعة التعذيب، ومعنى هذا الشرط أن يُقْهر أعداء الإسلام قهراً يُذل غرورهم ويطامن من استكبارهم ويذهب بقوتهم، ويبدِّد شملهم، ويرعبل جماعتهم، فلا يملكون أسباب فتنة المؤمنين عن دينهم وعقيدتهم، وبهذا تتحقق وحدة الدين في ظل التوحيد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ويكون الدين لله﴾ بإذلال الشرك وأهله، واستخزاء الإلحاد وشيعته متوارياً وراء آفاق الفناء، ويبقى الإسلام، وهو الدين الحق وحده وهو دين الله الذي لا يدان إلا به، ولا يعبد إلا بما شرع به من أحكام ونظم وآداب وأخلاق.

وليس هذا القتال المأمور به في هذه الآية الحاسمة قتال دفاع لرد العدوان كما في آية الإذن الدفاعي، ولا هو قتال انتصاف كما في آية ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ولكنه قتال قهر للطغيان، وإذلال للعتو المتجبر والعناد المستكبر، وليّ لعنق الظلم الفاجر، وتحرير للعقل البشري من أغلال الجهالة المتبلدة في جمود التقليد لموروثات الآباء والأجداد، وبتر لسواعد الظلم الفاجر، والاستبداد الأثيم، والتحكم في مصائر الأفراد والجماعات، وتوجيه للحياة البشرية إلى آفاق العزة والكرامة، وميلاد جديد

للإنسانية على يدي رسالة الإسلام، دين الله القويم، في مهاد كتابه الحكيم، وتسديد رسوله الصادق الأمين، ميلاد تتذوق فيه الإنسانية طعم الحياة الحرة العزيزة الكريمة، وتشعر بحقيقة وجودها وقدرها بما جاءت به هداية الإسلام من نظم عادلة، وتشريعات حكيمة وأخلاق كريمة، وآداب رفيعة، وسياسات محكمة، وتوجيهات رشيدة.

أخرج ابن سعد في الطبقات عن عبادة بن الوليد، بن عبادة ابن الصامت أن أسعد بن زرارة أخذ بيد النبي ﷺ فقال لقومه من الأنصار: أيها الناس، هل تدرون علام تبايعون محمداً؟ إنكم تبايعونه على حرب العرب والعجم، والجن والإنس كافة، فقالت الأنصار: نحن حرب لمن حارب، وسِلْم لمن سالم، فقال أسعد بن زرارة: يا رسول الله اشترط علينا، فقال ﷺ: «تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا تنازعوا الأمر أهله، وتمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأهليكم» قالوا: نعم، وفي حديث عبدالله ابن رواحة عند السيوطي في (الدر المنثور) من طريق محمد بن كعب القرظي وغيره، قال عبدالله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال ﷺ: «الجنة» قالت الأنصار: ربح البيع، لا نُقيل، ولا نستقيل، فنزلت ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ الآية.

ثم قال السيوطي في (الدر): وأخرج ابن المنذر من طريق عيّاش ابن عقبة الحضرمي عن إسحاق بن عبدالله المدني، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ دخل على رسول الله ﷺ رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله نزلت هذه الآية؟ فقال ﷺ: «نعم» فقالت الأنصار: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

وتنزيل آيات القتال في ترتيب نزولها على الوجه الذي قلناه هو ما يتفق مع طبيعة سير الدعوة في مراحلها، قال أبو حيان في (البحر): وأكثر علماء

وضع آيات القتال مواضعها في الترتيب التدريجي

التفسير على أنها ـ أي آية ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ـ أول آية نزلت في الأمر بالقتال، أمر فيها بقتال من قاتل والكف عمن كف. وهذا لا ينافي ما روي عن أبي بكر: أن أول آية نزلت في القتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ لأن هذه الآية ليس فيها أمر بالقتال، ولكنها إذن بالقتال لدفع العدوان، والأولية في آية ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ إنما كانت بالنسبة للأمر بالقتال.

وقد رتب الراغب مراتب الجهاد ترتيباً بديعاً يتفق مع الواقع فقال: أمر الله أولاً بالرفق والاقتصار على الوعظ والمجادلة الحسنة، ثم أذن في القتال، ثم أمر بقتال من يأبى الحق بالحرب، وذلك كان أمراً بعد أمر على حسب مقتضى السياسة.

وأصل ذلك عند ابن إسحاق قال: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما يأمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل.

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم. ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه.

فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذّبوا نبيه ﷺ وعذّبوا ونفوا من عَبَده ووحده وصدّق نبيه، واعتصم بدينه أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أُنزلت في إذنه له بالحرب، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ إلى قوله: ﴿ولله عاقبة

الأمور﴾ قال ابن إسحاق في تفسيرها أي أني أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ـ يعني النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين ـ ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، وحتى يعبد الله لا يعبد معه غيره.

ولم يذكر ابن إسحق في آيات ترتيب القتال قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ وهي أسبق نزولاً وتلاوة من قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ وقد بيّنا ذلك فيما ذكرناه من ترتيب آيات القتال إذناً، وأمراً مشروطاً، وأمراً مغيّاً وغير مشروط.

هجرة الصحابة من مكة المشرفة
إلى المدينة المنورة

بعد أن تمت بيعة السبعين من الأنصار، وهي بيعة العقبة الكبرى التي سميناها بحق (فتح الفتوح) وكانت ثالثة بيعات الأنصار، التي نقلت الدعوة الإسلامية من مضايق الحياة ومنعرجاتها إلى وسيع آفاقها ومنفسحاتها، فكانت بيعة حرب العالمين أسودهم وأحمرهم في سبيل إعلاء كلمة الحق، ونصرة دين الله، ومنع نبيه ﷺ وأصحابه وحمايتهم، وافتدائهم بالأرواح والأموال، وهما أعز وأغلى ما يقع به الافتداء ـ طابت نفس رسول الله ﷺ، كما جاء في حديث عائشة وأبي أمامة بن سهل الذي ذكره الزرقاني في شرح المواهب فقال: لما صدر السبعون من عنده ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة أهل حرب، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلنون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وأتعبوهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا للنبي ﷺ، فقال لهم ﷺ: «قد أريت دار هجرتكم سبخة» ثم مكث ﷺ أياماً، ثم خرج مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها» فجعلوا يتجهزون ويترافقون، ويتواسون، ويخرجون، ويخفون ذلك، فخرجوا أرسالاً، وفرادى، فاستقبلهم أخوتهم الأنصار أطيب استقبال وأكرمه، وأنزلوهم من أنفسهم منازل الحب والايثار والوفاء والتكريم، وقد خلّد الله تعالى هذا الموقف الأكرم للأنصار، فأنزل فيه قرآناً يتلى ويُتعبَّد به، وجعله أسوة في أكرم مكارم الأخلاق ومثلاً يُحتذى فقال تعالى: ﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في

صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة﴾.

وإذا كان لهذه البيعة الكبرى (فتح الفتوح) هذا الأثر الغامر في تفريج كرب المسلمين المعذَّبين في مكة، وكان لها من الفضل في تجمعهم، وتوحيد مجتمعهم وشد سواعدهم وصلابة قناتهم ما جعلهم قوة مرهوبة، يخافها أعداء الإسلام، وكان لها من إدخال البهجة على قلب رسول الله ﷺ ما جعله يظهر سروره لأصحابه ويبشرهم بأنه ﷺ قد أخبر بدار هجرتهم وهي يثرب دار الأنصار الذين بايعوه على أن يكونوا حرباً لمن حاربه وسلماً لمن سالمه من العالمين ـ فقد كان لما سبقها من بيعات ـ كان عدد المبايعين فيها له ﷺ أقل من عدد من بايع في بيعة (فتح الفتوح) وهي البيعة الكبرى بيعة السبعين ـ أثر قوي، بعيد النفاذ، عمق الغور، قامت على دعامته بشائر الدعوة إلى الله في دور يثرب وعشائرها، حتىٰ صار في كل دار من دور الأنصار ذكر لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، مما جعل بعض أباة الضيم من السابقين للإسلام في مكة ـ قبل أن يؤذن لهم في القتال الدفاعي ـ يتطلعون إلى الهجرة حيث يأمنون على عقيدتهم وأنفسهم، فرأوا أن بلدة يثرب هي المكان الآمن الأمين الذي تطمئن فيه قلوبهم لأنه يجمعهم إلى إخوانهم في الإيمان من أنصار الله، وأنصار رسوله ودعوته.

أول المهاجرين
إلى المدينة المنورة

هجرة أبي سلمة مثل يحتذى في الشجاعة وقوة الإيمان

كان في صدر هؤلاء الأباة الشجعان أبو سلمة، عبدالله بن عبد الأسد المخزومي أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، وأحد ذوي الهجرتين: هجرة الحبشة، وهجرة المدينة المنورة، أبت عليه شجاعته ورسوخ إسلامه أن يُسِر هجرته ويستخفي بها، بل هاجر مستعلناً تحت سمع وبصر قومه، الذين كانوا ينالون منه ويؤذونه، ويمنعه إسلامه أن يرد عليهم عدوانهم عليه، لأن السابقين إلى الإسلام كانوا مكفوفين عن الانتصاف من خصومهم ورد اعتدائهم، مأمورين بالصبر والعفو والاحتمال السمح المتكرم، وقد كانت هجرة أبي سلمة إلى المدينة المنورة قبل بيعة العقبة الكبرى بنحو سنة.

ومن هنا كانت قصة هجرة أبي سلمة، وهجرة زوجه السيدة النبيلة أم سلمة التي شرّفها الله بعد استشهاد أبي سلمة فصارت أماً للمؤمنين، إذ تزوجها رسول الله ﷺ - مثلاً مضروباً ونموذجاً يحتذى، وأسوة تؤتسى في مواقف الشجاعة وقوة العقيدة، والوفاء.

أم سلمة رضي الله عنها تكشف عن روائع الإيمان وقوة اليقين في هجرتها وهجرة زوجها أبي سلمة

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبدالله ابن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟.

قالت أم سلمة: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا، والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى حالي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها؟ فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حِجْري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي.

ذروة وفاء المروءة وقمة نخوة الرجولية

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وبني هذا، قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطَّ عنه ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحَّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت أم سلمة رضي الله عنها تقول: والله ما أعلم أهل بيت في

الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

وقد صدقت رضي الله عنها، فما قاسته في التفريق بينها وبين زوجها، وما رأته في نزع ابنها من حجرها حتى خلعت يده، وما لزمته من خروجها إلى الأبطح نهارها تبكي سنة أو قريباً منها، أمور عظيمة، لا يتعاظمها إلا احتمالها بالصبر عليها، وقد احتملت وصبرت صبراً جميلاً حتى قيّض الله لها فرجاً.

وما رأته من عثمان بن طلحة العبدري، وهو مشرك ـ وليس من بيتها بيت آل المغيرة ولا من عشيرتها وقبيلتها بني مخزوم ـ من كرم النفس، ونخوة الرجولية، وتحمل المشقة البالغة في سبيل النجدة، وفتوة المروءة، أخلاق لا تجتمع إلا في الرجل بعد الرجل، وفضائل لا توجد إلا في الأكرمين أحساباً، وقد منّ الله تعالى على عثمان بن طلحة العبدري بنعمة الإسلام فأسلم إسلاماً كريماً في هدنة الحديبية، وكان ثالث ثلاثة من الأبطال الذين اتفقوا على الهجرة إلى رسول الله ﷺ: وهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فلما رآهم رسول الله ﷺ قادمين عليه مسلمين قال: «رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها» وإلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بـن أبي عثمان بن ابي طلحة دفع رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة وقال: «خذوها تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» وهي إلى اليوم لا تزال في أيدي بني شيبة.

ثم تتابعت أفواج المهاجرين إلى المدينة تتأممها أرسالهم ويقصدها وحدانهم، فالرجل وأهله، والرجل وصحبه، والرجل وحده، يجدّون في سيرهم، ويجتهدون في تحملهم، ويخفون نأمتهم، ويستسرون بحركتهم، يركبون متن الليل سُرى، ويناهضون الشمس ضحى، ويسابقون النجوم وهي تجري في أبراجها دجى، وكان فيهم من أوعبوا رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً وغلقوا أبواب دورهم في مكة هجرة إلى الله ورسوله، وقد ذكر ابن إسحاق سبعة عشر رجلاً، وثمان إمرأة من مهاجريهم.

ومن أشهر هؤلاء في تاريخ الهجرة وأحداثها بنو غَنْم بن دودان آل عبدالله بن جحش، أخي أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وفي ذلك يقول أبو أحمد عبد بن جحش وكان شاعراً مجيداً، مرهف الحس، ضرير البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها وحده بغير قائد:

إلى الله وجهي والرسول ومن يقم إلى الله يـوماً وجهـه لا يخيّب
دعـوت بني غنم لحقن دمـائهم وللحق لـما لاح للنـاس ملحب
أجابـوا بحمـد الله لما دعـاهم إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا

قال ابن إسحاق: ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ﷺ إلا أهل دور مُسَمَّوْن: بنو مظعون من جمح، وبنو جحش بن رئاب حلفاء بني أمية، وبنو البكير من بني سعد ابن ليث حلفاء بني عديّ بن كعب، فإن دورهم غُلّقت بمكة هجرة ليس فيها ساكن.

هجرة عمر ابن الخطاب في ركب من أصحابه

ثم جاءت هجرة القوي الأمين فاروق الإسلام، وعز المسلمين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في عشرين راكباً، فيهم أخوه زيد بن الخطاب، وابنه عبدالله بن عمر، وعيّاش بن أبي ربيعة الملّقب بذي الرمحين لشجاعته.

قال الزرقاني في شرح المواهب: أخرج ابن عساكر وابن السمان في الموافقة عن علي رضي الله عنه قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً إلا عمر بـن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانفض يُدْنه - أي أخرج أسهماً من كنانته - وجعلها في يده للرمي بها، واختصر عنزته - أي حملها مضمومة إلى خاصرته - ومضى قبل الكعبة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين، ثم وقف على الحلق، حلقة، حلقة، واحدة، واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته فيلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه أحد من أهل الحِلَق.

وفي حديث عبدالله بن عمر عن أبيه عند ابن إسحاق، قال عمر: اتعدنا لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام ابن

العاصي التناضب من أضاة بني غفار فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه، قال عمر: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب، وحبس هشام، وفتن فافتتن.

عياش بين وفاء الإيمان وغدر الفجور

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل ابن هشام والحارث بن هشام إلى عيّاش، وكان أخاهما لأمّهما وابن عمهما حتى قدما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلما عيّاشاً، وقالا له: إن أمك قد نذرت ألّا يمسّ رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقّ عياش لأمه، فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت، فقال عياش: أبُـر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه، فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت له: أما إذْ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانجُ عليها، فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا على الأرض عدوا عليـه، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة نهاراً موثقاً، ثم قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

دعاء النبي ﷺ لعياش وصاحبيه في القنوت

وكان رسول الله ﷺ ـ كما في الصحيحين عن أبي هريرة ـ يدعو لعيّاش وللوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام في قنوت صلاة العتمة يقول: «اللهم أنجِ الوليد بن الوليد، اللهم أنجِ سلمة بن هشام، اللهم أنجِ عيّاش ابن أبي ربيعة، اللهم أنجِ المستضعفين من المؤمنين» الحديث، قال ابن القيم في الهدي: قال أبو هريرة: وأصبح ذات يوم فلم يدع لهم، فذكرت ذلك له، فقال: «أو ما تراهم قد قدموا؟»».

شجاعة الوليد ابن الوليد

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «من لي بعيّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص؟» فقال الوليد ابن

الوليد بن المغيرة: أنا لك بهما يا رسول الله، فخرج الوليد بن الوليد إلى مكة مستخفياً، فلقي امرأة تحمل طعاماً، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين، تعنيهما، فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسوّر عليهما، ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ثم حملهما على بعيره، وساق بهما حتى قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

وهذه الرواية مخالفة بالنسبة لهشام بن العاص لحديث عبدالله بن عمر عن أبيه الذي جاء فيه: فكنّا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفرِ لَبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾[1].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثتها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلما قدمتِ عليّ خرجت بها إلى ذي طوى - وعند السهيلي ففاجأتني وأنا بذي طوى - فجعلت أصعِّد بها وأصوِّب لأفهمها، فقلت: اللّهم فهِّمْنيها، فعرفت أنها إنما نزلت فينا، كما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله ﷺ.

وفي هذه الرواية أن الوليد بن الوليد استجاب الله فيه دعاء رسول الله ﷺ فأنجاه قبل أخويه، وكان هو سبباً في إنجائهما، وهكذا كان الإخاء الإيماني يفرض على أهله التعاون والمواساة في سبيل عقيدتهم، وافتداء دينهم بأرواحهم.

---

(١) سورة الزمر آية (٥٣، ٥٤، ٥٥).

هجرة صهيب وشراؤه لإيمانه وعقيدته بجميع ما يملك من حطام الدنيا

وكان ممن هاجر وحده، وفدى نفسه وعقيدته وهجرته بجميع ما له، ـ وكان ذا مال ـ صهيب بن سنان المشهور بصهيب الرومي وهو عربي صليبة، ومن بيت رفيع في قومه، ناله سباء في الروم، وهو صغير، فأخذ لسانهم فعرف بذلك، قال ابن عبد البر في الاستيعاب:

وهو نمري، من النَّمِر بن قاسط، لا يختلفون في ذلك، ثم قال ابن عبد البر: وفي كتاب البخاري عن محمد بن سيرين قال: كان صهيب من العرب، من النَّمِر بن قاسط، وقال موسى بن عقبة قال: ابن شهاب: وممن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ من النمر بن قاسط صهيب بن سنان.

ذكر ابن كثير في البداية عن الحافظ أبي بكر البيهقي بسنده إلى سعيد ابن المسيب عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «أُريتُ دار هجرتكم سَبْخة بين ظهراني حرتين، فإما أن تكون هجر، أو تكون يثرب» قال صهيب: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج، فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم، لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه ـ ولم أكن شاكياً ـ فناموا فخرجت، ولحقني منهم ناس بعدما سرت، يريدون ليردوني، فقلت لهم: إن أعطيتكم أواقي من ذهب، وتخلوا سبيلي، وتوفوا إليّ، ففعلوا، فتبعتهم إلى مكة، فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب فإن بها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين، فخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقُباء قبل أن يتحول منها، فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع» فقلت يا رسول الله ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

وذكر ابن كثير عن ابن هشام قال: وذُكر لي عن أبي عثمان النَّهْدي أنه قال: بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً فقيراً لا مال لك، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بما لك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: يقال أن صهيباً لما هاجر تبعه نفر من المشركين فقال لهم: يا معشر قريش إني من أرماكم، ولا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، فرضوا، فعاهدهم ودلّهم على ما له، فرجعوا فأخذوا ما له، فلما جاء إلى النبي ﷺ قال: «ربح البيع» فأنزل الله ﴿ومن الناس يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾.

بيد أن الحافظ ابن حجر جزم في الإصابة بأن صهيباً رضي الله عنه هاجر في رفقة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر من هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ.

علىّ رضي الله عنه يلحق بالنبي ﷺ بعد تنفيذ وصيته

ولا شك أن هجرة علي رضي الله عنه كانت بعد هجرة رسول الله ﷺ. حكى البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق قال: آخر من قدم المدينة من الناس لم يفتن في دينه أو يحبس علي بن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ أخّره بمكة وأمره أن ينام على فراشه، وأجّله ثلاثاً، وأمره أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه، ففعل ذلك علي ثم لحق برسول الله ﷺ.

وقد أدرك عليّ رضي الله عنه النبي ﷺ بقُباء لما يَرِم منها، وكان رسول الله ﷺ قد نزل على كُلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف، وكان ﷺ يجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وكان سعد عزباً، لا أهل له، وكان منزله منزل العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين.

قال ابن إسحاق: وأقام عليّ رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كُلثوم بن هدم بقباء.

قصة طريفة لسهل ابن حنيف مع امرأة مسلمة

وفي هذه المدة القصيرة وقعت له هذه الحادثة الطريفة التي يرويها عنه ابن إسحاق، فيقول: فكان علي بن أبي طالب يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئاً معه فتأخذه.

قال علي رضي الله عنه: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله؟ من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة، فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً، لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة، لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل ابن حنيف بن وهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا. فكان عليّ رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق.

استكمل المجتمع المسلم قوة وحدته في دار هجرته ليستقبل بالمدينة سيد المرسلين

استوعبت دار الهجرة عامة المؤمنين من المهاجرين والأنصار قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها، ولم يبق بمكة يوم أن هاجر رسول الله ﷺ إلا مفتون في دينه أو محبوس حيل بينه وبين الهجرة لينضم إلى إخوانه المؤمنين، وقد منّ الله على بعض هؤلاء فتخلّصوا بعد هجرة رسول الله ﷺ من الفتنة، فتاب الله على المفتونين في دينهم، وعادوا إلى إيمانهم وعقيدتهم، وهاجروا لينضموا إلى إخوانهم المؤمنين، وقوّى الله المستضعفين فأنجاهم من أيدي الظالمين المشركين، وهاجروا إلى إخوانهم ليحملوا لواء الدعوة إلى الله تعالى في صفوف جند الله من المجاهدين.

واستكمل المجتمع الإسلامي في دار الإيمان عناصر القوة، واستعدت المدينة المنورة برسوخ إيمانها، ويقينها ووحدة مجتمع الإيمان فيها، وقوته المادية والمعنوية لتستقبل أخطر وأعظم حادث في تاريخ الحياة.

هِجْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ
من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة

كانت الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة

كانت الهجرة النبوية من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة أعظم حدث حوّل مجرى التاريخ، وغيّر مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحيا بها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات، وعقائد وتعبدات وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم.

وقد كانت مكة مطلع شمس التوحيد في رسالة الإسلام، وملتقى آفاق السماء بأقطار الأرض، ومشرق نور الهداية، ومهبط أولَ وحي إلهي ختمت به رسالة الخلود، ومنزل أول كلمة شُرِّفت بها الحياة، وأول خطاب شرف به أكرم خلق الله على الله محمد خاتم النبيين ﷺ.

تلك الكلمة الأبدية الجامعة لصنوف الخير مادة ومعنى (اقرأ)، التي عنونت رسالة الخلود بأعظم ما أشرقت به الحياة من نور وهداية، منذ كانت الحياة، إذْ جعلت من العلم بأعم معانيه وأشمل حقائقه الدعامة الأولى، والركيزة العظمى التي قام عليها بناء رسالة الخلود صرحاً أشم شامخاً.

هذه الرسالة العامة زماناً، الشاملة مكاناً، المحيطة أجيالاً، الشافية قلوباً، المشرقة أرواحاً، الكافية هدياً ورشداً، الباقية حسّاً ومعنى، البانية لحضارات الخير الناضرات، الفاتحة لأبواب السعادة في الدارين، المنبِّهة للإنسانية من غفلاتها، الموقظة لها من سباتها، المحررة للعقل البشري من ربقة الجمود، النافخة فيه روح الحيوية الثائرة، السالكة به سبيل النظر

البحوث في عناصر الكون، ليعرف منه ما لم يكن يعرف من قَبْلها، ويعلم من أسراره ما لم يكن يعلم من غيرها الغالبة القاهرة، المؤيدة بروح الله، الظافرة بصادق وعده وتبشيره ﴿اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وصارت المدينة المنورة بإشراق نور النبوة بكل معالمها وآياتها مسرى هذه الرسالة الخاتمة الخالدة إلى آفاق العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه، غيثاً مغيثاً أسال وديانها وشعابها بمنهمر من الخير الذي أبت مكة بملئها العتيِّ العنيد أن تتقبله استكباراً في الأرض بغير حق، وكانت حرية أن تعبَّ من سلسبيله عبّاً، تروي به ظمأها، وتبلل بنداه نشف ريقها، لأنها كانت صديانة الروح، محرقة الكبد، يكاد يقتلها أوار العطش وهي في نار الشرك والوثنية تخور كما تخور ثيران الفيافي وقد منعت الورود إلى غدران الماء.

لقد حولت الهجرة النبوية عنها روادف هذا النمير السلسل إلى المدينة المنورة، فجرى في أوديتها أنهاراً، سبح في غمراتها، وغاص في أعماقها المذخورون في سجل الأزل لحمل أمانة الحقيقة الكبرى في قيادة الإنسانية إلى آفاقها المقدورة لها في لوح العلم الإلّهي المحيط بما كان وما يكون، رافعين ألوية الحق والخير والهدى، حاملين مشاعل النور ليضيئوا للسالكين مهايع الرشد ـ من الأكرمين السابقين الأولين الذين وفدوا مهاجرين إلى طيبة الطيبة دار الإيمان، ومن الأنصار الذين باعوا أنفسهم لله عز شأنه يوم أن بايعوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا حرباً لمن حارب وسلماً لمن سالم، يفدونه ويفدون ما جاء به من الحق والهدى، يبلِّغونه إلى الأحمر والأسود ما قامت أفئدتهم بين جوانحهم عامرة باليقين، وما ثبتت سيوفهم في أيديهم لتقويم عوج العناد في أخادع المستكبرين من أهل العتو والفجور.

وقد وفوا بما عاهدوا الله عليه، وصدقوا رسول الله ﷺ فيما بايعوه عليه، فكانوا كتيبة الجهاد القوية القاهرة، وكانت مدينتهم قلعة الإسلام الحصينة، وحصنه القوي الأمين.

الهجرة النبوية

كيف بدأت... وكيف تمت؟

تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

رجفت مكة ـ وقد تجاوبت شوامخ رواسيها بأصداء البيعة الكبرى بيعة الفتح الأكبر (فتح الفتوح) في دنيا الإسلام ـ رجفة تزايلت من هول وقعها أوصالها، وتزلزلت لشدة نكايتها بطواغيتهم أركانها.

نضال مرير غير متوازن بين القلة المسلمة السموح والكثرة الفاجرة الجموح

تلك البيعة التي ختمت للرسالة مرحلة، وفتحت بها مرحلة، ختمت مرحلة كفاح مرير غير متوازن في عنصرَيْه المتكافحين، عنصر العتو الفاجر ممثلاً في مشركي مكة وملئها، وعنصر الإيمان الموحد ممثلاً في القلّة المسلمة من السابقين الأولين، يقودها رسول الهدى محمد ﷺ.

فالقلة المسلمة، كانت في مدى هذه المرحلة بين شقي الرحى، تطحنها الأحداث ويأخذ منها البلاء والتعذيب كل مأخذ، وهي صبور محتسبة لا ترد اعتداء، ولا تملك منجىً ولا تجد مهرباً، مروعة مفزعة في غدوها ورواحها، وصحوها ونومها.

والكثرة العاتية من طواغيت الشرك كانت تتعامل مع هذه القلة المسلمة بقلوب قُدّت من الصخر والحديد، تصب صنوف العذاب عليهم صباً، لا ترحم ولا تمل، يضحكها أنين الألم يخرج مع زفرات ضحاياها، ويسكرها منظر الدماء تنساب من جراحهم، والسياط على أجسامهم نازلة صاعدة، ويغيظها صبرهم على العذاب، فيزداد عليهم حقدها وحنقها، فتفتن في ابتداع أفانين الفوادح وفنون التعذيب، تصهرهم بها صهراً، فإذا انفلت بعضهم في غفلة سياط العذاب إلى مهرب آمن لاحقتهم برسلها

ورُشاها لتردهم إلى جحيم الفجور، وعتو الاستكبار الظلوم، حتى قضى الله أمره، ومنّ على المستضعفين في الأرض، ومكّنهم، وجعلهم أئمة يهدون بأمره، وقادة للإنسانية، ليخرجوها من الظلمات إلى النور، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يحقدون على من مضى بما مضى، سليمة صدورهم، لا تنطوي على حزازات وأضغان، نسوا الماضي القاسي المرير، وداسوا على ما كابدوه فيه من شدة وقهر وطغيان بأقدام التسامح، فلم يذكروه إلا ليحمدوا الله على فضله عليهم.

وفتحت بيعة (فتح الفتوح) مرحلة انطلاق بالدعوة إلى الله في نضال متحرر من الخوف والرهبة لا تعوقه عن سيره قوى الشر التي كانت تترصده بالقهر والجبروت، فهو انطلاق نضالي يستهدف تبليغ رسالة الحق والهدى، وتأسيس نظام يجمع شعوب الأرض في إطار العقيدة الموحدة والإخاء الإنساني الكريم.

بيعة غصت بها الوثنية في مكامنها من الحياة

وقد كانت بيعة (فتح الفتوح) حجر الزاوية في بناء المجتمع الإسلامي على ركائز القوة المادية والمعنوية، وهي القوة التي أرعبت طواغيت مكة، وملأت قلوبهم هلعاً، وهزّت كيانهم جزعاً، واستفزّت عقولهم فزعاً، فاختلّت لديهم موازين المقاومة لهذه القوة العارمة الجديدة التي أحاطت محمداً ﷺ ودعوته بسياج من المنعة التي لا تنال، بل وضعت في يده زمام السير بدعوته وتبليغ رسالته إلى آفاق عريضة، ليس لمكة وطواغيتها طاقة في مواقفتها والتعرض لسيرها، لأنهم يعلمون أن هذه البيعة التي أشجتهم فغصوا بشجيها كانت بيعة نسج خيوطها الوفاء والتضحية، أخذ فيها رسول الله ﷺ وأعطى، أخذ على بني قَيْلة ـ أنصار الغد أوسهم وخزرجهم ـ وهم أبناء الحرب وأبطال الوغى، نهدوا بين أحضانها، ونشأوا في ميادينها، وشبوا وشابوا تحت ظلال سيوفها.

أخذ فيها رسول الله ﷺ عليهم لربه ولنفسه، وأعطى فيها من نفسه بإذن ربه، أخذ فيها عليهم أن يحملوا لواء التوحيد، يعبدون الله، لا يشركون به شيئاً ويقولون في الله، لا يخافون لومة لائم، ويرفعون راية الفداء والتضحية بالنفس والمال لحماية دعوة الحق، وتبليغ رسالة الإسلام، وأعطاهم ﷺ ما ثامنهم به الله (الجنة)، فباعوا رابحين، وبايعوا موقنين، لا يقيلون ولا يستقيلون.

ولم تكن مكة بطواغيت ملئها قط أهيب لقوم في العرب قاطبة، ولا أبغض لحربهم من هؤلاء الأبطال الغر الميامين الذين ظفر بهم رسول الله ﷺ في لحظة تحت جنح الظلام من ليالي التشريق، لحظة كتب فيها القدر الموفق تحول التاريخ البشري عن مسيرته الجاهلية إلى أَمَمَ من طريق العلم والهداية، انتصبت على جوانبه منائر النور لتضيء للسالكين معالم الحق.

ذيوع ذكر رسول الله ﷺ ودعوته على ألسنة الوافدين إلى الحج من قبائل العرب أفزع الطغاة

وموسم الحج يعج بحشود العرب القادمين إلى مكة وأسواقها ومحافلها من كل فج، ولم يكن في وفود قبائلهم وبيوتاتهم أحد إلا كان عنده ذكر لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، رجل أو امرأة، فتى في عنفوان تفتِّيه، أو فتاة من وراء خدرها تختلس النظرات إلى جموع الوافدين إلى الموسم، وترهف آذانها إلى أصوات الحشود الصاخبة، تتسمع إلى الكلمات تتهاوى من أسلات الألسن في عصبية مجنونة، يختلط فيها زئير الغضب بعواء الذئاب إلى همس ذاهل مذهول، لا يدري صاحبه ما يقول، ولكنه يتسقط الكلمات من أفواه أصحابه ليتفهم ما يريدون، وما هم بمريدين شيئاً، ولكنهم يتكلمون بما لا يوعون، ويهرفون بما لا يعرفون، زائغة أبصارهم، تائهة عقولهم، يحسون في موسمهم هذا شيئاً لا يعرفونه، ويشعرون بأمر لا يقدرونه، ويرون في جو الموسم غموضاً قاتماً، وظلاماً ينشر سواده المتجهم على مكة وطواغيت ملئها؛ بَيْدَ أنهم يلمحون من وراء سجف هذا الظلام لمعات برق هامس تتخلله، يضيء ويخبو، وإذا فاق الإصباح ينبؤهم بالنبأ العظيم، ويخبرهم بالحق المبين.

وأصبحت مكة في رجفتها الرادفة وقد صك آذانها صوت أجشّ عربيد ينادي ملأها بما انتزع قلوبهم من صدورهم: يا أهل مكة، هل لكم في محمد والصبأة من بني قَيْلة قد أجمعوا على حربكم، وإذا بهذا الصائت المصوِّت أزب العقبة وشيطانها يصطرخ مدحوراً وهو يسمع قول النبي ﷺ يلاحقه في قراره: «أما والله يا عدو الله لأفرغن لك».

وجن جنون قريش، وفزع ملؤها مذهولاً مرعوباً، تلتف سيقانه على سيقانه هلعاً، وتصطك أسنانه كالمقرور جزعاً، وراحوا يستكشفون سر رجفة مكة، وسر ظلامها، وسر وجوم الموسم وتجهمه، وقد ساخت أقدامهم في مواقفهم، وذهبوا يستطلعون النبأ عن أشباههم ممن عسا في الكفر العنيد،

والشرك البليد، والفجور العنيّ، والغرور المستكبر، متلطخاً بأقذار الوثنية وأرجاس الضلال من بقايا هامات نَخِرة، أنفت سيوف البطولة اليثربية أن تجذَّها حصداً.

وكذب هؤلاء على هؤلاء، ثم ارتفعت شمس الحياة في الآفاق مشرقة مضيئة، وقد سالت بأعناق المؤمنين الأباطح، قافلين إلى يثربهم، فرحين بما آتاهم الله من فضله، مستبشرين بنعمة الله عليهم، يتذاكرون بيعتهم رسول الله ﷺ، وما تتقاضاهم من استعداد لاستقبال قوافل التاريخ تحدوها حداة الإيمان في حياة جديدة جادة.

وعادت مكة من جباجبها بعد خيبتها خزيانة مخذولة، تجر أذيال الخسران المبين، متسربلة بالذل والمهانة لتأتمر بمحمد ﷺ الذي بخع كبرياءها الأجوف في لحظة لا تكاد تعرف في حساب سير الفلك، ولكنها كانت لحظة غيّرت وجه الحياة.

ومكرت مكة في تآمرها ومكر الله بها والله خير الماكرين، وها هي ذي ترى بملء أبصارها أصحاب محمد ﷺ الذين كانت تذيقهم العذاب ألواناً قد نجوا من قبضتها، وهاجروا إلى موئل القوة والمنعة والاستقرار والأمن، فأوعبوا حتى لم يبق منهم في متناول طغيانهم إلا مفتون في دينه، أو محبوس عاجز عن الهجرة إلى إخوانه المؤمنين.

فهل تترك مكة بملئها وطواغيتها من ذوي الفجور العتي محمداً ﷺ حتى يلحق بأصحابه وقد نزلوا أكرم منزل، وحلوا أمنع حصن، ليناصبها الحرب فيقضي عليها وعلى وثنيتها وزعامتها قوياً قديراً، قضاء مبرماً، لا تقوم لطغيانها بعدها قائمة وهو بين يديها تستطيع أن تأخذه بغدرها ومكرها وجبروتها.

هذا ما لا تطيق مكة بملئها المستكبر العنيد الحقود صبراً عليه، فلتسرع إلى كيدها تجمعه ومكرها تحوكه، وغدرها تبطش به، ولتحكم التدبير والعمل، ولتستعين بشياطين الإنس ومردة الأباليس قبل أن تفلت منها الفرصة، فيذهب كيدها إلى جحيم البوار، وتبوء بالخسران المبين.

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها

لم يكن الفرار من التعذيب هو العامل الوحيد في هجرة الصحابة إلى الحبشة

تحدثنا فيما سبق عن عوامل هجرة الصحابة ودوافعها في هجرتيهم إلى الحبشة وهجرتهم إلى المدينة المنورة، وأوضحنا في أفانين ذلك الحديث أن عوامل هجرة الصحابة ودوافعها في موطنيها من المرحلة المكية كانت ترجع في أساسها إلى عوامل ودوافع سياسية، تستهدف نشر الدعوة وتبليغ الرسالة حيثما أمكن ذلك.

بيد أننا لم نستبعد أن يكون من عواملها ودوافعها التفكير أن يكون فريق من هؤلاء السابقين إلى حظيرة الإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة رسوله محمد ﷺ بمنأى عن الاضطهاد وصنوف البلاء والتعذيب التي كان طواغيت الشرك وأحلاس الوثنية تصبها عليهم دون استشعار رحمة، وفي هؤلاء السابقين من المؤمنين بعض المستضعفين الذين لا يأوون إلى ركن شديد من العصبيات القبلية، أو الحمية البيئية، أو العزّة الأسرية يحميهم، ويرد عنهم ما ينزل بهم من شديد الأذى وفادح البلاء، وهم لا يستطيعون توقياً للأذى ولا يستطيعون رداً للاعتداء، لأنهم مأمورون بالكف والصبر والاحتمال، بل كانوا مأمورين بالعفو والصفح والمسامحة.

كما أننا لم نستبعد أن يكون من عوامل هجرة أولئك السابقين ودوافعها التفكير في الانتشار في أرجاء الأرض، بعيداً عن جبروت الملأ في مكة لنشر الدعوة إلى الله عملياً بأسلوب التأسي بهم في سلوكهم وآدابهم وحسن معاملاتهم، وطيب معاشرتهم مع الوفاء والصدق والبر ولطف اللقاء ووداعة الخلق ولين الجانب وخفض الجناح مع العزّة والتعفف، ودعائياً بأسلوب

البشاشة، والكلمة الطيبة، والحكمة المنبهة، والموعظة الحسنة، والحب والرحمة والمواساة، واستشعار الإخاء الإنساني مما علمهم الإسلام وأخذوه عن أخلاق نبيهم ﷺ، مع إتاحة الفرصة بهذه الهجرة للتخفيف عن النبي ﷺ من أعباء شغل فكره بهم لتدبير مواطن التوقي لهم مما ينالهم من الأذى، وتقوية نفوسهم على الصبر واحتمال شدة العتو وقسوة الإيذاء، ليتفرغ ﷺ إلى واجبه الأول والأهم بتبليغ رسالته للناس في منازلهم ومحافلهم، ومجتمعاتهم في المواسم والأسواق.

وهذا أمر ما كان يمكن أن يتحقق، وتتاح فرصته للنبي ﷺ لو كان أصحابه كلهم متجمعين حوله في مكة، وهم مكفوفون عن ردِّ الاعتداء، مأمورون بالصبر والاحتمال، والعفو عن إساءة المسيئين، والصفح عن جهالة الجاهلين، وسفه السفهاء، وعتو الفاجرين.

ذلك أن النبي ﷺ كان يرمضه رؤية أصحابه يسامون سوء العذاب، وهو ﷺ مكفوف عن الدفع عنهم، ووقايتهم مما ينزل بهم في حياتهم غادين ورائحين، معلنين ومسرين، لأنه ﷺ لم يؤذن له في القتال يرد به العدوان، وقد تحمل ﷺ في نفسه من شديد الأذى وسفه السفهاء مالم يعمد إلى رده بمثله، وكان على ذلك قديراً.

ولما عظم الخطر على أصحابه، وكاد يشغله حالهم عن القيام بواجب تبليغ رسالته أشار عليهم ـ أولاً ـ بالهجرة إلى الحبشة، لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فهاجر إليها منهم قلة كانوا اثني عشر رجلاً، ثم تكاثروا في الهجرة الثانية حتى جاوزوا المائة رجالاً ونساءً، حينما ضاق الأمر واستحكم الخناق على الذين حوصروا في الشعب من بني هاشم والمطلب وغيرهم من المسلمين الذين دخلوا معهم ذلك الحصار الظالم.

كانت الهجرة إلى الحبشة أول عامل من عوامل نشر الدعوة إلى الله

وقد بينّا أن الهجرة إلى الحبشة في مرّتيها كانت أول عامل من أقوى عوامل نشر الدعوة إلى الله في خارج الجزيرة العربية، لأن أولئك المهاجرين كانوا في كثرتهم من أبناء البيوتات وشبابها من قريش وغيرهم.

وقد جرى بينهم وبين النجاشي ملك الحبشة في مجالس حافلة ببطارقته

ورؤوس شعبه وزعمائهم حوار طويل مفصّل استهدف بيان دعوة الإسلام في عقائدها وأخلاقياتها، وآثارها على الأوضاع الجاهلية التي كان يعيشها العرب قبل دعوة الإسلام؛ مما كان له أكبر الأثر في نقل الدعوة من مجال مكة الضيق الخانق إلى مجال أوسع منطلقاً، وأصلح متنفساً، وأنجح مقصداً.

لو لم يكن من آثار الهجرة إلى الحبشة إلّا إسلام عمرو ابن العاص لكفى

لقد كان من أعظم آثاره دخول الإيمان برسالة الإسلام إلى قلب عمرو ابن العاص وهو مَنْ هو عقلاً ودَهْياً، وكان مجيئه إلى الحبشة رسولاً من قريش ليرد هؤلاء المهاجرين إليها لتفتنهم في دينهم وعقيدتهم، فالتقطه منها المهاجرون، وإن لم يظهر إسلامه إلا بعد أمدٍ من ذلك.

قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب من طريق الواقدي قال: وفي سنة ثمان قدم عمرو بن العاص مسلماً على رسول الله ﷺ، قد أسلم عند النجاشي، وقيل: إنه لم يأتِ من أرض الحبشة إلا معتقداً للإسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يـاعمرو، كيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول الله حقاً، قال عمرو: أنت تقول ذلك؟ قال النجاشي: أي والله، فأطعني، فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي ﷺ.

وذكر الحافظ ابن حجر عن الزبير بن بكّار والواقدي بسندين لهما أن إسلامه ـ عمرو بن العاص كان على يد النجاشي وهو بأرض الحبشة.

ثم قال الحافظ: وأخرج البغوي بسندٍ جيد عن عمرو بن إسحاق أحد التابعين، قال: استأذن جعفر بن أبي طالب النبي ﷺ في التوجه إلى الحبشة، فأذن له، قال عمرو بن إسحق: فحدثني عمرو بن العاص قال: لما رأيت مكانه ـ أي مكان جعفر ـ قلت: لأستقلن لهذا ولأصحابه، فذكر قصتهم مع النجاشي، قال عمرو: فلقيت جعفراً خالياً ـ فأسلمت، وبلغ ذلك أصحابي فعنّفوني وسلبوني كل شيء، فذهبت إلى جعفر، فذهب معي إلى النجاشي فردّوا علي كل شيء أخذوه.

وقد أبى النجاشي رد المهاجرين، وازدادهم بعد الحوار إكراماً، وأظهر إيمانه برسالة محمد ﷺ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، وزوجه السيدة أم

حبيبة أم المؤمنين وأمهرها عنه، وأرسلها إليه مكرمة مع أخص قومها، وآمن معه من بطارقته وقومه من هدى الله قلبه للإيمان، كما فصلناه في مناسبته.

ولّما مات أبو طالب عقب خروجه وقومه من حصار الشِعْب ـ وكان حفياً بالنبي ﷺ، وسنداً لحمايته، ورد الاعتداء عليه، والدفاع عن دعوته، وقد قام معه في ذلك بنو هاشم والمطّلب حمية وعصبية قومية ـ اشتد عليه ﷺ الأمر، وتعاظم الخطر، وكان أصحابه رضوان الله عليهم قد كثروا، وازدادت قريش في عتوها وقسوتها وأخذت عليهم مسالك الخروج من مكة، واشتدت في اضطهادها لهم، فشكى بعض المستضعفين إليه ﷺ ما يلقونه من عتو وفجور طواغيت قريش، وجاءت محنة الطائف بشراستها وأسوائها فطمَّ البلاء، واستشرى الخطر على الدعوة والقائمين على صراطها، وعاد ذلك يشغل رسول الله ﷺ عن متابعة نشر دعوته في المواسم وهي أعظم مجتمعات العرب، تفد إليها وفودهم، ويتخذون من أسواقها متجولاتهم.

وكانت هذه المحن والشدائد تزيد في عزيمة رسول الله ﷺ قوة، وتزيده إيماناً برسالة نفسه التي تستهدف إخراج الحياة من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة، فليدأب داعياً إلى الله، وليمض مبلّغاً رسالة ربه، وخرج كما كان يخرج إلى مضارب القبائل، لا يلقى شريف قوم إلّا دعاه إلى الإيمان وعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن، وإذا ببارقة من يثرب تضيء أفق مكة المظلم، وتتم بيعات الأنصار بيعة إثر بيعة وعهداً إثر عهد، وختمت ببيعة (فتح الفتوح)، بيعة السبعين من البهاليل الخزرجيين وإخوانهم الأوسيين أنصار الله وكتائب الفتح المبين، فقويت عزيمة رسول الله ﷺ بهذه البيعة التي كانت نقطة تحول في سير الدعوة، وانفرجت ضوائقه ﷺ، وتنفَّس أصحابه تنفس الروح والأمل وأُري رسول الله ﷺ دار هجرته وهجرة أصحابه رمزاً ومثلاً، لا يحدد مكاناً، ولا يعينّ بلداً إلا بالوصف العام الذي لا يوصد باب المشاركة، ففي الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «رأيت أني مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهْلي إلى اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب».

وعند البيهقي من حديث صهيب قال ﷺ: «رأيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرّتين، فإما أن تكون هَجَر أو يثرب» قال العلماء: أري ﷺ دار هجرته بصفة تجمع بين المدينة وغيرها، ثم أري الصفة المختصة بالمدينة فتعينت.

واستأذنه أصحابه في الهجرة إلى إخوانهم أنصار الله، فأذن لهم لينقل مجال الدعوة إلى موقعها من القوة في مسيرة التاريخ.

فليس الفرار من قسوة التعذيب وفظاعة الاضطهاد هو العامل الأول في هجرة أصحاب محمد ﷺ، وليس الهرب من فادح البلاء وعتوِّ الفجور هو الدافع الوحيد على مفارقة الظلم والظالمين إلى حيثما وجد الأمن والاستقرار لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة.

لأن الفرار والهرب إذا استقاما أن يكونا عاملاً من عوامل الهجرة ودافعاً من دوافعها بالنسبة إلى بعض المستضعفين فلا يستقيم في شرعة الإنصاف ومعرفة أحوال المهاجرين ومكانهم في قومهم بالنسبة للكثرة منهم، وهم من صفوة شباب قريش وأبناء أشرافها أن يكونا هما العامل الأساسي على الهجرة، ومن يمعن النظر في أسماء وأنساب المهاجرين وما احتف بهجرتهم وخروجهم يعلم حق العلم أن نشر الدعوة في جو بعيد عن المضايقات الفاجرة كان عاملاً قوياً من العوامل التي دخلت في حساب المهاجرين في هجرتيهم إلى الحبشة، وهجرتهم إلى المدينة المنورة، والالتحام مع إخوتهم الأنصار في وحدة إيمانية تنطلق في إطارها الدعوة إلى الله قوية قاهرة، تدفع عن نفسها ولا تهاجم من لا يتعرض لها في طريقها، معوقاً لها عن سيرها.

وإذا تحقق في هذه الهجرة منتأى عن الاضطهاد وشدة الإيذاء، وتحقق بها الأمن والاستقرار فلا ضير على أصحاب محمد ﷺ أن يدخل ذلك في قصدهم، لأن بقاءهم بمكة تحت وطأة الصبر المرير، والاحتمال الوجيع، وقد وجدوا مجالاً فسيحاً للحركة الآمنة في سبيل نشر دعوة الحق والنور، التي آمنوا بها واحتضنوها بين جوانحهم تعريض لأنفسهم للهلكة وتعريض للدعوة

إلى التجمد والوقوف بها عن التقدم، أو على الأقل يكون فيه تسليم لزمام نشر الدعوة وتبليغ الرسالة إلى من لم يكونوا سابقين إليها. ولا شك أن الصحابة كانوا على أتم العلم أن انحيازهم إلى إخوانهم الأنصار يزيد في قوة تناصرهم ولا سيما وهم يعلمون أن النبي ﷺ سيهاجر إلى دار هجرته التي أريها في منامه بوحي من الله ـ كما هو صريح حديث الصحيحين ـ وليس من المعقول أن يتخلّفوا عن رسول الله ﷺ ويستسلموا للبقاء في دار أجمع أهلها على ظلمهم وتعذيبهم ليفتنوهم عن دينهم إن استطاعوا.

ومن ثَمّ توافت عزائمهم قوية ماضية على أن يكونوا في شرف استقبال رسول الله ﷺ يوم يحل بدار هجرته آمناً مطاعاً إلى جانب إخوانهم أنصار الله وأنصار الرسول، فخرجوا يتسللون لواذاً، وتركوا وراءهم مكة، وطواغيتها ينعق في طرقاتها بوم اليأس فوق رؤوس الملأ من الطغاة والمستكبرين، إلى أن يجيء وعد الله بالفتح المبين، فتح مكة، وتطهيرها من رجس الوثنية البليدة، والشرك الأثيم على أيدي هؤلاء الصفوة الذين أخرجتهم مكة منها ليعودوا إليها ظافرين منتصرين، يهدون بالحق، ويدعون إلى الله ورسالته.

* * *

تصوير الهجرة على حقيقتها ينأى بها عن الفرار والهرب من شدة الإيذاء

وإذا كان هذا هو التصوير الحق الذي يؤيده الواقع، وتعزّزه الوقائع، وتنصره الأحداث في بيان عوامل هجرة الصحابة رضوان الله عليهم أولاً وآخراً، وبيان دوافعها التي توافقت على تحقيقها، فكانت أعظم آية من آيات الله التي نصر بها هذا الدين القيِّم، وفتح بها الطريق لنشر دعوته في الخافقين، ورفع لواءه في آفاق العالمين، على أيدي هؤلاء الذين تركوا ديارهم وأعز ما فيها من مال وولد في سبيل إعلاء كلمة الله، كلمة الحق والتوحيد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ـ فإن هجرة النبي ﷺ أحق أن تكون هجرة فتح للدعوة وانطلاق بالرسالة إلى أرجاء الأرض في حرية فكرية لا تكره أحداً على قبولها والإيمان بها.

فالذين يترخَّصون من ذوي البلاهة والغفلة المنتسبين إلى زمرة أهل العلم في ذكر الفرار عاملاً من عوامل هجرته ﷺ من مكة المشرفة إلى المدينة

المنورة، ودافعاً من دوافعها أولئك لم يقدِّروا مواقف النضال المرير، والكفاح الوجيع التي وقفها رسول الله ﷺ طول مدة إقامته بمكة، لا يخشى جبروت ملأ مكة، ولا يخاف بطش طواغيتها - حق قدرها، وهم بهذه البلاهة والغفلة يفتحون منافذ التقوّل بالباطل على رسول الله ﷺ من أعداء الإسلام وملاحدة الاستشراق والتفلسف القديم والحديث، لأن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كانت اللبنة الأولى في بناء صرح الإسلام على دعائم القوة الموجهة لمسيرة الحياة على مدى سير التاريخ البشري في مساره الجديد الذي اختطت رسالة الإسلام جادته للناس في مشارق الأرض ومغاربها، وأقامت لهم على جوانبها منائر الهداية ومعالمها لإرشاد السالكين أن يضلّوا طريقهم في مهايع الحياة ومسالكها، بعد إذ جاءهم الهدى، واستنارت لهم معالم الطريق.

فهذه الهجرة النبوية كانت نقطة التحول في مشارع الحياة الإنسانية التي ضلّت طريقها، وانشعب بها السير في متاته من مضلات الفكر، وانحراف العقل، وحجب إشراق الروح، ومضت الإنسانية قبل رسالة الإسلام ضالّة تائهة، لا تعرف من أين جاءت وإلى أين تسير لأنها فقدت ذاكرتها وفقدت إدراكها، وعميت عليها جوادّ المسالك، واشتبهت في نظرها أعلام الهداية، فأبلست تتعاورها رياح الريب والأوهام، وتهزها هزاهِز التخرصات والتخيلات، وانطفأ في يدها مصباح الحقيقة، ولم يبق في كنانتها إلا أزلام من بقايا كهانات النافثات في العقد، كلما نظرت إليها أوغلت في الضلال، وهي تهوي إلى هاوية الضياع.

جاءت رسالة الإسلام لتعرف الإنسان بنفسه وتحرره من التعبد لغير الله

وجاءت رسالة الإسلام لتنقذ الإنسانية من ضلالها، وتخرجها من منحدرها الذي هوت إليه، لتقف بها في مصابّ أنوار الهداية، وهي تنسكب من أشعة شمس الرسالة الخاتمة، منطلقة إلى أرجاء الحياة، وفي يدها مصباح الكلمة الإلَهية مشرقاً، تنادي السارحين في مسارح الرِغْبة والسوام: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران آية (٦٤).

وهذا النداء الموحّد لكلمة الإنسانية في إطار كلمة الله هو النداء الذي أذّنت به رسالة الإسلام لتحرير الإنسانية من بوائق كل عبودية لغير الله تعالى، ولم يبق وراءه إلا عبودية المخلوق للخالق وحده، لأن العبودية لله الخالق المبدع شرف فوق كل شرف، والعبودية لغير الله مهانة أرذل من كل مهانة.

ورسالة الإسلام إنما جاءت لتعلم الإنسان أنه إنسان، وإذا عرف الإنسان نفسه عرف بهذه المعرفة ربه وخالقه، لأن مرتبة الإنسانية في مراتب المخلوقية أعز وأعظم مراتب العبودية للخالق عز شأنه، وهي بهذا أجل مراتب التعزز المتحرر من خنوع العبودية لمن ما في الكون من مخلوق صامت أو ناطق، وهذه المعرفة منتهى آفاق العلم والمعرفة في هذا الوجود.

أفكان محمد ﷺ وهو رسول الله ﷺ بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات السماء الخالدة على الأرض بخلود الإنسانية على ظهرها، المَحْبُو بالاصطفاء لها، المكلف نشرها بين العالمين، وتبليغها للناس كافة أينما كانوا، وحيثما بلغهم بلاغها، بلاغاً بينا، يجعل ليل الحياة كنهارها، إشراقاً ونوراً، وهدى ورحمة، وعدلاً وإحساناً، وإخاء ومحبة، ومساواة ومواساة ـ يخشى في تبليغ هذه الرسالة شيئاً مما يدخل في إطار المخلوقية؟ والخشية لون من ألوان العبودية في رسالة محمد ﷺ التي لم يوصف هذا النبي الكريم والرسول الأمين بأفضل، ولا أرفع، ولا أجل، ولا أعظم من أنه عبدالله ورسوله، ولمّا شرفه في مقام أقرب القرب لم يقل له «خليلي وحبيبي» وهو خليله وحبيبه، ولكنه قال عز شأنه: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾.

فالعبودية في رسالة الإسلام التي جاء محمد ﷺ هي تعبير عن الخضوع المستسلم الذي لا يملك فيه العبد مع سيده (لا) ولا (نعم)، وإنما يملك في تحقيق العبودية على أكمل وجودها أن يسلم وجهه لله الذي خلقه وهداه للعيش في حياته.

فمن المحال الذي لا يعرفه الوجود أن يجعل محمد رسول الله ﷺ شيئاً من الخشية في تبليغ رسالته والقيام بموجبات هذا التبليغ لأحد أو شيء غير

محمد ﷺ عرف حقيقة عبوديته لله في شرف إنسانيته فلم يخش في تبليغ رسالاته أحداً إلّا الله

الله تعالى الذي اجتباه لها على علم منه سبحانه وتعالى، لأن محمداً ﷺ عرف حقيقة عبوديته في شرف إنسانيته، وبهذه المعرفة عرف ربه وخالقه في قهره فوق خلقه، وجلال كبريائه وعظمة خالقيته، والخالقية أخص نعوت الكمال الإلٓهي الحق، فكان له عبداً وللحياة سيداً.

وقد نزل الله عليه في الكتاب مفخرة المفاخر التي زكاه بها فيما زكى إخوانه المرسلين، وهو ﷺ صاحب المقام المحمود في هذه التزكية المنيفة، فقال له متلطفاً به في أشد مضايق مواقفه في رسالته: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له * سنة الله في الذين خَلَوا من قَبْلُ وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾[1].

وهذا نص قاطع في أن شأن رسل الله إلى الخلق في تبليغ رسالات الله أنه تعالى جبلهم على أرفع درجات الشجاعة وقوة اليقين والثبات، فلا يخشون أحداً إلا الله، ولا يرهبون قوة إلا قوة الله، لأنه هو القوي على الحقيقة، الذي يقهر بجبروته كل قوة خلقها.

أما العوارض البشرية التي لا تتعلق بتبليغ الرسالة، وإنما تكون بمقتضى التكوين الخلقي والغرائز البشرية، فهذا ما لا يدخل في خصائص رسل الله ﷺ التي سموا بها فوق طبائع الناس، فلا حرج من وقوع الخشية منهم صلوات الله عليهم وسلامه إذا كانت من هذا القبيل، ثم يتداركهم الله بعواصمه، فيذيب من صدورهم خشية غيره كائناً ما كان، ولا يبقي فيها إلا خشية الله، ولعل خشيتهم لغير الله التي تعتريهم بمقتضى طبائعهم البشرية يكون وقوعها منهم من باب التأسِّي بهم، لئلا تخرج الحياة عن نواميس التكوين البشري بما فيه من الغرائز وآثارها.

والقرآن الكريم حكى عن بعض أكابرهم شيئاً من هذا النحو الذين لا يضيرهم في مهمتهم العظمى، ففي قصة إبراهيم خليل الله عليه السلام إذ جاءته رسل الله من الملائكة بالبشرى، ولم يكن لديه ـ في أول الأمر ـ علم

(١) سورة الأحزاب آيتا (٣٨، ٣٩).

بأنهم رسل من الله إذ جاؤوا في صور بشرية تأنيساً له ولزوجه سارة، يقول الله تعالى: ﴿وأوجس منهم خيفة، قالوا: لا تخف﴾[1]. وفي قصة موسى كليم الله مع السحرة يقول عز شأنه: ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى، قلنا: لا تخف إنك أنت الأعلى﴾[2].

مرد الخشية في قصة زيد بن حارثة مكونات الطبيعة البشرية وغرائزها

فإذا جاء في حق سيد المرسلين محمد ﷺ، في قصة مولاه وحبه زيد ابن حارثة مع زوجه السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضي الله عنها، التي شرفت بعد هذه القصة بأشرف مقامات القرب من رسول الله ﷺ، فكانت أماً للمؤمنين بزواجه ﷺ منها بعد مولاه وحِبّه وضعا للأمور في مواضعها ـ: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾[3] في صدر الآية نفسها التي جاء فيها الثناء على رسل الله، في تبليغ الرسالة وأنهم لا يخشون أحداً إلا الله، فهو من قبيل ما يعرض للطبائع البشرية، بمقتضى تكوينها مع ملاحظة حكمة التأسِّي به ﷺ، لأن هذه الخشية التي تلطف الله تعالى فنبَّه إليها نبيه وحبيبه عليه الصلاة والسلام لم تكن لها علاقة بتبليغ الرسالة من قريب أو بعيد، وإنما هي خشية مردها إلى ما يعتري الطبيعة البشرية التي من شأنها أن تنفر من قالة السوء، وأن تخشى التقوّل عليها بالباطل وقول الزور، فلم يكن مرد هذه الخشية عند رسول الله ﷺ رهبة شيء يحول بينه وبين تبليغ رسالته، على ما فيها من تسفيه أحلام المستكبرين، وإنما كانت تهيبا لما يتوقع من آثار أسبابها من الإشاعات الكاذبة والإرجاف بالأباطيل التي قد تؤثر على بعض ضعفاء الإيمان، أو تقف عقبة في سبيل تبليغ الرسالة، فيستغلها الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، من المنافقين الذين ملأ صدورهم الكفر الحقود، وهم إذْ ذاك متوافرون في المجتمع الإسلامي، يتربصون بالنبي ﷺ وبرسالته وأصحابه نُهَز التقوّل الكذوب والافتراء المختلق والعرف الجاهلي بما فيه من مفاسد وشرور مترسخ في أنفس الجاهليين، متشبث بقلوبهم لا يفارقها ولا يريم عنها.

---

(١) سورة هود آية (٧٠).

(٢) سورة طه آيتا (٦٧ ـ ٦٨).

(٣) سورة الأحزاب آية (٣٧).

وهذا العرف بأباطيله وشروره ومفاسده كان يجعل من الدعيّ ابنا، ويعطيه خصائص البنوة الحقيقية في أمور تجر على المجتمع من الشرور والأسواء ما لم تؤمن مغباته وعواقبه على حياة الأمة في حاضرها ومستقبلها.

تطهير المجتمع المسلم من رجس مفسدة اجتماعية لا يتحقق إلاّ بعزيمة محمد ﷺ

وقد كان من أظهر مفاسد هذا العرف الباطل التعاير بتزوج الرجل زوجة دعيِّه إذا طلّقها الدعي باعتقاد أن الدعي ابن حقيقي، فإذا أراد الله تعالى أن يبطل هذا العرف الفاسد المفسد، لم يكن ثمة من يتحمل ثقل هذا الإبطال أقوى إرادة وأمضى عزماً، وأعظم نفساً، وأطهر ذيلاً، وأبعد من التهمة سوى رسول الله ﷺ؛ لأنه ﷺ هو الأسوة المتأسَّى به في امتثال تطبيق الأحكام الشرعية، وهو ﷺ القدوة التي تجري على سنَنها أمته، وهو ﷺ مهبط الخطاب الإلّهي في جميع الأحكام.

فمن هنا كان ﷺ هو المختار لتصحيح أباطيل الجاهلية ومفاسدها، تطبيقاً في واقع الحياة، فقيل له: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ ـ بنعمة الإيمان والإسلام وكفالتك إياه وتحببه إليك، ﴿وأنعمت عليه﴾ بالعتق والحرية والرعاية وإحسان التربية والاختصاص بك، فكان حِبَّك ومولاك، ولم يكن ابنا لك ولدته من صلبك ـ وهو يعرض عليك ثقل الحياة الزوجية في بيته مع زوجه، وما يلقى من مرارة في عشرته معها، ويشاورك مستأذناً في مفارقتها بعد يأس منه في حسن الموافقة، فتقول له متلطفاً: ﴿أمسك عليك زوجك واتّق الله﴾ لأنك منبع التلطف والإحسان، تأبى عليك نفسك الزاكية، وتأبى عليكَ مكارم أخلاقك أن تشير عليه بفصم عرى ما عقد الله بينه وبين زوجه من وشائج كان من حقها أن يظللها الود والسكون، وهما منك في القرب الودود بمكانها الذي لها عندك، ولم يكن هناك قط أمر من الله لك بتطليقها منه، وإن تكن قد سبقت إليك لوائح إشاراتنا ـ وأنت لمّاح البصيرة، مشرق القريحة، لم تفتك لمحة البدء في هذه القصة، ـ إذْ قطعنا وشائج الجاهلية المزوَّرة بين الدعيّ ومتبنيه، بقولنا: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ وأوضحنا الحق الذي جعلناه نهجاً في واقع الحياة بتصحيح وضع هؤلاء الذين شذَّت بهم الحياة عن نهجها القويم، رفعاً لخسيسة ألصقت بهم إلصاقاً، فنفتهم عن آبائهم ونفت آباءهم عنهم، وباعدت بينهم، ثم وصلنا

قصة زيد مفخرة من أعظم مفاخر الإصلاح الاجتماعي في الإسلام

ما قطعه الجهل في الجاهلية بأعرافها الفاسدة المفسدة، وقلنا لك لتعلِّم أمتك: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ لأنه الحق، ولأنه سبيل الخير الذي يهدي إليه الله في شريعته المنّزلة لإقامة منار العدل ﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾ فلا ضيعة لهم عند الله ولا ضيعة لهم في مجتمع الإسلام، لأنهم إخوانكم في الدين الذي جمعت وشيجة الإيمان بين سلائله من جميع الأجناس والأوضاع ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وهم بهذا الإخاء الإيماني مواليكم وأقرب الموالين لكم، يناصرونكم وتناصرونهم على البر والتقوى، فهم أحق بالإكرام والإحسان.

ولكنك في هذا التلطف مع حِبك ومولاك ومكفولك أخفيت في نفسك لوامح الإشارة فيما أنزلناه عليك من قطع وشائج الجاهلية الكاذبة التي عقدوها بأهوائهم وشهواتهم بين المتبنىً ومتبنيه، وما يترتب على قطع تلك الوشائج الجاهلية المخترقة من إصلاح اجتماعي في مجتمع رسالتك، لتكون أنت مصدره ومنبعه، والمتأسَّى به فيه، في التطبيق الواقعي الذي يقوِّم أود الحياة وعوج مناهجها، بعد تقويض كل باطل يفسد على الناس عيشتهم ـ خشية تقوّلات أعدائك وتَكَذّبهم عليك وعلى ما جاءت به رسالتك من إصلاح يضع الأمور في مواضعها، ويرد الحقائق إلى أصولها.

توجيه إلهي لا يصادم الفطرة

وهذا الذي أخفيت من رشح لوامع الإشارة في نفسك أو توجست منه خيفة أن تكون حامل ثقله وأثقال أداء أمانته، وإن كان لا يمس تبليغك رسالتك، لأنه لم يكن أمراً أو نهياً تقدم الله به إليك فخالفته ـ وحاشاك أن تخالف لله تعالى أمراً أو نهياً ـ كما أنه لا يمس مكانتك من السمو في مكارم الأخلاق، لأنك لم تتبع فيه هوى، ولاخضعت فيه لرغبة هجست في نفسك، وإنما كان هذا الإخفاء عملاً من عوامل الفطرة البشرية، واستجابة لدواعي الطبيعة التي لا تدخل تحت حكم التكليف، لكنه قد يعوق إصلاحاً اجتماعياً، ويبطل عادة فاسدة، مستحكمة في أعراف الجاهليين، فيتأخر زمن إصلاحها نتيجة لتهيبك قالة السوء والبهتان التي قد يتقوّلها عليك أعداؤك وأعداء رسالتك ممن استعبدتهم عادات الفجور الجاهلي المتوارثة، فخشيت أكاذيبهم، وهم أذل وأعجز من أن ينالوا منك نيلاً بباطل يزوّرونه من عند

أنفسهم افتراء على الله ورسوله ﷺ، وربك الذي أرسلك لتصلح الحياة، التي أفسدها فجور الوثنية والإلحاد، وتضع لها منهجاً في سلوكها الاجتماعي، يجعل منها منتجعاً لحضارة تزاوج بين حاجات الروح والمادة في ظل من العدالة التي تعطي كل ذي حق حقه، هو الذي تكفل بحمايتك من آثار تقوّلاتهم وأباطيلهم، فهو أحق أن تخشاه في كل ما يعرض لك من عوارض الحياة، كخشيتك له في كل ما يتعلق بتبليغ رسالتك، لأنك به قد سموت برسالتك على كل متعارف ومألوف، فلا تقفن بنفسك عند عوارض الطبيعة البشرية وليكن لك من قوة العزيمة الحازمة ومضائها ما تُخضع به دواعي الطبيعة لهمسات ما يلقى إليك من رشح الإشارات.

وقد كان هذا الإصلاح الاجتماعي، الذي لوحت به الإشارة بقطع وشائج الجاهلية في المتبنّى وردّ روابطه الإنسانية إلى أصولها الحقيقية - أولاً، ثم إلى الروابط الإيمانية ثانياً - من محكم تدبير الله لحكمة ما كان أحد يعلمها، مما جعل الله إنفاذه في قضاء غيبه وتطبيقه في واقع الحياة على يدي من حمل أمانة الرسالة الخاتمة، وتحمل أثقالها، حتى إذا ألفته الحياة ذابت أثقاله، وعاد الأمر فيه جدداً سوياً بِحِكَمِه وشريعة واجبة الامتثال بأحكامه وآدابه.

هكذا يجب أن يفهم المقصود مما أضيف إلى رسول الله ﷺ من خشيته للناس في قوله تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ منظوراً فيها إلى سياقها من القصة التي وردت في شأنها، ومنظوراً فيها إلى الجو الذي دارت فيه معالم القصة، وهي بهذه النظرة وهذا الاعتبار الذي يجب أن يعّول عليه، ليس فيه قط أن محمداً ﷺ خشي أحداً أو شيئاً من الخلق في تبليغ رسالته وأوامر ربه ونواهيه وأحكامه ونشريعاته، فأحجم عن التبليغ لهذه الخشية.

وهو ﷺ قد بلغ رسالات ربه في أحرج الأوقات وأشد الأزمات وأقسى المواقف، بلغها يوم كان وحيداً، لا ناصر له من الخلق، ولا معين له من الناس، يوم بدأه الوحي مفاجئاً في حراء، وليس له في نفسه أدنى تطلُّع أو

مواقف تبليغ الرسالة كان فيها رسول الله ﷺ أشجع الناس

توقع أن يأتيه رسول ربه وأمين وحيه جبريل عليه السلام، ويقف منه ذلك الموقف الذي عجزت أقلام أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء عن تصوير مبلغ شدته، وما أخذ النبي ﷺ فيه من الدهش والفزع والرعب، وما ناله ﷺ فيه من تحول في طبيعته البشرية، وصلته بالملأ الأعلى؛ ممّا لم يكن له به عهد قبل ذلك حتى انتهى به الأمر في هذا اللقاء المفاجىء إلى أن يُطلب منه ما لم يكن قط في قدرته ولا في حسابه ولا خطر على باله، فيقال له: ﴿اقرأ﴾ وأنّى له أن يقرأ؟.

في سبيل تحقيق ما طلب منه وليس في استطاعته يلقى ما لقي من الشدائد التي كان يرى فيها الموت عياناً، وينفصم عنه الوحي وقد قرأ أول ما أنزله الله عليه في مطلع رسالته خمس آيات من سورة العلق، هُنَّ جماع رسالته، وذهب بها موقناً أنه رسول الله إلى الخلق كافة أحمرهم وأسودهم، إنسهم وجنهم.

ومضى ﷺ في تبليغ رسالته متحسساً راسخ اليقين، ثابت الجنان وحيداً، يحمل بين جنبيه عزيمة ماضية صادقة، لا يخشى أحداً ولا يتردد في سيره بدعوته ورسالته، فكان يدعو من الأقوام من يأنس فيه إدراكاً متميزاً، وعقلاً درّاكاً وقلباً مستعداً، لا يعم بدعوته، ولا يجم بها، وهو مستسر بها في دار الأرقم حتى تجمّع حوله فئة من ذوي الاستعداد الخاص لقبول دعوته، وسرى الهمس منهم إلى غيرهم فأقبل من أقبل واستجاب من اهتدى وكانوا كالقطر الرذاذ الذي يقدم الغيث الهتون.

وبلَّغ ﷺ رسالات ربه لا يخشى أحداً أو شيئاً من الخلق يوم قال له وحي ربه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فصعد على الصفا ونادى قومه الأقربين، يعم ويخص حتى اجتمعوا له فدعاهم إلى الله، وإلى توحيده، وأنبأهم أنه رسول الله إليهم خاصة وإلى الناس عامة، فبدره فاجرهم أبو لهب بأقبح القول، ثم انصرفوا عنه لا يخشاهم، ولا يخاف شيئاً يأتيه من قبلهم، ولم تخُنْه شجاعته، ولافتَّ ذلك في عزيمته، ومضى قُدُماً يبلِّغ رسالة ربه.

وبلّغ ﷺ رسالات ربه يوم أن نزل عليه الوحي بقول الله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فكان يدور على حِلَق الملأ من فجار الشرك وطواغيت الوثنية وهم في مجالسهم حول الكعبة يهجرون، وفيهم أفجر الفجار وأعدى أعداء دعوة الإسلام من أضراب أبي جهل، وابن أبي مُعَيط، وابني خلف، أبيّ وأمية، والأخنس بن شريق، يدعوهم إلى الله، ويبلِّغهم رسالة ربه، لا يخشى أحداً منهم، ولا يخاف شيئاً من طغيانهم وفجورهم.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن ضرب على أبي جهل بابه، يأمره أن يقضي الإراشي حقّه الذي مَطَله به، فلم يبرح رسول الله ﷺ باب هذا الطاغية الظلوم حتى ذل له واستخذى أمامه، وقضى الرجلَ الغريبَ الذي مطله ظلماً حقّه كاملاً.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أقسم الكذوب المتكذب لعين السماء والأرض أبو جهل ـ أعدى أعداء رسالة الإسلام، وأشدهم حقداً وأخبثهم حسداً لرسول الله ﷺ ـ أن يرضخ رأس محمد ﷺ إذا رآه ساجداً في ظل الكعبة، وجاء رسول الله ﷺ على عهده وعادته إلى المسجد، وتأمّم الكعبة المشرّفة، وأحرم للصلاة وقرأ القرآن، وركع وسجد، وجاء الكذوب المتكذب أبو جهل يحمل صخرة عظيمة ليلقيها على رسول الله ﷺ وهو ساجد ليقتله، فما التفت إليه رسول الله ﷺ، ولاقطع صلاته خوفاً من فتك هـذا الجبان المتكذِّب، ولم يَرُعْ ملأ الفجور وهم ينظرون إلى أفجرهم منتظرين ماذا هو فاعل لتنفيذ وعيده، إلا وهو مهزوم يتقهقر مرعوباً مذعوراً، خزيان مخذولاً، يتّقي بيديه، تدور عيناه في وجهه كالذي يُغشى عليه من الموت، وقد نشف دمه في عروقه وأعصابه، وقام إليه ملأ الفجور دَهِشين مذهولين، يقولون في إشفاق متشمِّت: مالك يا أبا الحكم، فلم يَحِرْ أبو الجهل جواباً، وأكمل رسول الله ﷺ صلاته في هدوء لا يخشى إلا الله تعالى.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم قام أشقى ملأ الفجور عقبة بن أبي معيط مستجيباً لصرخة حاقدة تنفّس بها صدر أبي الجهل وهو يقول لملأ الفجور: من منكم يقوم إلى فرث وأقذار جذور بني فلان فيأتي بها ليلقيها على

ظهر محمد ـ وهو يصلي ـ فانبعث لعين القوم ابن أبي مُعَيط، وجاء بها وألقاها على ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد، فلم يرفع ﷺ رأسه من سجوده، وظل ساجداً حتى جاء الخبرُ فاطمة بنت رسول ﷺ وهي طفلة، فأسرعت إلى أبيها ﷺ، وألقت عنه ما وضعه اللعين عقبة بن أبي معيط، ثم التفتت إلى ملأ الفجور فسبتهم سباً بلغ من نفوسهم، فخسئوا ولم يردوا عليها بشيء.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن أخبره عمه العباس بن عبد المطلب أنه سمع أبا جهل يقول: إن لله عليّ إن رأيت محمداً لأطأنّ على عنقه، قال العباس: فخرجت من المسجد إلى رسول الله ﷺ حتى دخلت عليه، فأخبرته بقول أبي جهل، فخرج رسول الله ﷺ غضبان حتى دخل المسجد، فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم من الحائط، قال العباس: فقلت: هذا يوم شر نبشته، فدخل رسول الله ﷺ، فقرأ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ شأن أبي جهل ﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾ فقال إنسان لأبي جهل: يا أبا الحكم، هذا محمد، . . . فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة سجد.

فليتأمل أولو الألباب في هذا الموقف ليروا كيف كانت شجاعة محمد ﷺ في تبليغ رسالة ربه، وصدق اعتماده على الله، دون أن يخشى أحداً غيره تعالى وهو معرض للفتك به وقتله، فهو ﷺ يُبَلغه عمه العباس مشفقاً عليه، محذِّراً أن يناله مكروه من هذا الجوّاظ، غليظ الكبد، فيخرج ﷺ مغضباً مسرعاً لا يصبر حتى يدخل من الباب فيقتحم من الحائط، ليكشف خبيئة الجبن في هذا المتكذّب الرعديد، وليواجه ملأ الفجور في عنفوان طغيانهم دون أن يخشى صولة تكذبهم، ويجابههم بما أنزل الله تعالى عليه ﷺ من آيات القرآن المجيد في وصف متكذبهم أبي جهل، ليزيد من حنقه ويقدم على تنفيذ ما قال إن استطاع ـ ولن يستطيع ـ وهو ﷺ يعلم ما انطوى عليه هذا اللعين من جبن وتكذب، وبلغ رسول الله ﷺ آخر السورة فسجد، وسجود رسول الله ﷺ سجود قرب وشهود، لا تبقى معه ذرة من التفات لغير مراقبة الله عز شأنه، ولا يمكن أن يمر بخاطره ﷺ خشية أحد أو شيء غير الله تعالى.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن كان يطوف بالبيت، ويده في يد أبي بكر وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس، وهم أخبث ملأ قريش، عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ وكان ثالث ثلاثة مع النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ـ فمرّ رسول الله ﷺ فلمّا حازاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، قال عثمان: فدنوت حتى وسطته فكان بيني وبين أبي بكر، وأدخل أصابعه في أصابعي، حتى طفنا جميعاً، فلما حازاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بل بحرٌ صوفة، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني ذلك» ـ أي إني أنا الذي أنهى أن تعبدوا ما يعبد آباؤكم ـ ثم مضى رسول الله ﷺ، فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، قال عثمان رضي الله عنه: فدفعت في صدره، فوقع على أسته.

إيه ذا النورين، هذه واحدة بألف. ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي مُعَيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ، وهو واقف، ثم قال: «أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلاً» قال عثمان رضي الله عنه: فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفكل، وهو يرتعد، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم أنتم لنبيكم» ثم انصرف إلى بيته فتبعناه خلفه، حتى انتهى إلى باب بيته ووقف على السدّة، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه، ومتم كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون ممّا يذبح الله بأيديكم عاجلاً» ثم انصرفنا إلى بيوتنا، قال عثمان رضي الله عنه: فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا.

هذه قصة من واقع حياة رسول الله ﷺ، وهو يمضي قُدُماً في عزيمة أرسخ قوة من الأطواد الراسية الشامخة في تبليغ رسالة ربه، لا يخشى مخلوقاً، ولا يخاف غير الله تعالى، وهي قصة من واقع الحقد الذي أفعم صدور طواغيت الملأ من فجّار الوثنية في قريش، وهي في أبسط صورها تصف موقف أولئك الطغاة من رسول الله ﷺ وهم يضمرون الفتك به، وهو ﷺ لا

يباليهم، ولا يرفع لفجورهم وما يضمرون رأسه، يواجههم بشجاعة تذوب أمامها تَكَذّباتهم واستكبارهم وتنفُّجهم بالغرور.

فهو ﷺ يطوف بالبيت مع صاحبيه الصدِّيق وذي النورين رضي الله عنهما وطواغيت الملأ من قريش يجلسون في الحجر، فإذا مرّ بهم أسمعوه هُجرهم، وهو يعرض عنهم تكرماً، فإذا شعروا باستهانته بهم نهضوا يواثبونه، فيخذلهم الله خذلاناً يخزيهم، ويجرعهم مرارة القهر والهزيمة، ولم يتركهم رسول الله ﷺ حتى توعّدهم بنكال من الله يحل بهم عاجلاً، فتصيبهم الرعدة رهبة لوعيده، وينصرف ﷺ إلى بيته ويتبعه صاحباه الصديق وذو النورين، ليطمئنا على ألّا يعود الطغاة إلى ماأرادوا من الطغيان، فيقبل عليهما ﷺ بوجهه الأنور، يبشرهم بإظهار دين الله وإتمام كلمته ونصر نبيه ﷺ، وأن هؤلاء المستكبرين الذين يتعالون بالفجور مما يذبحهم الله بأيدي المؤمنين عاجلاً، وقد فعل الله تعالى وأنجز وعده لنبيه ﷺ، وذبح أعداءه وأعداء نبيه ﷺ بأيدي أحبّائه الذي استجابوا لله ولرسوله، فكانوا طلائع كتائب الجهاد في غزوة بدر التي ذبح فيها أولئك الطغاة بأيدي المجاهدين الصادقين، ومن نجا من بدر منهم قتل بعيدها صبراً، وكان أخذ فيها أسيراً، ذلك هو اللعين ابن أبي مُعَيط.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه وهو لا يخشى أحداً إلا الله، والمشركون في مكة إلبٌ عليه متوافرون على عداوته والفتك به إن استطاعوا، يتواصون بذلك ويدبرون فيه ما شاء لهم المكر الخبيث والكيد العنيد، يوم أن اجتمع أشرافهم في الحِجْر فتذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول، وعرف أثر ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مضى في طوافه فغمزوه الثانية، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فوقف ﷺ، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد

جئتكم بالذبح» فأخذت القوم كلمته، فوجموا وأسكتوا أذلاء مبهوتين، حتى كأن على رأس كل رجل منهم طائراً واقع، وإن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك وتحريضاً عليه، ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، فيقول له: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً.

فانصرف عنهم رسول الله ﷺ حتى كان الغد اجتمعوا في الحجر وقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه؟ فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا، وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم؟ فيقول رسول الله ﷺ في شجاعة تخر لها الجبال، وثقة بالله تعالى تهوي لها الكواكب: «نعم، أنا الذي أقول ذلك».

هكذا يجابههم لا يخشى أحداً إلا الله تعالى، وهم متمكنون منه محيطون به وحيداً بينهم، ليس منهم رجل إلا ودّ لو أنه فتك به وقتله، وأنّى للباطل المزعزع مهما كَثُر جندُه وأنصارُه أن يقوم للحق الموطّد أقدامه في أعماق أرضِ الحقيقة رسوخاً وثباتاً؟

وبلّغ ﷺ رسالة ربه، لا يخشى أحداً إلا الله يوم أن تجمَّع ملأ قريش وطواغيتها، ومشوا إلى أبي طالب يشكون إليه ابن أخيه، وما يباديهم به من تسفيه أحلامهم وعيب دينهم، فيقول عمه وهو الذي نهض لحمايته والدفاع عنه، ما ظنه رسول الله ﷺ ضعفاً في عزيمة عمه، وتراجعاً عن موقفه منه، ويرد عليه رسول الله ﷺ بكلمته الخالدة التي تحمل من قوة الإرادة، ومضاء العزيمة، والاستهانة بكل وعيد، ومفارقة كل من لا يثبت في مجال الشجاعة، ما يدل دلالة قاطعة على أن محمداً ﷺ، وقد اجتباه الله تعالى لأعظم رسالاته لا يعتمد في تبليغ رسالة ربه على حماية مخلوق، ولا يخشى في سبيل تبليغها أحداً غير الله تعالى: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى ينفذه الله أو أهلك دونه».

أي قوة هذه التي أعطاها الله تعالى لمحمد ﷺ وقد اصطفاه لحمل أمانة أعظم رسالاته؟ وأية إرادة هذه التي أوتيها رسول الله ﷺ وهو يمضي في تبليغ

رسالة ربه لا يخشى أحداً إلا الله تعالى؟ وأية عزيمة قاهرة تلك التي ملأت قلب رسول الله ﷺ وهو يجابه حشود الشرك والوثنية شاكين إلى عمه، ويلمح في هذا العم الذي جعله الله ركيزة له يتكأ عليها إذا اشتدت عليه الأزمات، شيئاً من زعزعة العزيمة، فلا يبالي ذلك، بل يزيده قوة وعزماً في مضيه قدماً لتبليغ رسالة ربه.

وبلّغ رسول الله ﷺ رسالة ربه، لا يخشى أحداً إلا الله تعالى أيام أن كان يخرج من بيته وحيداً يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يدعوهم إلى الله تعالى وتوحيده، ويدعوهم لمناصرته حتى يبلغ رسالة ربه، ووراءه عمه أبو لهب يتبعه أينما وجّه، يقول للناس: إنه كذا وكذا، سباً وشتماً لرسول الله ﷺ، وإنه يريد منكم أن تخلعوا آلهتكم وتعبدوا إلهاً واحداً، فلا يفت ذلك في عزيمته ﷺ، ويمضي إلى مضارب أشراف العرب ومحافلهم، لا يسمع بشريف قوم إلا جاءه ودعاه إلى الله وإلى نصرته، فيلقى من الإعراض وقبح الرد ما يلقى، وهو دائب لا يفتر، صابر لا يجزع، لا يخاف شيئاً من النوازل والأحداث، ولا يخشى أحداً إلا الله.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم محنة الطائف، وكانت من أشد المحن ذهب إليها وحيداً، واجتمع إلى أشرافها وساداتها فدعاهم إلى الله وعرض عليهم رسالته وقرأ عليهم القرآن، فكانوا من أشد الناس قسوة في الرد عليه، وأسوئهم معاملة، وهو ﷺ في أقل اعتبارات المروءة العربية ضيف عليهم في بلدهم وبيوتهم، ولكنه عاد منها يحمل أشد ما يحمل إنسان من آثار سوء اللقاء، وبشاعة المقابلة، وقسوة البلاء الذي قابله باللجوء إلى الله وحده والتضرع إليه في دعائه وهو مكروب إذ يقول: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوٍّ ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وبلّغ ﷺ رسالة ربه، وهو لا يخشى أحداً إلا الله يوم أصبح يخبر الناس وقد احتشدوا له أنه أُسْري به في ليلته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى ما فوق السموات السبع، إلى حيث سمع صريف أقلام قضاء الله تجري بأقداره في خلقه، ويحدِّثهم بأعاجيب ما شاهد في رحلته الإعجازية العظيمة، وبما رأى من آيات ربه الكبرى، غير مبالٍ ولا خائف من تكذيب الملأ وفجّار المشركين، وهم يومئذ تطفح صدورهم بأخبث ما تعرف الصدور من الشنآن، وتنزّ قلوبهم بأفجر ما تعرف قلوب الفجار من عداوة وبغضاء.

وكان عمه أبو طالب قد مات قبل الإسراء، وماتت زوجه، ومأنس حياته وزيرة الصدق له السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان ﷺ يجد في عمه أبي طالب أقوى الحمية في حمايته والدفاع عنه، وكان ﷺ يجد في زوجه بَلْسَم المضايق النفسية التي تعتريه نتيجة لشدائد الأحداث، فتمسح بحنانها وعواطفها وصادق حبِّها ما عسى أن يكون قد علق بنفسه، وكانت وفاتها من أشد ما أحزنه ﷺ.

فإذا خلا جو مكة من وجودهما كان ذلك أشد سُعاراً لسطوة فجّار قريش، وكان في طبيعة الحياة عذراً مقبولاً أن يتريَّث ﷺ في مخاطراته بتبليغ دعوته بعزيمته التي كانت له قبل موت هذين الساعدين، ولكن تاريخ نبوته ﷺ، ومراحل رسالته لم ينقل عنه أنه استأنى أو تقاعس لحظة دون تبليغ رسالته ونشر دعوته في قوة وشجاعة لا يخشى أحداً إلا الله تعالى.

* * *

كذلك كانت مواقفه ﷺ في تبليغ رسالة ربه

هذه شواهد ومُثُل من مواقف رسول الله ﷺ في المرحلة المكية لتبليغ رسالة ربه، تصور ما كان يملأ صدره الطهور من قوة الثقة بالله تعالى، والاعتماد عليه وحده، وتفريده عز شأنه بالخشية منه، دون أن يكون لأحد من الخلق، أو شيء من الحوادث خطور بباله في جميع مواقفه منذ آذنه الله تعالى برسالته، وأمره بتبليغها في أول أمر بالإنذار فقال له: «يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر» وهذه المواقف المتسامية كانت تطبيقاً لمضمون

الاختصاص في أسلوب قوله تعالى: ﴿وربك فكبر﴾ أي لا تعظم ولا تتعاظم مخلوقاً قط غير ربك.

فقام ﷺ بما أمره به ربه، لم يفتر لحظة، ولا تأخر عن متقدم يتطلبه تبليغ الرسالة، مهما كانت الأزمات والشدائد والمضائق، والأحداث، لا يرهب أحداً من الخلق، ولا يخشى شيئاً من الأحداث، بل ما كان ﷺ يشهد قط في خطواته مبلِّغاً رسالة ربه إلا عظمة الله، وجلال قهره، وقوة جبروته، ممزوجة بنسائم رحمته، وإنعامه، ومحكم تدبيره.

وكان ﷺ في جميع مواقفه لتبليغ رسالة ربه ـ ومجابهته لأعدائها وأعدائه من طواغيت الشرك والوثنية على أشد وأقوى، وأبلغ وأعمق ما تكون المجابهة في شجاعة هادئة، لا تتهور قط، وحزم مصمم لا يتعالى قط، وعزم ماضٍ لا يتردد قط ـ معرِّضاً لما يريدون به من سوء وكيد ومكر، لا يتخفَّى ولا يداهن، وقد هَمُّوا بقتله والفتك به مراراً فلم ينالوا منه نيلاً، وظل ﷺ على ذلك الجد الدؤوب والصدق الصريح يبلِّغ رسالة ربه.

حتى إذا استيأس محمد ﷺ من بلده وقومه تطلع إلى آفاق مضيئة لدعوته ورسالته

حتى إذا استيأس من بلده ـ وهي أحب البلاد إليه ـ واستيأس من قومه ـ وكانوا أحق الناس بقبول دعوته، والإيمان برسالته ـ ساق الله له أنصاراً أشداء الشكيمة، أقوياء العزيمة، راسخي اليقين، وجعل له بلداً يأويه، ويأوي دعوته ويأوي أصحابه، يجدون فيه الأمن والاستقرار والمحبة والإخاء، والمواساة، والايثار، وأراه في منامه ذلك البلد مَهْجَراً له، ورأى في أهله حين بايعهم أنصاراً يبذلون في نصرته النفس والمال، لا يدخرون طاقة في سبيل الوفاء بما عاهدوا الله عليه في بيعتهم، ورأى فيهم كتائب جهاد مظفر، وأنضاء قتال مؤيد، فأذن لأصحابه أن يهاجروا إلى أولئك الأخوة أنصار الله وأنصار رسوله، فهاجروا حتى أوعبوا، وهاجر معهم صوت الدعوة جهيراً مجلجلاً، قوياً هادراً، علياً مدوياً، سروياً سرياً، دخل كل بيت من بيوت المدينة المنورة، وتسلل إلى كل خِدْر ممنع في بيوتها، وعلا كل ذروة من ذرا أطوادها، وتنادى بالتضحية والفداء في مجامعها وحشود أبطالها، وتداعى للجهاد في سبيلها، متطلِّعاً إلى آفاق السماء يتسمع إلى أمرها، مشرئباً إلى مقدم

النبي ﷺ ليقود سير الدعوة إلى الله وتوحيده في مسيرة التاريخ الجديدة التي يستضيء فيها بأنوار رسالة محمد ﷺ، مستهدياً في مداخل الحياة ومخارجها بهديها.

وأقام النبي ﷺ بمكة يرتقب الإذن له بالهجرة إلى البلد الذي اختاره الله له فوجدت فيه الدعوة الجو الرحيب لنشرها ومعه أصحابه، وأنصاره، مُمسكاً بزمام التاريخ لينطلق به في مسيرته إلى آفاق تحرير الإنسانية من عبوديتها لنفسها وعبوديتها للمادة الصمّاء، وإخلادها إلى الأرض في أنانية جوعاء، منهومة لا تشبع، ولا تريد أن تفارق الأرض، لأن التسفّل طبيعة المادة، والعلو طبيعة الروح.

والإنسانية حينما تسفَّلت فعبدت نفسها، وعبدت المادة في أخس وأظلم صورها إنما صنعت ذلك جهلاً بالقِيَم الروحية العليا، قيم الإيمان بقيّوم السموات والأرض، وكفراً بقيم الإيمان بقوى الروح والقلب والعقل، وصدوفاً عن الحق والعدل، لأنها لم تجد القائد الذي يردّها إلى معرفة حقيقتها التي تكمن وراء المادة حتى تؤمن بهذه القيم العليا التي يقوم على دعائمها بناء الإصلاح الشامل للحياة المادية والروحية في رسالة الإسلام التي بُعث بها محمد ﷺ.

وجاء الإذن إلى رسول الله ﷺ بالهجرة دعاءً متضرعاً وتضرعاً داعياً، ليكون أساسُ هذه الهجرة هو البؤرة التي يشع منها نور الرسالة، عملاً روحياً بالقلب والفكر، يؤذن بضرورة الاعتصام بالله خالق الحياة ومسيّرها، وينبىء بضرورة صدق التوكل على ما لك أزمة الحياة ليوجهها إلى صراطه المستقيم، صراط رسالة محمد ﷺ. وهذا تحقيق معنى قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور﴾[1] ـ استشعاراً بسابق

---

(١) سورة الشورى آيتا (٥٢ ـ ٥٣).

فضله في توليه أمر دعوة الهدى والنور، وتعهده نبيه وخاتم رسله ﷺ بالتربية والموالاة والرعاية.

ولذلك جعلت الوسيلة في هذا الدعاء بالهجرة اسم (الرب) تعالى، فقال له آمراً بإخلاص التوجه إلى ربوبيته سائلاً متضرعاً: ﴿وقل رب أدخلني مُدخَل صِدْق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[1].

قال السيوطي في (الدر المنثور): أخرج أحمد والترمذي وصححه - وابن جرير وابن المنذر، والطبراني، والحاكم - وصححه - وابن مردويه، وأبو نُعَيم، والبيهقي معاً في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق﴾ الآية: أخرجه من مكة مخرج صدق، وأدخله المدينة مدخل صدق، ثم قال قتادة: وعلم نبي الله ﷺ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطاناً نصيراً لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه، وإقامة كتاب الله تعالى، فإن السلطان عزة من الله تعالى، جعلها بين عباده، ولولا ذلك لغار بعضهم على بعض، وأكل شديدهم ضعيفهم.

وقال أبو حيان في (البحر) عن قتادة في تفسير (سلطاناً نصيراً) قال: ملكاً عزيزاً تنصرني به على كل من ناوأني.

كان لا بدّ من الهجرة بعد تحجر قلوب قريش ومللها

فإذا هاجر رسول الله ﷺ مفارقاً مكة إلى المدينة بعد أن استيأس من بلده واستجابة قومه لدعوته، وهو يدعوهم إلى رسالة ربه ليخرجهم بها من الظلمات إلى النور، ويضع في أيديهم زمام قيادة الحياة، ويعقد لهم لواء سيادتها، فأعماهم الجهل والغرور والاستكبار، والعتو والعناد، فلم يروا نور

---

(١) سورة الإسراء آية (٨١).

هذه الرسالة، ولم يعقلوا حديثها، ولم يفقهوا آيات كتابها تُتلى عليهم، يتواصون فيها بينهم ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوا فيه لعلكم تغلبون﴾[1] فإذا غلبوا على سماعه قالوا جهالة وعناداً وعتواً في الكفر، وفجوراً في البأو والتعالي، يستنزلون سخط الله عليهم وانتقامه منهم: ﴿اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم﴾.

ولكن وجود محمد ﷺ بينهم كان أماناً لهم من نزول ما يستحقونه من بأس الله وبطشه، ونزل بهذا الأمان الوحي من الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾[2]، فلم يبق أمام رسول الله ﷺ إلا مفارقتهم والخروج عنهم، ولم يبق لرسول الله ﷺ ذرة من أمل في استجابتهم للهداية، ولابد للرسالة الإلّهية أن تمضي في سيرها إلى أرجاء الحياة هادية داعية، لا تقف عند بلد أو قوم أو جيل لأنها رسالة عامة شاملة، فلتمض في سيرها، وليمضِ بها حامل أمانتها رسولها ومبلّغ كلمتها إلى حيث تجد مهادها ومحاضنها، لتثب وتنهض، ثم تعود قوية قادرة إلى مهدها الأول لتجده مطهراً من رجس الطاغوت، ولتجد فيه ما خبّأت لها الأصلاب والأرحام من ودائع البطولة وكتائب الفتح المبين، وحَمَلة ألوية الدعوة وتبليغ الرسالة، لتضمهم إلى أحضانها وتوجههم إلى الآفاق داعين مجاهدين.

أيكون التطلع إلى آفاق الأمل لنشر الدعوة فراراً؟

إذا هاجر رسول الله ﷺ بعد أن سُدَّت مكة في وجه دعوته جميع أبواب الأمل، وبعد أن هاجر أصحابه بأمره وإذنه هجرة مستوعبة لم تخلف وراءها بمكة إلا عاجزاً محبوساً أو ضعيفاً مفتوناً في دينه، لم تكن هجرته ﷺ في شرعة العدل والعقل فراراً من مواجهة ملأ الفجور وطواغيت مكة، فطالما واجههم ﷺ في أشد المواقف، فكانوا هم الخزايا الأخسرين، ولا كانت هجرته ﷺ هرباً من تدبير خبيث، وكيد ماكر.

لقد تجمعوا له فخذلهم الله خذلاناً أذل عنجهيتهم إذلالاً لم تقم لهم بعده قائمة، ولا كانت هجرته خوفاً من قتله أو الفتك به أو اغتياله، فقد

(١) سورة فصلت آية (٢٦).
(٢) سورة الأنفال آية (٣٣).

ترصّدوه على باب بيته يأويهم الظلام بسواده ومعهم أسلحتهم، فخرج عليهم وأرغم أنوفهم بما ألقى على رؤوسهم من الرغام وهم ينظرون ويسمعون.

روى ابن إسحاق أن أبا جهل قال للقوم وهم مجتمعون على باب بيت النبي ﷺ يرصدونه: إن محمداً - ﷺ - يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها. وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقولُ ذلك وأنت أحدهم».

كانت الهجرة النبوية تحويلاً لمجرى التاريخ

وإنما كانت هجرته ﷺ تحويلاً لمجرى الأحداث إلى مصبها من محيط التاريخ الذي تغيرت مسيرته في الحياة بهذه الهجرة المباركة، وقد كانت السطر الأول في تجديد تاريخ الإنسانية، وتوجيهها إلى حياة جديدة تقوم على توحيد الله، ونشر راية العدل بين الناس.

فحديث الفرار والهرب في تصوير الهجرة النبوية حديث دخيل مدخول على حياة أشرف من حمل أمانة أشرف وأكمل رسالة إلّهية لهداية العالمين، رسالة وجهت التاريخ وجهة جديدة، أقامت معالم الحياة في طريق سيرها على دعائم من الخير والحق والهدى والعدل، لم يكن للحياة عهد بها من قبل أن تأتيها هذه الرسالة لتنقذها من براثن الشرور والفساد المادي، والمَحْل الروحي، والجدب الفكري، والجمود العقلي، وتولجها موالج الإصلاح والإشراق الروحي، والازدهار الفكري، والتحرر العقلي، لتقيم بنور العلم والمعرفة منائر العدل والمواساة في ظلٍ من الإخاء والمحبة وحسن المودة.

* * *

مواقف محمد ﷺ في تبليغ رسالة ربه كانت أروع تعبير عن تفرد إيمانه برسالة نفسه

هذه المواقف القوية الحازمة التي ضربناها مثلاً لقوة الشخصية التي امتاز بها النبي ﷺ في تبليغه رسالة ربه، معتمداً عليه، لا يخشى أحداً سواه؛ إنما آثرنا ذكرها (هنا) مجملة بعد ذكرها وذكر غيرها من المواقف الفريدة في مناسباتها مفصّلة لأنها تصور مدى رسوخ إيمانه ﷺ برسالة نفسه، وعمق

يقينه النفسي بهذا الإيمان الذي كان على طول مدى حياته ﷺ نبياً ورسولاً هو الدعامة الصلبة التي تتحطم على قوة تماسكها أقوى العزائم، كما كان هذا الإيمان هو المدد الثرّ الثريّ الذي يبعث الحيوية الناهضة في دفع الرسالة قُدُماً لتتابع سيرها دون توقف أو فتور.

وكان هذا الإيمان أيضاً هو القوة الدافعة لحركة سير الرسالة على أيدي الصحابة بعد أن توحَّدت قواهم في عزائم لا تفلّ، وإرادات لا تتردد، ولأنها تذكّر الذين ينسون في زحمة الأحداث وتتابعها ما عسى أن يكون ذهب عنهم من بواعث الواقع وما يستهدف من آثارها، حتى لا يبقى في صدور الذين أوتوا العلم شيء من رشح بعض الأقلام والألسنة التي إذا تحدّثت عن هجرة الرسول ﷺ من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة كان حديثها تلقياً حرفياً من روايات لا تستقيم مع موازين النقد العلمي، وتلقفاً من الظواهر التي قد يقتضيها القصد إلى التأسي والاقتداء في حياة الأمة أفراداً وجماعات.

مظاهر التحرز في رحلة الهجرة كانت استجابة للطبيعة البشرية للتأسي

فليس في هجرته ﷺ فرار، ولا هرب، ولا خشية من أحد سوى الله تعالى، والاختباء في الغار والتحرز في السير، والسُّرى تحت جنح الظلام، وتنكب الجوادّ إلى مسالك غير معبدة ولا مطروقة مما وقع لركب هجرة رسول الله ﷺ لم يكن منه ﷺ توارياً لخشيته على نفسه من أحد، ولا كان ذلك خوفاً من حادث يتوقعه، وإنما كان ذلك وقوفاً مع ما ينتظر أمته من شدائد الدعوة، وأخطار الجهاد في سبيل تبليغ الرسالة للتأسي به فيما لا يخصه من نوازع البشرية.

والأمة ليس لها من خصائصه النبوية ما يرفع عنها عوامل الطبائع البشرية، وتأثرات الغرائز الإنسانية التي يجب التحرز منها لمن لم يكن له حق العصمة، فالخوف والتحرز في أفراد الأمة وجماعاتها أثر من آثار الطبائع البشرية التي خُلق عليها الإنسان، والتي لا يمكنه التخلص منها إلا بعصمة من الله، والعصمة من خصائص النبوة.

وفي قول الله عز شأنه تصويراً لموقف النبي ﷺ مع صاحبه الصدّيق أبي

قول الله ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ مفتاح لمعضلات التحرز في رحلة الهجرة

بكر رضي الله عنه ـ وهو أفضل رجل في أمة الإسلام، وأوثقهم إيماناً، وأرسخهم يقيناً، وأعظمهم اعتماداً على الله تعالى، وأصدقهم توكلاً عليه ـ : «لا تحزن إن الله معنا» ما يفتح مغاليق هذا الموقف، فالنبي ﷺ كان إذْ ذاك في موقف النبوة وعصمتها، ومحض الرسالة وخصائصها، وهذا مشهد من مشاهد اليقين الذي تبطل معه الأسباب والمسببات، وإذا بطلت الأسباب والمسببات انمّحت عن مرآة النفس آثارها، وأبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه كان في مشهد الإيمان والتبعية، لم يخرج عن طبيعته البشرية، فتوجس ـ إذ الأخطار محيطة بالغار ـ خيفة، واهتز كيانه البشري حتى قال: لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ ليثبِّته، وينقله من حالة تأثرات الطبيعة البشرية إلى شيء من مشهد التسامي على الأسباب والمسببات في شهود: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» ويحجب عنه توجس الخوف مما يحيط بهذا التصوير الشهودي المحفوف بالعصمة المستغرق لبشرية رسول الله ﷺ بأنوار المعية الخاصة.

ولهذا جاء التنزيل الحكيم بأسلوب الإعجاز حاكياً لوحي الإلهام بأسلوب النبوة في توافق متقارب، أو تقارب متوافق بالنسبة لموقف الصديق رضي الله عنه، فتنزلت عليه السكينة، وسما إلى مشهد اليقين الصدِّيقي، وأمدّه الله بقوة شهود تأييد الله تعالى لنبيه ﷺ بجنود من عالم الغيب، لا ترى إلا بخصائص النبوة، وهنا يتطاير حشد الأعداء عن فم الغار تطاير الهباء في الهواء، ويخرج النور من الغار إلى أفق السماء، ويبدأ الركب المبارك سيره محفوفاً برعاية الله، لا يخشى أحداً في الدنيا غير الله، ميمماً طيبة الطيبة، تاركاً وراءه مكة الحبيبة إلى عودة بعد اشتياق واستعداد، مودعاً لها في حنان المهد، فيقول ﷺ: «والله إني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأكرمها على الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت منك».

وأخرج الإمام أحمد والترمذي ـ وصححه ـ عن عبدالله بن عدي رأيت رسول الله ﷺ على الحزورة ـ سوق كانت بمكة ـ فقال: «والله إنك لخير أرض

الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت» وعند الترمذي من حديث ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ﷺ: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».

عوامل الهجرة النبوية ودوافعها
كانت سياسية واجتماعية واقتصادية

وبالتأمل فيما ذكرنا يظهر بوضوح لا يخالجه شك أن عوامل الهجرة النبوية ودوافعها التي اعتلجت في نفس النبي ﷺ حتى صارت موجبة محتمة إنما هي عوامل ترتبط أشد الارتباط بنشر الدعوة وتبليغ الرسالة. هي عوامل سياسية ترجع إلى البحث عن جو متفتح لسير الرسالة، تجد فيه متنفساً فسيحاً لمنطلقها العالمي، لكي تحقق أهدافها الإصلاحية روحياً ومادياً.

وإلى جانب العوامل السياسية هناك عوامل اجتماعية تتعلق بتنمية المجتمع الإسلامي الذي تنسَّم نسائم الوجود في مِهاد الدعوة الجديدة، ومحاضن الرسالة الخالدة، والحفاظ على عناصر تكوين هذا المجتمع في إطار من الضوابط القوية المنتزعة من طبيعة الدعوة التي نهد في آفاقها.

وإلى جانب العوامل السياسية والاجتماعية عوامل اقتصادية تصون تركيب المجتمع الوليد حتى يشب ويقوى، وتشتد قناته ويبلغ رشده في الحياة العملية الحرة لإقامة بناء اقتصادي، يقوم على أساس ما جاءت به الرسالة الجديدة، من حب للعمل ودأب عليه، وعدل في المعاملة، وبذل من أجل نشر الدعوة، وتوفير حياة كريمة للأفراد والجماعات، وإعداد الوسائل الصالحة لتوجيه المجتمع توجيهاً متعاوناً متواسياً.

تجمعت هذه العوامل كلها أمام النبي ﷺ بأسبابها ومسبباتها، وما عسى أن يكون لها من آثار في حالة عدم إعطائها الوزن الحقيقي لمقدماتها ونتائجها، وفي حالة تقديرها تقديراً يدفع بها إلى أن تكون عملاً من أعمال

تمكين الدعوة من متابعة سيرها بقوة جديدة، لم تكن تتوافر لها وهي في مكة تعاني من العقبات القاسية، والمعوِّقات الظالمة التي يقيمها في طريق الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته إلى عباده الحقدُ العنيد والعناد الكفور.

كانت هذه العوامل تأخذ من نفس النبي ﷺ مكاناً جعله يفكر فيها وفيما يجب أن تقابل به من تحرك إيجابي سريع، وكانت تلازمه في حركاته وسكناته، وغدوه ورواحه بعد أن استيأس من استجابة مكة لدعوته وإيمان ملئها برسالته الذين سدوا دونها أبواب الرجاء والأمل، وكان تفكيره ﷺ يدور حول تمكنه من القيام بواجب تبليغ رسالته ونشر دعوتـه، وتبليغ رسالته ﷺ هو أساس وجوده نبياً ورسولاً.

ولم يطل به التفكير ﷺ حتى لمعت له بوارق النجاح والتوفيق في آفاق الوحي بالهجرة، فهمّ عازماً، وصمم حازماً، ولم يبق لديه ليخطو منفّذاً إلا انتظار كلمة الله يتلقّاها إذناً مرشداً، ليعلم إلى أين يتجه، وجاءه الوحي رؤيا، إذْ رأى في منامه دار هجرته بوصفها، فذهب ظنه إلى ما يعرف من بلاد ينطبق عليها ما رأى من الوصف، ولم يقطع ببلد منها إذ لم تُعين في الرؤيا.

حكمة إبهام المهجر في الرؤيا الأولى وذكريات عزيزات في مكة

ولعل من حكمة هذا الإبهام في بدء الأمر إنما كان لإعطائه ﷺ فرصة من الزمن يروِّض فيها نفسه الكريمة ليستعد نفسياً لمفارقة وطنه وبلده التي ولد فيها، ونهد في مهادها، وشبَّ في أفنائها، بين لِداته وأترابه، ناشئاً في قومه وأهله، وعشيرته، وفيها شرّفه الله بنبوته، ثم بعثه فيها رسولاً إلى العالمين، وفيها تلقَّى أول كلمة من الوحي القرآني، حيث أنزل عليه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وهو أرفع مراتب الوحي، وفيها كافح وناضل في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، وفيها رَبّى نخبة السابقين إلى الإيمان برسالته وتصديقه في دعوته، وهم الصفوة الذين لا تدانيهم في الفضل وسؤدد الشرف فئة من البشر قط، وفيها منازل الهدى والنور، وفيها البيت المحرم، بيت أبويه إبراهيم واسماعيل عليهما السلام، وفيها زمزم سقيا إسماعيل وهزمة جبريل وثلج أمه الكبرى هاجر أم إسماعيل، وفيها آفاق التجلي وشهود بعض آيات

ربه الكبرى، إذ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هي له، يوم خلقه الله عليها، وفيها تزوج من سيدة نساء العالمين، وزيرة الصدق، الطاهرة المطهّرة، خديجة رضي الله عنها، وفيها رزق منها وُلْده بنين وبنات، إلا إبراهيم عليهم السلام، وفيها، وفيها من ذكريات وآيات وتجليات، كلها حبيب إلى قلبه، يشتد عليه أن يفارقها دون أن يروِّض نفسه على الرضا بهذا الفراق الحزين.

لا بد من الهجرة لقيادة المجتمع المسلم في مسيرة دعوته وتبليغ رسالته

ونظر ﷺ فرأى أن كل ما يحبب إليه مكة ويرغبه في البقاء فيها والإقامة في ربوعها على ما فيه من بلاغ في الحب والرضا لا يوازن بروحة أو غدوة في سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والخير، بل لا يوازن بخطوة في سبيل تبليغ كلمة من وحي رسالته، رسالة التوحيد والهدى والبر والندى والخير.

وقد وقفت مكة بملئها وسفهائها في سبيله، ومنعته من نشر دعوته، وهجرها أصحابه بإذنه وأمر ربه، فخلت خاوية على آفاقها إلا من شرِّير كفور، أو سفيه جهول، وبقي ﷺ وحيداً بين هؤلاء الشرِّيرين والسفهاء، أو كالوحيد لقلة من بقي فيها من أصحابه، عاجزاً عن اللحاق بإخوانه في دار هجرتهم.

أفيبقى رسول الله ﷺ في مكة لا يجد من يسمع له، معرّضاً رسالة ربه للتوقف في مثواها الآمن الأمين، حيث هاجرت مع أصحابه إلى آفاق التحرك الإيجابي وهي لا تجد رسولها، وحامل أمانة وحيها، وصاحب زمامها، وقائد مسيرتها، ومتولِّي أمرها ومتنزل وحيها، ومهبط آياتها، يقودها ويَهْدي بهديها؟ ويعلي كلمتها.

هذا ما لا يكون ولن يكون أبداً، ولا بد مما ليس منه بد، لا بد من الهجرة ليؤدي واجب رسالته، ويقودها في مسيرتها إلى غايتها التي كتبها الله لها على يديه في عالم الغيب ومجرى المقادير.

وتطلّع رسول الله ﷺ إلى السماء، يقلِّب وجهه متضرعاً إلى ربه أن يجعل من ظنه يقيناً، فيريه دار هجرته معينة، ليقدم إليها ميمِّماً شطرها، واستجاب الله عز شأنه لتضرعات رسوله ﷺ، وأراه (يثرب) دار هجرته،

ودار رسالته ودعوته، وأنزل عليه آية الدعاء والتضرع ﴿وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق﴾ ومدخل الصدق هو مدخل النصر والظفر، ومخرج الصدق هو مخرج الرضا والعودة الظافرة بالفتح المبين، فالله تعالى كما آنسه ﷺ في مدخل صدقه ودار هجرته، وأخبره أنها دار أمن واستقرار ونصر، آنسه في مخرج صدقه، فأرضاه بمفارقة بلده الحبيبة إليه، أكرمه في مخرج صدقه، وجعله مبارك العودة منصوراً.

العوامل السياسية
في دوافع الهجرة النبوية

أشعة الهداية في توالي بيعات الأنصار

والعوامل السياسية التي كانت من دوافع الهجرة تبدأ منذ أول لحظة لقي فيها رسول الله ﷺ أول يثربي، هو سويد بن الصامت الأوسي حكيم (يثرب) ومتحنفها، ومعه صحيفة فيها من حكمة لقمان جمل ومقاطع، يحرص عليها ويتفهمها، وكان لقاء رسول الله ﷺ لسويد بن الصامت إثر عودته ﷺ من الطائف وهو مثقل النفس، مكروب الفؤاد، فتصدّى له رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام وتلا عليه القرآن، فرد سويد رداً مقارباً لم يدخل بـه في ساحة الإسلام، ولم يبعد عنها، ولكنه حام حولها.

ورجع سويد بن الصامت إلى بلده وقومه يحمل معه حادث لقاء رسول الله ﷺ وما جرى له معه من حديث عن الإسلام ودعوته والقرآن الحكيم وآياته، وكان هذا أول صوت يصل إلى أسماع اليثربيين عن محمد ﷺ ورسالته ودعوته إلى الله.

ثم تتابع لقاء رسول الله ﷺ للوافدين من يثرب في موسم إثر موسم، وكان اللقاء الذي أعقب لقاء سويد بن الصامت لقاء وفد أبي الحَيْسر الأوسي، وفيه إياس بن معاذ وهو شاب عقول ذكي، سوي الفطرة، وكان هذا الوفد إنما قدم ليعقد مع قريش حلفاً عسكرياً يتقوون به على حرب إخوانهم الخزرجيين، فتصدّى لهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن، فبدر القوم بالكلام إياس بن معاذ، وكان أحدثهم سناً، فقال يجيب عن دعوة رسول الله ﷺ موجهاً الكلام إلى قومه: هذا والله خير مما جئنا إليه، فحصبه أبو الحيسر فأسكته، ولكن إياساً سكت على مستكنة في

ضميره، تلك هي قناعته بما سمع من رسول الله ﷺ عن الإسلام ورسالته والقرآن وهدايته، مما جعل قومه، يقولون عنه بعد موته إنه مات مسلماً.

ومهما يكن من أمر إياس بن معاذ فإنه كان أعظم أثراً في ذكر الإسلام ودعوته ورسالته ورسوله ﷺ في بلده (يثرب) من سويد بن الصامت الذي عاجله الموت في معارك اليثربيين.

وسويد بن الصامت وإياس بن معاذ كلاهما أوسي، وبين الأوس والخزرج تنافس في المفاخر، وسمعت الخزرج صوت دعوة الإسلام يهمس به الأوسيون فيما بينهم همساً لا يكاد يبين، وكان الخزرجيون على ذَرْو من العلم المتناثر إليهم من أفواه أهل الكتاب من اليهود مواليهم وجيرانهم ومساكنيهم في بلدهم عن نبي يبعث قد أظل الناس زمانه، وكان اليهود يستفتحون برسول الله ﷺ على اليثربيين.

ودار الزمن دورته، وحضر الموسم، وقدم إليه فيمن قدم من وفود العرب، وفد (يثرب) وكانوا ستة من الخزرج، لقيهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا سراعاً، وبايعوا رسول الله ﷺ وواعدوه الموسم المقبل، وعادوا إلى بلدهم (يثرب) مؤمنين مصدِّقين، دعاة إلى الإسلام، هداة إلى رسالته، وكان هذا أول صوت يجهر بدعوة الإسلام والتحدث عن رسول الله ﷺ، وتسامع أهل (يثرب) بالدين الجديد، وتحدّث الناس فيما بينهم عنه، وفشا ذكر الإسلام في بيوتهم ومجتمعاتهم.

فلما جاء الموسم القابل قدم وفد يثرب اثنا عشر رجلاً، لا يريدون إلا الإسلام، ولا يقصدون إلا لقاء رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يتطلع إلى معرفة آثار بيعته لوفد الستة الذين بايعوه عام أول، وواعدوه الموسم المقبل، ليعلم ما كان منه في بلده وقومه.

ولقي رسول الله ﷺ وفد الخزرجيين الاثني عشر رجلاً، وكان فيهم عدد من الستة الذين سبق لهم أن بايعوه وواعدوه، فلما رآهم استنار وجهه سروراً، وعرض على الوفد الإسلام فبايعوه وبايعهم، وأخذ عليهم

وأعطاهم، وعادوا إلى بلدهم وقومهم دعاة إلى الله، هداة إلى دينه، حتى جعلوا من بلدهم حصناً للإسلام، ومن قومهم كتائب لحماية الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة رسول الله ﷺ، وأقبل الناس على الإسلام يؤمنون به ويعتنقونه، حتى لم يبق بيت من بيوت (يثرب) أوسها وخزرجها إلا دخله نور الإسلام فأضاء جوانبه.

وأقبل الموسم ببشائره وجاءت البيعة الكبرى (فتح الفتوح) سبعون رجلاً لم يُقدمهم الموسم إلا بيعة رسول الله ﷺ، فبايعوه وعاهدوه على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم وذراريهم إذا قدم عليهم، فبايعهم ﷺ على أنه حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم، وهم منه وهو منهم.

وعادوا إلى بلدهم يترقبون وصول رسول الله ﷺ إليهم في لهفة وشوق واستعداد من القوة المرهبة والعزائم القاهرة والإرادة الحازمة.

بهذا أصبحت (يثرب) تعج بالمجتمع الإسلامي المركب في وحدته البشرية من عنصري المهاجرين والأنصار، وهم باجتماعهم ووحدتهم يؤلفون قوة أرهبت مكة لأن مكة بطواغيتها وعتو ملئها، وفجور كفرها لم تكن تحسب لقوة في جزيرة العرب حساباً في مناوأتها ومواقفتها في حرب مثل ما كانت تحسب لأبطال (يثرب) الذين راضتهم الحروب وراضوها على أزماتها وشدائدها وتضحياتها، فما كان أبغض لمكة وملئها من حرب قوم من هؤلاء اليثربيين.

كيف وقد امتزج بهم الصفوة السابقون الأولون من المهاجرين، وأكثرهم من أبناء بيوتات قريش وشبابها وفتيانها الأبطال الذين لا ينامون على ضيم، ولا يسكتون على ضيعة مستسلمين لذل أو هوان.

مكانة يثرب في الاستقرار والثراء أجلّ من مكانة مكة فيهما

ويثرب هي البلد الذي يسامي مكة في شمال الجزيرة العربية في الاستقرار والثروة ودواعيها من تجارة وصناعة وزراعة، بل إن يثرب تفوق مكة وتزيد عليها في ذلك كله.

أما الاستقرار، فهو ذاتي في يثرب، لأنها بلد زراعي أصيل، والزراعة

هي الجاذبية الأرضية، تشد من يتخذها عملاً له إلى الأرض، يحرث ويحرك ويقلب، ويسقي ويشذِّب، ويسمد، وينقي، ثم يحصد ويجذ، ويدرس ويصنف، ويأخذ ويعطي، ثم يعود كما بدأ، لا يفرغ حتى يعود يعمل ما كان قد عمل.

وأما الثروة فإذا لم تكن الزراعة كافية لتأثيل الثراء وجمع المال، ففي التجارة بما يخرج من الزراعة، وثمراتها منتج لتكوين الثروة، وتجارة يثرب محلية وخارجية لها أسواقها الداخلية، ومضارباتها الخارجية، وفيها اليهود سلاطين المال وأرباب الحيل في جمعه من أي سبيل، يملكون زمام التجارة، ويلعبون بالأسواق وأسعار ما يحتاج إليه الناس، ولا يزالون يتحكمون في مصائر الاقتصاد العالمي بما لهم من خبرة في مجال التجارة والمرابات.

وقد كان بينهم وبين جميع عرب يثرب بحكم الجوار والتعامل صلات تجارية قوية، فأخذ اليثربيون من خبرتهم ما وسّعوا به أعمالهم التجارية إلى جانب أعمالهم الزراعية.

ولليهود في (يثرب) صناعات وفيهم صنّاع، ولا سيما صناعة صياغة الذهب والفضة، وكانوا يتعاملون مع جيرانهم في البلد، والصناعةُ كالزراعة لصيقة بالأرض، فهي من عوامل الاستقرار.

الاستقرار في مكة موسمي

أما مكة فالاستقرار المالي فيها عارض موسمي ديني، وتجارتها محدودة خارجية أكثر منها داخلية، لأنها تقوم على المضاربة في أضيق مجال، وتقوم على رحلتيها صيفاً وشتاء إلى الشام ثم إلى اليمن، وأسواقها إنما تعمر بالشعر والخطب، والفخر والمنافرة، وبضاعتها التجارية إنما ترد إليها من الخارج، وهي لما في جلبها إليها من المشقة وقلة الربح قليلة نادرة، وقد تكثر فيها تجارة البهائم والأنعام، وما يخرج منها من ألبان وجلود وأصواف وأوبار.

ومكة عديمة الزراعة والصناعة، لا يعرف لها فيهما شأن يذكر، ومن ثَمَّ كانت ثرواتها محصورة محدودة، تتداولها أيد قليلة، تتحكم في مجتمعها الذي يسوده الفقر والبؤس، وهي تنتظر مواسمها الدينية الوثنية بلهفة المتحرق الصديان، وفي هذه المواسم كانت القوافل واللطائم ترد إليها محملة بالزيوت

والحبوب والبر والزبيب والأفاويه وما شاكل ذلك من الأطعمة وما يتصل بها.

ولذلك كان من أفخر مفاخرها إطعام الطعام وسقي الماء، لأن مجتمعها كان أحوج إلى أن يأكل ويشرب ويلبس، وهو مجتمع جاهلي بأوسع ما تحمل الجهالة من معنى الجهل الذي لا يلم صاحبه بعارفة من علم فطري أو مكتسب، ومن معنى الجهل الذي ليس لصاحبه ذرة من حلم، فإذا ندّ فيهم حليم، أو ظهر بينهم من له دراية بشيء من علم تجريبي متوارث تمدّحوا بذلك وعدّوه أفخر المفاخر.

مكة وكر الوثنية المستغلة

ومكة بعد هذا وذاك وكر الوثنية العاتية والشرك العنيد في الجاهلية كلها، وقد أعرضت مدبرة عن دعوة توحيد الله تعالى، بل انتهضت إلى مقاومتها فطاردتها مطاردة عنيفة عاتية، واضطهدت معتنقيها، وآذت رسولها، لأنها خشيت أن تهدم هذه الدعوة التوحيدية مجدها الوثني، وتقوض عزها الجاهلي، وتزيل سلطانها المادي الذي يستمد طغيانه من الوثنية وفجور الكفر، والذي يستعبدون به الأحرار من الضعفاء والفقراء.

الهجرة من مكة بعد اليأس من استجابتها سياسة محكمة

أفلا يكون إذاً من حسن السياسة ومحكم التدبير، وواجب التكليف في تبليغ الرسالة، ونشر دعوة الحق أن يهاجر النبي ﷺ وقد فتح الله تعالى أمامه آفاق الهجرة من هذه القرية الظالم أهلها إلى بلد يتوافر فيه الاستقرار والأمن له ولأصحابه ولدعوته، بل تتوافر فيه القلوب المخلصة في إيمانها، والبطولة المجاهدة والعقول المستنيرة، والثروة الباذلة، والأيدي المنفقة، والقوة الرادعة المرهبة والمحبة المؤثرة، والوفاء الصدوق، بعد أن أوصدت مكة أمامه وأمام دعوته ورسالته باب كل أمل على مدى ثلاثة عشر عاماً كاملة، قضاها ﷺ بين أهلها نبياً ورسولاً ـ وهم أعرف الناس بصدقه وأمانته وسمو مكارم أخلاقه، يغاديهم فيها ويراوحهم داعياً إلى الله، مرشداً ناصحاً، حفياً بهم هادياً، حريصاً عليهم، يرغبهم في ثواب الله تارة وينذرهم بأسه وبطشه تارة أخرى، يعظهم ويرشدهم إلى آفاق العزّة والسؤدد، يؤذونه أشد الأذى فيعفو عنهم ويصفح، ويسيئون إليه أقبح الإساءة فيغفر لهم إساءتهم ويدعو لهم

بالهداية، ويسخرون منه فيصبر ويتسامح معهم ويرفق بهم، ويمكرون به ويسفهون عليه، ويأتمرون بقتله والفتك به فلا يبالي أن يواجههم بدعوتهم إلى الله، باذلاً نفسه في سبيل إنقاذهم من عذاب الله.

بلى، إن هجرة محمد ﷺ حينئذ كانت من ألزم الأمور، وأشد الضرورات التي تقضي بها السياسة الحكيمة في متابعة سير الدعوة وتبليغ الرسالة حيثما وجدت القلوب المستعدة لتقبلها والإيمان بها، وها هم أولاء أنصاره الذين بايعوه على حمايته وحماية رسالته، الذين تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان من قبل أن ينزل بهم إخوانهم المهاجرون قد أخلصوا له الحب، وأحبوا أصحابه المهاجرين حبهم لأنفسهم بل أشد من حبهم أنفسهم، شاركوهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ولو كانوا هم أحوج إلى ما آثروهم به.

قيادة المجتمع المسلم الجديد في دار هجرته توجب الهجرة النبوية

ومما يستوجب هجرة النبي ﷺ مع هذه الصورة الموجبة لهجرته ﷺ حاجة هذا المجتمع الجديد الذي وحّدت بين عناصره الدينية عقيدتُهُ التوحيدية ورسوخ إيمانه ـ إلى قيادته الحكيمة لسياسته في حياته الجديدة، وحل مشاكله ومراقبة سيره، وتعهده في تربيته وسلوكه الاجتماعي، ليكون صورة حية تطبيقية في واقع الحياة لشرائع الإسلام وآدابه وأخلاقياته ونظمه الاجتماعية التي ترتكز على العدل الرحيم والمواساة الأخوية. لأن هذا المجتمع في تركيبه البشري ـ بما في هذا التركيب من اختلاف في التفكير واختلاف في النظر إلى الحياة، من وجوهها المختلفة ـ صورة للمجتمع الذي يتفق ويختلف، وقد يشتد فيه الاختلاف فيؤدي إلى مشكلات اجتماعية يجب أن تجد حلّها في سرعة وصبر، كما برهنت أيام المستقبل على ذلك، فيما حدث بين المهاجرين والأنصار من أحداث كادت ـ لولا سرعة تدخل النبي ﷺ ـ تؤدي إلى عواقب وخيمة، وهذه الأحداث برهان قاطع على وجوب أن القيادة يجب أن تكون دائماً في مرأى العين، ومسمع السمع، لتوجّه وترشد، وتنصح وتسدِّد، وتهدي وتوفِّق وتعالج وتحسم.

وقيادة النبي ﷺ لمجتمع الإسلام ليست قيادة عسكرية ولا قيادة

سياسية وإنما هي قيادة نبوية، تعتمد على توجيه الله تعالى لنبيه ﷺ وتسديده وتوفيقه بما يوحيه إليه، يقول الله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[1] فهي قيادة لا تقبل ردّ ما يقضي به ﷺ، ولا تقبل التوقف في التسليم به، كما قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلِّموا تسليماً﴾[2] وهي قيادة لا تقبل التقدم عليه ﷺ في قول أو فعل كما قال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله﴾[3].

ومن ثَمَّ كان وجود رسول الله ﷺ على رأس مجتمع الإسلام في حياته كلها تحقيقاً لوضع رسالته ﷺ موضعها من التطبيق العملي لشرائعها وأحكامها وآدابها وسياستها ونظمها الاجتماعية، واستكمالاً لتلقِّي آياتها، وتبياناً لمعاني ما أنزل إليه منها.

وليس في حياة المجتمع الإسلامي - ما دام القرآن الكريم سيّال التنزل - لحظة يمكنه فيها أن يستغني عن قائده ورسوله ﷺ، الذي تجعله رسالته أن يكون على أتم المعرفة والعلم بما يجري في حياة هذا المجتمع، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بهجرته ﷺ من مكة التي خوت أرجاؤها من أصحابه إلى المدينة التي جعلها الله دار هجرته، ومستقر دعوته، وحصن مجتمعه الجديد المسلم.

---

(١) سورة النساء آية (١٠٥).
(٢) سورة النساء آية (٦٥).
(٣) أول سورة الحجرات.

العوامل الاجتماعية
في دوافع الهجرة النبوية

خصائص القيادة الحكيمة الناجحة في توجيه مجتمعها

أما العوامل الاجتماعية التي كانت إلى جانب العوامل السياسية من دوافع الهجرة النبوية فتتجلَّى في حاجة هذا المجتمع الإسلامي الجديد في تركيبه الاجتماعي إلى القائد المهيمن بسلطانه الحكيم، وتـدبيره العليم بأحوال المجتمع، الحاسم في قضائه وتوجيهه، السياسي المحنَّك، قاطع القضاء في سرعة حل مشاكل مجتمعه، البصير بمكامن انفراج عُقَد الأزمات، الحليم الذي لا تستفزه معضلات الأحداث، ولا يحيد به الغضب عن سداد التفكير، الشجاع الذي يجابه النوازل بكفائها دفعاً، الجسور الذي لا ينكل عند ملاقاة الأحداث، الصبور الذي يقابل شدائد الأزمات بالفكرة الصائبة التي تفك عقدها في عزيمة حازمة، الموجه لحياة المجتمع في ثبات ورسوخ يقين، المسدَّد بالوحي الإلٓهي الذي يقيم لمعالم الهداية على طريق سير رسالته في مسارب الحياة وآفاق الكون.

ذلكم هو محمد رسول الله ﷺ، المصطفى لتحمل أمانة أكمل رسالة إلٓهية ختمت بها رسالات السماء، المكلّف تبليغها إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها، القوي الأمين على قيادة مجتمعه، القابض عـلى زمام رسالته، الآخذ بناصيتها في سيرها ليوائم بينها وبين مجتمعها الجديد في استقراره وطرائق عيشه وحياته وموقفه من سير الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وموقفه من أعداء الدعوة الذين أخرجوها وأخرجوا معتنقيها من ديارهم وأموالهم ظلماً وعَـدْواً، وموقفهم من أعـدائهم الجدد في وطنهم الجديد، ممن انطووا على قلوب مفعمة بالحقد، مبطنة بالحسد، أولئك هم

اليهود لعنة الله على الأرض، وشراذم صنائعهم المنافقون.

اليهود في المدينة شوكة حادّة في ظهر المجتمع المسلم

واليهود في (يثرب) مهجر الرسالة ورسولها والمؤمنين بها أصحاب ثراء وأموال مؤثلة وتجارات مربية، وزروع منتشرة، وقلاع محصنة وحصون محفظة، وقصور متعالية، وأطم مؤسسة، وعلم موروث، وكتب منزلة على أنبيائهم، وشروح وتفاسير لهذه الكتب، حرِّفت من نصوصها، وبدلت من آياتها، وزيد فيها، وانتقص منها، كانوا يتعالون بهذا العلم المشوب بالجهل على جيرانهم ومساكنيهم من عرب (يثرب) الذين كانوا يُكْبرونهم بهذا العلم، ويأتمون بهم في كثير من أفكارهم في طرائق الحياة.

المنافقون من ربائب اليهود في خبثهم

أما شراذم المنافقين فكانوا فئة من اليثربيين الذين بخعت رسالة الإسلام أطماعهم، وجدعت أنوف طموحهم وآمالهم، فجعلوا من أنفسهم أحلاساً لليهود، يذلونهم ويتحكمون في مصائرهم، ويأتمرون بأوامرهم، ويحاكونهم في خبائث أخلاقهم من الغدر وسوء المكر، أظهروا الإسلام ذلة وتقية، وأبطنوا الكفر فجوراً وبغياً، ويكيدون للإسلام وأهله، ويمكرون بالنبي ﷺ، ويقيمون العراقيل أمام دعوته، وهم في بيوت المسلمين ومساجدهم ومجتمعاتهم متدسسون، يرجفون بالإفك والفِرَى يستمعون إلى أحاديثهم فيحرفون ما يسمعون، ويخترقون من الأكاذيب وقول الزور ما يبلبلون به الأفكار والخواطر، ويقعون في أعراض المسلمين، ويشيعون السوء والفحش والأباطيل، ويسعون في الأرض فساداً، ويحاولون بالنمائم إفساد علائق الإخاء والمودة بين المسلمين، ذئاب في أهب أناس، أحرق النفاق أكبادهم، وأذلَّ سلطانُ الإسلام وقهرُه أعناقهم، فمشوا في المجتمع الإسلامي جراثيم شر وبوائق إفساد ﴿هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾[1].

مجتمع بغير قائد حكيم لا يستطيع تحقيق أهدافه

هذا المجتمع الجديد في تركيبه البشري والفكري والاجتماعي إذا لم يجد قائده ومعلّمه ومربِّيه أمامه، يسوسه ويسدده، ويوجهه ويرشده، ويشاركه حركاته، وسكناته، ويكون قدوته في حياته، ونظام مسيرته مع

(١) سورة المنافقون آية (٤).

موجبات رسالته، ويتلقى منه آيات ربه، تشريعاً وأدباً وحكمة وسلوكاً وتربية تطبيقية عملية في واقع الحياة وأحداثها ـ كيف يمكن أن يسير برسالة الله، يبلِّغها إلى الخلق؟ وكيف يمكنه أن يقوم بموجبات الدعوة إلى الله تعالى؟ وكيف يمكنه أن يقيم للناس منائر الهداية في طريق سير الرسالة؟ وكيف يمكنه أن ينصب لهم معالم الحق والعدل حتى لا يضلُّوا في مسيرهم داعين إلى الله وتوحيده وكمال إلٰهيته؟ وكيف يمكنه أن يؤسس بينهم دعائم الأخوة والمحبة والتراحم والمواساة ليكونوا مثلاً للخير والهدى والنور؟.

إن وجود رسول الله ﷺ على رأس مجتمعه في دار هجرته، يقوده بزمام وحي رسالته في مرحلتها الجديدة، مرحلة التشريع والتنظيم والجهاد القتالي ضرورة من ضرورات سير الرسالة ونشر الدعوة حتى تبلغ آفاقها من الكمال الاجتماعي والتشريعي، بعد أن بلغت أوج كمالها العقدي.

ومن ثم كانت هجرته ﷺ من مكة التي أخرجت أصحابه، وسدّت الآفاق دون دعوته إلى المدينة التي جعلها الله مستقر رسالته، وبؤرة إشعاع نور دعوته لازمة لمتابعة سير رسالته، وقيادة مجتمعه الإسلامي في تركيبه الاجتماعي الجديد الذي يقتضي رعاية في التوجيه والإرشاد.

العوامل الاقتصادية
في دوافع الهجرة النبوية

أما العوامل الاقتصادية التي كانت إلى جانب العوامل السياسية والاجتماعية دوافع إلى الهجرة النبوية، فهي واضحة في النظر إلى وضع المجتمع الإسلامي، وتفهم حالته الاقتصادية في مكة، ثم النظر إلى حالته بعد تركه مكة وهجرته إلى المدينة، وامتزاجه بمجتمعها المسلم امتزاجاً فاق كل ما تعرف الحياة من روابط الامتزاج والمشاركة الحقيقية بين مجتمعات البشر.

لم تكن عناصر تركيب طلائع المجتمع المسلم من الفقراء والضعفاء

فالمجتمع المسلم في مكة من السابقين الأولين لم يكن مجتمعاً من الفقراء والضعفاء والموالي والعبيد كما يصوِّره بعض الكاتبين في السيرة النبوية، بحسن نية أو سوء قصد، وإنما كان مجتمعاً يقوم في تركيبه البشري على قوة العقيدة وقوة الإيمان بها، ولم يكن للضرورات الاجتماعية دخل أساسي في تركيب هذا المجتمع إلا بقدر ما تقتضيه التأثرات العامة في الحياة والبيئة.

وقد سبق لنا عند الحديث عن الهجرة إلى الحبشة أن فنَّدنا فكرة أن نواة المجتمع المسلم الأول ـ مجتمع السابقين الأولين ـ كانوا من الضعفاء والفقراء والموالي والعبيد، الذين وجدوا في دعوة الإسلام إلى الحرية والمساواة والعدالة والإخاء إنقاذاً لهم مما كانوا يرزحون تحت نيره من الظلم الفادح والاستعباد المادي الفظيع، فأسرعوا إلى الانضواء تحت لواء هذه الدعوة، ووطَّنوا أنفسهم على بطولة الصبر والاحتمال لما يلقون من جبروت طواغيت المادة في سبيل لقمة العيش، ليفوزوا بالحرية والعدالة في مجتمع تحكمه المادة العمياء

والترف البطين، أو يذهبوا مع أبطال التاريخ شهداء الحرية والعدالة في خلود الذكر البطولي والسمعة الداوية.

تصوير خادع في صورة حق أريد به باطل

هذا التصوير الخادع فيه شيء من صورة الحق، ولكنه حق أريد به باطل، هو حق في واقعه الإسلامي، لأن الإسلام دين لا يقف مع الأفراد والطوائف ليعطيها بطولات سلبية، ولكنه دين جاء بنظام اجتماعي ينظر إلى الحياة كلِّها بما فيها ومن فيها على أنها تركيبة كونية وحَّدت بينها نواميس تحكمها بروابطها الطبيعية، وينظر إلى الإنسانية على أنها تركيبة بشرية وحَّدت بينها عناصر مادية وفكرية وروحية، وقد أعطيت الإنسانية زمام القيادة للحياة، وأعطي الإنسان سلطان الخلافة في الأرض، ليقيم عليها موازين العدالة في ظل حقيقة الإنسانية الوحدوية التي هي حقيقتها منذ أوجدها الله في نموذجها الأول.

الإخوة المتواسية هي دعامة المجتمع المسلم، فإذا استجاب لها من استجاب فالحق فيها واحد لا يختلف

وهذه الوحدة ـ التي تجمع البشرية إخوة سواسية في الحقوق والواجبات، لا يتميز فيها قوي على ضعيف، ولا غني على فقير، ولا قادر على عاجز ـ كانت هي القاعدة التي قام عليها نظام الحياة في الإسلام، بعد تأسيس العقيدة على وحدانية الله تعالى التي تستوجب إفراده بالعبادة والطاعة.

وإذا كانت قاعدة الإسلام النظامية في نظرته إلى الحياة ووحدة المجتمع البشري من الدوافع للمظلومين أن يستجيبوا إلى دعوة هذا الدين، فيعتنقوه عقيدة ونظاماً، فليس معنى هذا أن الإسلام مالأ الضعفاء على الأقوياء، أو حابى الفقراء على الأغنياء، وإنما معناه أن الإسلام في حقيقته النظامية دين يرفع لواء العدالة الاجتماعية بين جميع البشر أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، فللغني حقه في الحياة، لا يزيده غناه على هذا الحق شيئاً، وللفقير حقه في الحياة، لا ينقصه فقره من هذا الحق شيئاً.

فإذا ظلم غنيٌّ فقيراً كان كظلم الفقير للغني، كلاهما ظلم بغيض يجب رفعه وإحلال العدالة محله، وهذا هو قانون الإسلام الذي جاء به كتابه الحكيم في قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط،

شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتَّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تَلْوُوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[1].

روى الطبري وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، لا يحابوا غنياً لغناه، ولا يرحموا مسكيناً لمسكنته.

وأخرج ابن جرير عن السدِّي في الآية قال: نزلت في النبي ﷺ، اختصم إليه رجلان، غني وفقير، فكان حلفه مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير.

ومن هنا كان واجباً على الدارسين الباحثين في السيرة النبوية وأحداثها ورجالها وموقف النبي ﷺ من هذه الأحداث وتطبيق النصوص عليها، أن يتعمقوا في دراستهم وبحوثهم ناقدين ممحِّصين، متتبِّعين سير الرسالة وأطوارها في مراحلها منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها بوحي طلب تبليغها إنذاراً عاماً في قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ أو إنذاراً خاصاً في قوله عز شأنه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[2].

وقد ترك أمر الجهر بالدعوة في الإنذارين العام والخاص إلى مرحلة قادمة من مراحل سير الرسالة، ليتم الاستعداد النفسي، وتعرف الجو المحيط بالدعوة في بيئتها التي نهدت بين أحضانها، لأن النهوض بأعباء الإنذار العام كان يستدعي التريث في الجهر بالدعوة اتقاء لمشقة المفاجأة؛ لتأصل عنجهية الوثنية في أساطين الشرك تأصلاً موروثاً جعل منها مصدراً يستمد منه ملأ الكفر تعاليهم على العرب، وفرض سلطانهم المادي والمعنوي على قبائلهم، وما يجره ذلك من مكاسب مادية في المواسم والأسواق والرحلات.

---

(١) سورة النساء آية (١٣٥).
(٢) سورة الشعراء آية (٢١٤).

قال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في الدلائل: لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعْلِم الناس نزول الوحي عليه ويدعوهم إلى الإيمان به كَبُر ذلك عليه فنزل قوله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾[١].

مدنية السورة من القرآن لا يلزم أن تكون جميع آياتها مدنية

وهذه الآية الكريمة وإن كانت في نظم التلاوة في سورة مدنية، هي سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن، فذلك لا يمنع من أن تكون الآية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ مكية النزول، لأن كثيراً من الآيات التي نزلت في مكة لمقتضى استدعى نزولها يومئذ موضوعة توقيفاً من النبي ﷺ في سورة مدنية، وكثير من الآيات المدنية نزولاً موضوعة توقيفاً في سورة مكية.

ومكية السور ومدنيتها إنما هي باعتبار أكثر آيات السورة نزولاً، وبعيد جداً أن تكون آية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ مدنية نزولاً، أي أنها نزلت بعد الهجرة، لأنه لم يعرف في أحداث السيرة النبوية أن النبي ﷺ توقف لحظة منذ استقراره بدار هجرته عن تبليغ رسالته، أو كبر عليه تبليغ شيء مما أنزل إليه من ربه في شأن أعدائه الجدد من أهل الكتاب والمنافقين تهيباً لهم أو خشية من أذاهم، أو خوفاً من إنزال ضرر به من هؤلاء الأعداء، فلا وجه حينئذ لجعل الخطاب في الآية موجهاً إلى رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة التي أصبحت دار الإسلام والاستقرار والأمن والقوة والمنعة والعزة.

فما كان النبي ﷺ بعد هجرته يخاف شيئاً قط يكبر عليه معه أن يبلغ شيئاً مما أنزل إليه من ربه في شأن أعدائه من أهل الكتاب والمنافقين حتى يحتاج معه ﷺ إلى توجيه هذا الخطاب الشديد في أسلوبه، الذي يحتوي على أعظم التهديد والزجر، والذي عُقِّب بالإخبار بعصمة الله له وحفظه من وصول ضرر يريده به أعداؤه في دار هجرته ومستقر دعوته.

أما في مكة فكان ذلك ممكناً ودواعيه متوافرة، حيث اللَّدد، والعداوة، والمكر، والكيد، وفادح البلاء يصب على أصحاب النبي ﷺ، وحيث

(١) سورة المائدة آية (٦٧).

التربص به ﷺ لقتله والفتك به للتخلص من دعوته التي غصت بها قريش وطغاة ملئها من عبيد الوثنية المشركين وملاحدة الكفر الفاجرين.

كانت المدينة حصناً منيعاً للمجتمع المسلم فلا مقتضى منها لنزول آية أو آيات للتحريض على التبليغ

والمدينة وإن كان فيها اليهود، وهم ألَدّ عداوة، وأشد شراسة، وأعظم غدراً وحسداً لرسول الله ﷺ، وفيها ربائبهم المنافقون، وهم أخبث وأفجر، لكن هؤلاء وهؤلاء كانوا أذلّة مكظومين، لا يملكون من الشجاعة، ما يظهرون به في غدرهم برسول الله ﷺ، والأحداث التي وقعت منهم ممثلة لغدرهم إنما كانت تدبيراً خبيثاً تحت جنح الظلام، ائتمروا به في مخابئهم وبيوتهم، وفي كلها كان الله تعالى يفضحهم ويكشف سوآتهم قبل أن يقع منهم شيء ينالون به من رسول الله ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ محاطاً بأصحابه من المهاجرين والأنصار وهم الكثرة الغامرة في المجتمع المدني، وكانوا هم القوة الرادعة لهؤلاء الأعداء الداخليين كما كانوا قوة مرهبة لأعدائهم الخارجيين.

وقد تشبث من تمسك بمدنية آية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ بحديث عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبّة فقال لهم: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله»).

ولا متمسك لهم في الحديث لاحتمال أن السيدة عائشة رضي الله عنها لم تخبر عن أمر شهدته، وإنما حدّثت عن أمر حُدِّثت عنه ممن شهد الحادثة ونزول الآية في مكة من الصحابة رضي الله عنهم، ولاحتمال أن قول رسول الله ﷺ لأصحابه ـ على فرض أن هذا القول كان بالمدينة ـ إخبار عن حال ثابتة له ﷺ منذ كان بمكة، ولمّا رأى حرص أصحابه على حمايته وانتدابهم لحراسته في بلد نزل فيه مهاجراً قبل أن يستقر ذكرّهم بأنه لا حاجة له بحراستهم لأن الله تعالى قد عصمه منذ كان في حومة الأزمات والشدائد بمكة.

وبهذين الاحتمالين تبقى مكية الآية قائمة، يعزّزها أن توجيه الخطاب بهذا الأسلوب الشديد الذي يدل على أن النبي ﷺ كان قد فتر شيئاً ما عن تبليغ ما أنزل إليه من ربه وهو بالمدينة من آيات تعيب على أهل الكتاب ما

هم عليه من سوء السلوك والغدر، والحسد وشدة العداوة للإسلام ونبيه ﷺ وأهله، وكتمانهم للحق الذي في كتبهم وتحريفهم لها، وهذا ما لم يثبت قط فالآية مكية، لأن مكة كانت متنزل السور والآيات التي تنعى على أهلها تمسكهم بالوثنية وانحطاط عقيدتهم المشركة، وتعيب آلهتهم وآباءهم، وتسفّه أحلامهم، وكانوا يودّون لو أن رسول الله ﷺ داهنهم، فلم يجبههم بذكر مساويهم وإعلان فجور كفرهم كما أخبر عنهم القرآن الحكيم بذلك في قوله: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾[1].

أكثر الآثار تدل على مكية ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ﴾

وهنا يكون احتمال تريث النبي ﷺ عن مجابهتهم لحرصه على عدم تنفيرهم ومباعدتهم قوياً، وهذا معنى ما جاء في رواية البيهقي: (فكبر ذلك عليه).

ويؤيد ذلك ما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس مكذبي، فوعدني لأبلغنَّ أو ليعذبنِّي» فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك﴾ وما أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: لمّا نزلت ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ قال: «يا رب إنما أنا واحد، كيف أصنع؟ يجتمع عليّ الناس» فنزلت ﴿وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾.

فهذه الروايات مفسرة لمعنى الآية، ومبينة لمضمونها بما يقتضي نزولها بمكة حيث كانت الأزمات والشدائد والمحن تتوالى على النبي ﷺ وعلى أصحابه مما يحتمل الموقف معه أن يضيق النبي ﷺ ذرعاً ببعض ما ينزل إليه من ربه من آيات تسفه أحلام طواغيت الوثنية وطغاة المشركين، وتعيب آلهتهم، وتنتقص آباءهم كما جاء في سورة هود ـ وهي مكية ـ من قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾[2].

وحينئذ يستوجب الموقف دفعاً قوياً محذّراً، يمضي به النبي ﷺ قُدُماً في

---

(١) سورة ن آية (٩).

(٢) سورة هود آية (١٢).

عزيمة حازمة وإرادة صارمة، مبلِّغاً جميع ما ينزل إليه من ربه، لا يبالي رضي الطغاة من عبيد الوثنية أم سخطوا، أعرضوا مدبرين أم أقبلوا مستجيبين لأن رسالة الإسلام لم تكن تتملق أحداً على الإيمان بها، ولم تكن لتداهن الطغاة المستكبرين لتدخلهم في ساحتها، والله تعالى يقول لرسول صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1].

ويقول عز شأنه: ﴿مـن كفر فعليه كفره﴾[2] وفي آية أخرى: ﴿فمن كفر فعليه كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾[3].

قال الإمام ابن عطية: فإنما أمر ـ ﷺ ـ في هذه الآية ـ أي يا أيها الرسول بلِّغ ـ لئلا يتوقف على شيء مخافة أحد، وذلك أن رسالته عليه السلام تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وإفساد أحوالهم، فكان يلقى منهم عنتاً، وربما خافهم أحياناً قبل نزول هذه الآية، وفي حديث ابن عباس ـ تقدم مرسلاً عن الحسن ـ: «لما بعثني الله برسالته ضقت ذرعاً، وعرفت أن من الناس من يكذبني» فأنزل الله هذه الآية، وفي صحيح مسلم تصوير لبشاعة ما كان يتوقعه ﷺ من الإيذاء والضرر، وذلك في قوله ﷺ: «إذاً يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة» وسياق هذا الحديث في صحيح مسلم مشعر على طوله بأن هذا كان بعد الهجرة، وقد تنبه القرطبي إلى ذلك، فنزع هذه الجملة من سياق مسلم ووضعها في موضعها عند كلامه على آية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ باعتبارها مكية وهذا هو الصواب.

الرد على أبي حيان في زعمه أن سياق الآية في موضعها من سورة المائدة وسياقها يدل على أن الكلام مع اليهود والنصارى

ولا وجه لقول أبي حيان في «البحر» ـ وإن جنح إليه الطبري ـ: والذي يظهر أنه تعالى أمّنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بتبليغ ما أنزل إليه في أمرهم وغيره من غير مبالاة بأحد، لأن الكلام قبل هذه الآية وبعدها هو

(١) سورة الكهف آيتا (٢٨ ـ ٢٩).
(٢) سورة الروم آية (٤٤).
(٣) سورة فاطر آية (٣٩).

معهم فيبعد أن تكون هذه الآية أجنبية عما قبلها وعما بعدها.

لأن اعتماد أبي حيّان في الاستدلال على استظهاره على سياق آية ﴿يا أيها الرسول بلِّغ﴾ وسياقها لا يستلزم مدنيتها ونزولها بعد الهجرة في أمر اليهود والنصارى، لأن كون آية من آيات القرآن موضوعة توقيفاً من النبي ﷺ في نظم التلاوة بين كلام في شأن طائفة من الطوائف، وهي متسقة الربط منسجمة المعنى مع ما قبلها وما بعدها ـ لا يجعلها أجنبية عما قبلها وما بعدها، لأن المدار في سمو نظم القرآن الحكيم لم يقم على أساس التوافق الزمني أو المكاني في نزول الآيات، وإنما المدار فيه على انسجام المعنى واتساقه في نظم التلاوة، ولو تباعد زمن النزول واختلف مكانه، وهذا هو سر التوقيف في ترتيب الآيات ونظمها في وضع التلاوة.

فلا بِدْع أن تكون آية أو آيات نزلت في مطلع الرسالة وشدائدها، ثم وضعت توقيفاً بين آيات نزلت في أواخر ما نزل من القرآن ما دام المعنى في الآيات منسجماً متسقاً، يأخذ بعضه بحجز بعض، وهذا كثير في القرآن الحكيم، وهو من دلائل الاعجاز.

ثم مضى أبو حيان على ما ذهب إليه فقال في قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي لا تبال في التبليغ فإن الله يعصمك، فليس لهم تسليط على قتلك لا بمؤامرة ولا باغتيال ولا باستيلاء عليك بأخذ وأسر.

ثم قال أبو حيان: وروى المفسرون: أن أبا طالب كان يرسل رجالاً من بني هاشم يحرسون رسول الله ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فقال ﷺ: «إن الله قد عصمني من الجن والإنس، فلا أحتاج إلى من يحرسني».

ثم روى أثراً عن ابن جريج قال فيه: كان النبي ﷺ يهاب قريشاً فلما نزلت ﴿والله يعصمك من الناس﴾ استلقى وقال: «من شاء فليخذلني» مرتين أو ثلاثاً.

ثم عقَّب أبو حيان على هذه الروايات فقال: وهذا وما قبله يدل على

تصحيح أبي حيان غير صحيح

أن ذلك كان بمكة. . . والصحيح أنها نزلت بالمدينة، والرسول مقيم بها شهراً، وحرسه سعد وحذيفة فنام حتى غطّ فنزلت، فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله، لا أبالي من نصرني ومن خذلني» وأصل هذا الحديث في صحيح مسلم.

وحديث أبي طالب وإرساله حرّاساً من رجال بني هاشم، أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبدالله، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فذهب ليبعث معه، فقال: «ياعم، إن الله قد عصمني لا حاجة لي إلى من تبعث» وأخرجه الطبراني، وأبو الشيخ، وأبو نعيم في الدلائل، وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يُحْرَس، وكان يُرْسِل معه أبو طالب كل يوم رجالاً من بني هاشم، يحرسونه فقال: «يا عم إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث».

فتركُ الروايات المتضافرة ـ الدالة بصريحها على مكية ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية، وأنها نزلت في موقف أهل مكة من رسول الله ﷺ وموقفه منهم، ومناسبة معناها لذلك ـ لا يستقيم مع سنن البحث الممحص لمجرد أن الآية في نظم التلاوة موضوعة في سورة مدنية بين آيات تعيب على أهل الكتاب ما عيب على أهل مكة من العتو في الكفر، وفضول الضلال مما جعل التناسب المعنوي بين الآية وبين ما سبقها ولحقها في نظم التلاوة متسق الوضع منسجم الربط، وهذا الترتيب في وضع الآيات هو أحد دعائم الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم.

الآية كلها نزلت بكامل جملها مرة واحدة بمكة أيام شدة الأزمات

ومما يحسن التنبيه إليه ما جاء في بعض الروايات وذكره بعض المفسرين مِنْ إفراد قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ وسلخه عن بقية الآية قبله مما يفكك الكلام، والآيةُ كلها مرتبط بعضها ببعض في وحدة معنوية تصوِّر في نزولها بمقتضى الروايات المتضافرة، وفي وضعها التوقيفي بمقتضى توافق المعنى وانسجام الربط بين مقاصد الآيات ونظم الجمل ـ معنى واحداً هو المقصود بالآية كلِّها.

وقد نزلت الآية بمجموع مقاطعها وجملها لتؤدي صورة من المعنى الموحد لا تكتمل ولا تتم إلا بجميع جملها وكلماتها مجتمعة على ترتيبها الذي أنزلها الله عليه.

فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ وقد ضاق ذرعاً ببعض ما أنزل إليه من شدائد الآيات المجبِّهة للمشركين، العائبة عليهم سوء مسلكهم الوثني؛ مما جعلهم ينفرون عن سماع القرآن ويباعد بينهم وبين رسول الله ﷺ، يا أيها الرسول، يناديه بهذا الوصف الملزم لتحمل مشاق التكليف مهما كانت العقبات والأزمات وشدائد المحن، وفادحات البلاء، وإلا فكيف يكون رسولاً لله تعالى برسالة تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتقيم أود الحياة واعوجاجها على سنن من الاستقامة لا عهد لها به من قبل ـ من لم يكن له من الصبر على المشاق ما يفوق صبر جميع أولي العزائم الماضية، ومن لم يكن له من مضاء العزيمة ما يسمو على عزائم أصبر الصابرين، ومن لم يكن له من الاحتمال لشدة ما يلقى من البلاء ما يقهر به عظائم الأحداث ومعضلات المشكلات.

هذا ما لا يكون أبداً في سُنن الله تعالى مع رسله الذين يصطفيهم لتحمل مشاق رسالاته، فكيف يقبل من خاتم المرسلين الذي جمع الله له في رسالته جميع فضائل ومشاق رسالات المرسلين.

فالرسالة إذاً أشرف التشريف البشري فهي أشق مراتب التكليف الإنساني، فالنداء بوصف الرسالة جامع لسمو التشريف ومشاق التكليف.

فإذا جاء بعد هذا النداء الأمر بالتبليغ كان معناه الإيذان بربط هذا التشريف، بتحقيق مضمونه الذي كان مصدر التشريف، فإذا لم يتحقق هذا المضمون فقد ذهب أصل التشريف.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: إذا لم تحقق ما كنت به رسولاً، وهو تبليغ جميع ما أنزل إليك من ربك تبليغاً وافياً كاملاً لا خوف معه ولا مداهنة لم تكن رسولاً، وهذا أبلغ من لو قيل: فإن لم تبلِّغ جميع ما أنزل إليك لم تؤدِّ حقَّ الرسالة، لأن التعبير القرآني يطوي تحته من الأبعاد

والزجر والإرعاب ما تنخلع لهوله القلوب، مع ما في الإبهام من التهويل المزعج ما لا تحيط به العبارة ولا يؤديه أسلوب غير أسلوب القرآن الحكيم.

وفي إضافة الرسالة في موقع النفي بجواب الشرط إلى ضمير المرسل ما يؤكد الزجر المرعب، مما جعل النبي ﷺ في أشد الحاجة إلى التلطف الودود ليبعث في نفسه الاطمئنان والسكينة، فجاء قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ وعداً إخبارياً قاطعاً مسح عن صدره ﷺ آثار الرعب والإيعاد الزاجر.

ولهذا جاءت الروايات كلها على اختلاف أساليبها ومناحيها تصور نفحات التلطف بالبشرى بما أنزل عليه ﷺ من السكون إلى لطف الود الإلهي، وما استشعرته طبيعة رسول الله ﷺ في جانبيها الروحي والبشري من السكينة وهو في أحضان العصمة الإلهية الشاملة، فلم يبالِ بخذلان من خذله ولا بنصر من نصره.

* * *

من أبطل الباطل ادعاء أن الإسلام تملّق الفقراء والمستضعفين

هذه هي صورة الإسلام، الدين الذي أرسل الله به محمداً ﷺ، فإذا دلف إليه مستجيباً مؤمناً به من الفقراء والمستضعفين والموالي والعبيد والرازحين تحت نير ظلم الطغيان المادي الوثني وفجور الشرك مع من دلف إلى ظله الظليل من ذوي الفِطَر النقية والعقول المستعدة والقلوب المفتوحة لتقبل الهدى والخير والنور من ذوي المكانة والشرف في أقوامهم شباباً وكهولاً - وهم الكثرة الغامرة في أعداد السابقين الأولين -؛ فَمِن أظْلم الظلم وأفسد المنطق والسفسطة الجوفاء القول على ألسنة أعداء الإسلام من المستشرقين في الغرب والشرق وتلاميذهم من تافهي (التبعيث) من الأحداث المراهقين الذين فقدوا معالم الشخصية الإسلامية ومقوماتها أمام سلطان الإلحاد المضطغن في صدور أساتذتهم - بأن الإسلام ثورة سياسية استغلت أحوال البيئة العربية الاجتماعية بما كان يسودها من ظلم فادح، يعتمد على اتساع هوّة الفوارق المادية التي لا تتلاقى في مسيرة الحياة، فأسرع إلى اعتناقه المستعبدون للقهر المادي الوثني الظلوم من المستضعفين في أرض العرب،

فكانوا نواة هذا الإسلام السياسي الثائر الأولى ودعامته التي قام عليها بناؤه.

وهذه أكذوبة عريضة القفا، زائفة المخبر، خادعة المظهر، بل هي أبطولة نسج خيوطها الحقد الصليبي الأسود، والفجور الصهيوني الحسود، وحاك نسجها الإلحاد الشيوعي الكفور الذي استشرى في هذا العصر، بين المفتونين من مراهقي مثقفي المسلمين

وقوف الثالوث الإلحادي المادي أمام دعوة الإسلام وعدالته

وهذا الثالوث الخبيث ـ الصهيونية، والصليبية، والشيوعية ـ هو الذي يقف اليوم بقواه المادية والفكرية وراء حركات الإلحاد في العالم، ولا سيما العالم الإسلامي في جميع أوطانه، والمسلمون عنه لاهون غافلون، ومهما اختلفت بهذا الثالوث المصالح الشخصية لا يختلف قطُّ في عداوته للإسلام وأهله، وشدة حرصه على إذلال المسلمين في أوطانهم واستعبادهم مادياً وفكرياً، والاستعبادُ الفكري عن طريق الثقافة التافهة والعلم الجهول أشد من الاستعباد المادي، لأن الأفكار إذا استُعْبِدت سهل عليها قبول كل شيء من صنوف الاستعباد الاقتصادي والاجتماعي والخلقي.

فالذين يغترون من قادة المسلمين وحكامهم بالخطب الرنانة والكلمات المعسولة وتأليف الجماعات لخلق جو من التقارب أو المشاركة المصلحيّة بين الحق والباطل مخدوعون، يسوقون أممهم وشعوبهم إلى مجازر الانحلال الخلقي والإلحاد الفكري، حتى يظفر بعقيدة الإسلام ونظمه وأخلاقياته ليقضي عليها بطرائقه الخاصة حتى يسلس له قيادها، وتذوب بين أيديهم عناصر مقوماتها، وتعجز أمام حيلهم وخداعهم مقاومتها، وتستسلم للذل والمهانة والاستعباد المادي والمعنوي، وتنهار شخصيتها في عقيدتها وأفكارها.

وليسمع حكام المسلمين المخدوعون قول الله تعالى: ﴿قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لِواذاً، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[1].

فالذين يقولون عن عمد وإصرار، أو عن جهل وتقليد أن نواة

---

(١) سورة النور آية (٦٣).

المجتمع الإسلامي كانت من الفقراء والموالي والعبيد والمستضعفين خاطئون مخطئون، لم يتفحّصوا تاريخ الدعوة الإسلامية، ولكنهم قرؤوا هذا التاريخ قراءة اعتمدت على روايات ضعيفة أو باطلة، وقد يكون لسمعة أصحاب الأسماء التي أسندت إليهم تلك الروايات أثر كبير في قبولها، وقد يكون للجهل المعتمد على التقليد أثر في تصديقها والاعتماد عليها.

ومهما يكن من الأمر فإن الدلائل التاريخية الممحصة قاطعة بأن ثلة السابقين الأولين التي كانت دعامة المجتمع الإسلامي في مكة بين أزماتها وشدائدها وفوادح بلائها؛ إنما كانت في كثرتها الغامرة من الأحرار ذوي الشرف والمكانة في منابتهم من قبائلهم وأقوامهم.

وثائق التاريخ أصدق دليل على أن طلائع الإيمان بدعوة الإسلام لم يكونوا من الفقراء والمستضعفين

وأصدق دليل نسوقه على صدق الواقع ما أجمع عليه الباحثون في السيرة النبوية ورواياتها، وما سجلوه في مؤلفاتهم، وهي موجودة متعالمة متعارفة، سواء أكانت مما امتدت إليه يد المطبعة فأخرجته إلى النور، وتداولته أيدي القارئين، أم كانت مما لا يزال مخطوطاً في خزائن مكتبات الأفراد والهيئات من إحصاءات لأسماء أولئك السابقين وتقصٍّ لأنسابهم في دقة عجيبة لا تهمل الاختلاف في بعض الأسماء الواردة في سلسلة بالنسب، رجالاً، ونساء، وقبائل، وأمكنة، وأوطاناً، وموالاة وحِلْفاً وعصبة ورَحِماً.

وقد بدأت هذه الإحصاءات بأول الأولين، الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه، وبمن رغبهم في الإسلام وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا.

قال ابن إسحاق: لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، فأسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا.

ثم قال ابن اسحاق: ثم أسلم أبو عبيدة، واسمه عامر بن عبدالله ابن الجراح، ثم أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه: قدامة وعبدالله ابنا مظعون، وعبيدة ابن

الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد، وخبّاب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، أخو سعد، وعبدالله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسُلَيط ابن عبد شمس، وعيّاش بن أبي ربيعة، وخُنيس بن حذافة بن قيس، وعامر ابن ربيعة، وعبدالله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وحاطب بن الحارث بن معمر، وأخوه خطاب بن الحارث، ومعمر ابن الحارث بن معمر، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطّلب بن أزهر ابن عبد مناف، والنحام نعيم بن عبدالله، وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، وخالد بن سعيد بن العاص، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وأبو حذيفة، واسمه مهشم، وواقد بن عبدالله بن عبد مناف، وخالد، وعامر، وعاقل، وإياس، بنو البكير بن عبد يا ليل، وعمّار بن ياسر، وصهيب ابن سنان.

هؤلاء خمسة وأربعون رجلاً، معهم عشر نسوة من المسمين بأنسابهن وبيوتهن وقبائلهن زوجات لبعضهم.

وأكثر هذا العدد قرشيون صليبة، وقليل منهم حليف لبعض بطون قريش، وأقل من القليل فيهم من يعد من الفقراء والمستضعفين.

وقد ذكر النويري في (نهاية الأرب) أسماء عدد ممن لهم سابقة إسلام وهم من غير قريش، ونسبهم إلى قبائلهم، فذكر منهم أباذر وأخاه أنيساً الغفاريِّين، وعتبة بن غزوان المازني. وعمرو بن عبسة السلمي وهو قديم الإسلام، وكان يقول: رأيتني وأنا ربع الإسلام، وقد سأل النبي ﷺ ومن معك على هذا الأمر؟ فقال له: (حر وعبد) يعني أبا بكر الصديق، وبلالاً.

والمقصود أن دعائم المجتمع الإسلامي الأول لم يكونوا من الأحداث والموالي والعبدان، والفقراء والمستضعفين، ولكنهم كانوا من أشراف بيوت قريش وغيرها من قبائل العرب، وكان فيهم شباب تجاوز سن الحداثة، فإذا رأينا في بعض مؤلفات السيرة النبوية رواية تتعارض مع الواقع الاحصائي الذي أجمع عليه العلماء والرواة كان من غير المستقيم مع طرائق البحث العلمي الممحّص أن توضع تلك الرواية الموهمة الواهمة في

ميزان - وهي لا تستعصي على التأويل - مع هذه الاحصاءات الثابتة الدقيقة.

ومن هذه الروايات الموهمة ما ذكره ابن سعد في الطبقات عن الزهري قال: دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سراً وجهراً، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله.

ويمكن أن يكون مراد الزهري - إذا صحت الرواية عنه - بأحداث الرجال شبابهم ممن كانوا دون الكهولة، وكانوا يعيشون بمعزل عن مجتمعات ملأ قريش، وهم كهولها وشيوخها ومجالسهم المليئة بالهُجر والفحش.

ويكون مراده بضعفاء الناس من تحرر من أبناء أشراف القوم عن ربقة عبودية ذل الانسياق إلى الأباطيل وترّهات الوثنية البليدة التي نسج بردها تقليد الآباء والأسلاف ممن عسا في جهالات الشرك ومهاوي الوثنية بعد إذ تبين لهم الحق في دعوة التوحيد، فاستجابوا لله تعالى وتركوا سلطان آبائهم وثرواتهم، ورضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبرسول الله ﷺ هادياً ومرشداً ومتبعاً، يرضون بما رضي به من التسامي عن متع الحياة الدنيا، واستغراقه في الدعوة إلى الله تعالى، وهداية الخلق وإصلاح مفاسد الحياة.

إسراع الشباب إلى الاستجابة لدعوة الإسلام اقتضته الملايمة بين الداعي إلى الله والمدعوين

على أن في إسراع الشباب إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ تناسباً طبيعياً يلائم أشد الملاءمة حال رسول الله ﷺ في سنه يوم بعث رسولاً ودعا الناس إلى الإيمان برسالته، وتصديق دعوته، دعوة الحق والهدى والنور والعزة والكرامة.

فقد كان ﷺ في عنفوان شبابه، كما قال عن نفسه ﷺ يوم جمع بطون قريش لينذرهم استجابة لقول الله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ «ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة».

وكان كهول قومه، وشيوخ قريش إذا مرّ بهم في مطلع رسالته قبل أن يباديهم بعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وقبل أن يشنفوا به ويعالنوه بالعداوة يشيرون إليه قائلين - كما يرويه الزهري - إن غلام بني عبد المطلب لَيُكلَّم من السماء.

وهكذا كان سير الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته متدرجاً مع الحياة في مدارج الزمن بدءاً في مهدها كما يبدأ كل حي، ونمواً في مسيرتها كما ينمو كل صغير فيكبر، ويشتد ساعده، ويقوى ساعياً ألوفاً لما يلايمه ويكون على شاكلته.

فإذا أسرع الشباب مقبلاً على الإيمان بدعوة الإسلام فكان درعاً حصينة لها وعضداً قوياً للرسول ﷺ على نشرها، وهي لا تزال في مطلعها، حافّين به، سامعين له، مهتدين بهديه، كان ذلك دليلاً على أن هذه الدعوة الهادية المصلحة إنما تؤثر بهدايتها في القلوب المستعدة لتقبل الخير، والفِطَر الصافية التي لم تصدأ مرآتها، ولم تلوّث بأوضار الترسب الوثني الموروث عن الجاهلية وقبائحها، وتلك هي قلوب الشباب الشابة، التي وجدت فيها دعوة الإسلام أرضاً خصبة لا يعوقها عن قبول البذر، وإنباته خبثُ سطح التربة ونشع الماء، وتعفن النزيز من طول مكثها دون تحريك وتقليب يعرضها للتطهير من جراثيم العقم والفساد.

أما الذين اسودّت قلوبهم، وصدئت فِطَرهم، وأظلمت أرواحهم، وتبلّدت إحساساتهم برشح الوثنيات من الكهول والشيوخ الذين قوّست حياة الجاهلية بأوزارها ظهورهم، فأولئك هم الذين ناصبوا دعوة الحق والتوحيد والهدى والنور العداوة، وأضمروا لها البغضاء، وشمّروا لمقاومتها، لأنهم فقدوا صفاء الفطرة التي كانت هي الوسيلة الوحيدة للملايمة بينهم وبين استجابتهم لما دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الخير، فأعرضوا وتولّوا عنها مدبرين، وثَنُوا أعطافهم مُشيحين، استكباراً في الأرض حتى قضى الله فيهم أمره، فهدى منهم من شاء بفضله، بعد أن محصتهم الأحداث وصهرتهم الوقائع، فدخلوا في الإسلام طائعين نادمين على ما فاتهم من فضل السبق إليه، وأضلّ منهم من شاء بعداً له، فكانوا هم الأخسرين، ولكن الله تعالى استخرج من أصلابهم من استودعها من أبطال الإسلام وقادة جهاده وجند كتائبه.

واستقام ميسم الدعوة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً شيباً وشباباً،

أحراراً وعبداناً، رجالاً ونساء، وبقي للسابقين فضل السبق الذي لم يلحقهم في فضله من جاء بعدهم ﴿وُكلًّا وعد الله الحسنى﴾.

خصائص مميزة للمجتمع المسلم ملأت قلوب أعدائه غيظاً عليه

وفي ظل العزائم القوية الماضية مضت مسيرة دعوة الإسلام وتبليغ رسالته غير مبالية بما يلقى المجتمع الإسلامي من المحن وفادح البلاء، مما بلغ بالدعوة مبلغاً أضفى على المجتمع الإسلامي خصائص ميزته وحددت كيانه، وأبرزت شخصيته العارمة القاهرة التي ملأت صدور ملأ الطغيان من المشركين وعبيد الوثنية البليدة غيظاً حاقداً، وحقداً مغيظاً، دفعهم إلى فجور العتو الخانق وإلى عناد الاستكبار المغرور.

بيد أن هؤلاء المشركين من عبيد الوثنية المادية وجدوا متنفس أحقادهم في أن يصبُّوا ثمالتها في القضاء على حياة المسلمين الاقتصادية، بعد أن عجزوا أن ينالوا من إيمانهم بعقيدتهم التوحيدية شيئاً بما أنزلوه بهم من قسوة الإيذاء، وفجور التعذيب الذي كان يزيد المسلمين قوة في رسوخ إيمانهم وشدة في تمسكهم بدينهم وإسلامهم.

والمتأمل في تتبع حال الرعيل الأول من السابقين يعلم أنهم كانوا يحيون حياة اقتصادية تتمثل في التجارة والعمل الذي كانوا يكسبون به أرزاقهم، ولم يعرف أن أحداً منهم كان عاطلاً يتكفَّف الناس، وقد كان هذا الجلد في العمل أغيظ لفجار الشرك وأشجى لملأ قريش، فوجهوا إليه نفوسهم الشريرة نهباً وتكسيداً وإعاقة.

نهب أموال المسلمين وتعطيل حياتهم الاقتصادية كان ديدن ملأ الكفر وعبيد الوثنية

روى البخاري ومسلم، وأحمد وغيرهم عن خبّاب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دَيْن فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، فقال: إني إذا مت ثم بُعثت جئتني ولي مال وولد فأعطيك. فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ إلى قوله ﴿ويأتينا فرداً﴾[1].

وفي قصة هجرة صهيب رضي الله عنه أنهم لم يتركوه يهاجر حتى شرى

---

(١) سورة مريم آيات (٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠).

نفسه منهم بجميع ماله، وفيه أنزل الله تعالى قوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد﴾[1].

وفي قصة هجرة عبدالله بن جحش وأخيه عبد بن جحش المكنّى بأبي أحمد وآلهما رجالاً ونساء هجرة موعبة واستيلاء أبي سفيان بن حرب على دورهم لأن بنته الفارعة كانت تحت أبي أحمد بن جحش، ما يدل على حالة المسلمين الاقتصادية، ويدل على مبلغ الظلم الذي ادّرعه الظالمون من فجار الكفر في نهب أموال أولئك المسلمين.

قال ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة): فعدا أبو سفيان على دارهم فتملّكها إذ بقيت يباباً لا أحد بها.

وقال ابن إسحاق: ثم هاجر عبدالله بن جحش، واحتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد، وكان رجلاً ضرير البصر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعراً وكانت عنده الفارعة ابنة أبي سفيان ابن حرب، وكانت أمه - أي أبي أحمد - أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغُلِّقت دار بني جحش هجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وهم مصعدون إلى أعلا مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً، ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفّس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يوماً ستدركها النكباء والحوب

ثم قال: أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها.

ولم يقف إجرام ملأ قريش عند هذا الحد في حربهم الاقتصادية للمجتمع الإسلامي، بل كانوا يتتبعون الوافدين إلى مكة يحذّرونهم لقاء رسول الله ﷺ والدخول في دينه، ويهدّدونهم بتكسيد تجارتهم إن كانوا تجاراً ويغرون بهم سفهاءهم.

قال ابن إسحاق: وكان أبو جهل الفاسق هو الذي يغري بهم في

---

(1) سورة البقرة آية (٢٠٧).

رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهنَّ حلمك ولنفيلنَّ رأيك، ولنضعنَّ شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدنَّ تجارتك، ولنهلكنَّ مالك وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

لم يغن ملأ الفجور محاربة المسلمين في حياتهم الاقتصادية فردياً فلجؤوا إلى المحاربة الجماعية

وكأنما رأت قريش أن هذه الحرب الاقتصادية الفردية التي يُتتبع فيها الأفراد في وسائل كسبهم وأرزاقهم في التجارة وغيرها من الأعمال لم تُجْدِهم نفعاً، ولم تفتّ في أعضاد المسلمين، ولم تثنِ من عزائمهم ولا أضعفت من قوتهم في التمسك بعقيدتهم ورسوخ يقينهم، تداعت إلى التي لاشوى لها، وتنادت إلى عظيمة العظائم، قاصمة الظهور، ومزلزلة النفوس، وخالعة القلوب من مثاوي حنايا أضلاعها، تلكمُ هي آخر ما بقي في كنانة مكرهم من سهام الفجور العنيد.

فتجمع ملأ قريش ممن نخرسوس الفناء أدمغتهم، وقوّس ظهورهم، فائتمروا وفكروا وقدروا، وتوهَّموا وتخيَّلوا، وهاموا في أودية العتو الفاجر، وانتهى بهم مكرهم إلى أن يسدُّوا على المسلمين جميع طرائق الحياة التي تصلهم بالناس، ويحاصروهم حصاراً جماعياً خانقاً، يمنعونهم فيه من أي معاملة مع أحد، في تجارة أو عمل، فلا يبايعوهم ولا يناكحوهم، ولا يأخذون منهم ولا يعطونهم، حصاراً لا يفرق بين الرجال والنساء والأطفال، حصاراً يمنع فيه كل مسلم وكل إنسان يتعاطف مع المسلمين وهو على شركه ووثنيته من مباشرة أي حركة حرة، تكون مصدراً لكسب أو عمل، حتى يفقدوهم كل أمل في الحياة، وحتى يتبدد ما في أيديهم من مال أو متاع.

وكان هذا الائتمار أخبث ما وصل إليه خبث الفجور، لأنه قتل لأمة من الناس بالجوع والعري والإظماء، لا رحمة فيه لشيخ هرم، ولا لامرأة ضعيفة، ولا لطفل رضيع، ولا لعاجز مريض، ولا تحركت فيه عاطفة قرابة أو نخوة مروءة، فكان عملاً جنونياً يشمئز أحط الحيوانات منه.

وعلم النبي ﷺ بهذا الائتمار الخبيث، وقدّر عواقبه الوخيمة، فأشار على أصحابه بالهجرة الثانية إلى الحبشة ليتخفف من أعباء شغل فكره

بحمايتهم وتدبير أمورهم، ولينشروا دعوة الحق وهم آمنون، فهاجر إليها من استطاع منهم، وكان هؤلاء كثرة من أشراف بيوتات قريش بزعامة جعفر ابن أبي طالب، وكانوا أكثر من مائة من الرجال، ومع بعضهم زوجاتهم، وكان من أثر هذه الهجرة العظيمة في نشر الدعوة ما ذكرناه مفصّلاً في مناسبته عند الحديث عنها، مما دلّلنا به على أن هجرة أصحابه ﷺ لم تكن فراراً ولا هرباً، وإنما كانت نوعاً من الانسياح في الأرض لتبليغ رسالة النبي ﷺ.

وبقي بمكة مَنْ بقي مع النبي ﷺ، الذين دخلوا معه حصار الشِّعْب وأقاموا به ثلاث سنين، لا يصل إليهم شيء ولا يصلون إلى شيء، وظلُّوا معتصمين بالجلد والصبر حتى فرّج الله عنهم، وخرجوا منه كرماء أعزاء، وقد خزيت قريش وملؤها من أهل الفجور.

وبُعَيْد هذا الحصار القاطع لِصِلاتِ الأرحام مات أبو طالب، وماتت بعده بأيام السيدة الجليلة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً، وضاقت عليه مكة، فذهب إلى الطائف لعله يجد لدعوته سميعاً، ورجع منها مكلوم الفؤاد لما لقيه من أذى، ولكنه ﷺ لم يفتر قط عن نشر دعوته وتبليغ رسالته.

وقد تلطف الله تعالى بنبيه ﷺ ليمسح عن صدره آلام لقاء الطائف ويخفف عنه حزنه على زوجه وزيرة الصدق له، وعلى عمِّه الذي ظلّ حادباً عليه، مانعاً له من سفاهة قومه وإيذائهم، فأرسل إليه ذخيرة الغيب في حمل لواء الدعوة ونصرتها وتمت بيعات الأنصار، بيعة إثر بيعة حتى ختمت ببيعة (فتح الفتوح) التي فتح بها باب الهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها الصحابة تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وعشائرهم، وموارد كسبهم، مضحّين بكل ذلك في سبيل عقيدتهم ودينهم ورسالة نبيهم ﷺ.

كانت الهجرة النبوية ضرورة اجتماعية تتطلبها حماية المجتمع المسلم

أفكان من الخير للدعوة الإسلامية أن يبقى رسول الله ﷺ بعد تمثلّ هذه الصورة التي تجوزنا في تصويرها لعوامل الهجرة النبوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مكة وحيداً بعد هجرة أصحابه من السابقين الأولين، وهم مرملون فقراء لا يجدون في أيديهم سبداً ولا لبداً، ولا يملكون

من حطام الدنيا شيئاً، والفقر فتنة تُخشى بوائقها ولا سيما إذا كان فقراً مفروضاً بقهر العتو والجبروت وطغيان العناد الفاجر ونهب الأملاك، واغتصاب المرافق، وتعطيل الأعمال؟

وإذا بقي رسول الله ﷺ في مكة دفعاً لتوهم المتوهمين أن هجرته ﷺ إنما كانت خوفاً على نفسه، وفراراً من أعدائه، وهرباً من الإيذاء، والبلاء، فماذا كان يمكنه أن يصنع لنشر دعوته وتبليغ رسالته في جو مكة الخانق المظلم؟ وماذا يكون حال أصحابه الذين سبقوه بالهجرة وهم ينتظرون قدومه على مهجره ليقود مجتمعهم ناشراً دعوته مبلّغاً رسالة ربه.

أو يكون من الخير للدعوة ونشرها، وتبليغ الرسالة ودفعها إلى الأمام في سيرها أن يترك رسول الله ﷺ هؤلاء النخبة الذين ربّاهم بآيات التنزيل، وأدّبهم بحكمة التأسِّي به ﷺ حتى جعل من كل فرد منهم أمة في إهاب رجل، يهاجرون دون أمل يستشعرون معه أن هجرتهم لم تكن صيحة في وادي الضياع؟.

أو يترك أولئك الغرّ الميامين من أبناء (يثرب) الذين بايعوه على أن يكونوا ذادة وحماة له، ولدعوته، وجنداً في كتائب رسالته، يفدونه بأرواحهم وأموالهم أنصاراً لله ولدينه ـ نهباً للظنون والأوهام والتخيلات، وهم أحوج ما يكونون إليه قائداً مربياً، يربيهم كما ربى إخوانهم المهاجرين الأولين من قبل، ويرعاهم بحكمته، وينظِّم مجتمعهم في تركيبه الجديد.

إن المجتمع الإسلامي بتأليفه الجديد في أشد الحاجة إلى قائده، يمضي به قُدُماً وبيده زمام مسيرة رسالته إلى آفاق الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، يرعاه وحي الله مسدِّداً هادياً، مشرِّعاً حاكماً، مؤدباً مربياً.

فهل غير رسول الله ﷺ يستطيع أن يحمل أمانة هذه القيادة بخصائصها النبوية المميز بها، وحقيقتها العليا التي تعتمد كل الاعتماد على توجيه الله وإرشاده، وأمره ونهيه، وتعليمه، ورعايته.

إذاً فليمضِ القائد النبي ﷺ والرسول الأمين على بركة الله إلى

هجرته ليعتلي ذروة سنام مسيرة رسالته، غير خائف أحداً من الخلق، ولا مبال بما لقي ويلقى في سبيل تبليغ ما أنزل إليه من ربه، ومن حوله المجتمع الإسلامي حافين به، مرهفين آذانهم لتلقف كل ما ينطق به من حكمة وموعظة، فاتحي قلوبهم لتلقي معاني كلمات الله يرتلها على مسامع الدنيا، ويتعرفوا إلى حقائق رسالته في حركاته وسكناته، عملاً في واقع الحياة.

أو لم يكن من الضروري أن يهاجر رسول الله ﷺ ليتدارك بحكمته وحسن سياسته ومكارم أخلاقه، وتسديد الله له بعونه وتوفيقه نفوس هؤلاء الصفوة وهم من الشرف بين أقوامهم في الذروة، ليكون بينهم يتأسون به، ويقتدون بأحواله في تقلله من الدنيا وأسبابها، وبذله نفسه في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى يرسخ في أفئدتهم أن الهجرة ضرب من التضحية في سبيل هدف أجلّ وأعظم من الثروات والأوطان والأهل والعشائر؟.

أو لم يكن من موجبات سير الدعوة إلى الأمام أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى مجتمعه الإسلامي الذي يتألف من عناصر متوافقة في العقيدة ورسوخ الإيمان مختلفة في وسائل الاستقرار والعيش، فالأنصار مستقرون في بلدهم، وبين أيديهم ثرواتهم يثمّرونها بطرائقهم في الزراعة والتجارة، والمهاجرون طارئون عليهم، وليس في أيديهم من حطام الدنيا قليل ولا كثير، وهم إذا كانوا قد وجدوا من كرم الأنصار ما فاق كل كرم عُرف بين الناس من قبل ومن بعد، مما أنساهم آلام فراق أوطانهم والتأسف على ضياع ما كان لدى كثير منهم من ثروات وأموال، لكن ذلك كان دفعاً لحاجة الوقت لا تطمئن إلى الرضى به النفوس الأبية سبيلاً دائمًا للحياة، فالأمر ليس أمر سدّ خلّة موقوتة، ولا أمر إحسان إن فقد التحديث بالمنة فيه، فإنه لم ولن يفقد الشعور بهذه المنة وهي أسر الأحرار.

استقرار المجتمع المسلم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً هدف من أهداف الهجرة

وإنما الأمر أمر مجتمع يجب أن يستقر على صورة من النظام الاجتماعي الدائم الذي تمتزج خصائصه المادية والمعنوية فتصبح عنصراً واحداً، تقوم عليه شخصية المجتمع الموحَّد في عقيدته وتعبداته وأنظمته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والتربوية المتلقاة من وحي الرسالة كتاباً

منزلاً، وحكمة ملهمة، وقدوة عملية؟

بلى إن ذلك كان من موجبات الدعوة وتبليغ الرسالة وتلقّي الوحي، وتنظيم المجتمع على أسس من الاستقرار الاقتصادي مع الاستقرار الاجتماعي والسياسي تنظيماً لا يقف عند مشارف العدل الرحيم، والإيثار الكريم، وإنما يجب أن يكون تنظيماً يرد رحمة العدل وكرم الإيثار إلى حق المشاركة الواجبة في العمل وأسبابه ومسبباته مشاركة لا تستشعر الامتنان، ولكنها مشاركة يشعر كل فرد فيها بحق يستمد قوته من المشاركة في العمل والتثمير والانتاج، ووحدة الإخاء.

وكان ما أراد الله وما أمر به نبيه ﷺ تحقيقاً لمقتضيات صيانة المجتمع وحفظ خصائصه ومميزاته المقومة لحقيقته. وهاجر النبي ﷺ وتلقّاه مجتمعه بالحب والاعتزاز والطاعة في المنشط والمكره، وحفّ به مجتمعه، وألقى إليه تقاليد تنظيمه في حربه وسِلْمه على أسس ودعائم اشتركت في إرسائها القوة الذاتية لهذا المجتمع النابعة من أصالة التشريع المرتبط بالعقيدة التوحيدية، ورسوخها في منازل اليقين، ومن المرونة المواثمة للحياة المستمدة وجودها من عموم الرسالة وخلودها لتكون رسالة كل جيل في كل زمان ومكان.

هذه هي في إيجاز عوامل الهجرة النبوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تفجرت منها دوافع هذه الهجرة المباركة، وتمت على أسسها وأصولها وتحققت بها أهدافها.

كيف بدأت هجرة النبي ﷺ
تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات

كان اكتمال هجرة الصحابة في صورته البارعة أغيظ شيء لعبيد الوثنية

كانت الصورة البارعة التي تم بها إنجاح هجرة أصحاب النبي ﷺ المستوعبة لجماهيرهم أفراداً وجماعات إلى المدينة المنورة ـ حيث إخوانهم الأنصار ـ أغيظ شيء مسّ قلوب المستكبرين من طغاة المشركين وملئهم، وأوجع مانغل أفئدتهم، ونكأ جراحهم الممدة بعد بيعة (فتح الفتوح) وهي البيعة الكبرى التي بايع فيها زعماء الأنصار وممثلوهم السبعون رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه أُزرهم، ويحمونه ودعوته من كل قوة بشرية تناوئه أو تقف أمام تبليغ رسالته من الأحمر والأسود، فجن جنون الفجّار من سدنة الشرك وعبيد الوثنية وطواغيتها في مكة، لأنهم أحسُّوا أن أرض عتوهم الفاجر تميد تحت أقدامهم، وأن دعوة التوحيد والعدل التي جاء بها محمد ﷺ قد وجدت في (يثرب) مستقراً آمناً، وأنصاراً تخشى بوادرهم، وقوة قاهرة غلّابة، أرعبتهم، وتخوفوا عواقب مواجهتها، فسُقط في أيديهم، وعضُّوا أنامل الغيظ، ورأوا أنهم قد ضلُّوا في ضلالهم وفجروا في طغيانهم، وخسروا معركة الوثنية المادية البليدة أمام دعوة الحق والتوحيد والعدالة والحرية والمساواة والإخاء منذ اليوم.

ورأوا أن محمداً ﷺ سيلحق بأصحابه ليجمع أمره ليستأصل شأفتهم، ويقضي على تشامخهم واستكبارهم ليطهِّر أرض البلد الحرام من أرجاسهم، وإذاً فما بقاؤهم في الحياة، وخيرٌ لهم أن يموتوا بغيظهم، ويتوسّدوا القبور لتغطِّي خزيهم الذليل.

إن ذلك إذا تمّ أصبحت مكة وطغاة قريشها بين عشية وضحاها في

رعب الطغاة خوفاً من خروج رسول الله مهاجراً إلى أصحابه

قبضة يده ويد أصحابه الذين عذّبوهم عذاباً لا طاقة لبشر على احتماله والصبر عليه، يأخذونهم كما يأخذ الإعصار القاصف أعجاز النخل الخاوية، فيبيدونهم كما يبيد السيل الجارف فقاقيع النزيز الطافية على أخابث النشع لتطهير الأرض من أوضار التعفن الوبيء، الذي أفسد فطرهم وأسقم قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم.

حذرت قريش وفجّار ملئها خروج رسول الله ﷺ من مكة لئلا يصل إلى أنصاره حيث القوة والمنعة والإيمان والفداء والتضحية والبطولة وصدق الإخلاص لدعوته، فعرفوا أنهم مأكولون بسيوف المهاجرين والأنصار، يمضغونهم كما تمضع الرحى هريس الطحين لو أن محمداً ﷺ وصل إليهم، وأمسك بيده زمام قيادهم، وأحكم بسياسته نظام مجتمعهم القوي الرهيب.

تداعي طغاة قريش للمكر بالنبي ﷺ والتآمر على قتله

فتداعى ملأ قريش ليأتمروا، وتنادوا ليمكروا، واجتمعوا ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، واتعدوا يوماً سموه يوم (الزحمة) لتزاحمهم بغوغائهم ورعاعهم وأراذل سفهائهم انتظاراً لما ينتهي إليه أمر أشْرافهم.

وقد ذكر ابن دحية في المولد أن المجتمعين في دار الندوة كانوا مائة رجلٍ وذكر ابن دريد في الوشاح ـ كما نقله الزرقاني ـ أنهم كانوا خمسة عشر رجلاً.

والظاهر أن هذا ليس اختلافاً، وإنما ذكر ابن دحية العدد الذي اشترك في المشاورة، وذكر ابن دريد العدد الذي وقع عليه اختيارهم لتنفيذ ما ائتمروا به من قتل النبي ﷺ، وهؤلاء الذين يمثلون بطون قريش وقبائلها عملاً برأي غميز الرجولية الفاسق أبي جهل ورأي شيخه النجدي المتأبلس، حينما تداولوا الرأي فيما يدفعون به هذه النازلة التي أشجتهم وأخذت بحلا قيمهم، وكتمت أنفاسهم وأحاطت بهم لتقضي عليهم قضاء مبرماً يذهب بأمجادهم الجاهلية الوثنية، وتنهار تحت معاولها مفاخرهم المادية، وقال بعضهم لبعض وهم يمكرون: إن هذا الرجل ـ يقصدون محمداً ﷺ ـ قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله لانأمنه على الوثوب علينا فيمن تبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. ودارت مشاوراتهم حول ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى

تذكيراً وامتناناً على عبده ورسوله بنعمته: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾[1].

وتقول روايات السِيَر بما يشبه الإجماع إن إبليس حضرهم في ائتمارهم وكان مقرِّر حشدهم، يزيِّف ما لم يعجبه من آرائهم، ويمتدح ما يوافق خبثه ونجيس إجرامه، وكان حضوره متخفياً ليضلِّل غوغاءهم في صورة أعرابي غريب عليهم على هيئة شيخ نجدي، فلما رأوه واقفاً على باب دار ندوتهم قالوا له: مَنْ الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتّعدتم عليه فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يَعْدِمَكم منه رأياً ونصحاً فقالوا له في بلاهة حمقاء وتلهف مستنجد: أجل فادخل، فدخل معهم، وتولّى إدارة أحاديثهم، فكان يسمع ويفنِّد، حتى إذا انتفخ سِحْرُ فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل، فتثاءب وتمطى، وتنفس حقداً فاجراً ومال بكلكله على شيخه النجدي المتأبلس ليتلقى وحيه بعد أن فنّد جميع ما قال القوم من فجور، ثم قال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قال القوم في لهفة الغريق المستنجد بقشة تتقاذفها الأمواج العاتية: وما هو يا أبا الحكم؟ قال ـ وشيخه النجدي المتأبلس يضحك ساخراً وينظر إلى غميز الرجولية نظرة متعابثة، ويرد عليه غميز الرجولية نظرته بنظرة من جنسها ـ وكأنما يقول له: عفواً شيخ نجد، منك وإليك، ويقول غميز الرجولية بعد هذه المهارشة العابثة بينه وبين شيخه النجدي المتأبلس: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً، جليداً، نسيباً، وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فيتفرق دمه في القبائل جميعاً، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا منا بالدية والعقل فنَدِيه ونعقله لهم.

فقال شيخه النجدي المتأبلس متنفجاً مأخوذاً إعجاباً وفخراً برأي ربيبه وتلميذه غميز الرجولية الفاسق أبي جهل: الرأي ما قال الفتى، هذا الرأي،

---

(١) سورة الأنفال آية (٣٠).

لا أرى غيره، وتفرقوا على ذلك وأخذوا يعدّون العدة لتنفيذ ما مكروا به.

قصة إبليس ضرب من الخيال المجنون

ونحن لا نقيم وزناً لأبْلَسة الشيخ النجدي وسواء لدى البحث أكان هذا المتأبلس شيخاً نجدياً من أناسي نجد ـ وكان صفوهم مع أعداء رسول الله ﷺ ـ أم كان إبليس عينه تزيا في هيئة شيخ نجدي أم لم يكن الذي توهموه شيئاً، وإنما هو صورة انتزعها من الوهم المتخاذل بعضٌ من مسّهم الشيطان فتخيل وخال، وزعم وتقوّل، فالمسألة لا تتغير معالمها الحاقدة المستخذية، وليس بين الصدق والكذب عند عقلاء المجانين ومجانين العقلاء حاجز يفصل بينهما، فصدقهم كذب، وكذبهم ضلال وتمويه، وقدرةُ الله تعالى لا يتعاظمها شيء، والأمر متمكن في دائرة الإمكان قد يكون مما كان، وربما لم يكن قد كان، لأنه لم يثبت فيه خبر صحيح عن رسول الله ﷺ، وكان ما جاء فيه رواية مرسلة عن ابن عباس لم يثبت لها سند يمكن التشبث به والاعتماد عليه، ومهما يكن من أمر فقد انتخب الملأ من قريش بعض طواغيتهم ممن يمثلون قبائلهم لينفِّذوا ما اجتمعت عليه كلمتهم من الفجور الفاجر، فاختاروا خمسة عشر رجلاً في رواية، أو خمسة رجال في رواية أخرى كان قائدهم فتى إبليس وربيبه، غميز الرجولية الفاسق اللعين أبا جهل.

قال الزرقاني: وفي خلاصة الوفاء: وصوّب إبليس قول أبي جهل: أرى أن يُعطى خمسة رجال من خمس قبائل سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد.

ثم أراد الزرقاني أن يوفق بين رواية خلاصة الوفاء وغيرهـا من الروايات القائلة بتخير فتى من كل قبيلة يعطى سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد، فقال الزرقاني في توفيقه: فلعلهم استبعدوا عليه قوله من كل قبيلة، إذ لا يمكن عشرون مثلاً أن يضربوا شخصاً ضـربة واحدة، فقال لهم: خمسة رجال.

وهذا التوفيق ينظر إلى حرفية العبارة، وليس المقصود أن تقع الضربة من الجميع، وإنما المقصود أن يشترك جميع الممثلين للقبائل في ارتكاب الجريمة، سواء أوَقعتْ الضربة منهم أو من بعضهم دون أن يعرف الضارب بشخصه

وعينه، فتنسب الجريمة إلى الجميع متقاسمين فجورها فيما بينهم على سواء.

إشكال ضعيف

ومن أغرب ما ذكر في هذا المقام أن القسطلاني في المواهب فرض عدد الذين تربّصوا على باب النبي ﷺ للوثوب عليه وهو نائم على فراشه ليغتالوه مائة رجل، واستشكل ذلك برواية ابن أبي حاتم التي صححها الحاكم من حديث ابن عباس، قال: (فما أصاب رجلاً منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً) قال القسطلاني في دفع هذا الإشكال المتوهم: لا يشكل على القول أنهم كانوا مائة وقتلى بدر سبعون، لجواز أن يكون التراب الذي كان بيده - ﷺ - فيه حصى فما أصابه الحصى قتل، ومن أصابه التراب لم يقتل.

وهذه توهمات لا حقيقة لها، لأن الذين قالوا: إن العدد كان مائة رجل لا يعنون العدد الذي اختير لتنفيذ المؤامرة، فتربصوا على باب النبي ﷺ يتحينون غِرّة ليثبوا عليه وهو نائم على فراشه، وإنما يعنون العدد الذي اشترك في المشاورة في دار الندوة.

أما العدد الذي انتخب للتنفيذ فكانوا خمسة عشر رجلاً، أو خمسة رجال على الروايتين السابقتين، لأن قبائل قريش وكبار بيوتاتها لا تبلغ عدد المائة ولا نصيفها حتى يختار من كل قبيلة أو بيت فتى يبلغون في مجموعهم المائة لتنفيذ الجريمة النكراء، ولأنه يبعد جداً اجتماع مائة رجل على باب النبي ﷺ لقصد اغتياله، ولا يشعر بهم آل النبي ﷺ من بني هاشم، وبيوتهم متداخلة ومتقاربة من بيت النبي ﷺ، ويكاد يكون محالاً أن آل بني هاشم على علم بهذه المؤامرة الفاجرة، وهذا التربص الخبيث ثم يتركون المتآمرين المتربصين دون أن يتعرضوا لهم بشيء من الممانعة والتحرش بهم ومقاتلتهم.

بدء النهاية في أخبث مؤامرة

ولما استقر أمر المتآمرين على إطفاء أنوار شمس الحياة بنفخة من فجور أحقادهم وعتو طغيانهم جاء جبريل إلى النبي ﷺ وأخبره بالقصة، وقال يبلغه عن الله تعالى: «لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه».

وأقبل الليل زاحفاً على آفاق الحياة يلفها بثوبه القاتم، كأنه يحبو في زحفه وثقل خطوه حبواً يجر به أذياله، والعتمة بظلالها على الأرض متهامسة

بأصوات كفحيح الأساود في كهوف الجبال المستعرة بفيح جهنم، وأشباح الحياة قد ابتلعها الظلام في جوفه، ونام الكون في مهاد الرعب الأخرس، وأقبلت الشياطين بحفيف أجنحة من اللهب الأسود يقودون المتربصين بالحياة في نبضها المتوثب ليئدوها وقلوبهم من الهلع واجفة، وأبصارهم من الرعب زائغة.

وحطّت بهم الشياطين على باب محمد ﷺ يرصدونه حتى ينام ليثبوا عليه ويقتلوه.

يا لهول الحياة؟! تكاد السموات يتفطرن، وكادت الجبال تخر هدًّا! أيقتل محمد الهادي ﷺ في لحظة واحدة بضربة واحدة، وتنشق الأرض، وتتناثر الكواكب، وتنتهي الحياة إلى ظلام مفرَّغ، لا يعلم له أول ولا آخر من قبل أن يقضي الكتاب أجله، ولمّا يبلّغ محمد الهادي ﷺ رسالته الهادية الخالدة؟! لا، لا، ولينقشع هذا الظلام، ولتبرز الحياة، ولتشرق الشمس، وليبلِّغ محمد الهادي ﷺ رسالته الهادية، ولْتَبْلُغ أجلها من الخلود، ولتذهب شراذم الشياطين وربائبهم إلى أودية الجحيم مشيّعة مع إبليسها بلعنات الله تعالى وخزيه إلى أبد الآبدين.

إشراق شمس الهداية وفداء الحياة في شخص قيّمها

ولتبدأ رسالة الخلود، رسالة محمد الهادي ﷺ سيرها، وليمض محمد ﷺ إلى أصحابه وأنصاره مهاجراً وداعياً إلى الله مبلِّغاً رسالات الله، متلقياً وحي الله، بشرائعه وأحكامه، ناشراً دين الله، معلماً ومربياً مجاهداً مصلحاً.

ورأى رسول الله ﷺ مكان المتربصين به، فقال لربيب النبوة علي رضي الله عنه: «نم على فراشي وتسجَّ ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم».

وصدع علي رضي الله عنه بأمر رسول الله ﷺ غير عابىء بما قد يكون من عواقب مهما كان شأنها، ولا ناظر إلى ما حوله من أخطار تكتنفه وتحف بجوانبه، فتسجّى ببرد رسول الله ﷺ الذي كان ينام فيه، ونام على فراشه يُورّي عنه ويفديه بنفسه.

وخرج رسول الله ﷺ على المتربصين به في رسوخ اليقين، وثبات الرواسي الشامخات وهم ينظرون بعيون مفتّحة ولكنها لا تبصر، وأبدان يقظى ولكنها مخدّرة الاحساس، مسكرة الشعور كأنها أشباح نخل خاوية، وأخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب، وجعل ينثره على رؤوسهم وهو خارج عليهم، تحقيراً لشأنهم واستهانة بمكرهم وسوء مكايدتهم، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ فلم يبق منهم رجل إلا وضع على رأسه تراباً. قال ابن إسحاق وتبعه سائر من ألّف في السيرة النبوية من المتقدمين: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى حيث أراد أن يذهب، قال ابن كثير في (البداية): وهذه القصة قد رواها الواقدي بأسانيده عن عائشة وابن عباس، وعلي وسراقة بن جعشم وغيرهم.

وقد كان خروج رسول الله ﷺ لهجرته سراً لم يعلم به ـ كما يقول ابن إسحاق ـ إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر، فأما علي ابن أبي طالب فأخبره ﷺ بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس.

وهذه خِصِّيصة لعلي رضي الله عنه لمكانه من النبي ﷺ ومنزلته الخاصة في قرابته وبيئته، لأنه ربيبه وأعرف الناس بالنبي ﷺ مدخلاً ومخرجاً وأعلمهم بأحواله وفي ثقة الناس به.

اختلاف الروايات في مذهب النبي ﷺ بعد خروجه من بيته

وقد اختلفت الروايات اختلافاً عريضاً لا تتلاقى أطرافه إلا بنظر موفّق يردّ بعضها إلى بعض في معرفة أين ذهب ﷺ بعد خروجه من بيته ليلاً تاركاً المتربصين في خيبتهم وخسرانهم يرصدون علياً وهو نائم على فراش النبي ﷺ يتوهمونه محمداً ﷺ وهم في سكرة الخزي الكسيح يعمهون.

ورواية البخاري وهي أصح ما روي في بدء الهجرة النبوية تقول: إن

النبي ﷺ لم يذهب إلى بيت أبي بكر الصديق، ومنه خرجا إلى غار ثور إلا في نحر الظهيرة من اليوم الذي أعقب ليلة خروجه ﷺ، فأين قضى ﷺ الليلة التي خرج فيها من بيته تاركاً علياً على فراشه ونصف اليوم الذي بعدها قبل أن يذهب إلى بيت صديقه أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم تجرِ به عادته في الذهاب إليه، مع أنه كان دائم الذهاب إليه في كل يوم بكرة وعشية كما هو صريح حديث عائشة عند البخاري؟؟.

وهذا الاختلاف في الروايات المتعددة يسدل على الموضوع ستاراً من الغموض يتطلب في الكشف عنه تتبع الروايات بالنظر والموازنة والمقاربة، ليجعل منها صورة متوافقة لخط السير الذي سلكه رسول الله ﷺ بعد خروجه من بيته ليلاً وهو عازم على الهجرة التي أذن الله تعالى له فيها.

سياق رواية البخاري مع بعض التصرف

يقول الامام البخاري بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من حديث الهجرة الطويل الذي قالت عائشة في صدره: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين. ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية.

ثم ذكر الحديثُ خروج أبي بكر مهاجراً إلى الحبشة حتى بلغ برك الغِماد فقابله ابن الدغّنة، وذكرت عائشة قصته معه ورد أبي بكر جوار ابن الدغنة ورضائه بجوار الله تعالى، ثم ذكر الحديثُ قول النبي ﷺ لأصحابه: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر إليها مَنْ هاجر من أصحابه، وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال«نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر.

ثم قال البخاري: بالإسناد نفسه قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، قال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي؟! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت عائشة: فجاء

رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرجْ مَنْ عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «فإني قد أُذن لي بالخروج» فقال أبو بكر: فخذ بأمي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله ﷺ «بالثمن» قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، فقالت عائشة: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار بجبل ثور فكانا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْل حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغَلَس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي، هادياً خِرّيتا، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، ودفعا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل.

نظر وتحقيق في حديث البخاري

هذه هي أصح رواية في باب الهجرة النبوية، بيد أن البخاري رحمه الله تعالى لم يذكر ما كان من مكر قريش، وهو السبب المباشر في الإذن بالخروج والهجرة، وقد امتن الله تعالى على رسوله ﷺ إذْ نجّاه من مكرهم وائتمارهم به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، كما لم يعرض البخاري إلى قصة اجتماع قريش في دار الندوة للتشاور في أمر النبي ﷺ، وما انتهوا إليه من إرادة اغتياله ﷺ اغتيالاً جماعياً ليتفرق دمه في قبائل قريش، فيعجز قومه عن مقاتلة جميع قبائل قريش ويرضون بالدية، وما كان من اجتماع منتخبيهم بباب النبي ﷺ لينفِّذوا جريمتهم الفاجرة، وما كان من خروج النبي ﷺ عليهم وتبييته على فراشه علياً، ثم انصرافه ﷺ إلى حيث يريد حتى ذهب

إلى بيت أبي بكر في اليوم التالي في ساعة يشتد فيها قيظ مكة ويقيل فيها الناس. يلتمسون الراحة في الظلال.

كما لم يعرض البخاري لمقدم رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر من أين كان؟ ولماذا اختار رسول الله ﷺ هذا الوقت (نحر الظهيرة) في هذا اليوم على الخصوص، ولم ينتظر إلى وقته المعتاد الذهاب فيه إلى بيت صديقه، وهو العشي؟ هل أوحي إليه بشيء اقتضى خروجه في ذلك الوقت؟ أو أحس شيئاً يدبر في هذا الوقت فبادر القوم بالذهاب إلى بيت صاحبه؟

هذه كلها أمور تركها البخاري رحمه الله ولم يعرِّج على ذكر شيء منها، والقرآن الكريم يشير في آية الامتنان إلى شيء أو أشياء منها ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾ فإسناد المكر إلى الذين كفروا إسنادٌ إلى جماعة ائتمرت ودبّرت ومكرت لتحدث أخطر حادث في الحياة، وهل يمكن أن يكون هذا المكر والائتمار بهذا الأمر الخطير بين هذا العدد الكثير وتنفيذه ويتحقق دون أن يعرفه العديد منهم، وهل أُمر النبي ﷺ بالخروج دون أن يُخْبَر بما دُبّر له؟

وقد ذكر الأئمة المعنيون بأسباب نزول آيات القرآن ومنهم الحافظ السيوطي والواحدي روايات كثيرة نقلها عنهم أئمة التفسير، وكلها يذكر اجتماع قريش للتشاور في أمر النبي ﷺ، وهي وإن اختلفت في الأسلوب والسياق بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير لكنها كلها تدور حول المعاني التي لم يعرج البخاري على شيء منها في حديث الهجرة الذي يؤذن سياقه بالوثبة من شيء إلى شيء، وقد كانت هذه المعاني في حاجة إلى تمهيد يبين الأسباب الدافعة إلى تلك الحوادث الخطيرة.

ولعل البخاري رحمه الله تعالى ذكر من حديث الهجرة ما توافر فيه شرط الصحة الخاص بجامعه الصحيح، ومهما يكن فإن حديثه نص قاطع بأن النبي ﷺ لم يأت بيت أبي بكر بعد خروجه من بيته في الليلة التي أذن له فيها بالهجرة إلا في منتصف اليوم العاقب لهذه الليلة، وهو اليوم الذي خرج فيه هو وصاحبه إلى غار ثور وأقاما فيه ثلاث ليال، وفي صبح ثالثة الليالي

خرجا من الغار منطلقين على اسم الله وبركاته في رحلتهما إلى المدينة المنورة.

فإلى أين ذهب ﷺ عقب خروجه من بيته؟ وأين قضى هذا الوقت الذي استغرق ليلة ونصف نهار قبل أن يذهب إلى بيت صاحبه وصديقه أبي بكر رضي الله عنه؟

محاولة بعض الباحثين من القدامى الكشف عن الغموض في هذا الموقف

وهذا التساؤل مر على ذهن بعض حذّاق قدامى الكاتبين في السيرة النبوية واعْتَرَفَ بأنه لم يقف له على إجابة، قال الزرقاني: قال صاحب النور: ولم أقف على ما صنع - ﷺ - من حين خروجه إلى أن جاء إلى أبي بكر في نحر الظهيرة.

وقد حاول الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلاني الإجابة عن ذلك **فقال**: روى الإمام أحمد بإسناد حسن، قال: تشاورت قريش، الحديث، **وفيه**: **فأطْلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات عليّ على فراشه وخرج النبي حتى لحق بالغار أي غار ثور - أي وحده - كما في رواية ابن هشام وغيره، فأفاد أنه توارى فيه حتى أتى أبا بكر منه في نحر الظهيرة، ثم خرج إليه هو وأبو بكر ثانياً.**

ومن هذا الحديث علم الجواب عن قوله في النور: ولم أقف على ما صنع - ﷺ - من حين خروجه إلى أن جاء إلى أبي بكر في نحر الظهيرة.

وهذا الجواب يتعارض مع ما ذكره الزرقاني نفسه عن البيضاوي، إذ **قال**: وفي البيضاوي - أي في تفسيره -: **فبيّت علياً على مضجعه وخرج مع أبي بكر إلى الغار**، وهذا غريب جداً

نقد بعض الروايات

قال ابن كثير في (البداية) عن عروة بن الزبير من طريق ابن لهيعة: فأمر علياً فنام على فراشه، وذهب هو وأبو بكر، وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه وأن خروجه هو وأبو بكر إلى الغار كان ليلاً، أي في الليلة التي خرج فيها ﷺ من بيته.

وهذا مشكل جداً، وأين كان أبو بكر رضي الله عنه،؟ هل كان موجوداً معه في بيته؟ وهل كان على علم بما كان من تآمر قريش ومكرها بالنبي ﷺ، وتشاورها في أمره بدار ندوتها؟.

وحديث البخاري ينفي بظاهره أن يكون أبو بكر كان على علم بشيء من ذلك بدليل تعجبه ودهشته حين أُخبر بأن النبي ﷺ قادم إليه متقنعاً في نحر الظهيرة من اليوم الذي كان عاقباً لليلة خروجه ﷺ من بيته بعد أن أمر علياً بالنوم على فراشه.

فلو كان أبو بكر رضي الله عنه موجوداً معه، وكان على علم بما يجري من الأحداث وخرجا معاً، وذهبا إلى الغار ليلاً معاً في الليلة نفسها لم يبق لحديث نحر الظهيرة مخرج ولا مورد، وهو مروي في أصح الصحيح، فلا يردّ إلا بأصح منه أو مثله، ودون ذلك مهامه فيح.

ومما يتعارض مع حديث الإمام أحمد الذي اعتبره الزرقاني جواباً عن تساؤل صاحب النور ما ذكره الزرقاني نفسه عن الدمياطي، إذ قال: وفي سيرة الدمياطي أنه ﷺ ذهب تلك الليلة إلى بيت أبي بكر، فكان فيه إلى الليلة المقبلة، ثم خرج هو وأبو بكر إلى جبل ثور.

وقد انتقد الزرقاني هذا القول، فقال: وفيه أن الثابت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أتى أبا بكر في نحر الظهيرة، وفي حديث أحمد، جعل انتهاء خروجه من بيته بعد أن بيّت علياً على فراشه لحوقه بالغار ـ أي وحده ـ إذ لم يرد لأبي بكر ذكر فيه بأنه خرج معه إلى الغار ليلاً في الليلة نفسها.

ولا ندري لماذا نقد الزرقاني كلام الدمياطي بما ثبت في الصحيح، ولم ينقد به حديث أحمد، ورأي البيضاوي ورواية عروة بن الزبير من طريق ابن لهيعة، وما ذكره موسى بن عقبة في مغازيه؟ وكل ذلك متعارض مع ما ثبت في الصحيح؟.

رواية غريبة ووجهها إذا صحت سنداً

ومن غريب ما وقع في (فتح الباري) وسبقه إليه صاحب العيون، فذكر بسنده، وسماع والده، وهو، حاضر في الرابعة ما قاله الحافظ: ووقع في رواية هشام بن عروة عند ابن حبان (فركبا ـ أي رسول الله ﷺ، وأبو بكر حتى أتيا الغار ـ وهو ثور، فتواريا فيه).

وهذا يحتمل أن يكون موافقاً لرواية الصحيح، وأن خروجهما إلى الغار

راكبين كان من بيت أبي بكر بعد أن ذهب إليه النبي ﷺ نحر الظهيرة من اليوم الوالي لليلة خروج النبي ﷺ من بيته بعد أن بيّت علياً على فراشه، وهو احتمال ظاهر، ولكن موضع الغرابة في هذا الأثر قوله: (فركبا حتى أتيا الغار) وموطن البعد والغرابة، أنهما مطلوبان أشد الطلب، ومكة بطواغيتها قائمة غير قاعدة في البحث عن محمد ﷺ ليجدوه في أي مكان بأي ثمن، فكيف يخرجان راكبين، يعلنان عن نفسيهما،؟ هذا بعيد، لا يهضمه عقل اجتماعي.

نقد رواية واهية

ومن أغرب الروايات ما ذكره الحافظ ابن حجر في (الفتح) قال: وروى أحمد والحاكم من رواية طلحة النضري قال: قال رسول الله ﷺ «لبثت مع صاحبي - يعني أبا بكر - في الغار بضعة عشر يوماً، ما لنا طعام إلا ثمر البرير».

قال الحاكم: معناه: لبثنا مختفين من المشركين في الغار، وفي الطريق بضعة عشر يوماً، وقد اعترض الحافظ على هذه الرواية بأمرين:

أحدهما: أنه لم يقع في رواية أحمد ذكر الغار، وهي زيادة على الخبر من بعض رواته.

ثانيهما: أنه لا يصح حمله على حالة الهجرة، لما في الصحيح - كما تراه - من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما في الغار باللبن، ولما وقع لهما في الطريق من لقيّ الراعي كما في حديث البراء في هذا الباب، ومن النزول في خيمة أم معبد، وغير ذلك، فالذي يظهر أنها قصة أخرى وهذا كلام من الحافظ غير مسلّم له.

أما الأول: فلأن عدم ذكر الغار عند أحمد لا ينفي ذكره عند غيره، وقد ذكرها الحاكم، وبيّن معنى الحديث على أساس وجوده، فإصدار ذكر الحاكم له دون دليل سوى دعوى أن بعض الرواة زادها غير مقبول.

وأما الثاني: فلأنّا لو حملنا الطريق على الطريق من بيت أبي بكر إلى الغار، بمعنى أنهما كانا يسيران ويختفيان - على بعد ذلك لقصر الطريق -، فما

كان عامر بن فهيرة يأتيهما باللبن في هذه المسافة، ولا لقيا راعياً، ولا نزلا بخيمة أم معبد، لأن ذلك كله كان في ليالي الغار الثلاث، وفي الطريق منه إلى المدينة.

ولو حملنا الطريق على طريق السير من الغار إلى المدينة ـ كما هو ظاهر كلام الحافظ ـ فاحتمال قلة الزاد والإسنات قائم لا يدفعه رواح عامر ابن فهيرة عليهما باللبن في أيام الغار الثلاثة.

ولقيُّ الراعي والنزول بخيمة أم معبد كان في أثناء الطريق في أوقات محدودة، فلا ينافيان قلة الزاد في سائر مراحل السفر، والاعتماد على ثمر البرير في أغلب أزمنة السفر.

ولم يُعرف أن النبي ﷺ وصاحبه أبا بكر الصدِّيق اختفيا في غار أو غيره هذه المدة الطويلة في غير رحلة الهجرة، ولو عرف لكان من أجدر الناس بمعرفته الحافظ ابن حجر ولا سيما في مثل هذه الوقائع، ولو وجده الحافظ عند غيره لذكره.

وقد جزم الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر بعدم صحة قصة ثمر البرير، فقال: وقد روى في حديث مرسل أن النبي ﷺ قال: مكثت مع صاحبي في الغار بضعة عشر يوماً، ما لنا طعام، إلا ثمر البرير ـ يعني الأراك ـ : وهذا غير صحيح عند أهل العلم بالحديث.

ومن غرائب الروايات في باب خروج النبي ﷺ للهجرة ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن عباس، يعدّد فيه مناقب علي رضي الله عنه ـ وقد وقع فيه رهط من شانئيه وغامطي فضله ـ وفيه: وشرى علي نفسه، لبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه، والمشركون يرمون رسول الله ﷺ، فجاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله ـ، فقال له علي: إن نبي الله ﷺ انطلق نحو بئر ميمون فأدْرِكْه، فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار.

فأين تقع بئر (ميمون) هذه في مكة؟ لقد أعياني البحث عن معرفة

مكانها بين آبار مكة، وقد دُرست معالم الآثار، وطُمست بيناتها، لأن الجهل بالتوحيد دفع الأغمار من العامة إلى أن خلعوا على هذه الآثار التي لها ذكر في حياة النبي ﷺ أثواباً من التقديس الذي يخدش وجه إخلاص العبودية لله الواحد الأحد، ولو عُلِّموا لَعَلِمـوا واستقاموا وحفظت الآثار الخاصة دلائل تاريخية، وآيات بينات على تفسير بعض الأحداث التي تتصل بحياة الدعوة وتبليغ الرسالة.

آثار وأخبار عن بئر ميمون

وكل ما وصل إلى علمي من أخبار بئر (ميمون) هذه التي تقول الرواية أن النبي ﷺ قد انطلق في خروجه من بيته ليلة التربص به لاغتياله نحوها ما ذكره (الأزرقي) في كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار إذ يقول: وكان لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان الموسم جمعها ثم يسقي لبنها بالعسل في حوض من أدم عند زمزم، ويشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج، لأن يكسر غلظ ماء زمزم، وكانت إذ ذاك غليظة جداً. وكان الناس إذ ذاك لهم في بيوتهم أسقية يسقون فيها الماء من هذه البيار، ثم ينبذون فيها القبضات من الزبيب والتمر لأن يكسر عنهم غلظ ماء آبار مكة ـ وكان الماء العذب بمكة عزيزاً، لا يوجد إلا لإنسـان يُستعذب له من (بئر ميمون) وخارج من مكة.

فبئر (ميمون) كان لها امتياز على سائر آبار مكة بعذوبة مائها، وكانت خصيصة بمن يستعذب له الماء منها، وهذا في عرف الناس لا يكون إلا لطبقة ممتازة بالـذوق وصفاء الطبيعة، ولعل النبي ﷺ كان يستعذب له الماء منها، وكانت قريبة من منازل بني هاشم، يردها منهم أشرافهم.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الأثر من قبيل الآثار التي جمعت بين النبي ﷺ وصاحبه في الذهاب إلى الغار معاً في ليلة خروجه ﷺ، وهو معارض لحديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

روايات مستبعدة ومعارضة للحديث الصحيح

وقد أبعد النجعة أبو جعفر الطبري في تاريخه، فذكر روايات زادت من شقة الاختلاف بين روايات الهجرة النبوية باختلافها أشد الاختلاف وأبعده مع رواية الصحيح، قال أبو جعفر: زاد بعضهم في هذه القصة في

هذا الموضع، وقال: ـ أي رسول الله ﷺ ـ لعلي رضي الله عنه: «إن أتاك ابن أبي قحافة فأخبره أني توجهت إلى ثور، فمره فيلحق بي، وأرسل إليّ بطعام، واستأجر لي دليلاً، يدلني على طريق المدينة، واشتر لي راحلة».

وهذا خبر كما يُرى لا يعوّل عليه لانه يتعارض مع حديث عائشة عند البخاري، وهو الأصل في هذا الباب.

ثم مضى أبو جعفر متمماً لروايته السابقة فقال: وقد زعم بعضهم أن أبا بكر أتى علياً فسأله عن النبي ﷺ،فأخبره أنه لحق بالغار من ثور، وقال له: إن كان لك فيه حاجة فالحقه، فخرج أبو بكر مسرعاً، فلحق نبي الله ﷺ في الطريق، فسمع رسول الله ﷺ جَرْس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين، فأسرع رسول الله ﷺ المشي فانقطع قبال نعله، ففلق إبهامه حجر، فكثر دمها، وأسرع السعي، فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ فرفع صوته، وتكلم فعرفه رسول الله ﷺ، فقام حتى أتاه فانطلقا ورِجْل رسول الله ﷺ تستن دماً حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه، قال ابن كثير في البداية تعليقاً على هذا الخبر وهذا غريب جداً، وخلاف المشهور من أنهما خرجا معاً، وهذا النقد من ابن كثير غير مستوعب، وهو إلى السطحية أقرب منه إلى التعمق.

وقد ذكر السيوطي في (الدر) أن ابن مردويه، وأبا نُعَيم في الدلائل أخرجاه عن ابن عباس وفيه اختلاف في سياقه وبعض عباراته.

قال ابن عباس: لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور، وتبعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما سمع رسول الله ﷺ حسّه خلفه خاف أن يكون الطلب، فلما رأى ذلك أبو بكر رضي الله عنه تنحنح، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار، فأصبحت قريش في طلبه، فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار، وعلى بابه شجرة فبال في أصلها القائف، ثم قال: ما جاز صاحبكم الذين تطلبون هذا المكان، فعند ذلك حزن أبو بكر رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا» فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام، يختلف إليهم

بالطعام عامر بن فهيرة، وعلي يجهزهم، فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين، واستأجر لهم دليلاً، فلما كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي رضي الله عنه بالإبل والدليل، فركب رسول الله ﷺ راحلته، وركب أبو بكر الأخرى فتوجهوا نحو المدينة، وقد بعثت قريش في طلبه.

وفي تاريخ الطبري قال أبو جعفر: وأصبح الرهط الذين كانوا يرصدون رسول الله ﷺ فدخلوا الدار، وقام علي عليه السلام عن فراشه، فلما دنوا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، أو رقيباً كنت عليه؟ أمرتموه بالخروج، فخرج، فانتهروه وضربوه، وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثم تركوه.

عجيب أمر هذه الروايات؟!

والذي ذكرناه من الروايات في بحث بدء هجرة النبي ﷺ، وكيف كانت هذه البداءة قليل من كثير مختلف مضطرب، لا يهدي إلى يقين، ولكن بعضه محتمل الوقوع، لا يرده نص قاطع، ولا ينكره عقل مُتَفَقِّه في سيرة النبي ﷺ.

والبحث يقف مع رواية الصحيح، ويكملها بدءاً وانتهاء بما يشبهها في معناها، ولا نردّ الروايات المشهورة التي لا تتعارض تعارضاً يتعاصى على التأويل مما ذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ مما ذكره رواة أحداث السيرة النبوية من الحفاظ المتخصصين كابن إسحاق وموسى ابن عقبة، والبيهقي في الدلائل، وأبي نُعيم، والدمياطي والقسطلاني في مواهبه وشارحها الزرقاني، والحافظ في الفتح، وابن كثير في تفسيره وتاريخه البداية والنهاية، وذكره أئمة المحدثين من أصحاب السنن والمسانيد كالإمام أحمد والترمذي وابن مردويه، وابن حبّان، وابن أبي حاتم وأضرابهم.

والتأويل محتمل في كثير من الروايات بما يردها إلى رواية الصحيح، وقد نبّهنا على أن البخاري رحمه الله لم يتعرض لمقدمات الهجرة وأسبابها

المباشرة التي أشارت إليها الآية إشارة واضحة، وذكرت ذلك روايات الأئمة.

ومع ذلك ما يزال التوقف في الجزم بما كان من النبي ﷺ بعد خروجه من بيته في ليلة التآمر عليه والمكر به، والتشاور في أمره إلى أن ذهب إلى بيت أبي بكر في نحر ظهيرة اليوم التالي لهذه الليلة هو الأسلم، حتى يُظهر الله تعالى من غيبه أمراً يكشف الغطاء.

بيد أن هناك أمراً خطيراً لم تعرض له الروايات، ومجرى الحوادث يقتضيه مذكوراً فيها، بل في صدرها، ذلك هو موقف بني هاشم من هذا الحدث الخطير بكل مقدماته وأسبابه ووقائعه، وهو حادث لم يمرّ بهم مع قريش مثله في خطورته وضخامة آثاره، وبشاعة مناشئه ومنعرجات مكايده ومكره.

أين بنو هاشم في حادث هجرة النبي ﷺ ومكر قريش به، وائتمارهم على اغتياله في بيته؟ وما موقفهم منه؟ أفَإنْ مات أبو طالب ماتت حمية قومه من بني هاشم؟ وذهبت معه إلى الفناء نخوتهم وشجاعتهم؟ وأدبرت فَرُوقَة عصبيتهم وتعوضوا عن مكارمهم وتعززهم الذل والهوان والضيم، تصبها عليهم قريش متحدية بتجمعها وتآمرها على محمد ﷺ، وهو الذي كانوا بالأمس القريب يضعون أرواحهم على أكفهم لحمايته والذود عنه بسيوفهم وأنفتهم أن يضاموا فيه؟

هذا ما لا يمكن أن يصدّق، ولا يمكن أن يقبله عقل سليم، عرف أخلاق العرب عامة وحميتهم وعرف أخلاق بني هاشم في قوة شكيمتهم وعرامة نخوتهم، وعلو مكانتهم في بيوتات قريش بل في قبائل العرب عامة؟.

وإذاً ما حكمة عدم أي ذكر لهؤلاء الأُنُف الشامخين من بني هاشم في أخطر حادث مر بمكة وقريشها، بل في أخطر حادث مرّ بالحياة كلها؟ وهو حادث يمس في الصميم عزة الهاشميين، وهو حادث موجّه لإذلالهم لأنهم أصحابه وأهله منذ كانت أسبابه ودوافعه وعوامله يحاك نسجها من وراء أسوار بيوت بني مخزوم والعبشميين عداوة حاقدة للهاشميين؛ لأن الله تعالى

سما بهم فاصطفى منهم محمداً ﷺ خاتماً للنبيين والمرسلين.

وقد ذاق الهاشميون مرارة هذه العداوة الحاقدة مع الأبعدين من بطون قريش منذ أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ حفاوة بهم وتوجيهاً لهم إلى التعزز بحماية ما خُصّوا به من الاصطفاء الأعز فيهم، فجمعهم النبي ﷺ وخطبهم، ودعاهم إلى الله، وقال لهم في دعوته: «ما أعلم أحداً جاء قومه بأفضل مما جئتكم، جئتكم بخير الدنيا والآخرة» ومن ثَمّ وقف الهاشميون مواقفهم المتعززة في شجاعة وبطولة إلى جانب محمد ﷺ حمية لقوميتهم بسيوفهم، معرِّضين أرواحهم وأموالهم وعلاقاتهم إلى الهزاهز المدمرة، ولو لم يكن لهم إلا موقفهم يوم دعاهم أبو طالب وقد بلغه أن قريشاً تريد قتل محمد ﷺ فقال لأبناء هاشم: ليأخذ كل رجل منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني، فصدعوا بأمره دون أن يسألوه، فيم هذا؟ وذهب بهم يؤمهم حتى دخل المسجد والملأ من قريش قعود يهجرون حول الكعبة، فقال للهاشميين: ليكشف كل واحد منكم عن حديدته، فكشفوا عن سيوف عَطْشَى للدماء، ثم قال للملأ: أو قد رأيتم؟ والله لو قد مسستم محمداً ـ ﷺ ـ ما بقَّينا على أحد منكم أو نهلك عن آخر رجل منا، فوجم لها ملأ الطغاة ولم ينبس منهم أحد بكلمة، ثم تركهم وقد اسودت وجوههم خزياً وذلاً.

ولو لم يكن للهاشميين من شرف مواقفهم مع قريش حماية عصبية لمحمد ﷺ إلا موقفهم الجماعي في دخولهم حصار الشعب مؤمنهم وكافرهم؛ لكفى دليلاً على أنهم كانوا في حميتهم القومية وعصبيتهم الهاشمية يجعلون نحورهم هدفاً يتقون به ذل المعرّة والضيم في شخص محمد ﷺ.

ولا نخص العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذ على مثل ما كانت عليه قريش من الوثنية والشرك ـ ومواقفه من النبي ﷺ والحدب عليه وكثرة مجالسته له ﷺ، حتى كان من يريد النبي ﷺ، وهو لا يعرفه عرفه بمجالسة العباس له.

وحسب العباس في ذلك موقفه يوم بيعة العقبة الكبرى (فتح الفتوح) وشهوده لها مع النبي ﷺ توثقاً له ﷺ، وما قال في خطبته العظيمة تنويهاً بعزة النبي ﷺ بسيف أهله وقومه، ومنعته فيهم.

ولا نذكر فتى الفتيان أسد الله وأسد رسوله ﷺ سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب الذي جدع أنف الغرور من اللعين الفاسق غميز الرجولية أبي جهل، وأذلّ قومه بني مخزوم حمية لابن أخيه محمد ﷺ يوم أن بلغه أن هذا اللعين الفاسق أبا جهل قد سبّه وآذاه، فذهب إليه على رؤوس ملأ الطغيان وضربه بقوسه فشجّه شجة منكرة، فلم تستطع بنو مخزوم أن تقف أمام حمية حمزة، ورضيت بذل المهانة وعار الجبن أمام وقفة حمزة في حميته التي انتهت به إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ إيماناً سما به فكان سيد الشهداء.

وحمزة رضي الله عنه هو الذي رعبل حشود الفجور في بدر، وأورد أشراف طغاتهم أوخم حياض الموت، وأذاق قريشاً طعم الهوان والمهانة والذل المستخذي بعد العنجهية والاستكبار الفجور.

أفيكون حمزة عم رسول الله ﷺ في قوة إيمانه، وشجاعته وفتوة بطولته موجوداً ـ على قيد خطوات من تجمع ملأ الطغيان من قريش، ومن ورائهم سفهاؤهم وغوغاؤهم للتآمر على قتل محمد ﷺ غيلة في جوف بيته على فراشه ـ ولا يسمع لزئيره همهمة ولا يحس لزمجرته زلزلة؟ بل لا يسمع له نأمة ولا تُحَسّ له همسة؟.

أو يكون العباس بن عبد المطلب عمُّ رسول الله ﷺ الذي ندب نفسه حمية لابن أخيه، ليعرف موقف الأنصار يوم أن جاؤوا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان به وبرسالته على أن يحموه بأرواحهم وأموالهم، ويمنعوه مما يمنعون به أعزّ ما يملكون من ذمار ـ موجوداً على مسمع مِنْ تآمر قريش ومكرهم بمحمد ﷺ ليقتلوه، ولا يعرف له موقف في هذا الحادث المدمر لشوكة بني هاشم، المذل لعزتهم؟

ولكنا نتساءل أين أولئك الأعزة الأماجد؟ وأين فتيانهم الأبطال المغاوير؟ بل أين شيوخهم وذوو رأيهم وقد صكَّ صوت أخبث مؤامرة أصماخهم، فهل كانوا على علم فذلُّوا وسكتوا واستكانوا مستسلمين لفجور قريش؟ أو كانوا سادرين في غطيط لم يوقظهم منه قعقعة صوارم السيوف التي أعدتها قريش لفتيانها الذين اختارتهم على عين فجورها ليغتالوا محمداً ﷺ بضربة واحدة وهو على فراشه في جوف بيته ليقتلوه فيتفرق دمه في القبائل،

وتعجز بنو هاشم عن الأخذ بثأره بمقاتلة جميع قبائل المتآمرين، ويرضون بعَقْله وديته فتعقله لهم قريش وتعطيهم ديته؟

إذاً كانت قريش تحسب لبني هاشم حساباً مرعباً مخيفاً لأنهم لا يزالون أمجاداً صيداً لا يعدلهم في ميزان الحرب والقوة إلا قبائل قريش مجتمعة.

ولكن أين هم أولئك الأسود الحَرَدة والأبطال الذين لا ترام نخوتهم، والحوادث تجري متتابعة مسرعة في زمجرة الفجور وهي تصيح بهم أين أنتم يا أسود الشرى؟

أليست قريش يقودها اللعين، لعين مخزوم غميز الرجولية الفاسق أبو جهل قد اجتمعت وتشاورت في أمر محمد ﷺ واتفقت كلمتها على اغتياله وقتله؟ أو ليس قد انتهى بها تشاورها في لحظات إلى اتخاذها قراراً بالتخلص من محمد ﷺ على أبشع صورة في صور الغدر والفجور، ومضت قريش قدماً في تنفيذ جريمتها الفاجرة واختارت فتيانها واختارت لهم صوارم أسلحتهم، واتخاذ مواقعهم على باب بيت محمد ﷺ، يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه لقتله، ونزل جبريل عليه السلام يأمر النبي ﷺ بعدم البيات على فراشه وخرج ﷺ ذاهباً حيث شاء وبيّت علياً على فراشه.

كل ذلك قد كان، ولا حسّ لبني هاشم ولا خبر، ولا وِرْد لهم في الأحداث ولا صَدَر، وهم قابعون في بيوتهم متقلبون في مصالحهم وأعمالهم، يروحون ويغدون من وراء الأحداث وفي ظلام النسيان وذل الاستكانة.

أفيمكن لذلك أن يكون؟ أو يصح في شرعة التاريخ الصادق أن يكون بنو هاشم قد تواروا في هذه الأحداث وراء الجبن المذلّ فلم يرفعوا رؤوسهم للأحداث وهي تمرُّ بهم فتلكزهم لكزاً يحوِّل قلوبهم من أماكنها بين أضلعهم؟ أو يرضى التاريخ المنصف أن يدوِّن في صحائفه هذا الموقف بصورته المذلة الذليلة؟ وكأن محمداً ﷺ ليس منهم في الذروة ولا في السفح؟

من يصدِّق هذا؟ ولكن الروايات الكثيرة التي ليس لها استثناء أجمعت على هذا الموقف العجيب الغريب، ولم نعلم أحداً من الباحثين في القدامى والمحدثين تعرض له بإنكار وهو أنكر المنكرات، حقاً إن التاريخ ظالم ومظلوم.

إذاً لا بد أن يكون في الأمر خبيء يكمن وراء هذه الروايات المتكاثرة

ما يمكن أن يكون وراء هذا الموقف من بني هاشم وإخوتهم بني المطلب

التي أهملت موقف بني هاشم بل تعمدت أن تهملهم وتتناساهم كأن لم يكونوا من أهل الذكر في البلد الحرام، حتى أبو لهب عدو محمد ﷺ وعدو رسالته المستعبد لعبشمية زوجه أم قبيح بنت حرب أخت أبي سفيان لم يُذْكر في صفوف المتآمرين إلا في بعض الروايات، كأن في الأمر مؤامرة أخرى قررت تحقير بني هاشم فلا يرد لهم ذكر قط في آخر فصل تختم به قصة الصراع المرير بين الوثنية المادية في عتوها وفجورها، يحمل رايتها أخابث طواغيت الشرك البليد، وبين دعوة الحق لإعلاء كلمة الله ـ كلمة الحق والتوحيد، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، يحمل لواءها رسول الله ﷺ محمد ابن عبدالله الهاشمي ، وبنو هاشم على كفر بعضهم كانوا حماة دعوة الحق، تعصباً قومياً للذود عن رسولها وحامل لوائها محمد ﷺ باعتباره غصناً من الدوحة الهاشمية، ولهم في ذلك مواقف رادعة لجبروت المخزوميين والعبشميين ومن لف معهم في ذلك الفجور الوثني البليد من بطون قريش وأفخاذها، وهي مواقف مشهورة مذكورة لم يستطع التاريخ أن يتناساها أو يهملها كما تناسى وأهمل موقفهم في حوادث بدء الهجرة وأسبابها ودوافعها، وهي أخطر من كل ما سبق في مرحلة الكفاح المرير.

والخبيء الذي يكمن وراء الروايات في هذه القصة هو الذي يمكن أن يجيب عن التساؤل الذي تسوقه البداهة: أين ذهب رسول الله ﷺ بعد خروجه ليلاً من بيته ليلة المكرِ به؟ وهو الذي يحل المعضلة، فإن يكن هو الذي قد كان، وهذا ظن يوشك أن يكون يقيناً، ومن هنا كان من الواجب البحث عن سندٍ له من النقل، لأننا لم نعثر له على سند في رواية من الروايات التي استطعنا الوصول إليها والاطلاع عليها.

وإنما سنده عندنا في أمور توحي به إيحاء وتشير إليه إشارة بينة وهي:

أولاً: أن رواية البخاري رحمه الله ـ وهي التي استقامت لها معالم الصحّة كاملة ـ صريحة في أن النبي ﷺ إنما ذهب إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه في اليوم التالي لليلة خروجه ﷺ من بيته في منتصف النهار منه، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن معه ليلة خروجه، ولا كان عنده علم بالأحداث في مكر قريش وتآمرها وتشاورها في أمر النبي ﷺ

ثانياً: أن موقف أبي بكر رضي الله عنه في استقبال النبي ﷺ حين قدم إلى بيته في نحر الظهيرة من اليوم التالي لليلة خروجه من بيته بعد أن بيّت علياً على فراشه يوحي بأن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن قط على علم بما حدث من تجمعات قريش ومكرها وائتمارها بالنبي ﷺ، لأنه حين أخبر بمقدم النبي ﷺ إليه في نحر الظهيرة أبدى تعجباً واستغراباً وإشفاقاً على رسول الله ﷺ أن يكون قد حدث أمر خطير حمله على السعي إليه في هذه الساعة القائظة فقال: بأبي وأمي هو، ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، ثم أخبره ﷺ بأنه أُذن له في الهجرة، ولم يلبثا في بيت أبي بكر إلا ريثما جُهزا أحث الجهاز وخرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر متوجِّهَين إلى غار ثور، بعد أن واعدا دليلهما صبح ثالثة عند الغار.

وكان أبو بكر مُعِدّاً للهجرة منذ أن رآه النبي ﷺ يتجهز قِبلَ المدينة فقال له: «على رِسْلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر استطعاماً لهذا الخبر السار: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال «نعم» فحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه.

ثالثاً: إن الروايات المخالفة لرواية البخاري مضطربة متضاربة.

بعضها يقول إن أبا بكر رضي الله عنه خرج مع رسول الله ﷺ ليلاً، وتوجها معاً إلى غار ثور، وهذا يفيد أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع رسول الله ﷺ في بيته ليلة المؤامرة والمكر وهو مخالف لما تفيده رواية الصحيح.

وبعضها يقول: إن رسول الله ﷺ خرج من بيته وذهب وحده إلى الغار في جبل ثور، فبات فيه، ثم أتى منه إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه في نحر الظهيرة من اليوم التالي لليلة الخروج من بيته ﷺ، وفيه مخالفة لرواية الصحيح التي تقول فيها عائشة رضي الله عنها: ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية.

فكيف لم يذهب أبو بكر رضي الله عنه صبح هذه الليلة ليسأل عن رسول الله ﷺ ويعرف سبب تخلفه عن عادته في مجيئه إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه طرفي النهار، وهو ﷺ تخلّف عشية ليلة المؤامرة وصبحها، وحينما جاءه في منتصف النهار عجب أبو بكر ودهش؟

وبعضها يقول: إن النبي ﷺ أمر علياً رضي الله عنه أن يشتري له ثلاثة أبعرة، وأن يستأجر له دليلاً يدله إلى المدينة، وأن يأتيه بطعام، وهذا صريح في مخالفته لنص حديث الصحيح في أن أبا بكر رضي الله عنه هو الذي اشترى الراحلتين وأعطى رسول الله ﷺ خيرهما، فأبى أن يأخذها إلا بالثمن الذي اشتُريت به ليخلص هجرته من أية شائبة، ولو كانت عن مواساة الإخاء، وأن آل أبي بكر رضي الله عنه هم الذين جهزوهما أحث الجهاز، وأعدوا لهما سفرة في جراب رُبط بنطاق أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بعد أن شقته نصفين فلقِّبت ذات النطاقين، وأن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه كان يرعى عليهما غنماً لأبي بكر في غَلَس من الليل، فيشربان من ألبانها ويذبحان ما يحتاجان إليه من شياهها.

وبعضها يقول: إن النبي ﷺ قال لعليّ: «إذا أتى ابن أبي قحافة فقل له يلحق بي في غار ثور»، وهذا يفيد أن النبي ﷺ توجه بعد خروجه من بيته إلى غار ثور، وأن أبا بكر رضي الله عنه لحق به فدخلا الغار صباحاً بعد أن جرح إصبع رسول الله ﷺ، وفيه مخالفة لرواية الصحيح.

وبعضها يقول: إن أبا بكر رضي الله عنه جاء فسأل علياً عن رسول الله ﷺ فقال له علي رضي الله عنه: إنه توجه نحو بئر (ميمون) فالحق به إن كانت لك حاجة.

وهكذا. . . .، وهكذا تختلف الروايات كلها اختلافاً جوهرياً مع رواية الصحيح، وتختلف مع بعضها، ولهذا قلنا: إن التوقف في قبول هذه الروايات ـ واعتبار بعضها إجابة عن التساؤل الذي تسوقه البداهة: أين ذهب رسول الله ﷺ بعد خروجه من بيته؟ وأين قضى ﷺ ليلته ونصف اليوم الذي وليها قبل أن يذهب إلى صديقه أبي بكر رضي الله عنه نحر ظهيرة ذلك اليوم ـ أسلم حتى تظهر أدلة نقلية تجيب جواباً شافياً لا يتعارض مع رواية الصحيح.

رابعاً: ما بيّنا من موقف الروايات كلها من عدم ذكر بني هاشم في القصة كلها يجعلنا نقف من تلك الروايات موقف العجب المدهش، ويفتح

أمامنا أبواباً للحدس واستوحاء العقل، وقرائن الوقائع وما يحتف بها من أمور لعلنا ننفذ منها إلى مخرج يُلائِم أحداث القصة بدءاً ونهاية، ويحل مشكلة التساؤل الذي لم تجب عنه الروايات بما لا يختلف مع رواية الصحيح وبما لا يقع فيه الاضطراب والتعارض.

لقد ألقى موقف الروايات المتكاثرة المتخالفة من بني هاشم وعدم ذكر شيء، أي شيء عنهم في هذا الحادث الخطير ـ وهم عصبة محمد ﷺ الذين أشادت الروايات بمفاخرهم وبطولة مواقفهم في الذود عنه وحمايته بأرواحهم، وتضحياتهم وتصديهم لحماقة قريش وسفهائها ورد كل اعتداء يحسُّون أنه دُبِّر للنيل منه ـ ظلالاً من الحيرة والدَّهش، وأثار في النفس ظنوناً، وفي العقل إيحاءات، وفي التفكير سبحات للاستنباط بناء على ما أوضحناه من أسباب تجعل من المحال عرفاً أن تمر هذه الأحداث التي تفجرت عنها قصة الهجرة النبوية في غيبة متلاهية، وفي صمت لا يعدله إلا صمت الموتى في القبور ممن كانوا بالأمس القريب يهزون أركان مكة بزئيرهم، إذا سمعوا أو أحسوا أن أحداً قد نال أو يريد أن ينال من محمد ﷺ شيئاً من الأذى بالكلمة أو الفعل، فكيف بهم وقعقعة السلاح لقتل محمد ﷺ غيلة في جوف بيته على فراشه تقرع أفئدتهم وتدق أبواب قلوبهم دقاً عنيفاً مزمجراً مرعباً، وبيت محمد ﷺ بين بيوتهم كالقلعة التي تحيط بها أسوار من الكتائب المعبأة للهجوم؟

الأحداث كلها والوقائع جميعها تأبى كل الإباء أن يكون بنو هاشم نبعة محمد ﷺ التي انفرجت عن غصنه، وبيضته التي تفقأت عن طائره، بعيدين كل البعد الذي يفقدهم الشعور بما يجري حولهم من قاصمات الظهور في أحداث هي أخطر من كل ما مرّ بهم في شنف قريش وعدائها لهم بسبب مواقفهم البطولية في الذود عن محمد ﷺ وحمايته.

فالبداهة تقضي بأن بني هاشم كانوا في حومة الأحداث يقودونها بتدبيرهم ومحكم سياستهم، وأنهم كانوا على أكمل العلم وأتم المعرفة بمكر قريش وتآمرها، فرأوا أن يقاتلوها بسلاحها، سلاح المكر والمخادعة، فأحكموا أمرهم لينتهي بقريش إلى الخزي والخذلان والفشل وعار الأحدوثة.

وينتهي بمحمد ﷺ إلى تمكينه من الهجرة حيث أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين بايعوه على نصرته وإعزازه ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وذراريهم وحرماتهم بمشهد من عمِّه العباس بن عبد المطلب، وكان العباس ما يزال على دين قومه من الشرك والوثنية، توثّقاً لابن أخيه من هؤلاء المبايعين الصناديد بقية السيف من أبناء قيلة، أوسها وخزرجها، وقد تقدم بين يديهم بالهجرة إليهم الصفوة السابقون الأولون من المؤمنين.

هذا الاتجاه في فهم الأحداث يوحي به ترابط الوقائع في الماضي والحاضر والمستقبل، ذلك الترابط الذي يوجب أن يكون وجود بني هاشم في غَمْرة الأحداث ومطالعها قادة ذادة حكماء يسوسون الأمور سياسة حقيقية واقعة بكل ما يجعلها حلقة في سلسلة التاريخ لا بد من وجودها.

وإذا كان ذلك كذلك فالمعقول القريب إلى التصور أن يكون النبي ﷺ خرج من بيته بعد أن بيّت علياً رضي الله عنه على فراشه إلى بيت من بيوت بني هاشم على علم منهم بمكانه ﷺ، وفيه قضى ليلته وصدر يومها حتى إذا أظهر وهدأت الحياة خامدة تحت وطأة سعير مكة، ولهيب حرها، وقال الناس في فيء الظلال من البيوت وغيرها خرج ميمماً بيت صديقه أبي بكر رضي الله عنه، فأتاه في نحر الظهيرة، وهو وقت لم يكن من الأوقات التي تعودّ رسول الله ﷺ أن يأتي فيها آل أبي بكر رضي الله عنه، فتلقّاه الصدِّيق بلهفة المتوجس المشفق متسائلاً ليكشف له عن سبب مجيئه المفاجىء في هذا الوقت الذي تتثاءب فيه الحياة مسترخية خامدة لا يحس لها حراك قائلاً: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر - أي خطير - ورأى النبي ﷺ لوائح اللهفة والتوجس والإشفاق تلوح على وجه الصديق رضي الله عنه، فبادره بأسعد بشرى في حياته فقال له: «إني قد أذن لي بالخروج» فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصَّحَابة بأبي أنت يا رسول الله، فقال «نعم».

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، ورأيت أبا بكر يبكي وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح.

الإعداد لمسيرة الهجرة
في رعاية الله وكنفه

بدء مسيرة الهجرة من منزل أبي بكر إلى ثور ثم منه إلى المدينة

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد حبس نفسه على رسول الله ﷺ انتظاراً لصحبته في هجرته بعد أن قال له رسول الله ﷺ ـ وهو يتجهز قِبَل المدينة بعد أن ردّ جوار ابن الدغنّة ورضي بجوار الله تعالى ـ: «على رِسْلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال «نعم».

وأخذ أبو بكر رضي الله عنه يُعد العدة لصحبة رسول الله ﷺ في هجرته عملاً بما فهمه من رجاوة رسول الله ﷺ في الإذن له بالخروج، واشترى راحلتين نجيبتين ظل يعنى بهما ويعلفهما ورق السمر أربعة أشهر.

فلما أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة في ليلة المكر القرشي، ووعد الصديق بالصحبة قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ ـ بأبي أنت يا رسول الله ـ إحدى راحلتيّ هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن الذي ابتعتها به» فقال أبو بكر رضي الله عنه، أخذتها بكذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: «أخذتها بذلك» قال أبو بكر رضي الله عنه: هي لك، وقد ورد من طريق الواقدي أن ثمن الراحلتين كان ثمانمائة درهم وكانتا من نجائب بني قشير، والجمهور على أن التي أخذها رسول الله ﷺ هي القصواء.

خلوص الهجرة ، شائبة تفضل من ولو كان أعز الأء

وفي صنيع رسول الله ﷺ وموقفه من صاحبه وصدِّيقه أبي بكر رضي الله عنه وامتناعه من أخذ الراحلة إلا بالثمن الذي اشتراها به تنويه بعظم شأن الهجرة، وأنها عمل يمتاز على سائر أعمال الإيمان من العبادات

مال أبي بكر وثروته وإنفاقها على رسول الله ﷺ وعلى الدعوة إلى الله

والمعاملات، فيجب أن يتمحض لصاحبه، فلا يدخله شيء من فواضل المواساة الأخوية والمودّات الحبيّة، ومن المعروف المتعالم أن النبي ﷺ قد قبل من الصدِّيق رضي الله عنه كثيراً من المواساة الأخوية، وأنفق عليه الصدِّيق مالاً كثيراً، وأثنى عليه النبي ﷺ بذلك فقال: «إن من أمنِّ الناس عليّ في ماله أبا بكر» قال العلماء: وكانت ثروة أبي بكر رضي الله عنه أربعين ألف درهم أنفقها كلها على رسول الله ﷺ وعلى الدعوة إلى الله تعالى.

وكان آخرها خمسة أو ستة آلاف حملها معه في هجرته إلى المدينة، لم يترك لآله وولده شيئاً.

حيلة أسماء لتسكين جدها

روى محمد بن سعد في الطبقات بسنده إلى أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كلّه معه، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه، فدخل علينا جدّي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه فقلت: كلا يا أبت، إنه ترك لنا خيراً كثيراً، قالت أسماء: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت حيث كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: ضع يا أبت يدك على هذا المال، فوضع يده عليه وقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم قالت أسماء: فلا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكنّ الشيخ بذلك.

تميز الهجرة في الإخلاص لله وعدم قبول تفضل فيها من أحد

فامتناعه ﷺ ـ مع ما بذله أبو بكر رضي الله عنه من مكارم المودة ومواساة الإخاء ـ من أخذ الراحلة في سفر الهجرة إلا بثمنها دليل على اختصاص الهجرة وتميزها بهذا الفضل الرفيع الذي خصها به رسول الله ﷺ، وبهذا الاختصاص المميز للهجرة ـ وما فيها من مفارقة الوطن والأهل والولد والأصدقاء والعشراء والمال واحتمال شظف العيش وضيق المستقر، احتساباً لوجه الله وتطلّباً لرضاه، وقياماً بالدعوة إلى دينه وإعلاء كلمته ـ فضَّل الله المهاجرين على سائر فئات أهل الإيمان وأنزلهم منزلة الحمد من فاتحة الكتاب، فكانوا رضي الله عنهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله بعد النبيين والمرسلين.

وكان رسول الله ﷺ وصاحبه الصدِّيق رضي الله عنه قد واعدا دليلهما عبد الله بن أريقط وكان هادياً خرِّيتاً حاذقاً بمعرفة الطرق والمنازل وهو على شركه، فأمناه ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثَوْر بعد ثلاث ليال، وعمدا إلى غار ثَوْر بأسفل مكة، وأمر أبو بكر ابنه عبدالله أن يتسمع لهما أخبار ما يقوله الناس في شأنهما نهاره ثم يأتيهما ليلاً بأخبار ما كان في ذلك اليوم.

وأمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى فيحتلبا من ألبانها، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام.

بدء سير الركب الميمون المبارك في رحلة الهجرة إلى الله لتبليغ رسالته ونشر دعوته

وفي صبح الليلة الثالثة جاءهما دليلهما ابن أريقط براحلتيهما وبعير له، وقَبْل أن يركبا تكلم رسول الله ﷺ مستشعراً ما يحيط بهذا السفر من أخطار وشدائد تتطلب لوناً من الصبر والرضا، واللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام به في ضراعة العبودية وذل الاستكانة إلى رحمته.

قال ابن كثير في البداية وأبو نُعَيم في الدلائل: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة قال: «الحمد لله الذي خلقني ولـم أكُ شيئاً، اللّهم أعنِّي على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذلّلني وعلى صالح خُلقي فقومني، وإليك ربي فحببني، وإلى الناس فلا تكلني. رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل عليَّ غضبك وتنزل بي سخطك، لك العتبى عندي خير ما استطعت ولا حول ولا قوة إلا بك».

وقد تحرك الركب المبارك محفوفاً برعاية الله تلحظه وتسدِّده وهدايته تقوده وترشده، وقد سلك بهم الدليل طريق السواحل في مهايع غير مطروقة حتى بلغوا بعد بضعة عشر يوماً قُباء، وهي أول منازل المدينة، فنزلا في بني عمرو بن عوف خير منزل آمنَيْن مطاعَيْنْ.

وقد توالت أحداث الرعاية الربانية على رسول الله ﷺ وصاحبه

آيات الله وجند نصره في طريق الهجرة من بيت أبي بكر إلى غار ثور إلى المدينة

الصدِّيق منذ خروجهما من بيت أبي بكر رضي الله عنه عامدين إلى غار ثور، وتكاثرت روايات الوقائع والأحداث في هذه الرحلة الإيمانية، ورويت فيها أمور إعجازية أكرم الله بها نبيه ﷺ ليربط على قلبه، ويثبِّت بها قدمه، ويؤنس فؤاده، ويخفف عنه أثقال ما لقي من أزمات وما يتوقع من شدائد وأهوال في رحلة كانت الفيصل بين مرحلتي الرسالة الخالدة: مرحلة الكفاح المرير والنضال الصبور في مكة، ومرحلة الفتح المبين وتأسيس البناء الشامخ لدولة الإسلام في نظامها العقيدي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي والخلقي، وتنزل التشريع الحكيم المحكم الذي يجمع في إطاره هذه الأوضاع والتنظيمات لخير الإنسانية على هذه الأرض على أسس العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات.

وهذه المرحلة كانت الهجرة النبوية هي حجر الزاوية فيها، واللبنة الأولى في بنائها؛ لأنها مرحلة بدأ فيها نضال جديد من نوع تكافأ أولاً مع قوى الشر المادية، فردّها على أعقابها مدحورة، ثم استبحر وتوالت انتصاراته هادرة الأمواج، قوية الانطلاق، قاهرة الردع، سريعة الحركة، جياشة المد، فوّارة الاندفاع، عظيمة المنح والعطاء.

منهجنا في البحث وموقفنا من روايات الأحداث والوقائع في طريق الهجرة

وموقفنا في البحث من روايات الأحداث أننا نؤمن إيماناً لا يخالجه شك أن قدرة الله تعالى لا يتعاظمها في الكون شيء، وأن الله تعالى يجري على يدي رسوله ﷺ ما يشاء من الآيات تكريماً له، وتشريفاً لمقامه، وتعظيماً لمكانته، وإظهاراً لسمو منزلته عنده، دون أن تقف سنن الكون العامة التي أقام الله نظامه عليها أمام اقتدار الله تعالى على إحداث سنن خاصة يأتي بها لحكمة تقتضيها بصورتها الخاصة ولا يخرجها ذلك عن إطار السنن الإلّهية التي يسير عليها نظام الوجود في هذه الحياة، والله فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل.

بيد أننا لا نؤمن بالروايات التي تجيء بوقائع إعجازية تخرق نواميس سنن الله العامة في الكون إلا إذا ثبت لدينا سندها صحيحاً بغير معارض، متصل النقل المضبوط إلى رسول الله ﷺ، ولكنا لا نسارع إلى رد الروايات التي لا يعرف في سندها كذّاب وضّاع للحديث، ولا تصل إلى درجة

الصحة، ونقف منها موقف التسليم بإمكانها ولا نتخذها دليلاً على إثبات أو نفي.

هذا مذهبنا الذي قررناه بتفصيل وإسهاب في المقدمات الممهدات، وهو الذي ندين الله عليه، ونعتقده، ونؤمن به.

على ضوء ذلك ننظر في بعض الروايات التي وردت فيها وقائع أحداث في قصة الهجرة النبوية تعد آيات تدخل في إطار الإعجاز البشري، وتجري على سنن كونية خاصة تخضع لقهر الاقتدار الإلٓهي لعناصر الطبيعة المبثوثة في الكون كله.

ولسنا نقصد بذلك إلى استقصاء الوقائع المروية فيها، لأن كثيراً منها ضعّفه الأئمة من جهة إسناده وهذا مما لا نعول عليه، وإنما نقصد إلى ذكر الوقائع التي استفاضت رواياتها بأسانيد لم يذكر فيها معروف بالكذب ووضع الحديث، لأن مثل هذه الروايات النظيفة قد يزول عنها الضعف وهي في جملتها داخلة في احتمال وقائعها تحت قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره، الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[1] فالآية تذكر سنة من سنن الله تعالى الخاصة مع نبيه ﷺ، يقتضيها الموقف أن تكون في واقع الحياة المشهود.

وفي هذه السنة الخاصة يبين الله تعالى أنه تعهد نبيه محمداً ﷺ في مراحل حياته برعايته وتربيته، وفضّله ونشّأه على أكرم مكارم الأخلاق، وجعله محبباً إلى القلوب حباً طبيعياً حتى بعثه برسالته، فشنفت له أفئدة الوثنيين المشركين بالعداوة، ووقفوا في طريق دعوته يعوّقونها عن سيرها، فتولّاه الله تعالى بنصره، وآزره بحمايته في مواقف لم يكن فيها معه أحد إلا الله بقوته وقهره ومحكم تدبيره حتى كنتم أنتم معشر المؤمنين صنيعة يده بنصر الله له.

---

(١) سورة التوبة آية (٤٠).

عتاب لعامة المؤمنين ما عدا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وهذا عتاب للمؤمنين كافة ما عدا الصديق أبا بكر رضي الله عنه الذي لم يترك رسول الله ﷺ في موقف من مواقف الأزمات والشدائد، ولم تسترخ عزيمته قط في أشد المواقف، ولذلك لم يدخل في عموم الخطاب وقد شمله النداء بوصف التشريف ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الذي جاء عاقباً له خطاب العتاب في عنف وشدة ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضرّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾[1].

فالله تعالى يعاتب المؤمنين على تقاعسهم عن نصرة نبيه ﷺ استرخاء لمتع الدنيا المقرونة بالمنغصات المنتهية إلى الزوال، بعد أن ندبهم لنصرته فتثاقلوا مخلدين إلى الأرض، مستعذبين الراحة والترهل، راغبين بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ.

وكان هذا درساً في تربية المؤمنين وتطهير أنفسهم من الحرص إلى الركون للدنيا ومتعها، درساً جعل من المجتمع المسلم مجتمع شجاعة وبطولة وتضحية في سبيل نشر الدعوة وحماية الرسالة مما يتكاءدها من عقبات وعوائق يقيمها أعداؤها في طريق سيرها لوقف مدّها وصد تيارها الزخار.

تحليل لآية العتاب

ثم أعلم الله المؤمنين في أسلوب صارم أنهم إلّا يستجيبوا لداعي العزة وينفروا للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله إذا استنفرهم رسول الله ﷺ يعذبهم الله بتسليط عدوهم عليهم، وسلبهم ما غشي قلوبهم من متع الدنيا وشهواتها والاسترواح إلى زخارفها، ويستبدل بهم قوماً غيرهم لينقّي ساحة الإيمان من ضعف العزائم ووهن القوى وترهل الترف المفسد للفطر الأصيلة، و ﴿ يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[2]. وهو سبحانه غني عنكم، يعز دينه وينصر نبيه ﷺ بمن شاء وما شاء من خلقه ﴿ولله جنود

---

(١) سورة التوبة آيتا (٣٨، ٣٩).
(٢) سورة المائدة آية (٥٤).

السموات والأرض﴾[1] فلا منة لأحد من الخلق على دين الله، ولا على رسوله ﷺ، ولكن الله تعالى يمنُّ على من يشاء من عباده، لا يضره من تقاعس عن نصرة دينه والجهاد لإعلاء كلمته، لأنه القوي المقتدر لا يتعاظم قدرته شيء في الأرض ولا في السماء، ثم ذكرهم بما لا ينسى من فضله واقتداره فقال لهم: إلّا تنصروا رسولي لنصرة ديني الذي أخرجكم به من الظلمات إلى النور، فليس به حاجة إليكم وإلى نصرتكم، لأن الله تعالى تولّاه منذ أشرق نور وجوده على آفاق الحياة، وربّاه بفضله ونشّأه على عينه أميناً صدوقاً متحلياً بأفضل الشمائل منعوتاً بأكمل المكارم حتى بعثه رحمة للعالمين ورسولاً إلى الناس أجمعين، فدعاهم لما يحييهم، فأشاحوا عنه وكذَّبوه وآذوه واستهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾[2]... وتجمعوا لعداوته وتعويق رسالته وكانوا إلباً عليه، يمكرون به، ويأتمرون لقتله، فنصرته على جموعهم، ورددت مكرهم به إلى نحورهم، وأيدته بقوتي واقتداري وجنودي من خلقي، وأظفرته على أعدائه بقوتي وقهري، وأعززته بعزي يوم أن كان في أشد مضايق الأزمات وحيداً ليس معه أحد سوى صِدِّيقه وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، وقد أويا إلى غارٍ في ذروة جبل ثور، ومكة بلدة ترقص بملئها وطواغيتها على بركان من الحقد الفاجر والعتو الكفور، بعد إذ أخرجته من بيته في جوف الليل، وخرجت إذْ علمت أنه نجا من مكرها وكيدها تبحث عنه وكأنما مسّ ملأها تخبّط من الشياطين لتشفي بقتله غيظها، حتى وصل بها قافتها وقصّاص الأثر لها حيث وقفوا مذهولين تستحوذ عليهم الحيرة والدهش على فوهة الغار، وهم يقولون لها: ما جاز طلبتكم هذا الغار، وهنا انقطع عنا الأثر.

ومحمد ﷺ وصاحبه وصدِّيقه أبو بكر رضي الله عنه في جوف الغار لا يجاوزون بابه لضيقه، لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآهما، ورعب أبو بكر رعباً شديداً خوفاً على رسول الله ﷺ، فألّ، وأنّ، وتفجّـع، وبكى، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» فقال الصدِّيق رضي الله عنه: ما

(١) سورة الفتح آية (٤).
(٢) سورة الفرقان آية (٤١).

على نفسي أبكي!؟ ولكن أخاف أن أرى فيك ما أكره، فقال له رسول الله ﷺ ما حكاه الله: «لا تحزن إن الله معنا» فتنزلت السكينة متحدِّرة من قلب رسول الله ﷺ إلى قلب صاحبه وصدِّيقه فثبت ثبوت الشامخات الرواسي، وجاء الفجّار بعصيهم وهراواتهم وسائر ما ملكت أيديهم من سلاح إلى الغار ينفثون حقداً مغيظاً، ونظر بعضهم في الغار فرأى نسج العنكبوت على باب الغار في صورة يقول من رآها: إنها أقدم من ميلاد محمد - ﷺ - ورأى شجرة من شجر البادية تسد بفروعها باب الغار، فصدّهم ذلك عن استبراء الغار لمعرفة من فيه، ودرأ الله تعالى عن رسوله ﷺ الطلب، ودحر الطالبين مردودين على أعقاب الخيبة.

وأقام رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق في الغار ثلاث ليال في حراسة الله ورعايته، لا يعرف أحد مكانهما إلا عبدالله بن أبي بكر - وكان يوافيهما بأخبار ما يقال عنهما - وإلا عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنهما يرعى عليهما منيحة من غنم أبي بكر رضي الله عنه، يشربان من ألبانها، وإلا أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر رضي الله عنهما، تأتيهما بالطعام من بيت أبي بكر، وإلا الدليل الخرِّيت الذي استأجراه ودفعا إليه راحلتيهما وهو على كفره، فأمّناه وواعداه الغار صبح ثلاثٍ، وهدأ الطلب الفاجر، وداخل طواغيت الملأ اليأس، وجعلوا لمن يأتيهما بمحمد - ﷺ - مائة من الإبل، وفي صبح الليلة الثالثة أتاهما الدليل براحلتيهما ومعه بعيره، فخرجا من الغار وركبا متوجهين إلى الله في هجرتهما على اسم الله وبركاته، وسار معهما عامر ابن فهيرة رديفاً لأبي بكر يخدمهما في طريق الهجرة، والدليل الماهر يدلهما على الطريق.

* * *

يريد مؤلِّهو العقل أن يحكموا هذا العقل المحدود في سنن الله في الكون وهذا شطط في شرعة العلم

يأبى العقلانيون الذين يؤلِّهون العقل البشري إلا أن يتحكموا في نظام الحياة ويقيدوا سنن الله تعالى في تدبير الكون وإقامة نظامه بما يدركه هذا العقل المحدود وما يطمئن إلى الإيمان به، ويرفضون كل حقيقة تتعاظم على العقل أن تخضع لنواميسه وقوانينه المحدودة بإدراكاته، وقد رددنا عليهم هذا الجمود الفكري وأريناهم كثيراً من الحقائق التي ما يزال العقل يقف مشدوهاً

أمامها يؤمن بوجودها ولا يعرف حقيقتها، وحسبنا في التمثيل على ذلك (الحياة) فهي موجودة في كيان كل حي، يؤمن بوجودها، ولا يعرف حقيقتها العقل البشري ولا يجد لإنكارها سبيلاً، وإلا وجب أن ينكر وجود نفسه، وهو عاجز كل العجز عن إدراك ما هي الحياة؟

فتحكيم العقل في نواميس الكون شطط يجب أن يتخلص منه البحث في الحكم على الأشياء، وكما أن لله تعالى سنناً عامة يقوم عليها النظام العام للكون؛ فللّه تعالى سنن خاصة يقوم عليها نظام الأمور الخاصة التي تتصل بالتعبد والوحي والنبوة وآيات الإعجاز، وسائر الغيبيات من الحقائق التي لا يمكن اخضاع تصورها ووجودها لإدراك العقل.

فالأساس العلمي في هذه الأمور وإثبات وقائعها وأحداثها إنما يقوم على دعائم ثبوت الإخبار بها والتحدث عنها بأسانيد مضبوطة صحيحة الاتصال إلى من لا يتطرق الوهم إلى قوله أو فعله أو إقراره، وهو فقط رسول الله ﷺ المنبيء عن الله خالق الكون.

فإذا قرأنا في قصة الهجرة النبوية أن النبي ﷺ أخبره أمين الوحي جبريل عليه السلام بمكر قريش به وائتمارها لتقتله غيلة على فراشه في جوف بيته، وأنه خرج على الذين يترصدونه فلم يروه وهم أيقاظ، تدور أعينهم في محاجرها كالذي يغشى عليه من الموت، وإنه لم يترك واحداً منهم إلا عفّر رأسه بالتراب، وذهب إلى حيث أراد، فلما صحوا من سكرة ذهولهم ورأوا ما انتهى إليه مكرهم من خزي جلّل جباههم بعار الذل والهوان، ومن خذلان أذلّ استكبارهم جن جنونهم وتلظّى في أفئدتهم حريق الغيظ، وراحوا يضربون في كل فج من فجاج مكة ووديانها وشعابها، وركبوا في البحث عن محمد ﷺ الذي توهموا أنه في قبضة أيديهم كل صعب مستصعب، وجعلوا ديته لمن يأتيهم به، وأرسلوا بذلك إلى أهل المياه والضاربين طنبهم في سفوح الجبال ومشارف الطرق، واقتصُّوا الأثر بمهرة القافة حتى وصلوا إلى الغار الذي أوى إليه رسول الله ﷺ ومعه صاحبه وصدّيقه أبو بكر رضي الله عنه، وهنا عند باب الغار قال لهم قائفهم: ها هنا انقطع الأثر، ولا أدري أخذ

يميناً أم شمالاً أم صعد الجبل؟.

وأقبل فتيان قريش بعصيِّهم وهراواتهم وسيوفهم حتى وقفوا على باب الغار، فقال بعضهم: ادخلوا الغار، فقال أحد شياطينهم أمية بن خلف: وما أربكم في الغار؟ إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد ـ ﷺ ـ وقال غيره: لو دخل أحد الغار لتفسخ العنكبوت.

إذا قرأنا هذا وأمثاله وهو مستفيض مشهَّر لا يكاد يخلو منه كتاب منذ ألفّ أهل العلم قديماً وحديثاً في السيرة النبوية ودونوا أحداثها ووقائعها؛ فلا يستقيم في شرعة البحث العلمي المسارعة إلى التشكيك في وقوعه بتوهم أن العقل لا يفقهه ولا يدركه ولا يطمئن إلى التسليم به، لأنه أمر يخالف ما ألف الناس في مداركهم لحقائق الأشياء وما اعتادته الطبائع البشرية.

وقصة نسج العنكبوت على باب الغار عقب دخول رسول الله ﷺ إلى جوفه رواها الإمام أبو بكر البزار في مسنده من طريق أبي مصعب المكِّي عن ثلاثة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم. قال: أبو مصعب: أدركت زيد ابن أرقم والمغيرة بن شعبة، وأنس بن مالك يتحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة الغار أمر الله عز وجل العنكبوت فنسجت على وجه الغار، ورواها الحافظ ابن عساكر، وفي هاتين الروايتين ذكر الشجرة والحمامتين الوحشيتين مع نسج العنكبوت، ورواها الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾. وفي هذا الحديث: لما بلغوا ـ أي فتيان قريش ـ الجبل اختلط عليهم فتصعَّدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه.

قال الإمام ابن كثير في البداية: وهذا إسناد حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ.

وروى ابن كثير عن الحسن، قال: انطلق النبي ﷺ وأبـو بكر إلى الغار، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبوبكر يرتقب، فقال: أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أئلّ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال له النبي ﷺ «يا أبا بكر؟؟ لا تخف إن الله معنا».

قال ابن كثير: وهذا مرسل عن الحسن وهو حسن بحاله من الشاهد.

ومن أعجب ما روي من وقائع غار ثور ما ذكره ابن كثير في البداية فقال: وقد ذكر بعض أهل السيرة أن أبا بكر لما قال للنبي ﷺ: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال له النبي ﷺ: «لو جاؤونا من هاهنا لذهبنا من هنا» فنظر: الصدِّيق رضي الله عنه إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه. قال ابن كثير: إن هذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تلقاء أنفسنا ولكن ما صح سنده أو حسن قلنا به.

وهذا التعليق من هذا الإمام الناقد العليم الذي يجمع بين العلم المصفّى والإيمان الزكي هو ما يجب أن يقف عنده الناظرون في آيات الله وأعاجيبه التي يجريها على يد نبيه ﷺ، فكل ما يثبت منها بسند صحيح أو حسن يجب الإيمان به واعتقاده، وما لم يثبت كذلك يوقف فيه، فلا يردّ ولا يقبل ما لم يكن مروياً عن كذّاب يضع الأحاديث ويخترع الروايات فهذا يجب ردّه وبهرجته وإظهار زيفه.

وقد روى ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة) حادثة قد تكون أعجب من الحادثة السابقة في رواية ابن كثير أو هي على الأقل من واديها، وابن حـزم يجـزم بحادثته جزم من شاهد ورأى ويتحدى، قال: فلما فقدته ـ أي النبي ﷺ ـ قريش اتبعته بقائف معروف، فقاف الأثر حتى وقف عند الغار،

فقال: هنا انقطع الأثر، فنظروا فإذا العنكبوت وقد نسج على فم الغار من وقته فأيقنوا أنه لا أحد فيه فرجعوا.

ثم قال ابن حزم: وفتح الله تعالى في الوقت في جانب الغار باباً واسعاً خرجا منه في صخرة صلد صماء، لا تؤثر فيها المعاول، فأمالها الله عز وجل، وهي إلى اليوم ظاهرة لا يشك من رآها أنها لو ردت لسدت المكان، ولا يختلف أحد أن ذلك الباب لو كان هنالك حينئذ لرأته قريش.

وابن حزم لم يسند روايته إلى أحد، ولكنه اعتمد على مشاهدته للمكان والباب الذي فتح في جانب الغار غير بابه الأصيل الذي دخل منه النبي ﷺ هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه، ويقرر ابن حزم أن هذا الباب الذي فتح في جانب الغار في صخرة صلد صمّاء لم يكن موجوداً وقت أن كانت قريش وقافتها عند باب الغار، وأنه لو كان موجوداً لرأته جهاراً، ويقرر أيضاً أن هذه الصخرة التي لا تؤثر فيها المعاول لو ردت إلى مكانها لسدت الباب الذي فتح فيها بإمالتها إمالة ظاهرة يراها كل أحد يشاهدها.

ولا ندري إن كان هذا التشابه بين قصة ابن كثير التي جاء فيها أن الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وقصة ابن حزم التي يقول فيها: وفتح الله تعالى في الوقت في جانب الغار باباً واسعاً خرجا منه يجعل من القصتين قصة واحدة تصرف فيها الرواة بالزيادة والحذف، أم أنهما قصتان في واقعتين والعلم عند الله، ونلاحظ هنا أن ابن كثير كان جيد النقد لقصته وأمثالها.

وبالتأمل في قول الله عز شأنه: ﴿وأيّده بجنود لم تروها﴾ نجده بعمومه المشعر به تنكير لفظ (جنود) يدل على أنّ كلّ ما حمى الله به نبيه محمداً ﷺ من كيد أعدائه هو من جند الله، ويدل لذلك ما رواه أبو نُعَيم عن محمد ابن إبراهيم التيمي أن النبي ﷺ نهى عن قتل العنكبوت وقال: «إنها من جنود الله» ولا وجه لتخصيص جند الله بالملائكة في هذا الموضع وأمثاله.

وللتخصيص بالملائكة وجه في الوقائع الحربية كوقعة بدر، وحنين ظاهر، والقرآن الكريم صرّح بإنزال الملائكة محاربين في صفوف المؤمنين،

وهذا توقيف قاطع يجب الوقوف عنده والإيمان به، ولكنه لا يمنع أن يكون لله تعالى جنود من غير الملائكة أيّد بهم نبيه محمداً ﷺ في الوقائع الحربية، كما لا يمنع أن يكون قد أيَّد الله نبيه ﷺ بالملائكة مع أنواع أخـرى من جنده في غير الوقائع الحربية ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[1].

(١) سورة المدثر آية (٣١).

كيف تمت الهجرة النبوية؟

حديث أبي بكر عن البراء بن عازب من وصف رحلة الهجرة

مضى الركب الميمون في طريقه إلى المدينة المنورة، تحفه رعاية الله وعنايته سالكاً به دليله الحاذق الماهر الأمين طريق السواحل.

ويترك القلم متوارياً في حياء حيي الحديث إلى الشاهد الذي لا يقال له؟؟ إلى الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه الصاحب الأول إسلاماً، والصاحب الفرد هجرة، يقول الإمام البخاري في الجامع الصحيح: حدثنا عبدالله بن رجاء، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق، عن البراء قال: اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رَحْلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُرِ البراء فليحمل إليّ رحلي، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حينما خرجتما من مكة، والمشركون يطلبونكم؟ قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا ـ أو سرينا ـ ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقية ظل لها فسويته ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجعّ النبي ﷺ،ثم انطلقت أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش، سمّاه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن قال: نعم، قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال: هكذا، ضرب إحدى كفيّه بالأخرى فحلب لي كثبة من لبن ـ أي شيئاً ليس له قدر مقدّر ـ وفُسِّر بحلبة

خفيفة، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال «بلى» فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: «لا تحزن إن الله معنا».

وقد رُوي هذا الحديث في صحيح البخاري في عدة مواضع وفي بعضها اختلاف لا يخرج الحديث عن المعنى المقصود.

وقد آن للقلم أن يتخفف من حيائه ليجول مقتفياً أثر الصدِّيق في رياض ما قصه من رحلة الهجرة النبوية بعد الخروج من غار ثور، منبِّهاً على لوامع الإيمان، وومضات الإخلاص، ووفاء الحب.

وأول ما يلفت النظر في هذا الحديث ما بدا من عازب رضي الله عنه من الحرص على سماع ما وقع للنبي ﷺ وصاحبه الصدِّيق رضي الله عنه في رحلتهما الشاقة المحفوفة بأعظم الأخطار، اشتراطه ـ على سبيل المكارمة بين الأخوة ـ أن لا يرسل ابنه البراء مع الصديق ليحمل له رحله حتى يحدثهم عما قابلهم في طريقهم حينما خرجا من مكة مهاجرين والمشركون يجدّون في طلبهم، ليحيط المؤمنون علماً بما لقي رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الصدِّيق رضي الله عنه من مشقة وشدة في رحلته المباركة، ليكون ذلك نبراساً يضيء لهم طريق الجهاد في سبيل نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، ونموذجاً للصبر واحتمال المشاق في سبيل إعلاء كلمة الحق والهدى والنور.

وثاني أمر يلفت النظر في هذا الحديث صدق حب أبي بكر الصديق رضي الله عنه للنبي ﷺ، وبالغ حرصه على راحته، وتولِّيه خدمته بنفسه مع وجود عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه الذي اصطحباه ليخدمهما في رحلتهما.

فالصدِّيق رضي الله عنه حينما شعر بمشقة السفر على رسول الله ﷺ ـ

وقد سارا يوماً وليلة ونصف اليوم حتى دخلا في ظهيرته، لأنهما خرجا من الغار في صبح الليلة الثالثة لإيـوائهما إليه كما جاء في حديث الهجرة عند البخاري أيضاً. وسارا يومهما وليلتهما وصدر يوم تلك الليلة حتى قام قائم الظهيرة من ذلك اليوم - رمى ببصره في أرجاء الأفق، هل يرى من ظل فيأوي إليه ليهيىء للنبي ﷺ مقيلاً يأخذ فيه بعض الراحة، وإذا به يلمح صخرة فيأتيها، وينظر فإذا بقية ظل لهذه الصخرة فيسوِّيه ويفرش للنبي ﷺ فروة كانت معه، ويطلب إلى النبي ﷺ أن يضطجع فوقها ليأخذ ﷺ قسطاً من الراحة بعد هذا السفر المضني في ظلام الليل وهجير النهار، ويضطجع النبي ﷺ، ثم يمضي أبو بكر إلى أين؟ إلى حيث ينظر ويستبرىء ما حوله، هل يرى من الطلب أحداً من الأعداء، أو ممن طمعوا في جعالتهم لمن يأتيهم بمحمد ﷺ، وإذا هو براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يطلب الراحة في ظلِّها، فيسأله أبو بكر ليتعرف عليه، هل هو في مخبره كما هو في مظهره راعي غنم، يريد شيئاً من الراحة في ظل الصخرة؟ أو هو في مخبره متستر بمظهره ويقول أبو بكر له بعد أن كشف حـالـه واطمأن إليه: لمن أنت يا غلام؟ فيجيب الغلام بأنه لرجل من قريش، سمّاه فعرفه أبو بكر رضي الله عنه، ويطمئن أبو بكر رضي الله عنه إلى أنه لا طلب يخافه.

ويسأله أبو بكر: هل في غنمك من لبن؟ ويجيب الغلام: نعم، ويقول له أبو بكر رضي الله عنه: هل أنت حالب لنا، قال: نعم، ويأمره أبو بكر أن يحلب لهم، ويسرع الغلام إلى شاة فيعتقلها، ولكن أبا بكر رضي الله عنه يأمر الغلام أن ينفض ضرع الشاة من الغبار، ثم يأمره أن ينفض كفيه ويستجيب الغلام في سماحة وادعة، ويضرب إحدى كفيه بالأخرى، وحلب لأبي بكر رضي الله عنه كثبة يرتوي منها النبي ﷺ.

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد جعل لرسول الله ﷺ إداوة أعدها مطهّرة نظيفة محصنّة من التلوث بالغبار، وجعل على فمها خرقة لتصفية اللبن مما عسى أن يكون قد علق به أثناء الحلب من الشعر والقذر والتراب، وأعدّ ماء طيباً ليبرِّد به اللبن، فصب منه على اللبن حتى برد أسفله، وانطلق به إلى

النبي ﷺ وهو في مضجعه في ظل الصخرة، فوافق وصوله إليه استيقاظه، وقدم له ﷺ الإداوة وفيها كثبة اللبن، وطلب إليه ﷺ أن يشرب فشرب حتى رضي أبو بكر وهو أعلم بحاجة النبي ﷺ إلى القدر الذي يرضيه بعد السفر الطويل المتتابع، ثم تلطّف أبو بكر بأدب الخطاب فقال للنبي ﷺ: قد آن الرحيل يا رسول الله؟، قال: «بلى» فارتحلوا والطلب لم يفتر، ولكن الله حفظهم برعايته، فلم يدركهم أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فرجف أبو بكر رضي الله عنه ورعب خوفاً على رسول الله ﷺ أن يناله ما يؤذيه، فقال معبِّراً عن ذات نفسه، وما هجس فيها: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، ويجيبه سيد المرسلين وهو في مشهد اليقين: «لا تحزن إن الله معنا» كأنه يذكره بموقف الغار، ليحرك في قلبه السكينة التي أفاض عليه من آثار إنزالها عليه إذ تنزلت ساعة «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» فسكن قلب الصديق وعاودته الطمأنينة وبرد اليقين.

هذه قصة تتحدث عن مشهد من مشاهد الهجرة النبوية لم يكن فيها شيء من آيات الإعجاز الخارق لشيء من نواميس الطبيعة في ظواهرها، ولكنها مليئة بمشاهد الإعجاز الإنساني الذي ينبع من ينابيع مداخل النفس الإنسانية المفعمة بالحب والإخلاص الذي لا يضن بالنفس فداء للفكرة، والفكرة هنا هي العقيدة والإيمان، والإيثار لرمز الحياة في أفقها المضيء.

كان أبو بكر رضي الله عنه رفيق رسول الله ﷺ في هجرته، وصاحبه في الغار الذي أقاما فيه ثلاث ليال ثم خرجا منه مرتحلين إلى المدينة المنورة، والطلب من طغاة الوثنية والشرك يناهضهما، فجدّا في السير سيراً متواصلاً أرهقهما وأضعف قوة رواحلهما في ملتهب من الحر الذي يتنفس من فيح جهنم، وزادٍ مفقود، والنبي ﷺ يمضي قُدُماً لا يبالي نصباً يلحقه، ولا جهداً يناله، وأبو بكر مشغول الفكر والنظر بشدة الحرص على سلامة رسول الله ﷺ يفديه بنفسه، لا يبدؤه بحديث يقطع عليه عزيمته، حتى إذا قام قائم الظهيرة من اليوم بعد ليلة كاملة ويوم قبلها أحس أبو بكر رضي الله عنه أن اشتغاله بمراقبة الطلب شغله عن التفكير في راحة رسول الله ﷺ، فتنبه

لذلك، وفكر في أن يتيح له ﷺقسطاً من الراحة ليقوى على السير، والغاية بعيدة والسفر شاق، فرمى ببصره في مَهْمَه الأرض ليرى شيئاً من الظل ليهيئه للنبي ﷺ حتى يأخذ فيه بعض الراحة، فأبصر بصخرة أتاها، فإذا بقية من ظلها فسّواها وأزال ما فيه من عوج ونتوءات وفرشه بما معه، ثم طلب إلى النبي ﷺ أن يضطجع ليستريح، فاضطجع عليه الصلاة والسلام ونام، وعاد أبو بكر إلى ما كان يشغله على رسول الله ﷺ من الطلب، فنظر إلى ما حوله فرأى راعياً يسوق غنمه إلى الصخرة يريد الراحة بغنمه في ظلها، فسأله حتى عرفه وعرف صاحبه، صاحب الغنم، وطلب إليه في تلطف أن يحلب له بعد أن أمره بالتنظف فحلب له كثبة من اللبن، وقد أعد أبو بكر إداوة على فمها خرقة وصب على اللبن حتى برد أسفله، وذهب به إلى النبي ﷺ فوافقه قد استيقظ وطلب إليه أن يشرب مما أعده له من اللبن، فشرب رسول الله ﷺ كفايته حتى رضي أبو بكر ثم ارتحلا محفوفين برعاية الله وعنايته.

قصة
سراقة بن مالك الجعشمي

وقصة سراقة بن مالك الجعشمي المُدْلجي التي جاءت في حديث أبي بكر من حديث البراء بن عازب رواها البخاري بما فيها من آيات وعجائب الإعجاز التي أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ مستوفاة في باب الهجرة النبوية، قال البخاري بالسند الموصول إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قال ابن شهاب، وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي ـ وهو ابن أخي سراقة ابن مالك بن جعشم ـ أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك يقول: جاءنا رُسُل كفار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفاً أسْوِدَة بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنَّك رأيت فلاناً وفلانا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي ـ وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي ـ وعصيت الأزلام ـ تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها ثم

زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني، ولم يسألاني إلا أن قال ـ اي رسول الله ﷺ ـ : أخْفِ عنّا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث من الآيات الباهرة والعجائب الكونية الظاهرة ما لا يحتاج إلى تعليق وهي من قبيل حفاوة الله تعالى بنبيه وحمايته ونصره بما لا قِبَلَ لأحد من الخلق أن يصنعه ويقوم به.

قصة أم مَعْبَد

ولطائف آياتها وصفتها رسول الله لزوجها

وقصة أم معبد ـ كما ذكر الزرقاني ـ رواها البخاري في التاريخ، وأخرجها البغوي وابن خزيمة، والحاكم والبيهقي وصاحب الغيلانيات، وابن عبد البر، وابن شاهين، وابن السكن، والطبراني، وغيرهم عن أخي أم معبد، حُبيش صاحب رسول الله ﷺ قال: لما خرج رسول الله ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وابن فهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق مرّوا بقُديد على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، وكانت بَرْزَة جَلْدة، تحتبي بفناء القبّة، ثم تسقي وتطعم من يمر بها، وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتين، فطلبوا لبناً، أو لحمًا، أو تمراً، يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً، وقالت والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى، فنظر ﷺ إلى شاة في كِسْر الخيمة خلّفها الجهد عن الغنم، فسألها ﷺ: «هل بها من لبن»؟ فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال ﷺ: «أتأذنين أن أحلبها؟» فقالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا ﷺ بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها وسمّى الله تعالى، فتفاجت ودرّت ودعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجاً، وسقى القوم حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى عللاً بعد نهل ثم غادره عندها، وذهبوا، فما لبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزاً عجافاً، يتساوكن هُزّلاً فلما رأى اللبن أبو معبد عجب وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنّى لك هذا والشاة عازب حيال، ولا حلوب في البيت فقالت أم معبد: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا وكذا، فقال أبو معبد: صفيه يا أم معبد، فقالت:

وصف أم معبد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، مُبلج الوجه، حسن الخَلْق، لم تعبه ثُجلة، ولم تزربه صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور، أكحل أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نُظُمْنَ يتحدرن، حلو المنطق، فصل، لا نزر، ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة، لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفنِّد.

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لا تبعته.

قصة
راعي غنم آخر
وهي غير قصة صاحب الصخرة

قال صاحب المواهب: واجتاز ﷺ في طريقه بعبد أسود، يرعى غنماً، فكان من شأنه ما رويناه من طريق البيهقي بسنده عن قيس بن النعمان السكوني أحد وفد عبد القيس قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين مر بعبدٍ يرعى غنماً فاستسقياه اللبن، فقال: ما عندي شاة تحلب غير أن هاهنا عناقاً ـ الأنثى من ولد المعز قبل استكمال الحول ـ حملت عام أول، وما بقي لها لبن، فقال النبي ﷺ: «ادع بها» فاعتقلها ﷺ ومسح ضِرْعها ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب ﷺ، فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك، قال ﷺ: «أو تراك تكتم عليّ حتى أخبرك؟» قال: نعم، قال «فإني محمد رسول الله» قال الراعي: أنت الذي تزعم قريش أنه صابىء قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك» قال الراعي: فأشهد أنك نبي، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتِنا».

قال الزرقاني: ثم هذا الحديث قطعاً غير قصة الراعي الذي أتى يريد ظل الصخرة التي نام تحتها رسول الله ﷺ، لأنَّ صاحب الصخرة قال: إن في غنمه لبناً، وحلب هو لأبي بكر رضي الله عنه، وبَرَّد أبو بكر اللبن حتى استيقظ المصطفى ﷺ كراهة أن يوقظه، ثم سقاه.

وأما هذا العبد، فذكر أنه لا لبن معه، وإنما أتى اللبن معجزة، والنبي ﷺ هو الذي حلب وسقاه بعد أبي بكر، ثم شرب هو آخرهم.

قال الزرقاني: وقصة الراعي - أي الأول الذي حلب لأبي بكر كثبة والنبي ﷺ كان نائماً - كانت قبل قصة سراقة، وقصة سراقة كانت بعد قصة أم معبد كما أفاده في فتح الباري.

قصة
شبيهة بقصة أم معبد

ثم قال الزرقاني:

قال الحافظ مغلطاي بعد ذكره لقصة أم معبد: وفي الإكليل للحاكم أبي عبدالله قصة أخرى شبيهة بقصة أم معبد، قال الحاكم: فلا أدري أهي هي، أم غيرها، وقد رواها تلميذه البيهقي بسندٍ حسَّنه ابن كثير عن أبي بكر رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنزلنا على بيت منه، لم يكن فيه إلا امرأة، وذلك عند المساء، فجاء ابن لها بأعنز يسوقها، فقالت له أمه: انطلق بهذه الشفرة والشاة لهذين الرجلين وقل لهما: اذبحاها وكلا منها وأطعمانا، فرد النبي ﷺ الشفرة وقال له: ائتني بقدح، فقال له: إنها عزبة أي لم يطرقها الفحل، قال ﷺ: «انطلق»، فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها، ثم حلب ملء القدح، وأرسله لأم الغلام معه، فشربت حتى رويت، ثم دعا ﷺ بأخرى ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم دعا بأخرى، ففعل بها كذلك وشرب ﷺ، فلبثنا ليلتين، ثم انطلقنا، فكانت ـ أي هذه المرأة ـ تسميه ـ أي النبي ﷺ ـ المبارك، وكثرت غنمها حتى جلبت جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر عليها فعرفه ابنها، وقال لها: هذا الذي كان مع المبارك، فسألته عنه، فقال لها: هو نبي الله ﷺ، فأدخلها عليه فأطعمها وأعطاها. قال البيهقي في الدلائل: وهذه القصة قريبة من قصة أم معبد ويشبه أن تكونا واحدة، قال الزرقاني: والذي يظهر أنها غيرها، كما أشار إليه مغلطاي، كيف وفي قصة أم معبد أن الشاة التي حلب منها إنما هي التي في كسر الخيمة وسقى الجميع منها ثم شرب،

وأن الآتي بالأعنز إنما هو زوجها بعد ما ذهبوا، وأيضاً فقد قال في هذه القصة: فلبثنا ليلتين، إذ لو لبثاهما ـ أي في قصة أم معبد ـ لأدركهما زوجها، ولا مانع من التعدد، وإلى هذا جنح في فتح الباري، فقال: أخرج البيهقي في الدلائل شبيهاً بأصل قصة أم معبد في لبن الشاة المهزولة دون ما فيها من صفته ﷺ، لكنه لم يسمِّها في هذه الرواية ولا نسبها فاحتمل التعدد.

قصة
بُرَيدة بن الُحصَيب الأسلمي

قال الزرقاني: وأخرج البيهقي عن بريدة بن الحصيب قال: لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبي ﷺ حملني الطمع، فركبت في سبعين من بني سهم فلقيته، فقال: «من أنت؟» فقلت: بريدة، فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر وقال: «برد أمرنا وصلح» ثم قال: «ممن أنت؟» قلت: من أسلم، قال: «سلمنا» ثم قال: «ممن؟» قلت: من بني سهم، قال: «خرج سهمك يا أبا بكر».

فقال بريدة للنبي ﷺ: من أنت؟ فقال ﷺ: «أنا محمد بن عبدالله رسول الله»، فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً، قال بريدة: الحمد لله الذي أسلم بنوسَهْم طائعين غير مكرهين، فلما أصبح قال بريدة: يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحلَّ عمامته ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة.

وكان ﷺ يحب الفأل الحسن، فما في قصة بريدة من قوله ﷺ: «سَلِمْنا» وقوله: «برد أمرنا وصلح» فهو من هذا القبيل الذي جرى فيه ﷺ على عادته الشريفة.

ومنه ما رواه أبو نعيم بسنده عن إياس بن مالك بن الأوس الأسلمي عن أبيه قال: لما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه مروا بإبل لنا بالجحفة، فقال رسول الله ﷺ: لمن هذه الإبل؟ فقالوا: لرجل من أسلم،

فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سلمت إن شاء الله» فقال: «ما اسمك؟» قال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعدت إن شاء الله» قال: فأتاه أبي فحمله على جمل يقال له: ابن الرداء.

وفي ثنايا قصة الهجرة ما يدل على حفاوة الإخاء والمحبة التي يضفيها رسول الله ﷺ على صدِّيقه وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، ليخفف عنه ما يجده من التوجس على رسول الله ﷺ وشدة حرصه على سلامته، وذلك بما تبعثه كلمات التفاؤل في النفس من راحة ورجاء في رحمة الله ورعايته، ويزيد في أثرها التفات رسول الله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه وتوجيه الخطاب إليه بعاطفة الإشفاق والودادة، فكأنه يقول له: أبشر ولا تبتئس، وانفض عن نفسك غبار الأحـزان، فقد كتبت لـك في ألواح الغيب السـلامة والسعادة، ويتلقى الصدِّيق رضي الله عنه هذا الود العطوف بقلب مَلأَهُ اليقين والحب والإخلاص.

كيف استقبل رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم
بالمدينة المنورة

الأنصار في ذروة المكارم

كان الأنصار خزرجهم وأوسهم، رجالهم ونساؤهم، شيوخهم وشبابهم، فتيانهم وفتياتهم أصدق الناس وعداً، وأوفاهم عهداً، وأحسنهم على رسول ﷺ رداً، وأحظاهم عنده قبولاً، وأسعدهم له بيعة، وأرعاهم له وداً، وأطهرهم قلوباً، وأصفاهم فطرة، وأعلاهم في المكرمات كعباً، وأوصلهم في الخير آصرة وحباً، وأسرعهم لدعوة الحق استجابة، وأقبلهم للهدى، وأعرفهم للخير وأبصرهم لنور الإيمان وأنبلهم في عهودهم خلقاً، وأعظمهم في العطاء إيثاراً، وأوثقهم إيماناً، وأخلصهم سريرة، وأصفاهم علانية، وأقواهم في الذود عن الحق عزيمة، وأعلاهم في الكرم سماحة وأسمحهم بالعفو تكرماً، وأرفعهم في ذرى الشمائل مروءة، وأشجعهم في الحق بطولة، وأجرأهم على أعداء الخير صولة، وأثبتهم في حومة الوغى قدماً، وأسرعهم لداعي الجهاد في سبيل الله استجابة، وأرسخهم في الدعوة إلى الله وتوحيده وهديه يقيناً، وأبعدهم عن الغرور بزخارف الدنيا ورغائبها، وأخلصهم لله تعبداً، وأبلغهم في نصر دين الله لساناً، وأفصحهم قولاً، وأروعهم كلماً، وأحكمهم عند المشورة اجتهاداً ورأياً، وأحبهم لرسول الله ﷺ، وأقربهم إلى قلبه مودة، وأتبعهم لنهجه، وأعرفهم بمواطن حكمته.

قدّموا أرواحهم وأموالهم وفلذات أكبادهم فداء لرسول الله ﷺ ولأصحابه الذين هاجروا إليهم، وعانقوا السيوف دفاعاً عن الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته إلى الناس، وأحبُّوا الموت استشهاداً في سبيل إعلاء كلمة الله، كلمة الحق والتوحيد، وقد أحبهم رسول الله ﷺ، وأثنى عليهم، ونوّه

بفضلهم على الناس، وأنزلهم من نفسه منزلة الحِبِّ من الحبيب، فكانوا منه ﷺ كما قال في تصوير قربهم من نفسه: «الأنصار شعار والناس دثار» وكما قال ﷺ: «الأنصار كَرِشي وعَيْبتي» وكان معهم كما قال: «أنا سِلْم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم».

لهذا كان حبهم إيماناً، وكان بغضهم نفاقاً وكفراناً، روى البخاري رحمه الله تعالى من حديث عدي بن ثابت قال:

سمعت البراء بن عازب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق؛ فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله» وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

ولو لم يكن للأنصار من شمائل الفضائل، وفضائل الشمائل التي سبقوا فيها وأربوا على الغاية، فلا يلحقهم فيها أحد في السابقين واللاحقين من المؤمنين ما أنزله الله فيهم قرآناً يتلى ويتعبّد به إلى يوم القيامة، ثناء عليهم وتنويهاً بفضلهم، وذلك قول الله تعالى: ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1] لكفاهم في سجل المفاخر، ومناقب المآثر، ومآثر المكارم.

تحليل يبين ما في الآية من لطائف الرعاية الربانية وإفراد الأنصار بخصائص إيمانية وخلقية

وفي تعبير القرآن الحكيم عن مكانة الأنصار من خِصِّيصتي الإيواء وتمكن الإيمان من أنفسهم، وتمكنهم من ذروته بقوله تعالى: ﴿تبوؤا الدار والإيمان﴾ أروعُ صورة من صور البيان الإعجازي، هذا التصوير الذي جعل من المدينة المنورة دارهم المعهودة التي لا يشاركهم في الاستقرار بها وفرض ما يشاؤون عليها وعلى ساكنيها أحد، مع أن مقاليدها لم تكن إلى عهد قريب جداً ـ إلى عهد تمام بيعتهم لرسول الله ﷺ وهجرة أصحابه إليهم، ثم هجرته ﷺ ـ بأيديهم، وإنما كانت بأيدي اليهود الذين سكنوها قبلهم،

(١) سورة الحشر آية (٩).

واستمكنوا من مرافقها، واستقروا بها في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، لأن الأنصار منذ تلك البَيْعة العظمى أصبحوا سادة الموقف في مدينتهم بما جاؤوها به من سلطان الدعوة التي عقدوا هذه البيعة لمناصرتها بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وبكل ما يملكون في حياتهم.

ولا شك أن هذا الوضع الجديد الذي عبّر عنه القرآن الحكيم تعبيره الموجز المعجز قد أحدث في داخل نفوس الأنصار ثورة اجتماعية عارمة، ترفض كل تبعية، وأحدث في نفس اليهود ذلّة خبيثة ماكرة تعمل في ستار من الظلام، أدخلوا بها النفاق في صدور الذين بقي لهم في قلوبهم من إكبار الماضي القريب، وهم قلّة عجزت عن مواقفة العلانية أمام هذا السلطان القاهر الذي أكسبته البَيْعة الكبرى للأنصار، فكانوا سادة مدينتهم، وكانت مدينتهم الدار التي تبوَّؤها لحياتهم الجديدة في ظل الإسلام.

والذي جعل من الإيمان ـ وهو حقيقة معنوية أبعد ما تكون الحقائق عن المادة وخصائصها ـ مستقراً حسياً ومتوطناً لهم لشموله لهم، وإحاطته بهم من سائر أقطارهم مما يفيد تداخله تداخلاً مزجياً في إحساساتهم ومشاعرهم، وإفعامه أفئدتهم وقلوبهم وعقولهم وأرواحهم، وسائر مناحي تفكيرهم بأنواره وشرائعه وأحكامه وآدابه، آمراً ناهياً مطاعاً مستجاباً، فكأنه بهذا التصوير القرآني الوجيز المعجز مكان حسي تبوأوه، وملأوا أحيازه، فلم يتركوا فيه خصاصة لغيرهم ولا فرجة لسواهم، وكان لهم سياجاً يحميهم ويجمع أمرهم، ويشدّ أعضادهم، فهو كالقلعة الحصينة لهم، لا يبلغ أحد أن ينالهم بسوء لقوة شدته، وتماسك عناصره عقيدة وتعبداً ونظاماً للحياة.

وفي قوله تعالى: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أبدع تصوير لوشائج القرب التي أحدثها هذا الإيمان المتبوأ لهم فيما بينهم وبين إخوانهم المهاجرين الذين وفدوا إليهم بإيمانهم الذي أقاموا مناره في أفق المحن والبلايا، تصب عليهم من طغاة الشرك والوثنية صباً، وليس لهم سَبَد ولا لبد، لأنهم تركوا أموالهم وديارهم وأولادهم وعشائرهم في سبيل الحفاظ على عقيدتهم ودينهم الذي اصطفاه الله لهم، وارتضاه للدنيا كلها ديناً لا يقبل من أحد سواه.

لأن الحب قمة صُور القرب والتمازج الروحي الذي ينتهي في صفائه وخلوصه من شوائب الأغراض والمقاصد (الأنوية) التي تعمل لتحقيق الرغائب الشخصية إلى وحدة الرغائب والآمال، ووحدة الإحساس بالآلام.

فليست مواساة الأنصار التي مدحهم الله بها لإخوانهم المهاجرين مواساة تكرّم لسدِّ خُلّة أو دفع حاجة، ولكنها مواساة حب مزج بينهم فجعل من مجتمعهم وحدة إيمانية لا تعرف لغير هذا الإيمان سلطاناً، والحبُ أقصى ما تبلغ العواطف من إخلاص يذيب (الأنانية) وإيثار النفس بكل محبوب، ويحقق وحدة شعورية لا يبقى فيها مكان (لأنا) و(أنت) و(هو).

وفي قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ أصدق تعبير على مدى ما تستطيع الروابط الإيمانية أن تصنعه في داخل النفس الإنسانية من آثار تبلغ ذروة الفضائل، وتتجاوز قمم المكارم إلى آفاق الحق المُقاسم، وهي محسوبة في سجل الإخاء، ولكنه إخاء من لون جديد - أحدثه الإسلام بتربيته الخاصة لخواص معتنقيه ديناً، وهبوا له أنفسهم وحياتهم - لم تعرفه البشرية في تاريخها العريض المديد لغير هؤلاء الأعلَين الذين كانوا طليعة الإيمان بهذا الدين القويم من المهاجرين والأنصار، لأنه إخاء لا يعتمد على الإيثار المادي فقط، ولكنه إيثار حب يعتمد على وحدة الامتزاج النفسي الذي لا يفرِّق بين المادة والروح، فالإيثار بالروح كالإيثار بالمادة، فهو حب إيثار تصوره الوقائع التي يقف منها واقع الناس، كل الناس في حياتهم مذهولاً مأخوذاً لأنه يرى ما لا يتصور أن يكون إلا في خيالات (المتروحنين)، والتاريخ الصادق شاهد عدل على تلك الوقائع.

وقائع التاريخ شواهد صدق على ما كان للأنصار من شمائل المكارم

ففي آثار السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما غنم أموال بني النضير قسمها على المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر منهم كانوا في حاجة شديدة، وقد قصد ﷺ - فيما يظهر لنا - بصنيعه ذلك أن يريش المهاجرين ليقفوا في حياتهم الجديدة دون أن يثقلوا على إخوانهم الأنصار فيما تحملوه من مشاركتهم حياتهم ومواساتهم لهم، كما قصد ﷺ أن يطيِّب نفوس الأنصار بهذا العطاء الذي خص به المهاجرين، فقال لهم: «إن شئتم قسمتم

للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من هذه الغنيمة».

فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها.

عرفان المهاجرين لفضل إخوانهم الأنصار

وقد عرف المهاجرون لإخوانهم الأنصار فضلهم ورِفْدَهم ومواساتهم، وحبهم وإيثارهم على أنفسهم، فأعلنوه شكراً لهم، روى الإمام أحمد في مسنده قال: قال أنس: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال رسول الله ﷺ: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم».

مدح سما بفضل الأنصار على كل فضل ومكرمة

ومناقب الأنصار ومكارمهم لا تحصى، ولكنا ذكرنا ونذكر منها نماذج لتحتذى، ومثلاً ليقتدى بها، ولن يبلغ أحد مداها، وحسبهم منقبة فاقوا بها جميع الناس من الأولين والآخرين قول رسول الله ﷺ في الثناء عليهم وحبهم، وقربهم منه ﷺ، وتنويهاً بشأنهم: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعْباً، وسلك الأنصار وادياً وشِعْباً لسلكتُ وادي الأنصار وشِعْبهم» فهم الذين آووا ونصروا، آووا الرسالة والرسول، ونصروا الحق وجنده، وآووا إخوانهم المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأولادهم فداء لعقيدتهم ودينهم، وهم الذين نصروا الدعوة إلى الله بأرواحهم وسيوفهم، وهم الذين ذخرهم الله في سجل غيبه ليخرجهم للناس خير أمة وليخرج بهم الحياة من الظلمات إلى النور، أظهرهم الله حينما أتت ساعة إشراق شمسهم لتنير الطريق أمام ركب الحياة بمن فيها وما فيها، وليقيموا لهم معالم الهدى ومنائر الحق في تبليغ الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة الإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين التي اختار الله لها محمداً ﷺ ليكون حامل أمانتها ومبلِّغ هدايتها وناشر أنوارها، وليبعثوا في كيان هذه الرسالة روح التوثب لتمضي قدماً إلى القلوب والعقول والأرواح بعد أن كادت تتجمد أمام فجور الكفر، وعتو العناد والاستكبار، ومواريث الجهالة

وسفه الاعتقاد وضلال الوثنية وظلام الشرك البليد في مكة، ممثلة في ملئها من الطغاة المتجبرين، المتعززين بزخارف الدنيا، الجاحدين لآيات الله حقداً وحسداً من عند أنفسهم.

لقد سلك رسول الله ﷺ معهم كل مسلك في تبليغهم رسالة ربه، واستمالتهم إلى قبول ما جاءهم به من الهدى والخير، ومشى اليهم في كل طريق يرجو فيه أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا بربهم إلٰهاً واحداً، لم يترك شريفاً في قومه إلا اتصل به ودعاه إلى الله، وطلب منه نصره، وكان يأتي المحافل في المواسم والأسواق يعرض نفسه على القبائل والبيوتات ليؤوه وينصروه، فما كان يجد منهم إلا أقبح الرد، وأسوأه قولاً وفعلاً، وبلغ من حرصه على إيمانهم وهدايتهم إلى الحق أن قال له الله تعالى: ﴿فلعلَّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[1].

وكان ﷺ يقابل إعراضهم عن قبول دعوته والإيمان برسالته بالحزن الكظيم، والاحتمال الصبور، والصبر الجميل، ويتضرع إلى الله طالباً هدايتهم، ويقول: «لوشئتَ لم يكونوا كذلك» ويقول في إثر غزوة أحد، وقد آذوه وأدموا وجهه الشريف وكسروا رباعيته: «اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

ولم يكن ﷺ يعرف اليأس والقنوط قط، بل كان قلبه مفعماً بالرجاء والأمل، ولم يكن يقعده كل ما كان يصبُّه عليه وعلى أصحابه الطغاة من أحلاس الكفر وفجرة العتو والعناد في مكة من صنوف البلاء، وسفاهة السخرية والاستهزاء من المضي قُدُماً في تبليغ رسالات ربه بعزيمة جمعت عزائم أولي العزم من الرسل، حتى أذن الله بالفرج وفتحت أبواب الغيب، وانفلقت آفاق ظلام الأزمات وحوالك ظلمات الشدائد عن أولئك الغر الميامين الأعلين في سماوات المجد من أبناء قَيْلة أوسهم وخزرجهم، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً في بيعاتهم المتوالية، بيعة إثر بيعة، وكانت أول ما كانت بيعة الستة الأوسيين، ثم وليتها بيعة الاثني عشر، وكانت مزيجاً من

---

(١) سورة الكهف آية (٦).

الأوس والخزرج، وعادوا إلى بلدهم وقومهم، وكانت الحروب قد أكلت رؤوسهم وأبطالهم وزعماءهم، وبقيت تستطعم السيوف بقيتها حتى سمعوا صوت الإسلام في همسات تسابيح من أسلم منهم، فارتعشت أيديهم، وسقطت السيوف من أكفهم، وتسللت الإحن والبغضة من قلوبهم إلى منحدرات الجاهلية الفانية، وتسمّعوا إلى هؤلاء الذين عادوا إليهم من الموسم بوجوه غير الوجوه التي فارقوهم بها حينما ذهبوا إلى الموسم، وهم يتحدّثون عن رسول الله ﷺ وما سمعوا منه من آيات الكتاب المنزّل عليه، وما دعاهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبودية له، وخلع الأنداد، وعقد أواصر الإخاء والمحبة وطرح موروث الجاهلية ومفاسدها.

وقد كان لدى اليثربيين ذَرْوٌ من العلم والمعرفة بمحمد ﷺ وبعثته مما تناقلوه عن اليهود في كتبهم، وما كانوا يتدارسونه في مدارسهم، ويتلقونه عن أحبارهم، ولكنه كان علماً باهتاً، لا أثر فيه لليقين، وها هم أولاء إخوتهم وأبناؤهم قد جاؤوهم بالخبر اليقين والنبأ العظيم، وقد كانوا روّاداً لهم، والرائد لا يكذب أهله.

وقد طلب هؤلاء الروّاد من رسول الله ﷺ من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، ويدعو إلى الله، فأرسل معهم ﷺ أول داعية للإسلام، القارىء المقرىء العليم بمواطن الحكمة مصعب بن عمير رضي الله عنه، وها هوذا بين أظهرهم في بلدهم، يراه قومهم ويستمعون إلى أحاديثه، وما يتلوه عليهم من آيات القرآن الكريم.

ورنّ صوته بالدعوة في آذان الأكابر ممن نجا من سيوف الجاهلية، فذهب إليه رؤوسهم وذوو خطرهم منكرين مهددين متوعدين، فكان يستقبلهم بما علمه رسول الله ﷺ من السماحة والمصابرة، فتلين قلوبهم بعض الشيء، وتذهب عنهم حدّة الحماسة الجاهلية، ويسمعون منه، ويثوبون إلى رشدهم، ويرجعون إلى بيوتهم وأهليهم فيؤمنوا لإيمانهم، ويفشو الإسلام والحديث عن رسول الله ﷺ في دور الأنصار حتى لم تبق دار من دورهم إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ويعلنون شرائعه

وأحكامه، وقلوبهم عامرة بالإيمان به.

واشتد التنافس بين الأوس والخزرج، كلهم يريد أن يحوز قصب السبق في حمل راية الدعوة إلى الأمام، وكلهم يسارع إلى أن يكون صاحب الحظوة عند رسول الله ﷺ بما يقدمه من عمل صالح يدفع بالدعوة إلى الأمام، وكلهم يعمل جاهداً على أن يكون بطل الجهاد في سبيل نشرها، وكلهم يودّ أن يلقى رسول الله ﷺ لينظر إليه ويسمع منه.

ونظروا كلهم إلى فراغ القيادة تتحدر من آفاقه كواكب الغر البهاليل من نجوم الدعاة إلى الله، فلا يملؤها نورهم ولا يحيط بأقطارها هديرهم، لأن شمس الرسالة لا تزال وراء الأفق لم تشرق عليهم بأشعتها المضيئة للحياة.

ورسول الله ﷺ لا يزال في مكة لما يبرحها، وهم ظمآى لنمير حديثه، مفتقرون إلى وجوده بينهم ليأخذ بيده زمام الدعوة في طورها الجديد، طور الحركة والتوثب، ويملي عليهم آيات الجهاد في سبيلها، ليعلنوها على مسامع الدنيا كلمة لا ترد ما قامت سيوفهم بأيديهم، وما كانت فيهم عين تطرف، ونفس بين جوانحهم يتردد.

فاجتمع الأنصار جميعاً أوسهم وخزرجهم، من كان منهم قد لقي النبي ﷺ وبايعه من قبل في إحدى البيعتين السابقتين أو فيهما، أو من أسلم على أيدي الدعاة إلى الله، ولم يكن سبق له أن لقي رسول الله ﷺ وبايعه.

وائتمروا فيما بينهم وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف على مجتمعات الناس، ويغشى محافل العرب في المواسم، ويطرد في جبال مكة، ويُرَدّ ويخاف؟ وعزموا الأمر، وصدقوا الله في عزيمتهم فرحل إليه منهم سبعون رجلاً وامرأتان، وهؤلاء هم أهل البيعة الكبرى التي سميناها (فتح الفتوح) حتى قدموا عليه ﷺ الموسم، وواعدوه شِعْب العقبة، واجتمعوا عند الشِعْب متسلّلين تسلُّل القطا من رجل ورجلين، حتى توافوا وتمّ جمعهم، وقالوا: يارسول الله، علام نبايعك؟ قال ﷺ: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة» فقاموا إليه يبايعونه، فأخذ أسعد بن زرارة بيده، وقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم، وتعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبيِّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله، فقال القوم: أمِطْ يا أسعد يدك، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسْلَبها، فقاموا إلى النبي ﷺ فبايعوه، وأخذ عليهم، وشرط لله ولرسوله، وأعطاهم بذلك الجنة.

أولئك أنصار الله وأنصار رسوله، عاهدوا الله ورسوله فصدقوا في عهدهم أكمل ما يكون الصدق في عهد، مضوا على ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ قُدُماً لم يتلجلجوا، ولا ترددوا، ولا كعُّوا عن الجهاد في سبيل الوفاء ببيعتهم، ولا جبنوا عن لقاء عدو لله ولرسوله، ولا تقاعسوا عن مطلب تقاضاهم إياه الوفاء بالعهد، فهم قد بايعوا رسول الله ﷺ على حرب الأبيض والأسود، دفاعاً عنه وعن أصحابه وعن رسالته، إذا حل بينهم في بلدهم، وهاجر إليهم، فكانوا أوفى من بايع، وأصدق من عاهد، فكانت بيعتهم فتحاً للإسلام، مهّدت الطريق أمام كتائب الجهاد حماية للدعوة وعملاً على نشرها، زلزلت أقدام الطغاة من المشركين في مكة، وملأت قلوبهم رعباً، وبخعت تعزّزهم الوثني الجهول، ونكأت غرورهم الأجوف، وزعزعت عنادهم، وغمزت قناتهم فقصفت كعوبها.

نصروا الله بنصر دينه، ونصروا رسول الله ﷺ بنصر دعوته، ونصروا الإسلام بنشر رسالته، ونصروا المستضعفين من المؤمنين فآوَوْهم إلى كنف إخائهم وحبِّهم وإيثارهم على أنفسهم، فبدّلوا ضعفهم قوة، وخوفهم أمناً، وذلهم عزاً، وفقرهم غنى، وجعلوا منهم للجهاد عدة، وللبطولة مدداً، وللحق جنداً، وللفتح رِفْداً وسنداً.

وإذا كان السابقون الأولون من المهاجرين قد خصهم الله تعالى فجعلهم طليعة الإسلام، فكانوا أول من استجاب لله ولرسوله، فانفردوا بالأسبقية إلى الإيمان بالدعوة إلى الله، وكتب هذا الفضل الذي كان خصيصتهم التي لا يلحقون فيها، ولا يوازن بها فضل أحد من الأوّلين والآخرين، فإن الأنصار هم الذين آوَوْا ونصروا، فكانوا كتيبة الإسلام التي حملت لواء النصر خفّاقاً في الآفاق، وكانوا أول جند للإسلام وقفوا في وجه الفجور الوثني فكسروا شوكته ممثلاً في ملأ العتو المتجبر من طغاة قريش، وأذلّوا غرور المستكبرين، فأعزّ الله بهم دينه ونصر بعزائمهم رسوله ﷺ، فالمهاجرون خُصّوا بالسبق إلى الإسلام، وكانت لهم الهجرة، والأنصار خُصُّوا بالإيواء والإيثار والحب، قال أبو حيان في (البحر) في تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾[1] قسم الله المؤمنين إلى المهاجرين والأنصار، والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وأول من استجاب لله، وثنّى بالأنصار لأنهم ساوَوْهم في الإيمان والجهاد بالنفس والمال، لكنه عادل الهجرة بالإيواء والنصر، فانفرد المهاجرون بالسبق فكانوا اللبنة الأولى في بناء صرح الإسلام.

عاد السبعون إلى بلدهم بعد أن أتم الله تعالى عليهم نعمته في بيعتهم الكبرى التي كانت فيصلاً بين الحق والباطل وهم يتطلعون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة وهم في غمرات المحن، انتظاراً لقدومهم عليهم، ليجعلوا من مدينتهم مأرزاً للإيمان ومعقلاً لكتائب الإسلام، وهاجر إليهم إخوانهم الذين أوذوا فصبروا تكرماً واحتملوا من صنوف البلاء ما كان فوق طاقة البشر في سبيل استمساكهم بعقيدتهم، والحفاظ على دينهم، وتركوا وراء ظهورهم أموالهم وأولادهم ومساكنهم، وعشائرهم، ومآثرهم التاريخية والاجتماعية، وذكرياتهم ومآنس شبابهم وملاعب صباهم، حيث لم يجدوا في مكة للحق والخير والهدى مكاناً.

---

(١) سورة الأنفال آية (٧٢).

فأنزلهم إخوانهم الأنصار في مساكنهم ومجتمعاتهم أكرم منزل، وكانوا يتنافسون أشد التنافس في إنزالهم وإكرامهم، حتى بلغ الأمر أنه ما كان ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة، وقاسموهم أموالهم وسائر مناحي حياتهم، بل آثروهم على أنفسهم وأهليهم وأفلاذ أكبادهم، ومزجوهم بحياتهم، وأحلوهم من قلوبهم محل الحِبِّ الأثير، وأنزلوهم من أفئدتهم منزل الحميم من الحميم.

كانت هذه المواساة النبيلة آية من آيات الحب والمودة التي أنست المهاجرين مرارة مفارقة الأوطان والأحبة وأنستهم قسوة الفقر والحاجة، لأن إخوانهم الأنصار واسوهم مواساة امتزاج بهم، فخلطوهم بأنفسهم حتى كانوا منهم بالمكانة التي لا ترام.

واستتمت هجرة أصحاب النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، واستقر المهاجرون بين إخوانهم الأنصار آمنين مطمئنين، ينتظرون جميعاً مقدم النبي ﷺ ليطمئنوا عليه كما اطمأنوا على أنفسهم في كنف إخوانهم الأنصار، وليسمعوا منه آيات الله تتنزل عليه فيتلوها عليهم تفقيهاً في الدين وتعليماً لآدابه وشرائعه، وليروا ما كانوا يرون ويشاهدوا من معالم الوحي وأنوار التنزيل، وليأخذ بيده ﷺ زمام الدعوة في مرحلتها الجديدة، وقد قويت شوكتها، واشتدت قناتها، لتمضي في قوتها قُدُماً لا يعوقها عائق، ولا يثنيها عن طريقها أحد من الخلق.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلّف بمكة من الصحابة إلا من كان مقهوراً محبوساً، أو كان ضعيفاً مفتوناً في دينه؛ سوى أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان أبو بكر دائم الأهبة للهجرة، وكان كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في اللحاق بإخوانه المهاجرين، فيستمهله النبي ﷺ، ويقول له: «على رِسْلك فلعل الله يجعل لك صاحباً»، فيطمع أبو بكر رضي الله عنه أن يكون ذلك الصاحب هو رسول الله ﷺ.

وذكر ابن القيم في (الهدي النبوي) أن الحاكم ذكر في صحيحه أن

النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام، فقال له: «من يهاجر معي؟» فقال جبريل: أبو بكر الصدِّيق، وظاهر أن مثل هذا لا يكون إلا عن وحي متلقى من الله سبحانه وتعالى، وفيه منقبة عظيمة للصديق حيث خصه الله تعالى بهذا الفضل العظيم الذي لا يدانى.

أما علي رضي الله عنه فقد استبقاه النبي ﷺ بمكة حتى يرد الودائع التي كانت عنده ﷺ لأصحابها. قال ابن إسحاق: أما علي رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلَّف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ.

وقد كان شوق الأنصار مع إخوانهم المهاجرين إلى مقدم رسول الله ﷺ عليهم بالمدينة يتعاظم ويتزايد حتى بلغ منهم مبلغ اللهفة، فإنهم رضوان الله عليهم لم يكادوا يرون مجتمعهم المسلم قد اكتمل، ورأى الأنصار إخوانهم من المهاجرين مستقرين في منازلهم، مطمئنين في جميع شؤونهم حتى بدؤا يتساءلون في لهفة عارمة وشوق متعاظم مستشرفين الآفاق: أين رسول الله ﷺ؟ ومتى يقدم علينا ركبه الميمون؟ ومتى تشرق في آفاقنا شمسه لتضيء لنا الحياة؟ ومتى نستظل بظله الوارف؟ ومتى يتم لمدينتنا شرف إيوائه بين أحضانها مكرّماً معظّماً مطاعاً، فيقال لهم هو على الأثر، يقدم في حفظ الله ورعايته، كأنكم به وهو ﷺ بينكم تحفون به حباً وطاعة، وكأنكم بوجوده بينكم تمشون معه فوق أديم السماء وتصافحون نجوم الجوزاء.

صدق الحب والوفاء في مظاهر حفاوة الاستقبال

وظل الأنصار في شوقهم المتعاظم ولهفتهم العارمة يستشرفون الآفاق، يتوكفون مقدمه ﷺ، ويتطلعون إلى مطلعه في أفقهم حتى بلغهم أن ركبه المبارك قد تحرك إليهم، قال ابن القيم: وبلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة وقصده المدينة، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرَّة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا على عادتهم إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول، على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا على عادتهم، فلما حمي حر الشمس رجعوا وصعد رجل من اليهود

على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلة ، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدّكم الذي تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليلقوا رسول الله ﷺ، وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه ﷺ، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، وأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) فسار ﷺ حتى نزل بقُباء في بني عمرو بن عوف، فنزل على كُلثوم بن الهدم، وقيل على سعد ابن خيثمة، والأول أثبت، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد أسس بعد النبوة.

توضيح وتعليق

هذا الكلام الذي ذكره ابن القيم رحمه الله أصله عند ابن إسحق في سيرته، وقد اختصره ابن القيم، وحقّق بعض تواريخه وأحداثه ووقائعه وأيامه.

بَيْدَ أن في بعض مواضع منه ما يحتاج إلى توضيح وتعليق، يكشف عن بعض ما عسى أن يكون قد ندّ على بعض الناظرين ممن لم يتعمق في دراسة أحداث السيرة النبوية.

فمن ذلك قوله: وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة، وللمدينة حرار تحيط بجوانبها، والحرة أرض ذات حجارة سود حالكة السواد، وأعظم هذه الحرار وأشهرها الحرة التي كانت فيها واقعة يزيد بن معاوية وتسمّى ـ كما في طبقات ابن سعد حرة القصبة ـ وكانت هذه الواقعة من أسوأ وأشد ما مر في التاريخ قديماً وحديثاً على المدينة وأهلها، فقد أبيحت فيها الحرمات، وانتهكت الستور، ونهبت الأموال وشاع الرعب والفزع.

ومن ذلك قول ابن القيم في تحقيقه: فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا ـ أي المهاجرين والانصار ـ على عادتهم، ففي هذا القول تحقيق تاريخ اليوم الذي وصل فيه رسول الله ﷺ إلى علو المدينة بقباء، وهي منازل بني عمرو بن عوف، وهم أول قوم نزل عليهم في ديارهم، وفي هذا التحقيق تعيين اليوم باسمه من أيام الأسبوع، وهو يوم الاثنين، وفيه تعيين شهره، وهو ربيع الأول، وفيه

تعيين سنته من زمن النبوة.

وهذا التحقيق يرد ما جاء عن ابن شهاب الزهري من طريق تلميذه موسى بن عقبة أحد علماء المغازي والسير، من قوله: وكان قدومه عليه السلام لهلال ربيع الأول أي أول يوم منه.

ويرد قول ابن إسحق، وهو شيخ أرباب المغازي والسير، من رواية جرير بن حازم: قدمها - أي المدينة - ﷺ - لليلتين خلتا من ربيع الأول.

ويرد قول ابن الكلبي: ودخل - ﷺ - المدينة يوم الجمعة.

ويرد قول مغلطاي: قدمها - اي المدينة - ﷺ - لثمان خلون من ربيع الأول.

وعمدة تحقيق ابن القيم أن قوله: فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول.. إلخ صحة الرواية، وأنها قول جمهور العلماء ومن ذلك قوله: فرأى - أي اليهودي - رسول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين، اي لابسين ثياباً بيضاً، وهي ثياب أهداها لهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وقد التقيا بهم وهما قافلان من الشام في ركب من المسلمين كانوا تجاراً.

قال الزرقاني في شرح المواهب، ومما وقع لهم في الطريق أنه ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ ثياباً بيضاً، رواه البخاري عن عروة مرسلاً، ووصله الحاكم عن عروة عن أبيه الزبير، وكذلك لقيهما طلحة بن عبيد الله وكساهما، رواه ابن أبي شيبة، وغيره.

والظاهر من سياق الزرقاني أن الزبير رضي الله عنه قدّم هديته إلى رسول الله ﷺ أخذاً بأدب التعظيم، فقسمها رسول الله ﷺ بينه وبين مرافقيه في رحلته المباركة جرياً على عادته الكريمة في عدم استئثاره بشيء عن أصحابه، وقد لبس كل واحد ثوبه من هذا البياض، فكانوا كلهم مبيضين عندما رآهم اليهودي قادمين يزول بهم السراب، وبهذا يتمشى قوله: مبيضين بصيغة الجمع مع قوله: فكسا الزبير النبي ﷺ ثياباً بيضاً، وأن

طلحة الفيّاض أهدى إلى رسول الله ﷺ وإلى صاحبه أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما أخذاً بشرعة المكارم، ويدل لذلك قول الزرقاني: وكذا لقيهما طلحة وكساهما، ويحتمل أن لقُيا طلحة كانت مع النبي ﷺ وصدِّيقه، وأن رفيقيهما كانا قد تخلّفا عنهما في بعض الطريق، كما ورد أنهما قد تأخر عنهما بعض ظهرهما، وهذا يعلل ما جاء من أنهما دخلا مشارف المدينة والنبي ﷺ مردف أبا بكر وراءه.

وفي قول ابن القيم رحمه الله: فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ، وسُمعت الرجّة والتكبير في بني عمرو بن عوف، فكبر المسلمون فرحاً بقدوم الرسول ﷺ، وخرجوا للقائه - مظهرٌ من مظاهر الحفاوة في استقباله ﷺ، ومبادرتهم إلى السلاح تصوير لإظهار القوة، وتلميح بالوفاء بما عاهدوا الله عليه في بيعتهم لرسوله ﷺ وتثبيت لوشائج البيعة تثبيتاً عملياً، وازدياد في طمأنة رسول الله ﷺ، وأنهم على عهدهم في بيعتهم له ﷺ حريصون، وعلى شرائطها محافظون، وبأنفسهم وأموالهم وأولادهم يفدونه ويفدون رسالته ودعوته دعوه الحق والهدى والنور.

وسماع الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، فكبر المسلمون فرحاً بقدومه ﷺ، وخرجوا للقائه - دليل على حفاوة الاستقبال وعظمته، وفرحة الاستبشار بقدومه ﷺ، وعلى ما كانت تعمر به أنفس كافة المسلمين من المهاجرين والأنصار من التطلع إلى وصوله ﷺ إليهم، إذ لم يكد المسلمون في بني عمرو بن عوف يسمعون الرجّة والتكبير اللذين أحدثهما قدوم الأنصار من داخل المدينة لاستقباله ﷺ حتى جاوبوا المكبرين، وكان ﷺ قد نزل قريباً من قباء، وأرسل إلى الأنصار، فجاءته جموعهم مكبِّرين فرحين مستبشرين، وخرجوا إلى جموع إخوانهم القادمين من المدينة ممن بادروا بلقائه ﷺ، فعظم الاستقبال وجل مظهره عن الوصف، وكان آية من أعظم آيات صدق الوفاء والحب والإخلاص.

وفي قول ابن القيم رحمه الله: فسار حتى نزل بقباء، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة - ردٌّ للمشهور بين أهل السير والمغازي من

أن إقامته بقباء كانت أربعة أيام بلياليها، وهي يوم الاثنين، وهو أول يوم وصل فيه ﷺ إلى علو المدينة بقباء في ضحاء اليوم وقد كادت الشمس تميل إلى الزوال، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء ويوم الخميس، ثم ترحل عنهم ضحى يوم الجمعة.

تحقيق مدة إقامته ﷺ في قباء ووقت قدومه المدينة

وهذا الذي جزم به ابن القيم رحمه الله رواية الشيخين من حديث أنس. قال القسطلاني في المواهب: وفي صحيح مسلم، قال الزرقاني: لاوجه للاقتصار عليه ـ أي على مسلم ـ بل والبخاري كلاهما عن أنس: أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وبه يفسر قول عائشة: بضع عشرة ليلة وهذا في البخاري قال ابن كثير في البداية: وذكر البخاري عن الزهري عن عروة: أنه ـ ﷺ ـ نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، فأقام فيهم بضع عشرة ليلة، فلعل هذه الرواية هي التي حملت القسطلاني على الاقتصار على مسلم في رواية: أربع عشرة ليلة، لأن رواية البضع تحتمل ما جاء في رواية مسلم وما هو أكثر منه مما قيل في بعض الروايات، ومن العجيب أن الواقدي حكى ما رواه مسلم وتحتمله رواية عروة عند البخاري بصيغة التمريض، فقال: ويقال: أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وأضعف الروايات في مدة إقامته ﷺ ببني عمرو ابن عوف بقباء أشهرها عن أصحاب المغازي والسير وهي رواية الأيام الأربعة.

ولا يجوز العدول عن رواية الصحيح إلى غيرها مما لا يعـدلها صحة سند، ويدل لها إنها هي المدة المناسبة لبناء مسجد قباء الذي بناه رسول الله ﷺ وقام معه المسلمون في بنائه في هذه المدة التي أقامها ﷺ في بني عمرو ابن عوف بقباء، بدليل قول رواية البخاري: وأسس مسجد قباء في تلك الأيام، أي الأيام التي أقامها ﷺ بقباء، فلو كانت تلك الأيام أربعة أيام فقط، وفيها مظاهر الاستقبال والفرحة والسلام على رسول الله ﷺ ما أغنت شيئاً في إقامة بناء هذا المسجد العظيم، وهذه الرواية لم تثبت في حديث صحيح، وإنما تناقلها أصحاب المغازي والسير خلفاً عن سلف،لكن رواية الأربع عشرة ليلة رواية مسندة بأرفع الإسناد، وهي وسط بين المقلِّين والمكـثرين، ومن هنا كانت حريَّة بالقبول.

وقال ابن كثير في (البداية): وذكر البخاري عن الزهري عن عروة أنه ـ ﷺ ـ نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، وأقام فيهم بضع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء في تلك الأيام.

وذكر موسى بن عقبة، وهو من أرباب السير والمغازي عن ابن شهاب عن مجمع بن جارية أنه ﷺ أقام في بني عمرو بن عوف اثنتين وعشرين ليلة.

وقد رجح الحافظ ابن حجر رأي ابن القيم في إقامته في بني عمرو ابن عوف أربع عشرة ليلة، ولكنه أبعد وأغرب في بيان وجه هذا الترجيح، فقال: إن هذه المدة رواية أنس بن مالك، وأنس ليس من بني عمروابن عوف فإنهم من الأوس، وأنس من الخزرج، وقد جزم بما ذكر، فهو أولى بالقبول من غيره.

وهذا ترجيح لا يعتمد على سند علمي، ولكنه يعتمد على فرض تأثير العصبية القبلية التي ارتفع عنها أنس بنفسه، فشهد لبني عمرو بن عوف الأوسيين، وهو خزرجي، ومعنى هذا أن أنساً رضي الله عنه لو كان أوسياً من قبيلة بني عمرو بن عوف لكان متهماً في شهادته لهم، وحاشا أصحاب رسول الله ﷺ، ولا سيما خواصهم مثل أنس رضي الله عنه أن يتأثروا بهذه النزعات التعصبية.

وكيف يجنح إلى هذا التوجيه مثل ابن حجر، ويترك وجه الترجيح الصحيح القوي وهو بين يديه، وكان يكفيه أن يقول: إنه من إخراج الشيخين، وقد ذكر هـذا الوجه في الترجيح الزرقاني بعد أن ساق كلام ابن حجر، فقال: ولا سيما مع صحة الطريق إليه لأنه من رواية الشيخين، وذكر صاحب ذخائر العقبى أنه ﷺ أقام في بني عمرو بن عوف بقباء ليلة واحدة، أو ليلتين.

وهذا اختلاف غريب، يبتدىء بليلة واحدة، وينتهي باثنتين وعشرين ليلة، ومثل هذا الاختلاف في تباعده اختلافهم في زمن خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة ووقت وصوله إلى المدينة، فعند موسى بن عقبة أن قدومه ﷺ للمدينة كان لهلال شهر ربيع الأول، أي إنه كان في أول يوم منه، وعند ابن

إسحاق أنه ﷺ قدم المدينة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وهذا قريب من قول موسى بن عقبة أو هما قول واحد، بالنظر إلى إهلال الشهر، فقد يختلف الإهلال في بلد وأفق عنه في بلد وأفق آخر، وعند ابن إسحق أيضاً من طريق إبراهيم بن سعد أنه ﷺ قدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، أو لثلاث عشرة منه كما ذكره أبو سعيد النيسابوري في كتابه (شرف المصطفى)، وهذا القول ليس خلافاً لسابقه، ولكنه يؤول معه إلى قول واحد حسب اختلاف الآفاق في إهلال الشهر، وقيل إن دخوله ﷺ المدينة كان لاثنتين وعشرين ليلة من ربيع الأول، وقال ابن حزم: خرجا ـ أي النبي ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه ـ من مكة، وبقي من صفر ثلاث ليال، وهذا قريب من القول المشهور من أن وصوله ﷺ دخل المدينة كان لاثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، وهذه اختلافات عجيبة، تتباعد حتى لا تكاد تلتقي، وتتقارب حتى تكاد تتوحد، ولعل مرد ذلك عدم العناية إذ ذاك بتسجيل أوقات الأحداث تسجيلاً كتابياً يحفظها ليكون فيصلاً فيها.

ويؤيد رواية البخاري في إقامته ﷺ في بني عمرو بن عوف بقباء أربع عشرة ليلة قول أبي قيس صـرمة بن أبي أنس: كما ذكر ذلك ابن إسحق وغيره، ورواه عبدالله بن الزبير الحميدي وغيره عن سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن عجوز من الأنصار قالت: رأيت عبدالله ابن عباس يختلف إلى صِرمة بن قيس ليحفظ هذه الأبيات:

ثوى في قريش بِضْع عشرة حِجَّة ... يـذكّر لـو يلقى صـديقاً مـواتياً
ويعـرض في أهل المـواسم نفسـه ... فلم يـر من يؤوي ولم ير داعياً
فلما أتـانـا واستقـرت بـه النـوى ... وأصبـح مسـروراً بـطيبـة راضيـاً
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيـاً
بذلنا له الأموال من حلِّ ما لنـا ... وأنفسنـا عنـد الـوغـا والتـآسيـا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعـاً ولو كـان الحبيب المـواسيـا

وهي قصيدة متوسطة الطول، وشريفة المعنى، جيدة المبنى، وقائلها ممن تحنّف في الجاهلية ثم أسلم.

تحقيق الاختلاف
في بناء مسجـــد قباء

هذا المسجد المبارك الذي أعلى الإسلام مكانته، بجعله والياً في التعـظيم والتقديس والتـرغيب في التعبد بـه للمساجـد الثلاثـة المنفردة بالتقديس، والتي خصها رسول الله ﷺ بأنها هي المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهي: المسجد الحرام مسجد الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، ومسجد المدينة المنورة، وهو مسجد رسول الله ﷺ، والمسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بالشام الذي خصه الله تعالى، فجعله نهاية تشريف رسول الله ﷺ بالإسراء، وهو أعظم آية حسية مادية أوتيها خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ.

ومسجد قباء أول مسجد في الإسلام كله جامع عام للمسلمين أسس بعد النبوة، أسسه رسول الله ﷺ وأكمل بناءه وهو يعمل فيه بنفسه الشريفة مع أصحابه، وكان ﷺ ينقل حجارته مع المسلمين.

يقول السهيلي في (الروض): وذكر ابن خيثمة أن رسول الله ﷺ كان أول من وضع حجراً في قبلة هذا المسجد المبارك، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر، ثم أخذ الناس في البنيان، ثم قال السهيلي: إن الخطابي روى عن الشموس بنت النعمان الأنصارية قالت: كان النبي ﷺ حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد هصره ـ أي ألصقه وشده بيديه ـ إلى بطنه فيضعه، فيجيء الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره.

مساجد خاصة غير جامعة

ولا ينافي هذا من تحقيق تأسيس رسول الله ﷺ لمسجد قباء وعمله في بنائه حتى أكمل في المدة التي أقامها ﷺ في قباء ـ وهي كما حققناه فيما سبق أربع عشرة ليلة ـ ما جاء في شرح المواهب للزرقاني من قوله: وروى يونس في زيادات المغازي عن الحكم بن عتيبة، قال: لما نزل ﷺ قباء قال عمار ابن ياسر رضي الله عنه: ما لرسول الله بدٌّ من أن نجعل له مكاناً يستظل فيه إذا استيقظ، ويصلي فيه، فجمع ـ أي عمار ـ حجارة فبنى مسجد قباء، لاحتمال أن يراد بقوله: بنى مسجد قباء إنه ابتدأ بناءه، ولاحتمال أن محمل عمل عمار لم يكن بناء مسجد عام جامع للمسلمين لجُمَعِهم وجماعاتهم كما هو حال مسجد قباء الذي بناه رسول الله ﷺ، وإنما كان عمل عمار رضي الله عنه إحداث مكان يستريح فيه رسول الله ﷺ ويستظل فيه إذا استيقظ من نومه، ويجلس فيه إلى أصحابه هادياً مفقهاً لهم في الدين، ويصلِّي فيه فرضه ونفله، ثم بناه رسول الله ﷺ مسجداً عاماً للمسلمين يقيمون فيه جمعتهم وجماعاتهم.

وكذلك لا ينافيه قول الزرقاني وسياقه حديث ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال: لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ بسنتين نعمر المساجد، ونقيم الصلاة، وقد أقبل المتقدمون في الهجرة من أصحاب النبي ﷺ والأنصار بقباء قد بنوا مسجداً يصلُّون فيه.

فلما هاجر ﷺ وورد قباء صلى فيه إلى بيت المقدس، ولم يحدث فيه شيئاً، فهذه كلها مساجد خاصة بأفراد أو جماعة تحويها دار أو ساحة محدودة، وليست مساجد عامة لجماعة المسلمين وتجمّعهم، ويؤيد ذلك قول جابر رضي الله عنه: لقد لبثنا قبل أن يقدم رسول الله ﷺ بسنتين نعمر المساجد ونصلِّي فيها، لأن انتشار الإسلام بالمدينة انتشاراً يحتاج فيه إلى مساجد عامة، تقام فيها جماعة المسلمين وتؤدّى فيها جمعتهم، إنما كان قبل الهجرة بسنة واحدة، بعد البيعة الثانية: بيعة الاثني عشر من الأوس والخزرج، وبعد بَعْث مصعب بن عمير معهم ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وحتى هذا الانتشار كان محصوراً، ثم استعظم وزاد زيادة عظيمة أصبح بها للمسلمين

مجتمع يحتاج إلى مساجد الجمعة والجماعة بعد البيعة الكبرى، وهي البيعة الثانية في رأي بعض العلماء، والثالثة في رأي آخرين، ومقدم رسول الله ﷺ بعد هذه البيعة الكبرى بيعة السبعين بثلاثة أشهر إلى المدينة المنورة.

ففي حديث جابر رضي الله عنه تجوز بإرادة مساجد خاصة كالذي بناه أبو بكر الصديق بفناء داره بمكة، وكان يصلِّي فيه، فيتقَّصف عليه الولدان والنساء يستمعون إلى قراءته القرآن وهو يبكي، فخشي المشركون على ذراريهم أن تأخذهم رقّة الصديق إلى حظيرة الإسلام، فطلبوا إلى ابن الدغنّة الذي كان قد أجار الصديق أن يطلب من الصديق أن يصلِّي في داخل داره أو يرد عليه جواره، فردَّ أبو بكر رضي الله عنه جوار ابن الدغنّة ورضي بجوار الله تعالى.

وقد حاول الزرقاني أن يجمع بين رأي من قال: إنه ﷺ صلّى في مسجد قباء إلى بيت المقدس ولم يحدث فيه شيئاً، وبين رأي من يقول: إنه ﷺ أسسه وبناه والمسلمون يعملون معه في بنائه حتى أكمله في مدة إقامته بقباء ثم ترحل عن قباء في يوم الجمعة، فقال: إنه ﷺ لم يحدث فيه شيئاً في أول بنائه، لكن لما قدم وصلّى فيه غيّر بناءه وقدم القبلة موضعها اليوم، كما في حديث ابن أبي شيبة.

فمسجد قباء الجامع العام المشهور في الإسلام، والذي ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ كان يأتيه كل يوم سبت راكباً أو ماشياً، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ كما في حديث الترمذي عن أسيد بن ظهير: «إن الصلاة في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو كانوا يعلمون ما في قباء لضربوا إليها أكباد الإبل»، وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر مرفوعاً: «من صلَّى في مسجد قُباء كان كعدل عمرة» - هو المسجد الذي أسسه وبناه رسول الله ﷺ، ومعه أصحابه يعملون في بنائه حتى أكمله.

ولما أتمّه - ﷺ - تجهز إلى دخول المدينة، وحفّ به أصحابه يتنازعون زمام ناقته تكريماً وتعظيماً له ﷺ، وسار في ركبه الميمون حتى أدركته الجمعة

في بني سالم بن عوف، وفي هذا دلالة على كثافة الركب وكثرة المجتمعين حوله ﷺ، لأن المسافة بين منازل بني عمرو بن عوف ومنازل إخوانهم بني سالم بن عوف قصيرة تعد بعشرات الأذرع، لو كانت في سير عادي لم تحتج إلى زمن طويل، لكن شدة الزحام ووآدة السير توقياً لأخطار السرعة هما سبب قطع هذه المسافة القصيرة في الزمن الطويل.

تحقيق الاختلاف في المسجد الذي أسس على التقوى

ومسجد قباء هو المسجد الذي أنزل الله فيه قوله عز شأنه: ﴿لَمَسْجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهّروا، والله يحب المطّهرين﴾[1] والإجماع قائم على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ هم الأنصار أهل قُباء، ويدل للإجماع قوله ﷺ في حديث عند الإمام أحمد: «إن الله قد أحسن الثناء عليكم في الطهور في قصة مسجدكم هذا، فما هذا الطهور الذي تطهّرون به؟» قالوا: والله يا رسول الله لا نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، وبدليل حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي وابن ماجه عن النبيﷺ: «نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطّهرين» وهذا الحديث أصرح في الدلالة.

وليس هذا من قبيل المفاضلة بين مسجد ومسجد، وإنما هو من قبيل المدح الرفيع في مقابلة الذم الشنيع، فالمدح لمسجد أسس على التقوى، خالصاً لوجه الله، نقياً من الشوائب، والذمُ لمسجد أقيم على دعائم الكفر وفجور الشرك، مضارّة لدين الله، ومخادعة لرسول الله ﷺ، وتفريق كلمة المسلمين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من رؤوس المنافقين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويبغونهم الغوائل.

فالمدح العلي الرفيع لمسجد قباء الذي أسسه وبناه رسول الله وأصحابه، وهو مسجد الإسلام في قباء الذي أقيم أساسه وبناؤه على تقوى من الله ورضوانه، تعبداً له عز شأنه، ومدعاة لإعلاء كلمته، كلمة الحق

(١) سورة التوبة آية (١٠٨).

والهدى والنور، وإخلاص الدين لله الواحد الأحد، وإسلام الوجه لجلال كبريائه.

والذم الشنيع لأخبث بناء على وجه الأرض، أسسه وبناه أخبث قوم استبطنوا العتو والفجور والكفر، وقالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، جاء الإسلام فكان غصّة في حلاقيمهم، وجاءت رسالته فشرقوا بها، وجاءهم رسول الله ﷺ فأهلكهم الكمد حسداً، وبخعهم المكر السيء حقداً، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وهذا اللعين هو المسمّى في الإسلام بمسجد الضرار.

كان قائد هذه الجراثيم الوبائية الفاسق أبو عامر الذي نغل الحقد قلبه، فأعقبه كفراً ونفاقاً لا يشفيه منها هو وأصحابه الفجرة إلا أن تتقطع قلوبهم خزياً وخذلاناً وذلّة في الحياة الدنيا، وعذاباً مهيناً في الآخرة.

ولا محل للموازنة قط بين الخير المضيء بنور الهدى المصفّى من الأدران والأرجاس وبين الشر الخبيث المظلم بظلمات العتو والفجور، المعجون بالإثم والعناد الكفور، فلفظ (أحق) في قوله تعالى: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ جُرِّدَ عن أفعليته، وكان المراد منه (حقيق) وأهل لأن تقوم فيه للملايمة بينك - في صفاء طبيعتك، ونور قلبك، وإشراق روحك، ونقاء فطرتك، وسمو شمائلك، وعلو مكارمك - وبينه حيزاً للخير والهدى والنور والطهر، ومباءة للإيمان، ومثوى للإخلاص.

أما ذاك الشر الخبيث المستخبث، المشمول بسخط الله ولعناته، فأنت أرفع وأجل من أن تخدع بمعسول القول عنه من الأخابث الذين أقاموا جدرانه على نزيز من الفجور، وحمأة من خبال الحقد المظلم، والإفساد في الأرض.

فالذين يعقدون موازنة في الفضل بين فاضلين أسسا على التقوى، أسسهما وبناهما أتقى الأتقياء، وسيد الخلصاء، وإمام المخلصين، سيدنا رسول الله ﷺ محمد خاتم النبيين، إنما يريدون التنويه بفضل الفاضلين، ولا يريدون مفاضلة بين الفاضلين، بله تفضيل الفاضل على الأفضل.

وقد ثبت بالقواطع من الأدلة أن مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة هو أفضل مساجد الدنيا سوى المسجد الحرام، مسجد الكعبة المشرفة فهو مثله في الفضل أو أفضل منه، فأي وجه لعقد مفاضلة بين فاضل لا يلحق فضله أفضلية الأفضلين.

فالحديث الوارد في سؤال بعض الصحابة النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: «هو مسجدكم هذا» وهذا من رواية مسلم في الصحيح لا منافاة بينه وبين ظاهر الآية؛ لأن المسجدين مسجد قباء ومسجد المدينة المنورة أسسا على التقوى، كما ذهب إليه الداودي وابن حجر، وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا، وفي ذلك خير كثير».

قال الزرقاني: ولهذه الأحاديث وصحتها جزم الإمام مالك في العتيبية بأن الذي أسس على التقوى مسجد المدينة. قال ابن رشد في شرحها: إنه الصحيح، قال الحافظ ابن حجر: والحق أن كلًّا منهما أسس على التقوى، وقوله تعالى في بقية الآية: ﴿يحبون أن يتطهَّروا﴾ يؤيد كون المراد مسجد قباء، وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزلت رجال يحبون أن يتطهروا في أهل قباء».

قال الزرقاني: وعلى هذا فالسر في جوابه ﷺ بأن المسجد الذي أسس على التقوى مسجده هو رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء، قال الداودي وغيره ليس هذا اختلافاً لأن كلًّا منهما أسس على التقوى، وقال بعض العلماء: إن قوله: من أول يوم يقتضي مسجد قباء، لأن تأسيسه في أول يوم حل فيه النبي ﷺ بدار الهجرة.

وهذا اختلاف عجيب لا ندري كيف ابتدأ، فالآية وأحاديث أسباب نزولها، وواقع الأمر في تقدم تأسيس وبناء مسجد قباء زمناً على مسجد رسول الله ﷺ، ونزول قوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وهم

الأنصار من أهل قباء،ونزول قوله جل شأنه: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ وقد فسر أول يوم بأول يوم حل فيه رسول الله ﷺ بدار هجرته، ويؤيد ذلك حديث «إن الله قد أحسن الثناء عليكم في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطّهرون به» وهذا كله إنما كان لأهل قباء، والحديث رواه الإمام أحمد من طريق عويم بن ساعدة، قال: إن رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد قباء، فقال لهم: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور» وقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء» ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطّهرين﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ـ صريحة في أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم كما هو ظاهر الآية هو مسجد قباء.

فكيف إذاً وقع هذا الاختلاف في المسجد الذي أسس على التقوى، فيسأل الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فيجيبه النبي ﷺ بقوله: «هو مسجدكم هذا» يعني مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة؟ ثم كيف يختلف رجلان من الصحابة في أي المسجدين هو الذي أسس على التقوى؟ فيقول أحدهما: هو مسجد قباء، ويقول الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، ويأتيان النبي ﷺ يسألانه عن ذلك فيقول ﷺ: «هو هذا، وفي ذلك خير كثير».

ثم كيف يجزم الإمام مالك رضي الله عنه بأن الذي أسس على التقوى هو مسجد المدينة أخذاً بالأحاديث الصحيحة دون نظر إلى ظاهر القرآن الحكيم، ودون نظر إلى تأويل هذا الظاهر القرآني تأويلاً يجمع بينه وبين نص الأحاديث؟ ثم يأتي ابن رشد الفقيه الكبير جد صاحب بداية المجتهد، ويقول في قول مالك هذا إنه الصحيح؟

ثم يأتي الداودي ويقول: ليس هذا اختلافاً لأن كلاً منهما أسس على التقوى، وهل يؤدِّي سديد النظر إلى أن هذا كله ليس اختلافاً؟ وإذا ففيم كان سؤال الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ؟ وكيف يكون جواب

رسول الله ﷺ مطابقاً إذا لم يكن هذا اختلافاً؟ وإذا كان هذا ليس اختلافاً فهل قول الداودي لأن كلا منهما أسس على التقوى. يتمشّى مع فهم الصحابة الذي كان بمقتضاه سؤالهم لرسول الله ﷺ، وكانت إجابته ﷺ مفيدة أنهم رضي الله عنهم كانوا يفهمون الوضع على أنه اختلاف.

وكيف يأتي الحافظ ابن حجر فيقول كلاماً متدافعاً، يدفع عجزه في صدره إذ يقول: والحق أن كلا منهما أسس على التقوى، وهذا يعارضه أشد المعارضة فهم الصحابة وتوجههم بالسؤال إلى رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى ويجيبهم رسول الله ﷺ بما يفهم منه قطعاً أنهم على اختلاف، وقد عيّن لهم بجوابه المسجد الذي أسس على التقوى بأنه مسجده ﷺ بالمدينة.

ثم يقول ابن حجر: وقوله تعالى في بقية الآية: ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ يؤيد كون المراد مسجد قباء، وهذا دافع لقوله في صدر كلامه: والحق أن كُلًّا منهما أسس على التقوى، ومناقض لفهم الصحابة وإجابة رسول الله ﷺ؟

هذه مسألة كان السكوت عنها أولى من إثارتها بمثل ما أثيرت به من أخذ ورد، وأصحاب النبي ﷺ أفهم الناس لمرامي القرآن ومضامينه من المعاني والحقائق، وهم لا يسألون إلا على ما غمض عليهم، والنبي ﷺ بين أظهرهم، وهو ﷺ المبيّن لما غمض من آيات ما أنزل عليه، فسئل ﷺ وأجاب، فكانت المسألة في حاجة إلى السؤال في نظرهم رضوان الله عليهم، وأجيبوا فاقتنعوا، وإذاً فما مبعث السؤال عند الصحابة، وهم رضي الله عنهم على أكمل الاعتقاد بأن المسجدين أسسا على التقوى؟ وقد أسسهما وأكمل بناءهما سيد المتقين.

ويغلب على الظن أن لا تدافع بين نصوص الأحاديث وظاهر الآية، فهذا الظاهر هو على ما هو عليه مؤيداً ببعض الروايات من أن المسجد المذكور في الآية الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، ولا يشك مؤمن في أن مسجد رسول الله ﷺ وهو غير مراد في الآية أسس على أتقى التقوى،

فالمسجدان أسسا على التقوى باتفاق.

وإنما كان مبعث سؤال الصحابة عن أي المسجدين أسس على التقوى من أول يوم حل رسول الله ﷺ بمكانه، فالسؤال قصد إلى استبانة أي المسجدين أسس على التقوى من أول يوم، أي أن محطّ السؤال هو التأسيس على التقوى مقيداً بكونه من أول يوم، وليس سؤالاً عن مطلق التأسيس على التقوى، لأنه لا يدور بخلد مؤمن أن أي المسجدين وقد أسسها وبناهما رسول الله ﷺ وصلَّى فيهما غير مؤسس على التقوى، فتأسيس المسجدين على التقوى ليس محل اختلاف ولا هو مبعث سؤال، والمراد بأول يوم، اليوم الأول الذي حلَّ فيه رسول الله ﷺ بالمكان الذي صار فيها بعد مسجداً سواء أكان ذلك في قباء أو داخل المدينة، والمعنى أي المسجدين ابتدأ تأسيسه على التقوى في أول يوم حلَّ فيه رسول الله ﷺ بمكانه، ويظهر أن مسجد قباء لم يبدأ فيه عمل رسول الله ﷺ من أول يوم حل فيه بقباء لأنه ﷺ وصل بركبه المبارك إلى قباء إثر رحلة طويلة شاقة متعبة، وكان أصحابه من المهاجرين والأنصار في لهفة شديدة، ينتظرونه، فالمعقول أن يكون رسول الله ﷺ قد أخذ وقتاً طويلاً يؤدي فيه حق أصحابه المتشوقين إلى مشاهدته والسلام عليه والترحيب به في استقبال بذلوا فيه من مظاهر الوفاء وروعة الحب، ووقتاً يؤدي فيه حق نفسه في الراحة والاستجمام، ليستعد لجهد شاق مطلوب منه بذله في هجرته ومجتمعه الجديد وسياسة هذا المجتمع، ونظام حياته، وقد يلمح إلى هذا حديث عمار بن ياسر إذْ يقول: ما لرسول الله ﷺ بدٌّ من مكان يستظل فيه إذا استيقظ ويصلِّي فيه، ويحدِّث أصحابه هادياً مرشداً مبلِّغاً رسالة ربه.

ثم بعد أن أخذ رسول الله ﷺ شيئاً من الراحة والاستجمام بدأ في تأسيس وبناء مسجد قباء حتى أكمله ووضع قبلته وصلّى فيه مع أصحابه ما أتيح له من الصلوات.

وبهذا يكون تأسيس مسجد قباء على التقوى ليس من أول يوم حلّ فيه رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بقباء، أما مسجده ﷺ بالمدينة فقد

ابتدأ العمل في تأسيسه منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى مكانه حيث بركت ناقته في مربد سهل وسهيل في مكان منبره أو بابه، وقال لولي اليتيمين بعد أن سأل عنهما مثامناً لشراء المكان: ثامنوني، أي قولوا: ماذا يكون ثمنه؟ وبتمام شراء أرض المربد أخذ ﷺ في تنظيفها من قبور المشركين، وتسويتها، وتسريب النخيل الذي كان فيها، وإعدادها للبناء، ونصب العمد من جذوع نخلها من أول يوم حل فيه ﷺ في مكان مسجده الأشرف الأنور، حيث بركت ناقته، ثم أخذ ﷺ ومعه أصحابه في البناء حتى أكمله، وأصبح هو المسجد الذي خلص في كل شأن من شؤونه لرسول الله ﷺ، وأقيمت فيه جماعته الدائمة في جميع أوقات الصلاة المفروضة بإمامة رسول الله عليه الصلاة والسلام في حياته وإمامة الراشدين من خلفائه، وصليت فيه الجمع، وتحدث فيه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وخطبهم في كل ما ينوبهم، وتشاور فيه معهم في مهمات أمور المسلمين، وعقدت فيه لكتائب الجهاد الألوية، والوحي ينزل فيه على النبي ﷺ، وجبريل يدارسه القرآن، ويبلِّغه رسالات ربه ليبلغها ﷺ إلى أمته قولاً وعملاً، وفيه تربى الصفوة من الدعاة إلى الله، وفيه عقدت حِلَق العلم والإرشاد.

فإذا سئل رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، ولم يربط السائل سؤاله بنص الآية، وأجاب رسول الله ﷺ عن السؤال بأنه مسجده هذا ـ كان جوابه ﷺ أسدّ جواب عن سؤال، لأن التقوى تتفاوت درجاتها بتفاوت الأعمال التي تصورها في القلوب.

وإذاً يكون المسجد الذي أسس على التقوى في نص الآية هو مسجد قباء، ويكون المسجد الذي أسس على أكمل مراتب التقوى من أول يوم إلى آخر أيام الحياة هو مسجد رسول الله ﷺ الذي اختاره الله له ولأمته مشعل هداية ومشكاة نور ومبعث حياة روحية تفوق كل حياة يحياها عباد الله المخلصون.

أول جمعة في الإسلام صلاها النبي ﷺ

ثم خرج رسول الله ﷺ في ركبه المبارك حين ارتفع النهار من يوم الجمعة، يحفه الأنصار من بني عمرو بن عوف مودِّعين، ومن سائر بيوتات

أوس المدينة وخزرجها مرافقين، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل وصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بعد النبوة، لأنه ﷺ لم يكن متمكناً في مكة من صلاة جماعة ظاهرة، يخطب فيها كالجمعة؛ لأن الجماعة المسلمة كانت في مكة قليلة العدد، تؤذى بأفدح الإيذاء، ولم يكن قد أذن إليها بالدفاع عن نفسها، بل كانت مأمورة بالعفو والصفح والصبر، والتجاوز عن سفاهة السفهاء، وغفران السيئات ومقابلتها بالإحسان، والقرآن الكريم يقول لرسول الله ﷺ: ﴿خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين﴾[١] ويقول للمؤمنين على لسان رسوله ﷺ: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾[٢].

وقد اختلفت الروايات في العدد الذي صلّى مع رسول الله ﷺ هذه الجمعة، فقال القسطلاني في (المواهب): كانوا مائة، وقال شارحه الزرقاني وقيل: كانوا أربعين، وقد استشكل الزرقاني هذا العدد في القولين وأجاب عنه، فقال: ولا ينافيهما رواية أنه حين قدم ﷺ استقبله زهاء خمسمائة بقباء، لجواز أنهم رجعوا بعد إلى المدينة، فلم يبق معه ﷺ لما دخل بني سالم ابن عوف إلا هؤلاء ـ أي الذين قيل إنهم صلّوا معه.

نظر وتوضيح

وهذا الجواب يحتاج إلى نظر وتوضيح، فهو قد يكون مسلّماً على رواية أنه ﷺ أقام بقباء مدة طويلة، أقلها ما جاء في رواية الشيخين أربع عشرة ليلة أو بضع عشرة ليلة، والمسافة بين قباء وبطن المدينة حيث منازل القوم الذين نهضوا في أسلحتهم لاستقباله ﷺ والسلام عليه والحفاوة بمقدمه في كثرة عددهم لا تزيد على فرسخ واحد، يمشيه السائر على قدميه، ويقطعه الراكب في مدة وجيزة لا يعسر فيها التردد على قباء في أيام إقامته فيها، فلعل بعض المترددين بين قباء والمدينة من الذين نهضوا في أول يوم قدم فيه ﷺ لاستقباله كان كثير منهم قد ذهب بعد الفراغ من حفاوة الاستقبال إلى

---

(١) سورة الأعراف آية (١٩٩).

(٢) سورة الجاثية آية (١٤).

منازلهم بالمدينة، وبقي منهم من سار معه ﷺ مع بني عمرو بن عوف، ومن تلقّاه من بني سالم بن عوف هذا العدد في قوليه، وهو على ذلك التوجيه لا يزال بعيداً، لأن الذين نهضوا من المدينة للسلام عليه والحفاوة باستقباله قُدّروا بخمسمائة، ولا بّد أن يكون قد كان معهم عدد انضم إليهم من بني عمرو بن عوف، فإذا ركب ﷺ متوجهاً إلى المدينة بعد إتمامه بناء مسجد قباء، فلا بد أن يكون قد حُفَّ بركبه عدد من بني عمرو بن عوف لوداعه، ولا بد أن يكون قد استقبله عدد من بني سالم بن عوف، وقد كانوا على استعداد لإظهار كثرة عددهم وقوتهم ومنعتهم ليبقى عندهم وهم أول من عرض عليه ﷺ ذلك من بيوتات الأنصار، وعلى هذا يكون تقدير العدد الذي صلى معه ﷺ أول جمعه في الإسلام صلّاها ﷺ بالمسلمين فيه تسامح كبير وتجوّز بني على شيء من التساهل وعدم التدقيق، أو يكون هذا العدد المذكور في تقدير من صلى معه هو العدد الذي اتسع له مسجد بني سالم بن عوف، وهو مسجد صغير كما تقول سائر الروايات، ولم يدخل في العدد من صلّى خارج المسجد.

أما على رواية أصحاب المغازي والسير التي رجّحها ابن إسحق وهو المرجع فيها من أن إقامته ﷺ في قباء كانت أياماً قليلة، لم تتجاوز أربعة أيام بدأت بيوم الاثنين، يوم وصوله إلى مشارف المدينة ونزوله على بني عمرو ابن عوف بقباء فبعيد جداً في جو هذا الاستقبال الحاشد الحافل أن يرجع أكثر العدد الذي نهض للحفاوة والاستقبال، ولا سيما أنه ﷺ كان في مدة إقامته بقباء يعمل جاهداً مع أصحابه في تأسيس وبناء مسجد قباء، مما يجعل الناهضين لاستقباله والحفاوة به لا يفارقونه إلا ريثما يذهب من يذهب منهم إلى المدينة حيث منازلهم للنظر في مصالحهم ومصالح أسرهم، والإعداد لاستقبال رسول الله ﷺ إذا وصل لساحتهم، ولا يمكن القول بأنهم أو بعضهم آثروا الصلاة في مساجدهم على صلاتهم مع النبي ﷺ أول جمعة يصليها بعد النبوة، وهم يعلمون أنها أول جمعة في الإسلام يصليها رسول الله ﷺ بالمسلمين.

وقد يدل دلالة بينة على أن الذين نهضوا للاستقبال العظيم ـ وقُدِّروا بخمسمائة أو يزيدون لم يرجع منهم إلى المدينة إذا صح الأثر بالرجوع رواية

إلا عدد قليل ـ قول موسى بن عقبة: وكانت الأنصار قد اجتمعوا قبل أن يركب رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف فمشوا حول ناقته، لا يزال أحدهم ينازل صاحبه زمام الناقة شُحّاً على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيماً له.

ومسجد بني سالم بن عوف مسجد صغير في بطن الوادي، وادي رانوناء، وهو مبني بالحجارة، قدر نصف القامة، وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويقال له: مسجد بني سالم، ومسجد (غبيب) تصغير غب، كما ذكر المجد الفيروز بادي صاحب القاموس في كتابه (المغانم المطابة في فضائل طابة)، ويسمى أيضاً مسجد الجمعة لصلاته ﷺ أول جمعة فيه، وهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بعد النبوة، وحكى الزرقاني قولاً لم يسنده إلى أحد، فقال: وقيل: إنه ﷺ كان يصلّيها في مسجد قباء مدة إقامته فيها، وهذا قول لا يعتد به لمخالفته المشهور الذي عليه الجمهور.

أول خطبة لرسول الله ﷺ
في أول جمعة صلاها بعد النبوة

روى ابن كثير في (البداية) عن ابن جرير قال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وَهْب، عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلّاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم: «الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط، وضل ضلالاً بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذَّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه لتقوى لمن عمل به على عجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذّركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، والذي صدّق قوله، وأنجز وعده لاخلف لذلك، فإنه يقول: ﴿ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلّام للعبيد﴾[1] واتقوا

(١) سورة ق آية (٢٩).

الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية فإنه ﴿من يتقِّ الله يكفِّر عنه سيئاته ويُعظِمْ له أجراً﴾[1] ﴿ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ وإن تقوى الله توقي مَقْته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيِّض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظِّكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾[2] ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

قال ابن كثير: هكذا أوردها ابن جرير، وفي السند إرسال.

وليس هذا تضعيفاً للنص، ولكنه بيان لواقع الحال، وتعريف بالسند، والإرسال لا يكون ضعفاً في السند على إطلاقه، بل هو عند من يقبله كغيره من السند المرفوع بل قدمه بعضهم عليه.

نص آخر لهذه الخطبة أو خطبة أخرى

ثم قال ابن كثير: وقال البيهقي: باب أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ - يعني شيخه الحاكم صاحب المستدرك - أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس ابن بكير، عن ابن إسحق، حدثني المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان، والأخنس بن شريق - لم أعثر بقدر طاقتي في البحث عن راو اسمه الأخنس ابن شريق، وهو اسم لأحد طغاة المشركين الذين تناهوا في عداوة رسول الله ﷺ، وإنما وجدت في تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر من اسمه

(١) سورة الطلاق آية (٥). (٢) سورة الأنفال آية (٤٢).

الأخنس بن خليفة الضبي، والأخنس بن خليفة والد بكير بن الأخنس ـ عن ابي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم، تَعْلَمُنَّ والله ليصعقن أحدكم ثم لَيَدَعَنّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولنّ له ربه ـ ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه ـ: ألم يأتك رسولي فبلّغك، وآتيتك مالاً فأفضلت عليك، فما قدّمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته».

خطبة ثالثة

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زيّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبُّوا من أحب الله، أحبُّوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذكره، ولا تقسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار الله ويصطفي، فقد سماه خيرته من الأعمال، وخيرته من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حقّ تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

قال ابن كثير: وهذه الطريق ـ أي في الخطبتين الأخيرتين الثانية والثالثة اللتين رواهما البيهقي بسنده عن شيخه أبي عبدالله الحافظ ـ مرسلة أيضاً إلا أنها مقوِّية لما قبلها وإن اختلفت الألفاظ.

وقد عقّب السهيلي في (الروض) بعد أن شرح بعض ألفاظ في الخطبتين، وضبط قوله (إن الحمد لله) فقال: وقوله: إن الحمد لله أحمده، هكذا برفع الدال من قوله: الحمد لله، وجدته مقيداً مصححاً عليه، وإعرابه ليس على الحكاية، ولكنه على إضمار الأمر، كأنه قال: إن الأمر الذي أذكره، وحذف الهاء العائدة على الأمر كي لا يقدم شيئاً في اللفظ من الأسماء على قوله: الحمد لله.

وإذا كان هذا الضبط هو لفظ رسول الله ﷺ فوجهه في العربية كما قال السهيلي، أما إذا كان هذا الضبط اجتهاداً في الرواية فلا وجه للالتزام بهذا الضبط وتوجيهه بما ذكر، لأنه لا مـانع أن يبقى الكلام على ظاهره وتكون (إن) حرف توكيد ونصب، وهي عاملة في (الحمد) على أنه اسمها منصوب بها، وقوله (لله) خبرها وهو ظاهر.

ثم ذكر السهيلي عقب التعليق بشرح بعض كلم في الخطبتين قوله: وكانت خطبته في تلك الأيام على جذع، فلما صنع له المنبر من طرفاء الغابة، وصنعه له عبد لامرأة من الأنصار، يقال له: باقـوم خار الجذع خُوار الناقة الخلوج حتى نزل عليه السلام فالتزمه وقال: «لو لم ألتزمه ما زال يخور إلى يوم القيامة».

وفي هذا التعقيب دليل على أن هاتين الخطبتين اللتين ذكرهما ابن إسحاق ثم البيهقي بسنده عن شيخه أبي عبدالله الحاكم كانتا في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، لا في مسجد (غبيب) في بني سالم بن عوف، وأن الخطبة التي رواها ابن جرير وهي الأولى من الخطب الثلاث في كتابنا كانت هي الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ في مسجد وادي رانوناء في ديار بني سالم بن عوف المسمى مسجد (غبيب)، وهي أول خطبة جمعة خطبها رسول الله ﷺ في الإسلام بعد نبوته، كما صرح ابن جرير في سنده، وتكون الأولية في هذه الخطبة أولية مطلقة، وفي الخطبتين اللتين رواهما ابن إسحق، ثم البيهقي بعده أولية نسبية، أي بالنسبة لمسجده ﷺ بالمدينة.

ارتفع ركب رسول الله ﷺ مع ارتفاع الشمس في أفق الحياة من

فخامة الحفاوة في مسيرة ركبه ﷺ من قباء إلى المدينة

ضحاء يوم الجمعة آخر يوم ودّع فيه ﷺ قباء وأهلها الغر الميامين، بعد الفراغ من إتمام بناء مسجدها المبارك وإعداده للصلاة والذكر ميمماً مستقره الدائم في المدينة المنورة، ذلك المستقر الذي كتبه الله لرسوله في سجل الغيب، ليكون دار إقامته دائمة حياته كلها ﷺ، ومثوى جسده الطاهر المطهر، ومهبط روحه المشرق الأنور، للرد على سلام أمته إذا سلّمت عليه، تجديداً أبدياً لعهدها الأبدي برسولها ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وجعل له في هذا المستقر الدائم مسجداً خالد الوجود أبدي الذكر والمدد، فضّله على سائر مساجد الدنيا، ليكون مسجدها الجامع ومنار هدايتها، تشع لها من آفاقه أشعة العلم المنّزل لها من سماء الحق، ويمدها بالمعرفة الهادية المهدية، يأرز إليه الإيمان، إذا نكصت الدنيا على أعقابها جاهلة مباعدة للحق والهدى وعاد الإسلام غريباً كما بدأ، ويأوي إليه التوحيد الخالص الذي يفرد الله تعالى بما هو أهله من وحدة التعبد له، وإخلاص الدين كله لذاته، وإسلام الوجه لجلاله في كل ما يقتضيه كمال الالوهية، وتنزل الفضل والإحسان من سماء إنعام الربوبية الغنية عن العالمين، ويتجلّى جلال الله في ملكوت عزه، وسلطان قهره ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدُّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾[1].

تحرك الركب النبوي المشرَّف يحف به أوفى وفاء الأوفياء من المهاجرين والأنصار، وتحيط بحفافيه كتائب جند الله في أعظم مظهر لفخامة الحفاوة، وعظمة التكريم والاجلال ومظاهر القوة، يتنازعون زمام ناقته، أيّهم يكون له شرف قيادها، وقد أعدّوا أنفسهم لفداء الدعوة، ومتابعة الداعي ﷺ في كل قول أو فعل يصدر منه، لأن قوله وفعله وحي الله: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾[2] كما أعدوها لحماية الرسالة والرسول من كل ما يقف في طريقهما معوقاً سيرهما في مجالات الهداية، نصراً لدين الله، وإعلاء لكلمة الحق في آفاق الأرض، ليخرج هذا الدين القيِّم الناس من الظلمات إلى النور،

---

(١) سورة الحشر آية (٢٣).
(٢) سورة النجم آية (٤).

ويهديهم من ضلالات العتو والفساد، ويشفي القلوب من أرجاس الشرك، ويطهِّر العقول من أوضار الوثنية في جميع أشكالها، ويوطد دعائم العدل بين أبناء البشرية في أرجاء الأرض.

حتى إذا بلغ الركب المبارك الأشرف منازل بني سالم بن عوف، وهي من قباء على مرمى النظر، كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، وهي ترسل أشعتها على الركب في سيره الذي كانت الدنيا تسير به ومعه سيراً تحفه الحفاوة البالغة، وتزجيه فخامة التعظيم والإجلال، والنظر إلى المستقبل المشرق بنور النصر المبين.

ونزل رسول الله ﷺ في بطن الوادي، وادي رانوناء، يؤم مسجد (غبيب) وهو مسجد بني سالم بن عوف متوجهاً إلى الله بقلبه، ليقف بين يديه شكّاراً لنعمه وفواضله، في أول نفحة من نفحات الامتنان الإلهي في الهجرة المباركة تلك هي نفحة التوفيق لأداء صلاة أول جمعة يصليها رسول الله ﷺ بجموع أصحابه علانية في الإسلام بعد النبوة، والصلاة صلة الأرض بالسماء، وصلة العبودية الخالصة بالوحدانية المفردة لله بالربوبية والتعبد له وحده تعبداً خالصاً.

وأذن مؤذن الإسلام للصلاة، وارتفع النداء، الله أكبر، الله أكبر، وأصغت الدنيا إلى هذا النداء، تسمعه بآذانها وقلوبها، وهو غريب على مسامعها، ولكنها تذّوقت حلاوته، واستطعمت ذوقه، وعرفت أنه رسالة من السماء إلى الأرض، وأنه حق، وأنها منذ سماعها هذا النداء يجب عليها أن تخلع عنها جلابيب التعبد لغير الله تعالى، الذي بعث إليها رسولاً هادياً، يدعوها إلى التحرر في عقيدتها، وعيشها، وتفكيرها وتعبدها، ونظم حياتها.

وخطب رسول الله ﷺ الناس، يعظهم ويرشدهم ويعلمهم، فقال فيما وعظ، وهدى، وأرشد فأوعى، وعلَّم ونصح: «أحبُّوا الله من كل قلوبكم» والحب غاية التعبد المتحرر من الغِيَر، قال السهيلي في روضه تعليقاً على قوله ﷺ: «أحبُّوا الله من كل قلوبكم» يريد أن يستغرق حبُ الله جميع أجزاء القلب، فيكون ذكره وعمله خارجاً من قلبه خالصاً له. وأمَّ رسول الله ﷺ

كل من حضره من المسلمين، وشهد معه هذه المنة الفريدة في سجل التاريخ، وصلّى بهم، وارتفع ﷺ بعد الصلاة على رحله يؤم المدينة المنورة، وهي في لهفة الانتظار.

وفود الأنصار وتضرعهم إلى رسول الله ﷺ أن ينزل في بيوتهم حيث العدد والعدة

فأتته وفود بني سالم بن عوف في عددهم وعددهم وأسلحتهم ومظاهر قوتهم يقدمهم عتبان بن مالك، وعباس بن عبادة بن نضلة فقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعة، فقال لهم ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» وكانوا قد أخذوا بزمام ناقته، فسمعوا وأطاعوا، وخلُّوا سبيلها، فانطلقت تحفُّ بها القلوب والأرواح، حتى إذا وازنت دار بني بياضة تلقته جموعهم في مظهر قوتهم وصادق حبهم وعظيم وفائهم، يتقدمهم زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو في رجال من زعمائهم، فأخذوا بزمام ناقته فقالوا: يا رسول الله؟ هلمَّ إلى العدد والعدّة والمنعة، فقال لهم ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة تلقته حشودهم، يتقدمهم سعد بن عبادة، والمنذر ابن عمرو في رجال من أشرافهم وأخذوا بزمام ناقته وقالوا: يا رسول الله؟ هلم إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج تلقته رجالاتهم في مظاهر قوتهم، يتقدمهم سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبدالله ابن رواحة في رجال من ساداتهم، فقالوا وقد أخذوا بزمام ناقته: يا رسول الله، هلمّ إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها.

وانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني عدي بن النجار ـ وهم أخواله دنيا، أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم ـ فتلقته جحافلهم في أهبة القوة المسلحة، يتقدمهم سليط بن قيس، وأبو سليط أسيرة بن خارجة في رجال من رؤوس بني عدي بن النجار، فقالوا: يا رسول الله؟ هلّم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في مكان مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد ـ أي بيدر تنشف فيه التمور والثمار، كالجرين والجرن للحنطة ـ مملوك لغلامين يتيمين من بني النجار، وهما في

حَجْر معاذ بن عفراء وقيل كانا في حجر أسعد بن زرارة، وهذا أثبت لأنه في البخاري وغيره، وفي الإصابة ويمكن الجمع بأنها كانا تحت حَجْرهما معاً، وحكى الزبير بن بكار أنهما كانا في حَجْر أبي أيوب الأنصاري وهما سهل وسهيل ابني عمرو، ثم وثبت القصواء ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل، فسارت قليلاً وهو ﷺ واضع لها زمامها لا يكفها ولا يوجهها، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تلحلحت ـ اي ثبتت ـ وأرزمت ـ أي رغت ورجّعت في صوتها وفي رواية: ورزمت بدون همزة ـ أي أقامت في مكانها من كلال وإعياء وهذا مناسب لرواية تلحلحت، وأما أرزمت بالهمزة فهو مناسب لرواية تحلحلت، فالتناسب يقتضي أن تكون العبارة، تلحلحت ورزمت، أو تحلحلت وأرزمت، وفي العبارة وألقت بجرانها، والجران العنق، وهذا يناسب أن تكون العبارة تلحلحت ورزمت أي ثبتت في مكانها لما أصابها من إعياء وكلال من وعثاء السفر وطول الرحلة ومشقة الطريق، ووصولها إلى نهاية ما أمرت به.

قال السهيلي: وفي غير هذه السيرة ـ أي سيرة ابن إسحق ـ أنها لما ألقت بجرانها في دار بني النجار جعل رجل من بني سلمة وهو جبار ابن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتبرك في دار بني سلمة، فلم تفعل.

فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب رَحْله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المربد، لمن؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً.

وفي حديث عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم الساعدي، قال بعد أن سمع القوم صرخة اليهودي، وهو يخبر بمقدم النبي ﷺ ومرافقيه: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وتزاحم الناس على رسول الله ﷺ وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر رضي الله عنه فأظله بردائه، فعرفناه بذلك، ونزل رسول الله ﷺ على كُلْثوم بن هُدْم، وكان إذا خرج من بيت كلثوم جلس للناس في بيت سعد ابن خيثمة وذلك أن سعداً كان عزباً لا أهل له.

أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث ثابت البُناني عن أنس ابن مالك قال: إني لأسعى في الغلمان، يقولون: جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً، حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر فَكمنّا في بعض خراب المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية، يؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق ـ جمع مفرده عاتق ـ أي الشواب الحرائر الكرائم أول ما يدركن قال ابن الأعرابي: إنما سميت عاتقاً لأنها عتقت من الصبا وبلغت أن تدّرع ـ فوق البيوت يتراءينه، يقلن: أيهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به ـ أي بهذا المنظر في الشوق واللهفة للنظر إلى رسول الله ﷺ، وعظمة استقباله المحفوف بالحب الهامس من العذارى والمخدرات، وكرائم الأحرار في حفاوة بالغة تفوق الوصف، وتعجز الأقلام عن التعبير عنها. وفي حديث البراء بن عازب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما من رواية الشيخين في صحيحيهما: وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم، يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد، الله أكبر، جاء رسول الله.

حب عارم طهور تضفيه فرحة الطفولية على الاستقبال الودود

وعند البيهقي من حديث ابن عائشة قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن: ـ

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وفي حديث أنس من طريق إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما دخلها جاء الأنصار برجالها ونسائها فقالوا: إلينا يا رسول الله، فقال ﷺ: «دَعُوا الناقة فإنها مأمورة» وعند موسى بن عقبة كما ذكره صاحب (البداية): وكلما مرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار دعوه إلى المنزل، فيقول ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة، فإنما أنزل حيث أنزلني الله» قال ابن المنير ـ كما نقله الزرقاني ـ الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه ﷺ لمن خصّه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس،

التماس حكمة لهذا الرد الحكيم الموفق

وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئاً.

وهكذا سارت القصواء أو الجدعاء مأمورة بإذن الله حتى بركت على باب أبي أيوب كما في هذا الحديث، فخرجت جوارٍ ـ أي فتيات صغيرات من بنات الأنصار، ثم من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

تبادل الحب الطهور بين كمال النبوة الخاتمة وصفاء الفطرة الناشئة

فخرج إليهن رسول الله ﷺ، وقال لهن: «أتحبونني» فقلن أي والله يا رسول الله، فقال ﷺ: «وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم» قال ابن كثير: هذا حديث غريب، لم يروه من هذا الوجه أحد من أصحاب السنن، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه كما يروى.

توضيح وتعليق

هذا الحديث أدمج حوادث رحلة الهجرة دون تسلسل لها حسب وقوعها، وذكر ما ذكر منها وثباً، وألحق آخرها بأولها، وترك في البين منها أحداثاً، ذكرنا منها أهمها في مناسباتها.

تحقيق رواية إرداف الصدِّيق خلف رسول الله في طريق الهجرة

وفي قوله: فأقبل رسول الله ﷺ وهو مردف أبا بكر احتمال أن هذا الإرداف كان على ناقة واحدة لتأخر بعض ظهرهما في العرج، ويحتمل أنه كان على ناقتين، وكان النبي ﷺ سابقاً بناقته، وأبو بكر خلفه بناقته. وقد شرح الزرقاني قول القسطلاني في (المواهب): وروى أنس بن مالك أنه ﷺ أقبل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر على الاحتمال الأول، فقال عقيب قوله: (وهو مردف أبا بكر): خلفه على الراحلة التي هو عليها إكراماً له، وإلا فقد كان له راحلة، ثم قال الزرقاني: وفي فتح الباري، قال الداودي: يحتمل أنه مرتدف خلفه على راحلته، وهو الاحتمال الأول، ويحتمل أنه يكون على راحلة أخرى قال الله تعالى: ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أي يتلو بعضهم بعضاً، ثم قال صاحب الفتح: ورجَّح ابن التين الأول، وقال: لا يصح الثاني، لأنه يلزم منه أن يمشي أبو بكر بين يدي رسول الله ﷺ: وقد غلّط صاحب الفتح ابن التين في تصويره لمعنى الاحتمال الثاني وترتيبه عليه ما لا

يترتب، فقال: إنما يلزم ذلك لو كان الخبر جاء بالعكس، كأن يقول: والنبي ﷺ مرتدف خلف أبي بكر، أما ولفظه: وهو مردف أبا بكر فلا، فكلام ابن التين حقيق بالتوهيم والتوهين، واستدل صاحب الفتح على ذلك بما جاء في حديث أنس عند البخاري من قوله: فكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه.

ذكر ابن سعد في الطبقات من حديث حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه كان رديف رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، وظاهر هذا أن الإرداف كان في رحلة الهجرة كلها منذ خروجهم من الغار إلى أن دخلوا المدينة المنورة، ويؤيد ذلك ما جاء في حديث أبي وهب مولى أبي هريرة من قول أبي وهب: ركب رسول الله ﷺ وراء أبي بكر ناقته، ولكنه يخالفه في هيئة الإرداف، لأن حديث ثابت عن أنس جعل الصديق رديف رسول الله ﷺ، على معنى أنه كان راكباً وراء رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ متقدماً عليه، أما حديث أبي وهب فقد جعل رسول الله ﷺ رديف أبي بكر، على معنى أن الصديق كان على مقدم الناقة وكان رسول الله ﷺ راكباً وراءه.

وهذا كلام مشكل مناقض لحديث البخاري في الهجرة برواية عائشة رضي الله عنها الذي ذكر فيه أن النبي ﷺ أخذ إحدى راحلتين كان الصديق رضي الله عنه اشتراهما وأعدهما لرحلة هجرته، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ أخذ هذه الراحلة بثمنها الذي اشتراها به أبو بكر وأنه قال لأبي بكر: «لا أركب راحلة ليست لي» أي في رحلة الهجرة لتكون هجرته ﷺ كلها خالصة لله ليس لأحد من الخلق فيها شيء، كما جاء في الحديث أن دليلهما جاءهما ـ كما واعداه ـ صبح ثالثة من دخولهما غار ثور براحلتيهما وبعير له، وأن أبا بكر رضي الله عنه أردف مولاه عامر بن فهيرة لخدمتهما في سفرهما، فكيف يصح أن أبا بكر كان رديف رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة كما في حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس؟ وكيف يصح ما جاء في حديث أبي وهب مولى أبي هريرة من أن النبي ﷺ كان راكباً وراء أبي بكر ناقته.

ولعل رواية أبي وهب مولى أبي هريرة أقرب إلى التأويل، بأن هذا الوضع الذي ذكرته هذه الرواية كان حينما قرب ركب الهجرة من المدينة بدليل ما ذكره ابن هشام أن الركب لما وصل في طريقه إلى (العرج) أبطأ عليهم بعض ظهرهم، ولعل هذا البعض هو ناقة أبي بكر، ويكون مولاه عامر بن فهيرة هو الذي تأخر بناقته لموجب اقتضى ذلك وكان الموقف لا يحتمل الانتظار، فأركب النبي ﷺ صاحبه معه على راحلته وكانا قد قربا من المدينة، وكون النبي ﷺ هو الذي كان راكباً وراء أبي بكر وضع اقتضاه الموقف.

فقد ورد أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «ألْهِ الناس عني» وهذا الإلهاء للناس عن رسول الله ﷺ يكون أبلغ في تحقيق هدفه إذا كان النبي ﷺ راكباً وراء أبي بكر ويكون أبو بكر على مقدم الناقة لمواجهة الناس وشغلهم عن رسول الله ﷺ، لأن اهتمام الناس وأحاديثهم ومساءلاتهم إنما تتجه إلى من يكون بيده زمام الراحلة.

ويترجح هذا بأن الصدِّيق رضي الله عنه كان إذا سئل فقيل له: من هذا معك؟ قال: هذا يهديني الطريق، يريد طريق الدين والخير والإيمان، ويفهم الناس من هداية الطريق، الطريق الحسي، وهذا من معاريض الكلام ولطائف التورية.

وعند البيهقي أيضاً من حديث أنس من طريق ثمامة قال: مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف، يقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار   يا حبذا محمد من جار

فقال رسول الله ﷺ: «يعلم الله أن قلبي يحبكم» ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس، وقال ابن كثير في البداية: وفي صحيح البخاري عن معمر، عن عبد الوارث، عن عبد العزيز - بن صهيب - عن أنس، قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين - حسبت أنه قال من عرس - فقام النبي ﷺ ممثلاً - أي انتصب قائماً فقال - : «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرات.

وأخرج الإمام أحمد وابن سعد في الطبقات من طريق عبد العزيز ابن

صهيب عن أنس بن مالك قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، ورسول الله ﷺ شاب لايعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول أبو بكر هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنما يهديه الطريق ـ أي طريق السير في رحلته الحسية ـ وإنما يعني أبو بكر سبيل الخير ـ أي طريق الإيمان والهدى والنور ـ فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اصرعه» فصرعته فرسه، ثم قامت تحمحم، ثم قال ـ أي هذا الفارس ـ : مُرْني يا نبي الله بما شئت، فقال له النبي ﷺ: «قف مكانك، ولا تتركنَّ أحداً يلحق بنا» فكان أول النهار جاهداً على رسول الله ﷺ وكان آخر النهار مَسْلَحة له. قال ـ أي أنس ـ فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرّة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا، فسلَّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنَيْنْ مطاعَيْنْ، فركب رسول الله ﷺ وأبو بكر، وحف الأنصار حولهما بالسلاح، وقيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ، فاستشرفوا نبي الله ﷺ ينظرون إليه ويقولون: جاء نبي الله، فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبدالله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع التي يخترف فيها، فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ، ورجع إلى أهله، وقال نبي الله: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري، وهذا بابي، قال النبي ﷺ: «فانطلق فهيىء لنا مقيلاً» فذهب فهيأ، ثم جاء فقال: يا رسول الله قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا.

وفي حديث أبي التيّاح يزيد بن حميد الضُّبَعيّ عن أنس عند البخاري قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا متقلدي سيوفهم، قال أنس: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب.

وهذا الحديث ظاهر في أن إرداف النبي ﷺ لصاحبه وصدِّيقه أبي بكر

رضي الله عنه وراءه على راحلته كان فيما بين قباء ومنزل أبي أيوب، وهو قريب المعنى معقول الكون والوقوع، لا يتعارض مع حديث الهجرة عند البخاري.

بيان المقصود من قول الرواية: وأبو بكر شيخ يُعْرف، ورسول الله شاب لا يُعْرف

وفي قول الحديث: وأبو بكر شيخ يُعْرف، ورسول الله ﷺ شاب لا يُعْرف، إنما يقصد به تصوير ما يشهده الناس بأبصارهم، لا ما هو واقع الأمر في حقيقة الوجود التاريخي، فالذي شهده الناس أن أبا بكر كان قد أسرع إليه الشيب، وكان رضي الله عنه ضعيف البدن، كما وصفته ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقالت فيما رواه أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وكان أبو بكر رجلاً نحيفاً، أبيض، خفيف العارضين، أجنأ لا يستمسك أزرته تسترخي عن حقويه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتىء الجبهة، عاري الأشاجع.

فمن يشهده رضي الله عنه بداهة وهو بهذه الصفة يضعه في مصاف الشيوخ، الذين فارقوا فتاء الشباب، وفي حديث البخاري عن أنس: لم يكن في الذين هاجروا أشمط غير أبي بكر - والشمط اختلاط الشيب بسواد الشباب.

وكان النبي ﷺ قوي البنية، مفتول العضل، سوي الأعضاء، مستقيم القامة، متماسك البدن مع عدم إسراع الشيب إليه، حتى قيل في شمائله: إنه لم يشب منه ﷺ إلا بعض شعرات في رأسه ولحيته الشريفتين، يقول من يراه بديهة وهو ﷺ في غضارة مخبره، ونضارة مظهره أنه في عنفوان الشباب وفتاء السن، مع أن واقع الأمر أن النبي ﷺ كان أكبر وأسن من أبي بكر رضي الله عنه، والمعروف المتعالم في روايات التاريخ أن أبا بكر رضي الله عنه استكمل بمدة خلافته بعد النبي ﷺ سن النبي ﷺ، وهي - على الصحيح - ثلاث وستون سنة، وكان النبي ﷺ يكبر أبا بكر بسنتين وأشهر.

وأما ما روي عن يزيد الأصم أنه ﷺ قال لأبي بكر: أينا أسن أنا أو أنت؟ فقال أبو بكر: أنت أكرم يا رسول الله مني وأكبر، وأنا أسن منك، فهو كما قال أبو عمر بن عبد البر، مرسل، ولا أظنه إلا وهماً، قال ابن

حجر: وهو كما ظن، وإنما يُعرف هذا ـ أي السؤال والجواب ـ للعباس ابن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، وأما أبو بكر ففي مسلم عن معاوية أنه عاش ثلاثا وستين سنة، وعاش بعد النبي ﷺ سنتين وأشهراً، فيلزم على الصحيح في سنه ﷺ أن أبا بكر أصغر من رسول الله ﷺ بأكثر من سنتين، قال ابن عبد البر في الاستيعاب: ولا يختلفون أن سنه انتهت إلى حين وفاته ثلاثاً وستين سنة، وأنه رضي الله عنه استوفى بخلافته بعد رسول الله ﷺ سن رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر في الإصابة: وأخرج ابن عبد البر من حديث عائشة رضي الله عنها: تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي، فكان النبي ﷺ أكبر، على أنه جاء في حديث عويم بن ساعدة قوله: ومعه أبو بكر في مثل سنه.

توضيح ما في تورية الصديق من براعة بيانية إذا سئل عن رسول الله قال: هذا رجل يهديني الطريق

وفي قوله: فيلقى الرجل فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول أبو بكر: هذا رجل يهديني الطريق، تورية لطيفة دقيقة شفّافة، تدل على حضور البديهة عند الصدِّيق رضي الله عنه، وتنضح عن رسوخ تفكيره وقوة ثباته عند مفاجأة الأحداث، وهو رضي الله عنه قد كان في موقف من أشد مواقف الشدائد والأزمات التي تمتحن فيها الرجولية، وفي هذه التورية من معاريض الكلام ما يغني عن الكذب، ويخرج بالموقف عن مضايق الحرج، ومآزق الصراحة الموبقة، وهو منهج أهل البراعة البيانية، والفصاحة اللسانية، وشفافية المدارك العقلية.

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «ألْهِ عني الناس» أي اشغلهم عن النظر إلي والتفكير في أمري، لأن قريشاً لمّا غاظها نجاة النبي ﷺ قامت قيامتها وهاجت بلابلها، ولم تترك ناحية أو طريقاً إلا بعثت إليه زبانيتها وشياطينها وأدلاءها، وقائفيها، ليعلموا لها علم رسول الله ﷺ، وأية طريق سلك في خروجه من مكة، وضاعفت في سبيل ذلك المنح والعطايا والاجعال، وكان الطمع في جوائزها قد استبد بكثير من ذوي النفوس المريضة بحب الدنيا، فانتشروا في الأرض يبحثون، ويمنّون أنفسهم

بأكاذيب الأماني ليحصلوا على جائزة فجور الكفر المغيظ المحنق، فأراد النبي ﷺ أن يشغل صاحبه وصدِّيقه الناس عنه، ووفق الصديق إلى هذا الأسلوب حين كان يسأل عن النبي ﷺ: من هذا الرجل معك، أو بين يديك، وهو أسلوب بارع في باب البلاغة العربية، يصرف السائل عن التفكير في غير ما قيل له، فكانت هذه التورية مَسْلَحة دفعت عن النبي ﷺ وصاحبه ما كانا يخشيانه، وكانت من جند الله التي أيّد بها رسوله ﷺ.

وفي قوله: فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم إشارة إلى قصة سراقة بن مالك الجعشمي الذي تبعهما طمعاً في جائزة قريش، فوقع له ما وقع معجزة للنبي ﷺ، وقد ذكرنا قصته فيما سبق، وهي قصة وقعت قبل الوصول إلى المدينة بزمن طويل، ويشبه أن تكون في أول أيام المسير إلى المدينة أو بعده بقليل. .

وفي قوله: فإنه ليحدث أهله إذْ سمع به عبدالله به سلام إشارة إلى قصة إسلام عبدالله بن سلام وكان اسمه الحصين، فغيّر رسول الله ﷺ اسمه إلى عبدالله، وهو سيد من سادات اليهود وأشرافهم، وحبر من أحبارهم الذين يرجع إليهم في علم التوراة وشروحها.

أول من أسلم من اليهود حبرهم عبد الله بن سلام وأهل بيته

وقد ذكر ابن إسحاق قصته في سيرته، فقال: وكان من حديث عبدالله ابن سلام ـ كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حبراً عالماً ـ قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنّا نتوكف له، فكنت مُسِراً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت، فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بعث بما بعث به، فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم، فقالت: فذاك إذاً، ثم خرجت

إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ورجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بُهْت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا به بهتوني، وعابوني، فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلّموه وساءلوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين ابن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا، وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور، فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث، فحسن إسلامها. وقد ذكرها الحافظ ابن حجر باسم خَلْدة أو خالدة بنت الحارث، واقتصر على رواية ابن هشام في مختصر سيرة ابن إسحق.

قال السهيلي في (الروض): وخالدة بنت الحارث قد ذكر إسلامها، وهي مما أغفله أبو عمر في كتاب الصحابة، وقد استدركناها عليه في جملة الاستدراكات التي ألحقناها بكتابه.

بيان ما في قصة إسلام عبد الله بن سلام من آيات وعبر

وقصة إسلام عبدالله بن سلام ـ وهو في مكانته المرموقة عند قومه اليهود علماً وفضلاً، وشرفاً في النسب والفضل، ورفعة الشأن ـ آية من آيات تأييد الله تعالى نبيه محمداً ﷺ في مطلع وصوله إلى المدينة المنورة، وقد كانت أول أثر من آثار الهجرة في نشر الدعوة، وسير الرسالة في طريقها إلى العقول والقلوب، وكانت أولى بشائر التوفيق للأنصار الذين يعرفون مكانة عبدالله ابن سلام في قومه، وما له عندهم من قداسة واحترام، ويعرفون فضله فيهم، ويعـرفون علمـه بكتبهم في علم علمائهم وأحبـارهم، مما ثبّت أقدامهم، وزادهم إيماناً على إيمانهم؛ لأنها قصة بدأت بها معالم النصر لدعوة

الإسلام الهادية منذ أول يوم وصل فيه رسول الله ﷺ إلى مشارف المدينة في قباء، وكان المسلمون من المهاجرين والأنصار مستغرقين في التفكير والحركة والعمل في غمرة الاستقبال الذي استقبل الأنصار به رسول الله ﷺ، وفرحتهم بوصوله إليهم، وانتهت هذه القصة التي نسجت خيوطها مقادير الغيب بما انتهت به من الخير في بيت أبي أيوب النجاري الأنصاري أول منزل نزل به رسول الله ﷺ بأمر الله وتوفيقه، فكان لهذه القصة رجة زلزلت أقدام اليهود، وملأت قلوبهم بالتوجس من المستقبل والغيظ المحنق، وكشفت ما انطوت عليه بواطنهم من ظلمات البغي والحسد، وما كانوا يضمرونه بين جوانحهم من العداوة والبغضاء لهذه الدعوة المهدية الهادية، ومن الكيد لحامل أمانتها محمد ﷺ.

وكانت هذه القصة فرحة اشرأبت لها أعناق المؤمنين غبطة وبهجة، وارتفعت بها كلمتهم، كلمة الحق التي استكانت لها خنزواة الغرور المسعور في نفس اليهود.

ولا شك أن دخول هذا الحبر العالم الجليل في ساحة الإسلام، هو وأهل بيته معه، وإسلام عمته خالدة بنت الحارث ـ كان أول ضربة إلهية قصمت ظهر الفجور اليهودي في حقدهم المظلم، وحسدهم الكظيم وغدرهم وخياناتهم وسوء مكرهم.

وقد كان نهج ابن سلام في كشف حقيقة الخبث اليهودي آية في التدبير المسدّد المحكم الذي أعطى المجتمع الجديد في المدينة على اختلاف طوائفهم: من أغمار اليهود في مجتمعهم المغلف بالأسرار، وقد فوجئوا بركن من أركان يهوديتهم الخانقة على الحياة، ودعامة من أكبر دعائمها، وركيزة من أعظم ركائزها تطير عنهم بأجنحة الإيمان والهدى إلى أحضان دعوة محمد ﷺ، لتكشف خبايا نفوسهم، وتعلن أسرارهم التي يحيكونها ضد كل خير.

ومن منافقين لَمَّا يستعلنوا بنفاقهم، ويظهروا نجيث ما يكتمون من فجور وكفر. ومن مشركين كانوا لا يزالون معتصمين بوثنيتهم المترهلة

المتهاوية، ومن مؤمنين حدثاء الإيمان لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، تميلهم أعاصير الأكاذيب هنا وهناك، وتلعب بهم فارغات الشبه التي يرمي بها أعداء الإسلام يميناً وشمالاً.

ومن جمهرة غامرة لهذا المجتمع بقوة إيمانها، ورسوخ يقينها من خُلّص المؤمنين- صورة فاضحة عن طبيعة خبث اليهود، وسوء ما تنطوي عليه قلوبهم وعقولهم من مكر سيء وكيد أسود للإسلام والمسلمين، وما يضمرونه من عداوة لرسول الله ﷺ ولرسالته، وهم يعلمون أنها الحق من ربهم، عداوة امتزجت بدمائهم واستولت على مناحي تفكيرهم، مما نبه المجتمع المسلم إلى لؤم نحيزتهم، ليتقي في مستقبله معهم مزالق غدرهم وخياناتهم وفجور كفرهم، وشرورهم وإفسادهم، وهم مجبولون على الشر والإفساد، أينما حلوا أفراداً وجماعات، وحيثما وجدوا من الأرض، لا يحيون ولا يعيشون في مجتمع إلا وهم متجلببون بشعاره ودثاره، وخفيه وظاهره، وخطيره ودنيه، وقليله وكثيره، أنبأ بذلك عنهم تاريخهم، وتناثرت به أنباؤهم، وقد برهنت الأيام في مستقبل حياتهم مع الإسلام أنهم أخبث جرثومة الشرور والإفساد، كما وصفهم حبرهم وعالمهم عبدالله بن سلام رضي الله عنه، وقد سلبوه كل فضيلة عرفوها له، في علمه وفضله ومكانته؛ بعد ما اعترفوا بأنـه سيدهم وابن سيدهم، وعالمهم وابن عالمهم، فبهتوه وكذبوا عليه وزنّوه بكل رذيلة بعدما علموا بإسلامه، وكان قبل أن يكشف لهم أمر إسلامه قد وصفهم لرسول الله ﷺ بأنهم قوم بُهْت، أهل غدر وكذب وفجور.

فجور حيي ابن أخطب أبي جهل اليهود

وعند موسى بن عقبة عن الزهري: أن أبا ياسر بن أخطب ـ أخا حيي بن أخطب ـ حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه وسمع منه وحادثه ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعوني، فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوا، فانطلق أخوه حيي بن أخطب- وهو يومئذ سيد اليهود وهما من بني النضير- فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه ثم رجع إلى قومه وكان فيهم مطاعاً، فقال أتيتكم من عند رجل والله لا أزال له عدواً أبداً، فقال له أخوه أبو ياسر: يابن أم أطعني في هذا الأمر واعصني

فيما شئت بعده، لا تهلك، قال والله لا أطيعك أبداً واستحوذ عليه الشيطان واتبعه قومه على رأيه.

رواية البخاري في إسلام عبد الله ابن سلام

وقد ساق البخاري قصة إسلام عبدالله بن سلام من طريق عبد العزيز بن صهيب، عن أنس، قال: فلما جاء النبي ﷺ جاء عبدالله ابن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق، وقد علمتٍ يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فسَلْهم عنيٍ قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ، فأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود، فدخلوا عليه فقال: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق فأسلموا» قالوا: ما نعلمه، قال رسول الله ﷺ: «فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال النبي ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم» قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال النبي ﷺ: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ. وفي رواية أخرى، فلما خرج عليهم شهد شهادة الحق، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقَّصوه، فقال: يا رسول الله، هذا الذي كنت أخاف.

وروى الإمام أحمد، والترمذي وابن ماجه من طرق عن عوف الأعرابي، عن زرارة بن أبي أوفى عن عبدالله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام».

قال ابن كثير: ومقتضى هذا السياق يقتضي أنه سمع بالنبي ﷺ، ورآه أول قدومه حين أناخ بقباء في بني عمرو بن عوف، وأنه رآه واجتمع به حين أناخ عند دار أبي أيوب عند ارتحاله من قباء إلى دار بني النجار، فلعله رآه أول ما رآه بقباء واجتمع به بعد ما صار إلى دار بني النجار.

* * *

فخامة استقبال رسول الله ﷺ كانت غصة لليهود والمنافقين

دخل رسول الله ﷺ المدينة والفرحة والبهجة يعمان أهلها: رجالاً ونساء، شيباً وشباناً، فتياناً وفتيات، أغْلِمة وأطفالاً، مخدّرات وعذارى، واستقبلت المدينة رسول الله ﷺ استقبالاً صبت فيه كل ما تحوي قلوب ساكنيها الطاهرة من المؤمنين من حب طهور، وإجلال حفي، وحفاوة بلغت المدى في التعظيم وفخامة المنظر، ونبالة التوقير، ومظاهر الاحترام، وشارات القوة، ورموز الفداء، مما أضفى على المدينة كلها نوراً وهدى وظهراً، وكان غيظاً خانقاً لليهود، وجراثيم النفاق الذين غصّت حلاقيمهم بروعة هذا الاستقبال الفخم المفخّم، الذي أفقد أعداء الدعوة إلى الحق الجدد في مجتمعها الجديد أدنى وأحط نوازع المروءة، وجللهم بأرذل وسائل المداراة والبغضاء وجوامع الحقد الحسود.

قال ابن كثير في شواهد ذلك: وذكر موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ مرّ في طريقه بعبد الله بن أبي بن سلول، وهو في بيت، فوقف رسول الله ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ـ وهو يومئذ سيد الخزرج في أنفسهم ـ فقال عبدالله بن أبي لرسول الله ﷺ: انظر الذين دعوك فانزل عليهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار، فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد مَنَّ الله بك علينا يا رسول الله، وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملّكه علينا.

وَيْ!! أهكذا يصنع الحقد بالنفوس فيحيلها أشباحاً من الانحطاط البشري، والخلق الزري، فينسيها آدميتها وينزل بها إلى هاوية الخسة، ولؤم النحيزة ودناءة الطبع؟

لقد نفث ابن أبّي بن سلول في كلمته المنحدرة من قلب كفور أضغاث أحقاده السوداء، وتعرّى بها عن كل ذرة من ذرات المروءة التي يتكلفها في مثل هذا الموقف أراذل الناس، حياء أن تذكر عنهم في سوء مراذلهم مثل هذه الرذيلة والمنقصة التي لم تعرفها قط أخلاق العرب.

ومضى عنه رسول الله ﷺ بعد أن كشف نجيثه لينبذ في خربة الإهمال، وتركه للحسرة تقطع نياط قلبه وللحقد الحسود يشوي بنار الأسى

والخزي كبده، وهو يرى رسول الله ﷺ في ركبه المعظَّم يحفّه الإجلال والإعظام، وأهل المدينة أوسها وخزرجها من حوله يتزاحمون بالمناكب لمشاهدته ووجوههم طافحة بالبشر والحب، وهم يهتفون: الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله، والعذارى والمخدّرات على الأجاجير والأسطحة وخلف النوافذ يتنافسن لرؤيته ﷺ، والركب الميمون يمضي في طريقه بين فجاج المدينة، وكأنما تحولت المدينة إلى بؤرة من النور، تمشي مع الركب ميممة حيث تيمم القصواء ورسول الله ﷺ فوقها، لا يثنيها عن اتجاه في سيرها.

إشراق المدينة بحلوله ﷺ فيها

أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب، قال: جاء النبي ﷺ إلى المدينة في الهجرة، فما رأيت أشد فرحاً منهم بشيء من النبي ﷺ، حتى سمعت النساء والصبيان والإماء يقولون: هذا رسول الله قد جاء، قد جاء.

تحقيق حول نشيد طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أنس بن مالك قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء. وأخرج ابن أبي خيثمة والدارمي عن أنس قال: شهدت يوم دخول النبي ﷺ المدينة، فلم أر يوماً أحسن منه ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه ﷺ المدينة.

وروى أبو داود عن أنس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه ﷺ. قال القسطلاني في المواهب بعد سياقه حديث أنس: وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير ـ اي الأسطحة ـ عند قدومه ﷺ يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

هذا الشعر أو هذا النشيد لم نعثر على اسم قائله ولا وجدناه منسوباً لشاعر صغير أو كبير، بيد أنه شعر مشهور مذاع على الألسنة وفي بطون الكتب والدواوين.

ومن غريب أمره أن سيرة ابن إسحاق التي بين أيدي الناس ـ باختصار وتهذيب عبد الملك بن هشام وهي العمدة في أحداث السيرة النبوية، وما يتصل بها من أشعار صحيحة أو منحولة مما بينه الباحثون، وفي طليعتهم ابن هشام ـ لم تورد هذه الأبيات، لا في استقبال النبي ﷺ في الهجرة، وهو قادم من مكة إلى المدينة، ولا في استقباله ﷺ وهو آيب من غزوة تبوك، وكل قد ذهب إليه طائفة من العلماء الباحثين والمؤلفين في أحداث السيرة النبوية.

وقد اختلف أئمة العلم في وقت إنشاد هذا الشعر عند استقبال النبي ﷺ لتحيته وإظهار الفرح والسرور بلقائه، هل كان ذلك عند تلقِّيه ﷺ مقدمه من مكة مهاجراً إلى المدينة؟ فلما وصل إليها استقبل بهذا الشعر إظهاراً للفرحة والسرور بوصوله إلى مهاجره ومستقره؟.

وكان أهل المدينة عامة رجالاً ونساء في لهفة الشوق إليه ﷺ، وحنين الرغبة في مشاهدته، أو كان ذلك في قدومه من غزوة تبوك؟ وهي آخر غزوة وأعظمها عدداً وإخلاصاً وتمحيصاً غزاها ﷺ بنفسه قائداً لجحافل جنده، وكانت امتحاناً للنفاق والمنافقين وضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، كشف الله به عن سوء ما انطوى عليه باطنهم، وما قامت عليه حياتهم من الجبن والفرق والرعب، والكيد للإسلام والمسلمين والمكر برسول الله ﷺ، والإرجاف به وإشاعة السوء والأكاذيب، والتقّول بالباطل، ليكون في موقف المسلمين من إظهار البهجة والفرح برسول الله ﷺ، ووصوله آيباً من هذه الغزوة منصوراً مؤيداً بتوفيق الله وتأييده على ضد ما أرجف به المنافقون.

وقد جمع أطراف هذا الخلاف القسطلاني في (مواهبه) وشارحه الزرقاني، ونحن نسوق كلامهما ممزوجاً بعضه ببعض مقتصرين على بيان ما يحتاج إليه من بيان وتوضيح، ونرجح ما نراه راجحاً من أقوال الأئمة بما يظهر لنا من دلائل الترجيح وأمارات القبول.

والثنيات جمع ثنية، وهي في أصل اللغة ما ارتفع من الأرض، وهي الطريق في الجبل.

قال صاحب (المواهب) بعد أن ساق طرفاً من حديث البراء بن عازب عند البخاري وهو في الهجرة وحديثها قطعاً: وأشرقت المدينة بحلوله ﷺ فيها قادماً إليها في هجرته من مكة، ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسرى السرور إلى القلوب، وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير ـ أي الأسطحة ـ عند قدومه ﷺ يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

قال القسطلاني: إنشاد هذا الشعر عند قدومه ﷺ المدينة ـ أي في الهجرة ـ رواه البيهقي في الدلائل وأبو بكر المقّري في (الشمائل) عن ابن عائشة، عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي، روى له أبو داود والترمذي والنسائي، وهو من ذرية عائشة بنت طلحة، فلهذا قيل له: ابن عائشة، قال عنه الزرقاني: هو ثقة، ذكر عنه ابن أبي شيبة أنه أنفق على إخوانه أربعمائة ألف دينار، حتى التجأ إلى بيع سقف بيته، وهذا يدل على سخاء بالغ.

وذكر الطبري حديث ابن عائشة في (الرياض النضرة) عن أبي الفضل الجمحي، قال: سمعت ابن عائشة يقول: عن أبيه، فذكر الحديث، وقال المحب الطبري: أخرجه الحلواني، أبو علي الخلال، نزيل مكة، وهو ثقة حافظ على شرط الشيخين. قال الزرقاني: الشيخان لم يخرِّجا لابن عائشة، فلا يكون على شرطهما ولو صح الإسناد إليه، قلنا: لا يلزم من كون الشيخين لم يخرِّجا لابن عائشة ألا يكون حديثه على شرطهما.

قال البيهقي في الدلائل: أنبأنا أبو عمرو الأديب، قال: أنبأنا أبو بكر الاسماعيلي، قال: سمعت أبا خليفة يقول: سمعت ابن عائشة يقول: لما قدم عليه السلام المدينة جعل النساء والصبيان يقلن: ـ

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

قال القسطلاني: وسميت ثنية الوداع لأنه عليه السلام ودّعه بها بعض المقيمين بالمدينة في بعض أسفاره وهي غزوة تبوك، وقيل: لأنه عليه السلام شيّع بعض سراياه إليها وهي سرية مؤتة فودعه عندها، قال الزرقاني: وهذان يعطيان أن التسمية ـ أي تسمية الثنية بثنية الوداع ـ حادثة.

قلنا: وهو يعطي ـ أيضاً ـ أن نشيد: طلع البدر علينا، قيل بعد التسمية الحادثة، وهي قد حدثت بمقتضى صريح القول بأن التسمية كانت في سفره ﷺ إلى غزوة تبوك، أو قبل سرية مؤتة، وأين غزوة تبوك من القدوم في الهجرة وبينهما زهاء تسعة أعوام، لأن غزوة تبوك كانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة، وأين سرية مؤتة، وهي قد كانت في السنة الثامنة من الهجرة من القدوم إلى المدينة في الهجرة فبينهما نحو ثمان سنين، وتبوك ومؤتة شاميتان بالنسبة للمدينة، ومعنى هذا أن إنشاد هذا الشعر لم يكن عند قدومه ﷺ من مكة إلى المدينة في الهجرة، وإنما كان بعد ذلك بزمن طويل، فكلام القسطلاني في بيان وجه تسمية الثنية بثنية الوداع إخبار عن أمر بغير سند، فهو غير مسلّم، لأنه لم ينسبه إلى أحد من أهل العلم بالمواطن وأحداثها.

ثم قال القسطلاني: وقيل: إن تسميتها ثنية الوداع إنما كان لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها ويودع عندها قديماً، وصحح القاضي عياض هذا القول، وهو قول لا يخلو عن إبهام وغموض لأنه لم يتبين فيه إلى أية جهة كان السفر من المدينة الذي يُشيع سفره أو يودعون عند الثنية التي تسمى ثنية الوداع، فهو محتمل أن يكون سفراً من المدينة إلى الشام، وهذا يوافق القولين السابقين من أن هذه الثنية التي سميت ثنية الوداع إنما كانت شامية بالنسبة للمدينة، والقادم إلى المدينة من مكة لا يمر بها ولا يراها.

ويحتمل أن السفر كان سفراً من المدينة إلى جهة مكة، وحينئذ تكون الثنية مكية والقادم من مكة يمر بها، وتكون هي المقصودة في شعر: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، وهي التي استقبل عندها رسول الله ﷺ وهو قادم من مكة إلى المدينة في الهجرة.

وتصحيح القاضي عياض لهذا القول الأخير في وجه التسمية بثنية الوداع إنما قصد به إفادة أن التسمية قديمة معهودة عند أهل المدينة، كما استدل عليه القاضي بقول نساء الأنصار حين قدومه ﷺ.

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وليس في قول عياض تعرض لكون الثنية المسمّاة قديماً ثنية الوداع شامية أو مكية، وعندئذ يبقى الوضع على الاحتمال لأن تكون الثنية شامية، ويكون إنشاد هذا الشعر حين قدم الرسول ﷺ آيباً من غزوة تبوك، ولأن تكون الثنية مكية ويكون إنشاد هذا الشعر حين قدم رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة في الهجرة.

وقد ذكر ابن بطّال ما يتفق مع القول بقدم التسمية، فقال: إنما سميت بثنية الوداع لأنهم كانوا يشيعون الحاج والغزاة إليها ويودعونهم عندها، وإليها كانوا يخرجون عند التلقّي.

وهذا كلام وإن كان يفيد قدم التسمية، ولكنه مبهم، لا يعين أين كانت هذه الثنية التي كانوا يشيِّعون الحاج والغزاة إليها ويودعونهم عندها، هل كانت شامية المدينة أو مكيتها، وهذا هو المقصود بتحقيق إنشاد هذا الشعر متى كان؟ وأين كان؟.

قال ابن العراقي: وهذا كله مردود، ففي صحيح البخاري، وسنن أبي داود، والترمذي عن السائب بن يزيد، قال: لما قدم النبي ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقّونه من ثنية الوداع، وهذا صريح في أنها من جهة الشام، قال الزرقاني: فظهر منه رد كلام ابن بطّال، وأثر ابن عائشة.

قلت: لا أدري كيف يظهر من كلام ابن العراقي وحديث السائب ابن يزيد رد كلام ابن بطّال، وهو لم يتعرض قط لكون الثنية شامية أو مكية، وإنما مفاد كلامه أن هذه الثنية كانت معروفة التسمية بثنية الوداع لأنها كانت موطن التشييع للحاج والغزاة والوداع لهم، فهل الحاج والغزاة الذين كانوا يشيعون ويودعون عندها كانوا فقط متوجهين إلى الشام، حتى لا تكون ثنية

الوداع إلا من جهة الشام؟.

وما الذي يمنع من أن تكون هناك ثنية وداع شامية، وأخرى مكية، فحاج مكة المتجهين إليها كانوا يودِّعون عند الثنية التي من جهتها، وحاج الشام أي السالكون طريق الشام كانوا يودِّعون عند الثنية التي كانت تقع شامية المدينة، وحينئذ يكون رسول الله ﷺ حين قدم في ركب الهجرة إلى المدينة قد مرّ على ثنية الوداع التي تقع في جهة مكة بالنسبة إلى المدينة، ومن ثم كان إنشاد هذا الشعر تحية له ﷺ وفرحاً بقدومه في الهجرة من مكة إلى المدينة، ولزم ذلك أن لا يظهر وجه لكلام ابن العراقي الذي ردّ به كل ما قيل في أن ثنية الوداع التي جاءت في هذا الشعر مكية المدينة، يمر عليها القادم من مكة والذاهب إليها.

وحديث السائب بن يزيد عند البخاري والترمذي وأبي داود لا يرد ما زعمه ابن العراقي أنه مردود به، وكذلك لا يرد ما جاء في حديث ابن عائشة عند البيهقي في الدلائل، والمقّري في الشمائل، لأن أقصى ما في حديث السائب أن رسول الله ﷺ لما قدم من تبوك خرج الناس يتلقّونه من ثنية الوداع، وليس في هذا الكلام ما يفيد نفي أن تكون هناك ثنية وداع أخرى من جهة مكة، كان يُتلقى عندها القادم من مكة إلى المدينة، ويودع عندها الذاهب من المدينة إلى مكة، ويتلقى عندها القادم من مكة إلى المدينة.

وقد استدل ابن العراقي على ردِّ كلام ابن بطال بتوهيم والده الإمام عبد الرحيم شارح الترمذي لابن بطال في كلامه، فقال ابن العراقي: ولهذا لما نقل والدي رحمه الله في شرح الترمذي كلام ابن بطال قال: إنه وهَم، وكلام ابن بطال إنما كان في ثنية الوداع التي كانت محطاً وملتقى لتشييع الحاج والغزاة إليها وتوديعهم وتلقِّيهم عندها، وليس فيه تعرض لكون الثنية المعروفة بهذا كانت من جهة الشام أو كانت من جهة مكة، فلا تصادم بين كلام ابن بطال وحديث السائب، فابن بطال لم ينف شيئاً أثبته حديث السائب، ولا أثبت شيئاً نفاه، فلا محلّ لتوهيمه في قول الإمام عبد الرحيم العراقي، ولا وجه لرده في كلام ابنه الولي العراقي.

وأما حديث ابن عائشة فهو وإن كان من جهة سنده معضلاً فإنه لا مانع من الاستئناس به، ولا سيما أن الزرقاني قد وصف ابن عائشة بكونه ثقة، فإذا صحّ سند الحديث إلى ابن عائشة كان مأنساً لمن يقول إنه كان من جهة مكة ثنية وداع مرّ بها رسول الله ﷺ وهو قادم في الهجرة من مكة إلى المدينة.

ومن أعجب العجب أن يقف الإمام الداودي شارح البخاري على نهاية طرف هذا الخلاف، فينكر أن تكون ثنية الوداع من جهة تبوك، وقد نقل ابن حجر في الفتح إنكار الداودي لكون ثنية الوداع من جهة تبوك، وقال: ثنية الوداع من جهة مكة لا من جهة تبوك، بل هي في مقابلها كالمشرق والمغرب، إلا أن تكون هناك ثنية أخرى في تلك الجهة - أي جهة تبوك - غير أن ابن حجر غلّط في قوله: وتبعه - أي الداودي - ابن القيم، لأن ابن القيم نص صراحة في زاد المعاد - وهو الكتاب المعروف بالهدي النبوي - على أن ثنية الوداع من جهة تبوك، ووهَّم من قال: إنها من جهة مكة، ولهذا قال القسطلاني في (المواهب): وسبقه - أي الإمام عبد الرحيم العراقي إلى التوهيم - ابن القيم في الهدي النبوي، فقال يرد على القائلين إن ثنية الوداع من جهة مكة، كما هو قول الداودي -: هذا وهم من بعض الرواة، لأن ثنية الوداع من جهة الشام، لا يراها القادم من مكة، ولا يمر عليها إلا إذا توجه إلى الشام، وإنما وقع ذلك - أي تلقيه ﷺ وإنشاد هذا الشعر: طلع البدر علينا - عند قدومه من تبوك.

وابن القيم إنما ذكر تلقِّي أهل المدينة وخروج النساء والصبيان والولائد لرسول الله ﷺ بنشيد: طلع البدر علينا، في رجوعه ﷺ من تبوك، ولم يذكر تلقِّيه ﷺ بإنشاد هذا الشعر في قدومه من مكة مهاجراً إلى المدينة.

وعبارته في (الهدي) في آخر الكلام على غزوة تبوك وما اتصل بها هي قوله: فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة - أي في رجوعه من تبوك - خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ثم قال: وبعض الرواة يهم في هذا، ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر لأن ثنية الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام.

وقوله: لأن ثنية الوداع إنما هي من ناحية الشام بأسلوب الحصر غير مسلّم؛ إذْ ما يمنع أن يكون هناك ثنيات وداع متعددة من جوانب المدينة يكون بعضها من ناحية الشام، وبعضها من ناحية مكة؟.

ولم يعلم أن أحداً نص على أن ثنيات الوداع خاصة بناحية الشام، والتعبير عنها يشعر بأنها قديمة معروفة يشيّع إليها ويودّع عندها المسافرون من المدينة ويتلقّى عندها القادمون إليها، والسفر من المدينة والقدوم إليها قد يكون من مكة وإليها، وقد يكون من الشام وإليها، وحينئذ ما يمنع أن يكون في كل ناحية ثنية أو ثنيات وداع عندها يكون وداع المسافرين وتلقي القادمين؟ وإذا جاز هذا فلا مانع قط أن يكون النبي ﷺ تلقّاه أولاً أهل المدينة وهو قادم من مكة مهاجراً إلى المدينة عند ثنية الوداع التي هي من جهة مكة بالفرحة وإنشاد هذا الشعر العاطفي، تعبيراً عن لهفة الشوق التي كانت تعتلج في صدور الذين لم يسبق لهم مشاهدته ﷺ، وخاصة النساء والصبيان والولائد الذين تغلب عليهم عواطف الفرحة، فيعبرون عنها بالغناء. والترنم بإنشاد الشعر.

وتلقَّوه ﷺ ـ ثانياً ـ وهو قادم من غزوة تبوك منصوراً مظفّراً مؤيداً بتوفيق الله بالفرحة وإنشاد هذا الشعر الذي صار لديهم نشيداً يعبِّرون به عن الفرحة والسرور، ولا سيما أن هذه الغزوة العظيمة كثر فيها إرجاف المنافقين بالأكاذيب وإشاعات السوء على رسول الله ﷺ وأصحابه وجنده، فرجوعه محفوظاً برعاية الله، ورجوع جحافل جيشه مؤيدة بنصر الله تعالى، مما أغاظ المنافقين وأغصَّهم، وقد كانوا في جبنهم ينتفضون رِعْدة وفَرَقاً ورعباً إذا ما سمعوا اسم بني الأصفر الذين خرج رسول الله ﷺ في هذه الغزوة لجهادهم، فلما رجع مكلل الجبين بالنصر والتأييد من الله أرجف به المنافقون

ليفتنوا المؤمنين، الذين خرجوا لتلقِّيه وهو آيب إلى مدينته ترعاه عين الله ويحفه توفيقه.

قال الزرقاني: وأجاب السمهودي ـ أي عن توهيم بعض الرواة بأن كونها: أي ثنية الوداع شامي المدينة ـ لا يمنع كون هذه الأبيات أنشدت عند الهجرة، لأنه ﷺ ركب ناقته وأرخى لها زمامها، وقال: دعوها فإنها مأمورة، ومر بدور الأنصار من بني ساعدة، ودارهم شامي المدينة، وقرب ثنية الوداع، فلم يدخل باطن المدينة إلا من تلك الناحية، فلا وهم.

قال الزرقاني: وهو جواب حسن، وإن كان شيخنا البابلي يستبعده، لأنه يلزم عليه أن يرجع ويمر على قباء ثانياً، فلا بعد فيه، ولو لزم ذلك، لإرخائه زمام الناقة، وقوله (أنها مأمورة).

وما استحسنه الزرقاني من جواب السمهودي فيه تمحّل للخروج من الإشكال، وكان الأشبه أن يقال بأن كون ثنيات الوداع شامي المدينة لا يمنع من أن تكون هناك ثنيات وداع مكية المدينة، وعندئذ يقال: إن المقصود بثنيات الوداع، هي الثنيات التي يستقبل عندها القادم، ويشيّع ويودع عندها المسافر، سواء أكانت الثنيات شامية أو مكية، ومن ثَمَّ يكون إنشاد هذا الشعر إنما كان أولاً عند قدوم النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، وكان ثانياً عند مقدمه من غزوة تبوك.

وبهذا يندفع ما استبعده البابلي من لزوم رجوعه ومروره ثانياً على قباء الذي أجاب عنه الزرقاني جواباً ضعيفاً لا يدفع الاستبعاد، على أن قول السمهودي في جوابه عن توهيم بعض الرواة: ومرّ ﷺ بدور الأنصار من بني ساعدة، ودارهم شامي المدينة وقرب ثنية الوداع، فيه ما يدل على أنه ﷺ سار وهو مُرْخٍ زمام الناقة لا يكفها ولا يوجهها حتى بلغ طرف المدينة من جهة الشام ليستوعب بمروره جميع دور الأنصار تكريماً لسائرهم حتى لا يحيك في صدر أهل دار منهم شيء، وكون دار بني ساعدة قريبة من ثنية الوداع يشير إلى أن تلقِّي أهل المدينة له ﷺ كان من هذه الجهة التي بها ثنية الوداع.

ولماكان التلقّي والاستقبال غامراً كثير الزحام اجتمع فيه إلى الرجال النساء والصبيان والولائد وهن ينشدن هذا الشعر ترحيباً بمقدمه ﷺ، وإظهاراً للفرحة بحلوله بينهم، ولا يلزم من ذلك الرجوع ثانياً إلى قباء، بل المعقول أن السير كان إلى باطن المدينة من طرفها الشامي، حيث يبلغ ﷺ مستقره ومنزله الذي أنزله الله فيه، وهو مربد سهل وسهيل الذي صار مسجده الأشرف قرب دار أبي أيوب الأنصاري النجاري رضي الله عنه.

وهذا الذي ذهبنا إليه ورجَّحناه في دفع توهيم بعض الرواة هو ما صار إليه ابن العراقي، قال صاحب المواهب وشارحه: لكن قال ابن العراقي - أيضاً - ويحتمل في دفع التوهيم الذي ذهب إليه والده وذهب إليه ابن القيم، أن تكون الثنية التي من كل جهة يصل إليها المشيعون يسمونها ثنية الوداع.

قال صاحب الخميس: يشبه أن يكون هذا هو الحق، ويؤيده جمع الثنيات إذ لو كان المراد الثنية التي من جهة الشام لم تجمع، ولا مانع من تعدد وقوع هذا الشعر مرة عند الهجرة، ومرة عند قدومه من تبوك، فلا ينافي ما في البخاري وغيره، ولا ما قاله ابن القيم.

وهذا كلام جيد، سديد، موفق، يحل الإشكال، ويحقق الغرض المقصود ويؤيد المشهور من الروايات، ويدفع عنها التصادم والتضاد، والله ولي التوفيق.

* * *

أين نزل رسول الله ﷺ
بالمدينة قبل بناء بيوته

في حديث البراء بن عازب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند البخاري في الهجرة قال الصديق: فقدمنا ليلاً، فتنازعه القوم، أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك» قال ابن كثير: وهذا ـ والله أعلم ـ إما أن يكون يوم قدومه إلى قباء فيكون حال وصوله إلى قرب المدينة كان في حر الظهيرة، وأقام تحت تلك النخلة، ثم سار بالمسلمين فنزل قباء ليلاً، وأنه أطلق على ما بعد الزوال ليلاً، فإن العشي من الزوال ـ أي يبتدىء من زوال الشمس عن كبد السماء، وميلها للغروب ـ وإما أن يكون المراد بذلك لما رحل من قباء، فسار فما انتهى إلى بني النجار إلا عشاء.

وهذا الترديد الذي ذكره ابن كثير قريب الاحتمال بشقَّيه، فأما الشق الأول فيؤيده أن ركب النبي ﷺ وصل وهو قادم في رحلة الهجرة إلى مشارف المدينة في نحر الظهيرة، ونزل في ظل نخلة، ثم أرسل رسول الله ﷺ رجلاً من أهل البادية، يؤذن بهما الأنصار ـ كما في حديث أنس من طريق ثابت البُناني عند أحمد ـ فتهيأ الأنصار ونهضوا في السلاح، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وصاحبه وهما في مكانهما من ظل النخلة التي أويا إليها ليتقيا حر الهاجرة، وفي هذا الحديث أنهما ـ أي رسول الله ﷺ وصاحبه الصدِّيق ـ كمنا في بعض خراب المدينة، وعند ابن سعد، فقال رسول الله ﷺ لما انتهى إلى الجثجاثة قال: «من يدلنا على الطريق إلى بني عمرو بن عوف، فلا يقرب المدينة؟» فسلك على طريق الظبي حتى خرج على العصبة، وكان المهاجرون

قد استبطأوا رسول الله ﷺ في القدوم عليهم، فكانوا يغدون مع الأنصار إلى ظهر حرة العصبة يتحينون قدومه، ولعل هذه الحرة هي المقصودة بقول أنس: فَكَمِنَا في بعض خراب المدينة، وقال الزرقاني في بيان الحرّة: أرض ذات حجارة سود، كانت بها الواقعة المشهورة أيام يزيد بن معاوية، وفي حديث عبد الرحمن بن عويم الساعدي عند الحاكم: كنا نخرج فنلجأ بظاهر الحرة نلجأ إلى ظل المدر حتى تغلبنا الشمس عليه، ثم نرجع إلى رحالنا.

وكل هذا يعطي أن زمناً ليس بالقليل قد مرّ بين وصوله ﷺ إلى المكان الذي كمن فيه ومعه صاحبه، وهو الذي قيل عنه في رواية أنس (خراب المدينة) ويمكن أن يكون هو (حرة) العصبة كما في رواية ابن سعد، وقد تكون هذه الحرة هي التي وقعت فيها واقعة يزيد - وبين مجيء الأنصار في أهبتهم بعد أن أرسل إليهم يؤذنهم بوصوله وبين وصولهم إلى مكانه، ثم سار بهم حتى نزل على بني عمرو بن عوف في قباء زمن، وهذا الزمن لا يستبعد أن يكون قد انتهى إلى أوائل الليل، فقول الصديق: فقدمنا ليلاً يراد به فوصلنا بعد أن قدم إلينا الأنصار الذين أعلموا بوصول رسول الله ﷺ وسار بهم الركب إلى قباء ليلاً.

وأما الشق الثاني في ترديد ابن كثير فيوضحه أن رسول الله ﷺ ركب من قباء بعد أن أكمل بناء مسجدها حين ارتفع النهار من يوم الجمعة، وسار الركب يحف به الأنصار الذين يقدمون من المدينة، والذين نهضوا من أهل قباء لتوديعه ﷺ حتى وصل إلى منازل بني سالم بن عوف حيث أدركته الجمعة، فنزل وصلّاها في مسجدهم، مسجد غبيب في وادي رانوناء، وخطب أول خطبة جمعة في الإسلام بعد النبوة.

ثم ركب من بني سالم بن عوف وسار إلى المدينة بعد أن تضرع إليه بنو سالم وهم آخذون بزمام ناقته أن يبقى بينهم حيث العدد والعدة والمنعة والثروة، فدعا لهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها فانطلقت ورسول الله ﷺ مُرْخٍ لها زمامها لا يثنيها ولا يكفها، وكلما مرّت بدار من دور الأنصار نهض أشرافها ورؤساؤها لاستقبال رسول

الله ﷺ وسؤاله في ضراعة الحب والفداء أن ينزل فيهم حيث العدد والعدة والمنعة، فيدعو لهم بخير، ويقول لهم مثل ما قال لإخوانهم الذين سبقوهم بهذا الرجاء والرغبة الملحة، حتى بلغت دار بني مالك بن النجار، حيث المكان المطهر الذي اختاره الله ليكون مسجداً تشع منه أنوار الهداية على الدنيا بأسرها علماً وعملاً، وحيث المكان الأطهر الذي اختاره الله تعالى مستقراً لرسوله في حياته، ومثوى لجسده الشريف بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وكان هذا المكان مربداً مملوكاً لغلامين يتيمين من بني النجار، كانا في حَجْر أسعد بن زرارة كما في رواية البخاري، أو في حجر معاذ بن عفراء، كما عند ابن إسحاق وغيره.

قال ابن كثير: وقد كان في المدينة دور كثيرة، تبلغ تسعاً، كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله ﷺ دار مالك ابن النجار.

وهذا السير من قباء بصورته التي ترسمها الروايات، وما جرى فيها من لقاء وحديث ليس من المستبعد أن يستغرق من الزمن ما يصل به عند انتهائه إلى الليل، وهذا يرجح قول الصديق فقدمنا ليلاً في مقابلة الروايات الأخرى التي تصادم في ظاهرها هذه الرواية المرتفعة في سندها ومعناها.

وقوله ﷺ: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك» هو معنى قوله ﷺ حين كان يدعوه أشراف بطون الأنصار إلى المنزل فيقول: «دعوها فإنها مأمورة، فإنما أنزل حيث أنزلني الله» كما ذكره موسى ابن عقبة في مغازيه ومعناه أن مسيري ومنزلي ومستقري إنما هو بيد الله، أسير بأمره وأنزل بمشيئته، وأستقر حيث يريد، وهذا بيان منه ﷺ أنه لا يخص بطناً من بطون الأنصار، ولا داراً من دورهم.

ولما بركت ناقته ﷺ في مكان مسجده، وألقت جرانها ورزمت، ولم تنهض منه بعد عودها إليه ـ رغم ما صنعه بها جبّار من النخس بحديدة معه رجاء أن تنهض فلم تفعل ـ ونزل عنها رسول الله ﷺ، وعلم أن هذا منزله

الذي أنزله الله، واختاره لمستقره ومثواه وسأل ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري وهذا بابي، ونقل رَحْل رسول الله ﷺ إلى منزله، ثم قال له رسول الله ﷺ: «فانطلق فهيىء لنا مقيلاً» فذهب وهيأ المقيل، ثم جاء فقال: قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا، وفي حديث عبدالله بن الزبير عند البيهقي أن رسول الله ﷺ حين نزل عن راحلته، آوى إلى ظل عريش كانوا يستظلون تحته ويتبردون فيه، فأتاه أبو أيوب، فقال: يا رسول الله، إن منزلي أقرب المنازل إليك، فانقل رحلك إليّ؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» فذهب أبو أيوب برحل رسول الله ﷺ إلى منزله، ثم جاء رجل فقال: يا رسول الله، أين تحل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل مع رحله حيث كان».

إقامته ﷺ مقدمه المدينة قبل بناء مسجده وبيوته بين العريش ومنزل أبي أيوب

وثبت ﷺ في العريش اثنتي عشرة ليلة حتى بني المسجد، والظاهر الذي تفيده أكثر الروايات أنه اتخذ من منزل أبي أيوب مستقراً له قبل بناء مسجده ومساكنه يأوي إليه لطعامه ونومه، وما يتطلبه الاستقرار الشخصي من شؤون وأحوال، واتخذ من العريش مكاناً لراحته المؤقتة، يستظل به، ويتبرد فيه أثناء النهار، ويلقى فيه أصحابه، ويشرف منه على بناء المسجد، ويشارك في العمل في بنائه أصحابه، ينقل معهم اللبن، وينشد معهم الشعر يتخففون به من ثقلة العمل، فهو ﷺ لم يشأ أن يدخل إلى مستقره في منزل أبي أيوب ويترك أصحابه يعملون، ولكنه أراد أن يكون معهم يرونه ويراهم، ويشهد عملهم ويشهدون مشاركته لهم، فجعل من العريش مظلة يستظل بها ساعة من النهار، ويقابل فيها من يشاء من أصحابه القادمين عليه للهداية أو التزود من معالم الإيمان والتفقه في الدين.

ونزوله ﷺ في دار أبي أيوب بأمر الله تعالى منقبة عظيمة لأبي أيوب خالد بن زيد النجاري تضاف إلى مناقب الأنصار عامة، وإلى مفاخر بني النجار خاصة.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها: قصعة فيها خبز مثرود

أول هدية أهديت إليه ﷺ أول ما نزل المدينة وتتابع هدايا الأنصار

بلبن وسمن، فقلت: أرسلتّ بهذه القصعة أمي، فقال ﷺ: «بارك الله فيك» ودعا أصحابه فأكلوا، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة: ثريد وعراق لحم، وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة، يحملون الطعام يتناوبون.

وبعث ﷺ ـ وهو نازل في دار أبي أيوب من يحضر أولاده وزوجه ـ كما رواه الطبراني من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: لما هاجر ﷺ وأبو بكر خلّفنا بمكة، فلما استقر بالمدينة بعث موليبه، حِبَّه زيد بن حارثة، وأبا رافع، ومعهما بعيران وخمسمائة درهم، ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وزينب مع زوجها بمكة، أبي العاصي بن الربيع، وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة، وأم أسامة ابنه، وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، وفيهم عائشة أم المؤمنين، ولم يدخل بها رسول الله ﷺ إلا في المدينة، وكان مقامه ﷺ في دار أبي أيوب سبعة أشهر في رواية الواقدي عند ابن سعد، وجزم به ابن حجر في الفتح، وحكى صاحب المواهب أنه ﷺ أقام في دار أبي أيوب إلى صفر من السنة الثانية، والمشهور المرجّح أنه ﷺ وصل إلى المدينة المنورة في ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه وحينئذ تكون إقامته عند أبي أيوب أكثر من عشرة أشهر، هذا قول ابن إسحق، قال: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بني له فيها مسجده ومساكنه، وذهب الدولابي ـ كما حكاه مغلطاي ـ أنه ﷺ أقام في دار أبي أيوب شهراً وهذا قول غريب جداً، لأنه ﷺ لم يبعث في إحضار بنتيه فاطمة وأم كلثوم، وزوجته سودة بنت زمعة ومولاه الحب بن الحب: أسامة ابن زيد رضي الله عنهم إلا بعد أن أكمل بناء مسجده ومسكن زوجته، فكم يوم مضت في بناء المسجد، وهو مائة في مائة، وفي بناء المسكن، وهو على بساطته يحتاج إلى عمل وأدوات، هي على خفتها لا تتوافر في ساعة طلبها والحاجة إليها؟ مع ملاحظة ما يحتف بذلك من شؤون عامة أو خاصة، وما يشغل النبي ﷺ من أمور لا غناء عنها في مسير الحياة، وما يشغله ﷺ من

بعثه ﷺ لإحضار بنتيه فاطمة وأم كلثوم وزوجه سودة بنت زمعة، ومولاه أسامة وأمه أم أيمن

تبليغ رسالته ونشر دعوته، والتحدث إلى أصحابه، وتلقّي الوحي وكتابته وتلقي القادمين عليه ﷺ طلباً للهداية والتفقه في الدين؟ وكم يوم مضت في طريق المبعوثين إلى مكة للقيام بمهمتها، وكم من الزمن مضى في الإعداد للسفر، وكم يوم مضت في الأوبة بمن معهما من النساء والأطفال، ممن لا يتحملن شدة السفر السريع وما فيه من مشقة تتطلب شيئاً من الراحة والرفق، ولعل في رواية هذا القول عن الدولابي شيئاً من الوهم أو التجاوز.

لطيفة من لطائف الأدب الرفيع في أخلاق أبي أيوب الأنصاري

ومن لطائف الأدب التربوي وصور الحب القدسي ما روي عن أبي أيوب رضي الله عنه ـ كما جاء في كتاب (الذكر والدعاء) للإمام أبي يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهما الله، قال يصور ما وقع له ولأهل بيته ـ أولاً ـ في غمرة الحب، ولهفة الرغبة في الفوز برسول الله ﷺ ونزوله عنده في داره من سهوة لم تمر محتملاتها الخفيفة بخاطره:

لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني أكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت، فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال ﷺ: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا، وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت» فكان رسول الله ﷺ في سفل البيت وكنا فوقه في المسكن، فلما خلوت إلى أم أيوب قلت لها: رسول الله ﷺ أحق بالعلو منّا، تنزل عليه الملائكة وينزل عليه الوحي، فما بت تلك الليلة لا أنا، ولا أم أيوب.

وفي بعض الروايات عند البيهقي في الدلائل من طريق أفلح مولى أبي أيوب أن أبا أيوب تنبه ليلاً، فقال: نمشي فوق رسول الله ﷺ، فتحول فباتوا في جانب، قال أبو أيوب: فلما أصبحت قلت: يا رسول الله، ما بتُّ لا أنا ولا أم أيوب، قال رسول الله ﷺ: «لم يا أبا أيوب؟» قال: كنت أحق بالعلو منا، تنزل عليك الملائكة، وينزل عليك الوحي، لا، والذي بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبداً، فلم يزل أبو أيوب يتضرع إلى رسول الله ﷺ حتى تحول إلى العلو ونزل أبو أيوب وأهله في السفل.

ويقول أبو أيوب في تصوير أدب الحب، وتقديس النبوة: فلقد انكسر

لنا حُبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب لقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وهذه اللطائف الهامسة الخفيفة تصور في بساطة من الحياة مدى التوقير وقداسة الحب التي تكنها قلوب أصحاب النبي ﷺ له، إيماناً بأن حبه ﷺ لُبّ الإيمان برسالته، وأن تعظيمه وتوقيره فوق كل تعظيم عظيم، وتوقير كل موقر كبير هو عنوان اليقين.

وشيجة الحب بين رسول الله ﷺ وبين عامة الأنصار شيباً وشباباً

ولقد برهن الأنصار في شتى مواقفهم على أن إيمانهم برسول الله ﷺ وبرسالته كان إيمان حب أفعمت به قلوبهم، وبادلهم رسول الله ﷺ هذا الحب بحب أجل وأعظم، عم به رجالهم ونساءهم شيبهم وشبابهم، غلمانهم وأطفالهم، فقال لهم: «والله وأنا أحبكم» و«يعلم الله أن قلبي يحبكم» و«أنتم من أحب الناس إليّ».

ووشائج الإيمان إذا قامت على الحب كانت صورة للنفس الإنسانية في أصفى صفائها، وصورة للفطرة البشرية في أنقى نقائها، تعجز عظائم الأحداث عن فصم عراها، وهكذا كان إيمان الأنصار حباً مؤمنا، وكان حبهم إيماناً مُؤثراً، فاستحقوا من دون سائر الناس الاستئثار برسول الله ﷺ حياته ومثواه.

ومن ثم تتبين إشارات الأقدار في مطويات كلمات رسول الله ﷺ إذ قال: «إنما أنزل حيث أنزلني الله» فكان نزوله في ديار بني مالك من بني النجار على أبي أيوب بإذن الله وأمره، وأبو أيوب يمثل بحبه وإيمانه وتوقيره لرسول الله ﷺ إيمان الأنصار وحبهم وتوقيرهم، فنزول رسول الله ﷺ عليه في داره مفخرة للأنصار عامة، ولبني مالك بن النجار خاصة، ولأبي أيوب أخص الخاصة، لأنه رضي الله عنه اختير باختيار الله تعالى لهذه المنقبة المنيفة، واختيرت داره المطهرة لتكون مهبطاً للوحي وهو ينزل على رسول الله ﷺ آناء الليل والنهار، وللوحي قداسته وسموه ورفعة شأنه، وللنبي ﷺ عظمته وعلو مكانته التي لا تسامى.

فأبو أيوب عجّل في نقل رحل النبي ﷺ إلى منزله، فوضعه قريباً في

سفل المنزل، وهيأ للنبي ﷺ وصاحبه مقيلاً في سفل المنزل حيث حط الرحل، لعل أن يكون للنبي ﷺ حاجة في رحله، وهو قادم من سفر بعيد شاق، فيكون قريباً منه، وسها أبو أيوب في هذه الغمرة من الفرحة أن ينظر في كونه وأهله في العلو من البيت، والنبي ﷺ في السفل من الدار مما لا يجب أن يكون، ثم تنبَّه لأول لحظة اطمأن فيها بتحقيق لهفته في الفوز بنزول رسول الله ﷺ عليه في داره إلى ما كان منه من سهوة تجافي كمال التوقير، فأسرع وأبدى للنبي ﷺ كراهيته لهذا الوضع وإعظامه له، فجعل يتضرّع إلى رسول الله ﷺ في أن يغير هذا الوضع الذي جلبته عليه سهوة عابرة، فأجابه رسول الله ﷺ فتحول إلى العلو، ونزل أبو أيوب وأهله إلى السفل.

وكان من لطائف حب أبي أيوب لرسوله الله ﷺ تحينُّ آثاره التماساً لبركاته، روى الحاكم وغيره أن أبا أيوب قال: كنا نصنع لرسول الله ﷺ العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده نبتغي البركة بذلك، حتى بعثنا إليه بعشائه وقد جعلنا فيه بصلاً أو ثوماً، فردّه ولم أر ليده فيه أثراً فجئته فزعاً، فقلت: بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه».

وفي دلائل البيهقي عن أبي أيوب من طريق الليث بن سعد عن يزيد ابن أبي حبيب عن مرثد بن عبدالله اليزني عن أبي رهم السماعي قال: حدثني أبو أيوب قال: كنا نصنع لرسول الله ﷺ طعاماً، فإذا جيء بفضله سأل أبو أيوب عن موضع أصابع رسول الله ﷺ، فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما رد إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ، فقيل له لم يأكل، ففزع وصعد إليه، وقال: أحرام؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكني أكرهه» فقال أبو أيوب: فإني أكره ما تكره أو ما كرهت. وكان النبي ﷺ يأتيه الملك، قال ابن كثير رواه مسلم عن أحمد بن سعيد ـ أي الدارمي ـ به وسياق ابن إسحاق له أتم من سياق البيهقي، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد المؤدب عن الليث.

* * *

تم بعونه تعالى الجزء الثاني
من كتاب محمد رسول الله
والحمد لله الذي بنعمته
تتم الصالحات

مِفتاح تحقيق التاريخ الإسلاميّ
كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلّى الله عليه وسلّم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم
محمد الصّادق ابراهيم عرجون
عميد كلّية أصول الدّين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الثالث

دار القلم
دمشق

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع جدة: ٢١٤٦١ - ص. ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٥٧٦٢١

دَعَائِمُ بِنَاءِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ

بعد تثبيت عقيدتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعامة الأولى
بناء المسجد الأعظم بالمدينة المنورة

كانت المرحلة الأولى في سير الرسالة الخالدة، خاتمة رسالات السماء، رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ في مكة مرحلة تأسيس العقيدة التوحيدية، وتثبيتها بإقامة البراهين القاطعة عقلاً ونقلاً، ونصب منائر الأدلة الساطعة على مشارف طرائق سيرها، سواء أكانت الأدلة تكوينية مبثوثة في عناصر الكون ومظاهر الطبيعة، أم كانت تنزلية، تنزَّل بها الوحي لهداية العقول وتنوير القلوب، وتحصين هذه العقيدة التي هي المقصود الأعظم والغاية العظمى لجميع رسالات الله تعالى إلى أهل الأرض من أن تحوم حولها حوائم الشبهات الإلحادية وأساطير الوثنيات المادية، وتقويض أبنية الشرك، وسِدَانات الأصنام والأوثان في جميع صورها وأشكالها وسائر ضروب الشرك وألوانه وتطهير القلوب والعقول من رواسب موروثات الجاهلية.

وقد كانت هذه المرحلة أطول مراحل سير الرسالة الخالدة زمناً، وأملأها حجاجاً فكرياً، وأفعمها نضالاً عقلياً، وأبلغها إيقاظاً للفطرة الإنسانية.

كان الجهاد فيها جهاداً منطقياً يستنطق القرآن الكريم في دلائل آياته على عظمة الكون وخالقه ومدبره، وكان سلاح الجهاد فيها الصبر الحمّال لفوادح البلاء، يقول الله تعالى في جهاد هذه المرحلة: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾[1].

(١) سورة الفرقان آيتا (٥١، ٥٢).

قال الزمخشري في تفسيره: ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى و(لبعثنا في كل قرية) نبياً ينذرها، وإنما قصرنا الأمر عليك، وعظمناك به، وأجللناك، وفضلناك على سائر الرسل - أي لعموم رسالتك وخصوص رسالاتهم - فقابل ذلك بالتشدد والتصبر، (فلا تطع الكافرين) فيما يريدونك عليه، وإنما أراد بذلك تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم، والضمير - أي في قوله (به) - للقرآن. . . . والمراد أن الكفار يجدّون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جدك واجتهادك، وعضك بالنواجذ بما تغلبهم به وتعلوهم، وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه من المشاق العظام، لأنه ﷺ نذير جميع القرى، لعموم رسالته، لأن الله لو بعث في كل قرية نذيراً لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم، فقال له (وجاهدهم) بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة، فلم يكن في هذا الجهاد قتال، ولا رد للاعتداء، وإنما هو جهاد الحجة البالغة والبرهان القويم في سياق من فنون الاعجاز والهداية وبراعة البيان.

ولما اكتمل بناء العقيدة التوحيدية في هذه المرحلة، وظهر شامخاً، وطيد الدعائم، راسخ الأركان، ثابت القواعد، لا تهزه أعاصير الحياة، ولا تقف أمامه هلهلة الإلحاد الفكري وسخافات الوثنية المادية وترهات أباطيل الشرك وخزعبلات الجهالات، ولا ينال منه فجور العناد، وعتو الاستكبار، وطغيان الكفر.

وحتى إذا استيأس رسول الله ﷺ من رجاء الأمل في عجاف ملأ الفجور أمره الله تعالى بالهجرة إلى طيبة حيث وداعة الإيمان، ولطف العشرة، والوفاء بالعهد وشدة البأس على كل من تسوِّل له نفسه المساس بالدعوة إلى الله ورسالة الخلود، ليقيم فيها معالم رسالته - بعد أن أرسى قواعدها على قوة الحق وهدى البرهان ونور الحجة - على أساس من التشريع الحكيم المحكم الذي يستمد حكمته وأحكامه من منابع العقيدة التوحيدية.

هذا التشريع الذي يضع علامة مساند بنائها في تعبداتها وسياسة

حكمها، ونظام حياتها الاجتماعية في معاشها ومعاملاتها بتبادل المصالح بين أفرادها وجماعاتها، وبينها وبين المجتمعات الإنسانية كلها في أرجاء الأرض ـ على عُمُد من العدالة التي تعطي لكل ذي حق حقه، وتضع إلى جانب كل حق واجباً تقتضيه إراحة الحق على أهله، فكل من أخذ حقاً فعليه أن يؤدي للمجتمع واجباً.

اختيار الله تعالى لمكان المسجد الأعظم

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً إليها من مكة نزل أول ما نزل في مشارفها على بني عمرو بن عوف في قباء، فأسس مسجدها وأكمل بناءه، ثم ترحل عنهم إلى داخل المدينة، وكان الأنصار في محلاتهم وديارهم يخرجون للقائه ﷺ، كلما مرّ بدار قوم منهم أخذوا بزمام ناقته يتضرعون إليه ويرجون منه أن ينزل فيهم حيث العدد والعدة والمنعة والثروة، فكان ﷺ يتلطف بهم شاكراً، ويدعو لهم، ويقول خيراً، ويطلب إليهم أن يَدَعوا الناقة تواصل سيرها، فإنها مأمورة، ومسيَّرة بإذن الله وأمره، وزمامها بيده ﷺ، لا يثنيها عن اتجاهها ولا يكفها. وواصلت القصواء سيرها ورسول الله ﷺ عليها، يحف به جموع أصحابه من المهاجرين والأنصار، حتى بلغت فناء أبي أيوب ـ خالد بن زيد الأنصاري النجاري ـ في محلّة بني مالك بن النجار، فبركت هناك، وتلحلحت، وألقت بجرانها، ورزمت ولزمت مكانها، فلم تنهض منه، وكان موضع بروكها وما حوله مربداً مملوكاً لغلامين يتيمين في حِجْر أبي أمامة أسعد بن زرارة، نقيب بني النجار، الذي اتخذ في ناحية من المربد مسجداً يصلي فيه بأصحابه، ويجمِّع بمن حضره من المسلمين الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ، فلما قدم رسول الله ﷺ، كان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم ـ كما في حديث أبي التيّاح عن أنس بن مالك عند البيهقي.

مكان المسجد قبل البناء وشراؤه من مال أبي بكر

ثم أمر ﷺ بالمسجد، فأرسل إلى بني النجار، فجاؤوا فقال لهم ﷺ: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم» ـ أي مربدكم الذي كان حائطاً وبستاناً عامراً ـ فقال بنو النجار: لا، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، وهم يريدون أن يتحملوا ثمنه للغلامين سهل وسهيل ابني عمرو من أموالهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله بغير ثمن.

وقد حكى ابن القيم عن الزهري أن النبي ﷺ ساوم الغلامين بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى ﷺ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير أدّاها من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري أن النبي ﷺ دعا الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً.

وإطلاق وصف اليتم على الغلامين وقت مساومتهما وبيعهما كان باعتبار ما كان قبل ذلك وقبل بلوغهما، وحين تم بيعهما كانا بالغين، فصحّ بيعهما، ويكون ذكر بني النجار في المساومة، لحضورهم المساومة مع الغلامين، ثم بيعهما، وهذا التأويل أليق برواية الصحيح من أن المساومة والبيع وقعا من الغلامين، أما إذا كان البيع قد وقع ممن له حق التصرف في أموالهما بالإصلاح والإنماء والعدل، فتكون مساومة النبي ﷺ لهما وإسناد البيع إليهما لحضورهما مجلس المساومة والبيع، ويكونان قد أرادا إرضاء النبي ﷺ، فقال: بل نهبه إليك يا رسول الله، فلما أبى ﷺ قبوله بغير ثمن تمت المساومة والبيع مع وصيهما الذي كانا في حَجره، وأسندت إليهما تطييباً لخاطرهما.

وعند ابن إسحق أن الغلامين كانا في حجر معاذ بن عفراء، فلما سأل رسول الله ﷺ عن المربد لمن هو؟ قال معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان في حجري ووصايتي، وسأرضيهما عنه فاتخذه مسجداً، وما في البخاري من أن الغلامين كانا في حجر أسعد ابن زرارة هو الثَّبْتُ المعوّل عليه لصحته، ولما روي أن أسعد بن زرارة عوض الغلامين عن المربد نخلاً في بني بياضة، وعند الزبير بن بكار أن أبا أيوب أرضى الغلامين عن ثمن مربدهما وليس هذا اختلافاً، ولكنه تنافس في الخير، لإرضاء رسول الله ﷺ وتحقيق رغبته الكريمة في أن يبني للدعوة وأهلها المسلمين مسجداً عاماً جامعاً، يجمع أفراد جماعات المجتمع المسلم الجديد توحيداً لصفهم، وتوطيداً لدعائم الأخوة بينهم، ولكن الثابت الصحيح أن رسول الله ﷺ أبى أن يأخذ المربد هبة، لا من الغلامين، ولا ممن كانا في

وصايته وحجره، واشتراه ودفع ثمنه من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وعند الشيخين من حديث أنس بن مالك: أنه كان في موضع المسجد نخل وخِرَب، ومقابر للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالعظام فغُيِّبت، وبالخِرَب فسويت، وبالنخل فقطعت.

وصف المربد الذي صار أعظم مسجد في الدنيا

وقال ابن سعد في الطبقات: وكان في المربد ماء مسجل ـ أي نزيز تقذف به الأرض ـ فسيروه حتى ذهب. ولما تم إصلاح الأرض وتسويتها أمر ﷺ باتخاذ اللبن ـ أي الطوب النيىء ـ فاتُّخذ، ثم شرع في بناء المسجد، وعمل فيه ﷺ بنفسه الشريفة، كما جاء في حديث عائشة عند البخاري أنه ﷺ كان ينقل اللبن معهم في بنائه، ليرغِّب المسلمين في هذا العمل الصالح، ويشجعهم، وينشطهم، فنهض في العمل المهاجرون والأنصار بهمة وعزيمة وإخلاص ودأب، وكانوا ينشدون الشعر وهم يعملون، ليبعثوا في أنفسهم النشاط، وليذهبوا عنها ما عسى أن يعتريها من فتور واسترخاء، وكان النبي ﷺ يشاركهم الإنشاد وهم يقولون من شعر عبدالله بن رواحة:

هـذا الحمالُ، لا حمال خيبر　　هـذا أبـرّ ربـنـا وأطـهـر

نهوض الصحابة في بناء المسجد والنبي ﷺ يشاركهم العمل

ثم يتحولون إلى لون آخر من شعره أيضاً إذهاباً للسأم، كما ذكره ابن بطَّال في شرحه للبخاري، ونقله ابن حجر في الفتح وأقره:

اللّهم إن الأجـر أجـرُ الآخـرة　　فـارحـم الأنصـار والمـهـاجـره

ونسب بعضهم هذا الرجز إلى امرأة من الأنصار، وقد اختلفت عبارات الرواة في بعض ألفاظه، فعند الشيخين من حديث أنس جاء:

اللهم لا خـير إلا خـير الآخـرة　　فـانصـر الأنصـار والمـهـاجـره

وقال ابن سعد في الطبقات: وكانوا يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم وهو يقول:

اللهم لا خـير إلا خـير الآخـرة　　فـانصـر الأنصـار والمـهـاجـره

كما جاء في رواية أنس عند البخاري ومسلم، وقد ذكر ابن كثير في (البداية والنهاية) هذا الرجز فقال: وجعل رسول الله ﷺ يقول، وهو ينقل معهم التراب:

هــذا الحمــالُ، لا حمــال خيبــر هــذا أبــر ربــنــا وأطــهــر

ويقول ﷺ:

لاهُــمَّ إن الأجر أجر الآخـره فـارحـم الأنصـار والمـهـاجـره

تحقيق إنشاد الشعر منه ﷺ وهو يعمل مع الصحابة

ثم ذكره مرة أخرى في حديث أنس الذي جاء فيه: فكان فيه ـ أي المربد ـ ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خِرَب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبـور المشركين فنبشت، وبالخِرَب فسُوِّيت، وبالنخل فقطع، قال أنس: فصفُّوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر، وهم يرتجزون، ورسول الله معهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره فـانصـر الأنصـار والمـهـاجـره

ثم قال ابن كثير: وقد رواه البخاري في مواضع أخر، ومسلم من حديث أبي عبد الصمد، وعبد الوارث بن سعيد، وقد ذكر الزرقاني رواية الشيخين عن أنس، وليس فيها لفظ (إنه) في قول الرجز: اللهم إنه.

وفي طبقات ابن سعد: وبنىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل ـ ﷺ ـ ينقل معهم الحجارة بنفسه، ويقول: اللهم لا عيش إلا عيش الآخره. فاغفر للأنصار والمهاجره.

وقد قدمنا أن ابن كثير ذكر أن النبي ﷺ كان ينقل معهم التراب، ويقول في الرجز الثاني: لاهُــمَّ إن الأجر أجر الآخرة.

وهي رواية زعم الداودي في شرح البخاري أن ابن رواحة قالها هكذا (لاهُمَّ)، فأتى به بعض الرواة على المعنى أي فقال: (اللهم)، وإنما يتزن هكذا ـ أي (لا همّ) ـ وقد رد الدماميني زعم الداودي بأنه توهيم للرواة بلا داعية

لاحتمال أن الشاعر قاله بألف ولام على جهة الخزم، وهو من عيوب الشعر، لكنه لا ينفي أن يعد ما وقع فيه شعراً، وهذا رد كما يرى غير قوي، ويكفي في ضعفه أنه قائم على الاحتمال.

وقال ابن إسحق: وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون: لا عيش إلا عيش الآخره... اللهم ارحم الأنصار والمهاجره. قال عبد الملك ابن هشام: هذا كلام وليس برجز، ثم ذكر قول ابن إسحق: فيقول رسول الله ﷺ:

لا عـيش إلا عـيش الآخـره، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار.

ويظهر أن ابن إسحق أراد من رواية هذا الشعر بصورة غيّرته عن شعريته إلى كلام لا يوصف بالشعر، أن يدفع ما استُشكل به إنشاد النبي ﷺ هذا الرجز مع أصحابه وهم يعملون في البناء على وزنه الشعري من معارضته لقول الله تعالى في نَضْحه عن رسول الله ﷺ من قول أعدائه: إنه شاعر، أتى بشعر، وليس برسول أتى بكتاب هداية: وهذا ـ إذا صحّ أنه أراده ابن إسحق ـ مردود بما يأتي:

قال ابن شهاب الزهري: ولم يبلغنا أنه ﷺ تمثل بشعر تام غير هذا البيت، وهذا صريح في استجازة الزهري أن النبي ﷺ يتمثل ببيت من الشعر كامل الوزن، ولا يكون في ذلك معارضة لنفي الشعر عنه، وقد ناقش ابن حجر كلام الزهري، فقال: ولا اعتراض عليه ـ أي الزهري ـ ولو ثبت أنه ﷺ أنشد غير ما نقله، لأنه نفى أن يكون بلغه، ولم يطلق النفي، أي أن الزهري اعتمد في نفيه تمثل النبي ﷺ بغير هذا البيت على ما بلغه، ولو ثبت أن النبي ﷺ تمثل بغير هذا الشعر على استقامة وزنه ولم يبلغ الزهري فلا اعتراض بذلك على الزهري، لأنه لم يطلق النفي، أي لم يقل، ولم يتمثل النبي ﷺ بشعر تام غير هذا البيت، ونفيُ أن يكون قد بلغ الزهري أن النبي ﷺ تمثل ببيت تام من الشعر غير هذا البيت لا ينفي وقوع أن يكون النبي ﷺ قد تمثّل ببيت أو أبيات تامة الوزن، إذ لا تلازم بين نفي البلاغ ونفي الوقوع.

لا تعارض بين إنشاد النبي ﷺ شعراً موزوناً وبين نفي الشعر عنه

وقد استشكل قول الزهري: تمثل - أي النبي ﷺ - بشعر تام بقوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ وهذا استشكال ضعيف جداً لأن إنشاد بيت من شعر شاعر على الوجه الذي قاله الشاعر من تمام الوزن لا يدخل تحت المنفي في الآية الكريمة، لأن المنفي بها هو إنشاء الشعر لا إنشاده والتمثل به، وفي ظل هذا الاستشكال الواهي ذهب ابن إسحق ومن قال بقوله إلى أن النبي ﷺ كان يقول: اللهم ارحم المهاجرين والأنصار، ليخرجه عن وزن الشعر، فيصير كلاماً لا شعراً موزوناً، وهذا قصور في فهم معاني القرآن ومراميه، لأن الآية إنما جاءت لتنفي أن يكون النبي ﷺ شاعراً جاء بشعر أنشأه كما ينشىء الشعراء قصائدهم ومقطوعاتهم، وهل إنشاد بيت من الشعر والتمثل به يجعل من المنشد والمتمثل شاعراً، هذا مالا يتوهمه من له أدنى إلمام ومعرفة بالشعر وقوانينه، والأدب ومنازعه وفنونه.

ومن هذا القصور ما زعمه الكرماني من أن النبي ﷺ كان يقف على الآخرة والمهاجرة بالتاء متحركة، ليخرجه عن الوزن، قال ابن حجر يرد ما زعمه الكرماني: لم يذكر مستنده، وكلام الزهري يرده، بل فيه - أي في زعم الكرماني - الوقف على متحرك، وليس عربياً، فكيف ينسب إلى سيد الفصحاء؟.

الإشارة إلى الخلافة الراشدة في وضع أساس المسجد الأعظم

وفي دلائل البيهقي عن الحسن: لما بنى ﷺ المسجد أعانه أصحابه، وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبَّر صدره ﷺ، وفي حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ عند البيهقي، وحديث عائشة عند أبي يعلى برجال الصحيح أنه ﷺ لما ابتدأ في وضع أساس مسجده وضع حجراً، ثم قال: «ليضع أبو بكر حجره إلى جنب حجري، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر، ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر، ثم ليضع علي». فسئل ﷺ عن ذلك، فقال: «هؤلاء الخلفاء من بعدي» هكذا رواه الزرقاني في شرح المواهب وافياً.

وقد نقل ابن كثير عن البيهقي حديث سفينة بنحو مقارب لسياق الزرقاني، ولم يذكر فيه علياً رضي الله عنه، فقال: جاء أبو بكر بحجر

فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه، فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء ولاة الأمر من بعدي» وهو كما يُرى، لم يُذْكر فيه عليّ. قال ابن كثير: ثم رواه البيهقي من حديث يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني، عن حشرج عن سعيد، عن سفينة بمثل رواية أبي يعلى، غير أنه لم يذكر فيه علياً رضي الله عنه.

تحقيق روايات أحاديث الخلافة

وقد علَّق ابن كثير على سياقات البيهقي لحديث سفينة بطريقيه، فقال: وهذا الحديث بهذا السياق غريب جداً، والمعروف ما رواه الإمام أحمد عن أبي النضر، عن حشرج الأشجعي، وعن بهز، وزيد بن الحباب، وعبد الصمد وحماد بن سلمة، كلاهما عن سعيد بن جمهان، عن سفينة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون عاماً، ثم يكون من بعد ذلك الملك» ثم قال سفينة: أمسك، خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة، وخلافة علي ست سنين.

ثم قال ابن كثير: ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طريق سعيد ابن جمهان، وقال الترمذي: حسن، لا نعرفه إلا من حديثه، ولفظه «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً».

قلت: وأخرجه مسلم في باب الإمارة، ولا ندري لماذا لم يذكره ابن كثير وهو أرفع درجة ممن ذكرهم.

وقد استهدف ابن كثير ـ كما يظهر ـ من سياقه رواية أحمد، والتنبيه على روايات أبي داود، والترمذي، والنسائي وذكر لفظ الترمذي في مدة الخلافة الراشدة، وما يعقبها من ملك عضوض ردّاً للروايات التي لم يذكر فيها علي رضي الله عنه، وهي حرية بالرد، ولا ندري لماذا لم يتعرض ابن كثير لحديث عائشة عند أبي يعلى، وهو ـ كما قال الزرقاني ـ برجال الصحيح، وفيه ذكر علي بعد عثمان رضي الله عنهما، وهو أقوى في الرد من حديث سفينة عند أحمد، لاحتمال أن يكونا حديثين، ولا ينفي الاحتمال أن الذي روى عن سفينة في جميع الطرق هو سعيد بن جمهان، لاحتمال أن حديثهما عن سفينة.

وأخرج الإمام أحمد عن طَلْق بن علي اليمامي الحنفي، قال بنيت

المسجد مع رسول الله ﷺ، فكان يقول: «قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسيساً» وأخرج الإمام أحمد عن طَلْق أيضاً، قال: جئت إلى النبي ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، وكأنه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة، فخلطت الطين، فكأنه أعجبه، فقال: «دعوا الحنفي والطين فإنه أضبطكم للطين» وأخرج ابن حبان عن طَلْق، فقال: فقلت: يا رسول الله أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به».

إعجاب النبي ﷺ بعمل طلق الحنفي في بناء المسجد

وفي البخاري عن أبي سعيد أن المسلمين كانوا يحملون لبنة، لبنة، وكان عمّار بن ياسر ينقل لبنتين، وفي جامع معمر: أن عماراً كان يحمل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ، أي حين يكون النبي ﷺ مشغولاً عنهم من الأمر بما يختص بالدعوة، أو بمصالح المسلمين، وإلا فهو ﷺ كان يعمل معهم في حمل اللبن أو الحجارة أو التراب، ما لم يشغله عن المشاركة لأصحابه شاغل أهم منها، وفي رواية لأبي بكر الاسماعيلي، وأبي نعيم أن النبي ﷺ لما رأى عماراً يحمل لبنتين وأصحابه يحملون لبنة، لبنة، قال له: «يا عمار ألا تحمل كما يحمل أصحابك» قال عمار: إني أريد من الله الأجر، فقال له عليه الصلاة والسلام بعد مسح ظهره، ونفض التراب عنه: «للناس أجر، ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن، وتقتلك الفئة الباغية».

تميز اجتهاد عمار ابن ياسر في بناء المسجد الأعظم

وفي مواهب القسطلاني أن الزين المراغي قال في كتاب (تحقيق النصرة) أن النبي ﷺ وضع رداءه فوضع الناس أرديتهم، وهم يعملون، ويقولون. قال الزرقاني: والذي رواه الزبير بن بكار عن مجمع عن أم سلمة، قال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... ذاك إذا لَلْعمل المضلل

وآخرون يقولون:

لا يستوي من يعمر المساجدا ... يدأب فيها قائماً وقاعداً
ومن يُرى عن التراب حائداً

وفي رواية الزبير بن بكار أن الذي قال هذا الرجز علي بن أبي

طالب، قال ابن هشام: سألت غير واحد من علماء الشعر عن هذا الرجز فقالوا: بلغنا أن علياً ارتجز به فلا يُدرى أهو قائله أم غيره، وإنما قال ذلك مباسطة ومطايبة، كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل وليس ذلك طعنا في أحد.

وذكر البيهقي عن الحسن قال: لما بنى ﷺ المسجد أعانه أصحابه، وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبرَّ صدره، وكان عثمان بن مظعون رجلاً (متنطعاً) ـ كلمة جافية ما نظن أن الحسن في فضله وسمو أدبه يقولها، وإن كان الذين رووا القصة، فسروا هذه الكلمة بقولهم: متغالياً، متأنقاً في التنظف، ولكن هذا التفسير لا ينفي جفوة الكلمة بالنسبة للسُّبَّق من أصحاب رسول الله ﷺ، ولو أن التعبير عنها كان بما فسرت به لكان أجمل ـ وكان عثمان بن مظعون ـ كما قال الرواة ـ يحمل اللبنة فيجافي بها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كمّه ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نفضه، فنظر إليه علي بن أبي طالب، فأنشد يقول:

تحقيق حول رواية قصة بين عظيمين من السابقين

لا يستوي من يعمر المساجدا ... إلى تمام الرجز المتقدم

فسمعها عمار بن ياسر، فجعل يرتجز بها، ولا يدري من يعني بها، فمر بعثمان بن مظعون فقال عثمان له: يا ابن سمية لأعرفن بمن تعرض، ومعه حديدة، فقال: لتكفن أو لأعترضن بها وجهك، فسمعه النبي ﷺ فغضب، ثم قالوا لعمار: إنه ـ أي النبي ﷺ ـ غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال عمار: أنا أرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله، ما لي ولأصحابك؟ قال ﷺ: «ما لك ولهم؟» قال عمار: يريدون قتلي، يحملون لبنة، لبنة، ويحملون عليَّ لبنتين، فأخذ رسول الله ﷺ بيده وطاف به المسجد وجعل يمسح وفرته، ويقول: «يا ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية».

وهذه القصة ذكرها ابن إسحق، وتبعه فيها البيهقي، وساقها مرسلة عن الحسن البصري، ومراسيل الحسن قيل فيها: إنها ريح، أي لا اعتداد بها لأنها لا تثبت للنظر المحصن، والتمحيص الناقد، وقد قيل في الحسن أنه يروي عن كل أحد.

وهذا الرجز الذي قامت القصة الواهية على ركائزه تردد أهل العلم بالشعر ـ كما يقول ابن هشام ـ في كون علي رضي الله عنه هو قائله ومنشؤه، أو هو مما تمثل به من شعر غيره، حين نظر إلى عثمان بن مظعون ـ كما يقول مرسل الحسن ـ ينفض ثوبه من التراب تنظفاً وتجملاً.

ومهما يكن فإن مرسل الحسن يوحي بأن علياً رضي الله عنه قصد التعريض بعثمان بن مظعون، وأن عمّاراً سمعه من علي فارتجز به، وإن كان لا يدري عمار من عنى علي بهذا الرجز، فلما أكثر عمّار من إنشاد هذا الشعر ظن ابن مظعون أن عماراً يقصده معرضاً به، فغضب لنفسه، وتهدد عماراً بما زعمه مرسل الحسن عند البيهقي، وسمع النبي ﷺ تهديد ابن مظعون عماراً فغضب ﷺ لعمار، وقال ـ كما يقول ابن إسحق ـ : «ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عمّاراً جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا أُبلغ ذلك بالرجل، فلم يستبق فاجتنبوه».

وفي رواية مرسل الحسن أن النبي ﷺ أخذ بيد عمار، وطاف به المسجد وجعل يمسح وفرته ويقول: «يا ابن سمية؟ ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية».

ورواية ابن إسحق تحمل في طياتها قرائن ضعفها، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يعتبر تهديد ابن مظعون عماراً ـ بما زعمته الرواية ـ دعوة إلى النار، ولا يمكن أن يقول ﷺ عن عثمان بن مظعون من أجل كلمة دفع بها عن نفسه في زعم الرواية، أنه يدعو عماراً إلى النار.

ومما يدل على وهن هذه القصة وضعفها في تفاصيلها وتعاريجها التي ساقها بها ابن إسحق عن رواته والبيهقي في مرسل الحسن أن ابن سعد في الطبقات لم يذكرها إطلاقاً، ولم يذكر هذا الرجز الذي قامت على دعائمه.

وأن ابـن كثير لم يعرج عليها في (بدايته) ولم يذكر رجزها مع أنه أطنب في إيراد وتحقيق الروايات التي ذكرت قول النبي ﷺ لعمار تقتلك الفئة الباغية، ومع أنه ساق كلام ابن إسحق، وفيه الرجز المذكوروقصته،

لكنه رحمه الله في فضله وعلمه وورعه لم يستجز ذكر هذا الرجز وقصته الضعيفة، كما لم يستجز ابن هشام تسمية عثمان بن مظعون، واكتفى بقوله: فلما أكثر عمّار من إنشاد هذا الرجز ظن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه إنما يعرِّض به، وقد غمز ابن هشام ابن إسحق، فقال: وقد سمّى ابن إسحق الرجل.

قال السهيلي في (روضه): وذكر ابن إسحاق قول الرجل لعمار: قد سمعت ما تقول يا ابن سمية.

ثم قال السهيلي: قال ابن هشام: وقد سمّى ابن إسحق الرجل، وكره ابن هشام أن يسميه كي لا يُذكر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بمكروه، فلا ينبغي إذاً البحث على اسمه.

وهذا لون من الأدب النفسي والتعبير الرفيع الذي يجب أن يحاط به الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ إذا ثبت وقوع بعض الهنات من بعضهم استجابة لدواعي البشرية في فورة غضب، تكريماً لهم، وإعظاماً لفضلهم على الحياة، فما بالك بما تذكره قصص واهية واهنة؟.

وممن أهملها ولم يذكر رجزها ولا قصتها ابن القيم في (الهدي).

ومما يدل على وهن هذه القصة إلى جانب ما تقدم ما اشتملت عليه من ألفاظ نابية جافية لم تعهد من الصحابة في أحاديثهم ومحاوراتهم، ولو استغضب بعضهم بعضاً إلا قليلاً مما يصدر عن غير السابقين الأولين.

وهذه الرواية المرسلة تصف الصحابي الجليل النبيل عثمان بن مظعون بأنه رجل (متنطِّع) وهي كلمة جافية نابية لا يصف بها مهذب مهذباً، ولو أن رواية القصة كانت صحيحة لأحاط بها أدب التعبير، ولخرجت إلى الناس خالية عن مثل هذه الألفاظ الجافية، ولأمكن وصف رجل في مثل سابقة عثمان بن مظعون وفضله ونبله وشجاعته بغير هذه الكلمة التي تنادي على قائلها بأنه لا يبالي من أين أخذ، ولا إلى أين يسير في تعبيره، والحسن البصري أحد سادة التابعين في فضله وورعه وخوفه من الله تعالى يبعد جداً

أن تصدر منه هذه الكلمة في وصف رجل من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ أو يرويها عن غيره.

فكيف يسوغ إذا لمن يرجو لله وقاراً في أصحاب نبيه ﷺ الذين آزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وصبروا على شدائد المحن، ولأواء البلاء، ولا سيما الرعيل الأول فيهم - وعثمان بن مظعون من سابقيهم - أن يصف أحدهم بألفاظ سوقية جافية وهم الأعلون في كمال النعوت والصفات؟.

وأي منقصة يعيّر بها هذا الصحابي المتنظف المتجمل - لو صحت هذه القصة - في أن يجافي باللبنة وهو يحملها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كمه، وهو دائب مع إخوانه في العمل لم يقصر عنهم في شيء.

أما سمية التي كنّى ببنوتها ابن مظعون عماراً رضي الله عنهما - كما تقول الرواية - فهي أفضل أم لأفضل بيت في الإسلام، وهي أول شهيدة في الإسلام، فالكنية بها مفخرة المفاخر، ومنقبة الشرف والمكارم، وكان رسول الله ﷺ يكني بها عماراً، ويناديه يا ابن سمية، تنويهاً بفضلها وسابقتها.

وهل عرف عن رسول الله ﷺ أنه يغضب لأمر غير شرعي؟ وإذا غضب ﷺ لأمر استوجب الغضب شرعاً، فهل عرف عنه ﷺ السكوت على ذلك، دون أن يفهم من أغضبه خطأه ويرشده إلى الحق، ويهديه إلى الصواب، هذا ما لم يعرف قط في أخلاق رسول الله ﷺ في تربيته أصحابه.

* * *

قال ابن كثير بعد ذكره رجز: لا عيش إلا عيش الآخره: فيقول رسول الله ﷺ:

لا عيش إلا عيش الآخره ... اللهم ارحم المهاجرين والأنصار

فدخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله؟ قتلوني، يحملون علي ما لا يحملون، قالت أم سلمة رضي الله عنها: فرأيت

رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده ـ وكان رجلاً جعداً ـ وهو يقول: «ويح ابن سمية؟؟ ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية».

وليتأمل الناظر في تلطف النبي ﷺ بعمار، وهو ينفض وفرته بيده الشريفة، أليس ذلك من أرفع درجات التنظيف والتجميل؟ غير أن هذا أسمى وأجل مما فعل ابن مظعون بنفسه، وأخذ عليه ـ في زعم مرسل البيهقي ـ لأن هذا فعل رسول الله ﷺ :بيده الشريفة بمن يستصفي من أعلياء أصحابه، وهم أحباؤه وأصفياؤه والمقّربون إلى قلبه الأطهر الرحيم.

ثم علق ابن كثير على حديث أم سلمة فقال: هذا منقطع من هذا الوجه، بل معضل بين محمد بن إسحق وبين أم سلمة، وقد وصله مسلم في صحيحه من حديث شعبة عن خالد الحذّاء، عن سعيد والحسن ابني أبي الحسن البصري عن أمهما خَيْرة، مولاة أم سلمة عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ : «تقتل عماراً الفئة الباغية» ورواه مسلم من حديث ابن علية، عن ابن عون، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة، قالت إن رسول الله ﷺ قال لعمار وهو ينقل الحجارة: «**ويح لك يا ابن سمية؟تقتلك الفئة الباغية**» وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الحسن، يحدث عن أمه، عن أم سلمة قالت: لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد منهم لبنة، لبنة، وعمار يحمل لبنتين، لبنة عنه، ولبنة عن رسول الله ﷺ، فمسح النبي ﷺ ظهره وقال: «ابن سمية للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية».

قال ابن كثير: وهذا إسناد على شرط الشيخين، وليتأمل النظّار بعين الإنصاف في هذه الروايات التي ساقها ابن كثير وأكثرها عن الحسن البصري صاحب مرسل البيهقي ليجدها خالية عن الرجز وقصته، وهي روايات أثبت سنداً من مرسل الحسن عن البيهقي وقد عرفت أن بعضها على شرط الشيخين، وكل ذلك مما يضعف قصة مرسل الحسن عند البيهقي، وينفي أن تكون آفته من الحسن، لأن روايات ابن كثير الصحيحة أكثرها عن الحسن

من طريق أمه خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفي رواية مسلم عن أبي سعيد أن قول النبي ﷺ لعمار: «وتقتله الفئة الباغية» كان في حفر الخندق، وهذه الرواية من أقوى ما يدل على وهْي مرسل الحسن عند البيهقي الذي ذكرت فيه القصة ورجزها، لأنها من إخراج الصحيح، فهي أرفع سنداً من جميع ما روي في قتل الفئة الباغية عماراً.

وقد استشكل البيهقي رواية مسلم، وحكم فيها بالوهم، فقال: ويشبه أن يكون قوله في حفر الخندق وهماً. وهذا عجيب جداً من الإمام أبي بكر البيهقي في فضله، وسعة علمه، ودرايته بعلوم السنة والحديث!! ثم قال البيهقي: أو أنه ـ أي رسول الله ﷺ ـ قال ذلك في بناء المسجد، وفي حفر الخندق، ولم يبين البيهقي وجه استشكاله حتى يحتاج إلى ادِّعاء الوهم في رواية الصحيح، لردها وتقديم غيرها عليها، إذ لا يلزم أن يكون هذا الإخبار المعجز لعمار «تقتلك الفئة الباغية» قد قيل في بناء المسجد، وليس هنا ما يمنع أن يكون قد قيل في حفر الخندق، كما ثبت في رواية مسلم، وحيث جاء النص بأصح سند أنها قيلت في حفر الخندق وجب المصير إليه، وقد جوّز البيهقي أنها قيلت مرتين، مرة في بناء المسجد، ومرة في حفر الخندق، وهذا تجويز ضعيف، لا تقتضيه ضرورة.

فالقصة ورجزها ضعيفة الثبوت، واهية الإسناد، ما كان ينبغي أن يُطنطن بها، وهي تذكر صاحبين جليلين من طلائع السابقين الأولين، الذين أدّبهم الله بأدب النبوة المطهَّرة وربَّاهم في حضنها بما لا يليق بمكانتهما.

ولولا خشية أن تكون هذه القصة مدعاة إلى تناول الصحابة رضي الله عنهم بما لا ينبغي من رعاية الأدب، وأدب الرعاية ممن لا يعرف للصحابة رضي الله عنهم قدرهم، ويقدِّر لهم مكانتهم، ويعرف لهم منتهم في عنق كل مسلم، لأنهم هم الذين هدانا الله بهم إلى الإسلام والإيمان، وهم الذين نقلوا إلينا الهدى والنور والعلم والمعرفة والأدب، لأضربنا عنها صفحاً تنزيهاً لكتابنا في شرف موضوعه، وتنزهاً عن نشرها فيه.

ولا يغترن أحد بما جاء في بعض روايات الأحداث من ألفاظ متحاملة لا تتفق وما عرف عن سمت الصحابة وأخلاقهم وآدابهم في القول والعمل، لأن هذه الروايات ـ وإن صحَّ سند بعضها ـ فهي متزيدة بمداد الحماسة والاسترسال من بعض الرواة، وقد نبه العلماء على ذلك، وأبى كثير من حذّاق الرواة المحدِّثين ذوي الإخلاص والورع أن يذكروا ما جاء في ألفاظها من جفوة التعبير.

ولو أدرك التوفيق الرواة الذين يتساهلون في نقل كل ما يسمعون من ألفاظ نابية فتمثلوا قدر الصحابة ومنزلتهم من الإسلام وتاريخه وهدايته وتبليغ دعوته لاقتصروا على لب المعنى من الحقائق التي تقصد إلى تحقيقها الأحاديث والآثار مما ثبت لهم طريقه وصح سنده.

* * *

السنة في بناء المساجد القصد وعدم الغلو في التحسين والزخرفة

وأتم الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أمته نعمته العظمى بإتمام بناء أفضل مسجد، بناه أفضل نبي مرسل بأفضل دين، وكان بناء هذا المسجد الأطهر بناء متعبد تكنفه البساطة، وتسوده السماحة الفطرية، ويحوطه النور من أقطاره، وتحف به الهداية من جوانبه، وجعل ذرعه مربعاً مائة ذراع طولاً، في مائة ذراع عرضاً، أو أقل قليلاً، وجعل سقفه جريد النخل المطيَّن، وكانت قبلته إلى بيت المقدس، وهي من جذوع النخل، وكذلك عمده التي يعتمد عليها سقفه.

وفي (روض) السهيلي: وجعلت قبلته من اللبن، ويقال: بل من حجارة منضودة، بعضها على بعض، وجعل له ثلاثة أبواب، وأسس بالحجارة داخلة في باطن الأرض، نحو ثلاثة أذرع.

قال ابن بطّال: وهذا يدل على أن السنة في بناء المسجد القصد، وترك الغلو في تحسينه، فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعة بيت المال عنده لم يغيره عما كان عليه، وفي دلائل البيهقي عن عبادة من طريق يعلى ابن شداد بن أوس: أن الأنصار جمعوا مالاً، فأتوا به النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ابن لنا هذا المسجد، وزينه ـ أي جدِّد لنا بناءه وزخرفه ـ إلى متى

نصلِّ تحت هذا الجريد؟ فقال ﷺ: «ما لي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى» وفي مرسل شَهْر بن حَوْشب: لما أراد النبي ﷺ أن يبني المسجد: قال: «ابنوا لي عـريشاً كعريش موسى، ثمامات، وخشبات، وظلة كظلة موسى، والأمر أعجل من ذلك» قيل: وما ظلة موسى؟ قال: «كان إذا قام أصاب رأسه السقف» فلم يزل المسجد كذلـك حتى قبض رسول الله ﷺ.

قال الزرقاني في شرح (المواهب): وذكر في (الأوج) أن قامة موسى وعصاه ووثبته سبعة أذرع، فهو تشبيه تام لأنه جعل ارتفاع المسجد سبعة أذرع، وقد ذكر ابن كثير: أن قامة موسى وعصاه ووثبته عشرة أذرع.

ولا معارضة بين مرسل ابن حوشب وما ثبت في الصحيح من أن جدران المسجد بنيت باللبن، لأن المراد في مرسل ابن حوشب النص على البساطة في بنيان المسجد وعدم التأنق والزخرفة في بنائه، وهذا متحقق في وصف البناء الذي ورد في الصحيح.

وأما ما ورد عند ابن عائذ أنه ﷺ صلَّى في المسجد وهو عريش اثني عشر يوماً، ثم بناه وسقفه، فالمراد به ما كان في المربد قبل أن يبني المسجد النبوي من مصلّى أقامه أسعد بن زرارة كان يصلي فيه بأصحابه ويجمع لهم قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة، ويدل لذلك حديث النوار، أم زيد بن ثابت قالت: أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم النبي ﷺ يصلِّي بالناس الصلوات الخمس، ويجمِّع بهم في مسجد بناه في مربد سهل وسهيل، قالت النوّار: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم صلّى بهم في ذلك المسجد، وبناه هو فهو مسجده، قال الزرقاني فإن صحّ حديث النوار فكأنه ﷺ هدم بناء أسعد وزاد فيه، أو زاد بدون هدم لضيقه عن المسلمين، وهذا التأويل الذي ذهب إليه الزرقاني لا ينـافي ما ثبت في الصحيح عن بناء المسجد النبوي.

وقد ظل المسجد على الحال التي بناه عليها رسول الله ﷺ من البساطة وعدم التزيين والزخرفة حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر الصديق رضي الله

عنه، وحياة عمر، وإن كان قد وسعه عمر وزاد فيه، لكنه بناه على بنيانه في عهده ﷺ وأعاد عمده خشباً.

فلما تولّى عثمان رضي الله عنه زاد فيه زيادة كبيرة وبناه وحسّنه، ففي حديث ابن عمر عند البخاري وأبي داود أن المسجد كان على عهده ﷺ مبنياً باللبن وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر، وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ، وأعاد عمده خشباً، ثم غيّره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصَّة، وجعل عمده حجارة منقوشة وسقفه بالساج، وحسّنه بما لا يقتضي الزخرفة، ومع ذلك أنكر عليه بعض الصحابة، ففي صحيح مسلم أن عثمان رضي الله عنه أراد بناء المسجد، فكره الناس ذلك، وأحبوا أن يدعه على هيئته.

نهج النبي ﷺ في بناء بيوته كنهجه في بناء مسجده قصداً وبساطة

ثم بنى رسول الله ﷺ بيتين إلى جنب المسجد، بيتاً لزوجه أم المؤمنين سَوْدة بنت زمعة رضي الله عنها وبيتاً لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها استعداداً للدخول بها، لأنه ﷺ كان قد عقد عليها بمكة وسنُها ست أو سبع سنين، ودخل بها في المدينة وسنها تسع سنوات، قال ابن شهاب الزهري - كما رواه أبو عمر في الاستيعاب - إن النبي ﷺ تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما في شوال سنة عشر من النبوة، قبل الهجرة بثلاث سنين، وعرّس بها في المدينة في شوال على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره إلى المدينة.

وذهب ابن حجر إلى أنه ﷺ دخل بها في شوال من السنة الأولى للهجرة، وذكر رواية ابن سعد عن الواقدي إن عائشة رضي الله عنها قالت: أعرس بي على رأس ثمانية أشهر.

وكان ما بناه رسول الله ﷺ من البيوت لزوجاته على نهج بناء مسجده في البساطة، مبنية باللبن وسقفها جذوع النخل والجريد، وقد روى السهيلي عن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي.

وقال الواقدي: كان لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله،

فجعل كلما أحدث النبي ﷺ أهلاً نزل له حارثة عن منزل بقدر حجرة حتى صارت منازل حارثة كلها لرسول الله ﷺ.

ولما أمر الوليد بن عبد الملك بهدم بيوت أمهات المؤمنين، وإدخالها في المسجد وكتب بذلك إلى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز فهدمت بكى الناس وحزنوا، وقال سعيد بن المسيب: ليتها تركت ليراها الناس فيزهدوا في التكاثر والتفاخر.

وقال أبو أمامة سهل بن حنيف: ليتها تركت ليرى الناس ما رضي الله لنبيه ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده!!

* * *

مقاصد بناء المسجد الأعظم في دار الهجرة وحكمة السبق فيه

قدّمنا أن النبي ﷺ مكث بمكة بعد بعثه رسولاً نبياً ثلاثة عشر عاماً، مرّت كلها عليه وعلى طلائع الإيمان برسالته في كفاح مرير، ونضال صبور، وهو ﷺ يؤسس عقيدة التوحيد، وإخلاص التعبد لله وحده، ويقيم صرحها الشامخ، متوحدة بالدعوة إليها، لا يخلطها بغيرها من شرائع الحق والهدى، وبراهينها تتوالى، وأدلتها تتتابع، وحججها تتوارد، وآياتها تتنـزل، تثبيتاً لقواعدها، وتشييداً لأصولها، وتوطيداً لدعائمها، وترسيخاً لأركانها، وتركيزاً لمساندها، لأنها هي لب لباب دعوته ودعوة جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين.

ولكن ذلك لم يلق من أحلاس الوثنية البليدة، وأراذل ملأ الشرك والجحود إلا عناداً عتيّاً، وفجوراً في الكفر لم ينالوا من ورائه إلا خذلاناً قهر جبريتهم المستكبرة، وكسر شوكتهم الظالمة، وخضد شرّتهم المتهاوية، وفلّ عزائمهم المتهافتة، وغمز قناتهم المتآكلة، وأمال رؤوسهم على صدورهم ومناكبهم، وأرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم، وهدّ أركان غرورهم، وطمأن من تعاليهم، وأذل بأوهم، وهتك عنجهيتهم، وحرق أكبادهم، وأورثهم غيظاً أذاب أفئدتهم، وخلع عليهم عاراً لم يمحه إلا ذرية مِنْ بعدهم، نبتت بذورها منهم في رياض الإيمان والهدى والنور، فاستنارت قلوبهم، وأشرقت عقولهم، فعلموا أن الحق لله وحده، واستشعروا الإيمان بكل ما كفر به آباؤهم، وحملوا بعد ما علموا لواء دعوة الحق خفاقاً في الآفاق مهديين

هادين، داعين إلى الله، مجاهدين، ففتح الله على أيديهم القلوب والعقول، واستنقذوا البشرية من أوحال الشرك، وخبال التظالم الاجتماعي، ونير الجهالة الفكرية، والاستعباد البشري، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[1]. وإذ يقول عز شأنه: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك،فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[2].

ولمّا لم يبق في هؤلاء المشركين من أخابث ملاحدة الوثنية، ومن حولهم ممن يقتدون على آثارهم بصيص من أمل، وكانت الدعوة إلى الله وتوحيده قد بلغت من أرض العرب آفاقاً متباعدة، وتسامع بها الناس في مضارب قبائلهم ومحافل مواسمهم وأسواقهم، وشغلت من تفكيرهم وحياتهم حيزاً يقومون ويقعدون به، وهم ما بين قليل مقبل لا ينكر وكثير منكر وهو مدبر ومتحير أبلس في حمأة الشك، لا يتقدم ولا يتأخر ـ فتح الله لنبيه ﷺ أبواب الفرج، وآتاه زمام النصر، فأذن له أن يهاجر بدعوته إلى جو تتنسم فيه الدعوة نسائم الرجاء والأمل، وأراه دار هجرته، بعد أن جعل له من أهلها جنداً لرسالته وقدّم له بيعتهم على احتضان دعوته بما فيها من عضّ السيوف، وقتل الأبطال، ونهك الأموال، وعداوة الأبيض والأسود، والرضا بموعود الله لهم من جزيل الثواب وعظيم المآل في جنة عرضها السموات والأرض.

وهاجر إليهم ﷺ بعد أن اطمأن على هجرة أصحابه قبله، الذين استقبلهم إخوانهم الأنصار بأصدق الحب وأوفى الوفاء.

ولم يكد رسول الله ﷺ يطأ أرض المدينة المنورة بقدمه الشريفة وينزل رحله في دار أبي أيوب الأنصاري ويتنفس أنفاس الراحة من أعباء سفر الهجرة، ذلك السفر الطويل الشاق ـ حتى بدأ يفكر ويعمل منذ اللحظة الأولى في بناء مسجده الأعظم.

---

(١) سورة محمد آخر آياتها.

(٢) سورة المائدة آية (٥٤).

وكان بروك القصواء ـ وهي مأمورة ـ في مربد سهل وسهيل يتيمي بني النجار، ورسول الله ﷺ على ظهرها مرخٍ زمامها لا يثنيها ولا يكفها، ولا ينهنها ولا يقيمها ولا ينيخها، إيذاناً إلهياً بأن هذا المربد هو المستقر والمستودع، وهو مكان المسجد الأعظم، ومنازل رسول الله ﷺ، وبيوت أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

وبدأ رسول الله ﷺ بالسؤال عن المربد (لمن هو)، فأخبر أنه ليتيمين من بني النجار، في حجر بعضهم، وأرسل إلى بني النجار، فحضروا وفيهم الغلامان سهل وسهيل، فقال ﷺ: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» أي أخبروني بثمنه الذي يرضيكم، فأرادوا أن يعطوه لرسول الله ﷺ هبة بغير ثمن، وهم يرضون الغلامين سهلاً وسهيلاً عن ثمنه، فأبى رسول الله ﷺ أن يأخذه إلا بالثمن، واشتراه، ودفع ثمنه من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ولم يمهل ﷺ في العمل، بل بدأ مع أصحابه في تسوية أرض المربد وقطع ما فيه من النخيل والأشجار، وأعدّها للبناء، وأمر ﷺ بعمل اللبن فعمل، ونقله مع أصحابه، مع نقل الحجارة والتراب، وحفروا أساسه في باطن الأرض، وعيّن ﷺ قبلته إلى بيت المقدس، ونصب فيها جذوع النخل لتكون معالم لها وابتدأ البناء، وهو ﷺ يعمل فيه بنفسه الشريفة كأقوى وأنشط ما يكون العمل، يحمل اللبن، وينقل الحجارة، ويقف بنفسه يشرف على العمل كله، يرشد وينصح، ويوجه ويسدد، يرى خلط الطين للبناء فلا يعجبه عمل عامله، فيخصص له من هو أهله وحاذقه (طَلْق بن علي اليمامي الحنفي) ويقول: «قرِّبوا اليمامي من الطين، فإنه أحسنكم له مسيساً» وفي رواية: «دعُوا الحنفي والطين فإنه أضبطكم للطين» ويسأله طَلْق أن ينقل كما ينقلون، فيقول له: «لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به».

ويشارك ﷺ أصحابه في إنشادهم الأراجيز والأشعار، ويرفع صوته بمقاطعها وهزجها، شحذاً لهممهم، وإذهاب الملالة والسأم عنهم، وتحبيب العمل إلى نفوسهم، وترغيباً لهم في أفضل الأعمال، وأشرف منازل الخير

والهدى والنور، وتشجيعاً لهم على الدأب ومواصلة العمل في تأسيس وإنجاز ما يجمع كلمتهم، ويؤكد وحدتهم، وتقوية عزائمهم على المضي قدماً في إقامة منابع نشر الدعوة، ولفت أنظارهم إلى ما يجب أن تكون له الصدارة من الأعمال في حياتهم أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، هادية رائدة وقائدة للإنسانية في مستقبلها، وتعويداً لهم على تحمل المشاق، وخوض غمرات الصعاب في سبيل إقامة عظائم الأعمال، لتكون هذه العظائم هداياهم إلى الحياة، بعد أن أراهم ﷺ ذلك كله رأي أعينهم في مشاركتهم جميع ما يتطلب البناء من عمل وجهد.

* * *

لم تكن عناية رسول الله ﷺ الفائقة ببناء مسجده الأعظم منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدمه الشريفة أرض المدينة المنورة، هذه العناية التي بلغ من شأنها في الاهتمام والتقديم على أي عمل من الأعمال التأسيسية في مستقره ودار هجرته، ومأرز رسالته، وموئل دعوته، وعاصمة أمته، وقاعدة جهاده ـ لمجرد أن يكون هذا المسجد الأعظم مصلى، تقام فيه الجماعة والجمعة، أو مجرد متعبد للمؤمنين، يئلُون إليه في تعبداتهم، صلاة أو ذكراً وتسبيحاً، لأن الإسلام في سماحته وسمو مقاصده، وعموم دعوته، ويسر شرائعه وأحكامه لا يعرف التصومع للعبادة؛ لأن الأرض كلها، مشارقها ومغاربها، حاضرها وباديها موئل للصلاة والتعبد لله تعالى بذكره وتقديسه، فالمؤمن يعبد الله تعالى في كل مكان من الأرض في ظل ما جاء به هذا الدين الحنيف من أحكام التعبد وشرائعه.

وقد قال النبي ﷺ فيما خصه الله به من خصائص التكريم والتيسير على أمته: «جعلت لي الأرض مسجداً» وكان ﷺ يصلِّي حيث أدركته الصلاة من أرض الله، وهو ﷺ الأسوة المتبعة لأمته أينما كانوا من أرض الله تعالى، فالمسلم يصلِّي حيث أدركته الصلاة، لا يتقيد في أداء فرائضه من الصلوات وسائر التعبدات بمكان معين، أو ببناء خاص، فهو يصلِّي في مصنعه ومزرعته، ومتجره ومدرسته، وبيته ومسجده، وحيثما نزل في سفره.

المقصد الأول من بناء المسجد الأعظم بالمدينة

وإنما كانت هذه العناية العظمى من النبي ﷺ بالبدء في تأسيس وبناء هذا المسجد الأعظم منذ اللحظة التي ألقت فيها (المأمورة) بجرانها، ورزمت إيذاناً بأن الأمر الإلهي انتهى بها إلى مستقرها، فنزل عنها رسول الله ﷺ وقال: «ها هنا المنزل إن شاء الله» ـ لأن حاجة الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة والسير بها قدماً في طريق هدايتها كانت تقتضي اقتضاء لازماً لا ثنية فيه؛ أن يكون للدعوة مكان عام يتناسب مع عمومها وخلودها، تأرز إليه، ويأوي إليه حملتها في صدرهم وورودهم، يتساوَوْن فيه، لا يملك أحد من الناس فيه شيئاً، ولا يحجر على مؤمن دخوله والتعبد فيه آناء الليل ولحظات النهار، ولا يمنع مؤمن التعلم فيه والتعليم في زواياه وأرجائه ورحابه.

مكان تملكه أمة الإسلام حيثما كان أفرادها وجماعاتها، ويحمي هذه الملكية العامة رسول الله ﷺ ويصونها ما دام بين ظهراني أمته، فإذا فارقها إلى الرفيق الأعلى انتقل واجب هذه الصيانة إلى القائم على أمته من بعده.

ولأن الضرورة في الاستقرار كانت تقتضي اقتضاءً لازماً أن يكون لرسول الله ﷺ مكان عام يتسع له ولأصحابه والقادمين عليه طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته، يتلقى فيه الوحي، وتتنزل عليه فيه آيات الله، فيتلوها على أصحابه في جموعهم التي تفوق حد التواتر القطعي الذي لا يحتمل الريب، ليتفقهوا في حقائقها ومعانيها ويقفوا منه ﷺ على مقاصدها ومراميها، ليبلِّغوها إلى الناس كما سمعوها، لتصير فيما بينهم وبين من بلغته عنهم عملاً يتكيفون به في سلوكهم.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون للمجتمع المسلم الجديد مكان عام يجتمعون فيه إذا دعت الأحداث إلى مشاورات في مهمات الأمور، التي تعتور الدعوة وهي ماضية في سيرها.

المقصد الثاني

والشورى دعامة من دعائم هذا الدين الحنيف، دين الإسلام والتوحيد والسلام سنها رسول الله ﷺ لتكون نهج أمته في حياتها من بعده، ليقيها مغبة الاستبداد الفردي، وأسواء التظالم والبغي، لأن الأمة إذا أقامت حياتها على

التشاور فيما ينوبها سلم لها مستقبلها، واستنارت طريقها للخروج من مزالق الأحداث ومضائق الأزمات.

المقصد الثالث

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون للمجتمع الجديد مكان عام يدرس فيه العلم بأوسع وأعم معانيه، ليشمل العقيدة وبراهينها، ويشمل التعبد وأحكامه، ويشمل نظام الحياة في المعاملات ليقوم الناس فيها بالقسط، ويشمل سياسة الأمة وعلاقاتها مع بعضها أفراداً أو جماعات، أو مع غيرها حكومات وشعوباً، ليواكب هذا المجتمع الحياة في سيرها وأطوارها، حتى لا تتخلف قافلة الإسلام ومجتمعه عن سائر قوافل الحياة.

وهذا المجتمع الإسلامي مكلف أن يأخذ بيده زمام موكب الحياة، يقودها بهدايته التي ترتكز على قوائم العدل والإخاء، وهذا هو منبع خيرية أمة الإسلام التي امتن الله بها على هذا المجتمع المسلم الجديد باعتباره نواة يخرج منها باسقات الخير والنور والهدى في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[1] وهي التي كُلِّفوها في حياتهم ضماناً لتحقيق هذه الخيرية في قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[2].

المقصد الرابع

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد الذي يتسع ويتزايد ويتعاظم كمّاً وكيفاً مكان عام جامع يأوي إليه الغريب الذي أقدمته الرغبة في الهداية، ويأوي إليه الفقير الذي ليس له مـايكنّـه ولا ما يأوي إليه من مسكن، والمسكين الذي لا يجد ما يسد خلّته ممن ليس لهم رغبة في الدنيا والتنافس على حطامها وزخارفها، ولكنهم تبتلوا إلى الله، وانقطعوا لعبادته، وتعلم العلم وتعليمه، من الذين

---

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٤).

قال الله فيهم: ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1].

وقد جعلت لهم في المسجد الأعظم ظُلّة يأوون إليها، وهم ضيوف الإسلام، إذا جاءت للنبي ﷺ صدقة أعطاها لهم خالصة وإذا جاءته هدية نال منها وأعطاهم سائرها، وكان أعيان الصحابة يتنافسون في الإحسان إليهم وإطعامهم، فكان الرجل من ذي الوُجْد يذهب بالرجل والرجلين من هؤلاء المنقطعين إلى الله، وكان سعد بن عبادة يذهب بثمانين منهم كل ليلة يطعمهم ويكرمهم.

وكانوا يقلّون ويكثرون حسب طوارىء الحياة، وهم المعروفون بأهل الصُّفَّة، وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفّة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا الأكسية في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساق ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته.

قال الإمام ابن تيمية كما حكاه عنه ابن حجر في الفتح: جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم قيل: أربعمائة، وقيل: أكثر.

المقصد الخامس والسادس

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع الجديد مكان عام لا يضيق عن إيواء جريح كتائب الله وجنده في معارك الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليكون هذا الجريح قريباً من رسول الله ﷺ ليعوده متى شاء، وينظر في أمره، ويقوم بحاجته، لأنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وكان من هؤلاء الجرحى سعد بن معاذ سيد الأوس، فقد رماه ابن العَرِقة بسهم أصاب أكحله، وذلك في غزوة الخندق، قبيل قريظة، فأمر النبي ﷺ بضرب فسطاط له في المسجد، قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وكان رسول الله ﷺ قد أمر بضرب فسطاط في المسجد لسعد ابن معاذ، فكان يعوده في كل يوم، حتى توفي سنة خمس من الهجرة، بعد

---

(١) سورة الكهف آية (٢٨).

الخندق بشهر، وبعد قريظة بليال، بعد أن حكّمه رسول الله ﷺ فيهم، فحكم فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

المقصد السابع

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان عام يتسع لقادة كتائب الجهاد، وعقد الألوية، وتسمية القادة، وتسيير الجيوش، وعقد رايات الدعاة إلى الله لنشر الهداية وتبليغ الرسالة، وتحطيم الشرك والوثنية، ونشر العدالة الاجتماعية والإخاء والمحبة بين الأفراد والأمم والشعوب، وإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان ينبعث منه بريد الإسلام بالأخبار والإمدادات الروحية والمادية، وتخرج منه رسائل القائد الأعظم إلى قادة الجيوش وأمراء الولايات لتبيين حكم شرعي، أو إخبار بتدبير سياسي أو حربي، أو عقد معاهدة صلح أو هدنة حرب، ويتلقى فيه بريد المجاهدين ورسل القادة ببشائر النصر أو طلب العون والمدد، وتستقبل فيه أموال الغنائم لتقسم بين مستحقيها، ويستقبل فيه وفي رحابه الأسرى ليقضي فيهم رسول الله ﷺ بما أراه الله، ليتأسّى به مِنْ بعده خلفاؤه الراشدون، حتى يكون المجتمع المسلم كله على علم تام بأحوال جيوشه وولاياته وسائر ما يجري في شأنه، ويعرف مدى ما تبلغه الدعوة إلى الله في انتشارها، ومدى استقرارها في القلوب والعقول ليأخذ لكل أمر عدته.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان عام تراقب منه حركات أعداء الإسلام الظاهرين من المشركين واليهود وتجمعاتهم للوثوب عليه، والأخفياء من المنافقين ومرضى القلوب وتبييتاتهم أسوأ المكر وأخبث الكيد لهذا الدين الذي كان غصة في حلاقيمهم، وهؤلاء وأولئك منبثون في الداخل والخارج، لا يألون المسلمين خبالاً وعنتاً، يخونون عهودهم ويغدرون بهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويتحينون لهم الفرص للإيقاع بهم والوثوب عليهم، ليتخذ قادة

المسلمين حذرهم، ويتقوا خياناتهم وغدرهم وأسوأ تدابيرهم، لحماية المجتمع المسلم، ودفع الضرر عنه.

فهذا المسجد الأعظم إنما بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله ﷺ أول ما بدأ من عمل في مستقره ودار هجرته في مطلع مَقْدمه ليكون نموذجاً يحتذى في بساطة المظهر، وعمق وعموم المخبر، ليحقق به أعظم الأهداف، وأعمها بأقل النفقات وأيسر المشقات.

إجمال وتلخيص لمقاصد بناء المسجد الأعظم بالمدينة

فهو قد أنشىء ليكون متعبداً لصلاة المؤمنين وذكرهم لله تعالى، وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم ويقيم فيه صلاته وعباداته، لا يضارّه أحد، ما دام حافظاً لقداسته ومؤدياً حق حرمته.

وهو قد أنشىء ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه والوافدين عليه، طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته، وليكون مهبطاً للوحي وتنزلاته بآيات الله وشرائعه وأحكامه، وعلومه ومعارفه الإلّهية، التي ينبثق منها كل علم نافع، وكل معرفة هادية.

وهو قد أنشىء ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزلية، التي حث القرآن الكريم على النظر فيها، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم وثمرات عقولهم، ومعهداً يؤمه طلاب العلم من كل صوب ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل، وزمناً بعد زمن، ومكاناً عن مكان، فهو البؤرة المشعة بالنور على أرجاء الأرض ورحابها وساحاتها بمن فيها وما فيها ينشر التربية الاستقلالية التي لا تذيب الفرد في أتون المجتمع، ولا تهمل المجتمع وهو صورة من الأفراد الذين عني الإسلام بتربيتهم بمعارفه وعلومه، تلك التربية التي تعتمد على الوحي المنزل من عند الله الحكيم الخبير، ثم هي لا تغفل العقل وراء ذلك، والتي تهذب النفس وتعلي الغرائز ولا تقتلها، وتنمي الوجدان والعواطف والإخاء الودود.

وكان النبي ﷺ في حياته الشريفة بين ظهراني أصحابه، يعلمهم

ويهديهم ويرشدهم ويوجههم، يعلمهم الكتاب والحكمة، ويأخذ بهم في تطبيق ما علمهم إلى واقع العمل والسلوك، حتى تتكيف أنفسهم بما علمهم ليكون كل واحد منهم صورة حية لهداية الإسلام وعلومه ومعارفه وآدابه وأخلاقه وسياساته ونظمه في الحياة على شتى مناحيها، تمشي على الأرض، يراها الناس ويشيرون إليها، بما تترجمه أحوالهم بأنهم جميعاً دعاة الخير ورسل الهداية.

وهذا المسجد الأعظم قد أنشىء ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقراً لا تكدره منّة أحد عليه، فينهل من رفده ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي، لا يصدّه أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه، وبرزت بطولته من بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة؟ وكم من داع إلى الله تلقّى في ساحاته دروس الدعوة إلى الله فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جَذَبَ القلوبَ شذاها فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية لتستضيء بأنوارها؟.

وكم من حكيم أوتي في ظله الحكمة، وهو ينشرها على الناس في بسمته وأدبه وخلقه، الكلمة الطيبة هي بريده إلى القلوب، والبسمة الحلوة هي طريقه إلى العقول، والإشراقة المنيرة هي معراجه إلى الأرواح، فكان نموذجاً للمربي لعلمه وعمله وسلوكه وخلقه وآدابه. وكم من سياسي كان قبل أن يدخل إلى رحـابه راعي إبل أو سارحاً بغنم، فلما وصل إليه وبهره نوره ألقى على رماله وحصواته عصا التسيار، وخاض لجج البحث، فكان منه العقل الدهيّ، والسياسي الحاذق الذي يظن الظن فإذا هو حق اليقين، فكان من قادة العقول في أمة الإسلام.

وكم من أعرابي جلف لا يفرق بين الأحمر والأصفر وفد عليه فدخله، ورأى أصحاب رسول الله ﷺ حوله هالة تحف به، يسمعون منه وكأن على رؤوسهم الطير، فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه، واهتدى واستضاء، ثم عاد

إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله ويربيهم بعلمه الذي علم، وسلوكه الذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التاريخ الإسلامي.

وهذا المسجد الأعظم أنشىء ليجد فيه الفقير والمسكين ملجأ يلجأ إليه في أمن واستقرار نفسي وحسي، يرزقه الله فيه على يدي نبيه ﷺ بما يشاء، وعلى أيدي أهل الفضل والسعة من أصحابه بما يسدّ خَلّته، لا يسألون شيئاً، ولا يطلبون من أحد رفداً، ولا يتطلعون إلى عطاء، ولكنهم اعتصموا بالله تعالى، وتبتلوا إليه في محاريب الرضا واليقين، يدعونه بالغداة والعشي، يريدون وجهه، فيرزقهم من حيث لا يحتسبون، يخلطهم النبي ﷺ بعيشه، ويقاسمهم ما يأتيه من الهدايا، ويخصُّهم بجميع الصدقات، راضية أنفسهم، طيبة قلوبهم، مشغولين بآخرتهم عن دنيا الناس.

وهذا المسجد الأعظم قد أنشىء ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات للتوجُّه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة.

وهو قد أنشىء ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه ليكون مشفى يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله ﷺ من عيادتهم والنظر في أحوالهم والاستطباب لهم ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديراً لفضلهم.

وهو قد أنشىء ليكون مبرداً لبريد الإسلام، منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تُتلقى الأنباء السياسية سِلْمًا أو حرباً، وفيه تتلقى وتقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعى المستشهدون في معارك الجهاد ليتأسّى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون.

وهو قد أنشىء ليكون مرقباً للمجتمع المسلم، يتعرف منه على

حركات العدو المريبة ويرقبها، ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه، ويخالطونه في بلده من شراذم اليهود وزمر المنافقين، ونفايات الوثنية، الذين عَسُوا في الشرك فلم يتركوه، ليحذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم.

هذه المقاصد الضرورية كانت تقتضي تجمعها في مكان واحد عام حياة المجتمع المسلم

وهذه كلها مقاصد ضرورية، قصد إليها رسول الله ﷺ حين جعل أول عمل يقوم به منذ لحظة وصوله إلى دار هجرته ومستقره ومستقر دعوته، حيث تنطلق منها رسالته إلى آفاق الدنيا هادية مصلحة، هو بناء هذا المسجد الأعظم، وقد وقعت شواهدها وأمثلتها على مسمع ومرأى من رسول الله ﷺ، وقد كان كل مشهد منها يحتاج إلى بناء خاص ليكون موئلاً لتحقيق مقصدها، ولكن الحياة إذ ذاك لم تكن لتسمح بتحقيق التوسع في الإنشاء والتعمير، لا من جهة الفراغ الزمني ولا من جهة القدرة المادية، فالزمن بجميع ثوانيه ودقائقه ولحظاته، وأيامه وشهوره وأعوامه كانت تستغرقه الدعوة إلى الله، وهي في أمس الحاجة إليه من كل فرد في المجتمع المسلم الناشىء، وأما القدرة المادية فكانت محدودة جداً بما في أيدي الأنصار من أموال قاسموها إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأكثر مما تطيق طبائع البشر عن طيب نفس ورضا منهم، بل آثروهم على أنفسهم، فكان حسب ما كان في أيديهم من مال أن يقوم بهذه المكارم.

هذا إلى ما هو أهمّ من ذلك، وهو وضع مبدأ البساطة المادية وهو مبدأ قصد إليه رسول الله ﷺ في أول ما قصد، ذلك أنه ﷺ أراد أن تقوم حياة المسلمين على عدم الزخرف والفخفخة الجوفاء، والتعمق في المظاهر؛ ليتفرغ المسلمون إلى مهمتهم العظمى في هذه الحياة، وهي مهمة الدعوة لله ونشر رسالة الهدى والنور والخلود، وهداية الضالّين وإرشاد التائهين، ورد الشاردين إنقاذاً للإنسانية مما هي مرتطمة فيه من ردغ الخبال، وحمأة الرذائل، وشيوع الفساد والظلم.

فهذا المسجد الأعظم كان في إنشائه آية من آيات الله العظمى في بساطة مظهره يوم أن بناه النبي ﷺ وجعله ساحة للعمل في نشر الدعوة إلى

الله، كما جعله مجمعاً لتحقيق مقاصده النبيلة العظيمة التي تنبع من منابع الرسالة الهادية كما ذكرناها في غير إيعاب.

ولقد بلغ الله تعالى بهذا المسجد الأعظم قمة المجد في الحياة الجادة التي انبعثت من رحابه، وهو شامخ الأركان في بساطته وتواضع بنائه، ويسر مدخله ومخرجه، فسارت من ساحته الدعوة إلى الله ترفل إلى أرجاء الأرض وأقطارها وآفاقها، فتحاً وهداية واصلاحاً.

كان إنشاء المسجد الأعظم في المدينة المنورة مصدر إشعاع للهداية ومبعث الفكر الإسلامي في الحياة

فمن هذا المسجد الأعظم في مقاصده وأهدافه الذي واكب بها الفطرة الإنسانية في صفائها، بعيداً عن خداع الحياة وزخارفها وزينتها المترفة وُحِّدت الأمة العربية توحيداً لم تشهده في تاريخها الطويل، فصارت بعد حياة قبلية مشتتة متقاطعة محتربة أمة واحدة مسلمة متآخية، مجتمعة الكلمة، حملت ألوية الهداية، وفتحت بها البلاد والقلوب والعقول، وأنقذت البشرية من عبودية الملوك والأباطرة، وقوضت معالم الشرك، وقضت على الوثنية في جميع شكولها وصورها، ووطدت منائر العدل والتآخي بين الأفراد والجماعات.

ومن هذا المسجد الأعظم انبعث الفكر الإسلامي عقيدة وتعبداً، ونظاماً وهداية إلى أقطار الأرض، علماً ومعرفة لا تعرف التفلسف الأجوف في صفاء عقيدتها، وبساطة تعبداتها، وعدالة أنظمتها الاجتماعية، واستقامة سلوكها الخلقي، وتهذُّب آدابها النفسية، ووضوح تفكيرها العقلي في ظل الحرية المهذبة ووحدة الحقوق والواجبات.

بل من هذا المسجد الأعظم قام بناء الأمة الإسلامية شامخاً متسامياً في حياتها الإيمانية ويقينها الراسخ بحقائق الغيب العليا، التي تنزَّل بها وحي الله تعالى على سائر أنبيائه ورسله، وهي الحقائق التي لا تقبل التفلسف والتعقيد، ولا يداخلها منطق الغرور في العقول الجامحة، وفي عقيدتها التوحيدية الخالصة، التي لا تشوبها شوائب الوثنيات القديمة أو المحدثة، وثنيات البداوة أو الحضارة، وثنيات العلم المنطلق بغير ضوابط من دين أو عقل أو حدود، وثنيات العقول الجامحة التي لاتثنيها عن جموحها حكمات

اللّجم في وثبات الغرور.

وفي حياتها الفكرية النابعة من إيمانها وتوحيدها وتعبدها لله الواحد الأحد، وحياتها السياسية التي يقيمها لها العدل بموازين الاستقامة في الحقوق والواجبات.

وحياتها النظامية (المتطورة) مع أطوار الحياة، والأخذ والإعطاء في تبادل المصالح بين الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب.

وحياتها الاجتماعية التي تعرف للفرد حق وجوده عزيزاً كريماً، ولا تغمطه حق حياته الحرة الكريمة، والتي تعرف للمجتمع حق قيامه أمة وشعباً، ولا تغض من حياته موئلاً لأفراده الذين يشكلون صورته الاجتماعية، ويصورون في سلوكهم حقيقته وطموحه وأهدافه، ومقاصده في الحياة.

وحياتها الحضارية التي أقامها هذا المسجد الأعظم على بساطة المظهر، بعيدة عن تعقيدات الترف وزخرف الرغائب الشهوية، وعلى التعمق في المخبر، لتغوص إلى أغوار الحياة وأعماقها تعرفاً على معالمها وأسرارها، مستقلة، لا تتبع ولا تحاكي ولكنها تأخذ، وتعطي أكثر مما تأخذ، لضخامة رصيدها من المعرفة الصادقة والعلم الموجه، وإذا أخذت فإنما تأخذ وهي مرتدية برداء الحرية المهذبة لما في طبيعتها الإيمانية من قوة على هضم الحقائق وتمثيلها إلى ما يوافق استعدادها المحكم.

كل ذلك صنعه هذا المسجد الأعظم لهذه الأمة المختارة لقيادة الإنسانية، فلم تقعد به بساطة بنائه أن جعل من رعاء الشاء سادة ذادة، وقادة أبطالاً، ودعاة إلى الله هداة رادة، ملوكاً على الأسرة، يحكمون بما أنزل الله، وعلماء كانوا أساتذة الدنيا فضلاً وعلماً وعملاً، وخلقاً وسلوكاً واستقامة على الحق.

حتى إذا زخرفت المساجد وخرجت على نمط البساطة الذي قام عليه بناء هذا المسجد الأعظم انهارت من الداخل نفوس المترفين، وبخع الأسف نفوس المستضعفين، وتنافس في شهوات التزخرف الفارغون من عواصم

الإيمان، وتزّيد الجاهلون في تزخرفهم، وتقيَّلوا في عمارة بيوت الله ومساجده عمارة بيوت الشيطان من الكنائس والبيع والصوامع، حتى صارت المساجد في أمصار الإسلام وأوطانه حصوناً سامقة، تصك بقاماتها وجدرها متراكم السحاب، ولكنها خاوية خالية، لا تجد لها عُمّاراً من جند الله وعباده، وحملة العلم وطلابه، ودارسي المعرفة وأهلها، فقد هجر هذه الحصون المسجدية المؤمنون وسكنها طائر البوم، ينعق فيها ناعياً أهلها وعمّارها.

زخرفة المساجد والتغالي في بنائها كان مبدأ انهيار القوة الروحية في بناء شخصية الأمة الإسلامية

ووقف المد الإسلامي، وانحسر سير الدعوة إلى الله، وباء المسلمون بالتخلُّف في مخبرهم، وتحقيق مقاصد إسلامهم الذي ارتضاه الله لهم ديناً، يعتصمون به عن الانحدار في مهاوي الجهالة والاستعباد، وابتعدوا عن الأسوة بنبيهم ﷺ، ومالت رؤوسهم على مناكبهم، وناموا نومة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ﴿قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾.

فهل آن للمسلمين أن يبعثوا من مرقدهم، ليعلموا أن الترف والتزخرف سُمُّ الحياة القاتل للأمم والشعوب، لعل وعسى، ولكن أنّى؟ ومتى؟ وكيف؟ و﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

مرافق الإنفاق التي ينبغي التنافس في إنشائها

إن الأمة الإسلامية أوتيت في أوطانها من نعم الله وخزائن فضله ومنابع الثراء ما لم يؤت أحد من العالمين، وهي إذا أحسنت القيام على هذه النعم في منابعها وأحسنت استغلالها بالعلم والمعرفة، والخبرة المدبرة، والسياسة الحكيمة والاستقلال في التفكير، وعدم التبعية الموجهة، كان في يدها زمام القيادة التعميرية الموجهة، إنشاء وتأسيساً، وبناء وتعميراً، وإنتاجاً وتثميراً، ولنذكر بعض النماذج من مرافق الخير التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون.

المرفق الأول من مرافق التنافس في أعمال الخير والبر

فالمدارس والمعاهد والجامعات العلمية هي أزكى مواطن التنافس في ميادين الإصلاح والتعمير.

ومدن الإسكان لطلاب العلم ورواد المعرفة، وافدين وغير وافدين، وإعداد بيوت للأساتذة والمعلمين من أهل الدرس والبحث في جوانب هذه

المرفق الثاني من مرافق الخير والبر

المدن الإسكانية، بنظام يحفظ هيبة الاحترام الأبوي للأساتذة وأسرهم، مع توافر وسائل التصون والاحتشام التي يأمر بها الدين، وتحرص عليها أشد الحرص آداب الاجتماع ـ أوسع مجالات العمل للقادرين أفراداً وجماعات، محكومين وحكومات.

المرفق الثالث من مرافق الخير

وإنشاء المشافي والوحدات الصحية في حنايا الوطن المسلم، في كل بلد وقرية وحَيّ ومحلة وضاحية ومدينة لنشر الوقاية من الأمراض، وعلاج ما يقع منها، وحماية الأمة من انتشار الأوبئة ـ هي أفسح ميادين الخير والبر والعمل الصالح.

المرفق الرابع من مرافق الخير

وإقامة المكتبات العامة في مدن الإسلام وعواصم أوطانه، وقصبات حواضره وبواديه وقراه، وكل مكان يكون مأهولاً بمن يتأهل للإطلاع والقراءة، على نظام يحبب للناس شيباً وشباباً القراءة والعلم والمعرفة وتغذيتها بالكتب القديمة والحديثة، في كل فن من فنون العلم والمعرفة، حتى يستطيع كل مؤهل للقراءة أن يجد طلبته ويحقق رغبته ـ أعظم ما ينفق في سبيله المال لخير الأمة وإعلاء التفكير في الأمم والشعوب.

وهذه المكتبات العامة في حقيقتها دور ثقافة، ومدارس حرة للشعب، ومعاهد تعليم للعامة، وجامعات شعبية لتعليم الخاصة الذين قامت حواجز الحياة دون إتمامهم مراحل التعليم الرسمي.

وكم من هؤلاء المعوّقين بما ليس في طاقتهم إزاحته من طريقهم، من هو على استعداد فكري وفراغ زمني لينهض بتحصيل ما فاته لو أنه وجد فرصة تسعفه ليعوض ما تسرب من زمنه لأمور خارجة عن إرادته؟.

وكم من هؤلاء المعوّقين من شمَّر ونهض، واتخذ من المكتبات العامة جامعته العلمية، فجد واجتهد حتى فاز وظفر بما ظفر به الذين لم يعوقوا، بل كان رجل أمة، قدم لأمته من الأفكار والعمل ما أسهم في تقدمها العلمي والحضاري؟.

وإنشاء دور الضيافة لإيواء الفقراء والمعوزين وذوي الحاجة من أبناء

السبيل، في نظام يكفل القضاء على مذلّة السؤال، ويرفع من شأن السّؤال، ويزيل من جبين الأمة وصمة التعطل والمتعطلين، ويوجه القادرين على العمل إلى المشاركة في الحركة الجادة والعمل المفيد، ويعين العاجز على تحمل مشاق الحياة ـ من أفضل أعمال البر.

المرفق الخامس من مرافق التنافس في عمل الخير وخلود الذكر

وإقامة دور كفالة اليتامى الذين فقدوا حنان الأبوة بفقدهم من يقوم على إعالتهم وإحسان تربيتهم، ويوجههم توجيهاً صالحاً يعدّهم ليكونوا لبنات قوية في مجتمعهم المسلم ـ أجل ما تنفق في سبيله رغائب الخير والبر.

المرفق السادس

وبناء الملاجىء لإيواء المشرّدين من أبناء الأمة، وتعليمهم ما يعتمدون عليه في حياتهم من عمل بدني أو فكري، وكشف ما عسى أن يكون قد وهبوه من خصائص مخبوءة في طبائعهم لم تتح لها فرصة الظهور، ومن استعداد جُبلوا عليه، يدفع بهم إذا وُجِّه إلى آفاق الحياة الصالحة الخيرة ـ هدف من أهداف الحياة الاجتماعية في تربية الأمم والشعوب، ومقصد من مقاصد البر في تربية الأفراد والجماعات.

المرفق السابع

كل ذلك وغيره مما تتطلبه الحياة الصالحة الجادة، ويجمل فيه البذل، ويحمد في سبيله الإنفاق من أهل الفضل والسَّعة الذين خصهم الله بنعمة الاقتدار المادي والثراء المالي، مما يعود على الأمة بالنفع الجزيل مجالات للتنافس اقتضاء لثواب الله وفضله في الدنيا والآخرة.

أما المساجد فهي مع كونها من أعظم ما تَشَرَّف به حياة المسلم؛ لأنها عنوان إخلاص الإيمان، ورسوخ اليقين، ومتعبدات الإسلام، وموائل الذكر، ومجاميع العلم، ومنازل المعرفة، ومجتمعات الصالحين، ومحافل المتقين، ينطلق من رحابها النداء الأشرف، والدعاء الأكرم، يدعو المؤمنين إلى السمو بأرواحهم، وتطهير أفئدتهم، وتصفية قلوبهم، وتزكية عقولهم بتكبير الله تعالى وحده وإخلاص الدين لوجهه، وإسلام الوجه لجلال قدسه، استشعاراً لنعمة الحرية من التعبد لغيره عز شأنه، تلك الحرية التي أوتيها الإنسان في شرف إنسانيته ـ فقد رسم لها الإسلام في أحكام شرعه نهجاً في إنشائها يحقق أهدافها، ولا يصدّ عمّارها عن المقصود الأعظم من إعظامها

للمسجد المسلم في بنائه هدفان يحققهما منهج البساطة النسبية

وإعلاء شأنها، بعد أن فتح الله على المسلمين أبواب الاقتدار المالي والثراء المادي في إنشاء ما تحتاج إليه الأمة من منشآت كان يقوم بمهمتها المسجد في مطلع حياة الإسلام للضرورة المقتضية لذلك، وقد انتهى أمدها، ولم تعد مما يطلب من المسجد القيام به، بل لا يصلح أن تحمل على المسجد القيام بها.

وبهذا أصبح المسجد مختصاً بأمرين، ينشأ ليقوم بهما، وتؤدّى بهما مهمته العظمى في الإسلام، وهما مرتبطان به أوثق الارتباط، وبين أحدهما والآخر من الوشائج القوية ما بين المقدمات والنتائج، أو ما بين الوسيلة والهدف، أو ما بين الأسباب والمسببات.

ذانك هما: أولاً ـ التعبد لله تعالى بإقامة الصلوات، والذكر، والتسبيح وسائر ما يحقق تقديس التوحيد وإخلاص العبودية لله عز شأنه، وقد نبّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً﴾[1].

وثانياً ـ البحث العلمي ودراسته، وتعليم رواد المسجد من طلاب العلم والمقيمين في أروقته ومساكنه علوم الإسلام الشرعية ووسائلها من فنون اللغة والأدب، وعلوم الكون.

وهذان الهدفان هما اللذان ينبغي أن يضعهما نصب عينيه من يريد أن يبني لله تعالى مسجداً، يطلب به رضاه وثوابه، ونفع أمته ومجتمعه المسلم.

على الحكومات المسلمة أن تكون قدوة للأفراد في بناء المساجد

وعلى الحكومات المسلمة أن تكون قدوة للأفراد والجماعات في ذلك، بل عليها أن تلزم الأفراد والجماعات بالتزام ذلك، فلا تترك أحداً يخرج بالمسجد في بنائه عن الصورة التي تحقق هذين الغرضين بوسائلهما المعينة على تحققهما، وذلك بالتزام نهج البساطة المادية الذي يحقق الغاية التعبدية والدراسة العلمية المقصودة من إنشاء المساجد وبنائها في المواطن التي تخلو منها أو التي تضيق مساجدها بروادها من المتعبدين والدارسين، وفي البساطة المادية، إلى جانب توفير المال لتقام به مؤسسات أخرى تحتاج إليها الأمة، حماية لرواد المساجد ونزلائها من شواغل القلب، وفتنة العقول وإفساد روح

(١) سورة الجن آية (١٨).

العبادة والإقبال على الدراسة العلمية بما استحدث فيها من تزخرف ورسومات وتزيين، وتعالٍ في نضد الحجارة المنحوتة المزركشة، ونصب العمد الرخامية الضخمة ذات التكاليف الباهظة المجلوبة من خارج بلاد الإسلام، ونقوش الفسيفساء، وكتابة الآيات أو الأشعار بماء الذهب والفضة؛ مضاهاة لأبنية الكنائس والبيع والصوامع من متعبدات ذوي القلوب الفارغة من الإيمان بالله تعالى، العامرة بالوثنيات ومراسمها، من كل ما خرج بالمساجد عن أهدافها والمقصود منها، بهذا الإسراف السفيه، والتبذير الأحمق الذي يخالطه الرياء والتباهي والتفاخر.

إن المساجد لله تعالى، أمر الإسلام بإقامتها ورغّب في بنائها ليعبد فيها الله وحده، ويذكر فيها اسمه بألسنة طاهرة وقلوب مخلصة، وأرواح مشرقة بنور العبودية لا تشغلها الزخارف والزينات عن الخشوع والضراعة لله بين يديه في أشرف وأفضل مواقف العبودية، رضيها الإسلام مواطن لدراسة علومه ومعارفه، وهذا هو أعظم أهدافها أو هو هدفها الأعظم الذي يجب أن يحرص عليه المسلمون في بناء مساجدهم أينما كانوا في أوطانهم من أرض الله.

ولكن المسلمين منذ أن فتحت عليهم أبواب الدنيا وزخارفها ومتعها، وكثر في أيديهم المال، وعمهم الثراء بما فتحوه من بلاد وما غنموه من مال، وما ثمّروه من طارف وتليد، أفراداً وحكومات ضلّوا عن سواء السبيل في حياتهم، وامتطوا صهوة الترف والتبذير، وأخذ من يوسم بالخير منهم يتنافس في التعالي ببناء المساجد، وزخرفتها، والمبالغة فيما ينفق عليها مبالغة فاحشة، جعلت من هذه المساجد قلاعاً خربة، لا تجد من يدخلها للتعبد فيها بالصلاة والذكر، بل لدراسة العلم، حتى انصرف عنها عمارها من عباد الله المؤمنين، فخوت على عروشها، تنعى من بناها وأسرف فيما أنفق فيها، من ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

وها هي ذي الشواهد والأمثلة قائمة، فَمْن ينظر إلى مساجد الفاطميين والمماليك في مصر يعرف صدق ما قلنا، ففي ميدان قلعة محمد علي تجد

شواهد للتغالي والتبذير انتهت إلى الخراب والإهمال

المساجد متراصة على الجوانب آخذاً بعضها بجدران بعض، في ارتفاعات شاهقة وحجارة ضخمة كحجارة قبور الفراعنة وأهراماتهم وآثار وثنياتهم، لا يكاد يدخلها أحد للصلاة والعبادة، فضلًا عن دراسة العلم، ومن يدخلها فإنما يدخلها مكدوداً متعباً لينام فيها ساعة من نهار. وفي حي الجمالية وباب الفتوح حيث مسجد الحاكم الذي أصبح مأوى لكل ما ينفر منه الطبع السليم، وإلى جوانبه مساجد لإخوانه من أمراء الفاطميين والمماليك تنادي على أهلها بالحماقة، وليس في أرض الإسلام بلد يخلو من هذا الطيش الأحمق في التعالي والتفاخر في بناء المساجد، والبعد بها عن نهج الإسلام في بساطة الفطرة وتحقيق هدف التعبد ودراسة العلوم والمعارف.

ومن أعجب العجب أن هذه المساجد استولت عليها مصلحة هي أبعد ما تكون عن الدين ومقاصده، تلك هي مصلحة الآثار التي جعلت من هذه المساجد آثاراً للفرجة والعبث، وتنزه الوافدين من الفرنجة، بحجة معرفة الفن الإسلامي في أبنية مساجده، وهذه المصلحة إنما تُعنى أشد العناية بحفظ الصبغة الأثرية لهذه المساجد، ولا يعنيها قط أن تحقق غرضاً من أغراض إنشائها، وإن ربك لبالمرصاد.

ولا يفهمَّن أحد من كلامنا أننا نقصد أن نجعل من بناء المساجد صورة نرجع بها إلى نوع من السذاجة والبساطة المادية تحط من قدرها، وتنزل بها عن مكانتها التي أذن الله بها من الإعظام والتشريف، ولكننا نقصد إلى الإهابة بالمسلمين في شتى أوطانهم أن يعودوا إلى فطرة الإسلام في بناء المساجد، فيجعلوا منها بيوتاً للعبادة، ودراسة العلوم والمعارف لا صياصيّ وقلاعاً أشبه بحصون المحاربين القدامى من اليهود وغيرهم، ونقصد أن ندعوهم حكومات وأفراداً وجماعات إلى الاقتصاد في نفقات التغالي والتعالي والمبالغة المبذرة في بناء المساجد، لتبقى لها قدسيتها الروحية التي لا تضاهى، ولا تحاكي أبنية الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولتبقى لها في النفوس مكانتها التعبدية الإسلامية التي تحفظ لها وشائجها التاريخية بأول وأعظم مسجد أسسه وبناه سيد المرسلين في دار هجرته ومستقره، ولقد بكى أعلياء الأئمة من علماء الأمة يوم غُيِّر المسجد النبوي عن وضعه الأشرف إلى هذا

التعالي والتزخرف الذي شغل العباد عن روح العبادة من الخشوع والضراعة لله الواحد القهار.

ولا يعوزنا ضرب المثل وذكر الشاهد على البساطة المادية النِّسبية التي تحقق الهدف من بناء المساجد، دون أن تمس قدرها من التعظيم والتشريف والتكريم، ولنا في مسجد عمرو بن العاص فاتح مصر المثل الأعلى وهو أعظم مساجد الإسلام ـ عدا الحرمين الشريفين ـ في تحقيق هدف المسجد الإسلامي، وهو أول مسجد بني في مصر، وقد مرّت عليه قرون وهو في بساطته المادية النِّسْبية.

نماذج للبساطة المادية النسبية باقية على الدهر

وها هوذا يربض في فسطاط مصر ممثلاً لما ينبغي أن تكون عليه أبنية المساجد في الإسلام، وهي في أرفع صورها التعبدية والدراسية، فهذا المسجد المبارك منذ أنشىء كان وما يزال متعبد المؤمنين الصادقين، ومدرسة الدارسين من أعلام الأئمة وعلماء الأمة من المحدِّثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين، واللغويين، والأدباء والمؤرخين، ولو لم يكن له من المفاخر إلا حلقة الإمام الشافعي، وحلقات تلاميذ مالك بن أنس من بني عبد الحكم وأضرابهم لكفاه في سجل الفخر والتكريم، وهو على كل حال نهج في بناء مساجد الإسلام في الحواضر والعواصم الباقية على الدهر، تشهد بأن بساطة البناء النسبية لا تغمط عظمة الهدف، ولا تغض من مقاصد الإسلام في مساجده الجامعة.

ولن يبعد الأزهر العامر ـ ردّ الله غربته على الإسلام ـ عن التمثيل الجامع الشامل لنهج البناء المسجدي، الذي جمع منذ أنشىء بين التعبد ودراسة العلم والبحث عن المعرفة، ولم تغيره الأطوار التي مرّت عليه عن بساطته النسبية باعتباره مسجد حاضرة الإسلام وعاصمة العلم والمعرفة وقيادة الفكر الإسلامي العربي.

وها هوذا رابض بأروقته وزواياه، وخزائن كتبه العلمية، التي شملت كل فن عقلي أو نقلي في علوم الشريعة عقيدة وتعبداً، ونظاماً في المعاملات بين الأفراد والجماعات ـ ومساكن طلابه الوافدين إليه من كل صَوْب

وحدب، وليس في أوطان الإسلام وطن إلاّ وله في الأزهر العامر رُواق ومكتبة أو مكتبات على اختلاف فرق الإسلام ومذاهبه الفقهية والعقدية، وليس هناك عالم يفد على الأزهر إلاّ وله فيه (دولاب) أو خزانة يحفظ فيها متاعه وكتبه، وسائر ما يحتاج إليه من مطالب الحياة، ولطلابه في أروقتهم و(حاراتهم) خزائن كخزائن معلّميهم من المدرسين الأساتذة، يحفظون فيها متاعهم وكتبهم ووسائل تهيئة أطعمتهم، وهو بهذا الوضع المدرسي المعهدي الجامعي يملي على الدنيا علوم الإسلام ومعارفه، وفنون العرب اللغوية والأدبية، وأفكار المفكرين وحصائل عقول الباحثين واجتهاد المجتهدين.

لم تمنعه بساطة بنائه النسبية الخالية عن التعقيد والتغالي والتعالي في جملتها التي جمعت له بين المسجدية الجامعة في مظهرها التعبدي، وبين الجامعية الدراسية والمعهدية الباحثة، وبين إسكان طلابه والراغبين من علمائه المتبتلين في محاريب البحث العلمي، المنقطعين للمعرفة ـ من أن يكون منبره في سموه حساً ومعنى أقرب منابر مساجد الإسلام إلى السماء، وأن مسجديته أجل مسجدية في الإسلام، وجامعيته الدراسية أخطر وأفخم جامعات الإسلام ومدارسه ومعاهده.

وقد كان وضعه هذا نموذجاً يحتذى في المسجدية الدراسية، فأسست على غراره في صور مصغرة من بنائه ونهجه مدارس مسجدية للمذاهب الفقهية المعروفة في أوطان الإسلام، ومدارس لفن الحديث النبوي، وعلوم السنة، استكملت أهدافها المسجدية المدرسية، فخصصت فيها أمكنة للصلاة والعبادة، وأمكنة للدراسة والبحث، وأمكنة أخرى لسكنى طلبتها وما تتطلبه حياتهم في إقامتهم الدائمة من خزائن لحفظ أمتعتهم وكتبهم ووسائل معيشتهم، وفيها مكتبات عامة للطلاب والأساتذة والمدرسين، تزخر بالمراجع النادرة المخطوطة والمطبوعة التي يقوم على حراستها من العبث وصونها من الضياع وحفظه أمناء، ولتمكين الباحثين من مراجعة ما يطلبون من قضايا العلم ومسائل البحث والدراسة.

وهذه المدارس المسجدية منثورة حول الأزهر العامر ـ وهو بينها كالأب

الرشيد تتمثل فيه القدوة الصالحة والأسوة القويمة الراشدة ـ وكلها تنادي بأن بساطة المظهر القائمة عليها في بنائها ونظامها لا تغض من عظمة المخبر المطلوبة منها، وإن عدم المبالغة في الإسراف البنائي لا يعوق الوصول إلى الهدف، ولا سيما إذا كان هذا الهدف تعبدياً وبحثاً دراسياً لقضايا العلم والمعرفة، وإنهاض العقل ليقوم بمسؤوليته الفكرية.

وقد انتشر هذا النوع من المساجد المدرسية، والمدارس المسجدية في صعيد مصر حيث الأسر العريقة في نسب العلم والمعرفة، كبيت القشيريين الذي أنجب ابن دقيق العيد وأضرابه من أعلام العلماء في مدارس قوص وغيرها.

فالبساطة البنائية التي ندعو إليها في بناء المساجد المدرسية ـ وكل مساجد الإسلام يجب أن تكون مدرسية في عملها ـ أمر نسبي يتمشّى مع سمة العصر وصفاء الفطرة ويحقق الهدف من المسجدية المدرسية، بروح حريصة على الوسطية التي هي عنوان الأمة الإسلامية، يقول الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[1] والوسطية في بناء المساجد المدرسية هي التي مدح الله بها عباده المتقين في قوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قَواماً﴾ مع عدم التفرقة بين الإعداد للعبادة والإعداد للبحث والدراسة، لأن العبادة والعلم توأمان في ميلاد الفكر الإسلامي، وهما صنوان لا يفترقان في حياة الإسلام.

ما يجب أن يتوافر للمسجد المدرسي المسلم لضمان تحقيق أهدافه ومقاصده

والذي يجب أن نخصه بالتنبيه إليه في هذا الاستطراد الذي ساقتنا إليه ضرورة الحديث عن بناء المساجد ومناهج تأسيسها وإقامتها في أوطان الإسلام وبلاده تأسياً بأعظم مسجد في الإسلام بناه رسول الله ﷺ، وأبى أن يغير بساطة بنائه إذ عرض عليه الأنصار المال لهذا التغيير، وقال: «ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى، والأمر أعجل من ذلك»

إن أول دعائم الإصلاح في تحقيق مهمة المسجد في الإسلام وهي

---

(١) سورة البقرة آية (١٤٣).

العبادة المتلقّاة عن الشارع، والدراسة العلمية التي تجعل من العبادة صورة منيرة قائمة على الهدى والرشاد ـ بعد وجود قائم على خدمة المسجد، حفيظ على طهارته، أمين على أمتعته ـ تخصيص عالم تقي فقيه الدين، فقيه النفس، يرقب الله في عمله، لكل مسجد، يؤم المؤمنين في صلواتهم ويجمِّع بهم، ويعلمهم أحكام الشريعة من مصدريها الكتاب والسنة، وفقه الأئمة المتقدمين الذين استنبطوا هذه الأحكام قبل حدوث التفريعات الفرضية، التي قد تنتهي الحياة ولا تقع فيها، ومع ذلك يحاول أصحابها أن يستخرجوا لها أحكاماً في تعسف وعصبية مذهبية أذهبتا نضارة الفقه الإسلامي الأصيل الذي نبتت بذوره في رياض الاجتهاد الصالح المستقيم على أيدي فقهاء الأئمة من سلف الأمة، وأطالت الكتب الفقهية وضخمت حجمها، وعقَّدت أسلوبها، ونفَّرت النفوس من النظر فيها والرجوع إليها.

وتخصيصُ عالم بأوصافه الفاضلة لكل مسجد يقتضي دراسة تخصصية في الفقه الإسلامي وأصوله، وما يتصل بذلك من علوم القرآن والسنة، وبيان مقاصدهما حتى يكون إمام المسجد المدرسي أو إمام المدرسة المسجدية مستكملاً لشرائط الإمامة في إحاطته بأحكام العبادة والبحث العلمي، غير واقف عند اجتهاد أحد أئمة الاجتهاد، وغير واقف عند مجرد الروايات الحديثية من كتب الحديث، بل يجب أن يكون علياً بصحة ما يروى في الكتب ولو كان منسوباً لأعلاها وأصحها سنداً وليكون مستكملاً لشرائط البحث العلمي، وهذا يتطلب دراسة تخصصية في مؤسسة تنشأ لتخريج علماء وأئمة المساجد، ولا يتحقق ذلك إلا إذا فُرِّغ قلب هذا الإمام العالم من مشاغل العيش الكريم له ولأسرته، وضمان تعليم أولاده على نفقة الدولة، التي يجب أن تتكفل بجميع ما تستلزمه حياتهم من رعاية وعلاج وتوفير الكتب وأدوات الدراسة في جميع مراحل التعليم، وإعدادهم للمواطنة الصالحة المنجبة النافعة.

وحينئذ فلابد لهذا الإمام من مسكن يأويه مع أسرته، مستكملاً منافع السكنى الكريمة المريحة، على أن يكون هذا المسكن متصلاً بالمسجد اتصالاً كريماً لا يكشف عورة ولا يخدش حياء.

ومن البداهة أن يكون لهذا الإمام راتب مالي مجز في حياته الخاصة وراء ما تحققه له الدولة، يغني نفسه عن التطلع إلى الاشتغال بأمر من أمور الكسب، ليكون وقته كله ملكاً للأمة في العبادة والتعليم والبحث.

ويجب أن تشتمل وثيقة عمله إماماً ومعلماً بأي مسجد من مساجد المسلمين المدرسية على نص يمنعه من الاشتغال بأي عمل غير عمله في المسجد إماماً ومعلماً.

وقد لا يغني ذلك في بعض البيئات والمدن الواسعة التي يكثر فيها رواد المساجد المدرسية عن تناوب عدد من العلماء، يقل ويكثر بحسب حاجة المجتمع الذي يعيش في هذه البيئة إلى فنون العلم وألوان المعرفة.

ولا بد لكل مسجد مدرسي من وجود مكتبة عامة، تتوافر فيها مراجع البحث والدراسة وتتوافر لها وسائل القراءة المريحة، والدراسة المتثبتة والبحث المتعمق، ويكون لهذه المكتبة أمين حفيظ، يقظ، مثقف، خبير بما فيها من الكتب والمراجع لإسعاف طلاب البحث ورواد الدراسة بما يطلبون من هذه المراجع التي يجب أن تكون المراجعة فيها في قاعة خاصة بالقراءة والمطالعة، لا تخرج عن حيزها حفاظاً عليها من العبث والضياع.

وقد يتطلب الأمر في بعض الأحوال أن يكون في هذه المكتبة المسجدية آلة كاتبة، وكاتب خبير بالعمل عليها لنقل ما يحتاج إليه الباحث من نص في مرجع من هذه المراجع التي يجب أن يحظر حظراً باتاً إخراج كتبها إلى خارج المكتبة.

فالمسجد الإسلامي اليوم يجب أن يقوم على دعائم البساطة النسبية في البناء، ونعني بالبساطة النسبية أن يكون تفاوت بناء المساجد حسب بيئاتها ومجتمعاتها، فمسجد المدينة الكبيرة بما فيها من مظاهر العمران وكثافة السكان لا يكون في بنائه كمسجد القرية المحدودة في مظاهرها الحضارية وعدد سكانها، وقد ضربنا المثل بمسجد عمرو بن العاص بالنسبة للعاصمة المصرية، وذكرنا مساجد صعيد مصر المدرسية بالنسبة للمدن المحدودة في

مظاهر حضارتها وعدد سكانها.

وإذا كان الهدف الأول لإنشاء المسجد هو التعبد، فدراسة العلم، وقيام حلقات للبحث والتفقه في دين الله هو الهدف الثاني لإقامة المسجد المسلم، بل إن الدراسة العلمية والتعبد بالذكر والصلاة يجب أن يمتزجا امتزاجاً يوحّد بينهما في كونهما هدفاً واحداً لإنشاء المسجد المسلم الذي يجب أن يكون متوافر المرافق الضرورية ليريح روّاده الذين يتخولونه بالوفود إليه آناً بعد آن، كما يجب أن يكون قيّمه من أعلام العلماء المنقطعين للدراسة والبحث والإفادة، وأن تكون مكتبته عامرة بالكتب من كل الفنون العلمية شرعية وأدبية، مما أوضحناه في كلامنا السابق.

منهج البساطة في بناء المسجد وتوافر ضرورياته يجعله متعبداً ومدرسة ومعهداً للعلم وجامعة للتخصص الحر

هذا هو المنهج الذي يجب أن يقوم عليه تأسيس المساجد المسلمة المدرسية وبناؤها، ليكون دار ثقافة وعلم للوافدين عليه والمقيمين فيه للدراسة والبحث، وهذا المنهج هو الذي يحقق تربية الأمة وحمايتها من خداع المذاهب المخربة للعقيدة والخلق والسلوك.

ولو أن المسلمين التزموا بالبساطة النسبية في بناء مساجدهم المدرسية، وتركوا تنافس الرياء في زخرفتها والتغالي في تزيينها والتعالي في بنائها لتوافر لديهم من المال ما يحقق كل ما يطلب في المسجد المسلم، وكل ما يطلب منه في المشاركة في تربية الأمة تربية واعية يسودها الإيمان الحقيقي والعلم المستنير والمعرفة المضيئة.

وعلى الحكومات المسلمة أن تكون قدوة صالحة لشعوبها أفراداً وجماعات فيما تنشئه من المساجد لتكون مدارس للشعب يتلقى فيها دروس التربية المهذبة فالسلوك المستقيم، وعلى الحكومات المسلمة أن تفرض سلطانها الشرعي في منع الإسراف والتبذير في إنشاء مساجد الأفراد والجماعات، وأن تحول ما يزيد على ضرورة البناء إلى مرافق المسجد وما يتطلبه للقيام بمهمته.

الدعامة الثانية
التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
هي المؤاخاة بين عناصر هذا المجتمع
على الحب في الله

أثر المسجد في تربية الإيمان وحراسته عن تسللات الإلحاد والانحراف

كان البدء في توجيه حياة المجتمع المسلم ببناء المسجد الأعظم في دار الهجرة وعاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة إلى الله تعالى وشيجةً لربط سير هذا المجتمع، وهو يحمل لواء الدعوة إلى توحيد الله بالملأ الأعلى، ليكون هذا المجتمع المسلم مفتوح القلب على أنوار السماء، وهي تتنزل عليه آيات بينات من الهدى والرحمة، والعدالة والسماحة، والإخاء والمحبة، متسامياً بعقيدته وتعبداته، وأخلاقه وسلوكه عن الإخلاد إلى الأرض كما يخلد عبيد الوثنية المادية إليها، يلهثون في أقطارها وراء سراب ترابي إذا جاؤوه لم يجدوه شيئاً.

فالمسجد الذي يحرص المجتمع المسلم على مقوِّماته الروحية حفاظاً على قدسية مسجديته آية من آيات الله تعالى، الذي يقيمها الإسلام منارة ليهتدي بها السائرون في مفاوز الحياة، وهي محفوفة بأخطار التعاريج والالتواءات التي يتيه في تعاريجها الذين تتخطَّفهم شياطين الوثنيات المادية، وذئاب الإلحاد، فتلقي بهم في مهاوي الضلال والدمار، إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وتخلب لبك مظاهرهم، ولكنهم في مخبرهم يحيون في قلق بئيس، ويعيشون في اضطراب مخيف، ويصرعون هلكى في فجاج الفتن والطمع الشره الذي يأكل فلا يشبع، ويجمع فلا يقنع.

أما المؤمن الذي أنس بإيمانه إلى قدسية المسجد، واطمأن قلبه إلى رَوْحه ورَيْحانه وهديه ومعالم آياته، يعيش فيه ساعة يدخل في رحابه لينفض عن نفسه أثقال الحياة ومتاعب الكد والسعي في مناكب الأرض تطلباً لرزق حلال إن كثر في يديه قال به هكذا وهكذا، ينفقه في مصالح مجتمعه وأمته،

يواسي إخوانه، ويحسن إلى جيرانه، ويريش المحتاج الذي مسّه ضرُّ الفاقة، ويبني ويؤسس مرافق للخير والبر، لا يُغلّ يده عن إحسان أو إصلاح، ولا يبسطها كل البسط في سفَه وتبذير.

وإن قل رزقه في يديه صبر صبراً جميلاً، يحفُّه الرضا عن الله، وعن الحياة، لا يسخط ولا يضجر ولا ييأس، ولكنه يستقبل غده بأمل فسيح، ورجاء في رحمة الله التي تشدّه إلى العمل، فيعمل ويتحرك، وهو قرير العين راضي النفس، لا يحسد ولا يحقد، ولا يتمنى على الله الأماني، وهو مرهق بوطأة الكسل البليد، لأن إيمانه ومكانة مسجده في نفسه، وعرفانه حق الله عليه، وحق نفسه ومجتمعه الذي يذكره به مسجده تتداركه بألطاف الأمل الفسيح، وكلما رانت عليه هاجسات الخواطر السوداء هبت عليه من نفحات مسجده نسمات الإيمان واليقين تذكره بفرج الله ورحمته، ويهتف به هاتف الذكرى، يقول الله تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾[١] ويوقظه من غفلته منادياً: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾[٢].

فالمسجد في الإسلام قوة روحانية تبعث في النفس المؤمنة أشعة الرضى، ومغالبة الملمَّات، التي تنقشع بأضوائها حنادس اليأس، وتفتح أمام المؤمن أبواب الحياة، يدخلها بإيمانه من أي باب يهديه إلى مفاتيح غيبه معرفته بمنازل غيث الرجاء في رحمة الله وفضله وإحسانه.

والمسجد في الإسلام محفل المؤمنين، ومجمع المتقين، والتقوى وقاية من الانزلاق في منحدرات القنوط ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[٣]. والمسجد في الإسلام دار كل مؤمن، ومأوى كل متعبِّد، يتساوى فيه جميع المسلمين من كل جنس ولون، لا يتفاوتون فيه بأمر من أمور الدنيا ومظاهرها، فلا يُقيم فقرٌ فقيراً من مكانه الذي أدركه قبل غيره، ولا يُجْلس

---

(١) سورة الشورى آية (٢٨).
(٢) سورة الروم آية (٥٠).
(٣) سورة الحجر آية (٥٦).

ثراءً ثرياً في مكان جلس فيه غيره من عامة المسلمين أو خاصتهم، فالمسلمون جميعاً في المسجد سواسية على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وأوطانهم وألوانهم، ولا يتميز في المسجد حاكم عن رعية محكوم، ولا يختص فيه أحد بشيء إلا ما خصه به الإسلام في شرائعه وأحكامه.

المساواة بين المؤمنين هي منبع المؤاخاة

هذه المساواة الحقيقية التي يملكها كل مسلم بحكم الإسلام في كل مسجد من مساجد الإسلام، وهي روح الأخوة الإيمانية التي يعقدها الإيمان بين كافة المؤمنين، ومن ثَمّ جاء الإخبار عن هذه الأخوة الإيمانية في الكتاب الكريم دستور الإسلام الأعظم باعتبارها أمراً واقعاً في الوجود الإسلامي أينما كان إشعاراً بأن الإيمان هو صاحب عقدها بين أفراد الجامعة الإيمانية، فقال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1].

وإذا كانت هذه المساواة هي منبع الأخوة الإيمانية، وكان المسجد المسلم هو منبع تلك المساواة ـ كان من الطبيعي أن تكون جميع صور المؤاخاة وألوانها وضروبها بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم نابعة من المسجد وتربيته لأفراد الأمة باعتبارها أثراً من آثاره، وعملاً من أعماله في صياغة وحدة الأمة، وحدة تقوم على دعائم العقيدة التوحيدية وتعبداتها ونظام معاملاتها وسلوكها الاجتماعي، وأخلاقها، وأوضاعُ الحياة في كل شأن من شؤون الأمة السياسية والمعاشية، محكومة بعمل المسجد باعتباره المدرسة التوجيهية في حاضر الأمة ومستقبلها.

فالمؤاخاة تتنوع إلى نوعين من الأخوّة بين أفراد المجتمع المسلم.

المؤاخاة الإيمانية ليس لها ميثاق سوى قوة الإيمان

النوع الأول ـ المؤاخاة الإيمانية، وهذا النوع من المؤاخاة يعقده الإيمان بين أفراد المتآخين، ذلك الإيمان الذي يملأ القلب والعقل والروح، ويوقظ الفطرة أصيلة ويصقلها من صدأ الشرك والوثنية، ويطوِّع الجوارح لتكون طوع ما وقر في القلب من قوة الإيمان، ويسند هذه الأخوّة الإيمانية ما ثبت في العقل من إدراكات مستنيرة المنبع والمصب قبل أن يحجبها رواسب الجهالة

---

(١) سورة الحجرات آية (١٠).

الوثنية، كما يدعمها ما ارتسم في مرآة الفطرة الإنسانية الأصيلة من صور الخير والهدى، كانت مغيبة وراء أسداف الصدأ الذي ران على الفطرة من طول ما عانت من آثار الجاهلية الجاهلة، ثم كشف عنها الإيمان بعد تسليط مصابيح إشراقاته عليها، فانجابت عنها حنادس الشرك الغبيّ، وظلمات الوثنية البليدة، فأشرقت هذه الفطرة أصيلة بنور ربها، وتبلجت في إشراقها زاهرة منيرة.

هذه الأخوة الإيمانية لا تحتاج في وجودها إلى مواثيق تعقدها أو عهود تضبطها؛ لأن وجودها مع الإيمان أو بالإيمان لازم لا يتخلف، فهي منه كالنتيجة من المقدمات الصادقة، أو كالمسبب من سببه المباشر، أو كالمعلول من علته المؤثرة.

فأواصرها معقودة في نفس كل مؤمن مع كل أخ مؤمن، مع انبثاق نور الإيمان في القلب وظهور آثاره في مدارك العقل وتنوّره في إشراقات الروح، ومن ثَمَّ هي موجودة بين طلائع الإيمان بأكمل صورها في كل أمة مسلمة، لكنها قد تتفاوت قوة في آثارها تبعاً لقوة الإيمان، فكل مؤمن في طلائع الإيمان هو أخو كل مؤمن منهم، يترافقون ويتواسون بهذه الأخوة الإيمانية، وبها يتحاملون أثقال الحياة ويتعاطفون بالمودة والتراحم، ويتقاسمون الآمال والآلام، ويتشاركون في السراء والضراء، يؤدي كل أخ عن أخيه، ويتبادلون المحبة في الله ولله، وليس أحدهم أحظى بما فيه يده من أخيه، بل إن هذه الأخوة الإيمانية تسامت في إشراقاتها الواقعية إلى الإيثار الذي أثنى به الله تعالى على من تحلّى بحليته مرتبطاً بوشيجة الإيمان.

فهؤلاء المتآخون بالإيمان إذا فرحوا لغبطة دخلت عليهم أو على أحدهم فرحوا كلهم على سواء، وإذا ابتأسوا لمساءة نالت بعضهم ابتأسوا جميعاً، متعاطفين متراحمين، فهم في أخوتهم الإيمانية كأعضاء الجسد الواحد، إذا تألم منه عضو تألم لألمه كل عضو في أعضاء الجسم.

وهذا النوع من الأخوة الإيمانية هو الذي كان بين المهاجرين بعضهم مع بعض في مكة قبل الهجرة، ولم يثبت بطريق صحيح أن هذا النوع من

الأخوة كان له ميثاق ملزم عقده رسول الله ﷺ بين رجل معين من المهاجرين وآخر منهم مسمى لأخوته.

وكان النبي ﷺ بمقتضى شدة حرصه على حوافظ الإيمان بين المؤمنين وبمقتضى ما جبل عليه من محبتهم جميعاً يسره أن يرى مظاهر الأخوة الإيمانية الفطرية مشرقةً قويةً بين أصحابه وخلصائه من طلائع الإيمان، وكان ﷺ يؤكد برعايته هذه المظاهر الأخوية بإظهار رغبته في تقوية أواصرها، وتنمية وشائجها، وتوثيق عواصمها بينهم بالمحبة والترافق والتواسي، وتبادل المودة في ذرائع العيش وتقلبات الحياة.

المؤاخاة بين النبي ﷺ وعليّ ـ إن صح حديثها ـ مؤاخاة خاصة

وما رواه الترمذي من طريق حكيم بن جبير، عن جُمَيع بن عمير التيمي، عن ابن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء عليّ تدمع عيناه، فقال: يا رسول، آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» قال صاحب تحفة الأحوذي في شرحه: فيه حكيم بن جبير، وهو ضعيف، ورمي بالتشيع، ثم قال: وأخرجه ـ أي هذا الحديث أحمد في المناقب عن عمر بن عبدالله، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ: آخى بين الناس وترك علياً حتى بقي آخرهم، لا يرى له أخاً، فقال: يا رسول الله، آخيت بين الناس وتركتني؟ قال النبي ﷺ: «ولم تراني تركتك؟ تركتك لنفسي، أنت أخي، وأنا أخوك، فإن ذكرك أحد ـ أي يعيب عليك عدم مؤاخاة النبي ﷺ: بينك وبين أحد من أصحابه ـ فقل أنا عبدالله وأخو رسوله» أي أخوّة خاصة، هي أخوة الكفالة والتربية والرعاية الأبوية، التي تفوق في مظاهرها وآثارها الأخوة العامة، فلا أحتاج مع هذه الأخوة لأشرف وأفضل أخ إلى أخوة أحد من الناس بعدها، ولهذا جاء في حديث أحمد قوله: لا يدّعيها بعدي إلا كذاب.

وهذه الأخوة الخاصة سبقت الأخوة الإيمانية، لأنها كانت في أساسها من باب الرعاية الأبوية التي أضفاها النبي ﷺ على ربيبه علي رضي الله عنه منذ أن اختاره الله له، فضّمه إلى نفسه الكريمة، واحتضنه في كفالته وتربيته والقيام بشؤونه وهو طفل جعله مع أولاده رعاية وكفالة وتربية ومحبة.

فلما أسلم علي رضي الله عنه طليعة للسابقين الأولين أراد رسول الله ﷺ أن يشيِّد بناء هذه الرعاية الخاصة، فأعلن على سمع الدنيا أن هذه الرعاية التربوية والكفالة الأبوية قد صارت في الإسلام ـ بعد أن شبَّ علي رضي الله عنه عن الطوق، ومشى إلى الرجولية بخطى البطولة الإسلامية ـ أخوة في الإيمان مثل أخوة النبي ﷺ لجميع أصحابه وخلصائه.

بيد أن أخوته ﷺ لعلي تمتاز على غيرها من أخوة الإيمان العامة التي كانت بين أفراد المهاجرين قبل الهجرة بما كان لعلي رضي الله عنه من منزلة خاصة عند النبي ﷺ، اقتضتها وشائج الأسرة التي كان عليّ أحد أفرادها، ولهذا خلّفه ﷺ بعده في الهجرة ليرد ودائع الناس التي كانت عند النبي ﷺ إلى أهلها، وأنامه على فراشه، وأمره أن يتسجّى ببرده ليرى أعداؤه المتربصون به أنه ﷺ نائم في فراشه، وهذه منزلة لم تكن لأحد من المهاجرين.

ويؤكد ذلك قول أبي عمر بن عبد البر في (الاستيعاب): ولم يتخلف عليّ عن مشهد شهده رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة إلّا تبوك، فإنه خلفه رسول الله ﷺ على المدينة وعلى عياله بعده في غزوة تبوك وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» فهذا كله يدل على أخوة خاصة أرفع درجات من الأخوة الإيمانية العامة، أغنت علياً عن الدخول في المؤاخاة العامة التي كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض، والتي كان النبي ﷺ ينمِّيها بكل وسيلة حتى ظن بعض الناس أنه ﷺ عقد مؤاخاة خاصة بين كل مهاجر ومهاجر آخر، كالذي ذهب إليه أبو عمر بن عبد البر ومن تابعه فإنه قال: إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض وآخى بين المهاجرين والأنصار، وقال في كل واحدة من المؤاختين لعلي رضي الله عنه: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» وآخى بينه وبين نفسه.

ولا ندري ما الحكمة في أن يكرر النبي ﷺ قوله لعلي رضي الله عنه: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» مرة في عقد أخوة المهاجرين بعضهم مع بعض، ومرة في عقد الأخوة بين المهاجرين والأنصار، فجعل من كل

مهاجري أخاً لأنصاري، وعليّ رضي الله عنه يعلم منزلته الخاصة الرفيعة عند النبي ﷺ، فلا يحتاج لتأكيد ذلك بتكرار هذا القول من النبي ﷺ.

وقال أبو عمر بن عبد البر: وقد روينا من وجوه عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: أنا عبدالله وأخو رسوله لا يقولها أحد غيري إلا كذاب.

وهذا بظاهره يتعارض مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ليتني رأيت إخواننا»؟ فقال له أصحابه: ألسنا إخوانك؟ قال ﷺ: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني» فهذا الحديث صريح في إثبات أخوة كل مؤمن لرسول الله ﷺ، وأخوة رسول الله ﷺ لكل مؤمن ممن جاء بعده وآمن به ولم يره، فكيف يكون من يقول: أنا أخو رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أخي كذاباً؟ إلا إذا أريد بالأخوة الثابتة لعلي رضي الله عنه أخوة خاصة ـ هي المستفادة من قول النبي ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» فهذه منزلة رفيعة في الأخوة، لا يدّعيها أحد غير علي رضي الله عنه إلا كان كاذباً في ادّعائه.

والمؤاخاة بين حمزة ابن عبد المطلب وزيد ابن حارثة من قبيل المؤاخاة الخاصة

ويجري هذا المجرى في المؤاخاة الخاصة ما جاء في بعض الروايات من المؤاخاة بين سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وبين الحب زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فهي من باب الرعاية الخاصة التي كان يضفيها حمزة رضي الله عنه من مظاهر صفوة الود والمحبة والتواسي والارتفاق على زيد رضي الله عنه، لما كان يرى من شدة حب رسول الله ﷺ له، وإيثاره بأنواع المكارم والإكرام، ولما كان عليه زيد من رفيع الشمائل، وجميل المحامد، وكريم الفضائل، ودماثة الأخلاق، والتفاني في خدمة رسول الله ﷺ، وإيثاره البقاء في ظله عبداً على أبيه وأمه وإخوته وعشيرته حراً، مما عقد بينه وبين حمزة ـ وهما من أحب الناس وآثرهم عند رسول الله ﷺ ـ أواصر أخوة أغزر أثراً في صفو المودّة من مجرد أخوة الإيمان، فهي أخوّة إفضال وتكرّم، وتكريم متفضّل، وهي أثر من آثار فتوّة حمزة وبطولته، وللفتوّة والبطولة مآثر لا تعرفها الحياة إلا لأهل الفتوّة وأبطال الرجال، وقد وجد هذا الأثر في نفس زيد رضي الله عنه تجاوباً توثّقت به

عرى المودة والإخلاص فكانت أخوة تجمع معالم الإخاء ومآثره.

وقد بلغت هذه المؤاخاة بين حمزة وزيد رضي الله عنهما مبلغاً رفيعاً، حتى أوصى حمزة لزيد في غزوة أحد إن نزل به قدر الله، وكان حمزة في هذه الوصية كأنه قد قرأ في لوح الغيب أنه ملاقٍ ربه في أشرف موقف لإعلاء كلمة الله، فرأى أن أحب الناس إليه ـ بعد رسول الله ﷺ ـ وأوفاهم بأخوته، وآثرهم عنده هو الحِبُّ الذي نشأ في حضن النبوة، وتربّى في حَجرها، وتأدب بآدابها، الكريم على الله وعلى رسوله ﷺ زيد بن حارثة، فأوصى إليه، مؤثراً له على قراباته وإخوانه المؤمنين، والوصية تشمل أول ما تشمل الوُلْد إذا كانوا صغاراً، يحوجهم اليتم إلى مزيد من الرعاية والعطف وإحسان التربية الرحيمة والود المواسي، والظاهر أن مؤاخاة حمزة وزيد الخاصة كانت في المؤاخاة الإيمانية بين المهاجرين بمكة، قال صاحب (عيون الأثر): وذكر سنيد عن داود أن زيد بن حارثة وأسيد بن الحضير أخوان وهو حسن إذ هما أنصاري ومهاجري.

وكان من أعظم ذلك أنه لما قضى رسول الله ﷺ أعمال عمرة القضية وأعدّ للرحيل من مكة، وفاء بوعده لأهلها أن يخرج عنهم بعد ثلاثة أيام، ولم يقبلوا تألفه لهم، إذ كان قد تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية ـ خالة عبدالله ابن عباس وأشقائه ـ فدعاهم إلى أن يحضروا طعام وليمته عليها، ويؤاكلوه ويؤاكلهم تألفاً لهم، فأبى عليهم فجور العناد أن يقبلوا هذه الدعوة الكريمة.

قصة أمامة بنت حمزة وكفالتها

وخرج ﷺ، وخرج معه أصحابه الذين رافقوه في أداء هذه العمرة ـ وفيهم عليّ بن أبي طالب ومعه زوجه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين في هودجها وفيهم زيد بن حارثة، وفيهم جعفر بن أبي طالب ـ وخلّف رسول الله ﷺ مولاه أبا رافع على ميمونة ليخرج بها إذا هدأ الناس، فأقام أبو رافع حتى أمسى فخرج بها ومن معها، فأتاه بها بسَرِف، فبنى بها رسول الله ﷺ، ومن غرائب موافقات الأقدار أنها رضي الله عنها ماتت بسرف وفيها دفنت بعد مضي قرابة نصف قرن، فقد قيل أنها توفيت سنة ست وستين، وفي تصاريف الأقدار آيات لله تعالى لا يعلم أسرارها وخفاياها إلا هو عز شأنه ـ

تبعته أمامة ابنة حمزة، وهي تنادي، يا عم، يا عم، فتناولها عليّ رضي الله عنه فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، فحملتها فاطمة معها، حتى إذا دنوا من المدينة، وقاربت الرحال أن تلقي عصى التِسْيار اختصم علي، وزيد، وجعفر رضي الله عنهم، في أيهم هو أولى بأمامة بنت حمزة يكون وليها وراعيها وكافلها، وتكون عنده في أهله وولده، فكلَّم زيد فيها رسول الله ﷺ، وهو وصي حمزة ووديده في الأخوة الإيمانية الخاصة، فقال علي رضي الله عنه: أنا أخذتها وأخرجتها من بين أظهر المشركين، وهي ابنة عمي، وعندي بنت رسول الله ﷺ وهي أحق بها، وقال جعفر رضي الله عنه: هي ابنة عمي، وخالتها تحتي، يعني زوجه أسماء بنت عميس، وهي أخت سلمى بنت عميس، زوج حمزة، وأم ابنته أمامة، وقال زيد رضي الله عنه: ابنة أخي، يعني ما كان بينه وبين حمزة من أخوة الود والمحبة التي عززتها وصية حمزة له لما حضر القتال يوم أحد، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم» فلم تزل أمامة عند جعفر رضي الله عنهما حتى قتل في غزوة مؤتة، رضي الله عنه وقد أوصى بها إلى علي، فمكثت عنده، حتى بلغت فعرضها على النبي ﷺ ليتزوجها، فقال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرضاع» أي لا تحل لي، لأن حمزة رضي الله عنه أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، ثم زوّجها رسول الله ﷺ من سلمة ابن أم سلمة أم المؤمنين وقال ﷺ حين زوج أمامة من سلمة: «هل جزيت سلمة؟» وذلك أن سلمة هو الذي زوج أمه، أم سلمة من رسول الله ﷺ، وكان أكبر من أخيه عمر بن أبي سلمة.

وإنما أرخينا العنان للقلم قليلاً في هذه القصة لما فيها من اللطائف والفوائد النبوية، ولما فيها من ذكر المؤاخاة بين حمزة وزيد رضي الله عنهما منسوبة إلى أن النبي ﷺ قد آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين، فهي من دلائل وقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وقد ذكرها بهذا التصوير الحاكم في كتاب (الإكليل) وأبو سعيد النيسابوري في كتابه (شرف المصطفى) غير أن سند الحديث لم يعرف بالصحة على وجه رجيح، فهو ليس من قواطع النصوص التي يرد بها على من أنكر وقوع المؤاخاة بين المهاجرين

بعضهم مع بعض، وفي طليعة هؤلاء المنكرين الإمام ابن تيمية، قال الزرقاني في شرح المواهب: وأنكر ابن تيمية هذه المؤاخاة بين المهاجرين، خصوصاً بين المصطفى وعلي، وزعم أن ذلك من الأكاذيب، وأنه لم يواخ بين مهاجري ومهاجري، قال: لأنها ـ أي المؤاخاة ـ شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً، ولتتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاته لأحد، ولا لمؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض.

إنكار ابن تيمية المؤاخاة بمكة بين المهاجرين خاصة ورد ابن حجر عليه ومناقشة هذا الرد

قال الزرقاني: وقد ردّه الحافظ ـ أي رد كلام ابن تيمية ـ بأنه ردّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته لعلي لأنه هو الذي كان يقوم به من الصبا قبل البعثة، واستمر ذلك بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد لأن زيداً مولاهم، فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين.

وقد ذكروا في هذه المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض أن النبي ﷺ آخى بين أبي بكر وعمر وبين طلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، كما رواه الحاكم.

وهذا يردّ كلام ابن حجر في رده على ابن تيمية، أو على الأقل يوهنه ويضعفه، لأن ابن حجر يقول في رده: لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض، بالمال والعشيرة فآخى النبي ﷺ بين الأعلى والأدنى.

والمذكور على أنه نموذج للأشخاص الذين آخى بينهم النبي ﷺ أنه آخى بين أبي بكر وعمر، وطلحة والزبير، وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، فأين الأعلى وأين الأدنى في هؤلاء المذكورين، وكلهم أعلون مالاً وعشيرة؟

وفي قول ابن حجر رداً لكلام ابن تيمية: بأنه ردّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ضَعْف، لأنه يقال له وهو الحافظ للنصوص: أين النص الذي رُدّ بالقياس؟ إن كان معوّله على ما رواه الحاكم وأبو سعيد النيسابوري وابن

إسحاق فهو معوّل واهٍ لا يستند إلى رواية صحيحة، ولو كانت هناك رواية صحيحة لذكرها ابن حجر في ردِّه، فلما لم يذكر شيئاً تلوح عليه دلائل الصحة المسلَّمة علم أنه لا رواية صحيحة يعتمد عليها في إثبات المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة، وابن حجر شغوف جداً بتكثير الروايات فيما يعثر عليه منها، والنص الذي يمتنع رده بالقياس والمعقول هو النص القاطع في دلالته على موضوعه.

وأما قول ابن حجر: إن كلام ابن تيمية إغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فيقال في رده: فأين القوة بالمال والعشيرة في مؤاخاة أبي بكر وعمر، وطلحة والزبير، وعثمان وعبد الرحمن وكلهم أقوياء بالمال والعشيرة؟

على أن هذه المؤاخاة التي يقول بها ابن حجر قد تبدلت أشخاصُها في مؤاخاة المدينة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وهي المؤاخاة المجمع على أن النبي ﷺ أمر بها وعقدها بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجري أخاً من الأنصار، فكان أبو بكر الصديق أخاً لخارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي، وآخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الأنصاري، وآخى بين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقْش الأنصاري، وآخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر الأنصاري النجاري، وآخى بين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصاري.

فهل نُسخت المؤاخاة الأولى التي كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض - عند من يقول بها - بهذه المؤاخاة الثانية التي كانت بين كل مهاجري وأنصاري؟ وهذا ما لم نعلمه قولاً لأحد من العلماء.

أما المؤاخاة بين حمزة وزيد - التي قد يتشبث بها من يقول: بالأعلى والأدنى والقوي والضعيف بالمال والعشيرة - فهي من قبيل المؤاخاة الخاصة، كما بيّناها من قبل. وزيد بن حارثة كان من أعلا الأعلياء، وأقوى الأقوياء، لأنه مولى رسول الله ﷺ، فهو هاشمي بالموالاة، ويزيد على ذلك أنه حِبّ رسول الله ﷺ الذي جعل له الله القيام بأمره كله، فالمؤاخاة بينه وبين حمزة

ابن عبد المطلب ليست من باب الأعلى والأدنى، ولا من باب الأقوى والأضعف، لأن علو نسب حمزة وقومه قد أخذ منها زيد رضي الله عنه بنصيب وافر، لأنه مولاهم ومولى القوم منهم.

متابعة ابن القيم وابن كثير شيخهما ابن تيمية في إنكار المؤاخاة بين المهاجرين خاصة

وقد تقيَّل ابن تيمية في إنكاره المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض تلميذه ابن القيم، فقال في (الهدي): وقيل: إنه ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، واتخذ علياً أخاً لنفسه، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بينهم، ولو آخى ﷺ بين المهاجرين كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه، ورفيقه في الهجرة، وأنيسه في الغار، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد قال ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» وفي لفظ «ولكن أخي وصاحبي».

وهذه الأخوة في الإسلام وإن كانت عامة، كما قال ﷺ: «وددت أن قد رأينا إخواننا؟» قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني» فللصدِّيق من هذه الأخوة أعلى مراتبها كما له من الصحبة أعلى مراتبها، فالصحابة لهم الأخوة ومزية الصحبة، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة. إهـ كلام ابن القيم.

وكذلك جرى في شوط متابعة ابن تيمية في إنكاره المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض تلميذه الثاني الحافظ أبو الفداء ابن كثير، فقال في (البداية والنهاية): أما مؤاخاة النبي ﷺ وعليّ فإن من العلماء من ينكر ذلك، ويمنع صحته، ومستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم مع بعض، وليتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري آخر كما ذكر من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، اللَّهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة عليّ إلى غيره، فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة، فآخاه بهذا الاعتبار. إهـ كلام ابن كثير.

وهذا الذي قاله ابن كثير في بيان وجه المؤاخاة - إذا صحت سنداً - بين سيدنا رسول الله ﷺ وعلي بن ابي طالب، وبين حمزة وزيد بن حارثة هو من باب الرعاية الخاصة - كما ذكرناه سابقاً - وليس هو من باب المؤاخاة الملزمة التي كانت بين المهاجرين والأنصار بالمدينة بعد الهجرة.

بيد أن ابن القيم قد ناقض نفسه، فأثبت في كتابه (الهدي) نفسه في الكلام على عمرة القضية عند الحديث في أخذ ابنة حمزة من مكة، واختصام عليّ وزيد وجعفر في أيهِّم يكون وليها وكافلها، وتكوَّن عنده ما نفاه في كتابه (الهدي) نفسه عند الحديث عن المؤاخاة، الذي أنكر فيه أشد الإنكار المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، فقال مشيّداً لإثبات المؤاخاة بين المهاجرين بمكة: وقول زيد: (ابنة أخي) يريد الإخاء الذي عقده رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة لما واخى ﷺ بين المهاجرين، فإنه واخى بين أصحابه مرتين، فواخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وعبدالله بن مسعود، وبين عبيدة ابن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله.

تناقض ابن القيم إذْ أثبت ما نفاه من مؤاخاة المهاجرين خاصة

وفي المرة الثانية آخى بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك بعد مقدمه المدينة. إهـ.

وهذا تناقض عجيب من ابن القيم، فهو ينفي أمراً من أمور تاريخ الإسلام وأحداثه، ويدعم نفيه وإنكاره بأدلة يسوقها وهو مقتنع بها، ثم هو يثبت هذا الأمر، ويشيّد إثباته بأدلة يذكرها وهو مقتنع بها، ولله في خلقه آيات تدل على أن الكمال المطلق له وحده، والإنسان هو الإنسان.

وقد عرض الإمام عز الدين بن عبد السلام - كما ذكر ذلك الزرقاني - لقضية المؤاخاة بما يشعر بأنه لا مانع من وقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض في مكة قبل الهجرة، ومن وقوعها بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، والمؤاخاة الأولى هي المتنازع في وقوعها من النبي ﷺ بين العلماء،

رأي العز بن عبد السلام في إمكان وقوع المؤاخاة مرتين، مرة بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة ومرة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة

وهي التي أنكرها ابن تيمية وزعم أنها من الأكاذيب، وأما المؤاخاة الثانية وهي التي عقدها رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار فهي موضع إجماع بين العلماء.

ويؤخذ من كلام العز بن عبد السلام أن المؤاخاة في حالتيها وإن اقتضاها أصل الإسلام إلا أنه لما كان المقصود بها المعاضدة والمناصرة بين كل مسلم ومسلم فهي أخوة ناشئة عن الإسلام، أكدها أمر النبي ﷺ أمْر نَدب فكانت بهذا الأمر الندبي في أعلا مراتب الأخوة المتناصرة الناشئة بالإسلام، فأمر النبي ﷺ بالأخوة في قوله: و«تآخوا، أخوين، أخوين» ليس مُنشأ لشيء لم يكن موجوداً بين المسلمين، وإنما هو مؤكد لأمر أنشأه الإسلام، وهذا التأكيد تضمَّن أن أخوة الالتزام التي تضمّنها أمر النبي ﷺ فيه إلى جانب الالتزام مواعدة بالثواب والخير وترتب الآثار، فتكون الأخوة التي أنشأها الإسلام وأكدتها المواعدة أعلى مرتبة من مراتب الأخوة التي لم تكن معها مواعدة، لأنها تضمنت طلباً بالمواعدة لم يكن موجوداً بأصل الإسلام.

رأي العز بن عبد السلام في إمكان وقوع المؤاخاة بصورتيها

بيد أن العز بن عبد السلام رحمه الله لم يعرِّج على نص نقلي يدلُّ على أن النبي ﷺ عقد مؤاخاة بين المسلمين بمكة قبل الهجرة، وأنه آخى بين نفسه الزكية وبين عليّ رضي الله عنه، وهذه المؤاخاة هي موضع النزاع بين العلماء وهي التي أنكرها ابن تيمية ومن تبعه في هذا الإنكار.

وكلام عز الدين بن عبد السلام إنما ينصب على إمكان توجيه الأمر بالمؤاخاة أو عقد ميثاقها بين المسلمين قبل الهجرة وبعدها، غير أن كلامه ـ رحمه الله ـ خرج في أسلوب لا يخلو من غموض وإغراب أشبه بالتفلسف الخطابي، وفيه ما لا يقنع ولا يسلم له.

قال رحمه الله: الأخوة حقيقية ومجازية، فالحقيقية المشابهة، يقال هذا أخو هذا، لأنه شابهه في خروجه من البطن الذي خرج منه، ومن الظهر أيضاً، وآثارها المعاضدة والمناصرة، فتستعمل في هذه الآثار من باب التعبير بالسبب عن المسبب، ومنه قوله تعالى: «إنما المؤمنون أخوة» هو خبر معناه

الأمر أي لينصر بعضهم بعضاً، وقوله ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن» خبر أيضاً بمعنى الأمر.

ولما انقسمت الحقيقية إلى أعلا المراتب كالشقيق، وإلى ما دون ذلك، كالأخ للأب أو للأم كانت المجازية كذلك، فالأخوة الناشئة عن الإسلام هي المرتبة الدنيا من المجازية، ثم إنه لما كملت بالأخوة التي سنّها رسول الله ﷺ بمؤاخاته بين جماعة من أصحابه، ومعناها أنه ـ ﷺ ـ أقر أمر ندب أن يعين كل واحد أخاه على المعروف، ويعاضده وينصره، فصار المسلمان في هذه الأخوة الثانية في أعلا مراتب الأخوة المجازية كالشقيقين في الحقيقية.

فإن قيل: هذه الأخوة مستفادة من أصل الإسلام، فإنه يقتضي المعاونة على كل أمر؟ جوابه أن الأمر الثاني مؤكد لا منشىء لأمر آخر، لأنه لا يستوي مَنْ وعدته بالمعروف من المسلمين ومن لم تعده، فإن الموعود قد وجد في حقه سببان، الإسلام والمواعدة، وهذه الأخوة هي التزام ومواعدة، ولا شك أن طلب الشارع للوفاء بالخير الموعود به أعلى رتبة من طلب الخير الذي لم يعد به، فقد تحقق طلب لم يكن ثابتاً بأصل الإسلام. اهـ كلام العز.

منهج ابن إسحاق في المؤاخاة وظاهرة التشيع في هذا المنهج

ومن أغرب وأعجب ما جاء في مؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض ما ذكره ابن إسحق في مغازيه وسيرته ـ وهي من المراجع لأحداث السيرة النبوية، بل هي من أهم المصادر للكاتبين في وقائع السيرة الشريفة، قديماً أو حديثاً ـ وذلك إذ يقول: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال ـ أي رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: «هذا أخي» فكان رسول الله ﷺ، سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير، ولا نظير من العباد، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعمّ رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، ولذلك أوصى إليه حمزة يوم أحد حين حضره القتال، إن حدث به

حادث الموت وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين، الطيار في الجنة، ومعاذ بن جبل أخو بني سَلِمة أخوين.

قال عبد الملك بن هشام في تهذيبه المغازي الإسحاقية: وكان جعفر ابن أبي طالب غائباً يومئذ في الحبشة.

وهذه غمزة من ابن هشام لابن إسحق، فكأنه يقول له: أين جعفر وقت هذه المؤاخاة إنه بعيد الدار في غيبة لا يدري مداها، ففيم كانت هذه المؤاخاة بين رجلين أحدهما هاشمي مهاجري، غائب غيبة بعيدة مجهولة العودة والآخر أنصاري، وحكمة مشروعية المؤاخاة من الترافق والتعاضد والمؤاساة على الحق والمعروف والموادة في العشرة لا تتحق بين غائب لا يعرف متى يؤوب، وبين حاضر يحبس على مؤاخاة ربما لا تتحقق.

وجعفر بن أبي طالب لم يَعُدْ من الحبشة إلا بعد فتح خيبر، في السنة السابعة من الهجرة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بدأت في السنة الأولى من الهجرة وهم يبنون المسجد الأعظم، وقد قدم جعفر على رسول الله ﷺ ولواء النصر بفتح خيبر يخفق على رؤوس المسلمين، وكان فرح رسول الله ﷺ بقدوم جعفر عليه عظيماً، فقد استقبله والتزمه وقبّل بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسرّ، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟».

ولا يحتاج ما في كلام ابن إسحق من تنفس شيعي متدسس، تفوح من ألفاظه رائحته إلى كبير عناء في الكشف عنه، وهو مما أبن به، وإن حاول ابن إسحاق إخفاءه بما أضفاه على عباراته من ألفاظ لها دوي الحق وجهارته وقوته، وبما تطوّع به في غير حاجة إليه من إظهار التبرئة لنفسه أن يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل. وليس فيما ذكره مسنداً إلى رسول الله ﷺ، ولم ينفرد به من قوله ﷺ لأصحابه بعد الهجرة: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» ما يشعر ولو تلميحاً بتهمة تقتضي التبرئة منها، ولعله قصد به التمهيد والتوطئة إلى قوله: فأخذ بيد علي، وقال: «هذا أخي».

وقد وهّن ابن حجر في تقريبه كلام ابن إسحاق، ولم تخدعه تبرئته

لنفسه، فقال: وابن إسحاق متّهم بالتشيّع وهو مدلِّس، ولم يذكر لكلامه سنداً، أي فلا اعتداد به لقوة ضعفه.

وهذا الذي زعمه ابن إسحاق في المؤاخاة مصدّراً بمؤاخاة رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه، وبمؤاخاة حمزة بن عبد المطلب لزيد بن حارثة إنما كان في مكة قبل الهجرة ـ عند من يقول بمؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض ـ وهي التي أنكرها ابن تيمية في ردِّه على ابن المطهِّر الرافضي الكذّاب، وقال عنها ابن تيمية: إنها من الأكاذيب.

بيد أن عبارة ابن إسحق بيّنة في أن هذه المؤاخاة بين رسول الله ﷺ وعليّ رضي الله عنه، وبين حمزة وزيد بن حارثة إنما وقعت بالمدينة بعد الهجرة كما قيدها بذلك ابن حجر في الفتح عند سوقه لكلام ابن إسحق.

ولا وجه لهذه المؤاخاة بين مهاجري ومهاجري بعد الهجرة بالمدينة، ولا تظهر لها حكمة تقتضيها، ولا تنطبق عليها حكمة مشروعية المؤاخاة.

ورسول الله ﷺ وهو سيّد المرسلين، وإمام المتّقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد أخ لجميع المؤمنين، سواء منهم من تميز بشرف الصحبة مع الإخاء الإيماني أم من لم يكن له فضل الصحبة، ولكن كان له الإخاء الإيماني الذي يعم جميع المؤمنين على مدى الأزمان والأجيال، ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «وددنا لو رأينا إخواننا» فقال له أصحابه: أو لسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني».

وقفة مع ابن إسحاق في مناقشة منهجه في المؤاخاة وبيان ما فيه من ضعف

وابن إسحاق يعمد في إخفاء تشيّعه إلى أسلوب عجيب، فهو يهمل صور المؤاخاة التي صحَّ سندها صحة لا سبيل إلى الطعن فيها، ويذكر صوراً مشتبهة بألفاظ لها رنين، وأوصاف لا يردها أحد عن موصوفها، ولكنها تخفي بين طياتها ما يرمي إليه المتشيِّعون، فنراه يعمد إلى سيد الخلق فيذكره ﷺ في صدر عبارته التي افتتح بها حديث المؤاخاة بنعوت هو ﷺ أهلها وصاحبها وأحق بها، بل هو ﷺ أهل لما هو أخطر وأعظم منها؛ تمهيداً وتوطئة لمؤاخاته

علياً، وعلي رضي الله عنه في شرفه وسابقته وسامق فضله أهل لهذه المؤاخاة التي كانت له مع أكرم البشر ﷺ قبل أن يبعث إلى الناس نبياً ورسولاً، واستمرت في عظمتها محفوفة بحنان الأبوة، وعواطف التربية حتى جاء الإسلام فتسامت بالإيمان والحب والفداء والإخلاص، ولكنها كانت وبقيت أخوة خاصة، فعليّ رضي الله عنه كان منذ طفوليته محبواً من رسول الله ﷺ بما هو فوق أخوة الإيمان والمعاضدة والمناصرة، لأنه نشأ في حَجْر رسول الله ﷺ مع أولاده في بيته، ينفق عليه ويتعهده بالتربية وغرس أكرم المكارم في نفسه حتى نشأ في الإسلام وحيداً في فضله وشرفه، لا ضريب له في شمائله.

ثم يعمد ابن إسحق إلى سيد الشهداء، فتى الفتيان، أسد الله وأسد رسوله، وأنضر أغصان دوحة عبد المطلب بن هاشم وأشجع بني عبد مناف، عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب، ويذكر إخاءه لزيد بن حارثة حِبّ رسول الله ﷺ ومولاه وخاصته، وزيد في فضله وشرفه واختصاصه برسول الله ﷺ، وشدة محبته له أهل لإخاء حمزة رضي الله عنهما، ولكن هذه الأخوة بينهما كانت أخوة خاصَّة، تقصد إلى الرعاية وحسن المعاشرة، كما ذكرناه سابقاً، وأوضحنا آثارها، ولم تكن من قبيل الأخوة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ليترافقوا بينهم ويتعاضدوا ويتناصروا.

ثم وثب ابن إسحاق إلى ذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار دون تمهيد أو توطئة؛ بعد ذكر المؤاخاة بين سيد الخلق محمد ﷺ وعليّ رضي الله عنه، وبين حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وبين جعفر بن أبي طالب، وهو في غيبته البعيدة المدى، المجهولة الأوبة، ومعاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، فذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وذكر كل مهاجري كان أخاً لأنصاري.

وكأن ابن إسحق أجدب فكره وعقم علمه، ولم يجد فيهما شواهد ومثلاً للمؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض غير ما ذكره من مؤاخاة

رسول الله ﷺ علياً، ومؤاخاة حمزة زيداً، وقد بيّنا بما لا يدع مجالاً للشك أن رعاية النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه، وحدبه عليه كان من قبيل رعاية التربية وحدب الكفالة، وإخلاص المودّة التي غمره بها ﷺ منذ آواه إلى كنفه، وجعله مع أولاده في بيته، ينفق عليه كما ينفق عليهم، وهو في مَيْعة الطفولية حتى مَنّ الله عليه بالإسلام، وشرفه بالسبق في مضمار الإيمان برسالة الخلود التي جاء بها محمد ﷺ ومشى في مدارجها حتى بلغ مدرج الرجولية، فكان صنديدها، وبطل الجهاد لإعلاء كلمتها.

وكان رضي الله عنه بحكم ما أضفاه عليه رسول الله ﷺ من حب أخوي، ورعاية أبوية، وتقدير لسوابقه ومواقفه البطولية أخص الناس به فيما ليس لغيره مجال فيه، من أمور تخص رسول الله ﷺ في حياته الخاصة وحياة أسرته، فكانت أخوته للنبي ﷺ أخوة خاصة، نبتت جذورها مع مدارج التربية الأبوية والرعاية الكافلة، والمحبة الوارفة.

وبيّنا أن الأخوة التي كانت بين أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحِبّه كانت من قبيل المودة التي تكون بين الصديقين، والرعاية التي تكون بين الودودين إذا مزج الصفاء الروحي بين روحَيْهما، فكانا في وفاء الرعاية والمعاضدة كأنهما نفس واحدة في جسدين.

وبيّنا أن المؤاخاة المزعومة بين جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين، الطيار في الجنة، وهو في غيبته التي طال أمدها ومعاذ بن جبل الأنصاري مؤاخاة لا محصَّل لها، فهي إن كانت فكأنها لم تكن، لأن جعفراً رضي الله عنه عاد من الحبشة مع أصحابه بعد فتح خيبر سنة سبع من الهجرة، واستشهد سنة ثمان من الهجرة في غزوة مؤتة، فبين عودته واستشهاده بضعة شهور، وعاش معاذ رضي الله عنه بعد جعفر إلى سنة عشر من الهجرة، وتوفي بالطاعون في الشام، وكان يوم توفي في ريعان الشباب وميْعة الفتوّة، إذ لم يتجاوز سنه الرابعة والثلاثين.

ومما يوهّن قول ابن إسحاق في مؤاخاة جعفر ومعاذ رضي الله عنهما أن

الواقدي ـ ولعله أرسخ قدماً في السير والمغازي من ابن إسحاق ـ ينفيها نفياً باتاً، فابن عبد البر يقول في (الاستيعاب): وآخى رسول الله ﷺ بين معاذ ابن جبل وعبدالله بن مسعود، ثم قال ابن عبد البر: قال الواقدي: هذا ما لا اختلاف فيه عندنا، ثم حكى ابن عبد البر قول ابن إسحق فقال: وقال ابن إسحق: آخى رسول الله ﷺ بين معاذ بن جبل وبين جعفر بن أبي طالب.

نفي الواقدي المؤاخاة بين جعفر ومعاذ ابن جبل

وقال صاحب «العيون»: وأنكر الواقدي هذه المؤاخاة لغيبة جعفر بالحبشة، وعند سنيد أن المؤاخاة كانت بين ابن مسعود ومعاذ بن جبل.

وكان ابن إسحق في قفزته إلى الحديث عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حفيظاً على إثارة ما بدأ به حديث المؤاخاة من رهج التشيع، فذكر أول ما ذكر في هذه المؤاخاة أبا بكر الصدِّيق، وخارجة بن زيد، رضي الله عنهما، وأراد أن يعرّف بالصدِّيق، فقال: وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابن أبي قحافة وخارجة بن زيد، أخوين.

وتعريف الصديق بعد ذكره باسمه، وأخص خصائصه في الإسلام، والتَّرضي عنه بأنه (ابن أبي قحافة) تعريف يدعو إلى التعجب، لأن ابن إسحق عرّف أبا بكر بذكر خصيصته العليا التي لا يشاركه فيها أحد من المؤمنين إلا بضرب من الإلحاق والمجاز، فقال وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ ابن أبي قحافة ـ وخارجة بن زيد أخوين، فما قيمة قوله في التعريف (ابن أبي قحافة)؟ وهو وإن كان زيادة في التشريف فإنه لا فائدة له في التعريف، فهو من نافلة القول، لأن الصدِّيقية التي عرّف بها ابن إسحق أبا بكر بن أبي قحافة تطوي تحت جناحيها جميع خصائص أبي بكر في فضله وتقدمه على الأولين والآخرين من أتباع الأنبياء والمرسلين في رسوخ اليقين، لأنه رضي الله عنه كان بهذه الصدِّيقية سيد المؤمنين، والرفيق الحميم في الهجرة التي فرق الله بها بين الحق والباطل، وهو بهذه الصدِّيقية الأنيس في الغار الذي جعل نفسه فداء لرسول الله ﷺ، فما هذا التعريف الأجوف لقمة الفضل الأعرف الأشرف؟

وصنيع ابن إسحق في سياقته حديث المؤاخاة ـ وهي من أهم وأعظم أحداث بناء المجتمع المسلم في مستقره الجديد منساباً إلى مستقبله البعيد ـ يحمل في حناياه وهج تنفّسه بِرِئة شيعية، والإنسان في عقله وإسلامه يمكن أن يكون محباً غير متعصب، وإلّا فهل ضاق علم ابن إسحاق بأحداث السيرة النبوية ـ وهو حامل لوائها، وإمام رواياتها ـ أن يجد في محصوله الروائي الضخم شواهد ومثلاً للمؤاخاة بين المهاجرين بعضهم لبعض، ما دام هو من القائلين بها المشيدين لبنيانها ـ غير ما ذكر من مؤاخاة رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه، ومؤاخاة حمزة بن عبد المطلب زيد بن حارثة رضي الله عنهما، كما وجد غيرهُ من القائلين بهذه المؤاخاة؟

تهافت كلام ابن إسحاق في الحديث عن مؤاخاة المهاجرين خاصة وعدم جدواه

وقد ذكرنا ما ذكره ابن عبد البر من المُثُل والشواهد لهذه المؤاخاة مؤيداً لما ذكره بحديث الحاكم والترمذي عن عبدالله بن عمر من طريق جُمَيع ابن عمير التيمي، وبيّنا ما فيه في مكانه.

ثم سكتت حماسة ابن إسحاق ليخلص من مضيق مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض التي لم يسعفه فكره بغير ما سنح له، فذهب إلى الحديث عن مؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، وذكر منها مؤاخاة جعفر بن أبي طالب معاذ بن جبل، وقد كشفنا عنها وبيّنا ما فيها من ضعف يشكك في وقوعها.

ثم أخذ ابن إسحاق يذكر بعض أسماء المتآخين في مؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، وذكر منهم مَنْ قيل إنه آخى بينهم في مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض غير من ذكره أخاً له في المؤاخاة الثانية، فقال: كان أبو بكر الصديق، وخارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي ـ أخوين، وقد كان أبو بكر الصدِّيق في مؤاخاة المهاجرين خاصة أخاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الأنصاري الخزرجي أخوين. وقد كان عمر رضي الله عنه أخاً لأبي بكر الصديق. وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن الربيع الأنصاري الخزرجي أخوين ـ وقد كان عبد الرحمن بن عوف في مؤاخاة المهاجرين أخاً لعثمان بن عفان ـ والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة ابن وقش، أخو بني عبد الأشهل أخوين. وقد كان الزبير بمكة أخاً لطلحة ابن

عبيد الله، وعثمان بن عفان، وأوس بن ثابت الأنصاري النجاري أخوين - وقد كان عثمان بن عفان في مؤاخاة المهاجرين خاصة أخاً لعبد الرحمن ابن عوف، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين - وقد كان طلحة في مؤاخاة مكة أخاً للزبير بن العوام.

ولا ندري هل كانت المؤاخاة بين المهاجرين بمكة - عند من يقول بها- قاصرة على من ذكرهم ابن إسحاق، ولم تقع بين غيرهم من سائر المؤمنين في مكة قبل الهجرة؟ أو أن ابن إسحق أراد ألا يستوعب، واقتصر على ذكر من يؤدي غرضه، ويحقق ما يبغي من أن رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وهو من لا خطير له ولا نظير كان أخاً لعلي رضي الله عنه في المؤاخاة بين المسلمين سابقاً ولاحقاً، والله تعالى هو العليم بذات الصدور.

وممن جرى من المتقدِّمين على القول بوقوع المؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض محمد بن سعد تلميذ الواقدي راوياً لذلك عن شيخه الواقدي.

ابن سعد يصرح عن شيخه الواقدي بأن مؤاخاة المهاجرين خاصة كانت بالمدينة والرد على ذلك

بيد أن رواية الواقدي بأسانيدها المتعددة كما ذكرها تلميذه محمد بن سعد في الطبقات أصرح في الغرابة، وأدعى إلى العجب، لأن هذه الرواية صريحة في أن هذه المؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض إنما كانت بالمدينة بعد الهجرة، وهذا عجيب في غرابته، لأنه لا وجه لعقد مؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض بالمدينة بعد الهجرة.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر- يعني شيخه الواقدي - حدثنا محمد بن عبدالله عن الزهري، قال: وحدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: وحدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت قال: وحدثنا موسى بن ضَمْرة بن سعيد، عن أبيه، قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحق والمؤاساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعون رجلاً من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، ويقال: كانوا مائة، خمسون

من المهاجرين، وخمسون من الأنصار، وكان ذلك قبل وقعة بدر، وأنزل الله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾[1] فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه.

فقول الرواية في جميع أسانيدها: لما قدم رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض قول عجيب، لم نره قولاً لأحد ممن ذهب إلى القول بوقوع مؤاخاة بين المهاجرين خاصة، بعضهم لبعض، لأن المؤاخاة كانت للارتفاق والمعاضدة والمناصرة والمؤاساة، والمهاجرون بعد هجرتهم إلى المدينة لا يختصون بهذه الأمور التي جعلها الشارع حكمة المؤاخاة، وإنما يختصون بها في مكة قبل الهجرة، فإن صح وقوع مؤاخاة خاصة بينهم فموضعها مكة، وزمنها قبل الهجرة، إذ لا وجه مطلقاً لعقد مؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم لبعض في المدينة بعد الهجرة، لأن المهاجرين تركوا أموالهم وراءهم بمكة، وفرّوا إلى الله بدينهم وعقيدتهم، فكانوا أحوج إلى المؤاخاة مع الأنصار لتتحقق حكمة المؤاخاة بالمؤاساة والتعاضد والتناصر والارتفاق.

وهذا هو ما صرّح به القائلون بالمؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض، وقد نقله ابن حجر في الفتح عن ابن عبدالبر، وصدّر به الزرقاني في شرح المواهب فقال: كانت المؤاخاة بين الصحابة مرتين، الأولى بمكة قبل الهجرة، بين المهاجرين بعضهم بعضاً على الحق والمواساة، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، كما رواه الحاكم، وهذا الحديث ضعيف، أخرجه الحاكم من طريق جُمَيع التيمي عن عبدالله بن عمر، وفيه أن علياً رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إنك آخيت بين أصحابك، فمن أخي؟ قال ﷺ لعلّي: «أنا أخوك» وجُمَيع ابن عُمَير متكلم فيه بالجرح، قال فيه البخاري: في أحاديثه نظر، ووافق البخاري على ذلك ابن عدي، وقال فيه ابن نمير: كان من أكذب الناس، وقال فيه ابن حبان: كان رافضياً يضع الحديث، وأهون ما قيل فيه ما قاله

(١) آخر آية من سورة الأنفال.

ابن حجر في التقريب: صدوق يخطىء ويتشيع.

وقد سبق أن ذكرنا أن أحد رجال سند هذا الحديث في رواية الترمذي حكيم بن جبير، وهو ضعيف، رمي بـالتشيِّع كـما قال صـاحب تحفة الأحوذي، فقول الترمذي فيه: حسن غريب، لا ينجيه من حكم الضعف، ولا اعتبار بتصحيح الحاكم فإنه معروف بالتساهل في التصحيح، فالحديث سواء أكان برواية الحاكم أم هو برواية الترمذي لا تقوم به حجة.

النوع الثاني من المؤاخاة
المؤاخاة الاجتماعية التكافلية

بيّنا فيما سبق أن حياة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الخاص قامت على دعائم الحب الذي عقد الإيمان أواصره، فبلغ بأفراد هذا المجتمع أن جعلهم في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى عضو منه ألماً سَرَى ذلك الألم إلى سائر أعضاء الجسم، وإذا شعر قلب أي فرد من أفراد هذا المجتمع بفرحة غبطة انتشى بها سروراً كل قلب بين جوانح كل مسلم.

كان الحب الموحِّد للإحساس والشعور أساساً للمؤاخاة في نوعيها الإيماني والاجتماعي

وبلغ هذا الحب بأفراد هذا المجتمع أن جعل وشائج المودة والإخاء مشاركة في الحب، يتقاسمها المؤمنون فيما بينهم، تراحماً، ومناصرة، ومعاضدة، وارتفاقاً، وكان هذا الحب عنصراً أساسياً في تكامل الإيمان، فلا يكمل إيمان مؤمن إلا إذا جعل من هذا الحب الأخوي ميزاناً لا تميل إحدى كفتيه إلى جانب واحد، فالذي ينبغي أن يكون في قلب المؤمن لأخيه المؤمن من الحب على مثل ما في قلبه لنفسه، لأن الدعامة التي ارتكز عليها بناء هذا الحب في نفس المؤمن هي النُّصفة فيه حقاً واجباً لا ثنية فيه، وكان شعار هذه النُّصفة قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ومعنى هذا أن يكون ارتكاز الإيمان في نفس كل مؤمن على نوع من الحب لأخيه المؤمن يتساوى فيه الشعور والإحساس بينهما، وعندئذ يرتفع من البين (أنا وأنت) و(لي ولك) ويحل محلهما: أنا أنت في الآمال والآلام، وتجري حياتهما على هذا الأساس سوية السلوك، موحدة الهدف والوسائل.

وقد كانت الأخوة الإيمانية التي أسسها هذا الحب مظهراً من أعظم مظاهر وشائج الحياة الاجتماعية التي ارتبط بها هذا المجتمع في تحركاته نحو النمو الذاتي، فبلغت به مبلغاً عجزت البشرية أن تحقق مثله في تاريخها بين أفراد أي مجتمع آخر من مجتمعاتها العقدية والاجتماعية.

كان مجتمع هذا الحب مجتمع الفضائل في أرفع صورها

فكان هذا المجتمع المسلم القائم على الحب مجتمعاً صافياً من كدورة (الأنانية)، لا يعرف الكراهية والتغالب على مظاهر الحياة، ولا يعرف التباغض والحقد، ولا يعرف الحسد الموبق، والتظالم المهلك، فالمؤمن في هذا المجتمع أخو المؤمن، لا يظلمه ولا يخذله. وكان هذا المجتمع المسلم مجتمع الصفح والعفو، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وكان مجتمع الصبر والاحتمال، ومجتمع التربية الذاتية، يربي نفسه ويهذبها ليعدّها لمستقبل طويل المدى، عريض المأوى.

بيد أنه كان مجتمعاً يعيش في جو خانق من الكراهية له ولرسالته الإصلاحية، والفكرية، والكيد لدعوته، دعوة الحق والخير والنور والهدى، ولكنه اعتزل هذا الجو البغيض، واعتكف في مدرسته الأولى (دار الأرقم)، كريماً على نفسه، يتلقّى وحي ربه بتوحيده وإخلاص العبودية له حتى أسس عقيدتها التوحيدية، وشيّدها، ورفع سَمْكها، وأعلى بنيانها، ونصب للسالكين منائرها، وأقام لهم معالمها، ومهد فجاجها، وأنار للسارين سبلها، ووطّد للعقول أدلتها وبراهينها بعد أن أطلق هذه العقول من أغلالها، وحررها من ربقة مواريث الأسلاف الفكرية الجاهلة، تلك العقول التي كانت تعيش في عماية التقليد البليد، وحماقة الوثنية البلهاء ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[١] بلى، ﴿وإنا على آثارهم مقتدون﴾[٢].

يحملون بين جوانحهم قلوباً لا تفقه الحق، ولا تعرف الخير، وفي حنايا هاماتهم عقول لا تفرق بين ضياء الشمس وظلمة الليل، فهم كما

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٠).
(٢) سورة الزخرف آية (٢٣).

وصفهم الله عز شأنه: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[1] كلما دعاهم داعي الحق والهدى أصرُّوا على عنادهم وفجور كفرهم، وتولَّوا مدبرين، وهم يجمحون.

كانت الهجرة تطلعاً إلى جو ينمو فيه الحب والصفاء

فلما استيأس المجتمع المسلم أن يجد عند مجتمع الحقد والكراهية للحق في القرية الظالم أهلها منفذاً للهداية تدخل منه إلى قلوبهم، بعد أن أكمل بناء العقيدة التوحيدية شامخاً، ودعمه بركائز من البراهين والدلائل لا تنقض عراها ولا تحل وثائقها، لم ير بدّاً من التطلُّع إلى جو نقي من الحقد والكراهية للحق ونور الهداية، تتنسم فيه الدعوة إلى الله نسيم الحب الطهور والإخاء الصفيّ، وتتنفس فيه الرسالة الخالدة الخاتمة أريج الحياة الكريمة، حيث تجد عقولاً تعقل، وقلوباً تفقه، وأبصاراً ترى نور الهداية مشرقاً، وضياء الحق ساطعاً، فتقبل عليه، وتجد آذاناً تسمع خرير غيث الإيمان وهو يتنزل في أودية الأفئدة نميراً مصفّى، فيطربها وتسرع إليه منتشية بلحنه، مأخوذة برشف حلاوته، فكانت الهجرة إلى المدينة بعد البيعة الكبرى هجرة ليس لها زاد تحمله معها إلا أخوة الإيمان، القائمة على دعائم الحب، فلا مال، ولا نسب، ولا سبد ولا لبد.

فالمهاجرون إن كانوا جماعة اعتقبوا مركباً إن وجـدوه، وإلا ففي أقدامهم مراكب لهم، قُوتُهم ورق الأشجار، ومص النوى، وإن كانوا أفراداً ففي الصبر على اللأواء متاع للمقوين.

الهجرة غيّرت مجرى الحياة في مستقبل أعداء الرسالة الخالدة

ووصلوا إلى مستقرهم أفراداً وجماعات فتلقّاهم إخوة البيعة الكبرى ومن آمن معهم من أقوامهم وعشائرهم، يتنافسون في إنزالهم منازلهم حتى استهموا عليهم حباً لهم ووفاء بعهدهم، وقدم على أثرهم رسول الله ﷺ، ونزل حيث أنزله الله تعالى، وازداد الإقبال على قبول دعوة الحق، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وقد أسلم أهله، وانضَوا تحت لواء الرسالة الخالدة إلا قليلاً ممن عسا في الجاهلية، وأدركته سن اليأس العقلي، ويبس

(١) سورة الأعراف آية (١٧٩).

جلده على شِرْكها ووثنيتها فأصبح كالشن المخرّق، وارتد بعد علم إلى جهالة لا تعقل، لا يدري ما يقول، ولا يقول ما يعقل، فكان مع أمثاله أسطورة أثرية تمثل تفاهة الشرك وحماقة الوثنية في جانب منهار من المجتمع المدني، تئل إليهم شراذم اليهود الذين شرقوا بالمجتمع المسلم منذ أن تمّت البيعة الكبرى بمكة، وعاد بآثارها الإيمانية الغامرة الأنصار إلى مدينتهم، يدعون إلى الله هداة مهديين، ويتحدّثون عن رسول الله ﷺ حديثاً نسجه الحب والاعتزاز، وهم يعلنون انتظار مقدمه ليقود المجتمع المسلم إلى آفاق العزة والنصر المبين، ويتسمع اليهود إلى أحاديثهم وما فيها من تعظيم لرسول الله ﷺ، وتقدير لخطره وسمو مكانته في أنفسهم، وما يكنونه له ولأصحابه من حب فاق حبهم لأنفسهم وأبنائهم وعشائرهم، فيتميزون غيظاً، وينفطرون حقداً، ويتحرّقون حنقاً، ويتهامسون بما ينتظرهم من مستقبل مظلم، ويقرؤون في لوح الغيب مستقبل المجتمع المسلم مضيئاً مشرقاً، سيّاحاً سروباً، ويحسون شدة الخناق عليهم، ويشعرون بما ينتظر مواليهم من الأوس والخزرج من سيادة في مدينتهم، وقد كانوا من قبل تابعين لهم، يعظّمونهم ويعرفون لهم فضلهم عليهم بالعلم والمعرفة لأنهم أهل الكتاب الأول، ويعرفون لهم امتيازهم عليهم في الثراء وكثرة الأموال، ويعرفون لهم فوقهم عليهم في طرائق اكتساب هذا المال ووسائل إنمائه بالتجارة والزراعة والصناعة.

وها هم أولاء الموالي قد شمخوا بآنافهم، وتساموا عليهم، ينقضون عرى فضلهم عليهم في العلم والمعرفة إذْ جاءهم العلم وجاءتهم المعرفة سلْسلاً من نمير السماء، فاستغنوا عنهم بما فتح الله لهم من أبواب الهداية المسلمة بما جاءهم به خاتم النبيين محمد ﷺ، والعلم والمعرفة هما أساس التبعية التي كانت تجرُّهم إليهم.

فإذا علم هؤلاء الموالي من العلم الإلهي، وعرفوا من المعرفة الربانية ما يقيمون به صرح حياتهم الاجتماعية والاقتصادية فماذا بقي لليهود عليهم من سلطان؟ لا شيء، لا، بل إن اليهود أصبحوا يعيشون في قلق بالغ واضطراب نفسي يخشون أن تدور عليهم دائرة السَّوء، فيكونوا تابعين بعد

أن كانوا متبوعين، وطالبين خضّعاً بعد أن كانوا أعزة مطلوبين، وسائلين مُسْتَجْهَلين بعد أن كانوا علماء مسؤولين، ومحتاجين عالة بعد أن كانوا سادة عائلين، بل يخاف أن تنقلب عليهم الحياة في تصاريفها كلها فيصبحوا سوقة خدمة بعد أن كانوا قادة مخدومين، فكيف المخرج من هذا المأزق الذي أدخلهم في مضايقه الحقد الأسود والحسد اللعين؟ وإلى أين يكون المهرب وقد استحكمت حول تراقيهم حلقات الذل والهوان؟

ولا سيما وقد قدم محمد ﷺ على أصحابه، وأخذ بيده زمام مجتمعه المسلم، ينمّيه ويقويه ويرشده.

وها هوذا مجتمعه المسلم يزداد كل يوم عدداً وقوة ونظاماً، يقيم حياته على أسس من الخير والحق والهدى والرشاد والحب والعزة والعلم والمعرفة، واستقلال الرأي وكرامة الفرد والجماعة.

وها هي ذي قريش بهيلها وهيلمانها، وعتوها واستكبارها، وفجور ملئها تنتفض فرقاً، وتتزايل مفاصلها رعباً من محمد ﷺ وأصحابه الذين ألقوا إليه مقاليد أمورهم، وسلموا له زمام طاعتهم في الشدة والرخاء، يحاربون من يحارب، ويسالمون من يسالم، وقد عاهدوه أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وذراريهم ويفدون دعوته بكل ما يملكون، ولو أتى على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

لا، ليس هذا فقط هو ما يتوجس منه اليهود خيفة وتتطاير منه عقولهم رعباً، بل الخوف كل الخوف أن يجتذب محمد ﷺ إلى حظيرة دعوته، عباهلة اليهود وساداتهم في العلم والمعرفة فيؤمنوا برسالته ويصدقوه في دعوته ـ وقد فعل ذلك سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم عبدالله بن سلام، وتبعته عمته خالدة فأسلما أول ما سمعا بمقدم رسول الله ﷺ، وفي هذا الطامّة الكبرى التي لا مدفع لها، ولا طاقة لليهود على ردّها في حرب مواجهة بالسلاح، فماذا إذاً؟ وتدسّسُوا إلى نفايـات من خلّفتهم حروب الأوس والخزرج قبل دخول الإسلام عليهم ممن بقي على شركه ووثنيته، فأفضوا إليهم بذات صدورهم، وحرضوهم على أن يقفوا معهم في وجه هذا المجتمع

المسلم القهّار السحوق.

وتفقّأ بيض نقائمهم على أن يدفنوا رؤوسهم المخادعة، فلا يروا ولا يسمعوا، وزقزق «بوم» النفاق يومئذ، وهو منتوف الخوافي والقوادم، ضعيف مستضعف، سقيم هزيل، ورنق عليه طائر شؤم اليهود، واحتواه تحت جناحيه يزقه ويربّيه، وفي اليهود جبن رعديد، طبعوا عليه، ورثه عنهم المنافقون، فكانوا جبناء رعاديد، ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ يرعبون مما لا يرعب منه ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمَحُون﴾[1].

صورة مجتمع المدينة يوم الهجرة إليها وما يتطلبه إصلاحه من حكمة وحزم

هكذا كان مجتمع المدينة يوم قدم رسول الله ﷺ والمهاجرون من أصحابه إليها في تركيبه من عناصر مختلفة متنافرة دينياً، وفكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً وأهدافاً ووسائل، فهو مجتمع معقّد التركيب، يستوجب سياسة متأنية، لتجعل من المجتمع المسلم سيد الموقف.

وفي تصوير هذا المجتمع المدني المتنافر وما كان عليه من أخلاط في تركيبه يروي البيهقي في الدلائل بسنده عن ابن شهاب الزهري، قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو رسول الله ﷺ، ويحرِّض عليه كفار قريش في شعره.

وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، هم أهل الحَلْقة، والحصون، وهم حلفاء للحيين: الأوس والخزرج، فأراد رسول لله ﷺ استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك.

وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشدَّ الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر على

---

(١) سورة التوبة آية (٥٧).

ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جل ثناؤه: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[1] وفيهم أنزل الله: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حَسَداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾[2].

المنافقون كانوا أفراخاً في أوكار اليهود

ولم يذكر الزهري المنافقين بين أخلاط المجتمع المدني، لأن النفاق كان يومئذ لا يزال نفساً محترقاً من أنفاس اليهود، يتردد في صدورهم جمراً خامد الاشتعال، لّما يبرز إلى أجاجير الحياة الاجتماعية في المدينة عنصراً ذا أثر، إذْ لم تكن عناصره الشرِّيرة، ومقوماته الخبيثة قد وجدت في صورة لها ذاتيتها المتميزة، وكان المنافقون لا يزالون أفراخاً لم تستزغب، جعل اليهود لهم أحضانهم أوكاراً، يقضون فيها أمد الحضانة حتى يستريش زغبهم، ليطيروا به في آفاق الفساد والإفساد، حاملين على أجنحتهم خبائث الفتن التي يلقِّنهم إياها أساتذة الخبث والغدر اليهود ليلقوها بين المجتمع المسلم، وهم متدثِّرون بمظاهر الإسلام تقية أن تأخذهم سيوفه، ليفكوا بها عرى أواصره الإيمانية ويحلّوا عقد وشائجه الأخوية، ويفرقوا كلمة أهله، ليسهل عليهم وعلى أساتذتهم من أخابث اليهود النّيل منه.

والنفاقُ سلاح خبيث، صنعه اليهود في مصانع إجرامهم ليتقّوا به مواجهة المجتمع المسلم بأنفسهم، وليجعلوا من ربائبهم المنافقين دريئة يدفعون بها وطأة المسلمين.

والمنافقون هم الأداة الطيّعة في أيدي اليهود وتفكيرهم، ولكن هؤلاء المنافقين كانوا مقهورين أذلة، لا يعيشون إلا في الظلام، شعارهم الكذب، ودثارهم الغدر والخيانة، ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ لا يخرجون من فضيحة حتى تظللهم فضيحة أسوأ منها.

وهكذا كان المنافقون أول أمرهم أضعف شأناً من نفايات الشرك

---

(١) سورة آل عمران آية (١٨٦).
(٢) سورة البقرة آية (١٠٩).

بالمدينة، ومن شراذم اليهود فيها، فلم يبرز لهم كيان ذاتي يتميزون به، ولكن أعمالهم الخبيثة التي كان يسخرهم اليهود لتدبيرها والقيام بها تحت جنح الظلام أبرز من شخصياتهم المحطمة بالقهر والمهانة، فهم بأعمالهم عنصر من أخبث عناصر المجتمع المدني المختلط الذي أراد رسول الله ﷺ استصلاحه بما أوتيه من الحكمة وحسن التدبير.

بين الزهري وابن القيم في تصوير المجتمع يوم الهجرة

وقد نحا ابن القيِّم في (الهدي) نحواً آخر في ذكر أخلاط مجتمع المدينة، حين قدمها رسول الله ﷺ، اقتصر فيه على ذكر الأخلاط المعادية لله ورسوله، وذكر فيهم المنافقين، فقال: ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه، ونصبوا له العداوة، وقسم تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهم المنافقون، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى، فصالح يهود المدينة، وكتب بينهم وبينه كتاب أمن، وكانوا طوائف حول المدينة، بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، قلنا: بل أدخلهم بالتبعية في كتاب المؤاخاة التكافلية ولم يخصهم بكتاب موادعة وأمن.

ثم ذكر ابن القيِّم ما كان من كل طائفة من هذه الطوائف اليهودية من غدر وخيانة لرسول الله ﷺ وللمسلمين، وما كان من رسول الله ﷺ إليهم من التأديب والمحاربة والجلاء عن المدينة جزاء خياناتهم وغدرهم.

والظاهر من كلام ابن القيِّم وسياقه، أنه يصف موقفاً للكفار عموماً من رسول الله ﷺ ومن المجتمع المسلم بعد الهجرة، سواء أكان أولئك الكفار من أهل المدينة كاليهود والمنافقين، أم كانوا من خارج المدينة كقريش في مكة ومن حولها من حلفائهم وأحابيشهم، أم كانوا من الأعراب الذين يقيمون حول المدينة، بدليل تصنيفه طوائف الكفار لأن في هذا التصنيف ما

يتفق مع موقف كفار المدينة من اليهود والمنافقين، وفيه ما يتفق مع موقف قريش ومن حولها، وفيه ما يتفق مع موقف الأعراب المتربِّصين حول المدينة، وهو كافٍ في إعطاء صورة عن أخلاط مجتمع المدينة.

بخلاف كلام الزهري، فإنه نص في وصف أخلاط المجتمع المدني خاصة الذي أراد رسول الله ﷺ استصلاحهم اجتماعياً ليتميز فيهم موقف المجتمع المسلم الذي جعل الله له قيادة الحياة في ظل شريعته الخاتمة الخالدة.

استصلاح المجتمع المدني المتنافر يبدأ بتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم

وبدأ النبي ﷺ يخطو نحو استصلاح هذا المجتمع المدني المركّب من أخلاط وعناصر متضادة متنافرة، وكان من الضروري أن تكون الخطوة الأولى في هذه البداءة نحو المجتمع المسلم الذي وحّدته العقيدة الدينية وحزمه الإيمان في آصرة من الأخوة الإيمانية، والإيمان قوة روحية عارمة، ولكنها لا تستطيع وحدها أن تخضع لقوتها القوى المادية التي تقف من ورائها الغرائز بكل ما لها من رغائب وشهوات يعيش بها الإنسان في هذه الحياة.

ولا نريد بالقوى المادية ما يعني لقمة العيش ووسائلها، فذلك أدنى مراتبها، وأهون درجاتها، لأن لقمة العيش ووسائلها أيسر على المجتمع المسلم من أن يُدخلها عنصراً في تركيبه الاجتماعي، هذا التركيب الذي يصور عناصر بناء هذا المجتمع ومقوماته الذاتية، ومعالم شخصيته المسلمة.

القوى المادية لا تعني لقمة العيش وإنما تعني الإحساس بوحدة الشعور

وإنما نريد بالقوى المادية الإحساس الداخلي بوفرة الشعور الموحّد بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته، والإحساسُ بوفرة الشعور النفسي الموحّد لأهداف ووسائل الحياة لهذا المجتمع المسلم، وإن كان من طبيعته المساواة في حالتي الشبع والجوع بل المساواة في حالتي المسْغَبة والتعفف في الشبع، لكن هذه المساواة في حالتي الشبع والجوع لا تكون مقصودة لهذا المجتمع المسلم قصداً ذاتياً يحسب له حسابه، وإنما ينساق لها انسياقاً تبعياً لوفرة الشعور النفسي، ويتحقق منها ما يتحقق، وهو محمود في حالتي القلّة والكثرة، بل في حالتي الفقدان والعدم، وفي هذا ما يزيل الإبهام في تفسير القوى المادية بالإحساس الداخلي بوفرة الشعور الموحّد بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته.

وإنما قلنا إن البداءة في الخطوة الأولى الاستصلاحية كان من الضروري أن تكون موجّهة نحو المجتمع المسلم، لأن هذا المجتمع المسلم الموحد بعقيدته الإيمانية كان مختلف التركيب الاجتماعي، ولكن هذا الاختلاف في عناصر تركيبه لم يكن اختلافاً تنافرياً، يدفع بعضه بعضاً، وإنما كان اختلافاً توافقياً، يسند بعضه بعضاً.

ولا يصعب على العقل الاجتماعي أن يفهم كون الاختلاف توافقياً في تركيب هذا المجتمع المسلم، لأن تركيب المجتمع من شخصيات متمايزة المظاهر لا باختلاف في تركيبه المادي، ووحدةُ الحركة وبواعثها إلى الهدف الموحد توافق في السلوك الموصل إلى الهدف.

بيد أن هذا الاختلاف التوافقي كان في حاجة إلى ما يزيل آثار تلك المظاهر، ليرده إلى وحدة الهدف والغاية، وهذا الذي يجعله ضروري البدء بتصحيح تركيبه، لتستقيم معالمه.

اختلاف تركيب المجتمع المسلم اختلاف توافقي لا تنافر فيه

أما مظاهر الاختلاف التوافقي في المجتمع المسلم فهي ماثلة في عناصره المادية وشخصياته المتمايزة بمظاهرها، فقد كان مركباً من المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وتركوا فيها أموالهم وأولادهم وعشائرهم، وإحساساتهم النفسية بكل ما تركوه وراءهم، فداء لعقيدتهم، وخرجوا بإيمانهم مهاجرين إلى الله، لا يأسون على شيء مما تركوه لله، ولا تعلّقت نفوسهم بشيء منه، ومضوا قُدُماً لا ينظرون وراءهم إلى ما هجروه في سبيل ما ينتظرهم من حياة حرّة كريمة، وثواب جزيل في الحياة الآخرة.

وكان في هذا المجتمع المسلم الأنصار ﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

وكان في هذا المجتمع المسلم الوافدون لطلب الهداية، والإيمان بالله ورسوله من أبناء القبائل الذين يقدمون على رسول الله ﷺ ليتفقّهوا في

---

(١) سورة الحشر آية (٩).

الدين، مندمجين في تركيب المجتمع المسلم.

عناصر تركيب المجتمع المسلم ومظاهر اختلافها

وكان لكل عنصر من هذه العناصر الداخلة في تركيب هذا المجتمع مقوماته التي تميزه، وهذه المقومات مختلفة المنشأ، ومختلفة الأثر في مجرى الحياة وأسلوبها ووسائلها.

فلو أن هذه العناصر تركت باختلافاتها للوحدة الإيمانية في العقيدة لكانت الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع المسلم مجموعة من التفاريق السلوكية التي تذهب بالمجتمع المسلم في حياته مذاهب شتى، لا يجمعها إلا وحدة العقيدة.

فالأنصار في هذا المجتمع هم أصحاب المأوى والمستقر، يقيمون في بلدهم ومنازلهم، ويعملون في مزارعهم وبساتينهم وتجاراتهم، وينمّـون أموالهم وثرواتهم، وينفقون على أنفسهم وأهليهم مما رزقهم الله من هذا المال النامي بالعمل فيه. والمهاجرون الذين جاؤوا إلى هذا البلد الطيب مهاجرين إلى الله خاوية من الدنيا وأسبابها ووسائلها وفاضهم، خَلِيّة من متاعها عيابهم، فهم لا يملكون في مستقرهم الجديد مأوى ولا مسرحاً، ولا بد لهم أن يعيشوا كما يعيش الناس، وأن يعملوا لحياتهم كما يعمل الناس، وأن يتحركوا في سبيل إعاشة من يعولون.

وليس في الإسلام الذي اعتنقوه ديناً وارتضوه نظاماً لحياتهم رهبانية يدّرعها المسلم عاكفاً عليها، لا يتحرك ولا ينهض ولا يعمل ليقيم حياته على الجد والعمل النافع له، المفيد لمجتمعه الذي يعيش عنصراً في تركيبه الاجتماعي.

والوافدون لطلب الهداية والانضواء إلى حظيرة المجتمع المسلم أوزاع مختلفون في أوضاعهم الاجتماعية، ففيهم الفقير الذي يعيش على الطّوى صابراً محتسباً متعففاً، وفيهم الضعيف الذي لا يستطيع أن يعمل لو أتيحت له فرصة العمل، وفيهم المليء الذي قدم ومعه أسبابه وله وسائله، يتحرك بها ينمّيها ويأخذ ويعطي، ويكسب ويربح، وفيهم القوي على العمل

بجسمه، فيعمل ليعيش، وفيهم الصَّنّاع الذي يعمل بيده وفكره فيحيا بصنعته مع الناس حياة كريمة.

أعداء المجتمع المسلم من أخلاط المجتمع المدني

ولهذا المجتمع المسلم على اختلاف تركيبه الاجتماعي أعداء في الداخل والخارج يتربّصون به، ويأتمرون عليه، ويكيدون له، ويمكرون به، ويدبِّرون له المزالق، وهؤلاء الأعداء ممّكنون من وسائل الحياة وسعة أسبابها، وهم شرِّيرون خبثاء، يتقنون من ضروب الفساد والإفساد ما يبعث في أنفسهم الشريرة حمية الوقوف أمام سير الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته بالقوة المادية، والتدبير الماكر، والمكر الكائد والغدر الخئون.

وشر هؤلاء الأعداء وأخبثهم وأقدرهم على شن هجوم العداوة للمجتمع المسلم هم اليهود، الذين غصُّوا بقيام هذا المجتمع المسلم، ورأوا فيه مجتمعاً رهيباً، سوف يسلبهم عزهم، ويقضي على مقومات حياتهم، ويقوِّض سلطانهم على (يثرب) التي يتحكمون في مصيرها ومصير أهلها، ويهدم أكاذيبهم في دعاوى الاختصاص بالعلم والمعرفة، ويذهب بأباطيلهم التي خدعوا بها مواليهم من الأوس والخزرج حتى استعبدوهم بهذا الضلال والخداع والتمويه، ويذهب بقوتهم المادية التي يتعزّزون بها في صياصيهم وحصونهم وآطامهم وقلاعهم التي شيدوها حول مساكنهم حماية لأموالهم وتراثهم الذي جمعوه من دماء البشر بغياً وعدواً.

ويأتي بعد اليهود في شدة العداوة للمجتمع المسلم بقايا نفايات الشرك الأحمق والوثنية البلهاء، ممّثلين فيمن عسا من جذوع الجاهلية الخاوية، وأفلت من سيف الأحداث التي مرت بين الحيين: الأوس والخزرج في حروبهم الطاحنة التي قدّمها الله تعالى لنبيه ﷺ لتكون منظفة للطرق أمام سير دعوته، ونشر رسالته بمن طحنتهم رحاها فألقت بهم إلى مهاوي الفناء.

وهؤلاء الذين خلّفوا وراء المعارك المدمرة ـ على ما بهم من عجز عن الحركة المادية والفكرية ـ هم الذين يملكون من وسائل الحياة ما خلّفه لهم الظاعنون إلى أودية الفناء من أهاليهم وعشائرهم الذين أكلتهم الحروب في جاهليتهم، فهم إن لم يستطيعوا سلّ السيوف فلن يعجزوا عن إمداد من

يقدر على موارد الحتوف، فلهم بما في أيديهم من مال وسلاح، وما في أفكارهم من تجارب وخبرات قدرة على معاضدة القادرين على الحركة من أعداء المجتمع المسلم، ومناصرتهم ومعاونتهم في كل ما يمكن أن ينال من هذا المجتمع الذي لا يريدون له البقاء ماضياً بدعوته إلى الله، يبلِّغ رسالات ربه، وينشر على العالمين نوره وهداياته.

ووراء اليهود ونفايات الشرك والوثنية في شدة العداوة للمجتمع المسلم المنافقون الذين اتخذوا من أحضان اليهود أمهدة لأسوأ المكر وأخبث الائتمار، واتخذوا من إظهار شعائر الإسلام وإبطان أكفر الكفر وأفجر الفجور ذريعة إلى مخالطة المجتمع المسلم، يسمعون منه ما يقول، ويبصرون حركاته، ويرصدون أنفاسه، وينقلون أسراره وأحواله إلى شياطينهم من اليهود والمشركين، ويمكرون به ما وسعهم المكر والكيد، ويخادعونه، وفيه سمّاعون لهم من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب، ذوي الشخصيات المهزوزة التي تعبث بها هزاهز النفاق، يأخذون منهم أخبار المجتمع المسلم، ويشيعون بينهم الأراجيف والأكاذيب ليثبطوا عزائم هؤلاء الضَّعْفى، ويلقُوا إليهم شآبيب الفتن والتخذيل، ليكسروا شوكة المجتمع المسلم، ويخرقوا بين صفوفه خروق الفرقة، ويبثُّوا فيه بثيث التنازع والمنابذة.

هكذا كانت حالة المجتمع المدني بأخلاطه حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، واتخذها مقراً له ولدعوته، وموئلاً لأصحابه، ومنبعاً لتبليغ رسالته، ومأرزاً لطلاب هدايته.

وهكذا كان حال المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي، وموقفه من نفسه في التركيب المتخالف في عناصره، وموقفه من أعدائه وهم في قوتهم المادية، وكثرة عددهم، وتوافر عدتهم، مع قلة عدده، وضعف عدته.

فكان لا بد في سبيل استصلاح المجتمع المدني المتنافر أشد التنافر في عناصر تكوينه ومقومات وجوده من البدء أولاً بتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم الذي وحدته العقيدة الإيمانية، وبقي ما وراءها مشتت المنازع، مختلف المصادر والموارد.

وتصحيحُ تركيب المجتمع المسلم اجتماعياً حتى تكون لـه وحدة اجتماعية توازي وحدته الإيمانيـة، لا يتحقق إلا بإزالـة جميع الفـوارق الاجتماعية بين أفراده وجماعاته، وإحلال المسـاواة الشعوريـة محل تلك الفوارق التي خلفتها رواسب التاريخ القريب والبعيد.

والإسلام لا يعتمد في إصلاحاته الاجتماعية على منطق القانـون والإلزام القاهر، ولكنه يعتمد على منطق التربية وإيقاظ الضمير، والتسامي بالإحساس والشعور إلى الرضا المُقْنِع، والإقناع المرضي، القائم على الفهم والتفاهم، وتصحيح موازين الحياة في أسباب العيش ومظاهر الاجتماع في سلوك الأفراد والجماعات.

تصحيح تركيب المجتمع المسلم اجتماعياً لا يتحقق إلاّ بإزالة الفوارق تربوياً

ومنطقُ القانون بإلزامه القاهر في إصلاح المجتمعات اجتماعياً بإزالة الفوارق المادية عسرُ المسلك، وعر المنطلق، ضيِّق المنفذ، مبغَّض للنفوس، منافٍ للطبيعة ومدركات العقول، لأنه يتطلب تنازلاً عن حق مملوك بالقانون إلى فضيلة لا يحتمها هذا القانون، وهذه التنازلات ضد الغرائز الإنسانية الحريصة كل الحرص على الحرية المطلقة في الملكية وتصرفاتها، لأنها حرمان لمن يملك من حرية التمتع بما يملك، وإمتاع لمن لا يملك بما لا يملك.

أما منطق التربية والضمير فيعتمد على الإحساس بمرارة الحرمان عند من لا يملك وهو يحس بمتعة من يملك، وفي هذا الإحساس آلام وتعذيب للنفس البشرية لا يشعر بهما إلا من يملك حساً مرهفاً ينغِّص عليه متعته بما يملك، وهو مستطيع أن يجعل متعته بما يملك كاملة المهنأ إذا أمتع معه من لا يملك دون إفساد متعته بالمنّ والأذى.

وهذا أمر لا تكفي في تحقيقه نصوص القوانين، ولا تحققه سياط العقوبات تُمَزِّق بها جلود الذين لا يفرِّطون في حق حريتهم في التمتع بما يملكون، وإنما يتطلب منهجاً تربوياً في إصلاح المجتمعات والأمم والشعوب والأفراد والجماعات، وهذا المنهج التربوي هو منهج الإسلام الذي امتاز به في استصلاح أمته اجتماعياً.

فهو إذْ يقول في كتابه المبين: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ يعقد بهذا النص الصريح بين أفراد مجتمعه أخوة إيمانية، لها ركائزها ومقوماتها، وأهم تلك الركائز والمقومات (الحب) المتبادل بين أفراد المجتمع على سواء في آثار هذا (الحب) والمساواة في الآثار المترتبة على الحب ممكنة الحصول، وإن كانت المساواة في نفس الحب غير ممكنة، لأن الآثار يملكها الفرد، فهو يملك المساواة فيها، وأما الحب فهو أمر قلبي، لا يملكه الفرد ولا يملك المساواة فيه.

كان الحب أساس هذا التصحيح التربوي

ولهذا جاءت الوصاة من النبي ﷺ، وهو القيّم على إصلاحات المجتمع اجتماعياً وعقائدياً، تكليفاً بما هو في حيِّز الإمكان، فقال ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس وكذلك رواه أحمد والنسائي، ورواه مسلم بزيادة: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» فقوله ﷺ: «حتى يحب لأخيه» دون أن يقول: «حتى يحب أخاه حبّه لنفسه» إعجاز في التعبير التربوي وإقامة لمنهج الضمير في الإصلاح الاجتماعي، لأن حب المسلم لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه تكليف يدور في منطقة الإمكان، لأنه مساواة في أثر الحب، لا في نفس الحب، وهذا حب لله تعالى، وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ إن الله يقول يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي؟ أظلُّهم اليوم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلِّي» وقد ترجم لهذا النووي بقوله: (الحب في الله) ثم ذكر بعده تحت هذه الترجمة حديث المدرجة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته مَلَكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه» وعند الشيخين والنَّسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وكذلك يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

وهذا الحب الذي تقوم على دعائمه المؤاخاة في الله مما ينبغي أن يكون

معلوماً لدى المتحابين، روى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه» وروى أبو داود أيضاً عن أنس بن مالك أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمر به رجل، فقال: يا رسول الله إني لأحبُّ هذا، فقال لـه النبي ﷺ: «أعلمته؟» قال: لا، قال: «أعلمه» فلحقه فقال: إني أحبك في الله فقال: أحَبَّك الذي أحببتني له.

وإذا توافرت دوافع الحب على أية درجة من درجاته تهيأت به النفوس ليتولد عندها الحس المرهف الذي يبعث في النفس المشاركة في ألم الحرمان من المتعة، وهو ألم يستطيع القادر على المتعة المحب لأخيه ما يحب لنفسه أن يمحوه من نفسه بمشاركة أخيه في المتعة بما يملك، وعندئذ يشعر بنشوة كمال المتعة تحتل من قلبه مكان ألم الحرمان من قلب أخيه قبل أن يشركه معه في متعته، وهو في الحقيقة قد أمتع نفسه متعة كاملة لا يعتريها تنغيص الإحساس بألم الحرمان.

هذا المنهج التربوي الشعوري النابع من الضمير بالحب هو الذي اتخذه رسول الله ﷺ وسيلة لتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم، فجعل ﷺ من الحب دعامة لهذا التصحيح الاجتماعي.

والحب هو الاحساس الذي قام عليه صرح الإيمان في إيجابيته وقدرته على التحكم في عرامة الغرائز وجموحها ليجعل منها مساعداً لتولد الاحساس بالمشاركة الأخوية في موجبات الإيمان ومتطلباته.

ومن ثَمّ عمد رسول الله ﷺ في عقد ميثاق المؤاخاة الاجتماعية بين المهاجرين والأنصار إلى (الحب) في أرفع صوره، وأظهر معالمه، فجعله دعامة هذه المؤاخاة، فقال لهم: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين».

والتآخي في الله هو البؤرة المشعّة بالضوء الدافىء في المنهج التربوي الشعوري الذي قامت على أساسه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، لأن المؤاخاة في الله ترفع السُّجف عن النفس البشرية التي كانت تحجب عنها الحس المرهف وهو في داخلها، ذلك الحس المولّد للشعور بالمشاركة في ألم

الحرمان عند من لا يملك المتعة بوسائل الحياة الكريمة الطيبة.

الحب أساس المؤاخاة الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم

فإذا تآخى في الله من يملك مع من لا يملك توحدت مشاعرهما وإحساساتهما، واتصل قلباهما بوشيجة الحب في الله، فلا يرى أحدهما أن له حقاً في شيء إلا إذا كان أخوه في الله شريكه في هذا الشيء على قدم المساواة، بل إلا إذا كان أخوه في الله أثيراً بهذا الشيء، وهذه الذروة في الإيثار هي معجزة المؤاخاة في الله، التي تحققت تحقيقاً كاملاً فيما بين المهاجرين والأنصار، فكانت واقعاً مشهوداً، نزل به الكتاب مدحة للأنصار، لم يعرف تاريخ البشرية لها نظيراً قط في مجتمعاته، والمعجزات لا تتكرر تكرراً ذاتياً.

والإعجازُ في آية الإيثار إنما كان في تحويل الطبيعة البشرية عن مسارها الغريزي وتحويل القلوب عن مدارها (الأناني)، وقد تعاورت على الإنسانية في تاريخها البعيد السحيق، وفي تاريخها الداني القريب مذاهب ونحل وفلسفات لا تحصى ولا تعد، أرادت ـ كما زعمت ـ أن تحقق للإنسانية وحدة في العدل الاجتماعي، بَلْه الإيثار، فعجزت عجزاً مخزياً، وباءت بفشل ذريع وخسران مبين، وأظهر شواهد ذلك في واقع الحياة الشيوعية في إلحادها وفجور كفرها.

والقرآن الكريم إذْ يصور ذلك إنما يصوره على أنه نموذج للمؤاخاة في الله، القائمة على الحب، وهذه المؤاخاة شريعة إسلامية عامة عموم الرسالة زماناً ومكاناً وجيلاً، فهي ليست خصِّيصة بالمهاجرين والأنصار، وإنما هي للأمة الإسلامية أينما وجدت من أرض الله، وخصيصة المهاجرين والأنصار كانت في مظهر التطبيق الواقعي لهذه المؤاخاة، وهي لا تزال قائمة المعالم في شرائع الإسلام، تنتظر من يطبِّقها كما طبقها المهاجرون والأنصار وقد بدأ الإسلام بهم غريباً في تطبيق تشريعاته، فأعزَّهم الله به، وسيعود على أيدي من ادخرهم الله في غيبه غريباً في تطبيق شرائعه تطبيقاً عملياً يعيده قوة ومدداً روحية يعزهم الله به كما أعزّ من طبقه من أسلافهم، والحياة قُلَّب، والأيام دُول، والأمور بيد الله، يعزّ بها من يشاء ويذلّ بها من يشاء.

التطبيق الواقعي لشرعة المؤاخاة نقطة تحول في حياة المجتمع المسلم

لقد كان التطبيق الواقعي لشرعة المؤاخاة في الله نقطة تحوّل في حياة المجتمع الإسلامي، سجّلها القرآن آيات تتلى ويتعبّد بها، فقال تعالى: ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

فالدار هي المدينة المنوّرة، والذين تبوؤها هم أهلها من الأوس والخزرج الذين توّجهم الله بلقب (الأنصار) حين أن تبوؤا الإيمان بعد تبوئهم الدار، فالدار مباءة الحس المادِّي، والإيمان مباءة الشعور الروحي، فكما أحاطت بهم دارهم حساً فاستقروا بها آمنين مطمئنين، متمكِّنين فيها تمكن المظروف بالظرف، وهي محيطة بهم في إيوائها لهم وحمايتهم من كل سوء يريدهم من خارج دارهم إحاطة الظرف بالمظروف، كذلك أحاط بهم في إحساسهم الإيمان، فكان مستقرهم الروحي، ومتوطنهم الشعوري، لتمكنهم منه أفضل تمكن، واستقامتهم على موجباته استقامة لا تعدلها إلا استقامة الأمن والاستقرار الحسيَّيْن اللذين يشعر بهما كل من أوى إلى داره ومتوطنه بعد رحلة من القلق المذعور.

أسرار هذه الشرعة في آية: ﴿والذين تبوؤا والإيمان﴾

وفي التعبير عن المدينة المنوّرة بلفظ (الدار) إشعار بأنها دار خاصة لكل متوطن بها متبوىء لها، فهي بالنسبة لأهلها كدار خاصة للفرد يهنأ بالأمن والاستقرار وهو في داخلها، وفي هذا الإشعار نوع من الأنس السِّريّ في النفس، يزيدها رَوْحاً وطمأنينة، فالأنصار في دارهم وإيمانهم متمكنون من الأمن والاستقرار المادي والروحي، تتنزل عليهم السكينة فتحفهم بنورها، كأنها سياج من الرحمة مضروب عليهم، لا يلحقهم فزع ولا يدخل عليهم قلق.

أما قوله تعالى: ﴿من قبلهم﴾ فالضمير فيه للمهاجرين، ومعناه أن الأنصار هم الذين تبوؤا المدينة المنورة داراً لهم، وتبوؤا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم، لأن المهاجرين وإن تبوؤا الإيمان قبل الأنصار، لأنهم

---

(١) سورة الحشر آية (٩).

سبقوهم إليه، وتمكنوا منه أعظم تمكن، وتمكن هو منهم أبلغ تمكن، لكنهم لم يتبوؤا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّي المادي، والأمن على أنفسهم وإيمانهم من فزعات الأعداء وسطواتهم، فكان للمهاجرين في تبوء الإيمان دون تبوء الدار، وكان للأنصار تبوؤهما معاً في قرن واحد، فالقبلية بالنظر إلى جمع تبوء الدار مع تبوء الإيمان، حتى كأنهما أمر واحد في التمكن والاستقرار.

معنى «القبلية» في قوله تعالى: ﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم ﴾

ومن لطائف القرآن الحكيم أنه ساق مدحة المهاجرين قبل مدحة الأنصار مفتتحاً لها بقوله: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾[1] فجعل فَقْد بعض ما كان مدحة للأنصار من تبوء الدار والإيمان مدحة للمهاجرين، لأنهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه، ونصرهم الله بنصر دينه، ونصر رسوله بنصر رسالته ودعوته، ووصفهم بأنهم هم الصادقون، وأن الناس تبع لهم في ذلك، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: (أولئك هم الصادقون) وقال لعامة المؤمنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[2].

فالقبلية بهذا المعنى مدحة للأنصار، جاءت لتشعرهم بموجباتها نحو إخوانهم الذين هاجروا إليهم تاركين ديارهم وأموالهم ابتغاء فضل الله ورضوانه، والتفرغ لنصرة دينه، ونصرة رسوله، فالدار التي فقدها المهاجرون بما فيها من أموال وفلذّات أكباد إنما فقدوها تقرباً بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوؤن معهم دارهم، دار الأمن والاستقرار مع سبق تبوئهم الإيمان قبل الأنصار، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوء الدار والإيمان، وانفردوا بسبق تبوئهم الإيمان فضيلة لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين وفي طليعتهم الأنصار، الذين جعلوا من الإيواء والنصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحب الصادق، فقيل في وصفهم: ﴿يحبُّون من هاجر إليهم﴾، وهذا حب في

(١) سورة الحشر آية (٨).
(٢) سورة التوبة آية (١١٩).

الله، ولله، جعله الله فضيلة لهم ميّزهم بها في مقابلة وصف المهاجرين بأنهم أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، وتعرضاً لفضله، المنهمر عليهم غيثه ديمة لا ينقطع ولا يفتر، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرة بالحب لإخوانهم الأنصار، الذين وصفوا بالإخلاص الصفيّ، الذي كان ثمرة الحب في الله، ولله، فقيل عنهم: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي أنهم لا تستشرف نفوسهم إلى فضل ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم وأموالهم، وانتهاضهم لنصرة دين الله ورسالاته، ولا يتطلعون إلى شيء منه تطلباً له أو مشاركة فيه.

معنى الحاجة التي لا يجدها الأنصار في صدورهم من أجل ما أوتي المهاجرون

وليست الحاجة المنفية التي لا يجدها الأنصار في صدورهم من أجل ما أوتي إخوانهم المهاجرون من منن الله وفواضله، وإنعاماته عليهم، وإكرامه لهم هي اختصاصهم بغنائم بني النضير ونحوها من الأمور المادية التي تيسّر لقمة العيش وإشباع البطون، لأن هذه الأمور المادية في ضآلة قيمتها، وتفاهة وزنها المعنوي في موازين التسامي الإنساني، وضعف آثارها في الحياة الروحية لا توزن مع الفضائل النفسية التي استأثر بها المهاجرون في حياتهم الإيمانية يوم أن كانوا هدفاً للعتو المستكبر، والفجور المتجبر في مكة قبل الهجرة ـ قد نفاها الحب في الله، ولله، وسما عليها في آفاقه المشرقة بنور الهداية التي تخللت مشاعرهم، وملكت عليهم إحساساتهم، فلم تترك في أنفسهم لها مجالاً يجعلها ذات وزن في حياتهم، ذلك الحب المقدّس الذي كان عنوان مدحة الأنصار في مقابل مدحة المهاجرين، وبهذا الحب أثنى الله تعالى على الأنصار فقال في وصفهم به: ﴿يحبُّون من هاجر إليهم﴾ ولعلك لمحت أننا جرينا على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ يعود على الذين يحبون من هاجر إليهم وهم الأنصار، والضمير في قوله ﴿أوتوا﴾ يعود على المهاجرين، وهو المعنى المحقّق للمقصود من الآية، فهو أرجح عندنا مما سواه.

والحبُ الذي يسجله رب العزة تبارك وتعالى في محكم كتابه آيات بيِّنات، تتلى ويتعبد بها في روعة إعجازها، وبراعة أسلوبها، وسمو منهجها في الهداية ـ لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النفس المؤمنة آثار حزازة تَنْفَس على

المهاجرين ما آتاهم الله من مكارم الإيمان والتضحية في سبيله بالديار والأموال، بله متعة مادية زائلة تافهة.

وصفات المدحة السلبية لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع، فيكون نفيها عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفات إيجابية في بناء المدحة المشرّفة.

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبهم المهاجرين ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ كان معنى ذلك أن هؤلاء الأنصار سَمُوا في حبهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذروة الصفاء والإخلاص ووحدة الشعور، وامتلأت صدورهم بهذا الحب القدسي، فلم تعد تتسع لشيء معه، إلا أن يكون ذلك الشيء أثراً من آثار الحب، وليس ذلك إلا ذروة الفضائل، وهو إيثارهم على أنفسهم بكل مكرمة، ولو كانوا هم في أشد الحاجة إليها.

كيف وقد قال رسول الله ﷺ للأنصار حين وقعت في يده غنائم بني النضير: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة؟» فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها.

فالأنصار هم الذين آثروا المهاجرين بالغنيمة، وكانت في أيديهم لو أرادوها وتعلقت بشيء منها أنفسهم، ووجدوا لها حاجة في صدورهم؛ إذ عرض النبي ﷺ عليهم قسمتها بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، فالنبي ﷺ لم يخصّ بالغنيمة المهاجرين إلا بعد أن كشف غطاء الحياء من نفوس الأنصار عن الحب الذي يكنّونه لإخوانهم المهاجرين، حتى يعلم الذين لا يعلمون أن هذا الحب لم يترك في نفوس الأنصار مكاناً لِتَطلّع واستشراف إلى شيء مما حُبي به المهاجرون من فضائل سبقوا بها كل سابق، بَلْه حزازة من أجل لعاعة مادية تنتهي إلى ذرّات من التراب تحت الأقدام.

ومجيء قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ عقيب قوله عز شأنه: ﴿يحبّون من هاجر إليهم﴾ بيان لثمرة هذا الحب، وهي ثمرة سَمَا بها الأنصار إلى آفاق لم تصل إليها البشرية في تاريخها البعيد السحيق، ولا في تاريخها الداني القريب، تلك هي ثمرة الإيثار على النفس التي أثمرها الحب الإيماني، والحب الاجتماعي.

الإيثار بجميع صوره ثمرة الحب في الله، ولله

والإيثار صور وألوان، وضروب وأنواع، فقد يكون إيثاراً بشيء محبوب يمكن الاستغناء عنه، وقد يكون إيثاراً بشيء مطلوب، ولكن لا يبلغ طلبه والحاجة إليه مكان الضرورة التي لا يستغنى عن مطلوبها إلا بضرب من الحرمان الوجيع، وقد يكون إيثاراً بشيء تتطلبه الضرورة البالغة مبلغ الفداء والتضحية بالنفس وفلذات الأكباد، وقد يكون إيثاراً بما ينقص الكمال ويشوِّه الوضع السليم، وقد يكون إيثاراً بما يستوجب المدح والثناء، وقد يكون إيثاراً بما يدفع سبّة أو يبرىء من تهمة.

ولا شك أن أرفع مراتب الإيثار، وأجلّ أنواعه وصوره هو الإيثار بما تحتاج إليه النفس المؤثرة لغيرها عليها حاجة تبلغ بها مكان الضرورة التي يكون تركها لإيثار غيرها بموجبها مفضياً إلى نوع من التضحية الأليمة القاسية، التي قد تعرِّض النفس إلى تلفها، أو تعرضها إلى ما لا طاقة لها بتحمله من مهانة وذلة وحرمان.

وهذا النوع من الإيثار هو الذي أثنى به الله جل وعز على الأنصار في مدحتهم الغراء فقال في وصفهم: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ والخصاصة ـ كما يقول ابن فارس ـ الإملاق والثُّلمة في الحال، وهذا تصوير لمبلغ الضرورة التي وصلوا إليها في حاجتهم إلى ما يؤثرون به غيرهم على أنفسهم.

ثم وُصفوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصدق في عزائمهم والإخلاص في إيمانهم، فقيل فيهم بعد تقرير أنهم بهذا الإيثار صفَت نفوسهم من كُدورات التطّلعات والحزازات، وأخلصوا الحب لإخوانهم المهاجرين، وطهّروا من رشح الشح فتوقّوه

بفضيلة الكرم والسخاء المؤثر: ﴿ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

الإيثار كان عملاً إيجابياً في واقع الحياة

وقد كان هذا الإيثار من الأنصار لإخوانهم المهاجرين في مؤاخاتهم الاجتماعية عملاً إيجابياً في واقع الحياة، سجلته الوقائع والأحداث، قال ابن سيّد الناس في كتابه (عيون الأثر): وذكر أبو عبدالله الحاكم في كتاب (الإكليل) له بإسناده إلى الواقدي، عن معمر بن راشد، عن الزهري، عن خارجة بن زيد، عن أم العلاء قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في القرعة، فكان في منزلي حتى توفي، قالت: فكان المسلمون والمهاجرون في دورهم وأموالهم، فلما غنم رسول الله ﷺ بني النضير دعا ثابت بن قيس ابن شمّاس، فقال: «ادع لي قومك» فقال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ «الأنصار كلها» فدعا له الأوس والخزرج، فتكلم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاءالله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم؟» فتكلم سعد بن عبادة، وسعد ابن معاذ، فقالا: يا رسول الله، بل تقسم بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار» فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه، وأعطى المهاجرين، ولم يعطِ أحداً من الأنصار شيئاً إلا رجلين، كانا محتاجين، سهل بن حنيف، وأبا دُجانة، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفاً له ذكر عندهم.

وذكر البلاذري في فتوح البلدان أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: «ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه ـ أي غنائم بني النضير ـ وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم

وقسمت هذه فيهم خاصة» فقال الأنصار: بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلَّتِ
أبوا أن يَمَلُّونا ولو أن أمنا تلاقي الذي يلقون منّا لملَّتِ

عرفان المهاجرين وتقديرهم لفضل إخوانهم الأنصار

وقد قدّمنا حديث حُمَيد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم لهم».

وهذا القول من المهاجرين من أعظم الإعظام والتقدير لصنيع الأنصار معهم، وعرفان بالجميل في صورة من أروع ما يمكن أن تصوره الكلمة الصادقة المخلصة.

وفي إجابة رسول الله ﷺ لهم إشعار بأن العمل العظيم لا يجزيه إلا عمل عظيم، وقد أرشدهم ﷺ إلى هذه المجازاة المتوازية في الفضل مع أكرم المكارم التي أسداها إليهم إخوانهم الأنصار، بالمواساة في القليل، والبذل من الكثير، وكفايتهم المؤنة، ومشاركتهم في المهنأ، حتى خشي المهاجرون أن يذهب الأنصار بالأجر كله، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا» لن يذهبوا بأجركم ما عرفتم لهم فضلهم بالثناء عليهم بما هم أهله، وما عرفتم لهم فضلهم في حبكم ومؤاخاتكم، وما دعوتم لهم أن يتولّى الله عنكم جزاءهم.

كان الحب الأخوي أساس المؤاخاة التكافلية الاجتماعية

كان هذا الحب الأخوي بين المهاجرين والأنصار هو الأساس الذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه بعد مقدمه المدينة، فقد كانت هذه المؤاخاة من أسبق الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ أول ما استقرّ في مقامه، وأخذ في بناء مسجده الأعظم، قال ابن

حجر في (الفتح): واختلفوا في ابتداء المؤاخاة، فقيل: بدأت بعد الهجرة بخمسة أشهر ـ وهذا الذي صدّر به القسطلاني في (المواهب) ونسبه شارحه الزرقاني لأبي عمر بن عبد البر، ثم حكى أقوالاً أخرى هي التي ذكرها ابن حجر، وزاد عليها الزرقاني، فقال: وقيل: بثمانية أشهر، وقيل، بسبعة، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر، ولم يذكر الزرقاني القول بتسعة أشهر، ويظهر أنه هو القول بسبعة أشهر، وحرِّفت السبعة تحريفاً مطبعياً إلى التسعة لقرب رسمهما، وعند أبي سعيد النيسابوري صاحب كتاب (شرف المصطفى): كان الإخاء بينهم في المسجد، وهو مخالف لما رواه البخاري في الصحيح عن عاصم عن أنس بن مالك، قال عاصم: قلت لأنس: أبلغك أن رسول الله ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام» فقال: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

ورواه أبو داود عن عاصم أيضاً، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا، فقيل له: أليس قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» قال أنس: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا مرتين أو ثلاثاً.

وقول أنس: مرتين أو ثلاثاً يحتمل أن أنساً قال ذلك لسائله مرتين أو ثلاثاً لتأكيد قوله، ويحتمل أن قوله: مرتين أو ثلاثاً متعلق بقوله: حالف رسول الله ﷺ، ويكون المعنى حينئذ أن المحالفة من رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار وقعت في دارهم مرتين أو ثلاثاً أي أنها تكررت.

واختلاف الألفاظ في زمان ومكان المؤاخاة ليس اختلافاً حقيقياً، لأن المؤاخاة لم تقع دفعة واحدة في مكان واحد، وإنما وقعت على دفعات في أمكنة متعددة، فذكر كل قائل فيها ما وقع إليه ووصله إلى علمه.

بدء المؤاخاة كان من أسبق الأعمال في تصحيح تركيب المجتمع المسلم

والظاهر أن ابتداءها كان في المسجد وهو يُبْنى، والنبي ﷺ مشغول في بنائه مع أصحابه من المهاجرين والأنصار،وكان ذلك المكان الطاهر، والعمل الشريف الخالص لوجه الله تبارك وتعالى أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة لما فيهما من اقتضاء الترافق والتعاون والتعاضد، والتواسي والتناصر، والتوادد وتقوية

آصرة الأخوة الإيمانية، فآخىٰ رسول الله ﷺ بين العاملين معه في بناء المسجد أولاً، ثم آخى بين قوم آخرين في دار أنس، وتكرر ذلك منه ﷺ حتى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين والأنصار، وكانوا نحو المائـة، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار.

والمؤاخاة التي وقعت في دار أنس بن مالك هي التي سمّاها أنس حِلْفاً، وفسّر سفيان بن عيينة الحلف في قول أنس: حالَف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في داري بالمؤاخاة، فقال: حمل العلماء قول أنس على المؤاخاة، وقد ردّ هذا التفسير ابن حجر محتجاً بأن سياق حديث عاصم عن أنس يقتضي أنه أراد المحالفة حقيقة، وإلا لما كان الجواب مطابقاً، وهذا كلام من ابن حجر لا تحقيق فيه لأن الحلف المنفي في قوله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» إنما هو حلف الفتن والظلم والبغي، والحلف المثبت الذي قال فيه النبي ﷺ: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» إنما هو حلف مناهضة الظلم والبغي، ومناصرة المظلوم كحلف المطيِّبين الذي حضره رسول الله ﷺ قبل بعثته مع عمومته، وقال فيه: «لقد حضرت في الجاهلية حلفاً ما يسرني أن لي حُمْر النَّعَم وأني لم أحضره» وقد قدّمنا قول ابن القيم في تأويل قوله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» بمعنى أنه لا موجب إلى إحداث حلف في الإسلام، لأن الإسلام يوجب المعاونة على الحق ونصرة المظلوم، فلا حاجة وراء هذا الذي يوجبه الإسلام إلى إحداث أحلاف، ويؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي ـ وحسّنه ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «أوفوا بحلف الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تحدِثوا حِلْفاً في الإسلام» وهذا أيضاً يؤيد تفسير سفيان بن عيينة بأن قول أنس: حالف، معناه آخى، وجمعُ البخاري بين الإخاء والحلف في إحدى تراجمه في كتاب الأدب من الجامع الصحيح لا ينافي ذلك، لأنه يكون من عطف التفسير، وقد قصده البخاري ليرد على من فهم أن الذي فعله رسول الله ﷺ في دار أنس محالفة لا مؤاخاة، وذلك ينافي قوله ﷺ في حديث أحمد والترمذي: «ولا تحدثوا حِلْفاً في الإسلام» وإنما سمّى أنس رضي الله عنه ما وقع في داره حلفاً لبيان أنها مؤاخاة ميثاقية مؤكدة كما يتأكد الحلف بين

المتحالفين على الحق والخير ونصرة المظلوم.

والذي يدلُّ على أن المؤاخاة الاجتماعية كانت في مرات متعددة، وأماكن مُختلفة ذكرها في كتب الصحيح، البخاري ومسلم وكتب السنن وغيرها مفرقة الوقائع والأشخاص، فالبخاري ذكر حديث مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف لسعد بن الربيع الأنصاري عدة مرات في عدة مواضع، ذكره في باب البيوع، وباب الكفالة، وباب النكاح، وباب الأدب، وفي مناقب الأنصار، ووقع فيه هنا: (كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه) وذكر تحت هذه الترجمة قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وعرض سعد على عبد الرحمن أنه من أكثر الأنصار مالاً، وأنه يقاسمه ماله، وينزل له عن أعجب زوجتيه إليه، فيطلقها ليتزوجها بعد انقضاء عدتها، فشكر له عبد الرحمن أريحيته ومكرمته، ودعا له بالبركة في أهله وماله، وقال له: دلّني على السوق، فدلَّه عليه وغدا عبد الرحمن إلى السوق يتجر، ويأخذ ويعطي، ويبيع ويشتري حتى أثرى وكثر ماله، وكان ميمون النقيبة في التجارة، وجعل يغدو إلى السوق كل يوم، فيربح، وتزوج امرأة من الأنصار أمهرها وزن نواة ذهباً، ورآه النبي ﷺ وعليه صفرة الطيب، فقال له «مَهْيَم» فقال: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: «أولم ولو بشاة».

وقائع مفرقة من المؤاخاة في الصحاح والسنن

ثم ذكر البخاري بعد هذه الترجمة بعد حديث عبد الرحمن وسعد ابن الربيع حديث مؤاخاة سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وفي كتاب العلم ذكر البخاري حديث عمر بن الخطاب: كان لي أخ من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، وقد ذكر ابن إسحق في تسميته المتآخين أن أخا عمر المذكور في الحديث هو عتبان بن مالك، لكن البخاري ذكره بلفظ: كنت أنا وجار لي من الأنصار، وروى مسلم في صحيحه مؤاخاة أبي عبيدة وأبي طلحة من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: آخى رسول الله ﷺ بين أبي عبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة، وكذلك رواه أحمد، وهذا خلاف ما ذكره ابن إسحق، فقد جعل أبا عبيدة أخاً لسعد بن معاذ، ووافقه ابن سيّد الناس في كتابه (عيون الأثر)، ولا شك أن رواية

ابن سيد الناس وابن كثير يذكران جملة صالحة من أسماء المتآخين

مسلم أرجح سنداً، ونقل ابن كثير في (البداية والنهاية) ما ذكره ابن إسحق، وتعقّبه، فقال: وفي بعض ما ذكره نظر، أما مؤاخاة النبي ﷺ وعليّ، فإن من العلماء من ينكر ذلك ويمنع صحته ـ ولعل ابن كثير يشير بذلك إلى شيخه الإمام ابن تيمية ومستنده ـ أي مستند المنكر لمؤاخاة النبي ﷺ علياً في ذلك ـ أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض وليتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر، كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، اللّهم إلاّ أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة علي لغيره، فإنه كان ممن ينفق عليه ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة، فآخاه بهذا الاعتبار، وهكذا ذكره لمؤاخاة جعفر ومعاذ ابن جبل فيه نظر كما أشار إليه عبد الملك بن هشام، فإن جعفر بن أبي طالب إنما قدم في فتح خيبر في أول سنة سبع، فكيف يؤاخي بينه وبين معاذ بن جبل أول مقدمه ﷺ إلى المدينة، اللّهم إلا أن يقال أنه أرصده إذا قدم حين يقدم، وقوله: وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين مخالف لما رواه أحمد، **حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت عن أنس ابن** مالك أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة، وكذا رواه مسلم منفرداً به عن حجّاج بن الشاعر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، وهذا أصح مما ذكره ابن إسحق من مؤاخاة أبي عبيدة وسعد ابن معاذ.

اعتراض ابن كثير على ابن إسحاق وتركه الاعتراض على الواقدي

وقد قدّمنا تفصيل بعض أنظار ابن كثير على ابن إسحق مدعماً بالحجة البينة والله ولي التوفيق.

وقد اكتفى ابن كثير في قصة بنت حمزة رضي الله عنها عند الحديث على عمرة القضية بكلام الواقدي، وفيه: أن عمارة بنت حمزة ـ كذا يسميها الواقدي، والمشهور أنها (**أمامة**) ـ كانت بمكة، فلما قدم رسول الله ﷺ كلم عليّ بن أبي طالب رسول الله ﷺ فقال: علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين، فلم ينه النبي ﷺ عن إخراجها، فخرج بها، فتكلم زيد

ابن حارثة وكان وصي حمزة، وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين فقال زيد: أنا أحق بها ابنة أخي.

ولم يعقّب ابن كثير على كلام الواقدي المثبت لوقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم لبعض، وقد سبق حكاية ابن كثير قول من أنكر هذه المؤاخاة وذكره مستنده في ذلك، وسكوت ابن كثير عن كلام الواقدي أخف من تناقض ابن القيم في نفي هذه المؤاخاة وإثباتها، والحقيقة علمها عند الله تعالى، وليس لنا إلا الأدلة، فحيثما ظهرت كان الحق الاجتهادي معها.

تحقيق نفي التوارث بالمؤاخاة
بين المهاجرين والأنصار

ذكر جمهور المفسِّرين والمحدِّثين والمؤلفين في السيرة النبوية من القدامى أن المتآخين من المهاجرين والأنصار كانوا يتوارثون بالمؤاخاة دون ذوي الأرحام وقرابة النسب، حتى كانت وقعة بدر، فنزلت آية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فنسخت ما كان من توارث بالمؤاخاة.

قال أبو جعفر الطبري في قوله: (أولئك بعضهم أولياء بعض) يقول: هاتان الفرقتان يعني المهاجرين والأنصار، بعضهم أنصار بعض، وأعوان على من سواهم من المشركين، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وبعضهم إخوان بعض دون أقربائهم الكفار، وقيل: إنما عنى بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورّث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة دون القرابة والأرحام، وأن الله نسخ ذلك بعدُ بقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ ثم ذكر عن ابن عباس في قوله: (أولئك بعضهم أولياء بعض) يعني في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام.

ثم قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا توفي المؤمن المهاجري ورثه الأنصاري بالولاية في الدين.

ثم روي عن مجاهد قوله: الثلاث الآيات خواتيم الأنفال فيهن ذكر ما كان من ولاية رسول الله ﷺ بين مهاجري المسلمين وبين الأنصار في الميراث، ثم نسخ ذلك آخرها.

وروي عن عبدالله بن كثير قوله: (إن الذين آمنوا وهاجروا): بلغنا أنها كانت في الميراث، ثم ذكر قول قتادة: لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة.

وهكذا أدار الكلام على التوارث بالهجرة أو الولاية: مع أن حكايته لهذا القول جاءت بصيغة التمريض في قوله: وقيل: إنما عنى بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض.

أما في سورة الأحزاب فقد ذكر قول قتادة: لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة، ثم عقَّبه بقول ابن زيد ـ والمراد به عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وهو ضعيف بما يشبه الاتفاق على ضعفه، فقال: قال ابن زيد في قوله: (وأولو الأرحام) إلى قوله (معروفاً) كان النبي ﷺ قد آخى بين المهاجرين والأنصار أول ما كانت الهجرة، وكانوا يتوارثون على ذلك، وقال القرطبي في آيات آخر الأنفال ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ قال ابن عباس: أولياء بعض في الميراث، فكانوا يتوارثون بالهجرة... فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وأولو الأرحام﴾ أخرجه أبو داود ـ ومراده حديثا ابن عباس، الأول ما رواه عكرمة في ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك الأنفال ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ والثاني حديث سعيد بن جبير الذي رواه البخاري وقدّمنا ذكره. ثم قال القرطبي: وقيل ليس هنا نسخ، وإنما معناه في النصر والمعونة، وهذا من أحسن ما قيل، وقد نسب صاحب روح المعاني عدم النسخ إلى الأصم، واعترض عليه بما هو مدفوع مردود، كما ألمح إليه الرازي فيما سنسوقه من كلامه.

وذكر القرطبي في تفسير آية ﴿وأولو الأرحام﴾ من سورة الأحزاب قال: وفيه قولان: أحدهما أنه ناسخ للتوارث بالهجرة، وذكر في ذلك قولاً لقتادة قال فيه: كان نزل في سورة الأنفال ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فتوارث المسلمون بالهجرة... ثم نسخ ذلك في هذه السورة ـ أي سورة الأحزاب ـ بقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم

أولى ببعض﴾، الثاني أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين، وهو مأخوذ من كلام القاضي ابن العربي الذي جعل القول الأول في النصرة والثاني في الميراث.

وقال أبو حيان في تفسير (وأولو الأرحام) في سورة الأحزاب: كان أولاً بالمدينة توارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، ثم حكم تعالى أن أولي الأرحام أحق بالتوارث من الأخ في الإسلام أو بالهجرة في كتاب الله... من المؤمنين والمهاجرين، أي أولى من المؤمنين الذي كانوا يتوارثون بمجرد الإيمان ومن المهاجرين الذين كانوا يتوارثون بالهجرة.

أقوال المفسرين في التوارث بالمؤاخاة الاجتماعية

قال الناصر البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب، حتى نسخ بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ ثم قال البيضاوي: (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ أي من توليهم في الميراث، ثم قال: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ في التوارث من الأجانب ﴿في كتاب الله﴾ في حكمه أو في اللوح، أو في القرآن ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ من المواريث، والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام، والمظاهرة أولاً، واعتبار القرابة ثانياً.

وقال الزمخشري في كشّافه في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا﴾ هاجروا أي فارقوا أوطانهم وقومهم حباً لله ورسوله هم المهاجرون، والذين آووا إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم هم الأنصار ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي يتولى بعضهم بعضاً في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون القرابات حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ ثم قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي إلّا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولٍّ بعضهم بعضاً حتى التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على

القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة ـ تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة.

ثم قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام﴾: أولو القرابات أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة (في كتاب الله) تعالى، في حكمه وقسمته، وقيل: في اللوح، وقيل: في القرآن، وهو آية المواريث.

الاختلاف في ناسخ التوارث بالمؤاخاة

وقول الزمخشري: وهو آية المواريث، يعني به أن آية المواريث في سورة النساء هي في الحقيقة الناسخة لحكم التوارث بالهجرة والنصرة، وردّ هذا الحكم إلى القرابة النسبية، ولم يكن الناسخ على الحقيقة هو قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وغاية ما أفادته آية ﴿وأولو الأرحام﴾ الإشارة إلى الناسخ الحقيقي بقولها: ﴿أولى ببعض في كتاب الله﴾ وتأويل الكتاب بالقرآن، والقرآن إنما نسخ حكم التوارث بالهجرة والنصرة ـ في زعم القائلين به ـ بآية المواريث المفصِّلة لحقوق الوارثين بحسب قرابتهم النسبية، وآية المواريث من سورة النساء.

وهذا مخالف لجميع أقوال من قالوا بالتوارث بالهجرة، لأنهم مجمعون على أن الناسخ لهذا الحكم هو قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وإن اختلفوا في تعيين الناسخ من آيتي ﴿وأولو الأرحام﴾ هل هي آية الأنفال ـ كما ذهب إليه الزمخشري ومن تبعه من المفسرين ـ أو هي آية سورة الأحزاب، كما ذهب إليه قتادة في رواية الطبري عنه.

ثم إن قول الزمخشري في بيان الناسخ لحكم التوارث بالهجرة من كتاب الله المذكور في آية ﴿وأولو الأرحام﴾: وهو آية المواريث بعيد جداً، لأن آية المواريث من سورة النساء، وهذه السورة نزلت بعد سورة الأنفال، والأنفال نزلت بعد البقرة، التي كانت أول سورة نزلت بالمدينة، فلا يعقل أن يراد بآية ﴿وأولو الأرحام﴾ الناسخة لحكم التوارث بالهجرة آية الأنفال، لأن آية المواريث التي قال الزمخشري أنها هي المرادة من قوله: ﴿في كتاب الله﴾ بتأويل (الكتاب) بالقرآن متأخرة النزول تبعاً لسورتها، وهي النساء، لأنها

نزلت بعد الأنفال بزمن غير قليل، فكيف ينسخ ما لم ينزل من القرآن ـ وهو آية المواريث ـ ما نسخ بما سبق نزوله في آية ﴿وأولو الأرحام﴾؟ اللّهم إلا أن يقال: إن قوله: ﴿وأولو الأرحام﴾ نسخ حكم التوارث بالهجرة إجمالاً ـ أي أوقف العمل به ـ ثم جاءت آية المواريث مفصلة لهذا الإجمال، مبينة موضع وحق كل وارث.

وقد أعاد الزمخشري في تفسير قوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ من سورة الأحزاب ما قاله في أختها من سورة الأنفال، فقال: كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ ذلك لما دجا ـ أي دبّ وسعى وانتعش ـ الإسلام، وعزّ أهله، وجعل التوارث بحق القرابة (في كتاب الله) في اللوح، أو فيما أوحى الله إلى نبيه، وهو هذه الآية، أو في آية المواريث أو فيما فرض الله.

ثم قال الزمخشري: (من المؤمنين والمهاجرين) يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية، أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحق الهجرة.

ويلاحظ أن الزمخشري هنا جعل الناسخ ما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ وهو هذه الآية، أي آية ﴿وأولو الأرحام﴾ أو في آية المواريث، على أساس إمكان إرادتها في تأويل (كتاب الله) من قول الله تعالى في الآيتين (في كتاب الله)،ثم قال الزمخشري: فإن قلت: ممّ استثنى (أن تفعلوا)؟ قلت: من أعم العام في معنى النفع والإحسان كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية، تريد أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك إلا في الوصية، والمراد بفعل المعروف التوصية، لأنه لا وصية لوارث.

وهذا كله مبني على التنزّل مع القائلين بثبوت التوارث بين المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بينهم بعد الهجرة، دون ذوي الأرحام، ولا شك أن التوارث حكم شرعي، ينقل ملكية المال ممّن كان

مالكاً له قبل موته إلى مالك أو مالكين آخرين بعد موت المورِّث، ومحال أن يثبت هذا الحكم إلا بنص قاطع لا يحتمل التأويل، ونسخ حكم التوارث بالمؤاخاة دون ذوي الأرحام لا يثبت إلا بثبوت أمرين:

نسخ حكم التوارث بالمؤاخاة لا يقع شرعاً إلاّ إذا ثبت هذا التوارث بنص شرعي

أولاً ـ ثبوت الحكم المنسوخ قبل نسخه بنص ثابت.

ثانياً ـ ثبوت إبطال هـذا الحكم المنسوخ وإزالته عن دائرة طلب التكليف به بنص ثابت بيِّن يبطل المطالبة به، وإحلال الناسخ محله.

وليس لدينا نص قاطع يثبت التوارث بالمؤاخاة، ويحرم منه ذوي القرابة النسبية، ولعل أمثل ما جاء في التوارث بالمؤاخاة ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون، والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ قال: موالي: ورثة ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجريّ الأنصاريّ، دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ نسخت، ثم قال: ﴿والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، فيوصى له.

فابن عباس رضي الله عنه فسّر المعاقدة على قراءة ﴿عاقدت أيمانكم﴾ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وجعل هذه المؤاخاة سبباً يرث به المهاجري أخاه الأنصاري، وأن هذا الميراث ذهب ونسخ بقوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي ورثة، وبقي من نصيب الذين عاقدت أيمانكم ـ **أي آخيتموهم ـ النصر والرفادة والنصيحة، والتبرع بالوصية.**

وظاهر أن هذا الذي قاله ابن عباس رأي اجتهادي لم يعرف رفعه إلى رسول الله ﷺ، ولم يأت نص ثابت عنه ﷺ يفيد أن المؤاخاة التي عقدها بين أصحابه من المهاجرين والأنصار كانت سبباً في ميراث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه.

ولم نعثر على حادث أو واقعة طُبِّق فيها حكم التوارث بين المهاجرين

لم نجد واقعة تطبيقية للتوارث بالمؤاخاة مع توافر موجباتها

والأنصار بمقتضى عقد الأخوة، وهو حكم شرعي لا بد له من وقائع في التنفيذ، ولم نر أحداً من الرواة وأهل العلم ذكر أن فلاناً المهاجري ورث فلاناً الأنصاري للأخوّة التي بينهما، إلا ما وجدناه في تفسير القرطبي من أن الزبير بن العوام وهو مهاجري ورث كعب بن مالك الأنصاري للأخوة التي كانت بينهما، وهذا غلط بيّن ووهم،وَهَل فيه القرطبي، وقد نبهنا على ذلك، اللّهم إلاّ أن يكون في العبارة خطأ، والذين ذكروا أسماء المتآخين من المهاجرين والأنصار كابن إسحق وابن كثير، وابن سيّد الناس ذكروا أن كعب بن مالك الانصاري الشاعر كان أخاً لطلحة بن عبيد الله، وأن الزبير ابن العوام كان أخاً لسلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري، والمعروف في تاريخ الصحابة كما في استيعاب ابن عبد البر، وإصابة ابن حجر أن كعب ابن مالك متأخر الوفاة عن الزبير، لأن كعباً توفي في زمن معاوية سنة خمسين أو ثلاث وخمسين، وهذا قاطع بأن وفاته كانت بعد وفاة الزبير الذي استشهد وهو منصرف يوم الجمل سنة ست وثلاثين كما في الإصابة لابن حجر.

وقد خالف قتادة ابن عباس في ناسخ حكم التوارث بالمؤاخاة، فجعله قول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ وقد عرفنا أن ابن عباس جعل الناسخ ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ حيث فسّر ﴿الموالي﴾ بالورثة. أخرج الطبري في تفسيره عن قتادة قال في قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجرين شيئاً، فأنزل الله هذه الآية، فخلط المؤمنين بعضهم ببعض، فصارت المواريث.

فابن عباس رضي الله عنه جعل ميراث المهاجريّ الأنصاريّ بالمؤاخاة المرادة ـ عنده ـ من قوله تعالى: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وجعل الناسخ لهذا الميراث قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي ورثة.

أما قتادة فجعل التوارث بين المهاجـرين والأنصار بـالهجرة، أي بالمؤاخاة بينهم بعد الهجرة، ولم يتعرض لقوله: ﴿والذين عاقدت﴾ وجعل

الناسخ لهذا التوارث قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ وهي آية سورة الأحزاب.

وهنا قد يتساءل متسائل في كلام قتادة فيقول: كم هو مقدار الزمن الذي لبثه المسلمون وهم يتوارثون بالمؤاخاة بينهم بعد الهجرة، قبل نزول هذه الآية الناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة، وهي من سورة الأحزاب؟

والمعروف أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت من أسبق الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ، وقد بيّنا أنها لم تكن دفعة واحدة، وإنما كانت في دفعات مختلفة ومرات متعددة، وقد بدأت بعد الهجرة بخمسة أشهر في المسجد الأعظم، وهو يُبنى، وهذا أقل تقدير ذهب إليه العلماء، وقيل: بل بدأت المؤاخاة بعد الهجرة بسبعة أشهر، أو ثمانية، أو تسعة، كما ذكر ذلك ابن حجر وابن عبد البر، وقيل إنها بدأت بعد الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، قبل وقعة بدر.

مناقشة رأي قتادة في التوارث بالمؤاخاة

وهذا الاختلاف ظاهره مشكل، ولكن إشكاله سهل الحل بما قلناه من أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تتم في مرة واحد، وإنما وقعت مفرّقة في أزمنة وأمكنة وبواعث مختلفة على مرّات متعددة، كانت كل مرة منها تشمل فريقاً من المهاجرين ومثلهم من الأنصار يقلون أو يكثرون على حسب الدواعي والبواعث، فإذا كانت قد بدأت بعد الهجرة بخمسة أشهر في المسجد الأعظم وهو يُبنى فتكون قد استمرت تتجدد وتحدث في مرات حتى قبيل وقعة بدر.

والآية التي جعلها قتادة ناسخة للتوارث بالمؤاخاة جاءت في سورة الأحزاب وهذه السورة الكريمة نزلت باتفاق بعد سورة الأنفال بزمن لا يقل عن ثلاث سنوات، لأن الأنفال بدرية، نزلت عقب بدر في السنة الثانية، وهي كلها في قصتها وانتصاراتها وغنائمها وما وقع فيها وما أعقبها من أحداث وتشريعات، أما سورة الأحزاب فقد نزلت بعد غزوتها المعروفة بغزوة الخندق، وفيها من الأحكام والتشريع والحديث عن المنافقين وأساتذتهم اليهود القرظيين الخبثاء، وغير ذلك من صور المجتمع المسلم في

حاضره وما ينبغي أن يكون عليه في مستقبله ما يجعلها من أمهات سور التشريع القرآني، وغزوة الخندق وهي الأحزاب كانت سنة خمس من الهجرة.

وقد جاء في سورة الأنفال التي سبقت في نزولها سورة الأحزاب بنحو ثلاث سنين أخت آية الأحزاب (وأولو الأرحام) التي جعلها قتادة ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة والآيتان تتفقان، بل تتوحدان جملاً، وألفاظاً، وحروفاً، في صدرهما، وهو موضع الاستشهاد منهما على النسخ عند القائلين به في نسخ حكم التوارث بالمؤاخاة.

الاختلاف في ناسخ حكم التوارث بالمؤاخاة بين آيتي الأنفال والأحزاب وقوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾

فلماذا اختار قتادة ومن ذهب إلى قوله آية الأحزاب فجعلها ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة، وترك آية الأنفال مع سبق نزول الأنفال بزمن مديد على نزول الأحزاب؟ وما هو محمل آية الأنفال في المعنى المراد منها إذا لم تكن ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة؟ وما المقصود من الأولوية في قوله تعالى في الآيتين: ﴿أولى ببعض﴾؟ وإذا كان لها محمل في آية الأنفال غير نسخ حكم التوارث، وهو ما ينبغي أن يكون عند من لم يجعلها ناسخة؛ فلماذا تختص آية الأنفال بهذا المحمل دون آية الأحزاب؟ ولماذا لا يكون المحمل في الآيتين واحداً، وهما متوحدتا القالب والأسلوب في محل الدلالة؟ ولا سيما أن الحكم الذي قيل عنه إنه منسوخ ـ وهو حكم التوارث بالمؤاخاة بإحدى الآيتين ـ لم يثبت بنص قاطع، فهو في حيِّز العدم، والمعدوم لا ينسخ.

وقد كان الزمن بين بدء المؤاخاة وبين نزول آية الأحزاب التي جعلها قتادة ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة متطاولاً، كما يفيده قول قتادة: وقد لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة،وفي هذا الزمن وقعت حروب بين المسلمين وأعدائهم استشهد فيها كثير من المسلمين، مهاجرين وأنصاراً ولو لم يكن إلا غزوة أحد لكفى، وقد قتل فيها من المسلمين المهاجرين والأنصار سبعون رجلاً، ولم نعثر على قول لأحد من أهل العلم ورواة الوقائع وناقلي الأحداث من المؤرخين ذكر فيه أن فلاناً المهاجري ورث فلاناً أخاه الأنصاري بما كان بينهما من مؤاخاة، دون ذوي رحمه.

وقد خالف قتادة في جعله آية الأحزاب هي الناسخة جمهرة المفسرين

كالزمخشري في كشّافه، والبيضاوي في (أنواره) وأبي السعود في (إرشاده) وغيرهم ممن جاء بعد الزمخشري فتبعه، فجعلوا الناسخ آية الأنفال، وقد قدمنا كلام الزمخشري في ذلك.

رأي ابن كثير في موافقته قتادة وما يلاحظ عليه

وقد ذهب ابن كثير مذهب قتادة في جعله ناسخ حكم التوارث بالحلف والمؤاخاة آية الأحزاب، فقال في تفسيره وقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي في حكم الله ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجريّ يرث الأنصاريّ دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير ـ وهو تلميذ ابن عباس ـ وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبي من ساكني بغداد، عن عبد الرحمن ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: أنزل الله عز وجل فينا خاصة، معشر قريش والأنصار ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وذلك أنّا معشر قريش لما قدمنا المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم، وورثناهم، فآخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد، وآخى عمر فلاناً، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق بن سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره، قال الزبير: وآخيت أنا كعب بن مالك فجئته فانتقلته، فوجدت السلاح قد أثقله فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيري حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى مواريثنا.

ويلاحظ على ابن كثير:

أولاً ـ أنه ذكر التوارث بالحلف مع التوارث بالمؤاخاة، والتوارث بالحلف أمر جاهلي، والتوارث بالمؤاخاة ـ عند من يقول به ـ حكم شرعي

إسلامي، وقد جمعهما ابن كثير في نسخهما بآية ﴿وأولو الأرحام﴾ من سورة الأحزاب.

وقول ابن عباس ـ وهو العمدة في التوارث بالمؤاخاة ـ ليس فيه تعرض للتوارث بالحلف.

وثانياً ـ أن ابن كثير ساق حديث ابن أبي حاتم، ولم يعقِّب عليه ببيان مرتبته من الصحة أو الضعف، وهذا على خلاف عادته، ولم يعرف عنه أن سكوته عن التعقيب يفيد تصحيح الحديث.

وثالثاً ـ أن حديث ابن أبي حاتم صريح في القول بأن الزبير بن العوّام كان أخا لكعب بن مالك الأنصاري، ولم يذكر هذه المؤاخاة بينهما أحد ـ فيما علمنا ـ ممن سمّى المتآخين من المهاجرين والأنصار، ولكنهم ذكروا أن كعباً كان أخا طلحة بن عبيد الله، وأن الزبير كان أخا سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري.

ورابعاً ـ أن قول الزبير رضي الله عنه في الحديث: لو مات ـ أي كعب ابن مالك ـ يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري صريح في أن الأخ المهاجري يرث جميع تركة أخيه الأنصاري دون ذوي رحمه، بالغة ما بلغت، ولم يذكر حال بعض ذوي الأرحام من الأنصار إن كانوا مسلمين، فهل يحرمون من ميراث ذوي قراباتهم من أجل المؤاخاة بين مورِّثهم وبين أحد المهاجرين؟ مع أن ولاية الدين ذكرت في بعض الأحوال سبباً في التوارث كالمؤاخاة.

وخامساً ـ إن ميراث المهاجري جميع ما يتركه أخوه الأنصاري ـ كما هو نص حديث ابن أبي حاتم ـ دون ذوي رحمه ولو كانت لهم ولاية الدين ـ لم يظهر له أثر قط في أموال الأنصار، وقد كانوا أصحاب ثروات وأرضين زراعية وبساتين، وتجارات، ولم نر من ذكر من أهل العلم والمؤلفين أن شيئاً من ثرواتهم وأملاكهم انتقل من ملكية أحدهم إلى ملكية أخيه المهاجري بتوارث المؤاخاة أو ولاية الدين، مع تصريح الزبير في حديث ابن أبي حاتم الذي ساقه ابن كثير بأن كعب بن مالك لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه

غيره، وهذا يفيد عموم الحكم، وقد قلنا إن وقائع الحروب بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وأعدائهم من المشركين واليهود لم تنقطع، ولا بد أن يكون قد استشهد في هذه الوقائع عدد من الأنصار فورثهم إخوانهم من المهاجرين، ولكنّا لم نر شيئاً من ذلك مسطوراً في روايات التاريخ ومصادر الأحداث والوقائع.

وسادساً - إن قول الزبير رضي الله عنه: فوجدنا **الأنصار** نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم يفيد بمقتضى صيغة المفاعلة أن التوارث كان من الجانبين، على معنى أن يرث المهاجريّ الأنصاري وأن يرث الأنصاريّ المهاجريّ.

وهذا مخالف لصريح قول ابن عباس: فيرث المهاجريّ الأنصاريّ، إذ جعل الميراث من جانب واحد فالمهاجريّ وارث والأنصاري موروث كما حكاه ابن كثير في قوله: كما قال ابن عباس وغيره، كان المهاجريّ يرث الأنصاريّ دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ.

ولا يجدي شيئاً الاعتذار عن ذلك بأن المهاجرين قدموا ولا مال لهم، فهم كانوا ذوي الحاجة، لأن كثيراً منهم عزفت أنفسهم عن أن يكونوا عبئاً على إخوانهم الأنصار فعملوا في التجارة وغيرها، ودرَّ عليهم الرزق مبكراً، وربحوا وكثر مالهم كما يدل عليه حديث عبد الرحمن بن عوف وأخيه سعد ابن الربيع، وقد ثبت أن سعد بن الربيع الأنصاري استشهد قبل عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنهما بسنين، لأن سعداً كان من شهداء غزوة أحد، دفن مع ابن عمه خارجة بن زيد الذي كان أخاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما في قبر واحد.

لو كان ثمة توارث بالمؤاخاة لورث عبد الرحمن بن عوف أخاه سعد بن الربيع ولورث أبو بكر أخاه خارجة بن زيد

ولم يعرف قط أن عبد الرحمن بن عوف ورث سعد بن الربيع بالمؤاخاة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ دون ذوي رحم سعد وقراباته، كما لم يعرف قط أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ورث خارجة بن زيد الأنصاري أخاه بالمؤاخاة وصهره، وغزوة أحد التي استشهد فيها سعد بن الربيع وخارجة ابن زيد كانت بالبداهة التاريخية أسبق من غزوة الخندق التي نزلت عقبها سورة

الأحزاب، وفي صدرها آية نسخ التوارث بالمؤاخاة وولاية الدين ـ عند من يقول بهذا التوارث ـ ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾.

* * *

ولعل هذا الاضطراب هو الذي حمل بعض أهل العلم على حمل التوارث المنسوخ بآية ﴿وأولو الأرحام﴾ على التوارث بالحلف الذي كان معروفاً في الجاهلية ومعمولاً به قبل الإسلام، فقد أخرج الطبري في تفسيره عن قتادة فقال: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك.

ولعل تسمية المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار حلفاً في حديث أنس عند البخاري ومسلم وأبي داود وغيرهم كان هو الحامل على القول بالتوارث بالمؤاخاة.

وقول الطبري: فنسخ ذلك ليس معناه النسخ الشرعي الذي هو إزالة حكم شرعي ثبت بنص من الشارع والإتيان بحكم شرعي خير منه في الرفق بالأمة، وتحقيق مصلحة للمجتمع أو درء مفسدة عنه، وإنما معناه إزالة أمر جاهلي تعارفته الجاهلية وعملت به بحكم شرعي مؤتنف جاء به نص من الشارع، وهو هنا إثبات التوارث بموجباته النسبية كما تضمنته آية المواريث المشار إليها في آيتي الأنفال والأحزاب بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ بتأويل (كتاب الله) بالقرآن، وتكون حينئذ آية المواريث هي المرادة بما (في كتاب الله).

اضطراب النقل عن ابن عباس

ومن العجيب أن التوارث بالحلف مروي عن ابن عباس من أصح الطرق عنه، فقد أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان الرجل يعاقد الرجل، فإذا مات ورثه الآخر، فأنزل الله عز وجل ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ قال ابن عباس: يقول: إلا أن توصوا إلى أوليائكم الذين عاقدتم، وقد رواه أبو داود بأوضح من هذا فقال: عن عكرمة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك الأنفال ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾.

وهذا كلام منسجم السياق، قاطع بأن التوارث قبل نزول آية المواريث المحكمة كان بالحلف والتعاقد الجاهلي، فأبطله الله تعالى وأزال آثاره، وهذا معنى قول من عبّر عن هذا الإبطال والإزالة بالنسخ، ولم يكن التوارث بالمؤاخاة، والأكثر على أن الناسخ المزيل لهذا الأمر الجاهلي هو آية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ من سورة الأحزاب، والذي يظهر أن إزالة التوارث بالتحالف كان بآية الأنفال، لأنها أسبق نزولاً وتقريراً لحكم الميراث إجمالاً.

فالتوارث بالحلف ليس توارثاً شرعياً، وإنما هو أمر من أمور الجاهلية وعاداتهم، ولعله كان معمولاً به في صدر الإسلام قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت رجعت بالمسلمين إلى أنسابهم.

يقول الأستاذ رشيد رضا صاحب المنار: والقرآن لم يشرع للناس الإرث بالتحالف، وإنما أبطله ونسخ ما كان عليه الناس فيه بنزول آية المواريث.

وذهب بعض العلماء إلى حمل المعاقدة في قوله تعالى: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ على ما كان في الجاهلية من أحلاف يتوارثون بها، ورشحوا هذا التأويل بقوله ﷺ فيما رواه أبو داود عن جبير بن مطعم: «لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة» ولا تعارض بين قوله ﷺ في صدر الحديث: «لا حلف في الإسلام» وقوله بعده: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة» وقد جعلهما أبو داود حديثاً واحداً، بَيْد أن البخاري روى «لا حلف في الإسلام» عن عاصم في قوله: قلت لأنس: أبلغك أن رسول الله ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام» فقال أنس في ردِّه على عاصم: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

والمراد بقريش في كلام أنس المهاجرون خاصة، وقد رواه أبو داود بلفظ «حالف بين المهاجرين والأنصار» في دارنا مرتين أو ثلاثاً.

وحديث أنس يثبت الحلف في الإسلام بقوله: حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا فلما قيل له: إن رسول الله ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام» لم يزدهم في الرد على قوله الذي قاله أولاً.

التوفيق بين نفي الحلف وإثباته في نظر ابن القيم وابن الأثير

وفي نفي التعارض والتوفيق بين حديث نفي الحلف في الإسلام، وحديث إثباته في قول أنس، وحديث: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة» قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: فالظاهر - والله أعلم - أن المراد بالحديث «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» أن الله تعالى قد ألف بين المسلمين بالإسلام وجعلهم به إخوة متناصرين، متعاضدين، يداً واحدة بمنزلة الجسد الواحد، فقد أغناهم الإسلام عن الحلف، بل الذي توجبه أخوة الإسلام لبعضهم على بعض أعظم مما يقتضيه الحلف.

فالحلف إن اقتضى شيئاً يخالف الإسلام فهو باطل، وإن اقتضى ما يقتضيه الإسلام فلا تأثير له، ولا فائدة فيه، وإذا كان قد وقع الحلف في الجاهلية ثم جاء الإسلام بمقتضاه لم يزده الإسلام إلا شدة وتأكيداً.

وأما الحلف الذي أبطله الإسلام فهو تحالف القبائل بأن يقوم بعضها مع بعض وينصره، ويحارب من حاربه ويسالم من سالمه، فهذا لا يعقد في الإسلام، وما كان منه قد وقع في الجاهلية فإن الإسلام يؤكده ويشدّه إذا كان موجبه في الإسلام التناصر والتعاضد والتساعد على إعلاء كلمة الله تعالى، وجهاد أعدائه وتأليف الكلمة وجمع الشمل - إهـ.

فالحلف الذي نفاه رسول الله ﷺ في قوله: «لا حلف في الإسلام» ليس هو المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه المهاجرين والأنصار، وهي التي أطلق عليها أنس رضي الله عنه اسم الحلف في قوله: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا، لأن المؤاخاة في صورتها

الاجتماعية التي عقدها النبي ﷺ بين غصني المجتمع المسلم في طليعة تكوينه وقال لهم فيها: «تآخـوا في الله أخوين، أخويـن» هي أقوى دعائم تركيب المجتمع المسلم في خلوده ومستقبل حياته.

ويشبـه أن يكون أنس رضي الله عنـه في إطلاقـه على المؤاخـاة الاجتماعية اسم الحلف أنه فهم من قول تلميذه عاصم الأحول وقد سأله: أبلغك أن رسول الله ﷺ قال «لا حلف في الإسلام»؟ أن هذا من قبيل النهي الذي يتناول في فهم السائل مثل المؤاخاة الاجتماعية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه في دار أنس، فجاء رد أنس على السائل بما يوحي أن المؤاخاة نوع من التحالف، ولم يغب عن وعي أنس رضي الله عنه أنَّ ما كان عقده النبي ﷺ إنما هو مؤاخاة اجتماعية للتناصر والتعاضد بين المسلمين لإعلاء كلمة الله تعالى.

وذهب ابن الأثير في كتابه (النهاية) في التوفيق بين الحديثين مذهباً لا يبتعد في خلاصته عن كلام ابن القيِّم، فقـال: أصل الحلف المعـاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والإنفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال والغارات فذلك الذي نهى عنه بقوله: «لا حِلْف في الإسلام» وما كان منه على نصرة المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيِّبين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة».

وظاهر من توفيق الشيخين ابن القيم وابن الأثير الميل إلى حديث «لا حلف في الإسلام» ويقوِّي ذلك تفسير ابن عيينة الحلف في حديث أنس بالأخوة، واعتراض ابن حجر على هذا التفسير مدفوع، ويشد من أزر هذا الاتجاه ما رواه أحمد، والترمذي وحسّنه عن عبدالله بن عمرو بن العاص، يرفعه إلى رسول الله ﷺ: «أوفوا بحلف الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تُحْدِثوا حِلْفاً في الإسلام».

وهذا نهي صريح عن إحداث أحلاف في الإسلام، لأن أخوة الإيمـان وأخوة التناصر والتعاضد فيهما غُنْية عن هذه الأحلاف التي يكون الغرض

منها التساعد على نصرة الحق والخير، وأما ما كان منها للفتن والظلم فمنهي عنه في الإسلام بمقتضى عموم قواعده في تحقيق العدل وإعطاء كل ذي حق حقه.

معارضة تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وقوله: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾

وقد قدمنا الكلام على حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري بتفسير ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وحملها على المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه المهاجرين والأنصار بعد مقدمه المدينة وأنهم كانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة فيرث المهاجري أخاه الأنصاري دون ذوي رحمه، ثم نسخ ذلك بقول الله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي ورثة كما فسرها ابن عباس رضي الله عنه، وصرّح بأنها نسخت التوارث بالمؤاخاة، وقلنا: إن هذا الفهم من الحبر ابن عباس فهم اجتهادي لا يلزم حمل الآيتين عليه لإثبات التوارث بالمؤاخاة إذا وجد ما يعارضه في حمل المعاقدة في ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ على معنى آخر غير المؤاخاة.

وقد وجد هذا المعارض في حديث داود بن الحصين عند أبي داود في سننه في كتاب الفرائض، قال ابن الحصين: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع، وكانت يتيمة في حجر أبي بكر، فقرأت ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ فقالت: لا تقرأ ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى الإسلام، فحلف أبو بكر أن لا يورثه، فلما أسلم أمر نبي الله ﷺ أن يؤتيه نصيبه.

والتوارث بالحلف كان في الجاهلية موجوداً معمولاً به بين المسلمين في صدر الإسلام، فلما نزلت آية الميراث رجع المسلمون في توارثهم إلى أنسابهم طبق ما جاء في الآية من تعيين السهام ومواضعها.

ذكر ابن حجر في الفتح من طريق سعيد بن جبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل فيرثه، وعاقد أبو بكر مولى فورثه، وأخرجه السيوطي في (الدر) عن سعيد بن جبير أيضاً قال: إن أبا بكر رضي الله عنه عاقد رجلاً في الجاهلية فورثه أبو بكر.

وذكر القائلون بالتوارث بالحلف أن الحليف كان يرث السدس من تركة حليفه، ثم أبطل هذا التوارث الحليفي بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وشرع الله لعباده أحكام الميراث كما جاءت في آيتها من سورة النساء.

ويظهر أن النقل عن ابن عباس مضطرب، فقد أخرج أبو داود عنه من طريق عكرمة قال: (والذين آمنوا وهاجروا. . . والذين آمنوا ولم يهاجروا) فكان الأعرابي لا يرث المهاجر، ولا يرثه المهاجر، فنسختها ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وهذا أيضاً محمول على الحلف في الجاهلية، وعلى إبطال أثره، والآية التي قيل: إنها ناسخة يراد من نسخها إبطال حكم الجاهلية وإحلال حكم شرعي مؤتنف محله بوضع الميراث في مواضعه النسبية.

لا وجه للميراث بالمؤاخاة مع نبل موقف الأنصار كما سجله القرآن

ولا تكاد تظهر حكمة معقولة في جعل المؤاخاة الاجتماعية سبباً للتوارث بين المهاجرين والأنصار، مع ما هو ثابت بالنص القطعي الذي أنزله الله تعالى قرآناً يتلى ويُتعبَّد به المؤمنون إلى يوم القيامة من حبِّ الأنصار لإخوانهم المهاجرين حباً جعلهم يؤثرونهم على أنفسهم بما في أيديهم وما يملكون، ولو كان الأنصار في أشد الحاجة لهذا الذي يؤثرون به المهاجرين.

وقد كان هذا الإيثار حقيقة عملية واقعة في مجرى الحياة، ولم يكن خيالاً فضفاضاً يتمدّح به، لأن الله تعالى الحكيم الخبير هو الذي أخبر به في كتابه الحق المبين، وجعله مدحة أثنى بها على الأنصار ثناء تنقطع دون الوصول إليه أعناق الرغائب وتقصر دون غاياته الآمال.

فما قيمة هذا الميراث مهما عظم قدره مع هذا الحب والإيثار الذي لم يترك وراءه حاجة لمهاجري تعتريه في حياته ليسدّها بهذا الميراث؟ وما قيمة هذا الميراث الإلزامي الجبري الذي يولد في الصدور حزازات وضغائن عند ذوي الرحم المحرومين من هذا الميراث؟ بل ما قيمته مع قول رسول الله ﷺ للأنصار: «إن إخوانكم ـ أي المهاجرين ـ قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم» فقال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير

ذلك» قالوا وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر» قالوا: نعم، فهل ترك ذلك مكاناً للتوارث الإلزامي الجبري بالمؤاخاة؟ ثم هل يمكن تحقق هذا التصوير الباهر، والرسول هو الذي عرضه على الأنصار مع وجود التوارث بالمؤاخاة وهو حق جبري إلزامي؟ لا، بل ما قيمة هذا التوارث الجاهلي مع هذا الثناء الرغيب الذي أثنى به المهاجرون على الأنصار إذ قالوا لرسول الله ﷺ: ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال لهم رسول الله ﷺ ليخفف عنهم عبء المنّة بالنعمة «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم».

وكيف يتصور أن المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه ليصحح بها تركيب مجتمعه المسلم وجعل أساسها الحب في الله، ولله، يدخل فيها عنصر التوريث الجبري الإلزامي، الذي إن رضيته النفوس الأبية فإنما ترضاه لو ارتكز على نص شرعي من الله ورسوله، وحينئذ يكون الرضا به استسلاماً وتسليماً لأمر الله ورسوله ﷺ فهو أمر مقبول بالعقول لا بالقلوب؟

في الحب أكبر غُنْية عن إلزام إجباري بالميراث

إن الحب هو الذي أقام على دعائمه رسول الله ﷺ المؤاخاة الاجتماعية بين أصحابه المهاجرين والأنصار، لتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم الجديد بإزالة الفوارق المادية بين أفراده وجماعاته، إزالة لا تعتمد على سياط العقوبة والقهر القانوني، ولكنها تعتمد على الحب المُؤثِر، بعد أن وحّدت بين أفراده العقيدة الإيمانية.

هذا الحب الذي نهد في مهد الترافق والتواسي والتعاضد والتساعد كان فيه غُنية عن هذا الإلزام الجبري في التوارث، الذي إن رضيته النفوس البشرية فإنما ترضاه لأنها لم تجد عنه بديلاً يقيم الحياة بين أفراد المجتمع، ولكن مالها وله وهي تجد استجابة الضمير بما هو أفضل وأجل وأعظم ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

لقد بلغ الحب بالمسلمين في المجتمع المسلم الأول مبلغاً من التعاطف

المواسي والتراحم الودود، يصوره ما رواه أبو داود والترمذي عن أنس ابن مالك قال: لقد رأيتنا وما الرجل المسلم أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم.

ويصوره ما رواه البخاري في مواضع من صحيحه أن عبد الرحمن ابن عوف آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وكان سعد من أكثر الأنصار مالاً، فعرض على عبد الرحمن أن يقاسمه ماله وأن يطلّق له أعجب زوجتيه إليه ليتزوجهابعد انقضاء عدتها، فأبى عبد الرحمن، وشكر لسعد فضله وإيثاره، واستشهد سعد في غزوة أحد وعاش بعده عبد الرحمن ابن عوف ولم يعرف أنه ورثه.

وكيف يصح تشريع الميراث بالمؤاخاة ورسول الله ﷺ يعرض على الأنصار تخييرهم يوم أفاء الله عليه بني النضير وغنائمهم - فكانت خالصة له ﷺ لا تدخل تحت طائلة التخميس - بين أن يقسم هذه الغنائم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين ويبقى المهاجرون كما كانوا معهم في دورهم وأموالهم، وبين أن يخص بغنائم النضير المهاجرين، ويتركوا للأنصار دورهم وأموالهم، فتنادى الأنصار جميعاً بأن يخص ﷺ بهذه الغنائم إخوانهم المهاجرين، ويبقوا على ما كانوا عليه من مشاركة الأنصار في دورهم وأموالهم، فيُنزل الله تعالى مدحتهم بأنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

فأين الميراث إذاً وكان فيه غنية عن هذا التخيير لو كان قد كان، لكنه لم يكن، لأن الحب لا يعرف الإلزام القانوني، ولا يعرف القهر في التواسي والتراحم الودود، مما يصوره موقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين.

والظاهر أن روايات التمسك بأحلاف الجاهلية التي كان الميراث عنصراً من عناصر عقدها كان ذا أثر في فهم أن الميراث كان داخلاً في مقومات المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

ومما يزيد زعم أن التوارث كان أثراً من آثار المؤاخاة الاجتماعية التي

في بعض روايات التوارث بالمؤاخاة غموض يوهنها

عقدها رسول ﷺ بين أصحابه المهاجرين والأنصار ـ غموضاً أن هذا الميراث لم يبيّن في رواية ابن عباس، وهي العمدة في القول به، هل كان شاملاً لجميع تركة المتوفى على معنى أن تنتقل ملكية ثروته بأنواعها من عقار ومال سائل وتجارة وزراعة إلى وارثه بالمؤاخاة ويحرم منها ذوو رحمه، أو كان من قبيل ما كان عليه في الجاهلية من الاقتصار على توريث السدس كما جاء في بعض الروايات، أو كان له تقسيم آخر لم يذكر في الروايات؟

على أن أصح بعض الروايات في المؤاخاة المشتملة على ذكر الميراث تقول ـ كما في رواية البخاري في الفرائض عن ابن عباس رضي الله عنه: لما قدموا ـ أي المهاجرون ـ المدينة كان يرث المهاجريّ الأنصاريّ دون ذوي رحمه، بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فنزلت ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾.

وظاهر هذه الرواية أن الذي نسخ ميراث المؤاخاة هو قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام﴾ وهذا مخالف لما جاء في كتاب التفسير من البخاري عن ابن عباس نفسه أن الذي نسخ ميراث المؤاخاة هو قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ حيث فسّر ابن عباس (الموالي) بالورثة.

ومما يلاحظ على رواية الفرائض من البخاري أنها جعلت الميراث من جانب واحد، فقالت: لما قدموا المدينة كان يرث المهاجريّ الأنصاريّ فاقتصرت على ذلك ولم تذكر المقابل، وهو أن يرث الأنصاري المهاجريّ تحقيقاً للتوارث المشروع بالمؤاخاة عند من يقول به، فإن قيل: إن الأسلوب جرى على الاكتفاء بذكر أحد الجانبين ليدل على الجانب الآخر، قلنا: ليس هذا مما يصح فيه الاكتفاء لأنه تشريع أحكام مؤتنفة ينبغي فيها الشمول.

وقد بيّنا أن الاعتذار عن مثل ذلك بأن الذي يحتاج للتصريح بالنص عليه هو ميراث المهاجري من الأنصاري ـ لأن المهاجرين كانوا هم أصحاب الحاجة للريش والإرفاد ـ لا يجدي غناء في هذا المقام، لأن من المهاجرين من عمل في التجارة وغيرها فتموّل، وملك من المال ما بلغ فوق حاجاته.

فكان من البيّن أن يجيء النص محققاً للتوارث من الجانبين ـ لو كان هناك توارث بالمؤاخاة ـ والنص على جانب واحد يدل على أن المقصود إنما هو المواساة والإرفاد، وإطلاق اسم الميراث عليه لتحتّمه في شرعة المروءات والمكارم.

رأي محكم متعمق للإمام الرازي ينفي التوارث بالمؤاخاة

وقد أحكم الإمام فخر الدين الرازي القول في هذه المسألة فقال في تفسيره ـ وأظنه منفرداً بجوهرة لآلئه ـ من سورة الأنفال: واعلم أن الله تعالى لما ذكر هذين القسمين في هذه الآية ـ أي المهاجرين والأنصار ـ قال: ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ واختلفوا في المراد بهذه الآية، فنقل الواحدي عن ابن عباس والمفسرين كلهم أن المراد هو الولاية في الميراث، وقالوا جعل الله تعالى سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة، وكان القريب الذي آمن ولم يهاجر لم يرث من أجل أنه لم يهاجر، ولم ينصر.

واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى، لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ما قررناه، ويقال السلطان ولي من لا ولي له ولا يفيد الإرث، وقال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ولا يفيد الإرث، بل الولاية تفيد القرب، فيمكن حمله على غير الإرث، وهو كون بعضهم معظماً للبعض، مهتماً بشأنه، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته.

قلنا: وقد نسي الإمام الرازي ما هو أقطع في الاستدلال على أن لفظ الولاية معناه القرب والنصرة، أو اكتفى بما ذكر للدلالة على ما لم يذكر، من قبيل الإيجاز المُفْهم تفادياً عن الإسهاب والتطويل.

وذلك قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ قال الزمخشري في تفسيرها: في كل شيء من أمور الدين والدنيا... فيجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمه عليهم أنفذ من حكم أنفسهم عليهم، وحقّه آثر لديهم من حقوق أنفسهم، وشفقته عليهم أتم من شفقتهم على أنفسهم، وأن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداء له إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه، لأن

كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار.

أو هو أولى بهم على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم، كقوله تعالى: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

وعن النبي ﷺ «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة» اقرؤا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ «فأيما مؤمن هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك دَيْناً أو ضياعاً فإليّ» وهذا أبين ـ في موضوعنا ـ من البيان، لأن رسول الله ﷺ فسّر بما لا يدع مجالاً لتفسير غيره مع تفسيره؛ ولا سيما ما أوضحه في الحديث المفسِّر للآية من قوله ﷺ: «فأيما مؤمن هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا» فأين الميراث في معنى لفظ الولاية هنا؟.

والمقصود أن يكون المسلمون يداً واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ، لا سيما وهم يقولون: إن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى في آخر الآية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى، مذكورة معه؟

هذا في غاية البعد، اللّهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك، فحينئذ يجب المصير إليه إلا أن دعوى الإجماع بعيد.

قلنا: وقول الرازي: اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين إلى آخر هذه الفقرة من كلامه، غير مسلّم.

ملاحظة مهمة على كلام الإمام الرازي

أولاً ـ لأنه نقل في مفتتح كلامه عن الواحدي أن هذا قول المفسرين كلهم وفي مقدمتهم ابن عباس رضي الله عنه وهذا نقل لإجماع المفسرين، لأن التأكيد بلفظ (كلهم) دليل على أن أحداً لم يخالف في ذلك، وهذا

كالمناقض لقوله: اللّهم إلاّ إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك فحينئذ يجب المصير إليه، وقوله: إلا أن دعوى الإجماع بعيد، لا محصل له بعد كلام الواحدي.

ثانياً ـ أن هـذا الاجماع الذي نقله عن الواحدي إجماع طائفة، هم طائفة المفسرين، ولم يقل أحد إن إجماع طائفة من الأمة ـ عدا الصحابة رضوان الله عليهم ـ حجة يجب المصير إليها، ما لم يعتمد إجماعهم على دليل نصي، فحينئذ يكون المصير إلى موجب الدليل، لا إلى الإجماع، على أننا قد ذكرنا من أقوال بعض المفسرين المعتمدة على روايات حديثيّة ما يخالف هذا الإجماع المزعوم، ومن العجيب أن بعض هذه الروايات المخالفة جاءت عن ابن عباس رضي الله عنه، وهو صاحب القول بتفسير الموالاة بالميراث الذي اعتمد عليه القائلون بميراث المولاة.

ثم قال الرازي في قوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ الذين قالوا: المراد من قوله تعالى: ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ ولاية الميراث، قالوا: هذه الآية ناسخة له، فإنه تعالى بيّن أن الإرث كان بسبب النصرة والهجرة، والآن قد صار ذلك منسوخاً فلا يحصل الإرث إلا بسبب القرابة، وقوله: (في كتاب الله) المراد منه السهام المذكورة في سورة النساء.

وأما الذين فسروا تلك الآية بالنصرة والمحبة والتعظيم قالوا: إن تلك الولاية لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث بيّن الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة، إلا ما خصه الدليل فيكون المقصود من هذا الكلام إزالة هذا الوهم، وهذا أولى، لأن تكثير النسخ من غير ضرورة ولا حاجة لا يجوز إهـ.

ومما يدل على عدم صحة حمل الولاية في آية ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ على ولاية الميراث، وعلى أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تكن قط سبباً للتوارث بينهم، وأن التوارث إنما كان بالأنساب قبل الهجرة وبعدها ما رواه الدارمي عن ابن سيرين فقال: حدثنا سعيد بن المغيرة قال: قال ابن المبارك: حدثنا ابن عون عن محمد قال: ذكر عنده قول من يقول في الجميل

فأنكر ذلك، وقال: قد توارث المهاجرون والأنصار بنسبهم الذي كان في الجاهلية.

فقوله رحمه الله: قد توارثوا بنسبهم الذي كان في الجاهلية صريح في أن الهجرة والمؤاخاة لم تحدث ميراثاً غير ميراث النسب.

المؤاخاة على الحب في الله
أقوى دعائم بناء حياة الأمة
فإذا وهت تآكل بنيانها

لم يكن هدف المؤاخاة مجرد أمر مادي يعيش به الإنسان

حينما بدأ رسول الله ﷺ وهو يرفع مع أصحابه قواعد مسجده الأعظم بالمدينة ليكون دار الإسلام والمسلمين، ومحفل الإيمان والمؤمنين، ومجمع الهداة والمهتدين ومربى الدعاة إلى الله ـ بتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم بعقد المؤاخاة الاجتماعية بين أفراد هذا المجتمع الجديد على الحب في الله، والحب لله، وقال لأصحابه: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» ـ لم يكن ﷺ يقصد بهذه المؤاخاة عملاً موقوتاً يمكّن به طلائع وجود هذا المجتمع ـ من المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأبناءهم وعشائرهم في سبيل الحفاظ على عقيدتهم التوحيدية وإيمانهم برسالة نبيهم إيماناً مازج أرواحهم وعقولهم وقلوبهم ودماءهم، واستولى على مشاعرهم واحساساتهم، وقد أحاطت بهم الفاقة الماديّة من كل جانب، ومسّتهم الحاجة والإعواز مسّاً أليماً موجعاً، فهاجروا إلى إخوانهم أنصار الله بالمدينة، ليجدوا عندهم متنفساً تستريح إلى أريج نسائمه الإيمانية أنفسُهم، وليكوّنوا معهم مجتمع الإيمان والحب في الله، ولله، مجتمع التضحية والفداء للحفاظ على عقيدتهم والعمل على نشر دعوة نبيهم في آفاق الحياة، هداية، وبراً، وعدلاً، ورحمة ـ من لقمة عيش، يقيمون بها أصلابهم، وتحفظ لهم رمق حياتهم، وتُبْقي على ذماء أنفسهم، لينهضوا بواجبهم الأصيل في تبليغ رسالة ربهم، وإعلاء كلمة الله بتقويض صروح الوثنية المادية البليدة، وإزالة معالم الشرك الغبيّ الجهول ورفع راية الحق، ونصرة المظلوم، ونشر العدل والمساواة، والقضاء على الاستعباد المادي والاستبداد البشري.

لأن لقمة العيش أدنى مراتب الإحسان عند من يملكون أحط قدر من الشعور الإنساني والإحساس الوجداني، فهي لا تستأهل أن تكون في حساب الرغائب العليا التي يحفل بها ذوو المكارم المتسامية إلى ذرا الفضائل من المصطفين لقيادة الإنسانية بمبادىء الحوافز الروحية والعقلية التي تقود الفكر الإنساني في مسيرته الكونية، وهو يكشف عن أسرار الكون في عناصره الطبيعية، ليقيم على أساسها حضارة إنسانية يسعد بها كل إنسان.

وهؤلاء المصطفون لا تعنيهم المبادىء الماديّة الهابطة إلا بقدر ما يرون لها من أثر الذرائع الموصلة إلى عظائم الأمور، وعندئذ ينظرون إلى هذه المبادىء المادية نظراً يُعلي من قدرها، ويرفعها عن مزالق الرغائب الرخيصة الهابطة.

فالنبي ﷺ وهو المثل الأعلى في التسامي بمبادىء رسالته السامية بخصائصها، الخالدة في عمومها؛ لا يمكن أن يقصد ـ وهو يعمل على تصحيح التركيب الاجتماعي لمجتمعه المسلم الذي يعدّه لقيادة الحياة إلى آفاق العزة والكرامة ـ إلى مجرد تمكين طلائع هذا المجتمع من لقمة العيش في ضآلة قيمتها وخفة وزنها وتفاهة دلالتها على مقاصد هذا المجتمع الرائد القائد، لأنه المجتمع الذي ناطت به العناية الإلّهية والحكمة الربانية منصب قيادة الإنسانية بما أودع فيها من استعداد ومقوّمات وعناصر فكرية، وإدراكات عقلية، وتنّورات قلبية، وإشراقات روحية إلى ذروة التقدم الحضاري علماً ومعرفة وسلوكاً، وعملاً تطبيقياً لمدركات الحياة والكشف عن أسرارها المسخّرة للإنسان، ليأخذ من الوقوف على بعض تلك الأسرار علمياً أهبته لتحويل هذه الأسرار من نظريات فكرية إلى عمل إيجابي ينهض بالإنسانية نهوضاً تستطعم به نعم الله عليها، وتتذوق برشفه حلاوة العلم الذي كشف ويكشف لها الأغطية عن عناصر الكون، وما انطوت عليه هذه العناصر من خفايا وأسرار مادية وروحية مفعمة بالخير والنوافع والفوائد التي ترفع من قدر الإنسان في تفكيره وعمله في الحياة.

أجل، لم يكن رسول الله ﷺ يقصد قط بالمؤاخاة الاجتماعية التي بدأ بها في تصحيح التركيب الاجتماعي لمجتمعه المسلم إلى مجرد تمكين الذين

هدف المؤاخاة هو العمل على تحقيق أهداف الرسالة الخالدة رسالة الإسلام

أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وآوَوْا إلى إخوانهم الأنصار من لقمة العيش، وهي أدنى مطالب الحياة عند الذين يقدِّرون الحياة قدرها، وإنما قصد رسول الله ﷺ من هذه المؤاخاة الاجتماعية إلى أمر خطير، وهدف بعيد الغَوْر، عميق المستقر، يستمد خطره وعظمته من مقاصد الرسالة الخاتمة الخالدة، ومن تَمَثُّل غايات دعوته ﷺ، ومن مكانة أمته ومنزلتها التي وضعها الله تعالى في إطارها القيادي لتحقيق أهداف هذه الرسالة العظمى ومقاصدها، ومناهجها التربوية، وطرائق سلوكها في قيادة الإنسانية إلى مقدورها الفكري في الآفاق الحضارية المشرقة بنور الإيمان.

وأهداف رسالته ﷺ ومقاصد دعوته أن يجعل من الإنسانية كلّها في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة، متآخية متحابة بروح العقيدة التوحيدية، تؤمن بالله رباً وتؤمن برسالاته منهجاً وطريقاً إلى سعادة الحياتين، حياة الوسائل، وحياة المقاصد والغايات الخوالد، وتفرده بالتعبّد له وحده في وحدة أساسها النشأة الموحَّدة في مادة التوالد الأصيل، المخبر عنه في قول الخلّاق العليم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾[1] وحدة يحوطها الحب الأخوي، ويسودها العدل المطلق في مغاديها ومراحاتها على اختلاف أوطانهم وأزمانهم وأجيالها، وتظللها المساواة في الحقوق والواجبات، فلا يبقى بينها أفراد أو جماعات، وأمم وشعوب تُفاضل بين غربي وشرقي، ولا بين أبيض وأسود إلا بقدر ما أوتي كل فرد من استعدادات عقلية، وما أوتي من روح تعاونية تؤدي للحياة أقصى ما تطيق من خير وإصلاح يجد فيه المجتمع الإنساني ما يصبو إليه بعيداً عن حب الذات المولّد (للأنانية) المفسد للفطرة الأصيلة المفرِّق للجماعة المتآخية، والمفاضل بين الناس في الرغائب الشهوية الدُّنيا، المتلاهي عن القيم الروحية المستهتر بقدرات العقل الإنساني ووثبات الفكر، والخلق كلهم عيال الله، يعولهم بنعمه، ويربيهم بفضله وإحسانه، وخير الناس أنفعهم للناس.

وأول مدارج الوحدة الإنسانية مدرجة الوحدة النشئية التي تجعل من

---

(١) سورة الحجرات آية (١٣).

التآخي في التوالد حقيقة مادية واقعية في حياة البشرية منذ أول وجودها، كما جاءت بذلك النصوص القرآنية الحكيمة المحكمة، ثم جاءت الرسالة الخاتمة لتوحّد سلائل الإنسانية وأنسالها بالإيمان بإله واحد، هو الذي خلقهم من نفس واحدة، خلق منها زوجها، وبثَّ منهما السلائل والأنسال رجالاً ونساء، ليكونوا أخوة في الإيمان كما كانوا أخوة في النشأة الأولى ﴿وإلـٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾(١).

وقد قامت الرسالة الخاتمة الخالدة أول ما قامت به من عمل أن وطدت دعائم هذه الوحدة الإيمانية، ورسّخت ركائزها على أسس من مدركات العقول وقواطع البراهين الكونية.

وبهذا التآخي المتكامل بين الوحدتين النشئية والإيمانية ـ وهما مما انفرد الله بهما إبداعاً وهَدْياً ـ تمّت القاعدة العظمى للرسالة الخاتمة الخالدة، وهذه القاعدة هي الأساس الذي قام عليه كل ما جاء بعده من تشريعات تعبّدية، وأحكام عملية اجتماعية، وبهذا تتضح معالم رسالة المجتمع المسلم أينما حلّ من أرض الله.

منزلة المجتمع المسلم من الإنسانية في تحقيق أهداف الرسالة الخالدة

أما مكانة المجتمع المسلم ومنزلته من الإنسانية لتحقيق أهداف رسالته، فهي مكانة الأب المشفق الرحيم من أولاده في تنشئتهم وتربيتهم، وإعدادهم لمواجهة الحياة بكل ما فيها من آلام وآمال.

فالأب لأولاده في دور طفوليتهم هو الساعي الدؤوب لطلب الرزق الطيب، ليقوتهم حتى تشتد سواعدهم وتقوى سوقهم على حمل صدورهم وهاماتهم بما فيهما من أفكار وأسرار، لينطلقوا في فضاء الحياة ساعين عاملين.

ولكن هذا الأب المشفق الرحيم تفرض عليه أبوته أن لا يغفل عن النظر في مواطىء أقدام أولاده، ليعرف ماذا تطأ هذا الأقدام خشية أن تسيخ بهم مواطىء الرخاوة، أو أن تقسو عليهم ناشفات المواطىء فتدمي أقدامهم

(١) سورة البقرة آية (١٦٣).

وتعوقهم عن المضي قُدُماً في تحقيق شرائف رغائبهم.

فهو في نظره إلى مواطىء أقـدام أولاده مرشد قويم وناصح أمين، وموجّه عليم، يرجو ويأمل يرشد ويقوّم، وينصح ويسدد، يكشف عن المزالق، ويجنبهم الوقوع فيها، وينير منائر الطريق وينبىء عن المعالم، ويرجو لهم التوفيق.

والأب لأولاده في دور الشباب والتوثب هو السند القوي، يأخذ بيد من يعثر في توثبه، ويريش المحتاج في سعيه حتى يتغلب على حاجته، ويهدي الضال في طريقه، ويخرج الحَيْران من دياجير حيرته، ويثبته في أمره ويعلّم الجاهل حتى ينقذه من مضايق جهالته، ويشجِّع الموفق على الاستمرار في أخذه بأسباب توفيقه، ويحفز الكسول على الحركة والنهوض حتى يلحق بأخوته.

والأب لأولاده في دور رجوليّتهم أخ ورفيق، وصاحب وصديق، يشـاورهم ويسمع لمشـورتهم، ويشاركهم الـرأي والعمل، وينصفهم في مشاركته لهم ويستهديهم، ويتهدَّى برأيهم إذا لمعت في أفقه لوامع الإشراق المنير، يأخذ منهم في غير مطمع، ويعطيهم في غير سرف ولا تبذيـر، ويعلِّمهم ويتعلَّم منهم، هكذا ينبغي أن يكون موقف المجتمع المسلم من الإنسانية كلها أينما حلَّت، وهي مكانة القائد من جيشه، ولهذه المكـانة أوضاعها وشرائطها في إنجاح مهمتها، فهي مكانة الآمر المطاع الذي يدرس ويخطط للسلم والحرب والذي يجب عليه أن يكون على أتم علم بما يجري من حوله في الحياة، حتى لا يفاجأ بقاصمة الظهر، والذي يجب عليه أن يوفّر لحشوده وكتائبه جميع ما يحتاجون إليه من سلاح ودُرْبة ومهارة، والذي يجب عليه أن يوفر لجنده طعامهم وملابسهم ومساكنهم في غير سرفٍ يقتل النخوة، ولا شظف يميت الأمل في أنفسهم، والذي يجب عليه أن يكون يقظ البصر والبصيرة، لا ينيم ولا ينام.

وهي مكانة الرائد من أهله، والرائد لا يكذب أهله، وعليه أن يكون حَذِراً لا يُخْدع في رأيه لهم، يختار في ريادته المرعى الخصب، والمأمن الذي لا

يؤتى، والمستقر الذي لا يقتحم.

وهي مكانة المربي في مدرسته ومعهده وجامعته، ومكانة المربي هي مكانة الأب الحازم من أولاده، يتألّفهم إليه بالمحبة المتوفرة ويقرِّبهم إلى قلبه بالعاطفة الواعية، ويعطيهم بسلوكه في حياته الخاصة والعامة معاقد الأسوة الصالحة المصلحة، يقرأ معهم ويسمع منهم، ويناقشهم في غير عنت ولا إعنات، ويفيدهم من كل جديد في مجالات التربية النفسية والفكرية والبدنية، تغلب رحمته غضبه، فلا يقسو على المنحرف قسوة تخرجه إلى النشوز والشذوذ، ولا يتميّع مع المتساهل ميعة تفسد خلقه وتهلهل أواصر نفسه، ولا يضيق صدره بأحاديثهم، ولا يهجم معهم على مالم يعرف، فتذل أمانتهم، ولا يكذب لهم أو عليهم فتسوء به عقيدتهم وتذهب الثقة به من قلوبهم وعقولهم، ويعز انتفاعهم به في سلوكهم ومناحي تربيتهم.

هذه مكانة المجتمع المسلم التي وضعه الله في إطارها بالنسبة إلى الإنسانية كلها أينما وجدت في فجاج الأرض ومناكبها، فهو للإنسانية بمنزلة الأب المشفق الرحيم، ومنزلة القائد اليقظ الحذر، ومنزلة الرائد الناصح الأمين والمعلّم المربي الحكيم، لا تطغى أبوته في رحمتها على قيادته في حزمها وحذرها، ولا تعلو ريادته في نصحها وأمانتها على تربيته السلوكية وحكمتها.

فالمجتمع المسلم هو كل ذلك في أفراده وجماعاته مع الإنسانية كلها في قيادته لها، أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، ومن هنا كانت دعائم التربية الأولى لهذا المجتمع المسلم قائمة على توزيع الخصائص القيادية المقومة لشخصية هذا المجتمع في أفراده وجماعاته، ليتسنى له بهذا التوزيع الخصائصي القيام بواجباته في قيادة الإنسانية إلى آفاقها الحضارية المقدورة لها على اختلاف استعداداتها في التفكير ومدركات العقول، وتقلبات القلوب، والألوان واللغات، وأساليب المنطق ووسائل العيش، وتفاوت جوانب الحياة في الفقر والثراء، والاعواز والترف، والإيمان والإلحاد، والعلم والجهل، والحق والباطل، والرشد والغي، والهدى والضلال.

وهذا في الواقع تشريف للمجتمع المسلم، وتكليف لقادته وذوي رأيه

منزلة المجتمع المسلم من الإنسانية تشريف وتكليف

ومفكريه، لأنه في سموه وتساميه شرف ليس فوقه شرف، وهو في باهظ مشاقه وقساوة متاعبه، وأثقال أعبائه وفوادح حمله تكليف تنوء تحت وطأته شوامخ الراسيات.

بيد أنه تكليف محبب إلى نفوس هذا المجتمع قبل أن تصدأ مراياها، للشعور الإيماني الصادق الذي يعمر قلب كل مسلم بأن خاتمية رسالة الإسلام للشرائع الإلّهية تجعل من المحال أن يأتي منهجٌ إلّهي في العقيدة والتشريع يستدرك على هذه الرسالة الخاتمة في عقيدتها التوحيدية وتشريعاتها الاجتماعية.

وهذا يقتضي كمال أصولها ورسوخ قواعدها، ويقتضي تحميل المؤمنين بهذه الرسالة الخاتمة أن يكونوا في تساميهم بواجباتهم على مستوى مسؤوليتهم عن نشر هذه الرسالة وتبليغ دعوتها والحفاظ عليها وحمايتها في الكمال الإيجابي العملي، وإلا فما الذي كان يحمل خبّاباً وبلالاً وسمية أم عمار ابن ياسر على صبرهم الذي فاق كل صبر، وهم تحت سياط البلاء والعذاب لا يستعفون.

فهؤلاء الذين ربّتهم رسالة الإسلام إذا نهضوا بواجب قيادة الإنسانية في حياتها الفكرية والاجتماعية، نهضوا وهم موقنون بما يلقون في مسيرة رسالتهم من باهظات الآلام ومشقات التكليف القيادي.

وقد كانت في طلائعهم مُثُلٌ عُليا لهذا الإيقان، احتملوا به ما تتفسخ تحت وطأته الشم الصِّلاد، فهم كانوا بهذا الاحتمال الصبور آية من آيات الله في هذا المجتمع المسلم، أقامها الله برهاناً على ما أودع في رسالتهم الخاتمة الخالدة من قوى ذاتية تكمن في عقيدتها التوحيدية وتشريعاتها الاجتماعية، وتربيتها لمعتنقي مبادئها تربية جعلت منهم مصنعاً لقادة الإنسانية ما كانوا قائمين بأمر رسالتهم، آخذين بمبادىء تربيتها التي خرَّجت الرعيل الأول في قيادة الإنسانية بسلطانهم الروحي، وعزوفهم عن التكالب المادي لإشباع الرغائب الشهوية.

الانحراف عن سمت الرسالة ومنهجها نزع زمام القيادة من يد المجتمع المسلم

حتى إذا انحرفوا عن سمتها، ومالت بهم زخارف الدنيا عن صراطها المستقيم نزلوا عن ذرا أمجادهم إلى مهاوي التهالك الماديّ، فأخلفوا الله ما وعدوه، وتفرقت كلمتهم، وتشتّت جمعهم، وطمع فيهم من لا يدفع عن نفسه، فاستُعبدوا فكرياً واجتماعياً، وانحسر المد الإسلامي، وتوقف سير الرسالة الخاتمة الخالدة، وعلا صوت الدعايات الطبولية تكذب، وتكذب، حتى خُيِّل إليها أنها تصدق في كذبها، واحلولى في أذواق الفارغين عن حقيقة الإيمان طعم هذا الدعايات الكاذبة، فتخيلوا أن الألسنة المتفيهقة تستطيع أن تقوم مقام الأسنَّة المشرعة، فأكذبهم الله، وأبى عليهم ـ إذا أرادوا أن يكونوا كما كانوا أعزة قادة ـ إلا أن يعودوا كما بدؤوا أمة واحدة، تقتحم الغمرات في سبيل استعادة مجدها السليب، وتقدم أضعاف ما قدمت من ضحـايا، وتخوض بحار العلم والمعرفة مع الخائضين، وتجعل من هذا العلم الكوني العملي وسيلة تقدمها الحضاري، بغير استجداء وذلّة.

والعلم لا وطن له، ولا مالك له إلا من يتخذه قوة يستكشف بها أسرار الكون ليطوِّع عناصره فيها تشيّد به صروح العزة والكرامة ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

والإعداد للقوة التي تبلغ أقصى طاقات المجتمع المسلم مادياً وعملياً يحمل في منطوقه ومفهومه الاستقلال في العلم والعمل، وهذا الاستقلال يعني أن تكون الأفكار والأيدي الصانعة التي تعد القوة أفكاراً وأيدياً من صميم المجتمع المسلم في وطن مسلم، ومصانع مسلمة، تعمل بآلات ووسائل مسلمة.

والخدعة الكبرى التي يعيشها المجتمع المسلم في حاضره هي خدعة الخبرة والخبراء، وهذه الخدعة استعباد فكري واجتماعي وصناعي مقنّع، يأخذ وينهب ولا يقدم إلا فتاتاً فاسداً من بقايا موائده الصناعية.

فإذا لم يتخلّص المجتمع المسلم من هذه الخدعة المستعبدة الناهبة فلن يحصل في حياته المخدوعة على طائل، بل سيظل منهبة مخدوعة للناهبين الخادعين، ولن يستطيع أن يعدّ من القوة ما أمره الله به، والدعايات الخطابية

لا سُوق لها عند الخادعين الناهبين.

هذه هي حالة المجتمع المسلم في حاضره، وتلك مكانته ومنزلته في تربيته الأولى التي أعدتـه بها رسالته الخاتمة الخالدة لقيادة الإنسانية.

وقد جاءت بهذا الإعداد القيادي نصوص صريحة كانت ولا تزال ملء سمع الزمان في مجال التطبيق الواقعي قروناً كثيرة في أجيال وأوطان مختلفة اتسع فيها نشر الرسالة، وعلا فيها صوت الدعوة إلى الله، وتم فيها فتح كثير من الممالك التي كانت تعيش في ظلام عبودية الأبـاطرة من الأكـاسرة والقياصرة، فصنعت منهم جميعاً أمة واحدة، عرفت وحدة النشأة، واعتنقت الوحدة الإيمانية في العقيدة التوحيدية والتعبدّ لله وحده، وفي أنظمة الحياة الاجتماعية في المعاملات على رغم اشتعال نيران الفتن الداخلية التي كانت في سعارها وسطوة أخذها كفيلة بتدمير كل خير، لولا الاعتصام التربوي بمبادىء الرسالة الخالدة التي رسّخت أصولها في العقول والقلوب والأرواح رسوخاً جعل المجتمع المسلم في جمهرته وغمرته الكاثرة يولي ظهره للفتن، ويقبل على الجهاد هادياً فاتحاً ومعلِّماً قائداً.

الاعتصام بمنهج الرسالة كان أقوى عوامل القيادة في غمرة الفتن الداخلية

وقد تأسست في هذه القرون حضارات مسلمة رفيعة الذرا، شامخة البنيان، تخطَّت الحدود والحواجز في قوة فتية، تثب وثباً، ودلفت إلى القارة الأوربية بعد أن جعلت من البحر الأبيض المتوسط بجزره بحيرة إسلامية، ولو لم يكن للمجتمع المسلم وهو يعيش داخلياً في أتون الفتن إلا فتحُ الأندلس، وإقامته فيها حضارة مسلمة عاشت أكثر من خمسة قرون ولا تزال لها خصائصها الفكرية والروحية والاجتماعية والأدبية والعمرانية لكفى بذلك مثلاً مضروباً في تاريخ الحضارات الإنسانية.

بيد أن الأمر لم يقف عند هذا، بل تخطَّى الفتح التربوي للمجتمع المسلم فوطىء مواطن الحضارات الوثنية، فدخل الصين وأنشأ فيها حضارة مسلمة لها خصائصها الذاتية في روحانيتها وتفكيرها، ولولا الثورة الإلحادية الشيوعية لكان لتلك الحضارة المسلمة في الصين أثر مشهود، وأنشأ الفتح التربوي المسلم في الهند امبراطورية مسلمة ضخمة لا تزال حضارتها قائمة

الشخوص والآثار، تتحدث عن نفسها وعن مؤسسيها.

ولقد شرَّق الفتح التربوي المسلم وغرّب، وجاس خلال القارة العملاقة آسيا، ووضع في أرجائها وممالكها معالم تربيته، وأقام فيها دعائم حضارته التي لا تزال تحكي عن الماضي العريق، وتبكي الحاضر المظلم السحيق.

ولقد كان للمجتمع المسلم وجود غامر بتربيته الأصيلة في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الشيوعي الملحد الكفور حيث كانت بعض جمهوريات هذا الاتحاد الشيوعي الكفور صورة مشرقة من صور الوطن المسلم الذي أقامه المجتمع المسلم قبل أن تظهر الشيوعية الملحدة بقرون، لا تدانيها صورة حضارية في الفكر والعلم والمعرفة مستمدة من خصائص المجتمع المسلم في التربية، وقبر شيخ الدنيا في السنة ورواية الحديث النبوي الإمام محمد ابن إسماعيل البخاري أصدق شاهد للتاريخ.

ولكن الشيوعية الملحدة الحاقدة على المجتمع المسلم أبى عليها حقدها الملحد إلا أن تدمر في وحشية جنونية كل أثر لهذا المجتمع المسلم الذي اتخذت منه عدوها اللدود.

نصوص القيادة في القرآن الحكيم ـ النص الأول ـ

إن النصوص القرآنية التي قلدت المجتمع المسلم قلائد القيادة الإنسانية لا تزال أصواتها جهيرة تنادي مجتمعها المسلم ليقوم من رقدته، ويمسح عن عينيه رمص الهوان والذلة، ويأخذ في مسيرته على الجادة، وقد نصبت له المعالم، وأقيمت له على حفافي طريق نهوضه المنائر بمداد التاريخ على كواغد الامكانات الضخمة التي تفجرت ينابيعها في أوطان هذا المجتمع المسلم، والتي ينظر إليها أعداؤه وهم يتلمّظون لاختطافها من بين يديه، ولم يكفهم ما نهبوه منها على مدى مرور الزمان، فهل من سميع؟

يقول القرآن الكريم: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[1] وهذه دعوة إلى

(١) سورة آل عمران آية (١٠٤).

المجتمع المسلم كله في جميع أوطان الإسلام أن يكون داعياً إلى الخير، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر.

وهذا التعميم في تكليف المجتمع المسلم كله أن يكون داعياً للخير جرياً على أن (مِنْ) في قوله منكم بيانية، والمعنى: ولتكونوا جميعاً داعين إلى الخير، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، على حسب استعداد كل فرد وطاقته المادية والفكرية، وليست (مِنْ) للتبعيض لأن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور نسبية يتفاوت الأفراد والجماعات في القيام بها، ولكن كل فرد في المجتمع المسلم مكلّف بقدر استطاعته وهذا من قبيل التكافل السلوكي، ولهذا ختمت الآية بتسجيل الفلاح بأسلوب الاختصاص لجميع الذين يقومون بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقالت: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾.

النص الثاني

ويقول القرآن العظيم مخبراً عن خصيصة المجتمع المسلم القيادية ووسائلها: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[1] فهذا إخبار تضمّن وعداً من الله تعالى بأن المجتمع المسلم هو خير مجتمع إنساني أُخرج للناس من وراء أستار الغيب في الوجود ليقود الإنسانية إلى آفاق الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا يعني طهارة الشخصية القيادية القائمة على الدعوة إلى الخير، وقوله تعالى: ﴿وتؤمنون بالله﴾ إشعار بأن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم تكن مؤسسة على الوحدة الإيمانية فلن تؤتي أكلها، ولن تجني الحياة منها ثمرتها، فهو من قبيل التنبيه على الأساس الذي يستبقي البناء.

النص الثالث

ويقول القرآن العزيز: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[2] والوسطية في هذه الآية هي الخيرية التي أخرج عليها المجتمع المسلم ليكون المثل الأعلى في القيادة الروحية، والقيادة الفكرية، والقيادة الاجتماعية، لأن هذا المجتمع أخرج

---

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٢) سورة البقرة آية (١٤٣).

للناس من ضمير الغيب بعد أن اكتمل للحياة رشدُها بعقيدة لا إفراط فيها ولا تفريط، عقيدة لا تحابي الروح وتعطيها كل رعاية وعناية وتهمل القالب البدني الذي اتسع ليكون مثوى الروح على عظم جلالها وكثرة أطوارها، فلا يتحيف هذا القالب البدني فيحرمه من مقوماته حتى يعجز عن إيواء الروح في مستقره ومثواه.

ولا يحابي هذا القالب المادي فيعطيه كل رغائبه المادية حتى تفسد عناصره، وتتفتت مقوماته، وتطغى غرائزه وشهواته على مطالب الروح فتتجمد حتى تستحيل إلى مادة مظلمة عمياء أو إلى ما يشبه المادة المظلمة العمياء، ويرتكس فيه المعنى الإلّهي الذي يقود الحياة بزمامه وهدايته، فالعقيدة التي أخرج بها هذا المجتمع المسلم إلى الناس عقيدة فطرية، لا تعقيد فيها ولا تفلسف يكد الفكر ويشق عليه ويعنّت العقل، ويجافي إشراقات الروح وتنور القلب ورقة الوجدان، كما أن هذه العقيدة لا تَمَيُّع فيها تميعاً يذهب بفتوة الإدراكات العقلية، ويحد من توثبات الفكر ومغامراته في مجالات استكشافاته العلمية الطبيعية.

وهذا المجتمع المسلم كما أُخرج للناس بهذه العقيدة الفطرية الوجدانية، أُخرج لهم بفكر منطلق بأجنحة الحرية، لا تقيده أغلال التقليد الأبله للآباء والأجداد، ولكنه في انطلاقه لا يكبو ولا يجمح، لأنه متوازن الخطا في انطلاقه، وكأنما خفقُ أجنحته منائرُ مضيئة تهديه بما ترسله في طريقه من أضواء كاشفة وأصوات دالّة ترشده وتسدّده.

وهذا المجتمع المسلم أُخرج للناس وفي يده ميزان العدل الذي لا يميل بالفرد فيسقطه من كفة الحياة، ويجعله قطعة من آلة تعمل بغير إرادة، ولا يميل مع الجماعة ميلاً يجعل وجود الفرد أشبه بالمهملات التي يستغني عنها، ولا يميل بالمجتمع ميلاً يظلمه، فيجعله كمية من أعضاء مفككة الأواصر، لا ارتباط بينها، وكل عضو يستطيع أن يستأثر بما ينفعه في خاصته، ولو كان ذلك النفع على حساب موت الآخرين.

وبهذا التركيب العقيدي والفكري والاجتماعي الذي أُخرج به

الوعد بالنصر إذا حقق المجتمع المسلم عوامل القيادة

المجتمع المسلم إلى الناس وضع الله تعالى في يده زمام القيادة الإنسانية فقال: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ لأنه بتركيبه المحكم كان هو الرقيب المهيمن على الحياة الذي يهدي وينصح ويرشد، ويبصر، ويقيل العثرة، ويهيىء الفرصة، وإنما كانت له هذه الرقابة وهذه الهيمنة على حياة الناس لأنه يحمل في يده الميزان الذي يزن كل عمل فردي أو جماعي، وهذا الميزان إنما جاءت به إليه رسالته الخالدة على يد رسولها المعلِّم الصدوق ﷺ، ومن هنا كان هذا الرسول الأعظم هو الشهيد على خيرة أمته وعدالتها لأنه الرقيب المهيمن عليها، الذي يزكِّيها في شهادتها على الناس، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ وهذه الشهادة من الرسول الأعظم ﷺ لأمته تتمثل فيما وضعه بين يديها من مبادىء رسالته الخاتمة الخالدة المهيمنة على رسالات الأنبياء والمرسلين، كما بينها القرآن العظيم ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾[1] فهيمنة القرآن الحكيم على الكتب الإلهية التي سبقته شهادة منه على صدق هذه الكتب فيما جاءت به من عند الله قبل التبديل والتحريف، والقرآن الحكيم هو دستور رسالة المجتمع المسلم التي يقود بزمامها الحياة والناس، بما أنزل فيه من النور والهدى والحكمة ونظم القيادة، وشهادة الرسول ﷺ على عدالة أمته ووفائها بشرائط القيادة التي نيطت بها لأنها خير أمة أخرجت لتقوم بموجبات هذه القيادة، بيانٌ لمنزلته ﷺ بوصفه المربِّي الأعظم، والمعلِّم العليم الأكمل في إعداده لطلائع المجتمع المسلم لتسلم زمام القيادة، وليكونوا من بعده قدوة لمن يأتي بعدهم من القادة والدعاة إلى الله لتجنيب الإنسانية مزالق الزلل والتعثر، والأخذ بمبادىء الخير والإصلاح.

وإذا حقق المجتمع المسلم ما نيط به من قيادة الإنسانية مادياً وفكرياً وروحياً واجتماعياً بما عُلِّم كان محققاً لموعود الله له بالنصر في قوله تعالى: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنّاهم في الأرض

(١) سورة المائدة آية (٤٨).

أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[1] وربط نصر الله تعالى لهذا المجتمع المسلم بنصر هذا المجتمع لله تعالى بنصر رسالته ـ بيان لما يجب أن تستهدفه قيادة الإنسانية في سيرها، وهو نصر رسالة الله بإقامة معالمها ونشرها بين الناس في أرجاء الأرض أينما كانوا منها، بما مكَّن لهذه القيادة من أسباب النصر التي تستوجب شكر المنعم، ولمّا كانت الصلاة أعظم صور شكر الربوبية لما فيها من أخلص مظاهر العبودية أبرزت في صورة من الأسلوب الشرطي الذي يقتضي التلازم بين جانبيه من الشرط والجواب، ثم عطفت عليها أختها (الزكاة) وهي واليتها في فضل الشكر، لأنها الركن الاجتماعي الذي يعقد أواصر المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع المسلم.

والتمكين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإصلاح ما يفسد من جوانب المجتمع المسلم في قيادته للحياة هو الوسيلة العظمى للعمل القيادي لهذا المجتمع، وهو يشمل التمكين المادي بإعداد القوة المادية لردع أعداء الله وأعداء الحياة الصالحة، إلى جانب إقامة حدود الله بالقوة القاهرة لزجر العابثين بمعالم الاستقامة الخارجين على مبادىء الرسالة الخالدة.

ويشمل التمكين الروحي الذي يستهدف طهارة النفس، والتمكين الفكري الذي يطلق الفكر المسلم في رياض العلم والمعرفة ليَعْلَم ويُعَلِّم، ويشمل التمكين التربوي في المنهج السلوكي المستقيم الذي يقتدي به في مسيرة الحياة الخلقية السالكون على نهج القيادة الذي رسمته مبادىء الرسالة الخالدة في كتابها الحكيم.

العدل أساس المنهج السلوكي في قيادة الإنسانية

وهذا المنهج السلوكي هو الذي يربط المجتمع المسلم في قيادة الإنسانية بمنهج إلزامي، لا يعرف اللَّجاجة، ولا يرضى إلا بالصراحة الصارمة، ذلك هو منهج إقامة العدل بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، لأن العدل في شمول مواطنه هو دعامة القيادة الموفقة، يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

(١) سورة الحج آيتا (٤٠، ٤١).

والأقربين﴾(١) وهذا نص قرآني صريح في تكليف المجتمع القيادي المسلم تحقيق العدل على أتم صوره وأكمل أحواله، فالعدل على النفس، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس وأبعد البعداء، وفي قوله تعالى: ﴿كونوا﴾ أمر للمجتمع المسلم في جميع أفراده وجماعاته أينما حلّوا من أرض الله، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة أو المتباعدة، وهو أمركينونة يشعر بمادته بالإلزام والالتزام، والتهيؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله: ﴿قوّامين﴾ بصيغة المبالغة إيماء إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل، بكل ما أوتي من قوة ماديّة وروحية، مشمِّراً على ساق العزم في بذل الجهد والتحفز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعي، حتى تكون إقامة العدل دَيْدَن هذا المجتمع المسلم الذي وضع الله في يده زمام قيادة الإنسانية في حياتها الخالدة (المتطورة) في تفكيرها ووسائل عيشها.

ولا يمكن أن يوطَّد في النفوس العدل حتى يكون خُلقاً للمجتمع يقوم به كل فرد على نفسه، وعلى غيره من أقرب ذوي القربى وأكثرهم مودة ومحبة، فينصف من نفسه، ومن والديه وكل من يمت إليه بصلة عن طريقهما، وحتى يكون العدل خلقاً للمجتمع يقوم في غير تكلف ولا تردد.

والقرآن الكريم ـ وهو دستور المجتمع المسلم ـ لا يقف في أسلوبه الذي يحض به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة، ولكنه يتولج إلى مداخل الضمير الإنساني، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملّق الغني لغناه وسعة ثروته من المال، أو يتملّق عاطفة الرحمة، فيرحم الفقير لفقره، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلم وتحيف على الحق.

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم أن يحمله تعزز الغني بثرائه وغناه على أن لا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرحمة للفقير، فَيُحَابى بظلم الغني لأجله.

(١) سورة النساء آية (١٣٥).

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم وقد شرّفه الله فوضع في يده زمام قيادة الإنسانية أن يميل مع الهوى ويخضع للعواطف فيحيد عن العدل ليّاً بالحق وإعراضاً عن النّصفة، لأن الله تعالى الذي شرّف هذا المجتمع بخيريته وإخراجه للناس قائداً للحياة بهذه الخيرية وحمله أمانة العدل الاجتماعي - خبيرٌ بما يكون منهم من إعراض عن الحق لو أعرضوا عنه محاباة لقرابة أو صداقة أو نكصوا عن إقامة معالمه والجهر به انخداعاً بفقر الفقير والرحمة له، فيجازيهم بما يعلم مما انطوت عليه صدورهم.

يقول الطبري فيما يرويه عن قتادة: إن الله تعالى رضيَ العدل لنفسه، وهو ميزان الله في الأرض، به يرد من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصدِّق الصادق، ويكذّب الكاذب، ويرد المعتدي ويرنّخه - أي يذله - وبالعدل يصلح الناس.

وقد جاءت أخت هذه الآية في نسب أسلوبها وألفاظها لتكمل صورة إقامة العدل على أتم وجوهه لتقرر أن موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحب والمبغض، والقريب والبعيد، والصديق والعدو فقالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[1] فصورة الخطاب الكينوني هنا (كونوا) الذي يجعل من العدل طبيعة في خلائق المجتمع المسلم الذي نيط به قيادة الإنسانية، هي صورته هناك لأن العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى التي حملوها ليؤدّها إلى الناس في حياتهم.

بَيْد أن الأمر اختلف في الآيتين اختلافاً جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصلاً من أصول الرسالة الخالدة الخاتمة الذي يعم الحياة من جميع جوانبها، ففي الآية الأولى وجّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى أن يكون قوّاماً بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة منازع الحب والود والقربى، وفي هذه الآية الثانية وجّه الأمر للمجتمع بعنوانه

---

(١) سورة المائدة آية (٨).

المشرف إلى أن يكون قوّاماً بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة جميع عواطف البغض والعداوة.

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهّاضاً بالعدل قائماً به بين الناس لتستقيم له قيادته للإنسانية، وليخلص له التوجه إلى الله في إخلاص العبودية له وحده، لا تحمله محبة مهما عظمت أو بغض مهما اشتد على الإعراض عن إقامة العدل إحقاقاً للحق، وإنصافاً للمظلوم، ونصراً للضعيف.

وقد كان هذا المنهج القيادي أول عهد أعطته أول خلافة لرسول الله ﷺ في المجتمع المسلم القائد للحياة تبياناً لمنزلة العدل في قيادة الناس لإصلاحهم، ذلك هو قول الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه في أول خطبة خطبها عقب بيعته بالخلافة الراشدة فقال رضي الله عنه: (إني وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، ألا وإن القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له).

منهج العدل في قيادة الإنسانية لا يعرف الفوارق بين الناس

وهذا المنهج الأقوم في وجوب إقامة العدل بين الناس يعم الناس جميعاً، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين قويِّهم وضعيفهم، ولا بين عالمهم وجاهلهم، ولا بين راعيهم ومرعيِّهم، ولا بين حاكمهم ومحكومهم، ولا بين أميرهم ومأمورهم، ولا بين صالحهم وفاسقهم، بل ولا بين مؤمنهم وكافرهم، لأنه منهج يعطي لقيادة المجتمع المسلم للإنسانية سلطاناً يرد به غويّها إلى الرشد، ومنحرفها عن مزالق الانحراف، وشاردها إلى الجادة، ليستقيم له طريق العيش الكريم، ويأخذ بيد ضعيفها حتى يمكنه من السير مع ركب الحياة، ويريش مُمْلِقها ليعمل وينهض، ويكف يَدَ سفهائها عن الإسراف في أموالهم، ويعلم جاهلها، ويفتح طرائق البحث الفكري أمام مفكِّريها، يتبنى بما مكّنه الله في الأرض من أسباب مادية وروحية نظرياتهم في بحوثهم وأفكارهم، فيتيح لها أن ترى النور، وتبرز إلى الوجود حقائق تفتح أمام المجتمع المسلم آفاق التحكم في الطبيعة وآثارها، وتكشف له عن أسرار الكون في عناصره المادية والروحية، ليزداد إيماناً مع إيمانه، ويأخذ مكانه في

الحياة عالماً ومعلّماً، ورائداً قائداً، يبتكر ويبدع، ويعمل ويصنع، ويستقل باستخراج كنوز أوطانه المخبوءة في سمائها وأرضها، ويحميها أن تكون نهبة للناهبين، ليحقق للإنسانية في قيادته لها أبوته الرحيمة المشفقة العالمة المعلمة.

يقول الإمام الرازي في تفسيره: اعلم أن التكاليف وإن كثرت إلا أنها محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فقوله: ﴿كونوا قوّامين﴾ إشارة إلى النوع الأول، وهو التعظيم لأمر الله، ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية.

وقوله: ﴿شهداء بالقسط﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله ومعناه: لا تحاب في شهادتك أهل ودِّك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك.

ثم يقول الرازي: وقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا﴾ اي لا يحملنّكم بغض قوم على ألا تعدلوا فيهم، والآية عامة، والمعنى: ولا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم وإن أساؤوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم، فهذا خطاب عام، ومعناه: أمر الله تعالى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحداً إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف.

ويقول القرطبي: ودلّت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وإن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم.

ومن ثم كانت تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانية بخصائصه التي احتواها منهجه التربوي حفيّة أشد الحفاوة بشرعة العدل، فتعددت آياتها ونصوصها، وكثرت الوصية بها، وجاءت في مواضع من القرآن العظيم، تدل كثرتها على شدة العناية بها لأنها ميزان الحكم على نهج قيادة الإنسانية في صلاحيته لتحقيق ما تصبو إليه الإنسانية المهذبة من تقدم ورقي.

هدف الرسالة هو الذي رسم منهج تركيب المجتمع المسلم في قيادته للإنسانية

وإذا كان هذا هو هدف رسالة محمد ﷺ التي ختم الله بها الرسالات الإلّهية، فكانت خالدة خلود الحياة، وكانت هذه هي مكانة المجتمع المسلم ومنزلته من تحقيق هذا الهدف الخطير العظيم ـ كان من الواجب أن يكون تركيب المجتمع المسلم متساوقاً مع مكانته الاجتماعية، ومتمشياً مع منزلته التكليفية في تحقيق هدف الرسالة الخاتمة الخالدة، ليجعل من ذرائع تحقيق هذا الهدف ووسائله عملا إيجابياً في واقع حياة الإنسانية التي وحّدها الله في نشأتها بقدرته وإبداعه، وبعث فيها رسولاً فوحَّدها في عقيدتها التوحيدية وحياتها الاجتماعية، وقد ختم الله تعالى به الرسالات الإلّهية، فكانت رسالته جامعة في أصولها لرسالات الرسل من قبله، وكانت كاملة التشريع في إعطاء الحوادث المتجددة أحكامها بما اشتملت عليه من قواعد تحمل في طياتها تحقيق مصالح العباد في إطار العدل الاجتماعي.

وقد تم توحيد الإنسانية إيمانياً بعد إشعارها بتوحيد النشأة قبل الهجرة إلى المدينة حيث اكتمل في هذا التوحيد الإيماني تركيب المجتمع المسلم اكتمالاً لا يحتاج فيه إلى مزيد، لأن المرحلة المكية التي قضتها الرسالة في مكة منذ إشراق شمسها حتى هاجرت مع حماتها إلى مستقرها بالمدينة المنورة كانت كلها لتحقيق هذا التوحيد الإيماني، وتثبيت دعائمه، وتوطيد أسسه على ركائز مدركات العقل، ومناهج العلم والمعرفة.

اكتمال وحدة العقيدة بمكة كان حافزاً على الهجرة

وقد نزلت في هذه المرحلة سور وآيات تبيان العقيدة التوحيدية، بما يتبعها من يوم الجزاء وما يقع فيه، وحديث الأنبياء والرسل وموقف أقوامهم من رسالاتهم، وموقفهم من أقوامهم، وما بذلوا من أنفسهم وحياتهم، وما كان من عواقب ذلك من نصر للحق الذي جاء به الرسل، وما كان معهم من حجاج عقلي، وقد أربى ذلك على أكثر من ثمانين سورة بما لم يدع مجالاً لشبهة إلا ردَّها وأبطلها، ولا أبطولة إلا مزّق أديمها ونسفها نسفاً، ولا أكذوبة إلا بهرجها وفنّدها، ولا فرية إلا زيّفها، ولا عنادٍ إلا أذله، ولا عتوٍ إلا أركسه، ولا استكبار إلا أخنعه، ولا تعنت إلا أماط اللثام عن فجوره، ولا جحود إلا نكّسه، ولا مماراة بالباطل إلا كشف عن عوارها.

ولما ضاقت على أحلاس الشرك وعبيد الوثنية المادية الملحدة الحيل، واستنفدوا كل وسائل الإعنات والتعذيب والقسوة والإيذاء قولاً وعملاً، ولم تترك لهم الرسالة الخاتمة الخالدة منفذاً ينفذون منه إلى مواقفتها بمجادلتهم الباطلة ومحاجّتهم الكسيحة، بعد أن شكت أيديهم من طول ما حملت من سياط الجبروت، وجنادل التعذيب والافتنان في صب فوادح البلاء على طلائع الإيمان من السابقين الأولين، وضاقت على المؤمنين الأرض بما رحبت، ولم يجدوا لهم متنفّساً في أوطانهم بين أهلهم وعشيرتهم لتبليغ رسالة الله، ونشر دعوة نبيهم ﷺ التي آمنوا بها إيماناً امتزج بأرواحهم ودمائهم وإحساساتهم ومشاعرهم، خرجوا مهاجرين إلى إخوان كانت لهم بالأمس القريب صولة على هؤلاء الطغاة من عبيد الوثنية في عقر دارهم، أرعبت قلوبهم رعباً التفّت منه سوقهم بعضها على بعض هلعاً وجزعاً، وفرقاً وفزعاً إذْ قد بلغهم أن البهاليل من أبناء يثرب أوسهم وخزرجهم قد بايعوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا حرباً لمن حاربه وسلماً لمن سالمه، كائناً من كان من أهل الأرض، وهم بقية السيف الذين نهدوا بين صليل السيوف ووقع الأسنة في الصدور، وكانوا يرهبونهم أشد الرهبة.

تصحيح تركيب المجتمع المسلم بالمدينة كان وسيلة لاستصلاح المجتمع المدني كله

وهاجر رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن على هجرة أصحابه، واستقر به وبهم المقام في المدينة، ونظر ﷺ في مجتمع المدينة فرأى أخلاطاً من الجماعات المتنافرة أشد التنافر، يتألف منها هذا المجتمع المدني من يهود ومشركين ومتربِّصين، وكان المجتمع المسلم قد أصبح عنصراً أساسياً في عناصر المجتمع المدني، وكان لا بد من استصلاح هذه الأخلاط المتنافرة المركب منها المجتمع المدني، فرأى رسول الله ﷺ من حكمة التدبير وحسن السياسة ألا يبدِّد جهوده الأولى في استصلاح هذه الأخلاط شديدة الاختلاف والتنافر المركب منها المجتمع المدني، لأن ما في عناصر هذا المجتمع من تنافر واختلاف في وسائل الحياة وتحقيق أهدافها سيكون من أصعب المعوقات في الاستصلاح، وقد يكون مبعثاً لنشر الفتن مما قد يضطر المجتمع المسلم الجديد إلى خوض بعض وقائع المجتمع المدني، نظراً إلى ما كان بين الأنصار واليهود من روابط اجتماعية قبل أن يشرف الأنصار بالإيمان بالرسالة الخاتمة

الخالدة، فيشغل ذلك المجتمع المسلم في تركيبه الجديد عن العمل لتحقيق أهدافه وغاياته في نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، وقد تكون وسائل هذا المجتمع المسلم الجديد لخوض بعض هذه الأحداث والوقائع أقل وأضعف من وسائل غيره من عناصر المجتمع المدني مما يغري به سائر أخلاط المجتمع المدني، وهم جميعاً له عدو فيتألبون عليه، وينسون ما بينهم من عداوات خاصّة، وتنافر في الوسائل، وتنافر في الأهداف، وينسون التنافس في تحقيق رغائبهم الشخصية، فتجمعهم عداوتهم لهذا المجتمع المسلم الناشىء ليكونوا حرباً عليه، للقضاء على كيانه، لأنهم يخشونه ويخشون منه على مستقبلهم في حياتهم المادية التي يتزاحمون عليها.

وهذا مما يعوّق الدعوة، وقد يوقف سير الرسالة، وسيرُ الرسالة هو المهمة العظمى التي من أجلها هاجر رسول الله ﷺ، وأصحابه، تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وعشائرهم ليواصل ﷺ مع أصحابه نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، ويكوِّن مجتمعاً مسلماً جديداً موحَّد النشأة والعقيدة والعوامل الاجتماعية، ليحمل هذا المجتمع الجديد على كاهله عبء حماية الدعوة في نشرها من كل ما يعوّقها عن المُضيّ قُدُماً في سيرها، تبليغاً للرسالة والدفاع عنها ضد كل من يحاول عرقلتها والوقوف في طريقها وهي تسير مشرقة هادية، تفتح القلوب المقفلة بأغاليق الظلم المرعب، وتطلق العقول المغلَّلة بأغلال التقليد البليد الموروث من أغلالها، محررة، منطلقة في أجواز الكون، تفكر وتهتدي وتهدي وتَعْلَم وتعلِّم، وتدل على الطريق الذي يرقى بالحضارة الإنسانية إلى آفاق سعادة الحياة.

ومن ثَمّ كانت البداءة بتحقيق الوحدة الاجتماعية بين غصني دوحة المجتمع المسلم الجديد في مستقره ومنطلقه في أرجاء الحياة داعياً إلى الله وإلى توحيده، وهادياً إلى الحق والنور والخير، وهي اللبنة الثالثة في أساس البناء المتكامل لهذا المجتمع المسلم الجديد، بعد وحدة النشأة الميلادية التي أهدرت آثارها بين أبناء الإنسانية، وحلّت محلّها الفرقة الجنسية، وفرقة اللون، وفرقة اللغة، وفرقة العلم والجهل، والغنى والفقر.

وجاءت الرسالة الخاتمة الخالدة لتعيد إلى وحدة النشأة حقيقتها، وتذكر الناس بآثارها، ولتؤسس وحدة الإيمان لتكون عنصراً من عناصر التماسك في المجتمع المسلم لا يفصمه جنس ولا لون، ولا لغة، ولا تفاوت مادي في وسائل الحياة.

إحياء وحدة النشأة وتأسيس وحدة العقيدة كانتا معتصم المجتمع المسلم من التفكك

وهاتان الوحدتان ـ وحدة النشأة التي أحيتها الرسالة الخاتمة في تشريعاتها، ووحدة الإيمان التي قامت على دعائمها أسس الرسالة ـ قد كانتا حزام الأمان من التفسخ والتفكك والانحلال لطلائع المجتمع المسلم، وهو يمر في غمرات محن الأزمات وشدائدها معتصماً بعراهما في مرحلة الكفاح الصبور، إذ كان يلقى ما يلقى من فجور الطغيان الوثني، وفتون القسوة الفاجرة على أيدي عتاة المشركين، قبل أن تفتح له أبواب الأمل الفسيح بالهجرة إلى البلد الطيب ومن فيه من أصفياء المؤمنين، أنصار الله، وأنصار نبيِّه ﷺ وأنصار دعوته، وكتائب الجهاد دفاعاً عن رسالته واعلاء كلمتها.

لهذا عمد رسول الله ﷺ إلى أول عمل يقوم به مَقْدمه المدينة المنوّرة التي أصبحت مستقر الدعوة إلى الله، ومنطلق تبليغ الرسالة، ليبني مجتمعه المسلم الجديد على أسس من القوة المادية والفكرية والاجتماعية بعد أن ثبَّت قدمه في إطار الوحدة الإيمانية، فكان ذلك العمل المجيد هو عقد المؤاخاة بين غصني دوحة المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار، لتصحيح تركيبه الاجتماعي، بمزج عناصره في وحدة اجتماعية تزيل جميع الفوارق الماديّة بين أفراده وجماعاته بوسائل التربية الإيمانية التي ترتكز على الحب وعلى يقظة الضمير، وتحريكه ليصبح هو الرقيب على هذه الوحدة الاجتماعية والحفاظ عليها، دون اللجوء إلى سطوة القانون، وقهر العقوبات.

تحقيق الوحدة الاجتماعية بالمؤاخاة كان دعامة تصحيح تركيب المجتمع المسلم

وتمّت هذه المؤاخاة الاجتماعية على أساس من الحب الذي أنشأته الوحدة الإيمانية في نفس كل مؤمن، وعلى النهج الذي شرعه الله تعالى في تربية هذا المجتمع المسلم في سلوكه الخلقي ونظامه الاجتماعي، وهو يسير حاملاً لواء تبليغ الرسالة إلى الحياة ونشر دعوة الحق والهدى والعلم بين الناس.

وبهذه المؤاخاة الاجتماعية في الارتفاق والمناصرة، والتعاون والتساعد والتعاضد، والحب في الله ولله الذي جعله النبي ﷺ أساساً لهذه المؤاخاة بقوله لأصحابه من المهاجرين والأنصار: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» تمَّ تصحيح تركيب المجتمع المسلم.

والتآخي في الله هو الثمرة الجنيّة العملية للحب في الله الذي اتخذته الوحدة الإيمانية عنوانها على وجودها في واقع حياة المجتمع المسلم لقوله ﷺ في حديث البخاري: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

وتصحيح تركيب المجتمع المسلم على أساس الحب في الله ولله جعل من هذا المجتمع يداً واحدة، وكلمة واحدة، وعملاً واحداً، وذمة واحدة، ودماً واحداً، وفكراً واحداً، ونظاماً واحداً في سياسته ووسائل حياته وتربيته وسلوكه وأخلاقياته، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الثابت «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

وهذه الوحدة الاجتماعية كانت هي الهدف من عقد المؤاخاة بين المؤمنين، لتجعل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي عنصراً بشرياً إيمانياً موحَّد الغاية والوسيلة أمام أخلاط المجتمع المدني المتنافر في أهدافه ووسائله وغاياته، ليسدّ على هذه الأخلاط المتنافرة في مقوّمات حياتها ـ وهي نموذج لكثير من المجتمعات التي سيواجهها المجتمع المسلم في طريق دعوته إلى الله، وتبليغ رسالته، ونشر هدايته، وشرائع أحكامه ـ منافذ الفساد والإفساد، والفتن، والشرور، والكيد، التي يحاولون بها تفريق صف المجتمع المسلم، وتشتيت كلمته، وتفكيك وحدته التي هي مصدر قوته ودعامة حياته.

كانت المؤاخاة الاجتماعية عاصمًا للمجتمع المسلم من كيد أعدائه

وقد حفظ لنا تاريخ نضال المجتمع المسلم مع أعدائه بعد تحقيق وحدته الاجتماعية وهو ما يزال في دور نشأته وتكوينه كثيراً من المحاولات الإفسادية التي كان أولئك الأعداء يدبرون مكايدها، ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم، ليفرِّقوا جمعه ويفكِّكوا وحدته، ولكن هذه

المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران، لأنها كانت تصطدم بقوة تماسك المجتمع المسلم في تركيبه الإيماني والاجتماعي، فيذيبها في تلك القوة التي جعلت من تركيبه الاجتماعي وحدة مدمجة العناصر دمجاً لا يقبل التفريق، ولا تنفصم عراه، ولا تحل روابطه.

روى ابن إسحق وغيره أن شاس بن قيس اليهودي - وكان شيخاً قد عسا - كبر واشتد مكره - عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم - مرّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ - من الأوس والخزرج - في مجلس قد جمعهم، يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد، لا، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال له: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل الفتى، فتكلَّم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّين على الركب، فتقاولا فقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة. فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - أي الحرةّ - السلاح، السلاح، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله، الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم».

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وأضرابه من فجرة اليهود.

وهذه الحادثة تحمل في طياتها ما كانت تنطوي عليه صدور أعداء الله،

نظرة باحثة لإظهار ما انطوت عليه هذه الحادثة ـ ولها أمثالها ـ من عبر

وأعداء رسوله محمد ﷺ ـ وهم أكثر أخلاط المجتمع المدني عدداً وعدّة، وأعظمهم خيانة وغدراً ـ من الحقد الأسود وسوء الضغن على وحدة صف المجتمع المسلم، وتُصوِّر ما امتلأت به قلوبهم من الحسد والغل، وخبث المكر، ودناءة الكيد لهذا المجتمع المسلم.

وتحمل في ثناياها قوة أثر الوحدة الإيمانية في قلوب أفراد وجماعات المجتمع المسلم وتصور عمل هذه القوة في تطهير النفوس المؤمنة من أوضار الضغائن الوثنية الجاهلية التي توهّم أعداء الوحدة الإيمانية أن ترسبها في حنايا النفوس ما يزال في أنفس مجتمع الإسلام قائماً، فخيّب الله توهماتهم، وأراهم ما يحرق أكبادهم من الغيظ وسوء عواقبهم في مقاصدهم السيئة.

وتحمل في غضونها ما كان من سرعة الأوبة والندم على ما كان من نزعات الشيطان والفيئة إلى ظلال الإيمان بعد أن كادت نيران الفتنة الخبيثة تحرق ألفتهم الأخوية التي منّ الله عليهم بها بعد ما كان بينهم من عداوات عاصفة، أنقذهم الله منها برسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم، وبما استقر في أفئدتهم من رسوخ اليقين وصادق الإيمان.

إذ أنهم لم يكد يصل إليهم رسول الله ﷺ ـ بعد أن بلغه ما كان من مواعدتهم على القتال، فخطب فيهم مذكِّراً لهم بنعم الله عليهم في وجوده ﷺ بين أظهرهم، وأن الله هداهم به إلى الإسلام والإيمان، فأكرمهم بهما، وأعزهم بعزهما واستنقذهم من ظلمات الكفر، وقطع عنهم أمر الجاهلية، وألّف بين قلوبهم ـ حتى عرفوا أن ما كان منهم من دعوة الجاهلية والعودة إلى ضغائن الكفر إنما كان فورة غضب شيطانية، ونزعة حسد يهودية، وشرارة حقد طيرها بينهم خبيث يهودي، أراد أن يكيد لوحدتهم، فندموا ندماً أبكاهم، وعانق بعضهم بعضاً، وعادوا مع رسول الله ﷺ إلى منازلهم إخواناً متحابين في ظل وحدتهم الإيمانية وأخوتهم الاجتماعية سامعين مطيعين، فرحين بما جدّد الله لهم من نعمة إطفاء كيد عدوهم، الذي باء بغيظه وهو يرى وحدة الصف في المجتمع المسلم تزداد قوة واستمساكاً وألفة ومحبة.

قصة أخرى أعظم دلالة على قوة المؤاخاة في المجتمع المسلم

وهذا حادث آخر يمثل لوناً خبيثاً من أحط المحاولات الإفسادية، لإشعال نار الفتنة بين صف المجتمع المسلم لتفريقه وتمزيق وحدته الاجتماعية، وتفريق كلمته بعد تصحيح تركيبه الاجتماعي بعقد المؤاخاة بين غصني دَوْحة هذا المجتمع من المهاجرين والأنصار، لتكون هذه المؤاخاة الاجتماعية القائمة على الحب في الله ولله قوة روحية ومادية وفكرية، تمثل الإرادة الاجتماعية لهذا المجتمع المسلم على مدى سير الرسالة الخالدة في قوة متماسكة الوشائج التي لا تنفصم عراها، ما دام هذا المجتمع قائماً بموجبات هذه المؤاخاة التي عقدت لتكون عنصراً أساسياً في تركيب عناصر المجتمع المسلم ما بقي هذا المجتمع حاملاً لواء الدعوة إلى الله تعالى بتوحيده، وإخلاص العبودية لجلاله، وما دام هذا المجتمع ممسكاً بيمينه كتاب الله تعالى القرآن الحكيم دستوراً أبدياً لحياته، وما دام هذا المجتمع رافعاً راية تبليغ الرسالة التي ختم الله بها رسالات السماء وشرائعها لينشر في أرجاء الأرض أحكامها وآدابها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة على دعائم العدل والحق بين أبناء الإنسانية أينما كانوا في ملك الله تعالى.

إن هذه المؤاخاة العاصمة للمجتمع المسلم من التفرق والشتات، الرابطة لعناصره بروابط المحبة والإخاء، كانت شجاً في حلاقيم أعداء هذا المجتمع من اليهود والمنافقين ونفايات الوثنية وبقايا أشلاء الشرك الغبيّ، وغصة شرقت بها صدورهم لم تنشأ لتكون فقط عنصراً مادياً رخيصاً في حياة المجتمع المسلم، يضمن لقمة العيش لطلائع الإيمان بالرسالة الخاتمة الخالدة الذين خرجوا من ديارهم، وتركوا وراء ظهورهم أموالهم وأبناءهم وعشائرهم مهاجرين بعقيدتهم الإيمانية إلى الله ورسوله، ولا لتكون وسيلة موارثة بين المهاجرين والأنصار، لأن هذه المقاصد المادية الدانية الدنيا لم تكن في نظر النبي ﷺ ـ الذي أرسل ليقيم ديناً، ويبني أمة، وينشر دعوة تجمع الإنسانية كلها في إطار الأخوة النشئية والوحدة الإيمانية والمؤاخاة الاجتماعية في ظل ظليل من عقيدة التوحيد ـ لتستأهل أن تكون هدفاً لتصحيح تركيب المجتمع المسلم في حياته المستقبلة الأبدية، هذا المجتمع الذي جعل الله في يده زمام قيادة الإنسانية، هداية وعلماً، وسياسة ونظاماً اجتماعياً وأوضاعاً اقتصادية،

وتربية سلوكية، ومعاشرة خلقية، وجعله قدوة يُقْتدى به في تطلعاته إلى الحياة وأسوة للأجيال البشرية المتوالية الورود على طريق الإيمان.

وهذا كله مما أوغر صدور أعداء المجتمع المسلم الذين أكل الحقد قلوبهم وأحرق أكبادهم، وهم يرونه مجتمعاً يعيش في وحدة مدمجة العناصر، يقوم وينهض مُجْتَمِع الهدف والوسيلة، ويقعد ويدبِّر موحَّد الرأي والفكرة، فكان أولئك الأعداء يتربصون به الدوائر، ليوقعوا في صفه الموحَّد المتماسك في عناصر تركيبه الاجتماعي الفرقة والتفكك حتى يتمكنوا من توهين قوته، وإضعاف شوكته، وقهر عزته، ولكن الله تعالى الذي أخرج هذا المجتمع المسلم من ضمير الغيب ليكون خير مجتمع في حياة الإنسانية، يقودها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووحدة الإيمان ـ كان لهؤلاء الأعداء بالمرصاد، كلما تآمروا ودبروا المكايد لهذا المجتمع المسلم ردَّها إلى نحورهم، وأذلَّ تعززهم، وبدَّد غرورهم، وأبطل كيدهم وتدبيرهم، وحاق بهم سوء ما مكروا ودبروا، فأبلسوا حيارى في طغيانهم يعمهون.

وهذا الحادث الذي قصدنا أن نورد قصته شاهداً على ما كان يطحن أفئدة أعداء المجتمع المسلم من الغل والحقد والحسد صورةٌ حية صادقة تمثل تفاهة تدبيرهم، وتصور قوة تركيب المجتمع المسلم القاهرة الغلّابة، هذه القوة التي كانت أعظم آثار المؤاخاة الاجتماعية بين عناصر هذا المجتمع، لأن المجتمع المسلم جعل من هذه المؤاخاة عنصر بقائه في الحياة قوياً متماسكاً، لا تغمز له قناة، ولا يرد له بأس، ولا تقف في مواجهته هلاهيل الأخلاط المتنافرة الممزقة في داخلها الهزيلة بأهدافها.

وإجمال الحادث في قصته كما أوردها ثقات المؤلفين في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، فخرج إليهم في كتائب المجاهدين من المهاجرين والأنصار حتى لقي جموعهم على ماءٍ لهم يقال له «المريسيع» وباسمه كانت تسمى هذه الغزوة في بعض رواياتها، واقتتل الجمعان وتزاحف الناس، فهزم الله بني المصطلق، ونصر نبيه وجنده.

وبينا رسول الله ﷺ على ماء المريسيع وردت واردة الناس، وكان مع

خبث النفاق ولؤم طبعه يتمثلان في نفثات حقد زعامة ابن أبيّ ابن سلول

عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرس عمر، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يـا معشر الأنصـار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم: غلام حَدَث، فقال عبد الله بن أبيّ: أقد فعلوها، أقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا؟ والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمنّ كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، وعند رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ عبّاد بـن بشر فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ قال: لا، ولكن أذّن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ثم مشى الكذوب الرعديد عبدالله بن أبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به. وكان ابن أبي في قومه شريفاً معظّماً، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل؛ حدباً على ابن أبيّ ودفعاً عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار بالناس لقيه أسيد بن الحضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه وقال: يا نبي الله، والله لقد رُحْتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال أسيد: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن أبي». قال: وما قال؟ قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج

الأعزّ منها الأذلّ» قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم قال أسيد: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه.

الحكمة السياسية التي عالج بها رسول الله ﷺ هذا الحادث

ثم متن ـ أي سار سيراً متواصلاً ـ رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك، حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدْر يومهم ذلك حتى آذته الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أبيّ.

وبلغ حديثُ ابن أبّي ولده عبدالله ـ وكان من صالحي المسلمين ـ فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبّي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل لك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج ما كان من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار.

نظرات فاحصة في دخائل هذا الحادث وما فيه من عبر

فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته، ما بقي معنا» وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتهُ يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وفي قصة هذا الحادث ـ الذي بدأ بين المهاجرين والأنصار، وأراد رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول استغلاله على أبشع وأحط صور الخبث الكفور، والنفاق الجبان الكذوب ـ أمور من العبر وصور من دخائل النفوس، ينبغي التنبيه إليها، لأنها تصورٌ وضع المجتمع المسلم المتوافق بين

أخلاط المجتمع المدني المتنافر، وتصور شدّة (الحساسية) التي تستحوذ على طوائف المجتمع المدني في تنافره واختلاف أهدافه ووسائله بالنسبة للمجتمع المسلم في توافق مقاصده وأهدافه، وقوة تماسكه روحياً ومادياً، هذا التماسك الذي جعل من المجتمع المسلم قوة مادية مرهوبة الجانب، موحّدة الهدف والوسائل.

العبرة الأولى في هذا الحادث

وأول ما ينبغي التنبيه إليه من هذه العبر أن هذا الحادث بدأ صغيراً بين رجلين لم يكونا ممن يسمّون بين المجتمع المسلم بشهرة في فضل مرموق أو سداد في الرأي.

فالأول وهو جهجاه بن مسعود الغفاري كان أجيراً لعمر بن الخطاب في هذه الغزوة وكان يقود فرسه إلى الماء، فهو في مكانته الاجتماعية تابع، وهو إذا عُدّ في تركيب المجتمع المسلم لا يأتي في أراعيلهم، وهو صاحب قصة عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها، وتداولها الراشدون من بعده، ففي حديث ابن عمر أن جهجاهاً قام إلى عثمان وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ فأخذ عصا رسول الله ﷺ فوضعها على ركبته فكسرها، فنزل عثمان ودخل داره، ورمى الله جهجاهاً بالأكلة في ركبته، فلم يحل عليه الحول حتى مات.

وثاني الرجلين هو سنان بن وبر حليف بني عوف بن الخزرج الأنصاري، ولم يكن سنان بأفضل من صاحبه جهجاه، هذان الرجلان ازدحما على سقي الماء فاقتتلا، ودعوا بدعوة الجاهلية، فقال جهجاه: يا معشر المهاجرين، وقال سنان: يا معشر الأنصار، ولم تذكر الرواية أن أحداً من المهاجرين والأنصار رفع لهذه الدعوة الجاهلية رأسه، فماتت في قماطها.

وتفاهة هذا الحادث في بدئه وعدم استجابة أحد لدعوته دليل على صغاره ومهانته، ولولا وثبة الشيطان في إهاب النفاق إلى مدرجته ليشعل به نيران الفتن لمضى مع الريح كما تمضي عفطة السخلة.

فهو حادث لم يمسّ في بدئه تماسك عناصر المجتمع المسلم من قريب أو بعيد، ولهذا لم يحفل به هذا المجتمع ولم يتركه يأخذ مكاناً من تركيبه

الاجتماعي، بل أهمله إهمال من لا يسمع ولا يبصر شيئاً.

العبرة الثانية في هذا الحادث

وثاني الأمور التي تلفت النظر، وتستحق التنبيه في هذا الحادث ـ الذي بدأ تافهاً ثم استضخم حتى حمَّل النبي ﷺ وأصحابه عنتاً ومشقة في سبيل القضاء على آثاره الحالكة بظلام النفاق والحقد ـ ما كان من رأس النفاق عبدالله بن أبي بـن سلول الذي لم يكد يسمع صوت الجاهلية في دعوة جهجاه وسنان، يقول أولهما: يا معشر المهاجرين، ويقول الثاني: يا معشر الأنصار حتى أسرع إلى نفض ما يكنّه صدره من غلٍّ وحقد، وهو جالس بين رهط من قومه، فقال لهم مؤنِّباً متوعِّداً ما قال من سوء القول، وفحش الكلمة، مما ينطوي على إغراء قومه وتحريضهم لينخلعوا من مروءاتهم ومكارمهم التي أثنى الله بها عليهم في فواضلهم التي بلغت من السمو مبلغاً أعجز الإنسانية أن تأتي بمثله في تاريخها القديم والحديث.

ولم يكتف هذا العربيد رأس النفاق والمنافقين بذلك، ولكنه تمطّى وتثاءب، وتوهم أن أباطيله تروج على العقول المؤمنة، وقال قولته الفاجرة الكذوب التي حكاها الله في سورة من القرآن الحكيم سميت باسم حزبه المنافقين، لتفضحه وتفضح كل من كان على شاكلته في لؤم الطبع: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل﴾.

وهنا تثور حمية الإيمان وقوة اليقين في قلب القوي الأمين، فاروق الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول لرسول الله ﷺ: مُرْ عبّاد ابن بشر فليقتله، ولكن سياسة الحكمة التي جعلها الله شعار رسول الله ﷺ ومنهجه في كشف الغمم المدلهمة أبت أن تستجيب إلى حميّة عمر رضي الله عنه، وقال له ليرده إلى رزانة التفكير وسداد الحكمة، ولينزع من قلبه خطرة التسرع في خوض غمرات المجهول في مستقبل الأمة: «كيف يا عمر إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه» ومعنى ذلك أن الفتنة مجنّحة تحاول أن تختطف أمن المجتمع المسلم واستقرار حياته لأن هذا العربيد رأس النفاق والمنافقين، الكذوب المتنفج يدّرع الجبن والتقية في نفاقه، ويخلط نفسه بالمجتمع المسلم خداعاً وغشاً، فهو في نظر عامة الناس فرد من هذا المجتمع الذي

يتداخل معه، ويحضر محافله وغزواته، فلو أن النبي ﷺ أمر بقتله لتحدث الناس، فقالوا: إن محمداً يقتل أصحابه، وحينئذ يشغل المجتمع المسلم عن مهمته في الحياة، وقد يؤدي ذلك إلى وقف عجلة سير الرسالة ونشر الدعوة إلى الله، وقد يؤثر هذا في حُدَثاء الإسلام الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولم تختمر العقيدة في أفئدتهم، من الذين لا يعلمون شيئاً عن أخلاط المجتمع المدني، ويأخذون الأمور بظواهرها، ويحكمون عليها بما يرون ويسمعون، وفي هذا من الخطر المبدد للوحدة ما لا يعلم مداه إلا الله تعالى، وهذا هو ما يرمي إلى تحقيقه أعداء المجتمع المسلم، وهو ما تحاماه رسول الله ﷺ.

العبرة الثالثة في هذا الحادث

ثم أخذ النبي ﷺ في تطبيق منهجه العملي لحل مشكلات الأحداث المفاجئة بما يضمن عدم مضاعفات آثارها الضارة، فقال لعمر رضي الله عنه ـ بعد أن وجّهه إلى الأناة في إبانها ـ: «ولكن آذن بالرحيل» وكان ذلك في ساعة منكرة لم يعهد في مثلها من النبي ﷺ الرحيل، وارتحل الناس في هذه الساعة التي تعجّل رسول الله ﷺ الرحيل فيها، فأخذت الدهشة مكانها في أنفس الصحابة من المهاجرين والأنصار، وتهامس من لم يكن قد علم شيئاً، وهم الأكثرون: لم هذا الرحيل في هذه الساعة؟

وعلم رأس المنافقين أن قولته الخبيثة بلغت رسول الله ﷺ، فمشى إلى رسول الله ﷺ يتنصل من قولته الخبيثة، ويحلف أنه ما قال الذي نقل إليه ولا تكلم به، وهو في تنصله وحلفه كذوب، وكان بعض قومه من الأنصار يسمعون تنصله وحلفه أنه ما قال ما قيل عنه أنه قاله، فقالوا حدباً عليه ودفعاً عنه محاولين تبرئته مما وقع منه وهم لا يعلمون، فقالوا: يا رسول الله، لعل الغلام أوهم ولم يحفظ ما قال الرجل.

فلما استقل رسول الله ﷺ لقيه أسيد بن الحضير فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، وقال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فأخبره النبي ﷺ بما قال عبدالله بن أبي بن سلول ليكشف له عن سر هذا الرحيل في مثل هذه الساعة.

وكان أسيد بن الحضير من سادة الأنصار وخيار الصحابة، فطلب من

العبرة الرابعة في هذا الحادث

النبي ﷺ أن يرفق بابن أُبّي مبدياً عذر ضغنه وحقده، وسار رسول الله ﷺ بالناس سيراً طويلاً شاقاً، ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس، وكان فيه من أمر ابن أبيّ ما كان، وآتت هذه السياسة الحكيمة أُكلها، ونسي الناس ما كان، ولم يكن لهم همّ إلا أن يأخذوا قسطاً من الراحة بعد هذا السير الطويل المتواصل، وماتت هذه الأمثولة في مهدها، ولم تنل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي منالاً. ومن الأمور التي تستحق التنبيه إليها في قصة هذا الحادث الخبيث موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطلبه من النبي ﷺ أن يأمر عبّاد بن بِشْر الأنصاري بقتل عبدالله بن أبي رأس النفاق، وعبّاد بن بشر أحد فتية الأنصار وشجعانهم وشعرائهم أصفياء الإيمان، ولكن النبي ﷺ أعرض عن هذا الرأي العمري، ورأى أن قتل ابن أبي يفتح أبواباً للفتنة، ويشعل نارها، وهو ﷺ يريد القضاء على الحادث، بل القضاء على الحديث فيه، حفاظاً على المجتمع المسلم أن يدخل في دوّامة من القيل والقال، وربما كان في المجتمع من لا يُؤْمَن تَزَيدُه في الحديث، ومن تدفعه بقايا الحمية الجاهلية إلى كلمات توغر الصدور، ويشتد الأمر في صف المجتمع المسلم على غرار ما كان في حادث اليهودي الخبيث شاس بن قيس، ولولا تدارك النبي ﷺ للموقف لأدّى إلى تفاقم النزاع والوصول به إلى مالا تحمد عقباه.

وعمر رضي الله عنه جرى في رأيه عرض قتل ابن أبي على سجيته في قوة الإيمان وحميته في أخذ الأمور بالحزم الذي لا هوادة فيه، كما ذكرت الروايات عنه في موقفه من أسرى بدر، وموقفه من حاطب بن أبي بلتعة في الكتاب الذي كتبه إلى أهل مكة يحذرهم فيه سطوة رسول الله ﷺ بهم.

بيد أن عمر لم يقل في قصة ابن أبيّ دعني أضرب عنقه، كما قال في قصة حاطب، ولكنه دلّ النبي ﷺ على فتى من الأنصار هو عبّاد بن بِشْر لو أشار عليه النبي ﷺ أن يقتل ابن أبي ما تردد لحظة واحدة، وعباد بن بشر كان أحد خمسة من فدائيي الأنصار الذين قتلوا كعب بن الأشرف وطهّروا الأرض من فجوره ورجسه.

ورأي عمر في أن يأمر النبي ﷺ عبّاد بن بشر بقتل ابن أبيّ لفتة سياسيةٌ من عمريات عمر في حياته الإيمانية وقوة يقينه ومضاء عزيمته رضي الله عنه، لأن عمر وهو أحد سادات المهاجرين الأكابر المرموق بالنظر من جميع المسلمين يعرف أن ابن أبي كان شريفاً في قومه، معظّماً عندهم، وفيهم من كان حَدِباً عليه، مدافعاً عنه، ولعل هؤلاء وهم من خلصاء المؤمنين، الراسخة أقدامهم في ساحة العقيدة التوحيدية كانوا يطمعون في إيمان ابن أبي نظراً لمكانته في قومه، أو أنهم كانوا يظنونه مؤمناً لما كان يظهر به من مداخلة المجتمع المسلم، فلو أن عمر رضي الله عنه عرض على النبي ﷺ أن يأذن له في قتله مباشرة لعظم هذا الموقف على الأنصار، وربما أدّى ذلك إلى هزة في الموقف بين المهاجرين والأنصار، وحوك في الصدور، ولهذا اتّقى عمر أن يتولى ذلك بنفسه.

العبرة الخامسة في هذا الحادث

ومن أبلغ الأمور التي تستحق لفت النظر في قصة هذا الحادث، وينبغي التنبيه إليها هذا الموقف الإيماني النبيل من عبدالله بن عبدالله بن أبي، وكان مسلماً مؤمناً، مخلصاً في إيمانه، عداده في صلحاء الصحابة رضي الله عنهم.

فقد بلغه ما كان من أبيه من قولة فاجرة خبيثة، وخشي أن يأمر رسول الله ﷺ بقتله فيؤثر ذلك في نفسه، فأتى رسول الله ﷺ وحدّثه بما في نفسه، وقال له: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل لك رأسه، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فتلطفَّ به النبي ﷺ وهدّأ من روعه، وأذهب هواجسه، وقال له: «بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» وطابت نفس عبدالله وهدأ روعه، وذهبت الهواجس من صدره، وذاع ذلك من تلّطف رسول الله ﷺ به وقوله له بين صفوف قومه من الأنصار، ونزل من قلوبهم منزل الماء من صدر الصَّدْيان، فكانوا بعد ذلك هم الذين يتولّون عقاب ابن أبي، ويأخذونه بما

يحدِّث منه ويعنفونه عليه.

وهنا التفت رسول الله ﷺ إلى عمر، فقال له: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتهُ حين قلت لي اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها بقتله اليوم لقتلته» فقال عمر رضي الله عنه: قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وهذا الموقف العظيم من الصحابي المؤمن الصالح عبدالله بن عبدالله ابن أبيّ في إخلاصه لله ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة التي كان أبرّ الناس بها - إن دل على شيء فإنه يدل في مطلع ما يدل عليه أن الإيمان الحق إذا امتزج بالدم والروح وخالطت بشاشته القلب لا يترك معه مكاناً لغيره من عواطف البشرية ومعازّها، والأبوة أعز المعزّات في عواطف الناس، وقد كان عبدالله من أبر الناس بوالده، ولكن لم يجعل لهذا البرّ أثراً مع ما يتطلبه الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فهو لم يتردد أن يعرض على رسول الله ﷺ أن يقوم هو بقتل والده، ويحمل إليه رأسه إن كان ﷺ يريد قتله، وهذا تصوير عملي واقعي لتطهر النفس المؤمنة من أن يخالطها ما يخدش إيمانها.

هذا موجز لحادث لو أنه تم على ما أراده خبيث النفاق ورأس المنافقين، لعصف بوحدة المجتمع المسلم الاجتماعية التي أقامت المؤاخاة دعائمها على الحب في الله، ولله بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار.

المؤاخاة عنصر اجتماعي في تركيب المجتمع المسلم وقوة تماسكه في كل زمان ومكان

ومن هنا كان تصويرنا لعقد المؤاخاة وتفاعلاتها في ربط أواصر المجتمع المسلم ربطاً اجتماعياً لا يقف عند حالة موقوتة بزمن أو مكان، أو جيل من الناس، ولا يقف عند حالة مادية في توارث أو ارتفاق في لقمة العيش.

وإنما أنشئت هذه المؤاخاة لتكون عنصراً اجتماعياً في تكوين المجتمع المسلم وتركيبه الاجتماعي إلى جانب الوحدة في النشأة، والوحدة الإيمانية ممثلة في العقيدة التوحيدية.

فالمجتمع المسلم إذا حقق في حياته الخالدة ـ أينما كان هذا المجتمع المسلم من أرض الله، وفي أي زمان كان هذا المجتمع من دورات الفلك ومن أي جيل كانت عناصره المؤمنة ـ هذه الدعائم الثلاث، دعامة مقتضيات وحدة النشأة، ودعامة وحدة الإيمان، ممثلة في العقيدة التوحيدية وإخلاص العبودية لله تعالى، ودعامة وحدة المؤاخاة الاجتماعية، ومزج بينها في إطار روحي ومادي موحَّد الهدف والوسائل كان هو المجتمع القيادي المقصود بقول الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

وإذا حقق المجتمع المسلم هذه الخيرية روحيّاً وماديّاً كان زمام القيادة الإنسانية بيده يقودها به إلى آفاق أقصى ما تستطيع الوصول إليه من تقدم حضاري يقوم على أساس معرفة الحياة، ومعرفة ما في الكون من أسرار وآيات كونية مسخرة لمنافع الإنسانية وسعادتها، ومعرفة هذه الأسرار في عناصره الكونية، ليجني ثمراتها عملاً مادياً وروحياً، يجعله أساس حياته ودعائم حضارته التي تكسبها خصائص مميزة لها عن سائر الحضارات التي لا تعتمد على الإيمان والمؤاخاة.

مؤاخاة الحب بين أفراد المجتمع المسلم
فتحت الطريق إلى بناء مجتمع مسلم
متكافل بحكم الميثاق الذي
أمر رسول الله ﷺ
بكتابته وتنفيذه

أثر مؤاخاة الحب في الله في بناء مجتمع المستقبل المسلم

تمت المؤاخاة على الحب في الله، التي وجّه إليها رسول الله ﷺ أفراد المجتمع المسلم في أول عمل قام به ﷺ مقدمه المدينة بقوله: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» وقد شملت هذه المؤاخاة عدد الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا طليعة المجتمع المسلم بالمدينة.

وكان الهدف من هذه المؤاخاة الفردية الإرادية تصحيح تركيب المجتمع المسلم اجتماعياً، تصحيحاً يقوم على المحبة والاختيار، لم يدخله شيء من الإلزام في وسائله وغاياته، لأنه كان يعتمد على الترافق الودود، والمودة المخلصة والتعاون المتحرر من قيود الإلزام.

وقد ارتفع الأنصار في هذه المؤاخاة وسموا في حبهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذروة المكارم، فلم يدّخروا شيئاً من ألوان الحب والإرفاق كانوا يستطيعون تقديمه لهم إلا قدموه لهم في إعزاز وتكريم، وسخت أنفسهم بالبذل الروحي والمادي سخاء لا يدخل في باب التكليف لعزّته في باب المكارم.

وكيف يدخل هذا السخاء في باب التكليف وهو إيثار على النفس بما تبلغ حاجتها إليه مبلغ الضرورة والاضطرار المبيح لكل ممنوع؟ هكذا وصف القرآن الحكيم إيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم حباً لهم وقياماً بحق مؤاخاتهم.

وقد عرف المهاجرون لإخوانهم الأنصار فضل هذه العوارف وقدّروها

لهم حق قدرها فأحلّوهم من قلوبهم محلاً لم يترك فيها فراغاً لغيرهم، حباً وإخلاصاً وتضحية وفداء.

ومن ثَمّ امتزج المجتمع المسلم بأفراده في وحدة اجتماعية شعارها الحب في الله، امتزاجاً جعل منه تركيباً بشرياً فريداً في حياة المجتمعات البشرية، فكانت له عناصره الروحية والمادية، وله خصائصه الإيمانية والفكرية، وله مميزاته السلوكية في أخلاقه وتعاشره، وله نهجه التربوي في حياته، وله سَمْته في سيره بهذه الحياة الجديدة حتى كان في وسائله وأهدافه آية من آيات الإعجاز البشري في تحويل النفوس في شتى منازعها، ومطالب غرائزها، والتطلّع إلى رغائبها الخاصة إلى وحدة نفسية متماسكة العناصر الروحية والمادية تماسكاً لم يترك منفذاً إلى تسربٍ (أناني) يتولّج إلى مداخل النفس فيحيلها إلى أنفس مختلفة المنازع والرغائب والتطلّعات التي تفضي إلى شرخٍ في بناء الوحدة التركيبية في مستقبل المجتمع المسلم الذي ناطت به الرسالة الخاتمة الخالدة قيادة الإنسانية، وهي في منهجها التربوي تُعدّ هذا المجتمع ليقوم بهذه القيادة في مستقبل الحياة الإنسانية، قيادة تقوم على دعائم العدل والمساواة في الحقوق والواجبات التي يحكمها ما أوتيه كل فرد من الاستعداد في خصائص ومميزات القيادة.

مجتمع مؤاخاة الحب في الله كان نواة لمجتمع قيادة الإنسانية في مستقبل حياتها

وقد أحكمت الأحداث والوقائع نسج هذه المؤاخاة، فأبانت عن أصالة في تركيبها العنصري المادي وخصائصها الروحية والفكرية، والتربوية السلوكية في الأخلاق، وتبادل المصالح التي تستمد وجودها من توجيهات الرسالة؛ مما هيأها لتكوين دعامة في تأسيس المجتمع المسلم الذي يصوّر منهج الرسالة تصويراً عملياً في تحركاته وأعماله وتفكيره في صورته الكبرى المرتقبة التي تجد فيها الإنسانية مطالبها الحيوية ورغائبها النفسية وبواعثها العقلية، لتنهض بعبء القيادة الإنسانية على مدى سير الحياة في أطوارها المختلفة زماناً ومكاناً وجيلاً، ووسائل وغايات.

وبهذا كان مجتمع هذه المؤاخاة الفردية في نشأته على الحب في الله قد تولّد في حناياها، ونهد في مهادها، ودرج في ساحتها المجتمع المسلم الذي

يحمل على كاهله عبء نشر الدعوة إلى الله، وعبء تبليغ الرسالة، وعبء الجهاد الفكري، وعبء الدفاع عن كيانه ومقوّماته الذاتية، وعبء تطهير الحياة من المآثم التي يتبوأ ذروتها الإشراك بالله تعالى في شتى صوره ومختلف أشكاله الوثنية المزرية بقدر الإنسانية وقد بلغت رشدها العقلي. وشبّت عن طوق الطفولية البشرية صاعدة إلى آفاق منازل الشباب والرجولية التكليفية المحفوفة بالمشقّات والمتاعب. التي يترتب عليها الثواب والعقاب.

مجتمع المؤاخاة على الحب في الله كان عاملاً قوياً في تصفية أخلاط المجتمع المدني

وقد كان أثر هذه المؤاخاة الفردية الإرادية المحدودة القائمة على الحب في استصلاح أخلاط المجتمع المدني المتنافر في وسائله وغاياته استصلاحاً قام:

أولاً ـ على تصفية هذا المجتمع المتنافر من بقايا نفايات الشرك والوثنية الذين جانبهم التوفيق، واستحوذ عليهم الشيطان، فأبادهم بقوة الإيمان، وإظهار شعائر التوحيد، وتحقير أصنامهم والعبث بأوثانهم غيظاً لهم، وقد دخلت عليهم شعائر التوحيد في عقر دورهم ودخائل بيوتهم، فشرقوا بها لعجزهم عن مقاومتها، وكانت غُصّة في حلاقيمهم، فهلكوا كمداً بغيظهم.

وثانياً ـ على إذلال اليهود. وإنزالهم من عرش الشيطان إلى هاوية الخزي والخذلان، وكان هؤلاء اليهود من بني قينقاع والنضير وقريظة هم أصحاب الصَّوْلة والسلطان في المدينة، منذ نزل عليهم في الدهر الأول الأوس والخزرج بعد حادث سيل العرم، فساكنوهم موالي لهم، وأسلموهم زمام الفضل عليهم لجهلهم وبؤسهم، وحاجتهم إلى ما عندهم من وسائل العيش، وكان اليهود يملكون مجامع الثروة والعلم، لأنهم أصحاب الكتاب الذي أنزل إليهم على يدي نبيهم ورسولهم موسى كليم الله عليه السلام، وكانوا هم أصحاب التجارات والصنائع والزراعات والحصون والقلاع والصياصي يحيطون بها بيوتهم ومنازلهم تأميناً لأنفسهم وثرواتهم.

حتى جاء الله تعالى بالرسالة الخاتمة الخالدة، التي بعث بها محمداً عبده ورسوله ﷺ، وجعله بها خاتم النبيّين، وجعلها به خاتمة رسالات السماء، فهدى الله إليها هؤلاء الموالي أذلّة الأمس من الأوس والخزرج، ومنّ عليهم

بنعمة الهداية إلى الإيمان برسول الله محمد خاتم النبيّين ﷺ، فأعزّهم بعد ذلّة، وكثّرهم بعد قلّة، وأغناهم بعد إعواز، وعلّمهم بعد جهل، فأصبحوا بفضل الله عليهم إذ هداهم إلى الإيمان هم السادة الذادة، وأصحاب الكلمة العليا، وأصحاب العزّة والسلطان، وأصحاب الصَّوْلة في مدينتهم، والثروة في بلدهم.

وخذل أولئك اليهود المستكبرين المتعزّزين بعلمهم وثرائهم، وسلبهم نعمته، فأذلّهم، وشتّت جمعهم، وفرّق شملهم، وبوّأهم لعناته ومساخطه، وأورثهم الهوان والمهانة، وألبسهم سرابيل الغدر والخيانة وسوء المكر، ولؤم الطبع، وضرب عليهم الذلّة والمسكنة، وألقاهم في أرجاء الأرض نبائذ، يعيثون فيها فساداً، وسلط عليهم جبابرة الأرض يستبيحون حرماتهم ويسفكون دماءهم، ويذيقونهم لباس الجوع والخوف، حتى أصبحوا أعداء أنفسهم، بَلْه أعداء الناس والحياة، والله تعالى يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويؤتي ملكه من يشاء وهو الحكيم الخبير.

إشعار النبي ﷺ اليهود بأن ما كان لهم من تعزز قد ولّى وزال

وقد أراد النبي ﷺ بعد أن صحّح تركيب مجتمعه المسلم بالمؤاخاة على الحب في الله أن يشعر هؤلاء اليهود أنهم لم يكونوا كما كانوا من عزة السلطان والصولة وجهارة الكلمة، لأن الله تعالى قد أذهب عنهم أعزّ ما كانوا يتعزّزون به من ادِّعاء العلم والمعرفة، وأن الله تعالى سلبهم هذه المعزة التي كانوا يتعالون بها على مواليهم من الأوس والخزرج، وأورثها المجتمع المسلم من أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار ومِنْ سائر مَنْ تبعهم من المؤمنين برسالته، المصدِّقين بدعوته بما أنزله عليه ﷺ من الكتاب المبين، والحكمة الهادية، وما أودع فيها من خير ونور وإصلاح، يقوم على دعائم العلم الأمين والمعرفة الصادقة، وبما شرع له من أحكام وسياسات، وأنظمة اجتماعية واقتصادية يحوطها العدل، مما نسف به كل ما تأسست عليه ثرواتهم من الربا والسحت وأكل أموال الناس بالباطل، فكان حالهم في سلب موارد ثرواتهم وتكاثر أموالهم كحالهم في سلب العلم والمعرفة عنهم، فلم يبق منه في أيديهم إلا الكذب والافتراء على الله، وتحريف كلمه عن مواضعها، وتبديل أحكامه وآياته بغياً على الله وعَدْواً على خلقه.

فسجّل عليهم ﷺ ذلك كله في كتاب أمر بكتابته، وجعله دستوراً للمؤاخاة والألفة التي عقدها ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن لحق بهم وتبعهم وجاهد معهم.

وهذه المؤاخاة كانت مؤاخاة تكليفية ملزمة، لها نتائجها الروحية والمادية، وليست كالمؤاخاة الإرادية الفردية التي كانت بين أفراد المجتمع المسلم أول ما كان تصحيح تركيبه الاجتماعي على المحبة وصدق المودة دون إلزام وتكليف.

إهمال شأن المنافقين لعدم تميز كيانهم أفناهم كما تفني رياحُ السموم الذباب

وثالثاً ـ على إهمال شأن المنافقين، وعدم الاعتداد بوجودهم، وتحقير أمرهم بالنظر إليهم بين أخلاط المجتمع المدني الذي كانوا فيه ظلاً لليهود، يدورون معهم كما يدور ظلُّ الثور معه وهو يطحن في مطاحن الهواء، لأنه لم يكن للمنافقين في المجتمع المدني وأخلاطه كيان متميز بخصائص إنسانية أيّاً كان وجهها من الكفر والإيمان، مما اقتضى اطّراحهم عند النظر في استصلاح هذا المجتمع المدني ليخلو الطريق للمجتمع المسلم في سيره لنشر دعوته إلى الله، وتبليغ رسالته، لأن هؤلاء المنافقين أبوا على أنفسهم أن يكون لهم كيان متميز يعرفون به بين أخلاط المجتمع المدني، لما اتسموا به من الجبن الخالع، والجزع الهالع، والانزواء وراء الأحداث، والتخفي وراء الوقائع، يدّرعون التقية ليستخفُوا بها حتى لا تأخذهم أحكام الشريعة وحدودها، وكانوا يتداخلون مع المجتمع المسلم تداخل المخادع الختون، وكان من يراهم في تداخلهم بين صفوف المسلمين يقول إنهم مسلمون، ولذلك كان رسول الله ﷺ يتغاضى عن مآثمهم وجرائمهم خشية أن يقول الناس: إن محمداً يقتل أصحابه.

فالنبي ﷺ إنما تركهم لتفنيهم الأحداث ويذيبهم الغيظ والكمد كما تفني الذباب رياح السموم، وكان معظم شأنهم في إشاعة الأراجيف والأكاذيب، والدس وحوك الفتن، لأنهم قد أذلّهم الجبن والرعب كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ولكنهم قوم يَفْرقَون. لو يجدون مَلْجأً أو مغارات أو مدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون﴾ وقوله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾.

تحقيق حول كتاب المؤاخاة التكافلية الذي أمر النبي ﷺ بكتابته بين عامة المؤمنين وبيان هل قصد بهذا الكتاب أساساً موادعة اليهود؟

يتناول البحث هذا الكتاب الذي أمر النبي ﷺ بكتابته بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، وضمّنه ﷺ تبعية اليهود للمؤمنين في النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم من وجهين:

الوجه الأول ـ ما قيمة هذا الكتاب من وجهة الثبوت العلمي تاريخياً؟

الوجه الثاني ـ ما الذي يفيده نص الكتاب في المقصد من كتابته؟ وما وضع اليهود فيه؟

كتاب المؤاخاة التكافلية المتكاملة بين عناصر المجتمع المسلم ثابت ثبوتاً علمياً تاريخياً

أما الوجه الأول فبيانه أن هذا الكتاب بنصه الكامل رواه كثير من أئمة النقل، ولم نر من طعن فيه سنداً أو متناً، ويشبه أن يكون أسبق من رواه بنصه الكامل المطول المذكور في السيرة هو محمد بن إسحاق بن يسار، إمام المغازي والسير، ونقله عنه بنصه كاملاً ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) ولم يتكلم في سنده ولا في متنه بشيء يشعر بضعفه، بَلْه أن يكون موضوعاً مكذوباً، وابن كثير عالم ناقد، إذا رأى ما يقتضي التعقيب على ما يسوقه من الروايات عقّب بما يراه من موجبات العلم والنقد.

وقد قدّم ابن كثير لنقل نص الكتاب عن ابن إسحق بعض الروايات المؤذنة بثبوت الكتاب في الجملة، فقال بعد أن ساق حديث أنس بن مالك في المحالفة بين المهاجرين والأنصار الذي تكلمنا عليه عند الحديث عن المؤاخاة الأولى وحقّقنا القول فيه بما لا مزيد عليه: وقال الإمام أحمد: حدثنا نصر بن باب، عن حجاج ـ هو ابن أرطاة ـ قال: وحدثنا سريج، ثنا عبّاد،

عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معـاقلهم، وأن يفدوا عـانيهم بالمعروف والاصلاح بين المسلمين.

وهذا نص من رواية الإمام أحمد صريح بثبوت الكتاب عن النبي ﷺ لأن المعنى المذكور في حديث عمرو بن شعيب هو محور الكتاب المذكور.

ثم قال ابن كثير: قال أحمد: وحدّثنا سريج، ثنا عبّاد، عن حجاج، عن الحكم عن قاسم، عن ابن عباس وساقه، قال ابن كثير معقّباً ناقداً: تفرّد به الإمام أحمد. ثم قال ابن كثير: وفي صحيح مسلم عن جابر: كتب رسول الله ﷺ على كل بطن عقولة، وهذه إشارة واضحة إلى بعض ما تضمنه الكتاب، لأن قوله على كل بطن يوافق ما جاء في الكتاب من استعراض بطون الأنصار، وإلزام كل بطن بما يلزم البطون الأخـرى، والعقولة الديات جمع عقل، كقلس وقلوس ـ هكذا ضبطه وفسره النووي.

ثم ساق ابن كثير نص الكتاب عن ابن إسحاق فقال: وقال محمد ابن إسحاق: كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، ثم ذكر نص الكتاب بطوله، إلى أن عقّب عليه بقوله: كذا أورده ابن إسحاق بنحوه، وقد تكلّم عليه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الغريب وغيره بما يطول إيرادَه.

وممن نقل نص هذا الكتاب عن ابن إسحاق أبو الفتح ابن سيّد الناس صاحب (عيون الأثر) وذكره تحت عنوان (ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود) فقال: قال ابن إسحق: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، ثم ذكر نص الكتاب، غير أن العنوان الذي وضع تحته نص الكتاب في (العيون) جعله مؤذناً بأن الكتاب كتب للموادعة بين المسلمين واليهود، وهذا يفقد الكتاب حقيقة القصد من كتابته، وأنه كتب لأجل الموادعة بين المسلمين واليهود، مع أن ديباجة الكتاب تحمل في صراحة

وضوح القصد من كتابته، وأنه إنما كتب ليكون دستوراً تكليفياً ملزماً يقوم على أساسه بناء المجتمع المسلم في حاضره ومستقبله بعد أن صحّحت المؤاخاة الفردية الإرادية تركيب هذا المجتمع المسلم اجتماعياً على أساس الحب في الله ولله، وهي المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار في أول عمل قام به ﷺ مقدمه المدينة.

وموادعة اليهود في الكتاب إنما جاءت تبعاً لإشعارهم بقوة المجتمع المسلم في حياته الجديدة، وأنهم إذا أرادوا الأمن والاستقرار لأنفسهم على دينهم وأموالهم فلينزلوا عن غرورهم واستكبارهم إلى تبعيتهم للمسلمين، كما يدل عليه صريح الكتاب بقوله: وأنّ من تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

وقد عقّب صاحب (العيون) على الكتاب بعد أن ذكره بنص ابن إسحاق فقال: هكذا ذكره ابن إسحق وهو يقصد إلى ما في سنده من إرسال، وابن إسحق متهم بالتدليس، وإرسال المدلِّس أضعف من إرسال غيره.

ثم قال صاحب (العيون) ليدفع هذا الضعف: وقد ذكره ابن أبي خيثمة فأسنده، قال: حدّثنا أحمد بن جناب أبو الوليد، ثنا عيسى ابن يونس، ثنا كثير بن عبدالله بن عمرو المزني عن أبيه عن جدِّه أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، فذكر بنحوه.

وقد أشار إلى هذا الكتاب الترمذي وأبو داود، فذكر فيه حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، قال: وكان كعب ابن الأشرف ـ اليهودي حِلْفاً وأماً، وأبوه من بني نبهان ـ يهجو النبي ﷺ، ويحرّض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون والمشركون، يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والعفو، وفيهم أنزل الله ﴿ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى

كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[1].

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى رسول الله ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً يقتلونه، فبعث محمد بن مسلمة ـ وذكر قصة قتله ـ فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبي ﷺ، فقالوا: طُرق صاحبنا فقتل، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة.

وهذه العبارة التي ختم بها الحديث صريحة في أن النبي ﷺ كتب بينه ومعه عامة المسلمين، وبين اليهود كتاباً، وأخذ عليهم أن ينتهوا إلى ما فيه، وهو ما يتفق مع قول من أورد نص الكتاب مبيناً أنه كتاب موادعة ومعاهدة أقرّ فيه اليهود على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم، لأن الرعب ملأ قلوبهم، والفزع الهالع زلزل أقدامهم، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فزعين مذعورين يطلبون في ذلّة وخضوع أن يؤمّنهم ويحميهم، ويضفي عليهم من سلطانه ما يحفظ لهم الإقرار على دينهم وأموالهم، فأعطاهم رسول الله ﷺ ما طلبوه على أن لا يغدروا بعهدهم، وكتب لهم ذلك في كتاب جعله عهداً بينه وعامة المسلمين وبينهم، ولا شك أن هذا الكتاب أو الصحيفة ـ كما في تعبير حديث أبي داود ـ هو هذا الكتاب الذي روى نصه ابن كثير من مؤرخي الإسلام والمؤلفين في أحداث السيرة النبوية، لأنه لا كتاب سواه عرف بهذا المعنى الذي احتواه.

وقد ذكر حديث هذا الكتاب أيضاً ابن سعد في الطبقات، وذكره أبو سعيد النيسابوري في (شرف المصطفى) ورواه الحاكم في المستدرك، وتكلم عليه ابن الأثير في كتاب (النهاية) فقال: وفي كتابه ـ ﷺ ـ للمهاجرين والأنصار أنهم أمة واحدة على رباعهم، يقال: القوم على رباعتهم، ورباعهم، أي على استقامتهم، يريد أنهم على أمرهم الذي كانوا عليه، ورباعة الرجل شأنه وحاله التي هو رابع عليها، أي ثابت مقيم.

---

(١) سورة آل عمران آية (١٨٦).

وقد ذكر هذا الكتاب من المُحْدثين المعاصرين صاحب (الوثائق النبوية) حميد الله خان الهندي في وثائقه على أنه وثيقة تاريخية من وثائق السيرة التي أمر النبي ﷺ بكتابتها.

وقال الزرقاني في شرح (المواهب): وفي مرسل عكرمة عند ابن سعد: فأصبحت يهود مذعورين، فأتوا النبيّ ﷺ فقالوا: قتل سيدنا غيلة، فذكّرهم صنيعه وما كان يحرض عليه، ويؤذي المسلمين، فخافوا فلم ينطقوا، ثم دعاهم إلى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحاً، فكان ذلك الكتاب مع عليّ بعد.

وقال القسطلاني والزرقاني في كتاب الشمائل من المواهب عند الحديث عن كتب النبي ﷺ التي كتبها لأقوام بلغاتهم، وما فيها من الفصاحة وبراعة البيان: وأين ذلك من كتابه بين قريش والأنصار، أنهم أمة واحدة دون الناس من قريش، قال الزرقاني: من قريش صفة، أي جزء منهم كأبنائهم وإخوانهم على نحو «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» يعني أن الأنصار دون غيرهم من الناس طائفة من قريش، فهو مبالغة في اتّحادهم معهم حتى كأنهم من نسلهم ـ وهذا الوصف (من قريش) غير موجود في رواية ابن إسحق ومن نقل عنه ـ على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، ويفكّون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين المتّقين أيديهم على من بغى عليهم أو ابتغى دسيعة ظلم، وأن سلم المؤمنين واحد على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً، ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قود إلا أن يرضى ولي المقتول، ومن ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلّا نفسه وأولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن.

ثم قال القسطلاني: كذا روى مختصراً من حديث ابن شهاب، وقال الزرقاني: وذكره ابن إسحاق مطوّلاً في نحو ورقتين في مبحث الهجرة، قال ابن سيّد الناس: وأسنده ابن أبي خيثمة عن عمرو المزني أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكره مطولاً بنحوه.

وابن أبي خيثمة أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب، ترجم له الذهبي في تذكرة الحفّاظ، وأنه أخذ الحديث عن أحمد بن حنبل وابن معين، ونقل

عن الدار قطني قوله عنه: ثقة مأمون، ونقل عن الخطيب قوله فيه: إنه ثقة عالم متقن حافظ.

هذه نصوص وروايات تدل كثرتها واجتماعها على معنى واحد، مع اختلاف رواتها زمناً، واختلاف بعض عباراتها لفظاً على ثبوت هذا الكتاب ثبوتاً علمياً تاريخياً، وأن النبي ﷺ أمر بكتابته ليكون دستوراً للمجتمع المسلم وموادعة لليهود ما داموا منتهين إلى ما فيه بالوفاء.

نص الكتاب قاطع بأنه كتب ليكون دستوراً لتنظيم المجتمع المسلم تنظيمًا اجتماعياً متكافلاً وأن اليهود جعلوا تابعين للأنصار

الوجه الثاني - ما الذي يعطيه نص هذا الكتاب في القصد من كتابته؟ وما وضع اليهود فيه؟

تحقيق هذا الوجه من الوجهين اللذين يتناولهما البحث حول هذا الكتاب يقتضينا أن نورد نص الكتاب ونثبته كما رواه الثقاة، ثم ننظر فيه ليتبين القصد من كتابته بما تفيده عبارته وأسلوبه، ويتبين من نصه وضع اليهود فيه.

نص الكتاب من سيرة ابن إسحاق
ونقل ابن كثير وصاحب (العيون)

وقد ذكر ابن إسحق الكتاب في سيرته بتهذيب عبد الملك بن هشام، وهي المتداولة بين أهل العلم دون أن يضع له عنواناً خاصاً فقال: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرين من قريش على رِبْعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عَوْف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى: وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جُشَم على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النَّبيت على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو

عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقِّين على من بغى منهم، أو ابتغى دسِيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجيز عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض دون الناس.

صراحة نص الكتاب بتبعية اليهود للمؤمنين من المهاجرين والأنصار

وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سِلْم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وأن المؤمنين يُبِيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيِّنة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدِثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدلٌ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يـوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عَوْف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عَوْف، وأن ليهود بني ثَعْلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشُّطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ،

وإنه لا ينحجز على ثأر جُرْح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا.

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يُخاف فساده فأن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دَهِم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويَلْبسونه، وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ. اهـ نص الكتاب، وهو دستور تكافلي جامع لأهم جوانب الحياة الاجتماعية للأمة.

أما الوجه الثاني ـ فبيانه أن النظر في هذا الكتاب يفيد لأول وهلة أنه كتاب قصد منه أولاً قصدٌ أوليٌّ ذاتيٌّ أن يكون دستوراً ضابطاً لحياة المجتمع المسلم في حياته الجديدة، التي اتسع فيها مجال عمله، وقويت فيها شوكته، وكثر جمعه، وتظاهرت عليه واجباته الدينية والاجتماعية في صورتها الروحية والمادية، وضاق به ذرعاً أعداؤه في الداخل والخارج، لأنه تبوأ في الحياة مكانة القيادة الداخلية، واندحر أمام سلطانه غرور اليهود، بعد أن ألبستهم

قوة المجتمع المسلم التي تزداد في كل لحظة عدّاً وعُدة أثواب المذلة والهوان، وسربلتهم سرابيل الرعب المذعور، والفزع الهالع، وأذاقتهم مرارة الخوف المذهل في نومهم ويقظتهم، وغدوِّهم ورواحهم، حتى تجمّدت حركاتهم، وبارت تجاراتهم، وشُلّ تفكيرهم، وضاقت بهم الحياة، فلم يجدوا ملجأ يؤمنهم سطوة الأحداث إلا كنف رسول الله ﷺ، فأتوه صاغرين، يستغيثون ويستجيرون بعد أن هزّت كيانهم بطشة فتيان المجتمع المسلم بسيدهم وشرِّيرهم لعين الفجور كعب بن الأشرف الذي كان يهجو رسول الله ﷺ ويؤذيه، ويؤذي أصحابه في أعز مشاعرهم، بعد أن نقض عهده لرسول الله ﷺ أن لا يقاتله، ولا يحرِّض أحداً على قتاله، وأن لا يظاهر عدواً له، وأن لا يؤذيه بقول أو فعل، فقبل منهم رسول الله ﷺ ضراعتهم، وأمنهم على دينهم وأموالهم ما أقاموا ملتزمين للوفاء.

ويدل النظر دلالة قاطعة على أن القصد الأول من كتابة هذا الكتاب هو وضع دستور اجتماعي للمجتمع المسلم بما جاء في ديباجة الكتاب صريحاً لا يقبل التأويل من قول النبي ﷺ: «هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس».

فهذه الفقرة التي تصدَّرت الكتاب لتعنونه ليس فيها ذكر أي ذكر لليهود وموادعتهم، ولكنها تقرر وحدة المجتمع المسلم في التزاماته ومسؤولياته، وأن عناصره من المؤمنين والمسلمين، المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم وانضوى تحت لوائهم، وجاهد معهم لإعلاء كلمة الله أمة واحدة، وأن هؤلاء المؤمنين الذين يتركب منهم بناء المجتمع المسلم، بعضهم موالي بعض في النصرة والأسوة، وأنهم في وحدتهم الإيمانية مجتمع موحّد الوسائل والأهداف يجير عليهم أدناهم، وأنهم متكافلون في ردِّ بغي من ظلم وبغى منهم، وأن أيديهم على هذا الظالم الآثم الباغي واحدة، ولو كان ولد أحدهم. وذكر الكتاب أن المهاجرين من قريش على رِبْعتهم واستقامتهم وأمرهم الذي كانوا عليه، وذكر مثل ذلك في طوائف الأنصار، وعدَّدهم

طائفة، طائفة، وجعل كل طائفة منهم، على أمرها الذي كانت عليه، وأن المؤمنين جميعاً متكافلون تكافلاً اجتماعياً، فلا يتركون بينهم مُفْرحاً أثقلته الديون وكثرة العيال، بل عليهم أن يمدّوا إليه يد المعاونة والمساعدة، ويعطوه حتى يرفعوا عن كاهله عبء حياته بالمعروف في فداء أو عَقْل.

كان تأمين اليهود وموادعتهم في الكتاب أمراً تبعياً لم يكتب الكتاب من أجله

وقد استغرق ذلك صدر الكتاب في تفصيل روابط المجتمع المسلم، وضوابط حياته في مستقبله والتزاماته نحو عناصره المركب منها بناؤه، قدراً ليس بالقليل من حجمه.

ثم بعد ذلك كله ذكر الكتاب اليهود في عبارة عابرة، صريحة بتبعية اليهود للمجتمع المسلم، فجاء فيه: وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

ثم عاد الكتاب إلى ذكر أحوال المجتمع المسلم في وشائجه الاجتماعية التي توّجت بقول الكتاب: (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ)، وهذا المعنى الكريم منتزع من قوله تعالى مخاطباً المؤمنين خاصة: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[1].

ثم ذكر الكتاب بعد ذلك أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما دام المؤمنون محاربين، لأن المجتمع المسلم ضمن لهم في تبعيتهم له النصر والأسوة، فإنفاق اليهود مع المؤمنين نتيجة لازمة لتبعيتهم للمجتمع المسلم وقيامه بحمايتهم ونصرهم إذا اعتدى عليهم أحد ما داموا محافظين على موجبات التبعية.

ثم ذكر الكتاب ما هو أدخل في إبراز تبعية اليهود للمجتمع المسلم، فنسب يهود كل طائفة من الأنصار إليها فقال: وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ ـ أي لا يوبق ولا يهلك ـ إلا نفسه وأهل بيته.

---

(١) سورة النساء آية (٥٩).

وهذه هي الكلمة الوحيدة التي جاءت في الكتاب عن تأمين اليهود على دينهم وقد صيغت ـ كما هو ظاهر ـ في أسلوب التبعية للمجتمع المسلم، ثم أخذ الكتاب يعدِّد طوائف اليهود مُلْحَقين بطوائف الأنصار، بعد أن ذكر صورة تأمين اليهود على دينهم وأنفسهم عند ذكره ليهود بني عَوْف، فقال: وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، حتى استكمل عدد طوائف الأنصار ومن تبعهم من اليهود، ثم أبرز الكتاب سلطان المجتمع المسلم في شخص النبي ﷺ، فقال: وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ، وذلك حذراً أن يعودوا إلى ما جُبلوا عليه من الغدر والخيانة والخروج إلى أعداء الإسلام ليحرِّضوهم على حرب المجتمع المسلم الذي صارت إليه الهيمنة المطلقة في المدينة.

ومن هذا البيان يتجلَّى أن الكتاب الذي أمر رسول الله ﷺ بكتابته إنما كان كتاباً دستورياً لتنظيم حياة المجتمع المسلم تنظيماً تكافلياً تكليفياً ملزماً بما ورد فيه من أحكام التكافل والعُقولات، ولإظهار تبعية اليهود لهذا المجتمع المسلم بعد شموخهم وغطرستهم وغرورهم وتحكمهم في الأوس والخزرج قبل أن يدخل الإسلام عليهم، ويصفِّي أخلاط مجتمعهم المدني الموبوء بعبودية المال والوثنية، وأنه لم يكن قط كتاباً كُتب وقصد قصداً أولياً لموادعة اليهود ومعاهدتهم وتأمينهم على دينهم وأموالهم، والاشتراط عليهم، والشرط لهم، وكل ما جاء في الكتاب من هذا النحو إنما جاء في ظل تبعية اليهود للمجتمع المسلم وإظهار سلطان هذا المجتمع بقيادة سيد المرسلين محمد ﷺ.

فالكتاب إنما كتب لتأسيس وحدة تكافلية اجتماعية تكليفية بين عنصري المجتمع المسلم من المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، وهم المهاجرون والأنصار، استعداداً للمستقبل المليء بالمفاجآت.

نعم، جاء في الكتاب بعد أن استوفى بيان وشائج المجتمع المسلم، وأن أفراده في جماعتيه من المهاجرين والأنصار مع من تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس، وأن من تبع المجتمع المسلم من

اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، - جاء فيه أيضاً: أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ولا شك أن هذه العبارات وأمثالها مما جاء في الكتاب تأمين لليهود، وإقرار لهم على دينهم، لكن الكتاب أبرز هذا التأمين في صورة تبعية اليهود للمجتمع المسلم مما يدل دلالة واضحة على أن المقصود الأصلي من الكتاب ليس هو موادعة اليهود ومعاهدتهم والاشتراط عليهم والشرط لهم. وعلى أن الكتاب لم يكن بين النبي ﷺ وبين اليهود، وإنما هو كتاب كتبه النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين يتركب منهم بناء المجتمع المسلم ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم لينظم به حياة المجتمع المسلم تنظيماً يتكافأ مع ما سيلقى هذا المجتمع المسلم في سبيل نموه، وتكاثر واجباته نحو نشر دعوته إلى توحيد الله، والجهاد لإعلاء كلمة الله التي نيط به إعلاؤها وتبليغ رسالتها وهدايتها من أحداث يقوم بها أعداء هذا المجتمع في الداخل والخارج ليوقفوا نهضته، ويعوقّوا نشر هدايته.

تجوز أو تجاوز بعض المؤلفين في عنونة الكتاب بموادعة اليهود

فالذين عنونوا لهذا الكتاب في مؤلفاتهم وبحوثهم بـالموادعـة بين المسلمين واليهود ونحوها قد تجوّزوا كثيراً في هذه العنونة التي لا تعطي صورة حقيقية عن محتويات الكتاب، فصاحب (عيون الأثر) إذ يقول في عنونة الكتاب (ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود) لم يكن دقيق التعبير عن مضمون الكتاب الذي ذكر نصه تحت عنوانه، إذ لم تكن الموادعة كل محتويات هذا الكتاب، وإنما كانت بعض محتوياته، وأقلها كمّا وكيفاً.

بل إن بعض هؤلاء المؤلفين قد أبعد النجعة، وتجاوز القصد الأصيل من كتابة هذا الكتاب وحوّله إلى قصد فرعي لا يدل عليه نص الكتاب إلا بشيء من التعسف في التأويل كالسهيلي في روضه إذ قال: كتاب رسول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود، شرط لهم، وشرط عليهم، وأمّنهم فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

وهذا مسلك غريب لأن فيه إهداراً للقصد الحقيقي من الأمر بكتابة هذا الكـتاب كما يبدو من أول نظرة في نصّه ومحتوياته، والسهيلي شارح

لسيرة ابن إسحاق، وابن إسحاق أسبق المصادر لهذا الكتاب في سيرته، وقد قدّم له قبل أن يسوق نصه بعبارة واضحة الدلالة على أن هذا الكتاب لم يكن بين رسول الله ﷺ وبين اليهود، وإنما كان كتاباً من رسول الله ﷺ بين المؤمنين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم. وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

فما الذي دعا السهيلي وهو شارح سيرة ابن إسحاق أن يترك عبارته ويخترع عبارة من عنده يعنون بها الكتاب، وكيف رضي السهيلي على نفسه في فضله وعلمه أن يهدر ديباجة الكتاب، وهي من كلام رسول الله ﷺ، وهي صريحة الدلالة على أن الكتاب من رسول الله ﷺ بين المؤمنين والمسلمين، كما يقتضيه نصُّها إذ تقول: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس.

فأين يقع عنوان السهيلي في روضه الكتاب بقوله: (كتاب رسول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود) من هذه الديباجة المعبِّرة عن مقصد الكتاب في محتوياته؟ وأين في نص الكتاب أنه كتاب رسول الله فيما بينه وبين اليهود؟ كل ذلك يجعلنا نستبعد أن يكون هذا العنوان في روض السهيلي من وضع السهيلي وعبارته، ولعل هذا من تصرفات محقق الروض والمعلق عليه، فإن كان ذلك فما أشد بلاء التراث الإسلامي بمحققيه على دواوينه.

إن التاريخ الإسلامي ابتلي باليهود فشوّهوا كثيراً من حقائقه وأهدافه، ليفتنوا أهله ويصدوهم عنه، وابتلي بأهل الغفلة الذين يقبلون ما يقال لهم دون نظر وتمحيص.

وهذا التاريخ في أشد الحاجة إلى الدقة في كتابته، التي تضع الأمور في مواضعها، وتضع الأحداث في مواطنها، وهو في أشد الحاجة إلى الصدق والأمانة والديانة التي تراقب الله وتخشاه، حتى يمكن أن يقدم هذا التاريخ لشباب الإسلام في إطار البحث الأمين المتعمق، بصورته الواقعية حتى يعلم المسلمون حين يقرؤون تاريخهم أنهم يفسرون به قول الله تعالى: ﴿ولله العزة

ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[1].

وقد أحسن ابن كثير كل الإحسان في كتابه (البداية والنهاية) وهو يقدم لهذا الكتاب النبوي فيقول: فصل في عقده عليه السلام الألفة بين المهاجرين والأنصار بالكتاب الذي أمر به، فكتب بينهم، والمؤاخاة التي أمرهم بها.. وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة، فهذا تعبير موفّق موثّق، يصور الواقع في صورة صادقة جامعة معبرة.

وقد شرح السهيلي بعض كلمات الكتاب وألفاظه التي تبدو غريبة على من بعد عهده باللغة العربية في منازلها من محافل العرب وأسواقهم ومواسمهم ومضارب قبائلهم وبطونهم، وعلى من لم تكن له عناية بالأدب العربي، والنظر في معاجم الألفاظ وتفسيرها.

تفسير السهيلي لبعض ألفاظ الكتاب

فقال في كلمة (ربعاتهم ـ أو رباعتهم)، وفي الكتاب: بنو فلان على ربعاتهم. هكذا رواه أبو عبيد عن ابن بكير عن عقيل بن خالد، عن الزهري، ورواه عبدالله بن صالح بهذا الإسناد، فقال: رباعتهم، الألف بعد الباء، ثم قال أبو عبيد: يقال فلان على رباعة قومه إذا كان نقيبهم ووافدهم.

ثم قال السهيلي: وكسر الراء فيه القياس على هذا المعنى ـ أي معنى النقابة والوفادة، لأنها ولاية وإن جعل الرباعة مصدراً فالقياس فتح الراء ـ أي على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء. يتعاقلون معاقلهم الأولى، جمع معقله ومعقله من العقل وهو الدية.

ثم قال السهيلي بعد أن ذكر تفسير ابن هشام لكلمة (مفرح): وذكر أبو عبيد رواية أخرى (مفرج) بالجيم، وذكر في معناه أقوالاً، منها أنه الذي لا ديوان له، ومنها: أنه القتيل بين القريتين، لا يُدرى من قتله، ومنها: الذي لا شيء له، وقد أثقله الدين، فيقضى من بيت المال.

وفيه ـ أي في الكتاب ـ ولا يوتغ إلا نفسه، أي لا يودق ولا يهلك إلا نفسه، ومعنى قوله: يبيء من البواء وهو المساواة.

(١) سورة المنافقون آية (٨).

وقوله: وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبّره، أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضى به.

ثم نقل السهيلي عن أبي عبيد في كتاب الأموال قوله: إنما كتب رسول الله ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية، وإذْ كان الإسلام ضعيفاً، وكان لليهود إذْ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحرب.

بحث ونظر في كلام لأبي عبيد نقله عنه السهيلي

قلت: وفي كلام أبي عُبَيد نظر، إذْ لم يُعرف في وقائع الجهاد الإسلامي على عهد رسول الله ﷺ واقعة واحدة أن اليهود قاتلوا فيها مع المسلمين، وهذه غزوات رسول الله ﷺ وسراياه محفوظة مدوّنة محصورة العدد، معروفة الأمكنة والأزمنة وأسماء من خرج فيها من جنود الله وحزبه، وليس فيها مشاركة اليهود في القتال، ولا أنهم حصلوا على نصيب من مغانم المسلمين.

وكذلك في قوله: (إذْ كان الإسلام ضعيفاً) نظر، لأن هذا الكتاب كتب كما في حديث الترمذي وأبي داود إثر قتل اللعين كعب بن الأشرف، وقتله إنما كان على رأس خمسة عشر شهراً بعد الهجرة بعد واقعة بدر التي عزّ بها الإسلام، وقتل فيها من صناديد كفار قريش ورؤوس ملئهم عدد كبير بلغ سبعين قتيلاً، وأسر منهم وغنم فيها المسلمون غنائم كثيـرة، وقد كان لها صدى بعيد المدى، ملك الرعب والهلع من هول صدقها وعظم آثارها في تقوية شوكة الإسلام والمسلمين، وإذلال الشرك والمشركين وفجّار اليهود، حتى قال فيها اللعين الفاجر كعب بن الأشرف حينما سمع زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة وقد قدما ببشرى النصر للمدينة، وهما يخبران عن قتل صناديد كفار قريش وطغاة ملئها: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لَبَطْنُ الأرض خير من ظهرها.

فالكتاب لم يكتب إلا وقد عزّ الإسلام وانتصر على أعدائه انتصاراً أذلهم وأضعف شوكتهم ولم تقم لهم بعد هذا النصر قائمة، والذي وقع في أحد إنما كان درساً للمسلمين تعلّموا منه الكثير الذي أفادهم في مستقبلهم وسائر وقائعهم، وكانوا أعزّة رغم ما كان فيها.

بيان وتعليق

الكسالى المسترخون لا يقوون على العمل ويثبطون العاملين

سيقول المخلّفون عن ركب الحياة في استرخاء نؤوم، وتثاؤب زائغ من الذين يعيشون في دنيا الإسلام من أجل أنفسهم، أسرى رغائبهم، وعبيد غرائزهم، الذين لا يطيقون سماع غرغرة بطونهم المنهومة، وهم عاجزون عن كبح جماح شهواتهم الهابطة، ولا يقوون على معاناة الصبر إذا وجدوا، أو إذا فقدوا، ولا يحتملون مرارة العمل الجاد الصموت لإصلاح أنفسهم، ثم إصلاح من يتصل بهم اتصالاً قريباً دانياً من زوج أو ولد لإصلاح مجتمعهم الصغير في بيوتهم ثم إلى إصلاح مجتمعهم الكبير في مساجدهم، وفي مدارسهم، ومعاهد العلم وجامعاته أو في مصانعهم، ومزارعهم، وأسواق تجاراتهم وفي محافل أفراحهم، ومجتمعات أحزانهم، ليجعلوا من ذلك وسيلة ـ إذا صدقت العزائم ـ لإصلاح مجتمعهم الأكبر مجتمع الوطن الواحد، والأمة الواحدة.

هذا المجتمع الجامع الذي يقوم بناؤه على تلك اللبنات المتفرقة في المجتمعات الصغيرة، التي إذا أحسن أخذها بصغار أمور التربية قبل أن يدركها سوس الفساد، فينخر عظام الإصلاح فيها، ثم يتدرج بها في تربية عملية متدرجة من الصغير إلى الكبير، ومن الكبير إلى الأكبر، ومن المهم إلى الأهم، ومن البسيط إلى المركب، ومن المركب إلى الممزوج الموحّد، ومن مطالب الجسم إلى مطالب العقل، ومن مطالب العقل إلى مطالب الروح ـ سيقول أولئك المخلّفون الذين (إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة): ما هذه التخيلات التي تريد أن تعيد إليها

المجتمع المسلم؟ وكيف يمكن أن تتحقق له هذه المؤاخاة بآثارها الاجتماعية التي كانت دعامة للمجتمع المسلم أول نشأته، وهو محصور العدد والمكان، موحدّ القيادة والمنهج في التربية، متقارب المطالب، متشابه الرغائب، وهذا المجتمع المسلم اليوم في ترامي أطرافه، وتعدد مواطنه، وتباعد المسافات بين هذه الأوطان، وكثرة أعداده وتعدد قياداته، واختلاف مناهجه السياسية والفكرية والتعليمية، وضخامة مطالبه، واختلاف منازعه، وتفرقة مذاهبه ونحله، وشيعه وفرقه، وطوائف أحزابه، لكل حزب وسائله وأهدافه.

وهؤلاء القائلون لذلك إنما يقولونه بلسان التخلّف عن ركب الحب تحت وطأة (الأنانية) وهم بهذا يقلبون الدواء داء، ويضعون الداء مكان الدواء، ويوهمون أنّ في الشفاء سقماً، وفي المرض شفاء، لِيُرْضوا بذلك أنفسهم بالقعود مع الخالفين عن جهاد الإصلاح الداخلي في أوطان المجتمع المسلم، وليخلدوا إلى راحة اليأس في ظلال البطنة، أشباحاً ليس فيها للحياة غناء أي غناء، لأن ترهل الكسل أصاب أعصاب الحياة في أبدانهم، ولم يترك في أرواحهم لمعة إشراق من النور والهدى وحب الإصلاح.

مقصد البحث توجيه المجتمع المسلم إلى معرفة مقومات نهضته الرائدة ليعود إلى طرائق تربيتها وسلوكها

إننا لم نقل بوجوب أن يكون المجتمع المسلم في يومه كما كان المجتمع المسلم في أمسه على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه في مؤاخاته التي وصفناها بآثارها العملية في نوعيها الفردي القائم على الحب في الله، ولله، والجماعي القائم على التكافل التكليفي الاجتماعي، تلك المؤاخاة التي نهضت بالمجتمع المسلم نهضة مكّنته من زمام قيادة الحياة ـ وإن كان هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع في حياته كلها ـ ولكنا رسمنا صورة لواقع المجتمع المسلم في أطواره التي مرّ بها على عهد رسول الله ﷺ، وذكرنا عوامل كل طور وبواعثه، وما وصل إليه ذلك المجتمع في هذا الطور وقد كانت كلها أطواراً بشرية اجتماعية، ليس فيها معجزات خارقة لنواميس الحياة وقوانين الطبيعة إلا ما كان خاصاً به ﷺ من أمور خارقة مرتبطة بشخصه ﷺ لحفظه وحمايته من غدر أعدائه.

والمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه ـ في طوريها الفردي

القائم على الحب في الله، أو الجماعي القائم على التكافل التكليفي الذي جعله النبي ﷺ دستوراً ملزماً، وكتب به كتاباً جعله وثيقة طبقها المجتمع المسلم في حياته الاجتماعية التكافلية ـ إنما كانت نوعاً من التربية الاجتماعية للمجتمع الجديد المسلم قامت على أساس وحدة هذا المجتمع وحدة كانت أقوى دعائم قوته الروحية والمادية في مواجهة أعدائه في الداخل، الذين قهرهم وصفّى أخلاطهم، وانفرد بقيادة الحياة في الداخل والخارج.

وهي بهذا التصوير لحقيقتها، والتقدير لوزنها ليست من المحالات التي يُستعظم وجودها في تربية المجتمع المسلم اليوم كما ربته بالأمس، إذا أخذنا في تقديرها ووزنها ما طرأ على الحياة من (تطور) في الفكر والمعرفة، ووسائل العيش، واختلاف السلوك، والقوى المادية الهائلة، وضعف القوى الروحية أمام هذه القوى المادية المجنونة واختلاف مناهج الحياة عند الأمم والشعوب.

لأن هذه الأمور وغيرها دخلت في تركيب الحياة، وأصبحت عناصر ضرورية في تركيبها، فإهدارها والتغاضي عنها، والتعامي عن آثارها ضرب من السلبية العمياء التي لا ترى ما بين يديها من مزالق وانحدارات.

وفي نهج النبي ﷺ الذي نهجه في عقد المؤاخاة بين أفراد المجتمع المسلم على الحب في الله ولله، ثم بين جماعات المجتمع المسلم على التكافل الاجتماعي التكليفي توجيه للمجتمع المسلم اليوم إذا أراد هذا المجتمع أن يأخذ بهذه التربية العملية في تصحيح تركيبه جرياً على منهج المؤاخاة في نوعيها ليستعيد عزته وكرامته، بل ليستعيد سلطانه وسيادته في قيادة الإنسانية.

كانت قوة أعداء المجتمع المسلم المادية في مطلع حياته أشد ضراوة من قوته ولكنه قهرها وغلبها بمؤاخاته الموحدة لأهدافه

لقد كانت أخلاط المجتمعات المادية المعادية للمجتمع المسلم في قوتها المادية يوم أخذ المجتمع المسلم بمنهج تربية المؤاخاة لا تقل ضراوة وشرارة عند المجتمعات المعادية للمجتمع المسلم اليوم عن النظرة التناسبية بحسب الزمان والمكان والعدد والعدة وإعداد القوى البشرية ووسائلها التدميرية الصناعية، (وتطور) الفكر ونتائجه واستخدام العلم في إنتاج القوى المادية أحفى استخدام، ولكن المجتمع المسلم بروح التربية الاجتماعية التي قامت

عليها المؤاخاة التكافلية وبمنهج الوحدة التمازجية أمكنه أن يتغلب على تلك القوى المادية فيقهرها، بل إنه بروح المؤاخاة قضى على قوة أعدائه على بهظها وضخامتها قضاء لم تقم لهم معه قائمة.

فالنبي ﷺ عمد إلى عنصري المجتمع المسلم بوصفهما المحدّد لذاتيهما، المهاجرين والأنصار فآخى بينهما ـ أولاً ـ مؤاخاة أساسها الحب في الله، ولله، ثم لما اشتد ساعد المجتمع المسلم وكثر عدده، وشرق به أعداؤه في داخل المدينة من اليهود، وبقايا نفايات الشرك والوثنية، واشتد طغيانهم بتحريض كفار قريش ومن تحبَّش معهم من قبائل العرب، واجتمعت كلمتهم على محاربة المجتمع المسلم إرادة إبادته واستئصال شأفته، ولا سيما بعد وقعة بدر التي ملأت قلوبهم حقداً ورعباً وغيظاً مكمداً، ونغلت بها أفئدتهم واحترقت بآثارها أكبادهم، رأى النبي ﷺ أن يعقد بين عامة عناصر المجتمع المسلم مؤاخاة اجتماعية، تكافلية، تكليفية إلزامية، وكتب بذلك كتاباً جعله وثيقة دستورية بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن لحق بهم وجاهد معهم، وهو الكتاب الذي فصَّلنا فيه القول تفصيلاً أبان عن ثبوته تاريخياً، وأبان عن مقاصده وغاياته وموجباته.

وقد كان لهذا الكتاب أثر قوي جعل من المجتمع المسلم قوة موحّدة، وقفت أمام تجمعات أعدائها مواقف حاسمة تُوِّجت بالنصر المؤزر، ذلك النصر الذي سار دوّيه بالرعب يحمله إلى قلب الجزيرة العربية وإلى أطرافها، فزلزل الأرض من تحت أقدام تلك القبائل المتربصة، فاستسلمت لقوة المجتمع المسلم المتكافل في جهاده لإعلاء كلمة الله شيئاً فشيئاً حتى طواها تحت أجنحتهَ فاهتدت بهداية الإيمان، وعرفت الله بوحدانيته وإخلاص العبودية له وحده، فجمعها تحت لوائه، وخرج بكتائبها المجاهدة إلى مشارف الجزيرة لينذر بهم من وراءها من قوى أجنبية كانت تتربص بالمجتمع المسلم وتستعد لمهاجمته في عقر داره، فأرهبهم بقوته المادية وأدخل الرعب في قلوبهم بقوته الروحية، وحشر للروم في غزوة تبوك جحافل الكتائب التي كانت تحب الموت في سبيل الله أكثر من حب أعدائهم للحياة، فلم يخرج الروم بحشودهم

لملاقاتها، لأنهم جاءهم ما خلع أفئدتهم، وعلموا منه أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الذين كانوا رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار.

وعاد رسول الله ﷺ من هذه الغزوة التي كانت آخر غزوة خرج فيها بنفسه الشريفة، يقود جحافل المجتمع المسلم، ليريهم أن قوة الإيمان المتكافل لا تقف أمامها قوة ولو كانت كثيفة العدد عظيمة العدة.

وهكذا كانت هذه الغزوة تمريناً للمجتمع المسلم على غمز قناة الذين يقفون وراء الجزيرة العربية في غرور أجوف وغطرسة كاذبة، واستكبار متورم، ليروزهم ويختبر ما عندهم من القوة التي يتعـزّزون بها تكـذّباً وعجرفة.

تجارب صادقة يجب العودة إليها بإحياء وحدة المؤاخاة الاجتماعية بين عناصر المجتمع المسلم في كافة أوطانه

وقد صدقت هذه التجربة في أداء ما قصد منها، وطمع المجتمع المسلم في الدولتين اللتين كانتا تحيطان به، وكان اسم كل واحدة منها في الجاهلية كفيلاً بأن يصيب قبائل العرب بالدّوار، حتى جاء المجتمع المسلم المتكافل في جهاده فغزاهم شرقاً وغرباً ودخل عليهما في عقر دورهما، وهما الدولتان اللتان كانتا تملكان زمام القوة المادية في عددها وعدّتها في ذلك العصر حتى أدخلهما في حظيرة الإيمان والهداية وحرّر كل ما كانت تحكمه الروم بالظلم والبغي من بلاد العرب، وحرّر فارس كلها وزرع في قلوب أهلها الإيمان والهداية، فكانت ركناً من أركان المجتمع المسلم في القوة الروحية والمادية والفكرية.

هذه الآثار التي حققها المجتمع المسلم في ضخامتها كانت عملاً من أعمال المؤاخاة بنوعيها الفردي القائم على الحب في الله والجماعي القائم على التكافل الاجتماعي التكليفي، ولم تزل هذه المؤاخاة تعمل عملها وتحقق آثارها في الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى خلقه، وإعلاء كلمته في آفاق الحياة إلى أن ابتلي المجتمع المسلم بالترهّل المترف، والميوعة الاجتماعية، فتفرقت وحدته الإيمانية، وحلّت محلها النعرات القومية الملحدة، فتوقف عمل المؤاخاة، وتمكن أعداء المجتمع المسلم من تمزيق أديمه وتفريقه إلى دويلات هزيلة مستضعفة، تدين بالوطنية، ولا تعرف الإسلام إلا من وراء سدّة المسجد، في المناسبات (الظايطة) التي تصم المجتمع بأبشع

ما يوصم به مجتمع في هذه الحياة.

وبقي الأمر على هذا الانتكاس المزري والوضع الوبيء المتهافت الذليل الذي أعطى أعداء المجتمع المسلم سلاحاً يكيدونه به، بعد أن تمكنوا من التحكم في مصايره ومصادر ثرواته، فاستخرجوا كنوزه وحوّلوها ذهباً إلى أوطانهم، وصنعوها أدوات علمية ووسائل للعيش في حياتهم المترفة التي يحيونها في أوطانهم فساداً وإفساداً ومعاول للتدمير في أوطان المسلمين، نتيجة للعلم الملحد، والمعرفة الكافرة، ولم يتركوا منها لأصحابها إلا ما يتساقط من فتات موائدهم، وحتى هذا الفتات المتعفن لم يسمحوا بشيء منه لعامة الشعوب في الأوطان المسلمة الذين يتضورون جوعاً، ويزوّرون عرياً، ولكنهم حجزوه عنهم ومنحوه للأخشاب المسندة الذين نصبوهم رعاة وولاة وحكاماً على هذه الشعوب المستعبدة الذليلة التي حطّت على رؤوسها طيور الفقر المذلة، واحتلت أجسامها الناحلة جراثيم الأمراض والأوبئة، واستحوذ على عقولها الجهل المظلم، وأصبحت عاجزة عن النهوض بواجباتها المسلمة إلا بالخطب على منابر المساجد، والدعايات الجوفاء التي لا تصنع شيئاً إلا أن تنيم الشعوب في كهوف التأخر الفكري، والتخلف الاجتماعي والفراغ الروحي، والضياع المادي والعجز عن التحرك لتصحيح تركيب المجتمع المسلم تصحيحاً يعيد له حياته الكريمة، وقوته التاريخية، ويمكّنه من معرفة نفسه في أوطانه، واستغلال ثرواته، وكنوزه بسواعد أبنائه، وتفكيرهم، وتصنيع خاماته، وإعداد القوة الرادعة لأعدائه، ليسير بدعوته إلى الله وتوحيده آمناً قوياً، مفكراً، دون أن يخشى العقبات التي تقام في طريقه على أيدي الوثنيات الملحدة الجديدة الممثلة في الشيوعية، والصهيونية، والماسونية، والروتارية، والوجودية والخنفسية والبهائية من كل النحل الملحدة، التي تجمعها عداوتها للإسلام وحقدها عل المجتمع المسلم، والتي تقف وراءها حكومات بكل قواها المادية والدعائية الشريرة ممثلة في جماعات التبشير والتكفير، وخداع الاستشراق الفكري الذي يتخذ من العلم والمعرفة ستاراً يغطّي به فكره السيء وجدله المعربد، وخداعه الماكر وكيده الحقود.

إن المجتمع المسلم لن ينهض من كبوته، ولن يصحو من غطيط نومه،

لن ينهض المجتمع المسلم من كبوته إلاّ إذا عاد إلى منهجه الأصيل في تربيته الإسلامية

ولن يتنبه من ذهول غفلته، ولن يستيقظ من غفوته إلا إذا عاد إلى منهجه الأصيل في المؤاخاة التكافلية والتربية الروحية التي توقظ فيه عوامل الإيمان ومعرفته بحقيقة تاريخه معرفة حقيقية، يقف منها على بواعث نهضته في تاريخه وعوامل قوته في مسيرته، ليعيد تطبيقها عملياً في حياته، ويعرف آثارها في نهضته التي استطاع بها أن يقود الإنسانية روحياً ومادياً وفكرياً فترة من الزمن كانت من أرفع فترات الحياة في وزنها الحضاري، كما يقف منها على معرفة ما صادفه في طريق سيره من المعوّقات التي انحسر تحت أقدامها المدّ الإسلامي، وهو اليوم لا يزال في انحساره، بل تقهقره، وعجزه عن التحرك المتفاعل مع تصاريف الحياة، وهي تجدّ السير مسرعة، لا تتوقف عند أشباح تغط في نومها، ولكنها تتابع مشيها في سيرها مغذةً لا تني ولا تفتر، لا يعيق سيرها رميم الأشباح من بقايا مجتمع كان له في الحياة شأن مذكور، ثم على حين غفلة فقد كل شيء من مقوماته الذاتية، بل فقد نفسه وتاريخه وخصائصه الروحية والفكرية والمادية والتربوية، وهو يعيش في ضياع لا يشغله من أمر الحياة إلّا ما يشغل خُشاش الأرض.

والخطوة الأولى في إنقاذ المجتمع المسلم من كبوته، وإيقاظه من رقدته، وتنبيهه من غفلته هي إنهاضه من استرخائه المتثائب، وإنعاشه من تخدّره المستسلم للواقع الظلوم الذي سلبه مقومات الحياة الجادة، وهذا الإنعاش لا تنفع فيه رنات الخطب وجهارة الدعايات الجوفاء، والتنادي بالشعارات في الندوات والتجمعات واتخاذ القرارات التي تتبخر مع الهواء.

وإنما يكون إنهاض المجتمع المسلم وإنعاشه بالعمل الإيجابي القائم على دعائم العلم والمعرفة وقوة التفكير الدافعة على الحركة والنهوض لحمل العبء الذي كان يحمله يوم أن كانت خصائصه الذاتية ممثلة في نهجه السلوكي والتربوي.

بل إن إنهاض المجتمع المسلم اليوم لا يكون إلا بدقِّ أجراس الخطر ليشيع في أرجائه الشعور والإحساس، ويشمل كل ذرة في ذرّات هيكله، ليقف على قدميه مستعداً للعمل وراء قيادة مؤمنة، راسخة اليقين، عظيمة

لا يُنهض المجتمع المسلم إلّا قيادة موحدة عليمة مؤمنة، تستطيع أن تتغلب على المفارقات السياسية وتدسساتها

الإخلاص لإنهاض هذا المجتمع عليمة بالماضي والحاضر، قوية التفكير في الخروج من المآزق والأزمات، جريئة الفؤاد، فدائية الروح، حذرة من السقوط في منحدرات السياسة الخادعة، شديدة التوقّي من مخادعة الأصدقاء والأعداء على سواء، وليس للصداقة في واقع إرادة تصحيح تركيب المجتمع المسلم وجود، لأن هذه الصداقة صداقة مظاهر ومخادعة، تقصد إلى الانتفاع والفائدة، وهذا نوع من الصداقات لم يعتدّ به رسول الله ﷺ حين أخذ في تصحيح تركيب المجتمع المسلم الاجتماعي ليعدّه لتحمل أعباء المستقبل، ولكنه ﷺ عمد إلى عناصر هذا المجتمع فآخى بينها مؤاخاة تقوم على الحب في الله، ثم لما اتسعت رقعة المجتمع المسلم، وكثر عدده آخى بين جماعاته مؤاخاة تكافليّة تكليفية، ألحق بها موادعة لأقوى أعداء المجتمع المسلم، وهم اليهود، وفرق كبير بين الموادعة والصداقة، فالموادعة إنما تقصد إلى مكافّة الموادع اتقاء شره وسوء مكره، والصداقة وشيجة تمكّن من يتصف بها من مداخلة المجتمع المسلم ومعرفة أخباره وأحواله، والاطلاع على ما عنده من قوى مادية أو فكرية أو روحية.

وقد كانت هذه المؤاخاة التكافلية التكليفية عنصراً في بناء المجتمع المسلم وهو يحمل على كاهله عبء مستقبله في نشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة، وسير الفتوحات وإقامة صروح العدل والمساواة بين أبناء الإنسانية في الحقوق والواجبات، ممّا جعل من المجتمع المسلم وحدة امتزج بروحها أفراده وجماعاته أينما حلّ من أرض الله في وطن من أوطان هذا المجتمع.

وقد تغلبت إيجابية المؤاخاة في آثارها العملية على عوائق الفتن الداخلية، فلم تستطع رغم ضراوتها وشراستها أن تقف عائقاً أمام عمل المؤاخاة في إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله، ونشر العلم في المدارس المسجدية، والمساجد المدرسية التي قامت في أوطان الإسلام على نهج قيام المسجد الأعظم في المدينة المنورة عاصمة الإسلام، وكانت تؤدي عملها الدراسي والعبادي جنباً إلى جنب، وتقوم بواجباتها من وراء كتائب الفتوحات وجحافل الجهاد.

ولم تكن اتساع رقعة المجتمع المسلم، وتعدُّدُ مواطنه وقياداته، واختلاف مطالبه في أوطانه، وما صادفه في فتوحاته من أفكار وفلسفات ومذاهب وبقايا نحل في البلاد المفتوحة مع تدافع المنازع التي فرّقت المجتمع إلى شيع وأحزاب وطوائف مختلفة الآراء والفلسفات ومناهج السلوك ـ عائقاً دون سير الدعوة، وهي تحمل راية الجهاد لتبليغ الرسالة وإقامة موازين العدل، وتوحيد الحكم، وتحكيم الشريعة في حياة المجتمع المسلم الـذي ظل متماسك التركيب الاجتماعي الموحّد، حتى فرق الترف المترهل كلمته، وأحاله إلى أشلاء ممزقة الأديم، تحت عنوانات من الحاكمية الذليلة المزيفة، المختلفة الوسائل والأهداف.

والمؤاخاة بنوعيها الفردي والجماعي ممكنة التطبيق العملي في كل وطن من أوطان المجتمع المسلم ـ إذا صدقت العزائم والإرادات، وخلصت النيات عند الحاكمين والقادة.

المؤاخاة ممكنة التطبيق إذا خلصت نيات الحاكمين واتجهت عزائمهم

ففي التقسيمات الإدارية في كل وطن مسلم مندوحة للبدء بالمؤاخاة بنوعيها متدرجة من المجتمعات الصغيرة إلى المجتمعات الكبيرة، وفي كثرة المساجد المدرسية فسحة لتطبيق منهج المؤاخاة، وفي كل مدرسة ومعهد وجامعة مجال لوضع المؤاخاة موضعها من التطبيق، وفي المصانع أوسع آفاق لجعل المؤاخاة حقيقة من حقائق العلم والعمل، وفي المزارع الجماعية ونقابات الطوائف المثقفة والعمال المختلفة باختلاف الطوائف والفئات، وفي دواوين الحكومة ومصالحها وطوائف موظفيها، وفي المجتمعات السكنية، وفي كل مجتمع نقابي فرصة لتطبيق المؤاخاة تطبيقاً عملياً متدرجاً. وبالجملة في كل مكان تجتمع فيه طائفة من المجتمع المسلم تحت عنوان خاص بهم يمكن أن تتحقق المؤاخاة بنوعيها الفردي الذي يقوم على الصداقة، والجماعي التكافلي التكليفي الذي يؤديه ما تؤديه الجمعيات التعاونية الحرّة التي لا تسيطر عليها الرسميات والدعايات الجوفاء والاستغلال المغرض.

ولنضرب مثلاً عملياً نوضح به إمكان تحقيق المؤاخاة بنوعيها اللذين عقدهما رسول الله ﷺ بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم، فجعلت منه

مجتمعاً متعاطفاً بالحب، متعاوناً بالتكافل، قوياً بالوحدة.

أساس عملي موجود في واقعنا يمكن أن تبدأ منه المؤاخاة في كل وطن مسلم

في كل وطن إسلامي ـ تقريباً ـ موحَّد الحكم يوجد نوع من المدارس له خصائصه التي تميزه على سائر مدارس ومعاهد التعليم، ذلك النوع من المدارس هو المدارس (النموذجية) التي يوضع لها برنامج دراسي تربوي خاص في مواده العلمية ووسائل التربية الفكرية والبدنية، وساعات العمل، ونظام الامتحان، بل في الزي المدرسي واختيار تلاميذه، وتحديد عددهم في فصول الدراسة، وانتقاء المدرسين والمربين من الممتازين خلقياً وتربوياً وسلوكياً.

فهل يعسر في مثل هذا النوع من المدارس في نظامها (النموذجي) تطبيق مبدأ المؤاخاة بين تلاميذ كل مدرسة (نموذجية) وهي في وضعها الاجتماعي متوافرة أسباب وشرائط المؤاخاة الفردية والجماعية، ولا سيما إذا كان القائم على إدارة المدرسة رجلاً من رجالات التربية الممتازين بالحمية الإيمانية، ورسوخ اليقين، والتقوى الإيجابية، وحب الدين، والرغبة في إعلاء كلمة الله.

إن ذلك لا يعسر إذا صدقت العزائم وصحّت الإرادة، وتربية الأمم لا تُقاس بالسنين والأعوام، وإنما تقاس بما يقع في الزمن من الأعمال، فإذا صحّت عزيمة أمة من أمم الإسلام واتجهت إلى تحقيق لون من التربية يحقق المحبة والإخاء بين جميع أساتذة وتلاميذ كل مدرسة من هذا النوع النموذجي ـ سهل عليها أن تطبق نظام المؤاخاة التي قام عليها بناء المجتمع المسلم في نشأته، ومستقبل حياته، دون أن يعوقها عائق.

والمصلحون لا يحسبون للزمن حساباً في تحقيق ما تصبو إليه أنفسهم من إصلاح أممهم وشعوبهم ما داموا قائمين على الطريق السوي الذي يفضي بأممهم وشعوبهم إلى أهدافهم الإصلاحية ولو مرّ من الزمن الكثير.

والأمر لا يحتاج إلا إلى نوع من الإقدام المؤمن بالفكرة، لأن الإيمان قوة لها أثر عظيم في دفع عجلة الإصلاح إلى النهوض والتقدم للوصول إلى الهدف.

فلنجرب، ولنبدأ ونتحرك إلى العمل، والله تعالى من وراء القصد، ولتكن (نموذجية) المدرسة وتوافر وسائل التربية فيها إلى جانب وسائل التعليم قائمة على تحقيق نظرية المؤاخاة في تدرج متثبت، وليكن برنامج هـذه المدارس (النموذجية) قائماً في حياة المجتمع المسلم على الروح الإسلامية الخالصة، والإسلام لا يرفض العلم ولا التربية التي تحقق للأمة إصلاحاً ينهض بها لتأخذ مكانها في ركب الحياة المتحضرة النظيفة.

والزمن لا يتوقف عن السير، والشمس لا تتوقف عن الدوران، فعلى الذين يريدون الإصلاح للمجتمع المسلم على النهج الذي أقامه عليه رسول الله ﷺ أن يسابقوا الزمن ليأخذوا منه قبل أن يأخذ منهم.

فحيَّ على الفلاح يا من بيدكم زمام قيادة المجتمع المسلم، وانهضوا للعمل، وارتقبوا فضل الله فإنه قريب مجيب، وهي تجربة لا تضر إن لم تنفع، ولن تغير من الوضع (النموذجي) القائم شيئاً، سوى أنها توجهه وجهة إصلاحية مسلمة.

فإذا نجح هذا الاتجاه التربوي المسلم ـ وهو ناجح بعون الله ـ إذا أخذت بزمامه يد مطهّرة من رجس التعبد للبرامج والمناهج المستوردة التقليدية، ونفس متحررة من العبودية للدنيا ورغائبها أمكن التوسع فيه بنقله إلى المرافق الأخرى المتميزة بخصائصها كالمعاهد والجامعات في قطّاع العلم والتربية، وإلى النقابات والمصانع في قطّاع التجمعات العاملة، وكلما كان العدد محصوراً كان النجاح مؤملاً مرجواً.

نظام المؤاخاة الاجتماعية يؤدي للدولة حكماً مستقراً

ولا يغيبن عن تفكير الحاكمين في أوطان الإسلام أن نظام المؤاخاة يفرز العناصر الفاسدة المفسدة ويميزها عن المجتمع المسلم ليكون معهم التعامل بما يتلاقى من سلوكهم الاجتماعي، ويعطون قدراً من العناية التربوية لإصلاحهم، وردِّهم إلى صفوف مجتمعهم حتى يندمجوا فيه اندماجاً يجعلهم أعضاء صالحين مصلحين، كما تضمن المؤاخاة للحاكمين والقادة في المجتمع المسلم حكماً مستقراً، يشعُّ في جنباته الأمن والجدّ والعمل المستهدف عزة المجتمع المسلم وسعادته، والحب المبدِّد للأحقاد والضغائن، ويغرس في

النفوس روح التنافس المؤمن، والغَيْرة المتسابقة إلى الخير والهدى، ويقوِّي عوامل الحرص على ازدياد قوى المجتمع المسلم الروحية والمادية والفكرية، ويحرِّر المجتمع المسلم من عبودية التبعية المغلفة بأغطية السياسة الماكرة الخادعة، ويفتح أمام مفكِّري المجتمع المسلم مجالات العلم والمعرفة الفسيحة والتفكير في استخدام الطبيعة وعناصرها الظاهرة والخفية، ومجالات البحث في أسرار الكون ليحقق لمجتمعه مصلحة تدفع إلى التقدم الحضاري العلمي، استجابة إلى ما يدعوه إليه دينه وتربيته الروحية من التطلّع إلى ما كان له من منزلة في تاريخ القيادة الإنسانية على أسس من العدل والتراحم والمساواة في الحقوق والواجبات ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز * الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[1].

---

(١) سورة الحج آيتا (٤٠، ٤١).

الدعامة الثالثة
التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
في مستقبل حياته
هي الجهاد في سبيل الله

الحديث عن الجهاد هنا ليس حديثاً عن مشروعيته

الحديث عن الجهاد هنا ليس حديثاً عن مشروعيته، ومراتبه الحجاجيّة والقتالية، وأحكامه، وأحكام ما ينشأ عنه من أوضاع ونظم في الحياة، فهذا نوع من البحث قد استوفيناه وأشبعنا القول فيه في كتابنا (سماحة الإسلام، الموسوم بـ (الموسوعة في سماحة الإسلام) إشباعاً أتى ـ في ظننا ـ على جميع ما يدور بخلد الباحثين والمتطلّعين إلى المعرفة في هذا المجال، أو على الأقل جمع أكثر ما يدور في أذهان المتسائلين عن شرعة الجهاد في الإسلام، وما يتبعها من نظم اجتماعية وأحكام تشريعية، يتوقف عندها منكراً أو متنكراً بعض من لم يدرس الإسلام خاصة، ومن لم يدرس تاريخ الرسالات الإلّهية عامّة، بل بعض من لم يعرف شيئاً عن تاريخ البشرية الاجتماعي في تزاحمها على رغائب الحياة التي تدفع إلى التكالب عليها الميول الغريزية عند الأفراد والجماعات مما لم يُخْلِ الحياة من تهارش وتقاتل على طول تاريخها المديد، الذي لا تعرف له بدءاً ولا تعرف له نهاية.

وقد كانت الرسالات الإلّهية في أدوارها المختلفة وأطوارها المتفاوتة هي العصا التي يهشّ بها المصلحون ليتخففوا من عنفوان التهارش البشري في سبيل تحقيق الرغائب الاستئثارية.

التاريخ البشري شاهد صدق على جموع الرغائب المفضي إلى التماثل

والتاريخ البشري لا يستطيع أن يضع يده على مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية فيزعم أنها مرحلة خلت من تهارش وتقاتل، والحاضرُ شاهد على الماضي، وهو في بلوغه من الرشد الحضاري، وارتقائه في مدارج الحضارة الفكرية والاجتماعية حتى بلغ منها ما يخيل له أنه ذروة التعاطف

والتراحم، أعدلُ شاهد على ما كان يسود تاريخ الحياة من سطوات التوحش والهمجية في التدمير والتخريب، وسفك الدماء، والفتك بالأرواح والتغالب والتظالم، والأثرة الذاتية التي تسوق الحياة بسياط البغي والقهر والقوة المادية الظالمة في صورها المختلفة، ومظاهرها التي لا تقف عند حصر، ولا سيما فيما نتجه العلم المادي التجريبي المظلم من وسائل الإهلاك والإفساد والتدمير والتخريب في هذا العصر الذي غلب فيه الإلحاد المادي على المبادىء الروحية، والتربية السلوكية الخلقية، ففرض على الحياة سيطرته وسلطانه، ولم يترك للروحانية الهادية إلا منابر الكلام الأجوف الذي لا يُحْلي ولا يُمر، ولا ينفع ولا يضر، وإنما هو لون من التنافس الدعائي، يقصد به أكثر ما يقصد خداع الشعوب عن حاضرها الذليل.

رسالة الإسلام هي العدو الأول للإلحاد والوثنية المادية

وهذا الإلحاد المادي الظلوم لا يرى له اليوم عدواً في الحياة إلا رسالة الإسلام التي رفعت راية التوحيد، منذ أن أهابت بالإنسانية في أول لحظة تشرّفها بها لتريها صورة الإلحاد المادي في صُوَر الإشراك بالله تعالى، وفي صور الوثنيات المختلفة، وتريها طريقة مقاومة هذا الإلحاد الفاجر بسلاحه الذي يحاربها به، وهو متفرغ لمحاربة هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، لا يشغله عنها شاغل، لأنه فرغ من القضاء على بقايا الخرافات والأساطير المتخلفة من حطام الرسالات التي سبقت رسالة الإسلام، أو هو على الحقيقة لم يجد أمامه إلا شيئاً من حطامٍ بالٍ من بقايا آثار باهتة، قال عنها أصحابها إنها آثار رسالات سابقة، وما هي من الله في شيء.

الإلحاد المادي المتفلسف استحوذ على قلوب الشباب فأفسدها

وقد استطاع هذا الإلحاد المادي أن يحتاز عواطف الشباب في دنيا الناس، ويملك قلوبهم بما فجرّ فيهم من شهوات جامحة أتاح لها جميع أسباب الانطلاق، ومكّنها من الإشباع المنهوم بالرغائب الشهوية في بيئات لا تعرف للأخلاق بينها منزلة.

ومن فجور هذا الإلحاد المادي الجموح أنه صب إفساده المادي في قوالب متفلسفة، ليوهم العقول أن فجوره علم، وأن جموحه معرفة وفلسفة، وهو يدور مع هذه النحل المتفلسفة في حلقة مفرغة كما تدور أحْيرة الطحانين

بالرحى، وهي تطحن الحصى، ولا يُدرى متى تنتهي من هذا الدوران، ليترك العقول تعود إلى الله وتشهد من الكون وجهه المضيء بالأسرار الإلَهية وإشراق الطبيعة بنور الهداية لتعرف الله بإنعامه وسابغ إحسانه، وكمال جلاله في وحدانية لا تقبل الإشراك.

لا منقذ للشباب إلاّ معرفة الله والإيمان برسالاته

وعودةُ شباب الإنسانية، ولا سيما شباب المجتمع المسلم إلى معرفة الله والإيمان به وبرسالته الخاتمة الخالدة المنزّلة على خاتم النبيين محمد ﷺ هي المنقذ الوحيد للحياة مما ارتطمت به وهي تنحدر في هاوية الانحلال الخلقي إلى غير قرار، وهذا الإنقاذ واجب المجتمع المسلم في إعادة تصحيح تركيبه الاجتماعي من جديد، بتجديد مارثّ من وحدة المؤاخاة بين أمم هذا المجتمع وشعوبه في جميع أوطانه ليتوحّد في ظلالها مرة أخرى، حتى يستطيع هذا المجتمع المسلم أن يأخذ مرة أخرى بزمام القيادة الإنسانية بروحانية رسالته حتى يعيدها إلى مستقرها من الهداية والإصلاح.

المقصود من الحديث عن الجهاد هنا إبراز مواقف المؤاخاة في مسيرة المجتمع المسلم

وإنما المقصود من الحديث عن الجهاد هنا نمط آخر من البحث، نقصد به أن نبرز مواقف المؤاخاة الحبية، والمؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي جعلها رسول الله ﷺ أساس منهجه في تربية مجتمعه المسلم في مواقفته لأخلاط المجتمعات المتنافرة في أهدافها ووسائلها حتى قضى عليها في الداخل، وجعل من مجتمعه المسلم المتآخي قوّة موحّدة قادت الإنسانية في مسيرتها الحضارية الهادية المصلحة إلى آفاق الإيمان والإخاء والحب، وقد عرفت في قيادته لها يوم أن أخذ بزمامها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، وعرفت الإنسانية من هذه القيادة التراحم والتعاطف والتوادد، وعرفت في هذه القيادة التواسي والترافق، بل عرفت في ظل قيادته الإيثار الذي أذاب (الأنانية) وحب الذات، وجعل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي أمة واحدة دون الناس، فهو يتحرك بهذه الوحدة إلى أهدافه متذرعاً إليها بأنظف الوسائل العملية الجادة، حتى تحققت له هذه الأهداف وهو معتصم بوحدته الأخوية لا يريم عنها ولا يفرِّط فيها.

فلما مالت شمس المؤاخاة التكافلية عن آفاق هذا المجتمع المسلم،

وداخلته في حياته مطامع الرغائب الشخصية تفرقت وحدته الاجتماعية، وهوت منزلته القيادية في المجتمع الإنساني، وماجت به زعازع الفتن القواصم الموبقة وألقته في مهاوي التبعية، فاستذلّ ومزق أديمه، وصار أشلاء في أوطانه، تحكمه جراثيم القوميات المغرقة في عتو الكفر الوثني، ووريثة الإلحاد المادي المتلوِّن مع تقلبات الحياة، فلا يبالي في تقلباته أن يكون شركاً غبياً يتعبد للأحجار والحيوان، انسلاخاً من إنسانية، ولا يبالي أن يكون فلسفة فكرية ماجنة، ولا يبالي أن يكون نحلة منحرفة فاجرة، ولا يبالي أن يكون زندقة منافقة، ولا يبالي أن يكون أكذوبة متعالمة، ولا يبالي أن يكون سياسة غادرة خائنة.

ضياع المؤاخاة من منهج المجتمع المسلم أسلمه إلى القوميات الملحدة

فهذا الإلحادُ الذي يغلِّف القوميات العنصرية بأغلفة التمويه والأباطيل الادّعائية ألوانٌ مختلفة تضفيها الحضارات الماجنة صوراً متشابهة في إطار الحياة الاجتماعية التي تحياها الأمم والشعوب في أوطانها المتشبعة بعصارات التحلل الخلقي والفجور الشهوي، فيجعل منه الفراغُ الروحي في الأفراد والجماعات، والضياع الاجتماعي في الأمم والشعوب علماً ومعرفة وفلسفة.

وقد يندّ عن هذا التصوير قليلاً العلم التجريبي القائم على المشاهدة التجريبية لأن بعض علماء التجارب الطبيعية ـ وهم قلّة إلى جانب المتفلسفة النظريين ـ ينظر أكثر ما ينظرون إلى نتائج التجارب، وما تؤدي إليه، أو ما يمكن أن يستخلص منها من عمل صناعي في استحداث أدوات وآلات تؤدي عملاً في الحياة.

فهؤلاء العلماء التجريبيون في عمل مع تجاربهم يلاحقها في مراحلها حتى يصل بها إلى شيء، قد يكون هو الهدف من التجربة وربما كان شيئاً آخر، يفتح باباً لتجارب أخرى.

فليس عند هؤلاء العلماء التجريبيين فراغ فكري، كالفراغ المستحوذ على عقول المتفلسفة النظريين، فحوّلهم هذا الفراغ إلى ملاحدة يتعالمون، ولكن الذي عند العلماء التجريبيين تخمة فكرية مادية، وضياع روحي يغطي على أفئدتهم، فيفرحون بما أتوا من التجارب ونتائجها، ويحبّون أن يُحمدوا بما

غرور علماء التجارب الطبيعية بما صادفوه أسلمهم إلى الغفلة عن آيات الله في الكون فضلوا وأضلوا

صادفوا، فيشغلهم ذلك عن الالتفات إلى التفكير في آيات الله الكونية، ودلائل هذه التجارب، ومنابعها الغيبية الروحية جموداً مع المظاهر المادية للتجربة، فكانوا بغفلتهم عن التفكير في آيات ربهم، وهي بين أيديهم، تنادي بوجود الله وعظمة اقتداره، وحكمة تدبيره، من ﴿الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[1].

قد تكون هناك عناصر خفية لها أثرها في الوصول إلى النتائج التجريبية فكانت الغفلة المضلّة

وليس معنى أن التجربة العلمية في مظاهر الطبيعة يمكن أن يستخلص منها عمل آلي أو أدوات تؤدي في الحياة أعمالاً مشهودة منتفعاً بها، وأن التجربة التي تمت على أساس نظرية علمية، تحكمها قوانين طبيعية ظاهرة كاملةُ الصحة، لاحتمال أن تكون هناك عناصر خفية غير مشهودة لها مدخل في استخلاص نتائج التجربة، وهذا هو مظهر الغفلة والفراغ القلبي الذي حجب تفكير هؤلاء العلماء عن النظر في آيات الله الكونية التي لو أتيح لهم النظر فيها لأخذت بأيديهم إلى هدى الله، فكانوا أوزن إيماناً وأرجح يقيناً من العلماء النظريين المؤمنين بقوة براهين المنطق النظري.

وهذه العناصر الخفية التي قد يكون لها مدخل في استخلاص نتائج التجربة ولم تظهر لتوّها قد تُعرف فيما يستقبل من البحث، وقد تسوق إليها المصادفة البحتة التي كثيراً ما تدخلت في عظائم المخترعات التجريبية.

والإلحاد المادي بمساعدة نتائج العلم التجريبي باعد بين التفكير الإنساني وبين الإيمان بالله ورسالاته التي قامت مناهجها الاجتماعية والتربوية في المجتمع المسلم على المؤاخاة التي زاوجت بين إشراق الروح وومضات الفكر، فلم تُغفل إشراقات الروح بنور الهداية الإيمانية، ولم تهمل عمل الفكر في خوضه غمرات العلم التجريبي، بل جعلت منهما حقيقة واحدة، تعيش متآخية مع نور الهداية الإلهية ومع وثبات الفكر في تعرّفه عناصر الطبيعة وأسرار الكون المسخرة للإنسان، ليستخلص منها ما أودع الله فيها من آيات ودلائل تهدي إليه عز شأنه، وتدل على اقتداره ومحكم تدبيره،

(1) سورة الكهف آيتا (١٠٤، ١٠٥).

ولينتفع الإنسان منها في حياته الروحية والمادية على سواء.

منهج المجتمع المسلم يوجب عليه أن يخوض لجة العلوم الطبيعية

فمناهج رسالة المجتمع المسلم القائمة على دعائم المؤاخاة التكافلية التكليفية بين أفراد وجماعات وأمم وشعوب هذا المجتمع المسلم تتطلب من هذا المجتمع بعد أن يهبَّ من رقدته المتطاولة، فيصحح مرة أخرى تركيبه الاجتماعي إلى تركيب متآخٍ تآخياً تمازجياً في منهجه العلمي، وتربيته السلوكية المتكافلة لتحقيق هدف رسالته التي قامت على دعائم المؤاخاة - أن يتبنى بمقتضى مناهجه الفكرية منهج العلم التجريبي ليجعل من هذا المنهج الفكري التجريبي نقطة انطلاق للفكر المسلم في ظل الهداية الإيمانية، بعد أن طال تمرغ هذا العلم الشريف في أوحال الإلحاد المادي، معادياً للهداية الروحانية الإيمانية.

وهذا التبني - وكثير من إمكانياته متوافر لدى أمم المجتمع المسلم في هذا العصر - هو في الحقيقة أعظم ما يقوم به المجتمع المسلم لتحقيق أهدافه الإيمانية الحضارية في هذا العصر، وهو أعظم ما يستطيع أن يقدِّمه المجتمع المسلم للإنسانية في تصحيح مسيرتها الفكرية نحو إنشاء حضارة مؤمنة، تقوم على دعائم العلم المؤمن، والمعرفة المرتوية من نمير الروحانية المشرقة بنور الهداية الإلّهية في رسالة المجتمع المسلم.

لأن العلم - كل العلم - في ظل الهداية الإيمانية هو الهدف الأعظم لرسالة المجتمع المسلم، الذي يجب عليه أن يعمل متآخياً بكل ما أوتي من قوة روحانية ومادية على تحقيقه، لتتذوق الإنسانية طعم السعادة الاجتماعية المتآخية في ظل هذا الهدف العظيم.

وهذه ليست أحلام يقظة، ولا أماني متمنٍ، يحوكها الخيال المتفائل، ولكنها حقائق فكرية، يمكن - إذا صدقت عزائم من بيدهم مقاليد المجتمع المسلم، وعندهم وسائل تمكينه من خوض غمرات العلم الطبيعي وتجاربه في جامعات المجتمع المسلم ومراكز بحوثه - أن تصبح بالعمل الجاد، والبذل في سبيل الله حقائق واقعية، تعيد إلى هذا المجتمع عزته التاريخية.

وكفى ما كان من كلام وتشادق، ودعايات، وشعارات، وخطب، ومواعظ مكرورة، وليبدأ قادة المجتمع المسلم في العمل، وليتحرك مفكرو هذا المجتمع في هدوء يبدأ من (الصفر) كما يقولون.

فإن الوصول إلى النقطة الأولى من خط السير في سبيل العمل الجاد لتصحيح تركيب المجتمع المسلم، وتمكين أقدامه في مواطئها عمل ضخم لا يستهان به، لأنه عمل يضع المجتمع المسلم مرة أخرى على الطريق المستقيم في تصحيح تركيبه، ويريه معالم الطريق حتى لا يضل عن سمته ووجهته، والانتقال في العمل من أول نقطة في خط إلى النقطة التي تليها في هذا الخط خطوة لا يضبطها القياس الزمني، لأنها في حياة الأمم والمجتمعات الإنسانية أجل من مقاييس الزمن، وقد تكون في حصيلتها العملية مما لا يقع تحت الرؤية المشبعة للرغائب العالية، ولكنها بما يتم فيها من أثر عملي مرسوم تنبىء عن نفسها، وتنبىء عمّا فيها من حركات إيجابية تضفي على حياة المجتمع قوة تنعشه للسير قدماً في سبيله.

* * *

وقد بينا بالتفصيل الممحّص للوقائع والأحداث أن المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بنوعيها الطليعي الفردي القائم على أساس الحب في الله والحب لله بين كل متآخَيْين من طلائع المجتمع المسلم بالمدينة المنورة من المهاجرين والأنصار الذي كان فيه كل مهاجري أخاً لأنصاري.

كانت المؤاخاة بنوعيها بين عناصر المجتمع المسلم قوة مرهوبة الجانب

وقد تمَّ هذا النوع الطليعي من المؤاخاة، وربا واستعمق في القلوب والأرواح والعقول والأفئدة حتى امتزجت فيه عناصر هذا المجتمع المحصور بمن كان قد وصل إلى المدينة من المهاجرين وأمثالهم من الأنصار، فكانوا وحدة امتزاجية ذابت في مزجها خصائص الذوات والأشخاص، وذهبت بها الفواصل بين الأفراد، حتى انتهت هذه الوحدة إلى الإيثار، وتسنّمت ذرا الإيمان، الذي جعل منها قوة روحية تعاصت على المكايد، وتخطّت أعتى العقبات، وتسامت في إيمانها إلى قمة الحب في الله، الذي أقام رسول الله ﷺ دعائمه على المؤاخاة الفردية فتآخوا في الله أخوين، أخوين، كما قال لهم

رسول الله ﷺ، ثم جاءت المؤاخاة الاجتماعية التكافلية بين جماعات المجتمع المسلم الذي كثر عدده، فكانت دستوراً منهجياً في حياة هذا المجتمع الذي سما به إلى آفاق القيادة الإنسانية، بل جعله في وحدته آية من آيات الإعجاز الاجتماعي في حياة الناس عامة، وحياة المجتمع المسلم خاصة، لأن وحدة التآخي التي كانت تربط عناصر المجتمع المسلم بعضها ببعض لم يعرفها تاريخ البشرية لغير هذا المجتمع.

وإذا كان نوع المؤاخاة الطليعي بين أفراد المجتمع المسلم قد قام على أساس الحب في الله الذي بلغ به إلى خصيصة الإيثار، فقد كان النوع الجماعي من المؤاخاة قائماً على أساس التكافل الاجتماعي التكليفي الملزم بمقتضى الدستور الذي أمر رسول الله ﷺ بكتابته بين عناصر المجتمع المسلم من المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، فجعلهم أمة واحدة دون الناس، يتكاثرون في ظله، ويزدادون عدداً وعدّة وقوة تحت سلطانه، ضابطاً لأعمالهم وتحركاتهم، مصححاً تركيب مجتمعهم، راسماً لهم منهج السير في مستقبل حياتهم في حربهم وسلمهم، مما حقق لهم وحدة اجتماعية جعلت من المجتمع المسلم قوة روحية، وماديّة، وفكرية وتربوية وسلوكية مرهوبة الجانب بين مجتمعات أخلاط المدينة المتنافرة في أهدافها ووسائل حياتها المترهّلة في تماسكها، المسترخية في حركاتها، بل بين سائر مجتمعات طواغيت الشرك وعبيد الوثنية، المتربصة بالمجتمع المسلم، تبغيه الغوائل، وتحوك له نسائج الفتن القواصم، لتفرق عواصم تجمعه وتآخيه.

لماذا كانت المؤاخاة أول عمل إيجابي في منهج التربية النبوية؟

وقد كانت هذه المؤاخاة أول عمل قام به رسول الله ﷺ في منهجه التربوي الاجتماعي الذي أقام على قواعده تركيب مجتمعه ليعدّه لمواجهة الحياة في سيره بدعوته إلى الله تعالى، وتبليغ رسالته إلى الناس كافة، مما جعله عرضة لمكايد أعدائه في الداخل من شراذم اليهود الحانقين، ومن طواغيت الشرك في الخارج الذين يمثلهم ملأ الكفر والفجور في مكة ومن يتعصب لها ممن حولها من قبائل الشرك والوثنية.

فأبانت عن براعة الحكمة السياسية التي انتهجها رسول الله ﷺ في تحركه الإيجابي بمجتمعه بعد الهجرة، ليفتح الطريق أمام مسيرة رسالته، تقديراً منه ﷺ لما ينتظر هذه المسيرة من عقبات كأداء، وعوائق صمّاء، وأزمات شداد، ومكر وخديعة، وتألّبات متكالبة ضد مجتمعه المسلم، مما يتطلب منه استعداداً روحياً ومادياً يصب في قالبه المجتمع المسلم وحدة قوية النسج، لا تنفصم عراها، يخوض غمرات الجهاد بسلاح الإيمان وقـوة المؤاخاة المتكافلة بروح فدائية تحب الاستشهاد في سبيل الله أشد مما يحب أعداؤها الحياة، لا تبالي في جهادها أجاءها النصر متنزلاً من سماء العزّة، أم لقيها الموت في حياض الجهاد، وهي تتغنى بقول قائلها:

ولست أبـالي حـين أقتـل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

لقد صدق الله رسوله في مؤاخاته بين عناصر مجتمعه فكانت قوة في جهاده

وقـد صدق تقـدير رسـول الله ﷺ، وبدأ اليهـود، وهم الأعداء الداخليون، الذين لا يشفي صدورهم من الغل والحقد والحسد إلا أن يروا المجتمع المسلم محاطاً بأعدائه من كل جانب، مـأخوذاً بسيـوف أولئك الأعداء - يفكّرون ويقدّرون ويرسمون الخطط لاستئصال هذا المجتمع الذي يقرؤون في لوح الحياة أن نهايتهم ستكون على يديه إذا لم تخلُ الحياة من وجوده، وانتشار دعوته، واندفاع رسالته في سيرها إلى المجتمع الإنساني في أقطار الأرض، فتفقأت بيضة مكرهم في الداخل عن فرخ النفاق الخبيث، يدبّرون له الأكاذيب، ويخترعون له الأراجيف ليفتّوا في أعضاد الضعفاء من حدثاء الإيمان الذين لم تشرب قلوبهم حب الإيمان، وهم سمّاعون لهم، ثم طار خبثاء اليهود إلى ملأ قريش، يثيرون حفائظهم على المجتمع المسلم، ويشعلون في أكبادهم حرائق الغيظ الكظيم، ليجمعوهم لحرب المجتمع المسلم إرادة استئصاله ولكن هذا المجتمع المسلم كان قد استكمل بناءه المتآخي، فوقف أمام هذه التألبات المتكالبة المتهاوية وقفة الجحفل المتشامخ بقوته الإيمانية ووحدته الاجتماعية، متماسك التركيب المتآخي في قلة عدده، وقوة شوكته، ورسوخ يقينه، واستعداده لتحمل أقسى صنوف البلاء في سبيل تحقيق أهدافه التي نصب نفسه مناراً لها يهتدي بها السائرون في دياجي الحياة، وهم يسمعون صوت الحق يناديهم: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل

الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[1].

وفي هذه الآية الكريمة توجيه للمجتمع المسلم في جهاده، خرج في أسلوبه مخرج المدح والثناء والترغيب المحرِّض على الجهاد، لأن هذا المجتمع بمقتضى ما أحدثته المؤاخاة التكافلية في كيانه من امتزاج جعل قوته في وحدته الإيمانية، تلك الوحدة التي تستهدف نشر الإيمان بالجهاد الحجاجي البرهاني والجهاد القتالي المزيل للعقبات من طريق تبليغ الرسالة، ونشر الدعوة لإعلاء كلمة الله.

جهاد المجتمع المسلم جهاد مستهدف لأعظم مقاصد السعادة في الحياة

فجهاد المجتمع المسلم جهاد مستهدف، يقصد إلى تحقيق أعظم هدف في الحياة ليسعد بهذا التحقيق في الدنيا بالعزة والنصر المؤزر، وفي الآخرة بنعيم الشهداء الذي لا يعدله نعيم، وفي إسعاد هذا المجتمع إسعاد للإنسانية كلها، بما تحظى به من الأمن في ظل العدل والمساواة الأخوية في الحقوق والواجبات.

أما أعداء المجتمع المسلم فإنهم يقاتلون لغير هدف، سوى شفاء غل صدورهم بما يسفكون من دماء الأبرياء الهداة الذين يدعونهم إلى توحيد الله، وخلع عبادة الأوثان، ليحرروهم من ربقة العبودية لغير الله تعالى بالشرك الموبق، والإلحاد الفاجر، والوثنية الزّريّة، ويدخلوهم معهم في ساحة الإيمان إخوة لهم في مجتمع الهداية والخير والحب والإخاء.

وفرق كبير، جداً بين من يجاهد مستهدفاً أعظم هدف لإسعاد الحياة، يحقق به إعلاء كلمة الله، وبين من يقاتل لغير هدف وإنما يقاتل ويدمّر ويخرب عمران الحياة، ويسفك الدماء في سبيل الطاغوت، انقياداً لضلالات الشيطان ومكايده، وماكيد الشيطان إلا في ضلال وضياع لمهانته وضعفه أمام عظمة الله تعالى، وقهره، ألا ترى إلى فراره مدبراً لا يلوي على شيء حين رأى جند الله وهم يثبِّتون المؤمنين في مواقف جلاد الكافرين، وهو يقول

(١) سورة النساء آية (٧٦).

لأوليائه أعداء الله، إذ يستغيثون به: ﴿إني أرى - أي من بأس الله وانتقامه وقهره - ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب﴾[1].

فالمجتمع المسلم يجاهد في سبيل الله وهو متثبت من أمره، راسخ القدم في جولاته، لأن له هدفاً يقصده في جهاده ويجعله نصب عينيه، فإذا تحقق هذا الهدف كفَّ عن القتال، وأخذ بيمينه كتاب الله ينشر هدايته، مبشراً منذراً، محبباً الله تعالى إلى خلقه بتذكيره بإنعامه وفضله وإحسانه.

وأما أعداء الله، وأعداء هدايته، أولياء الشيطان فإنهم يقاتلون والأرض تهتز تحت أقدامهم، وقلوبهم واجفة وأبصارهم خاشعة، وعقولهم زائغة، لا تجمعهم غاية، ولا تربطهم وشائج سوى وشائح الحقد على أهل الحق وحملة أمانته من جند الله وكتائب المجتمع المسلم التي تحمل لواء الدعوة إلى الحق والخير.

يقول الزمخشري في تفسير قول الله عز شأنه: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ الآية: رغَّب الله المؤمنين ترغيباً وشجعهم تشجيعاً بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، فهو وليّهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا ولّي لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

ويقول أبو حيان في تفسيرها: لما أمر الله تعالى المؤمنين أولاً بالنفر إلى الجهاد، ثم ثانياً بقوله: ﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ ثم ثالثاً على طريق الحث والحض بقوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون﴾ أخبر في هذه الآية بالتقسيم، أنّ المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله، وأن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، ليبين للمؤمنين فرق ما بينهم وبين الكفار، ويقوّيهم ويشجعهم ويحرضهم، وأن من قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب، لأن الله هو وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب.

ثم قال أبو حيان: وشتّان بين عزم يرجع إلى إيمان بالله وبما وعد على

---

(٢) سورة الأنفال آية (٤٨).

الجهاد، وعزم يرجع إلى غرور وأماني كاذبة.

فالمجتمع المسلم يجاهد في سبيل الله صفّاً واحداً، لهدف واحد، لأن المؤاخاة الاجتماعية التكافلية أذابت الفوارق في عناصر تركيبه بوحدة الإيمان، فجعلت منه وحدة في صدق العزيمة التي إذا همّت لا تتردد، وإذا أقدمت فلا تتراجع، ولكنها تمضي قدماً إلى قصدها المستهدف إعلاء كلمة الله، غير مبالية بما يكون في طريقها من عقبات، مهما كانت تلك العقبات في شدّتها وقسوتها، لأن لها من صدق عزيمتها، وقوة إرادتها، وإيمانها بموعود الله ما يفتت جلاميد أعتى العقبات، ويزيل شوامخ رواسيها.

وهذا التوجيه الذي ذكرناه في الآية هو في الواقع ثمرة من ثمرات تربية المؤاخاة التكافلية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه وسجلها دستوراً ملزماً في كتابه الذي أمر بكتابته بين جماعات المجتمع المسلم، وهو ﷺ مقدّر أصدق التقدير ما ستلقى هذه المؤاخاة في مستقبل المجتمع المسلم من تجمعات متكالبة، تريد القضاء عليه من بين مجتمعاتها التي ضاقت ذرعاً بهذا المجتمع المسلم، وهم يرونه في قلّة عدده بالنسبة لأعداد مجتمعاتهم شامخ الذرا، مستصعب المدارج، لا تلين له قناة، ولا تقهر له شوكة، واري الزناد، رفيع العماد، لا يهن ولا يسترخي متحفزاً للوثبة، لا تزول له قدم حتى ينكشف له قناع الغيب عن كتائب النصر المبين.

نمط البحث هنا يصور المنهج النبوي في تطبيق شرعة الجهاد في سبيل الله

هذا النمط الذي جرينا عليه هنا في البحث لتبيان أن الجهاد في سبيل الله دعامة من أقوى وأعظم الدعائم المنهجية التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم، الذي اختارته العناية الإلّهية لقيادة الإنسانية في مستقبل حياتها وحياته، إنما قصدنا به تصوير المنهج التطبيقي للرسالة الخاتمة الخالدة، كما رسمه رسول الله ﷺ ليكون عملاً إيجابياً في واقع الحياة.

فكما أبرزنا الصورة العملية في بناء المسجد الأعظم بالمدينة المنورة باعتباره نموذجاً لإنشاء المسجد في جميع أوطان الإسلام، وما قدّمه ذلك المسجد الأعظم الذي بدأ به رسول الله ﷺ منهجه في تطبيق شرائع رسالته، وما يجب أن يقدمُه كل مسجد في أوطان المجتمع المسلم لتحقيق مقاصد

إنشاء المسجد في بساطة بنائه، وتوجيه المجتمع المسلم في حياته الفكرية والتربوية والاجتماعية والسلوكية، كما أبرزنا ذلك أبرزنا الصورة المنهجية للمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ ـ أولاً ـ بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار، على الحب في الله، والمؤاخاة فيه، وهو يبني مسجده الأعظم، ثم أبرزنا الصورة العملية للمؤاخاة التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ ـ ثانياً ـ بين جماعات المجتمع المسلم، بعد أن استحكم وجوده، وتزايد عدده، وبدأ تألّب أعدائه من أخلاط المجتمع المدني المتنافر في وسائل حياته وأهدافه، والمؤلف من بقايا نفايات الشرك وشراذم اليهود الذين يعيشون على الحقد لهذا المجتمع المسلم والمكر الغادر برسول الله ﷺ، وسجّل ﷺ ذلك في كتابه الذي أمر بكتابته ليكون دستوراً تكليفياً ملزماً، وأنزل فيه اليهود من عرش غرورهم الفاجر إلى مواطىء التبعية لطوائف وجماعات المجتمع المسلم من الأنصار، وبيّنا ما كان لهذه المؤاخاة التكافلية من آثار ضخمة في توطيد أقدام المجتمع المسلم على أرضه، التي أصبحت قلعة كتائبه ومستقر دعوته لإعلاء كلمة الله تعالى.

كما أبرزنا ذلك كان علينا أن نبرز الصورة التطبيقية العملية للجهاد في سبيل الله باعتباره دعامة من أعظم دعائم بناء المجتمع المسلم الذي جُعلت المؤاخاة سلاحه الأول الذي يعتمد عليه في جهاده لرد اعتداءات المعتدين، وإزاحة العقبات من طريق مسيرته وهو يدعو إلى الله، ويبلّغ رسالته، وينشر هديه ونوره الذي أنزله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

وكان علينا أن نبرز وشيجة الجهاد في سبيل الله بالمؤاخاة التكافلية التي قام على أساسها تصحيح تركيب المجتمع المسلم وكانت له قوته التي يرتجف منها أعداؤه المتربصون به، وكان علينا أن نبرز الإطار العام لمنهج رسول الله ﷺ العملي في تطبيق منهج التربية لمجتمعه تربية تجعل منه قوة روحية ومادية، موحدة الهدف والوسائل في مسيرته الداعية إلى الله، ليستطيع بهذه القوة الوقوف أمام أعدائه في الداخل والخارج إذا اعترضوا طريقه في نشر دعوته، وحاولوا عرقلتها في مسيرتها بإقامة العقبات أمامها.

وهذا المنهج التطبيقي الذي بدأ بالمسجد الأعظم، ثم بالمؤاخاة، ثم بالجهاد مدني النشأة في تحركه الإيجابي نحو تصحيح تركيب المجتمع المسلم، ليظهر خصائصه المميزة لحقيقته الاجتماعية التي يجب أن يعيش ويحيا بها بين سائر المجتمعات الإنسانية المكلف توحيدها بالإيمان بالله إلهاً واحداً، يخلص له التعبد في جميع صوره وأشكاله.

المنهج التطبيقي منهج مدني صبّت في قالبه جميع شرائع الرسالة الخاتمة

وذلك هو هدف الرسالة الخاتمة الخالدة الذي لا هدف لها سواه، فإذا تحقق هذا الهدف كانت جميع التشريعات والأحكام التعبدية والعملية الاجتماعية والتربوية السلوكية منصبّة في قوالبه، ونابعة منه وتابعة له، ومستقاة من أصوله.

وقد تمّ في المرحلة المكية وضع أصول الوحدة الإيمانية، وحملها طلائع الإيمان معهم في هجرتهم إلى دار الإيمان والعمل والتشريع، وفي تلك المرحلة المكية شُرع جهاد البيان والحجّة، ونزلت سوره وآياته القرآنية لتثبت به أقدام المؤمنين، وتقوم بأدلته الحجة على المعاندين، ويقطع ببراهينه عذر الحيارى المتربصين.

وهذا النوع من الجهاد البياني هو العمدة في نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أبلِغْه مأمنه﴾[1] وفي ذلك احترام للعقل الإنساني الذي فضّل الله به الإنسان على كثير من خلقه، وفيه تقدير لخطر ذلك العقل، لأنه طريق الوصول للحق إذا أشرقت في آفاقه أنوار الحجة التي لا تعصف بها الشبه.

ولا يجوز تخطي هذا الجهاد في المنهج النبوي إلى الجهاد القتالي إلا إذا تبين أنه لم يفلح في تحقيق الغرض من شرعيته المقابلة بالعناد المستكبر، والعتو المتجبر، من الذين يخافون أن ينزلهم الإيمان من عروش تعاليهم الوثني الذي يتحكمون به في مصاير الحياة، ويستعبدون بسلطان قهره الضعفاء من الناس، ويستذلّون بسطوته الفقراء والمعوزين.

---

(١) سورة التوبة آية: (٦).

وعندئذ يجب على المجتمع المسلم أن يزيح من طريق مسيرته في نشر دعوته كل عقبة تقف أمامها معوِّقة لسيرها بكل ما أوتي من قوة مادية وروحية، ليمضي المجتمع المسلم في طريقه ليحقق هدفه الأعظم، وهو تحرير العقول والأفكار والعزائم من رجس الوثنيات الملحدة، والشرك الغبيّ، والظلم العنيد.

كانت المؤاخاة هي القوة الوحيدة التي يملكها المجتمع المسلم لخوض غمرات الجهاد فانتصر بها

وقد كانت المؤاخاة التكافلية هي القوة الوحيدة التي يملكها المجتمع المسلم، والتي خاض بها غمرات الجهاد فانتصر على أعدائه رغم كثرة أعدادهم الهائلة وقلة عدده بالنسبة إليهم، ورغم تفاوت عُدتهم وعُدته في جميع معاركه معهم، لأن المؤاخاة قوة روحية إرادية لا تهزم، لأن إرادات الأمم وعزائمها لتحقيق أهدافها النبيلة في الحياة قوى روحية لا تنهزم أمام القوى المادية مهما تكالبت عليها، وقد تقف القوى الروحية لتستجم وتستعد للتحفز فيظن من لا خبرة له بإرادات الأمم أن ذلك حَيْد عن المعركة، واسترسال في التسليم والاستسلام.

وقد أراد النبي ﷺ أن يجعل من قوة المؤاخاة التي يملكها المجتمع المسلم عملاً إيجابياً في تحركه نحو هدفه، فكلف المجتمع المتآخي وهو في أوج قوة المؤاخاة وعنفوانها حمل لواء الجهاد الدفاعي لكل من يتصدَّى لمسيرة تبليغ الرسالة ونشر هدايتها، فحمل هذا المجتمع المتآخي اللواء قوياً بإيمانه ووحدته الاجتماعية، فكانت المؤاخاة قوة مادية إلى جانب قوتها الروحية، فوقفت أمام أعدائها وقفة رعبلت جموعهم، وشتَّتت شملهم، وشرّدت بهم مَنْ خلفهم من المتربِّصين.

والذي يعنينا إبرازه في موضوع بحثنا هنا هو إعطاء المجتمع المسلم في حاضره صورة منهجية لما كان عليه هذا المجتمع في ماضيه من اعتماده على قوة المؤاخاة الاجتماعية التكافلية، والمؤاخاة الفردية القائمة على التآخي في الله، ليتبين المجتمع المسلم في حاضره الضعيف أن ما كان له من قوة في ماضيه الأصيل هو الذي يجب أن يكون قوته في حاضره، لينهض على أساسه إلى إعادة تصحيح تركيبه الاجتماعي على أساس الوحدة المتآخية في الله،

المتكافلة في حياته الاجتماعية، مع الأخذ في أسباب إعداد القوة السلاحية بكل ما يستطيع المجتمع المسلم من إعداد بالوسائل المتاحة له، وهي كثيرة تعطيه القدرة على تملك صنوف الأسلحة التي يملكها أعداؤه، وتعطيه القدرة على التدرب على صنعها واستعمالها، لأن المؤاخاة ـ في هذا العصر الوثني الملحد ـ بغير قوة سلاحية قليلة الجدوى، والله تعالى يقول: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[1].

المؤاخاة بغير السلاح الملائم عديمة الجدوى، والسلاح بغير مؤاخاة عديم الفائدة

والسلاح بغير قوة المؤاخاة ووحدة المجتمع المسلم التكافلية عديم الفائدة، لأن الله تعالى يقول: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[2] ويقول جل شأنه: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[3] ومعنى ذلك أن الله تعالى يحب من عباده المؤمنين المتآخين فيه، الذين استوت نياتهم في الثبات، وتوحّدت إراداتهم في الجهاد لإعلاء كلمته أن يكونوا في تآخيهم واجتماع كلمتهم وتماسك وشائجهم كالبنيان المرصوصة لبناته رصاً يجعله وحدة متماسكة، يأخذ بعضها بجوانب بعض حتى كأنه لبنة واحدة.

وإنما سيق هذا المعنى في معرض القتال، لأن القتال مظنّة الرهبة والفرقة، فإذا كانوا في مجاله على هذا الوصف في الوحدة والتماسك كانوا في غيره أشد تماسكاً وأقوى وحدة، وهذا المعنى يجب السير إليه في فهم الآية، لتغير المواقف في الحروب، وتغير وسائلها وميادينها.

فالمجتمع المسلم يواجه اليوم في حياته الحاضرة مجتمعات متنافرة، متخالفة، تحيا حياة فردية، لا يربط الفرد فيها بمجتمعه إلا مجردُ نسبته إليه

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٠).

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣).

(٣) سورة الصف آية (٤).

نسبة جغرافية أو سياسية، ولا يربط المجتمع فيها بأفراده إلا سجلات المواليد والموتى، فهي مجتمعات يعيش أفرادها عيشة متباعدة، كل فرد فيها يعيش لنفسه ليحقق لها رغائبها، ويدفع عنها ما يضرها، ويجبب إليها ما ينفعها، ولا يبالي إن كان ما ينفع نفسه يضر غيره من مجتمعه، أو ينفعه، فهو يعيش لذاته ومنافعه.

وهذه المجتمعات في تنافرها أهدافاً وتخالفها رغائب تقف من المجتمع المسلم مواقف مختلفة، تمليها عليها مصالحها الذاتية ممثلة في مصلحة الأفراد الشخصية أو التكتّليّة الطائفية الموحدة ظاهراً في الاتجاه إلى هدف مصلحي ذاتي شخصي، يجعل من كل طائفة فرداً في صورة جماعة أو جماعة في رغبة فرد.

بيد أن المنهج الاجتماعي للمجتمع المسلم يجعل منه مجتمعاً تذوب فيه رغائب الأفراد الذاتية إذا تعارضت مع مصلحة المجتمع، ولكن شخصية الفرد فيه لا تذوب في غمار المجتمع، فالفرد في المجتمع المسلم مرتبط بمجتمعه أقوى ارتباط، يرتفع به إلى ذروة المؤاخاة التي يحب فيها الفرد لغيره ما يحب لنفسه، فلا يستجلب لنفسه نفعاً على حساب ضرر غيره، ولا يدرأ عن نفسه ضرراً إلا إذا استوثق أنه لا يمنع نفعاً لغيره.

منهج المجتمع المسلم يذيب رغائب الأفراد ولكنه لا يذيب شخصية الأفراد

فالمنهج الاجتماعي للمجتمع المسلم الذي وضعه رسول الله ﷺ ليكون نبراساً له في مسيرته، يجعل الفرد في هذا المجتمع يعيش في موازنة اختيارية إراديّة بين نفعه ونفع غيره، وضرره وضرر غيره، وهذا بالنظر للفرد باعتباره كياناً مستقلاً بشخصيته في المجتمع لا يذوب في غمرات المجتمع، أما من الناحية الجماعية فالفرد بالنسبة للمجتمع يجب أن يضحى بمصلحته الذاتية في سبيل تحقيق مصلحة المجتمع، وفقهاء الإسلام يقرّرون: إذا تترّس العدو بمسلم أو جماعة مسلمة لا يمكن التغلب عليه إلا بقتلها جاز قتلها للتوصل إلى كبح جماح العدو، وعدم تسليطه على بيضة المسلمين، وقد يجب قتل الترس المسلم إذا كان الضرر الذي يترتب على عدم قتله أفحش من الضرر الذي يترتب على قتله.

والمنهج الاجتماعي للمجتمع المسلم يقرر أن مصلحة المجتمع بمقتضى منهجه الإيماني في المؤاخاة التكافلية هي مصلحة كل فرد فيه، فإذا ضحّى الفرد برغبته الفردية ومصلحته الشخصية لأجل مصلحة المجتمع فهو في الواقع إنما يضحِّي لأجل مصلحته باعتباره عنصراً من عناصر تركيب المجتمع المسلم، والفرد في هذا المجتمع المسلم إنما يفعل ذلك وهو مستكمل الشعور الإرادي والمعرفة المدركة بأنه يضحّي برغبته الذاتية ليحقق مصلحة لمجتمعه، يلحقه أثرها كما يلحق أي فرد من أفراد المجتمع، واستكمالُ الشعور الإرادي والمعرفة المدركة ينفي المخادعة ويزيل الشكوك، ويدفع إلى العمل الإيجابي الجاد في تحقيق مصلحة المجتمع التي هي مصلحة كل فرد فيه.

فالمؤاخاة التكافلية باعتبارها أقوى الدعائم التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم في ماضيه وحاضره ومستقبله هي الأساس في هذا المنهج الاجتماعي الذي يجب أن يعود إليه المجتمع المسلم في حياته كلها، وهي الأساس في قدرة المجتمع المسلم على مواقفة المجتمعات المعادية له التي تقف منه مواقف الحقد والبغي، حتى يستطيع أن يثبِّت أقدامه في مسيرته الداعية إلى توحيد الله وإخلاص العبودية له وحده، والتخلص من صور وأشكال الوثنية المادية الملحدة، ويقف في مواجهة هذه المجتمعات الملحدة المادية وهي في عنفوان قوتها المادية المدمِّرة الهائلة التي تهدِّد الحياة بالفناء، وتنذرها وخامة العاقبة إن لم تجد من القوى الموازنة لها ما يدفع في صدرها بسلاحها.

المجتمع المسلم لا يزال قوياً قديراً على دفع القوى الشريرة المخربة إذا أراد قادته ذلك

والمجتمع المسلم بما وضع الله في يده من وسائل القوة المادية والروحية هو الذي يستطيع ـ إذا أراد قادته وهم مسؤولون بين يدي الله، مسؤولون أمام التاريخ ـ أن يدفع في صدر هذه القوى الشريرة المدمّرة، التي اتخذت من العلم سلاحاً تخريبياً، إذا استطاع بوسائله وإمكاناته المتاحة في هذا العصر أن ينهض إلى إعداد ما يستطيع من قوة مرهبة بجميع أنواعها وألوانها الإيجابية والسلبية في أرضه وسمائه، وبره وبحره وجوه، وإذا استطاع أن يعيد تركيبه الاجتماعي ليصحِّح ويثبت وجوده بالتقارب المتآخي الموحِّد بين أممه وشعوبه، وبالمؤاخاة المتكافلة التي تجعل من شتات قوى المجتمع المسلم

البشرية قوة موحَّدة تمثل روح هذا المجتمع يوم أن كانت المؤاخاة التمازجية هي التي تحكم اعتصامه بمنهجه الاجتماعي، وتقوده إلى منازل النصر المؤزر، وتضفي عليه هالة من إشراق هدايته وهو يمشي في مسيرته هادياً وداعياً إلى الله ومبلِّغاً رسالته إلى العالمين.

غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه
تحقيق الروايات في ذلك

الحديث هنا عن بعض الغزوات يقصد إلى إبراز قوة المؤاخاة في منهج تربية المجتمع المسلم

على هذا الأساس الذي تقدم نستعرض من غزوات النبي ﷺ ما يمثل المنهج التطبيقي في توجيه المجتمع المسلم في حياته النضاليّة بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، باعتبار الجهاد دعامة من أجلّ وأعظم وأقوى دعائم بناء المجتمع المسلم، وهذه الدعامة تعتمد على وحدة المؤاخاة التكافلية بين أفراد وجماعات هذا المجتمع، دون أن نقصد إلى استيعاب جميع الغزوات، لأن روايات هذه الغزوات في كتب المغازي والسير كافية في إعطاء صورة واضحة عن أسبابها، وما وقع فيها من أحداث، وما انتهت إليه.

ولكنا نقصد هنا إلى تصوير المنهج النبوي التربوي العملي في سلوك المجتمع تصويراً يبرز قوة وحدة المؤاخاة في مسيرة الدعوة إلى الله دفاعاً عن الحق الإلهي الذي كان وما يزال هو هدف الدعوة الذي لا هدف لها سواه.

وأهل السير والمغازي يطلقون على كل جيش قاده رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة، وخرج به داعياً إلى الله، مبلِّغاً رسالاته، مثبتاً قوائم التوحيد، مقوِّضاً للشرك والوثنية غزوة، سواء وقع قتال أم لم يقع، ويطلقون على ما أرسل ﷺ على قيادته بعض أصحابه بعثاً أو سرية.

وهذا اصطلاح أغلبي، لأن بعض الغزوات، وأعظمها وأهمها كبدر الكبرى، وأحد والخندق لم يخرج فيها رسول الله ﷺ إلى الكفار في بلادهم ابتداء وإنما كان الكفار هم القادمين بجيوشهم إلى بلد رسول الله ﷺ لمحاربته، ولأن بعض الغزوات كان داخلياً في المدينة وأطرافها، كغزوات

اليهود: بني قينقاع، والنضير، وقريظة.

وقد اختلف العلماء من المحدِّثين وأهل السِّير ممّن يُعْنون بهذا الشأن في عدد مغازيه ﷺ وبعوثه وسراياه اختلافاً عريض الأطراف، متباعد الملتقى، ممّا حمل بعض أهل العلم على محاولة التوفيق بين هذه الروايات المختلفة، فقارب وأبعد مع التعسف في التأويل.

عرض وتحقيق لروايات عدد الغزوات والبعوث والسرايا

والذي استفاض عند أئمة هذا الشأن من مغازيه ﷺ واجتمعت عليه كلمة أشهر من ألّف وجمع في المغازي والسِّير سبع وعشرون غزاة، كما ذكره موسى بن عُقْبة، وابن إسحق، والواقدي، وابن سعد، وغيرهم من المتقدِّمين، وخالف ابن إسحق الجماعة ـ وكان معهم ـ في أحد قوليه، فقال في رواية البكّائي: إنها كانت ستاً وعشرين، وجنح إلى هذا القول جازماً به أبو عمر بن عبد البرِّ في كلامه عن شيء من حياة رسول الله ﷺ في صدر كتابه الاستيعاب وقال: وهذا أكثر ما قيل في ذلك.

وقد حاول السهيلي في (الروض) التوفيق بين قولي ابن إسحق، قوله مع الجماعة، وقوله منفرداً عنهم، فقال: وإنما جاء الاختلاف لأن غزوة خيبر اتصلت بغزوة وادي القرى، فجعلهما ابن إسحق في قوله الذي انفرد به عن الجماعة غزوة واحدة.

وقيل: إنها خمس وعشرون غزاة، وفي قول سعيد بن المسيب الذي رواه عنه عبد الرزاق بسند صحيح أنها أربع وعشرون غزاة، وعند أبي يعلى بإسناد صحيح ـ أيضاً ـ أنها إحدى وعشرون غزاة، وهو مروي عن جابر، وروى الشيخان البخاري ومسلم، وأخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم أنها تسع عشرة غزاة، قال أبو عمر بن عبد البر، وأحمد في المسند عن وكيع عن أبيه وإسرائيل عن أبي إسحاق قال: سألت زيد بن أرقم: كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزاة، وغزوت معه سبع عشرة غزوة، وسبقني بغزوتين.

وهذا كما يرى اختلاف متباعد، وقد حاول الزرقاني تبعاً للسهيلي

التوفيق بين هذه الروايات، فقال: ويمكن الجمع على نحو ما قال السهيلي، بأن من عدّها دون سبع وعشرين نظر إلى شدة قرب بعض الغزوات من غيره، فجمع بين غزوتين وعدَّهما واحدة، فضمّ للأبواء ـ وهي ودَّان ـ بواطاً لقربهما جداً، إذ الأبواء كانت في صفر، وبواطاً كانت في ربيع الأول، وضم حمراء الأسد لأحد لكونها صبيحتها، وقريظة للخندق، لكونها ناشئة عنها، وتلتها، ووادي القرى لخيبر لوقوعها في رجوعه ﷺ من خيبر، قبل دخوله المدينة، والطائف لحنين، لانصرافه منها إليها، فبهذا تصير اثنتين وعشرين.

قال الزرقاني: وإلى هذا أشار الحافظ ابن حجر، فقال بعد نقل كلام السهيلي: وقول جابر: إحدى وعشرين فلعل الستة الزائدة من هذا القبيل، وأما من قال: تسع عشرة، فلعله أسقط الأبواء وبواطاً، وكأن ذلك خفي عليه لصغره ـ يعني الحافظ بذلك زيد بن أرقم، وحديثه في الصحيحين، إلا يحتمل هذا التشكيك، لأنه سئل: كم غزا رسول الله ﷺ، فأجاب جازماً أنه ﷺ غزا تسع عشرة غزاة، غزوت معه سبع عشرة وسبقني بغزاتين، فلو كان زيد بن أرقم رضي الله عنه خفي عليه شيء من غزواته ﷺ لصغره لكان جوابه للسائل غير متلاق مع السؤال، ولكان الجواب السديد أن يقول: أدركت من غزواته تسع عشرة غزوة، سبقني باثنتين وشهدت معه سبع عشرة غزاة ـ ثم قال ابن حجر: ويؤيد ما قلته ما وقع عند مسلم بلفظ «قلت: ما أول غزوة غزاها؟ قال: ذات العشير أو العشيرة». والعشير هي الثالثة.

وليس فيما ذكر تأييد لما قاله، لأن السؤال هناك كان عن العدد، وهو هنا عن الأولية، فأجاب هنا بما علم دون أن يكون قد خفي عليه شيء، وأجاب هناك عن الأولية باعتبار الأهمية، لأن العشيرة كانت أهم ممّا سبقها من الأبواء وبواط، وهذا ما لا ينبغي الاختلاف فيه.

تحقيق القول في عدد الغزوات التي قاتل فيها ﷺ

قال القسطلاني في (المواهب) تبعاً لابن سعد في الطبقات: وقاتل ﷺ في تسع منها بنفسه ـ وهذا اللفظ: أي قوله (بنفسه) لم يذكره ابن سعد ـ وأنكر ذلك ابن تيمية، فقال لا يُعلم أنه ﷺ قاتل في غزاة إلا في أحد، ولم

يَقْتل أحداً إلا أبيّ بن خَلَف فيها، فلا يفهم من قولهم: قاتل في كذا، أنه بنفسه كما فهمه بعض الطلبة ممن لا اطلاع لهم على أحواله عليه السلام.

واعترض الزرقاني على قول القسطلاني (بنفسه) في قوله: قاتل في تسع منها بنفسه فقال: ففي قوله (بنفسه) شيء، وفي هذا الاعتراض تأييد لإنكار ابن تيمية إنه ﷺ قاتل في تسع من غزواته بنفسه، وأنه ﷺ لم يقاتل بنفسه في غير غزوة أحد التي قتل فيها أبي بن خلف، وأجاب الزرقاني عن اعتراضه فقال: وأجيب بأن المراد قتال أصحابه بحضوره، فنسب إليه لكونه سبباً في قتالهم، ولم يقع في باقي الغزوات قتال منه ولا منهم، ومعنى هذا الجواب أن غزواته ﷺ بعضها وقع فيها قتال بإذنه وأمره، فقاتل فيها أصحابه أعداءهم، وباشر ﷺ بنفسه الكريمة القتال في واحدة منها هي غزوة أحد التي قتل فيها أبيّ بن خلف، وبعضها لم يقع فيها قتال قط، لا منه ﷺ ولا من أصحابه، وليس مقصود من قال إنه قاتل أنه باشر القتال بنفسه، ويدل لهذا عبارة ابن سعد في الطبقات إذ لم يذكر فيها لفظ (بنفسه) فالاعتراض وارد على صاحب المواهب، ويدفعه جواب الزرقاني بالحمل على ما قلنا.

وقد ذكر الزرقاني اعتراضاً على كلام ابن تيمية، نسبه لصاحب النور فقال: قال في النور: قد يردّ على ابن تيمية حديث: «كنا إذا لقينا كتيبة أو جيشاً أول من يضرب النبي ﷺ» قال صاحب النور: ويمكن تأويل هذا الحديث، فيسلم كلام ابن تيمية من الاعتراض، ولعل مراده حمل الحديث على أنه ﷺ أول من يأمر ببدء القتال، لأنه القائد الأعظم، وهذا كما وقع في غزوة بدر وغيرها من أمره أصحابه ألّا يقاتلوا حتى يأذن لهم.

ثم ذكر القسطلاني تبعاً لابن سعد الغزوات التسع التي قال إن النبي ﷺ قاتل فيها بنفسه، بأسمائها التي ذكرها أهل المغازي والسِّير فقال يعددها: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف. قال ابن سعد بعد ذكرها: فهذا ما اجتمع لنا عليه، وقد وصف بدراً بأنها بدر القتال، احترازاً من بدر الأولى، وهي غزوة سَفْوان التي خرج فيها النبي ﷺ بعد العسيرة بنحو عشر ليال، يطلب كُرْزَ بن جابر

الفِهْري الذي أغار على سَرْح المدينة فاستاقه وهرب به، ولكن النبي ﷺ لم يدركه.

وحكى الزرقاني عن الحافظ في الفتح قوله: وقال ابن عقبة: قاتل في ثمان، وأهمل عدّ قريظة، لأنه ضمها للخندق، لكونها إثرها، وأفردها غيره لوقوعها مفردة بعد هزيمة الأحزاب، وهي الخندق، وكذا وقع لغيره عد الطائف وحنين واحدة، لكونها في أثرها، قال الزرقاني: هكذا في الفتح، وكأن هذا كالتبري من عهدة تحمُّل هذا التعسف في التأويل.

خطأ من أهدر بعض الغزوات بإضافتها إلى ما دونها أحداثاً وأثراً

وإهدار بعض غزواته ﷺ، ولا سيما كبرياتهن المهمّات بأحداثها وأسباب وقوعها، وما كان فيها من تشريع وأحكام في العبادات وغيرها مثل غزوة قريظة التي ضُمّت إلى الخندق، وقريظة وقع فيها من الحوادث ما لم يقع في غيرها، قال ابن القيم في (الهدى): وأما قريظة فكانت أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظها كفراً، ولذلك جرى عليهم ما لم يجرِ على غيرهم.

حاصرهم النبي ﷺ خمساً وعشرين ليلة، وكان لها سبب خاص لم يكن لغيرها، لأنهم خانوا الله ورسوله ونقضوا عهد صلحهم معه ﷺ إذ جاءهم اللعين حيي بن أخطب في ديارهم، فقال لسيِّدهم كعب بن أسد، وكان كعب هذا صاحب عهدهم الناطق بكلمتهم: قد جئتكم بعزِّ الدهر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهلّم حتى نناجز محمداً ونفرغ منه، فقال سيِّد قريظة وصاحب عقدها كعب ابن أسد: لقد جئتني بذلّ الدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، فلم يزل حيي بن أخطب يفتل له في الذروة والغارب يخادعه، ويعده ويمنّيه حتى أجابه بشرط أن يدخل معه حصنه، يصيبه ما أصابهم، ففعل حيي ذلك ودخل معه في حصنه، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ وأظهروا سبَّه، فبلغ رسول الله ﷺ خبرهم فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر ﷺ وقال: «ابشروا يا معاشر المسلمين».

فلما انصرف ﷺ إلى المدينة من الخندق: فلم يكن إلا أن وضع

سلاحه فجاءه جبريل فقال وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر معك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل بموكبه من الملائكة ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بأن تقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» فحفر لهم خنادق في سوق المدينة وضرب أعناقهم، وكانوا ما بين الستمائة والسبعمائة، وقتل معهم الفاجر اللعين حيي ابن أخطب وهو نَضْري دخل معهم ليحرِّضهم على قتال رسول الله ﷺ.

فكيف تهمل هذه الغزاة في عدّ غزوات رسول الله ﷺ وتضاف إلى غيرها مما لم يجر فيه من الأحداث العظام مثل ما جرى فيها، ولو لم يكن لها إلا ما وقع من الصحابة فيها من اجتهاد في صلاة العصر لقول النبي ﷺ: «لا يصلينّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة» فصلاها بعضهم لأول وقتها وهم في الطريق إلى بني قريظة، وتأوّلوا كلام النبي ﷺ على طلب السرعة والإهتمام بالخروج، وأخرها بعضهم حتى وصلوا إلى بني قريظة فصلّوها بعد عشاء الآخرة، أخذاً بظاهر الحديث، ولم يعنّف النبي ﷺ أياً من الطائفتين ـ لكفاها فضلاً في إفرادها وعدِّها غزوة مستقلة.

كيف وفيها قضى رسول الله ﷺ على أخبث طوائف اليهود حقداً وحسداً وأفجرهم كفراً وبغياً، وبحسبها أن قتل فيها أبو جهلهم الموازن لأبي جهل قريش، حيي بن أخطب فرعون يهود.

فغزوة بني قريظة كانت عزاً للمسلمين ونصراً لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، ووقع فيها من عظام الأحداث ما لم يقع مثله ولا قريب منه في الخندق على جلالة قدرها وخطرها، وهي التي أضيفت لها وجعلت تابعة لها.

وغزوة الخندق كانت غزوة إعجاز، تنزّل النصر فيها من السماء بعد أن زلزل فيها المسلمون زلزالاً شديداً، وكانت قريظة غزوة كفاح وجلاد وجهاد بالحصار الشديد الذي أرغم اليهود على النزول على حكم المسلمين، وبوىء

فيها الإيمان مكاناً علياً وقضى فيها على عصبة الحقد والغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق.

ومثل ذلك يقال في كبريات الغزوات التي قيل إن بعضها ضُمّ إلى بعض كحُنين والطائف وهما من أعظم وأخطر الغزوات، ولكل غزوة منهما سبب يخالف سبب الأخرى، ووقع في كل غزوة منهما من الأحداث والوقائع الكبرى ما لم يقع في الأخرى.

فإهدار حوادث التاريخ، ولا سيما في مشرق الإسلام على عهد النبي ﷺ لا يجوز قط، ولا ينبغي لباحث أن يقصده من أجل اختصار الأحداث والوقائع.

الاختلاف في السرايا والبعوث كالاختلاف في الغزوات

وكما وقع الاختلاف المتباعد في الغزوات وعددها وتسمية ما وقع فيها القتال منها وقع هذا الاختلاف في البعوث والسرايا، فابن عبد البر يذكر في ديباجة الاستيعاب أنها خمس وثلاثون بَعْثاً وسرية، وابن إسحق يذكر من رواية البكّائي أنها كانت ثمانياً وثلاثين، وابن حجر يذكر عن ابن إسحق أنها كانت ستاً وثلاثين.

وعند الواقدي أنها كانت ثمانياً وأربعين، وذهب ابن الجوزي أنها كانت ستاً وخمسين، ورفعها المسعودي إلى ستين بعثاً وسرية، وزاد عليه محمد ابن نصر المروزي فجعلها سبعين، وبالغ الحاكم في الاكليل فرفعها إلى أكثر من مائة بعث وسرية، قال العراقي: ولم أره لغيره، ووقف مغلطاي بمجموع الغزوات والبعوث والسرايا عند المائة، فقال: إن مجموع الغزوات والسرايا مائة، وزعم ابن حجر أن هذا مراد الحاكم فيما ذهب إليه في الإكليل وذلك بضم المغازي إلى البعوث والسرايا، قال الزرقاني: وهو كما قال.

وهذا اختلاف غريب متباعد، وهو أشبه بالاختلاف في عدد الأيام التي أقامها رسول الله ﷺ بقباء مقدمه المدينة، وأشبه بالاختلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة، وأشبه بالاختلاف في قدر سني عمره المبارك، وسنه التي توفي بعد أن بلغها، إلى كثير من نحو ذلك، مما يوجب على أهل

العلم من الباحثين في مطالع التاريخ الإسلامي أن يحاولوا وضع منهج للبحث يحقق القضايا التي اختلفت فيها الروايات لتوضع كل قضية في موضعها الصحيح من مسيرة هذا التاريخ.

* * *

منهج تربية المجتمع المسلم جعل من الجهاد قوة تنشر الحق الإلهي وتحميه وتدافع عنه

وقد استفاض متواتراً أن منهج تربية المجتمع المسلم الذي وضعه رسول الله ﷺ ـ على أساس المؤاخاة الفردية ـ أولاً ـ حين كان المجتمع المسلم قليل العدد محصور الرقعة، تلك المؤاخاة التي قامت على أساس التآخي في الله، أخوين، أخوين، في ظل ظليل من وارف الحب الإيماني، ووحدة الترافق والتواسي بين أفراد المجتمع المسلم التي صيّرها الحب في الله إيثاراً، ثم على أساس المؤاخاة الجماعية ثانياً ـ بعد أن كثر عدد المجتمع المسلم، وانحسر عنه حصار الرقعة، هذه المؤاخاة التي قامت على التكافل الاجتماعي لتكون دستوراً يضبط علاقات المجتمع المسلم الاجتماعية ويوجهه في طريق تحركاته الإيجابية لنشر الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمته وتبليغ رسالاته ـ اتخذ من الجهاد في سبيل الله دعامة يستند عليها بناء المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الذي يمضي به في مستقبل حياته قوياً متماسكاً، وطيد الحركة ثابت القدم راسخ اليقين، لا ترعبه القوى المادية الوثنية، مهما تعاظمت وسائلها المدمِّرة، ولا تفزعه تألبات تلك القوى في عتوها وفجور كفرها وخبيث إلحادها، لأن منهج هذا المجتمع المسلم الذي وضعه له رسول الله ﷺ وربّاه عليه جعله يرى الموت استشهاداً في سبيل إقامة منائر الحق الإلهي عن طريق السالكين في بيداء الحياة أثقل ميزاناً من الحياة على أهبة الجهاد لتحقيق أهدافه التي جعلته العناية الإلهية أميناً عليها، يعيش لها، مؤمناً بها إيماناً فدائياً يريه موعود الله كأنه بين يديه حقيقة ماثلة، لا يحول بينه وبينها إلا أن يغمس يده في العدو حاسراً فيقتل صابراً محتسباً فإذا هي معه بين يديه، وإذا هو بين أحضانها يتقلَّب في لذائذها وأنعمها.

سمع عُمير بن الحِمام رسول الله ﷺ يقول، وقد التحم الجمعان في بدر: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً

مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخٍ بخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل القوم حتى قتل.

ويسأل عوف بن الحارث رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله مّما يضحك الرب من عبده؟ فيقول له رسول الله ﷺ: «غمسه يده في القوم حاسراً» فنزع عوف بن الحارث درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وهذا، وذاك، وغيرهما من الرجال والأحداث صورة مشرقة بنور الإيمان الذي يغمر القلوب والعقول والأرواح، ويملك الشعور والإحساس، ويجعل من صاحبه في تصرفه قوة علوية، تذيب كل أثر مادي مظلم في حياة المجتمع المسلم.

الجهاد في منهج التربية النبوية وسيلة لا غاية

فالجهاد في منهج النبي ﷺ الذي ربى عليه مجتمعه المسلم وسيلة لا غاية، وطريق إلى هدف إذا وصل إليه المجتمع المسلم وقف عنده يحميه ويذود عنه، لا يجاوزه ولا يتعدّاه، لأن الجهاد في هذا المنهج النبوي بأنواعه الحجاجية والقتالية إنما يستهدف هداية أبناء الإنسانية أينما كانوا أو كيفما كانوا، على كلمة سواء، هي كلمة التوحيد التي تجعل من المجتمع المسلم كله على اختلاف أوطانه وأجناسه وألوانه ولغاته، ومؤثراته، وتأثراته البيئيّة وحدة إيمانية متساوية الحقوق والواجبات.

ومن هنا كان على هذا المجتمع المسلم ألّا ينفر إلى جهاد القتال إلا بعد أن يستنفد كل ما يملك من طاقات في قوة البيان والحجاج العقلي، والرغائب الوجدانية والدوافع العاطفية التي تجتذب النفوس إلى الانضواء تحت لواء المؤاخاة التكافلية، وهي أساس بناء المجتمع المسلم، وهي الوسيلة العظمى في المنهج النبوي لتجميع الإنسانية في وحدة إيمانية متحررة من العبودية المادية المفرقة لوحدة الإنسانية في نشأتها.

وإلّا بعد أن يستنفد أعظم ما يملك من طاقات روحية يصب في قالبها

منهج دعوته وهدايته، لتكون صورة لنقاء فطرته وصفاء مقاصده، وإخلاص مؤاخاته، ليستطيع أن ينهض بعبء القيادة الإنسانية إلى آفاق متجددة من صور الحضارة الفكرية والاجتماعية، ليقاوم عرامة الإلحاد المادي الذي جعل من الإنسانية أشلاء من الأشباح الجامدة، وأشتاتاً متنافرة الوسائل والأهداف والمقاصد في الحياة، لا تعيش إلا لشهواتها الدنيا.

والمجتمع المسلم نشأ مجتمعاً متكافلاً في ظل وحدة المؤاخاة الفردية والجماعية، وهو بمقتضى هذه الوحدة، وبما آتاه الله في منهجه التربوي السلوكي من خصائص القيادة الإنسانية يجعله خير أمة أخرجت للناس، وكُلِّف أن ينهض بالدعوة إلى نشر الحقِّ الإلٓهي إيجاباً وسلباً، إيجاباً بإقامة معالم التوحيد، وإخلاص العبودية لله وحده، والتحرر المطلق من عبودية المخلوقين في شتى صورها واختلاف أشكالها ومصادرها ومواردها الوثنية الملحدة، وسلباً بالنهوض المشمِّر عن قوة الإيمان إلى تقويض دعائم الشرك العتيّ والوثنية البليدة المتحجرة اللذين استعبد بهما الطغاة الناس من أجل لقمة العيش، وهي في منهج المجتمع المسلم حق كريم لكل حي على ظهر هذه الأرض، لكن الإلحاد المادي والوثنية الفكرية الحديثة لا تعطي هذا الحق الكريم لأحد من المستضعفين في الحياة إلّا في أطباق سوداء من الذلّة والمهانة وتمريغ الإنسانية في حمأة الوحل المذل، ونزيز الهوان.

تحرير الإنسانية من عبودية الوثنية المادية هو الطريق لإعلاء كلمة الله

فتحرير الإنسانية من ربقة هذه العبودية المادية العاتية، وهي أحط صور الوثنية الحديثة هو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمة الحق الإلٓهي الذي من أجله شرع منهج المجتمع المسلم الجهاد، ليصدّ المعوِّقين لمسيرة الدعوة وتبليغ الرسالة، فلا بد إذاً من تعبيد هذا الطريق وتطهيره من أوضار الوثنية المادية الجديدة الملحدة، ليصل المجتمع المسلم إلى هدفه في إقامة معالم الحق الإلٓهي، تحريراً للعقول من الاستعباد الفكري الذي خدع المجتمع المسلم ولا يزال يخدعه حتى أخرجه عن حصائن منهجه، وإقراراً للعدل في حياة الناس، ليشعروا أنهم جميعاً عباد الله الذي خلقهم وهو الذي يرزقهم وليسوا عبيداً لسدنة الوثنية الطاغية المادية.

صورة الجهاد لإعلاء كلمة الله كما رسمها المنهج النبوي

وقد رسم المنهج النبوي في إطار الدعوة إلى الله ونشر الحق الإلٓهي الخطوط العريضة التي تتألف منها صورة الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق التي تنبع منها روافد الفضائل الإنسانية، لتسقي بنميرها أراضي القلوب المؤمنة، وتجذب إلى منازلها الأفئدة المستعدة بفطرتها لتقبل الهداية، وهي تنهمر كالغيث المتنزِّل من سماء الإيمان بالله إلهاً واحداً، موصوفاً بكل كمال يليق بجلال ألوهيته.

وهذا المنهج قد جعل من الجهاد وسيلة لبيان الحق الإلهي بياناً لا يدع شبهة في نفس من يريد الإيمان، وبيان أن إرساء قواعد الحق الإلٓهي مصدر كل خير في هذه الحياة، وبيان أن الشرك بالله والوثنيات قديمها وحديثها مصدر كل شر وفساد في الأرض، وأن الدعوة إلى الحق الإلٓهي واجبة على كل فرد أو جماعة في المجتمع المسلم أينما كانت أممه وشعوبه في أوطانها من أرض الله.

وإنما جعل منهج المجتمع المسلم الجهاد وسيلة إلى بيان الحق الإلٓهي وإقراره في القلوب والعقول، لأن الوثنيين الماديِّين أعداء كل خير وهدى، لا يتركون الحق الإلٓهي الذي هو هدف منهج المجتمع المسلم يمشي على أرض مطمئناً يعرض نفسه على الناس وهم آمنون مطمئنون، لأن هؤلاء الوثنيين الماديِّين يعلمون أن هذا الحق الإلٓهي هو فطرة الله التي فطر عباده عليها، ولكن صدأ الجهالة وفجور الوثنية غطّى على أبصارهم وبصائرهم فضلُّوا طريقه، فإذا ذُكّروا به ورأوه في حقيقته الوضيئة المشرقة لم يملكوا أنفسهم أن ينشعبوا إلى اعتناقه، وفي ذلك طامّة الطامّات وداهية الدواهي على حياة الوثنيين الماديين، لأن ذلك يزلزل سلطان وثنيتهم وتحكمهم في مصاير المستضعفين في الأرض، ويقوِّض بنيان سيطرتهم على العقول المخدوعة والقلوب الفارغة بما في أيديهم من سراب مضلِّل، ولن يستسلموا أو يسلموا بمجرد عرض الحق الإلٓهي في صورته المشرقة، ولن تقنعهم بيِّناته وحججه وبراهينه، لأنهم معاندون مكابرون، ولكنهم يسهبون بكل ما لديهم من قوة ماديّة مدمّرة مدافعين عن حياتهم الوثنية الفاجرة، لا يبالون أن يسفكوا في

سبيلها الدماء، ويخرِّبوا الديار، ويدمِّروا الحياة.

وجوب إعداد القوة المرهبة لأعداء الله وأعداء المجتمع المسلم

فكان لابد للمجتمع المسلم وهو حامل راية الدعوة إلى الحق الإلهي وتبليغ رسالته من إعداد نفسه بالقوة الزاجرة المرهبة لعدو الله وعدوهم، ليصدّ بها قوى الشرك والوثنية والطغيان والظلم، ليفتح الطريق أمام دعوته إلى الله تعالى لإعلاء كلمته في الآفاق، وفي ذلك يقول دستور المجتمع المسلم القرآن الكريم: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[1].

ومن ثَمّ يتبين أن الجهاد في منهج المجتمع المسلم وسيلة لدفع ما يعترض طريق الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته ونشر العدل، ومقاومة الظلم والفساد في الأرض، ولم يكن قط هجوماً لإكراه الناس على اعتناق الحق الإلهي، وقبول دعوته.

وللمجتمع المسلم تاريخ مع الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، هذه الدعوة التي جمعت أشتاتاً من الأمم والشعوب كانت متخالفة لا تجمعها عقيدة، فوحّدت بينها بعقيدة التوحيد والإيمان، وربطتها بوشائج المؤاخاة، فكانوا جميعاً وحدة لها مقوماتها الذاتية، وخصائصها الفكرية، وفضائلها الروحية، ونظمها الاجتماعية، وأوضاعها السياسية وخططها الاقتصادية، وقيمها الأخلاقية، وعواملها التقدّمية، واتجاهاتها العقلية، ونماذجها الحضارية، ووسائلها الخاصة لتحقيق أهدافها ومقاصدها في الحياة، وبهذه الوحدة الشاملة كانت هذه الأمم والشعوب هي المجتمع المسلم في صورته الشاملة الغامرة، ولكنها أصبحت اليوم وحدة جغرافية لا تحمل من خصائص وحدة المؤاخاة التكافلية إلا لوناً باهتاً لا يصف إلاّ انتماءها لشيء قد كان.

فإذا استطاعت هذه الأمم والشعوب المسلمة المتناثرة في أوطان الإسلام أن تستعيد بالمؤاخاة وإعداد القوة المرهبة تركيب مجتمعها المسلم على أسس المؤاخاة التكافلية، وأن تستعيد لهذا المجتمع خصائصه التي كانت له في ماضيه

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٠).

القوي الموحد في ظل العقيدة التوحيدية ـ كانت جديرة أن تستعيد زمام القيادة الإنسانية لتمضي بها في الحياة الحرة الكريمة.

المجتمع النبوي جعل من الجهاد قوة دفاعية لحماية الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة

وقد كانت الدعوة إلى الله تعالى لتكون كلمته هي العليا دستور هذا المجتمع المسلم الذي يفيء إلى ظله كل من يحيا في دائرة وجود هذا المجتمع، ذلك الوجود الذي يفرض سلطانه على الحياة بروح العدل والإخاء.

وكان هذا المجتمع المسلم هو الناطق بكلمة الله، المهيمن على قيم الحياة، المقيم لموازين العدل والمساواة بين كافة البشر.

ولم يُعَرف في تاريخ منهج الدعوة إلى الله على يد المجتمع المسلم ـ يوم أن كان هذا المنهج هو النبراس الذي يضيء للمجتمع المسلم طريقه في تبليغ رسالته ونشر هدايته ـ أن هذا المجتمع اتخذ من الجهاد في سبيل الله وسيلة قهر جبروتية تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بدعوته، مصدِّقين لرسالته، ولكن هذا المنهج كان يتخذ من الجهاد قوة دفاعية متحركة تهدي إلى الحق والخير، والبر والمحبة، في ظل العقيدة التوحيدية التي هي أساس الدعوة إلى الله، وتدفع بقوتها الروحية والماديّة في صدر كل من يقف في طريقها ظالماً معوّقاً سيرها، وهي ماضية في هدايتها.

وغزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه، وجهاد خلفائه الراشدين، وأئمة الهدى من بعده تحمل بين طياتها الدليل القاطع على ذلك.

المنهج النبوي

للجهاد في الإسلام

الوصية النبوية العظمى ترسم لقادة الجهاد منهج الدعوة إلى الله

روى الأئمة: أحمد بن حنبل، ومسلم بن الحجاج القشيري، والترمذي، وابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمرّ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال لهم: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدُّوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم الذي يجري على المسلمين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسَلْهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم».

وهذه الوصية النبوية الثابتة عن رسول الله ﷺ بأصحِّ الأسانيد تدل بأسلوب ديباجتها على أنها كانت هي منهج الدعوة إلى الله التي التزمها قادة الجهاد في المجتمع المسلم، لأنها رسمت الإطار الذي تتجمع فيه صور الجهاد في سبيل الله، فكانت بذلك بياناً لمنهج الدعوة في نظامها الذي يحقق المقصود من شرعية الجهاد.

الذي جعلته هذه الوصية النبوية مراتب، لا يجوز لقادة الجهاد أن

يتجاوزوا مرتبة منها في وضعها من الوصية النبوية إلى غيرها من المراتب إلا إذا لم تقبل المرتبة التي قبلها، وعجز الإقناع أمام العناد المستكبر عن الوقوف عندها.

تحليل للوصية النبوية يكشف عن درجات الجهاد

وأول تلك المراتب (الدعوة إلى الإسلام) وهي دعوة إلى الحق والهدى، وإلى المؤاخاة المتكافلة التي جعلها منهج المجتمع المسلم أساساً للجهاد في سبيل الله، والإسلام إيمان وأمان، وعدل ورحمة، وإخاء ومحبة، فمن قبله ودان به فهو أخ لكل مسلم، له من الحقوق ما لكل مسلم، وعليه من الواجبات ما على كل مسلم في دائرة طاقته واستعداده الروحي والمادي، ولا تكلّف نفس إلا وسعها.

الجزية على ضآلتها فرصة اجتماعية للموادعة والتأمل

فإن لم يقبل المدعو إلى الإسلام الإسلام ديناً يؤمن به ويصدِّق برسالته جاءت المرتبة الثانية بعد البيان الواضح والحجة النيِّرة، وهي الإلزام بخرجٍ من المال لا يؤود من يلزم به من القادرين عليه، وهو لا يُضرب إلا على القادر عليه، وهذا الخرج سمّاه منهج الدعوة (جزية) ولفظها يحمل ما في طياتها أنها جزاء في مقابل الدفاع عن دافعيها وحمايتهم ممن يدهمهم بالاعتداء عليهم، وهي في التقدير الاجتماعي فرصة موادعة للنظر في حقيقة ما عرض على المدعوين وطولبوا بالاستجابة له من أصول الإسلام وشرائعه وآدابه، وهم على أكمل درجات الحرية الفكرية والاجتماعية.

وتاريخ الدعوة إلى الله حافل بالذين نظروا فوفِّقوا واهتدوا، وسارعوا مستجيبين لدعوة الحق، ودخلوا في ساحة المؤاخاة التكافلية وفي قلوبهم إيمانهم ليكونوا مع سائر المسلمين أخوّة متكافلين، فكانوا من أقوى المؤمنين إيماناً وأزكاهم جهاداً في سبيل الله، وذابت الجزية في موجبات التكافل الأخوي، وكثر الداخلون إلى ساحة الإسلام حتى تخوّف بعض الولاة في خلافة عمر بن عبد العزيز على بيت المال أن تصفِّر أركانه وتخوى جوانبه من المال، فشكوا إلى الخليفة كثرة الداخلين في الإسلام وخواء بيت المال، فقال لهم رضي الله عنه كلمته المعبِّرة عن هدف الإسلام في شرعية الجهاد: **إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً**.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أول الراشدين يتأسى في وصيته قادة جيوشه بالوصية النبوية

وهذه الوصية النبوية التي تصوِّر منهج المجتمع المسلم في الجهاد هي عينها التي أوصى بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه قواده: يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة حين بعث الجنود نحو الشام، مع زيادات قليلة استدعاها تركيب المجتمع في خلافته رضي الله عنه، ومواطن الجهاد وبيئاته.

روى ابن عساكر والبيهقي عن سعيد بن المسيب، ورواها عنه مالك في الموطأ مختصراً أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه لما بعث الجنود نحو الشام أمر يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، فقال لهم: أوصيكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصر دينه، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تجبنوا، ولا تعتدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون.

ثم ذكر مراتب الجهاد كما ذكرتها الوصية النبوية، ثم قال أبو بكر لأمراء جيوشه: ولا تحرقُنَّ نخلاً، ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة ثمر، ولا تهدموا بَيْعة، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ، ولا النساء، وستجدون قوماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له.

وفي هذه الوصية الصدِّيقية المتطابقة مع الوصية النبوية دليل على أن الراشدين اتخذوا من منهج النبي ﷺ في الجهاد منهجاً لهم، وأنهم لم يحيدوا عنه، وما وقع في الوصية الصدِّيقية من بعض زيادات فإنما اقتضاها الموقف وعظم حجم المجتمع المسلم، واختلاف موطن الجهاد باختلاف البيئة، فالنص فيها على قوم حبسوا أنفسهم في الصوامع، ولم يشاركوا في القتال لا بالقول ولا بالفعل، والأمر بتركهم وما حبسوا أنفسهم له إنما أوجبه ما كان في الشام من أوضاع النصرانية وقسِّيسيها ورهبانها، وفيه دليل على أن كل من لم يقاتل، ولم يكن أهلاً للقتال لا يُقاتل ولا يعرض له، فمن كفَّ يده عن القتال وجب على المجتمع المسلم أن يكفَّ يده عن قتاله.

وفي هذه الوصية نهي عن الفساد في الأرض، ونهي عن الجبن، ونهي عن الاعتداء في الأرض إلى جانب ما جاء في الوصية النبوية من النهي عن

الغلول والغدر لأنها من دنايا الأخلاق، وبالجملة فهي صورة لمنهج رسول الله ﷺ في الجهاد، هذا المنهج الذي لم يستهدف من الجهاد في سبيل الله إلا الدعوة إلى الله وهداية الناس.

والوصيتان متفقتان على وضع مراتب الجهاد في مراتبها المفروضة على المجاهدين وأولها الدعوة إلى الإسلام. بالبيان والحجة، فإن لم تفد الحجة البيّنة في قبول الدعوة إلى الله، وغلب على المدعوين من المشركين العناد المستكبر كانت المرتبة الثانية، وهي الجزية في فرصتها الاجتماعية للنظر المتأمل في حقيقة الإسلام وفضائله، وقبح الشرك ورذائله، فإن لم تُغْنِ الجزية بفرصتها، وأبى أعداء الإسلام إلا العتو والفجور كانت التي لا شَوى لها وهي المرتبة الثالثة، هي الحرب المدمرة، والقتال الذي يكشف عن سوأة الشرك والوثنية المادّية الملحدة، القتال الذي يبين أن المدّرعين بأقنعة الشرك والوثنية لا يريدون السلام في ظل الهداية الإلهّية، ولا يريدون لأنفسهم التطهّر من رجس فجور الكفر، بل لا يريدون السلام وهم على كفرهم في ظل موادعة الجزية وفرصتها الاجتماعية.

الوصيتان النبوية والصديقية تتفقان على أن الجهاد القتالي ضرورة لحماية الدعوة إلى توحيد الله

فلم يبق أمام المجتمع المسلم وقادة جهاده إلا أن يقاتلوا مستعينين بالله على أعدائهم الذين كانوا دائماً يفوقونهم عدداً وعدّة، حتى يحكم الله بينهم وبين هؤلاء الأعداء، وشعار المجتمع المسلم يومئذ قول الله تعالى: ﴿قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾[1].

والناظر بعين التأمل في هذه المراتب التي وضعها المنهج النبوي للجهاد ومراتبه يرى الحكمة السياسية ماثلة في هذا المنهج المحكم، ويرى معها أن المجتمع المسلم بمقتضى منهجه النبوي في الجهاد لا يقصد من الجهاد القتالي، وهو آخر مرتبة من مراتب الجهاد العام إلا الدفاع عن مسيرة الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الحق الإلّهي، ولم يكن من مقاصد الجهاد القتال حباً في القتال وسفك الدماء وإكراه الناس على الإيمان.

---

(١) سورة التوبة آية (٥٢).

ولهذا جاء الترتيب في درجات الجهاد في الوصية النبوية التي طبَّقها الصدِّيق رضي الله عنه على أمرائه معطياً لكل مرتبة حقَّها من النظر في حالتي القبول والرفض، فكان النص «فإذا لقيت عدوَّك فادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» فالجهاد القتالي آخر مراتب الجهاد، لأن منهج المجتمع المسلم لا يقصد إلى القتال حُبّاً في القتال، ولا يستهدف القتال في دعوته رغبة في القتال، ولا يثيره ما كان له عنه مندوحة، وقد فتح أبواب المنادح أمام المدعوين إلى الله حتى لا تكون لهم حجة على المجتمع المسلم في جهاده لنشر دعوته وتبليغ رسالته.

المنهج النبوي يقرر أن هداية إنسان واحد خير من أعز معازّ الدنيا

ويؤكد ذلك ما رواه البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر وهو محاصرها: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، فبات الناس يدوكون ـ أي يتساءلون أيهم يُعْطاها ـ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها ـ حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما تمنّيت الإمارة إلا يومئذ ـ فقال النبي ﷺ: «أين علي بن أبي طالب»؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ مكانه، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي لرسول الله ﷺ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «انفذ على رِسْلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم».

وهذا الحديث الثابت الصحيح ظاهر الدلالة في تصوير منهج النبي ﷺ لشرعية الجهاد في الدعوة إلى الله وما ينبغي أن تستهدفه هذه الدعوة، فعلي رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ عن قتال هؤلاء الأعداء الخونة الغدرة، ليبين للناس ما نُزِّل إليهم من شرعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله والدفاع عنها في مسيرتها حتى يعلموا أن الجهاد في هذا المنهج إنما هو وسيلة للهداية، وهي أعز ما يكسبه المجاهدون في جهادهم، وأنها خير ما يؤتاه مدعو إليها

فيستجيب لها، وأن تألف القلوب وجذبها إلى ساحتها هو ما يجب على المجاهدين أن يجعلوه نصب أعينهم ومقصدهم من جهادهم، يقول الحافظ ابن حجر في الفتح: ويؤخذ من هذا الحديث أن تألّف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

تطبيق المنهج النبوي يطلق الأسارى المأخوذين قبل أن يُدْعَوا إلى الإسلام

ومن هنا يفهم معنى ما أخرجه البيهقي عن أبيّ بن كعب قال: أُتي النبي ﷺ بأسارى فقال رسول الله ﷺ: «هـل دعوتمـوهم إلى الإسلام» فقالوا: لا، فقال لهم: «هل دعوكم إلى الإسلام» فقالوا: لا، فقال ﷺ: «خَلُّوا سبيلهم حتى يبلُغوا مأمنهم» ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهة أخرى، قُلْ لا أشهد، قُلْ إنما هو إلـه واحد وإنني بريء مما تشركون﴾[2].

هذا التصرف العملي التطبيقي الحكيم من النبي ﷺ فيه توطيد لدعائم منهجه في الجهاد، وهو ﷺ في سبيل تربية مجتمعه المسلم على الإحاطة بجوانب منهجه والتمسك به يرد عمل بعض أصحابه لابتنائه على خطأ في فهم منهجه التربوي الذي اتخذه أساساً لبناء تركيب مجتمعه المسلم.

ومنهج تربيته ﷺ يقتضي وجوب دعوة الناس ـ أولاً ـ إلى الإسلام، فإذا اقتحم أحد هذا المنهج، وجاء بنصر حربي ظفر فيه بأسارى أسروا قبل أن يدعوا إلى الإسلام فعمله باطل، لا يقره منهج الإسلام ولا يرضى به رسول الله ﷺ الذي رسم لمجتمعه طريق تنفيذ منهجه في الجهاد.

فهؤلاء الأسارى الذين جاء بهم بعض البعوث والسرايا لم يُدْعَوا إلى الإسلام قبل أسرهم، فكان أسرهم باطلاً، لا يتفق مع وضع مراتب الجهاد، فَلْيُرَدُّوا أحراراً حتى يبلغوا مأمنهم، تحقيقاً لعدالة منهج المجتمع المسلم في تربيته.

---

(١) سورة الأحزاب آيتا (٤٥، ٤٦).

(٢) سورة الأنعام آية (١٩).

عمر بن الخطاب يوصي قادة جيوشه بتطبيق منهج الوصيتين النبوية والصديقية

وكما صنع أبو بكر الصديق رضي الله عنه في اعتصامه بوصية رسول الله ﷺ لأمراء جيوشه، صنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان يوصي أمراء جيوشه بوصية رسول الله ﷺ، فقد روى الطبري في تاريخه عن سليمان ابن بريدة أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمرّ عليهم رجلاً من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلامة بن قيس الأشجعي رضي الله عنه، فقال له: سِرْ على بركة الله، قاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوَّكم من المشركين، فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج (أي الجزية)، فإن أقرُّوا بالخراج فقاتلوا عدوّهم من ورائهم وفرِّغوهم لخراجهم، ولا تكلِّفوهم فوق طاقتهم، فإن أبوا ـ أي الإقرار بالجزية ـ فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم، وإن قاتلوكم فلا تغلُّوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً.

وهنا نقف قليلاً لنتأمل قول عمر رضي الله عنه: (فإن أقرُّوا بالخراج فقاتلوا عدوهم من ورائهم) فإنه بيان لحكمة فرض الجزية على من أبى الإسلام بعد دعوته إليه.

ويوضح عمر رضي الله عنه في كتابه إلى قائده سعد بن أبي وقاص زمن تكرار الدعوة إلى الإسلام لتكون فرصة النظر والموادعة وافية بموضوعها، فيقول له ـ كما رواه أبو عبيد القاسم بن سلَّام عن يزيد ابن حبيب ـ: إني قد كنت كتبتُ إليك أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما للمسلمين وله سهم في الإسلام.

منهج الوصية النبوية كان قاعدة الجهاد عند قادته تأسياً بالنبي ﷺ

وتحديد زمن الدعوة إلى الإسلام بثلاثة أيام لتكون الفرصة وافية بالنظر منهجُ النبي ﷺ، أخذه عنه أصحابه من قادة جيوش الإسلام، فقد أخرج الترمذي أن جيشاً من جيوش المسلمين كان أميرهم سلمان الفارسي

حاصروا قصراً من قصور فارس، فقال المسلمون لقائدهم: يا أبا عبدالله، ألا ننهد إليهم؟ قال سلمان، دعوني أدعهم كما سمعت رسول الله ﷺ يدعوهم فأتاهم سلمان، فقال لهم: إنما أنا رجل منكم فارسي، ترون العرب يطيعونني، فإن أسلمتم فلكم مثل الذي لنا وعليكم مثل الذي علينا، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم وأعطونا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء، قالوا: ما نحن بالذي نؤمن وما نحن بالذي نعطي الجزية ولكنّا مقاتلوكم، فقال المسلمون لقائدهم: يا أبا عبد الله ألا ننهد إليهم؟ قال: لا، فدعاهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا، ثم قال لأصحابه: انهدوا إليهم فنهدنا ففتحنا ذلك القصر.

وأخرج عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «لا تقاتل قوماً حتى تدعوهم» وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما قاتل النبي ﷺ قوماً حتى دعاهم

من فرائد المنهج النبوي وغرره في الجهاد

ومن غرر هذا المنهج وفوائده القاطعة بأن هدف المجتمع المسلم الذي ربّاه النبي ﷺ على منهجه إنما هو هداية الخلق إلى توحيد الله، وإلى إقامة العدل وإشاعة الرحمة والمودة بين الناس ما رواه ابن مندة عن عبد الرحمن ابن عائذ قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً قال لهم: «تألّفوا الناس، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم - أي إلى الإسلام - فما على الأرض من أهل بيت مَدَرٍ ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحبّ إليّ من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم» وروى الطبراني عن مسور بن مخرمة قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «إن الله بعثني رحمة للناس كافة، فأدّوا عني، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى عليه السلام».

كان هذا المنهج النبوي في الدعوة إلى الله بالجهاد المعتمد على المؤاخاة في الله، والمؤاخاة التكافلية بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم هو منهج الراشدين الذي ورثوه عن النبي ﷺ، قولاً، وعملاً، في غزواته وبعوثه وسراياه، أخذه الراشدون فطبّقوه، وجعلوه وصيتهم إلى قوّاد جهادهم في جميع فتوحاتهم المباركة ووقائعهم المظفرة: دعوة إلى الله وتوحيده، ودعوة إلى

دينه الحق وشرائعه، ونهوض بتبليغ رسالته، وموادعة زمنية كافية للنظر المتأمل، تكرر فيها الدعوة إلى الله وبيِّناتها، ثلاثة أيام، لا يهاج فيها أحد من المدعوِّين، ولا يمس لهم فيها شيء من مال أو غيره، ولا يمنعون من حرية الحركة في القيام بمصالحهم وأمور حياتهم.

فإن لم يستجب المدعوون لهذه الدعوة الكريمة، ولم تهْدِ فرصة النظر المتأمل قلوبهم إلى قبول الحق والهدى وخلع ربقة الوثنية من أعناقهم، فدعوة إلى الجزية والموادعة التي لا تقيد بزمن ما دام الوفاء بالعهد قائماً.

الجزية فرصة موادعة للتأمل وعروة في عهد بالحماية

وهذه الجزية مشروطة بتعهد من قبل قادة الجهاد أن يلتزموا بحماية أهل عهدهم الذين يؤدون الجزية ما دام أولئك القادة قادرين على هذه الحماية، فإن عجزوا عنها وجب عليهم أن يعلنوا ذلك لأهل عهدهم، وأن يردّوا عليهم ما أخذوه منهم من الجزية.

وقد جاء هذا صريحاً في عهد صلح أبي عبيدة بن الجراح القائد العام في فتوح الشام بعد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد روى الإمام أبو يوسف في كتاب «الخراج» قال: إنما كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية، وفتحت المدن على أن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم، داخل المدينة ولا خارجها، وعلى أن يحقِنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوِّهم، ويذبُّوا عنهم.

ثم قال أبو يوسف: فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن سيرهم فيهم صاروا أشدَّ على عدوِّ المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم، وما يريدون أن يصنعوا، فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جموعاً لم يُرَ مثلها، فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى الأمير الذي خلّفه أبو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك، فكتب والي كل مدينة ممّن خلّفه أبو عبيدة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك، وتتابعت الأخبار على أبي عبيدة، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين، فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممّن خلّفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن

يردُّوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج، وكتب لهم أن يقولوا لهم: إنا رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جُمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم.

وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فكتب إليه عمر يقرّه على صنيعه مع المصالحين، ويقول له في كتابه: وامنعِ المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحقِّها، ووَفِّ لهم بشرطهم الذي شرط لهم في جميع ما أعطيتهم.

وفي كتاب خالد بن الوليد رضي الله عنه في مصالحته لأهل الحيرة الذي بعث به إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه يخبره فيه بما تمّ بينه وبينهم يقول: إني نظرت في عدَّتهم فوجدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميّزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل، فأخرجتهم من العدّة، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والانجيل أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلُّوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذي أخذ أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة، فإن خالفوا فلا ذمّة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه، وأدَّوه إلى المسلمين، فلهم ما للمعاهد، وعلينا المنع لهم، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله الذي أخذ أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك.

وجعلتُ لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله.

هذه هي قصة الجزية في الفتوحات الإسلامية، والإسلام في أوج عظمته وعنفوان اندفاعه في الدعوة إلى الله، وهذه موادعتها وفرصتها للنظر المتأمل، وهذه صور ونماذج من معاملة المسلمين وقادتهم لمن عوهدوا منهم عليها.

فأين الإكراه والقهر في نظام الجزية؟

فأين السيف؟ وأين القهر؟ وأين الإكراه على الدخول في الإسلام؟ لا شيء من ذلك قد كان قط، ولكن الذي كان إنما هو دعوة إلى الحق وصفاء التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى في ظل من الحرية الطليقة من كل قيد، وفي ظل من حفاوة العدل والرحمة وتحمّل أعباء الحماية والدفاع عن المعاهدين المصالحين ممن يناوئهم ويُعتدى عليهم.

فإن ركب المدعوون إلى الحق والهدى متن الشيطان بعد هذه الحفاوة الرحيمة، ولجُّوا في العناد والاستكبار وفجور الكفر والإلحاد لم يبق أمام المجاهدين في سبيل تبليغ رسالات الله ونشر النور والخير إلا القتال الذي يفلُّ شوكة العتو العنيد، ويطهِّر الحياة من أوضار الشرك والوثنية الملحدة، وهما مصدر كل شر، ومنبع كل فساد في الأرض، حتى يحكم الله بين كتائب المجاهدين وبين أعدائهم بإعلاء كلمة الحق ونشر العدل، وإنقاذ المستضعفين في الأرض من ظلم الطغاة المتجبِّرين، والموت في سبيل إحقاق الحق، وإقامة منائر التوحيد، وهدم الوثنيات المادية الجارمة أحب إلى كتائب المجاهدين من حبِّ أعدائهم أحلاس الشرك للحياة.

روى الطبري أن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما نزل الحيرة خرج إليه أشرافها مع أميرهم قبيصة بن إياس الطائي فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين لكم مالهم، وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، وجاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

صور ناطقة من تطبيق قادة الجهاد منهج الدعوة إلى الله

وروى الطبري أيضاً: أن جيش المسلمين لما واجه جيش الفرس بعث رستم إلى سعد بن أبي وقّاص أن ابعث إليّ برجل عاقل، عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة، فلما قدم المغيرة إلى رستم جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إنا لسنا طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً، قال له: إني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم منهم بهم، واجعل

الغلبة لهم ما داموا مقرِّين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلاّ ذلّ، ولا يعتصم به أحد إلاّ عزّ.

المغيرة بن شعبة ورستم الفارسي في محاورة لعرض مبادىء الإسلام

فقال رستم: ما هذا الدين؟ قال المغيرة: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله. فقال رستم: ما أحسن هذا؟ وأي شيء أيضاً؟ فقال المغيرة: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، فقال رستم: وحسن هذا أيضاً، وأي شيء أيضاً؟ فقال المغيرة: والناس بنو آدم، فهم أخوة لأب وأم. قال رستم: وحسن هذا أيضاً، أرأيتم إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال المغيرة: إي والله، لانقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

ربعي بن عامر يعرض على رستم قائد قواد الفرس أصول الإسلام وشرائعه

ثم ذاكر رستم قومه في الإسلام، فأخذتهم الأنفة والعنجهية فأبوا أن يستجيبوا له، فأرسل رستم إلى سعد يطلب رسولاً آخر، فأرسل إليه سعد رِبْعي بن عامر، فذهب ربعي إلى رستم في بزة عربية وهيئة بدوية متقشفة، لا تقيم لزينة الدنيا ومظاهرها وزناً حتى وطىء بساط رستم بفرسه، ودخل عليه بسلاحه، بينما رستم قد اتخذ مجلساً ملوكياً مترفاً مزخرفاًمزركشاً، أكثر فيه من مظاهر الزينة، وتحلّى بالجواهر واللآلىء، فلما بلغ إليه ربعي قال له رستم: ما جاء بكم؟ قال ربعي: الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله، فقال رستم: وما موعود الله؟ قال رِبْعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

قال رستم: قد سمعتُ مقالتكم، فهل لكم أن تؤخّروا الأمر حتى ننظر وتنظروا؟ قال رِبْعي: كم أحب إليكم، يوماً أو يومين؟ قال رستم: لا، حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، قال ربعي: ماسنّ رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال رستم: أسيّدهم أنت؟ قال رِبْعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

ثم اجتمع رستم برؤساء قومه، فقال لهم: هل رأيتم قطّ أعزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك؟ ألم تر إلى ثيابه؟، فقال لهم رستم: ويلكم؟ لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة.

وذكر ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) أن سعد بن أبي وقاص ـ وكان جيشه لا يزيد على سبعة آلاف والمشركون أضعاف أضعافهم ـ لما نزل القادسية أرسل طائفة من أصحابه إلى كسرى (يزدجرد) يدعونه إلى الله قبل التحام القتال، فاستأذنوا على كسرى، فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم، وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، ونعالهم في أرجلهم، وهم على ظهور خيولهم الضعيفة وجعلوا يتعجبون منهم غاية العجب، كيف يقهر هؤلاء جحافل جيوشهم؟

محاورة النعمان ابن مقرن وكسرى (يزدجرد)

ولما دخلوا على كسرى جعل يسألهم ـ استخفافاً بهم ـ عن ملابسهم وأسمائهم، ثم قال لهم: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنّا لما تشاغلنا عنكم بأنفسنا اجترأتم علينا؟ فقال النعمان بن مقرِّن ـ أحد أبطال الإسلام وقواده ـ: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشر، وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواصّ، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أُمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب، ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مكروه عليه فأغبطه وطائع إياه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام حسّن الحسن وقبّح القبيح كلّه، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٌّ منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله

وأقَمنا عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن أتيتمونا بالجِزَى قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، وقد كنّا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، ولا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم قد كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم، فأسكت القوم.

المغيرة بن شعبة يأخذ زمام المبادرة في المحاورة مع يزدجرد

فقام المغيرة بن شعبة فقال: أيها الملك هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف، ويعظّم حقوق الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا إليه جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا، ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك.

إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ منا حالاً، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيّات، ونرى ذلك طعامنا.

وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل معه طعامه.

وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضُه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته خير بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو نفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها، أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر لم يجبه أحد أول تِرْب كان له الخليفة من بعده، فقال وقلنا وصدّق وكذبنا وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين

رب العالمين، فما قال لنا هو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلاّ وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلّكم على السبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي، ولأحلّكم داري، دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه.

فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أوتسلم فتنجي نفسك، فقال (يزدجرد) أتستقبلني بمثل هذا؟ قال المغيرة: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به.

قال يزدجرد: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي، ثم قال: ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفعه وجنده في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعده، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم.

* * *

محاورة عمرو ابن العاص رهبان أقباط مصر لعرض الإسلام ودعوتهم إلى الله وإلى دينه الحق

وفي فتح مصر روى الطبري وغيره أن عمرو بن العاص لما خرج إلى مصر استقبله أهلها فعاجلوه القتال، فأرسل إليهم لا تعجلونا لنعذر إليكم، وتروا رأيكم بعد، فكفّوا، وأرسل إليهم عمرو: إني بارز، فليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك، وأمّن بعضهم بعضاً، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمر به، وأمرنا محمد ﷺ وأدّى إلينا كل الذي أمره به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذي عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجب عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنّا مفتتحوكم،

وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة وذمة، ومما عهد إلينا أميرنا استوصوا بالقبطيين خيراً فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة.

* * *

في إطار المنهج النبوي ننظر في الغزوات ومواقع الجهاد لإعلاء كلمة الله

في إطار هذا النمط من البحث الذي رسم خطوطه الأساسية المنهج النبوي في تربية المجتمع المسلم ننظر في أهم غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه الكريمة، لنصوِّر من واقعها في الحياة أسبابها وأحداثها ووقائعها التي أملى سطورها المنهج النبوي الذي قام على أساسه تركيب المجتمع المسلم، معتمداً على دعائم المؤاخاة التكافلية بين جماعات هذا المجتمع في دستور مكتوب بأمر النبي ﷺ، بعد أن أحكمت وشائج مؤاخاة الحب في الله ولله بين أفراد طلائع المجتمع من المهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبي ﷺ في مشرق حياتهم الجديدة بالمدينة بعد الهجرة، فقال لهم: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين».

والمؤاخاة في الله تعنى في حياة المجتمع المتآخي على الحب في الله، والحب يذيب الفواصل والفوارق الشخصية، ويمحو (الأنانية)؛ فهي مؤاخاة تركز في وجودها على التمازج بين المتآخيَيْنْ تمازجاً لا يرى فيه أحد الأخوين أنّ له شيئاً ليس هذا الشيء عينه لأخيه، بل يرى أن هذا الشيء الذي في يده هو لأخيه في يده قبل أن يكون لنفسه.

فالمؤاخاة بنوعيها الفردي والجماعي آية من آيات المنهج النبويّ التي أريد بها فيه أن تكون صورة حية للتربية السلوكية المنطلقة في مسيرة الدعوة إلى الله بروحانيتها ووحدتها الإيمانية، ليستعيد بها المجتمع ـ إذا عاد إليها ـ مكانته في هداية الإنسانية لإصلاح ما أفسده العلم المادي من حياتها الفكرية وحياتها الروحية.

وقد كان يكفي البحث في البرهنة القاطعة على أن غزوات النبي ﷺ لم تكن لتستهدف قط إكراه أحد على اعتناق ما لم يؤمن به إيماناً عقلياً وروحياً، ما قدمناه من النصوص التطبيقية في دلالتها البيِّنة على أن الهدف من هذه

الغزوات إنما هو الدعوة إلى الله، وفتح الطريق أمام مسيرة تبليغ الرسالة لإخراج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وإنقاذها من التعبُّد للوثنيات في جميع صورها وأشكالها المادية الملحدة، لتعيش في ظل من وحدة الإيمان، ولتبني حضارتها على المؤاخاة والحب لا على نظريات العلم المادي المدمِّر لمظاهر الحياة، المفسد للتفكير، المنحرف بالسلوك الإنساني عن جادة الاستقامة.

أعداء الإسلام في ألوانهم المختلفة لا تقنعهم البراهين القاطعة

بيد أننا رأينا أعداء المجتمع المسلم المتظاهرين بالبحث العلمي وحرية الفكر يتشكّلون في صور وألوان مختلفة، فهي تارة استشراقية، تدّعي البحث العلمي، وتتباكى على حرية التفكير، وتارة تبشيرية تزعم أنها تهدي إلى حق وإصلاح، وأخرى سياسية تحاول أن تجعل من الحياة حقلاً لتجارب عدل الظالمين الماديِّين في المجتمع البشري، ومرة أخرى اجتماعية تخدع الناس عن حرياتهم وتخادعهم عن خصائص إنسانيتهم، لتتخذ من هذا الخداع والمخادعة منحدراً إلى هاوية إذابة الفرد في تنور المجتمع البشري المشتعل بنيران الحقد المضطغن، والتنافس المادي المثير للفتن والشرور ـ يتناولون في مؤلفاتهم وصحفهم ومجلاتهم ووسائل إعلامهم، وأحاديث أنديتهم وجامعاتهم المجتمع المسلم ومنهجه في الحياة بالطعن الجارح والألفاظ النابية، زاعمين أن هذا المجتمع مجتمع حرب وقتال، تسفك فيه الدماء، وتجمع الغنائم والأموال لإكراه الناس على الاندماج في تركيبه الاجتماعي الإيماني بقوة السيف والقهر، وهم مفترون كاذبون يعلمون أنهم كاذبون، ولكن العصبية الخانقة، والحقد المغيظ الذي يملأ قلوبهم على هذا المجتمع المسلم، وما ورثوه عن أسلافهم في الكفر والإلحاد من أن هذا المجتمع المسلم هو الذي دوّخ ممالكهم وقوّض امبراطورياتهم، وأقام على أنقاضها ملكاً مسلماً عاش على منهجه فيها قروناً، ثم أُخرج منها، ولكن آثاره فيها لا تزال رغم مرور الأعوام والقرون قائمة تنادي المجتمع المسلم أن تيقظ فإن لك أوطاناً سليبة تنتظرك إذا عدت لمنهجك الأصيل في الحياة ـ هي التي أعمت بصائرهم عن الحق، فلم يبصروه إلا من منظار الحقد الدفين، والحقدُ ظلمة في القلب تحيط بأقطاره فتحجب عنه كل أنوار الحياة.

ونرى إلى جانب هؤلاء الأعداء الحاقدين صوراً من المستضعفين في

شباب الإسلام المخدوع بالمظاهر المادية أشد خطراً على الإسلام من أعدائه

أوطان الإسلام من ذوي الشخصيات (البغبغاوية) ـ ولا سيما الشباب الغرِّير المغرَّر به الذي خدعته وتخدعه دعاوي العصرية والتجدّد والتجديد، والحرية التقدمية، والتفكير الصاعد، والمبادىء الاجتماعية المزركشة، والطرائق السياسية المنافقة، والنظم الاقتصادية المخرِّبة، والأوضاع السلوكية المفسدة من كل ما يُرى في أنماط الحياة المترفة المتخالعة، (المترهفة) المائعة التي يعيش فيها هذا الشباب العاري من الحصانة الروحية، والخالي من المناعة الخلقية، الخاوي من المعرفة الإسلامية، معرفة يستطيع بها مقاومة الإغراء الشهوي المستهتر الخليع من خصائص الرجوليّة الحقة.

هذا الشباب الذي تقذف به إلى أحضان هؤلاء الأعداء الملاحدة في صورة بعوث تطلب العلم من محاضنه الاستشراقية والتبشيرية الإلحادية الكثرةُ من أوطان المجتمع المسلم الممكّنة من الوسائل المادية في هذا العصر، يردِّد إذا عاد إلى أوطانه من محاضن الإلحاد المادي والتميّع الخلقي ـ أفكار هؤلاء الأعداء في التحيّف على المجتمع المسلم ومنهجه التربوي، وهذا الشباب الذي ينتمي انتماء جغرافياً لا يحمل من سمات المعرفة الإسلامية إلا قشوراً يتشدّق بها، مغروراً بما جاء به من إلحاد وجحود لتاريخ أمته ومقوِّماتها الأساسية.

هذا الشباب المضيّع في أشد الحاجة إلى التحصين الخلقي والفكري قبل أن يُلقى به بين أحضان أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم

هذا الشباب المعذَّر ضائع مضيَّع، لا يعرف عن حقيقة تاريخه الإسلامي، وتراث هذا التاريخ الفكري إلا شيئاً ضئيلاً، لا يغني في حماية هذا الشباب من اللوثات المنحرفة أي غناء، لأنه شباب ضيّعه أهله، وعيَّشوه في جهالة مغلّفة بشعارات دعائية وتقاليد مستوردة من وراء البحار والسهوب، وأنظمة جوفاء في أشباح جامعيّة وصور دراسية، في أوطانه المسلمة، وليس في هذه النظم والدراسات إلّا تزجية الفراغ، يتلقّى فيها الشباب المسلم قشوراً من المعرفة عسرة الهضم، لا تُحلي ولا تُمرّ، ولا تنفع ولكنها تضر، ثم تنتهي هذه الدراسات الخاوية بجواز للوظيفة أو البعث إلى أحضان سدنة العلم الخادع من طوائف المستشرقين والمبشِّرين في جامعاتهم ليصنعوا من هذا الشباب خبزة سهلة الازدراد في صورة (دكترة) تتيح له أن يتبوأ أعلى المناصب في وطنه المسلم المخدوع، وهو مجلل بالجهالة لتاريخ أمته ومجتمعه، ولكنه مسربل بما لُقّن من معارف غريبة عنه وغريب هو عنها لتكون مطية له

ولأمثاله إلى اعتلاء عروش إدارة الحكم في وطنه.

وهؤلاء السدنة للبحث العلمي وحرية الفكر من أعداء الإسلام المندسُّون وراء الحياد الفكري يستقبلون هذا الشباب المسلم وهو مفعم الصدور بإعظامهم، وإعظام حياة أوطانهم وجماعاتهم، والاستطارة فرحاً بمظاهر حضارتهم المادية، وهم به فرحون فرح الصائد بما يقع في شباكه من صيد ثمين، ثم يأخذون في تلقينه ما يعلم وما لا يعلم مما يريدون أن يعدّوه به، ويهيّئوه له، ليكون حين عودته إلى وطنه ومجتمعه المسلم لسانهم الناطق، وعينهم الباصرة، وآذانهم اللاقطة، ويدهم الباطشة بكل فضيلة مسلمة، وكل تربية مسلمة، وكل سلوك مسلم، وكل فكر مسلم، وما يزالون به يتابعونه حتى يصلوا في صنعه إلى خبيء ضمائرهم من المرتبة العليا في التحبب إليهم بانحرافه عن العقيدة المسلمة إلى إلحاد مغرور متنفج بما توهَّم أنه وصل إليه من علم ومعرفة وتفكير جديد، وعندئذ يرسلونه إلى وطنه المسلم، يحمل لقباً علمياً ضخماً، وفي يمينه حفيظة الوصايا له، وإليه، وبه، عند من بيدهم أزمة الأمور في المجتمع المسلم، وبيدهم الحل والعقد وبيدهم مفاتيح خزائن الأرض.

وفي صدر هذه الوصايا به عند (طواويس) الحكم في المجتمع المسلم أن يكون من ذوي الصدارة في قيادة مجتمعه المسلم في وطنه، توسّد إليه أعمال قيادته ليحقق لهم أغراضهم.

ولا ينسون في وصاياهم له أن يعطوه مواصفات كاملة مفصلة للذين يعملون معه فيما يسند إليه من عمل، ويوسّد إليه من إدارة، ليكونوا بطانته التي تخزن أسراره، يقربون إليه من يشاؤون ويبعدون عنه من يشاؤون، وهم أمناؤه، فلا يقرِّبون إليه إلا من كان على شاكلتهم في سلوكهم (الحضاري)، ولا يبعدون عنه إلا كل مسلم عليم، مترفع عن الدنايا السلوكية، لأن هذا المسلم العليم أمين على عقيدته، قوي التمسك بها، فهو ـ في نظرهم ـ جامد التفكير، معوّق للتقدم الحضاري المادي، لعدم أخذه بمظاهر الحضارة المستوردة من وراء البحار والسدود والسهوب، المنطلقة من سائر القيود.

أخطر المخاطر على الإسلام بعث شبابه دون تحصين خلقي وفكري إلى جامعات أعداء الإسلام

إن أخطر شيء في حياة المجتمع المسلم وحاضره الذليل الممزق ضياعُ شبابه من حياته ووجوده بهذا الوباء المتفشي مع انفجار الثراء الفاحش في كثير من أوطان الإسلام، ومع الجهل الأفحش في معرفة طرائق استخدام هذا الثراء لمصلحة المجتمع المسلم، ذلك الوباء هو وباء بعث الشباب إلى أوطان أعداء المجتمع المسلم دون أن يكون لدى هذا الشباب حصانة خلقية وفكرية تحمي سلوكه من الانحراف، وتصون تفكيره من الانـزلاق إلى منحدرات الإلحاد المحجَّب والمكشوف.

حصِّنوا الشباب بالعلم الإسلامي، والخلق الإسلامي، وأعيدوا النظر في مناهج المراحل التعليمية، وضعوا برامج تربوية مسلمة، ثم ابعثـوا بالشباب إلى حيث يزداد علماً وخلقاً وتفكيراً، ليعود إليكم في صورة مسلمة منظّمة الإطار.

فهل يمكن أن نبني مناهج جامعاتنا على دعائم تحصين شبابنا خُلقياً وعلمياً لنضمن وجوده سليماً لنا وحياته لأوطاننا المسلمة، حتى نجد فيه القائد الغَيْران على عقيدته ودينه وخلقه المسلم ممثلاً في تربيته وسلوكه.

إن ذلك ممكن وواجب التنفيذ، ولكنه يحتاج إلى قوة إيمان بوجودنا ومقوِّماتنا وخصائص مجتمعنا المسلم التاريخية، ويحتاج إلى دراسة لسياستنا التعليمية من القاع إلى القمّة، ويحتاج إلى الإيمان بأن الإحسان في الكيف والحقيقة خير من كثرة المظاهر المادية الجوفاء، التي إن لم تتدارك وتحصّن بالأخلاق والعلم المسلم فستهدم في بغتة على رؤوس مشيِّديها، والله تعالى وعظنا وضرب لنا الأمثال لنعتبر: ﴿فكأيِّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطَّلة وقَصْر مَشِيد * أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

إن شبابنا المسلم ـ وهو عصب حياتنا ـ لو كان في دراسته المنهجية في

---

(١) سورة الحج آية (٤٥ ـ ٤٦).

جميع مراحل التعليم قد درس ـ مثلاً ـ السيرة النبوية دراسة بحث ممحص، وعقيدة راسخة، ودرس تاريخ الفتوحات الإسلامية، ولا سيما في مطالعها الأولى التي كانت صورة متطابقة للمنهج النبوي في تربيته المجتمع المسلم، ودرس معها الانزلاقات المحرفة للمنهج النبوي عن سَمْته الذي وضعه فيه النبي ﷺ، لما كان من بينه من يقبل دعاوى الأعداء والأدعياء، ولا سيما هذه الدعوى البالية دعوة انتشار الإسلام بالسيف والقهر وسفك الدماء وجمع المال، وهي دعوى حورب بها المدّ الإسلامي وهو في عنفوان قوته واندفاع تياراته حاملاً دعوة الهدى والحق، وكان المجتمع المسلم قد بدأ يتحول عن مجراه على منهجه التربوي السلوكي، الذي قام على أساس الوحدة التكافلية حيث انصدعت صفات تلك الوحدة، وتناثرت إلى دويلات هزيلة يكيد بعضها البعض، والعدو من ورائها يشعل نيران الفتن هنا وهناك، فانحسر تيار المسيرة المسلمة، وجمد ووقف مكبلاً بأغلال الفرقة التي لم يغب عنه ليلها المظلم.

شباب الإسلام ـ وهو عصب مجتمعه ـ لو كان محصناً بدراسة منهج الإسلام لما كان فيه من يقبل أباطيل أعدائه

وأصحاب هذه الدعوى الزائفة البالية الكاذبة وجدوا فيها سلاحاً ماضياً يحاربون به المجتمع المسلم بعد أن أناموه بها وبأمثالها من الافتراءات الباطلة، وأفقدوه الشعور بنفسه وحياته وتاريخه ومنهجه ومقوماته الذاتية وخصائصه التربوية.

ومن أعجب العجب في باب محاربة أعداء المجتمع المسلم لهذا المجتمع، والقضاء على حياته، وهو يحشرج تحت وطأة هذه الأكاذيب أن أعداء هذا المجتمع المسلم وجدوا في بعض أبنائه (الجغرافيين) من أدعياء التجدّد والتجديد، والتقدميّة، والحرية الفكرية من ألبسوهم خلعة التسامح والترفع عن العصبية الدينية، ليعزِّزوا بهم وبأكاذيبهم المتخاذلة تهمة الإكراه، والقهر، والسيف، وسفك الدماء التي زعموها القوة الدافعة في انتشار دعوة المجتمع المسلم إلى الهدى ودين الحق، حتى عمّت المعمور من الأرض في أقصر زمن، لا يعرف المجتمع البشري مثله لدعوة من الدعوات أو لرسالة من الرسالات الإلّهية.

من أخطر ما ابتلي به الإسلام في هذا العصر الملحد تبني بعض بنيه «الجغرافيين» دعوة التسامح المقرب بين الأديان

وقد كان هؤلاء المتخاذلون تحت ستار التسامح الذليل، والترفع المصطنع عن العصبية أبشع وأعضل ما حورب به المجتمع المسلم، لأنهم بدعاواهم المتخاذلة الذليلة المتسامحة بالهوان كانوا كحفّاري القبور للأحياء قبل أن يموتوا.

وقد عزز افتراءاتهم المتخاذلة المتسامحة أن المجتمع المسلم كان يئن تحت كابوس الجهل المطبق الذي طحن برحاه الفكر المسلم، واستبدل به أضغاثاً من الأساطير والخرافات والأباطيل التي أُلصقت بمنهج المجتمع المسلم إلصاقاً، وعاش في ظلماتها قروناً كثيرة، وهي لا تزال تسيطر على جماهيره، بل على كثير ممن يزعم أنه من أهل العلم في أوطان هذا المجتمع المستعبد في تفكيره وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والتربوية السلوكية، وهو يرى في فرية التسامح المتخاذل صورة برّاقة، يحيا في ظل ذلّها وهوانها، يتجرع كأس الموت من أيدي هؤلاء المتخاذلين المخدوعين من أبنائه المزوِّرين عليه.

ولا ندري كيف يطلب من مجتمع لا يملك من أمر الحياة شيئاً إلا صكّ استعباده المضروب عليه من أعدائه أن يتسامح مع من يملك عليه أنفاسه في حياته؟ فيم يتسامح العبد مع سيده المتجبر في استعباده، وهو لم يترك له شيئاً من مقومات إنسانية إلّا سلبه منه؟

ألا يستحي هؤلاء المتخاذلون المتسامحون حين يتكلمون في شأن تسامح المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى في جبروتها وقوتها الماديّة وطغيانها السلوكي، وحطِّ أثقالها على صدر المجتمع المسلم ليكتموا أنفاسه حتى لا يصحو من رقدته.

الخوف من تيقظ المجتمع المسلم أغرى أعداءه بشبابه لأنهم أساس لقيادهم بما يغمرونهم به من ذرائع الشهوات

وأصحاب هذه الدعاوى الكاذبة وأنصارهم من دعاة التسامح الذليل المتخاذل يخافون أشد الخوف أن يستيقظ المجتمع المسلم من رقدته، ويصحو من غفلته، ويراجع تاريخه ومنهجه في أيام عزّته وقوته ووحدته، فيصحح تركيبه الاجتماعي على أسس المؤاخاة التكافلية، ويستعيد وحدته، ويندفع مرة أخرى في سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والهدى والنور، ويمضي في تبليغ رسالته على منهجي العقيدة والفكر الاجتماعي والتربوي السلوكي، فلم

يجدوا ألين عجينة من الشباب المخدوع برغائبه الشهوية في هذا المجتمع المسلم المتدفق بجموعه على جامعاتهم، ينشد منها خصائص حياة جديدة، يعيش فيها لإشباع رغائبه الشهوية المترفة بعد مسغبة الغرائز وجوعها، لينسى تاريخ منهجه الذي قامت على أسسه حياة مجتمعه ويعود إلى أوطانه المسلمة مسخاً للتقدمية الداعرة، ليشكل مناهجها الدراسية وبرامجها التعليمية في صور براقة بالمظاهر المادية التي تسيطر على عقول الجماهير ولا سيما الشباب، فينغمس فيها، أو بالأحرى يغرق في فتونها وآثامها، وهذا هو الذي قد كان، وهو الكائن اليوم، وهذا هو الذي يجب على المجتمع المسلم في جميع أوطانه أن يبادر مسرعاً إلى مقاومته ووقف تياره الجارف لإنقاذ شباب الإسلام من هاوية.

إنني لست ضد بعث الشباب إلى جامعات العالم المتجدِّد التفكير في الحياة والكون، لكشف أسرار الطبيعة ومظاهرها، والتعرف على ما في عناصرها من مكوِّنات إلٰهية، أبدعها الله تعالى، وسخّرها للإنسان، لتكون آيات بينات على اقتدار خالقها ومكوِّنها، وليفيد منها الإنسان في حياته العقلية والروحية والمادية، لأن هذا أصل من أصول ديننا وعنصر من عناصر منهجنا التربوي السلوكي.

رأي يدفع تهمة زائفة

ولكني أرى ألا يُدْفع بشباب الإسلام إلى مجتمعات ليست لها حوافظ اجتماعية تتلاءم مع نشأة شبابنا ومنهجه في حياته الإسلامية قبل أن يحصَّن هذا الشباب بما يحميه من الانحرافات الخلقية والإلحادية، ويصون عقيدته وتفكيره، ويعلي سلوكه.

ومن ثَمّ كان من الواجب أن يسبق بعث الشباب إلى خارج أوطانه الإسلامية تحصينه خلقياً وفكرياً، واجتماعياً، ليكون أينما ذهب صورة ناطقة لمنهجه الإسلامي في خُلقه وتفكيره، ومعالمه الذاتية ومعارفه، وتاريخه وتربيته وسلوكه، وليس هذا التحصين كوباً من الشراب اللذيذ يقدم للشباب فيشربه متمتعاً بحلاوته، متلذذاً بمذاقه، متنعماً بهناءته ومراءته، وإنما هو تحويل لمسيرة حياة الشباب تحويلاً يجعل منه نمطاً لمنهج الإسلام في مقوِّماته

وخصائصه وقوته الروحية والمادية واستقامته السلوكية.

وهذا بلا شك عمل شاق، محفوف بالمعوقات التي لا يذللها إلا العزائم المرهفة الماضية التي لا تتردد، فهو عمل يحتاج إلى تخطيط ووضع منهج تربوي، يشمل جميع مراحل التعليم، بل يجب أن يرتبط بالبيت والأسرة حتى يتوحد المنهج التربوي في مراحل حياة الشباب من البيت مدرسة الأسرة إلى أن يصل إلى الجامعة والدراسات المتخصِّصة ومراقبة البعوث الخارجية.

لا بد من زمن يستغرقه التحصن ولا بد من بديل معوض في فترة التحصين

ولما كان هذا التخطيط في وضعه العملي يحتاج إلى زمن طويل، ويحتاج إلى دراسة تربوية ومناهج دراسية، وإلى نوع ممتاز من الأساتذة، لهم اختصاصهم التربوي وخصائصهم الشخصية مما يجب أن يعتمد على دراسة المنهج النبوي بروحه وفكرته وتطبيقه في واقع الحياة، والتكيّف بحقائقه عملياً مع قدر كبير من التلطّف والترفق في الاتصالات الواعية بالشباب ومراقبة سلوكه داخل دور التعليم وخارجها مع الاعتصام بمراقبة الله الذي يعلم السر وأخفى.

لما كان ذلك من الواجب الفوري كان علينا أن نبحث عن البديل الذي لا يعوق دراسة الشباب انتظاراً لهذا التخطيط حتى يثمر ثمرته المرجوة منه.

البديل المعوض لما يفوت الشباب في فترة التحصين

وهذا البديل نقدمه برأينا فيما يلي: إن الله تعالى مكّن كثيراً من أوطان الإسلام بإمكانات مادية هائلة يستطيع بها هؤلاء الممكَّنون أن يسلكوا في تعليم الشباب ما يسلكونه في استجلاب خبراء المشروعات العمرانية المادية في الصناعات والزراعات، وشق الطرق وتمهيدها وتشييد المباني الضخمة من ناطحات السحاب وغيرها، بأن يستقدموا من العلماء من يحتاج إليهم المجتمع المسلم في تعليم شبابه على أرض وطنه، ويعدوا لهؤلاء العلماء من وسائل الراحة الكاملة ما كانوا يجدونه في بلادهم، ويستطيعون أن يكافئوهم بمرتبات مجزية تتعادل مع تضحياتهم بمفارقة أوطانهم وما يبذلون من جهد في تعليم شبابنا العلوم التي تنهض بالمجتمع المسلم من الفنون الكونية

والصناعات الدقيقة في ظل الرقابة الواعية المؤمنة من القائمين على رعاية الحياة في الأمة.

علوم الإسلام ولغته العربية في أشد الحاجة إلى مؤسسة تجمع تراث شتات تراثها وتعده لتقدمه للمجتمع المسلم

والشباب المسلم لا يحتاج إلى أن يأخذ علوم الإسلام ومعارفه، وفنون اللغة العربية وآدابها من خارج أوطانه المسلمة؛ لأن هذه العلوم والمعارف هي تراث الإسلام ولغته، وهي بين يديه وتحت سمعه وبصره في مكتبات الأوطان الإسلامية، لكنها تحتاج إلى إنشاء مؤسسة كبرى، تنهض بعبء جمع التراث الإسلامي وتحقيقه وتنقيته من الأساطير والخرافات والأكاذيب الإسرائيلية، والأباطيل الوثنية التي أدخلت على معارف الإسلام في غفلة المجتمع المسلم، لتنشر هذا التراث بين المجتمعات الإسلامية بأفضل طرائق النشر طباعة وتصحيحاً وتحقيقاً، ليكون هذا النشر أقوى سند للدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته.

والشباب المسلم يحتاج إلى من يتخصص من أفراده في علوم الحياة، وفنون الطبيعة، والمعارف الكونية وغيرها مما تنهض بالمجتمع المسلم من كبوته ليلحق بقافلة الحياة الفكرية، وهذه العلوم والمعارف كان للمجتمع المسلم فيها مجالات ضاعت منه آثارها فيما ضاع له من أوطان وآثار، وهي علوم إنسانية لا وطن لها، ولا اختصاص لها بجيل أو مجتمع، لأن العلم حق مشاع للإنسانية كلِّها، لا وطن له، يأخذه من يتأهل لأخذه بوسائله الفكرية والماديّة والعمليّة.

للفكر المسلم شعار ينطبق أول ما ينطبق على العلوم والمعارف، ذلك الشعار المنهجي النبيل هو الحكمة المعروفة (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها) ولكن ذلك يحتاج إلى خبرة لمّاحة تحسن الاختيار بقدر المستطاع، والله تعالى من وراء القصد.

فهل يسمع الممكَّنون من الوسائل في أوطان الإسلام لهذه الدعوة بإخلاص وصبر ودراسة، ويتخففون من الشعارات الدعائية في صورها وأشكالها وألوانها الخادعة، ويوجهون المجتمع المسلم إلى العمل الصامت الدؤوب فيما يحتاج إليه من صناعات دقيقة ليستخرج بها كنوز أرضه،

ويحررها من أيدي أعدائه؟ لعل وعسى وليسمع القائمون على أمور المجتمع المسلم ورعايته المسؤولة أمام الله العلي العظيم قوله تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون، إنه عليم بذات الصدور﴾.

* * *

هذه نصيحة ممن لا يملك إلّا الكلمة والله تعالى لا ينتظر بنصرة دينه فراغ المتثائبين هنا أو هناك

هذه نفثة غَيْران، لا يملك إلا الكلمة يضعها بين يدي القادرين الذين يملكون أن يحوّلوها إلى عمل جادّ مسدّد من قادة المجتمع المسلم الممكنّين في الأرض، وقد يراها المتعجّلون ضرباً من الخيال، ولكنها فكرة فيها مجال لبدء عمل جاد قوي شامل، يجمع شمل المجتمع المسلم ويصحّح تركيبه الاجتماعي، وما على الممكّنين المالكين للوسائل إلا أن يبدأوا ويمكنوا المؤهّلين للعمل منه، تحت رقابة تحاسب وتشجع، وتعطي وتمنع، حتى يكون العمل حقيقة واقعة في حياة المجتمع المسلم، ولا يضر قادة هذا المجتمع الممكّنين أن يطول بهم الزمن على ظهور النتائج لأن أعمار الأمم والمجتمعات لا تقاس بالأيام والشهور، بل ولا بالأعوام والدهور، ولكنها تقاس بما يقع فيها من أعمال، وللمجتمع المسلم نموذجه في انتشار دعوته إلى الله، لهداية الخلق وتحرير الأمم والشعوب من الوثنيات في شتى صورها وأشكالها الذي تم في زمن لا يوضع فيه معه غيره في مقاييس الأزمان والأعمال.

وليفهم قادة المجتمع المسلم في جميع أوطان الإسلام أن الإسلام دين الله، أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وقد وعد بإظهاره على الدين كله، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وهو الفعّال لما يشاء والخلق كلهم عيال الله وعباده، يجُري ما يشاء على يد من شاء منهم، لا تقيد إرادته بجنس من الناس ولا لون ولا جيل ولا زمن ولا مكان، ولا فرد أو جماعة، وإنما ينصر الله من ينصره كائناً من كان.

فليتقدم صاحب الخطوة العظمى أينما كان في أرض الإسلام، وليأخذ زمام مسيرة إصلاح المجتمع المسلم الاجتماعي ليضعه على النقطة الأولى من

الخط المستقيم على أساس المنهج النبوي، وكل إصلاح لا يقوم على أساس هذا المنهج النبوي إنما هو قعقعة دعائية فاسدة، سيكشفها الله ويبطلها، لأن الله لا يصلح عمل المفسدين.

وليحرص الممكَّنون في الأرض من قادة المجتمع المسلم على إصلاح الشباب أشدّ الحرص؛ لأن الشباب عصب حياة المجتمع المسلم، ومن الشباب ينبغي أن يبدأ الإصلاح الفكري والاجتماعي، لتغير هذه المناهج التعليمية في مؤسسات الدراسة، وتوضع مكانها مناهج إسلامية تستمد روحها وقوتها وصلاحيتها من المنهج النبوي الذي قام على دعائمه بناء المجتمع المسلم في قيادة الإنسانية ونشر الهداية وتبليغ الرسالة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

جهاد القتال في المنهج النبوي لم يكن قط وسيلة لنشر الدعوة إلى الله وإنما كان علاجاً لمرض فجور الكفر

بهذا العرض المسهب بسوق النصوص والبراهين القولية والعملية الدالة على أن جهاد القتال في منهج المجتمع المسلم لم يكن قط قاعدة من قواعد نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة الخالدة، رسالة الإسلام ـ وإنما كان علاجاً لمرض فجور الكفر وعتو العناد المستكبر عند المشركين والوثنيين الماديين، بعد اليأس من الشفاء بالحجة البيّنة، والبيان المنير، وبعد عرض الموادعة بالجزية للتأمل والنظر في الدلائل الهادية إلى الحق، أو المهادنة بالعهود الموقوتة التي تكتفي من المعاهدين بألاّ يحاربوا المجتمع المسلم، ولا يعينوا عليه، ولا يظاهروا عدواً له، كما وقع في موادعة بني ضَمْرة وبني مُدْلج في أول خرجات رسول الله ﷺ لتلقّي عير قريش وتجارتها، وهي ذاهبة إلى الشام وقادمة منه، رجاء يقظة عقل الفجرة من المشركين الوثنيين من غفوته، ليستبين راشداً سبيل المؤمنين ـ مهَّدْنا لاستعراض بعض غزوات النبي ﷺ الكبرى، ببيان أسبابها المباشرة وأحداثها الهامة، ووقائعها الفاصلة، لنظهر ما انطوت عليه صحائفها من حكمة بالغة وسياسة حكيمة، وعدالة ممزوجة بالرحمة، وقوة مظاهر المؤاخاة ورسوخ في الإيمان الموحِّد لعناصر المجتمع المسلم، وثبات في مجال الاستشهاد، وحب للموت في سبيل إعلاء كلمة الله

وتبليغ رسالته إلى العالمين.

تطبيق المنهج النبوي دليل قاطع على أن جهاد القتال كان دفاعياً

وبهذا البيان وضعنا معالم المسير بالدعوة إلى الله على طريق الجهاد، ذلك المنهج النبوي الذي توخاه الراشدون في وصاياهم لقواد جيوشهم وكتائب فتوحاتهم في أرجاء الأرض، والذي تأسّى به الأمراء الصالحون، وولاة العمل في الولايات في سلوكهم لتبليغ رسالات الله وما نزل من الحق لهداية الإنسانية أينما كانت في مشارق الأرض ومغاربها.

فكانوا ـ إذْ كان المنهج النبوي نبراسهم ـ لا يقاتلون إلا من قاتلهم، ولا يهيجون إلا من نصب لهم الحرب، ولا يزعجون الآمنين في أسرابهم الذين كفُّوا أيديهم عن القتال وظلفوا أنفسهم عن مطامع العداوة والبغي للمجتمع المسلم، ولا يفاجئون قبل الدعوة إلى الله وطلب المهادنة إلا من عرفوا أنه لا سبيل إلى موادعته ومهادنته، وعلموا أنه يعدّ لهم الحرب والقتال متدسِّساً وراء أغطية المكر والغرور.

ومنهج النبوة لا يؤخذ بضلالات من ضلّ عن طريقه، ولا يحكم عليه بأوضاع من لم يحكّمه في حياته.

وفي ظل هداية المنهج النبوي ومعالمه نسوق الحديث في هذه الغزوات النبوية التي نخصصها في اختيارها بالبحث، باعتبارها نماذج لأظهر الوقائع التطبيقية لهذا المنهج النبوي في مجال الجهاد، وهو المجال الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على قوة المؤاخاة بين عناصر المجتمع المسلم، تلك المؤاخاة التي كانت وظلت وستظل هي القوة الأولى في مواقف المجتمع المسلم الجهادية، بقطع النظر عن قلة عدد المجتمع المسلم أمام أعداد أعدائه، إلى أن تمكّنت المجتمعات الوثنية المادية الملحدة القديمة والحديثة ـ بعد قرون من قيام المجتمع المسلم في تركيبه المتآخي فتحت فيها إفريقية وفارس كلها، والأندلس، وحررت مصر من نير الرومان، وفتحت جزر البحر المتوسط، وأواسط أوربة، والهند والسند والصين، وأندونيسيا وما حولها ـ من وقف تيار المد الإسلامي واندفاع المجتمع المسلم في مسيرته لتبليغ الرسالة الخالدة الخاتمة.

الإمام السهيلي يروي من حقائق التاريخ ما تحقق من عمل المؤاخاة في انتصارات المجتمع المسلم مع الفوارق الصارخة بين إعداد المجتمع المسلم وإعداد أعدائه

يقول السهيلي في (الروض) وهو يبحث عن التولِّي يوم الزحف وقوله (الآن خفَّف الله عنكم): يدل على أن ثَمَّ حكماً منسوخاً وهو الثبوت للعشرة، فإذاً للآية ظهر وبطن، فظاهرها خبر ووعد من الله تعالى أن تغلب العشرة المائة، ويدل على هذا الحكم قوله: ﴿حرِّض المؤمنين على القتال﴾ فتعلق النسخ بهذا الحكم الباطن، وبقي الخبر وعداً حقاً، قد أبصره المؤمنون عياناً في زمن عمر بن الخطاب، وفي بقية خلافة أبي بكر في محاربة الروم وفارس بالعراق وبالشام، ففي تلك الملاحم هـزمت المئون الآلاف من المشركين، وقد هزم خالد بن الوليد مائة ألف حين إقباله من العراق إلى الشام، ولم يبلغ عسكره خمسة آلاف، بل قد رأيت في بعض فتوح الشام أنه كان يومئذ في ألف فارس، وكان قد أقبل من العراق مدداً للمسلمين الذين بالشام، وكان الروم في أربعمائة ألف، فلقي منهم خالد مائة ألف، ففضّ جمعهم وهزمهم، وقد هزم أهل القادسية جيوش رستم وقتلوه، وكان رستم في أكثر من مائتي ألف، ولم يكن المسلمون في عشر ذلك العدد، وجاؤوا ـ أي الفرس ـ معهم بالفِيَلة أمثال الحصون عليها الرجال، ففَرت الفِيَلة وأطاحت ما عليها ولم يردها شيء دون البلد الذي خرجت منه، وكذلك ما ظهر من فتح الله ونصره على يدي موسى بن نصير بإفريقية والأندلس، فقد كان في ذلك أعجب العجب، فكان وعد الله مفعولاً ونصره للمسلمين ناجزاً، والحمد لله.

وكل ذلك وغيره من الفتوحات ونشر الدعوة إلى الله إنما تم على أساس المؤاخاة التكافلية، وعملها الإيجابي في جعل المجتمع المسلم قوة لا تقهره قوة مهما عظم عددها وعدتها إلى أن تمكنت مجتمعات الوثنية الملحدة من حل عواصمها الموحِّدة لعناصر المجتمع المسلم بما بثته في أرجائه من انحلال خلقي، وجمود فكري، وانطلاق مع الرغائب الشهوية الهابطة، وإخلاد إلى حب الدنيا، فانحلَّت روابط هذه المؤاخاة، وتفرقت كلمة المجتمع المسلم، ومُزِّق شمله شذر مذر، وذهبت معالم قوته مع ذهاب عواصم مؤاخاته، وانتهى أمره إلى هذه المهازل المضحكات المبكيات من المجتمعات التافهة الذليلة، في مسوخ أشباح دويلات هزيلة ذليلة، يكيد بعضها

البعض، ويتخذ بعضها أعداء الإسلام دريئة تتقي بها ضربات الوثنيات الملحدة الداعرة، فإذا تحدّثت زعامات هذه الأشباح الهزيلة من حكام المجتمع المسلم في المجالات الدولية أحاديث مأجورة النشر والإذاعة سمعت لها دويّ الطبول على قنن الشوامخ، ولتقل ما تشاء ما دام حديثها (لا يضر الغنم) فإن تطرق الحديث إلى شاردة من الجد أغنت في التخاذل المذل نظرة شذراء من عين وثنية فاجرة تملك صولجان القوة في يومها اللعين.

فتنة المجتمع المسلم بالمظاهر المادية والرغائب الشهوية في واقعه اليوم ألهته عن حقيقة وضعه في الحياة فكان كما نرى

هـذا هو واقع المجتمع المسلم الذي يعيش فيه اليوم في ظل الفن والفنانين والفنانات وناطحات السحاب من القصور و(السرايات) والطرق (المسفلتة) وأزيز السيارات، وهو يغطّي تحت جلده بثور الفساد تنخر في عظامه، ودمامل الانحلال تحول دماءه إلى صديد، يتجرعه في صور خادعة من الشهوات الحضارية المستوردة تقتل في الشباب حميته ورجوليته، فأنّى، وكيف، ومتى يؤوب الحق إلى منازله، ويصحو المجتمع المسلم من رقدته، ويفيق من تخديره؟ أبهذه الخطب الرنّانة المحفوظة، والأحاديث الطنّانة التي يستهلك بها ما بقي لهذا المجتمع من وعي يوشك أن يكون صرخة داوية لا ترد صداها آفاق التقدمية العصرية، أم بهذه الشعارات الدعائية في الصحافة والإذاعات والتلفزة والندوات والمؤتمرات التي تعقد لتنفض لغير شيء.

هذا هو المحال الذي ليس وراءه ولا فوقه محال، إنما يؤوب الحق إلى منازله بوسائله التي أقامته في نشأته شامخاً وأحاطته بكل قطرة دم يملكها المجتمع المسلم الذي أقام هذا الحق على دعائم المؤاخاة في الله، ولله، فانتصر وعم قهره للطغاة، وردّ كيدهم في نحورهم.

إذا عادت إلى المجتمع المسلم روح الفدائية بالدم وأعد للأمر عدته عاد إلى عزته وعادت له كرامته

فإذا استطاع المجتمع المسلم في حاضره أن يفدي الحق الإلٰهي بقطرات دمه في مجال الدعوة إلى الله، وأن يعدّ القوة المرهبة لأعداء الله وأعدائه إعداداً ذاتياً ينبع من روحه وثرواته التي لا تنفد، وتفكيره الذي لا ينضب، عندئذ فقط يعود الحق إلى منازله، وتعود العزّة والكرامة والحرية إلى هذا المجتمع إذا اعتصم بالمنهج النبوي في تربيته وسلوكه.

هذه هي سبيل أوبة الحق إلى منازله لمن أراد أن يعمل كما عمل رسول

الله ﷺ وأصحابه من بعده وكما عمل المجتمع المسلم من بعدهم.

كانت غزوات النبي ﷺ في صورتها التطبيقية العملية لمنهجه التربوي متأسى لكتائب الجهاد في أمته من بعده

ومن هنا كانت غزوات رسول الله ﷺ بأصحابه على أساس منهجه - على قلة العدد وضعف العدة - مُثلا مضروبة، ونماذج متقيَّلة في الجهاد لإعلاء كلمة الله الذي تمّت بـه أعظم الفتـوحات المادية والـروحية والفكـرية والاجتماعية والتربوية السلوكية.

لقد عرف المجتمع المسلم الجّد الصارم إذْ كانت المؤاخاة التكافلية حقيقة واقعة، وما يريد به أعداؤه يوم أن نفض عن كاهله غبار الذلّة والمهانة، وقرر أن يعود إلى منهجه في المـؤاخاة التكافلية، بعد أن خدعته الوثنيات الملحدة، فأنسته بإلحادها وفجورها هذا المنهج وباعدت بينه وبينه، فأفقدته دعائم مؤاخاته التي هي في الحقيقة القوة الأساسية لوجوده - عزيزاً كريماً على الحياة وعلى نفسه ومنهجه، وهي قوته الأولى في مجال الجهاد لإعلاء كلمة الله.

عرف ذلك المجتمع المسلم يوم أن وقف في وجه الزحوف التتارية الجارفة المُدَمْدِمة، بقيادة رجل لا يعرف التاريخ له جنساً مشهرّاً من أجناس البشرية نماه إليه، ولكنه عرفه ويعرفه بأنه بطل المجتمع المسلم الذي عانقت وقائعه الجهادية وقائع خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة، في القضاء على جحافل التتار المتوحشة في غاراتها، المدمِّرة لكل ما يقف أمامها من بشر أو شيء.

تأسّى بها بطل الإسلام قطز في جهاده للوحشية التتارية حتى قضى عليها

هذا البطل المسلم الذي خلد التاريخ ذكره في أضوأ صحفـه أخذ بزمام المجتمع المسلم فقاده في المعركة الفاصلة باسم الإسلام في ظل المؤاخاة التكافلية التي أقام عليها رسول الله ﷺ تركيب المجتمع المسلم الاجتماعي فكان بها قوة موحدّة لا تقهر، فلما عاد المجتمع المسلم إلى الاعتصام بهذه المؤاخاة رُدّت إليه قوة وحدته الإيمانية، فهزم التتار هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة، ومزّق جحافلهم شرّ ممزّق، لأنه مرّ على عزيمته قدماً، لم تخدعه انتصارات الجولة فيتوقف، ولكنه أتبع الضربة ضربات، حتى بلغ بالمعركة مداها، فأنهاها بالنصر المؤزر الذي رفع شأن المجتمع المسلم، وأعاد إليه

تركيبه الاجتماعي الموحّد بقوة الإيمان في ظل المؤاخاة، لأنه سمع منهج المجتمع المسلم يقول في المواقف الحاسمة: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرِّد بهم مَنْ خلفهم لعلهم يذكرون﴾[1]

آيات من سورة بدر الكبرى (الأنفال) كانت عنواناً للمنهج النبوي في تطبيقه العملي

والمعنى أن الله تعالى يقول لرسوله محمد ﷺ في صدر إقامة منهجه الجهادي: فإن ظفرت بأعدائك وأعداء مجتمعك المسلم، وتمكنت منهم في حال الحرب فاضربهم الضربة الحاسمة التي تفرق جمعهم، ويسمع دويّها من وراءهم من أعداء الحق والهدى المتربصين بك الدوائر، فيركبهم الرعب والذعر، ويملأ قلوبهم الهلع والخور والجبن، فيتفرقون آيادي سبأ، ويذهبون في الأرض كل مذهب، فلا يجتمعون لك بعد هذه الضربة الحاسمة أبداً، ولا تحدثنَّ نفسك بما يفت في عضد مجتمعك من هدنة أو موادعة أو رهبة من حليف لأعدائك متستر بالنفاق السياسي، أو كاشف عن عداوته المستورة، لينصر عليك أعداءك ويظاهرهم بالسلاح والأموال ليعودوا إلى حربك، بل امض على عزيمتك، فالنصر بيدنا وقوتنا لا بأيدي المنافقين السياسيين المتسترين بالنفاق والخديعة مهما كانت قوتهم المادية، فقد نجعلها عليهم ونردها في صدورهم ونهلكهم بها ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حَسْبك الله، هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين، وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم * يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين، يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾[2].

يقول جل شأنه: إن هؤلاء الأعداء لك ولمجتمعك المسلم هم والمتسترون وراءهم المتربصون بكم هم في عداوتهم لكم على سواء، فإن أرادوا أن يخدعوك بأساليب النفاق ومعسول القول فلا تبال بخديعتهم فالله كافيك شأنهم وشأن مكرهم السيء، فهو الذي أيدك ونصرك بسابق فضله عليك وعلى المؤمنين معك، كما أيدك بهم، وهم الذين أحيت بينهم مؤاخاة التكافل التي جمعت

---

(١) سورة الأنفال آية (٥٧).

(٢) سورة الأنفال آيات (٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥).

قواهم فوحّدتها في ظل الإيمان، ولولا فضل الله عليك وعليهم ما تمكنت من تأليف قلوبهم بعد الذي كان بينهم من العداوة الجاهلية والبغضاء العصبية ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً من مال وزخرف ومتاع، ولكن الله الذي بيده مقاليد الأمور كلها، وبيده قلوب العباد يصرِّفها كيف يشاء هو الذي ألفّ بينهم بالمؤاخاة التي أمرناك بعقدها بينهم، فكانت حصناً لكم لا يرام اقتحامه ما دام قائم الدعائم، لأن الله الذي ألف بين هذه القلوب المتنافرة عزيز لا يغالب، حكيم لا تفوته ذرة من مصالح عباده، وقد كانت المؤاخاة بين عناصر مجتمعك مظهراً من أعظم وأبدع مظاهر وبدائع حكمته وتدبيره لك ولأمتك ومجتمعك المسلم.

وبطل ثان تأسّى بالمنهج النبوي فقضى بهذا التأسّي على الزحوف الصليبية وحرر بيت المقدس ورفع عزة المجتمع المسلم

وعرف المجتمع المسلم الجدّ الصارم مرة أخرى، يوم أن عاد بعد غفلة إلى منهجه النبوي في ظل المؤاخاة التكافلية يوم أن وقف في وجه الزحوف الصليبية المتكالبة المتألبة على المجتمع، المجمّعة من جميع بلاد أوربة النصرانية يسوقها الحقد الكفور، وتدفعها الحفيظة المضطغنة على المجتمع المسلم الذي أظلهم برحمته وسماحته لتسحقه وتنتزع من يده ثالث الحرمين وأولى القبلتين، ومسرى رسول الله ﷺ، ومبدأ معراجه إلى حظائر القرب حيث سمع صريف الأقلام، فما زاغ البصر منه وما طغى - بقيادة رجل لم يدّع التاريخ له نسباً عربياً، ولكنه عرفه في صحائفه بأشرف وأنبل وأقوى وأعظم البطولات التي ربّاها المجتمع المسلم بمنهجه التربوي السلوكي.

ذلك البطل هو الفحل لا يقدع أنفه، ولا ترام منزلته إلا في الخوالد الخالدية صلاح الدين الأيوبي الكردي أرومة، المصري الشامي نشأة وملكاً وخلوداً، أحد الراشدين من ملوك الإسلام وقادة المجتمع المسلم الذي وقف أمام زحف الصليبيين طوال أيام حياته. لا يسأم الجهاد، ولا يملّ القتال لإعلاء كلمة الله وكلمة الحق الإلهي، لم يهادن ولم يداهن، ومضى معتصماً بمنهج النبوة لا يتردد، ولا يتوقف ولا يرهب أحداً إلا الله تعالى، حتى هزم جموع الصليبية الحاقدة المغرورة بكثرة أعدادها المتعزِّزة بقوة عُدتها، هزيمة رعبلت حشودها، وأذلّت تعظمها وغرورها، وأسر قوادها وملوكها ثم عفا

عنهم فأطلقهم بعد أن حرّر بيت المقدس من رجسهم وبعد أن خاض إلى حربهم أنهراً من الدماء المسلمة التي سفكها أولئك الفجرة المتعصبون، وجاد بها جند المجتمع المسلم فجادوا بأرواحهم ثمناً لإحياء المنهج النبوي في الدعوة إلى الله، وحماية كرامة المجتمع المسلم، وإحياء عزته وإعادة كرامته.

فتنة المجتمع المسلم بحب التقرب إلى ذئاب السياسة الجائعة أنسته عواصم قوته في المؤاخاة وألبسته جلابيب القوميات الجاهلية المتنافسة

ثم ـ واحسرتاه ـ عاد المجتمع المسلم إلى نسيان منهجه في الجهاد المظلل بالمؤاخاة التكافلية، فعاد إليه مع هذا النسيان الذل والهوان، والضعف والمهانة، والاستعباد والاستبداد، وتنادت في آفاقه وأرجائه القوميات (المنتنة) التي شتتت قوة المجتمع المسلم وهي تدعو إلى ظلمات التاريخ الكفور، وعادت الصليبية إلى الشرق المسلم، لا لتحارب حرب مواجهة مسلحة، ولكن لتتدسس في مجتمع المسلمين الذين كفروا بمنهجهم النبوي واستبدلوا به مناهج السياسة الذليلة المستجدية المغلفة بالقوميات الجاهلية الوثنية، وآمنوا بهذه القوميات الوثنية مرتدين عن إيمانهم بمنهجهم النبوي الذي أعلى شأنهم وأعزهم، وانتصروا به من بعد ما ظلموا، وصدق حدس الظالمين الذين أقاموا لهم دويلات تافهة على أساس هذه القوميات المفرِّقة لوحدتهم المسلمة، يحوطها الذل والهوان من جميع جوانبها على أساس تعصبي، بعضه قومي موغل في القومية المظلمة، وبعضه تنافس شخصي بين الأخوة، وأبناء العم، تقرباً لمن أغروهم بهذه القوميات، فتفرق المجتمع المسلم شيعاً، لكل شيعة سيد من الذئاب الجوعى التي دخلت عليهم حظائر تاريخهم في أهب الحملان الوادعة التي تشمَّمت أرض هذه الحظائر، وتنّسمت جوهـا، ورصدت سماءها، فوجدوا أريج الكنوز والخزائن ينفح منها، فأخذوا يحفرون أرض الحظائر بأظافرهم وأظلافهم وأنيابهـم، وكأنهم يلعبون كما تلعب الذئاب حول قنصتهاحتى تفتحت لهم كهوف الكنوز ومغاور الخزائن، فعبّوا منها وجرفوها جرفاً، وحملوا منها السفائن وقاهرات المحيطات إلى بلادهم.

وأصحاب هذه الكنور والزخائر سكرى بخمر القوميات والعصبيات الشخصية المسعورة، كلما همّوا أن يفيقوا من سكرتهم أدركوهم بسعوط المخدِّرات الشهوية، وأنشقوهم المنومّات الحالمة، وأتخموهم بالفتن والتحريش

القوميات الجاهلية أسكرت قادة المجتمع المسلم فغفلوا عن كنوز أوطانهم التي جرفها الذئاب محملة إلى بلادهم

والمهارشة الكلامية أو القتالية (العائلية) حتى يعودوا إلى رقدتهم ساهين لاهين بأحاديث الغالب والمغلوب، من كل تافه رخيص، حتى إذا طمّ الثراء المنزوع المختلس، وتصاعدت آرواحه إلى آنافهم تنبّه بعض القوم، فصَحُوا مذهولين، مأخوذين عن أنفسهم، وكأنهم لم يصدِّقوا ما يرون بأبصارهم، وحسبوا أنهم في أحلام من حياتهم اللاهية الساهية، فتحسسوا الأمر، حتى وقفوا على جليته، ولمسوا حقيقته فتنادوا (لإنقاذ ما يمكن إنقاذه) ولمح على وجوههم الذئابُ الجائعة هذا التطلّع، فجاؤوهم بخمر من دنان اليهود ومكرهم الخبيث السيء، خمر التحلل الخلقي والإباحية الخلقية في صور من الحضارة الداعرة التي تشبع الرغائب الشهوية، وتقتل النخوة، وتميت الرجولية، وتذهب بالعزّة والكرامة.

تنبّه السكارى من قادة المجتمع المسلم فقادتهم الذئاب الجائعة إلى موائد التحلل الخلقي اليهودي، حتى مالت رؤوسهم على مناكبهم

وحوّلت الذئاب الجائعة تنافس القوميات والعصبيات بين الحملان الثائرة إلى تنافس في فجور الشهوات وصورها وألوانها، وأقاموا لهم موائدها، وعبؤوها بفضلات الفتات المتعفن المتساقط من أخونتهم، فتنافسها الحملان في تهارش وتناطح، وغابوا في أوحالها عن حسِّهم وشعورهم، وعاد الظالمون إلى دأبهم في النهب والاختلاس، وضاعفوا قواهم ووسائلهم ليستنضبوا المعين الفياض، ولم يزالوا به نزحاً حتى إذا كاد ينضب معين الكنور والخزائن أفاق السكارى، وعاد إليهم بعض حسهم وشعورهم وتصايحوا: أرضنا وكنوزنا وخزائننا وخيراتنا، فقال الظالمون: نعم، إنها أرضكم، وكنوزكم، وأنتم أصحاب الأرض، ومالكو كنوزها وخزائنها، ولكن نحن الذين أخرجناها بجهدنا، وعلمنا وأفكارنا ومعارفنا، وآلاتنا، وحفرنا عليها بأظافرنا وأنيابنا، فلنا حق العمل ولكم حق الملك، ونحن وأنتم شركاء فيها، واصطلح الذئاب مع الحملان على قاعدة (جوّع. . . . يتبعك) والشعوب الجائعة المظلومة المعذبة في الأرض هي الضحية لشركة الذئاب والحملان، وقد أُتخم أصدقاء الذئاب من فضلات الفتات المتعفن المتساقط من أخونة الذئاب الذين حطهم أولئك الذئاب نُصُبا وتماثيل على كراسي مزركشة في قطع من أرضهم، فيها شتات من أشباح في صور بشرية وقالوا لهم: هذه الكراسي عروش دول، وقالوا لكل أبله بطين: هذه أرضك أنت، وهذه دولتك

ثم حطّوهم على كراسي الحكم في أوطانهم فانحطوا ملوكاً وحكاماً وزعماءَ وقادة لثورات الاستقلال الزائف فكانوا أدوات لتنفيذ رغائب الذئاب الجائعة

وهؤلاء رعيتك، فصدق أن له أرضاً، وأن له دولة، وأن له رعية يحكمها وهو على كرسيه المزركش.

وما يضر الذئاب إذا ألْبسوا هذا الحمل الأجرب جلد ذئب، وحملوه إلى عرين بعض الأسد، ليجلس معهم على خوان طعامهم في بلادهم ليخيلوا له أنه صاحب عرين مثلهم، ويتركوه يمأمىء مع زئير الأسد ليصدِّق أنه أسد صاحب عرين، ثم يعيدوه منتفشاً إلى حظائر الحملان حتى يأتيه قدره، و(إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين).

* * *

كانت غزوات رسول الله ﷺ رحلات هداية وتطهير للبشرية من رجس الشرك والوثنية

إن المنهج النبوي في قواعده وأصوله، ووصاياه للقيادات الجهادية التي طبقته أحسن تطبيق، تأسياً بالنبي ﷺ في غزواته الهادية الداعية إلى الله، المبلِّغة رسالاته إلى العالمين ـ جعل من هذه السفرات ـ التي عرفت في التاريخ باسم الغزوات، تبياناً لمضمونها من القصد الذي ينأى بها عن العبث والمغالبات الظالمة التي كانت تبعث الحروب وتسودها في جميع العصور الجاهلية الإنسانية ـ رحلات هداية وتطهير للبشرية من رجس الشرك وأوضار الوثنيّات الماديّة ومظالمها، ولم يجعلها قط إغارات نهب وسلب تسفك فيها دماء الآمنين، وتُسبى نساؤهم، وتُستعبد ذراريهم بالظلم والقهر اللذين كانت تُسامها البشرية سعيراً من طغاة المشركين، وفجار الوثنيات المتلونة في ألوان وصور فكرية واجتماعية لمحاربة عدل الرسالات الإلٰهية.

ولم يعرف في تاريخ هذه الغزوات الهادية أن رسول الله ﷺ نهض في غزوة قتال، أو عقد لواء بعث أو سرية إلا لمن كان محارباً له ولمجتمعه المسلم، ولم ينهض ﷺ في غزوة من غزواته داعياً إلى الله مبلِّغاً رسالة ربه فقاتل إلا بعد أن يبذل أقصى الجهد في بيان الدعوة ـ أولاً ـ ثم الموادعة بالجزية، أو المهادنة بالعهد ـ ثانياً ـ وبعد أن يستنفد كل وسيلة يمكن بها إتقاء القتال ثم يقاتل إن قوتل.

والمعروف أن الهجرة النبوية كانت الحد الفاصل بين مرحلتين في حياة المجتمع المسلم، المرحلة الأولى هي المرحلة المكية التي أوضحنا موقف

كانت الهجرة النبوية حداً فاصلاً بين الكفاح الصبور والعدل المنصف

المجتمع المسلم فيها على قلة عدده وضعف عدته وعجزه عن الدفاع عن نفسه من طغيان أعدائه في كثرتهم وفجور عتوهم، وشراسة عنادهم، وبيّنّا أن هذه المرحلة كانت مرحلة تمحيص للمؤمنين وإلزام لهم بالصبر والمصابرة، واحتمال الأذى وتصاريف البلاء وصنوف المحن، مع الأمر بالعفو والصفح والغفران، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والتغاضي عن سفاهة السفهاء، وكان الصحابة يأتون النبي ﷺ من بين مشجوج ومضروب، يشكون إليه حالهم، ويطلبون منه أن يأذن لهم في ردِّ العدوان، وقتل من يستطيعون قتله من المعتدين، فيأمرهم بالصبر ويقول لهم: «اصبروا فإني لم أومر بالقتال».

مُثُل وشواهد على صبر الصحابة قبل الإذن لهم بالنصفة من أعدائهم

وفي حديث خبّاب بن الأرت رضي الله عنه عند البخاري قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسّد ببردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «قد كان من كان قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» وفي حديث آخر عند البيهقي ومسلم والنسائي يقول خباب رضي الله عنه: (شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء في وجوهنا واكفنا فلم يُشكنا).

قال ابن كثير في (البداية والنهاية): والذي يقع لي - والله أعلم - إن هذا الحديث مختصر من الأول، وهو أنهم شكوا إليه ﷺ ما يلقون من المشركين من التعذيب بحرّ الرمضاء، وأنهم يسحبونهم على وجوههم فيتقون بأكفهم وغير ذلك من أنواع العذاب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم على المشركين أو يستنصر لهم، فوعدهم ذلك ولم ينجزه لهم في الحالة الراهنة، وأخبرهم عمّن كان قبلهم أنهم يلقون من العذاب ما هو أشد مما أصابهم ولا يصرفهم ذلك عن دينهم، ويبشرهم أن الله سيتم هذا الأمر ويظهره، ويعلنه وينصره، وينشره في الآفاق.

وفي حديث كعب بن مالك في بيعة العقبة الكبرى أن النبي ﷺ قال

للأنصار بعد إتمام البيعة وردِّه على صرخة الشيطان: (ارفضُّوا إلى رحالكم) فقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» قال كعب: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فيها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلّة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغضُ إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

كانت البيعة الكبرى للأنصار بداية النهاية في مرحلة الصبر على فوادح البلاء والإيذاء

وقد كانت هذه البَيْعة الكبرى التي تمت بين النبي ﷺ والوافدين من الخزرج والأوس، في سبعين رجلاً بداية نهاية المرحلة المكية، أحسّ فيها طواغيت قريش بسعير الحرب يلفح وجوههم مع قوم هم أهيب في صدورهم وأرعب لقلوبهم أن تنشب بينهم وبينهم الحرب، فسُقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلُّوا الطريق، فلا إلى الهدى سلكوا فسلموا وعزّوا بعزة الإيمان بما جاءهم من الحق، كما عزّ هؤلاء الأنصار الذين يخشونهم أشد من خشية أي عدو لهم، ولا إلى قوة قادرة على مواقفة هؤلاء البهاليل بقية السيف أخلدوا، ولا إلى ركن شديد آووا وركنوا، ولكنهم لفجور عنادهم لجوّا في طغيانهم يعمهون، ورضُوا بالدنايا يحملون عارها وآثامها، رضُوا بأن يكونوا مناسر نَهْب، ولصوص سلب لأموال المهاجرين، يقتسمونها فيما بينهم، فقد سلبوا ثروة صهيب رضي الله عنه، واغتصبوا أمواله ثمناً لتركه يمضي في هجرته، ويلحق برعيله إلى المدينة المنورة، ونهبوا أموال بني جحش الذين أوعبوا في الهجرة، فلم يبق منهم بمكة ديّار، وتركوا وراء ظهورهم منازلهم وثرواتهم فسطا عليها أبو سفيان وباعها، وسلبوا الكثير من سوى ذلك، وجعلوا من هجرة صادقي الإيمان مجبنة يدثرون بها ما في قلوبهم من غل حقود على هؤلاء الصفوة من طلائع الإيمان الذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يتطهروا من أوساخ الوثنية وأقذار الشرك بالتوحيد، وأن الله تعالى هو ربهم لا يعرفون لهم ربّاً سواه، وأن يتنظّفوا في ظواهرهم وبواطنهم من جَشِع جبان يسطو على ما تركه مالكوه من مال أو متاع، شروا به أنفسهم ابتغاء

مرضاة الله تعالى، فأربح الله بيعهم، وعوضهم عنه أفضل ما يربح رابح في الدنيا والآخرة.

كان موقف المشركين بعد الهجرة من المجتمع المسلم موقف إعلان حرب سافرة فكان لا بدّ لها من إعداد للملاقاة

كان هذا الموقف من أحلاس الشرك، وطواغيت الـوثنية الفاجرة الحمقاء إعلاناً ساخراً للحرب على المجتمع المسلم، ولم يكن في ذلك مفاجأة لهذا المجتمع المسلم، ولا كانت الحرب بينه وبين قريش في عتو طواغيتها وفجور ملئها بغيبة عن تقديره واستعداده وتفكيره، ولكنها كانت متوقعة ناشبة، يصلى سعيرها ويبوء بهزيمتها الظالمون، وقد كانت المؤاخاة بنوعيها الفردي والجماعي بين عناصر المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم فآمن معهم أول خطوة في الإعداد لهذه الحرب المنتظرة شبوب أوارها في كل وقت وحين.

كان من أحكم التدبير السياسي إدخال اليهود بالتبعية للأنصار في كتاب المؤاخاة التكافلية بين عناصر المجتمع المسلم

وكان من الحكمة السياسية المؤذنة بتوقع هذه الحرب إدخالُ اليهود بالموادعة في كتاب المؤاخاة التكافلية بتبعيتهم للأنصار بيتاً، بيتاً، وطائفة، وطائفة، ليحكمهم سلطان الموادعة وعهدها الدستوري، تأميناً للمجتمع المسلم من مكرهم وغدرهم، وكانت هذه المؤاخاة هي القوة التي لا يفـلُّ سلاحها، والدعامة الراسخة التي لا تخضد شوكتها ولا تغمز قناتها، وقد حُلّت بها عواصم التكتل اليهودي في المدينة، وتوزعت بها جموعهم إلى طوائف وشيع، ربطت بها كل طائفة أو شيعة من الأنصار على جهة التبعية، فأصبح اليهود في صلفهم وغرورهم بثرواتهم تابعين للأنصار بعد أن كانوا متبوعـين يأمرون وينهون، وكسرت شوكتهم التي كانوا يتعظّمون بها بهذه التبعية المذلّة على حلفائهم ومواليهم من الأوس والخزرج الذين شرفوا بالإسلام، وأصبحوا مع إخوانهم المهاجرين عنصراً موحداً يمثل قوة المجتمع المسلم في ظل ظليل من المؤاخاة التي تحوّلت إلى إيثار لم تعرف البشرية له مثيلاً في تاريخها.

ولكن اليهود قوم يجري في دمائهم الغدر، وتستحوذ على قلوبهم الخيانة، ويستولي المكر السيء على تفكيرهم، ويحكم إحساسهم وشعورهم الحقد الأسود، وقد أحسُّوا بما أريد أو يراد بهم من تمزيق عصبيتهم وفك

عرى وحدتهم بوضعهم التبعي في كتاب المؤاخاة التكافلية، فجبنوا عن المعالنة والمجاهرة، ولجأوا إلى التدسس والتخفي والتآمر الخبيث، واتصلوا خفية بقريش ألد أعداء المجتمع المسلم، واتصلت بهم قريش فكاتبتهم وكاتبوها، وكشف كل فريق منهم عن دسيس نفسه بالنسبة إلى موقفهم من المجتمع المسلم، واتفقوا على الوقوف في وجهه ـ ليوقفوا زحفه الجارف الذي سيكتسحهم ويقضي عليهم هنـا وهناك ـ أن يقفوا أمامه قوة واحدة، اليهود بالمكر والتآمر والإرجاف وقريش بتحبيش الأحبـاش، وتجييش الجيوش، وتجميع المتربصين من القبائل الضاربين حول مكة وبطاحها، وتحريضهم على حرب المجتمع المسلم وقطع الطرق عليه في خارج المدينة، وإكساد تجارته وتعطيل مصالحه، ومنع من شاء منهم من المرور بمكة حاجاً أو معتمراً أو واصلاً رحماً، أو زائر صداقة، أو قافياً ضالة، أو مبتغياً حاجة، مع ما كان في أيديهم من أموال المهاجرين التي استلبوها اغتصاباً، ومزجوها بأموالهم، ليستكثروا بها من ثرواتهم وتجاراتهم.

تدسس اليهود في الاتصال بقريش لمحاربة المجتمع المسلم

فكان هذا الحصار للمجتمع المسلم لوناً من الحرب التي أشعلوا نارها من قبل، وأعلنوها اليوم شعواء لا تبقي ولا تـذر وزاد من وطأة هذا الحصار الخارجي ما كان من اليهود في داخل المدينة إذْ قبضوا أيديهم عن معاملة الأنصار، وكفوا أنفسهم عن معاطاتهم ليُكسِدوا تجارتهم، ويبوّروا ثرواتهم.

حرب اقتصادية كانت الشرارة الأولى في إشعال حرب القتال

ورأى النبي ﷺ ما يراد بمجتمعه المسلم من هذا الحصار الاقتصادي المدمر لثرواته في حياته الجديدة، ورأى ما تدبِّر قريش لحربه، وما تصنع يهود لمؤازرتها في هذه الحرب الساحقة، فماذا كان ينتظر منه ﷺ أن يصنع في هذا الموقف أمام أعدائه وأعداء مجتمعه الذين يريدون القضاء على دعوته والقضاء على مجتمعه بهذا الحصار اللعين؟

أفكان ينتظر منه ﷺ ومن مجتمعه المسلم الذي أقام تركيبه الاجتماعي على أساس المؤاخاة التكافلية أن يُلْقُوا بأيدهم ويُسْلِموا أنفسهم لهؤلاء الأعداء الذين فقدوا خصائص الإنسانية، واستبدلوا بها طبائع الوحوش؟

كان نهوض النبي ﷺ بمجتمعه المسلم للوقوف في وجه أعداء الله ضرورة اقتضاها موقف أولئك الأعداء

ففيم إذاً كانت المتاعب واحتمال صنوف البـلاء والمحن، ومشاق

الهجرة، وتكوين مجتمع جديد في تركيب اجتماعي تكافليّ؟

إن هذا كان من أجل الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمة الحق الإلٰهي، فليمضِ المجتمع المسلم في مسيرته ليحقق أهدافه بالوقوف أمام أعدائه حتى ينصر الله دينه أو يستشهدوا جميعاً في سبيله.

وبهذا التقدير للموقف نهض رسول الله ﷺ للردِّ على هذا العدوان الظالم الذي يمثل حلقة في سلسلة مظالم الفجّار من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية بلون من ألوانه، فهؤلاء الأعداء إذا كانوا في عدوانهم قد قطعوا الطريق على المجتمع المسلم وحصروه في مدينته، وهي مليئة بالأعـداء الداخليين من اليهود والمنافقين، فعند المجتمع المسلم ما هو أنكى وأبلغ في النكال بهم، ورد عدوانهم في نحورهم، وبتبوير تجارتهم بمنعهم متجرهم إلى الشام وهو طريقهم الذي لا طريق لهم سواه.

من مواقف تسعير مكة نار الحرب بينها وبين المجتمع المسلم

روى البخاري من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، من طريق أبي إسحق السَّبيعي قال: حدثني عمرو بن ميمون أنه سمع عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه حدث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان ـ أي سعد بن معاذ سيِّد الأنصار ـ صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أمية. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خَلْوة لعلِّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصُّباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لـولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد: ورفع صوته عليه، أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيِّد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا منك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى

أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتليّ، فقلت له بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنك متى ما يراك الناس قد تخلّفت وأنت سيد أهل الوادي تخلّفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذْ غلبتني فوالله لأشترينَّ أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل كذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر.

في هذا الحديث تصريح من قائد مجتمع الفجور بمكة الفاسق أبي جهل - ألدّ أعداء رسول الله ﷺ وأشدهم عليه حنقاً، وأملئهم غيظاً، وألأمهم حقداً، وأشنئهم للمجتمع المسلم - بقيام حالة الحرب بين مجتمع الشرك وأعبد الوثنية بمكة وبين المجتمع المسلم بالمدينة المنورة، وذلك في قول الفاسق أبي جهل لسعد بن معاذ سيّد الأنصار الذي كان يُعَدّ فيهم بمنزلة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه في المهاجرين، حين رآه مع أمية ساعياً إلى الطواف بالبيت: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويـتم محمداً وأصحابه، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً.

قوة الإيمان تقف منفردة أمام فجور الكفر في عقر داره وملئه

فقال له سعد بن معاذ وهو يرفع صوته متعزِّزاً بقوة الإيمان: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، ومتجرك إلى الشام، فوجم لها الفاسق أبو جهل، ولم يَحِرْ ردّاً عليها، وعلم أن المجتمع المسلم الجديد بالمدينة المنورة يملك لحرب الطغاة الفجّار ألواناً من الرد على خنزواية الغرور الأجوف في بقايا أشباح الملأ من زعماء الكفر، ورؤوس الفجور الوثني الحقود.

ولم يجد أمية بن خلف لإنقاذ الموقف سوى منافقة غميز الرجولية أبي

جهل بقوله لسعد بن معاذ وهو يصرخ في وجه أبي جهل بما ألقمه الخزي والخذلان، وردّه إلى شأنه من الخور والجبن: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيِّد أهل الوادي، وهذه المنافقة بين أمية وأبي جهل لون من تقارض الثناء الكذوب.

وقد قتل الله أمية وأبا جهل فيمن قتل من زعماء الكفر والفجور في يوم بدر العظمى شرّ قتله، كان فيها خزي أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء المجتمع المسلم، الذي نصره الله في هذه الوقعة نصراً كان له في مجتمعات الكفر دويّ الإعصار المدمدم بما ملأ به الآفاق من رهبة ورعب، دخل في قلب كل كافر سمع دمدمته، حتى مادت الأرض تحت أقدام كل متربِّص بالدعوة إلى الله، متسمِّع لأنبائها، وهو أول نصر للمجتمع المسلم أطاح رؤوس زعماء الوثنية البليدة وشرّد مَنْ خَلْفهم من اليهود والمنافقين، وفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله تمضي قدماً إلى الآفاق مشرِّقة هادية.

والظاهر من مجموع الروايات وفحوى رواية البخاري أن حادثة سعد ابن معاذ مع أمية وأبي جهل بمكة كانت قبل أن ينهض النبي ﷺ ليتلقّى عير قريش حين مروره إلى الشام وإيابه منها، كما أن الظاهر أن هذه الحادثة هي ـ مع أمثالها ـ التي حركت النبي ﷺ للنهوض إلى التعرض لتجارة قريش تحقيقاً لقول سعد لأبي جهل: لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك، طريقك على المدينة، لأن سعداً عاد إلى المدينة المنّورة، ولا بد أن يكون قد حدّث النبي ﷺ بما كان بينه وبين أمية وأبي جهل، فابتدر النبي ﷺ الأمر ونهض للتعرض لعير قريش وهي صاعدة إلى الشام، فلما فاتته تعرّض لها وهي آيبة إلى مكة. ويشير الحديث إلى أن حادثة سعد كانت مما حرّك النبي ﷺ إلى النهوض لتعرّضه لعير قريش.

فتنة اطفأها الله بحكمة السياسة النبوية

ومن أظهر الدلائل على قيام حالة الحرب بين مجتمع الشرك والوثنية في مكة والمجتمع المسلم في المدينة المنورة ما رواه ابن مردويه بإسناد صحيح ـ كما قال ابن حجر في الفتح ـ قال: كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبيّ وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيوائهم النبي ﷺ وأصحابه

ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهمّ ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين، فأتاهم النبي ﷺ فقال: «ما كاد كم أحد بمثل ما كادتكم قريش، يريدون أن يُلْقُوا بأسكم بينكم» فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا.

وفي هذا الحديث لمحة سياسية تدل على ما حبا الله به رسوله محمداً ﷺ من الحكمة النافذة إلى أغوار النفوس البشرية، ومن التدبير المحكم في البديهة والتأمل على سواء، ذلك أنه ﷺ أتى ابن أبي ومن معه من عبدة الأوثان، وهم أعداء المجتمع المسلم، من قبل قوميتهم التي تربطهم بالمسلمين من الأنصار، وأفهمهم أن قريشاً تريد أن يقتل بعضكم بعضاً، وتؤرّث بينكم العداوة والبغضاء، لتلقي بأسكم بينكم، فلما تأمّلوا قوله ﷺ ثابوا إلى رشدهم وعرفوا الحق فتفرقوا.

لا شك في أن موقف أعداء المجتمع المسلم من هذا المجتمع موقف حرب متحفزة للوثوب

هذه براهين قاطعة تدل على أن موقف أعداء المجتمع المسلم من هذا المجتمع كان موقف حرب شعواء مسعورة كما دلّ عليه كتاب قريش إلى ابن أبي ومن معه من عبدة الأوثان، إلى جانب ما كان منهم إليهم من ظلم صارخ وعتو فاجر وما أنزلوه بطلائع هذا المجتمع من أفانين البلايا والمحن، وما استحوذوا عليه من أموالهم بأحط طرائق النهب والسلب والاغتصاب، وأدخلوها في أموالهم وثرواتهم لإرباء تجاراتهم التي يخرجون بها في عيرهم وقوافلهم إلى الشام ذهاباً، ويؤوبون بها إلى مكة بعد أن يتخموا من الأرباح الظالمة، مارِّين بها على المدينة عاصمة المجتمع المسلم ومستقره التي اتخذها حصنه المنيع، وقلعته التي لا ترام.

فهل إذا نهض النبي ﷺ لحماية مجتمعه ودعوته ليقف أمام الظلم وفجور الكفر يكون ﷺ محارباً لحرية التجارة وحرية العيش؟

أفإن نهض النبي ﷺ ليمنع هؤلاء الظلمة من فجّار الكفر، وطغاة الوثنية المنحطة من أن يدوسوا على حرمة مدينته، وكرامة مجتمعه المسلم، ويستخلص من أيديهم أموال أصحابه من المهاجرين الأولين التي اغتصبها ملأ الفجور من مشركي قريش بأحط طرائق النهب والسلب، وينتزع منهم ما يتعزّزون به من ثروات محرمة يحاربونه بها، يقول أعداء الإسلام إرجافاً برسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم: إن محمداً ﷺ وأصحابه يشنّون حرباً

هجومية على الآمنين ليكرهوا الناس حتى يؤمنوا بدعوته، ويندمجوا في مجتمعه، بدخولهم في دينه؟ وإنهم يقطعون طريق التجارة ويأخذون ما في أيدي أصحابها من أموال؟

أفإن نهض رسول الله ﷺ ليستعمل حقّه التي أعطته إياه قوانين السماء والأرض التي تحدد علاقات المحاربين من كل جنس ودين وأمة وجيل، يقول أعداء المجتمع المسلم متباكين على السلام، نادبين حظ البشرية: إن محمداً وأصحابه يقطعون الطريق على التجارات غادية ورائحة، ويعطِّلون سبل الحياة فيما يتعايش به الناس، ويتناسى هؤلاء الأعداء فجور إخوانهم أعداء الله وأعداء دينه في مكة بإنزال أفانين البلاء والمحن والتعذيب بالمؤمنين بدعوة محمد ﷺ، ويتناسون دساتير الدول، وقوانين الأمم في الحرب في معاملة المحارب بالمثل في ردِّ اعتدائه عليه، ويتناسون أن من حق كل محارب اعْتُدي عليه ظُلْماً أن يسحق عدوه بما يستطيع من قوة ما دامت الحرب قائمة لم تضع أوزارها؟

معاملة المحارب بمثل معاملته عدل قانوني جاءت به قوانين السماء والأرض

إن معاملة كل محارب بمثل سلوكه في الحرب هو أقل درجات العدل في القوانين المنظِّمة للعلاقات بين المتحاربين، لأن في هذه المعاملة بالمثل تحذيراً للطغاة، وانذاراً للظالمين في صور إيجابية عملية تعرِّفهم أن الحروب لا ضوابط لها، وكثيراً ما يفلت الزمام من أيدي القادة، وتنسى القوانين، وتلعب المغالبة دوراً قاسياً لا تحكمه القوانين، وقد يشتد أوار القتال فيأكل الأخضر واليابس من الطرفين، والمجتمعات البشرية (تتطور) في سلمها وحربها إلى ما هو أسوأ وأفحش في حضارتها المادية المدمرة.

رد الاعتداء ومقاومة الظلم ضرورة حيوية يتطلبها إصلاح الحياة

فلو لم يرد الاعتداء بمثله لكانت العواقب وخيمة على الحياة بمن فيها وما فيها، فالذين يريدون من المجتمع المسلم أن يقف مكتوف اليدين أمام جرائم أعدائه، فلا يرد عليها بمثلها ـ وهذا أدنى مراتب العدل الاجتماعي ـ يريدون من وراء ذلك أن تتعطل مسيرة الدعوة إلى الله، والدفاع عن الحق الإلٓهي، وإعلاء كلمته لتطهير الإنسانية من أوضار الشرك ورجس الوثنية، وفجور الإلحاد، تستراً بأغطية الحرية المنطلقة انطلاق الوحشية الحيوانية في

الغابات والسهوب لا تحكمها إلا الغرائز الثائرة المجنونة، والرغائب الشهوية الفاجرة المفتونة، وعندئذ تتحول الحياة الإنسانية إلى قطعان من أشباح البشرية تقف على شفير الهاوية انتظاراً لقاصف من الريح الجنوني يدفعها إلى مقرها، لتلقى نهايتها البائسة التي جرّها إليها الإلحاد المتحرر، أو التحرر الملحد ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾.

وفي ضمن هذه العموميات تظهر صورة المجتمع المسلم في موقفه مع أعدائه المعتدين عليه بزعامة طغاة الوثنية في مكة ليعرف الطغاة أن المجتمع المسلم في يومه بعد الهجرة غيره في أمسه، وهو بمكة مضطهد معذب مستضعف، لأنه كان مجتمعاً ناشئاً قليل العدد، ضعيف العدّة، لا يملك شيئاً من وسائل الدفاع عن نفسه، وكان مأموراً بالصبر والصفح والعفو عن الإساءات التي توجه إليه، وينزلها به الطغاة الظالمون من فجار الشرك والوثنية، ولكنه في يومه بعد الهجرة أصبح مجتمعاً قوياً في كثرته العددية، ونمو هذه الكثرة بصورة مذهلة لأعدائه، وقوياً بعدته الماديّة التي يملك بها الردّ على اعتداء أعدائه، بل يملك بها أن يسحقهم سحقاً بسبب ما قام عليه تركيبه الاجتماعي الجديد، وبنيانه الإيماني المؤسس على المؤاخاة التكافلية التي كانت قوته الأساسية في وقائعه الحربية.

فالمجتمع المسلم في يومه وتركيبه الجديد يملك من القوة المادية ما يستطيع به تحطيم تجمّعات أعدائه الظلمة، وقد كان ممنوعاً من الردّ على الاعتداء فأذن له فيه، فهو ممكّن من الوقوف أمام الطغاة موقفاً يكبح جماح غرورهم، وهم مصممون على حربه، ولا يردّهم عن عزيمتهم الطاغية إلا أن يعالنهم بمثل ما عالنوه به من الحرب، وهذا الذي كان منه ﷺ في خرجاته المنذرة متعرضاً لعيرهم التي تحمل تجارتهم غادية رائحة، وهي مارّة بالمدينة إنما كان إشعاراً لهم بأن المجتمع المسلم سيرد الاعتداء بمثله، وهو على أتم الاستعداد للقتال إذا أرادوا قتالاً ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾.

ولو كان النبي ﷺ يريد بغزواته مجرد قتال يكره به الناس حتى يؤمنوا

لم يثبت قط أن النبي ﷺ تعرض في غزواته لغير من نصب له ولمجتمعه الحرب، بل كان يوادع من لم يتعرض لحربه

بدعوته، ويدخلوا في دينه، ويؤمنوا برسالته لكان أحرى أن يكون ذلك مع من كان يقيم حول المدينة من القبائل، ولكنه ﷺ كان يخرج في طلائع غزواته مع نفر من أصحابه المهاجرين خاصة، لم يكن فيهم أنصاري ليلقى عير قريش وهي تحمل تجارتهم، وفيها أموالهم، وما نهبوه من أموال المهاجرين ليغنمها رداً على ما صنعوا في مكة وفي بدء الهجرة مع المسلمين، ولم يكن يخرج لقتال، وكان ﷺ يوادع من يلقى في طريقه من القبائل التي لم تنصب له الحرب.

يقول ابن إسحاق: غزوة ودان هي أول غزوات النبي ﷺ، خرج لها من المدينة في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة، يريد قريشاً، فوادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة، وادعه رئيسهم مخشيّ بن عمرو الضمري وكان سيدهم في زمانه ذلك، قال السهيلي: وكانت نسخة الموادعة فيما ذكر غير ابن إسحق: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ولهم النصر على من بر منهم واتقى).

تحقيق الاختلاف فيمن وادع النبي ﷺ عن بني ضمرة

وفي فتح الباري: أن الذي وادع النبي ﷺ عنهم رئيسهم مجديّ ابن عمرو الضمري، ولم أقع على ذكر مجدي فيما وصلت إليه إلا في بيت شعر في قصيدة منسوبة لأبي جهل، وهذا البيت هو كما جاء في سيرة ابن إسحاق

فورَّعني مجدي عنهم وصحبتي ... وقد وازروني بالسيوف وبالنبل

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لأبي جهل، وقد تكلم السهيلي على لفظ (مجدي) في الشعر المنسوب إلى أبي جهل فقال: وقول أبي جهل: وورّعني مجدي عنهم وصحبتي، وترك صرف مجدي لأنه علم، وترك التنوين في المعارف كلها أصل، لا ينون مضمر ولا مبهم، ولا ما فيه الألف واللام ولا مضاف، فكذلك كان القياس في العلم، فإذا لم يُنَوَّن في الشعر فهو الأصل فيه، لأن دخول التنوين في الأسماء إنما هو علامة

لانفصالها عن الإضافة، فما لا يضاف لا يحتاج إلى تنوين. ثم قال السهيلي: وقد كشفنا سر التنوين وامتناع التنوين والخفض مما لا ينصرف في مسألة أفردناها في هذا الباب وأتينا فيها بالعجب العجاب.

غير أن ابن سعد في الطبقات ذكر مجدي بن عمرو الجهني، وليس الضمري، كما في الفتح، وذكره ابن سعد في بعث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال: وخرج حمزة يعترض لعير قريش قد جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمئة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين جميعاً، إلى هؤلاء مرة وإلى هؤلاء مرة، حتى حجز بينهم، ولم يقتتلوا.

وقد ذكر ابن سعد مخشي بن عمرو الضمري في غزوة الأبواء وهي ودّان، فقال: وفي هذه الغزوة وادع ـ أي رسول الله ﷺ ـ مخشيَّ بن عمرو الضمري وكان سيدهم في زمانه، على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثِّروا عليه جمعاً ولا يعينوا عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً.

ومسلك ابن سعد أرجح، لأن مجدي جهني، ومخشياً ضمْري، ويؤيد ترجيحنا ما ذكره الزرقاني في شرح المواهب من أن مجدي بن عمرو الجهني إنما حجز بين سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وبين قافلة أبي جهل، وسرية حمزة كانت بعد ودّان بقليل، وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري مجديَّ بن عمرو في سرية حمزة بن عبد المطَّلب، ولم يذكر مخشيّ ابن عمرو الضمري، لا في ودّان ولا في غيرها، وهذا مخالف لما يشبه الاتفاق على ذكره في ودّان، وأنه هو الذي وادع النبي ﷺ عن قومه بني ضمرة، وكتب النبي ﷺ لهم بهذه الموادعة كتاباً كما قدمناه عن السهيلي، وكما ذكر بعض فِقَره ابن سعد في الطبقات، فلعلّ في نسخة الفتح غلطاً مطبعياً في ذكر مجدي في غزوة ودّان، أو نقول في الاعتذار عن الحافظ ابن حجر: جلّ من لا يسهو.

وقد ذكر البخاري في الصحيح هذه الغزوة ـ وهي أولى غزوات

النبي ﷺ ـ باسم (الأبواء) نقلاً عن ابن إسحق، فقال تحت ترجمة كتاب المغازي باب غزوة العشيرة، أو العسيرة ـ قال ابن إسحق: أول ما غزا النبي ﷺ (الأبواء) ثم (بواط) ثم (العُشَيرة).

تحقيق في وحدة غزوة ودّان والابواء زمناً

وابن إسحاق ذكر هذه الغزوة في سيرته باسم (ودّان) وقال: إنها غزوة (الأبواء)، فظنّ ابن حجر أنه قد يتوهم أن بين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق، وبين ما وقع في سيرة ابن إسحق اختلافاً، فقال في رفع هذا التوهم ـ الذي لا وجود له ـ: ليس بين ما وقع في السيرة، وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحق اختلاف، لأن (الأبواء) و(ودّان) مكانان متقاربان، بينهما ستة أميال أو ثمانية، ثم قال ابن حجر بعد ذكره ما وقع في حديث الصّعْب، بن جثّامة: وهو بالأبواء أو بودان: ووقع في مغازي الأموي: حدثني أبي عن ابن إسحق، قال: خرج النبي ﷺ غازياً بنفسه حتى انتهى إلى ودّان، وهي الأبواء.

وكان يكفي الحافظ ابن حجر أن يسوق في دفع توهّم الاختلاف بين ما وقع في سيرة ابن إسحاق، وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحق عبارته في السيرة فهي واضحة الصراحة في إفادة أن الأبواء وودّان غزوة واحدة ولا دخل لقرب المكانين، ولا وجه لسَوْق عبارة الأموي في مغازيه، عن أبيه، عن ابن إسحاق، وإطراح أصلها في سيرة ابن إسحاق، وقد أوضح ابن هشام في تهذيبه سيرة ابن إسحق، وهو الكتاب المتداول بين العلماء من السيرة فقال: غزوة ودّان، وهي أول غزواته عليه السلام، ثم يقول ابن هشام تحت هذا العنوان: قال ابن إسحق: حتى بلغ ودّان، وهي غزوة الأبواء. قال ابن إسحق ثم غزا ـ أي رسول الله ﷺ ـ في شهر ربيع الأول، يريد قريشاً أيضاً ـ أي عيرها ـ حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

سياق ابن سعد لغزوة بواط أحسن وأفيد من سياق ابن إسحاق

وقد أوجز ابن إسحاق الكلام جداً في غزوة (بواط) إيجازاً ضامها، وأخلّ بما كان فيها من أحداث وإعداد، وسياق ابن سعد لها في طبقاته أفيح عرضاً، وأروَى غُلّة، وأفيد معنى، قال: ثم غزوة رسول الله ﷺ (بواط) في

شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره، وحمل لواءه سعد ابن أبي وقاص ـ وكان لواءً أبيض ـ واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وخرج في مائتين من أصحابه، يعترض لعير قريش، فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ (بواط) وهي جبال من جبال جهينة من ناحية رضْوَى وهي قريب من ذي خشب مما يلي طريق الشام، وبين (بواط) والمدينة نحو من أربعة بُرُد، فلم يلقَ رسول الله ﷺ كيداً فرجع إلى المدينة.

تحقيق القول في غزوة العشيرة وما وقع فيها من حوادث وموادعة

ثم كانت غزوة (العُشَيرة) وهذا ـ الضبط ـ هو المقدم في ترجمة البخاري لها في صحيحه، وهو قول قتادة، وجعله ابن حجر مما لا اختلاف فيه عند أهل المغازي، فقال في (الفتح): وأما العشيرة فلم يختلف على أهل المغازي أنها بالمعجمة والتصغير وآخرها هاء، وقد سماها ابن سعد في الطبقات ـ وهو من أئمة أهل المغازي ـ (ذا العشيرة) وقد كثر الخلاف في ضبطها وهو قليل الفائدة.

خرج إليها رسول الله ﷺ في جمادي الأولى، وهو قول ابن إسحق وابن حزم وغيرهما، وقيل في جمادي الآخرة، وإليه ذهب ابن سعد، على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره في مائة وخمسين رجلاً، وقيل في مائتين، وحمل اللواء فيها حمزة بن عبد المطلب يريد عير قريش وهي صادرة من مكة إلى الشام بالتجارة، وكانت أعظم عير لقريش، جمعت فيها أموالها، التي بلغت نحو خمسين ألف دينار وألف بعير، فخرج إليها رسول الله ﷺ ليغنمها، فوجدها قد مضت قبل خروجه إليها بأيام، وهذه العير هي العير التي خرج إليها حين رجعت من الشام، فكانت بسببها وقعة بدر الكبرى.

قال ابن إسحاق ونقله عنه ابن كثير: فسلك ـ ﷺ ـ على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخبار، فنزل تحت شجرة في بطحاء ابن أزهر، يقال لها ذات الساق، فصلّى عندها، فثَمّ مسجده، فصُنع له طعام عندها، فأكل منه، وأكل معه الناس، فرسوم أثافيّ البرمة معلوم هناك، واستسقي له من ماء يقال له (المثيرب) ثم ارتحل، وفي هذه الغزوة وادع ﷺ بني مدلج

وحلفاءهم من بني ضَمْرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وهذه الموادعة التي كانت في غزوة (العُشيرة) غير الموادعة التي كانت في غزوة (ودّان) وهي التي عاقد فيها على قومه ضمرة مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم إذ ذاك، لأن تلك الموادعة التي كانت في (ودّان) كانت مع فريق من بني ضمرة، لم تكن لهم محالفة مع بني مدلج، وهذه التي كانت في (العشيرة) كانت مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، فموادعة (ودّان) كانت مع قوم من بني ضمرة لم تتكرر معهم موادعة في (العشيرة) وموادعة العشيرة كانت أصلاً مع بني مدلج وانضم إليهم فريق من بني ضمرة كانوا حلفاء لبني مدلج، لم تعقد معهم موادعة في (ودان).

ولعل هذه التوجيه لتكرر ذكر بني ضمرة في موادعة (ودّان) وهي التي عقدها عنهم رئيسهم مخشيّ بن عمرو الضمري، وفي موادعة (العشيرة) مع حلفائهم بني مدلج أولى من توجيه الزرقاني في شرح المواهب، من أن موادعة حلفاء بني مدلج من بني ضمرة تأكيد لموادعتهم في (ودّان) ويشير إلى هذه الأوليّة في التوجيه قول الزرقاني في آخر عبارته: أو أن حلفاء بني مدلج كانوا خارجين من بني ضمرة لأمر ما، وبسببه حالفوا بني مدلج، وكان ابتداء صلح لبني مدلج.

وذكر الواقدي أن هذه السفرات الثلاث: (ودّان) وهي الأبواء و(بواط) و(العشيرة) كان يخرج فيها ﷺ لتلقّي تجار قريش حين يمرون إلى الشام ذهاباً وإياباً.

وتعبير الواقدي عن هذه الغزوات التي خرج فيها النبي ﷺ بنفسه الكريمة بلفظ (السفرات) من أحسن وألطف ما يعبر به عن كل خرجة لم يقصد فيها إلى القتال.

وأول آية نزلت في الإذن بالقتال قول الله تعالى: ﴿أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير *الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق

إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1] قال أبو حيان في (البحر): والمأذون فيه محذوف، أي في القتال، لدلالة يقاتلون عليه، وعلّل للإذن بأنهم ظُلموا، كانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مشجوج ومضروب، فيقول لهم: «اصبروا، فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نُهي عنه في نيِّف وسبعين آية، وكون هذه الآية أول آية نزلت في الإذن بالقتال هو قول عائشة رضي الله عنها، كما أخرجه النَّسائي بإسناد صحيح من طريق الزهري موقوفاً عليها رضي الله عنها.

أول ما نزل من القرآن في الإذن للمجتمع المسلم بالقتال لدفع العدوان

ويقول أبو حيان: رُوي أن المؤمنين لما كثروا بمكة، وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار، ويحتال ويغدر، فنزلت ـ أي آية المدافعة عن المؤمنين ـ وعد الله فيها بالمدافعة، ونهى عن الخيانة وخص المؤمنين بالدفع عنهم، والنصرة لهم، وعلَّل ذلك بأنه لا يحب أعداءهم الخائنين الله ورسوله، الكافرين نعمه.

ومما ينبغي ملاحظته أن الغزوات الثلاث، أوالسفرات الثلاث الأولى التي بدأ بها الجهاد، وخرج فيها النبي ﷺ بنفسه الكريمة ليلقى عير قريش كان جنودها كلهم من المهاجرين الذين نزلت فيهم آية الإذن بالقتال لدفع العدوان والظلم، والذين أخرجهم المشركون من ديارهم بمكة ظلماً وعَدْوا، ولم يكن لهم قط جريرة عند أولئك الطغاة سوى أنهم خلعوا الشرك وآمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، جاءهم بالحق من عند الله فعرفوه واتبعوه.

وكذلك البعوث والسرايا التي عقد ألويتها رسول الله ﷺ لبعض أصحابه لم يُبْعث فيها أحد من الأنصار حتى غزا رسول الله ﷺ بأصحابه من المهاجرين والأنصار بدراً، بعد أن عرف أنّ قريشاً تجمعت له ولمجتمعه وجاءته بخيلائها وفخرها مشمِّرة للقتال بكل ما تملك من عتو وفجور وقوة مادية، ومن ثم كانت وقعة بدر العظمى.

(١) سورة الحج آيتا (٣٩، ٤٠).

مَشَارِقُ أنوارِ النَّصرِ

من آفاق بدر

منهج نبوي ومجتمع مسلم

بدر، ما بدر، وما أدراك ما بدر!! بدر هي الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به الإسلام والمسلمين، وهي النصر المؤزّر الذي توّج الله به جبين نبيِّه محمد ﷺ ليمسح بمناديل لطفه ومحبته عن جبينه الأطهر المطهَّر لآلىء العرق التي طالما تندَّى بها هذا الجبين الأزهر، لتزيِّن وجهه الأنور بحلى الكفاح النضالي في سبيل أسمى غاية عرفها الوجود، وأرفع مقصد مشى إليه أسعد وأشرف موجود، ذلك هو إعلاء كلمة الله، وتبليغ أعظم رسالة تنزّل بها وحي السماء على أكمل نبي، وأشرف رسول.

يوم بدر هو يوم الفرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جمع المجتمع المسلم ـ في رسوخ يقينه، وقوة إيمانه، وسواء وحدته مع قلة عدده، وضآلة عُدَّته المادية القتالية ـ وجمع الفجور الظلوم، والكفر الغشوم، في غروره وكثرة عدده ووفرة عُدّته المادية القتالية، التقيا على غير ميعاد سوى ما خطّه قلم القدر في لوح الغيب بمداد السر الأعظم والنصر الأعصم لمجتمع القلة المسلمة على مجتمع الكثرة الكافرة.

يوم بدر هو يوم الفيصل بين حياة وحياة في تاريخ البشرية منذ عرف هذا التاريخ الحياة، ومنذ أن عرفته الحياة، يوم علت فيه كلمة الله ـ وهي العليا ـ وتسفّلت فيه كلمة الكفر ـ وهي السفلى ـ يوم فتح الله به للحق وأهله أبواب الكرامة والعزة، فكرُم الحق على أهله وعزّ، وكرموا به وعزّوا، وفتح الله به للباطل وأهله سراديب الهاوية فاندحر واندحروا، وارتفع الحق شامخاً، وتسامى إلى الآفاق مضيئاً مشرقاً، واندحر الباطل منكوساً منحوساً يهوي إلى وادي الفناء ذليلاً محسوراً.

يوم بدر، يوم وقفت فيه عجلة حياة مرذولة خبيثة، وتحركت فيه مسيرة حياة إنسانية فاضلة كريمة تحمل إلى الدنيا إيماناً وهدى، وعدلاً ومحبة وإخاء متواسياً.

يوم بدر كان مشرقاً لنور الهدى والحق ومهوى لظلم الفجور وعتو الكفر العنيد

يوم بدر، يوم ارتدت فيه على أعقابها حياة ضالّة مضلّة، فاسدة مفسدة، شرِّيرة فاجرة، لم يكن للحق والخير فيها وجود على الأرض، بل كان الباطل والشر بأفانينها يملآن أفنيتها، والظلم الطاغي يغطِّي بظلماته الحالكة آفاقها، والشرك في أحطِّ صوره، وألأم أشكاله، وأقبح مناظره دينها ومتعبدها، وكانت الوثنية الفَجُور متقلّبها ومثواها، والدّعارة العارمة في تسفُّلها مراحها ومغداها، وسفك الدماء البشرية وِرْدَها لري ظمئها، وقبائح السلوكية في منتدياتها هزج ترنيماتها، وصب البلايا والمحن على المعتصمين بالحق والخير مشارق آفاقها ومطالع أيامها، والتدسيس المتلصص سُرى لياليها، والفوضى الاجتماعية شريعتها، وبخع القوي للضعيف دستورها، والنهب والسلب والاغتصاب للأموال والأعراض والنفوس قانونها وديدنها.

ليس فيها من يأمن على نفسه وحياته إلا من كان سيفه ضجيعه في خدر بيته، فهي حياة ممسوحة التفكير بائرة التدبير، فاقدة عواصم التعقل، لا تعرف علماً إلا ما يعرف الجهول من الجهل، ولا تحسّ أمناً إلا ما يحسه المفزَّع المروَّع وقد فاجأته الكارثة، ولا تذوق طعم الاستقرار إلا كما يذوق مرارة الحنظل الصديان، يتوهمه الماء.

مُنى هائمة في متاهات لا حدود لها، نهارها إغارات ونهب، وليلها غطيط منكر في أحلام الفجور، وصحوها جزيزة ونومها مأرزة، أناسيّها أشباح في تقويم بشري، هي صورة الرد إلى أسفل سافلين.

معالم الحياة قبل بدر كفر عتيّ وظلم عات.

هذه هي معالم الحياة التي كانت تعيشها الأرض بمن فيها وما فيها قبل أن يبزغ في أفقها بَدْرُ يوم بدر، وقد كانت لمعات النور التي تظهر هنا وهناك على ألسنة المصطفين من رسل الله بؤراً من الإشعاع الذي يحاول أن يبدِّد الظلام المتكاثف على الأرض، فتصحو على إشراقات ضوئه الأحياء صحوة المدنف المخمور، لا يكاد يهمّ ناهضاً حتى يقعده ثقل تكاثف الحوالك من حوله.

وما ظنُّك بحياة لبث فيها أول المصطفين لرسالات الله وهديها ألف

سنة إلا خمسين عاماً، يدعو فيها قومه للهدى ودين الحق ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً ـ وقومه هم أشباح البشرية في دنيا الناس ـ فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً، وكانت النهاية ما سجله الله في القرآن الحكيم، إعلاماً لنا بما كانت عليه الحياة فقال: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

لم يغب عنا أنه كانت هناك لمعات من التفكير الإنساني مرت بها الحياة في صور متفلسفة استغلقت أرتجتها، فكانت حبساً على عقول أصحابها، وكانت وبالاً على عقول العامة الذين لم يعرفوا منها إلا جمجمة خرساء، لم تُقِم من أود الحياة شيئاً مما اعوج منها، ومرت الحياة على عوجها تكبو وتكبو فتنيمها الكبوة أجيالاً طوالاً في نوم عميق، وتوقظها لوامع الرسالات الإلّهية بهديها فتهمّ من كبوتها، ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

كان يوم بدر ميلاد عقل جديد لحياة مشرقة بالهدى والنور والقضاء على حياة الإلحاد والفجور.

حتى إذا استوت قائمات العقول على سوقها، ونهضت الأفكار من قماطات مهادها جاءتها رسالة (الازعاج) من رقدة الجهالة المميتة لتبعث فيها روح الحيوية المدركة لنواميس الهداية الإلّهية.

ومن ثَمّ كان ميلاد الحياة الجديدة في صورتها المشرقة بالهداية والخير، وخرجت إلى الناس تحبو على رمال مكة، وهي تحمل إليها وإلى الكون كله رسالة النور والخلود، بما فيها من معالم الإيمان بالله إلهاً واحداً، وخلع جلابيب الوثنيات والشرك بجميع صورها وأشكالها، وإخلاص العبادة لله وحده، فأبت مكة بلسان طواغيت ملئها من فجار الوثنية أن تستضيف هذا الخير والنور والهدى في بطحائها، لأن طواغيت ملئها كانوا هم الوريث الأكبر لتراث الوثنية الجاهليّة الجاهلة، وهذه الجاهليّة الجاهلة كانت هي الشهادة التي لا ترّد أمام سدّة قضاء الشرك الغبيّ والفجور الوثني العتّي، فنهضوا يد فعون عن هذا التراث الوثني الملحد في طغيان فاجر، واستكبار عنيد.

صبر طلائع الإيمان كان قوّة قاهرة للكفر الوثني والشرك الغبي.

واقترفوا مع طلائع الإيمان كلَّ ما سوله لهم الشيطان من فوادح البلاء، فصبر المؤمنون على قسوة البلاء، واحتسبوا في سبيل إيمانهم رضاء الله تعالى، حتى إذا يئس الفجّار من أن ينال البلاء والتعذيب من قوة إيمان أولئك الصفوة من طلائع السابقين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير ذنب أو جريرة اقترفوها سوى أنهم أبوا أن يكونوا أحمرة وثنية يعيشون في حمأة الشرك

الكفور، فهاجروا إلى المدينة المنوّرة تاركين وراء ظهورهم السبد واللبد، وهناك في المدينة وجّههم إلى المؤاخاة الفردية مع إخوانهم الأنصار، مؤاخاة قامت دعائمها على الحب في الله، والحب لله، ذلك الحب الذي سما وتسامى فكان إيثاراً لم تعرف البشرية له مثيلاً في علاقات الأفراد والجماعات، ثم عقد بينهم مجتمعين ومن تبعهم في الإيمان ولحق بهم في الهجرة مؤاخاة التكافل الاجتماعي التي جعلت عناصر رَكَّب منها رسول الله ﷺ مجتمعه المسلم تركيباً اجتماعياً تكافلياً كان هو القوة الوحيدة للمجتمع المسلم في مواقفة المجتمعات الضالّة المعادية له.

موقف المجتمع المسلم بعد الهجرة وعقد المؤاخاة التكافلية.

ونهض رسول الله ﷺ بعد أن وثّق وشائج مجتمعه المسلم على أساس المؤاخاة التكافلية التي أمر بتسجيلها في كتاب كان دستور هذه المؤاخاة، ليقف بمجتمعه المسلم المتآخي في وجه طواغيت الشرك وفجّار الوثنية أينما كانوا ليردهم عن فجورهم وطغيانهم، ويدخلهم في حظيرة الإيمان توحيداً للإنسانية بالإيمان كما وحّدها الله تعالى في نشأتها الرّحميةّ، وبدأ ﷺ بالذين عالنوه الحرب، وألّبوا على مجتمعه المسلم وجمّعوا له الجموع، وحرضوا على حربه من يداخله بالمساكنة في بلده، وهم اليهود أهل الغدر وخيانة العهود، ومن ورائهم ربائبهم المنافقون.

وكان ملأ طواغيت مكة بقيادة فاسقهم أبي جهل بن هشام وأمثاله يخرجون في عيراتهم وقوافلهم تجاراً إلى الشام مارِّين على المدينة المنورة، عاصمة المجتمع المسلم ومستقر رسول الله ﷺ في تحدٍّ وصَلَف وغرور، لا يقيمون لحرمة المجتمع المسلم في بلده وزناً، ولا يبالون أن يدوسوا حرمة مدينته بمرور عيراتهم وقوافل تجاراتهم على طريقها وهم آمنون.

بهذا المنهج الرباني نهض النبي ﷺ يقود مجتمعه المسلم في مسيرة دعوته ورد اعتداء أعدائه عليه.

ولكن المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ نهض إليهم منذراً، معذراً، معلناً عن وجوده في حياته الجديدة وقوته الموحدة ليشعرهم أنهم أمام قوة جديدة، لم يكونوا يرونها بالأمس في مكة وهم يصبّون شآبيب البلاء والتعذيب على طلائع السابقين من المؤمنين، وليُعْلِمُوهم أن ما كان بالأمس في القرية الظالم أهلها قد مضى ولن يعود، وأنهم سيكال لهم بكيلهم الصاع آصعاً، والضربة ضربات، والطعنة طعنات.

ونهض رسول الله ﷺ يترصد تجارتهم، ويعرض لعيرهم وهي قادمة من مكة في طريقها إلى الشام، وندب معه في هذا النهوض بعض أصحابه من المهاجرين خاصة، ليمنعهم من المرور على مدينته في طريق ذهابهم وإيابهم، وليسترد منهم ما نهبوه من أموال أصحابه في مكة بالقوة والقهر، وليغنم ما جمعوه في تجاراتهم إضعافاً لشوكتهم، وردعاً لغرورهم، وإرغاماً لأنفتهم، واستكبارهم، وليردّ عملياً على ما صنعوه مع صاحبه سيد الأنصار، سعد بن معاذ من منعه الطواف بالبيت وقد ذهب ليعتمر بُعَيد مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فرآه الفاسق أبو جهل يمشي مع أمية ابن خلف ـ وكان أمية صديقاً لسعد ـ فهدّده الفاسق بعد أن سأل عنه أمية فعرّفه به، وقال له: لولا أنك مع أبي صفوان لما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد في جهارة القوة التي لا تعرف الخنوع: لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه، طريقك إلى متجرك

وإنما استصفى رسول الله ﷺ في الخروج معه في غزواته الثلاث الأولى بعض المهاجرين خاصة، لأن المهاجرين هم الذين كانوا موضع اضطهاد الظالمين في مكة، وكانوا هم المنهوبة أموالهم، المخرجين من ديارهم. وهذه المناوشات كانت لا تتطلب استيعاب المجتمع المسلم، ولكنها كانت أشفى لقلوب المظلومين من الظالمين، وأزأر لهم على ملاقاتهم فيما ينتظرهم من وقائع فاصلة في مستقبل سير الدعوة وتبليغ الرسالة.

حتى إذا ركب طواغيت ملأ قريش صهوات الشياطين، وتجمّعوا وجمّعوا فأوعبوا لمحاربة المجتمع المسلم في حرب استئصال لا هوادة فيها، في إثر غزوة (العُشَيرة) بقيادة فاسقهم غميز الرجولية، لعين السماء والأرض أبي جهل بن هشام، أعدى أعداء المجتمع المسلم وأحقد الحاقدين على رسول النور والهدى محمد ﷺ.

غزوة العشيرة كانت أكبر الغزوات التي وقعت بغير قتال

وغزوة (العُشَيرة) كانت أكبر الخَرْجات المُسْلِمة التمهيدية لملاقاة عير قريش وقافلة تجارتهم وهي غادية رائحة، ذاهبة من مكة وآيبة إليها من الشام، مارِّين بطريق المدينة المنوّرة، مستقر المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، وهذه الغزوة كانت الشرارة الأولى في إشعال نار الحرب

في (بدر) العظمى، وكانت (العُشَيرة) - كما يقول صاحب عيون الأثر نقلاً عن ابن اسحاق - في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، لكن صاحب (العيون) يقول: إن ابن سعد يخالف ابن إسحاق فيذكر أنها كانت في شهر جمادى الآخرة، على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة، وهذا خلاف مقارب، لاحتمال أنها بدأت في آخر جمادى الأولى، ودخلت في جمادى الآخرة، فأخذ ابن إسحاق بمبدئها، وأخذ ابن سعد بنهايتها، غير أن عبارة ابن سعد أدق في التحديد من عبارة ابن إسحاق، وكان لواء هذه الغزوة في يد أسد الله وأسد رسوله، سيّد فتيان قريش حمزة بن عبد المطّلب، وكان عدد جنودها خمسين ومائة جندي من أبطال الإسلام السابقين الأوّلين، وقيل كانوا مائتين، وسائرهم من قريش من المهاجرين، ولم يُكره رسولُ الله ﷺ أحداً على الخروج فيها، بل ندب المهاجرين للخروج إليها فانتدبوا، وكانوا على ثلاثين بعير يعتقبونها.

وكان الخروج إليها لملاقاة عير قريش وهي قادمة من مكة صاعدة إلى الشام، إذ جاءه ﷺ الخبر بقدومها، وفيها أموال قريش ممزوجة بدماء المسلمين وأموالهم التي نهبها طغاة قريش منهم بمكة، فوجد ﷺ هذه العير قد مضت قبل ذلك بأيام، وهذه العير هي التي خرج ﷺ إليها وهي عائدة من الشام بمن كان معه من المهاجرين، فكانت بسببها وقعة (بدر) الكبرى التي نصر الله فيها المجتمع المسلم نصراً تردَّدت أصداؤه في آفاق الجزيرة العربية كلِّها، وأُدخل الرعب في كل قلب كانت تملؤه الوثنية ويستحوذ عليه الشرك.

وكان قائد عير قريش أبا سفيان بن حرب، وقد أتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ بعودة هذه العير محملة بالأموال من الشام، فقال لأصحابه: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها» فخرج من خرج معه على غير أهبة للقتال، وثقل عن الخروج كثير منهم، لأنهم لم يكونوا يظنُّون أن رسول الله ﷺ يلقى قتالاً في خَرْجته هذه كما لم يلق كيداً في خرجاته التي سبقتها.

كان هدف المجتمع المسلم في خرجاته إزالة العوائق من طريق دعوته

وفي هذا الموقف من المجتمع المسلم دلالة واضحة على أن هذا المجتمع الذي كان طليعة لتربية المنهج النبوي، لم يكن يستهدف المال والثراء من وراء جهاده، ولكنه كان يعمل جاهداً على إزالة المعوّقات من طريق

مسيرة الرسالة ليفتح الطريق أمام نشر نورها.

فإذا أغنت هذه التعرضات المحذِّرة في رد غرور الطغاة من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وأرغمت معاطسهم، وأصبح الطريق ممهَّداً أمام سير الدعوة وتبليغ الرسالة لم تكن هناك حاجة للقتال.

أما إذا لم تُغْنِ النُّذُر المحذِّرة في هذه التعرّضات التي تستهدف إشعار القيادة المشتركة بقوة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، في مستقره الأمين، فلا مناص من المواقفة للقتال مهما كانت كثرة عدد الطغاة وعدتهم، ومهما كانت قلّة عدد جند المجتمع المسلم وعدته المادية، لأن هذا المجتمع إنما يقاتل إذا قوتل دفاعاً عن كيانه وإعلاءً لكلمة الله، إيماناً بموعود الله وهو حينئذ لا يبالي - إذا خاض غمرات الحرب في سبيل مقصده وغايته من نشر دعوته، دعوة التوحيد والهدى والعدل والإخاء المتواسي - أكان النصر له في قتاله أم كانت الشهادة طريقه إلى النعيم المقيم في جنات الخلد.

ومن ثَمَّ كان رسول الله ﷺ هو القائد لجنوده في هذه الخرجة ليلاً في عير قريش وهي آيبة من الشام محمّلة بأرباح تجاراتهم، ليستنقذ من أيدي الطغاة ما نهبوه من أموال المهاجرين وما غصبوه من دورهم بمكة.

وخرج رسول الله ﷺ بمن خفَّ معه للخروج من المهاجرين والأنصار، وقد كانت هذه العير أعظم عيرات قريش، فكان فيها ألف بعير تحمل الأموال التي قدَّروا قيمتها بثلاثين ألفاً، وقيل بخمسين ألفاً.

وقائد هذه العير أبو سفيان بن حرب كان رجلاً داهية حذراً، لا يغيب عن دهيه أن طريقه على المدينة المنوّرة مستقر المجتمع المسلم مليء بالأشواك والأكمان والترصّدات المتعرضة لعيره.

هرب أبي سفيان إلى المساحلة لينجو بقافلته

وهو قد عرف ما كان قبل عيره من تعرض المجتمع المسلم لقوافل كانت سبقته ولم تكن في عِظَم وحجم قافلته، فجعل كلما ازداد قرباً من الحجاز ازداد خوفه فيتجسس الحركات ويتنطّس الأخبار ممن يلقّى من الركبان، خوفاً على ما تحت إمرته وحمايته من أموال قريش، حتى أصاب خبراً من بعض من لقي من الركبان أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه لعيره،

فعدل عن طريقه، وساحل بقافلته لينجو، وكان قد أرسل إلى قريش يستنفرهم لحماية أموالهم، ويخبرهم أن محمداً - ﷺ - عرض لها في أصحابه.

وكان رسول أبي سفيان إلى قريش يستنفرهم لحماية أموالهم ضمضم ابن عمرو الغفاري، الذي طار إلى قريش بمكة حتى وصل إلى بطن وادٍ بها فصرخ: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد ﷺ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث. فتجهّز الناس سراعاً، وأوعبوا، فكانوا بين رجلين، إما خارج بنفسه في النفير، متأهباً للحرب أتمّ أهبة، وإما باعث مكانه رجلاً. ولم يتخلّف من أشراف قريش وطغاتها وقادتها ورؤوسها أحد إلا أبا لهب الذي استأجر العاص بن هشام بن المغيرة أخا أبي جهل بأربعة آلاف درهم، كانت ديناً له عليه، أفلس له بها، وهكذا خرجت قريش على أتم أهبتها وقوة فجور كفرها وعتوّ شركها ووثنيتها وغرور قادتها، لا تريد إنجاء اللطيمة واستنقاذ أموالها، ولكنها خرجت على الصَّعْب والذَّلول تريد محمداً - ﷺ - ومجتمعه في المدينة في لقاء ساعة تقضي فيها على هذا المجتمع المسلم الذي أشجاها غيظاً، وأغصّها حقداً، وشوى أكبادها، لتقضي على دعوته التي قوّضت شوامخ شركها ووثنيتها، وراح يتعرض لتجارتها ليذيقها مرارة الفقر والمذلة، ولتوقف هذا التيار الجارف لهذه الرسالة المصلحة التي جاء بها محمد ﷺ هدى ونوراً، ليتحقق الإخاء الإنساني والعدل الاجتماعي المساوي بين بلال الحبشي وسيد البطحاء أبي سفيان بن حرب، بل المواسي كل مسلم بما يملك كل مسلم.

تلك الرسالة التي خرجت من القرية الظالم أهلها لتنشر لواءها خفّاقاً على آفاق الأرض، ولتسمع صوتها كل أذن في كل حي وقبيلة من أحياء وقبائل الجزيرة العربية بعد أن كانت حبيسة الطغيان والظلم المستكبر في الأرض.

خرجت قريش يسوقها الغرور الفاجر في ألف مقاتل مجهّزين بكل ما استطاعوا من عدّة للقتال، معهم المؤن، وأنواع السلاح، ووسائل الترف الداعر من الخمور والمغنّيات وأدوات العزف والطرب، والمراكب من الخيل المطهّمة والإبل الهادرة، يتنفّسون بأواً وعتوّاً، ويتجشؤون فجوراً وكفراً، يقودهم غميز الرجولية الفاسق أبو جهل إلى حتوفهم وهم لا يشعرون.

ولما رأى أمير عيرهم أبو سفيان صخر بن حرب أنه أحرز قافلته ونجا بها حين ساحل وترك طريق السابلة أرسل إلى قريش وراء ضمضم الغفاري الذي أرسله لينهضهم لإدراك عيرهم وهي تحمل أموالهم عائدة من الشام بأرباح تجاراتهم، وكانت مهمة رسوله الثاني إلى قريش أن يقول لهم: إنكم خرجتم متأهبين للحرب دفاعاً عن أموالكم وتجاراتكم، وها هي ذي قد نجاها الله وسلمت لكم، وهي في طريقها إليكم، فارجعوا إلى دياركم مطمئنين، ولما وصل هذا الخبر المسالم إلى قريش قام قائم فاسقهم أبي جهل، وقال لهم في تنفج وغرور أحمق واستكبار متغطرس، وفجور حاقد: والله لا نرجع حتى نرد بدراً - وكانت بدر موسماً من أكبر مواسم تجمعات العرب - فنقيم عليه ثلاثاً، ننحر الجزر، ونُطْعَم الطعام، ونُسقَى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا.

خروج قريش متأهبة للقتال يسوقها فاسقها أبو جهل بالقهر والغرور

وكانت قريش مع فاسقها كالجمل المخشوش، يقودها بزمام النعرة الفاجرة الحمقاء، فاستخفَّهم فأطاعوه ومضَوا وراءه ذللاً أذلّاء، لا يملكون معه إرادة ولا يستطيعون لقوله ردّاً.

مخالفة الأخنس وبني زهرة تحريض أبي جهل.

وكان في ملأ طغاة قريش الأخنس بن شَريق بن عمرو الثقفي، وكان حليفاً لبني زُهْرة، ساد فيهم وتولّى قيادهم مطاعاً منهم، فقال لبني زهرة: قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم - يعني مخرمة بن نوفل الزهري الذي كان في رجالات العير مع أبي سفيان - وإنما نفرتم لتمنعوه وأموالكم معه، فاجعلوا بي جبنها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضَيْعة، لا ما يقول هذا - يعني أبا جهل - في تحريضه قريشاً على الخروج بَطَراً ورئاء الناس، كما وصفهم الله تعالى ناهياً للمجتمع المسلم أن يكون على طريقتهم في الفجور وضلال العناد فقال: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدُّون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط﴾[1] فسمع الزهريون للأخنس ورجعوا معه، فلم يشهد بدراً مع ملأ الكفر وجنود إبليس زهري، وكانت قريش قد أوعبت في نفيرها لقتال المجتمع المسلم سائر بطونها وبيوتاتها، فخرجوا قضُّهم بقضيضهم إلاّ

(١) سورة الأنفال آية (٤٧).

ما كان من بني عدي، فلم يخرج معهم أحد، وكانوا كبني زهرة، فلم يشهد بدراً أحد من الزهريين والعدوِّيين، وهو مشرك كفور.

ومضت قريش في كفرها وصلفها وتغرير فاسقها أبي جهل بها على تعبية الأهبة للقتال حتى نزلت بالعُدْوة القُصوى بين بدر والكثيب إلى جهة مكة مقدمهم، ونزل جند المجتمع المسلم بالعدوة الدنيا، إلى جهة المدينة، وفي هذا نزل قول الله تعالى مخاطباً المؤمنين من جند الإيمان، وأبطال الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ، مصوراً حالهم وحال فجار الشرك وأحلاس الوثنية بزعامة فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل بن هشام: ﴿إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا وهم بالعُدْوة القصوى والركب أسفل منكم﴾ والمراد بالركب الرجال الذين كانوا يقودون العير بزعامة أبي سفيان، والعُدْوة شط الوادي وشفيره وضفّته، والمدينة من الوادي موضع الوقعة في الشرق منه وبينهما مرحلتان، وفي كشّاف الزمخشري أن العير كانت وراء ظهر العدو، لتضاعف حميتهم وتزيد من شراستهم في القتال.

بعث قريش عمير ابن وهب ليحزر لهم عدد كتيبة الإسلام فرجع إليها محذراً من مواقفة جند الله

ولما نزلت جنود الشيطان من طغاة الكفر بالعُدْوة القصوى في أهبتها وحقدها بعثوا أحد شياطينهم عُمَير بن وهب الجمحي ليحزر لهم جند الله من أبطال المجتمع المسلم، فركب فرسه واستجال حول عسكر المسلمين ثم رجع إلى قريش، فقال لهم: القوم ثلاثمئة، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أَلِلْقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم مَنَعَةٌ ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل منهم رجل حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فَرُوا رأيكم ـ أي فكروا فيما تورطتم فيه من مأزق مأزوم.

بين حكيم بن حِزام وعتبة بن ربيعة

وكان في القوم من قريش حكيم بن حزام ـ وكان من أعقل رجالاتهم ـ فسمع كلام عمير، وهو يصك به آذان قريش، فتمثل الطامّة التي تنزل بقريش إذا هي ركبت ظهر الشيطان واتبعت الغرور الفاجر الذي يمشي به في الناس محرِّضاً غميزُ الرجولية الفاسق الملعّن أبو جهل، فأتى حكيمُ بن حزام

عتبة بن ربيعة، وهو من لا يفضله حكيم في عقله الجاهلي، فقال له: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ فقال عتبة: وما ذاك يا حكيم؟ قال حكيم: ترجع بالناس، وتحمل دية حليفك عمرو بن الحضرمي، قال عتبة قد فعلتُ، أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عَقْله، وما أصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل، والحنظلية أمه ـ فإني لا أخشى أن يسجّر أمر الناس غيره.

عتبة يخطب الناس داعياً إلى السلام ومحذراً من الانقياد وراء أبي جهل الذي أفسد على الناس أمرهم

ثم قام عتبة خطيباً في جمهرة الساعين لحتوفهم بأظلافهم من طغاة قريش، فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم بن حزام: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل دروعاً يهنؤها، فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما يعنيه ـ أي عتبة ـ ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه ـ أي أبو حذيفة بن عتبة، وكان من سُبّق الإيمان ـ فقد تخوَّفكم عليه.

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي ليشعل ضرام الفتنة ويسعّر نار الحرب، ويفسد على الناس أمرهم، ويقطع الطريق على عتبة في مسعاه إلى السلام، فقال لعامر بن الحضرمي: هذا حليفك ـ يعني عتبة ـ يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيتَ ثأرك بعينك، قم فانشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي وتكشف عن سوأته، على عادة قبائح الجاهلية ورذائلها ثم صرخ واعمراه؟؟ واعمراه؟؟ فحقبت الحرب، وحقب أمر الناس، واستشرى الشر، وكشَّرت الحرب عن أنيابها، وأفسد الفاسق أبو جهل على الناس أمرهم وقطع الطريق على رأي عتبة الذي دعا إليه.

ولما بلغ عتبةَ قولُ أبي جهل في الحطِّ من شأنه والقدح فيه بقوله:

رمي عتبة أبا جهل بداهية الدواهي ووائدة الرجولية.

انتفخ والله سحره، يرميه بالجبن، قال: سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره، أنا أم هو؟.

وكثير من الناس من أهل العلم يرون في هذه الكلمة التي أَبَن بها عتبة أبا جهل مصدر غمز رجولية هذا الفاسق اللعين، وقد صرح الزرقاني في شرح المواهب بما أبِن به أبو جهل من داهية الدواهي ولم يكنِّ، وقد أخذ الله من هذا الفاسق فقتله في هذه الغزوة شر قتلة، وبوأه جهنم وبئس المصير.

حديث حكيم ابن حزام فيما كان من عتبة وأبي جهل بعد إسلامه.

وأخرج الطبري حديث حكيم بن حزام من طريق سعيد بن المسيِّب، قال: بينا نحن عند مروان بن الحكم إذ دخل صاحبه فقال: حكيم بن حزام يستأذن؟ فقال مروان: ائذن له، فلما دخل حكيم تلقّاه مروان مرحباً، واستدناه، فحال عن صدر المجلس حتى جلس بينه وبين الوسادة، ثم قال له: حدثنا حديث بدر، فقال حكيم: خرجنا حتى إذا كنا بالجحفة رجعت قبيلة من قبائل قريش بأسرها ـ يريد بني زهرة ـ رجعوا إطاعة للأخنس ابن شريق حليفهم ـ وقائدهم، وكان فيهم مسوَّداً مطاعاً ـ فلم يشهد بدراً أحد من مشركيهم، ثم خرجنا حتى نزلنا العدوة التي قال الله تعالى: ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ فجئت عتبة بن ربيعة، فقلت: يا أبا الوليد، هل لك في أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال عتبة: أفعل ماذا؟ قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي، وهو حليفك، فتحمَّل بديته ويرجع الناس، قال عتبة: أنت عليّ بذلك، واذهب إلى ابن الحنظلية، فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن خلفه وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسه، وهو يقول: فسخت عقدي من عبد شمس وعقدي اليوم إلى بني مخزوم، قال حكيم: فقلت لأبي جهل: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك؟ قال أبو جهل لحكيم منتقصاً له غامزاً لقناته، أما وجد ـ أي عتبة ـ رسولاً غيرك؟ قلت: لا، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره، قال حكيم، فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتني من الحديث شيء، وعتبة متكىء على إيماء بن رَحْضة الغِفاري، فطلع أبو جهل والشرُّ في وجهه فقال لعتبة: انتفخ سحرك، فقال له عتبة: ستعلم، وحقب على الناس أمرهم، وفسد تدبيرهم

تجبيه أبي جهل حكيم ابن حزام على حمله رسالة عتبة إليه

وطلعت عليهم نُذُر الحرب مكفهرة مسعورة.

كذلك كان شأن فجرة الكفر في تفكيرهم المجنون، واستعدادهم المحموم لخوض حرب غير متكافئة في موازين القوى المادية بينهم وبين المجتمع المسلم الناشىء.

تعرّف رسول الله حال قريش في قوتها المادية بعد نجاة العير.

وكان رسول الله ﷺ قد أحاط علماً بأمرهم بعد أن فاتته عيرهم التي خرج لملاقاتها ومعه مَنْ نشط للخروج من أصحابه في غير أهبة لقتال، وكانت هذه العير أكبر عيراتهم، وأملأ قوافلهم بالمال والثراء، راجعة من الشام عن طريق المدينة مستقر المجتمع المسلم، ولكن أمير العير أبا سفيان حينما سمع بخروج رسول الله ﷺ لملاقاة العير عدل عن طريق السابلة مساحلاً ليتفادى ما تخوَّفه من تعرُّض رسول الله ﷺ لقافلته، وأرسل إلى قريش لتنهض بما في طاقتها من قوة لتحمي أموالها وقد تعرض لها محمد ـ ﷺ ـ في أصحابه، فهبَّت قريش رجالُها وشبابها موعبة لقبائلها بقيادة فاسقها أبي جهل في العدد والعدّة، يكنفها الغرور، ويسوقها الحقد على المجتمع المسلم.

وكانت عير قريش أكثر من ألف بعير يحرسها أربعون رجلاً من أبطال الكفر وفجور الشرك الوثني، وكان فيها خمسون ألف دينار، وكان قائدها ومدبّر حراستها أبو سفيان صخر بن حرب، وهو رجل دهيّ ماكر، عقول لأمور الدنيا والمال والتجارة، فكان كلما قرب من المدينة ازداد تحسسه وتخوفه على ما تحت يده من مسؤولية عن القافلة وما فيها من أموال الناس وثرواتهم، وكان يسأل كل من لقي من السابلة: هل أحسست شيئاً مريباً أو أحداً متربصاً، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان، أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه لك وللعير معك، فحذر عند ذلك، وأخذ في طريق آخر لينجو بقافلته.

ولكن قريشاً كانت قد استجابت لرسالته المنذِّرة لهم ليهبُّوا لحماية أموالهم، ومنعها الغرورُ واستخفافُ فاسقها بها أن ترجع بعد أن أبلغها أبو سفيان أنه نجا بالقافلة، وساروا وهم يردِّدون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون ـ أي هذه ـ العير كعير ابن الحضرمي؟ واللهِ ليعلمنَّ غير ذلك.

وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه بما أخفاه الغيب من حكمة التدبير الإلهي، ورُفعت الأغطية عن آفاق النصر المؤزر في منازل بدر، ومضى فجور

الكفر، وغرور العتو، وجبروت الطغيان يسوق المستكبرين في الأرض إلى القليب معفّرة وجوههم بالذل والهزيمة بين القتل والأسر، وعاد من عاد من غوغائهم منكّسي الرؤوس، مفزّعي القلوب، يكاد يقتلهم الرعب من فرط ما رأوا من الهول في المعركة وما سمع من لم يشهدها من أخبارها، ومن قُتل فيها من أشرافهم الذين لا خير يرجى في بقائهم كما تدل عليه قصة

بلوغ أخبار النصر مكة ووقع الصدمة على من بقي بها من قريش

الحَيْسمان بن عبدالله الخزاعي الذي كان أول من وصل مكة بمصاب قريش، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم ابن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه، وأبو البختري ابن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا ـ وفي رواية: لن يعقل هذا ـ فاسألوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان ابن أمية؟ فقال: هو ذاك جالسٌ في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وفي سيرة موسى بن عقبة قال: لما وصل الخبر إلى أهل مكة وتحقّقوه قطعت النساء شعورهن، وعُقرت خيول كثيرة ورواحل.

وكان رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا معه في قلة عددهم وعدم أهبتهم للقتال لأنهم لم يخرجوا يريدون قتالاً، قد خرجوا يريدون العير التي كانت فيها أموال طلائع الإسلام التي نهبتها قريش منهم وهم مستضعفون بمكة، والتي تركوها وراءهم يوم أن هاجروا إلى الله ورسوله ﷺ.

وقد سلك رسول الله ﷺ في خروجه بأصحابه من المدينة مارِّين بالعقيق وذي الحُلَيفة حتى بلغوا سجسج، وهي بئر الروحاء المعروفة اليوم في طريق حاج المدينة، واتجه ذات اليمين يريد (بدراً) وسار حتى بلغ الصفراء، ومنها بعث بسبس بن عمرو الجهني، وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر لتحسس الأخبار عن أبي سفيان وقافلته، فأتياه بالخبر عن قريش وحشودها ومسيرهم ليمنعوا عيرهم ويحموا أموالهم، ويهاجموا المجتمع المسلم في مستقره ومثواه.

عدم تكافؤ القوتين مادياً عدداً وعُدَّة

والمتأمل في أحداث هذه المواقف التي تمثّل قوة فجور الكفر العتيّ، وعتو الوثنية المادية، وشراسة الشرك الحقود في غروره المتجبر، وتأهبه لحرب ضروس، قد أعدّ لها الطغاة كل عدّة، واتخذوا لها كل أُهبة تدخل في دائرة استطاعتهم، وما يملكون من أموال وأسلحة وعتاد ورجال، ليستأصلوا

المجتمع المسلم ويوقفوا تيار دعوته الجارف، الذي سيكتسحهم لو بقي في مسيرته.

وتمثل قوة الخير والإيمان، والحق والنور، والهدى والعدل، والمحبة والإخاء، وصدق العزائم التي لا تهزها قعقعة سلاح الفجور والطغيان الوثني، وهو زاحف في سُعُر وسعار، وجنون مسعور - يرى قوتين لا تكافؤ بينهما في قوة الحرب المادية، بل لا تقارب بينهما في ذلك، فقوة فجور الشرك، وشراسة الوثنية الطاغية خرجت من مكة لحرب تقصدها وقد أعدّت لها فأوعبت في العدد والعدّة، وقوة الايمان والهدى، والنور والخير، خرجت من المدينة مسالمة في عدد قليل على غير استعداد وأهبة لقتال، لأنها لم تقصد في خَرْجتها إلى حرب وقتال، ولكنها خرجت محذّرة منذرة لأولئك الطغاة المتنفجون بقوتهم المادية في عددها وعدّتها، حتى يعلموا أن مستقر المجتمع المسلم لم يكن مكشوف الحصانة، يتواثبون بتجارتهم وقوافلهم وأموالهم على أرضه غادين رائحين، وأن ما سلبوه من أموال طلائع هذا المجتمع المسلم في مكة، لا بد أن يرجع إلى أصحابه، وأن طريق المدينة من مكة إلى الشام ومن الشام إلى مكة أصبح محرّماً عليهم إلا أن يؤمنوا بما كرهوا من الحق أو يستسلموا صغاراً وذلة.

فقوة المجتمع المسلم خرجت في عددها القليل على غير استعداد وتأهب لتعترض عير أبي سفيان التي جمعت أموال الطغاة من سفّاحي قريش وفيها أموال المسلمين التي نهبها أولئك الطغاة منهم وهم مستضعفون في مكة، والتي سلبوها منهم ثمناً للتخلية بينهم وبين الهجرة إلى إخوانهم الأنصار في مدينتهم التي صارت مستقر المجتمع المسلم الجديد، وعاصمة الاسلام وعالمه أينما كان من الوجود في أرض الله.

كان رسول الله ﷺ فوق مستوى القيادة العسكرية والسياسية.

وقد كان رسول الله ﷺ في قيادته لمجتمعه المسلم فوق مستوى القيادة العسكرية والسياسية، فلم يقحم جنده للهجوم دون خطة مدروسة، وهو يعلم قلة عددهم وضعف عدّتهم أمام ما عسى أن تكون قريش في صلفها وغرورها قد أعدَّته من أهبة الحرب في العدد والعدة.

فاتخذ ﷺ للأمر كفاءة من التدبير المحكم، والسياسة الحكيمة، واتجه بفكره أول ما اتجه إلى أن يتعرّف قوة عدوه في عددها وعدَّتها، فندب عدداً

من شجعان جنده، فيهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد ابن أبي وقاص، فانتدبوا للقيام بما كُلِّفوه من الذهاب طليعة إلى (بدر) يلتمسون الخبر عن قريش ولفائفها، فلما وصلوا إلى ماء بدر أصابوا راوية لقريش، فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فوجدوه قائماً يصلِّي، فسألوهما ليكشفوا ما عسى أن يكون عندهما من علم عن العير والنفير، فقال الغلامان: نحن سقاة بعثتنا قريش نسقيهم من الماء، فكره الصحابة خبرهما عن نفير قريش، وكانوا يرجون أن يكون الغلامان لأبي سفيان أمير العير، وعندهما خبر عنه وعن عيره، فضربوهما لينتزعوا منهما خبراً عن العير، حتى أزلقوهما، وعندئذ قال الغلامان تفادياً من الضرب: نحن لأبي سفيان، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه وسلم من صلاته، ثم التفت إلى أصحابه، فقال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لِقرَيش».

تعرّف أخبار الأعداء والوقوف على أحوالهم.

ثم استخبر رسول الله ﷺ الغلامين عن عدد قريش، فقال لهما: «أخبراني عن قريش» فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم عدد القوم؟» قالا: كثير، فقال رسول الله ﷺ «ما عدّتهم؟» قال الغلامان: لا ندري، فقال رسول الله ﷺ: «كم ينحرون كل يوم» فقال الغلامان: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال رسول الله ﷺ للغلامين: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فقال الغلامان: عتبة ابن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وأبو البَخْتري بن هشام، وحكيم ابن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي ابن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ وهؤلاء هم الملأ من قريش، وهم شياطينها في جاهليتها، وأشرافها في بلدها، وذوو رأيها في أزماتها ومحنها؛ وأفلاذ كبدها، وشرايين حياتها ونبضات قلوبها.

تبشير رسول الله ﷺ أصحابه بالنصر.

وقد كان رسول الله ﷺ أعلم بهم وبمكانتهم في قومهم فسأل عنهم بعنوان أشراف قريش، وإنهم لكذلك، ولهذا التفت رسول الله ﷺ بعد

إخبار الغلامين بأسمائهم إلى أصحابه فقال لهم ليثبّت أقدامهم، ويزيدهم في معيّة الله لهم بالنصر، ويبشرهم بحسن العواقب، ويذهب عنهم رجز الشيطان ووساوسه لقلة عددهم وضعف عدتهم أمام حشد أعدائهم وكثرة عددهم وتوافر عدتهم المادية من المؤن والسلاح والمراكب: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

وفي قوله ﷺ: «ألقت إليكم» إشعار لأصحابه بأن أعداءهم على كثرتهم سيكونون غنيمة لهم، وأنهم أشباح بغير قلوب، كالشيء التافه الذي يُرمى به لمهانته على رغم قوتهم المادية عدداً وعدّة، وأن ما يدّرعونه من فجور الغرور لا يحمل إلا ما يحمله نزيز القيعان من فقاقيع جوفاء إذا تنفست ماتت، وفي قوله ﷺ: «أفلاذ كبدها» إشارة إلى أن هؤلاء الأشراف أشبه بحبّات الرمل تحت أقدام الدائسين لا تجمع بينهم وشائج تحزمهم بأحزمة من وحدة الهدف وشرف الغاية.

ولقد كانت حالة أصحاب رسول الله ﷺ في قلة عددهم وضعف عدتهم موضع عجب وغرابة عند أعدائهم، فتشككوا في أن يكون وراء هذا العدد القليل أكمنة متخفية وراء هذه القلة الظاهرة، فأرسلوا داهيتهم عمير ابن وهب الجمحي ـ كما قدمنا ـ ليحزر لهم أصحاب محمد ﷺ، ويتعرف حالهم وهل لهم كمين وراء عددهم الظاهر القليل؟ هذا العدد الذي استهتر به غميز الرجولية الفاسق أبو جهل في محاورته مع حكيم بن حزام إذ بعثه إليه عتبة بن ربيعة، يطلب إليه أن يرجع بقريش عن ملاقاة محمد ﷺ وأصحابه، فقال الفاسق مستخفاً بجند الله: إنهم أَكَلَة جزور.

بين غرور أبي جهل ودهاء عمير ابن وهب

وأبو جهل في حمقه وتنفّجه لا يعرف إلا ما تبصره عينه الحولاء من الأشباح التي تمشي على الأرض، وهو أجهل من الجهل في معرفته بالقوى المعنوية من العزائم الإيمانية التي تكمن في صدور الرجال، فلا تظهرها إلا مقابلة المحن الممحصة لمعادن البطولة، فتحدث بكلمته الفاجرة المعربدة عما رأى ببصره، ولكن داهيتهم عميراً جاءهم بما خلع قلوبهم من بين جوانحهم، فقال لهم: (قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح

يثرب تحمل إليكم الموت الناقع) وعمير بهذا القول ينفض لقريش وقائدها أبي جهل ما في كنانته، وهو إذ ذاك كان لا يزال يتمرغ في حمأة الشرك وأوحال الوثنية، فوصف لقومه ما أملاه عليه دهاؤه وحذره عليهم أن تفتك بهم سيوف نواضح يثرب، وأن يذهب أشرافهم طعمة لنيران هؤلاء الأبطال الذين لا منعة لهم إلا سيوفهم، والذين لن يقتل منهم رجل حتى يكون قد جندل إلى جانبه رجلاً من أشرافهم.

ولو كان عمير يومئذ يعرف عن الإيمان وعزائمه شيئاً لقال لقومه: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ لا منعة لهم إلا إيمانهم وعزائمهم وصدق إخلاصهم في لقائكم، ولن يقتل منهم رجل حتى يكون قد قتل عشرة منكم، فإذا أصابوكم إفناء وهواناً وإذلالاً فما بقاء من بقي من أشباحكم بعد هذا؟.

ولقد كانت هذه الحقيقة هي التي ملأت قلوب ذوي التعقل واحتساب العواقب من أضراب عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، وكانت هي الحقيقة الواقعية التي تكشّف عنها الغيب، فقد استأصلت هذه القلّة المؤمنة أشراف قريش في هذه الوقعة، واستذلت من بقي منهم بالأسر ودفع الفداء وهم أذلّة صاغرون.

ولقد كان خروج رسول الله ﷺ بمن خرج معه من أصحابه، وكثرتهم من الأنصار يستهدف العير والتعرض لها ليعلم قريشاً أن المجتمع المسلم في مستقره بالمدينة لن يتركهم يدوسون طريقه غادين رائحين بتجاراتهم إلى الشام مارِّين بمدينته، ولم يكن ﷺ يقصد في خروجه إلى قتال ومحاربة، وإنما خرج لدوافع يمليها الشرف والعزة خرج يريد:

دوافع الخروج إلى طلائع الغزوات.

أولاً - انذار أعداء الله وأعداء الحق والخير من أحلاس الوثنية وعبيد الشرك الغبيّ؛ ليعرفهم أن المجتمع المسلم في مستقره الجديد بالمدينة المنورة قد استوقف مسيرة التاريخ ليملي عليه ما خطّه الغيب في لوح القدر من حياة جديدة لهذا المجتمع المسلم، هي حياة العزة والكرامة، لأنه في عناصره التركيبية التي بناه عليها رسول الله ﷺ في تربيته السلوكية تربية منهجية يحيا بها ويعلِّمها للناس في مشارق الأرض ومغاربها ليحيَوا بها إنما قام على الوحدة

الإيمانية والمؤاخاة التكافلية التي جعلت من هذا المجتمع المسلم قوة روحية عارمة، لا تستطيع أية قوة مادّية مهما كثر عددها وتوافرت عدتها أن تقف في وجه مسيرتها للدعوة إلى الله وإقامة موازين العدل والإخاء الإنساني بين أبناء البشرية في أقطار الأرض.

وثانياً ـ استرداد ما نهبه الظالمون من فجرة الوثنيين من أموال الطليعة المؤمنة وهم يئنون تحت سياط التعذيب في رمضاء مكة حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم وذراريهم.

ثالثاً ـ كسر حدة الغرور الفاجر بهذه الأموال المنهوبة التي تتكرش بها بطونهم بما فيها من سحت، والتي تذهب بها عيراتهم وقوافلهم غادية رائحة وهي ممزوجة بدماء الضعفى من الفقراء الذين يستعبدونهم بهذه الأموال، ويذيقونهم بها ذلّ الحرمان، واستكانة الاستسلام من أجل ما يتساقط من موائد فجورهم من فتات متعفن يتلقطه المساكين المستضعفون في الأرض ليُقيموا به أصلابهم.

آثار الشرك بالله في توجيه الحياة أسوأ توجيه.

ورابعاً ـ إضعاف شوكة الشرك وتوهين قوته المادية التي يتعزز بها غطارفته وطغاته، والشرك بجميع صوره وأشكاله وألوانه هو البؤرة التي ينبع منها كل فساد وإفساد في الأرض.

ومن ثَمَّ كانت حياة المشركين حياة ممزقة متهاوية، لا مقومات لها تعصمها من الانحراف إلى جانب الرذائل الاجتماعية والمفاسد الخلقية، لأنها حياة مهزوزة، يمليها الهوى النفسي والرغائب الشهوية التي تستحوذ على حياة الأفراد والأمم والشعوب المشركة، وهي حياة متهالكة أمام انحرافات الإلحاد المادي الذي ينسف العقائد الإيمانية نسفاً، ويجعل من النفس الإنسانية خواء من عناصر الخير، فهي حياة بهيمية متسفِّلة مخلدة إلى الأرض، تسيطر عليها الغرائز الجامحة، المنطلقة من كل قيد اجتماعي أو خلقي بنزواتها المرذولة، فتدفعها إلى كل فساد يحقق لها المتعة بشهواتها المتهاوية في مهاوي الانطلاق الداعر الملحد المسعور في جموح محموم، بل مأفون مجنون، يحطم كل ما يقف في سبيل نزواته وشهواته.

فهو انطلاق لا يعرف فضيلة تحجزه عن مساوىء الحياة ورذائلها ومفاسدها، وليس للمشرك في داخل نفسه وازع من ضمير يصدّه عن الخوض في لجج الشرور والمفاسد، وسقطات الأخلاق.

وقد يفلسف أحلاس الشرك وعبيد الإلحاد الوثني المادي هذا الإلحاد ليوهموا بعض ذوي الإدراك المراهق الذي تحكمه غرائز الغرور الأحمق، ويخرجوه للناس فلسفة داعرة في صور من الانحلال الخلقي والإباحية، وقد يصبح تقنيناً في حياة بعض الأمم التي يستحوذها فجور الشرك كما هو ماثل في الوجودية والشيوعية وبقايا غثاء اليهودية الصهيونية، وما تفرَّع عن هذه النحل المنحلة من روابط الفضيلة.

مخازي السلوك في مجتمعات الشرك المتحضر.

وفي مجتمعات الشرك (المتحضر) والإلحاد المتعالم عند الأمم والشعوب الوثنية قبائح في حياتها الواقعية من المخازي السلوكية، وأرذل الرذائل الخلقية ما يشهد بأكثر وأقبح من ذلك؛ مما ينادي في آفاق الحياة أن الشرك بالله تعالى في جميع صوره ومشاهده مصدر كل شر وفساد اجتماعي وخلقي يجب على الذين يعرفون الله بوحدانيته واقتداره ومحكم تدبيره أن يجندوا أنفسهم لمقاومته واقتلاع جذوره من أرض الحياة، والقضاء عليه وعلى آثاره السيئة في المجتمع الإنساني أينما كان له وجود في الحياة.

وأصحاب الرسالات الإلهية من الأنبياء والرسل ووارثي مناهجهم من الدعاة إلى الخير الذين حملوا أمانة الحق الإلهي، وسلائلهم الروحيين مكلّفون حماية هذا الحق الإلهي، ورفع لوائه وافتدائه بأغلى ما يملك من نفس ومال وولد، والسير به لتطهير الإنسانية من أرجاس الوثنيات الملحدة في جميع شكولها وألوانها ورسومها أينما كانت من جوانب الحياة، لأن هذا التطهير هو لباب رسالاتهم وأساس دعواتهم الإلهية لتحرير الإنسانية المعذَّبة من ربقة العبودية للغرائز الجامحة، والشهوات الفاجرة، لينطلق العقل الإنساني متحرراً من أغلال (الحضارة) المادية المشركة وفجورها الوثني حتى يخلِّص هذا العقل الذي جعله الله تعالى مناط تفضيل الإنسان على سائر أجناس الحيوان لمعرفة الله تعالى معرفة تفتح له أبواب الهداية واستقامة السلوك، وتنير له جوانب الروح لتشرف من عليائها على تأملاته في الكون ليستخرج من أسراره آيات

أساس الرسالات الإلٰهية تطهير الإنسانية من الإلحاد ورجس الشرك.

الله وعجائبه المسخّرة للإنسان، حتى يستطيع أن يزاوج بين العلم المادي الذي جعله الله تعالى آيات من آيات فضله ليكشف به عن مظاهر الطبيعة التي أودعها الله في عناصر الكون، ليتسنى للإنسان أن يحقق معنى التسخير الإلهي لهذه العناصر الكونية ليصل منها أولاً ـ إلى اقتدار الله وحكمته، وما أودعه في الكون من منافع للإنسان، يفيد منها في حياته المادية والروحية ويزاوج بين إشراقات الروح وتنور القلوب بنور الإيمان وبين العلم المادي، المكنون في عناصر الطبيعة.

وبهذا التزاوج بين العلم المادي والإشراق الروحاني يجعل الإنسان من العلوم الكونية دعائم حضارة مؤمنة، لا تستهويها الرغائب الشهوية في حب التدمير والتخريب والفجور الخلقي في السلوك الاجتماعي من كل ما أصبح يهدد الإنسانية بالدمار الذي لا تقوم لها بعده قائمة.

* * *

كشف الأغطية عن مقومات الغزوات.

بهذا التصوير الموجز ـ الذي أدرنا حول محوره هذا العرض الذي يكشف الغطاء عن مقومات هذه الغزوة المباركة ـ وهي أول غزوة قتالية جابه فيها المجتمع المسلم أعداءه، دون قصد منه إلى المجابهة والقتال ـ ويبين أسبابها ودوافعها، ويوحي بنتائجها التي كان لها خطرها في موازين الحياة، وكان لها أثرها البليغ على سير التاريخ في مسيرة البشرية كلها أينما وجدت من أقطار الأرض ـ تستبين حقائق الموقف بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بقيادة رسول الله ﷺ، الذي خرج بمن معه من أصحابه على غير أهبة في عدد أو عدّة، ليلقى عير قريش في غير قصد إلى قتال، ولم يدر بخَلَد أحد من أصحابه أنه ﷺ يلقى في خَرْجته قتالاً، فلم يخرج معه إلا من حضره منهم، وهو يوجههم للتعرض للعير بإمرة أبي سفيان ـ وبين مجتمع الطغاة من ملأ قريش وأشرافهم وغوغائهم من سائر بيوتاتهم وبطونهم، يدفعهم عتو الكفر وفجور الوثنية، وحقد العصبية القبلية، على أعظم أهبة مادية.

وكان النبي ﷺ قد استطلع أخبارهم في عددهم وعدتهم وأسماء أشرافهم الذين أحرق الحقد أكبادهم وقلوبهم، ولم يكن أصحاب رسول

الله ﷺ الذين خرجوا معه في عددهم وضعف عدّتهم ليقعوا معهم في ميزان التكافؤ المادي على أي مقياس من مقاييس تكافؤ القوى المتحاربة، وكان في استطاعته ﷺ أن يرسل إلى أصحابه الذين لم يرافقوه في خرجته ومكثوا بالمدينة، لأنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله ﷺ سيلقى قتالاً، يستنفرهم ويخبرهم بأمر قريش وتكالبهم على مجتمعهم المسلم ليستأصلوه بما جاؤوا به من الحشود المتأهبة مادياً أقوى تأهب تملكه وتستطيعه.

مُضِيُّ رسول الله بمن معه قدماً بعزم لا يداخله تردد

ولكنه ﷺ لم يصنع شيئاً من هذا، بل رأى بثاقب فكره، وحكمة تدبيره ألا يشعر أعداءه من طغاة ملأ قريش بشيء يزيد من كَلَبهم عليه وعلى أصحابه، لأنهم لو عرفوا أنه ﷺ أرسل يستنفر بقية أصحابه بالمدينة لزاد طمعهم وتكالبهم، ورأى ﷺ أن مجتمعه المسلم لم يكن ليقاتل في سبيل الله لنشر دعوة الحق والهدى والخير بكثرة عدد وقوة عدّة اعتماداً على الأسباب المادية في استجلاب النصر، وإنما كان المجتمع المسلم معتمداً على قوة الإيمان وصدق العزائم المخلصة، وحب الموت استشهاداً في سبيل الله ليكون ذلك منهجاً أبدياً للدعاة إلى الله، ودرساً تربوياً من دروس الجهاد لنصرة الحق، يتلقّاه أصحابه في أول لقاء قتالي بينهم وبين أعدائهم، أعداء الحق والخير يورثونه لمن بعدهم جيلاً فجيلاً حتى يصبح هذا الدرس دعامة من دعائم المنهج القتالي في جهاد أعداء المجتمع المسلم لإعلاء كلمة الله.

ومن ثَمَّ جعل تدبيره للقتال ـ بمجرد أن أحاط علماً بنفير قريش، ومسيرهم من مكة ليمنعوا عيرهم، ويحموا أموالهم في جموع عطشى للدماء وعدة عارمة، وقوة مادية هائلة من السلاح والمؤن ـ يعتمد أساساً على قوة الإيمان، وصدق التوكل على الله، والثقة بنصره مع استكمال الجهد في الأخذ بالأسباب المادية الممكنة، واجتماع الكلمة، وتوحيد الصف، والإحاطة علماً بقوة العدو العددية والعتادية، ليخوض الجيش المعركة على بصيرة وهدف مقصود.

في ضوء هذه المبادىء المستهدفة للحق ونصرته جمع رسول الله ﷺ من كان معه من أصحابه مستشيراً لهم بعد أن أنبأهم بمسير قريش إليهم،

استشارة رسول الله ﷺ أصحابه في الموقف وتفصيل آراء من اشترك فيها.

ليستخرج ماعندهم من عزائم الإيمان الصادقة وقوة اليقين الراسخة، والثقة بموعود الله، وحب الاستشهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

فبدأ الخيّران: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، فقالا فأحسنا القول، وكانا في الذروة من الحكمة وسداد الرأي، وحسن السياسة، وعمق الفهم للموقف، ومعرفة المنهج النبوي في الشدائد والأزمات معرفة لا تفوتها منه شاردة ولا واردة، مع شدة الإخلاص في المشورة، وسابغ الاستعداد النفسي، وكانا المتكلمين باسم المهاجرين، المعبِّرين عن رأيهم أصدق تعبير، وهذا كما ورد في بعض مصادر السيرة أن النبي ﷺ: استشار الناس، فتكلم المهاجرون، فأحسنوا، ثم أعاد ﷺ الاستشارة، فقام أبو بكر فقال فأحسن، قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم أر من ذكر كلام أبي بكر، ثم قام عمر فقال فأحسن القول، وذكر ابن عقبة وابن عائذ أن عمر قال: يا رسول الله، إنها قريش وعزها، والله ما ذلَّت منذ عزَّت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته، وعند صاحب العيون: فاتّهب لذلك أهبته.

حديث المقداد في المشورة واستشهاده بآية المائدة.

ثم قام بعدهما المقداد بن عمرو، قال ابن سعد في نسبه: (البَهراني) أحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ وكان يقال له: المقداد بن الأسود، وذلك لأن الأسود بن عبد يغوث الزهري خال رسول الله ﷺ كان قد تبناه في الجاهلية وحالفه فدعي باسمه على عادة ما كان عند الجاهلية في الأدعياء، فلما جاء الإسلام بإبطال عادة التبني وردِّ المتبنَّين إلى آبائهم إن عُلموا رُدّ المقداد إلى نسبه فدعي لأبيه، فقيل له: المقداد بن عمرو.

وكان المقداد في إسلامه من طلائع الرعيل الأول الذين سبقوا إلى الإسلام، فكان سابع سبعة ممن دلفوا إلى ساحة الإيمان الصبور، ولهذا كان حقيقاً بهذا الموقف النبيل في حديث المشاورة إذ وقف بعد الخيّرين والشدائد مستحكمةً، فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله، فنحن معك. والله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾.

وحديث المقداد رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود من طريق مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت عبدالله بن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي أشرق وجهه وسره.

رواية الإمام أحمد في الاستشهاد بآية المائدة ونسبتها إلى بعض الأنصار دون تعيين.

وكذلك رواه النسائي من حديث مخارق، وفي كل هذه الروايات تُذكر الجملة القرآنية على أنها من حديث المقداد مستشهداً بها، بيد أنه ورد في مسند الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه من طريق حُمَيد الطويل، قال أنس: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى بدر فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذاً لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتّبعناك.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وفي هذه الرواية من مسند أحمد لم يعيِّن قائل ذلك، بل نسب إلى بعض الأنصار غير معين، والمعروف أن هذا متردد بين السعدَين، سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وهما سيدا الأنصار، والجمهور على أنه لسعد بن معاذ، والإسناد إلى سعد بن عبادة رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أنس بن مالك، وفيه: فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغماد لفعلنا، وليس فيه ذكر لآية المائدة. وصاحب العيون يسنده إلى مسلم. وهو في صحيحه كما قال صاحب العيون: وروينا من طريق مسلم أن الذي قال ذلك سعد بن عبادة سيد الخزرج، ولفظه عن

أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا يريد رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضهـا البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، ولم تذكر الجملة القرآنية في كلام سعد بن عبادة.

طريقة الحافظ ابن حجر في الجمع بين الروايات ونقدها وتحقيق البحث.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع بأنه ﷺ استشارهم مرتين الأولى بالمدينة أول ما بلغه خبر العير، وذلك بين من لفظ مسلم عن أنس في قوله، إنه شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، والثانية كانت بعد أن خرج ﷺ ـ كما في حديث الجماعة.

ثم قال ابن حجر: ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب، وهذا التصويب غير مسلّم، لأن الأنصار في الحديبية ـ وكانت سنة ست ـ لا يحتاجون إلى تعرف موقفهم، ويؤيد الإسناد إلى سعد بن معاذ ترجيح رواية أن سعد بن عبادة لم يشهد معركة بدر، وذكره في البدريين عند الواقدي والمدائني وغيرهما إنما هو باعتبار أنه أسهم له فيها لأنه كان يحرِّض الناس على شهودها وكان حريصاً عليها، ولكنه نُهش فتخلف عنها، وله في الإسهام بغير شهود المعركة إخوة من المهـاجرين والأنصار من أكرمهم عثمان بن عفان، لم يشهدها وعُدّ في طلائع أهلها، وقد روي في عدم شهود سعد بن عبادة بدراً حديث إذا صح كان قاطعاً في الاستدلال، ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً» فضرب له ﷺ بسهمه وأجره، وقد ذكر هذا صاحب (العيون) فقال: وروينا عن ابن سعد أنه ـ أي سعد بن عبادة ـ كان يتهيأ للخروج إلى بدر، ويأتي دور الأنصار، يحرِّضهم على الخروج فنُهش قبل أن يخرج، فأقام، فقال رسول الله ﷺ: «لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً» ثم قال صاحب العيون مؤيداً عدم شهوده لها: وروى بعضهم أن رسول الله ﷺ ضرب له بسهمه وأجره، وليس ذلك بمجمع عليه ولا ثبت، ولم يذكره أحد ممن يروي المغازي في تسمية من شهد بدراً.

أما أن عدم شهوده بدراً غير مجمع عليه فمسلّم، لأن الخلاف مذكور، وأما أن رسول الله ﷺ ضرب له بسهمه وأجره فثابت من طريق الواقدي والمدائني كما ذكر صاحب العيون نفسه قبل ذلك بأسطر في نفس عيونه إذ قال: واختلف في شهود سعد بن عبادة بدراً، لم يذكره ابن عقبة ولا ابن إسحق في البدريين، وذكره الواقدي والمدائني وابن الكلبي فيهم، وأقل درجات ذلك أنه ضرب له بسهمه وأجره فكان في عدادهم لتخلّفه عن شهودها لعذر مع حرصه على شهودها.

رواية بالشك بين السعدين ذكرها ابن سعد في طبقاته.

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات من طريق سليمان بن حرب عن حمّاد ابن زيد، عن أيوب، عن عكرمة قال: استشار رسول الله ﷺ يومئذ الناس، فقال سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ: يا رسول الله سر إذا شئت، وانزل حيث شئت، وحارب من شئت، وسالم من شئت، فوالذي بعثك بالحق لو ضربتَ أكبادها حتى تبلغ برك الغماد من ذي يَمَن تبعناك، ما تخلّف عنك منا أحد.

رواية جازمة بالإسناد إلى سعد بن معاذ وهي قول الجمهور.

والإسناد إلى سعد بن معاذ رواه ابن مردويه، وفيه: فقال سعد ابن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط، ولا لي بها علم، ولئن سرتَ حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك إنا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجتَ لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامضِ، فصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرنا تابع لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك.

وكذلك رواه ابن إسحق وعنه أخذه جمهور من ألف في السيرة وشُهِّر.

وفي ورود الجملة القرآنية ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ في حديث المشاورة لغزوة (بدر) ـ سواء أكان ذلك في كلام المقداد

تحقيق حول الاستشهاد بآية المائدة.

ابن عمرو كما رواه البخاري في صحيحه، أو في كلام بعض الأنصار غير معينّ قائله، كما في مسند أحمد عن أنس، أو في حديث سعد بن معاذ كما رواه ابن إسحاق وغيره - إشكال ذلك أن هذه الجملة القرآنية بعض آية من سورة المائدة وهي سورة مدنية من آخر ما نزل كما هو صريح حديث عائشة رضي الله عنها من طريق جبير بن نفير، كما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم وصحَّحه، والبيهقي، وابن مردويه، قال جبير: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ سورة المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلُّوه، وما وجدتم من حرام فحرِّموه، وكما يدل عليه حديث عبدالله بن عمرو عند أحمد والترمذي - وحسّنه - والحاكم - وصحَّحه - وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عبدالله بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فيما بين مكة والمدينة، وهو على ناقته، فانصدعت كتفها، فنزل عنها رسول الله ﷺ.

وعن الربيع بن أنس عند الطبري، قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في المسير في حجة الوداع، وهو راكب راحلته، فبركت به راحلته من ثقلها.

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب، وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله ﷺ: «المائدة من آخر القرآن تنزيلاً، فأحلُّوا حلالها وحرموا حرامها». ذكر هذه الأحاديث والآثار السيوطي في الدر المنثور.

بيد أن استشهاد المقداد رضي الله عنه بجملة من آية في أوائل آيات سورة المائدة في حديثه عند البخاري في مشاورة القتال ببدر يفهم منه أن هذه الجملة القرآنية التي ذكرها المقداد في حديثه كانت معروفة عند الناس قبل غزوة (بدر)، وهذا يقتضي أن آية هذه الجملة القرآنية من سورة المائدة، أو على أقل تقدير أن الجملة القرآنية المستشهد بها كانت سابقة النزول على غزوة (بدر) التي كانت في السنة الثانية من الهجرة في شهر رمضان منها، وهذا

لا يتمشّى مع اتفاق المفسرين المؤيد بالأحاديث الصحيحة والآثار أن سورة المائدة نزلت بعد سورة الفتح التي نزلت في الطريق بين الحديبية والمدينة، مُنصرف رسول الله ﷺ وأصحابه بعد عقد الهدنة مع قريش في سنة ستٍ، فهي متأخرة النزول عن بدر بنحو أربع سنوات على الأقل على هذا التقدير، وبنحو أكثر من ثماني سنوات على ما يقتضيه أثر محمد بن كعب القرظي، وأثر الربيع بن أنس اللذان فيهما التصريح بأن المائدة نزلت في المسير في حجة الوداع، وقد اعتمدنا حديث البخاري لعلوِّه سنداً في أن قائل ذلك المقداد، ويؤكده أن البخاري ذكر الحديث نفسه بعين السند في كتاب (التفسير) من جامعه الصحيح، فقال: باب (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل عن مخارق، عن طارق بن شهاب: سمعت ابن مسعود قال: شهدت من المقداد، ثم ذكر البخاري له سنداً قبل مخارق فقال: وحدثني حمدان بن عمر، حدثنا أبو النضر، حدثنا الأشجع، عن سفيان، عن مخارق، عن طارق عن عبدالله قال: قال المقداد يوم (بدر) يا رسول الله، إنا لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن امض ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ.

ويلاحظ أن بين روايتي البخاري لهذا الحديث في كتاب المغازي، وكتاب التفسير اختلافاً بالزيادة والنقص، مع وحدة السند من طريق مخارق، وليس هذا الاختلاف بمنزلٍ الحديث عن درجته في علو الصحة والثبوت.

وهذا الإشكال بالاستشهاد بالجملة القرآنية من آية في سورة المائدة في مشاورة القتال ببدر كما هو وارد على حديث المقداد عند البخاري ـ وهو أصح سنداً ـ وارد على حديث أحمد وغيره ممن أسند الاستشهاد بالجملة القرآنية إلى بعض الأنصار غير معيَّن، أو من أسندها إلى سعد بن معاذ كابن إسحاق وابن أبي شيبة وابن عائذ، وابن مردويه، وجمهور المتأخرين الذين يعتمدون على ابن إسحاق.

فكيف إذاً يكون محمل الاستشهاد بهذه الجملة القرآنية من سورة

المائدة في مطلع المشاورة لقتال المشركين يوم (بدر)؟ فهل كانت هذه الجملة القرآنية وآيتها سابقة في نزولها لسورتها، ثم وضعت في موضعها منها توقيفاً لمناسبتها؟ ونحو هذا موجود في آيات القرآن، لكنه في الآيات كاملة، لا في جملة منها، تنزل الآية لمناسبة اقتضت نزولها، ثم تلحق توقيفاً بأمر النبي ﷺ بسورتها في موضعها تلاوة.

تأويل الاستشهاد بالجملة القرآنية وحمله في الروايات.

أو كانت هذه الجملة القرآنية مما هو مذكور بمعناه عند بني اسرائيل في قصص أسلافهم وأحداث تاريخهم التي تصمهم بالجبن والخور والخوف من ملاقاة عدوهم، وانتشرت بين الأنصار لشدة مخالطتهم لهم، فأخذها عنهم المهاجرون الأولون، وفيهم المقداد بن عمرو، ثم نزلت في آيتها من سورة المائدة حينما نزلت على رسول الله ﷺ.

ولكن هذا الاحتمال يعكِّر عليه أن البخاري رحمه الله أورد الجملة القرآنية في كتاب التفسير من جامعه الصحيح، وأورد بعدها حديث ابن مسعود المتقدم في كتاب الغزوات تفسيراً لها، وهذا يدل على أن البخاري فَهِم أنها جملة من آية من آيات سورة المائدة، كانت قد نزلت على رسول الله ﷺ قبل غزوة (بدر)، وأن المقداد بن عمرو ذكرها مستشهداً بها على أن المسلمين ليسوا كاليهود في خور عزائمهم وجبنهم عن ملاقاة أعدائهم، فلا يقولون لرسولهم ﷺ ما حكاه الله في القرآن الحكيم عن اليهود من الهلع ووهن العزيمة وقولهم لرسولهم موسى عليه السلام ما سجله عليهم من سوء الأدب مع الله تعالى، مبيناً أن المسلمين سامعون لأوامر رسولهم ﷺ، مطيعون لرغبته يقاتلون معه، وهم حافّون به، عن يمينه وعن شماله، ولو خاض البحار لخاضوها معه، ولو سار بهم لعدوِّهم إلى أقصى الأرض لساروا معه، نفوسهم وأموالهم في يديه، يوجهها في سبيل نشر رسالته كيف يشاء، يرجون نصر الله وحسن العاقبة، لا يخافون الموت، ولكنهم مقاديم يطلبونه في مظانِّه لينالوا الشهادة في سبيل الله.

ولهذا كان الاحتمال الأول راجحاً نقلاً وعقلاً، وهو أبعد عن شبهة أن يكون شيء من القرآن بلفظه كان مذكوراً ومقدوراً عليه من أحد البشر

استطراد إلى تحقيق قصة ابن أبي سرح

قبل نزوله على رسول الله ﷺ مما يجر إلى سوء العقيدة، ويكون فتنة لبعض الناس، كالذي قيل في قصة عبدالله بن سعد بن أبي سرح أنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ، فأملى عليه رسول الله ﷺ قول الله تعالى فيما أنزله من بيان أطوار خلق الإنسان ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ فعجب ابن أبي سرح مما سمع، فقال: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال له النبي ﷺ: «اكتب، هكذا نزلت» فقال ابن أبي سرح: إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليّ وارتد عن الإسلام وفر هارباً إلى مكة، فلما فتحت مكة جاء به عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ وكان أخاه من الرضاع ـ إلى النبي ﷺ مستشفعاً له، وقد راجع الإسلام وتاب وحسن إسلامه، وكان من قادة الفتوحات الإسلامية، ومات وهو يسلّم من صلاة الصبح.

وهذه القصة التي تعيّن أن سبب ارتداد عبدالله بن سعد بن أبي سرح تكلّمُه بما ختمت به آية أطوار خلق الإنسان قبل أن يمليها عليه النبي ﷺ، وقوله له: «اكتب، هكذا أنزلت» لا يثبتها بتفاصيلها رواة الصحيح من المحدِّثين، وإنما تذكر في بعض كتب التفسير، أو قصص التاريخ.

وقد ذكر ابن حجر في (الإصابة) حديث ابن عباس من طريق يزيد النحوي عن عكرمة، قال ابن عباس: كان عبدالله بن سعد بن أبي سرح يكتب للنبي ﷺ، فأذلّه الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل، فاستجار له عثمان فأجاره النبي ﷺ، قال ابن حجر بعد أن ساق حديث ابن عباس: وأخرجه أبو داود.

وهذا محتمل أن يكون إجمالاً لقصة تكلم ابن أبي سرح بخاتمة آية أطوار خلق الإنسان قبل أن يمليها عليه النبي ﷺ، فكان ذلك سبب ردته عن الإسلام، ولحاقه بالكفار في مكة.

ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب دون أن يسنده، قال أبو عمر بن عبد البر: وكان ـ أي عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح ـ يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتد مشركاً، وصار إلى قريش

بمكة، فقال لهم: إني كنت أصرف محمداً حيث أريد، كان يملي عليّ، (عزيز حكيم) فأقول: (عليم حكيم) فيقول (نعم كل صواب) فلما كان يوم الفتح أمر النبي ﷺ بقتله، ففرَّ إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاع، أرضعت أمّ عبدالله عثمان، فغيبه عثمان حتى هدأ الناس، ثم أتى به النبي ﷺ، فاستأمنه له، فصمت رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قال (نعم).

وليس في كلام ابن عبد البر، ولا في حديث ابن عباس الذي ذكره ابن حجر، وقال عقبه: وأخرجه أبو داود تعرّضٌ لتكلم ابن أبي سَرْح بما ختمت به الآية، وهو قوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ مما يجعل قصتها ضعيفة.

أمثل روايات قصة ختم آيات خلق الإنسان.

وأمثل منها سنداً وسياقاً ما ذكره السيوطي في (الدر المنثور) قال: وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن صالح أبي الخليل، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ إلى قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ قال عمر: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت به يا عمر) ويؤكد ذلك حديث أنس في موافقات عمر لربه تعالى الذي أخرجه الطيالسي وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، كما ذكره أيضاً السيوطي في درِّه.

وقد نسب التكلم بخاتمة آية أطوار خلق الإنسان إلى معاذ بن جبل في حديث زيد بن ثابت الذي رواه ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ إلى قوله: ﴿خلقاً آخر﴾ فقال معاذ بن جبل: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «إنها ختمت، فتبارك الله أحسن الخالقين».

وقد يكون من أعجب وأغرب ما واجهه البحث في قصة مشاورة النبي ﷺ أصحابه ـ وخاصة الأنصار منهم، ليتعرف موقفهم في قتال غزوة

سياق ابن سعد عن شيخه الواقدي لقصة المشاورة في قتال (بدر) مخالف لسياق الجمهور.

(بدر) وراء اختلاف الروايات في سياق حديث هذه الغزوة المباركة اختلافاً متباعد الملتقى ـ موقف أبي عبدالله محمد بن سعد في طبقاته الكبرى، وهو يسوق حديث المشاورة بروايات متعددة، فإذا بهذا الحديث يخلو تماماً من التعرض لذكر الجملة القرآنية ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ التي كادت تجمع على ذكرها الروايات في جميع ما أمكننا الاطلاع عليه من مصادر السيرة النبوية، ومراجع تاريخ الدعوة الإسلامية وأسفار الغزوات، مسندةً إلى المقداد بن عمرو، ومرة إلى بعض الأنصار، وأخرى إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وحسبك ذكرها في صحيح سيد المحدِّثين وإمام الرواة محمد بن اسماعيل البخاري في أكثر من موضع من الصحيح.

ومحمد بن سعد ـ وهو من طلائع مدوِّني تاريخ صدر الإسلام، وأحداثه وتراجم رجاله، وهو من أقدم مؤلفي أحداث السيرة النبوية في استيعاب واستقصاء بالغَين، وكل من جاء بعده من المؤلفين في هذا المجال قد أخذ عنه، وأفاد منه، وهو من ثقاة الرواة ونقّاد الروايات ـ لم يذكر في رواية واحدة من عديد الروايات التي ساقها عن شيوخه ورواة أحاديث طبقاته الجملة القرآنية التي استشكلنا ذكرها في روايات غيره، ولا سيما رواية البخاري عن عبدالله بن مسعود في حديثه عن موقف شهده من المقداد ابن عمرو في بيان فدائية المجتمع المسلم لدعوة الحق، ورسالة الهدى والنور، وانصياع هذا المجتمع المسلم لأوامر النبي ﷺ في متابعته في مسيره بهم إلى ميادين الجهاد في سبيل الله، ونشر رسالته ﷺ في أقطار الأرض مهما لاقوا في سبيلها من عقبات وشدائد، ليس بأهونها الموت استشهاداً لنصرتها وتأييدها.

وغزوة (بدر) أول غزوة واجه فيها المجتمع المسلم على قلة عدده وعدم تأهبه لقتال أعدائه حشود الشرك وطغيانه، وفجور الوثنية المادّية الملحدة، المتكالبة على هذا المجتمع المسلم في كثرة أعدادها، ووفرة عتادها من المؤن والسلاح إلى درجة الترف الخليع، وكثرة من خرج فيها من زعمائهم وقادتهم وأشرافهم ليقاتلوا بأنفسهم، ويحرِّضوا غوغاءهم، وجماهير المستعبدين لهم على القتال، وهم لم يتركوا وسيلة من وسائل الفجور والطغيان إلا استوعبها طواغيتهم، ولم يَدَعوا من طاقاتهم للقتال طاقة إلا أعدّوها ليستأصلوا هذا

المجتمع المسلم الذي أغصهم بقوة صبره على شدائد المحن، واحتمال قاصمات البلايا في وطنهم وبين عشائرهم حتى تمكن مَنْ قوي منهم على الهجرة، فهاجروا ليمتزجوا بإخوانهم أنصار الله، وأنصار دينه ونبيه ﷺ في وحدة إيمانية جعلت منهم قوة مرهوبة الجانب، مخشية العزمات تترصد طريق الطغاة في رحلاتهم التجارية لتمنعهم أن يمروا آمنين بقوافلهم وعيراتهم على مدينتهم التي جعلها الله تعالى مستقرهم وحصن دعوتهم، لا تهاب عتو فجورهم وكثرة أعدادهم، ولا ترهب أسلحتهم وقوة عتادهم، ولا تخشى أحقادهم وطغيانهم، ولا ترفع رأساً لاغترارهم بما في أيديهم من قوة مادية فاجرة.

ومن ثَمَّ لما علم النبي ﷺ بنفير المشركين لقتال مجتمعه المسلم، وعلم بما تجمع إليه من معلومات عن طريق رواياهم وسقّائهم كثرة أعدادهم، وتوافر مؤنهم وعتادهم، وكثرة أشرافهم وطغاتهم بين حشودهم، جمع أصحابه الذين خرجوا معه على قلة عددهم وضآلة عتادهم فشاورهم في مواجهة الطغاة ومواقفتهم في ميدان القتال.

رأي المقداد في مشاورة (بدر) كان أشجع وأصرح رأي.

واختلفت الروايات في أسلوب المشاورة، وكان أول رأي شجاع وصريح ساقته الروايات في فهم قصد النبي ﷺ في إعداد مجتمعه نفسياً لمواجهة الطغيان في ميدان القتال هو رأي المقداد بن عمرو الذي رواه البخاري وغيره عن عبدالله بن مسعود، وفيه سوق الجملة القرآنية التي تنعَى على بني إسرائيل خور عزائمهم، وهلع قلوبهم، وجبنهم، وسوء أدبهم في إجابتهم رسولهم موسى عليه السلام، مبيناً المقداد في إبداء رأيه أن المجتمع المسلم لا يقف من رسوله محمد ﷺ ذلك الموقف الرعديد الجبان الذي وقفه بنو إسرائيل من رسولهم، ولكن المجتمع المسلم الذي ربّاه محمد ﷺ على منهاج رسالته يقف من نبيه ورسوله موقف الشجاعة في نصرة الحق، فهو مجتمع تربى على السمع والطاعة لرسوله ﷺ الذي لو خاض بهم البحار لخاضوها معه ما تخلّف منهم أحد، يجاهدون في سبيل الله لنصرة نبيهم ونشر دعوته صابرين صادقين، محتسبين أرواحهم عند الله الذي عرفوه بوحدانيته واقتداره، وجلال قهره وكبريائه.

استهداف رسول الله ﷺ استطلاع رأي الأنصار وإجابة سعد بن معاذ عنهم.

ثم كرر رسول الله ﷺ قوله: «أشيروا عليّ أيها الناس» وهو ﷺ يريد أن يتعرف رأي الأنصار ويسمع من زعمائهم وأشرافهم ما يدور في أخلدتهم وتنطوي عليه أفئدتهم في هذا الموقف الآزم، لأنهم كانوا أعداد الناس وجمهرتهم، وكانوا إذْ بايعوا النبي ﷺ بيعة السبعين بالعقبة ـ كما في حديث جابر الطويل عند الإمام ـ أحمد ـ أعطَوه عهودهم ومواثيقهم على أنه ﷺ إذا قدم عليهم بلدهم ينصرونه فيمنعونه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة.

فأراد ﷺ أن يتأكد، ويسمع من لم يكن حضر البيعة رأي من حضرها من أن نصرته ﷺ عليهم ومنعه وحمايته وحماية دعوته في داخل المدينة وخارجها.

فتكلم السعدان: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج معبِّرين عن رأيهما ورأي سائر الأنصار، كما جاء صريحاً عن سعد ابن معاذ عند ابن سعد في الطبقات إذ قال في إجابته لرسوله ﷺ حين قال: «أشيروا علي» بعد أن تكلم المقداد بن عمرو، وإنما يريد ﷺ الأنصار، فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟ فقال ﷺ: «أجل» قال سعد بن معاذ: فامضِ يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد.

وروى كلام سعد بن معاذ محمد بن إسحق بأطول من ذلك، وليس فيه: أنا أجيب عن الأنصار فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل» قال سعد: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردتَ، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضتَه لخضناه معك، ما تخلّف رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، إنا لَصُبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعلّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله.

وأما كلام سعد بن عبادة فهو ـ كما قدمنا ـ رواية مسلم وأحمد عن أنس ابن مالك، وفيه أن المشاورة كانت حين أقبل أبو سفيان، فقال سعد بن عبادة ـ بعد أن تكلم أبو بكر فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم تكلم عمر فأعرض عنه: إيانا يريد رسولُ الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلناه.

كلام سعد بن عبادة عند مسلم وتحقيق شهوده (بدراً).

وهذا الكلام لا يلائم المشاورة للقاء العير، وإنما يلائم السير للقتال، وفيه دليل على ترجيح رأي من قال أن سعد بن عبادة شهد بدراً بنفسه، وكان من أشراف جنود المجتمع المسلم فيها.

ورود الجملة القرآنية في كلام الأنصار.

وفي بعض روايات أحاديث الأنصار وكلمات زعمائهم جاءت الجملة القرآنية الناعية على بني إسرائيل موقفهم الرعديد الجبان من رسولهم ووعد ربهم، كحديث أبي أيوب الأنصاري من طريق عبدالله بن لَهيعة عن يزيد ابن أبي حبيب عن أسلم عن أبي عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عِيرِ أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير لعل الله يغنّمناها» فقلنا: نعم فخَرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترَون في القوم فإنهم قد أُخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم: ولكنّا أردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقام المقداد ابن عمرو فقال: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسىٍ لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) قال أبوأيوب: فتمنّينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.

وكحديث أنس بن مالك عند أحمد من طريق حميد الطويل، قال أنس رضي الله عنه: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى (بدر) فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذاً لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن والذي

بعثك بالحق لو ضربتَ أكبادها إلى بَرْك الغماد لاتبعناك.

والجملة القرآنيةمذكورة في جميع هذه الروايات، ورواية البخاري أصح الروايات في أحاديث المشاورة سنداً، وهي من أقوى دواعي إيراد الاستشكال بها في ذكر الجملة القرآنية التي هي بعض آية من سورة المائدة، والمائدة آخر ما نزل من القرآن كما في حديث جبير بن نفير عن عائشة رضي الله عنها.

ولو لم يروها البخاري عن المقداد ويدخلها في كتاب التفسير من صحيحه لكان لموقف ابن سعد في عدم ذكر الجملة القرآنية في رواياته المتعددة المختلفة إسناداً وأسلوباً ما يرجحه على سائر روايات مَنْ ذكرها مَنْ سوى البخاري، أو على أقل تقدير يكون له ما يجعله في مستوى تلك الروايات في مجال التأويل.

ونحن نسوق كلام ابن سعد نقلاً عن طبقاته، وهو كلام موجز لم يستوعب فيه ذكر الروايات المتماثلة كما صنع غيره ليكون بين يدي الناظر في البحث على ضوء أحاديث المشاورة في قتال (بدر).

قال ابن سعد: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دون (بدر) أتاه الخبر بمسير قريش فأخبر به أصحابه واستشارهم، فقال المقداد بن عمرو البهراني: والذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغماد لسرنا معك حتى تنتهي إليه.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ» وإنما يريد الأنصار فقام سعد ابن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا قال: «أجل» فقال سعد بن معاذ: فامض يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لواستعرّضتَ هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد، فقال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، فوالله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

ثم عاد ابن سعد إلى حديث المشاورة بعد أن مرّ في ذكر أحداث

الغزوة، فقال: أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة قال: استشار رسول الله ﷺ يومئذ الناس، فقال سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ: يا رسول الله، سر إذا شئت، وانزل حيث شئت، وحارب من شئت، وسالم من شئت، فوالذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها حتى تبلغ برك الغماد من ذي يمن تبعناك، ما تخلّف عنك منا أحد.

ترجيح نسبة كلام الأنصار في مشاورة بدر إلى سعد ابن معاذ.

ولم نر لابن سعد كلاماً في حديث المشاورة غير هذا الذي ذكره في موضعين متقاربين من طبقاته، وقد اختلف كلامه في الموضعين، ففي الموضع الأول جزم دون شك أو تردد أن المتكلم عن الأنصار هو سعد بن معاذ، وهذا موافق لرأي جمهور مؤلفي السيرة ومدوّني غزواتها، وموافق لما دلّت عليه أحداث الغزوة ووقائعها من الجزم بشهود سعد بن معاذ (بدراً) ومشاركته في أحداثها منذ بدأت مقدماتها وأسبابها إلى أن انتهت وقائعها بالنصر المؤزر، وكان من أقرب الملازمين لرسول الله ﷺ في تدبير أمر القتال، وإدارة حوادثه في مواقعها من ميدان المعركة.

وكان سعد بن معاذ على رأس حرس رسول الله ﷺ، وهو في عريشه الذي اقترح سعد إقامته ليقيم فيه رسول الله ﷺ لإدارة رحى المعركة.

العريش في بدر كان أشبه بغرفة العمليات الحربية في الاصطلاح الحديث.

ولعل هذا العريش هو أول (غرفة) عمليات حرب، يكون فيها قائد المعركة الأعظم ـ ومعه خاصة قواد جنده ومساعدوه في إدارة المعركة، والحاملون لأوامره إلى عامة الجند ـ في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ المعارك الحربية عامة.

وفي الموضع الثاني عند ابن سعد ذُكِر السعدان: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ على سبيل التردد بينهما في نسبة الكلام الذي أجيب به رسول الله ﷺ على قوله «أشيروا عليّ» لأحدهما غير معين، والمعروف أن سعد ابن معاذ كان من شهود (بدر) باتفاق الرواة، أما سعد بن عبادة فقد جرى فيه الخلاف، هل شهد (بدراً) أو لم يشهدها.

ولعل محمد بن سعد لم يترجح عنده عدم شهود سعد بن عبادة (بدراً) ولا سيما أن شيخه الواقدي ذكر سعد بن عبادة في عداد البدريين، ولعل

محمد بن سعد فهم من كلام شيخه الواقدي أن سعد بن عبادة شهد (بدراً) وكان من أشراف جندها المحاربين.

ترجيح شهود سعد ابن عبادة (بدراً).

وتأويل كلام الواقدي بما قدمناه عن بعض الباحثين من أن مرجعه أن سعد بن عبادة كان حريصاً أشد الحرص على شهودها والتجهز لها ـ كما شهد له النبي ﷺ بذلك ـ ولكنه نُهش فتخلّف عنها، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره ـ لم يره ابن سعد وجهاً مقبولاً، وأجرى الكلام على ظاهره في عدِّه سعد بن عبادة من شهود (بدر)، ولعله حضرها بعد أن ذهب عنه ما خلفه عن مصاحبة جيش المسلمين، ثم لحق بهم.

ويرشح هذا أن اسم سعد بن عبادة لم يذكر في أسماء الذين تخلّفوا عن شهود (بدر) لعلّة وضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وأجورهم، وكانوا ثمانية نفر ـ كما ذكرهم ابن سعد ـ ثلاثة من المهاجرين، وهم عثمان ابن عفان، خلّفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فأقام عليها حتى ماتت، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بعثهما رسول الله ﷺ يتحسّسان خبر العير.

وخمسة من الأنصار، وهم أبو لبابة بن عبد المنذر، خلفه رسول الله ﷺ على المدينة، وعاصم بن عدي العجلاني خُلِّف على أهل العالية، والحارث بن حاطب العمري، ردّه رسول الله ﷺ من الروحاء إلى بني عمرو ابن عوف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الصمّة، كُسِر بالروحاء، وخوّات ابن جبير كسر أيضاً، فلو كان سعد بن عبادة تخلّف عن شهود (بدر) لنهشته مع شدة حرصه على شهودها لذكر اسمه في أسماء الذين تخلّفوا عن شهودها لعلة مقبولة، وعذر قاهر، ولكانت نهشته بمنزلة كسر الحارث بن الصمة وخوّات بن جبير.

مخالفة ابن سعد لشيخه الواقدي في سياق مشاورة بدر

وابن سعد في صنيعه وسياقته لحديث مشاورة النبي ﷺ أصحابه في قتال المشركين ببدر، إلى جانب مخالفته لجمهور أهل السّير والمغازي في عدم ذكر الجملة القرآنية على لسان المقداد أو لسان بعض الأنصار، سواء أكان أحد السعدَين أم غيرهما، فقد خالف شيخه محمد بن عمر الواقدي في

مغازيه التي ساق فيها الحديث متوافقاً مع الجمهور، فقال: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دُوَين (بدر) أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بمسيرهم، واستشار رسول الله ﷺ الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر، فقال فأحسن، ثم قال: يا رسول الله إنها ـ والله ـ قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تُسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنّك، فاتّهب لذلك أهبته وأعدّ لذلك عدته.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغماد لسرنا معك.

قال الواقدي: وبرك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن ـ فقال له ـ أي للمقداد ـ رسولُ الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

تطلب رسول الله ﷺ رأي الأنصار وإجابة سعد بن معاذ عنهم.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد رسول الله ﷺ الأنصار، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلا في الدار، وذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم، فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ» فقام سعد بن معاذ: فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟ قال «أجل» قال سعد: إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر أوحي إليك ثم أوحي إليك في غيره، وإنا قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن كل ماجئت به حق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقي منا رجل، وصِلْ من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت، والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط، وما لي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك.

ثم قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر ابن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: قال سعد: يا رسول الله، إنا قد خلّفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حبّاً لك منهم، ولا أطوع لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنُّوا يا رسول الله أنك ملاقٍ عدواً ماتخلّفوا، ولكن إنما ظنُّوا أنها العير، نبني لك عرشاً وتكون فيه ونعدُّ لك رواحلك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا.

فقال له النبي ﷺ خيراً، وقال - أي النبي ﷺ - «أويقضي الله خيراً من ذلك يا سعد» قال الواقدي عن محدِّثيه بالسند المتقدم: قالوا: فلما فرغ سعد من المشورة قال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» وأرانا رسول الله ﷺ مصارعهم يومئذ، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فما عدا رجل مصرعه لقول النبي ﷺ.

الواقدي يذكر مشورة المقداد في الحديبية ومناقشة كلامه.

ثم أورد الواقدي حديث المقداد في مشاورة رسول الله ﷺ أصحابه في (الحديبية) حين وفدوا عُمّاراً مقتصراً فيه على استشهاد المقداد بالجملة القرآنية، وزاد عليها قوله: لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنامعك ما بقي منا رجل. وقد تقدمت هذه الزيادة منسوبة إلى سعد بن معاذ، وهو أشبه.

ورواية الواقدي لحديث المقداد بن عمرو في مشاورة (الحديبية) لم نرها لغير الواقدي من رواة المغازي والسّير، وقد ذكره الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلاني بصيغة التمريض المشعرة بالضعف غير منسوبة للواقدي، فقال بعد أن ساق صاحب المواهب قول أبي بكر الصديق: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه: ويروى أن المقداد بن عمرو قال نحو مقالته يوم (بدر) بعد كلام أبي بكر: إنا والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فقال ﷺ: «فسيروا على اسم الله تعالى».

فهذا السياق لرواية مشورة المقداد في (الحديبية) بمثل ما أشار به في (بدر) مشعر بضعف هذه الرواية وهي حرية أن تكون مما اشتبه فيه الأمر على بعض الرواة، لأن مشاورة (الحديبية) تختلف عن مشاورة (بدر) في أسبابها ودوافعها، ومقاصدهما، ووضع المجتمع المسلم في عدده وعدده وقوته المادية والمعنوية، ووضع مجتمع الكفر والطغيان في ضعف شوكته بما أصابه من الهزائم والتفسخ في كيانه، وقتل أشرافه، وإذلال زعمائه في غزوات سابقة على الحديبية.

اختلاف الأحوال في (بدر) عنها في الحديبية.

فالمشاورة في قتال (بدر) كان الهدف منها تعرف رأي الأنصار، وكشف ما انطوت عليه دخائل أنفسهم في هذا القتال المفاجىء، غير المتكافىء في ميزان القوة المادية عدداً وعتاداً.

والأنصار كانوا في (بدر) أعداد الناس وغمرة المجتمع المسلم الذي خرج مع النبي ﷺ، وكانوا عاهدوا رسول الله ﷺ في بيعتهم الكبرى، بيعة السبعين عند العقبة، فقالوا: يا رسول الله إنّا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا، وكان النبي ﷺ يريد بهذه المشاورة أن يؤكد هذا العهد في نصرتهم له على كل من يريده أو يريد دعوته إلى الله بسوء في دار هجرته أو خارجها، فكانت الأنصار في إجابتها له ﷺ وفي أفعالها وطاعتها لأمره فوق مستوى البطولة الفدائية داخل دارهم وخارجها، وصَدَقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، وصدقهم الله فأثنى عليهم في تنزيله وأنزل فيهم آيات تتلى اعتقاداً وتعبداً وسلوكاً.

وكان موقف المجتمع المسلم شديد التأزم، يحتاج إلى لون من الشجاعة الفدائية تُزكي فيه حرارة العزائم الماضية، وتضيء له طريق الاستشهاد في سبيل العقيدة، وتحبِّب له الموت دفاعاً عن كيانه وحفاظاً على وجوده في تركيبه الاجتماعي الجديد، فإذا قام بطل من أبطال هذا المجتمع المسلم في نموذج يمثله المقداد بن عمرو أحد طلائع الإسلام، وأحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ الذين يحفُّون به، يفدونه ويفدون دعوته إلى الله بأرواحهم ودمائهم ـ

شدَّة تأزم الموقف كانت في أشد الحاجة إلى إعلان رأي الأنصار وبطولة المقداد.

مقامه في مشورته التي رواها البخاري وغيره بأصح الأسانيد ووضع بهذه المشورة أول لبنة في بناء صرح الجهاد القتالي الذي ألجىء إليه المجتمع المسلم إلجاء لم يترك له خيرة في موقفه أمام الطغاة من طواغيت الوثنية المادّية الفاجرة المعتدين، ليكون نموذجاً يحتذى في ميادين البطولة ومثلاً يقتدى بـه في التضحية لنصرة الحق والخير، ذلك المقام الذي كان صورة لرسوخ الإيمان وصدق العقيدة، ونموذجاً للفدائية التي تعانق الموت في سبيل عزة الحياة، وكرامة الويجود، فإنما يكون قد أدّى بهذا المقام ما كان يتطلبه الموقف الذي لا حَيْدة عنه، ورسم للمشيرين من بعده منهج السير في طريق الوصول بهذا الموقف إلى نهايته الحميدة من الظفر بالنصر المؤزر، والاستشهاد في سبيل أنبل غاية في موقف يحمل في ثناياه كل عناصر التفاوت المادي بين القوتين، قوة الحق الأعزل إلا من الإيمان، وقوة الفجور الكفور المدجج بكل أسلحة الدمار.

فحشود الشرك والوثنية تجمع العدد الوفير من المقاتلين الذي جلبهم الطغاة من ملأ قريش مستوعبين فيها كل طاقات بيوتاتهم وبطون قبائلهم في أهبة لم تترك وراءها سَبَداً ولا لَبَداً إلا أسهموا به في توفير العتاد والمؤن والسلاح لهذه الحشود المسعورة التي يقودها زعماؤهم وأشرافهم من غطارفة الكفر العنيد، ممن أكل الحقد قلوبهم، وأحرق الحسد والغرور أكبادهم، وملأهم غيظاً حانقاً، وعتواً متجبراً.

وقلة عددية لا أهبة لها ولا عتاد في يدها تجابه هذه الحشود الظالمة الطاغية، إلا رسوخ إيمانها وصادق عزائمها، وقوة يقينهـا في الله العلي العظيم.

وللإيمان الراسخ، والعزائم الصادقة قوة لا تقف أمامها القوى المادية المتورمة بالغرور وعتو الفجور.

موقف المجتمع المسلم في الحديبية كان موقف قوة مسالمة.

أما مشاورة (الحديبية) فالموقف فيها بين قوة أعزّها الله لإعزاز دينه بها وأمدها بنصره على قلة عددها وضآلة عتادها في وقائع زلزلت أقدام الغرور الفاجر الذي تسربله أحلاس الشرك وعبيد الوثنية المادية الحمقاء، وأدارت

رؤوس الظلم والطغيان إلى أقفيتهم، وحسّت أشرافهم حساً ترك حشودهم أشلاء في مناقير النسور ومخالب الصقور، ووضعت البقية الباقية من طواغيتهم في أحجامها المتهاوية مهانة وضآلة، فكانوا كالفتات المتعفِّن في مواطىء الأقدام، فأفنت أشرافهم، وشتّتت جموعهم، وشرّدت فلولهم، وانتزعت غرور الفجور من قلوبهم، وملأت أفئدتهم بالجبن والخور والرعب والهلع والمهانة، فكانوا في حياتهم المتهاوية أشباحاً خاوية وعظاماً نخرة، يمشون على الأرض سكارى بخمر الكمد المغيظ والغم الخانق، لا يعرفون عارفة، ولا ينكرون دواهي فيهم فاشية، حلّت بهم الهزائم المتوالية، فأصابت عقولهم بالشلل، وتفكيرهم بالخبل، وتدبيرهم بالخرف، ومكرهم بالوهن.

سمعوا ـ وهم على ما هم عليه من شتات وذل ـ أن محمداً رسول الله ﷺ قادم عليهم في بضع عشرة مائة من أصحابه المهاجرين والأنصار، زائرين للبيت الحرام، معظِّمين له معتمرين، لا يريدون حرباً ولا يقصدون قتالاً، قد ساقوا هديهم بين أيديهم إعلاناً للسلام والأمان لا يحملون معهم سلاحاً إلا سلاح المسافر الآمن، السيوف في أغمادها، فجنّ جنون بقايا الأشباح الخاوية من فلول الفجور الوثني، وجمعوا أشلاءهم واستصرخوا من حولهم من الأعاريب والأحابيش، وكان رسول الله ﷺ قد بعث عيناً له بُسر ابن سفيان الخزاعي الكعبي، وكان حديث عهد بالإسلام لم يُعرف به يومئذ ولم يشهّر اتقاء أذيته إذا دخل في جموع القوم ليعرف أحوالهم وموقفهم من مقدم رسول الله ﷺ إلى مكة في أصحابه عمّاراً، فذهب بسر واستطلع وعرف، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ ينبّؤه بما رأى وسمع، فقال له: إن قريشاً قد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، ومانعوك من دخول مكة، وقد خرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألّا تدخلها عليهم عنوة أبداً.

سياسة حكيمة وعزيمة إيمانية لا تقهر.

وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدّموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله

عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».

ثم قال ﷺ إمعاناً في قصده المسالمة: «مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها» فانتهض رجل وقال: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شِعاب كثيرة الحجارة حتى خرجوا منه.

ثم قال رسول الله ﷺ للناس: «اسلكوا ذات اليمين» في طريق يخرجهم إلى وسط الحديبية من أسفل مكة، فلما رأت خيل قريش التي كان عليها خالد بن الوليد عجاجة الجيش وعرفوا أنهم قد خالفوا طريقهم خافوا أن يبغتَ جيش المجتمع المسلم مكة وقريشها، فركضوا راجعين إلى قريش لتحذيرهم.

ولما بلغ رسول الله ﷺ مهبط (الحديبية) عند موضع كان يعرف بثنية المرار بركت به ناقته القصواء، فجعل الصحابة يزجرونها ويقولون: حل، حل، فلمّا لم تقم لزجرهم قالوا خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خِطَّة يسألوني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها».

فأين يقع كلام المقداد في هذه المشورة، وهو بعينه كلامٍ قيل في وقته ومناسبته التي كانت تقتضيه وتتطلبه يوم قتال (بدر)، وقد تغيّر الموقف في الحديبية عنه في (بدر) إذ في الحديبية كانت موازين الحق والنور والهدى في الدعوة إلى الله قد ثقلت بما وضع الله فيها من انتصارات للمجتمع المسلم هزّت أرجاء الآفاق العربية، وقضت قضاء مبرماً على عنجهية البأو الوثني العنيد، وفجور الغرور العتيّ الذي جلّلت به الشياطين كواهل أوليائهم من طواغيت الشرك المقيت والإلحاد الخبيث، وخفّت موازين العتوّ العنيد المستكبر عند طواغيت الملأ من بقايا أشباح الهزائم المتوالية، فلم يبق منها إلا خيالات المذلّة والهوان، وهي تمشي منكوسة لا تعرف فوقها من تحتها من هول ما أصابها.

أما في (بدر) يوم أن قال المقداد رضي الله عنه مايجب أن يقال في وقته ومناسبته، فقد كان المجتمع المسلم الناشىء في مهده الاجتماعي قليلَ العدد، فقيد العدة، ليس له من سلاح إلا إيمانه بعقيدته، وفدائيته لدعوته دعوة التوحيد الخالص لله تعالى، والإصلاح الاجتماعي الذي يستنـزل طواغيت الشرك من ذُرى رواسي الفجور العنيد المستكبر إلى أرض العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الناس وجماعاتهم، وإلى أرض الإخاء المتراحم المتواسي، مع المستضعفين في الأرض من المعذَّبين فيها بشدائد الحرمان، المستعبدين للقمة العيش وهي في أيدي الطغاة من أحلاس الكفر الفاجر، لا يلقونها إلى المستضعفين المستعبدين لها إلا إذا سلبوهم الحياة في عزتها وكرامتها.

بهذا التحقيق يظهر أنَّه لا وجه لذكر مشورة للمقداد في الحديبية

فالحق الذي لا يقبل التردد، ولا يجري وراء الروايات هنا وهناك أنْ لا محل، ولا وجه لذكر مشورة للمقداد في (الحديبية) بالصورة التي جلبتها الرواية لاختلاف الموقف بين حالة المجتمع المسلم الجديد، وبين المشركين الذين أنهكتهم الحرب وأضعفت شوكتهم، وفضّت جموعهم، وأفنَت طواغيتهم وقتلت أشرافهم، وأذلَّت من بقي من أشباحهم، لأن الدواعي والدوافع التي دفعت بالمقداد إلى أن يقول كلمته البطولية الشجاعة لم تكن في (الحديبية) كما كانت في (بدر) لاختلاف الحال اختلافاً كبيراً بين الموقفين.

ولم نرَ أحداً من الرواة والمحدِّثين ذكر أن أحداً من الصحابة تكلم في مشاورة (الحديبية) سوى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وسوى ما قاله ابن حجر في مشورة سعد بن عبادة في (بدر) عند مسلم أنه وقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك في (الحديبية) قال ابن حجر: وهو أولى بالصواب.

لا وجه لتصويب ابن حجر رواية الطبراني وتقديمها على رواية مسلم

ولا نرى وجهاً لتصويب ابن حجر، لأن رواية مسلم صريحة بأنّ مشورة سعد بن عبادة كانت في بدء المشاورة للخروج لعير أبي سفيان، ولم تكن للقتال في (بدر) ولا في (الحديبية)، فترجيح ابن حجر لما وقع عند الطبراني على صريح رواية مسلم مجازفة لا تستند إلى دليل وبين إسناد مسلم وإسناد الطبراني مفاوز لا تجري فيها معاجم الطبراني.

ثم يقال: ما الداعي إلى أن يكرر المقداد ـ كما زعم الواقدي ـ كلمته التي قالها في (بدر) وفيها الاستشهاد بالجملة القرآنية من سورة المائدة في موقف (الحديبية) دون أن تشتمل على شيء يخرجها عن إطارها في (بدر)، أو يشير إلى مناسبتها في موقف (الحديبية) كما صنع أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلمتيه في (بدر) و(الحديبية) فقد أعطى لكل مقام حقَّه من المناسبة.

وقد عرف أن مشاورة (بدر) كان المقصود بها استطلاع رأي الأنصار ولذلك تكلموا بعد كلمة المقداد إذ عرفوا أن رسول الله ﷺ يريدهم بالمشاورة، فكانوا حاملي ألوية البطولية والشجاعة والفدائية التي لا ترهب الموت ولا تبالي بأعظم المشقات، فأقروا عين رسول الله ﷺ في موقف كانت تحيط به الأزمات والشدائد من كل جانب، ففرّج الله بموقفهم عن المسلمين ضوائق الأزمات، وخاضوا غمرات القتال بقوة الإيمان وصدق العزائم وحب الموت في سبيل الوفاء بعهودهم ومواثيقهم التي عاهدوا بها رسول الله ﷺ، وواثقوه فيها على أن يحموه ويحموا دعوته التي آمنوا بها، فيمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، بل كان ﷺ أعزَّ عليهم من أنفسهم وأبنائهم، فنصرهم الله نصراً ردّدت أصداءه آفاقُ أرض العرب من سائر أقطارها، مدوّية تحمل الشاردين والمتربصين إلى حظائر الإيمان أفواجاً متتابعين، يعطون بأيديهم ما كانوا عنه معرضين.

نموذج من الشدائد التي لقيها المسلمون في سيرهم إلى بدر.

وقد كان من الطبيعي الذي تقضي به العوامل المحتفة بالموقف ـ كما صوّرناه ـ أن يلقَى المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ ـ وهم على ما كانوا عليه من قلّة في العدد وافتقاد العدّة في المراكب والسلاح والمؤن في سيرهم إلى قتال (بدر)، بعد أن تحتّم عليهم ذلك السير لملاقاة أعدائهم المهاجمين لهم في ديارهم بحشود توافرت لها جميع أسباب القوة المادية ـ شدة شديدة، وأزمات قاسية عصيّة، ومشقات مضنيات كان النبي ﷺ فيها هو المثل الأعلى صبراً على لأوائها واحتمالاً لآثارها، لتتأسى به أمته ووارثو أمانة دعوته في مواقف الشدة والأزمات التي ستلقاها في حياتها، وهي حاملة لألوية الجهاد في سبيل نشر الحق والخير والهدى والنور والدعوة إلى الله لإخراج الناس من ظلمات

البغي، وتسلّط الأقوياء على الضعفاء، واستعباد القادرين للعاجزين من أجل لقمة العيش إلى نور العدل والحرية والإخاء..

فعدد المسلمين كان زهاء ثلاثمئة رجل، معهم سبعون بعيراً يعتقبونها، وكانوا على حالةمن الضعف وقلة الزاد والمؤن بعثت في نفس رسول الله ﷺ الإشفاق عليهم والرحمة لهم والرأفة بهم، فدعا لهم حين خرجوا فقال: اللّهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم».

أما عدد أعدائهم المشركين فكان ألف رجل اجتمعت فيهم زعامات قريش وأشرافها، وكان معهم سبعمائة بعير ومائتا فرس، ولهم من مؤن الطعام والسلاح ما بلغ بهم مبلغ الترف والفجور كما تصوره كلمات لعينهم الفاسق أبي جهل إذ يقول في ردّه على أبي سفيان بعد أن أحرز عيره ونَجا بها، فأرسل إلى قريش رسوله الثاني يقول لهم: إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجّاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد (بدراً) فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً.

روى الإمام أحمد من طريق زرّ بن حُبَيش عن عبدالله بن مسعود قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعليّ زميلي رسول الله ﷺ، فكانت عقبة رسول الله ﷺ ـ أي دوره في المشي ـ فقال له زميلاه إشفاقاً عليه، وإيثاراً له ﷺ بالراحة من مشقة المشي: نحن نمشي عنك، فقال لهما ﷺ: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أناأغنى عن الأجر منكما» وهذه دعامة من دعامات منهج الرسالة.

وزمالةأبي لبابة مع عليّ لرسول الله ﷺ في اعتقابهم بعيراً كانت قبل أن يردّ رسول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة المنورة ليكون على أهلها والحفظ لها.

فلما ردّه جُعل مكانه في رفقة رسول الله ﷺ مع عليّ بن أبي طالب مرثد بن أبي مرثد، وزمالة مرثد بن أبي مرثد لرسول الله ﷺ مع عليّ ذكرها

ابن إسحاق مقتصراً عليها، ولم يذكر أبا لبابة فقال: كان رسول الله ﷺ هو وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيراً واحداً، وكان حمزة وزيد بن حارثة، وأبو كبشة، وأنسة يعتقبون بعيراً، وبما ذكرنا يعمل بالروايتين ويتم التوفيق بينهما.

اختلاف الروايات في حديث المشاورة في قتال (بدر).

وحديث المشاورة في القتال ببدر اختلفت فيه الروايات مع الاتفاق على وقوع المشاورة ولكن سياقاتها وإسناد المشورة إلى الأشخاص أو الجماعات هوالذي وقع فيه الاختلاف، وقد بيّنا أن أصح روايات المشورة سنداً هي رواية البخاري من حديث ابن مسعود.

وهناك روايات أشرنا إليها تذكر مشورة المقداد بن عمرو مجردة عن الاستشهاد بالجملة القرآنية من آية سورة المائدة، وتضيف الاستشهاد بها إلى بعض الأنصار من غير تعيين لشخص كما في حديث أنس عند أحمد من طريق حُمَيد الطويل، قال أنس رضي الله عنه: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى (بدر) فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذاً لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾ ولكن، والذي بعثك بالحق، لو ضربت أكبادها إلى بَرْك الغماد لاتّبعناك.

فهذا الحديث كالمتدافع مع حديث المقداد بن عمرو برواية البخاري، ولم ينزل في درجة الصحة عن حديث البخاري كما يفيده قول ابن كثير: وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وقد رواه الإمام أحمد عن أنس من طريق ثابت البناني: قال أنس: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا.

وهذا الحديث في صحيح مسلم، وقد تمسك به ابن حجر في أن

مشورة سعد بن عبادة لم تكن في قتال (بدر) وإنما كانت في لقاء عير أبي سفيان، وهذا ظاهر في قول أنس رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، وعلى هذه العبارة بنى من رأى أن سعد بن عبادة لم يشهد (بدراً) وقد ناقشنا ذلك، وبيّنا أن عبارة سعد بن عبادة في مشورته لا يكون مثلها في لقاء العير، لأن ذلك لا يتطلب جهداً ومشقة، وإنما تكون في التعرض للقتال وبعد السفر.

حديث المشاورة في إطار يجمع خطوطه الأصيلة وبيان حكمة القصد إلى سماع رأي الأنصار.

وحديث المشاورة في قتال (بدر) انتشر في مواقع من البحث لمقتضيات الدواعي والمناسبة، ونحن نسوقه بإيجاز يجمع أطرافه ويقيّد معالمه الأصيلة ليكون في إطار يحتوي خطوطه المتفرقة، ويجمعها لتكون صورة موحدة المعالم.

بعد أن سمع رسول الله ﷺ رأي الخَيِّرَيْن أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، ثم سمع رأي المقداد التفت ﷺ إلى الأنصار فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس» وهو ﷺ يريدهم خاصّة، ليعرف رأيهم، ويكشف عن عزائمهم في أول موقف متأزم مفاجىء تتقدمه نذر الحرب بلفح أوارها، والأنصارُ في هذا الموقف كانوا أعداد الناس إذ كانوا نيِّفاً على أربعين ومائتين، وكان المهاجرون نيّفاً على ستين، وإن الأنصار حين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة السبعين بالعقبة، وهي آخر بيعاتهم بمكة قالوا: يا رسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلينا في ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره ومنعه إلا ممّن دهمه بالمدينة من عدوِّه، وأن ليس عليها أن يسير بهم إلى عدو خارج عن بلادهم.

فلما قال ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وكرّر ذلك بعد أن سمع رأي المهاجرين ممثّلين في أبي بكر وعمر والمقداد قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أجل» فقال سعد بن معاذ: قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضته لخضناه

عزائم الإيمان عند الأنصار كما يمثلها رأي زعيمها.

معك، ما تخلَّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقَى بنا عدونا غداً، إنّا لصُبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله.

وليس في إسناد هذا القول إلى سعد بن معاذ هنا منافاة لإسناده إلى سعد بن عبادة في الرواية السابقة لاحتمال أنهما قد اشتركا في حديث المشاورة، لأنهما كانا زعيمي الأنصار، الناطقين بكلمتهم، المعَبِّرين عن عزائمهم، فسعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فَسُر رسول الله ﷺ بما سمع ونشَّطه ذلك، فقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ويقول: «هذا مصرع فلان» ويضع يده على الأرض هنا وها هنا، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري عند ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند فيه ابن لهيعة ـ وهو مضعّف عند النقدة ـ أن رسول الله ﷺ قال ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عيرِ أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير، لعلَّ الله يغنِّمناها»؟ فقلنا: نعم، وخرجنا، فلما سرنا يوماًأويومين، قال لنا رسول الله ﷺ: «ما ترون في القوم؟ فإنهم أُخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكننا أردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقام المقداد بن عمرو فقال: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) فتمنينا معشر الأنصار لو أنّا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾.

وهذا الحديث إذا كان في ظاهره يتنافى مع موقف الأنصار في الأحاديث الصحيحة التي أظهروا فيها من أول وهلة الشجاعة الفائقة، والبطولة الرائعة والفداء الذي أحاطوا بمعالمه رسول الله ﷺ ودعوته ـ بتسليمهم أنفسهم وأرواحهم ودماءهم للجهاد في سبيل تحقيق ما عاهدوا الله ورسوله عليه،

فصدقوا الوفاء وصدقهم الله بأعظم الثناء ـ فإنه يحمل على أن بعضاً منهم لم يستطيعوا التغلب على الطبيعة البشرية، وهذا البعض هو المراد بقوله تعالى: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾

رواية أخرى لكلام سعد بن معاذ في مشورته.

وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقّاص الليثي، عن أبيه عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى (بدر) حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس، فقال: «كيف ترون» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بكذا وكذا، ثم خطب رسول الله ﷺ الناس، فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب رسول الله ﷺ، فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتُها قط، ولا لي بها علم، ولئن سرتَ حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجتَ لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فأمضِه، فصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنّ معك.

مواقف الأنصار تمثل وفاءهم وشدة شكيمتهم.

فهذه هي مواقف جمهور الأنصار وكثرتهم الغامرة في وفائهم وشدة شكيمتهم وروعة فدائهم، وشجاعتهم وإيثارهم خوض غمرات الشدائد والأزمات ليقروا عين رسول الله ﷺ، كررتها الروايات الصحيحة الثابتة، وأيدتها وقائعهم في حياتهم حافِّين به ﷺ في سلمه وحربه.

فأين يقع الموقف المستضعف من قلّة عبَّر عنها القرآن بلفظ (فريق) ـ الذي جاء في حديث أبي أيوب الأنصاري بسند فيه ابن لهيعة والكلام في ضعفه مشهور ـ من هذه المواقف العظيمة، والمشاهد المتكررة التي تتجاوب أصداؤها في الآفاق نصرة لدعوة الحق وحماية لرسولها ﷺ.

شرط القيادة الناجحة أن تحيط علماً بأحوال عدوّها وتعد لكل موقف ما يلائمه.

وقد بيّنا فيما سبق أن رسول الله ﷺ كان في منهج لقائه لأعداء دعوته ـ من حشود المشركين في كثرة أعدادهم وتعاظُم عدتهم وقيادة أشرافهم ـ فوق مستوى القيادة السياسية والعسكرية، ومعرفةُ أحوال العدو وقوته المادية والمعنوية هي أول واجبات القيادات المحاربة، وأهمها، وأدعاها للنصر.

فالنبي ﷺ إذْ يعمد إلى الشورى ـ وهي ديباجة المنهج في رسالة الإسلام ـ ليستطلع رأي الذين سيقع عليهم عبء هذا اللقاء القتالي غير المتكافىء في القوة المادية التي هي عماد الحروب في الجاهلية ـ ويلح ﷺ في هذا الاستطلاع ليكشف الأغطية عن مداخل النفوس، ويتعرف على ما تنطوي عليه جوانح أنصاره ليزيد من صرامة عزائم جنده ـ لا يدفع بجنده إلى خضم المعركة حتى يستوعب أخبار أعدائه، ويحيط علماً بقوتهم المادية عدداً وعدّة، ومكاناً وزماناً ليتخذ لكل حالة شكولها ومقتضياتها وملاءماتها.

من حق المجتمع على قائده أن يطلعه على ما عنده من معلومات لا تكشف للعدو خطّة القيادة ليكون المجتمع على بصيرة من موقفه.

وكان هذا هو سر بعثه ﷺ ـ أولاً ـ من يتعرّف له أخبار العير التي خرجوا لملاقاتها وهي تحمل تجارات قريش وأموالها، فبعث بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء ليتنطّسا له الخبر عن أبي سفيان، فذهبا وعادا إليه بالخبر اليقين، ثم بعث علياً والزبير وسعداً في نفر من أصحابه ليعلموا له علم قريش وهم يزحفون بحشودهم إلى (بدر) فذهبوا إلى مساقي (بدر)، وجاؤوه ببعض روايا قريش وسُقّائهم، فاستخبر هؤلاء الروايا حتى عرف منهم بلحن القول كل ما يجب أن يعرفه قائد حرب عن أعدائه، عرف أعداد حشودهم وعتادهم، ومَنْ مِنْ أشرافهم كان في قيادتهم، وألقى بذلك كله إلى أصحابه وجنده ليكونوا على بصيرة من أمرهم.

وقد كشفت المشاورة في رواياتها المتعددة المختلفة عن قوة إيمانية ادّرعها جند المجتمع المسلم، ولا سيما الأنصار، كما كشفت عن عزائم صارمة ماضية كانت في حركاتها تتخطى حواجز الموت لتقف معه موقف المتطلّب له الذي لا يزورُّ عن مواقعه في سبيل مكارم الوفاء بالعهود والمواثيق، ونصرة الحق الذين آمنوا به إيماناً استسهلوا معه كل مشقّات الحياة متاعبها ومصاعبها وأزماتها.

كان أبو سفيان، صخر بن حرب أحد دهاة قريش ورجالاتها الذين تئل إليهم ملمّاتها وكبريات أحداثها، وكان حذراً يأخذ للمواقف عدّتها، وزاد من حذره ودهائه أن كان قائد العير التي خرج إليها النبي ﷺ في أصحابه ليغنموها إرهاباً لقريش واسترداداً لما اغتصبوه وسلبوه من أموال طلائع الإيمان بمكة.

دهاء أبي سفيان وحذره في قيادة عير قريش التي تحمل أموالها والنجاة بها.

وكانت هذه العير أعظم قوافل قريش في كثرة أموالها التي بلغت أكثر من خمسين ألف دينار والتي أسهم فيها كل ذي دينار ودرهم في قريش، وكان أبو سفيان كلما قرب من الحجاز في أوبته من الشام ازداد حذره تخوفاً من تعرض المجتمع المسلم لقافلته فيفجع قريشاً في ثرواتها وأموالها، ويقطع طريقها في تجارتها، فجعل يتحسّس الأخبار، حتى إذا دنا من مساقي بدر أتته الأخبار بترصّد رسول الله ﷺ في أصحابه للعير، فأسرع وضرب وجه العير مغيِّراً طريقه إلى الساحل، وترك بدراً وراء ظهره، وانطلق مسرعاً يبغي النجاة، وكان قد أرسل إلى قريش يستنفرهم ليدركوا أموالهم ورجالهم، فهبَّت قريش، وأقبلت في أهبتها المستوعبة عدداً وعدة يقودها أشـرافها وطواغيت ملئها للحرب، يسوقها إلى حتفها الغرور المسعور، والفجـور الكفور حتى نزلت الجحفة، وأرسل إليهم أبو سفيان رسولاً آخر حينما رأى أنه نجا بالعير، يستردهم عن نفيرهم فأبى عليهم فاسقهم غميز الرجولية أبو جهل بـن هشام إلا أن يمضوا لأقدارهم ليلقوا حتوفهم وهم يهوون إلى ظلمات القليب أشباحاً متعفنة، وقال كلمته الفاجرة: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم فيه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونُطعم الطعـام، ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يـزالون يهابوننا أبداً؛ فامضوا.

ومضت قريش وطواغيتها كما يمضي العبيد المسخّرون بسياط القهر والفجور التي ألقتها إليهم أوامر هذا اللعين الفاسق، فنزلت بحشودها بالعدوة القصوى من وادي بدر، وكان النبي ﷺوأصحابه قد نزلوا بالعدوة الدنيا، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا

كانت قريش في خضوعها لفاسقها أبي جهل كالجمل المخشوش.

وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾.

مشورة حباب ابن المنذر في منزل جنود الله ببدر وأثرها في المعركة.

وخرج رسول الله ﷺ يبادر أعداءه إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أهذا المنزل منزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال الحباب: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل، فامضِ بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

وأخذ النبي ﷺ برأي الحباب ومشورته العسكرية السياسية لما فيه من تحقيق مصلحة المجتمع المسلم الحربية باعتباره نقطة من نقاط التدبير المحكم لخوض المعركة بعد التمهيد لها بما يقوِّي عزائم جند الحق، ويخضد شوكة جند الشيطان، ويهزّ عزائمهم، ويشتِّت أفكارهم ويربك تدبيرهم، ويشغلهم بالتفكير في الحصول على الماء وهو ضرورة من ضروريات الحياة، ولا سيما عند خوض المعركة في جو صحراوي مشتعل بلفحات السموم.

وهذا السياق ـ الدال على أن رسول الله ﷺ نزل بجيشه حيث نزل على أدنى ماء من بدر، فأشار عليه الحباب بن المنذر بماأشار ـ هو ما عليه جمهور أهل المغازي والسِّيَر.

بيد أن ابن القيِّم في كتابه (الهدي) ساقه مساقاً يدل على أن النبي ﷺ هو الذي بدأ أصحابه بالاستشارة في المنزل،فأشار عليه الحباب بما رضيه ﷺ وأنزل فيه جيشه.

رأى ابن القيم في مشاورة الصحابة في منزلهم ببدر.

قال ابن القيم: وسار رسول الله ﷺ حتى نزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، فقال ﷺ: «أشيروا عليّ في المنزل» فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أنا عالم بها وبقُلُبها، إن رأيت أن تسير إلى قُلُب قد عرفناها، فهي

كثيرة الماء عذبة فننزل عليها، ونسبق القوم إليها ونغوِّر ما سواها من المياه.

فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض ثم غوّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض.

وهذا لون من ألوان تطبيق منهج المجتمع المسلم الذي رسمه رسول الله ﷺ لتقوم على دعائمه حياة هذا المجتمع عملاً بأمر الله تعالى في قوله جل شأنه لرسوله ﷺ: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وإظهاراً لمنقبة من أعظم مناقب هذا المجتمع في حياته الاجتماعية، وصَفَهم الله تعالى بها، فكانت خُلقاً من أخلاقهم وعملاً أساسياً تقوم عليه أعمالهم في الحياة.

مكانة الشورى في المنهج النبوي وأثرها في تربية المجتمع المسلم.

والشورى هي المقياس العملي لتطبيق دستور المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ بين عامة المجتمع المسلم وخاصته وسجلها في كتاب صار وثيقة من وثائق المنهج النبوي الذي ربى عليه النبي ﷺ أمته، وجعله مصدراً من مصادر التأسِّي به في قيادة أمته وتوجيهها حتى يكون قادة المجتمع المسلم في مستقبل حياته كلها قائمين على دعائم الشورى التي تجمع رأي ذوي الرأي والتفكير الموفق في المجتمع، وتبعث الطمأنينة في قلوب العامة، فيتوحد الهدف وتجتمع الكلمة على سواء، ويقبل الأفراد والجماعات على العمل في قوة مؤمنة بالحق وعزائم ماضية لتحقيق مقاصد المجتمع المسلم.

وحتى تقوم الدعوة إلى الله على ما يبثُّه الدعاة من ورثة المنهج النبوي من أصول هذا المنهج وأهدافه التي تعتمد على وحدة الايمان، ووحدة التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته قولاً وعملاً.

ومشورةُ الحباب بن المنذر في المنزل الذي أنزل فيه رسول الله ﷺ جيشه، وأخذ رسول الله ﷺ بها، وتزكيته لها بقوله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» توجبُ على ذوي العلم والحنكة التجريبية في مواقف الأزمات أن يمحَضُوا القادة النصح، وأن يجهروا بماعندهم من علم وتجربة، كما توجب

على القادة أن يتقبّلوا الرأي من ذويه، والنصح من الناصحين، وأن ينوِّهوا بمايرونه محققاً لمصلحة المجتمع ليشجعوا ذوي التجارب على الجهر بأفكارهم وتجاربهم، ليعرف كل فرد في المجتمع أنه يملك حق الجهر برأيه، والميزانُ العام لوزن الأفكار والآراء إنما هو صالح المجتمع المسلم، فأينما كان هذا الصالح كان الصواب الذي يجب الأخذ به، مهما كان شأن صاحب الرأي والمشورة.

وأفراد المجتمع سواسية أمام الحق والصالح العام ما لم يكن هناك أمر أو أمور تقتضي الذهاب إلى خلاف ما يظهر في مجال الشورى.

وقد كان الحباب حصيفاً عاقلًا لبيباً عارفاً بقدر النبي ﷺ ومقامه من ربه، وما امتاز به من الاصطفاء بالوحي الذي يسدّده ويريه ما لا يرى الناس في أفكارهم وتجاربهم.

فهو رضي الله عنه لم يهجم بمشورته على رسول الله ﷺ دون تمهيد يتعرف به الحكمة في عمل رسول الله ﷺ، وهل هو من قبيل ما اختص به من الاصطفاء بالوحي، فليس لأحد أن يتقدّم عليه أو يتأخر عنه، بل يجب التسليم به والقبول له والاتباع والطاعة، أو هو من قبيل الرأي الاجتهادي الذي يسمح بإبداء غيره من الرأي الذي تؤيده المعرفة التجريبية؟ ولرسول الله ﷺ الرأي الأعلى وراء ذلك.

وإنما تقدم في أدب الاتباع والطاعة إلى رسول الله ﷺ وسأله ليتعرّف مرجع عمله في إنزال الجيش حيث أنزله، هل هو من قبيل أمر الله ووحيه، أو هو من قبِيل الرأي الاجتهادي في الحرب ومكيدة الأعداء، فأخبره رسول الله ﷺ أنه الرأي والحرب والمكيدة، وهنا أشار الحباب بما عنده من علم وتجربة معلّلًا رأيه بأسباب رضيها رسول الله ﷺ، وعمل بها فقال: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل: أي بحسب التجارب التي وصل إليها علم المجرِّبين - ثم أشار بالرأي إذ قال: فامضِ بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فنهض ﷺ بالناس من منزلهم إلى المنزل الذي أشار به الحباب:

وسرّ ﷺ بذلك، وقال للحباب: «أشرت بالرأي» وعند ابن سعد فنزل جبريل فقال: الرأي ما أشار به الحباب.

الشورى أعظم دعائم منهج رسالة الإسلام.

ومواقف رسول الله ﷺ في الشورى لا يكاد يحصرها العدّ، وقد دوّن العلماء منها الكثير المفيد، والمشورة في حكمتها التي ذكرنا منها ما سنح للخاطر تزيد من قدر رسول الله ﷺ وفوقه العقلي والفكري على كل من سواه: فهو بهذه المشورة في غير ما خصّه الله به من الاصطفاء بالوحي يضع بشريته في مستوى الكمال البشري الذي خلقه الله عليه، وكان مناط اصطفائه لأعظم رسالات الله تعالى إلى الخلق، ويبعث في مجتمعه المسلم روح المشاركة في الرأي وتحمل المسؤولية في عظائم الأمور، فلا يتعاظم أحد بتفكيره من الإصغاء إلى تفكير غيره، ولا يُحمل المجتمع المسلم بغير إرادته على الانقياد والخضوع لرأي فرد مهما عظم شأنه بالدعايات التي تحيطه بها شراذم النفعيين، ومن هنا كانت مشاورة النبي ﷺ لأصحابه دروساً في التربية الاجتماعية التي تحقق التكافل بين أفراد المجتمع وجماعاته، ففي المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت أحداً قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

قبل رسول الله ﷺ مشورة الحباب بن المنذر لما فيها من العلم التجريبي المحقق لمصلحة المجتمع المسلم، ونهض بالناس حتى أتى أدنى ماء من أعدائه فنزل عليه، وأمر بالقُلُب فغُوِّرت، وأمر ببناء حوض على القليب الذي نزل عليه فملىء ماء، ثم قذفوا الآنية ليشربوا بها منه.

وتداعى الناس لأخذ مواقف القتال بعد أن استحكمت حلقة المواجهة بين الجمعين، وقال سعد بن معاذ ـ وكان على حرس رسول الله ﷺ ـ يا رسول الله، ألا نبني عريشاً تكون فيه ونعدّ عندك ركائبك، ثم نلقَى عدونا، فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلست على ركائبك فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّف عنك قوم ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقَى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا

له بخير، وبني العريش فكان فيه رسول الله ﷺ، معه أبو بكر الصديق لحراسته الخاصة، ليس معه أحد غيره فيه، ووقف سعد بن معاذ متوشحاً سيفه في نفر من الأنصار على باب العريش يحرسونه ﷺ حتى لا يدنو أحد من عريشه.

شهادة أشجع الأبطال بشجاعة أشجع الناس.

وفي مسند البزار أن علياً رضي الله عنه خطب الناس فقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا للنبي ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس.

وأقبلت قريش منحدرة، فلما رآهم رسول الله ﷺ في غرورهم الأحمق يتواثبون تواثب الجِنّة من شياطين المردة توجه إلى الله تعالى متضرعاً وهو يقول: «اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحْنِهم الغداة».

ثم دخل رسول الله ﷺ عريشه، معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ووقف سعد بن معاذ في رجال من الأنصار على باب العريش.

ونزل الناس منازلهم، وساق الشيطان جماعة من فتيان قريش إلى حوض رسول الله ﷺ، وكان في زمرتهم حكيم بن حزام، فَهَمّ بهم جند الله أن يمنعوهم منه قعصاً بالسيوف، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوهم» فما شرب منهم رجل منه يومئذ إلا قتل، غير حكيم بن حزام، فإنه نجا من القتل، بعد أن ذاق من الرعب والخوف والارتياع والهلع ما أذهله عن نفسه، فلما أسلم وحسن إسلامه كان إذا اجتهد في يمينه قال: لا، والذي نجّاني يوم بدر.

(بدر) غزوة الوفاء الأنصاري ومفتاح الفتح المبين.

وكانت هذه الغزوة المباركة ـ بعظمتها وثقل عبئها، وما وقع فيها من عظائم الأحداث، وما ترتب عليها من نصر مؤزر، وفتوحات، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ودويّ عمّ آفاق الجزيرة العربية، وزلزل أقدام

أعداء الله وأعداء رسوله، وأرعب قلوب المتربصين في ثقل عبئها ـ غزوة الأنصار في وفائهم بعهودهم، وافتدائهم لعقيدتهم عقيدة التوحيد، وحبِّهم لرسول الله ﷺ، فقد كانوا فيها غَمْرة الناس، وأعدادهم، وقد بذلوا فيهاأرواحهم ودماءهم وأموالهم، روى البخاري من حديث البراء بن عازب قال: لقد استُصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم (بدر) نيِّفاً على ستين، والأنصار نيِّفاً وأربعين ومائتين.

وأخرج البخاري من حديثه أيضاً قال: كنا نتحدث أن أصحاب (بدر) ثلاثمئة وبضع عشرة رجلاً، على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن.

وذكر ابن القيم في (الهدي) تفصيل أعداد من كانوا من جند الله في هذه الغزوة التي فاقت بعظمتها في تاريخ الإسلام كل ما جاء بعدها من الغزوات والفتوحات، فقال: إن المهاجرين كانوا ستة وثمانين، وإن الأوس كانوا أحداً وستين وإن سائر الناس بعد ذلك كانوا من الخزرج.

وقد أبدى ابن القيم حكمة قلة عدد الأوس من الأنصار، فقال: وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج وإن كانوا أشد منهم، وأقوى شوكة، وأصبر عند اللقاء لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبي ﷺ: «لا يتّبعنا إلا من كان ظهره حاضراً» فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في علو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى ﷺ، ولم يكن عزمهم على لقاء العدو ولا أعدُّوا له عدة، ولا تأهبوا له أهبة.

تعبئة رسول الله ﷺ أصحابه لخوض المعركة.

وتدانى الناس، وتزاحف الفريقان قبل أن يصف رسول الله ﷺ جنده للقتال، وكان ﷺ قد أمرهم أن لا يقاتلوا حتى يأذن لهم، ولكن فجور الكفر وطغيان الغرور الأحمق، وعتوّ الحقد الحانق استفزت قريشاً في زحفها حتى كانت على أقرب اشتباك من مواقف جند الله.

وكان رسول الله ﷺ قد دخل عريشه فنام، فجعل أبو بكر الصديق وهو يرى العدو يزداد دنواً من مواقف المسلمين، يوقظ رسول الله ﷺ من نومه، ويقول له: يا رسول الله دنوا منا، فاستيقظ رسول الله ﷺ، وخرج

من عريشه فصفَّ أصحابه، وعبّأهم أحسن تعبية كما في حديث عبد الرحمن ابن عوف عند الترمذي، قال: صفّنا رسول الله ﷺ يوم (بدر) فبدرت بادرة منّا أمام الصف، فنظر إليهم النبي ﷺ، فقال يردهم إلى الصف ويعدِّلهم في أماكنهم منه: «معي، معي».

قصة سواد بن غزية نموذج للحب الفدائي وللعدل في أرفع مثله.

وأخرج ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم (بدر) وفي يده قَدَح يعدّل به القوم، فمرَّ بسواد بن غزية وهو مستنتل عن الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال له: «استو يا سواد» فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، فقال «استقد» فاعتنقه سواد فقبّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على هذا يا سواد» فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

في هذا الإطار التوجيهي برز التدبير المحكم الذي وضع به رسول الله ﷺ الخطوط الأولى لمنهج رسالته ﷺ في التطبيق العملي للجهاد القتالي الذي لم يقصد إليه، ولم يخرج مستهدفاً له، ولكنه ألجىء إليه إلجاء في أول معركة واجه فيها أعداءه مواجهة لا تكافؤ فيها بين الجمعين، جمع المجتمع المسلم على ما وصفنا حاله في افتقاده القوة المادية في العدد والعدّة، رجالاً، وسلاحاً، ومؤناً. وجمع حشود الطغيان من فجار الكفرة وطواغيت الشرك، وعبيد الوثنية، وهم على ما وصفنا حالهم في التأهب، واستجماع أنواع القوة المادية في الرجال، والسلاح والمؤن وشراسة الحقد الطاغي، والعتو المحنق المغيظ، واستيعاب الأشراف من زعماء ملأ قريش الذين لم يتركوا وراءهم سوى أبي لهب الذي خلّفه الجبن والرعب، فاستأجر مكانه رجلاً منهم، إلى جانب من كان معهم من الخمور والجواري العازفات المغنيات ووسائل الترف الفاجر وتنفج الغرور.

إطار المنهج النبوي لمسيرة المجتمع المسلم في الدعوة إلى الله وقتال المعتدين.

وفي هذا الإطار رسمنا الصورة التي بدأت بها هذه الغزوة العظيمة المباركة، بما كان لها من مقدّمات وأسباب ودوافع، وبما كان فيها من تتابع أحداث ووقائع وخطط غيّرت وجه التاريخ، وأدارت مسيرته إلى آفاق لم يكن

له بها عهد، وانتهت بالمجتمع المسلم إلى خوض غمرات الحرب، فخاضها بقوة إيمانه، وصارمات عزائمه التي جعلت الموت استشهاداً في سبيل الدفاع عن كيانه وعقيدته التوحيدية أحبّ إليه من الحياة المسترخية المترفة بألوان أحط الشهوات والفجور الوثني البطين المترهل.

غزوة بدر كانت أول مثل تطبيقي عملي لمنهج الرسالة.

وغزوة (بدر) أول وأعظم غزوة في تاريخ الاسلام، جعلها الله مفتاح الفتوحات المتوالية التي نشرت جناحي الرسالة الخاتمة الخالدة على آفاق المعمور من الأرض في مدى زمن لا يتصور فيه الخيال أن تقوم في دائرته دولة، بدأت بفرد من البشر، ليس في يده إلا كتاب منير يدعو الناس جميعاً إلى الله وتوحيده، ويدعوهم إلى إصلاح ذات بينهم، وإلى إقامة العدل، والتواصي بالمرحمة والإخاء والمساواة المتواسية ليحيّوا حياة طيبة يظللها الأمن والاستقرار والمحبة.

وإذا بالحياة تشهد بعد جولات من الكفاح الصبور دولة تبسط سلطانها المهيمن على فجاج الأرض ناشرة لواء العدل الرحيم، آمرة بكل خير، ناهية عن كل شر، محدّدة الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات، والشعوب والأمم حاكمين ومحكومين، ليس في دستورها أحد قط فوق القانون.

لقد جعل الله تعالى غزوة (بدر) ـ كما كشفنا عن جوانبها ـ طريقاً معبّداً بما كان فيها من تطبيق منهج الرسالة تطبيقاً عمليّاً إلى الانتصارات التي حققها المجتمع المسلم بوحدته الإيمانية في حياته الانسانية المشرقة المستنيرة التي تخطّى بها هذا المجتمع المسلم حواجز الزمن والمكان في تطبيقه المنهج النبوي تطبيقاً متوائماً مع أطوار الحياة المادية والروحية والفكرية والاجتماعية في الأمم والشعوب.

والذي يمعن النظر في مقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة ونتائجها على الوجه الذي رسمناه يدرك ما كان في سياسة النبي ﷺ كما رسمها منهجه في رسالته من حكمة بالغة، وقوة إيمان قاهرة، وتدبير محكم، وعزيمة حازمة، وإرادة صادقة، ورحمة سابغة، وعدل على نفسه وأقرب المقربين إليه، وتضرع إلى الله مع صدق التوكل عليه، ومشاورة لأصحابه ومشاركة لهم في

مواقفهم، وأسوة لهم في الصبر والمصابرة، والعفو الصفوح، وتشجيع لهم في مواقف البأساء، وتطول في الاحسان لمن أحسن منهم، واستغفار لمن هَفَا، وإقالة لمن عثر، وإرشاد لمن اشتط، وتلطُّف بمن سها أو غلط من كل ما تضمنه منهج رسالته من معالي الأمور ومكارم الأخلاق وعظيم منازل التربية التي كان ﷺ ينزل فيها أصحابه، ليعدّهم للقيادة من بعده إعداداً نفسياً، لينهضوا بأعباء الوراثة في إصلاح الانسانية.

بين كثرة طاغية فاجرة وقلّة مؤمنة وقف المنهج النبوي حاملاً لواء النصر.

أقبلت حشود الشرك في كثرتها الطاغية تجرر أذيال الغطرسة المختالة تحادّ الله ورسوله، ولم يكن يدور بأخلدتها أنها جاءت لتحفر قبورها بأظلافها وتسعى إلى حتفها بأرجلها، في أهبة حربية وعدة قتالية أغطشت أبصارها وأعمت بصائرها، فلم ترَ أمامها في جند الله إلا أنهم (أَكَلَة جَزُور) كما قال فاسقهم غميز الرجولية، ولعين السماء والأرض أبو جهل بن هشام، وهو يقودهم إلى نهايتهم السيئة بزعامة شيخه ومعلمه إبليس، وقد أعماه الحقد الكفور فلم يبصر في جند الله عزائمهم الإيمانية الصارمة التي أرهص إليهم بها متنطِّسهم عمير بن وَهْب، وقد أرسلوه متجسساً ليحزر لهم جند الله عدداً وأهبة، ويعرف لهم إنْ كان لهم كمين أو هم كما يظهرون في قلة عددهم، فجاءهم جاسوسهم بيقين الخبر، وقال لهم: لا أكمنة ولا عدد وراء ما ترون، ولكني رأيت نواضح يثرب تحمل إليكم الموت الناقع، والبلايا تحمل المنايا، لا يُقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجل مثله، قوم ليس لهم مَنَعة إلا سيوفهم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرُوا رأيكم.

وقد قصّر عمير في وصفه كتائب جند الله، ولم يبلغ المدى فيما وراء ما تراه الأبصار الكليلة، لأنه لم يكن يرى سوى ما يراه قومه من أسودة الرجال، وغمّى عليه ما تحمل هذه الأسودة من عزائم الإيمان الصوارم، إذ لم يكن له إلا إدراك أمثل رجل من قومه، فأخبرهم بما رأى ببصره ودهائه الوثني الأغطش.

والقلة المؤمنة لم تخرج لقتال تقصده ولا كانت تتوقعه، أما الكثرة

الفاجرة من حشود الكفر فإنها خرجت بطراً ورئاء الناس للصدّ عن سبيل الله في حرب تأهّبت لها بكل ما تملك من عدد وعدة لتستأصل شأفة المجتمع المسلم، ولتقضي على دعوة التوحيد والإصلاح التي جاء بها محمد ﷺ ليخرجهم من ظلمات الشرك وأوحال الوثنية إلى نور الإيمان بالله الواحد الأحد، وإلى معرفته بكمال ألوهيته وعدله بين خلقه.

ولكن فجار الشرك غصّوا بهذه الدعوة الإصلاحية الكريمة، فأقضّت مضاجعهم وعتَوا عن أمر ربهم عتواً شديداً، واستكبروا عن قبول الحق والهدى، وقابلوا الدعوة بالصّلف والظلم والطغيان تخوفاً على وثنيتهم المادية البليدة أن تنهار وينهار معها مجدهم الكفور، وشركهم الغبيّ الجهول.

والوثنية والشرك هما عصام سلطانهم على المستضعفين في الأرض الذين يلتفون حولهم تلمظاً لفتات متعفن يتساقط من أشداقهم في تجشؤ خبيث منكر.

وكم بين من خرج ليسترد حقاً منهوباً ويحمي حوزة منتهكة داعياً إلى الله وتوحيده وتحرير الإنسانية من الظلم الفادح، وإقامة موازين العدل والرحمة والإخاء والمحبة.؟

رعاية الله لجند دينه المجاهدين في سبيله.

وبين من خرج أشراً وبطراً ليقضي على الحق والخير والهدى، بسفك الدماء الطاهرة بغياً وعدواً وهو منغمس في ترف الشرك ومخازي الوثنية.

أولئك جند الله وأنصار دينه، وكتائب رسالته، وحماة دعوته الذين صنعهم الله على عينه، ورباهم سيد الخلق محمد ﷺ بمناهجه الدستوري، ليعدّهم قادة للإنسانية إلى آفاق العدل والإخاء المتواسي، والمحبة المُؤْثِرة، ووعدهم على لسان رسوله ﷺ إن هم أخلصوا واستقاموا في سلوكهم على منهاج النبوة الخاتمة واعتصموا بالصبر والتقوى أن ينصرهم على قلة عددهم وضعف عدتهم، فحقّق لهم ما وعدهم إذْ وفَوا بشرطه من النصر المؤزر، وأخبرهم بذلك ليؤنسهم حتى يستديموا الوفاء بالتمسك بمنهج دستورهم، فقال: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنّاهم في

الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهَوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾ وقال لهم مخاطباً إعزازاً لهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

استحواذ الشيطان على أهل العتو وفجور الكفر ليتخذ منهم مطايا يجوس بها خلال الحياة ليفسدها.

أما أهل العتوّ وفجور الكفر الذين خرجوا من ديارهم تحيط بهم لعنات الله ومساخطه فهم جند الشيطان وعبّاد الأحجار، الذين اتخذهم إبليس أحلاساً لمراكبه، ومطايا لحقده على كل خيِّر يعرف الله بجلاله وعظمة ألوهيته، متعبداً لوحدانيته، متذللاً لسلطان عزته، كما اتخذهم ـ أيضاً ـ قوالب يصب فيها حسده واستكباره في الأرض، ليجعل منهم وكراً لمفاسد الحياة وضلالاتها، وقد أوعدهم الله بخزي الهزيمة والذل والهوان في الدنيا، وبالعذاب الشديد في الآخرة، فقال تعالى يحرض المؤمنين على قتال هؤلاء الفجرة: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، وَيشْفِ صدور قوم مؤمنين﴾[1].

وقد أكرم الله المؤمنين فأنجز لهم ما وعدهم، وحقّق وعيده للمشركين، فأذلهم وأخزاهم خزياً دخل معهم في قبورهم ليكون نكالاً لهم فوق ما يعانون من شدائد العذاب، وصحب من تفلّت منهم من سيوف الحق إلى ظلمات مخابئهم في خدور بيوتهم، وهم يرتعدون رعباً من هول ما رأوا في معارك المجتمع المسلم معهم من نصره المبين، ثم وسم جباههم بميسم العار والهوان، ونكس رؤوسهم كأنما لم تكن لهم أعناق تحملها، وألصق معاطسهم بالرغام، وسوّد وجوههم بقتار الخذلان، وباؤوا بالحسرة والخسران بعد بَأْو الغرور والاستكبار.

لقد خرج النبي ﷺ بمن خرج معه من أصحابه، وكانت كثرتهم من الأنصار، لا يريد قتال أحد، ولم يكن ﷺ قد استوعب أصحابه، ولكنه ﷺ خرج بمن كان شاهداً مجلسه إذ أخبرهم أنه يريد عير أبي سفيان وفيها أموال قريش، لعل الله يغنمناها ولم يخرج معه من أصحابه إلا من كان ظهره حاضراً، وأبى ﷺ أن يستأني بمن كان ظهره غير حاضر.

---

(١) سورة التوبة آية (١٤).

دوافع خروج النبي ﷺ في هذه السفرة.

وخرج ﷺ على غير شيء من أهبة الحرب والقتال، ولم يكن يدور بخَلَد أحد من أصحابه أنه ﷺ يلقى حرباً وقتالاً في خَرْجته هذه، وأنهم ظنوها كخرجاته السابقة التي خرج فيها إلى بُواط، وودّان، والأبواء، والعُشَيرة، متعرضاً لعير قريش، منذراً، ومحذِّراً لهم أن يمروا بتجاراتهم على مدينته آمنين مطمئنين.

وليستردَّ منهم ما يمكن استرداده من أموال نهبوها ظلماً وعدواناً من أصحابه في مكة، وهم مستضعفون فيها بين الطغاة الظالمين من طواغيت ملأ قريش وعتاتها وفجّار كفرها.

وليرهبهم، ويريهم قوة مجتمعه المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، حتى يدخل في قلوبهم الرعب ويعلموا أن المجتمع المسلم الذي كانوا يضطهدون طلائعه المستضعفين بمكة لم يكن هو المجتمع المستضعف الذي عرفوه من قبل الهجرة، بل هو مجتمع أصبح بعد الهجرة مجتمعاً قوياً بعدده وعدته، وإيمانه ووحدته الإخائية التي جعلها رسول الله ﷺ أصلاً من أصول تركيبه الاجتماعي التكافلي المتواسي في ظل دستور المؤاخاة التي عقدها بين أفراده وجماعاته وسجلها دستوراً له في كتاب جامع محفوظ.

وهو بهذا التركيب الاجتماعي الجديد يستطيع أن يردّ عليهم كيد أعدائه في نحورهم، وأن يكيل لهم بكيلهم في رد اعتدائهم، ويستطيع بقوته المادية والمعنوية المستمدة من قوة إيمانه أن يكسر شوكتهم، ويرعبل جموعهم، ويغمز قناتهم، ويجابه قوتهم المتورمة ببشور الغرور الفاجر بقوة أصيلة أعظم وأجلّ من قوتهم.

تسامع رسول الله ﷺ، وهو مع القلة المؤمنة من أصحابه التي خرجت على غير أهبة واستعداد لحرب أو قتال بزحف حشود الظالمين الطغاة إلى مدينته، فلم يغيِّر من موقفه وعزيمته شيئاً، بل مضى قُدُماً، وجلّى الأمر لأصحابه ليكونوا على بصيرة من أمر مسيرهم، وأخبرهم أنه خرج بهم لملاقاة العير، لا يبغي قتالاً، ولا يقصد حرباً، ولكن العير فاتتهم، وها هي ذي قريش مقبلة بحدِّها وجدِّها وخيلائها وأهبتها في العدد والعدَّة والمؤن

والسلاح يقودها أشرافها طغاة الملأ فيها وزعماؤها وشياطينها وطواغيتها يسوقهم الحقد الأسود، ويدفع مسيرهم الغيظ المحنق، يحادون الله ورسوله، ويريدون استئصال شأفة المجتمع المسلم في جولة ربما لا تحين لهم مثل فرصتها في تجمعهم وحردهم، واستعدادهم لحرب مسعورة تأكل الأخضر واليابس.

لقد كان من السهل المتاح لرسول الله ﷺ أن يبعث إلى من بقي بالمدينة من أصحابه، وهم كثرة من المهاجرين والأنصار، لا يقلون في قوة إيمانهم ومضاء عزائمهم وشجاعتهم وحبهم لرسول الله ﷺ وافتدائهم له بكل ما يملكون من أرواح وأموال، وإخلاصهم لدعوته وحمايتها والدفاع عنها عن إخوانهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ في خَرْجته لملاقاة العير، ثم فاجأتهم الحرب في أهبة غير متكافئة، ولكنه ﷺ لم يفعل من ذلك شيئاً.

وضع المجتمع المسلم في موضع مسؤوليته أمام جحافل الأعداء في هذه المفاجأة.

بل وضع ﷺ بموقفه الذي مضى عليه قدماً أمته في مستقبلها على طريق منهجه في رسالته الذي ينبغي لها أن تتمسك به في حياتها، وأن تطبقه عملياً في جميع مواقفها، لتتحمل مسؤوليتها كاملة في قيادة الانسانية وتبليغ الرسالة ونشرها في الآفاق مهما تكن النتائج والعواقب.

وبلغه ﷺ دنو حشود قريش من (بدر)، فنهض فيمن معه من القلة المؤمنة لملاقاتهم لا يثنيه عن عزيمته ما تحمّل في سفره من مشاق ومتاعب تنوء بها الرواسي الشامخات، وما تحمّل أصحابه من قلة الزاد والمؤن والمراكب، وما هم قادمون عليه وملاقوه من حرب ضروس، وقتال مرير، ينتزع الأرواح ويسفك الدماء، ويرمل النساء، وييتم الأطفال، ويغنم الأموال.

وقد وضع ﷺ لأمته في هذه المرحلة من تطبيق منهج الرسالة قاعدة أن القائد ينبغي له أن يدرس بدقة واستفاضة في طاقات إمكاناته مواقف عدوه، ويتعرّف حاله، ما ظهر منها وما بطن، ويستكشف قوة عدوه ما وسعه البحث والتنقيب ليعرف جوانب هذه القوة حتى يتخذ لكل حالة لبوسها، ولكل موقف ما يناسبه، وهذا من أدق أسرار المعارك الحربية، وأهم واجبات القيادات السياسية والعسكرية.

وخطط الحرب المرسومة على هذا الأساس من العلم المتعمق المحيط بحال العدو في قوته المادية كفيلة أن تعوِّض النقص في القوة المادية من مدخرات القوة المعنوية، وهي أوفر ما تكون عند المجتمع المسلم، لأنها ترتكز على قوة الإيمان وبطولة الفداء، وتعمّق التفكير الذي يجعل من هذه القوة المعنوية قوة تسد الثغرات في القوة المادية، بشرط إحسان استخدام القوة المعنوية في مناسباتها.

وقد كان هذا المنهج هو التطبيق العملي في مواقف المجتمع المسلم، ومعاركه المنتصرة، مع الفروق الهائلة في إعداد الحشود المحاربة.

الحزم في تطبيق منهج الرسالة كان هو العامل الفعّال في تحقيق النصر.

ونظرةٌ في مواقف الجيوش الإسلامية أمام حشود الأعداء الهائلة أكبر شاهد على أن التطبيق الحازم لمنهج الرسالة كان هو العامل الفعال في تحقيق النصر لجيوش الإسلام في أكثر وقائعها التاريخية.

وذلك واضح في معارك المجتمع المسلم مع حشود أكبر دولتين حاربتهما جيوش الإسلام، هما دولتا الفرس والرومان، ثم زحوف التتار الوحشية والصليبية المتكالبة المتعصبة.

والتاريخ المحقق يذكر أعداد كتائب الإسلام، ويذكر إلى جانبها حشود أعدائهم، فلم تبلغ قط أعداد كتائب الإسلام نصف أعداد جيوش أعدائهم، ولكن التطبيق المحكم والعزائم الماضية والشجاعة البطولية التي ظهرت على أيدي قادة جيوش الإسلام وعلى أيدي أبطال الكتائب الإسلامية كانت هي العوامل المحققة للنصر.

وفي وقائع خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص وأضرابهما في صدر الإسلام، ووقائع عين جالوت وحطّين في التاريخ الوسيط للإسلام أكبر شاهد على أن التزام تطبيق المنهج النبوي بما فيه من قوى معنوية تأصّلت على وحدة الإيمان وفداء العقيدة، أجل وأعظم من القوى المادية، بل إن القوة المعنوية هي في الحقيقة القوة التي أخذت بزمام النصر ووضعته في أيدي قادة المجتمع المسلم.

وهكذا كان صنيع رسول الله ﷺ في أول معركة تلتقي فيها القلة المؤمنة بمنهجها الإسلامي بالكثرة الكافرة الفاجرة بغرورها وطيشها الأحمق هو الأساس في الانتصارات الرائعة المتوالية التي حققها المجتمع المسلم في معاركه مع أعدائه، لأن المنهج النبوي كان هو المفتاح أمام الفتوحات الإسلامية ونشر الرسالة في أكمل صورة، عقيدة، وتعبداً، وأنظمة سياسية وعسكرية ومعاملات اجتماعية، وتربية سلوكية؛ مما كان له أعظم الأثر في سرعة نشر الرسالة الخالدة.

وقد ذكرنا فيما سبق صنيع رسول الله ﷺ إذ بلغه دنوّ عير أبي سفيان من أرض الحجاز وهو آيب بها من الشام، فبعث رسول الله ﷺ من يأتيه بخبر هذه العير، فجاءته الأنباء عنها بورودها مياه (بدر)؛ ولكن أبا سفيان قائد العير كان رجلاً دهياً حذراً، يكثر التحسّس خوف التعرض للعير، وفيها أموال كثيرة ورجال قليلون، وكانت العير قد جمعت أموال قريش فقرائها وذوي الثراء فيها حتى بلغت زهاء خمسين ألف دينار، ولم يبق فيهم ذو دينار أو درهم إلا بعث به في هذه العير.

وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في أصحابه للتعرض له ولعيره، فأسرع وضرب وجه العير مخالفاً طريق السابلة وساحل بها فنجا.

هذا موقف من مواقف الحنكة القيادية، وقفه رسول الله ﷺ ليكون سطراً في المنهج التربوي تقرؤه الأمة لتعمل به في حياتها المستقبلة.

وهو موقف استهدف التعرف على حال العدو في سيره، وحله وترحاله، وحاله في عدده، وما معه من أموال ورجال وسلاح.

وكان أبو سفيان إذ عرف بخروج النبي ﷺ في أصحابه للتعرض لعيره قد أرسل إلى قريش يستنفرها لتدرك أموالها، ونهضت قريش على الصعب والذلول موعبة، يقودها أشرافها، متأهبة بكل ما تملك من استعداد وأهبة، وسارت بعددها وعتادها، ومؤنها ومراكبها من الإبل والخيول، معها أسلحتها وخمورها ومعازفها وجواريها، يسوقها غرورها وأحقادها، وصلفها وعنادها، وفجور كفرها وعتو شركها وسعار وثنيتها، ولم تأبه برسالة أبي سفيان الثانية

التي بعث بها إليها يخبرها أنه نجا بعيره وأحرز أموالهم، وطلب إليهم أن يرجعوا، ولكن قريشاً بقيادة فاسقها غميز الرجولية أبي جهل فرعون هذه الأمة ركبها الغرور فأبت أن ترجع عن مسيرها، وصمّمت على أن تحضر موسم (بدر) ترائي العرب بقوتها المادية لتملأ قلوبهم بهيبتها، وخضعت قريش وأشرافها لقهر طاغوت بني مخزوم أبي جهل، يقودها كما يقاد الجمل المخشوش، وتوارت عقول عقلائها وراء حجاب العصبية الفاجرة.

وأقبلت قريش بصلفها وغطرستها ميممة مياه (بدر) لتعسكر بحشودها عليها، ونزل رسول الله ﷺ بأصحابه حيث أنزله الله بمشورة صاحبه الحباب ابن المنذر، وكان الحباب من ذوي التجارب والحنكة والمعرفة بمواطن الأرض التي التقى فيها الجمعان.

تأكد رسول الله ﷺ بنفسه من معرفة أحوال أعدائه وقصة سفيان الضمري.

وخرج ﷺ ومعه أبو بكر الصدّيق، ليس معهما أحد ليتعرف بنفسه أخبار أعدائه الزاحفين على بلده ومدينته ومجتمعه في جنون من الحقد والطغيان، فعرف ﷺ منزل قريش الذي نزلت به، وعاد إلى معسكر أصحابه وأخبرهم بما علم.

قال ابن إسحاق: ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من بدر، فركب هو ورجل من أصحابه ـ قال ابن هشام: هو أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب ـ قال ابن هشام: يقال لهذا الشيخ سفيان الضمري، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ الضمري: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال الشيخ الضمري: أوذاك بذاك؟ قال «نعم» قال الشيخ الضمري: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا، وكذا، ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ أي المنزل الذي أنزل به أصحابه ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به قريش ـ فلما فرغ الشيخ الضمري من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف عنه، فجعل الشيخ الضمري يقول لنفسه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ وظاهر أن جواب

رسول الله ﷺ من المعاريض الموفّقة في براعته ﷺ البيانية.

وقد كان ﷺ قد تعرف على حال أعدائه بشيء من التفصيل الذي يقف به على مدى قوتهم المادية من عدد وعدّة وعتاد، ويقف على من كان فيهم من أشرافهم وطغاة ملئهم الذين ساقتهم أقدارهم إلى نهاية حياتهم، فبعث ﷺ نفراً من أهل الجد والشجاعة والبطولة من أصحابه، ليعرفوا له حال نفير قريش، فذهبوا حتى جاؤوا ماء (بدر) فأصابوا على الماء بعض روايا قريش وسُقّائها، فأخذوا منهم من كان عنده يقين الخبر وأتَوا به إلى معسكر المسلمين، ورسول الله ﷺ قائم يصلّي، وقد حاول الصحابة أن يستخرجوا من الروايا والسقّاء أخبار مجتمع أعدائهم فلم يتم لهم ذلك، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، وتولّى بنفسه وحكمته وحسن سياسته استطلاع ما عند الروايا والسقّاء من أخبار قريش على ما سقناه فيما تقدم.

حكمة القيادة في تعرف أحوال العدو.

وفي هذا الموقف جانب مهم من جوانب منهج الرسالة يمثل الحكمة القيادية التي ينبغي أن تكون متوافرة عند كل قائد في موقع من مواقع القيادة، ولا سيما مواقع الجهاد القتالي أو السياسي، ليكون موقف المسلم دائماً على مستوى موقف أعدائه في أقل المعايير الضامنة للنصر.

ونهض رسول الله ﷺ بأصحابه وأنزلهم منزلاً أدنى إلى ماء نزلت عنده حشود قريش، ثم أمر ﷺ بتغوير القُلُب فغوّرت وغاض ماؤها، وأمر ببناء حوض على القليب الذي نزل عليه وملىء الحوض ماء وقذفت الآنية ليشرب بها جند المجتمع المسلم، ثم دخل ﷺ إلى عريشه ومعه أبو بكر الصديق، ليس معه أحد سواه شاهراً سيفه، ووقف على باب العريش سعد بن معاذ في نفر من قومه أنصار الله وحماة رسوله ﷺ لحراسته خشية أن يهوي إليه أحد من أعدائه.

وتدانى الجمعان بعد أن عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه، وعبأهم أحسن تعبية ورجع إلى عريشه لإدارة المعركة، وقام ﷺ يصلّي ويتضرع ويبتهل، ويدعو ربه متذلّلاً لجلال عظمته مستنزلاً نصره، يهتف داعياً في خشوع العبودية، وهو يقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض».

أعظم مواقف العبودية الضارعة
بين يدي الكبرياء الإلهي

موقف عبودية يعجز القلم والمنطق عن تصويره.

وألحّ ﷺ على ربه في الدعاء وقد غمرته في موقفه المتضرع مشاهد العبودية المطلقة محفوفة بأنوار العظمة الربانية، ومجالي الكبرياء والجلال الإلهي الذي ذابت تحت قهر عظمته قوى البشرية ومعالمها وآثارها، وقد تسامت فيه روحانيته ﷺ حتى بلغت من القرب الأعز مقام قاب قوسين أو أدنى.

وسقط رداؤه ﷺ عن منكبيه والصديق أبو بكر من ورائه يلتزمه، ويسوّي عليه رداءه، وقلبه رضي الله عنه يعتصر إشفاقاً عليه ﷺ، وهو يرى ما بلغه في مقام مناجاته ربه ضارعاً متذللاً، خائفاً راجياً، مما تعجز الأقلام والألسنة أن تحيط به خبراً في تصويره والتعبير عنه لتوفيه وصفه في واقعه من الوجود، فلم يملك الصدِّيق في هذا المقام إلا أن يقول بعلم اليقين: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

سؤال حيرة في فهم موقف العبودية المطلقة

وهذا موقف تزلزلت فيه أقدام الراسخين في علم اليقين، وتحيّرت في جنباته عقول العالمين، ومن هنا قال بعض العلماء: كيف يكون الصدّيق وهو قطرة من غيث المقام المحمّدي في موقف المناشد لرسول الله ﷺ، المذكر له أن الله سينجز له وعده بالنصر؟ ورسول الله ﷺ يعلم بعين اليقين أن الله تعالى وعده نصره، وأنه سينجز له وعده.

وهؤلاء يعلِّلون ذلك برقة قلب الصديق رضي الله عنه، وشدة حبه

لرسول الله ﷺ وإشفاقه عليه، كما حكاه السهيلي في روضه عن قاسم ابن ثابت.

وقد جانب التوفيق بعض المحجوبين بحجاب العلم في بيانهم لإشفاق الصدِّيق على رسول الله ﷺ، فبينه بعضهم بعبارة لا تتسم بشيء من مظاهر الأدب اللائق بمقام النبوة المحمدية في مقام يعزّ فيه التعبير المعبّر عن خلجات الحياة في موقف لم يتكرر أبداً في تاريخ الرسالات الإلهية، ومحال أن يتكرر في تاريخ البشرية وأحداثها.

تأويل المحجوبين بحجاب العلم النظري لموقف العبودية المطلقة.

وذلك كالذي قال بعضهم في بيان الإشفاق الصديقي: أي (لم) تتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر؟، ونعوذ بالله من زلّة أقلام العلماء؛ ألمحمد سيد المرسلين وأعلم العالمين برب العالمين يقال: (لم)، وأنّى لهذه الأداة الاستفهامية الخارجة عن طورها في أداء معناها أن تجد لها موقفاً في أسلوب الإشفاق الصدِّيقي في مقام الشهود المحمدي؟ ليت من لم يكن يعرف سكت، ومن عجز عن السباحة نأى بنفسه عن الخوض في غمرات السابحين؟.

وقد وقف الإمام أبو بكر بن العربي عند يقين علمه فيما حكاه عنه تلميذه السهيلي في روضه، فقال: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف وهو أكمل من مقام الرجاء الذي كان فيه الصدِّيق رضي الله عنه لأن لله أن يفعل ما يشاء، فخاف رسول الله ﷺ أن لا يعبد الله في الأرض بعدها، فخوفه ذلك عبادة.

سانحة من فيض الإنعام الرباني

والذي تتحلب إليه سوانح الخواطر في إدراكنا فيما يمكن الوصول إليه من الحقائق في هذا الموقف: أن رسول الله ﷺ كان وهو يتضرع متذللاً إلى الله في خشوع شهد فيه كبرياء جلال الله، وقد تمثل له أصحابه في قلّة عددهم وعدّتهم وفي أيديهم الحق والهدى والنور والخير يدعون إليه فجّار الشرك والوثنية من طغاة ملأ قريش وغوغائهم، وقدجاؤوهم بقواهم المادّيّة من الرجال والسلاح والمؤن بما يفوق ما كان عليه جند المجتمع المسلم

أضعافاً مضاعفة، وهذا وضع بمقتضى الطبع البشري ووسائل الحياة المألوفة بين الناس لا يمكن أن يتحقق معه نصر لهذه القلة المؤمنة، فوقف رسول الله ﷺ بين يدي ربه متضرعاً يطلب مدداً فوق أمداد المادة التي تتخايل بها قريش في فجورها وغرورها.

وهكذا كان موقف رسول الله ﷺ في مقام العبودية المطلقة الذي تذوب فيه خصائص البشرية حتى لا يبقى لمظاهر العبودية البشرية شيء تردّ إليه أسباب ما يرجى أن يكون من فيض الرحمة الغامرة.

وهنا لا يبقى للعبد شهود لتعبداته مهما كانت ضروبها وأنواعها، وإنما يبقى له مظهر الاستسلام الضارع لسيده، وكأنه مسلوب الرغائب والإرادات، والمحاب والمكاره، بل يصير نقطة في خط القضاء الإلهي تنساب فيها مرادات الله ومشيئاته في مجاري الأقدار، نافذة مبرمة.

فالرحمة والنقمة والرضا والغضب تجليات متمازجة في وحدة من غيث الربوبية، لا تناقض بينها هناك، وهذه الوحدة المتمازجة بالمتناقضات في نظر العقل هي التي يراها محمد ﷺ في مقام العبودية المطلقة، وهو لا يدري ما ينزل من سمائها إلى كون التدبير، فإذا ارتقى إليها من أريد لها في مقام عبوديته المطلقة كان في مشهدها كأنه ذرة من ذرات الوجود، تراوحها الأقدار وتغاديها بما لا يعلم مستقرها ومستودعها في هذه المراوحة والمغاداة إلا الله العليم الحكيم.

لا خوف ولا رجاء في مقام العبودية المطلقة وإنما هو إسلام وتسليم.

كذلك كان رسول الله ﷺ في مناجاته الضارعة بين يدي ربه في مشهد جلاله حيث لا خوف ولا رجاء، ولكن عبودية مطلقة، لا تشهد من الكون إلا أنها ذرة من ذرات وجوده، تقلبها رياح الأقدار بما جرى ويجري به الغيب المحجب عن ذوي الشهود النظري من خاصة المقربين، ولعلّ موقف الشهود النبوي هو المعبِّر عنه تلميحاً بعين اليقين ويقابله موقف شهود الخاصة المعبر عنه بعلم اليقين، وبين مقامي عين اليقين، وعلم اليقين ما بين مقامي علم العالِمين، وشهود المشاهدين، والله تعالى محيط بما كان وما يكون.

أما الصدِّيق رضي الله عنه في موقفه وهو يبدي إشفاقه على رسول

الله ﷺ ويبشره بأن الله تعالى منجز له وعده، فكان في مقام علم اليقين، وهو مقام الإيمان الراسخ واليقين العليم، وهو مقام العلم بالله تعالى ومعرفة سننه العامة والخاصة، وآياته الكونية والتنزلية.

فالصدِّيق يعلم يقيناً أن الله وعد رسوله ﷺ نصره، ويعلم يقيناً أن وعد الله ناجز لا يتخلف، فهو رضي الله عنه كان بإيمانه ويقين علمه وراء رسول الله ﷺ، يشهد ضراعته لربه ويسمع دعاءه له أن ينجز وعده بالنصر، ولكن الصديق لم يشهد إطلاق العبودية في ضراعة رسول الله ﷺ المستسلمة لقهر الربوبية، فانبعث بإيمانه وعلم يقينه معبِّراً عن ذات نفسه وإشفاقه على رسول الله ﷺ ليخفِّف عنه ما يشهده من شدائد المناجاة الضارعة تحقيقاً لموجبات إيمانه وعلم يقينه رضي الله عنه.

والإيمانُ واليقينُ محدودان بالعلم والمعرفة، وعلمُ البشرية ومعارفها محدودان بخصائص البشرية، فقال لرسول الله ﷺ ما أملاه عليه علمه ومعرفته، وهو في إهاب بشريته مخاطباً رسول الله ﷺ بقوله: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

ما بين مقامي عين اليقين وعلم اليقين.

وبين المقامين: مقام عين اليقين بشهود العبودية المطلقة وهو المقام الذي كان فيه رسول الله ﷺ وهو يناشد ربه متضرعاً متذلّلاً، ومقام علم اليقين المكتسب برسوخ الإيمان والعلم بسنن الله في خلقه الذي كان فيه الصدِّيق في إشفاقه ـ من التفاوت ما بين الصدِّيقية المكتسبة من الإيمان بالرسالة والرسول، وبين الرسالة التي لا تكون أبداً إلا بمحض الاصطفاء الإلهي الذي يفيضه الله عز شأنه على من يشاء من عباده، بما استأثر به من سننه الخاصة التي أكنّها في إخباره عنها إخباراً ردّ أسرارها إلى علمه الخاص، الذي لا يطلع عليه أحداً من خلقه كائناً من كان، فقال تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

ومقام الرسالة أجمع لمعالم رسوخ الإيمان، وعلم اليقين، لا يفوته منها شيء قط، ويختص مقام الرسالة بمقام شهود عين اليقين، متدرجاً في مراتبه إلى أن يبلغ أعظم درجاتها، وهو مقام العبودية المطلقة.

الأنبياء والرسل درجات في معارج العبودية.

والرسلُ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام درجاتٌ في مدارج العبودية كما قال جل وعلا: ﴿ تلك الرسل فضَّلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾[1] وكما قال عز شأنه: ﴿ ولقد فضَّلنا بعض النبيين على بعض ﴾.

ورسولنا خاتم النبيين محمد ﷺ جعل الله مقام العبودية المطلقة أعظم مقاماته في مدارج رسالته الخاتمة الخالدة.

وبهذا المقام الأعز الأشرف أفرده الله تعالى بالثناء عليه في مقام ضراعته ومناشدته ربه، فقال له ليستخلص أصحابه من شهوات الركون إلى الدنيا بما كان منهم في الأنفال والغنائم فقال تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ وخصّه به في مقام التقريب الخاص الأقدس والشهود الأمجد، فقال عز اسمه: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَه من آياتنا ﴾ وبه نوّه الله تعالى في مقام أخص العبودية بدعائه والتضرع له، فقال عز وجل: ﴿ وأنه لمّا قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً ﴾.

قال السيوطي في (الدر): أخرج عبد بن حميد، والترمذي والحاكم ـ وصححاه ـ وابن جرير، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً﴾ قال: لما أتى الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلِّي بأصحابه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده عجبوا من طواعية أصحابه له، فقالوا لقومهم: لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً.

والصديق رضي الله عنه في جلالة قدره. ومكانته من ذروة الإسلام، وأفضليته على جميع أتباع الأنبياء والمرسلين في رسوخ إيمانه، ويقين علمه؛ إنما

(١) سورة البقرة آية (٢٥٣).

الصديق رضي الله عنه نفحة من نفحات النبوة المحمدية، وإشفاقه على رسول الله ثمرة من ثمرات حبه له، وحبه له حب لما جاء به من الهدى والنور.

هو نفحة من نفحات الإيمان بالنبوة الخالدة، والرسالة الخاتمة؛ وانبثاقة من ضياء إشراق شمس محمد ﷺ بالهدى والنور، والخير والله ﴿يختص برحمته من يشاء﴾.

وإشفاقه رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في مقام المناشدة والتضرع بين يدي ربه ـ في موقف تكاثفت فيه الأزمات والشدائد على جماعة المؤمنين ـ لم يخرج عن كونه ثمرة من ثمرات حبه لرسول الله ﷺ، وحبه لرسالته.

وحُبُّه لرسول الله ﷺ إنما كان إبقاء على نفسه ليقود مجتمعه المسلم إلى آفاق الدعوة إلى الله حباً بلغ به ذروة علم اليقين.

فليس هناك قط مجال لموازنة بين المقامين، بَلْه أن يصور مقام الصديق في إشفاقه على رسول الله ﷺ تصويراً يندّ عن مقام التوقير في مقام مجرد الإيمان.

* * *

هدفنا من الحديث عن الغزوات

لم يكن قصدنا من بحث الغزوات تجميع الروايات ولا استيعاب الوقائع والأحداث، ولا سرد القصص، ولا تسجيل أسماء من شهدها من جند المجتمع المسلم، وأسماء من استشهد فيها، ولا أسماء من حضرها من أعداء الإسلام فهلك فيها، أو أفلت من القتل ووقع في ذلِّ الأسر أو عاش في جو المهانة، ولا التنويه بالبطولات والأبطال، ولا ذكر مَن قَتَل مَنْ، فذلك كله مسطور مذكور قد أفعمت به كتب السيرة ودواوينها، فتضخمت به حتى أتخمت.

ولكننا ـ على نهجنا في البحث كله ـ استهدفنا من الحديث فيما تخيرناه من أمهات الغزوات وكبرياتها استخلاص منهج الرسالة الخاتمة الخالدة من ثنايا تطبيق الوقائع والأحداث التي أدتها إلينا صحائح الروايات، وطرائق تطبيقها عملياً على يدي رسول الله ﷺ، وهو يقود كتائب جند الله في جهاد القتال دفعاً لاعتداء المعتدين من أعداء المجتمع المسلم، وإزالة للعقبات التي تعترض طريق تبليغ الرسالة ونشر الدعوة إلى الله، ذلك المجتمع الذي ربّاه

رسول الله ﷺ تربية عملية سلوكية، تنبع من عقيدة التوحيد المحرِّرة للعقل الإنساني من أوضار الشرك بجميع شكوله وألوانه، وانحطاط الوثنية بجميع أنواعها وضروبها، والتعبد لغير الله تعالى من شيء أو إنسان حاكماً أو محكوماً، تأسيساً للحياة الإنسانية على دعائم العزّة البشرية والكرامة الإنسانية بإقامة موازين العدالة بين الأفراد والجماعات، هذه العدالة التي يجب أن تقوم على أداء الواجبات واستيفاء الحقوق، فلا تظلم نفس شيئاً لتستقر الحياة بين الناس جميعاً على التعاون المتآخي والمحبة المتراحمة المتواسية.

قصد البحث من حديث الغزوات إبراز ما فيها من جوانب منهج الرسالة.

فالقصد الأصيل من الحديث عن الغزوات أن نبرز ما في طوايا أحداثها من جوانب منهج الرسالة ليكون هذا المنهج الإلهي نبراساً للأمة، تستضيء بنوره في مسيرتها التاريخية الأبدية المقدّرة لها في قيادة الحياة التي حمّل الله تعالى أمانتها لهذه الأمة المسلمة، فقال لها: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1].

لأن هذا المنهج هو الذي أقام عليه النبي ﷺ بناء أمته العقدي والتعبدي والنظامي الاجتماعي في ربط علاقات الأمة الداخلية بين أفرادها وجماعاتها على مقتضى دواعي الإخاء الإيماني الذي أُرسيت قواعده في قول الله عز شأنه: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، وفي ربط علاقاتها الخارجية بينها وبين غيرها من الأمم والشعوب والدولات.

ولهذا كان جهدنا منصباً بقدر ما آتانا الله من طاقة فكرية على تحقيق ما نعرض له من الحوادث التي نلمح فيها لوامع من منهج الرسالة، وتطبيقه عملياً في توجيه رسول الله ﷺ للأحداث وجهتها التي تمثل سلطان منهج الرسالة عليها ـ تحقيقاً يرد الحوادث إلى منابعها، والوقائع إلى أسبابها ودوافعها، والأسباب إلى عواملها الاجتماعية المؤثرة في توجيهها وهي في مسيرة الحياة.

ولهذا عنينا بالإفاضة ـ بما يظن أنه تكرار لروايات الوقائع ـ بتحقيق

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

لا تكرار فيما يبدو لأول وهلة أنه كذلك ولكنه إثارة لما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم في حياته.

الأسباب والدوافع التي كانت ممهدة لأول وأعظم غزوة في تاريخ الإسلام، وهي أول مواجهة قتالية بين طلائع المجتمع المسلم في قلّة عدد الذين نهضوا للخروج مع رسول الله ﷺ، وضآلة عِدّتهم وعتادهم، وبين مجتمع الفجور في عتو كفرهم، وطغيانهم، وغرورهم بكثرة عددهم، وباهظ عُدتهم وعتادهم من الرجال والسلاح والمؤن إلى جانب ما أفعمت به صدورهم من الحقد الأسود، والطيش الأحمق.

وقد بيّنا في هذا التحقيق أن النبي ﷺ لم يكن يقصد في خَرْجته إلى قتال أحد، بل خرج ـ كما بسطناه بسطاً موثقاً بالروايات الثابتة في أساليب مختلفة ـ ليضع المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد في عزته وقوة إيمانه بدعوته أمام قوة أعدائه المادّية الفاشلة المنفشة الذين أرادوا أن يدوسوا على كرامته في سيرهم بعيراتهم وقوافل تجاراتهم مارِّين على مدينته ومستقره، وهم يحملون إلى أمواهم أموال طلائع المجتمع المسلم من السبّق الأولين، التي اغتصبوها نهباً وسلباً وظلماً وعدواناً يوم أن كانوا يستضعفونهم في مكة، ويصبون عليهم من صنوف العذاب والبلاء ما لا تطيق احتماله رواسي الشمّخ الراسخات.

ولكن طغاة ملأ قريش وشياطينها وطواغيتها بقيادة فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل بن هشام أبوا إلا أن يسيروا بحشودهم الموعبة لكل ما يملكون من قوة مادية في الرجال والسلاح والمؤن ليهاجموا المجتمع المسلم ليستأصلوه من على وجه الأرض، مترحلين إليه من مكة في زحف جرّار، حتى وصلوا إلى (بدر) وعسكروا على مياهها وتأهبوا للقتال، لا يشكُون أنها جولة تقضي فيها كثرتهم الطاغية على القلة المؤمنة المجاهدة لإعلاء كلمة الله.

بهذا العرض لمقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة كشفنا عن الأحداث الهامة كشفاً لا يدع مجالاً لمتردد أو متقوّل، وهو في سياق الأحداث والوقائع صريح في أن تلك الأحداث والوقائع المهدات لهذه الغزوة لم يدخلها شيء قط من الآيات السماوية والمعجزات المادية، وإنما كانت كلّها

قائمة على دعائم السياسة الحكيمة التي برزت في تطبيق منهج الرسالة تطبيقاً محكماً مسدّداً ومحفوفاً بتوفيق الله، مما يستطيعه كل من أخذ بزمام قيادة الأمة في مستقبلها، ويملك الدعوة إليه، والجهر به ورثة النبوة من العلماء العاملين والقادة الذين لا يخشّون في الله لومة لائم، ولا يخافون سَوْرة طاغ، ولا يهابون ثورة فاجر عنيد، كما يملك أمر القيام بها الساسة المحنَّكون والدعاة إلى الله المستبصرون والجهابذة من ذوي الرأي الممحَّص والأفكار الثواقب المستنيرة.

ليس في مقدمات غزوة بدر معجزات كونية مادية ولكنها كانت دروساً تربوية قامت على الكفاح والنضال.

وهذا نوع من تربية الأمة يقوم على العلم والعمل، العلم بحقائق الرسالة وأحكامها وشرائعها، والعمل الذي يجعل من الرسالة منهجاً عملياً تطبيقياً تعيش الأمة في ظله حياتها كلها ممثلة في جميع شؤونها العقائدية والتعبدية والسياسية والاجتماعية، وبهذه التربية تضمن للأمة ألا يقع زمام قيادها في يد جهول، يتلعب بمقدراتها في حاضرها ومستقبلها ليفسد عليها حياتها ويردّيها في مهاوي المهالك.

تربية الأمّة على مقتضى منهج الرسالة يصحح وضعها الاجتماعي.

وبهذه التربية تستطيع الأمة أن تذود بكل ما تملك من قوة فكرية أو مادية عن حمى قيادها كل عليم اللسان، مظلم القلب، منافق السلوك، لا يعنيه من أمرها في حاضرها ومستقبلها إلا كلمات مزخرفات، تقال وتنشر هنا وهناك، خاوية من حقائق منهج الرسالة، بعيدة عن التطبيق العملي الذي أخذ به النبي ﷺ مجتمعه المسلم في قيادته له وتربيته تربية تعدّه لقيادة الإنسانية قيادة ترفعها عن الإخلاد إلى الأرض، صاعدة بها إلى آفاق التحرر العقدي والتعبدي والاجتماعي والسياسي أداء لحق اختيارها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمراً ونهياً لا يقفان عند معايير منحرفة عن بواء المنهج الإلهي الذي لا يفرق في إقامة العدل بين الأشخاص والأمم، فالناس في شرعة المنهج الإلهي سواسية، لا فضل لراع على مرعي، ولا ميزة لكبير على صغير، ولا لقائد على أصغر جندي، ولا لغني على فقير، ولا لحاكم على محكوم، ولا لأمير على مأمور، وليس في المنهج الإلهي سائد ومسود، ولا شريف ومشروف، فالنبي ﷺ يقول وهو يعدّل صفوف جنده لسواد بن غزيّة، وقد وجده خارجاً عن الصف، فغمزه بقدح معه وقال له: «استو يا سواد»، فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله وقد

بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف النبي ﷺ عن بطنه وقال: «استقد يا سواد» فالإنسانية كلها في منهج الرسالة الخاتمة وحدة من أب واحد وأم واحدة والناس في هذه الوحدة الرّحمية متساوون في الحقوق والواجبات، لا تفاضل بين أفرادهم وجماعاتهم إلا بالعلم بالمنهج الإلهي وموجباته، وتطبيق هذا العلم في وقائع وأحداث يحتضنها الوجود الواقعي في الحياة.

المجتمع المسلم لم يقم بناؤه على المعجزات المادية ولكنه قام على العلم والعمل والصبر على المحن.

والله تعالى لم يقم بناء هذه الأمة المسلمة على المعجزات ليجعلها كسيحة التفكير متواكلة الحركات، متربصة للحظوظ والمصادفات، وإنما أقام بناءها على أساس وحدة إيمانية متماسكة العرى وثيقة الروابط، ووحدة مؤاخاة تكافلية، تجعل من الفرد لبنة في بناء شامخ، تحمل نصيبها في تماسك البناء، والتكافلُ عمل متواصل موصول بالحياة الاجتماعية المتحركة في إطار المنهج الإلهي الذي جعلته الرسالة أساسها في رسوخ الإيمان.

وللمعجزات مناسبات خاصة تقتضيها فتقع عندها، فتكون في وقتها لوناً من ألوان العمل التربوي لإنقاذ الموقف إذا أحاطت به الأزمات واكتنفته الشدائد، وهي مع الإنقاذ تبشير يحرك العزائم حتى تمضي قدماً إلى الهدف شاكرة متحرزة، والمعجزات لا تأتي في منهج الرسالة الخاتمة إلا بعد إعداد تربوي يدخلها في نطاق العمل المحفوف بالتأييد الإلهي المسدّد بالتوفيق.

وقد عرفنا أنه لم يكن قط في مقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة غزوة (بدر) ما يتطلب معجزة مادية، وإنما كان أمر هذه المقدمات تدبيراً يحتاج للحكمة، وتفكيراً يضع الحقائق في مواضعها التي يجب أن توضع فيها، وكانت سياسة حازمة تمضي بالأحداث إلى أهدافها، وكان فيها مواقف أزمة تتطلب تقوية العزائم المؤمنة لتقف أمام الطغيان المتجبر مواقف حازمة، وكان فيها مغالق تستدعي أن تفتح بالشورى، وكان فيها تجارب تقتضي الحنكة والدربة، وكان فيها مفاجآت تستلزم الصبر والمعرفة، وكان فيها مواضع للتجربة تتطلب التقدم بالرأي النصوح كما تتطلب قبوله والعمل به، وكان فيها غوامض لا تستجلي مساتيرها إلا بتحسسها، وكان فيها مظاهر لا تقاوم إلا بمثيلاتها.

وكل ذلك قام به النبي ﷺ قبل التحام القتال على أفضل وأحسن ما يقوم به قائد يقود جنده إلى ميدان لم يكن القتال فيه مقصداً من مقاصده، ولكنه حُمل عليه حملاً، وأُلجىء إليه إلجاء بعد أن لم يكن له سبيل في توقّيه وتجنبه، مع انعدام التكافؤ المادي بين الجمعين.

والتقى الجمعان، وتواجه الفريقان، وبرقت السيوف، واستطالت الرماح، ووترت القسي، وكشّرت الحرب عن أنيابها، وتزاحف الفريقان، وتنادَى الأبطال للقتال، ودخل النبي ﷺ إلى عريشه وهو ينظر إلى جنده فيرى قلّة عددهم وضعف عدتهم، وينظر إلى أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم فيرى كثرتهم وقوة عتادهم المادية وشدة كَلَبهم على جند الله، فيأخذه الإشفاق على أصحابه بمقتضى طبيعته البشرية، بل يستحوذ عليه ﷺ حرصه على رسالته، وتستولي عليه الخشية أن لا يُعبَد الله في الأرض إذا أصيب حماة دعوته بأيدي هؤلاء الطغاة الوثنيين الذين إذا تمكنوا منهم فلن يُبْقُوا على أحد منهم يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً.

استنزال النصر بمنادح العبودية المطلقة.

وهنا يرى رسول الله ﷺ انقطاع الأسباب الأرضية المادية لنصر الله أصحاب رسول الله ﷺ الذين يجاهدون معه لحماية دعوته إلى الحق، وحمايته ﷺ حتى يؤدي رسالة ربه، ويرى أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن النصر لهذه القوة المؤمنة لا يكون إلا بمدد غيبي من الله ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾[1] ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[2] ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾[3] فيلبسه الله تعالى خِلَع العبودية المطلقة التي لا يشهد في مشاهدها الروحانية إلا انطلاق الألوهية في نفاذ إرادتها ومواقع مشيئتها من جميع قيود الأسباب والمسبّبات، ويلجأ ﷺ إلى الله مجرداً من قيود البشرية، يستنصر به ضارعاً متذلّلاً بين يدي ربه باسطاً أكف الرجاء، متسربلاً رداء الخشية والخوف، لا على نفسه ﷺ ولا على أصحابه، ولكن على رسالته

---

(١) سورة الفتح آية (٤).
(٢) سورة المدثر آية (٣١).
(٣) سورة آل عمران آية (١٢٦).

رسالة الحق التي بعثه الله بها تفريداً لله عز شأنه بحق المعبودية الحقّة فلا يُعبد أحد سواه، ولا يشرك معه آلهة من دونه، هاتفاً بربه يستنصره: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد».

وقد اختلفت عبارات الرواة في أسلوب هذه المناشدة، ففي البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له ـ المراد بهذه القبة العريش الذي بني له ﷺ بإشارة سعد بن معاذ ـ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً».

وفي حديث حكيم بن حزام عند الواقدي من طرق قال: حضر القتالُ ورسول الله ﷺ رافع يديه يسأل الله النصر، وما وعده، يقول: «اللهم إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك ولا يقوم لك دين».

تنزّل النصر مع آيات السّماء

كان رسول الله ﷺ بعد أن استنفد طاقته البشرية في الأخذ بكل سبب في إعداد أصحابه إعداداً نفسياً لملاقاة أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً وعدّة في حرب مسحته لا تبقي ولا تذر، بعد أن عبأهم أحسن تعبئة، وصفهم للقتال، وعدل صفوفهم ـ قد أمرهم ألَّا يقاتلوا حتى يأذن لهم، وقال لهم كما في الصحيح عن أبي أسيد: «وإن أكثبوكم ـ أي أمكنوكم من أنفسهم بالدنو منكم ـ فانضحوهم عنكم بالنبل، ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشَوكم، واستبقوا نبلكم».

حكمة الأمر بعدم القتال حتى يأذن رسول الله ﷺ.

ويقع في سانحات الخاطر أن هذا الأمر كان من قبيل الحرص على تجنب القتال الذي لم يكن من مقاصده ﷺ في خرجته، رجاء أن يتغلب التعقل الرصين على التعصب الأحمق المفتون والطيش الأهوج المسعور في أنفس طواغيت الكفر العنيد.

ويرشح هذه السانحة قول النبي ﷺ، وقد رأى عتبة بن ربيعة في قومه على جمل أحمر: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».

وكان لعتبة موقف في المسالمة والدعوة إلى عدم الاشتباك بين الجمعين أفسده عليه وعلى الناس الفاسق الملعّن أبو جهل، فقد ذكر ابن إسحاق أن عتبة قام خطيباً في قومه، فقال: يا معشر قريش والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل

موقف مسالمة لعتبة ابن ربيعة أفسده أبو جهل بعناده وحقده.

يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، وابن خاله، ورجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب؛ فإن أصابه غيركم فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعدموا منه ما تريدون.

وأرسل عتبة برأيه حكيم بن حزام إلى أبي جهل، فكبُر على هذا الفاسق الحقود أن يذهب عتبة بالزعامة ويستلبها منه، فسجّر الشر بين الناس، وأشعل نار الحرب، وأغرى عامر الحضرمي بالمطالبة بثأر أخيه عمرو، ومشى الشيطان بخيله ورجله، وركب أعداء الله وأعداء الحق والخير صهوة الغرور الفاجر، واستحوذ عليهم عتو الحقد، وعناد العصبية الوثنية، فذهلوا عن عقولهم، وأضلُّوا أحلامهم، وركبوا كل حمقاء جموح، وزحفوا إلى صفوف المسلمين ليقاتلوهم.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «يا علي ناد حمزة» وكان حمزة أقرب جند الله إلى المشركين، فجاء حمزة فقال له النبي ﷺ: «من صاحب الجمل الأحمر»؟ فقال حمزة هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول: اعصبوها برأسي، وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم.

فسمع أبو جهل بقول عتبة، فقال له: أنت تقول ذلك؟ لو غيرك يقوله لأعضضته، قد ملأتْ رئتُك جوفَك رعباً، فقال له عتبة: إياي تعيّر يا مصفر استه؟ سيعلم اليوم أيّنا الجبان؟

وتنادت نذر الحرب، وكان أول متعجِّل إلى جهنم الأسود المخزومي، وهو رجل شرس سيء الخلق غليظ الطبع مأفون العقل، أقسم ليشربنّ من حوض المسلمين أو ليهدمنّه أو ليقتلنّ دونه، ومشى إلى الحوض فتبعه أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، فأدركه قبل أن يصل إلى الحوض، فضربه فأطنَّ قدمه بنصف ساقه، فوقع اللعين على ظهره تشخب رجله دماً، ثم اقتحم الحوض، ورمى بنفسه فيه، ولحقه حمزة فأجهز عليه.

ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة وهم يدعون إلى المبارزة، وقد أراد عتبة بهذا الطيش المأفون أن يرد تعيير أبي

جهل له بالجبن في قوله له: ملأتْ رئتُك جوفَك رعباً، وكان عتبة قد رد على أبي جهل بأَبْنه بداهية الدواهي، سالبة الرجولية إذ قال له: إياي تعيّر يا مصفر استه؟

حمية الجاهلية تسوق عتبة وأخاه شيبة وولده الوليد إلى حتفهم في مبارزة أبطال بني هاشم.

وبرز إلى عتبة وأخيه وابنه ثلاثة من فتيان البهاليل الأنصار، هم عوف، وأخوه معاذ أو معوّذ ابنا الحارث الأنصاري النجاري، وأمهما عفراء، وهماأخوان لأربعة أخوة من عفراء، وشقيقهما معوّذ أو معاذ بن الحارث فكانوا سبعة أشبال شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ، وكان ثالث الناهضين للمبارزة أحد أمراء مؤتة وأحد نقباء الأنصار عبدالله بن رواحة،فقال عتبة لهم: من أنتم؟ فانتسبوا إليه، وقالوا: رهط من الأنصار فقال لهم عتبة: أكفاء كرام، ما لنا بكم من حاجة، إنما نريد قومنا.

اختلاف الروايات في أقران المبارزة.

ونادى عتبة ومن معه من وقود النار: يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فقال ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي» فقاموا سراعاً، ومشَوا إلى القوم في الحديد ملثَّمين حتى دنَوا منهم، فقالوا لهم من أنتم فتسمَّوا لهم، فقالوا: نعم أكفاء كرام، والتحم عبيدة وكان أسن الثلاثة بعتبة، وكان أسنَّ الأبعدين، فبارزه عبيدة، وبارز حمزة شيبة ابن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة، فقتل علي الوليد، وقتل حمزة شيبة، واختلف عبيدة وعتبة بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعليّ على عتبة، فذفّفا عليه.

وأخرج أبو داود عن علي قال: تقدَّم عتبة وتبعه أخوه وابنه، فنادى من يبارز، فانتدب له شبّان من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمّنا، فقال ﷺ: «قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة» فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة إلى رسول الله ﷺ، ومخ ساقه يسيل، فقال: أشهيد أنا يا رسول الله: قال «نعم». قال عبيدة: وددت لو أن أبا طالب كان حياً ليعلم أنا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

قال الحافظ ابن حجر: وهذا أصح الروايات من جهة الإسناد لأن إسناد أبي داود صحيح، لكن الذي في السّير من أن الذي بارزه عليّ هو الوليد هو المشهور، وهو اللائق بالمقام، لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين، وأن سن عبيدة كانت ثلاثاً وستين كعتبة وحمزة، فإن سن حمزة يومئذ كانت ثمانياً وخمسين، بخلاف علي والوليد فكانا شابَّين، إذْ سن علي يومئذ عشرون سنة، وقال ابن سعد الثبت أن عتبة لحمزة، وشيبة لعبيدة.

والاختلاف في روايات المبارزة، وفيمن بارز مَنْ، وفيمن قتل مَنْ اختلاف عريض لا طائل تحته وقد اكتفينا منه برواية من أشهر روايات أصحاب السير، وبرواية من أصح روايات أصحاب الحديث، وأشرنا إلى رواية ابن سعد لقربها سنداً ومعنى.

ولما انتهت المبارزة بقتل أعداء الله ورسوله على يد **أبطال الإسلام**، وكان قد سبقهم إلى قليب جهنم الأسود المخزومي، واستشهد عبيدة بن الحارث، وشهد له رسول الله ﷺ بالشهادة وأفرشه قدمه ـ دخل ﷺ عريشه يصلي ويبكي، ويبتهل متضرعاً إلى ربه مناشداً أن ينجز له وعده بالنصر إذْ خفق خفقة، وفي الصحيح لما كان يوم بدر، ورسول الله ﷺ في العريش، ومعه الصديق أخذته سِنَة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال: «ابشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» وفي حديث ابن عباس عند البخاري أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب».

بشائر المدد الإلهي وتنزل النصر.

وفي البخاري من طريق خالد الحذَّاء عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححتَ على ربك، فخرج ﷺ وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولّون الدُّبُر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهَى وأمرّ﴾[١].

---

(١) سورة القمر آيتا (٤٥، ٤٦).

آية مكية يظهر تأويلها في غزوة بدر.

قال جمهور المفسرين: هذه آية مكية ظهر تأويلها يوم بدر، قال السيوطي في (الدر): أخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فقال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أي جمع سيهزم؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش، نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتاً سيفه، وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ وكانت ليوم بدر، فأنزل الله فيهم: ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾[1] وأنزل ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البَوار﴾[2].

ورماهم رسول الله ﷺ فوسعتهم الرمية وملأت عيونهم وأفواههم، حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه، فأنزل الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ قال عمر رضي الله عنه: جعلت أقول: أي جمع سيهزم؟ حتى كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فعرفت تأويلها يومئذ.

هذه جملة من الأحاديث، بعضها موصول، وبعضها موقوف، وهي صريحة في أن الآية مكية، فإخبارُ النبي ﷺ بها عند نزولها بمكة قبل يوم بدر ـ مما جعل عمر بن الخطاب يتعجب، وهو يردد على نفسه أي جمع سيهزم، وفي الرواية الموصولة أن عمر سأل رسول الله ﷺ عندما سمعه يتلوها بمكة، فقال: يا رسول، أي جمع سيهزم؟ ولكنه لم يتلق جواباً، ومرت الأيام والشهور حتى كان يوم بدر ورأى عمر رسول الله ﷺ يتلوها وهو يثب في درعه متقدِّماً إلى القوم الكافرين، قال عمر: فعرفت تأويلها يومئذ ـ إخبار

---

(١) سورة المؤمنون آية (٦٤).

(٢) سورة إبراهيم آية (٢٨).

بالغيب الذي لم يحن وقت تأويلـه فلما جاء تأويله، يوم بدر تلاها رسول الله ﷺ فعلم الناس منها ما لم يكونوا يعلمون عند نزولها، فكان هذا الإخبار آية من آيات الله في بدر.

لكن السيوطي قال في (الدر): أخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ قال: كان ذلك يوم بدر، قالوا ـ أي المشركين ـ نحن جميع منتصر، فنزلت الآية، أي قوله تعالى: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾.

وهذا الأثر ظاهر في أن الآية مدنية نزلت في بدر، لكن هذا الأثر يحتمل التأويل فلا يقاوم الأحاديث والآثار المتقدمة الصريحة في مكية الآية وهو ما عليه الجمهور، والآية من سورة القمر وهي مكية بإجماع، وهذا يرجِّح قول الجمهور أن آية ﴿ سيهزم الجمع ﴾ مكية كسائر آيات سورتها.

وقد حكى الخلاف في مكية الآية ومدنيتها أبو حيان في تفسيره (البحر) فقال: وفي قوله ﴿سيهزم الجمع﴾ عِدَة من الله تعالى لرسوله ﷺ بهزيمة جمع قريش، والجمهور على أنها مكية، وتلاها رسول الله ﷺ مستشهداً بها، وقيل نزلت يوم بدر.

وسواء أكانت الآية مكية أم مدنية فهي من آيات الله الإعجازية التي تدخل في نطاق الإخبار بالغيب، مبشرة للنبي ﷺ وأصحابه بتنزّل نصر الله للقلة المؤمنة على جمع الكفر والفجور في كثرته، المتعززة بالغرور والقوة المادية، والتنفج بالكثرة العددية، فالإعجاز موجود فيها على أي حاليها في النزول مكية أو مدنية، وإن كان الإعجاز في مكيتها أظهر، لبعد الزمن بين نزولها وتأويلها.

توالي الآيات الغيبية وتحقيق النصر.

وقد استتبعت هذه الآية الباهرة آية أخرى قاهرة، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة في تعجب عمر حينما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ﴾ وسمع النبي ﷺ يتلوها، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أي جمع سيهزم؟ وجعل يتطلّب تأويلها ويتطلع إلى زمن وقوعها، ومعرفة أي جمع سيهزم

حتى كان يوم بدر ورأى النبي ﷺ يخرج من عريشه وهو يثب في الدرع مصلتاً سيفه في وجه أعدائه وهو يتلوها، فعلم عمر تأويلها، وعرف أن الجمع المهزوم هو جمع الفجور والطغيان الذي حشدته قريش لإسحات جند الله الداعين إلى الحق والخير، فقال عمر: ورماهم رسول الله ﷺ بكف من تراب وحصى، فوسعتهم الرمية، وعمّتهم، وملأت أعينهم وأفواههم، حتى إن الرجل ليقتل وهو يحاول أن يزيل عن عينيه القذى، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾.

فكانت الرمية آية إعجازية قاهرة من آيات الله الذي جعلها من أعظم دعائم النصر المظفَّر، إذ جعل من رَمْي حصيّات في يد النبي ﷺ أمراً هائلاً، وقوة قاهرة مرعبة، استوعبت جميع أفراد حشود الشرك والفجور فملأت أعينهم وأفواههم وشغلتهم بأنفسهم، وأصابتهم بما أعجزهم عن الحركة في ميدان المعركة، وأذهلتهم عما يحل بهم من القتل، فهزموا شر هزيمة، ونصر الله أولياءه فأخذوهم قتلاً وأسراً وتشريداً، حتى عمّهم الذل والهوان، وشملهم البلاء.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه وقال «شدّوا» فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم.

ونقل صاحب العيون عن ابن عقبة وابن عائذ قولهما: فكانت تلك الحصباء عظيماً شأنها، لم تترك من المشركين رجلاً إلا ملأت عينيه، وجعل المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، وبادر المفر منهم كل رجل منكباً على وجهه لا يدري أين يتوجه، يعالج التراب ينزعه من عينيه.

فالله تعالى أثبت لنبيه ﷺ رمي الحصيات، ولم يكن رميهن بمقتضى الطبيعة البشرية بقادر على أن يحدث شيئاً مّما حَدَث، ولكنَّ الله تعالى بيّن أنّ هذا الأثر الهائل العظيم المستوعب لمئات الأعين والأفواه والآنُف إنما كان هو الذي تولّاه باقتداره وقهره وجبروته، لأن ما نجم عن رمية النبي ﷺ من آثار

مرعبة يستحيل في منطق العقل، ومألوفات الأسباب أن يحدث من رمية النبي ﷺ لحفنة من حصيات أخذهن بيده ثم رمى بهن وهو يقول: «شاهت الوجوه» ليعلم الذين لا يعلمون أن النصر بيد الله، ينزله من سماء فضله على من يشاء من عباده كما قال تعالى في القصة نفسها: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا: فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لَعِبْرة لأولي الأبصار﴾[1].

كانت هذه الآيات توطيداً للإيمان بدعائم الإمداد الإلهي.

والمقصود توطيد دعائم الإيمان في قلوب المؤمنين، لينزع منها ما كان فيها من الركون إلى الأسباب الظاهرة مثل كثرة العدد وتوافر العدة، مما جعل بعضهم يكرهون الخروج للنفير بعد إذ فاتتهم العير متعللين بقلّة عددهم وضعف عدتهم بالنسبة إلى كثرة عدد أعدائهم وقوة عدتهم، وتوافر أسباب القتال المادّية عندهم، فالله تعالى إذ وعد رسوله بالنصر لم يربط هذا الوعد بأسباب مادّية، ولكنه ربطه بالصبر والتقوى، وصدق التوكل على الله وقوة الإيمان، ومعرفة سنن الله الخاصة والعامة، فقال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين * وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[2].

تحقيق في آيات الإمداد بالملائكة.

وهذه الآيات الكريمةنزلت في قصة بدر كآيات الأنفال تحقيقاً لوعد الله تعالى نبيه ﷺ بالنصر على أعدائه ولو بلغوا أعداد الرمل، فهي مع أخواتها في الأنفال درس تربوي فيما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في جهاده لإعلاء كلمة الله، ليقتلع بها الركون المطلق إلى الأسباب المادّية وينفي عنها ربط النصر بها وحدها، وقد كانت قلوب فريق من المؤمنين متعلقة بها تربط بوجودها النصر، وكره بعضهم أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لملاقاة نفير قريش

---

(١) سورة آل عمران آية (١٣).

(٢) سورة آل عمران آيات (١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦).

وحشودها المتأهبة للقتال، وقالوا متعلِّلين: إنما خرجنا للعير، وهي أحب إلينا.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾(١).

فهذا الدرس التربوي سيق مساق العتاب المتشدِّد لهذا الفريق من المؤمنين ليبلغ من النفوس مداه، ويعطي أثره التربوي في الأمة وهي معتصمة بمنهج نبيها ﷺ في ردِّ الأمور كلها ظاهرة وباطنة إلى الله تعالى، لأنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً، فيضع الأشياء في مواضعها الملائمة لحكمته على مقتضى علمه واقتداره.

وهذا الدرس العتابي التربوي في هذه الآيات ارتبط بقضيتين، شبهت أخراهما بأولاهما، فالأولى المشبّه بها هي قضية التنازع في الأنفال بعد أن تحقق النصر وجمعت الغنائم، فقد تنازعوا فيها، وكانوا في هـذا التنازع طوائف، وكل طائفة ترى أنها أحق بهذه الأنفال من غيرها، ونَسُوا ما كان منهم من كراهية الخروج للنفير، وهو الطائفة ذات الشوكة والقوة التي وعدهم الله بها وعداً غير معيّن لها تأنيساً لهم، فلما فاتت العير أصبح النفير معيناً في الوعد الإلهي بفوات العير، وبما قرن به من إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين الذين كانوا قلعة الباطل وحاميته، وإذا تلاشت قلعة الباطل وهلكت حاميته فتح الطريق أمام دعوة الحق ورسالة الهدى والنور، ومضت في طريقها ثابتة الدعائم راسخة القدم، لا تبالي بكراهية المجرمين وأحقادهم أينما كانوا من أرض الله وآفاق الحياة.

موقف الصحابة من الغنائم والأنفال.

قال السيوطي في (الدر): وأخرج أحمد، وعبد بن حميد: وابن جرير

---

(١) الأنفال آيات (٥ ـ ٨).

وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي قـال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال؟ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، فساءت فيه أخلاقنا، وانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ـ يقول عن سواء ـ وقد فصل عبادة بن الصامت هذا الإجمال في رواية أخرى أخرجها سعيد بن منصور، وأحمد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حيان، وأبو الشيخ، والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي وابن مردويه عن عبادة ابن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم وهم منهزمون، يقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه، ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، لا يصيب منه العدو غرّة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرّة، واشتغلنا به، فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول؛ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، وإذا أقبل راجعاً وكلَّ الناس نفل الثلث، وكان يكـره الأنفال، ويقـول: «ليردّ قـوي المسلمين عـلى ضعيفهم».

إخبار الله تعالى عن كراهية بعض الصحابة للخروج للقتال.

أما القضية الثانية التي ارتبـط بها هذا الدرس العتابي التربوي، وهي المشبهة بقضية موقف الصحابة رضي الله عنهم في الأنفال وتنازعهم فيها، فهي قضية الخروج مع رسول الله ﷺ إلى بدر للقاء العدو بعد إذ فاتتهم العير وأموالها، فقد كره هذا الخروج للقتال فريق من المؤمنين، وجادلوا فيه رسول الله ﷺ، فقالوا: إنما خرجنا للعير، ولم نتأهب للقتال، وليس لنا بالنفير طاقة، وكان جدالهم هذا بعد ماتبين لهم الحق، وأن الله تعالى وعد نبيه ﷺ إحدى الطائفتين دون تعيين، إما العير، وإما النفير، وقد بيّنوا أن صغوَهم

وميلهم كان للعير، لأنها أيسر أخذاً، وأكثر مغنماً لكثرة ما فيها من أموال قريش وقلّة حاميتها.

وإذ فاتت العير، ونجا بها قائدها أبو سفيان بن حرب لم يبقَ أمام إنجاز وعد الله لنبيه ﷺ ووجوب الخضوع والتسليم إلا السير لملاقاة نفير قريش، وفيه صناديدها وأشرافها، وما تأهبت به من عتاد ومؤن وأسلحة ومراكب وشوكة، فهو أعظم قدراً، وأضخم نصراً، وأروع أثراً، وأنجح سبيلاً في القضاء على المعوّقات التي تقف في طريق انطلاق المجتمع المسلم لنشر دعوته، دعوة الحق والخير.

ثم وصف الله تعالى ما لحق فريقاً من المؤمنين في كراهيتهم للخروج وملاقاة النفير من هزّة وارتياع إذ علموا كثرة عدد نفير قريش، وقوتهم المادية بالنسبة لما كان عليه أهل الإيمان من قلة عددهم وضعف عدتهم، ووقوفهم مع الأسباب المادية الظاهرة التي ربطوا بها النصر، ولم يستطيعوا الانتقال من هذه الحالة التي أخلدوا بها إلى الأرض وأسبابها، لأنهم كانوا لا يزالون متأثرين برواسب الحياة القتالية في بيئاتهم التي لم يطل عليهم زمن خروجهم منها إلى دوافع الإيمان وقوة اليقين التي كانت كفيلة برفعهم إلى آفاق العزائم الصادقة.

ولهذا جاءت مشاورة النبي ﷺ لترفعهم إلى ذروة اليقين ورسوخ الإيمان، وعاودهم الاعتزاز بفداء دعوتهم بالأرواح والأموال، وقوة العزائم.

وفي حديث أبي أيوب أن النبي ﷺ شاور الناس بعد إذ فاتته العير، فقال: «ما ترون في القوم؟ فإنهم أخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكنا أردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك... فأنزل عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾.

وهذا موقف من أروع مواقف المنهج الإلهي في الرسالة الخاتمة، وأشدّها حزماً، وأقواها عزماً، وأبلغها أداء في تحويل المجتمع المسلم ونقله في

نقل المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية إلى مشاهد الآيات الغيبية.

دفعة واحدة من رواسبه الاجتماعية التي ورثها عن بيئته الجاهلية التي عاش فيها قبل أن تشرق في آفاقه شمس الهداية لتضيء حنايا نفسه، وتكشف له عن حقائق الحياة في أوسع مجالاتها.

هذا المجتمع المسلم الذي عاش في رواسب الجاهلية وموروثاتها أزماناً متطاولة طبعته بطبيعتها في حياته كلها، تأتيه الرسالة الإلهية الخاتمة لتخرجه بمنهجها من ظلمات تلك الرواسب إلى نور الإشراق الروحي والتحرر الفكري والانطلاق العقلي، لترتفع به من حضيض الشرك والوثنيات إلى ذروة التوحيد الذي يجعل منه قائداً للإنسانية ورائداً لهدايتها من ضلالاتها العقائدية والاجتماعية، في دورة زمنية ليس لها في حساب دورات الفلك التي مرت عليه مترسباً في حمأة العصبيات القبلية لا يعرف إلا القوة المادية يحتمي بها، ويتخفَّى وراءها في مغالباته القتالية ليأخذ بها ما ليس له بحق، وهو يعيش في رواسبه بقلوب خاوية من المعارف الروحية، وعقول ناشفة من ندى العلم والإيمان، العلم الذي يطلعه على ما في خزائن الله من آيات كونية وقوى معنوية، لا توزن معها القوى المادية في ميزان، والإيمان الذي يُشهده حكمة الله في سننه الخاصة حتى يعلم أن لله تعالى تدبيراً في ملكوته لا تقيده سنن الحياة العامة، ويزداد إيماناً إلى إيمانه، وعلماً إلى علمه وقوة إلى قوته، وتسليماً في إيمانه بالله إلهاً واحداً، منفرداً بالتدبير والحكمة.

هذا كله في واقع الحياة - وهي كلّها أينما وجدت من أرض الله، قبل أن تنزل رسالة السماء الخاتمة على محمد ﷺ حياة جاهلية ضالّة، أشبه في منطق سنن الحياة العامة بالطفرة التي لم يتقدمها تمهيد يعدّها لهذا التحول بعيد المدى.

تأثر المجتمع المسلم في مبدأ حياته برواسب الجاهلية.

والمجتمع المسلم إذ ذاك كان لا يزال من المجتمع العربي المتحجّر في معارفه وأفكاره، وتربيته وسلوكه، فتحويل هذا المجتمع المسلم إلى مجتمع إنساني يهتدي بمنهج السماء، ويهدي بهذا المنهج الإنسانية كلّها حتى تستطيع أن ترفع رأسها عن الأرض صاعدة في مدارجها العقلية ومنازلها الروحية إلى سماء المعرفة الإلهية لتشهد آيات الله في الكون وتحركاته، وتشهد في هذا

التحرك سنن الله العامة والخاصة التي يسير بها هذا الكون العظيم في ظل الإرادة الإلهية المطلقة التي لا تقيدها حدود ولا تقف أمامها قوة مادية مهما كان شأنها.

هذا التحول أمر لا يتمشَّى في ظاهره مع مقتضيات السنن العامة، فهو بمظنة الإنكار لمن لم يتعمق التفقه في سنن الله، والسننُ الإلهية الخاصة كالسنن العامة لها قدرها ومكانها في تسيير الحياة وتحركات العناصر الكونية، كما يقرر ذلك القرآن العظيم في نحو قوله: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾[1].

ولهذا كان أول ما صنعه رسول الله ﷺ مقدمه المدينة في تطبيق هذا المنهج أن أقام بناء مجتمعه المسلم على الحب المتكافل بين الأفراد والجماعات، ليخرج أصحابه من رواسب التعصب القبلي إلى وحدة الإيمان، فجعل من المهاجرين والأنصار وحدة إيمانية في أخوة فردية أساسها الحب الذي يرتكز على الإيمان، وقال لهم ولسائر أمته من بعده: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وليقل المتأولون الحرفيون في تأويل قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم» ما يقولون، ورسول الله ﷺ هو القيّم على تطبيق منهج الرسالة وتعبيره ﷺ هو المهيمن على مرمى التطبيق وأهدافه، فقول المتأولين لا يغير من وضع التعبير النبوي شيئاً ولا يضر التطبيق، لأن الإيمان في منهج الرسالة الإلهية حقيقـة واحدة هي التي أوجزها القرآن الكريم في أبرع أسلوب بياني فقال: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وتعبيرات القرآن عن مقاصده في الحياة حقائق سماوية في تفصيل تركيب آياته من الجمل والكلمات والحروف الساذجة أو المعبرة.

الوحدة الإيمانية في قوله جلَّ شأنه: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

فإذا قال القرآن وهو يقرر الوحدة الإيمانية للمجتمع المسلم بين أفراده وجماعاته: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ كانت كلمة (إنما) في التطبيق العملي لمنهج الرسالة بمعناها الاستعمالي في الفصاحة العربية عنصراً أساسياً في بناء الجملة

---

(١) سورة البقرة آية (٢٤٩).

المقررة للوحدة الإيمانية، والإيمان في مادة كلمة (المؤمنون) لا يعني قط الخلافات المتفلسفة التي أفنت أعمار الفلاسفة والمتكلمين دون طائل، وإنما يعني الإيمان كما جاء في نص منهج الرسالة ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴾[1].

وإذا ختم النص المنهجي جملة الوحدة الإيمانية بكلمة (إخوة) كانت هذه الكلمة هي اللبنة التي بها يستمسك بناء الجملة كلها، لتكون نموذجاً لمنهج الرسالة في دستور المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ بين جماعتي المجتمع المسلم، وسجلها في كتاب أخذ مكانه في مطلع وثائق التاريخ الإسلامي من كتب السيرة والحديث.

وكل ما يقرره القرآن العظيم من سنن إلهيةعامة أو خاصة يمثل جانباً من جوانب المنهج في الرسالة الخاتمة، وهذا المنهج علم وعمل، والرسالة الخاتمة في جملتها وتفصيلها تعبير فكري عن الجانب العلمي في منهجها وتطبيق واقعي لجوانب العمل في هذا المنهج.

وقد كانت سياسة النبي ﷺ النابعة من منهج رسالته في تربية مجتمعه المسلم تربية تنقله من تراث الرواسب الموروثة عدمَ المباعدة بين هذا المجتمع لقيادة الحياة وبين سنن الله الكونية العامة التي تحكم سير الحياة ونظامها العام، وتربط الأحداث والوقائع بأسبابها المألوفة في هذه الحياة، ربطاً يُرتّب عليها مسبباتها عند وجودها ترتباً واقعياً، ما لم تكن هناك عوارض خفية تعوّق هذا الترتب الواقعي.

أصل تربية المجتمع المسلم قام على دعائم العلم والعمل والكفاح الصبور والكفاح المرير.

وهذا الوضع في هذه الرسالة الخاتمة أساس تربية المجتمع المسلم على الكفاح الصبور، والنضال المتحفز في سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل حتى لا يركن هذا المجتمع إلى الكسل المستسلم، وللخمول المتحجر، والتثاؤب النؤوم في انتظار الخوارق والآيات تتنزّل عليه، وترقب للمعجزات تسوقه في

---

(١) سورة الحجرات آية (١٥).

حياته، مما يؤدي إلى الاستغراق في تعطل القوى الانسانية التي منحها الله لكل إنسان على قدر استعداده اطّراحاً للأسباب والأخذ بها، والإخلاد إلى الأرض في استسلام متبلّد واستكانة متجمدة.

وكان النبي ﷺ محيط العلم في تربيته لمجتمعه المسلم بأن الأسباب المألوفة العامة في حياة الناس ليست إلا نوعاً من الأحداث المشاهدة في واقع الحياة كالغائب المحجوب كما تقضي به فاعلية السنن العامة في مسيرة الحياة ونظامها، وتحركات الكون بما فيه من عناصر السلب والإيجاب والنفي والإثبات.

الربط بين الأسباب والمسببات ربط تحكمه مشيئة الله.

وهذا الربط بين الأسباب ومسبباتها في دائرة السنن الكونية العامة ليس ربطاً محتّم الوقوع بمقتضى مدركات العقل ومنطقه، لأنه قد يتخلّف إذا كان أدنى من مستوى الإيجاب الحتمي لتدخل بعض خفيّات الأمور التي هي فوق مستوى الإدراك العقلي تدخلاً يحد من فاعليّة الأسباب في ترتب مسبباتها عليها.

ومن ثَمّ كان الإيمان بعدم الوقوف عند هذه الأسباب وظواهرها المتسقة مع مجرى السنن الكونية العامة ضرورة في التربية العملية والتوجيه السلوكي للمجتمع المسلم، ليعلم هذا المجتمع أن وراء هذه الأسباب في تسيير الحياة ونظامها موجبات أخرى لها آثارها في وقوع الأحداث على غير ما تقضي به السنن الكونية العامّة، ولكن هذه الموجبات لا يحكمها المنطق العام للعقل وحده، ولا تخضع خضوعاً مطلقاً لمجرى السنن الكونية العامة في نظام الحياة، وإنما يحكمها نظام خاص يربطها بسنن إلهية خاصة، يتحكم في ربط بعض الأحداث بموجباتها الغيبية عند توافر دواعيها ومقتضياتها.

وهذه السنن الخاصة لا يظهر أثرها في التحكم في سير بعض الأحداث إلا في أوقات خاصة ومقتضيات خاصة، وقد يعم أثرها نظام الحياة في هذه الأوقات الخاصة فتشتبه معالمها في عموم أثرها بالسنن الكونية العامة.

والمثل الواضح لذلك هو آيات الله تعالى التي يؤيد بها رسله، وقد تشتبه بها عند بعض العقول القاصرة وثبات العلم الكوني، واستكشاف

تفاعلات عناصر الطبيعة التي يضيق حيّزها عمن ليس من أهلها، فلا يدخله إلا قلّة ضئيلة من ذوي العقول الموهوبة بالتفرد لمعرفة سنن الكون في سيره وتحركات عناصره وكشف أسراره، مع الغفلة عن دلالتها على مبدع سنن الكون العامة والخاصة.

وهذا الوضع متحقق في منهج الرسالة الخاتمةأكمل تحقق بجانبيه العلمي والعملي، وعلى أساسه أقام رسول الله ﷺ بناء مجتمعه المسلم في تربيته السلوكية، فقد أخذ ﷺ أفراد هذا المجتمع وجماعاته بدءاً على ضرورة معرفة السنن الكونية العامة، وربط الأسباب بمسبباتها، وأخذهم نهايةً على وجوب تطبيق هذه المعرفة على أحداث الحياة ووقائعها، ووكل أمر السنن الخاصة لمناسباتها ومقتضياتها.

غزوة (بدر) نموذج كامل لتطبيق منهج الرسالة علمًا وعملاً.

وقد جعلنا من الحديث عن غزوة (بدر) نموذجاً لتطبيق رسول الله ﷺ منهج رسالته في جانبيه العلمي والعملي، لأن هذه الغزوة كانت أول وأضخم حادث باغت المجتمع المسلم في حياته الجديدة.

وقد كانت هذه الغزوة بملابساتها العسكرية والسياسية والاجتماعية، وبما وقع فيها من أحداث، وبما ترتب عليها من آثار عظيمة حريةً أن تكون نقطة تحول المجتمع المسلم من الاستمساك بتراثه الموروث من رواسب الجاهلية إلى منهج الرسالة الإلهية الخاتمة علماً وعملاً، لأنها كانت بمقتضى وضعها الإلهي بدءاً ونهاية الإطار الذي جمع الخطوط المتشابكة من السنن الكونية العامة والسنن الكونية الخاصة.

وقد بيّنا أن مقدماتها كانت لا تحتاج إلى الخروج عن السنن الكونية العامة، فأجراها رسول الله ﷺ في دائرتها، وقد فصلنا الحديث في تلك المقدِّمات إلى أن استنفر أبو سفيان بن حرب أمير العير قريشاً، فنفرت على الصَّعْب والذلول، متأهبة للقتال الذي أعدت له كل ما تملك من قوة مادّية من الرجال والأموال والسلاح، وسارت تضرب الأرض بأقدام صلفها وغرورها حتى انتهت إلى ماء (بدر) ولم تسمع لأمير عيرها إذ يسترجعها ويثنيها عن القتال لأنه نجا بعيرها.

وقد اتخذ رسول الله ﷺ منذ وردته أخبار نفير قريش كل ما يمكن اتخاذه لمعرفة تحركات قريش ومعرفة أعداد رجالهم ومن كان فيهم من أشرافهم، ومدى ما تأهبته من قوة مادية في العتاد والسلاح، وأخبر أصحابه بما انتهى إلى علمه، وشاورهم في الأمر، فأشار راسخو الإيمان منهم بما أثلج صدره ونشّطه، وأخلد فريق منهم إلى الأرض كارهين للقاء عدوهم وقتاله، يجادلون رسول الله ﷺ في الحق الذي قدّره الله لهم من النصر وكسر شوكة العدو، يقولون له: عليك بالعير يا رسول الله، فإننا خرجنا لها وهي أحب إلينا، ولا طاقة لنا بقتال القوم.

ثم جعل رسول الله ﷺ يقول: «أشيروا عليّ أيها الناس» ليستنزل على قلوبهم غيث اليقين، ويخرجهم من محابس الأسباب إلى منازل الانطلاق مع سنن الله الخاصة، فأجاب الخيّران: أبو بكر وعمر وتبعهما النجيب الأريب المقداد بن عمرو، ثم قام سيد الأنصار سعد بن معاذ فكشف الحجب، وسرّى عن رسول الله ﷺ، ومسح عن جبينه آثار الغضب، ونشّطه للقاء العدو.

وكانت مشورة الراسخين في العلم بالله متنزل السكينة على قلوب المسلمين بأغلال الرواسب الموروثة فأسرعوا اللحاق بإخوانهم الراسخين، واجتمعت كلمة المجتمع المسلم على لقاء العدو، ومواقفته في القتال إعلاء لكلمة الله، ومتابعة لرسول الله ﷺ، فتبلج وجهه ﷺ إشراقاً والتفت إلى أصحابه يبشرهم بالنصر، وأراهم مصارع القوم، وقال لهم: «سيروا على بركة الله».

والمتأمل في سير حوادث مقدمات هذه الغزوة المباركة يرى أن النبي ﷺ قد أخذ جانبي منهج رسالته العلمي والعملي، فجعل منهما ركيزة تقوم عليها المعرفة والتطبيق في مستقبل حياة هذا المجتمع المسلم.

صدمات مباغتة أيقظت عزائم الإيمان في قلوب المؤمنين.

ولم تكن هذه السياسة المحكمة لتخلو من صدمات مباغتة صارمة للمجتمع المسلم الناشىء في تركيبه الإيماني الجديد، وقد كان لهذه الصدمات المباغتة قوتها القاهرة في اقتلاع جذور بعض الرواسب الجاهلية الموروثة من

نفوس غير الراسخين، وكان لها أثرها الفعّال في تيسيرالتحول الأساسي عن الرواسب الجاهلية الموروثة في سرعة قياسية فاقت كل مقاييس التخلص من الماضي المترسِّب في النفوس إلى فاعلية الوحدة الإيمانية التي نقلت المجتمع من رواسبه الرابطة له بالأرض، المغلِّلة له بقيود الأسباب ومقتضيات السنن الكونية العامة إلى إشراق الهداية الروحية والتحرر الفكري باعتبارهما طريقاً إلى ساحة سنن الله الخاصة، إذا توافرت موجباتها، وتفتَّحت لفهمها مدارك العقل عن طريق الإشراق الروحي.

إلى هنا تكون مقدّمات اللقاء بين الفريقين ـ فريق القلة المؤمنة الممثلة في جماعة المجتمع المسلم التي رافقت النبي ﷺ على غير أهبة لحرب أو قتال في خَرْجته لملاقاة العير، ثم تحول الأمر إلى لقاء العدو في حشوده المتأهبة لأعتى معركة يخوضونها ـ قد استوفت ما ينبغي أن تستوفيه بمقتضى السنن الكونية العامة جرياً على مقتضى ربط الأسباب المألوفة بمسبباتها التي لا تستعصي على مدارك العقل ومألوف الحياة، ولا سيما في بيئة كالبيئة العربية المحجوبة بمواريثها الجاهلية وأنظمتها القبلية، وأسبابها المادّية المستعبدة لتفكيرها عن مشاهدة السنن الكونية الخاصّة التي ترتبط بتحرر العقل من أغلال البيئات الوثنية التي لا ترفع رأسها إلى السماء لترى تلألؤ الروحانيات المشرقة.

وقد طبق النبي ﷺ هذه المقدمات تطبيقاً كاملاً، فأخذ لكل أمر أهبته، وقابل كل حركة بما يناسبها من تدبير وإجراء، فأرسل في صمت وسرية ليعلم حركات أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم ويكشف لأصحابه حالهم ومدى قوتهم، ومن يقودهم من أشرافهم وطغاتهم ليكونوا على بصيرة من أمرهم ليبعث فيهم الحمية، ويعدّهم نفسياً ليعرف ضعيفهم أن مواريثهم من رواسب الجاهلية لن تفيدهم في موقفهم من لقاء عدوهم، وأنهم لا بدّ لهم من الالتجاء إلى الله وصدق التوكل عليه، والثقة فيما عنده من قوى روحية يمدّ بها من يشاء من عباده، ويزداد قويّهم من راسخي الإيمان يقيناً وإقداماً وشجاعة وحباً للاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودفاعاً عن الحق والعدل، ويتم بينهم التمازج في وحدة إيمانية تنقلهم من رواسب الماضي إلى

تلقّي مفاجآت الغيب القائمة على نظام السنن الكونية التي تتنزل من سماء القهر الإلهي إذا تطلّبها الموقف وتوافرت موجباتها، وتراءت مقتضياتها.

لوائح النصر في ظل مدد السنن الخاصة.

وها هي ذي لوائح تَنَزُّل السنن الخاصة تلوح معالمها لتأخذ مكانها في جهاد المجتمع المسلم القتالي الذي ألجىء إليه إلجاءً، لأن الموقف بلغ مرحلة التطلّع إلى تنزل تلك السنن الخاصة بعد أن انتهت مرحلة السنن الكونية العامة التي ترتبط بالأسباب المقتضية لمسبباتها، بانتهاء التدبير في مقدمات لقاء العدو، وابتداء نشوب المعركة بين قوتين تتفاوت أوضاعهما المادية تفاوتاً يجعل من المستبعد، بل من المحال أن تقف القلة المؤمنة أمام الكثرة الضخمة في أقصى تأهبها في ظل الترابط بين الأسباب والمسببات بمقتضى نظام السنن الكونية العامة.

وتداني الفريقان، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه أحسن تعبئة، وصفّهم، وعدّل صفوفهم، ونظر إليهم في قلة عددهم وضعف عدتهم وما أحاط بهم من بلاء المنازلة لقوم يضعفونهم بعددهم وقوتهم المادية أضعافاً مضاعفة، مع صلف الاستكبار، وشراسة اللقاء، وتحدّي الغرور، وفجور الكفر العتيّ، والتكالب على سفك الدماء، واستئصال شأفة أهل الإيمان، وعصابة التوحيد والهدي والنور التي إن هلكت على أيدي هؤلاء الفجرة من أحلاس الوثنية وعبدة الأصنام فلن يبقى لله دين يعبد به في الأرض.

ودخل ﷺ عريشه يصلِّي، ويبتهل، ويبكي متضرعاً، وهو يناشد ربه، ويسأله نصره الذي وعده، ويستنجزه عهده، ودخل معه العريش صاحبه في الغار والهجرة، وصدِّيقه ورديفه في السبق إلى الإيمان برسالته دون كبوة، أبو بكر رضي الله عنه شاهراً سيفه ليس معهما إلا الله تعالى بتدبيره وقهره واقتداره، ووقف على باب العريش سعد بن معاذ في فتية من الأنصار لحراسة رسول الله ﷺ أن يجد العدو منه غرّة.

وإذا به ﷺ يخفق خفقة تأخذه فيها سِنَة من النوم وقد كاد العدو يلتحم بالمؤمنين فيستيقظ رسول الله ﷺ من خفقته وما أخذه فيها من سنة نوم مبتسمًا، مسروراً، يضيء وجهه كأنه شقة القمر، وهو يبشر أبا بكر بتنزل

نصر الله، وإمداده بجند من عوالم غيبه، يقدمهم القوي المكين، المطاع الأمين جبريل عليه السلام، وعلى رأسه أداة الحرب، ويخرج رسول الله ﷺ من العريش إلى ميدان المعركة، وهو يثب في درعه، ويتناول حصيات يرمي بها في وجوه أعدائه، فتسعهم وتعمهم على كثرة أعدادهم، فلم تترك منهم أحداً إلا ملأت فمه وعينيه ومنخريه، فشغلتهم عن أنفسهم، حتى إن الرجل منهم ليقتل وهو يقذي عينيه.

رعاية الله تعالى لنبيه ﷺ بما أمدَّه به من آيات غيبية.

ليس هذا فحسب، ولكن الله تعالى يزيد نبيه ﷺ حفاوة فيريه في منامه أعداءه على كثرة أعدادهم قلة ضئيلة ليذهب هيبة كثرتهم من قلوب القلة المؤمنة، ويطمعهم فيهم، ويجرئهم عليهم في قتالهم، بل يزيد الله تعالى في تلطفه بعباده المؤمنين فيعم حفاوته حتى تنال جند المجتمع المسلم بعد أن أخبرهم النبي ﷺ برؤياه ليزيدهم يقيناً في حفاوة الله بهم، فيرَوا أعداءهم الذين كانوا يتهيبون كثرتهم رؤية عين قليلين.

أخرج ابن أبي شيبة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهـم سبعين؟ قال: لا، بل مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه؟ قال: كنا ألفاً.

فرؤيا النبي ﷺ منامية، وهي من مراتب الوحي، ورؤية الصحابة بصرية يقظية بدليل قوله: «رأي العين» في آية آل عمران ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ وقوله: «في أعينكم» في الأنفال ولا داعي مطلقاً للتأويل لأن هذا من قبيل الإمداد الإلهي، وهو جارٍ على مقتضى نظام السنن الكونية الخاصة، فالآيات متوافقة، وهي كلّها في قصة واحدة هي غزوة بدر، والظاهر أن رؤيا النبي ﷺ كانت في خفقته وهو في العريش قبل التحام القتال، ورؤية الصحابة كانت عند الالتقاء للقتال، وقد حكى بعض المفسِّرين الإجماع على أن آية ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا: فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ مثل آيتي الأنفال ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلاً، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر، ولكن الله سَلَّم إنه عليم بذات الصدور * وإذ يريكموهم إذ التقيتم في

أعينكم قليلاً ويقلّلكم في أعينهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾[1] بدرية، نزلت في غزوة بدر تحذيراً لبني قينقاع من اليهود، وردّاً عليهم في غرورهم، وقولهم عند علمهم بهزيمة قريش في غزوة بدر: لو قاتلنا محمد ـ ﷺ ـ لعلم أنّا الناس، وأنّا أخبر بالقتال من قريش، فنزل قوله تعالى: ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية ـ أي عبرة زاجرة ـ في فئتين التقتا: فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾.

تعسف أبي حيان في تأويل الآية.

قال أبو حيان في تأويل: ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ﴾: والمراد بالقلة هنا قلة القدر والبأس والنجدة، وأنهم مهزومون، مصروعون، ولا يحمل على قلة العدد، لأن النبي ﷺ رؤياه حق، وقد كان علم أن المشركين ما بين التسعمائة إلى الألف، فلا يمكن حمل ذلك على قلة العدد، ويظهر أن أبا حيان وَهَل عن أن المقام مقام إعجاز وآيات غيبية وهذا عدول عن مقام نزول الآيات، وأنها نزلت بمعجزات للنبي ﷺ على مقتضى سنن الله تعالى الخاصّة في تدبير أمر عباده، فعلمُ النبي ﷺ أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى ألف كان من قبيل الواقع المرتبط بأسبابه العامة، ورؤياه لهم في المنام ـ وهي حق لأنها إحدى مراتب الوحي ـ قليلاً من قبيل الإعجاز الجاري على مقتضيات سنن الله الخاصة، والتقليل الموافق للحق يحتمل أن الله تعالى حجب عددهم الذي كان يعلمه، وأراه عدداً يبدو قليلاً، وهذا من قبيل تكثير الطعام والماء القليلين لكفاية العدد الكثير الذي يستحيل بمقتضى الأسباب العادية أن يكفيهم، فتكثير الطعام والماء كتقليل العدد كلاهما يكون بأسباب خفية يستأثر الله بها.

وأبو حيان يقول في تأويل الآية الثانية: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾: وقلّل الكفار في أعين المؤمنين تحقيراً لهم، ولئلا يجبنوا عن لقائهم.

---

(١) سورة الأنفال آيتا (٤٣، ٤٤).

والمؤمنون كانوا قد علموا علماً قاطعاً بإخبار رسول الله ﷺ لهم بأن نفير قريش كان ما بين التسعماية والألف، وتقليل الله الكفار في أعين المؤمنين لا بد أن يكون جارياً على سبب خاص، وهو حق واقع لعلمهم بكثرة عددهم بإخبار النبي ﷺ بذلك فما يقال هنا يقال هناك، والمرجع بالنسبة للنبي ﷺ الوحي في رؤياه، والمرجع بالنسبة للمؤمنين في تيقنهم كثرة عدد الكفار قبل رؤيتهم لهم قليلاً هو إخبار رسول الله ﷺ بذلك.

وزاد أبو حيان في تعسّفه فزعم أن عبدالله بن مسعود حين قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة: فقال أبو حيان: وهذا من عبدالله لكونه لم يسمع من رسول الله ﷺ ما أعلم به من عددهم.

وهذا عجيب من أبي حيان، لأن أسلوب عبدالله بن مسعود واضح في أنه كان على علم بكثرة عدد الكفار، قبل أن يتلاقى الفريقان، ثم قللهم الله في أعين المؤمنين، لأن تعبير ابن مسعود بقوله: قُلِّلوا في أعيننا واضح في أن التقليل طارىء على عدد الكفار، وأنهم كانوا في واقعهم كثرة أرهبت بعض المؤمنين.

وهذا المعنى هو الذي تفيده صياغة الفعل (قُلِّلوا). قال الفيومي في (المصباح): وقلّلته في عين فلان تقليلاً، جعلته قليلاً عنده حتى قلّله في نفسه، وإن لم يكن قليلاً في نفس الأمر.

وأسلوب الآية ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ واضح في الامتنان على المؤمنين بتقليل العدد الكثير الذي كان يخيفهم، ويؤكد هذا ماجاء في آية آل عمران ﴿ يرونهم مثلَيْهم رأي العين ﴾ على أرجح تأويلاتها.

ويقول أبو حيان: فإن كانت هذه الآية وآية الأنفال في قصة واحدة ـ وقد نقل أبو حيان نفسه قول صاحب ري الظمآن: أجمع المفسرون على أنها في وقعة بدر ـ أي آية ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ فالجمع بين هذا

التكثير، وذاك التقليل باعتبار حالين، قُلِّلوا أولاً في أعين الكفار حتى يجترؤا على ملاقاة المؤمنين، وكُثِّروا حالة الملاقاة حتى قهروا أعداءهم وغلبوهم.

معجزة كونية وقعت في لون آخر من المدد الإلهي.

ومما جرى في مجرى السنن الخاصة في تأييد الله لعباده المؤمنين أنهم كانوا قد نزلوا وادياً دهساً مرملاً تغوص فيه الأقدام، ويتعثر المشي على أرضه، وتتعذر الحركة فيه، وكان هذا الوادي عديم الماء، فأصابهم من النزول فيه بلاء شديد، وجافاهم النوم، وأجنب كثير منهم، فأصبحوا لا يجدون ماء ليشربوا منه ويتطهّروا لصلواتهم، وداخلهم الشيطان بوساوسه، يخوفهم بكثرة أعدائهم وقلة عددهم، ويفتنهم بأنهم يصلُّون وهم مجنبون، ويضخم لهم ما هم فيه من بلاء ليثبط عزائمهم عن ملاقاة أعدائهم.

بيان الإعجاز في آية ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾.

ولكن الله تعالى ـ الذي جعل من سننه الخاصة أن تغلب الفئة القليلة المؤمنة الصابرة المعتمدة عليه في صدق توكلها وعظيم ثقتها الفئة الكثيرة الباغية بفجور كفرها، المغرورة بكثرة عددها وقوة عدتها المادية ـ تداركهم بلطف فغشَّاهم النعاس أَمَنَة منه، ليذهب عنهم ما ساورهم من الخوف عند رؤيتهم كثرة أعدائهم، ويطمئن قلوبهم ويسكن نفوسهم، ويهدىء من روعهم، لتعود إليهم عزائمهم في صدق التوكل عليه، ويعلموا أن النصر بيد الله، ينزل من السماء بفضله على من يشاء من عباده، لا بكثرة العدد، وقوة العُـدَد، فـ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

فلما ذهبت عنهم غشية النعاس المؤمِّنة لقلوبهم وجدوا من أنفسهم راحة ونشاطاً، وتنزّلت عليهم السكينة، وطابت أفئدتهم، وتحلّبت عليهم السماء بالغيث، وأنزل الله عليهم الماء، فلبّد لهم الأرض، فكانوا إذا سعَوا عليها، وتحركوا فوقها كانوا كأنما يسعون على الصفا مطمئنين، بعد أن كانت أرجلهم تسوخ في رمال دَهِسة لا تماسك بين حباتها، فشربوا وتطهّروا، وملؤا أوعيتهم، وربط الله على قلوبهم وثبّت أقدامهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان ووسوسته، وكانت هذه النعمة على المؤمنين نقمة على الكافرين، فلم تستقم لهم حركة في قيام أو قعود.

فتغشية المؤمنين بالنعاس في وقت شدة الخوف والرعب، والقلق النفسي مما لا يمكن أن يكون معه نوم، وإنزال الماء الذي لبّد الأرض تحت أقدامهم وطهرهم، ورويُّ ظمأهم آيات إلهية أكرم الله بها نبيه ﷺ وأصحابه، لتكون تمهيداً يعدّهم نفسياً لتلقّي إمداد الملائكة، لأن إنزال الملائكة ليكونوا معهم مكثِّرين لأعدادهم، ومقاتلين في كتائبهم أجل وأعظم من جميع ما وقع من الآيات كتقليل العدد وتكثيره في رأي العين، وتغشية النعاس أَمَنَةً لهم، وإنزال الماء وتلبيد الأرض تحت أقدامهم، أعوص إدراكاً لدى العمل البشري، ولا سيما العقل الذي نهد وشب في بيئات أبعد ما تكون عن تصور الحقائق الغيبية المرتبطة بمعرفة جلال الألوهية وكمالها في الخلق والإبداع.

وهذا مما يقوِّي عزائمهم لملاقاة أعدائهم بقوة إيمانية قاهرة، يُعقد النصر الذي استأثر الله بأسبابه بها، وهي آيات ليس للسنن الكونية العامة تحكم فيها، وإنما هي جارية على قوانينها الخاصة التي تحكمها سنن كونية خاصة.

ولهذا كانت من أعظم منن الله تعالى التي امتن بها على المؤمنين بعد تحقيق النصر، فقال عز شأنه: ﴿إذ يغشّيكم النعاس أمنةً منه، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم، ويثبت به الأقدام﴾[1].

شهود الملائكة غزوة بدر

إجماع الأمة قائم على شهود الملائكة غزوة بدر، معتمداً على صريح القرآن والسنة.

لم تختلف كلمة الأمة سلفاً عن خلف في أن الملائكة شهدت غزوة (بدر) مدداً من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وأصحابه، وهذا صريح القرآن الكريم في قوله جل شأنه: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردِفين﴾[2] أي متتابعين، يردف بعضهم بعضاً ويأتي

(١) سورة الأنفال آية (١١).
(٢) الأنفال: آية (٩).

بعضهم في إثر بعض، وفي قوله تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾[1] وقد عنون البخاري في صحيحه لذلك في كتاب المغازي، فقال: باب في شهود الملائكة بدراً، ثم ذكر تحت هذا العنوان الحديث المستفيض، فقال: حدثني إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاعة ابن رافع الزّرقي، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟ قال «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها: قال: كذلك من شهد بدراً من الملائكة.

ثم ذكر البخاري حديثاً آخر في هذا الباب وهو صريح في أن جبريل عليه السلام شهد بدراً في أهبة الحرب قال البخاري: حدثني إبراهيم ابن موسى، أخبرنا عبد الوهاب، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»، وهذان الحديثان أصحُّ ما في الباب.

وقد أورد ابن حجر في (الفتح) والسيوطي في (الدر) جملة أحاديث بأسانيد صالحة، كلها صريحة في شهود الملائكة بدراً.

فالقرآن والسنة، وإجماع الصحابة، بل إجماع الأمة قبل ظهور شذوذ المخالف أدلة قاطعة على أن الله تعالى أكرم رسوله محمداً ﷺ وأصحابه الذين شهدوا واقعة غزوة بدر ـ وهم قلّة في عددهم وضعف في عدّتهم المادية بالنسبة لحشود أعدائهم من المشركين ـ بإنزال ملائكته مدداً لهم في أول وأعظم غزوة قتالية بعد، إذ أراهم فضله عليهم بنقلهم من تأثرهم بتراث الرواسب الجاهلية المغلّلة بالأسباب المادية من كثرة العدد وتوافر العدة والعتاد إلى مجال القوة المعنوية التي تستمد عناصرها من قوة الإيمان، وإدخالهم في رياض آياته تعالى وسننه الخاصة التي لا تخضع لتحكمات القوة المادية ومدركات العقول ومألوف الحياة في نظامها العام.

---

(١) الأنفال آية (١٢).

أعجب ما روي في شهود الملائكة بدراً نُقل إنكاره عن الشعبي وتحقيق غلط من نقل ذلك.

لهذا كان من أعجب وأغرب ما رأيناه في هذا المقام ما نقل عن الإمام الشعبي، وحكاه ابن عطية في تفسيره، ونقله عنه أبو حيان في (بحره) من قوله: لم يمدّ المسلمون بالملائكة يوم بدر، وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب رسول الله ﷺ، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

ونحن نستبعد جداً صحة هذا النقل عن الإمام الشعبي، وهو أحد أعلام التابعين المرجوع إليهم في السنّة النبوية وروايات أحاديثها وأحداثها ووقائعها.

والقرآن الكريم صريح في إثبات شهود الملائكة وحضورهم غزوة بدر، وأن الله تعالى أنزلهم استجابة لاستغاثة رسول الله ﷺ واستغاثة أصحابه، وطلبهم من الله تعالى مدداً من غيبه إنجازاً لوعده إياهم بنصره لهم على أعدائهم الذين أقبلوا إليهم في غرور فاجر، وصلف مستكبر كفور، يحادّون الله ورسوله، ويتحرّقون غيظاً على المجتمع المسلم، يريدون استئصاله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

ولا ندري ماذا يقول الناقلون لهذه القولة الشاذة عن الإمام الشعبي ـ إن صحّ نقلهم عنه ـ وهي قولة تعارض نص القرآن وصحيح السنة وإجماع الصحابة في فهم الشعبي وتأويله للنصوص المثبتة شهود الملائكة غزوة بدر مدداً من الله تعالى لرسوله ﷺ ولأصحابه المجاهدين؟ وهذه النصوص واردة مورد الامتنان والإخبار الذي أريد به تثبيت المؤمنين وتقوية عزائمهم وتبشيرهم بالنصر الذي وعدهم الله به؟

كما هو صريح قول الله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي مُمِدُّكم بألف من الملائكة مُرْدِفين ﴾ وهذا إخبار قاطع لا يحتمل التأويل، لأنه مرتب على استغاثة رسول الله ﷺ واستغاثة أصحابه.

روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب قال: فلما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه:

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تهلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض».

فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ فأمده الله تعالى بالملائكة.

القرآن الكريم والسنة يردان هذا الإنكار ويثبتان شهود الملائكة قتال بدر.

قال أبو عبدالله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور والحمد لله.

بل ذهب كثير من المفسرين وأهل السير أن المستغيث هو رسول الله ﷺ وإنما جاء التعبير عن استغاثته ﷺ بواو الجمع تعظيماً لقدره المنيف، وإبانة عن بلوغه في استغاثته ربه مبلغاً فاق كل استغاثة تصدر من فرد، وكأنما استغاثته ﷺ معبِّرة عن خوالج جميع المؤمنين متعاونين عليها بقلوبهم وأرواحهم وألسنتهم.

ثم ماذا يقول الناقلون لهذه القولة الشاذّة عن الإمام الشَّعْبي في فهمه وتأويله لأخت هذه الآية الكريمة في الامتنان على المؤمنين بإمدادهم بمدد الملائكة، وهي قوله تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ والآيتان من سورة الأنفال وهي سورة بدرية بإجماع، فالآيتان بدريتان، وهما صريحتان في إنزال الملائكة مدداً للمؤمنين في غزوة بدر؟.

النقل عن الشعبي مضطرب إذْ كيف يمكن أن ينكر الشعبي شهود الملائكة بدراً ويقولون عنه أنَّه قال بشهود الملائكة حروب رسول الله وحروب المسلمين؟.

ومما هو أدخل في العجب والغرابة، وأدعى لاستبعاد نقل هذه القولة الشاذة عن الإمام الشَّعبي أن الناقلين عنه يضمُّون إليها أن الشّعْبي قال: وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب رسول الله ﷺ مدداً، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة، فمن أين للشَّعْبي أو غيره نفي حضور الملائكة مدداً لرسول الله ﷺ وأصحابه في بدر مع صراحة النصوص المثبِّتة لهذا الحضور؟ ومن أين للشَّعْبي أو غيره إثبات حضور الملائكة حروب رسول

الله ﷺ بعد غزوة بدر، ولا نص يثبت ذلك من قرآن أو سنة؟ ومن أين للشَّعْبي أو غيره إثبات حضور الملائكة حروب المسلمين إلى يوم القيامة؟ وهذا مما لا مدخل فيه للرأي والاجتهاد؟

وقد أورد القرطبي ما نسب إلى الشَّعْبي بما يفيد أن إمداد الله تعالى نبيه ﷺ وأصحابه بالملائكة إنما كان يوم أحد لا يوم بدر أخذاً من آيتي سورة آل عمران، ولم يتعرض لآية الأنفال، وهي مصبُّ الإمداد في بدر.

قال القرطبي وهو يذكر غزوات النبي ﷺ: ثم غزوة بدر الكبرى، وهي أعظم المشاهد فضلاً لمن شهدها، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيه ﷺ والمؤمنين في قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية لا في يوم أحد.

ومن قال: إن ذلك كان يوم أحد جعل قوله تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ إلى قوله تشكرون اعتراضاً بين الكلامين، هذا قول عامر الشَّعْبي، وخالفه الناس.

الظاهر عند التأمل أنَّ الإمام الشعبي كان كلامه في آيتي آل عمران فاشتبه الأمر على من نقل عنه فجعل الكلام في بدر.

والمتأمل في هذا السياق يفهم أن الإمام الشَّعْبي إنما تكلم عن آيتي سورة آل عمران: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيَكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين ﴾.

وهذا فهم مستقيم لا يمنع منه سياق الآيتين بعد قوله تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ إلى قوله ﴿ تشكرون ﴾ الذي جاء تذكيراً بنعمة النصر في بدر مع قلة عدد المؤمنين وضعف عدتهم، والسياق في آل عمران لغزوة أحد، فمجيء آيتي الإمداد بالملائكة في البينِ من قصة أحد محتمل أن يكون منها، والإمداد كان فيها، ومحتمل لأن يكون من الامتنان بنعمة النصر في بدر، وقع في البين من قصة أحد، تنبيهاً للمؤمنين أنهم لو صبروا وأطاعوا أمر رسول الله ﷺ لم يهزموا كما لم يهزموا في بدر مع قلة العدد وضعف العدة، لأن النصر بيد الله تعالى ينزله على من يشاء، وكيف يشاء، لأنه عزيز لا يغالب، حكيم يضع الأمور بتدبيره وحكمته في مواضعها من مواقع علمه المحيط بالأسباب والمسببات.

وحينئذ يكون الإمام الشَّعْبي غير متعرض في كلامه للإمداد بالملائكة يوم بدر، فضلاً عن إنكاره كما حكاه عنه ابن عطية، وكل ما يعطيه كلامه كما جاء في سياق القرطبي أنه يذهب إلى أنّ آيتي الإمداد في آل عمران أُحُدِيتان وليستا بدريتين، وهذا لم ينفرد به الشَّعْبي، وهو محتمل كما بيناه.

ومن الغريب أن القرطبي ساق كلاماً عن الشعبي في الإمداد بالخمسة آلاف في قصة كرز بن جابر الفهري، يتعارض مع سياق ابن أبي شيبة الذي صحح الرواية عن الشَّعْبي، وقد جاء فيه أن كُرْزاً لما بلغته هزيمة المشركين ببدر جبن فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المؤمنين بالخمسة آلاف.

قال القرطبي: قال الشَّعْبي: بلغ النبي ﷺ وأصحابه أن كرز بن جابر المحاربي - وهو الفهري في رواية ابن أبي شيبة - يريد أن يمدّ المشركين فشقَّ ذلك على النبي ﷺ وعلى المسلمين، فأنزل الله ﴿ ألن يكفيكم - إلى قوله مسوِّمين ﴾ فبلغ كُرْزاً الهزيمةُ، فلم يمدهم ورجع فأمدَّهم الله بالخمسة آلاف، وكانوا قد أمدوا بألف.

مظنة دخول الشبهة على من حكى القولة الشاذة عن الشعبي.

ولعل الشبهة دخلت على من نقل هذه القولة الشاذّة، سواء أكان ابن عطية أم غيره من المتقدمين والمتأخرين من حديث ابن أبي شيبة عن الشعبي بسند صحيح إليه: قال: إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر الفهري يمد المشركين فشقّ عليهم، فأنزل الله: ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ قال الشعبي: فبلغت الهزيمة - أي هزيمة المشركين في بدر - كرزاً فلم يمدّ المشركين، ولم تمدّ المسلمون بالخمسة.

فهذا الكلام المروي عن الشعبي بسند صحيح إليه - كما يقول الزرقاني في شرح المواهب - قد يكون هو الذي أدخل الوهل على من لم يتأمل في سياقه، فبدر إليه الوهم ففهم خطأ في قول الشعبي: ولم تمد المسلمون بالخمسة ما جاء مبتوراً في الكلام الذي ساقه أبوحيان منسوباً الى ابن عطية ومحكياً عن الشعبي.

نقل الرازي الإجماع على شهود الملائكة بدراً

وممّن نقل إجماع المفسرين وأهل السير على شهود الملائكة غزوة بدر مدداً للنبي ﷺ ولأصحابه استجابة لاستغاثتهم الإمام الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) إذ قال: أجمع المفسِّرون وأهل السِّير على أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر، ثم قاتلوا الكفار.

وكلام الرازي متضمن لقضيتين، الأولى: قضية إنزال الملائكة يوم بدر، وهي قضية مسلّمة أجمع عليها أهل العلم من ذوي الشأن في العلم بالسنّة وأحداثها ودلت عليها آيات الإمداد في سورتي الأنفال وآل عمران، والعديد من الأحاديث والآثار والتي تشبه أن تكون في كثرتها متواترة الدلالة على المطلوب.

أما القضية الثانية: فهي أن الملائكة قاتلوا الكفار يوم بدر وهي قضية اختلف فيها أهل العلم من السلف والخلف، فلا ينسحب عليها ما ذكره الرازي من إجماع المفسرين وأهل السِّيَر.

إنكار الأصم نزول الملائكة في بدر ورد الرازي عليه

وقد ذكر الرازي إنكار أبي بكر الأصم إنزال الملائكة مدداً للمؤمنين، وذكر احتجاجه لإنكاره بأربع حجج، ثلاثة منها منصبّة على إنكار مباشرة الملائكة القتال، والرابعة ظاهر في إنكار نزول الملائكة، وهذا ما يجب ردّه وعدم قبوله، وكذلك صنع الإمام الرازي، فقال: الحجة الرابعة أن هؤلاء الملائكة الذين نزلوا إما أن يقال إنهم كانوا أجساداً كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم الكل، وأن تكون رؤيتهم كرؤية غيرهم، ومعلوم أن الأمر ما كان كذلك، وإن كانوا أجساماً لطيفة دقيقة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوة، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول.

قال الرازي: واعلم أن هذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوة، أما من يقربها فلا يليق به شيء من هذه الكلمات، فما كان يليق بأبي بكر الأصم إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناطق بها، وورودها في الأخبار قريب من التواتر! . وردُّ الرازي على الأصمّ مسلَّم في إنكاره نزول الملائكة مدداً للمؤمنين في بدر، أما قضية أن الملائكة قاتلت الكفار فهي موضع نزاع بين العلماء، فلا ينسحب عليها حكم الإجماع الذي زعمه الرازي، على أن ردَّ

الرازي على الأصم مجمل ولا يخلو عن ضعف كما ألمح إلى ذلك صاحب المنار؛ لأن الأصم أهدر أن المقام مقام إعجاز، فحكّم المألوف والعقل ولم يُقم للأحاديث الصحيحة التي رؤيت فيها الملائكة في صور بشرية وأجل هذه الأحاديث صحة ومعنى حديث جبريل المشهور، وقول النبي ﷺ فيه: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» بعد أن ذهب ولم يعرفه أحد من الصحابة.

آيات آل عمران تؤكد آيات الأنفال.

ومما يؤيد قول جمهور العلماء بإنزال الملائكة مدداً للمؤمنين في بدر أن قوله تعالى: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين. وما جعله الله إلا بشرى لكم، ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ نزل في غزوة بدر، كما هو قول جمهور العلماء.

وسياق هذه الآيات يرجِّح بدريتها، لأنها جاءت في ترتيب التلاوة معاقبة لقوله تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾.

قال أبو حيان في (البحر): ظاهر هذه الآيات اتصالها بما قبلها وأنها من قصة بدر، وهو قول الجمهور، فيكون (إذ) معمولاً لنصركم، ثم قال أبو حيان: وقيل: هذا من تتمة قصة (أحد) فيكون قوله: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ معترضاً بين الكلامين لما فيه من التحريض على التوكل والثبات للقتال.

تحقيق ابن القيم في آيات آل عمران.

وقد ذكر الامام ابن القيم في (الهدي) الخلاف، وحجج الفريقين، ولم يرجِّح قولاً على قول، قال: فإن قيل: ها هنا - أي في سورة الأنفال - ذكر أنه أمدهم بألف، وفي سورة آل عمران قال: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ فكيف الجمع بينهما؟ قيل: اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بخمسة آلاف على قولين:

أحدهما أنه كان يوم (أحد) وكان إمداداً معلّقاً على شرط، فلما فات الشرط فات الإمداد، وهذا قول الضحاك، ومقاتل، وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة والرواية الأخرى عن عكرمة، واختاره جماعة من المفسرين.

وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ﴾.

قال هؤلاء: فلما استغاثوا أمدّهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدّهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا، وكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً، وأقوى لنفوسهم، وأسرّ لها من أن يأتي مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أحد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم. إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[1] ثم قال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ فذكر نعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد، فأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿ ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين ﴾ ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا، أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف وإمداد بدر بألف، وهذا معلّق على شرط، وذلك مطلق.

---

(١) سورة آل عمران آيتا (١٢١، ١٢٢).

والقصة في سورة آل عمران هي قصة أحد مستوفاة مطوّلة، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطوّلة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ وقد قال مجاهد، هو يوم أحد، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا المدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد.

وقفة وبحث مع ابن القيم في توجيهه رأيه.

ونقف مع الإمام ابن القيّم عند قوله في الموازنة بين أدلة الفريقين: فهذا أي قوله تعالى: ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾ من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قول الله تعالى، لنتفهم ما معنى قول ابن القيم: هذا من قول رسول الله، والإمداد ببدر من قول الله تعالى، والآيات في إمداد بدر، بألف، وفي الإمداد المختلف فيه بين بدر وأحد كلها من قول الله تعالى، وهي قرآن متحدّىً به، متعبد به، نزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام على محمد رسول الله ﷺ ليبلّغه لأمته؟ فقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم ﴾ لا بد أن يكون الأمر فيه بالتبليغ، والمعنى: اذكر لأصحابك مبلّغاً لهم نعمتنا عليهم إذ تقول لهم مبشّراً ومنشّطاً بوحينا إليك، حاكياً لهم تنزيلنا عليك (ألن يكفيكم ـ في الفوق على أعدائكم أن يمدكم ربكم ـ زيادة على ما أمدكم به من ألف مردفين بتمام (ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) فهو قول الله تعالى قطعاً كقوله: ﴿ فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ على سواء، وليس لرسول الله ﷺ فيه إلا التبليغ، ثم وعدهم إن هم صبروا واتّقوا أمدّهم بتمام خمسة آلاف مسوِّمين.

وهل مثل هذا يمكن أن يكون بمحض الاجتهاد من رسول الله ﷺ؟ أو أنه من الأمور التي لا مدخل فيها قط للاجتهاد، بل لا بد فيها من الوحي عن الله تعالى، أن يقول الرسول ﷺ لأصحابه بإخبار الله له ما حكاه عنه في صدر الامتنان والتثبيت، وإزالة ما مسّهم من طائف الوحشة لملاقاة أعدائهم، وتذكيرهم نعم الله عليهم ليقوموا بحق شكر هذه النعم التي لم تجرِ

على مقتضى ربط المسببات بأسبابها طبقاً لنواميس السنن الكونية العامة في مجرى الأحداث، ولكنها جرت بمحض فضل الله دون أن تعرف لها عندهم أسباب مألوفة في مدارك العقل ومألوف الحياة في نظامها العام.

وإذا صح أن يَعِد رسول الله ﷺ أصحابه تثبيتاً لهم وإخباراً بموعود الله له بالنصر مع قلّة عدد أصحابه وضعف عدتهم بأن الله سيمدهم بمدد من عنده، يبدد كثرة أعدائهم ويذهب بقوتهم المادية استجابة لاستغاثته واستغاثتهم، فهل يملك رسول الله ﷺ باجتهاده أن يعيِّن أن هذا المدد يكون من الملائكة، فيخبر به أصحابه؟ أو لابدّ في هذا التعيين بأن هذا المدد من الملائكة من وحي الله له بذلك، لأن جنود الله التي يمدّ بها عباده المؤمنين لينصرهم على أعدائهم لا تقتصر على الملائكة ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾.

وهل يملك رسول الله ﷺ تحديد عدد المدد بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف إن تحقق شرط الصبر والتقوى؟.

وإذا كان لا بد في كل ذلك من الوحي ـ وهو الواقع الذي يجب المصير إليه ـ كان ما أمر الله به رسول الله ﷺ أن يقوله لأصحابه في قوله تعالى: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيَكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين * بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ هو قول الله تعالى مثل قوله جل شأنه: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردِفين ﴾ على سواء.

غاية ما في الأمر أنّ الإمداد بألف المردفين إخبار من الله تعالى بأنه استجاب لهم استغاثتهم فأمدّهم بها، وأن الإمداد بتمام هذه الألف ثلاثة آلاف، ثم إتمام هذه الثلاثة خمسة آلاف إن هم حققوا شرط الصبر والتقوى وعد من الله تعالى أوحاه إلى رسوله ﷺ ليبلِّغه إلى أصحابه بأسلوب تقريري يغسل ما ألمّ بصدورهم من حالة تشبه اليأس، ليستعيدوا ثباتهم ويستشعروا سمو مكانة رسول الله ﷺ عند ربه، ويعرفوا رفيع منزلته، وحفاوة الله به، ورعايته في

هذا الموقف الآزم بما لا يمكن أن يقدر على إبداعه أحد إلا الله تعالى في عظيم اقتداره ومحكم تدبيره، فحقّق لهم على أعدائهم ـ وهم أكثر عدداً وأقوى عدة منهم، ولهذا كانوا يتهيبون لقاءهم في الحرب ـ نصراً قوياً قاهراً غلّاباً، تردد صداه في آفاق أرض العرب قاصيها ودانيها، فأرعب قلوبهم، وأذلّ استكبارهم، وطامن غرورهم، إذ قتل فيه صناديدهم وأشرافهم، وأرغم معاطس طواغيتهم، وشغلهم عن (لا) و(نعم)، وأذهلهم عن أنفسهم، وكسر شوكتهم، وغمز قناتهم، وزلزل أقدامهم، وأرجف الأرض من تحتهم، وبدَّلهم بأمنهم فزعاً، وبصلفهم انكساراً، وبعتوّهم مهانة وهواناً، وارتفعت به رؤوس المؤمنين شامخة، وتثبتت أقدامهم راسخة، وأصبحوا سادة الموقف، وربابنة سفائنه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

هل باشرت الملائكة القتال
مع المؤمنين في بدر أو غيرها؟

إنكار نزول الملائكة مدداً للمؤمنين في بدر شذوذ واشتباه في النقل.

الاختلاف في مباشرة الملائكة القتال مناصرة للمؤمنين في غزواتهم مع رسول الله ﷺ أشد وأوسع مدى من الاختلاف في أصل نزولهم مدداً، وشهودهم المعارك لتثبيت المؤمنين، وتبشيرهم بالنصر لتقوَى عزائمهم وتشتد سواعدهم.

وقد حققنا قضية إنزال الملائكة وإمداد المؤمنين بأعدادهم، وحضورهم مشاهد القتال في غزوة بدر، وبيّنا أن نزولهم مدداً للمؤمنين في بدر أشبه بأن يكون مُجْمعاً عليه من سلف الأمة وخلفها، وأن ما وقع من النقل عن بعض الأئمة من إنكار لنزول الملائكة وإمداد جند الله من المؤمنين بأعدادهم كان إما من قبيل الشذوذ في النقل، واشتباه النصوص واضطراب الروايات، وذلك كالقولة المنسوبة إلى الإمام الشعبي، أو كان من قبيل غلبة الأوهام على منطق العقل، والوقوف مع الأسباب والمسبِّبات التي تحكمها السنن العامة في وقوع الأحداث، وذلك كالذي حكاه الرازي عن أبي بكر الأصم، واحتج له بما لا حجة له فيه.

مباشرة الملائكة القتال في بدر على سبيل الإعجاز رأي جمهور العلماء وظاهر القرآن وصريح السنة.

أما قضية مباشرة الملائكة القتال في صفوف المؤمنين، وهي متفرعة على ثبوت نزولهم وإمداد المؤمنين بهم، وشهودهم المعارك، فقد اختلف فيها العلماء والباحثون من المفسرين وأهل السِّيَر، فقال قوم وهم الأكثرون وجمهور أهل العلم: إن الملائكة أُنزلوا مدداً للمؤمنين وباشروا القتال معهم، وقتلوا آحاداً من الكافرين، وأسروا أفراداً منهم. كما ورد في حديث أسر العباس، واستدل هؤلاء بظواهر آيات القرآن الكريم، وبآثار وروايات كثيرة عن

الصحابة الذين شهدوا بدراً أو حدثوا عمن شهدها.

وقال آخرون: إن الملائكة أنزلوا مدداً للمؤمنين في بدر، وشهدوا معركتها، ولكنهم لم يباشروا القتال، بل كان إنزالهم لتكثير سواد المسلمين، وتثبيتهم بما يلقُونه في قلوبهم إلهاماً من بشائر النصر، وتقوية عزائمهم، وأن الله تعالى ناصر نبيه وأصحابه على جند الشيطان وأوليائه من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، لتقوّى نفوس المؤمنين وعزائمهم ويجترئوا على أعدائهم في القتال، ولم تنزل لتباشر القتال، ولو كان إنزالهم للقتال لكان في وجود ملك واحد يقاتل مع المؤمنين كفاية لتحقيق النصر، وهزيمة الكافرين، بل لإهلاكهم إهلاكاً تاماً، فضلاً عن جبريل عليه السلام الذي وصفه الله في كتابه المبين بأنه شديد القوى، ذو مرّة، والذي تقول الروايات المشهّرة أنه اقتلع قرى قوم لوط من أصولها في الثرى، وحملها على ريشة من جناحه بمن فيها، وما فيها من أناسيّ وحيوان، وبيوت وشجر وزروع وأمتعة حتى بلغ بها آفاق السماء، وذرى الفضاء، ثم قلبها، فجعل أعاليها أسافلها، وصاح بثمود وهي في ديارها صيحة واحدة جعلتهم كالرميم.

إنكار قتال الملائكة مع المؤمنين صرف لظواهر النصوص عن منازلها بغير موجب.

وذهب أصحاب هذا الرأي في تأويل آيات الإمداد بالملائكة تأويلات صرفتها عن ظواهرها بغير ضرورة موجبة مما شتّت الضمائر في أسلوب الآيات.

وقد ذكر أبو حيان في تفسيره (البحر) وجوها في نظم قوله تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنَان ﴾ ليجعل قوله تعالى: ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا ﴾ خطاباً للمؤمنين عن طريق الملائكة، على معنى: قولوا لهم: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) وليتسنَّى جعل قوله تعالى: ﴿ فاضربوا ﴾ خطاباً تعليمياً للمؤمنين، يعلمهم طريقة ضرب الكافرين لقتلهم أو تعجيزهم عن القتال، وهي وجوه يكنفها التعسف وتشتيت الضمائر مما يخلّ بالبراعة البيانية في القرآن الكريم.

والحامل على هذا التعسف هو الفرار من إثبات مباشرة الملائكة القتال

في صفوف المؤمنين اعتماداً على قصص لا تستند على سند صحيح، وغفلة عن مقام الأحداث والوقائع، وهي أحداث إعجازية، لها سننها وقوانينها الخاصة التي لا يلزمها التقيد بحال من الأحوال، ولا تخضع لنظام السنن الكونية العامة التي تحكمها قوانين الأسباب والمسببات، وإنما مرجعها إلى إطلاق مشيئة الله واقتداره وحكمة تدبيره.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن الملائكة نزلت في بدر، وقاتلت الكفار وقال: أجمع أهل التفسير والسِّيَر أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً، لا يقاتلون ولا يضربون، وهذا قول الأكثرين، بَيْدَ أن الرازي الذي ينقل هذا الإجماع عن ذوي الشأن من المفسرين وأهل السِّيَر لم يُقِم لنقله وزناً، وذهب مع الذين يزعمون أن الملائكة نزلت مدداً للمؤمنين ولكنها لم تنزل لتقاتل، بل نـزلـوا لتقوية عزائم المؤمنين، ولكنه لّمح وهو يذكر اختلاف العلماء في مباشرة الملائكة القتال إلى أنهم لم يقاتلوا مستنداً إلى أن لفظ المدد الذي وصف به الملائكة مشعر بالمعاونة في القتال، فقال في تفسير آيتي آل عمران: اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة فقال بعضهم: بالقتال مع المؤمنين، وقال بعضهم: بل بتقوية نفوسهم، وإشعارهم بأن النصر لهم، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار.

ثم قال الرازي: والظاهر في المدد ـ أي في مفهومه اللغوي والعرفي ـ أنهم ـ أي الملائكة الذين نزلوا مدداً للمؤمنين ـ يشاركـون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال، وأن يكون حضورهم كافيـاً في تقويـة القلب، وزعم كثير من المفسرين أنهم قاتلوا يوم بدر، ولم يقاتلوا في سائر الأيام.

وقول الرازي: إن وقعت الحاجة إليهم، مؤذن بأنهم قاتلوا في يوم بدر لأن الحاجة إلى مشاركتهم للمؤمنين بالقتال معهم كانت في بدر واقعة وماسّة، تدعو إليها ضرورة الموقف إذ كان عدد المؤمنين قليلاً، وكانت عدتهم ضعيفة إلى جانب عدد أعدائهم وقوتهم المادية التي كانت وافية وافرة، وكان

الخوف من ملاقاتهم وهم في هذا العدد والعدّة مستولياً على بعض المؤمنين الذين خرجوا مع النبي ﷺ وهم كارهون للقتال، فكانت الحاجة داعية إلى تطلّع المؤمنين أن يمدهم الله بمدد من عنده، فاستغاثوه مع رسول الله ﷺ، فاستجاب لهم ووعدهم بإمدادهم بألف من الملائكة، وقد دلّت الآثار على أن الملائكة نزلوا في صور بشرية، ليأنس بهم المؤمنون وتقوى عزائمهم، وتطمئن قلوبهم إلى نصر الله وعونه.

أوهام الأصم وتزييفها ورد الرازي عليه.

أما أوهام أبي بكر الأصم وتخيلاته التي تشبث بها في إنكاره نزول الملائكة وقتالهم الكفار مع المؤمنين كما حكاها عنه الرازي فهي أوهام واهية، وتخيلات متهافتة، لأن الملائكة لم ينزلوا في صورهم وهيئاتهم التي خلقهم الله عليها، ولم يقاتلوا بقواهم الملائكية، وإنما نزلوا وقاتلوا بقوى بشرية تأنيساً للمؤمنين، وتقوية لعزائمهم كما تدل عليه الآثار الكثيرة.

والمؤمنون عرفوا نزول الملائكة بإخبار النبي ﷺ لهم عن الله تعالى، وعرفوا قتالهم معهم بمشاهدة آثار هذا القتال، ورؤيتهم لآثار ضرب الملائكة للكفار، ومخالفة ذلك لآثار قتال المؤمنين، وسماعهم أصوات آلات ضرب الملائكة وتحريضهم كما في حديث: «أقدم حيزوم» الذي أخرجه مسلم في صحيحه من طريق عكرمة بن عمار، عن أبي زميل، عن ابن عبّاس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خرّ مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو خُطم وشُقّ وجهه بضربة السوط، واخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث ذاك رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «صدقتَ، ذلك من مدد السماء الثالثة».

تعسف الرازي وضعف رأيه في تأويل الآيات.

ثم أعاد الرازي ذكر الخلاف في قتال الملائكة في سورة الأنفال، فقال: اختلفوا في أن الملائكةهل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم: نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة، وفيها أبوبكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وقاتلوا.

ثم قال الرازي: وقال آخرون: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثِّرون السَّوَاد، ويثبِّتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك الدنيا كلِّها، ثم ساق الرازي قصة حمل جبريل قرى قوم لوط بريشة من جناحه، وإهلاكه بلاد ثمود بصيحة واحدة منه.

ثم خرج الرازي من التلميح إلى التصريح برأيه في أن الملائكة لم تقاتل في يوم بدر، ولا في غيره من الغزوات، فقال: والذي يدل على صحة أن الملائكة ما نزلوا للقتال قوله تعالى: ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ قال الفرّاء: الضمير ـ أي في جعله ـ عائد إلى الإرداف، والتقدير: ما جعل الله الإرداف إلّا بشرى، وقال الزجاج: ما جعل الله المردِفين إلا بشرى، وهذا أولى لأن الإمداد بالملائكة حصل للبشرى، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يوم بدر في العريش قاعداً يدعو، وكان أبو بكر قاعداً عن يمينه ليس معه غيره، فخفق رسول الله ﷺ خفقة أخذته فيها سِنَة، ثم ضرب بيمينه على فخذ أبي بكر، وقال: «أبشر بنصر الله، ولقد رأيت في منامي جبريل يقدَم الخيل» قال الرازي: وهذا يدل على أنه لا غرض من إنزالهم إلا حصول البشرى، وذلك ينفي إقدامهم على القتال.

وقد أكد الرازي رأيه في أن الملائكة لم تنزل للقتال، وأنها لم تقاتل فقال: أما قوله تعالى: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ ففيه وجهان: الأول أنه أمر للملائكة، متصل بقوله تعالى: ﴿ فثبِّتوا ﴾ وقيل: بل أمر للمؤمنين، وهذا هو الأصح لما بيّنا أنه تعالى ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة.

اضطراب كلام الرازي وتضاربه.

والمتأمل في كلام الرازي أولاً وآخراً في آيات الإمداد بالملائكة في سورتي آل عمران والأنفال يرى أن هذا الكلام لا يخلو من تضارب واضطراب، وأن الرازي جنح إلى التعسُّف في تأويل آية ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ فانتزع الخطاب بقوله تعالى: ﴿ فاضربوا ﴾ من سياقه القرآني المقتضي لوحدة الخطاب في الآية الواحدة ما لم تقم الدلائل على غير ذلك، والرازي جعل هذا الخطاب للمؤمنين، ولا يخفى ما في ذلك من تشتيت ضمائر الآية الواحدة في سياقها والقصد من إنزالها.

والرازي في سبيل تأييد رأيه بأن الملائكة لم تنزل للقتال والمحاربة يجعل القصر في قوله: ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ قصراً ينفي إرادة القتال من إنزال الملائكة بترجيحه رأي الزجاج على رأي الفرّاء في مرجع الضمير في قوله (جعله) وسياق الآية يوحي بترجيح رأي الفرّاء لاتّساقه مع سياق الآية.

رأي الطبري وتمسكه بحرفية النص القرآني.

وقد نهج الإمام أبو جعفر الطبري نهجاً اعتصم فيه بظاهر القرآن، ولم يرجِّح رأياً على رأي من آراء القائلين بالإمداد بما زاد على الألف المثبتة في سورة الأنفال، أو القائلين بعدم الإمداد فيما زاد على ألف الأنفال مما ذكر في آيتي آل عمران.

ولم يعوّل الطبري على ما ذكره الأثريون من الأحاديث والآثار المثبتة أو النافية، فقال بعد أن ذكر كثيراً من هذه الآثار والأخبار: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة» فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتَّقَوا الله، ولا دلالة في الآية على أنهم مُدُّوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يُمَدُّوا بهم.

وقد يجوز أن الله عز وجهه أمدَّهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدّهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صحّ من الوجه الذي يثبت أنهم أُمدُّوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر به كذلك، فنسلِّم لأحدِ الفريقين قوله، غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أُمدُّوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي مُمدُّكم بألف من الملائكة مردِفين ﴾ فأما يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يُمَدوا أبين منها في أنهم أُمِدُّوا، وذلك لو أنهم أمدوا لم ينهزموا، وينال منهم ما نيل منهم، فالصواب فيه أن يقال كما قال تعالى ذكره.

وهذا الذي حكيناه عن أبي جعفر الطبري يمثل رأيه في أن الإمداد

بالملائكة وقع في يوم بدر بألف منهم، أخذاً بصريح آية الأنفال ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾.

أما آيتا آل عمران ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ فقد جعلهما أبو جعفر الطبري من قبيل الوعد الذي لم يذكر معه ما يدل على أنه وقع أم لم يقع، وليس فيه ـ عند أبي جعفر ـ خبر يصح الاحتجاج به في وقوعه أو عدم وقوعه.

أما قتال الملائكة في صفوف المؤمنين لأعدائهم الكافرين في بدر أو غيرها فقد جنح فيه الطبري إلى أنه لم يقع، وأن تثبيت الملائكة للمؤمنين الذي أُمروا به في قوله تعالى: ﴿ فثبّتوا الذين آمنوا ﴾ إنما كان بتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بالنصر، وإلقائهم في قلوب المؤمنين بالإلهام أنهم أقوى من أعدائهم الكافرين.

وصرف أبو جعفر الخطاب في قوله تعالى: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ إلى المؤمنين، فقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ يقول تعالى ذكره: سأرعب قلوب الذين كفروا بي أيها المؤمنون منكم، وأملؤها فَرَقاً حتى ينهزموا عنكم، فاضربوا فوق الأعناق.

ثم قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين معلّمهم كيفية قتل المشركين، وضربهم بالسيف، أن يضربوا فوق الأعناق منهم، والأيدي والأرجل.

ثم قال الطبري: فالواجب أن يقال: إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم أصحاب نبيه ﷺ الذين شهدوا معه بدراً.

الاعتراض على الطبري في تعسفه وصرفه الخطاب إلى المؤمنين

والذي اعترضناه على رأي من ذهب إلى أن الخطاب في قولـه: (فاضربوا) للمؤمنين من أن فيه تشتيتاً للضمائر في الآية، لا يوائم البراعة البيانية في بلاغة القرآن وارد على كلام أبي جعفر ـ والآية بدأت قطعاً

بخطاب الملائكة بالوحي إليهم أنه تعالى معهم باقتداره وعزّته وقهره، فَلْيثبِّتوا المؤمنين بتبشيرهم بالنصر والعون في قتالهم للمشركين، وهي واردة مورد الامتنان على النبي ﷺ في تحقيق رغبته واستغاثته ربه أن يمدّ أصحابه بمدد من عنده، يحقق لهم النصر على هؤلاء الأعداء الذين يفوقونهم عدداً وعدة.

وهذا الإمداد لا يحقق الغرض منه كاملاً إلا بمشاركة المؤمنين القتال للكافرين، لأن المستغيث الذي استجاب الله له بالإمداد إنما هو النبي ﷺ وحده، كما يدل عليه حديث العريش، أو هو ﷺ ومعه أصحابه، والنبي ﷺ كان في أشدِّ حالات المناشدة والاستغاثة وطلب المدد من الله تعالى ليقوِّي قلوب أصحابه ويزيل عنهم وحشة ما داخلهم إذ رأوا كثرة أعدائهم وقوة عدتهم المادّية أمام قلة عددهم وضعف عدّتهم، ولم يكن ﷺ في حاجة إلى تقوية قلبه بمجرد نزول الملائكة دون أن يعاونوا المؤمنين بالقتال معهم.

أما الاعتلال بأن قوة ملك واحد كافية في هزيمة من هم أكثر عدداً، وأقوى عدّة من الكفار أضعافاً مضاعفة ـ فهو اعتلال يغفل عن طبيعة الموقف الذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه من الشدّة البالغة والتأزم المستحكم، كما يصوره حديث عمر بن الخطاب عند مسلم من طريق أبي زُمَيل عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا الاعتلال يقوم على فكرة خاطئة، تزعم أن الملائكة إذا قاتلت في صفوف المؤمنين إنما تقاتل بقوتها الملائكية، وهذا ما لا يلزم لزومه، لأن الملائكة مُنِحوا قوة التشكل في صور بشرية أو غيرها، فما المانع أن يكون قتالهم الذي وقع منهم في معاونة المؤمنين كان على قدر ما تشكلوا فيه من صور بشرية كما تدل عليه الآثار الكثيرة، وهذا يكون أوقع في نفوس الصحابة، لأنهم رضي الله عنهم إذا رأوا رجالاً يقاتلون معهم كان ذلك آنس لهم وأشد أثراً في شدِّ عزائمهم وتقوية قلوبهم، وأنكى لعدوهم، لأنهم يظنُّون أنَّ الذين يقتلونهم هم أصحاب محمد ﷺ، فيكون الفعل منسوباً عندهم للنبي ﷺ وأصحابه، وهذا أقوى في الإعجاز، وأنجح في كسر شوكة هؤلاء الأعداء، وأغيظ لهم وأرعب لقلوبهم.

رأي السبكي في قتال الملائكة بصور بشرية وهو من أحسن ما ينبغي أن يقال.

وهذا ما أشار إليه الإمام السبكي في جواب سؤاله عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقال: ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ ولأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة الجيوش، ورعاية لصورة الأسباب وسننها التي أجراها الله في عباده، والله فاعل الجميع.

وممن ذهب إلى أن الملائكة نزلت يوم بدر مدداً للمؤمنين وقاتلت معهم أبو عبدالله القرطبي في أحكامه، فقال: وفي بدر أمدّ الله بملائكته نبيه والمؤمنين في قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية، وتظاهر الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر، وقاتلت، ثم ساق حديث أبي أسيد مالك ابن ربيعة وكان بدرياً، وساق بعده حديث عمر عند مسلم، وغيره من الأحاديث والآثار الكثيرة.

ثم قال: فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور، وساق القرطبي قول من ذهب إلى أن الملائكة حضرت يوم بدر، ولكنها لم تقاتل، وعقّب عليه بأن قتال الملائكة هو قول الأكثر من العلماء وأن قوله تعالى: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ أمر للملائكة، وضعّف قول من قال: أنه أمر للمؤمنين.

وجرى العلاّمة البيضاوي على ترجيح أن الملائكة قاتلوا الكفار مع المؤمنين واستدل بقوله تعالى: ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ وقوله: ﴿ أني معكم فثبتوا ﴾ على أن الملائكة قاتلوا مع المؤمنين.

والذي يجيل النظر بعين التفكير المتأمل في أحداث هذه الغزوة المباركة ووقائعها في مقدِّماتها، وإطار خطوطها التي قامت بها حتى وصلت إلى نهايتها من النصر المؤزّر لجند الإيمان وكتائب المجتمع المسلم الناشىء، نصراً بلغ ذروة الكمال، الذي كان به أساساً لجميع الفتوحات الإسلامية، ونشر الدعوة إلى الله الواحد الأحد في أرجاء الأرض ـ يدرك أن هذه الغزوة كانت تدبيراً إلهياً أشبه بالبعث ليوم الفصل لتطبيق منهج الرسالة الخالدة في أول جهاد قتالي يعتمد على التربية السلوكية للمجتمع المسلم تربية تحمل في طياتها

عوامل الخلود القائم على الكفاح الصبور، والنضال الحركي الذي يجعل من كل فرد من أفراد المجتمع المسلم لبنة تشد إليها البناء الإنساني الذي يمثل فيه المجتمع المسلم قوة التماسك بين جميع لبنات هذا البناء، بحكم وضع هذا المجتمع الاجتماعي من مكان القيادة الرائدة، والأسوة الموجّهة، والقدوة الرشيدة الراشدة.

ومن ثَمّ كانت هذه الغزوة المباركة إطاراً لصورة المجتمع المسلم في حياته الاجتماعية الشاملة لسائر أنظمة وجوده أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً.

ومن هذا المنطلق كانت حياة المجتمع المسلم نموذجاً لمواقف الكفاح المستهدف لإقامة الإنسانية على دعائم حرية العقيدة في سياج التوحيد المنيع، وحرية التفكير في ظل الإيمان، وحرية النظام الاجتماعي القائم على أداء الواجب وأخذ الحق، بل القائم على التواسي والتراحم فيما بين أبناء البشرية أفراداً وجماعات على سواء.

ولهذا أرخينا رَسَن القلم لينطلق على أرضها تعرّفاً لعناصر منهج الرسالة الخاتمة الخالدة، لنقيم من هذه العناصر المتداخلة صورة موحدة المعالم في مقدماتها ونهايتها، حتى يتاح للقلم أن يجمّع من خيوط نسجها أهم عناصر المنهج الإلهي الذي أودعه الله تعالى رسالة محمد ﷺ مضيئة المنائر، ليسترشد بها السالكون إلى نور الهداية بحثاً عن الحق والخير.

فَـرَائِدُ بَدْرِيَّـةٌ

الفريدة الأولى

مشهد يمثل ذروة صدق الإيمان

المؤاخاة بين عبيدة ابن الحارث وعمير ابن الحمام جمعتهما في طليعة شهداء بدر.

عمير بن الحمام أنصاري بَدْري، كان أول شهيد من الأنصار في بدر، وكان أول قتيل منهم في الإسلام في حرب، وكان من الرعيل الأول منهم في بناء المؤاخاة الإيمانية المتواسية، القائمة على الحب في الله، التي عقدها رسول الله ﷺ مَقْدَمه المدينة بين الذين تبوؤا الدار والإيمان من الأنصار، وبين طلائع السابقين الأولين من المهاجرين، تلك المؤاخاة التي كانت دعامة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، فجعلت منه قوة إيمانية موحدة الوسائل والأهداف.

فأما عبيدة بن الحارث فكان في بدر أحد أبطال المبارزة الذين ندبهم النبي ﷺ استجابة لدعوة عتبة بن ربيعة الذي تقدّم إلى صفوف المؤمنين، وحوله أخوه شيبة بن ربيعة، وولده الوليد بن عتبة تظاهراً بالشجاعة والجرأة ليرد عتبة على أبي جهل تعييره له بالجبن حين دعا عتبة إلى المسالمة ورجوع نفير قريش عن محاربة محمد ﷺ وأصحابه، فأبى أبو جهل إلا الحرب، فأخذت الحمية الجاهلية بتلابيب عتبة وقادته هو وأخاه وولده إلى حتوفهم، فتقدّم يطلب المبارزة، ونادى يا محمد؟ أخرج لنا أكفاءنا من بني عمنا، بعد أن برز لهم ثلاثة من البهاليل أبطال الأنصار، فأبى عتبة إلا أن يكون مبارزوهم من بني عمهم، من قريش.

عتبة يشعل نار الحرب ليرد على أبي جهل تعييره بالجبن.

وكانت هذه المبارزة أول شرارة قَدَح زَنْدها الغرور الكفور، والعتو الجاهلي الفاجر، وبدأت المبارزة بين أبطال المجتمع المسلم الثلاثة: حمزة ابن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وبين عتبة، وأخيه

شيبة، وولده الوليد، وما هي إلا جولة حتى جندل أُسد الله سنانير نفير قريش، وفقاقيع نزيز البأو والطغيان وفجار الشرك وعبيد الوثنية، وحُمل عبيدة بن الحارث بعد أن اختلف مع قرنه ضربتين أثبت كلٌّ صاحبه، ولحِق حمزة وعلي قرن عبيدة فذفَّفا عليه، ثم حملا عبيدة إلى رسول الله ﷺ، فأفرشه قدمه الشريفة لتكون وساداً حتى قضى شهيداً حميداً رضي الله عنه.

وأما عمير بن الحمام شهيد صدق الإيمان في ذروته فإنه سمع النبي ﷺ يقول، وهو يحرِّض المؤمنين على القتال بعد أن استيقظ من خفقته في العريش، ورأى جبريل عليه السلام متأهباً للحرب وهو يقود فرسه، وعلى ثناياه النقع: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر؛ إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير وكان واقفاً في الصف، وفي يده تمرات يأكلهن، وقد غمره الشوق إلى لقاء الله ودخول دار نعيمه وكرامته، فأنساه الدنيا ومن فيها، ولم يبقَ له إلّا تطلّعات الحب وصدق الإيمان بَخٍ، بَخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل، رضي الله عنه.

وقد أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة وفيه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا يتقدمنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه».

صدق الإيمان في فدائية عمير بن الحمام وشوقه إلى الجنة ورضوانها.

وتدانَى الجمعان، وكادت الصفوف تختلط، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام، شهيد صدق الإيمان، يستطعم قول النبي ﷺ ويستحلي مذاقه لشدة شوقه إلى الجنة، وما فيها من الرضوان الأكبر: يا رسول الله، جنة عرضها السموات!! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال عمير متعجباً من عظم ما أعدّه الله لصادقي الإيمان من عباده المخلصين وقد هزه الوجد واستبد به الحب: بَخٍ، بَخٍ!! فقال له رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بَخٍ، بَخٍ؟» فقال عمير وقد عادت إليه نفسه، وأخذه الحياء من رسول الله ﷺ: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، فقال له رسول

الله ﷺ: «فإنك من أهلها» فأخرج عمير من قَرْنه تمرات فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة فرمَى ما كان معه من التمر، وركض إلى القتال، وهو يقول منتشياً بفرحة الأمل في الفوز برغائبه:

رَكْضاً إلى الله بغير زادِ إلّا التقى وعمل المعادِ
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفادِ
غير التقى والبرِّ والرشاد

بحث وتحقيق لبيان ما جاء في هذه القصة من معالم منهج الرسالة.

وفاز عمير بن الحمام بتحقيق المرجو، ووجد ما وعده الله ورسوله حقاً، وألقى رحاله في ربض الجنة يتبوأ منها حيث يشاء.

وهذا لون من صدق الإيمان لا تتيحه الحياة إلا في فرائد الأحداث المتباعدة في أزمانها، ليكون درساً في السلوك التربوي الذي يجعل من الأمة قراراً مكيناً لأجنّة يترقبها التطلع إلى النهوض الحضاري في ظل الإيمان ولائذ تتحول إلى بطولات زاكية، يرتفع بها بناء المجتمع بروابط الأمل المرجّى بين فترات من الزمن متفاوتة في المدى والغاية.

وهو لون من الإخلاص للعقيدة الموحّدة لا يطمع فيه مجتمع من المجتمعات الإنسانية إلا ما كان منها قائماً على صدق الإيمان بحقائقها الغيبية كصدق الإيمان بحقائقها الشهودية.

وأول ما يلفت النظر في هذه الفريدة قوة الإيمان عند عمير، وصدق إخلاصه في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، فهو رجل مؤمن خالطت بشاشة الإيمان شغاف قلبه، ونشأ بهذا الإيمان في مؤاخاة القائمة على الحب لله، وكان إخاؤه معقوداً بناصية رجل من أبطال الرعيل الأول من المهاجرين الذين شرَوا أنفسهم في مرضاة الله، ذاك الفرع الأشم من دوحة النبوة: عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، وها هوذا عبيدة يستشهد في أول جولة من جولات المعركة البدرية، فيشهده أخوه الإيماني عمير بن الحمام مودعاً إلى الجنة، تشيعه إليها شهادة رسول الله ﷺ بقوله: «أشهد أنك شهيد».

ويغمر الشوق عميراً، ويبرّح به الوجد ليلقَى أخاه عبيدة في رياض الجنة، ويسمع عمير النبيَّ ﷺ وهو يهدي إلى سبيل الوصول للجنة، وفي يده تمرات يتبلَّغ بهن، وتتمثل له الجنة بنعيمها ورضوان الله فيها، وقد اتكأ على أرائكها أخوه الإيماني عبيدة بن الحارث مع من سبقه إليها من طلائع الإيمان، فيقول متعجلاً الوصول إليها: لئن بقيت في هذه الدنيا لحظات آكل فيها تمراتي إنها إذاً لحياة طويلة تباعد بيني وبين منازل الأحباب، ويرمي ما في يده من تمرات راكضاً إلى القتال بسيفه، ويقاتل حتى يقتل.

فأي إيمان هذا الذي وقف بعمير بن الحِمام هذا الموقف الذي تعجز الحياة أن تأتي بمثله؟ وتعجز الأقلام والألسن عن تصويره؟ إنه الصدق المتسامي في ذرى الإيمان، وأي إخلاص هذا الذي امتزج في قلب عمير بهذا الإيمان فكان له بُراقاً ينقله في لحظة لا يعرف لها الزمن في حسابه قدراً إلى رياض الشهداء؟ إنه الإخلاص الذي يستحوذ على المشاعر ومداخل الحس، فلا يترك لغيره فيها مكاناً.

وعمير رضي الله عنه يأخذه العجب إذْ يسمع من رسول الله ﷺ أن الطريق إلى الجنة يملكه كل مؤمن غمره الإخلاص، وهو بين يدي عمير إذا شاءه، فما بقاؤه بعيداً عنها؟ أهذه التمرات التي يتبلغ بهن؟ فليلقها إلى الأرض فألقاها، فإذا هو شهيد يمضي ركضاً إلى الله بغير زاد إلاَّ التقى والصبر في الجهاد.

الفريدة الثانية
﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾

سبعة أخوة من الأبطال يشهدون القتال في بدر أول وأعظم مشاهد الجهاد في الإسلام.

عوف بن الحارث، أحد سبعة إخوة، أمهم عفراء بنت الحارث الأنصاريّة النجاريّة، وثالث ثلاثة أبوهم الحارث بن رفاعة النجاري، وهم: عوف، ومعاذ، ومعوِّذ، وهؤلاء الثلاثة عرفوا بأمهم فيقال لهم: أبناء عفراء، أما الأربعة الآخرون، وهم إياس، وعاقل، وخالد، وعامر، فأبوهم البُكَير

ابن عبد ياليل الليثي، وقد شهد سبعتهم بدراً مع النبي ﷺ، وكان عوف أحد ستة نفر من الأنصار كانوا أول من أسلم بمكة، وهو عقبي، شهد العقبتين: عقبة الاثني عشر، وعقبة السبعين، وهي أعظم بيعات الأنصار للنبي ﷺ.

وكان ممّا شرّف الله به عفراء بنت الحارث أن بنيها السبعة كانوا جنوداً في أول معركة خاضها المجتمع المسلم في جهاد القتال، وعُدّت عفراء في المبايعات، فهي من فرائد المسلمات، اللائي حُزْن من المكرمات والمفاخر ما لم يكن لغيرهن في تاريخ الإسلام.

يقول الحافظ ابن حجر في (الإصابة): وعفراء هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها، وهي أنها تزوجت بعد الحارث البكير بن ياليل، فولدت له أربعة: إياساً، وعاقلاً، وخالداً، وعامراً، وكلهم شهدوا بدراً، وكذلك إخوتهم لأمهم بنو الحارث، وانتظم من هذا أنها امرأة صاحبية لها سبعة أولاد، شهدوا كلهم بدراً مع النبي ﷺ.

وعوف بن الحارث وأخوه معوّذ هما ـ في رواية الواقدي ـ اللذان قتلا أخبث كافر أقلته الأرض: أبا جهل بن هشام، ضرباه وهو يصول في المعركة حتى أثبتاه، وتركاه في آخر رَمَق، حتى ذفّف عليه عبدالله بن مسعود، واحتز رأسه بعد أن علا صدره ووضع قدمه على عنقه، وحملها إلى النبي ﷺ، ففرح ﷺ بقتل هذا الطاغية فرحاً شديداً، وقال لابن مسعود: «انطلق فأرنيه» فانطلق عبدالله معه ﷺ فأراه إياه مجندلاً، فقال ﷺ: «هذا فرعون هذه الأمة».

إذا ملك الإيمان قلب المؤمن أخلصه لله وحده.

هذه النشأة الإيمانية التي نَهَد عوف بن الحارث في مهادها ومجاليها جعلت منه نموذجاً للمؤمن الذي تخلل الإيمان مشاعره وإحساساته، وملأ قلبه وعقله، وأضاء جوانب روحه بنور هدايته، وشغله عن الدنيا وما فيها ومن فيها، بل شغله عن نفسه، وأذاقه حلاوة الإخلاص لله تعالى، وعرّفه كماله الربّاني، فعرف الله معرفة شهودية، جعلت منه عبداً لا يرى في حياته إلاّ ربه، ولا يرى سعادته إلا في مرضاته، ولا يشعر بلذة إلا لذة النظر إلى وجهه الكريم، فشَرَى نفسه لله تعالى، فكان مثلاً أعلى لواقعية قوله عز شأنه:

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ فانطلقت روحه إلى منازل القرب، مستغرقة في بحار جلاله وقدس عظمته، فكان آية من آيات الله تمثل الحب الإلهي في أعلى مراتبه وأرفع درجاته، فأحبَّه الله تعالى، وأحبَّ الله، وصار من الذين قال الله فيهم: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

إذا أحب الله عبداً غرس في قلبه حبه.

وحب الله لعبده أن يستأثر به لنفسه، فيحرره إلا من عبوديته له وحده، وحب العبد لربه أن يستخلصه ربه لنفسه، فلا يرى، ولا يسمع، ولا يحس، ولا يشعر إلا بهذا الحب، ولا يقر له قرار إلا بالله، ولله، وفي الله، فالله تعالى طِلْبته، ورضاؤه رغائبه.

هكذا كان عوف بن الحارث ساعة أن سمع النداء الأقدس وهو يتهيأ للرحيل على أجنحة الحب، فاتجهت نفسه إلى الخبير يستنبؤه عن أقرب طريق يفضي به إلى أن يكون ذرة نورانيّة بين يدي المحب الحبيب، تتلألأ في آفاق اللانهائية، سابحة في فضاء الأبدية، لا ترى إلا الله في قدس جلاله الذي لا يشهده إلا المقرّبون.

فقال لأمين سر الربوبية ﷺ: يا رسول الله؟ ما يضحك الرب من عبده؟ ليستجلي به أقصى ما يبلغ العبد من القرب في رضاء ربه، فأجابه العليم المعلّم ﷺ فقال: «غمسه يده في العدو حاسراً» ومعنى هذا الجواب: أن يبلغ العبد في حبه لربه درجة ترتفع بها الحواجز الترابية المظلمة، ويخلع عنه جلابيب البشرية، ليصير روحانياً خالصاً، يطير بأجنحة التقديس إلى منازل القرب التي لا تعرف الحدود والحواجز.

كان حب عوف ابن الحارث لربه حباً فدائياً ابتغاء مرضاته.

وفهم عوف الرمز، فباع نفسه لبارئها، ونزع درعاً كانت عليه، فرمى بها، وخلص روحاً نورانياً، ثم ركض إلى الله حتى بلغ منازل الأحباب، واستقر في خدورها نوراً يضيء لمن يريد.

هذه القصة ذكرها ابن إسحاق، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير في البداية، وعز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) وابن حجر في الإصابة.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر، عن قتادة قال: لما التقى الناس يوم بدر قال عوف بن عفراء بن الحارث: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «أن يراه قد غمس يده في القتال، يقاتل حاسراً» فنزع عوف درعه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل شهيداً رضي الله عنه.

الفريدة الثالثة
مقتل أبي جهل لعنه الله بسيوف ابني عفراء
﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾
شجاعة فدائية ـ إخوة بعضهم من بعض

لعوف بن الحارث أخوان شقيقان: هما معاذ بن الحارث، ومعوّذ ابن الحارث، وأن ثلاثتهم أبناء عفراء بنت عبيد الأنصارية النجّارية، وقد شهر أبناؤها بنسبتهم إليها، فيقال لهم أبناء عفراء، ولهم أربعة أخوة لأم، هم: إياس، وعاقل، وخالد، وعامر، أبوهم البكير بن عبد ياليل، وسبعتهم شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ، فكانوا أشجع أبطال قدّمتهم امرأة للجهاد الفدائي في سبيل الله، لنشر الدعوة إلى الله ومحاربة الشرك والوثنية، وإقامة دعائم التوحيد والعدل والمحبة والإخاء.

وكان معاذ، ومعوّذ، وعوف أبناء الحارث وعفراء من أول الأنصار إسلاماً بمكة، إذ كانوا في الثمانية أو الستة نفر الذين لقوا رسول الله ﷺ فبايعوه البيعة الأولى، ثم كان منهم من حضر العقبة الثانية وهي العقبة الكبرى، وفيها كانت بيعة السبعين الذين كانت كثرتهم من الخزرج، والمذكور فيهم لهذه المشاهد مجتمعة معاذ بن عفراء، فهو عقبي، بدري، أُحدي، خندقي، لم يتخلف عن مشهد من مشاهد الجهاد مع رسول الله ﷺ.

حفاوة النبي ﷺ بالرّبيّع بنت معوّذ.

ومعاذ هو الذي أهدَى إلى النبي ﷺ قناعاً من رطب أرسل به مع بنت أخيه الربِّيع بنت معوّذ، فوهبها النبي ﷺ حلية من ذهب، كان أهداها إليه صاحب البحرين، وقال لها: «تحلّي بهذا».

وفي حديثها عند البخاري والترمذي من طريق خالد بن ذكوان، قالت

جاءنا رسول الله ﷺ فدخل عليّ غداة بُني بي، فجلس على فراشي، وجويريات لنا يضربن بالدفوف، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر.. إلى أن قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال لها رسول الله ﷺ: «دَعِي هذه وقولي التي كنت تقولين قبلها» وروى ابن الأثير في (أسد الغابة) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: قلت للربيِّع بنت معوِّذ: صفي لي رسول الله ﷺ، فقالت: يا بني، لو رأيته لرأيت الشمس طالعة.

وكانت الربيِّع بنت معوِّذ من المبايعات تحت الشجرة، وكانت تغزو مع رسول الله ﷺ، فتداوي الجرحَى، وترد القتلى إلى المدينة، فهي غصن من دوحة زاهية، زاكية، أصلها ثابت في منابت الإسلام وفروعها متطاولة إلى السماء.

قصة الربيّع بنت معوذ مع بنت مخرّبة أمّ أبي جهل.

ومن طريف حديث الربيِّع ما رواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أسماء بنت مخرّبة أمّ أبي جهل عن الربّيع بنت معوذ قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء بنت مخرّبة أم أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبدالله بن أبي ربيعة أخو أبي جهل لأمه يبعث لها بعطر من اليمن وكانت تبيعه إلى الأعطية، فكنا نشتري منها، فلما جعلت لي في قواريري، ووزنت لي كما وزنت لصواحبي قالت: اكتبن لي عليكن حقِّي، فقلت: نعم اكتب لها على الربيِّع بنت معوِّذ، فقالت أسماء: خلفي، وإنك لابنة قاتل سيده؟ قلت: لا، ولكني ابنة قاتل عبده، قالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً، فقلت: وأنا والله لا أشتري منك شيئاً أبداً، فوالله ما هو بطيب ولا عَرْف، ووالله يا بني ما شممت عطراً قط أطيب منه، ولكني غضبت.

وفي (أسد الغابة) لابن الأثير أن أسماء بنت مخرّبة قالت للربّيع بنت معوِّذ: حرام عليّ أن أبيعك من عطري شيئاً، فقالت لها الربّيع: وحرام عليّ أن أشتري منه شيئاً، فما رأيت لعطرٍ نَتَناً غير عطرك، ثم قمت، وإنما قلت ذلك لأغيظها.

وأسماء العطّارة هذه بنت مخرّبة أم أبي جهل وأخيه الحارث بن هشام قال عنها ابن عبد البر: ما أظنها أسلمت، وجزم البلاذري، نقلاً عن ابن

سعد أنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عيّاش إلى المدينة، قال ابن حجر في الإصابة: ويقال أنها أسلمت وأدركت خلافة عمر، وذلك أثبت.

خدعة أبي جهل أخاه لأمه عياش بن أبي ربيعة.

وقد قدَّمنا في حديث الهجرة أن ابنها عياشاً كان من السابقين الأولين المهاجرين إلى المدينة، وكان صديقاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن أخاه لأمه أبا جهل أتاه إلى المدينة، فلم يزل به يفتل له في الذروة والغارب، يروضه ويخدعه، ويكذب عليه، ويزعم له أن أمه أقسمت أن لا تطعم ولا تشرب حتى تراه، وقد نصحه عمر، وأبان له عن خداع أبي جهل ومكره به، فأبى أن يسمع لعمر بن الخطاب، وغلبت عليه العواطف البنويَّة، وصدّق أبا جهل فيما زعمه له، وعاد إلى مكة معه، ولم يكد يستمكن منه خارج المدينة حتى أوثقه، ودخل به إلى مكة مغلّلاً، وقال لملأ قريش: هكذا فافعلوا بسفهائكم.

وهذا يدل على أن أمه كانت لا تزال على قيد الحياة، وأنه فارقها مهاجراً وهي في عداد الأحياء، فزعم من قال: أنها ماتت قبل هجرة ابنها عياش بن أبي ربيعة زعم باطل بمقتضى هذه الرواية.

وحديث الربيّع بنت معوّذ في قصة العطر صريح في ذلك، وإن كان مشعراً بأنها كانت تعيش في حمأة العصبية الجاهلية، وقول البلاذري: أنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها إلى المدينة نقلاً عن ابن سعد يناقض قول ابن سعد إنها أسلمت وبايعت.

ويظهر أن أمر أسماء العطّارة أم أبي جهل اختلط على بعض الرواة بأمر بنت أخيها أسماء بنت سلمة الدارميّة زوجة ولدها عياش بن أبي ربيعة، وأسماء بنت سلمة من السابقات المهاجرات ذوات الهجرتين، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عياش بن أبي ربيعة، وهاجرت إلى المدينة في طلائع المهاجرين والمهاجرات إليها، وتكنى أم الجلاس، وفي الحبشة ولدت لزوجها عياش ابن أبي ربيعة ولده عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وروت عن النبي ﷺ وروى عنها ابنها عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة.

قال ابن حجر في الإصابة: وخلط ابن منده ترجمتها بترجمة عمتها

أسماء بنت مخرّبة، قال ابن حجر: وبيان الخلط أنه جمع بين قصتي الرّبيع بنت معوّذ وعبدالله بن عيّاش، وقصة الربيّع إنما وقعت لها مع أسماء بنت مخرِّبة، وهي المختلف في صحبتها، وقصة عبدالله بن عيّاش هي ما تضمنها هذا الحديث، وهي والدته المتفق على صحبتها.

تكريم النبي ﷺ للربيّع بنت معوّذ تكريم لأسرتها.

فإذا كرّم النبي ﷺ الربيع بنت معوّذ وأكرمها فإنه ﷺ إنما يكرِّم في شخصها الوفاء في أروع صوره وأرفع نماذجه، ويكرم ذروة الفضائل الإيمانية في أسرتها التي وهبت نفسها وجميع ما تملك من قوة ومال للجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ونشر دعوته، دعوة الهدى والنور بإزالة العوائق والعقبات من طريقها، وحماية رسول الله ﷺ أن يمسه أحد من أعدائه وأعداء دعوته بسوء من القول أو الفعل.

فهذا أبو الربيّع معوّذ بن الحارث، وعمها معاذ بن الحارث ابنا عفراء يسمعان أن أبا جهل يسب النبي ﷺ فيعاهدان الله تعالى على قتله أو يموتا دونه.

فدائية ابني عفراء معاذ ومعوّذ في حماية رسول الله ﷺ.

روى البخاري من طريق ابراهيم بن سعد، عن أبيه عن جده ـ أي عبد الرحمن بن عوف ـ قال: إني لفي الصف يوم بدر، التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن مكانهما إذ قال لي أحدهما سِراً عن صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله تعالى إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لي الآخر: سِراً من صاحبه مثله، قال عبد الرحمن بن عوف: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء.

وفي الصحيحين من حديث سليمان التيمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟» قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله، فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد.

هاتان روايتان وهما من أصح وأعلى الروايات سنداً تفيدان صراحة أن قاتل أبي جهل هما ابنا عفراء: معاذ، ومعوّذ، أو معوّذ وعوف ابنا الحارث،

بيد أن الصحيحين رويا من طريق صالح بن ابراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف عن أبيه، عن جده عبد الرحمن بن عوف ـ وهو الصحابي الجليل الذي روى القصة في الحَدَثين السابقين ـ قال: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما، فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب النبي ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك فغمزني الآخر، فقال لي أيضاً مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل، وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه.

ثم انصرفا إلى النبي ﷺ، فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» قال كل منهما: أنا قتلته، فقال ﷺ: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاكما قتله» فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر ابن عفراء.

تحقيق إقحام معاذ ابن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل.

والناظر بعين التأمل يرى أن هذه الرواية ـ وهي في صحيح البخاري من طريق مسدّد، عن عبد الرحمن بن عوف صاحب إحدى الروايتين السابقتين وهي المروية من طريق إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده ـ وهو عبد الرحمن بن عوف ـ أما الرواية الثانية فهي من طريق سليمان التيمي عن أنس بن مالك وهي تخالف تَيْنك الروايتين، رواية أنس ابن مالك، ورواية عبد الرحمن بن عوف في إدخال معاذ بن عمرو بن الجموح في قصة قتل أبي جهل، فتجعله أحد القاتلين، بل جعلته هو القاتل، وجعلت ابن عفراء شريكه في ضرب أبي جهل، وأن النبي ﷺ قَضَى بسلب أبي جهل لمعاذ بن الجموح وجمهور العلماء يقولون: إن قضاء النبي ﷺ لابن الجموح بسَلَبِ أبي جهل بعد أن أشركه مع صاحبه في القتل فقال: «كلاكما قتله» دليل على أن ضربة ابن الجموح كانت هي القاضية على حياة أبي جهل، لأن السَّلَب إنما يكون للقاتل، لا للمشارك في القتل.

ومعاذ بن الجموح لم نَرَ له ذِكراً في القصة إلا في آخر هذه الرواية،

التي اعتمد عليها عبد الملك بن هشام، وسائر روايات الصحيح لا تذكر في قتل أبي جهل سوى ابني عفراء اللذين جاء النص عليهما في روايتي التيمي عن أنس وفي رواية إبراهيم بن سعد عن جده عبد الرحمن بن عوف، ففي رواية أنس يقول ابن مسعود: فانطلقت فوجدته قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَد، وفي رواية إبراهيم بن سعد، يقول عبد الرحمن بن عوف: فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء.

وهذا نص صريح لا يحتمل التأويل، أما ذكر معاذ بن عمرو ابن الجموح في قصة قتل أبي جهل فيشبه أن يكون مقحماً، إذ تقول الرواية في آخرها فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر ابن عفراء، والغلط فيه بالوهم أقرب، لأنه يبعد جداً أن يكون عبد الرحمن بن عوف قائل ذلك وهو قد ثبت أنه قال في قاتلي أبي جهل: وهما ابنا عفراء، ويؤيد ذلك حديث ابن عباس عن ابن أبي خيثمة عن معاذ بن عفراء، قال: سمعت القوم وهم في مثل الحَرَجة، وأبو جهل فيهم، وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخْلَص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فقصدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة عظيمة أطنّت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، ولقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني وضعت قدمي عليها وتمطيت حتى طرحتها.

فهذا الحديث صريح في أن معاذ بن عفراء هو صاحب الضربة الأولى التي أعجزت أبا جهل عن الحركة، وأن ابنه عكرمة ضرب معاذ بن عفراء فطرح يده التي تعلقت بجلدة من جنبه، وظل يسحبها وراءه حتى آذته فتمطى عليها حتى طرحها، ولم نَرَ من ذكر أن معاذ بن عمرو بن الجموح هو صاحب هذه القصة.

فالإشكال في ذكر معاذ بن عمرو بن الجموح إنما جاء من رواية البخاري عن شيخه مسدّد عن عبد الرحمن بن عوف على خلاف ما جاء عنه في الروايات الأخرى من تصريح بأن قاتلي أبي جهل هما ابنا عفراء.

طريقتنا في حل إشكال ذكر معاذ بن الجموح في قصة قتل أبي جهل.

ويمكن أن يقال في حلِّ هذا الإشكال أن ذكر معاذ بن الجموح في هذه القصة، وإثبات إسناد قتل أبي جهل إليه يحتمل أن يكون قد وهم فيه بعض الرواة لتوافق اسمه مع اسم أحد أبناء عفراء، وهذا الاحتمال قد يبعده قصة سلب أبي جهل إذا ثبتت في غير حديث مسدّد الذي جاءت هذه القصة فيه متبوعة بقوله: وكانا معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، وهذا تعبير يوحي بشيء من التردد في قاتلي أبي جهل، بخلاف التعبير القاطع في غير هذه الرواية على أن قاتلي أبي جهل هما ابنا عفراء.

ويمكن حل هذا الإشكال بطريق آخر، وذلك بأن معاذ بن عمروابن الجموح وجد أبا جهل عقيراً في حياة أشبه بحياة المذبوح، فضربه فقضى عليه فكانت ضربته هي القاتلة، ويكون معاذ بن عفراء هو صاحب الضربة الأولى التي أثبتت أبا جهل، وتركته لا حراك فيه، فظن أنه قَضَى، وذهب إلى النبي ﷺ ببشرى قتله أبا جهل، فوجد معاذ بن عمرو بن الجموح عنده، أو يكون قد جاء في أثره، فقال من سبق منهما إلى النبي ﷺ: قتلت أبا جهل، فقال الآخر: أنا قتلته، فسألهما النبي ﷺ: «هل مسحتما سيفيكما؟» فقالا: لا، فنظر النبي ﷺ إلى السيفين، فرأى أنهما صادقان في ضربهما لأبي جهل حتى قتلاه، فقال: «كلاكما قتله» ولكنه ﷺ رأى في سيف معاذ ابن عمرو بن الجموح ما يدل على أن ضربته هي القاتلة، فقضى له بسلب أبي جهل.

أو لعله ﷺ رأى أن ابن الجموح كان أكثر تطلّعاً إلى السلب، وأن ابن عفراء كانت تغلب عليه فدائية الغَيْرَة على النبي ﷺ، فطيّب نفس ابن الجموح بإعطائه السلب، ووكل ابن عفراء لنيته وإخلاصه.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال المهلب: نظره ﷺ في السيفين ليرى ما بلغ الدم من سيفيهما، ومقدار عمق دخولهما في جسم المقتول، ليحكم بالسلب لمن كان في ذلك أبلغ، ولذلك سألهما أولاً: «هل مسحتما سيفيكما» لأنهما لو مسحاهما لما تبين المراد من ذلك، وإنما قال: «كلاكما قتله» وإن كان أحدهما هو الذي أثخنه ليطيِّب نفس الآخر.

ثم قال ابن حجر: وقال الاسماعيلي: أقول: إن الأنصاريين ضرباه فأثخناه وبلغ به المبلغ الذي يعلم معه أنه لا يجوز بقاؤه على تلك الحال إلا قدر ما ينتهي، وقد دل قوله: «كلاكما قتله» على أن كلاً منهما وصل إلى قطع الحشوة وإبانتها، أو بما يعلم أن عمل كل من سيفيهما كعمل الآخر، غير أن أحدهما سبق بالضرب، فصار في حكم المثبت لجراحه حتى وقعت به الضربة الثانية فاشتركا في القتل إلا أن أحدهما قتله وهو ممتنع، والآخر قتله وهو مثبت، فلذلك قضى بالسلب للسابق إلى إثخانه.

وكلام المهلّب والإسماعيلي توجيه لإعطاء السلب لمعاذ بن عمرو ابن الجموح وهو قائم على فرض ثبوت اشتراك ابن الجموح في قتل أبي جهل، وهذا الثبوت يردّه ما ثبت عن عبد الرحمن بن عوف عند البخاري من أن قاتلي أبا جهل هما ابنا عفراء، ومثله من الصحيح عن عبدالله بن مسعود.

ولا ندري لماذا رجّح بعض الأئمة حديث مسدّد الذي جاء فيه ذكر معاذ بن عمرو بن الجموح على حديث التيمي عن أنس، وحديث إبراهيم ابن سعد، عن أبيه عن جده، وانتهضوا للدفاع عن قصة السلَب وإعطائه لمعاذ بن عمرو بن الجموح؟.

محاولة الحافظ ابن حجر التوفيق بين الروايات والرد عليه.

ولهذا حاول الحافظ ابن حجر في الفتح أن يجمع بين الروايات، فنقل عن ابن إسحق طريقة هذا الجمع بين الأقوال فقال: وحاصله أن كلاً من ابني عفراء سأل عبد الرحمن بن عوف عن أبي جهل فدلّهما عليه فشدّا عليه فضرباه حتى قتلاه.

وفي آخر حديث مسدّد: وهما معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ ابن عفراء، وأن النبي ﷺ نظر في سيفيهما، وقال: «كلاكما قتله» وأنه قضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

وعفراء والدة معاذ، واسم أبيه الحارث، وأما ابن عمرو بن الجموح فليس اسم أمه عفراء، وإنما أطلق تغليباً، ويحتمل أن تكون أم معاذ ابن عمرو بن الجموح تسمى عفراء، أو أنه لما كان لمعوّذ أخ يسمى معاذاً باسم الذي شركه في قتل أبي جهل ظنّه الراوي أخاه.

ثم قال ابن حجر: قال ابن إسحق: وحدثني عبدالله بن أبي بكر ابن حزم: قال معاذ بن عمرو بن الجموح سمعتهم يقولون، وأبو جهل في مثل الحَرَجة: أبو الحَكَم لا يُخْلَص إليه، فجعلته من شأني، فعمدت نحوه فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنَّت قدمه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، ومرّ بأبي جهل معوّذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وبه رمق، فمرّ عبدالله بن مسعود بأبي جهل فوجده في آخر رمق.

قال ابن حجر: فهذا الذي ذكره ابن إسحق يجمع بين الأحاديث لكنه يخالف ما في الصحيح من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه رأى معاذاً ومعوّذاً ـ أي ابني عفراء ـ شدّا عليه جميعاً حتى طرحاه.

وابن إسحق يقول: إن ابن عفراء وهو معوّذ، والذي في الصحيح أنه معاذ، وهما أخوان، فيحتمل أن يكون معاذ بن عفراء شدَّ عليه مع معاذ ابن عمرو بن الجموح، كما في الصحيح ـ أي في حديث مسدّد ـ وضربه بعد ذلك معوّذ حتى أثبته، ثم حزّ رأسه عبدالله بن مسعود.

وقد عرفنا أن الصحيح كما ذكر في حديث مسدّد أن معاذ بن عمرو ابن الجموح شدّ عليه مع معاذ بن عفراء، فقد ذكر في حديث عبد الرحمن ابن عوف أن اللذين شدّا عليه فضرباه حتى أثبتاه هما ابنا عفراء، وكذلك في حديث عبدالله بن مسعود، فما المرجِّح لحديث مسدّد في الصحيح على حديثي عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود؟ وعبارة حديثيهما أوحى بالمطلوب من عبارة حديث مسدّد.

قال ابن حجر بعد أن ساق كلام ابن إسحق: فتجمع الأقوال كلها، وإطلاق كونهما قتلاه يخالف في الظاهر حديث ابن مسعود أنه وجده وبه رمق، وهو محمول على أنهما بلغا به بعد ضربهما إياه بسيفيهما منزلة المقتول حتى لم يبق به إلا مثل حركة المذبوح، وفي تلك الحالة لقيه ابن مسعود فضرب عنقه.

خطورة التساهل في الجمع بين الروايات بتعسف التأويل.

ليس بمثل هذا التلفيق وفرض الاحتمالات الواهية الواهنة، والتأويلات المتعسفة تحل إشكالات الروايات وتجمع الأقوال، وكان يجب في شرعة البحث الممحص الوقوف عند روايات الصحيح، فإذا وقع فيها

التعارض فلا يجوز أن يقحم عليها غيرها مما ليس في قوتها سنداً، بل يجب الترجيح بأسباب تقتضي الترجيح وردّ ما عسى أن يكون فيها عرضة للوهم.

والرواية عن ابن إسحق ـ مع كونها لا توضع في ميزان النقد مع روايات الصحيح ـ مختلفة متضاربة، ففي حديث ابن عباس من طريق ثور عن عكرمة أن الذي ضرب أبا جهل فأطنَّ قدمه هو معاذ بن عمرو ابن الجموح، وفي حديثه عن ابن عباس أيضاً فيما أخرجه ابن أبي خيثمة عن يوسف ابن بهلول عن عبدالله بن إدريس، عن ابن إسحق، عن عبدالله بن أبي بكر ابن حزم، عن عكرمة، عن ابن عباس عن معاذ بن عفراء أنه هو الذي ضرب أبا جهل فأطنَّ قدمه.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع أن كَلًّا منهما ضربه، وهذا الجمع يكتنفه التعسف في التأويل، لأن الضربة التي ضربها أبو جهل موصوفة بوصف يبعد جداً أن تكون وقعت منهما بوصفها، إذ لم يذكر أحد من الرواة أن أبا جهل ضُرب ضربتين كلتاهما أطنَّت قدمه.

ثم قال ابن حجر: وأصحُّ من ذلك ما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف في قصة أبي جهل: فضربه ابنا عفراء حتى برد، وهما معاذ ومعوّذ.

سياق ابن الأثير للقصة أجمع وفيه مخالفات للروايات الأخرى.

وقد ذكر عز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) هذا الاختلاف في الرواية عن ابن إسحاق، فذكر رواية البكائي عن ابن إسحق، عن ثور ابن يزيد عن عكرمة، عن ابن عباس وعبدالله بن أبي بكر بن حزم، وذكر قصة ضرب أبي جهل ضربة أطنَّت قدمه مسندة إلى معاذ بن عمرو بن الجموح.

ثم ذكر ابن الأثير أن إدريس رواها عن ابن إسحق لمعاذ بن عفراء، وابن الأثير أخرج بسنده حديث عبد الرحمن بن عوف الذي رواه البخاري من طريق الشعبي، وفيه بعض الاختلاف، فقال: وأخبرنا عبدالله بن أحمد بإسناده عن يونس بن بكير، قال: حدثني السري بن إسماعيل، عن الشَّعْبي، عن عبد الرحمن بن عوف قال: كنا مواقفي الأعداء يوم بدر، وابنا

عفراء الأنصاريان مكتنفان وليس قربي أحد غيرهما، فقلت في نفسي: ما يوقفني ها هنا؟ فلو كان شيء لأجلي هذان الغلامان عني وتركاني، فبينما أنا أحدِّث نفسي أن أنصرف إذ التفت إليّ أحدهما، فقال: أي عم، هل تعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما تريد منه يا ابن أخي؟ فقال: أرنيه، فإني أعطيت الله عهداً إن أنا عاينته أن أضربه بسيفي حتى أقتله أو يحال بيني وبينه، فالتفت إليّ الآخر فسألني عن مثل ما سألني عنه أخوه، وقال مثل مقالته، فبينا أنا كذلك إذْ برز أبو جهل على فرس ذنوب ـ أي وافر شعر الذنب ـ يقوّم الصف، فقلت: هذا أبو جهل، فضرب أحدهما فرسه حتى إذا اجتمع له حمل عليه فضربه بسيفه فأندر فخذه، ووقع أبو جهل، وتحمّل عضروط ـ أي خادم أو صعلوك يتبع أبا جهل على ملء بطنه ـ كان مع أبي جهل على ابن عفراء فقتله، فحمل ابن عفراء الآخر على الذي قتل أخاه فقتله، وكانت هزيمة المشركين.

فهذا الحديث هو في أصل القصة ـ والتصريح بأن عاقري أبا جهل وضاربيه هما ابنا عفراء ـ عين حديث عبد الرحمن بن عوف عند البخاري كما قدمناه، والتصريح فيه لا يحتمل التأويل، وقد اختلف هذا الحديث مع حديث البخاري في أن الضربة أندرت فخذ أبي جهل، وهناك أطنَّت قدمه، وفي بعض الروايات: أطنَّت قدمه بنصف ساقه، واتفق مع حديث البخاري في أن الضارب لأبي جهل هو أحد ابني عفراء، وليس فيه ذكر قط لمعاذ ابن عمرو بن الجموح.

ترجيح رواية الصحيح من غير طريق مسدَّد شيخ البخاري.

ولهذا فنحن نرجِّح روايات الصحيح التي يوحي أسلوبها وتدرج أحداثها بترجيحها على جميع ما عداها من الروايات بما فيها رواية مسدّد، وهي وإن كانت من روايات الصحيح لكنها لا تقف مع روايتي عبد الرحمن ابن عوف وأنس بن مالك، ولا نلتفت إلى رواية ابن إسحق التي وقع فيه التعارض، وقد غمز ابن حجر رواية ابن اسحاق بقوله: فهذا الذي رواه ابن إسحق يجمع بين الأحاديث، لكنه يخالف ما في الصحيح.

وحسبنا أن تكون مخالفته لما في الصحيح سبباً لعدم الالتفات إليه

والأخذ به، وإلا فأين ابن إسحاق ورجال أسانيده من البخاري ورجاله؟

ونحن لا ندّعي العصمة لأحد من الناس حاشا أنبياء الله ورسله، مهما بلغ من المكانة والشهرة، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ولعل قصة معاذ بن عمرو بن الجموح وقعت في مناسبة أخرى مع أشخاص آخرين، فاشتبه أمرها على بعض الرواة فأدخلها في قصة قتل أبي جهل مع ابني عفراء، وجرى فيها الأخذ والرد بين العلماء، وعلم الحقيقة في واقع الأمر مما استأثر الله بعلمه.

غرائب لابن سعد في الطبقات انفرد بها ولم نرها لغيره.

ومن أغرب ما جاء في قصة قتل أبي جهل ما ذكره محمد بن سعد في الطبقات في ترجمة معوّذ بن الحارث بن عفراء، وهو الذي ضرب أبا جهل هو وأخوه عوف بن الحارث حتى أثبتاه، وعطف عليهما أبو جهل ـ لعنه الله ـ يومئذ فقتلهما، ووقع أبو جهل صريعاً فذفّف عليه عبدالله بن مسعود ـ رحمه الله ـ ثم قال ابن سعد في ترجمة عوف بن الحارث، أخي معوّذ، ومعاذ ابني الحارث، وقتل عوف بن الحارث يوم بدر شهيداً، قتله أبو جهل بن هشام بعد أن ضربه عوف وأخوه معوّذ ابنا الحارث فأثبتاه، وذكر أبو عمر بن عبد البر في ترجمة عوف بن عفراء وهو ـ كما قال أبو عمر ـ عوف بن الحارث أن أبا جهل قتل عوف بن الحارث وأخاه معوّذ بن الحارث ابني عفراء بعد أن ضرباه فأثبتاه، فوقع صريعاً، ثم عطف عليهما فقتلهما، ولم يذكر ذلك أبو عمر في ترجمة عوف بن الحارث، بل اكتفى فيها بقوله: وقتل عوف وأخوه معوّذ يوم بدر شهيدين.

ووجه الغرابة أن ينسب قتل معوّذ وأخيه عوف ابني عفراء إلى أبي جهل بعد أن ضرباه فأثبتاه، والإثبات في لغة العرب: الحبس عن الحركة، قال صاحب لسان العرب: وفي حديث أبي قتادة: فطعنته فأثبته، أي حبسته وجعلته ثابتاً في مكانه لا يفارقه، وأثبت فلان فهو مثبت إذا اشتدت به علته، وأثبتته جراحه فلم يتحرك.

فكيف إذاً يعطف عليهما أبو جهل بعد أن ضرباه فأثبتاه فيقتلهما معاً

دون أن يتمكنا من القضاء عليه أو يحيدا عنه؟ هذا بعيد جداً، وأبو جهل لم يعرف في قومه بشجاعة وقوة بدنية تجعله بهذه المثابة وهو مثبت من الجراح، والله تعالى يعلم من خلقه ما لا يعلم العالِمون.

عبدالله بن مسعود هو الذي قضى على حياة الكفور الفاجر أبي جهل بن هشام.

والروايات كلُّها تكاد تجمع على أن نهاية هذا الطاغية الخبيث أبي الجهل ابن هشام المخزومي كانت على يد من كان يستضعفه ويضطهده بمكة، ويؤذيه ـ فلا يستطيع دفعاً لفجوره سوى التدرع بالصبر والاعتصام بالله رجاء أن يديله منه، ويأخذه بفجوره وطغيانه ـ عبدالله بن مسعود أحد سادات أصحاب النبي ﷺ وعلمائهم السابقين إلى الإسلام رضي الله عنه بعد مكالمة بينهما ليست بالقصيرة المقصّرة عن بلوغ مداها، تقصيراً يؤذن بالحشرجة المغرغرة لهذا الجبان الفاجر أبي جهل، ولا هي بالطويلة المسهبة التي توحي بإسهابها ببقاء الحياة بقاء تخشى معه الوثبة الفاجرة من قبل هذا الطاغية الحقود.

وعبدالله بن مسعود عاش في الإسلام بروحه وقلبه وعقله، وعلمه وفضله، وقربه من رسول الله ﷺ قرباً جعل كثيراً من الناس يعدّه من آل البيت لكثرة ما كان يخدم رسول الله ﷺ، وكان رضي الله عنه أحمش الساقين، ضئيل البنية البدنية، وكان أبوجهل يؤذيه ويضبث به، فاستجاب الله له وأدال له منه، وأجلسه على صدره، وردّ له كيله وضبث به، واحتز رأسه بنفس سيفه الذي غلبه عليه، ونفله له النبي ﷺ.

وقد أبان أبو جهل في مكالمته لابن مسعود عن عتو كفره، وفجور طغيانه ودخيلة لؤمه، وخبيث نحيزته، وكشف عن مطويات حقده على رسول الله ﷺ، وعلى مجتمعه المسلم، وعلى رسالته رسالة النور والهدى التي جاءهم بها محمد ﷺ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعدّهم بشرائعها وآدابها ونظمها الاجتماعية الممثلة في منهجها التربوي لقيادة الإنسانية إلى آفاق التقدم الحضاري القائم على دعائم الإيمان بالله إلهاً واحداً، وخلع جلابيب الشرك والوثنية، وتحرير العقل الإنساني من أغلال التعبد لأحجار هبل واللّات والعزّى، وإقامة موازين العدل بين عامة الناس وخاصتهم،

ونشر راية حرية العيش الكريم لكل فرد في المجتمع الإنساني في ظل المساواة الأخوية في الحقوق والواجبات، والقضاء على استعباد الإنسان لأخيه الإنسان من أجل لقمة العيش؛ ليعيش الناس أينما وجدوا من أرض الله أخوة سواسية في ظل ما يقدّمه كل فرد أو مجتمع من عمل صالح وخيرٍ يرتفع بالفرد والجماعة إلى ذروة الفضائل الإنسانية والتراحم الأخوي، فلا سائد ولا مسود، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل النافع المفيد للحياة، والمجتمع الإنساني كله.

فالتعبيرات التي جاءت في بعض روايات قصة قتل هذا الخبيث أبي جهل الذي قاد قومه إلى حتوفهم مقرّنين بأصفاد الذل والهوان والهزيمة النكراء التي أتت على أشرافهم قتلاً، وأسراً، وتشريداً دفعهم بالصغار والخزي، ووصمهم بالعار والخذلان ـ لم تكن كلها من قِبل الحقيقة المجردة عن التوسع في منطق الأداء البياني الذي يوحي بوقوع النهاية التي لا مكان معها لأي لون من ألوان ذماء الحياة، وإنما كانت صورة متدرجة إلى المصير المحتوم، لأن مكالمة ابن مسعود رضي الله عنه مع هذا الطاغية الكفور تختلف فيها الروايات إيجازاً وإطناباً، وهي في كلتي حالتيها محتاجة إلى حياة مدركة لما تقول وما يقال لها في أية مكالمة أو محاورة.

فإذا جاء في حديث عبد الرحمن بن عوف رواية الصحيحين قوله: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، فإنه لا يراد بالقتل في هذا التعبير إزهاق الروح الذي لم يبقَ معه للحياة أثر، وإنما يراد به أنهما بضربهما إيّاه بسيفيهما بلَغَا به منزلة المقتول التي قامت به أسبابِ الموت، وفي تلك الحالة لقيه ابن مسعود رضي الله عنه فكالمه وحاوره مقرِّعاً له على ما كان منه من فجور وطغيان واستكبار في الأرض، فردّ على ابن مسعود بما في قلبه من حقد وعتوّ، وهو يمضي إلى نهايته، فضرب ابن مسعود عنقه، واحتز رأسه بسيف نفسه.

عبدالله بن مسعود أدرك أبا جهل في حشرجة المذبوح.

ويؤيد ذلك ما ذكره الزرقاني في شرح المواهب فقال: وعند ابن عقبة وأبي الأسود، عن عروة أن ابن مسعود رضي الله عنه بعد هذه المكالمة وجده

لا يتحرك منه عضو، فأتاه من ورائه فتناول قائم سيفه، فاستله منه ورفع بيضته عن قفاه فوقع رأسه بين يديه.

وكذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من ينظر مافعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى (برك) وفي رواية (برد) ومعنى برد مات، قال صاحب لسان العرب: وضربه حتى (برد) أي مات، ومعناه في الاشتقاق أن الحياة انقطعت عنه، وذهبت منه حرارتها، فهو من البرد ضد الحر، فأخذ ابن مسعود بلحيته فقال له: أنت (أبا جهل) ومعنى هذا: تبكيته وتقريعه بهذا الاستفهام الإنكاري، وهمزته محذوفة مع المبتدأ، والتقدير: أهو أنت؟ وقوله: أبا جهل بالنصب منادى محذوف حرف النداء، والمعنى: أهو أنت المستكبر الفاجر الطاغية؟ يا أبا جهل، فقال لابن مسعود، وقد فهم تبكيته له: فهل فوق رجل قتله قومه؟.

وعند ابن إسحق والحاكم قال ابن مسعود: فوجدته بآخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه، فقلت: أخزاك الله، يا عدو الله، فقال: وبم أخزاني؟ هل أعمد من رجل قتلتموه؟ أي هل أشرف من رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدّبْرة اليوم؟ أي النصر والظفر، وفي رواية: لمن الدائرة؟ لنا أو علينا.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحق، عن أبي عبيدة، ، عن عبدالله ابن مسعود قال: انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع، وعليه بيضته، ومعه سيف جيد، ومعي سيف رديء فجعلت أنقف رأسه بسيفي، وأذكر نقفاً كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده، فأخذت سيفه، فرفع رأسه فقال: على من كانت الدائرة؟ لنا أو علينا فقلت: لله ورسوله.

وعند الإمام أحمد من حديث وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحق، عن أبي عبيدة، قال: قال عبدالله بن مسعود: انتهيت إلى أبي جهل يوم بدر، وقد ضُربت رجله، وهو يذبّ الناس عنه بسيف له، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك الله يا عدو الله!! فقال: هل هو إلا رجل قتله قومه؟ فجعلت

أتناوله بسيف لي غير طائل، فأصبت يده، فندر سيفه، فأخذته فضربته به حتى قتلته، ثم خرجت حتى أتيت النبي ﷺ كأنما أُقلّ من الأرض، فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فردّدها ثلاثاً، فقلت: الله الذي لا إله إلا هو، فخرج النبي ﷺ يمشي معي حتى قام عليه، فقال: «الحمد لله، قد أخزاك الله يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة».

سرور رسول الله بقتل أبي جهل فرعون هذه الأمة.

وعند أبي داود والنسائي من رواية أبي إسحاق الفَزَاري، عن الثوري، عن أبي إسحق السبيعي عن أبي عبيدة، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ يوم بدر، فقلت: قد قتلت أبا جهل فقال: (الله لا إله إلا هو) فقلت: الله الذي لا إله إلا هو، مرتين أو ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الحمد لله الذي صَدَق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم قال ﷺ: «انطلق فأرنيه» فانطلقت فأريته، فقال: «هذا فرعون هذه الأمة» وفي رواية أنه ﷺ لما أتاه ابن مسعود برأس هذا الخبيث الكفور ـ وكان اللعين قد قال لابن مسعود: أبلغ محمداً أني لم أزل عدواً له سائر الدهر، واليوم أشد عداوة له ـ قال له: «كما أني أكرم النبيين على الله، وأمتي أكرم الأمم على الله، كذلك فرعون هذه الأمة أشد وأغلظ من فراعنة سائر الأمم، إذ فرعون موسى حين أدركه الغرق قال: (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) وفرعون هذه الأمة ازداد عتواً وكفراً».

فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل الموت بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعاً في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفَتْ به على الهلاك الأبدي ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول، السابقين إلى مظلّة الإيمان وطُهر العقيدة، والتعبد لله بشرائعه التي أنزلها رحمة للعالمين عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيراً له، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعاناً في البطش به فيقتله به، ويحتز رأسه ليرمي به تحت نعلي رسول الله ﷺ هواناً به، ويمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة

الإسلام، وأن شَنَار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث ليواقف به بطولة الفدائيين من أنصار الله ورسوله حتى يفضي إلى جهنّم مع جيف القليب مغيظاً محنقاً، مكبوتاً بالكمد والكبت والغم والنكال والغصص، يقتله الحقد الذليل قبل أن تقتله سيوف الأعزّة من المجاهدين.

ونستعفي القارىء إذْ أطلنا النَفَس في هذه الفريدةمن فرائد بدر العظمى لأنها فريدة جمعت أطراف المنهج النبوي في تطبيقه على أيدي أول كتيبة من كتائب المجتمع المسلم، خرجت على غير أهبة قتالية في قلّة عدد وضعف عدّة لتلقى عير مشركي مكة قادمة من مكة وآيبة إليها، وفيها أموالهم وتجاراتهم، وكان هذا الخروج إنذاراً وتحذيراً لهؤلاء الطغاة من مردة الوثنية وشياطين الشرك البليد.

كانت هذه الفريدة غرة فرائد بدر فطال فيها رشاء القلم.

وقد بيّنا دوافع خروج النبي ﷺ لملاقاة عير قريش في ذهابها وإيابها، ولم يكن في هذه الدوافع شيء يوحي بتوقع الحرب والقتال، ولهذا لم يتأهّب رسول الله ﷺ للقتال في خَرْجاته التي سبقت بدراً والتي كانت سبباً في وقعة بدر، وخرج ﷺ على ما كان عليه هو وأصحابه الذين شهدوا إخباره لهم بعير قريش ومرورها على مدينتهم، ولم يستأنِ بالذين كانت مراكبهم في علوِّ المدينة، واستأذنوه ليحضروها ويخرجوا معه، فضلاً عن كونه ﷺ لم يستوعب من سمعه يخبر بالعير، وكانت وسائل خروجه متوافرة.

وسمع المشركون بمكة بمخرج رسول الله ﷺ متعرضاً لعيرهم، وأرسل إليهم أبو سفيان أمير العير يستنفرهم لحماية أموالهم، فخرجوا على الصعب والذلول موعبين متأهبين للقتال والحرب، يقودهم لعينهم خبيث الفاسقين أبو جهل بن هشام، متنفجاً بالغرور والحقد، مليئاً بالحنق والغيظ وعتو الكفر حتى بلغوا بدراً، وهم ألف مقاتل، يتقدمهم أشرافهم وطواغيتهم، معهم أسلحتهم ومؤنهم، وعتادهم من الركائب والأفراس، مستصحبين معهم الجواري والمعازف وزقاق الخمر، وسائر أدوات الفجور.

والتقى الجمعان على ما وصفنا من الوقائع والأحداث، ودارت رحى

موقف أولياء الرحمن وفجور أولياء الشيطان.

الحرب بين قوتين غير متكافئتين في شيء من العدد والعدة، بل كانا متفاوتين أكبر تفاوت، أطمع لعينهم في أخذ مقاتلة المسلمين أخذاً بالأيدي، وقال لمن معه من طواغيت الشرك وعبيد الوثنية: لا يهولنكم قتل عتبة، وشيبة، والوليد، فإنهم قد عجَّلوا، فواللّات والعزّى لا نرجع حتى نفرِّق محمداً وأصحابه في الجبال، فلا ألفينَّ رجلاً منكم قتل رجلاً، ولكن خذوهم أخذاً حتى نعرفهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللّات والعزّى، وإن هم إلا أَكَلَة جزور.

هكذا كان موقف الغرور الأحمق، والطيش المأفون، والبطر المغيظ، وهكذا كانت نظرة فجور الكفر، وعتو الفجور إلى المجتمع المسلم الناشىء في تركيبه الجديد مع قلة عدده وضعف عدته المادية التي يتعزز بها عبيدها من أهل الغرور والفجور.

أما موقف المجتمع المسلم فكان موقفاً يستشعر الإيمان بكل ما يملك هذا المجتمع من قوة روحية، ويستشعر وثيق الثقة بقوة الله وقهره وجبروته ومحكم تدبيره وبالغ حكمته.

كان موقفاً فدائياً، أحب فيه جنود الله الموت استشهاداً في سبيل الله، فوهب الله لهم الحياة وأنزل عليهم نصره وتأييده.

وكان موقفاً طرح فيه النبي ﷺ نفسه المشرّفة على أعتاب الضراعة والتذلل لله تعالى، يناشد ربه الإبقاء على مجتمع التوحيد الخالص ليعبده وينشر لواء وحدانيته في آفاق الأرض، ويقوِّض معالم الشرك ويقضي على الوثنيات في جميع صورها وأشكالها، ويقيم منائر العدل والإخاء بين أبناء الإنسانية أينما وجدوا من أرض الله وأرجاء الكون.

وكان موقفاً استجاب الله عز شأنه فيه لنبيِّه محمدٍ ﷺ مناشدته واستغاثته فأمدّه بنصره وأغاثه بمدد من عنده ثبّت به قلوب أصحابه، وبعث فيهم حمية الإيمان وقوة العزائم المجاهدة لإعلاء كلمة الله، وأنزل على أعداء الحق والخير من طواغيت الكفر رِجْزاً من السماء، ملأ قلوبهم بالرعب والهلع، فكانوا أمام جند الحق أشباحاًخاوية، يفرون منهزمين إلى غير مفر،

وتنزّلت آيات الله تحمل في طياتها روح الفداء وملاقاة الموت في مظانِّ الشهادة فرحاً بمنازل الشهداء عند الله.

وحقت لعنة الله على أعداء الله فقتّلوا تقتيلاً، وأخذوا بالأيدي أسراً، وشُرّدوا في الأرض هرباً مفزّعين أمام عزائم الإيمان التي ادّرع بها جند المجتمع المسلم، وصدق الله وعده، وأعزّ جنده، ونصر عبده، وهزم الفجار، وأنجز لرسوله محمد ﷺ عهده بالنصر المؤزّر، وحقق له رغائبه، وأعلى كلمته، وأقرَّ عينه، وأثلج صدره، وأعزّه وأعز القلّة الصابرة المؤمنة على الكثرة الكافرة الفاجرة.

مفاخرة موقف أولياء الرحمن.

ولو لم يكن في هذا الموقف من آيات الله إلا أن تعلو أقدام عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه في ضآلة جسمه صدر أبي جهل في عتوّه واستكباره وهو كبش الكتيبة الكافرة، وقائد حشود الطغيان والفجور الذي زعم له منافقوه أنه لا يخُلص إليه ـ لَكَفى في سجل مفاخر غزوة بدر أن يكون أعظم شرف لها بين معارك الحروب والقتال.

ولو لم يكن في هذا الموقف العظيم إلا حمية الغَيْرة الإيمانية التي تردّى جلبابها ابنا عفراء معوِّذ ومُعاذ، وقد سمعا أن أبا جهل يقع في النبي ﷺ ويسبُّه، فيعاهد كل واحد منهما الله سراً من وراء أخيه لئن رأى أبا جهل فلن يفارق سوادُه سوادَه حتى يقتله أو يموت دونه.

ويبرز أبو جهل في غروره وفجوره في مجال المعركة ويلمحه عبد الرحمن ابن عوف، فيقول لهما: هذا صاحبكما الذي كنتما تسألان عنه، فينقضّا عليه كالصقرين، ويضربه أحدهما ضربة عظيمة أطنَّ بها قدمه بنصف ساقه فصرعه، وتركاه لقدره العجيب، لعبدالله بن مسعود ليقضي عليه، فقضى عليه بعد أن جلّله بعار الهزيمة التي حقت على حشوده الخاوية، واحتز رأسه ورمى به تحت نعلي رسول الله ﷺ، وتمر صورة فجور هذا اللعين وبطشه بضعفاء المؤمنين في مكة، وحشده أعجاز النخل الخاوية من أشباح الهزيمة لحرب المجتمع المسلم وإرادة استئصاله أمام رسول الله ﷺ، فيخرُّ لله ساجداً شاكراً لأنعمه، وتنادي الدنيا في آفاق الأرض وهي تتلو قول الله تعالى تعبيراً

قلّة لها هدف في الحياة وإصلاحها هي التي ينصرها الله على الكثرة الباغية التي تستهدف الفساد.

عن مشيئته المطلقة: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾.

لو لم يكن في هذا الموقف إلا هذا لأغنى عن كل مكرمة من مكارم بدر العظمى في سجلّات الفداء، ولكن الله جعل من غزوة بدر أعظم نموذج لتربية المجتمع المسلم تربية سلوكية عملية في مجال الجهاد، فمحى بها قانون الأسباب المادّية، وقضى على فكرة تفوق الكثرة على القلّة لمجرد الكثرة والقلة، فالكثرة إذا تجرّدت في عملها عن هدف تقصده من العمل الصالح فلا قيمة لوزنها، وإذا كان لها هدف وجب في شرعة الحق أن يكون هذا الهدف أمراً اجتماعياً يرفع من شأن المجتمع، أما إذا كان الهدف هو الاعتداء على المجتمع في حياته فهو هدف فاسد لا يصلح أن يكون دعامة للتفوق على القلّة التي تتخذ لها هدفاً تقاتل من دونه لتصل إلى رفعة المجتمع الإنساني في سلوكه.

ومن هنا كانت غزوة بدر ميزاناً يفصل بين القلّة المستهدفة والكثرة المستهترة، فالقلة المستهدفة تعتمد على عوامل تنبع من داخل النفس، وأهم هذه العوامل الإيمان بهدفها الذي تعمل للوصول إليه.

أما الكثرة المستهترة فليس لها هدف يتصل بقلبها لأنها لا تحمل في صدرها قلباً تتنزّل إليه حقائق غير موروثاتها من الفجور والظلم والطغيان والبطش بالضعفاء ليظلُّوا ضعفاء تستعبدهم بما تملك من لعاعات الدنيا، ويبقى لها شرف هذا الفجور تعيش من أجله.

فغزوة بدر لا كفاء لها في الغزوات، ولا مثيل لها في الوقائع والحروب بدءاً ونهاية، واختلاف نهايتها عن بدئها هو سر عظمتها، فهي أول وأعظم غزوة في الإسلام، أعزّ الله بها دينه وأيد بها نبيّه ﷺ، ونصر فيها جنده على قلة عددهم وضآلة عدّتهم، وأذلّ بها أعداءه، وأعداء دينه على كثرة عددهم وقوة عدّتهم المادية من المؤن والسلاح، وأظهر بها ما حجبه الغيب من سنن كونية خاصة لا تظهر إلا لمناسباتها، فكانت نموذجاً لهذه السنن الخاصّة التي لا تتقيد بالأسباب المادية أياً كان نوعها، وجعلها الله نموذجاً للمجتمع المسلم في مستقبل حياته حتى لا ترهبه القوى المادّية في كثرة عددها ووفور عدتها

وتنوع أسلحتها، لأن هذه القوى المادّية مهما عظمت بغير إيمان لا قيمة لها في موازين الأقدار الإلهية، فالنصر مع الإيمان، بشرط ألّا يكون إيماناً سلبياً لا حوافز له ولا دوافع تسانده، وإنما يجب أن يكون إيجابياً وعملياً تُهيء له الدوافع التي تسنده من القوى المادية التي أمر الله بإعدادها، وهذا الإيمان هو الركيزة التي تفقدها الكثرة، وبه ترجح كفة القلة المؤمنة، على الكثرة الخاوية الجوفاء، والله تعالى ينزِّل نصره على من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

الفريدة الرابعة
بلال مؤذن الإسلام يقضي على حياة ثاني طواغيت الكفر أمية بن خلف

القصص القرآني يمثل نماذج من الأشخاص والأحداث غير مقيدة بزمان أو مكان أو جيل.

﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكِّن لهم في الأرض ونري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾.

قصص القرآن الكريم نماذج لأشخاص وأحداث لا تتقيد بزمان ولا يحصرها مكان، فهي حقائق واقعية تمثل صور أشخاصها باعتبار معالمهم الوصفية العامة التي تحدد خصائصهم الإنسانية متعدّدة المثل في مجاري التطبيق، وطرائق السلوك في الحياة.

وتمثل أحداثاً واقعية متشابهة المعالم في تاريخ الإنسانية منذ أن تنفَّست على الأرض، فهي وقائع حقيقية تتحدّث عن مشاهد شهدتها الحياة في مراحل مرور التاريخ بأطوار الحياة مهما تباعد بها الزمن وتغير المكان، فهي هنا مثلها هناك، وقد تتغاير الأسماء والظواهر والأسباب، وأسماء الأشخاص وأسماء الأمكنة وتنوّع الأسباب، لكن الخصائص العامة المحددة لمواصفات الأشخاص والأماكن تبقى كماهي منطبقة على جميع نظائرها في إطار التاريخ.

فبلال بن رباح مؤذن الإسلام رضي الله عنه كان أحد سادات طلائع الإيمان السابقين الأولين إلى ساحة الإسلام، وكان مملوكاً لامرأة من نساء بني

إيمان بلال وصبره تحت وطأة العذاب بلغا به ذروة الشرف والسيادة.

جُمَح، رنّ في أذنه صوت الدعوة إلى الله ينادي به محمد بن عبدالله الصادق الأمين ﷺ: ﴿يا أيها الناس اعبـدوا ربكم الذي خلقكم والـذين من قبلكم﴾ وأُذُن بلال لا قطة صائدة، لم تكد تسمع هذا النداء الكريم حتى أرسلت به إلى قلب بلال وعقله وروحه، وتحسّس مخرج الصوت ومنبعه، فعرفه، فدلف إليه وأسلم لله تعالى وجهه وشهـد شهادة الحق، ولازم النبي ﷺ ملازمة لم تمنعه من القيام بحق من كان يستعبده من الطغاة الظالمين. وعُرف إيمانه، وشُهر إسلامه، فكان يُعذَّب عذاباً لم يعذّبه أحد من العالمين، كان يصب عليه البلاء صباً، وهو مطمئن القلب، مشرق الروح بإيمانه، يستعذب العذاب في سبيل الحفاظ بهذا الإيمان، ويستحلي أمرّ المر في سبيل الشح بدينه وعقيدته، يأخذه الفاسق أبو جهل فيبطحه على وجهه في الشمس، ويضع الرحى عليه حتى تصهره الشمس ويقول له: اكفر بربِّ محمد، فيقول بلال: أحد، أحد.

وكان الكفور الفاجر أمية بن خلف يعذبه ويتابع عليه العذاب في صور وأشكال تذوب من فظاعتها وشدة هـولها الجـلاميد، وتتفتت من شراستها رواسي الجبال، وهو صابر محتسب نفسه عند الله فداء لدينه وعقيدته.

الصديق يسرع إلى تحقيق رغبة النبي ﷺ في إنقاذ بلال من العذاب وتحريره من الرق.

وقد مرّ عليه النبي ﷺ وهو تحت وطأة العذاب، فقال ﷺ لأبي بكر: «لو كان عندنا شـيء لاشترينا بلالاً» فلقي أبو بكر رضي الله عنه العباس ابن عبد المطلب فقال له: اشترِ لي بلالاً، فانطلق العباس فقال لسيدة بلال: هل لك أن تبيعيني عبدك هذا قبل أن يفوتك خيره؟ فاشتراه منها، وبعثه إلى أبي بكر رضي الله عنه فأعتقه. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمِّه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ماأرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على

قومه فأعطَوه الولدان والحبل في عنقه، فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة وهو يقول: أحد، أحد.

بلال أعظم نماذج رسوخ الإيمان وإشراق الروح.

فبلال رضي الله عنه كان نموذجاً للمؤمن الذي رسخ الإيمان في قرارة نفسه، وامتلأ به قلبه وعقله، واستحوذ على إحساساته ومشاعره، فلا يبالي ما يصنع به جبروت الفجور والطغيان، وكان تأوهه من شدة وطأة العذاب عليه (أحد، أحد) لا يستعفي من يعذّبه ولا يسترحمه.

وظل بلال رضي الله عنه ملازماً للنبي ﷺ بمكة حتى آذن الله بكشف الغمّة، وفتح أمام المعذَّبين في الأرض باب الهجرة إلى إخوانهم الأنصار، وهاجر بلال فيمن هاجر من السابقين الأولين، يخدم النبي ﷺ ليله ونهاره، ويسمع منه ويتبعه في مسيره حرساً له يفديه بنفسه أن يناله أحد بسوء.

وجاءت غزوة بدر التي أعز الله بها الإسلام وجنده وأذلّ بنصرها الشرك وأهله، وتعبأ لها المشركون بالرجال والسلاح والمؤن والعدد والعدة، والتقى معهم المسلمون في جولات انتهت بخذلان المشركين خذلاناً قضى على شوكتهم وقصف قناتهم، فأخذهم المسلمون قتلاً لأشرافهم، وأسراً لطواغيتهم، وتشريداً لغوغائهم، وانجلت المعركة بالنصر المؤزر الذي عقده الله بناصية القلّة المؤمنة التي تألفت كتيبة المجتمع المسلم الأولى منها.

بلال يرى أمية ابن خلف يقوده عبد الرحمن بن عوف فيتذكر فجوره بمكة فيصرخ ياأنصار الله

ويلمح بلال رضي الله عنه طاغية الفجور، ورأس الكفر أمية ابن خَلَف، يقوده عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فتتواثب إلى رأس بلال، وتتراءى لعينيه صور العذاب الذي كان يصبُّه عليه هذا الفاجر الكفور، وعلى إخوانه المستضعفين من طلائع السابقين إلى الإسلام رضي الله عنهم، فلم يملك بلال نفسه أن صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر، أمية بن خَلَف، لا نجوتُ إن نجا، فيهبّ الفدائيون من بهاليل الأنصار مستجيبين إلى صرخة بلال رضي الله عنه، ويحتوشون أمية وولده علياً بسيوفهم، ويحاول عبد الرحمن بن عوف أن يدفع عنه، وقد اتخذه وولده أسيرَين، فلا يبالي أنصار الله بدفاع عبد الرحمن بن عوف، ومضَوا في سبيلهم للقضاء عليه، فهبروه بسيوفهم ليطهروا الأرض من رجسه.

وتختلف الروايات في تصوير هذا الموقف الذي هيأت له المقادير أسباب ظهوره على أفق أول وأعظم غزوة في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الجهاد لإعلاء كلمة الحق والعدل، ونشر لواء التوحيد خفّاقاً في أرجاء الأرض، تلك هي غزوة بدر، التي طهَّر الله بها الأرض من دنس الفجور، وشراسة الوثنية المادية.

رواية البخاري في تصويره موقف بلال للقضاء على حياة الكفور الفاجر أمية ابن خلف.

وأجلّ ما ثبت في ذلك رواية البخاري عن عبد الرحمن بن عوف، إذ يقول: كاتبت أمية بن خَلَف كتاباً ـ أي عقدت معه عقداً ـ أن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) ـ أي في اسمه المسلم قال أمية: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو)، فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، أي أن أمية لعنه الله بعد أن رأى الهزيمة النكراء تأخذ بحلاقيم قريش وتكتم أنفاسهم فرّ هرباً إلى الجبل من مصيره المحتوم لو رآه أحد من جند الله، ولعل عبد الرحمن بن عوف تذكّره وتذكّر عقده معه، فخرج يبحث عنه، ليتخذه أسيراً وفاء بعقده، وهذا أهون الشرَّين، ولكن الله تعالى كان بالمرصاد لهذا الفاجر وأضرابه من عتاولة الكفر، فوجّه إليه نظر بلال فأبصره، وتداعت إلى خاطره صور البلاء والعذاب التي كان يعذبه أمية بلالاً في مكة، فخرج بلال حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية ابن خَلَف، لا نجوتُ إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الذين سمعوه من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلَّفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبَوا حتى يتبعونا، وكان ـ أي أمية ـ رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: أبرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخلَّلوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه.

رواية ابن إسحاق تفصل ما أجملته رواية البخاري.

وقد ذكر ابن إسحاق رواية عن عبد الرحمن بن عوف تتلاقى في كثير مما جاء في رواية البخاري، ولكن رواية ابن إسحق فيها زيادات مفيدة آثرنا معها ذكرها لتكون مع رواية البخاري صورة وافية للموقف الذي قُضي فيه على هذا الطاغية الرعديد، الذي أظهر من الجبن والهلع ما كشف عن طبيعته وهو يرى بلالاً رضي الله عنه هو الذي قضى عليه وعلى ابنه، بعد

أن كان في مكة يتفنّن في تعذيبه بما يصب عليه من أفانين العذاب صباً ليكفر بدينه وعقيدته، ويترك عبادة ربه الواحد الأحد، ويعبد اللّات والعزّى.

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عبّاد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه، وحدثنيه أيضاً عبدالله بن أبي بكر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية بن خَلَف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي (عبد عمرو) فتسميت حين أسلمت (عبد الرحمن) فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سمّاكه أبوك؟ فأقول: نعم، قال أمية: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قلت: نعم، فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله، فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده، ومعي أدرع لي استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، فقال: هل لك فيّ، فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك؟ قلت: نعم، ها الله فطرحت الأدرع من يدي وأخذت بيده، ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ يريـد هذا الفاجر الرعديد بكلمته هذه أن يقول بلسان الدناءة المادية التي لا تعرف إلا ملء البطن أن عنده من ذوات الألبان الحلائب ما يفدي به نفسه وابنه لو رغب أصحاب محمد ﷺ في ذلك، ولكنه لم يجد عندهم حاجة إلى التطلُّع إلى البطانة والتكرش، ولكنهم يستهدفون من وراء جهادهم إعلاء كلمة الله ونصرة الحق وإقامة منائر العدل بين الناس.

ثم قال ابن إسحق: قال عبد الرحمن بن عوف: قال أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المُعْلَمُ بريشة نعامة في صدره؟ فقلت: حمزة بن عبد المطلب، قال: هذا الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن بن عوف: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان

أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة على الإسلام، فلما رآه بلال قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا فقلت: أي بلال، أسيريّ، قال: لا نجوتُ إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته، يا أنصار الله، رأس الكفر أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل هذه المسكة، فأنا أذب عنه، فأخلف رجل السيف فضرب به رجل ابنه فوقع، فصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً، فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، وأصاب أحدهم رجل عبد الرحمن ابن عوف بسيفه، وكان عبد الرحمن يري الناس ذلك الأثر في قدمه.

وكان عبد الرحمن بن عوف يقول: يرحم الله بلالاً، فجعني بأدراعي وبأسيريّ، وتقول روايات أصحاب المغازي والسّير أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هنّأ بلالاً على قتله رأس الكفر أمية بن خلف بقوله:

هنيئاً زادَك الرحمن فضلاً   فقد أدركت ثأرك يا بلالُ

ولم يعرف من طريق صحيح أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول الشعر، ولعل سروره بما نال بلالٌ من قتل من كان يعذبه، فانتقم الله له منه بتمكينه من قتله بيده ألقى على بعض من يقول الشعر هذا البيت، فنسب إلى الصديق، وهذا في أشعار سيرة ابن إسحاق كثير، نبه على بعضه مهذّب سيرته عبد الملك بن هشام رحمه الله تعالى.

هذه الفريدة تمثل لوناً من تطبيق منهج الرسالة.

هذه فريدة من فرائد (بدر) تمثل لوناً من الدروس التربوية التي وعاها أصحاب النبي ﷺ عنه وتلقّوها منه، وهو ﷺ يسوسهم بمنهج الرسالة الخاتمة الخالدة، فكانوا بهذا المنهج كما وصفهم الله تعالى في قوله جل شأنه: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾.

هذا المنهج الذي ملأ قلوبهم بالإيمان والإيقان، وهو الذي كان دعامة نصرهم على أعدائهم، وهم أكثر منهم عدداً وأشد قوة، وأوفر عدة، ولكنهم كانوا أمام جند المجتمع المسلم أشباحاً خاوية، لأنهم يقاتلون لغير هدف،

فكانوا حشودا لا تحمل بين جنباتها شيئاً من الخير للمجتمع الإنساني، وإنما هي الأنانية والحرص على دناءات الدنيا، فهزمهم الله على أيدي القلّة المؤمنة المستهدفة نصرة الحق وإقامة معالم العدل والمحبة والإخاء بين الناس، هزيمة أتت على أشرافهم قتلاً، وأسراً وتشريداً، وشفى الله بها صدور المستضعفين منهم، فأولاهم قتلَ أولئك الفجّار من رؤوس الكفر بأيديهم، وقتل عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أبا جهل ـ لعنه الله وبوأه جهنم ـ وقتل بلال رضي الله عنه أمية بن خلف، وجلّله بالخزي والنكال، وحقق الله تعالى وعده للمجتمع المسلم في قوله تعالى: ﴿ قاتلوهم يعذِّبهم الله بأيديكم ويخزهم، وينصركم عليه، ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ﴾.

غزوة بدر نموذج خالد لتطبيق منهج الرسالة.

وغزوة بدر كانت وما تزال أول وأعظم نموذج وُضع فيه المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالة الخاتمة الخالدة موضع التطبيق العملي الذي لا يختلف باختلاف الزمان والمكان والأجيال والأفكار، والذي لا تتحكم فيه القوة المادّية وحدها مهما كانت وأينما كانت.

وبتطبيق هذا المنهج الإلهي كانت غزوة بدر المثل المضروب لإعلاء شأن الكلمة الطيبة، كلمة الله الحق المبين وإسفال الكلمة الخبيثة، كلمة الشرك والوثنية، دون أن يكون للقوة المادية التي يملكها المجتمع المشرك الوثني منفذ لإنقاذ مجتمعها من البوار.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكّرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضلُّ الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء ﴾.

الفريدة الخامسة
تجاذب الإيمان والعاطفة البشرية
يتمثل في نموذج الإيمان
موقف أبي حذيفة بن عتبة وهو يشهد نهاية أبيه
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾

أزمات نفسية لتمحيص الإيمان.

كان موقف أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة في بدر محفوفاً بشدائد الأزمات النفسية العاتية التي يمتحن الله بها خواصّ عباده المؤمنين من طلائع السابقين الأولين، ليمحص بها إيمانهم ويستخلصه من شوائب موروثات الجاهلية التي كانت متمكنة من قلوب وعقول المجتمع العربي، ولا سيما مجتمع مكة الوثني الجاهلي، المغلّف بظلمات الشرك والطغيان، والعتو المستكبر، والفجور العنيد.

ومن ثَمّ كان لهؤلاء السابقين إلى ساحة الإيمان بالرسالة الخاتمة الخالدة منزلة فاقت كل منازل المؤمنين من المتقدِّمين والمتأخرين، في سموها وعلو مكانتها في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الحياة، لما كان يحتف بها من العقبات الكأداء، والمعوِّقات البئيسات التي لا يتخطّى حواجزها إلا من صفَت نفسه صفاء لا تكدِّره نوازل المحن، ولا تقف في سبيله كوارث البلاء.

مكانة أبي حذيفة في قومه تأبى أن يكون وراء إيمانه رغائب دنيوية.

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة واحد من أبناء ذروة الشرف والمكانة في قريش، دلف إلى الإسلام في مشرق فجره، متعززاً بمكانته من هذا الشرف الجاهلي، لم تدفعه إليه رغبة من رغائب الدنيا، التي لم تكن القلة القليلة الحافة برسول الله ﷺ تملك منها شيئاً، يجذب إليها من يريدها.

بل إن هذه القلة القليلة من طلائع السابقين كانت تعيش في حرمان مدقع، وبلاء مُضْنٍ، تُطارد مِنْ داخل بيوتها، وتضطهد في خارجها، وتؤذىٰ أينما كانت من أرض مكة، إذا أصبحت فلا تدري كيف تمسي، نهارها كليلها، وشبعها كجوعها، ليس لها معتصم إلا الصبر، تتجرع مرارته ولا

تكاد تسيغه، تتوقع البلاء في كل لحظة يأتيها من كل مكان، وتترقب العذاب يُصبُّ عليها من كل جانب، فلا الموت يأتيها، ولا الحياة تصفو لها، وهي في هذا الترقب لا فوق لها ولا تحت، فمن يدلف إلى صفِّها ليكون منها فعليه أن يعدّ نفسه للإيمان المحفوف بكل محنة من محن الدنيا وبلاياها.

كذلك كان أبو حذيفة في إيمانه، أسلم رضي الله عنه قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم مستسراً بدعوته، متخفياً بمن معه ممن اتبع هداه، ليقيهم بعض ما يمكن توقّيه من عاتيات طواغيت الشرك وعبيد الوثنية الفاجرة الذين كان في طليعتهم عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة يحف به إخوة أبي حذيفة وعمومته وشراذم عشيرته من بني عبد شمس.

مكانة عتبة في الجاهلية الوثنية.

وكان عتبة بن ربيعة أحد حملة لواء المعارضة لدعوة النبي ﷺ، ولكنه كان أحد عقلاء الجاهلية ومساند الشرك، ودعائم الوثنية، لم تكن له سفاهة أبي جهل ولؤم فجوره، ولم يكن له انحطاط عقبة بن أبي مُعَيط ووضاعة نفسه، ودناءة طبعه، بل كان يتنبل في قومه، ويتعاقل في معارضته لدعوة الحق والهدى والنور، وكان عتبة يظهر من مواقف السلم والمسالمة ما جعله سفير قريش الناطق بكلمة ملئها في محاورة النبي ﷺ ؛ليثنيه عن دعوته إلى الله بالترغيب في مفاخر قريش الجاهلية التي هي فيها متقلّبة بين تنفسات الشياطين.

ولكن رسول الله ﷺ سمع منه وأسمعه، وأباءه إلى ملأ قريش بوجه غير وجهه الذي ذهب به إليه من عندهم، فهو قد ذهب إلى النبي ﷺ بوجه المفتون بغروره المتنبل باستكباره، المتنفِّج بتعاقله، وعرض على رسول الله ﷺ ما في جعبته من تلمّظات البطون المتكرِّشة، والعقول المنفوشة، والمدارك الخاوية إلا من تجشّآت المكر الأبله الذي تعيش قريش في حمأته، وهي تترنح متهاوية متهالكة بعنجهيتها وطغيان ملئها انتظاراً ليومها الموعود.

وكان رد النبي ﷺ على غرور عتبة أن قرأ عليه أسطراً من نور الحق الذي أنزله الله عليه ليخرجهم ويخرج الحياة كلها معهم من ظلمات الجهل الجاهلي إلى نور الحياة الفاضلة العليمة المهذّبة.

مكانة أبي حذيفة الإيمانية في الإسلام.

ومرت المرحلة المكية على الدعوة إلى الله وتوحيده، وخلع الشركاء والأنداد بشدائدها وأزماتها وقسوتها وبلاياها واضطهاداتها وفنون تعذيباتها التي يصبُّها طغاة ملأ قريش على المؤمنين، وفي هذا الجو الخانق ظلّ أبو حذيفة بن عتبة راسخ الإيمان، قوي العزيمة، مطهَّر العقيدة، نقي السريرة، وكان من ذوي الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة، وفيها ولد له ولده محمد بن أبي حذيفة، ولما عاد إلى مكة مع العائدين من مهاجري الحبشة أقام مع النبي ﷺ ملازماً له على شظف العيش وقسوة الحياة حتى هاجر إلى المدينة المنورة فيمن هاجر إليها، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلَّها، وكانت بدر أول وأعظم مشاهده وكان فيها جندياً من جنود الله، أهل الفضل وذوي السابقة الذين كتبت لهم فيها العناية الإلهية سجلاً من النور، تخطَّوا به حواجز الأسباب، ومزّقوا به حجب مواريث الجاهلية ورضُوا بالإسلام ديناً، وبالصبر على لأواء المحن معتصماً، حتى أدال الله لهم من طواغيت الكفر، وطغاة الشرك، وعبيد الوثنية، فنصرهم في أول معركة بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، قتل فيها أشراف الملأ وصناديدهم، وأسر فيها من نجا من القتل منهم، وكان عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة من أول قتلى المشركين، وقتل معه أخوه شيبة وولده الوليد في المبارزة التي جندلهم فيها أبطال جند الله: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث الهاشميون.

أبو حذيفة بين الإيمان والعاطفة.

ورأى أبو حذيفة رضي الله عنه أباه عتبة يسحب إلى القليب مع من ألقي في هاويته من قتلى المشركين، فتجاذبه إيمانه برسوخه وقوة يقينه، وعاطفة البنوة بحنانها وذكرياتها، فوقر الإيمان في قلبه لا يحول ولا يتحوّل، ومشت العاطفة بحنانها ومشاعرها إلى ذكرياته تثيرها قوية جامحة، وتمثل له أباه في فضله وشرفه بين قومه حتى امتلأت نفسه بهذه الذكريات ممتزجة بما كان يرجوه لأبيه من الهداية إلى الإسلام، ولكنه رأى أباه تغلب عليه العصبية الجاهلية الحمقاء، فتباعد بينه وبين الإسلام وهدايته، فيقتل كافراً، ثم هوذا يسحب إلى القليب في صورة لم يرَ لها أبو حذيفة إطاراً يضعها فيه إلا مظهر حزنه واكتئابه الذي كسا وجهه لوناً معبِّراً عن مشاعره التي اعتلجت في مداخل نفسه، ويراه رسول الله ﷺ حزيناً مكتئباً، متغيِّر اللون والسمة،

فيشفق عليه، ويقول له ليرده إلى شفافية الإيمان وإشراق نوره «يا أبا حذيفة؟؟ لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فيجيب أبو حذيفة رضي الله عنه وهو يمضغ مرارة حزنه ليلقيها مع أبيه في القليب بنظرة مودعة يائسة آسفة: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً، وحلماً، وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ماأصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً.

ويذكر عز الدين بن الأثير أن أبا حذيفة دعي إلى البراز فمنعه النبي ﷺ، فهجَتْه أخته هند بنت عتبة ببيتين من الشعر لم تصدق فيهما الوصف، وكذّبها ابن الأثير فيما قالت، وقد هداها الله تعالى لـلإسلام فأسلمت وكانت من المبايعات رحمها الله.

الإيمان في منهج الإسلام لا يميت المشاعر البشرية ولكنه يعليها.

هذه فريدة من فرائد بدر تمثل قوة التجاذب بين الإيمان في ذروة اليقين والعاطفة البشرية في قمة الوفاء البنوي، وقد ارتفع فيها الإيمان إلى مجالاته من السمو والرسوخ، فكان في يقينه ظلّة أظلّت هذا المؤمن النقي فحمته من هزّات المشاعر العاطفية، ومضى مع إيمانه إلى منازل الشهداء، لأن الإيمان في منهج رسالة الخلود لايميت المشاعر البشرية ولكنه يهذبها، فيحولها من عصبية جاهلية إلى وفاء لا ينكره المنهج في تطبيقه العملي، فإيمان أبي حذيفة رضي الله عنه إيمان لا تهزه زلازل الأحداث، فهو إذْ يرى أباه يقتل في أشراف قريش كافراً، ويُلقَى معهم في قليب بدر يأخذه أسف العاطفة البشرية وفاء لهذا الأب، ويظل أبو حذيفة مزمَّلاً بإيمانه الراسخ رسوخ الأطواد الشامخات، فلا يزيد على أن يعروه الاكتئاب على ما فات أباه من خير كان يرجوه له بالهداية إلى الإسلام.

هذا موقف من المواقف الأزمة التي يعتلي الإيمان صهوتها لتكون سطراً من أسطر منهج الرسالة في التطبيق الذي لا يلوي عنق الطبيعة البشرية في عاطفتها وحنانها اللذين عبر عنهما اكتئاب أبي حذيفة، وتغيّر لون وجهه حينما رأى أباه يسحب إلى القليب.

والواقع الذي عبّرت عنه الرواية أن اكتئاب أبي حذيفة إنما كان أثراً من آثار إيمانه، تمثّل في تطبيق منهج الرسالة في صورة معبِّرة عن حب أبي حذيفة رضي الله عنه لعقيدته ودينه، ورغبته في أن تسري رسالة الهدى التي آمن بها إلى القلوب لتنيرها بإشراقها، وأحق القلوب وأحبها أن تتبوأه رسالة الإيمان والهدى هو قلب والد كان له من فضائل الإنسانية قسط جعل ابنه المؤمن الصادق يرجو له أن يكون متبوأ لها، ولكن سوابق الأقدار لا تخضع لرجاء الراجين، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

موقف آخر يشتد فيه جموح العاطفة عند أبي حذيفة فيتداركه بالندم المطهر.

ولأبي حذيفة بن عتبة موقف آخر في أحداث بدر يختلف في ظاهره عن هذا الموقف، بما كان فيه للعاطفة من جموح تداركه الإيمان بالندم الصادق الذي جعل كفّارة هذا الجموح العاطفي شهادة في سبيل الله، لا يكفِّرها غير ذلك. أخرج ابن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأصحابه: ـ «إني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنما خرج مستكرهاً» فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمنه السيف، فبلغ قولُ أبي حذيفة رسولَ الله ﷺ، فقال لعمر: «يا أبا حفص» قال عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه بأبي حفص «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلتها يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عني الشهادة، فاستشهد يوم اليمامة رضي الله عنه.

هذا هو الموقف كما تصوره رواية ابن إسحق، وهو في إطاره الأسلوبي من المواقف الذي تراءت فيه الطبيعة البشرية بكل ما فيها من تراث غريزي، يسوقها بسياط العاطفة حتى تبلغ مداها في التنفيس عن كوامنها النفسية دون أن يستطيع الإيمان مهما بلغت درجته في الرسوخ اليقيني كبح

التغلب على العاطفة في مطالع ثورانها شديد عسير.

جماحها، لأن التغلب على نوازع العاطفة البشرية في الأزمات المفاجئة أمر يعسر على النفس تحقيقه لأول ما تتحرك دوافع الإثارة النفسية لهذه العاطفة، فهو في حاجة شديدة إلى قدر ضخم من الصبر والمصابرة، ومجاهدة النفس لتستقيم رسالة الإسلام في وجوب أن تكون قوة الإيمان قاهرة لجميع النوازع البشرية، متحكمة في تحركاتها، كالذي كان من أبي حذيفة رضي الله عنه في موقفه الأول، وهو يرى مصير أبيه في نهايته، مسحوباً إلى القليب كافراً مع نظرائه من أشراف ملأ قريش ، فإنه لم يزد على أنه لم يستطيع أن يكظم إحساسه ومشاعره التي بدت في حزنه واكتئابه وتغير لونه، وقد فرّج النبي ﷺ ذلك عنه، بسؤاله عن هذا الذي اعتراه في أسلوب رقيق رحيم مشفق، مقدِّر لنوازع عاطفته البشرية لينتزعه من بين براثن الحزن، ويردّه إلى شفافية الإيمان وإشراقه، ويعيده إلى ذكريات إيمانه، وما لقي في سبيله من قسوة الحياة وشدائد الغربة وشظف العيش والصبر المرير على تحمل الأذى وضروب الاضطهاد.

وعاد أبو حذيفة رضي الله عنه إلى إشراقة الإيمان هادئاً وادعاً بعد هذا الحديث الرحيم، وأجاب عن تساؤل النبي ﷺ بأن ما ظهر عليه من الحزن والاكتئاب لم يمس إيمانه ورسوخ يقينه من قريب أو بعيد، ولكنه كان حزناً مكتئباً على فوات ما كان يرجوه لأبيه في شرفه بين قومه، وفضله في عقله من الدخول في الإسلام، فلما رأى مصيره في نهايته التي لا سبيل إلى تلافيها أحزنه ذلك، فدعا له النبي ﷺ بخير، وقال له خيراً.

بَيْدَ أن أبا حذيفة رضي الله عنه لم يقف به القَدَر في محنته الإيمانية العاطفية عند هذا الحد، ولكنه يتابع تمحيصه الإيماني بتسليط العاطفة عليه في رسوخ إيمانه ليزداد إيماناً مع إيمانه، ويقيناً على يقينه، فيسمع ـ ولما يكد يفرغ من محنته في أبيه ـ أن النبي ﷺ ينهَى عن قتل أحد من بني هاشم، لأنه ﷺ قد عرف أنهم قد أخرجوا في نفير قريش كرهاً، لا حاجة لهم بقتال رسول الله ﷺ وأصحابه، ويؤكد النبي ﷺ نهيه العام لعدم قتل أحد من بني هاشم بنهيٍ خاص، يخص به عمه العباس رضي الله عنه وبعض أفراد من أشراف قريش كانوا مقاربين فيقول: «ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم

رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج- أي في نفير قريش ـ مستكرهاً».

وهنا تثب العاطفة البشرية إلى مشاعر أبي حذيفة فتستحوذ عليها، وتسدل على مكامن الإيمان من قلبه ستاراً شفيفاً فيتمثل أباه وعمه وأخاه يقتلون في المبارزة بسيوف هاشمية، ويتمثل العبّاس عم رسول الله ﷺ يجاري أشراف ملأ قريش في إطعام النفير، وينحر لهم عشر قلائص في يومه الذي كان عليه أن يطعمهم فيه، وأن النبي ﷺ قال له ـ حين طولب أن يفدي نفسه وابني أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة بن عمرو فادّعى أنه كان قد أسلم ـ: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك» وإسلام العباس قبل بدر يدل له حديث أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ـ وكان غلاماً للعباس ـ كما أخرجه ابن إسحق عن ابن عباس من طريق عكرمة في قصته مع أبي لهب.

كان إخبار النبي ﷺ عن استكراه بني هاشم قائمًا على القرائن ولم يكن وحياً من الله.

ورسول الله ﷺ حين أخبر أنه قد عرف أن رجالاً من بني هاشم أخرجوا كرهاً، لا يريدون قتاله وأصحابه، لم يقل إن هذه المعرفة كان بسبيل من سبل النبوة والرسالة، ولا أنها كانت عن طريق أي ضرب من ضروب الوحي، فكان الظاهر من أسلوب الإخبار عن هذه المعرفة أنها كانت عن طريق القرائن والإمارات، أو كانت عن طريق إخبار هؤلاء الذين نهى عن قتلهم بأنهم كانوا قد أسلموا، أو أنهم كانوا على سابق عهدهم في الوقوف إلى جانب عدم المساس برسول الله ﷺ أو أحد من أصحابه، ويرشح هذا التأويل قول العباس عند تقاضيه فداء نفسه وابني أخيه وحليفه، أنه كان قد أسلم، ولم يقبل منه رسول الله ﷺ هذا الادّعاء، وقال له: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك»، وأنه ﷺ لم يقبل شفاعة الأنصار أن يتركوا لابن أختهم العباس فداءه، وقال لهم: «لا، والله لا تزرون منه درهماً» مع كونه ﷺ تألم جداً ومُنع النوم لسماعه أنين عمه العباس، وهو في وثاقه الذي شدّه به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوعّدِ الأنصار بقتله، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لم أَنم الليلة من أجل عمِّي، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر بن الخطاب: أفآتيهم؟ قال: «نعم» فأتاهم عمر، فقال

لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: والله لا نرسله، فقال عمر: فإن كان لرسول الله رضاً، قالوا فإن كان لرسول الله رضاً فخذه، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم فوالله لأن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذلك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، وقد أطمع ذلك الأنصار، فأرادوا أن يزدادوا في رضا رسول الله ﷺ فاستأذنوه في ترك فداء العباس، فأبى عليهم، لأن فداء الأسرى حق للمسلمين المجاهدين، فلو ترك فداء العباس لطمع في مثل ذلك كل من له قريب من الأسرى، فكان سدّ الباب من أحكم السياسة، لئلا يبقى في نفوس أصحابه الذين لهم أقارب أسرى شيء بسبب مسامحة العباس، وأخذ الفداء من غيره.

مواقف العباس إلى جانب رسول الله ﷺ تجعله حرياً بعطفه وتقديره.

وأما تألم رسول الله ﷺ وشرود النوم عنه فأمر ناشىء عن الطبيعة البشرية التي لا تعارض أمراً شرعياً، والعباس رضي الله عنه كان حرّياً بمنزلته من نفس رسول الله ﷺ، لأنه كان بعد أبي طالب من ذوي المواقف النبيلة مع رسول الله ﷺ حمية قومية قبل إسلامه، وكان كثير المجالسة له، ولو لم يكن له من مواقف الحمية النبيلة إلا حضوره معه يوم العقبة الكبرى ليستوثق له من الأنصار، ويريهم أنه ﷺ في منعة من قومه لكفاه في مفاخره المعوِّضة لمواقف أبي طالب.

تمثل أبو حذيفة كل ذلك، وهو إنسان من البشر، له طبيعته البشرية التي تتأثر بالمواقف العاطفية، فلم يملك نفسه أن قال ما قال حين بلغه ما قال رسول الله ﷺ، فبلغ رسول الله ﷺ قولُه، فخشي أن يثير ذلك في نفوس بعض من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم شيئاً من وساوس الشيطان فيوقعهم في حبائل الأوهام والظنون، فقال لعمر رضي الله عنه: «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» تمشياً مع طبيعة الموقف في ودادة رسول الله ﷺ لعمه الحفي به، ولم يقل رسول الله ﷺ في إنكاره لما قال أبو حذيفة أيردّ أمر رسول الله، ويخالف نهيه؟ لأن أبا حذيفة رضي الله عنه لم يقل ما قال ردّاً لأمر من أوامر رسول الله ﷺ، ولا مخالفة لنهي من نواهي رسول الله ﷺ، وإنما قال أبو حذيفة ما قال حمية عاطفية في لحظة ثورة نفسية.

وما أشبه قول أبي حذيفة في موقفه هنا بقول أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، وقد رأت سهيل بن عمرو ـ وكان من أسرى بدر ـ مشدودة يداه إلى عنقه بحبل، قالت: فلا والله ماملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أي أبا يزيد؟؟ أعطيتم بأيديكم، ألا متم كراماً؟ فوالله ما أنبهني إلاّ قول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله تحرِّضين؟» قالت سودة رضي الله عنها، قلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت، فقبل النبي ﷺ اعتذارها، لأن قولها كان أثراً من آثار تغلب الطبيعة البشرية، لم يمس إيمانها رضي الله عنها بدليل قولها: ما ملكت نفسي أن قلت ما قلت.

ومع كل ما احتف بموقف أبي حذيفة رضي الله عنه مما يدخل في مجال الاعتذار عن كلمته التي قالها بعد أن بلغه نهي النبي ﷺ عن قَتْل أَحَد من بني هاشم، وخاصة عمه العباس رضي الله عنه، فإنه بعد أن هدأت عاطفته ألقى بنفسه بين أحضان الندم على كلمته التي قالها، ورأى أنها في صورتها التي صدرت عنه لا تستقيم مع درجة ميزانه الإيماني الذي امتاز به السابقون من طلائع المؤمنين، وأن هذه الكلمة لا يكفّرها عنه إلا شهادة في سبيل الله يبذل فيها نفسه فداء لعقيدته وإيمانه، وقد أناله الله تعالى كفارته التي تمنّاها وعاش حميداً ومات شهيداً رضي الله عنه وأرضاه.

في الطريق من بدر الى المدينة

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾
وقائع وأحداث تسترفد تطبيق منهج الرسالة في تربية المجتمع المسلم لحماية الدعوة ونشرها

كان مما سنّه رسول الله ﷺ لمجتمعه المسلم في بدر في معارك الجهاد القتالي أنه إذا ظهر على أعدائه مؤيداً بنصر الله أقام في ساحة المعركة ثلاث ليال.

كان نصر المؤمنين في بدر فتحاً لطريق تبليغ الدعوة ونشر الرسالة.

وكان أول ما صنع ذلك في غزوة بدر، أول وقائع الجهاد المظفّر وأعظمها في تاريخ الإسلام، وقد بدأت جولاتها القتالية يوم الجمعة لسبع عشرة خلَت من رمضان، واستمرت إلى آخر يوم من رمضان وأول يوم من شوال سنة اثنتين من الهجرة، وقد انتصر فيها رسول الله ﷺ وأصحابه مع قلة عددهم، وضعف عدتهم المادية القتالية نصراً وطّد دعائم الدعوة إلى الله تعالى، وفتح الطريق أمام نشر الرسالة، وأقام معالم الهداية مشرقة مما لم يعرف له التاريخ مثيلاً في مباديه ونهاياته، ومقدماته ونتائجه، وسياسته وحكمته. وهُزم فيها المشركون هزيمة منكرة، بدّدت شملهم، ومزقت حشودهم، وقضت على مصادر قوّتهم المادية القتالية، وأذلت غرورهم، وأرغمت آنافهم، بما قُتل فيها من صناديدهم وأشرافهم وقادتهم وبما أسر فيها من طواغيتهم وشياطينهم وزعمائهم، فالمقتولون من هؤلاء والمأسرون من أولئك كانوا يبلغون نصف جيش المسلمين، إذ قد قتل سبعون من الصناديد والمتشاجعين، وأسر سبعون من أمثالهم، وعادت بقاياهم من الغوغاء والأشباح النخرة مشرّدين مفزّعين، مأخوذين لا يدرون من الرعب الذي ملأ قلوبهم أين يذهبون، ولعل الحكمة في سنّه ﷺ ذلك تتمثل في:

أولاً: تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي

حكمة إقامة النبي ﷺ في ساحة المعركة بعد النصر ثلاث ليال.

يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارِّين هرباً إلى الجبال يعتصمون بها ولا عاصم لهم من الله وجنده الذين يجاهدون في سبيله، لإعلاء كلمته ونشر رسالته الخاتمة الخالدة.

ثانياً: ـ دفن من استشهد من جند الله مما لا تكاد تخلو منه معركة، وقد استشهد من هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله فداء لعقيدتهم عدد اختلف في حصره الرواة، فعند ابن إسحاق أنهم كانوا أحد عشر رجلاً، وعند موسى ابن عقبة أنهم كانوا أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وهو قول جمهور أصحاب المغازي والسِّير والمحدِّثين، وكان أول شهيد في القتال مَهْجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، رماه عامر الحضرمي بسهم فقتله، وقد ذكر الزرقاني أن رسول الله ﷺ قال يوم قتل مهجع «مهجع سيد الشهداء» وروى الحاكم عن واثلة أن رسول الله ﷺ قال: ـ «خير السودان لقمان، وبلال، ومهجع».

ثالثاً: ـ جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تؤدّى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبدالله بن كعب الأنصاري النجاري، أحد بني مازن.

رابعاً: ـ إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة مما كان له أثر فعّال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلة، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

خامساً: ـ مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه اتقاء شره في المستقبل، كالذي كان في أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خَلَف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخابث في ركيّ من قُلُب بدر خبيث مخبث، ثم وقف على شفة الركيّ وقال: «يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فجزاكم الله عني من عصابة شراً. خونتموني أميناً، وكذبتموني صادقاً، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً».

تقريع رسول الله ﷺ لأهل القليب.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ وقف على شفة الركيّ، وجعل ينادي أصحاب القليب بأسمائهم وأسماء آبائهم «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربناحقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

رأي عائشة رضي الله عنها في مخاطبة النبي ﷺ أهل القليب وإجابة العلماء عن إشكالها.

وقد استفاض بين أهل العلم قديماً من السلف والخلف أن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنكرت أن النبي ﷺ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» وقالت إنه ﷺ قال: «إنهم ليعلمون ما أقول».

ولعل مما يحسم هذا الخلاف الذي طال فيه الأخذ والرد ما نقله القسطلاني في المواهب عن أبي بكر الإسماعيلي إذ قال: قال الإسماعيلي: كان عند عائشة رضي الله عنها من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنصٍّ مثله يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته، فكيف يصار إلى إنكارها وهذه الأمور الثلاثة منتفية ـ أي فلا نسخ، ولا تخصيص، ولا استحالة ـ والجمع

بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ أي الذي احتجّت به عائشة رضي الله عنها في عدم سماعهم لما قال لهم رسول الله ﷺ، وإنكارها أنه قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ـ هو من قبيل الاستنباط الاجتهادي، لأن عائشة رضي الله عنها لم تشهد الواقعة، ولم يثبت أن النبي ﷺ قال لها إنهم ليعلمون ولم يقل: «إنهم يسمعون» ـ قال الإسماعيلي: ـ إن قوله تعالى: ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ لا ينافي قوله ﷺ: «إنهم الآن يسمعون» لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من السمع في أذن السامع، فالله تعالى هو الذي أسمعهم بأن أبلغهم صوت النبي ﷺ بذلك، وقول أبي بكر الإسماعيلي؛ فالله تعالى هـو الذي أسمعهم لا يخلو عن ضعف، لأن قضية إسماع الله داخلة تحت عموم إن الله تعالى هو الفعّال الخلاق ـ ثم قال الإسماعيلي: وأما جوابها بأنه إنما قال: «إنهم ليعلمون» فإن كانت بنته على فهمها الآية فلا تنافي، وإن كانت سمعت ذلك من النبي ﷺ بعد ذلك أو من غيره عنه فلا تنافي في رواية يسمعون، إذ العلم لا يمنع السماع.

ويذهب السهيلي إلى أن المقام مقام إعجاز وخرق للعـادة، لقول الصحابة رضي الله عنهم حين سمعوا مقالة النبي ﷺ لأصحاب القليب أتخاطب قوماً قد جيّفوا؟ فأجابهم ﷺ بما أجابهم وعائشة لم تحضر، وغيرها ممّن حضر أحفظ للفظه ﷺ إذ قال لهم: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ثم قال السهيلي: وإذا جاز أن يكونوا في هذه الحالة عالمين ـ كما هو قول عائشة ـ جاز أن يكونوا سامعين كما هو ثابت في رواية عمر وابنه عبدالله وأبي طلحة وغيرهم، إذ لا فرق، والعلم لا يمنع السماع.

وعائشة رضي الله عنها لها مثل هذا النحو في الاجتهاد وفهم آيات القرآن وتأويل الأحاديث التي تبدو لأول وهلة كالمعارضة لتأويل القرآن.

قال ابن كثير في البداية: وهذا مما كانت عائشة تتأوله من الأحاديث وتعتقد أنه معارض لبعض الآيات، وهذا المقام مما كانت تعارض فيه قوله تعالى: ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ وليس هو بمعارض له، والصواب

النقل عن عائشة رضي الله عنها يحتاج إلى إثبات في إسناده لها لصغر سنها.

قول الجمهور من الصحابة ومن بعدهم للأحاديث الدّالة نصاً على خلاف ما ذهبت إليه رضي الله عنها وأرضاها. على أننا نقول إن سن عائشة رضي الله عنها يوم بدر تجعل هذا النقاش غريباً يحتاج في ثباته إلى أدلة أقوى من مجرد حكاية هذا القول عنها.

وفي مواهب القسطلاني: ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد، عن عائشة رضي الله عنها حديثاً مثل حديث أبي طلحة وفيه عنها: (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) وأخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن عنها، فإن كان هذا الحديث محفوظاً عن عائشة فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة الذين روَوا القصة وهم فصحاء عارفون بمواقع الكلام، لكونها لم تشهد القصة وهؤلاء شهدوها.

وهذه المخاطبة لأصحاب القليب إنما كانت على سبيل التقريع والتوبيخ والإغاظة لمن يبلغهم الحديث من الكفار، وفيها إدخال السرور على قلوب مجاهدي الصحابة الذين كانوا يتهيبون لقاء هؤلاء الطغاة الذين صاروا جيفاً منتنة انتهى مصيرهم إلى النار هم فيها خالدون، وفيها تثبيت لقلوب المؤمنين وتربية لهم على أن النصر لا يرتبط بكثرة العدد وقوة العدة المادية وإنما هو بيد الله تعالى يؤيد به من يشاء من عباده إذا اعتصموا بقوة الإيمان والإخلاص وصدق التوكل على الله تعالى مسبب الأسباب، واتخذوا للمواقف الجهادية عدتها بقدر ما يستطيعون من أسباب.

بعث البشرى بالنصر إلى المدينة

نهض رسول الله ﷺ بعد تصفية أحداث الموقعة في مواقعها من ساحة بدر، مشرق الوجه، منوّر الجبين، متذللاً لله تعالى، شكوراً له على نعمائه عليه وعلى أصحابه، تحف به الملائكة، وتخفق فوقه بنود النصر، وألوية الفوز، وأعلام الحفاوة الربانية، ذَكوراً لاستجابة الله له في استغاثته الضارعة، وهو في أرفع مقامات العبودية، ينشد ربه أن ينجز له عهده،

ويحقق له وعده بالنصر على أولياء الشيطان من طواغيت ملأ الشرك والوثنية المادية في أحطِّ صورها، الذين زحفوا بحشودهم وقواهم القتالية متعززين بكثرتها عدداً وعدّة، يقودهم الغرور الأحمق، ويسوقهم طيش الفجور والعناد الحقود، ليقضوا على دعوة الحق والهدى والخير والإصلاح ويستأصلوا مجتمعها المسلم الذي أشجاهم وأغصهم، واعترض أنفاسهم، ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، إذ جعل من جنود الحق على قلتهم عدداً، وضعفهم عدّة وعتاداً قوة قاهرة، لم تكد تلتقي بأشباح الفجور النخرة في جولات معدودات حتى بوأتهم الهزيمة النكراء، وأخذتهم قعصاً بالسيوف، وقتلاً بالرماح والسهام، وأسراً بالأيدي، وتشريداً بالرعب، فرعبلت جمعهم، وبدّدت شملهم، وأرغمت معاطسهم، وأذلّت فجورهم، ونكّست رؤوسهم، ومزقتهم شر ممزق.

أصدق وصف لجولة الحرب التي أعقبها النصر.

وكان أصدق ما وصفوا به قول أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد لحق بمكة فارّاً مفزّعاً، فدخل على عمه أبي لهب في حجرة زمزم فقال له جبان بني هاشم: هلمَّ إليّ فعندك لعمري الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال أبو لهب: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس، فقال أبو سفيان بن الحارث: والله ماهو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا.

وفي حديث قباث بن أشيم عند ابن عساكر، وكان قباث قد حضر بدراً مع المشركين فذكر هزيمتهم مع قلّة عدد المسلمين وضعف عدّتهم، فجعلت أقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء، والله لو خرجت نساء قريش بألّتها ـ يعني سلاحها ـ ردّت محمداً وأصحابه.

وركب النبي ﷺ ناقته، وأزمع السير إلى المدينة، وسيق الأسرى بين يديه يقودهم مولاه شُقران وهم مُوثَقون بالحبال، وكان شقران هو القائم على شأن الأسرى بأمر رسول الله ﷺ، كما أقيم على الغنائم بعد جمعها عبدالله ابن كعب الأنصاري النجاري المازني، وسار جمع الإيمان والهدى تحفّه أنوار النصر، وهم حافّون برسول الله ﷺ في سيره إلى المدينة منصوراً مظفّراً مؤيّداً

بقوة الله وقهره، ومرّ ﷺ على ركيّ المسحوبين إلى شفير جهنم من أشراف ملأ الكفر والوثنية، فوقف هنيهة مقرعاً لهم، غائظاً لمن يسمعه من بقايا أشباحهم النخرة، وثبت أنهم كانوا يسمعون لقوله، ولكنهم أُلجموا فلم يجيبوا.

وكان أول ما بدأ به ﷺ في تحركه من عَرْصة بدر متوجهاً إلى مدينته المنورة ـ وهي تترقب وصوله إليها في لهفة الشوق والحب، متطلعة إلى رؤيته وهو مكلل الجبين بنور النصر، وإشراق الحفاوة الربانية ـ بعثه ببشرى النصر، فبعث مولاه وحبّه زيد بن حارثة إلى المدينة، وبعث شاعر الأنصار عبدالله بن رواحة إلى أهل العالية، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء أو العضباء، فسار البشيران بين يديه مجدّين في السير، حتى وصل كل منهما إلى من بعث إليهم، وتناديا بالبشرى، واجتمع عليهم الناس، وهما يهتفان بنصر الله وسلامة رسول الله ﷺ، ويذكران من قتل من صناديد قريش ومن أسر من أشرافها، والناس حول كل بشير يسمعون لما يقول مأخوذين عن أنفسهم، وهم بين مصدِّق ومكذِّب، ومتشكِّك متحيِّر، وظهر نجيث اليهود، ونجم النفاق واشرأبّ الكفر، وجعل فريق من أعداء الإسلام يستهزؤون بما يسمعون، وفريق مكظوم يخاف أن يصدق ما يسمعون.

تشكك الناس في أخبار النصر لعدم توقعه نظراً لظواهر الأسباب والمسببات

يقول أسامة بن زيد: لما قدم أبي زيد بن حارثة جئته وهو واقف بالمصلّى وقد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاصي بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج.

قال أسامة: قلت: يا أبة أحقٌّ هذا؟ قال زيد: إي والله يا بني.

وعند البيهقي عن أسامة بن زيد من طريق حمّاد بن سلمة أن النبي ﷺ خلّف عثمان وأسامة بن زيد على رقيّة بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، قال أسامه فسمعت الهَيْعة، فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة فوالله ما صدّقت حتى رأينا الأسارى.

وقال الواقدي: إن رسول الله ﷺ قدّم زيد بن حارثة، وعبدالله ابن رواحة من الأثيل، فجاءا يوم الأحد حين اشتد الضحى، وفارق عبدالله ابن رواحة زيد بن حارثة من العقيق، فجعل عبدالله بن رواحة ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ، وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل بن هشام، وقتل زَمْعة ابن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو، قال عاصم بن عدي، فقمت إليه فنحّوته، فقلت: أحقاً ما تقول يا ابن رواحة؟ فقال: إي والله، وغداً يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرّنين.

ثم تتبع عبدالله بن رواحة دور الأنصار بالعالية يبشرهم داراً، داراً، والصبيان ينشدون معه، يقولون: قتل أبو جهل الفاسق، حتى انتهى إلى دار بني أمية.

وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، فلما جاء إلى المصلّى صاح على راحلته: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأمية بن خلف، وأبو جهل، وأبو البختري وزمعة ابن الأسود، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير، فجعل بعض الناس لا يصدِّقون زيداً، ويقولون ما جاء زيد إلّا فَلّاً، حتى غاظ المسلمين ذلك، وخافوا، وقال رجل من المنافقين لأسامة: قتل صاحبكم ومن معه، وقال آخر لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون عليه بعده أبداً، وقد قتل عِلْية أصحابه، وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ماذا يقول من الرعب وجاء فلاًّ، فقال أبو لبابة: يكذِّب الله قولك، وقالت اليهود: ما جاء زيد إلّا فلاّ.

إرجاف المنافقين وتكذيب اليهود

قال أسامة: فجئت حتى خلَوت بأبي، فقلت: أحقٌّ ما تقول؟ فقال: إي والله حق ما أقول يا بني، فقويت نفسي، ورجعت إلى ذلك المنافق: فقلت: أنت المرجف برسول الله ﷺ وبالمسلمين، لنقدمنّك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم، فليضربن عنقك، فقال المنافق: إنما هو شيء سمعته من الناس، يقولونه، فجيء بالأسرى وعليهم شقران مولى رسول الله ﷺ.

تلقي الناس لرسول الله ﷺ بالروحاء لتهنئته بالنصر.

واستفزت الفرحة رؤوس الناس، فنهضوا لتلقّي رسول الله ﷺ يهنؤنه بما فتح الله عليه فأدركوه بالروحاء، وكان أسيد بن حضير ممن لم يشهد الوقعة لظنّه أنها خَرْجة لتلقّي العير، فقام يعتذر ويهنىء فقال: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك، وأقرّ عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقبل رسول الله ﷺ اعتذاره، وصدّقه من قوله.

ومن طرائف ما اشتملت عليه تروّحات الروحاء في مجال التهنئة لرسول الله ﷺ على ما أظفره الله بعدوّه، وأيّده بنصره أن سلمة بن سلامة ابن وقش، قال للمهنئين: ما الذي تهنئوننا به، والله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعلقة فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال لابن وقش: «أي ابن أخي، أولئك الملأ» أي أشراف قريش ورؤساؤها وقادتها، وذوو كلمتها الذين تعتصم بهم قريش في مواقفها.

هذا الموقف الذي استقبل به البشيران بالفتح والنصر المؤزر موقف تملؤه الحيرة، ويحيط به الشك، ويفسح الطريق أمام تكذيب المكذّبين، وتشكيك المشكّكين، ويفتح أشداق الأخابث من اليهود وربائبهم المنافقين بكلمات السخرية والاستهزاء قبل أن ترى أبصارهم ما يكبتهم ويحرق أكبادهم ـ يعطي لغزوة بدر حجمها الحقيقي من العظمة التاريخية، ويضعها في موضعها من أحداث الحياة وتقلباتها.

ذلك أن هذه الغزوة لم تكن قط في مقدماتها ومباديها توحي بشيء مما تمَّ في نهاياتها من النصر الضخم الذي كان سبباً في جميع الفتوحات الإسلامية.

وكل ما كان يمكن ـ بمقتضى مألوف الحياة ـ أن يجول في خواطر المؤمنين المخلصين أن هذه الغزوة المباركة تكون طريقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله، أما أنها تنتهي إلى هذا النصر المدوّي في آفاق الأرض فهذا ما كان أقرب إلى المحال، وقد كان رسول الله ﷺ أعلم الناس قاطبة بعواقب هذه الغزوة لو أنها جرت أحداثها في طريقها الطبيعي الذي تصوّره وقائعها في مقدماتها.

موقف المناشدة في مقام العبودية جعل من القلّة المؤمنة قوة رهيبة.

ومن ثَمَّ كان موقفه ﷺ في مقام العبودية المطلقة وهو يناشد ربه بعد أن عبأ أصحابه وعدّل صفوفهم ودخل عريشه، يناجي ربه بالبكاء والتضرع، والدعاء المبتهل، وقد نظر إلى أصحابه في قلّة عددهم وضعف عدّتهم وهم العصابة الوحيدة في الحياة كلها التي تعبد الله في الأرض، وتحمل لواء توحيده، إلى جانب كثرة عدد أعدائهم المشركين الفجّار الذين يحملون أعلام الوثنية وتخفق فوق هاماتهم رايات الشرك والطغيان والتعطّش لسفك دماء المؤمنين الموحِّدين، ومعهم من قوة العتاد المادي، وتوافر أسباب الغلبة القتالية من الرجال والسلاح مما جعل رسول الله ﷺ يبلغ في مناجاته ربه، ومناشدته أن ينجز له وعده في دحر هذه القوى الفاجرة المشركة، ونصر القلة الصابرة المؤمنة، حتى قال مزدلفاً إلى ربه، يخاطبه بروحه وقلبه وعقله: اللّهم إن تَهْلك هذه العصابة على أيدي هؤلاء الفجرة أعداء الحق، وأعداء الهداية فلن يبقى لك دين، ولن تعبد في الأرض.

وهذه الصورة لهذه المناجاة الضارعة في محراب العبودية المطلقة، والمناشدة البالغة منتهى ما يمكن تصوّره في ميزان الموقف، وما ينتظر من نتائجه العملية لو لم تتغير الأحداث ـ تدلُّ على ما كان يتوقعه رسول الله ﷺ من مفاجآت، وما كان يستطلعه في آفاق مناشدته ربه من مدد إلهي جعل من أصحابه في قوة إيمانهم، وعظيم ثقتهم بربهم قوة مادّية رهيبة، تقتحم الحواجز للقاء الموت وجهاً لوجه في فدائية لا تبالي أوقعت على الموت أم وقع عليها الموت، وبهذه الفدائية الإيمانية تم لأصحاب رسول الله ﷺ هذا النصر الذي أذهل كل من سمع به، لأن كل الأحوال المادّية المحتفة بالمعركة تجعله بعيد المنال في واقع تلك الأحوال.

فالوضع بين القوتين: قوة الغلبة المادية، والفوق العددي والعتادي والتجهز المادي الذي كان في أيدي أعداء الله من المشركين، وقوة المؤمنين التي لم تكن في مظهرها المادي مما يقام له وزن، أو يحسب له حساب في الوقوف أمام ما كان يملكه أعداؤهم الذين جاؤوا بحشودهم الزاحفة ليستأصلوا هذه العصابة المؤمنة، ويقضوا على الدعوة إلى الله، وإلى توحيده

ـ لم يكن وضعاً يسمح بالتفكير أو التخيل أن تتم مجرد المواقفة للقتال بين الفريقين في جولة ميدانية.

تفاوت القوتين عدداً وعدة ملأ الطغاة بالغرور فهزمهم الله شر هزيمة.

ولم يكن هذا الوضع المتباعد التفاوت في القوة عدداً وعدة بعيداً عن تصوّر طغاة المشركين، وقائدهم غميز الرجولية الفاسق أبي جهل لعنه الله، بل كان بين أيديهم وتحت أسماعهم وأبصارهم منذ اللحظة الأولى التي حزروا فيها القلّة المؤمنة التي جاؤوا لاستئصالها والقضاء عليها، وعرفوا أنها قلّة قليلة، ليس وراءها أكمنة، وليس لها عدة قتالية، تستأهل أن يواقفوها في ميدان المعركة، لأنهم في نظر هؤلاء الأعداء الفَجَرة ليسوا إلا أكلة جزور، كما قال فاسقهم وقائد حشودهم أبو جهل، فيجب أن يؤخذوا بالأيدي أخذاً ليعرِّفوهم سوء ما اقترفوا من مفارقتهم لقومهم، وتركهم اللّات والعزّى إلى هذا الدين الجديد الذي جعل الآلهة إلهاً واحداً، والذي ينادي بحرية التفكير وعزة حياة الإنسان وكرامته ليسوّي بلالاً مع أمية بن خَلَف سيد البطحاء، وسمية أم عمار مع العطّارة بنت مُخرّبة أم أبي جهل، وفلاناً بفلان

انقلاب الميزان بين القوتين كان أساسه اختلاف الهدف لديهما.

فإذا انقلب الميزان بين القوتين، وتحوّل مجرى الحوادث، وشحنت القلة المؤمنة بقوة الإيمان الفدائي، وخارت عزائم الفجور في قوة العدد وكثرته وقوة العدّة وأسلحتها، فقاتلت القلة المؤمنة وبين عينيها هدفها الإيماني ليعبد الله وحده، ويذهب الشرك وأهله، والوثنية وحزبها إلى مهاوي الفناء، وقاتلت الكثرة الفاجرة وهدفها نشر أجنحة الطغيان على آفاق الحياة، ليعمّ الظلم فجاج الأرض، ويبقى الفجور العتّي هو صاحب السلطان على البشرية المهيمن على مقدراتها أينما حلّت من أرض الله، ويبقى عبيد الوثنية وأحلاس الشرك العائشون لبطونهم وشهواتهم هم المتحكمون في مصائر الحياة، يستعبدون الإنسانية من أجل ما في أيديهم من لعاعات الدنيا ولقمة العيش.

الحياة لم تخلق للطغاة ولكنها خلقت لتعرف أسرارها تعبداً لله خالق الحياة.

ولكن الله عز شأنه الذي خلق الحياة وما فيها ومن فيها، وجعل زمام العزة فيها للإنسان، أياً كان هذا الإنسان الذي هو بحكم إنسانيته سيد هذه الحياة بإيمانه بربه وخالقه ـ لم يخلقها ليجعل سلطان قيادها في أيدي حثالة الإنسانية من الطغاة الفَجَرة، يمرحون فيها، ويسرحون في حمآت الشهوات

الداعرة والرغائب الطاغية، وإنما خلقها ليعرّفها بما خلق فيها من أسرار الكون وجلال وحدانيته ومحكم تدبيره، وقهر سلطانه، لتفرده وحده بالعبادة حتى تصل بهذه المعرفة إلى الكشف عن أسرار نفسها ليكون لها من هذا الكشف تحقيق تحررها من عبودية المخلوقين في شتّى صورهم وأشكالهم وحقائقهم، وهذا التحرر هو الدعامة التي ترتكز عليها الحياة في أوضاعها الاجتماعية، حتى يستحوذ الصالحون لعمارة الأرض من أبناء الإنسانية على زمام قيادتها بالقوة القاهرة، قوة الإيمان وعزة الحياة وكرامة الإنسان، وتحرير الراسعين في أغلال الظلم الاجتماعي الظلوم من عبودية لهذا الظلم الفاجر.

وهذه القوة القاهرة ليست في كثرة عدد الظالمين، ولا فيما يملكون من عدّة مادّية طاغية، وإنما هي كامنة في معرفة الإنسان لحقوقه وواجباته في هذه الحياة، والغضب لسلب هذه الحقوق، وهذا ما لا يتحقق إلا بقوة الإيمان بالله عز شأنه وصدق التوكل عليه، وحب الموت في سبيل الحياة الكريمة.

وهذا الإيمان هو العامل الفعّال الذي قلب ميزان معركة بدر، وجعل القلة المؤمنة هي سيدة الموقف فيها، ذلك الموقف الذي انتهى بأعظم نصر عرفته المعارك التي دارت وتدور بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والنور والظلام.

المتشككون في أخبار البشرى بالنصر لم يعرفوا أنّ قوة الإيمان تقهر عظائم الأحداث.

والذين تشكّكوا في أخبار بعث التبشير بنصر المؤمنين وسلامة رسول الله ﷺ، وهزيمة حشود الكافرين، والذين أسرعوا إلى تكذيبهم من غثاء بقايا الشرك والوثنية وأخابث اليهود وربائبهم المنافقين لم يكونوا ليعرفوا هذا الإيمان الذي قلب ميزان المعركة، ولم يكونوا ليصدِّقوا بهذا الإيمان وآثاره الغامرة التي أزاغت أبصارهم، وأضلّت بصائرهم حتى كبتهم الله كما كبت حشود الفجرة في المعركة بالقتل والأسر والهرب والتشريد، فرأوا الأسرى من أشراف نفير قريش بأبصارهم مصفّدين بالأغلال يقودهم شقران مولى رسول الله ﷺ أذلّة، يسوقهم الرعب والفزع، ويستولي عليهم الخوف والهلع، تدور أعينهم في وجوههم كالذي يُغشى عليه من الموت، ورأوا رسول الله ﷺ على ناقته مكللاً بتاج النصر يحفه التواضع لله تعالى وهو يقول لأصحابه: «استوصوا بالأسرى خيراً».

قتل النضر بن الحارث
صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة

كان النضر أخبث شياطين الكفر.

كان النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة العبدري أخبث شياطين الفجور في عداوته رسول الله ﷺ، وأفجر أعداء الدعوة إلى الله، وأعتى طواغيت قريش في الوقوف أمام سير رسالة الهدى والنور التي جاء بها الله تعالى لإقامة صرح التوحيد، وتقويض معالم الشرك والوثنية.

وكان النضر ـ لعنه الله ـ يجلس إلى غوغاء قريش، فيحدِّثهم بأقصوصات اسفنديار ورستم وغيرهما ممن حبكت حولها الأساطير الخرافية ليصدهم عن سماع القرآن الحكيم، ويقول لهم: أليس هذا أحسن مما يقول محمد؟

وكانت قريش وملؤها وطواغيتها تعرف لهذا الخبيث شدة عداوته لرسول الله ﷺ، وفجور عتوّه في مقاومة دعوته إلى توحيد الله، فبعثته ومعه لصيق النسب بقريش لئيم الفجار وفاجر اللئام عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألاهم عن رسول الله ﷺ ودعوته إلى توحيد الله.

سفارته إلى أحبار اليهود ليسألهم عن علمهم بمحمد ﷺ.

أخرج ابن إسحاق عن طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم: اسألاهم عن محمد، وصِفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وذكرا لهم بعض قوله، وقالا لهم: وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف، طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا بكم.

فأقبل النضر وعقبة ـ لعنها الله ـ حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبراهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فأنزل الله على رسوله سورة الكهف، وفيها ذكر الفتية وشأنهم، وذكر الرجل الطواف ونبؤه كما أنزل عليهم: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

فأبلست قريش وراحت تفكر وتقدِّر، وتدبِّر وترسم، ولم تجد لها مخرجاً مما وضعها فيه سفيراها النضر وعقبة من مأزق ضاقت به أنفاسها سوى أن تزداد عتواً وطغياناً في تعذيب المستضعفين من طلائع الإسلام الذين عصمهم الله بعواصم الصبر الصبور، واحتمال الأذى في سبيل إيمانهم وعقيدتهم حتى أظفرهم الله تعالى في وقعة بدر بهم وشفَى صدورهم، وأعزهم عزاً لم يعرف التاريخ له مثيلاً.

وكان النضر ـ لعنه الله ـ من بين الأسرى الذين سيقوا مصفّدين بالأغلال، تعلو وجوههم كآبة الصغار والذلة.

ولما بلغ رسول الله ﷺ في مسيره من بدر إلى المدينة منصوراً مكاناً يقال له (الصفراء) أمر علي بن أبي طالب بقتل النضر بن الحارث، أخبث أعداء الله وأعداء الأنبياء والمرسلين، فقتله، وقد لاحق التعقيد والتأزم التاريخي هذا الخبيث الملعّن في سيرته وتراجمه في كتب المغازي والسير، فاختلفت فيه الروايات اختلافاً عريضاً، بعيد الجنبات أدّى ببعضهم إلى أن وضعه في مصافِّ المسلمين، بل في صفوف أعليائهم من ذوي الهجرة الحبشية، وبعضهم نزل به إلى صفوف المؤلفة، وأنه كان من ذوي المئين في عطاء حنين.

بحث وتحقيق حول النضر وتشابك اسمه مع اسم أخيه.

بيد أن التحقيق التاريخي ردّه إلى مثواه من طواغيت الكفر، ووضعه في مقره على طريق جهنم وبئس المصير.

فأبو نعيم في الدلائل، وابن منده في تراجم الصحابة، وضعاه بين

المؤلفة، وقالا: إنه شهد حنيناً مسلماً، مهزوز الإسلام، وأعطاه رسول الله ﷺ مائة من الإبل ليستألفه على الثبات على الإسلام.

وقد أضاف أبو نعيم وابن منده إلى غلطهما هذا غلطاً آخر إذ نسبا هذا الرأي إلى ابن إسحاق، قال الزرقاني في شرح المواهب: وهو غلط، فالذي قاله ابن إسحق، وأجمع عليه أهل المغازي والسّير أن النضر بن الحارث قتل كافراً بعد بدر صبراً.

وذهب ابن حجر في الدفاع عن أبي نعيم وابن منده إلى احتمال أن يكون للنضر بن الحارث المقتول بعد بدر كافراً أخ سُمّي باسمه، فهو الذي ذكره أبو نعيم وابن منده، لا هذا المقتول كافراً.

وذهب أبو عمر بن عبد البر في المغازي إلى أن المذكور في المؤلفة قلوبهم النضر ـ هكذا مكبراً ـ بن الحارث بن علقمة بن كلدة، أخو النضر ـ هكذا أيضاً مكبراً ـ بن الحارث المقتول ببدر ـ أي عقبها ـ صبراً، وهذا يرفع احتمال ابن حجر، فيجعله قولاً بغير احتمال، ما لم يكن هناك غلط مطبعي في النسخ.

بيد أن ابن عبد البر ترجم في الاستيعاب للنضير ـ هكذا مصغراً ـ أخي النضر بن الحارث المقتول صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة، قتله علي بن أبي طالب بأمر النبي ﷺ، والناس نازلون بالصفراء.

وقال ابن عبد البر عن النضر المقتول صبراً في هذا الموضع من الاستيعاب: وكان ـ لعنه الله ـ شديد العداوة لرسول الله ﷺ.

فالذي قيل عنه أنه من المؤلفة قلوبهم، وأن النبي ﷺ أعطاه مائة من الإبل هو النضير ـ هكذا مصغّراً ـ وهو معدود في حكماء قريش وحلمائها، وهو الذي قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب أنه من المهاجرين في أحد قولين وأصحهما، وأكثرهما رواية: والقول الثاني أنه من مسلمة الفتح.

وقد اعترض عز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) على ابن عبد البر في ترجيحه أنه من المهاجرين، فقال: وهذا القول قد نقضه على نفسه في سياق

خبره، فإنه قال: أعطاه النبي ﷺ مائة من الإبل، قال ابن الأثير: والنبي ﷺ لم يفعل ذلك إلا مع مسلمة الفتح، ومن تألفه على الإسلام.

وهذا الحصر في كلام ابن الأثير غير مسلّم على إطلاقه، وقد يكون هذا هو الغالب، ولا سيما في غنائم حنين، لأن النبي ﷺ قد يعطي، بل قد أعطى بعض ذوي الحاجة من راسخي الإيمان لحاجتهم لا لتألفهم على الإسلام.

ويبقى بعد ذلك أن ابن عبد البر ذكر في المغازي أن المذكور في المؤلفة قلوبهم هو النضر ـ هكذا مكبّراً ـ وموافقاً لاسم اللعين المقتول صبراً عقب بدر، فيكون ابن عبد البر قد اختلف على نفسه في كتابيه المغازي والاستيعاب ما لم يثبت أن في أحدهما غلطاً مطبعياً.

وإعطاء النبي ﷺ للنضير ـ مصغّراً ـ وهو المترجم في استيعاب ابن عبد البر، وأسد ابن الأثير مائة من الإبل في حنين، لا يدل على أنه من المؤلفة قلوبهم، فقد ذكر ابن الأثير، وسبقه بذلك ابن عبد البر أن النضير جاءه رجل من الديل يبشره بأن النبي ﷺ قد أمر له بمائة من الإبل، وقال الديلي للنضير: أحذني، أو أجزني منها، فقال له النضير ـ وقد توهم أنها لتألفه على الإسلام ـ ما أريد أخذها، لأني أحسب أن رسول الله ﷺ لم يعطني ذلك إلا تألّفاً على الإسلام، وما أريد أن أرتشي على الإسلام.

ثم بعد تأمل في حال نفسه وموقفه من رسول الله ﷺ في ردّه عطيته قال النضير: والله ما طلبتها ولا سألتها وهي عطية من رسول الله ﷺ فأخذها، وأعطى الديلي منها عشرة.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدراً من المال فردّه عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف له ـ أو كلمة نحوها ـ فخذه».

ويتفق ابن عبد البر، وابن الأثير على أن النضير هاجر إلى المدينة، فلو كان من مسلمة الفتح المؤلفة قلوبهم فلا يقال في حقه: إنه هاجر إلى المدينة،

إذ لا هجرة بعد الفتح، اللّهم إلا أن يراد التوسع في لفظ (هاجر) بشيء من التجوّز.

وقال الزرقاني بعد أن ذكر أقوال العلماء في النضير بن الحارث وآخرون فيمن هاجر إلى الحبشة: فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفة قلوبهم لأنه ممّن رسخ الإيمان في قلبه، وقاتل دونه، لا ممّن يؤلف عليه.

وهذا غريب من الزرقاني، لأن الذين هاجروا إلى الحبشة لم يكونوا على مستوى واحد في قوة الإيمان ورسوخه، بل كان فيهم ضعيف الإيمان، مهزوز العقيدة، ومن هؤلاء من ارتد عن الإسلام في الحبشة وتنصّر فيها ومات على نصرانيته مثل عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، قبل أن تتشرف بزواج النبي ﷺ منها، ومنهم من فتن عن دينه بعد عودتهم إثر أكذوبة الغرانيق إلى مكة.

وقد ذكر البلاذري عن الهيثم بن عدي أن النضير بن الحارث هاجر إلى الحبشة، ثم قدم مكة فارتد، ثم أسلم يوم الفتح أو بعده، فالقول بأن النضير معدود فيمن هاجر إلى الحبشة لا ينافي أنه كان من المؤلفة قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح أو بعده لوجود الاحتمال الذي ذكره البلاذري عن الهيثم بن عدي.

على أن ابن حجر ذكر في (الإصابة) أن إعطاء رسول الله ﷺ مائة من الإبل كان للنضر ـ هكذا مكبراً ـ لا للنضير بلفظ التصغير، وأن هذا الإعطاء كان حينما أقبل رسول الله ﷺ من الطائف ونزل الجِعِرّانة، ولم يكن في حنين التي كان يعطي فيها المؤلفة قلوبهم من أنفالها وغنائمها.

والمعوّل عليه الذي لا تردد فيه أن النضر ـ هكذا مكبّراً ـ بن الحارث ابن علقمة بن كلدة أخبث شياطين قريش قتل صبراً عقب بدر بمكان يقال له الصفراء، قتله علي بن أبي طالب بأمر رسول الله ﷺ.

وذكر ابن إسحاق وتبعه أكثر من كتب في المغازي والسِّيَرَ بعده أبياتاً مستعطفة، تتضمن مدحاً لرسول الله ﷺ واستشفاعاً في قتل النضر ابن

الحارث، منسوبة إلى أخته أو ابنته قتيلة وهي أبيات فيها نفحة شاعرية، فلما سمع أبياتها النبي ﷺ قال ـ فيما تقول الرواية ـ: «لو بلغني هذا الشعر قبل أن أقتله لمننتُ عليه».

أبيات من الشعر مصنوعة تنسب إلى أخت النضر أو ابنته.

وذكر الزرقاني أن الزبير بن بكار قال سمعت بعض أهل العلم يغمز هذه الأبيات، ويقول: إنها مصنوعة، وهـذا كثير جداً في الشعر الذي أكثر منه ابن إسحق في سيرته.

يقول ابن المنير في توجيه ما عُزي إلى النبي ﷺ في شأن هذه الأبيات: وليس معنى كلامه ﷺ الندم، لأنه لا يقول ولا يفعل إلا حقاً، والحق لا يندم على فعله، ولكن معناه لو شفعت عندي بهذا القول لقبلت شفاعتها، ففيه تنبيه على حقِّ الشفاعة والضراعة، ولا سيما الاستعطاف بالشعر، فإن مكارم الأخلاق تقتضي إجازة الشاعر وتبليغه قصده.

قتل لصيق قريش
عقبـة بـن أبي مُعَيـط

يهودي لصيق النسب في قريش يتقرب بأحط مظاهر الفجور إليهم.

كان عقبة بن أبي معيط دنيء الفجور، خبيث الكفر، لئيم السفاهة، خسيس الشخصية، مغموز النسب في قريش، يشهد مجـالس الملأ من طواغيتها وهو مرذول محقّر منهم، ليس له معهم إلا أن يتعرّف مواقع الرضا منهم، فيسرع إلى التقرب إليهم بتنفيذ ما يتوهم أنه رضا لهم، يستبطن الغدر، له نحيزة يهودية لا تخفى على من يراه في حركاته هنا وهناك؛ ولليهود طبيعة في سجل الجبن والغدر والتدنِّي للحصول على ما يستهدفون، تميزوا بها في تاريخ البشرية، ولهم من خصائص الجبن المتشاجع ما تعطي صورته نحيزة هذا الخبيث الملتصق بقريش، وهو منها بزجر المهانـة والازدراء، لا تعرفه إلا لتستخدمه في أحط مواقف الفجور، لم تعرف له الحياة الجاهلية موقفاً من مواقف الشرف الوثني قط، فهو عربيد متعهِّر، يسمع هذا الخبيث الملعّن ملأ قريش وهم في مجلسهم يقولون: من يقوم إلى هذا السَّـلاَ ـ يشيرون إلى أقذار من الدماء والأكراش المتعفِّنة مطروحة على مقربة منهم ـ فيلقيه على ظهر محمد ـ ﷺ ـ وهو ساجد، فيبادر قولهم، ويسبق عبدانهم

والأدنياء من أتباعهم هذا الفاجر الملصق النسب بقريش إلى إجابتهم فيقول: أنا، ويقولون له: نعم أنت أهلها، ويذهب إلى هذه القاذورات التي تأنف أحط الحشراتٌ أن تمشي إليها، ويحملها ويأتي بها، ويلقيها على ظهر النبي ـ ﷺ وهو ساجد ـ والملأ ينظرون متسافهين متضاحكين، ويبقى النبي ﷺ في سجوده حتى ذهب الصريخ إلى الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام السيدة فاطمة بنت أكرم خلق الله أباً وأماً، فتأتي رضي الله عنها وأرضاها، وترفع هذه الأقذار عن ظهر أبيها، وتغسل ما لحق به ﷺ من آثار هذا التسفّل الفاجر، ثم تقبل على ملأ قريش فتسبّهم وتشتمهم، فنكسوا رؤوسهم ولم يردّوا عليها بكلمة واحدة، وقام النبي ﷺ ونظر إليهم نظرة أحاطت بهم وكأنها لعنات من السماء تصب عليهم، وتأخذ من أنفسهم مأخذ الخنجر المسموم وهو يهوي إلى صدر غفول.

استخزاء عقبة وهو يرى موقف الخزي من ملأ قريش.

ويرى الفاجر لصيق قريش عقبة بن أبي معيط ـ لعنه الله ـ هذا المنظر المتخاذل من مواقف ملأ قريش فيستخزي، ويتوارى ذليلاً حقيراً، لأنه لم يكن يتصور أن ملأ قريش الذي يتعزّز بالنسب إليهم يسمع من محمد ﷺ ما يسمع ثم يقفون هذا الموقف الذليل الذي يجلِّله الخزي والعار. وتمضي الأيام بطيئة ثقيلة الخطى في كفاح مرير، ونضال صبور بين الحق والباطل، والخير والشر، ولا يجد ملأ الفجور الطغاة من قريش متنفساً إلا أن يصبّوا على طلائع السابقين إلى الإسلام جام غضبهم تعذيباً واضطهاداً، حتى فتح الله الطريق إلى الهجرة، فهاجروا إلى إخوانهم الأنصار بالمدينة، وبنَوا فيها صرحاً شامخاً للمجتمع المسلم الجديد في تركيبه الاجتماعي التكافلي بامتزاج من هاجر بمن نصر.

وجاءت غزوة بدر بأحداثها تسعَى إلى المجتمع المسلم عزيزة، تحمل له ألوية النصر، وجاءت حشود الفجّار من ملأ قريش وغوغائها إليها مدحورة مهزومة، والتقى الجمعان، وتمشي سيوف المجتمع المسلم إلى أعناق أشراف حشود الفجار فتقطّها قطاً، وكانت الجبال والوديان مأوى الفارين هرباً من القتل، فأخذوا أسرى مصفّدين في الأغلال أذلّاء، وفيهم هذا اللصيق الفجور عقبة، ويأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالرحيل إلى المدينة بعد

تصفية الموقف في بدر، ويبعث ببشرى النصر إلى من في المدينة وأعاليها، ويسوق شقران مولى رسول الله ﷺ الأسرى، وفيهم بقايا أشراف قريش، ويقوم على الغنائم وحفظها أحد البهاليل من الأنصار عبدالله بن كعب النجاري المازني، ويمضي رسول الله ﷺ في سيره حتى يبلغ (عرق الظبية) مكان على ثلاثة أميال من الروحاء مما يلي المدينة، وهناك يأمر ﷺ عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح الأنصاري، العقبي، البدري ـ خال عاصم بن عمر بن الخطاب لا جده، كما توهمه بعض الرواة ونبه عليه الحافظ ابن حجر فهو أخو جميلة بنت ثابت، وهي صاحبة قصة الامتناع عن مزج اللبن بالماء خوفاً من الله تعالى، وقد سمع عمر بن الخطاب محاورتها في ذلك مع أمها فزوجها لابنه عاصم، فكان من أبرك ثمراتها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ـ بقتل أخبث من مشى على أرض مكة اليهودي (المتقريش) عقبة بن أبي مُعَيط ـ لعنه الله ـ الذي بلغ من فجوره وكفره ومهانته في تقربه للملأ من قريش أن آذى رسول الله ﷺ إذاية لم تبق له في سجل الرحمة من قلب رسول الله ﷺ شيئاً قط، وفيها مواقف ننزه البحث عن ذكرها، ولما سمع هذا الجبان الرعديد أمر رسول الله ﷺ بقتله صاح في صَغَار وذلّة مهينة متناسياً مواقفه الإجرامية: يا محمد مَنْ للصبية؟ فقال رسول الله ﷺ: «النار» وقال الزرقاني في شرح المواهب ويروى أنه قال يا معشر قريش، ما لي أقتل من بينكم صَبْراً؟ فقال له رسول الله ﷺ: «بكفرك وافترائك على الله» وأنه ﷺ قال له: «لست من قريش، هل أنت إلا يهودي من أهل صفورية؟» قال الزرقاني: وذلك أن أمية جدّ أبيه خرج إلى الشام فوقع على يهودية لها زوج من صفورية، فولدت له ذكوان المكنى أبا عمرو، وهو والد أبي معيط على فراش اليهودي فاستلحقه بحكم الجاهلية.

قتل عقبة بن أبي معيط وهو يتذلّل جبناً وخزياً.

ثم قال الزرقاني: قال الاسماعيلي: وهذا الطعن خاص بنسب عقبة من بني أمية، وفي نسب أمية نفسه مقالة أخرى، أبينا أن نذكرها، وقد ذكرها الإسماعيلي وكلام الإسماعيلي يشعر بترجيح ما قيل في نسب عقبة ابن أبي معيط، وأنه (ضرطة يهودية). وفي بداية ابن كثير عن ابن إسحاق قال: ثم خرج ـ أي النبي ﷺ ـ حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط،

نقل الزرقاني عن الإسماعيلي حكاية الطعن في نسب عقبة بن أبي معيط وروى في ذلك حديثاً.

قال ابن إسحق، فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: (النار).

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ليقتله، قال: يا معشر قريش علام أقتل من بين من ههنا؟ قال: على عداوتك لله ورسوله.

ثم قال ابن كثير: وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن الشَّعْبي قال: لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال عقبة: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال: «نعم، أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي، وغمزها، فما رفعها حتى ظننت عيني ستندران، وجاء مرة أخرى بسَلاَ شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».

وقد نفّذ عاصم بن ثابت أمر رسول الله ﷺ وطهّر الأرض من رجس هذا اليهودي اللصيق بنسب قريش جزاء وفاقاً على ما كان منه من فجور وإجرام.

رهبة أعداء دين الإسلام وإظهار رأس النفاق عبدالله بن أبي الإسلام خوفاً ورعباً.

ولما خرج رسول الله ﷺ من مضيق الصفراء قسّم النفل بين المسلمين على السواء، ثم أقبل ﷺ إلى المدينة فدخلها قبل الأسرى بيوم، مؤيداً منصوراً وقد خافه كل عدو له بها وحولها، وأسلم كثير من أهل المدينة، وتظاهر رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول بالإسلام، يدرأ به عن نفسه، وقالت اليهود: لقد تيقنّا أنه النبي الذي نجد نعته في التوراة. ثم فرق رسول الله ﷺ الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً» وقد كان لهذه الكلمة النبيلة أعظم الأثر في تطبيق منهج الرسالة على الذين لا يملكون لأنفسهم تصرفاً، وظهر فيها تحقيق معنى قول الله تعالى في الثناء على المؤمنين: ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾.

وهذا لون من التوجيه الإنساني في منهج رسالة الخلود، يمثل ما قامت عليه هذه الرسالة من إعزاز الإنسان وكرامته، فالأسرى بقايا من أعداء المجتمع المسلم، أبت عليه روحه التربوية الرحيمة أن يحمّلهم عواقب ما كان منهم وهم محاربون، فيأخذهم بالشدّة وقد أصبحوا في يده لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، وأبت عليه نخوته الإيمانية أن يحمِّلهم آثار ما كان منهم

ومن طواغيتهم في اضطهاد طلائع السابقين إلى الإسلام وإيذائهم بصنوف التعذيب وألوان البلاء، وهم إذْ ذاك لا يملكون الدفاع عن أنفسهم لأن رسالة الهدى والنور لم تكن تستهدف إعنات الحياة، وأخذها بروح الغلبة والقهر، والسيطرة والتشفِّي، فالنبي ﷺ إذْ يقول لأصحابه بعد أن وصلوا مأمنهم واستقروا أعزة في مدينتهم: «استوصوا بالأسرى خيراً» إنما يذكرهم بمنهج رسالتهم التي جاء به دستورها الأعظم.

الوصية بإكرام الأسرى جانب من المنهج الإسلامي الرحيم.

وقد كان هذا السلوك التربوي العظيم مدعاة لإيمان كثير من هؤلاء الأسرى، بل مدعاة لتلاقي مناحي التفكير بين الأسرى وآسريهم مما أتاح للدعوة إلى أن تسري إلى القلوب رحيمة، لا إكراه فيها ولا تعنيت، بل أتاح لها أن يسبقها الحديث عن هدايتها مع الذين افتدوا أنفسهم، وعادوا إلى بلدهم وأهليهم، يتحدّثون إليهم عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه وعن مجتمعه وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى، والإصلاح والخير، وإيثار الإخاء الإيماني على الإخاء الجاهلي الذي يعتمد على علاقة الولادة والعنصرية النسبية.

صورة رفيعة من الإخاء الإيماني ترفعه فوق أخوة النسب.

ذكر ابن إسحاق: أنه كان في الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب ابن عمير لأبيه وأمه، وهو ممن كان مثلاً مضروباً في الحديث عن التربية السلوكية للمجتمع المسلم، وهو ينفِّذ وصية رسول الله ﷺ بالأسرى فيقول: مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال له مصعب شدّ يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب حين سمع قوله لآسره: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

ويقول أبو عزيز بن عمير: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز: وأكلو التمر لوصية رسول الله ﷺ لهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاّ نفحني بها، فأستحي فأردها، فيردها عليّ ما يمسها.

وقد كان لهذا السلوك الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في

ثنائه على المؤمنين وذَكَّر به النبيُ ﷺ أصحابه فاتخذوه خُلقاً وكان لهم طبيعة - أثره العظيم في إسراع جماعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة وتنفيذ وصاة رسول الله ﷺ، وأسلم معه السائب بن عبيد بعد أن فَدَى نفسه، ثم أسلم منهم جماعة يوم الفتح كان على رأسهم سهيل بن عمرو، وكان مفوّهاً فصيحاً، وأراد عمر بن الخطاب أن يصنع به ما يعوّقه عن فصاحته، فقال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فأبى رسول الله ﷺ على عمر أن يجيبه، ورأى أن هذا من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «لا أمثِّل به فيمثِّل الله بي، وإن كنت نبياً» وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراساً لأمته في انتصاراتها على أعدائها، وجعله من ضمن وصيته في الجهاد، إذ قال في رسالته لكتائبه: «لا تغلّوا ولا تمثلوا».

إسلام سهيل ابن عمرو ورفض النبي ﷺ أن يمثل به.

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يذكّر عمر رضي الله عنه بفضل الله ليخفف من حميته فقال له: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه».

تصديق الله تعالى لنبيه ﷺ في تحقيق رجاوته نصرة سهيل. للإسلام يوم محنته.

وقد حقق الله تعالى رجاء رسول الله ﷺ، ووقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه موقفه في الناس بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وارتدت العرب إلا قلة ثبتت على الإسلام، ونجم النفاق واشرأب غدر اليهود، واشتد الأمر، فقام سهيل في أهل مكة خطيباً ليثبتهم على الإيمان بعقيدة الإسلام، فثبتوا وكان من أشباله الذين أقاموا دعائمه.

ومما يكشف عن آثار منهج رسالة الإسلام في تربية المجتمع المسلم تربية سلوكية يتخذ منها هذا المجتمع دستوراً يقيم على دعائمه بناء حياته الاجتماعية في مستقبل سيرته في الدعوة إلى الله تعالى وإقامة موازين العدل والإخاء الإنساني، وتوجيه الإنسانية إلى منازل الهداية في سلوكها، معتصمة بالإيمان بالله عز شأنه إلهاً واحداً، متفرداً بحق المعبودية، وتدبير الكون بحكمته، متباعدة عن مزالق الشرور والفساد، تعبداً للرغائب والشهوات التي تحكمها نزعات الغرائز الجامحة - تتبع الوقائع والأحداث التي تسترفدها

المواقف البطولية في جهاد المجتمع المسلم لإعلاء كلمة الله، والتي قَضَى فيها رسول الله ﷺ قضاءً منهجياً، يمثل خصائص الرسالة في وضعها الاجتماعي المتكافل الذي يجعل من المجتمع المسلم وحدة أساسها الإيمان بالله، إيماناً يتخذ من جوانب المنهج دعامة يقوم عليها بناء الحياة لنصرة الحق، وحماية العقيدة التوحيدية التي هي أساس كل إصلاح يقضي على الوثنيات في شتَّى صورها وأشكالها، ويكشف عوار الشرك المدنس للتفكير الإنساني.

نموذج لتطبيق المنهج التربوي في حياة المجتمع المسلم.

ومن ثم كان لا بد من النظر في بعض هذه الأحداث باعتبارها نموذجاً لتطبيق المنهج التربوي الذي تكمن جوانبه في ثنايا صورها وأشكالها، حتى إذا كشف الغطاء عن هذه الجوانب استحال المنهج قانوناً ينظِّم الحياة على أسس من الفضائل الإنسانية في ضوء الأصول الأصيلة للرسالة الخاتمة، إذْ أتينا على بعض الأحداث التي كانت وقائعها صورة ممهِّدة لمسيرة الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته ـ بإزالة العقبات والعوائق، وتطهير الحياة من جراثيم الأوبئة الاجتماعية بالقضاء على مصادرها ممثلة في شخصيات طواغيت الوثنيات وطغاة الشرك من أنصاب الفجور العنيد، وأزلام الكفر العتيّ ـ كان لا بد للبحث من الوقوف مع بعض الأحداث التي كانت صورة للجانب الإيجابي من منهج الرسالة لإبراز ما كان في حناياها من إصلاح واستجابة لدواعي الهداية بعد التأبي العنيد، لتمكين الذين أضاءت أرواحهم وعقولهم أنوار الحقيقة في منهج الرسالة الذي عرفوه في سلوك حاملي أمانته من أفراد وجماعات المجتمع المسلم وقد كان من هذه الأحداث المليئة بالعبر المنهجية.

قصة أبي العاص بن الربيع
صهر رسول الله ﷺ

من معالم منهج الرسالة في قصة أبي العاص ابن الربيع.

كان أبو العاص بين أسرى بدر وهو زوج ابنة رسول الله ﷺ الكبرى السيدة زينب عليها السلام، وهو رجل من رجالات مكة المعدودين في أمنائها وعقلائها وأهل ثرائها، وذوي الخبرة في تجاراتها، وأهل المروءات في أشرافها، وهو ابن أخت أم المؤمنين السيدة خديجة، أمه هالة بنت خويلد وقد رضيته خالته خديجة زوجاً لابنتها الكبرى بنت رسول الله ﷺ فرضيه رسول الله ﷺ له صهراً، وكان يثني عليه في صهره كما ثبت في الصحيح، وكان أبو العاص رضي الله عنه ممّن أكرمه ومنّ عليه النبي ﷺ فأطلقه بغير فداء، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنَى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقَّة شديدة وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الذي لها فافعلوا» فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردّوا عليها الذي لها.

ذكريات رحيمة تأخذ من قلب النبي ﷺ مكانها.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ على أبي العاص أن يخلِّيَ سبيل زينب، فوفَى أبو العاص بما عاهد عليه رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ في أثره زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وقال لهما: «كونا ببطن يأْجَجٍ حتى تمرَّ بكما زينب فتصحباها فتأتياني بها» فخرجا بعد بدر بنحو شهر، منفِّذَين لأمر رسول الله ﷺ. ولما وصل أبو العاص إلى مكة قال لزينب الحقي بأبيك، فخرجت تجهّز، قالت زينب رضي الله عنها: فلقيتني هند بنت عتبة فقالت:

من مواقف المروءة العربية بين هند بنت عتبة وزينب بنت رسول الله ﷺ.

يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت ما أردت ذلك، فقالت: أي ابنة عـم، لا تفعلي، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو مال تتبلغين به إلى أبيك فعندي حاجتك، فلا تضطبني مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

وحديث هند هذا يحمل صورة من مكارم العرب في مروءاتها، لأنها كانت صادقة فيما قالت ـ قالت زينب رضي الله عنها: فوالله ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

ولما أتمّت زينب جهازها قدّم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها، وتحدّث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها فأدركوها بذي طُوَىً، وكان أول من سبق إليها الخبيث الجبان الملعّن هبّار بن الأسود بن عبد المطلب الفهري فروّعها بالرمح وهي في هودجها، وكانت حاملاً فطرحت، وبرك حموها كنانة بن الربيع ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكركر الناس عنه.

وأتى أبو سفيان بن حرب في جلّة من قريش، فقال له: أيها الرجل، كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكفَّ، فأَقبل إليه أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فتظن الناس إذْ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذلٍّ أصابنا، وأن ذلك ضعف منا ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة.

ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد رددناها فسُلّها سراً وألحقها بأبيها.

وقد عيّرت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان النفر الذي ردّوا زينب لما رجعوا إلى مكة تذكر لهم جبنهم ومهانتهم في الحرب، وتشاجعهم على ردِّ امرأة من سفرها إلى أبيها، فأنشدت تذمهم وتهجوهم.

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك

وأقامت زينب رضي الله عنها ليالٍ حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها حموها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه الأنصاري، فقدما بها ليلاً على رسول الله ﷺ.

وعيد هبار وصاحبه على ترويعهما زينب وإهدار دمهما.

وفي حديث أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ سرية أنا فيها فقال: «إن ظَفرتم بهبّار بن الأسود والرجل الذي سبق معه إلى زينب فحرِّقوهما بالنار» فلما كان الغد بعث إلينا فقال: «إني قد كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يحرق بالنار إلا الله عز وجل، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما».

وقد روى البيهقي في الدلائل في خروج زينب رضي الله عنها من مكة إلى المدينة رواية تخالف رواية ابن إسحاق، فذكر عن عائشة رضي الله عنها من طريق عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ بعث زيد بن حارثة وأعطاه خاتمه لتجيء معه، فتلطف زيد فأعطى الخاتم راعياً من رعاة مكة، وأعطاه الراعي زينب فعرفته، وقالت للراعي: من دفع إليك هذا؟ قال: رجل في ظاهر مكة فخرجت زينب ليلاً، فركبت وراء زيد بن حارثة حتى قدم بها المدينة، قال عروة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «هي أفضل بناتي؛ أصيبت فيَّ» فبلغ ذلك علي بن الحسين: زين العابدين، فأتى عروة، فقال: حديث بلغني أنك تحدثته؟ فقال عروة: والله ما أحب أن لي ما بين المشرق والمغرب، وأني أنتقص فاطمة حقاً هو لها، وأما بعد ذلك أن لا أحدث به أبداً.

استجارة أبي العاص بزينب وموافقة النبي ﷺ على إجارتها له.

وقد ذكر ابن إسحاق أن أبا العاص أقام بمكة كافراً بعد أن منّ عليه النبي ﷺ وأطلقه من غير فداء. واستمرت زينب عند أبيها ﷺ بالمدينة حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة لقريش إلى الشام، فلما قفل عائداً بما معه من أموال قريش لقيته سرية من أصحاب رسول الله ﷺ، فأخذوا ما معه وأعجزهم هرباً وجاء تحت الليل إلى زوجته زينب، فاستجار بها، فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح، وكبّر، وكبّر الناس،

صرخت زينب من صفّة النساء فقالت: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس هل سمعتم الذي سمعت؟» قالوا نعم، فقال رسول الله ﷺ «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم» ثم انصرف رسول الله ﷺ: فدخل على ابنته زينب فقال: «أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له».

وبعث رسول الله ﷺ إلى الناس فحثّهم على ردِّ ما كانوا أخذوه من أبي العاص من أموال ومتاع، فردّوه عليه بأسره، لم يفقد منه شيئاً، فأخذه أبو العاص، ورجع به إلى مكة، فأعطى كل إنسان ما كان له، ثم قال لهم: يا معشر قريش، هل لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، فقال أبو العاص رضي الله عنه: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلّا تخوّف أن تظنُّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم وفرغت منها أسلمت، ثم خرج من مكة حتى قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة، فردّ عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب.

وفي كيفية هذا الرد اختلاف واسع الأكناف بين الفقهاء نشأ عن اختلاف الأحاديث والآثار، وقد ذكر ابن كثير منه في البداية ما سمح له المقام بذكره مع شيء من التفصيل ورد أحكام الفقهاء إلى مصادرها من الأدلة الحديثية.

عرض وتحقيق

هذا مجمل قصة أبي العاص بن الربيع وكان معدوداً في رجالات قومه، ثراء وتجارة، وأمانة، وشهامة، ومروءة، أصهر إلى النبي ﷺ قبل البعثة فتزوج ابنته الكبرى السيدة زينب رضي الله عنها وهي ابنة خالته السيدة خديجة رضي الله عنها، اختارته لها زوجاً ورضيه النبي ﷺ له صهراً، فكان من أكرم الناس وفاء في عشرته الزوجية وتقديره لهذا الإصهار الأكرم، وكان النبي ﷺ يثني عليه في صهره كما رواه الصحيح.

لم تعرف لأبي العاص حركة في مقاومة الدعوة قط.

عرف أبو العاص ما اشتهر به النبي ﷺ من مكارم الأخلاق معرفة مخالطة لم يصل إليها أحد غيره من غير أفراد أسرة رسول الله ﷺ الخاصة التي تعيش في كنفه ورعايته.

ولما بعث رسول الله ﷺ عرف أبو العاص ما كان يدعو إليه النبي ﷺ من الهدى والخير والتوحيد، وطرح الشرك والوثنية وخلع الأنداد والشركاء، ولكنه كان في شغل عن الاستجابة إلى الإيمان بما يدعو إليه رسول الله ﷺ، وآمنت زوجته السيدة زينب مع أمها وإخوتها في أول من آمن بالدعوة لم يسبقهم إلى الإيمان بها أحد قط.

ورأى أبو العاص اشتداد ساعد الدعوة وازدياد من يلبي نداءها، وشهد مع ذلك عداوة قريش لها ومقاومتها بكل ما تملك من طغيان وقوة وإيذاء للنبي ﷺ وأصحابه الذين سبقوا إلى الإيمان به وبدعوته هداية ونوراً.

بيد أن تاريخ مقاومة الدعوة لم يعرف قط موقفاً لأبي العاص شارك فيه قومه في هذه المقاومة بأي لون من ألوانها، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله، واكتفت قريش من أبي العاص بأن يكون المضارب لها في تجارتها يحمل إليها في رحلاته الأرباح الطائلة، يقول ابن الأثير: (وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله ﷺ مصافياً). ولكن الأحداث لم تترك أبا العاص بن الربيع بعيداً عن ضغطها واحتوائها، فقد اشتد ما بين رسول الله ﷺ وأصحابه وبين قريش من العداوة، وهاجر كثير من المؤمنين إلى الحبشة، وتوالت المحن والأزمات على رسول الله ﷺ وعلى من بقي معه من أصحابه بمكة معتصمين بالصبر والرضا بما ينالهم من العذاب والبلاء في سبيل الحرص على دينهم وعقيدتهم حتى أذن الله بالفرج، وقدمت وفود الأنصار إلى مكة وبايعوا رسول الله ﷺ إذا هو وأصحابه هاجروا إليهم أن يمنعوهم ما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة ثم لحق ﷺ بهم وامتزج المهاجرون بالأنصار في مؤاخاة إيمانية جعلت من كل مهاجري أخا

لأنصاري في المواساة والمشاركة والمعاونة والترافق في شؤون الحياة، ثم في مؤاخاة اجتماعية تكافلية بين كافة المهاجرين وجميع الأنصار مؤاخاة جعلت من المجتمع المسلم قوة أرعبت قريشاً، وأشجتهم غيظاً ورهبة، وأخذت عليهم مسالك الحياة، ووقفت لهم رصداً، تصد عيراتهم وهي تحمل أموالهم غادية رائحة، إلى أن خرج ﷺ لملاقاة أعظم عيرات قريش وأكثرها أموالاً، ففاتته، وتعبأت قريش للقتال بعددها وعدّتها وجمعت قواها المادية واستوعبت كل ما تقدر عليه من عدة قتالية.

ألوية النصر تخفق على رؤوس كتائب جند الله.

والتقى الجمعان على مياه بدر، ودارت رحى الحرب في شراسة فاجرة تعبأت لها حشود الكفر والغرور الأحمق، وفي فدائية إيمانية تعبأت لها القلة المؤمنة من جند المجتمع المسلم مستهدفة إعلاء كلمة الله، التي أُرسل بها محمد ﷺ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ودارت رحى القتال، وما هي إلا جولة وأخرى حتى خفقت ألوية النصر على رؤوس المؤمنين، ورفرفت أعلام الظفر فوق هامات المجتمع المسلم، وحلّت الهزيمة المنكرة بطغاة الكفر من الوثنيين المشركين، فقتل الله تعالى صناديد الكفر بأيدي من كانوا بالأمس من المستضعفين، وألقى أشرافُهم بأيديهم في صَغَار وذلّة أسرى يقودهم مولى من موالي رسول الله ﷺ، ويسوقهم الرعب من ورائه ليسمعوا قضاء رسول الله ﷺ فيهم.

وكان أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ من بين الأسرى الذين لم يسمع لهم في المعركة صوت، ولم يعرف لهم رأي، ولا شوهدت لهم في قتال جولة.

قضاء الله في الأسرى يطبقه رسول الله ﷺ أفضل تطبيق.

ووصل الأسرى إلى المدينة المنورة، وقضى فيهم رسول الله ﷺ بقضائه الذي أنزل الله عليه وحياً يتلى في قوله تعالى: ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ ولم يكن القتل لمن أُسِر مشروعاً إلا لمن عظم كفره وطغيانه، وعتا في فجوره عتواً حجب عنه التوبة بالإيمان، كالذي كان من النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط اللذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهما صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة

وفي هذا القضاء الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ وحياً يتلى في شأن الأسرى والتصرف في أمرهم جانب من أهم جوانب منهج الرسالة الخاتمة التي نزلت على محمد خاتم النبيين ﷺ، لتخرج الناس بمنهجها في الهداية من ظلمات الضلال وشرور الإفساد الاجتماعي إلى نور الحق والخير والإصلاح.

زينب تبعث في فداء أبي العاص بمال فيه قلادة زواجها به.

ذلك أنه كان ممن شملهم الأسر فلا ينفلتون إلا بفداء أو منٍّ أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ، وبدأت قريش تفادي أسراها، فأرسلت السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وزوجة أبي العاص بمال تفديه به، وبعثت مع المال قلادة كانت أمها السيدة خديجة رضي الله عنها أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها لتتحلّى بها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة ابنته رقّ لها رقّة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبويّة عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، قبل أن تأتيه رسالة الله بمنهجها الإصلاحي.

الذكريات تتوالى على النبي ﷺ فيأخذه الحنين إلى ابنته الكبرى.

فالنبي ﷺ أب، له من عواطف الأبوّة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتذكّر ﷺ برؤيته هذه القلادة ـ وهي أغلى شيء في حياة ابنته وذكريات مناسبتها، وذكريات من أهدتها إليها، ولعلها لم تبعث بها مع مال الفداء إلا لتحرِّك في نفس أبيها سيد الموقف في فداء الأسرى أنبل عواطف الأبوة الرحيمة، ولتثير في نفسه ﷺ أسمَى مشاعر الحب الأبوي المشفق، ولتضع في بناء الوفاء الزوجي لبنة ربما لم يكن عندها ما يفي بقدرها، والنبي ﷺ أوفى البرية بمكارم الأخلاق.

وهو ﷺ زوج لأوفى زوجة منحه الله منها الولد وحرمه إياه من غيرها توكيداً لأشرف روابط الحياة بين البشر.

وها هي ذي ابنته الكبرى تبقى في مكة وحيدة مع زوجها مسلمة، وهو على كفره لم تفكر قط في مفارقته، لأنه كان حفياً بها، وفياً في معاشرتها، محباً لها، معتزاً بها، ويؤسَرُ زوجها في أشراف قومه، ويطلب الموقف فداءه، فترسل قلادتها فداء له.

ويرى النبي ﷺ هذه القلادة فتتنادى إليه الذكريات، وفيها ذكريات السيدة خديجة وفرحها وهي تدخل ابنتها على ابن أختها هالة بنت خويلد، وتحلِّيها بأحسن ما عندها من الحلي، وتزيِّنها بقلادة تهديها إليها في فرحة العمر، فتقدِّمها زينب في فداء زوجها طيبة بها نفسها وفاء لحياتها الزوجية مع ابن خالتها، فيعظم ذلك في نظر النبي ﷺ.

وهو ﷺ أب وكافل لأسرة قاعدتها العريضة أولاده، وقمتها زوجه وزيرة الصدق، ومأنس القلب، ومفرجة الأزمات والشدائد عنه بما أنعم عليها من عقل رشيد، ورأي سديد، وحب لم تعرف الحياة له مثيلاً في صفائه وطهره وتضحياته.

فإذا رأى ﷺ هذه القلادة الكريمة ـ بعد أن غابت عن نظره رَدَحاً من الزمن تخللته أحداث جسام ـ ذكّرته بما كان له ﷺ ـ قبل أن يحمل عبء الرسالة والدعوة إلى الله ـ في هذه الفترة مع أسرته من ودّ هامس، وحب شفيف، ومشاركة لهم في حياتهم وعيشهم الهادىء الوادع المبتسم للحياة.

وهو ﷺ في روحانيته مخلوق من نور الرحمة التي جعلها الله بؤرة لأشعة أنوار أزكى المشاعر وأسمى العواطف الإنسانية النبيلة.

وهو ﷺ في بشريته مخلوق من أطيب وأطهر ما خلقت منه حفائظ الأرواح من أجسام البشر، فهوﷺ الطيِّب المبارك المطهر، حسّاً ومعنى، روحاً وبدناً، فالرحمة الودود سجيته، والرأفة المشفقة طبيعته، والحنان الحنون نحيزته.

عواطف الحنان وإشفاق الأبوة طبيعة بشرية.

فإذا رأى ﷺ قلادة فرحة ابنته بين مال الفداء لزوجها الوفي الكريم تواثبت إلى حنايا نفسه الكريمة المكرّمة أسمى مشاعر الرحمة، وتنزلت على قلبه الرحيم وابلات غيث الرأفة في أطهر قطرات الحنان الأبوي، وتواكفت على إحساساته نسائم الإشفاق الأكرم، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، وتتابعت على وجدانه ذكريات حب الولد من البنات والبنين.

هذا الحب الذي صار بعد أن تنزّلت أنوار الرسالة على قلبه ﷺ قبساً من نور الرحمة الشاملة لكل من في الحياة، وكل ما في الحياة من صامت وناطق، وعاقل وغيره ، وهي الرحمة التي أرسل بها ولها محمد ﷺ، فغمرته رقتها المنبعثة من وجدانه الأبوي، فتوجّه إلى أصحابه رضي الله عنهم متلطفاً يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء، ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا».

توجهه ﷺ إلى أصحابه في أن يطلقوا لزينب أسيرها ويردوا عليها الذي لها.

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة.

فالأساس في الطلب المتلطف إطلاق الأسير الذي هو أسيرها، بهذه الإضافة التي تكاد تجعل من التلطّف استعطافاً شفيعاً، لأنها إضافة خاصة رفعت من شأن هذا الأسير وأدخلته في إطار المخصوصين بالرعاية، وأكد هذا المعنى أن هذا الإطلاق (لها) وهذه حفاوة في التعبير تزيد في إبراز الرغبة في إطلاق أسيرها، المشعرة بالاستعطاف ممن له حق الأمر النافذ، لإيحائها بأن صاحبة هذه القلادة ابنته ﷺ التي أفردت عن إخوتها وسائر أسرتها بالبقاء وحيدة بمكة، تعاني مرارة الوحدة والبعد عن حنان الأبوة الرحيمة.

كان رد القلادة أهم من رد المال عند رسول الله ﷺ.

وإذا تحقق هذا الأساس جاء الترغيب في استكمال نعمة الامتنان في إطلاق أسيرها، فقال ﷺ: «وتردّوا عليها الذي لها» والذي لها هو محور العطف والذكريات المتواليةمن الماضي البعيد القريب، هو قلادة فرحة العمر التي أهدتها إليهاأمّها في أعز مناسبة، وهذه القلادة هي التي أثارت في نفسه ﷺ الرقّة الشديدة لابنته، ولهذا لم يقل ﷺ لأصحابه: وتردّوا عليها ما بعثت به من مال لفداء زوجها لأن المال لم يبلغ في هذه المناسبة المليئة بالذكريات من المكانة ما يستدعي كل هذا التلطف والاستعطاف في طلب ردِّه عليها، ولعل المال مال زوجها أرسلته لتفديه به، ولكن القلادة (لها) وضعاً وطبعاً وملكاً وذكرى، ولن تبلغ فجيعتها في المال شيئاً من فجيعتها في قلادتها، هدية أمها لها في بناء زوجها بها.

ولهذا جاءت إجابة الصحابة رضي الله عنهم عن تساؤل رسول الله ﷺ سريعة محققة لكل ما يبتغي منها، فقالوا: نعم، يا رسول الله فأطلقوه، وردُّوا عليها مالها وقلادتها.

وفاء أبي العاص بعهده ووعده في تخلية سبيل زينب حتى لحقت بأبيها ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ على أبي العاص حين سرحه إلى مكةأن يخلي سبيل زينب لتلحق به، وتكون مع أخواتها في رعاية أبوية تعوّضها عن مرارة الفرقة والبعد فيما خلا من الزمان.

وكان أبو العاص على سجيته وفياً كريماً، فإنه لم يكد يصل إلى مكة ويرى زوجته شاكراً لها موقف النبل منه في أسره وفدائه بأعز وأغلى ما تملك حتى أسرع إلى تنفيذ ما عاهد عليه رسول الله ﷺ من إخلاء سبيل زينب لتلحق به ﷺ، وتعيش مع إخوتها في كنفه مغمورة بحبه الأبوي، فقال لها: الحقي بأبيك، فلم تملك زينب نفسها من الفرحة. فخرجت تجهّز لسفرها، وتعدّ لهذا السفر الطويل عدته مما يرفق بها ويسهل عليها وعثاء الطريق، وقد أثنى عليه النبي ﷺ لوفائه، فقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفّى لي» قالت زينب رضي الله عنها: فلقيتني هند بنت عتبة، فقالت لي: يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت: ما أردت ذلك، فقالت هند ـ وقد فهمت ما في رد زينب من التخفي ـ: أي ابنة عم، لا تفعلي ـ أي لا تتخوفي مني، وتكتمي عليّ أمرك لما بين قومنا من مواقف مضطغنة ـ إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو مال تتبلّغين به إلى أبيك فعندي حاجتك، فلا تضطبني مني ـ أي لا تجعلي أمرك في ضبنك مستوراً عني ـ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

موقف مكارمة بين هند بنت عتبة والسيدة زينب رضي الله عنها.

هذا الموقف الذي وقفته هند بنت عتبة من زينب بنت محمد ﷺ من أعجب العجب، ولكنه في ذرى الشرف لا يستغرب من أعلياء بيوتات العرب، وهو سَنَن مسلوك في مكارم أخلاقهم مستعذب.

فهند صاحبة هذا الموقف النبيل المتسامي بنبله فوق مألوف الطباع البشرية هي التي قتل أبوها وأخوها وعمها بالأمس القريب في بدر، ولا تزال دماؤهم على أرض بدر لم تجف، قتلهم ثلاثة هاشميون من عمومة زينب

رضي الله عنها، وكأنما سيوفهم تحش أحشاء هند حشّاً، وهي تعرض على زينب أشرف مكارم المروءة فقد أحرقوا كبدها، وأشعلوا نار الحقد المغيظ الحانق في قلبها، وعاشت أيامها تترقب فرصة الثأر الذي يشفي غليلها، ويستطفىء أوار غلّها حتى صنعت ما صنعت بحمزة في غزوة أحد، ثم أسلمت وكانت متكلمة المبايعات من المسلمات، ولكن هند بنت عتبة بنت أبيها وسلالة أمية الذين لا ينامون على وِتْر، ولأبيها عتبة مكارم جاهلية مشهّرة، وكان لا يخلط الأحداث والوقائع، فيدفن المكرمات حتى لا يرى إلا الضغائن والدماء.

صدق هند مع نفسها وصدق زينب مع طبيعتها ومرباها.

ومن ثم كانت هند صادقة مع نفسها في ضغنها، وصادقة مع نفسها في مكرمتها. قالت زينب رضي الله عنها: فوالله ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

وهذه شهادة لا تردّ، لأنها شهادة عليم شهيد، وللصدق معالم تحف به فلا تستطيع حوالك التصنّع أن تخفيه وراء أستار المكر الكائد والدغل المخادع، فهي شهادة إذا وضعت في ميزان مكارم الأخلاق والاعتراف بالفضل لأهله مع شدة شوكة العداوة المضطغنة، فإنها لا تعجز أن توزن مكرمة النبل في موقف هند بنت عتبة.

فهند كانت صادقة مع نفسها وموروث بيتهاوقومها، وزينب كانت صادقة مع طبيعتها ومرباها. ولماأتمت زينب جهازها كان زيد بن حارثة في انتظارها خارج مكة، فخرجت متخفية تحت أستار الليل فحملها وراءه، وسار بها يطوي الليل والنهار، ويقطع الفيافي والقفار، حتى أقدمها على أبيها ﷺ بالمدينة، وبقيت مع إخوتها مستظلّة بظلال الحنان والأنس في رعاية أبوية مشفقة حانية.

المقادير الموفقة تسوق أبا العاص ليستجير بزينب فتجيره.

وأقام أبو العاص بمكة على دين قومه حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج في تجارة قريش، فلقيته سرية من أصحاب رسول الله ﷺ وهو في قفوله فأخذوا جميع ما معه، وأعجزهم هرباً حتى جاء تحت جنح الليل إلى زينب رضي الله عنها فاستجار بها فأجارته دون علم من النبي ﷺ، فلما خرج ﷺ

لصلاة الصبح وكبّر، وكبّر الناس صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

ولما سلم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، فقال ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت الذي سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم».

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال لها: «أي بنية، أكرمي مثواه ولا يخلصنَّ إليك، فإنك لا تحلّين له» فقالت: إنه قد جاء في طلب ماله، فجمع رسول الله ﷺ تلك السرية، وقال: «إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، وهو مما أفاء الله عليكم، وأنا أحب أن تحسنوا، وتردوا عليه الذي له، فإن أبيتم فأنتم أحق به» فقالوا: بل نرده عليه، فردّوا عليه ماله أجمع.

كان لا بد إذاً أن تخرج السيدة زينب من مكة لتلحق بأبيها ﷺ، فتجهزت وخرجت مع زيد بن حارثة حتى أقدمها المدينة، وهناك عاشت مع إخوتها في كنف الحنان الأبوي الرحيم.

وتعطّفت الأقدار، وساقت أبا العاص بن الربيع إلى المدينة غير مختار، فاستجار بزينب فأجارته دون علم من النبي ﷺ.

ولما خرج النبي ﷺ لصلاة الصبح وكبّر، وكبّر الناس صاحت زينب من صفة النساء بجوارها لأبي العاص، وأقر النبي ﷺ جوارها له، وأخبر الناس بأعظم قاعدة من قواعد المواساة بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم كما تضمّنها منهج رسالة الإسلام، مبيناً لهم أن المسلمين وحدة إيمانية تكافلية لا تفرقها المظاهر، وأنه يجير عليهم أدناهم.

تشريع يمثل جانباً من جوانب منهج رسالة الإسلام.

وقد جاءت هذه الوحدة الاجتماعية التكافلية في حديث اتفق المحدِّثون على صحته، يقول فيه رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

ثم بعد أن أعلن رسول الله ﷺ هذا الجانب المشرق في منهج رسالة الإسلام أراد أن يلفت نظر المجتمع المسلم إلى ما جاء في دستور رسالة الإسلام من تشريع يتعلق بالرابطة الزوجية بين زوجين، زوجة مسلمة، سواء أكان إسلامها سابقاً على الزواج أو حادثاً بعده، وزوج كافر كذلك.

وهذا التشريع المحقق لجانب اجتماعي من جوانب منهج رسالة الإسلام أن المسلمة لا تحل للكافر، فلا ينعقد زواج حادث، ولا يستمر زواج كان موجوداً بين امرأة مسلمة ورجل كافر، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفَّار، لا هنّ حِلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن﴾ وهذا النص وإن كان وارداً على سبب خاص في صورة خاصة فهو عام شامل لتحريم زواج امرأة مسلمة من رجل كافر.

وقد بيّن هذا التشريعَ النبيُ ﷺ بياناً عملياً، إذ دخل على ابنته زينب رضي الله عنها بعد أن سمع أنها أجارت أبا العاص بن الربيع، فأقر جوارها للوحدة الإيمانية بين كافة المسلمين، وأعلنه على سمع مجتمعه المسلم، وأوصاها بإكرام أبي العاص باعتباره ضيفاً ذا رحم وقربى قريبة، وله جوار أوجب له حقوقاً من الإكرام وحسن المعاملة، فقال لها: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصنّ إليك، فإنك لا تحلّين له» لأن الإسلام في تشريعه المنظّم للحياة الاجتماعية قد فرّق بينهما، وكأنما لمحت زينب رضي الله عنها من جو القصة أن أبا العاص جاءها واستجار بها بحكم ما كان بينهما من رابطة الزوجية التي تستلزم حقوقها وواجباتها، فأسرعت إلى إخبار أبيها ﷺ أن أبا العاص رجل مشغول بمروءته وأمانته، وأنه إنما جاء إليها مستجيراً بها يطلب ماله الذي أخذته منه السرية ليرده إلى أصحابه وفاء بحق الأمانة.

وطابت نفس رسول الله ﷺ بما سمع منها، وأرسل في جمع رجال السرية، وأخبرهم بمكانة أبي العاص منه ﷺ، وأنهم أصابوا منه مالاً، كان فيئاً لهم، فهو حلالٌ لهم طيب، ولكن رسول الله ﷺ يحب أن يحسنوا إلى أبي العاص، ويردّوا عليه ما أخذوه منه، ولم يكن ذلك أمراً منه ﷺ، ولكنه رغبة جعلها موضع اختيارهم وموافقتهم، لأن المال الذي أخذوه أصبح مالهم وهم

أحق به منه، فقالوا: بل نردّه عليه، فردّوه عليه أجمع.

تصرف حكيم انتهى بإسلام أبي العاص وجمع شمله بزوجه.

وفي هذا التصرف الحكيم جوانب من منهج رسالة الإسلام، خُلقية واجتماعية وتشريعية، كشفت عن تطبيقات المنهج العملية، وأصبحت مبادىء يرجع إليها في مستقبل حياة المجتمع المسلم.

وعاد أبو العاص بأموال تجارة قريش التي عقدت بناصيته أمانتها في وقت استحكمت فيه شدائد الأزمات بينها وبين المجتمع المسلم، لم يفقد منها شيئاً، فكان موفور الكرامة، وفياً أميناً، وأعطى كل إنسان ما كان له من مال في هذه التجارة، ثم نادى في قريش علانية، فقال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

وعند ذلك أعلن أبو العاص بن الربيع إسلامه وشهد شهادة الحق، وقريش مجتمعون عليه، فقال لهم: والله ما منعني من الإسلام عند محمد ﷺ بالمدينة إلّا تخوف أن تظنُّوا أني أردتُ أن آكل أموالكم، فلمّا أدّاها الله إليكم وفرغت أسلمت.

ثم خرج أبو العاص رضي الله عنه من مكة ميمماً المدينة، إذْ قدم على رسول الله ﷺ مسلماً فازداد له ﷺ إكراماً، وردّ عليه زوجته وابنة خالته السيدة زينب رضي الله عنهما.

هذا موقف يمثل جوانب من منهج رسالة الإسلام، كان رسول الله ﷺ فيه هو الوجه المشرق الذي أضاء الطريق أمام مسيرة الدعوة، وكانت ابنته زينب رضي الله عنها تمثل مفتاح الموقف الذي انطلقت الحياة من أبوابه، وكان أبو العاص بن الربيع المحور الذي دارت الوقائع والأحداث من حوله.

فرسول الله ﷺ بسط يد مكارمه لهذا الرجل الذي كان صاحبه وصفيّه قبل بعثته، وفتح له طريق الهداية بعد بعثته، فوفّى له وفاء بوفاء، وبوأه منه منزلة المصاهرة، وهي منزلة لا تكون إلا بين متصافيَين، ووقف منه موقفاً حفظ عليه كرامته بين قومه، وأقر جوار ابنته له حتى يطمئن وهو متطلع إلى

ردِّ ما أخذ منه ليرده على أصحابه، وتحقّق له ما أراد، وعاد إلى مكةمرفوع الرأس، موفور الشخصية، وأعطى الحقوق لأصحابها، حتى إذا لم تبقَ عليه تبعة لأحد أعلن إسلامه الذي كان يضمره منذ أن رأى مكارم النبي ﷺ تغمره، ومنذ أن رأى وفاء ابنة خالته يحقق له آماله.

لم يعلن أبو العاص إسلامه يوم أن كان بالمدينة محفوفاً بالرعاية من رسول الله ﷺ خشية قالة السوء، وأن قريشاً تظن به أنه فعل ما فعل ليأكل أموالهم بالباطل.

فلما فرغ من أداء أمانته واستبرأ ذمته أعلن إسلامه، وأرضَى رسول الله ﷺ، فكافأه وردَّ عليه زوجته الوفية الحبيبة.

وهكذا كانت قصة أبي العاص بن الربيع صورة لكثير من جوانب منهج رسالة الإسلام بدءاً ونهاية في إطار من التطبيق العملي في الوقائع والأحداث، التي برزت في صورة كريمة انتهت بأكرم موقف جمع بين حبيبين وفيين في ظُلّة من الدين الحق تقطر صفاء، وحباً، ووفاء.

قصة عمير بن وهب
وما تحويه من تدبير إلٓهي أكسب الدعوة قوة في مسيرتها

في طي الحِكَم الإلٓهية قصة أ فجر غدر تنتهي إلى أبر أعمال الإيمان.

هذه القصة من قصص الأحداث والوقائع التي شهدتها غزوة بدر في بدئها ونهايتها صورة تمثل شراسة الفجور الوثني، والشرك العتيّ، واستمرت بعد أن طوّفت بمكة لتدبير أسوأ المكر وأخبث الكيد للفتك برسول الله ﷺ، ولكنها تنتهي إلى نهاية كانت قرة عين المجتمع المسلم وقرة عين الدعوة إلى الله، ومحط رضا رسول الله ﷺ واغتباطه، إذ اتخذت وضعاً سياسياً أحكمه النبي ﷺ موجّهاً من الله بتوفيقه وتسديده، فجعلت من أحد مردة شياطين قريش، وأشدهم عداوة للنبي ﷺ، وأخبثهم فجوراً في مقاومة الدعوة ونشر الرسالة، وأعطش فجّارها إلى سفك دماء المجتمع المسلم - أقواهم إيماناً، وأخلصهم يقيناً، وأنجحهم عملاً في فتح الطريق أمام مسيرة الدعوة إلى آفاق الحياة وجذب من كانوا يشتطون في مقاومتها ووضع العوائق والعقبات في طريقها، وطريق ما جاء به رسول الله من الهدى والخير، وعداوة من آمن بهذا الهدى إيماناً جعل من حاملي أمانته قوة تدعم مسيرة الرسالة ونشرها في آفاق الحياة، فكانت ثمرة جنية من ثمرات بدر التي أينعت على يدي عمير ابن وهب الجمحي القريشي.

وكان عمير بن وهب من ذوي الشرف الجاهلي، له ذكر في قومه، يعرفونه بالدهاء والتعقل المشوب بالتشيطن، مما جعله أحد صناديد قريش وأبطالها الذي تئل إليهم في الشدائد والملمات.

خرج عمير هو وابنه وهب بن عمير مع المشركين في حشودهم الفوارة بالغيظ المحنق على المجتمع المسلم لتعرضهم إلى عيراتهم، وكان عمير ممن

عصمت بهم قريش سياسة تدبيرها في حرب النبي ﷺ وأصحابه في بدر، فوكلت إليه أن يحزر لهم أعداد جند الله، ويعرف قوة شوكتهم، وما يحملون من عدة قتالية.

وامتطى عمير صهوة جواده، وجال به حول معسكر المسلمين، يذهب ويجيء، ويعاود الكرة بعد الكرة، حتى ضبط لهم عدد عسكر المسلمين ضبطاً أتى على واقعهم العددي، ولكنه رأى في وجوه أنصار الله وجوهاً كأنها الحيّاتُ تتلمظ ولا تتكلم، ورأى في سيوفهم الموت الناقع تحمله رواياهم، فرجع إلى قريش ينبؤها بالخبر اليقين، فاستهتروا بقوله الذي وصف لهم به أنصار الله وقالوا له: دع هذا عنك، واذهب فأوقد نار الحرب وأشعل فتيلها، وحرّض بين القوم، فأخذته العزّة بالإثم، ورمى بنفسه عن صهوة جواده وألقاها بين المسلمين، وكان أول من أنشب الحرب.

تآمر وبيء بين صفوان بن أميّة وعمير بن وهب.

ودارت رحى المعركة تطحن حشود الكفر تحت سِفالها طحناً أتى على صناديدهم قتلاً، وأشرافهم أسراً، وعلى غوغائهم هرباً، وكان عمير ابن وهب ممّن فرّ إلى مكة هرباً، فوجد خبر الهزيمة قد سبقه على لسان الحيسمان، ووجد الناس يتحدثون ويذكرون أسماء من قتل من صناديدهم ومن أُسر من أشرافهم، وكان في القتلى أمية بن خلف، وابنه علي بن أمية، وكان صفوان بن أمية جالساً في الحِجْر يسمع فلا يصدِّق، وجاءه عمير ابن وهب فجلس إليه، فسمعه يقول: قبح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال له عمير: أجل، لولا دَيْن عليّ لا أجد قضاءه وعيال لا أدع لهم شيئاً لخرجتُ إلى محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، إن لي عنده علّة أعتلُّ بها، أقول: قدمت على ابني هذا الأسير.

أفٍّ، ثم أفٍّ لتشاجع المهزوم المعنّى، وأفٍّ ثم أفٍّ لتكذّب المغرور المضيء، أين كانت هذه الشجاعة البرصاء المهيضة وقت معمعة الوغى في ميدان المعركة وسيوف أنصار الله تقطف رؤوساً قد أينعت وحان قطافها؟ وتطلق سيقان المفزّعين للفرار هرباً من قعص السيوف؟

والتقط صفوان بن أمية المرزّء بقتل أبيه وأخيه كلمات عمير وهي

تسيل مع لحابه فاهتبلها فرصة سانحة وفرح بهذا اللعاب المتساقط رعباً، وقال لابن عمه عمير يغريه ويحرضه، فعلي دينك أقضيه عنك وافياً، لا يتبعك بشيء منه أحد قط، وعيالك مع عيالي، أنفق عليهم كما أنفق على عيالي.

وتكفل صفوان بتجهيز عمير، وأمر له بسيف بالغ في صقله وشحذه وأشبعه سماً زعافاً، ونهض عمير نهضة المكظوم المورّط، وهو يودِّع صفوان متثاقلاً، يعده ويمنّيه، وما يعده إلا الغرور.

المفاجأة تطوّح بعقل شيطان الفجور.

ووصل عمير إلى المدينة ونزل بباب المسجد، واعتقل بعيره وتوشح سيفه وهمّ بالدخول على رسول الله ﷺ، فرآه الألمعي القوي الأمين عمر ابن الخطاب، وكان يجلس إلى نفر من الأنصار، يتحدثون عن وقعة بدر ويذكرون نعم الله عليهم فيها، وما أراهم الله في عدوِّهم، ففزع عمر رضي الله عنه إذْ رأى شيطان قريش عمير بن وهب يهمّ بدخول المسجد، وسيفه في رقبته فصاح: هذا عدو الله عمير بن وهب الذي حزرنا للقوم، والذي أشعل نار الحرب، ثم نهض عمر فدخل على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب، قد دخل المسجد متقلِّداً سيفه وهو الغادر الفاجر، يا رسول الله، لا تأمنه على شيء، فقال النبي ﷺ: «أدخله عليّ» فخرج عمر فأمر أصحابه: أن ادخلوا على رسول الله ﷺ، واحترسوا من عمير، وأقبل عمر على عمير، وأخذ بحمالة سيفه، ولبَّبه، ودخل به على رسول الله ﷺ وسيفه في رقبته، فقال عمير: أنعموا صباحاً، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك، بالسلام، تحية أهل الجنة، فما أقدمك ياعمير؟» قال: قدمت في أسيري، ففادونا في أسيركم، فأنتم العشيرة والأهل.

أفٍّ، ثم أفٍّ للكذب والكذّابين على الله وعلى رسوله ﷺ، وأفٍّ ثم أفٍّ للجبن والجبناء الرعاديد، وأفٍّ ثم أفٍّ للغدر والغادرين، وأفٍّ ثم أفٍّ للخيانة والخائنين، وأفٍّ، ثم أفٍّ لتدبير المنهزمين، وأفٍّ، ثم أفٍّ للمردة الشياطين المنقلبة حملاناً وادعة مهانة وذلاً.

وتوهّم عمير أن ملك الحيلة، والحجة، وأنه أقنع ووصل، فقال له رسول الله ﷺ: «فما بال السيف في رقبتك؟» ففزع عمير، ثم أفاق من سكرته مع صفوان بالحجر، لأن من يجيء في فداء أسير، ويريد من آسريه وهم العشيرة والأهل أن يتخففوا في فدائه ماله وللسيف يدخل به على من يريد منه أن يتلطف في فداء أسيره؟، ولكن عميراً أُذهل عن نفسه وعن سيفه وعن مخادعته، وأبان عن خبيئه، فقال دون وعي منه: قبّحها الله من سيوف فهل أغنت عنا من شيء، إنما نسيته حين نزلت، إنها سيوف من خشب نخرته السوس، فقد كذبتنا في المعركة حتى هزمنا هزيمة أدخلت على كل بيت في قريش ناراً أحرقت أكباد كل من فيه من أناس أو شيء.

عمير يتهاوى أمام كشف أسرار مؤامرته مع صفوان.

فقال رسول الله ﷺ، وقد رأى شيطنة عمير الجاهلية تتهاوى، ويهوي هو معها: «اصدقني ماأقدمك؟» فقال عمير وهو لا يزال متشبثاً بالكذب، يردد أكذوبة الأسير: قدمت في أسيري، وتوهم عمير أن دهاءه يستطيع أن يقلب السماء أرضاً والأرض سماء، ولكن رسول الله ﷺ أنبأه بما أعلمه الله به مما كان بينه وبين صفوان من مناجاة بالإثم والعدوان وهما في الحِجر بمكة، فقال له: «فما الذي شرطتَ لصفوان بن أمية في الحجر؟» ففزع عمير إذ رأى أول خيط الفضيحة يأخذ بحلاقيمه ويعرِّي سوأة كذبه، ولكنه تماسك وتخيلها كلمة تقال، فقال متكذِّباً: ما شرطت له شيئاً، فقال له رسول الله ﷺ: «تحمَّلت له بقتلي على أن يعول بنيك، ويقضي لك دينك، والله حائل بيني وبينك».

قطرات غيث الإيمان تنسكب على قلب عمير.

وهنا تنزلت على عمير قطرات غيث الهداية من سماء الإيمان، فانقلب في لحظة من شيطان مريد إلى مؤمن رحيم، فقال وهو بين يدي رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا رسول الله، كنّا نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وأن هذا الحديث بيني وبين صفوان في الحِجْر لم يطّلع عليه أحد إلا الله تعالى، والحمد لله الذي ساقني هذا المساق، وقد آمنت بالله ورسوله، ففرح المسلمون به حين هداه الله.

فقال له رسول الله ﷺ متلطفاً به، مسروراً بإيمانه: «اجلس يا عمير نؤانسك - وفي رواية: نواسيك» ولكل من الروايتين احتمال صحيح، فرواية نؤانسك من الأنس والمؤانسة بعد الوحشة والمواحشة، وقد أصيب عمير في موقفه بما أذهله عن نفسه وأوحشه بما فقد من أنسه، فأراد النبي ﷺ أن يتلطّف به بعد إسلامه ليزيل وحشته ويريه مدى ما يبلغ الإخاء الإيماني بين المؤمنين، وهذا من مكارم الأخلاق التي يضعها منهج الرسالة في طلائع آدابه وتشريعاته.

تلطف رسول الله ﷺ بعمير وإكرامه بعد إيمانه.

ورواية (نواسيك) من المواساة، وهي الإفضال في المودة والعطاء والبذل والترافق والمعاونة، وعمير كان في أشد الحاجة إلى ما يرفقه ويعينه ويوادده، ويبذل له من الإحسان المعنوي والمادي بعد الذي تحمّله في سفرته وما نزل به فيها من مفاجآت لم تكن في حسبانه وتقديره.

ثم التفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه، وقال لهم: «علِّموا أخاكم القرآن» وفي هذه الجملة الموجزة آيات من آيات منهج رسالة الإسلام، فعمير قد صار أخاً لجميع المؤمنين، والإخاء الإيماني أساسه القرآن، فإشعاره بالإخاء الإيماني مؤانسة ومواساة، وربط هذا الإخاء الإيماني بتعليم القرآن ربط للمؤمنين عامة بشرائع دستورهم الأعظم.

ثم أمر رسول الله ﷺ بإطلاق أسيره دون فداء، وهنا قد استقرت مشاعر عمير الداخلية وهدأت نفسه، وذاق حلاوة الإيمان، ونظر إلى ماضيه في ميزان حاضره، فرأى أنه في أشد الحاجة إلى غسل رجس هذا الماضي بماء العمل الجادّ في سبيل الدعوة إلى الله، ليكفِّر عن نفسه أسوأ ما عمل في ظل الوثنية الطاغية، وفجور الشرك، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني كنت جاهداً، ما استطعت على إطفاء نور الله، والحمد لله الذي هداني من الهَلَكَة، فائذن لي يا رسول الله، فألحق بقريش، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ويستنقذهم من الهلكة.

حلاوة الإيمان تنساب إلى قلب عمير، فيصبح داعياً إلى الله بإذنه.

فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية لا يزال يتكعكع في ظلمات الكفر مستشرفاً لأخبار عمير فيما عاهده عليه واشترطه

له، ويقول لقريش أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر، وجعل يسأل كل قادمٍ عليه من المدينة، هل كان بها حدث؟ حتى قدم عليه رجل فأخبره أن عميراً أسـلم!.

وقدم على مكة عمير فدعا قريشاً إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أشد الإيذاء فأسلم على يده بشر كثير.

عمير يستأمن لصفوان يوم الفتح.

ومرّ عمير بصفوان وهو في الحِجْر، فقال له عمير: أنت سيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنّا عليه من عبادة حجر والذبح له، أهذا دين؟ فأعرض عنه صفوان ولم يكلِّمه.

وقد استأمن عمير النبي ﷺ لصفوان بن أمية حين هرب يوم الفتح فأمَّنه رسول الله ﷺ، وبعث إليه بردائه أو بردة أماناً له فأسلم صفوان بعد لأي، وحسن إسلامه بعد أن ظلَّ مدة من المؤلفة قلوبهم على الإيمان بالعطاء الكثير الغامر حتى قال: أشهد أنه لا يعطي هذا إلا نبي.

قصة فداء أسرى بدر
في القرآن الكريم
وموقف النبي ﷺ في أحداثها
بحث وتحقيق

القرآن أرفع مستند لأحداث السيرة النبوية.

عرض القرآن الكريم لقصة فداء أسرى بدر ـ وهي قصة استحوذت على قدر كبير من البحث في كتب المغازي والسِّيَر ـ فذكرها في خمس آيات من سورة الأنفال، وهي السورة التي استأثرت بأحداث هذه الغزوة العظمى، من مبتداها إلى نهايتها، شاملة لمقدماتها ونتائجها، مستوعبة لوقائعها وأحداثها التي كانت قصة الأسرى من خواتيمها.

وفي هذه الآيات الخمس يقول القرآن الكريم: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ * لولا كتابٌ من الله سَبَق لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ * فكلوا مما غنمتم حلالاً طيِّباً واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ * يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفورٌ رحيمٌ * وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليمٌ حكيمٌ﴾.

تحقيق تحليلي في معاني آيات الأسرى وبيان هدفها.

وهذه الآيات الخمس تجري في سياقها على أساس الاختصاص في تحقيق أكثر من معنى واحد تستقل به كل آية من آياتها، وإن كان الإطار العام للمعاني والحقائق التي سبقت لها الآيات موحّد الاتجاه في ظل قصة أسرى بدر، وهي أول قضية تعالج أثراً من أهم آثار الحرب بين المجتمع المسلم وأعدائه الكافرين، وهو أثر تأصيلي لتشريع دائم في حياة المجتمع المسلم ما بقي هذا المجتمع قائمًا بواجبات تكاليفه القيادية في نشر رسالة الهدى والحق التي بُعث بها محمد خاتم النبيين ﷺ.

الآيات الثلاث الأولى درس تربوي للنبي ﷺ.

وإنما جاءت الآيات الثلاث الأولى من هذه الآيات الخمس لإعلام النبي ﷺ بسنة من سنن الأنبياء قبله في جهاد الكافرين، جرياً على سنة القرآن الكريم في طريقة تربية النبي ﷺ وتعليمه بإعلامه بما كان عليه إخوانه الأنبياء قبله ليقتدي بهم فيما يعمه من شرائعهم.

وهذه السنة أن الأنبياء المرسلين بمقتضى حكم النبوة المرسلة مضَوا في جهادهم القتالي للكافرين دون أن يكون لهم في حروبهم لإعلاء كلمة الله أسرى إلا بعد أن يُثْخَنوا في الأرض مبالغة في إضعاف شوكة أعداء الله من المشركين بكثرة القتل في رجالهم، وكثرة الجراحات، ليثقلوا كواهلهم، ويوهنوا عزائمهم حتى لا تبقى لهم قوة على الحركة للمعاودة إلى قتال المؤمنين المحاربين بما يملأ قلوبهم من الرعب والهلع والتوجس.

ولما كان نبينا محمد ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين الجامع لفضائلهم المتفرقة فيهم، ولما كانت رسالته ﷺ هي خاتمة الرسالات الإلهية الجامعة لفضائل شرائع أولئك الأنبياء المرسلين مما لم يجرِ عليه نسخ في أحكامه كان كل ما ثبت لهم من شرف وفضيلة، وكل ما ثبت في شرائع رسالاتهم من أحكام وتشريعات ثابتاً له ﷺ في رسالته الخاتمة لرسالاتهم.

تنزيه الأنبياء أن يكون لهم أسرى قبل الإثخان.

وسنة نفي أن يكون للأنبياء المرسلين في حروبهم الجهادية لإعلاء كلمة الله أسرى قبل أن يثخنوا في الأرض ـ بكثرة القتل في أعدائهم، وكثرة الجراحات فيهم، توهيناً لشوكتهم، وإضعافاً لقوتهم، وإدخالاً للرعب في قلوبهم، مما شرّف الله به أنبياءه المرسلين الذين شرع لهم في رسالاتهم جهاد الأعداء ومقاتلتهم على قبول الإيمان بالحق الذي جاؤوهم به من عند الله، تسامياً بمكانتهم من الله تعالى عن قصد إرادة عرض الدنيا بجهادهم ـ هي بمقتضى الأمر بالاقتداء بهدي المرسلين سنة محمد ﷺ خاتم النبيين في رسالته الخاتمة، فلا يكون له ﷺ في حروبه الجهادية ـ لإخراج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد، وإخلاص الدين كله، علماً وعملاً لله تعالى وحده ـ أسرى حتى يثخن في الأرض بكثرة القتل في أعدائه، وأعداء دعوته، دعوة الحق، المعوقين لسير رسالته، رسالة النور والهدى، تحقيقاً لسنة الله مع

الأنبياء لتكون لهم القوة والغلبة والسلطان على الحياة، ونبينا محمد ﷺ خاتمهم، فلا بد أن تكون سبيله سبيلهم في هذا الفضل والشرف والتسامي عن قصد إرادة عرض الدنيا الفاني الذي لا يليق أن يكون من مقاصد أفضل البريّة من الأنبياء والمرسلين.

فالأسلوب الذي أخرج فيه هذا المعنى في صدر الآية أسلوب نفي وتنزيه لساحة الأنبياء أن يقصدوا في جهادهم لإعلاء كلمة الله إنهاء معارك الجهاد بمجرد ظهور بوادر النصر لهم وهزيمة أعدائهم، بل كانت سنتهم التي ربّاهم الله عليها في جهادهم الكافرين أن يكثروا القتل في أعدائهم، ويبالغوا في جراحاتهم حتى يفلّوا حدّهم، ويوهنوا قوتهم، ويضعفوا شوكتهم بقتل صناديد الكفر وقهر الأعداء بغلبتهم غلبة لا يقدرون معها على التفكير في معاودة قتال جند الله من المؤمنين.

انحراف أتباع الأنبياء المرسلين إلى إنهاء المعارك قبل الإثخان مخالف لما جبل عليه الأنبياء.

فإذا انحرف أتباع الأنبياء عن هذه السنّة، وأسرعوا إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور أمارات النصر ومعالمه وهزيمة الأعداء، وأخذوا في جمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى في أيديهم لم يكن ذلك من سنة الأنبياء المتنزهة عن إرادة عرض الدنيا، بل يكون جارياً على خلاف سنة الأنبياء، ويكون أتباعهم هم الذين استوجبوا أن يكون للأنبياء أسرى ينسبون إليهم بحكم كونهم قادة المعارك الجهادية، والأنبياء لم يأمروا أتباعهم بذلك، ولا رضوا به.

فصدر الآية يحكي إعلام الله تعالى نبيه محمد ﷺ بسنة الأنبياء، وهو خاتمهم، والنموذج الأعلى لفضائلهم، وشريعته صورة جامعة لشرائعهم المتعبد بها، فهو ﷺ أبعد ما يكون رغبة في إنهاء المعركة، واستبقاء الرجال أسرى تحت يده قبل الإثخان في الأرض، لأن ذلك منفي عنه، لا يقع منه، وهو ﷺ منزه عنه بمقتضى كونه نبياً من الأنبياء المرسلين.

ولهذا بعد أن أدت الآية في صدرها هذا المعنى الشريف المتسامي عن إرادة عرض الدنيا وزخارفها توجهت بالعتاب إلى من كانوا قد قصدوا عرض الدنيا من أصحاب النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين برسالته في أول قتال جهادي

نصرهم الله فيه على قلة عددهم وضعف عُدتهم القتالية، فنَعَتْ عليهم في مخاطبة خاصة بهم لم يدخل فيها النبي ﷺ قط، فقالت عادلة عن أسلوب الغيبة - التي أدّت به مقام الإعلام لرسول الله ﷺ بسنّة الأنبياء قبله في معاركهم الجهادية، بنفي أنهم لم يكن لهم أسرى في معاركهم وتنزّههم عن قصد ذلك، فكذلك هو ﷺ لم يكن من شأنه أن يكون له أسرى قبل كسر الشوكة بالإثخان في الأرض، وإنما الذين جعلوا له أسرى من ينسبون إليه وهم أصحابه وأتباعه الذين أرادوا عَرضَ الدنيا الزائل، وأعرضوا عن ثواب الآخرة الدائم - إلى أسلوب الخطاب الجماعي معاتبة لهم، عاتبة عليهم ما كان فيهم من التسرّع لإنهاء المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى في أيديهم؛ مما لا ينبغي أن يسند لنبي من الأنبياء، فضلاً عن خاتمهم وجامع فضائلهم فقالت لهم: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ وهذا خطاب لم يدخل فيه النبي ﷺ قط، وإنما هو خاص بالذين أرادوا أن يكون لهم - وهم تحت قيادة النبي ﷺ - أسرى من رجال الأعداء فعجّلوا بإنهاء المعركة لجمع الغنائم، وهي عرض زائل من أعراض الدنيا الفانية معرضين عن ثواب الله في الدار الآخرة الباقية وهو ثواب دائم لا يزول ولا يحول، فهم الذين تسبَّبوا في أن يكون لنبي الله ﷺ أسرى، نتيجة لاسترخائهم في القتال، إيثاراً للغنيمة واستبقاء الرجال، وأخذهم أسرى يفادونهم.

أسلوب الآية صريح في توجيه العتاب لمن أراد عرض الدنيا بأخذ الغنائم والأسرى من سراع جنود المجاهدين.

فالنبي ﷺ لم يكن قط راغباً في أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأن ذلك لم يكن من شأنه ولا هو مما تقتضيه معالم نبوته، بل ثبت أنه ﷺ كره ذلك إذ علمه بإعلام سعد بن معاذ له، وإذ رآه وهو ينظر من العريش إلى ما يصنعه أصحابه من جمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

في موقف سعد ابن معاذ وكراهيته لصنيع المجاهدين وموافقة النبي ﷺ عليه دليل على أنّه ﷺ لم يدخل قط في إطار المعاتبين.

قال ابن إسحاق: ولما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» فقال سعد بن معاذ: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان أحبُّ إليّ من استبقاء الرجال.

وهذا يحمل في طياته موافقة النبي ﷺ على أن الإثخان في القتل كان أحب إليه ﷺ من استبقاء الرجال وأخذهم أسرى، والتعجيل بإنهاء المعركة فرحاً بالغنائم والأسرى.

ولم نرَ قط في رواية أن النبي ﷺ ـ وهو القائد الأعلى المطاع ـ أمر بإنهاء المعركة وأسر الرجال لأن هذا منفي عنه، معارض لمقتضى نبوته.

ومن ثَمَّ ذهب كثير من المفسرين ـ أبو حيان وغيره ـ إلى أن الكلام في صدر الآية على حذف مضاف، فقال: أي ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي ومعناه أن الذين قصدوا أن يكون لهم أسرى يأخذون منهم الفداء هم المحاربون الذي تعجّلوا إنهاء المعركة، وشغلوا بجمع الغنائم وأسر الرجال عن الإثخان بكثرة القتلى والجراحات.

وإنما صدِّرت هذه الآية بذكر النفي عن نبي ـ أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأن كل نبي شرع له الجهاد، هو قائد أصحابه وأتباعه في جهاد أعداء الله من الكافرين، وهو المشافه بالخطاب من الله المبلِّغ لأمته ما يُوحى إليه من ربه، فالتأويل بحذف المضاف وإن كان فيه تنزيه للأنبياء عن مس العتاب لكنه خرج بها عن ظاهرها المؤدِّي لمقصدها.

فالله تعالى أوحى إلى نبينا محمد ﷺ معلِّماً له أن سنة الأنبياء قبلك في جهادهم أعداءَ الله أنهم إن هم ظفروا بهم في موقعة من مواقع القتال، فعليهم أن يكسروا شوكتهم بكثرة القتل لرجالهم وكثرة الجراحات في محاربيهم أثناء معمعة القتال حتى يبلغوا بهم توهين قوتهم توهيناً يسلبهم القدرة على مقاومتهم للوقوف أمام نشر دعوة الحق وتعويقها عن مسيرتها هادية مصلحة.

كان القرطبي موفقاً في تأويل الآيات دون أن يخرج بها عن ظاهرها.

وقد نحا القرطبي نحو توجيه العتاب إلى الصحابة نافياً له عن النبي ﷺ، منزِّهاً ساحته عن أن يكون قد أمر باستبقاء الرجال وأخذهم أسرى نحواً موفقاً فقال: هذه الآية نزلت يوم بدر عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الإثخان، ولهم ـ أي للصحابة ـ هذا

الإخبار بقوله: «تريدون عَرَض الدنيا» والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب.

ثم قال القرطبي: هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذي لا يصح غيره، وإنما جاء ذكر النبي ﷺ في الآية - أي ضمن عموم النكرة بلفظ (نبي) - حين لم ينهَ عن استبقاء الرجال وأسرهم حين رآه من العريش، وذكّره سعد ابن معاذ به، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء.

وهذا كلام صريح في أن أكثر المفسرين الذين لا يصحُّ غير قولهم ذهبوا إلى أن النبي ﷺ لم يدخل في الخطاب الموجّه إلى عموم المحاربين الذين أرادوا عَرضَ الدنيا فتعجّلوا إنهاء المعركة.

بَيْدَ أنّ كلام القرطبي في بيان حكمة عدم نهي النبي ﷺ عن استبقاء الرجال وأخذهم أسرى حين رآه من العريش لا يخلو من نظر، لأن زعم أن النبي ﷺ شغلته المفاجأة ونزول النصر عن الأمر بعدم إنهاء المعركة واستبقاء الرجال لا يوائم مقام القيادة في الحرب، ولا سيما إذا كان القائد هو رسول الله ﷺ، وإذا كان الأمر يتعلق بسنة من سنن الأنبياء، لم تقع من واحد منهم قبله ﷺ، فأحرى ألّا تقع من أصحابه فتنسب إليه، وليس في أمر النصر بَغْتٌ، لأن النبي ﷺ باشر أسبابه وتوقعه، وكان على علم تام به.

رأينا في حكمة عدم نهي النبي ﷺ عن إنهاء المعركة قبل الإثخان.

ونحن نرى في حكمة ترك النبي ﷺ النهي عن استبقاء الرجال أنه ﷺ خشي إن هو نهى عن استبقاء الرجال بعد الأخذ فيه والشغل به أن يُحدث ذلك شيئاً من الاضطراب والفوضى في صفوف المسلمين، فتكون للمنهزمين من الأعداء جَوْلة يرجعون فيها إلى المجاهدين المنتصرين الذين يكونون حينئذ بمعرض أن يصيبهم شيء من فتور العزيمة وقد رُدّوا عن قصدهم ردّاً تضمن الأمر بقتل الرجال، وربما ينقلب اتجاه المعركة، فكان تركهم يأسرون الرجال بعد ما أصابوا منهم ما يحقق الإثخان أرجح في ميزان التدبير السياسي للمعركة حتى تبلغ نهايتها والمسلمون متماسكون، لأن ذلك لم يخرج عن كونه

لوناً من قهر العدو، وبسط سلطان النصر عليه، وإشعاره بذُلّ الهزيمة وهذا هو المقصود من الإثخان في الأرض.

الاعتذار للصحابة في تعجلهم إنهاء المعركة.

وقد حكى القرطبي عن بعض أهل العلم رأياً في الاعتذار للصحابة رضي الله عنهم في استعجالهم إنهاء المعركة قبل الإثخان فقال: وقيل: إنما عُوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع، والتصرف في صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملك، ذلك كله عظيم الموقع، فكان حقّهم أن ينتظروا الوحي، ولا يستعجلوا، فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجّه عليهم ما توجّه.

تحقيق في معنى (ما كان) وهو الدعامة الكبرى في بيان معنى الآية.

فالآية ليس فيها خطاب خاص معيّن للنبي ﷺ يشعر من قريب أو بعيد بالعتاب، وإنما هي إعلام من الله تعالى لرسوله ﷺ بسنة من سنن الأنبياء في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهي أنهم صلوات الله عليهم كانوا لا يتعجّلون إنهاء المعارك قبل أن يثخنوا في الأرض بكثرة القتل في أعداء الله وأعداء دينه الحق الذي بعث به أنبياءه، قبل أن يبلغوا بهم إلى توهين شوكتهم بالمبالغة في القتل والجراحات المعجزة لهم عن التحرك لقتال متجدد يواقفون فيه جند الحق لتعويق مسيرة الدعوة إلى الله.

فالآية نفي وتنزيه لساحة النبوة أن يقصد المتحلّي بهاأن يكون له أسرى يستحييهم ويبقي عليهم قبل أن يعجز جمهرة محاربيهم عن التفكير في معاودة قتال جند الله المجاهدين في سبيله لإعلاء كلمته.

يقول الرازي في تفسيره : قوله:(ما كان) معناه النفي والتنزيه، أي ما يجب وما ينبغي أن يكون له المعنى المذكور، ونظيره (ما كان لله أن يتخذ من ولد) وقال أبو عبيد: لم يكن لنبي ذلك، فلا يكون لك.

وقال القرطبي: قال أهل المعاني: (ما كان) في القرآن يأتي على وجهين: يأتي على النفي نحو قوله: ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أي ما كان في اقتداركم أن تنبتوا شجرها فلا يمكن أن يقع منكم، ونحوه قوله تعالى: ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ أي لا يقع في الوجود موت

نفس منفوسة إلا بإذن الله وتقديره، وعلى هذا الوجه ـ أي النفي ـ تتنزل آية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ أي لم يقع من نبي من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يكثر القتل والجراحات في أعدائه، أعداء الله، وأعداء دينه ورسالاته، وإنما وقع ما وقع لك فكان لك أسرى لأن أصحابك وأتباعك لم يصبروا على استمرار المعركة حتى يثخنوا في الأرض، ولكنهم تعجَّلوا نهايتها دون أمر منك لأنهم أرادوا عَرضَ الدنيا وجمع الغنائم وكثرة الأسرى ليكثر لهم فداؤهم.

زعم أنَّ تركيب (ما كان) يفيد النهي زعم باطل.

أما الوجه الثاني في أسلوب (ما كان) فهو النهي الضمني كقوله: ﴿ وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ أي ما صحّ منكم ولا استقام لكم أن تؤذوا رسول الله بفعل ما لا يرضي الله تعالى، ويضعكم موضع من لا يوقِّر رسوله بخلفكم له في تزوج نسائه من بعده، أي فلا تقدِمُوا عليه وتفعلوه لما فيه من عظيم الجرم عند الله، وكقوله: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ أي ما ينبغي للنبي في شرف مقامه وعظيم مكانته أن يستغفر لأعداء الله المشركين، وما صحّ ولا استقام للمؤمنين بالله رباً أن يستغفروا لمن لا يؤمن بوحدانية الله تعالى ومات على شركه، فلا تفعلوه ولا يجوز أن يقع منكم، وقد أنكر أبو حيان هذا الوجه الثاني لتركيب (ما كان) فقال: ولا تتضمن هذه الصيغة نهياً كما يقوله بعضهم، وقد وفق الرازي في اقتصارة على معنى النفي والتنزيه.

عثرة لابن اسحاق خطيرة وهي باطلة لم يسندها إلى أحد.

وقد ذهب ابن إسحاق ومن تبعه إلى أن في الآية عتاباً للنبي ﷺ لحملهم تركيب ﴿ ما كان لنبي ﴾ على النهي، فزعموا أن النبي ﷺ منهيٌّ بهذه الآية أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، والمبالغة في إثقال العدو عن الحركة وكثرة قتل صناديده، ولكن الرجال قد استبقُوا وأخذوا أسرى، فعوتب على ذلك.

أخرج أبو جعفر الطبري قال: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق قال: عاتبه ـ أي عاتب الله عز شأنه نبيه محمداً ﷺ ـ في الأسرى وأخذ الغنائم، ولم يكن أحد قبله من الأنبياء يأكل مغنماً من عدوٍّ له.

وهذا تأويل فاسد لا يلائم مقام الآية وأسلوبها وسياقها، لأنه يضع النبي ﷺ موضع المخالف لسنة الأنبياء قبله في أكل المغانم قبل أن يحلّها الله له ولأمته، ويدخله ﷺ في الخطاب بقوله تعالى: ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾.

وهذا من الطامات التي تسلك معتقدها في سلك من لا يرجو لله وقاراً، وسلك من لا يعرف قدرَ رسول الله ﷺ وتجافيه عن الدنيا وزخارفها، وتنأى به عن الدخول في سلك ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾، وقد ردَّ القاضي أبو بكر ابن العربي نحو هذا التأويل الفاسد فقال: توهم بعض الناس أنه كان من النبي ﷺ معصية فيه غير معينة، وحاشا لله من هذا القول، إنما كان من النبي ﷺ توقف، وهذا ردٌّ مجمل لا يشفي.

كلام ابن العربي والرازي في بطلان ما زعمه ابن إسحاق

وقد ذكر الرازي هذا القول على أنه شبهة لبعض الطاعنين في عصمة الأنبياء، فقال: تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه: الوجه الأول إن قوله تعالى: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ صريح في أن هذا المعنى منهي عنه، وممنوع، ثم إن هذا المعنى قد حصل.. فكان الذنب لازماً.

ثم أجاب الرازي على هذه الشبهة الواهية، فقال: إن قوله: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ يدل على أن الأسر كان مشروعاً ولكن بشرط الإثخان في الأرض، والمراد بالإثخان القتل والتخويف الشديد، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقاً عظيماً، وليس من شرط الإثخان قتل جميع الناس، ثم إنهم بعد هذا القتل الكثير أسروا جماعة، والآية تدل على أن بعد الإثخان يجوز الأسر، فصارت هذه الآية دالة دلالة بينة على أن ذلك الأسر كان جائزاً بحكم هذه الآية، فكيف يمكن التمسك بهذه الآية في أن ذلك الأسر كان ذنباً ومعصية، ويتأكد هذا الكلام بقوله تعالى: ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق، فإما منّاً بَعْدُ وإمّا فداء ﴾[1].

---

(١) سورة محمد آية (٤).

وقد كان على الرازي أن يتساءل عن الصراحة في النهي التي زعمها صاحب هذه الشبهة الضعيفة، أين هي الصراحة في النهي التي يدل عليها أسلوب الآية؟ وللنهي صيغ وأدوات وضعت في لغة العرب لتدل عليه، وليس في صدر الآية شيء من ذلك، ولا شك أن حمل الآيةعلى النفي والتنزيه أرجح عقلاً ونقلاً، أما عقلاً فلأن النبي بمقتضى مقام النبوة والعصمة يستحيل عليه أن يخالف إلى أمر نهاه الله عنه فيفعله مريداً لعرض الدنيا، وأما نقلاً فلأن النبي ﷺ لم يوجَّه إليه في صدر الآية خطاب خاص، ولإجماع جمهور المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ على حذف مضاف، أي ما كان لأصحاب نبي وأتباعه أن يجعلوا له أسرى إرادة عرض الدنيا منهم، بجمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى ليفادوهم.

قراءة ما كان (للنبي) معرفاً قراءة تفسيرية.

وقد نقل بعض المفسرين أنه قرىء ﴿ما كان للنبي﴾ بصيغة المعرفة، وهي قراءة منسوبة لأبي الدرداء وأبي حَيْوة، ومعناه أن هذا الذي حصل من الأسر ما كان ينبغي حصوله من النبي وهو محمد ﷺ، وهذه قراءة تفسيرية، لا قراءة تلاوة وتعبد وإعجاز، أريد بها أن تكون تفسيراً للفظ (نبي) بصيغة النكرة، وهي التي نزل النص القرآني بها ليتوصل بهذا إلى أن النبي ﷺ هو المقصود خاصة بالإخبار بها ليكون ﷺ هو المعاتب في رأي المقلّدين لابن إسحق في قوله ورأيه المتقدم، لا أصحابه ﷺ ممّن تعجَّل إنهاء المعركة واستبقى الرجال أسرى في أيدي المجاهدين.

غلط ابن العربي في تفسير (نبي) منكراً كما جاء في تلاوة الآية بخصوص محمد ﷺ لا دليل عليه من الآية.

وممّن ذهب هذا المذهب، ولم يكتفِ بتأويل لفظ (نبي) الذي نزل به القرآن بلفظ (النبي) الذي زعم أنه قرىء به بل أغرق في التأويل أبو بكر ابن العربي، فجعل المراد من لفظ (نبي) بالتنكير كما جاء في الآيةخصوص نبينا محمداً ﷺ، فقال في أحكامه: ومعنى قوله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ ما كان لك يا محمد أن تكون لك أسرى حتى يغلظ قتلك في الأرض، وتثبت هيبتك في النفوس. ولعل أبا بكر بن العربي اعتمد فيما ذكره على قراءة ﴿ما كان للنبي﴾ وهي قراءة لم يعرف تواترها لتكون قرآناً.

وهذا تأويل بعيد عن منطوق الآية ومفهومها، لأن الله أبهم الأمر

بالنسبة لرسول الله ﷺ، وجعله داخلاً في عموم النكرة ليثبت له من النفي والتنزيه ما يثبت للأنبياء، والآية بهذا المساق تكون مدحاً للأنبياء الذين شرع لهم الله الجهاد في رسالاتهم، وبياناً لسنّة من سنن الشرف التي تحلّوا بها والتزموها، وفي هذا الإطار المحمود يدخل نبينا محمد ﷺ مع إخوانه الأنبياء في تنزيهه أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، وهو راضٍ عن ذلك. ويكون معنى الآية حينئذ: أنه ليس من سنن الأنبياء ـ وأنت يا محمد خاتمهم ـ أن يكون لهم أسرى قبل أن يُثْخِنوا في الأرض وتثبت هيبتهم في النفوس، ويدخل الرعب في قلوب أعدائهم، فكذلك أنت يا محمد ليس من سنتك في جهادك أن يكون لك أسرى قبل أن تثخن في الأرض، فإذا أسرع أصحابك إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر قبل أن يكسروا شوكة أعدائهم كسراً يضعف قوتهم ويملأ قلوبهم هيبة منكم، وجعلوا لك أسرى ينسبون إليك باعتبارك القائد الأعظم للمعركة كانوا هم المعاتبين بأنهم أرادوا عَرضَ الدنيا الذي يفنَى ويزول، وتركوا ثواب الآخرة الذي لا يزول ولا يحول، لأنك أنت المنزّه في مقام نبوتك عن ذلك، كما تنزّه إخوانك الأنبياء من قبلك.

فإخراج الآية من أسلوبها العام الذي نزلت به قرآناً متلواً متعبّداً به متحدياً بإعجازه إلى تخصيصها بمحمد ﷺ عدول عن الأسلوب الذي اختاره الله تعالى ليدل به على معنى مقصود بذاته، وتأويلها تأويلاً لا يدل عليه أسلوبها الأصيل من قريب أو بعيد بأي نوع من أنواع الدلالات التي استعملت لها الألفاظ بغير مقتضى لهذا العدول والتأويل.

القرآن الحكيم له مقصوده ومراميه في تعبيراته فلا تفسَّر بغير ظاهرها إلا بدليل.

ولا ندري كيف ساغ تفسير لفظ (نبي) بصيغة النكرة في إفادتها العموم الشمولي بلفظ (النبي) بصيغة المعرفة في خصوصها وإفادتها الدلالة على شخص معين، ثم يقتحم هذا السياج البياني القرآني فينص على أن هذا المدلول عليه المعيّن بشخصه هو محمد ﷺ ليكون هو المخبر عنه في صدر الآية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخنَ في الأرض ﴾ فيقال في معنى الآية: ما كان لك يا محمد أن تكون لك أسرى حتى يغلظ قتلك في الأرض، وتثبت هيبتك في النفوس.

والقرآن الحكيم إذ يعبِّر بلفظة معينة بصفة خاصة لأداء معنى من المعاني لا يجوز قط أن تفسر اللفظة القرآنية بصيغتها الخاصّة، وهي من كلمات الله العليم الخبير بلفظة أخرى بصيغة أخرى، ولا سيما إذا كان بين اللفظتين بصيغتيهما تقابل بالتضاد، كماهو الشأن في لفظة (نبي) منكر، ولفظة (النبي) معرفة، لأن في هذا التفسير إهداراً لمقاصد القرآن في تعبيراته.

ثم يقال في هذا التفسير الذي نقل الآية من العموم المفيد لمعنى أو معان زائدة على الخصوص إلى معنى معينّ يحصر فيه معنى الآية، ما شأن المعاني الزائدة التي كانت مستفادة من عموم اللفظ الذي نزل به النص القرآني؟

هل بطلت استفادتها من عموم اللفظ؟ أو أن اللفظ العام خصص ليكون المعنى محصوراً في هذا التخصيص؟ ومعروف أن العام إذا خصص، أو أريد به الخصوص كان لتخصيصه موجب يقتضيه لحمل المعنى عليه، وأين هذا الموجب هنا في الآية التي معنا لمقتضى التخصيص؟ لم يكشف أحد من الباحثين الغطاء عن ذلك فيما نعلم.

رأي جمهور المفسّرين كما ذكره القرطبي هو الذي يجب الوقوف عنده والمصير إليه في معنى الآية.

كل ذلك يجعلنا نقف مع رأي جمهور المفسرين الذي قال عنه الإمام القرطبي: وهو الذي لا يصح غيره، من وجوب بقاء الآية على ظاهرها، تقصد إلى الإخبار بأسلوب النفي والتنزيه الذي يفيده قوله: (ما كان) عن سنة من سنن الأنبياء في جهادهم القتالي لإعلاء كلمة الله تعالى، وتخبر في ضمن ذلك أن محمداً ﷺ مثلهم في هذه السنة الحميدة، منفي عنه منزّه عن أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

وبهذا الفهم المستقيم تبقى الآية في وضعها وأسلوبها القرآني لا يشتم منها رائحة عتاب للنبي ﷺ لأنه ﷺ لم يقع منه قط ما يستوجب العتاب، وإنما الذي وقع كان من أصحابه الذين توجّه إليهم من العتاب ما توجّه، لأنهم تسببوا في أن النبي ﷺ يكون له على خلاف شأنه ومقامه أَسرى قبل أن يثخن في الأرض.

ويزكي هذا ويؤيده تنوّع الأسلوب في الجملتين اللتين كانتا صدراً

للآية، فالجملة الأولى مجرد إخبار من الله تعالى عن سنة من سنن الأنبياء في جهادهم القتالي لأعدائهم، لإعلام رسول الله ﷺ بذلك، وأنه داخل في إطار هذه السنة مع إخوانه الأنبياء عليهم السلام، والجملة الثانية توجيه خطاب لجمهور المجاهدين عتاباً لهم على إرادتهم عرض الدنيا الفاني وإعراضهم عن ثواب الآخرة الباقي، وهذه الجملة لم يدخل فيها النبي ﷺ قط لاستحالة إرادة عرض الدنيا منه.

الآية من قبيل التهييج للتأسي بأتباع الأنبياء.

وفي هذا الأسلوب تنبيه لأصحاب النبي ﷺ يهيجهم إلى ما كان عليه أتباع الأنبياء من قبلهم ليكونوا أمثالهم في أنهم لم يتسببوا في أن يكون لأنبيائهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأنهم منزّهون عن ذلك، فنُفي عنهم فلم يقع منهم، ونبيكم محمد ﷺ أحرَى ألّا يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، لأنه ليس من شأنه، وهو منزّه عنه بمقتضى التعبير عن ذلك بقوله: ﴿ ما كان ﴾ الموجب للنفي والتنزيه، فلتكونوا أنتم كأتباع الأنبياء الذين لم يتسبّبوا في أن يكون لأنبيائهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، وعندئذ يتجه العتاب إلى أصحاب النبي ﷺ في قوله: «تريدون عَرضَ الدنيا» وتبقى ساحة النبي ﷺ نقيّة طاهرة مطهرة، لا يحوم حول حماها شيء من العتاب لعدم قيام موجبه منه ﷺ.

في هذا الإطار يجب أن تفهم قصة أسرى بدر.

في هذا الإطار التحليلي الذي وضعنا فيه أحداث قصة أسرى غزوة بدر في موضعها من واقع التاريخ وأحداث الحياة، يجب أن تفهم معاني الآية الأولى من آيات هذه القصة التي وضعت بنصِّها القرآني بعيدة عن الروايات الضعيفة والآراء الباطلة رسولَ الله ﷺ في مكانه الأعز الأحمى، إذ جاءت إخباراً إعلامياً له ﷺ بأنه لم يكن من طبيعته في رسالته، ولا شيمته في نبوته أن يعطي أعداءه، أعداء دينه ورسالته المفسدين في الأرض من أحلاس الشرك الفاجر والكفر العتيّ والوثنية الباغية فرصة التنفس، وقد سلّطه الله عليهم بقهره وأمكنه منهم بقوة بطشه حتى أوثقهم الرعب منه، وغلّلهم الفزع من هيبته قبل أن يوثقهم أصحابه بالحبال والقدّ، والسلاسل والأغلال، ليذهب ما ألمّ بنفسه الكريمة من آثار كراهيته لما يصنع أصحابه في جمع الغنائم، واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى بعد أن مكّنهم الله من هؤلاء الأعداء

الفجّار الذين لم يكادوا يلقَونهم في ميدان المعركة حتى منحوهم أكتافهم مدبرين، يقتلون صناديدهم كيف شاؤوا كما وصفهم أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب في حديثه مع عمه أبي لهب، وقد سأله عن المعركة، فقال له: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، كما جاء في حديث أبي رافع مولى العباس بن عبد المطلب.

وكان رسول الله ﷺ يرى جمهرة جنده المحاربين قد حوّلوا النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه بل الذي كانوا يتهيبون الإقدام على تحقيقه، وقوفاً منهم مع مقاييس القلّة والكثرة، وموازين القوة المادية في العدد والعُدّة إلى غنيمة تجمع، ورجال تُستبقى وتؤسر، وفرّار يهربون في فجاج الأرض مفزّعين مرعوبين كأنما كانت تتخطفهم الشواهين والنسور، وتنقض عليهم البزاة والصقور، وتلاحقهم لتلتهمهم الأُسد والنمور، ولم يكن من الحكمة في سياسة الموقف أن يرد الغانمون والآسرون عن مقاصدهم بعد أن أغمدوا سيوفهم، وشغلوا بتصفية المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وأخذهم أسرى إرادة عرض الدنيا والإعراض عن الآخرة وما فيها من عظيم الثواب والنعيم المقيم.

وقد جاء العتاب بجلاميده ينقض على رؤوس الذي كان موقفهم سبباً في أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل أن يثخن في الأرض، ويبلغ من أعدائه مبلغاً يكسر شوكتهم ويرعبل قوتهم، حتى يعجزهم عن مواقفته في مواقع القتال، فقال تعالى يخاطب الذين أسرعوا في إنهاء المعركة قبل أن تصل بالنصر إلى نهايته العليا بعد أن أُخبر رسول الله ﷺ أنه بمقتضى نبوته، لا يكون له كإخوانه الأنبياء الذين شرع لهم الجهاد قبله أسرى يفادونهم: «تريدون عَرَض الدنيا» لأنه ﷺ منزّه عن قصد إرادة عرض الدنيا، فلا يقع منه قط، ولا ينبغي أن يقع من جنده فيسند له، ولكنه ﷺ موجّه من الله تعالى لأن يجري في جهاده لإعلاء كلمة الله مع إرادة الله في قصد الآخرة وثوابها، لتبقى دائمًا يده هي العليا في هزيمة أعدائه كلما أظفره الله بهم في ميادين القتال.

رأي أبي حيان في تفسير الآية.

وقد عرض أبو حيان في تفسيره (البحر) لهذا الموقف الذي لم يرتكز في حقائق القصة إلا على الروايات الواهنة الواهية التي اشتملت على ما لا ينبغي في حق الأنبياء وخاتمهم سيد المرسلين محمد ﷺ، والتي وجهت العتاب في الآية إلى جمهور مباشري الحرب كما يفيده أسلوب النص القرآني.

ولكن المتشبثين بزَبَد الروايات، المستعبدين لما ورد فيها من غثاء القول الذي لم يسند إلى صحابي بسندٍ صحيح دون تمحيص يرد ما لا ينبغي أن يقال، ويستمسك بما يصح في العقول وأصول الإيمان ـ جعلوا العتاب موجهاً إلى النبي ﷺ، كما رواه الطبري عن ابن إسحاق وغيره مما لا يمكن أن يثبت في ميزان البحث المدعم بالأدلة والبراهين.

ونحن نسوق كلام أبي حيان لما فيه من الفائدة: قال: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ. لولا كتابٌ من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيِّباً واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾.

نزلت في أسرى بدر، وكان رسول الله ﷺ قد استشار أبا بكر وعمر وعلياً، فأشار أبوبكر بالاستحياء، وعمر بالقتل، وقرأ أبو الدرداء، وأبو حَيْـوة ﴿ مـا كان للنبي ﴾ معـرفاً، والمـراد بـه في التنكـير والتعـريف الرسول ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجه عليه معيناً وهو هنا على حذف مضاف، أي ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي، فحذف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع في قوله: ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ ولم يجيء التركيب تريد أو يريد عرض الدنيا لأنه ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب.

ثم قال أبو حيان: وقد طوّل المفسرون في قصة هؤلاء الأسارى، وذلك مذكور في السِّيَر، وحذفناه نحن لأن في بعضه ما لا يناسب ذكره بالنسبة إلى مناصب الرسل. إهـ.

ثم ختمت الآية بذكر وصفين من نعوت الكمال الإلهي الذي يقع موقعه من مناسبات الكلام، فجاء قوله: ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فوصف العزّة

إلماع للغلبة القاهرة والقوة الباطشة، ووصف الحكمة إيذان بما في هذا العتاب لجمهور المحاربين المؤمنين من وضع الأمر في موضعه، وتوجيه العتاب لمستحقيه، وتثبيت للنبي ﷺ على سجيته من عدم إرادته قط عرض الدنيا لأنه منزّه عنه، وعن أسبابه وموجباته، ومنفي عن ساحته فلا يقع منه، ولا يأمر بأسبابه ودواعيه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي ـ أي نبي ـ أن يكون له أسرى حتى يثخنَ في الأرض﴾ وهو ظاهر جلي في أنه ليس فيه رائحة عتاب له ﷺ، فمن زعمه وقال به فإنما حسابه عند ربه.

تحقيق وبيان لمعنى الآية الثانية.

ثم قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ و(لولا) حرف شرطي امتناعي يفيد أن وجود شرطه مانع من وقوع جوابه، والمعنى لولا وجود كتاب سابق في علم الله الأزلي بأنكم يا أهل بدر لا يعذبكم الله على ما صدر ويصدر منكم من هفوات المخالفات لما كان منكم من مواقف في نصرة الدعوة إلى الله خلّدت ذكركم في تاريخ الحياة، فكنتم بها أفضل أصحاب محمد خاتم النبيين ﷺ، وأفضل أتباع جميع الأنبياء والرسل ـ لمسَّكم من الله فيما أخذتم من الغنائم قبل الإثخان عذابٌ عظيمٌ.

أوالمراد بالكتاب السابق ما سُطِّر في علم الغيب من إحلال الغنائم لكم خاصة دون غيركم من سائر أمم الرسل ـ لمسكم في إسراعكم لها وجمعها قبل أن ينزل لكم الأمر بحلِّها عذاب من الله عظيم، لأنكم ولّيتم وجوهكم شطر الدنيا وعرضها الزائل مما لا يليق بمكانتكم عند الله، ولكنكم أدرككم ضعف البشريّة، فحاد بكم عن نهج كمالكم التربوي في ظل الإيمان، وزيَّن الدنيا في أعينكم فرضيتموها بديلاً عن تساميكم لإرادة الآخرة التي أعدَّها الله لكم بما فيها من نعيم مقيم.

فأنهيتم معركة الشرف والعزة وأنتم في أوج نصرها، وخضتم معركة الغنائم والأسر، واستبقيتم الرجال المحاربين لكم لتفادوهم، فكنتم سبباً في أن ينسب إلى نبيكم خاتم النبيين وسيد المرسلين ما لا ينبغي أن ينسب إليه مما هو منفيٌّ عنه ومنزّه أن يقع منه، وهو أن يكون له أسرى باستبقائكم الرجال قبل الإثخان في الأرض، لكن الكتاب الأزلي سبق من الله تعالى

فعصمكم أن يمسكم من الله عذاب عظيم.

اعتماد جمهور المفسرين في تفسير الآيات على روايات أسباب النزول.

وهنا تتدخل روايات أسباب النزول لتفسر بها الآية، وأسباب النزول كما قلنا مراراً ليست تفسيراً للآيات التي تنزل عندها، وهي أحداث ووقائع خاصّة نزلت الآيات لتعطيها حكمها في ضمن ما تفيده من أحكام عامة، فهي نماذج تطبيقية وليست تفسيراً للآيات، وهذا إذا صحت أسانيدها واتفقت مناسباتها ولم تختلف في معانيها وحقائقها، ولم تتكرر دواعيها.

والذي ورد منها في هذه الآية كاف لتصوير التكرار والاختلاف بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، والاطلاق والتقييد، مما يجعل الاعتماد عليها مشوباً بالاضطراب الذي يضعف الاعتماد عليها.

يقول أبو جعفر الطبري: يقول الله تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق ﴾ يقول: لولا قضاء من الله سبق يا أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله محلٌّ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضَى أنه لا يُضل قوماً بعد إذْ هداهم حتى يبيِّن لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحداً شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصراً دين الله؛ لنالكم من الله بأخذ الغنيمة والفداء عذابٌ عظيمٌ.

ثم ذكر أبو جعفر الآثار الواردة عن أهل التأويل مبيِّناً أنّ كل أثر منها يختص بمعنى من المعاني المتعددة المختلفة التي ذكرها، وقد أطال في ذلك مع اختلاف في الروايات بالزيادة والنقص، وذكر بعض المعاني التي لا يتطلبها المقام، وذكر بعض المعاني التي فيها شذوذ عن المقام وبُعد عن المقصود.

رأي الطبري في معنى الآية.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قد بيّناه قبل، وذلك أن قوله: ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق ﴾ خبر عام غير مخصوص على معنى، وكل هذه المعاني التي ذكرتها عمن ذكرت مما قد سبق في كتاب الله أنه لا يؤاخذ بشيء منها هذه الأمة، وذلك ما عملوا من عمل بجهالة، وإحلال الغنيمة والمغفرة لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم، وإذا كان ذلك كذلك فلا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى، وقد عمَّ الله الخبر بكل ذلك بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه.

وهذا الذي ذكره أبو جعفر رحمه الله جامع لما تفرّق في الروايات المتعددة المختلفة، لكنَّ إدخاله الروايات التي تجعل ما أخذ من فداء الأسرى في ضمن الروايات المفسرة للمراد بكتاب الله تعالى السابق في علمه الأزلي غير مسلّم، لأن أخذ الفداء من الأسرى لا دخل له في عتاب المؤمنين، بَلْهَ عتاب سيد المرسلين محمد ﷺ، وإنما كان العتاب للمؤمنين على تركهم الإثخان في العدو، ومسارعتهم لإنهاء المعركة واشتغالهم بجمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وهذا هو الذي ذكره الطبري عن الحسن، والأعمش من قوله وروايته عن أبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، كما يوقف عليه عند النظر في تفسير أبي جعفر رحمه الله، وهو أيضاً عند الطبري قول الضحّاك وعطاء.

وفي تفسير ابن كثير أن هذا هو اختيار الطبري، ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي» ثم ذكر من هذه الخصائص الخمس قوله ﷺ: «وأحلَّت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحدٍ قبلي».

وفي كل هذه الآثار والروايات انصب الكلام على جمع الغنائم في أثناء الحرب قبل الإثخان في العدو الذي استلزم استبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وفداء الأسرى وإن كان يدخل في الغنائم بمعناها العام لكنه لا يدخل في أسباب العتاب الذي توجه على جمهور المحاربين من المجاهدين، لأنه كان حلالاً قبل بدر كما وقع في أسيري سريّة عبدالله بن جحش.

وقد طوّل المفسرون وأرباب المغازي والسِّيَر الكلام في هذا الموضع، وعدّدوا الروايات المتعارضة وأكثروا من إيرادها دون تنبيه على ما فيها من الاختلاف والتعارض، وأدخل بعضهم فداء الأسرى في الغنائم التي كان الإسراع إليها قبل الإثخان في المعركة بكثرة القتل في العدو وكثرة الجراحات في رجاله هو منشأ العتاب الموجّه إلى جمهور المؤمنين المحاربين في صدر الآية ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾، وقد عرفنا أن بعض المفسرين ذهب إلى

أن الكلام على حذف مضاف تقديره: ما كان لأصحاب نبي ولا لأتباع نبي أن يتسبّبوا في أن يكون لنبيهم أسرى قبل الإثخان، وإذاً فلا دخل مطلقاً للنبي ﷺ في توجّه شيء من العتاب له، لأنه منزّه عن أسبابه، وهي منفيّة، عنه، فلم تقع منه ولا ينبغي أن تقع.

إجمال في الوضع في قصة الأسرى.

والواقع الذي تدل عليه الآيات أن هناك مقامَين منفصلين: المقام الأول هو مقام الاستعجال في إنهاء الحرب بمجرد ظهور بوادر النصر قبل الإثخان في الأرض بكثرة القتل في العدو والمبالغة في جراحاته لكسر شوكته، وتوهين قوته، والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وهذا ما بيّناه في كلامنا على الآية الأولى، وأنه هو الذي كان منشأ العتاب للذين سلكوا هذا المسلك من جمهور المجاهدين، ممّا لم يأمر به رسول الله ﷺ ولم يرضَه وهو القائد الأعظم الذي كان يجب أن تسمع كلمته في الموقف، ويعمل بها ويرجع إليها.

المقام الثاني: مقام فداء الأسرى، وهذا المعنى لم يأت صريحاً في نص الآيات الخمس، وإنما وردت فيه أحاديث وآثار مختلفة، يذكر في بعضها ما لم يذكر في غيرها، وقد اتكأ عليها الباحثون من المفسِّرين وغيرهم، وجعلوها تفسيراً للآيات باعتبارها أسباباً للنزول لما جاء فيها من الأحداث والوقائع التي تتصل بالموضوع، وقد نبَّهنا مراراً إلى أن ما يقال له من الآثار والأحاديث أسباب نزول الآيات لا يصلح أن يكون تفسيراً لها، لما فيها من اختلاف الحوادث والوقائع والأشخاص والأماكن والأزمان.

وتحقيق القول في هذا المقام أن النبي ﷺ أمر بتخيير أصحابه بين أخذ الفداء من الأسرى وإطلاقهم أحراراً، ويقتل من المؤمنين في عام مقبل مثل عدد الأسرى الذين فُودُوا وأطلقوا، وبين أن يقتلوا الأسرى ويسلم المؤمنون كما أخرجه عبد بن حُميد بسنده، وقد عرض النبي ﷺ هذا التخيير على أصحابه فاختاروا أخذ الفداء من الأسرى ليتقووا به على أعدائهم، ويستشهد منهم في عام مقبل أمثال عدد الأسرى الذين فادوهم، واطلقوهم من الأسر في مقابل الفداء.

ولما عرض رسول الله ﷺ هذا التخيير أخرجه مخرج المشاروة لأصحابه في شأن الأسرى ليكشف عما يدور في أنفسهم، مع ما في ذلك من تطييب خواطرهم.

وقد أخرج حديث التخيير الحاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ للأسارى يوم بدر: «إن شئتم فاقتلوهم، وإن شئتم فاديتم، واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدّتهم» وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة عن أبي عبيدة رضي الله عنه، قال: نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يوم بدر، فقال: إن ربك يخيِّرك: إن شئت أن تقتل هؤلاء الأسرى، وإن شئت أن تفادي بهم، ويقتل من أصحابك مثلهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقالوا: نفاديهم فنتقوى بهم، ويكرم الله بالشهادة من يشاء.

أشهر الأحاديث في المشاورة وأقواها سنداً وبياناً لمصير الأسرى.

وقد جاءت في هذه المشاورة روايات متعددة، من أشهرها وأكثرها تفصيلاً وأصحها سنداً حديثان أحدهما أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر ابن الخطاب ورواه عنه ابن عباس برواية أبي زُميل، ولم يذكر فيه شيء عن التخيير، والتخيير ليس حكماً، وإنما هو طريق للوصول إلى الحكم الذي يستقر عليه الأمر.

أما الحديث الثاني فقد أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسّنه وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ونحن نورد هذين الحديثين لأنهما مدار الباحثين في موضوع أخذ الفداء من أسرى بدر، وننبه على ما بينهما من اختلاف، ونستخرج ما فيهما من دلالة على أن أخذ الفداء لم يكن موضع عتاب على المؤمنين المجاهدين فضلاً عن رسول الله ﷺ المنزّه بمقتضى أسلوب الآية عن أن يقع منه في هذا المقام ما يستوجب العتاب.

ونص حديث مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق أبي زُميل قال: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما

ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم بالفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ شجرة قريبة من نبي الله ﷺ ـ وأنزل الله عز وجل: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرَى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ فأحلَّ الله الغنيمة لهم.

وأما الحديث الثاني فقد قال السيوطي في (الدر): وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي ـ وحسنه ـ وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني، والطبري، والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود، قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارَى، وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: كذَّبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدِّمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبدالله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم، فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك. فدخل رسول الله ﷺ ولم يردّ عليهم شيئاً، فقال ناس: يأخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه، وقال ناس: يأخذ برأي عمر، وقال ناس: يأخذ برأي عبدالله بن رواحة.

فخرج رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله ليلينُ قلوب رجال فيه حتى

النبي ﷺ يضرب المثل لصاحبيه الصديق والفاروق بالأنبياء الرسل في رقة العاطفة وفي شدّة الدين.

تكون ألين من اللبن، ويشدِّد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: (فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: (إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم).

ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً) ومثلك يا عمر كمثل موسى إذ قال: (ربنا اطمس على أموالهم، واشْدُد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) أنتم عالة فلا ينفلتنَّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق) فقال عبدالله ابن مسعود إلا سهل بن بيضاء، فإنه سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، قال عبدالله: فما رأيتني أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى آخر الآيتين.

وهاتان الروايتان ذكرهما أبو جعفر الطبري في تاريخه بسنده، ولم يخرجهما بتفصيل في تفسيره، وأخرجهما القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) وأسند أولاهما إلى مسلم، والثانية إلى يزيد بن هارون بسنده، وجاءت منها قطع متفرقة عند كثير من المفسِّرين وأرباب المغازي والسِّيَر.

والاختلاف بين روايتي حديث المشاورة في أخذ الفداء من الأسرى يبدو في:

مواطن الاختلاف بين الروايتين.

أولاً: أن رواية مسلم، وهي من رواية ابن عباس عن عمر بن الخطاب، اقتصرت على توجيه الحديث في الاستشارة على الشيخين: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما باعتبارهما أفضل الصحابة رأياً، وأنفذهم في حلِّ المعضلات فكراً، وأقربهم إلى رسول الله ﷺ منزلة، فكانا منه السمع والبصر، وأعمقهم معرفة بأسباب الحوادث، وأحكمهم سياسة في الوصول إلى وضع الأمور في مواضعها، وألزمهم وجوداً في مجالس رسول الله ﷺ ومحاوراته واستشاراته، فقلّما غابا عن حادث مهم، فرأيهما معبر أكمل تعبير عن رأي المجتمع المسلم في جانبيه الرحيم الرؤوف، والشديد القوي الأمين، وقلّما

خرجت آراء أفراد المجتمع المسلم وجماعاته عن رأيهما.

ثانياً: إن رواية مسلم اشتملت على عبارة (فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ) وهي من قول عمر الاجتهادي، ولعلّ عمر رضي الله عنه أخذ هذا المعنى من معرفته الصادقة بغلبة جانب الرحمة والشفقة على خَلْق الله عامة على طبيعة رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ لم يقع منه تصرف يشعر بذلك عقب حديث المشورة منهما مباشرة، بل سمع منهما وسكت، ثم دخل بيته ومكث زمناً ذهب فيه الناس مذاهب بما يأخذ به رسول الله ﷺ.

تخيير النبي ﷺ في حكم الأسرى.

ولعله ﷺ جاءه التخيير في هذا الوقت، فاختار ﷺ ما شاء الله له اختياره، والتخيير إباحة لمحظور، أو تسوية بين مباحين، وهو إنما وقع بين أمرين انتهت إليهما المشاورة، فاختار منهما ﷺ ما جبله الله عليه مما ترتب عليه خير كثير للإسلام والمسلمين؛ لأن الإبقاء بعد القدرة على القهر والتنكيل والقتل من أكرم مكارم الأخلاق وتحبيب الإيمان إلى القلوب، وقد كانت نتيجة ذلك أن حمل هؤلاء الأسرى وذرياتهم لواء الدعوة إلى الله، يدعون لدينه الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ المرسلِ رحمة للعالمين، فهم الذين فتحوا البلاد وأنقذوا العباد، واهتدى بهم الضُّلّال، وأقيمت موازين العدالة والإخاء والمساواة، وقادوا الإنسانية إلى آفاق حضارة مؤمنة، لا يظلم في ظلها أحد.

ولم يكن ما كان من قبيل أن النبي ﷺ هويَ رأياً فاختاره، ولم يهو رأياً فتركه، وإنما كان من قبيل السياسة الحكيمة التي تزرع في النفوس المودة والمحبة.

ثالثاً: إن رواية مسلم ختمت بهذه الجملة: (فأحلّ الله الغنيمة لهم) والغنيمة في العرف العام إنما يراد بها ما يؤخذ من المحاربين في الموقعة، وهي بهذا الإطلاق الأعم الأغلب لا يدخل فيها فداء الأسرى، وبذلك يخرج فداء الأسرى عن نطاق العتاب.

أما الحديث الثاني برواياته المتعددة التي خرّجه بها عدد من المفسرين

وأرباب المغازي والسِّيَر فقد جاء فيه ضرب النبي ﷺ لصاحبيه اللذين شاورهما، فأشار كل منهما بما رآه، المثل بالأنبياء والمرسلين، فجعل أبا بكر رضي الله عنه في لينه ورأفته ورحمته وإشفاقه مثل إبراهيم وعيسى عليهما السلام، وجعل عمر في شدته وصرامته مثل نوح وموسى عليهما السلام.

والمعروف المتعالم أن رسول الله ﷺ كان أرحم الخلق بالخلق، وأشفق الناس على الناس، طبيعة خلقه الله عليها، ولم يُخيَّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما وأرفقهما وأرحمهما بأمته ومجتمعه المسلم الذي أقامه على المواساة في الحب والمؤاخاة.

والكلام في هذه الرواية المتعدِّدة التخريج كان مع جمهور الصحابة على مسمع من الأسرى الذين ذكر فيهم العباس عمّ رسول الله ﷺ، وقد اشترك في المشاورة عبدالله بن رواحة الأنصاري، وأشار برأي تناهَى في الشدّة، طلب فيه من رسول الله ﷺ أن يعمد إلى وادٍ كثير الحطب فيضرمه عليهم ناراً، فسمعه العباس فقال له: (قطعتَ رحمك) وهذه اللفظة اختلف ضبطُها في كتب الرواة، فضبطها بعضهم (قُطِعَت) بالبناء للمجهول، فتكون دعاء على ابن رواحة، لأنه أشار بهذه البشاعة المفظعة التي تقطع الأرحام وتفسد القرابات، وضبطت في مواضع أخرى (قَطعْتَ رحمك) بالبناء للفاعل وتاء المخاطبة، فتكون من باب اللوم والاستنكار.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لعمر حين أشار بما أشار به من الشدة: «يا أبا حفص تأمرني بقتل العباس؟» فجعل عمر يقول: ويل لعمر ثكلته أمه، ويؤيد رواية الرازي ما جاء في سياق كتب المغازي: وفي بعض الروايات أن عمر قال في مشورته: وتأمر حمزة بقتل العباس. ويظهر أن هاتين الروايتين كانتا عماد الدائرين في محور إدخال قضية فداء الأسرى في آية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ قصداً إلى أن يسري ما فيها من عتاب لجمهور المجاهدين الذي أنهَوا المعركة ـ دون إذن من النبي ﷺ وانصرفوا إلى جمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل الإثخان ـ على أخذ الفداء من الأسرى إلى ساحة النبي ﷺ.

هاتان الروايتان هما عماد من حاول إدخال فداء الأسرى في آية ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾.

وهذا بعيد عن منطوق الآية، مفهومها، وأسلوبها لا يشعر به ولا يفيده، لأن موضع العتاب فيها قوله تعالى: ﴿ تريدون عَرَض الدنيا ﴾ ومصبه الإسراع في إنهاء المعركة بغير أمر من النبي ﷺ، وإنما لجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وهو عَرَض الدنيا الذي أرادوه، فعاتبهم الله تعالى عليه، قبل أن تأتيهم قضية فداء الأسرى.

ويدل لهذا حديث سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكراهيته لإنهاء المعركة قبل الإثخان في التنكيل بالعدو تنكيلاً يبلغ من العدو غايته في كثرة القتل والجراحات، وأما أخذ الفداء من الأسرى فلم يكن قط موضع عتاب، لأن رسول الله ﷺ خيّر بين أخذه وإطلاق الأسارى وبين قتلهم، وهذا هو نص قوله ﷺ في الحديث الثاني: «أنتم عالة، فلا ينفلتنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق» وفي هذا النص ميل إلى اختيار أخذ الفداء كما يشعر به قوله ﷺ لأصحابه: «أنتم عالّة» أي فقراء محتاجون إلى ما يريشكم لتتقوا على أعدائكم.

الاختلاف في ربط أخذ الفداء بالآية الأولى أو بما بعدها.

ومن هنا اختلفت روايات كثيرة في ربط أخذ الفداء من الأسرى بهذه الآية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ أو بما بعدها، ففي حديث أنس عند أحمد أن أبا بكر قال: نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فنزل ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ الآية، وأخرج نحوه ابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طريق نافع عن مولاه عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما، وفي آخره: فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾.

وحينئذ تكون هذه الآية من قبيل التذكير والامتنان عليهم بنعمة إعلامهم حلّية أكل ما أخذوه من الغنائم، ولهذا جاء التفريع في قوله تعال: ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ فوصفه بوصفين عظيمين يجمعان خلوصه من شائبة التبعية، وثقل المسؤولية، إلى ميل النفوس إليه واستطعامه، ومهنئه وحلاوة مذاقه ويسر التصرف فيه، والانتفاع به، فقال: ﴿ حلالاً طيباً ﴾ ثم

أمرهم بتقوى الله لتدوم لهم نعمه عليهم، ويزدادوا أعظم منها، لأن التقوى في هذا المقام بمثابة الشكر، قيد للنعمة وإنماء لها، ثم زادهم إنعاماً فأطمعهم في عفوه ومغفرته فقال: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي فلا تبتئسوا بما صدر منكم من إنهاء المعركة والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال من قبل الإثخان في الأرض، لأن الله عفا عنكم وغفر لكم بإحسانه ورحمته.

فأخذ الفداء من الأسرى لم يدخل قط في إطار العتاب، لأن النبي ﷺ وافق عليه بعد مشاورة أصحابه أو اختاره بتخيير جبريل عليه السلام كما في حديث الترمذي، والنَّسائي، وابن حبّان، والحاكم، وقال عنه ابن حجر بإسناد صحيح.

ما وقع في سرية عبدالله بن جحش قبل بدر القتال قاطع في مشروعية مفاداة الأسرى.

والذي يقطع بعدم دخول الفداء من الأسرى في إطار العتاب للذين أرادوا عَرَض الدنيا من المحاربين المجاهدين ما وقع في سرية عبدالله ابن جحش، وكانت قبل بدر العظمى، وبعد بدر الأولى، ففادى رسول الله ﷺ الحكم بن كَيْسان مولى هشام بن المغيرة، وعثمان بن المغيرة، وكانت سرية عبدالله بن جحش قد أسرتهما، وبعثت قريش في فدائهما، فقبل رسول الله ﷺ الفداء، وهذا كالمجمع عليه، فكيف ذهب من عقول المتشبثين بإدخال فداء الأسرى في إطار العتاب؟ والقصة مذكورة بتفاصيلها في كتب التاريخ والمغازي والسِّيَر والتفسير.

فمن أدخل فداء أسرى بدر في سببية العتاب فقد اشتبهت عليه معالم الطريق، وضرب في بيداء الروايات المختلفة المتخالفة التي كثيراً ما كانت مضلة، يعسر الخروج منها.

والذي يؤكد ما قلناه قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إنْ يعلمِ الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أخذ منكم، ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ لأن الله تعالى جعل هذه الآيةالكريمة وعداً كريماً لمن كانوا تحت يدي رسول الله ﷺ وأيدي أصحابه المجاهدين من الأسرى الذين اشتد عليهم ما أُخذ منهم من الفداء، كما يدل له قول العباس حينما قال له النبي ﷺ: «افدِ نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي

طالب وحليفك عتبة بن عمرو»: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي ما في الدنيا من شيء، فلقد أعطاني الله خيراً مما أخذ مني، مائة ضعف، وأرجو أن يكون الله غفر لي. وكما يدل له ما جاء في حديث أبي هريرة عند ابن مردويه الطويل: فلما أحلَّ الله لهم فداءهم وأموالهم قال الأسرى: ما لنا عند الله من خير، قتلنا وأسرنا فأنزل الله يبشرهم ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ﴾ إلى قوله: ﴿ والله عليم حكيم ﴾ وقد أسلم من هؤلاء الأسرى عدد كبير، يشمل جمهورُهم الكثيرَ من أشراف قريش الذين كانوا أصدق دعاة للإسلام وأقوى حملة لواء دعوته ونشر رسالته بعد إسلامهم.

أسماء بعض من عرف إسلامه من الأسرى ومواقفهم في نشر الدعوة بعد إسلامهم.

وقد ذكر الباحثون أسماء جماعة ممن أسلموا، كان من أفضلهم العباس وابنا أخويه نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب، وأبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، والسائب ابن عبيد، وعدي بن الخيار، والسائب بن أبي حُبَيش، وأبو وداعة السهمي، وسهيل بن عمرو، وخالد بن هشام المخزومي، وعبدالله بن السائب، والمطَّلب بن حنطب، وعبدالله بن أبيّ بن خلف، وعبد الله بن زمعة أخو سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها، ووهب بن عمير الجمحي، وقيس ابن السائب المخزومي، ونسطاس مولى أمية بن خلف، والوليد بن الوليد، وكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت لأن قريشاً حبسته بعد أن افتكوه من الأسر، وذهبوا به إلى مكة، فأسلم هناك وعذّبوه، ثم أنجاه الله ببركة دعاء النبي ﷺ له، وهاجر إلى المدينة، ومات بها في حياة النبي ﷺ، ومن لم يسلم منهم فقد أعطَوا للمجتمع المسلم من ذراريهم كتائب من أبطال الجهاد وجند الفتح الإسلامي الذي نشر جناحيه على آفاق المعمور من الأرض، فأضاء الحياة بنور الرسالة الخالدة الخاتمة لرسالات السماء، فنبتوا في أرجاء الأرض دعاة إلى الله وهداة إلى الحق والخير، يحملون في أيمانهم كتاب الله الحكيم مفتوح الصفحات مشرق الكلمات، يهدي إلى صراط الله العزيز الحميد، ويرفعون بشمائلهم سيوف الحق ماضية في طريقها لتخليص الإنسانية من رقِّ العبودية للمخلوقين، وليخرجوها من ظلمات الوثنيات إلى ساحة الإيمان بالله الواحد

المعبود، وليحرروها من رق الطغيان والظلم، ويدخلوها تحت راية العدل الرحيم والإخاء الكريم والمساواة في الحقوق والواجبات.

كان استبقاء الأسرى والعفو عنهم بأخذ الفداء منهم من توفيق الله.

فهل يعقل أن يكون تحتيم قتل هؤلاء الأسرى هو شرع الله دون أن يكون لهم منفذ إلى النجاة للدخول في ساحة الإيمان والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، وبسط سلطان العدل، ونشر رسالته على العالمين؟ هذا بعيد جداً عن مقاصد أكرم رسالة ختم الله بها رسالاته السماوية، وأكرم بها الإنسان الذي جعله الله بفضله أكرم مخلوق، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، ورزقه العقل ليكشف أسرار الكون وكنوز الطبيعة، لتكون سبيله إلى معرفة جلال الله وعظمته ومحكم تدبيره حتى يفرده بالعبادة في شتى صورها وأشكالها المشروعة بوحيه إلى أنبيائه ورسله.

فوضع الأسرى ليس كوضع المعركة وهي تدور رحاها تطحن رؤوس الكفر والفجور الذين نابذوا الحق منابذة مضطغنة حاقدة، أعمَتْ أبصارهم وبصائرهم عن النور الذي جاءهم به رسول من أنفسهم ليرفع خسيستهم، ويجعلهم سادة الدنيا، فأبّوا إلا أن يحاولوا إطفاء نوره حسداً من عند أنفسهم، فكان لا بد لهؤلاء الفجرة من كسر شوكتهم وتوهين قوتهم وتقتيلهم تقتيلاً يفقدهم الحياة ويفقد من بقي منهم الحركة لمواقفة أجناد الله المجاهدين، وهذا هو المراد بالإثخان في الآية، ليبسط عليهم سلطان المجتمع المسلم ليحكم فيهم بحكم الله تعالى.

فإذا أخذ منهم من لم يرج منه حركة نظر في أمره بما تقتضيه مصلحة الإسلام ومجتمعه، فإن رؤي فيهم استعداد لقبول الحق والخير والهدى فتح لهم أبواب النجاة، وفاداهم بما يقوّي المسلمين مادياً، وإن رؤي فيهم استمرار على الفجور والكفر استنطقت للحكم فيهم السيوف بصليلها في أعناقهم حتى تذيقهم مرارة الموت مدحورين.

ويدل لهذا قول النبي ﷺ في حديث أنس عند أحمد، وهو يستشير أصحابه: «إن الله أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» قال الزرقاني: فيه ترقيقهم عليهم واستعطافهم، لأن العفو بعد المقدرة من شيم الكرام.

وقد كانت مشورة عمر مغضبة للنبي ﷺ، **وكانت مشورة أبي بكر** بالعفو مذهبة لما اعترى النبي ﷺ من الغم، قال القسطلاني في المواهب بعد أن ذكر مشورة أبي بكر بالعفو عنهم وقبول الفداء منهم: فذهب من وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل الفداء منهم، وقال لأصحابه: «أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق».

كان النبي ﷺ بما جبل عليه من الرحمة يحب الرحمة والإحسان.

وإذا كان وضع الأسرى ليس كوضع المعركة وهي دائرة والنصر ترفرف أعلامه على رؤوس جند الله المجاهدين، وكان وضع المعركة مقتضياً للإثخان بكثرة القتل والجراحات في الأعداء، وكان وضع الأسرى مقتضياً للنظر والمشاورة لاختيار ما يحقق مصلحة المجتمع المسلم. كان في موقف المجاهدين في المعركة بسرعتهم إلى إنهائها والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال ما يقتضي العتاب للذين يريدون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة، فكانوا كالذي اشترى فانياً ملىء بالغصص والأكدار بدائم لا يزول ولا يحول، لا تلحقه غصص ولا مكدِّرات، فعاتبهم الله على ذلك.

ثم تفضّل عليهم بألطافه وإحساناته فرفع عنهم مرارة العتاب بإخبارهم أن كتابه الأزلي الذي سبق بقضائه لهم أن لا يعذبهم على ما كان منهم، وأن ما غنموه كان في ذلك الكتاب السابق حلالاً لهم، لا تبعة عليهم في أكله والانتفاع به، وهو طيب تشتهيه النفوس الكريمة وترغب فيه.

لطف الله تعالى بالمجاهدين بعد العتاب ليرفع عنهم مرارته وشدّته.

وكان درس العتاب درس تربية لهم، لا درس عقوبة، ولذلك ختمت آية العتاب بوصفَي العزّة والحكمة فجاءت فاصلتها ﴿ والله عزيزٌ حكيمٌ ﴾ ليبقى للعتاب أثره الدائم في التربية السلوكية، وختمت آية التفضل بالعفو بوصفي المغفرة والرحمة ليثلج صدورهم بإنعامه عليهم بنعمة العفو، وعدم مس العذاب لهم لأنهم كانوا الدعامات الأولى التي قام عليها بناء الدعوة بالتضحية بالنفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه وتبليغ رسالته.

وقد أبانت الروايات أن رسول الله ﷺ كان كارهاً لموقف الذين تعجّلوا إنهاء المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل الإثخان في الأرض، وقد مكّنهم الله من عدوهم.

كان ما وقع من القتل والأسر لأعداء الله محققاً للإثخان في أدنى صوره.

ولعله ﷺ رأى باجتهاده أن ما تمّ من النصر محقق للإثخان في الأرض بما سيكون له من أثر بالغ في إشاعة الهزيمة بين من لم يشهد المعركة من قريش ومن يناصرها من القبائل حولها، وقد تحقق ذلك وأصاب قريشاً من الغم والحزن والذل مانكّس رأسها، وأحرق أحشاءها، وشوى أكبادها، وأسكتها غيظاً، ومنعها النوح على قتلاها من الأشراف والصناديد، فكان ذلك من أشد ما أصيبت به من البلاء.

قال ابن كثير في تاريخه: وكان هذا من تمام ما عذّب به الله أحياءهم في ذلك الوقت وهو تركهم النوح على قتلاهم، فإن البكاء على الميت مما يبلّ فؤاد الحزين.

وقال ابن إسحاق: وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زَمْعة، وعقيل، والحارث، وكان يحب أن يبكي على بنيه، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له ـ وكان قد ذهب بصره ـ هل أحلّ النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة يعني ولده زمعة ـ فإن جوفي قد احترق.

أما وضع الأسرى فكان مختلفاً عن وضع المعركة، لأن الأسرى أصبحوا تحت أيدي المسلمين مملوكين لهم، مرعوبين منهم، مفزّعين من خوف ما يحل بهم، يكاد يقتلهم ترقب المجهول الذي ينتظرهم.

كان التصرف في أمر الأسرى بأخذ الفداء والعفو رفقاً بالمسلمين لضيق ذات يدهم.

وقد أبدى كثير منهم استعدادهم لاعتناق الإسلام ومناصحتهم لرسول الله ﷺ، وأظهروا من الضراعة والمذلّة ما بلغ بهم كل مبلغ، وإبقاؤهم تحت أيدي المسلمين دون تصرف في شأنهم عبء ثقيل على وضع المسلمين الاقتصادي، لأنهم كانوا لايزالون في ضيق من العيش وقلّة في المال، وكان النبي ﷺ قد أوصاهم بالأسرى خيراً، فكانوا يحرمون أنفسهم ويكرمون الأسرى كما تدل على ذلك قصة أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير.

فكان من السياسة الحكيمة أن يفتح باب التصرف في شأنهم، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه وشاورهم في أمر الأسرى، وكان الله تعالى قد أباح قبل ذلك مفاداة الأسارى كما سبق أن ذكرناه في الإشارة إلى ما وقع في سرية

عبدالله بن جحش، وكذلك أباح الله له القتل، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، كما أباح له المنّ بغير فداء، فمنّ على أبي العاص ابن الربيع، ومنّ على أبي عَزَّة، عمرو بن عبدالله بن عثمان بن أهيب، وكان محتاجاً ذا بنات، فقال لرسول الله ﷺ يستعطفه: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فمنّ عليّ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزة أبياتاً من الشعر، يمدح فيها النبي ﷺ، ولكنه نقض العهد، وشهد مع المشركين أحداً، فأخذ أسيراً، فسأل النبيَّ ﷺ أن يمنَّ عليه مرة أخرى، فأبى رسول الله ﷺ، وقال له: «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول: خدعت محمداً مرتين» ثم أمر به فضربت عنقه، وتقول بعض الروايات أن أبا عَزَّة هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ويقول أهل الحذق في الأدب: وهذا من الأمثال التي لم تسمع إلا منه ﷺ.

كان اختيار النبي ﷺ أرفق بالأسرى وأصلح للمسلمين.

وكانت مشاورة الصحابة في أمر الأسرى انتهت إلى رأيين، رأي أبي بكر ومن تابعه بالعفو عنهم وأخذ الفداء منهم، ورأي عمر ومن وافقه بقتلهم، وصوّب رسول الله ﷺ الرأيين بما ذكره من ضرب المثل للشيخين بالأنبياء، ولكنه ﷺ اختار بتوفيق الله وتسديده من الصواب أرفقه وأرحمه وأصلحه لحال المسلمين، فاختار المفاداة بالمال أو تعليم عشرة من غلمان المسلمين القراءة والكتابة عن كل أسير لا يفدي بنفسه بالمال أو القتل لمن لم يقدِّم في فدائه مالاً، أو تعليماً للقراءة والكتابة.

وبقي له ﷺ حق المنّ على من يرى أن في المنّ عليه مصلحة للمسلمين، وهذا الوضع هو الذي يدل عليه فحوى الآيات ومنطوق الروايات التي قيل إنها أسباب نزول الآيات، وهو موضع يضع النبي ﷺ في الذروة من الحكمة في سياسة مجتمعه المسلم، فلم يلحقه ﷺ قط شيء من العتاب في قضية أسرى بدر، ولا في سير المعركة التي حقق الله بها نصراً لم تشهد الحياة مثله.

ثم ختم الله تعالى آيات قصة الأسرى بتهديد الذين كانوا في أيدي

تهديد من يضمر الخيانة من الأسرى بعد إطلاقه.

المسلمين، ووعدهم الله أن يؤتيهم خيراً مما أُخذ من الفداء إذا ظهر حسن نياتهم والوفاء بعهودهم بمناصحة النبي ﷺ وأصحابه فإن الله سيعطيكم في الدنيا والآخرة خيراً مما أخذ منكم، ويزيدكم من فضله فيغفر لكم ما سلف من الكفر والمحادّة له ولرسوله ﷺ، لأنه غفور لمن صدق وعده، رحيم لمن وفّى بعهده، فقال تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليمٌ حكيمٌ﴾ والمعنى أن الله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ: إن هؤلاء الأسرى الذين تحت يدك وأيدي أصحابك الذين زعموا بمعسول القول أنهم يضمرون الإسلام وأنهم على عزيمة مناصحتك ومناصحة أصحابك - فلا يظاهرون عليكم عدواً لكم، ولا يقفون منكم موقف عداوة في سِلْم أو حرب، وأنهم على استعداد للدعوة إلى ما تدعون إليه من الهدى والخير - إن كانوا يريدون بهذا القول خيانتك والمكر بك وخداعك والغدر بما وعدوك من المناصحة، والخيس بما عاهدوك فلا تأسَ، ولا تبتئس بما يصدر عنهم من خيانة، لأن ذلك ليس شيئاً محدَثاً أحدثوه لك، ولكنه شنشنتهم التي مرنوا عليها وسجيتهم التي طبعوا بها، لأن سوابقهم في سجلات الخيانة والغدر مسطورة تنادي عليهم بأنهم قوم لا عهد لهم، ليس معك ومع أصحابك فحسب ولكنهم لفجور خيانتهم، وعتو كفرهم سبقوا إلى خيانة الله تعالى الذي خلقهم وربّاهم على موائد فضله، فكفروا به وهم المتقلبون في نعمائه وعطائه، السابحون في بحار آياته ودلائل وجوده وبراهين وحدته، الضارعون تحت وطأة قهره، المقهورون بسلطان عزته وجبروته، وهو لهم بالمرصاد، لا يفلتون من قبضة انتقامه وبطشه، وها هو ذا جلّ شأنه أخذهم بخيانتهم فسلطكم عليهم وأمكنكم منهم، فنصركم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة، فقتلتم صناديدهم وأسرتم أشرافهم، وأذللتم تعززهم بدنياهم وزخارفها، وكلما عادوا إلى الخيانة عدنا إليهم بالقهر والانتقام، والله تعالى عليم بما يضمرون في مداخل أنفسهم وما يسرون في قلوبهم من إخلاص أو خيانة، حكيم فيما يجازيهم من شاكلات خياناتهم، فلا يشغلنّكم تقلبهم بين الخير والشر والهدى والضلال، فإن الله تعالى حافظكم بعنايته ومتوليكم برعايته، فهو حسبكم يكفيكم شرور خيانتهم

ومكرهم، وهو خير الماكرين الذي لا يفوت تدبيره كيد الكائدين.

رأي غريب لأبي حيَّان ونقده وإظهار زيفه.

ومن غريب ما رأينا في تفسير هذه الآيات ما قاله أبو حَيّان في (بحره) وهو كلام ينِدّ عن أسلوب الآيات، ويبتعد بها عن مراميها ومقاصدها، ونخشى أن يكون هذا من باب التأويل المحرِّف للكلم عن مواضعه، وعهدنا بأبي حيان ـ غفر الله لنا وله ـ أنه ليس من أرباب الوثبات في التأويل.

قال: والذي أقوله: إنهم كانوا مأمورين أولاً بقتل الكفار في غير ما آية كقوله: ﴿ فاقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ ﴿ فاقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ فلما كانت وقعة بدر، وأسروا جماعة من المشركين اختلفوا في أخذ الفداء منهم وفي قتلهم، فعوتب من رأى الفداء، إذ كان قد تقدم الأمر بالقتل، حيث لم يستصحبوا امتثال الأمر، ومالوا إلى الفداء، وحرصوا على تحصيل المال، ألا ترى إلى قول المقداد حين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط قال: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير لمن أسر أخاه: شدّ يدك عليه فإن له أماً موسرة، ثم بعد هذه المعاتبة أمر الرسول بقتل بعض، والمَنّ بالإطلاق في بعض، والفداء في بعض، فكان ذلك نسخاً لتحتم القتل.

ثم قال تعالى: ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ في تأييدكم ونصركم وقهركم أعداءكم حتى استوليتم عليهم قتلاً وأسراً ونهباً على قلّة عددكم ـ لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم منهم، لكونهم كانوا أكثر منكم عدداً وعُدداً، ولكنه سهل تعالى عليكم ولم يمسكم منهم عذاب لا بقتل ولا أسر ولا نهب، وذلك بالحكم السابق في قضائه أنه يسلطكم عليهم ولا يسلطهم عليكم.

فليس المعنى لمسَّكم من الله، وإنما المعنى لمسَّكم من أعدائكم كما قال: ﴿ إن يمَسَسْكم قَرْح فقد مسَّ القوم قَرْح مثله ﴾ وقال: ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ أي مّما غنمتم، ومنه ما حصل بالفداء الذي أقرّه رسول الله ﷺ وقال: «لا ينفلتنَّ منهم رجل إلاّ بفِدْية أو ضرب عنق» وليس هذا الأمر منشأ لإباحة الغنائم إذ قد سبق

تحليلها قبل يوم بدر، ولكنه أمر يفيد التوكيد واندراج مال الفداء في عموم ما غنمتم، إذ كان قد وقع العتاب في الميل للفداء ثم أقره رسول الله ﷺ.

هذا كلام ليست له أزمَّة ولا خُطُم، وإنما هو شيء أشبه بهذه السابحات التي تتراءى في أشعة الشمس وأضوائها إذا نفذت من كوّة إلى داخل بيت مظلم تراها تلف وتدور هنا وهناك دون أن تستقر، حتى إذا عمّ البيت نور أضاء أكنافه اختفت دون أثر يدل على وجودها.

التنبيه إلى ما في كلام أبي حيّان من أغاليط.

ولسنا نجد من فسحة الوقت ما يسمح لنا بوقفة مع هذا الكلام لنقده نقداً تفصيلياً يردّه إلى مكانه من جعبة أبي حيّان، ولكنا نرى أن ننبه إلى بعض ما ظهر لنا فيه بقدر ما يسمح به الوقت؛ ليكون في ذلك باعث لمن يقرؤه أن يتعمق في بحثه لعله يجد فيه ما يغري بالحرص عليه، أو يدفع إلى ما عسى أن يكون فيه مما يوجب تنحيته عن الولوج إلى حقائق تفسير القرآن الحكيم.

فأبو حيان كشف في صراحة أن هذا الكلام لم يؤثره عن أحد من سلف الأمة أو خلفها، ولكنه رأي مولّد له من بنات أفكاره، لأنه بدأه بقوله: والذي أقوله، فهو لم يسنده إلى كتاب أو سنة، أو قول صحابي أو تابعي.

ونلاحظ على أبي حيان في هذا الكلام: -

غلط أبي حيان في نصوص كلمات القرآن التي استدل بها.

أولاً - أن أبا حيان زعم أن الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم كانوا من قبل وقعة بدر مأمورين بقتل الكفار في غير ما آية، واستشهد على زعمه بقوله تعالى: ﴿ فاقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ وقوله: ﴿ فاقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾.

وهاتان الجملتان جاءتا في آيات القرآن المتلو تعبداً وإعجازاً بالواو، وهما من سورة النساء، أولاهما برقم (٨٩) والثانية في آية رقم (٩١)، وقد ساقهما أبو حيّان في كلامه بالفاء، فقال: في قوله: ﴿ فاقتلوهم ﴾، وقد أتت الجملة الثانية بالفاء في سورة التوبة، لكن تلاوتها هكذا ﴿ فاقتلوا المشركين حيث ثقفتموهم ﴾ آية (٥) وهي في صورتها المتلوّة مغايرة لما أورده أبو حيّان مغايرة جوهرية، وبعيد جداً أن يقصدها أبو حيان، وأتت الجملة الثانية كما

أوردها أبو حيان بالواو في سورة البقرة آية (١٩١).

والاستشهاد بالآيات يوجب ضبطها بنص التلاوة، ولا سيما إذا كان المستشهد ممن نصب نفسه لتفسير القرآن الكريم، وكان فيه صدراً متقدِّماً.

زعم أبي حيان أنّ الأمر بقتل الكفار تقدم على غزوة بدر زعم باطل.

ثانياً ـ أن أبا حيان زعم أن الأمر بقتل الكفار كان قبل وقعة بدر كما هو بيِّن في قوله: إذ كان قد تقدّم الأمر بالقتل، والآيتان اللتان استشهد بهما أبو حيّان على تقدّم الأمر بالقتل على وقعة بدر هما اللتان في سورة النساء، وسورة النساء متأخرة النزول عن وقعة بدر، لأنها نزلت بعد سورة الممتحنة التي نزلت بعد سورة الأحزاب النازلة بعد آل عمران التي نزلت بعد الأنفال، وهي سورة بدر، ذكرت فيها قصتها كاملة بمقدماتها ونتائجها، وسورة آل عمران بعد غزوة أحد التي كانت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وبدر كانت قبلها بنحو سنة، لأنها بدأت في اليوم السابع عشر من رمضان السنة الثانية، وفرغ منها رسول الله ﷺ عقب رمضان.

فليس لأبي حيان مستمسك في الاستشهاد بجملتي سورة النساء، مع التجاوز عن غلطه في إيرادهما بالفاء، وهما تلاوة بالواو، أما آية البقرة وهي الآية الثانية في استشهاد أبي حيان، وقد أصاب في إيرادها بالواو كما هي في التلاوة، وسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة، ولنسلِّمْ جدلاً أنها كلها نزلت بما فيها آية الاستشهاد قبل وقعة بدر ليصح أن الأمر بالقتل قد تقدم لهم قبل وقعة بدر، لكن الجملة التي استشهد بها أبو حيان جاءت في سياق خاص لا عموم فيه حتى يشمل الأمر بتوجيه الخطاب إلى المسلمين بقتل الكفار على الإطلاق، إذ هي قد جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ فالضمير المنصوب في قوله ﴿ فاقتلوهم ﴾ إلى ماذا يرجع؟ ونظن أنه لا مناص من اعتراف أبي حيان ـ وخصيصته تتجلّى في الجانب الإعرابي من آيات القرآن ـ إن مرجع هذا الضمير هم أولئك الذين يقاتلون المسلمين ظلماً وعدواناً.

والمعروف تاريخياً أنه لم يكن قد وقع قتال في مواجهة قوة بقوة، وجيش

أمام جيش قبل غزوة بدر، وإنما الذي سبق بدراً كان جملة من السرايا والبعوث التي يرسلها رسول الله ﷺ إلى مواطن القوم أو للتعرض لهم وهم مارّون بتجاراتهم، وقد يخرج في بعضها رسول الله ﷺ بنفسه الشريفة.

فوقعة بدر كانت هي أول وقعة مواجهة بين كتائب المسلمين وحشود الكافرين، وكان المسلمون قبل بدر لا يزالون في قلّة وضعف بالنسبة لأعداد وعدد المشركين، وقد قال الله لهم: ﴿ لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة ﴾ أي ضعفاء في قلّة عدد وضعف عُدة، فكيف ومتى توجه إلى المسلمين الأمر بقتل الكافرين قبل غزوة بدر، فقول أبي حيّان: إذ كان الأمر بالقتل قد تقدّم غير مسلَّم، لأنه بعيد عن مراحل تدرج الجهاد القتالي الذي انتصر فيه المسلمون في أول وقعة مواجهة هي غزوة بدر.

أبو حيَّان يستدل بالخاص على تعميم الحكم على أفراد العام وهذا غير سديد.

ثالثاً ـ أن أبا حيّان تمسّك بحادثة فردية في الدلالة على حرص جمهور الصحابة على المال وتحصيله، وذلك قوله: ألا ترى إلى قول المقداد لرسول الله ﷺ حينماأمر بقتل عقبة بن أبي مُعَيط: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير للذي أسر أخاه: شدّ يدك عليه فإن له أُمّاً موسرة، أيكفي هذا في التدليل على حرص الصحابة على المال وتحصيله الذي استوجب عليهم العتاب لتطلُّعهم إلى أخذ الفداء، ولو سلّم ذلك ـ جدلاً ـ في قول المقداد؛ فأين هي الدلالة في قول مصعب، وهو لم يكن الآسر لأخيه الذي سيفيد من أسره؟

وكان أمام أبي حيّان الموقف الجمهوري الذي وقفه جمهور الصحابة في تعجُّلهم إنهاء المعركة قبل الإثخان في العدو، واشتغالهم بجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وقد كانوا متمكنين من قتلهم وإكثار الجراحات فيهم، وهو الذي عوتبوا عليه بقوله تعالى: ﴿ تريدون عَرَض الدنيا ﴾.

لا نسخ فيما ثبت عن رسول الله ﷺ من تصرف في الأسرى.

رابعاً ـ إن أبا حيّان جعل تصرف رسول الله ﷺ في الأسرى بين الفداء والمنّ والقتل نسخاً، وهذا إذا سلّم يكون من قبيل نسخ القرآن بالسنة، وهو محل اختلاف الأصوليين، والقائلون به يشترطون في الناسخ من السنة أن يكون متواتر الثبوت، ولم يجوزوه شرعاً بخبر الواحد، وإن قال به

أبو المعالي الجويني إمام الحرمين، وأنكر الإمام الشافعي نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وقال بقوله بعض أئمة المالكية، وأبو حيان لم يحقق هذا النسخ في هذه المسألة من جهة الناسخ والمنسوخ، وشرط المنسوخ أن يكون حكمًا شرعياً ثابتاً قبل النسخ، والأمر بقتل الكفار قبل بدر لم يثبت ثبوتاً قاطعاً وقد عرفت سبيل الآيات التي استدل بها أبو حيان على تقدم الأمر بالقتل قبل بدر، وشرط الناسخ أن يكون قرآناً عند الشافعي إذا كان المنسوخ حكمًا قرآنياً،وعند غير الشافعي أن يكون متواتراً قرآناً أو سنة.

خامساً ـ شذوذ ما ذهب إليه أبو حيان من أن المراد من قوله تعالى: ﴿ لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ لمسّكم من أعدائكم، على وجه القهر والغلبة، لا من الله على وجه العقوبة على ما صدر منكم من فعلٍ أردتم به عرض الدنيا، وعلَّل ذلك أبو حيان بكثرة عدد الأعداء وعُددهم، وأن هذا كان في الكتاب السابق الأزلي الذي سجَّل فيه أن الله تعالى يسلِّطكم عليهم، ولا يسلطهم عليكم.

ويؤكد ذلك أبو حيان، فيقول: ليس المعنى لَّمسكم من الله، وإنما المعنى لَّمسكم من أعدائكم، وهذا ما لم يقل به أحد من أهل العلم بالقرآن وتأويله ـ فيما نعلم ـ وكلام أبي حيان مؤذن بأنه قولُه وهو من مبتكراته وأنه لم يتبع فيه أحداً من أئمة العلم.

وقد استشهد أبو حيان على ما ذهب إليه من هذا المعنى الشاذ بآيتين لا يدلّان على ما قال من قريب أو بعيد، لأنهما من الآيات العامة التي جاءت لتذكير المؤمنين بنعم الله عليهم وتحريضهم على الصبر على ما يصيبهم في حروبهم مع أعدائهم، فإنهم إذ أصيبوا في مواقفة أعدائهم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله فإن أعداءهم أصيبوا كذلك في محاربتهم لهم لإطفاء نور الله، وللمؤمنين ميزة فَضْلِ الله بما يرجونه بإيمانهم من نعم الله وإحساناته مما ليس للكافرين مثله.

ونكتفي بهذا القدر، ونكف عنان القلم عن الاستمرار في ملاحظاتنا على أبي حيان رحمه الله، لأنه في مكانته العلمية لا تغض وقفتنا في نقد كلامه

من قدره، فهو في عداد أساطين الفكر في تاريخ الإسلام الذين أثْرَوا التراث اللغوي والفكري في هذا التاريخ ممن يعزُّ وجود أمثالهم.

تنبيه إلى أنَّ ما فصلناه في قصة الأسرى إنما اعتمدنا فيه على آيات القرآن.

لقد أقمنا دعائم بحث قصة أسرى بدر، وتصرف النبي ﷺ في أمرهم، وفي الأحداث التي احتفّت بأسرهم، وتوجيه العتاب لجمهور المؤمنين المجاهدين على سلوكهم فيما استوجب هذا العتاب ـ على الآيات القرآنية التي وردت في شأن هذه القصة، ووجهنا جهدنا إلى تفسيرها واستخراج ما فيها من الحقائق والمعاني، مسترشدين بما قاله أئمة العلم من سلف الأمة وخلفها.

وأبنّا بالبراهين الواضحة أن منشأ العتاب الذي تفيده الآيات بسياقها وأسلوبها كان في تعجّل جمهرة المؤمنين المجاهدين إنهاء المعركة بمجرد أن لاحت لهم في أفق المعركة لوائح النصر قبل أن يثخنوا في الأرض بإشباع سيوفهم من هامات أعدائهم وإكثار الجراحات فيهم؛ مما أدّى إلى استبقاء الرجال وأخذهم أسرى في أيديهم.

إجمال ما فصَّلناه من البحث.

وقد وصّلنا البحث بمنهاجنا الذي اتخذناه طريقنا إلى إبانة الحقائق أن التصرف في الأسرى وأخذ الفداء منهم لم يكن له مدخل قط في موجبات العتاب، وأن هذا التصرف كان أمراً مشروعاً قبل غزوة بدر، وأن النبي ﷺ خُيِّر فيه بين الحسنيَيْن، فاختار أرفقهما وأرحمهما وأصلحهما لمستقبل مسير الدعوة ونشر الرسالة.

وحياة المجتمع المسلم في جهاده لإعلاء كلمة الله لا يستقيم في شِرْعة النضال بين الحق والباطل أن تخمد له جذوة، وقد رأى النبي ﷺ بسياسته الحكيمة ـ لمجتمعه المسلم، وتدبيره المحكم في تربية هذا المجتمع الذي نيطت به قيادة الإنسانية لتنشىء حضارة مؤمنة على أنقاض الحضارات الكافرة الملحدة ـ أن يجعل من هذا التخيير درساً تربوياً لأمته في مستقبل حياتها، ليعلمهم كيف يعالجون المعضلات من الحوادث التي لا بدّ أن تقابلهم في حياتهم، وكيف يحلّون المشكلات التي تغافصهم في مسيرتهم بدعوة الهدى والنور، ورسالة الحق والخير، سواء أكان ذلك في مواقف الجهاد ومعامع

القتال أم كان في مواقف السياسة وفتح مغاليق الأمور الفكرية والاجتماعية.

فدعا ﷺ من شهده من أصحابه وجنوده في بدر، ولبّى الدعوة من أتيحت له فرصة التلبية من الخاصة والعامة، وهذا هو الأشهر الذي يؤخذ من نصوص الروايات وفحواها، وفي بعض الروايات أنه ﷺ دعا أبا بكر وعمر وعلياً، وفي بعضها الاقتصار على أبي بكر وعمر، وهذا الخلاف له قيمته في فهم الشورى، ومن هم أهلها وهل هم عامة الناس وخاصتهم؟ أو هم ذوو الرأي الناضج والفكر السويّ من الخاصة، بيد أن الذي كان في هذه الشورى أن الذي أخذ بزمام الحديث، وخصهم رسول الله ﷺ به هم الخاصة، بل هم خاصة الخاصة.

وبدأ الحديث أبو بكر رضي الله عنه كما هو في أشهر الروايات أيضاً، وفي رواية أن المتحدث أولاً هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان أبو بكر رضي الله عنه في حديثه رحمة كله، وكان في شفقته ولين عريكته وسجاحة نفسه ولطف تأتّيه على قدم الخليل أبي الأنبياء والحنفاء إبراهيم عليه السلام، وعلى سنن روح الله وكلمته المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فأشار بالعفو عن الأسارى، وإطلاقهم بأخذ الفداء منهم ليتقوّى به المسلمون على أعدائهم.

ثم تحدث الفاروق عمر بن الخطاب، فكان حديثه يمثل طبيعة المؤمن القوي الأمين، وكأنه شظايا من اللهب تتساقط على رؤوس الكفرة الفجرة المشركين الذين كذبوا رسول الله ﷺ، وقاتلوه، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، واضطهدوا المستضعفين من طلائع الإيمان وعذبوهم، فأشار بقتل الأسارى جزاء وفاقاً على طغيانهم وفجورهم، فكان في مشورته جارياً على طبيعته من الشدّة في الله، وكان في شدّته أشبه بأول الرسل نوح عليه السلام، والكليم موسى عليه السلام، ولم يتحدث غيرهما سوى عبدالله ابن رواحة، فقد أشار بعقوبة لاتتواءم مع سماحة الإسلام لما فيها من بشاعة مفظعة، فأعرض عنه النبي ﷺ، بَيْدَ أنه كان لكل من الشيخين موافقون على رأيه الذي أشار به.

ولما فرغ النبي ﷺ من استطلاع رأي أهل الشورى قام عنهم دون أن

يقضي بشيء حتى دخل بيته ليخلو بنفسه إلى ربه، وظلّ الناس يدوكون، ويصورون لأنفسهم اختيار رسول الله ﷺ، وبأي الرأيين يأخذ، فقال ناس يأخذ برأي أبي بكر، وقال آخرون يأخذ برأي عمر.

ثم خرج عليهم صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم كلمته الجامعة: «أنتم عالَة، فلا ينفلتنَّ منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق» فكان هذا القضاء الحكيم المحكم جامعاً بين أخذ الفداء لمن يقدمه فيطلق أسره، وبين القتل لمن ينكل عنه ويرفضه، ونزلت سورة الأنفال، تقص قصة بدر في مباديها منذ كانت خَرْجة لملاقاة عير قريش وهي تحمل تجارتهم وأموالهم، إلى أن صارت معركة حامية الوطيس انتهت بنصر الله تعالى لنبيه ﷺ وأصحابه نصراً مؤزراً هزّ عواطف المسلمين بالفرحة السابغة التي أنستهم أن يصبروا مع أعدائهم المنهزمين حتى يثخنوا في الأرض بكثرة القتل والجراحات، وشغلوا بجمع الغنائم واستبقاء الرجال الذين أخذوهم أسرى في أيديهم، فعاتبهم الله تعالى على إرادتهم عرض الدنيا في اشتغالهم بجمع الغنائم وأخذ الأسرى، والنبي ﷺ كاره لصنيعهم هذا، وكذلك خاصة أصحابه كانوا كارهين لذلك؛ كما جاء ذلك صراحة في حديث سعد بن معاذ رضي الله عنه وموافقة النبي ﷺ على موقف سعد بن معاذ.

ثم جاء تلطف الله تعالى بالأسرى متوافقاً مع قضاء رسول الله ﷺ في شأن الأسرى الذين وعدهم الله في تلطفه بهم بأنهم إن أظهر الله تعالى علمه للناس بأن الأسرى يضمرون في قلوبهم خيراً بوعدهم بأن يسلموا ويناصحوا رسول الله ﷺ وأصحابه ولا يظاهروا عليهم عدواً لهم، يؤ تهم خيراً مما أخذ منهم من الفداء ويزيدهم من فضله بمغفرته ما سلف من ذنوبهم، لأنه سبحانه غفور رحيم.

اختلاف المتمسكين بالروايات في أي الرأيين في الشورى كان أصوب.

وقد غلبت روايات المشاورة على عـواطف أهل العلم وتفكيرهم، فاختلف السلف كما يقول ابن حجر في الفتح في أي الرأيين كان أصوب؟ فقال بعضهم كان رأي أبي بكر، لأنه وافق ما قدّر الله في نفس الأمر، ولما استقر عليه الأمر، ولدخول كثير منهم في الإسلام، إما بنفسه أو بذريته التي

ولدت منه بعد الواقعة، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب، كما ثبت ذلك عن الله تعالى في حق من كتب له الرحمة.

وأما من رجّح الرأي الآخر فتمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء وهو ظاهر، لكن الجواب عنه أنه لا يدفع حجة الرجحان عن الأول، بل ورد للإشارة إلى ذم من آثر شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قلّ.

وقول الحافظ ابن حجر في تعليل قول من رجّح الرأي الآخر ـ أي قول عمر ـ أنه تمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء وهو ظاهر، غريب جداً من الحافظ رحمه الله، ويزيد في غرابته تأكيده بقوله: وهو ظاهر، لأننا نعلم يقيناً أن الحافظ يعلم أن أخذ الفداء من الأسرى مشروع في سرية عبدالله بن جحش التي لقب فيها بأمير المؤمنين، وهي قد كانت قبل بدر العظمى، فكيف يتوجه عتاب على أخذ الفداء من أسرى بدر، وقد قضى به رسول الله ﷺ في بدر الكبرى بعد أن شرعه الله تعالى لرسوله ﷺ وأحله لأمته في سرية ابن جحش، وقصتها معروفة مشهّرة في القرآن والسنة، وابن حجر بهما عليم.

إغفال ابن حجر منشأ العتاب.

وقد أغفل ابن حجر المنشأ الحقيقي للعتاب وهو ـ كما قلنا مراراً وتكراراً ـ الإسراع في إنهاء المعركة والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل أن يتم للمنتصرين المجاهدين الإثخان في العدو، وهذا ما لم يرضه قط رسول الله ﷺ ولا أمر به، ولو كان العتاب على أخذ الفداء من الأسرى لكان رسول الله ﷺ داخلاً في المعاتبين مع الذين أرادوا عرض الدنيا وأعرضوا عما يريده الله تعالى لهم من الآخرة وثوابها باعتبار أن إرادة الدنيا هي السبب في العتاب كما هو صريح القرآن الكريم، ولكان مندرجاً مع الذين أرادوا عَرَض الدنيا، وحاشاه ﷺ من هذا التقوّل عليه بالباطل، لأن هذا محال في حقه ﷺ لمكانه من العصمة.

ولقد أردنا التنبيه إلى هذه السهوة من الحافظ ابن حجر خشية أن يقع فيهاأحد من مقلّديه الذين تغلبهم عواطفهم على متابعته فيما يرى ويقول. وأصل كلام ابن حجر في اختلاف الناس أي الرأيين في المشاورة كان أصوب

كلام ابن حجر أصله لابن القيم.

تقدّمه به ابن القيم في كتابه (الهدى) وابن حجر أخذه واختصره وتصرف فيه دون أن يشير لمصدره، ونحن نسوق كلام ابن القيم لأنه أوفى أداء للموضوع.

قال رحمه الله: وقد تكلم الناس في أي الرأيين أصوب، فرجَّحت طائفة قول عمر لهذا الحديث ـ أي حديث مسلم برواية ابن عباس عن عمر ابن الخطاب ـ ورجَّحت طائفة قول أبي بكر رضي الله عنه، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله تعالى له آخراً، حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق فإنه رأى ما استقر عليه حكم الله آخراً وغلبة جانب الرحمة على جانب العقوبة.

ولا يخلو كلام ابن القيم من نحو ما أخذنا على ابن حجر، ولعل السبب في اتجاههما هذا تمسكهما بحديث مسلم وماجرى في شوطه من روايات أخرى.

* * *

إلى هنا ننتهي من تسجيل ما رأينا تسجيله من أحداث غزوة بدر العظمى من جوانب منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام الخاتمة لرسالات السماء، ونحن على ما نشعر به من إطالة رشاء البحث في عرض الأحداث المنهجية التي رأينا إخراجها في إطار هذا البحث في الغزوة المباركة لم نستوعب روايات التاريخ المسطورة في كتب المغازي والسير، لأننا لم نستهدف في بحثنا جمع الروايات والأحداث التي وقعت في إطارها، ولكنا استهدفنا التزاماً منا في كتابنا هذا عرض الوقائع والأحداث التي تعطينا معالم من المنهج الذي أقام الله تعالى على دعائمه رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ، لتكون كتاباً سرمدياً

لهداية الإنسانية في تفكيرها وهي تسير مع الأجيال المتعاقبة في أطوارها الفكرية وأوضاعها الاجتماعية المتوثبة سيراً سلوكياً، يجعل من الحياةكلها حقيقة موحّدة الوسائل والأهداف في ظل الإيمان بالله ورسله للنهوض بهذه الحياة إلى آفاق حضارة علمية مؤمنة.

غــزوة أُحُــد

أحداثها، وآثارها في تربية المجتمع المسلم

تشابه في بعض المواقف بين بدر وأحد

اتصال الحوادث بين بدر وأحد

كانت غزوة أحد امتداداً لغزوة بدر في الوسائل والمقدمات، والمقاصد والغايات، والوقائع والأحداث، وكانت الفواصل الزمنية بينهما ـ على تقاربها ـ معالـم للاتصال الوثيق لتوقعات المستقبل ومايحويه بين جنباته من ترقبات لوصل حاضر المجتمع المسلم في نضاله المرير بماضيه في كفاحه الصبور، ليكون هذا الماضي في إطار الإيمان خطّاً متوحّد المنازل والمسالك مع حاضر المجتمع في ظل رسالته الخالدة الخاتمة لرسالات السماء في حياة خاصّة ممتدة عبر الحياة الإنسانية العامة في كفاح لا ينقطع، ونضال لا تسكن حركاته ولا يهدأ أواره، من أجل إنقاذ الإنسانية المعذبة في الأرض من تورطاتها الوثنية المتهالكة وشركها الطاغي العنيد.

في هذا الإطار الإيماني كانت خطوط حياة المجتمع المسلم في جهاده القتالي لترسم له معالم مسيرته في دعوته إلى الله، ونشر رسالته، رسالة الخير والهدى التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وقد كانت غزوة بدر ضربة قاصمة لملأ الفجور الوثني، ترنّح منها طواغيته ترنّحاً أدار رؤوسهم واستدار بهم كما تستدير الحمر النَّعِرة، ولكنهم بعد صحوة من سكر الهزيمة تماسكوا مستمسكين بعتو كفرهم، وأَبَوا إلا أن يعودوا إلى مواقفة جند الله، ليصلوا ماضي وثنيتهم الجاهلية الباغية بحاضر فجورهم الكفور حتى يكون ماضيهم الخبيث وحاضرهم الفاجر صـورة

لطغيان مستقبلهم الإلحادي المشرك الكفور، ليكون هذا الحاضر الخبيث حلقة اتصال في توحيد الزمن بأحداثه في النضال بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، حتى يكون هذا الماضي حلقات متواصلة في سلسلة الفجور الوثني لحياة الطغيان في لفائف الشرك الملحد، والطغيان الحقود.

تلك السلسلة التي وَهتْ حلقاتها من طول ما مرّ بها من الزمن، وكثرة ما ألقى عليها الظلم المظلم من صدئه وأقذاره، لأن التجاذب بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والنور والظلام، والعدل الرحيم والظلم الظلوم طبيعة أصيلة في الحياة بين الناس والأشياء، هذه الطبيعة المتجاذبة هي في الحقيقة آية من آيات الله، تحمل في طياتها أعظم البراهين وأعمق الأدلة على إطلاق مشيئته تعالى في تدبير الكون المتآلف في نظامه التكويني، المتخالف أشد التخالف في سيره العملي، وبين التآلف والتخالف تناقض في نظر العقل الإنساني الذي لا يؤمن في دائرة مدركاته بغير الخط الموحّد لسير الحياة في أحداثها ووقائعها سيراً مستقيم المعالم المنصوبة على حفافي الطريق.

معالم الهداية في منهج رسالة الإسلام لا توافق بينها وبين العقل الوثني.

وسيّان عند هذا العقل ـ إذا لم يهده الإيمان بخالق الكون واقتداره على قهر الحوادث، وإطلاق مشيئته في طريقة وجودها الواقعي في مسيرة الحياة ـ أن يتغلب الخير على الشر، فيسود الخير أرجاء الحياة، وينقمع الشر متوارياً في الظلام أو يغلب الشر الخير، فيعلو صوت الشر في آفاق الحياة صيّاحاً صاخباً معربداً، ويخفت صوت الخير فلا نسمع منه إلا همساً، والشر والخير في التغالب لن يجمعهما خط متوحد في حيِّز وجودي من الزمان والمكان، لأن العقل الذي لم يتخذ من الإيمان بخالق الحياة هادياً ليس في يده معيار ذاتي يعرف به الشر متميزاً بخصائصه عن الخير سوى معيار النفع والضرر، فما كان في نظر العقل نافعاً فهو خير، وما كان ضاراً في تقديره فهو شرّ.

والنفع والضرر في مجريات الحياة للناس والأشياء أمران نسبيان قد يشتبه أحدهما بالآخر في كثير من الصور والأشكال التي تغلف الوقائع والحوادث، فيعطي من الأوصاف ما ليس له في حقيقة الواقع الوجودي.

وكثيراً ما يكون الأمر الواحد نافعاً في بعض جوانب الحياة، ويكون هو نفسه بعينه ضاراً في بعض جوانب أخرى من الحياة.

فإذا رأى العقل الإنساني بمدركاته الذاتية التي لم تهتد بالإيمان بخالق الحياة الجانب النافع ـ في نظره ـ حكم له بالخيرية، ورغب فيه ودافع عنه، وإذا رأى هذا العقل الجانب الضار ـ في نظره ـ حكم عليه بالشرّية، ورغب عنه، ودافعه ليكتم أنفاسه حتى لا يتنسَّم نسمة الوجود في الحياة.

ومن ثَمَّ كان إطلاق العَقل الذي لم يهتد بالإيمان ليقود الحياة بمعاييره الذاتية المحدودة تعويقاً للحياة عن سيرها إلى آفاق الهداية لتوطيد دعائم السلام والإخاء والمحبة بين الناس في أرجاء الأرض.

لكن الذين أشركوا بالله آلهة أخرى اتخذوها معبودات لهم مع الله تعالى يدعونها ويتقربون إليها بأنواع القرابين، والذين ألحدوا في آيات الله بالتكذيب والاستهزاء والسخرية فأنكروا وجود الله، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن حكمته في نظام الكون ودلالة هذا النظام المحكم على وجوده واقتداره وإطلاق مشيئته وإحاطة علمه ـ يأبَون إلا أن يقودوا الحياة بأزمة عقولهم الوثنية القاصرة، ويسوقوها بسياط الكفر والفجور ليجعلوا من أنفسهم حماة للحياة الفاجرة، ويجعلوا من فجورهم طرائق لمسيرة الحياة يوجهونها بمشيئاتهم.

موقف كفار قريش من رسالة الهدى والنور نموذج للفجور الوثني العنيد.

وكان كفّار قريش ومشركوهم ممن عسَوا في حمأة الوثنية الباغية نموذجاً لهذا الفجور العنيد بوقوفهم أمام دعوة الحق والهدى التي جاءتهم على يد رجل منهم، يعرفون صدقه وأمانته، ويعرفون منبعه ومرباه، ويعرفون مدخله ومخرجه، وغدوه ورواحه، وحركته وسكونه، وأخذه وعطاءه، وسلوكه في الحياة وعشرته مع الناس والأشياء.

فانبعثوا لمناهضة هذه الدعوة الراشدة الهادية التي أرادتهم سدنة لها لتجعل منهم سادة ذادة، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وقادة يأخذون بزمام الإنسانية إلى آفاق حضارة إيمانية، يبنون دعائمها

على قواعد منهج الرسالة الخالدة، ولكن هؤلاء الكفرة ركبوا متن الشيطان غروراً وعتواً، وطغياناً وكفراً، فجعلوا من ظهور طلائع الإيمان مهابط لسياط تعذيبهم يصبونه عليهم بلاء ليفتنوهم عن دينهم، حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين إلى إخوانهم أنصار الله بالمدينة التي صارت عاصمة المجتمع المسلم وقلعته الحصينة التي فيها بناء المجتمع الجديد في تركيبه الاجتماعي المتكافل على دعائم التآخي بين أفراد هذا المجتمع وجماعاته، فكان بهذا التآخي قوة موحدة الوسائل والأهداف، تستطيع أن تواقف أعداء الدعوة إلى الله ورسالة الهدى والنور، مهما بلغ طغيانهم المادي، وقوتهم الخاوية من دوافع الإيمان وأهدافه الإنسانية.

وقد كانت هجرة طلائع الإيمان من السابقين الأوّلين إلى المدينة غصّة في قلوب قريش وطواغيتها، أشجت صناديدها، وأثارت في نفوس أشراف جاهليتهم حفائظ الحقد الحانق والغيظ الكظيم، ممّا جعلهم في همٍّ مقيم مقعد، يفكّرون ويقدِّرون، ولا هدف لهم في تدبيرهم وتقديرهم إلا القضاء على المجتمع المسلم الجديد الذي سيقضي على تجاراتهم وهي صاعدة نازلة، غادية رائحة، مارّة على مدينتهم في عيراتها وقوافلها، وفي هذه العيرات والقوافل الأموال التي نهبوها في مكة من المهاجرين، وجعلوها مع أموالهم في تجاراتهم.

ولم يكن يغيب عن ملأ أولئك الطغاة من فجّار الكفر وأحلاس الوثنية الفاجرة أن المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، وقوته التي كانت ثمرة من ثمرات وحدته الإيمانية ومؤاخاته التكافلية ينام على الضيم مطمئناً دون أن ينهض ليسترجع أمواله المنهوبة منه، ودون أن يقف في طريق عيراتهم وقوافلهم المحمّلة بهذه الأموال وغيرها لينتزعها من أيديهم كرهاً وقسراً، ودون أن يعمل كل ما يستطيع في وضعه الجديد لتكسيد تجاراتهم، وتبوير سعيهم، وكسر شوكتهم المادية المتعززين بها.

وقد كان هذا التصور ـ وهو حقيقة كشف عنها تحفز المجتمع المسلم للوقوف في طريق قوافلهم ليصدّها عن المرور على مدينته، ويغنم ما فيها

من أموال كانت مصدر غرور هؤلاء الفجرة، عملاً بأبسط قواعد الحرب المعمول بها في قانون الحياة الإنسانية ـ يملأ أدمغة أولئك المستكبرين في الأرض، فكان لا بدَّ لهم من الاستعداد لمقاومة هذا المجتمع المسلم وفتح الطريق أمام عيراتهم وقوافلهم، وحمايتها بقوة السلاح.

المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة كان قوة إيمانية موحَّدة.

وها هوذا محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه، قد تعرّضوا لها ليغنموها، ويغلقوا الطريق أمام تجارتهم، وقد أرسل إليهم أمير أضخم عيراتهم أبو سفيان ابن حرب ينذرهم ويحرِّضهم لينفروا لحماية أموالهم التي خرج إليها محمد ـ ﷺ ـ في جموع أصحابه ليستولي عليها عنوة، فتجمعوا بأضخم ما في استطاعتهم من قوة مادية عدداً وعدّة، موعبين في حشودهم كل من له طاقة بالحرب والقتال تحت قيادة لعينهم الفاسق أبي جهل بن هشام، مما كان سبباً مباشراً لوقعة بدر، وهي أول وقعة واقف فيها مجتمع الإيمان بالله، وحماة الحق، والدعاة إلى الله القائمون على نشر الهدى والنور والإصلاح أحلاسَ الشياطين من فَجَرة الشرك وطواغيت الوثنية الباغية.

وكانت بدر، فكانت نكالاً لهم، ووبالاً عليهم، هزموا فيها شر هزيمة، حسّت صناديدهم بالمهندات من السيوف المسلمة، واستأصلت أشراف جاهليتهم قتلاً، وأسراً، وتشريداً، وفراراً في فجاج الأرض، حتى بلغ فلّهم مكةمهزومين أذلّاء يعضّون بنان الحسرة والاندحار، وهم في ذهول وحَيْرة، لا يصدِّقون ما يبصرون بأعينهم، لأن هذه الهزيمة لم تكن تمر بخيالهم المظلم بظلمات الغم والحزن الكظيم.

وقد منّ عليهم رسول الله ﷺ بما جبل عليه من مكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة فأطلق أسراهم، وقبل منهم الفداء بعد أن كانوا في ملك يده، محكومين بسلطانه، يستطيع أن يلقي برؤوسهم تحت أقدامهم.

وذهب طلقاء بدر يجرّون أذيال الخيبة والحسرة إلى مكة، وكانت فلول الجبن المشرّدة قد باءت ذليلةإليهم، واجتمع هؤلاء وهؤلاء، والحقد الحانق يشوي أكبادهم، وحفائظ الضغينة تملأ قلوبهم، فلم تترك فيها مكاناً لغير المناداة بالثأر لقتلى أشرافهم في بدر، ممَّن سُحِبوا على وجوههم إلى القليب

على أوجع صورة وأشنع ما يستحقه الفاجرون من الكافرين المفترين على الله الكذب، المغرورين بما في أيديهم من قوى مادية بشرية، وعتاد حربي.

أبو سفيان يرفض أنين قريش بعد هزيمتها في بدر فتزعمها في قيادة غزوة أحد.

وكان أبو سفيان أمير العير بعد إذ نجا بها وبما فيها من أموال، ووصل إلى مكة وجدها تئن من الأحزان التي ألمت بها، وتتأوّه من أوجاعها التي حلّت بأهلها، ولم يجد إلا رؤوساً منكسة، قد جلّلها الذلُّ وأحاط بها الهوانُ وأمال أعناقها الغيظ على مناكبها، غماً وكمداً، فمشى إليه عبدالله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزومي، أحد أشراف الجاهلية في قريش، وقد أسلم يوم الفتح، وهو أخو عيّاش بن أبي ربيعة لأبيه وأمه، وكان عيّاش من السابقين الأولين في الإسلام، وكان رفيقاً لعمر بن الخطاب في هجرته، وعيّاش وعبدالله ابنا أبي ربيعة أخوان لأبي جهل لأمه، أسماء بنت مخرِّبة، ومشى مع عبدالله ابن أبي ربيعة عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف ـ وكان أبواهما من قتلى بدر ـ في رجال من قريش ممن قتل آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب أمير العير، وكلموا من كان له في تلك العير من قريش تجارة وأموال، فقالوا لهم: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال ـ يقصدون ما كان في العير من تجارة ـ على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً، فأجابوهم إلى ما طلبوه منهم.

ونهض الموتورون لحرب رسول الله ﷺ، واستأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش بزعامة سيدهم الحليس بن زيان أخي بني الحارث بن عبد مناة، فخرج بهم مع من أطاعه من قبائل كنانة وتهامة، ومع من كانت به قوة على الخروج من فلّ قريش الذين فرُّوا من بدر إلى مكة، ومع الخائنين من طلقاء أسرى بدر أمثال أبي عزة الذي منّ عليه النبي ﷺ بغير فداء لشكواه سوء حاله وقلة ذات يده، وأخذ عليه ألّا يظاهر عليه عدواً، ولكنه خان العهد وغدر، وخرج إلى أحد مع المشركين فأسر وقتل جزاء غدره وخيانته، فكانت حشودهم ثلاثة آلاف، معهم مئتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وساروا يقصدون المدينة حتى نزلوا في سبخة في وادي عينين أحد أجْبُل المدينة، ويقع في مقابلة أُحد.

العباس بن عبد المطلب يكتب إلى رسول الله ﷺ بمسير قريش لحربه.

وكتب العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يخبره خبر قريش وسيرهم لحربه في عدد وعُدة وبعث بالكتاب رجلاً من بني غفار، اشترط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ليسبق بالخبر قريشاً ويستعد رسول الله ﷺ لملاقاتهم، فقدم رسول العباس على رسول الله ﷺ فلقيه في قباء، وسلم إليه كتاب العباس رضي الله عنه، وأعطى رسول الله ﷺ الكتاب إلى أبيّ بن كعب ليقرأه عليه، فقرأه أبيّ واستكتمه رسول الله ﷺ ما فيه من خبر قريش وقدومها لحربه بحشود وافرة العدد والعدة لمهاجمته في مفاجأة تقيد حركة المجتمع المسلم في النهوض للقتال والاستعداد له، وأطلع رسول الله ﷺ سعد بن الربيع أحد سادة الأنصار وخلصائهم على كتاب عمه العباس.

هذا الموقف الكريم الذي وقفه العباس رضي الله عنه موقف يستحوذ على ذروة الإخلاص، ويعيد للذاكرة موقفاً للعباس قبل أن يسلم كان من أنبل المواقف وأشرفها بالنسبة لمواقف الحمية القومية، ذلك هو موقف العباس يوم بَيْعة العقبة الكبرى، فقد حضر بَيْعة الأنصار لرسول الله ﷺ، وخطب خطبته المشهورة المروية بصحيح الروايات، وذكر فيها: إن محمداً في عزٍّ ومَنَعة من قومه، فإن كنتم مبايعيه على تحمل عداوة الأحمر والأسود، فأنتم وما تحملتم، وإلاّ فدعوه بين قومه. وتمت البيعة والعباس من شهودها وهو على دين قومه.

كما يعيد هذا الموقف للذاكرة مواقف الحميّة الهاشمية التي كان يقفها أبو طالب حمية قومية للنبي ﷺ دفاعاً وردّاً للعدوان على دعوته، بيد أن موقف العباس موقف ينم عن الإخلاص الإيماني الذي يجعل الباحث مطمئناً إلى أن الإيمان برسالة محمد ﷺ كان يملأ قلب العباس قبل أن يلحق بمكة بعد إطلاقه من الأسر وقبول الفداء منه، كما يدل عليه قول العباس: فينا نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممَّا أخذ منكم، ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال آية (٧٠).

مواقف العباس وحكمة بقائه في مكة ليرصد حركات المشركين ويحمي المستضعفين.

وإذا كانت حمّية أبي طالب جعلت موقفه ـ لعدم إيمانه ـ من قبيل الحب الطبيعي للقرابة الدانية والحمية القومية؛ فموقف العباس رضي الله عنه كان موقف الحب الإيماني الذي يكنفه الإخلاص للمجتمع المسلم في ظل الإخاء الإيماني، فهو موقف لمحمد ﷺ ابن الأخ الحبيب.

وهو موقف لحماية رسالة محمد ﷺ، وحماية دعوته إلى الله تعالى.

وهو موقف لأداء حق الإيمان بهذه الرسالة الكريمة الراشدة.

وهو موقف للدفاع عن أصحاب محمد ﷺ، ومجتمعه المسلم.

وهو موقف يحمل بين طيّاته دلائل على أن النبي ﷺ جعل من عمه العباس رضي الله عنه رئيس مخابراته في مكة وجندياً من خواص جنود دعوته وحماية رسالته، يذود عنها بسلاح التعرف على حركات أعداء هذه الدعوة فيما يحاك لها من الكيد وسوء المكر، وما يدبّر لمجتمعها تحت أستار الظلام للقضاء عليه وعلى دعوته.

وهذا سلاح من أقوى أسلحة المعارك التي تربط النصر على الأعداء بنجاحه وإحكام أمره.

وكان العباس رضي الله عنه يحب القدوم على رسول الله ﷺ ليقيم معه بالمدينة، ويشهد معه مشاهده، ويكون إلى جانبه في مواقفه، ولكن رسول الله ﷺ استبقاه بمكةليقوم للدعوة بما لا يستطيع جندي يحمل سلاحه ويخوض معمعة المعركة أن يقوم به.

والمتأمل في هذه السياسة الحكيمة التي وضع أساسها رسول الله ﷺ يظهر له جلياً ما فيها من حسن التدبير المحكم الذي يحف به التوفيق من جميع جوانبه، لأنها سياسة تمثل ما ينبغي للقائد الأعلى أن يتخذه في مواقفه الحذرة التي لا تنام ولا تنيم.

قال القسطلاني في المواهب: وكان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان العباس يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه عليه الصلاة والسلام: «إن مقامك بمكة خيرٌ لك» وهو خير للمسلمين ـ أيضاً ـ لما فيه من العون للمقيمين بها من المسلمين المستضعفين، وتقوية

ثباتهم على الإيمان، ولما فيه من معرفة أخبار أعداء الإسلام، وتآمرهم على المجتمع المسلم ومكرهم به، ووضع هذه الأخبار بين يدي رسول الله ﷺ في حينها المناسب لاتقاء أخطارها، وأخذ الأهبة لردِّ ما فيها من كيد للإسلام والمسلمين، وكان هذا من دأب رسول الله ﷺ، كما أوضحناه في الحديث عن بدر، وعلى هذا السّنن درج رسول الله ﷺ، وقد بعث أنساً ومؤنساً ابني فَضَالة الظفري في غزوة أحد ليتعرّفا له أخبار عدوه، فذهبا وقاما بما كلفهما رسول الله ﷺ، وعادا فأخبراه بخبرهم، وذكروا له أنهم أرسلوا إبلهم وخيلهم في زروع الأنصار بالصمغة حتى تركوها ليس بها خضراء، وكان ذلك من بواعث الحمية في أنفس الأنصار.

ثم أرسل ﷺ الحباب بن الجموح ليحزر له أعداد أعدائه فذهب إليهم، وداخلهم، ودخل في عسكرهم، وعاد إلى رسول الله ﷺ يخبره بما علم من أخبارهم وأعدادهم وعددهم القتالية.

رؤيا النبي ﷺ أحداث أحد وشدائدها.

وكان رسول الله ﷺ قد رأى رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء وحي ينزل بما احتجب من الغيب عن غير الأنبياء والمرسلين، فحدّث بها أصحابه، وذكر لهم تأويلها وما أنبأت به من أحداث ستقع عندما يحين وقتها.

وحديث رؤيا أُحد رواه البخاري ومسلم، والترمذي وابن ماجه، والبيهقي وجميع رواة المغازي والسِّيَر. قال البخاري من حديث أبي موسى الأشعري من طريق أبي كريب ـ واسمه محمد بن العلاء ـ وقد ذكره البخاري باسمه ـ عن أبي أسامة عن النبي ﷺ قال: «ورأيت أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقراً والله خير، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير، وثواب الصدق الذي أتانا بعد يوم بدر».

ورواية البيهقي عن شيخه أبي عبدالله الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أشمل وأوضح، قال: وذلك أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأيه أن يقيم بالمدينة، فيقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا

شهدوا بدراً: نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد، ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فمازالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته، ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله أقم، فالرأي رأيك فقال لهم: «ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعدمـا لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»

وكان ﷺ قال لهم يومئذ قبل أن يلبس الأداة: «إني رأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، وأني مردف كبشاً فأولته كبش الكتيبة، ورأيت سيفي ذا الفقار فلّ، فأولته فلاً فيكم، ورأيت بقراً يذبح، فَبَقر والله خير» وفي حديث أنس عند البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد قال أنس يرفعه إلى النبي ﷺ: «رأيت فيما يرى النائم كأني مردف كبشاً، وكأن ضبّة سيفي انكسرت، فأوّلت أني أقتل كبش القوم، وأولت كسر ضبّة سيفي قتل رجل من عترتي» فقتل حمزة، وقتل رسول الله ﷺ طلحة وكان صاحب اللواء، أي أن كبش الكتيبة قتل في المبارزة بينه وبين علي رضي الله عنه، فنسب قتله إلى رسول الله ﷺ، لأنه القائد الأعلى.

سياق موسى بن عقبة لرؤيا النبي ﷺ.

وفي سيرة موسى بن عقبة ـ كما نقله ابن كثير في البداية، واختصرناه عنه ـ قال: وكان رجال من المسلمين لم يشهدوا بدراً قد ندموا على ما فاتهم من السابقة، وتمنّوا لقاء العدو، ليبلوا ما أبلى إخوانهم يوم بدر، فلما نزل أبو سفيان والمشركون بأصل أحد فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدراً بقدوم العدو عليهم، وقالوا قد ساق الله علينا أمنيتنا، ثم إن رسول الله ﷺ أري ليلة الجمعة رؤيا، فأصبح فجاءه نفر من أصحابه فقال لهم: «رأيت البارحة في منامي بقراً تذبح والله خير، ورأيت سيفي ذا الفقار انفصم من عند ضبَّته، أو قال به فلول، فكرهته، وهما مصيبتان، ورأيت أني في درع حصينة، وأني مردف كبشاً» فلما أخبرهم رسول الله ﷺ برؤياه قالوا: يا رسول الله ماذا أوّلت رؤياك؟ قال: «أوّلت البقر الذي رأيت بقراً فينا وفي القوم، وكرهت ما رأيت بسيفي، وأوّلت الكبش أنه كبش كتيبة العدو، يقتله الله، وأوّلت الدرع الحصينة المدينة، فامكثوا، واجعلوا الذراري في الآطام، فإن دخل علينا القوم في الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت».

فقال الذين لم يشهدوا بدراً: كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير، وأبى كثير من الناس إلاّ الخروج إلى العدو، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ.

عبدالله بن أبيّ رأس المنافقين كان يرى عدم الخروج من المدينة لمعرفته بها وتحصينها.

وكان رأي عبدالله بن أبي بن سلول موافقاً لرأي رسول الله ﷺ في عدم الخروج من المدينة والمكث فيها، وابن أبي كان مع نفاقه من ذوي الشرف الجاهلي، وهو خزرجي من كبارهم وأهل الخبرة والتجربة فيهم، ولهذا أشار على رسول الله ﷺ برأيه مبيناً الأسباب التي بنى عليها رأيه في خبرته ببلده وتجاربه في قومه، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج منها، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قط إلا أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، فإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

وكانت الكثرة وجمهور الأكابر من الصحابة يرون رأي رسول الله ﷺ، ولا سيما بعد أن أخبرهم برؤياه، فكان رأيهم تبعاً لرأي رسول الله ﷺ، وكانت كثرة الشباب ومن فاتهم مشهد بدر يرون أن يخرج بهم رسول الله ﷺ إلى عدوهم، ليعوّضوا ما فاتهم من فضل بدر، وما سمعوه منه ﷺ في فضلها وفضل من شهدها، وكانوا يودّون لو أتاح الله لهم غزوة ينالون بها مثل ما نال البدريون من الفضل وعظيم الثواب.

كان رأي شباب المجتمع المسلم وبعض الأكابر ملاقاة العدو خارج المدينة.

وكان مع هؤلاء الشباب بعض الأكابر من المهاجرين والأنصار، مثل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ومثل سعد بن عبادة سيد الخزرج، والنعمان بن مالك أحد أبطال الأنصار، وغيرهم من أبطال المجتمع المسلم، وقالوا مسوّغين لرأيهم: إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليه جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا.

وقال حمزة رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة، وقال النعمان بن مالك الأنصاري: يا رسول الله لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلها، فقال

رسول الله ﷺ «لمه؟» فقال: لأني أحب الله ورسوله، ولا أفرّ من الزحف، فقال ﷺ «صدقت» فاستشهد يومئذ.

مناقشة العلامة الزرقاني في سؤال أورده وأجاب عنه.

وقد أورد الزرقاني في شرحه مواهب القسطلاني سؤالاً، وأجاب عنه فقال: فإن قيل لم عدل ﷺ عن رأيه الذي لا أسدّ منه، وقد وافقه عليه أكابر المهاجرين والأنصار وابن أبي وإن كان منافقاً لكنه من الكبار المجرِّبين للأمور، ولذا أحضره ﷺ واستشاره - إلى رأي هؤلاء الأحداث؟ قلت: لأنه ﷺ مأمور بالجهاد، خصوصاً وقد فجأهم العدو، فلما رأى تصميم أولئك على الخروج، ولا سيما وقد وافقهم بعض الأكابر من المهاجرين كحمزة والأنصار كابن عبادة ترجَّح عنده موافقة رأيهم، وإن كرهه ابتداء ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، قال الزرقاني: وهذا ظهر لي، ولم أره لأحد.

وهذا الذي ظهر للعلاّمة الزرقاني ولم يره لأحد من العلماء والأئمة قبله يحتاج إلى نظر وبحث، لأن النبي ﷺ لم يطلب من أصحابه المكث بالمدينة وعدم الخروج عنها لمقاتلة أعدائه خارجها رأياً اجتهادياً، وإنما هو تبليغ لما أوحي إليه في رؤياه المنامية التي رآها وأوّلها وبلَّغها لأصحابه، ورؤيا الأنبياء وحي بإجماع الأمة، ويدل لذلك حديث عائشة عند البخاري في بدء الوحي، إذ قالت رضي الله عنها: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فإيراد السؤال بالصورة التي أورده عليها الزرقاني ينافي أن الأمر من قبيل الوحي الذي لا تجري عليه مشاورة قط، ولا يدخله الاجتهاد، لأنه لا مشاورة في أمر نزل به الوحي، ولا اجتهاد مع النص، لأن الاجتهاد قد يدخله الخطأ فيصح العدول عنه إلى رأي آخر تظهر صوابيته، وهنا قد ثبت الوحي بالرؤيا الصادقة وتأويلها من رسول الله ﷺ، والوحي لا يصح العدول عنه إلا بوحي مثله أو أقوى طريقة من نوعه.

فلا وجه لهذا السؤال بالصورة التي أوردها الزرقاني، وإذاً لا محل لهذا الجواب الذي أجاب به عن السؤال، بل كان يجب أن يكون السؤال: لم عدل رسول الله ﷺ عن مقتضى رؤياه وهي وحي من الله تعالى إلى رأي

هؤلاء الأحداث الذين استحوذت عليهم عواطف حب الجهاد في سبيل إعلاء لكلمة الله وكلمةالحق والهدى والنور، مع أن النبي ﷺ أخبرهم برؤياه وسألوه عن تأويلها فأخبرهم بها وأولها به، وهم يعلمون أن رؤياه ﷺ ضرب من الوحي وطريق من طرائقه؟

مخالفة رسول الله ﷺ كانت من أكبر أسباب أزمات أحد.

وحينئذ يكون الجواب الملاقي لهذا السؤال ملاقاة متلائمة أن رسول الله ﷺ لم يعدل عما طلبه بمقتضى رؤياه وتأويلها ـ من المكث بالمدينة ومقاتلة أعدائه في طرقاتها ومن فوق بيوتها، وعدم الخروج عنها لملاقاة أعدائه خارجها كما هو رأي الشبان الأحداث الذين يريدون أن يعوضوا فضلاً فاتهم في بدر بالخروج في غزوة يكون لهم فضلها ـ إلا بوحي ناسخ لوحي الرؤيا الصادقة التي رآها ليتم قضاء الله ويتحقق ما قدره في غيبه من ابتلاء المؤمنين، ليكون ذلك الابتلاء درساً تربوياً شديد الوقع، عميق الأثر في مستقبل المجتمع المسلم الذي لا ينبغي له أن يخضع للتأثر بالعواطف، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ينزل عليه الوحي، بل يجب أن يكون هوى كل مسلم تبعاً لما يبلِّغه رسول الله ﷺ من الوحي إليه بأية طريقة من طرائقه، وليس بلازم أن يُخْبِر ﷺ بالنسخ، ولهذا لما رأى رجال من أهل الرأي والسداد أن مخالفة رسول الله ﷺ وخيمة العاقبة ندموا وقالوا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة، وهو أعلم بالله وما يريد، ويأتيه الوحي من السماء، فقالوا لرسول الله ﷺ: أمكث كما أمرتنا، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب، وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا المكث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو، وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه». ففي هذا دليل على أنهم كانوا يعلمون أن رؤيا النبي ﷺ وحي من الله، وأنهم خالفوا رسول الله ﷺ وهو فيهم يأتيه الوحي، وأنه لا يتصرف إلا بأمر من الله وهو ﷺ أعلم بالله وما يريد، فمخالفته ومطاوعة العواطف مهما كان نبلها خروج عما يجب على المجتمع المسلم أفراداً وجماعات من الطواعية له ﷺ لأنه أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء، ونبل العاطفة قد يكون في مضها العذر للمخالفين لأنهم أرادوا الخير.

ولهذا لما ثابوا إلى طريق الاستقامة وعرفوا الحق طلبوا من رسول الله ﷺ أن ينفِّذ رؤياه على تأويله لها، ويمكث في المدينة لمقاتلة أعدائه في أزقتها وفجاجها وأسطح بيوتها، فأبى عليهم أشدّ الإباء، لأن هذا الموقف منهم بعد موقفهم الأول يؤدي إلى التردُّد المفكك لوشائج العزائم الصافية، وهذا التردُّد يطمع العدو فيهم ويجعله يظن بهم الظنون، والله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ فالعزيمة بعد المشاورة لا تقبل التردد، والرجوع عن سمتها الذي اتجهت إليه ووضعت قدمها في أول خطوة من خطواتها في مسيرتها نحو هدفها.

تغلبت فكرة الخروج للقاء العدو ومقاتلته خارج المدينة، وكان الموجّه لهذا التغلب عاملين: ـ

أولهما: موقف الذين فاتتهم بدر فلم يشهدوا معركتها، ولم يشاركوا في جهادها وحرموا فضلها، وكانت الكثرة الغامرة في هؤلاء من الأحداث الذين لم تتح لهم فرصة شهود أول معركة في الإسلام، التي أربى فضلها على كل فضل، تلك هي معركة بدر وهذا العامل كان يمكن أن يتلاشى، وتتبدد عناصره، ويذوب وينماع ويذهب تأثيره لولا ظهور العامل الثاني في قوة حازمة وعزيمة ماضية وإرادة قاهرة.

أما العامل الثاني فيتجلّى في موقف القوة الحازمة التي لا تقف مع الأحداث في تقلباتها، ولكنها تتخطاها مسرعة في عزيمة صارمة، وقوة قاهرة، لا تبالي بالنتائج مع إعطائها وزنها الصحيح في مقاييس الحياة المستقبلة. ذلك هو موقف النبي ﷺ في المضي إلى المعركة خارج المدينة على ما في جنباته من آلام قاسية، كان النبي ﷺ وحده هو الذي يقرأ أسطره في صفحات الغيب من لوح الأقدار.

وهنا يلمع بصيص من النور في قلبي رجلين من سادة الانصار، كانا عند إسلامهما مشرق شمس لهداية الإيمان، ذانك العظيمان هما سعد ابن معاذ، وأسيد بن حضير، فيقولان للذين استأسرتهم عواطف الشباب واستفزّهم التطلع إلى البطولة: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج وقلتم له

ما قلتم، والوحي ينزل عليه من السماء فردُّوا الأمر إليه، فخرج عليهم ﷺ وقد لبس لأمته، وتهيأ بأداة الحرب، وظاهَرَ بين دِرْعيـن، فندم الذين كانوا يرون الخروج، وقالوا له ﷺ: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، فرد عليهم ﷺ بقوله: «ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

قرارات مستقبل الأمّة في المعارك الحربية يجب أن لا تخضع للعواطف.

وفي هذا الموقف درس من دروس منهج الرسالة الخالدة مُحَصّلُه أن اتخاذ القرارات في المعارك الحربية ونقض هذه القرارات يجب أن لا يخضع للعواطف النفسية مهما تبلغ من الإخلاص واحتمال تحقيق الهدف المطلوب، وإنما ينبغي أن تسبق هذه القرارات دراسة واعية متعمقة تبلغ بها مداها في الكشف عن الحقائق المحيطة بالموقف من جميع جوانبه، وعلى ضوء هذه الدراسة تتخذ القرارات في المعارك التي يرتبط بها مستقبل المجتمع، ثم يعقبها التنفيذ دون تردد مهما كانت العواقب، والنبي ﷺ بوصفه نبياً رسولاً، وقائداً لمجتمعه في حربه وسلمه كان قد درس مع أصحابه الموقف دراسة وافية واستشارهم فيه، وأخبرهم برؤياه وما أوّلها به، وأخبرهم أنه بمقتضى وحي الرؤيا التي رآها في منامه ورؤيا الأنبياء وحي - يرى أن يمكثوا بالمدينة، فإن دخل عليهم عدوهم قاتلوه في أزقتها وفجاجها ومن أسطح بيوتها، ولا يخرجوا منها لملاقاة عدوهم خارجها.

فخالفه الذين لم يشهدوا بدراً، وسمعوا بفضلها وفضل شهودها، وأرادوا مخلصين مع عواطفهم أن يكون لهم من هذه الغزوة التي حضرتهم، وجاءهم فيها العدو إلى بلدهم لمهاجمتهم عوضاً عما فاتهم من فضل بدر، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال خارج المدينة عملاً بمقتضى رؤياه المنامية، ولبس أداة الحرب وخطب الناس وحرضهم على القتال، وحثهم على الصبر والجد، وتهيأ الناس للخروج، وفرح الذين كانوا يرونه أمنية ساقها الله إليهم، ولكنهم وجدوا من بعض الأكابر مَنْ ندّمهم على ما كان منهم من استكراه رسول الله ﷺ على الخروج وهو أعلم بالله وما يريد، ينزل عليه الوحي من السماء فندموا وردوا الأمر إليه ﷺ وقالوا معتذرين: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما تريد.

ولكنه ﷺ أبى عليهم أن يرجع عن عزيمته وإصراره على الخروج لملاقاة عدوه خارج المدينة، وقد كان في هذا الرد الحازم تعليم لهم أن لا ينساقوا مع عواطفهم في مواقف تتعلق بمستقبل الدعوة إلى الله، وأخبرهم ﷺ بما أشعرهم بأن النفوس تهيأت للخروج ومواقفة العدو خارج المدينة، فردُّها عن عزيمتها إضعافٌ لقوتها وتوهين لإرادتها وتثبيط لعزائمها، وإن من سنن النبوة في قيادة المعارك الجهادية لإعلاء كلمة الله أن لا ترجع إذا توجهت، وأن لا تتوقف إذا صممت، وأن لا تتردد إذا عزمت، وأن لا تنقض ما أبرمت، وأن لا تجادل إذا درست، وأن لا تخشى اللوم إذا شاورت، وأن لا تظهر أمام أعدائها بمظهر المتراجع قبل أن يحكم الله بينها وبين أعدائها في معمعة الحرب.

عتاب أهل بدر على مخالفتهم نموذج لما ينبغي أن يكون عليه الجنود من الطاعة المطلقة لقيادتهم العليا.

وإذا كان أهل بدر عوتبوا على مخالفاتهم لخطط القيادة العليا للمجتمع المسلم، وأوامر هذه القيادة المتلقاة من الوحي مباشرة أو عن طريق تصويب الاجتهاد أو التنبيه على ما عسى أن يقع فيه من الخطأ غير المقصود، واقتحام المجاهدين ما لم تأمر به القيادة العليا الحكيمة ولم ترضه منهجاً لها - فغيرهم أحق وأولى.

وهذه المخالفات البدرية تتمثل في:

أولاً: كراهية فريق من المؤمنين المجاهدين الخروج للقاء عدوهم ومقاتلته، وهو قد قدم في عدده وعُدَدِه لمهاجمتهم بقصد استئصال المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي التكافلي الجديد، وفضّلوا على هذا اللقاء القتالي المضي وراء العير وغنم ما فيها من أموال ومتاع لقلة حاميتها وسهولة أخذها، بعد أن فاتتهم، ونجا بها أميرها أبو سفيان بن حرب، وقد حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ وقد فسرنا الآية في موضعها المناسب، وبيّنا ما فيها من هذا المعنى مستشهدين بحديث أبي أيوب عند الترمذي الذي سقناه أكثر من مرة لتطلّب المناسبة لهذا المساق..

وقد جاء في هذا الحديث قول بعض الصحابة رضي الله عنهم والنبي ﷺ يشاورهم ويقول لهم: «ما رأيكم في لقاء القوم؟» بعد أن ذهبت العير ناجية إلى مكة: لا طاقة لنا بقتال القوم، عليك يا رسول الله بالعير، فإنها ليس دونها أحد، فيزيدهم الله تعالى في معاتبته لهم شدة ـ ويذكّرهم إن أخذ العير أو لقاء النفير وعد صادق من الله لا يتخلّف، وقد فاتتكم العير، فلم يبق لكم إلا ملاقاة النفير ينبغي لكم أن تخرجوا لملاقاته فهو أعظم فائدة لكم من العير، لأنه برجاله وغنائمه قد صار موضع تحقيق الوعد، فلا تتهيبوا ما فيه من قوة عددية في الرجال وقوة عتادية في الأسلحة والأموال، فإنكم ستغنمونها وتقتلون صناديد أعدائكم وتأسرون أشرافهم، وتشرِّدون فلّالهم، وتفزعون فرّارهم تحقيقاً لوعد الله الذي لا يتخلف فقال لهم عز شأنه: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ أنها لكم﴾ وقد تعيّن هذا الوعد في النفير بعد فوات العير، ولكنكم تهيَّبتم لقاءه وغفلتم عن وعد الله لكم، وارتبطت همتكم وعزائمكم بالتطلُّع إلى العير لسهولة أخذها وما فيها من عرض الدنيا، لأنها ضعيفة الشوكة قليلة الحامية، فوددتموها لذلك كما أخبر الله في قوله جل شأنه: ﴿وتودُّون أنَّ غير ذات الشوكة ـ أي العير ـ تكون لكم﴾ لما فيها من الأموال، التي ليس لها قوة كافية للدفاع عنها، ولا تحقق لكم إلا غرضاً شخصياً هو الحصول على عرض الدنيا الزائل الفاني ونسيتم أن لقاء النفير والظفر به يحقق إرادة الله في إعزازكم، وإذلال عدوكم ونصركم عليه، وهزيمته أمامكم، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين﴾ ليثبت الحق في مغارزه، ويزيل الباطل عن منازله.

ثانياً: مخالفة أهل بدر في تعجّلهم إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر الذي لم يكن متوقعاً عندهم ولا كان يمر بخيالهم، وإقبالهم على عرض الدنيا والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال لأخذهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، لإضعاف شوكة العدو بتكثير القتل في رجاله وصناديده وأشراف جاهليته، والمبالغة في جراحاته لتوهين قوته، فقال لهم منتقلاً عن أسلوب الغيبة في إخبار النبي ﷺ بأنه ما كان من شأنه في نبوته ولا كان مما يمكن أن

يقع منه أن يكون له أسرى قبل أن يثخن في الأرض بإشباع سيوف مجاهدي كتائبه من أعناق الكافرين المحاربين له الذين يريدون القضاء على دعوته ومجتمعه، قبل أن يبلغ في جراحاتهم ما يعجزهم عن مواقفة المؤمنين المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله ـ إلى أسلوب المواجهة بالخطاب معاتباً لهم على ما كان منهم من مخالفة القيادة العليا في خططها، يريدون بهذه المخالفة عرض الدنيا الزائل، معرضين عن الآخرة وثوابها ونعيمها المقيم: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ ومعنى هذا الأسلوب ـ الذي أوضحناه في الحديث عن وقعة بدر التي هي موضع النص، ونعيد بعضه هنا تأكيداً لإظهار الترابط بين بدر وأحد ـ (ما كان لنبي) الذي أُخبر به النبي ﷺ إعلاماً له بما كان عليه الأنبياء قبله من شأن وحال وهو خاتمهم وجامع فضائلهم ـ نفي أن يقع منه ذلك كما هو منفي عن إخوانه الأنبياء وتنزيه له عن الاتصاف به، فهو أسلوب نفي وتنزيه لا أسلوب نهي صريح ولا ضمني ـ كما صرح به أبو حيّان في تفسيره ـ فهو في الحقيقة مدح وثناء افتتح به عتاب الذين كانوا سبباً لكينونة ما لا ينبغي أن يكون.. والمخالفة الأولى لأهل بدر، وهي كراهية فريق منهم الخروج إلى لقاء النفير ومقاتلتهم، كانت في مقدمات المعركة قبل نشوبها والمخالفة الثانية كانت في نهاية المعركة وتصفيتها..

التشابه بين مخالفات بدر وأحد واختلاف النتائج.

بيد أن أهل أحد عوقبوا على مخالفاتهم أوامر القيادة العليا، فتعرّضوا لفتنة الهزيمة والقتل والذهول عن مواقفهم حتى صار بعضهم يقتل بعضاً دون قصد ومعرفة من شدة ما انتابهم من الفوضى والدهش؛ ممّا أدّى إلى فرار جمهورهم عن النبي ﷺ حتى تعرّض لأشد البلاء وأقسى المحن، فقد أصيب ﷺ بأبلغ الجراحات ودُمي وجهه الشريف، وكسرت رباعيته، ودخلت حلق المغفر في وجنته الطاهرة، ووقع في حفرة مما كادهم بها أبو عامر الفاسق، فلم يستطع النهوض للخروج منها حتى أنهضه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ـ لأنهم خالفوا وحي الرؤيا، وكما كانت المخالفة الأولى لأهل بدر في مقدِّمات المعركة قبل نشوبها كانت المخالفة الأولى لأهل أحد في مقدمة المعركة قبل احتدامها، غير أن مخالفة أهل أحد الأولى كانت على عكس

مخالفة أهل بدر الأولى، لأن مخالفة أهل بدر كانت كراهية فريق منهم لقاء العدو وتهيب قتاله لقلة عددهم وضعف عُدّتهم، وكثرة العدو وقوة عتاده. .

وأما مخالفة أهل أحد فكانت ممثلة في شدة حرصهم على الخروج إلى العدو ومقاتلته خارج المدينة لإعلاء كلمة الله، ولكن منهج الرسالة لا يقر مخالفة القيادة العليا على أيّة صورة كانت تلك المخالفة ولا سيما أن القائد الأعلى في المعركة هو رسول الله ﷺ الذي تجب طاعته نبياً ورسولاً وقائداً دون نظر إلى جهة المخالفة، وكان رسول الله ﷺ قد أخبرهم برؤياه وهي وحي من عند الله يقتضي وجوب متابعته وطاعته واطّراح العواطف وعدم الالتفات إليها، لأن النبي ﷺ أعلم بالله بما يريد من كل أحد منهم، وقد أبدى لهم في تأويل رؤياه دوافع عدم الخروج من المدينة وأن القتال في فجاجها أضمن لنصر المؤمنين. .

إعداد الناس للخروج إلى المعركة في أحد وعقد الألوية.

وبدأ رسول الله ﷺ يهيىء الناس للمعركة خارج المدينة حفاظاً على الوحدة الإيمانية للمجتمع المسلم، فعقد ثلاثة ألوية: لواء للأوس جعله بيد أُسيد بن حضير، ولواء للخزرج جعله بيد سعد بن عبادة، ولواء للمهاجرين أعطاه علي بن أبي طالب، وكان رسول الله ﷺ قد سأل عمن يحمل لواء المشركين فقيل له إنه بيد طلحة بن أبي طلحة العبدري، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالوفاء منهم» فأخذه من علي ودفعه إلى مصعب بن عمير، لأنه من بني عبد الدار بن قصي، وكان عبد الدار بِكْر قصي فجعل إليه اللواء والحجابة والسقاية والرفادة، وكان قصي مطاعاً في قومه لا يرد عليه شيء صنعه، فجرى ذلك في عبد الدار وبنيه حتى قام الإسلام، فإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «نحن أحق بالوفاء منهم» يعني الوفاء بعهد قصي في جعل اللواء في بني عبد الدار، وخرج ﷺ يمشي على رجليه، وفي رواية أنه كان راكباً فرسه السكب، والناس حوله يحفون به عن يمينه وعن شماله، وأقام على الحرس محمد بن مسلمة، وقيل ذكوان بن عبد قيس، وخرج السعدان: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج يعدوان بين يدي رسول الله ﷺ حتى بلغ الركب ثنية الوداع - وإذا رسول الله ﷺ بكتيبة خشناء لها زجل بأصواتها الصاخبة المدوية فسأل عنها فقال:

كتيبة يهودية يردها رسول الله ﷺ عن الخروج معه.

«من هؤلاء؟» فقال له أصحابه: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبي في ستمائة من مواليه اليهود، فقال ﷺ: «وقد أسلموا؟» قالوا: لا يا رسول الله قال ﷺ: «مروهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» وعند ابن سعد «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك» وهي أنسب لما فيها من وضع مبدأ عام للمجتمع المسلم في مستقبله، وهذا الحديث أخرجه الطبراني في معجميه الكبير، والأوسط برجال ثقات عن أبي حميد الساعدي، وقد أطلق النبي ﷺ على هؤلاء اليهود اسم المشركين وفي هذا الاطلاق دلالة على أنهم كانوا غير المناقفين من شيعة عبدالله بن أبي الذين خرجوا معه، ثم انخزلوا عن جيش المسلمين قبيل نشوب المعركة لأن المنافقين لم يطلق عليهم اسم مشركين، وإن كانوا أشد كفراً وخبثاً من المشركين.

وفي رواية عن الزهري أن الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم» ومعنى هذا الاختلاف بين الروايات أن الأنصار رأوا من مواليهم اليهود رغبة لم يدركوا ما فيها من مكر في أن يخرجوا معهم لقتال مشركي مكة وألفافها ومرتزقتها الذين استأجرهم أبو سفيان بأموال عير قريش، فلم يعارضوهم، ورأى اليهود بخبثهم أن هذه فرصة فليهتبلوها ليكيدوا المسلمين في ميدان المعركة كيداً خبيثاً لا يعلم عواقبه الوخيمة إلا الله تعالى، فتأهبوا للخروج وأعدوا له عدتهم وكوّنوا كتيبتهم الخشناء بقوة حسبوا فيها للمستقبل القريب والبعيد حسابه، وخرجوا ولهم زجل وأصوات صاخبة لا يُدرى مصدرها في نفوسهم، ورأى الأنصار بحسن نية وضمير مخلص طاهر أن يستأذنوا النبي ﷺ في السماح لمواليهم اليهود أن يخرجوا معهم ليحاربوا مشركي مكة القادمين بعددهم وعُددهم لمحاربة المجتمع المسلم وليثأروا لقتلاهم في بدر.. ولكن النبي ﷺ إذ رأى اليهود سأل عنهم فأخبروه خبرهم، فاستأذنوه لهم فأبى ﷺ، وردَّ استئذان الأنصار بأسلوب سياسي محكم فقال لهم: «من هؤلاء؟» فقالوا: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبي في ستمائة من مواليه اليهود فقال رسول الله ﷺ: «وقد أسلموا؟» فقال الصحابة: لا يا رسول الله، فقال «مروهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» وقد قدمنا رواية ابن سعد بلفظ: «لا تستنصروا

بأهل الشرك على أهل الشرك». .

والمقصد من ذلك أن ينبه رسول الله ﷺ مجتمعه المسلم إلى لون من الحذر في حياته المليئة بالمفاجآت ولدد العداوة، فلا يستقيم لهذا المجتمع المسلم أن يأمن كل من لم يكن معه في وحدة الإيمان والعقيدة أن يداخله ويعرف أسراره في معاركه الجهادية التي يقاتل فيها لإعلاء كلمة الله. .

مبدأ عدم الركون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم.

وهذا سبب عام في عدم الركون إلى أعداء الإسلام والاستعانة بهم، وهو من أهم دعائم منهج الرسالة الخالدة وأقوى حصونها التي تحميها من المفاجآت الغادرة التي يديرها أعداء هذا المجتمع المسلم لوقف مسيرته بل للقضاء عليه. وقد حرص القرآن الكريم على تنبيه المسلمين إلى ما في إغفال هذا السبب من خطر على الإسلام والمسلمين، كما يؤذن بذلك الكثير من الآيات المحذِّرة في صراحة لا تحتمل التأويل والتردد والاحتيال على النصوص لوضعها في غير موضعها.

ولو لم يكن في ذلك إلا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدّوي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾[1] وأي إلقاء بالمودّة أكثر من أن يستعينوا بهم ويداخلوهم في معاركهم الجهادية، ويعرفوا أسرارهم ويقفوا على مقادير قواهم المادية في حروبهم وطرائق تدبيرهم وأساليب قتالهم. . وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنتّم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾[3].

وهناك وراء هذا السبب في عدم الركون إلى المشركين وائتمانهم على مصالح المجتمع المسلم أسباب خاصة تؤكد وجوب مباعدة كل مخالف في

---

(١) أول سورة الممتحنة.

(٢) المائدة آية (٥١).

(٣) آل عمران آية (١١٨).

الدين والعقيدة، وهذه الأسباب تغطّيها السياسة الماكرة وتكشفها المعاملة الباغية..

وننبه إلى أن هذه المباعدة لأعداء الإسلام والمسلمين لا يدخل فيها سوء المعاملة في العشرة الدنيوية لأن الله تعالى يقول للمؤمنين: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[1] وسوابق اليهود في الغدر والخيانة ونقض العهود، وسوء الكيد للمسلمين والمكر بهم، والتحريض على حربهم ولا سيما بعد انتصارهم في وقعة بدر التي كشفت عن ذات صدورهم معلومة. ولعل هذه السوابق تمثلت لرسول الله ﷺ فرأى فيها كل سوء فأبى أن يقبلهم في حشد كتائبه، وأمر بهم أن يرجعوا واكتفى في تنبيه أصحابه بذكر السبب العام الذي يوجب أن لا يقبلوهم معهم في صفوفهم لمحاربة المشركين، وأن لا يستعينوا بهم على المشركين، لأنهم أقرب إليهم في الكفر وعداوة الإسلام والمسلمين.

وهذا الجانب من منهج رسالة الإسلام مما أهمله المسلمون حتى أصبح خلصاء حكام المسلمين وأصفياؤهم، المداخلون لهم في سياسة شعوبهم، والمتحكّمون في سياستهم وثرواتهم، الراسمون لخططهم في حياتهم التعليمية ومناهجهم الثقافية وبرامجهم التربوية وأنظمتهم الاجتماعية وخططهم الاقتصادية ـ كلهم من المشركين أصالة أو إلحاداً، فالمسلمون اليوم إما داخلون تحت سلطان الإلحاد الشيوعي أو منحازون إلى الكتلة الصليبية المقنعة مما يبعدهم أشد البعد عن منهج رسالة الإسلام، ولن يعود لهم عزهم حتى يعودوا إلى منهج رسالتهم.

* * * * *

وكان مجموع من خرج مع رسول الله ﷺ بعد المشاورة والانتهاء إلى الخروج عن المدينة ألف رجل بما فيهم شيعة عبدالله بن أبي رأس النفاق

---

(١) الممتحنة آية (٨).

والمنافقين وكانوا ثلاثمائة رجل، وسار الركب حتى بلغ مكاناً يقال له الشوط بين المدينة وأحد، وعند ابن سعد وانتهى إلى أحد إلى موضع القنطرة اليوم. .

انخزال ابن أبيّ بثلث الجيش سياسة مبيتة بين اليهود والمنافقين.

وانخزل ابن أبيّ من ذلك المكان، وقال ابن أبي يعتذر عن انخزاله ـ وهو كاذب ـ: عصاني ـ يقصد رسول الله ﷺ ـ وأطاع الولدان ومن لا رأي له فعلام نقتل أنفسنا؟ فتبعهم عبدالله بن حرام والد جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وكان خزرجياً من قوم ابن أبيّ نسباً، فقال للمنخزلين ولم يكن على علم بنفاقهم: أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم بعد ما حضر عدوهم، فقالوا له كاذبين: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، ومضوا مدحورين مخذولين وأبوا أن يستجيبوا لعبد الله بن حرام، فقال لهم لمّا يئس منهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله نبيه عنكم. .

وقد ذكر الله قصة هؤلاء المنافقين في انخزالهم وخذلانهم يفضحهم ويكشف نفاقهم وجبنهم في قوله تعالى خطاباً للمؤمنين يسلّيهم عن انخزال أولئك المخذولين، ويربط على قلوبهم بروابط الإيمان، ويثبت أقدامهم بعزائم الجهاد: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾[1]. . وقد كان لهذا الانخزال المخذول أثره السيء الذي قصده المنافقون من تثبيط عزائم المؤمنين وإدخال الخور في قلوبهم، قال موسى بن عقبة في مغازيه وسيرته: فلما انخزل ابن أبي بمن معه سقط في أيدي طائفتين من المسلمين وهمّا أن يقتتلا، وهما بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس، وفي صحيح البخاري عن جابر ابن عبدالله رضي الله عنه قال: فينا نزلت ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ قال جابر: نحن الطائفتان بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: ﴿والله وليهما﴾ قال الحافظ ابن حجر: أي إن الآية وإن كانت في ظاهرها غضّ منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم،

أثر انخزال المنافقين في كتائب المسلمين وما أحدثه من البلبلة في صفوفهم.

---

(١) سورة آل عمران (١٦٦ ـ ١٦٧ ـ ١٦٨).

وقال ابن إسحاق: قوله: ﴿والله وليهما﴾ أي الدافع عنهما ما همُّوا به من الفشل لأن ذلك كان من وسوسة الشيطان من غير وهن منهم في دينهم. . .

قال القرطبي: والهمُّ من الطائفتين كان بعد الخروج لمَّا رجع عبدالله ابن أبي بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا، فذلك قوله: ﴿والله وليهما﴾ يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهم. وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن زيد: لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أحد ورجع ناس ممَّن خرج معه وكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم: فنزل ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾. . . . وهذا الحديث أخرجه مسلم من حديث زيد بن ثابت وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، قال القرطبي: والمعنيّ بالمنافقين هنا عبدالله بن أُبيّ وأصحابه الذين خذلوا رسول الله ﷺ يوم أحد، ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا.

انخزال المنافقين دسيسة مبيتة بينهم وبين اليهود لكيد المسلمين.

ولا شك عندنا أن هذا الموقف المخذول الخبيث من رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ وشيعته من خبثاء النفاق وربائب اليهود كان موقفاً مبيّتاً مدروساً في تآمر خبيث بين المنافقين وأوليائهم من اليهود، أرادوا به المكر السيء بالمجتمع المسلم والكيد له ليحدثوا في صفوفه البلبلة والاضطراب واختلاف الكلمة، لأن هؤلاء المنافقين خرجوا بزعامة رأس النفاق عبدالله ابن أبي بن سلول مع حشد المسلمين حتى بلغ الركب إلى أقرب موضع لنشوب القتال، والمسلمون يرون أن ابن أبيّ ومن معه من شرذمة النفاق سيقاتلون معهم، وأنهم جند من معسكرهم، قد وضعوهم في حسابهم وخطتهم الحربية، حتى إذا حضر القتال انخزل هذا الخبيث ابن أبيّ المنافق بمن معه من المنافقين عن جيش المسلمين، فكشفوا أحد جناحيه، والأعداء يرونهم في انخزالهم مما أطمعهم في جيش المسلمين، وقلَّلهم في أعينهم وجرَّأهم عليهم، ولو لم يكن هناك مكر مبيَّت بين اليهود والمنافقين رسموا فيه خطة غدر بالمسلمين فلِمَ لم يقعد المنافقون بزعامة رأس النفاق ابن أبي عن السير مع حشد المسلمين قبل أن يخرجوا إلى عدوهم، وهذا الخروج كان ضد رأي ابن أبيّ، وكان عذره الذي انتحله ـ كاذباً ـ قائماً قبل الخروج؟ وإذا انضم إلى

هذا الموقف الانخزالي المخذول موقف الغدر الخبيث من كتيبة اليهود الخشناء التي خرجت دون علم بخروجها من النبي ﷺ، متظاهرين بأنهم يشدُّون عضد المسلمين بالقتال معهم في صفهم، وكانوا ستمائة دارع، فردَّهم رسول الله ﷺ فور علمه بخروجهم وأنهم مقيمون على كفرهم وشركهم، وأبى أن يقبل منهم أدّعاءهم الباطل، وقال لأصحابه: «مروهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» ولم يأمنهم على البقاء بين حشد المسلمين ورواية ابن سعد «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك».

إذا تأملنا الموقف على هذه الصورة وجمعنا موقف المنافقين الخبثاء الغادرين إلى موقف اليهود ظهر جلياً أن هذا الموقف الخبيث من الطائفتين اليهود والمنافقين أنه كان كيداً مدسوساً على المسلمين، وكان رجوع كتيبة اليهود الخشناء قبل انخزال ابن أبّي وشيعته من المنافقين هو الدليل على ما أخفوه من الكيد للمسلمين.

كان رسول الله ﷺ على أتم العلم بغدر اليهود وخيانة المنافقين.

ولم يغب عن تقدير رسول الله ﷺ ووزنه للأمور أن هؤلاء وهؤلاء أعدى أعداء الإسلام ومجتمعه، وأنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة والفشل، فلذلك رد ﷺ كتيبة اليهود ولم يعبأ بانخزال ابن أبي وشيعته من أهل النفاق، ويقول القسطلاني في المواهب: ويقال: إن رسول الله ﷺ أمرهم - أي ابن أبيّ وشيعته أخابث المنافقين - بالانصراف لكفرهم. وهذا القول جدير بصيغة التمريض والضعف التي ساقه بها القسطلاني، ولا سيما أن تعليل هذا الأمر بالانصراف بالكفر بعيد لأن المنافقين وهم أخبث طوائف الكفر والإلحاد لم يعهد إطلاق الكفر عليهم، والقرآن الكريم غاير بينهم وبين عموم الكافرين في قوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ فعطفهم بوصفهم الخاص، وصف النفاق على الكفار، وهذا التعبير قد تكرر في القرآن لمقتضيات مناسباته.

وقد حاول الزرقاني في شرحه أن يجعل لهذا القول وضعاً في التأويل لما نقله عن بعضهم من الجواب عن التنظير فيه فقال: إن المعنى - أي في قوله:

(أمرهم بالانصراف) أنه أمر بالكف عنهم وردهم إلى جيش المسلمين، ونهى عن طلب رجوعهم، فكأنه أمرهم بالانصراف حقيقة. ومع هذه المحاولة من شارح المواهب فإنه لم يأخذ مكانه في التأويل بل وصمه بالتعسف والجمع بين الأمر والنهي .

ولم يردّ النبي ﷺ عبدالله بن أبيّ وشيعته من أخابث المنافقين كما رد كتيبة اليهود الخشناء لأن اليهود مشركون يُعرف شركهم وغلظ كفرهم وسوء عداوتهم للنبي ﷺ ودعوته ورسالته، وما رُكب في طبعهم من حب الغدر والخيانة ونقض العهود وتدبير المكايد للمسلمين.

وقد سجل الله تعالى سوء ما انطوت عليه جوانحهم من الحقد والحسد والضغن في سورة البقرة وهي أول سورة نزلت بالمدينة، واليهود فيها متوافرون عدداً وأموالاً وحصوناً ومزارع وتجارات، ففضحتهم وكشفت أسرارهم وسرائرهم فقال تعالى: ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾[(٢)]. .

وأما المنافقون فلم يكن العلم باستبطانهم الكفر وسوء الكيد للإسلام والمسلمين شائعاً بين المجتمع المسلم بالنسبة لأفرادهم، وكان تستر النبي ﷺ عليهم وعدم أخذهم بما يصدر عنهم من جرائم وآثام، ومعاملتهم في الظاهر معاملة المسلمين، وإخباره أصحابه بحكمة ترك قتل من يستحق منهم القتل في غير حدّ بأنهم يصلون مع المسلمين، وبأنه قتلهم مع تظاهرهم بالإسلام مما يساء تأويله لمن لم يعرف سياسة الإسلام في معاملة فئات الناس، فيقولون إن محمداً يقتل أصحابه أخذاً بظاهر حالهم ومداخلتهم للمجتمع المسلم في صلواته وجوامع أمره، وهذا مما يعوِّق سير الدعوة والإقبال عليها. .

فلهذا بادر النبي ﷺ برد كتيبة اليهود، ولم يرض أن يكونوا في صفوف

---

(١) سورة البقرة آية (١٠٩).
(٢) سورة آل عمران آية (١٠٠).

جيشه لأنهم مشركون، ولا ينبغي للمجتمع المسلم أن يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك لأنهم غير مأمونين على نصرة الإسلام والمسلمين، ولا سيما أنه كانت لليهود بالمدينة في صدر الهجرة شوكة وقوة مادية يحسب حسابها ويخشى غدرها، ولم تكن للمنافقين شوكة يخشى من عواقبها لأنهم عرفوا بالجبن والتستر وراء أستار ظلام النفاق، فخطرهم ضعيف لا يقام له وزن ولا يعمل له حساب، وقد دمغهم الله بذلك في قوله جل شأنه: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرَقُون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون﴾[1] على أن بعضهم كان معروفاً لدى النبي ﷺ وأكابر أصحابه، وكانوا يعيشون بين المجتمع المسلم كما تعيش الطفيليات المفسدة للزروع والثمار، وكان المجتمع المسلم يداريهم لضعف وزنهم واتقاء شرهم في الأراجيف وإشاعة السوء، وإغضاء عن شرورهم بإهمالهم حفظاً لوحدة المجتمع المسلم لأنه كان في أقوامهم من تحمله العصبية القومية على الغضب لهم وإثارة الفتنة عصبية لقوميتهم.

ويؤكد ذلك نزول آية ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ عند انخزال ابن أبّي وشيعته واختلاف المسلمين في شأنهم إلى فئتين، فئة تقول: نقاتلهم، والأخرى تقول: لا نقاتلهم.

بعد انخزال ابن أبّي بثلث من خرج مع رسول الله ﷺ إلى قتال عدوّه وكانوا ثلاثمائة بقي جيش المسلمين في سبعمائة مقاتل معهم مائة درع وفرس أو فرسان، وكان هؤلاء هم خلاصة صفوة المجاهدين، فصفّهم رسول الله ﷺ وعدَّل صفوفهم وهو يرى أعداءه، وأعداؤه يرونه، وجعل على الحرس محمد ابن مسلمة في خمسين رجلاً، خشية غدر المشركين.

أوامر رسول الله ﷺ للرماة ووعظه لهم

وأقبل ﷺ عليه أداة الحرب درعان ظاهر بينهما ومغفر وبيضة، وجعل أحداً خلف ظهره مستقبلاً المدينة، وجعل عَيْنَيْن ـ جبل قريب من أحد ـ عن يساره وأقام عليه الرماة، وكانوا خمسين رجلاً أميرهم عبدالله بن جبير،

---

(١) سورة التوبة آيتا (٥٦، ٥٧).

فوعظهم محذِّراً منذراً، وأوصاهم فقال لهم: «قوموا على مصافِّكم هذه واحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا». .

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ قال لهم: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» وعند ابن إسحاق: «انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا» وفي رواية «وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم». .

نظرة بحث وتحقيق في وصايا رسول الله ﷺ للرماة ومخالفتهم لها.

ولا بد لنا من وقفة أمام هذه الوصايا الحكيمة الصريحة الحازمة القوية البالغة في قوتها مبلغ أعمق ما يمكن أن يوصي به قائد جنده وهو على نفس المعركة لكتيبة من جيشه، عقد بنواصيها النصر المؤزر إن هي وعت الوصية وصبرت وصابرت، ولم تهتز قناتها، أو الهزيمة المدمرة إن هي تخلخلت في موقفها فلم تقو على تحمل مرارة الصبر والمصابرة واستزلهم الشيطان بتزيين الدنيا لهم.

تلك هي طائفة الرماة وكتيبة حامية جيش المسلمين أن يؤتى من خلفه في هجوم خاطف يفقده نظامه العسكري، ويفسد عليه خطته للمعركة، ويتبدد تدبيره الذي أحكم وضعه على أساس وضع الرماة وموقفهم في تنفيذ ما كلِّفوه من الثبات في أماكنهم.

ونحن وإن كنا لسنا من أهل العلم الحربي، والسياسة العسكرية، ولا من ذوي الخبرة بخصائص المواقف الحربية وما ينبغي فيها من تحركات الجيوش وكتائب المحاربين، لكنا نقرأ ونحاول أن نفهم ما نقرأ، وقد نستعين بمباحثة أهل الدربة والتجربة من فنيي الحرب ورسومها العسكرية.

وللحروب كتب ووثائق تتحدث بإفاضة عن الوقائع الحربية في القديم والحديث، والمتحدثون فيها من المتخصصين في فن القيادات الحربية الذين يرسمون خطط المعارك الحربية على مقتضى طبيعة الحياة والأرض والأسلحة

والقوة البشرية وما وصلت أو ما يجب أن تصل إليه من تدريب وخبرة، ومعرفة موقف الأعداء من هذا كله وتقدير ما يجري من خداع في الخطط المعلنة وغير المعلنة . .

وقد استفدنا مما قرأناه في هذه الكتب والوثائق التي سمحت بنشرها المواقف التاريخية أن سلاح الرمي ـ وهو في الاصطلاح الحديث للحروب سلاح الطيران في عمومه، وسلاح القاذفات في خصوصه ـ هو أهم أسلحة الحرب؛ لأن هذا السلاح قد يوجه ضربة قاضية تحت ستار خدعة مدبرة إلى جيش أعدائه فيشل بها حركته، بل قد يقضي عليه وعلى كثير من أسلحته الزاحفة، سواء أكانت هجومية أو دفاعية وتحل الهزيمة هنا، وتخفق ألوية النصر هناك . .

ومن ثَمّ كانت الأهمية البالغة للوصية التي خص بها النبي ﷺ بوصفه قائداً عسكرياً كتيبة الرماة في غزوة أحد، لأن جو المعركة في هذه الغزوة كان يتطلب إعداد سلاح الرمي، وإعداد كتيبته من المتخصصين في استعمال هذا السلاح، كما كان جو المعركة يتطلَّب التوجه إلى كتيبة سلاح الرمي بأوامر قياديّة خاصة بالرماة، توجه إليهم في صور وأساليب منذرة محذِّرة . .

فالنبي ﷺ إذا تحدّث إلى فرقة الرماة ـ بعد أن وضعهم في مكان الحماية لظهر الجيش ـ إنما يتحدث بهذه الأوامر والوصايا الحكيمة الحازمة الصارمة إليهم بوصفه القائد الأعظم للمعركة.

وقد أعلمهم في وصاياه بصراحة لا تحتمل التأويل بما لا يكون للعلم الموثّق والمعرفة المؤكدة سبيل وراء ما أوصاهم به، وحذّرهم من مغبة مخالفته، ملقياً على استجابتهم أو عدم استجابتهم عبء المعركة، ومحمِّلاً لهم نتائجها في النصر أو الهزيمة.

ولم يترك ﷺ تعبيراً في أسلوب القيادات الحربية المحذرة إلا حدّثهم به في أوامره ووصاياه، وأراهم منافع المحافظة على هذه الأوامر والوصايا، وبيّن لهم مضار ووخامة التهاون والغفلة عنها، وعرفهم مكانتهم ووزنهم الخطير في موقفهم لحماية ظهر الجيش، لأن الجيش الذي تحمي ظهره قوة يثق بها،

ويطمئن إلى يقظتها وحرصها عليه يجعل ثقله كله في حملته على بؤرة جيش أعدائه.

عبارات التحذير للرماة كانت واضحة في قوتها وصرامتها.

ومن أجل هذه الأهمية العظمى لهذه الحماية أبرزها القائد الأعظم محمد ﷺ في أسلوب القيادة الحازمة والأوامر الحربية الصارمة، وصاغها في عبارات تكاد تكون معجزة في معانيها ومراميها، وإن كانت قد جاءت في سهولة بيانها وسماحة تعبيرها من قبيل الأحاديث المرسلة في معالم الحياة، خالية من الغموض والتعقيد حتى لا تترك مجالاً للتأويل والتحريف، ولو لم يكن فيها إلا قوله ﷺ: «إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم» لكفى لمن كان له قلب لا تستهويه الدنيا بزخارفها.

هذه الوصايا والأوامر نضعها بين يدي أهل الاختصاص من قادة الحروب وساسة المعارك لأنهم هم أهلها وأحق الباحثين بالنظر فيها وبيان مقاصدها وأهدافها، حتى يتبين من دراستها فنياً مدى مبلغ رسول الله ﷺ من العلم في سياسة معاركه، فوق إنافته على المستوى القيادي في معرفة أقدار فئات الكتائب المحاربة وفرق الجيش، والأسلحة التي تتجهز بها كل فرقة في حدود اختصاصها في كل موقعة على مقتضى وضعها الجغرافي والسياسي والعسكري.

ونحن لا نستطيع أن نصدر أحكاماً في الأمور الفنية الاختصاصية التي يقصر إدراكنا الدراسي عن فهم مداخلها وأسرارها.

بيد أننا نبادر إلى القول بأننا لم نر في مطالعاتنا وقراءاتنا من زعم أن شيئاً من الإعجاز قاد زمام هذه المعركة، بل إنها كانت تدار بمحض القوة الفكرية التي أوتيها رسول الله ﷺ بوصفه قائداً عسكرياً وسياسياً حربياً، ومن هنا كانت هذه الواقعة بشرية في مباديها ونهاياتها.

وصل النبي ﷺ إلى مشارف أحد ومعه أصحابه الذين خرجوا معه للمعركة، وتراءى الجمعان، جمع المسلمين الذين أخذ رسول الله ﷺ في تعبئتهم وتسوية صفوفهم، ورأى في الجيش عدداً من الشباب الذين لم يبلغوا سن الجهاد والصبر على عض السيوف، فرد ـ كما يقول الإمام الشافعي ـ سبعة

عشر شاباً كانوا في حدود الرابعة عشرة سنة، رحمةً بهم وإشفاقاً عليهم، فلما استداربهم الزمان أجازهم في العام المقبل، وكان هؤلاء الشباب في جمهرتهم نخبة ممن حملوا في مستقبل حياتهم لواء العلم بالسنة وقيادة الجيوش في الجهاد لإعلاء كلمة الله ونشر راية التوحيد، وكتابة الوحي ورسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأقيال والفتوى والرواية عن رسول الله ﷺ وعن أكابر أصحابه.

رد عدد من شباب الصحابة استصغرهم رسول الله ﷺ عن شهود المعركة.

وكان في مقدمة هؤلاء الأشبال من خُلّص شباب الصحابة الحبّ ابن الحِب أسامة بن زيد، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس الذي يقول فيه الشمّاخ:

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقّاها عرابة باليمين

والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وسعد بن عقيب، وسعد ابن حبته، وزيد بن جارية الأنصاري، وجابر بن عبدالله الراسبي أو العبدي، وهو غير جابر بن عبدالله بن حرام الأنصاري أحد رواة السنة، وعمروابن حزم، ورافع بن خديج، وأوس بن ثابت الأنصاري، وسمرة بن جندب..

ومن الطريف في قصة هؤلاء الأشبال أن النبي ﷺ أجاز رافع ابن خديج بعد أن ردّه كما ردّ أقرانه المساوين له أو القريبين من سنه، إذ قيل له ﷺ: إن رافعاً يحسن الرمي، فبلغ ذلك سمرة بن جندب، فراح إلى زوج أمه مرّي بن سنان بن ثعلبة عم أبي سعيد الخدري وهو الذي ربى سمرة في حجره ـ يبكي وقال له: يا أبت أجاز رسول الله ﷺ رافعاً وردّني، وأنا أصرع رافعاً، فرفع زوج أمه ذلك إلى النبي ﷺ، فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسمرة فقال لهما تصارعا، فصرع سمرة رافعاً فأجازه كما أجاز رافعاً وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه الذي لا تستغني عنه وقائع الحرب، وموضع الطرافة في هذه الأطروفة التي تمثل جانباً من جوانب منهج الرسالة في تربية النشء أن رسول الله ﷺ أجاز رافعاً إذ أجازه دون أقرانه في السن لامتياز حربي امتاز به على غيره منهم، وإنما ردّ ﷺ من ردّهم خشية أن لا يكون لهم صبر على عض السيوف، ووقع السهام، ووخز

أطروفة في الرد لصغار الصحابة.

الرماح، فيفروا من المعركة إذا مسهم لفح أوارها، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين، فلما قيل لرسول الله ﷺ: إن رافعاً يحسن الرمي، والرمي هو رأس القوة في الحرب وبه فسَّر رسول الله ﷺ القوة في قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فقال وهو على المنبر: «ألا إنّ القوة الرمي» ثلاث مرات ـ قبل رافعاً وأجازه، لأنه بإحسانه الرمي يؤدي للجيش من الأعمال الحربية ما لا يستطيع أن يؤديه ذوو الأسنان العالية، لأن الرمي لا يتطلَّب علواً في السن لكنّه يتطلَّب علماً ومعرفة ودربة وسواعد قوية.

بَيْد أن حمية الشباب والغَيْرة على مواقف البطولة في ظل الإيمان والجهاد لإعلاء كلمة الله بعثت في نفس سمرة بن جندب حماسة عارمة، فرفع أمره إلى رسول الله ﷺ بأنه أوتي قوة بدنية ودربة في المصارعة يستطيع بها أن يصرع رافعاً، وهذا امتياز تتطلبه الحرب لا ينزل في ميدان المعارك عن مستوى إحسان رافع الرمي.

وأراد الرسول ﷺ وهو القائد الأعظم والمعلم المربي أن يُري أصحابه درساً عملياً في تربية النشء ليكون منهجاً لهم في تربية أولادهم لينهضوا في حياتهم أقوياء، ذوي مهارة على مواقف الغلبة في كل ما يفيد المجتمع المسلم في حياته ومستقبله، ليعيش بأفراده وجماعاته قوياً شجاعاً، لا تفارقه الجرأة على اقتحام المخاطر ووقائع الأحداث.

تعبئة كتائب الإسلام وموقف أبي عامر الفاسق.

ولما أكمل رسول الله ﷺ تعبئة كتائبه وسوّى صفوفهم، والمشركون ينظرون إليه كان أول من ألقى به الشيطان في جحيم الغرور الفاجر فأنشب الحرب أبو عامر الفاسق، وكان يُدعى في الجاهلية الراهب لتبتله وترهبه، ولكنه كان فريسة للحسد الموبق الذي أضلَّه عن الهدى، ولم يكن يطيق أن يرى رسول الله ﷺ بالمدينة والمؤمنون من المهاجرين والأنصار حوله حافين بـه يفدونه بأعز ما يملكون، فخرج الفاسق عن المدينة مباعداً لرسول الله ﷺ وأنصاره ممن آمن منهم بالله ورسوله، وأبو عامر أوسي نغل صدره الحقد فهرب إلى مكة وأخذ معه فئة من غلمان قومه الأنصار أفسدهم وغرّهم،

وداخل قريشاً بعداوته للنبي ﷺ، وجعل يحرضهم على حرب المجتمع المسلم ويَعِدُهم ويمنّيهم ويكذب عليهم بزعمه أنه لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فأغرته قريش وجمعت حوله لفيفاً من عبدانهم وأحابيشهم وأخرجته في هؤلاء الغوغاء معها إلى أحد.

ورأى أبو عامر الفاسق كتائب المجتمع المسلم في تعبئتها في ظل وحدة الإيمان والتآخي التكافلي، وفيهم قومه الأوس يقفون في صدر صفوف المجتمع المسلم على أهبة القتال أمام حشد المشركين من قريش ولفائفها المستأجرين من أحابيش المرتزقة، وممن استهواهم أبو سفيان من القبائل الضاربة حول مكة، وممن بقي فيه نفس من فَلّ غزوة بدر الذين فروا هاربين يكاد الرعب يقتلهم، والفزع يمزقهم..

وخرج أبو عامر الفاسق متقدماً إلى صفوف المجتمع المسلم ليري قريشاً ما وعدهم به من الغرور والكذب، وما له من مكانة عند قومه، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، فقالوا له: يكذّبونه ويفضحونه فيما أرجف به عنهم إلى قريش: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ـ هذا اللقب اسم سمّاه به رسول الله ﷺ ـ وكان في الجاهلية يسمّى (الراهب). وعند ابن سعد في طبقاته أنهم قالوا له: لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسق.

حنظلة الغسيل ابن أبي عامر كان ليلة المعركة معرساً فخرج جنباً إلى المعركة.

ومن عجيب تقدير الله في حكمته أن حنظلة غسيل الملائكة في أحد، وهو ابن أبي عامر الفاسق كان في الليلة التي في صبحها دارت المعركة قد بنى بأهله، فلما سمع الهَيْعة أخذ سيفه وطار إلى المعركة فقاتل وقتل شهيداً، ورآه النبي ﷺ والملائكة تغسله، فسأل عن شأنه وقال: «اسألوا أهله» فسألوا زوجته وهي أخت عبدالله بن أبي بن سلول، فذكرت لهم ما كان منه معها وهي عروس ليلتها، وخرج وهو جنب لم يغتسل، فلما استشهد غسلته الملائكة، وهكذا تتجلّى قدرة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿يخرج الحيّ من الميِّت﴾ فأخرج حنظلة الغسيل من أبي عامر الفاسق اللعين.

ولما سمع أبو عامر الفاسق ردّ قومه عليه، ونبزهم له باللقب الذي سمّاه به رسول الله ﷺ جن جنونه، فقال ينفح عن نفسه ويداري فضيحته

أمام مشركي قريش ويدفع عنه خزي موقفه وأنه لا شيء عند قومه ولا وزن له في تقديرهم، وكان في مكة يتكذّب للناس، ويريهم أنه سيقود قومه إلى قريش ليكونوا معهم في محاربة محمد ﷺ ومجتمعه المسلم: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، وقد جمع كيده وجهده في قتال قومه الذين أكذبوه ونبزوه باللقب أمام مَنْ خدعهم من شظايا قريش، وكان هو ومن معه من عبدان قريش وأحابيشها يترامون مع قومه بالحجارة ترامياً شديداً حتى أزلق أبطالُ الأوس هذا الفاسق وعبدانه وأحابيشه، ففرّ هو ومن معه من عبدان قريش ولفائفها هارباً إلى مكة لا يلوي على شيء.

فَجْأَةُ انكشاف موقف أبي عامر لدى قريش.

تيقظت قريش من ذهول سكرتها بغرور أبي عامر الفاسق وعرفت أنه ليس أكثر من طبل أجوف متورِّم بالأكاذيب الفاجرة، فتركته في فراره وهربه ولم تأبه لفراره لأنه كان في فراره من تساقط الحجارة عليه وعلى من اغترّبه من العبدان والأحابيش كوجوده بين حشودها المحاربة لا يُحلي ولا يُمر، ولا ينفع ولا يضر، وعادت على نفسها باللائمة المعنِّفة إذ جعلت لهذا الفاسق قدراً فوق قدره ووزنته بميزان غير موازين أمثاله، لأنه مقتول الروح والضمير، ضائع كذوب، وتوهمته قريش شيئاً تعتمد عليه في حربها مع المجتمع المسلم وهي حرب جمعت لها المرتزقة من الأحابيش، ولفائف المفزَّعين من القبائل الضاربة حول مكة الذين جاءتهم النذُر من بين أيديهم ومن خلفهم تحمل إليهم دوي النصر المؤزر في بدر، ذلك النصر الذي أشجى قريشاً ولفّها من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، ودنا الجمعان بعضهم من بعض بعد فرار أبي عامر الفاسق المتكذب، وأوتر الرماة قسيهم يرشقون بها خيل المشركين فتوليّ جامحة تحطم كل ما يعترض شرعها وهي هاربة من مواقع النبل ورشق القسي لأنها كما قال رسول الله ﷺ في وصيته للرماة، لا تقوم على النبل.

طلحة بن أبي طلحة العبدري كبش حشود قريش يدعو إلى المبارزة فيصرعه عليّ أو الزبير رضي الله عنهما.

وهنا يصيح حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري لينقذ موقف قومه الذي بدأ يتدهور: من يبارز؟ فيبرز له يعسوب الإسلام وصنديده علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيلتقيان بين الصفّين، ويبادره عليّ بضربة على رأسه فيفلق هامته فخر صريعاً، وتركه عليّ ولم يجهز عليه، فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال عليّ: إنه استقبلني بعورته

وعطفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله، وفي هذا وأمثاله يقول الشاعر معيِّراً هؤلاء الجبناء الذين يتقُون الموت بكشف سوآتهم:

أفي كل يوم فـارس غير منتـهٍ وعورته وسط العجـاجة بـادية

ويقول ابن كثير: وذكر يونس عن ابن إسحق أن طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين يومئذ دعا إلى البراز فأحجم عنه الناس، فبرز إليه الزبير بن العوام فوثب حتى صار معه على جمله ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه، فأثنى عليه النبي ﷺ، قال: «إن لكلِ نبي حوارياً وحواريّ الزبير» وقال: «لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه لما رأيتُ من إحجام الناس عنه». .

تتابع حملة لواء الأعداء في مصارعهم.

وصُرع لواء المشركين مع حامله كبش الكتيبة طلحة بن أبي طلحة وسقط على الأرض، وقد سُرّ النبي ﷺ بقتل كبش كتيبة المشركين تحقيقاً لرؤياه المنامية التي رآها عشية ليلة الموقعة، وأظهر ﷺ التكبير وكبَّر المسلمون لتكبيره، وحمي وطيس المعركة، واشتدت حماسة المسلمين وقويت شوكتهم فشدوا بجمعهم على حشد المشركين يضربونهم حتى أنْقضوا صفوفهم.

وكان عثمان بن أبي طلحة قد رفع اللواء من الأرض فحمله بعد أن جندل عليّ أو الزبير أخاه طلحة بـن أبي طلحـة فحمل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب فتى فتيان قريش رضي الله عنه فضرب عثمان بـن أبي طلحة على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره، ورجع عنه حمزة رضي الله عنه وهو يقول منتشياً مفاخراً: أنا ابن ساقي الحجيج.

ثم أخذ لواء المشركين أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فأدلع لسانه ادلاع الكلب فقتله، فسقط اللواء صريعاً فتناوله كلاب بن طلحة، بن أبي طلحة فقتله الزبير بن العوام. .

ثم حمل اللواء الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله.

ثم أخذ اللواء أرطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحمل اللواء بعده شريح بن قارظ وهو أول من حمله من غير بني أبي

طلحة، فقتل شريح ولم يعرف قاتله من المسلمين.

وكأنما قضى على فرسان العدو فلم يبق حاملاً للوائهم إلا عِبْدانهم وغلمانهم، فأخذه بعد شريح غلام لهم يدعى صؤاب، وقاتل به حتى قطعت يداه، ثم برك عليه وأخذه بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول: اللهم هل أعزرت؟ قال ابن كثير: يعني اللهم هل أعذرت؟..

فقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت في ذلك، يعيِّر القوم بأن لواءهم لم يجد من يرفعه ويقاتل به إلا غلام من غلمانهم وقد نكلوا عنه جميعاً جبناً ورعباً:

فخرتم باللواء وشر فخر لواء حين ردّ إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيه لعبد وألأم من يطا عفر التراب

وصؤاب هذا لم يشرَّف بأن يقتله مسلم، فضلاً عن بطل من أبطال المسلمين الذين قتلوا العبدريين، وإنما قتله قزمان الذي خرج وهو كافر مع المسلمين يقاتل حمية على أحساب قومه لا للإسلام..

قصة قزمان وإخبار النبي ﷺ بأنَّه من أهل النار فمات منتحراً.

وقد ذكر قصته ابن إسحاق عن قتادة: قال كان فينا رجل أتّي لا يُدْرى من هو؟ يقال له قزمان، فكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكِر عنده قزمان «إنه من أهل النار»، فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالاً شديداً، فقتل وحده من المشركين ثمانية أو سبعة، وكان ذا بأس، فأثبتته الجراحة، فاحتمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له: أبشر يا قزمان، فوالله لقد أبليت اليوم، قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلاّ عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته، فقتل به نفسه.

وقد روى ابن كثير عن الإمام أحمد قصة شبيهة بقصة قزمان في غزوة خيبر، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيِّب، عن أبي هريرة قال: شهدنا مع النبي ﷺ خيبر، فقال لرجل ممن يدّعي الإسلام: «هذا من أهل النار» فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً

شديداً، فأصابته جراحة فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت «إنه من أهل النار» قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات، فقال النبي ﷺ: «إلى النار» فكاد بعض القوم يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: فإنه لم يمت، ولكن به جراح شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «الله أكبر، أشهد أني عبدالله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى في الناس، أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

فلما قتل حملة اللواء من المشركين، واحداً إثر واحد، حتى بلغوا ثمانية رجال كلهم يعدّون من أبطال قريش الطلحيين العبدريين، وأكثرهم من ولد أبي طلحة عثمان أخي شيبة وحفدته، حتى انتهى القتل إلى غلامهم صؤاب الحبشي الذي كان آخر حامل للواء، وبقتله صرع معه اللواء، وظل ساقطاً على الأرض لا يجرؤ أحد من المشركين على رفعه من الأرض وأخْذِه حاملاً له ليقاتل به حتى جاءت امرأة يقال لها عمرة بنت علقمة الحارثية، والمشركون يعرفون أن المسلمين لا يقتلون النساء والولدان والعجزة، فرفعت عمرة اللواء للمشركين فلاثُوا به، واستداروا حوله بعد أن جبنوا عن الإقدام على رفعه، ولكن سيوف المسلمين مشت إلى أعناقهم تجتثها بهاماتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكانت الدائرة أول النهار للمسلمين على الكافرين، وحسّوهم بإذن الله حسّاً تصديقاً لوعده في قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه﴾.

ثم ذكر الله تعالى ما كان من الرماة من عصيان ومخالفة لأمر رسول الله ﷺ في قوله لهم: «لا تبرحوا ولو رأيتمونا تخطّفنا الطير» فقال تعالى: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم﴾[١].

وفي حديث ابن عباس عند الإمام أحمد أنه قال: ما نصر الله

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٢).

حديث ابن عباس في نصر أحد وتحوله بعد مخالفة الرماة.

النبيَّ ﷺ في موطن كما نصره يوم أحد، فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أُحد: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ الآية وإنما عنى بهذا الرماة، وذلك أنّ النبي ﷺ قد أقامهم في موضع وقال: «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا» فلما غنم النبي ﷺ وأزاحوا عسكر المشركين أكب الرماة في العسكر ينهبون، وقد التفّت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ في المشركين وتشابكوا فيهم وانتشبوا، فلما أخلَّ الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها دخلت خيل المشركين من ذلك الموضع على أصحاب الرسول ﷺ فجعل يضرب بعضهم بعضاً، التبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ أول النهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة وجال المشركون جولة نحو الجبل.

قال ابن كثير في تفسيره بعد أن ساق الحديث بطوله: هذا حديث غريب، وسياق عجيب وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحداً ولا أبوه، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي النضر الفقيه عن عثمان ابن سعيد عن سليمان بن داود بن علي بن عبدالله بن عباس به، وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سليمان بن داود الهاشمي، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها.

وأخرج الإمام أحمد من حديث الشعبي عن ابن مسعود، قال: إن النساء - أي المسلمات - كنّ يوم أُحد خلف المسلمين - أي ساعة نصرهم على المشركين - يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر: أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ - يعني الرماة- وعصوا ما أُمروا به أُفرد النبي ﷺ في تسعة أو سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم ﷺ.

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه في أنه كان يرى أن ليس أحداً من

قول ابن مسعود ما كنا نرى أنَّ أحداً من الصحابة يريد الدنيا معارض بآية الأنفال ﴿تريدون عرض الدنيا﴾.

أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى أُنزل ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم يريد الآخرة﴾ لا ندري ما وجهه، وهو مروي بعدة روايات من وجوه مختلفة، مع قول الله تعالى في قصة غزوة بدر، يعاتب جمهور المجاهدين الذين تسرّعوا في إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر قبل الإثخان في العدو وكسر شوكته، دون أمر من القائد الأعظم رسول الله ﷺ، ودون رضاً منه عن هذا التصرف استعجالاً منهم لجمع الغنائم واستبقاء الرجال لأخذهم أسرى: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ قال الزرقاني: وقد يرد عليه ـ أي على قول ابن مسعود ـ قوله تعالى في عتاب أهل بدر في قصة الأسرى: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ وهي من سورة الأنفال السابقة في النزول على سورة آل عمران.

وقصة بدر ووقعتها أسبق من قصة أحد وغزوتها، وآية ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ التي نزلت عتاباً لجمهور المجاهدين في بدر من سورة الأنفال التي نزلت مستوعبة لقصة بدر وغزوتها وأحداثها ووقائعها، وهي أسبق نزولاً من سورة آل عمران التي فصّلت فيها قصة أُحد وغزوتها وأحداثها ووقائعها.

وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه قد شهد الغزوتين، وكان له في غزوة بدر موقف لا ينسى، فهو الذي أجهز على الفاسق أبي جهل، وبشّر النبي ﷺ بقتله، وحمل إليه رأسه.

وابن مسعود من أقرأ أصحاب النبي ﷺ للقرآن وأحفظهم له وأعرفهم لموارد آياته ومصادرها، وفهمهم لمقاصدها وأهدافها، فكيف يقول عن قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهو من سورة آل عمران التي ذكرت قصة أحد. . . وأحداثها وهي متأخرة عن بدر وأحداثها: ما كنا نرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾، والله تعالى قد قاله لبعض أصحاب رسول الله ﷺ في سورة الأنفال يعاتب به جمهور المجاهدين في غزوة بدر، ولا بد أن يكون ابن مسعود من أكثر وأسبق من سمعه، وذلك في قوله جل شأنه خطاباً للمعاتبين به من المؤمنين المجاهدين في غزوة

بدر، فهل نسي ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية من سورة الأنفال وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «من أراد أن يقرأ القرآن غضاً فعليه بقراءة ابن ام عبد». وجلّ من لا يسهو.

اختلاف الرماة بعد أن رأوا هزيمة المشركين.

ولما رأى الرماة الهزيمة تحيق بالمشركين اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، هل يظلون ثابتين في مقامهم الذي أقامهم فيه رسول الله ﷺ على عيْنَيْنَ أو ينزلون لمشاركة إخوانهم المجاهدين في أخذ الغنائم، وكانت كثرتهم تجنح إلى النزول للغنائم لئلا يستأثر بها جامعوها، بيد أن رئيسهم عبدالله بن جُبير رضي الله عنه كان يرى الثبات في مقامه الذي أقامه فيه رسول الله ﷺ ونصح إخوانه ووعظهم، وذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ ووصيته أن لا يبرحوا من مكانهم حتى يرسل إليهم، وأن المسلمين لا يزالون غالبين ما ثبتم في مكانكم، فردُّوا عليه وعظه لهم وقالوا متشبثين بالتأويل: لم يُرد رسول الله ﷺ ذلك،قد انهزم المشركون، فما مقامنا هاهنا؟.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب: فقال أصحاب عبدالله ابن جبير: . . . الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله ابن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟.وفي كتاب المغازي من الصحيح فقال عبدالله بن جبير: عهد إليّ رسول الله ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، وقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبنَّ من الغنيمة.

فلما صمموا على مخالفتهم لرئيسهم، وأتوا الناس ليأخذوا معهم من الغنيمة حُوِّلت وجوههم عن اتجاهها وقصدها، وعادوا من حيث أتوا منهزمين عقوبة لهم لمخالفتهم أمر القائد الأعظم رسول الله ﷺ وقوله لهم حين أقامهم مقامهم قبيل نشوب المعركة «لا تبرحوا». .

شؤم ارتكاب النهي ومخالفة أوامر القيادة في الحرب. .

قال الحافظ ابن حجر: وفيه شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضرره من لم يقع منه لقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وأن من آثر دنياه أضر بآخرته ولم تحصل له دنياه.

والمتأمل في أوامر رسول الله ﷺ ووصاياه للرماة يرى أنه لا وجه لتأويلهم أمر رسول الله ووصيته، ولا محل لاجتهادهم في كلامه ﷺ وصرفه

عن مدلوله الظاهر الذي لا يحتمل التأويل، وقد كان تأويلهم وخيم العاقبة عليهم وعلى جميع المجاهدين في موقفهم من المعركة، حتى لحق أثر شؤم هذا التأويل رسول الله ﷺ فيما أصابه من شدة المحنة ولحقه من الجراحة البالغة، لأن مخالفة الرماة لأمره ﷺ كانت هي السبب في انتقاض صفوف المسلمين واستدارة رحاهم وتحوّلت ريحهم دبوراً تلفحهم بلهب الهزيمة بعد أن كانت صَبَاً تحمل إليهم نسمات النصر، حتى اختلط أمرهم وصاروا يقتتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً من شدة ما أصابهم من ذهول المفاجأة والدهش، وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بيّنة فصاح إبليس لعنه الله: أي عباد الله أخراكم، وهي كلمة يكيد بها المسلمين، قال ابن حجر: أي احترزوا من جهة أخراكم، وهي كلمة تقال لمن يخشى أن يؤتى عند القتال من ورائه، فرجعت أولاهم ـ أي أولى طائفتي المسلمين فاجتلدت مع أخراهم، وهذا تصوير لما حلَّ بصفوف المسلمين من نغض واضطراب وفوضى لما أصابهم من الدهش.

صيحة إبليس كانت كيداً للمسلمين.

وعند الحاكم والإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن المسلمين لما رجعوا حين سماعهم كلمة إبليس لعنه الله اختلطوا بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميزوا لشدة ما فاجأهم من الاضطراب والدهش، فصاروا لا يعرف المسلم من الكافر، فوقع القتل في المسلمين بعضهم في بعض حتى قتلوا خطأً اليمان أبا حذيفة رضي الله عنهما، وجعل حذيفة لما رآهم قد أحاطوا بأبيه وتناولوه بسيوفهم يقول: أبي، أبي، فما تحاجزوا حتى فرغوا منه فقتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، وأبى أن يأخذ ديته وتركها للمسلمين.

تراجع المشركين وتجمعهم وثبات رسول الله ﷺ في موقفه لا يزول.

وتراجع المشركون بعد هزيمتهم، وتجمّعوا، وتنادوا بشعار وثنيتهم وهم يهتفون بآلهتهم الباطلة، وأوجعوا في المسلمين قتلاً، حتى ولَّى المسلمون الأدبار تاركين رسول الله ﷺ ثابتاً في مقامه لا يزول عنه وهو يضارب المشركين، ولم يثبت معه من أصحابه إلاّ عصابة من أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين فيهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسبعة من الأنصار،

وضربه ابن قمئة لعنه الله بسيفه فاتقاه طلحة بن عبيد الله فشلّت أصبعه، وصرخ ابن قمئة في المشركين بأنه قتل محمداً ﷺ - وكان قد قتل مصعب بن عمير وهو ينافح عن رسول الله ﷺ، ويتلقّى عنه قعص السيوف وطعن الرماح - يرى أنه رسول الله ﷺ، فصرخ ابن قمئة في صفوف المشركين صائحاً: قتلتُ محمداً، فلما سمعه أبو سفيان طار بها غروراً، ثم علا نشزاً يشرف منه على المسلمين وهو يقول: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ «لا تجيبوه» حتى قالها ثلاثاً، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاثاً؟ فقال رسول الله ﷺ «لا تجيبوه»، ثم قال: أفي القوم عمر؟ ثلاثاً، فقال النبي ﷺ «لا تجيبوه»، ثم التفت أبو سفيان إلى أصحابه المشركين، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فلم يملك عمر نفسه دون أن يقول له: كذبت يا عدو الله، فقد أبقى الله لك من يخزيك، إن الذين عددت لأحياء كلهم.

فلما أجاب عمر أبا سفيان، قال له: هلمَّ إليّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شأنه؟ فأتاه عمر، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللّهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، فقال أبو سفيان: أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبرّ.

شجاعة خارقة تحلى بها رسول الله ﷺ في أشد المواقف تأزماً.

وثبت النبي ﷺ وحده ما يزول عن موقفه، وهو يضارب العدو بالحجارة بعد أن تشظّت قوسه كما رواه البيهقي عن المقداد قال: فوالذي بعثه بالحق ما زالت قدمُه شبراً واحداً وإنه لفي وجه العدو، وتفيء إليه طائفة من أصحابه مرة وتفترق مرة، فربما رأيته قائماً يرمي عن قوسه ويرمي بالحجر حتى انحازوا عنه.

وروى أبو يعلى بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: لما انجلى الناس يوم أحد نظرت في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ، فقلت والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى، ولكن أرى أن الله غضب علينا فرفع نبيه فما لي خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم يقاتلهم.

وروى الحاكم في المستدرك بسند على شرط مسلم عن سعد بن أبي

سعد بن أبي وقاص يفدي رسول الله ﷺ بنفسه.

وقاص قال: لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد قلت: أذود عن نفسي فإما أن أستشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله ﷺ، فبينا أنا كذلك إذا برجل مخمر وجهه ما أدري من هو، فأقبل المشركون حتى قلت: قد ركبوه، فملأ يده من الحصى ثم رمى به في وجوههم فتنكّبوا عنه على أعقابهم القهقرى حتى يأتوا الجبل ففعل ذلك مراراً، ولا أدري من هو؟ وبيني وبينه المقداد، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد: يا سعد هذا رسول الله ﷺ يدعوك فقلت: وأين هو؟ فأشار لي إليه، فقمت ولكأني لم يصبني شيء من الأذى، وأجلسني أمامه، فجعلت أرمي، وأقول: اللّهم سهمك فارم به عدّوك، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم استجب لسعد، اللهم سدِّد رميته، وأجب دعوته» حتى إذا فرغت من كنانتي نثر ﷺ ما في كنانته، فنبَّلني سهمًا نضّاً ـ أي الذي قد ريش ـ وكان أشد من غيره، وفاء إليه ﷺ بعض أصحابه الذين لم يذهبوا بعيداً إذْ تولوا عنه إثر صرخة الشيطان وقاتلوا دونه وهم يقولون: وجوهنا دون وجهك ونفوسنا دون نفسك وعليك السلام غير مودّع.

وكان من هؤلاء الذين ثبتوا بين يديه ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد وطلحة والزبير وأبو عبيدة وأبو دجانة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمّة، وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة.

وكان علي بن أبي طالب حامل لواء المجتمع المسلم بعد مصعب ابن عمير، ولم يعرف أن لواء الإسلام سقط من عليّ رضي الله عنه قط.

شدَّة الفزع أخرجت عصارة الضعف في حدثاء الإسلام.

ولما فشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل رُعِب المسلمون رعباً شديداً، وأخذهم الفزع واستولى عليهم الهلع والجزع حتى فقدوا توازنهم وزلزلوا زلزالاً شديداً لعب بصبرهم وحميتهم الإيمانية، واستحوذ عليهم ضعف الطبيعة البشرية، فتقاولوا فيما يصنعون بعد فجيعتهم بقائدهم الأعظم ورسولهم الأكرم، فقال بعضهم وقد هزت الفجيعة العظمى والكارثة المدمرة إيمانهم هزاً عنيفاً: ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن أبي بن سلول فيأخذ

لنا أمنةً من أبي سفيان، يا قوم إن محمداً قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

وهذا كلام لا يخرج من قلب أضاءه الإيمان بنور الفدائية المسلمة، فهو إما من دسيس المنافقين، وإما من عصارات حدثاء الإسلام الذين لم يذوقوا حلاوة الإيمان، وقد يكون هذا الكلام مما أُدخل على الوقائع التي صار جوّها بعد الهزيمة مسرحاً لتقبل ما يقال إن صدقاً وإن كذباً.

كان في صفوف الكتائب المسلمة دسيس من المنافقين.

والقرآن قد دلَّ في آياته على أن بعض المنافقين لم ينخزلوا مع ابن أبيّ، ولكنهم ظلُّوا في جيش الإسلام طمعاً في الغنيمة والإرجاف بالمؤمنين يبغونهم الفتنة، وفي المؤمنين ضعفى القلوب الذين يتلقفون أراجيف المنافقين فتذيبهم رعباً وخوفاً.

وفي هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾[1]. قال القرطبي: وطائفة قد أهمتهم أنفسهم، يعني المنافقين، مُعتّب بن قشير وأصحابه وكانوا قد خرجوا طمعاً في الغنيمة.

ولما رأوا الهزيمة جعلوا يلومون أنفسهم على خروجهم في صفوف المسلمين ويقولون: لو كانت لنا عقول ما خرجنا إلى قتال أهل مكة وما قتل رؤساؤنا وعشائرنا.

إقامة الله تعالى العذر لصادقي الإيمان وعفوه عنهم.

ثم عذر الله عز شأنه الذين تولَّوا عن رسول الله ﷺ منهزمين، وتلطف بهم فعفا عنهم، وأنزل في ذلك قرآناً يتلى حتى لا يتعلَّق بما كان منهم أحد يعيبهم به فقال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾[1] والمعنى أن هؤلاء المنهزمين عن رسول الله ﷺ إنما حملهم على الزلل والخطيئة

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٤).

(٢) سورة آل عمران آية (١٥٥).

شدة ما غافصهم من الهول في موقفهم، فضعفوا عن الثبات، وجانبهم الصبر على رغائب أنفسهم في الإصابة من المظالم، وذلك بسبب معصيتهم رسول الله ﷺ ومخالفتهم أوامره ووصاياه في الثبات في موقفهم الذي وقفهم فيه على الجبل لحماية ظهر المجاهدين الواقفين في مواجهة العدو يقاتلونه، والمقصود بالاسم الموصول هم الرماة.

قال القرطبي: وعلى الجملة فإن حُمِل الأمر على ذنب محقق فقد عفا الله عنه، وإن حمل على انهزام مسوغ فالآية فيمن أبعد في الهزيمة.

معاتبة بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف تزيد عثمان رفعة وشرفاً.

ثم روى القرطبي عن أبي الليث السمرقندي قال: حدثنا الخليل ابن أحمد قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا أبو بكر بن غَيْلان عن جرير أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمن بن عوف أتسبني وقد شهدتُ بدراً ولم تشهد، وقد بايعت تحت الشجرة ولم تبايع، وقد كنت تولَّى مع من تولى يوم الجمع - يعني يوم أحد. .

فردّ عليه عثمان رضي الله عنه فقال: أما قولك: أنا شهدتُ بدراً ولم تشهد فإني لم أغب عن شيء شهده رسول الله ﷺ إلاّ أن بنت رسول الله ﷺ كانت مريضة، وكنت معها أمرضها، فضرب لي رسول الله ﷺ سهماً في سهام المسلمين، وأما بيعة الشجرة فإن رسول الله ﷺ بعثني ربيئة على المشركين فضرب رسول الله ﷺ يمينه على شماله فقال: «هذه لعثمان» فيمين رسول الله ﷺ وشماله خير لي من يميني وشمالي، وأما يوم الجمع فقال الله تعال: ﴿ولقد عفا اللهم عنهم﴾ فكنت فيمن عفا الله عنه فحجّ عثمان عبد الرحمن.

ويتعلق من يغمز ذا النـورين بالعيب بما وقع في غزوة أحد، وهذا الحديث عن عبد الرحمن بن عوف يدفع في صدور هؤلاء العيّابين ويرد عليهم فريتهم على ثالث الراشدين.

وعثمان رضي الله عنه لم ينفرد بما كان يوم أحد بل شاركه فيه جمهرة الأصحاب، وحسب العيّابين لو كانوا يعقلون موقف عمر بن الخطاب رضي

الله عنه، وهو من هو في قوة إيمانه وصرامته في الحق فإنه كان ممن ولّى منهزماً ولكنه لم يبعد.

حديث ابن عمر في بيان أسباب الأمور التي يأخذها العيابون على عثمان.

وقد روى البخاري في صحيحه ما يقيم دعائم الدفاع عن عثمان رضي الله عنه في حديث عبدالله بن عمر من طريق عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجل حجّ البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القعود؟ قيل هؤلاء قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان ابن عفان فرّ يوم أحد، قال: نعم، قال: فتعلمه تغيَّب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، فكبَّر الرجل.

قال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبينِّ لك عما سألتني عنه، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه يوم بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان». اذهب بها الآن معك.

قتل أبيّ بن خلف بيد رسول الله ﷺ.

وقد قَتَل رسولُ الله ﷺ - وهو في أشد الوجع من آلام جراحاته التي أصيب بها - أبي بن خَلَف إذ أقبل هذا الكفور العنيد، ورسول الله ﷺ يدعو أصحابه ليردّهم عن الاسترسال في الهزيمة وهو يقول لهم: «إليّ عباد الله إليّ عباد الله» وأبيّ لعنه الله يصيح أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، لأقتلنَّه، فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «بل أنا أقتله إن شاء الله».

ولما قرب هذا الفاجر الكفور من رسول الله ﷺ خشي بعض من كان قد فاء إلى رسول الله ﷺ على رسول الله ﷺ من أن يناله هذا الفاجر بضرر، فهم به ليدفعه، فقال لهم رسول الله ﷺ دعوه، ثم تناول الحربة من الحارث ابن الصمّة، فقذفه بها فوقعت في جيب درعه فكسرت ضلعاً من أضلاعه

واحتقن الدم، فلم يخرج، فوقع أبيّ وهو يتدأدأ من فوق فرسه، فخار كما يخور الثور واحتمله المشركون وهم يقولون له: ليس بك جراحة فما يجزعك؟ فقال لهم أبيّ لعنه الله أليس قد قال: «لأقتلنّك» لو كان ما بي بجميع ربيعة ومضر لقتلهم، فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى هلك.

شدّة الفزع أدهشت المسلمين ففرقتهم.

وقد بلغ الفزع والدهش بالمسلمين مبلغاً أذهلهم عن التدبر في الموقف وعواقبه، وفيما يجب عليهم أن يقابلوه به من الفيئة والثبات والدفاع عن عقيدتهم وكيانهم، فذهبوا مولّين في فجاج الأرض لا يجمعهم مكان. قال الحافظ ابن حجر: والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق: فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة فما رجعوا حتى انفض القتال، وهم قليل، وهم الذين نزل فيهم ﴿إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ وفرقة صاروا حيارى لمّا سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، فصارت غاية الواحد منهم أن يذبّ عن نفسه ويستمر على بصيرته في القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ حتى أدركتهم الفئة الثانية.

كانت غزوة أحد منحة في طيات المحن
نماذج من بطولاتها أظهرتها الشدائد

مظاهر شجاعة الصحابة في أحد.

كانت مظاهر الشجاعة البطولية في أصحاب رسول الله ﷺ مختلفة أشد الاختلاف، وقد محّصهم البلاء الذي أصابهم يوم أحد تمحيصاً جعل منهم مجتمعاً له معالمه الخالصة من شوائب الضعف النفسي الذي يفتك بقوة الإيمان فتك جراثيم الأوبئة الجائحة بمقوِّمات الأبدان ووشائج تماسكها، أو فتك الرِّيَب والشكوك بعواصم الأرواح، وإلى هذا التمحيص يشير رسول الله ﷺ بقوله: «لا يصيب منا المشركون مثلها حتى يفتح الله علينا».

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بأصحابه في تربيته لهم وآثار تلك التربية في اختلاف مظاهر شجاعتهم، وكان يعطيهم من هذا العلم الذي عنده بأحوالهم ما يعطيه الطبيب الحاذق العليم للمرضى الذين يعالجهم من أمراض أبدانهم، والذين يداويهم من أسقامهم حتى يبرئهم منها، ليخوضوا غمرات الحياة أقوياء، أصحّاء، لا تعجزهم العقبات عن اقتحامها، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[1].

(١) بطولة أبي دجانة

حوار مستطلع يكشف عن مظاهر البطولة.

أخرج مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، والطبراني عن قتادة بن النعمان، وابن راهويه، والبزار عن

(١) سورة آل عمران آية (١٧٩).

الزبير، قالوا: عرض رسول الله ﷺ سيفاً يوم أحد، فأخذه رجال فجعلوا ينظرون إليه ويبسطون أيديهم رغبة في أخذه، فقال ﷺ: «من يأخذه بحقِّه؟» فأحجم القوم، ثم قام إليه رجال، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والزبير، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة ـ سماك بن خرشة ـ فقال: وما حقّه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني، ولا تقتل به مسلمًا، ولا تفرَّ به عن كافر» فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقِّه يا رسول الله فأعطاه له.

وهذا الحوار المستطلع لخفايا النفوس يمثل لوناً من ألوان الفراسات النبوية الصادقة، وتوسّمات القيادة العليمة المعلِّمة، وفي ذلك من معالم التربية القيادية في مجال المعارك لإظهار أسرار الرجال درس تربوي يجب على القادة أن يتعلّموه ويعملوا به.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً جريئاً، لا يهاب الموت، وكان إلى جانب ذلك ميمون النقيبة في الحرب إذا خاضها مشى في حومتها متخايلاً تيّاهاً يتبختر في مشيته، فلما أخذ سيف رسول الله ﷺ مشى مشيته، فرآه رسول الله ﷺ وهو يتخايل فقال ﷺ: «إنها لَمشْية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

بطولة أبي دجانة يرصدها الزبير.

قال الزبير بن العوام ـ وهو من صناديد أبطال الإسلام ـ لقد وجدت في نفسي ـ أي تأثرت في شيء من الغضب الحزين ـ حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفيّة عمته ومن قريش، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله، فأعطاه أبا دجانة وتركني، فقلت: والله لأنظرنّ ما يصنع أبو دجانة؟ فاتبعته، فأخذ أبو دجانة عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له، إذا تعصب بها، فخرج لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله، وعند الإمام مسلم من حديث أنس: ففلق أبو دجانة هام المشركين.

وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفّف عليه، فلقيه أبو دجانة، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما

والتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

قال الزبير: ثم رأيت السيف على رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، وكانت تحمِّس الناس حمساً شديداً، تحرِّضهم على القتال وتغريهم بإشعال نار الثأر لقتلى بدر، فلما حمل عليها أبو دجانة ولولت مستغيثة؛ قال أبو دجانة: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وقال الزبير في رواية أخرى: خرج أبو دجانة بعدما أخذ السيف من رسول الله ﷺ، واتبعته، فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وهتكه، وفلق به هام المشركين حتى أتى نسوة في سفح الجبل، ومعهن هند بنت عتبة، وهي تغني تحرض المشركين، فحمل عليها فنادت يا لَصخر، فلم يجبها أحد، فانصرف عنها، فقلت له: كل سيفك أعجبني غير أنك لم تقتل المرأة؟ قال: كرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة لا ناصر لها.

هذا لون من الشجاعة النفسية والبدنية منسوج بخيوط من الجراءة العارمة، وكان هذا اللون معروفاً لصاحبه بطل الإسلام أبي دجانة الأنصاري يعرفه هو من نفسه، ويعرفه له قومه الأنصار، له معالم عندهم، يتخذها وشُهر بها، وعرفها له قومه، وصاحب هذه الشجاعة البطولية يزينها بالنخوة والمروءة، فلا يصب نيرانها على ضعيف لا ناصر له، ولا سيما إذا كان سلاحه في هذه الشجاعة مشرَّفاً، خُصَّ به دون سائر أبطال الإسلام وشجعانه، ولهذا أبت عليه نخوته البطولية، ومروءته الإسلامية أن يقتل بسيف رسول الله ﷺ امرأة صاحت تطلب الصريخ، وتستصرخ مستغيثة إذ رفع السيف على رأسها تطلب النصراء فلا تجد نصيراً، لكنه فلق به هامات الأبطال المشركين، فكان لا يلقى جمعاً منهم إلا فضَّه، ولا يعرض له بطل من أبطالهم إلا جعله كأمس الدابر.

معرفة رسول الله ﷺ بأقدار الرجال وخصائصهم.

وكان رسول الله ﷺ يقدِّر هذه الصفات البطولية في أبي دجانة، ويعرف له حقَّه فيها، إذ لم تكد الحرب في أُحد تزأر بالأبطال ويتنادى أُسدها باللقاء حتى عرض رسول الله ﷺ سيفاً كان في يده ونادى في أصحابه: «من

يأخذ هذا السيف بحقه؟» فاستشرف له جماعة من خاصّة أبطال الجهاد في الإسلام، وجعلوا ينظرون إلى هذا السيف الذي تخيّره رسول الله ﷺ ليعرضه عليهم ويثير في نفوسهم حميّة بطولية الجهاد لإعلاء كلمة الله، نظر تفحص وتطلع إلى سرِّه الذي جعل رسول الله ﷺ ينادي عليه بين أصحابه، فيطلبه أبو بكر الصديق وعمر وعلي رضي الله عنهم، ويطلبه معهم الزبير ابن العوام، ابن عمة رسول الله ﷺ القرشي، وهو أشهر في شجاعته البطولية شهرة ملأت أرض الإسلام، فيعرض عنه رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

وإذا بأبي دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، يسأل رسول الله ﷺ عن حقِّ هذا السيف المغلَّف بالأسرار، فيجيبه النبي ﷺ بقوله: «حقه أن تضرب به في العدو حتى ينحني» ومعنى هذا أن حق هذا السيف شجاعة تملك على من يأخذه ليحارب به المشركين مشاعره ومعالم بطولته، وكرّة على العدو، فيضرب به في صفوفه ضرباً متواصلاً، يفري به الهامات لا يكلّ ولا يعيا حتى ينحني السيف في يده.

وكان أبو دجانة أصدق وفاء بوعد رسول الله ﷺ، فأدّى حق السيف الذي خصّه به رسول الله ﷺ دون أكابر أصحابه وأبطالهم، وهذه الميزة التي ظفر بها أبو دجانة رضي الله عنه وإن كانت لا تدل على تفضيله على من استشرفوا للسيف متطلِّعين إلى أخذه، والنبي ﷺ يعرض عنهم، وفيهم ابن عمته الزبير بن العوام، وهو من لا تنكر بسالته وشجاعته وبطولته في جهاد الإسلام؛ لكنها تدل على فضله وشجاعته في معامع الوغى.

الزبير ينظر ما يصنع أبو دجانة بسيف رسول الله الذي آثره به فيرى بطولته فيعلم حكمة إيثاره على غيره.

وقد تأثر الزبير رضي الله عنه من إعراض النبي ﷺ وهو يطلب منه السيف ثلاث مرات، فيأبى عليه ﷺ إعطاءه إياه، كما أبى إعطاءه غيره من الذين استشرفوا لأخذه، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيهم يعسوب الإسلام علي بن أبي طالب، وثلاثتهم في مكانتهم من رسول الله ﷺ ومن المجتمع المسلم من لا ينكر فضلهم في مواقف البطولات.

ولما رأى الزبير هذا الصنيع من رسول الله ﷺ - وهو يعلم أن رسول الله ﷺ لا يصنع شيئاً إلا لحكمة - قال: والله لأنظرنَّ ما يصنع أبو دجانة،

فاتبعته فجعل يفلق هام المشركين بالسيف، ولا يلقى مشركاً إلا علاه بالسيف فقضى عليه، فعرف الزبير حكمة اختيار رسول الله ﷺ أبا دجانة بطلاً لسيفه وتمييزه به دون سائر أصحابه رضي الله عنهم.

(٢) بطولة أنس بن النضر

بطولة فدائية وشجاعة إيمانية.

وهذا بطل من أشجع وأجرأ أبطال غزوة أحد، يمثل في شجاعته وبطولته لوناً من أصدق ألوان الرسوخ في الإيمان والعقيدة، والحب لرسول الله ﷺ، وفدائه بروحه.

غاب أنس بن النضر عن شهود بدر، فشقَّ عليه ذلك، فجعل يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ في قتال المشركين غبتُ عنه، ولئن أراني الله مشهداً فيها بعد مع رسول الله ﷺ ليريَّن الله ما أصنع، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل وهو في طريقه إلى القتال سعد بن معاذ، فقال له: يا أبا عمرو، واهاً لريح الجنة، أجده دون أحد، ثم خاض المعركة، فقاتل المشركين حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم حتى خفيت معالم بدنه وصار لا يعرف من كثرة الجراح والتمثيل به، فقالت أخته الربيّع بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه، وكان كثير من أهل العلم يرون أن قول الله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ نزل في أنس بن النضر وأمثاله من الأبطال الفدائيين.

الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله لا يتوقف على وجود النبي ﷺ.

وفي دلائل البيهقي عن طريق ابن أبي نجيح عن أبيه، قال: مر رجل من المهاجرين يوم أحد على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال المهاجري للأنصاري: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ الرسالة، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين﴾ قال الإمام ابن كثير: ولعل هذا الأنصاري هو أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنهما.

الإخلاص في الجهاد يفتح بصيرة المجاهد حتى يرى ما أعدَّ الله للشهداء.

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، قال: غاب عمي أنس ابن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ فيه المشركين، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليريّن الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال أنس بن النضر: اللَّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فاستقبل سعد بن معاذ، فقال أنس بن النضر: أي سعد، هذه الجنة وربِّ أنس، أجد ريحها دون أحد، فقال سعد بن معاذ: فما استطعت ما صنع، فقاتل ـ أي حتى قتل ـ قال أنس بن مالك: فوجدنا فيه بضعاً وثمانين ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وقد مثَّل به المشركون فما عرفته أخته الربيِّع بنت النضر إلا ببنانه، قال أنس بن مالك: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾.

أنس بن النضر ممن أخلصهم الله له يجيبهم إذا أقسموا عليه.

وكان أنس بن النضر ـ نضر الله وجهه ـ إلى جانب شجاعته الخارقة وبطولته الفدائية الصادقة راسخ الإيمان رسوخاً عميقاً جعل معرفته بالله تعالى معرفة شهودية، يشهد بها فضل الله تجري به مقاديره، كأنما يجري فيها مع هذه المقادير في فجاج الغيب، وقد رزقه الله تعالى بهذا الإيمان ثقة في الله تعالى واعتصاماً به، بلغا به مقام المقسمين على الله فيجيبهم إلى مطلوبهم.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كسرت الربيّع ـ أي أخت أنس بن النضر ـ ثنية جارية من الأنصار، فطلب القوم القصاص، فأتوا النبي ﷺ فأمر ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: لا، والله لاتكسر ثنيتها ـ يعني ثنية أخته الربيّع قصاصاً ـ يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «كتاب الله القصاص» فرضي القوم وقبلوا الأرش، فقال ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه».

وذكر ابن إسحاق أن أنس بن النضر جاء إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيديهم، فقال لهم: ما يجلسكم؟ قالوا:

قتل محمد ﷺ، قال أنس: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل العدو فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

هذا اللون من رسوخ الإيمان وثبــات اليقين اللّذين تحدّث بهما التاريخ الإسلامي عن هذا البطل هو الذي ارتفع بالمجتمع المسلم إلى منزلة قيادة الإنسانية إلى آفاق حضارة الإيمان بالله وإخلاص الدين كله له، حتى تبوأ هذا المجتمع الذروة في إصلاح الحياة وتطهيرها من أوضار الجاهليات الضالّة الظالمة، وهو الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذه البطولة التي ترى بعين الشهود أن الموت ـ استشهاداً في سبيل الله لإعلاء كلمته ـ إنما هو تجديد للحياة في دار الخلود، والنعيم المقيم.

(٣) بطولة طلحة بن عبيد الله

حسبه في الفضل والشرف أنه أحد المبشرين بالجنة من الصـادق المصدوق ﷺ، وحسبه قول النبي ﷺ فيه: «أوجب طلحة الجنة» هكذا ذكره القرطبي بزيادة لفظ الجنة، وفي بعض الروايات الاقتصار على لفظ: «أوجب طلحة» والشرّاح هم الذين يذكرون لفظ (الجنة) عند شرحهم للحديث، لأن عبارة (أوجب فلان) معناها إنه فعل فعلاً عظيماً استوجب به جزاء يوائمه، فإذا كان هذا القول وارداً في حقِّ رجل مؤمن بَلْه صحابياً كان معناه وجبت له الجنة لأنها الجزاء الذي يوائم الأفعال العظيمة في الإسلام، وإذا كان هذا القول في رجل كافر كان معناه وجبت له النار.

بيان معنى (أوجب فلان) وقول النبي ﷺ (أنتم شهداء الله على خلقه).

ويشهد لذلك حديث: «أنتـم شهـداء الله على خلقـه» إذ أثنى الصحابة على رجل خيراً فقال ﷺ: «وجبت» وأثنوا على آخر شراً فقال ﷺ: «وجبت»، فقال الصحابة: ما وجبت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أثنيتم على الأول خيراً فوجبت له الجنة، وأثنيتم على الثاني شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله على خلقه».

وهذا الثناء على الأمة الإسلامية مذكور في القرآن في مواضع من سوره، فمنها قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على

الناس﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ فلفظة (الجنّة) في حديث طلحة يتطلبها المعنى، فإن كانت من ألفاظ الحديث فهي توضيح للمراد، وإن لم تكن من ألفاظ الحديث فهي من قبيل المدرج، أدرجها أحد الرواة لانسياق المعنى إليها.

طلحة يفدي رسول الله ﷺ بنفسه.

وقد قال النبي ﷺ ذلك في حق طلحة رضي الله عنه، حينما ثبت معه يوم أحد عند اشتداد الموقف وتولِّي المسلمين إثر صرخة الشيطان بأن محمداً قتل، فوقف بين يدي رسول الله ﷺ، يدفع عنه ويقيه بنفسه، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت في قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية، منهم طلحة بن عبيدالله، ثبت مع النبي ﷺ حتى أصيبت يده، فقال النبي ﷺ: «أوجب طلحة الجنة» ومن حديثها أيضاً عند الطيالسي قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: كان ذلك اليوم كله لطلحة ثم أنشأ أبو بكر يقول: كنت من أول من أفاء يوم أحد، فرأيت رجلاً يقاتل في سبيل الله دونه ـ أي دون رسول الله ﷺ ـ فقلت: كن طلحة، حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي أحب إليَّ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه وهو يخطف المشي خطفاً لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ، وقد كسرت رباعيته، وشجّ في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، فقال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما» يريد طلحة، وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، وذهبت لأنزع ذاك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقي لما تركتني فتركته، فكره تناولها بيده، فيؤذي رسول الله ﷺ، فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هَتَماً، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا من شأنه.

حوار إيثاري بين أبي بكر وأبي عبيدة ابن الجراح في مظاهر محبة رسول الله ﷺ.

(٤) بطولة أبي طلحة: زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي

شجاعة أبي طلحة وصبره على البلاء بين يدي رسول الله ﷺ.

وهذا لون من الشجاعة الجامعة لفضائل الرجولية، وخصائص البطولة الإيمانية والشجاعة النفسية، تزكّيها القوة البدنية، وتعينها الدربة على القتال والصبر في حومة النضال.

لما انهزم المسلمون المجاهدون يوم أحد، وولّوا عن رسول الله ﷺ إثر إخلاء جمهور الرماة لمواقفهم ونزولهم للغنائم وقد صرف الله وجوههم عن صمدهم، والتبسوا بالمشركين والمسلمين حتى صار المسلم يضرب المسلم وهو لا يشعر، وكان الشيطان قد أرجف بقتل رسول الله ﷺ وأحاط المشركون برسول الله ﷺ، وتوالت عليه ضرباتهم وطعناتهم، وهوﷺ ثابت في موقفه لا يزول عنه شبراً ـ وكان ﷺ يرد على المشركين ضرباتهم وطعناتهم، ويرميهم بقوسه حتى تشظّت في يده ـ لم يكن معه في هذا الموقف سوى هذا البطل الفدائي الشجاع أبي طلحة الأنصاري، يتلقّى عنه الضربات ويسوّر عليه بنفسه ليقيه سهام الأعداء وهي تتساقط وابلاً، لا تنقطع.

روى الإمام أحمد رحمه الله، قال: حدثنا عفّان، أخبرنا ثابت عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، وكان ربيب أبي طلحة، زوج أمه أم سليم بنت ملحان الأنصارية، أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد، والنبي ﷺ خلفه وهو متترس عليه، وكان أبو طلحة رامياً، وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهم أبي طلحة، فيرفع أبو طلحة صدره، ويقول لرسول الله: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك، وكان أبو طلحة يسوّر على رسول الله ﷺ نفسه، ويقول له: إني جَلْد يا رسول الله، فوجهني في حوائجك ومُرْني بما شئت.

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ مجوّب عليه بجحفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمرُّ به معه الجعبة من النبل، فيقول رسول

الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة» ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة مرتين أو ثلاثاً.

غشي النعاس أبا طلحة والحرب مشتعلة.

وسقوط السيف من يدي أبي طلحة وهو في غمرات الوغى مَعْلَمٌ من معالم شجاعته واطمئنانه وثبات قلبه، وقد تحدّث أبو طلحة عن نفسه بذلك كما رواه البخاري فقال: كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط فآخذه، ويسقط فآخذه، وحديث أبي طلحة عن نفسه بهذا من باب التحدث بنعمة الله وشكر الله تعالى على امتنانه بهذه المنة العظمى في تثبيت قلوب المؤمنين، وهم يخوضون أشرس معركة مجاهدين في سبيل الله لإعلاء كلمته، كما قال تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنةً نعاساً يغشى طائفة منكم﴾.

والنعاس في الحرب شجاعة واطمئنان، وصبر وثبات، وإيمان راسخ، ويقين لا يداخله جزع ولا يهزه هلع.

يقول ابن الأثير: كان أبو طلحة من الشجعان المذكورين في الصحابة ومن الرماة المشهورين، وله يوم أحد مقام مشهود، كان يقي النبي ﷺ بنفسه، ويرمي بين يديه، ويتطاول بصدره ليقي رسول الله ﷺ ويقول: نحري دون نحرك، ونفسي دون نفسك.

وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: إن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: «من قتل كافراً فله سلبه» فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً من المشركين، وأخذ أسلابهم.

ويقول أنس بن مالك: كان أبو طلحة يجثو بين يدي رسول الله ﷺ في الحرب، ويقول:

نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء

ثم ينثر كنانته بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «لَصَوتُ أبي طلحة في الجيش خير من مائة رجل».

(٥) بطولة نسيبة بنت كعب الأنصارية

نسيبة بنت كعب أم عمارة تشهد مع رسول الله ﷺ أكبر وأكثر مشاهده.

كانت أم عمارة، نسيبة بنت كعب الأنصارية النجّارية المازنية من أسبق وأشهر السابقين والسابقات في الأنصار إلى الإسلام، وأكثرهم وأكثرهنّ مشاهد مع رسول الله ﷺ، شهدت العقبة الكبرى مع زوجها وولديها حبيب وعبدالله ابني زيد، وبايعت رسول الله ﷺ يومئذ.

ذكر الواقدي عن ابن أبي صعصعة قال: قالت أم عمارة: كانت الرجال تصفّق على يد رسول الله ﷺ ليلة العقبة، والعباس آخذ بيد رسول الله ﷺ، فلما بقيت أنا وأم سبيع نادى زوجي عربة بن عمرو: يا رسول الله، هاتان امرأتان حضرتا معنا، يبايعنك، فقال رسول الله ﷺ: «قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه، إني لا أصافح النساء».

ثم شهدت نسيبة أحداً مع زوجها وولديها، ثم شهدت بيعة الرضوان والحديبية وخيبر والقضية والفتح وحنيناً، وعاشت حتى شهدت اليمامة مع ابنها عبدالله، فقاتلت في هذه الموقعة حتى قطعت يدها وجرحت يومئذ اثني عشر جرحاً بين طعنة وضربة.

حبيب بن زيد ولد أم عمارة كان مثلاً شروداً في الصبر على أمرّ البلاء وقوة الإيمان وهو ينظر إلى الموت يأتيه من كل مكان.

وولدها حبيب بن زيد كان في إيمانه مثلاً شروداً، أرسله رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذّاب لعنه الله، فأخذه مسيلمة ليقتله وعرضه لامتحان إيمانه وصدق يقينه، في صورة من البلاء كانت من أفجر ما سجلته الحياة الطاغية، فكان إذا سأله: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال حبيب بن زيد: أنا أصم لا أسمع، وكرر ذلك مسيلمة مع حبيب وهو ثابت اليقين راسخ الإيمان لا يتزعزع ولا يتحول، فلما يئس منه مسيلمة وعلم رسوخ إيمانه وصلابة يقينه وقوة صبره على تحمل أبشع البلاء قتله قِتْلة شنيعة، لا يقدم عليها إلا أفجر طاغوت من طواغيت الكفر والفجور، فجعل كلما سأله ويجيب حبيب بجوابه الذي لا جواب غيره قطع منه عضواً حتى أتى عليه عضواً، عضواً، وحبيب ينظر إلى قتلته الشنيعة وهو قرير العين، رضي القلب، هانئ النفس بهذا الاستشهاد في سبيل الله الذي انفرد به، فلما بلغ أمه نسيبة بنت كعب الأنصارية

الخزرجية صنيع مسيلمة الكذاب بولدها نذرت ألّا يصيبها غسل حتى يُقتل مسيلمة، فلما جاء يوم اليمامة في وقائع الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه شمَّرت عن عزيمة بطولية ينوء بأثقالها شجعان الأبطال، فشهدت ذلك اليوم مع ابنها عبدالله، شقيق حبيب قتيل مسيلمة، وخاضت مع أبطالها وقاتلت قتالاً شديداً حتى أبرَّ الله نذرها، وقُتل مسيلمة الكذاب لعنه الله، قتله وحشي بن حرب بالحربة التي قتل بها حمزة سيد الأبطال والشهداء يوم أحد، وقيل إن مسيلمة الكذاب لعنه الله قتل بسيف رسول الله ﷺ بيد البطل أبي دجانة رضي الله عنه.

ولما شهدت أم عمارة: نسيبة بنت كعب رضي الله عنها أحداً أبدت من الشجاعة الخارقة والفدائية الصادقة في الدفاع عن رسول الله ﷺ وهو متعرض لطعنات الأعداء وضرباتهم حينما ولى عنه جمهرة المجاهدين، ووقف وحده لا يزول عن مقامه ولا يحول، ما يعجز الأبطال المغاوير عن مثله.

بطولة أم عمارة في غزوة أحد وشهادة النبي ﷺ لها بذلك.

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلت على أم عمارة، فقلت: حدثيني خبرك يوم أحد، فقالت نسيبة رضي الله عنها: خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه، والريح والدولة للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال، وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف، وأرمي بالقوس حتى خلصت إليّ الجراحة، قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف أصابها به ابن قمئة أقمأه الله، لمّا ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلُّوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، قالت أم عمارة، فاعترضت له لأمنعه أنا ومصعب ابن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وفي شرح المواهب للزرقاني عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ أي في حق أم عمارة وموقفها من الذبِّ عنه ﷺ ـ: «ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني».

وهذه شهادة صدق، هي أعظم شهادة من أعظم مخلوق شهيد، تتوج هامة الشرف والفضل والشجاعة والبطولة لهذه الفدائية العظيمة، وتضعها في مصافِّ البطولة الإسلامية الخالدة في تاريخ الحياة، وتضعها في سجل الفدائية حرفاً في أول سطر من سطور الفداء الإيماني، بل تضعها نقطة من النور في مشرق شمس الهداية ورسوخ الإيمان وقوة اليقين.

ونحن إنما ذكرنا نماذج من البطولات التي كشفت عنها محنة أحد في شدائدها وقسوة أحداثها على المجتمع المسلم، لأننا قصدنا ضرب المثل وذكر الشاهد، ولم نقصد إلى الاستيعاب في الروايات، وذكر البطولات المشهّرة في تاريخ الغزوات، فتلك بطولات غامرة متعالمة، جعلت من حياتها كلِّها شواهد منها، لها، وعليها.

سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب كانت بطولته أرفع بطولات الأبطال.

ولا نستثني من ذلك بعدما ذكرناه من النماذج شيئاً سوى قصة مقتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه، لما كان لها من الوقع الشديد على رسول الله ﷺ، مما ضاعف آلامه ﷺ إلى جانب ما أصيب به من جراحات بالغات الألم في وجهه الشريف ﷺ، ولما فيها من ثقل وزن الإيمان بالنسبة إلى جميع الأعمال، وأنه يجبّ ما قبله مهما كان فيه من شدة السوء والقبح كما هو واضح في قبول إسلام وحشي.

ولما فيها من عظيم الصبر الذي احتواه رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى عمه وصفيِّه أسد المجتمع المسلم كلِّه، مجندلاً، وممثلاً به أشنع تمثيل، فيقسم ليمثلنَّ بسبعين من المشركين إذا أظفره الله بهم، فيردّه الله تعالى عن عزيمته إلى الاعتصام بصبره العظيم، ويأبى عليه إلا العدل السويّ، وينزل عليه وهو قائم لم يبرح مكانه: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية.

فيرضى رسول الله ﷺ أكمل الرضا، ويُسْلِم أجمل التسليم لأمر الله تعالى، ويصبر على مصابه في عمه كما صبر على مصابه في نفسه ﷺ.

ونحن نسوق القصة من صحيح البخاري منسَّقة مختصرة، قد يدخل فيها شيء من الروايات الأخرى يتطلبه توضيح المعنى ويستدعيه السياق،

وهي كما جاءت في حديث وحشي، وكما زعم أنه حدّث بها النبي ﷺ إذ جاء ليسلم فسأله النبي ﷺ فحدّثه.

قصة مقتل حمزة سيد الشهداء

قال وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، فلما خرج الناس عام عينين ـ أي لغزوة أحد ـ خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع بن عبد العزّى الخزاعي، فقال: هل من مبارز فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أم أنمار، مقطّعة البظور ـ أي ختانة للنساء ـ أتحادّ الله ورسوله، ثم شد عليه حمزة، فكان سباع كأمس الدابر، أي صيَّره عدماً، ثم قال وحشي: وكمنت تحت صخرة، فلما دنا ـ أي حمزة ـ مني رميته بحربتي فأضعها في ثنّته ـ أي عانته ـ وعند الطيالسي: فجعلت ألوذ من حمزة بشجرة، ومعي حربتي، حتى إذا استمكنت منه هززت الحربة حتى رضيت منها، ثم أرسلتها فوقعت بين ثندوتيه، وذهب ليقوم فلم يستطع، فكان ذلك آخر العهد به.

نبو البلاد بوحشي بعد قتله حمزة وقبول إسلامه فيما بعد.

فلما رجع الناس إلى مكة رجعت معهم فأقمت بمكة، حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا ـ أي أهل الطائف ـ رسلاً إلى رسول الله ﷺ، فقيل لي: إن رسول الله ﷺ لا يهيج الرسل ولا يزعجهم، فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآني قال: «أنت وحشي؟» قلت نعم، قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت قد كان من الأمر ما بلغك. وعند ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير، فقيل هذا وحشي، قال ﷺ: «فلإسلام رجل واحد أحب إلي من قتل ألف كافر» ثم قال ﷺ: «فهل تستطيع أن تغيِّب وجهك عني؟» فخرجت، فكنت أتقى أن يراني رسول الله ﷺ، وعند الطبراني فقال رسول الله ﷺ: «يا وحشي اخرج فقاتل في سبيل الله كما كنت تصدّ عن سبيل الله».

فلما كان من أمر مسيلمة ما كان انبعثت مع البعث ـ أي لمقاتلة مسيلمة الكذاب ـ فأخذت حربتي، فقلت: لعلي أقتله فأكافئ به حمزة،

فخرجت مع الناس، فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، فرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من كتفيه، ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته، فربك أعلم أينا قتله، فإن أكُ قتلته، فقد قتلت خير الناس وشر الناس.

معالم من منهج الرسالة في قصة وحشي وقتله خير الناس وشر الناس.

وفي هذه القصة معالم مضيئة لمنهج رسالة الإسلام، مما يدل على أن محن الابتلاء في هذه الرسالة الخالدة محفوفة بالمنح الربانية التي تدفعها في مسيرتها إلى أهدافها الحميدة وغاياتها النبيلة.

فإذا جاء في القصة من رواية ابن إسحاق أن بعض الصحابة لما رأوا وحشياً قالوا: هذا وحشي، فيقول النبي ﷺ ليشعرهم أنه لا بأس عليه إذْ جاء مسلماً: «فلإسلام رجل واحد خير من قتل ألف كافر» ومعنى ذلك أن النبي ﷺ لا يريد من أصحابه أن يهيجوا وحشياً ولا أن يزعجوه وقد جاء مسلماً، والإسلام يجبُّ ما قبله من كفر مهما كانت آثاره وجرائره.

وفي هذا دليل على أن رسالة الإسلام إنما تستهدف الهداية والعدل والرحمة والإخاء، ولا تقيم وزناً لغير الحق، ولا ترضى عن أحقاد الثأر الجاهلية والله تعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ ويقول له ممتناً برسالته على العالمين: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ تجمع الناس في ظلال الهدى والتعاون على البر والتقوى ولم نرسلك معنتاً، ولا مثيراً لأحقاد الضغن بين أفراد وجماعات المجتمع الإنساني.

وإذا جاء في القصة من رواية الطبراني قوله ﷺ لوحشي: «اخرج فقاتل في سبيل الله كما كنت تصدُّ عن سبيل الله» كان ذلك من قبيل التوجيه الإرشادي إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ومحادة الله تعالى ورسوله، وذكر القتال في سبيل الله بيان للأمر الأنسب في التكفير، وفيه حضٌّ من النبي ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعل مخرج وحشي إلى اليمامة وقتله مسيلمة الكذاب كان أثراً من آثار توجيه النبي ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ الذنوب، ويطهِّر من الآثام.

وقد أدرك وحشي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب: قتلت خير

الناس يعني سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وقتلت شر الناس - يعني أخبث الفجّار من الكذابين، مسيلمة الحنفي صاحب اليمامة، وقد صدق وحشي في هذا القول.

أما قول النبي ﷺ لوحشي: «فهل تستطيع أن تغيِّب عني وجهك؟» فالمقصود به أن النبي ﷺ أراد أن لا تحرك رؤيته وحشياً في نفسه ذكريات حادث القتل وما تبعه من تمثيل شنيع بشع، فتثير عنده حزازات بشرية، ربما لا يكون من المستطاع منعها ومقاومتها إلا بشيء من العسر والعنت الشديد، مما قد يشغل النبي ﷺ ويقلقه.

وقد يؤدي ذلك إلى تحريك الحزازات النفسية عند من لا يملك ثورة نفسه إذا تمثلت له أحداث قتل حمزة، وبشاعة التمثيل به إلى أن يحدث في صفوف المجتمع المسلم ما لا تحمد عقباه من الأمور المنافية لسماحة الدعوة وتسامحها في سبيل وحدة كلمة المجتمع المسلم.

* * *

تحليلُ لما في غـــزوة أُحُد من تمحيص

كانت غزوة أحد تمحيصاً للمؤمنين، وامتحاناً لقوة إيمانهم، وتحقيقاً للعقيدة التوحيدية في أكمل معانيها، وأرفع مراتبها، وأصفى معالمها، وأصدق مراميها وأهدافها، وأحكم منازلها، وأخلص صورها، وأضوأ منائرها، وأهدى سبلها، وأرشد مراشدها، وأزكى غاياتها ومقاصدها.

إن العقيدة التوحيدية هي محور رسالات جميع الأنبياء والمرسلين، ولم يرسل الله تعالى رسولاً إلا كان قوله لقومه: ﴿أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ وعبادة الله تشمل كل طاعة لا ينبغي أن تكون إلا لله جل شأنه، وهذا هو معنى إسلام الوجه لله تعالى، وإخلاص الدين كله له وحده عز شأنه، وهو يقتضي اختصاص رسل الله صلوات الله عليهم بأعظم درجات الحب والاتباع والتسليم لجميع ما يبلِّغونه عن الله تعالى من الوحي، تسليماً لا يداخله حرج في النفس ولا يخالجه شيء من حزازات النفوس وأهوائها ورغائبها، لأنهم رسل الله المبلِّغون عنه شرائعه التي تعبَّد بها عباده، ولأنهم هم الوسيلة الموصلة إلى رضاء الله تعالى لمتابعتهم في جميع ما جاؤوا به من عند الله، وهم الباب الوحيد الذي يدخل عن طريقه جميع الخلق إلى منازل الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريك له في تدبير ملكه وملكوته.

وهم الذين يقفون بالمؤمنين على مشارف العبودية لله وحده، يأخذون بحُجَزهم أن يتقذفوا إلى مهاوي الضلالات والهوى، فتتحكم فيهم عواطفهم التي قد تجمح، فتجعل من الرسول أكثر من عبد اصطفاه الله لرسالته وكلفه تبليغها إلى خلقه و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

هذا هو المنهج الإلّهي الذي جعله الله تعالى طريقاً لمهبط رسالاته وتبليغها، والرسل بعد ذلك وقبل ذلك بشر، يعتريهم ما يعتري سائر البشر، وهم معصومون عن الإتيان بأي عمل لا يتفق مع طبيعة رسالاتهم، وهم صلوات الله عليهم متفاضلون في إطار هذا المنهج الربّاني، وخيرهم أعمهم رسالة، وأدومهم هداية، وأشملهم شرائع، وأكثرهم يوم القيامة تابعاً، وأقربهم إلى منازل الشهود منزلة، وهي منزلة خاتمهم نبينا محمد ﷺ.

التزيّد العاطفي في حب النبي ﷺ لا يدخل في معالم منهج الرسالة.

هذه هي الصورة المجملة للرسالات الإلّهية، فإذا التزم أتباعهم بها كانوا خير جماعة أخرجت للناس، وإذا انحرفوا عنها كانوا بمعرض العقوبة من الله تعالى ليردهم إلى ساحة صدق الإيمان ونقائه، ويربّيهم على التزام المتابعة لما جاءهم به الرسل من الهداية وشرائع العبودية لله وحده دون تزيد أو تنقص ليكونوا أسوة لمن يجيء بعدهم من الأجيال والقرون.

كان موقف الصحابة في مبدأ غزوة أحد موقفاً يغلب عليه الحب العاطفي.

وقد كان موقف أصحاب رسول الله ﷺ من هذا المنهج في غزوة أحد موقفاً مشوباً بحب العاطفة التي قادتهم بعيداً عن مهيعه، وسلكت بهم مسلك المبالغة في الحب العاطفي، مما كان سبباً فيما أصابهم في هذه الغزوة من شدائد الأزمات، وفواجع البلاء التي كان من أشدها أثراً في عواقب هذه الغزوة أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله ﷺ، إذ لم يكادوا يسمعون صرخة الشيطان بأن محمداً - ﷺ - قتل حتى انفرط عقدهم وتفرّقوا منهزمين، لا يلـوون على شيء من شدة ما أصابهم من المفاجأة والدهش، وقساوة ما نزل على قلوبهم من الغم لسماعهم هذه الكلمة الكاذبة التي كادهم بها الشيطان، لينشر الفشل بينهم، ويوهن عزائمهم، ولولا وجود مَنْ ربط الله على قلوبهم فثبتهم - من أضراب أنس ابن النضر، وسعد بن الربيع، وسعد بن معاذ، ونسيبة بنت كعب المازنية، وأبي طلحة زيد بن سهل النجاري، وطلحة بن عبيد الله، وأبي دجانة - لكانت العاقبة أوخم وأشنع مما كان، لأن هؤلاء الأبطال راسخي الإيمان قالوا للذين أذهلتهم المفاجأة: إذا كان محمد - ﷺ - قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ.

الربط بين الرسالة وبقاء شخص الرسول كان السبب فيما نال الصحابة من الفوضى والدهش فهزموا بعد النصر.

فهذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله رباً معبوداً وحده وبين بقاء شخص النبي ﷺ خالداً فيهم خالطه الحب المغلوب بالعاطفة، فزيّدته، وهذا التزيد في الحب العاطفي هو الذي جعل بقاء رسول الله ﷺ بين أصحابه غاية أضفت عليه ﷺ شائبة الخلود بينهم، لا يلحقه الموت، بل يبقى فيهم يقودهم من نصر إلى نصر، ويدبِّر لهم أمورهم حتى يكون آخرهم رحيلاً عن الدنيا، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم نزل بالإسلام والمسلمين ما هاضهم وزلزل مفاصلهم، وغطّى على عقول جماهيرهم بنزول أبأس كارثة نزلت بهم بوفاة رسول الله ﷺ فأُخذ عمر رضي الله عنه عن مشاعره ومداركه، واستولى عليه الدهش المذهل، حتى جاء الصدِّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فوجد عمر يرعد ويزبد، ويوعد الناس بالويل والثبور، ويقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وإنه خارج إلى من أرجف به وقاطع أيديهم وضارب أعناقهم وصالبهم، فطلب منه أبو بكر أن يسكت ويسمع فأبى، فتركه أبو بكر وتوجه إلى الناس فقال لهم: إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿وما محمد إلّا رسول قد خَلَت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[1] فمن كان يعبد محمداً فقد مات إلهه الذي كان يعبده، ومن كان يعبد الله لا شريك له فإن الله حي لا يموت.

وقد اعتذر عمر رضي الله عنه عن قوله، وصحّح موقفه، بعدما سمع الآية الكريمة فقال: أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة، ما كانت إلا عن رأيي وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سَيَدْبُرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله تعالى قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له.

ولقد كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في هذه النازلة القاصمة للظهور المحشرجة للصدور ـ التي أصيبت بها الحياة كلها بمن فيها وما فيها

---

(١) سورة آل عمران آية (١٤٤).

شجاعة أبي بكر ورسوخ يقينه وقوة صبره كانت حصناً للمجتمع المسلم حفظته من انفراط عقده.

بَلْه المسلمين الذين سحقتهم هذه الكارثة المدمِّرة لولا لطف الله بدينه وعباده المؤمنين، والتي لن يصابوا بمثلها أبد الآبدين ـ موقفاً بلغ قمة الذروة من الشجاعة النفسية والثبات والصبر، والعلم بالله تعالى ومجاري أقداره في غيبه، ومعرفته بحقيقة الرسل وعلمه بمكانه في بشريته وروحانيته، وإدراكه لما يتطلبه الموقف من التجلد لعظيمات الأحداث والسرعة في اتخاذ الموقف الحاسم، والعمل لحفظ الدين ووقاية المسلمين شر جائحات الفتن، وجامحات النوازل، ومزالق الأفكار، وتجنيبهم غوائل الفرقة والتمزق، وقد اندسّ فيهم شرار المنافقين، وتربّص بهم أخابث اليهود الدوائر، ووهنت عزائم الدهاة، وضعفت قدرات القادرين، وتخلخلت إرادات أولي الحزم الصليب، ووهنت شجاعة القلوب، واضطربت في مسارها مدارك العقول، وأظلمت الآفاق، وماج الناس، وعمِّيت المسالك على السائرين، وغيِّبت المعالم على الناظرين، وانسدت نوافذ المخارج، وذهب الدهش بالمشاعر، واستحوذ الإزعاج على الإحساسات، وطاشت الأفكار، وماتت الكلمات، وخرست الألسنة إلا من هذيان أعقل العقلاء.

وجاء أبو بكر من السُّنح خارج المدينة، ولحكمة مّا استأثر الله بعلمها، لم يقدّر له أن يشهد وفاة رسول الله ﷺ، فرأى وسمع، فتكلم فكان الحكيم الملهم والعليم المعلِّم، والعيلم المعلِّم، فسكت المتكلمون الذين كانوا يقولون وهم في غمرة المفاجأة والدهش ما يقولون، واستمع الناس إلى الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه وهم في وجوم الصبر الحزين.

واستنطق أبو بكر القرآن الحكيم فأسعفه بما يوازن أحزانه، التي كان سكونها إلى الرضا بقضاء الله أبلغ في التعبير عن صدقها من فلتات الدهش، ومسكتات الألسنة، فقال رضي الله عنه بعد أن كشف عن وجه رسول الله ﷺ وقبَّل جبينه، وعرف يقيناً أن اليقين الذي لا شك فيه قد نزل بساحة النبوة فألمَّ برسول الله ﷺ ونقله عن دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، فبكى وصاح: وانبياه، واخليلاه، واصفياه، وخرج إلى الناس وهم في حالة من الهرج والمرج والغم والأحزان والدهش والذهول تعجز العبارة عن وصفها.

عمر رضي الله عنه لم يتحمل ما ورد عليه من عظم المصيبة فتكلّم بما لا يُعرف.

ووجد عمر ـ وهو من هو ـ يتكلم حتى أزبدّ شِدْقاه، والناس من حوله عمر رضي الله عنه يسمعون له، ولا يفهمون عنه، فقال له أبو بكر: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتركه الصدِّيق، ثم تشهَّد، فأقبل عليه الناس وتركوا عمر يرعد ويزبد، ويتهدّد ويتوعّد، ثم قال أبو بكر: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خَلَت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾.

وهنا أيقن الناس أن رسول الله ﷺ قد مات، حينما تلا عليهم أبو بكر هذه الآية، فقال قائل: والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية أُنزلت حتى تلاها أبو بكر، وقال عمر رضي الله عنه: والله ما هو إلّا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعُقِرتُ حتى والله ما تقلني رجلاي وأنا قائم حتى خررت إلى الأرض، وأيقنت أن النبي ﷺ قد مات، فنشج الناس يبكون.

هذا لون من الشجاعة انفرد به الصديق أبو بكر رضي الله عنه لم يعرف في التاريخ لأحد سواه، لأنه رضي الله عنه كان فيه أثبت الناس قلباً، وأقواهم جأشاً عند نزول أشد الكوارث وقعاً، وأعظمها إيلاماً موجعاً، وحلول أبأس المصائب هَيْضاً للنفوس، إذْ لا كارثة أشدُّ على نفوس المسلمين في الدنيا من موت نبيهم ﷺ وانقطاع الوحي بهذا الموت الذي فصم وشائج السماء بالأرض، ولا مصيبة أعظم بأساً من مفارقته ﷺ لأمته مفارقة أبدية في الحياة الدنيا.

مصاب الصديق بموت رسول الله ﷺ أشد وأوجع من مصاب جميع الناس به ﷺ.

وإذا كان مصاب جميع الخلق بموته ﷺ أشد وأقسى مصاب يلقاهم ويلقونه في دنياهم، فإن هذا المصاب بالنسبة لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ـ أول صفيٍّ لرسول الله ﷺ، سبق السابقين إلى الإيمان به وبرسالته ودعوته فآزره، وفداه بنفسه وماله، ولازمه في مواقفه ومشاهده، وكان معه ثاني اثنين في الغار، وطريق الهجرة المحفوفين بأخطر المخاطر ـ أوجع ما يصيب حبيباً في حبيبه، وآثر الخلق عنده، وأفدح ما ينال صديقاً في أصدق صديق كان له في الحياة.

ولكن شجاعة أبي بكر رضي الله عنه جعلته ينسى نفسه، ويُنَحّي جانباً حبه العاطفي لرسول الله ﷺ، ويتمسك بحبه رسولاً، أرسله الله لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويقف إلى جانب الدين الحق موقفاً أنقذ به الأمة من صدمة كادت تأتي عليها، فقد كان همه رضي الله عنه أن يبينِّ للناس أن الدين لله وحده، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف عن الحياة غمّة الشرك والوثنية، وترك بين يديها كتاب الله، فيه الهدى لمن أراد أن يهتدي، وفيه قوام حياة المجتمع المسلم وما ينبغي أن يكون عليه في سلوكه القيادي للإنسانية إلى آفاق الإخاء والعدل والمحبة والتعاون على البر والتقوى.

ثم أبان أبو بكر أنَّ هذا الكتاب الكريم الذي هو الدستور الأصيل لحياة الأمة في مستقبلها هو الذي أُنزل الله فيه على محمد ﷺ أنه أحد رسل الله الذي أرسلهم برسالاته إلى أقوامهم وأممهم، يمضي إلى لقاء ربه مفارقاً للدنيا بما فيها ومن فيها إذا بلَّغ رسالته وأتم الله عليه نعمته بإكمال دينه، لم يكتب له خلود في هذه الدنيا دونهم، وقال له: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ فالله وحده هو المنفرد بالبقاء السرمدي الأبدي الذي لا يلحقه فناء، فهو وحده الحي الذي لا يموت.

وإنما أُرسل محمد ﷺ إلى الناس جميعاً ليعبدوا الله وحده حتى يكون الدين كله لله، ولم يُرسل ليبقى مع أمته في هذه الدنيا، فإذا جاءه أجله وافاه اليقين، وما عند الله خير له وأبقى، والآخرة خير له ﷺ من الأولى.

ومن ثَمّ كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في تذكيره الناس بما جاء به الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ من أن محمداً ﷺ بشر رسول، حتى يفيقوا من أثر المفاجأة والدهش ـ أعظم موقف في الإسلام.

والآية التي تلاها أبو بكر رضي الله عنه على الناس يوم كارثة وفاة النبي ﷺ إنما نزلت في غزوة أُحد، حينما ربط المؤمنون المجاهدون بقاء الدين

والجهاد في سبيل الدفاع عنه ونشر رسالته لإعلاء كلمة الله ببقاء شخص النبي ﷺ بينهم مخلداً لا يلحقه الموت.

كان الحب المتزيد بالعاطفة أوّل العوامل المؤثرة في هزيمة أُحد.

هذا الربط المتزيد في الحب العاطفي ـ الذي ادّى إلى هزيمة المجاهدين في غزوة أحد، فنزلت الآية ﴿وما محمد إلا رسول﴾ عتاباً للمؤمنين المجاهدين على موقفهم في هذه الغزوة الممحصة ـ هو الذي كشف الصدِّيق عنه الغطاء عندما نزلت بالمسلمين داهية الدواهي التي أذهلتهم وسلبت مقدرتهم على وزن الأمور إذا أعضلت؛ إذ لم تحتمل عزائم إيمانهم تلقّي الخبر بوفاة النبي ﷺ.

لقد وقف الصدّيق رضي الله عنه وحده في شجاعة فذّة، لا توزن معها شجاعة أحد من البشر بعد رسول الله ﷺ، لأن الشجاعة الحقيقية ليست قتلاً وقتالاً، ولكنها كما رسمها الصديق رضي الله عنه قوة القلب وثباته عند المخاوف، وهذه الشجاعة هي التي يحتاج إليها قادة الأمم في حربهم وسلمهم، لأن شجاعة القلب تحمل على الثبات في مواطن الشدائد وشدائد الأزمات.

والصدِّيق رضي الله عنه رأى ما حلّ بالأمة عند وفاة رسولها ﷺ، وجحافل الفتن تكتنفها من جوانبها، فتغلب على حزنه الذي لا يلحقه في شدته حزن، ووقف يذود جحافل الدمار عن الإسلام والمسلمين، وألهمه الله تشخيص الداء، فتكلّم وداوى وعالج دون جراح، وذكّر المائجين بما ردَّهم إلى حظيرة الهدوء، فاستمعوا له، وأقرَّعين العقيدة التوحيدية ونبَّه إلى أصولها في أعراق أرض الهداية، وارتفاعها في سماء الإخلاص والتعبد لله وحده.

يقول القرطبي: هذه الآية ﴿وما محمد إلا رسول﴾ أدلُّ دليل على شجاعة الصدِّيق وجرأته، فإن الشجاعة والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت عنده شجاعة الصدِّيق وعلمه.

قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرس عثمان،

واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصدِّيق بهذه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول﴾.

مفاجأة الدهش عند وفاة النبي ﷺ أصابت عمر بما أذهله.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها الطويل عند ابن ماجه أن أبا بكر صعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ثم تلا الآية، فقال عمر لما سمعها: فلكأني لم أسمعها إلا يومئذ، ورجع عن مقالته التي قالها وهو دَهِش مذهول من هول المصيبة بموت النبي ﷺ.

ثم قال القرطبي: ذكر الوائلي أبو نصر عبيد الله في كتابه الإبانة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله ﷺ، واستوى على المنبر تشهّد قبل أبي بكر، فقال: أما بعد، فإني قلت لكم بالأمس مقالة، وإنها لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يَدْبرنا - أي حتى يكون آخرنا موتاً - فاختار الله لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله، فخذوه تهتدوا لما هدى الله له رسوله ﷺ.

قال الوائلي أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها: إن النبي ﷺ لم يمت، ولن يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم، وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة، وظهور المنافقين، فلمّا شاهد قوة يقين الصدّيق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه، وتلاوته للآية: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ تنبَّه وثبت، وقال: كأني لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر، وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم.

وكما كان في حب جمهور من شهد أحداً من الصحابة تزّيد عاطفي، جعلهم يربطون بين بقاء النبي ﷺ بين أظهرهم حتى يدبرهم فيكون آخرهم موتاً، كما كان في رأي عمر ساعات دهشه وأخذه عن اتزانه بما فاجأه من الخبر المصعق، أو لعله كان من بينهم من يتوهَّم أن النبي ﷺ لا يلحقه الموت، وبين بقاء الدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الله،

وتبليغ الرسالة إلى الخلق ـ كان في متابعتهم له ﷺ في جميع ما يأتي به عن الله تعالى تنقص عند بعضهم، وفي طليعة هذا البعض الرماة إلا من ثبت منهم مع أميرهم عبدالله بن جبير، واستشهدوا معه رضي الله عنهم.

وقد يلحق الذين خالفوا رسول الله ﷺ في رأيه أن يبقى داخل المدينة، ولا يخرج منها لقتال عدو خارجها رشح قليل أو كثير من هذا التنقص في المتابعة، ولا سيما أنه ﷺ قصّ عليهم رؤياه التي رآها في منامه عشية المعركة وتأويلها، ورؤياه ﷺ وحي كما يقضي به حديث عائشة عند البخاري في بدء الوحي.

وكان في رؤياه ﷺ أنه أدخل يده في درع حصينة قالوا: فما أوَّلت ذلك يا رسول الله، فذكر لهم البقاء بالمدينة، وأنها هي الدرع الحصينة، فلا يخرجون منها، فإن هاجمهم العدو قاتلوه في الطرقات والأزقة، ورماه النساء والصبيان من فوق أسطح البيوت، فخالفوه ﷺ، وعقدوا عزائمهم على الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة خشية أن يجبّنهم العدو، وكانت عزائمهم على الخروج مما حمل ﷺ على موافقتهم، حذر الفرقة وحزازات النفوس.

ولم يكن لرجوعهم عن عزائمهم حينما نصحهم بعض الأكابر، وقالوا لهم استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، بعد أن تهيأ رسول الله ﷺ للقتال خارج المدينة، ولبس أداة الحرب ـ وزن لأنّ رسول الله ﷺ أبى عليهم ذلك خشية أن تكون عزائمهم قد أصابها بعض التردد، وخشية أن يرى العدو هذا الموقف فيظن بالمسلمين الخوف والضعف.

كان التلبث في سرعة المتابعة أولاً وآخراً والتزيد في الحب العاطفي هما مفتاح اضطراب صفوف المسلمين في أحد.

كان هذا التنقّص في المتابعة عند هؤلاء وهؤلاء مفتاحاً لما أصاب المسلمين من الهزيمة، ولما أصاب رسول الله ﷺ من جراحات داميات، لتفرّق من كان معه عنه وتركهم له في غمرات المعركة وحيداً، يضارب المشركين بكل ما يستطيعه إلى أن فاء إليه بعض من عصمهم الله، وكان في طليعتهم الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه، فوقفوا بين يديه يتلقّون عنه الطعنات والضربات.

وكان هذا التلبث في متابعته ﷺ سبيلاً إلى تمكين طواغيت الكفر من

قتل أبطال المسلمين والتمثيل بهم، حتى بلغ قتلى المسلمين بضعاً وستين من الأنصار وحدهم، وأربعة نفر من المهاجرين، حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وعثمان بن شاش، وقد مُثّل ببعضهم كحمزة وعبدالله بن جحش أشنع تمثيل، مّما زاد في غم النبي ﷺ وإيلامه إذ رأى ما رأى من شناعة الفجور والكفر في المبالغة في التمثيل حتى عملت هند بنت عتبة قلائد من آذان وآناف الأبطال، وبقروا بطن حمزة رضي الله عنه وأخرجوا منه كبده.

وكل ذلك لم يكن ليكون لو أن المخالفين من المجاهدين أولاً وأخيراً جعلوا عواطفهم وأهواءهم وآراءهم تبعاً لما يقول رسول الله ﷺ، ولهذا عاتبهم الله عتاباً شديداً في قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل؛ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾.

نزلت آية ﴿وما محمد إلا رسول﴾ عتاباً للذين أفرطوا في حب النبي ﷺ فظنوا خلوده في هذه الدنيا.

وقد تضمن عتاب المؤمنين بهذه الآية وهي التي تلاها أبو بكر يوم وفاة النبي ﷺ وسكّن بها الفتنة وأنقذ بتلاوتها المجتمع المسلم من شر مستطير، وبلاء ساحق أمرين، التزيّد العاطفي في حب النبي ﷺ بربط بقاء الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيلها ببقاء شخص رسول الله ﷺ مخلداً، لا يلحقه موت وانتقال من الدنيا إلى دار الخلود.

وهذا هو معنى ما ذكره أبو جعفر الطبري في قولة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي فسّر بها آية العتاب: إن الربط بين بقاء محمد ﷺ وبين بقاء الدعوة إلى الله والجهاد في سبيلها يتعدّى حقيقة بشرية محمد ﷺ، فيخرجه في توهم الذين وقفوا موقف الهزة الإيمانية عن كونه بشراً مثل سائر البشر، يلحقه ما يلحق البشر، ومنها الموت بعد استيفاء الأجل المكتوب له، كما لحق إخوانه المرسلين قبله كما قاله أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وهو يسمع مقالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم توفي رسول الله ﷺ: فمن كان يعبد محمداً فقد مات إلّه الذي كان يعبده - يعني أن استبعاد أو إنكار

موت محمد ﷺ تأليه لمحمد ﷺ، لأن المتفرد بالأبدية الذي لا يلحقه فناء هو الإله الحق الذي أرسل محمداً ﷺ برسالة الهدى والنور.

ومثل ذلك ما وقع في غزوة أحد، فإن بعض المجاهدين المؤمنين لم يكد يسمع الصرخة الفاجرة التي أرجف بها الشيطان بين صفوف المسلمين بأن محمداً قتل حتى اضطربت صفوفهم واستولى عليهم الدَّهَشُ والفزع، واختل نظامهم وذهب تثَبُّتهم، ومرج أمرهم، فاختلط صفُّهم بصفوف المشركين، وجعل بعضهم يضرب بعضاً وهم لا يشعرون، ثم ولَّوا الأدبار منهزمين، وتفرّقوا حتى بلغ بعضهم في فراره المدينة، وبعضهم مكث ثلاثة أيام بعد انتهاء المعركة حتى فاء إلى إخوانه المسلمين.

وقد وجد أنس بن النضر رضي الله عنه، وهو مقبل على النبي ﷺ للدفاع عنه بالقتال دونه، وتلقّي الضربات عنه بعضاً من الذين استحوذ عليهم الدهش، وغلبتهم المفاجأة، وملكهم الاضطراب النفسي حتى هزّ إيمانهم جلوساً يكاد يقتلهم الغم، فقال لهم: ما جلوسكم هنا؟ قالوا: قتل محمد ـ ﷺ ـ، فقال هلم: قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد.

فكانت هذه المحاورة القصيرة السريعة إيقاظاً لمشاعرهم، وتثبيتاً لقلوبهم، ففاؤا إلى رسول الله ﷺ، وقاتلوا دونه مدافعين عنه حتى انتهت المعركة.

كانت إصابات المسلمين في أنفسهم وفي جراحات النبي ﷺ أعظم درس تربوي للمجتمع المسلم في أحد.

وقد كانت لإصابات النبي ﷺ بالجراحات الكثيرة الدامية في وجهه الشريف، وإصابات من أصيب من المسلمين بالقتل أو الجراح والتمثيل البشع الشنيع ببعض من استشهد، ولا سيما سيد الشهداء حمزة عم رسول الله ﷺ ـ أبلغ الأثر في نفس رسول الله ﷺ، وكانت تلك الإصابات وآثارها الوخيمة على المجتمع المسلم درساً تربوياً، تلقّاه المجتمع المسلم ليتخذ منه معالم لمسيرته القيادية في مستقبل حياته، وكانت مظاهر لتمحيصه ليخلص من شوائب الجموح العاطفي في حبِّه ﷺ الذي ساقه إليه التزيد العاطفي في هذا الحب، وليكون هذا المجتمع على أرفع درجات المتابعة له ﷺ في كل ما يأمر به رسولاً وقائداً، والمتابعة تقتضي التسليم المطلق في تنفيذ وصاياه دون

حرج أو تأويل يبعد تلك الأوامر والوصايا عن أهدافها ومراميها.

وقد دلّت آية العتاب ﴿وما محمد إلّا رسول قد خَلَت من قبله الرسل﴾ على أن حبّ النبي ﷺ يجب أن لا يتعدّى بشريته ورسالته، فهو ﷺ بشر رسول أو رسول من البشر، والبشر رسلاً أو غير رسل لا عاصم لهم من الموت، وقد كان قبله ﷺ رسل من البشر بلّغوا رسالات الله تعالى إلى خلقه، ثم ماتوا، ولم يكتب لأحد منهم الخلود في هذه الدنيا.

قال القرطبي: فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التمسُّك بما أتت به الرسل وإنْ فقد الرسل بموت أو قتل، فهذه الآية من تتمة عتاب المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإنْ قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء.

وذِكْرُهُ ﷺ في الآية باسمه الأكرم إيذان بتأكيد بشريته، وهذا التأكيد يكسب العتاب شيئاً من الشدّة الملائمة، ووصفهُ ﷺ بوصف الرسالة بأسلوب الحصر الإخباري مشعر بوجوب متابعته في كل ما يأمر به دون تأويل يبعده عن الامتثال، لأنه بمقتضى وصف الرسالة مبلِّغٌ عن الله تعالى ما أرسله به من شرعه وأحكامه التي يجب متابعته فيها مهما تكن الأسباب والنتائج، لأنه بإطلاق هذا الوصف وعمومه مفيد أنه لا يأتي بشيء من عنده، وإنما هو حامل لأمانة رسالة الله تعالى يبلّغها كما أوحاها إليه ربه ﴿إنْ أتّبع إلا ما يوحى إليّ﴾.

فالذي يحب دين الله وشرعه، ويؤمن بالله إلهاً واحداً ليس له منصرف إلا متابعة مبلِّغ دينه الذي أرسله به، كما قال تعالى: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلِّموا تسليماً﴾[١] وكما قال عز شأنه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله﴾[٢].

---

(١) سورة النساء آية (٦٥).

(٢) سورة آل عمران آية (٣١).

متابعة الرسول هي العنوان على محبة الله ومحبة الرسول محبة إيمانية.

فاتباع الرسول ﷺ هو العنوان على محبة الله تعالى ومحبة دينه وبذل النفس والمال في سبيل نصرة هذا الدين للوصول إلى رضاء الله تعالى، وليس على الرسول إلّا بلاغ رسالة الله كما أنزلها الله عليه، فإعطاؤه فوق حقه بالتزيّد العاطفي في حبِّه وربط بقاء الدين ببقائه، فإذا مات أو قتل رجعتم عن متابعته، خروج منكم عن التبعية فيما وجب عليكم (ومن ينقلب على عقبيه) بالتزيد العاطفي في حب الرسول (فلن يضرَّ الله شيئاً) لأن الله هو الغني الحميد، لم يبعث رسله إلى خلقه لحاجة إلى هؤلاء الرسل والمرسل إليهم، وإنما بعثهم ليبلِّغوهم رسالات ربهم ليفردوه بالتعبد، ويستمسكوا بما آتاهم على رسله لإصلاح حياتهم، فمن اتّبع هدى الله كان شكوراً لله تعالى مستحقاً جزاء الشاكرين الذين سيؤتيهم ثواب شكرهم في التزامهم بالحق، لا يتعدّونه إلى جامحات العواطف، ولا يخرجون في التزامهم عن طبيعة الرسالة في متابعتهم الرسل في كل ما يبلغونه عن الله تعالى.

ومتابعة الرسول أساس وجوب التأسِّي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ونصرة الحق ومقاومة الظلم، وهذا التأسِّي هو الجانب الأغر من جوانب منهج رسالة الإسلام، لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض.

الحب الإيماني بمتابعة الرسول هو وشيجة تماسك المجتمع المسلم التي لا تنفصم عراها.

وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا لا يلحقه فناء بموت أو قتل، وإيجاب متابعة الرسول والتأسِّي به علماً وعملاً هما الوشيجة العظمى لتماسك المجتمع المسلم ولا سيما الدعاة إلى الله من أتباعه، وهما المعيار السوي لتقدير الشخصيات مهما كان شأنها من الرفعة بعيداً عن المبالغات المفسدة لموازين الحق والعدالة، لأن البشر بأعلم علمائهم وأتقى أتقيائهم لم يخرجوا عن كونهم بشراً مخلوقين لله تعالى، والبشر في طبيعتهم الخطأ فهم خطاؤون لم يعصم الله أحداً منهم عن أن يكون بمعرض الخطأ والخطيئة، حاشا رسل الله وأنبياؤه، فهم الذين ينفردون بالعصمة عن الخطأ فيما يبلِّغونه عن الله تعالى من شرائع وأحكام.

فالذي وقع في غزوة أحد إنما كان من قبيل الابتلاء الممحِّص، ليعرف المجتمع المسلم وخيم عاقبة معصية الرسول ومخالفة أمره عموماً، ويتأكد ذلك في المواطن الأصيلة لبناء الدعوة إلى الله تعالى، وليعرف هذا المجتمع المسلم شؤم مخالفة الرسول في أوامره ووصاياه، وخاصّة إذا كان ذلك في ظل حياته وشهوده وقيادته العليا لكتائب المجاهدين من أصحابه الذين اصطفاهم الله لَبِنات لبناء المجتمع المسلم الذي ربّاه ويربيه على منهج رسالته ليكونوا حملة أمانتها إلى الناس في أكناف الأرض.

وهذه المخالفة هي التي وقعت من الرماة الذين أقامهم رسول الله ﷺ في أماكنهم من جبل عَيْنين وراء الجيش المسلم ليحموا ظهره، فلم يطيقوا الصبر على البقاء في أماكنهم كما أمرهم رسول الله ﷺ، وتركوها متأوِّلين بمجرد ظهور بوادر النصر مع الجولة الأولى التي صدق فيها المجاهدون الحملة على المشركين فهزموهم.

وكانت أوامر رسول الله ﷺ لهم صريحة واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، فإنه أمرهم أن لا يبرحوا من أماكنهم مهما كان سير المعركة حتى يرسل إليهم، ووعدهم ووعد جميع المجاهدين معهم إن هم ثبتوا حيث أقامهم كان النصر حليف المسلمين.

قال الزرقاني: وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسّونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾[1].

ثم قال الزرقاني: أخرج الطبري عن السُّدِّي وغيره أن المراد بالوعد قوله ﷺ ـ أي للرماة ـ «إنكم ستظهرون عليهم فلا تبرحوا من مكانكم حتى آمركم».

بيان موطن العتاب في آية الوعد بالنصر.

وفي هذه الآية الكريمة ضَرْبٌ من العتاب الشديد المعلِّم، فالله جل

(١) سورة آل عمران آية (١٥٢).

شأنه يخبر فيها المؤمنين المجاهدين أنه تعالى صدقهم وعده بالنصر إذ صدقوه عهده بالإخلاص في جهاد عدوِّه وعدوِّهم، وأنه عز شأنه سلَّطهم على المشركين يحسونهم بسيوفهم حسّاً يستأصلهم بإذنه وأمره، ولكنهم لم يطيقوا مرارة الصبر على الجهاد، ففشلوا وداخلهم الرعب المشاب بشيء من الهلع عن الاستمرار في خوض المعركة حتى تصل إلى غايتها.

وقد زاد في ضعفهم عن الاستمرار في القتال تنازعهم في الأمر، فقال فريق من الرماة إذْ رأوا مخايل النصر تلوح في أفق المعركة: ما بقاؤنا ها هنا ـ يعنون أماكنهم التي أقامهم فيها رسول الله ﷺ، وأمرهم أن لا يبرحوا منها حتى يرسل إليهم ـ قد نصرنا الله على أعدائنا وهزمهم أمامنا؟ وتنادى الرماة: الغنيمة، الغنيمة، فأبى عليهم أميرهم عبدالله بن جبير، وذكرهم بعهد النبي ﷺ أن لا يبرحوا من أماكنهم حتى يرسل إليهم رسول الله ﷺ، فأبوا طاعة أميرهم إلى جانب إبائهم طاعة أوامر رسول الله ﷺ التي سلّطوا عليها التأويل المباعد بينها وبين صراحة نصوص تلك الأوامر والوصايا.

ولم يكتف النص القرآني في الآية المعاتبة بذكر الفشل، وهو رعب مشوب برشح من الجبن المذل، فهو عيب عيّرتهم به الآية في عتابها وهو عصيان ووهن، والله تعالى يقول لهم: ﴿ولا تَهنوا﴾ بل عقّب الله تعالى ذلك بذكر العصيان ليسجل عليهم ما حملوه من وخيم المخالفة، وما حملوه للمجاهدين من هزيمة وقتل وتمثيل على أبشع وأشنع صورة عرفها الفجور في طغاة المشركين من عبيد الوثنية.

ولو لم يكن من ذلك إلا ما أصاب النبي ﷺ من الجراحات الداميات المؤلمات، وإلا ما أصابه ﷺ من غم وغيظ وهو ينظر إلى عمه سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد مُثِّل به، فبقر بطنه وأخرجت كبده، لكان كافياً في بيان حكمة توجيه هذا العتاب القاسي إلى أولئك المخالفين المتسببين في نزول ما نزل بالمؤمنين من بلاء قلب عليهم ميزان المعركة من نصر للمؤمنين رأوه بأعينهم إلى هزيمة هزّت كيانهم ومست بعنفها مداخل الإيمان في نفوسهم.

وقد ضمنت الآية الكريمة ذكر أسباب العتاب ببيان أن تلك الأسباب إنما كانت من المخالفين بعد أن أراهم الله رأي أعينهم ما يحبُّون من النصر على عدوهم، ولكن الآية الكريمة إمعاناً في تأديب العتاب ليكون درساً مذكوراً في الحياة المسلمة عيَّرتهم بأن فريقاً منهم - أسدلت عليه جلباب الستر فلم تسمِّهم أو تصفهم - نزلت بهم رغائب الدنيا عن سموٍّ ما كان ينبغي أن يكونوا عليه من التجافي عن هذه الرغائب التي لا تتسامى بهم عن الإخلاد إلى الأرض.

كانت إرادة الدنيا من بعض الصحابة هي السبب فيما ابتلي به المجاهدون من محنة التمحيص

ثم أبانت الآية الكريمة أن ما وقع من المعاتبين من تعلُّقهم بزخارف الدنيا الفانية إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليمحِّص الذين آمنوا ويمحق بهم الكافرين، ثم ختمت الآية متلطِّفة بالمعاتبين بذكر منَّة الله تعالى عليهم بعفوه فضلاً منه وهو ذو الفضل العظيم.

ومن الحكم التي تضمَّنتها محنة الابتلاء والتمحيص في غزوة أُحد أن سنة الله تعالى مع أنبيائه ورسله أن يبتليهم في الدنيا ويجعل لهم فيها العاقبة الحميدة، وخاصة في معارك الجهاد في سبيل الله، لأنهم لو انتصروا دائماً في حروبهم مع أعدائهم لفتن الناس بهم، فتزيدوا في حبهم وطاعتهم، وفي الاعتقاد فيهم بما يباعد بينهم وبين بشريتهم، وأنهم مخلوقون يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من المحن والبلايا فيما لا يمسُّ حقيقة رسالاتهم وقداساتها، وهذا كما قال تعالى: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحِّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾[1] وقوله عز شأنه: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[2].

ولو انكسروا دائماً لم يتحقق المقصود من بَعْثتهم لهداية الناس لأن الانكسار دائماً يدعو إلى الشك فيهم وفي صدقهم، فاقتضت الحكمة الإلٰهية الجمع بين الانتصار لفتح طريق مسيرة الدعوة إلى الله، وإزالة العقبات التي تقف أمامها، وبين الابتلاء للتربية على احتمال مرارة الصبر والتفكير في

(١) آل عمران آية (١٥٤).

(٢) السورة نفسها آية (١٧٩).

مناشىء الابتلاء وعواقبه للتوقّي منها، وليتأسّى بهم من يحمل عبء الدعوة بعدهم، فيتذرّع بالصبر على المكاره، وتحمُّل المحن وشدائد الأزمات التي تقابلهم في طريق نشر الهدى والخير، وليعلموا أن الوصول إلى رضاء الله لا تبلّغه أعمالهم، فكان لا بد للدعاة إلى الله من حوافز تبعثهم على المزيد من الصبر والاحتمال ومقابلة السيئات بالحسنات، وهذا كما قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولّما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ قال ابن إسحق في تفسيرها: أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا من ثوابي الكرامة، ولم أختبركم بالشدّة والابتلاء بالمكاره حتى أعلم صدق ذلك منكم في الإيمان بي والصبر على ما أصابكم فيّ.

وقول الله جل شأنه: ﴿ولّما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ معناه: ولما تتثّبت نفوسكم من الرضا بقضائي وقدري والصبر على بلائي، حتى يتجلّى ذلك منكم وتظهر للناس آثاره ليقتدوا بكم، ولتكونوا معالم على طريق الهدى يسترشد بها أهل البلاء من عبادي، فيعجز الشيطان أن يسدّ عليهم منافذ الركون إلى مناجاتي بطلب العفو من بلائي والرضا بقضائي.

هذه هي أصول الحكم الربانية التي أنعم الله بها على عبده وحبيبه محمد ﷺ، وعلى عباده المجاهدين معه في غزوة أحد التي كانت أعظم درس تربوي في تاريخ المجتمع المسلم، وهي جامعة لجوامع الفوائد التي لا بد للمجتمع المسلم في مسيرته بالدعوة إلى الله من أن يمرّ بها.

لم تكن محنة أحد مسخطة لله وإنما كانت لوناً من التربية الإلٓهية للمجتمع المسلم.

وهذه الأحداث الدامية، والمحن القاسية، والبلايا المرزئة التي أصابت المجتمع المسلم في هذه الغزوة لم تكن قط من عقوبات المساخط الإلٓهية، وإنما كانت دروساً تربوية كان المجتمع المسلم في أشد الحاجة إليها وهو في دور النشأة والتكوين لتمحيصه تمحيصاً يصفّي عواطفه الإيمانية، ويصقل غرائزه البشرية، ويصونه عن الإفراط في الحب بالتزيد فيه وإعطاء ما ليس بحق صورة ما هو حق، ويحفظه عن التفريط في المتابعة بالتنقّص منها بتحريف التأويل.

نعم إن ما جرى في غزوة أحد من أحداث وابتلاء ومحن وأزمات كان لوناً من التربية الصادقة القاسية، وهي تربية اقتضاها الموقف بدءاً ونهاية ليتحقق الزجر الذي يحوّل النفوس عن رغائبها العاطفية إلى إرادات إيمانية، فهي في حقيقتها وعواقبها البعيدة رحمة، من شذاها استمد حكيم الشعراء قوله:

فَقَسا ليزدجروا ومن يَكُ حازماً فَلْيَقْسُ أحياناً على من يرحم

والذي يدل على أنها أحداث تربية رحيمة غلّفتها الشدة القاسية ما نزل في قصَّتها من آيات الكتاب الحكيم.

فقد تلطف الله بمن كان متنزل هذه الأحداث القواصم من المؤمنين المجاهدين، فلاحقهم بالعفو عنهم بعد أن أذاقهم مرارة العتاب لئلا تنفطر نفوسهم كمداً وغماً، فختم الله تعالى آية العتاب المتضمنة لوعد الله بالنصر إذا حقق الرماة ما أوصاهم به رسول الله ﷺ ونفّذوا أمره بقوله عز شأنه: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

تلطف الله تعالى بالمجاهدين في العتاب ملاطفة في التربية والتوجيه.

وهذا التلطف من الله تعالى بهؤلاء المجاهدين الذين هفوا هذه الهفوة يجعل العتاب منه تعالى من قبيل الملاطفة التي تحمل في طيّاتها التأنيس لهم بعد أن نأت بهم جفوة المعاتبة، ليثوبوا إلى منابع الامتنان الإلٰهي والإحسان الربّاني، ويقفوا بين مرارة العتاب فلا ينسوا ما كان منهم ليعودوا إلى مثله، وبين حلاوة الملاطفة فلا يبتئسوا همّاً وغمّاً.

ويرشح صيرورة التلطف ملاطفة ختم الآية الكريمة بما وصف الله عز شأنه به نفسه من أنه أهل التفضل والإنعام لإبانة أنّ ملاطفتهم بعد العتاب نابعة من بحار كمال جوده الذي سبقت فيه رحمته غضبه، مع وصفه لهؤلاء المعاتبين بالإيمان الذي هو ذروة الكمالات لتنزل المراحم والإنعام، فقال تبارك وتعالى: ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ لا يتركهم لمرارة العتاب تُمَرّ حياتهم، ولكنه تداركهم بحلاوة الملاطفة لِيَحْلوا لهم مذاق الإيمان.

وهذه الجملة، كالتعليل لجملة العفو قبلها، كأنه قيل: ولقد عفا

عنكم متفضِّلاً، لأنه ردكم إلى الاعتصام بوصائل الإيمان.

ثم عاد ربنا تبارك وتعالى بعائدة العفو مرة أخرى فختم بها آية التعيير بمعصية التولِّي عند التقاء الجمعين في قوله تعالى: ﴿إن الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾[1].

اختلاف أسلوب آيتي العتاب دليل على اختلاف الموقفين لاختلاف أسبابهما.

واختلاف الآيتين: آية الوعد بالنصر المشروط باتباع أوامر القيادة العليا للمعركة وتنفيذ تلك الأوامر لصدورها من رسول الله ﷺ بوصفي النبوة والقيادة العليا، وآية التعيير بمعصية التولِّي يوم التقاء الجمعين في أسلوب العتاب والعفو ـ دليل على ما بين الموقفين في العتاب تبعاً لاختلافهما في الأسباب المقتضية لهما والنتائج المترتبة عليهما، ففي آية الوعد المشروط جاء الأسلوب خِطَابياً موجّهاً، وفي آية التعيير بالتولِّي جاء الأسلوب غيابياً حاكياً، لأن ما وقع فيها ذكرته آية الوعد بالنصر من الفشل والتنازع والعصيان كان سبباً فيما وقع من التولِّي الذي عوتبوا عليه في الآية الثانية.

ولا شكَّ أن أثر السبب في النتيجة أقوى وأعمق من أثر النتيجة بعد انتهاء أسبابها، فلهذا جاء الأسلوب في آية الوعد مواجهاً بالخطاب الحضوري ليكون أثره في النفس أبلغ وأعمق وليقول لهم: فعلتم كذا، ووقع منكم كذا، فكانت النتيجة أنكم توليتم عن المعركة وأخليتم الموقف، فكانت هزيمتكم وجراحكم وسائر ما أصابكم من البلاء، وجاء الأسلوب في الآية الثانية غيابياً حاكياً ليذكِّرهم بما وقع منهم ليحذروا أن يقع مثله في مستقبل مجتمعهم المسلم.

لون من التلطف الإلهي عُلِّق بالنبي ﷺ ليجعله من معالم التأسي به.

ليس هذا فقط، ولكن الله الرحيم بعباده أنزل على عبده ورسوله وحبيبه ﷺ ـ وهو الذي كانت إصاباته في نفسه، وفي عمِّه سيد الشهداء، وفي خاصة أصحابه من القتل والجراحات والتمثيل أشد ما أصيب به المجاهدون خاصة والمسلمون عامة ـ يخاطبه ممتناً ومرشداً وآمراً: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعف

(١) سورة آل عمران آية (١٥٥).

عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكَّلْ على الله إن الله يحب المتوكلين * إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون﴾[1] وهاتان الآيتان من أعظم آيات التربية للقادة والزعماء والحكام وولاة الأمور ورؤساء الأمم والجماعات، ويدخل في ذلك الآباء والأمهات وأساتذة التربية والتعليم ومديرو المؤسسات والشركات، لأن كل أولئك مطالبون بالاقتداء والتأسِّي برسول الله ﷺ في منهج رسالته التربوي، لأن الآية ترسم سياسة تدبير أمور حكم الأمم والشعوب، وترسم سياسة تربية الأفراد والجماعات ولا سيما في أوقات الشدائد والأزمات.

وقد افتتحت الآيتان بامتنان الله على نبيه وحبيبه محمد ﷺ بأن ما طُبع عليه من اللين والرفق والرحمة إنما هو من نعم الله عليه، لأن مهمته في الحياة رسولاً مبلِّغاً عن الله رسالته ليخرج الناس من الظلمات المحيطة بهم من كل جانب إلى نور الهداية والخير مهمة شاقة عسيرة، تتطلب صبر أولي العزم مجتمعاً، وتتطلب السماحة والتسامح فيما لا يمس جوهر الرسالة، ثم كشف الله لرسوله ﷺ بأنه لو كان على نقيض ما جبله الله عليه من لطف ولين ورفق ورقّة رحيمة لما كان مستطيعاً أن يجمع حوله هذه الجموع لأن طباع البشر تغلب عليها النفرة والنشوز من كل ما هو مظهر من مظاهر السيطرة المرتفعة، والسلطان الآمر الناهي في جفوة الترفع والتعالي.

تحليل في بيان التلطف الذي اشتمل عليه قول الله: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾.

فإذا غلط بعض أصحابك في بعض مواقفهم لتغلب منازع البشرية عليهم فتلطَّف بهم لتعيدهم إلى ساحة رضاك عنهم وغمط تربيتك لهم ومنهج رسالتك لتعليمهم، ولا تعاملهم معاملة تزيد من نفرتهم عنك لأن حياء الغلط نُفَرة خجول، يحتاج إلى من يمسح عنه بيد لطفه ندى هذا الخجل، فإذا جاءته جفوة ناصحة فربما دفعته إلى شموخ جموح فلا يسمع صاحبه إلا صوت نفسه الأنوق عن ملامة التقريع، فينفضُّوا من حولك أنفةً أو خجلاً أن تنظر إليهم بعين اللوم الصامت.

---

(١) سورة آل عمران آيتا (١٥٩ - ١٦٠).

وهذا توقيف لسير دعوتك، وعقبة كؤود أمام انتشار رسالتك، ولكن عاملهم معاملة المربي الحاذق الذي يكشف في تؤدة وأناة مشفقة عن مزالق الأخطاء، حتى يروا بعين بصيرتهم أن ما وقع منهم ما كان ينبغي أن يقع، ويداخلهم ندم شفيف لموقفك المتلطِّف بهم، فيحذروا أن يقع منهم مثل ما وقع فأخجلهم، دون أن تثور أنفسهم أنفة لشخصياتهم.

وتجاوز بالعفو عنهم عما كان منهم في حقك، وحقِّ أنفسهم، وحق مجتمعهم، وعرِّفهم واجبهم نحو الدعوة إلى الله، لأن هذا العفو من أعظم معاقد الحب الذي يعيد قلوبهم المنكسرة بعد جبر كسرها بالعفو الرفيق الرحيم.

ثم زادهم الله تلطفاً عند نبيهم ﷺ بجذبهم إلى القرب منه قرباً يزيد في محبتهم له ومتابعتهم لأوامره، فقال له: ﴿واستغفر لهم﴾ أي لا تتركهم تحت طائلة الشك والتردّد في مغفرة الله لهم، لأن هذا يعيق نهوضهم معك في مسيرة رسالتك.

وقد يولِّد في أنفسهم بعض اليأس، وهو أخطر آفات الفناء الروحي، لكن استغفارك لهم يحيي فيهم روح النهوض، ويجدِّد في نفوسهم دوافع الإيمان والجهاد في سبيل الله، وفي سبيل عقيدتهم ودينهم، لأنهم يوقنون أن استغفارك لهم مقبول، فتطمئن قلوبهم فيزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ثم جاءت في الآية واسطة عقد التلطّف الرباني، فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يزيدهم قرباً إليه فيشاركهم الرأي ويخلطهم بالمشاورة، ليشعرهم أنهم عادوا لما كانوا من القرب والمشاركة في تحمّل المسؤولية، فقال له ربه: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ لأن مشاورتهم تفتح قلوبهم وتنير أفكارهم، وتوقظ مشاعرهم وإحساساتهم لتلقِّي ما يأمر به ويطلبه بأعظم القبول، والطواعية والحب ورغبة المسارعة في الامتثال.

مبدأ المشاورة أصل المبادىء الاجتماعية في الإسلام.

والمشاورة أصل كل خير تناله الأمة من قادتها، فهي مبدأ اجتماعي شرعه الله في رسالة الإسلام ليكون منهجاً للمجتمع المسلم في مستقبل حياته، لأن الرأي المردَّد للنقاش والبحث أنظف وأصفى من رأي الفرد مهما

يكن قد أوتي من رجاحة التفكير، ومن البداهة أن المشاورة لا تكون إلا في الأمور الاجتهادية التي لا نصّ فيها، لذلك كان مجالها الأمور النظامية الاجتماعية، وهي معزولة عن العقيدة عزلاً تاماً، لا يجعل لها سبيلاً إليها، وكذلك هي معزولة عن العبادات إلاّ في طرائقها ووسائل الوصول إلى أدائها مع ملاحظة الشرط العام، وهو عدم وجود النص.

ثم جاءت العاقبة لكل هذا البيان أن المشاورة التي تأتي بعد صفاء الصدور لا بدّ أن تنتهي إلى أمر قد أحكمته التجارب ولم يبق وراءه إلا عزيمة ماضية، يكنفها صدق التوكل على الله، مع السمع والطاعة والاتّباع.

ثم قفّى ذلك كله بجامعة الجوامع، ليخلّص النفوس من نزعات الغرور، فبيّن أن النصر بيد الله تعالى، يؤتيه من يشاء متى شاء، لا يقدر عليه غيره تبارك وتعالى، فلا يستطيع أحد أن يردّه إذا نزل، ولا يستطيع أحد أن يجلبه إذا خذل الله من يريد خذلانه فقال تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ وإذا كان النصر بيد الله، فمن ينصره الله فلن يغلب، لأنه ليس هنا قوة في الحياة تستطيع أن تقف أمام بطش الله وقهره، مهما كانت وسائل قوة البشر ووسائلهم.

ومن يخذله الله القوي القهّار فمن ذا الذي يستطيع أن ينصره مع خذلان الله له، وهذا بيان لتقوية قلوب المؤمنين حتى يكون إيمانهم بالله وعظمته واقتداره وقهره هو الدعامة الأولى في جهادهم لأعدائهم وأعداء الله من الكافرين والملحدين، وهم يوم أن كانوا مستمسكين به كانوا قادة الإنسانية ورعاتها، فلما طرحوه وراء أظهرهم وفتنوا بمظاهر الحضارات الكافرة أنزلهم الله من علياء مكانتهم وعبّدهم لهؤلاء المفتونين بالعلم الكفور.

وقد ختمت الآيتان بتوجيه تربوي أفسده أعداء الإسلام على المسلمين فقلبوه من عمل دؤوب في سبيل العزّة والكرامة إلى تواكل وانغماس في رغائب الشهوات، فقال تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ والتوكل على

الله معناه صدق الإيمان به وبأنه مالك القوى والقُدَر، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وليس معنى إطلاق المشيئة أن الله تعالى يعزّ الكُسَالى المتثائبين، ويذلّ العاملين الناهضين، فذلك لم يكن من سنة الله في الخلق، وإنما معناه أن تبذل طاقتك في العمل، وتعدّ ما أمرك الله بإعداده من وسائل القوة والنهوض، ثم لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وهنا تنطلق مشيئة الله بنصر العاملين ولو قلّت أعمالهم وإعداداتهم ويرد كيد أعدائه في نحورهم، والتاريخ أعظم شاهد على ذلك بما كان فيه من وقائع الجهاد والفتوحات الإسلامية التي تمّت في ظل المنهج الذي كان هدف الرسالة.

اختلاط معنى التوكل والتواكل أمال شمس النصر عن أفق المسلمين في غزوة أُحد.

ولقد كان هذا الاتجاه المنهجي في صدق التوكل على الله بعد القيام بما ينبغي من حق العمل التطبيقي والمشاورة واليقين بأن النصر بيد الله هو المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ في حياته وتربية مجتمعه.

التربية الفردية في الإسلام هي الأساس لتربية المجتمع المسلم.

وقد كانت اللبنة الأولى في هذا المنهج هي التربية الفردية، لأن الأفراد في أي مجتمع هم عناصره الأولى التي يتألف منها، وهم مادته التي تتركب منها عناصره، فإذا أحسنت تربية الأفراد ـ في تصفية أرواحهم من كدورات العقائد الوثنية، لتغرس فيها يانعات الإيمان، وتصفية عقولهم من ظلمات الإدراكات الإلحادية، وتصفية تفكيرهم من أثقال موروثات التراث الجاهلي، وتصفية عواطفهم من جامحات الغرائز، وتصفية وجداناتهم من ذلّة الاستكانات والاستسلام للرغائب الشهوية، ليعوّدوا على تجرع مرارة الصبر في سبيل نصرة الحق، وإقامة معالم العدالة، وإراداتهم بالحزم الذي لا يعرف التردّد، وأشربت قلوبهم الرحمة والرفق والإحسان في عزائم ماضية، وسقيت مشاعرهم بحب المعرفة التي تأخذ بهم إلى سرمدية النظر في الكون ليكشفوا عن أسراره، حتى يروا بعين بصيرتهم يد الله وهي تحرِّك كل ذرة من ذراته في سَمْتها المقدّر لها ـ كان كل فرد منهم أمة في رسوخ إيمانه، واستقامة تفكيره، وإشراق روحه، واستثارة عقله، وقوة عزيمته واتجاهه إلى مقصده وغايته في الحياة الكريمة التي هي هدف منهج الرسالة الخالدة.

وتربية الأفراد بهذا الاتجاه المتكامل في عناصر تركيبه يجعل من المجتمع أمة سويّة التركيب، مستقيمة الطريق، مهذّبة السلوك، مهيّأة لكل خير،

ولا سيما في مطالب القيادات الإنسانية التي نيطت بالمجتمع المسلم.

ومن ثَمّ تبدأ التربية الجماعية للمجتمع، ليكون مجتمعاً موحّد الوسائل والأهداف والأماني والآمال، والوسيلة العظمى إلى ذلك هي المؤاخاة الاجتماعية التكافلية الملزمة الملتزمة.

منهج النبي ﷺ في تربية مجتمعه المسلم.

وقد قام النبي ﷺ وهو يبني مجتمعه المسلم في المدينة المنوّرة بهذا العمل العظيم بعد أن تكاملت لهذا المجتمع المؤاخاة الفردية في ظل الوحدة الإيمانية على أحسن وأفضل ما يكون الترابط بين وحدة الإيمان بين الأفراد ـ أولاً ـ؛ ثم الترابط بين جماعات المجتمع كله ـ ثانياً ـ؛ ليجعل من هذا المجتمع وحدة إنسانية مؤمنة بكل القيم الفاضلة التي ينبغي أن تبلغها أمة الإسلام في سيرها بدعوتها ورسالتها.

كانت التجربة لتطبيق منهج الرسالة في بدر هي اللبنة الأولى التي أربى نجاحها على كل تقدير وترقب.

وكانت التجربة الأولى في (بدر) لهذا الاتجاه المنهجي في تربية المجتمع المسلم آية الآيات إذ وصل فيها المجتمع إلى حصيلة التكوينات الاجتماعية، وهي مليئة الروح بقوة الإيمان، بصورة خارقة لمألوف الحياة ومعارفها، لأن المجتمع المسلم في (بدر) كان سليم التكوين، لا تبلغ أخطاؤه أن تكون انحرافاً عن المنهج الأصيل لرسالة هذا المجتمع، وإنما هي أخطاء الساعة التي تتغلب فيها الغرائز البشرية على بعض نوازع الإيمان في وقت قد تحجب فيه الأحداث هذه النوازع، ولكنه يصحو فيسرع إلى الأوبة متطلّباً طبيعته الإيمانية.

أما الذين لم يستمكنوا من غرز الإيمان، ولم يدركوا مدرسة التربية الأولى قبل أن تنتقل إلى متسع الجهاد والعمل من شباب الأحداث الذين لم تسعفهم أعمارهم لتلقّي التربية السلوكية عن طريق القدوة والتأسّي بالنبي ﷺ في تطبيق نصوص القرآن وهو ينزّل على النبي ﷺ يانعاً، ويتلقّاه روّاد المدرسة الأولى غضّاً طرّياً في حقائقه ومعانيه، وفي تطبيق البيان النبوي النابع من عين الحياة القرآنية ـ فهؤلاء الذين هم أرادوا في غزوة أحد أن يدركوا ما فاتهم من فضل مشهد (بدر) إذ فاتتهم (بدر)، فحرصوا على حماسة العواطف الإيمانية، ولم يكن حرصهم على المتابعة الإيمانية يساوق

حرصهم على عواطف الحب المتزيّد، واختلفت بهم المسالك في غزوة (أحد) بدءاً ونهاية، وكان ما أراده الله مما فصلناه تفصيلاً أتى على مواضع العبرة في جوانب المنهج.

ثم كان ما كان من تلطّف الله تعالى بهم بالعفو وتوجيه النبي ﷺ إلى الرفق بهم، ومسح جراحات قلوبهم بقطرات غيث العفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم، ولفت نظرهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه في مستقبل حياتهم وحياة من يأتي بعدهم من صدق التوكل على الله، وقوة العزائم، ومعرفتهم بأن النصر بيد الله العزيز الحكيم.

النبي ﷺ يدعو أصحابه إلى أرفع منازل العبودية

وقد أراد النبي ﷺ أن يجعل من محنة (أحد) على شدَّتها وقسوة أحداثها ووقائعها بعد أن بلغت نهايتها ـ مرتعاً لسارحات الأرواح في مراعي العبودية لتنطلق في مجالات شهود اللطف الإلٓهي ليغسل عن صدور أصحابه صدأ أحزانهم، ويعيد إليهم يقين الهدوء ويعيدهم إلى يقين هدوء الإيمان، ليستقبلوا حياتهم الجديدة بأرواح قوية مشرقة ترتفع فوق الأحداث والوقائع.

خطبة لرسول الله ﷺ لانتشال المسلمين من وهدة ما أصابهم من الحزن والغم.

أخرج الإمام أحمد في مسنده، قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكّي، عن ابن رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «استووا حتى أثني على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً فقال: «اللهم لك الحمد كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضلَّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما باعدت، ولا مبعِّد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم يوم العَيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من

الراشدين، اللهم توفَّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفار الذين يكذّبون رسلك، ويصدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفار الذين أوتوا الكتاب، إله الحق» قال ابن كثير في البداية: ورواه النسائي في اليوم والليلة.

من لواحق غزوة أحد
المسير إلى حمراء الأسد

شجاعة فذة وعزيمة حازمة تحلى بهما المجاهدون فملأتا قلوب أعدائهم رعباً وهلعاً.

لما انتهت معركة أحد بما انتهت به وانصرف المشركون نادى أبو سفيان قائدهم بقوله ليُسمع المسلمين: إن موعدكم (بدر) العام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد» ثم بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له: «اخرج في آثار القوم، وانظر ما يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها، ولأناجزنّهم» فخرج علي رضي الله عنه في أثرهم، فرآهم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

مواقف من الشجاعة للتأسي والتربية.

وهذا موقف من المواقف التي لا يحصيها العدّ من المواقف التي تمثّل شجاعة النبي ﷺ وثبات قلبه ومضاء عزيمته ورساخة قدمه في غرز الجهاد لنشر دعوته وتبليغ رسالته، على رغم ما نزل به ﷺ وبأصحابه من شدائد البلاء وقاسيات المحن، لأن الشجاعة الحقّة إنما هي في ثبات القلب وقوته عند النوازل والمخاوف وفادحات الكوارث دون أن يكون لآلام الجراحات أثر يمنع عن ملاحقة ومواقفة الأعداء في ميادين الجهاد، وإن كانت الجراحات لا تزال تبض بالدماء، وتسري موجعاتها إلى سائر الأعضاء.

ولما جاء علي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بنبأ مسير القوم إلى مكة لم يهدأ بال رسول الله ﷺ وجمهور من شهد (أحداً) معه من أصحابه، بل بات ﷺ يقظان، لم يرنق جفنيه النوم، وهو يفكر في اللحاق بالقوم في

مسيرهم إلى مكة ليرهبهم ويريهم أنّ ما نالوه من المسلمين لم يكن ليوهن قوتهم ويضعف شوكتهم، بل إنهم لا يزالون في سواء قوتهم وذروة تحرِّقهم على لقاء أعدائهم وجرأتهم واستعدادهم، وأقصى غايات الرسوخ في إيمانهم بدينهم وعقيدتهم وحبهم لرسول الله ﷺ، واقتدارهم على مواقفة عدوِّهم رغم ما ألمّ بهم من فادح البلاء وبالغ الجراحات.

وبات أصحابه ﷺ على بابه يحرسونه، خشية غدرة كافرة، حتى إذا أصبح من اليوم الثاني ليوم المعركة وانتهائها، وهو يوم السبت للنصف من شوال، وصلّى بأصحابه صبح يوم الأحد، أمر بلالاً أن يؤذن في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوِّكم، ولا يخرج معه إلا من شهد القتال بالأمس، وكان لواؤه ﷺ لا يزال معقوداً لم يحلّ، فدعا به وسلّمه لعلي رضي الله عنه، وقيل لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

مخرج رسول الله ﷺ لمتابعة أعدائه مع ما به من شدائد الآلام.

قال ابن سعد في طبقاته: وخرج ﷺ وهو مجروح في وجهه، مشجوج في جبهته، ورباعيته قد شظيت، وشفته السفلى قد كلمت في باطنها، وهو متوهن منكبه الأيمن من ضربة ابن قمئة ـ لعنه الله ـ وركبتاه مجحوشتان.

وحشد أهل العوالي إذ جاءهم الصريخ، وركب رسول الله ﷺ فرسه، والناس من حوله يسيرون بسيره، وبعث ثلاثة نفر من أسلم طليعة في أثر القوم فلحقهم منهم اثنان (بحمراء الأسد) وهي من المدينة على عشرة أميال في طريق العقيق متياسرة عند ذي الحُلَيفة، فسمعا للقوم زجلاً وأصواتاً صاخبة، وهم في هَرْج ومَرْج، يأتمرون بالرجوع إلى المسلمين ليستأصلوهم، وصفوان بن أمية ينهاهم عن الرجوع إليهم، فبصر المشركون بالرجلين ربيئتي رسول الله ﷺ فعطفوا عليهما فقتلوهما، ومضَوا في طريقهم إلى مكة، يسوقهم الجبن بسياط الفزع والرعب، ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه في طريقه لملاحقتهم، حتى عسكر بحمراء الأسد، فلقي الرجلين مقتولين فدفنهما في قبر واحد، وهما المعروفان بالقرينين.

غدر وجبن المشركين وفرارهم من حمراء الأسد هرباً من لقاء المسلمين.

وكان المسلمون يوقدون في الليالي التي أقامها بهم رسول الله ﷺ في حمراء الأسد، وهي خمس ليال خمسمائة ناراً ليزيد في إرهاب أعدائه

وإخافتهم، وكانت هذه النيران لعظمها وكثرتها ترى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكر المسلمين ومظهر نيرانهم في كل وجه، فكبت الله عدوهم، وملأ قلوبهم بالرعب منهم، وانصرفوا يغذُّون السير إلى مكة خائفين مدحورين، يظنون أن محمداً ﷺ لا يزال هـو وأصحابـه أقويـاء تُخشى شوكتهم، وأنه لا بد أن يكون قد جمع جموعاً كثيرة لمناجزتهم والانقضاض عليهم، وأن ما كان من نيل فيهم في أحد إنما كان شواشي جولة، لم يدخل إلى صميم قوتهم.

على هذا النمط كانت الفكرة في المسير إلى حمراء الأسد، وفي هذا المسير نزل قول الله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجر عظيم﴾[1].

مشهد من مشاهد الصبر والفداء وحب الجهاد في سبيل الله.

وأخرج ابن إسحاق من حديث السائب مولى عائشة بنت عثمان، أن رجلاً من بني عبد الأشهل، قال: شهدت (أحداً) أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحاً من أخي، فكان إذا غلب حملته عقبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

ومن حديث معبد بن أبي معبد الخزاعي أخرج ابن إسحق من طريق عبدالله بن أبي بكر بن حزم ـ وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عليه شيئاً كان بها ـ ومعبد يومئذ مشرك مر على رسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد، فقال: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أنّ الله عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا

(١) سورة آل عمران آية (١٧٢).

سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: لقد أصبنا حدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع عنهم قبل أن نستأصلهم، لنكرنَّ على بقيتهم فلنفرغنَّ منهم.

معبد الخزاعي في موقف من مواقف الوفاء الكريم.

فلما رأى أبو سفيان معبد الخزاعي قال له: ما وراءك يا معبد..؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

فقال له أبو سفيان وقد فزع من قوله: ويلك، ما تقول؟ فقال معبد والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، فقال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل شأفتهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيه أبياتاً من الشعر، قال أبو سفيان: وما قلت؟ قال معبد: قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي	إذ سالت الأرض بالجُرْد الأبابيل
تَرْدي بأسد كرام لا تنابلة	عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظَلْتُ عَدْواً أظن الأرض مائلة	لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم	إذا تغطمطت البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البسل ضاحية	لكل ذي إربة منهم ومقعول
من جيش أحمد لا وخشى قنابله	وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

وفي هذه الأبيات نَفَسٌ من قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، جرت على وزنها ورويِّها، واشتملت على ألفاظ من ألفاظها.

وقد فَتَّ كلام معبد الخزاعي ومحاورته أبي سفيان في عضده، وثناه ومن معه عن قصده، وزعزع عزيمتهم وردهم عن همهم الذي كانوا قد همُّوا به، وانصرفوا مرهوبين خائفين.

أخدوعة فاشلة في أكذوبة متهالكة.

ثم لجأ أبو سفيان إلى أكذوبة ظنّها أخدوعة، فقد رأى وفداً من عبد القيس يمرون بهم، فاستوقفهم متسائلاً أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة،

قال أبو سفيان: ولِمَه؟ قال القيسيون: نريد الميرة، فقال أبو سفيان: فهل أنتم مبلِّغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمِّل لكم إبلكم هذه زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال أبو سفيان: فإذا وافيتموه فأخبروه بأنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.

فمر ركب عبد القيس بالنبي ﷺ وهو معسكر بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال النبي ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وفي كون حامل رسالة أبي سفيان المتكذبة إلى رسول الله ﷺ وفد عبد القيس خلاف، وهو رأي السُّدِّي، والمشهور عند أهل السير والمغازي أن الذي حمل هذه الرسالة من أبي سفيان وأبلغها رسول الله ﷺ هو نُعيم ابن مسعود الأشجعي، وهذا رأي مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي، وقيل: إنه أعرابي مجهول لم يُسَمّ، جعل له أبو سفيان جُعْلاً، وكيفما يكن فهي أكذوبة فاشلة.

قصة حمراء الأسد تمثل لوناً من الشجاعة ورسوخ الإيمان.

هذه الروايات والأحاديث والوقائع التي وردت في قصة المسير إلى حمراء الأسد في عقبة أحد مباشرة تمثل في إطارها الذي ذكرناه وصورتها التي رسمناها من واقع ما كان لوناً من الشجاعة التي انطوت عليها عزيمة رسول الله ﷺ وعزائم أصحابه ـ وهم يقاسون آلام جراحاتهم ـ لم يعرفه التاريخ لغيرهم قط.

فملاحقة العدو وهو منصرف من المعركة، مزهو بانتصاره فيها، يوحي إليه من التصوّرات والظنون التي لا بد أن يكون منها في نظر هذا العدو أن جيش المسلمين لا يزال سليماً في قوته، أو أنه قد جاءه مددُ ماديٌّ من الرجال والأسلحة، فتكون تلك التصورات والظنون مدخلاً للرعب إلى قلوب أولئك الأعداء، ولا سيما أنّ هذه الملاحقة كانت من الذين أصابتهم القروح والجراحات، وهم لا يزالون يكمدون جراحاتهم ويعالجون قروحهم، ويكتمون آلامهم.

وقد حظر رسول الله ﷺ على كل من لم يشهد (أحداً) أن يخرج مع الذاهبين لملاحقة العدو وإرهابه وإشعاره بقوة جيش المسلمين الذي كان إلى

الأمس يواقفهم في ميدان المعركة، وأن ما نالوه منه من الجراحات لم يبلغ أن يكون انتصاراً يقعد هذا الجيش المسلم عـن ملاحقتهم للالتحام بهم كرة أخرى، قبل أن يتركوهم منصرفين بما يعتقدونه نصراً لهم، لأنه لا بد أن يكون من بين تلك الوجوه التي واقفتهم في ميدان المعركة بالأمس وجوهاً تلاحقهم لمواقفتهم كرّة أخرى.

وذلك مما يفتُّ في أعضادهم ويزعزع عزائمهم، ويوحي إليهم أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً مما توهمونه نصراً لهم، لأن قوة محمد ﷺ وأصحابه ما زالت سليمة تستطيع أن تقف في وجههم محاربة منتصرة كما انتصرت في (بدر).

وقد مهّد رسول الله ﷺ لذلك بإرسال علي رضي الله عنه ليعرف وجهة المشركين في سيرهم، وأقسم ﷺ ليناجزنهم إن ساروا إلى المدينة، ولم ير رسول الله ﷺ أن يقعد عن ملاحقة أعدائه ليستريح من آلام جراحاته ويريح أصحابه ليداووا قروحهم، بل أمر ﷺ بملاحقة القوم وهم منصرفون إلى مكة، وأرسل بين يديه الرسل ليعرفوا له أخبار القوم، ومضى في أثرهم ومعه أصحابه في جراحاتهم وآلامهم التي تمثّلها أروع تمثيل قصة الأخوين الأشهليين.

الشدائد اختبار لصدق الوفاء.

والشدائد دائماً هي مظاهر صدق الوفاء الذي لا يقف عند وحدة العقيدة، بل الوفاء الذي يتجاوز ذلك إلى وفاء الإخلاص ومودة العهود والمحافظة عليها، ولو لم تكن معها وحدة الدين.

وقصة معبد الخزاعي تمثل أكمل تمثيل هذا اللون من الوفاء، فمعبد بمجرد أنه خزاعي يعرف ما بين رسول الله ﷺ وبين قومه من عهود مـودّة، وأنهم عَيْبة رسول الله ﷺ وذوو صفقته، وأنهم لا يكتمونه شيئاً يبلغهم عن أعدائه، وقد زاد الإسلام عهد رسول الله مع خزاعة قوة وثباتاً، تصرَّف إذ رأى رسول الله ﷺ بحمراء الأسـد هذا التصرف النبيل في وفائه وصدق إخلاصه، فبدأ بمواساة النبي ﷺ فيما أصاب أصحابه في (أحد) مواساة مودة ووفاء وإخلاص بكلمات معدودات، ولكنها تنطوي على كثير من معاني النبل والوفـاء والإخلاص الحميم.

كان وفاء معبد الخزاعي عملاً إيجابياً خذل أعداء الإسلام.

ولم يكتفِ معبد بهذه المواساة الوفية الصادقة، بل عمد إلى عمل إيجابي يدفع به عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه غائلة الكرّة عليهم من هؤلاء الفجرة من المشركين، ويناصرهم بكل ما يستطيع من قول وعمل.

وكان معبد قد رأى المشركين بزعامة قائدهم أبي سفيان بن حرب قد أجمعوا الرجعة إلى محمد ﷺ وأصحابه ليفرغوا من القضاء على بقيتهم، فقام معبد مقاماً اشتدت فيه وطأته على المشركين وقائدهم فأرعبهم وأفزع قلوبهم، وأرهبهم بما صوره لهم من تأهّب محمد ﷺ وأصحابه للكرة عليهم بما لم يكن يدخل في خيالهم، حتى ثناهم عن الرجعة إلى المجتمع المسلم في عُقْر داره، ولم يجد أبو سفيان حيلة يغطّي بها ما أصابه من الفزع إلا أن يتشبث بركب يمر عليه من عبد القيس وهم يتيممون المدينة للميرة، فعاقدهم على أن يبلّغوا محمداً ﷺ أكذوبة من نسيج دهائه الذي لم يسعفه في هذا الموقف المتأزم في رسالة يبلّغها رسول الله ﷺ ليصدّه عن ملاحقتهم.

ومرّ وفد عبد القيس برسول الله ﷺ وأصحابه وهم معسكرون بحمراء الأسد، فألقوا إليه ﷺ أكذوبة أبي سفيان التي استأجرهم بحملان الزبيب من عكاظ لتبليغها، فلم يزد رسول الله ﷺ حين سمعها على قوله: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

رسوخ الإيمان وقوة الثقة بالله لا يوازيها شيء

وهذه الكلمة الموجزة جداً في لفظها لا توزن بثقلها في الإيمان والثقة بالله تعالى رواسي الجبال وشامخات الأطواد، وقد جعلها الله فاصلة ختم بها ما أنزله على رسوله ﷺ مما يمثل الموقف كله في حقائقه ومعانيه، وأحداثه ووقائعه، قال عز شأنه: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[1].

تم بعونه تعالى الجزء الثالث
من كتاب محمد رسول الله

(١) سورة آل عمران آيتا (١٧٣ - ١٧٤).

مِفتاح تحقيق التاريخ الإسلاميّ
كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلّى الله عليه وسلّم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم
محمد الصّادق ابراهيم عرجون
عميد كلّية أصول الدّين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الرّابع

دار القلم
دمشق

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع جدة : ٢١٤٦١ - ص. ب : ٢٨٩٥ - هاتف : ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

من بدر وأحد إلى الحديبية

كانت غزوة بدر نموذجاً للسلوك المنهجي للمجتمع المسلم

أساس تخيرنا للمغازي التي أقمنا لها دعائم البحث.

أقمنا حديث الغزوات والبعوث والسرايا ـ التي وقعت في حياة رسول الله ﷺ مما قاده ﷺ بنفسه الشريفة أو عقد ألويته وراياته لبعض أصحابه من أبطال الجهاد لإعلاء كلمة الله أن تسري مع النسيم إلى آفاق العقول وشغاف القلوب، وأن تسابق ضوء الشمس إلى أرجاء الحياة لتنبه الغافلين، وتوقظ الرقود، وتحرر الإنسان من رق الوثنية البليدة الجهول ـ على أساس استبانة ما حوته تلك الغزوات بين حناياها من الجوانب المنهجية لرسالة الخلود، ولا سيما ما يتصل من هذه الجوانب بسياسة الإعداد للجهاد القتالي، وتبين الأسس التي أقامت على دعائمها هذا النوع من الجهاد رسالة الإسلام الخالدة لتكون تلك الجوانب المنهجية حيّة في مسيرة الدعوة إلى الله، لتحقيق عقيدة التوحيد الخالص الذي يفرد الله تعالى بالتعبّد الخالص له وحده، وليتخذ المجاهدون من أبطال كتائب الإسلام تلك المعالم نبراساً يهتدون بإشراق نوره في نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور التي أنزلت على خاتم النبيين محمد ﷺ، حتى تقام موازين العدل الاجتماعي في معترك الحياة، فيأخذ كل ذي حق حقه، ويؤدي كل قادر واجبه، ويسود الإخاء الإيماني بين الناس، وتتهاوى صروح الشرك الظلوم، وتتهدم أوكار الوثنية والإلحاد والنفاق والتزندق وتحريف كلمة الحق عن مواضعها.

الجهاد في منهج رسالة الإسلام دعوة إلى الله ودفاع عن الحق.

وقد أوضحنا فيما عرضنا له من مقدِّمات الحديث عن تلك الغزوات والبعوث أنها كانت خرجات تستهدف الدعوة إلى الله لإعلاء كلمته، ولم يكن قطُّ في مقاصدها إكراه أحد على الإيمان برسالة الإسلام ذلك الدين

القيِّم الذي فطر الله الناس عليه فحّرفته البيئات الاجتماعية عن مساره، فهي لم تكن أبداً غزوات هجومية على قوم غافلين، لم يُدْعوا إلى الهدى دعاء بيِّناً يقيم الحجّة عليهم، ويريهم من آيات الله في الكون ما يوقظهم من غفلاتهم، مع إعطائهم الفرصة الممكنة لهم من النظر فيما بين أيديهم من الدلائل والبراهين، ليعلموا حقيقة هذا الدين القيّم في عقيدته التوحيدية التي هي الركيزة الأولى لبناء رسالة الإسلام، وركنها الأقوم في بناء ما جاءت به من تعبدات وشرائع ونظم اجتماعية، وآداب سلوكية تعتمد على أرفع مكارم الأخلاق التي ينبغي أن تساس بها الحياة بمن فيها وما فيها، بأسلوب يعطي كل عقل إنساني ما تبلغه طاقته من النظر والتطبيق العملي مع نفسه ومع مجتمعه الخاص في بيئته، ومجتمعه الأساسي في بيئته العامة المنتشرة في أكناف الحياة.

غزوة بدر نموذج عملي لمنهج رسالة الإسلام في الجهاد القتالي.

وقد كانت غزوة بدر العظمى هي المجال الأول الذي أتاح فيه التقدير الإلّهي بالصورة التي بدأت بها هذه الغزوة المباركة والتي لم يقصد النبي ﷺ والمسلمون إلى القتال في خرجاتها حتى أُلجئوا إليه إلجاء ـ تطبيقاً لنظريات منهج الرسالة تطبيقاً عملياً، أخرج إلى الناس في إطار الأحداث والوقائع المشهودة في واقع الحياة مثلاً إيجابية مدركة بالعقول والبصائر، ومنظورة بالأبصار.

وقد أطلنا النَّفس فيما كتبناه من حديث هذه الغزوة التي كانت اللبنة الأولى في بناء صرح الجهاد للدعوة إلى الله في مباديها ومقدماتها، وأسبابها ودوافعها، وعواملها التي أحاطت إعداداً وسياسة قيادية، ومشاورات لتهيئة النفوس لخوض معركتها، وما جرى فيها من أحداث ووقائع انتهت إلى غايتها من النصر المؤزر للمجتمع المسلم وكتائب جهاده، مع التفاوت في حجم القوة المادية لدى العدو ولدى المجاهدين من أبطال الإسلام.

آثار النصر في غزوة بدر في أنفس القبائل العربية المتربِّصة.

ذلك النصر الذي دوّى صداه في أرجاء الجزيرة العربية شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، حتى رُجّت له القلوب رجاً كاد يخلعها من بين أضالعها رهبة ورعباً، وقد طوّف صدى هذا النصر حتى دخل كل خباء في مضارب القبائل

العربية وبطونها ومنازلها، وتنادت بـه محافلهم ومجتمعـاتهم في مواسمهـا وأسواقها، حتى أصبح الذين يقطنون هذا الركن من أرض الله في الحياة بين مؤمن مطمئن القلب بإيمانه، ومفزَّع مرعوب مرتجف فؤاده حيران لا يدري من أمر نفسه في حاضره ومستقبله شيئاً، ومتربص تؤرجحه تخيلات النوازل والمحن ويكبته الدهش، ويستولي عليه الذهول، فإذا هو ساهم مأخوذ.

وخلت مكة من طواغيت ملئها وشياطين طغاتها، ولم يبق فيها إلا مكظوم بالهزيمة متهالك يناغي الموت، يتهاوى كأنه طائر منتوف الخوافي والقوادم، يستصرخون المرتزقة من الأحابيش، ويستنجدون بالمفزّعين من دقل القبائل المنثورة بين رمال الصحراء هنا وهناك.

وقد أفزع غَدَرة اليهود نصر المجتمع المسلم في بدر، وأدار رؤوسهم على مناكبهم بزعامة فجّارهم من أضراب الملعنين: كعب بن الأشرف، وحُيي ابن الأخطب وابن أبي الحُقَيق، فأقامهم وأقعدهم وأبكاهم وأضحك منهم، فكانوا سخرية الساخرين بعد أن كانوا سادة تجّار إليهم قريش، ويحتمي بحماهم المتزعمون، فهمُّوا بما لم ينالوا، وذهبوا إلى من بقي من غثاء الشرك، وغَلَتْ الوثنية في مكة يعدونهم وما يعدونهم إلا غروراً، ويمنّونهم وما يمنونهم إلا سراباً خادعاً، يحرضونهم على قتال المجتمع المسلم الذي أشجاهم وأذاقهم ذلَّ الهوان، إذ نكّل بحشودهم في بدر وقتل أشرافهم وصناديدهم، وتركهم كذيل الوحرة إذا قُطع رأسها رأيته يرقص للموت ليوهم الحياة.

كانت محنة أُحُد درساً تربوياً

في حياة المجتمع المسلم

الأسباب المباشرة لمحنة غزوة أحد.

ثم جاءت وقعة (أحد) فكانت درساً تربوياً ألقته العناية الإلٰهية على المجتمع المسلم بكل ما فيه من شدائد ومرائر، وأحداث قواصم منكيات، وكوارث عاصفة موجعات. أصابت من المسلمين حوازم أعصابهم ومداخل أفئدتهم، حتى كان منهم مالم يكن من شيمتهم ولا هو معروف في خلائقهم، ولا أنست به سجاياهم، ولا لهم به عهد، إذْ ولّوا الأدبار فراراً عن رسول الله ﷺ، وتركوه في معمعة المعركة وقد استعر أوارها وحيداً إلا من فئة قليلة لا تغني عن نفسها شيئاً.

وقد بيّنا أن السبب الأعظم في كارثة (أحد) كان منطوياً:

أولاً ـ في مخالفة رأي رسول الله ﷺ، والتقدم بين يديه بآراء تخالف ما أشار به على أصحابه عند التهيؤ والاستعداد للمعركة، معتمداً على وحي الرؤيا التي أريها ﷺ عشية الخروج إلى المعركة وأوّلها لأصحابه بأنّ المدينة هي الدرع الحصينة التي أدخل فيها يده في الرؤيا، فأبى المتحمسون من الشباب الذين فاتهم فضل بدر إلا الخروج إلى أعدائهم ومقاتلتهم خارج المدينة خشية أن يجبّنوهم، ورأى رسول الله ﷺ أن لا يخالف جمهرة هؤلاء المخالفين اتقاء الفشل الذي ينشأ عن المنازعة، فخرج بهم ﷺ وهو كاره لهذا الخروج.

ونشبت المعركة واشتعلت حمية كتائب الجهاد، وسَرْع ما ألمت الهزيمة بحشود الأعداء من المشركين على ما كان من كثرة عددهم وتوافر عدتهم وكلبهم على قتال المسلمين.

بيد أن هذا النصر لجيش المسلمين لم يكن إلا نصراً للجولة الأولى في صدق العزيمة وفورة الحماسة عند الذين آثروا الخروج من المدينة مخالفين لرأي رسول الله ﷺ على البقاء فيها متابعة له وإذعاناً لأمره، وهو القائد الأعظم، المؤيد بوحي الله تعالى.

ومن ثَمّ لم يكن هذا النصر ليقوى على البقاء والثبات إلى نهاية المعركة، ولكنه كان نصراً لم يحتمل البقاء أمام تخلخل صفوف المسلمين إثر مكيدة كادهم بها الشيطان في صفوف الرماة.

ثانياً ـ كانت مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ ووصاياه هي المِعْول الذي فكّك عرى التماسك بين صفوف المسلمين، لأن هؤلاء المخالفين من الرماة لم يطيقوا الصبر على تجرُّع مرارة الطاعة المطلقة عن تعسف التأويل لأوامر القيادة العظمى، قيادة النبي ﷺ، إذ أنهم لم يكادوا يرون معالم النصر تلوح في أفق جيش المسلمين حتى تركوا أماكنهم التي وضعهم فيها رسول الله ﷺ، وأمرهم أن لا يبرحوها حتى يأذن لهم، وركضوا إلى الدنيا يريدونها، ونزلوا إلى مشاركة الجيش المنتصر في جمع الغنائم واحتيازها، وتركوا أميرهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه الذي ذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ فلم يعبأوا بتذكيره، وتشبثوا بأهداب التأويل المتعسِّف، ولم يبق مع قائد الرماة إلا فئة قليلة صبرت معه حتى استشهدوا جميعاً رضي الله عنهم، وتنزلت المحنة وأقبلت عواصف القواصف، وكان ما كان مما فصلناه من أحداث وأزمات وشدائد تحمّل عبء وطئها رسول الله ﷺ مع طائفة قليلة من خُلّص أصحابه وأبطالهم.

العوامل المؤثرة التي كانت وراء محنة أحد هي مخالفات أوامر القيادة العظمى.

وبهذا العرض الاجمالي يتبين أن محنة (أحد) إنما كانت كما أسلفنا بسبب انحراف بعض المجاهدين فيها انحرافات نالت من نفوسهم نيلاً أبعدهم قليلاً عن سواء القوة الإيمانية التي كانت لهم في جميع مواقفهم وصدق عزائمهم قبل أن تنزل بهم هذه المحنة القاسية.

وهذه الانحرافات وكما قلنا ـ تتمثل في :

أولاً ـ انحراف من انحرف من جند الجهاد عن صراط وجوب متابعة

رسول الله ﷺ في قيادته الحربية والسياسية، كوجوب متابعته في القيادة العقدية والتعبدية والنظامية التي يقوم على دعائمها توجيه المجتمع المسلم توجيهاً تربوياً سلوكياً في نظام حياته وعلاقاته داخل إطاره الإيماني وعلاقاته خارج هذا الإطار.

وهو ﷺ في هذه القيادات وغيرها من سائر توجيهات المجتمع أعلم بالله وتصاريفه في حركات الحياة وسكناتها، وهو المؤيد بالتوفيق وسداد الرأي، وتنزّل الوحي، فما كان ينبغي لأصحابه الذين شهدوا تأييد الله له ﷺ بنصره وهو وحيد، يدعو الحياة ومن فيها إلى متابعته فيما جاء به من الهدى والنور والخير والإصلاح، وأن لا يخالفوا عن أمره وقد أخبرهم برؤياه ﷺ عشية صبح المعركة ـ ورؤياه ﷺ مرتبة من مراتب الوحي المقتضية بقاءه بأصحابه المجاهدين معه في المدينة، وفيها يلقى عدوه لأن الله تعالى أراه في منامه أنها درعه الحصينة، ولكن نخوة الحماسة الشبوبية تغلبّت بكثرتها على أهل التجارب من الأكابر، فخرج بهم ﷺ موافقة لهم بعد أن تهيأ للخروج، واتخذ آلة الحرب تفادياً للتنازع الذي يفتُّ في عزائمهم.

ثانياً ـ انحراف من انحرف منهم عن صراط وجوب متابعته ﷺ والتسليم له في جميع ما يأمر به أو ينهى عنه مع السمع والطاعة لتحقيق مراداته والإسراع إلى تنفيذ وصاياه دون تأويل متعسف أو انحراف متكلف.

لكن جمهور الرماة الذين وطّأ لهم القائد الأعظم مواقف يحمون منها ظهر الجيش المسلم وهو مشتبك مع أعدائه تنكّبوا صراط وجوب المتابعة، وخالفوا أمره ﷺ الذي أكّده عليهم تأكيداً بيّنا لا يحتمل التأويل بأن لا يبرحوا مكانهم حتى يرسل إليهم.

كان لعامل قوة الحب العاطفي على قوّة الحب الإيماني أثره في وقوع محنة أحد.

ثالثاً ـ انحراف من انحرف منهم عن مَهْيَع الحب الإيماني ـ الذي يجب أن يحاط به النبي ﷺ من كل مؤمن برسالته، وهو حب يجعله ﷺ بمنزلة فوق منزلة كل أحد من الخلق، ومظهر ذلك الحب هو التسليم المطلق بكل ما جاء به من الهدى وما يأمر به من صنوف الخير، وتحكيمه ﷺ في كل ما يعترض المؤمنين في حياتهم حتى يكون أحب لقلوب المسلمين من أنفسهم التي بين

جنوبهم، وأحب إليهم من والديهم وولدهم ومالهم وسائر ما يعز ويؤثر في الحياة - إلى التزيّد في الحب العاطفي، والعاطفة تعجب فتحب وحبها جموح لا يُملك زمامه، تغذّيه الغرائز ويقوده الإعجاب الشخصي ويداخله الهوى النفسي، فيخلع على المحبوب ما ليس له بحق، ويخرج بالمحب إلى الغلو المفرط والتقديس المؤلّه، أما الحب الإيماني: فهو حبٌّ تمليه العقيدة، ويغذّيه الإيمان، ويقوده الإعجاب بالمعاني والحقائق الإيمانية الخالدة، فهو حب مكسوب لا يجمح بصاحبه، ولا يعطي شخص المحبوب شيئاً ليس له في شرعة الإيمان.

فواصل بين الحب الإيماني والحب العاطفي.

بيد أن الحب العاطفي يستحوذ عليه التخيل الذي يصوِّر حياة المحبوب في نظر المحب على غير حقيقتها، وينسي المحب أن محبوبه خاضع بالقهر لمقاييس الحياة التي يلاحقها الموت حتى يلقي بها بين أحضان الفناء الذي يُنْهي هذا الحب العاطفي مطوِّحاً به إلى غير قرار.

أما الحب الإيماني فهو حب منشؤه الإيمان بحقائق لها طابع الخلود والبقاء السرمدي في داخل النفس الإنسانية، وهي حقائق لا يلاحقها موت ولا يدركها فناء؛ لأنها لا ترتبط بالشخص المحبوب وإنما ترتبط بالمعاني والحقائق الإيمانية التي لأجلها يجب أن يؤثر المحبوب بكل ألوان الحب الإيماني، فالحب من أجل الحقائق الإيمانية هو الحب الخالد المهذب بخلود تلك الحقائق، لكنها أشبه بأشعة الشمس المضيئة لآفاق الأرض، إذا حجبت عن أفق أشرقت في أفق آخر، وهي هي لا تتغير ولا تتبدل ولا يلحقها ضمور ولا خمود.

كان هذا الانحراف من الحب الإيماني الذي كان يغمرهم بجلاله وهدوئه وقوة فاعليته إلى التزيد في الحب العاطفي هو العامل الأقوى في زلزلة الأقدام وخلخلة التماسك في صفوف المجاهدين من أصحابه ﷺ، فإنهم رضوان الله عليهم لم يكادوا يسمعون إرجافة الشيطان وصرخة ابن قمئة - لعنه الله - بأن محمداً ﷺ قتل حتى انفرط عقد وحدتهم في ميدان المعركة، وانحلّت عرى ترابطهم، وتزايلت مفاصلهم، وانخلعت وصائل أعصابهم عن

معاقدها وأوضعت الفتن خلالهم، فاستزلهم الشيطان بوساوسه، وضعفوا واستكانوا والرسول ﷺ يدعوهم في أخراهم «إليّ عباد الله»، فأصمّهم الدهش المذهل عن سماع ندائه والصَّغْوِ إلى دعائه، وأنساهم التزيد في حبهم العاطفي لرسول الله ﷺ أن محمداً صلوات الله عليه إنسان من البشر المصطفين لحمل رسالات الله وتبليغها للناس، يجوز عليه ما جاز على إخوته من الرسل قبله الذين مضوا إلى لقاء ربهم مفارقين الدنيا إلى ما أعده الله لهم من عظيم الإنعام في دار الخلود، وهي خير لهم وأبقى.

الحب الإيماني يهدي للحق والحب العاطفي جموح لا ضابط له.

وقد كان هذا التزيد في الحب العاطفي غطاء كثيفاً حجب عن بصائر المجاهدين الحقيقة البشرية لمحمد ﷺ، وأنساهم حدود الحب الإيماني، هذا الحب الذي يضع الأمور في مواضعها، لأنه حب يعرف لكل موجود خصائصه الذاتية وحقّه في الحياة بمقتضى تلك الخصائص، ويعرف أن حقّ محمد رسول الله ﷺ على أمته أن يكون حبهم له نبياً ورسولاً فوق حبهم لأنفسهم التي بين جوانحهم وفوق حبهم آباءهم وأمهاتهم وولدهم والناس أجمعين، ويعرف أن أعظم ثمرات هذا الحب هو الإسراع إلى امتثال أمره ومتابعته في جميع أقواله وأفعاله وإقراراته، وأن يكون هوى كل مسلم تبعاً لما جاء في رسالته رسالة الحق والخير، والهدى والنور.

وهذا الحب الإيماني يعرف قبل هذا وبعده أن محمداً رسول الله ﷺ بشر، ولد كما يولد البشر، ويجري عليه ما يجري على سائر البشر من النبيين والمرسلين، وهم قد عاشوا في هذه الدنيا ما كتب الله لهم من آجال ثم مضوا وفارقوها فهو مثلهم يعيش ما كتب له من أجل ويمضي إلى لقاء ربه، ولم يجعل الله لبشر من قبله الخُلْد حتى تذهب بمن زلزلوا عند الإخبار بقتله ﷺ إرجافاً وكذباً الأوهام فيتوهمون خلوده بينهم، ويصيبهم من الدَّهش المذهل ما أنساهم بشريته، وأنه ﷺ ليس في فضله على سائر البشر وامتيازه إلا أنه رسول يوحى إليه ويجري عليه ما جرى على إخوانه الرسل من قبله فيخلو كما خلوا.

ولهذا خاطبهم الله تعالى مذكّراً لهم بحقيقة محمد ﷺ التي أنساهم

إياها غلوهم في الحب العاطفي، فلعبت بهم التخيلات والأوهام، وربطوا إيمانهم ببقاء شخصه ﷺ بأسلوب إنكاري معنف فقال لهم: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل؛ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾.

وهكذا كان الغلو والتزيد في الحب العاطفي هو العامل الأكبر في هزيمة الكتائب المسلمة، بعد أن أمسكوا زمام النصر بأيديهم لأول جولة من جولات المعركة قبل أن يرجف بهم الشيطان بصرخته وصرخة الخبيث الملعّن ابن قمئة: إن محمداً قتل، لأنهم لم تكد تلك الصرخة الفاجرة تقرع آذانهم حتى أرسلوا أقدامهم مع ريح الهزيمة مولِّين الأدبار لا يعرف بعضهم بعضاً لقسوة ما نزل بهم.

وصبر رسول الله ﷺ وحده في موقفه لا يزول عنه فتراً وهو يضارب العدو بقوسه حتى تشظَّت، فضاربهم بالحجارة، حتى تحيّز له فئة من أبطال الجهاد من الذين لم يبعدوا في التولّي وحداناً يتبع بعضهم بعضاً حتى كانوا جماعة فاءت إلى عزائم الإيمان وشمّروا للدفاع عنه ﷺ، وأحاطوا به من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله يفدونه ﷺ بأرواحهم وما ملكت أيديهم، وباعوا الله تعالى أنفسهم، وتجلّت لهم منازل الشهداء من وراء حُجُب الغيب.

وكان رسول الله ﷺ قد أصيب في المعركة بجراحات دامية، وانقشعت عنه ﷺ جحافل الشرك وحشود الوثنية، وبلغت المعركة نهايتها وجراحات رسول الله ﷺ تبض بالدم الطاهر وجراحات أصحابه تستن، وصدورهم تئز أزيز المراجل فوق الأثافي من شدة الأوجاع والآلام وهم صابرون محتسبون ليتوب الله عليهم ويشملهم بعفوه ورحمته.

وقد عاتب الله تعالى المجاهدين الذين شهدوا معركة أحد عتاباً شديداً ولا سيما على تغاليهم وتزيدهم في الحب العاطفي لرسول الله ﷺ وتولّيهم عن ميدان المعركة. وقد أبان الله تعالى في هذا العتاب العنيف شؤم مخالفة جنود كتائب الجهاد لقائدهم الأعظم في خططه الحربية وسياسته في إدارة

المعركة وخاصّة إذا كان القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي المسدّد بالتوفيق.

كان عتاب أهل بدر تعليمًا وتربية ونصحاً وإرشاداً.

كان هذا العتاب القاسي لوناً من ألوان التربية التي اشتملت عليها محنة أحد، وهي أول موقعة يقع فيها هذا الابتلاء الممحّص، وتنتهي بأقسى محنة عرفها المجتمع المسلم في جهاده بقيادة رسول الله ﷺ لأنها جاءت بعد نصر (بدر) العظيم مع ما كان في بدر من مخالفة جمهرة المجاهدين عوتب عليها البدريون عتاباً لم يبلغ عتاب (أحد) في شدته وتنوّعه، واكتفى القرآن المجيد في عتابهم بقوله تعالى: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ وذلك أنهم أسرعوا إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور بشائر النصر، وشغلوا بجمع الغنائم وأسر الرجال قبل أن يثخنوا في الأرض، وهذا عتاب أشبه بالنصح والتعليم منه بعتاب اللوم والتعنيف، لأن مخالفة البدريين لم يكن فيها أمر من رسول الله ﷺ، لكن مخالفات (أحد) تعدّدت واستعظمت وكانت فيها أوامر ووصايا من رسول الله ﷺ، فكان العتاب فيها عنيفاً شديداً أشبه بالتأديب والزجر منه بعتاب التنبيه والإرشاد، ليأخذ درس (أحد) التربوي مكانه من مداخل النفوس المسلمة، حتى تكون منه على ذكر، لا تنسيها معالمه شدائد ما تلقى من الحياة وصروفها في مستقبل مسيرها برسالتها.

كان درس محنة أحد تعميقاً للآلام ليبقى أثره في حياة المجتمع المسلم تتوارثه الأجيال المقبلة.

وكان هذا الدرس الأُحدي في حقيقته تعميقاً للإحساس بإيجاع الآلام التي نالت المجتمع المسلم نتيجة لما صنعه بيده من الانحراف عن منهج الرسالة وهي في عراقة نشأتها وقوة شبوبها عن مهدها، ليبقى هذا الاحساس آية مسطورة في قلب كل مؤمن يلازمه في حياته ويتوارثه الخلف عن السلف وتتلقّاه أجيال عن أجيال، فلا يغرب عن حياة المجتمع المسلم ما دام قائماً بأمر رسالته الخالدة على أساس منهجها، وهو عتاب على ما كان فيه من شدة لم يكن عتاب مسخطة من الله تعالى على أولئك المجاهدين، وإنما هو درس عملي من دروس التربية الإلّهية لهذا المجتمع القائم بأمر الله في حماية دينه، يستهدف وضع آثار الانحرافات عن منهج الرسالة وضعاً يجعل من المجتمع المسلم قوة مطهِّرة من أوضار المخالفات، ولا سيا في ميادين الجهاد في ظل وحدة إيمانية تقوم في أصولها التربوية على الإيحاء لهذا المجتمع بما

سيقابله في الحياة من شدائد وأزمات، ومحن لا يقيه أخطارها المدمرة إلا اعتصامه بمنهج رسالته.

عتاب تربوي يشعر الحياة بما كان للصحابة من منزلة رفيعة عند الله تعالى.

ولهذا جاء العتاب قاسياً عنيفاً، بَيْد أنه خفّ بالتلطف الرباني المتمثل في التفضل بالعفو عنهم بأسلوب جمع من ألوان التوكيد ما يقتلع جذور المساءة باللوم والتقريع، ويزرع مكانها من قلوبهم كرمة الترضِّي لله منهم والرضا من الله عنهم، فقال تعالى حاكياً لما وقع حتى لا ينسى مبيناً أسبابه ودوافعه لانحرافهم عن صراط المنهج الجهادي الذي جاءتهم به الرسالة الخالدة وذلك في قوله عز شأنه: ﴿إن الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ببعض ما كسبوا﴾ تأنيس لهم ببرد العفو مع خطورة ما وقع منهم من الانحراف عن المنهج حتى لا يداخلهم اليأس في مآل إحساناتهم وحسناتهم وهي كثيرة جمة قام على دعائمها هذا الدين القيِّم، وفي أسلوب سياق العفو المؤكد مبالغة في التلطف بهم لمسح ما علق بقلوبهم من خشية الله وخوف مواقعتهم بطشه بهم.

وفي ختم آية العتاب بهذه الفاصلة المكسوة باستبرق الرأفة والتذكير بالإنعام بسط للعفو الإلٰهي بسطاً ينتهي بالمغفرة السابغة والحكم الأكرم، حتى لا يبقى مع هذا البسط بما احتف به من الغفران الستور والحلم الكريم وخز يعكِّر صفو جهادهم لإعلاء كلمة الله. وهذا هو عتاب الودود للمودود، والمحب للمحبوب الذي أريد به وضع أصول التربية للمجتمع المسلم تربية لا تعرف في شدتها الحقد والاضطغان، ولا تعرف في تلطفها الميوعة والإدلال، لتتلقّاها أجيال المجتمع المسلم جيلاً بعد جيل، وليتخذها قادة هذا المجتمع أينما كانوا ميزاناً لتقويم عوج المجتمع وإصلاح ما يكون فيه من فساد، ولتكون هذه الأصول التربوية ديدنهم في سياسة حياة المجتمع حتى يكون مجتمعاً صالحاً قوي الشكيمة موحّد القوى، لا تعرفه الأحقاد، ولا تمزقه الضغائن، بل يجمع بينه الوُد والحب والتآخي الكفول.

وفي الحق أن هذا اللون من ألوان التربية الإسلامية التي تلقاها

عتاب يقيم للمجتمع المسلم موازين التربية السلوكية القويمة ويرسم لقادته السياسة الحكيمة.

المجتمع المسلم وهو لا يزال في مهده يكاد يكون إعجازاً، لأنه لم يترك الشدة القاسية حيث كان الموقف يطلبها، ولم يبخل بالتلطّف الودود بعد أن قامت الشدة بما يطلب منها، فهو لم يتسامح قطُّ في تعريف المخطىء خطأه على قدر ما فيه من خطر على المجتمع أو ضرر للحياة، فقد اشتد في وصف ما وقع من الانحراف حتى أبكى وأدمى، ثم هو يتلطّف ليداوي جراحات القلوب حتى يسيل رقّة ورأفة وحلماً ومغفرة، ومن وراء ذلك كله ما لا يدري كنهه من صنوف الإحسان وضروب الإنعام الذي لا تستطيع وصفه الألسنة والأقلام.

ومن ثَمَّ أمر الله جل شأنه نبيه محمداً ﷺ أن يكوِّن في قيادته لمجتمعه وتربيته لأمته ومعاملته لها أفراداً وجماعات ظلاً ظليلاً من العفو والغفران والحلم والإحسان والترفق، فيسبغ أكرم مكارم الأخلاق لطفاً ورأفة وتجاوزاً عما عسى أن يبدر منهم أو بدر منهم نحو منهج الرسالة، حتى ناله ﷺ ما ناله، وأن يستغفر لهم لتطمئن قلوبهم إلى منزلة الرضا من قلبه.

ثم زادهم حفاوة في معاملة رسول الله ﷺ لهم معاملة تزيد من قربهم بعد أن صوّرت الأحداث أنهم بعدوا بها عن مرضاته وحبه ومتابعته، فأمره الله تعالى أن يشاورهم فيما ينوب الحياة المسلمة من أحداث إلى جانب العفو عما بدر منهم في معركة أحد ليمحي ما ألمّ بنفوسهم من شدّة وطأة العتاب.

وقد تحقّق ذلك عملياً في الخروج بهم قبل أن ينفض عنهم غبار معركة أحد إلى حمراء الأسد وهم في جراحهم التي بلغت بهم من الآلام والأوجاع أن أحدهم لا يكاد يستوي قائماً من شدة ما يجد، ولكن فرحهم بعفو الله ورضوانه، وتلطّف رسول الله ﷺ بهم في رقّة المعاملة أنساهم كل آلامهم.

وقد زادهم الله في فضله أنهم لم يكادوا يبلغون حمراء الأسد متحمِّلين على جراحهم حتى ألقى الله تعالى في قلوب أعدائهم المشركين - وهم يتآمرون بالرجوع إلى من بقي منهم ليستأصلوهم - الرعب والفزع، فصدّهم عنهم وعادوا على أعقابهم خاسرين، وانقلب المسلمون إلى دارهم ومدينتهم وهم يردِّدون مع رسول الله ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وهكذا كانت بدر في نصرها المؤزر الوثيق، وهكذا كانت (أحد)

بعدها من قريب في درس محنتها التربوي القاسي العميق في مفتتح الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله وتقويض بناء الشرك وصروح الوثنية ـ غزوتين أخذتا بطرفي الحياة ليناً وشدة، وقسوة ورحمة، ونصراً وهزيمة، وقد جعل الله منهما إطاراً لما ينبغي أن تتمثله الأمة الإسلامية في مستقبل مجتمعها، تصب فيه الأحداث والوقائع، وتصور فيه الخطوط الأساسية التي يجب أن تقوم عليها حياة هذا المجتمع الريادي المستكشف في ريادته لمعالم الحياة التي نيط به قيادها في ضوء الواقع الذي لا يغلّفه الخيال بألوانه البرّاقة الخادعة.

بدر وأحد نموذج لإطار الحياة تمثل خيوطه الحياة بجوانبها أصدق تمثيل.

فالحياة في واقعها أشبه بطائر يطير في أجواز الكون بجناحين: جناح محنة وجناح منحة، فيوم لك ويوم عليك، ويوم تُساء، ويوم تُسر.

وليست الحياة كما يفهمها الفراغيون عبيد الشهوات المادية وروداً وأزاهيرمفروشة في طريق السالكين، ولا هي أشواكاً تُدمي أقدام الغادين والرائحين، ولكنها حلاوة تعقبها مرارة، ومرارة تليها حلاوة، فمن أذاقته حلاوتها فليرتقب مرارتها.

ولم يغفل المنهج الإسلامي هذا الواقع ليؤخذ الناس على غفلاتهم، ولكنه نبّه إليه بأسلوب صوره قانوناً طبيعياً من قوانين سير الحياة التي قدّرها الله في غيبه المحجوب، وسنّة من سنن الله التي تخضع لها أنظمة الحياة، فالله تعالى يقول في القرآن الكريم ـ وهو الدستور الأعظم للمجتمع المسلم ـ: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسَسْكم قَرْح فقد مَسّ القوم قَرْحُ مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[1].

الإيمان لا يفقد قط خصيصته في منزلته من الله وسنن الحياة.

وليس معنى هذا أن الإيمان يفقد خصيصته في علو منزلته وسمو مكانته من الله وإنما معناه أن التغالب في الحياة قانون قائم تسير الحياة به على مقتضى سنن الله العامة، ليأخذ أهل الإيمان حذرهم من الركون إلى مجرد الإيمان، بل يجب عليهم أن يجعلوا من قوادم الإيمان وخوافيه ركائز له بالعمل الجاد وعدم الغفلة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء

(١) سورة آل عمران آيتا (١٣٩ ـ ١٤٠).

القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً﴾[1].

كما بيّن القرآن الحكيم أن النصر والخذلان لا يرتبطان ارتباطاً مادياً اعتماداً على القوة الماديّة وحدها، ولكنهما في سنن الله العامة كفتا ميزان طبيعي في يد العزيز القهار وهو وحده الذي يملكه ويتحكم فيه، فيؤتي نصره من يشاء من عباده، جرياً على مقتضى حكمته تعالى وهو العزيز الحكيم، ويخذل بحكمته من يشاء من عباده، فلا تستطيع قوة في الحياة أن تجعل من هذا الخذلان نصراً مهما كانت القوة المادية التي تقف إلى جانب من يملك هذه القوة الماديّة، وهذا ما يقرره القرآن الحكيم في قول الله عز شأنه: ﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾[3].

وليس معنى ذلك أن أمور الحياة تجري سبهللة بغير ضوابط تربطها من سنن الله الكونية، وإنما معناه أن السنن الكونية التي تحزم المتفرق من أمور الحياة محكومة بالقهر الإلهي، وتتنزل بحكمة التقدير الإلهي يسيّرها خالق الكون وحده، لأنه هو مالك نواصيها، ومدبّر أسبابها ومسبباتها، سواء أن تكون تلك الأسباب والمسبّبات ماديّة أو معنوية، وهذه الأسباب والمسبّبات المعنوية ترتكز على قوة الإيمان واليقين، فلا القوة الماديّة وحدها بجالبة للنصر، ولا ضعف هذه القوة الماديّة وحده بمسبب للخذلان، وإنما المرجع إلى الله مالك القوى والقدر، ولهذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين بصدق التوكل عليه بعد إعداد الأسباب المادية فقال جل شأنه: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

وللنصر أسباب ماديّة ظاهرة وعوامل مرئية تتنزل من سموات فضل

---

(١) سورة النساء آية (١٠٤).

(٢) آل عمران آية (٢٦).

(٣) سورة آل عمران آية (١٦٠).

الله تعالى وإنعامه، وللخذلان أسباب تستجلبه من مواقع بأس الله وبطشه.

والنصر والخذلان ظاهرتان كونيتان ليست لهما دلالة ذاتية على رضاء الله أو سخطه، وليست لهما ثبات السنن الكونية التي يقوم عليها نظام الحياة في سيرها إلى غايتها، وإنما هما من طائفات الأحداث التي تندرج في إطار الوقائع التي تتداول الحياة في موازينها الاجتماعية لتوازن الوضع الاجتماعي بين طوائف البشر وأممهم وشعوبهم ودولهم ليأخذ كل فرد ومجتمع حقّه منها طبقاً لمجرى الحكمة الإلٓهية في الكون.

وقد سبق لنا أن ذكرنا بالتفصيل ما كان لغزوة بدر من مقدّمات وأسباب، وما كان في ذلك من مواقف سياسيّة للنبي ﷺ جعلت من هذه الأسباب إعداداً نفسياً لخوض المعركة مهما كانت آثارها وعواقبها، ثم ذكرنا ما كان في (بدر) من أحداث ووقائع انتهت بها إلى النصر المؤزر، وما كان لذلك من أثر عميق في قلوب من بقي من أعداء الإسلام؛ مما جعلهم بعد إفاقتهم من سكرة الهزيمة المنكرة التي حلّت بهم فأهلكت أشرافهم وصناديدهم يفكرون في الثأر من المجتمع المسلم بغزوه في عقر داره بقوة لا يستطيع مواقفتها في قتال.

وقد جعلوا من عيرهم التي كانت سبب غزوة بدر بعد أن نجا بها قائدها أبو سفيان بن حرب مصدرا لتجهيز حشد من المرتزقة والأحابيش، وصعاليك العرب من القبائل المتربصة.

وكانت غزوة أحد بأحداثها وأزماتها وشدائدها درساً تربوياً أفاد منها المجتمع المسلم كثيراً من العبر في تصاريف الحياة وتقلباتها.

كانت محنة أحد سراجاً أضاء الطريق أمام المجتمع المسلم في سيره برسالته.

لقد فتحت محنة أحد أمام المجتمع المسلم الطريق ليتعرف موقف المتربصين به دون إقدام على محاربته لما أصابهم من الدهش المذهل حين سمعوا دويّ نصر بدر الذي ملأ قلوبهم رهباً ورعباً وهلعاً.

وكانت أخبار هؤلاء وهؤلاء ترد متوالية على رسول الله ﷺ، فيأخذ لكل حدث أهبته، وتتابعت البعوث والسرايا المستكشفة تجوب مواقع

الأحداث، وكانت محنة (أحد) صيقلاً أذاب صدأ هزيمتها عن صدور أصحاب رسول الله ﷺ، فجعلت منهم بطولات فدائية لا ترهب الموت، وجعلت منهم قيادات سياسية تحسن الرأي وتحكم الفكرة، وجعلت منهم قيادات عسكرية تدير المعارك القتالية بتفكير مجرب يعرف المخارج من أزمات المضايق، ويعرف المداخل التي يؤخذ منها العدو.

ومن ثَمّ تتابعت البعوث والسرايا والغزوات، ووقف أصحاب رسول الله ﷺ متأهبين لكل حادث ونازلة، لا ينامون ولا ينيمون، ولا يغفلون عن بادرة يحسون نبأتها إلا أسرعوا إليها خفافاً وثقالاً يخوضون لججها، ويقتحمون سعير أوارها بنفوس رضية سمحة بالفداء وحب الشهادة.

ولم يكد يمضي يوم منذ محنة (أحد) دون أن يكون فيه بعث فدائي محارب أو سرية ترهب وترعب، أو إعداد لغزوة تقاتل فيها كتائب الإسلام فتنتصر.

هدف هذا البحث إبراز جوانب منهج رسالة الإسلام العقدية والاجتماعية.

وقد بيّنا أن منهجنا في البحث لا يقصد إلى سرد الروايات والأقاصيص، واستيعاب الوقائع والأحداث، وإنما أقمنا إطار البحث على إبراز الخطوط الأصيلة لجوانب منهج رسالة الإسلام، وما فيها من هداية وإصلاح، لأن ذلك هو المقصود الأعظم لهذه الرسالة الخالدة في ظل العقيدة التوحيدية،وهذه هي خصيصة الإسلام بوصفه ديناً لإقامة صرح التوحيد وتقويض الشرك بجميع أنواعه وهدم الوثنية في سائر صورها وأشكالها، ثم بوصفه نظاماً اجتماعياً متكاملاً، ونمطاً فكرياً متوازناً، ومنهجاً إصلاحياً متوافقاً، لا يردّ عقلاً مستقيم التركيب الفكري عن الدخول في ساحته، ولا يرفض علماً سويّ المعالم في مقدماته ونتائجه، ولا يعرف للفكر الإنساني حدوداً يقف عندها لا يتجاوزها.

ولهذا كان حديثنا في إطار الغزوات حديثاً قائماً على التنقّي والاختيار، ونرجو دائماً أن لا تفوتنا المحاولة في أن لا يندّ عن البحث والنظر حادث يحمل في طياته جانباً منهجياً من خصائص الرسالة الخالدة وحقائقها ومعانيها

التي نزلت لتحقق في الحياة عملاً واقعياً يعيش الناس فيه، ويعيش مع الناس.

* * *

تدرج البحث في أحداث وأحاديث الغزوات المنتقاة وتأخير البحث المفصل عن اليهود والمنافقين.

لقد استقام لنا عند النظر في خطة البحث أن نجعل الحديث موصولاً في الغزوات التي كانت مع قبائل العرب وبطونها بقيادة زعامات محليّة من رجالات هذه القبائل بعد أن انهارت زعامات قريش، مؤجِّلين البحث فيما كان من أحداث اليهود والمنافقين، والقضاء على هؤلاء وهؤلاء أفراداً وجماعات حتى نصل إلى الحديث عن (الحديبية ومعاهدتها) التي كانت نهاية النهاية لأحداث اليهود وربائبهم من المنافقين ذات الشأن التاريخي في صدر الإسلام، إذ لم يعد لهم ذكر في شأن من شؤون الحياة سوى ما بقي لبعض اليهود من وجود محدود محصور، يعملون فيه أجراء في أرض خيبر، حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن قتلوا رجلاً أنصارياً، وفدعوا رِجْل عبدالله بن عمر، فانكشف لعمر رضي الله عنه سوء طوياتهم واستمرارهم على الخيانة والغدر ونقض العهود والمواثيق، فنفَّذ فيهم أمر رسول الله ﷺ، وأجلاهم نهائياً للقضاء على فسادهم وإفسادهم وتطهير أرض الجزيرة العربية من رجسهم.

أما المنافقون فكانوا ربائب اليهود في لؤم الطباع، وسوء السريرة، وسيىء المكر، وتدبير المحقرات من الدسائس المنحطة عن رذائل الأرذال.

وقد بدأ انهيار هؤلاء الفجّار الجبناء بإجلاء أول قبيلة من اليهود الأخابث وهم بنو قينقاع أعْتى وأجرم طوائف اليهود، وكانوا صاغة في سوق المدينة، يساكنون أهلهاويخالطونهم في أسواقهم وأعمالهم، وكانوا أول يهود نقضوا العهود وحاربوا بعد (بدر) وقبل (أحد)، ثم بحصار بني النضير وإجلائهم بعد خذلان المنافقين لهم، وكانوا وعدوهم النصر لهم والقتال معهم، فلما كشَّرت الحرب عن أنيابها تخاذل المنافقون عنهم وجبنوا عن الوقوف معهم، ثم بحصار بني قريظة عقيب غزوة الخندق، لنقضهم عهد رسول الله ﷺ وممالأتهم أعداءه من شراذم الكفر والشرك والوثنية، وكان قد

دخل معهم في حصنهم فرعونهم أخبث يهود حيي بن أخطب، فقتل معهم في مقتلتهم.

ثم فتحت خيبر بعد الحديبية بنحو عشرين يوماً، وكان الله تعالى قد تقدم إلى عباده المؤمنين مبشراً لهم بفتحها فقال تعالى: ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وجمهور المفسرين من السلف والخلف على أنه فتح خيبر.

وهكذا كان القضاء على اليهود وقوتهم المادية وإجلاؤهم عن جزيرة العرب قضاء على المنافقين ودسائسهم وسيىء مكرهم وسوء ائتمارهم على المجتمع المسلم، فانماعوا بعدهم انمياع صخرة من الملح انساب عليها سيل جارف فأذابها في غثائه، وذهبوا يضاجعون الغثاء بعد أن ساقهم لؤم الطبع إلى حتوفهم جموعاً ووحداناً بغير قتال شن عليهم.

مَراحِلُ البَحْثِ في الغَـزَوَات

ومن ثَمّ رأينا أن يكون البحث منذ ابتداء الجهاد القتالي الذي ألجىء إليه المسلمون إلجاء بغزوتي (بدر) و(أحد) جارياً على خمس مراحل جمعاً للمتوافقات ـ التي فرقتها الأحداث وشتَّتها الزمن ـ في إطار واحد، تيسيراً على الناظـرين والقارئـين والباحثـين، وتقريبـاً لما يـطلبون من الـوقائـع والأحداث، دون أن تختلط بغيرها فيصعب العثور عليها، ويطول بهم التفتيش عنها، ويعسر ربط الوقائع المتشابهة بمثيلاتها.

المرحلة الأولى: وقد عقدناها على غزوتي (بدر) و(أحد) لأنهما أعظم الغزوات وأسبقها وأشملها لكثير من جوانب المنهج التربوي في الإسلام، لما في أحداثهما وألوان التربية فيهما، عقدياً وتعبداً، ونظماً اجتماعية، وسياسية عسكرية وأوضاعاً اقتصادية، وآداباً سلوكية من كل ما يردّ إليه كثير مما تنطوي عليه حياة المجتمع المسلم في حياته المستقبلة، وهو يحمل لواء دعوته إلى الله هادياً ومعلِّماً مسالماً، أو مصلحاً مرشداً أو مدافعاً مقاتلاً.

وقد فصَّلنا حديث هاتين الغزوتين تفصيلاً أتى على مقدماتهما ومباديهما وأحداثهما التي انتهت بها كل واحدة منهما، مبينين المعالم التي يستهدفها المجتمع المسلم في مسيرته لإعلاء كلمة الله، وإقامة موازين الحق والعدل بين الناس، أفراداً وجماعات، أمماً وشعوباً، ودولاً تحكم، وترْعى لإحلال التآخي الإيمـاني في شعاب الأرض محـل التفرق العنصـري، والشقاق المـذهبي والتعصب القومي، ليكون التراحم هو الدعامة القوية في حياة النـاس والأشياء.

المرحلة الثانية: والحديث فيها يجري من حيث انتهت المرحلة الأولى وما بدأ من البعوث والسرايا والغزوات في هذه المرحلة الثانية حتى ينتهي بنا الحديث إلى غزوة (الحديبية) ومعاهدتها التي كانت مقدمة ممهدة لأعظم فتح أعقبته سائر فتوحات الإسلام، وما كان لها من عظيم الأثر في دخول الناس في دين الله أفواجاً طوعاً ومحبة واقتناعاً، دون تعرض منا أثناء ذلك لما كان من مواقف اليهود وأحداثهم وخياناتهم وغدرهم ونقضهم العهود والمواثيق وفجور أفرادهم، مما أدّى إلى القضاء عليهم قضاء مبرماً شتّتهم في أرض الله إلا بقايا انجحروا في خيبر حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إجلاء كاملاً عن جزيرة العرب لإفسادهم وفسادهم وسوء مكرهم.

والحديث في هذه المرحلة يدور حول بعض البعوث والسرايا والغزوات التي كان لها أثر في إبراز بعض جوانب المنهج في رسالة الإسلام، دون التقيد باستيعاب الروايات وسردها، ودون التقيد بترتيب الحوادث والوقائع ترتيباً زمنياً إذا لم يكن لهذا الترتيب شأن في إبراز جانب أو جوانب من منهج الرسالة الخالدة.

بَعْثُ الرَّجِيْع

أسباب ذكر بعث الرجيع ملحقاً بالغزوات المختارة.

وأول ذلك وأشهره عقب (أحد) بعث الرجيع، لأن هذا البعث انطوى على أحداث ووقائع جعلته مندرجاً في إطار منهجنا في البحث ـ لما اشتمل عليه من معالم كانت أشبه ما تكون بالدروس التربوية العملية التي تلقّاها المجتمع المسلم في غزوة (أحد).

ولما كان فيه من بطولات فدائية كشفت عنها الشدائد والمحن، وأقامت بفدائيتها منائر اليقين الإيماني، وجعلت كلمة الكفر في عهوده هي السفلى، فداست عليها بأقدامها ولم تعطها شيئاً من الثقة بها وبمن يبذلها مزلقة للغدر، والخيانة، وهي ترى الموت يحفها من جميع جوانبها.

ولما ظهر في أبطال هذا البعث من قوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ عند الذين كانت رقابهم تحت شفرات السيوف، وهم ينظرون إلى الموت يهرول إليهم ليتخطَّفهم، فلا يرضون أن يفديهم رسول الله ﷺ بشوكة يشاكها، وهو ﷺ في مكانه بين أصحابه آمناً معززاً موقراً، وينجون بأنفسهم من الموت.

والرجيع الذي سمِّي به هذا البعث موضع لهذيل بين مكة وعسفان بناحية الحجاز كانت الوقعة بالقرب منه، فسميت به، قال الواقدي: والرجيع على ثمانية أميال من عسفان وكانت وقعته سنة أربع للهجرة، على رأس ستة وثلاثين شهراً منها.

وجعلها ابن إسحاق في أواخر سنة ثلاث من الهجرة، وهذا ليس

بخلاف لاحتمال احتساب الكسور من الشهور أو رفعها من البين.

اختلاف الروايات في أسباب بعث الرجيع وأحداثه وتحقيق ما وقع من توهيم للبخاري في مواهب القسطلاني.

وقد اختلفت الروايات في هذا البعث وفي أسبابه، وأحداثه اختلافاً واسعاً، فالبخاري رحمه الله تعالى أدخله في ترجمة الصحيح مع بعث بئر معونة وغيره، فقال باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، وبئر معونة وحديث عضل والقارة، وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه. وقد وهّم القسطلاني في مواهبه كلام البخاري، فقال: وقوله أي البخاري في الترجمة المتقدمة ـ يوهم أن بعث الرجيع وبئر معونة شيء واحد، وليس كذلك، لأن بعث الرجيع كان سرية عاصم وخبيب وأصحابه، وهي مع عضل والقارة، وسرية بئر معونة كانت سرية القرّاء، وهي مع رِعْل وذَكْوان كما صرح به البخاري في حديث أنس، فقال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيّان من بني سُلَيم، ورِعْل وذَكْوان عند بئر يقال لها (بئر معونة).

وفي حديث أنس أيضاً من طريق قتادة أن رِعْلاً وذَكْوان وعُصيّة، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدوٍّ فأمدهم بسبعين من الأنصار، كنا نسميهم القرّاء في زمانهم.

ثم اعتذر القسطلاني عن نقده لصنيع البخاري، فقال: وكأن البخاري أدمجها أي الرجيع ـ معها ـ أي بئر معونة ـ لقربها منها.

ثم قال القسطلاني: ويدل على قربها منها ما في حديث أنس من تشريك النبي ﷺ بين بني لحيان، وبين عصيّة وغيرهم كرِعْل وذَكْوان في الدعاء عليهم في قنوت الصبح شهراً.

قال الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلاني: ووجه الدلالة أن بَعْث الرجيع مع بني لحيان، وبئر معونة كانت مع عصية ورعل وذكوان، وقد جمع الكل في الدعاء.

ثم قال القسطلاني في الاعتذار عن توهيمه لكلام البخاري رحمه الله في ترجمته، ولم يُرد البخاري أنها قصة واحدة لأنه خلاف الواقع، وإن أوهمه كلامه، وبالتأمل يظهر أنه لا إيهام.

وهذا كله كلام بعيد عن التعمق والنظر المتمهل في كلام الإمام البخاري، وكذلك هو بعيد عن التفقه في الأحاديث التي أوردها تحت عنوان ـ باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة، لأن جمع عدة سرايا وبعوث تحت ترجمة واحدة ـ ثم ذكر أحداثها ووقائعها المختلفة باختلاف أسبابها وما جرى في كل بعث أو سرية منها ـ لا يدل من قريب أو بعيد على أن هذه البعوث والسرايا أدمجت فجعلت شيئاً واحداً.

ويدل على أن الإمام البخاري رحمه الله قصد إلى ذكر أحداث وبعوث وسرايا مختلفة تحت باب يجمعها في صحيحه لتقارب بعض أحداثها وتشابه بعض وقائعها أنه أفرد لكل بعث أو سرية منها حديثاً أو أحاديث، فقد ساق رحمه الله حديث أبي هريرة مقصوراً على بعث الرجيع، ثم ذكر بعده حديث أنس بن مالك وهو خاص ببعث بئر معونة، فأين الدمج بين البَعْثين وأحداثهما الذي يوهمه كلام البخاري كما زعم القسطلاني.

وقولُ الزرقاني في شرح المواهب بعد أن ساق كلام الواقدي : إن خبر بئر معونة وخبر أصحاب الرجيع جاء إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة، فهذا يدل على أن البخاري أدمجها معها للقرب ـ بعيد جداً، والبخاري أجلّ من أن يفوت عليه مثل هذا، وهو لم يدمج القصتين في الذكر إلا في العنونة، لكنه في تفصيل الأحداث أفرد كل قصة بما صح عنده.

الرد على الزرقاني في استدلاله بكلام الواقدي على إدماج البخاري للوقعتين.

على أن وصول خبر حادثين أو حوادث وقعت لبعوث النبي ﷺ وسراياه في ليلة واحدة أمر غير غريب، بل هو مما يؤلف ويقع كثيراً، لأن النبي ﷺ لم يكد يفرغ يوماً من أيام حياته الجهادية من إرسال بعث هنا، وسرية هناك، وهو ﷺ لا يرسل بعوثه وسراياه إلا وهو مترقب أخبارهم تأتيه بما وقع لهم، وبما عساهم أن يطلبوه من مدد أو إرشاد وتوجيه، فمجيء خبر الحادثين في ليلة واحدة لا يخفى أمره على آحاد الناس فضلاً عن سيِّد المحدِّثين الإمام البخاري.

فدعوى أن البخاري أدمج القصتين لمجيء خبرهما في ليلة واحدة غير مسلّمة؛ لأن مجيء الخبر عن أحداث متعدّدة وقعت في زمن متقارب أو

متوحد لا يسوّغ ادّعاء الإدْماج على البخاري، لأن كثيراً من أخبار الوقائع المختلفة زماناً ومكاناً وأحداثاً كانت تصل إلى النبي ﷺ في وقت واحد وزمن متقارب من الليل والنهار، ولم يؤدِّ ذلك بأحد من الرواة إلى دمج الأخبار وحوادثها وجعلها حادثاً واحداً، وأصل كلام القسطلاني لابن حجر في الفتح، وكان من الحق على القسطلاني أن ينسبه إلى قيّم صحيح البخاري الحافظ ابن حجر ليحمل كلٌّ مسؤوليته.

والبخاري رحمه الله بعد أن عنون لغزوة (الرجيع) وغزوة (بئر معونة) ذكر تحت هذا العنوان الذي توهَّم منه من توهَّم عن البخاري أن صنيعه هذا يوهم أن غزوة الرجيع وبئر معونة شيء واحد.

الرد على ابن حجر في توهيم البخاري.

قال ابن حجر في الفتح: (تنبيه) سياق هذه الترجمة يوهم أن غزوة الرجيع و(بئر معونة) شيء واحد، وليس كذلك كما أوضحته، فغزوة (الرجيع) كانت سرية عاصم وخبيب في عشرة أنفس، وهي مع عضل والقارة، وبئر معونة كانت سرية القراء السبعين، وهي مع رعل وذكوان، وكأن المصنف ـ أي البخاري ـ أدرجها معها لقربها منها، ويدل على قربها منها ما في حديث أنس من تشريك النبي ﷺ بين بني لحيان وبني عصية وغيرهم في الدعاء عليهم، وذكر الواقدي أن خبر بئر معونة وخبر أصحاب الرجيع جاء إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة.

ونحن نسوق حديث أبي هريرة كما أخرجه البخاري رحمه الله ليتبين منه أن البخاري بريء من تهمة الإدماج أو الإدراج بين (الرجيع) و(بئر معونة).

قال البخاري: حدثني إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر، عن الزهري، عن عمرو بن أبي سفيان الثقفي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ سرية عيناً، وأمّر عليهم عاصم ابن ثابت ـ وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب ـ: بل خاله، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفان ومكة ذُكروا لحيٍّ من هُذَيل، يقال لهم بنو لِحْيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا به نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم،

فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فَدْفَد - أي رابية مشرفة - وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا:

لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللَّهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خُبَيب وزيد، ورجل آخر - هو عبدالله بن طارق - كما في رواية ابن إسحاق - فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حَلّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما - أي عبدالله ابن طارق - هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجرَّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما في مكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خُبَيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلِّ ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لأكثرت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللَّهم أحصهم عدداً، ثم قال:

قصة خبيب وزيد بن الدثنة في يقينهما ورسوخ إيمانهما وشديد حبهما لرسول الله ﷺ.

فلست أبالي حين أقتل مسلماً	على أي شقٍّ كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم - قال ابن حجر: لعل العظيم المذكور عقبة بن أبي معيط، فإن عاصماً قتله صبراً بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر.

ثم قال ابن حجر: ووقع عند ابن إسحاق وكذا في رواية بريدة ابن سفيان أن عاصماً لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه وبيعه من سلافة بنت سعد ابن شهيد، وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة العبدري، وكان عاصم قتلهما يوم أحد، وكانت نذرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه، فمنعته الدبر.

هذا أول حديث ساقه الإمام البخاري تحت عنوانه المتقدّم الذي جمع فيه بين غزوة (الرجيع) وغزوة (بئر معونة) مع أسماء الذين قتلوا من رجال الغزوتين، وأسروا في (الرجيع) خبيباً وزيد بن الدثنة، مما أدخل الوهم على من اتهم سياق البخاري بأنه يوهم أن غزوتي (الرجيع وبئر معونة) كانتا شيئاً واحداً.

دلالة حديث أبي هريرة على عدم دمج الواقعتين وجعلهما شيئاً واحداً كما زعمه ابن حجر على البخاري.

والحديث كما يرى أي ناظر فيه مسوق بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، وليس فيه ـ على طوله ـ بالنسبة للأحاديث الآتية في الموضوع عن أنس، عبارة أو كلمة أو حرف يوحي من قريب أو بعيد بشيء مما يخص غزوة بئر معونة أو شيء مما يصل الغزوتين ببعضهما فضلاً عن أن يكونا شيئاً واحداً، لا في أسبابهما المحرِّكة لهما، ولا في عدد رجالهما، ولا في تسمية أمير كل غزوة منهما، ولا في مكان وقعتهما وأحداثهما ووقائعهما.

ثم ساق الإمام البخاري رحمه الله عقب حديث أبي هريرة عدداً من أحاديث أخر تختص بغزوة (بئر معونة) وهي غزوة شهرت في تاريخ المغازي باسم غزوة (القرّاء) لأن رجالها كانوا يعرفون في زمانهم بالقرّاء، وهذه الأحاديث كلها عن أنس، لكنها بأسانيد مختلفة.

أولها ـ قال البخاري رحمه الله: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم (القرّاء) فعرض لهم حيان من بني سُلَيم: رعل، وذَكْوان عند بئر يقال لها (بئر معونة) فقال القوم ـ أي الصحابة ـ والله ما إياكم أردنا، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ فقتلوهم، فدعا عليهم النبي ﷺ في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت.

ثانيها ـ قال البخاري حدثنا عبد الأعلى بن حمّاد، حدثنا يزيد ابن زُريع، حدثنا سعيد عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رِعْلاً، وذَكْوان وعُصَيّة، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدوٍّ فأمدهم بسبعين من الأنصار، كنا نسمِّيهم القرّاء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلّون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنت شهراً، يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب، على رِعْلٍ وذَكْوان، وعُصَيّة، وبني لحيان.

ثالثها ـ قال البخاري رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا همّام، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، قال حدثني أنس أن النبي ﷺ بعث خاله ـ أي خال أنس ـ أخا أم سُلَيم ـ أم أنس ـ في سبعين راكباً، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل، خيّر بين ثلاث خصال ـ أي خيّر النبي ﷺ ـ فقال: يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف، فطُعن عامر في بيت أم فلان، فقال غدّة كغدّة البكر في بيت امرأة من آل بني فلان؟ ائتوني بفرسي فمات على ظهر فرسه، فانطلق حرام ـ أخو أم سُلَيم ـ هو ورجل أعرج وثالث معهما هكذا صوّب هذه العبارة ابن حجر، قال حرام أخو أم سليم لصاحبيه: كونا قريباً فإن آمنوني كنتم وإن قتلوني أتيم أصحابكم.

قال حرام للمشركين: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فجعل يحدِّثهم، وأمأوا إلى رجل، فأتاه من خلفه فطعنه حتى أنفذه بالرمح، قال حرام خال أنس: الله أكبر فزت ورب الكعبة، فلحق الرجل فقتلوا كلهم غير الأعرج، كان في رأس الجبل.

رابعها ـ قال البخاري رحمه الله: حدثني حيان، أخبرنا عبدالله، أخبرنا معمر قال: حدثني ثُمامة بن عبدالله بن أنس انه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: لما طعن حرام بن ملحان يوم بئر معونة قال بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة.

خامسها ـ حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: قالت عائشة: فكان

عامر بن فهيرة غلاماً لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها، فلما خرج رسول الله ﷺ من غار ثور هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه خرج معهما عامر بن فهيرة يخدمهما، يُعْقبانه حتى قدما المدينة، فقتل عامر بن فهيرة يوم (بئر معونة). قال البخاري: وعن أبي أسامة قال: قال هشام بن عروة، وأخبرني أبي قال: لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة قال عامر بن الطفيل: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع.

فأتى النبيَّ ﷺ خبرُهم فنعاهم فقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا» فأخبرهم عنهم.

ثم ذكر البخاري عدداً من الأحاديث في القنوت، وفيها حديث عاصم الأحول الذي سأل فيه أنس بن مالك رضي الله عنه عن موضع القنوت من الصلاة، وذكر له أن فلاناً يخبر عنك أنك قلت: إن القنوت كان بعد الركوع فقال أنس كذب، إنما قنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً أنه كان بعث ناساً يقال لهم القرّاء وهم سبعون رجلاً إلى ناس من المشركين وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد قبلهم، فظهر هؤلاء الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فقنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً يدعو عليهم.

أظهر الفوارق التي تمنع من زعم دمج البخاري قصتي الرجيع وبئر معونة.

هذا عدد من الأحاديث بأسانيد مختلفة كلها عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهي خاصة بغزوة (بئر معونة)، وهي المعروفة في تاريخ الغزوات بغزوة (القرّاء) وكلُّهم من الأنصار، وليس فيها جملة، أو كلمة أو حرف تشير من قريب أو بعيد إلى شيء من غزوة (الرجيع)، فمن أين تسلّل اتهام سياق البخاري - وهو سيد المحدثين - بأنه يوهم جعل (الرجيع) و(بئر معونة) شيئاً واحداً؟ وبين الغزوتين في أحاديث البخاري نفسه مغايرات وفوارق كثيرة.

أولاً - أن غزوة (الرجيع) رجالها عند البخاري عشرة رجال، وغزوة (بئر معونة) رجالها سبعون عند البخاري، كلهم من الأنصار، وكانوا يسمون

القرَّاء في زمانهم، وشهرت غزوتهم باسمهم، وعرفت بين المغازي بغزوة القرَّاء، وعنونَ لها ابن سعد في الطبقات باسم أميرها (المنذر بن عمرو الساعدي الأنصاري) وهو الملقب باسم (المُعْنِق ليموت) أخذاً من قول رسول الله ﷺ (أعنق ليموت) لأنه رضي الله عنه لمّا رأى مصرع حَرَام ابن مِلْحان خال أنس بن مالك شدّ على أعداء الله المشركين الغدرة فقاتلهم، وهو لا يبالي بكثرة جموعهم وقوتهم المادية حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ منوِّهاً بشجاعته وبطولته (أعنق ليموت) أي إنه تقدم للموت وهو يعرفه.

ثانياً ـ إن غزوة (الرجيع) كان أميرها عند البخاري عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح الأنصاري جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وقد سبق لنا أنه خاله، لا جده.

أما أمير (بئر معونة) فهو كما ذكرناه (المنذر بن عمرو الساعدي) وهذا فرق أساسي بين الغزوتين لا يمكن أن يصيرا معه شيئاً واحداً كما زعم من وهَم سياق البخاري.

ثالثاً ـ أن غزوة (الرجيع) كانت مع عضل والقارة كما هو صريح نص البخاري، وهما بطنان من بني سليم وسرية (بئر معونة) كانت مع رعل وذكوان، وهما أيضاً من بني سليم.

رابعاً ـ أن أحداث غزوة (الرجيع) ووقائعها مغايرة كل المغايرة لأحداث ووقائع (بئر معونة)، فأمير (الرجيع) عاصم بن ثابت وقف للموت وقفة الأبطال، فلم يخدع بعهود المشركين ولم يرض أن يثق بهم فقال إذ أعطاهم المشركون العهد ألا يقتلوا أحداً منهم إذا نزلوا إليهم: (أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر) فقاتل حتى قتل في سبعة من رجاله، وقد أكرمه الله تعالى أفضل وأعجب إكرام إذ حمته الدَّبْر أن لا يمسه مشرك، وأما أمير (بئر معونة) فقد ذكرنا موقفه البطولي، وهو وإن كان يتفق في الشجاعة والبطولة وحب الشهادة في سبيل الله مع موقف عاصم أمير غزوة (الرجيع) لكنه يختلف معه في الأسلوب والطريقة التي اختارها للاستشهاد والموت عزيزاً كريماً.

كل هذه المغايرات والفوارق بين الغزوتين مذكورة صراحة في سياق البخاري لأحاديث الغزوتين؛ فكيف إذاً ساغ للحافظ ابن حجر ـ وهو بشهرة فتحه الذي شرح به صحيح البخاري قيِّم شراح الصحيح ـ أن يزعم أن سياق البخاري للغزوتين يوهم أنهما شيء واحد؟

هذا أمر عجيب من ابن حجر فتح به باباً لنقد سياق البخاري دخل منه من لم يسند هذا النقد لصاحبه، فكثَّر على البخاري نقّاده، وهو في الحقيقة الناقد الوحيد، ونقده أملته الغفلة وعدم التعمق في صنيع البخاري، لأن التراجم إنما توضع عنواناً لما يساق تحتها من المسائل والقضايا والموضوعات المتناسبة لا الموحدة.

وجمع عدة بعوث أو سرايا، وذكر أحداثها ووقائعها المختلفة باختلاف أسبابها ونتائجها تحت ترجمة واحدة مع إفراد كل بعث أو سرية بنصوصه الخاصة بوقائعه في مباديه ونهاياته لا يدل من قريب أو بعيد على أن هذه البعوث والسرايا أدمجت فجعلت شيئاًواحداً، وهو أمر معهود عند المؤلفين غير منكور عليهم.

تخصيص كل قصة بأحاديث دليل قاطع على نفي تهمة الإدماج.

ويدل على أن البخاري رحمه الله قصد إلى ذكر أحداث بعوث وسرايا مختلفة الوقائع والأسباب تحت عنوان يجمعها في ترجمته لتشابه بعض أحداثها وتقارب زمنها أنه أفرد لكل بعث منها حديثاً أو أحاديث تخصه ولا تدمج معه وقائع بعث آخر يجعله معه شيئاً واحداً.

ولهذا ساق البخاري رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة بسنده مقصوراً على بَعْث (الرجيع) وما فيه من أحداث ووقائع، ثم قفّاه بذكر عدّة أحاديث مقصورة على أحداث (بئر معونة) بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه.

فقول الزرقاني في شرح كلام القسطلاني في المواهب الذي أخذه من ابن حجر في الفتح ـ بعد أن ساق كلام الواقدي ـ: إن خبر (بئر معونة) وخبر أصحاب الرجيع جاء إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة ـ وهذا محتمل الوقوع ـ بيد أن قوله: فهذا يدل على أن البخاري أدمجها لقرب زمنها ـ بعيد جداً، لأن البخاري رحمه الله لم يدمج القصتين بجعلها قصة واحدة وهذا بيّن لا يحتاج

إلا لإزالة الرمص عن العين، لأن البخاري أفرد كل قصة بذكر ما صح عنده فيها من الأحاديث والآثار.

ووصول أخبار القصتين إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة لا يدل قط على الإدماج المدّعى على البخاري لأن كثيراً من أخبار الوقائع المختلفة زماناً ومكاناً وأشخاصاً، ووقائع وأحداثاً، ومقدمات ونتائج كانت تصل إلى النبي ﷺ في وقت واحد وزمن متقارب من الليل والنهار، ولم نر أحداً يقول إن مجيء أخبار الحوادث المختلفة في وقت واحد يجعلها مدمجة لتصير شيئاً واحداً.

تلميح ابن كثير إلى ترجيح سياق ابن إسحاق من باب التمليح.

ومن أعجب العجب أن نرى ابن كثير ينهض لنقد البخاري فيقول موازناً بين سياقه لقصتي (الرجيع) و(بئر معونة) وسياق محمد بن إسحاق صاحب السيرة، بل مرجِّحاً سياق ابن إسحق على سياق البخاري، بعد أن ذكر حديث أبي هريرة في قصة الرجيع عند البخاري: هكذا ساق البخاري في كتاب المغازي من صحيحه قصة (الرجيع) وقد خالفه محمد بن إسحاق، وموسى بن عقبة، وعروة بن الزبير في بعض ذلك.

ولنذكر كلام ابن إسحق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف، على أن ابن إسحق إمام في هذا الشأن غير مدافع كما قال الشافعي رحمه الله تعالى: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق.

وقبل أن نذكر كلام ابن إسحق كما ساقه ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) نقف وقفة مع ابن كثير، لأن كلامه على غرابته يحتاج للكشف عن بعض ما فيه من الغلو والمبالغة في الثقة في ابن إسحاق، وهو لا يجري في غلوة البخاري في دقة النظر مع علو زمنه عن زمن البخاري.

ذلك لأنه لا يوجد ميزان عند أهل العلم العارفين بالرجال وأقدارهم وخصائصهم يقبل أن يوضع محمد بن إسحق في ميزان مع البخاري.

وإمامة ابن إسحاق التي لا يدفع عنها إنما هي إمامة جمع الروايات والحوادث والقصص، والأشخاص وقبائلهم وبطونهم، وما يحمل إليه وعليه

من أشعار منتحلة يتقبلها بحسن نية وشيء من الغفلة، ولا يمكن أن تصعد إلى مدرجة البخاري في صحة أسانيده وثقة الرجال.

كلمة الإمام الشافعي في تزكية ابن إسحاق لا دلالة لها على دعوى ابن كثير.

وقول الإمام الشافعي الذي ساقه ابن كثير ليزكّي به ابن إسحاق في مخالفته للبخاري لا يحمل أكثر من أن ابن إسحاق جمّاع للروايات حفّاظ للقصص والحوادث ووقائع السيرة التي كانت ولعلها لم تكن، فهو أشبه بتاجر يجمع المواد ويعطيها لمن أراد استخدامها في مقاصده وأغراضه، ولا يعنيه وراء ذلك صحة ما يرويه إسناداً.

وتهذيب سيرته الذي قام به عبد الملك بن هشام حتى أصبحت السيرة الإسحاقية هي هذا التهذيب الذي اشتهر فشرّق وغرب، وغار وأنجد يحمل الدليل القاطع على حدود إمامة ابن إسحاق في المغازي والسير.

إيراد ابن كثير كلام ابن إسحاق وغمزه لسياق البخاري.

قال ابن كثير وهو يسوق كلام ابن إسحق في قصة (الرجيع): قال محمد بن إسحق: حدثنا عاصم بن عمرو بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رَهْطٌ من عضل والقارة، فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه، وهم: مرثد ابن أبي مرثد الغنوي، حليف حمزة بن عبدالمطلب، وهو أمير القوم، وخالد ابن البكير الليثي حليف بني عدي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي، أخو بني جحجبى بن كلفة بن عمرو، وزيد بن الدثنة أخو بني بياضة بن عامر، وعبدالله بن طارق حليف بني ظفر، رضي الله عنهم.

قال ابن كثير: هكذا قال ابن إسحاق: إنهم كانوا ستة، وكذا ذكر موسى بن عقبة وسمّاهم كما قال ابن إسحاق، وعند البخاري كانوا عشرة، وعنده أيضاً كان كبيرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ـ فالله أعلم ـ.

قال ابن إسحاق: فخرجوا مع القوم حتى كانوا على (الرجيع) ماء

لهذيل بناحية الحجاز غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا سيوفهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم، فأما مرثد وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً ثم قاتل حتى قتل وقتل صاحباه.

رسوخ يقين عاصم ابن ثابت واستشهاده يمثلان ذروة منهج الرسالة في عدم الثقة بأعداء دين الإسلام.

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه سلافة بنت سعد ابن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمرَ في قحفه، فمنعته الدبر، فلما حالت بينهم وبينه قالوا دعوه حتى يمسي فيذهب فنأخذه، فيبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً فذهب به، وكان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك وأن لا يمس مشركاً أبداً تنجّساً، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدَّبْر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن.

قال ابن إسحاق: وأما خبيب وزيد بن الدثنة وعبدالله بن طارق فلانوا ورقُّوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبدالله بن طارق يده من القِران، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران.

وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنة فقدموا بهما إلى مكة فباعوهما من قريش بأسيرين كانا بمكة.

رسوخ الإيمان وبلاهة الشرك في محاورة بين زيد بن الدثنة وأبي سفيان بن حرب.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية، ليقتله بأبيه، فأخرجه من الحرم، واجتمع الرهط من قريش فيهم أبو سفيان ابن حرب، فقال أبو سفيان لزيد حين قدِّم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب

أصحاب محمد محمداً ـ قال ابن إسحاق: وأما خبيب فلبث عند ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب ـ أسلمت بعد ـ وذكر ابن إسحق قصتها مع خبيب وطفلها، وقصة قطف العنب الذي رزقه الله خبيباً فكان يأكل منه وما بمكة من ثمرة، وإخراجه إلى التنعيم ليقتلوه، وصلاته الركعتين على نحو قريب مما ذكره البخاري.

قال ابن كثير: وفي مغازي موسى بن عقبة أن خبيباً وزيد بن الدثنة قتلاً في يوم واحد، وأنهم لما صلبوا زيداً رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده ذلك إلا إيماناً.

وذكر ابن عقبة أنهم لما وضعوا خبيباً على الخشبة نادوه بمثل ما نادوا به زيداً في حبِّه رسول الله ﷺ، فأجابهم بـأنه يفديه ﷺ بنفسه من أقل ألم يلم به، على غرار ما أجابهم به زيد رضي الله عنهما.

الاختلاف
بين سياق البخاري وسياق ابن إسحاق
في قصتي (الرجيع) (وبئر معونة)

ذكر ابن كثير في (البداية) عن الواقدي أن سرية (الرجيع) كانت في صفر سنة أربع من الهجرة، وقال: بعثهم رسول الله ﷺ لأهل مكة ليخبروه، ثم قال: والرجيع على ثمانية أميال من عسفان.

ثم ساق ابن كثير حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإخراج البخاري، وهو أوفى الروايات التي ساقها ابن كثير، وقال في عقبها: هكذا ساق البخاري في كتاب المغازي من صحيحه قصة (الرجيع) ثم قال: ورواه ـ أيضاً ـ في التوحيد، وفي الجهاد من طرق عن الزهري عن عمرو ابن أبي سفيان وأسد بن حارثة الثقفي حليف بني زهرة.

ثم قال ابن كثير: وفي لفظ للبخاري، بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عيناً، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وساق نحوه.

الوجه الأول في الاختلاف بين سياقي البخاري وابن إسحاق

وقد حاولنا في نطاق البحث أن نجيل النظر في سياق البخاري وابن إسحق للقصة، فكان من أظهر ما بدى لنا من التفاوت والاختلاف بينهما عند التحقيق هذه الأمور.

أولاً ـ أن البخاري ذكر سرية (الرجيع) في حديث أبي هريرة على أنها كانت عيناً لرسول ﷺ بعثها إلى مكة لتأتي بأخبار قريش، وهذا أمر معقول تقتضيه متابعة السياسة للوقوف على ما يجري في صفوف أعداء المجتمع المسلم من تدبير وحركة لأن سَرِيّة (الرجيع) كانت قليلة عدد الرجال مما يناسب أن تكون عيناً لمعرفة الأخبار، ويُسْر التخفي للإحاطة بشيء من

الأسرار، وكانت بُعَيد (أُحد) التي جرى فيها على المجتمع المسلم ما جرى من شدائد الأحداث والمحن، وكانت آثارها وعواقبها لا تزال تقلق المجتمع المسلم المتحفز إلى مفاجآت العدو، وتجعل رسول الله ﷺ شديد الحرص على معرفة ما يدور في محافل قريش وتفكيرها وتدبيرها، ولاسيما بعد الذي وقع في (حمراء الأسد) من التآمر القرشي بزعامة أبي سفيان بن حرب، وعزمهم على الرجوع إلى المدينة ليفرغوا ممَّن بقي من أبطال كتائب الإسلام، وما كان من موقف الوفاء والنبل الذي وقفه معبد الخزاعي مثبِّطاً ومخذِّلاً أولئك المتحمسين للرجوع إلى مهاجمة المجتمع المسلم في عقر داره في المدينة المنورة، إذ قال لقريش وهي تستعد للرجوع بأن محمداً ﷺ وأصحابه قد جمعوا لهم جموعاً لا طاقة له بلقائهم، وهم متحرقون غيظاً عليهم، يريدون قتالهم وهم في الطريق إليهم، وكأنهم بمقدمة الخيل تحمل الأبطال إليهم قد أظلتهم، ففزعوا ورعبوا، وداخلهم الفشل، وعزموا على السير إلى مكة فراراً أن ينزل بهم ما أنبأهم به معبد الخزاعي من مفاجأة القتال، فكان من الحزم السياسي وحكمة التدبير، وبعث اليقظة الحازمة أن لا يترك رسول الله ﷺ أمر قريش وتدبيرها دون أن يعمل على التعرف عليه والإحاطة به، ليكون أصحابه على بصيرة من أمرهم.

أما ابن إسحاق فقد جعل سبب هذه السرية استجابة رسول الله ﷺ لنفر من عضل والقارة قدموا على رسول الله ﷺ وذكروا له أن فيهم إسلاماً وهم يريدون أن يبعث معهم نفراً من أهل العلم في أصحابه، لتعليمهم شرائع الإسلام، فبعث معهم ﷺ ستة نفر من أصحابه ليقوموا بهذه المهمة التي هي إحدى دعائم الدعوة إلى الله تعالى.

التوفيق بين سياقي البخاري وابن إسحاق في وجه الاختلاف الأول بين السياقين.

وهذا ـ عند التأمل ـ ليس اختلافاً ولا تفاوتاً يوجب الموازنة بين سياقي الغزوة عند البخاري وابن إسحق، لاحتمال التوافق بالتوفيق بين الروايتين، وذلك بحمل السبب الأول لبعث السرية على إرادة التعرف لأخبار قريش وتدبيرها، ليتخذ رسول الله ﷺ أهبته واستعداده لما عسى أن تكون قريش قد دبرته وائتمرت به من مكر سيء يكيدون به المجتمع المسلم.

ثم قُبيل أن تأخذ البعثة طريقها إلى مهمتها في التعرف على أخبار المشركين وهم في بلدهم يأتمرون حضر نفر من عضل والقارة ليطلبوا من رسول الله ﷺ بعث نفر من أصحابه يفقهونهم في الدين، فرأى رسول الله ﷺ أن فرصة إجابتهم إلى طلبهم تتحقق بهذه السرية المرسلة إلى مكة عيناً لتعرف أخبار المشركين فيها.

ولا تنافي مطلقاً بين مهمتي البعثة: مهمة تعرف أخبار الأعداء من قريش في مكة، ومهمة التفقيه في الدين، وحينئذ فلا اختلاف ولا تفاوت في سياقي البخاري وابن إسحاق لقصة (الرجيع).

وقد ذكر الزرقاني في شرح المواهب نحو هذا، فقال: ويجمع ـ أي بين السياقين ـ بأنه لما أراد بعثهم عيوناً وافق مجيء النفر في طلب من يفقههم في الدين، فبعثهم في الأمرين.

الوجه الثاني في الاختلاف بين سياقي البخاري وابن إسحاق

ثانياً ـ أن البخاري رحمه الله ذكر أن سرية (الرجيع) كانوا عشرة رجال، موافقاً لابن سعد على ذلك، وجرى ابن إسحاق على أنهم كانوا ستة نفر، وهذا ـ أيضاً ـ ليس اختلافاً ولا تفاوتاً لاحتمال أن يكون رجال السرية الأصليين ستة نفر، والأربعة المكملون للعشرة كانوا أتباعاً لهم فلم يذكرهم ابن إسحق، واكتفى البخاري بذكر عدد من كانوا في السرية إجمالاً.

وقد أشار إلى هذا الحافظ ابن حجر فقال بعد أن ذكر في رجال السرية معتّب بن عبيد ومغيث بن عوف كما ذكره موسى بن عقبة: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعاً فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم.

الوجه الثالث والجواب عنه

ثالثاً ـ أن البخاري ذكر أن السرية كانت تحت إمرة عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح الأنصاري، أما ابن إسحق فجعل أمير السرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي.

وهذا الاختلاف في أمير السرية يحتمل أن أحد الأميرين المسمَّيَيْن كان أمير حرب، والآخر كان أمير تفقيه في الدين على حسب معرفتهما وتربيتهما في هذه المعرفة، ولذلك لما أبى عاصم أن ينزل على عهد الكفار وذمتهم قاتلهم

حتى فني نبله، فقتلوه، وقتلوا معه سبعة من أصحابه.

وفي رواية أن عاصماً نثر كنانته، وفيها سبعة أسهم، فقتل بكل سهم رجلاً من عظماء المشركين، ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه، ثم سل سيفه، وقال: اللّهم إني حميت دينك صدر النهار فاحمِ لحمي آخره، وقُتل عاصم في سبعة من رجال السرية، وفي هذا دلالة على أن عاصماً كان أمير حرب السرية إذا حوربت، وأن مرثداً كان أمير التفقيه في الدين وتعليم الجاهلين.

الوجه الرابع والجواب عنه.

رابعاً ـ أن رواية البخاري رحمه الله ذكرت أن الغادرين برجال السرية، الذين قتلوا من قتلوا من رجالها هم بنو لحيان، وهم حيٌّ من هذيل، ولم يذكر البخاري اشتراك عضل والقارة في هذا الغدر والقتل الخئون.

فأما ابن إسحاق فقد قال: إن عضل والقارة ـ وهما حيّان من هذيل، ومنهم النفر الذين قدموا على رسول الله ﷺ، يطلبون منه من يفقههم في الدين من أصحابه ـ هم الذين غدروا برجال السرية، واستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يرع رجال السرية وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم، فأخذ رجال السرية سيوفهم ليقاتلوا الغادرين بهم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا القوم حتى قتلوا، ونزل إليهم بالعهد خبيب وزيد وعبدالله بن طارق الذي تفلّت منهم في الطريق، وسل سيفه ليقاتلهم فرجموه بالحجارة حتى قتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة.

ومن هذا يتضح أن لا وجه لما زعمه ابن كثير من وجود تفاوت واختلاف بين صنيعي البخاري وابن إسحق في سياقهما لقصة (الرجيع)، وباب التوفيق واسع يمكن الخروج منه ببعض التأويل القريب عن مضائق الاختلاف في ظاهر الأمر بعد التأمل والنظر.

منحى آخر في سبب سرية (الرجيع)

على أن سرية (الرجيع) كان لها عند بعض أصحاب المغازي منحى آخر يتصل بسرية عبدالله أنيس الأنصاري إلى أحد شياطين الفجور من أخابث العرب، هو سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي ثم اللِّحياني.

وكان سفيان هذا يقيم بـ (عُرَنة) مدخل عرفات للحجيج القادمين من مكة ومنى، وليست (عرنة) من (عرفات) لوقفة الحجيج، فمن وقف بها ولم يقف بعرفة فلا حج له.

وقد توالت الأخبار على رسول الله ﷺ أن هذا الفاجر الخبيث، سفيان ابن خالد بن نبيح الهذلي ـ لعنه الله ـ قد جمع الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فأراد النبي ﷺ أن يغافصه فيقضي عليه في زوبعة مهده، قبل أن يستفحل أمره ويستشري شره، فبعث إليه عبد الله بن أنيس الأنصاري، ثم الجهني وحده ليأخذه بغتة وهو غارق في فجور غروره.

سَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بن أُنَيْس

إلى سفيان بن خالد وقتله

سيرّ النبي ﷺ عبدالله بن أنيس إلى سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي يوم الإثنين لخمسٍ خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ليقتله بعد أنْ استفاضت الأخبار على رسول الله ﷺ أن هذا الفاجر الخبيث يريد حرب المجتمع المسلم، وهو يجمع الجموع لذلك.

شجاعة عبدالله ابن أنيس ووصف النبي ﷺ سفيان ابن خالد له ليعرفه.

وكان عبدالله بن أنيس رضي الله عنه من أفذاذ أصحاب رسول الله ﷺ شجاعة وبطولة وجرأة لا يهاب الموت في لقاء الرجال، ولكنه كان لا يعرف هذا الخبيث الفاجر الجوّاظ، فقال لرسول الله ﷺ: صفه لي يا رسول الله، حتى أعرفه، فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيته هبته وفَرِقْتَ، ووجدت له قشعريرة، وذكرت الشيطان».

وهذه صفات مفزعة مرعبة، تخلع القلب من بين أضالع من يسمعها، وتخيف أشجع الأبطال وأجرأهم أن يقدم على ملاقاة هذا الفاجر الذي تقمّصه الشيطان، أو تقمّص هو الشيطان، ولكن رسول الله ﷺ كان أعرف البشر بشياطين الفجور في البشر، كما كان ﷺ أعلم الناس بأصحابه وموازينهم في البطولة، وإقدامهم على الموت في سبيل إعلاء كلمة الله استجابة لرسول الله ﷺ إذا دعاهم لما يحييهم حياة أبدية خالدة.

وكان عبدالله بن أنيس من هؤلاء الذين يعرف رسول الله ﷺ شجاعتهم وإقدامهم على مواقف البطولة الفدائية، فندبه رسول الله ﷺ لمّا لم ير أن يندب له سواه من أبطال الصحابة رضوان الله عليهم.

ولما سأل عبدالله بن أنيس رسول الله ﷺ أن يصف له هذا الفاجر الخبيث وصفه له فصدقه، وضرب له المثل في عتوه وفجوره بالشيطان في لبسته الشيطانية الظاهرة والخفية مما لم يتفق لأحد من أعداء الإسلام أن يكون في صورته التي وضعه رسول الله ﷺ في إطارها.

وكانت الأخبار قد توالت على رسول الله ﷺ أن هذا الخبيث سفيان ابن خالد بن نبيح الهذلي اتخذ من (عُرَنة) وهي مدخل عرفات للحجيج القادمين من مكة والمدينة مقاماً له، ومجمعاً لكل من يلتف حوله من صعاليك العرب ومرتزقيهم لحرب رسول الله ﷺ، فأراد صلوات الله عليه أن يبغته بما لم يكن في حسابه وتدبيره ليقضي عليه وهو في مهده قبل أن يزداد عتوه، ويكثر جمعه، فبعث إليه البطل الجريء عبدالله بن أنيس الأنصاري الجهني صاحب السوابق البطولية الفدائية، وسيّره إليه في خفية حتى لا تتسرب أخبار سيره إلى هذا الفاجر، فيحذر، وكان عبدالله بن أنيس رضي الله عنه بطلاً شجاعاً جريء القلب لا يهاب الموت ولا يَفْرقَ من لقاء الأبطال في حَوْمة الوغى، ولهذا اختاره ﷺ ووصف له هذا الفاجر وصفاً محذراً فقال: «إذا رأيته هبته وفرقت، ووجدت له قشعريرة، وذكرت الشيطان» فقال عبدالله ابن أنيس رضي الله عنه: يا رسول الله ما فرقت من شيء قط، فقال له رسول الله ﷺ: «آية ما بينك وبينه ذلك» ليزيد في تحذيره، ويشدّ من عزيمته.

وهذا الوصف لشخصية هذا العتيّ الفاجر يدل على أنه بلغ من قبح المنظر، وسوء المشهد، وشراسة الخلق ولؤم الطبع، ودناءة النفس ما تتضاءل معه رؤوس الشياطين التي ضربها الله مثلاً لأقبح القبح وأسوأ السوء.

فرؤيته تمثل لرائيه صورة الشيطان في أقبح وأبشع مرائيه، ألقى الله عليه من أوصاف الفجور والقبح وبشاعة المنظر ما يجعله أمام كل من يراه مرعباً مخيفاً، يهابه أفتك الناس وأجرؤهم على الفتك.

فخرج إليه عبدالله بن أنيس رضي الله عنه، يمشي وحده، وليس معه إلا سيفه، وليس له على هذا الفاجر دليل سوى ما وصفه به رسول الله ﷺ، حتى وصل إلى موضعه الذي يقيم فيه، ويجمع الصعاليك على أرضه في

(عرنة) ولقيه في هذا الموضع وحوله جموع من الصعاليك والفتّاك، فوجده يمشي ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه من المرتزقة والفجار.

قال عبدالله بن أنيس رضي الله عنه: فهِبْته وعرفته بنعته ﷺ له، وقلت في نفسي: صدق الله ورسوله، فلما دنوت منه قال: ممّن الرجل؟ قلت: من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد، فجئتك لأكون معك، وكان رسول الله ﷺ قد قال لابن أنيس (انتسب إلى خزاعة).

فقال الجوّاظ العُتّل ابن نبيح: أجل، إني لفي الجمع له، قال ابن أنيس: فمشيت معه وحدثته فاستحلى حديثي.

شجاعة وحكمة ابن أنيس.

وكان ابن أنيس قد استأذن النبي ﷺ أن يقول ـ أي من المعاريض ولحن الكلام والتورية ـ ما يدخل على هذا العتل الجواظ الفجور الطمأنينة إليه، حتى لا يداخله الشك فيه، وفي مجيئه إليه وموقفه منه ليؤكد له أنه جاء إليه ليكون معه.

قال ابن أنيس رضي الله عنه وهو يحدّثه ليرضي غروره: عجباً لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث، فارق الآباء، وسفّه أحلامهم.

وهذه كلمات سداها ولحمتها من الحق الصريح البين، فهي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها إلهام الإيمان الصادق، واليقين الراسخ، وتنزيل السكينة على قلب كل مؤمن موطّد دعائم الإيمان وآيات الإخلاص المستنير بنور الهداية، وهي صريحة في مبانيها، بيّنة في معانيها، واضحة في حقائقها، ليس فيها من معاريض الكلام ولحنه وتوريّاته شيء، ولكن جهول هذيل وجواظ لحيان ابن نبيح لم يعقل منها إلا كما تعقل الحُمُر من أسفار الهداية والإيمان والمعرفة بالحق والعلم بالله تعالى ورسالاته إلى خلقه، وهي تحملها على ظهورها الدّبرة، فابتلعها كما سمعها على ما فيها من حميم يهرأ أمعاءه ويرسله إلى هاوية الفناء والعذاب المقيم، وكلها حق وهدى لأن محمداً رسول الله ﷺ أحدث ديناً هو الإسلام دين الحق الذي أرسله الله به ليخرج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وهو دين سفّه عقول فجّار الطغاة من عَبَدة الحجارة والأوثان.

فقال العتل الخبيث ابن نبيح يستحلي كلمات ابن أنيس ويستطعمها متنفّجاً، قد نفشه الغرور الأحمق: إنه ـ أي محمداً ﷺ ـ لم يلق أحداً يشبهني، فوقعت كلمة هذا الفاجر الخبيث تحت قدمي عبدالله بن أنيس فداسها مع رمال الصحراء العرنية، ولم يعرها سمعاً يشغله عن القيام بحق رسالته التي بعثه بها رسول الله ﷺ، ومضت مارّة بأذنيه إلى ملاقف الرياح كأن لم يسمعها لتفاهتها إلى جانب ما جاء إليه من عظيمة العظائم.

ثم قال ابن أنيس يصف هذا الفاجر المتشيطن في مشيته وهو يتوكأ على عصا يهدّ الأرض من ثقل وطئه وعتو كبريائه وهو يماشيه ويحدثه حتى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه، وهم يطيفون به، ويلتفُّون حول خبائه، فقال لابن أنيس: هلمّ يا أخا خزاعة، فدنوت منه، وقال: اجلس ومشيت معه ساعة قبل الجلوس ثم جلست معه حتى هدأ الناس ونام أصحابه اغتررته، وحملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه، ثم أقبلت فصعدت جبلاً فدخلت غاراً، وأقبل الطلب وأنا مكتمن في الغار، وضرب العنكبوت على الغار، وأقبل رجل معه إداوة ضخمة ونعلاه في يده، وكنت حافياً فوضع إداوته ونعله، ثم قال لأصحابه: ليس في الغار أحد، فانصرفوا راجعين، فخرجت فشربت ما في الإداوة ولبست النعلين وكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد، فقال لي عليه الصلاة والسلام: «أفلح الوجه» فقلت: أفلح وجهك يا رسول الله، ووضعت رأسه بين يديه، وأخبرته خبري، ودفع إليّ عصاً وقال: «تخصّرْ بها في الجنة، فإن المتخصرين في الجنة قليل».

فكانت هذه العصا عند عبدالله بن أنيس حتى إذا حضرته الوفاة أوصى أن يدرجوها في أكفانه، ففعلوا ودفنت معه.

* * *

قتل ابن نبيح كان سبباً في محنة الرجيع في رواية الواقدي.

أما المنحى الآخر في سبب سرية الرجيع ـ الذي أثارها وأشعل أوارها حتى انتهت بما انتهت إليه من الغدر الخئون والخيانة الغادرة مما أدّى إلى قتل جميع رجالها العشرة وقائدهم عاصم بن ثابت ـ فيرجع إلى ما ذكره الواقدي

متصلاً بقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي ثم اللحياني الذي قتله عبدالله ابن أنيس لتجميعه الجموع لمهاجمة المجتمع المسلم وإشعال الحرب على رسول الله ﷺ.

روى الواقدي عن شيوخه قال: مشت بنو لحيان من هذيل بعد قتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي إلى عضل والقارة فجعلوا لهم إبلاً على أن يكلّموا رسول الله ﷺ أن يُخرج إليهم نفراً من أصحابه، فقدم سبعة نفر من عضل والقارة مقرّين بالإسلام فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم رسول الله ﷺ رهطاً عشرة رجال، كما جاء في رواية الصحيح، وأمرّ عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، فلما وصلوا معهم إلى (الرجيع) وهو ماء لهذيل غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً ليعينوهم على قتلهم بعد أن عاهدوهم على أن لايقتلوهم، ولكن الغدرة خاسوا بالعهد فقتلوهم إلا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة رحمهما الله ورضي عنهما.

فهذا المنحى يدل صراحة على أن بني لحيان مشوا إلى عضل والقارة وهما بطنان من هذيل فأغروهم على خيانة الله ورسوله والمسلمين من أجل قطيع من الإبل قدّموه لهم ثمناً لخيانتهم وغدرهم.

وقبلت عضل والقارة أن يقوم نفرهم الذين قدموا على رسول الله ﷺ فحدّثوه الكذب والبهتان، وزعموا له ﷺ أن فيهم إسلاماً وهم منطوون على أحط ضروب الغدر، وأسفل دناءات الخيانة، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم نفراً من أصحابه يعلمونهم الدين وشرائع الإسلام، وقد استأجرهم بنو لحيان قوم ابن نبيح الخبيث الفاجر بأبخس وأحط ما يستأجر به مرضى القلوب وضعاف النفوس للقيام بأحط خيانة تشمئز منها المروءة العربية فضلاً عن مكارم الدين وأخلاقه، لأن هؤلاء القوم تجردوا من كل إنسانية من أجل سقط من فتات متعفّن تتلمظ إليه النفوس المريضة بالتعبد لرغائب الشهوات الوضيعة.

كشف عن معالم منهج الرسالة في سرية عبدالله بن أنيس.

وفي سرية عبدالله بن أنيس آيات بينات من جوانب منهج رسالة الإسلام التي ينبغي أن تحتذى في حياة المجتمع المسلم طريقاً للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وإعزاز الأمة الإسلامية في أوطانها المتفرقة، وتفرّقها المذل.

وقد نثرنا بعض هذه الآيات في عرضنا لأحداث القصة، لنذكر بما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم في الدفاع عن كيانه ودينه، وعزته وكرامته، وخصائصه التي كسبها من التربية النبوية له فأصبحت في تاريخه معلماً تميزه عن سائر الأمم الضالّة المتكالبة عليه تريد أن تلتهمه للقضاء على رسالته رسالة الهدى والنور والحق، ولتكون عقبات في طريق دعوته إلى إقامة موازين العدل والتآخي والتراحم، حتى تنفرد ديمقراطيتهم الملحدة الداعرة بالسلطان في الأرض.

فالرسول ﷺ رأى تجمعات الشرك والوثنية تتكاتف لتقف في وجه مسيرة الدعوة إلى الله، وسمع ﷺ عن تجمعات الفجور والكفر حول سفيان ابن خالد بن نبيح الهذلي ثم اللحياني لمهاجمة المجتمع المسلم في عقر داره، فندب عبدالله بن أنيس الأنصاري ثم الجهني وحده ليقضي على تجمعات هذا الفاجر الخبيث بالقضاء عليه قبل أن يتعاظم خطبه ويتفاقم خطره، لأن الذين تجمّعوا حوله كانوا شراذم من صعاليك العرب وفتاكهم، لا يحزمهم إلا رباط الفجور، وسفك الدماء ونهب الأموال، وهتك الاعراض، وسوء الأخلاق، وأخبث المقاصد والأغراض.

فاستجاب عبدالله بن أنيس لدعاء رسول الله ﷺ لمّا نُدب إليه، وأسرع إلى الصدع بأمره وهو يعلم أنه يخرج فلا يدري هل يحالفه النجح فيما ندب إليه، أم يصادفه الموت فيتخطفه وهو في مسيره.

وهذا ما يجب أن يكون عليه كل مسلم في حياته، ومن ثَمّ أقبل النصر على المسلمين في سحائب المحن تمطرهم بلاءً وتمحيصاً، فيزدادون على الحياة الجادة إقبالاً يطلبون الموت في مظانّ الجهاد لنصرة الحق.

وقد كانت شجاعة عبدالله بن أنيس الفدائية نسيج وحدها، وكان

تصرفه مع هذا الفاجر الخبيث تصرف البطل المؤمن الذي لا يهزه فجور أفجر الفاجرين في مظهرهم ومخبرهم، وكان رضي الله عنه قوي القلب، ثبت الجنان، راسخ اليقين، عظيم الإيمان.

فقد لقي فاجر هذيل، وخبيث لحيان، فلم يأخذه الفزع ولم يروعه الرعب، فماشاه وتحدث إليه، وعرفه بنعت رسول الله ﷺ له، فلم يفرق منه، حتى دخل معه خباءه وأصحابه حوله لا يردون له إشارة، ولا يرجعون إليه همساً.

ولم يتلبث ابن أنيس رضي الله عنه إلا بقدر أن يسدل الليل ثوب ظلماته على الحياة ويسكن هرج الفجار إلى هدأة النوم، وحينئذ يرى ابن أنيس رضي الله عنه أن فرصته تناديه وأن سيفه يدعوه، وهو أنيسه الوحيد في غربته الفدائية، فيقتل هذا الفاجر الخبيث ويحتز رأسه ويحملها معه في أوبته إلى رسول الله ﷺ، ويقضي على تجميعه وجموعه.

ويستقبل النبي ﷺ صاحبه البطل عبدالله بن أنيس رضي الله عنه استقبال نموذج أعدّه ﷺ بتربيته البطولية ليكون أسوة في حياة أمته.

وقد صحّح ابن هشام أن عبدالله بن أنيس قال هذه الأبيات في سريته، وما وقع فيها:

تركت ابن ثور كالحوار وحوله	نوائح تفري كل جيب مقدّد
تناولته والطعن خلفي وخلفه	بأبيض من ماء الحديد مهند
أقول له والسيف يعجم رأسه	أنا ابن أنيس فارساً غير قُعْدُدِ
وقلت له خذها بضربة ماجد	حنيف على دين النبي محمد
وكنت إذا هم النبي بكافر	سبقت إليه باللسان وباليد

آثار التربية المنهجية في مواقف أبطال سرية الرجيع.

ومن يتأمل موقف أبطال سرية (الرجيع) وما أبدوا من صبر صبور وشجاعة خارقة، وجلد على عظائم الأمور، ومقابلة لشدائد المحن بالرضا والتسليم، وتطلُّب للموت في ميادين العزّة والكرامة، والترفّع عن دنيات الحياة تطلُّباً للحياة من سمو وتقدّم للتضحية بأرواحهم، وهي أعز وأغلى ما يملكون، وإقدام على الاستشهاد برؤوس مرفوعة لا تطأطىء لغير عزة الله

وجبروته ـ يتجلّى له موقف الانحطاط الذي تمثل في الغدر والخيانة التي تسربلها الهذليون واللحيانيون، كما يتجلى له سمو التربية التي ربىَّ عليها النبي ﷺ مجتمعه المسلم تطبيقاً لمنهج رسالته الخالدة.

وقد كانت هذه التربية ممثلة بآثارها العملية في مواقف أبطال سرية (الرجيع) الذين رسخ إيمانهم بالله تعالى، فكانوا في أشد مواقف الأزمات والتضحية أثبت من الأطواد الشامخات، كما ظهر ذلك في مواقف عاصم ابن ثابت أمير السرية في رواية البخاري، ومن قتل معه من أقرانه في البطولة وثبات الإيمان.

وكما ظهر في مواقف خبيب وزيد بن الدثنة، وهما يرفعان على خشبة الصلب ليقتلا على أبشع صورة وهم يرون الموت يمشي إليهم في رماح ونبل الغادرين من خائني هذيل ولحيان، ثم في موقف خبيب وهو محبوس في بيت ماوِّية مولاة حُجَير بن أبي إهاب وهي تحدث عنه بعد إسلامها فتقول: ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، طلب مني حين أجمعوا على قتله حديدة يتطهّر بها استعداداً للموت، فغفلت عن ابن لي صغير، فدرج الطفل إلى خبيب، والموسى في يده فخشيت أن يقتله، ففزعتُ فزعةً عرفها خبيب، فقال أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، وفي رواية (ما كنت لأغدر) وهي رواية تعبر عن سمو التربية في المنهج الإسلامي؛ لأنها تبين أن الغدر أقبح القبح، يستوي فيه الأعداء والأولياء، لأنه خصلة ذميمة منحطة لا تصدر إلا عن نُفس جانبتها بداثه الفضائل الإنسانية.

ثم كما ظهر في موقف زيد بن الدثنة وخبيب، وقد سألهما فجّار الشرك والوثنية ـ ساعة رفعهما إلى خشبة الصلب ليقتلوهما على هذه الصورة الشنيعة البشعة تشفياً لأحقادهم فيهما وهما في قبضة أيديهم لا يخافون فرارهما من القتل ـ ننشدكما الله أتحبّان أن محمداً في مكانكما نضرب عنقه، وأنكما في أهلكما؟ فقال زيد بن الدثنة وخبيب بلسان ينطق بقوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ تعبيراً عما ملأ قلبيهما من إجلال لرسول الله ﷺ وحبه حباً فوق حبهما نفسيهما اللتين بين جنبيهما: ـ والله ما نحب أن يفدينا محمد ﷺ بشوكة تؤذيه وهو في مكانه، وأنّا بين أهلينا.

فقال أبو سفيان بن حرب وكان قائد القوم وزعيمهم: والله ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه كما يحب أصحاب محمد محمداً.

أجل إنها مواقف لا تجود بمثلها الحياة، ولا يعرفها البشر في تاريخ المجتمع البشري كله، لأنها مواقف تسامى فيها الإيمان في سموه ورسوخه تسامياً أملاه المنهج التربوي الذي ربى عليه محمد ﷺ مجتمعه المسلم، وجُعل شريعة في هذا المنهج قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده ونفسه التي بين جنبيه» فقال عمر بن الخطاب وهو يسمع التعبير عن هذا المنهج: لأنت يا رسول الله أحب إليّ إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر» يعني إنك الآن كمل إيمانك إذ رقيت إلى ذروة الحب الإيماني.

إنها مواقف نور الإيمان وصفائه أمام ظلمات الكفر وكدورته وتسفّله ووضاعته وأحقاده وضغائنه، ومواقف البطولة المسلمة أمام فجور الشرك والوثنية، ومواقف حب الموت شهادة في سبيل الله لإعلاء كلمته أمام مهانة الاستعباد الكفور للشهوات، ومواقف الهداية أمام حالك الظلمات.

* * *

ذكر خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً لم يعرفه أحد من أهل المغازي.

بقي في بحث سرية (الرجيع) إشكال غير مدفوع إلا بتعسّف التأويل المتعصب للأسانيد، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في (الفتح) وهو يتكلم على قول أبي هريرة في حديثه عند البخاري: وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، واعتمد البخاري على ذلك، فذكر خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً، وهو اعتماد متجه، لكن تعقّبه الدمياطي ـ شرف الدين، عبد المؤمن ابن خلف، أحد الأعلام الأفذاذ في القرن السابع ـ فقال: إن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي شهد بدراً، ولا هو قتل الحارث ابن عامر، وإنما ذكروا أن الذي قتل الحارث بن عامر ببدر هو خبيب بن إساف وهو غير خبيب بن عدي، وخبيب بن إساف أنصاري خزرجي، وخبيب ابن عدي أنصاري أوسي.

قال ابن حجر يجيب عن هذا الاعتراض القوي الذي لم ينكره أحد من الباحثين في القديم ولا في الحديث: قلت ـ أي ابن حجر ـ يلزم من كلام الذي قال ذلك ردّ هذا الحديث الصحيح ـ وما في ذلك ـ؟ وصحة الحديث هنا ترتبط بصحة السند، وقد عارضها إجماع أولي الشأن من علماء المغازي بأن متن هذا الحديث غير صحيح تاريخاً، وقاعدتهم المتفق عليها أن صحة السند لا تستلزم صحة المتن، فردّ الحديث الصحيح سنداً لما عارضه من ضعف أو وهم في المتن لا يهدم شيئاً استقام بناؤه.

ثم قال ابن حجر مشيّداً لكلامه: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث ابن عامر ما كان لاعتناء بني الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى، ولا بقتله مع التصريح في الحديث الصحيح ـ سنداً ـ أنهم قتلوه به.

ثم نكص الحافظ على عقبيه متراجعاً بما يهدم إجابته، فقال: لكن يحتمل أنهم قتلوه ـ أي خبيب بني عدي ـ لكون خبيب بن إساف قتل الحارث على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث.

هذا كلام ابن حجر، أما النظر فيه فمن وجوه.

مناقشة ابن حجر في انتصاره لصحة السند مع ضعف المتن.

أولاً ـ إن صحة حديث البخاري الذي اعتمد عليه في ذكر خبيب ابن عدي فيمن شهد بدراً لا تتلاقى مع كلام الدمياطي الذي جزم بأن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي شهد بدراً، وهذا حكاية عن ثقة إمام لإجماع أهل هذا الشأن بأن خبيب بن عدي لم يذكره أحد من أهل المغازي فيمن شهد بدراً، وهذا لا ينافي صحة هذا الحديث سنداً، والحديث ليس فيه نصٌّ على خبيب بن عدي، بل ذكر خبيب غير منسوب، فاحتمال أنه خبيب بن إساف قائم لم يدفع، فلا وجه لاعتماد البخاري على هذا النص الخالي من نسبة خبيب لعدّ خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً، وحينئذ فلا وجه مطلقاً لقول الحافظ ابن حجر: وهو اعتماد متجه، ومن المعروف عند أهل الحديث أن صحة السند لا يلزمها صحة المتن، فالحديث صحيح سنداً ولا دلالة في متنه على ما اعتمد عليه البخاري، فلعل متن الحديث

دخله الوهم ففسر بما لا دلالة له عليه، ولا سيما مع اتحاد الاسم، وأما أسر خبيب بن عـدي فلما قيل أنه هو الذي قتل الحارث بن عامر، والنص لا يمنع منه، ولكن كلام الدمياطي صريح في ردِّ هذا التفسير، لا في ردِّ صحة الحديث سنداً ـ إذ لم يتعرض الدمياطي لذلك قط.

ثانياً ـ إن قول الحافظ ابن حجـر: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر ما كان لاعتناء أبناء الحارث بن عامر بأسر خبيب معنىً ولا بقتله.

هذا فرض لا وزن له في الرد على اعتراض الدمياطي، لأن أبناء الحارث بن عامر جاءتهم هذيل بخبيب بـن عدي أسيراً، وكان أبوهم الحارث بن عامر قد قتله المسلمون في بدر، وشاع على الألسنة أن الذي قتله خبيب الأنصاري، والأنصار كان فيهم رجلان كلاهما يسمَّى خبيباً، وأحدهما هو الذي قتل الحارث قطعاً، فهل من المعقول المتعارف في عادات العرب وأعرافهم الجاهلية في أخذ الثأر أن لا يعتني أبناء الحارث بن عامر بخبيب هذا الذي جاءتهم به هذيل أسيراً؟ ثم يجادلون في أنه هو الذي قتل أباهم أو آخر مسمّىً باسمه، ثم يردون هذا الذي أصبح في أيديهم يأخذون به ثأرهم من المسلمين، سواء أكان هو الذي قتل أباهم أو سمّيه وهما أنصاريان، هذا بعيد جداً عن المتعارف في عادات العرب وأخذهم الثأر حيث أمكنهم من القبيلة.

على أن هذا الوجه في كلام ابن حجر للرد على اعتراض الدمياطي بعيد جداً عن سمت الكلام الذي كان محوره صحة الحديث واعتمـاد البخاري في ذكره خبيب بن عدي فيمن شهد بدراً.

ويؤكد هذا من قولنا قول ابن حجر نفسه: لكن يحتمل أن يكون قتلهم لخبيب بن عدي لكون خبيب بن إساف قتل الحارث بن عامر على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض ـ أي أنهم قتلوا خبيب ابن عدي بخبيب بن إساف الذي قتل أباهم الحارث بن عـامر والخبيبـان أنصاريان يسدّ أحدهما في أخذ الثأر عن صاحبه، فقتلوا من تمكنوا من قتله على عادة الجاهلية.

ومما بعد جداً عن مَهْيع الكلام وسننه وفارق معالم البحث قول ابن حجر: ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث بن عامر لأن هذا الاحتمال لا يدخل في صميم الكلام ولا في حواشيه، ولا يتعلّق بأهدابه وشواشيه، ولا ندري كيف ساغ للحافظ ابن حجر ذكره؟ إن القضية الأصيلة في اعتراض الدمياطي هي أن خبيب بن عدي لم يشهد بدراً بإجماع أهل المغازي، فكيف تتحقق مشاركته في قتل الحارث بن عامر الذي قتل في بدر بإجماع مؤرخي السيرة والمغازي؟ والمشاركة في قتله لا تثبت إلا إذا ثبت بنص تاريخي صحيح أن خبيب بن عدي شهد بدراً وهذا هو موضع النزاع.

سَرِيَّةُ بِئْرِ مَعُونَة

وَهِيَ بَعْثَةُ القُرّاء

أسبابها وأحداثها وآثارها

سمّاها بعض أهل المغازي ـ ابن سعد وغيره ـ سرية (المنذر بن عمرو) وكان المنذر أميرها، وهي معروفة مشهّرة بسرية القّراء، وسرية (بئر معونة) وهذان أشهر، وهي بهما أعرف وهو مسلك جمهور علماء السيرة.

أشد وأقسى سريات الجهاد والصبر على البلاء في سبيل الله.

وكانت بعد غزوة أحد في شهر صفر، على رأس أربعة أشهر منها، وعلى رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ.

وكانت هذه السرية من أشد وأقسى ما مر على المجتمع المسلم بعد أحد، بقيادة (المنذر بن عمرو الساعدي). وقد اختلفت الروايات وتعددت في ذكر أسبابها وأحداثها ووقائعها ومرارة آثارها، وكثرة شهدائها، وقد وجد النبي ﷺ لوقوعها وأخبارها وَجْدَاً شديداً، وحزن على قتلاها، وقنت يدعو على قاتليهم الذين غدروا بهم، وخانوا الله ورسوله في شأنهم.

وكان الذي تولّى كبر فجورها عدو الله الفاجر المغرور عامر بن الطفيل العامري، فقد غدر بهم وقتلهم جميعاً، ولم ينج منهم من القتل سوى عمرو ابن أمية الضمري الذي عرف عامر بن الطفيل أنه مضري، وأعتقه عن رقبة كانت نذراً على أمه فيما زعم بعد أن جزَّ ناصيته، وكعب بن زيد الذي ارتث ولم يقتل، وعاش حتى استشهد بعد ذلك.

وتلقّى النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري ببالغ الأسى والحزن وشديد الأسف عند عودته إليه، فقال له تعبيراً عن حزنه على أصحابه الذين قتلوا غدراً، وكانوا زينة المجتمع المسلم صلاحاً وعلماً وتقوى حتى اشتهروا باسم القراء كلمته المشهورة يعيره بها.

وزاد في تأسف النبي ﷺ أن عمرو بن أمية أخبر النبي ﷺ أنه قتل رجلين من بني عامر في طريق عودته وسلبهما ما كان معهما من متاع، وكان هذان الرجلان معهما عهد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية فقتلهما بعد أن استنسبهما فعرف أنهما من بني عامر، قوم عدو الله الفاجر عامر ابن الطفيل، وهو يرى أنه قد أصاب بقتلهما ثأراً من بني عامر، فأنكر عليه النبي ﷺ ذلك، وقال له: «بئس ما صنعت، قد كان لهما مني جوار وأمان لأدِيَنّهما».

أرجح الروايات في سبب سرية القراء

ومن أحسن ما ذكر وأرجحه في سبب سرية القُرّاء، وهي سرية (بئر معونة) ما رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القُرّاء، فعرض لهم حيّان من بني سليم: ورعل وذكوان عند بئر يقال لها (بئر معونة)، فقال القوم - أي القراء رجال السرية - : والله ما إياكم أردنا، وإنما نحن قوم مجتازون في حاجة للنبي ﷺ، فقتلوهم.

وقد تكلم أهل العلم في تفسير الحاجة التي بعثهم إليها النبي ﷺ فقالوا بما عنّ لهم، ومن أحسن ما قيل في تفسيرها أنها الدعوة إلى الله تعالى ونشر الإسلام وشرائعه، لأن هذا هو اللائق بحال المبعوثين وهم القُرّاء، وقد شهروا بين الصحابة بتسميتهم بهذا الاسم الكريم.

قراء بئر معونة كانوا صفوة الصفوة في الإسلام.

وفي حديث مكحول عن أنس أنهم كانوا يستعذبون لرسول الله ﷺ الماء ويحتطبون، حتى إذا كان الليل قاموا إلى السواري للصلاة. وفي الصحيح من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أنهم كانوا يشترون الطعام لأهل الصفّة وفقراء المسلمين بما يحتطبون ويأتون ببعض الحطب إلى حُجَر أمهات المؤمنين.

فهذه الصفات الكريمة الطيبة التي تجعلهم متفرغين لعمل الخير، وعبادة الله، وخدمة مساكين المجتمع المسلم من المنقطعين إلى ذكر الله

وعبادته، وكفاية الحُجَر الشريفة حاجتها من الوقود نهارهم، فإذا أقبل الليل قاموا إلى سواري المسجد فصفُّوا أقدامهم يصلُّون ما كتب الله لهم، ويتدارسون القرآن، يتلونه حق تلاوته ويتفقّهون في آياته وأحكامه وشرائعه ـ إنما تناسب أن يكون بعثهم للدعوة إلى الله ونشر رسالة الإسلام.

قصة قدوم أبي براء ملاعب الأسنة على النبي ﷺ ورد هديته لشركه.

يؤيد ذلك ما ذكره ابن إسحاق وابن سعد من قدوم أبي براء عامر ابن مالك (ملاعب الأسنة) على رسول الله ﷺ، فأهدى له، فلم يقبل منه ﷺ هديته، وقال له: «لا أقبل هدية مشرك» وفي رواية: «إني نهيت عن زبد المشركين».

قال السهيلي في روضه في غزوة تبوك مبيناً حكمة قول النبي ﷺ: «إني نهيت عن زبد المشركين» أي رفدهم وعطائهم، ولم يقل ﷺ: «عن هديتهم» لأنه ماكره ملاينتهم ومداهنتهم إذا كانوا حرباً له، لأن الزبد مشتق من الزّبد، كما أن المداهنة مشتقة من الدهن، فعاد المعنى إلى معنى اللين، ووجوب الجد في حربهم ومخاشنتهم، وقد ردّ ﷺ هدية أبي براء، كان أهدى له فرساً، وفي رواية فرسين وراحلتين، وأرسل إلى النبي ﷺ: إني أصابني وجع فابعث إليّ بشيء أتداوى به، فأرسل ﷺ إليه بعكّة عسل، وأمره أن يستشفي به، وردّ عليه هديته.

ويعكّر على كلام السهيلي ما جاء في روايتي ابن إسحق وابن سعد من أنه ﷺ قال: «لا أقبل هدية مشرك». وسواء أصح أن النبي ﷺ قال ما نقله السهيلي، وهو: «إني نهيت عن زبد المشركين» ولم يقل: «إني نهيت عن هديتهم» أم قال ما رواه ابن إسحق، وابن سعد من أنه ﷺ قال: «لا أقبل هدية مشرك» فإن كلام السهيلي لا يعدو أن يكون كلاماً أدبياً لا يحتمل البحث والتمحيص المنطقي الذي يتمشّى مع أصول البحث العقلي.

وقد يكون أقرب في التماس حكمة ما زعمه السهيلي دون ما رواه ابن إسحق وابن سعد أن النبي ﷺ إنما رد هدية أبي براء ولم يقبلها لأنه ﷺ أراد إثارة مشاعر أبي براء نحو النظر في رسالة الإسلام التي كانت السبب المباشر في قدمته على النبي ﷺ، ليطلب منه بعث جماعة من أصحابه لدعوة قوم أبي

براء إلى اعتناق الإسلام ومتابعة النبي ﷺ.

وهذه أمور نفسية أكثر منها عقلية، وكل إنسان يخاطب بما يوائمه في بيئته وأحواله، والبيئة البدوية تعيش بمشاعرها وعواطفها أكثر مما تعيش بعقلها.

سياسة حكيمة يرسمها موقف النبي ﷺ مع أبي براء.

والنبي ﷺ آتاه الله من الحكمة وحسن التأنّي للأمور وتدبيرها ما لم يؤته أحداً غيره، فهو ﷺ أعلم بمداخل النفوس التي تحتف به والتي تفد إليه، والأمور الشعورية والنفسية لها عند الزعماء الذين يعيشون في البوادي شأن عظيم يدركه النبي ﷺ إدراكاً يجعل منه علاجاً لمرض نفوسهم، ففي الوقت الذي يرد هدية أبي براء، ويقول له ما يشعره نفسياً أنه يرد هديته لأنه لا يقبل مصافاة المشركين المحاربين له بقبول هداياهم ـ يجيبه إلى طلبه فيرسل له العسل ليستشفي به.

وهذه أمور لها أثرها في العواطف والمشاعر، وكان النبي ﷺ قد دعا أبا براء إلى الإسلام فلم يسلم، ولكنه لم يبعد، ووقف موقفاً أطمع النبي ﷺ في إسلامه وإسلام قومه بقوله: يا محمد إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً.

فموقف النبي ﷺ مع أبي براء كان موقفاً تمليه الحكمة السياسية في أسلوب تبليغ دعوته ونشر رسالته بما اشتمل عليه هذا الموقف الكريم من ضروب مكارم الأخلاق، والتولج إلى مداخل النفوس البشرية، ولا سيما عند صنف من الناس بما يلائم طبائعهم بالرضا والنظر فيما يدعوهم إلى الدخول فيه.

وفي ظل هذا الرجاء عرض ﷺ الإسلام على أبي براء فلم يقدم ولم يحجم، ولعله إنما تلبّث بنفسه عن الدخول في الإسلام قبل قومه مع إدراكه شرف هذا الدين وحسنه ليتحقق رجاؤه في قومه إذا وفد إليهم وحدَّثهم عن النبي ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن دينه ودعوته إلى الله وتوحيده، ولهذا طلب إلى النبي ﷺ أن يبعث معه نفراً من أصحابه إلى قومه، يدعونهم إلى ما يدعو إليه رسول الله ﷺ، روى ابن سعد: أن أبا براء قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، لوبعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك لرجوت

أن يجيبوا دعوتك ويتبعوك، فقال النبي ﷺ: «إني أخاف عليهم أهل نجد» فقال أبو براء: أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد، فبعث النبي ﷺ سبعين من الأنصار شَبَبَة، يُسمون القّراء، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي.

اختلاف واسع بين روايتي الصحيحين وابن إسحاق في عدد سرية القراء.

وهذا العدد في تقدير رجال السرية هو رواية الصحيحين، قال السهيلي: وهو الصحيح وذهب ابن عقبة وابن إسحق إلى أنهم كانوا أربعين رجلاً، وهذا فارق كبير جداً لا يعدل عن رواية الصحيحين إليه، وقد ازداد بعداً من زعم أنهم كانوا ثلاثين.

وقد حاول ابن حجر على عادته أن يوفق بين هذه الروايات المتباعدة في تقدير عدد سرية القراء فزعم أنه يمكن أن يكون الأربعون كانوا رؤساء، وبقية العدد أتباعاً.

ضعف كلام ابن حجر في الجمع بين الروايتين.

وهذا كلام ـ كما يرى ـ ضعيف واهن لا يدفع اعتراضاً ولا يحل إشكالاً، لأن سريّة القّراء وهم من صفوة أصحاب رسول الله ﷺ بما وصفوا به من نعوت الإخلاص ورسوخ اليقين والزهد في الدنيا وطرحها وراء ظهورهم، واشتغالهم بخدمة الفقراء والمساكين من إخوتهم المنقطعين لعبادة الله، كل ذلك وغيره لا يجعل سبيلاً إلى تقسيم سريتهم إلى رؤساء وأتباع، وما كان يليق بالحافظ ابن حجر أن يعدل عن الأخذ بظاهر رواية الصحيحين إلى وضع روايات أصحاب المغازي معها في ميزان، ثم يعنّي نفسه بمثل هذه التأويلات المتعسفة.

والفرق بين عدد رجال السرية في الصحيحين، وروايات أصحاب السِّير والمغازي كبير جداً ولا سيما في رواية من زعم أنهم كانوا ثلاثين رجلاً، وإن كان ابن حجر قد وهّم هذا القول، ولكنه هدم بيده ما شيّده بفكره، فنقل الدفاع عن هذا القول المتهاوي عن صاحب (الغرر) أن رواية القليل لا تنافي رواية الكثير، وهو من باب مفهوم العدد.

ويؤكد ما اخترنا في سبب بعث هذه السرية حديث أنس عند البخاري من طريق قتادة، قال: إن رِعْلاً وذكوان، وعصيّة وبني لحيان استمدّوا رسول الله ﷺ، وقد اختلف أهل العلم في تفسير المقصود من هذا الاستمداد،

وأحسن ما قيل فيه ما قاله ابن حجر: ولا مانع أن يستمدوه ﷺ في الظاهر للدعاء للإسلام، وقصدهم الغدر وهذا أقرب الاحتمالات، ويدل عليه ما قدّمناه من الأسباب التي احتفت بالقصّة وربطها بقصة أهل (الرجيع) وقتلهم غدراً للأخذ بثأر فاجر هذيل سفيان بن خالد بن نبيح ـ لعنه الله ـ بسيف البطل الفدائي عبدالله بن أنيس الأنصاري رضي الله عنه، وعلى هـذا الاحتمال اعتمد القسطلاني في مواهبه في سياق كلام ابن إسحق.

* * *

سارت السرية بإمرة أميرها (المنذر بن عمرو الساعدي) حتى وصلوا إلى موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان، ونزلوا على ماء يقال له (بئر معونة) وبه سمِّيت الوقعة، كما سميت هذه السرية (سرية القُرّاء) تسمية لها بما شهر به رجالها من كثرة قراءتهم للقرآن وقيامهم على حفظه وإحسان تلاوته، والعمل بأحكامه والتزين بحِكَمه، وسمِّيت هذه السرية أيضاً سرية (المنذر ابن عمرو) باسم أميرها أحد نقباء العقبة وهو بدري أنصاري خزرجي.

أفجر غدر ينمّ عن لؤم سريرة الخبيث عامر بن الطفيل.

ولما وصلت السرية إلى (بئر معونة) أرسلت أحد رجالها، وهو حَرَام ابن مِلْحان ـ خال أنس بن مالك رضي الله عنهما، أخو أمه أم سُلَيم بنت ملحان الأنصارية الأوسية رضي الله عنها ـ بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله الخبيث الفاجر الغادر عامر بن الطفيل ابن أخي أبي براء، فلم ينظر عامر في كتاب النبي ﷺ بل حمله الطيش الأحمق الغَرور، واللؤم الفجور على أن عَدَا على رسول رسول الله وحامل كتابه بالدعوة إلى الإسلام إليه وإلى قومه فقتله غدراً ولؤماً.

وكان ـ كما ذكرت روايات القصة ـ عامر بن الطفيل عدو الله وعدو رسوله، وعدو دعوته قد قدم على رسول الله ﷺ فخيّره ـ كما في صحيح البخاري ـ فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف، وفي رواية بألف أشقر، وألف شقراء. فدعا عليه النبي ﷺ فقال: «اللهم اكفني عامراً» فاستجاب الله لنبيه وحبيبه محمد ﷺ وقتل الله عامر بن الطفيل أبشع قتلة على أشنع صورة وأحط حال، إذ رماه بغدّة كغدّة البعير جزاء غروره وفجوره، وكان عامر حينما أحاط به هذا

البلاء الموبق المذلّ لطغيانه وفجوره وغدره ينزل في بيت امرأة من سلول، فكان يندب حاله، ويبكي نفسه، ويقول: غدّة كغدّة البكر في بيت سلولية؟

وعند الطبري: فخرج (حرام بن ملحان) إلى بني عامر يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا أهل (بئر معونة) إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، فآمنوا بالله ورسوله، وجعل يحدثهم عن الإسلام ومكارمه، فأومأوا إلى رجل منهم فأتاه من خلفه ـ أي أتى حرام بن ملحان من خلفه ـ فطعنه بالرمح حتى أنفذه، فقال حرام بن ملحان رضي الله عنه: فزت ورب الكعبة.

عامر بن الطفيل يخفر ذمة عمه أبي براء ويقتل رجال السرية.

ثم استصرخ عدو الله عامر بن الطفيل على رجال السرية قومه بني عامر فلم يجيبوه، وجبّهوه مقرِّعين له، وقالوا: لن نخفر أبا براء وننقض عهده وزمامه مع رسول الله ﷺ.

فلما يئس الخبيث عامر بن الطفيل من قومه بني عامر تركهم إلى بعض بطون بني سليم: رِعْل، وذَكْوان، وعُصَّية، فاستصرخهم على أصحاب رسول الله ﷺ فأجابوه، وخرجوا على رجال السرية وهم غارّون في رحالهم، حتى أحاطوا بهم، فلما رأوهم والشر يتطاير من أعينهم والفجور يتفجر من أنفاسهم قاموا إلى سيوفهم فقاتلوهم حتى استشهدوا جميعاً إلا كعب بن زيد النجاري البدري، ارتثّ فظنوه قد مات فتركوه بين القتلى من رجال السرية وبه رمق، وعاش حتى استشهد يوم الخندق رضي الله عنه، وإلا عمرو ابن أمية الضمري الذي كان في سَرْح السرية مع المنذر بن محمد بن عقبة، فلما أقبلا من السرح رأيا رجال السرية مضرّجين في دمائهم، والخيل التي أصابتهم واقفة عليهم، فتفاوض عمرو بن أمية والمنذر بن محمد في أمرهما وموقفهما، فرأى عمرو الضمري أن يلحقا برسول الله ﷺ ليخبراه خبر السرية، فأبى عليه المنذر وقال له: ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ـ أمير السرية ـ ثم قاتل المنذر بن محمد حتى قتل، وأسر عمرو بن أمية الذي أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن استنسبه فعرف أنه مضري، وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فلما بلغ النبيَّ ﷺ خبرهُم وجد عليهم وَجْداً شديداً، وأكثر التأسف، وقال: «هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوِّفاً» فبلغ أبا براء قول

النبي ﷺ، فمات كمداً مما صنع ابن أخيه الفاجر عامر بن الطفيل من الغدر وخفر ذمته ونقض عهده وحط أمره بين قبائل العرب.

تحريض حسان ابن ثابت ربيعة ابن أبي براء على عامر ابن الطفيل.

قال الزرقاني في شرح المواهب: وذكر أبو سعيد السكري في ديوان حسان رواية عن جعفر بن حبيب قال حسان لربيعة بن عامر ملاعب الأسنة، يحرِّضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء:

ألا من مبلغ عني ربيعاً ... فما أحدثت في الحدثان بعدي
أبوك أبو الفعال أبو براء ... وخالك ماجد حكم بن سعد
بني أم البنين ألم يرعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد
تحكُّم عامر بأبي براء ... ليخفره وما خطأ كَعَمْد

وقد روى السهيلي في روضه هذا الشعر فقدّم فيه وأخر، وجعل البيت الأول رابعاً، وقال فيه: تهكم عامر بأبي براء، وهو أشعر وأجود، وجعل البيت الثالث أولاً، وذكر الشطر الأول من البيت الأول في رواية السكري هكذا: ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي، وهذا أمدح، ورواية السكري أبعث على التحريض.

والسهيلي أقعد بمعرفة الشعر وتوافق شطرات أبياته، وترتيب تلك الأبيات على حسب المقصود منها، وطرافة ألفاظه، ومواضع بعضها من بعض، لأنه أعنى باللغة والأدب وأصولها.

فلما بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشعر، وهو عندهم أوجع من رشق النبل، وقط السيوف للرقاب، وطعن النحور بالرماح، جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، أيغسل عن أبي هذه الغدرة أن أضرب عامراً ضربة أو أن أطعنه طعنة؟ فقال ﷺ: «نعم».

فرجع ربيعة بن أبي براء فضرب عامر بن الطفيل ضربة أشواه بها - أي لم تصب منه مقتلاً - فوثب عليه قومه، وقالوا لعامر: اقتص، فقال: قد عفوت، وفي رواية أنه قال: إن مت فدمي لعمي، فلا يتبعن به، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أُتي إليّ.

النسخ في القرآن
من أخطر ما يجب التعمق في الحكم به
بحث وتحقيق
هل نزل قرآن في شأن سرية القراء
ثم نسخ؟

خطر دعوى نزول قرآن ثم نسخه بغير بدل على العقيدة ونصوص آيات القرآن.

قضية نزول قرآن قرأه الناس في حياة النبي ﷺ، ثم نسخ، أو رفع من غير بدل للنص المنسوخ من أخطر قضايا العقيدة في دين الإسلام، وعظائم قضايا الفكر في هذا الدين القيِّم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، وعليم خبير، يدبِّر الأمر بحكمته الشاملة، ويتعبّد خلقه بحمده، لكمال جلاله الذاتي، وسبوغ نعمه على خلقه.

والقضية هنا قضية سرية القُرّاء الذين بعثهم رسول الله ﷺ للدعوة للإسلام، وهم في قول جمهور أهل العلم ورواية الصحيح سبعون رجلاً من عبّاد الصحابة وأهل الله الذين طرحوا الدنيا وراءهم ظهرياً وعكفوا في محاريب الإخلاص لله، يمجدونه بحمده، ويقومون على خدمة الفقير والمسكين في المجتمع المسلم، وهم في دنياهم أفقر الفقراء، وأترب المساكين، ولكنهم في دينهم أغنى الأغنياء، وأرفع المؤمنين رؤوساً وأقومهم بالحق في رسالة الإسلام.

ومن ثَمّ اختارهم رسول الله ﷺ على عينه صنفاً واحداً لتبليغ رسالته ونشر دعوته دعوة الخير والهدى والنور، فغدر بهم الغدرة الفجار من بطون هذيل وأحياء سليم وبني لحيان فقتلوهم.

وهؤلاء الفجرة الكفرة الذين قتلوا هذه الصفوة من المسلمين هم الذين استجابوا لفاجرهم الخبيث الملعّن عامر بن الطفيل، ولما بلغ خبرهم

النبي ﷺ وجد عليهم وجداً شديداً، فقنت يدعو على الفَجَرة الغادرين في صلاة الصبح.

وكانت سريتهم رضي الله عنهم قد احتلت مكاناً عظيماً بين الغزوات وأحاديث السيرة النبوية ولا سيما في روايات الصحيحين، بيد أن هذه الروايات قد أخذت من قصتهم وأحداثها ووقائعها أسلوباً استعظم وقعه على جمهور المجتمع المسلم، وقبلوا في شأنهم ما قيل وما لم يقل.

وكان من أبعد ذلك عن القبول لولا ثورة العواطف واشتعال الاحساسات والمشاعر القول بأنه قد نزل في شأنهم قرآن قرأه الناس على عهد النبي ﷺ، ثم نسخ أو رفع أو نسي.

نزول قرآن ثم نسخه لا بدَّ فيه من ثبوت النص المنسوخ وناسخه بالتواتر.

وفي دواوين المفسرين، وكتب الحديث والسنة النبوية: الصحيحين، فما دونهما مشابه لقضية قرّاء (بئر معونة) في دعوى نزول قرآن قرىء ثم نسخ، ولم يعرف للنص المنسوخ بدل، والبحث الذي يسجّل في قضية قراء (بئر معونة) عام يسري إلى كل ما شابه هذه القضية من جهة زعم نزول قرآن قرأه الناس في عهد النبي ﷺ، ثم نسخ وذهبت قرآنيته، وإن كان النص لا يزال قائماً فيما تزعمه الروايات، ولكنه فقد خصائص القرآنية وبقي كلاماً من كلام الناس.

وهذه القضية كما صورناها من المزالق المدحضة، والمداحض الموبقة، زلّت فيها أقدام بعض الفطاحل من المسمَّين في أهل العلم قديماً، وتحيّرت فيها مدارك العقول منذ نجمت ناجمة مسلمة اليهود الذين نهدوا في مهاد الإسلام، وشبّوا في أحضانه في بيئات مختلطة الأفكار والتراث، وكانت لديهم في جعابهم وكناناتهم سهام من الأباطيل والترّهات رووها عن أسلافهم من الأحبار والرهبان في شرح توراتهم التي بدلّوا من نصوصها وحرفوا كلمها عن مواضعها، وحرّفوا آياتها، وتعسّفوا في تأويل وقائعها، وأضافوا إليها من الموبقات الدنيئات والأساطير والخرافات ما هيأت لهم عقولهم المنكوسة من الأكاذيب.

وقد فضحهم القرآن الحكيم فبيّن سوء صنيعهم، فقال جل شأنه:

﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

قال الزمخشري في كشافه: (ويقولون هو من عند الله) تأكيد لقوله: (هو من الكتاب) وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنهم لا يعرّضون ولا يورون، وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك، لفرط جراءتهم على الله وفساد قلوبهم ويأسهم من الآخرة.

نزول قرآن ثم نسخه دون بدل فكر يهودي خبيث في أكاذيب النسخ.

ثم قال الزمخشري: وعن ابن عباس هم اليهود الذين غيّروا التوراة، وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

وذكر ابن كثير أن الزبير بن باطا القرظي ذكر أن توراة موسى التي نزلت عليه كانت عند أبيه (باطا) وليس فيها هذا التبديل الذي سمّوه (المثاني).

والمقصود أن أباطيل أعداء الله اليهود وأكاذيبهم التي عبثت بنصوص توراتهم كانت أساس كل بلاء أصاب تفكير العقول عامة في ضعف معرفة خصائص القرآن الإعجازية، وأصل كل شر يرجع إليه ما دخل على بعض حذّاق أهل العلم والمعرفة من المسلمين من الغفلة عن خصائص القرآن الإعجازية التي نزل بها ليكون أعظم آية على صدق من نزل على قلبه ولسانه محمد ﷺ في رسالته الخاتمة الخالدة، وتناسيهم في غمرة ما نال المجتمع المسلم من قوة ماديّة كانت أحد الأسباب في انتصاراته العسكرية أن هذه الخصائص هي الميزان الأقوم في الحكم على قرآنية آيات هذا الكتاب الحكيم.

ومن ثم سهل على بعضهم وهو يعيش في خضم مجتمع مسلم قوي، عليم، قدير، يعظمه ويقدسه أن يدرج ـ بحسن نية تغلّفها الغفلة والتناسي لاستحضار خصائص القرآن العظيم، في كتبه وهي موسومة بميسم الصحة والقبول ـ مثل قضية نزول قرآن في شأن قراء (بئر معونة) ونسخه برواية من

يثق به في صدق روايته، واستقامة حاله، وضبطه لما يسمع وعلى أساس صحة السند تناقلها عنهم من بعدهم من المؤلفين الذين خلّفوهم في مكانتهم وحلقاتهم ثقة بهم.

وكان جهد من استحضر شيئاً من خصائص القرآن الكريم عند النظر في قرآنيته ما قيل أنه قرآن نزل في شأن قراء بئر معونة وما شابهه أن يفزع إلى التأويل المتعسف متقبلاً دعوى قرآنية هذا الكلام الذي قيل في الروايات إنه قرآن نزل، وقرأناه وقرأه الناس، ثم نسخ ورفعت تلاوته.

وهذا جهد لا يدفع شراً، ولا يفيد شيئاً في اقتلاع جذور التقّول على الله بغير الحق، ولو كانت روايته يحفّ بها حسن النية.

البخاري يروي في صحيحه قصة نزول قرآن ثم نسخه بغير بدل موقوفة على أنس ابن مالك.

وقضية قراء بئر معونة السبعين الذين استشهدوا فحزن عليهم النبي ﷺ حزناً لم يحزنه على جماعة من أصحابه رضوان الله عليهم هي التي زعم فيها أنه نزل في شأنها قرآن قرأه الناس ثم نسخ.

هذه القضية روى قصتها الإمام البخاري في صحيحه تحت عنوان: باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، وبئر معونة، في أكثر من حديث، وقد اختلفت رواياته لها في نسقها وسياقها وأسلوبها وألفاظها وجملها وعباراتها، وكلُّها موقوفة على أنس بن مالك رضي الله عنه، لم ترفع منها رواية من رواياتها إلى النبي ﷺ، وليس في شيء من رواياتها لفظ مشعر بأن النبي ﷺ قال شيئاً من ذلك، ولا يمكن قط أن يثبت نزول قرآن ثم نسخه بحديث موقوف، أو حتى بحديث آحادي صحيح.

نصوص الأحاديث كما يرويها البخاري في صحيحه ـ الحديث الأول.

والحديث الأول في روايات البخاري رواه عن أنس من طريق قتادة. قال البخاري: حدثنا عبد الأعْلى بن حماد، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رِعْلاً وذكوان، وعصية، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدّهم بسبعين من الأنصار، كنا نسمِّيهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلُّون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم، وغدروا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنت

شهراً يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب، على رعل وذكوان، وعصية وبني لحيان.

قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً، ثم إن ذلك رفع (بلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) وقول أنس في هذا الحديث ـ كما تقول الرواية ـ بلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) هو الجملة المزعومة قرآنيتها، وهي محكية من قول القرّاء أو من قال منهم إن كان ذلك قد قيل، وهذا مخالف لقول أنس من طريق إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة عند البخاري أيضاً، فأنزل الله علينا، ثم كان من المنسوخ (إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا).

أحاديث أنس في النسخ في قصة القراء يجب التوقف في قبولها حتى يظهر وجه صحيح لتخالفها.

والتخالف بين الروايتين فيما زعم أنه قرآن من وجوه:

أولاً ـ من جهة السند، فالرواية الأولى من طريق عبد الأعلى ابن حماد، في حديث يزيد بن زريع، حدثه سعيد، عن قتادة عن أنس بـن مالك رضي الله عنه.

والرواية الثانية من طريق موسى بن إسماعيل، بالتحديث عن همام، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن قتادة، عن أنس بن مالك.

ثانياً ـ من جهة اختلاف النص المزعوم أنه قرآنٌ نزل وقرأه الناس، ثم نسخ، فالذي جاء في الرواية الأولى (بلِّغوا عنَّا قومنا أنا لقينا ربنا) فلفظ (أنا) في المحكي عنهم (أنا لقينا ربنا) مفتوحة وهي واسمها وخبرها معمولة لقوله: (بلِّغوا) الذي هو ابتداء جملة بدأ بها النص المزعوم أنه قرآن نزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ وأقرأه الناس فقرؤوه ثم نسخ، أو رفع، أو نسي.

والذي جاء في الرواية الثانية من الكلام المزعوم أنه قرآن هو ما حكي عنهم مبتدأ بقولهم: (إنا لقينا ربنا) وليس فيه (بلِّغوا عنا) وما حكي عنهم من هذا الكلام مبتدأ بـ (إنا لقينا ربنا) جملة ابتدائية مبدوءة بـ (إن) التوكيدية المكسورة التي تقع في أول جملة يبتدأ بها الكلام، فهي ليست معمولة لشيء

قبلها كما في الرواية الأولى، وهذا اختلاف أساسي في تركيب الكلام، يستحيل أن يقع مثله فيما ثبتت قرآنيته بالتواتر القاطع ـ كما هو شرط القرآنية في آيات القرآن الحكيم ـ وهذا اضطراب في النص يكفي للجزم بإبطال الرواية، أو على الأقل وجوب التوقف في قبولها،ولا سيما أن الحديث بروايتيه من كتاب واحد لمؤلف واحد عرف بالدقّة والوضوح، وهما في موضوع واحد وإيراد متقارب أو موحّد في باب واحد من الكتاب.

رواية أخرى يتسع فيها التخالف بينها وبين الروايتين قبلها.

ثالثاً ـ من جهة أن هذا الكلام جاء في رواية ثالثة ذكرها البخاري في جامعه بعد حديث عائشة في الهجرة الذي ساقه في (المغازي) بسنده عن يحيى بن بكير، بالتحديث عن مالك، عن إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك هكذا (قال أنس: فأنزل الله تعالى لنبيه في الذين قتلوا أصحاب (بئر معونة) قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد (بلِّغوا قومنا، فقد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه).

والاختلاف بين هذه الرواية والروايتين اللتين قبلها أوسع مدى من الاختلاف بين الروايتين السابقتين بالنسبة لبعضهما مع بعض.

والمذكور في هذه الرواية:ـ

أولاً ـ لا يفيد من بعيد ولا من قريب أن ما حكي على لسان القراء المستشهدين في قولهم المزعوم قرآنيته (بلِّغوا عنا قومنا فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) هو القرآن المنزّل على نبي الله ﷺ، وقرأه الناس، إذ المبلّغ عن القراء إلى قومهم ـ في زعم الرواية ـ غير مذكور في هذا النص، فهو كلام مقطوع عما قبله، وليس معمولاً لقوله،فأنزل الله لنبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ.

ثانياً ـ هذه الرواية هي الوحيدة بين روايات البخاري التي جاء فيها التصريح بأن الله أنزل لنبيه قرآناً، ومع قطع قولهم: (بلِّغوا عنا) عن سابقه لا يدرى ما الذي أنزله الله لنبيه ﷺ ليبلّغ عنهم إلى قومهم، وكل ما في الكلام أنه حكى عن شهداء القّراء أن يبلّغ عنهم قومهم أنهم لقوا ربهم فرضي عنهم ورضوا عنه، وذلك أنهم سألوا ربهم أن يبلّغ عنهم قومهم ما

أحاط بهم من الشدائد ومعالم القتل، فبلّغ الله تعالى رسوله ﷺ بوساطة جبريل عليه السلام، وبلّغ جبريل محمداً ﷺ، وبلّغ محمد أصحابه، فقال لهم: «إن إخوانكم أصيبوا» ولا يلزم من هذا قط أن يكون الله قد أنزل فيهم قرآناً قرأه الناس ثم نسخ.

روايات مركبة الأسانيد لم تجد من يقف في طريقها وهي تمضي في ظل أسانيدها إلى كتب الثقاة.

ومن أعجب العجب، وأغرب الغريب هذا التباعد المترامي الأطراف بين رجال السند في فضلهم وعلمهم وفقههم في دين الله، وبين موضوع الروايات التي رويت بأسانيد زُجَّ فيها بأسماء هؤلاء الأجلاء الذين اتخذتهم الأمة ركائز لأخذ دينها ودعامات يعتمد عليها نقل الدين والشريعة في أسلوب نقيٍّ مصفًّى من الخرافات والأساطير وأقاصيص القصّاص.

فهذه الرواية التي تزعم أن قرآناً نزل على النبي ﷺ فقرأه الناس ثم نسخ بعدُ، وهي الرواية الوحيدة التي صرّح فيها بنزول قرآن على النبي في الذين قتلوا أصحاب (بئر معونة) أن نجد في سندها الإمام مالك بن أنس، وهو الذي تقطع أعناق الفحول دون منزلته في الثقة ورصانة العقل ورزانة الفكر، والتنائي بعلمه وفضله عن الخرافات والأساطير الملفّقة وأباطيل الروايات التي رُكِّبت لها أسانيد أدخل فيها زوراً بعض قادة أهل الفضل، حتى اقتحمت بعض نسخ الكُتب التي نالت أرفع الدرجات في الثقة والصحة عند الأمة.

ومؤلفو هذه الكتب برءاء من جريرة هذه الروايات الباطلة بهذه الأسانيد المركبة، وهذا ما يوجب على أهل العلم وحماة السنة مراجعة هذه الكتب الرفيعة في أسانيدها ومتونها، حماية لأصول الإسلام وتنقيتها ممّا أدخل عليها في عصور الاهتمام بالعالي والنازل، وكثرة ما يحفظ فلان، ويروي فلان، مما فتح باب الأباطيل المزوَّرة والأكاذيب المدخولة، التي خلع عليها طول مرور زمن الجهالة في عصور الجمود الفكري شيئاً من قداسة نصوص وروايات هذه الكتب التي تغلب عليها الصحة، والتي قام على تأليفها أعلام من الثقاة يوم أن كان أصحابها أعلم أهل زمانهم بما يروون فيها.

وبالجملة فهذه روايات يجب التوقف في قبولها، لأن للقرآن الحكيم

خصائصه الإعجازية التي ينفرد بها عن جميع كلام البشر.

لباب الإعجاز الخالد للقرآن في هدايته وشرائعه وآدابه في براعة أسلوبها البياني.

وإعجازُ القرآن الذي هو خصيصة قرآنيته المتحدّى بها في الدلالة على صدقه وصدق من نزل عليه ﷺ على مر الزمان وتعاقب الأجيال هو إعجازه في هدايته للخلق، وإخراجهم من ظلمات الجهالة والضلال إلى نور العلم والمعرفة والهدى؛ بما اشتمل عليه من حِكَم وأحكام وشرائع وآداب ومهايع للتربية وطرائق للنظم الاجتماعية من كل ما صُبّ في قوالب البراعة البيانية التي لا تلحقها بلاغة بشرية ولا يشبهها أسلوب في روعتها. وهذا التحدِّي بالهداية وطرائقها وضروبها في إبراز العقيدة التوحيدية والتعبدات العملية والنظم الإنسانية في التربية ومكارم الأخلاق هو مناط الإعجاز الأبدي الخالد في هذا الكتاب الكريم، وهو مستمد من طرائق الهداية التي ترقى بالحياة إلى آفاق الحضارة الإيمانية.

أما إعجاز الأسلوب وطرائق الأداء للمعاني والحقائق الإلّهية والإنسانية فهو من قبيل المساومة التصوّرية بين الروح وحيزها الذي تتحرك فيه إلى آفاق الإشراق الإيماني.

والإعجاز بالهداية وأنواعها هو الروح الخالد لإعجاز هذا الكتاب الحكيم، وبراعةُ الأسلوب والفوق البياني هي القالبُ الذي اختير لإبراز هذه الروح المشرقة في إطار التنسيق بين المعنى واللفظ في نورانية الخلود الأعم الأشمل، وخلود الحجة التي لا يذهب بها مرور الزمان وتوالي الأجيال، وتنوع الحقائق والأفكار، ووثبات العقل الإنساني في مجالات العلم والمعارف، والكشف عن أسرار الكون ومعالم الطبيعة.

الإعجاز بالأسلوب وروعة البيان جاء قالباً صب فيه إعجاز الهداية.

وقد تحدّى القرآن العظيم خصومه منذ أنزل، وما يزال يتحدّاهم في نمط من التحريش أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله في وخز يعترض حلاقيمهم، ويأخذ عليهم أنفاسهم، فلا يجدون من أنفسهم إلاّ العجز المذهل، والبهت المدهش عن معارضته ومقاولته، فضلاً عن مساماته أمام وخز تحدِّيه، وصرامة تحريضه، وإيجاع تقريعه، وإيلام تعييره إياهم بالعجز الفاضح، وإخبارهم في تحدِّيه بعجزهم عن الإتيان بشيء من

مثله في أنماط هدايته وسجاحة بيانه، ولطف تأتِّيه بالتعبير عن أعضل قضايا الإلّهيات، وأعوص مشكلات الفكر الإنساني، ولو اجتمعوا إنسهم وجنهم، متظاهرين بجميع أجناسهم وألسنتهم ومداركهم وألوانهم واختلاف أفكارهم، وصنوف علومهم وأنواع معارفهم، ومعالم آدابهم ومسالك سيرهم في الحياة، وأنظمتهم الاجتماعية في معاشهم، وسياساتهم.

فالقرآن الكريم له خصائصه الإعجازية التي فصَّلها العلماء تفصيلاً أبان عن انفراده بها، وأبانت عن الجهة التي كان منها القرآن معجزاً في هدايته وتحدِّيه وأسلوبه، والتي كان بها هذا الكتاب رسالة خاتمة لرسالات الأنبياء والمرسلين، والتي كان بها آية صدق الرسالة، وصدق من جاء بها ﷺ.

كل كلام لا يجمع خصائص القرآن الإعجازية فهو ليس بقرآن.

فكل كلام لا يجمع هذه الخصائص في حقائقه ومعانيه وهدايته ونمط أسلوبه وبراعته فهو كلام من كلام البشر، وتفاوته في التعبير إنما هو بتفاوت الطاقة البشرية، وليس هذا من القرآنية في شيء، ولا سبيل إلى إثبات قرآنيته، لأنه لم يبلغ من خصائص القرآن شيئاً.

ومن ثَمّ كان هذا الكلام المروي في صحيح البخاري على أنه قرآن نزل في شأن شهداء بئر معونة من القراء من عند الله على رسول الله ﷺ ثم نسخ، أو رفع أو نُسي مما يجب التوقف عن قبوله حتى يظهر له مخرج من التأويل الصحيح.

ويؤيد ما ذهبنا إليه من التوقف في قبول هذه الروايات الزاعمة أن قرآناً نزل فقرأه الناس في حياة النبي ﷺ، وسمعهم يقرؤونه سواء في قصة قرّاء (بئر معونة) أو غيرها ثم نسخ أو رفع، أو نسي من غير بدل للنص المنسوخ ما يأتي:

أولاً - إن جميع ما جاء في روايات صحيح البخاري - في مواضع منه موقوفة على أنس رضي الله عنه ولم يرفع شيء منها إلى النبي ﷺ - جاء مختلف النص اختلافاً يستحيل وقوع مثله في القرآن الحكيم، وقد جاء في

وجوه توجب شدّة التوقف في قبول الروايات الزاعمة نزول قرآن ثم نسخ بغير بدل.

صحيح مسلم وغيره بعض ما جاء في صحيح البخاري، فيسري عليه ما قررناه من التوقف في قبوله.

ثانياً ـ إن جميع هذه الروايات موقوفة على أنس رضي الله عنه، ولم يرفع منها شيء إلى النبي ﷺ إذ ليس في رواية منها فقرأ علينا رسول الله ﷺ قرآناً نزل، ثم نسخ، وليس في رواية منها أن النبي ﷺ أمر بكتب ما زعم أنه قرآن في قصة قرّاء (بئر معونة)، ووضعه في سورة من سور القرآن كما هو الشأن في جميع آيات القرآن.

ثالثاً ـ إن الإمام البخاري نفسه روى في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها في حديث الهجرة الذي أخرجه في كتاب المغازي لما فيه من التنويه بشأن عامر بن فهيرة رضي الله عنه في إكرام الله تعالى له يوم قتل في سرّية قراء (بئر معونة) وكان خبر قتل رجال السرية قد بلغ إلى النبي ﷺ بإخبار جبريل عليه السلام، فنعاهم النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم سألوا ربهم، فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا» فأخبرهم عنهم.

هذا كلام نبوي مرفوع صراحة إلى النبي ﷺ أخبر به أصحابه في جمع يشبه أن يكون فاق حدَّ التواتر الذي يفيد الجزم بما أخبر به ﷺ، وهو برواية البخاري نفسه عن أبي أسامة، قال: قال هشام بن عروة: فأخبرني أبي قال: لما قتل الذين ببئر معونة، وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر ابن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، قال عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، فقال ـ أي عامر بن الطفيل ـ: لقد رأيته بعد ما قتل رُفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع، فأتى النبي ﷺ خبرهم، فنعاهم فقال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم، فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا» فأخبرهم عنهم.

فأين يقع هذا الكلام النوراني الذي يحفّه إشراق الهداية من جميع أكنافه ـ وليس فيه قط تعرّض إلى أن الله تعالى أنزل في رجال سرية القراء الذين قتلوا عند بئر معونة غدراً وخيانة لله ورسوله قرآناً قرأه الناس، ثم

نسخ أو رفع، أو نسي ـ مما وقع في روايات أنس رضي الله عنه وأخرجها البخاري نفسه عنه موقوفة عليه من زعم نزول قرآن في شأن قراء سرية بئر معونة، قرأه الناس في عهد رسول الله ﷺ، ثم نسخ، أو رفع، أو نسي؟ من غير بدل للمنسوخ؟.

النبي ﷺ وحده هو صاحب الحق في الإخبار بقرآنية ما ينزل عليه من القرآن.

والنبي ﷺ هو وحده صاحب الحق المطلق أولاً وآخراً بمقتضى منصب رسالته في إخبار أصحابه أنه نزل عليه قرآن في شأن رجال سرية القراء أن لو كان نزل ما يزعمون، ولو كان ﷺ أخبر أصحابه بشيء من ذلك لاستحال أن يقف هذا الإخبار على رجل واحد من أصحابه، وهو أنس بن مالك رضي الله عنه، فيخبر به موقوفاً عليه دون أن يرفعه إلى النبي ﷺ، لوجوب التواتر القاطع في إثبات آيات القرآن الحكيم.

والمعروف المتعالم الذي لا يقبل غيره من إنسان كائن من كان أن شأن القرآن أجلّ في إثبات قرآنيته وأخطر وأعظم من أن ينقله إلى الأمة فرد واحد من الصحابة رضي الله عنهم نقلاً مجرداً عن الرفع إلى رسول الله ﷺ.

روايات مختلفة تؤكد عدم قرآنية ما زعم أنه قرآن.

ثم روى البخاري حديث أنس عن طريق إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة الذي رواه عنه مالك بن أنس الإمام، وقد ساق هذا الحديث اليعمري صاحب عيون الأثر بسنده إلى مسلم من طريق يحيى بن أبي يحيى عن مالك عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس، قال اليعمري: حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك عن إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو على رعل ولحيان، وعصية عصت الله ورسوله. قال أنس: أنزل الله في الذين قُتِلوا ببئر معونة قرآناً قرأناه، ثم نسخ بعد (أن بلِّغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه).

وهذه الرواية أوضح من رواية البخاري، لأن عبارة رواية البخاري لا تخلو من غموض وإبهام، فقد جاءت هكذا (فأنزل الله تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ في الذين قتلوا أصحاب بئر معونة) بدل من الموصول (الذين

قتلوا) والمعنى: أنزل الله لنبيه في شأن الذين قتلوا من أصحابه عند بئر معونة، قرآناً قرأناه ثم نسخ.

وعند ابن سعد من حديث قتادة عن أنس (فقرأنا بهم قرآناً زماناً)، ثم إن ذلك رفع أو نسي، والتعبير في هذه الرواية بقولها: (فقرأنا بهم) لم يظهر لنا فيه معنى لفظ (بهم) إلا بتأويل متعسِّف. وهذه الرواية تخالف الروايات السابقة في قولها: (فقرأنا بهم قرآناً زماناً) وفي قولها: (أو نسي). وهذا اختلاف في النص لم يقع مثله في القرآن الكريم قط، فلا يجوز اعتقاد قرآنية مثل ذلك ولو لحظة واحدة قبل ادّعاء نسخه.

ومن الغريب أن البخاري ذكر حديث أنس الأول في أحاديث بئر معونة والثاني فيها ولم يذكر شيئاً قط فيهما عن قرآن نزل، وإنما اقتصر فيهما على ذكر القنوت ومكانه من الصلاة، فذكر في الحديث الأول من طريق أبي مَعْمَر حدثنا عبد الوارث حدثنا عبد العزيز عن أنس قال: فدعا النبي ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت، ثم جاء في الحديث: قال عبد العزيز: وسأل رجل أنساً عن القنوت: أبعد الركوع، أو عند الفراغ من القراءة؟ قال: لا، بل بعد فراغ من القراءة.

ثم ذكر البخاري حديث أنس الثاني من طريق مسلم من طريق قتادة فقال: حدثنا قتادة عن أنس قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً بعد الركوع يدعو على أحياء من العرب، ولم يذكر في الحديثين كلمة واحدة عن قرآن نزل في سرية القراء وقرأه الناس ثم نسخ. وعلى هذا النهج نَهَج ابن القيم في (الهدي) فقد ذكر ضمن فصوله عن غزوة (بئر معونة) وأسبابها وأحداثها فصلاً صغيراً جداً لا يزيد عن سطر واحد وبعض سطر في القنوت، وقال: وقنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على الذين قتلوا القراء أصحاب (بئر معونة) بعد الركوع ثم تركه لما جاؤوا تائبين مسلمين.

إغفال ابن القيم روايات نزول قرآن قرأه الناس ثم نسخ يدل على عدم قبولها عنده.

وهذا من ابن القيم أخذ بأحد حديثي أنس في مكان القنوت من الصلاة، وترك للحديث الآخر الذي جعل مكان القنوت من الصلاة بعد الفراغ من القراءة، والحديثان مخرّجان في صحيح البخاري.

ولم يعرض ابن القيم قط بكلمة واحدة عن نزول قرآن في شأن رجال سرية القراء الذين قتلوا عند بئر معونة، وأقرب ما يوجّه به هذا النهج أن ابن القيم أعرض عن روايات القرآن في شأن القُرّاء لأن هذه الروايات لم تقع عنده موقع القبول والصحة السالمة من الوهم والوهن، كإعراضه عن حديث جعل القنوت بعد الفراغ من القراءة.

ومن سانحات اللطائف أن القرآن الكريم عرض لما يشبه موقف قراء (بئر معونة) من تسجيل أرفع المنازل في الفضل والشرف وصفاء الإخلاص القائم على دعائم أقوى وأعز مراتب الإيمان، والتضحية بالنفس في إعزاز العقيدة التوحيدية ونشر دعوتها وتبليغ رسالة الإسلام تطلّباً لرضاء الله عنهم، وسبحهم في بحار الرضا عنه، والإذعان الصادق للصدع بأوامر النبي ﷺ والمسارعة لتنفيذها وتحقيق أهدافها بالتعبد لله تعالى تعبداً يرفؤ من حال فقراء المجتمع ومساكينه وضعفائه بسدٍّ خلّتهم والقيام بحاجاتهم وما تتطلبه حياتهم في عيشهم، وفي خدمة أبيات رسول الله ﷺ بما لا يقدر عليه إلا الذين أخلصوا حب المتابعة الصادقة له ﷺ، وحب إقرار عينه بالقيام على توفير وسائل الراحة لما تتطلبه حياة العيش الرضي.

بيد أن القرآن العظيم إذ يعرض إلى هذا النحو من الثناء الأرفع على الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه إنما يعرضه في نمط من الأسلوب البارع، وروعة البيان الذي يحف به رونق الإعجاز في جزالة اللفظ وسلاسة المعنى، ولطف الأداء، ورصانة التعبير وحسن الموقع في السمع، وإشراق نور الهداية في آفاق القلب مع جلال الحقائق والمعاني، والتسامي بها عن مواطن متعارف كلام البشر، ومألوف الناس في مدائحهم وأثنيتهم.

آيات محكمة ضوهيء بها ما زُعم أنّه قرآن نزل ثم نسخ.

وقد التقطنا من رياض أزاهير القرآن الكريم، وجواهر خزائنه آيات من سور منثورة في حدائق أنواره أتْحَفَنا بها التوفيق، رأيناها متفقة أكمل اتفاق مع موضوع ما قيل أنه قرآن في شأن قراء بئر معونة، ثم نسخ ليظهر بالنظرة العابرة أن للقرآن خصائصه الإعجازية التي يستحيل أن يكون شيء منها لغيره من سائر كلام البشر.

ومعاذ الله أن نقصد بذلك إلى شيء من الموازنة أو المشابهة التي تتراءى للعين الحولاء أو الفكر الفطير، بين آيات القرآن الحكيم، وبين ما جاء في روايات قصة قراء بئر معونة ونظائرها، لأن الموازنة لا تكون إلّا بين المتشابهات، وأنّى للحصى أن يشابه اللؤلؤ والمرجان!.

وإنما قصدنا أن نستل شبهة الرواية في الصحيح، وما تخلّفه على ما يروى فيها من هالات القداسة وبريق البروق الخادعة من قلب من لم يُجد النظر الفكري في تمحيص البراعة البيانية والهداية الإلّهية، وبين كلام أريد به المحاكاة لما يشتبه به في موضوع الحديث.

وقد اكتفينا بأربعة مواضع من أربع سور من القرآن الكريم، ثنتان منها في النصف الأول منه، وثنتان منها في النصف الثاني منه، وكلُّها في موضوع رضاء الله عن صفوة عباده الذين انقطعوا له في محاريب التبتل والإخلاص، ورضائهم عنه في تصاريف أقداره ومنازل غيبه، وإسلام وجوههم له جلّ شأنه بتدبير ما يدبر في الكون من نفع وضر.

الموضع الأول من الآيات المحكمة وتفسيرها وبيان مراميها.

الموضع الأول ـ آية من آخر سورة المائدة، وهي من آخر سور القرآن نزولاً، ذكرها الله تعالى بعد قصة عيسى عليه السلام، ومدحه بالتسليم لله تسليمًا مطلقاً، مع وصفه عز شأنه له عليه السلام بأكمل أوصاف الكمال البشري، فيما حكاه الله تعالى عنه في قوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وفي أحاديث الشمائل المحمدية أن سيدنا محمداً ﷺ قام ليلة كاملة بهذه الآية يردّدها في كل ركعة من تهجّده، لما يشهد فيها من جلال ملكه وقهره ورحمته، ولما يرى فيها من التسليم المطلق لتصاريف الأقدار، ومطلق مشيئة الله تعالى في تدبير خلقه بين الرضاء والغضب، فلا يقال: لم، لأنه تعالى في جلال ألوهيته لا يسأل عما يفعل، وهو الفعّال لما يريد.

بعد هذه الآية التي حكاها الله تعالى عن قوة روحه عيسى عليه السلام في التسليم المطلق لتصرف الألوهية قال تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾.

هذه آية نزلت من سماء العزّة الإلٰهية محفوفة بالرضا والرحمة، ذكر فيها الترضّي من الله عن خلّص عباده، فبيّن أنه تعالى أرضاهم لرضائه عنهم، فهي في روعة بيانها ونسقها في آي القرآن الحكيم، وما فيها من هداية وحكمة ونور أبعد من أن تُحاكى بكلام أُلبس ما ليس بمقاسه، ووسم بما لا يتفق مع سمته وميسمه، ثم قيل عنه إنه قرآن نزل وقرىء، ثم نسخ، وذلك كالذي رواه رواة المغازي، وفي طليعتهم البخاري ومسلم في روايات مختلفة مضطربة متضاربة لفظاً وأسلوباً وأداء، ثم زُعم أنه قرآن نزل من عند الله على رسول الله ﷺ وقرأه الناس ـ أي بإقرار النبي ﷺ لهم ـ ثم نسخ أو رفع أو نُسي.

فأين إذاً (يا ضفدع نقي ما تنقين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدّرين) من قول العزيز الحكيم: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾.

الموضع الثاني من الآيات المحكمة مع تفسيرها.

الموضع الثاني ـ آية من سورة التوبة، ذكرها الله جل وعلا، يثني فيها أعطر ثناء على عمودي المجتمع المسلم: المهاجرين والأنصار، ثم تفضّل سبحانه فضمّ إليهم تحت جناح رحمته، أولئك الذين اتبعوهم بإحسان الاتّباع، فترضّى عن المتبوعين، وهم أصل قادة الإسلام وخميرة الخير والنور في هديه وحِكَمه وأحكامه، وشرائعه وآدابه، وطرائق تربيته، ثم عطف عليهم أغصان دوحة الإيمان وهم التابعون لجذور الدوحة الإيمانية في نمائها وثبات أصلها في أرض العقيدة التوحيدية، وذهاب فروعها سامقة إلى سماء العزّة والكرامة الإسلامية.

وقد ضرب الله تعالى لهؤلاء المتبوعين والتابعين في سورة الفتح المثل، فذكر الذين قام على كواهلهم بناء المجتمع المسلم شامخاً قوياً، وهو يحمل الدنيا في كفة، وهداية رسالته الخالدة في كفة، ثم بدأ هذا المجتمع مسيرته إلى آفاق الحياة يدعو إلى قوة موحّدة في وحدة إيمانية، يؤازر شطؤه وفروعُه أصولَه، حتى استغلظ فاستوى على سوقه، فكان وحدة روحية فتحت القلوب والعقول.

قال تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾ قال الزمخشري: وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقّيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم.

وبهذه الأوصاف الحميدة التي تضمّنها المثل المضروب لهم ذكرهم أجمل الذكر وأحسنه فقال تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان﴾ ثم ترضّى عنهم جميعاً بعد أن حزمتهم وحدة الإيمان، مبشراً لهم أنه تعالى رضي عن المتبوعين لسابقتهم التي فازوا بها، فلا يلحقهم فيها المشمرون مع صدقهم في اللحاق بهم، ولهذا الصدق في التبعية تفضّل الله عليهم فجعلهم مع المتبوعين السابقين في الترضي عنهم وما أعدّ لهم من جزيل الثواب والنعيم المقيم، فقال: ﴿رضي الله ورضوا عنه، وأعدّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد ختمت بالترضّي من الله تعالى عن صفوة المجتمع المسلم وهو يبني من لبنات الإيمان والإخلاص، متبوعين وتابعين لهم بالإحسان، والإحسان ذروة قمة العمل الإيماني وأرفع مراتبه، وأعلى درجاته، لأنه عمل مقرون باستحضار شهود جلال الله وشمول مراقبته للسر والنجوى، والجهر وما هو أخفى، وبهذا المعنى في بيان معنى الإحسان أجاب سيدنا رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام في حديثه المشهور عن الإحسان ما هو؟ فقال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وهذه ـ في رأينا ـ درجة المتبوعين السابقين الأولين، وأما التابعون لهم بإحسان فهم الذين صدقوا المتابعة، فكانوا على أدنى المستوى الذي كان عليه المتبوعون وهم الأعلون في درجات الشهود، وكانوا من الذروة في حفافيها لأنهم لم يتمكنوا من شهود الجلال الإلهي تمكن المتبوعين منه، فكان حسب المتبوعين أنهم لهم درجات مراقبة الله في إحاطته بنبضات قلوبهم في خفقها خشيةً من جلال الله.

وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ في

جواب جبريل عليه السلام فقال: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ومعنى ذلك: فإن لم تكن من أهل شهود جلال الربوبية في خشية العبودية فكن من أهل الصدق في الإيمان واليقين.

فالذين رأوا في روايات الصحيح وشلاً من بريق وحدة المعنى في الترضي عن أولئك الصفوة من القراء الذين استشهدوا عند بئر معونة من أرض هذيل، والترضي عن صفوة خاصة المؤمنين في هذه الآيات البينات تخيلوا، وخالوا، وتوهموا أن هذه الكلمات قرآن نزل فيهم وقرأوه، ثم نسخ أو رفع أو نُسي دون بدل يعرف أنه هو الناسخ لهذا الذي قيل أنه نسخ، وما كان منه من قرآن قط ولا قرأه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بأمره وإخباره أنّ ذلك مما نزل عليه، ولا سمعه منهم صلوات الله عليه وأقرهم عليه أنه من المنزّل عليه.

أما الذين عرفوا خصائص القرآن الإعجازية، فإنهم بتثبيت الله لم يرفعوا رؤوسهم لهذا الكلام المزعوم قرآنيته، وأنه أُدخل على أوهام أهل السلامة من الرواة الذين لا يهمهم إلا التكثر من الرواية.

الموضع الثالث من الآيات المحكمة وبيان معانيها.

الموضع الثالث ـ آية من سورة الفتح، افتتحت بالترضّي عن المؤمنين الذين قدّموا أرواحهم وأعزّ ما يملكون فداءً لدينهم، وكرامة مجتمعهم المسلم، والدفاع عن حرية هذا المجتمع وعقيدته وعزته ووحدته.

وهؤلاء المؤمنون الذين أقسم الله تعالى على رضائه عنهم هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، على أن لا يفروا عنه أو يموتوا دفاعاً عنه وعن دعوته في ميدان معركة العزة الإسلامية التي أراد أحلاس الوثنية من مشركي مكة وألفافها أن يسيموهم بها ذلّة في احتباسهم رسولَ رسولِ الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إليهم، مبلّغاً لهم أن رسول الله ﷺ إنما جاء زائراً إلى هذا البيت العتيق، معظّماً حرمته، ولم يأتِ لقتال أحد، فحبسوه عندهم، وأشاعوا أنهم قتلوه، وبهذه الآية الرضوانية سمّيت البيعة بيعة الرضوان.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما أرجف به المرجفون من قتل عثمان رضي

الله عنه قال النبي ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا أصحابه إلى البيعة، فبايعوه على الموت، وعلى أن لا يفرّوا، وقال لهم ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وقد أثنى الله تعالى على أهل بيعة الرضوان في هذه الآية بعد أن بشّرهم برضائه عنهم، فقال منوّها بعظم شأنهم فيما أقدموا عليه من ذروة الفدائية في بيعة الموت وعدم الفرار من ميدان المعركة: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم﴾ من صدق الإخلاص، وقوة اليقين، ونقاء الضمائر من غلس التردد وضعف العزائم.

ثم زادهم من فضله وإنعامه فأنزل السكينة على قلوبهم بما ملأها طمأنينة وأمناً وسكوناً إلى قدر الله، وغيبه ورضائه عنهم، وعجّل لهم من الثواب على قوة يقينهم وخلوص نياتهم فتحاً قريباً هو فتح خيبر الذي وعدهم به تقدمة للفتح الأعظم، ليكون بشرى لهم بين يدي الفتح المبين فتح مكة الذي شقق قناة قريش، وأصاب شوكتهم فلم تقم لهم بعده قائمة، ودخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً، وجعل الله من خلصائهم، ومن أصلابهم كتائب حملت لواء الجهاد ونشر رسالة الإسلام وتبليغ دعوة التوحيد والحق والخير والهدى والنور، والإصلاح الاجتماعي.

وقد آتاهم الله تعالى في فتح خيبر الذي عجّله لهم مغانم كثيرة أخذوها سهلة هنيئة، راشهم الله بها وأصلح حالهم وقوّاهم مادياً، وأنالهم من الخير في معاشهم وإعداد أهبتهم للقاء أعدائهم ما جعلهم قوّامين بحقِّ الله في جهاد أعدائه ونشر دعوة وحدانيته وتبليغ رسالته إلى كافة الخلق.

الموضع الرابع من الآيات المحكمة وتأويلها.

الموضع الرابع ـ آيتان من سورة (البينة، وتسمّى القيِّمة) ختمت بهما هذه السورة الكريمة، وكانت أولاهما إخباراً عن حالة المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنهم خير خلق الله، وذلك في مقابلة الإخبار عن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين بأنهم شر خلق الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾.

ثم ذكر المؤمنين الذين يجعلون من إيمانهم حافزاً للعمل الصالح بعد

الثناءعليهم ثناء خُصُّوا به فلا يناله غيرهم، فقال: ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضُوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾ فكان جزاؤهم على إخلاص إيمانهم ووثيق يقينهم وملازمتهم العمل الصالح - يقومون به تزكية لنفوسهم وتطهيراً لقلوبهم وتنويراً لأرواحهم وشحذاً لعقولهم في إطار هذا الإيمان الذي أخلصوه لوحدانية الله وإفراده بألوان العبودية الصادقة، ويقومون به لخدمة مجتمعهم الإنساني، ونشر دعوة الحق، ليخرجوا الناس من ظلمات الجهالات إلى أنوار الحق والهدى والعلم والمعرفة أنهم أُدخلوا جنات، يخلدون في نعيمها أبداً، لا يلحقهم فناء، ولا ينالهم غصص، فهم في نعيم مقيم لا ينقطع ولا يمنع، لذائذه لا تنفد، وهم سابحون في بحار رضوان الله، لأنهم آمنوا إيمان خشية لجلال الله وعظمته.

هذه الآيات الكريمة جاءت كلها إخباراً من الله تعالى عن حفاوته بمن نزلت فيهم من عامة صفوة المؤمنين، أهل الصدق واليقين والإخلاص في الإيمان، ومتابعة العمل الصالح، سواء أكان عملاً بالقلب، أم عملاً بالعقل، أم عملاً بالروح، أم عملاً بالإحساس والشعور، أم عملاً بالجوارح منوّهة برفيع منزلتهم عند الله، وما أعدّه لهم من عظيم النعيم والرضاء عنهم ورضاهم عنه.

ويدخل فيهم من أوسع الأبواب الذين جادوا بأرواحهم، وهي أعزُّ ما يملكون في حياتهم من شهداء الجهاد الإسلامي في صدر مطالع الدعوة إلى الله، ونموذجهم الباقي على مر العصور وتتابع الأجيال شهداء سرية القرّاء الذين قتلوا غدراً عند بئر معونة وهم يبلّغون رسالة رسول الله ﷺ إلى الناس، دون حاجة إلى أن يزعم لهم أن قرآناً نزل في شأنهم ثم نسخ، أو رفع، أو نسي.

وقد بقيت آيات الله التي ترضّى بها عن عباده من صفوة المؤمنين في كتابه الحكيم المحكم متلوة بأسلوبها فيه، جامعة لخصائصه الإعجازية ونمطها في الهداية والشرائع والآداب والنظم الشاملة لحياة الأفراد والجماعات في

هذه الآيات بقيت في مواضعها من القرآن الحكيم محكمة لم يلحقها نسخ ولا نسيان.

الأمم والشعوب، متعبداً بها، لم يزعم أحد قط أن شيئاً منها قد لحقه النسخ وأنه رفع من كتاب الله فلم يقرأ تعبداً، أو اعترى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها نسيان شيء منه فلم يذكروه بعد إذ نسوه، وهي كلها تحمل في ألفاظها وكلماتها وجملها وتركيبها الأسلوبي كلمات الترضّي، وتخبر عن رضاء الله تعالى عمن نزلت فيهم للتنويه بشأنهم، ورضائهم عن الله لما أفاضه عليهم من نعمة الرضا وهي أعظم نعم الله على المصطفين من صفوة عباده.

فلماذا خُصّ بالنسخ ما زُعِم أنه قرآن نزل في شأن قرّاء بئر معونة، وقرأه الناس ثم نسخ أو رفع أو نُسي، وليس فيه إلا الإخبارِ بطلب إبلاغ قومهم أنهم لَقُوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم؟. وهذا الترضّي مذكور في جميع الآيات القرآنية الإعجازية في المواضع التي سقناها في الآيات التي عرضناها فيما سبق، وفي غيرها من آيات القرآن الحكيم، مع وحدة المعنى العام.

والتشبّث بخفاء الحكمة عن العقول في كثير من الأحكام التعبدية والتشريعية لا يرفع الشبهة عن هذا الكلام المزعومة قرآنيته، بل هذا التشبّث بخفاء الحكمة لا يرفع عن هذا الكلام صفة فقده الخصائص الإعجازية للقرآن الكريم في أسلوبه وطرائق هدايته، وما اشتمل عليه من المعاني الرفيعة والحقائق العالية.

وهي مشتملة على ما قصده الزاعمون من قرآنية ما ليس له من خصائص القرآن الإعجازية في معانيه وأسلوبه شيء سوى التوافق في ذكر هذه الألفاظ: (رضي عنا ورضينا عنه)، مع اختلاف الروايات في ألفاظ الترضّي عنهم من الله أو الترضي منهم عن الله تعالى اختلافاً لا يمكن وقوع مثله في القرآن العزيز الحكيم الذي وصفه الله عز شأنه بقوله: ﴿وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾[1].

---

(١) سورة فصلت آيتا (٤١ ـ ٤٢).

وقفة مع السهيلي وتحقيق
أنه لا نسخ بغير بدل
مناقشة رأيه فيما زعم من صحة روايات قرآن
نزل ثم نسخ إلى غير بدل

تعريف موجز بالإمام السهيلي.

الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُهَيلي من أعلام علماء الأمة الذين أوتوا حظاً وفيراً من الذوق الأدبي وغزارة تحصيل في علوم اللغة والأدب وفنونه، بلغا به منزلة الاجتهاد المتخيّر، وهو إلى جانب ذلك محدِّث ناقد، ونسّابة راوية، ومؤرخ حفيظ، وفقيه عليم، ومفسّر درّاك.

بيد أن النزعة الأدبية اللغوية كانت هي الغالبة على فنونه وبحوثه، تجد له غوصاً على لآلىء النحو وعلله والصرف وتصريفاته، والبلاغة وأسرارها ولمحاتها، وقد كان رحمه الله صورة لحذق شيخه الإمام الحاذق الغّواص في بحار المعاني القاضي أبي بكر بن العربي المعافري رحمهما الله تعالى، وتظهر ملامح الفضل والمعرفة وسعة الاطّلاع على تراث من سبقه وعاصره عند السهيلي في كتابه الفريد (الروض الأُنف) الذي شرح به سيرة ابن إسحاق.

ومن هذه النزعة الأدبية كانت سبحاته في فهم إعجاز القرآن الكريم الأسلوبي، وبراعة بيانه الأدائي، وروعة وفائه بالحقائق الإلْهية الغامضة، وكشفه عن المعاني الإنسانية المبثوثة في حنايا هذا الكتاب الحكيم المحكم والمنثورة لآليها في أكناف سوره وآياته وجمله وكلماته، وسلاسة عباراته، وسجاحة ترسّله، وتنغّم فقراته.

ومن ثَمَّ كان أبو القاسم السهيلي العالم المسلم الوحيد الذي رأيناه أنكر في صراحة أن يكون هذا الكلام الذي رواه الصحيح على أنه قرآن ـ نزل من عند الله في التنويه بشأن قـرّاء بئر معونة وقرأه الناس ثم نسخ أو رفع، أو

السهيلي ينكر قرآنية الكلام الذي جاء في رواية الصحيح ولكنه يتمحل التأويل تقدساً في محراب الأسانيد.

نُسي، قرآن له خصائص الإعجاز القرآني ورونقه، فقال: ولما قتل أصحاب بئر معونة نزل فيهم قرآن، ثم رفع (أن بلّغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) فثبت هذا في الصحيح ـ أي عند البخاري ومسلم وغيرهما ـ مما صحّت روايته سنداً عند من روى القصة، وليس عليه رونق الإعجاز.

ولكن السهيلي كعّ عن الإصرار على قولة الحق ـ التي طعن بها هذا الكلام الذي جاء في الصحيحين بزعم أنه قرآن نزل من عند الله تعالى وقرىء ثم نسخ، طعنة ردته إلى مكانه من عامة كلام البشر المقدور على مثله من سائر أفراد البشر الذين لم تكن فيهم عاهة تعوقهم عن مكالمة الناس في أسواقهم ومجتمعاتهم وبيوتهم ومرافق حياتهم، تهيباً منه أن يقدم على ردّ رواية الصحيح وإن كان الوهم والوهن أدّياه إلى أن يثبت ما لا يثبت، وأسند بعلمه ماوَهَى وانقض، ولهذا اتبع السهيلي كلمته النابغة البالغة شأو الحجة وذروة البرهان بما أوهنها فقال مجيباً عن اعتراض توهّمه: وهذا الاعتراض يفرض في نظر السهيلي ـ تسليم وقبول رواية الصحيح أن قرآناً نزل في شأن قرّاء بئر معونة وقرأه الناس، ثم نسخ أو رفع، أو نُسي، ولكن كان بلفظ آخر غير ما ذكرته رواية الصحيح.

ومحصل توهّم السهيلي: كيف يحكم على هذا الكلام ـ الذي رواه الصحيح، وقالت الرواية أنه قرآن نزل من عند الله قرأه الناس ثم نسخ ـ أنه قرآن وهو مجرّد عن أخصّ خصائص القرآنية، وهي ظهور رونق الإعجاز عليه، كما هو الشأن في أي كلام يثبت بالدليل القاطع بوجود خصائص القرآنية فيه، وأولها وأجلُّها ظهور رونق الإعجاز عليه ، لأن القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة التي أعطيت حق التحدي العام بها للدلالة على صدق محمد ﷺ في جميع ما جاء في رسالته الخاتمة لرسالات الله تعالى إلى كافة الخلق، ولم يقع التحدِّي العام قط بغير القرآن الكريم من جميع ما أكرم الله به نبيه محمداً ﷺ من الكرامات والمعجزات الماديّة الحسية، وهي كثيرة جداً بلغت في مجموعها حد التواتر، وأكثرها مروي بالأسانيد الصحيحة التي لا يشوبها الوهم، ومتونها سليمة مما يضعفها.

وإذا كان هذا هكذا فقد بطل ادّعاء كون ما روي في الصحيح ـ من نزول قرآن قرأه الناس ثم نسخ ـ قرآناً لأن الحكم بتجريده من رونق الإعجاز أخرجه عن القرآنية، فبطلت الرواية التي جاءت به على أنه قرآن، ولا يمنع بطلانها رواية الصحيح لها، كيف ورواية الصحيح لأي كلام لا تمنحه الثقة والصحة، والحماية عن البطلان، ولو كان ممّا لا يصح معناه ولا يثبت متنه.

تراجع السهيلي عن قولة الحق تهيباً لصحة سند الصحيح.

وهنا نكص السهيلي متراجعاً عن قولة الحق التي أعلنها من زعم أن ما جاء في رواية الصحيح أنه قرآن نزل من عند الله، وقرأه الناس، ثم نسخ لم يكن قط قرآناً، لأنه ليس عليه رونق الإعجاز الذي هو أخص خصائص قرآنية القرآن الحكيم المحكم.

ولكن السهيلي استعظم جداً أن يكون شيء من روايات الصحيح باطلاً ولو جاء متنه بالمحال من المعاني، فذهب يحاول الإجابة عن اعتراضه والخروج مما أدخل الحق في مضائقه، فقال في تعسف ومداورة: إن هذا الكلام الذي جاءت به رواية الصحيح بزعم أنه قرآن نزل من عند الله على النبي ﷺ وبلّغه أصحابه وقرأوه، ثم نسخ، ووصفه السهيلي بأنه ليس عليه رونق الإعجاز، فأبطل قرآنيته، وبهذا تبطل رواية الصحيح بزعم أنه قرآن، والحكم ببطلان رواية الصحيح خروج على ما للصحيح من قداسة تمنع رواياته من الحكم على شيء منها بالبطلان.

فلا بدّ إذاً من التمحّل وتعسف التأويل لتبقى لرواية الصحيح قداستها ومكانتها من الثقة والصحة التي تحميها عن الحكم بالبطلان، وفي مجال التأويل متسع لهذه الحماية.

ومن ثم فقد شمّر السهيلي ليخوض معركة الدفاع عن رواية الصحيح فقال: إن هذا الكلام الذي جاءت به رواية الصحيح، وزعم أنه قرآن لم ينزل بهذا النظم ـ أي الذي خلا من رونق الإعجاز، ففقد خصيصة القرآنية ـ ولكنه نزل بنظم معجز كنظم القرآن.

وحينئذ لا يجوز قط وصف الكلام الذي جاءت به رواية الصحيح بأنه

قرآن نزل من عند الله، وقرأه الناس ثم نسخ، لأن هذا الوصف لهذا الكلام باطل، بل محال لم يقع.

السهيلي يدعي ما لا دليل له عليه.

ودعوى السهيلي بأن هذا الكلام المزعومة قرآنيته في رواية الصحيح لم ينزل بهذا النظم الذي ليس به رونق الإعجاز، أنه نزل بنظم معجز كنظم القرآن ـ دعوى تنادي على نفسها باليتم، وأنها زعم مخترع لا يعتمد على شيء من ركائز الاستدلال، فهي دعوى ثكلت برهانها، وفقدت الحجة لها، فهي محض كلام لا يرتكز على شيء من دعائم المنطق ومدارك العقل، لأن أسلوب الروايات كلها صريح بأن ما فيها هو الذي نزل وقرىء ثم نسخ أو نُسي، ثم إن هذه الدعوة إذا قُبلت من السهيلي ـ عملاً بحسن الظن ـ مع التغاضي عن المطالبة بدليلها نقلاً أو عقلاً ـ كانت من الطامّات الدواهي التي جرّ إليها تهيب أن توهّى أو توهّم رواية الصحيح.

خطر ما ذهب إليه السهيلي على نصوص القرآن وأدائه إلى تجهيل الأمة الإسلامية بخصائص قرآنها.

وما ندري هل خفي على السهيلي ـ وهو العالم الحاذق الناقد ـ أن كلامه في دعواه هذه التي لا تعتمد إلا على خواء يجره إلى طامة أدهى وأمر، أو أنه قال ما قال وهو على علم بما قال، وكلا الفرضين وخيم العاقبة، كسير الخوافي والقوادم، لأن كون الكلام المروي في الصحيح على أنه قرآن لم يكن قرآناً منزلاً، وإنما كان كلاماً بدّل بالقرآن الذي نزل وقرأه الناس، ثم رفع وقيل عن هذه الألفاظ في رواية الصحيح أنها قرآن نزل من عند الله، وقرأه الناس، ثم نسخ، أو رفع، أو نسي.

وإن صحّ ما ادعاه السهيلي ـ وهو أن الذي رواه الصحيح عن أنس ابن مالك رضي الله عنه ليس هو النظم الذي نزل، وإنما هو كلام جعل بديلاً عما نزل، والذي نزل كان قرآناً عليه رونق الإعجاز، فنظمه كنظم القرآن الذي بين يدي المسلمين يتعبّدون به ويتحدّون بإعجازه، ثم بدل هذا الكلام الذي جاء في رواية الصحيح ـ كان ذلك تبديلاً لكلم القرآن الكريم وآياته بكلام بشري سمّته الرواية قرآناً منزلاً، وأن الصحابة قرأوه والنبي ﷺ بين أظهرهم، ثم نسخ أو رفع أو نسي.

وهذا باب في التأويل في آيات الله، يفتح على الإسلام والمسلمين شراً

باب من التأويل يفتح على المسلمين شراً مستطيراً.

مستطيراً، وأهون من ذلك أن يقع في القرآن ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل والتحريف، ويقع ما خشيه حذيفة على عهد عثمان رضي الله عنه، أو يفتح باب تلقي القرآن بالمعنى، وتنسى نصوصه وألفاظه وأسلوب إعجازه وبراعة بيانه كما وقع في الحديث الشريف بعد أن فتح باب الرواية بالمعنى، وأصبحت أحاديث رسول الله ﷺ تروى بالمعنى دون تحرّج حتى كثر ذلك جداً، ولم يبق حديث من أحاديث النبي ﷺ يمكن أن يكون قد وقع عليه الاتفاق الإجماعي بين المحدِّثين من السلف والخلف بأن ألفاظه هي ألفاظ النبي ﷺ، وإذا وجد ذلك فهو أندر من الندرة، وبهذا المذهب ضاع على الأمة ألفاظ نبيها ﷺ، وهي تحمل في طواياها من الحقائق الشريفة والمعاني السامية ما لا يمكن أن تؤديه ألفاظ غير ألفاظه صلوات الله عليه.

ولا سيما المعاني الثانوية التي تتعلق بها أحكام وشرائع وآداب وسياسات ونظم اجتماعية وطرائق اقتصادية لا تؤدي بالدلالات الوضعية الأولى قبل صياغة الجمل ووضع كل جملة وكل كلمة في موضعها الذي يتطلبه الأسلوب البياني.

وهذه مزلقة لو انحدر إليها المسلمون في نصوص القرآن وآياته لانعدمت الثقة القطعية، وفقد اليقين القطعي التواتري بالنصوص القرآنية المتعبد بتلاوتها، المتحدّى بإعجازها وهدايتها، وأسلوبها وروعة بيانها، وأدائها للمعاني والحقائق الإلهية والإنسانية.

تعسف السهيلي في تأويل دخول النسخ في الأخبار، والرد عليه.

ثم ذكر السهيلي اعتراضاً آخر ينفي به أن يكون ما زعم أنه قرآن قرىء ثم نسخ فقال: فإن قيل: إنه ـ أي ما زعم في رواية الصحيح أنه قرآن ـ خبر والخبر لا يدخله نسخ.

وقد أجاب عن هذا الاعتراض بجواب وهِنٍ واهي، فقال: لم ينسخ منه ـ أي الكلام المزعومة قرآنيته ـ الخبر، وإنما نسخ منه الحكم، فإن حكم القرآن أن يتلى في الصلاة، وأن لا يمسّه إلا طاهر، وأن يكتب بين اللوحين، وأن يكون تعلمه من فروض الكفاية، فكل ما نسخ ورفعت هذه الأحكام وإن بقي محفوظاً فإنه منسوخ، وإن تضمن حكماً جاز أن يبقى ذلك الحكم

معمولاً به، وإن تضمن خبراً بقي ذلك الخبر مصدّقاً به، وأحكام التلاوة منسوخة عنه.

والبحث مع السهيلي في هذا الاعتراض وجوابه أن قول الأصوليين: الخبر لا يدخله نسخ معناه عند أهل العلم أن الأخبار لما كانت بمعرض الصدق والكذب ذاتياً - لا إعلام عن وقوع شيء في الماضي أو تيقن وقوعه في المستقبل - كانت بمعزل عن النسخ في إخبار الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ، لأن دخول النسخ فيها معناه نفي وقوع مضمونها في الماضي أو نفي تيقن وقوعها في المستقبل، وهذا المنفي هو الجانب المتحتم في إخبار الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ وهو الصدق، فإذا نسخ الخبر ورفع صدقه بقي الجانب الآخر المقابل له في الاحتمال وهو الكذب، وهذا محال، ومن ثَمَّ اتفقت كلمة الأصوليين على عدم وقوع النسخ في الأخبار لأنها تؤدي إلى المحال وما أدّى إلى المحال محال فدخول النسخ في الأخبار محال.

والسهيلي رحمه الله تعالى لما رأى أن القول بدخول النسخ في الأخبار - ومنها خبر الله تعالى وخبر رسوله ﷺ وكل خبر قامت الدلائل القاطعة على وقوع مضمونه كالأخبار بالمتواترات القطعية مثل الأخبار عن وجود البلاد في مواطنها، والأشخاص الذين شوهدوا بالتواتر وبقي التاريخ حفيظاً عليهم دون نكير - ينتهي إلى هذا الباطل المحال، ورأى أن قضية الكلام المزعوم أنه قرآن في قصة قرّاء بئر معونة من قبيل الأخبار، وأن دخول النسخ فيها باطل وغير مقول لأحد من أهل الأصول، ذهب في تأويل ادّعاء نسخ خبر هذه القصّة مذهباً غريباً يعتمد على التعسف فقال: إن نسخ الأخبار يراد به نسخ ما تضمنته من أحكام، ولفظها باق على خبريته محفوظ، والمنسوخ أحكامه التي تثبت به وبغيره من الأخبار المماثلة، ولو لم تكن تلك الأحكام مقصودة بهذا الخبر.

ومن المعروف المسلّم به عند أهل العلم أن الأخبار لا يحدث المخبر بها أحكاماً، وإنما هو مخبر بها عن وقوع مضمون نسبتها الإسنادية في الخارج، أو تيقن وقوع تلك النسبة في المستقبل والنظر في الأخبار إلى نسبتها، واقعة أو

غير واقعة، فهي بهذه المثابة لا يدخلها النسخ قط ما دامت على خبريتها، والأحكام التي ذكرها السهيلي عامة لها طرقها في الطلب والامتثال، وما ذكر في القصة من الكلام المزعومة قرآنيته ليس فيه حكم خاص مما ذكره السهيلي، وإنما هو محض إخبار بحال الشهداء في هذه الموقعة بأن الله تعالى رضي عنهم ورضوا عنه.

والنسخ إنما يدخل الأوامر والنواهي في صيغتها الإنشائية الطلبية، أو صيغتها الخبرية لفظاً، وهي في المعنى إنشاء، أي خبر مقصود به الطلب لرفع أحكامها المدلول عليها بصيغتها الإنشائية الصريحة أو المؤولة، فالخبر الصريح لفظاً ومعنى لا يدخله نسخ. ونسخ الأحكام التي لا دلالة مقصودة قصداً خاصاً للفظ عليها بمنطوقه الوضعي كالجزئيات الفقهية من الأحكام التي ذكرها السهيلي لا يعتبر نسخاً لحكم الخبر الدال عليه بالنسبة الإسنادية ـ وهو موضع النزاع ـ أحكام عامة لا تختص بالخبر الذي زعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخ.

فقول السهيلي: فكل ما نسخ ورفعت منه هذه الأحكام وإن بقي محفوظاً فإنه منسوخ كلام خارج عن معنى النسخ عند الأصوليين، لأن النسخ عندهم رَفْعُ حكم دلّ عليه النص بمنطوق دلالته الوضعية، إما مع النص الذي دل عليه أو بدونه، فالأول نسخ لفظ النص وحكمه معاً، والثاني نسخ الحكم مع بقاء النص متلواً متعبداً به، متحدّىً بهدايته وروعة بيانه وبراعة أسلوبه وعلّوه على كل كلام بشري مهما بلغ من الفصاحة.

والذي جرى فيه كلام السهيلي خبر من الله ـ فيما زعمت الرواية ـ نسخ لفظه وحكمه الخاص الدال عليه دلالة مقصودة به، وهذا هو ما أجمع أهل الأصول على عدم جواز دخول النسخ فيه، لأن دخول النسخ فيه يؤدّي إلى تمحيض خبر الله تعالى للكذب، وهذا أبطل الباطل وأمحل المحال.

والأحكام التضمينية لا مدخل لها في نسخ الأخبار أو عدم نسخها، لأن هذه الأحكام قد تكون ثابتة بغير هذا الخبر، فتكون حينئذ منسوخة به ـ كما زعم السهيلي ـ ثابتة بغيره من محكمات النصوص، وهذا خُلْف وتناقض.

وجميع الجزئيات التي ذكرها السهيلي في هذا المقام وحكم عليها بالنسخ، ليسلم له الخبر من دخول النسخ ثابتة بنصوص خاصة أخرى كثيرة، فهي ليست بمنسوخة، لا بهذا النص، ولا بغيره، وإلا فتح باب الدعوى على الأخبار الإلّهية كلها بأنها منسوخة بنص خبري ثابتة بنص آخر سواء أكان خبرياً أم إنشائياً، وهذا مع ظهور بطلانه متهافت متعسِّف التأويل لا يقبل في نصوص القرآن الكريم وأحكامه وتشريعاته، فضلاً عن أنه يفتح باباً من الفوضى في تأويل النصوص، لأنه ما من خبر إلا وله أحكام تضمنية ثابتة بنص غيره فتكون منسوخة بنص آخر ثابتة بنص غيره، وهذا يرفع الثقة عن التشريع الإخباري لقيام احتمال النسخ في أحكامه.

كانت وقفة السهيلي عند قولة الحق التي أنكر بها قرآنية كلام الروايات الحديثية أكرم به وله.

وليت الإمام السهيلي كفّ إملاءه على قلم كاتبه ووقف عند قولة الحق التي قالها ليرد ما زعم أنه قرآن نزل في قصة قرّاء بئر معونة بأنه ليس عليه رونق الإعجاز، أي أنه فقد خصيصة الإعجاز القرآني، فهو ليس بقرآن إذاً ـ لكان له إلى جانب وقوفه مع الحق على رغم روايات الصحيح فضل تضييق مسالك الفتنة على عامة الأمة وكثير من خاصتها فيما يقال حول قرآنهم المجيد من أحاديث ليس لها من رونق الإعجاز ولا من شعاع الهداية شيء.

ولكن يظهر أن الإمام السهيلي استحلى الحديث جرياً على نهج أهل الأدب في كلام أبعدية السير، فأعرض عن نهجه الموفق في إنكاره أن يكون ما جاء في روايات قصة سَرِية القراء في الصحيح أو غيره قرآناً منزلاً من عند الله قرىء ثم نسخ لفقده أخص خصائص القرآنية، وأنه ليس عليه رونق الإعجاز إلى نهج السنديين الذين يتهيبون قولة الحق في روايات صحّ سندها ولو لم تصح متونها.

فرجع عن مذهبه الشجاع الموفق، وذهب مع الذاهبين إلى أن ما جاء في الروايات وزعُم أنه قرآن لم ينزل بهذا النظم الذي قالت الروايات إنه أنزل به، وإنما هو ـ في رأي السهيلي ـ كان قد نزل بنظم معجز كنظم القرآن الكريم الذي يتداول المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها تلاوته والتعبد به، والتحدي بإعجازه وهم مئات مئات الملايين من عامتهم وخاصتهم في أرجاء

الأرض، ثم نسخ أو رفع أو نسي، وجاء التعبير عنه في الروايات بعبارات وألفاظ غيَّرها الرواة بما يفيد أنها هي التي نزلت من عند الله وقرأها الناس، ثم نسخت كما هو ظاهر أسلوب الروايات، ودخل السهيلي من هذا المضيق إلى اعتراضه بأن ذلك من قبيل الأخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ، وأجاب عن ذلك بما ناقشناه فيه إظهاراً لبعد مأخذه في التأويل الذي أنزله منزلته من عامة الكلام واختلاف الأقاويل، وهذه رجعة في الرأي كان السهيلي أبعد عنها في منهجه الأول، ولكنه التهيب لردِّ ما ثبت في الصحيح هو الذي قاده إلى ذلك.

استطراد يقتضيه البحث والسهيلي هو الذي فتح بابه.

وقد بالغ السهيلي في تمسكه بالمنهج التأويلي ليثبت ما ثبت في الصحيح من زعم قرآنية كلام الرواة في قصة قراء بئر معونة، فشبَّه به في كونه قرآناً نزل من عند الله كلاماً آخر زعم أنه نزل قرآناً ثم نسخ لفظه وبقي حكمه، فقال: كما قد نزل (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب).

والإمام السهيلي رحمه الله إذ يسوق هذا الكلام الذي لا يحمل مسحة من شوب البيان القرآني يقدِّم له بجملة يؤكدها بحرف التحقيق فيقول كما قد نزل، وهذا الكلام الذي يقدِّم له السهيلي بهذه الجملة التوكيدية المفتتحة بحرف التحقيق أبعد ما يكون عن رونق الإعجاز من الكلام الذي زعم أنه قرآن نزل في قصة بئر معونة، وأبطله السهيلي نفسه بأنه ليس عليه رونق الإعجاز، وما كان كذلك استحال أن يكون قرآناً نازلاً من عند الله للتعبد بتلاوته، والتحدِّي بهدايته وروعة بيانه.

ثم راح السهيلي يتعسف طريق التأويل بما ناقشناه فيه، ومع ذلك يورد السهيلي هذا الكلام المشبّه في كونه قرآناً نزل به الوحي من عند الله بكلام روايات قراء بئر معونة بما يشعر أنه محقّق النزول.

السهيلي نفسه يروي (لو أن لابن آدم) بروايات متخالفة.

ولا ندري على أي أساس من النظر بنى السهيلي زعمه هذا، وهو يذكر اضطراب النص في رواياته التي رويت في الصحيح، فيقول: ويُروى: لا يملأ عيني ابن آدم، وقد كان النص ولا يملأ جوف ابن آدم، كما أنه روي

ولا يملأ فم ابن آدم، وقال الزرقاني ـ وكذا روي: لو كان لابن آدم واديان من مال بدل قوله: من ذهب، ومن طرق التخالف والاختلاف التي أوردها ابن حجر في الفتح ما جاء في حديث ابن عباس الأول (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً) فقد جاء هذا النص في الرواية الثانية من الصحيح عن ابن عباس (لو كان لابن آدم ملء واد مالاً لأحبَّ أنّ له إليه مثله) ولكن ابن حجر ساقه متخالفاً مع متن الصحيح، فقال في الرواية الثانية: (لو كان لابن آدم وادياً مالاً لأحبَّ أن له إليه مثله).

ومن طرق التخالف والاختلاف ما جاء في فضائل القرآن لأبي عبيد (لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضة لابتغى الثالث) وله من حديث جابر بلفظ (لو كان لابن آدم وادي نخل).

قال ابن حجر: وقال في حديث أنس:(لتمنى مثله، ثم يتمنى مثله، حتى يتمنى أودية) وعند الاسماعيلي (لا يملأ نفس ابن آدم) بدل (جوف ابن آدم)، وفي حديث ابن الزبير (لا يسد جوف)،وفي الرواية الثانية في الباب (ولا يملأ عين ابن آدم)، وفي حديث أنس (ولا يملأ فاه ابن آدم)،وفي حديث زيد ابن أرقم (ولا يملأ بطن ابن آدم)، والقرآن الحكيم يستحيل أن يدخله شيء من الاختلاف في نصه مما يوجب اضطرابه ويفقده الثقة في نصوص آياته.

ثم يقول السهيلي: وكل ذلك في الصحيح، ثم قال السهيلي معقِّباً على اختلاف النص في الروايات: فهذا خبر حق، فكيف يكون هذا خبر حق؟ وفيه هذا الاختلاف؟ فهل تعاور هذا الاختلاف على هذا الكلام قبل أن تنسخ تلاوته؟ فإن قلتم نعم، قلنا لكم: فأي رواية كان نصها هو القرآن المنزَّل، وأيها كان نصُّها مصنوعاً من كلام الناس لأداء المعنى القرآني؟ وما وجه اعتبار هذه الرواية بخصوص أن نصها هو القرآن المنزّل دون غيرها من الروايات؟ وإن قلتم كانت جميع نصوص الروايات قرآناً منزلاً من عند الله، وبقي على اختلافه في روايات الصحيح، قلنا لكم عندئذ وجب السكوت عن مكالمتكم.

ومن أخطر ما قال السهيلي في (روضه) وأبعده عن تقبل العقول

المستنيرة بهداية القرآن واستحلاء التذوق القرآني في سماحة ألفاظه، وسجاحة جمله، وسلاسة تراكيبه، ولطف مقاطعه، وحلاوة نغمه، وترنيمات نظمه في تلاوته، واتساق وقعه في أذن سامعه، وانسياب معانيه إلى القلوب كما ينساب النمير العذب إلى جوف الصديان في حمارّة القيظ وتشابك حقائقه تشابك الحب بشغاف قلوب المحبين، واستدعاء أوائلها ثوانيها، وتطلّب مباديها أواخرها ـ: وكانت هذه الآية ـ أي هذا الكلام المتخالف المختلف المضطرب في ألفاظه وأسلوبه وتراكيبه وعباراته كما بيناه فهو في رواية بلفظ (لا يملأ جوف ابن آدم)، وفي ثانية بلفظ (لا يملأ عينيه)، وفي ثالثة (لا يملأ فم ابن آدم)، ثم صاحب هذا التخالف والاختلاف تخالف واختلاف آخر في قول الروايات (لو كان لابن آدم واديان من ذهب) فقد أبدل لفظ من ذهب إلى لفظ (من مال) في الرواية الأخرى، ثم خلاف آخر يتعلق بأسلوب الكلام واستقامة عربيته على قواعد اللغة الكثيرة الدوران والاستعمال حتى أصبح هذا الاستعمال قاعدة يقوم عليها إعراب المثنى في الاستعمال المشهور.

فجاءت العبارة في أشهر الروايات (لو أن لابن آدم واديان) وحق الكلام أن يكون (لو أن لابن آدم واديين) بالنصب لأنه اسم (إن)، وقد تمحّل بعض الناظرين لهذا فقال إن هذا الاستعمال جاء على لغة من يلزم المثنى الألف في جميع أحوال إعرابه.

التخالف والاختلاف في رواية (لو أنّ لابن آدم) ينفي أنّه قرآن نزل ثم نسخ لاستحالة ذلك في القرآن.

وكل ذلك ينفي نفياً قاطعاً أن يكون هذا الكلام قرآناً منزلاً من عند الله، ولكنه يمكن أن يكون من حديث رسول الله ﷺ الذي أجاز جمهور المحدثين والرواة روايته بالمعنى، بشرط أن يكون الراوي حفيظاً على احتواء المعنى، عارفاً بنظم الكلام ومواقع كلماته من العبارات والجمل.

ولا ندري أين زُوي عن الإمام السهيلي حذقه الناقد، وعقله الحصيف، وذوقه الأدبي الرفيع، بل أين شرد عنه حسّه البياني البديع إذ يسمح لنفسه ـ على ما كان عليه من فضل في التفكير، والذوق الأسلوبي ـ أن يطلق على هذا الكلام المتخالف المختلف المضطرب في رواياته لفظ (آية)، فيقول في مجازفة متفلتة العُقُل، متسيبة الأزّمة والخُطُم، وهي مجازفة لا تقال

عثرتها، وكبوة جواد لالعالها: إنه ـ أي هذا الكلام الذي سماه (آية) ـ كان في سورة يونس بعد قوله تعالى: ﴿كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصِّل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

ثم قال السهيلي: كذلك قال ابن سلّام، ولا ندري هل هذه الإحالة على ابن سلّام للتخلص من عهدة هذا القول، أو لتوثيق الرأي الذي ذهب إليه؟

أبطل الباطل أن يكون هذا الكلام كان في سورة يونس أو غيرها من سور القرآن الحكيم.

هكذا في بساطة ساذجة أُخذ هذا الكلامُ المتخالف المختلف المضطرب في رأي السهيلي، ومن ذهب مذهبه وصفَ القرآنية المنزلة من عند الله، وأنه آية كآيات القرآن الكريم، وأن سيد المرسلين وأفصح البشر أجمعين محمداً ﷺ وضع هذا الكلام بمقتضى منصب رسالته ووحدة حقه في ترتيب آيات القرآن ووضعها في مواضعها من السور ـ في ترتيب آيات سورة يونس بعد آية من أروع آيات البيان القرآني، آية ضرب الله فيها مثل الحياة الدنيا في زخرفها ويانع زهرتها، واغترار أهلها بها، وسرعة تقضّي لذائذها، وذهابها فانية كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

وقد كانت فاصلة الآية الكريمة كافية في زجر المجازفين عن التفوّه بما قالوا وما خطّته أقلامهم، بما فيها من روعة الإعجاز، وبراعة البيان، ونهنهة الإنسان عن غروره بهذه الدنيا الفانية.

وهكذا على غير ترقب وانتظار يجيء هذا الكلام المتخالف المختلف المضطرب في نصوص رواياته فيوضع بين آيات سورة يونس، بعد هذه الفاصلة الإعجازية المبدعة، التي لا يمكن لعاقل سَوِيِّ العقل أن يزعم شبه تلاؤم وانسجام بينها وبين هذا الكلام الذي زعموا أنه حُطَّ بعدها فانحط عن تساميها في إعجازها وبراعة مقطعها، واتساق ترنيمها في نغم التروّح لقارىء القرآن الحكيم.

ثم ذهب هذا الكلام النازل في درجته غير المنزل من سماء عظمة القرآن الحكيم مع عواصف النسخ في غمامات النسيان التي قصمت صدوره وإعجازه، وقصفت أمل زاعميه قرآناً، وهو ليس من القرآن في سبد ولا لبد.

وهل ينسجم في تذوق حلاوة النظم واستطعام الكلام، وهشاشة النفوس، وإثارة المشاعر، وتحريك الحس، وانصياع الآذان لنغم اللفظ في أسلوب القرآن المتناسق المتسق أن يجيء هذا الكلام المتخالف المختلف، المضطرب في أوضاعه الروائية بعد هذا السلسل النمير، والعذب السلسبيل، فيأخذ له مكاناً بين آيات الكتاب المبين؟ هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل.

ويظهر أن الإمام السهيلي رحمه الله لم يطمئن قلبه إلى زعم قرآنية هذا الكلام المتخالف المختلف بعد أن وسمه بميسم نفي خصيصة القرآنية عنه في قولته: بأن هذا الكلام ليس عليه رونق الإعجاز، فأسرع إلى البراءة منه ونسبه إلى قائله، وما قيمة هذا العزو إلى ابن سلام؟ هل يحق باطلاً، أو يصلح فاسداً، أو يبرىء من عهدة، وهل تثبت قرآنية القرآن الكريم بمجرد قول فلان، ابن سلام أو غيره، دون أن يثبت ذلك عن رسول الله ﷺ ثبوتاً بيِّناً قاطعاً متواتراً بنقل جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب في اللفظ والمعنى، وأن ينقل عن هذا الجمع جمع مثلهم مع وحدة المعنى واللفظ، وأن الجمع الأول سمع النص منه ﷺ مباشرة موحد اللفظ والمعنى، فأدّاه إلى جمع مثله، وهؤلاء أدَّوه إلى الأمة آيات من كتابها يكسوها رونق الإعجاز وروعة البيان وبراعة الهداية.

ومن الغرائب العجيبة في هذا الكلام أن الإمام السهيلي رحمه الله قد غلط على الصحيح غلطاً بيناً في قوله: كما قد نزل (لو أن لابن آدم واديان) ـ هكذا ذكره السهيلي في الروض مرفوع اسم (إن) ـ بالجزم القاطع الذي يدل على أنه يذهب مذهب الزاعمين أن هذا الكلام قرآن نزل من عند الله، ثم نسخ.

كما غلط ـ أيضاً ـ في قوله: وكل ذلك في الصحيح، وفي قوله: فهذا خبر حق ووجه الغرابة والعجب في قول السهيلي أنه نسب ذلك إلى الصحيح دون تردد أو ثُنْية ثم جزم بأنه خبر حق.

في أصح الصحيح، وهو جامع البخاري أن هذا الكلام رواه البخاري

في كتاب الرقاق من جامعه في باب ما يتّقى من فتنة المال في أحاديث خمسة متتابعة بأسانيد مختلفة، وليس في حديث منها ما يوهم أن هذا الكلام روي على أنه قرآن نزل به الوحي، ثم نسخ، بل بعض الروايات صريح بأن هذا الكلام من حديث رسول الله ﷺ، روي بالمعنى فاختلفت بعض ألفاظه في الروايات.

تحقيق روايات البخاري بما يبين أنه ليس فيها ما يدل على دعوى أن (لو كان لابن آدم واديان) قرآن.

الرواية الأولى ـ حديث ابن عباس من طريق أبي عاصم عن ابن جريج، عن عطاء، قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب».

فهذه الرواية صريحة صراحة لا تحتمل الشك في أن هذا الكلام من حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه ابن عباس، وليس فيه إشارة من قريب أو بعيد إلى احتمال أنه قرآن نزل به الوحي، ثم نسخ.

الرواية الثانية ـ حديث ابن عباس من طريق محمد، أخبرنا مَخْلَد، أخبرنا ابن جريج قال: سمعت عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن لابن آدم ملء وادٍ مالاً لأحب أن له إليه مثله، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» قال ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا، قال عطاء: وسمعت ابن الزبير يقول ذلك على المنبر، قال ابن حجر: وظاهر أنه اللفظ المذكور بدون زيادة ابن عباس ـ أي قوله: فلا أدري من القرآن هو أم لا.

وهذا الشك الذي صرح به ابن عباس في الحديث الثاني من رواية البخاري قاطع بنفي قرآنية هذا الكلام، لأن القرآن لا يمكن أن يثبت على الشك، ولا بد في إثباته من القطع بتلقّي نصّه عن رسول الله ﷺ تلقياً متواتراً. على أن هذه الزيادة موقوفة على ابن عباس، فهي من كلامه لم يروها عنه جمع من الصحابة كما هو شرط إثبات القرآن، قال ابن حجر: ووجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ما تضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال، والتقريع بالموت الذي يقطع ذلك، ولا بد لكل أحد منه، فلما

توجيه ابن حجر لظن من ظن أن هذا الكلام قرآن غير مسلم.

نزلت هذه السورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ وتضمنت معنى ذلك، مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبي ﷺ، وفي تعميم ابن حجر إسناد ذلك إلى عموم الصحابة أو جمهورهم أو إلى فريق منهم غير ابن عباس نظر للبحث، لأن عبارة ابن عباس رضي الله عنهما صريحة في أن الشك راجع إليه وحده، ونقل التعميم الوارد في حديث أبيّ بن كعب إلى رواية ابن عباس في هذه الزيادة خلط بين نصوص الروايات يوجب إدخال من لم يقل مع من قال، ثم قال ابن حجر: وقد شرحه بعضهم على أنه كان قرآناً ونسخت تلاوته لما نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فاستمرت تلاوتها ونسخت تلاوة ذلك، وأما الحكم فيه والمعنى فلم ينسخ، أو نسخ إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ لنسخ الحكم، فالأول أولى، وليس ذلك من النسخ في شيء.

ثم أورد الحافظ ابن حجر حديث أبيّ بن كعب من طريق زِرّابن حُبَيش عند الترمذي أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»، فقرأ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ وقرأ فيها: ﴿إن الدين عند الله الحنيفية السمحة﴾ وفي هذا الحديث: أنه قرأ عليه «لو أن لابن آدم وادياً من مال» قال ابن حجر: سنده جيّد والجمع بينه وبين حديث أنس عن أبيّ المذكور آنفاً أنه يحتمل أن يكون أبيّ لما قرأ عليه النبي ﷺ ﴿لم يكن﴾ وكان هذا الكلام في آخر ما ذكر النبي ﷺ احتمل عنده أن يكون بقية السورة، واحتمل أن يكون من كلام النبي ﷺ، ولم يتهيأ له أن يستفصل من النبي ﷺ عن ذلك حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فلم ينتف الاحتمال.

ثم قال ابن حجر: ومنه ما وقع عند أحمد وأبي عبيد في فضائل القرآن من حديث أبي واقد الليثي قال: كنا نأتي النبي ﷺ إذا أنزل عليه فيحدثنا، فقال لنا ذات يوم: «إن الله قال: إنما أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ لأحبّ أن يكون له ثان» قال ابن حجر: وهذا يحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبر به عن الله تعالى على أنه من القرآن، ويحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية.

مناقشة ابن حجر في كلامه وتزييفه وبيان ما فيه من خطر على نصوص القرآن.

ونحن نقول للحافظ ابن حجر: إن المسألة ليست مسألة احتمال يتسرب منه الشك والتشكيك في نص القرآن الحكيم، ويرفع الثقة عن آياته وسوره، وإنما المسألة مسألة ثبوت النص القرآني ثبوتاً قاطعاً، كتاباً متعبداً به، متلوة ألفاظه التي يقطع بنزولها في أسلوبه وهدايته دون احتمال أن لا يكون كذلك، وذلك لا يكون إلا بثبوت التلقي عن رسول الله ﷺ تلقياً قاطعاً لا احتمال فيه، ثم بثبوت الإعجاز لأقصر سورة من سوره أو آية قدر أقصر سورة في ألفاظها وجملها كآية الكرسي ثبوتاً لا يشتبه فيه على من كان خلّص العرب وأهل البيان، والصحابة هم الخلاصة والصفوة في ملكات الشعور بإعجاز القرآن في هدايته وروعة جزالته وتوافق أسلوبه مع معانيه وحقائقه.

أما الجري مع الاحتمالات فهو إلى ما فيه من فتح باب الشك والتشكيك إفساد لملكات الشعور بالإعجاز الذي كان يدرك ولا يُقدر على التعبير عنه.

ومن ثَمّ كان خلّص العرب ـ وهم على شركهم في أوائل الطلائع ـ يدركون إعجازه قبل أن يؤمنوا به، لأن ملكات الشعور بالروعة البيانية متمكنة من طبائعهم الأصيلة التي لم يفسدها عناد الكفر، وهذا يبين ما جاء في بعض الآيات من أن بعض الأبيناء من أهل الفصاحة واللُّسن لمّا سمعوا ما أُنزل على الرسول من آيات الكتاب المبين قبل أن ينتكسوا قالوا: وما هو بقول بشر، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطِم ما تحته، وإنه ليأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الأمور.

فاتهام بعض كبار الصحابة وذوي الزكانة والفطنة والذكاء من ألبّائهم بأنهم لا يفرقون بين القرآن في رونق إعجازه وروعة بيانه وبين كلام بلغاء الفصاحة من أبناء البشر غلو لا يليق بمقامهم من اللُّسن العربي؛ وهم الذين نقلوا إلينا القرآن الحكيم برونق إعجازه، ونقلوا حديث رسول الله ﷺ بسمو عباراته التي أضرَّبها تجويز الرواية لها بالمعنى.

والذي ندين به أن كل كلام لم يقطع بقرآنيته، وصار يحتمل أن يكون قرآناً وأن لا يكونه فهو ليس من القرآن في شيء، والقرآن له خصائصه

عقيدتنا في مثل هذه الأحاديث وما قيل فيها من إثبات أو نفي.

البيانية التي سجد لها من لم يكن بها مؤمناً فلا ينبغي التغافل عنها، والجري وراء الأسانيد ورجالها.

الرواية الثالثة ـ حديث ابن الزبير على منبر مكة من طريق أبي نعيم قال: حدثنا عبد الرحمن بن سليمان بن الغسيل عن عباس بن سهل بن سعد قال: سمعت ابن الزبير على المنبر بمكة في خطبته يقول: يا أيها الناس إن النبي ﷺ كان يقول: «لو أن ابن آدم أعطي وادياً ملآن من ذهب أحب إليه ثانياً، ولو أعطي ثانياً أحب إليه ثالثاً، ولا يسدّ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

وهذه الرواية على مثل صراحة الرواية الأولى عن ابن عباس في إفادتها أن هذا الكلام من حديث رسول الله ﷺ الذي كان يحدِّث به أصحابه، وهم حوله، يستمعون إلى قوله، وينظرون إلى سمته، ويرون خلائقه، ولطف ما يأخذ به مجتمعه من دروس التربية السلوكية ليقتدوا به في حياتهم حتى يكون كل واحد منهم نموذجاً حيّاً لمعنى الإسلام جيلاً بعد جيل.

وليس في هذه الرواية كلمة تشير من قريب أو بعيد إلى أن أحداً من الناس الذين شهدوا أحداث ابن الزبير سمعوا منه خطبة توهم أن هذا الكلام الذي رواه ابن الزبير عن رسول الله ﷺ قرآن نزل به الوحي من عند الله ثم نسخ أو رفع أو نسي، فهي كرواية ابن عباس الأولى التي لم يزد فيها تشككه في قرآنية هذا الكلام.

الرواية الرابعة ـ حديث أنس بن مالك من طريق عبد العزيز ابن عبدالله، حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن ادم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» وهذه الرواية لا حاجة بها إلى بيان أن الكلام الذي فيها هو من حديث النبي ﷺ، لأن ذلك ظاهر بيِّن، ولم يزعم أحد أن ما جاء فيها من كلام يشبه القرآن فضلاً عن أن يكون قرآناً نزل به الوحي على رسول الله ﷺ ثم نسخ.

الرواية الخامسة ـ حديث أنس عن أبيّ بن كعب من طريق أبي الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس عن أبيّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ وهذه الرواية تفيد أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كانوا يظنّون لأول وهلة يسمعون فيها هذا الكلام، ويتذوّقون معانيه وحقائقه الزاجرة عن الحرص على جمع الدنيا قبل التأمل في أسلوبه وسمته البياني أنه قرآن حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾،وفيها ما تضمنه هذا الكلام من الزجر عن الركون إلى الدنيا وزيادة عليه مما صبّ في قالب البراعة البيانية والروعة البلاغية والرونق الإعجازي، فعندئذ ثابوا إلى ساحة الحقيقة بأن هذا الكلام لا يمكن أن يكون قرآناً لفقده خصائص القرآنية، وإنما هو بيان لبعض ما جاء في سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ من آيات في الهداية بيّنات، ليزدادوا ببيان رسول الله ﷺ إيماناً مع إيمانهم، وترسخ عندهم ملكات الشعور بالإعجاز القرآني، فلا يحتاجون إلى التفرقة بين القرآن وغيره لأن القرآن لا يشتبه بكلام البشر.

على أي شيء اعتمد السهيلي في دعواه قرآنية هذا الكلام المتخالف.

فكيف إذن بعد هذا التحقيق ساغ للسهيلي أن يقول في هذا الكلام: (لو أن لابن آدم) إلخ (كما قد نزل) وهذا معناه أن هذا الكلام وحي قرآني نزل من عند الله ثم نسخ.

وقد ظهر مما فصّلناه الفَرْق بين هذا الكلام وبين ما زُعم في قصة قرّاء بئر معونة، لأن في قصّة القّراء تصريح واضح في أحاديث أنه نزل في شأنهم قرآن قرأه الناس ثم نسخ، وقد أبطلنا هذا الزعم بالدلائل الواضحة والبراهين الصادقة.

أما ما قال فيه السهيلي هنا (كما قد نزل) فإنه لم يعرف عن أحد من أئمة السلف أنه قال إن هذا الكلام (لو أن لابن آدم وادياً) قرآن نزل به الوحي على رسول الله ﷺ، ثم نسخ، وأقصى ما بلغ فيه أن بعض الناس كان يظن أنه قرآن حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾، فعرفوا أنه من حديث رسول الله ﷺ، فقول السهيلي في شأن هذا الكلام: كما قد نزل غلط من جهة المعنى والبيان.

ثم كيف ساغ للسهيلي أن ينسب للصحيح هذا الغلط ويقول كل ذلك في الصحيح، وهذا غلط آخر تركّب مع الغلط الأول، وهو غلط بيّن يظهر من إلقاء نظرة عابرة على روايات أصح الصحيح التي سقناها بأسانيدها فلا يجد الناظر فيها ما يفيد قط أن هذا الكلام زعم له أحد أنه قرآن نزل بالوحي على رسول الله ﷺ، ثم نسخ بنزول سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ سوى ما أشار إليه ابن حجر في الفتح عن بعضهم ثم رده وقال: إن هذا ليس من النسخ في شيء.

وكل ما في إحدى روايتي ابن عباس شك يقضي عليه الجزم القاطع في الرواية الأخرى، وقد قدّم البخاري الرواية الخالية من الزيادة الموجبة للشك على الرواية الأخرى، ولعله يشير بذلك إلى أن الرواية التي لا شك فيها أرجح، ولو سلّمنا جدلاً أن رواية ابن عباس الأولى جاءت مثل أختها بالشك لما كان ذلك مفيداً لقرآنية الكلام، لأن للقرآن خصائصه التي تميّزه عن سائر كلام البشر، فلا يثبت بقول واحد لم يسنده إلى النقل عن رسول الله ﷺ بالتواتر القاطع.

أما رواية أبيّ (كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر) فليس فيها ما يفيد تلقّي قرآنيتها عن رسول الله ﷺ، وكل ما كان عند أبيّ ظن أن هذا قرآن نزل، وذلك بالنظر إلى ما تضمنه هذا الكلام من معنى شريف لأول وهلة، ثم لمّا نزلت سورة التكاثر رجع عنه ورجع معه من كان على ظنه بعد التأمل في خصائص القرآن الإعجازية.

هاتان الروايتان هما ما يتخيل التشبّث بهما، وهما بريئتان مما يتوهّمه الواهمون، فهذا غلط من السهيلي جاءه من إسناد قوله: (كما قد نزل) إلى الصحيح، فقال: وكل ذلك في الصحيح، وقد بينّا أنه ليس في أصح الصحيح شيء من ذلك، ومنشأ هذا الغلط المرجع الذي أسند إليه السهيلي قوله الذي ذهب إليه.

* * *

وكما سلكنا في قصة سرية قرّاء بئر معونة إذ عرضنا بعض آيات من

القرآن الحكيم في موضوع ما زعم أنه قرآن نزل في استشهاد رجال تلك السرية المجاهدة في سبيل الله، ثم نسخ بعد أن تداول الناس قراءته، ليكون للنظر فيما نعرضه من هذه الآيات الكريمة طريق عملي يظهر به ما فيها من رونق الإعجاز، وهو خصيصة القرآنية في ثبوت القرآن، وهذه الخصّيصة قد عري منها الكلام المزعوم قرآنيته في زعم السهيلي ومن ذهب مذهبه (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى ثالثاً)، كما عري الكلام الذي جاء في قصة قرّاء بئر معونة في أحاديث أنس عند البخاري، كما قال السهيلي فيه إنه ليس عليه رونق الإعجاز، فبطل الزعم بأنه قرآن نزل به الوحي من عند الله وقرأه الناس ثم نسخ.

يقول ربنا تبارك وتعالى في سورة الحديد: ﴿إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفّراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾[1].

قال الزمخشري في كشافه: أراد أن الدنيا ليست إلا محقّرات من الأمور، وهي اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام، وهي العذاب الشديد، ومغفرة من الله ورضوان، وشبّه حال الدنيا وسرعة تقضّيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتمل مما أعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث الله عليه العاهة، فهاج واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم.

بيان ما في سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ من زجر لمن يركن إلى الدنيا وزينتها.

وقال عز شأنه: ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ عيّرهم زاجراً لهم ومقبّحاً ما هم عليه من الركون إلى زخارف الدنيا والتكاثر بحطامها حتى ألهتهم عن النظر لأنفسهم وما يكون فيه نجاتهم من عذاب الله، وهذا الإلهاء برغائب الدنيا وشهواتها من المال والولد والمتع الفانية واللذائذ المتقضية قد أحاط بأقطارهم حتى أضلهم، وسدّ عليهم منافذ العمل الصالح الذي هو طريق الفوز برضوان الله ونعيمه، واستحوذ عليهم بسلطانه الشهوي إلى أن

---

(١) سورة الحديد آية (٢٠).

قضَوا أعمارهم فيما يضرهم ولا ينفعهم من التفاخر والتكاثر، فاجأهم الموت فذهب بهم إلى ظلمات القبور ودُفنت معهم أمانيهم الكواذب، وفاتهم ركب الآمال والترّهات لشغلهم أنفسهم بشهوات الحياة الفانية، وغفلتهم عن معالي الأمور من الإيمان والعمل الصالح حتى رأوا رأي عين اليقين ما أعدّ لهم من عذاب الله وسخطه، ثم ردعهم ردعاً بعد ردع محذراً ومخوفاً لهم عواقب ما سيلقون إن لم يراجعوا التوبة ويثوبوا إلى ساحة الإيمان، ووزن الدنيا بميزانها الذي أقامها الله عليه لتكون نعمة على عباده الذين وصفهم بقوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾[1].

كشف عن الحقائق الجبلية في الإنسان من الحرص والشح.

ويقول الله جل شأنه في وصف جشع الإنسان وشدّة كلبه على حيازة الدنيا وزخارفها والركون إليها والاغترار بزهرتها وشدة حرصه على لَمِّها، وشحّه بها في إنفاقه لها في مصادر الخير وموارده، وتحرّقه على التكثّر منها ولو ملك خزائن أقطارها: ﴿إن الإنسان خُلِق هلوعاً * إذا مسّه الشر جزوعاً. وإذا مسّه الخير منوعاً﴾[2].

فهذه ثلاث آيات موجزات، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني والحقائق النفسية التي خلق الله عليها ابن آدم، ففي الآية الأولى وصف الله الإنسان بأنه خُلق هلوعاً، أي مطبوعاً على شدة الجزع ودواعيه ودوافعه، واستثنى أهل الإيمان الموحِّدين الموقنين الذين يقيمون الصلاة إقامة ملازمة ودوام.

وهذا الهلع الذي خلق عليه الإنسان هو أصل أصول الشرور الاجتماعية في الحياة، لأنه يؤدِّي إلى شيوع التظالم والفساد في المجتمع الإنساني والفوضى بين الناس، لأن كل فرد أو جماعة تحرص على أن تكون مظاهر الدنيا في يدها أكثر من يد غيرها، فيتقاتلون ويتخاصمون وتُسفك الدماء وتُهدد القيم، وتُهتك الأعراض، ويستحوذ الشر بشرائع القهر والغلبة على الحياة، فيسوسها بغير قانون إلّا قانون التسلط بالبطش والقوة.

ثم بيّن الله تعالى المظاهر النفسية لخليقة الهلع فقال عز شأنه: ﴿إذا

---

(١) سورة الفرقان آية (٦٧).

(٢) سورة المعارج آيات (١٩ - ٢٠ - ٢١).

مسّه الشر جزوعاً﴾ ومعناه أن أظهر مظاهر خليقة الهلع التي جُبل عليها الإنسان أنه سريع الجزع ولزيمه لا يفارقه، كما يستفاد ذلك من صيغة المبالغة في قوله (جزوعاً)، فهو إذا مسّه الشر جزع جزعاً يخرجه عن ضوابط العقل فتضعف مُنّته عن حمل ما نزل به من البلاء، ويفارقه الصبر، وتلازمه البلبلة وقلق الأفكار، ثم ذكر الله تعالى مقابل ذلك فقال: ﴿وإذا مسّه الخير منوعاً﴾ فيشتد حرصه على الاستمساك به وعدم إخراجه عن قبضة يده، فيمنع الحقوق والواجبات، فلا يؤدّي زكاة واجبة، ولا صدقة مرغّباً فيها، ولا يواسي ولا يؤاسي، ولكنه يؤثر بما عنده الخزائن يملؤها ويقفل عليها بمفاتيح الشحّ فلا يخرج ما دخل فيها، فهو معذّب إذا مسّه الشر مُنغّص، وإذا مسّه الخير فحياته نكد وغصص لا يهنأ فيها إن أعطى ولا يستريح إن منع، حياته لهفة ورغبات مجنونة، وترقب وخوف من سلب النعمة، تراه أفقر الناس وإن كان أكثرهم مالاً وأوسع ثراء وغنى، لا يطمع قريب في برّه، ولا يتسقّط بعيد شيئاً من رفده، فهو من المنافقين الذين عاهدوا الله ﴿لئن آتانا من فضله لنصّدقنّ ولنكوننّ من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾[1].

لون من الأسرار النفسية التي جبل عليها الإنسان يكشف عنه القرآن الكريم.

وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانَنْ. كلّا، بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لمّاً. وتحبون المال حبّاً جمّاً﴾[2]. فالله تعالى يصف الإنسان في هذه الآيات الكريمة بأنه إذا ما ابتلاه واختبره بالإكرام والإنعام ليظهر أن كان من الشاكرين لنعم الله قائماً بحقّها أم من الكافرين الجاحدين أسرع إلى الإقرار بإنعام الله عليه بلسانه، وهو إقرار لا يحمل شكراً قلبياً، وإنما هو إقرار يقف عند مجرد القول باللسان، ولهذا فليس له دوام الشكر القلبي الذي إذا بدّلت أسبابه فتحوّل الإكرام والتنعيم إلى تضييق في الرزق، تحوّل

(١) سورة التوبة آيات (٧٥ - ٧٦ - ٧٧).
(٢) سورة الفجر آيات (١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠).

هذا الشكر اللساني إلى جحود، ونكران لما كان من جميل الإكرام والتنعيم، وإلى ضجر وهلع يذهبان بصبره، بل ربما ذهبا بإيمانه فيقول متعدّياً حدود الله، كفوراً بإكرامه وتنعيمه: (ربِّ أهانن).

ثم بيّن تعالى أن الشكر القلبي الذي يؤدي حقّ القيام عملياً إنما هو الشكر الذي يترجمه العمل المناسب لجوهر النعمة، وقد كانت النعمة إكراماً وتنعيماً، فهي تتطلب شكراً يترجمه العطف على اليتيم والمسكين ببذل نصيب من عطاء الله وفضله في سبيل ما يقيم أودهما، ويصلح من حياتهما، ويريش أمرهما، وينعش حالهما، ويخرجهما من مذلّة العوز والحاجة إلى عز القناعة والرضا.

ولكن الذي كان من هذا الإنسان الكفور لنعمة الله عليه، الشحيح المقتِّر في الإنفاق والبذل على وجوه الخير أنه لحبه للمال وشغفه بجمع الدنيا ضن بها في موقف وجوب البذل والجود، وحبسها عن المعوزين ذوي الحاجة من أهل الفاقة الفقراء واليتامى والمساكين الذين فقدوا عند هذا الإنسان ـ البخيل بمال الله على خلق الله، الجشع الشحيح بكل خير ـ حتى الكلمة الطيبة التي تخفِّف من لأواء حاجة هؤلاء المحتاجين، وقد تسد خلتهم بالتحاضّ والتعاون على رزقهم مما منّ الله به من نعمة على القادرين من الموسرين، وهذه الصفة أبخل البخل، ففي الأثر الشريف «أبخل الناس من بخل بمال الناس على الناس».

ثم ذكر الله تعالى ما جبل عليه الإنسان في أفراده وجماعاته من حبِّ الدنيا والحرص عليها مما يتجلّى عليهم في التقتير على ذوي الحاجة الذين ندب الله تعالى القادرين من عباده إلى إعطائهم من رزقه وفضله، وسعيهم في الانهماك للازدياد من تكديس المال في الخزائن، لا يبالون من أي طريق أخذوه، ولا يعرفون فيه حلالاً، ولا حراماً، بَيْدَ أنهم أحذق الناس في معرفة طرائق الوصول إليه ليملؤا به الخزائن.

وقد ذكر الله التراث الذي هو الحصول على المال من أيسر الطرق بغير سعي واكتساب فقال جل شأنه: ﴿وتأكلون التراث أكلاً لمّاً، وتحبّون المال

حبّاً جمّاً﴾ ومعناه أنكم بما جبلتم عليه من الجشع والشح تضمون إليهما ما هو شرٌّ منهما، لأن الله تعالى أكرمكم بكثرة المال فلم تؤدوا حقّ الإنفاق منه، وما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد لأحواله ومبرته، والتعاون فيما بينكم والقادرين من أمثالكم على أن يحضّ بعضكم بعضاً بالكلمة الطيبة التي تلين القلوب القاسية، وتحبّب إليها العطاء والإنفاق على ذوي الحاجة من اليتامى والمساكين، وتأكلون مما جمعتم من حطام الدنيا أكل البهائم التي تأكل ما يجاء به إليها، ولا تعرف من أي سبيل جاءها، بل أنتم أقبح عملاً من البهائم لأنها تحرص على أن تأكل إذا جاعت، وإذا أكلت فإنها تأكل حتى تشبع، فإذا شبعت تركت ما أبقت غير شحيحة به على غيرها، وأنتم في حبّكم المسعور للمال تأكلون منه وربما لا تشبعون لحرصكم على إبقاء المال مكنوزاً، فإذا أبقيتم أسرعتم إلى رفع ما أبقيتم ودفنتموه في قبور الخزائن، وإنما عبّر في هذا المقام بالأكل تعبيراً لهم بأن يعيشون كالبهائم لبطونهم.

الشح طبيعة إنسانية يهذبها الإيمان.

وقال جل وعلا واصفاً لأبلغ ما بلغ إليه الإنسان من الشح والإمساك والتقتير مع القدرة على الانفاق: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾[1].

فالله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الذين لاهمَّ لهم إلا الدنيا ومتاعها والتكالب على جمعها من الكفرة المشركين: إنكم أخس طبعاً من الأنعام وأضلّ سبيلاً، لأنكم أشحّاء على أنفسكم وعلى ذوي الحاجة من ذوي العوز والفاقة مع عظيم قدرتكم على البذل والإنفاق، وهذه الطبيعة المقيتة متمكنة منكم تمكّن الجبلّة من الطبع، لا يمكنكم التخلص منها، لأنكم لو أنتم ملكتم خزائن رحمة ربي وهي مليئة لا ينقصها إنفاق الإنس والجن مجتمعين، ولا يستنفدها البذل منها، وهي مملوكة لكم بين أيديكم مفتّحة الأبواب سهلة التناول لقبضتم أيديكم عن الإنفاق في وجوه البر لما جبلتم عليه من الشح الهالع، قال الزمخشري في تفسيرها: ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم لما في التركيب من الدلالة

---

(١) سورة الإسراء آية (١٠٠).

على الاختصاص، أي أن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ.

وقد سجّل الله عليهم الشح مرة أخرى في قوله: ﴿إذاً لأمسكتم﴾ فالإمساك الشحيح نحيزة لهم، وطبيعة ركبوا فيها، وهذا بيان لهم بأنهم إنما تمسكون أيديهم وتقبضونها عن الامتداد إلى خزائن رزق الله ورحمته التي ملّككم إياها خوفاً وهلعاً أن يلحقها الفناء والنفاد، فيلحقكم الفقر والعوز والحاجة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

ثم ختم الله تعالى هذه الأوصاف بوصف جامع لقبائح الشحّ والأشحّاء جبلوا عليه وألزموه فقال: ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ أي بخيلاً شحيحاً بالغاً من البخل والشح نهاية مداهما، فهما محيطان به إحاطة الغلّ بأيدي الجارمين المفسدين في الأرض غروراً بما عندهم من زخارف الدنيا وحطامها.

نتيجة طبيعية للبحث فيما زعم قرآناً وآيات من القرآن العظيم.

أفتكون هذه الآيات البينات ـ بما يكسوها من رونق الإعجاز في هدايتها وبراعة بيانها وروعة أسلوبها، وقوة سلطانها على العقول والقلوب، وفوقها في جلال نظمها وجزالة ألفاظها وسمو تعبيرها، وبلوغها في شأو البلاغة والفصاحة منزلة الذروة العليا من الكلام الإلٰهي ـ في نظر العقل الوازن للحقائق الفكرية والمداخل النفسية وألوان الحياة الاجتماعية بين البشر قرآناً منزلاً بالوحي من عند الله للتعبد بتلاوته، والتحدِّي بهدايته وأسلوبه قرآناً جامعاً لخصائص القرآنية، يقرؤه مئات الملايين من المسلمين في شرق الأرض وغربها، ثم يكون ذلك الكلام المتخالف المختلف من مثل (لو أن لابن آدم وادياً) مع اختلاف ألفاظه في رواياته قرآناً منزّلاً من عند الله مثل هذه الآيات البينات التي ذكرناها وألممنا بشيء من تفسيرها وبيان معانيها وحقائقها.

هذا ما لا يمكن أن يتقبله عقل مسلم، ولا يؤمن به قلب مؤمن، لأنه محال وباطل، وكان ينبغي أن لا يشحن به كتب الأجلاّء من المحدِّثين.

* * *

استطراد آخر انساق إليه السهيلي أشد خطراً من سابقيه.

ولم يشأ السهيلي رحمه الله أن يقف به البحث في موضوع ما زعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه عند هذا الحد، ولكنه استطرد مرة أخرى إلى الحديث فيما لم تطلبه المناسبة فقال: وأما الحكم الذي بقي وكان قرآناً يتلى (فالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، ولا ترغبوا عن آبائكم، فإن ذلك كفر بكم).

قال السهيلي: فهذا حكم كان نسخه جائزاً حين نسخ حكم التلاوة، وكان جائزاً أن يبقى حكم التلاوة وينسخ هذا الحكم.

وسبيلنا في مناقشة هذا الكلام هو سبيلنا في مناقشة ما تقدم ممّا ماثله في التخالف والاختلاف، ولا سيما أن كثيراً ممن ينسب إلى العلم في الإسلام جعلوا هذا الكلام (الشيخ والشيخة) مثالاً للقرآن الذي أنزل وثبت به حكم النص، ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه، وهو رجم المحصن والمحصنة إذا زنيا.

والنظر في هذا الكلام الذي استطرد إليه السهيلي من وجوه:

الوجه الأول ـ أن القرآن العظيم له ألفاظه المتخيرة لاتساقها مع حقائقه الإلّهية ومعانيه الإنسانية التي تؤدى بها، ولكل معنى ألفاظه، ولكل مقام مقال، ولكل حقيقة قالب تصب فيه مع ظهور رونق الإعجاز في آيات الكتاب المبين بجزالة اللفظ ولطفه في أداء أدق المعاني وأعمق الحقائق في أسلوب يزيد معانيه وضوحاً وحسناً، وترنيماته حلاوة ونغمه سلاسة وعذوبة.

القرآن الحكيم لم يستعمل قط لفظة (الشيخة) وصفاً للمرأة.

ولفظ (الشيخة) تستشعر منه الآذان عند سماعه كزازة وجفوة، ولم نعلم أن القرآن الكريم استعمل هذه اللفظة (الشيخة) وصفاً للمرأة المحصنة قط على أي معنى من معاني الاحصان، ولا بمعنى الثيوبة، ولا بمعنى تصاعد السن ومقاربة الهرم، ولا جاء متوارداً بين العفّة والحرية أو التزوج.

بل لم نعلمه مستعملاً بمعنى الإحصان في لغة العرب، بل لا نعلمه مستعملاً للمرأة العجوز المشرفة على الهرم، بل أكثر من ذلك لم نعلمه

مستعملاً وصفاً للمرأة بأحد هذه المعاني في أقوال رسول الله ﷺ.

أما لفظ (الشيخ) وصفاً للرجل الذي تجاوز سن الكهولة، ودلف منها إلى الشيخوخة، وأصابه الكبر وهو يمشي وئيداً إلى الهرم، أي إلى السن التي لا يقدر معها على الحركة الشبابية المتوثبة - فكذلك لا نعلمه ورد في القرآن لفظاً مفرداً إلّا ثلاث مرات، كلها بعيدة عن المعنى المناسب لموضوع البحث.

المرة الأولى - جاء على لسان امرأة إبراهيم خليل الله عليه السلام، أم ولده إسحق، وجدة حفيده يعقوب عليهم السلام، ويسمّيها المؤرخون والمحدِّثون (سارّة)، وذلك في قول الله تعالى إذْ بشرت الملائكة إبراهيم عليه السلام وامرأته بولدهما إسحق وحفيدهما يعقوب: ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، قالت: يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾[1].

المرة الثانية - جاء لفظ (الشيخ) على لسان إخوة يوسف فيما حكاه الله عنهم حين قالوا ليوسف مستعطفين ليترك لهم أخاهم لأبيهم ويأخذ أحدهم مكانه معتذرين: ﴿إن له أباً شيخاً كبيراً، فخذ أحدنا مكانه﴾[2].

المرة الثالثة - جاء لفظ (الشيخ) حكاية عن اعتذار ابنتي الرجل الصالح لعدم حضور أبيهما لسقي غنمه وإرسالها للقيام بهذه المهمة، وهذا - قبل ظهور سببه - مما يستحي منه ذوو المروءات القادرون على تفاديه، وكان الرعاء قد ازدحموا على الماء، وكانت ابنتا الرجل الصالح تذودان غنمهما عن التقدم للشرب في غمرة هذا التزاحم والتدافع اللذين يُخشى منهما على المرأة لضعفها وشدّة حيائها، فلما رأى موسى عليه السلام منهما ذلك سألهما: (ما خطبكما) أي ما شأنكما تذودان أغنامكما عن المسقى؟ فقالتا معتذرتين في أدب جم واحتشام كريم اعتذاراً تضمّن أنه لم يكن لأبيهما راع يرعى له غنمه ولم يكن لهما إخوة أو أولياء من المحارم يغنون عنهما في القيام بمهمة سقي الغنم، وتضمّن العذر لأبيهما في عدم حضوره بنفسه لسقي أغنامه: (وأبونا شيخ كبير) لا يحتمل في علو سنه حركة حفظ الغنم عن الانتشار والشرود، ولا

(١) سورة هود آيتا (٧١ - ٧٢).

(٢) سورة يوسف آية (٧٨).

يستطيع مزاحمة الرعاء على السقي، واعتذرتا عن ذَوْد أغنامهما عن المسقى، فقالتا: (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) فقام موسى عليه السلام مقام النخوة والشهامة وصدق المروءة والنجدة فسقا لهما أغنامهما، ثم عاد إلى حيث كان من الظل، وتوجه إلى ربه ضارعاً بالدعاء يسأله من رزقه الذي كان حاجة إليه فقال: (ربي إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير).

استصفاء ألفاظ القرآن عنصر من عناصر إعجازه البياني.

والمتأمل في لطائف القرآن واستعماله في أداء معانيه وحقائقه ألفاظاً منتقاة متخيِّرة يرى رونق الإعجاز يكسو هذا الكتاب العظيم نوراً في هدايته وروعة بيانه وبراعة أسلوبه، ممّا لايمكن بالتسليم معه بما زُعم أنه قرآن ثم نسخ نصه وبقي حكمه أن يكون قرآناً منّزلاً من عند الله.

ولو لم يكن من نور الإعجاز إلا هذا الإيجاز في هذه الجملة (وأبونا شيخ كبير) لكفى في فضل أسلوب القرآن وإعجازه، وقد بيَّنا ما تضمنته هذه الجملة من المعاني الكثيرة التي لو فصلت لتولّد منها كثير من الحقائق والمعاني.

ونحن نكتفي بتحليل واحدة من هذه المرّات التي ذكر فيها لفظ (الشيخ) في القرآن الكريم. تأمل قوله تعالى على لسان امرأة إبراهيم عليه السلام إذْ وصفت نفسها في مقام التعجب من أمر هذه البشرى التي زفتها الملائكة إليها وإلى زوجها إبراهيم عليه السلام، وقد فاتت أسبابها الظاهرة بأنها (عجوز)، ووصفت زوجها بأنه (شيخ)، وكل لفظ من هذين اللفظين يؤدي في موضعه من نسق الكلام ولطف المعنى ورقّة التعبير ما لا يمكن أن يؤديه غيره من الألفاظ التي هي بمعناه في لغة العرب في وضعها الأصيل.

ولنتأمل فيما لو كان الكلام المحكي عن امرأة إبراهيم عليه السلام جاء في هذه الصورة (أألد وأنا شيخة وهذا بعلي شيخاً)، أو (أألد وأنا عجوز وهذا بعلي عجوزاً)؛ أكان سامعه أو تاليه يشعر لهذا الكلام بشيء من حلاوة الجرس، وسلاسة اللفظ، وروعة الأسلوب ومائية التعبير باللفظ المناسب في المكان المناسب؟ بل لعل مرهف الحس رقيق الشعور منغم الأذن إذا سمع هذا الكلام في صورته المصنوعة سمّج عنده ما يسمع، لأن لجرس ألفاظ القرآن وحلاوة نغمه وروعة أسلوبه تأثيراً على النفوس، ولعلّ هذا هو السر في نهي

غطارفة الشرك وطواغيته لغوغائهم أن يسمعوا للقرآن خشية عليهم أن تملك روعته مقاليد نفوسهم فيؤمنوا به، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[1]

ومن هنا يظهر جلياً أن المروي في الصحيح وغيره من كلام زُعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخ نصّه وبقي حكمه لا يحمل شيئاً قط من خصائص القرآن ورونق إعجازه التي لم تكن ولن تكون لكلام غيره قط، وهي منبع إعجازه الأسلوبي وروعة بيانه.

الوجه الثاني ـ أن القرآن الحكيم إذ ترك لفظ (الشيخة) فلم يستعملها وصفاً للمرأة مطلقاً فيما نعلم، بَلْه وصفاً لها بمعنى محصنة، أي سبق لها أن تزوجت، سواء أكان زواجها قائماً أم ثُيِّبت بموت زوجها أو طلاقها منه، الكزازة لفظها وعدم مواءمته لنسق القرآن ولطف ملاءمته، واتساق ألفاظه مع رونق معانيه ـ فإنه استعمل في مكانها بالمعنى المقصود لفظ (محصَّنة) أو (محصِّنة) و(مُحْصَنة) وفي كل ذلك لمحٌ لمعنى العفّة والعفاف والتعفف.

بحث في مادة حصن والإحصان في القرآن.

ومادة (حصن) كما يقول ابن فارس في مقاييس اللغة ترجع إلى الحفظ والحياطة والحذر، ومن هذا المعنى جاء لفظ (حاصن) للمرأة المتعففة، ومنه قول إياس بن قبيصة الطائي:

فما ولدتني حاصن ربعية ... لئن أنا مالأت الهوى لاتباعها

ومن هذا المعنى قولهم للمرأة العفيفة: (حصان) وعليه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح سيدة الممدّحات السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

حصَان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قال أحمد بن يحيى ثعلب: كل امرأة عفيفة فهي محصَنة ومحصِنة، وقال

(١) سورة فصلت آية (٢٦).

الزمخشري: الإحصان العفّة، ومنه قول الله تعالى: ﴿مُحْصَنات غير مُسَافحات ولا متخذات أخدان﴾ وكل امرأة متزوجة فهي مُحَصَنة لا غير، ومنه قوله تعالى في حدِّ الإماء المتزوجات إذا قارفن موجب الحد: ﴿فإذا أُحْصِنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المُحْصَنات من العذاب﴾ أي نصف حد الحرّة، لأن المراد بالمحصنات هنا الحرائر المتزوجات، وحدُّهن الرجم بأمر رسول الله ﷺ وفعله، ولما كان حد الرجم لا يتبعّض إذْ هو أمر واحد لا يقبل التجزئة، فالعدل الشرعي الذي أنقص الإماء عن الحرائر في الحقوق يقضي بأن ينحططن عنهن في العقوبة مع المحافظة على حق سيد الأمة في مُلكيته لها، لأن زواج الأمة لا يخرجها عن ملكية سيدها.

ومن مجيء الإحصان بمعنى التزوج قول الله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾ والمراد بهن ذوات الأزواج، لأنهن أحصنَّ فروجهن بالتزوج، فهن محصَنات ومحصِنات.

وقد جاء الإحصان في القرآن بمعنى الحرية وعدم شائبة الرق، وذلك في قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً﴾ أي سعة في المال للإنفاق على زواج الحرائر ﴿أن يَنْكِح المُحْصَنات المؤمنات﴾ أي الحرائر من النساء المؤمنات.

ومنه قوله عز اسمه: ﴿والمُحْصَنات من المؤمنات، والمُحْصَنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي أحل لكم النساء الحرائر العفيفات من المؤمنات، والعفائف الحرائر من النساء الكتابيات أن تتخذوهن زوجات لكم.

وكذلك استعمل القرآن الكريم لفظ ثيِّبة بمعنى من تقدّم لها زواج صحيح، وهذا المعنى أحد معاني الإحصان الذي لا يكاد يفارقه في الاستعمال معنى العفّة والتعفف والعفاف تضمنياً، وهو المناسب لمقام الكلام في حدِّ الرجم، وكذلك استعملت الأحاديث النبوية مادة الثيوبة للرجل والمرأة، فالرجل إذا تزوج فهو ثيِّب، والمرأة إذا تزوجت فهي ثيب، ويجمع المذكر على: «ثيبون» والمؤنث على ثيبات، ومنه الحديث الشريف: «الثيب أحق

بنفسها» ومنه أيضاً ما أخرجه مسلم من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ، وهو أظهر في استعمال كلمة ثيِّب، وعدم استعمال كلمة (شيخة) في مقام البيان لحد الزنا المذكور مبهماً في قوله تعالى: ﴿أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾ قال ﷺ: «خُذُوا عني قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيِّب بالثيب جلد مائة والرجم» ولم تذكر لفظ (الشيخ والشيخة) في مقام الإحصان والرجم قط في القرآن ولا في السنة.

ويظهر أن ذكر هذين اللفظين في كلام من ذكرهما في مقام أبشع الحدود كان من باب تقبيح جرم من يقترفه بعد أن شاخ، وأصبح يجلّله وقار الشيخوخة واستحياء السن لأن ارتكاب هذا الجرم الشنيع المقيت ممّن بلغ سن الشيخوخة أفحش وأقبح من اقتراف هذا الجرم من لم يبلغ هذه السن، بل بقي فيه من دواعي الشباب ودوافعه ما قد يحجزه عن التورط في أسباب هذه القتلة الشنيعة الفظيعة التي توائم الشيخوخة الفاجرة.

والكلام في وهن رواية (الشيخ والشيخة) بل بطلان نزولها قرآناً معجزاً، قرىء على الناس وقرأوه، ثم نسخ أو رفع أو نسي وبقي حكمه كالكلام على ما تقدّم من نحو ما قيل في قصة بئر معونة أنه نزل في شأن شهدائها من القرّاء قرآناً، ومن نحو ما قيل في (لو أن لابن آدم) من الوهي والوهن، بل من بطلان الزعم بذلك لما في جميع الروايات من التخالف والاختلاف. والقرآن الحكيم الذي أحكم الله آياته وحفظها عن التخالف والاختلاف يستحيل أن يقع فيه شيء من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[1] وهذا عام في كل اختلاف يؤدي إلى الاضطراب ورفع الثقة بالنص، وقصره على بعض الاختلاف قصور بعموم النص.

وقد بيّنا بياناً واضحاً فيما سبق اختلاف الروايات وتخالفها واضطرابها وقلق كلماتها في مواضعها من الكلام على ما زُعم أنه قرآن نزل في قراء بئر معونة، وعلى ما زعم في (لو أن لابن آدم وادياً) من كونه قرآناً نزل من عند

---

(١) سورة النساء آية (٨٢).

الله بالوحي القرآني وقرأه الناس، ثم نسخ بما يتضح به بطلان هذا الزعم وما ضاهاه من المزاعم.

تتمة في الكشف عن وهن رواية (الشيخ والشيخة).

ونحن نتمم الكلام فيما ساقه السهيلي رحمه الله في روضه من رواية (الشيخ والشيخة) وما وقع فيها من تخالف واختلاف ليتضح أن هذا كله نمط واحد أريد به دغدغة الثقة بإعجاز القرآن العظيم، ليكون ذلك باباً من أوسع أبواب الطعن في أن القرآن الكريم كتاب أنزله الله على عبده محمد ﷺ معجزة صادقة الدلالة على صدقه ﷺ في رسالته الخاتمة الخالدة، وأنه تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله في هدايته وروعة بيانه وعلو أسلوبه، فعجزوا جميعاً، وكعّوا عن محاجته بالدليل والبرهان، ولجؤا إلى السيف وسفك الدماء، فقهرهم الله وأرغم أنوفهم، وأذلهم بالهزائم النكراء المتكررة، هزيمة في إثر هزيمة.

وقد بيّنا بياناً شافياً أن ألفاظ ما زعموه آية قرآنية نزلت في وجوب حد الرجم لمن زنى بعد إحصان في رواياتهم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله) لم تكن قط من ألفاظ القرآن ولا ألفاظ الحديث الشريف، فلم يستعملا كلمة (الشيخة) في معنى الإحصان ولا كلمة (الشيخ) في هذا المعنى، وكذلك كلمة (البتة) لم ترد في القرآن الحكيم ألبتة، لا فيما ثبتت قرآنيته بالتواتر ثم نسخ، ولا فيما أحكم فلم ينسخ منه شيء.

وهذا وجه إن لم يدلّ صراحة على بطلان الرواية فهو دال على استبعاد نزول آية قرآنية في زعم من رواها قرآناً بألفاظ طرحها القرآن والحديث فلم يستعملاها في المعنى المقصود للرواية.

وهذه وجهة لفظية ترجع إلى خصائص القرآن في ألفاظه وملاءمتها في الفصاحة ولطف الأداء، وهي كافية في إلقاء الشك في قرآنية هذا الكلام.

تعمد البخاري ترك لفظي (الشيخ والشيخة) من الحديث.

ويؤيد ذلك تأييداً واضحاً أن الإمام البخاري وهو سيّد المحدِّثين في صحة سنده ترك هذين اللفظين (الشيخ والشيخة) وطرحهما من روايته عمداً كما قال شارحه الحافظ ابن حجر، وهذا يدل دلالة بينة على أن الإمام البخاري رحمه الله لم ير أن هاتين اللفظتين (الشيخ والشيخة) من الحديث،

ولا أن النبي ﷺ قالها، لا على أنها قرآن نزل ثم نسخ، ولا على أنها غير قرآن.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيان عن الزهري، عن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البيّنة، أو كان الحمل أو الاعتراف.

قال سفيان: كذا حفظت، ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده.
فهذا الحديث وهو من أعلى وأرفع الأسانيد لم يذكر فيه (الشيخ والشيخة) ومعناه كلُّه منصب على إثبات حدٍّ الرجم للمحصن، وهو أمر مجمع عليه من الأمة سلفها وخلفها، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا طوائف من الخوارج والمعتزلة، فإنهم أنكروا حدّ الرجم، وقالوا لم يكن الرجم في كتاب الله، وقول عمر رضي الله عنه: فيضل عن فريضة أنزلها الله يحتمل أن المراد من إنزال الله إياها وحيه بها إلى نبيه محمد ﷺ وحياً غير قرآني، فتكون فريضة الرجم ثابتة بوحي السنة، ويدل لذلك قول عمر رضي الله عنه: ألا وإن الرجم حقٌّ على من زنى وقد أحصن، بل يجب حمل كلام عمر على هذا الوجه السديد.

وهذه الحقّية للرجم لا يلزم أن تكون ثابتة بنص قرآني، بل يكفي فيها أن تكون ثابتة عن النبي ﷺ في حديث صحيح، كما يستفاد ذلك من قوله ﷺ: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه».

وفي قول عمر رضي الله عنه: ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ما يقوي ما ذهبنا إليه من فهم قوله: فيضلُّوا بترك فريضة أنزلها الله، لأن معناه: فيضلوا بترك فريضة أوحى بها الله إلى رسوله ﷺ بضرب من ضروب الوحي غير القرآني، فقام ﷺ بتنفيذ ما أوحى به الله من حدِّ الرجم، واتّبعه من بعده الراشدون من خلفائه والمتقون من ولاة أمر أمته ﷺ.

فالبخاري رحمه الله لم يذكر في روايته الثابتة الصحيحة (الشيخ والشيخة) لأنها لم تثبتا عنده، لا لأنها سقطتا من روايته، كما تقوّله عليه بعض من يجري وراء السراب.

وإخراج الإسماعيلي لهذا الحديث من طريق الفريابي عن شيخ البخاري علي بن عبدالله وفيه: وقد قرأناها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة) لا يلزم البخاري صحة هذه الرواية، ولهذا قال ابن حجر: ولعل البخاري هو الذي حذف ذلك عمداً، ولكن ابن حجر لم يعلّل لتعمد ترك البخاري لهذين اللفظين، ولم يوجّه تعمد البخاري حذفه لهذه الزيادة التي جاء بها من رواية الإسماعيلي من رواية جعفر الفريابي، والظاهر أنها لم تصح عند البخاري، ولذلك تعمد حذف هذين اللفظين.

توهيم النسائي سفيان في ذكر لفظ (الشيخ والشيخة) يؤيد حذف البخاري لهما عمداً لعدم ثبوتهما عنده.

ويؤيد صنيع البخاري في تعمّده حذف هذه الزيادة لعدم صحتها عنده أن النسائي أخرج هذا الحديث عن محمد بن منصور، عن سفيان كرواية جعفر الفريابي، أي بزيادة (الشيخ والشيخة) وقد عقّب النسائي على ذلك فقال: ما أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث (الشيخ والشيخة)، غير سفيان، وينبغي أن يكون وهم في ذلك، ويؤيد توهيم النسائي لسفيان في ذكر هذه الزيادة قول الحافظ ابن حجر: وقد روى الأئمة هذا الحديث من رواية مالك، ويونس، ومعمر، وصالح بن كيسان وعقيل وغيرهم من الحفّاظ عن الزهري فلم يذكروها ـ أي الزيادة (الشيخ والشيخة)، ووقوع الزيادة في الموطأ من رواية يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب لا يقاوم عدم ذكرها من رواية الجماعة وفي طليعتهم الإمام مالك رحمه الله.

وقول عمر رضي الله عنه: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن معارض بما جاء في حديث أبيّ بن كعب عند النسائي والحاكم من قوله: ولقد كان فيها ـ أي في سورة الأحزاب ـ آية الرجم (الشيخ والشيخة) لأنها إذا كانت موجودة في سورة الأحزاب فكيف لم يعرفها عمر مكتوبة فيها؟ ويقول: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن.

وفي رواية عنه قد قرأناها: الشيخ والشيخة، وهذا يدل على أن الذين قرؤوها جماعة فأنى ذهبت؟ وكيف يخشى عمر بن الخطاب قالة الناس ـ وهو من هو في قوة الدين، وشدة الشكيمة وصلابة الشوكة ومضاء العزيمة، وشدة البأس ـ في أمر يجب عليه أن يقوم به ولو كان في ذلك حتفه، وجميع مواقف عمر في الإسلام تشهد بأن هذا بعيد جداً عن خلائقه وأخلاقه.

حديث زيد بن ثابت ورده على مروان يدلان على عدم قرآنية (الشيخ والشيخة).

وليس في حديث زيد بن ثابت أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة» ما يشعر قط أن هذا قرآن منزل من عند الله، وزيد بن ثابت أكثر كتّاب الوحي لزوماً لرسول الله ﷺ وأعظمهم حظاً في كتابة وحي القرآن، فلو كان الذي سمعه من رسول الله ﷺ قرآناً لأمره النبي ﷺ أن يكتبه في المصحف.

وفي حديث خالة أبي أسامة بن سهل أنها قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم، ولم يبين هذا الحديث نص الآية المزعومة، وقد جاء في هذه الرواية زيادة (بما قضيا من اللذّة) وهذه زيادة لا وجه لذكرها، لأن قضاء اللذة ليس خاصاً بالشيخ والشيخة، فهي زيادة تشير إلى ضعف الرواية، كما أن في هذه الزيادة (بما قضيا من اللذة) إلى جانب أنها لفظة لم تعهد في ألفاظ القرآن واستعمالاته، فسبيلها سبيل لفْظي (الشيخ والشيخة) كما أنها بعيدة عن مواقعة الأدب اللفظي والمعنوي.

وقد روى أبو عبيد القاسم بن سلاّم حديث خالة أبي أسامة بن سهل فقال بعد سرد سنده: عن أبي أسامة بن سهل أن خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم: الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة.

وأبو عبيد صاحب طامات في هذا الموضوع، رواها عنه السيوطي في الإتقان.

وفي حديث مروان بن الحكم عند النسائي أنه قال لزيد بن ثابت: ألا نكتبها في المصحف؟ قال زيد رضي الله عنه: لا، ألا ترى أن الشابين الثيبين يرجمان، وهذا يفيد أن زيد بن ثابت لم يتحقق عنده أن ما سمعه من رسول الله ﷺ من قول (الشيخ والشيخة) قرآن تجب كتابته في المصحف، ولهذا جاء

ردّه على مروان بأن هذا الكلام الذي يزعم أنه قرآن لا يتفق معناه مع واقع التشريع المجمع عليه في حدِّ الثيب، سواء أكان شاباً أم شيخاً، فتخصيص الرجم بالشيخ والشيخة لا وجه له، وهذا يخرجه عن كونه قرآناً تجب كتابته في المصحف.

كراهية النبي ﷺ الإذن في كتابة ما زعم أنها آية الرجم وقوله: (لا أستطيع) قاطعان في عدم قرآنيتها.

وقد جاء في هذا الحديث أنهم ذكروا ذلك فقال عمر رضي الله عنه: أنا أكفيكم فقال: يا رسول الله أكتبني آية الرجم، فقال ﷺ: «لا أستطيع».

وهذا يشبه أن يكون قاطعاً في أن ما يزعم من قولهم: (الشيخ والشيخة) قرآن نزل ثم نسخ كلام لا يعتمد فيه على شبه دليل، لأن قول عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: أكتبني أو اكتب لي، ومعناهما: ائذن لي أن أكتبها، وهذا بالقطع قبل أن تنسخ، لأنه لا يعقل من عمر ولا من غيره أن يطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له في كتابة ما نسخ، وإذا كان هذا الطلب من عمر قبل النسخ فلماذا قال له النبي ﷺ: «لا أستطيع»؟ وفي رواية كأنه كره ذلك، ومن العجيب أن عمر رضي الله عنه هو الذي كشف عن حقيقة ما يدل على أن هذا الكلام (الشيخ والشيخة) لا يمكن أن يكون قرآناً، فقال كما ذكر ابن حجر في الفتح: ألا ترى أن الشيخ إن زنا ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنا وقد أحصن رجم، كما قال زيد بن ثابت.

قال ابن حجر معقِّباً على ذلك: فيستفاد من هذا الحديث السبب في نسخ تلاوتها لكون العمل على غير الظاهر من عمومها، ولو أنصف ابن حجر رحمه الله ودقق في البحث لقال: ويستفاد من هذا الحديث أن هذا الكلام (الشيخ والشيخة) ليس بقرآن منزل من عند الله لإجماع الأمة على العمل بخلافه.

ولعل وجه سؤال عمر النبي ﷺ أن يأذن له في كتابتها أنه رضي الله عنه سمع كما سمع زيد بن ثابت من رسول الله ﷺ يقول: (الشيخ والشيخة) فتوهّما لأول وهلة أن هذا قرآن، فأما زيد فسكت لأن النبي ﷺ لم يأمره في شأنها بشيء حتى قال له مروان: لم لا تكتبها في المصحف؟ فردّ الحصيف العقول بما ينفي أنها قرآن يكتب في المصحف لمخالفتها شريعة حدّ

الرجم، وأما عمر رضي الله عنه فطلب من النبي ﷺ أن يأذن له بكتابتها عنده خشية أن يطول بالناس زمان فيتركوا فريضة الرجم ويضلُّوا بتركها، ولم يرد عمر رضي الله عنه أن يأذن له النبي ﷺ بكتابة ما سمع منه أنه قرآن منزّل من عند الله، ولو كان ما سمعه عمر قرآنا لما قال له النبي ﷺ: «لا أستطيع» كارهاً لذلك.

ويبيِّن ذلك ما أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن من طريق يعلى ابن حكيم عن زيد بن أسلم أن عمر خطب الناس، فقال: لا تشكوا في الرجم، فإنه حق، ولقد هممت أن أكتبه في المصحف فسألت أبي بن كعب، فقال: أليس أنني وأنا أستقرئها رسول الله ﷺ فدفعت في صدري، وقلت: أتستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون كما تتسافد الحمر.

قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى بيان السبب في رفع تلاوتها وهو الاختلاف لكون العمل على غير ظاهر عمومها، ولو قال ابن حجر: بل فيه إشارة إلى عدم قرآنيتها لكان أصرح في الحق وأجدر به في شهرته حافظاً للسنَّة وأحاديثها.

وهذا الاختلاف كما أوضحنا يوجب كون هذا الكلام ليس بقرآن، وإلا لو كان قرآناً ما منع من استقراء رسول الله ﷺ أيّ مانع من مفاسد المجتمع مهما بلغ سوء تلك المفاسد، لأن رسالة الإسلام إنما جاءت لإصلاح مفاسد المجتمعات الإنسانية، فإنكار عمر على أبي بن كعب رضي الله عنهما استقراء رسول الله ﷺ آية الرجم المزعومة بحجة وجود هذه المفسدة في المجتمع ممّا لا وجه له، ومن ثَمّ يكون ثبوت هذا الإنكار عن عمر غير مسلّم وقول ابن حجر: رجاله ثقات توثيق للسند وتوثيق السند لا يدل على صحة المتن.

ومما يقوِّي بطلان رواية (الشيخ والشيخة) ما جاء في حديث البخاري الطويل عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي ساق فيه حديث السقيفة: أن عمر رضي الله عنه لما رجع من حجَّته التي لم يحجّ بعدها جلس على المنبر يوم الجمعة فقال بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها،

رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، وأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف.

والمتأمل في هذه العبارة في ضوء ما قدمناه من البحث يرى فيها:

وجوه في حديث للبخاري تدل على عدم قرآنية ما زعم أنه آية الرجم.

أولاً ـ أن عمر رضي الله عنه قال: فكان مما أنزل الله آية الرجم، ولم يذكر نص ما زُعم أنه آية منزلة في كتاب الله، وقد علمنا بما سبق من البحث أن الكلام الذي يذكر فيه (الشيخ والشيخة) لا يمكن أن يكون هو المعنيّ بقوله: فكان مما أنزل آية الرجم، لأن هذا قد ظهر بطلانه بما لا يترك مجالاً للشك في هذا البطلان، وليس في موضع النزاع كلام آخرَ غير رواية (الشيخ والشيخة)، وقد علمنا أن البخاري تعمّد حذف هذا الكلام لبطلانه عنده. وقول عمر ـ إذا صح عنه ـ: فكان مما أنزل الله آية الرجم يمكن تأويله بأن المراد به حكم الرجم، وتسمية هذا الحكم آية من باب التأكيد لثبوته، ويدل لصحة هذا التأويل قول عمر بعده في هذه الرواية: إن الرجم حكم ثابت، نفّذه رسول الله ﷺ ومن بعده من الراشدين، ومن تبعهم من ولاة الأمر المهتدين بهدي رسول الله ﷺ.

وثبوت حكم فريضة الرجم حق لا يمتري فيه مؤمن، والذين أنكروه من بعض طوائف الخوارج والمعتزلة حائدون عن صراط الله الذي أنزل على عبده محمد رسول الله ﷺ السنة كما أنزل القرآن، وكل حكم شرعي يثبت بالسنة سنداً ومتناً هو في وجوب الإقرار والعمل بمقتضاه كالأحكام الثابتة بالقرآن الكريم، لهذا خشي عمر إن طال بالناس زمان أبعدهم عن عهد رسول الله ﷺ، وعن عهود الراشدين المهديين أن يجترىء مجترىء فينكر فريضة الرجم، لأنه لم يجده في الكتاب مسطوراً بين آياته المتعبد بتلاوتها، المتحدّى بها، فيضل بترك فريضة الرجم وهي منزلة من عند الله على رسوله ﷺ في تشريع السنة المطهرة.

ومن ثَمّ يتبين أن إنزال الفرائض على رسول الله ﷺ الملزم للأمة

بمتابعتها له ﷺ ليس بلازم أن يكون قرآناً متعبداً بتلاوته متحدياً للجاحدين هدايته؛ لأن تنزيل الفرائض كما يكون بالقرآن يكون بالسنة الصحيحة سنداً ومتناً، وقد أبنّا هذا المعنى بياناً شافياً في كتابنا (سماحة الإسلام).

ثانياً ـ جاء في هذا الحديث قوله: والرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى إذا أحصن، من الرجال والنساء إذا قامت البينة، والذي نفّذه رسول الله ﷺ عملياً وقاله أمران: هما الرجم والتغريب، والذي في الرواية المزعومة (الشيخ والشيخة) هو الرجم فقط، فالجمع بين الرجم والتغريب مذكوران في القرآن بواسطة الأمر باتباع الرسول ﷺ، وما كتبه على عباده، فالكتاب في قوله: أنزله الله في كتابه أي فيما كتبه على عباده، قال ابن حجر: وقيل المراد به القرآن، وهو المتبادر، وقال ابن دقيق العيد: والأول أولى.

تأويل قول عمر: والرجم في كتاب الله حق.

وهذا الكلام إن أريد به أن الرجم في كتاب الله، أي في حكمه وفرضه، وما كتبه على عباده حق فهو حق لا مرية فيه، ويدل لذلك قول ابن حجر: وقوله عند قول عمر: (والرجم في كتاب الله حق) أي في قوله تعالى: **﴿أو يجعل الله لهنَّ سبيلاً﴾، فقد بيّن النبي ﷺ أن المراد بالسبيل في هذه الآية:** أن المراد رجم الثيب وجلد البكر، وهذا صريح في حقيّة الرجم في كتاب الله هو بيان النبي ﷺ لإجمال القرآن، وليس معناه أن آية قرآنية نزلت بوحي قرآني مستقلة تبين حكم الرجم.

وإن أريد أن الرجم في كتاب الله أي في القرآن فهذا ما لم يثبت قط ثبوت القرآن بخصائصه الإعجازية، والكلام الذي زعم أنه قرآن (الشيخ والشيخة) ليس فيه: إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، والعموم الذي في هذا الكلام أن كل شيخ وشيخة إذا زنيا كان حكمهما الرجم تبطله البداهة الشرعية، إذ ليس كل شيخ وشيخة إذا زنيا كان حكمهما الرجم، وقد سبق أنّ هذا ورد في كلام عمر وزيد بن ثابت، ومن هنا علّل ابن حجر تعمد البخاري حذف (الشيخ والشيخة) وقد أبطلنا هذا التعليل ورجّحنا أن تعمد البخاري حذف هذا الكلام لبطلانه وعدم ثبوته.

ولعل بعض المتشبّثين بالروايات لصحة أسانيدها يقولون: إن تعيين

آية الرجم المقصودة في كلام عمر ولم يذكر نصها في هذا الحديث هي ما جاءت صريحة في روايات أخر بأنها (الشيخ والشيخة). قلنا في الرد على هؤلاء المتعلّقين بخيط العنكبوت: قد بطل أن يكون (الشيخ والشيخة) قرآناً منزلاً ثم نسخ.

وذكرنا أن أظهر وجوه بطلانه كراهية النبي ﷺ أن يأذن لعمر بكتبها، وقول عمر رضي الله عنه: ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم، ومعنى ذلك أن الحكم بأن الشيخ والشيخة إذا زنيا فحكمهما الرجم حكم غير صحيح، فلا يصح أن ينزّل به قرآن.

وإلى هنا نكف عنان القلم عن الحديث في (الشيخ والشيخة) وأنه كلام قرآني نزل ثم نسخ، غير أننا وجدنا أن الرواية قد نسبت إلى عمر رضي الله عنه في هذا الحديث كلاماً اتبعه في زعم الرواية لكلامه في آية الرجم، وهي (الشيخ والشيخة) فاصلاً بين الكلامين بحرف الترتيب والمهلة، فيقول: ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

شأن كل ما جاء بعدما زعم أنه آية الرجم هو شأنها في القطع بعدم قرآنيتها.

ونحن نتساءل: ما شأن هذا الكلام المزعومة قرآنيته الذي يصله عمر ـ في زعم الرواية ـ بقصة الرجم وآيتها التي لم تنزل قط في القرآن الحكيم.

ونجيب عن تساؤلنا الذي قد يتساءله غيرنا فنقول: إن شأن هذا الكلام هو شأن (الشيخ والشيخة) في زعم قرآنيته ثم نسخه كما نسخت آية الرجم.

والمتأمل في هذا الكلام يرى الشك يحوطه من أكنافه، والقلق في ألفاظه يستحوذ عليه، وهو خلِّي من سماحة الاتساق القرآني في أسلوبه وعباراته، وليس فيه رائحة من الجزالة البيانية والرونق القرآني الذي هو خصيصة القرآنية.

والرواية نفسها تذكر النص بالشك، أي أن الراوي لا يدري هل النص هو الشق الأول من العبارة أو الشق الثاني منها، لكن الحافظ ابن حجر قد زاد في الطنبور نغمة نشاز فقال: بالشك في رواية معمر، لكنّ معمراً قال: لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم، أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

وهذا نـص مخالف للنص الأول مع وجود الشك فيهما، أفيجوز أنّ هذا الكلام المتخالف المختلف مدخول الشك قرآن معجز أنزل وقرىء ثم نسخ؟ هذا محال، وهو أبطل الباطل.

ومن غرائب هذه الرواية أنها أقحمت كلاماً على لسان عمر لا تظهر له أدنى صلة بالكلام الذي جاء في أحضانه، فقالت الرواية على لسان عمر: ألا ثم إن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أُطري عيسى بن مريم، وقولوا عبدالله ورسوله».

هذا أسلوب في الكلام يؤدِّي إلى التعمية والغموض، والتفكك بين المعاني، والسامع لهذا الكلام متتابعاً لا يفهمه في ربط بعضه ببعض، وهو في غرابته أعجب من أن ينسب إلى عمر بقوله للناس وهو على المنبر.

محاولة ابن حجر تلمس ربط بين هذا الكلام وآية الرجم المزعوم قرآنيتها.

وقد حاول ابن حجر أن يلتمس له روابط تسلكه في قرن واحد، فقال: والنكتة في إيراد عمر هذه القصة أنه خشي الغلو على من لا قوة له في الفهم أن يظن بشخص استحقاقه الخلافة فيقوم في ذلك مع أن المذكور لا يستحق، فيطريه بما ليس فيه فيدخل في النهي.

ثم قال ابن حجر: ويحتمل أن تكون المناسبة أن الذي وقع في مدح أبي بكر ليس في الإطراء المنهي عنه، ومن ثم قال: ليس منكم مثل أبي بكر.

ثم قال ابن حجر: ومناسبة إيراد عمر قصة الرجم والزجر عن الرغبة عن الآباء للقصة التي خطب بسببها، وهي قول القائل: لو مات عمر لبايعت فلاناً، أن عمر أشار بقصة الرجم إلى زجر من يقول: لا أعمل في

الأحكام الشرعية إلا بما وجدته في القرآن، وليس في القرآن تصريح واشتراط التشاور إذا مات الخليفة، بل إنما يؤخذ ذلك من جهة السنة، كما أن الرجم ليس فيما يتلى من القرآن وهو مأخوذ من طريق السنة ـ تأمل هذه العبارة جيداً لتدرك أن الرجم لم ينزل فيه قرآن قط ـ ثم قال ابن حجر: وأما الزجر عن الرغبة عن الآباء فكأنه أشار إلى أن الخليفة يتنزل من الرعية منزلة الأب، فلا يجوز لهم أن يرغبوا إلى غيره، بل يجب عليهم طاعته بشرطها كما تجب طاعة الأب.

وهذا كله كلام يظهر أن ابن حجر شعر بما فيه من تعسف ومعاناة، فأراد أن لا يلزم به فقال كالمعتذر عن ضعفه: هذا ما ظهر لي من المناسبة، والعلم عند الله تعالى.

ضعف ربط ابن حجر وصواب الرأي في نظرنا على فرض ثبوت هذا عن عمر رضي الله عنه.

ونحن نقول للحافظ: إن هذا الكلام الذي أراد به أن يلائم بين قصص مختلفة متخالفة في الأحكام والآثار والوسائل كلام عسير الفهم على أوساط الناس، مغلق على عامتهم، فهو متعسف التأويل متمحل المخارج، لا تطمئن إليه العقول المتفقهة في الدين والعلم والمعرفة.

ولعل الصواب في هذا الكلام أنه قيل مبعَّضاً في مرات من المناسبات صالحة، فهو بمنزلة أحاديث متعددة الروايات، مختلفة المساقات، جمعها الحفاظ الرواة المشهورون بالحفظ الفائق في سوقها لتلاميذهم والآخذين عنهم، فتوهَّم بعض الرواة أنها حديث واحد قيل في زمن واحد، واشتمل على جميع ما ذكر فيه من قصص وأحاديث وردت في أحداث متفرقة لمناسباتها في بعض متعلقاتها تناسباً بعيد التقارب بين حقائقها وعناصرها، والعلم عند الله.

* * *

وبهذا التحقيق الذي عرضنا في جلبابه ما قيل عن كلام زُعم أنه قرآن نزل من عند الله بوحي قرآني ثم نسخ، ساقنا إليه السهيلي رحمه الله باستطراد في الحديث عن شهداء بئر معونة من القرّاء وما زعمت روايات

الصحيح عن أنس ـ موقوفاً ـ أنه قد نزل في شأنهم قرآن، قرأه الناس، ثم نسخ، إلى الحديث عما زعم قرآنيته من كلام النبي ﷺ وقوله: «لو أن لابن آدم واديين من ذهب» إلى الحديث فيما زعم أنه قرآن نزل في حكم الرجم (الشيخ والشيخة) ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه.

وقد بقيت للحديث كمالة لا بد من ذكرها استيفاء لبحث الموضوع، لأن الكلام لم يقف بهذه المزعومات عند هذا الحد، ولكن فئة ممن يذكر في أهل العلم تزّيدت تزيداً عجيباً نرى من الضروري التعرض له وردّ باطله.

ففي (لو أن لابن آدم وادِيَيْن) نقل السهيلي عن ابن سلّام أن هذا الكلام كان آية من سورة يونس بعد قوله تعالى: ﴿كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

كلام باطل يرويه أبو عبيد بن سلام تتناقض رواياته.

وقد عورض هذا القول الباطل بما رواه ابن سلّام نفسه من حديث أبي موسى الأشعري، قال أبو عبيد القاسم بن سلام ـ كما في إتقان السيوطي ـ حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبي موسى الأشعري قال: نزلت سورة نحو (براءة) ثم رفعت، وحفظ: إن الله سيؤيد هذا الدين بقوم لا أخلاق لهم، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ﴿ويتوب الله على من تاب﴾.

هذا حديث مظلم، وهو من أبطل الباطل، وأمحل المحال، لأنه يجعل هذا الكلام المزعومة قرآنيته من سورة نحو سورة (براءة) نزلت ثم رفعت، ولم يحفظ منها شيء على طولها وكثرة كلامها سوى هذه الكليمات القليلات، على كثرة عدد أصحاب رسول الله ﷺ بعد نزول سورة (براءة) المدنية، وهذه السورة المزعومة لا بد أن تكون ـ في نظر زاعميها ـ قد نزلت بعد سورة (براءة) لأنها شُبهت بها في حجمها وتعداد آياتها، وكانوا رضي الله عنهم يعدُّون بعشرات المئات، فقد قال الإمام أبو زرعة: توفي رسول الله ﷺ عن مائة وأربعة وعشرين ألفاً من الصحابة، فهل يعقل أن هذا العدد أو نصفه أو ثلثه، أو ربعه، أو خمسه، بل أو عشره تنزل على نبيهم ﷺ وهم أحرص

الناس على أن لا يفوتهم حرف مما نزل عليه سورة في قدر سورة (براءة) والنبي ﷺ بين أظهرهم ينزل عليهم متتابعاً، لا يفتر ولا ينقطع، ولا يحفظ أحد منها إلا هذه الكليمات؟ هذا شيء لا سبيل إلى تصديقه وقبوله عقلاً.

وأي الروايتين أصدق حديثاً وكلاهما عن ابن سلّام في روايتها، فهذه ذكرنا روايتها عن إتقان السيوطي عن ابن سلّام، وتلك ذكرنا روايتها عن السهيلي في روضه إذ يقول: إن هذا الكلام كان آية في سورة يونس بعد فاصلة من فواصل آياتها التي وصفت الدنيا وسرعة زوالها وتقضّيها، وفنائها فناء صوّره رب العـزة تبارك وتعالى في جملة موجزة أبدع إيجاز فقال: (كأن لم تَغْنَ بالأمس).

ثم جاءت فاصلة الآية لتبعث في أهل الإيمان حركة عقلية، وتثير في قلوبهم ثورة فكرية تطلب إليهم التدبر في أمر هذه الدنيا بما فيها من زخرف وزينة ومتاع، وتطلب إليهم أن يتدبروا شأن عظمة الله تعالى وجلال كبريائه إذا جرى قضاؤه بانتهاء هذه الحياة بما بلغت من نفوس أهلها وعبيد شهواتها وأحلاس رغائبها حتى توهّموها خالدة لا تزول، وأنهم قادرون عليها وعلى التمتع بزينتها وزخرفها، أنزل الله عليها من سماء كبريائه ما جعل زينتها حصيداً فانياً كأنها لم توجد بالأمس ساعة افتتان أهلها بها الذين استولت على أفئدتهم، وغطّت على مشاعرهم فاستغرقتهم بالغفلة عن التدبر والتفكر في شأن الله وأخذه للغافلين بغتة، لأنها سلبت عقولهم بشهواتها، ثم إذا هي في طرفة عين حصيداً رمرماً متساقطاً موطوءاً بأقدام الفناء.

فما نقله السهيلي عن ابن سلّام متعارض مع ما رواه ابن سلّام من حديث أبي موسى الأشعري وهي رواية متهاوية واهية مظلمة المتن والسند، بل باطلة فاسدة، وهذه جعلت (لو أن لابن آدم واديين) من سورة نزلت من الفضاء إلى الخواء مع طولها وكثرة آياتها كما تزعم هذه الرواية الباطلة دون أن يَعْلق بحافظة أحد من الصحابة شيء منها سوى هذا الكليمات المعدودات.

والرواية الأخرى التي نسبها السهيلي إلى ابن سلّام نفسه تجعل هذا الكلام آية كانت في سورة يونس بعد واسطة عقدها في نعي الدنيا إلى أهلها.

فهل ثمّة ما يوجب عقلاً ونقلاً طرح هذا الكلام بجميع رواياته بعيداً عن حمى القرآن الكريم أكثر من هذا؟.

أباطيل أخرى تروى ولا تناقش لإظهار بطلانها.

ومما يزيد في غرابة هذه الروايات وغرابة العقول التي قبلتها ودوّنتها في كتب تحمل اسم الإسلام في طرَّتها ما رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» فقرأ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ ومن بقيتها: لو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه سأل ثانياً، وإن سأل ثانياً فأعطيه سأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية، ومن يعمل خيراً فلن يكفره.

أهذا أسلوب قرآني يا أهل العقول؟ أفيجوز في شرعة العقل والدين أن يحتفل النبي ﷺ أعظم احتفال بمثل هذا الكلام، ويخصُّ به ربُّ العزة جل شأنه أقرأ الأمة للقرآن، الصحابي الجليل أبي بن كعب رضي الله عنه، ويأمر رسول الله ﷺ أمراً خاصاً أن يقرأ القرآن على هذا الصحابي العليم سيّد القراء في عهده، فيقرأ عليه هذا الكلام الملفّق من جمل وكلمات، لا هي شرقية ولا غربية، لا يجمعها زمام ولا يضمها خُطام، أيجد إنسان له أدنى إلمام بمواقع الكلام وتذوّق معانيه، واستطعام أسلوبه رائحة من شميم الهداية القرآنية في هذه الهلهلة المزعومة أنها قرآن.

ولكن ما الحيلة مع هؤلاء الرواة الذين لا يسمحون لأنفسهم بشيء من التعليق على ما يروون ليؤدّوا حقَّ النصيحة للأمة المسلمة التي لها في أعناقهم حقُّ الإخلاص بالنصيحة لعامتها وخاصتها.

وحديث المستدرك يزيد الإشكال إشكالات، فقد جعل هذا الحديث هذا الكلام الملفق المزعوم قرآناً من سورة البيّنة وتسمى سورة (القيِّمة)، وقد كان هذا الكلام نفسه في بعض الروايات التي سقناها فيما سبق من سورة يونس، وفي بعضها من سورة الخواء التي لم يعرف عنها أحد شيئاً سوى أنها كانت مثل (براءة) ولم يحفظ منها سوى هذه الكليمات، ومع تعدد الروايات

المقتضي بطلانية أن يكون هذا الكلام قرآناً نجد الروايات تسوق هذا الكلام في ألفاظه وترتيبها مساقات مختلفة متخالفة مما يحقق أن من المحال أن يكون ذلك قرآناً نزل من عند الله ثم نسخ.

ونحن ندين بأن من حُمل عليهم هذا الغثاء من الصحابة وأهل العلم واليقين بالقرآن من سلف الأمة بأسانيد مركّبة ملفّقة برءاء من أنهم قالوا أو رووا شيئاً من ذلك، لأنه كلام لا يمكن أن يكون من ينابيع ما نزِّل على محمد خاتم النبيين ﷺ.

ومن بدائه ما يكسوه البطلان ثوب المحالية ما ذكر السيوطي في الإتقان إذ قال: قال الحسين ابن المناوي في كتابه الناسخ والمنسوخ: ومما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر، وتسميان سورتي (الخلع والحفد).

يدا الزندقة وخبث اليهود اشتركتا في صنع هذه الأكاذيب وروجها البله وتقديس ذوي الهالات

هذا كلام له أمثلة كثيرة شحنت بها كتب دست على التراث الإسلامي، وكانت مادة سخية لأعداء الإسلام، لا ينضب معينها من المستشرقين وتلاميذهم من الملاحدة المستغربين. ولا شك عندنا في أن هذا كلام دخيل وضعه الزنادقة واليهود، وتلقفه البله من ذوي الغفلة وسلامة الصدور، كما تلقفوا أقصوصة الزندقة الغرنوقية التي رمينا بشوب من حميم التحقيق فألقاها في هاوية الفناء.

من البيِّن أن كل ما عرضناه للبحث والمناقشة مما جاء في الروايات سواء أكانت من روايات الصحيح، أم من غيره بزعم أنه قرآن نزل من عند الله، ثم نسخ نصه ويقي حكمه مدفوع بقول الله في القرآن الحكيم: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وهذا إخبار لا يدخله النسخ ولا يدخله الخلف، وهو المعبر عنه عن أهل الأصول بالنسخ لغير بدل، لأن الآية جملة شرطية قطعية الملازمة بين الشرط وجوابه، وهي مقتضية باللزوم العقلي أن كل آية ينسخها الله فلا بد لها من بدل يحل محلها، يكون خيراً منها في يسر التكليف وسهولة الامتثال وكثرة الثواب، أو مثلها مما يدعو إليه القرآن من هداية وإصلاح ورحمة.

النسخ بغير بديل لم يقع لأنه مخالف لنص القرآن.

قال ابن الحصّار: إن قيل كيف يقع النسخ إلى غير بدل، وقد قال الله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها﴾ وهذا خبر لا يدخله خلف؟ والجواب أن نقول: كل ما ثبتَ الآن في القرآن ولم ينسخ فهو بدل مما قد نسخت تلاوته، فكل ما نسخه الله من القرآن مما لا نعلمه الآن فقد أبدله بما علمناه، وتواتر إلينا لفظه ومعناه.

وهذا جواب ضعيف مستعجم لأن محل النزاع نص نسخ وبقي حكمه الخاص، فكان بمقتضى منطوق الملازمة العقلية في شرطية الآية أن ينزل نص يكون بديلاً عن النص المنسوخ، وليس فيما زعمت الروايات أنه قرآن نزل من عند الله ثم نسخ نص كان بديلاً عن النص المنسوخ.

فجواب ابن الحصّار عن سؤاله لا محصل له، والجواب الصحيح هو القطع ببطلان كل رواية زعمت أن قرآناً نزل من عند الله ثم نسخ إلى غير بديل عنه متواتر النقل عن رسول الله ﷺ مقطوع بقرآنيته، والنص المنسوخ يشترط فيه كذلك ثبوت قرآنيته ثبوتاً قاطعاً بالنقل المتواتر، والروايات التي جرى في شأنها حديثنا كلها أحادية لا تفيد العلم، ولكنها تفيد الظن وتوجب العمل إذا صحّت أسانيدها، ولم تصادم متونها أصلاً من الأصول التي قام على دعائمها الدين، لأن صحة السند لا يلزمها صحة المتن، قال الباقلاني في كتاب (الانتصار): أنكر قوم هذا الضرب من النسخ لأن الإخبار فيه آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها.

والشرطية في الآية المقتضية للتلازم العقلي بين الشرط وجوابه توجب أن كل حكم نسخ نصه ومعناه فلا بد من الإتيان بنص بديل عنه متضمن لحكم خير من الحكم المنسوخ في يسره، وسهولة امتثاله، أو كثرة ثوابه، أو تحقيقه لمصلحة أرجح مما كانت في الحكم المنسوخ، أو دفع مضرة كانت في الحكم المنسوخ، أو متضمن لحكم مثل الحكم المنسوخ، وإن كل نص نسخ وبقي حكمه فلا بدّ من الإتيان بنص بديل عن النص المنسوخ يتضمن نفس الحكم الذي لم ينسخ، وإن كل حكم نسخ وبقي النص الدال عليه فلا بدّ من الإتيان بنص يتضمن حكماً خيراً من الحكم المنسوخ أو مثله.

أما نسخ نص وبقاء حكمه بغير بديل للمنسوخ فهو مخالف لمنطوق الآية فلا يقع، وبهذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، ونص عبارته في (الرسالة): وليس يُنسخ فرض أبداً إلا إذا ثبت مكانه فرض... وكل منسوخ في كتاب وسنة هكذا.

وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ولا محيص منه، ولا ينبغي لمؤمن بالله ورسوله أن يمتري بـه. والله ولي التوفيق والسداد.

غَــزْوَةُ الأحــزَابِ

وَهيَ غزوَةُ الخندَق

أسبابها وأحداثها وآثارها

مشابه بينها وبين غزوة (أُحد)

كانت شدائد أحد دروساً تربوية لبطولات لم تهزها أعاصير المحنة

غـزوة الأحـزاب

جاءت غزوة الأحزاب بعد غزوة (أُحد)، فكانت آخر غزوة هجومية في غزوات أحلاس الشرك وعبيد الوثنية المتحجّرة الذين كان يسوقهم الصَّلَف بسياط الغرور الكذوب والتنفّج بالقوى المادية، وكانت في هذه الغزوة هزيمة الشرك البليد بحشوده وجحافله، وقد تعرّى عن سوآته القبيحة، وهزيمة الشرك المتسترِّ بالغطرسة اليهودية التي أحرق أكبادها الحسد القاتل والحقد الأسود.

تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أوفق بلمحة القرآن.

وقد لُمح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾[1] إلى تسمية هذه الغزوة باسم (الأحزاب) الذي يصوِّر جوهرها في تكالب شراذم المشركين وفجّار اليهود على المجتمع المسلم ليستأصلوه من فوق الأرض.

وتسمَّى هذه الغزوة في مؤلفات الغزوات والسِّير غزوة (الخندق) تسمية لها باسم أول (تطوّر) في وسائل الدفاع الحربي أخذ به الإسلام في جهاده القتالي قبل أن يعرفه العرب، ليضع لمجتمعه مَعْلَماً من معالم الحركة المتجدِّدة في ظل الترقِّي والأخذ بكل جديد صالح تتطلَّبه الحياة الثائرة المتجددة، باعتباره من أهم وأعظم جوانب التأهب والاستعداد لمواجهة أعداء الحقِّ في منهج الجهاد القتالي لرسالة الإسلام، إذا ألجىء إليه المجتمع المسلم للدفاع

(١) سورة الأحزاب آية (٢٢).

عن دينه وعقيدته وكيانه، وإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الهدى والخير والإصلاح.

وقد عكس الإمام البخاري الوضع الإشاري الذي لمّح إليه القرآن المجيد، فقال في الترجمة لها: بأن غزوة الخندق وهي الأحزاب، ولو عكس فقدم ما أخّر، وأخّر ما قدم لكان أوفق بلمح القرآن الحكيم.

وفي صنيعه هذا إيثار لتقديم الوسائل على المقاصد، وكان الأخذ بإشارة القرآن في تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أو ـ على الأقل ـ تقديم هذا الاسم على اسم (الخندق) أحرى وأقعد وأوفق.

لأن هذه التسمية التي أشار إليها القرآن تعبّر تعبيراً صادقاً عن الصورة التي، وضع أعداء الله من المشركين وفجّار اليهود هذه الغزوة في إطارها للأحداث التي جمعت حشود الشرك وعبيد الوثنية، وأقامت دعائمها على القوة الماديّة من المؤن والسلاح، وأقامت عناصرها على التكالب المسعور لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومستقر دعوته.

ولعل الإمام البخاري رحمه الله ومن أخذ بطريقته آثر تقديم الوسيلة الجديدة اهتماماً بالوسائل المُحْدَثة؛ إيماءً منه إلى أن (تطوّر) الحروب في حياة الأمم والدول يتطلّب هذه الوسائل المتجدِّدة باعتبارها سبباً من أسباب الأهبة والاستعداد الدفاعي المفاجىء للعدو، فيدهشه ويذهله، ويقلب عليه خططه في خوض الحرب والقتال، ولهذا قال فرسان الأعداء لمّا رأوا (الخندق) وهم يجولون بخيولهم ليشتبكوا مع كتائب المجتمع المسلم: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، وكذلك ممّا يلتمس للإمام البخاري في صنيعه أن الوسائل مقدّمة بالطبع على المقاصد.

كان صبر رسول الله ﷺ واحتماله فوق مستوى المحن في غزوة الأحزاب حتى جاء نصر الله.

كانت هذه الغزوة مليئة بالأحداث والوقائع التي كانت تمثل كثيراً من معالم منهج الرسالة الخالدة في شدائدها وأزماتها ومحنها، والتي قابلها رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم بأعظم الصبر وقوة الاحتمال، فكان لأصحابه المجاهدين تحت لوائه أجلّ قدوة وأعظم أسوة فيما تطلبته أحداث الغزوة من

مواقف تعتمد على العزائم الصادقة والإيمان الراسخ واليقين الذي لا تزلزله كوارث البلاء والمحن.

هذا إلى جانب ما كان في أحداثها من معالم الغيب الإلٓهي الذي يمثّل فضل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أصحابه في تفريج مضايق النوازل والبلايا التي كانت تمحيصاً لهم وإظهاراً لقوة عزائمهم وإخلاصهم، وليكون فضل الله في تفريج النوازل والمحن تضميداً لجراحهم، وبشرى لهم في مستقبل حياة مجتمعهم، وشحذاً لفضائلهم الإنسانية النبيلة، التي ربّاهم عليها قائدهم الأعظم ﷺ، ولتكون هذه الفضائل هي سلاحهم المعنوي في تحمّل لأواء الحياة بصبر صبور، ونضال لا تُفلُّ قناته، ولا تخضد شوكته، ولا تغمز كرامته، ولا يطمع في النيل منه الطامعون، وتزداد قوتهم الروحية التي تستمد عناصرها من إيمانهم بالله الذي يردّ بها كيد الكائدين، ويهبها من قوة العزيمة ما تتحدّى به قوى أعدائها المادية، ومن قوة الإرادة ما تقهر به قوى حشودهم مهما تكاثرت وتكاثفت عدداً وعُدّة.

كانت المشابه بين (أحد) و (الأحزاب) دروساً تربوية للمجتمع المسلم.

ومن ثَمّ كانت المشابه التي وصلت هذه الغزوة بغزوة (أُحد) في أزماتها المستحكمة واستحكام شدائدها الضارية، وقسوتها الشرسة دروساً تربوية كامنة في أحداث (أُحد) ولا سيما في أسبابها، وتجمّع لفائف الشرك المزري بالعقول، والوثنية المنحطة من هنا وهناك، وتأهبهم لمهاجمة المجتمع المسلم تأهباً بلغ أقصى ما يستطاع التأهب به من رجال وأسلحة ومؤن ليستأصلوه ويستأصلوا دعوته إلى توحيد الله وإقامة منائر العدل على طريق الإنسانية في مسيرتها المقدورة لحياتها، ويقفوا مدّ انتشار الدعوة إلى الله التي حمل لواءها بعد الهجرة مجتمع جديد في تكوينه الروحي والمادي مما أغصّهم وكشف أغشية قلوبهم وأحرق أكبادهم، وألبسهم لباس الذل والهوان.

بَيْدَ أن شدائد (أُحد) التي تفتقت عنها وقائعها وأحداثها كانت شدائد تربوية وضعت للمجتمع المسلم ركائز جديدة أقام عليها بناء منهج الرسالة في مستقبل الحياة لتخليص المجتمع المسلم من رواسب التراث الجاهلي الذي كانت آثاره لا تزال قائمة في النفوس، هذا التراث الجاهلي القريب من

أنفسهم ممّا كانت تعتمد عليه الجاهلية في حروبها، وكان هذا التراث يعتمد على القوة المادية وحدها، ولا يعرف غيرها، وهي قوة حشد التجمعات من الرجال، وكثرة السلاح ووفرة المؤن.

وقد كان مظهر هذه القوة الماديّة التي تصبغ بصبغتها التراث الجاهلي المترسب في حنايا النفوس ماثلاً في غزوة (بدر) و(أحد)، وقد عبّرت عنه في (بدر) الكتائب المجاهدة بالتعجُّل لإنهاء المعركة قبل أن تبلغ مداها من النصر المؤزر الذي يقضي على قوة العدو قضاء مبرماً لا تقوم له بعده قائمة، كما كان ماثلاً في الإسراع إلى جمع الغنائم وأخذ الأسرى في (بدر)، وفي عدم الوقوف عند أوامر القائد الأعظم، والتسليم المطلق لمتابعة أوامره ووصاياه في (أحد) في سبيل نصر طائر غير مستقر على أرض صلبة لا تسوخ فيها أقدام المجاهدين في مستقبل الحياة وهم يحملون لواء دعوة الحق التي يقوم بناء صرحها على دعائم التوحيد وهدم صروح الشرك والوثنية، وخاصّة إذا كان هذا القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي، المسدّد بتوفيق الله، العليم بمنادح الغيب الذي تجب متابعته في جميع أوامره ووصاياه، متابعة لا ترتد قطّ إلى شيء من رواسب الجاهلية، تلك الرواسب التي كان من أهداف رسالة الإسلام العمل على تقويضها وتخليص المجتمع المسلم من شوائبها، وتركيبه في عناصره الجديدة تركيباً لا يجعل لتلك الشوائب الماديّة المظلمة الجاهلية أدنى سلطان في توجيه الوقائع والأحداث التي تتعرض لها رسالة الإسلام في مسيرتها الخالدة.

تذكير ببعض المشابه بين أحد والأحزاب.

ولهذا ظهر شيء من التناقض الغريب في مسلك المجتمع المسلم في غزوة (أحد)، وأول ذلك ـ كما قدّمنا ـ كان في عدم متابعة ما رآه رسول الله ﷺ من البقاء في المدينة، ومقاتلة أعدائه في طرقاتها وأسطح منازلها، حتى استكره المتحمسون للخروج رسولَ الله ﷺ ليخرج بهم لملاقاة عدوهم خارجها، فكان لهذه المخالفة التي حملت ذِرْواً من ترسّبات التراث الجاهلي، تمثَّل في حماسة الشباب الذين فاتهم فضل (بدر) ـ أكبر الأثر في سير الأحداث التي انتهت بأقسى محنة عرفتها غزوات الإسلام.

ثم جاءت مخالفة جمهور الرماة الـذين وضعهم رسول الله ﷺ في أماكنهم ليحموا ظهر الجيش، فإنهم لم يكادوا يلمحون النصر يلوح في ميدان المعركة حتى تركوا أماكنهم وأسرعوا لجمع الغنائم مع المحاربين، ففتحوا بذلك ثغرة للعـدوّ كرّ منها على كتائب الإسلام، فانفرط عقدهم وشاعت بينهم الفوضى، حتى كان بعضهم يقتل بعضاً بغير علم من شدة ما اعتراهم من الدهش والمفاجأة، ثم فروًا عن رسول الله ﷺ وتركوه في ميدان المعركة وحيداً، وهو يرامي العدو بقوسه، حتى تشظّت ونفدت سهامها وجعل يرميهم بالحجارة، وهو ثابت في مقامه ما يزول عنه قط.

فكانت هذه المخالفة لأوامر رسول الله ﷺ سبباً آخر في وقوع المحنة التي انتهت بالهزيمة، ثم جاءت المخالفة الثانية وكانت ممثلة في التزيد في الحب العاطفي لرسول الله ﷺ الذي غطّى على الحب الإيماني المرتبط أوثق ارتباط بالمتابعة الصادقة والتسليم لأمر القيادة العظمى الفريدة في تاريخ البشرية، حتى انفلقت شغاف قلوبهم عن أقسى الجزع وأشد الهلع المذهل إثر إرجافة الشيطان وصرخته بأن محمداً قُتل، فلم يملك أحد منهم أن يتماسك ويثبت ويتثبّت، ولكنهم أُخذوا عن أنفسهم، وأطلقوا سوقهم مع ريح الهرب لا يلــوون على شيء ورسول الله ﷺ في أُخراهم يدعوهم (إليّ، إليّ) ليردهم إلى مواقفهم من المعركة، ثم تتابعت الحوادث الممحّصة في أزماتها وشدائدها ومحنها بسرعة مذهلة لم تترك نفساً يتردد، ولا سلامة إدراك لعقل يفكر، ولا لبطولة شجاع تظهر، ولا لبأس بئيس يفرّج هذه الضـوائق التي نزلت بكوارثها على كتائب الإسلام.

وقد نزل برسول الله ﷺ من البلاء والجراحات ما لم ينزل بأحد، فكان عبء هذه المعركة القاسية بأحداثها ووقائعها المريرة بآثارها على كـاهله وحده ﷺ، حتى فاءت إليه فئة من ذوي البأس وصدق الإيمان بعد أن فاءت إليهم أنفسهم وذهب عنهم بعض ما عانوه من الهول المفزع، فأقبلوا إليه ﷺ الواحد تلو الواحد، ووقفوا يذودون عنه ﷺ حتى انصرف العدو عن ميدان القتال، ثم انصرف المسلمـون إلى رحالهم ومنـازلهم يكمدون جـراحهم

ويلتقطون أنفاسهم، وعادت إليهم نفحات الإيمان وعادت إليهم قوة عزائمهم، ووقر الدرس التربوي في نفوسهم حتى كان مسيرهم إلى حمراء الأسد وجراحهم تقطر دماً، وكان هذا المسير مجدِّداً لحياتهم وميلاداً جديداً لهم.

وهكذا كانت دروس (أحد) في مرارة أزماتها لوناً من التربية البطولية التي لم تهزها أعاصير الهزيمة، فأفاد منها المجتمع المسلم ما كان له قوة جدّدت عزائم أفراده، وزفعت شأو إيمانه برسالته ودعوته إلى الحق والخير، وأخرجته نضيج الشخصية راسخ اليقين من أتون الرواسب الجاهلية التي ورثها فيما ورث من تراث هذه الجاهلية التي لم تكن ترى قوة في الحياة يقع بها التغالب سوى القوة المادية، وعلمته أن كتائب الإيمان لا تحارب أعداءها من فجّار الكفر بالقوة المادية وحدها، وإنما تحاربهم بقوة الإيمان بعقيدتها وحب التضحية بما تملك من نفس ومال في سبيل إقامة صرحها الذي يعتمد على ركائز المبادىء الإنسانية الرفيعة.

محن (أحد) دروس تربوية لم تهزها عواصف الهزيمة.

وهذا المعنى التربوي في منهج الرسالة هو الذي رسّخه درس (أحد) في نفوس أفراد المجتمع المسلم، وهو الذي كان عدّة هذا المجتمع في غزوة (الأحزاب).

كانت غزوة الأحزاب مدرسة تربية لا تنزل في مستواها التربوي عن مستوى مدرسة (أحد)، لكن دروس غزوة (الأحزاب) كانت دروساً من لون آخر غير ألوان دروس (أحد)؛ لأن دروس (أحد) كانت لتربية روح اليقظة البطولية الصابرة على بأساء الحرب وعض السيوف ومشارفة الموت في سبيل نشر الرسالة والدعوة إلى الله، والركون إلى صدق المتابعة لأوامر القيادة العظمى، والتحذير الزاجر من مخالفة أوامر هذه القيادة، ومحبتها محبة إيمانية لا تتزيد بثوران العواطف البشرية التي مسّها طائف من الإرجاف المتكذّب فخفّ ثقلها في ميزان الصبر على لأواء المحن وكوارث البلاء، وانقلبت انتصاراتها هزائم، وباءت بالفشل ناكصة على أعقابها فراراً من الموت، ولم تثبت فيها إلا قدم رسول الله ﷺ.

أما دروس (الأحزاب) فكانت تربية نفسية، تستهدف الصبر المرير على

المحن النفسية من الجوع المقعد، وفقدان الزاد المؤنس، والدأب على أشقّ الأعمال في حصار مضروب مستحكم من العدو، يملك على كتائب المجاهدين منافذ الحياة، مع مكايد المنافقين ودسائسهم الخبيثة وتسللهم لِواذاً متعلّلين بالأكاذيب الفاجرة، إلى جانب حماية النساء والعجزة والأطفال، وهم من وراء المجاهدين في آطام المدينة وحصون المنازل، خوفاً عليهم من غدر اليهود وخياناتهم.

كانت دروس الأحزاب تربية نفسية للمجتمع المسلم في مستقبل حياته.

وقد كان لهذه الدروس القاسية أعظم الأثر في موقف المجتمع المسلم أمام أعدائه في قوتهم المادية الهائلة التي أعدوها لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومدينته.

تحقيق تاريخ غزوة الأحزاب

ترجيح القول بأنّ (الأحزاب) كانت في السنة الرابعة.

وقد اختلف أهل العلم من المحدّثين وأصحاب المغازي والسِّير في تاريخ غزوة (الأحزاب ـ الخندق) والسنة التي وقعت فيها، فذهب موسى ابن عقبة في مغازيه ـ وهي بشهادة مالك بن أنس، والشافعي ـ أصحُّ المغازي، وبقوله قال مالك رحمه الله: إنها كانت سنة أربع من الهجرة، وإلى هذا جنح البخاري في صحيحه إذ اقتصر عليه ولم يذكر غيره، وأيّده بالحديث المتفق عليه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ عرضه يوم (أحد) وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يُجِزْه للقتال، وعرضه يوم الخندق (في غزوة الأحزاب) وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه للقتال مع كتائب المجاهدين فيكون بين العرضين سنة واحدة، وغزوة (أحد) كانت في السنة الثالثة للهجرة، فتكون (الأحزاب ـ الخندق) في السنة الرابعة.

وأيّد هذا القول ولي الدين العراقي فقال: المشهور أن (الخندق ـ الأحزاب) كانت سنة أربع. قال الزرقاني في تعليل قول العراقي: لمزيد إيقان القائلين بذلك، كيف وهم موسى بن عقبة، ومالك، والبخاري، قال الزرقاني: وقد صحّح هذا القول النووي في الروضة.

ومن ثَمّ رجحنا هذا القول فقدّمنا (الأحزاب) وحديثها ووقائعها على

غزوة (المريسيع) وهي غزوة بني المصطلق التي كانت في السنة الخامسة.

وذهب ابن إسحق إلى أن غزوة (الخندق ـ الأحزاب) كانت في شوّال من السنة الخامسة للهجرة، ورجَّح ابن القيم قول ابن إسحق في كتابه (الهدي النبوي) وقال: إنه الأصح، وجزم به الذهبي، واعتمده ابن حجر، وقال: ويؤيده قول أبي سفيان للمسلمين لما رجع من (أحد): موعدكم العام المقبل ببدر، فخرج ﷺ من السنة المقبلة إليها، فلم يأت أبو سفيان من أجل الجدب الذي نزل بهم، فرجعوا بعد أن وصلوا إلى عسفان أو دونها.

ضعف قول ابن إسحاق ومناقشة ابن حجر في اعتماده.

وليس فيما ادّعاه ابن حجر تأييد لقول ابن إسحق ومن تبعه في مذهبه، لاحتمال أن النبي ﷺ بادر بالخروج إلى بدر الموعد في مطلع العام ليظهر القوة والسرعة إلى الوفاء بالوعد، لئلا يظن المشركون بالمسلمين الضعف والتهرب من لقاء عدوهم في الموعد، ولما لم يحضر أبو سفيان برجاله المحاربين رجع رسول الله ﷺ، وبلغ أبا سفيان صنيعُ رسول الله ﷺ فأخذته العزّة بالإثم، وجعل يتأهب لملاقاة رسول الله ﷺ، ووافق ذلك منه مواقع الغدر والفجور من اليهود الذين ذهبوا إلى مكة لتحريض قريش على حربه ﷺ، وكان ذلك في وسط سنة أربع أو في آخرها، فأجابهم أبو سفيان إلى ما قصدوه، وصادف من نفسه هوى، وكان على أهبة الخروج، وخرج بحشوده وأحباشه ومن وافقه من الأحزاب وجموعهم إلى غزوة (الخندق ـ الأحزاب)، فلا وجه لما ادّعاه ابن حجر من توجيه لقول ابن إسحاق.

وذكر الزرقاني في سياقه لكلام ابن حجر قوله: وقد بيّن البيهقي سبب هذا الاختلاف وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدُّون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي كانت قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه، فذكر أن غزوة بدر كانت في السنة الأولى وأحداً في الثانية، والخندق في الرابعة. قال ابن حجر: وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناء واهٍ مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرّم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر في السنة الثانية، و (أحد) في السنة الثالثة، والخندق في السنة الخامسة وهو المعتمد،

وهذا الذي اعتمده ابن حجر من أن الخندق كانت في الخامسة غير معتمد ولا مؤيّد بدليل، وقد بيّنا احتمال وقوع الخندق في السنة الرابعة، وقد ذهب إليه أعلام الأئمة، فلا محيص عن الصيرورة إليه.

أسباب غزوة الأحزاب ـ الخندق
ومن تجمع لها من فُلّال المشركين وفجّار الأخابث من اليهود

كان غدر اليهود وفجور زعيمهم حيي بن أخطب وراء حشود الأحزاب.

أما أسباب غزوة (الأحزاب ـ الخندق) فهي معصوبة بغدر اليهود وحسدهم وتحريضهم أعداء المجتمع المسلم على مهاجمته لاستئصاله والقضاء عليه وعلى رسالته ودعوته، فهم الذين أشعلوا نارها، وأوروا زنادها، وحملوا لواءها، وانتهضوا لها ببواعث الحقد الأسود والحسد الذي ملأ صدورهم والغدر الذي كان ديدنهم.

وكان الذي تولَّى كِبْر تجميعهم من اليهود لَعِين السماء والأرض، فرعون الفراعين، وأكفر الكافرين، خبيث الأخْبَثِين حييّ بن أخطب النَّضْري، وقد انضم إليه فجّارهم: سلاّم بن مِشْكَم، وابن أبي الحُقَيق، وكنانة بن الربيع، وهؤلاء نضريون امتزج الغيظ والحنق بدمائهم، وأذاب الحسد كل ذرّة من ذرات آدميتهم، وملأهم ضغينة، وانضوى تحت راياتهم الأذلّان الأرذلان، هوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، وكان بعض بني النضير عند إجلائهم قد خلف قومه وذهب إلى خيبر التي خرج منها ركب الشيطان بعد بتدبير أخبث المكر إلى مكة لتحريض بقايا غثاء الإنسانية في قريش ولفائفها على حرب النبي ﷺ ومهاجمته في داره ومدينته، والتقوا بطاغوت قريش وقائدها أبي سفيان بن حرب وغيره من زعماء أشتات الهاربين فراراً من سيوف المسلمين.

وقال اليهود لهم: إنا جئناكم لنعاهدكم على أن نكون معكم على محمد حتى نستأصله، فقال لهم بلهاء قريش وطغامها: إنكم أهل الكتاب الأول

والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ ـ أُفٍ للرؤوس النخرة الخاوية والعقول البالية المهلهلة، والبلادة المتحجرة البلهاء ـ فقال لهم اليهود وهم منتشون من جهالاتهم البَلْهاء وبلادتهم الجهلاء، وأحسُّوا منهم بأنهم لا يحملون عقولاً في أدمغتهم تزن الأمور بميزان المعرفة والعلم، ولكنهم قوم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً منها، فقالوا لهم وهم آمنون أن يُرَدّ لهم قول: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

محاورة استفتاء بين أخابث اليهود وبلهاء قريش.

وأف للعقول الحاقدة التي أعماها الحقد حتى ألقاها بين أحضان الكذب الوضيع فهي تكذب في كذبها، وقد أنزل الله تعالى فيهم تعجيباً لكل ذي عقل يحمل ذرّة من سلامة التفكير من هؤلاء المرورين سائلين ومسؤولين: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعنِ الله فلن تجد له نصيراً﴾[1] فاجتمعوا واتحدوا لذلك.

ثم خرج من خرج من أخابث اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ كما دعوا قريشاً لذلك، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم، وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة كما في رواية الواقدي، وعند غيره أن الذي خرج إلى غطفان هو كنانة بن الربيع، وأنه جعل لهم نصف ثمر خيبر دون التقيد بزمن مخصوص، فاستجاب لهم الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، وجمع من قومه فزارة ومن تبعهم من أهل نجد ألف مقاتل وخرج بهم معهم.

لفائف من قبائل مختلفة استجابت لفجار اليهود وخرجوا مع موتوري قريش.

وخرج أبو سفيان بن حرب في بقايا قريش من الموتورين ومن انضم إليهم من الأحابيش في أربعة آلاف، ووافاهم طليحة بن خويلد الأسدي فيمن أطاعه من قومه، وتجمَّعوا حتى عسكروا بمرِّ الظهران، ثم جاءتهم سُلَيم مدداً في سبعمائة رجل، يقودهم سفيان بن عبد شمس، وهو أبو أبي الأعور الذي كان مع معاوية في صفِّين، وبعض الروايات يذكر أن قائد سليم كان

---

(١) سورة النساء آيتا (٥١ ـ ٥٢).

أبا الأعور نفسه لا والده سفيان، ثم هوى إليهم الحارث بن عوف المرِّي في أربعمائة مقاتل من قومه بني مرة، قال الزهري: إن الحارث بن عوف رجع ببني مرّة فلم يشهد غزوة الأحزاب مريّ، قال ابن سعد: والقول الأول أثبت، لأن هؤلاء المريِّين شهدوا الأحزاب بقيادة الحارث، وقد هجاه حسان ابن ثابت رضي الله عنه بذلك.

ويدل على شهودهم لها أن رسول الله ﷺ أدخل الحارث بن عوف قائد بني مرة في مراوضته مع عيينة بن حصن لكسر شوكة الأحزاب عن المسلمين.

وخرجت مع الأحزاب أشجع في أربعمائة رجل يقودهم مسعود ابن رُخيلة، وقد بلغت عدة تجمعات الأحزاب عشرة آلاف، وكانوا على أتم الأهبة والاستعداد للقتال، تتوافر لهم إلى جانب كثافة أعدادهم البشرية من المقاتلين غزارة المؤن وكثرة السلاح ووفرة المركوب، إذ كان مع قريش وأحابيشها ومن تبعهم من شراذم القبائل من كنانة وتهامة ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير.

وقد عقدت قريش لواءها في دار الندوة، وجعلته في يد عثمان ابن طلحة بن أبي طلحة، وكان عناج أمر الأحزاب وقيادتها العليا إلى أبي سفيان ابن حرب، فهو صاحب أمرها الذي تصدر عن رأيه.

وكان المسلمون ثلاثة آلاف مجاهد في سبيل الله، وهكذا كان التفاوت بين القوى الإسلامية والقوى المعادية لها تفاوتاً عظيماً، بَيْدَ أن كثرة أعداد الأحزاب لا تحزمهم روابط متماسكة، فهم كثرة جوفاء، بينما كانت قلّة عدد المسلمين لها عواصم من روابط محكمة أجلّها رابطة الإيمان ووحدة الهدف، ومن ثَمَّ كان ميزان القوة المؤمنة أثقل وأرجح.

وفاء خزاعة لرسول الله ﷺ وإشارة سلمان بحفر الخندق.

ولما استكمل الأحزاب تجمعهم، وأعدّوا للسير عدّته سبقهم ركب من خزاعة ـ وكانوا عَيْبة رسول الله ﷺ وأصحاب سرِّه، لا يخفون عليه شيئاً يتعلق بموقفه وموقف أعدائه إلا أعلموه به ـ فخرج هذا الركب إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ فيخبره بخبر القوم، وأغذّ الركب الخزاعي السير كأنما يطوي الأرض طيّاً، فوصل إلى المدينة في أربعة أيام، فأخبروه بما علموا من

علم القوم الذين تحزبوا عليه وعلى مجتمعه، فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر: أيبرز من المدينة خارجها أم يبقى فيها يحارب أعداءه في مداخلها وطرقاتها وأسطح منازلها؟ فأشار سلمان رضي الله عنه بحفر الخندق حول المدينة، فأعجب ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وأجابوا مغتبطين، وأحبُّوا الثبات في مدينتهم ليلقوا عدوَّهم في مداخلها، وأمرهم رسول الله ﷺ بالجدِّ في حفر الخندق، والجدِّ في حرب العدو الذين تحزّبوا لقتالهم، وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ووعدهم رسول الله ﷺ بالنصر إن هم صبروا، واستعانوا بالله في جهادهم لإعلاء كلمة الله.

هذا موقف من مواقف المشابهة التي كانت بين (أحد) وأحداثها، وبين (الأحزاب) ووقائعها، وهو موقف يمثِّل أصدق تمثيل ما أفاده الصحابة من أول درس في غزوة (أحد)؛ إذ فريق منهم خالفوا رأي رسول الله ﷺ في بقائه في المدينة ومقاتلة عدوه في مداخلها وطرقاتها، وهم الذين لم يدركوا فضل الجهاد في (بدر)، وكان أكثرهم شباباً تغلب عليه الحماسة، فأبوا البقاء في المدينة، وتهيئوا للخروج لملاقاة العدو خارجها خشية أن يُزَنُّوا بالجبن والخوف من مجابهة عدوهم، فيُعيَّروا بذلك من أعدائهم، واستكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج بهم لملاقاة عدوِّهم خارج المدينة، فكانت هذه المخالفة عنصراً من عناصر أسباب ما أصابهم من المحن والبلاء في غزوة (أحد).

إفادة المجاهدين في غزوة الأحزاب من موقفهم في (أحد).

ولكن هذا الموقف بعينه يتجدّد في غزوة (الأحزاب) فيشاور رسول الله ﷺ أصحابه المجاهدين هل يخرج بهم إلى عدوِّهم لملاقاته خارج المدينة؟ أو يبقى بهم في المدينة ليلقى عدوّه المهاجم له ولمجتمعه المسلم في مداخلها ويقاتله في طرقاتها وأسطح منازلها؟ وبهذا يتيح فرصة لكل مسلم كبير أو صغير، رجل أو امرأة أن يكون له نصيب في جهاد القتال، فالـرجال المحاربون يقاتلون المهاجمين من الأعداء في طرقات المدينة وأزقتها ومداخلها، والنساء والأطفال يقذفونهم بالحجارة من فوق أسطح المنازل ومنافذ البيوت.

وهنا يتغيّر الموقف، ويتذكّر الذين كانوا خالفوا رسول الله ﷺ في غزوة (أحد) وصمّموا على الخروج لملاقاة عدوهم خارج مدينتهم، ويتذكروا ـ

أيضاً - ما كان من آثارٍ ضارة لحقت بالمجتمع المسلم من جرّاء موقفهم المخالف لرأي رسول الله ﷺ في (أحد)، فيرغبوا في البقاء في المدينة وملاقاة عدوِّهم في مداخلها وطرقاتها، وزادهم غبطة بهذا الموقف وتمسكاً به أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأعجبوا بالفكرة وأحبّوا الثبات بالمدينة.

وجدّوا في حفر الخندق، وبذلوا فيه جهداً مضاعفاً حتى أكملوه قبل أن يصل إليهم العدو بحشوده، فلما وصل ورأى الخندق وقف دَهِشاً مذهولاً، ولم يستطع الوصول إلى مجابهتهم والاشتباك معهم في قتال ميداني، واكتفى بالحصار يشتدُّ فيه ويحيك حلقاته، فاحتمله المجاهدون بصبر وقوة عزيمة أرغموا بها العدوّ على الرحيل بعد طول انتظار أجهده دون أن ينال منهم نَيْلاً، بل كانوا هم الذين نالوا منه ما أدمى قلوبهم بقتل بعض صناديدهم وفرسانهم الذين أقحموا خيولهم، وأجالوها في بعض مواضعه، فنزل إليهم أبطال الإسلام عليّ والزبير وغيرهما فجندلوهم وقضوا عليهم، فقتل عليّ عمرو بن عبد ودّ، وقتل الزبير نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي.

هذا درس من دروس (أحد) أفاد منه المجاهدون في (الأحزاب) إذ كان في (أحد) سبباً من أسباب ما نزل بالمجاهدين من البلاء والمحن، وكان في (الأحزاب) عنصراً من عناصر النصر الذي أيّد الله به رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو درس خرج منه المجاهدون أصفى معدناً وأقوى عزيمة وأرسخ إيماناً وأهدى سبيلاً، لأنهم صدقوا في متابعتهم لرسول الله ﷺ، فنصرهم الله نصراً عزيزاً أدال لهم به من أعدائهم.

صبر رسول الله ﷺ على الشدائد ومشاركته لأصحابه في حفر الخندق ألهب عزائمهم.

بدأ رسول الله ﷺ العمل في حفر الخندق بجدٍّ ودأب كان يسابق بهما الزمن ليكمله قبل وصول أعدائه إليه، فقسمه بين المجاهدين من المهاجرين والأنصار ومن معهم من سائر المسلمين، فجعل على كل عشرة منهم جزءاً منه، وكانوا يتنافسون في العمل، وشمّر رسول الله ﷺ عن جهده في العمل مع أصحابه ليتأسَّوا به، وينشطوا وهم راغبون في ثواب الله وجزيل إحسانه وعظيم فضله.

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه، وأخرج البخاري أيضاً عن أنس أن النبي ﷺ خرج إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداةٍ باردةٍ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع قال ﷺ ـ ليهون عليهم شأن الدنيا، ويعظِّم في نفوسهم أمر الآخرة، ويجدِّد صبرهم ويشحذ عزائمهم، ويزيد رغبتهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، ويحبب إليهم العمل في إعداد وسايل القوة والمنعة:

«اللهم إن العيش عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره

فيجيبه أصحابه رضوان الله عليهم مستهينين بما يلحقهم من النصب والتعب قائلين:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وفي حديث جابر في الصحيح قال: إنا نحفر يوم الخندق فعرضت كُدْية، فجاؤوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هذه كُدْية عرضت في الخندق، فقام ﷺ وبطنه معصوب بحجر.

وفي حديث الكُدْية عند أحمد في وصف ما أصاب المجاهدين من شدائد وأزمات وهم يعملون في الخندق: أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع.

وكان أقصى ما يصل إليهم ليتبلَّغوا به ما جاء في حديث أنس عند البخاري قال: يؤتون بملء كفيّ من الشعير، فيُصنع لهم في إهالة ـ أي ودك يتحلّب من دسم اللحم وشحمه ـ سنخة ـ أي متغيرة، فاسدة الطعم ـ توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن.

ثم قال في الحديث: وقد لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، ولا نطعم شيئاً ولا نقدر عليه.

فإذا جاء الله تعالى بشيء من الفرج بعد أن تبلغ الشدة أقصى مداها، ورزقهم الله رزقاً يتزوّدون به جعله النبي ﷺ شركة بين جميع المجاهدين من أصحابه يتواسون فيه، ولا يستأثر به فرد أو طائفة منهم، وهو ﷺ يعلم أن ما جاءهم من رزق لا يقوم بحاجة فرد أو أفراد، ولكنه ﷺ يعلم ما لله عليه وعلى أصحابه من فضل ظاهر وخفي في تفريج كربهم، والتنفيس عنهم بما خصّه الله به من أسرار الغيب، فيلقي بنفسه الكريمة على أعتاب الربوبية ورحماتها، وهو ﷺ مشتمل بجلابيب ذل العبودية وضراعة الرجاء أن يجعل الله من هذا الفرج القليل بلاغاً يسدّ جوعة أصحابه ويغيث الساغبين الذين طووا بطونهم على الخوى والخلاء، وهم دائبون على أشق الجهد في العمل، وفي مثل هذا الموقف يزداد حرص النبي ﷺ على مواساة أصحابه بنفسه، وقد بلغ به الجهد من شدة الجوع ما بلغ.

حديث جابر في الخندق معجزة كونية تدخل في إطار سنن الله الخاصة ولا ينكرها العقل المستقيم.

ففي حديث جابر عند البخاري من طريق خلّاد بن يحيى: حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه أن جابراً رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، ـ فأذن له ـ فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، وفي رواية لهذا الحديث، فقلت: إني رأيت برسول الله خمصاً شديداً، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم هو»؟ فذكرت له، قال: «كثير طيب» قال: «قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي» فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار، وفي رواية أخرى لهذا الحديث، فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق إن جابراً صنع سوراً ـ أي طعاماً ـ فحيّ هلا بكم».

فلما دخل جابر على امرأته قال: ويحك!! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت هل سألك؟ قلت نعم، فقال النبي ﷺ: «ادخلوا ولا تضاغطوا» فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرّب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز

ويغرف حتى شبعوا، وبقيت بقية، فقال: «كُلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة».

قال جابر وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

النبي ﷺ يعلم أمته أرفع درجات المواساة في أشد مواطن البأساء ويشارك مجتمعه شدائده.

هذا الموقف الإنساني النبيل، وهذا الفعل الكريم من النبي ﷺ وأصحابه المجاهدين يضع هذا المجتمع المسلم في مكان حجر الزاوية من بناء كتائب الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ويجعل من قيادته العظمى ممثّلة في رسول الله ﷺ أفقها المتسامي الذي تتطلبه حياة مجتمع نيط به نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور، وإقامة موازين العدل والتراحم بين عامة الناس وخاصتهم على أساس أقصى ما يتحمل الإنسان من الصبر على البأساء والضرّاء، ويجعله قائماً على أرفع منازل التواسي بالخير بين القيادة وجنودها في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والشدة والرخاء، ليعلم الناس أنّ رسالة الإسلام لا تبيح للقادة والرؤساء والحكام والزعماء المتولِّين أمور قيادة الشعوب والأمم أن يستأثروا بالعيش الرغد الرخيّ الهنيّ، والحياة المترفة المتنعمة، وهم يديرون شؤون أممهم من وراء جدران القصور، يتثاءبون من الكظّة، ويتجشؤن من البِطْنة، وهم يعلمون أن شعوبهم المسلمة تعيش على شظف العيش وقفار اللقمة إن وجدوها وقدروا عليها، ويعيشون على عُرْي العورات في حمّارة القيظ وقرقرة الصقيع.

وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم أن يسلطوا على شعوبهم شراذم المرتزقة من المتفيهقين أصحاب اللَّسَن الخادع المنافق الكذوب ليقولوا عن السواد المظلم في حياة هذه الشعوب إنه بياض مضيء، وعن صفرة الجوع إنها نضرة النعيم، وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم وعند المتفعين بما في أيديهم من لعاعات الدنيا إذا جدّ الجد وطالبتهم الحياة قَسْراً أن يقوموا بأداء واجباتهم إزاء شعوبهم، ويقفوا إلى جانبهم في دفع الظلم أن يتواروا وراء أسجاف من الخداع الكذوب في بيانات إذاعية تكتب لهم بأقلام النفاق، يتحدثون فيها عن الإسلام وهدايته، أو في احتفالات ألصقوها بالدين افتراء

على الله وعلى دينه، وهم يعلمون أن هذه الاحتفالات التي تطنطن بها الإذاعات ودور الإعلام المأجورة ما أنزل الله بها من سلطان، وهم الممكنون في الأرض بما ملكهم الله من سلطان القيادة، وبما وضع في أيديهم من ثروات هائلة، هي في الحقيقة ملك لهذه الشعوب الجائعة العارية أخرجتها لهم أرضهم وسواعدهم، وسقتها دموعهم وعرقهم، وغذّاها دمهم، وهؤلاء القادة الحاكمون مستخلفون فيها لإنفاقها فيما يحفظ على الشعوب حرية دينها وعقيدتها وشرف وطنها، ويتيح لها انطلاق حركاتها في هذا الوطن بما يكفل لها القيام بواجباتها في حماية الحق والعدل، ﴿وما الله بغافل عما يعمل الظالمون﴾.

القائد قدوة لمجتمعه يجوع معه ويشبع معه ويألم لألمه ويفرح لفرحه.

هذا رشح من غيث النبوة في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهو ﷺ أكرم خلق الله على الله، وأعزّهم عنده، وأحبّهم إليه يشارك أصحابه وجند كتائبه في حمل تراب الخندق حتى يواري التراب جلد بطنه، ويجوع معهم، ويبقى على الجوع كما بقُوا أياماً وليالي لا يذوقون فيها ذواقاً ولا يطعمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء يقيم أصلابهم.

ويشتد به ﷺ الجوع حتى تلتصق بطنه بظهره، ويخشى أن يعجزه ذلك عن العمل كما يعمل أصحابه فيشدُّ على بطنه الحجر ليقيم به صلبه، ويرى ما عليه أصحابه من المَسْغبة وشدة الجوع وقسوة البرد، وهم يعملون في حفر الخندق بأنفسهم في غداة باردة، فيعلّلهم بالأناشيد الباعثة على حب العمل واحتمال مشقته والدأب عليه كما تعلل الأم الرؤوم فلذة كبدها وهي تراه يتلوّى من الجوع وقد قلص ثديها وجف عن مَذقة ترضعه إياها، وأصحابه ﷺ ينسون ما بهم من آلام فيجاذبونه النشيد ويجيبونه بقولهم: نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً، ليقروا عينه ويشعروه ﷺ أنهم شروا أنفسهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وأنهم بايعوه ﷺ على الجهاد ما بقُوا على ظهر الأرض تنبض قلوبهم بالحياة.

* * *

وقد اختلفت الروايات في تحديد الزمن الذي استغرقه حفر الخندق،

أغلوطات في المدة التي استغرقها حفر الخندق.

وأصح ذلك وأرجحه ما ذهب إليه محمد بن سعد في الطبقات، وهو أنهم مكثوا في حفر الخندق ستة أيام، قال السمهودي: وهو المعروف.

وذكر موسى بن عُقْبة في مغازيه إنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً من عشرين ليلة، وذكر الواقدي أنهم أقاموا في حفره أربعاً وعشرين ليلة، وهذا فرق كبير واختلاف عريض.

والظاهر أنه قد اشتبه على الرواة واختلط على بعضهم أمر حصار الأحزاب للنبي ﷺ وأصحابه بأمر الحفر، فجعلوا مدة الحصار هي مدة الحفر، والصواب ما ذهب إليه ابن سعد من أن مدة الحفر ستة أيام بلياليها كما أيده السمهودي بقوله: وهو المعروف، والخلاف الذي بين رواية ابن عقبة ورواية الواقدي إنما هو في مدة الحصار لا في مدة الحفر، لأنّ النبي ﷺ بدأ العمل في حفر الخندق والأحزاب كانوا قد أتمُّوا أهبتهم وأعدوا للسير عدته، وكان ركب خزاعة قد سبقهم بالخبر إلى النبي ﷺ، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في أربعة أيام.

ومن أبعد البعد أن يستغرق سيرهم ما قيل في مدة الحصار بتوّهم أنها مدة الحفر، والخندق كان هو الوسيلة العظمى في مواقفة الأحزاب عند هجومهم، فلا بد أن يكون قد أُعدَّ وفرغ منه قبل أن يصلوا إلى مكان المعركة.

ولعل الذين زعموا أن مدة الحفر طالت فنقلوا لها مدة الحصار، أنهم أدخلوا مدة حراسة الخندق وترميم ما عسى أن يكون قد وهى منه في مدة الحفر فقالوا ما قالوا.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق أقبلت جموع الأحزاب تجر ذيول الصلف وفجور الغرور، وكانوا عشرة آلاف، فنزلت قريش وأحابيشها ومن تبعهم من تهامة وبني كنانة بقيادة أبي سفيان بن حرب وهم أربعة آلاف بمجتمع السيول، ونزل الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري بمن معه من قومه غطفان ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب (أحد) بذنب نُقَمى وكانوا

ألفاً، ونزل بقية الأحزاب في منازلهم من حول المدينة، فكانوا ثلاثة عسكر، وعناج أمرهم وصاحب كلمتهم أبو سفيان بن حرب.

وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المجاهدين فنزلوا إلى جنب سَلْع وجعلوا ظهورهم إليه، وهو جبيل من جبال المدينة، وجعلوا الخندق بينهم وبين أعدائهم والمدينة في مواجهتهم وكانت المدينة مشبكة بالبنيان، فكانت كالحصن.

وكان بروز رسول الله ﷺ في مواقفة أعدائه يوم الاثنين لثماني ليال مضين من ذي القعدة، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة ويحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة، ورفع المسلمون النساء والأطفال والذراري والعجزة من الرجال إلى الآطام لحمايتهم من غدر قريظة.

وكان النبي ﷺ يرسل الحرس إلى المدينة، قال ابن سعد: فيرسل سلمة بن أسلم في مائتي رجل، ويرسل زيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل، يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، ليرهبوا قريظة لئلا يسول لهم الغدر نقض عهد رسول الله ﷺ فيهجموا على المدينة، ويوقعوا بمن فيها من النساء والأطفال والعجزة.

أخبث مكر لأخبث فاجر في العمل على نقض قريظة عهدها مع النبي ﷺ.

وخرج الخبيث حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ إلى بني قريظة ليضيف إلى فجوره في تجميع الأحزاب وتحريضهم على محاربة رسول الله ﷺ فجوراً جديداً، فسار حتى أتى صاحب عقدهم كعب بن أسد القرظي، وكان كعب قد وادع رسول الله ﷺ وصالحه على قومه، حتى إذا أحسَّ بمجيء حيي ابن أخطب أغلق دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال له: ويحك يا حيي؟! إنك امرؤ مشؤوم، وإني عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، فإني لم أر منه إلا وفاء وصدقاً.

ولكن الخبيث حُيي لم يؤيسه صنيع كعب بن أسد وقوله في شهادته للنبي ﷺ بالصدق والوفاء في موادعته: فإني لم أرَ منه إلاّ وفاء وصدقاً، ولكنه لم يزل به يسوسه ويروضه على الغدر ونقض العهد، ويؤنسه ليستنزله عن موقفه، فجعل يفتل له في الذروة والغارب ليفتح له باب الحصن ويسمع منه

ما يريد أن يقوله له في محاورته الخبيثة حتى أحفظه ورماه بالبخل، وقال له: والله إن أغلقت دوني باب حصنك إلّا تخوفاً على جشيشتك أن آكل معك منها، ففتح له كعب وأدخله حصنه، فقال حيي ـ لعنه الله ـ ويلك يا كعب!! لقد جئتك بعزّ الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع السيول ومن دونهم غطفان، لقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال له كعب بن أسد: جئتني والله بذلّ الدهر، وبجهام قد اهراق ماءه، يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي!! دعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلّا صدقاً ووفاء. ولكن حيياً ـ لعنه الله ـ لم يزل بكعب يقاوله ويخادعه حتى أعطاه عهداً على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك يصيبني ما أصابك، فأجابه كعب بن أسد ونقض عهده وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله ﷺ من الموادعة والصلح والعهد.

النبي ﷺ كان يخشى غدر قريظة فبعث الزبير فكشف له عن غدرهم وخيانتهم.

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بطبيعة اليهود الغادرة، لا يطمئن إلى عهودهم ويخشى غدرهم وهو ﷺ مشغول بمواجهة أعدائه المتحزّبين عليه، وكأنه ﷺ أحس بروح الغدر تمشي في الظلام إلى بني قريظة، فقال لأصحابه من يأتيني بخبر قريظة؟ فقال الزبير بن العوام: أنا يا رسول الله، قال الزبير: فانطلقت إليهم وعرفت خبرهم، ورجعت إليه ﷺ به، فجمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه فقال لي: (فداك أبي وأمي).

ولما انتهى خبر بني قريظة إلى رسول الله ﷺ، وأنهم نقضوا عهده أراد أن يتأكد مما بلغه حتى يأمن على العامة عند بلوغهم ما بلغه وهو ﷺ على يقين مما بلغه، فلا يصل الخبر إلى عامة المجاهدين إلا وهم قد علموا أن رسول الله ﷺ قد أحاط خبراً واتخذ له من الأحداث أقرانه.

السعدان سيدا الأنصار يؤكدان غدر قريظة ونقضها العهد.

فبعث السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ليتعرّفا حال بني قريظة ويؤكدا له خبرهم، حتى إذا أعلنه لأصحابه، وكانوا يعلمون بعهده معهم يكون قد وضعهم أمام أمر واقع لا يشك فيه، ليتخذوا له أهبته فلا يفاجئهم أمره.

وبعث ﷺ مع السَّعْدَين عبدالله بن رواحة، وخوّات بن جبير، وأسيد ابن الحضير، وقال لهم: «انطلقوا لتنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا فاجهروا به للناس»، فذهب بَعْثُ رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، واختبروا حالهم فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم، وتكلّموا في حق رسول الله ﷺ وتبرؤا من عقده وعهده..

ثم أقبل السعدان ومن معهما على رسول الله ﷺ، فلحنوا له كما أمرهم، وقالوا: عضل والقارة، أي إنهم غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خُبيب بن عدي وأصحابه، فكبّر رسول الله ﷺ وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين» أي بما يلقاه أهل الغدر جزاء غدرهم، ليقوّي عزائم المسلمين، وأن النصر حليفهم ولواءه معقود بنواصيهم إن هم صبروا، وذلك لصدق إيمانهم بصدق رسول الله ﷺ فيما يخبر به، قال الواقدي: فقال ﷺ: «الله أكبر، أبشروا بنصر الله وعونه، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وآخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر ولتُنْفَقَنَّ أموالهما في سبيل الله».

حكمة بعث السعدين ومن كان معهما بعد كشف الزبير عن غدر قريظة.

وفي بعث السعدين ومن معهما لون من الحكمة السياسية، يمثل مَعْلماً من معالم منهج الرسالة الخالدة التي قصد إليها رسول الله ﷺ في أخذه بني قريظة بغدرهم ونقضهم لعهده ﷺ.

ذلك أنه ﷺ حين بعث حواريّه الزبير بن العوام إلى بني قريظة ليتعرف حالهم ـ فذهب إليهم الزبير ورجع إلى رسول الله ﷺ يخبره أنهم على أخبث حال يضمرون الغدر وينقضون العهد ـ لم يشك لحظة في صدق خبر الزبير عنهم، ولكنه ﷺ كان على أكمل العلم بما بين الأنصار وطوائف اليهود من روابط جاهلية لم تنفصم عراها، وكانت هذه الروابط تبرز عند مناسباتها في أوقات الأزمات والمحن، وكان بين الأنصار من الأوس والخزرج تنافس، وكانت فيهم حمية لهذه الروابط، يكرهون أن تمس من غيرهم، وكثيراً ما كان يقع التقاول والتصاول بين الحيين من جراء هذه الروابط الجاهلية.

فرأى رسول الله ﷺ أن يحتاط ويجعل أمر بني قريظة في أخذهم بغدرهم قائماً على أخبار حلفائهم ومواليهم من الأنصار الذين أصبحوا سادة المجتمع المدني، حتى إذا أخذوا بغدرهم كان أخذهم بأيدي من يرتبطون بهم ويدافعون عنهم.

ولذلك اختار القرظيون تحكيم سعد بن معاذ في نهاية أمرهم، بعد أن حاصرهم النبي ﷺ حصاراً شديداً، ولكن سعد بن معاذ كان رجلاً قوي الإيمان راسخ اليقين، غسل الإيمان قلبه من تلك الروابط الجاهلية، فلم تأخذه فيهم لومة لائم، وحكم فيهم بحكم الله تعالى الذي ارتضاه رسوله ﷺ والمؤمنون، وقد كان الأوس قوم سعد بن معاذ يرجون منه أن يحسن إليهم وينقذهم من أسوأ مصير ينتظرهم، فقالوا له: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

هذه سياسة حكيمة رسمت للمجتمع المسلم جانباً من جوانب منهج الرسالة الخالدة ليكون دعامة الدعائم الاجتماعية في سياسة المجتمع المسلم في مستقبل حياته.

إحاطة حشود الأحزاب بكتائب المجاهدين واشتداد البلاء عليهم.

ونزلت حشود الأحزاب وجموعهم منازلها من ميدان المعركة، محيطين بكتائب المجاهدين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، واشتد البلاء، وعظم الخطب، وزاغت الأبصار، وضاقت مجاري الأنفاس وبلغت القلوب الحناجر، وتناوحت الظنون والأوهام، وطفت التخيلات والشكوك، وظن ضَعَفة الإيمان بالله الظنونا، واستولت وساوس الشيطان على العقول والقلوب والأفكار، ونجم النفاق واستشرى الظلام وكثرت الأراجيف الفاجرة، وانتشرت منها الأكاذيب الماكرة حتى أخذت المحنة بالحلاقيم، وتعاظم البلاء واشتدت المحن، وزلزل المجاهدون زلزالاً شديداً أساخ أقدامهم، وأيبس أعصابهم وشلّ حركاتهم، وكانوا كما ذكّرهم الله تعالى بمواقف محن السابقين من المؤمنين في قوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم.مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتى يقول الرسول

والذين آمنوا معه متى نصر الله؟!!﴾[1].

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر.

المنافقون يستولي عليهم الرعب والفزع فيكشف قناع قلوبهم عن الجبن والهلع.

ولم يقوَ المنافقون على مداراة وتغطية ما نزل بهم من الرعب والهلع والجبن والفزع، ممّا جعلهم يتسلّلون في خفية وتدسس فراراً أن يصيبهم من الكوارث ما يقصم ظهورهم، وكان أمثلهم طريقة في النفاق من يستأذن النبي ﷺ متعلّلين بالأكاذيب الفاجرة، يقولون إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة للعدو، وقد كذبوا بما قالوا وفجروا فيما زعموا، وقد ردّ الله عليهم كذبهم وفجورهم، فقال: ﴿وما هي بعورة﴾ ولكنهم لجبنهم وتزايل مفاصلهم من هول ما رأوا وما عاينوا من الشدائد والأزمات زعموا ما زعموا من الكذب، وهم في مداخل أنفسهم لا يريدون إلا فراراً، لينجوا بزعمهم من البلاء والمحن القواصم.

أبلغ أسلوب تصويري لمشاهد ووقائع هذه القصة كما هو مبين هنا في تفسيرها.

وفي ذلك كله نزل قدر كبير من صدر سورة الأحزاب بدأه الله تعالى بأشرف وأحب نداء للمؤمنين، ممتناً بنعمه وفضله عليهم، ومذكّراً لهم بإحسانه في تفريج ضوائقهم فيما سبق لهم من المحن التمحيصية لتطهرهم من شوائب الخوف، وتثبت قلوبهم وتربط على أفئدتهم بروابط الإيمان، فقال جل شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[2].

ثم ذكر عزّ شأنه مواقع جنود الأعداء في إحاطتهم بكتائب المجاهدين، فقال: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم﴾ يعني غطفان ومن تبعها من أهل نجد بقيادة الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، ثم قال تعالى: ﴿ومن أسفل منكم﴾ وهم قريش وأحابيشها ومن ضوى إليهم من كنانة وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب بعد قتل صناديدها في بدر.

(١) سورة البقرة آية (٢١٤).
(٢) سورة الأحزاب آية (٩).

ثم قال تعالى يذكر شدة البلاء وعظيم المحنة، ويصف ما أصاب المجاهدين في موقعهم من ميدان المعركة: ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾ وزيغ الأبصار تحيُّرها وعدم تثبتها مِمّا ترى، لأنها مالت عن سننها وأضلَّت طريقها إلى ما تريد إبصاره، فلم تُثبت مما ترى شيئاً لشدة الهول الذي نزل بأصحابها فأفسد رؤيتها.

ومعنى بلوغ القلوب الحناجر التي هي مدخل الطعام والشراب: أنها اضطربت واهتزت روابطها وكثر وجيبها، وكأنما تحولت عن مكانها لتضايقه عن حركات اضطرابها لتخرج إلى ما يسعها وهو كناية عن بلوغ الشدة أقصى غايتها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ إخبار عن اختلاف الأحوال أمام النوازل والكوارث التي لا يستطاع دفعها، فأهل التثبت كانت ظنونهم أن هذا الذي نزل بهم إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليميِّز به الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[1] حتى يصفِّي المجتمع المسلم من غلث الضعف.

وأما ضعفاء المؤمنين الذين لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فظنهم بالله أنهم حينما رأوا ما نزل من البلاء تحيروا، واهتزت عزائمهم، ووهنت دعائم إيمانهم، وملكهم الخوف والرعب، فجسّم لهم خيالهم الصغير كبيراً، وأراهم ما لم يروا، وأنزلهم الشيطان منازل حيرته ووسوسته وضلالاته.

وأما المنافقون على القول بدخولهم في عموم النداء نظراً لظاهر حالهم من إظهار الإسلام ومداخلتهم لمجتمعه، مع إبطانهم الكفر وتدسسهم مع أهله، فظنُّهم بالله ما حكاه الله عنهم من التكذيب لوعد الله في قوله: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ وقد أخذوا معهم في هذا الظن السيء من الذين استعبد الخوف والرعب والفزع نفوسهم، فكانوا على بعض أخلاق المنافقين في طبائعهم المهزوزة،

---

(١) سورة آل عمران آية (١٧٩).

وقد وسمهم الله بمرض القلوب، وهم الذين مسّ الإيمان قلوبهم ولكنه لم يستقر فيها استقراراً ثابتاً يعصمه عن التأثر ببعض خلال المنافقين.

وقد عقّب الله تعالى ما ذكره من أحوال المجاهدين في موقفهم أمام جموع أعدائهم بتصوير إجمالي لابتلائهم وزلزلة أقدامهم في قوله تعالى: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ ومعناه أن الخوف بلغ منهم مبلغاً عظيماً أزعجهم وأفزعهم، وذهب بأمنهم وثباتهم وذهلوا عن النظر في معمعة الموقف، ولم يكن لهم إلاّ ترقب العواقب التي توحي بها هذه الشدائد والأزمات التي لم يعرفوا لهم مخرجاً منها، لتعمية معالمها عليهم لشدة ما لحقهم من الفزع.

وصف المنافقين بالهلع والجبن والتدسس.

ثم قال الله تعالى يحكي شيئاً من تدسس النفاق والمنافقين في جبنهم وعدم تماسكهم أمام شدائد الأحداث ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً﴾.

وهذا تذكير للنبي ﷺ بحال هؤلاء المنافقين الجبناء، فكأن الله تبارك وتعالى يقول: واذكر يا محمد قول طائفة من المنافقين لغيرها من طوائفهم: (يا أهل يثرب) وهذا النداء يرجع بهم إلى جذور كفرهم، فهم لم يقولوا يا أهل المدينة ـ وهو الاسم الإسلامي الذي سُمِّيت به بعد هجرة النبي ﷺ إليها، واتخذها داراً له ولمجتمعه المسلم، وجعل منها قلعة لكتائبه وحصناً للمجاهدين ـ كراهية في الإسلام وأهله، ولكنهم قالوا: (يا أهل يثرب) فراراً من اسم المدينة الذي يوحي بالاستقرار والتجمع المطمئن الآمن إلى التثريب واللوم والتقريع ولهذا قالوا لإخوانهم المنافقين: (لا مقام لكم) أي مع هذه الشدائد المرعبات المزعجات وتوالي المحن والبلايا، فارجعوا إلى بيوتكم لتأمنوا عواقب هذه المزعجات متعلّلين بالكذب والبهتان في قولهم: ﴿إن بيوتنا عورة﴾، وقد أكذبهم الله في قولهم فقال رداً عليهم: ﴿وما هي بعورة﴾ ولكنهم لجبنهم لا يريدون من هذا الكذب إلا الفرار عن مواقع البأس والشدة.

ثم بيّن تعالى أن الجبن طبيعة النفاق والمنافقين، وأن ما هم عليه من الرعب والانزعاج ليس قاصراً على وجودهم في ميادين المعارك، ولكنه ملازم لهم لا يفارقهم، فقال: ﴿ولودخلت عليهم﴾ أي بيوتهم (من أقطارها) من جميع جوانبها وأكنافها، وانثالت على أهليهم وذراريهم جموع الأعداء ناهبين لأموالهم، سابين لنسائهم وأطفالهم، ثم سئلوا عند ذلك الرجوع إلى صريح الكفر لأسرعوا إلى إجابة ما يطلب منهم فرقاً من هؤلاء المهاجمين لبيوتهم.

قال الزمخشري: والمعنى أنهم يتعلّلون بإعوار بيوتهم ويتمحّلون ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين ومصافّة الأحزاب الذين ملؤهم رعباً وهولاً، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر،وقيل كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وما تعلّلوا بشيء، وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على مصانعة أهله، والارتماء في أحضانهم.

خصائص المنافقين مستمدة من خصائص معلميهم اليهود.

ثم بيّن تعالى أن المنافقين غُدُر لا عهد لهم، بل هم - كمعلّميهم من أخابث اليهود - مجبولون على الخيانة والغدر ونقض العهود لا يستمسكون بعقد ولا يوفون بوعد، كما وصفهم رسول الله ﷺ، وقد بلاهم، وعلم مداخل فجورهم فقال: «إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا» فقال تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار﴾ وقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن، وقد كذبوا وأخلفوا الله ورسوله ما وعدوه.

ثم بين الله تعالى للمنافقين أن الفرار لا ينجي من قدر الله، وأن قدر الله تعالى واقع لا مفر منه عند حلول أجله في مناسباته، ولو نجاكم أيها المنافقون الفرار من الحتف أو القتل لكانت هذه النجاة مسطّرة في علم الله يجري بها قدره، ولا تعدو أن تكون متعة قليلة جرى بها قلم الغيب، تنقضي فينقضي عمر من عاشها.

ومما ينسب إلى عليّ رضي الله عنه في هذا المعنى قوله:

أي يـوم مـن المـوت أفـر   يـوم لم يُقْـدر أو يـوم قُـدِرْ
يـوم لم يُـقـدرُ لا أرهـبـه   ومن المقـدور لا ينجـو الحَـذِر

ثم زجر الله تعالى المنافقين مقرّعاً لهم، فأمر نبيّه محمداً ﷺ أن يبلغهم أن سنة الله تعالى في مجريات أقداره ونفاذ إرادته لا تتخلف، فقال له ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: من ذا الذي يعصمكم - أي يمنعكم من الله - إن أراد بكم سوء من ألوان عذابه وأذاقكم بأسه، أو أراد بكم رحمة، في الدنيا يستدرجكم بها لتزدادوا رجساً على رجسكم، فتكونوا أحقّاء بإنزال أسوأ العقاب بكم وإحلالكم أشدّ العذاب؟! والاستفهام إنكاري مصحوب بالتقريع، ومعنى الكلام: لا أحد يمنعكم من نزول ما أراد الله بكم إنزاله من بأسه ومقته، ولا أحد يمنعكم ويحول بينكم وبين ما أراد الله بكم من رحمة تصيبكم في الدنيا لتزدادوا بها آثاماً إلى آثامكم وقد عدمتم الولي والناصر الذي يجيركم من عذاب الله، فلا تجدونه لو طلبتموه بكل ما في استطاعتكم من سيء المكر وخبيث التدبير، ثم أخبرهم الله تعالى أن علمه المحيط لا يندّ عنه سوء مقصدكم في تثبيطكم عزائم المؤمنين من أقربائكم عن الخروج مع رسول الله ﷺ لمقاتلة أعدائه وأعداء رسالته من طوائف الأحزاب المهاجمين لهم، وتدعون أقرباءكم إلى أن يكونوا معكم لتباعدوهم عن الجهاد لإعلاء كلمة الله مع رسوله ﷺ، وإذا افتضح نفاقكم لم تخرجوا لتقاتلوا إلا قتالاً قليلاً لتدفعوا به قالة السوء عنكم.

خسة المنافقين في الشح والطمع.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين في مجال البذل والإنفاق في الحرب، ووصمهم بأنهم ضمُّوا إلى الجبن البخل فقال تعالى: ﴿أشحّة عليكم﴾ في وقت الحرب أضنّاء بما في أيديهم يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، فإذا جاءهم طلب البذل والإنفاق ضاقت أنفاسهم، وعراهم ما يعرو الموتى، ونظروا إلى رسول الله ﷺ بأعين حائرة زائغة كنظر الذي تغشّاه الموت ونزلت به أسبابه وهو يعالج سكراته وشدائده فلا يرى أمامه إلا أشباحاً لا يميزها، فإذا ذهبت الشدّة وانتهت المعركة وحيزت الغنائم هبّ المنافقون في حرص البخلاء الأشحة على المال، وانتقل بهم شحهم من الخور والرعب إلى المطالبة بنصيب من الغنائم في فجور وقح، يطلقون عليكم ألسنتهم بالسوء

والبذاء لتوفروا لهم ما يطلبون من الغنائم، ويدعون زوراً وكذباً أنهم قاتلوا معكم ويمكانهم منكم في القتال غلبتم أعداءكم وغنمتم أموالهم.

ثم أكّد ما جبلوا عليه من البخل والشحّ تأكيداً محا وجودهم من سجل الرجاء في أن يصدر منهم فعل من أفعال الخير، فقال تعالى: ﴿أشحّة على الخير﴾ وتعليق (أشحة) بحرف الاستعلاء (على) دون حرف (الباء) التي تفيد الإلصاق بالخير ولزومه لهم لأنه أريد بالكلام تجريدهم من كل رغبة في الخير، ومعناه أنهم بلغوا من البخل على المؤمنين أنهم يكرهون أن يكون الخير ظلّة يستظلون بها، ولكنهم لشدة كراهيتهم له يجعلونه تحت أقدامهم يستعلون عليه، نافرين منه نفرة تباعد بينهم وبينه، فلا هم يعرفونه ولا هو من خلائقهم وسجاياهم، فهم أشحّة بالخير ولو على أنفسهم، فكانوا بذلك مفارقين بطبيعة وجودهم لأهل الإيمان، لأن الإيمان أصل أصول الخير، لم يسامتهم مسامتة تجعل لهم منه أي نصيب، ولو كان لهم منه ذرة لحبط وهلك وباد كما يبيد الظل إذا واجهته أشعة الشمس، بما يقترفونه من تدسس خبيث ونفاق معرق أصيل فيهم يملأ جوانحهم وعقولهم، ويستولي على مشاعرهم.

ما حلّ بالمنافقين من الفزع والرعب أزاغ مداركهم بما أفسد تصورهم للواقع أمامهم.

ثم ذكر الله تعالى بعض تعلُّلاتهم الباطلة التي يخدعون بها أنفسهم نتيجة للخوف والرعب والجبن من كل ما امتلأت به قلوبهم واستحوذ على إحساساتهم، حتى إنهم يتوهمون الواقع المشهود غير واقع ولا موجود لشدة ذهولهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم وفساد عقولهم واضطراب تفكيرهم.

فالهزيمة النكراء التي نزلت بأوليائهم من طواغيت الشرك وعبيد الوثنية المتحزِّبين على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم، والتي فرّقت جموعهم ومزّقت تحزّبهم وشتّتت شملهم، وأطلقت أسواقهم للفرار مدبرين لا يلْوُون على شيء ـ يتوهمونها تحفزاً للكرة وتوثباً للرجعة لمهاجمة المجاهدين، فقال تعالى في تصوير هذا الموقف: ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ مدحورين منهزمين، وهذا حسبان باطل أملاه الهلع الذي أصيبوا به من جرّاء تبدّد آمالهم في أحزاب الكفر وحشود الشرك والطغيان، ولكن الواقع صكّ عقولهم

وأراهم الحقيقة معاينة، وأن الأحزاب قد انهزموا هزيمة كشفت سوءات غرورهم بقواهم المادية التي ذهبت هباء مع أضاليل الشيطان وأباطيله، والمنافقون يرون في دخائل أنفسهم جبنهم وخورهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم.

فإن رجع الأحزاب ـ وما هم بفاعلين لأنهم أصيبوا بما حلَّ عواصم تحزّبهم ـ تمنّى المنافقون لهول ما حلَّ بهم من الخوف والرعب أن لا يشهدوا مرّة أخرى ما شهدوه من قبل، وودُّوا لو أنهم أتيح لهم مهرب إلى بوادي الأعراب، يتسقَّطون أخبار المجاهـدين، ويسألـون عن أنبائهم وتعـرف أحوالهم.

ثم فضحهم الله وكشف سرهم مبيِّناً أنّ هذا السـؤال سؤال نفاق خبيث، يودّون من ورائه أن يسمعوا شيئاً يسرهم وقوعه للمجاهدين، وأنهم لو كانوا موجودين بين صفوف المسلمين لم يتخلَّوا عن جبنهم، ولو اضطروا أن يباشروا القتال مع المجاهدين لم يقاتلوا إلا قتالاً ضعيفاً يدارون به نفاقهم، فهو قتال تعلّة ورياء ونفاق يراؤون به المسلمين، وهم يبطنون وراء هذا القتال الضعيف أفجر الكفر والخداع، مما لا يخدع أحداً من المسلمين لأن صدق الإيمان وإخلاصه لا يكون بالمظاهر الكاذبة الخادعة والحركات المنافقة، وإنما يكون بالتأسِّي برسول الله ﷺ في صدق جهاده وقوة صبره على لأواء الحياة وشظفها وشدة أزماتها، وتحمّل أشد البلاء في سبيل نشر رسالته لإعلاء كلمة الله ومجاهدة شراذم الكفر وفئات النفاق والغلظة عليهم ليعلموا أن ليس في قلوب المؤمنين هوادة لهم ولا مداراة لمخازيهم، ولن يتحقق هذا التأسِّي برسول الله ﷺ إلا لمن صفا قلبه، واستنار بنور الهداية فؤاده، واستوى في الإخلاص للإسلام باطنه وظاهره، وهذا الاستواء في الإخلاص لا يكون إلا بمعرفة حقِّ رسول الله ﷺ على كل مؤمن برسالته والإيمان بأنه ﷺ المحفوظ بتوفيق الله وتسديده بوحيه، فلا يخدع بنفاق المنافقين.

وهذا معنى تأكيد التأسي برجاء اليوم الآخر، والإيمان بمجيئه لتوفية كل عامل جزاء عمله، وأمارة ذلك أن يذكر العبد الله ذكراً قلبياً، يغسل

درن النفاق، وذكراً لسانيّاً يتطابق مع الذكر القلبي ليكون ذلك عنواناً على إخلاص الإيمان وصدق اليقين.

الله تعالى يثني على المؤمنين وهم على أهبة القتال.

ثم أثنى الله تعالى على المؤمنين وهم على أهبة خوض المعركة والدخول في معمعانها ثناء جميلاً، وذلك بإعلان ما وعدهم الله ورسوله، وصدق الله ورسوله في وعدهما لهم بالنصر على حشود الأحزاب وكثرة عددهم وتوافر عُددهم الماديّة وتكالبهم على استئصال المجتمع المسلم، فقال تعالى: ﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب﴾ على ما وصفهم رسول الله ﷺ لأصحابه في كثرتهم الهائلة، وضخامة حشودهم، ووفرة عدتهم للهجوم على كتائب المجاهدين، وتعطُّشهم لسفك دمائهم، قال المؤمنون في صدق وإخلاص وطمأنينة وتسليم: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي هذا الذي نراه مشاهدة بأعين أبصارنا من حشود الأحزاب وكثرتهم هو الذي وعدنا الله ورسوله ﴿وصدق الله ورسوله﴾ في تبشير المؤمنين المجاهدين بالنصر على هذه الجموع الخاوية قلوبها من الإيمان كما نصرنا ربنا تبارك وتعالى في (بدر) على حشود الفجور من المشركين، ولم تزدهم رؤيتهم لحشود الأحزاب، وكثرة عددهم ووفرة عدّتهم إلا إيماناً بالله ورسوله، وتسليماً لأمرهما، وتصديقاً لوعدهما، وتبشيراً بنصر الله.

ثم ذكر الله تعالى ذكراً خاصاً شأن صفوة من المؤمنين الذين كانوا في ثباتهم قد بلغوا مبلغاً عاينوا فيه صدق موعود الله، وكانوا عاهدوا الله تعالى على الصبر والثبات، فقال جل شأنه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ من الثبات في قتال الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، فأوفوا بما عاهدوا، فمنهم من استشهد ومضى إلى ما أعدّه الله للشهداء من جزيل النعيم، ومنهم من بذل طاقته وجهده، فلم يُبْقِ منها شيء ولكن الله تعالى أبقاهم إلى آجالهم ليكونوا غصصاً في حلاقيم فجّار الكفر وعبيد الوثنية، وهم على ثباتهم وقوة إيمانهم وصدق إخلاصهم، لم يبدِّلوا عهودهم مع الله، ولكنهم ظلوا في قوة إيمانهم وصوارم عزائمهم وصادق إخلاصهم.

ثم ذكر تعالى ما هو كالسبب في اتّصاف الفريقين: خلص المؤمنين،

وشراذم المنافقين بما اتصف به كل منهما فقال: ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾.

قال الزمخشري في تفسيرها: وفيه تعريض بمن بدّلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ـ بما عاهدوا الله عليه ـ لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما.

ختم الآيات بذكر هزيمة الأحزاب وما كان من عاقبة غدر اليهود.

ثم أجملت الآيات في خواتيمها ما كان من هزيمة الأحزاب، وصرف القتال عن المؤمنين بما وقع من معجزة إرسال الريح العاصفة على حشودهم في منازلهم لا تتعدّاها، وما أرسل معها من جند غيب الله تعالى تأييداً لرسوله ﷺ، فصنعت بهم ما أفزعهم بالرعب وملأ قلوبهم بالخوف، وأطلقوا سيقانهم وركائبهم فراراً من هول ما نزل بهم فقال تعالى: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ أي لم يصيبوا من المعركة إلا أنهم رُدُّوا على أعقابهم، والغيظ يهرىء قلوبهم ويحرق أكبادهم، تسوقهم الهزيمة بسياطها ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي صرف الله عن المؤمنين بما أمدّهم به من معجزة الريح القاصفة ومن جند الغيب القتال وأعفاهم من شدائده، ولم يحمِّلهم آصاره وأعباءه رحمة بهم، ثم جاءت فاصلة الآيات بأجل ما يناسبها من نعوت جلاله وقهره فقال: ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾.

ثم ذكر الله تعالى شيئاً من غدر يهود بني قريظة ووخيم عواقبه عليهم في مظاهرتهم لأهل الشرك من الأحزاب الذين قاموا بتحزيبهم وتحريضهم على قتال رسول الله ﷺ وقتال أصحابه حتى يستأصلوهم، فقال: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾ وكان حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ بعد أن فرغ من تحزيب الأحزاب ذهب إلى أخوة القردة والخنازير، وهم معاهدون للنبي ﷺ فلم يزل حيي برئيسهم كعب بن أسد يروضه على نقض العهد فنقضه وانضم إلى جموع الأحزاب.

والصياصي هي الحصون التي يتحصّن بها الخائفون من هجمات

أعدائهم، وزاد الله تعالى هؤلاء الغدرة بلاء فوق إنزالهم صاغرين أذلّاء من حصونهم فألقى في قلوبهم الرعب، فلم تنفعهم صياصيهم وحصونهم، فاستسلموا راغمين، وكانت أموالهم وأرضهم طعمة لرسول الله ﷺ لم يجر عليها تخميس، ولهذا لما قال عمر رضي الله عنه: ما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال رسول الله ﷺ: «لا، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس» فقال عمر: رضينا بما صنع الله ورسوله.

وقد راش رسول الله ﷺ من هذه الأموال التي جعلها الله له خالصة المهاجرين خاصة ليستقلوا بأنفسهم ومعاشهم عن إخوانهم الأنصار الذين شاركوهم أموالهم وديارهم، بل آثروهم على أنفسهم.

وأريد بقوله تعالى: ﴿وأرضاً لم تطؤها﴾ تبشير المؤمنين بأن الله تعالى سيتحفهم بنفحات عطاياه ويفتح عليهم بلاداً وممالك لم تطأ أرضها أقدامهم، روي عن عكرمة أن المراد بها كل أرض تفتح على المسلمين إلى يوم القيامة، ثم ختم الله تعالى الآية بما يبعث في النفوس طمأنينة الإيمان بأنّ وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، فقال: ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾ ويدخل في ذلك فتح ما يفتح من البلاد والممالك إعزازاً لدينه وتعظيماً لنبيه ﷺ ونشراً لدعوته وتيسيراً لتبليغ رسالته، وتحقيقاً لبشرى أمته بظهور دينها على الدين كله، كما قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

وإنما أطلنا رشاء البحث في تفسير هذه الآيات لأنها جمعت امتنان الله على عباده المؤمنين بنعمة الصبر والنصر في قصة الأحزاب، إلى تعقيب ذلك بذكر أعداء الله وأعداء دينه، وأعداء نبيه ﷺ وأعداء مجتمعه الذين تحزّبوا وتجمعوا من فجاج الأرض لمهاجمة المجاهدين في ديارهم ليعوقوا سير رسالة الإسلام.

وهؤلاء الطوائف الذين كانوا في سابق التاريخ يقفون من الإسلام مواقف العداء قد تركوا ميراثهم في ذلك لربائبهم وتلاميذهم من الملاحدة

وجود النفاق الكفري في طوائف وأمم وشعوب موزعون في الأرض يريدون ليطفؤا نور الله بنفاقهم.

والزنادقة والصليبية المتعصبة والشيوعية الفاجرة، واليهود الغادرين، والمنافقين الذين يظهرون في إطار العلم الاستشراقي، ومن أخذ عنهم من شباب الإسلام الجغرافي.

وكل أولئك داخل فيمن ذكرته الآيات التي جاءت في صدر سورة الأحزاب لمناسبة الحديث عن غزوتها التي كانت في الماضي آخر غزوات الهجوم الكفور على المجتمع المسلم، وقد شمّر وارثو ضلالاتهم في أقطار الأرض ليقفوا من الإسلام اليوم مواقف غابريهم من أهل الكفر والضلال في شتى صوره وأشكاله، والكفر كله ملّة واحدة، وشره النفاق.

وقد فسرنا هذه الآيات تفسيراً قبسناه من سياق القرآن في موضوع الآيات الخاصة بالأحزاب ومن ذكر معهم، ولم نحاول التكثير والتطويل بذكر روايات أصحاب السِّيَر والمغازي والمُحَدِّثين، لأننا قصدنا أن نبرز ما في الآيات من معالم منهج الرسالة الخالدة، والمتأمل في هذه الآيات على ضوء تفسيرنا لها يرى أنها أتت على أحداث غزوة الأحزاب التي كانت ثانية الغزوات الإسلامية في شدة الأزمات ونزول البلاء وزلزلة الأقدام بعد غزوة (أحد).

تنبيه الى ما في هذه الغزوة

من معالم منهج الرسالة

نتائج الأحداث من الدروس التربوية في غزوة الأحزاب ـ الخندق.

وقد تجلّت في غزوة الأحزاب قوة الإيمان وثبات العزائم في مواقف أصحاب رسول الله ﷺ، وتحمّلهم قسوة الحوادث، وصبرهم على شدة الجوع والبرد، ودأبهم على العمل الشاق، وتيقظهم لحركات أعدائهم ومواجهة هذه الحركات بما يوائمها من ثبات الإيمان وإخلاص اليقين، متّخذين من مواقف رسول الله ﷺ أسوة يتأسون بها، حتى كان لهم من كل ذلك دروس عملية في تربية المجتمع المسلم ليتخذها نبراساً في كل جيل من أجياله المتعاقبة، ولتعلم هذه الأجيال القادمة أنّ طلائع الإسلام أقامت شوامخ صروح هذا الدين على دعائم المحن والكفاح المناضل وصرامة العزائم ووزن الدنيا في واقعها بميزانها الحقيقي، فلا يركنون إليها ولا إلى أهلها، لأنها سريعة التقضّي والزوال، ووزن الآخرة بميزانها الإلٓهي في خلودها وثوابها وعقابها، وما أعدّ فيها للصابرين على البلايا في سبيل إعلاء كلمة الله، ليجعلوا من هذا الصبر قوة تقف في وجه الباطل والشر والفساد، فتهون عليهم أنفسهم في سبيل إقامة معالم الحق، ونشر رسالته في آفاق الأرض، إنقاذاً للبشرية من أوضار الشرك ورجس الوثنية، وضلال العقول والأفكار التي تنبت على أرض الإلحاد والتزندق والانحراف بالفطرة الأصيلة عن سننها من الصفاء والنقاء، حتى ترتد بهذا الانحراف على أعقابها لتعيش على مواريث الجاهلية وتراثها المرذول المترسب في حنايا تفكيرها التقليدي الذي لا يقيم وزناً للحق والعدل، ولكنه عاش ويعيش محكوماً بالتعبد للمادة المظلمة الظالمة التي لا يعنيها من الحياة إلا تحقيق رغائب الشهوات مدفوعة إليها ببطون كظيظة،

وأبدان مترهِّلة، وأفكار مهلهلة وعقول مستعبدة.

آيات هذه الغزوة في سورتها جمعت لباب مطالب الحياة من جانبيها في الخير والشر.

وقد أجملت الآيات القرآنية التي فسرناها خلاصة لباب الحياة من جميع جوانبها سلباً وإيجاباً في قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾، فذكرت أهل الإيمان الذين يرون في حياة رسول الله ﷺ غذاء روحياً ومادياً، يجريان بقدر متفاوت في تكييف الحياة فيأخذون من هذا ويقبسون من ذاك ما يقيم بنيان مجتمعهم على أسس متوازنة بين حاجة الروح وحاجة الجسد. وذكرت الذين لا يرجون الله واليوم الآخر من فَجَرة الكفار والمشركين وخبثاء أهل الكتاب الذين نبذوا ما أنزل الله من الحق والهدى وراء أظهرهم واتبعوا الباطل ونصروه، وقالوا للذين كفروا هؤلاء في شركهم ووثنيتهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله ونصروا دينه، وحملوا لواء رسالته، ليضحكوا منهم ويحملوهم على أن يقفوا معهم في حروبهم الظالمة المظلمة لمهاجمة المجتمع المسلم، ليصدُّوا مسيرة الرسالة حتى لا تصل إلى القلوب والعقول، وهي تحمل لواء الهداية والحق والإخاء المتواسي لتعيش الحياة كلها في أمن وسلام وتراحم.

ذكرت الآيات الكريمة هذا كلَّه صراحة وتضميناً ليكون المجتمع المسلم على ذكر منه حتى لا يخدع عن منهجه لتستقيم له الحياة، وليعلم أن حياة الدعاة إلى الله لا تعرف الترف والتنعم، وإنما هي حياة كفاح ونضال وصبر على شدائد المحن وكوارث البلاء، فلا تهزُّهم أعاصير الأحداث، ولا تخيفهم قوى الأرض وما في أيديها من أسلحة الدمار والفناء.

لأن المؤمن في هذه الحياة متحفِّزٌ للقاء الله تعالى، وليعلم ولاة أمور المسلمين أنهم أحق الناس بالتأسِّي برسول الله ﷺ، وقد حذر الله تعالى الحائدين عن التأسي به ﷺ في قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

جاءت الأحزاب بحشودها تجرر أذيال الغرور والعنجهية، فوجدت رسول الله ﷺ قد فرغ هو وأصحابه تحت وطأة الشدة والبلاء من حفر الخندق، وكان حفره من أعظم وسائل (التطوّر) في الدفاع الحربي في قتال

غير متكافىء القوى الماديّة بين الفريقين، فلما نظر إليه فرسان الأحزاب دهشوا وذهلوا، وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيّمموا مكاناً ضيّقاً من الخندق، وأكرهوا خيولهم على اقتحامه فاقتحمت بهم فأجالوها فيه، فخرج إليهم عليّ بن أبي طالب في نفر من أبطال المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيولهم، وأقبلت الفرسان تُعْنق نحوهم.

الاستهانة بصغائر الأمور يفتح أبواب عظائمها من العواقب الوخيمة.

وهنا ننبه على العواقب الوخيمة التي تخلّفها الغفلة أو الاستهانة بصغائر الأمور فيما يجب فيه الاحتياط، وليس في مواقف الحياة موقف يتأكّد فيه الاحتياط مثل مواقف الحروب ومواقفة الأعداء.

وهذه الثغرة ـ كما يقول ابن سعد في طبقاته ـ أغفلها المسلمون، فلم يحكموا أمرها كما أحكموا سائر مواضع الخندق، فكانت مقحماً لخيول الأعداء، ولو أحكموها وتيقّظوا لها ما كان هناك منفذ للاقتحام، وهذا الإهمال أو الغفلة مما يأباه منهج الرسالة هذا المنهج الذي يوجب على كل مسلم أن يكون حذراً متيقظاً في عمله غير مستهين بصغائر الأمور ولا نؤوم عن كبارها، فإن معظم النار من مستصغر الشرر.

محاورة بين فارس الإسلام علي رضي الله عنه، وبين أفرس فرسان الجاهلية تنتهي بقتل عمرو بن عبدود العامري.

وهنا تنادى عمرو بن عبد ودّ العامري ـ وكان من أفجر جموع الأحزاب وفرسانهم الذين اقتحموا الخندق، وهو أحد شجعان العرب المشهورين الذين ضرّستهم الحروب بتجاربها ـ من يبارز؟ فقام بطل الإسلام وفارس ميادينه عليّ بن أبي طالب، فقال: أنا يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «اجلس إنه عمرو» فقال عمرو: ألا رجل يبرز؟ وجعل يؤنب المسلمين، ويقول أين جَنّتكم التي زعمتم أن من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إلي رجلاً، فقام علي رضي الله عنه، فقال: أنا له يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «اجلس» ثم نادى عمرو الثالثة بشعر يعيِّر به المسلمين، ويرميهم بالجبن، فقام عليّ فقال: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «إنه عمرو» فقال عليّ وإن كان عمْراً! فأذن له النبي ﷺ ودعا له وعمّمه، وأعطاه سيفه، فمشى إليه عليّ وهو مقنّع بالحديد، فقال عمرو: مَنْ أنت؟ قال علي: أنا

عليّ، فقال له عمرو: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال عمرو: يا ابن أخي مِنْ أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك.

وفي عيون الأثر لليعمري عن ابن إسحق أن علياً رضي الله عنه قال لعمرو: إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلَّتين إلا أخذتها منه، فقال له عمرو: أجل، فقال له عليّ: فإني أدعوك إلى الله ورسوله ﷺ وإلى الإسلام، فقال عمرو: لا حاجة لي بذلك، فقال علي: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له عمرو: يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي رضي الله عنه، لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتجاولا فقتله علي، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

وفي رواية أن علياً لما دعا عَمْراً إلى الإسلام دعاه إليه أو الرجوع عن الحرب، فأبى عمرو إلا البراز وضحك وقال: ما كنت أظن أحداً يرومني هذه الخصلة، ولمّا أغضبه عليّ بقوله: والله إني لا أكره أن أهريق دمك نزل عن فرسه وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل على عليّ رضي الله عنه مغضباً فاستقبله عليّ بدرقته، وثارت بينهما عجاجة وغبرة، وضرب عمرو علياً فاتقى علي ضربته بدرقته فانقدَّت وأثبت فيها السيف، وضربه علي رضي الله عنه فوق عاتقه فقتله، ثم أقبل على النبي ﷺ متهلِّلاً، فقال له عمر بن الخطاب هلّا سلبته درعه فليس في العرب درع خيراً منها؟ فقال عليّ: إني حين ضربته استقبلني بسوأته فاستحييت.

وقصة مبارزة عليّ رضي الله عنه عمرو بن عبد ودّ العامري قصة من روائع البطولة الإسلامية لأنها تمثل الشجاعة البطولية في نموذجيها.

موازنة بين شجاعة متثبتة بعواصم الإيمان وأخرى متهورة فاجرة.

النموذج الأول ـ الشجاعة البطولية المتثبتة بثوابت الإيمان، المستعصمة بعواصمه، وهي شجاعة تعتمد على روح الفدائية المحفوفة بالرجاء في فضل الله، وإمداده بقوة روحية إيمانية تتضاءل أمامها أضخم القوى المادية الجاهلية

التي تتجلى مظاهرها في صراع عضلي وسلاح مشحوذ.

النموذج الثاني - شجاعة بطولية متهوِّرة حمقاء، لا تستند إلى مدد داخلي سوى الغرور المسعور والشهرة الطنانة، والسوابق المتوازية مع أقرانها في اندفاع أهوج، لا يقدِّر العواقب قدرها وصراع أحمق معتوه، يتفزز في توثب طائش.

والنموذج الأول كان يمثله في هذه القصة موقف علي رضي الله عنه، فإنه لم يكد يسمع نداء عمرو: هل من مبارز؟ حتى نهض يعرض نفسه على رسول الله ﷺ أن يكون هو المبارز لهذا البطل المغرور بقوته وسوابقه في ميادين المعارك الجاهلية التي لا ترتكز إلا على عضل مفتول وساعد مجدول.

وكان يمثل هذا النموذج عمرو بن عبد ودّ العامري بصلفه وحمقه وجاهليته، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه متحفزاً لمنازلة هذا الطاغية الذي تحدّى كتائب المسلمين أن يخرجوا إليه رجلاً منهم لمبارزته، فكان عليّ كلما سمع صرخته يطلب المبارزة ينهض ليأذن له رسول الله ﷺ في مبارزته، ويقول: أنا له يا رسول الله فيستجلسه رسول الله ﷺ.

حكمة تأني رسول الله ﷺ بالإذن لعليّ في مبارزة عمرو ابن عبد ود.

ولعل الحكمة في ذلك كانت هي التفاوت الكبير بينهما في السن وطرائق الحياة وتجارب الحروب، فقد كان عليّ رضي الله عنه إذ ذاك في مَيْعة الشبوبية الصاعدة التي استحوذ عليها الإسلام بعقيدته وشرائعه وآدابه، فشغلها به منذ إنشائها بين أحضانه في تربية إنسانية جادّة صارمة لاتعرف الفراغ العابث ولا العبث الفارغ الذي تستغرقه الفتوّة المتصعلكة في أسواق الجاهلية ومحافلها وحروبها للسلب والنهب وسفك الدماء والتباهي بالقوة العضلية ومصارعة الفتيان، استجابة لموروث التراث الجاهلي الذي لا يشغله في حياة الناس شيء، ولا يشغل من حياة الناس شيئاً.

ولكن حياة عليّ رضي الله عنه الإسلامية الخالصة المخلصة لم تكن تسمح له في تقاربها من الرجولية المكتملة بجولات المصارعات الجاهلية التي اتخذها الفارغون من أضراب عمرو بن عبد ودّ العامري ديدنهم لترضي

صلفهم وغرورهم وبطرهم واستكبارهم في الأرض.

وظل بطل الإسلام عليّ رضي الله عنه مستوفزاً متحفزاً وهو يسمع صرخات عمرو الداعية إلى المبارزة وقد خلطها بتأنيب المسلمين وتعييرهم بالجبن، وعندئذ وقف عليّ وهو يقول: أنا له يا رسول الله، فيقول رسول الله ﷺ: «اجلس، إنه عمرو».

ولم يقصد رسول الله ﷺ - فيما يظهر لنا - إخافة علي وإرعابه، وهو ﷺ أعرف الناس به وبشجاعته وبطولته، وقوة بأسه، لأنه ربيبه وراضع ثدي نبوته وبطل أبطال دعوته وحامي حمى رسالته، ومجندل صناديد المشركين في (بدر)، وإنما قصد ﷺ إثارة حمية البطولة ونخوتها في نفس علي رضي الله عنه، لينازل قرنه وهو يرى آمال رسول الله ﷺ متعلقة به فيستحضر أقصى غايات بأسه وشجاعته.

ومن ثَمّ أجاب رسول الله ﷺ بكل ما في نفسه من ثقة وقوة بأس، ليزيد من طمأنة رسول الله ﷺ في تحقيق آماله من هذه المبارزة الفريدة فقال: وإن يكن عَمْراً.

ويأذن له النبي ﷺ، ويدعو له ويعمّمه ويعطيه سيفه، ويمشي بطل الإسلام عليّ رضي الله عنه إلى قرنه بطل الجاهلية مقنّعاً بالحديد، فيحاوره محاورة يُحفظه بها ويستثير غيظه وغضبه استثارة يغلي منها دماغه، وينزل عن فرسه مُحْنقاً ويسل سيفه من غمده كأنه شعلة نار، ويتجاولان، ويضرب عمرو علياً ضربة يتّقيها عليّ بدرقته، فيقدّها سيف عمرو ويثبت فيها، ويضربه عليّ على عاتقه فيصرعه، ويعلن التكبير، ثم يقبل على رسول الله ﷺ متهللاً، ويُشرق وجه رسول الله ﷺ، ويحمد الله تعالى بما يليق بجلاله.

وفي هذه القصة من معالم منهج الرسالة الخالدة ما يجب أن يتعلمه شباب الإسلام، في معاهده ومدارسه ليستخلصوا من وقائعها وأحداثها ما فيها من آيات بطوليّة باهرة، لا تتقيد بما عُرف في الزمن الغابر، ولكنها تتكيف على حسب زمانها وأطوار الحياة.

قتل نوفل بن عبدالله المخزومي بعد أن اقتحم الخندق ورفض النبي ﷺ أخذ مال لتسليم جيفته لقومه.

ثم برز من فرسان الأحزاب نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، فاقتحم إلى الخندق فضربه الزبير بسيفه ضربة شقّه بها نصفين، وقطع سرجه حتى خلص السيف إلى كاهل الفرس، فقيل للزبير: ما رأينا مثل سيفك، فقال الزبير: ما هو السيف ولكنه الساعد.

وعند ابن جرير الطبري أن نوفلاً لمّا تورط في الخندق رماه الناس بالحجارة فجعل يقول: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه عليّ فقتله.

وحكى الزرقاني عن ابن عائذ أن نوفل بن عبدالله وقع في الخندق فاندقت عنقه، وقتله الله، فعظم ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا نعطيكم ديته على أن تتركوه لندفنه، وعن الزهري أعطوا في جسده عشرة آلاف درهم على أن يُدفع إليهم فيدفنوه، فردّ عليهم النبي ﷺ بقوله: «إنه خبيث خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب لنا في ديته».

وفي هذه الغزوة رمى حِبّان بن العرقة ـ وهي أمه ـ سعد بن معاذ بسهم أصابه في أكحله، فكانت في هذه الرمية شهادته بعد قضائه في بني قريظة، لأن سعداً دعا الله تعالى بعد أن أصابه حِبَّان بسهمه فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبّ إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وقد استجاب الله تعالى لعبده الصالح سعد بن معاذ سيد الأوس، فلم تقم لقريش حرب بعدها، وما مات حتى أقر الله عينه في بني قريظة، ووضع في يده الحكم عليهم، فقضى فيهم بقضاء الله تعالى.

أقام النبي ﷺ وأصحابه مرابطين على الخندق والمشركون في حشودهم المتحزبة يحاصرونهم حصاراً شديداً، ولم يكن بين الفريقين قتال إلا المراماة بالنبل، لكن الأعداء كانوا لا يدعون الطلائع يرسلونها بالليل طمعاً في مفاجأة المسلمين وأخذهم على غرّة.

حادثة سياسية في مقصدها لكسر شوكة الأحزاب وتفريق تجمعاتهم.

بيد أن رسول الله ﷺ رأى ازدياد الحصار على أصحابه إلى جانب ما هم فيه من شدّة البلاء وتعاظم المحنة، فأراد ﷺ أن يصنع شيئاً يكسر به شوكة الأعداء في تكالبهم ليفرق جموعهم، ويشتت تحزبهم، فبعث إلى الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري - وكانا زعيمي أكبر كتائب الأحزاب بعد قريش وأحابيشها - ليطمعهما في غنيمة سهلة يأخذانها ويرجعان بمن معهما من قومهما ومن تبعهما من غيرهم عن الحرب، فراوضهما ﷺ مراوضة مطمعة على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، فانتفخت أوداجهما، وربما سحرهما فرحاً بهذا العرض الذي أطفأ حرارة عزيمتيهما على الحرب، وأصابهما بالتخاذل عن تحزّبهما للحرب وخوض نيرانها، وأظهرا الرضا والفرح بذلك، وكتب بذلك الكتاب ولم يشهد عليه ولم يوقع عليه، وبعث ﷺ إلى السعدين: سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فذكر لهما ذلك يستشيرهما فيه، فقالا: يا رسول الله أهذا أمر تحبه فنصنعه لك، أم هو شيء أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به؟ أم هو شيء تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: «بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما».

نفحات الإيمان تشحذ العزائم.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلّا قرىً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت وذاك» فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

هذه قصة تمثل واقعة من وقائع أحداث غزوة الخندق، وهي نموذج من نماذج السياسة الحكيمة المحكمة التي أدار رسول الله ﷺ بها الموقف، وقد بلغ ذروة المحنة، وقد أراد ﷺ بهذه السياسة أن يبرز جانباً من جوانب منهج رسالته في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزماتها لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء.

حكمة هذه السياسة الحكيمة التي أنقذ بها رسول الله ﷺ موقف المجاهدين. وآراء العلماء في معنى (الحرب خدعة).

لم يكن يخفى على رسول الله ﷺ أن هؤلاء الأحزاب الذين جمعتهم المطامع المادية، والحرص المسعور، والحقد الأسود الذي أحرق أكباد من جمعوهم من أشرار اليهود وأخبث خبثائهم، والذي ملأ قلوب بقايا الغثاء من فلاّل قريش غيظاً محنقاً على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة والمؤاخاة الإيمانية والتكافلية بين المهاجرين والأنصار، مما جعل هذا المجتمع قوة يخشى بأسها ـ أن هذه الجموع التي لم يكن لها هدف موحد في تجمعها وتحزّبها، ولم يكن بينها وصائل تربطها في مواقفتها لكتائب المجتمع المسلم في حرب ضارية شرسة إذا أعطت أخذت، وإذا أخذت فلا عوض لما تأخذ ـ سبيلها في كسر شوكتها وتفريق تجمعها هو سبيلها في تحزبها، وهي قد تحزبت لتغنم وتنهب وتسلب، فإذا جاءت الغنيمة ربحاً بغير تجارة، وكسباً بغير عمل، وأخذاً بغير بذل، كان ذلك هو مطلبها الأقصى في مقاصد زعماء من تحزّبوا ومجيئهم ليشترك أقوامهم في حرب ضروس تطحن قلوب المجازفين بأنفسهم تحت رحاها ليغنم غيرهم ويبوؤا هم بالخسران المبين.

فإذا جاءت الغنيمة سهلة لبعض هؤلاء المتحزّبين وأهمل الآخرون، فلم يحصلوا على شيء، بل لم يعرض شيء إظهاراً للاستهانة بهم وتحقيرهم وإذلالهم وإضعاف قوتهم مشى الحقد والحسد والشكوك إلى قلوب المحرومين المنبوذين الذين أهملوا فلم يُعَدّوا في العير ولا في النفير، وتنابز الحاقدون مع الذين دُعوا إلى لا شيء، ولكن عبث بهم في خداع حربي، والحرب خدعة، يجب على سُوّاسها أن يكونوا في يقظتهم على أكمل العلم بما يضعف قوة العدو من مسالك السياسة الحكيمة.

قال الزرقاني: وأصل الخداع إبطان أمر وإظهار خلافه، وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وإن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه.

وقال النووي: اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلّا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ويقع الخداع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك، وفي الحديث الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة ولذا اقتصر على ما يشير إليه بهذا الحديث.

وقال ابن المنير: معنى الحرب خدعة أن الحرب الجيّدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر.

وإذا استولى الحقد والحسد والشكوك على النفوس أذابتها، ومزّقت أوصالها فلم تعد تصلح لتجمّع يستهدف شيئاً من توافه الأمور في الحياة، بَلْه حرب ضارية اتخذت لها كل أهبة إلا أهبة الصدق في الولاء والإخلاص بين المتحزّبين، إخلاصاً يوحد بينهم وحدة لا تعرفها خدع الحروب.

وفي اتخاذ الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري وصاحبه الحارث ابن عوف المُريّ حجر الزاوية لهذه السياسة الحكيمة نموذج لما خُص به رسول الله ﷺ من العلم بأسرار النفوس الإنسانية وتطلُّعاتها المختلفة التي تستهويها الخدع الحربية والوعود المادية، فتخلع عليها جلابيب زعامة المتحزبين، وتريهم أنهم هم المقدّمون في مصائر الأمور.

وعيينة وصاحبه الحارث لم يكونا في واقعهما من ذيّاك الطراز الذي تُعصب به الأمور وتعقد عليه العقد والعهود، ولكنهما كانا طعمة لصيد حذر إن جرى الحديث مع غيرهما كأبي سفيان بن حرب، فإنه كان في دهيه ومعرفته لمواقع المكايد أثقل من أن يستخف فيخدع، وكانت له في المجتمع المسلم ترات وأحداث أدمت قلوب قريش وهو زعيمها وصاحب كلمتها وقائدها في حروبها بعد (بدر)، فليس من السهل بيعها في سوق النسيان أو التناسي بشيء من متاع زائل لا يغسل بمائه دماء قريش في (بدر).

بيد أنّ الأحمق المطاع وصاحبه لم يكن لهما في سوابق الأحداث وجود، فهما أسرع إلى الاستجابة إلى حل عقدة التحزب لينفرط عقد التحزب بين الأحزاب، ولم يكونا يستهدفان من انتظامهما في سلك الأحزاب إلّا الحصول على كسب رخيص، فاتُخذا مطية ذلولاً لطبيعتهما وطبيعة موقفهما.

اختيار عيينة وصاحبه الحارث المري كان لوناً من السياسة القيادية لفصم عرى الروابط بين جموع الأحزاب.

وقد كان المقصود الحقيقي من الحديث معهما في هذا الإطار، واختيارهما له هو إحداث تخلخل في عواصم التحزب وتمزق في روابط التجمع، وإحلال الشك في هذه العواصم والروابط لتنفصم عراها وتتبدد وصائلها وتتبعثر حشودها الظالمة.

ولم يقصد النبي ﷺ أن يجعل من هذا الحديث والمراوضة مع عيينة والحارث حقيقة مصالحة تجري بينه ﷺ وبينهما، وإنما أراد ﷺ - فيما يظهر لنا - هذا المعنى الذي أبرزناه ليكون مبعث شك في روابط التحزب التي تربط هذه الحشود المتكالبة على حرب المجتمع المسلم.

وأما بالنسبة لكتائب الجهاد من المجتمع المسلم فقد أراد ﷺ - فيما يظهر لنا أيضاً - إثارة النخوة الإيمانية فيهم، وشحذ وتجديد قواهم، وتمحيص يقينهم وتثبيتهم على الجادة أمام نوازل البلاء والمحن، وكشف حقيقة أعدائهم، وأنهم لم يكونوا في تجمعهم وتحزّبهم يستهدفون غاية يقاتلون لتحقيقها، وإنما جاؤوا ليشتروا الدنيا بالآخرة والكفر بالإيمان.

وقد يكون في قول النبي ﷺ وهو يرّد على سعد بن معاذ في مشاورته «بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلاّ أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» ما يشير إلى أنه ﷺ أراد أن يتخذ في الموقف بعد أن تعقّدت فواصله نوعاً من السياسة التي تمزّق شمل المتحزبين، وتفرّق جموعهم، وتشتّت كلمتهم، فيخفف تكالبهم على المجتمع المسلم، وتضعف قوة تجمعهم دون أن يجعل لهم سبيلاً إلى مدينته وثمارها أو التحكم في أمر من أمورها.

وفي موقف الصحابة رضي الله عنهم في مشاورتهم وإفصاحهم لرسول الله ﷺ عن قوة عزيمتهم يظهر صدق إيمانهم ورسوخ يقينهم، وثبات أقدامهم، لأنهم سألوا رسول الله ﷺ إن كان ما يعرضه عليهم للمشاورة أمراً من عند الله، فهم مسلمون لأمر الله، لا يخالفونه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمراً يحبه ﷺ فيصنعونه محبة فيما يحبه ويرضيه، وإن كان ما يعرضه

عليهم أمراً يريد به ﷺ الرحمة بهم والشفقة عليهم لما يراه قد حل بهم من شديد البلاء وعظيم المحن، فإننا لا نرضى لأنفسنا بتقبله والرضا به، وثارت نخوتهم الإيمانية، ورأى ﷺ قوة عزائمهم، وقال لسعد بن معاذ وهو متكلم القوم: «فأنت وذاك»، وأسرع سعد إذ رأى الرضا في وجه رسول الله ﷺ إلى الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، وقال كلمته المعبرة عن صادق إيمانهم وصوارم عزائمهم: (فليجهدوا علينا، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم) وأقر الله عين رسول الله ﷺ بصدق إيمان أصحابه وقوة عزائمهم.

قِصَّة نُعَيم بن مَسعُود

وتخذيله الأحزاب عن موافقة المسلمين

أقام رسول الله ﷺ والمسلمون محاصرون يظلِّلهم الصبر على شدائد الموقف ولأواء المحنة وأزماتها دون اشتباك في قتال بين الفريقين، كما طال الحصار على جموع الأحزاب، واستولى عليهم الملل وأضجرهم الموقف، ولم يكن لديهم من الصبر ما يعينهم على تحمل شدائد الموقف، فتهيأ بعض فرسانهم وتلبّسوا للقتال، واستحكم بالناس الخوف، واستشرى بهم الرعب واشتدت الأزمات، وبقي الحصار بضع عشرة ليلة في قول الأكثر، وذكر صاحب العيون أن الحصار بقي بضعاً وعشرين ليلة، قريباً من شهر، وجزم ابن القيم بأنه بقي شهراً.

رأي ونظر في رواية لتأويلها ـ إذا صحّت ـ تأويلاً يضعها في إطار السياسة المحكمة.

في غمرة هذه الشدائد التي أخذت بخناق المحاصَرين والمحاصِرين جاء نُعَيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، وكان نعيم رجلاً نموماً ـ كما ذكره ابن حجر عن ابن إسحق من حديث عائشة ـ قال ابن إسحق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، عن عائشة أن نعيماً كان رجلاً نموماً ـ أي ينمُّ الحديث وينقله ـ قال الزرقاني: وكان نعيم رجلاً نموماً ـ وأن النبي ﷺ قال له: «إن اليهود بعثت إليّ: إن كان يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رُهُناً ندفعهم إليك فتقتلهم فعلنا» فرجع نعيم مسرعاً إلى قومه فأخبرهم، فقالوا: والله ما كذب محمد عليهم، وإنهم لأهل غدر، وكذلك قال نعيم لقريش فكان ذلك سبباً في خذلانهم ورحيلهم.

هذه الرواية ـ إن صحت ـ فهي من قبيل السياسة الحربية التي يكون

فيها الرأي أنفع من الشجاعة والمواجهة، وتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة).

وكان النبي ﷺ يتطلّع إلى كشف الكرب عن أصحابه، فلما جاءه نعيم وكان يعلم من حاله قبل الإسلام أن صدره يضيق بحديث سمعه دون أن يفشيه ويتحدث به، فذكر له النبي ﷺ ما ذُكر عن اليهود بأسلوب التعريض والتورية، فأخذ نعيم ما ألقى إليه رسول الله ﷺ من الحديث، فنقله إلى بعض زعماء غطفان وقريش،وبدأ الفشل يسري بين حشود الأحزاب فافترقت كلمتهم وانفرط عقدهم.

ولابن إسحاق رواية أخرى في قصة نعيم بن مسعود أجمع لتفصيل الوقائع، وهي أشهر من الرواية المتقدمة، وأقعد أسلوباً ومسلكاً، قال ابن إسحق: إن نعيماً أتى النبي ﷺ فقال له: إني أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال النبي ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة».

خطة ماكرة يضعها عقل دهيٌ مجرب فتصيب من الأحزاب مقاتلهم.

فخرج نُعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً فقال: قد عرفتم ودّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تحَوّلوا منه إلى غيره، وإنهم قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبينه ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوه معهم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى نُعيم قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر رأيت حقاً عليّ أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموه عني، قالوا: نفعل، فقال لهم: إن يهود ندموا على ما صنعوا وأرسلوا إلى محمد: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن تأخذ من أشراف قريش

وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: (نعم).

قال نُعيم يتابع حديثه مع قريش وغطفان: فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُناً فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، ثم أتى نعيم غطفان، فقال. إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فقال لهم مثل ما قال لقريش.

قال ابن إسحاق: وكان من صنع الله لرسوله أن أبا سفيان ورؤوس غطفان أرسلوا إلى بني قريظة عكرمة في نفر من القبيلين، فقالوا: لسنا بدار مقام، وقد هلك الخفُّ والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت لا نعمل فيه شيئاً، وكان قد أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بمقاتلين معكم حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا به، فقالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدّثكم نُعيم به لحق، فأرسلوا إليهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت قريظة، إن الذي ذكر لكم نعيم لحق فأرسلوا إليهم: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً، فأبوا عليهم، وخذّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليال شديدة البرد، فأكفأت قدورهم، وطرحت أبنيتهم.

بحث وتحقيق
في روايات قصة نعيم بن مسعود

قصة نعيم بن مسعود الأشجعي في غزوة الأحزاب، وتخذيله لهم عن موافقة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ قصة مستفيضة، مشهورة متعالمة، وقع على روايتها إجماع أهل المغازي والسِّيَر وذكرها كثير من المحدِّثين.

قال ابن حجر في الفتح: وذكر أهل المغازي أن نُعيم بن مسعود

اختلاف الروايات في قصة نعيم ابن مسعود.

الأشجعي ألقى بين الأحزاب الفتنة فاختلفوا، وذلك بأمر النبي ﷺ له بذلك.

وقد قدمنا أن ابن إسحق ذكر فيها روايتين، أولاهما من طريق يزيد ابن رومان عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، جاء فيها أن النبي ﷺ قال لنعيم ـ وهو رجل نموم: «إن يهود بعثوا إليّ: إن كان يرضيك أن نأخذ لك رُهُناً من أشراف القوم تقتلهم فعلنا» فذهب نعيم بهذا إلى قومه غطفان، وإلى قريش، فحدّثهم بما عنده، فكان ذلك سبب فرقتهم وخذلانهم ورحيلهم.

نقد رواية ذكرها ابن حجر في الفتح ووجوب تأويلها إذا صحّت.

وهذه الرواية ذكرها ابن حجر في الفتح، وهي بأسلوبها التي رُويت به لا يمكن أن تقبل لتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة) لأن العلماء كما قدمنا استثنوا من عموم ذلك أموراً لا يجوز أن يشملها المقصود من الحديث، وذلك بأن يكون الخداع فيه نقض عهد أو أمان، وهذا من قبيل التمثيل والشاهد.

وصريح الكذب أوجب أن يُستثنى من الجواز، لأنه مما اتفق عليه العلماء سلفاً وخلفاً أن الأنبياء معصومون عن الكذب لا يقع منهم قط.

ولهذا قلنا بأن هذه الرواية ـ إن صحّت ـ وجب أن تكون إنما جاءت بأسلوب المعاريض والتورية، فتصرّف فيها الرواة بما يفهم منه أن رسول الله ﷺ قال ذلك بالأسلوب الذي أبعده عن التعريض توهماً منهم أنه داخل في معنى (الحرب خدعة).

ويدل على تصرُّف الرواة ـ إن صحّت الرواية، وأن النبي ﷺ لم يقل ذلك مبتدأ به نعيم ـ مجيء هذا الكلام نفسه في الرواية الثانية من روايتي ابن إسحق، وهي الرواية المشهورة المستفيضة بين أهل العلم، على لسان نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب إذ قال له: إن يهود ندموا على ما صنعوا وأرسلوا إلى محمد: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ: «نعم».

وقد نقد ابن كثير هذه الرواية، فقال: وهذا الذي ذكره ابن إسحق ـ أي في الرواية الثانية الآتية ـ أحسن مما ذكره موسى بن عقبة ـ أي وهو رواية عن ابن إسحق أيضاً ـ وقد أورده عنه البيهقي في الدلائل، فإنه ذكر ما حاصله أن نعيم بن مسعود كان يذيع ما يسمعه من الحديث، فاتفق أنه مرّ برسول الله ﷺ ذات يوم عشاء، فأشار إليه أن تعال، فجاء، فقال: «ما وراءك» فقال: إنه قد بعثت قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم أن يخرجوا إليهم فيناجزوك، فقالت قريظة: نعم فأرسلوا إلينا بالرهن.

قال ابن كثير: وقد ذكرنا فيما تقدم: أنهم إنما نقضوا العهد على يدي حيي بن أخطب بشرط أن يأتيهم برهائن تكون عندهم توثقة.

قال ابن كثير: قال البيهقي: فقال له رسول الله ﷺ: «إني مُسِرٌّ إليك شيئاً فلا تذكره»، قال البيهقي ـ فقال له أي النبي ﷺ في زعم هذه الرواية ـ «إنهم قد أرسلوا إليّ يدعونني إلى الصلح، وأردّ بني النضير إلى دورهم وأموالهم»، فخرج نعيم بن مسعود عامداً إلى غطفان، وقال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة وعسى أن يُصنع لنا» فأتى نعيم غطفان وقريشاً فأعلمهم، فبادر القوم وأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة وجماعة معه، واتفق ذلك ليلة السبت، يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم، فاعتلّت إليهم بالسبت، ثم أيضاً طلبوا الرهن توثقة، فأوقع الله بينهم، واختلفوا.

جمجمة ابن كثير في نقده لهذه الرواية وهي من مغازي موسى ابن عقبة وهو أوثق من ابن إسحاق.

قال ابن كثير: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

ولم يكن ابن كثير في نقده لرواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي عنه في دلائله صريحاً، ولم يبيِّن الجهة التي كانت بها رواية ابن إسحق المطوّلة المفصّلة أحسن من رواية موسى بن عقبة، وهي أيضاً رواية ذكرها ابن إسحاق.

ومغازي موسى بن عقبة أوثق عند أئمة هذا الشأن من سيرة ابن إسحاق ومغازيه فيها.

واكتفى ابن كثير بسوقه الرواية على ما فيها مما لا ينبغي أن يسند إلى رسول الله ﷺ من صريح الكذب إدخالاً له تحت قوله ﷺ: «الحرب خدعة»، وأنه قال لنعيم بن مسعود: «إني مُسِرٌّ إليك شيئاً فلا تذكره، إنهم - أي بني قريظة - أرسلوا إليّ يدعونني إلى الصلح وأرد بني النضير إلى دورهم وأموالهم».

وقد عقّب ابن كثير على رواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي بما يشعر بعدم اطمئنانه إلى قبول هذه الرواية بما جاء فيها من نسبة الكذب إلى رسول الله ﷺ، وهو معصوم عنه بإجماع العلماء من السلف والخلف إلا شراذم لا يعتدُّ بخلافهم.

فقال في تعقيبه: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

وهذا الاحتمال واضح جداً في إرادة ابن كثير صرف الرواية عن ظاهرها لتبرأ مما نسبته إلى النبي ﷺ مما لا يليق بعصمته في نبوته.

أما الرواية الثانية من روايتي ابن إسحق وهي المشهورة بين أهل العلم وأصحاب السير والمغازي والمعتمدة عندهم، وقد ساقها ابن سعد في طبقاته مختصرة بتصرف غير مُخلٍ، وليس فيها عنده ذكر أن اليهود بعثوا للنبي ﷺ بأنهم ندموا على نقض عهده، ولا أن ذلك كان من نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب، وعدم ذكر ذلك أقرب إلى سياق القصة وجوِّها، وأنسب بترك حرية التصرف في الموقف إلى نعيم بن مسعود يزنه بميزان ما يحتف به من أحوال، وهو صاحبه الذي عرض على النبي ﷺ أن يقوم فيه بما يستطيع تحقيقاً لقول النبي ﷺ حينما عرض عليه نفسه: «إنما أنت رجل واحد فينا، فخذّل عنا ما استطعت».

ومن ثَمّ رأينا أن سياق ابن سعد للقصة موجزة خالية من التفاصيل التي تختلف فيها الروايات أقعد وأحكم.

رواية ابن سعد أقرب إلى القبول لخلوها مما يوقع في الشبهات.

قال ابن سعد: وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد أسلم فحسن إسلامه، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلاماً، وهؤلاء عن هؤلاء كلاماً، يرى كل حزب منهم أنه ينصح له، فقبلوا قوله، وخذّلهم عن رسول الله ﷺ، واستوحش كل حزب من صاحبه وطلبت قريظة من قريش الرهن حتى يخرجوا فيقاتلوا معهم، فأبت ذلك قريش واتهموهم، واعتلّت قريظة بالسبت، وقالوا لا نقاتل فيه، لأن قوماً منّا عدَوا في السبت فمُسخوا قردة وخنازير، فقال أبو سفيان: ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير؟ وبعث الله الريح ليلة السبت ففعلت بالمشركين وتركت، لا تقر لهم بناء ولا قدراً.

مثل وشواهد من منهج الرسالة
في قصة نعيم بن مسعود

وفي قصة نعيم يوم الأحزاب مُثُلٌ وشواهد من منهج الرسالة الخالدة جعلت منها إطاراً لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم إذا تفاقمت به الأزمات، واستحكمت الشدائد، وأحاطت به الكوارث، وقاسيات البلايا والمحن، واكتنفته المآزق، وتملكه الرعب والجزع، واستولى عليه الخوف والهلع، واستحوذ عليه الاضطراب والفزع، وسُدَّت في وجهه أبواب المخارج من المضايق.

وجعلت منه إطاراً لما كشفت عنه الأحداث من محكم السياسة التي تصرفت في دائرتها قيادة هذا المجتمع من حسن التدبير، وأحكام الرأي في كيد الأعداء الذي أُخرج في إبّانه بعد أن توافرت دواعيه.

وأول ذلك أن تلجأ القيادة الحكيمة إلى الرأي الرصين الحكيم تستثيره وتوقظه ليتحرك في اتجاه النظر في بؤره المجمعة لقوة الأعداء، ومصادرها وعناصر تركيبها حتى تتعرف إلى ما فيها من شروخ يسترها النفاق والدعاوي الكاذبة، فتعمد إلى كشفها وتسليط سياسة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية حتى تتفكك وسائل الترابط الزائف بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو.

وجوب إعداد قوّة مخابرات تعمل بمهارة جريئة متثبتة.

ويسبق ذلك إعداد العناصر القوّامة بما يطلب منها في شأن تفريق كلمة العدو لتؤدي واجبها دون أن يتنبه لها العدو، مما يوجب أن يؤخذ وهو مستغرق في غفلة الغرور عن تدبير ما يدبر له.

وإذا دلف إلى القيادة عنصر من عناصر الكيد والمكر بالعدو وجب على القيادة أن تضع هذا العنصر دون شعور منه تحت مخبار التجربة بعيداً عن جو ما يُكلَّفه من عظائم الأحداث.

وإذا أظهرت التجربة صحة الوضع في هذا العنصر الطارىء وجب على القيادة أن تسرع إلى انتهاز الفرصة المتاحة لاستغلالها في سرعة وإتقان، ومباعدة للشك والاسترابة مع اليقظة المتوثبة بالمشاعر المرهفة.

وهذا هو الجانب المنهجي في هذه القصة الذي أقامه رسول الله ﷺ على دعائم السياسة الحكيمة المحكمة التي يجب أن تكون سطراً في دروس التربية للقادة والدعاة في رسالة الإسلام.

فقد جاءه نعيم بن مسعود مسلماً يكتم إيمانه، وقال للنبي ﷺ: يا رسول الله إني أسلمت ولم يعرف قومي بإسلامي فمرني بما شئت، وكانت الأمور قد بلغت بالمسلمين المدى من الشدائد والمحن والتأزمات، وكان رسول الله ﷺ يترقب الفرج ويستشرفه من آفاق العزّة الإلهية، فأسرع إلى توجيه نعيم مثيراً في نفسه مشاعر الصدق والإخلاص في أن يعمل عملاً يسجله له تاريخ الجهاد الإسلامي، ويرفع به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشدائد، ويدخل على قلب رسول الله ﷺ السرور بتفريج ضائقة أصحابه، وقال له رسول الله ﷺ في توجيهه: «إنما أنت رجل واحد فينا» أي فماذا تستطيع أن تفعل وحدك في تراكم المعضلات والبلايا التي أحاطت بكتائب الجهاد.

وهذا في الحقيقة إغراء يحرك الحميّة في نفس نُعيم، وقد أشار إليه رسول الله ﷺ إلى ما يستطيع أن يعمله من عمل قد يكون انفراده به مساعداً على نجاحه فيه فقال له: «خذّل عنا ما استطعت».

حمل نُعيم هذا التوجيه القيادي من القائد الأعظم رسول الله ﷺ،

ومضى به إلى الأحزاب يكيدهم ويمكر بهم ويخادعهم حتى أنجز فيهم ما أراده رسول الله ﷺ، فألقى بينهم بذور الشك، وجعل بأسهم بينهم، مع ما أنزل الله تعالى من آيات غيبية معجزة لنبيه ﷺ، من الريح التي أكفأت قدورهم وهدمت بنيانهم، مع شدة البرد التي أهرأت أجسامهم بصقيعها، فترحّلوا مدحورين.

قصة حُذَيفة بن اليَمان

ودخوله بين الأحزاب ليأتي بأخبارهم

قصة دخول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما بين حشود الأحزاب، وتخلّله جموعهم وتولجه بين صفـوفهم بأمر النبي ﷺ ليتعرف له أخبارهم، ويسبر أحوالهم ويكتشف عن أسرارهم، وما نزل بهم من كوارث البلاء، وفوادح المحن، وما تفعله بهم الريح التي أرسلها الله تعالى عليهم مع جنود غيبه من التدبير، وجوائح الخطوب، وقـاصفات العـواصف ومزلـزلات الكروب مّما جعل مقامهم في منازلهم من ميدان المعركة محالاً، مع ما أصابهم من تفكك عرى روابطهم الزائفة التي شتتت شملهم، ومزقت كلمتهم حتى شغل كل فريق منهم بنفسه عن نفسه لما واقعهم من مفاجآت النوازل وصاخّات المصائب حتى رحلوا وهم على أبشع حال من البلاء ـ من أشهر قصص المغازي، وأكثرها استفاضة، وأوسعها تداولاً، وأثبتها رواية.

قصة حذيفة يوم الأحزاب من أثبت أحداث المخابرات في منهج رسالة الإسلام

فقد ذكرها مسلم في صحيحه، ورواها من المتقدمين موسى بن عقبة وابن عائذ، وابن إسحق والواقدي، وابن سعد، والحاكم، والبيهقي وأبو نُعيم، ونقلها عن هؤلاء من جاء بعدهم كاليعمري في العيون، وابن حجر في الفتح، وابن كثير، في تاريخه (البداية والنهاية) وابن القيِّم في الهدي والقسطلاني مع شارحه الزرقاني في المواهب.

وقـد اختلفت رواياتهم بـالإجمال والتفصيـل، والزيـادة والنقص، والاسهاب والإيجاز؛ بَيْدَ أنه ليس فيها رواية خارجة عن هدف القصة المقصود بها، بل إنها كلها تبين الاتجاه المنهجي في السياسة القيادية المحكمة

التي جعلها النبي ﷺ أساساً لتربية أمته، ونموذجاً للتأسِّي به عند استحكام الأزمات والشدائد، ودرساً لتربية المجتمع المسلم على ثباته أمام عاصفات الأحداث، والتحرك الإيجابي لحلِّ معضلاتها بعيداً عن الاستسلام المضعف للنخوة الإيمانية، هذا الاستسلام الذي يجعل من الصبر على البلاء يأساً مقعداً، يصيب مداخل النفس بالشكوك والحَيْرة التي تبدِّد التفكير، وتشل مدارك العقل وتفسد التدبير.

ونحن نسوق ما يحضرنا من هذه الروايات ليكمل بعضها بعضاً ليبرز ما فيها من معالم المنهج.

الفدائية الصامتة في هدوء لا يفقدها الشجاعة هي السمة العليا للمخابرات في منهج الإسلام.

قال ابن سعد: وبعث رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان إليهم ليأتيه بخبرهم، وقام رسول الله ﷺ يصلِّي تلك الليلة، فقال أبو سفيان بن حرب: يا معشر قريش، إنكم لستم بدار مُقام، لقد هلك الخفُّ والحافر، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، ولقد لقينا من الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام، وجعل الناس يرحلون وأبو سفيان قائم حتى خف العسكر، فأقام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد في مائتي فارس ساقة للعسكر، وردءاً لهم مخافة الطلب.

فرجع حذيفة إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك كله، وأصبح رسول الله ﷺ وليس بحضرته أحد من العساكر، وقد انقشعوا إلى بلادهم، فأذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم، فخرجوا مبَّادرين مسرورين بذلك.

وقد ذكر الزرقاني في شرح المواهب رواية أخرى لابن إسحق قال فيها أنه لما طال المقام على قريش وقتل عمرو بن عبد ودّ، وانهزم من معه اتّعدوا أن يغدوا جميعاً ولا يتخلف منهم أحد، فباتوا يعبئون أصحابهم ثم وافوا الخندق قبل طلوع الشمس، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه، وجمعهم على القتال ووعدهم النصر إن صبروا، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم، فأحدقوا بكل وجه من الخندق، ووجهوا على خيمته ﷺ كتيبة

عظيمة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هويٍّ من الليل، ما يقدر ﷺ ولا أحد من المسلمين أن ينزلوا عن مواضعهم ولا إلى صلاة ظهر ولا عصر، ولا مغرب، ولا عشاء، فجعل الصحابة يقولون: ما صلينا، فيقول ﷺ: «ما صليت» حتى كشفهم الله، فرجعوا متفرقين، ورجع كل فريق منهم إلى منزله.

وأقام أسيد بن حضير في مائتين على شفير الخندق، فكرَّت خيل المشركين، وعليها خالد يطلبون غِرّة، فناوشوهم ساعة، فزرق وحشي ابن حرب الطفيل بن النعمان أحد بني سلمة بمزراقه فقتله وانكشفوا، وسار رسول الله ﷺ إلى قبته، فأمر بلالاً فأذّن وأقام، وصلّى الظهر ثم أقام لكل صلاة إقامة، فصلُّوا ما فاتهم، وقال ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً».

ولم يكن بَعْدُ قتال حتى انصرفوا، لكنهم لا يدعون الطلائع بالليل يطمعون في الغارة، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحاً منها، وجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون إن بيوتنا عورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسلّلون.

وفي رواية عند الحاكم أن رجلاً قال لحذيفة: أدركتم رسول الله ﷺ ولم ندركه؟ فقال حذيفة: والله يا ابن أخي لا تدري لو أدركته كيف تكون؟

رواية الحاكم في قصة حذيفة يوم الخندق.

لقد رأيتنا ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة، فقال ﷺ: «من يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة؟» فوالله ما قام أحد، فقال الثانية: «جعله الله رفيقي» فلم يقم أحد، فقال أبو بكر: ابعث حذيفة، فمرَّ بي النبي ﷺ وأنا جاثٍ على ركبتي من شدّة البرد والجوع والخوف، فدعاني، فلم يكن لي بدٌّ من القيام، فقال: «اذهب فأتني بخبر القوم» ودعا لي، فقال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته» فأذهب الله عني القر والفزع، فمضيت كأنما أمشي في حمّام، فلما وليت ناداني، وقال: «يا حذيفة لا تُحدِثْ في القوم شيئاً حتى تأتيني».

فدخلتُ عسكرهم فإذا الريح فيها لا تجاوز شبراً، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه القوم.

رواية لابن إسحاق من طريق محمد بن كعب القرظي من أوفى الروايات وأحسنها سياقاً.

وعند ابن إسحاق من طريق يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة: أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا.

قال حذيفة: والله لقد رأيتني بالخندق، وصلّى النبي ﷺ هوياً من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع» يشرط له الرجعة «أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة» فما قام رجل من شدة الخوف، وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني فلم يكن لي بدٌّ من القيام، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثّن شيئاً حتى تأتينا» فذهبت فدخلت فيهم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرُّ لهم قِدْراً، ولا ناراً، ولا بناء.

فقال أبو سفيان: لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه، فأخذت بيد الرجل الذي كان جنبي فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، ولقد هلك الخفُّ والكُراع، واختلفنا وبنو قريظة، ولقينا من هذا الريح ما ترون، ما يطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جمله، فما حلّ عقال يده إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلّي في مرط لبعض نسائه، فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليّ طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإني لفيه فلما سلم أخبرته الخبر.

وروى البيهقي وأبو نعيم في دلائلهما عن حذيفة أنه قال: لما دخلت

رواية البيهقي وأبي نعيم لا تختلف كثيراً عن رواية ابن إسحاق

بينهم نظرت على ضوء نار توقّد، وإذا رجل أدهم ضخم، يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته وحوله عصبة، قد تفرق عنه الأحزاب، وهو يقول الرحيل، الرحيل، ولم أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فوضعته في كبد القوس لأرميه في ضوء النار، فذكرت قوله ﷺ: «لا تُحدث في القوم شيئاً حتى تأتيني» فأمسكت ووضعت سهمي، فلما جلست فيهم أحسّ أبو سفيان أنه قد دخل فيهم من غيرهم، فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

فعلت ذلك خشية أن يفُطن بي، فبدرتهم بالمسألة، ثم تلبثت فيهم هنيهة، فأتيت قريشاً وبني كنانة، وقيساً، وقلت ما أمرني به رسول الله ﷺ بقوله: «ادخل حتى تدخل بين ظهراني القوم» فأتيت قريشاً، فقلت: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غد أن يقال، أين قريش؟ أين قادة قريش؟ أين رؤوس الناس؟ فيقدّموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم، ثم ائت بني كنانة، فقل: إنما يريد الناس إذا كان غد، فيقال: أين رماة الحَدَق، فيقدّموكم فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم، ثم ائت قيساً، فقل يا معشر قيس، إنما يريد الناس إذا كان غد أن يقولوا أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ أين الفرسان؟ فيقدّموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم.

ثم عاد حذيفة إلى النبي ﷺ فوجده يصلّي، فأومأ إليه بيده، فدنا فسدل عليه من فضل شملته، وأخبره خبر القوم، وأنه تركهم يرتحلون، والريح تقلع أوتادهم، وتطفىء نيرانهم، وتلقي أبنيتهم، وتكفىء قدورهم، وتسفي عليهم التراب، وترميهم بالحصى، وهم يسمعون في أرجاء معسكرهم التكبير وقعقعة السلاح، فارتحلوا هراباً في ليلتهم وتركوا ما استثقلوه من متاعهم، فغنمه المسلمون مع عشرين بعيراً أرسلها أبو سفيان إلى حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ فحمّلها له شعيراً وتمراً وتبناً، فلقيها جماعة من المسلمين، فأخذوها وانصرفوا بها إلى رسول الله ﷺ، فتوسّعوا بها وأكلوه

حتى نفد، ونحروا منها أبعرة، وبقي منها ما بقي حتى دخلوا به المدينة، فلما رجع ضرار بن الخطاب وكان في رسالة أبي سفيان إلى حيي أخبر أبا سفيان الخبر، فقال أبو سفيان: إن حيياً لمشؤوم قطع بنا، ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا.

رواية الإمام مسلم في قصة حذيفة.

وقد أورد هذا الحديث ـ أي قصة حذيفة ـ مسلم بن الحجاج في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة، فقال له رجل: لو أدركتُ رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة»، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال: «يا حذيفة، قم فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بدّاً إذْ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «ائتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ»، فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول النبي ﷺ: «لا تذعرهم عليّ» ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمّام، فأتيت رسول الله ﷺ فأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلّي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان».

ذكر ابن كثير لرواية الحاكم والبيهقي من دلائله قصة حذيفة.

قال ابن كثير: وقد روى الحاكم والحافظ البيهقي في الدلائل هذا الحديث ـ أي قصة حذيفة ـ مبسوطاً من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد ابن عبدالله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: لا تمنّوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافّون قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ، يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما

يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم، ويتسلّلون، ونحن ثلاثمئة، ونحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً، رجلاً، حتى أتى عليّ، وما عليّ جُنّة من العدو، ولا من البرد إلا مِرْط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني وأنا جاثٍ على ركبتيّ فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة، فقال: «حذيفة؟؟» فتقاصرت للأرض، فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم، فقمت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر، فائتني بخبر القوم» وأنا من أشد الناس فزعاً، وأشدهم قراً، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته» فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرّاً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً، فلما وليت قال: «يا حذيفة لا تحدثّن في القوم شيئاً حتى تأتيني» فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقّد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيديه على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل، الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميّه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثّن فيهم شيئاً حتى تأتيني» فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي.

ثم إني شجّعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر، يقولون يا آل عامر، الرحيل، الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم لا تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها.

ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ، فلما انتصفت بي الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك مُعْتَمّين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلّي، فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القرّ وجعلت أقرقف، فأومأ إليّ رسول الله ﷺ بيده فدنوت منه، فأسبل عليّ شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى، فأخبرته خبر القوم، أخبرته أني تركتهم يرحلون.

* * *

حكمة ما يرى من التكرار وتعدد الروايات.

نبهنا فيما تقدّم أن المقام قد يدعو إلى إيراد روايات يكمِّل بعضها بعضاً لما بينها من الاختلاف بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، والإجمال والتفصيل، والإيجاز والإطناب، والتطويل المحكم والإسهاب الجامع، بشرط أن تكون الحاجة إلى استيفاء المعنى المقصود داعية إلى ذلك، وعلى هذا الأساس جاء البحث في قصة حذيفة بن اليمان، وبعثه إلى جموع الأحزاب ليدخل بينهم، ويعلم علمهم، ويتعرف أخبارهم.

وكان اختيار حذيفة لهذه المهمة الشاقة الخطيرة محل اختلاف بين الروايات، وكان جوّ اختياره متأزماً شديد البلاء، عظيم المحن، كادت تميل فيه نفوس الصحابة إلى ما لم يكن من خلائقها؛ لولا مسارعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى اختيار حذيفة والإشارة به على النبي ﷺ، ليرفع عن النبي ﷺ ثقل الانتظار بعد ترغيبه ﷺ لمن ينتدب نفسه لهذه المهمة ترغيباً يقطع حجة من لم يستجب لهذا الترغيب، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ هو الذي اختاره، وسمّاه باسمه، وأمره بالذهاب إلى جموع الأعداء وهم يتحرقون غيظاً لما نزل بهم من شدة البلاء، فلم يجد حذيفة بدّاً إذ سمّاه رسول الله ﷺ باسمه من القيام، وهو في أشدّ حالات البلاء: جوع شديد، وبرد شديد، ورعب شديد.

كان حذيفة أجمع لصفات الفدائي المغامر العليم بمهمته.

وذهب حذيفة إلى جموع الأحزاب ودخل بينهم - والظلام الشديد يستره - دخول الفدائي الذي يكتنفه الموت من جميع أكنافه ويحتويه من سائر جوانبه وهو لا يبالي، ولكن حذيفة كان حاذق الرأي، خبيراً بتصرف الأمور إذا تأزّمت، سريع البادرة، ثابت اليقين، راسخ الإيمان، فَطِن الفطرة، زكي الفؤاد، متماسك الشخصية.

وهذه هي الصفات التي يجب أن تتوافر في الأفراد والجماعات الذين يكونون موضع الثقة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات واستحكام الأخطار.

وقد عرف حذيفة عن جموع الأحزاب كل أمرهم، ظاهره وخفيه، لأنه داخلهم مداخلة لم تترك لهم سراً إلاّ كشفته ولا خبيئاً إلا أعلنته.

وقد وقعت له فيهم عجائب دلّت على أن اختياره لهذه المهمة الخطيرة كان من متنزل التوفيق، فقد عرف ما هم فيه من الاضطراب والضياع، والرعب والفزع واستغلاق الأمور أمامهم استغلاقاً شلّ تفكيرهم، ولم يجدوا للخلاص من حالهم إلا الاستعداد للهرب.

ورجع حذيفة للنبي ﷺ فأخبره خبر القوم، فكان ذلك مما أنعش نفوس المؤمنين ورفع ثقل ما نزل بهم من البلاء والمحن، ولو لم يكن لحذيفة إلّا موقفه من أبي سفيان وهو يُصْلي خاصرته بالنار من شدّة البرد وتمكنه من قتله لولا تذكره قول النبي ﷺ: «لا تحدثّن في القوم شيئاً حتى تأتيني» وفي رواية: «لا تذعر القوم عليّ» لكفاه في مفاخر الإيمان واليقين، وليس موقفه وهو يسمع أبا سفيان وقد أحس بعنصر غريب بين جموع الأحزاب: ليعرف كل امرىء مَنْ جليسه، وإذا بحذيفة مبادراً إلى من إلى جانبه الأيمن، فيقول له: من أنت؟ فيقول: معاوية بن أبي سفيان، ويضرب بيده على من على شماله ويقول له: من أنت؟ فيقول: عمرو بن العاص، وهما أدهى العرب وأحضرهم بديهة، فيسبقهما حذيفة ببادرته ويسكتهما عنه، ويخرج عنهما دون أن يعرفا عنه شيئاً ـ بأقل منزلة في منازل الرسوخ واليقين من موقفه مع أبي سفيان.

معالم منهج التربية في الرسالة من أحداث هذه الغزوة.

وقد جرت أحداث هذه الغزوة الممحِّصة للإيمان في طريق منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام واضعة الخطوط القيادية التي أدار بها رسول الله ﷺ الموقف في إطار السياسة الحكيمة التي كتبت دروسها التربوية أقلام الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على ما لا يطاق من الشدائد والأزمات، واحتمال نوازل البلاء بجلدٍ لا يعرف الاستسلام، مع العمل الدؤوب البالغ في مشقته مبلغ الاستحالة البشرية، ولكن رعاية الله وعنايته هما اللتان ألقتا في قلوبهم مغالبة الحياة وأزماتها وشدائدها، وهما اللتان أمدّتاهم بالمدد الروحي الذي أذاب في بؤرة إيمانهم كل محنة، وقهر كل بلاء وكارثة، فصبروا وصابروا واحتملوا، ورأوا في رسول الله ﷺ أعظم الأسوة، وهو معهم يشاركهم مشاركة فعلية مشقة العمل وشدائد المحن، وكان ﷺ يواسيهم بنفسه، فهو يجوع أشدّ مما جاعوا، ويعمل أكثر مما عملوا، ينقل

التراب حتى يغمر جلدة بطنه، إذا اشتدت عليهم في حفر الخندق صخرة نزل إليها، وما يزال بها يضربها بالمعول حتى تتزايل فتصبح كثيباً أهْيَل، وهو عاصب بطنه بحجر من شدة الجوع.

نظر وبحث في آية التأسي به ﷺ.

ولهذا وغيره كانت هذه الغزوة المليئة بالآيات والمعجزات متنزلاً لآية التأسِّي به ﷺ، فقال تبارك وتعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

فهذا تحريض للمجتمع المسلم في جميع أجياله، وأزمانه وأوطانه، على التسامي بأنفسهم وأخلاقهم وقوة إيمانهم ورسوخ يقينهم إلى آفاق البطولة الروحية والمادية التي تتطلبها المكانة القيادية الإنسانية التي نيطت بهذا المجتمع المسلم.

وهو تحريض لهذا المجتمع على الاعتصام بعظائم الأمور، وإعداد أقرانها لها، مهما تكن محفوفة بمخاطر المحن وشدائد البلاء.

وهو تحريض للمجتمع المسلم أينما كان وجوده من أرض الله على أن يتخذ من الصبر وقاية يتقي بها مزالق الهزاهز أمام أحداث الحياة كيفما كانت شكولها ومضائقها.

وحظ الصحابة رضوان الله عليهم من هذه الأسوة أن الله أشهدهم بذواتهم أعمال رسول الله ﷺ، وهي تجري على يديه حركات دائبة في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى الإنسانية في أرجاء الحياة.

أما حظ من جاء بعدهم من أجيال المجتمع المسلم فهو حظ الحارس الأمين في الحفاظ على ما أسندت إليه أمانة حفظه، وحراسته بمثل ما كان عليه مَنْ سلموا له الأمانة من العمل في الدفاع عن هذه الأمانة، وتبليغها ونشرها في الآفاق.

ولا يكون المؤمن أميناً على القيام بحفظ أمانته إلاّ إذا علم قدرها، وعرف كيف يؤديها كما أدّيت إليه.

وأسلوب الآية الكريمة يجعل من ذات رسول الله ﷺ بوصفه رسولاً من

الله نفس الأسوة لمجتمعه المسلم، فهو ﷺ بوصف أنه رسول الله هو نفس الأسوة، فكل عمل من أعمال رسالته هو موضع للتأسّي به، يجب على كل فرد من أفراد مجتمعه وأمته أن يتخذ هذا العمل أسوة له بقدر استعداده الفطري واستطاعته المكتسبة.

وهذه مبالغة قصد بها إفادة أن جميع ما يصدر عنه ﷺ إنما يصدر عنه بوصفه رسول الله، وهذا الوصف موجب لمتابعته في جميع ما يثبت عنه من الأقوال والأفعال على محاملها.

فرسالته ﷺ هي منبع التأسّي به، وهذا المنبع موحّد الإمداد بكل ما يكون فيه التأسّي والاقتداء، وفي هذا غُنْية عن الحديث عن الخصائص البشرية التي مُنحها ﷺ فاختص بها واختصت به، لأن أمر هذه الخصائص خارج عن التقيُّد بوصف الرسالة إلا باعتبارها مخبرة عنه، لأن الأصل عموم التأسّي، وهذا كالاستثناء المخصِّص للعموم.

نكتة بيانية في آية التأسّي من متعلقات الإعجاز الأسلوبي.

وفي الآية نكتة بيانية من متعلّقات الإعجاز القرآني في هدايته وروعة أسلوبه، وهذه النكتة تعطي معنى التأسّي به ﷺ صورة من قوة الإيمان ورسوخ اليقين في متابعته ﷺ متابعة تجعلها لباب الإيمان وزبدة الإخلاص.

وتلمح هذه النكتة في قوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ بعد قوله: ﴿لقد كان لكم﴾ الذي هو في مطلق معناه عين ما جاء بعده في إجمال هذا المعنى.

بَيْدَ أن قوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ ربط تأسّيهم بزبدة الإخلاص الذي هو مرتبة فوق مرتبة قوة الإيمان.

فإذا كان التأسّي بالنسبة لصادقي الإيمان الذين صعد بهم إيمانهم إلى ذروة الإخاء كافياً أن يقال فيه: ﴿لقد كان لكم﴾ باعتبار عودة ضمير الخطاب إلى صادقي الإيمان، فإنه بالنسبة لعامة الأمة ممّن لم يصل إيمانهم إلى درجة الإخلاص علماً وعملاً غير كافٍ أن يقال فيه: ﴿لقد كان لكم﴾ بل هو في حاجة إلى حياطته بشيء من التوثيق في داخل نفوسهم بشيء من الربط بما

هو غيب لا يعرف مكان الإيمان منه، وليس ذلك إلا رجاء فضل الله ورحمته، ورجاء تفضله وإحسانه على كل مؤمن لقيه بعقيدة الإيمان، والرجاء مرتبة بين الإخلاص والإيمان.

ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وذكر الله كثيراً﴾ لأن كثرة ذكر الله هي العروة الوثقى في الربط بين الإيمان، ورجاء فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر.

* * *

كانت الأحزاب آخر غزوة هجومية على المجتمع المسلم تحقيقاً لإخبار النبي ﷺ بذلك.

ولنختم الحديث في هذه الغزوة التي كانت أحداثها كلّها دروساً تربوية لحياة المجتمع المسلم التي أقام النبي ﷺ دعائمها على الكفاح والنضال، والاستنصار بالله وآياته، وجنود غيبه التي أمدّ الله بها نبيه ﷺ في جهاده لنشر دعوته وتبليغ رسالته.

انصرف رسول الله ﷺ بأصحابه بعد رحيل الأحزاب بحشودهم وجموعهم منهزمين أذلّة مدحورين، وبشّر النبي ﷺ أصحابه بأن هذه الغزوة هي آخر غزوات أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ وأعداء رسالته المهاجمة التي يغزون فيها المجتمع المسلم.

روى البخاري عن سليمان بن صرد من طريق أبي نُعيم، قال: حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن سليمان قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «نغزوهم ولا يغزوننا».

وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً بسند آخر قال: حدثني عبدالله ابن محمد، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، سمعت أبا إسحق يقول: سمعت سليمان بن صرد يقول سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلي الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

وقد صدق الله رسوله ﷺ، فكان هذا الإخبار الصادق عَلَمًا من أعلام نبوته ﷺ إذ أخبر عن أمر مستقبل وقع كما أخبر به ﷺ، قال ابن حجر: فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة، فصدته قريش عن البيت ووقعت

الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

وأخرج البزار من حديث جابر أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعاً كثيرة: «لا يغزونكم بعد هذا أبداً، ولكنكم أنتم تغزونهم».

لمحات من آيات الله التي أيّد بها رسوله ﷺ في غزوة الأحزاب.

وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية أمور كثيرة، أكرم الله بها نبيه ﷺ، ولو لم يكن فيها إلا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم مما لا يمكن أن يحوم حول حماه شيء من الشك من إرسال الريح والجنود، وما صنعت بجموع الشرك والوثنية من جموع الأحزاب، وإلّا ما روي في أصحِّ الصحيح من أحاديث تكثير الطعام القليل وكفايته العدد الكثير حتى أشبعهم وانحرفوا عنه وهو كما وُضع، وإلا ما في الصحيح من أحاديث الكُدْية التي عرضت في حفر الخندق، فنزل إليها النبي ﷺ بالمِعْول وهو معصوب البطن بحجر من شدّة الجوع، فضربها فصارت رمالاً سيّالة، وإلّا ما في حديث سلمان والبرقات التي برقت حين ضرب ﷺ الصخرة فرأى على ضوئها ﷺ ما يفتح على أمته، فصدّقه الله وفتح ما فتح من البلاد التي وطّد الله فيها ملك الأمة الإسلامية، وصارت بعد الوثنية أوطاناً للإسلام وهدايته، ولهذا كانت هذه الغزوة جديرة باسم غزوة الإعجاز الكوني والمعجزات الحسية والعقلية.

كما كان فيها من معالم منهج الرسالة ما سجّلناه في أحداثها ووقائعها، ونبهنا عليه في آياتها حتى كانت غزوة جامعة لدروس الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على لأواء الحياة ومحنها، إلى جانب ما اشتملت عليه من فضل الله بإمداده نبيه ﷺ بنفحات المنن الكونية التي أنزلها حين استحكمت الخطوب، واكفهرت الكروب، ففرج بها مضائق البلاء والمحن، وقشع بريحها سحائب الكوارث، وختمها بتلطفه الذي مسح به عن صدور المؤمنين ما ألمّ بها من الهواجس والظنون، فعادوا أصفى بصائر وأصلب عزائم، وأرسخ إيماناً وأعمق يقيناً، وأخلص نيّات، وهم ينظرون إلى المستقبل بقلوب مشرقة وأفئدة منيرة، يرجون من الله تعالى تحقيق ما وعدهم على لسان رسوله ﷺ في بشراه لهم بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».

غَـزوَة بني المُصطلق

وَهيَ المريسيع

أسبابها وأحداثها وأحاديثها وآثارها

غـزوة بني المُصطَلق

اختلاف الروايات في سنة غزوة بني المصطلق.

بنو المصطلق بطن من خزاعة ويرجعون في أصلهم إلى الأزد، والمريسيع تصغير مرسوع وهو من قولهم رسعت العين إذا دمعت من فساد، وهو ماء لبني المصطلق، وفي حديث سفيان بن وبرة، عند الطبراني قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة المريسيع غزوة بني المصطلق.

وقد عنون لها البخاري في صحيحه بما قبسناه منه في عنونتنا لها، وقد اختلف الرواة اختلافاً واسع المدى في زمنها، فعند ابن سعد أنها كانت في السنة الخامسة للهجرة في أول شعبان لليلتين خلتا منه، وهذا من قول قتادة وعروة وغيرهما من قدامى السلف كما رواه البيهقي، ويتفرع على ذلك سبقها للخندق أو تأخرها عنها على أساس وقوعهما في سنة واحدة هي السنة الخامسة للهجرة، وكلٌّ قيل به، وسَبْق الخندق على بني المصطلق ذهب إليه الحاكم أبو عبد الله صاحب المستدرك.

وحكى البخاري عن ابن إسحق أن غزوة بني المصطلق كانت في شعبان سنة ست، وجزم بهذا الطبري وخليفة بن خياط.

تعقب ابن حجر رواية البخاري بما لا ينبغي ومناقشته في ذلك.

وذكر البخاري عن موسى بن عقبة أن غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع من الهجرة، وتعقّبه ابن حجر بما لا ينبغي فقال: وكأنه سبق قلم، أراد ـ أي البخاري ـ أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع.

ثم بيّن ابن حجر أن هذا القول خلاف ما روي في مغازي ابن عقبة فقال: والذي في مغازي ابن عقبة من عدة طرق رواها الحاكم، وأبو سعيد

النيسابوري في (شرف المصطفى) والبيهقي في الدلائل أنها كانت سنة خمس، ويؤيده ما أخرجه البخاري في الجهاد عن ابن عمر: أنه غزا مع النبي ﷺ بني المصطلق في شعبان سنة أربع ولم يؤذن له في القتال، لأنه إنما أذن له فيه يوم الخندق، وهي بعد شعبان سواء قلنا أنها كانت في سنة خمس أو في سنة أربع.

ويعارض قول ابن حجر: أن الذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق.... أنها كانت سنة خمس، أن هذه الروايات التي أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري، والبيهقي لو كانت ثابتة عند البخاري فلماذا تركها واقتصر على سنة أربع عند موسى بن عقبة؟ وروايات الحاكم وأبو سعيد النيسابوري، والبيهقي لا ترد بها رواية البخاري الثابتة في صحيحه، بل لا تساويها فضلاً عن أن تتقدم عليها.

ودعوى ابن حجر أن رواية سنة أربع التي حكاها البخاري عن موسى ابن عقبة سَبْق قلم من البخاري دعوى لا دليل لها، وردّ روايات الصحيح بهذه الأوهام لا يصح الاعتماد عليه والاعتداد به، وكيف يمضي البخاري في صحيحه على هذا الغلط دون أن يصححه هو أو ينبّه عليه أحد من تلاميذه وقارئي صحيحه وشارحيه قبل وجود ابن حجر وهم عشرات الألوف؟ هذا من أبعد البعد.

إشارة صاحب المواهب وشارحه إلى ضعف كلام ابن حجر.

وقد أشار القسطلاني وشارح مواهبه الزرقاني إلى نقد كلام ابن حجر، فقالا: قالوا وكأنه سبق قلم من البخاري أراد أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع سهواً وهو عجيب، وأعجب منه أن يسير هذا الغلط مع قافلة الزمن قروناً كثيرة، فلا يتنبه إلى تصحيحه أحد من شارحي هذا الكتاب قبل مجيء ابن حجر؟ ولا ندري كيف تشتبه على الإمام البخاري الخمس بالأربع وحروفهما متغايرة تغايراً كلياً، ومعناهما في موضعهما من الروايات يبعد الاشتباه بينهما؟ وإذا كان السهو هو الذي جمح بقلم البخاري فكيف فات على قارئي الصحيح وهم ألوف أن يصححوا ما سبق إليه قلمه؟

وترك تصحيح غلط سَبْقِ الأقلام إلى ما لم يقصده حاملوها دون تنبيه

عليه ولا سيما في أمهات الكتب وأصول مراجع التراث الإسلامي وشريعته يفتح الباب أمام شكوك وأوهام ترفع الثقة بهذه الكتب، وتهز الإيمان بصحة روايات السنة المطهَّرة وأحداثها، ويجعل للمتقوّلين عليها سلطاناً ينزلها عن الذروة في الاحتجاج بها مع آيات القرآن الكريم.

ودعوى تأييد قول من ردّ القول بأنها كانت سنة أربع بحديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري في الجهاد، وأنه غزا مع رسول الله ﷺ بني المصطلق في شعبان وابن عمر سنة أربع لم يؤذن له في القتال، وإنما أُذن له فيه في الخندق وهي بعد شعبان، سواء قلنا أنها سنة خمس أو سنة أربع - لا تأييد فيها لأن ابن عمر لم يقل في حديثه المذكور: قاتلتُ مع النبي ﷺ بني المصطلق في شعبان، وإنما قال: إنه غزا مع النبي ﷺ بني المصطلق والغزو يصدق بشهود الغزوة، وحضوره مع المقاتلين، ولا يلزم ذلك أن يكون قد باشر القتال، والإذن لابن عمر في الخندق إنما كان بمباشرة القتال الذي رُدّ عنه في أحد مع غيره من أقرانه.

فما حكاه البخاري عن موسى بن عقبة من كون غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع للهجرة أقرب إلى الاحتمال من قول ابن إسحق أنها كانت سنة ست الذي يرده ذكر سعد بن معاذ في حديث (الإفك)، و(الإفك) إنما كان في غزوة بني المصطلق قولاً واحداً، وسعد بن معاذ استشهد بعد قريظة، وهي في سنة خمس باتفاق.

تحقيق سبب غزوة بني المصطلق

كانت غزوة بني المصطلق بدء نهاية تطهير الجو أمام مسيرة المجتمع المسلم بدعوته ورسالته.

كانت هذه الغزوة بدءاً لكسح الجيوب المنتشرة هنا وهناك بعد كسر شوكة قريش، ومن كان قد انضوى تحت لوائها من شراذم القبائل التي ساقها الغرور الأحمق إلى منازلة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ، والتي كانت نهاية غزوة الخندق نهاية لفشّ تورماتها المتجمعة في تكتّلات قد نخر السوس جذوعها، فتفرّقت إلى أشتات لم تجتمع بعدها أبداً للهجوم على هذا المجتمع المسلم، وذلك لتحول ميزان قوة هذا المجتمع من رواسب الجاهلية وتراثها

المادي المظلم إلى حرب منهجية تقصد إلى نشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى العالمين، مستهدفة إقامة منائر العدل والإخاء الإنساني والترابط المتلاحم المتراحم بين أفراد وجماعات الإنسانية في أرجاء الأرض.

كانت بنو المصطلق لا تزال تغط في نوم الرواسب الجاهلية بزعامة رئيسها الحارث بن أبي ضرار، وكانت تصك آذانها أخبار الحروب التي نشبت بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة وبين أعدائه الذين أقضّ مضاجعهم صدى انتصاراته المدوية، فتثير في أنفسهم نعرة الطيش المتهور.

وكان بنو المصطلق من بقايا هذا الغثاء المتخلف في سفح جسور الحياة العربية، وقد ملكهم الرعب وخافوا إن هم ظلُّوا في موقفهم الاعتزالي المتحيِّر المتردد أن تدور عليهم الدائرة وتقضي عليهم كتائب المجاهدين وهم نائمون، فتحركوا ليهاجموا المجتمع المسلم بقيادة قائده الأعظم رسول الله ﷺ، وأخذوا يعدّون العدة، ويتأهبون بكل ما قدروا عليه من الرجال والسلاح والمؤن لمهاجمة قوة هذا المجتمع المنتصر، ومشى زعيمهم ورجالهم في إحياء بقايا غسالات القبائل يجمّعونها معهم لتجربة حظِّهم في رد السيل الجارف الذي اكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية المعتمدة على المظاهر المادية المتهاوية تحت ضربات الجهاد القتالي الذي يخوضه المجتمع المسلم دفاعاً عن وجوده، وإزالة العقبات من طريق دعوته وتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل والنور والهدى.

تعرف حال وأخبار بني المصطلق للوقوف على جلية أمرهم قبل مهاجمتهم.

وبلغ خبر تجمعاتهم وتحفزهم رسول الله ﷺ، فأراد جرياً على منهجه أن يتحرّى ويتأكد مما بلغه عنهم، فبعث رسول الله ﷺ بُريدة بن الحُصَيب الأسلمي ليعلم له علم أولئك القوم فاستأذنه بريدة في أن يقول ما لا بدّ منه ليدخل به عليهم، ويملك الطمأنينة منهم إليه، ويفضوا إليه بذات أنفسهم، وينشروا على مسامعه خبيئهم ليعلم ما عندم، فأذن له النبي ﷺ في القول بالمعاريض والتورية.

فأتاهم بريدة ودخل في صفوفهم، واجتمع برئيسهم الحارث بن أبي

ضرار، وتحدث إليه واختبر أمره وسرَّه، فوجدهم على عزيمة مهاجمة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم من أرضهم ومنازلهم.

وكانوا قد استخبروا بريدة عن نفسه، فقالوا له: من الرجل؟ فقال: منكم قدمت لما بلغنا من جمعكم لهذا الرجل، وأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يداً واحدة حتى نستأصله، فقال رئيسهم الحارث فنحن على ذلك، فعجِّلْ علينا، فقال لهم بريدة: أركب الآن وآتيكم بجمع كثير من قومي، فسروا بذلك منه.

ورجع بريدة بن الحصيب بما معه من علم أخبارهم إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرهم وبثّ إليه حديثهم، وألقى بين يديه سرّهم وجهرهم، فندب رسول الله ﷺ كتائب المجاهدين، وخرج بهم مسرعاً وكانوا سبعمائة مقاتل، وقادوا معهم ثلاثين فرساً، أكثرها للأنصار، وكان في هذه الخيل فرسان للنبي ﷺ لزاز والظرب وخرجت معه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قيل: وخرجت معها أم سلمة رضي الله عنها.

وفي طريق رسول الله ﷺ إلى منازل بني المصطلق أُتي برجل من عبد قيس، فسلّم على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أين أهلك» قال: بالروحاء، قال: «أين تريد» قال: إياك جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق، وأقاتل معك عدوك، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي هداك إلى الإسلام» فقال الرجل أي الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال ﷺ «الصلاة لأول وقتها».

وسؤال النبي ﷺ للرجل عن أهله، وأين يريد من التحرز الذي ينبغي أن يكون عليه القائد الأعظم وهو منهج من مناهج الرسالة الخالدة، وهذا التحرز إنما كان خشية أن يكون هذا الرجل عيناً للأعداء، أو كانت طريقه تمر عليهم فيسألونه فيخبرهم عن تجمعات المجتمع المسلم وقائده ﷺ وسيره، ولعل سيره إليهم يكون في طريق سير الرجل، فيخبر القوم وهو لا يشعر.

وفي طريقه ﷺ إلى بني المصطلق أصاب عيناً لهم يتجسس لهم أخبار

رسول الله ﷺ وأخبار أصحابه، فأخذوه وسألوه عن المشركين وتجمعاتهم فأبى أن يذكر شيئاً عنهم أو يتحدَّث عن شأن من شؤونهم، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأبى أن يسلم، فأمر النبي ﷺ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضرب عنقه.

وبلغ الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، ومن معه من الجموع التي جمّعها لحرب رسول الله ﷺ مسيره إليه وإلى جموعه، وأنه قتل عينه الذي بعثه ليتجسس الأخبار، فتملكه الخوف، ورُعب رعباً شديداً، واستولى عليه الهلع والذعر، واستحوذ على جموعه الفزع، فتفرقوا عنه وتركوه مع لفائف قومه.

وبلغ رسول الله ﷺ بأصحابه إلى (المُرَيسيع) فضرب عليه قبة، وتهيأ الجمعان للقتال، وصفَّ ﷺ أصحابه، وأعطى راية المهاجرين لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وفي رواية: أنها كانت مع عمار بن ياسر، وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة سيد الخزرج.

وأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي بني المصطلق أن يقولوا: لا إله إلا الله، ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم، فأبوا أن يستجيبوا لدعوة الإسلام وبدأوا الحرب، فرمى رجل منهم كتائب المجاهدين بنبله وسهامه، وعندئذ أمر رسول الله ﷺ كتائبه المجاهدة أن يحملوا على أعدائهم حملة رجل واحد، فاستجابوا وصدقوا الله في حملتهم حتى أخذوا أعداءهم، فلم يفلت منهم أحد، وقتلوا منهم عشرة، وأسروا سائرهم، وكانوا سبعمائة رجل، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واستاقوا نعمهم وشاءهم.

غدر مقيس بن صبابة وإهدار دمه وقتله يوم فتح مكة.

قال ابن سعد وكانت الإبل ألفي بعير، والشاء خمسة آلاف شاة، وكان سبيهم مائة بيت، وقتل من المسلمين رجل واحد هو هشام بن صبابة، أصابه أنصاري من رهط عبادة بن الصامت، يقال له: أوس وهو لا يعرفه، وكان يرى أنه من المشركين، فقتله خطأً، فقدم أخوه مقيس بن صبابة ـ لعنه الله ـ على رسول الله ﷺ وهو يظهر الإسلام ويبطن أفجر الكفر والغدر،

فقال: يا رسول الله جئتك مسلماً، وأطلب دية أخي، قتل خطأً، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه، وأقام بين المسلمين غير كثير حتى واتته الفرصة فعدا على قاتل أخيه فقتله، ثم فر إلى مكة هارباً بجرمه كافراً غادراً لم يزدد إلا كفراً وفجوراً، فأهدر النبي ﷺ دمه مع من أهدر دماءهم من فجرة المشركين أمثال ابن خطل، والحويرث، ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

ولما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة عفا عن جميع أهلها إلا الذين فجروا من مشركيها، فإنه ﷺ قد أمر بقتلهم، وفيهم هذا الغادر الفاجر مقيس بن صبابة.

هذه الروايات في سبب هذه الغزوة مما اتفق عليه أهل السِّيَرَ والمغازي، وهي متفقة مع منهج الرسالة الذي فصّلنا القول فيه تفصيلاً في صدر الكلام على غزوات النبي ﷺ لا يترك فيه مجالاً للشك، وقد سجلنا هذا المنهج في كتابنا (سماحة الإسلام) بأسانيده من السنة وأعمال الراشدين في صدر الكلام على مشروعية جهاد القتال في الإسلام، وفي هذا التفصيل هنا وهناك أوضحنا أن النبي ﷺ لم يهاجم قوماً بالحرب قبل أن يعرض عليهم الإسلام عرضاً بيّناً، فإن أبَوْه طلبت منهم الجزية عَرَباً أو غير عرب على القول الصحيح، فإن لم يستجيبوا لها قوتلوا وهم يعلمون، فلا يغدر بهم ولا يؤخذون على غرّة، لأن مشروعية جهاد القتال في الإسلام إنما كانت لدفع الذين يقفون في طريق الدعوة إلى الله، والذين يعوقون سير الرسالة في التبليغ بالقوة والحرب.

في غزوة بني المصطلق ما يثبت أنّ منهج رسالة الإسلام أن لا يهاجم أحد قبل دعوته إلى الإسلام.

وقد ذكرنا ما روي في الصحيح من وصية النبي ﷺ لقواد بعوثه وسراياه ووصايا الصدِّيق، والفاروق من بعده ﷺ، وقد ذكرنا أن النبي ﷺ جيء إليه بقوم أسارى أُخذوا قبل أن يعرض عليهم الإسلام فأطلقهم وردّهم إلى مأمنهم.

وقد اتخذ ولاة الأمر الصالحون هذا المنهج ديدنهم ودأبهم، فلم يهاجموا أحداً إلا بعد إعذار يقطع حجته بعرض الإسلام عليه وإعطائه فرصة الاختيار ليسلم أو يستسلم.

بيد أن البخاري ومسلماً ذكرا في صحيحيهما من حديث عبدالله ابن عون ما يدل على خلاف ما بيّناه هنا في أصل مشروعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الإسلام من أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارّون ـ أي غافلون ـ فأوقع بهم وقتل من رجالهم من قتل، وأسر سائرهم، وسبى نساءهم وذراريهم وغنم أموالهم من النعم والشاء ومتاع المنازل.

قال اليعمري في (العيون) وقد روينا من طريق مسلم أنه قال: حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا سليمان بن خضر عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، فكتب إليّ: إنما كان ذلك في أول الإسلام، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق، وهم غارّون وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث، قال نافع: وحدثني بهذا الحديث عبدالله بن عمر، وكان في ذلك الجيش.

ترجيح ابن سعد رواية أهل المغازي على الرواية التي جاءت في الصحيح.

ثم قال اليعمري: وقد أشار ابن سعد إلى هذه الرواية، وقال: الأول أثبت، وابن سعد بعد أن ساق كلام أهل المغازي قال: وكان ابن عمر يحدِّث أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارُّون، ونعمهم تستقي الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، والأول أثبت ـ أي قول أهل المغازي ـ إن بني المصطلق تهيؤا لحرب رسول الله ﷺ، وأعدوا له بزعامة رئيسهم الحارث ابن أبي ضرار، وأن النبي ﷺ أرسل إليهم بُريدة بن الحصيب ليعلم له علمهم، فأتاهم بريدة وكلّم رئيسهم الحارث، وعاد إلى رسول الله ﷺ بخبرهم، فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم وسار بهم حتى بلغ (المريسيع)، فضرب عليه قبته، وتهيأ الفريقان للقتال، وتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه فحملوا عليهم حملة رجل واحد وهزموهم فما أفلت منهم إنسان.

وعبارة ابن إسحاق: فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزمهم الله، وقتل منهم، ونفل رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم.

ويقول ابن حجر: والذي في الصحيح يدل على أنه ﷺ أغار عليهم على حين غفلة منهم، ولفظه أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم

غارّون، وأنعامهم تستقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم.

محاولة ابن حجر التوفيق بين رواية أهل السِّير والمغازي ورواة الصحيح، وهم أثبت وأوثق.

ثم أخذ ابن حجر في محاولة التوفيق بين رواية أهل المغازي، ورواية الصحيحين فقال: يحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلاً، فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكون لمّا دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافُّوا ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

ثم أشار ابن حجر إلى كلام اليعمري في (العيون) وذكره لحديث عبدالله بن عمر من صحيح مسلم فقال: والحكم بكون الذي في السِّير أثبت مما في الصحيح مردود ولا سيما مع إمكان الجمع، وفي طريقة ابن حجر للجمع تعسف في التأويل.

وأحسن طريق للجمع بين ما ذكره أصحاب السِّير والمغازي، وما جاء في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر من أن النبي ﷺ أوقع ببني المصطلق وهم غارّون، وأنعامهم تستقي على الماء: أن معنى غارّون غافلون، أي مشغولون بسقي نعمهم حين وصول النبي ﷺ بكتائب المجاهدين إليهم، وهذا لا ينافي أنهم كانوا متأهِّبين لحربه ﷺ بجموعهم التي جمعوها واستعدوا بها لمهاجمته ﷺ، ولكنهم لم يبدؤا السير لهذا الهجوم، ومن كان على مثل حالهم لا تجدد له الدعوة، وإنما يؤخذ بالحرب والقتال على أي صورة يوجد عليها وتُمكِّن من هزيمته.

أما الدعوة التي زعم نافع رحمه الله أنها كانت في أول الإسلام ثم نسخت، فلم يثبت قط في رواية صحيحة أو عمل من جهاد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وصالحي ولاة الأمر في أمته نسخها، بل ظلّت باقية في كل جهاد قتالي قامت به جيوش المسلمين في عصور الاستقامة والعدل وقصد إعلاء كلمة الله.

والذي قاله نافع رحمه الله في ردِّه على ابن عون من أن الدعوة قبل القتال كانت في أول الإسلام إنما هو اجتهاد لم يذكر له نصاً يدلُّ عليه، فلا يقاوم النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ وعن خليفتيه أبي بكر الصدِّيق،

وعمر الفاروق رضي الله عنهما، وقد جرى الأمر من بعدهما على ما جريا عليه.

وقول نافع رحمه الله: إن الدعاء قبل القتال كان في أول الإسلام يقتضي أن الدعاء قبل القتال كان منصوصاً ثم نسخ، ولم يثبت له نص ناسخ، فادّعاء النسخ غير صحيح إلا إذا ثبت الناسخ، وليس ثـمّة ناسخ، فالدعاء قبل القتال ثابت باق في الإسلام لكل من لم تبلغه دعوة هذا الدين بلاغاً بيّناً.

وقد قدمنا أنه ثبت في بعض روايات القصة أن النبي ﷺ أمر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي في بني المصطلق بقوله: «قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم»، وهذا توكيد لشرعة الدعاء قبل القتال، وليس دعاء مبتدأ، لأن بني المصطلق كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، فتأهبوا لمهاجمته بما جمعوه من شراذم القبائل التي انضوت إليهم، ثم لم يلبثوا لأول ما ذاقوا طعم الموت في حد السيوف وطعنات السنان أن فرُّوا منهزمين، فأخذوا فلم يفلت منهم أحد.

صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر ووجوب تأويل كلامه.

وقول نافع: وحدثني بهذا الحديث ابن عمر ـ وكان في ذلك الجيش ـ قول صدق لا يردّ على نافع لأنه في روايته ثقة صدوق، ولا سيما عن مولاه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، ولكن الكلام له احتمال لا ينافي صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر، ولا ينافي أن الدعاء قبل القتال باقٍ لم ينسخ، وأن بني المصطلق بلغتهم دعوة الإسلام وعرفوه معرفة ترفع وجوب دعائهم إليه إلا من باب التوكيد، ولكنهم كذّبوا به واستكبروا في الأرض بغير الحق عناداً وكفراً، وأعدُّوا لحرب رسول الله ﷺ الجموع التي جمعوها وتأهبوا للهجوم، فسار إليهم رسول الله ﷺ بكتائب المجاهدين قبل أن يسيروا إليه، ففاجأهم على ماء (المريسيع)، فلما وصل إليهم زاحفوا أصحابه ورموه بالنبال، وقاتلوهم، فأمر رسول الله ﷺ كتائب الجهاد أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزموهم، وقتلوا منهم بعضهم، وأسروا سائرهم.

وقد ذكرنا الاحتمال الذي يتم به التوفيق بين روايات أصحاب السِّير

والمغازي، وظاهر حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو أن المعنى: غارّون، أي غافلون مشغولون في سقي أنعامهم على الماء، ولم يتوهّموا قط أن أخبار تجمعاتهم بلغت النبي ﷺ، وأنه ﷺ تحرّك بكتائب المجاهدين في وجههم، فلقي جموعهم على ماء (المريسيع) فزاحفوهم وتراموا بالنبال، وحمل عليهم أصحاب رسول الله ﷺ فصدقوا الحملة وأصابوهم فلم يفلت منهم إنسان.

والغفلة التي هي معنى الغـرّة كانت حـين شُغلهم بسقي نعمهم وشائهم، ولم تكن غفلة عن الإسلام ودعوته، لأنهم كانوا على علم به، وبرسالته، ولكنهم أخذوا في تجميع الجموع لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم، فبادرهم ﷺ بعد أن تأكد من أخبارهم وأخبار تجمعاتهم والتقى بهم بجيشه، وقاتلهم وقاتلوه، بيد أنهم لم يصبروا على عضٍّ السيوف وطعن الرماح، فانهزموا أمام حملة المجاهدين، وقتل منهم عشرة رجال، وأخذ سائرهم أسرى، فالغرّة التي في حديث ابن عمر كانت غفلة طارئة شغلوا بها في سقي أنعامهم، وفي فترة هذه الغفلة كانت الإغارة عليهم.

يُمْن عائشة رضي الله عنها وبركتها في نزول تشريع التيمم

وفي هذه الغزوة المباركة نزلت آية التيمم، وهي من تشريع الرحمة ورفع الإصر عن هذه الأمة الإسلامية.

اختلاف العلماء في تعيين آية التيمم التي نزلت بسبب قلادة عائشة.

وللتيمم آيتان في القرآن، إحداهما في سورة النساء، والأخرى في سورة المائدة وقد اختلف العلماء من السلف في أي آيتيه هي التي نزلت في غزوة بني المصطلق، فقال ابن بطّال: هي آية النساء أو المائدة، ولم يرجِّح آية على آية في سبق النزول.

وقال القرطبي: هي آية النساء، ووجّه قوله بأن آية المائدة تسمّى آية الوضوء، أي أنّ ذكر التيمم فيها جاء بعد ذكر الوضوء، وعدم إمكانه حقيقة أو حكمًا، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جُنُباً فاطّهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمَّموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهِّركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾[1].

قال القرطبي: وآية النساء:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا جنباً إلّا عابري سبيل حتى تغتسلوا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

---

(١) سورة المائدة آية (٦).

النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم، إن الله كان عفواً غفوراً﴾[٢] ـ لا ذكر فيها للوضوء.

وذهب هذا المذهب الواحدي حيث ذكر الحديث في آية النساء في كتابه أسباب النزول، وقال ابن حجر: وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أنها آية المائدة بلا تردد لرواية عمرو بن الحارث إذ صرح فيها بقوله: فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾.

عتاب أبي بكر عائشة وشدته عليها في هذا العتاب كما بيّنه البخاري.

وقصة نزول آية التيمم وردت في الصحيحين، ذكرها البخاري في عدة مواضع، وذكرها مسلم في الطهارة، وهي من حديث عائشة رضي الله عنها في غزوة (المريسيع) قالت: خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر، فقالوا له: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ الناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء؟ فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول.

وقد بينت رواية البخاري هذا الإبهام الذي جاء في عتاب أبي بكر عائشة رضي الله عنها، فقالت عائشة: فقال أبو بكر: يابنية، في كل سفرة تكونين عناء وبلاء على الناس؟ فأنزل الله تعالى الرخصة في التيمم.

فرح المسلمين بنزول رخصة التيمم وثناؤهم على حفاوة الله تعالى بها.

وقد اغتبط المسلمون وفرحوا فرحاً شديداً بفضل الله عليهم إذ فرّج عنهم ضائقتهم ببركة عائشة رضي الله عنها، وجاءها أبوها الصدّيق بعد هذا العتاب الشديد، وقد رأى غبطة المسلمين بحفاوة الله تعالى بهم حفاوة عامة في كل زمان ومكان ببركتها وإكراماً لها، وإظهاراً لفضلها وتشريفاً لمقامها، فقال لها ووجهه يتبلج بنور المحبة الأبوية: إنك لمباركة.

---

(٢) سورة النساء آية (٤٣).

وفي رواية للطبراني ذكرها اليعمري في (العيون) أن أبا بكر قال لعائشة: والله يابنية، إنك كما علمت لمباركة، وذكر الزرقاني عن القتبي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لها: «ما كان أعظم بركة قلادتك».

وقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر. وفي رواية أنه قال لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة.

كشف مقابح النفاق وفجور المنافقين وخبيث مكرهم وكيدهم للمسلمين.

وفي بعض أحداث هذه الغزوة المباركة نزلت سورة المنافقون، كاشفة عن أقبح سوءات النفاق وفجور المنافقين، وسوء مكرهم وكيدهم وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، لتفريق كلمتهم، وتمزيق وحدتهم كما أراد رأس النفاق وخبيث المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول أن يُحْدثه في أوهى الأسباب التي لا يخلو منها مجتمع عربي في تزاحم الجموع على الماء للسقيا والطهور، حيث ازدحم جهجاه الغفاري ـ وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، يقود فرسه، وسنان ابن وبر الجهني ـ حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، وتناديا بدعوى الجاهلية، فصرخ سنان: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فلما سمع ابن أبي المنافق تناديهما بتلك الدعوى الجاهلية المنتنة كما سمّاها رسول الله ﷺ غضب ابن أبي، وصاح بلسان الشيطان: أوقَدْ فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش إلاّ كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ في قصة طويلة، عرضنا لذكرها في مناسبة سابقة اقتضت ذكرها مفصّلة، وبينّا هناك ما في القصة من معالم منهج الرسالة، وأوضحنا ما كان من قوة إيمان الرجل الصالح عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول في رسوخ إيمانه ويقينه وصفاء سريرته، ونقاء إخلاصه لعقيدته ودينه إلى درجة أنه أراد أن يقتل أباه ويحمل رأسه إلى رسول الله ﷺ، فأمره ﷺ ببره والإحسان إليه كما أوضحنا السياسة الحكيمة المحكمة التي انتهجها رسول الله ﷺ لإطفاء نيران هذه الفتنة المدمرة ـ التي يكيد بها أعداء الله وأعداء دينه، وأعداء رسوله ﷺ، وأعداء المجتمع المسلم من المنافقين الذين ينسجون خيوط الفجور والتآمر بالمجتمع المسلم في ظلمات التدسس والنفاق

وفجور الكفر ـ إذا خيف استشراؤها وضراوتها وتفاقمها، ومغبة نتائجها، وخشي على المجتمع المسلم المتماسك في بنائه الجديد بعناصر الإخاء الإيماني أن تفرقه تلك الفتن الجائحة الجامحة، وأن تمزق أديمه تلك المكايد الخبيثة التي يكيده بها المنافقون لتفصم عرى الوحدة بين صفوفه.

وسنعرض لذكر ما فاتنا وتأكيد ما ذكرنا عند الكلام إن شاء الله على مواقف المنافقين وخذلان الله تعالى لهم في تدسسهم وسيء مكرهم وفجور كيدهم، وهم يخالطون المجتمع المسلم اعتماداً على إظهارهم بعض شعائر الإسلام، وإخفائهم الكفر والفجور.

محنة الإفك والبهتان

أخبث وأخطر مكايد النفاق ولؤم المنافقين

دسيسة الإفك خسة وفجور نفاقي لئيم كفور وخبث يهودي حقود.

وفي هذه الغزوة الممحِّصة للإيمان وقعت أخطر حادثة أدخلت على كل مسلم ومسلمة من البلاء ما لم يدخل عليه مثله في محن الشدائد والأزمات التي ابتُلي بها المسلمون، فقابلوها بصبر لم يتجرعوا مرارته في كارثة من كوارث الحياة، ولكنهم تجلّدوا لها، واحتملوا لهيب نيرانها وهي تشوي قلوبهم وأكبادهم، وتحرق أفئدتهم، لأنهم فوجئوا بها، فلم يعرفوا لها مدخلاً ولا مخرجاً، لأن المقادير الإلهية أرادتها لتكون أبلغ درس في التربية الاجتماعية للمجتمع المسلم، تلك هي حادثة أسوأ مكر، وأخبث فجور كاد به المنافقون هذا المجتمع القائم في تركيبه الإيماني والاجتماعي على الطهارة والتطهر من دنس الأرجاس الحسية والمعنوية.

كان المجتمع المسلم قد أنهى معركة بني المصطلق بنصره المؤزر على جموعهم، ونادى منادي رسول الله ﷺ بالرحيل من ديار العدو، وأخذ المجاهدون في الترحيل بعد أن صفّوا هذا الجيب المتواري من جيوب التربص بالمجتمع المسلم ممثلاً في قبيلة بني المصطلق وهي واقفة تؤرجحها الحيرة فلا تتقدم ولا تتأخر، يملكها الرعب فتنزوي في جحورها، ويعبث بها الفزع والهلع يقيمانها بين الحرب والسلم.

وكانت انتصارات رسول الله ﷺ تفعم قلوب المنافقين غيظاً وحنقاً، تعترض في حلاقيمهم غصّة تكتم أنفاسهم، فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام لأنهم جبناء رعاديد، ليس لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يظهرون ما يبطنون، ولا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال هنا أو هناك، فهم كفّار

فجرة إذا خلوا إلى شياطينهم من خبثاء اليهود، وهم مسلمون إذا رأوا راية الإسلام تخفق بالنصر، ولكنهم كما وصفهم الله تعالى في قوله عز شأنه: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون﴾[1].

تلك هي حادثة التقوّل بالكذب والباطل، والافتراء المختلق في مصانع النفاق والفجور على أطهر الطاهرات المطهّرات، الصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما، حبيبة سيد الخلق محمد ﷺ أم المؤمنين السيدة العظيمة عائشة رضوان الله عليها.

الإفك أرذل الافتراء وأحطه لؤماً أن يكون في حق أطهر الطاهرات.

وقد سمّى الله تعالى في كتابه الحكيم هذا الافتراء (الإفك) فقال تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ والإفك أبلغ الكذب، وأرذل الافتراء، وألأم الاختلاق، كما سمّاه جلّ شأنه بهتاناً وهو يعاتب المؤمنين في سكوتهم لحظة سماعهم بدافع إيمانهم بطهارة ساحة النبي ﷺ أن تكون في عصمته من تحوم حولها أدنى الشبهات، وبدافع إيمانهم بطهارة ذيل من اصطفاها الله تعالى زوجاً لخير الخلق خاتم النبيين وسيد المرسلين، فكانت بهذا الاصطفاء أمّاً للمؤمنين وسيدة نساء العالمين فضلاً وشرفاً وطهراً وعلماً وأدباً وخلقاً ـ بقوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ وبقوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم﴾،والبهتان هو البلاء لا يشعر به الإنسان حتى يفجأه بوقوعه.

وفي أسلوب هذه الآية الكريمة ضرب من البلاغة والمبالغة في تنفير المؤمنين عن سكوتهم عند سماع ما يسيء ويشين سمعة أي مؤمن ومؤمنة، حيث جعل الله المؤمنين والمؤمنات شيئاً واحداً بإيمانهم، وجعلهم كلهم نفساً واحدة، يتوحد بها النفع والضرر، والخير والشر والإحسان والإساءة.

قال العلامة ابن المنير في انتصافه تعليقاً على قول الزمخشري: معناه

---

(١) سورة التوبة آية (٥٦ ـ ٥٧).

من أحسن ما قيل في بيان بلاغة الآية قول ابن المنير والزمخشري.

ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله: لا تلمزوا أنفسكم. والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه المؤمن وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة ولا شيء أشنع من ذلك.

قال الزمخشري: فإن قلت: هلّا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم، ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرِّح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضٍ أن لا يصدِّق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن.

وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر على الظن لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير: (هذا إفك مبين) هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال.

القرطبي يعمم العتاب فيجعله شاملاً لجميع المؤمنين والمؤمنات حاشا أبا أيوب الأنصاري وزوجه.

قال القرطبي أبو عبدالله: هذا عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزّهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوجة نبيه عليه الصلاة والسلام، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان.

وقد وقع هذا التنزيه لله تعالى فخرج به من العتاب أبو أيوب الأنصاري وزوجته، إذ دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال أبو أيوب: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم، وهذا فضل انفرد به أبو أيوب وزوجته، فتفضَّل الله عليهما فأخرجهما من عتاب شمل جميع المؤمنين.

وقد أنزل الله تعالى في شأن قصة الإفك، وشأن المتكلمين فيه بالباطل والكذب وتبرئة الصدِّيقة رضي الله عنها والثناء عليها، وذكر ما أعدّه الله لها من عظيم الثواب في الآخرة، ونقاء السيرة في الدنيا، وعلو الدرجة في

المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه ـ قرآناً يتلى، ويتعبد بتلاوته وتشريعاته، ويصلّى به، آيات محكمات، ملزماً لكل مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يوم القيامة.

وذلك في نحو ست عشرة آية من صدر سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ وتختم بقوله جل شأنه: ﴿أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾ كل آية منها مستقلة ـ كما يقول الزمخشري ـ بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضي الله عنها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجّه أذناه.

الذي تولّى كبر الإفك هو ابن أبي بن سلول رأس المنافقين ومشى خلفه مرضى القلوب.

وكان الذي تولّى كِبْر هذا الإفك والبهتان وأشاعه واستوشاه هو الخبيث الفاجر رأس النفاق وزعيم المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ـ لعنه الله ـ وجاراه في ذلك بعض من استزلّهم الشيطان فاستحوذ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطّاها بظلام وسوسته وضلالاته، وكانت فتنة عمياء، أصابت المجتمع المسلم بزلزلة هزّت كيانه، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين، فأفصح بعضهم بعظيمة العظائم وقبيحة القبائح، وجمجم آخرون، وسكتت طائفة فلم تدر من شدّة الدَّهش والذهول ما تقول، وكعَّ بعض عن الإفصاح بالحق في تنزيه حليلة خير المرسلين الطاهرة المطهرة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأنزل الله تعالى عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، وادّخر للذين صرحوا واستوشوا الافتراء والكذب يثيرونه كلما خبت ناره زادوها تسعيراً.

أولئك هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض ممن لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وهم الذين كانوا يسمعون ولا ينكرون لضعف ثقتهم في أنفسهم لضعف إيمانهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾.

وكان في هذا الحدث الخطير من شدّة البلاء لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مبلغ إيجاعه وإيلامه إلا الله تعالى، ولكنّ رسول الله ﷺ كان في صبره فوق

شدة بلاء هذا الحادث على رسول الله ﷺ وعلى زوجه أم المؤمنين وعلى أبويها وآلها وسائر المسلمين.

مستوى الأحداث وآلامها، فصبر أجمل الصبر، واحتمل أعظم الاحتمال، وعالج الأمر بحكمة هادئة، وكان همه الأكبر أن يقي المجتمع المسلم عواصف الفتن، وقواصم المكايد النفاقية التي كانت تثيرها العصبيات القومية التي كانت من بقايا الرواسب الجاهلية في أنفس بعض المؤمنين.

كما كان في هذا الحدث الخطير لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، زوجة سيد الخلق وأحبِّ الناس إليه، ولأبويها وآلها، وخاصّة المسلمين وعامتهم ما أقضّ مضاجعهم ونشّف الدمع في مآقيهم، حتى كشف الله تعالى الغمّة، وفرّج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن الكريم على رسوله الأمين بما لم يكن لأحد في الحسبان، ولا وقع مثله قط في حادثة من الحوادث التي تراها النظرة العابرة على أنها حادثة فردية كان يكفي في إبطالها أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا منامية في تبرئة أطهر الطاهرات أم المؤمنين الصدِّيقة بنت الصدِّيق.

ما غيبته الأقدار في هذا البلاء من حكم ربانية تمثل جوانب من منهج الرسالة.

ولكن الله تعالى أراد أن يجعل هذه الحادثة درساً تربوياً بليغاً للمجتمع المسلم تبقى معه آثاره ما بقي في الحياة من يتلو آيات الله من الهدى والنور.

وأن يجعل منها درساً تأديبياً للذين ساقتهم العصبيات القومية سياقاً لا يرضاه إيمانهم برسالة الإسلام وآدابها وشرائعها وأحكامها وأخلاقها.

وأن يجعل منها نكالاً للنفاق والمنافقين، وللذين في قلوبهم مرض لا يشفيه إلا الإرجاف بالسوء وإشاعة الأكاذيب والبهتان في مجتمع المؤمنين.

وأن يجعل منها مناراً على طريق الذين ملأ الإيمان قلوبهم ليزيدهم علماً بمقام رسول الله ﷺ ومعرفة بحرماته، وتقديراً لمنزلته عند ربه الذي أرسله هدى ورحمة للعالمين.

وأن يجعل منها منهجاً لمعالم الاصطفاء لخواصِّ المقرّبين لرسول الله ﷺ لتعرفهم الأمة بنعوت فضلهم وفواضلهم، وتعرف لهم أقدارهم في ذروة دوحة الإيمان والمؤمنين.

وأن يجعل منها خصِّيصة ليرفع من شأن أطهر الطاهرات، الصدِّيقة

بنت الصديق زوج أحب خلق الله إلى الله، إظهاراً لشرفها الذاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتها في أهل البيت طهراً وفضلاً وشرفاً، وثقلاً في ميزان الفضائل الإنسانية والإيمانية لمكانها من قلب رسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها من حديثها الطويل عند البخاري: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وكان الذي يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي.

إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ، ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر.

تصوير عائشة للموقف بدءاً ونهاية.

قالت عائشة رضي الله عنها: فأخبرتني أم مسطح بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي.. فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي.

فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي دخل رسول الله ﷺ علينا فسلّم، ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا، وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه».

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال: فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: فوالله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيراً: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر

في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم إني منه بريئة ـ لتصدِّقُني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزِّل في شأني وَحْياً يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدَّر منه العرق مثل الجمان ـ وهو في يوم شاتٍ ـ من ثقل القول الذي أُنزل عليه، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة إن الله قد برّأك» فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله تعالى عليه: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾.

تصوير القرآن للموقف بأسلوب إعجازه وروعته.

والمتأمل في هذه الآيات الكريمات على ضوء ما قالت عائشة رضي الله عنها في رواية الصحيح يرى أنها جاءت بأكفأ وأربى في التشريف والحفاوة والمنافحة عن حرم رسول الله ﷺ وتنزيه ساحتها، وتعزية المجتمع المسلم وتسلية رسول الله ﷺ فيما أصابه من البلاء وشدّة المحنة، وفيها جاء به أعداء الله، وأعداء رسوله وأعداء أهله، وأعداء دينه، ورسالته من المنافقين ومرضى القلوب، الحاسدين المحنقين والمتلقفين الأباطيل والأكاذيب من ألسنة الفجرة المتقوِّلين، وأفواه المرجفين، تعظيماً لقدره ﷺ، وصوناً لساحته أن يكون متنزلاً للبهتان المفترى، وإعزازاً لأحب الناس إليه أن يحوم حول حمى شرفها وطهرها رشح من نزيز الحاقدين.

خصائص عائشة المميزة في حياتها مع رسول الله ﷺ.

وقد أبانت عائشة رضي الله عنها أبلغ بيان بأروع أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أن برّأها الله تعالى فقالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول

الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً ما تزوج بكراً غيري، ولقد توفي رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حِجْري، ولقد قبر في بيتي، ولقد حفّت الملائكة ببيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معه في لحافه، فما يبينني عن جسده، وإني لابنة خليفته وصدِّيقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

ولقد صدقت في كلٍّ ما حدثَتْ به عن نفسها من الفضل والشرف والخصائص النبيلة والصفات الكمالية التي لم تجتمع في امرأة قبلها ولا بعدها.

آية من البلاغة الزمخشرية في تفسير آيات الإفك والبراءة.

وفي تصوير ما اشتملت عليه الآيات التي بُرِّئت بها عائشة رضي الله عنها أفرغ الزمخشري سواد عيون براعته البيانية مداداً لقلمه، فأحسن وأبدع، وسما إلى ذروة الإعجاز في الكلام البشري إنصافاً وانتصافاً ومعرفة لمنازل البلاغة من الكلام، فقال: ولو فلّيت القرآن كلّه وفتّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما رُكب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه؛ ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه.

ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك (أن الله هو الحق المبين).

فأوجز في ذلك وأشبع، وفصَّل وأجمل، وأكد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر....

ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ وبرّأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب

بثوبه، وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبدالله، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر.

مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله ﷺ والتنبيه على إنافة محلّ سيد ولد آدم وخير الأولين والآخرين وحجّة الله على العالمين.

ومن أراد أن يتحقّق عظمة شأنه ﷺ وتقدّم قدمه، وإحرازه قصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه.

صبر النبي ﷺ وآل أبي بكر تحت وطأة بلاء الإفك.

وقد لبث ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابراً صبراً لم يعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، تحدث به أهل النفاق ومَرْضَى القلوب، ولاكته ألسنتهم بين أشداقهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ بلغهم (الإفك) وما تحدّث به المنافقون ومرضى القلوب وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه - وهم يتجرّعون مرارة الصبر في حَيْرة وذهول - بكشف هذه الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر رسول الله ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصف عائشة لحالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء.

تقول عائشة رضي الله عنها تصف حال أبويها وحال أهل بيتها، وما بلغت منهم المحنة من شدة عصفت بكيانهم، وزلزلت أقدامهم، وأذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية، فسكتوا سكوت المطّلع إلى الغيب، يتسمّع حكمه على حياته - : ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

ثم تقول عائشة رضوان الله عليها تصف حالها من الثقة واليقين الإيماني ببراءتها، وتصف حال أبويها وشدة ما نزل بهما حين نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتغشّاه ما كان يتغشّاه: فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله عزّ وجل غير ظالمي.

وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سُرّي عن رسول الله ﷺ حتى رأيت لتخرجنّ أنفسهما فَرَقاً من أن يأتي تحقيق ما قال الناس.

* * *

اختلاف الروايات في أسماء من صرح بالإفك ومن سمعه فلم يدفعه.

وقد اختلفت الروايات اختلافاً واسعاً في أسماء من أفصح بالإفك، ومن سمعه فلم يدفعه ومن تضاحكوا لسماعه ولم يخوضوا فيه.

والذين دار ذكرهم في الروايات بأنهم شركوا فيه: هم عبدالله بن أبي ابن سلول رأس النفاق وزعيم المنافقين، وهو الذي تولّى كِبْره، فأفصح به وصرّح، وشقي وهلك بالافتراء والبهتان وقول الزور، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري من حديث الزهري، عن عروة.

قال القرطبي: وأخرجه الاسماعيلي في كتابه (المخرّج) على الصحيح من حديث مَعْمَر عن الزهري، وفيه: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولّى كِبْره منهم علي بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت لا، حدثني سعيد بن المسيِّب وعروة، وعلقمة، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة، كلهم يقول: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: والذي تولّى كبره عبدالله ابن أبي بن سلول، وكان هذا اللعين ابن سلول هو الذي يجتمع إليه فيه، ويستوشيه، ويشعل ناره.

وذكر القرطبي أن حسان بن ثابت كان من قالته، وشرك مع القائلين مسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش، وقد سأل عبد الملك بن مروان عروة، فقال عروة: لم يسمّ من أهل الإفك إلا حسّان، ومسطح، وحَمْنَة، وعبدالله ابن أبي بن سلول رأس المنافقين، وجُهل غيرهم إلا أنهم كانوا عصبة، وقد

ذُكر عن عائشة في بعض الروايات أن الذي تولّى كِبْره حسان بن ثابت، وهذا قول معارض بقول عروة: كانت عائشة تكره أن يُسبّ حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

براءة حسان من الخوض في الإفك والإفصاح به وشعره في ذلك.

قال أبو عمر بن عبد البر: إن عائشة برأت حسّان من الفرية، وقالت أنه لم يقل شيئاً، وأنكر حسّان أن يكون قال شيئاً من ذلك في قوله من قصيدة يمدح بها عائشة رضي الله عنها:

حصان رزان ما تُزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس ديناً ومنصباً ... نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة قد طيّب الله خيمها ... وطهّرها من كل شَيْنٍ وباطل
فإن كان ما بُلّغتُ أني قلته ... فلا رفعت سوطي إليّ أناملي
فكيف ووُدّي ما حييتُ ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل

وقد تعارض النقل في روايات صحيحة الأسانيد عن عائشة رضي الله عنها في حسان بالنفي والإثبات، ويُجمع بين قوليها فيه، أنه لم يقل إفصاحاً أو تصريحاً، وإنما لعله عرّض بذلك وأومأ إليه في مجلس شاعري لا يتحفظ عند المسامرة، فنسب إليه أنه تكلم فيه وشارك.

تأويل ما أُبن به حسان في الإفك ومواقفه في الإسلام.

والذي تميل إليه النفس لتعارض الروايات أن حسانَ رضي الله عنه جرى في مجالس الهالكين بالإفك على طريقة سمَر الشعراء وأهل الأدب القولي، يتضاحكون بالكلمات والفكاهة والخبر الساخر، دون أن يقصدوا ما يتعلق بها، وهذا فيهم كما قال الله تعالى: ﴿والشعراء يتّبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ ومن ثَمّ جرى الخلاف فيه بين العلماء: هل خاض في الإفك وأفصح بالافتراء والبهتان أو كان يسمع ولا يدفع؟

وحسان رضي الله عنه له مواقف في الإسلام من أكرم وأشرف مواقف

المجاهدين بلسانه في نصرة الدعوة الإسلامية منذ دخل في ساحة الإسلام مسلماً مؤمناً، محباً للإسلام ونبيه ﷺ وأهله وآل بيته.

وكان في حياته المسلمة سيفاً مصلتاً على أعناق أعداء الإسلام من المشركين وشعرائهم ينافح عن رسول الله ﷺ، ويدافع عن أصحابه ودعوته. وقصائده الإسلامية في ديوانه تحتل مكاناً رَحْباً وهي من غرر شعره.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقول له: «اهجهم وروح القدس معك» وكان ﷺ يسمع شعره ويسرّ به، ويقول عن شعره في منافراته لشعراء المشركين: إنه أشد عليهم من رَشْق النبل.

ولو لم يكن له إلاّ همزيته التي يقول فيها ردّاً على أبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطّلب وكان من أشد أعداء النبي ﷺ قبل إسلامه لكفاه فخراً في إسلامه.

أتهجوه ولست له بكفء ... فشرُّكما لخيركما الفداء

قال نَقَدة الشعر في هذا البيت: إنه أهجى بيت في شعر العرب، وأنصف بيت، وأنظف بيت، مع ما فيه من قارس الهجاء الوجيع.

رد ابن كثير التهمة عن حسان رضي الله عنه.

وقد ردّ ابن كثير قول من قال: الذي تولّى كِبْر الإفك حسّان، فقال وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدلّ على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذبُّ عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجِهِم وجبريل معك».

وحسب حسان من المآثر والمفاخر أنه انفرد في حياته الإسلامية بلقب شاعر الإسلام، وفي قصيدته التي زعم ابن إسحاق أنه هجا فيها صفوان ابن المعطّل يقول:

أما قريش فإني لا أسالمها ... حتى ينيبوا من الغيّات للرشد
ويتركوا اللّات والعزىّ بمعزلة ... ويسجدوا كلُّهم للواحد الصمد
ويشهدوا أن ما قال الرسول لهم ... حقٌّ فيوفوا بحق الله والوكد

ولا يرى فيها هجاء لمسلم لا تعريضاً ولا تصريحاً، ويروى أن صفوان رضي الله عنه بلغه أن حسان يتكلم في الإفك، وأنه هجاه بشعره، فأخذته الحميّة قبل أن يتثبت، واعترض حسانَ فضربه بسيفه ضربة إرعاب وتخويف، وقال له:

تلقَّ ذُباب السيف عنيَّ فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر

عتب النبي ﷺ على حسان تعريضه بقومه في شعره وإكرامه له بفيض عطائه.

وقد لقيهما ثابت بن قيس بن شمّاس وكعب بن رواحة فأخذاهما وأتوا كلهم رسول الله ﷺ، فقال صفوان: يا رسول الله، آذاني وهجاني، فاحتملني الغضب فضربته، فقال رسول الله ﷺ: «يا حسان، أتشوّهت على قومي إذ هداهم الله؟ أحسن يا حسان» فقال حسان: هي لك يا رسول الله، فعوضه رسول الله ﷺ من ضربته بيرحاء، وجارية قبطية يقال لها سيرين، قيل: وهي أخت مارية أم ولد رسول الله ﷺ إبراهيم عليه السلام جاء لحسان منها ولده عبد الرحمن بن حسان، وكان يفتخر بأنه ابن خالة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ.

هذا الموقف الكريم من النبي ﷺ، وفيه هذا التصرف الرحيم مع حسّان رضي الله عنه يتنافى كل المنافاة مع رواية من زعم أن عائشة رضي الله عنها قالت: الذي تولَّى كِبْر الإفك حسان، لأنه لا يعقل أن يكون حسّان هو الذي تولّى كِبْر الإفك والافتراء على الطاهرة المطهّرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ثم يلقى من رسول الله ﷺ هذا العتاب المتلطف مع الإكرام المشرّف بإهدائه أخت أم ولده إبراهيم عليه السلام، وبستاناً خرير الماء، كثير الثمر، هذا بعيد جداً.

تأويل موقف مسطح وتبرئته من الإفصاح بالإفك.

وأما مسطح بن أثاثة فإنه وإن ذكر مع من سُمِّي من أهل الإفك في قول عروة مجيباً لسؤال عبد الملك بن مروان، لكنه لم يثبت عنه الإفصاح والتصريح الموجبان لحدِّ الفرية والقذف، وأقصى ما يتصور في موقفه أنه كان يسمع، ويشارك بالكلمة المومئة من غير تصريح، ويدل لذلك أنه نفى عن نفسه أن يكون قال شيئاً ـ أي تصريحاً ـ كما يدل عليه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ردِّه على اعتذار مسطح بأنه لم يقل شيئاً: لقد ضحكت

وشاركت فيها قيل، فقال مسطح: إنما كنت أغشى مجالس حسّان، فأسمع ولا أقول شيئاً.

قال القشيري - كما حكاه عنه القرطبي - : فأما مسطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح.

وقد قدّمنا أن الذي كان يقال في مجالس حسان إنما هو نوع من السَّمر والتضاحك والتغامز بالأحداث التي تشغل المجتمع، ويشهد لذلك شعر حسان أن يكون قد قال شيئاً، وقد برّأته عائشة رضي الله عنها عن الإفصاح والتصريح.

لم يثبت عندنا شيء عن إفصاح حمنة بالإفك.

وأما حَمْنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها فهي امرأة كغيرها من عامة النساء، تغلب عليها العاطفة والحميّة، وكانت ترى من فضل عائشة رضي الله عنها ومنزلتها عند رسول الله ﷺ، وعنده أختها السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضي الله عنها، وهي التي كانت تسامي عائشة من بين نساء النبي ﷺ، ولكنها لم تكن تلحقها، فلما أرجف المنافقون بحديث الإفك، واستوشوه في مجالسهم، وأذاعوه على الأسماع، وأفصحوا به وصرّحوا، وكانت مجالس مآنس لمرضى القلوب من ضعفة المسلمين الذين لم تشرب قلوبهم حبّ الإيمان، وهؤلاء كانوا مغمورين في المجتمعات لا يعرفون إلا لماماً، فلم يقم لهم وزن في حضورهم ولا في غيابهم.

ولعل حمنة كانت من اللاّئي يسترقن السمع من النساء المنافقات وبيوتهن، فتسمع حديث الإفك، وتستطعمه وتستعيده حميّة لأختها السيدة التقية أم المؤمنين زينب رضي الله عنها.

وشهر ذلك من أمر حمنة، وذاع في الناس أنها قالت في الإفك، ولم يثبت عندنا في رواية ثابتة أنها أفصحت وصرّحت بما يوجب إقامة الحد على المفتري الكذاب.

وكل ما ثبت هو ذكر اسمها مع من زُعم عليهم من المؤمنين أنهم قالوا

ما قيل في الإفك، دون تعيين لقولٍ على نحو ما ثبت عن الخبيث اللعين رأس النفاق وزعيم المنافقين، عبدالله بن أبي بن سلول الذي صرّح بأخبث ما افتري من البهتان والإفك.

لم يثبت عندنا أنَّ أحداً من خُلَّص المؤمنين صرح بالإفك.

وبهذا التحقيق يتضح أننا نرى أنه لم يثبت عندنا اشتراك أحد من خُلّص المسلمين المؤمنين في حديث الإفك تصريحاً يوجب حد القذف، وإنما الذي كان إنما هو إرجاف من المنافقين، ومرضى القلوب، أفصحوا في إرجافهم عن الافتراء والبهتان والإفك، وهم الذين كانوا يجتمعون له، يستوشونه ويشعلون لهيبه ليحزنوا الذين آمنوا، ويدخلوا عليهم من الفتنة والشك ما يشغلهم عن نشر دعوتهم، وتبليغ رسالتهم، وليسيئوا إلى رسول الله ﷺ في أحب الناس إليه، بألأم ما عُرف من لؤم الطبائع البشرية وأخبث ما تُلوث به سيرة أطهر الطاهرات، وأفضل الفضليات.

وقد أخبرنا الله تعالى أنه كان في المجتمع المسلم سمّاعون للمنافقين، نمّامون، يسمعون أكاذيبهم فينشرونها بين الناس، ليثيروا الفتن، ويسمعون من المؤمنين أحاديثهم فينقلونها إليهم.

وهؤلاء السمّاعون النمّامون هم الوصائل الخبيثة لنقل الحديث وإشاعة السوء في المجتمعات، فلا يبعد أن يكون المنافقون قد أوحوا إلى هؤلاء السمّاعين كما توحي الشياطين إلى أوليائهم أن يبثّوا أكاذيب الإفك في مجالس المؤمنين، ليتلقّفها منهم ضعفاء الإيمان، ويتلقّوها بألسنتهم، متضاحكين، يسترضون بها عواطف الحمية العصبية بسماعها وإذاعتها، وبهذا الطريق الخبيث من كيد المنافقين تنوقل حديث الإفك من بيوت ومجالس المنافقين إلى مسامع المؤمنين في مجالسهم، فجمجم به الهزأة الساخرون الذين يلقون الحديث فلا يبالون بما فيه، واستطعمه بعض الضحكة الهازلين، يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم.

وأما قوله تعالى: ﴿عصبة منكم﴾ في قوله: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ فالخطاب فيه للمجتمع المسلم كلّه بما فيه من صادقي الإيمان،

وبما فيه من المنافقين ومرضى القلوب والسمّاعين للمنافقين النمّامين الناشرين للإفك والبهتان.

وقد ذكر الزمخشري مع عبدالله بن أبيّ من المنافقين زيد بن رفاعة، وفي رواية عن عروة بن الزبير أن المشتركين في حديث الإفك كثيرون، وقد سمّاهم الله عصبة، ولم يسمِّ منهم إلا ما علم، وجُهل الباقون فلم يذكروا، ولو أن أحداً من الرواة عني بالبحث عن أهل الإفك لوصل إلى أن حديث الإفك حبكة من نسج النفاق وخبث المنافقين، الذين لم يقع في حبائلهم إلا مرضى القلوب والسماعون النمامون.

ويرشح ما ذهبنا إليه أن العلماء اختلفوا: هل حُدّ أحدٌ من أهل الإفك؟ حكى الماوردي في ذلك قولين بالنفي والإثبات.

والمسألة لم يثبت فيها حديث صحيح يرفع الشك ويوجب اليقين، فالله تعالى أعلم بما كان.

عبر الغيب في تصريف الأقدار
كيف بدأت هذه الغزوة؟ وكيف ختمت؟
إعراسه ﷺ بجويرية وإسلام قومها

كانت غزوة بني المصطلق كنانة سهام مسمومة أفرغها المنافقون ليكيدوا المجتمع المسلم.

كانت غزوة (المريسيع) كنانة سهام مسمومة لأحداث جسام، ووقائع خطيرة، دبّرها أهل النفاق وفجّارهم، لم يقع مثلها في غزوة من الغزوات المسعورة في القتال.

وقد جعل الله ترياق سموم أحداثهم في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم، كلما أُبطل منها مفعول حادثة من حوادثها بسياسته الحكيمة المحكمة التي أمدّه الله بها في مقابلة الأخطار لوأدها في مهدها كشّرت عن أنيابها حادثة أعتى منها، وأشرس وأضرى.

وكل حادثة من تلك الحوادث العاتية العاصفة كانت كافية لتذرية رياح تسعّرها بلهيب الفتن القواصم وحدة المجتمع المسلم التي كانت تكمن فيها قوته وصوارم عزائمه، والتي يستمد منها انتصاراته الساحقة لقوى أعدائه وأعداء نبِّيه ﷺ، وأعداء دعوته ورسالته.

ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، كلما جاؤوا من سوء مكرهم بواُحدة أتاهم الله بحكمة تدبيره على يدي نبيه ﷺ بما يبطل كيدهم، ويرغم أنوفهم، ويذلُّ غرورهم، ويفسد عليهم تدبيرهم المتدسس وراء جُذُر النفاق والفجور.

وهذه الغزوة كانت بأحداثها التي دبّرها المنافقون امتحاناً قاسياً متتابع الحلقات لصلابة قناة المجتمع المسلم، واختباراً لقوة شكيمته وتماسك عرى وحدته الإيمانية، وابتلاء لصبره في وجه النوازل، ومقابلة الكوارث، واستبانة

لحكمة قيادة القائد الأعظم ممثلة في النبي ﷺ في مواجهة الأحداث مهما كان خطرها بأعداد أمثالها لمقاومتها وإطفاء تسعّرها وإفشال تدبير من دبّروها من أعداء هذا المجتمع المسلم، وإبطال سيء كيدهم ولئيم مكرهم لتدمير هذا المجتمع واستئصاله لوقف تيار دعوته ونشر رسالته.

أول سهام الفتنة في هذه الغزوة سهم كاد يقضي على وحدة المجتمع المسلم.

بدأت هذه الغزوة بُعيد وصول كتائب المجاهدين بقيادة النبي ﷺ إلى (المريسيع) - ماء بني المصطلق - وقد تزاحمت حوله جموعهم ومن انضوى إليهم من شراذم المتربِّصين الذين كان صغوهم معهم في عداوة الإسلام، وعداوة حامل أمانة رسالته ﷺ، وعداوة المجتمع المسلم في تركيبه الجديد من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم - بحادثة جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسنان بن وبر الأنصاري اللذين ازدحما على الماء، فاشتبكا وتقاتلا، فتناديا بدعوى الجاهلية، فقال جهجاه: يا للمهاجرين، وصرخ سنان: يا للأنصار، فاستجاب لهما سراع الناس، وكادت تقع بين دعامتي المجتمع المسلم فتنة عمياء جائحة مدمِّرة، أشعل نارها خبيث النفاق، ورأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول - لعنه الله - لولا حكمة رسول الله ﷺ وسياسته في إطفاء لهيبها، حيث اجتمع من المهاجرين جموع، ومن الأنصار آخرون، وهمّوا بالاقتتال، فلم يزل بهم رسول الله ﷺ يخفِّضهم حتى فاؤوا إلى رحمة الله، وانكمد ابن أبي غيظاً بحقده، وهدأ الناس.

ثم ما لبث الناس فُواق شاة حتى أقبلت الفتنة الصمّاء بجحافل ظلماتها، فاغرة فاها لتلتهم حياة المجتمع المسلم بين طواحين أضراسها، وضراوتها الشرسة.

السهم الثاني في فتن هذه الغزوة هو سهم (الإفك) الذي كاد يقوض دعائم تبليغ الرسالة.

تلك هي فتنة (الإفك) التي أشعل ثقابها وأورى نارها زعيم المنافقين ورأس النفاق عبدالله بن أبي بعد أن خاب سعيه في إشعال نيران الفتنة الجاهلية، فخبَّ فيها وأوضع خلال صفوف المجتمع المسلم يبغيه الفتنة، وفي المجتمع المسلم سمّاعون له ولأضرابه من أحلاس النفاق وغثاء المنافقين، ومرضى القلوب الذين كانت رواسب الوثنية الجاهلية والعصبية القومية تحتل من أنفسهم مكاناً فسيحاً.

وفي هذه الفتنة الخرساء قاء ابن أبيّ كلّ ما في قلبه من عصارة النفاق الكفور، وتبذلت جراح حقده عن صديد الكفر المنافق والفجور الخبيث.

وبهذه الروح الفاجرة الخبيثة تولّى ابن أبيّ كِبْر هذه الفتنة المرذولة السمجة، والبهتان المفترى، والإفك المختلق، وانضوى تحت جناحه من كان على شاكلته في النفاق من الذين أحرقت عصبية الجاهلية أفئدتهم في صدورهم، وأذابت أكبادهم بين ضلوعهم، فنفثوا دخان الغيظ الخانق والحنق المغيظ، وتقوّلوا بالباطل على أطهر الطاهرات، الصدّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما، حتى أبطله الله تعالى بما لم يبطل به فرية وبهتاناً قط، وحتى غدا شر هذا الإفك الكذوب خيراً لكل من ناله منه رشاش، وباء المبطلون الأفاكون بالعار والشنار، ولُطِّخت وجوههم بالخزي والخذلان، وطحنهم كلكل الخطاب الإلهي المحفوف بكل سمات التبجيل والتعظيم للسيدة الطاهرة ﴿أولئك مبرؤن مما يقولون، لهم مغفرة ورزق كريم﴾ تنويهاً بعظمة سيد المرسلين، وبياناً لعلو مكانته عند ربه، وإعلاء لمقام حرماته، وتطهيراً لساحته - طحناً أذاب منهم كل ذرة من ذرات الإنسانية في هذه الحياة، ولعذاب الآخرة أخزى وأعظم.

وكان هذا النصر المؤزر في هذه الحروب النفسية أجل وأعظم أثراً من النصر المؤيد في جولات القتال في ميادين الحروب.

حفظ الله تعالى أمهات المؤمنين عن التكلم في هذه المحنة وهنّ ضرائر عائشة رضي الله عنها.

وكان من أجلّ النعم الإلّهية على المجتمع المسلم في قصة (الإفك) أن الله تعالى حمى أمهات المؤمنين كلهن عن التكلم في محنة هذا البهتان الخبيث، فلم يؤثر عن واحدة منهنّ فيها كلمة واحدة، وهنّ ضرائر عائشة رضي الله عنها وشريكاتها في القرب الداني من رسول الله ﷺ، وهنّ اللائي كان يخشى عليهنّ من تحريش الغَيْرة أن تدفعهن أو بعضهن إلى التحدث فيما يحوم حول ذلك.

ولكن الله تعالى حفظهن جميعاً حفظاً لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن في خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ من لم تكن في أدبها النفسي، وتديّنها ومراقبة ربها في ذروة السمو والفضل والشرف، ومعالي مكارم

الأخلاق تأدباً بأدب رسول الله ﷺ ونشأة على تنشئته لهن وتربيتهن بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزالق الباطل، وتقوّله على من يعرفن أنها أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأعزّهن عنده، وأعرفهن بمطارح أنظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه في كل ما تقرّبه عينه ﷺ.

ومن ألطف ذلك وأحمد محامده أن القسطلاني ذكر في المواهب أن أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها كانت رفيقة عائشة في الخروج إلى هذه الغزوة، فقال: وخرجت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، ومرّ الزرقاني على قول القسطلاني في شرحه للمواهب ولم يعلق عليه بشيء.

وهذا قول يظهر أنه مما انفرد به القسطلاني، أو وقع فيه وَهَم، فنقل من رواية وقصة أخرى إلى قصة غزوة بني المصطلق ورواية البخاري في قصة (الإفك) من حديث عائشة عن الزهري عن عدد من شيوخه عيون السلف وأكابره، تخالف ذلك تمام المخالفة، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها - هي غزوة بني المصطلق - فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزل الحجاب، وسند هذا الحديث عند البخاري من أقوى وأوثق الأسانيد، لعلو درجة رجاله من شيوخ الزهري، ورواية القسطلاني لم نوفق إلى معرفة سندها، وهي مخالفة لما هو متعارف من عادته وسنته ﷺ في السفر ببعض زوجاته بعد الإقراع بينهن تحقيقاً للعدل والمساواة في الحقوق، كما يقتضيه أسلوب عائشة رضي الله عنها في حديث الزهري الذي أخرجه البخاري عنه، من قولها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فهذا التعبير يفيد أن هذا كان من عادته وسنته في السفر مع بعض زوجاته، فرواية البخاري أرجح، بل أصوب إلى أن يظهر غير ذلك.

وكيفما كان الأمر فإن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها داخلة في عموم ما كان من أزواج النبي ﷺ في حفظهن عن التكلم في قصة الإفك

بشيء، وهي معروفة في سيرتها بأنها كانت من أوزن بنات حواء عقلاً، ولو لم يكن لها من ذلك إلا مشورتها في الحديبية لكفاها فضلاً وشرفاً.

موقف نبيل للسيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش في قصة (الإفك).

وقد خص الله تعالى أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش بموقف نبيل من عائشة رضي الله عنهما في قصة الإفك وهي التي كانت تناصيها عند رسول الله ﷺ ممّا كان يخاف منه العثرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصّها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارة ذيلها من رجس (الإفك) وافتراء البهتان، فقال لها: «ماذا علمت أو رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيراً.

قالت عائشة رضي الله عنها تثني عليها وتعرف لها فضلها في دينها وأدبها: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك.

ونحن نرى أمر حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش مشتبهاً علينا، لا نستطيع أن نبت فيه بحكم، لأن الحكم عليها بدون دليل قاطع بأنها خاضت في (الإفك) والبهتان وهي لم تفصح ولا صرّحت بالقذف الموجب كالحكم على من زعم عليها بأنها خاضت في (الإفك) وصرحت وأفصحت بالقذف الموجب، وليس في يده حجة على إثبات ما يزعم أنه قد كان منها سوى ما جاء في الروايات المتعارضة في إيجاب العقوبة عليه حداً أو تعزيراً زاجراً.

تناول سيرة الصحابة ينبغي أن يكون قائمًا على تحري الحق الصريح.

ونحن ندين بأن سيرة أصحاب رسول الله ﷺ لها قبس من نور سيرته ﷺ، فكما يجب في تناول سيرته ﷺ أن يكون هذا التناول قائماً على البحث المتعمق والتحقيق الممحّص ـ فلا يقبل فيه إلا ما ثبت ثبوتاً بيناً بالدليل والحجة سنداً وتفقهاً، ولفظاً ومعنى ـ يجب في تناول سيرة أصحابه رضوان الله عليهم أن يكون هذا التناول مستهدفاً للحق الذي لا افتراء فيه، ولا يكفي في القول به وجوده في روايات متعارضة، قد يصح سند بعضها، ولكن متونها وحقائقها ومعانيها قد تتعارض مع ما عُرف عن المجتمع المسلم

إذ ذاك من التوقف في قبول المظنونات في غير الأحكام الجزئية التعبدية فضلاً عن مطارح المشكوكات المريبة.

وليس هذا منا ميلاً إلى عصمة الصحابة رضوان الله عليهم عن الخطأ والمخالفة، ولكنه جنوح منا إلى القول بوجوب التثبت فيما ينقل من سيرتهم وأحداث حياتهم، وليس أحد من البشر معصوماً سوى أنبياء الله ورسله، حفظاً لشرائع الله وأحكامه، حتى لا يتعبد الناس إلا بما شرعه الله.

والذي أدخل علينا الاشتباه في أمر حمنة موقفُ أختها أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ذلك الموقف النبيل من قصة (الإفك) وقد سألها رسول الله ﷺ: «ماذا علمت؟ وماذا رأيت؟» فأجابت بما أملاه عليها ورعها في دينها وتقواها في إيمانها، وأخبرت عن الطاهرة المطهّرة أم المؤمنين عائشة رضوان الله عنها، فقالت: والله ما علمتُ إلا خيراً. إذ كيف يكون هذا الموقف النبيل من أم المؤمنين زينب بنت جحش أخت حمنة، ثم تسمع زينب أن أختها حمنة تطلق لسانها في البهتان المفتري، تحارب لها في هذا الموقف الآثم ـ كما تقول الرواية ـ ولا يعرف عن زينب ولو في رواية واحدة أنها زجرت أختها حمنة عن الخوض في هذا الباطل والإثم المفترى لتردها عنه، قياماً بما تعلم من براءة عائشة رضي الله عنها، وحماية لحرمة رسول الله ﷺ، والروايات عرضة للزيادة والنقص في عباراتها، وعرضة للوهم في ألفاظها وأسلوبها، وعرضة للسكوت حيث لا يحسن السكوت، ولم نرَ رواية أخرجت حمنة عن الخوص في (الإفك) أو رواية نفت عنها الحد فيمن حدّ على قول من قال بإقامته عن الخائضين فيه.

* * *

جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق تؤخذ في سبي قومها.

ولما انتهى أمر الغزوة بهذا النصر الخاطف عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوّرة منصوراً مظفّراً تساق الأسرى والغنائم والسبي من النساء والذراري بين يديه، وكان ذلك شيئاً كثيراً، أنعش المجتمع المسلم، وأغناه، والروايات متفقة على أن عدد الأسرى كان أكثر من سبعمائة، وكانت غنائم

الإبل ألفي بعير، وغنائم الشاء خمسة آلاف شاة، والسبي من النساء والذراري أهل مائتي بيت.

وقسمت هذه الغنائم ووزعت الأسرى والسبايا والذراري بين المجاهدين وكانت من بين السبايا السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شمّاس، أو في سهم ابن عم له، وعند الواقدي أنها وقعت في سهميهما شركة بينهما، فخلّصها ثابت من ابن عمه بنخلات، ثم كاتبها ثابت على تسع أواق من ذهب.

* * *

شخصية جويرية وتعززها بسيادة أبيها على قومه.

كانت السيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه قد نشأت في ظل سيادة أبيها لقومه في عزٍّ وسؤدد وتمجّد، وللبيوت أعظم الأثر في تنشئة ناشئيها، وتربية بناتها وبنيها، وقد تزوجت جويرية في حداثة سنها قبل أن يغزو النبي ﷺ قومها، وكان زوجها مسافع بن صفوان أحد فتيان خزاعة، جِذْم بني المصطلق، وأصل دوحتهم، اقترنت به في حداثة سنها قبل أن تتم العقد الثاني من عمرها، وقد قتل عنها زوجها مسافع مشركاً فيمن قتل من بني المصطلق الذين أسرعوا إلى القتال، فجندلتهم السيوف المسلمة.

والسيدة جويرية رضي الله عنها كانت على حداثة سنها حين سبيت قد زيّنها الله تعالى بعقل رصين، وتفكير حصيف، وخلق كريم، وحسن تأتٍ للأمور، وفصاحة تعرف مواقع الكلام وتأثيره في النفوس الكريمة، وتعزّز لا يصبر على الضيم، وسؤدد سما بها عن الرضا بمذلّة الرق والتطلع إلى الحرية الكريمة، فرضيت بما كاتبت عليه ثابت بن قيس الأنصاري على بَهْظه، لأنها كانت نظّارة إلى معالي الأمور، تخوض لها لجج المكارم لتجلس على ذروتها.

تصفها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: وكانت امرأة حلوة ملاّحة، أي ذات بهجة وحسن منظر.

وكان من سمو نفسها وطموح آمالها ورفعة تصوراتها؛ أنها بعد أن كاتبت على نفسها بهذا القدر الباهظ من المال أن جاءت إلى سيِّد المكرمات

أقلام الأقدار تحول حياة جويرية إلى أعز سؤدد تطمح إليه امرأة في الحياة.

والمكارم، وأكرم البشر، وأعلمهم بمنازل الناس، وأحقهم أن تمد إليه يد العرفان لانتشاله من وهدة ألقته فيها أعاصير الدبور الجاهلية، فباعدت بينه وبين حياته التي كانت كلها نسائم من الصبا، ورشحات من ندى رغد العيش الرفيف ـ محمد ﷺ ـ وهو الذي هزم قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم وذراريهم بالأمس القريب، فكانت إحدى سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، ووقعت في سهم رجل من كواهل المسلمين وفصحاء الأنصار، ثابت بن قيس بن شمّاس، خطيب رسول الله ﷺ في محافل المنافرات، فلم تصبر على بلاء الرق ـ تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة وتستشعر العزّة التي كانت تتقلب بين أزاهرها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وأخبرته بخبرها فقالت: يا رسول الله إني امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، وفي رواية أنها قالت: قد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شمّاس، فكاتبني على ما لا طاقة لي به ولا يدان لي ولا قدرة عليه، وهو تسع أواق من الذهب، وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك في كتابتي.

هيه يا أقدار الغيب!! ماذا كتبت ألواحُك الأزلية لجويرية بنت الحارث المصطلقية؟ هل ستعود إلى حظائر بني المصطلق وتحقق لها آمالها في الحرية، وفي زواجها من أحد فتيانهم؟ هذا أقصى ما كانت تتمنّاه، أن يخف عنها ثقل كتابتها، وأن تتحرر، وأن تعود إلى خدرها في بني المصطلق، ولكن أقدار الغيب قالت للحياة: لا، ليس هذا مكان هذا النبل المتسامي بمشاعره إلى ذرى الشموخ، بل مكانها أن ترتفع فوق ما تخيلته من عظائم آمالها؛ فاكتبوها على قدر مكانها من عظمة من جاءته لتسأله أن يعينها في كتابتها لتُحرر من العبودية وتعود حرة كريمة على نفسها وعلى قومها، لا إلى خدور حرائر بني المصطلق لتكون كما كانت قبل سبيها سيدتهن، لأنها بنت سيدهن، ولم يحملها على الرضا بهذه الكتابة الباهظة التي لا تطيقها، ولا يدان لها بها، ولا تقدر عليها إلا رجاوتها في مكارمه ﷺ، لتحقيق هذه العظيمة في نظرها،

ولهذا جاءته تسأله في كتابتها، ولكن تساوموا بها فوق هامات آمالها إلى ميزان مكارم من وضعت رحال رجاوتها بين يديه لتكون معه في أعلا عليين، أُمّاً للمؤمنين، وحليلة سيد الأولين والآخرين.

ذاك أمر أبرم قبل أن تخلق دنيا الناس، وقبل أن تأتي جويرية إلى الحياة، بل قبل أن تكون على الأرض حياة، فليأخذ محمد ﷺ بيدها وليطيّرها معه إلى ربض الفراديس، وإلى أرفع منزلة في الجنان ليخرجها وهي تضع رجاوتها وآمالها بين يديه من سجن الرق والعبودية لغير الله تعالى إلى آفاق السؤدد والعزّة ولتكن زوجاً لأكرم البشر، ولتكن أماً للمؤمنين، ثابت ابن قيس، ومن فوقه، ومن دونه من سائر أبناء هذه الحياة من المؤمنين والمؤمنات، وسيدة من سيدات نساء العالمين.

أي قلم يستطيع أن يصور مشاعر السيدة الجليلة جويرية وقد صارت بكلمة واحدة أمّاً للمؤمنين وزوجة لسيد المرسلين.

ليت للقلم قدرة على تصوير المعالم النفسية التي أفعمت كل ذرة في إحساس السيدة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، واستأثرت بمشاعرها لحظة أن قال لها سيد الأولين والآخرين وهي تسأله في كتابتها: «هل لك في خير من ذلك؟» فقالت: وما هو يا رسول الله؟ وهذا سؤال من طوّفت به أنوار الغيب فأضاءت له آفاق الحياة ليرى بخياله وأحلامه مكانه الجديد منها، فقال لها ﷺ: «أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك».

وافرحة الأبد!! أي غيث رويٍّ هذا الذي جادت به سماء الغيب لتسقي بنميره قلباً كان قبل لحظة يتحرق تطلّباً لأدنى درجات الحرية البشرية، فماذا جرى في صحف المقادير.

أهذا حُلُمُ نائمٍ؟ أم حقيقة يقظان بدّلته المقادير حياة بحياة، فرفعته من حضيض العبودية الإنسانية إلى قمّة العز والسؤدد، وبوأته ذروة السمو الإنساني؟ وأي سمو أسمى وأجل وأعظم من هذا الذي تسمعه جويرية بنت الحارث المصطلقية من سيد الخلق محمد ﷺ، وقد جاءت إليه تسأله أن يعينها على أداء كتابتها التي لا طاقة لها على أدائها، ولا قدرة لها عليها، وقد رجته لها، وهو الذي يُرَجّى للعظائم «أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك».

وكانت جويرية حين تكلم رسول الله ﷺ، وتسمع كلامه مليئة الفؤاد بالأمل المرجّى، تتكلم وتسمع وهي ثابتة الجأش، رابضة القلب، ساكنة الفؤاد، مضيئة الروح، كأنما تقرأ آيات مستقبلها في صحف الغيب بعيني بصيرتها، فأجابت رسول الله ﷺ، فلم تتلعثم، ولم تتردد، ولم تتأن، ولم تتريث، ولكنها أسرعت بروحها وقلبها وعقلها ووجدانها ومشاعرها وهي تملي على لسانها: نعم، يا رسول الله، قد فعلت.

بركة جويرية على قومها بصهرهم لسيد البشر.

أجل، أبرم في الأرض ما كان مبرماً في السماء، وجفّت الصحف ورفعت الأقلام، ودخلت السيدة جويرية إلى خدرها أماً للمؤمنين، وزوجاً لمحمد ﷺ، وخرج النبأ العظيم همساً إلى الناس، فتسامعوه بينهم، وتعالموه في محافلهم، وأضاء حديثه الآفاق، كما يضيء لمع البرق في السماء، وقال المسلمون: إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنها، فأرسلوا كلّهم ما في أيديهم من السبي وقالوا متعاظمين: هم أصهار رسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها تصوِّر هذا الموقف النبيل في جميع جوانبه بأوجز وأبرع أسلوب: فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها، فلقد أعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بني المصطلق.

هذه هي أشهر الروايات في قصة جويرية وزواج رسول الله ﷺ بها، وما كان في هذا الزواج من خير وفضل على قومها في عتقهم من رق العبودية بسببه، وانطلاقهم أحراراً في حياتهم، لأنهم صاروا أصهار رسول الله ﷺ.

روايات أخرى في قصة زواج رسول الله جويرية.

وفي رواية عند الواقدي أن رسول الله ﷺ أرسل إلى ثابت بن قيس عندما أخبرته خبر كتابتها، فقال ثابت يجيب رسول الله ﷺ: هي لك يا رسول الله بأبي وأمي، فأدّى ﷺ ما كان من كتابتها، وأعتقها وتزوجها.

وروى البيهقي عن جويرية، قالت: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليالٍ كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر أحداً، فلما سبينا رجوت الرؤيا، فأعتقني وتزوجني.

وذكر ابن هشام أن النبي ﷺ اشتراها من ثابت بن قيس، وأعتقها وتزوجها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وفي رواية ذكرها شارح المواهب أن أباها جاء بفدائها، وكان الفداء قطيعاً من الإبل، ولكنه لما دنا من المدينة غيّب عنها بعيرين في شعاب العقيق، كانا قد أعجباه، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا محمد، هذا فداء ابنتي، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين البعيران اللذان غيبتهما في العقيق في شِعْب كذا، وكذا» فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فوالله ما اطّلع على ذلك إلا الله، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، ودفع الإبل إلى رسول الله ﷺ، ودفع رسول الله ﷺ إليه ابنته جويرية فأسلمت معهم وحسن إسلامهم، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وعند ابن سعد من مرسل أبي قلابة: سبى رسول الله ﷺ جويرية وتزوجها، فجاء أبوها فقال لرسول الله ﷺ: إن ابنتي لا يُسبى مثلها فخلّ سبيلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت إن خيّرتها أليس قد أحسنت؟» قال أبوها: بلى، فأتاها أبوها فقال: إن هذا الرجل قد خيّرك فلا تفضحينا فقالت: فإني أختار الله ورسوله.

نفحات السماء كانت هي المختارة للسيدة جويرية طريقها إلى أعز وأشرف حياة.

وهذه نفحة من نفحات الإنعام الإلّهي الذي جرت به أقلام المقادير على صحف الغيب، أملى آياتها العقل الحصيف، والرأي الموفّق الرصين، وخط حروفها الإيمان الراسخ الرزين، وأوحى بها الفكر المتسامي عن رغائب الأرض في ترف البيت المتسيدة فيه بمواريث الجاهلية التي لا تعرف إلا فرشاً وثيراً، وطعاماً شهياً، وشراباً هنياً، وذواقاً مرياً بين أتراب ضواحك، يُنعّمن لكل رغيبة لسيدة النديّ، والحياة المعطّلة بالترف عن الحركة النفسية أو الفكرية، أو البدنية تتصنع بالفراغ الملول لتملأ به جوّ النديّ سموماً قواتل، تستحليها الضواحك لتقتل بها شبح الفراغ استحلاء النسيم في وجه الصباح النديّ بِطَلّ الربيع.

وإلا فما الذي يحمل امرأة مثل جويرية بنت سيد قومها بني المصطلق على سرعة رضاها وهي في عمر الزهرة التي تطل من برعمها متنفسة أنفاس الحياة مع ندى الصباح في الربيع.

أجل، لقد وضعتها مقادير الغيب وضعاً ضاقت به نفسها فلم تحتمل إحكام حلقاتها حول عنق حريتها إذ أخذت سبية بين سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، فكوتبت لتفتدي حريتها كتابة تعجز عن أدائها، ولم يحملها على قبول مالا طاقة لها به إلا أنها ألقت بآمالها ورجاواتها بين يدي أكمل البشر وأكرم الخلق محمد ﷺ، وجاءته تسأله في كتابتها، وهو ﷺ في بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

غيرة عائشة على رسول الله ﷺ هي قمة الحب ورسوخ الإخلاص.

قالت عائشة رضي الله عنها تصف جويرية فأنصفتها: (وكانت امرأة حلوة مُلاّحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه). والمُلاّحة وصف مبالغة في الملاحة، وهي استواء مواطن الحسن والحلاوة. وهي من قولهم طعام مليح إذا كان فيه من الملح بقدر ما يصلحه، فيطيب طعمه، قال السهيلي في الروض: ولذلك إذا بالغوا في المدح قالوا: مليح قزيح، فمليح من ملحت القدر، وقزيح من قزحتها أي طيّبت نكهتها بالأفاوية، وهي الأقزاح.

ثم قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت. وهذا القول من السيدة عائشة رضي الله عنها إنما هو نفثة من نفثات الغَيْرة على رسول الله ﷺ لشدَّة حبِّها له ﷺ وغيرتها عليه، وكان لهذه الغَيْرة عند عائشة رضي الله عنها في حياتها معه ﷺ مظاهر أكثر مما كان عند غيرها من الزوجات الطاهرات، وفي حياتهن معه ﷺ أكثر من دليل على أن عائشة رضي الله عنها كانت تعيش معه ﷺ ذروة هذه الغَيْرة التي استحوذت على مشاعرها.

ورسول الله ﷺ قد أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من الخلق، فكان ﷺ سوي المزاج، علياً بمواقع الذوق الكمالي في خصائص الإنسان.

وقد أضفى الله تعالى على رسوله ﷺ من الكمال الإنساني في جميع

رسول الله أكمل البشر حساً إنسانياً وأصفاهم طبيعة وأذوقهم لحلاوة الكمال الإنساني حساً ومعنى.

مواقعه من الطبيعة البشرية ومنحه من الاعتدال الحسي والمعنوي ما ميزه به وفضله على سائر أفراد البشر، وجمع له به مظاهر الاستواء في تذوق كل كمال أوتيه الإنسان في تقويمه الحسي، ومداخل نفسه، فلا تتفاوت جوانب طبيعته ﷺ في تذوق طعم هذا الكمال.

ومن ثَمّ كان تذوقه للكمال الإنساني، وإحساسه به مستوى جوانب الإدراك لمواقع الاسترواح الجمالي في كل ما تستحليه النفوس الكريمة حساً ومعنىً، وفي كل ما تستطيبه الأمزجة المتوازية في عناصرها وميولها.

وفي هذا الإطار من الطبيعة الكمالية التي جبل عليها رسول الله ﷺ ينبغي أن توضع الخطوط الراسمة لتذوقه ﷺ طعم الكمال في مستويات البشرية، وفي مستويات الجمال الكوني الممثلة في عناصر الكون الطبيعية التي هي منابع الجمال فيه.

لأنه ﷺ أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من العالمين، وهذا الكمال المتوازن في صفاء الطبيعة البشرية هو المقصود بكمال الرجولية المطلق في كملة البشر، فلا حرج قط في أن يوصف محمد ﷺ بكل ما يندرج تحت هذا الكمال الرجولي، لأن هذا الكمال الرجولي هو جماع صفات الكمال البشري في الرجل.

ومحمد رسول الله ﷺ أكمل البشر في إنسانيته، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي من أوصاف الرجولية.

في قوله تعالى: ﴿ولو أعجبك حسنهنّ﴾ إشارة إلى ما جبل عليه ﷺ من تذوق حلاوة الكمال الإنساني حساً ومعنى.

ولأمر (مّا) قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بعد تخيير أمهات المؤمنين اللائي كنّ في عصمته ﷺ ومات عنهن: ﴿لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾[1] إعزازاً لأمهات المؤمنين اللائي اخترن الله ورسوله على (من) و(ما) سواهما، فقصره ﷺ عليهن إكراماً لهنّ، جزاء اختيارهن، ورضائهن كلهن.

ولعله للإشارة إلى ما قلناه من أنه ﷺ أرق الناس حساً، وأرهفهم

---

(١)سورة الأحزاب آية (٥٢).

ذوقاً، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي، ولكن الله تعالى مع الإشادة بصفاء طبيعة رسول الله ﷺ نوّه بهذا الموقف النبيل، موقف أمهات المؤمنين هذا الموقف الإيماني البالغ ذروة الإخلاص عندهن ليرشد عباده أن هذا الموقف أجل عند الله وأعظم من تحقيق رغبة كمال حسي عند رسوله ﷺ، والله وحده هو المحيط بأسرار كلامه العزيز، وأسرار مداخل نفوس خواصه من البشر.

بدأت غزوة بني المصطلق بأعتى نوازل البلاء والمحن ثم ختمت بأسعد ما يسعد كرائم النفوس.

وبعد: فهكذا بدأت غزوة بني المصطلق بما بدأت به من أحداث الفتن الجسام التي دبّرها النفاق تحت أستار الظلام، وكوارث النوازل العظام، التي أذاقت المسلمين جُرعاً من مرارة أحداث (أحد) ولكن الله تعالى بمنّه وفضله أخرج منها نبيه محمداً ﷺ ومجتمعه المسلم، وأهل بيته الأكرمين، وصاحبه وصدّيقه الأمين كما يخرج الذهب المصفّى، والجوهر المخلّص من مخلّطات المعادن، وألويةُ النصر تخفق فوق رؤوسهم، وحفاوة الله تعالى تكنفهم من جميع جوانبهم ونعمه السوابغ تحيط بهم من أقطارهم.

وهكذا ختمت بإعراس النبي ﷺ بالسيدة الجليلة جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سيد بني المصطلق التي خلع الله عليها جلابيب السيادة الحقيقية بإعراس النبي ﷺ بها، فكانت أماً للمؤمنين تعظيماً وتوقيراً، وإسعاداً لها بكنف رسول الله ﷺ، وإدخالاً للبهجة على رسول الله ﷺ بما وهبها الله من كمال إنساني كانت به من صفوة نساء العالمين.

وقد زاد الله عز شأنه أم المؤمنين السيدة جويرية زوج النبي ﷺ رضي الله عنها كمالاً فوق كمالها، فجعلت حصافة عقلها، وزكانة تفكيرها، وصفاء قلبها وإشراق روحها بين يدي رسول الله ﷺ، وهي تلحظه في عبادته الخاصة إذا كان عندها، وتشهده في تقديسه وتسبيحه لخالقه، وتصغي إليه وهي تسمع أحاديثه في أدب الإسلام الاجتماعي، وأحكامه العبادية، وشرائعه النظامية، وتلطفه في عشرته الزوجية، وحكمته في معاملته الداخلية والخارجية، فتعي ذلك كله وعياً ضابطاً يرويه عنها من أصحابه الذين أخلصوا حياتهم للعلم، يأخذونه عن رسول الله ﷺ مشافهة أو رواية أقرب

ما تكون للمشافهة، لأنه إما سماع عن أقرانهم أو شهود لمجالس سماعه، أو تلقياً لأسراره من أمهات المؤمنين زوجاته، وأخذاً لحقائقه العملية ممن كان أهلاً لحمل هذه الحقائق والأسرار التشريعية والآداب السلوكية في تربية البيت ومن يضمّه بين جنباته.

السيدة أم المؤمنين جويرية كانت من الله بمنزلة في علمها وعملها وورعها وإشراق روحها.

وهؤلاء يلقونه إلى من يرويه عنهم صادقاً أفضل ما يكون الصدق مطلوباً، وضابطاً أصدق ما يكون الضبط منشوداً، ومن ثَمَّ كانت السيدة جويرية أم المؤمنين وزوج سيد العالمين رضي الله عنها عالمة بما تسمع، عاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله ﷺ، وتحب الخير للناس أجمعين.

وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة رضي الله عنهم، لينشروه في المجتمع المسلم علماً وعملاً، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية.

روى عنها حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وجابر ابن عبدالله وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن السباق، والطفيل ابن أخيها وغيرهم من الأجلاّء.

وكانت أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات القانتات، الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه، أخرج الترمذي بسند صحيحٍ عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن جويرية رضي الله عنها: أن النبي ﷺ مرّ عليها وهي في مسجدها أول النهار، ثم مرّ عليها قريباً من نصف النهار، فقال لها: «ما زلت على حالك؟» قالت: نعم، قال ﷺ: «ألا أعلمك كلماتٍ تقوليهن؟ سبحان الله عدد خلقه، ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات، سبحان الله زِنَة عرشه، ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات».

وروى مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه عن جويرية رضي الله عنها، قالت: أتى علي رسول ﷺ، فقال: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات

ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه، ومداد كلماته».

أي فضل أفضل وأرفع، وأي شرف أشرف وأعلى من فضل وشرف جمعا بين فضائل الدنيا وشرف الآخرة ختمت به غزوة من غزوات رسول الله ﷺ - أو واقعة من وقائع تاريخ السيرة النبوية الشريفة في أحداثها ومسيرتها وهي تحمل لواء الدعوة إلى الله ناشرة رسالة الحق والهدى والنور - مما ختمت به هذه الغزوة المفعمة بكبريات الأحداث غزوة (بني المصطلق - المريسيع) وهي التي بدأت ناراً تلظّى وفتناً مدمرات تتسعّر وكوارث قواصم تتوالى على المجتمع المسلم، وفيه رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله، ويعلمهم دين الله وشرائعه، ويقودهم في جهادهم، ويملي عليهم دروس التربية السلوكية القائمة على دعائم مكارم الأخلاق، والفضائل الإنسانية، وانتهت بما انتهت به من النور والهدى والرحمة والسعادة التي أقر الله بها عين رسوله ﷺ في إعراسه بسيدة بني المصطلق السيدة جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سيد بني المصطلق، الذين أسلموا جميعاً بعد أن علموا أن النبي ﷺ شرّفهم بمصاهرته، واتخذ من سيدة بيوتهم زوجاً وأماً للمؤمنين، فكانت أبرك امرأة على قومها إذ أعتقهم الله تعالى بها من رق العبودية، وأقبل بهم يقدمهم سيدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية على الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وكانوا من كتائب المجاهدين لنصرة دين الله ونشر رسالته.

ملامح من معالم منهج رسالة الخلود في هذه الغزوة.

لقد جمعت غزوة بني المصطلق من معالم منهج الرسالة الخالدة الخاتمة أحداثاً تشريعية ووقائع حربية، وحوادث اجتماعية، وأحكاماً فقهية، وآداباً سياسية، وسياسة قيادية كتمت أنفاس النفاق، وفضحت كيد المنافقين، وكشفت عن دسائسهم، وملأت قلوبهم غيظاً وحقداً على المجتمع المسلم، وشدّدت من قوة تماسك هذا المجتمع الذي أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا منه ما أقامته لهم شياطينهم من سيء الطبع والمكر، وأخبث الغدر، وأكذب الفِرى والبهتان.

وحسب هذه الغزوة فضلاً، وحسب الناظرين في أحداثها أن ينظروا فيها تفقهاً وتعمقاً يغنيانها عن التعليقات والتحليلات التي تنبه على ما في طواياها من دروس تربوية ومناهج سلوكية لأنها آيات بينات من الهدى والنور، ولأن خصائصها في أحداثها كانت سطوراً من الحكمة، كتبها الله تعالى بقلم الغيب، وجرت بها تصاريف الأقدار بما شاء الله من تمحيص للمجتمع المسلم وإظهار لفضله في تربية رسول الله ﷺ له تربية عملية تكمن عناصرها في الأحداث والوقائع، ليكون في تطبيقها رفعاً لذكره ﷺ ونشراً لهدايته في آفاق الحياة.

مُعَاهَـدَة الحُدَيبيَـة
أسبَابُها، وَأحدَاثها، وَأحَاديثها
وآثارها في سرعة نشر الدّعوة

ما تضمنته من سياسة قيادية حكيمة ـ معالم منهج الفتوحات

معاهدة الحديبية كانت أجل حادث في جمعها لمعالم منهج الرسالة.

من أجل وأنبل جوانب منهج الرسالة الخالدة معاهدة الحديبية التي عقدها رسول الله ﷺ بينه وبين أعدائه المشركين، مع ما كان في ظاهر هذه المعاهدة من شروط تُعطي عدو المسلمين كل شيء يتصور في مصلحتهم، وتحمل ثقل هذه المعاهدة على كاهل المسلمين وحدهم، حتى مرج أمرهم، وزلزلت أقدام أكابرهم.

ولم يثبت لشدة هذه الشروط ويتقبلها كما رضيها نبي الله ﷺ إلا أرسخ المؤمنين قدماً في ساحة الإيمان؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وحتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصف ما داخل نفسه من الشدة: لقد صالح رسول الله ﷺ أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئاً لو أن نبي الله أمرّ عليّ أميراً فصنع الذي صنع نبي الله فوالله ما سمعت له ولا أطعت، وكان الذي جعل لهم: أن مَنْ لحق من الكفار بالمسلمين يردونه عليهم، ومن لحق بالكفار لم يردوه.

شدّة هذه المعاهدة على جمهور الصحابة بما ادخلت عليهم من المحنة في ظاهر شروطها.

وقصة الحديبية مروية في الصحاح، وتفصيلها في كتب السيرة، ونحن نذكرها برواية البخاري رحمه الله، منبِّهين على أبرز ما فيها من أحداث تتصل بوفاء النبي ﷺ بما عاهد عليه ولو كان فيه من الشرائط ما يبدو في ظاهر الأمر ومعارف العقول ومألوف الحياة أنه أشد ألوان الضيم على المسلمين، ليتجلّى فضل الله تعالى على نبيه محمدٍ ﷺ وعلى أصحابه ومجتمعه المسلم فيما ادّخره الله لهم ولدينه من فتح كان هو الطريق إلى نشر راية الحق

في أرجاء الأرض، وليظهر أثر الإيمان في تسليم أصحابه له وطاعتهم أمره ومتابعته في جميع ما يبلِّغه عن ربه عز وجل والتأسِّي به في أعمالهم والوفاء بعهودهم، ولو لم تسعفهم بوادر الأمور، وبواكيرها بإدراك حكمة تصرفه ﷺ بإذن ربه حتى يغبّ الرأي وتنجلي سحائبه عن شمس الهداية في حقيقتها العليا من آفاق الوحي وإشراق أنوار النبوة في سجل الرعاية الربانية.

فقد لحق الصحابة رضوان الله عليهم في هذا الموقف من البلاء، وداخلهم من الشدة ما لم يكن لهم به طاقة لولا رسوخ الإيمان بالله ورسوله في قلوبهم، ولو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بهم لهاضها، ولكن الله تعالى ثبَّتهم للمحنة فثبتوا وتجلَّت بروقها عن بشائر الفتح المبين.

رواية البخاري لحديث الحديبية هي أوثق الروايات.

روى البخاري في صحيحه من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية ـ في ذي القعدة سنة ست من مهاجره ﷺ ـ حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هُمْ بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته العضباء ـ أو القصواء ـ أو الاسمان اسم لناقة واحدة كما يدل عليه ظاهر هذا الحديث. فقال الناس: حَلْ، حَلْ يزجرونها لتنهض، فألحت فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألوني خطّة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه الناس تبرّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال بديل: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ

بدء المفاوضات مع بديل بن ورقاء الخزاعي وحب رسول الله ﷺ السلام والمسالمة في كلمات حكيمة محكمة.

المطافيل وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدّة ويخلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذنّ الله أمره».

فقال بُديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال لهم: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال النبي ﷺ.

مجيء عروة بن مسعود الثقفي خلفاً لبديل وموقف الصحابة منه.

فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالولد؟ قالوا بلى، قال: أو لسنا بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلّحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلّم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفرُّوا ويَدَعوك.

فقال أبو بكر ـ وكان قاعداً خلف رسول الله ﷺ ـ: امصص بظْرَ اللاّت، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟.

فقال عروة: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

موقف المغيرة بن شعبة الثقفي من عروة ابن مسعود وما فيه من تعظيم النبي ﷺ.

وجعل عروة يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة ابن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألاّ تصل إليك، فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسّه.

فقال عروة: ما أفظّك وأغلظك، من هذا؟ قالوا: ابن أخيك المغيرة ابن شعبة: قال عروة: أي غُدَر ألستُ أسعى في غدرتك.

وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له.

رجوع عروة إلى أصحابه ونعته لتعظيم أصحاب النبي له ﷺ.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال لهم: أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، فإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر تعظيماً له.

وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة ـ هو الحُليس بن علقمة سيد الأحابيش ـ دعوني أئته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظِّمون البُدْن فابعثوها له»، فبعثت له واستقبله الناس يلبُّون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله: ما ينبغي لهؤلاء أن يصدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأُشعرت، فما أرى أن يصدّوا عن البيت.

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني أئته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مِكْرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلِّم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي ﷺ قال: «لقد سهل لكم من أمركم».

رجل فاجر يخلف عروة بن مسعود في المفاوضة.

ومن رواية محمد بن إسحاق أن قريشاً قالت لسهيل بن عمرو: ائت هذا الرجل فصالحه، فقال النبي ﷺ: «قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا». فلما انتهى إلى النبي ﷺ جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح، فقال سهيل: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم».

تفاؤل النبي ﷺ بقدوم سهيل بن عمرو الذي تمت على يده المفاوضة.

قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللّهم كما كنت تكتب.

محاورة سهيل في كتابة المعاهدة وتسليم النبي ﷺ له ما أراد للوصول إلى السلام.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللّهم».

ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله.

فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد ابن عبدالله».

فقال النبي ﷺ: «على أن تخلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به».

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام القابل، فكتب.

فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلاّ رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله؟ كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً،

شروط المعاهدة وما دخل على المسلمين بسببها من شدَّة البلاء

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

كان قدوم أبي جندل بن سهيل من أعظم مظاهر المحنة.

فقال سهيل والد أبي جندل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ.

فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقضِ الكتاب بعد». قال سهيل: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً.

قال النبي ﷺ: «فأجزه لي».

قال: ما أنا بمجيزه لك.

قال رسول الله ﷺ: «بلى فافعل».

قال سهيل: ما أنا بفاعل.

قال مكرز: بل قد أجزناه لك، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، وشعر بذلك أبو جندل، فقال يستثير المسلمين: يا معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت، وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

موقف عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من شروط هذه المعاهدة ومساءلته رسول الله ﷺ بصورة مغضبة.

فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: «بلى».

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟.

قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري».

قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوّف به؟.

قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟».

قلت: لا.

قال «فإنك آتيه ومطوّف به».

قال عمر: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟.

رسوخ يقين أبي بكر أنقذ عمر من غضبته.

قال: بلى.

قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟.

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟.

قال: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوّف به؟.

قال: بلى.

أفأخبرك أنك تأتيه العام؟.

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوّف به.

توقف أصحاب النبي ﷺ عن الإسراع إلى تنفيذ أمره ومشورة أم المؤمنين أم سلمة.

فلما فُرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة زوجه رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً.

قصة أبي بصير وما فيها من فدائية وعزيمة إيمانية صارمة تمثل أروع معالم المنهج في رسالة الإسلام.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا؟ فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه أبو بصير به حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً».

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

عصابة أبي بصير تحمل قريشاً على مناشدة النبي ﷺ على إلغاء أول شرط في المعاهدة.

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، ويلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلّا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لمّا أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً. هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهَدْي معكوفاً أن يبلغ مَحِلَّه، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً * إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها، وكان الله بكل شيء عليماً﴾[1].

---

(١) سورة الفتح آيات (٢٤ - ٢٥ - ٢٦).

بيان وتحقيق
يكشف عن أحكم سياسة في عقد هذه المعاهدة
ويبين ما تضمنته من معالم منهجية
في حياة المجتمع المسلم

في قصة هذه المعاهدة أمور تصور ـ في جملتها ـ جوانب من أهم جوانب منهج الرسالة الخالدة، وهي جوانب تربوية اجتماعية جعلها الإسلام خصائص مميزة لمجتمعه من بين سائر المجتمعات البشرية في الأرض.

الأمر الأول:

كانت هذه المعاهدة أساساً لسياسة علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات البشرية حرباً وسلمًا.

هذه المعاهدة تعدّ أساساً عملياً لتطبيق التشريع الإسلامي المتعلق بتحديد العلاقة فيها بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وأساساً لكل ما يتصل بفضيلة الوفاء بالعهد، مهما كانت مرارته وشدته، ومهما تكن آثاره وقسوته.

ذلك لأن النبي ﷺ، وهو رسول الله الذي بعثه لدعوة الناس كافة إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم به من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والعلم، هو الذي تولّى بنفسه عقد هذه المعاهدة ورضي شروطها، وكان على علم بما فيها من تفاوت في موازين عدالة المعاهدات، لم يُخدع فيها عن صواب الرأي، ولكنه أراد بتوفيق الله وتسديده أن يفتح للدعوة باباً سلمياً تقف من ورائه خصومة تشتعل بين طرفيها حرب عصبية لا هوادة فيها.

وهي حرب يتمثل فيها الإيمان بالحق في أصدق صوره وأرسخها يحمل رايتها الإسلام والمسلمون بقيادة رسول الله ﷺ.

وهي حرب يتمثل فيها الظلم والطغيان والجهالة في أبشع صورها،

يحمل رايتها الشرك والمشركون بقيادة جبابرة الطغاة من فجرة الوثنيين، وطواغيت قريش.

والنبي ﷺ إذ يتولّى بنفسه تطبيق مبدأ من أهم مبادىء السياسة التشريعية لأمته إنما يرسم بعمله طريق التأسّي به لمن يتولّى بعده أمراً من أمور الحياة في مستقبل هذه الأمة.

وعمله ﷺ في تطبيق المبادىء التشريعية هو الأصل الأول في البناء التربوي للمجتمع الإسلامي، ومن ثَمّ كان عقد هذه المعاهدة والوفاء بشروطها له الأهمية الكبرى في تأسيس التشريع الإسلامي المحدّد للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم والجماعات.

الأمر الثاني:

كان لهذه المعاهدة مقدّمات كانت الطريق إلى الوصول إليها، وكان لها آثار بعيدة المدى عميقة الجذور في تاريخ المدّ الإسلامي وانتشار الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

فأما آثارها فتتمثل في أحداث التاريخ، وفي سياسة الفتوحات التي جاءت متتابعة بعد توقيعها.

مقدمات المعاهدة لم تكن تؤذن بشيء مما كان فيها وما كان بعدها.

وأما مقدماتها فلم تكن تؤذن بوقوعها على صورتها التي وقعت بها، ولذلك كان وقع المفاجأة بها قاسياً شديداً على نفوس المسلمين، وهذه المقدمات بعضها بعيد، وبعضها قريبٌ، ولكنها متصلة الحلقات متسلسلة الوقائع.

فالنبي ﷺ رسول من عند الله، ختم الله برسالته الرسالات الإلٰهية، ورسالته هي رسالة الإسلام، والإسلام ثورة إصلاحية نيط بها تغيير جذري في بناء المجتمع البشري، وإصلاح ما فسد في أممه وشعوبه فكرياً، وسياسياً واجتماعياً، وروحياً، وكان المجتمع الذي نبتت فيه هذه الأمة الإسلامية مجتمعاً مريضاً، أسقمه المرض إلى حدٍّ جعل كيانه الاجتماعي والروحي كياناً متهاوياً لا يتماسك في عقيدة يسندها عقل أو منطق، ولا يتماسك في نظام

اجتماعي يسنده علم يهدي إلى حقٍّ وخيرٍ.

كانت مجتمعات البشرية يوم عقد هذه المعاهدة بقايا بناء إنساني ينخر فيه سوس الفناء.

ويحيط بهذا المجتمع المتهافت في بنائه الاجتماعي مجتمعات بشرية ممزقة الأوصال، تعيش على أصداء باهتة لتاريخ ظلوم قاتم الآفاق، يحمل رايته السوداء دولتان أو أمتان كانتا في عهد إشراق شمس الدعوة الإسلامية شبحاً لبناء إنساني متهدِّم، ينخر فيه سوس الفناء، وتنسج له الحياة أكفان الزوال.

ففي الشرق كانت بقايا دولة الفرس تتنفس لاهثة من طول ما عانت من أمراض الاضطرابات الداخلية والخلافات المذهبية وآثار الحروب الخارجية مع منافسيهم الرومان.

وفي الغرب كانت دولة الرومان تطفو على سطح الحياة جسداً عريض الأكتاف لا روح فيه، أنهكته المظالم الإقطاعية والمجادلات المذهبية والحروب الخارجية مع الفرس.

وبين هاتين الدولتين أو الأمتين شراذم إنسانية المظهر متناثرة هنا وهناك تناثر الدَّقل أو الحصى على الأرض، تعيش كما تعيش الأنعام في غياهب البراري وغياض الغابات، إن أدركتها يد إحدى الدولتين اعتصرتها إن توهمت فيها شيئاً من عصارة، حتى تتركها عوداً ناشفاً لا تطعمه إلا نيران الجهالة والهمل.

هجرة الدعوة إلى الله من مكة إلى يثرب كانت هي طريق المواجهة لنشر الرسالة.

وفي هذا الجو القاتم أشرقت شمس الهداية من أفق الجزيرة العربية ببَعْثة محمد بن عبدالله ﷺ رسولاً إلى الناس كافة بشريعة هي خاتمة الشرائع الإلٰهية، فدعا أول ما دعا قومه، استجابة لأمر الله له في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فدعاهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأوثان، وحذّرهم من عقابه، وأنذرهم بطشه، فتولّوا عنه مدبرين، وما آمن به منهم إلا قليل، فصبر عليهم وصابرهم، وتحمّل منهم أشدّ الأذى، ولم ينتهوا حتى تآمروا على قتله، ولمّا لم يجد سبيلاً إلى قلوبهم عرض نفسه ودعوته على غيرهم من القبائل والبطون، يذهب إليهم في مواطنهم ومحافلهم أو يستقبل الوافدين من قبائل العرب وبطونها إلى بلده ليعظّموا بيت ربهم بما تعوّدوه في جاهليتهم من

مناسك وشعائر، وأقبل عليه أبناء يثرب أوسهم وخزرجهم، وجمع الله به كلمتهم بعد فرقة وقتال بينهم، وبايعوه على أن ينصروه نصرهم لأنفسهم، ويحموا دعوته حمايتهم لأولادهم وأعراضهم إن أوى إليهم وهاجر إلى بلدهم، فبايعهم وأشار على أصحابه الذين أوذوا في سبيله وسبيل دعوته بالهجرة إلى إخوانهم أنصار الله وأنصار رسوله ودينه، فهاجر منهم من استطاع أن يهاجر، واتخذوا من يثرب مدينتهم، وفيها دوّى صوت الدعوة حتى عمّ أرجاءها، فلم يبق بيت من بيوتها إلا دخله الإسلام، وذُعرت مكة، بل رُعبت وركبت ظهر الشيطان، فجرى بها إلى أسوأ تدبير، وأعلم الله نبيه ﷺ بما بيتت من كيد ومكر، فخرج إلى المدينة مهاجراً يصاحبه صدِّيقه أول المؤمنين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأقبل عليه أهلها يؤمنون بدعوته إقبال الفصائل على حُفّل أمهاتها للرضاع.

القرآن الحكيم يجعل اليهود والمنافقين في قرن واحد.

وكانت المدينة مستوطناً لجاليات من اليهود والعرب المتهوِّدين يملكون الثروة فيها، فتحرك فيهم عرق الحسد، فنافقوا، واستنفقوا قوماً ممن شاركهم في رذيلة الحسد، وتعاونوا وإياهم على الإثم والعدوان، وهمّوا بما لم ينالوا، واليهود والمنافقون جبناء لا يجرؤون على الوقوف نهاراً جهاراً أمام الدعوة الجديدة وجندها وأنصارها، فهم كما وصفهم الله تعالى بوصف إخوانهم في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإن قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولُنَّ الأدبار ثم لا ينصرون * لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله؛ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنة أو من وراء جُدُر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتىً؛ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[1].

---

(١) سورة الحشر آيات (١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمعْ لقولهم، كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾[1] وفي قوله: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم﴾ هذه الآية على خلاف ما قيل في سبب نزولها ظاهرة الورود في المنافقين واليهود.

رأى النبي ﷺ بتسديد الله أن يهادن اليهود ويفك عرى قوتهم، ويذلّ غرورهم، ويكبت حسدهم، فكتب كتاب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وفيه أدخل اليهود تابعين لبيوت الأنصار، يجعل كل فريق من اليهود تابعاً لفريق من الأنصار، وأمّن في هذا الكتاب اليهود على دينهم وأموالهم وأعراضهم ما داموا قائمين على حفظ العهد ليتفرغ ﷺ لتبليغ دعوته ونشر رسالته ويؤمّن ظهر مجتمعه.

أول حركة إيجابية ينهض إليها المجتمع المسلم لدفع الظلم.

وكانت المدينة طريق مكة إلى الشام في تجارتها، وفي زعماء أهل مكة عنجهية حاسدة، ولهم قلوب من الصخر منحوتة حاسدة حاقدة، ونفوس للحق والهدى مبغضة، وعقول بالله كافرة، أرمضها أن يفلت المسلمون بدعوتهم إلى قلعة منيعة تقف في طريق تجارتهم، وتهدم طغيانهم، يحميها أنصارها من الأوس والخزرج وهم ـ على ما تعلم قريش ولفُّها ـ أبناء السيف والقنا وأحلاس الحرب والوغى.

وقريش في مكة تعلم أنها استولت على أموال المهاجرين إلى المدينة ظلماً وعدواناً وبغياً وعتواً، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق، فهل تنام قريرة العين، وتمر بتجارتها على هؤلاء الذين وترتهم بالأمس آمنة مطمئنة؟.

فلتجربْ، وليمض عاهلها أبو سفيان بن حرب قائداً لقافلتهم،

(١) سورة المنافقون آية (٤).

ومضى يسوق قافلته إلى الشام، وفيها باع واشترى، وربح واستربح، وعاد إلى قومه يحمل إليهم غرائر المال ومكاسب التجارة.

ولعل في هذا المال الذي اتجرت به قافلة قريش مالاً من أموال المسلمين المهاجرين، وإلا يكن عينه فهو عوضه، وللمظلوم أخذ حقه من ظالمه، وقد أذن الله جل ذكره لهم بالقتال لدفع الظلم وإقامة دعائم الحق، فقال: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1].

وقربت القافلة من المدينة، وتسامع أهلها من الأنصار والمهاجرين بقدومها، فحركتهم حمية الحق، وحمية الدفاع عن كرامتهم، فهؤلاء أعداؤهم وهم أعداء الحق لم يكتفوا ببغيهم عليهم حيث كانوا بين أظهرهم، بل أخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وتجاوزوا كل بغي وعتوٍّ، فداسوا بقافلتهم الباغية طريق مهاجرهم علانية. لا، لا، لن يكون لأهل البغي والعدوان الظالمين مرور بقافلتهم، وفي أنصار الله عين تطرف.

وخرج بعض المسلمين من المهاجرين وإخوانهم الأنصار يعترضون طريق القافلة إلى مكة، فعلم بهم غطريفها أبو سفيان بن حرب، فعدل عن الطريق وساحل بقافلته، وكان قد أنذر أهل مكة فخرجوا يجرون أذيال الغرور والكبرياء، يسوقهم البأو والغطرسة إلى حتوفهم، وأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد نجا ونجت معه القافلة، فلم ينههم ذلك عن المضي في طريق البغي.

شاور النبي ﷺ أصحابه، فأشار جمهورهم بملاقاة أعداء الله على كثرتهم وعظيم استعدادهم، وقلّة المسلمين وضعف ظهرهم وعدتهم، وكانت وقعة بدر الكبرى كما تحدثنا عنها، وفيها انتصر الحق على الباطل، وظفر الإيمان بالشرك، وهُزم الظلم والبغي هزيمة ساحقة، وكانت هذه الواقعة أول وقعة واجه فيها المسلمون ـ وهم قلة في العدد، وضعف في العدّة ـ المشركين

---

(١) سورة الحج آيتا (٣٩ ـ ٤٠).

بقوتهم الباغية، وكان سلاح الإيمان بالحق هو الفيصل في هذه المواجهة.

عادت فلول مكة خائبة خاسرة بعد عنجهية الكبرياء وحمية الجاهلية، مقصوصة الأجنحة، ثم توالت الوقائع وظهـــر نجيث اليهود وخبث النفاق، واشرأبت أعناقهم خشية أن تعلو كلمة الإسلام، فنقضوا العهود والموادعات التي عقدها رسول الله ﷺ بينهم وبين المؤمنين، وتجمع أحزاب الكفر والضلال من اليهود والمشركين على شراذم المنافقين، وتعاهدوا على الغدر والفجور، وكانت وقائع وأحداث، من أهمها غزوة الأحزاب التي تألّب فيها المشركون من ألفاف القبائل التي لم يدخل الإسلام قلوبها، وظاهرهم اليهود والمنافقون، فهزمهم الله، ونصر جنده. وأعلى كلمته.

الأمر الثالث:

رسول الله ﷺ يمدّيد المسالمة لأهل مكة ويخرج معتمراً ولكن البغي أبى على قريش أن تفتح لنفسها باب السلام.

رأى رسول الله ﷺ بعد انتصاراته المتوالية أن يمد يد المسالمة والرفق إلى مكة، وأن يوادع أهلها موادعة من لا يرغب في الحرب ولا يستهدف العداوة والقتال، بل يدعو إلى الأمن والسلام، وخرج إلى العمرة بمن معه من المهاجرين والأنصار، عامداً إلى البيت الحرام زائراً وساق معه الهديَ ليأمن الناس، ويعلموا أنه خرج معظِّماً للبيت متعبّداً لربه، ولكن غطرسة المشركين الباغية وعجرفتهم الطاغية أبيا إلا عناداً فاجراً، وعقدوا الخناصر على أن يصدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن تعظيمهم بيت ربهم في رحلتهم المسالمة.

تواردت الأخبار على رسول الله ﷺ أن أهل مكة تجمعوا وتعاهدوا على أن يمنعوه من دخول مكة، فقال كلمته الوادعة الموادعة الحكيمة المحكمة: «يا ويح قريش أكلتهم الحرب؛ ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره أو تنفرد هذه السالفة».

فهل رأى الناس إنصافاً ومعدلة مثل ما في هذه الكلمة الجامعة؟.

وهل سمع الناس بموادعة ومسالمة مثل هذه المسالمة الوادعة؟.

وهل عرف الناس طريقاً لفتح باب الحرية للعدو يملكه أمر خصمه مثل ما عرضت له هذه الكلمة الواثقة الموثقة؟.

وهل ذكر التاريخ عزيمة مصممة على المضي قدماً في أمر بدأ متوارياً ثم استعلن شامخاً كما بدأ أمر الإسلام مثل ما في هذه الكلمة الحازمة الصارمة؟.

بلى، كانت مرّة في التاريخ، نفس تاريخ هذه الدعوة فقط، يوم أن انفرد رسول الله ﷺ في جانب والأرض كلها ومن عليها في جانب آخر، حتى عمّه الذي كان يحنو عليه ويحوطه بدا أنه خضع لبعض الأمر مع قومه، فقال له النبي ﷺ أخت هذه الكلمة: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

ثم عدل رسول الله ﷺ إمعاناً في إظهار رغبته في السلام عن طريق مواجهة قريش ليعلم الناس حقيقة مقصده من الموادعة وتأمين الناس، حتى إذا بلغ مكاناً قريباً من قرية الحديبية بركت راحلته، فجعل الناس ينهضونها فألحت ولم تنهض، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء، أي حرنت، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها ـ أي عن مكة ـ حابس الفيل، والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت به حتى نزل بأقصى قرية الحديبية، انتظاراً لما تنفرج عنه أسرار الغيب، وما عسى أن يكون من قريش وقد ظهر لها ظهوراً بيّناً أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يقدموا إلى مكة إلا من بعد أن مدّوا حبل السلام والموادعة، وأنهم لم يأتوا إلا لزيارة البيت الحرام وتعظيمه.

الأمر الرابع:

أثر هذه السياسة الحكيمة المحكمة على الموقف المتأزّم بين المجتمع المسلم وبين قريش.

كان لهذه السياسة الحكيمة الحازمة المسالمة التي ساس بها رسول الله ﷺ الموقف أثرها في توجيه الأمور إلى نهايتها التي قصد إليها رسول الله ﷺ من هذه السياسة التي تحمّل فيها على نفسه ومجتمعه المسلم، وامتحن فيها أصحابه رضي الله عنهم أشد الامتحان، فصبروا للمحنة بعد أن محّصوا

تمحيصاً أخلص أنفسهم للتأسِّي والتسليم لما يراه رسول الله ﷺ ولو خفيت عليهم حكمته وأسراره.

ولما اطمأنَّ رسول الله ﷺ في منزله الذي نزله من الحديبية أتاه بُديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من قومه، وخزاعة - مسلمها ومشركها - كانت موضع نصح رسول الله ﷺ، مأمونة على سره لا تخفي عليه شيئاً تراه بمكة، فسأل بديل ورفاقه النبي ﷺ ما الذي جاء به؟ فقال: «إنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظِّماً لحرمته» فرجع بُدَيل ومن معه من قومه إلى قريش وأبلغوها مقالة رسول الله ﷺ، وتتابعت الرسل منهم إلى رسول الله ﷺ، فكان يجيب كل رسول بما أجاب به بُديلاً، وكان من أمتع هذه المقاولات مساءلة عروة بن مسعود الثقفي وما احتفَّ بها من أمور لها مكانها الخاص في تصوير إجلال أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم وحبِّهم له، ومتابعتهم له ﷺ في كل ما يأمر به.

ولكن الشرك كان لا يزال يفكر بعقلية الوثنية التي لم تستطع أن ترتفع عن حمأة الكيد الأحمق، ففكرت قريش بهذه العقلية وقدّرت، فكّرت في الغدر فبعثت خمسين رجلاً ليتحينوا غِرّة من المؤمنين فيفتكوا بمن ينالونه منهم، وكان هؤلاء الخمسون بُلْه التفكير والتقدير، فرموا في جموع الصحابة بالحجارة والنبل، وما هي إلا هَبة من بهاليل الإيمان حتى أخذوهم سوقاً إلى رسول الله ﷺ، فمنّ عليهم وعفا عنهم، وخلَّى سبيلهم تأكيداً لمقاصده النبيلة ﷺ في السلام والمسالمة.

الأمر الخامس:

لم يكتف رسول الله ﷺ بما كان بينه وبين رسل قريش من مقاولات كانت واضحة أشد الوضوح في أنه ﷺ لم يكن من قصده في قدومه إلا التعبد لربه وزيارة بيته المحرم وتعظيم حرمته، بل تقدّم إلى صادِّيه أعداء الحق فأرسل إليهم من يبلِّغهم عنه ما أجاب به رسلهم من المسالمة والموادعة وترك الفرصة لهم، إزالة لكل شك، وتبديداً لكل ارتياب، فعسى ألا يكون رسلهم قد أدّوا ما حُمِّلوا من أمانة الرسالة إليهم بتفصيلها ووضوحها، فقد كانوا

يجبهون الرسل، ويلقون منهم عنتاً وتسفيهاً مما قد يمنع من كمال الإبلاغ، فأراد رسول الله ﷺ أن يقطع دابر الشك ويعذر إليهم حتى لا تبقى لهم حجة عليه وعلى أصحابه.

غدر قريش برسول رسول الله ﷺ فنجّاه الله منهم.

فقد رُوي أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش، وحمّله على بعير له ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فسفهت قريش على رسول رسول الله ﷺ، وعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعه قومه وحلفاؤهم الأحابيش وخلّوا سبيله، وعدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت قريش معه.

بيعة الرضوان وسببها وقوّة عزائم الصحابة فيها.

لم يعجّل رسول الله ﷺ على قريش فيجازيها بما فعلت من الغدر برسوله إليها، ولكنه طاولها وصابرها رجاء أن تثوب إلى مراشدها فدعا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، فيبلّغ عنه أشرافها ما جاء له، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي بمكة، وما بمكة من بني عدي بن كعب - قوم عمر - أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني عثمان ابن عفان، وكان هذا الرأي من عمر سديداً موفقاً لما يقصد إليه رسول الله ﷺ من المسالمة والموادعة، لأن عمر لو ذهب إلى قريش وهو معها كما وصف نفسه، لأسرعت إليه، تمدّ يدها بالسوء، ويكون ذلك سبباً في اشتعال نار الحرب، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يحاول تجنبه والابتعاد عنه، فكان عدم بعث عمر من حسن السياسة الموفقة الموافقة لمقاصد رسول الله ﷺ.

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظّماً لحرمته.

بعث عثمان بن عفان إلى قريش لمكانته عندها برسالة السلام والمسالمة.

خرج عثمان في سفارته إلى مكة، وحقّق الله ظن عمر فيه، فلم يكد عثمان يقرب من مكة حتى لقيه قبل أن يدخلها أبان بن سعيد بن العاص، فجعله بين يديه، وعرف منه ما جاء به سفيراً فأجاره وأعلن هذا الجوار على ملأ قريش، فلم تُرفع بالإنكار عليه رأس لعزته في قومه وعزّة قومه في قريش.

بلّغ عثمان رضي الله عنه رسالة رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف مكة كما أمره رسول الله ﷺ، فأرادوا أن يتملّقوا عثمان ويصرفوه عن مقصده، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، ولكن عثمان أحد السابقين الأولّين، وأحد أصحاب الهجرتين، الأثير بالصهر في مطلع البعثة قبل أن يشرف أحد قبله بهذا الصهر العلي المستعلي، عثمان صاحب الفضائل والفواضل على الإسلام والمسلمين، أبى لصدق إيمانه على قريش هذا الملق الوضيع، وردّ عليهم بالكلمة الراسخة في صدق الإيمان وقال لهم: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

بيعة الرضوان تهزّ كيان قريش وتفزعها.

وعادت قريش إلى عنجهيتها فاحتبست عثمان عندها ولم تطلق له حرية الرجوع إلى رسول الله ﷺ ليبلّغه عنها جواب رسالته، ولما طال احتباس عثمان تطايرت الإشاعات بأن عثمان قد قتلته قريش، فثارت لهذه الشائعات عزائم الإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة، وضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال: «هذه عن عثمان» وتسامعت قريش بعزيمة رسول الله ﷺ على مناجزتهم، وبيعة أصحابه له على ذلك، فرعبت رعباً شديداً ودارت بها أرضها تحت أقدامها فرقاً وفزعاً، فأطلقت عثمان رضي الله عنه، وأرسلت سهيلاً تطلب إليه مصالحة رسول الله ﷺ.

وفي بيعة الرضوان يقول الله تعالى تنويهاً بمقام رسول الله ﷺ ومكانته من الله تعالى، وتشريفاً لأصحابه الذين بايعوه: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾[1].

ويقول جل ثناؤه في إظهار فضل الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة المباركة وحفاوته بهم ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت

---

(١) سورة الفتح آية (١٠).

الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[1].

الأمر السادس:

ثقل شروط المعاهدة على الصحابة وتحرك عمر بن الخطاب حركة مغضبة.

انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ فتكلم فأطال الكلام وتراجعا في الحديث، ثم جرى بين رسول الله ﷺ وبينه الصلح على شروط تحمّل فيها رسول الله ﷺ على نفسه أمراً عظيماً، وناءت بثقلها نفوس أصحابه حتى وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجاء إلى رسول الله ﷺ يسائله في شأن هذه الشروط القاسية وكيف يقبلها المسلمون وهم على الحق وأعداؤهم على الباطل، فقال له رسول الله ﷺ: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه» قال عمر: أو لست كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوّف به؟ فقال له رسول الله ﷺ: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قال عمر: لا، فقال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوّف به».

هذا الموقف الشديد الذي عبر فيه عمر عن جوّه النفسي بقوله:

ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، يصوّر أصدق تصوير ما دخل على المسلمين من الغم والحَيْرة، بَيْدَ أن الموقف كان أقسى ممّا تصوره الكلمات، فقد كان فوق طاقة الاحتمال البشري، لم يثبت له بعد رسول الله ﷺ الذي كان على علم من ربِّه وكشفت له حجب الأسرار عن عواقبه غير الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه.

وثبات أبي بكر الذي انفرد به في مضايق هذا الموقف إنما كان بقدر رسوخه في الإيمان رسوخاً كان يستمده من آفاق شمس النبوة الذي جعله الله على نور قلبها، وله منها الكثير من خصائص آثارها الفطرية، ومن يقينه الذي وقر في قلبه بصورة لا يلحقه فيها نقص الشبهات، ولا يزيدها كشف الحجاب.

ولهذا ذهب إليه عمر يتلمس من يقينه وإيمانه ثلج التثبيت، لأنه سيد الراسخين بعد النبي ﷺ.

---

(١) سورة الفتح آية (١٨).

قال عمر: فأتيت أبا بكرٍ فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، فرد عليه أبو بكر بما رد به عليه رسول الله ﷺ سواء، لم يخرم منه حرفاً، ولا غيّر كلمة، غير أنه زاده في التثبيت فقال له: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

شروط المعاهدة وبنودها

الأمر السابع:

هذه المعاهدة تتألف من سبعة شروط:

الشرط الأول: وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

الشرط الثاني: من أتى رسول الله ﷺ من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم.

الشرط الثالث: من أتى قريشاً ممّن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه.

الشرط الرابع: أن بيننا ـ أي المؤمنين والمشركين ـ عيبة مكفوفة ـ أي صدراً نقياً من الغل والخداع والغش مطوياً على الوفاء والأمانة.

الشرط الخامس: أنه لا إسلال ولا إغلال ـ أي لا سل للسيوف للقتال، ولا خيانة وسوء تدبير بالمكر والكيد.

الشرط السادس: من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

الشرط السابع: أن يرجع محمد عن قريش عامه هذا فلا يدخل مكة ولا يطوف بالبيت، وإذا كان عام قابل خرجت قريش عن مكة وأخلتها فدخلها محمد ﷺ بأصحابه، فأقام بها ثلاثاً ليس معه إلا سلاح الراكب، السيوف في قربها.

قال ابن القيم في زاد المعاد: من الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة أنها

لمحات من زاد المعاد في أسرار هذه المعاهدة.

كانت مقدّمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً.

ومنها أن هذه الهدنة كانت أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدّة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سمّاه الله فتحاً مبيناً.

وهذا يدل على أن خير شروط هذه المعاهدة وأبركها هو الشرط الأول شرط وضع الحرب بين المسلمين والمشركين، لأنه أمّن الناس، وفتح أمام دعوة الإسلام الطريق إلى القلوب والآفاق، فأسمعها المسلمون لمن لم يكن قد سمعها. وبيّنت حججها بياناً ساطعاً لمن لم يكن قد تبينها، وقرىء القرآن على من لم يكن قد سمعه، وهم قوم لمّاحون لمواقع نجوم الفصاحة ومنازل البلاغة من آياته، درّاكون لحكمه وأسراره.

وبذلك كانت هذه الهدنة هي الفتح المبين الذي بشّر الله به عباده المؤمنين، وامتن به على رسوله الأمين ﷺ، وهنأه به أمين الوحي جبريل والملائكة وصالحو المؤمنين.

وكان أشد شروطها وأقساها فيما بدا للناس، واشتد الأمر فيه على جمهور الصحابة رضوان الله عليهم شرطيها الثاني والثالث اللذين قضيا بردّ من أتى رسول الله ﷺ من قريش إليهم ولو كان على دينه، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردُّوه عليه.

هذان الشرطان هما اللذان أدخلا على المسلمين من الهم والغم ما أذهل الألباب، وأظهر أكابرهم منهما الامتعاض، وعجب متحيّراً كثير منهم من قبول هذين الشرطين، فقالوا: سبحان الله كيف يردُّ على المشركين من جاءنا مسلماً، ولا يردون علينا من ذهب إليهم مسلماً؟ وكان أشد المتعضين: عمر بن الخطاب، وأُسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وسهل بن حنيف، ولكن رسول الله ﷺ قبل ذلك وعاهد القوم عليه لما كان ينظر إليه من وراء ستر الغيب، وقال لأصحابه: «من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء

منهم إلينا فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

وقد عجَّل الله امتحان المسلمين وابتلاءهم في تحقيق الوفاء بهذين الشرطين الصارمين ليمحِّصهم، ويعدّهم إعداداً كاملاً لحمل أمانة الإسلام، ويظهر لأعدائهم فضل الإسلام في احترام الوفاء بالعهد في خلائقهم التي خلّقتهم بها دعوته الهادية الراشدة، ويبيّن للناس ما حبا به نبيه محمداً ﷺ من الصبر على البلاء، وتعظيمه أمر الوفاء بما عاهد عليه مهما عظمت شدته واشتدت قسوته.

موقف سهيل من ابنه أبي جندل الذي عجل به ابتلاء المسلمين.

فبينما هم كذلك ـ ولما يكتبوا العهد وشروطه، وإنما كان الأمر لا يزال مفاوضة كلامية انتهى أمرها إلى الاتفاق على شروط العهد ـ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، ولم يكد يراه أبوه سهيل وكان هو صاحب سفارة قريش ومتكلمها في العهد وشروطه، ونائبها في عقد المصالحة حتى ضرب بوجهه وأخذ بتلابيبه وقال: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنّا لم نقضِ الكتاب بَعْدُ» فأبى سهيل إلاَّ شرطه، وقال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً، فوافق النبي ﷺ على أن الشرط لازم واجب الوفاء وإن لم يقض الكتاب، ولكنه طلب من سهيل أن يترك له ابنه أبا جندل استثناء من الشرط، فأبى سهيل أشد الإباء، فصرخ أبو جندل لما علم أنه متروك لأبيه يردّه إلى المشركين، ونادى في المسلمين يثير فيهم حمية الإسلام وأريحية الإيمان: أي معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

آية من آيات السياسة النبوية في تصبير أبي جندل على المحنة وتبشيره.

فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنا لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم».

وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس.

فهو ﷺ يرى أحد المسلمين الذين عذبوا عذاباً شديداً ليفتن عن دينه يرمي بنفسه بين أظهر المسلمين وهو في قيوده وأغلاله، وأبو هذا المسلم المضطهد هو الذي يعقد الصلح مع النبي ﷺ فيستجيزه رسول الله منه فيأبى ويهدّد بالتحلّل من المعاهدة، فلم يزد رسول الله ﷺ على أن أوصى المسلم المعذّب بالصبر والاحتساب، فيصرخ هذا المسلم في إخوانه المسلمين يستدر عطفهم ويثير حماستهم بعرض حاله عليهم وهم يرونه ويرون ما فيه وما لقيه من المشركين، وما ينتظر أن يلقاه منهم بعد ردِّه إليهم، ويخشى رسول الله ﷺ أن يحرِّك هذا الموقف كوامن النفوس في المسلمين وتأخذهم الحمية الإيمانية فيصنعون ما يعوق عقد المعاهدة ويحسم الأمر بقوله: «فإنا لا نغدر» ويبشر أبا جندل ليثبته على الإيمان بأن الله جاعل له فرجاً ومخرجاً، ثم يقول ﷺ كلمة جامعة لتقر في أسماع كافة المسلمين وتعيها قلوبهم: «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم» حتى يكون كل مسلم شهد أو غاب على بيِّنة من أمر منهج رسالة النور والخلود وتمسك الإسلام به، فلا تثيره عاطفة ولا تميل به حمية.

بركة الشرط السادس من شروط المعاهدة. ونقض قريش لهذا الشرط غدراً وخيانة.

وكان شرط هذه المعاهدة السادس الذي تضمن حرية الاختيار للقبائل في الانضمام إلى أحد الفريقين المتصالحين ـ فاتحة خير، وهو الذي عجّل الفتح المبين، فقد تواثبت خزاعة ـ وكانت قديماً مع بني هاشم في حلفهم وكانت موضع ثقة ونصح لرسول الله ﷺ ـ وقالوا: نحن في عقد محمد ﷺ، وتواثبت بنو بكر، وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وكان بين الحيين، خزاعة وبكر إحن وضغائن جاهلية خلّفت بينهم تِراتٍ ودماءً يتحيَّنون لإثارتها الفرص، فلما جاء الإسلام حجز بينهم، وظلوا على ما بينهم من الإحن حتى تم عقد صلح الهدنة، فانتهزها البكريون غدراً وخيانة، وعدوا على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وبيّتوهم في ديارهم وعلى مياههم وهم غارّون آمنون، ورفدت قريش بني بكر حلفاءها بالسلاح والرجال مستخفين، وظاهروهم على حلفاء رسول الله ﷺ الداخلين في عقده وعهده، فنقضت قريش بذلك عهدها مع رسول الله ﷺ الذي واثقته به على أن بينهم وبين المسلمين عيبة مكفوفة وصدوراً سليمة من الغش والخداع، نقية من الغدر والخيانة، وأنه

لا إسلال ولا إغلال، وهم قد سلُّوا السيوف وقاتلوا وخانوا وغدروا.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين من قومه إلى المدينة، يستنصر رسول الله ﷺ ويستنجزه الوفاء بعهده لحلفائه الذين آثروه ودخلوا في عقده وعهده، وقد عدت عليهم بنو بكر حلفاء قريش، ورفدتهم قريش وأعانتهم بالسلاح والرجال.

ولما انتهى عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في مسجده بين أظهر أصحابه أنشده أبياتاً من الشعر يستصرخه بها، وقد قدمناها منسوبة إلى بديل بن ورقاء، وتقول الرواية السابقة إن الذي قدم على رسول الله ﷺ في أربعين من قومه يستنصره على قريش وبني بكر هو بديل ابن ورقاء، وهو الذي أنشد هذا الشعر.

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، وتسامعت قريش برحلة الخزاعيين إلى المدينة يستصرخون رسول الله ﷺ، فرعبت رعباً شديداً وأخذها المقيم المقعد، وندمت على ما فعلت، وسقط في يدها فأرسلت زعيمها أبا سفيان ليشد عقد الهدنة ويستزيد في مدتها.

موقف ذليل مخذول لأبي سفيان ابن حرب.

فلما قدم أبو سفيان المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين السيدة أم حبيبة رضي الله عنها، فذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال لها: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

موقف من مواقف الإيمان وإخلاص اليقين من أم المؤمنين السيدة أم حبيبة مع أبيها أبي سفيان سيد البطحاء.

وهنا إشراقة لامعة بالمنهج الإسلامي ولكنها من لون عجيب جداً، فالسيدة الجليلة أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم قريش وسيد بطحاء مكة، يدخل عليها أبوها بعد طول عهد بفراقها، ويجيء ليجلس على فراش في بيتها فتطويه عنه، فيتساءل في عنجهية الكبرياء المتغطرس، هل طوي عنه هذا الفراش لأنه لا يليق بكبرياء سيد البطحاء وزعيم قريش؟ أو طوي هذا الفراش تعظماً به أن يدنسه رجس الشرك في زعامة البطحاء؟ فتجيبه ابنته الوفية لدينها ولنبيها ورسالته، ولزوجها وعظمته، مبينة له: أنه

فراش رسول الله ﷺ الطاهر المطهر، وأنت رجل مشرك نجس لا تصلح للجلوس عليه خشية أن تدنسه، إنه الإيمان، الإيمان إذا خالطت بشاشته شغاف القلوب، وامتزجت حلاوته بالأرواح والعقول والجوارح.

السبل كلها تعمى على سفير قريش وزعيمها أبي سفيان وتنتهي به إلى سخرية الحياة..

لم يقنع أبو سفيان بهذا الدرس الذي تلقّاه من أقرب الناس إليه لحمًا ودماً، من ابنته في بيت رسول الله ﷺ، ولكنه ذهب إلى رسول الله ﷺ فكلّمه فيما هو قادم من أجله، فلم يردّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فأبى عليه الصدّيق، ثم أتى عمر ابن الخطاب وكلّمه ليشفع لهم عند رسول الله ﷺ، فكان عمر أشد الناس وطأة على صلعة كبرياء زعيم البطحاء. ثم أتى عليّ بن أبي طالب وعنده زوجه فاطمة بنت سيد الخلق ﷺ، وابنها الحسن غلام يدبُّ على الأرض بين يديها، فاستعطف علياً وسأله بالرحم أن يشفع له إلى رسول الله ﷺ فأبى عليه، ولكنه لاينه ورفق به، فالتفت زعيم البطحاء في ذلّة إلى السيدة النبيلة فاطمة البتول وقال لها: يا بنت محمد؟ هل لك أن تأمري بنيّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت أم الحسنين سيدة نساء العالمين: والله ما يبلغ بنيّ هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

أفٍ للكبرياء الجوفاء والغرور التافه، أليست لكم عقول؟ حاربتم محمداً ﷺ وآذيتموه وأصحابه حتى أخرجتموهم من ديارهم وأموالهم، وألّبتم عليه من استطعتم من أخلاط الحقد والبغضاء من اليهود والمنافقين، فهزمكم وانتصر عليكم، وعفا عنكم. وجاءكم مسالماً موادعاً يزور بيت ربه ويعظّم حرمته فصددتموه ومنعتموه، كان في استطاعته أن يستأصل شأفتكم، ولكنه أبقى عليكم تفضّلاً منه فشارطتموه فأفرطتم في شروطكم فقبلها، وأعطاكم الفرصة التي لا تعوض.

فهل كان من مروءة الوفاء أن تقابلوا كل ذلك بهذا الغدر الوضيع؟ وهل كان من مكارم العروبة أن تستذلوا أنفسكم هذا الذل الذي يذهب بكم إلى أن زعيمكم سيد البطحاء يتهانف أمام غلام يدبُّ بين يدي أمه

ليجير بينكم وبين جدّه سيد العالمين ﷺ، ولكنه الكفر الأبله والشرك الجهول، لا طريق له إلى العزّة والكرامة، ولا طريق له إلى السمو النفسي، إنك إن تسمو به يخلد إلى الأرض يلهث لأنه خبيث ظلوم.

أبو سفيان يعود إلى قريش مثقلاً بالخيبة في سفارته.

عاد أبو سفيان زعيم قريش إليها خائباً، وأمر رسول الله ﷺ بجهازه وأمر المسلمين أن يتجهزوا، وسار إلى مكة في حشود جند الله وكتائب الإيمان وأنصار الإسلام، وفي الطريق التقطت عناية الله أبا سفيان رحمه الله تعالى فدخل في الإسلام بعد أن رأى عظمته وعظمة نبيه ﷺ، وفتح الله على رسوله ﷺ مكة المشرفة، ودخلت قريش كلها في الإسلام، وأطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، فكانوا بفضل الوفاء بالعهد من رسول الله ﷺ وأصحابه وببركة هدنة الحديبية هم كتائب الجولة الأولى لفتوح الإسلام كلها، وكانت مكة قلعة وحصناً من قلاع وحصون الدعوة إلى الله بالعلم والحجة النيرّة ثم بالجهاد في سبيل الله.

فدائية أبي بصير أرعبت قريشاً فاستغاثت بالنبي ﷺ متنازلة عن شرط من أقسى شروط المعاهدة.

ومن أروع مظاهر المنهج الإسلامي في معاهدة الحديبية إلى جانب مظاهره في قصة أبي جندل ـ ما أجمع على روايته الأئمة في السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية إلى المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي، وكان ممن حبس بمكة فلم يستطع الهجرة مع المهاجرين، فتخلّص والناس مشغولون بالهدنة وأحاديثها، وفرّ بدينه، ولم يكن قد علم بشروط المعاهدة، فكتب فيه المشركون إلى رسول الله ﷺ أن يردّه عليهم وفاء بعهدهم، وبعثوا بالكتاب رجلاً من بني عامر بن لؤي ومولى لهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك» قال أبو بصير: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ قال النبي ﷺ: «يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

نعم يا رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليك لا يصلح لنا في ديننا الغدر، هذا درس من دروس تربيتك لأمتك تربية ترتفع بها إلى آفاق

العظمة الأخلاقية النبيلة، لأن الغدر لؤم واللؤم شيمة الأدنياء الذين لا يرتفعون عن مواطىء أقدام الحياة.

كان موقف أبي بصير في أزمة الحديبية من أشجع وأنبل مواقف البطولة.

صدع أبو بصير بأمر النبي ﷺ وانطلق مع رسولي المشركين وفاء بعهدهم، وليلقَ في سبيل هذا الوفاء ما يلقى عظماء النفوس في سبيل توطيد مبادىء القيم العليا لبناء الحياة.

ولكن هل ترضى نفوس الأعلياء أن تذل وتخضع لزمجرة الباطل؟ لا، لن ترضى؟ وأين المخرج؟ إن رسول الله ﷺ ـ وهو الذروة في قمة الفضائل الإنسانية ـ قد وفى لأعدائه أصدق الوفاء وأعظمه، فرد إليهم أبا بصير، وليس في عنق أبي بصير عقد لأحد، فليتصرف لينجو بإيمانه ودينه.

ففي الطريق وهو مع رسوليَ قومه نزل ثلاثتهم منزلاً يستريحون ويطعمون من ثمرات معهم، والحديث شجون، فقال أبو بصير للعامري: والله إني لأرى سيفك هذا جيداً، فانتفخت أوداج العامري بَلَهاً واستكباراً، وسلَّ سيفه من غمده، وقال: أجل إنه والله لجيِّد، لقد جرّبت به ثم جربت، وسأضرب به في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل.

وكأنه بهذا الغرور الأحمق قد أثار حمية أسيره أبي بصير لدينه وأصحابه وأنصار نبيه ﷺ، فقال له: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه به حتى برد، وفرّ رفيق العامري مذعوراً يهوي هوياً حتى أتى المدينة، فدخل المسجد وهو يعدو كاشفاً عن سوأته ذهولاً وذعراً، فقال رسول الله ﷺ. . حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: لقد قُتِل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير يحمل معه سلب العامري وقال للنبي ﷺ مبيناً موقفه: يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، وقدّم إلى النبي ﷺ سلب قتيله ليخمسه كما يخمس الغنائم، فقال النبي ﷺ متعجّباً من شجاعته: «ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد» ثم قال «يا أبا بصير إني إن خمّست السَّلب لم أف بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك، واذهب حيث شئت» فلما سمع ذلك أبو بصير عرف أنه سيرده إليهم وفاء بالعهد، فخرج حتى أتى سيف البحر.

أبو بصير وأبو جندل يؤلفون كتيبة في طريق المدينة ترعب قريشاً فتذل وتستغيث.

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، ويلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ثلاثمائة رجل أو يزيدون، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتّجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلّوا في ذلّة عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم، وقد غدروا وخانوا ووفى رسول الله وأصحابه، فذلّت قريش من حيث طلبت العز، وعزّ رسول الله ﷺ وأصحابه من حيث عُدي عليهم، ونصرهم الله نصراً مؤزراً وأثابهم على وفائهم الفتح المبين.

سياسة الحكمة المسالمة أمام عنجهية الغرور المستكبر.

ومن مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة أن رسول الله ﷺ لما اعتمر عمرة القضية ودخل مكة في سلاح الراكب وفاء لقريش بعهدها أقام بها ثلاث ليال، فما أتى الصبح من اليوم الرابع حتى أتاه سهيل بن عمرو، وحويطب ابن عبد العزّى، ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد ابن عبادة، فصاح حويطب نناشدك الله والعقد لمّا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فقال سعد بن عبادة: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا بأرض آبائك، والله لا يخرج، ثم نادى رسول الله ﷺ سهيلاً وحويطباً فقال: «إني قد نكحت فيكم امرأة - يعني ميمونة بنت الحارث - فما يضركم أن أمكث حتى أدخل ونصنع الطعام، فنأكل وتأكلون معنا؟» فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله ﷺ فأذن بالرحيل.

في كل مظهر من مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة نجد صوراً من النبل النبوي والتسامي في الرفق بالأعداء والمسالمة معهم، وفتح باب التقارب، تعبّر أصدق تعبير عن مدى الحرص على مبادىء الوفاء بالعهد في هذا الدين القيّم.

لم يُنْظِر المشركون المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ لحظات من الزمن بعيد انقضاء الأجل المضروب للإقامة في مكة حتى جاؤوا النبي ﷺ يلحون عليه في الخروج منها وفاء بالعقد الذي تمّ بينهم في شروط المعاهدة.

تلطف ومبالغة في المسالمة أمام جفوة الشرك وحقد الوثنية.

وقد أراد النبي ﷺ أن يبالغ في التلطف بهم ليستل من صدورهم الحفيظة على الإسلام والمسلمين، ويستميلهم إلى الوفاق والمسالمة، فأخبرهم حين ناشدوه أنه تزوج فيهم امرأة ولمّا يدخل بها، ولا يضرهم شيئاً أن يمكث بمكة ريثما يدخل بأهله، وزادهم في التلطف معهم أنه يريد أن يشاركوه وأصحابه طعام وليمة زواجه فيهم، ولكنهم أبوا إلا جفوة وتنائياً، وعادوا يلحّون في خروجه عنهم مناشدينه الله والعقد، فلم يسعه ﷺ أمام جفائهم وتأبّيهم إلا أن أمر فأذّن في أصحابه بالرحيل وفاء بما عاهدهم عليه.

ولما كانت معاهدة الحديبية هي أجلّ معاهدات الإسلام وأخطرها لما احتف بها من أحوال وشؤون، ولما اشتملت عليه من شروط، ولما برز فيها من السياسة الحكيمة الحازمة التي عالج بها رسول الله ﷺ الموقف من جانبيه، جانب عتو المشركين طغياناً وكفراً، وجانب ما أصاب المسلمين من الشدة والحيرة، ولما تجلّى فيها من مواقف الحرص البالغ على الوفاء بعقدها على ما كان فيه من القسوة على المسلمين، ولما أعقب ذلك كله من الخير والبركة للإسلام والمسلمين، بما كشف ستر الغيب عنه في تتابع الأحداث.

وكان أعظم ذلك وأجله الفتح المبين، فتح مكة الذي مهد للمد الإسلامي وفتوحاته التي نشرت العدالة والرحمة في أرجاء الأرض.

واقتضت الحكمة الإلهية أن يعقب هذا الفتح فترة الحديبية التي انتهت بغدر أهل مكة وخيانتهم لله ورسوله في نقض هذه المعاهدة والعبث بشروطها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

آثار معاهدة الحديبية
في إبراز معالم منهج الرسالة

لذلك كله جعل علماء الإسلام وأئمته معاهدة الحديبية منذ عقدها والتزام المسلمين الوفاء بعهدها ـ نصب أعينهم في مواقفهم الصارمة لحماية أهل الذمة والمعاهدين أن يظلموا، أو يضاموا، وهم في ظل الإسلام يرعون ذمامه وعهده.

وجعلها الخلفاء والأمراء والولاة وصالحو ملوك الإسلام أصلاً يئلون إليه في بناء علاقة المسلمين بغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وظلاًّ ظليلاً يفيء إليه المعاهدون إذا أصابهم في ظل الإسلام ضيم، أو هضم لهم حق، أو وقع عليهم ظلم.

ولذلك جاءت السنة النبوية بما تضمنته هذه المعاهدة المباركة من أصول وقواعد وجاءت الوقائع والحوادث التطبيقية في تاريخ العدالة الإسلامية قائمة على دعائم من مبادىء هذه المعاهدة التي نبعت من الهداية القرآنية، ومن إشراق أنوار النبوة المحمدية الخاتمة.

روى أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً، أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»، وفي حديث عبدالله بن أرقم أن النبي ﷺ ولاّه على جزية أهل الذمة، فلما ولّى من عنده ناداه فقال: «ألا من ظلم معاهداً، أو كلّفه فوق طاقته أو انتقصه من حقه، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». وفي حديث عمرو بن عبسة الذي ردّ به معاوية رضي الله عنهما عن

قصده مع الروم أن النبي ﷺ قال: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء».

وقد حذر النبي ﷺ من الغدر تحذيراً شديداً فقال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته، يقال هذه غدرة فلان». وقال ﷺ : «من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله فأنا بريء من القاتل». وقال صلوات الله وسلامه عليه: «ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو».

وقد جعل النبي ﷺ المسلمين في الوفاء بالعهد والذمة سواسية: كبيرهم وصغيرهم، وعظيمهم، وأدناهم، فقال: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»، وفي رواية أخرى: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

غَزوَة الفَتح الأعْظَم

فَتحُ مَكّة المكرّمَة

أسبابها وأحداثها وآثارها

غزوة الفتح الأعظم

لم تكن غزوة فتح مكة غزوة قتال، بل كانت غزوة سلام ومسالمة ووفاء للصديق وتأديباً للعدو.

لم تكن غزوة مكة المشرفة غزوة قتال كما كانت غزوة (بدر) و (أحد)، ولكنها كانت غزوة مسالمة ووفاء بالعهود والمواثيق، وروابط الحياة الاجتماعية التي يعظِّمها المجتمع العربي قبل الإسلام، ولا ينكرها الإسلام ديناً وشريعة ونظاماً اجتماعياً في علاقات الأفراد والجماعات، بعيدة عن العصبيات القومية الظالمة، والأعراف الجاهلية الطاغية.

وكان مظهر السلم والمسالمة والوفاء بالنسبة لتأديب العدو هو إثارة الرعب بإظهار قوة الكتائب المسلمة في قلوب بقايا طواغيت الوثنية الفاجرة، ليرتدعوا عن عنجهيتهم المغرورة بما تملك من مآثر الجاهلية الجاهلة واستكبارهم في الأرض بغير الحق، وأما بالنسبة لمن لم تنغلق قلوبهم دون الإيمان بأبواب الفجور الوثني، فتتجلى مظاهر الوفاء والمسالمة في مكارم العفو والإحسان الذي غمر به النبي ﷺ هؤلاء المتأرجحين بين الصدّ والقبول حتى فاؤوا إلى الإيمان.

ولهذا كانت هذه الغزوة على غير أوضاع الغزوات التي سبقتها في القوة المادية والتأهب بعناصرها وأسبابها من الرجال والسلاح، والبدء بالهجوم، وغزو الأعداء في عقر دارهم، وأخذهم ضغطة لكسر شوكتهم، ورعبلة ما بقي لهم من مظاهر القوة المادية التي كانت عمادهم في حروبهم الجاهلية وتراثهم القتالي الظلوم المغلّف بالبغي والعدوان.

كثافة جيش الفتح واكتمال عدته.

وقد كان الجيش الذي زحف به رسول الله ﷺ عليهم ـ لتأديبهم على ما أقدموا عليه واقترفوا إثمه من فجور الغدر ونقض العهد والعبث بالمواثيق،

وهم في ديارهم غافلون، يسترقون الخيانة، ويتخونون الغـدر لمساعـدة حلفائهم البكريين على حلفاء النبي ﷺ الخزاعيين ـ جيشاً عرمرماً، وحشداً كثيفاً من كتائب الأبطال المجاهدين، لم يعرف أنه اجتمع للمجتمع المسلم مثله عدداً وعدّة قبل هذه الغزوة المباركة.

وقد قدّرت الروايات عدد هذا الجيش الزاحف بقيادة رسول الله ﷺ على مكة ـ شرّفها الله ـ لفتحها وإقرار الإسلام بها، وتنقيتهـا من بثور الوثنيات وتطهيرها من أوضار الشرك وأرجاسه، وردّها حرماً آمناً كما خلقها الله يوم خلق السموات والأرض طاهرة مطهّرة لا يعبد فيها إلا الله تعالى ـ بعشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، ومن انضم إليهم من القبائل التي ضربت أطناب منازلها حول المدينة المنورة مثل بني سُليم، وغفار، وأسلم، وأشجع، ومزينة وجهينة، وهذه رواية الجمهور.

وفي مرسل عروة عند ابن عائذ أن عدد من كان مع رسول الله ﷺ بلغ اثني عشر ألفاً، وهو مذكور في إكليل الحـاكم، وشرف المصـطفى للنيسابوري.

وقد جمع بين الروايتين ابن حجر فقال: إن العشرة آلاف خرج بها ﷺ معه من المدينة، ثم تلاحق به ألفان من القبائل التي كانت منازلها حول المدينة. ومع توافر هذه القوة المادية البالغة في عددها وعدتها الحربية قدراً لم يكن متوافراً مثله أو قريب منه للمجتمع المسلم في غزواته قبل هذه الغزوة المباركة ـ كما لم يجتمع مثله أو قريب منه لأعداء الإسلام سوى ما كان في غزوة الخندق حين جمعهم خبثاء اليهود من أشتات القبائل الحائرة المتربِّصة الذين لا تحزمهم عروة، ولا يربطهم هدف ـ لم يكن يظهر على مشاعر النبي ﷺ شيء من سمات الانتقام من أعدائه الذين كذّبوه وأخرجوه من بلده، وهاجموه في مهجره بروح انتقامية وحقد يشوي أكبادهم، بل كانت تغلب عليه في حركاته وتصرفاته عواطف الرحمة والعفو، والصفح الجميل، فقد أمر ﷺ أمراء كتائبه المجاهدة بعدم القتال، وهو على مشارف مكة، بعد أن وضعهم في مواضعهم، وبيّن لهم مسالك دخولهم مكة، اتقاءً لما يحدث من شدة التزاحم بين الكتائب.

ومن أجلّ وأعظم مظاهر العطف والرحمة ـ التي تجلّت في تصرفاته الكريمة وهو داخل مكة مظفراً ـ موقفه مع سعد بن عبادة، وهو حامل لواء الأنصار، فقد مرّ سعد بأبي سفيان بـن حرب، فقال له: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلُّ الحرمة، فشكى ذلك أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فأشكاه النبي ﷺ وقال له ليستل سخائم صدره ويذيب كفره وعناده: «بل هذا يوم تعظَّم فيه الكعبة» وأمر براية الأنصار أن تؤخذ من سعد بن عبادة، وتدفع إلى ابنه قيس بن سعد، وهذا من أحكم التصرفات للقيادة الحازمة.

موقف حكمة ورحمة وتلطف بأبي سفيان يحد من حدَّة سعد ابن عبادة ويثلج صدره.

وفي رواية أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ، وأنشدته أبياتاً من الشعر تستعطفه، وتشكو إليه ما قال سعد، قالت:

يا نبي الهدى إليك لجا حيّ	قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو	م ونودوا بالصَّيْلم الصلعاء
أن سعداً يريد قاصمة الظهـ	ر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيـ	ظ رمانا بالنسر والعواء
فانْهَيَنْه فإنه الأسد الأسـ	ود والليث والغ في الدماء
فلئن أقحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء أهل اللواء
لتكونَنَّ بالبطاح قريش	بقعة القاع في أكف الإماء
إنه مصلت يريد لها الرأ	ي صموتٌ كالحيَّة الصمّاء

قال ابن كثير: فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر دخله رحمة بهم، ورأفة لهم، وأمر بالراية فأخذت من سعد بن عبادة، ودفعت إلى ابنه قيس ابن سعد، فكأنها لم تخرج عن يد سعد.

ويقول السهيلي في الروض: وزاد غير ابن إسحاق في الخبر أن ضرار ابن الخطاب الفِهْري قال يومئذ شعراً ـ حين سمع قول سعد ـ استعطف فيه النبي ﷺ على قريش وهو من أجود شعره، ثم ذكر السهيلي سبعة أبيات من هذا الشعر وأسقط منه بيتين.

رأي السهيلي في نسبة هذا الشعر.

والذي يظهر لنا صحة رواية السهيلي في نسبة هذه الأبيات لضرار ابن الخطاب، فهو صاحبها وقائلها، ولكنه أعطاها امرأة تنشدها على مسمع من رسول الله ﷺ، إما لأنها أدخل في الاستعطاف ـ قال ابن حجر في الفتح: وكأنه أرسل به المرأة لأنه أبلغ في المعاطفة عليهم. . أو لأن ضراراً استحيا أن يقف بين يدي رسول الله ﷺ بأبياته على ما كان منه في جاهليته، أو لأنه تعزّز بجاهليته أن يقف موقفاً استعطافياً، يشعره بمرارة موقفه في ذلّة الاستعطاف.

وأجل من ذلك وأعظمه وأنبله ما كان منه ﷺ في مظاهر العفو عند القدرة في موقفه الكريم مع سائر أهل مكة، وقد صاروا جميعاً في قبضته بعد دخوله مكة، والرعب يتملكهم، والحَيْرة والدّهش والذهول، وصغار الذلّة تستولي على أفئدتهم، فأطلقهم ﷺ جميعاً، ولم يستثنِ إلاّ نفراً قليلاً لم يكن في قلوبهم مكان للإيمان والهداية للإسلام، فأمر ﷺ بقتلهم ولو وجدوا في آمن مأمن، متعلّقين بأستار الكعبة كابن خطل، والحارث بن نقيذ، ومقيس ابن صبابة، وفرتنا التي كانت تغنّي طواغيت الكفر بهجاء رسول الله ﷺ.

حملة زاجرة، ووفاء بعهد قديم كريم.

وقد كان المظهر الغالب للوفاء في هذه الغزوة المباركة ـ كما قلنا ـ هو إثارة الرعب والرهبة وترسيخ الفزع والدهش في قلوب بقايا الطغاة من طواغيت الكفر الكفور والوثنية الطائحة المتهاوية، ليزدجروا عن شراستهم في عداوة الإسلام، وحامل رسالته ﷺ والمؤمنين بهذه الرسالة الهادية الخالدة، ويرتدعوا عن عنجهيتهم المخدوعة بمواريث جاهليتهم التي درجوا في أوحال شرورها ومفاسدها، وشبُّوا وشابوا في حمأة رذائلها وفجورها.

ولم يكن الهدف الأصيل للنبي ﷺ من هذه الغزوة المباركة القتل والقتال لشفاء حزازات الصدور، وغسل أحقادها بالدماء تسفك في حرم الله الذي مكّنه لمتوطّنيه حرماً آمناً، تهوي إليه الأفئدة من كل صوب وحدب، حباً وإخاء وتراحماً.

وكانت جذور هذا الوفاء الكريم الذي حرّك النفوس الكريمة لهذه الغزوة تمتد في عروقها إلى أصل كريم عرفت به نبعة رسول الله ﷺ التي

انفرجت عن غصنه الروّي بما فيه من الفضائل، وكرائم عروقها، وشهرت به دوحة هذا البيت الهاشمي الكريم الذي تسامى به شرفه القديم والحديث مرتبطاً بشرف الكعبة المعظّمة التي كانت لهذا البيت الهاشمي دون سائر بيونات وقبائل العرب سدانتها وخدمة زُوّارها، وبذل ما يلزمهم من الخدمات، ونصرة المظلوم، وإغاثة الضعفاء، وحماية المستضعفين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وإطعام الطعام، وسقي الماء من كل شيء تحتاج إليه الوفود الوافدة إلى بلدهم، ولا سيما في المواسم والأسواق والمحافل.

وقد بلغت تلك المكارم ذروة الفضل والشرف، واحتلت منها قمة النجدة والمروءة في حياة رجلها عبد المطلب بن هاشم جدّ محمد ﷺ الذي ارتفع بمكارمه إلى أرفع مكان يشْرُف به إنسان في جاهلية العرب، وسار باسمه وشرفه في أكناف الجزيرة العربية وأرجائها، فشرّق وغرّب، وأتهم وأنجد حتى ضرب به المثل، وصار القرب منه منقبة من مناقب القبائل العربية، وحسبها عندهم أنها حليفة عبد المطلب بن هاشم سيد الحجاز، وسادن الكعبة المشرفة، ومن ثم كانت خزاعة إحدى كبريات القبائل العربية تعرف في جاهليتها بأنها حليفة عبد المطلب بن هاشم.

فزع خزاعة إلى النبي تستنصره على الغادرين من قريش ومبادرته ﷺ بنصرتهم.

ولما غدرت قريش بعهد الحديبية ونقضته بالغدر والخيانة، وقاتلت خزاعة وقتلت منهم لتعين تحت جنح الظلام حلفاءها البكريين على حلفاء رسول الله ﷺ الخزاعيين؛ فزعت خزاعة إلى رسول الله ﷺ تطلب منه نصرته لها ووفاءه بعهده وعهد جدّه عبد المطلب، وقدّمت إليه كتاب عهد جده عبد المطلب، فقرأه عليه أبيّ بن كعب الأنصاري.

ونص هذا الكتاب - كما ذكره الزرقاني - باسمك اللهم، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي، غائبهم يقرّ بما قاضى عليه شاهدهم، أن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده ما لا ينسى أبداً، اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرف ثبير، وثبت حراء، وما بلّ بحر صوفة، ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبد الدهر سرمداً.

فأجابهم النبي ﷺ فقال: «ما أعرفني بحلفكم، وأنتم على ما أسلمتم

عليه من الحلف، وكل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلّا شدّة، ولا حلف في الإسلام».

قال الزرقاني: والحلف المنهي عنه ـ أي في الإسلام ـ ما كان على الفتن والقتال والغارات، والذي قوّاه الإسلام ما كان على نصرة المظلوم، وصلة الأرحام والخير ونصرة الحق.

وقد حقّقنا فيما سبق مسألة الحلف في الجاهلية، والنهي عن إحداثه في الإسلام، لأن الشريعة مغنية عنه، لا يحتاج إليه المسلمون وهم في ظلها، وذكرنا آراء العلماء وروايات الأحاديث في ذلك.

تنويه النبي ﷺ بحلف الفضول وشهوده مجلس تأليفه.

وقد تأثّلت هذه المكرمة في البيت الهاشمي، وعلى دعائمها قام حلف الفضول، وهو حلف أسّسه أو شارك في تأسيسه بعض عمومة النبي ﷺ، وكان من أشهرهم ذكراً في القيام بتأسيس مبادئه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ.

وقد أدرك النبي ﷺ هذا الحلف قبل بعثته، وكان هذا الحلف يتخذ من دار عبدالله بن جدعان مقراً له، وكان النبي ﷺ يحضره مع أعمامه، وتحدّث عنه بعد بعثته فقال: «لقد أدركت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما يسرني أن لي به حُمُر النَّعَم، ولو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت»، والمراد: ولودُعيت إلى القيام بتنفيذ مبادئه وتحقيق أهدافه لأجبت إلى ذلك، لأن مبادىء هذا الحلف وأهدافه منطوية تحت أصول وقواعد الشريعة التي جاء بها الإسلام في رسالته لإخراج الناس من ظلمات الجَوْر والظلم إلى نور المساواة والعدل.

حزازات جاهلية يستغلها الغدر في سفك الدماء.

وقد كانت بين خزاعة وبني بكر حزازات جاهلية وأثؤر قديمة، وحروب ناشبة قبل الإسلام، فلمّا جاء الله بالإسلام هداية للناس، وبعث به خاتم أنبيائه محمداً ﷺ رحمة للعالمين تشاغلت القبائل العربية، وفيهم خزاعة وبنو بكر بأحاديثه وحوادثه وأحداثه وقصصه عما كان بينهم من خصومات وحروب، ودام ذلك زمن الدعوة إلى توحيد الله بمكة، وأعوام من زمن الاستقرار بالمدينة المنورة، حتى كانت معاهدة الحديبية وهدنتها سنة ست من الهجرة بين رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، وبين قريش في عتوها وكفرها،

وكان من شروط تلك المعاهدة: أن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، فوثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ثم وثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل مع قريش في عهدها وعقدها.

ولما وُقّعت الهدنة وهدأ الناس ـ ومشى بعضهم إلى بعض مسلمهم وكافرهم، وأمن بعضهم بعضاً، وتبادلوا فيما بينهم المصالح والأحاديث والقصص، ووصلوا ما كان مقطوعاً، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً ـ تحرك الثأر الجاهلي فيما بين خزاعة وبني بكر، واستثيرت الكوامن التي كانت تملأ صدور بني بكر حفيظة وغيظاً على خزاعة، وخرج نوفل بن معاوية الديلي في جمع من قومه بني نفاثة، وهم بطن من الديل، والديل بطن من بني بكر، وبيّت نوفل ومن معه من قومه خزاعة على ماء لهم يقال له (الوتير)، واستفاقت خزاعة من غفلتها ونشب بين الفريقين القتال حتى دخلوا الحرم وهم يقتتلون، فقالت بنو بكر لقائدهم نوفل بن معاوية الديلي بلسان الشيطان: يا نوفل، إنا قد أدخلناهم الحرم إلهك إلهك، يحذِّرونه بطش آلهتهم بهم إذا انتهك حرماتهم، فقال نوفل ساخراً من قومه وجهالتهم وكفرهم وانحطاط وثنيتهم وتفاهة عقولهم: كلمةٌ عظيمة، لا إله له.

سخرية نوفل ابن معاوية الديلي بوثنية قومه قبل أن يسلم.

ومعنى هذا الكلام الساخر الكفور المستهزىء بهم أن نوفلاً يعلم كغيره من أساطين الوثنية أن الأصنام التي اتخذها قومه من أحلاس الوثنية آلهة هي في الحقيقة حطٌّ من قدر العقل الإنساني، ولو كان هذا العقل مغرقاً في انحطاط جاهليته.

ثم وجّه نوفل إلى قومه تهكمًا لاذعاً شديد الاستهزاء والسخرية بهم، فوصفهم ببلاهة التفكير، وعدم نظافة الأخلاق مما يلطِّخ المروءة الإنسانية، ويسوّد وجه الفضيلة الاجتماعية فقال لهم: يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ وهذا كلام لا يخرج إلا من عقل ماكر، يعلم أن قومه ليسوا على دين، ولا عقيدة لهم ولا مروءة عندهم، ولا يعرفون لمكارم الأخلاق مكاناً في مجتمعهم الوثني

المتهافت، وأن هذه الآلهة التي يعظمونها لا تساوي ما يخرج من أحدهم، ولذلك وجّه إليهم احتقاره وسخريته بعقولهم في قوله: إنكم لتسرقون في الحرم دون أن يكون لهذه الآلهة الباطلة أي وزن من الاحترام في نفوسكم، فأيّ قدر لها ليترك من أجله الأخذ بالثأر وأنتم الذين تقترفون في الحرم كل فاحشة موبقة بين يدي هذه الآلهة ولا تخافونها، ولا تخشون بطشها بكم، فقولكم: إلهك إلهك، تحذير مما لا يحذر منه، وهي كلمة عظيمة يرعب بها مَنْ جهل حقيقتها من دهماء المفزّعين برؤوس الشياطين، وغوغاء البُلْه المغفّلين، أما ذوو الدهاء المتخابث الذين يعلمون ما آلهتهم فهم ملاحدة في كفرهم لا يدينون بدين، ولا يعتقدون أنَّ لهم آلهة تمنعهم من الفجور والإفساد في الأرض في الحرم وفي غير الحرم، فلا أثر لتخويفه منها وتحذيره من ضررها، لأنها شيء لا يضر ولا ينفع فلا إله له منها، وإنما هي أنصاب منحوتة من رضف صخور الجبال أقامها الذين يخدعون بها أنفسهم للعبث بالعقول.

غدر قريش ونقضها عهد الحديبية بمساعدة بني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ تحت أستار الظلام.

وفي فحمة أستار الظلام تسلّلت قريش يقدمها الموتورون إلى هذه المعركة الخائنة الغادرة، فأمدّت حلفاءها البكريين بالسلاح والرجال، واشترك معهم في خفية من دامس الظلام بعض رجالاتها ناقضة لعهد رسول الله ﷺ باقتحامهم أحد شروط هدنة الحديبية، متوهِّمين أنهم ينجون من أخذهم بجريمتهم التي استَخْفُوا بها من الله الذي لا يعرفونه، وقال بعضهم لبعض في جهالة كافرة وكفر جهول: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا من أحد، فأعانوا بني بكر على خزاعة بالكُراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ.

وقد ذكر الرواة بعض أسماء رجال قريش الذين شاركوا بني بكر في قتال خزاعة، فذكروا منهم صفوان بن أمية بن خلف، وشيبة بن عثمان الطلحي، وسهيل بن عمرو، وهو الذي تولى عقد الهدنة عن قريش، وحويطب بن عبد العزّى، ومِكْرز بن حفص الذي وصفه رسول الله ﷺ بالغدر والفجور عندما جاء لمفاوضة رسول الله ﷺ على شروط المعاهدة، وغدرُه وفجورُه من أوصافه منذ كان في جاهليته، فقد روي أنه جمع حوله

يوم الحديبية خمسين رجلاً من شرّاد القوم وشرارهم وأراد أن يبيت بهم المسلمين ـ كما رواه الواقدي ـ فتنبه له حرس المسلمين، وكان على رأسهم محمد بن مسلمة، فأخذوهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وسرّحهم طلقاء، وانفلت مكرز هارباً فلم يؤخذ فيمن أخذ، ولا شك أن هذا الصنيع من أشنع الفجور والغدر، ولم يثبت إسلام مكرز، ولم يعرف أن أحداً من الرواة عدّه في الصحابة، والظاهر أنه مات مشركاً.

تعجب ابن حجر من وصف مكرز بالفجور مما يُتعجب منه إذ لا وجه له.

فقول ابن حجر: وما زلت متعجّباً من وصفه بالفجور، مع أنه لم يقع منه في قصة الحديبية فجور هو مما يتعجب منه لوجهين:

أولاً ـ أنّ وصف النبي ﷺ له بالفجور ورد مطلقاً، لم يقيد بالحديبية ولا بغيرها، وتعجّب ابن حجر إنما انصب على أنه لم يقع من مِكْرز فجور في قصة الحديبية، ولا يردُّ العام بالخاص.

ثانياً ـ أن حادثة تبييته المسلمين بخمسين رجلاً جمعهم حوله كانت في الحديبية، وقد ذكرها الواقدي ولم ينفها غيره، ولو نفيت في رواية غيره صراحة لكانت حجّة على إبطال تعجّب ابن حجر، لأن المثبت مقدّم على النافي.

وقد ذكر ابن حجر قصة نقلها من مغازي الواقدي في غزوة (بدر) تثبت فجور مكرز وغدره منذ جاهليته، ثم قال ابن حجر: فكان مكرز معروفاً بالغدر.

ولما دخلت خزاعة الحرم، وتبعهم نوفل بن معاوية في قومه بني بكر يقتلون من أدركوا من خزاعة لجأت خزاعة إلى دار بُدَيل بن ورقاء الخزاعي بمكة يحتمون فيها، حتى إذا أدركهم الصبح تسلَّلت رجالات قريش في عماية الصبح إلى منازلهم، وهم يظنون أنهم لا يعرفون بغَدْرتهم، وأنها لا تبلغ لرسول الله ﷺ، بيد أنهم رعبوا رعباً شديداً، فقال سهيل بن عمرو لنوفل ابن معاوية يريد صده عن تتبع خزاعة بالقتل وهم محصورون ليستأصل من بقي منهم: (قد رأيت الذي صنعنا بك وبأصحابك، وبمن قتلت من القوم، وأنت قد حصرتهم، تريد قتل من بقي منهم، وهذا ما لا نطاوعك عليه،

فاتركهم، فتركهم نوفل خشية خذلان قريش له ووقوعه في شر ما صنع من الغدر.

ندم قريش كان جبناً وهلعاً من انتصار رسول الله ﷺ لحلفائه بني خزاعة.

وقد ندمت قريش على ما صنعوا وعرفوا أنه نقض للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وتلاوموا على ما كان من بعضهم، فجاء الحارث ابن هشام وعبدالله بن أبي ربيعة، وهما ممّن لم يشهد الواقعة إلى صفوان بن أمية ابن خلف، وحويطب بن عبد العزّى وسهيل بن عمرو، وكانوا ممن أشعل نارها وتبعهم من تبعهم من قريش، فلاماهم على ما صنعوا وقالا لهم: إن بينكم وبين محمد مدّة، وهذا نقض لها، واجتمعت قريش للتشاور فيما يخرجهم من هذا المأزق الغادر الذي أدخلوا أنفسهم فيه.

قال الزرقاني: أخرج مسدّد في مسنده والواقدي في مغازيه: أن قريشاً ندمت وقالت: محمد غازينا، فقال ابن أبي سَرْح: لا يغزونّكم حتى يخيركم في خصال كلّها أهون من غزوه، يرسل إليكم أن دُوا قتلى خزاعة، وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً، أو تبرؤا من حلف بني نفاثة، أو ننبذ إليكم على سواء، فقال سهيل بن عمرو: نبرأ من حلفهم أسهل، وقال شيبة بن عثمان الطلحي: ندي القتلى أهون، وقال قرظة بن عبد عمرو: لا ندي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء.

وقال أبو سفيان بن حرب: ليس هذا بشيء، وما الرأي الأصوب إلا جحد هذا الأمر، أن تكون قريش دخلت في نقض عهد، أو قطع مدة، وأنه قُطع قوم بغير رضاً منا ولا مشورة فما علينا؟ قالوا: هذا الرأي، ولا رأي غيره، وقبلوا جميعاً رأيه لزعامته في قريش وشهرته بالمكر والدهاء، وكان هو البقية الباقية في قريش من ذوي رأيها، وأصحاب لدد العداوة للإسلام وأهله ودعوته وحامل أمانة رسالته محمد ﷺ.

وانتهت المعركة بين خزاعة وبني بكر ومن ساندهم وأمدّهم بالسلاح وشاركهم من قريش في قتال خزاعة، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين رجلاً من خزاعة فقدموا على رسول الله ﷺ المدينة، يطلبون منه الوفاء بعهده معهم الذي دخلت فيه خزاعة معه في شروط الهدنة وعقدها

ليستنصروه على قريش وحلفائها بني بكر، فوجدوه ﷺ في مسجده الشريف، فأخبروه بقصة غدر قريش وبني بكر، وتبييتهم على (الوتير)، وتتبُّعهم لهم في الحرم حتى أدخلوهم دار بُديل بن ورقاء بعد مقتلة منهم، فقام ﷺ يجر رداءه وهو يقول: «لا نُصرت إن لم أنصركم مما أنصر منه نفسي».

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي يعلى بسند جيد، قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بني كعب غضباً لم أره غضبه منذ زمان، وقال: «لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب».

وروى الواقدي أنه ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها صبيحة وقعة خزاعة: «لقد حدث يا عائشة في خزاعة أمر» فقالت عائشة رضي الله عنها: أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد الذي بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال ﷺ: «ينقضون العهد لأمر أراده الله» قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، خير، قال ﷺ: «خير».

نهوض رسول الله لمناصرة خزاعة وفاء بعهدها.

وفي حديث أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها عند الطبراني في صغيره أنها قالت: بات عندي رسول الله ﷺ ليلة، فقام ليتوضأ إلى الصلاة فسمعته يقول في متوضئه: «لبيك، لبيك، لبيك» ثلاثاً «نصرت، نصرت، نصرت» ثلاثاً، فلما خرج قلت: سمعتك تقول في متوضئك: «لبيك، لبيك، لبيك» ثلاثاً: «نصرت، نصرت، نصرت» ثلاثاً، كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ فقال ﷺ: «هذا راجز بني كعب يستصرخني، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر».

وهذا من قبيل الإخبار بالغيب، فهو عَلَم عظيم من أعلام النبوة، ومعجزة كونية شرّف الله تعالى بها نبيه، وأكرمه في رسالته إنافة بقدره العظيم، وهذا مما لا يكون إلّا بوحي من الله تعالى.

حرص رسول الله ﷺ وتحرزه لإخفاء قيامه في نصرة خزاعة.

ثم أمر ﷺ عائشة رضي الله عنها أن تجهِّزه للاستعداد لغزو قريش وفاء بعهده مع حلفائه الخزاعيين، وأمرها ﷺ أن تخفي الأمر فلا تُعلم به أحداً. وعند ابن إسحاق والواقدي: أنه ﷺ قال لها: «جهزينا وأخفي أمرك»

ثم قال ﷺ: «اللهم خُذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلاّ بغتة، ولا يسمعون بنا إلاّ فلتة».

وأمر ﷺ أن تقام الأنقاب، وأماكن التفتيش، وجعل عليها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وأمر أصحاب الأنقاب أن لا يدعوا أحداً يمرُّ بهم ينكرونه إلا ردُّوه.

وكانت الأنقاب مفتوحة الأعلى، مَنْ سلك إلى مكة فإنه يتحفظ منه ويسأل عنه خشية أن يكون جاسوساً لقريش، أو يكون ممن يخاف منه أن يتحدَّث بما رأى ولو لم يكن ذلك مقصوداً له.

وهذا التدبير من أحكم ما تقوم عليه سياسة مباغتة العدو الغادر، وهو من التدبير المحكم الذي ينبغي أن تأخذ به قيادات الأمة الإسلامية في تيقظها لحركات عدوها، والتحفظ الشديد في أخبارها لئلا تتسرب إلى أعدائها، وفيه تأكيد لأسلوب المفاجأة الذي أراده النبي ﷺ في تأهبه واستعداده وتجهيزه لأخذ قريش بغتة، كما قال ﷺ في دعائه: «اللّهم خُذ على أبصارهم وأسماعهم فلا يرونا إلاّ بغتة، ولا يسمعون بنا إلاّ فلتة».

وكان أخصّاء أصحابه وأهل بيته الذين يعلمون بعض ما يقتضيه الموقف من العلم بشيء من أسراره وطوارىء الحوادث حِراصاً أشد الحرص على حفظ سرِّه ﷺ، لا يتحدّثون بما يعلمون إلى أحد ولو كانوا آباءهم، بل لو كانوا مع هذه القرابة القريبة أخصّ الناس برسول الله ﷺ كما يدل على ذلك موقف عائشة رضي الله عنها من أبيها أبي بكر الصديق، وهي تعلم أنه رضي الله عنه أخصُّ الأصفياء برسول الله ﷺ وأحفظ الناس لسره.

كتمان عائشة رضي الله عنها أمر مسيره ﷺ إلى مكة على أبيها.

قالت السيدة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ في حديثها الطويل عند الطبراني: فدخل أبو بكر على عائشة وهي تتحرك في تجهيز رسول الله ﷺ، فقال: يا بنية، ما هذا الجهاز، فقالت: والله ما أدري، فقال أبو بكر: والله، ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فقالت عائشة: والله لاعلم لي.

وفي مرسل أبي سلمة عند ابن أبي شيبة أنها أعلمته، فقال: والله ما انقضت الهدنة بيننا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فذكر له النبي ﷺ أن قريشاً أول من غدر، ونقض عهد الهدنة وحلّ عقدتها.

والتوفيق بين هذين الخبرين أن عائشة رضي الله عنها كتمت سرّ رسول الله ﷺ على أبيها أول الأمر، وهي تعلم منزلته عند رسول الله ﷺ، وأنه أكتم الناس لسره، ثم حدثت رسول الله ﷺ بما كان منها مع أبيها، فرأت من النبي ﷺ أنه لا ينكر عليها إعلام أبيها بالخبر لو أعلمته.

أبو بكر يذهب إلى النبي ﷺ ليؤكد خبر نقض قريش للعهد.

ثم ذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بعد إعلامها له، وأراد معرفة غَوْر هذا الحدث الذي يتجهّز له رسول الله ﷺ، ويكتمه ويوصي بكتمانه، وتحدّث معه في شأن قريش ونقضها عهد الهدنة، فأخبره النبي ﷺ بأن قريشاً كانت أول من غدر بالهدنة وعهدها فهو يتجهز لغزوها، وهذا معنى ما ذهب إليه الزرقاني في توفيقه بين الحديثين إذ قال: ويحتمل الجمع بأن أباها دخل عليها مرّتين، الأولى قالت له: لا علم لي، حتى أخبرته ﷺ - أي بما كان منها لأبيها من الإنكار وقولها له: لا علم لي - ولكن النبي ﷺ أذن لها في إخبار أبيها، لكونه عيبة سرِّ رسول الله ﷺ، فدخل عليها أبوها ثانياً فأخبرته، وكأنه لم يبلغه نقض قريش العهد.

قالت السيدة ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ في حديثها: فأقمنا ثلاثاً، ثم صلّى الصبح ﷺ بالناس، فسمعت الراجز ينشده:

يا ربِّ إني ناشد محمداً ... حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا

إلى آخر الأبيات المتقدمة.

حرص رسول الله ﷺ على معرفة من الذي تولى كبر نقض العهد تحقيقاً للعدل في أرفع مراتبه.

وفي حديث ابن عمر عند ابن عائذ أن رَكْب خزاعة لما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه بقصتهم قال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «فمن تهمتكم وظنتكم؟» قالوا: بني بكر، قال ﷺ: «أكلُّها؟» قالوا: لا، ولكن بنو نفاثة ورأسهم نوفل، قال ﷺ: «هذا بطن من بني بكر، وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر، ومخيِّرهم في خصال ثلاث» فبعث إليهم يخيِّرهم

بين أن يَدُوا قتلى خزاعة، أويبرأوا من حلف بني نفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء، فجاءهم مبعوث رسول الله ﷺ بما بعثه إليهم من التخيير بين الخصال الثلاث، فاجتمعت رؤوس قريش للتشاور فيما عرضه عليهم رسول الله ﷺ، فعجَّل قرظة بن عمرو من بين القوم فقال: لا نَدِي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء، ورجع المبعوث بما سمع منهم فأخبر به رسول الله ﷺ.

ندم قريش وارتياعها وإرسالها أبي سفيان ليجدد العهد ويزيد في مُدة الهدنة.

بَيْدَ أن قريشاً ندموا على ما ردُّوا به على رسول الله ﷺ، وبعثوا أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ ليجدِّد العهد، ويزيد المدّة.

وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدِّد العهد وزد في المدة، وهو راجع بسخطة».

واستولى على قريش الخوف أن يغزوهم رسول الله ﷺ، فأخذهم المقيم المقعد من الفزع والرعب، والذهول والدهش والحَيْرة، فمشى الحارث ابن هشام وعبدالله ابن أبي ربيعة إلى أبي سفيان بن حرب، فقالا له: لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلاّ محمداً في أصحابه. فقال لهما أبو سفيان: هذا أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، لا يحمل إلا عليّ، والله ما شوورت فيه ولا هويته حين بلغني، ليغزونا محمداً إن صدقني ظني وهو صادقي، وما بُدٌ في أن آتي محمداً فأكلمه، فقالت جموع قريش: أصبت، فخرج أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ودخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ ووقعت بينهما القصة التي سبق ذكرها.

وفي هذه الرواية زيادة مفيدة، إذ قالت أم حبيبة في أدب النبوة الأسيفة على ضلال أبيها التي كانت ترجو له في عقله أن لا يفوته ما في الإسلام من خير وهدى: فأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام؟ وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر.

مساعي أبي سفيان تبوء بالخذلان وفضيحة المكر الدهيّ

فقام من عندها ثم أتى رسول الله ﷺ في المسجد، يسأله أن يجدِّد العهد ويزيد في المدة فأبى عليه، فكلّمه فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً.

وعند الواقدي فقال أبو سفيان: يا محمد، إني كنت غائباً في صلح

الحديبية فجدد العهد وزدنا في المدّة، فقال ﷺ: «فلذلك جئت» قال أبو سفيان في بَلَه الدهاة: نعم، فقال له رسول الله ﷺ ليوقظه من سكرة دهائه الكذوب: «هل كان من حدث؟» فقال الداهية المستطار عقله المسلوب عنه دهاؤه: معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا، لا نغيّر ولا نبدّل، فقال ﷺ: «فنحن على ذلك» فأعاد داهية قريش القول متغابياً للذي قاله لرسول الله ﷺ في تجديد العهد وزيادة المدة، فلم يردّ عليه صلوات الله عليه شيئاً.

أفٍ للغباء إذا اعترى عقول الأدهياء.

فذهب أبو سفيان وهو يحمل عكّازة الخيبة يتوكأ عليها لتعين رجليه على حمله إلى أبي بكر، فكلّمه أن يكلّم له رسول الله ﷺ، فقال له أبو بكر: ما أنا بفاعل.

وفي رواية الواقدي أنه قال لأبي بكر: تكلّم محمداً، وتجير أنت بين الناس، فقال الوديع الهادىء في رسوخ اليقين وهدوء الإيمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ.

وطأ عمر بن الخطاب على يأفوخ أبي سفيان وعبث الإيمان ببله الدهاة.

فأتى أبو سفيان عمر بن الخطاب فكلّمه أن يشفع له عند رسول الله ﷺ، فقال له القوي الأمين عمر رضي الله عنه: أنا أشفع لكم؟ فوالله لو لم أجد إلّا الذرّ لجاهدتكم به، ما كان من حلفنا جديداً فأخلقه الله، وما كان منه متيناً فقطعه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله. فقال أبو سفيان لعمر: جُوزيت من ذي رَحِم شراً.

وفي بعض الروايات أن أبا سفيان أتى عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد يأسه من عمر وسماعه شدة كلامه، فقال لعثمان: أجِرْ بين الناس، فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ثم أتى علياً فدخل عليه، فقال: يا عليّ إنك أمسُّ القوم رَحِماً بي، وإني جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي، فقال علي رضي الله عنه: ويحك يا أبا سفيان!! والله لقد عزم ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

ولما سمع أبو سفيان من علي رضي الله عنه ما قطع رجاءه عنده في

الوصول إلى شيء يحفظ به ماء وجهه ويرجع به إلى قريش، متَّقياً غضبها عليه، تهانف بين يدي فاطمة عليها السلام، وتهافت تفكيره فلم يعد يدري بمن يستشفع إلى رسول الله ﷺ لينقـذه من ورطته، فردته في أدب التربية النبوية.

تصاغر أبي سفيان أمام مدلهمات الخطوب.

أفٍ، ثم أفٍ للعنجهية إذا ذلّت بعد عز، وتصاغرت بعد استكبار، وتهاوت بعد بأو الغرور.

سيد البطحاء وقائد كنانة وداهية قريش وقائد جحافلها المهزومة لمهاجمة النبي ﷺ وأصحابه في حروب ظالمة مظلمة، أبو سفيان صخر بن حرب ينزل من علياء بأوه وغروره الوثني إلى ملعب حسن بن علي يتهاوى بين يديه وهو يدبُّ في ملعبه بين أبويه بطل الإسلام وسيدة نساء العالمين، يناغي لعبه وتسلياته، بعيداً بخياله ومضاحكاته عن نزيز تفكير طاغية قريش الذي جاء إلى المدينة مملوءاً بالغطرسة والاستكبار، ليعود إلى قريش بمضاحك غدرتها بخزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، ويخدع لها محمداً ﷺ وأصحابه، وينتزع منهم تجديداً لعهد الحديبية وزيادة في مدة هدنتها، حاملاً معه أكاذيب يتوهم أنها تجوز على محمد ﷺ وعلى أصحابه، وطاف في رفقة الشيطان في أزقة المدينة المنورة وبيوتها، يسأل ويرجو ويتملّق فلا يجد سميعاً لما يقول ولا مجيباً لما يريد.

صورة من الهوان يبدو فيها أبو سفيان بين ذل الخذلان وتفاهة الدهاء الجاهلي.

لقد بدأ أول ما بدأ حين وصوله إلى المدينة المنورة بنزوله عند ابنته أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ، فأسرعت إذْ رأته داخلاً عليها بيتها إلى فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه خشية أن يجلس عليه وهو مشرك نجس فينجسه، وهو الفراش الطاهر المطهَّر، فعجب أبوها أبو سفيان من فعلها، ودارت به الظنون والأوهام، وأسكره الغرور بخمـرة العنجهية والاستكبار وقال لها ما قال، وهو يعلم أنها زوجة الهادي سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ، التي ملأ الإيمان قلبها ومشاعرها، ولكنه تغابى وتجاهل وسأل وأجيب بما أغصّه بريقه: هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس لا تصلح للجلوس على هذا الفراش الطاهر المطهّر.

وخرج أبو سفيان من عند ابنته أم حبيبة رضي الله عنها يثقله الخزي ويقلقه الخذلان إلى لقاء رسول الله ﷺ وفي جعبته حصيلة من الخداع والكذب، فكلّم رسول الله ﷺ فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، ثم قام يجر رجليه جرّاً، فذهب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ وهم أكبر أهل شورى رسول الله ﷺ ـ فلقي منهم ما لقي من الردِّ الذي أظلمت به الدنيا عليه، فلم يدرِ أيشرِّق أم يغرِّب، حتى ألقته الحيرة إلى أشراف الأنصار، فأتى سعد ابن عبادة سيد الخزرج، فقال له: يا أبا ثابت، إنك سيد هذه البحيرة، فأجر بين الناس، وزد في المدة، فقال له سعد رضي الله عنه: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه ﷺ.

ثم عاد يجره الشيطان من خياشيم اليأس والطغيان إلى أشراف قريش من المسلمين والأنصار، يتهانف ويتهافت، ويستجير ويستصرخ، ويتملّق، فكلّهم يقول له: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه.

قال الواقدي: فلما أيس منهم دخل على فاطمة عليها السلام، فقال لها: هل لك أن تجيري بين الناس، فقالت فاطمة عليها السلام: إنما أنا امرأة، وأبت عليه، فقال لها: مُري ابنك، فقالت: ما بلغ أن يجير.

لعب علي بعقل داهية البطحاء وزعيم قريش.

ثم اتجه أبو سفيان بعد أن أفرغ كل ما في نفسه من استكبار وغرور إلى علي رضي الله عنه، فقال مستغيثاً به، وكأنما يرمي بآخر سهم في كنانته ليستسلم إلى الموت على أيِّ صورة يأخذه عليها، فقال لعلي: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور وقد اشتدت عليّ فانصحني، قال علي رضي الله عنه: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة!! ـ أفٍ لهذه السيادة المتهاوية ـ قم فأجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك، قال أبو سفيان في لهفة الغريق المتشبث بقشة فوق أمواج المحيط: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال علي رضي الله عنه: لا، والله ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد مستجمعاً ماضيه ليبله بدمع حاضره، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ولا والله، ما أظن أن يخفرني أحد ـ رأفة للدهاء إذا عاد خواء؟! ـ يقول ذلك أبو سفيان وكأنما يكلِّم نفسه، لأن الناس كانوا في

شغل، لم يسمعوه إذ قال ما قال، فلم يردّوا عليه شيئاً.

ثم دخل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إني قد أجرتُ بين الناس، فقال ﷺ: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟» ثم خرج أبو سفيان، وحطّ نفسه على بعيره فانحط عليه، ثم انصرف إلى مكة خاوياً مسلوباً مهزوماً، وكان أبو سفيان يزن فشله وخذلانه ويقدِّره ويقدّر نتائجه الخطيرة عند قومه عليه وعلى سمعته ومكانته بينهم.

قال الواقدي: وطالت غيبة أبي سفيان، واتهمته قريش أشد التهمة، وقالوا: قد صبأ واتّبع محمداً سراً وكتم إسلامه، فلما دخل على هند امرأته ليلاً، قالت: لقد غبت حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، ثم جلس منها مجلس الرجل من امرأته، فقالت: ماذا صنعت؟ فأخبرها الخبر، وقال: لم أجد إلا ما قال لي عليّ، فضربت برجلها صدره، وقالت: قبّحك الله من رسول قوم فما جئت بخير، واخزياه؟! حتى هند؟! وحتى في مجلسي منها هذا المجلس؟ أنال منها ما نالني؟ واخزياه مرة أخرى، هذه هند وقد لقيتُ منها ما لقيتُ، فماذا عن قومي الذين أرسلوني لآتيهم بكل ما أوتيت من دهاء بما يرفع عنهم الفزع والرعب؟ من غزو محمد فلم آتهم بشيء إلا شيء يزيدهم رجساً على رجسهم، وفزعاً إلى فزعهم، ورعباً إلى رعبهم، وهلعاً إلى هلعهم، إنهم اتّهموني في وثنيتي وشركي واتهموني بأني أسلمت مع محمد، وآمنت بدعوته، وتركت اللاّت والعزّى وإساف ونائلة، فكيف أرضهم وأكفِّر عن جريمتي معهم؟ فـلأُرينَّهم أني على عهدهم بي في وثنيتي وشركي، أما هند فعندي وسائل إرضائها وإضحاكها، فحسبها مني مجلس كمجلسي معها بالأمس الذي أهانت فيه عنجهيتي واستكباري في أرض الغرور والتكذب.

تكفير أبي سفيان عن بلاهة دهائه بكفر زاده رجساً.

وانتظر حتى أصبح ليراه قومه في كفره ووثنيته، وذهب إلى آلهته، فحلق عند إساف ونائلة ومسح بالدم رؤوسهما، وقال لهما: لا أفارق عبادتكما حتى أموت إبراء لقريش مما اتهموه به، وقبلت قريش في بلاهة وجهالة اعتذاره، ثم كلّموه في وفادته إلى محمد ﷺ، فقالوا له: ما وراءك؟ هل جئت

بكتاب من محمد أو زيادة في مدّة ما نأمن به أن يغزونا، فقال الخزْيان أبو سفيان وهو يداري سوأة الخجل عن قومه إن كان الدهاة البلهاء يخجلون: كلَّمتُه فوالله ما ردّ علـيَّ بشيء، ثم جئت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، وكلمت عِلْية أصحاب محمد فما قدرت على شيء منهم إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قوماً يوماً أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن علياً لما ضاقت بي الأمور قال لي: أنت سيد بني كنانة فأجِرْ بين الناس، فناديت بالجوار، فقال له قومه: هل أجاز ذلك محمد؟ قال أبو سفيان: لا، فقال له قومه: لقد رضيت بغير رضا، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارُك عليهم لهيّنٌ، والله إن زاد عليّ على أن لعب بك تلعباً، فقال أبو سفيان: والله ما وجدت غير ذلك.

وفي مرسل عكرمة عند ابن أبي شيبة أنهم قالوا له: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا بصلح فنأمن، وبهذا ينتهي فصل من مضحكات داهية قريش وسيد بني كنانة وسيد البطحاء أبي سفيان بن حرب.

* * *

وتجهّز رسول الله ﷺ، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والاجتهاد والتهيؤ.

مشاورة النبي ﷺ أبا بكر وعمر في غزوة قريش.

وفي حديث أبي مالك الأشجعي عند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ خرج من بعض حُجَره، فجلس عند بابها ـ وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه ـ فقال ﷺ: «ادع لي أبا بكر»، فجاء فجلس بين يديه فناجاه طويلاً، ثم أمره فجلس عن يمينه، ثم قال ﷺ: «ادع لي عمر» فجلس فناجاه طويلاً، فرفع عمر صوته، فقال: يا رسول الله، هم رأس الكفر، هم الذين زعموا أنك ساحر، وأنك كاهن، وأنك كذاب، وأنك مفتر، ولم يَدَعْ شيئاً مما كانوا يقولونه إلا ذكره، فأمره فجلس عن شماله، ثم دعا الناس فقال لهم: «ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين» قالوا: نعم يا رسول الله، فأقبل بوجهه الكريم على أبي بكر فقال: «إن إبراهيم كان ألين في الله تعالى من الدهن

للميل»، ثم أقبل على عمر فقال: «إن نوحاً كان أشدّ في الله تعالى من الحَجَر، وإن الأمر أمر عمر، فتجهزوا وتعاونـوا، فتبع الناس أبا بكر، فقالوا: إنا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله ﷺ، قال أبو بكر: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف تأمرني في غزو مكة» قلت: يا رسول الله، هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعني، ثم دعا عمر فقال عمر: هم رأس الكفر، حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه، وايْم الله لا تذل العرب حتى يذلَّ أهل مكة، وقد أمركم بالجهاز لتغزو مكة.

قصّة حاطب بن أبي بلتعة
وكتابه إلى قريش

قال ابن إسحاق ـ كما حكاه عنه ابن كثير ـ لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعْلاً على أن تبلغه إلى قريش، فأخفته وخرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليّ بن أبي طالب، والزبيرابن العوام والمقداد بن عمرو.

وفي رواية للبخاري عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، قال عليّ: بعثني وأبا مرثد الغنوي والزبير، وكلُّنا فارس، وفي رواية أخرى للشيخين عن عليّ: بعثني ﷺ أنا والزبير والمقداد، وزاد البيضاوي عماراً وطلحة.

ويظهر أن هذا ليس اختلافاً في المبعوثين وعددهم وأسمائهم، ولكنه بيان بأن المبعوثين كانوا جماعة، فذكر بعض الرواة بعضهم، وذكر آخرون بعضاً آخر منهم، وكون المبعوثين جماعة أوفق للمقام والحال، لأنه من باب الحذر والاحتياط لما عسى أن يكون في الطريق ممن يعرف خبر الكتاب والمرأة، فيقاتلون دونها لتنفذ بالكتاب إلى مكة، ويحتمل أن من زاد على الزبير والمقداد كانوا كميناً للحذر.

وذكر ابن حجر في التوفيق بين الروايات رأياً آخر، وقف به عند رواية الشيخين أو رواية البخاري وحده، فقال: ويحتمل أن الثلاثة كانوا مع عليّ

رضي الله عنه، فذكر أحد الراويين عنه ما لم يذكره الآخر.

قصّة كتاب حاطب واستحضاره والاختلاف في نصه.

ثم قال رسول الله ﷺ لمبعوثيه: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها».

قال عليّ رضي الله عنه: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ـ وهي مكان على بعد بريد من المدينة ـ فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أَخْرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، فقلنا لها: لتخرجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، فلما رأت الجدّ قالت أعرض، فأعرض فأخرجته من عقاصها ـ أي لفائف شعرها ـ فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة وسمّي منهم سهيلاً، وصفوان، وعكرمة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وما أجمع عليه من الأمر في السير إليهم.

وقد ذكر أهل المغازي نص كتاب حاطب إلى المشركين، وهو ـ كما ذكره السهيلي في روضه ـ: أما بعد، يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده.

ثم قال السهيلي: وفي تفسير يحيى بن سلام أن حاطباً كتب: إن محمداً قد نفر، فإما إليكم وإما إلى غيركم، فعليكم بالحذر.

مساءلة حاطب عن الدافع له على كتابة هذا الكتاب لمشركي مكة وصدقه فيما أجاب به عن نفسه.

وفي حديث عليّ رضي الله عنه عند البخاري، قال: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، أخبرني الحسن بن محمد: أنه سمع عبيد الله ابن أبي رافع، سمعت علياً يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر

رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» فقال حاطب: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت امرءاً مُلْصقاً في قريش ـ يقول: كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها ـ وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله قد اطَّلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله سورة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء﴾ إلى قوله: ﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

قال ابن كثير: وقد رواه الجماعة إلّا ابن ماجه من حديث سفيان ابن عيينة، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الإمام أحمد: حدثنا حجين ويونس، قالا: حدثنا ليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبدالله أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة، يذكر أن رسول الله ﷺ أراد غزوهم، فَدُلّ رسول الله على المرأة التي معها الكتاب، فأرسل إليها، فأخذ كتابها من رأسها، وقال: «يا حاطب أفعلت» قال: نعم، أما إني لم أفعله غشاً لرسول الله ﷺ، ولا نفاقاً، قد علمت أنَّ الله مظهر رسوله، ومتم له أمره، غير أني كنت غريباً بين ظهرانيهم، وكانت والدتي معهم، فأردت أن أتخذ يداً عندهم، فقال له عمر: ألا أضرب رأس هذا؟ فقال ﷺ: «أتقتل رجلاً من أهل بدر! وما يدريك لعل الله قد اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم».

قال ابن كثير: تفرد بهذا الحديث من هذا الوجه الإمام أحمد، وإسناده على شرط مسلم.

* * *

تحقيق موقف عمر في قصة حاطب.

وموقف عمر رضي الله عنه في حادث حاطب بن أبي بلتعة، وكَتْبه إلى قريش، وذكره لهم في كتابه ما أجمع عليه رسول الله ﷺ من المسير إليهم

بجيش كثيف وأهبة لحربهم لا طاقة لهم بها ـ مشكل عسير الدفع ـ إذا صحّت الرواية به ـ إذ كيف يقول عمر رضي الله عنه عقب سماع النبي ﷺ إقرار حاطب بذنبه، واعترافه به، واعتذاره عنه بين يدي النبي ﷺ على مشهد ومرأى ومسمع من الصحابة رضي الله عنهم، وتصديق النبي ﷺ له فيما قال في اعتذاره ووصيته ﷺ الصحابة به وأن لا يقولوا له إلّا خيراً ـ : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق.

ورسول الله ﷺ لم يألُ في التحقيق مع حاطب، فقد سأله ﷺ عن صنيعه فلم ينكره، ولكن بيّن لرسول الله ﷺ ما حمله على ذلك، وأنه لم يفعله نفاقاً ولا كفراً، وأقسم أنه ما ارتاب في الله منذ أسلم، وأنه لم يفعل ما فعل ارتداداً عن دينه ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال ﷺ ـ وهو المؤيد بالوحي من عند الله ـ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيراً» وهذا قول حاسم في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه وعدم نفاقه.

ثم تذكر رواية الحديث أن النبي ﷺ ردّ على عمر قوله مرة ثانية بقوله ﷺ: «أتقتل رجلاً من أهل بدر، وما يدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟» وهنا فقط تدمع عين عمر ويقول: الله ورسوله أعلم، فكيف يترك النبي ﷺ قوله الحاسم في قبول قول حاطب واعتذاره عما بدر منه، وقوله لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم» وهو قاطع لا يحتمل التأويل في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه، ويعدل ﷺ عن هذا القول الصريح إلى ذكر ميزة لأهل بدر تفضّل الله بها عليهم رفعاً لشأنهم، وهي غفران ذنوبهم، وهذا لا يعدو أن يكون خصّيصة لأهل بدر، وحاطب كان أحدهم، بل كان من مقدّميهم بمواقفه فلم يذكرها ﷺ احتجاجاً لإثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه، لأن الاحتجاج لذلك حسم بقول النبي ﷺ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلّا خيراً» وهذا هو موقف سفح الدمع، ورد العلم لله ورسوله، فهلّا دمعت عين عمر رضي الله عنه، وردّ العلم لله ورسوله آنئذ؟.

وقد حاول ابن حجر أن يدفع الإشكال المشكل بتأويل موقف عمر

وكلامه بما لا يدخل في صميم الموضوع فقال: وإنما قال عمر: (دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق) الذي أوردته الرواية بحرف (الفاء) التعقيبية عقب قول رسول الله ﷺ في قبول اعتذار حاطب عن صنيعه الذي صنعه، وتصديقاً له فيما قال في اعتذاره مخاطباً أصحابه بتبرئة حاطب عما يغمز إيمانه، بَلْه يدخله في مضايق النفاق، إذ قال لهم: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيراً»- لما كان عند عمر من القوة في الدين وبغض المنافقين، فظنّ أن من خالف ما أمر به النبي ﷺ من إخفاء مسيره عن قريش، وحرصه على عدم وصول خبره إليهم، وبعثه جماعة على الطريق حتى لا يبلغهم الخبر، وظهور هذا بين الصحابة مما لا يخفى على حاطب رضي الله عنهم أجمعين.

فلذا ظن عمر أنه استحق القتل، لكنه لم يجزم بذلك، فلذلك استأذن في قتله، فلو جزم لما استأذن وأطلق عليه منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر.

ضعف كلام ابن حجر في الدفاع عن موقف عمر.

وهذا كلام ضعيف جداً، لا يدفع الإشكال، لأن عمر رضي الله عنه كغيره من أعلياء الصحابة وكبرائهم يجب أن يكون بين يدي رسول الله ﷺ سامعاً مطيعاً بعد أن يسمع من النبي ﷺ القول القاطع في تصديق حاطب وقبول اعتذاره، إذ ليس له من الأمر شيء بعد أمر رسول الله ﷺ لأنه ليس لأحد قول مع قول رسول الله ﷺ، والمؤمنون جميعهم منهيون عن التقدّم بين يدي رسول الله ﷺ بالقول والفعل، كما هو صريح قول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله، واتّقوا الله إن الله سميع عليم﴾.

قال ابن المنير في انتصافه: ابتدأ السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلى الله ورسوله متقدِّماً على الأمور كلِّها من غير تقييد ولا تخصيص.

أما قوة الدين عند عمر، وبغضه المنافقين فلا مدخل له في موضوع الإشكال، لأن وجود النبي ﷺ يأبى أن يكون لأحد قط قول مع قوله مهما كانت قوة دينه، وأما بغضه للمنافقين فهذا شأن جميع المؤمنين إذا وقفوا على نفاق منافق، وهو لا يجيز قتلهم بنفاقهم، ولم يثبت أن النبي ﷺ قتل منافقاً

لنفاقه، وكان ﷺ أشد بغضاً للمنافقين من عمر وغيره، ولكن الله لم يأذن له ﷺ في قتلهم مع فظاعة فجورهم وبشاعة جرائمهم، فلا وجه لإدخال قوة دين عمر وبغضه للمنافقين في دفع الإشكال.

رأينا في تأويل موقف عمر والرد على ابن حجر.

وعندنا أن هذا الموقف من عمر رضي الله عنه ـ إذا استقامت الرواية على أسلوبها في تعقيب قول عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، لقول النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» بحرف الفاء المفيدة للترتيب والتعقيب، مما يدلّ على أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق كما هو صريح رواية البخاري في باب غزوة الفتح، وما بَعَثَ حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ من حديث علي، قال في حكاية دفاع حاطب عن نفسه، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فتعقيب عمر على قول الرسول ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» بهذا القول فيه ما فيه، لأنه قد يحمله من لم يكن مطمئن الإيمان على أنه ردٌّ لقول رسول الله ﷺ.

فموقف عمر على ظاهر الرواية في أسلوبها الذي جعل قول عمر تعقيباً على قول رسول الله ﷺ عسر التأويل جداً، والطريقة التي حاولها ابن حجر في الإجابة عن قول عمر لا تدخل في صميم الموضوع.

ولو أن ابن حجر قال: إن هذا الموقف يمثل طرفاً من موقف عمر في الحديبية لكان في قوله اعتذار عن عمر وموقفه، لا دفع لإشكاله وإجابة عنه، لأن عمر رضي الله عنه اشتد عليه أمر هدنة الحديبية وشروط معاهدتها وتحيّر في الأمر، بل قد اعترف بعظم خطئه بعد أن انكشف الغطاء عنه ببركة النبي ﷺ وبركة الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه، وقال: لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي ﷺ مراجعة ما راجعته مثلها قط.

وروى عنه البزار أنه قال: اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردّ أمر رسول الله ﷺ وما ألوت عن الحق، فرضي رسول الله ﷺ، وأبيت حتى قال: «يا عمر تراني رضيت وتأبى؟».

وفي حديث ابن عباس عند الواحدي أن عمر قال يومئذ: لقد أعتقت بسبب ذلك رقاباً، وصمت دهراً،حتى قال: ما شككت منذ أسلمت إلّا هذه الساعة.

لم يشك عمر قط في أصل العقيدة ولكنه تعجّل قبل أن يتثبت.

وهذا الشك ـ إذا صحت الرواية ـ ليس شكاً في أصل العقيـدة الإيمانية، ولكنه ظنّ أن رسول الله ﷺ صنع ما صنع في معاهدة الحديبية باجتهاد منه ﷺ، لا بوحي من الله، والشك في الاجتهاد لا يسلّم إلى الشك في العقيدة الإيمانية، وصاحبه مجتهد مأجور.

وأقصى ما يؤخذ على عمر رضي الله عنه أنه لم يبـادر بالقبـول والاطمئنان والتسليم، كما بادر أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنهما، والصدِّيق منذ كان الإيمان بالله ورسوله كان أرسخ إيماناً، وأعمق يقيناً، وكان عمر يعرف له ذلك، ولهذا ذهب إليه وهو في قمة حيرته واشتداد الأمر عليه يسأله بعد أن سأل رسول الله ﷺ، فكان ردّ الصدِّيق عليه موافقاً لفظاً ومعنى لما أجابه به رسول الله ﷺ، وزاده فقال له: فاستمسك بغرزه فإن الله لا يضيِّعه، فدخل اليقين إلى قلب عمر فملأه، ورضي وأناب وحدّث عن نفسه فقال: ما زلت أتصدّق وأصوم، وأصلّي، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي حتى رجوت خيراً.

ومعلوم أن موقف الحديبية كان أثقل في محنته وأشد في بلائه على جمهور الصحابة رضي الله عنهم من موقف حاطب بن أبي بلتعة وكَتْبه إلى قريش، وتوبته واعتذاره، وتصديق النبي ﷺ له، فإن قوة دين عمر وبغضه المنافقين ممّا يُقبل في عذره لموقفه هناك، فإن ذلك هنا بعيد عن القبول إلا بتأويل متعسف.

ولعمر رضي الله عنه مواقف في شدته وقوة دينه لا يسوغ الاعتذار بها عنه إلا مع الاعتراف بأنه رضي الله عنه كغيره من الثوابت في منابت الإيمان عرضة للخطأ الذي قد تدفع إليه هذه الطبيعة وقوة الدين، وكراهية الحَيْدة عن جادة الحق، فلا يضره ذلك ولا ينقص من قوة دينه أن يقع منه خطأ يلاحقه بالندم وصالح العمل.

هذا يمكن أن يكون اعتذاراً عن موقف عمر رضي الله عنه إذا ثبت أن الرواية وقعت أحداثها كما يدل عليه أسلوبها من تعقيب قول عمر لقول رسول الله ﷺ، لكنه اعتذار لا يدفع الإشكال كما زعم ابن حجر، ولا يصلح جواباً عن موقف عمر وقوله: يا رسول الله دَعْني أضرب عنق هذا المنافق.

وقول ابن حجر: وأطلق ـ أي عمر عليه ـ أي على حاطب ـ منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر، لا يخلو عن ضعف، لأن النفاق الشرعي وهو المعروف عند الإطلاق بين المجتمع المسلم في صدر الإسلام إنما هو إبطان الكفر وإظهار الإسلام، ولم يعرف العموم في المبطن والمظهر إلا بعد عهد السلف، والمعنى الخاص بالنفاق الشرعي هو الذي أراده عمر، لأنه جعله سبباً لقتله، لظنه ارتداده عن الإسلام، وأما المعنى العام في إبطان خلاف ما أظهر فلا يقتل به، إلا إذا قارنه سبب يوجب القتل، وهذا عرف بعد السلف بالزندقة.

احتمال في فهم الرواية يدفع الإشكال عن عمر.

ومما يحتمل في الرواية، ويندفع به الإشكال، ولا يحتاج معه إلى اعتذار عن موقف عمر رضي الله عنه بقوة دينه، وبغضه للمنافقين، لأن تصرفه إذا صحّ هذا الاحتمال يكون تصرفاً إيمانياً، يوجب عليه أن يقول للرسول ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق الذي كشف عن باطنه بسوء فعله.

ذلك أن الاحتمال قائم بأن قول عمر رضي الله عنه لرسول الله: دَعْني أضرب عنق هذا المنافق لم يكن ـ كما هو ظاهر في الرواية ـ تعقيباً على قول رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» وإنما كان قبل أن يعلم أن رسول الله ﷺ قال هذا القول ليحسم به قصة حاطب في مشهد من أصحابه حتى لا يغمزوه في إيمانه، وليس في الرواية ما يثبت أن عمر رضي الله عنه كان حاضراً في وقت سؤال النبي ﷺ حاطباً عن صنيعه، وعن الحامل له على ذلك، وليس فيها ما يثبت أنه سمع دفاع حاطب عن نفسه، وسمع قول النبي ﷺ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم» ويوصيهم بأن لا يقولوا له إلا خيراً.

ولما حضر عمر رضي الله عنه وسمع ممّن كان شاهداً للقصة ما كان من حاطب، ولم يسمع ما كان من رسول الله ﷺ قال ما قال لرسول الله ﷺ مندفعاً بقوة دينه وبغضه المنافقين، ولم يقله لتصديق النبي ﷺ حاطباً فيما أخبره به في اعتذاره، وحاشا عمر رضي الله عنه أن يردّ قولاً لرسول الله ﷺ يسمعه منه ثم لا يبالي باطّراح هذا القول، ويستأذن في فعل ينقضه ويرده.

ويبقى بعد ذلك إيراد الرواية قول عمر رضي الله عنه بصيغة التعقيب على تصديق النبي ﷺ حاطباً في اعتذاره، وهذا سهل الدفع عند من يعرف أن روايات الحديث وصل إلينا أكثرها مروية بالمعنى، والرواية بالمعنى قد يدخلها كثيراً تصرف الرواة في التعبير عن المعنى المقصود، وقد قبل العلماء هذا النحو من التصرف في ألفاظ الحديث ما دام لم يخرج عن المقصود.

في القرآن الحكيم القول الفصل في قضية حاطب.

والقول الفصل في هذا ما جاء في القرآن الحكيم، ففي حديث البخاري المروي في المغازي، والتفسير، والجهاد أنه قال بعد قوله: «اعملـوا ما شئتم فقد غفرت لكـم» فأنزل الله السورة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

وهذا نص قاطع في إثبات صحة إيمان حاطب ويقينه، وأنه لم ينافق بما صنع لأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء﴾ صريح في أن المخاطبين مؤمنون إيماناً لم يَشُبْه نفـاق، وحاطب داخل في هؤلاء المخاطبين دخولاً أولوياً، إذ كانت قصته سبب نزول الآيات، وإذا كان لا قول لأحد قط مع قول رسول الله ﷺ، فمن البداهة أن لا يكون لأحد من المخلوقين قول مع قول الله تعالى.

وقد كانت هذه الآيات الأولى من هذه السورة دروساً تربوية للمجتمع المسلم، ومنهجاً عملياً في حياته، يبقى معهم حياً ما بقي القرآن الكريم هادياً لهم، ومرجعاً لأمور حياتهم.

سياق الزمخشري للقصة كان سياقاً متسقاً.

وقد ساق الزمخشري قصة حاطب في أول تفسيره للسورة مساقاً متسقاً موجزاً جامعاً فقال: روي أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح، فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت لا، قال «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي - تعني قُتلوا يوم بدر - فاحتجت حاجة شديدة، فحثّ عليها بني عبد المطلب، فكسوها وحملوها وزوّدوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً، واستحملها كتاباً إلى أهل مكة نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: (اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم) فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد، وكانوا فرساناً، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلّوها، فإن أبت فاضربوا عنقها».

وأدركوها، فجحدت، وحلفت، فهمُّوا بالرجوع، فقال عليّ رضي الله عنه، والله ما كُذبنا ولا كُذب رسول الله، وسل سيفه وقال: أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك، فأخرجته من عقاص شعرها.

فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال له: «ما حملك عليه؟» فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرءاً مُلْصقاً في قريش، وفي رواية، كنت عزيزاً فيهم، أي غريباً، ولم أكن من أنفسهم، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم ومواليهم غيري. فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدّقه رسول الله ﷺ، وقبل عذره فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم، فنزلت.

وذكرُ الزمخشري عمر في الذين أرسلوا إلى الظعينة لأخذ الكتاب لم نره

لغيره، فإذا صحّ وجوده معهم أمكن حمل قوله: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق أنه قاله بمجرد عودة المبعوثين إلى رسول الله ﷺ وقبل أن يسمع اعتذار حاطب.

* * *

بدء مسير رسول الله ﷺ إلى مكة

بدء مسير رسول الله ﷺ إلى مكة في جيش كثير العدد قوي العدّة.

كان رسول الله ﷺ قد جعل من مسيره إلى مكة في جيش كثيف العدد، مجهز بأقوى عدّة من السلاح والرجال والمؤن، وسائر أدوات الحرب، ـ مسير وفاء لحلفائه الخزاعيين، وإرعاب مرهب لقريش، ليتّقي بذلك إشعار حرب مدمّرة تفنى فيها بقية قريش.

فهو ﷺ لم يكد يعلن الخبر ويتعرفه الناس بعد أن أتم جهازه، وتجهز الناس حتى تجمّع حوله من المهاجرين والأنصار المقيمين في المدينة المنورة عشرة آلاف مقاتل بأدواتهم الحربية ومؤنهم ومراكبهم من الخيل والإبل، كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري، ثم أرسل ﷺ إلى من كان من القبائل المسلمة حول المدينة فتلاحق منهم بالجيش ألفان، كان مجموع من سار بهم رسول الله ﷺ إلى مكة اثني عشر ألفاً من المجاهدين كما رواه الحاكم في الإكليل، والنيسابوري في كتابه شرف المصطفى، وفي مرسل عروة عند ابن إسحق وابن عائذ: ثم خرج ﷺ في اثني عشر ألفاً من المهاجرين والأنصار، وأسلم، ومزينة، وجهينة، وغفار، وسليم.

كان خروج النبي إلى مكة في رمضان فأفطر ورغب في الفطر.

وكان خروجه ﷺ من المدينة المنوّرة في رمضان، واختلفت الروايات اختلافاً متباعد الجوانب في تحديد يوم خروجه، ولكن الاتفاق قائم على أن خروجه ﷺ كان وهو صائم، والناس معه صائمون حتى بلغ الكديد، وهو مكان بين قُدَيد وعُسْفان، أفطر ﷺ لأنه بلغه أن الناس قد شقّ عليهم الصيام وقيل له: إن الناس ينظرون فيما فعلت، فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من ماء، فوضعه على راحته ليراه الناس فشرب فأفطر، ثم ناوله رجلاً إلى جنبه فشرب، كما رواه مسلم والترمذي من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس من طريق عكرمة عند البخاري أنه ﷺ
بإناء من لبن أو ماء، فوضعه على راحته فأفطر، وأفطروا، ولم يزل ﷺ
حتى انسلخ الشهر.

وفي حديث جابر المتقدِّم من رواية مسلم والترمذي أنه ﷺ لـ
قيل له بعد ذلك: إن بعض الناس صام فقال ﷺ: «أولئك العصاة».

وروى الشيخان أن النبي ﷺ رأى في سفره زحاماً ورجلاً قد
عليه فقال: «ما هذا»؟ قالوا: صائم، فقال ﷺ: «ليس من البر الص
السفر».

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: ساف
رسول الله ﷺ ونحن صيام، فقال: «إنكم دنوتم من عدوكم، والفطر
لكم» فكانت رخصة، فمنّا من صام، ومنّا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً
فقال ﷺ: «إنكم مصبِّحون عدوّكم، فالفطر أقوى لكم فافطروا» فـ
عزيمة.

عقد الألوية والرايات ودفعها إلى أمراء الكتائب وزعماء القبائل.

ولما أخذ ﷺ في المسير بجيشه وهو على أتم أهبة عقد الألوية والـ
ودفعها إلى قادة القبائل وزعماء أبطال الجهاد، ولم يزل ﷺ يسير بكتائبـ
بلغ مرّ الظهران ـ وهو مكان قريب من مكة ـ أمر الناس أن يوقدوا
آلاف نار، ليزيد من إرعاب قريش وإرهابها، وهي حائرة لا تعرف
حركاته ﷺ شيئاً، تعيش مغتمة خائفة، يكاد يوبقها الوجل والفرق خشـ
يغزوهم والسيف قد أفناهم، ورعبلت المعارك في الغزوات قواهم، فلـ
لهم منها إلا ما لا قوام له أمام أنفاس جند الله وعزائمهم.

ولم يجدوا لهم ملجأً إلا أن يعودوا يستنجدون بداهيتهم،
البطحاء، أبي سفيان بن حرب وهو يتهاوى من الفزع والهلع، ولم يكفـ
باء به من السخطة والفشل والخزي والخذلان حين بعثوه قبل ذلك ليجـ
عهد الحديبية ويزيد في مدّة الهدنة، فقد لقي في ذلك البَعْث من
والمهانة ما لاحقه في مجاهره ومكامنه، ولم يترك له مكاناً يتنفس فيه، حتـ
به مخدع زوجته هند بنت عتبة، ومخادع الزوجات مراتع للأنس الهاد

والأسرار الصامتة التي تذيب التغاضب للعصبيات القومية والتِرات الجاهلية، ولا يبقى فيها إلا ما يبقى مِنْ، ومِنْ، ولكن داهية قريش الأشمط، فقد كلَّ ذلك ولقي عوضاً عنه ما لقي من هند في ساعة يتكاذب فيها المتغاضبون، وقريش في مجالسها وبيوتها تمسك بأنفاسها، وهي لا تدري إلا ما ظهر لها من انتفاخ العنجهية وتورم البأو الأجوف، والغرور المستكبر، فبعثتْ داهيتها أبا سفيان مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ ليأخذ لها منه الأمان على أنفسها وأموالها وأعراضها متعزّزة بتراث جاهليتها المسلوب.

ذلّة وهوان بعد العزة والطغيان.

واخزياه؟! قريش بهيلها وهيلمانها، وعنجهيتها وغرورها، وبأوها واستكبارها في الأرض، قريش التي أبت وقت شموخها وقوتها الظالمة أن تقبل هدى الله الذي جاءها به رجل من أنْفُسها وأنْفَسِها، تعلم صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وما كان عليه من مكارم الأخلاق، وسواء السريرة منذ نشأته بينها، وأبت أن تترك مَنْ قبل هذا الهدى المنير آمناً في سربه، أميناً على دينه وعقيدته، فآذت طلائع الإيمان وصبَّت عليهم البلاء صبّاً وهم صابرون محتسبون، يتأسّون برسول الله ﷺ فيما يلقى من صور الأذى وفجور المحن والكوارث، حتى أخرجته وأخرجت الذين آمنوا برسالته وهداه من ديارهم وأموالهم وعشائرهم مهاجرين إلى دار الأمن والإيمان، ومتبوأ اليقين والإسلام.

قريش هذه تأتي اليوم ذليلة مفزعة مرعوبة، خائفة منتفضة تطلب من مخذولها سيد البطحاء أبي سفيان بن حرب ـ الذي عرفته في دهيه ومداهناته، ولفّه ودورانه في قيادة عيرها والفرار بها، ولم تعرفه قط في بطولة معركة إلا مخدوعاً بسحر أخبث لعين الشياطين حيي بن أخطب فرعون فراعنة اليهود في تجمعات الخندق والفرار بها مهزوماً مدحوراً ـ أن يستأمن محمداً ﷺ، وهي لا تنسى مواقف طغاتها معه ومع أصحابه، حتى أخرجوهم من ديارهم إلى غربة لا يؤنسهم فيها إلا إيمانهم وما وجدوه في مهجرهم من إخاء وإيثار، ومحبة وبذل للمكارم.

وخرج مخذول قريش، سيد بطحائها ومعه حكيم بن حزام، وبُديل

ابن ورقاء الخزاعي ليأخذ لقريشه أماناً من محمد ﷺ، فوجد الطريق مقفلة في وجهه محبوسة لا يمر فيها إلا من كان حاملاً جواز مرور مختوم بخاتم أمير الأنقاب.

ووقف المسير بداهية قريش وصاحبيه عند مرّ الظهران، فلما رأوا عسكر رسول الله ﷺ في أهبته الحربية الكاملة، وكثافة جنده أفزعهم ما رأوا، وأرعبهم كثرة النيران التي أوقدها عسكر المسلمين بأمر رسول الله ﷺ التي كانت كأنها نيران عرفة، وهي أعظم نيران عرفتها الجاهلية الجاهلة، فقال داهية قريش أبو سفيان مرعوباً مفزّعاً لصاحبيه حكيم وبُدَيل: ما هذه النيران، والله لكأنها نيران عرفة!! فقال بديل بن ورقاء: هذه نيران بني عمرو، يعني نيران خزاعة، وبينا أبو سفيان وحكيم وبديل يتقاولون رآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأخذوهم.

وعند ابن أبي شيبة من مرسل أبي سلمة: وكان حرس رسول الله ﷺ نفراً من الأنصار وكان عمر بن الخطاب عليهم تلك الليلة، فجاؤوا بهم، فقالوا: جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة، فقال عمر وهو يضحك إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم، قالوا: والله قد أتيناك بأبي سفيان، فقال: احبسوه، فحبسوه حتى أصبح فغدا به عمر على رسول الله ﷺ، واستسلم أبو سفيان ذليلاً بين يدي رسول الله ﷺ.

وفي رواية أن العباس بن عبد المطلب ـ وكان قد أسلم قديماً ـ فيما تقول بعض الروايات ـ وكان يكتم إسلامه لمصلحة المسلمين الذين بقوا في مكة ـ لقيهم فأجارهم وأدخلهم على رسول الله ﷺ، فأسلم بُديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، وتأخر إسلام أبي سفيان، فتركوه يرجع إلى قريش ليخبرهم بما رأى وسمع، فلا ترتفع رؤوسهم أمام كتائب الإسلام، ويتحقق المقصد الأسنى لرسول الله ﷺ في عدم نشوب حرب بينه وبين قريش.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما في مرسل أبي سلمة، ويحيى ابن عبد الرحمن عند ابن أبي شيبة لما ولّى أبو سفيان ـ: يا رسول الله لو أمرت بأبي سفيان فحبس على الطريق؟ وفي مغازي موسى بن عقبة أن العباس قال

للنبي ﷺ: لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر، فاحبسه حتى يرى جنود الله، ففعل، فقال أبو سفيان: أغدراً يا بني هاشم؟ قال العباس؛ لا، ولكن لي إليك حاجة، فتصبح فتنظر إلى جنود الله وما أعد الله للمشركين، وذكر الواقدي أن العباس قال لأبي سفيان: إن أهل النبوّة لا يغدرون.

حبس أبي سفيان عند مضيق الجبل بإشارة الصديق ليرى قوة المسلمين.

وقال النبي ﷺ للعباس: «احبسه عند خَطْم الجبل، أي مضيقه ليرى كتائب المجاهدين، ويرى أهبتهم، فلا يفوته رؤية أحد من جنود الله، ولا يفوته شيء من أهبتهم، ليزداد رعبه ويخبر قومه بما رأى، فلا ترفع لهم رأس بمواقفة القتال.

فحبسه العباس حيث قال له رسول الله ﷺ حتى أصبح الناس، وقام قائم الحق ينادي بالأذان لصلاة الصبح، فأجابه العسكر بأصوات مدوِّية، ففزع داهية قريش أبو سفيان فزعاً شديداً، تزايلت منه مفاصله، وتفككت روابط أعضائه، وأخذه الدهش والذهول فلم يدر ماذا يقول، وماذا يفعل، ثم قال للعباس: ما يصنع هؤلاء؟ قال العباس: الصلاة.

وعند ابن أبي شيبة: ثار المسلمون إلى طهورهم، فقال أبو سفيان للعباس: ما للناس؟ أُمِروا بشيء؟ قال العباس: لا، ولكنهم قاموا للصلاة، فذهب العباس به إلى مصلّى النبي ﷺ بالناس، فلما رأى أبو سفيان اقتداء جموع المسلمين به ﷺ في الصلاة قال: ما رأيت كاليوم طاعة قوم، جمعهم من هنا وها هنا ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له، يا أبا الفضل أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك، فقال العباس: إنه ليس بملك، ولكنها النبوّة قال أبو سفيان ـ والرعب قد اقتلع قلبه من بين أضالعه ـ أو ذاك، وهكذا كان إيمان داهية قريش.

محاورة نبوية لإنقاذ أبي سفيان من محنة الكفر.

ولما فرغ ﷺ من صلاته بأصحابه رأى أبا سفيان، فقال له: «ويحك يا أبا سفيان؟ ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً، وزاد الواقدي أن أبا سفيان قال: لقد استنصرتُ إلهي، واستنصرتَ إلهك، فوالله ما لقيتُك من مرة إلا نُصِرت

عليّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لقد غلبتك.

ثم قال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك أمّا هذه ففي النفس منها شيء، فقال العباس رضي الله عنه لمخذول قريش وسيد بطحائها وهو يرى تأبّيه عن الإقرار برسالة محمد ﷺ: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، وهنا فقط يستخزي أبو سفيان، فأسلم إسلاماً يحمي به رأسه أن تتدأدأ تحت قدميه، وهذا إسلام أصح منه إسلام من يحشرج وقد بلغت روحه الحلقوم، أو هو إسلام أشبه بإسلام فرعون إذ أدركه الغرق، فقال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وعزّ عليه وهو يعلم أنه بين مخالب الموت أن يقول: آمنت أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، رب السموات والأرض ومن فيهن، وما فيهن، فَرُدّ عليه هذا الإيمان الفاسد المفسد، وقيل له: ﴿آلآن وقد عصيت قَبْلُ وكنت من المفسدين﴾.

وعند الواقدي: أن أبا سفيان وحكيم بن حزام قالا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، جئت بأوباش الناس، من يُعرف، ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك؟! فقال ﷺ: «أنتم أظلم وأفجر، فقد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه» فقالا: صدقت يا رسول الله، ثم قال أبو سفيان، وحكيم: لو جعلت حدّك ومكيدتك لهوازن فهم أبعد رحماً، وأشد عداوة لك؟ فقال ﷺ: «إني لأرجو من ربي أن يجمع ذلك كله، فتح مكة وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن، وغنيمة أموالهم، وذراريهم، فإني أرغب إلى الله في ذلك».

سياسة العباس لإنقاذ رأس أبي سفيان.

وقد استكشف العباس رضي الله عنه ما في دخيلة سيد بطحاء قريش أبي سفيان بن حرب من عناد وتأبٍّ متغطرس عن الإذعان بالإسلام وقبول هدايته، وخلع مواريث الجاهلية، وتعاصٍ عن الإيمان برسالة رسول الله ﷺ، فسلك به منعرجات مواريثه الجاهلية ليستنزله من علياء عنجهيته لينقذه من براثن الدّهْي والمداهنة، ويجعله على مشارف الجادة ليدخله في رياض

الإسلام، والعباس رضي الله عنه أعرف بقريش ومن بقي فيها من ذوي الزعامات، وكان يخشى على أبي سفيان ـ إذ لمح نهزة ـ أن يرتد عن هذا الإسلام الذي أسلمه تحت رهبة السيف خوفاً على رأسه أن يفارق عنقه.

فقال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له، فقال ﷺ ـ وهو يعلم طبيعة قريش وطبيعة زعاماتها ـ: (نعم).

غرور أجوف وتيه كسيح يعرفهما في أبي سفيان أبو بكر الصديق والعباس رضي الله عنهما.

وعند ابن أبي شيبة أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب السماع والشرف، فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقال أبو سفيان: وما تسع داري؟ فقال ﷺ: «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال أبو سفيان: وما يسع المسجد؟ فقال ﷺ: «ومن أغلق بابه عليه فهو آمن»، فقال أبو سفيان: هذه واسعة.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف إلى قومه بعد أن رأى بعين بصره كثافة جند الله وحَرَد كتائب المجاهدين قال له العباس: النَّجاء إلى قومك، فأسرع إلى مكة حتى إذا جاءها صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبل لكم به، أسلموا تسلموا، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا له: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ فقال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، وقالت: اقتلوا الحميت الدَّسِم الأحمس، قُبِّح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان لقومه: ويلكم لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم، فقد جاء محمد بما لا قبل لكم به، فتفرقوا إلى دوركم وإلى المسجد.

هند زوجة أبي سفيان تسخر منه وتحرض عليه.

وإنما حذّر أبو سفيان قومه هذا التحذير الشديد المرعب خوفاً عليهم أن تطأهم كتائب الفتح، فينالهم من القتل والدمار ما لا قبل لهم بردِّه، والوقوف أمامه، لأنه رأى من كثافة جيش الجهاد وعدّته وهو محبوس عند مضيق الجبل شيئاً أذهله وأفزعه على قومه.

وكان رسول الله ﷺ ـ بعد أن أمر العباس رضي الله عنه بحبس أبي سفيان عند خطم الجبل ليرى جند الله وأهبتهم للفتح ـ أمر منادياً ينادي: «لتصبح كل قبيلة عند راية صاحبها، وتظهر ما معها من الأداة والعدة».

إظهار قوة جيش الإسلام لتحقيق إرعاب قريش دون حرب.

وأصبح الناس على ظهر، وقُدِّم بين يدي رسول الله ﷺ، ومرّت الكتائب بألويتها وقادتها، والكتائب على راياتها، كتيبة كتيبة على أبي سفيان ـ وهو يراها منتفضاً مرعوداً مرعوباً ـ بألويتها وقادتها وراياتها وعدَّتها وأداتها تحقيقاً لأمر رسول الله ﷺ، فجعل أبو سفيان يسأل العباس رضي الله عنه عن كل كتيبة، كتيبة، فإذا قيل له هم بنو فلان، قال: ما لي ولبني فلان، حتى مرّت عليه أشجع برجالها وأهبتها فسأل عنهم وأخبر بهم، فقال هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد، فقال له العباس رضي الله عنه: أدخل الله تعالى الإسلام في قلوبهم، فهذا فضل الله. ثم سأل أبو سفيان العباس عن مرور كتيبة رسول الله ﷺ، فقال العباس رضي الله عنه: لو أتت الكتيبة التي هو فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال، وما ليس لأحد به طاقة، فقال أبو سفيان ومن له بهؤلاء طاقة؟ وجعلت الكتائب تمرّ، كل ذلك يقول أبو سفيان: ما مرّ محمد؟ فيقول العباس رضي الله عنه: لا، حتى أقبلت كتيبة لم يُرَ مثلها، وهم في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ـ أي سواد العين ـ قال أبو سفيان: من هذه؟ قال العباس: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة، معه رايتهم، فقال سعد بن عبادة لما رأى أبا سفيان وهو يمر بالراية النبوية: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار، ومعنى هذه الكلمة من أبي سفيان التي ارتمى بها في أحضان التزلّف إلى العباس رضي الله عنه أنه لشدة ما داخله من الرعب والخوف على نفسه وقومه فهم من كلمة سعد بن عبادة أنه يتوعده، ويتوعد قومه ليوقع بهم جزاء ما قدمت أيديهم وألسنتهم من فجور في إيذاء رسول الله ﷺ، وإيذاء أصحابه الذين استضعفوا في مكة قبل الهجرة.

كتيبة الأنصار ترعب أبا سفيان وتكتم أنفاسه فيرتمي بين أحضان العباس مستغيثاً.

فقد كذّبوه ﷺ، وسخروا منه، واستهزؤا به، وتقوّلوا عليه، وقاتلوه ووقفوا سداً أمام رسالته، حتى أخرجوه من بلده حرم الله ومأمنه، وهي أحبّ بلاد الله إليه.

وآذوا أصحابه بالقول والفعل، وأنزلوا بهم من المحن والبلاء ما لو نزل بالشوامخ الرواسي لدكّها، فلجأ إلى العباس رضي الله عنه يستنهض همته، ويحرك في نفسه عوامل مروءته ومكارم أخلاقه، ويحتمي به وبمكانته عند رسول الله ﷺ، ومحبته له، وإعظامه له، وقبول شفاعته.

وكأن أبا سفيان يقول للعباس: هذا يومك الذي يلزمك فيه حفظي وحمايتي وحفظ قومك وبيضتك لمكانك من رسول الله ﷺ، ومنزلتك عنده، ومحبته لك وإقباله عليك، وقبول مشورتك من أن ينالني وأنا معك مكروه، أو ينال قومك تسلُّط الغزاة عليهم، ليستبيحوا حرماتهم، ويستأصلوا شأفتهم.

وعند ابن إسحاق أن كلمة سعد بن عبادة المتوعدة سمعها عثمان ابن عفان، أو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، فقال من سمعها منهما: يا رسول الله، ما نأمن أن تكون لسعد في قريش صولة، وقيل: إن الذي سمعها وقال لرسول الله ﷺ هذه المقالة المستعطفة لرسول الله ﷺ هو عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، واستبعد ذلك ابن حجر بأن عمر كان ظاهر العداوة لهم، وهذا لا يبعد عن الصواب.

وفي رواية أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه وهو يمر في كتيبته الخضراء: أمرت بقتل قومك؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، فذكر أبو سفيان ما قاله سعد بن عبادة، وناشده الله والرحم في قومه، وقال له في مناشدته: إنك أبرّ الناس، وأرحمهم وأوصلهم، فقال ﷺ: «يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزُّ الله تعالى قريشاً» وأرسل ﷺ إلى سعد بن عبادة، فأخذ الراية منه، فدفعها إلى ابنه قيس، وهذا أصح ما قيل في الروايات، إذ رأى ﷺ بهذا التصرف السياسي الحكيم أن الراية لم تخرج عن سعد إذ صارت لابنه، وهناك روايات تقول: إن النبي ﷺ بعث إلى سعد علياً ليأخذ الراية منه، وقال لعلي: «كن أنت الذي تدخل بها» وفي رواية أنه ﷺ أعطاها للزبير رضي الله عنه ليدخل بها ويركزها عند الحجون.

ودخلت كتائب الجهاد بثقلها مكة آمنة مطمئنة إلى فضل الله وقوة

تأهبها القتالي، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من كُدَي بأسفل مكة، ودخل ﷺ بكتيبته الخضراء من كُدَاء بأعلى مكة كما هو الصحيح الذي يدل عليه صراحة حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري، عن هشام ابن عروة، عن أبيه، أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كُدَاء التي بأعلى مكة، وما جاء في الروايات غير ذلك يظهر أنه من قبيل الاشتباه على بعض الرواة.

أمر رسول الله ﷺ بالكف عن القتال إلا دفاعاً.

وأمر رسول الله ﷺ المجاهدين أن يكفُّوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال، ولما دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من حيث أمره رسول الله ﷺ لقي جماعة من فلّال قريش الذين استبقاهم الهرب والفرار من السيف، فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو متجمعين ليقاتلوا كتائب الفتح، فناوشوا خالداً وجنده الذين كانت رايتهم في يده، وهم بنو سليم فقتلوا من جند خالد مسلمة بن الميلاء الجهني، فاضطر خالد رضي الله عنه لمدافعتهم بالقتال، فقتل منهم رجالاً، فانهزموا فراراً مولّين الأدبار، حتى دخلوا البيوت، وأغلقوا دونهم أبوابها، وفرّت منهم طوائف إلى أعالي التلال ورؤوس الجبال، وتبعهم المسلمون، وأكثروا من القتل فيهم، ورأى ذلك حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب ـ ولم يكونا مع المقاتلين ـ فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان في قومهم وهم يفرّون: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، ومن وضع سلاحه فهو آمن. فجعل المهزومون يسرعون ويقتحمون الدور، ويغلقون أبوابها، ويطرحون السلاح في الطرقات، فيأخذه المسلمون، ولم يرفع بعد ذلك أحد من قريش رأسه.

ونظر النبي ﷺ فرأى بارقة السيوف فقال: «ما هذا وقد نهيت عن القتال» فقال له أصحابه: نظن أن خالداً بُدِىءِ بالقتال وقوتل فقاتل دفاعاً عن نفسه وجنده، فقال ﷺ لخالد: «لِمَ قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدؤونا بالقتال وقد كففتُ يدي ما استطعت، فقال ﷺ: «قضاء الله خير».

رواية غريبة وخطأ في تبليغ أمر النبي ﷺ.

وفي رواية عند الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، خطب رسول الله ﷺ فذكر حرمة مكة، وأن الله أحلّها لرسوله ﷺ ساعة من النهار، ثم عادت حرمتها، فقيل له ﷺ: هذا خالد بن الوليد يقتل، فقال ﷺ: «قم يا فلان فقل لخالد يرفع يده عن القتل» فأتى الرجل خالداً فقال له إن نبي الله يقول لك: (اقتل من قدرت عليه) فقتل منهم سبعين، وجاء الخبر إلى رسول ﷺ، فأرسل إلى خالد: «ألم أنهك عن القتل؟» فقال خالد: جاءني فلان، فأمرني أن أقتل من قدرت عليه، فأرسل النبي ﷺ إلى الرجل الذي كان قد بعثه لخالد يأمره برفع يده عن القتل، فقال له: «ألم آمرك أن تنذر خالداً» فقال الرجل لرسول الله ﷺ: أردت أمراً، فأراد الله أمراً، وكان أمر الله فوق أمرك، وما استطعت إلا الذي كان، فسكت النبي ﷺ وما ردّ عليه.

بحث وتحقيق في صحة هذه الرواية ومناقشة ما قيل فيها من تأويل متعسف.

وهذه الرواية صعبة التأويل جداً إذا صحّت سنداً، لأنه كيف يعقل أن يبعث رسول الله ﷺ رجلاً يختاره، فيقول له: «قم يا فلان» ويسمّيه باسمه برسالة إلى أحد أبطال قادة جند الجهاد ـ وهو أشهر وأعرف قواد جيش الفتح ـ برسالة موجزة في عبارتها وأسلوبها، بيّنة الهدف في مقصودها، وهي: «قل لخالد فليرفع يده عن القتل» فيذهب الرجل، ويبلغ غير ما أرسل به إلى خالد، يبلّغه رسالة مناقضة كل المناقضة في ألفاظها وأسلوبها وهدفها لرسالة رسول الله ﷺ التي كلّفه إبلاغها خالد بن الوليد ليرفع يده عن القتل؟.

ثم كيف يعقل أن ينسى الرجل المبعوث إلى خالد برسالة رسول الله ﷺ نص رسالته ﷺ على إيجازها الذي لا تُجاوز به جملة واحدة، مؤلفة من عدة حروف لا تزيد على عدد أصابع اليدين، ثم يبلغ خالداً رسالة مختلفة لم يقلها النبي ﷺ تزيد في كلماتها على الرسالة المكلف إبلاغها؟.

وإذا أحضر النبي ﷺ هذا الرجل وسأله عما بلّغه إلى خالد ليعرف وجهة نظره فيما بلّغه، فيقول له: «ألم أمرك أن تنذر خالداً» والإنذار هو التخويف الشديد من عواقب المنذر من أجله، وهو الاستمرار في القتل، فيقول هذا الرجل في ردّه على النبي ﷺ متجهماً متغاضباً جافياً كأنه يذكر

رسول الله بأمر فاته؟ فيقول مخاطباً له ﷺ: أردتَ أمراً، وأراد الله أمراً، وكان أمر الله فوق أمرك.

هذه الجفوة المتجهمة المتغاضبة في مخاطبة النبي ﷺ وحدها كافية في إسقاط هذه الرواية عن القبول، وزَعْمُ أن هذا الرجل أنصاري، وأنه تأوّل الكلام لا محل له، ولا ينبغي أن يقال، وإلا فأين مكان التأويل؟ أفي رسالة النبي ﷺ إلى خالد ليرفع يده عن القتل، وهي واضحة شديدة الوضوح، لا إبهام فيها ولا غموض، وهي شديدة الإيجاز لا تعدو جملة واحدة؟ أم في كلام هذا الرجل الذي اخترعه فبلّغه خالداً؟.

وكيف يسوغ التأويل باحتمال أن هذا الكلام المخترع الذي بلّغه الرجل إلى خالد سبق إلى سمع الرجل فبلّغه خالداً، وقتل خالد بسببه سبعين من قريش؟ وليس بين كلام النبي ﷺ الذي بعث به هذا الرجل إلى خالد وكلامه المخترع الذي بلّغه خالداً أدنى اشتباه في لفظه ومعناه، فكيف يسبق إلى سمعه نقيض ما بعثه به رسول الله ﷺ ليبلّغه إلى خالد ليرفع يده عن القتل؟

ثم إن ردَّ هذا الرجل الذي قيل أنه أنصاري على سؤال رسول الله ﷺ جاءت الرواية به في أسلوب جاف، متجهِّم متغضِّب، يبعد جداً أن يصدر في مخاطبة رسول الله ﷺ من رجل مؤمن صادق الإيمان، صفيّ اليقين، يعرف للنبي ﷺ قدره المنيف، ومنزلته من الله تعالى ومكانته في قلوب أمته، ويعلم أن الله تعالى أدب المؤمنين أدباً خاصاً في مخاطبتهم له ﷺ، وعلّمهم كيف يتحدّثون إليه، وكيف يسمعون منه، وكيف يستجيبون لأوامره، رفعاً لقدره ومنزلته فوق أقدار ومنازل جميع خلقه، تشريفاً لمقامه الأشرف بين أصحابه، وأجيال أمته من بعدهم، فقال تعالى يصف خلّص أهل الإيمان:

نموذج مما أدب الله به المؤمنين في توقير النبي ﷺ.

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم * لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً،

قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لِوَاذاً، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[1].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين منهج تعظيم قدر النبي ﷺ، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين في جميع أمورهم التي تربطهم به ﷺ نبياً ورسولاً، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وخلع عليه جلابيب حرصه عليهم، وعزة عنتهم عليه، وخصّه باسمين من أسمائه الحسنى، فجعله رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين، وهذا تعظيم لم يكن قطُّ لغيره ﷺ، لأنه تعظيم يرتبط بأصل الإيمان برسالته وهدايته.

قال الزمخشري في كشّافه: أراد الله عز وجل أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه ﴿إذا كانوا معه على أمر جامع﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلها كالتشبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانَيْن، ثم عقّبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله: ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ وضمّنه شيئاً آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصدِّق بصحة الإيمان وعرّض بالمنافقين وتسلّلهم لواذاً.

والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهمّ أو تضامّ لإرهاب مخالف، وفي قوله: ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ أنه خطبٌ جليل، لا بدّ لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه، ويعاونوه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايتهم، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشقُّ على قلبه ويشعّث عليه رأيه، فمن ثمة غلّظ عليهم، وضيّق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله:

---

(١) سورة النور آيتا (٦٢ ـ ٦٣).

«لبعض شأنهم» وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على الأحسن الأفضل أن لا يحدِّثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه.

ثم قال الزمخشري في تفسير قوله جل وعلا: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمِّي بعضكم بعضاً، ويناديه باسمه الذي سمّاه به أبواه، ولا تقولوا يا محمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع.

وقال القرطبي في معنى قوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾، أي عظِّموه وخاطبوه في رفق ولين، وغير تجهُّم، وروى عن قتادة في تفسيرها: أمرهم أن يشرِّفوه ويفخِّموه.

فأين يقع ما جاء في رواية الطبراني منسوباً إلى الرجل الذي قيل أنه أنصاري، وأن النبي ﷺ اختاره، وسمّاه باسمه مبعوثاً إلى خالد ليقول له أن رسول الله ﷺ يقول لك: «ارفع يدك عن القتل» فبلّغ خالداً رسالة تناقض رسالة النبي ﷺ في ألفاظها ومعانيها وهدفها، فلما سأله رسول الله ﷺ عن إبلاغه خالداً ما لم يرسله به ﷺ تجهّم وجفا، وتغاضب وخاطب النبي ﷺ بأسلوب لم يشم رائحة التوقير، والتعظيم، وحسن الأدب، ولطف القول ولين الجانب، ورقة الألفاظ، وخفض الصوت والتواضع مما ينبغي أن يتحلّى به كل مؤمن صادق الإيمان.

من هذا الأدب الرفيع الذي أدّب الله به المؤمنين جاءت به هاتان الآيتان الكريمتان اللتان أبرز الزمخشري وغيره ما فيهما من تشريف وتعظيم لرسول الله ﷺ، وما جرى مجراهما من آيات كثيرة في سور متعدّدة من سور القرآن الكريم، نزلت لتبين للمؤمنين مقام شرف رسول الله ﷺ وعظيم منزلته عند ربه، مما يوجب على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطباتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم.

وقد سجّل الله الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدّبوا بهذا الأدب القرآني

الرفيع في قوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾.

وكما قال تعالى في الإنافة بمقامه الأشرف، وبيان حقّه على كل مؤمن ومؤمنة: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً﴾ وقد ذهب علماء السلف إلى أن الضمير في قوله جل شأنه: ﴿وتعزّروه وتوقروه﴾ راجع إلى رسول الله ﷺ ومعناه: تعظّموا رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب المخاطبة معه والتحدث إليه ومجالسته.

أسلوب أصرح في وجوب التزام توقير رسول الله ﷺ.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ ففي هذه الآية الكريمة من الحثّ على التزام أرفع منازل الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ بحيث لا يغمر صوته في جهارته صوت رسول الله ﷺ في محادثته.

والنهي عن الجهر له ﷺ بالقول كجهر بعض المتخاطبين لبعض في مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم التي تستدعيها أمور دينهم ودنياهم، قد جعل مخالفته في المخاطبة سبباً لإحباط العمل، وقد يكون هذا الإحباط دون شعور من المخالف للنهي، لأنه لم يستحضر في مخاطباته النبي ﷺ ما يجب له من توقير وتعظيم وهيبة تحمل مخاطبه على خفض الصوت، ولين القول، ورقة الألفاظ، وهذا أمر خطير ووعيد شديد لمن يتبصر في أمره، ويكون مستحضراً بقلبه تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره.

ولهذا أتبع هذه الآية الكريمة بآية امتدح فيها قوماً من ذوي الأدب الرفيع في مخاطبة النبي ﷺ فقال عز شأنه: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ فهذا ثناء على الذين اعتصموا بأدب توقير رسول الله ﷺ، وتعظيمه في مخاطباتهم وأحاديثهم في مجالستهم له ﷺ كما تقتضيه (العندية) في قوله: (عند رسول الله).

ومعنى ذلك أن هؤلاء الصفوة الذين استمسكوا بعواصم الأدب الرفيع

مع رسول الله ﷺ فعزّروه ووقّروه، وعظّموه، وأظهروا إجلاله وتبجيله إذْ يكونون معه ولو لم يكونوا في مخاطبة له.

نفحات من تفسير الزمخشري لهذه الآيات.

وللزمخشري نفحات من روعة الأسلوب فسّر بها هذه الآيات في كشّافه رأينا أن نقبسها منه لما فيها من إحسان في أداء المعنى القرآني الذي يبيِّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من تفخيم شأن رسول الله ﷺ وتشريفه بأفضل ما يجب له من التوقير والتعظيم، فقال: أعاد النداء عليهم - أي في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ - استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا، ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يـألو عملاً بما يحدوه عليه، وارتداعاً بما يصدّه عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدِّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق غير خافٍ، لا أن تغمروا صوته بلفظكم، وتبهروا منطقه بصخبكم.

وبقوله: ﴿ولا تجهروا له بالقول﴾ أنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول البيِّن المقرَّب من الهمس الذي لا يضاهي الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظَّم، عاملين بقوله عز شأنه: ﴿وتعزِّروه وتوقروه﴾.

وليس الغرض من رفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف

والاستهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منه، ورده إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير.

ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذّى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو، فلم يُنْهَوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفة أعلى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم، وهو الخلو عن مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها.

ومن البداهة أن هذه الآيات وأمثالها في تأديب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي ﷺ، وإظهار رفعة قدره المنيف، وسمو منزلته ﷺ فوق كل منزلة أحد من الخلق، وهي مسوقة في مواضعها من القرآن الكريم لتعليم الأمة أفراداً وجماعات الأدب الأكمل مع النبي ﷺ في كل ما يتصل بمخاطبته، والتحدُّث إليه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساساته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره ﷺ توقيراً يجلّي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشريف الله تعالى له ﷺ بما ميّزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته ﷺ في حياته البرزخية كحرمته في حياته الدنيوية.

إسقاط ابن حجر الكلمات الجافيةَ من كلام الرجل لعلَّه إشارة إلى أنَّ في الحديث ضعفاً.

وقد أجاد ابن حجر فأحسن إذ أسقط ما نسب إلى الرجل من الكلمات الجافية المتجهمة، واقتصر على ذكر قوله لخالد: إن نبي الله يقول لك: «اقتل كل من قدرت عليه» فقتل خالد سبعين، ثم اعتذر الرجل للنبي ﷺ، فسكت عنه ﷺ، ولم يذكر ابن حجر الكلمات المنسوبة للرجل في اعتذاره للنبي ﷺ - وهي موضع النظر- التي أحسن بإسقاطها وعدم ذكرها، وكأن ابن حجر لمح ما فيها مما لا يليق من الجفوة، والتجهم فتركها.

وهذا مسلك جزئي سلكه ابن حجر في كلامه على هذا الحديث،

فأحسن إذ ترك من الكلام ما هو موضع المؤاخذة، ولكن كان يجب على الحافظ ابن حجر أن ينظر في الحديث نظرة شاملة، تبيِّن صحة سنده، واستقامة متنه ومعناه وأسلوبه، ولا عليه أن ينصح بما هو الحق في صحة الحديث سنداً ومتناً، ولا سيما أن المعروف عن كافة الصحابة صادقي الإيمان التفخّم بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره إلى درجة تبلغ ذروة التقدير لشرفه ومقامه ورفعة منزلته، فإذا غلب التغضّب أحدَ من لم يكن منهم قادراً على مغالبة طبيعته فلا حرج على من يصرِّح بغلط من غلط، أو يبين أن الحديث لم تثبت صحته، ولا داعي لبذل الجهد وتحمّل المشقة في تأويله تأويلاً متعسفاً.

وإنما أطلنا النفس قليلاً في مناقشة ما جاء في هذا الحديث عند الطبراني ـ من أسلوب جاف متجهم وكلمات متغضبة نافرة في مخاطبته ﷺ، مما يجافي ما يجب له صلوات الله عليه من توقير وتعظيم، وخفض جناح الرقّة في الخطاب، لنذكّر بما هو واجب مضيّق على أمته أفراداً وجماعات من رفيع الأدب والتفخيم لشأنه، ومحبته محبة تعلو على كل محبة، واتباعه اتباعاً يجعل هوى كل مؤمن تبعاً لما جاء به ﷺ في كل ما يثبت عنه من أحكام وآداب، وتربية، وسلوك اجتماعي يقوم على أكرم مكارم الأخلاق ـ لنلفت نظر المجتمع المسلم أينما كان منه فرد أو جماعة في أرض الله إلى أن المتحدِّثين عنه صلوات الله وسلامه عليه ـ لا سيما شباب الإسلام ـ ينبغي أن يكونوا على بصيرة وحذق بما يحوكه الملحدون لهم من نسج الميوعة والانحلال الخلقي، ليخرجوا هذا الشباب من إطار الإسلام إلى الانطلاق الذي يسمِّيه لهم الملحدون تحرراً، وهو في حقيقته انسلال عن الإسلام دون شعور، والله تعالى يقول: ﴿فأقم وجهك للدين القيِّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله، يومئذ يصدّعون، من كفر فعليه كفره، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾.

قال الزمخشري: وقوله (فعليه كفره) كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار، لأن من كان ضارّه كفره فقد أحاطت به كل مضرة.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾.

الراجح أنَّ القتال بين جيش الفتح وأهل مكة وقع مرة واحدة.

والذي يظهر لنا من التأمل في جُموع الحوادث التي وقعت منذ وطئت قدم رسول الله ﷺ أرض مكة فاتحاً أن القتال الذي حدث إنما هو وقعة واحدة، هي التي جمع فيها الموتورون من سوابق الغزوات الذين جمعوا لفائف من أوباش قريش وأتباعها ليقاتلوا جيش الفتح، وينقضوا أمان رسول الله ﷺ لأهل مكة عامّة، وكان أسبق القوّاد المجاهدين دخولاً إلى مكة خالد ابن الوليد، معه راية بني سليم، فناوشه الأوباش وقادتهم، وكفّ خالد ابن الوليد عن قتالهم ما استطاع إطاعة لأمر رسول الله ﷺ لعامة قواد جيش الفتح، إذ قال لهم: «أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم».

وقد أطمع هذا الحلم الكريم أولئك الموتورين وأوباشهم، فركبهم الشيطان وزيّن لهم نقض الأمان وإشعال نار الحرب، وأرادوها موقعة فاصلة، وحملوا على جند خالد حملة مسعورة، وقتلوا من جنده من قتلوا، فكان لا بد له أن يدفع عن نفسه وجنده، فقاتل فلول الموتورين وأوباشهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، أذاقتهم أوجاع الغدر ونقض عهد الأمان، ورأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف وهي تلمع، فقال: «ما هذا؟ وقد نهيت عن القتال؟» فقال له بعض أصحابه: هذا خالد نظن أنه بُدِىءَ بالقتال، فكان لا بد له من أن يدفع عن نفسه وجنده، فقاتلهم، فلما جاء خالد قال له رسول الله ﷺ: «لم قاتلت؟ وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدأونا بالقتال وقد كففتُ يدي ما استطعت، فقال ﷺ: «قضاء الله خير».

هذا مجمل ما نظن أنه وقع، ولكن الرواة أكثروا من الروايات، وأدخلوا في كل رواية واقعة مما وصل إليهم من واقعة خالد، وجعلوها وقائع مستقلة أعطوها في رواياتهم قوائم الوقائع المتعددة، ولم يثبت لنا من طريق صحيح وقوع معارك إلا ما كان من واقعة خالد التي كانت أصلاً لما تفرّع عنها من الوقائع في الروايات المختلفة حتى أوقفها فرّار الموتورين وقادة الأوشاب، وتجديد الأمان من رسول الله ﷺ بعد استغاثة أبي سفيان به في قوله: «لا قريش بعد اليوم» فقال النبي ﷺ: «من دخل داره فهو آمن» وهذا تجديد للأمان صاح بعده أبو سفيان وحكيم بن حزام في قومهم: يا معشر

قريش، علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، فأسرع الفرّار إلى البيوت يدخلونها ويغلقون أبوابها دونهم، ويطرحون السلاح في الطرقات.

منزل رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم.

وكان رسول الله ﷺ ينزل في قبة ضربت له بالحجون، وقيل له ﷺ: ألا تنزل منزلك من الشِّعْب؟ فقال ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً» وكان عقيل بن أبي طالب قبل أن يسلم قد باع منزل النبي ﷺ ومنزل إخوته أولاد أبي طالب من الرجال والنساء التي كانت لهم بمكة، فقيل لرسول الله ﷺ: فانزل في بعض بيوت مكة، غير منازلك، فأبى ﷺ وقال: «لا أدخل البيوت» وكان ﷺ يأتي المسجد لكل صلاة من الحَجون. وكان أبو رافع مولى العباس ابن عبد المطلب قد ضرب له قبة بالمسجد من أدم، ومعه أم سلمة وميمونة، وذكر ميمونة هنا هو الغريب، فإنه ﷺ لم يَبنِ بها إلا في الطريق بسَرِف.

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة من طريق أبي سلمة أنه ﷺ قال: «منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخَيْف»، وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً: «خيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر» والمقصود الإشارة إلى تحالف قريش الظالم الكفور وحصرهم بني هاشم والمطّلب بشعْب أبي طالب، وتعاهدهم أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم كما فصّلنا قصة هذا الحصار الفاجر الظلوم في موضعه من أحداث مكة قبل الهجرة.

وإنما اختار رسول الله ﷺ النزول في خيف بني كنانة يوم الفتح الأعظم، فتح البلد الأمين واستسلام أهلها، ودخولهم في الإسلام بين طائع قد تبين له الرشد من الغي، وبين كاره مكره، حاقد مرعوب مفزّع يخاف على رأسه أن تزايل مكانها من عنقه ـ ليتذكر ﷺ ما كان من قريش من فجور، فقدت فيه مشاعر الإنسانية، وكفر شرس وطغيان وثني مجنون، وعنجهية جاهلية واستكبار مغرور، وظلم جهول، وإيذاء للمؤمنين، وليتمثّل ﷺ ما بين يديه ﷺ من نعمة الله عليه وعلى أصحابه بإعزاز دينه وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فيزداد شكراً لله تعالى على هذه النعمة العظمى، نعمة الفتح الأعظم، فتح مكة بلد الله الحرام، وتطهّر الكعبة المشركة من رجس الشرك ووضر الوثنية، وتمكنه ﷺ من دخول بلده المحرّم

التي جعلها الله حرماً آمناً للناس إلى يوم القيامة، ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم إخوة ترفرف فوق رؤوسهم ألوية النصر، وتخفق بين أيديهم رايات الشكر، وهم يرون الذين أخرجوهم بالأمس أذلة مستسلمين يستأمنون رسول الله ﷺ فيؤمنهم، ويتلطّف بهم رحمة لهم.

فرحة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم بالفتح الأعظم.

وقد كان ﷺ في دخوله مكة مفعم المشاعر، رويّ الإحساس، مشرق الوجدان، تبرق أساريره بالفرحة العظمى، وتضيء روحه المشرقة بنور تقدير نعمة الله عليه حقّ قدرها، وعرفانه فضل الله عليه وعلى مجتمعه المسلم ممثلاً في عامّة أصحابه الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه فكانوا هم المفلحين، وكانت فرحة السابقين الأولين من المهاجرين خاصة ـ الذين رزحوا تحت آلام البلاء في البلد الحرام على أيدي طواغيت الشرك وطغاة الوثنية قبل هجرتهم فصبروا على ما أصابهم، واحتسبوه عند الله، وهم يرجون من الله النصر على أعدائهم من الكافرين ـ أعظم وأظهر.

وها هو ذا النصر يحفُّهم وهم يكتنفون راحلة رسول الله ﷺ، وهو صلوات الله عليه فوقها متذلِّلاً لله، متواضعاً لعظمته، واضعاً رأسه تخشّعاً وعرفاناً بحق شكر الله تعالى على ما أسداه إليه من نعمة الفتح العظمى.

ذكر محمد بن إسحق عن شيخه عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حِبَرة حمراء، وأن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ـ أي لحيته ـ ليكاد يمسّ واسطة الرحل. وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند البيهقي قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وذقنه على رحله متخشّعاً. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند البيهقي أيضاً عن شيخه أبي عبدالله الحاكم قال: إن رجلاً كلّم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال له ﷺ: «هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وكان من أعظم مواقف الشكر لله تعالى في هذا المقام الحافل بالنعم،

أعظم مواقف الشكر في الفتح كان العفو الغامر عند المقدرة.

ونفحات العطايا الربانية موقفه ﷺ في الامتنان بإطلاق بقايا سيوف المسلمين من مشركي قريش الذين استبقاهم الهرب فرّاراً منهزمين أمام كتائب المجاهدين في سوابق الغزوات، بعد أن صاروا أسارى في يده ﷺ، وأيدي أصحابه، وهم يظنّون كل الظن أنهم سيؤخذون بذنوبهم وجرائرهم، وقد نشف الدم في عروقهم، وتيبست أعصابهم، واصفرّت جلودهم من شدّة ما كانوا فيه من الخوف الهالع، والرعب المفزع خشية أن يقضي فيهم رسول الله ﷺ بما يستحقونه قضاء يقضي عليهم، أو يسمهم بميسم الذلّ الأبدي والهوان السرمدي، فيجعلهم عبيداً وخولاً، يتقاسمهم جند الجهاد الفاتحين، لكنه ﷺ رحمهم ورقّ لهم، ووقف منهم جميعاً إلا ما استثني موقف الشكر لله لتزلّفهم، وهو ﷺ يقول لهم: «ماذا تظنّون أني فاعل بكم؟» قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال ﷺ: «إني أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فخرجوا من المسجد سراعاً، وكأنهم أشباح فارقتها أرواحها إلى بيوتهم أو كأنما نشروا من القبور.

هذا موقف من مواقف العفو الكريم والصفح الجميل لم يعرفه التاريخ، ولا عرف مثله في النبل والإحسان ومكارم الأخلاق، وقفه رسول الله ﷺ مع من أساؤوا إليه، وكذّبوه وسخروا منه، وآذوه بالقول والفعل حتى أخرجوه من بلده المحرم الآمن مهاجراً في سبيل أداء رسالته ونشر هداها، وآذوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعشائرهم.

أبو سفيان يقوده الشيطان ثم يتخلى عنه.

وإذا انضم إلى هذا الموقف النبيل الأكرم مواقفه ﷺ من أفراد دانت لهم قريش بزعامتها، وكان الشيطان قد اتخذهم مطايا لخبائثه وجرائره، فهمّ بعضهم بقاصمة القواصم، مثل أبي سفيان بن حرب الذي آمن ثم كفر، ثم آمن، ثم ازداد كفراً إذ يوحي إليه الشيطان وهو آخذ بمقوده أكثر من مرة بعد أن آمن، وأمِن وأمِن معه ولأجله قومه، أن يجمع لمقاتلة رسول الله ﷺ، ويأتي الخبر بما حدّث به نفسه من نقض الأمان، فيخبره النبي ﷺ بما حدّث به نفسه، وقال له: «إذاً يخزيك الله» فيعفو عنه رسول الله ﷺ، ويتركه، فلا يؤاخذه شكراً لله تعالى.

وروى ابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسول الله ﷺ خرج من الكعبة وأبو سفيان بن حرب جالس في المسجد، فقال أبو سفيان في نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه ﷺ فضرب صدره، وقال: «بالله نغلبك» فقال أبو سفيان: أشهد أنك رسول الله. وروى الحاكم وتلميذه البيهقي عن ابن عباس، وابن سعد عن أبي إسحاق السبيعي، قالوا: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون على عقبه، فقال: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ وجمعت له جمعاً، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب في صدره، فقال: «إذاً يخزيك الله» فقال أبو سفيان: أتوب إلى الله، وأستغفره، ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة، إني كنت لأحدث نفسي بذلك.

قصة فضالة بن الملوح وهمّه برسول الله ليغدر به وفضح الله له.

وذكر ابن هشام والقسطلاني في مواهبه وابن كثير في بدايته وابن عبد البر في دُرَرِه أن فضالة بن عمير بن الملوِّح همّ بقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال له النبي ﷺ: «ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك ﷺ ثم قال له: «استغفر الله مما حدَّثت به نفسك» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه.

وقصة صفوان بن أمية بن خلف، وعكرمة بن أبي جهل معروفة، وهربهما خوفاً على نفسيهما منه ﷺ لما اقترفاه، ولا سيما يوم الفتح إذْ وشَّبوا أوشاباً من قريش وأتباعهم، وقاتلوا جنود الفتح فقتل منهم خالد بن الوليد مقتلة عظيمة، ومع ذلك فقد أرسل إليهما رسول الله ﷺ مؤمِّناً لهما، فجاءا فأسلم عكرمة مكانه، واستأجل صفوان إسلامه شهرين، فأعطاه ﷺ أربعة أشهر.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها من طريق عروة عند ابن إسحاق قالت: خرج صفوان بن أمية يريد جُدَّة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير ابن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيِّد قومه، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فأمِّنه يا رسول الله صلى الله عليك، فقال ﷺ: «هو آمن» فقال عمير: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه ﷺ عمامته

التي دخل بها مكة، فخرج عمير بها حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر، فقال عمير: يا صفوان فداك أبي وأمي، الله، الله في نفسك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ، وقد جئتك به، قال صفوان: ويلك اغرب عني فلا تكلمني، قال عمير: فداك أبي وأمي، هو أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزّه عزّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخافه على نفسي، قال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع صفوان مع عمير حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال ﷺ: «صدق» قال صفوان: فاجعلني بالخيار فيه شهرين، فقال ﷺ: «أنت بالخيار أربعة أشهر».

قصة عتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأبي سفيان وقد سمعوا بلالاً يؤذن فقالوا وكشف الله سترهم.

وقصة أبي سفيان، وعتّاب بن أسِيد، وأخيه خالد بن أسيد، والحارث ابن هشام، وهم جلوس بفناء الكعبة إذ حانت صلاة الظهر، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن فوق الكعبة، فقال عتاب وخالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يسمع هذا فيغيظه، وقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، إن يكن الله يكره هذا فسيغيِّره، وقال أبو سفيان: لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «قد علمت الذي قلتم» وأخبرهم بقول كل واحد منهم، فأسلم الحارث وعتاب، وقالا: نشهد أنك رسول الله، ما اطلّع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك، وقبل ﷺ إسلام من أسلم ولم يؤاخذ من تأخر بإسلامه.

وهكذا كان رسول الله ﷺ في قمة الشكر، عفوّاً كريماً، صفوحاً محسناً، حكيماً، صبوراً، رؤوفاً، رحيماً، جامعا لمكارم الأخلاق وأحسن محاسن الشيم كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

قصة ضنّ الأنصار
برسول الله صلى الله عليه وسلم
أن لا يفارقهم إلى غيرهم

ذكر ابن هشام عن مرسل يحيى بن سعيد أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، وظهرت عليه مظاهر الأنس بمشاعرها ومتعبداتها، أنس المشوق إلى حبيب غاب عنه، ثم عاد إليه، تخوّف الأنصار أن يكون هذا الأنس بمواقف العبودية في مشاعرها رغبة عند رسول الله ﷺ في إقامته بمكة، بلده، وأنس قلبه وفيها عشيرته وقومه الأدْنَون، فقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟.

وإنما قال الأنصار ذلك حباً في رسول الله ﷺ، وضناً به أن تكون إقامته بينهم سرمدية لا يفارقهم، ولا يفارقونه، تعلقاً به ﷺ، وحرصاً عليه أن يظل موضع اختصاصهم به في الإقامة بينهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

وقد حفزهم على هذا الظن ما رأوه منه ﷺ من مزيد الأنس بالمشاعر والشوق إلى مطالعة أسرار العبودية في مجاليها، بكثرة ذكر الله تعالى والدعاء المتضرع في ظل نسمات جودها، استنزالاً لرحمات الله في معالمها، وكان ﷺ حين قال الأنصار ذلك قد علا من الصفا حتى يرى البيت، فرفع يديه، وجعل يحمد الله ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعو، متضرِّعاً متخشِّعاً، والأنصار تحته في سفح الصفا.

فلما فرغ ﷺ من دعائه أخبره الوحي بما قالوا رأفة بهم ليمسح عن أفئدتهم ما مسّها من شعور الألم والحزن على مفارقة رسول الله ﷺ، وحظوة غيرهم بقربه، وعيشه بينهم، فالتفت إليهم ﷺ، وقال لهم: «ماذا قلتم؟»

قالوا ـ استحياء من مواجهته ﷺ بما هجس في خواطرهم حياله، وحرصاً على وجوده بينهم ـ: لا شيء، فلم يزل يتلطف بهم حتى أخبروه بما قالوا، فقال ﷺ ليطمئن أفئدتهم الوالهة، ويثلج صدورهم بإخباره أنه باقٍ لهم، وسيعيش بينهم: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

رواية لا يتفتح لها القلب إلا بنوع من التأويل والاعتذار.

قال الزرقاني: وهذا المرسل صحّ بأتم منه في مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ لما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلي منه حتى يرى البيت، فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره، ويدعو بما شاء الله أن يدعو، والأنصار تحته، فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إليه، فلما قُضي الوحي قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله، قال صلوات الله عليه: «قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال ﷺ: «فما اسمي إذاً؟ كلا، إني عبدالله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله وبرسوله، فقال لهم ﷺ: «فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدّقانكم».

بحث وتحقيق حول هذه الرواية التي صحح العلماء سندها.

وقول هذه الرواية التي صحّحها الزرقاني، وهي كما قال من رواية مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده، وغيرهما من الرواة عن الأنصار أنهم قالوا: أما الرجل ـ يعنون سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمداً ﷺ ـ فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته ـ أسلوب لا يستقيم مع ما عرف عن الأنصار من رفيع الأدب النفسي، والأدب التعبيري، خاصة مع رسول الله ﷺ في وصفه، والتحدث إليه ومخاطبته.

ولهذا قال لهم صلوات الله عليه بعد أن أخبرهم بأنهم قالوا هذا القول، واعترفوا ـ كما تقول الرواية ـ وقالوا، قلنا يا رسول الله: «فما اسمي إذاً؟ كلا، إني عبد الله ورسوله» وهذا استفهام إنكاري مؤيد بحرف الزجر

(كلا) يُقصد به أن قولهم عن رسول الله (أما الرجل) لا يوائم ما عرف عنهم من شدّة حبِّهم له ﷺ، وتوقيره وتعظيمه أخذاً بما أدّب الله به المؤمنين من رفيع الأدب في التحدُّث عن رسول الله ﷺ، والأنصار خير المؤمنين بعد السابقين من المهاجرين.

وذكر هذا الاستفهام، واتباعه بحرف الزجر (كلّا) دون ذكر جواب عنه يحتمل أن يكون بعضهم أجاب عن الاستفهام، فذكر اسم رسول الله ﷺ الذي كان ينادى به قبل بعثته (محمد بن عبدالله) فرد بقوله: (كلّا) ومعناه الزجر أن يكون هذا هو اسمه بعد رسالته في كل ما يُتحدّث به عنه مما يدخل في إطار رسالته، وإنما اسمه الذي يجب أن يُتَحدَّث به عنه في مقام رسالته: أنه عبد الله ورسوله.

ثم أخبرهم عن خصيصة اسمه بعد الرسالة بأنه هو الذي جمعه ﷺ بهم، ولأجله هاجر إلى الله وإليهم، تاركاً أرضه إلى أرضهم وبلده إلى بلدهم، وعشيرته إلى الحياة بينهم، فآووْه ونصروه على من كذّبه وأخرجه من بلده، وحاربه، ووقف أمام رسالته معوّقاً مسيرتها إلى الآفاق، فحاربوا أعداءه وأعداء رسالته، وكانوا جيش الفتح الأعظم بعد أن كانوا كتائب النصر المؤزر.

ويحتمل أسلوب الكلام أنهم سكتوا، فلم يجيبوا عن استفهامه ﷺ استحياء منه لما رأوا من إنكاره عليهم أن يقولوا عنه: (أما الرجل)، ويرشّح ذلك أنه ﷺ أتبع استفهامه بحرف الزجر فيكون الإنكار المفهوم من الاستفهام منصباً على قولهم: (أما الرجل)، أي لا ينبغي لكم في شرعة رفيع الأدب التحدّث عن نبيِّكم ورسولكم أن تقولوا عنه: (أما الرجل) وهو اسم يعم على الأولين والآخرين من الناس.

ولهذا قال صلوات الله عليه معلّماً ومؤدباً: «كلا، إني عبدالله ورسوله» ثم بيّن لهم أن هذا الاسم الخاص بالرسالة هو الذي هاجر به إلى الله وإليهم، فهو العروة الإيمانية الوثقى بيني وبينكم خاصّة وبيني وبين المؤمنين عامة، ثم رحمهم بعد هذا الدرس التربوي، فأقر أعينهم بأنه لن يفارقهم،

فمحياه محياهم، ومماته مماتهم، وأرضهم أرضه، وبلدهم بلده، وهي مثواه الأبدي، يحيا فيه معهم، وإذا فارقهم إلى الرفيق الأعلى، فحياته البرزخية فيها حتى يبعث الله العالمين للجزاء.

وفي هذا الإخبار من البشرى لهم ما أثلج صدورهم، واقتلع جذور الظنون والأوهام من أفئدتهم، وملأها بالسكينة وبرد اليقين، وهذا التأويل أقرب مناسبة لمعاني الروايات.

رأي الزرقاني في الجمع بين الروايتين وبيان وجه هذا الرأي.

وقد أشار الزرقاني إلى ما يمكن الجمع به بين الروايتين، ولكنه لم يأثره، وإنما ذكره احتمالاً فقال: وكأن ذلك وقع لطائفتين، فبادر النبي ﷺ بإخبار إحداهما، فقال لهم: «قلتم» لجزمها بالقول، وتلطّف بالأخرى لكونها لم تجزم، فقالت أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه مكة بلده يقيم بها أم يرجع إلينا.

ومعنى كلام الزرقاني أن الأنصار رضي الله عنهم لمّا رأوا مظاهر الأنس ووله الشوق تغمر مشاعر رسول الله ﷺ، ورأوا إشراق الغبطة وبارقات السرور بفضل الله عليه وعلى جميع أمته تبرق أساريره داخلهم الظن، وحرصاً على رسول الله ﷺ، وضنّاً به أن يشركهم غيرهم فيما خُصُّوا به من إقامته بينهم ـ أفضى بعضهم إلى بعض بما دار في أخلادهم، وكان المتحدّثون منهم طائفتين، فطائفة قال بعضها لبعض: أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

ولعل هذه الطائفة ممن جمح بها الحرص على بقاء رسول الله ﷺ بينهم، والضن به أن يفارقهم إلى غيرهم، فتفوّهوا بهذه الكلمة (أما الرجل) في ضمن ما قالوه، ولم يكونوا من ذوي القِدْمة في الإسلام، الراسخين في ضبط ألسنتهم المعبِّرة عماّ في أنفسهم من الحرص على رسول الله ﷺ والحب والشح به أن يشاركهم فيه غيرهم.

ولهذا كان خطابه صلوات الله عليه مع هذه الطائفة جازماً حاسماً، فقال لهم: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في بلده، ورأفة على عشيرته، فقالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، فأخذ ﷺ يذكّرهم بما كان ينبغي عليهم من

وزن الكلمات المعبِّرة عن خوالجهم لأنهم أسوة يتأسّى بهم غيرهم، فقال لهم: «فما اسمي إذاً، كلا، إني عبد الله ورسوله» فأقبلوا إليه يبكون، يقولون معتذرين عما انزلقت به ألسنتهم: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله ورسوله، فقال صلوات الله عليه: «إن الله تعالى ورسوله يعذرانكم ويصدّقانكم».

أما الطائفة الثانية الذين قالوا ظناً: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم أم يرجع إلينا؟ فهؤلاء كانوا من الراسخين الذين استلجموا ألسنتهم بحكمات اليقين، واعتصموا برفيع الأدب في التحدّث عن رسول الله ﷺ، فأبرزوا ما دار في دخائل أفئدتهم المفعمة بحب رسول الله ﷺ الضنينة به أن يفارقهم إلى غيرهم.

أولاً ـ بأسلوب الاستفهام، كأن كل واحد منهم يقول لأصحابه: هل عندكم من علم بما عند رسول الله ﷺ من عزيمة، هل يقيم ببلده بين قومه وعشيرته بعد أن فتح الله عليه مكة، أو يرجع إلينا؟.

ولا شك أن هذه الظنون تثيرها لهفة الحب، ولكنهم لم يجزموا، لأنه لم تبدُ لهم بادرة قولية أو فعلية تدلُّ على ما عزم عليه رسول الله ﷺ.

وثانياً ـ أنهم أبرزوا دخائل أنفسهم بأسلوب الظن ولم يجزموا بشيء، في أسلوب من الأدب الرفيع الذي أُدّب به المؤمنون، فقالوا: أترون أن رسول الله ﷺ إذْ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟.

ولهذا تلطّف ﷺ مع هؤلاء، فلم يقل لهم كما قال للطائفة الأولى: «قلتم أما الرجل» وهذا لحسن تصرفهم وجمال تعبيرهم عن خوالجهم، فقال لهم: «ماذا قلتم؟» فلم يجبرهم بما قالوا بأسلوب الجزم، وهو قد أُعلم عن طريق الوحي بما قالوا.

وفي استفهامه ﷺ منهم عما قالوا وهو به عليم زيادة في التلطُّف بهم ليكون في ذلك درس تربوي، ولا سيما للذين قالوا: أما الرجل ليعلّمهم عن طريق أخوتهم أدب التعبير في التحدّث عنه ﷺ.

ولهذا نفى الراسخون في ردِّهم على رسول الله ﷺ إذ قال لهم (ماذا قلتم)، فقالوا: لا شيء، أي لم نقل شيئاً جزمنا به واعتقدناه في قلوبنا، ولكنّا ظننا ظنّاً عبّرنا عنه بما علمته يا رسول الله، رجاء أن يرحمنا الله ببقائك معنا حتى لا نرجع إلى ديارنا إلا ورسول الله ﷺ إمامنا وقائدنا محاطاً بحبِّنا وتعظيمنا لمقامه المنيف، وتطمئن قلوبنا ونعلم أنا صدقنا ما عاهدنا الله عليه من الحب لله ولرسوله ﷺ.

التوسع في تحليل كلام الزرقاني نقله إلى حل الإشكال في التعبير بقول من قال (أمّا الرجل).

ونحن نشعر أنّا توسّعنا قليلاً في بيان معنى كلام الزرقاني لندفع به إشكال الاختلاف بين الطائفتين اللتين فرض الزرقاني أن الكلام كان منهما، واختلف لاختلافه ردُّ رسول الله ﷺ عليهما، مع التماس العذر للذين جمحت بهم العبارة، فقالوا: (أما الرجل) مدفوعين بحماسة الحب لرسول الله ﷺ والضنِّ به أن يرجعوا إلى دارهم وليس فيهم صلوات الله عليه.

وإن كان الزرقاني ذكر هذا الكلام ليدفع به إشكال اختلاف الروايتين في كلام الطائفتين وردّ رسول الله ﷺ عليهما على مقتضى ما جاء فيهما، فرواية قالت: إن النبي ﷺ قال لهم: «قلتم أما الرجل» مخبراً لهم بما قالوا بأسلوب الجزم فأقروا بما قالوا واعتذروا، وجاؤوه يبكون، فعذرهم وصدّقهم، والتزموا ما ألزمهم الله من الأدب الرفيع تعظيماً له ﷺ.

ورواية قالت إنه ﷺ سألهم: «ماذا قلتم؟» فاستحيوا منه ﷺ أن يصارحوه بما قالوا، فلم يزل يتلطّف بهم حتى اعترفوا بما قالوا.

فأراد الزرقاني أن يجمع بين هذين الاختلافين في كلام الأنصار، وأن يوفِّق بين كلام رسول الله ﷺ في ردِّه عليهم حسبما جاء في الروايتين، فذكر ما ظهر له من احتمال أن الكلام والردّ عليه وقع من الطائفتين على نهج ما ذكرناه.

وقد رأينا أن ما ذكره الزرقاني احتمالاً هو الأقرب للجمع بين الاختلافين، وهو أسلم من ردِّ الروايات عند الاختلاف، وأنه كلام حسن، لأنه إذْ يدفع اختلاف الروايتين يدفع أيضاً ما جاء في إحداهما من إشكال في التعبير يجافي الواجب في ملاحظة رفيع الأدب عند التحدث عن رسول

الله ﷺ، ويخرجه أن يكون صَدَر من الأنصار كلهم، وذلك في قول إحدى الطائفتين، بعضهم لبعض: (أما الرجل فأدركته رغبة في بلده) فسيّرناه إلى هذا الإشكال لندفعه به، وهذا من قبيل التوسع في معنى الكلام ومدّه إلى أن يزيل إشكال الروايات في طرف آخر غير طرفه الذي سبق له، ولعل هذا الحديث دخله ما يدخل رواية الحديث بالمعنى من قصور في التعبير، والعلم عند الله.

مظاهر فرحة المؤمنين بدخول مكة
يوم الفتح الأعظم

مقابلة الإحسان إلى أهل مكة بأسوأ الغدر من الموتورين فأخزاهم الله.

دخلت كتائب المجاهدين مكة يوم الفتح الأعظم، يقدمهم قادتهم، وحاملو ألويتهم وراياتهم من حيث أمرهم رسول الله ﷺ، وركزت راية رسول الله التي كان يحملها الزبير بن العوام بالحَجُون بأمره حيث نزل رسول الله ﷺ في قبة ضربت له، وأبى لحكمة سياسية أن ينزل في منزله الذي كان له قبل أن يهاجر لأن عقيل بن أبي طالب باعه فيما باع، كما أبى ﷺ أن ينزل في بيت أحد، وقال: «لا أنزل في البيوت» ثم انتقل إلى خيف بني كنانة، حيث تقاسم سدنة الكفر وأحلاس الوثنية على أظلم حلف تحالفوه ضد بني هاشم والمطّلب.

وقد حاول بعض بقايا الموتورين من قريش أن يقاتلوا كتائب الجهاد وهم داخلون حيث يفاجؤنهم في طرقات مكة التي تجمع فيها أوشابهم ومن تبعهم من القبائل، وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنّا معهم، وإن لم يكن لهم شيء أجبنا محمداً ـ إلى ما يطلبه منّا، وكان أول من قاتلوه من الكتائب كتيبة بني سُلَيم، وقائدها خالد بن الوليد، فكفّ عنهم يده استجابة لأمر رسول الله ﷺ أن لا يقاتل قوّاد الكتائب إلا إذا قوتلوا ليكونوا مدافعين، ولكن الموتورين من زعماء قريش طمعوا في غير مطمع، فقاتلوا خالداً وقتلوا من رجاله رجلاً، فقاتلهم خالد، وضربهم ضربة حاسمة، بدّدت جمعهم وشتّتت شملهم وفرقت جموعهم.

ولما فرغت كتائب الجهاد من هذه المناوشات التي لم تكن تغني عن

قريش شيئاً راجعوا أنفسهم، وطلبوا تجديد الأمان، فجدّده لهم رسول الله ﷺ، وأسرعوا إلى بيوتهم يغلقون أبوابها عليهم، وطرحوا أسلحتهم في الطرقات فأخذها المجاهدون.

وكان المجاهدون يوم دخولهم مكة مُجْهَدين متعبين من طول ما قطعوا من الأرض مسافرين صائمين قبل أن يرخص لهم في الفطر، يحملون أثقالهم الحربية، فكانوا في أشد الحاجة إلى الراحة، فاتخذوا من يوم دخولهم مكة فاتحين يوم فرحة وراحة، فانطلقوا بعد أن قضوا على ما صادفهم من المناوشات في طرقات مكة ومشاعرها ومعالمها، يهلّلون ويكبّرون ويحمدون الله على عظيم فضله ويسبّحونه شاكرين إنعامه على رسول الله ﷺ، وعلى أمته، يهنىء بعضهم بعضاً، ويكثرون من الطواف بالبيت المشرف، تعبّداً لله تعالى، وشوقاً إلى هذه المعالم التعبدية والمشاعر الإيمانة التي فارقوها ملجئين.

مظاهر فرحة المسلمين يوم دخولهم مكة فاتحين.

روى البيهقي عن سعيد بن المسيّب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة، ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا.

وكأنهم رضي الله عنهم جعلوا يوم دخولهم البلد الحرام لراحتهم وفرحتهم، فوسّع لهم النبي ﷺ، وكان معهم سمحاً كريماً، مقدّراً لما عانوه في سفرهم الطويل الشاق المضني، وهم صائمون في بعض أيام سيرهم، يحملون على كواهلهم ومراكبهم أثقال أهبتهم، وعدة الحرب لمن حاربهم، وأداة قتال من قاتلهم، فتركهم حتى يأخذوا شيئاً من راحة أبدانهم.

فلما أصبحوا من الغد رآهم ﷺ قد استجمُّوا وأخذوا من الراحة قسطاً أعاد إليهم أنفاسهم هادئة ونفوسهم مطمئنة، وكان ﷺ قد قضى يومه وليلته في تطهير البيت من أرجاس الوثنية، فلم يزل بالأصنام تكسيراً حتى قضى عليها، ثم دخل البيت فمكث فيه نهاراً طويلاً، وتجمّع أصحابه ينتظرون خروجه فخرج إليهم، وكان قد انضم إليهم من ضَوَى لجمعهم ممّن آمن من قريش، بعد أن اطمأنوا إلى تجديد أمان رسول الله ﷺ إثر صرخة فزع من أبي سفيان بن حرب، وهو يرى موقف خالد بن الوليد من أوباش قريش: لقد أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

ووقف ﷺ على درج البيت خطيباً في الناس، فخطبهم خطبة شاملة جامعة لكثير من الأحكام التشريعية، والحكم الاجتماعية، والآداب الخلقية، والمواعظ التربوية، فقال ﷺ:

خطبة
رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم الفتح الأعظم

بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أيها الناس إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا تحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجراً، فإن أحد ترخّص فيها بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن لكم، وإنما أُحلَّت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهد الغائب».

ثم التفت ﷺ إلى جموع قريش فقال لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال ﷺ: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

موقف شجاع من مواقف أبطال الصحابة رضي الله عنهم.

وقد خرَّج البخاري حديث الخطبة العظيمة عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه ـ واسمه خويلد بن عمرو، وقيل غير ذلك ـ في موقف من مواقف الجهر بكلمة الحق بين أيدي الظلمة السفّاكين، قال البخاري رحمه الله: حدثنا سعيد بن شرحبيل، حدثنا الليث عن المقبري، عن أبي شريح الخزاعي أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة ـ أي لقتال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه ـ: ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولاً، قام به رسول الله ﷺ الغد من فتح مكة، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته

عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرّمها الله، ولم يحرّمها الناس، لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد شجراً، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله تعـالى أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهد الغائب». قال عمرو بن سعيد لأبي شريح رضي الله عنه: انصرف أيها الشيخ، فنحن أعلم بحرمتها منك، إنها لا تمنع سافك دم، ولا مانع طاعة، ولا مانع جزية، فقال أبو شريح رضي الله عنه: إني كنت شاهداً وكنت غائباً، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا وقد بلَّغتك، فأنت وشأنك.

بهذه المواقف في الجهر بكلمة الحق يصك أهل رسوخ الإيمان بها مسامع الظلمة من ذوي الطغيان ارتفع بناء الإسلام

وموقف أبي شريح رضي الله عنه هذا من مواقف رسوخ الإيمان، وصلابة اليقين الذي يشهد فيه أصفياء الإيمان مجريات القدر في كتب غيب الله، ويرون فيه بنور بصائرهم وإشراق أرواحهم أن ليس أحد من الخلق بمغنٍ عن أحد من الله شيئاً، وهو موقف من مواقف الجهاد في محاربة الباطل، ونصرة الحق، والجهر بكلمة الحق بين أيدي الظالمين، يصكّون بها أسماعهم على سمع جلاوزتهم وهم مصلتو سيوفهم انتظاراً لخائنة الأعين من الطغاة الفجرة، لإخلاء أعنـاق ناصـري الحق، الصارخـين بكلمته من رؤوسهم.

فما أحوج الإسلام والمسلمين في هذه الأيام إلى أمثال أبي شريح رضي الله عنه صراحة في أدب وحكمة، فهو رضي الله عنه لم يهجم هجوم الحمقى، ولكنه تلطّف بعمرو بن سعيد الأشدق ـ لطيم الشيطان، وأحد جبابرة دولة المروانيين، ومسعّري نيران الفتن الجائحة المدمِّرة في صدر الإسلام ـ فاستأذنه أن يبلغه قولاً، سمعه من النبي ﷺ سماعاً مؤكداً، لا يمتري في كلمة منه، وأبلغه أن النبي أمر الشاهدين لأمره من أصحابه أن يبلّغوا الغائبين ما سمعوه جيلاً بعد جيل.

ولما لجّ عمرو بن سعيد في عناد الضلال، وطغيان الفجور، وادّعى أنه أعلم من أبي شريح بما حدّثه به عن رسول الله ﷺ لم يسكت أبو شريح

رضي الله عنه على هذا الضلال الجهول، بل قال لعمرو بن سعيد: وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلّغ شاهدنا غائبنا، ثم تابع أبو شريح رضي الله عنه كلامه بلون من الوعيد المبطّن بالنصح، فقال لعمرو بن سعيد: وكنتُ شاهداً وكنت غائباً، وقد بلّغتُك فأنت وشأنك.

نص آخر لخطبة النبي ﷺ يوم الفتح.

وقد أخرج البخاري أيضاً حديث خطبة الفتح من مرسل مجاهد فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحلُلْ إلّا ساعة من الدهر، لا ينفّر صيدها، ولا يُعْضَد شوكها، ولا يُختلى خلاؤها، لا تحلُّ لقطتها إلا لمنشد» فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه للدفن والبيوت، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «إلا الإذخر، فإنه حلال».

غلط ابن إسحاق في تسمية من كان معه موقف أبي شريح.

وفي هذه الرواية اختصار من جانب وزيادات من جانب آخر، وقد ذكر ابن إسحاق حديث أبي شريح في خطبة الفتح،وغلط ابن إسحاق في تسمية من بلّغه أبو شريح حديث الخطبة عن النبي ﷺ، فسماه عمروابن الزبير، فقال: وحدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعي، قال: لما قدم عمرو بن الزبير مكة لقتال أخيه عبدالله بن الزبير جئته، فقلت له: يا هذا، إنا كنّا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، فلما كان الغد من يوم الفتح عَدَت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال: «أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام الله إلى يوم القيامة؛ فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد بها شجراً، لم تحلّ لأحد كان قبلي، ولا تحلّ لأحد يكون بعدي، ولم تحل إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ألا ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلّها لكم».

ومع ما في سياق ابن إسحاق من المخالفة لسياق غيره في نص ما ذكروه

من الخطبة فقد وَهَم ابن إسحاق فجعل عمرو بن سعيد بن العاصي الأشدق ـ وكان يسمى لطيم الشيطان، وكان كما يقول السهيلي جبّاراً شديد البأس ـ عمرو بن الزبير، وقد خالف ابن إسحق جميع من ساقوا حديث أبي شريح في هذا الوهم.

وقد ساق ابن إسحق خطبة الفتح في موضع آخر بسند آخر وفيما ساقه زيادات مفيدة اتفق في بعضها مع غيره من رواة الحديث والمغازي ؛ ونحن نسوق هذا النص لما فيه من هذه الزيادات لما فيها من الفائدة.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيدالله ابن عبدالله بن أبي ثور، عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجنه في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفَّ له الناس في المسجد، وزاد موسى بن عقبة أنه ﷺ انصرف إلى زمزم فاطّلع فيها، ودعا بماء فشرب منه وتوضأ، والناس يبتدرون وضوءه، والمشركون يتعجّبون من ذلك، ويقولون: ما رأينا ملكاً قط، ولا سمعنا به مثل هذا، وأخّر رسول الله ﷺ المقام إلى مقامه اليوم، وكان مُلْصقاً بالبيت.

نص لخطبة الفتح أوفى وأبسط يسوقه ابن إسحاق.

ثم ساق ابن إسحاق نصاً من نصوص الخطبة، فقال: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ وقف على باب الكعبة فقال:

«لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو موضوع تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلّظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها».

«يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة، وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿يا أيها

الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم»، قال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده ﷺ، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلّى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان ابن طلحة» فدُعي له، فقال ﷺ: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء».

* * *

مجمل إطار البحث في غزوة الفتح.

في هذا الإطار أجرينا الحديث في ذكر معالم هذه الغزوة المباركة، غزوة الفتح الأعظم، فتح مكة، بلد الله المحرّم، وبلد رسوله ﷺ الذي اختاره الله مهداً لمولده، ومرتعاً لنشأته، ومتقلّباً لشبابه، ومراحاً ومغدىً لرجوليته، ومهبطاً لرسالته، ومتنزلاً لبعثته، وغرس في قلبه حبه لها، فقال فيها وهو واقف في الحزوَّرة: «أما إنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت».

وقد بينّا أن النبي ﷺ أعد لفتحها جيشاً عرمرماً كثيفاً، كامل الأهبة وافي العدة بالسلاح والكُراع والمؤن، وأدوات الحرب والقتال، بَيْدَ أنه ﷺ كان يتفادى القتال فيها وفي المسير إليها، ويتخذ من الرحمة بأهلها دروعاً تقيهم بأس الغزاة، فتلطّف بهم غاية التلطّف أفراداً وجماعات، وأدناهم من نفسه، وقابل من أساء وطغى وبغى منهم بأعظم الإحسان، وعفا عمّا سلف منهم ومن آبائهم، ولكن أحقاد الجاهلية البرصاء كانت لا تزال تملأ قلوب الموتورين الذين وبّشوا الأوباش وجمعوا الأتباع لقتال كتائب الفتح والجهاد وهي تدخل مكة آمنة مطمئنة، فأراهم الله فيما بيتوه من الغدر وخيانة الأمان الخزي والخذلان.

حملة تأديبية للغادرين ناقضي عهد الأمان.

وكان رسول الله ﷺ قد أمر قوّاد كتائبه أن لا يقاتلوا إلاّ من بدأهم بالقتال، وأن يكفُّوا أيديهم ما استطاعوا، ولكن ذلك الإحسان أطمع الموتورين من زعماء قريش، فبدأوا بقتال كتيبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقتلوا منها من قتلوا غدراً وخيانة وكلباً وضراوة، فقاتلهم خالد ابن الوليد ليدفع عن نفسه وجنوده، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

ولما رأى رسول الله ﷺ جموع الأوباش الذين وبّشهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أمر قواد كتائب الأنصار أن يحصدوا هؤلاء الأوباش حصداً، تأديباً لهم ولزعمائهم الذين جمّعوهم ليريهم عواقب الغدر ونقض عهود الأمان التي كان ﷺ قد منحهم إياها على يد زعيمهم أبي سفيان بن حرب، ورفيقه حكيم بن حزام اللذين لم يكونا مع المحرِّضين على القتال.

ومضت حملة التأديب لتأخذ على الـذين سعّروا ويسعِّرون نيران الفتن طريقهم حتى استسلمت قريش بعد أن صرخ فيهم أبو سفيان وحكيم: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، وأسرعت أوباش قريش ومن كان يحرضهم على القتال إلى البيوت يدخلونها، ويغلقون أبوابها عليهم، والرعب يملأ قلوبهم والفزع يلعب بأفئدتهم، ويهز كيانهم هزاً عنيفاً لا يتركهم يستقرون على شيء.

عفو رسول الله ﷺ عن الغادرين جعل منهم قادة لكتائب الفتح الإسلامي.

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يجدوا ملجأ يتنفَّسون فيه أنفاس الراحة إلا أن يلقُوا بأيديهم مستسلمين في ضراعة إلى التوبة والندم بين يدي رسول الله ﷺ، فرقّ لهم ﷺ، وقبل منهم ضراعتهم، فأسلموا طائعين ومكرهين، فقبل إسلامهم، ولم يبحث عمّا في قلوبهم، بل عفا عنهم مستألفاً قلوبهم، حتى صلح حالهم أو حال أكثرهم بما بوّأهم الله تعالى من ساحة الإيمان، وأحسن الله إليهم بفضله، فكانوا بعد ذلك قادة ذادة، وسادة رادة، وحملوا ألوية الفتح والجهاد، وحمل من بعدهم أبناؤهم وأحفادهم رايات الهداية الإسلامية، وأدربوا بها في آفاق الأرض براً وبحراً يدعون إلى الله، ليحرروا الناس من ذلّ عبوديتهم للمخلوقين إلى عزّ عبوديتهم للخالق

عزّ شأنه، وأخرجوا الحياة بمن فيها وما فيها من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والرحمة.

والمتأمل فيما كتبنا في إطار مراحل هذه الغزوة المباركة، غزوة الفتح الأعظم يدرك منحانا فيما أردنا من سوق بعض أحداثها، وأسبابها وآثارها، وأنها كانت غزوة بر ورحمة ورأفة، ووفاء وعفو وصفح، وأنها كانت نسجاً لخيوط وحدة إيمانية أوسع وأعظم من الوحدة الإيمانية التي بدأت بمكة قبل الهجرة في دار الأرقم، ومن الوحدة التكافلية الاجتماعية التي عقدت عرواتها في المسجد النبوي، وهو يؤسس على الأخوة والتقوى، وفي دار أنس ابن مالك بالمدينة المنوّرة، لأن وحدة الفتح بمكة كانت وحدة انطلاق بالهداية ونشر رسالة الإسلام في أوسع مدىً من البلاد والأمم والشعوب، أما الوحدة الإيمانية قبل الهجرة، والوحدة التكافلية بعد الهجرة فهي وإن كانت أمتن نسجاً، وأفضل سرداً وأشرف منبعاً لكنها كانت أضيق حدوداً وأصلب عوداً، وأقوم سبيلاً، بل كانت عماد قوة المجتمع المسلم أفراداً وجماعات الروحية، وكانت أساس حضارته الإيمانية التي حملها روّاد الوحدة المكية بعد الفتح الأعظم، وبقوتها الروحية انتشرت الرسالة الإسلامية بمناهجها الأصيلة.

أسباب ما نالت غزوة الفتح الأعظم من عظيم المنزلة بين جميع الغزوات.

وإنما كان لفتح مكة هذه المنزلة العليا، والمكانة الفضلى، والشهرة الداوية في أسماع التاريخ بين الغزوات التي سبقتها في قتال المشركين وقتال الوثنيين حتى سمّاها ابن القيم (الفتح الأعظم) لما اشتملت عليه من أمور دينية واجتماعية، وآداب تربوية نذكر منها ما قبسه الخاطر من نور مصابيحها:

أولاً ـ إن فتح مكة كان مفتاح الفتوحات الإسلامية التي تعاقبت بعده، فكان هذا الفتح جديراً أن يكون بمنزلته العُظْمى التي عرفها له التاريخ عامة وتاريخ الإسلام خاصة.

ثانياً ـ أن هذا الفتح حرّر البلد الأمين من رقِّ التعبد للأصنام والأوثان، وطهّره من الشرك، وجعله متعبداً توحيدياً لله الواحد الأحد.

ثالثاً ـ أن هذا الفتح جعل من البلد الحرام دار أمن وأمان، وسلامة

وإسلام كما أرادها الله تعالى منذ خلقها يوم خلق السموات والأرض.

رابعاً ـ أن هذا الفتح طهّر الكعبة المشرفة من رجس الشرك، وجعلها قبلة يتجه إليها المسلمون بقلوبهم وأرواحهم وأبدانهم في صلواتهم، حيثما كانوا من أرض الله، فلا تقبل صلاة من مسلم ـ وهو متمكن من التوجه إليها ـ إلا إذا كان مولياً وجهه وقلبه وروحه إليها بإخلاص في التعبد لله وحده، وفي ذلك جمع كلمة المسلمين، وتحقيق وحدتهم الإيمانية التي يكونون بها إخوة متحابين متراحمين مهما تناءت بهم الأوطان؛ لأن مشاعرهم موحدة، وإحساساتهم موحدة، وأهدافهم موحدة، وآمالهم موحدة، وآلامهم موحدة، كما قال رسول الله ﷺ وهو يصف حال المسلمين في وحدتهم الإيمانية: إنهم **«كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسَّهر»**.

وبذلك يكون المجتمع المسلم موحّداً في كل ما ينتابه من الآمال والآلام، وتكون وسائل هذا المجتمع المسلم في حياته للوصول إلى غاياته سِلْماً وحرباً موحّدة في ظل بيئاتهم ووحدتهم.

خامساً ـ هذا الفتح أعاد محمداً رسول الله ﷺ إلى بلده آمناً سيداً منصوراً، سالماً مشرّفاً بفضل الله عليه وعلى أمته، بعد أن أُخرج منه مهاجراً، لأنه لم يجد في بلده الأمين متنفّساً لدعوته، ولا مسالمة له ولأصحابه، وسدّت أمام رسالته وهدايته الطرق التي كانت مفتحة الأبواب لكل شرك وإلحاد.

سادساً ـ أن هذا الفتح وجّه الأمة الإسلامية بقوتها الروحية والماديّة إلى الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته بين العباد، وجعل لهذا الجهاد ممّن هداهم الله وأسلموا من أهل مكة، ومن أولادهم وأحفادهم جنوداً وأبطالاً حملوا ألويته وراياته فانساحوا بها في البلاد يفتحون القلوب بالإيمان، ويفتحون البلاد بالعدل والإخاء والمرحمة والحب الإيماني، والمواساة والترافق.

سابعاً ـ أن هذا الفتح حرّر المجتمع الإنساني من الخوف والظلم والجهل، فأصبح المسلم في ظل راية هذا الفتح لا يخاف أحداً إلا الله الذي بيده نواصي العباد.

ثامناً ـ أن هذا الفتح المكّي الأعظم أنقذ به أقواماً، فأخرجهم من هاوية الكفر والضلال إلى أن أقعدهم مقاعد الصدق في ميادين البطولة، فكان منهم قادة للأمة في أفكارها، وسياستها، وعلومها ومعارفها، ومعالم حضارتها المسلمة، ومكنوا للحياة الصالحة بما تمّ على أيديهم من الفتوحات الهادية العادلة.

وبهذا كان هؤلاء تفسيراً عملياً لقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾ وكان مجتمعهم الذي يعيشون معه، ويحيون بينه دعاة إلى الله تعالى تفسيراً تطبيقياً لقوله عز شأنه: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

وكانوا بياناً لحجة الله البالغة في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا إن نتّبع الهُدى معكم نُتخطَّف من أرضنا؛ أو لم نمكِّن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كلِّ شيء رزقاً من لدنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

غـــزوة حُنَـــين

جموع هوازن وثقيف

درس تربوي في أقسى محنة ينتهي إلى أعظم منحة

انضمام ثقيف إلى هوازن في هذه الغزوة.

هذه الغزوة في وقائعها وأحداثها، والذين قوتلوا فيها غزوة واحدة متداخلة الوقائع والأحداث، متلاحقة الحوادث، متشابهة الأسباب والدوافع، موحدة الآثار، ممتزجة الحشود وإن جعلها الرواة غزوتين: غزوة هوازن في حنين وأوطاس، وغزوة ثقيف في الطائف.

بدأت هذه الغزوة في وادي حنين وهو على فرسخ من عرفة تجمعت فيه قبيلة هوازن وهي من كبريات القبائل العربية عدداً وأوفرها عُدَّة، وأكثرها أموالاً، وأشدها تعزّزاً بتراث الجاهلية ومواريث أعرافها وعاداتها، وانضوى إليها من بقايا الجيوب القبليّة والبطون المنتشرة هنا وهناك من أعراب البوادي حول مكة أعداد كثيرة، وانضمّت إليها ثقيف كلها، وهي وإن قلّت في أعدادها وأموالها عن هوازن، لكنها كانت أشد منها عناداً ومناكرة للإسلام، وجموحاً متأبياً، وفجوراً في صلابة الكفر والشرك والوثنية.

وكانت هوازن كما روى الواقدي في مغازيه ـ أقامت سنة تجمُّع الجموع، وتسير رؤساءها في العرب لتجمعهم حولها لحرب رسول الله ﷺ لما أفزعها انتصاره في غزواته انتصاراً تطامنت له رقاب قبائل العرب في مضاربها، إلا ما كان من قريش وعنادها حتى جاء أجلها في الاستسلام بفتح مكة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ منها، وتمّهدت له بعد كسر شوكتها، وذهاب طواغيتها إلى الفناء في الغزوات التي واقفت فيها النبي ﷺ وجند كتائبه

تآمر بين زعماء هوازن وثقيف على حرب رسول الله ﷺ في أهبة وافرة.

المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله فزعت هوازن وثقيف فزعاً شديداً حين عرفوا أن مكة فتحت، واستسلمت، وأسلمت طوعاً أو كرهاً، ومشى زعماء ثقيف وهوازن بعضهم إلى بعض، وحشدوا جموعهم في أعداد هائلة، وعدّة وافرة، وأموال متكاثرة؛ إشفاقاً ورهبة أن يغزوهم رسول الله ﷺ، وتقاولوا وهم في جموعهم التي بلغت أكثر من عشرين ألف مقاتل ـ كما جاء في كلام قائدهم مالك بن عوف ـ بما في صدورهم، وأبدَوا ما في دخائل نفوسهم من الحرد الحقود، والتغاضب الفجور، وقالوا فيما تقاولوا به: قد فرغ محمد فلا ناهية له دوننا، ولا حواجز تمنعنا منه.

والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا، وزعموا متكذِّبين ليثيروا نخوة القتال في أوشابهم وأتباعهم من الغوغاء كما تكذَّب من قبلهم إخوة لهم من اليهود، يهود بني قينقاع عقب انتصار رسول الله ﷺ على قريش ببدر انتصاراً تجاوبت بأصدائه آفاق الجزيرة العربية كلها، وقد كانت قريش إذ ذاك على أحدّ شوكتها، وأقوى قوتها، وذروة غرورها، وأوفر العدد من طواغيتها وقادتها الذين كانوا أشد حرداً وحقداً، وقد جعلت زمام قيادتها في يد أفجر فراعين الأرض، وأخبث من مشى على أديمها أبي جهل بن هشام، فقادها بغروره وفجوره إلى حتوف أشرافها وصناديدها الذين كان يقدمهم إلى قليب بدر، ولكنها انهزمت على كثرة أعدادها وأوفر عددها، وأشرافها وصناديدها الذين قتلهم الله تعالى بسيوف الإسلام، فانكسرت شوكة قريش بهذه الغزوة وهي أول غزوة في الإسلام.

تشابه بين غرور هوازن ويهود بني قينقاع.

ولما بلغ هذا الانتصار يهود المدينة قالوا: لئن صحَّ هذا فبطن الأرض خير من ظهرها، وقال بنو قينقاع منهم يتكذبون، وهم أخبث اليهود كفراً، وأصلبهم عوداً، وأفجرهم لؤماً، وأبأسهم في قتال: إن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال، ولو قاتلنا لعلم أنَّا الناس، فأكذبهم الله تعالى وفضحهم، وسلَّط عليهم رسوله ﷺ، فحاصرهم وأذلَّهم حتى شفع لهم عنده ﷺ ربيبهم رأس النفاق والمنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، وكانوا مواليه وحلفاءه، فأطلقهم له رسول الله ﷺ، وأجلاهم عن جزيرة العرب، فخرجوا أذلاء مدحورين إلى أذرعات، وقطع الله دابرهم فلم يبق لهم ذكر في الحياة.

كذلك قالت هوازن مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، حذو النعل بالنعل، وأخذوا يتحاثّون، ويتحاضّون على حرب رسول الله ﷺ، وقال بعضهم لبعض: فأجمعوا أمركم، وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم، وساروا بجموعهم الحاشدة ومن ورائهم أموالهم، ونساؤهم، وذراريهم إلى وادي حُنَين، وهو وادٍ حطوطٍ كثير الانحدارات والشِّعاب، والمكامن، وجعلوا عناج أمرهم إلى مالك بن عوف النصري، وهو شاب غرير، لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لم يشهد من تجارب الحروب وخبراتها وسياستها شيئاً سوى أنه مغرور بشبابه وكثرة حشود قومه ومن ضوى إليهم، تدفعه حماسة الشباب الغرير المغرور الذي لم يأخذ من دروس التجارب في الحياة ما يحّجزه عن التهور الأحمق، المنطلق بالتِّيه والبأو والعنجهية عن قيود الفكر المتأني الذي يحسب لكل أمر حسابه، ويلبس لكل حالة لبوسها، ويتخذ للأحداث أقرانها، وللوقائع شكولها، مّما جعله يسلك مسلكاً في تأهُّبه للقتال، وملاقاة جموع كتائب الجهاد المسلمة بقيادة رسول الله ﷺ لم يعرف لأحد من قادة العرب في حروبهم قبله، فقد حشد زعيم هوازن مالك بن عوف أموال هوازن ونساءها وذراريها ونزل بهم في وادي أوطاس، واجتمع إليه أشراف قومه، وفيهم دريد ابن الصمّة، فارس فرسانهم، وبطل أبطال حروبهم الذي نهد تحت ظلال السيوف والرماح، وكان قد بلغ من العمر أرذله، فجعل منه ذلك مخبار تجارب في خوض معامع الحرب ومعرفة سياستها، وقد جيء به في شجارٍ له، يقاد به، ولم يبق فيه للكر والفرّ شيء، وإنما بقي فيه التيمّن برأيه والاستفادة من تجاربه، فلما أنزل من شجاره، قال: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعْم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

مالك بن عوف قائد جموع ثقيف وهوازن يدفعه الغرور إلى إلقاء قومه للتهلكة.

محاورة بين دريد ابن الصمة ومالك ابن عوف.

وعند ابن إسحاق أن هوازن لما اجتمعت على حرب المصطفى ﷺ سألت دريد بن الصمّة الرياسة عليها، فقال لهم دريد: وما ذاك؟ وقد عمي بصري، وما أستمسك على ظهر الفرس، ولكن أحضر معكم لأشير عليكم رأيي بشرط أن لا أخالف، فإن ظننتم أني مخالف أقمت ولم أخرج، فقالوا له: لا نخالفك، وجاءه مالك بن عوف، وقال له: لا نخالفك فيما تراه، فقال دريد: تريد أن تقاتل رجلاً كريماً، قد أوطأ العرب وخافته العجم ومن

بالشام، وأجلى يهود الحجاز إما قتلاً، وإما خروجاً عن ذلٍّ وصغار، ويومك هذا الذي تلقى فيه محمداً ما بعده يوم! قال مالك بن عوف: إني لأطمع أن ترى ما يسرك! قال دريد: منزلي حيث ترى، فإذا جمعت الناس سرتُ إليك، فلما خرج مالك بالظعن والأموال وأقبل دريد قال لمالك: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير ويَعار الشاء، فقالوا: ساق مالك ابن عوف مع الناس أموالهم، ونساءهم وأبناءهم، فقال دريد: فأين مالك؟ فدُعي إليه، وقالوا: هذا مالك، فقال له دريد: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال مالك بن عوف: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال دريد: ولم ذاك؟ قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، فأنقض له دريد ـ أي صوَّت له بلسانه وهو داخل فمه بما يشبه الريح الذي يخرج من الإنسان سخرية منه ـ ثم قال له إمعاناً في السخرية، راعي ضأن والله، ما له وللحرب، وصفّق بإحدى يديه على الأخرى تعجباً، وقال: وهل يردّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك، ثم قال دريد لمالك: يا مالك ابن عوف إنك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم، وعليا قومهم، ثم الق الصُبَّاء على متون الخيل، فإن كانت لك لحقت بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك بن عوف في غرور متعجرف، وعناد مستكبر، وتهور أحمق: والله لا أفعل، ذلك أنك كبرت وكبر عقلك، فغضب دريد، وقال: يا معشر هوازن، ما هذا برأي، إن هذا فاضحكم في عـورتكم، وممكِّن منكم عدوكم، ولاحـق بحصن ثقيف وتارككم.

ثم توجّه مالك بن عوف إلى قومه فقال: والله لتطيعنيٍّ يا معشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، فقالوا: أطعناك.

وتهيؤا للقتال تحت إمرة مالك بن عوف، ولم يسمعوا لرأي دريد ابن الصمَّة، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني.

مخابرات رسول الله تأتيه بأخبار أعدائه.

وكان رسول الله ﷺ على منهجه السياسي في غزواته من الاهتمام بتعرف حال أعدائه قد بعث عبدالله بن أبي حدرد رضي الله عنه ـ كما في حديث جابر عند ابن إسحق من رواية الشيباني ـ وأمره بالدخول في عسكر هوازن وثقيف، ليعلم له علمهم، ويتعرف حالهم، ليكون الإقدام على مواقفتهم على بصيرة من أمرهم، فأتاهم ابن أبي حدرد رضي الله عنه، وكان رجلاً خبيراً بمداخل الأمور ومخارجها، فدخل فيهم، وجاس خلال عسكرهم وأقام بينهم يوماً أو يومين، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك بن عوف قائد القوم، وعرف أمرهم، وما هم عليه من قوة في العدد والعدّة.

سطحية آراء مالك ابن عوف في توجيه قومه للمعركة.

وعند الواقدي أن عبدالله بن أبي حدرد انتهى إلى خباء مالك بن عوف، فيجد عنده رؤساء هوازن، فسمعه يقول لهم: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً، لا علم لهم بالحرب، فيظهر عليهم.

فإذا كان السَّحَر فصفُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم صفُّوا، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا جفون سيوفكم، فتلقونه بعشرين ألفاً مكسورة الجفون، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً.

فجاء ابن أبي حدرد إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال ﷺ لعمر ابن الخطاب: «ألا تسمع ما يقول؟» فقال عمر: كذب، فقال ابن أبي حدرد لئن كذبتني يا عمر ربما كذّبت بالحق، فقال عمر لرسول الله ﷺ: ألا تسمع ما يقول؟ فقال رسول الله ﷺ لعمر: «قد كنت ضالاً فهداك الله».

يقظة حراس الإسلام في حومة الجهاد وتوجيهات القيادة.

وفي حديث سهل بن الحنظلية عند أبي داود والنسائي بإسناد حسن، أن أصحاب رسول الله ﷺ ساروا معه فأطنبوا السير، فجاء رجل فارس ـ هو ابن أبي حدرد كما يقول الحافظ ابن حجر ـ وهو المتقدّم في حديث جابر فقال:

إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، وإذا أنا بهوازن عن بَكْرة أبيهم، بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله» وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب» فركب ابن أبي مرثد فرساً له، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرَنّ من قِبلك الليلة».

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاّه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: ما أحسسناه، فثوّب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشّعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشِّعب، حيث أمرني ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحداً، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقال: لا، إلا مصلياً أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها».

وهذه القصة تمثل أعظم منازل الرفعة لمن يحرس المسلمين، وهي نموذج من نماذج السياسة الحكيمة التي تمثل مَعْلَماً من معالم المنهج الإسلامي في رسالة الإسلام، في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عدداً وعدّة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة من ألزم ما يلزم قادة كتائب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليتقي بها المجتمع المسلم المفاجآت من قبل العدو، ويتخذ لكل حركة من حركاته ما يتلاءم معها سلباً وإيجاباً.

قال الواقدي: لما كان ثلث الليل عمد مالك بن عوف قائد هوازن إلى أصحابه فعبّأهم في وادي حُنَين، وهو واد حطوط ذو شعاب ومضايق، وفرّق الناس، وأوعز إليهم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة.

وعبّى رسول الله ﷺ كتائبه وصفّهم صفوفاً، ووضع الألوية والرايات

في أهلها، وتهيأ ﷺ للحرب، ولبس درعين، والمغفر، والبيضة، واستقبل الصفوف، وطاف عليهم بعضاً خلف بعض يتحدرون، فحثّهـم على القتال وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا.

دفاع ابن القيم عن أن اتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل.

قال ابن القيم: من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً، فإنه ﷺ أكمل الخلق توكلاً، وقد دخل مكة والبيضة على رأسه، ولبس يوم حنين درعين وقد أنزل الله عليه ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

وكثير ممن لا تحقيق عنده يستشكل هذا، ويتكايس في الجواب تارة بأنه فعله تعليماً لأمته، وتارة بأنه قبل نزول الآية، ولو تأمل أن ضمان الله العصمة لا ينافيه تعاطيه لأسبابها، فإن ضمان ربه لا ينافي احتراسه من الناس، كما أن إخباره تعالى بأنه يظهره على الدين كلِّه ويعليه لا يناقض أمره بالقتال وإعداده العدّة والقوة ورباط الخيل، والأخذ بالجدّ والحذر والاحتراس من عدوه ومحاربته بأنواع الحرب والتورية، فكان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، وذلك لأنه إخبار من الله عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها بحكمته موجبة لما وعد به من النصر والظفر وإظهار دينه وغلبة عدوِّه.

ونظر بعض جند كتائب الإسلام إلى صفوف المسلمين فـأعجبته كثرتهم، فاهتبلها الشيطان وصرخ بها على لسان هذا الذي أعجبته كثرة جند الإسلام، قائلاً: لن نُغلب اليوم من قلّة، فمضت الكلمة مسرعة تهوي إلى أسماع وقلوب من كان منها على مسمع، تحمل إلى عامّة الجند الفرحة الغافلة، والاسترخاء الكسول، والتواكل المتثاقل.

جهالة قائل الكلمة المغررة توهّن حديثها.

وقد روى يونس بن بكير، المعروف بالشيباني في زيادته على مغازي أستاذه ابن إسحاق، عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين: لن نُغلب اليوم من قلّة، قال الزرقاني مبيِّناً لجهالة الرجل في رواية ابن بكير عن الربيع ابن أنس: هو غلام من الأنصار كما في حديث أنس عند البزار، بيد أن كلام الزرقاني لم يذهب الجهالة كلّها عن الرجل، وإنما أذهب بعضها، وبقي على أكثر حاله في الجهالة، لأن قول الزرقاني أخذاً من حديث أنس عند البزار هو

غلام من الأنصار لم يبيِّن من هو هذا الغلام الأنصاري؟ وما مكانته في الجهاد؟ وما منزلته بين المسلمين المقاتلين؟ وقيل: إن قائل ذلك رجل من بني بكر لم يسمّ، فبلغت هذه الكلمة المغرِّرة التي لم تكن تجري على منهج رسالة الإسلام، مسامع رسول الله ﷺ فشقَّ ذلك عليه، وكرهه، روى الحاكم وصحَّحه، وابن المنذر، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه، قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة، وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم.

وهذه الرواية أقرب الروايات إلى أسلوب القرآن الحكيم، إذ أسند الإعجاب إلى الجماعة ولم يخصِّص فرداً، ولهذا كانت المحنة التأديبية قاسية شاملة، فلم يثبت مع النبي ﷺ إلا نفر من آل بيته، كان فيهم العباس عمُّ رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه ﷺ، وبعض أبناء العباس، وأبو بكر الصدّيق وعلي بن أبي طالب، وفرَّ جمهرة الجيش مدبرين كما قال الله تعالى معاتباً ومنذراً، ومحذّراً، ومعلِّماً ومذكّراً: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولَّيتم مدبرين﴾ وفي قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ إشارة إلى أن النصر لا تلزمه كثرة الجند وضخامة الأهبة، وفيه إشارة إلى ما سبق لهم من مواقف كثيرة في مواطن الجهاد، ولم تكن لهم كثرة عدديّة، ولا قوة تأهبية، وإنما كانت قلوبهم مفعمة بالاعتماد على الله، والثقة به، يرون أن النصر من عنده، يؤيد به من يشاء من عباده.

تحقيق في تبيان معنى الآية.

وفيه عتاب مطوي للذين أعجبوا بالكثرة، فلم تُغْنِ عنهم شيئاً، مع علمهم القاطع بأنهم نصروا وهم قلّة في مواطن كثيرة، فلما كثّرهم الله نَسُوا ما كان من نعم الله عليهم بالنصر المؤزر في ظل القلة الصابرة المعتمدة على الله.

ثم أفصح الله تعالى عن صريح العتاب المعيِّر لهم بقوله جل شأنه: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً﴾ مذكّراً لهم ما كان منهم في ظل الكثرة المعجبة لهم، وأنهم لم يكن لهم مع الكثرة صبرهم الذي

كان لهم مع القلّة المتوكلة على الله في ثقة اليقين ورسوخ الإيمان، وأنهم لم يحتملوا مع الكثرة ما احتملوه في سوابقهم مع القلّة، بل ضاقت عليهم أنفسهم لمّا اعتمدوا على الكثرة، وتخلّوا عن مرارة الصبر، فولّوا مدبرين، تاركين رسول الله ﷺ في نحر العدو في قلّة قليلة من آل بيته وخلصّ المؤمنين.

ثم ذكر الله تعالى ما تفضّل به من إنعام على رسوله ﷺ بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، وتأييده بنزول الملائكة بعد أن فرّوا عنه، وحمى مقامه المنيف الأشرف من أن تشوبه أدنى شائبة افتخار أو إعجاب بكثرة الجند ووفرة الأهبة، فقال تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهذا تذكير من الله تعالى للمؤمنين بما سبق لهم في مواطن اشتد عليهم فيها الكرب، ففرّج عنهم بما أمدّ الله به رسوله من جنود الغيب من الملائكة وغيرهم، وأجلّ هذه المواطن غزوة بدر، إذ كان المؤمنون في قلّة عدديّة مستضعفة العدّة، فأنزل الله تعالى ملائكته مدداً لرسوله ﷺ ممتناً بذلك على المؤمنين، فقال جلّ شأنه: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾.

حكمة التعبير عن القلة بالذلة.

وفي التعبير عن القلّة بقوله: ﴿وأنتم أذلة﴾ تلميح إلى ما كان عليه المؤمنون من قلة في العدد وضعف في الأهبة بالنسبة إلى ما كان عليه أعداؤهم من وفرة العدد وقوة العدة والأهبة.

وفيه إشارة إلى ما كان يساور أنفسهم من رهبة ملاقاة العدو في عدده وعدته.

وفي التعبير بقوله: ﴿لقد نصركم الله﴾ بما فيه من افتتاح الكلام بأقوى المؤكّدات وإسناد النصر لله تعالى، وذكر حال المؤمنين في قلّة عددهم وضعف عدّتهم التي لم تكن تؤهلهم في ظاهر حالهم لمّا تنزل عليهم من النصر المؤزر، الذي لم تكن له أسبابه الظاهرة في مجتمعهم المسلم الناشىء، إشارة إلى أن النصر ليس بالكثرة، وأن عدم الغلبة ليس بالقلّة، وإنما النصر بيد الله، يؤتيه من يشاء من عباده.

فلا فخر، ولا مكان للإعجاب بالكثرة ليسند إليها الغلبة، وتسند الهزيمة إلى القلّة، والله تعالى يقدِّم لعباده العبرة في تصاريف أقداره لعلّهم يعقلون.

لو قال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل الجهل لأنصف من نفسه بذكر هذه الرواية الخبيثة.

ومن أعجب العجب أن يروي ابن إسحق عن بعض أهل العلم بمكة إسناد هذه الكلمة البشعة (لن نغلب اليوم من قلّة) إلى سيد الخلق محمد ﷺ، فيقول ابن إسحق: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال حين رأى كثرة من معه من جنود الله تعالى: (لن نغلب اليوم من قلّة).

وليس العجب من أن يرويها ابن إسحق عن بعض أهل مكة الذي يحتمل أن يكون من الطُلقاء الذين دخلوا في الإسلام وهم كارهون، وكان رسول الله ﷺ بما جُبل عليه من الرحمة والرأفة يستألفهم لعلهم يهتدون إنقاذاً لهم من عذاب الخلود في الجحيم.

والزمن بين غزوة حنين وفتح مكة لم يكن كافياً ليفتح مغاليق قلوب هؤلاء المستألفين ويخرجهم من ظلمات العناد ليستقر الإيمان في أفئدتهم استقراراً مطمئناً.

ورواية أن قائل هذه الكلمة الفخورة بالكثرة المعجبة بها غلام من الأنصار، كما قال الزرقاني، أو أن قائلها مَسْلَمة بن وقش الأنصاري ليست بعيدة عن الاحتمال، والأنصار أفرحهم جداً فتح مكة، ورأوا أنه أمدّ الإسلام بقوة فوق قوة ما كان له في مجتمع المدينة، فأخذوا عن منهج رسالة الإسلام حينما رأوا كتائب الجهاد لمّا صفهم رسول الله ﷺ صفوفاً بعضهم وراء بعض، فظهرت للعين كثرتهم، وغالب هذا القائل فرح أشبه ما يكون بالغفلة والعجب، فقال ما قال على مسمع من رسول الله ﷺ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ وكرهه.

وليس العجب أن يروي ابن إسحق عن بعض مجاهيل أهل العلم بمكة إسناد هذه الكلمة البشعة المعجبة بكثرة الرجال دون استحضار لعظمة فضل الله تعالى في حفاوته برسوله محمد ﷺ، وإنعامه عليه وعلى أصحابه بنعمة النصر مع قلة عددهم وضعف عدتهم، ودون استحضار لما كان

عليه ﷺ من التواضع لله وهو يدخل مكة فاتحاً مظفَّراً منصوراً، فقد أجمعت الروايات على أنه ﷺ دخل مكة في جيش عرمرم جرّار، وهو يضع رأسه على رَحْله حتى كانت لحيته تمس الرحل تواضعاً لله تعالى وشكراً على إنعامه وفضله.

العجب من تشبث بعض العلماء بهذه الروايات الباطلة والتعسف في تأويلها.

ولكن العجب العاجب أن تذكر هذه الرواية التي لا زمام لها ولا خُطام، ثم ينتهض بعض أهل العلم كالطيبي في حواشيه على الكشاف للدفاع عنها وتأويل عبارتها تأويلاً متعسفاً متمحِّلاً في توجيهها، وهذه التمحّلات في تأويل الروايات الباطلة من أخطر ما ابتلي به الإسلام في تراثه الفكري، وماذا على هؤلاء العلماء لو أنهم أهملوا مثل هذه الروايات الباطلة، ولم يكثّروا بها على الناس، وليسوا كلهم في طاقتهم فهم هذه التأويلات المتعسِّفة والتمحُّلات المتكلفة.

وقد تبع الزرقاني الطيبي وأمثاله، فقال: وعلى فرض صحة أن المصطفى ﷺ قال هذه الكلمة أو الصدّيق رضي الله عنه، فليس المراد الافتخار، بل التسليم لله، فالمقصود نفي القلّة، لا نفي الغلبة، أي إن غُلبنا فليس لأجل القلّة، بل من الله الذي بيده النصر والخذلان، ونقول للزرقاني: هل يقف أعداء الإسلام عند هذا التأويل، يرضونه جواباً عن الإشكال الذي قد يؤدي إلى أمر عظيم في حق النبي ﷺ؟.

ومما يدخل في دائرة العجب أن الواقدي ـ وليس هو بالنسبة لابن إسحاق بخير الرجلين ـ روى عن سعيد بن المسيِّب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، لن نغلب اليوم من قلّة، وهذه رواية باطلة، ألصقت إلصاقاً بسيد التابعين سعيد بن المسيِّب رحمه الله تعالى، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أخص الأخصاء برسول الله ﷺ في أخلاقه وآدابه، وفقهه في الدين وعلمه بأحكام الشريعة، ومعرفته بالله تعالى، فلا يمكن أن يكون هو قائلها لأنها بعيدة كل البعد عن رسوخ الإيمان وقوة اليقين، والصدِّيق منها في الذروة بعد رسول الله ﷺ.

وأعجب من هذا العجب أن الحافظ العَيْلم أبو عمر بن عبد البر يجزم

بهذه الرواية الباطلة سنداً ومتناً، وهذا بعيد عن منهج الحافظ ابن عبد البر في معرفته بالروايات ونقدها، ولعل هذا مما أُدخل عليه في بعض مؤلفاته، ولا سيما دُرَرِه، وهو كتاب لطيف موجز، أشبه بفهرست لحوادث السيرة النبوية.

كان فرار الطلقاء سبباً للهزيمة في الجولة الأولى.

وقدّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ـ وكان على قيادة بني سُلَيم، وأهل مكة من الطلقاء الذين لم يستقر الإسلام في قلوبهم استقراراً مدعّماً بالمعرفة والإخلاص ـ ومن هؤلاء كان البلاء، وكانت المحنة القاسية، فقد استقبلهم من هوازن ومن ضَوَى إليها ما لم يروا مثله قط من السواد والكثرة، وكان ذلك في غبش الصبح وعمايته، فاستقبلتهم كتائب العدو خارجة من مضايق الوادي وشِعابه، وحملوا على مقدّمة المسلمين من بني سُلَيم وطلقاء مكة حملة واحدة، فانكشفت خيل بني سُلَيم مولِّية، لتقدم كثير ممن لا نية لهم في القتال وأكثرهم من شباب الطلقاء ومرضى القلوب، وتبعهم سائر أهل مكة ممن كان إسلامه مدخولاً، وقال بعضهم لبعض: اخذلوه ـ يعنون رسول الله ﷺ ـ فهذا وقته، فانهزموا وتبعهم الناس وهم لا يشعرون.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين من الوادي، وجعل ينادي في الناس: «أيها الناس هلمّ إليّ،أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله».

نحن نرجح رواية ابن سعد ومن معه من الأئمة على رواية البخاري في حديث البراء.

وعند ابن سعد، وابن إسحاق، ورواه أحمد، وابن حبان عن جابر، قال: لما استقبلنا وادي حُنَين انحططنا في جوف وادٍ حَطـوط، له مضايق وشعوب، وإنما ننحدر فيه انحداراً، وفي عماية الصبح، وقد كان القوم سبقونا إلى الوادي فكمنوا في شعابه وأجنابه، ومضايقه، وتهيؤا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلا الكتائب شدّوا علينا، شدة رجل واحد، وكانوا رماة، فانطلق الناس.

هذه الرواية صريحة في أن المسلمين انكشفوا بمجرد التلاقي، وولّوا مدبرين كما أخبر الله عنهم، وفي حديث البراء بن عازب ما يخالف هذا، ويفيد أن انكشاف المسلمين وتولِّيهم مدبرين إنما كان بعد تلاقيهم بالمشركين وقتلهم حتى كشفوهم وأكبوا على الغنائم يجمعونها، فاستقبلهم العدو بالسهام فانكشفوا.

وهذا خلاف جوهري لم نرَ مَنْ وقف عنده للجمع بين الروايتين أو ترجيح إحداهما على الأخرى، ونحن نميل إلى ترجيح رواية ابن سعد ومن معه من الأئمة على رواية البخاري، لأن هوازن أعرف بمضايق واديهم وشعابه ومنحدراته، ولعلهم وضعوا أكثر من كمين في هذه المضايق والشِّعاب، فلما حمل المسلمون على من بدا لهم من كتائب هوازن خرجت الكتائب من مكامنها، وكانوا رماة فرشقوا المسلمين بسهامهم، وحملوا عليهم حملة واحدة، فانكشف الطلقاء، وتخلخلت صفوف المسلمين بما فاجأهم من الحملة عليهم وولوا مدبرين.

وفي حديث أنس عند البخاري: فأدبروا عنه حتى بقي وحده، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ونادى كتائبه وأصحابه مذكِّراً داعياً لهم إلى الكرّة على العدو، مقوِّياً عزائمهم بأنه ﷺ رسول الله، وقد وعده الله نصره.

في رواية الواقدي وابن إسحاق دليل على أن المنهزمين كانوا من الطلقاء.

وروى الواقدي عن قتادة قال: مضى سَرَعان المنهزمين إلى مكة يخبرون أهلها بالهزيمة، فسُرَّ بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة، وقال قائلهم: ترجع العرب إلى دينها ودين آبائها، وقد قتل محمد وتفرق أصحابه، فقال عتّاب بن أسيد أمير مكة: إن قتل محمد فإن دين الله قائم، والذي يعبده محمد حيّ لا يموت، فما أمسوا حتى جاءهم الخبر بنصره ﷺ، فسُرَّ عتّاب بن أسيد وكبت الله من كان يسرّه خلاف ذلك.

وعند ابن إسحاق: لما رأى من كان معه ﷺ من جفاة أهل مكة ما وقع، وتكلّم رجال بما في أنفسهم، فقال أبو سفيان بن حرب ـ وكان إسلامه بعد مدخولاً ـ لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الأزلام لمعه في كنانته.

وصرخ جَبَلة أو كَلَدة بن الحنبل ـ وهو أخو صفوان بن أمية لأمه ـ ألا بطل السحر، فقال له أخوه صفوان وهو على شركه لم يسلم بعد: اسكت فضّ الله فاك: لأن يربّني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجل من هوازن: وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأري، أقتل محمداً، فأقبل شيء حتى غشي فؤادي، فعلمت أنه ممنوع مني، فالتفت إليّ ﷺ وتبسم، وعرف ما أردت فمسح صدري وذهب الشك.

كرة صارمة بعد فرَّة عابرة وجاء الله بالنصر المؤزر

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال للعباس: «ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة - أي شجرة الرضوان التي بايعوه تحتها على أن لا يفرّوا حتى يموتوا بين يديه أو ينتصروا على المشركين - يا أصحاب سورة البقرة».

وقد التمس الزرقاني رحمه الله حكمة لإدخال سورة البقرة في النداء على كتائب الجهاد، فقال: خُصّت بالذكر حين الفرار لتضمنها ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ أو لتضمنها ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ أو لاشتمالها على قوله جل شأنه: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾.

وكان العباس رضي الله عنه رجلاً صيّتاً جهير الصوت، قوي الصرخة: فنادى بما أمره به رسول الله ﷺ، وبلغ نداؤه مسامع المسلمين، وهم على مسافات بعيدة، فأقبلوا سراعاً كأنهم الإبل إذا حنّت على أولادها، وهم يقولون: لبيك، يا لبيك، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه وأرسله وأخذ درعه، يقذفها في عنقه، وأخذ سيفه وترسه، يؤم الصوت، وازدحموا على رسول الله ﷺ ازدحاماً شديداً، حتى كأنه ﷺ في حرجة فقال العباس رضي الله عنه، فَلَرِماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار، لشدة ما أحاط الأنصار برسول الله ﷺ، وهم يقاتلون عنه، ويمحون ما كان من هفوتهم في التولي عنه ﷺ.

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة على أعدائهم المشركين، فقاتلوهم قتالاً شديداً جعل رسول الله ﷺ يشرف عليهم مبتهجاً بشجاعتهم وبطولتهم، وقال: «الآن حمي الوطيس» وهذا من أفصح الكلام الذي لم يُسمع من أحد قبله ﷺ.

وتناول حفنة من الحصباء بنفسه الشريفة أو ناولها له عمه العباس أو غيره من أصحابه رضي الله عنهم ورمى بها وجوه الأعداء المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فهزمهم الله تعالى هزيمة منكرة، فرَّقت جموعهم، وأرسلوا أرجلهم بالفرار لا يلوون على شيء.

ولما أقبل المسلمون بعد فيئتهم على رسول الله ﷺ، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشُهُب - وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل الملائكة مدداً، وقتل من قتل من المشركين، وأفاء الله على رسوله أموالهم، وكانت أكثر أموال الغنائم في جميع الغزوات، كما أفاء عليه ﷺ نساءهم وأبناءهم، وفرّ قائدهم مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه حتى بلغ حصن الطائف - أسلم كثير من أهل مكة الذين بقيت قلوبهم على وثنيتها وشركها حين رأوا نصر الله لرسوله وإعزاز دينه.

ثم أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من يقدر على قتله من أعداء الله وقال لأصحابه: «اجزروهم جزراً» وأومأ بيده إلى مكان الذبح من الحيوان، كما أخرجه البزار من حديث أنس برجال ثقات، فامتثل جند الله أمر قائدهم الأعظم، وأمعنوا في القتل حتى أفضى ذلك إلى الذرية، فنهاهم ﷺ عن قتل الذرية والنساء.

روى الواقدي أن سعد بن عبادة جعل يصيح يومئذ بالخزرج ثلاثاً، وأسيد بن حضير بالأوس ثلاثاً، فثابوا إليهما من كل ناحية، كأنهم النحل تأوي إلى يعسوبها.

نهي رسول الله ﷺ عن قتل من لم يكن من أهل القتال.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن القتل أسرع في ذراري المشركين قال صلوات الله عليه: «ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية، ألا لا تقتل الذرية» ثلاثاً، فقال أسيد بن حضير: أليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها».

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن رباح بن ربيع أنه مر هو والصحابة على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة، فوقفوا ينظرون إليها ويعجبون من خَلْقها حتى لحقهم ﷺ على راحلته، فانفرجوا عنها، فوقف عليها ﷺ فقال: «ما كانت هذه لتقاتل» فقال لأحدهم: «الحق بخالد، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً، أو امرأة، أو عسيفاً».

وروى الواقدي عن شيوخ ثقيف: ما زال ﷺ في طلبنا ونحن مولُّون،

حتى إن الرجل ليدخل حصن الطائف، وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة، وروى الواقدي عن مالك بن أوس: حدثني عدّة من قومي شهدوا ذلك اليوم، يقولون: لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى، فما منا أحد إلا يشكو القذى في عينيه، ولقد كنّا نجد في صدورنا خفقاناً كوقع الحصى في الطاس، ما يهدأ ذلك الخفقان.

تشابه الموقفين بين أحد وحنين في المحنة والمنحة.

وما ذكره الله تعالى في غزوة حنين من انكشاف كتائب المجاهدين في أول ملاقاة العدو، وتولّيهم مدبرين عن رسول الله ﷺ، إذْ أعجبتهم كثرتهم فركنوا إليها، فلم تغن عنهم شيئاً، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولّيتم مدبرين﴾.

ثم تـدارك الله تعالى لهم بفضله، ورجـوعهم إلى رسول الله ﷺ مقبلين، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشُّهب إثر نداء العباس عليهم بما أمره به رسول الله ﷺ من أوصاف الشرف ونعوت البطولة الفدائية المؤمنة، وما عتب الله عليهم من ركونهم إلى الأسباب المادية في إعجابهم بكثرتهم، وقولهم: لن نُغلب اليوم من قلّة، وإراءتهم ببصائرهم وأعين أبصارهم أن هذه الكثرة لم تُغْنِ عنهم شيئاً، بل كان إعجابهم بها وبالاً عليهم، أذْهلهم عن مفاجأة العدو، فلم يثبتوا له، وولّوا مدبرين تاركين قائدهم الأعظم ورسولهم الأكرم سيد الخلق وحيداً في نحر العدو، إلا من قلة قليلة ثبتت معه من الأبطال الأشاوس من آل بيته الأكارم، وخلّص خلصاء المؤمنين، وما امتن به سبحانه عليهم بإنزال السكينة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وبتنزّل جنود الغيب مدداً من الله من الملائكة وغيرهم، ومن تسليطهم على أعدائهم بالقتـل والتشريد والإذلال، ثم أذاقهم حلاوة التوبة المنيبة إلى الله معلقاً لها بمشيئته وإرادته لإشعارهم أن الأمر كلّه لله، ومن ختمه الآيات الكريمات بما غسل به ما علق بقلوبهم، وذلك في قوله عز شأنه: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾.

كل ذلك يجعل الموقف في حُنين أقرب شبهاً بالموقف في غزوة (أحد) في جميع مراحله، وكل ما كان هناك من دروس تربوية للمجتمع المسلم جعلها الله نماذج لإبراز معالم منهج الرسالة الإسلامية الخالدة، وتطبيق رسول الله ﷺ لها تطبيقاً عملياً، لتكون أسوة لأجيال الإسلام في مستقبل الحياة أينما كانوا من أرض الله، وكيفما كانوا قوة وعلماً ومعرفة وأدباً وسياسة ونظماً اجتماعية إن هم صبروا عليها وأقاموا دعائمها فيما بينهم علماً وعملاً، يجده المسلم المتفقه في دين الله وسيرة النبي ﷺ باعتبارها منهجاً قويماً لسير المجتمع المسلم في حياته العملية عليها هنا في غزوة حنين بدءاً ونهاية، فهناك في غزوة (أحد) ختمت آيات العتاب التربوي بالعفو، فقال تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ وهنا في غزوة حنين ختمت الآيات المعاتبة بالمغفرة والرحمة بعد الإشارة الحكيمة المحكمة إلى أن الله تعالى يتوب على من يشاء، وذلك إطماع في التوبة ليعم كل مسلم يهفو ثم ينيب إلى الله بالتوبة، فلا يبقى في قلب مؤمن أثر لليأس من رحمة الله، ولا يبقى للهفوات انطلاق بغير خُطُم تزمُّها عن الجموح في مراتع الشهوات وطواعية الشيطان.

وجوه التشابه بين الموقفين بدءاً ونهاية.

وليس بعد عفو الله، ومغفرته، ورحمته، وحكمه مكان للحديث عن أنّ هذا الفرار الذي كان إلى توبة منيبة إلى الله بالندم ـ معصية من كبائر الذنوب أو ليس بمعصية، حتى ولا من صغائر الهفوات وتوافه الذنوب، ولا يعظم ذنب أمام عفو الله، ولا يصغر ذنب أمام جلال الله.

ومن الغريب أن يتخذ بعض العلماء مناسبة هذا العتاب المتلطف في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ ذريعة إلى الحديث عن الفرار من الزحف هل هو من كبائر الذنوب أو ليس من كبائرها.

أقوال العلماء في الفرار من الزحف وهل يدخل فيه الفرار عن رسول الله ﷺ.

وقد أطنب بعض المؤلفين في السيرة وفي غيرها، وأطالوا رشاء القول في الخلاف بين العلماء في ذلك، حتى التمس بعضهم الاعتذار عن الفرار هنا في غزوة حنين بأن العدو كان ضعف عدد المؤمنين أو أربى من الضعف، ولا ندري هل كثرة العدو عدداً وعُدّة تبيح للمؤمنين التراخي عن الجهاد، وتبيح لهم الفرار من وجه العدو إذا كان أكثر منهم بأضعاف مضاعفة؟ ولكنا نعلم

علم اليقين أن المسلمين واقفوا الفرس والرومان في وقائع متعددة، وكانت أعداد العدو وعدته أكثر من أضعاف أعداد المسلمين وعدّتهم، وقد نصر الله تعالى المؤمنين على قلتهم النسبية على أعدائهم، ففتحوا جميع فارس وجعلوها أرض إسلام وإيمان وعلم ومعرفة، وطهّروا أرض العرب في الشام ومصر والمغرب من حشود الروم وحرّروها للإسلام ورسالته الخالدة، فلم يقل أحد أن الكثرة العددية في العدو تُقْعِد عن الجهاد، أو تجيز الفرار أمام العدو ليتخذ من بلاد الإسلام ديار استعباد وإذلال.

رأي الطبري ومناقشته.

وذهب أبو جعفر الطبري إلى أن الانهزام المنهي عنه هو ما وقع على غير نية العود، ونقول لأبي جعفر الطبري: كيف يحكم على أمر بأنه منهي عنه أو غير منهي عنه إذا كان مشتركاً فيه معرفته أمر مغيب، تستحيل معرفته إلاّ بعد وقوعه والإبانة عنه، والنية أمر مكنون في الصدور لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ارتضى من رسول يُعْلِمه بوحيه ما لم يعلم، وإلا مَنْ انطوى عليه صدره ممن نواه وعزم عليه، وليس لدينا أثر صحيح ثابت أن رسول الله ﷺ أخبر عن الفارّين بأنهم فرّوا إلى عَوْد، ولا أنّ أحداً من الفارّين أخبر عن نفسه أنه فر وأنه ينوي العودة.

ثم قال الطبري: وأما الفرار للكثرة فهو كالمتحيز إلى فئة ـ يعني أنه ليس انهزاماً منهياً عنه ـ وهذا كلام لا يستقيم، ولا يقبل، لأنه لم يذكر له مأخذ من نص، ثم إن الفرار في غزوتي (أحد) و(حنين) كان عن رسول الله ﷺ، وليس وراءه ﷺ فئة يتحيز إليها، فكيف يكون الفرار للكثرة على إطلاقه جائزاً كفرار المتحيِّز إلى فئة؟.

رأي السهيلي ونقده.

وقال السهيلي في الروض: لم يجمع العلماء على أنّ الفرار من الزحف من الكبائر إلا في يوم بدر وهو ظاهر قوله: ﴿ومن يولّهم يومئذ دُبُره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ ثم أنزل التخفيف في الفارِّين يوم (أحد) وهو قوله: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ وكذا أنزل ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ إلى قوله: ﴿والله غفور رحيم﴾.

وهذا كلام غير مسلّم على إطلاقه، لأن ما ذكر من الآيات في يوم

بدر، مقيّد بزمن معيّن، وهو يوم بدر، كما يفهمه صراحة قوله: (يومئذ)، وكذا ما أنزل يوم (أحد) و(حنين) إنما أنزل في وقائع معيّنة لقوم معيّنين، وهم الذين شهدوا (أحداً وحُنيناً) وفرّوا ثم فاؤوا،وليس في النص ما يشعر بالعموم الشمولي الذي يتعدّاهم إلى غيرهم، وهؤلاء عوتبوا ثم شُرّفوا بالعفو، والمغفرة، والرحمة، فلا تصلح هذه الآيات أن تكون بناء لقاعدة لكون التولّي يوم الزحف من كبائر الذنوب، وإنما مأخذ ذلك من حديث رسول الله ﷺ الثابت عنه حين سئل عن الكبائر فذكر منها ـ في بعض الروايات الصحيحة ـ التولّي يوم الزحف.

وقد حاول ابن القيِّم رحمه الله أن يبين حكمة ما وقع في حنين من المحنة، ثم الكرّة بعد التولّي، والنصر بعد الهزيمة في أسلوب مطنب، كما حاول من قبل في غزوة (أحد) إبراز ما كان في محنتها من دروس تربوية للمجتمع المسلم، وحكم إلّهية ترشد المؤمن إلى أنه تعالى أنزل رسالة الإسلام الخالدة لتكون منهجاً سلوكياً لحياة الأمة الإسلامية في قيادتها الإنسانية، وقد ذكرنا منه في مناسبته ما استدعى المقام ذكره.

وقال هنا في (الهدي النبوي) ونقله عنه بشيء من التصرف القسطلاني في مواهبه وعلق عليه شارحها الزرقاني.

كلام ابن القيم في بيان حكمة محنة حنين من لطائف الأدب وليس من تحقيق العلم.

كان الله تعالى قد وعد رسول الله ﷺ إذا فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً ـ يشير ذلك إلى سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ فالفتح في السورة فتح مكة ـ ودانت له العرب بأسرها، فلما تمّ له الفتح المبين اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتأهبوا لحربه عليه الصلاة والسلام ليظهر أمره تعالى، وإتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون قبلها مثلها ـ قال الزرقاني في الكثرة وشدة البأس ـ وغاية ما لقوا في (أحد) ثلاثة آلاف، وكان لهم الظفر ابتداء، لكن لما خالف الرماة موقفهم الذي أمرهم ﷺ بعدم مفارقته استشهد

من استشهد إظهاراً لأنه لا ينبغي مخالفته ﷺ في أمر ما، وغاية ما لقوا في الخندق عشرة آلاف، ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ وأما هؤلاء فكانوا أضعاف المسلمين ـ ولا يقاومهم بعد أحد من العرب، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم ليطامن رؤوساً رُفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخل عليه الصلاة والسلام، فابُتلوا بقصّة حنين، منعاً لهم من إظهار الترفع، وتنبيهاً لهم على أن المطلوب منهم التواضع، وإظهار الشكر كما فعل ﷺ في دخوله، واضعاً رأسه منحنياً على مركوبه، تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده ولم يحلّه لأحد قبله، ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: لن نُغلب اليوم من قلّة أن النصر إنما هو من عند الله، بفضله، وأن من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذي تولّى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتكم بها، فإنها لم تُغْنِ عنكم شيئاً فولّيتم مدبرين.

فلما انكسرت قلوبهم أرسلت خِلَع الجبر مع بريد (أنزل الله سكينته) على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تَرَوْها، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن خِلَع النصر وجوائزه إنما تفاض على أهل الانكسار، قال الله تعالى ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض﴾ وافتتح الله تعالى غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزاة حنين، ولهذا يجمع بينهما فيقال: غزوة بدر وحنين. . ورمى فيهما رسول الله ﷺ وجوه المشركين بالحصى، وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ. فالأولى خوّفتهم وكسرت من حدّهم، والثانية استغرقت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلّت جمعهم حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله، وجبر الله أهل مكة بهذه الغزوة، وفرّحهم بما نالوا من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من المحنة، وإن كان عين جبرهم وتمام نعمته تعالى عليهم بما صرفه عنهم من شر من كان يجاورهم من أشرار العرب وهوازن وثقيف بما أوقع بهم من الكسرة، وبما قيّض لهم من دخولهم في الإسلام، ولولا ذلك ما كان أهل مكة يطيقون مقاومة تلك القبائل من شدتها.

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بطلب الفرار وفيهم قائد هوازن مالك بن عوف.

ثم أمر رسول الله ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف، وفي هؤلاء قائد هوازن مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه، فإنهم لمّا انهزموا وقف مالك بن عوف على ثنية في شبّان أصحابه، فقال لهم: قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم، ويتتام اخركم، فبصر بهم الزبير بن العوام، فحمل عليهم حتى أهبطهم من الثنية، وهرب مالك بن عوف إلى الطائف، وبعضهم انتهى في فراره إلى نخلة، فتبعتهم خيل المسلمين.

وروى البزار عن أنس بن مالك قال: لما انهزم المشركون انحاز دريد ابن الصمّة في ستماية نفس على أكمة، فرأوا كتيبة، فقال دريد: خلّوهم لي، فخلوهم، فقال هذه قضاعة ولا بأس عليكم منهم، ثم رأوا كتيبة مثل ذلك، فقال هذه سُليم، ثم رأوا فارساً وحده، فقال دريد: خلّوه لي، فقالوا: معتجر بعمامة سوداء، فقال هذا الزبير بن العوام، وهو قاتلكم ومخرجكم من مكانكم هذا، فالتفت الزبير فراهم فقال: علام هؤلاء هنا؟ فمضى إليهم، وتبعه جماعة من المجاهدين، فقتلوا منهم ثلاثمئة، وحز رأس دريد بن الصمة، فجعلوا بين يديه، وفي قتل دريد رواية أخرى مشهورة، ولكن رواية البزار أقوى سنداً.

واستشهد من المسلمين أربعة، وقتل من المشركين أثناء النزال أكثر من سبعين، وقيل أن هذا العدد كان من ثقيف وحدها.

روى البيهقي عن عبدالله بن الحارث عن أبيه قال: قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل من المسلمين يوم بدر.

طلب
فُرّار هوازن وثقيف

بعث أبي عامر الأشعري إلى وادي أوطاس لطلب الفارين

كان رسول الله ﷺ بعد فراغه من وقعة حنين ـ بانتصاره على حشود هوازن وثقيف انتصاراً رعبل جموعهم، وبدّد كثرتهم، وأذلّ غرورهم، وأرغم معاطسهم، وشتت شملهم، ففر منهم من وجد للفرار فرصة، وتفرّق هؤلاء الفارون بين الوديان، والشّعاب، وقمم الجبال، ورؤوس التلال، ومنهم من ذهب إلى الطائف مع فرّار ثقيف، وكانوا كلّهم مفزعين، مرعوبين ـ قد أمر بطلب فلول المنهزمين، وتتبّع الفرّار خشية أن يتجمعوا لحربه مرة أخرى، فبعث أبا عامر الأشعري، عمّ أبي موسى (عبدالله بن قيس الأشعري) المشهور بين الصحابة بعلمه وفضله، إلى الذين فرّوا إلى وادي (أوطاس) وهو وادٍ قريب من وادي حُنَين حتى كان يعد أنه هو.

وإلى هذا الرأي ذهب القاضي عياض رحمه الله، فقال: هو موضع حرب حنين، هكذا نص عبارته بلفظ (حرب) بالحاء المهملة، ولكن الحافظ ابن حجر لم يرتضِ قول عياض، ورجح عليه قول غيره، فقال: وهذا الذي قاله ذهب إليه بعضُ أهل السِّيَر، والراجح أن وادي أوطاس غير وادي حنين، ويوضحه ما ذكره ابن إسحاق: أن الوقعة كانت في وادي حنين، وأن هوازن لما انصرفوا صارت طائفة إلى الطائف، وطائفة إلى نَخْلة، وطائفة إلى أوطاس، قال الزرقاني، هكذا في الفتح عن عياض (حرب) بالحاء المهملة، وكذا يأتي اعتراض الحافظ على عياض، وتصحّف على من قرأ (قرب) بقاف، وأجاب ابن حجر بأنه لا يخالف الراجح، لأن غاية ما فيه أنه مع مغايرته لحنين قريب منها.

وهذا خلاف ليس تحته كبير طائل إلا ما فيه من التحرّي والدقّة التي لو

بذلت في فقه متون الأحاديث لكان فيها أعظم ما يقدّم من خدمة للسنة النبوية، لأن الاحتمال يمكن أن يكون متسعاً لقبول كل من القولين، فالقاضي عياض رحمه الله يقول مع أهل المغازي والسير: إن أوطاس هو الوادي الذي وقعت فيه حرب حنين، ويؤيد ذلك قول دريد بن الصمة إذ سأل أشراف هوازن فقال لهم: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا بأوطاس، قال دريد: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، فهذا قول بيّن أن الوقعة كانت بأوطاس وهي حرب حنين.

ويحتمل أن حنيناً واسع الأرجاء متباعد الأكناف، يشمل في بعض جوانبه وادي أوطاس، وكانت فيه الوقعة، ولا ينافي هذا قول عياض: هو موضع حرب حنين، على معنى أنه ميدانها من حُنين، وهذا عندنا أرجح.

تأثر ابن حجر بما نقله عن ابن إسحاق في ذكره مواضع فرار الفارين.

أما الحافظ ابن حجر رحمه الله فإنه تأثر بقول ابن إسحاق في ذكره تعدّد المواضع التي ذهب إليها فرّار هوازن وثقيف، وذكر منها أوطاس، فظنّ الحافظ ابن حجر أن أوطاس خارج عن حنين، فاعترض على عياض ورجّح على قوله قول غيره، مع أن كلام ابن إسحاق لا ينافي أن أوطاس جانب من جوانب حنين، فيرجع قول ابن إسحق الذي جعله الحافظ توضيحاً لما ذهب إليه من التغاير بين حنين وأوطاس إلى قول عياض.

ومن قرأ من أهل العلم عبارة عياض بلفظ (قرب) بقاف بدل لفظ (حرب) بحاء مهملة لم يصحف، ولكنه أراد التفسير والبيان بأن موقع حرب حنين أي ميدانها هو قرب حنين، أي في جانب من جوانب حنين.

وصدع أبو عامر الأشعري بأمر النبي ﷺ وسار بكتيبته المجاهدة إلى هؤلاء الفرّار حتى لقيهم بأوطاس مجتمعين، فقاتلهم، وقتل منهم تسعة أخوة مبارزة بعد أن كان يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام، ويُشهد الله عليه قبل أن يقاتله كما هو منهج الرسالة في الجهاد لإعلاء كلمة الله.

وفي حديث أبي موسى عند الطبراني قال: لما هزم الله المشركين يوم حُنين بعث ﷺ على خيل الطلب أبا عامر وأنا معه، فقتل سلمة بن دريد ابن

الصمة أبا عامر، فعدلت إليه فقتلته، وأخذت اللواء مستخلفاً من أبي عامر، فقاتل أبو موسى المشركين حتى هزمهم وظفر بغنائمهم وسباياهم.

قصة الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة.

وكان في السبي الشيماء بنت الحارث بن عبد العزّى السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، ولم تجد بين سائقي السبي من يعرفها، وقد أتعبها في السير من كان يسوق بالسبايا، فقالت لهم الشيماء متوددة مستعطفة: تعلموا أني أخت صاحبكم - تعني رسول الله ﷺ - من الرضاعة! فلم يتقبلوا كلامها بتصديقها فيما قالت، لأنه لم يكن معها من الدلائل والقرائن ما يشعرهم بشيء مما قالت، وساروا بالسبي يعنِّفون في سيرهم المطنب، والشيماء قد ركنت إلى الصبر والاستسلام متحمِّلة نصيبها من مشاق السير ومتاعبه حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أختك - أي من الرضاعة - وكان العهد قد طال، والزمن قد أسرع المرور، والأحداث توالت وتراكمت، والصغير قد كبر، والمعالم تغيرت، واختفت شواهد وخلفتها شواهد، فلم يستحضر رسول الله ﷺ من أحداث رضاعه في بادية بني سعد الأمور الخاصّة بحياته الشخصية في إبّان طفولته، فلما أخبرته الشيماء بهذا الخبر الطريف الغريب أراد أن يتثبّت من صحة إخبارها، فقال لها مستطلعاً ما عندها من القرائن والدلائل: «وما علامة ذلك» أي ما علامة أنك أختي من الرضاعة، والزمن بعيد، والأحداث متكاثرة متتابعة؟ فقالت الشيماء مبرهنة على صدقها فيما ادعت: علامة ذلك عضّة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فذكر رسول الله ﷺ ما كان منه إليها وهي تحمله طفلاً، ولعل هذه العضّة كانت من مداعبات الطفولة، وكانت مظهراً من مظاهر قوة المداعبة التي لعلّها كانت ردّاً على مداعبة منها إليه ﷺ، فردّ عليها مداعبتها بأشد مما كان منها إليه حتى أبقت مداعبته ﷺ أثرها في بدنها، ليكون لهذا الأثر شأن يجعله آية من آيات أحداث النبوة وحوادث الرسالة بعد زمن مديد.

إكرام الشيماء قياماً بحق الوفاء وصلة القربى.

ولما ذكر رسول الله ﷺ هذا الحدث الطريف في أحداث طفوليته وعرف ما ذكرته له فكان علامة واضحة - بسط لها رداءه إكراماً لها، وأداء لحقّ صلتها القربى وما كانت تقوم به نحوه ﷺ، وأجلسها عليه احتفاء بذكريات

الماضي في شخصها، ورحّب بها، وأخرجها من ضوائق السبي، ودمعت عيناه ﷺ رقّة لها، وعرفاناً لشأنها، وتذكراً لأيام الماضي المشرق بنور الإعداد الإلهي والتربية الربانية، لما كتب له في كتاب الغيب من جلال الرسالة الخاتمة الخالدة وهداية الإنسانية إلى معرفة خالقها مقيمة لموازين العدل فيما بينها أفراداً وجماعات، وها هو ذا ﷺ في يومه الذي يرى فيه أخته من الرضاعة تخاطبه فتقول له: إني أختك، ويستعلمها عن علامة يذكر بها صدق قولها، فتخبره، فيذكر ويكرمها ويرحّب بها، ويقول لها ﷺ مُخيِّراً مواسياً آسياً لجراحها: «إن أحببت فعندي مُحبّبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى أهلك» فتقول الشيماء: بل تمتعني وتردّني إلى قومي، وأسلمت الشيماء، وأعطاها رسول الله ﷺ غلاماً وجارية، فزوجت الغلام بالجارية ورزقهما الله نسلاً من هذا الزواج المبارك، فلم يزل في بني سعد من نسلهما بقية.

وقال رسول الله ﷺ للشيماء تحقيقاً لرغبتها في الرجوع إلى قومها آمنة مطمئنة ممتعة: «ارجعي إلى الجعرانة تكونين مع قومك» وكانت الجعرانة محبس سبي هوازن، حبسه ﷺ فيها مستأنياً بهوازن لعلها تثوب إلى الإسلام وتجيء مسلمة فيردّ سبيها، ثم قال ﷺ للشيماء زيادة في طمأنتها: «إني أمضي إلى الطائف» فرجعت الشيماء مكرّمة إلى الجعرانة لتكون مع قومها من الأسارى والسبايا، حتى وافاها رسول الله ﷺ بالجعرانة، وأعطاها فوق ما أعطاها من قبل نعماً وشاء لها ولمن بقي من أهل بيتها.

هذا الموقف النبيل الكريم ـ الذي وقفه رسول الله ﷺ من الشيماء أخته من الرضاعة وقد جيء بها إليه ﷺ سبية في سبايا قومها هوازن، فتعرفت له ﷺ فعرفها ـ يمثل جانباً جزئياً في منهج الرسالة الخالدة، ذلك هو منهج التلطف الأكرم، والحفاوة العاطفة بمن أزلفت به قدم الحياة ومجريات المقادير، وهو حري بما كان له من صلات عاطفية، وروابط إخاء ودود أن يكون في منزلة الشمول بالإكرام والحفاوة، وقد تكشفت أغطية الغيب بعد طول المدى عن تحقيق ما كان قد فوّته الزمن بمروره السريع الطويل، ونالت الشيماء من الإكرام والحفاوة ما لم يكن لها ولا لقومها في الحسبان.

نص آخر في استشهاد أبي عامر الأشعري وشجاعته وشجاعة أبي موسى الأشعري.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري، قال: لما فرغ ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي أبو عامر دريد بن الصمّة، وقتله، وهزم الله أصحاب دريد.

وهذه الرواية المخرّجة في أصحِّ الصحيح سنداً تتعارض مع الرواية التي تزعم أن قاتل دريد هو الزبير بن العوام، التي سقناها فيما سبق عن روايات أصحاب المغازي والسير، ولا شك أن رواية البخاري هي الراجحة بل هي الصحيحة.

قال أبو موسى رضي الله عنه: وبعثني ﷺ مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه رجل بسهم فأثبته في ركبته، قال أبو موسى: فانتهيت إلى أبي عامر، فقلت يا عمّ من رماك؟ فأشار إليَّ، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فلحقته، فلما رآني ولّى، فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف، فقتلته ثم قلت لأبي عامر: قتل الله قاتلك، فقال أبو عامر لأبي موسى: فانزع مني السهم، فنزعته فنزا منه الماء، فقال أبو عامر لأبي موسى: يا ابن أخي أقرىء النبي ﷺ السلام، وقل له: يستغفر لي، ثم مات أبو عامر، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل، وعليه فراش قد أثّر رمال السرير بظهره وجنبه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر وأنه قال: قل له: يستغفر لي، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ، ثم رفع يديه، وقال: «اللهم اغفر لعبيدٍ» ـ هكذا دون إضافة إلى شيء وهو اسم أبي عامر ـ (أبي عامر) ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة في الجنة فوق كثير من خلقك» قال أبو موسى: فقلت: ولي استغفر، قال: «اللّهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»!!

التشديد في النهي عن الغلول.

لما استسلمت هوازن بجموعها المهزومة، وفرّ من رجالها من فرّ إلى الطائف ودخلوا مع ثقيف في حصنهم أمر رسول الله ﷺ بجمع السبي والغنائم وجعلهما في الجعرانة، وأقام على حراستهما، والقيام بشؤونهما مسعود بن عمرو الغفاري، وقيل: بُدَيل بن ورقاء الخزاعي.

روى الطبراني عن بُديل أنه قال: أمر رسول الله ﷺ أن تحبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم، وكان ﷺ قد مضى إلى الطائف، ثم أمر منادياً ينادي في الناس: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغلّ»، وشدّد في النهي عن الغلول والخلس من هذا المال بما لا يعلم أنه شدّد بمثله في شيء أخذ بغير حله.

روى الإمام أحمد، وابن ماجه، والحاكم بسند صحيح عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أخذ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلهـا بين أصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخُمُس، والخمس مردود عليكم، فأدُّوا الخيـاط والمخيط، وإياكم والغلول، فإن الغلول عار، ونار، وشنار على أهله في الدنيا والآخرة».

إشفاق الناس وخشيتهم من مغبة الغلول.

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفاً شديداً، فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقّي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك» فقال الأنصاري: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها فرمى بها من يده.

وأخرج عبد الرزاق في مصنّفه من طريق زيد بن أسلم، عن أبيه أن عقيل بن أبي طالب دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطّخ دما، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم.

هذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه ـ يمثل معْلَمًا من أهم معالم منهج رسالة الإسلام في التربية السلوكية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في حياته العملية إيماناً وأمانة، لأن هذا النهي المتعمق في تقبيح الغلول إنما يقصد به النبي ﷺ تطهير المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في

صغير الخيانة يسوق إلى كبيرها، والخيانة أرذل رذائل السلوك الإنساني.

ولهذا كانت استجابة الذين تساهلوا فغلُّوا بعض المحقّرات من الغنائم سريعة قاطعة لدابر هذه الرذيلة في السلوك الإسلامي، تطهّراً مما عساه أن يتسلّل في رغائب بعض الأفراد، فتكبر معه الاستهانة في صغائر المحقرات، فتمتد بين أيدي المستهينين إلى الكبير والصغير، وإلى ماله قدر بعد الحقير الذي لا قدر له، ثم يتأصل هذا المسلك المعيب، ويصبح عند من لا يرعوي خلقاً يفسد على المجتمع المسلم حياته الاجتماعية وتربيته الخلقية التي جاءت رسالة الإسلام لتطهِّر مجتمعها من أدرانه وتقيمه على دعائم استقامة السلوك، حتى تأخذ كل فضيلة إنسانية مكانها من خلائق المسلم، ثم لا تجد الرذائل وراءها مكاناً تفرغ فيه سمومها، وبهذه التربية السلوكية يصبح المسلم نموذجاً حياً لمعالم منهج رسالة الإسلام، يتحرك بين أرجاء الحياة بفضائله الإنسانية في أشخاص المسلمين أفراداً وجماعات، قدوة للذين يريدون الحياة الفاضلة في أكمل وأجمل مثلها الإنسانية.

ضخامة غنائم هوازن وقدوم وفدهم بإسلامهم.

ولقد كانت غنائم هوازن شيئاً كثيراً غامراً، عُرف منه فيما عَرف العادون المحصون ستة آلاف من النساء والأطفال، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، إلى ما كان مع ذلك من البقر والحمير مما لا يعرف عدده، كما يدل عليه قول دريد بن الصمّة، وهو يحاور قائد حرب هوازن مالك ابن عوف النصري ـ وكان مالك قد حشد كل أموال هوازن وراء جيوشها ونسائها وأبنائها من الأطفال ـ: ما لي أسمع نهاق الحمير وخوار البقر، وإنما لم يذكر ذلك في إحصاء الغنائم لأن البقر والحمر لم يكونا من أصول أموال العرب التي يتكاثرون ويتفاخرون بها.

وفي المواقف التي تشيع فيها الفوضى والدهش يغيب عن الإحصاء ما لايقل عما أحصي وعرف، وطبيعة أرض العرب، ولا سيما منازل هوازن ببطونها الكثيرة وجبالها ووديانها وكهوفها ومغاورها وشعابها ومتعرجاتها ما يسهل تغييب الكثير من الناس والمال فلا يعرف ليُحصى، والمقصود أن غزوة

هوازن أفاض الله تعالى فيها من فضله وخيره وبركاته على المسلمين ما لم يكن له مثيل قط في غزوة من الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه في حياته المباركة، وقد استأنى رسول الله ﷺ بهوازن وانتظرهم قبل أن يتصرف فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من أموالهم وسبيهم وذراريهم بالقسمة في مستحقيها من المجاهدين، أو بما يراه ﷺ لصالح الإسلام والمسلمين بضع عشرة ليلة، ظلَّ فيها هذا المال الكثير الضخم محبوساً في الجعرانة، رجاء منه ﷺ أن تقدم هوازن مسلمة، فلم يقدموا، فقسم الأموال إثر عودته من الطائف بعد حصارها الأول.

ثم ألقى الله نور الإسلام في قلوب هوازن فاهتدت، وقدمت وفودها وأشرافها على رسول الله ﷺ مبايعين مسلمين، ولكن قدومهم كان بعد أن قسمت غنائمهم من الأموال والسبايا والأطفال على جنود الله من المجاهدين، وملك كل ذي حق منهم حقه، وأسرعوا التصرف في الأموال.

هوازن تستعطف رسول الله ﷺ لرد سبيهم وأموالهم عليهم.

وقام أشراف هوازن يسألون رسول الله ﷺ أن يردَّ عليهم سبيهم وأموالهم، فقالوا يستعطفونه ﷺ، ويستنزلون مكارم أخلاقه من عليا فضائله: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك.

ثم قام زهير بن صُرَد، وهو أحد أشراف بني سعد الذين أرضعوا رسول الله ﷺ وهم بطن من هوازن، فقال زهير: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك، وخالاتك، وحواضنك اللاتي كنَّ يكْفُلْنك، ولو أننا ملَّحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين.

ثم قال زهير مستزيداً في استعطاف رسول الله ﷺ، واستجلاب رأفته.

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندَّخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير

رسول الله ﷺ يخير هوازن بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا.

وفي رواية أن النبي ﷺ قال لهم: «معي من ترون» يريد ﷺ أصحابه المجاهدين معه الذين نصرهم الله على حشود هوازن، وتجمّعاتهم الهائلة، وأورثهم أموالهم وغنّمهم نساءهم وأبناءهم، ليشعر القوم أن الأمر بين المسلمين شورى، وأن هؤلاء المجاهدين قد أصبح لهم حق فيما ملكت أيديهم من هذه الأموال والسبايا بعد قسمها بينهم، وقد حاز صاحب كل حق حقه فلا يؤخذ إلا برضائه.

ثم قال رسول الله ﷺ لأشراف هوازن مبيّناً أن إسلامهم كان أحب إليه من أموالهم وسباياهم: «وقد استأنينا بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبي، فاختاروا: إما السبي، وإما المال» فاختاروا السبي، فكلم أصحابه في ردِّ سبيهم عليهم، وبدأ ﷺ بنفسه وخاصة أهله وأقاربه وقال لأشراف هوازن يلقنهم ما يبلغون به رضا المسلمين من التوسل به ﷺ إلى المسلمين، والاستشفاع بالمسلمين إليه لرد سبيهم عليهم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صلَّيت بالناس، فقولوا: «إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم» فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قام أشراف هوازن، فتكلّموا بالذي أمرهم به رسول الله ﷺ من استرضاء المسلمين واسترحامهم لردِّ ما ملكوه بالقسمة من السبي، فبادر رسول الله ﷺ إلى ما وعدهم به من المكارم، ليقتدي به أصحابه رضي الله عنهم فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فأسرع المهاجرون فقالوا: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقفّاهم الأنصار فقالوا: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت بنو سُلَيم مراغمة لرئيسها عباس بن مرداس بمثل ما قال خُلَّص المسلمين من المهاجرين والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله، فقال لهم زعيمهم ابن مرداس لقد وهّنتموني، فلم يعبؤا بقوله، ومضوا مع الخيِّرين الأصفياء.

وخالف منهج المكارم التميميون، فاتبعوا رئيسهم الأقرع بن حابس في ضنِّه بما عنده وعند قومه، وقفّاه سائراً على طريقته في الشحِّ بما عنده وعند قومه الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، وتبعه قومه، وكان الأقرع ابن حابس وعيينة بن حصن الفزاري متلازمين مقترنين، وكانا إلى ذلك الحين ممن يُزَنّ بضعف الإيمان، ولا سيما الأحمق المطاع.

تميم وفزارة تتبعان زعيميهما الأقرع وعيينة في التنحي عن منهج المكارم.

فلما رأى رسول الله ﷺ هذا التدلّي إلى مواطىء الضنِّ الشحيح من هذين الرجلين أراد أن يستصفي النفوس لتسمح بالبقاء صفاً واحداً، وتدخل ساحة المكارم، فقال ﷺ: «أما من تمسّك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان ست فرائض ـ أو قلائص ـ من أول ما نصيبه»، فطابت نفوس من كان مخالفاً، ورد المجاهدون على هوازن سبيهم من النساء والذراري.

وقد كان المسلمون المجاهدون المثل الأعلى في الورع والتقوى، ونظافة الضمير والمبادرة إلى الاستجابة لشفاعة رسول الله ﷺ، ففي حديث عبدالله ابن عمر عند ابن حُمَيد، قال: أعطى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب جارية من سبي هوازن، فوهبها لي، فبعثت بها إلى أخوالي من جمح ليصلحوا لي منها حتى أطوف بالبيت، ثم آتيهم، وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعت إليها، فخرجت من المسجد حين فرغت، فإذا الناس يشتدون، فقلت: ما شأنكم؟ قالوا: ردّ علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا، فقلت: تلكم صاحبتكم في بني جمح، فاذهبوا فخذوها، فذهبوا فأخذوها.

وقد أوقع الله الأحمق المطاع عيينة بن حصن في هاوية شحِّه وضنِّه، فأخذ عجوزاً من عجائز هوازن وأبى عليه شرهه أن يردّها بما قال رسول الله ﷺ بست فرائض أو قلائص، طمعاً في أن يساوم عليها قومها، وقال: هذه عجوز وهي أم الحي، لعلّهم يغلوا في فدائها، وفي رواية الطبري: أرى عجوزاً وأرى لها في الحي نسباً، وعسى أن يعظم فداؤها، فقال زهير بن صرد السعدي الهوازني: خذها عنك فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا درها بماكد، ولا زوجها بواجد، فلما يئس الأحمق المطاع

ضعف عقل الأحمق المطاع وحرصه على الدنيا حرمه من نيل آماله في المغنم.

من الالتفاف إليها، وتركت له محقّرة ردّها بست فرائض، فشكا حاله وخيبة أمله إلى صاحبه الأقرع بن حابس فلم يشكه الأقرع بشيء يخفف من آلامه، بل زاده وخزاً وتقريعاً وتسفيهاً لرأيه، فقال له: إنك والله ما أخذتها بكراً غريرة، ولا نصفاً وثيرة.

إسلام مالك بن عوف ومجيئه إلى رسول الله ﷺ لتلطفه به ووعده بإكرامه.

ثم سأل رسول الله وفد هوازن عن مالك بن عوف قائد حرب هوازن، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددتُ عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل» فأُتي مالك بقول النبي ﷺ ووعده الصادق، فخرج مالك من الطائف ليلقي بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ مسلماً مستسلماً، وكان مالك قد خاف ثقيفاً على نفسه إذا علموا أن رسول الله ﷺ أرسل إليه بوعده أن يضفي عليه من مكارمه ما يأسو به جراحه، فحبسوه في حصنهم، ولكن مالكاً ليقينه بصدق النبي ﷺ ووفائه بوعده، ولما كان فيه من حيرة وبؤس وقد أصبح أسيراً لثقيف يتحكّمون في حياته، وقد كان بالأمس القريب قائد جحافل هوازن وثقيف خاضعين له، يأتمرون بأمره، فاحتال للخروج من حصنهم، والتفلّت من سلطانهم وحصارهم الذي ضربوه عليه، وأمر براحلته فهيئت له، وخرج من الطائف متخفياً بظلام الليل حتى أتى رسول الله ﷺ بالجعرانة أو بمكة، فردّ عليه رسول الله ﷺ أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم مالك فحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ على قومه، وعلى من أسلم من القبائل التي كانت حول الطائف، فكان مالك يقاتل بقومه وبمن آمن معهم ثقيفاً، فلا يخرج لهم سَرْح إلّا أغار عليه حتى ضيّق عليهم مسالك الحياة، وكان عمله هذا تمهيداً لغزو ثقيف وحصارها واستسلامها، وكان مجيء مالك ابن عوف إلى رسول الله ﷺ نهاية أحداث غزوة حنين، وإسلام هوازن، وقد عاد النبي ﷺ إلى مدينته المنوّرة مظفَّراً منصوراً واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم لنا فيئنا من الإبل والغنم حتى ألجؤوه إلى شجرة خطفت رداءه، فقال ﷺ: «ردّوا عليّ ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً، ولا جباناً ولا كذّاباً».

وقد سمت مكارم رسول الله ﷺ في الجود بهذا المال الكثير الغامر

الذي يعجز الإحصاء عن حصره إلى ذروة الذرا في الفضائل الإنسانية، فلم يُنِل نفسه الشريفة من هذه الغنائم شيئاً، حتى الخمس الذي جعله الله تعالى له حقاً خالصاً ينفقه فيما يرى من مصالحه ومصالح المسلمين وإيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ردّه على عامة الناس، كما أنه ﷺ لم يُنِل خواصّ أصحابه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن رسخ إيمانهم، وصفا يقينهم، فأنفقوا أموالهم وثرواتهم في سبيل الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الهدى وإقامة معالم الدين الحق منالاً، ولكنه ﷺ جعلها كلها على ضخامتها وكثرتها في استئلاف قلوب الذين لم يسلموا أو الذين أسلموا ولم يخلص إيمانهم من شوائب الريب والبأو الجاهلي، وإشفاقاً عليهم أن تتخطفهم الشياطين فتكبهم في النار على مناخرهم، وكان هؤلاء المستألفون أشرافاً من أشراف جاهلية قريش وغيرها من قبائل العرب.

تسامي مكارم النبي ﷺ في إغراق العطاء لاستئلاف القلوب على الإسلام.

فأعطى ﷺ المئين من الإبل والعديد من أواقي الفضة لأفراد من هؤلاء المؤلفة، وأعطى أقواماً دونهم دون ما أعطاهم، بل أعطى بعض الأفراد ما لا يعرف إحصاؤه، ولكنه كان شيئاً من الإبل والغنم يملأ وادياً.

ذكر الواقدي أن صفوان بن أمية طاف مع رسول الله ﷺ قبل أن يسلم يتصفح الغنائم إذ مرّ بشعب مملوء إبلاً وغنماً، فأعجب هذا الوادي بما فيه صفوان، وجعل ينظر إليه، فقال له النبي ﷺ: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟» فقال صفوان: نعم، فقال له ﷺ: «هو لك بما فيه» فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد إلا نبي. ومن حديث صفوان في الصحيحين أنه قال: ما زال يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليّ حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه، وفي رواية مسلم أنه ﷺ. أعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، وفي هذا بيان لقوله في الرواية الأولى: ما زال يعطيني، وعند ابن إسحق عن محمد ابن إبراهيم بن الحارث أن قائلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال له: أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مائة، مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري؟ فقال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لجُعيل بن سراقة خير من طِلاع الأرض، كلهم مثل عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، ولكني

مكارم النبي ﷺ ترضي مطامع صفوان ابن أمية ليخلص إيمانه.

تألفتهما ليسلما، ووكلت جُعيل بن سراقة إلى اسلامه».

وقد ذكر أهل المغازي وأرباب السير أنه ﷺ كسا كل واحد من السبي قبطية، ونقل بعض السيريين عن مغازي ابن عقبة أن النبي ﷺ كسا السبي بروداً هجرية.

لطيفة من المكارم النبوية وكشف ما فيها من تلطف.

ومن لطائف المكارم النبوية التي ذكرت في هذا المقام أن رجلاً من الصحابة الذين شهدوا حنيناً قال: إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي، وفي رجلي نعل غليظة إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته، فقرع قدمي بالسوط وقال: «أوجعتني، فتأخر عني» فانصرفت، فلما كان الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني، فقلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله ﷺ بالأمس، فجئته وأنا أتوقع فقال لي: «إنك قد أصبت رجلي بالأمس، فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوِّضك منها» فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني.

في هذه القصة اللطيفة موضع للتأمل الفكري، ومنزل من منازل السلوك التربوي بما حوته من تصرف جمع ألواناً من دروس التربية والتأديب، ثم انتهى إلى الرحمة المشفقة ملفوفة في نسج من الإحسان الأكرم والإنعام الرحيم.

فهذا رجل من عامة الصحابة لم تعرف له خصيصة القرب من رسول الله ﷺ في مماشاته، ولكنه لما كان يرى من سهولة أخلاقه ﷺ اقترب منه حتى زاحمت ناقته ناقته، والركب يعج بالحشود الهائلة من كتائب الجهاد، ومعها ركائبها وأسلحتها وأمتعتها، وهي تسير في لجّة ورجّة مدوية شديدة اختلاط الأصوات، وزاحم الرجل في مماشاته رسول الله ﷺ فوقع حرف نعل الرجل الغليظة على ساقه ﷺ فأوجعته، فكان من حسن التربية والتأديب الاجتماعي، وحكمة السياسة التعليمية أن ينبِّه ﷺ هذا الرجل الذي تخطّى مكانه الاجتماعي في الركب حتى ماشى رسول الله ﷺ، فزحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ في مماشاته حتى وقع حرف نعله الغليظة على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته، وكان رسول الله ﷺ رقيق البشرة، سوي المزاج، لم يألف هذا اللون من المزاحمة الذي خلا من أبسط صور الأدب الاجتماعي، وإن

كان غير مقصود، وفي تعبير الرجل عن وقع حرف نعله الغليظة على ساق رسول الله ﷺ بلفظ (فأوجعته) دلالة على إحساس الرجل بأن وقع حرف نعله الغليظة على ساقه ﷺ كان شديداً مؤلماً، وقد أبان ﷺ عن ذلك بقوله، وهو يقرع قدم الرجل بسوطه: «أوجعتني فتأخر عني»، وأسرع الرجل إلى الإنصراف عن مكانه بعيداً، وهو يخاف عاقبة ما كان منه، حتى إذا كان الغد أخذ رسول الله ﷺ الإشفاق على الرجل فالتمسه فازداد خوف الرجل، وداخلته الأوهام والظنون في أن رسول الله ﷺ إنما يلتمسه ليزيد في عقوبته وزجره، فجاء إليه وهو يتوقع ما خافه، ولكنه رأى وهو بين يدي رسول الله ﷺ من التلطف به والإحسان إليه ما لم يخطر له على بال، فبادر ﷺ فأخبره بسبب التماسه ليهدِّىء من رَوْعه حتى ينزل الإحسان إليه على قلبه برداً وسلاماً ورحمة وإنعاماً، فقال له: «إنك أصبت رجلي بالأمس، فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوضك منها».

هذه مكرمة من مكارم رسول الله ﷺ جمعت من صور التربية السلوكية والرحمة ما لم يُعرف في إطار المكارم والفضائل الإنسانية إلا له صلوات الله وسلامه عليه، فهو قد بدأ فأدَّب أدباً أملته روح التربية التي كانت شعاره ﷺ في بناء مجتمعه المسلم، ليجعل من هذا المجتمع بناء إنسانياً سليم التركيب الاجتماعي، مستقيم السلوك، قويم الأخلاق، ثم أشفق فرحم وأحسن فأنعم، وأعطى فأكرم، وعوض الرجل عن ضربة ضربها له تعويضاً مسح به ما ألَمَّ بالرجل من خوف أرعبه، ومن توقع أقلقه، فأهدى إليه عطية أثلجت قلبه، وغسلت عنه كل ما كان في إحساسه ومشاعره، وأعلمه أنه ﷺ في عظيم خلقه ورأفته بمجتمعه أفراداً وجماعات، ورحمته بالحياة بمن فيها وما فيها أنه لا ينتقم لنفسه قط، وأن تعزيراته وعقوباته إنما كانت من قبيل التربية السلوكية والتأديب المهذب، وقد غلبت رحمته غضبه تخلقاً بأخلاق الله تعالى، ورأى أن قرع قدم الرجل بالسوط قد يتصوره من لم يكن على علم تام بمكارم أخلاقه أنه انتصار لنفسه، فأراد صلوات الله عليه أن يمحو هذا الوهم من أنفس من يتوهمونه، فالتمس الرجل ودعاه إليه، وأخبره بسبب التماسه إليه، وأعطاه عطية تهلّلت لها أساريره بالفرح والبهجة.

موقف الأنصار من غنائم حنين
وموقف النبي ﷺ منهم

الأنصار درع الإسلام الحصينة في مواقفهم الجهادية.

الأنصار كتيبة الإسلام الأولى مع السابقين الأولين من المهاجرين، لم تفقدهم غزوة مع رسول الله ﷺ، ولم تفتهم سرية من سرايا الجهاد، ولا بَعْثة من بعوث الدعوة إلى الله التي كان ينفذها رسول الله ﷺ ويعقد راياتها، ويوجهها إلى أقوام من أعداء الإسلام دُعوا إليه فأبوا إلا الكفر بالله والاستمرار على الوثنية الضالة.

وكان الأنصار في غزوات رسول الله ﷺ التي قادها بنفسه الشريفة حرسه الخاص الذين يفدونه بأرواحهم وأموالهم ودمائهم، وكانوا في غزوة الفتح الأعظم، فتح البلد الأمين مكة المكرمة هم الكثرة الغامرة الذين اصطفاهم القائد الأعظم رسول الله ﷺ ليكونوا كتيبته الخضراء، يحيطونه بأنفسهم، ويحمونه بسيوفهم، وكانت حملات القتال في جميع الغزوات لهم أو عليهم، فإن كانت لهم لم يكونوا إلاّ طليعة للمكارم، وإن كانت عليهم هانت عليهم أرواحهم في سبيل الله، فهم الصُبُر عند اللقاء الصُّـدُق إذا احمرت حومة الوغى وحمي الوطيس.

بهذه القوة الفدائية كان موقف الأنصار في حنين وبهذه القوة البطولية كروا على الأعداء فكان النصر.

وبهذه القوة الفدائية كانوا في غزوة حنين أمام حشود هوازن، وتجمعاتها الهائلة التي لا يحصيها العدّ ـ ولما انهزم الرعاء من القبائل، وتبعهم الطلقاء ومن كان على غرارهم ـ ممن لم تشرب قلوبُهم الإيمان في صدق تبعاته في أول جولة فوجئوا فيها برشق السهام دفعة واحدة، وهم غارّون، فلم يحتملوا رشق النبال تمطرهم بالسهام، ولم يصبروا على عضِّ السيوف، وكانت لحظة

من لحظات الدهش المذهل، وتقعسس النـاس، وفرّوا، ووقف رسـول الله ﷺ في قلّة من أبطال الهاشميين، لا يزول ولا يحول ـ كان الأنصار هم المنادَيْن للكرّة الصادقة على الأعداء، وخُلعت عليهم من القائد الأعظم رسول الله ﷺ خلِع البطولة، ونُودوا بألقابهم ألقاب الفدائية والشجاعة، فقيل لهم: يا أصحاب السَّمُرة تذكيراً لهم ببيعة الرضوان التي بايعوا فيها رسول الله ﷺ على الموت، وقيل لهم: يا أصحاب سورة البقرة تذكيراً لهم بما فيها من آيات الفداء وحب الاستشهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، وقيل لهم يا أنصار الله، تذكيراً لهم بما عاهدوا الله ورسوله عليه من نصرة دينه، في بَيْعتهم الكبرى، فكان جوابهم عن كل هذا قولهم: لبيك، يا لبيك، وكرُّوا على جموع هوازن وثقيف وسيوفهم بأيديهم كأنها الشُّهب حتى أزالوهم عن مواقفهم، وهزموهم شر هزيمة، وأخذوهم بالأيدي أسراً وسبياً، بعد أن قتلوا منهم عديداً من الرجال المحاربين، وطابت للمسلمين غنائمهم التي لا يأخذها العدُّ والحصر ولا يأتي عليها الإحصاء والتقدير، وكان الأنصار أحق بها وأهلها.

وقد أشرنا إلى موقف بيضة الإسلام المهاجرين السابقين الأولين الذين انفردوا بشرف السبق فلم يُلحقوا في الفضل، فكانوا أخصّ الخاصة في مواطن العزّة والفداء والبطولة عندما ذكرنا أن رسول الله ﷺ لم يُنِل نفسه الشريفة من هذه الغنائم شيئاً قط، كما أنه ﷺ لم يعطِ خواصَّ أصحابه، وفي طليعتهم المهاجرون ولا وبَرَة.

شباب الأنصار يتكلمون لحرمانهم من غنائم حنين على كثرتها الهائلة.

وإنما عرضنا هنا لموقف الأنصار، لأن بعض ذوي الطموح من حدثائهم عزّ عليهم أن يعطي رسولُ الله ﷺ غنائم هوازن على كثرتها الهائلة للطلقاء، والذين في قلوبهم مرض من مسلمة الفتح بصورة فاقت كل صور الكرم الإنساني، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، وهم يرون أن سيوفهم لا تزال تقطر دماً من جموع هوازن وثقيف وحشودهم ممّا كان هو السبب المباشر في حيازة هذه الغنائم الهائلة الضخمة الغامرة، كما أن هذه السيوف الأنصارية هي التي قهرت من ظلَّ على كفره وعتوه من أهل مكة، فساقتهم إلى الإسلام

طَوْعاً أو كَرْهاً، فتكلم شباب الأنصار وحدثاؤهم في ذلك بكلام ينمُّ عن غضبهم، وتخوّفهم أن يتركهم رسول الله يرجعون إلى المدينة، وليس هو ﷺ فيهم، بل يبقى بين قومه في بلده (مكة)، وسكت كبراؤهم وذوو الرأي فيهم فلم يشاركوهم فيما تكلّموا به، ولم ينهوهم عنه.

تلطف رسول الله ﷺ مع الأنصار وإبرازه مناقبهم في الإسلام.

وبلغ حديثهم رسول الله ﷺ، فدعاهم دعوة خاصة إلى الاجتماع به، فجاؤوه: أشرافهم وحدثاؤهم، فتحدث إليهم حديث الوفاء والحب وعرفان الجميل المشكور الذي لا يُنكر، وأراهم منزلتهم من الإسلام، وما بذلوا في سبيل إعزازه من الحب لله ورسوله ﷺ، وحسم الأمر بما جعلهم يفيئون إلى منازل رسوخ اليقين، ووزن الدنيا وزخرفها بميزانها عند رسول الله ﷺ من سرعة تقضيها وفنائها وحقارة زهرتها، وما يصحبها من غصص وأكدار، فرفع أفئدتهم إلى سمو الآخرة وخلودها وخلوص نعيمها من شوائب الأكدار لمن كان من أهلها في رسوخ الإيمان وصالح العمل.

وكانت الآية الكبرى في هذا الحديث معهم تطمينهم إلى أن رسول الله ﷺ لن يتركهم يعودون إلى دار الإيمان المدينة المنورة، وهو ﷺ ليس معهم يقودهم في عودتهم المظفّرة إلى داره ودارهم، فمحياه ﷺ محياهم، ومماته مماتهم، وسيرجعون به إلى دار الإيمان يحوطهم بكنفه، ويكنفهم بحبه ورعايته، يسدّدهم ويربيهم بأرفع دروس التربية والتفقه في الدين، ويعلّمهم ممّا يعلّمه الله، ويرجع الناس إلى منازلهم بالشاء والبعير، فبكى الأنصار وقالوا: يا رسول الله، قد رضينا.

أخرج ابن إسحاق والإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري، قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه.

وفي مواهب القسطلاني، فقال ناس من الأنصار: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، والله إن هذا لهو العجب، إذا كانت شديدة نُدعى وتعطى الغنائم لغيرنا، ووددنا أن نعلم ممّن

كان هذا؟ فإن كان من الله صبرنا، وإن كان من رأيه ﷺ استعتبناه، وفي حديث أبي سعيد عند الإمام أحمد وابن إسحق: فقال رجل من الأنصار: لقد كنت أحدِّثكم أنه لو استقامت الأمور، لقد آثر عليكم غيركم، فردّوا عليه ردّاً عنيفاً.

وعندنا أن هذا الرجل لم يحسن أن يتكلم بكلمة الإيمان المهذب، ولا ندري إذا صحت الرواية هل كان ممن آمن ولم يرسخ الإيمان في قلبه، فغلبت عليه العنجهية الجاهلية، فقال ما قال؟ ومن ثَمّ فقد عَنَّف في الرد عليه المؤمنون الصادقون، أو كان ممن في قلبه مرض، فتكلم بأسلوب مرضى القلوب؟.

وهذا كله كان من حدثائهم وشبابهم، أما رؤساؤهم، فسكتوا ولم يقولوا شيئاً، كما هو صريح رواية الصحيح التي جاء فيها: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً.

سعد بن عبادة سيد الخزرج يستطلع حكمة تصرفه ﷺ في غنائم هوازن.

وعند الطبري من رواية أحمد وابن إسحق، فدخل عليه سعد ابن عبادة فقال: يا رسول الله، هذا الحي من الأنصار قد وجَدُوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، فقال النبي ﷺ لسعد: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» فقال سعد: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

وهذا القول من سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، والخزرج غمرة الأنصار وكثرتهم إنما أراد به أن يستطلع لقومه حكمة السياسة النبوية في هذا التصرف ليظهرهم على السبب الذي لأجله تصرّف رسول الله ﷺ فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من غنائم هوازن، ليستصلح سعد نيات قومه ويصفِّي إخلاصهم لله تعالى في جهادهم، ويعلّمهم أن الجهاد في سبيل الله لم يكن في دين الإسلام كحروب الجاهلية، تشعل نيرانها لجمع الغنائم من الأموال والسبايا، وإنما هو قتال لإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الإسلام، وتأليف القلوب على حبِّ هذا الدين القيِّم. ولهذا قال رسول الله ﷺ لسعد

حديثه ﷺ مع الأنصار فيما بلغه من مقالة حدثائهم حتى أرضاهم فبكوا إشفاقاً وحباً.

ابن عبادة: «فاجمع لي قومك في الحظيرة»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال ﷺ: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم؟ وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، لله ورسوله المنّ والفضل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ورسوله المنّ والفضل، فقال رسول الله ﷺ يلقنهم ألواناً من الفضل انفردوا بها عن سائر من أظلّه لواء الإسلام في أرض الله تبياناً لرفيع منزلتهم، ليعرف حُدّثاؤهم أنه ﷺ لم يحرمهم العطاء من هذه الغنائم جحداً لفضلهم، وإنكاراً لمنزلتهم، وإنما أعطى العطاء العظيم ليتألف به قوماً حديثي عهد بكفر، أشفق عليهم أن يستحوذ الشيطان على قلوبهم فيوطن فيها الكفر، ويردّهم على أعقابهم إلى الشرك والوثنية، وهما لا يزالان في مداخل أنفسهم متزملين برداء ميراث الجاهلية، وقد جاء في رواية أن فقهاء الأنصار قالوا: أما فقهاؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم».

الحياء منع الأنصار أن يجيبوا النبي ﷺ فأجاب عنهم تلطفاً بهم وحباً لهم.

ثم انتقل بهم ﷺ إلى ما يستل من نفوسهم كل إحساس بأن هذا العطاء الذي تألّف به قوماً أشفق عليهم أن تتخطفهم الشياطين، فتهوي بهم إلى عذاب النار، ويردّوهم عن الإسلام الذي دخلوا في ساحته ولم يشربوا حبه، وأنه ﷺ ترك الأنصار ـ وهم مَنْ هم من السؤدد والفضل ـ لرفيع منزلتهم في الإسلام، ورسوخ إيمانهم بموجباته، ومعالم هدايته، فقال لهم مشيداً بمآثرهم: «أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدِّقتم، أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا

الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

ملاحقة فلول ثقيف في حصونهم بالطائف

لم تكن غزوة الطائف غزوة مستقلة، قصد إليها رسول الله ﷺ قصداً قتالياً، ولكنها كانت من ملحقات غزوة حنين.

وقد ذكرت روايات تجمّعات بطون هوازن ومن ضوى إليها من القبائل التي حولها بقيادة مالك بن عوف النَّصري أن ثقيفاً كلها انضمت مع جموع هوازن لمحاربة رسول الله ﷺ، فلما انهزمت جموع هوازن، حقّت الهزيمة المنكرة على ثقيف، وفرّ المنهزمون من رجال هوازن إلى الوديان، والشِّعاب، وقمم التلال والجبال.

وبعث رسول الله ﷺ السرايا والبعوث في أثرهم، وأمر بتتبع المنهزمين الذين فرّوا إلى الوديان والشِّعاب ليقضي على ما بقي لديهم من أسباب المقاومة بكسر شوكتهم.

كانت فلول المنهزمين من ثقيف قد يمّمت بلدها الطائف، وكان فيهم قائد الحملة مالك بن عوف، فاعتصمت هذه الفلول بحصون الطائف بعد أن حصَّنتها تحصيناً قوياً، وأدخلوا فيها ما يصلحهم من مؤن وطعام وأسلحة، حتى لا يحتاجوا إلى النزول منها إلا إذا نفد ما جمعوه، وكان شيئاً كثيراً، قيل إنهم زعموا أنه يكفيهم سنة أو أكثر، وتهيؤوا للقتال من وراء حصونهمْ بأسلحة ليس أسلحة الكرِّ والفرِّ، ولكنها كانت أسلحة رمي من أعالي الحصون، أعدُّوا فيها سككاً من حديد، وجمعوا حجارة كثيرة، وأمنوا سَرْحهم في رعيه، فأمروا رعاتهم أن يرتعوا في مواطن يأمنون فيها سطوة

مفاوضة خالد ابن الوليد ثقيفاً ليستنزلهم من حصنهم.

الجيوش المسلمة، وقاموا على حصونهم بالسلاح والرجال.

وكان رسول الله ﷺ قد قدّم خالد بن الوليد على مقدمته في ألف مقاتل من سُلَيم وغيرهم من القبائل التي كانت تحت راية خالد في فتح مكة ومن انضم إليهم من الطلقاء، فدنا خالد من حصنهم، ودار حوله، ونظر في نواحيه عسى أن يجد منفذاً ينفذ منه إلى ثقيف ومن معها، فيشغلهم بالقتال في داخله ويفتحه لكتائب المجاهدين، ولكنه لم يعثر على منفذ ينفذ منه إليهم، فلجأ إلى سياسة المفاوضة معهم، فوقف في ناحية من الحصن، ونادى ثقيفاً. ينزل إليّ أحدكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع إليكم، أو اجعلوا لي مثل ذلك، وأدخل عليكم أعلمكم، فأبوا ذلك إباء شديداً وأن يفتحوا معه باب المفاوضة على أي صورة، وقالوا له: لا ينزل إليك رجل منا، ولا تصل إلينا، ثم أخذتهم العزّة بالإثم، ونفخ الشيطان في معاطسهم نفخة العتوّ والفجور، فقالوا كما قال قائدهم في حملة هوازن مالك بن عوف، ومن قبله يهود بني قينقاع: إن صاحبكم لم يلق قوماً يحسنون القتال غيرنا، فقال خالد ليذهب غرورهم ويكسر شوكتهم، ويكفكف من عنجهيتهم وبأوهم، ويريهم ما لعلهم لم يكونوا قد رأوه من انتصارات النبي ﷺ على جميع من حاربوه عناداً وكفراً: فاسمعوا من قولي: نزل رسول الله ﷺ بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر، وبعث رجلاً واحداً إلى فدك، فنزلوا على حكمه، وأنا أحذّركم مثل ما نزل بقريظة، حصرهم رسول الله ﷺ أياماً، ثم نزلوا على حكمه فقتل مقاتلتهم في صعيد واحد، وسبى الذرية، وفتح مكة، وأوطأ هوازن في جموعها، وإنما أنتم في حصن في ناحية من الأرض، لو ترككم رسول الله ﷺ لقتلكم من حولكم ممن أسلم، فقالوا عناداً وكفراً: لا نفارق ديننا، فتركهم خالد ورجع إلى كتيبته.

وكان في من حصر من ثقيف عمرو بن أمية الثقفي، وهو داهية العرب قال لهم يحرضهم: لا يخرج إلى محمد أحد منكم إذا دعا أصحابه إلى البراز، دعوه يقيم ما أقام، فنادى خالد: من يبارز؟ فلم يُجِب منهم للبراز عملاً برأي داهيتهم عمرو بن أمية، وصرخ عبد يا ليل يجيب خالداً فقال: لا ينزل إليك أحد، ولكنا نقيم في حصننا، خبأنا فيه ما يصلحنا السنين، فإن

أقمت حتى يذهب ذلك الطعام خرجنا إليك جميعاً بأسيافنا حتى نموت عن آخرنا.

حصار ثقيف

حصار ثقيف وشدته على المسلمين.

سار رسول الله ﷺ إلى ثقيف، وهي مُحصّنة في حصونها بعدما تأهّبت لطول الحصار بما أعدّت من مؤن وطعام وأسلحة، ونزل بكتائبه المجاهدة قريباً من حصنهم، وهيأ نزلاً لعسكره، وأشرف أشراف ثقيف من فوق حصنهم فرأوا عسكر رسول الله ﷺ قريباً من حصنهم تناله نبالهم وسهامهم، فرموا المسلمين بالنبل والمقاليع رمياً شديداً، ودلُّوا على من زحف من المسلمين إلى حصنهم سكك الحديد المصهورة بالنار حتى أصابوا عددا من المسلمين بالجراح، وقتلوا عدداً آخر،فارتفع رسول الله ﷺ بعسكره عن منزله الذي نزله أول ما نزل، وكان قريباً من حصن ثقيف، تناله نبالهم ومقاليعهم إلى منزل أبعد من مرمى النبل والمقاليع.

وظل رسول الله ﷺ محاصراً لحصن ثقيف حصاراً اختلفت فيه الرواية اختلافاً واسعاً، لا تتلاقى أطرافه، ومن أكثر الروايات مبالغة في تقدير مدة الحصار ما رواه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده من حديث أنس أن هذا الحصار كان أربعين يوماً، وأقربها وأشهرها أنه ظل بضع عشرة ليلة، قال ابن حزم: وهذا هو الصحيح بلا شك، ولا ندري ما مراد ابن حزم من جزمه الموكد بأن هذا هو الصحيح، فإن أراد صحة السند، فهو معارض برواية مسلم وسنده، ورواية أحمد وسنده، وإن كان قد أراد صحة المتن فمن أين أخذه؟.

ولو لم يكن لمسلم رواية لكان لتصحيح ابن حزم رواية بضع عشرة ليلة وجه وجيه لأنها تشمل سائر الروايات التي حدّدت مدة الحصار بأقل من عشرين ليلة لشمول البضع وصدقه على تسع عشرة ليلة فأقلّ، ولكن تبقى معارضة رواية مسلم وأحمد بأربعين ليلة، وسند مسلم لا يُطعن فيه إلاّ بأمر بيّن.

وقد ذكر القسطلاني في مواهبه ثمانية عشر يوماً، وحكى ابن سعد في الطبقات خمسة عشر يوماً، وذكر ابن هشام سبع عشرة ليلة، وذكر ابن إسحاق من رواية زياد بضعاً وعشرين ليلة، ومن رواية يونس ثلاثين ليلة.

وكان الحصار شديداً على ثقيف، رماهم فيه ﷺ بالمنجنيق، ولكنهم لم يستسلموا ولم يحسم المنجنيق أمرهم، وظلوا على حالهم في احتمال شدة الحصار.

ولكن رسول الله ﷺ رأى أن يأخذهم بسياسة لا يطيقون الصبر على احتمالها، فأمر ﷺ أن يصنع ما يغيظهم ويستنزلهم إلى التفكير في التحرك للخروج من هذا الجمود وهم عاجزون عن الردّ على هذه السياسة التي كيدوا بها في أعز ما يملكون، إذ أمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخيلهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً نكأ جراح ثقيف وآلمهم ولم يجدوا سبيلاً إلا أن يسألوا رسول الله ﷺ ضارعين أن يترك الأعناب والنخيل لله والرحم، وقالوا: لم تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظفرتم علينا، وإما أن تتركها لله والرحم، فكان ذلك أول خطوة كسروا الجمود فيها، وتحركوا نحو مقاربة المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ ليزيد في مقاربتهم للمسلمين: «إني أدعها لله والرحم».

ترغيب رقيق لحمل ثقيف على النزول.

ثم سلك بهم ﷺ مسلكاً آخر، لا يقل وخزاً في قلوبهم عن قطع أعنابهم ونخيلهم، بل كان أنكى لهم، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر» فخرج منهم كما ذكره ابن إسحق بضعة عشر رجلاً، فيهم أبو بَكْرة الصحابي الشهير.

وفي حديث البخاري عن أبي عثمان النَّهدي أن الذين نزلوا لما سمعوا منادي رسول الله ﷺ كانوا ثلاثة وعشرين رجلاً، قال أبو عثمان النهدي ـ واسمه عبد الرحمن بن ملّ ـ: سمعت سعداً وأبا بَكْرة عن النبي ﷺ قال: «من ادّعىٰ إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام» قال عاصم ـ الأحول ـ قلت لأبي عثمان: لقد شهد عندك رجلان حسبك بهما، قال أجل، أما

أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر فنزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف.

وقد أعتق النبي ﷺ جميع من نزل إليه، كما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أعتق ﷺ يوم الطائف كل من خرج إليه من رقيق المشركين، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشقّ ذلك على أهل الطائف مشقّة شديدة، ولما أسلمت ثقيف تكلم أشرافهم في أرقائهم أن يردوهم إلى الرقّ، فأبى رسول الله ﷺ أن يردّهم إلى الرق، وقال: «أولئك عتقاء الله، لا سبيل إليهم».

أذن النبي ﷺ بالرحيل عن ثقيف بعد طول حصارهم فكره المسلمون ذلك.

وبقيت ثقيف في عنادها محصورة في حصنها، لم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف هذا العام، قال العلماء في بيان حكمة ذلك إشفاقاً عليهم أن يستأصلهم المسلمون لما وقع منهم لرسول الله ﷺ حين ذهب إليهم بعد موت عمه أبي طالب الذي كان له أقوى سند، وبعد خروجه ﷺ من حصار قريش، ذلك الحصار الظالم الذي تعاهدوا عليه وكتبوا به صحيفتهم الظالمة التي مزقها الله تعالى، فلم يبق فيها إلا اسمه جل شأنه، وكانت قريش قد اشتد ظلمها وعنادها له ﷺ بعد موت عمه إذ توهّموا أنّ الجو خلا لهم، فذهب ﷺ إلى ثقيف بالطائف فدعاهم إلى الله، وطلب منهم أن يؤوه حتى يبلّغ رسالة ربه، فكانوا أشد أهل الشرك قبحاً في ردّهم عليه ﷺ، وآذوه إيذاء شديداً، وأبوا أن يدّرعوا بالمروءة العربية، ولكنهم وقفوا منه ﷺ موقفاً منكراً، وأخرجوه من ديارهم في صورة تمثل العناد والفجور والعتوّ المتجبر في أقبح وأشنع صورها.

وقد زاد في غضب المسلمين عليهم أنهم انضموا إلى هوازن في حربها لرسول الله ﷺ مما جعل المسلمين يحملون لهم الحفيظة عليهم، فآثر ﷺ تحقيقاً لما جبله الله عليه من الرحمة والرأفة، وحبه لنشر رسالته الهادية أن يستأني بهم رجاء إسلامهم.

وقد استشار في شأنهم نوفل بن معاوية الدِّيلي، فقال له: «يا نوفل، ما ترى في المقام عليهم؟» فقال نوفل: يا رسول الله، ثعلب في جُحْر، إن

أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك.

سياسة حكيمة جعلت المسلمين يرغبون فيما كانوا يكرهون.

ثم أمر ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يؤذن في الناس بالرحيل، فضج المسلمون من ذلك، وقالوا نرحل ولم تفتح علينا الطائف؟ فأخذهم ﷺ بسياسته الحكيمة المحكمة ولم يرغمهم على الرحيل بل قال لهم: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم الجراحات، فشكوا إلى رسول الله وقالوا: أخذتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم» ثم قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى» فسُرَّ المسلمون بذلك، وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك تعجباً من تغيِّر رأيهم، وفي حديث الصحيحين: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف، فلم ينل منهم شيئاً قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فثقل على المسلمين، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال ﷺ: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم جراحات، فقال ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى» فأعجبهم، فضحك ﷺ.

قال النووي في شرح مسلم: قصد ﷺ الشفقة عليهم والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره، وشدة الكفار من أهله، وتقوّيهم بحصنهم، فلما رأى ﷺ حرص الصحابة على المقام والجهاد أقام وجدّ في القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع ﷺ إلى ما كان قصده أولاً من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا المشقة، ووافقوا على الرحيل، فضحك ﷺ تعجّباً من تغيّر رأيهم.

هذا موقف من مواقف معالم منهج رسالة الإسلام، وهو جدير بالتأمل ليستهدى بما فيه من سياسة حكيمة، تجلّت في مسلك رسول الله ﷺ وموقفه مع أصحابه، وأخذهم بالرفق، وموقفه مع ثقيف، وأخذهم بألوان من السياسة الحكيمة، على رغم ما أتوا إليه من سوء اللقاء والإيذاء، حين ذهب لدعوتهم إلى الله تعالى، وحين مكّنه الله تعالى منهم، فحصرهم في حصنهم حصاراً قيّدهم بأغلال الاستسلام، وإن طال عليهم الأمد فقد تلطّف بهم، وأشفق عليهم من سيوف أصحابه، ثم دعا لهم بالهداية واعتناق الدين

الحق، دين الإسلام، فقبل الله تعالى دعاءه لهم، وأقبلت وفودهم عليه ﷺ مسلمة مستسلمة.

وفي كل موقف من المواقف المتلطفة حيناً، والمشتدة حيناً آخر نماذج من معالم منهج الهداية في رسالة الإسلام، توجب على المسلمين في شتى أجيالهم أن يتخذوها مسلكاً في مواقفهم الداعية إلى الله، وسيرتهم الخالدة في نشر رسالة الإسلام.

إيمان مهزوز يقوم على الرغبة في حطام الدنيا.

ولما استقلّ الناس وهمُّوا بالمسير قافلين إلى المدينة المنوّرة نادى سعيد ابن عبيد بن أسيد الثقفي وهو محصور مع قومه: ألا إن الحيّ ـ يعني قومه ـ مقيم، فقال الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري ـ وكان في عداد المسلمين المجاهدين، ولكنه كان مهزوز الإيمان ـ أجل والله مجدة كراماً، يمدح ثقيفاً وهم في موقفهم لا يزالون على كفرهم وشديد عداوتهم للإسلام وأهله، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة!! أتمدح قوماً من المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ، وقد جئت تنصره؟ فقال عيينة: إني والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفاً، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف، فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلها أن تلد لي رجلاً، فإن ثقيفاً قوم مناكير.

إسلام عروة ابن مسعود الثقفي في طريق عودة النبي ﷺ إلى المدينة.

ولما جدّ برسول الله ﷺ وأصحابه السير، وهم قافلون لحقه في الطريق عروة بن مسعود بن معتّب أحد سادات ثقيف ـ وكان له موقف في الحديبية مشهّراً مذكوراً ـ فأسلم وبايع رسول الله ﷺ، وسأل رسول الله أن يرجع إلى قومه بإسلامه، ليدعوهم إلى الإسلام، فأشفق عليه رسول الله ﷺ من عناد قومه وعتو كفرهم، وعنجهيتهم، ونخوة امتناعهم عن مفارقة شركهم ووثنيتهم، فقال عروة: لأنا أحب إليهم من أبكارهم، وكذلك كان فيهم عروة محبّباً مطاعاً، فخرج عائداً إلى بلده وقومه، وأنبأهم بإسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم.

فلما أشرف عروة على عُلّية له، وأظهر لهم إسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، وأنه آمن بالله رباً، وبمحمد رسولاً ركبوا صهوات حماقاتهم، واستزلّهم الشيطان بكفرهم، وعُتو فجورهم، فرموه بالنبل فقتلوه، فقال قوم

عروة له: ما ترى في دمك؟ يريدون الثأر له، فقال لهم عروة ليصرفهم عن مقصدهم: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليّ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، وقد قال فيه رسول الله ﷺ لما بلغه استشهاده: «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه».

وقد أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً لا تتقدم ولا تتأخر، وطال عليهم الحصار واشتد، ورأوا مسارعة الناس إلى الدخول في دين الله أفواجاً، وصاروا في عزلة موحشة مكفهرة، وعلموا أن ما قال لهم خالد بن الوليد في محاوراته معهم حقٌ مشهود يرونه واقعاً بهم، فهم محصورون في حصن في ناحية من الأرض لو تركهم رسول الله ﷺ لقتلهم من أسلم حولهم، فائتمروا فيما بينهم، ومشى رؤساؤهم بعضهم إلى بعض، يتداولون الرأي، ويبحثون عن مخرج يوفضون إليه ليتقوا المزالق الموبقة.

بين عمرو بن أمية وعبد ياليل زعيمي ثقيف في محنتها.

وكان داهيتهم عمرو بن أمية الثقفي مهاجراً لطاغيتهم عبد يا ليل لما كان بينهما من سوء، فمشى عمرو بن أمية إلى عبد يا ليل بن عمرو حتى دخل عليه داره متناسياً ما بينهما من خصام ومهاجرة، ثم أرسل إليه بعض أهله وقال للرسول: قل له إن عمرو بن أمية يقول لك: اخرج إليّ، فلم يصدّق ذلك عبد ياليل واستغربه جداً واستبعده ـ لمكان عمرو بن أمية في ثقيف، وما كانوا يحملونه له من منزلة، وما كان معروفاً به من الدهاء وسعة التفكير، وجودة الرأي ـ فقال للرسول يكاذبه ويظهر له تعجبه مما يقول: ويحك، أعمرو أرسلك؟! قال الرسول: نعم، وهوذا واقف في دارك، فقال عبد ياليل: إن هذا أمر ما كنت أظنه، لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك.

وخرج عبد ياليل إلى عمرو بن أمية، فلما رآه رحب به، وقال له عمرو: إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربه طاقة، فانظروا في أمركم.

واجتمع أشراف ثقيف، وائتمروا فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض:

وفد ثقيف يقدم على رسول الله ﷺ.

ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع به، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة بن مسعود، فكلموا عبد ياليل ـ وكان في سن عروة ـ وعرضوا عليه أن يكون رسولهم إلى رسول الله ﷺ، فأبى أن يقبل متمثلاً موقفهم مع عروة وقتلهم له، وهو يظهرهم على إسلامه ويدعوهم إلى الإسلام.

وقال عبد ياليل لقومه: لست فاعلاً حتى تبعثوا معي رجالاً، فأجمعوا على أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة رجال من بني مالك، فكانوا ستة يرأسهم عبد ياليل.

وإنما فعل ذلك عبد ياليل ليشغل كل رجل منهم إذا رجعوا للطائف رهطه بحمايته أن يصنع به ما صنع بعروة بن مسعود.

محاورة بين الصديق والمغيرة بن شعبة للإسراع بتبشير رسول الله ﷺ بقدوم وفد ثقيف.

فلما دنوا من المدينة المنورة لقيهم المغيرة بن شعبة، وهو ثقفي من رهط عروة بن مسعود، قديم الإسلام، وله موقف في الحديبية مع عروة في كف يده عن مسِّ لحية رسول الله ﷺ، وكان في موقفه شديداً على عروة، وكان المغيرة يوم قدوم وفد ثقيف في نوبته لرعي ركاب أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت رعيتها نوباً على أصحابه، تحقيقاً لأعظم مَعْلم من معالم منهج رسالة الإسلام وهو المساواة المتواسية بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته.

وقد فرح المغيرة بن شعبة بقدوم وفد قومه فرحاً شديداً، وترك الركاب التي يرعاها وضبر ـ أي وثب ـ ليبشِّر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فأخبره عن وفد ثقيف، وأنهم قدموا على رسول الله ﷺ يريدون البيعة والإسلام وأن يشرط لهم شروطاً، وأن يكتب لهم كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم.

وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلم الناس بما يدخل السرور على رسول الله ﷺ، فقال للمغيرة أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدّثه لعلمه باستشرافه ﷺ وشدّة رغبته في قدوم وفد ثقيف مسلمين، فأراد الصديق رضي الله عنه أن يكون هو الذي يبشره ﷺ قبل كل أحد ليدخل عليه السرور بقدومهم، ففعل المغيرة، وحقق رغبة الصديق

رضي الله عنه، وأقبل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدوم وفد ثقيف، وأنهم قد قدموا مسلمين، يريدون البيعة والكتاب في قومهم، ورجع المغيرة إلى ركب قومه مرحباً بهم، معلِّماً لهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، وشاركهم في ترويح ظهرهم، ولكن عنجهية الجاهلية، ونخوة العتو فيهم أبتا عليهم إلا أن يتمسكوا بتراث جاهليتهم في تحية رسول الله ﷺ.

ابتهاج رسول الله ﷺ بقدوم وفد ثقيف وترحيبه بهم وإكرام نزلهم.

وأمر رسول الله ﷺ أن تضرب لهم قبة في ناحية من مسجده الشريف، وجعل خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بين رسول الله وبينهم في الحديث والمفاوضة حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد بن سعيد هو الذي كتب لهم كتابهم بيده، ولكنهم كانوا لا يزالون على مواريث الجاهلية، فكانوا لا يأكلون طعاماً حتى يأكل منه خالد بن سعيد قبلهم، جهالة منهم لمنزلة رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق، وجهالة منهم لمعالم رسالة الإسلام في تزكية النفوس وتطهير القلوب، وكراهية الغدر، وما يجب من إكرام الضيف.

ولكنهم لمّا أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، وكتب لهم الكتاب الذي أراده في قومهم وبلدهم وأموالهم بدأت بشاشة الإيمان تخالط قلوبهم وتشرح صدورهم، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ وأعمالهم وتعبداتهم، وسمعوا القرآن الكريم، وسمعوا الحكمة تتنزّل على قلب رسول الله ﷺ فينشرها بين أصحابه إيماناً وعلماً وأدباً وتشريعاً وتربية.

وكان من أكثرهم حرصاً على التفقّه في الدين وتعلم القرآن عثمان ابن أبي العاص، وهو أحدثهم سناً، فأمّره عليهم رسول الله ﷺ بإشارة أبي بكر رضي الله عنه إذ قال: يا رسول الله، إني رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

جهالة جاهلة من مواريث الجاهلية.

وكان من جهالتهم الجاهلة أنهم في مفاوضتهم قد سألوا رسول الله ﷺ أن يترك لهم طاغيتهم (اللّات) فلا يهدمها، وجعلوا لذلك أجلاً مسمّىً، فأبى ﷺ ذلك إباء شديداً، وظلوا يتخففون من الأجل الذي سمّوه لمدة تركها شيئاً فشيئاً وشهراً شهراً خوفاً من سفهائهم ونسائهم وذراريهم،

وكرهوا أن يروّعوهم بهدمها حتى يؤنسوهم بالدعوة إلى الإسلام، فيدخل عليهم على حقيقته التوحيدية الخالصة من شوائب الشرك والوثنية، وعزم رسول الله ﷺ على أن لا يدعها شيئاً يسمّى قط، فسلَّموا كارهين بعد ما شاهدوا روح التوحيد الخالص تسري في جميع أعمال الصحابة رضي الله عنهم.

إرسال أبي سفيان والمغيرة لهدم اللاّت طاغية ثقيف.

وأرسل رسول الله ﷺ في أثر ركبهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة ابن شعبة لهدم الطاغية (اللاّت) لما كان بينهما وبين ثقيف من صلات تكف ثقيفاً عن إيذائهما، فالمغيرة بن شعبة ثقفي من رهط عروة بن مسعود رضي الله عنهما، وأبو سفيان بن حرب، كانت ابنته تحت عروة بن مسعود، وقد ولدت له ابنه داود بن عروة.

وقد كان قتل عروة مرزأة لثقيف، أخاف رؤساءهم وأشرافهم أن يشعل بينهم حرباً داخلية بين أرهاط ثقيف لمكانة عروة فيهم، ومنزلة رهطه منهم، ولما كان بين عمرو بن أمية وعبد ياليل من التصالح الذي بدأه عمرو ابن أمية داهية ثقيف.

ولما قدم أبو سفيان والمغيرة أراد المغيرة بن شعبة سياسة منه مع قومه أن يقدِّم أبا سفيان لهدم الطاغية، فأبى أبو سفيان إلا أن يقابل دهاء المغيرة بمثله، فأحجم أن يتقدم على المغيرة خوفاً من ثقيف ونخوتها في شركها ووثنيتها، وقال للمغيرة: ادخل أنت على قومك، وذهب أبو سفيان إلى مال له هناك بعيداً عن معمعان الرجّة في ثقيف.

المغيرة بن شعبة يهدم الطاغية وأبو سفيان يتفرج ويمالىء جهلة ثقيف.

ودخل المغيرة ميمِّماً الطاغية، وعلاها يضربها بالمعول، ووقف رهطه بنو معتِّب دونه يحمونه من غوغاء ثقيف وسفهائهم خشية أن يرمى كما رمي عروة بن مسعود قبله، وخرج نساء ثقيف يبكين على طاغيتهم جهالة وكفراً، وكان أبو سفيان قد عاد من ماله حينما تثبَّت من أمر المغيرة في هدم الطاغية، فوقف ينظر إلى ضربات معول المغيرة وهي تنزل على الطاغية فتفتتها، وهو يقول مصانعة لثقيف بقدر ما كان عنده من هزهزة: واهاً لك!! واهاً لك!! يظهر بذلك أنه خائف على المغيرة مشفق عليه أن توقع به الطاغية.

ولما انتهى المغيرة رضي الله عنه من تسوية بناء الطاغية بالأرض أرسل بمالها وحليِّها إلى أبي سفيان ليقوم بما أمر به رسول الله ﷺ من قضاء دين عروة بن مسعود من مال الطاغية.

* * *

وإلى هنا نكفُّ من عنان القلم عن الاسترسال في قصة أحداث ثقيف وإسلامهم وهدم طاغيتهم، لأن ما ذكرناه في ملاحقتهم إلى حصنهم ببلدهم الطائف بعد هزيمتهم مع حشود هوازن وجموعها ممن ضَوى إليهم من لفائف المتربصين من بقايا القبائل فيه غنية لتبيان ما قصدنا إليه من إبراز معالم منهج رسالة الإسلام.

فقد صار إليهم النبي ﷺ بنفسه الشريفة، يقود كتائب الجهاد في سبيل الله، ليحسم أمر الفارِّين من حُنَين، ويقضي على ما عسى أن يكون لهم من بقية قوة للمقاومة، يستغلها الشيطان في إثارة حمية الجاهلية لمواقفة حشود الإسلام المنتصرة.

وقد أوضحنا في ثنايا عرض الموقف ما كان من النبي ﷺ في محاولته أن يأخذ ثقيفاً بغير حرب مدمِّرة، وأنه ﷺ آثر أن يتلطف بهم ليهدي الله قلوبهم إلى الإيمان، ويقبلوا عليه مسلمين، فحاصرهم وصبر عليهم وصابرهم، ثم ارتحل عنهم بعد جولات بالترامي بالنبل والمقاليع التي استشهد فيها نفر من المجاهدين.

وكان أصحابه ﷺ كارهين لهذا الارتحال قبل أن تفتح عليهم الطائف، ولكن سياسة النبي ﷺ التي سلكها معهم جعلتهم يغيِّرون من رأيهم، ويرغبون فيما كانوا له كارهين من الرحيل عن ثقيف حتى يأتي الله بهم مهتدين.

تلطف رسول الله ﷺ بثقيف حتى هداهم الله.

ولم يكد رسول الله ﷺ يبلغ المدينة المنوّرة حتى تنزّل غيث الهداية على ثقيف، فائتمروا فيما بينهم وهم في حصنهم، ورأوا أنهم - كما قال نوفل ابن معاوية - ثعلب في جُحْر، لو تركهم رسول الله ﷺ لم يضروه شيئاً، وإن أقام

عليهم أخذهم، وكما قال لهم خالد بن الوليد في محاورته معهم: لو تركتكم رسول الله ﷺ لقتلكم من حولكم ممّن أسلم من القبائل، وتبينّ لهم أن لا محيص عن الاستسلام والإسلام، وركب وفدهم إلى رسول الله ﷺ ففرح بهم ورحّب بقدومهم، وأنزلهم منزلاً كريماً، ونصب لهم قبّة في ناحية من مسجده، وبالغ في إكرامهم، ولكن ذلك كله لم يكن ليطفىء نيران عتوهم وعنادهم مما تجلّى في مفاوضتهم للدخول في الإسلام دخول إيمان لا دخول سياسة واستسلام.

ولم يزل رسول الله ﷺ يروض جماحهم، ويكفكف من غلوائهم في عتو الكفر حتى آمن وفدهم، ورجع إلى قومه بإسلامه ودعوتهم إلى الدخول في ساحة الإيمان الصادق، وتقبل الله تعالى دعوة نبيه ﷺ فيهم، حين قال له أصحابه رضي الله عنهم لفرط ما أصابهم من طول الإقامة على حصارهم: ادعُ على ثقيف، فقد اخترقتنا نبالهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين».

فأسلموا وحسن إسلامهم، ولم يقع بينهم وبين جند الله الذين حاصروهم في حصنهم قتال مواجهة حتى صاروا من جند كتائب الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وشهد كثير منهم غزوة العسرة مع رسول الله ﷺ في تبوك، وكان هذا وأمثاله من أقوى الدلائل على أن غزوات رسول الله ﷺ لم تكن تستهدف القتال وجمع الغنائم وسفك الدماء، ولكنها كانت كلها للدعوة إلى الله، والدفاع عن الدعوة، وحماية حوزة الإسلام والمسلمين، فإن أغنت الحجة والبيان فلا يرفع في وجه أحد الحسام، ولا يطعن بالسنان، ومن لم يغنه البيان وناصع البرهان استؤني به حتى يثوب إلى رشده، ما لم يرفع يده في وجه الدعوة إلى الله، معوِّقاً سيرها، وناصباً قلاع القتال لحاملي راية الجهاد في سبيل الله، فعندئذ يجب جهاد القتال للظالمين المعتدين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد حتى يفيئوا إلى الحق ويعتنقوا رسالته.

أما إطلاق اسم غزوة على هذه الملاحقة الثقفية فهو من قبيل التوسع اللفظي، ولعل الحكمة في هذه التسمية التي أجمع عليها أرباب المغازي وأهل

السير وكثير من المحدِّثين هو وجود النبي ﷺ قائداً لكتائبها، ومدبِّراً لسياستها، وحاجزاً بين هؤلاء الفارِّين من هزيمة هوازن في حنين أن تأخذهم سيوف المسلمين مستأصلة لهم لما كان في سوابقهم من الإيذاء ومقاومة الدعوة إلى الله، وفجور الكفر الطاغي ممّا فصلنا في مواضعه ومناسباته، ولانضمامهم إلى هوازن في حربهم رسول الله ومجتمعه المسلم، فعفا عنهم، ودعا لهم بالهداية، لما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة، ومعالي مكارم الأخلاق.

إطلاق اسم غزوة على ملاحقة ثقيف في حصنهم توسع لفظي.

وبهذه الملاحقة لفلول ثقيف في بلدها الطائف وحصرها في حصنها، وما تمّ لهم من نعمة الإيمان والإسلام ببركة دعوة النبي ﷺ لهم بالهداية والمجيء بهم إليه مسلمين ختمت غزواته ﷺ القتالية التي غزاها بنفسه الشريفة الطاهرة المطهرة، قائداً لحشود الجهاد، إعلاء لكلمة الله، ونشر راية الإسلام على آفاق الجزيرة العربية التي أصبحت دار الإسلام، ولم يبق فيها منابذ لدعوته ﷺ، ولا مناكر للإيمان برسالته إلا حفنات منتشرة هنا وهناك في مضارب الأعراب وأطراف الأرض وأقاصي النواحي الذين لم يتركهم رسول الله ﷺ دون أن تبلغهم دعوته، بل أرسل إليهم البعوث والسرايا تدعوهم إلى الإسلام، فجالوا معهم جولات، فمنهم من آمن، ومنهم من قوتل وغُلب على أمره فأسلم استسلاماً حتى علم حقيقة دعوة الإسلام فأسلم إيماناً، وجاءت وفودهم إلى رسول الله ﷺ مسلمين مبايعين في طواعية وإخلاص، وكتبت لهم الكتب مرسلة إلى أقوامهم تدعوهم إلى الله تعالى، وإلى الإيمان بما أنزل من كتاب حكيم، جمع شرائع وأحكاماً وآداباً، وتربية سلوكية ونظماً اجتماعية، شملت قيام الأسرة على دعائم من الطهر والمودّة والرحمة، وشملت أصول التعامل بين الناس في الأموال والأخلاق وحسن المعاشرة وطرح مواريث الجاهلية إلا ما كان منها مكرمة إنسانية، ومنقبة اجتماعية، كانوا يتحاجزون بها عن الانزلاق إلى مساوي المنكرات ممّا أقره الإسلام، فأبقاه وحض عليه لأنه منطو تحت فضائله، داخل في مبادئه الإصلاحية حتى تشعر الحياة أنها حاملة في أردانها بذرة الخير التي تحتاج في نموها إلى من يتعهدها بالرعاية ويسقيها بماء الهداية لتثبيت جذورها في منابت الإصلاح.

غَـزوَةُ تَـبُوك

وَهِيَ غزوة العُسرة

أسبابها وأحداثها وآثارها

لماذا سميت هذه الغزوة غزوة تبوك؟

هذه الغزوة كانت آخر خرجات رسول الله ﷺ قائداً لحشود المجاهدين داعية إلى الله ونشر رسالة الإسلام، وتسمَّى هذه الغزوة عند جمهور أصحاب المغازي ومدوِّني أحداث السيرة النبوية غزوة (تبوك) تسمية لها باسم عين هناك، وقد جاء اسم العين بهذا الاسـم في حديث معاذ عند مالك ومسلم، قال معاذ: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين (تبوك) فمن جاءها فلا يمسّ من مائها شيئاً» فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبضّ بشيء من ماء، وقد لام النبي ﷺ الرجلين اللذين سبقا إليها، فاستقيا منها، ونقشاها فقال لهم ﷺ: «ما زلتم تبوكانها منذ اليوم» ثم غسل ﷺ وجهه ويديه بشيء من مائها، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء غزير، فاستقى الناس وتطهّروا، ونالوا حاجتهم من الماء، وهذه معجزة من معجزاته ﷺ الكونية التي أكرم الله تعالى بها نبيه ﷺ تشريفاً لمقامه وتعظيماً لقدره المنيف، وقد بلغت في كثرتها وثبوتها بأسانيد عليّة مبلغ التواتر في جملتها، ولم يقع بشيء منها التحدي العام الذي انفرد به القرآن الكريم.

وهذا المكان الذي فيه عين تبوك أقرب إلى الشام منه إلى الحجاز، إذ بينه وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة، وبينه وبين المدينة المنورة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة على نحو النصف من طريق المدينة إلى دمشق، وإنما سُمِّيت هذه الغزوة بهذا الاسـم الذي شُهرت به في أحاديث المغازي والسِّير على نسق ما عهد في تسمية الغزوات بأسماء الآبار والعيون والأودية، لأنها

أماكن التجمع للقبائل التي تنزل البطاح التي حولها، كما سميت غزوة بني المصطلق باسم (المُريسيع) وهي عين لهم يكون عندها تجمّعهم لسقي سَرْحهم، وكما سميت غزوة هوازن باسم وادي (حُنَين) وهو وادٍ كانت فيه الموقعة، وبه جاء القرآن الكريم، وكما سميت غزوة أوطاس باسم أعظم أوديتها.

وقد سمّى البخاري رحمه الله هذه الغزوة في صحيحه غزوة (العُسْرة) أخذاً من قوله تعالى في التنويه بشأن المؤمنين الذين نهضوا مع رسول الله ﷺ لها سراعاً، سامعين مطيعين، وهم يعلمون ما فيها من شدائد ومشقّات ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾.

بيان معنى التوبة في حق النبي ﷺ.

والتوبة على النبي ﷺ التي جاء بها التعبير في هذا النص المحكم من آيات القرآن العظيم إنما هي تشريف لمقامه المنيف، وتعظيم لقدره الشريف، ورفع لدرجاته في مقامات الترقي الأرفع في مصاعد القرب، لمكانه ﷺ من ذروة العصمة، فهي ليست توبة من ذنب، إذ لم يكن منه ﷺ ذنب قط، وإنما هي حالة انتقال من مقام في مصاعد القرب، وشهود عظمة الله وجلاله في آياته الكبرى التي انطوت عليها أسرار الكون إلى مقام أجل وأعظم منه، وبيان أن النبي ﷺ وهو أفضل مخلوقات الله لا يخرج عن كونه عبدالله ورسوله، ومقام الرسالة يزيده رفعة في مقام العبودية الذي هو أعظم مقامات القرب المنوّه به في قوله عز شأنه خطاباً لأعز عباده: ﴿واسجد واقترب﴾.

وإبراز هذا المعنى السامي في أسلوب الآية بلفظ (التوبة) المقتضي في عرف الشرع العام وقوع ما منه يُتاب إظهار لضراعة العبودية التي لا يخرج عنها أحد من مخلوقات الله في الأرض ولا في السماء بين يدي جلال الربوبية.

معنى التوبة على المهاجرين والأنصار في الآية.

والتوبة على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبي ﷺ في النهوض إلى هذا الوجه للجهاد، وسرعة الاستجابة لندائه ﷺ حينما أعلن لهم أنه يريد أن يتخطّى بهم أسوار الجزيرة العربية، بعد أن تمّ لهم فتحها، وانصياع أهلها لدعوة الإسلام، لينشروا دعوته ويبلّغوا بعده رسالته إلى العالمين تحقيقاً

لعمومها في آفاق الحياة، وتطبيقاً عملياً لنصوص العموم التي أنزل بها القرآن الكريم في كثير من بيِّناته، مثل قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ فهي توبة تفضُّل من الله تعالى على هؤلاء الصفوة من خُلَّص المؤمنين، تنويهاً بذكرهم وبيان فضلهم في تحقيق ما نيط بهم من نشر الدعوة إلى توحيد الله، وتبليغ رسالة النبي ﷺ إلى الأحمر والأسود من سائر أجيال الإنسانية، جيلاً بعد جيل، فهي توبة تفضُّل من قبيل ما جاء في أهل بدر من تفضُّلٍ عليهم بالمغفرة العامة لذنوبهم، فعاشوا كراماً مطهَّرين، وشارك من كان حيّاً منهم في هذه الغزوة فجمع الله لهم الحسنيين، حسنى حمل لواء تأسيس الجهاد لتثبيت أقدام الدعوة وإنشاء كتائبها المجاهدة، وحسنى حمل لواء عموم الدعوة، وتبليغ الرسالة إلى الآفاق.

فهي توبة تكليف بالجهاد الفكري والقتالي حتى لا يكون للناس على الله حجّة بعد التبليغ، وهي توبة تضع منهج الرسالة في عمومها موضع العمل الإيجابي، حتى يستقر في قلب كل فرد من أفراد الأمة أنّ حمل لواء الجهاد والسير به لتبليغ الدعوة إلى من قرب ومن بعد جزء من الإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات الله إشعاراً لهم بوجوب تطهّرهم من دنس الركون إلى الاسترخاء المذلّ، حتى يجعل الله منهم وممن يخلفهم في حمل لواء الدعوة مجتمعاً يدّرع الاعتصام بالله تعالى في نشر خاتمة رسالاته، وتبليغها إلى القاصي والداني بالحجة النيِّرة، والبيان الناصع، ثم بالسيف الذي يردّ كل اعتداء على الدعوة وحاملي لوائها، ويدفع عن طرائقها كل تعويق لها في مسيرتها إلى أرجاء الحياة بما فيها من أجيال وأفكار.

وعلى أيدي هؤلاء الصفوة تمّت أربح صفقة بينهم وبين ربهم جلّ شأنه في قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويقتَلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ ومع هؤلاء الصفوة وضع منهج السير بالدعوة، فكانت أول خطوات هذا السير المتدرج المحكم أن تقف الدعوة بحجَّتها وقوتها الفكرية

والمادية مع الذين يلون منبعها ويقربون من هذا المنبع، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلظةً، واعلموا أن الله مع المتّقين﴾.

وقد وضعت غزوة العسرة (تبوك) الأمة كلها على طرف المسيرة، وتنزّل إليها الإذن بالسير في هذا النداء الذي بدأت به آية التدرج في الجهاد، والغلظة التي جاءت في الآية موضعها بعد استنفاد كل طرائق الحجة والبيان، ولذلك جاءت بعد الأمر بالقتال، لا بعد الأمر بالجهاد، والقتال في الإسلام لا يكون جهاداً في سبيل إعلاء كلمة الله إلا بعد الدعوة وبسط الحجة، وتعقيب الأمر بالقتال مع الغلظة بقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ تحذير زاجر للتحرُّزِ من تخطّي سدّة منهج الدعوة إلى الله الرؤوف الرحيم بتجاوز الحدّ، وقتل من لم يكن من أهل القتال.

حكمة تخصيص المهاجرين والأنصار بالذكر في الآية.

وتخصيص المهاجرين والأنصار بالذكر في جانب توبة التفضل بالفضل والإنعام تنويه بسابقتهم، وفدائيتهم وقوة إيمانهم في إرساء صَرْح الجهاد، وإقامتهم معالم أساس عموم الرسالة الخاتمة الخالدة، ليكونوا قدوة لمن يخلفهم من أجيال الإسلام في حمل لواء المسيرة بالدعوة وعدم توقفها عن هدفها الذي ينبغي أن لا تحط رحالها مسترخية إلا بعد وصولها إليها، إيذاناً بأن الجهاد شرعة الإيمان، وأنه مُحْكم الحجّة نيرّ البرهان، وقد ثبت في الأثر: «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلُّوا» وهذا المعنى المقصود بُيِّن في واقع أمة الإسلام الذي تعيشه بين الأمم.

لماذا سميت هذه الغزوة غزوة العسرة.

وإنما سمِّيت هذه الغزوة (غزوة العسرة) لأنها كانت تدريباً على أعتى أنواع المشاق التي ستقابل المجتمع المسلم في مسيرته وهو يحمل الدعوة إلى الله، ويدعو لتبليغ رسالة الهدى إلى الإنسانية أينما وجدها، كما أن هذه الغزوة كانت امتحاناً شاقاً لإخلاص الإيمان في قلوب الذين اصطفاهم القدر الإلَهي لقيادة مسيرة الإسلام، فقد أحاطت بها الشدائد، واكتنفها العسر من كل جانب، منذ كانت بذرة في غيب التكليف، وقد كان الخروج إليها في حرّ شديد، وقيظ محرق، وجدب قاحل، وسفر بعيد إلى عدوٍّ كثير، له من القوة ما

كان يهزّ مجرد ذكره وذكرها الكيان العربي رُعباً وتهيباً، مع عدم توافر أضعف الوسائل لحمل حشود المسلمين، فلا ظهر ولا ماء، ولا مؤن من الطعام، ولا أهبة في السلاح، مع كثافة عدد الجيش الذي لم يخرج مثله في غزوة من الغزوات.

ومن ثَمّ خرج بها النبي ﷺ عن سنته في غزواته، إذْ أعلن عنها، ولم يورّ ليتأهب لها المجاهدون أهبة توائم ما سيلقون في مسيرهم إليها من الشدائد والأزمات، ففي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه عند البخاري ومسلم قال: لم يكن ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، وغزا عدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد.

وفي حديث محمد بن عبدالله بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي عند عبد الرزاق من طريق شيخه مَعْمَر بن راشد، قال: خرجوا في قلّة من الظهر، وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء وفي الظهر، وفي النفقة، فسمِّيت غزوة العسرة.

اختلاف الروايات في أسباب غزوة تبوك الرواية الأولى وتحقيق القول فيها.

وقد اختلفت الروايات في سبب هذه الغزوة، فعند ابن سعد وشيخه الواقدي وغيرهما من رواة أحداث السيرة النبوية ووقائع المغازي أن النبي ﷺ بلغه من التجار الذين يقدمون بتجارتهم من الشام إلى المدينة المنورة أن هرقل جمع الروم الذين توطنوا الشام، وأمرهم بالتأهب، وأعطاهم رزق سنة ليتفرغوا من أعمالهم، ويستعدوا لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، واستجاب لدعوة هرقل مع الروم بعض القبائل العربية التي تعيش في جوارهم تحت سلطانهم، وتدين بدينهم، دين النصرانية، وهم لَخْم، وجُذام وعاملة وغسان، وغيرهم من متنصرة العرب، وتحركت مقدمتهم حتى بلغت البلقاء من مشارف الشام، فندب النبي ﷺ الناس لملاقاتهم، جرياً على عادته القويمة وسياسته الحكيمة المحكمة في تربيته السلوكية لمجتمعه، وهو يحمل لواء الدعوة إلى الله، مبلِّغاً رسالة النور والحق والهدى والخير إلى أجيال

الإنسانية المتتابعة في وجودها مع سيرورة الزمن و(تطورات) الحياة الفكرية والاجتماعية.

وقد كان ﷺ إذا بلغته أخبار قوم يتأهبون لحربه، ويستعدون لمهاجمة المجتمع المسلم اغتراراً بما تحت أيديهم من قوة مادية، وتجمعات قتالية تتمثل في حشود الكتائب المحاربة، وكثافة الجيوش المقاتلة التي تتوافر لها وسائل التأهب والاستعداد بالرجال المدرَّبين تدريباً مرموقاً على خوض غمرات الحرب وكثرة الأسلحة التي يملكونها، وهي أسلحة متنوعة، شديدة الفتك، كما تتمثل في كثرة المؤن وتوافرها لكل فرد، مع يسر الحصول عليها، وكثرة الظهر، والخيل المطهّمة التي تملك جولات الفروسية في ميادين الكر والفر، وللخيل منزلة خاصة في الحروب، وخاصة في العهود القديمة.

في إطار هذا التصور ـ كما جاءت به هذه الرواية ـ سار النبي ﷺ إلى هذه الغزوة في جيش عرمرم، لم يجتمع مثله للمسلمين في غزوة من غزواتهم المتعددة، إذْ بلغ أكثر من ثلاثين ألفاً في أشهر الروايات، مع الأهبة والاستعداد على رغم ما كانوا فيه من عُسْرة وشدة وقلة في الظهر، والماء والمؤن، وأدوات القتال وأنواع الأسلحة، حتى وصل ﷺ بجيشه إلى تبوك، وأقام بها بضع عشرة ليلة، ثم عاد ﷺ بكتائبه إلى المدينة، بعد أن عقد مصالحات، وضرب الجزية على أهل أيلة وأذرح وجربا ممن جاؤوه يطلبون مصالحته، ويقرّون بالجزية على رقابهم، دون أن يلقى كيداً.

ولعل هذه الرواية من أمثل روايات سبب هذه الغزوة التي رواها أرباب المغازي وأهل السير، وهي ممّا لا يسرع إليها النظر بالرفض والإنكار، لأنها معقولة المعنى متناسبة مع سياسة النبي ﷺ في غزواته التي قادها ﷺ بنفسه الشريفة.

الزرقاني يصرح ببطلان هذه الرواية جرياً وراء الواقدي مع احتمال صحتها.

بيد أن الزرقاني في شرح المواهب صرح ببطلانها مرتين في مكانين، فقال مرة بعد أن ساق الرواية: ولم يكن لذلك حقيقة، ولم يذكر الزرقاني سنداً لهذا النفي ولا ندري من أين أخذه.

وقال مرة أخرى تعليقاً على قول القسطلاني نقلاً عن الواقدي: ووجد

هرقل بحمص، دار ملكه ولم يتحرك ولم يرجف، فكان الذي أخبر به ﷺ من تعبية أصحابه، ودنوه إلى الشام باطلاً، لم يرد ذلك ولا همّ به.

والواقدي مُتَكلَّم فيه، فلا يوثق بروايته إلاّ إذا تقوّت بنقل مَنْ هو أقوى وأوثق منه، وإلاّ فما وجه أن ذلك ليس له حقيقة، وأنه باطل، لم يرده هرقل ولا همّ به؟ وهل وجود هرقل في دار ملكه (حمص) ينفي أن يكون أراد محاربة النبي ﷺ خشية أن يقوم ﷺ بمهاجمته بما لا طاقة له به بعد أن صكّت أذنيه انتصاراته ﷺ على سائر العرب في جزيرتهم العربية، وأنهم آمنوا برسالته وبايعوه على تصديقهم بها، وأنهم أصبحوا جنوده في كتائب مجتمعه المسلم، وأن هرقل وهو بدار ملكه حمص جهّز جيشاً من الروم ومن متنصِّرة القبائل العربية، وأمَّر عليه رجلاً من قواده كما جاء صريحاً في الرواية الثانية من تأميره قباذ أحد قادة الروم على جيش من أربعين ألفاً وبقي في دار ملكه حمص، وقد كان النبي ﷺ قد أرسل إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام زمن عهد الحديبية، فأظهر هرقل قناعته بصدقه ﷺ، ولكنه خشي على نفسه من قومه وضنّ بملكه، وظل على نصرانيته، وأراد مهاجمة النبي ﷺ قبل أن يسير إليه بجيوش الكتائب المسلمة، ولكنه عاودته قناعته بأن محمداً ﷺ رسول من الله تعالى يجده في كتبهم، فردّ جموعهم التي حشدها مع قائده الروماني بعد أن وصلت إلى البلقاء، وبعد أن بلغ النبي ﷺ أمر تجمعاتها لحربه، وسار إليها بكتائبه فلم يجد لها أثراً، وكتب له النبي ﷺ كتاباً آخر غير كتابه الأول يجدّد فيه دعوته إلى الإسلام، وهذا الكتاب الثاني كتب في تبوك، ومنها أرسل إلى هرقل، حمله إليه دِحْية بن خليفة الكلبي، وهو رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل بكتابه الأول الذي كتب سنة ست في مدة عهد الحديبية، وهذا الكتاب في صحيح البخاري في بدء الوحي.

أما الكتاب الثاني الذي كتب في تبوك وأرسل منها فقد رواه ابن حبان والإمام أحمد وأبو يعلى، قالوا: قدم ﷺ تبوك، فبعث دِحْية إلى هرقل، فلما جاءه الكتاب دعا القسيسين والبطارقة، وأغلق عليهم وعليه، فقال: إن هذا الرجل - يريد النبي ﷺ - يدعوني - إلى الإيمان برسالته، وبما جاء به من الدين الحق دين الإسلام. والله لقد قرأتم فيما تقرؤون من الكتب: ليأخذنّ ما تحت

قدمي، فهلّم إلى أن نتبعه، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى إن بعضهم خرج عن برنسه، فلما ظنّ أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم، قال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم- كما قدمنا، وأنه كتب إلى النبي ﷺ وبعث بكتابه رجلاً من تنوخ، وأوصاه أن يسمع ما يقوله رسول الله ﷺ عند قراءة كتابه، ويسجله.

قال ابن حجر في الفتح: وروى ابن حبّان أنه ﷺ كتب إليه بتبوك يدعوه إلى الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب، وفي مسند أحمد أنه كتب إلى النبي ﷺ: أني مسلم، فقال ﷺ: «كذب بل هو على نصرانيته».

أليس في كل هذا قرائن قويّة وأمارات ظاهرة على أنه لا ينبغي الجزم بالحكم بغير حجة بيّنة بأن ما جاء في هذه الرواية عن سبب هذه الغزوة باطل، وأنه ليس له حقيقة، وأن هرقل لم يرده، ولا همّ.

الرواية الثانية في سبب غزوة تبوك والتعليق عليها.

أما الرواية الثانية في سبب هذه الغزوة فهي ما رواه الطبراني عن عمران بن حُصَين، وما رواه الترمذي والحاكم من طريق عبد الرحمن ابن خبّاب كما جاء في فتح ابن حجر: أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل تقول له: إن هذا الرجل الذي خرج يدّعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن، فبعث هرقل رجلاً من عظماء قواد الروم، يقال له قباذ، وجهز معه أربعين ألفاً من الروم، ومن متنصرة العرب، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ولم يكن بالمسلمين قوة للذهاب إلى أرضهم لملاقاتهم لفقد الظهر، وقلة النفقة، وشدّة الحر وبعد السفر، وهيبة العدو.

وهذه الرواية يبدو من سياقها وبعض عباراتها أنها ملفّقة من بعض ما جاء في الرواية الأولى، ومن بعض ما تزيّد به ضعفة الرواة الذين يتلقّفون ما يُلقى إليهم في حلقات القصّاص ومجالس السَّمر، وقد نصّ الزرقاني على ضعف سند حديثها، واكتفى بإيرادها ولم يعلّق عليها بشيء.

الرواية الثالثة في سبب هذه الغزوة ونقد ابن كثير لها.

الرواية الثالثة في سبب هذه الغزوة ما تردّد في كثير من كتب التفاسير التي لا يعنيها تحقيق الروايات في أسباب النزول، لا سنداً ولا متناً، فقد ذكروا في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض

ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً، سُنّة مَنْ قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ عدة روايات اعتمد على بعضها أهل المغازي والسِّير الذين رأوها تذكر في سبب غزوة تبوك فجعلوها سبباً لها.

قال ابن كثير: قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على النبي ﷺ بسكنى الشام، بلد الأنبياء، وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك، وهذا التعليل في بيان ضعف القول بهذه الرواية ضعيف، لم يبين ابن كثير له حجّة، ولا ذكر له سنداً، وقد عرفنا في بحوثنا ان ابن كثير يعتمد في مكية الآيات ومدنيتها على ما قيل في السورة: أنها مكية أو مدنية، وهذا قول يعني الأغلبية من آيات السورة، ولا يعني جميع آياتها، وكثير من سور القرآن نُصَّ على مكيتها باعتبار أغلب آياتها، ووضعت فيها آيات مدنية لمناسبة معانيها لمعاني بعض آيات السورة فذكرت معها توقيفاً من النبي ﷺ.

ثم قال ابن كثير: وقيل: إنها نزلت بتبوك، وفي صحته نظر، ثم روى ابن كثير عن البيهقي أنه روى عن الحاكم عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر ابن حوشب، عن عبد الرحمن بـن غنم: أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر، وأرض الأنبياء، فصدّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد أن ختمت السورة ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً * سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث، قال ابن كثير: وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أنه ليس بصحيح. وهذا من حذق ابن كثير وبراعته في الروايات سنداً ومتناً، في كثير مما ينقل في تفسيره وتاريخه.

وكان هذا الرأي الذي صرّح به ابن كثير كافياً في إلقاء ستر الظلام

تفنيد هذه الرواية متناً وبيان سخفها وبطلانها.

على هذه الرواية الكاذبة، واليهود أمة الكذب الأبله، والنفاق الفاجر، وحسب هذه الرواية ما جاء فيها من سخف، يجعل من محمد رسول الله ﷺ، سيد الخلق، وأكملهم عقلاً، وأعلمهم بالله تعالى، وسننه العامة والخاصة في الكون إنساناً تُلْقى إليه الكلمات من أخبث من عرفت الإنسانية من ذرائع الفجور فيهم، هكذا إلقاء عابراً فيصدقها، ويرتب عليها غزوة لم يعرف في تاريخ الإسلام غزوة أشق ولا أعسر منها، كما لم يعرف في تاريخ الغزوات كلها غزوة حُشد لها جيش أعظم عدداً من جيشها، ويسير رسول الله ﷺ بهذا الجيش العرمرم إلى الشام ولا يريد غيره؛ تحقيقاً لأكذوبة سخيفة تنهضه من مقره ومقر مجتمعه المسلم ليترك هذا المقر ويقيم بعيداًعنه إقامة أبدية بعد كل ما أنعم به الله عليه وعلى مجتمعه المسلم في هذا المستقر الذي ثبت أنه مأمور بالهجرة إليه، وكان له ﷺ ولمجتمعه الذي ربّاه وبنى كيانه في هذا المستقر إنزال ما جاءت به رسالته من تشريع وأحكام وآداب ونظم اجتماعية واقتصادية، وتربية سلوكية تمّ بها جميعها إكمال الدين له ﷺ ولمجتمعه المسلم في جميع أجياله، وأتم عليهم في هذا المستقر نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً، والمدينة المنورة مستقراً وملاذاً، جعلها الله دار الإسلام ومتبوأ الإيمان، ثم يُنزل الله تعالى عليه في تبوك آيات تردّه إلى مستقره، ويأمره بالرجوع من تبوك إلى مدينته بعد تحمُّله وتحمُّل جيشه كل هذه المشاق والعسر التي فاقت تحملات طاقة البشر، ويقول له فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث.

سبحان الله؟! ما الذي يبقى لسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ من معالم العصمة التي هي شرط لتحقيق النبوة وصدق الرسالة وراء هذا الانصياع لكلمة سخيفة وأكذوبة فاجرة يلقيها إليه أعدى أعداء دينه، وأبغض الفجرة الكافرين لرسالته حسداً من عند أنفسهم؟.

وما الذي يجعل المؤمنين برسالته ﷺ، الباذلين في سبيل نشرها أموالهم وأرواحهم، يربطون على قلوبهم بعواصم الثقة الإيمانية في تبليغه لهم شرائع هذه الرسالة وأحكامها ونظمها إذا علموا أنه ﷺ كلفهم هذه المشقة الأزمة لمجرد كلمة سخيفة من أفجر أكاذيب خبثاء اليهود الملعَّنين على ألسنة الأنبياء

والمرسلين؟ وما الذي يجعل من الذين يُدْعون إلى اعتناق هذه الرسالة إيماناً بها وتصديقاً لحامل أمانة تلقِّيها ووحيها قوماً يعلمون أن وحيها من الله لتبليغها إلى العالمين في مشارق الأرض ومغاربها؟ هذه رواية ساقطة سخيفة ما كان ينبغي أن تدوّن في كتاب يحمل شرف الحديث عن الإسلام وهدايته، وعن محمد سيد الوجود ورسالته، وأحداث وأحاديث سيرته؟.

بَيْدَ أن البله والغفلة العقلية إذا تسلّطا على بعض من نُظِموا غلطاً في سلك العلماء أفسدتا عقولهم، فجعلتهم يقبلون كل غثاء يُروى تكثّراً وتعالماً، غافلين عما يجره ذلك من شرور وأضرار على الدعوة ونشرها.

وهذا النحو من الروايات الساقطة التي لعب بها اليهود والملحدون أدواراً عصيبة في تشويه جمال الإسلام لا يزال ضررها جاثماً ينفث سمومه، إن لم يتداركه أهل العلم من العلماء بتبيان ما فيه من زيف وخبث وأباطيل كُذب بها على دعوة الإسلام وقَبِلَها البُله من أهل الغفلة المتعالمين.

الرواية الرابعة في سبب هذه الغزوة. وتحقيق ما جاء فيها.

الرواية الرابعة في سبب هذه الغزوة من رواية ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وما رواه ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن مجاهد، وما رواه ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير، من أن سببها أن الله تعالى لما منع المشركين من قربان المسجد الحرام قرباناً مطلقاً في حج أو غيره، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس؛ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ والإشارة عائدة على العام العاشر الذي حجّ فيه النبي ﷺ بعد حجة أبي بكر بالناس في العام التاسع الهجري، كما حقّقه القاضي أبو بكر بن العربي.

والمراد بالمسجد الحرام الحرم كله، أخذاً من قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾، وإنما أسْرى به ﷺ من بيت أم هانىء على أرجح الأقوال في بدء الإسراء، وبيت أم هانىء من الحرم، لا من المسجد الحرام.

وقد اختلف العلماء في سائر المساجد، هل يدخلها مشرك؟ وهل

يدخلها أحد من أهل الكتاب، يهودي أو نصراني، فأخذ بعضهم بمنطوق الآية، فجعل الحظر قاصراً على خصوص المسجد الحرام، وعمّم في داخليه، وبعضهم أخذ بالمعنى الذي كان من أجله المنع، وهو الذي أشير إليه بقوله قبل أن يأتي النهي: ﴿إنما المشركون نجس﴾ وهذا متحقق في سائر المساجد، والمسألة مفصّلة في كتب فقه مذاهب أئمة الأمصار من علماء الأمة.

ولما نزلت هذه الآية بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام، وكانوا يجلبون الأطعمة والتجارات للمسلمين إلى مكة، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر والعيلة، وقالوا: من أين نعيش، فوعده الله أن يغنيهم من فضله،' قال الضحّاك: ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله عز وجل: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾: لمّا حرم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام وجد المسلمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، فوعدهم الله أن يغنيهم عما كان يجلبه أولئك المشركون من التجارات، فأحلّ لهم الجزية، وكانت لم تؤخذ قبل ذلك، فجعلها عوضاً ممّا منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم.

وكذلك عوضهم بما يغنمونه من مقاتلة الذين يلونهم من الكفار بعد أن أصفقت الجزيرة العربية على الإيمان برسالة النبي ﷺ، فقال تعالى يعلمهم بعموم الجهاد بعموم الرسالة، ويحرِّضهم على قتال من كان خارجاً عن نطاق الجزيرة متدرجاً بهم، وكانت الخطوة الأولى في نشر عموم الرسالة هي ما تقتضيه طبيعة التحرك الإيجابي المقدور عليه في غير رعونة ولا تهوّر: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتّقين﴾ وهذه الغلظة المذكورة في الآية إنما جاءت لتذيب ما كان في نفوس العرب قبل الإسلام من تهيّب للأمم الذين حولهم، وما كان في قلوبهم من رعب وخوف في التفكير في مواقفتهم للحرب والقتال، نظراً لما كان عند أولئك الأمم ـ ولا سيما الروم والفرس ـ من قدرات مادية

ورجال مدربين على أنواع الحروب، وأسلحة منوعة وأموال طائلة، ومؤن متوافرة، فجاء ذكر الغلظة في الآية تجريئاً للمسلمين على مواقفة أولئك الكافرين، وإعداداً لهم للخروج بالدعوة إلى الآفاق الإنسانية في ظل من سياسة التدرج الحكيم، وبياناً بأن القوة الماديّة ليست هي السبب الوحيد للنصر، ومن ثَمّ عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم وغزوهم في عقر دارهم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولاهم بالدعوة إلى الحق وأقربهم إلى الإسلام داراً وعشرة.

ترجيح هذه الرواية على سائر الروايات مع شيء من التوضيح.

هذه الرواية هي التي أصابت الهدف في بيان سبب هذه الغزوة، وهي التي قرطست على السبب الحقيقي للقيام بها وتحمل مشاقها وأزماتها وشدائدها وعسرها وباهظ تضحياتها، وما جاء في قصتها في القرآن الكريم من معاتبة عنيفة لمن تخلّف عنها مؤمناً مخلصاً، وما جاء فيها من شدّة الوعيد الزاجر، والزجر المقرِّع لمن تخلّف عنها وهو غير مؤمن بقلبه، وما جاء فيها من غمز قناة المعذّرين من الأعراب المستأذنين في القعود عن الجهاد مع الخالفين إرجافاً بالنبي ﷺ ومجتمعه المسلم، بما لم يكن لهم فيه عذر، ولكنهم تعلّلوا بالمعاذير الكاذبة، وحلفوا له ﷺ، فقبل ظاهر اعتذاراتهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وجاء في مغازي ابن عقبة: لما دنا ﷺ من المدينة تلقّاه عامة الذين تخلّفوا، فقال لأصحابه: «لا تكلموا رجلاً منهم، ولا تجالسوهم حتى آذن لكم» فأعرض عنهم ﷺ هو والمؤمنون، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه، وإن المرأة لتعرض عن زوجها، فمكثوا كذلك أياماً حتى كرب الذين تخلفوا، وجعلوا يعتذرون بالجهد والأسقام، ويحلفون له ﷺ فرحمهم وبايعهم واستغفر لهم.

ومن ثَمّ كان السبب الحقيقي لهذه الغزوة إنما هو توجيه المجتمع المسلم توجيهاً إيجابياً عملياً لتنفيذ عموم الجهاد لعموم الرسالة، ولذلك احتفل بها النبي ﷺ احتفالاً عظيماً ضخماً فحشد لها جيشاً عرمرماً كثيفاً استوعب أكثر الذين كانوا أهلاً لحمل راية الجهاد، وقادهم رسول الله ﷺ بنفسه، واشتد

فيها العتاب والزجر على عموم الذين تخلّفوا، ثم أكرم الله تعالى من شاء إكرامه منهم بالتوبة وعظيم الحفاوة، حتى توضع الرسالة في عمومها ـ والنبي ﷺ بين ظهراني مجتمعه المسلم ليضع هذا العموم موضع العمل ـ في صورته الجامعة لكل ما ينهض بالحياة، حتى يبلغ بها مداها المقدور لها في لوح الغيب، والتقدير ليستقر في قلب أفراد الأمة وجماعاتها أن حمل لواء الجهاد والسير بالدعوة لتبليغها إلى من قرب ومن بعد من الأحمر والأسود من أبناء الإنسانية وأجيالها وأوطانها جزء من الإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات الله تعالى؛ إشعاراً للمجتمع المسلم بوجوب تطهّرهم من دنس الركون إلى الاسترخاء الذليل المذلّ، حتى يجعل منهم وممن يخلفهم في حمل لواء الدعوة لإعلاء كلمة الحق والهدى مجتمعاً يدّرع الاعتصام بالله في نشر رسالته وتبليغها إلى القاصي والداني، وذلك أولاً ـ بالحجة النيّرة، والبيان الناصع، والحكمة البالغة والموعظة الحسنة، وثانياً ـ بالسيف الذي يردّ عنها كل اعتداء أو تعويق لها في مسيرتها إلى آفاق الحياة، وما يتوارد عليها من أجيال وأفكار، ونظم وشرائع تنبع أحكامها من أصولها، فالجهاد القتالي في رسالة الإسلام لا يكون إلا بعد التبليغ والبيان، فمن أغنت عنه الحجة كُفّ عنه السيف ومن لم يغنِ عنه البيان المبين، ونصب للرسالة معالم الفجور، ووقف في طريقها أزيح بشبا السيوف يميناً أو شمالاً، ليفتح الطريق أمام مسيرة الدعوة وتبليغ الرسالة.

إعداد المجتمع المسلم نفسياً ومادياً لتحقيق نشر عموم الرسالة
سبب هذه الغزوة

كان هذا السبب الحقيقي في النهوض لهذه الغزوة ـ التي ختمت بها الغزوات الداخلية في نشر الرسالة بين القبائل العربية الذين أعدّوا ليكونوا مدداً للغزو الخارجي، يتطلّب إعداداً نفسياً، وإعداداً مادياً لكتائب الجهاد ـ أولاً ـ وهي الكتائب التي تقف في وجه أعداء الله وأعداء رسوله ودعوته إلى الله لتباشر القتال إذ أُلجئت إليه، دفاعاً عن كيانها وتمهيداً لطريق مسيرتها، وإزاحة العوائق التي تقام أمامها.

وإعداداً لكافة عناصر المجتمع المسلم كلها، وهي العناصر التي تقف وراء هذا المجتمع في قواعدها لتمدّه بأقصى ما تملك من قوة نفسية، وطاقات روحية وماديّة، لتجعل منه حركة إيجابية، يزجيها الأمل المتوثب

الذي يجب أن يملأ قلوب جميع أفراد المجتمع وجماعاته التي يُركّب منها عناصر بناؤه باعتباره وحدة إيمانية، ووحدة اجتماعية تكافلية متعاونة.

وهذا المعنى هو الذي ربّى النبي ﷺ مجتمعه المسلم على أساسه، وأقام بناءه على دعائمه فيما عقده ﷺ بين أفراد هذا المجتمع وجماعاته من أواصر المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي قامت على قواعد المؤاخاة الإيمانية التي عقدها الله بين جميع المؤمنين، فجعلهم أخوة يتحابّون في الله، ويجاهدون أعداء الله في الله، فقال مخبراً عنهم: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وضمن لهم بهذا العَقْد التي لا تُحل أواصره، ولا تنفك عراه الهداية إلى سُبُله ما داموا مستقيمين على هدايته، لا يُسْلم مسلم مسلماً ولا يخذله، فقال جل شأنه: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلنا﴾.

النبي ﷺ يضع شعار الإخاء التكافلي بين المجتمع المسلم.

وقد وضع النبي ﷺ شعار هذا الإخاء التكافلي أمام أعين مجتمعه ليستقيم على نهجه، فقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وقال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى» وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله».

ثم أخذ النبي ﷺ بوصفه القائد الأعظم لمجتمعه المسلم، وبوصفه صاحب الرسالة العظمى خاتمة الرسالات الإلٰهية، وبوصفه خاتم النبيين فلا نبي بعده يوحى إليه بشيء قط من الوحي الإلٰهي الذي اكتملت آياته وهدايته في هذه الرسالة العامة الشاملة، رسالة الإسلام المنزّلة على محمد ﷺ، وهي الرسالة التي يجب على حاملي ألويتها أن يبلّغوها إلى الأمم والمجتمعات الإنسانية بلاغاً هادياً ـ في الإعداد النفسي لمجتمعه حينما عزم على النهوض لهذه الغزوة، فأعلن عنها ليتأهب لها الناس، ويقدِّروا مشقاتها، ويتمثلوا متاعبها وشدائد المسير إليها، وما سيقابلهم في هذا المسير من أزمات وعسر.

وكان ﷺ إذا عزم على غزوة داخلية في جزيرة العرب ورّى عنها، ولم يصرِّح خشية أن تبلغ أخبار عزيمته أعداءه الذين يتأهبون لمهاجمته فيهربون

الإعلان عن غزوة تبوك إشعار بعظم منزلتها بين الغزوات.

من ملاقاة كتائبه، أو يضاعفون الإعداد لملاقاته، وذلك لتقارب مضارب القبائل، وشدّة الترابط بينها مما يسهّل نقل الأخبار إليها.

أما في هذه الغزوة فقد كانت الأحوال في إبّانها شديدة شدة سمّاها الله تعالى ساعة العسرة، وكان هذا تعبيراً يحمل في طياته من شدائد الحياة ومشاقِّها ما لم يترك وراءه مشقة ولا شدة إلا طواها بين جوانحه

قال ابن إسحق راوياً عن شيوخه: إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قلّ ما يخرج في غزوة إلاّ كنًّى عنها إلاّ ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس، لبعد الشقة، وشدّة الزمان وكثرة العدّو الذي يصمد إليه ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم.

الإعداد النفسي للمجتمع المسلم لهذه الغزوة كان ملائمًا لعظمة هدفها.

هذا الإعداد النفسي للمجتمع المسلم في غمرة هذه الشدائد والمشقات البالغة في محنها وتمحيصها مبلغاً لم يترك فرداً إلا مسّه بوخز آلامه كان إعداداً لمستقبل مليء بالبلاء والمحن، فكان لوناً من التربية على تحمل المشقّات الباهظة في سبيل تبليغ رسالة الهدى والخير، ونشر دعوة الحق والعدل والنور، وترك الاسترخاء المتثائب في ظل الترهّل والتمتع بزخارف الحياة ومتعها ولذائذها الفانية.

واستجاب المجتمع المسلم لقائده الأعظم، ورسوله الأكرم، وأخذ الناس في التأهب والاستعداد لمسيرهم الذي لا يرجون فيه إلا رضاء الله وثوابه وقياماً بحقِّ الوفاء بتبليغ الرسالة العامة إلى الناس كافة.

ونظر النبي ﷺ إلى الناس وهم يعملون سراعاً في تأهبهم بأقصى ما في طاقتهم من الاستطاعة، فرأى أعداداً وفيرة وحشداً كثيراً من الرجال الذين استنفروا فنفروا، ورأى ﷺ أن تأهّبهم المادي الذي تأهّبوه لا يقوم بهم في

الوصول إلى هدفهم، ولا يبلغ بهم ما استهدفه رسول الله ﷺ من وضع الدعوة إلى الله على مشارف عمومها والتخطّي بها إلى ما وراء حواجز الجزيرة العربية وقبائلها، لتنطلق بإذن الله إلى آفاق الحياة الوسيعة حيث أجيال الإنسانية السادرة في الغي والضلال وهي ترزح تحت كلاكل الظلم والطغيان، ليخرجهم من هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض إلى نور التحرر من رق العبودية للمخلوقين.

سلطان الضمير والحب كان منبع الإعداد النفسي والمادي.

فشمّر ﷺ للعمل على أن يجعل من هذا الإعداد النفسي منبعاً للإعداد المادي، إعداداً يقوم بحاجة هؤلاء المستنفرين في كثرتهم الهائلة وضعف تأهبهم لملاقاة عدوهم، لكنه ﷺ أراد أن يكون هذا الإعداد المادي نابعاً من مداخل القلوب والضمائر التي يعمرها الإيمان بإخلاصه، واليقين برسوخه، حتى يكون طبيعة وخلقاً من طبائع وأخلاق المؤمنين على توالي الأزمان والأجيال، يسعفهم كلما حرّكوه بدافع الإيمان. لا أن يكون بالقهر، وإهدار إنسانية الناس بمصادرة أموالهم، وأخذهم بسياط الطغيان، فيكرهون الجهاد وتنحرف قلوبهم وعقولهم عن مداراتها في فلك الإخلاص لله تعالى والتعبّد له.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيد المجتمع المسلم في البذل والإنفاق.

ذكر الواقدي: أن النبي ﷺ حضّ على النفقة والحُمْلان في سبيل الله، فجاء المؤمنون بصدقات كثيرة، وكان أول من جاء بصدقته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بماله كله، أربعة آلاف درهم، فقال له ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً» فقال الصدّيق رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، فسأله النبي ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» قال: نعم، أبقيت لهم نصف مالي.

وتنافس صادقـو الإيمان من أهل المكارم، والبذل في سبيل الله، فحمل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن عبادة رضي الله عنهم، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية، وتصدّق عاصم ابن عدي بسبعين وسقاً من تمر.

وجهز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش، وكان عدده في أقل تقادير

الروايات ثلاثين ألفاً، فيكون عثمان وحده قد جهّز عشرة آلاف.

إنفاق عثمان كان المثل الأعلى في مكارم الإسلام.

قال ابن إسحاق: أنفق عثمان في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق مثلها أحد، وعن قتادة قال: حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً.

وفي حديث الترمذي وأحمد والبيهقي عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار في كمِّه فنثرها في حجر رسول الله ﷺ، قال عبد الرحمن بن سمرة راوي الحديث: فرأيت رسول الله ﷺ يقلِّبها في حجره، ويقول: «ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم».

وأخرج ابن عدي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: بعث عثمان بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ فصُبّت بين يديه ﷺ، فجعل صلوات الله عليه يقول بيده ـ أي يحركها ـ ويقلّبها ظهراً لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها».

مناقشة ابن حجر في تأويله لما جاء في حديث حذيفة عند ابن عدي.

طعن ابن حجر في سند هذا الحديث، فقال: سند واه، ثم قال ابن حجر عقب ذلك: ولعلها ـ أي العشرة آلاف دينار التي جاءت في هذه الرواية ـ عشرة آلاف درهم، فتوافق رواية ألف دينار.

وقول ابن حجر: ولعلها عشرة آلاف درهم لا تعلُّق له بالطعن في سند الحديث بالوهي، وإنما هو نقد لمتن الحديث، وتأويل نصِّه بمعنى بعيد ليوافق الرواية الأخرى، ولو أنصف الحافظ ابن حجر لوقف عند نقده لسند الحديث بالوهي لأنه كاف في ردِّه وعدم الاحتجاج به، ولو جاء متنه بعشرة آلاف درهم.

وقد عقَّب الزرقاني في شرح المواهب على كلام ابن حجر فقال مجيباً عن نقده لمتن الحديث مع إمكان الجمع بين روايتي ألف دينار، وعشرة آلاف دينار فقال: ولو صح ـ أي سند حديث ابن عدي ـ أمكن أن الألف جاء بها، والعشرة آلاف بعث بها، وهذا معناه إمكان الجمع بين متن الحديث في

الروايتين إذا صحّ السند، وأن الروايتين وقعتا معاً، فيكون عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء بنفسه بألف دينار، وبعث مع غيره عشرة آلاف دينار، وحينئذ يكون مجموع ما تبرع به عثمان بمقتضى الروايتين أحد عشر ألف دينار، ولا وجه لاستبعاد ابن حجر ذلك أخذاً بمضمون رواية الطيالسي والإمام أحمد والنسائي الصحيحة عن الأحنف بن قيس، قال: سمعت عثمان يقول لسعد بن أبي وقاص وعلي والزبير وطلحة بن عبيد الله: أنشدكم الله؟ هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من جهّز جيش العسرة غفر الله له» فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً! قالوا: اللّهم نعم. وهذه رواية مطلقة شهد بها أفضل من بقي من أخصّاء الصحابة رضي الله عنهم، وهي صريحة بأن عثمان رضي الله عنه جهّز جيش العسرة كلّه، فلا يجوز تقييدها بعدد أو بقدر من المال إلاّ بما ثبت من طريق صحيح، ولو ثبت ذلك لبقي لعثمان رضي الله عنه تجهيز معظم جيش العسرة، وعشرة آلاف دينار التي استبعدها ابن حجر وأخرجها بالتأويل الذي لا سند له ليست بالشيء الكثير على مكارم عثمان وسخائه وبذله في الإسلام، وسعة ثرائه، قال ابن هشام: حدثني من أثق به أن عثمان أنفق ألف دينار غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك، فقال النبي ﷺ: «اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راض».

وروى الترمذي، وعبدالله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند، والبيهقي عن عبد الرحمن بن خبّاب، قال: خطب رسول الله ﷺ، فحثَّ الناس على جيش العسرة، فقال عثمان: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل النبي ﷺ مرقاة أخرى من المنبر، ثم حثّ، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل ﷺ مرقاة أخرى فحثّ فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال عبد الرحمن بن خبّاب راوي الحديث: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها كالمتعجب: «ما على عثمان بعد هذا اليوم ـ أو قال بعدها».

موقف نبيل في المكارم تنافس في ميدانه المتنافسون.

هذا الموقف الكريم النبيل الذي وقفه أصحاب رسول الله ﷺ في سرعة استجابتهم لتحقيق رغائبه الإيمانية، وحضّه على الإنفاق السخيّ، والبذل الرضيّ في تجهيز جيش العسرة، والذي سبق إليه ذو النورين عثمان

ابن عفان رضي الله عنه ممّا يعجز القلم عن الإحاطة بوصفه، وتوفيته حقّه، مما جعل النبي ﷺ يتعجّب من سماحته، وسخائه، وغامر جوده في سبيل الله وإعلاء كلمته، وقال في الثناء عليه كلماته النورانية التي جاءت في الروايات المختلفة في أسانيدها، المنوّعة في أساليبها، حتى انتهت كلّها إلى موقف فريد في باب المكارم المضيئة بنور الإخلاص المصفّى من كدورات تسلّط الدنيا بزخارفها وغرورها على طبيعة عثمان حتى هانت عليه، وعرف فضل الله عليه وقدّر نعمته حقّ قدرها فيما أفاض عليه من ثراء وسيع، فبذله شكراً لله تعالى في سبيل مرضاته ومرضاة رسوله ﷺ، ممّا جعله صلوات الله عليه يكثر من التعجّب بيده ولسانه مبتهجاً بمظهر هذا الكرم الذي مثّله في أرفع صوره، وأرقى نماذجه، وأنقى مواطنه رجل من أصحابه من أحب الناس إلى قلبه، وآثرهم عنده، وأكرمهم عليه.

وليقل في هذه الروايات ـ التي تحدّثت عن مكارم عثمان في تجهيز جيش العسرة، والتي بلغت في معناها مبلغ التواتر المعنوي ـ المغـرمون بالأسانيد ما يقولون، فليس قولهم بضائر عثمان رضي الله عنه، ولا هو بمنزله عن مكانه من ذروة المكارم.

مجمل الروايات في مكارم عثمان تكفي في إبراز تساميه في الإنفاق على كل منفق في سبيل الله.

وحسب البحث أن يلفت نظر الناظرين إلى كثرة الروايات التي جاءت كل رواية منها بنوع من المكارم جاد بها هذا الكريم الفيّاض بالمكارم الغامرة في ساحة الجهاد، والأزمات مكتنفة بالمجتمع المسلم اكتنافاً ضاقت حلقاته حتى أخذت عليه منافذ الطرق لتجهيز كتائب الإسلام وحشودها المتكاثفة، وليس في يد هذا المجتمع المسلم من ذرائع القوة التي تعينه على التحرك في مسيرته إلى هدفه، إلّا ما كان من عثمان وإخوته في المكارم والبذل في سبيل الله.

وليس من المعقول أن تكون هذه الكثرة الكاثرة من الروايات المتعدّدة المتنوعة في أساليبها ومعاني متونها، وتنوع أصناف مكارمها بين آلاف الدنانير والدراهم، ومئات الأبعرة والأفراس، وأطنان الزاد والمؤن ـ مصنوعة، ولو ثبت أن منها ما هو مصنوع فلن يصدق ذلك إلّا على أقلّ القليل منها، ويبقى

بعد ذلك في صحائف مكارم عثمان الإسلامية ما هو فوق كل مكرمة.

أما الأماثل الأكارم السُّبَّق من خُلَصاء المؤمنين الذين جادوا بما وفّقهم الله إليه من البذل في سبيل الله من أمثال الفاروق وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن عبادة، وطلحة بن عبيد الله الفياض، فأولئك هم المفلحون الذين لم يضنُّوا في ساعة العسرة بما كان في طاقتهم، فأدخلوا على قلب رسول الله ﷺ السرور والبهجة بما جادوا به من الكثير الطيِّب، وجعلوا من الجود في هذه الغزوة درس تمحيص لرسوخ الإيمان وصفاء اليقين، وقوة العزيمة في نصرة دين الله، وتعزيز رسول الله ﷺ، ونشر دعوته، وتبليغ رسالته، كما جعلوا من هذه الغزوة درس تنافس في المكارم، يتسابق إلى تلقّيه من الاقتداء برسول الله ﷺ أهل الوفاء وصدق الإيمان.

غزوة العسرة كانت تمحيصاً وامتحاناً لصدق الإيمان وإخلاص اليقين.

فهي إذاً كانت غزوة عُسْرة عسيرة، وشدة آزمة، وأزمات شداد، فهي أيضاً غزوة امتحان لصدق الإيمان، وإخلاص اليقين، والتفاني في فداء العقيدة ونشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة بما تتطلّبه من بذل الأرواح والأموال أبانت عن معادن النفوس المؤمنة التي ربّاها النبي ﷺ لتكون نموذجاً للفضائل تتأسّى به أجيال الإسلام في مستقبل حياتها، وما يقابلها في طريق مسيرتها من عقبات وشدائد، لا يخرجها منها إلا إيمان صادق، وعزائم صارمة، واستسلام لوجه الله يجعل من الأرواح والأموال وسائل لتحقيق مراضي الله ورسوله وحبِّهما، والوقوف عند أوامرهما ونواهيهما.

أما موقف أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه الذي تصدَّق بجميع ماله، وأبقى لأهله الله ورسوله فهو موقف عزيز المنال، فإنه لا يوضع مع مواقف الناس في ميزان، لأنه تسامى فسما فلم يُلحَق، فكان موقفاً صدِّيقياً من نسج الطبيعة الصدِّيقية العظمى، ولم يكن غريباً على حياة الصدِّيق الإيمانية، التي كان بها أبو بكر سيِّد المؤمنين من أتباع الأنبياء والمرسلين من الأوّلين والآخرين، وهو أحد مواقف الصدِّيق الأعظم الصاحب في الغار، والرفيق في طريق الهجرة، المتزمِّل برداء المعية في ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ والمدّثِّر بإشراقات «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما».

* * *

إرجاف المنافقين وبث سموم نفاقهم ليثبطوا المؤمنين عن المسير للجهاد.

ولمّا أتّم النبي ﷺ أهبته للخروج لما قصد أرجف به المنافقون، وجعلوا يثبّطون العزائم بإلقاء الأكاذيب، وقول بعضهم لبعض لينتشر ذلك بين صفوف الكتائب المجاهدة، يبغونهم الفتنة، وفيهم سمّاعون لهم: لا تنفروا في الحرّ، ففضحهم الله، وكشف أستارهم، وعرّى سوءاتهم وأنزل قوله تعالى يحكي إرجافهم وشكّهم وسوء مكرهم: ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ ثم بكّتهم على جبنهم وخور عزائمهم فقال لنبيه ﷺ في الرد عليهم: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ ومعنى هذا الرد المقرّع لهؤلاء المنافقين أن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الجبناء الرعاديد إن كنتم تَفْرقون من حرّ الدنيا، وهو مشّاء متنقل لا يدوم على حال، فما شأنكم يوم تقذفون في نار جهنم وهي أشد حرّاً بما لا يقاس مع حرّها وعذابها حرّ نيران الدنيا مجتمعة، ولكن هؤلاء المنافقين لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة لعدم إيمانهم بها وبما يجري فيها من ثواب ونعيم للمؤمنين وعقاب وعذاب للكافرين والمنافقين.

كشف سوآت النفاق وإفساد تدبير المنافقين.

ثم كشف الله تعالى عن سوأة أخرى أقبح من سوآتهم السابقة، وسوآتهم لا تنقضي خبائثها، فجبههم مقرّعاً بأنهم يعيشون بقلوب فارغة وأدمغة خاوية فهم كالأنعام، بل هم أضلّ، لا هدف لحياتهم إلا ملء بطونهم وتدبير المكايد لكل خير يقع أو سيقع، فإذا رأوا مكايدهم أفرخت في أوكار الفجور فرحوا ضاحكين، يسخرون مستهزئين، فقال لهم الله تعالى متوعّداً: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ في دنيا فجورهم، فإنهم سيبكون كثيراً في دار حسرتهم، فهو أمر وعيد وتهديد، واستهزاء بهم وسخرية منهم.

أخبث موقف لأخبث جرثومة في النفاق.

وذكر ابن عقبة والواقدي وغيرهما أن صاحب هذه المقالة الخبيثة الجدّ ابن قيس أحد بني سَلِمة، وهو القائل للنبي ﷺ في غزوة تبوك حين قال له صلوات الله عليه: «يا جدّ هل لك في جِلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء»: قد عرف قومي أني مُغْرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر عنهن؛ فلا تفتني وائذن لي في القعود، وأعينك بمالي. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال له: «قد أذنت لك» ولم يكن له علّة إلّا النفاق.

وفي حديث جابر عند ابن أبي حاتم، وابن مردويه لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى تبوك قال للجد بن قيس: «ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟» فقال جدّ بن قيس: إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساءهم أفتتن بهن، فائذن لي ولا تفتني، فأعرض عنه النبي ﷺ، وقال له: «قد أذنّا لك» فأنزل الله: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ قال ابن إسحاق في تفسيرها: أي إن كان خشي من الفتنة بنساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلّفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، وإن جهنم لمن ورائه، ويزاد في توضيح تفسير ابن إسحاق، أن هذا المنافق الخبيث إن كان كما زعم، وهو كذوب أنه خشي من الفتنة بنساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من فجور النفاق وخبث الضلال أكبر من خشيته الفتنة بنساء بني الأصفر، لأن النفاق أورثه الجبن، فخلّفه عن رسول الله ﷺ ورغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ، وما ينتظره من عذاب السعير في الآخرة أكبر.

بين رسوخ الإيمان ولؤم النفاق.

قال الواقدي: فجاء ابنه عبد الله، وكان بدرياً، فلامه، فقال جدّ ابن قيس: مالي وللخروج في الريح والحرّ الشديد والعسرة إلى بني الأصفر وأنا أخالفهم في منزلي فأغزوهم، وإني لعالم بالدوائر، وهكذا كشف الغطاء عن خبث فجوره ونفاقه، فأغلظ له ابنه، وقال له: لا والله، ولكنه النفاق، والله لينزلنّ فيك قرآن، فضرب جدّ بن قيس بنعله وجه ابنه، فانصرف عنه ابنه ولم يكلمه، فما أشبه جدّ بن قيس في خبثه بابن أبيّ في فجوره، وما أشبه عبدالله بـن جدّ بن قيس في إخلاص إيمانه بعبد الله بن عبدالله بن أبيّ في صفاء يقينه.

وعند ابن هشام من حديث عبدالله بن حارثة، عن أبيه، قال: بلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبّطون الناس عن تبوك، فبعث ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر، وأمره أن يحرّق عليهم بيت سويلم، ففعل، فاقتحم المنافقون جدران البيت وفرّوا.

وكان رسول الله ﷺ قد استنفر أهل مكة وقبائل العرب في مضاربهم

موقف البكائين وحبهم للجهاد في سبيل الله. وما نزل فيهم من القرآن ثناء عليهم.

فنفر معه الجمُّ الغفير، وجاء البكاؤون إليه ﷺ يستحملونه، وهم معسرون، لا يجدون ظهراً ولكنهم رغبوا رغبة شديدة في الجهاد، ومرافقة المجاهدين في هذا الوجه الذي يقصد إليه النبي ﷺ، فلم يجدْ صلوات الله عليه ما يحملهم عليه، فعادوا إلى منازلهم تفيض أعينهم من الدمع حزناً على ما سيفوتهم من مرافقة رسول الله ﷺ في جهاده، لأنهم لا يجدون ما ينفقون، وهؤلاء الخلّص هم الذين شُهروا بلقب البكّائين، وهو من أشرف ألقاب الإخلاص لله ولدينه وإعلاء كلمته، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما ينفقون﴾.

فالآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين جاءت كالتمهيد للآية الثانية إذ رفعت الحرج وأسقطت التكليف عن العجزة، فهي من باب قوله تعالى: ﴿لا يكلّف الله نفساً إلا وُسْعَها﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج﴾ والعجز عن الفعل يختلف باختلاف حالة الشخص العاجر، والفعل المعجوز عنه، فقد يعجز شخص عن فعل لا يعجز عنه غيره كما أوضحت ذلك آية ﴿ليس على الأعمى حرج﴾، فعجز الأعمى ليس كعجز الأعرج وعجزهما ليس كعجز المريض.

وفي حديث أنس اعند أبي داود أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه في غزوة تبوك: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيرة، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال ﷺ: «حبسهم العذر».

ولهذا شرطت الآية بديلاً عن الفعل المعجوز عنه ما لا يتناوله العجز عن الفعل المعجوز عنه، فقالت: ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ والنصح لله يتحقق بفعل قلبي لا يعجز عنه، وهو إخلاص الاعتقاد في وحدانية الله

تعالى، وسائر ما يجب له من الكمالات اللائقة بجلال ألوهيته، مع الرغبة في محابِّه، والتجافي عن مساخطه، ثم النصح لرسوله ﷺ، ويتحقق ذلك بالتصديق المذعن لنبوته ورسالته، والتزام متابعته متابعة تجعل هوى الشخص ورغائبه تبعاً لما جاء به من الأمر والنهي والطاعة في المنشط والمكره، مع توقيره ومحبته وتعظيمه وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، والتمسُّك بسنته من غير تفريط ولا إفراط.

ثم جاءت الآية الثانية رافعة للحرج الخاص في موضوعها، وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته عن العجز عنه لعدم وجود وسائله من المال وغيره.

وكان هذا العجز في جماعة من خلصاء المؤمنين، جاؤوا إلى النبي ﷺ يستحملونه ليكونوا في رفقته في جهاده، فلم يجدوا عنده حملاناً لهم، فعادوا وهم يبكون حزناً على أنهم عجزوا عن السير معه.

وقد اختلف العلماء في هؤلاء البكّائين اختلافاً كثيراً، فذكر بعضهم ما لم يذكره غيره، والجمهور على أنهم بنو مقرّن المزنيين، وكانوا سبعة إخوة آمنوا وهاجروا، وشهدوا مع رسول الله ﷺ بعض مشاهده، ولم يكن في الصحابة إخوة في عددهم شرفوا بهذه المكرمة، وقد ذكر الفيروزبادي صاحب القاموس أسماءهم في قاموسه، في مادة (قرن) وهم: عبدالله، وعبد الرحمن، وعقيل، ومعقل، والنعمان، وهو أشهرهم، وسويد، وسنان. وبنو مقرّن هم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، ألا إنها قربة لهم، سيدخلهم الله في رحمته، إن الله غفور رحيم﴾ وسبب النزول لا يخصِّص النص القرآني، وإنما ترد فيه النماذج مرتبطة وقت النزول بالأشخاص والحوادث، لتكون هذه النماذج قدوة للأجيال المقبلة من المجتمع المسلم، ولذلك قد يتعدَّد سبب النزول، وقال الإمام الحسن البصري: نزلت الآية في أبي موسى وأصحابه، ويدل لقوله: ما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم،

موقف لأبي موسى وأصحابه الأشعريين يمثل صدق الإيمان وإخلاص اليقين.

فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «والله لا أحملكم على شيء، وما عندي ما أحملكم عليه» ووافقته وهو غضبان ولا أشعر. وهذا من أبي موسى كالاعتذار لأصحابه عن قسم رسول الله ﷺ لعدم حملانهم، ولعل غضب رسول الله ﷺ كان بسبب ما يبلغه من إرجاف المنافقين به وبأصحابه وتثبيطهم العزائم، وفي المجتمع المسلم سمّاعون لهم من ضعفاء الإيمان وحدثاء الداخلين في الإسلام.

قال أبو موسى رضي الله عنه: فرجعت إلى أصحابي حزيناً من منع النبي ﷺ أن يحملنا، ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ وجد عليّ في نفسه، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بالذي قال النبي ﷺ، فلم ألبث إلّا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أين عبدالله بن قيس، فأجبته، فقال: أجبْ، رسول الله ﷺ يدعوك، فلما أتيته قال: «خُذْ هذين القرينتين وهذين القرينتين ـ لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد ـ فانطلق بهنّ إلى أصحابك، فقل: إن الله، أو إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن» فانطلقت إليهم بهنَّ، فقلت: إن النبي ﷺ يحملكم على هؤلاء الأبعرة، ولكني والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ، لا تظنُّوا أني أحدّثكم شيئاً لم يقله رسول الله ﷺ، فقالوا: إنك عندنا لَمصـدَّق، ولنفعلنَّ ما أحببت، فانطلق أبو موسى بنفرٍ منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ ومَنْعه إياهم، ثم إعطاءهم بعدُ فحدّثوهم بمثل ما حدّثهم به أبو موسى.

وهذا الصنيع من أبي موسى رضي الله عنه في اعتذاره لأصحابه إنما أراد به ـ فيما يظهر ـ حمايتهم أن يقذف الشيطان في قلوبهم سوأة ظن به، لأن الزمن الذي انقضى بين منع النبي ﷺ من حملانهم وقَسَمه ألّا يحملهم على شيء، وبين إعطائهم الحملان كان قليلاً جداً، عبّر عنه أبو موسى بلفظ (سُوَيعة) أي لحظات من الزمن، فخشي أبو موسى أن يكون قرب الزمن ذريعة لشيء من وسوسة الشيطان، فأراد أن تبقى له قلوبهم على صفائها وإخلاصها.

وذكر بعضهم من البكائين علبة بن زيد بن عمرو بن عوف الأنصاري الذي لم يدركه شيء من حملان النبي ﷺ لمن حملهم، ولكنه استأنس بإيمانه وقد أرخى الليل سدوله، وستر الحياة بسكونه، فقام يصلّي ويبكي ويناجي الله ربه وهو أعلم، ويقول في مناجاته: اللّهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغّبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها، مال أو جسد، أو عرض. ثم أصبح علبة مع الناس، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: أين المتصدّق بهذه الليلة؟ فلم يقم أحد، ثم قال ﷺ: «أين المتصدّق؟» فلم يقم أحد، ثم قال صلوات الله عليه: «أين المتصدق؟ فليقم»، فقام علبة بن زيد إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمره وحاله، فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر، فوالذي نفس محمد بيده، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة».

قصة علبة بن زيد أحد البكائين ومناجاته ربه وتصدقه على كل مسلم بكل مظلمة أصابه بها.

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصرة دين الله وبثّ دعوته في الآفاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين لايقفون في حياتهم مواقف سلبية يتلقطون فيها الأماني الكواذب، ولكنهم يعيشون في حياتهم عيشة عملية، فهم إذا عجزوا عن متابعة الحركة الإيجابية التي يدعوهم إليها الموقف لم ييأسوا، ولم يلبسوا، ووجهوا أنفسهم إلى هذا الدين القيّم من مناح حركية يستطيعونها، وهذا لون من أشرف مناهج رسالة الإسلام، عظّمه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، فكان مَعْلَماً من معالم الهداية التي يستهدفها الإسلام في رسالته، وهو مَعْلَم يستطيع كل مسلم أن يحققه في حياته.

أما الذين في قلوبهم مرض، فإنهم في مثل هذه المواقف يلوذون بكواذب المعاذير، ولا يجدون في أنفسهم من دوافع الخير ما يسعفهم في أزماتهم الإيمانية، وإنما يجدون في لَدَدِ النفاق طرقاً للمعاذير، ومذاهب للأباطيل والكواذب، ولهذا لما رأى مهزوزو الإيمان الجدّ في التأهب لمسيرة الجهاد، ورأوا صوارم العزائم تشرق في وجوه صادقي الإيمان من خلصاء المؤمنين

مواقف من في قلوبهم مرض الذين كذبوا الله ورسوله وإخوانهم المعذرين من الأعراب.

أخذتهم الرهبة، واكتنفهم الرعب والفزع، واستحوذ عليهم الذعر، واستولى عليهم الجبن والخور، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ مصفرَّة وجوههم يابسة جلودهم، كأنهم الأشباح خارجة من قبورها ينتحلون المعاذير ويفترون الأكاذيب ليقعدوا مع الخوالف، متعلِّلين بالجهد وكثرة العيال، وما بهم من ذلك من شيء، واستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلّف عنه ورغبوا بأنفسهم عن نفسه، فأذن لهم، وجرى في شوطهم جرآء المنافقين من ذوي الصفاقة، غلاظ الأكباد، بجاح العيون، الذين نزع الله منهم كل حياء، فتخلّفوا بغير عذر جراءة على الله ورسوله، وقد ذكر الله تعالى الطائفتين ناعياً عليهم سوء فعلهم وقبح موقفهم، لكنه جل شأنه أجمل ذكر المعذّرين، وفصّل بعض الشيء موقف المنافقين الذين لم يعتذروا استهتاراً منهم بالموقف، فوصفهم الله بالكذب على الله وعلى رسوله، وذكر ما أعده لهم من أليم العذاب، فقال في الطائفتين: ﴿وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

ولما تمّت الأهبة، وأخذت كتائب المجاهدين مواقفها تحت ألويتها وراياتها استعداداً للمسير أقام رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه خليفة على عياله وأهله، وعلى سائر من بقي بالمدينة من ذوي الصدق في أعذارهم، ففي مرسل عطاء بن أبي رباح عند الحاكم في الإكليل أن النبي ﷺ قال لعلي: «يا علي اخلفني في أهلي واضرب وعظ» ثم دعا رسول الله ﷺ نساءه وقال لهن: «اسمعن لعليٍّ وأطعن».

وفي الصحيحين، والنسائي، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف علياً رضي الله عنه، فقال علي: أتخلّفني في النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟» وزاد الإمام أحمد فقال عليّ: رضيت، ثم رضيت، ثم رضيت.

وكان المنافقون قد أرجفوا بعليّ رضي الله عنه، فقالوا: ما خلّفه إلّا استثقالاً له، وتخففاً منه، فأخذ عليّ سلاحه ثم أتى رسول الله ﷺ وهو نازل

بكتائبه وحشوده بالجرف على مشارف المدينة فقال: يا نبي الله ﷺ زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني، وتخففت مني؟ فقال له النبي ﷺ: «كذبوا، ولكن خلفتُك لما تركت ورائي، فارجع في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي»، فرجع عليّ إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ في مسيرته ميممًا هدفه من غزوته حتى بلغ تبوك.

وإرجاف المنافقين بعليّ رضي الله عنه في تخليف رسول الله ﷺ له في أهله، وهو ميّمم سفراً بعيداً، قد يطول المقام فيه أو يقصر، وأهل بيت رسول الله ﷺ، ومن بقي من مسلمة المدينة الذين حبسهم العذر عن السير معه ﷺ في أشد الحاجة إلى من يرعى مصالحهم ويقوم على حمايتهم ويحفظ ضيعتهم ـ إنما هو نزيز صديد من حقد النفاق والمنافقين، ورشح من بثور الغيظ الممضّ الذي نغل قلوبهم، لأن علياً رضي الله عنه كان شجاً في حلاقيم كل كفور عنيد، وغصّة تكتم أنفاس كل منافق كنود، تربى منذ طفوليته بين أحضان عطف رسول الله ﷺ، فأحبّه وآثره بمنزلته منه، وأرضعه المكارم من ثديي أدب نبوته، وفوّزه بأكرم الصهر منه، وجعل الله منه خلود ذرية أهل البيت، فكانت لرسول الله ﷺ لسان صدق في الآخرين، فمن أولى من عليّ صاحب البرد الأخضر في ليلة الهجرة أن يخلف رسول الله ﷺ في أهله؟ ولكن غباء النفاق، ولؤم نحيزة المنافقين أبيا إلاّ أن يكونا أحد طرفي حبل الفجور يتجاذبانه مع أكذب خلق الله الروافض، فهؤلاء كذبوا على الله ورسوله، وقالوا منكراً من القول وزوراً، وأولئك تقوّلوا إفكاً من الأباطيل والفِرى، ولكن الله تعالى هو الفعّال لما يشاء، يضل بالحب الكفور من يشاء، ويدخل في مساخطه بغباء الفجور من يشاء، لا يسأل عما يفعل ويحلم ما يريد.

تخلف بعض صادقي الإيمان عن رسول الله ﷺ ليكونوا أسوة في عدم الاعتماد على غير الله تعالى.

وقد تخلّف عن المسير مع رسول الله ﷺ نفر قليل من خلّص الصحابة رضي الله عنهم بغير عذر، ولم يعرف عنهم قط غميزة في دينهم وإخلاصهم وحبهم لله ورسوله ـ لحكمة أرادها الله تعالى، ليكون في هذا التخلّف، وما جاء في قصته من عبر وعظات، ودروس في تربية السلوك الإيماني أسوة

للأجيال المقبلة مما يوجه المجتمع المسلم أفراداً وجماعات إلى ما ينبغي أن يكون عليه هذا المجتمع في جميع أحواله ومواقفه على صلة وثيقة بربه، وأن يكون دائماً على يقظة حذرة من نزعات الشيطان حتى لا يخدعه عما تجري به تصاريف الأقدار في غيبها، وأن يكون قلبه معلّقاً بأجنحة الخوف من مكنون الغيب، والرجاء في لطف الله ورحمته.

قصة الثلاثة الذين خلفوا وما فيها من عبر وعظات وتلطف.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم قصة الثلاثة الفضلاء من أصحاب رسول الله ﷺ الذين تخلّفوا عنه بغير عذر، ثم خُلِّفوا عن التوبة عليهم، فعاشوا في شدائد الأزمات خمسين يوماً مهاجرين لا يُكلَّمون ولا يكلّمون ولا يعاملون: وهم كعب مالك السُّلَمي الأنصاري، ومرّارة بن الربيع العمْري الأنصاري، وهلال بن أمية الواقفي الأنصاري - في أسلوب تصويري مبدع الإعجاز، رائع البيان، فقال تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنُّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ وهذا التصوير المجسّد للموقف، الناطق بإعجازه، وروعة إيجازه يحمل في طياته صورة مجسّدة للمعنى الذي تقصد إليه الآية الكريمة، فقوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة﴾ ينادي بتخصيصهم العددي، وإفرادهم بالذكر مع إبهام أشخاصهم معلناً ما لهم من منزلة إيمانية رفيعة، مشعرة بالحفاوة بهم دون أن تذكر خصائصهم المعيّنة لهم كما تعين الأسماء مسمياتها، بالعتب المتلطف، كأنه قيل لهم: أنتم في سمو منزلتكم الإيمانية لم تكونوا ممّن ينبغي أن يصدر منه ما صدر منكم من التخلُّف عن أعظم الشرف، وهكذا جمع التعبير المؤلف من اسم وحرف ثناء رمزياً، وعتباً إشارياً، والثناء والعتب طرفان بينهما حب نديّ، يأخذ من كل طرف حظّه.

وقوله جل شأنه: ﴿الذين خُلِّفوا﴾ وصف مشعر لجميع أفراد المجتمع المسلم أنّ الأعزة لا يعاملون في أدب السلوك معاملة الخادعين المتكذبين، الذين يتسارع إلى إزاحتهم عن المواجهة بقبول ظواهرهم، وتركهم بذنوبهم إلى يوم يوعدون.

ولكن الأعزّة يوقف بهم موقف ينضح عنهم رشاش ما لحقهم من آثار الهفوات، حتى إذا وردوا على ساحة العتاب وردوها، يقدمهم نور الرجاء مظلّلين بظل ﴿إن الله يحب التوّابين﴾.

وقد جاء في مرسل الحسن بيان سبب تخلف مرّارة بن الربيع عن رسول الله ﷺ: أنه كان له حائط ـ بستان ـ قد زها حين الاستنفار لتبوك، وكأنه أعجبه، فقال في نفسه: قد غزوت قبلها، فلو أقمتُ عامي هذا؟ ثم تذكر ذنبه فأسرع الأوبة منادماً للتوبة، وقال: اللّهم إني أشهدك أني قد تصدقت به ـ أي بحائطه ـ في سبيلك.

وفي هذا الصنيع الأوّاب معالم من معالم المنهج التربوي في رسالة الإسلام، فقد عرف مرّارة بن الربيع رضي الله عنه أنه فتن في إيمانه بإعجابه بحائطه الذي زهت ثماره وأينعت، وقد غفل عما قد يعتري حائطه من الجوائح المبيدة أو ما قد يلم به من الغصص فيحرمه المتعة بما أعجب به، وقد حُرم مرافقة رسول الله ﷺ في مسيره للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، وما في ذلك من خير لا يبيد ولا ينقطع، متعلّلاً بأنه قد غزا قبل هذه الغزوة، فلما تنبّه إلى ما وقع منه، وتيقظ إيمانه، وتمثّل له ذنبه فاستعظمه أسرع إلى الإنابة تائباً من ذنبه توبة نسجها الإخلاص والصدق، فانخلع عن هذا الحائط وثمره الزاهي، فوضع بعمله هذا دعامة من دعائم التربية السلوكية للذين هفوا وأرادوا أن يتطهروا من هفواتهم، فكان ذلك مَعْلَماً تربوياً من معالم منهج الرسالة التي ربّاهم عليها رسول الله ﷺ حتى تكون تلك المعالم معتصمهم عند النوازل والافتتان بالدنيا وزخارفها، فكل ما كان سبباً في مواقعة الذنب، وضعفت النفس أمام إغرائه يجب التخلص منه، وإزاحته عن طريق السالك في مسيرة الرسالة الخالدة إقامة لمنائر منهاجها مضيئة هادية.

تهدّي الصحابة للخروج من المآزق بما يمحو آثارها.

ومن دقة فهم الصحابة لمناهج رسالة الإسلام أنهم يخرجون من مواقفة الهفوات إلى الدخول في عرصات الطاعات بنفس ما كان سبباً للهفوات، فهذا الصحابي الأوّاب مرّارة بن الربيع رضي الله عنه حين آب إلى الله تعالى

تائباً من ذنبه جعل من توبته أن يتصدّق بهذا المال الذي أعجب به، فكان سبب هفوته، فجمع الله له بما وفقه الحسنيين: التوبة من الهفوة، والتصدّق بهذا المال الذي أعجبه فآثره على الجهاد مع رسول الله ﷺ.

وفي مرسل الحسن أيضاً ذكر سبب تخلّف هلال بن أمية الواقفي الأنصاري الذي حكاه عن نفسه فقال: إنه كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا، فحدّث نفسه بأنه لو أقام هذا العام عندهم متخلّفاً عن مرافقة رسول الله ﷺ في مسيرة جهاده، ولكنه سرعان ما تيقّظ قلبه فأدرك أنه هفا بذنب، فآب إلى التوبة، وانخلع عما كان فيه راغباً من الإقامة عند أهله هذا العام، وأناب إلى الله، وقال: اللّهم لك عليّ أن لا أرجع إلى أهل أو مال، فغسل بتوبته حوبة هفوته.

موقف كعب بن مالك نموذج حي للإيمان الصادق.

أما كعب بن مالك رضي الله عنه، فقد ذكر في حديثه حاله وموقفه في تفصيل طويل مسهب، جعل من هذا الحديث كتاباً يحوي بين دفتيه الكثير من معالم منهج الرسالة الخالدة، وقد آثرنا تسجيله في بحثنا على طوله واستفاضة حوادثه، لا ليكون قصة تثير الإعجاب والعجب، ولكن ليكون منارة يهتدي بنورها التائبون إلى منازل القبول، وليظهر أن منهج الإسلام في سلوكه الإيماني لم يكن مجموعة من الأمشاج المثالية السلبية، وإنما هي آيات بيِّنات من واقع الحياة تجعل من المسلم أينما كان من أرض الله قوة روحية بها كانت الأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وهذان المنهجان هما جماع سعادة الأمة ومناط عزها.

موقف كعب بن مالك في تخلفه
حتى تاب الله عليه كما يصوّره بأسلوبه

حديث كعب ابن مالك المسهب وما فيه من صدق الإخلاص ونماذج التربية السلوكية للمجتمع المسلم.

أخرج الصحيحان حديث الثلاثة الذين خلّفوا برواية كعب بن مالك وأسلوبه من طريق الزهري، عن عبد الرحمن بن عبدالله، حفيد كعب ابن مالك، عن أبيه عبدالله بن كعب بن مالك، وكان عبدالله قائد أبيه من بين بنيه، حين عمي كعب، قال عبدالله: سمعت كعب بن مالك يحدِّث حين تخلف عن قصة تبوك فقال كعب: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلاّ في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلّفت في غزوة بدر، ولم يعاتب رسول الله ﷺ أحداً تخلَّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر منيِّ حين تخلّفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ أي ديوان ـ فقلَّ رجل يريد أن يتغيّب إلاّ ظن أنَّ ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي من الله تعالى.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر - أميل -، فتجهّز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه إذا أردته، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلتُ ثم لم يقدّر لي ذلك، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أن لا أرى لي أسوة إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر في عِطْفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

ثم قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنّ رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني همّي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وصبحّ رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس.

موقف كعب بن مالك بين يدي رسول الله ﷺ وصدقه الذي أنجاه.

فلما فعل ذلك جاءه المتخلِّفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت تبسّم تبسُّم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك» فقلت: بلى، إني والله يا رسول الله، لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، والله لقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه عليّ إني لأرجو فيه عفو الله، وفي رواية مسلم، عقبى الله،

لا، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت، وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المتخلِّفون؟ فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك،فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكرا رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة ـ هذا من رواية الواقدي، ذهب فيها مذهب أبي بكر الأثرم، والجمهور على أنهما لم يشهداها، كما لم يشهدها كعب ابن مالك ـ فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيّها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكَّرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فقد استكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردِّ السلام أم لا؟ ثم أصلِّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمتُ عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله؟ هل تعلمنّ أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى

موقف إيماني بين أبي قتادة وكعب ابن مالك.

شدة البلاء على كعب أن يدعوه ملك غسان للجوء إليه في محنته.

جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نواسِك، فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء؟ فتيممت بها التنّور فسجرته بها.

أمر الثلاثة باعتزال زوجاتهم على رأس أربعين ليلة من ابتداء المحنة وموقف امرأة هلال.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: (إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك) فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: (لا، بل اعتزلها، فلا تقربنّها)، فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنّك» فقالت: إنه والله مابه حركة إلى شيء!!، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، ثم صلّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج.

اعتناء أم المؤمنين السيدة أم سلمة بشأن كعب بن مالك وتوبته.

وذكر ابن حجر في الفتح: أنه وقع في رواية إسحق بن راشد، وفي رواية مَعْمَر: فأنزل الله توبتنا على نبيّه حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معتنية بأمري، فقال ﷺ: «يا أم سلمة، تيب على كعب» قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال صلوات الله عليه: «إذاً يحطمكم الناس، فيمنعوكم النوم سائر الليلة» حتى إذا صلّى الفجر آذن بتوبة الله علينا.

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب

الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشّرون، وركض إليّ رجل - قيل أنه الزبير بن العوام كما رواه الواقدي - فرساً، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع إليّ من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما.

كيف عرف كعب بالتوبة عليه وعلى صاحبيه؟ وأول من بشره؟.

وفي الفتح أن الذي سعى فأوفى على الجبل هو حمزة بن عمرو الأسلمي، وقد نقل الزرقاني عن ابن عائذ أن اللذين سعيا أبو بكر وعمر، وعند الواقدي أن الذي أوفى على الجبل أبو بكر الصدِّيق، فصاح: قد تاب الله على كعب، والذي في الصحيح من أن الساعي إلى الجبل أسلمي أصحّ، وقد جزم ابن حجر بأنه هو حمزة بن عمرو، وحكى ابن حجر عن كعب بن مالك أنه قال: وكان الذي بشرني فنزعت له ثوبيّ حمزة بن عمرو الأسلمي، وكان الذي بشّر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد، قال سعيد: وخرجت إلى بني واقف فبشرته، فسجد، فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه، لِما كان فيه من الجهد، لأنه امتنع من الطعام حتى كان يواصل الأيام صائماً لا يفتر عن البكاء.

قال كعب في حديثه: وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال في الفتح: وسبب ذلك أن النبي ﷺ كان آخى بينه وبين طلحة لّما آخى بين المهاجرين والأنصار، قال ابن حجر: والذي ذكره أصحاب المغازي أن كعباً كان أخا الزبير بن العوام، لكن كان الزبير أخا طلحة في أخوة المهاجرين، فهو أخو أخيه وهذا كلام ضعيف، لأن ما كان بين المهاجرين من التآخي كان من قبيل أخوة الإيمان التي عقدها الله تعالى بين عامة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

فرح المسلمين بالتوبة على إخوتهم الثلاثة واستقبال الناس كعباً بالتهنئة.

أما المؤاخاة التكافلية الاجتماعية فهي التي عقدها النبي ﷺ بين

المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجري أخاً من الأنصار وكتب ﷺ بذلك كتاباً، وقد فسرنا الكلام عن المؤاخاة وما قيل عنها تفصيلاً جمع بين رواياتها وآراء العلماء فيها، ورجّحنا أن المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ في مسجده الشريف، وفي بيت أنس بن مالك رضي الله عنه هي المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار.

تهنئة رسول الله ﷺ كعباً بتوبة الله عليه وتقبيل كعب يده وركبتيه.

قال كعب بن مالك في حديثه: فلما سلّمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» فقلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنانعرف ذلك منه.

وعند ابن مردويه وأبي الشيخ عن كعب بن مالك قال: لما نزلت توبتي أتيت النبي ﷺ فقبلت يده وركبتيه، وكسوت المبشِّر ثوبين.

تصدق كعب بماله كله لتوبة الله عليه وردّ رسول الله ﷺ هذا التصدق إلى بعض ماله إبقاء على مستوى عيشه.

فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، فأنزل الله عز وجل: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وظنُّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

ثم قال كعب بن مالك في حديثه: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط

بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ ألّا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، فقال تعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم إنهم رِجْس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون* يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن تَرْضَوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾.

إعظام كعب نعمة الله عليه في توفيقه صدق رسول الله ﷺ.

قال كعب: كنا خُلّفنا أيّها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وعلى الثلاثة﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلّفنا تخلّفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

وقد نظم الله جل شأنه في سلك هؤلاء الثلاثة الأصفياء الأوّابين أول ما بدأت المحنة أبا خيثمة ثم تداركه الله بلطفه، فأيقظ الإيمان في قلبه، فثاب إليه رشده، وعزم فأمضى حتى لحق بالنبي ﷺ بعد وصوله إلى تبوك، فكان في قصته وحديثه مَعْلم من معالم رسالة هذا الدين القيِّم بدأ برشح من غفوة الإيمان، ثم انتهى بصحوة عارمة هزّت كيانه، ومضى قُدُماً إلى تتبع خطوات رسول الله ﷺ حتى لقيه في تبوك، ذلكم أبو خيثمة، قيل إنه صاحب التصدّق بصاع التمر الذي لمزه المنافقون، فتولى الله تعالى الدفاع عنه وأنزل قصته قرآناً يُتلى تعبّداً، ويتحدى إعجازاً، ويسخر من طغمة المنافقين الذين سخروا منه ومن صدقته، فقال جل شأنه: ﴿الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلّا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾.

قصة أبي خيثمة وما تضمنته من معالم منهج الرسالة وإنهاض الإيمان المؤمن من كبوته.

وقول ابن جرير الطبري فيما أخرجه عن عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن الذي تصدّق بصاع التمر فلمزه المنافقون أبو خيثمة الأنصاري يتعارض كل التعارض مع ما جاء في قصة تخلُّف أبي خيثمة عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم نهض للّحاق به حتى أدركه بعد ما نزل

تحقيق يكشف عن أنّ أبا خيثمة ليس هو المتصدق بصاع التمر الملموز من المنافقين.

بتبوك، من أنه كان يملك حائطاً، وتحته امرأتان، ولكل واحدة منهما عريش رشته بالماء، وهيأت طعاماً لزوجها أبي خيثمة، فلما جاء إليهما وقف بالباب، ورأى ما صنعت كل منهما بعريشها، فحلف ألا يدخل عريش واحدة منهما حتى يلحق برسول الله ﷺ، وقد أخذ القرطبي برواية الطبري، فقال عن أبي خيثمة: وهو الذي تصدّق بصاع التمر حتى لمزه المنافقون، ثم ناقض القرطبي نفسه بما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين يلمزون المطّوعين﴾ من أن المتصدِّق بصاع التمر هو أبو عقيل، واسمه الحبحاب.

ووجه تعارض رواية الطبري مع ما جاء في قصة تخلُّف أبي خيثمة أن الذي جاء في القصة مشعر بأن أبا خيثمة كان من أهل الاستطاعة بالتصدّق بما هو أكثر من صاع التمر، وأن صاع التمر أقلُّ جداً من جهده الذي يستطيع، فجعله هو الملموز من المنافقين لأنه تصدّق بصاع التمر وهو جهده، يتنافى مع حاله المذكور في قصة تخلّفه.

ترجيح تعدد قصة المتصدق بصاع التمر الملموز من المنافقين.

والظاهر أن قصة المتصدِّق بالقليل الذي يستطيعه جهده إلى جانب المتصدِّق بالكثير الغامر مثل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذي لمزه المنافقون بالرياء قد تعدّدت، لأن الروايات تعدّدت واختلف الأشخاص باختلاف الروايات، فبعضها عدّ أبا خيثمة، وبعضها ذكر أبا نهيك، وبعضها سمّى الحبحاب، وهو أبو عقيل، وبعضها ذكر سهل بن رافع، كما في رواية البغوي في معجمه وابن قانع، وابن مردويه عن سعيد بن عثمان البلوي عن جدّته ليلى بنت عدي، أن أمها عميرة بنت سهل بن رافع صاحب الصاعين الذي لمزه المنافقون أخبرتها أنه خرج بصاع من تمر وابنته عميرة، حتى أتى النبي ﷺ بصاع من تمر فصبّه.

رواية تخلف أبي خيثمة عند الطبراني كما يرويها عن نفسه.

وحديث تخلّف أبي خيثمة أخرجه الطبراني من رواية أبي خيثمة نفسه قال: تخلّفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطاً، فرأيت عريشاً قد رُشّ بالماء، ورأيت زوجتي، فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السّموم والحر، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات، وخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس قال ﷺ: «كن أبا خيثمة» فجئت فدعا لي،

وهذه رواية موجزة مقتضبة اختصر الكثير منها.

سياق الطبري لقصة أبي خيثمة سياق مفصل اشتمل على زيادات مفيدة.

وقد روى القصة أبو جعفر الطبري في تاريخه، فساقها سياقاً مفصّلاً انسجمت فيه حوادثها، واشتملت على زيادات مفيدة رأينا أن نسوقها بسياقه ونسجلها بروايته.

قال أبو جعفر: ثم إنّ أبا خيثمة أخا بني سالم رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فرأى امرأتين له في عريشين لهما في حائط، قد رشّت كلٌّ منهما عريشها وبرّدت له فيه الماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريشين، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله في الضحّ والريح، وأبو خيثمة في ظلال باردة، وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف!! والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قام إلى ناضحه فارتحله، وخرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

وتقدم أبو خيثمة في سيره حتى دنا من رسول الله ﷺ قال الناس: يارسول الله، هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أبو خيثمة أقبل فسلّم على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «أولى يا أبا خيثمة»، ثم أخبر أبو خيثمة رسول الله ﷺ خبره، فقال ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

عبر واعظة في آيات تربية متلطفة

التنبيه إلى ما في قصة الثلاثة المتخلفين من عبر وآيات متلطفة.

المتأمل في قصة هؤلاء الذين تخلّفوا عن مسيرة الجهاد مع رسول الله ﷺ في آخر غزوة غزاها في حياته - كما رواها كعب بن مالك في حديثه، مع صدق إيمانهم، وإخلاص يقينهم، دون أن يكون لهم عذر في تخلّفهم، حتى خُلِّفوا عن التوبة، وأرجئوا حتى قضى الله في أمرهم، وتاب عليهم - يرى فيها من العبر الواعظة، وآيات التربية المتلطّفة التي حواها منهج الرسالة السلوكي في إقامة بناء المجتمع المسلم على دعائم التمحيص بالمحن، حتى

يكون مجتمعاً قوي التماسك في عناصره الداخلية النفسية، لا تهزه أعاصير الأحداث مهما عتت، ويكون مجتمعاً سليم التكوين في عناصره الفردية الجماعية، يمثل الإنسانية في واقعها الوجودي، فيهفو ويعلم أنه قد هفا، وينهض من هفوته متطهِّراً، ويعلم أن الهفوات لا تقعد به عن الوثوب إلى آفاق الحياة، وذلك سبيل الإنسانية في طبيعتها التي تحيا بها حياة عملية تدور بين النقص والكمال البشري.

صدق إيمان المتخلفين جعلها نماذج لتربية المجتمع المسلم.

كذلك كان هؤلاء المخلّفون، إيمان لا يتزعزع، ويقين لا يتضعضع، وغرائز إنسانية حية لا تضعف عن الصراع والتجاذب، والشدِّ والدفع، تتربص بالفرص وراء جهام الغفوات القلبية، وستائر الغفلات العقلية، لتثب بصاحبها بعيداً عن منائر الإيمان ومعالم اليقين.

ولكنها سَرْعَ ما يعشوها نور الحق فيقهرها، فإذا هي ناكصة على أعقابها، وإذا شمس الإيمان مشرقة بأضوائها في قلوب صادقي الإيمان، كأنما أشعتها نسج من خيوط أنوار التوبة الضارعة بالتذلّل بين يدي الله الرؤوف الرحيم الودود، فتفتح لها أبواب الرضا والقبول، ويجعل الله جل شأنه من ذلك كله درساً تربوياً سلوكياً تتوارثه الأجيال المقبلة من سلائل المجتمع المسلم على مرّ الأزمنة واختلاف البيئات والأوطان، توثيقاً للوحدة التربوية المؤسسة على الإيمان بين هذه الأجيال، وهي تمرّ مع الحياة.

فهؤلاء الثلاثة الأصفياء الذين سمت بهم هفواتهم إلى ذرا التمحيص والتطهر كانوا نماذج إنسانية لتربية المجتمع المسلم تربية منهجية سلوكية، تعتمد على تطبيق معالم منهج الرسالة تطبيقاً عملياً على الأفراد والجماعات.

خصائص غزوة تبوك جعلت مساءلة التخلف عنها عظيمة.

فإذا نادى منادي رسول الله ﷺ ـ وهو القائد الأعظم الذي تجب طاعته رسولاً وقائداً بالنفير إلى الجهاد ـ فقد وجب على كل مسلم بلغه النداء أن ينفر مستجيباً لنداء الرسالة والقيادة العظمى

وقد كان لهذه الغزوة خصائصها التي تميزها عن سائر الغزوات مما يجعل المساءلة عن التخلّف عنها عظيمة بالقياس إلى المساءلة عن التخلّف في غيرها.

الإعلان العملي عن عموم الرسالة هو الخصيصة الأولى لغزوة تبوك.

وأول تلك الخصائص وأهمها أن غزوة تبوك كانت خاتمة غزوات رسول الله ﷺ التي قاد فيها كتائب الجهاد وحشودها بنفسه، لأنها كانت غزوة الإعلان العملي لعموم الرسالة، وأنها كانت تطبيقاً عملياً لوضع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ وهو من آخر ما نزل من القرآن موضع التنفيذ، والنداء في الآية عام شامل لجميع المؤمنين، وهؤلاء كانوا هم المجتمع المسلم المخاطب بالآية، وهم العرب قاطبة الذين ينطبق عليهم الوصف الذي نُودوا به، ولا عبرة بالقلة الشاردة عن الإيمان.

الخصيصة الثانية ما كان فيها من عسر وأزمات.

وثاني خصائص هذه الغزوة أنها كانت غزوة عُسْرة في كل شيء حتى سماها الله تعالى ساعة العُسرة، في ثنائه على الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ، فاتبعوه في سَيْره لهذه الغزوة إيثاراً للجهاد في سبيل الله على الراحة والاسترخاء المترهّل الكسول، والتثاؤب في ظلال الثمار الزاهية، فقال تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العُسْرة﴾.

الخصيصة الثالثة ما كان فيها من الإعلان عنها صراحة.

وثالث خصائص هذه الغزوة أن النبي ﷺ خالف عادته الكريمة التي كان يسير عليها في غزواته من التورية والكناية، إلا ما كان منه ﷺ في غزوة العسرة، فقد أعلن عنها وأخبر بها الناس ليقطع عذر كلّ من بلغه نداء النفير، مستهدفاً من هذا الإعلان أن يشرك في هذه الغزوة أكبر عدد من أصحابه في جهادها معه، الذي يضع به اللبنة الأولى في عموم الدعوة إلى الله، التي جاءت بها رسالته الخالدة، وهذه اللبنة بدء مرحلة جديدة في تبليغ الرسالة، تحتاج إلى تأهب قوي لما كان في السير إليها من عسر وعسرة، وشدة أزمة.

الخصيصة الرابعة ما كان فيها من بذل وإنفاق وتصدق بلغ الذروة من المكارم.

ورابع خصائص هذه الغزوة أنها كانت امتحاناً قاسياً في البذل والإنفاق والتصدّق لتجهيز جيشها في كثافة وكثرة عدده، مما لم يعرف مثله في غزوة من الغزوات.

وقد أنفق فيها المكثرون والمقلون ابتغاء وجه الله ورضوانه، فالحبحاب

أبو عقيل الذي بات يجر الجرير على صاعين من تمر، أتى بأحدهما إلى رسول الله ﷺ وترك الآخر لقوت عياله نال من فضل الله وتشريفه أن سلكه الله في عقد الأكرمين: الصديق أبي بكر، والفاروق عمر، وذي النورين عثمان ابن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي الأنصاري، الذين أنفقوا الألوف والمئين، واستقلّوا بتجهيز جيش العسرة على ضخامته، فنالوا من رضاء الله ورسوله ما سجّله لهم تاريخ الجهاد في الإسلام في صحائف أمجاده.

الخصيصة الخامسة أن هذه الغزوة كانت من أعظم مظاهر العزة الإسلامية.

وخامس خصائص هذه الغزوة أنها استوعبت أكبر وأعظم جيش قاده رسول الله ﷺ في حياته المباركة، ليري الكافرين خارج نطاق الجزيرة العربية قوة الإسلام والمسلمين، وليجرىء المسلمين على أعدائهم الذين كانوا يسترهبونهم قبل أن يوحِّد الإسلام كلمة العرب، ويتخذ منهم قادة يحملون ألوية الجهاد ورايات الدعوة إلى الله، طوّافين في الأرض، يبلّغون رسالة الإسلام، وينشرون دعوة الهدى والرشاد، ويحرِّرون البلاد والعباد، ويفتحون مغاليق القلوب والعقول والأفكار.

الخصيصة السادسة أن هذه الغزوة كشفت سوآت المنافقين وقضت على وجودهم.

وسادس خصائص هذه الغزوة أنها فضحت المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فكشفت عن سوآتهم، وجلّلتهم بالخزي والخذلان، وألبستهم جلابيب العار والشنار، وأظهرت النفاق على حقيقته من الضَّعة والإسفاف، وأبانت عن حقيقة المنافقين وما جبلوا عليه من الجبن وخور العزائم، والكذب والغدر والخيانة، والفجور، وأنهت وجودهم في الحياة أذلّاء.

بهذه الخصائص انفردت غزوة تبوك بوضعها وقدرها.

في ظل هذه الخصائص وغيرها مما لم نذكره لتعالمه في التاريخ الإسلامي كانت هذه الغزوة منفردة بوضعها الجهادي وقدرها الاجتماعي بين غزوات المجتمع المسلم في مهد حياته، فإذا تخلّف عنها مسلم لم يعرف عنه إلا الصدق في إيمانه والإخلاص في يقينه، كان ذلك من أعجب العجب الموجب للتساؤل في إشفاق واستغراب، وكان مدعاة لخوض المنافقين، وأسف حزين من عامة المؤمنين الذين تدعوهم الوحدة الإيمانية إلى حمل همّ من يهفو من إخوانهم في الإيمان، يُشغلون بحاله وأمره، ويرجون من الله أن يكشف غمته،

أما الذين تخلَّفوا نفاقاً ومرضاً في قلوبهم فهؤلاء لا يقام لهم وزن، ولا يُتساءل عنهم، لأنهم معروفون بحالهم من الكذب والفجور.

ومن ثَمّ كان موقف الثلاثة الذين خُلّفوا، وهم في صدق يقينهم وإخلاص إيمانهم لا يغمزون، موضع عجب وعتب، وتساؤل مشفق، وتشاغل مؤسف، حتى إذا تفضَّل الله عليهم قضى في أمرهم، وأنزل في شأنهم قرآناً يتلى، لتكون قصتهم درساً سلوكياً في حياة المجتمع المسلم، ما بقي القرآن الكريم يُتلى في محاريب الإسلام.

وقد كان حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا ـ وهو حديث من أصح الصحيح، بل هو متواتر المعنى ـ سجلاً حافلاً بتفاصيل أحداثها منذ بَدْئها إلى نهايتها، رواها كعب رضي الله عنه في صدق وأمانة وإخلاص.

فقد وصف في حديثه حاله ساعة أن بلغه نداء رسول الله ﷺ باستنفار الناس إلى جهاد بني الأصفر، وهم الروم، فقال: إني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه ﷺ. فهو يقرّ على نفسه أنه تخلّف عن مسيرة الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهو قادر قوي، ميسر الأسباب موفَّر الوسائل، وهكذا كان صاحباه: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فثلاثتهم تخلّفوا عن رسول الله ﷺ بغير عذر يبيح التخلّف، وإنما كان تخلفهم هكذا قضاء وقدراً، والقضاء والقدر لا يعفيان من المساءلة، ولا ينجيان من المحاسبة، لأنهما غيب لا يعلمه المكلف، فلا ترتبط بهما مساءلته ومحاسبته ومجازاته على ما وقع منه، والمساءلة إنما ترتبط بالأمر والنهي اللذين هما مناط التكليف وسبب الثواب والعقاب.

وقد اشتمل حديث كعب على جملة من المعاني والحقائق التي أجملها القرآن الكريم في آية واحدة من آياته البيِّنات، جاءت في أسلوب بياني رائع الأداء، بارع الإعجاز، بليغ الإيجاز، حاوية للكثير من معالم منهج الرسالة الخالدة في مناحيها المختلفة، بينَ المعالم النفسية والاجتماعية والتربوية مع ما صاحبها من الأحكام الشرعية والآداب الخلقية.

كان حديث كعب بما حواه من المعاني والحقائق نبراس هداية للخطائين.

ومن ثَمَّ جاء حديث كعب بن مالك في تفصيله لأحداث القصة ومعالم المنهج السلوكي نبراساً يهتدي به الخطّاؤن الذين قد تغلبهم نوازعهم الغريزية فتقعد بهم دون مكانهم من المجتمع المسلم، ولكن الدوافع الإيمانية تنهضهم وتتسامى بهم ليستعيدوا ما كان لهم من مكانة مرموقة لاعتصامهم بالصبر على المحن التي جرت بها تصاريف الأقدار في مجاري الغيب، لا يلحقهم ضعف معجز، ولكنهم يتخذون من أخطائهم منائر هداية تنير لهم طريق الأوبة إلى الله مستسلمين لأحكامه وأقداره.

فإذا جاءتهم بشائر الإنعام بالرضا والقبول لم تبطرهم، بل تفتح لهم منافذ الشكر، وتنهضهم إلى صالح العمل، كما صنع كعب بن مالك وصاحباه مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وثلاثتهم من الرعيل الأول من أنصار الله وأنصار دينه، وأنصار رسوله ﷺ، فإنهم صدقوا الله، وتابوا توبة كانت مثلاً شروداً في رسوخ الإيمان وقوة اليقين.

عظم أثر توبة الثلاثة الذين خلفوا.

لقد كان من توبتهم أنهم طرحوا غرور الدنيا، وتصدّقوا بأموالهم، وانخلعوا عن كل ما كان سبباً في تخلّفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة التي امتازت بخصائصها عن جميع الغزوات قبلها، حتى صهروا أنفسهم بنيران اليقين الذي مثّل لهم ضخامة ما اقترفوه من هفوتهم، فصبروا على هجران النبي ﷺ، وهو أشق على أنفسهم من كل ما أصابهم في محنتهم، ثم صبروا على هجران المسلمين، عامتهم وخاصتهم، سواء من الأقربين أو البعداء، وصبروا على اعتزالهم زوجاتهم خمسين ليلة، لا يكلّمون ولا يعاملون في بيع ولا شراء، واجتنبهم الناس اجتناباً كلياً شاقاً، وتغيروا لهم في كل شيء، حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها، فأنكروها، وصارت في أعينهم شيئاً غريباً عليهم، وكأنها ليست هي الأرض التي عرفوها وعاشوا فوق أديمها، وطعموا من ثمرها وشربوا من مائها، قال الزمخشري في قوله: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ وهو مثل للحَيْرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه.

وضاقت عليهم أنفسهم حتى كأن خلايا أبدانهم تضامرت، فلا سبيل

لها إلى الحركة، وصارت قلوبهم وأرواحهم مسدودة المنافذ، لا يغشاها أنس، ولا يدخلها سرور، وكأنها خرجت من فرط الوحشة والغم من شدة ما لا قوه من بثٍّ وهم، وحزن وضيق، لإعراض الناس عنهم إعراضاً لا هوادة فيه، حتى بلغ ببعضهم فرط الغم والحزن أن تسوّروا الحوائط والجدران على جيرانهم من ذوي قرباهم وأرحامهم وأحبِّ الناس إليهم، عسى أن يجدوا عندهم منفذاً لكلمة مواسية أو نظرة مرجية، فأبوا عليهم أن يردوا سلامهم، وتنكّروا لهم، وأنكروا عليهم ما كانوا يعرفونه لهم من إخلاص الإيمان والحبِّ لله ولرسوله ﷺ.

يقول كعب بن مالك في حديثه مصوِّراً بعض حاله: حتى إذا طال ذلك علينا من هجر المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمتُ عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

توبة الثلاثة الأصفياء في ضوء تأملات حول ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾.

لقد تاب هؤلاء الثلاثة الأصفياء توبة أشرقت بها قلوبهم، وتحاتَّت عنهم هفواتهم كما تتحاتُّ أوراق الأشجار حين يهزّها لفح الخريف، واستضاءت بها أرواحهم بنور التطهر من أدران الشرود في أودية الخشية، متحقِّقين بنفحات ﴿إن الذين اتقّوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون﴾.

ولنتأمل التعبير المتلطِّف بقوله: (مسّهم) فإن فيه إشعاراً بأن هفوات المتّقين ليست من ثوابت الذنوب والمخالفات، وإنما هي أشبه بمرّ الظلال مع جري الشمس في مقارِّها، وفي قوله (طائف) تبيان لعدم تمكن الوسوسة من أفئدة المتقين، وأقصى ما تبلغه منهم أن تطوف بهم، فيسرعوا إلى مسح ما عسى أن يكون قد علق بهم من رشحها بماء الاستغفار، واللجوء إلى كنف ذلِّ الضراعة طاهرين مطّهرين.

وفي قوله جل شأنه: ﴿فإذا هم مبصرون﴾ تصوير مبدع في روعته

وبراعته يكشف عن سرعة تطاير همزات الشيطان، لا تكاد تحل حبوتها في ساحات صدق إيمانهم حتى ينجلي جهامها عنهم، فإذا هم في ضياء شمس إخلاصهم ينعمون وفي عرصات التوبة النصوح يتقلبون.

وحسب هؤلاء التوابين ما هنأ به رسول الله ﷺ أحدهم وهو كعب ابن مالك فقال له: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك»، وهذه التهنئة تحمل في طيّاتها أنهم أحسنوا التوبة فأحسن الله إليهم رضاءً عنهم، وأدخلهم في منازل ﴿إن الله يحب التوّابين﴾ حيث بوّأهم فيها أشرف مراتعها، وآتاهم الله من فضله أن جعل توبتهم قرآناً يتعبد به إلى يوم الدين.

* * *

غزوة تبوك غزوة بيضاء وهي أعظم الغزوات.

وقد كانت هذه الغزوة البيضاء التي لم يقع فيها قتال، ولا سفكت فيها دماء، وقد عاد منها النبي ﷺ وأصحابه مكلَّلين بتوفيق الله تعالى بعد أن أعلنوا على سمع الدنيا في قوة قاهرة صوت الإسلام في رسالته الخاتمة الخالدة، مؤذناً للإنسانية كلها أن قد جاء رسول من عند الله ليخرجكم من الظلمات إلى النور ـ أعظم غزوات رسول الله ﷺ في قوتها المادية والمعنوية، وكثافة حشودها، وضخامة جيشها الذي خرج به ﷺ إلى تبوك، مستوعباً أكثر القادرين على حمل السلاح من المهاجرين والأنصار، فلم يعرف مهاجري تخلّف عن هذه الغزوة ولا أنصاري لم يأخذ مكانه في كتائبها إلا من ذكر الله تعالى، كما خرج معه ﷺ جماهير من الأعراب ورجال القبائل إلا من توارى وراء أستار الأعذار، وهم قلة لم يبلغوا زهاء ثمانين رجلاً.

اختلاف الروايات في عدد جيش تبوك وتحقيق الراجح من هذه الروايات.

واستنفر ﷺ أهل مكة ومن حولها فنفروا قضِّهم بقضيضهم حتى اجتمع له أكثر من ثلاثين ألفاً في أشهر الروايات، وروى الحاكم في الإكليل عن معاذ بن جبل، ورواه الواقدي عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما بلفظ متوافق في الروايتين، قالا رضي الله عنهما: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً، وهذا محتمل أن يكون المراد به جموع المهاجرين والأنصار الذين خرجوا معه ﷺ من المدينة المنورة، ولم يشمل من انضم إليهم في مسيرهم من القبائل التي أسلمت قبيل فتح مكة وبعده، كما

أنه لا يشمل أهل مكة الذين استنفرهم رسول الله ﷺ فنفروا معه، وكانوا عدداً كثيراً، وهذا الاحتمال هو مخرج ما جاء من رواية عن الإمام الحافظ الثقة أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي عند الحاكم في الإكليل قال: إن الذين خرجوا مع النبي ﷺ كانوا سبعين ألفا، وقد ذكر ابن حجر في الفتح عن هذا الإمام أبي زرعة الرازي، أن الذين خرجوا في جيش تبوك كانوا أربعين ألفاً، وهذه الرواية أقرب إلى رواية الحاكم المتقدمة عن معاذ ابن جبل، ورواية الواقدي عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما أن الذين خرجوا مع النبي ﷺ في جيش تبوك كانوا أزيد من ثلاثين ألفاً. وقد حاول بعض أهل العلم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يتم التوفيق به إلا بتعسف وتمحّل. وأغرب ما قيل في التوفيق بين روايتي ثلاثين ألفاً، وسبعين ألفاً أنَّ من قال ثلاثين ألفاً لم يعدّ التابع، ومن قال سبعين ألفاً عدّ التابع والمتبوع، وهذا جمع أشبه بالتفريق منه بالتوفيق، وهو من أبعد البعد، إذ كيف يعقل أن يكون التابعون أزيد عدداً من متبوعيهم بعشرة آلاف؟ فهل كان لكل متبوع أكثر من تابع في أكثر الحالات، وتابع واحد في أقل الحالات؟ وهل كانت شؤون الغزوة وما فيها من عسرة في كل شيء، عسرة في الظهر، وعسرة في الماء، وعسرة في القوت مع شدة الحر، وبعد السفر، تسمح بهذه الكثرة من الأتباع؟ هذا تفكير متعسِّف، وتأويل متمحِّل.

وجنح ابن حجر في التوفيق بين ما رواه الحاكم عن معاذ بن جبل وما رواه الواقدي أن عدد الخارجين مع النبي ﷺ إلى تبوك أزيد من ثلاثين ألفاً وبين ما نقله في الفتح عن أبي زرعة الرازي أن العدد كان أربعين ألفاً، إلى احتمال أن من قال أن العدد كان أربعين ألفاً جبر الكسر الذي جاء في رواية أزيد من ثلاثين ألفاً، وهذا احتمال قريب معقول.

وقد عنّ لنا في التوفيق رأي نرجِّح به رواية الحاكم في الإكليل عن رواية أبي زرعة أن العدد كان سبعين ألفاً، وذلك أن الذين نفروا معه ﷺ من المدينة وما حولها كانوا موعبين لمن فيها من المهاجرين والأنصار والقادرين على حمل السلاح من غيرهم، وهؤلاء لا يقلُّون في عددهم عن أربعين ألفاً

عند من يستحضر معنى قوله تعالى: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ فقد أقبلت وفود القبائل على رسول الله ﷺ بأعداد كثيرة متتابعة مبايعين مسلمين بعد الانتصار المدوّي على جموع هوازن والطائف، وهؤلاء الذين أقبلوا على رسول الله ﷺ مبايعين مسلمين كان قد فاتهم فضل الجهاد معه ﷺ، فلما استنفروا نفروا راغبين إما في تعويض ما فاتهم وإما في تحصيل شيء من الغنائم التي تسامعوا بأخبارها وكثرتها، وما كان فيها من مكارم رسول الله ﷺ وعطاياه الغامرة، ولا سيما ما كان في غنائم هوازن من ضخامة العطاء الذي كان يمثل صورة في المكارم وتأليف القلوب لم تعرف في تاريخ الأكرمين؛ ممّا لعب بقلوب الذين كان طموحهم يستشرف إلى أكبر حظ من هذه المكارم والمغانم.

ثم إن النبي ﷺ بعد أن اجتمع له هذا العدد الكثير من المهاجرين والأنصار وممّن كانوا حول المدينة من مسلمة الأعراب، أرسل إلى أهل مكة ومن حولها من القبائل التي أسلمت بإسلام قريش يستنفرهم للنهوض معه إلى تبوك لجلاد بني الأصفر، فنفروا رغبة ورهبة، وأقبلت حشودهم منضمّين إلى كتائب الجهاد الذين كانوا مع رسول الله ﷺ، فبلغ بهم عدد الجيش سبعين ألفاً أو يزيدون، مع من عسى أن يكون قد انضم إليهم في طريقهم من القبائل المسلمة.

وعسكر ﷺ بهذه الحشود الكثيفة بثنيّة الوداع ليكمل من لم يكن أكمل أهبته لهذا السفر البعيد الشاق، وفي ثنيّة الوداع عقد ﷺ الألوية والرايات ودفعها إلى قادة الكتائب، وأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، ودفع رايته العظمى إلى الزبير بن العوّام رضي الله عنه، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة أو حباب ابن المنذر.

واتخذ ﷺ علقمة بن الغفو الخزاعي دليله إلى تبوك، وبدأ سيره يوم الخميس، وكان ﷺ يحب أن يبدأ سفره في هذا اليوم في جهاده أو غيره.

وهنا تفاجىء البحث رواية بلهاء كأنها حديث خرافة، رواها ابن

إسحاق والـواقدي ومحمد بن سعد، قالوا أو قال من قوّلهم: وقد عسكر عبدالله بن أبيّ بن سلول ـ رأس النفاق وزعيم المنافقين ـ مع النبي ﷺ واتخذ لعسكره مكاناً منفرداً عن عسكر المسلمين، وأقام ابن أبيّ بعسكره مدة إقامة النبي ﷺ بثنية الوداع، فلما أجمع ﷺ السير إلى وجهه الذي أعلنه لأصحـابه وتحركت حشود المسلمين انخزل ابن أبيّ بمن معه من شراذم المنافقين، وتخلّف بهم عن رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة وهو يقول ليثبِّط الضعفاء من الذين آمنوا يبغيهم الفتنة، وفيهم سمّاعون للمنافقين: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر، والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب أن قتالهم اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين بالحبـال، إرجافـاً به ﷺ وبأصحابه.

رواية سخيفة باطلة عن حشد المنافقين بزعامة رأس النفاق عبد الله بن أبيّ.

ثم قال رواة هذه الأبطولة البلهاء: وكان عسكر ابن أبيّ فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، أي إن هؤلاء الزاعمين البلهاء يقولون: إن عسكر النفاق والمنافقين بقيادة زعيمهم أخبث المنافقين كانوا أزيد من ثلاثين ألفاً، لأن هذا هو أقل عدد اتفقت عليه جمهور الرواة من أصحاب المغازي وأهل السِّير، وقد جزم ابن حزم ببطلان هذه الرواية البلهاء إذ يقول: هذا باطل، لم يتخلَّف عن رسول الله ﷺ إلاّ ما بين السبعين إلى الثمانين فقط.

ولكن هذه الروايات البلهاء الباطلة تحتل في السيرة النبوية الشريفة ودواوينها ومراجعها مكاناً يمدّ أعداء الإسـلام بمدد من الأكاذيب والأباطيل والتقوّلات وسخافات الأفكار والآراء بما يكون وسيلة للشك في الصحيح من الروايات، ولا نـدري لهؤلاء الزاعمـين الذين حكى عنهم ابن إسحق والواقدي وتلميذه محمد بن سعد هذه الأكذوبة السخيفة وجوداً بين أهل العلم، فلا يعرف من هم وما هم، وما هويتهم، ولا وزنهم العلمي، ومكانتهم في مجال الفكر المسلم ومعرفتهم بنقد الروايـات في أسانيـدها ومتونها.

ثم كيف يعقل هؤلاء الأشياخ الذين رووا في كتبهم هذه الرواية ولطّفوها بقولهم (فيما يزعمون) وهم يعلمون أنهم في عداد أساطين أهل

المغازي والسيريين، وأن كتبهم ورواياتهم مراجع لأحداث الغزوات وحوادث السيرة ووقائعها، وبطلانها لا يحتاج إلى توقف باحث، ولا تحقيق ممّحص؟

مناقشة هذه الرواية البلهاء حماية لمن يقرؤها في مصادرها.

وكان يكفي هؤلاء الأشياخ الثلاثة لعدم ذكر هذا الكلام الذي يتنافى مع بدهيات تاريخ الجهاد الإسلامي لأن غزوة تبوك كانت آخر غزوات رسول الله ﷺ، وقد سبقها غزوات مع المشركين العرب، ومع اليهود، وهم أساتذة النفاق والمنافقين، ومربُّو عبد الله بن أبيّ في مدرسة نفاقهم وغدرهم، وقد انتهت هذه الغزوات كلها بإسلام مشركي العرب، وإجلاء اليهود بجميع هيئاتهم وطوائفهم عن المدينة، ثم عن جزيرة العرب كلها إلّا ما أبقاهم رسول الله ﷺ في خيبر لفلاحة الأرض وزراعتها على شرط أن لا يفسدوا ولا يغدروا، فأقاموا على الشرط مقموعين مقهورين بسلطان الإسلام والمسلمين حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنقضهم العهد وخيانتهم وغدرهم.

ومن ثَمّ لم يكن لمنافقي اليهود أي وجود في المدينة المنورة، كما أنه لم يكن من مشركي العرب من بقي على شركه بعد فتح مكة إلا قلة ضئيلة منثورة في الأرض مع حبات الرمال، هكذا يقول التاريخ الصحيح فمن أين جاء ابن أبيّ بهذا العدد الهائل من المنافقين الذي قالت عنهم الرواية البلهاء أنهم لم يكونوا بأقل العسكرين - أي إنهم كانوا مثل عدد عسكر المسلمين أو أكثر منهم - وقد جاءت رواية الجمهور بأن عدد عسكر المسلمين كان يزيد على ثلاثين ألفاً، فهل كان المنافقون من العرب من أهل المدينة بعد فتح مكة بهذه الكثرة المخيفة المرعبة؟ وهل كان رسول الله ﷺ على علم بهذه الأعداد الهائلة من المنافقين في مدينته؟ والمنافقون قد انكشف أمرهم وتعالَنَ نفاقهم في كثير من الأحداث والوقائع، وقد نزلت في بعثرة فضائحهم وكشف أستار نفاقهم وقبائحهم، وغدرهم وخياناتهم سورة براءة حتى أكثرت من قولها فيهم: (ومنهم، ومنهم) حاكية مثالبهم ومخازيهم، وفي آياتها جاء قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾، فهل من امتثال الأمر بجهادهم والغِلْظة عليهم أن يتركوا بهذه الصورة الحاشدة معسكرين في

انفراد عن المسلمين إلى جانبهم، ويراهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ثم يتركهم يرجعون إلى المدينة منتفخة أوداجهم، متورمة بالفجور معاطسهم، وفي المدينة المستضعفون من الرجال والنساء والذرية، وفيها ثَقَل رسول الله ﷺ وآله، ولم يكن معهم من أبطال المسلمين سوى عليّ رضي الله عنه؟

وإفساد المنافقين متعالم لا يخفى على أحد، هذا كله من حصيلة هذه الرواية البلهاء من أبعد البعد، بل من المستحيل أن يقع من رسول الله ﷺ لشدة حذره وحرصه على حماية المسلمين ووقايتهم من التعرض للفتن الموبقة على أيدي أعدائه وأعداء دينه ورسالته ومجتمعه المسلم.

ثم هل يعقل أن تبلغ النبي كلمات الخبيث ابن أبيّ الخبيثة التي قالها وهو يرحل بحشوده المنافقين ـ كما تقوله الرواية البلهاء ـ راجعين إلى مدينة رسول الله ﷺ، ويطمئن النبي إلى سلامة موقفه، وموقف مشايعيه من شراذم النفاق، ويتركهم يرجعون إلى المدينة دون أن يتخذ حيالهم أية إجراءات سياسية تحول بينهم وبين شرورهم ومفاسدهم التي تمتزج بدمائهم وظلمات أرواحهم، ونسج قلوبهم، ولو بتنبيه أقوامهم من صادقي الإيمان في حشود المسلمين؟ كما كان يقع في أحداث مؤامرات المنافقين، فكان أقوامهم هم الذين يقفون لهم بالمرصاد، كما حدث في غزوة بني المصطلق التي ظهر فيها موقف الرجل الصالح صادق الإيمان عبدالله بن عبدالله بن أبيّ من أبيه زعيم المنافقين حين بلغه قول أبيه الذي حكاه عنه الله في قوله: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل﴾.

ثم إن معاني كلمة الخبيث ابن أبيّ الخبيثة التي قالها على مسمع من المسلمين أما كانت موجودة في نفسه منذ عرف أن هذه الغزوة أعدّت لجلاد بني الأصفر الذي قال عنهم ما قال في كلمته الخبيثة، مما يمسّ مقام رسول الله ﷺ، وهي كلمات تداولها من قبله فجرة الكفرة المغرورون بقواهم المادية في غزوات سابقة، فهي ليست من افتئات ابن أبيّ. والذي يمكن أن يكون قد كان لا يخرج عن كون ابن أبيّ جمع حوله شرذمة من بقايا المنافقين، وصنع ما صنع في أحد، بَيْدَ أن طريقة ابن أبيّ التي ألبسته الرواية البلهاء جلبابها أشبه

تشابه بين خبث اليهود وفجور المنافقين.

ما تكون بطريقة معلميه اليهود فيما حكاه الله عنهم من سوء المكر في الإرجاف بالمسلمين، ونشر الفتنة في قلوب الضعفاء من حدثاء الإسلام، كما حكاه الله عنهم في سورة آل عمران في مطلع نشوء المجتمع المسلم في بنائه التكافلي الجديد، فقال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ قال قتادة: إنهم فعلوا ذلك ليشكّكوا المسلمين، وقال القرطبي: ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد أول النهار ثم اكفروا به آخره، فإنكم إذا فعلتم ذلك دخل على من يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منّا.

فخبثاء المنافقين أخذوا طريقة خبثاء معلّميهم من خبثاء اليهود في تشكيك ضعفاء الإيمان من حدثاء الإسلام في دينهم الحق، إذ وسوسوا إلى سفلتهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ويظهروا التصديق برسالته أول النهار، ثم يكفروا بما أظهروا الإيمان به آخر النهار، فإذا رآهم ضعفاء الإيمان في تقلبهم بين الإيمان أول النهار، والكفر آخر النهار تساءلوا في أنفسهم: لماذا آمنوا صباحاً ثم كفروا بما آمنوا مساء، وهم أهل العلم الأول، والكتاب المنّزل، وعندئذ يتسرب الشك إلى قلوبهم، ويفتنون في إيمانهم وعقيدتهم.

والمنافقون دبّروا كيدهم عندما علموا بغزوة تبوك، وأن النبي ﷺ أعلن عنها وأمر أصحابه بالتأهّب لها، فأعدّ المنافقون عدّتهم، وتأهبوا لموقف النفاق أهبتهم، وخرجوا مع المسلمين بأهبتهم ليوهموا المسلمين أنهم جاؤوا معهم مجاهدين، وعسكروا منفردين عن عسكر المسلمين خشية أن يرى غوغاؤهم وسفلتهم ما عليه المسلمون من إخلاص الجهاد لله، وإعلاء كلمته، ويروا ما هم عليه من استقامة في العقيدة والتعبد لله وحده، فيميلوا ميلهم ويتركوا النفاق والكفر، أو على الأقل يتشككون فيما عليه أخابثهم من فجور النفاق.

ولما رآهم المسلمون في كثرتهم ـ كما تقول الرواية البلهاء ـ أنسوا بهم وقالوا: لعلّ وعسى، وهذا في مقابلة قول خبثاء اليهود وسفلتهم آمنوا بمحمد ودينه وجه النهار ـ أي أوله ـ ثم لما عزم رسول الله ﷺ السير لوجهه الذي

يقصد، وتحركت كتائبه نكص المنافقون على أعقابهم، وحضرهم غدرهم ونفاقهم وفجور كيدهم، فانخزلوا مدحورين راجعين إلى المدينة، وقال ابن أبيّ كلمته الفاجرة الكافرة ليثبِّط بها عزائم ضعفاء الإيمان من حدثاء الإسلام، ويشكِّك الذين في قلوبهم مرض لعلّهم يرجعون.

وهذا في مقابلة قول خبثاء اليهود لسفلتهم: ﴿واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ وكما فشل اليهود في كيدهم وأحاط بهم سوء مكرهم فلم يقع من المسلمين ما أرادوه من الرجوع عن دينهم الحق فشل المنافقون في سيء تدبيرهم فلم ينالوا مما أملوه شيئاً، وعصم الله المسلمين في الموقفين وخذل اليهود والمنافقين في الحالين.

* * *

مشاورة يتعين فيها مواطن الشورى.

ولما بلغ رسول الله ﷺ بجيشه تبوك شاور أصحابه في التقدم إلى ما وراء تبوك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن كنت أُمرت بالمسير فسر، فقال ﷺ: «لو أمرت بالمسير لم أستشركم فيه».

وهذا نص يعيِّن مواطن الشورى ويبيِّن منازلها في رسالة الإسلام، فهي لا تكون إلّا فيما خلا عن نص يتضمّن حكمه، لأن الشورى لون من الاجتهاد، والاجتهاد لا يكون إلّا فيما لا نص فيه. وهذا من أعظم معالم منهج رسالة الإسلام الخالدة في تربية الأمة تربية اجتماعية سياسية تكافليّة، لأن مبدأ الشورى في الإسلام مبدأ أساسي لا يجوز للمجتمع المسلم أن يتهاون في العمل به أو يتراخى في إقامة معالمه. ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مبيناً لحكمة رأيه: يا رسول الله، إن للروم جموعاً كثيرة، ليس بها مسلم، وقد دنونا منهم وأفزعهم دنوّك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً.

في قول عمر رضي الله عنه بيان تحقق هدف هذه الغزوة.

وهذا الموقف من عمر رضي الله عنه أشبه به موقفه مع أبي بكر رضي الله عنه في بدء حرب الردة، وفي قول عمر لرسول الله ﷺ، قد دنونا منهم وأفزعهم دنوّك بيان تحقيق هدف هذه الغزوة، وحكمتها في تجريء المسلمين

على الخروج بالدعوة، ونشر الرسالة خارج نطاق الجزيرة العربية إعلاناً عملياً لعموم الرسالة، وربط ذلك بالجهاد في سبيل تعميم الدعوة إلى الله في آفاق الحياة إظهاراً لعزّة الإسلام، وما آتاه الله من قوة التكافل الاجتماعي، والمؤاخاة الإيمانية، فجمع له القوة الماديّة بالتكافل الاجتماعي والقوة الروحية بالمؤاخاة الإيمانية.

ولهذا أعاد رسول الله ﷺ الكتابة إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام، ولم ير ﷺ مهاجمته، لأنه عرف منه اهتزاز نصرانيته، وقناعته بصدق دعوة الإسلام، ولكنه آثر الدنيا وعض على ملكه، وخاف على نفسه من قومه إذا انخلع عن نصرانيته ودخل في الإسلام، فتركه إلى أن يحين حين أخذ ما تحت قدميه من ملكه في الشام.

وكان هذا الكتاب كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل بتبوك تأكيداً لكتابه الأول، وتجديداً لدعوته إلى الإسلام ليضع أمام عامة المسلمين تكليفهم الجهاد في سبيل تبليغ الرسالة، وأن يبدؤا بمن يلونهم من الكفار لتقوم مسيرة نشر الدعوة على التدرج الذي يمكّن للمسلمين من تثبيت أقدامهم في مواطن الجهاد، كما أمرهم الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾.

وكتاب رسول الله ﷺ الأول إلى هرقل كان في مدة هدنة معاهدة الحديبية سنة ستٍ من الهجرة، وكان رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل بالكتابين في مرتيها الصحابي الجليل دِحْية بن خليفة الكلبي، والكتاب الأول مروي في الصحيح في حديث طويل، كان لأبي سفيان بن حرب حديث في قصته وهو يومئذ على كفره وعناده، وكان حديث أبي سفيان سبباً من أسباب تأكيد قناعة هرقل بصدق رسالة الإسلام، ولكنه سبق عليه القضاء فلم يسلم، واكتفى بأن كتب إلى النبي ﷺ كتاباً زعم فيه أنه مسلم، فأكذبه النبي ﷺ، ولم يقبل منه ما زعمه من إسلامه، وقال فيه: «كذب عدوّ الله، بل هو على نصرانيته» وكان أشد الروم على هرقل في الحيلولة بينه وبين الإسلام قومه وأهله، قال السهيلي: إن هرقل أمر منادياً ينادي: ألا إن هرقل

قد آمن بمحمد واتبعه، فدخلت عليه جنوده في سلاحها تريد قتله، فاحتال لتهدئتهم وأرسل إليهم، إني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم، فقد رضيت عنكم، فرضوا عنه.

رد هرقل على كتاب رسول الله ﷺ في تبوك بأنه مسلم كذب.

وفي صحيح ابن حبّان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن هرقل كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يجيب فيه عن كتاب رسول الله ﷺ الذي دعاه فيه إلى الإسلام، فقال هرقل: إني مسلم ولكني مغلوب على أمري، وأرسل هرقل كتابه مع دِحْية، وأرسل معه هدية فلما قرىء كتابه على رسول الله ﷺ قال: «كذب عدو الله ليس بمسلم، بل هو على نصرانيته» وقبل هديته على أنها فيء أفاءه الله على المجاهدين فقسمها بينهم، وقد بيّن الحارث بن أبي أسامة في روايته عن بكر بن عبدالله نوع الهدية التي أرسل بها هرقل إلى رسول الله ﷺ مع كتابه، وأنها كانت دنانير، فقال الحارث: قال رسول الله ﷺ: «من يذهب بهذا الكتاب إلى قيصر، وله الجنة؟» فقال رجل من الصحابة: وإن لم يقبل؟ فقال ﷺ: «وإن لم يقبل» فانطلق الرجل فأتى قيصر بالكتاب، فقرأه قيصر، وقال للرسول: اذهب إلى نبيكم، فأخبره أني متبعه ولكن لا أريد أن أدع ملكي، وبعث قيصر مع الرسول بدنانير إلى رسول الله ﷺ، فرجع الرسول إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من هرقل، ودفع إليه هديته، فقال رسول الله ﷺ: «كذب» وقسم الدنانير.

سياسة حكيمة في تجريء المسلمين على الروم وغيرهم من الأمم.

وفي حديث الحارث زيادات وفوائد ولطائف لم تذكر في حديث غيره، وأحسن ما في هذا الحوار عرض النبي ﷺ على أصحابه ذهاب أحدهم إلى قيصر ـ وهو هرقل ملك سوريا ـ وشرطه لمن يذهب بكتابه إليه الجنة، وموضع الحسن في ذلك دلالة هذا العرض المتلطّف مع شرطه على ما كان يعلمه رسول الله ﷺ من التهيّب الذي كان يملأ قلوب العرب لمن حولهم من الأمم خارج جزيرتهم، وإرادة النبي ﷺ من عرضه على هذه الصورة تجريء المسلمين على هذه الأمم، تحقيقاً لهدف هذه الغزوة، وإفهام المجتمع المسلم عملياً أن هذا التهيب الذي توارثوه عن الجاهلية إنما يقوم على التخيّل، وليس له من الواقع ركائز يتكىء عليها، فيجب اقتحامه في سبيل تبليغ رسالة الله تعالى إلى الأحمر والأسود، وأن المسلم هو الرابح في هذا الاقتحام،

لأنه إما أن يفوز بالنصر على حشود الكافرين، وإما أن يستشهد في سبيل الله، فيفوز بالجنة ونعيمها المقيم.

ويؤكد ذلك قول الرجل للنبي ﷺ: ولو لم يقبل؟ وهذا قول يبرهن على أن قصد هذا الرجل من استفهامه أن يفوز بأداء هذه الرسالة وما وعد على أدائها لمجرد أن يذهب بالكتاب إلى هرقل، ولا يلزمه أن يخاطبه ويحاوره ليقنعه بقبول ما حواه كتاب رسول الله ﷺ من دعوته إلى الإسلام والدخول فيه، نظراً لما كان في نفس الرجل باعتباره نموذجاً عربياً من التهيّب الذي كان موجوداً عند كل عربي قبل الإسلام، وقبل هذه الغزوة.

وفي قول النبي ﷺ: «ولو لم يقبل» بيان أن المقصود هو الذهاب إلى قيصر، واقتحام التهيب ليكون ذلك خطوة أولى في تجريء المسلمين على اقتحام هذا التهيب الذي لا يعتمد في واقعه على شيء من الحقيقة، ولو كان هذا التهيّب حقيقة لها وجود واقعي لكان في اقتحامه لون من التربية العملية التي تطهِّر المسلم من الخوف والجبن، وتعوّده على الشجاعة النفسية والجرأة الإيمانية، فما بالك بشيء لا وجود له.

وقد ذكر ابن القيِّم في (الهدي) هذا الحديث مختصراً عن أبي حاتم وابن حبّان في صحيحه عن أنس بن مالك فقال: وقد روى أبو حاتم وابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟» فقال رجل من القوم: وإن لم يقبل؟ قال ﷺ: «وإن لم يقبل» فوافق - أي الرجل الحامل لصحيفة رسول الله ﷺ - قيصر وهو يأتي بيت المقدس، فرمى بالكتاب على البساط وتنحّى، فنادى قيصر: من صاحب الكتاب؟ فهو آمن، قال الرجل: أنا، قال قيصر: فإذا قدمتُ فائتني، فلما قدم أتاه، فأمر قيصر بأبواب قصره فغُلِّقت، ثم أمر منادياً ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمداً وترك النصرانية، فأقبل جنده وقد تسلّحوا، فقال لرسول رسول الله ﷺ: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ: «كذب عدو الله، ليس بمسلم، وهو على النصرانية» وقسم ﷺ الدنانير.

حيرة هرقل وخوفه من قومه وضنه بملكه حالت بينه وبين الإسلام.

وقال ابن كثير: قال الإمام أحمد عن سعيد بن أبي راشد، قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى النبي ﷺ بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ العقد أو قرب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ورسالته ﷺ إلى هرقل؟ قال: بلى، قدم رسول الله ﷺ تبوك، فبعث دِحْية إلى هرقل بكتاب، فأرسل هرقل إلى قسيسي الروم وبطارقتها يدعوهم إلى مجلسه، ثم أغلق عليه وعليهم الدار، وقال لهم: قد نزل هذا الرجل - يريد رسول الله ﷺ - حيث رأيتم، وأرسل يدعوني إلى ثلاث خصال: أن أتبعه على دينه، أو الجزية، أو الحرب، وقد عرفتم فيما قرأتم من كتب ليأخذنَّ أرضنا، فهلمَّ فلنتبعه، أو نعطه مالاً، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا لهرقل: تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟ فلما رأى ذلك هرقل منهم قال يسترضيهم ويطفىء جمرة غضبهم، إنما أردت أن أعلم صلابتكم في دينكم، فلما ظنّ هرقل أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم ولم يكد، ثم دعا هرقل رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب فقال له: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل، فجاء التجيبي بي، فدفع إليّ هرقل كتاباً. وقال اذهب إليه - يريد رسول الله ﷺ - فاحفظ من حديثه ثلاثاً، هل يذكر كتابه الذي كتب إليّ، وإذا قرأ كتابي هل يذكر الليل، وهل في ظهره شيء؟.

قصة رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بكتاب هرقل.

قال التنوخي: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قالوا ها هوذا؟ فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته الكتاب، فوضعه في حجره، ثم قال «ممّن أنت؟» فقلت: أنا أخو تنوخ، قال: «هل لك في الإسلام والحنيفية ملة أبيكم إبراهيم؟» قلت: إني رسول قوم، وعلى دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين﴾ «يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها، والله مخرّقه ومخرق قومه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس

يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير» فقلت: هذه إحدى الثلاث، فكتبتها في جفن سيفي، ثم ناول الكتاب إلى معاوية، فقرأ فيه: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سبحان الله؟ فأين النهار إذا جاء الليل؟» فكتبته في جفن سيفي.

وقد ودّ التنوخي رسول هرقل أن يعطيه رسول الله ﷺ جائزة، فأتاه عثمان بن عفان رضي الله عنه بحلّة، وأمر النبي ﷺ بإنزاله عنده، فقام التنوخي مع الأنصاري، فناداه النبي ﷺ فكشف له عن ظهره، فرأى خاتم النبوة.

تعدد الروايات بمعان متفقة تؤكد ترجيحنا أن سبب هذه الغزوة الحقيقي هو الإعلان العملي لعموم الرسالة.

وهذه الروايات المتضافرة وإن اختلفت في سياقها وأسلوبها تؤكد ما رجحناه في سبب هذه الغزوة الخاتمة لغزوات النبي ﷺ، وتبين أن السبب الحقيقي لها يكمن في علم النبي ﷺ أن انتقاله إلى الرفيق الأعلى قد دنا، وأنه لا يغزو بنفسه في داخل جزيرة العرب بعد أن أتم الله عليه نعمته، وأكمل له دينه الحق، وثبّت له قوائم رسالته، واستسلم له العرب، ودخلوا في دين الله أفواجاً، وأقبلت عليه وفودهم من كل حدب ينسلون، يبايعونه على الإسلام، ولم يبق له ﷺ في حياته المباركة الشريفة إلا أن يخطو بمجتمعه المسلم الخطوة الأولى في إعلان عموم رسالته عملياً، بعد أن أعلنها القرآن الكريم نظرياً في كثير من آياته البيِّنات في تطبيق عملي يقوده ﷺ بنفسه في غزوة استوعبت جماهير المجتمع المسلم، ليريهم من آيات الله، في عموم الرسالة ما يجب عليهم أن يتخذوه منهجاً في الدعوة إلى الله حتى لا يكون لأحد من المسلمين حجة في التخلف عن الجهاد لتبليغ عموم الرسالة إلى العالمين تحقيقاً لمعنى قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ فكما حملوا لواء الجهاد وراياته لنشر الهداية في نطاق العرب الخاص بجزيرتهم، فليحملوا لواء هذا الجهاد وراياته إلى سائر الأمم والشعوب، لا فرق بين أسود وأبيض حتى يتعالم هذا التكليف بنشر عموم الرسالة وتتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل.

وفي هذه الغزوة العظمى وضع رسول الله ﷺ قاعدة الحَجْر الصحِّي

في هذه الغزوة وضعت قاعدة الحجر الصحي وقاعدة التحصين ضد الأوبئة وقاعدة الوقاية خير من العلاج.

بقوله ﷺ: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها، وإن كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها» وهذا الحديث هو الذي حسم به عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه الموقف الذي كان بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة ابن الجراح حين قدم عمر إلى الشام في خلافته، وكان الطاعون قد وقع بها فتوقف عمر عن الدخول إليها، فلامه أبو عبيدة، وقال له: أفراراً من قدر الله، فقال عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم تدارك الموقف عبد الرحمن ابن عوف ،وروى لهما الحديث ـ وهو من أحاديث مسند أحمد ـ فحسم به القضية.

وكذلك وضع ﷺ قاعدة: الوقاية خير من العلاج، وقاعدة التحصين ضد الأوبئة العامة وانتقال عدواها من المريض إلى الصحيح بهذا الحديث الشريف.

مصالحة يحنة بن رؤبة وقومه وضرب الجزية على رقابهم ونص كتابهم.

وفي تبوك قدم على النبي ﷺ يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة، إذ بلغه أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك أحد رؤساء متنصِّرة العرب، وأسره خالد وقتل أخاه حساناً، واضطر أكيدر إلى أن يفتح حصنه لكتائب المجاهدين، فخاف يُحَنَّة بن رؤبة أن يرسل إليه النبي ﷺ سرية كما أرسل إلى أكيدر صاحب دومة، فأسرع يُحَنَّة إلى المصالحة حقناً لدماء قومه، فصالحه النبي ﷺ، وأمر أن يكتب له بصلحه كتاب، فكتب له: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله، ومحمد النبي، رسول الله ﷺ ليُحَنَّة ابن رؤبة وأهل أيلة، أساقفتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة النبي، ومن معه ـ أي مع يُحَنَّة ـ من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فأنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر» هذا كتاب ـ أي كتابة ـ جهيم بن الصلت، وشرحبيل بن حسنة، بإذن رسول الله ﷺ. وكان يحنة قد أهدى النبي بغلة بيضاء، فكساه النبي ﷺ برداً، والتزم يُحَنَّة بالجزية عن نفسه، وعن أهل مدينته، وكانوا ثلاثمئة رجل، فوضع النبي ﷺ الجزية عليهم ثلاثمئة دينار كل سنة.

ونص هذا الكتاب الذي ذكرناه أورده ابن إسحاق، وابن سيد الناس صاحب عيون الأثر، وذكره ابن سعد عن شيخه محمد بن عمر الواقدي، ثم ذكر ابن سعد رواية أخرى لنص الكتاب مختلفة بالزيادة عن النص المتقدم.

نص آخر لكتاب مصالحة يحنة بن رؤبة يتضمن تفصيلات تدل على تكرر الواقعة وتعدد الكتاب.

قال ابن سعد: إنه ﷺ كتب إلى يُحَنّة بن رؤبة وسروات أهل أيلة - أي أمر بالكتابة لهم -: «سَلْمٌ أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأسلم، أو أعط الجزية، وأطع الله ورسوله ورسل رسوله، وأكرمهم، واكسهم كسوة حسنة، فمهما أرضيت رسلي فإني قد رضيت وقد علمت الجزية، فإن أردتم أن يأمن البحر والبر فأطع الله ورسوله، ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلاّ حق الله وحق رسوله، وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منك شيئاً حتى أقاتلكم فأسبي الصغير وأقتل الكبير، وإني رسول الله بالحق أومن بالله وكتبه ورسله، والمسيح بن مريم أنه كلمة الله، وإني أومن به أنه رسول الله، وائت قبل أن يمسكم الشر، فإني أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق من شعير، وإنّ حرملة شفع لكم، وإني لولا الله وذلك - أي شفاعة حرملة - لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش، وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن كان معه ورسلي وشرحبيل وأبو حرملة - تقدم أنه حرملة - وحريث بن زيد الطائي، فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته، وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم».

قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني: ولعل هذا الكتاب أرسل ليُحَنّة قبل أن يقدم على رسول الله ﷺ، والظاهر أن رسل رسول الله ﷺ أتوا يُحَنّة وضربوا عليه وعلى أهل مدينته الجزية فلم يقنع بما صنعوا، وأسرع إلى رسول الله ﷺ فأهدى له وصالحه، وأمر ﷺ أن يكتب له الكتاب الموجز المتقدم، وهو كتاب الصلح والجزية التي ضربها رسول الله ﷺ على أهل مدينته.

وهذا من أحسن ما يقال في الجمع بين الروايتين، وهو خير من الأخذ برواية وترك الأخرى ما لم يكن في إحداهما ضعف ظاهر في السند أو المتن

يستوجب تركها، ثم قدم على رسول الله ﷺ أهل جَرْبا، وأهل أذرح، وهما بلدان صغيران من بلاد الشام متقاربان بينهما ثلاثة أميال، ولهذا التقارب الذي يجعلهما كالبلد الواحد في وحدة مصالحهما، جاء وفدهما موحّداً من رجالهما وطلبوا الصلح وإعطاء الجزية، فصالحهما رسول الله ﷺ، وأمر أن يُكتب لهما كتاب واحد بهذا النص: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح وجربا: أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين في المخافة والتعزيز إذا خشوا على المسلمين، فهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد ﷺ شيئاً من قتل أو خروج».

مصالحة أهل جربا وأذرح ونص كتابهم وضرب الجزية على رقابهم.

وقد كان هؤلاء المتنصِّرون من العرب أجنحة للروم، يقيمون على مشارف الشام وبعض القرى المسامتة للجزيرة العربية، وقد تابعوا الروم على نصرانيتهم دون أن يعقلوا من هذه النصرانية شيئاً سوى بعض طقوس شكلية لا تغني عنهم شيئاً، فإقدام من أقدم منهم على مصالحة رسول الله ﷺ والتزامهم بالجزية قصٌّ لهذه الأجنحة، وبتر لحبال تبعيتهم للروم، وتحريرٌ لهم من هذه التبعية التي كانت تذلّهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفُوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يدٍ وهم صاغرون.

قص أجنحة الروم بهذه المصالحات وتحرير متنصرة العرب من التبعية الرومانية.

هذا نوع من السياسة الحكيمة المحكمة التي اختطّها رسول الله ﷺ في إعلان عموم رسالته إعلاناً عملياً، قاد لتحقيقه المسلمين بنفسه في أعظم غزوة غزاها، وختم بها غزواته، حشد فيها كل من كان من أهل الجهاد في مجتمعه المسلم الذي ربّاه نظرياً وسلوكياً فأحسن تربيته، وخاض به معارك الجهاد في داخل الجزيرة العربية حتى أخضعها، واستسلمت له قبائلها وبطونها، وجاءته وفودها تبايعه على الإسلام، ورأى ﷺ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

سياسة حكيمة اختطها رسول الله ﷺ لإعلان عموم دعوته عملياً.

وكان عموم رسالته ﷺ يقتضيه بوصف كونه القائد الأعظم الذي

وجب له بمقتضى الرسالة العامة الخاتمة الخالدة أن يجعل من مجتمعه المسلم حاملاً لواء عموم الدعوة ونشرها في الآفاق، وتحقيق ذلك يلزمه أن يمحو من قلوب هؤلاء الذين صاروا منبع استنبات الكتائب الجهادية الخوف والتردد في جهاد من كان خارجاً عن نطاق ميادين نشر الدعوة في داخل الجزيرة العربية من الأمم التي كانت الجاهلية العربية تهيبهم وتخافهم، وتخشى بطشهم لما وقر في نفوسهم من تمثّل القوة المادية التي يملكونها، فجاءت غزوة تبوك لتزيل من صدور أفراد المجتمع المسلم آثار هذا التهيب والخوف، وتجرئهم على إزاحة عوائق الجهاد لهذه الأمم والشعوب، وهؤلاء العرب الذين حملوا لواء الرسالة ونهضوا لنشرها بعد رسول الله ﷺ، والخروج بها إلى آفاق الحياة الفسيحة في أقطار الأرض ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الاستعباد الظلوم إلى نور الحرية المشرق بالعلم والإيمان.

وقد كان هذا من أهم وأعظم العوامل التي أسرعت بتطهير الشام من نير الاستعباد الروماني في عهدي الخليفتين الأولين: الصدّيق أبي بكر، ثم الفاروق عمر رضي الله عنهما على أيدي أبطال الإسلام من أضراب خالد ابن الوليد، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وغيرهم من القادة الذين شُهروا بمواقف البطولة وسياسة القيادة الحربية.

تشريف هذه الغزوة بما وقع من آيات كونية ومعجزة.

وقد شرّف هذه الغزوة بما زادها شرفاً، فكانت ـ على ما فيها من حشود إسلامية متكاثفة مستوعبة للمهاجرين والأنصار ومن أسلم من رجالات القبائل وأهل مكة ومن حولهم ـ غزوة بيضاء لم يقع فيها مواجهة قتالية بين المسلمين والروم، ولكنها كانت مباءة لفضل الله وإحسانه، فأكرم الله فيها نبيّه وحبيبه ﷺ بآيات كونية ومعجزات إلٰهية زادت قلوب المسلمين تثبيتاً ويقيناً، وأرغمت الشيطان، فلم ينل منهم منالاً في شدة ما لاقوه من أزمات ومحن، تقبّلوها بالصبر الجميل، وملأت قلوب المنافقين غيظاً أحرق أكبادهم، وأشجتهم، وفضحتهم وكشفت عن سوآتهم وخبث نفاقهم وسيء مكرهم وتدبيرهم المكايد للمسلمين ليسيروا بينهم الفتن والبلبلة، فردّ الله بهذه المعجزات الكونية كيدهم في نحورهم، ودمغتهم بالذلّ والصَّغار،

وألبستهم لباس المهانة والخذلان، وقضت على وجودهم في الحياة، فبقي من بقي منهم هياكل من أشباح لا روح فيها.

ونحن نذكر هنا من هذه الآيات المعجزة التي أكرم الله تعالى بها نبيه محمداً ﷺ - زيادة في تشريفه والتنويه بمقامه المنيف، وأنقذ بها عباده المجاهدين في سبيل الله، إعلاءً لكلمته، وإعلاناً عملياً لعموم دعوة الحق والهدى والخير - ما صحت روايته، وثبتت واقعيته.

منهجنا في تقبل الآيات الكونية المعجزة يعتمد على ثبوت وقوعها لا على دخولها في إطار مدركات العقل.

وسبيلنا في تقبل ذلك والإيمان به هو سبيلنا فيما مهّدناه من بحث هذه الآيات الباهرات في إعجازها في بحث (محمد ﷺ من نَبْعته إلى بَعْثته) الذي هو أول بحوث هذا السِّفر في سيرة الرسول ﷺ، وقد كتبنا هذا البحث ليكون مقدمات ممّهدات لهذا الكتاب، لأنه بحث يدور حول حياة محمد ﷺ إنساناً مكمَّلاً بأكمل ما في البشرية من محاسن الفضل ومكارم الأخلاق، قبل أن يبعثه الله رسولاً.

وقد عرضنا هناك بعض الإرهاصات المعجزة التي ثبتت صحة وقوعها برواية الثقات الحفاظ، وبيّنا عند عرضها أنها آيات تجري على مقتضى سنن إلهية خاصّة تدخل في إطار الاقتدار الإلّهي على الخلق والإبداع، دون تقيد بنظام الكون العام الذي يسيِّره قانون الارتباط العام بين عناصر الكون في سيرها.

وعند ذلك يجب اطّراح الغرور العقلي، ووقوف العقل الإنساني عند حدود مدركاته، وهذا العقل عاجز عن معرفة هوية نفسه، وإدراك حقيقته، فهؤلاء الذين يؤلهون العقل الإنساني، ويعطونه ما هو فوق طاقته وحدود مدركاته أعجز في معرفة حقيقته، فتحكيمهم له في كل شيء إلحاد علمي، وتجاوز لمدى حدوده، ولا سيما في عوالم الغيب.

وإذا كان هذا العقل الإنساني في أقصى درجات مدركاته عاجزاً عن معرفة حقيقة أبسط الأمور التي تعيش بها ومعها الحياة كلها في كل لحظة من لحظات وجودها وسيرها دون توقف، فمؤلهو العقل البشري أعجز منه عن إدراك حقيقة هذه البسائط التي تتكرر عشرات آلاف المرات في كل يوم بل في

كل ساعة. فليقل لنا مؤلهو العقل البشري بعد عجزهم عن معرفة ماهية هذا العقل: ما الحب؟ وما حقيقته؟ وما البغض؟ وما كنهه؟ بل ما الشبع وما الجوع، وما السعادة؟ وما الشقاوة؟ ولنقرب بالسؤال إلى ما هو من خصائص العقل البشري في نظر مؤلهيه، فليقولوا لنا: ما العبقرية، وما الذكاء؟ وما البلادة وما الحياة؟ وما الموت؟ وما الروح؟ وأين تكمن من الإنسان؟.

إن مؤلهي العقل البشري أعجز من أن يجيبوا على سؤال واحد من هذه الاسئلة، ولكنهم يستطيعون أن يبرطموا بكلمات جوفاء خالية عن المحتوى يسمّونها فلسفة، ولن توصلهم هذه البرطمة وهذا التفلسف إلى شيء من المعرفة، لأن جميع الأمور الشعورية، والوجدانية، والعاطفية، لا يعرف العقل - أي عقل - حقائقها وهوياتها، وأقصى ما يستطيعه من المعرفة عنها أنه يشعر بآثارها، ويحسُّ ببعض أوصافها فقط.

العقل البشري عاجز عن إدراك حقائق الأمور الشعورية والوجدانية وهو أعجز عن إدراك حقائق الغيب.

وإذا كان هذا شأن العقل البشري في الأمور التي يحسُّها ويشعر بها؛ فكيف يكون حاله في الأمور الغيبية التي لا يراها ولا يشعر بها ولا يحس بشيء يتعلق بها؛ لأنها تقوم في وجودها على نوع من سنن الله الخاصة التي قد تختلف قليلاً أو كثيراً في ظاهر الأمر عن السنن العامة التي يقوم عليها ما يعرفه الإنسان من نظام الكون والحياة وترابط عناصرهما.

فالله تعالى الذي خلق السنن العامة وربط بها عناصر الكون، وأقام على دعائمهانظام سيره، وهو الذي خلق السنن الخاصة وربط عناصر الأحداث الخاصة التي تتطلبها مناسباتها - لا يحدّ قدرته شيء، فضلاً عمّا وصل إليه الإنسان من معرفة وعلم لا يمثلان قطرة في محيط ترابط عناصر الكون، وقد قال الله تعالى للمغرورين المغرِّرين: ﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾ وهذا خطاب عام عموم الإنسان في أجياله وأطوار تفكيره، ولا يقيد هذا العموم ما قيل في سبب نزول الآية التي لا يعدو أن يكون حادثة تدخل في إطار أحداث الحياة، فتأخذ من النص وصفها وحكمها.

ولكن الغرور الإنساني عند محدودي الدخل العلمي هو الذي يدفع بالإنسان إلى التعالي والبطر، فيزعم لنفسه ما ليس له بحق، ولكن الله تعالى

في جلال قهره، وعزة رحمته يهدي من يشاء ويضل من يشاء، رضي المغرورون أم أبوا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

في هذا الإطار نذكر بعض الآيات الكونية التي خرَّجها الأئمة في كتبهم.

وحديثنا في هذا المجال مع الذين يؤمنون بسلطان اقتدار الألوهية الحقّة، أما الذين يلحدون في آيات الله تقليداً أو اغتراراً بما وصل إليه من نزيز العلم والمعرفة ـ فهؤلاء للحديث معهم أسلوب آخر، ومكان آخر، نرجو أن نوفق لتناوله في تفصيل يضع الحقائق في مواضعها.

في ضوء هذا الوضع نذكر بعض ما وقع من الآيات الكونية المعجزة في غزوة تبوك تشريفاً لهذا الكتاب، وتبركاً بما أفاضه الله تعالى على نبيه محمد ﷺ وعلى مجتمعه المسلم من هذه الآيات البيِّنات التي لا ينكرها عقل مؤمن بجلال الاقتدار الإلهي، ولا يتنكَّر لها إلا من طمس الله على بصيرته واستولى الران على قلبه، وأعماه حبُّ العصرية ولقب التجديد، فاستعبد إيمانَه عقلُه، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

والذي نذكره هنا من آيات الإعجاز الكوني كان من قبيل آيات الرسالة ومعجزاتها التي لم يقع بها التحدِّي الذي استأثر به القرآن الكريم، ولكنه وقع تكريماً لرسول الله ﷺ تشريفاً لقدره العظيم، وتنويهاً بمقامه المنيف، وغياثاً للمجاهدين الذين أعدوا أرواحهم فداء لعقيدتهم، وكان الموقف قد تأزم بهم تأزماً شديداً، ولا سيما في قلة الزاد، وعدم الماء، وقد كانوا يتداولون فيما بينهم التمرة الواحدة يمصها أحدهم ليشرب على مصتها الماء، ثم يناولها أخاه ليفعل بها ما فعل، وقد أكلوا التمر المسوس، والإهالة السنخة، وفقد الماء حتى كادت رقابهم تتقطع من شدة العطش، وحتى كانوا ينحرون البعير ليشربوا ما في كرشه حتى إذا نفد ما فيها من الماء كانوا يضعونها في أكبادهم.

حديث عمر عن الآية الكونية الأولى من معجزات غزوة تبوك.

١ ـ روى الإمام أحمد، والحاكم، وابن خزيمة، وابن حبان عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، قال: خرجنا إلى تبوك في يوم قيظ شديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش شديد حتى ظنّنا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان

الرجل ليذهب ليلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر كرشه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا، فقال رسول الله ﷺ: «أتحب ذلك؟» قال أبو بكر نعم، فرفع ﷺ يديه نحو السماء، فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أي كساها السحاب - فأطلّت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر.

رواية ابن أبي حاتم عن الآية الثانية من الآيات الكونية.

٢ - روى ابن أبي حاتم عن جزرة قال: نزلت هذه الآية ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون﴾ في غزوة تبوك، ونزلوا بالحِجْر - أي ديار ثمود - فأمرهم ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئاً، ثم ارتحل ونزل منزلاً آخر، وليس معهم ماء، فشكُوا إليه ﷺ، فقام فصلَّى ركعتين، ثم دعا فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال أنصاري لآخر من قومه يُتّهم بالنفاق: ويحك قد ترى ما دعا رسول الله ﷺ، فأمطر الله علينا السماء؟ فقال المنافق: قد مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

حديث محمود بن لبيد عن الآية الثالثة من هذه الآيات.

٣ - وفي حديث محمود بن لبيد عن رجال من قومه عند ابن إسحاق، قال كان رجل معروف نفاقه يسير مع رسول الله ﷺ حيثما سار، فلما كان من أمر الحِجْر ما كان ودعا ﷺ فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، أقبلنا عليه، نقول: ويحك؟ هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارّة.

حديث ناقته ﷺ القصواء من أشهر هذه الآيات وهو حديث مهم.

٤ - روى البيهقي وأبو نعيم في دلائلهما، وابن إسحاق والواقدي: أن ناقته ﷺ القصواء قد ضلّت، فلم يهتد إلى مكانها، فقال زيد بن اللصّيت - وكان منافقاً من يهود بني قينقاع - فأسلم إسلام نفاق، إذ أجلى النبي ﷺ قومه عقيب غزوة بدر - وكان ابن اللصّيت خبيث النفاق، جمع غش اليهود وغدرهم، وسيء حقدهم على رسول الله ﷺ وحسدهم له على رسالته التي بعثه الله بها للعالمين بشيراً ونذيراً، واضطغانهم على مجتمعه المسلم - أليس يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

وكان ابن اللصَّيت ينزل في رحل عمارة بن حزم العقبي البدري، فقال رسول الله ﷺ وعمارة بن حزم عنده: «إن رجلاً يقول كذا وكذا» وذكر ﷺ مقالة ابن اللصِّيت التي أعلمه الله بها بالوحي «وإني والله لا أعلم إلاّ ما علمني الله، وقد دلّني عليها، وهي في الوادي، في شِعْب كذا، وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها» فانطلقوا فجاؤوا بها. ورجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: العجب لشيء حدّثنا به رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل، أخبره الله بكذا، وكذا، للذي قال الخبيث ابن اللصِّيت، فقال رجل ممّن كان في رَحْل عمارة بن حزم ـ وصرح الواقدي أن ذلك الرجل أخو عمارة بن حزم ـ: زيد بن اللصِّيت والله قائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا، فأقبل عمارة بن حزم على زيد بن اللصِّيت يطعنه في عنقه، ويقول: يا عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، فاخرج يا عدو الله من رَحْلي ولا تصحبني.

* * *

مدة إقامته ﷺ بتبوك واختلاف الروايات في ذلك.

وقد أقام ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة في رواية ابن عقبة وابن إسحاق، وقال بروايتهما صاحب عيون الأثر، وخالف ذلك ابن سعد فعيَّن مدّة الإقامة، فقد أخرج عن يحيى بن أبي كثير أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين ليلة، يصلِّي ركعتين، وهو قول شيخه الواقدي، وذهب إليه ابن حزم، وأخرجه الإمام أحمد عن جابر.

ويظهر بشيء من التأمل أن هذا ليس بخلاف لأن البضع يقال في اللغة على ما فوق الثلاث إلى التسع، والتعبير عن ذلك بعشرين ليلة مما يمكن قبوله مع شيء من التجوّز في التعبير، وجمع بعض العلماء بين الروايتين فقال: إن من قال عشرين ليلة حسب يوم القدوم ويوم الارتحال.

كانت غزوة تبوك مجالاً لإظهار قوة الإسلام.

وقد حقّق ﷺ مقصده من هذه الغزوة على أكمل وجه، فأظهر قوة الإسلام بما حشد لها من جيش عرمرم وكتائب متكاثفة متأهبة، وبما كتب إلى قيصر، وهو هرقل، مرة أخرى يدعوه إلى الإسلام، وبما جرّأ المسلمين على الروم، ونزع من قلوبهم تهيّبهم لهم، وبما عقد من صلح وضرب من جزية

على متنصِّرة العرب الذين كانوا يقيمون على مشارف الشام خاضعين لقوة الرومان وسلطانهم، وبما أرسل من سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة وأسره وفتح مدينته، وبما أعلن من عموم رسالته عملياً، وبما كبت من حقد المنافقين وأحرق من أكبادهم، وأذلَّ نفوسهم، وعاش من بقي منهم في ذلِّ المهانة مطأطأ الرأس، منكسر القلب، يندب نفاقه، ويبكي معلِّميه من خبثاء اليهود وطغاتهم.

عودته ﷺ إلى المدينة مكللاً بتوفيق الله وإعزازه.

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بأصحابه موفور المكانة، رفيع المنزلة، لم يلق في غزوته الخاتمة كيداً، ولا واجه حرباً، يحفُّه العز ويحيط به توفيق الله، بعد أن أرى أصحابه أنّ ما كان في أنفسهم من تهيّب للروم إنما هو خيال وهمي، موروث عن جاهلية ممزقة الروابط، لم يكن لها قبل الإسلام نظام اجتماعي يسلكهم في أنظمة الأمم، كما أراهم أن عموم رسالته ﷺ يقتضيهم أن يخرجوا بها إلى هذه الأمم في أقطار الأرض بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومفارقته الدنيا بعد أن بيّن لهم حياتهم الإيمانية، وتركهم على بيضاء ليلها كنهارها، وأنهم صاروا بالإسلام ورسالته رادّة للإنسانية وقادة لمسيرتها إلى حضارة مؤمنة رحيمة عادلة، تحقيقاً لقول الله جل شأنه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾ ليحقق الله تعالى لهم وعده باستخلافهم في الأرض وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم، ولجميع عباده نظاماً شاملاً، يوحّد به كلمة الإنسانية على أساس ما بين شعوبها من ترابط أخوي مدعّم بدعائم المواساة والتراحم.

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، وفيما حققناه من رواياتها، وبيان ما فيها من معالم منهج الرسالة الخاتمة الخالدة، غُنْية عن الاسترسال في سَوْق الروايات الكثيرة التي أوردت أخبار السرايا والبعوث التي كان ﷺ يرسلها داعية إلى الله، مجاهدة في سبيله، بيد أننا لم نُخْلِ البحث من الحديث عن بعض السرايا والبعوث التي رأينا في أحداثها نماذج لمعالم منهج الرسالة التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ، فكانت حياته المباركة هي منهج رسالته التي جعلها دروساً لتربية أمته في أجيالها المقبلة.

مِنْ رَوَائِعِ أَحَادِيثِ الوُفُودِ

وتحقيق غرر أحداثها

نماذج تصوّر ولا تستقصي

مِنْ رَوَائِعِ أَحَادِيثِ الوُفُودِ

اختلفت روايات مصادر المغازي، ومراجع السيرة النبوية، ودواوين الحديث وكتب الطبقات اختلافاً واسع المدى عريض الشقة في:

الدوافع الإيجابية لوفادة الوفود.

أولاً ـ بدء وفادة وفود بقايا القبائل التي كانت تتربص بدخولها الإسلام على النبي ﷺ بعد أن أداخ المجتمع المسلم سائر القبائل التي تمثل جمهرة العرب في كثرتها وكثافة رجالها، واعتزازها بقوتها المادية وتوافر وسائل التأهّب والاستعداد لمواقفة كتائب الجهاد بقيادة النبي ﷺ لموقفها العدائي من الدعوة الإسلامية، خشية أن يجرفها تيار نموّ المجتمع المسلم نمواً سريعاً، جعله متماسك العناصر، قوي البناء، شديد البطش على المعتدين المهاجمين له بقواتهم المادية التي لم يكن لهذا المجتمع ما يماثلها أو يقرب منها في مهد نشأته، وتكوين شخصيته التي أصبحت لها خصائصها ومميزاتها، حتى إذا شبّ هذا المجتمع في إطار هذه الخصائص والمميزات ونهض ليرد اعتداء المعتدين، تغيّرت صورة الموقف تغيّراً كاملاً، فصارت تلك القوى المهاجمة للمجتمع المسلم ترعد فرائصها رهبة لملاقاة كتائب هذا المجتمع المجاهدة، ومواقفة تلك الكتائب في ميادين القتال، فكانت تبذل أقصى طاقتها من جهد لتجميع أضخم عدد، وأعظم حشد يمكنها الوصول إليه، مع أضخم أهبة وأعظم استعداد بالرجال والسلاح والمؤن.

وبذلك يتسنى لها توافر أعظم قوة ماديّة لتهاجم هذا المجتمع لتستأصله وتسكت نأمته، وتقضي على حياته، لتبقي على وثنيتها البليدة، وشركها

الخبيث مرتعاً تجول في حمأتها، مدرّعة بالظلم الاجتماعي والفجور الخلقي، والانغماس في أرذل شهوات الرذائل، لا يردعها قانون، ولا يصدّها دين، ولا تمنعها عقيدة، ولا يكفكف من غرورها نظام اجتماعي يرد الظالم عن المظلوم، ويريح العدل في مكانه من ساحة احتكام الخصوم.

ولكن انتصارات المجتمع المسلم بقيادته العظيمة، ممثلة في سيد المرسلين محمد ﷺ كان دويّها المرعب قد ملأ قلوب بقايا البطون العربية المشتتة بالفزع والهلع، مع تتابع هزائمهم أمام البعوث والسرايا التي كان يرسلها إليهم ﷺ في مضارب أحيائهم، مزوّدة بقوة الإيمان وهم يواقفون قوى الشرك المادية الضخمة، فتنحدر أمامهم مدحورة مهزومة على رغم الفوارق الهائلة في مظاهر القوة المادية التي كان يعتمد عليها المشركون والتي لم يكن لها مظهر قط في مواقف كتائب الجهاد المسلمة، فضلاً عن أن تكون مثل أو قريباً من قوى الشرك والوثنية.

قوة إيمان المجتمع المسلم كانت أقوى عوامل استجابة الوفود.

ولكنّ المجتمع المسلم كانت له قوة من طراز آخر غير كثافة الرجال وتوافر السلاح والمؤن، تلك هي قوة الإيمان، وحب الموت في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر دعوة الحق، وتبليغ رسالة الهدى والنور، وإزاحة العقبات من طريقها، فكانت تنزّلات النصر المؤزر تترى متوالية متتابعة، وكان إيمان كتائب الجهاد المسلمة بهدفها يمدّها بقوة الصبر إلى جانب قوة الإيمان، حتى إذا امتحنت بشيء من البلاء الممحِّص تلقته بالصبر مع الإيمان، وسرعان ما يتكشّف البلاء عن إشراقات النصر وتنزّلات آياتـه من سموات العـزة الإيمانية.

وهكذا كانت مواقف الجهاد أمام مواقف الطغيان، حتى فاء المنهزمون من أحلاس الشرك إلى كنف الإيمان، فآمنت طوائفهم واستسلمت جموعهم، ووسعهم حلم رسول الله ﷺ ورحمته، وقبل من أتاه منهم تائباً مسلماً وضمّه إلى المجتمع المسلم أخاً للمسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم، ولم يؤاخذهم بما كان منهم إليه من أسواء وأذى، وضمّد جراحهم بإشفاقه ورأفته، ونشر بينهم مبدأ التسامح والعفو ونسيان الماضي بآلامه وكوارثه، فقال لهم ليمسح

عن قلوبهم آثار الضغائن والمحن: «الإسلام يجبّ ما قبله».

هذه الوفود وقبائلهم هم الذين أسرعوا بنشر الدعوة والفتوحات العظمى.

ومن ثَمّ انتقلت القوة المادية بانتقال كثافة عدد الرجال إلى قوة المجتمع المسلم الإيمانية التي كانت ولا تزال هي العماد القوي في انتصارات هذا المجتمع على أعدائه، وكانت ولا تزال هي الدعامة الأولى في انتشار دعوة الهدى والحق في آفاق العالمين في زمن لم يعرف مثله التاريخ لانتشار فكرة أو مذهب أو نحلة أو ملة، أو دين، ما دامت قائمة في منهج تبليغ الرسالة ونشر الدعوة.

وبهذه القوة المزدوجة انفرد المجتمع المسلم، وهو يمر بمسيرته عبر تاريخ الحياة، فكان يوم أن كانت القوة الإيمانية عدته في مواقفة أعدائه في ميادين القتال لإعلاء كلمة الله لا يواقف، وبهذه القوة الإيمانية غزا رسول الله ﷺ قريشاً في عقر دارها، وفتح مكة عنوة، حتى استسلمت، وسلمت وأسلمت، وكان أهلها متربص العرب بإسلامهم واستسلامهم، لأنهم كانوا أئمة الكفر، وأهل البيت المعظّم عند كافة العرب قاصيهم ودانيهم، وهم الذين كانوا يواقفون المجتمع المسلم بقواهم المادية، ويهاجمونه عدْواً وبَغْياً، حتى جاء الفتح الأعظم، ودانت قريش لسلطان الإسلام طَوْعاً وكَرْهاً، فأصبحوا جميعاً في قبضته محكومين بقهره، خاضعين لحكمه، حتى أطلقهم أحراراً بعد أن أداخهم المجتمع المسلم بقوة كتائبه المؤمنة المجاهدة.

وعندئذ عرف العرب في أقطار جزيرتهم أنهم لا طاقة لهم بمواقفة محمد رسول الله ﷺ، وهو يقود مجتمعه المسلم من نصر إلى نصر، فلم يجدوا بدّاً من الدخول في دين الله أفواجاً، فجاؤوه يطوون الزمان والمكان وافدين إليه من كلِّ وجه وحدب ينسلون، مبايعين مسلمين.

روى البخاري من حديث عمرو بن سلمة، قال: كانت العرب تلوّم بإسلامهم فتح مكة، فيقول بعضهم لبعض: اتركوه ـ أي رسول الله ﷺ ـ وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كان الفتح الأعظم بادر كل قوم بإسلامهم، وبادر قومي بإسلامهم.

واختلاف الروايات في زمن بدء الوفادات العربية لا يحمل في طياته

كبير معنى من معاني المنهج في الرسالة الخالدة، ولكنا عرضنا له من باب التحذير من تكثير الروايات فيما لا يهم، حذراً أن يسبب تشكيكاً فيما يهمّ من الأمور الجوهرية.

رأي ابن حجر في ابتداء الوفود ومناقشته.

وزبدة الخلاف في تحديد زمن بدء الوفادات، وقدوم الوفود على رسول الله ﷺ مستسلمة مسلمة هي كما قال ابن حجر في الفتح: والواقع أن ابتداء الوفود كان بعد رجوع النبي ﷺ من الجعرانة في أواخر سنة ثمان، وما بعدها، بل ذكر ابن إسحاق أن الوفود كانت بعد غزوة تبوك.

ونحن نقول: إن ابتداء الوفود كان قبل سنة ثمان، وأنه على التحديد كان في سنة خمس من الهجرة، حيث قدم فيها على النبي ﷺ وفد مزينة، وكانوا أربعمائة رجل كما ذكره الواقدي بسنده فقال: حدثنا كثير بن عبدالله المزني، عن أبيه، عن جده، قال: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة رجل من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم، وقال لهم: «أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم» فرجعوا إلى بلادهم. ثم قال الواقدي: إن أول من قدم من مزينة خزاعي بن نهم، ومعه عشرة من قومه، فيهم بلال ابن الحارث، والنعمان بن مقرن، وأبو أسماء، وأسامة، وعبدالله بن بردة، وعبدالله بن درة، فبايع خزاعي رسول الله ﷺ على إسلام قومه، ولما توجه إليهم لم يجدهم كما ظنّ فيهم، فتأخروا عنه، فأمر رسول الله ﷺ حسان ابن ثابت أن يعرِّض بخزاعي، وقال له: «اذكر خزاعياً ولا تَهْجُه» فقال حسان رضي الله عنه:

أول من قدم وفد مزينة، يقدمهم خزاعي بن نهم.

تعريض حسان بخزاعي كان سبباً في استجابة قومه.

ألا أبلغ خزاعياً رسولاً ... بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو ... وأسناها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكنت خيراً ... إلى خير وأدّاك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه ... من الأشياء لا تعجز عداء

و(عداء) اسم رهط خزاعي الذي هو منه في مزينة، فقام خزاعي في قومه فقال لهم: يا قوم، قد خصّكم شاعر الرجل، فأنشدكم الله. فقالوا:

إنـا لا ننبوا عليك، فأسلموا، وكان لواء مزينة يوم الفتح الأعظم بيد خزاعي، دفعه إليه رسول الله ﷺ، وكانوا يومئذ ألف رجل، قال ابن سعد وخزاعي أخو عبدالله ذي البجادين.

بحث مع الحافظ ابن حجر فيما نقله عن ابن سعد.

وبما ينبغي الوقوف عنده قول ابن حجر عقب كلامه السابق: نعم، اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، ولم يظهر لنا مرجع اسم الإشارة في قول ابن حجر: اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، كما لم يظهر لنا مراده من قوله: اتفقوا، من هم المتفقون؟ كيف يصحّ قوله: اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، والخلاف مشهور متعالم عند أهل العلم، كما هو صريح في قوله: والواقع أن ابتداء الوفود كان في أواخر سنة ثمان بعد الرجوع من الجعرانة، وكما نقله عن ابن إسحق من أن الوفود كانت بعد غزوة تبوك.

أما قوله اتفقوا، فإن أراد به أصحاب الروايات من أهل المغازي وأرباب السير، فما ذكره الواقدي بسنده يرد عليه، وكذلك ما نقله ابن حجر نفسه عن ابن إسحاق، وكذلك مـاارتضاه وجزم به في قوله: الواقع أن ابتداء الوفود كان بعد الجعرانة في سنة ثمانٍ وما بعدها يناقضه، ولعل في عبارة ابن حجر غلطاً مطبعياً.

وذكر ابن حجر عن ابن هشام أنه قال: حدثني أبو عبيدة أن سنة تسع كانت تسمَّى سنة الوفود، وهذا كلام قريب، يمكن قبوله لأن سنة تسع كانت سنة وفادة أكثر الوفود، فهي تسمّى باعتبار الأغلب الأعم، ولا حرج في التسمية بهذا الاعتبار.

كلام ابن كثير في تقدم الوفود على فتح مكة

وذكر ابن كثير أن محمد بن إسحاق، ثم الواقدي، والبخاري، ثم البيهقي بعدهم: أن من الوفود ما هو متقدم تاريخ قدومهم على سنة تسع بل وعلى فتح مكة، وقد قال تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاًّ وعد الله الحسنى﴾ وقال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية» فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين على زمن الفتح ممن يُعَدُّ وفوده

هجرة، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله خيراً وحسنى، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة.

وهذا الكلام يتفق مع ما ذهبنا إليه من أن بدء الوفود على رسول الله ﷺ كان قبل سنة ثمان، وقبل غزوة تبوك، بل قبل غزوة الفتح كالذي كان من المزنيين سنة خمس من الهجرة.

ولعلّ كثرة عدد أفراد وفدهم إذ كانوا أربعمائة رجل، جعلت رسول الله ﷺ يجعل لهم هجرة حيثما كانوا خشية أن يطول مقامهم بدار الهجرة، وهم عدد كثير، فيضيّقوا على أهل المدينة عيشهم، ويزحموهم في مساكنهم ووسائل عيشهم ومصالحهم، ولا سيما إذا تتابعت الوفود واستقر بعضهم في المدينة، ومن هنا نظن أن حديث «لا هجرة، ولكن جهاد ونية» مقيّد بما يكتنفه من ضرورات ومصالح.

نقد ابن كثير للأئمة الذين لم يستوعبوا الوفود.

ثم قال ابن كثير ناقداً للذين عرضوا في مؤلفاتهم للوفود وأحاديثها لعدم استيعابهم للوفود فيما ذكروه: على أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود قد تركوا فيها أوردوه أشياء لم يذكروها، ثم قال: ونحن نورد بحمد الله ومنّه ما ذكروه، وننبه على ما ينبغي التنبيه عليه من ذلك، ونذكر ما وقع لنا مما أهملوه.

نقد ابن كثير لا يراده حديث وافد السباع.

ونحن نقول للعلّامة ابن كثير: إنه من حق الحق عليه أن يضيف إلى قوله: إنهم قد تركوا فيها أوردوه أشياء لم يذكروها، لما ينبغي أن يكمل هذا النقد، فيقول: وأوردوا أشياء لم يكن ليحسن إيرادها، ليدخل نفسه نَصَفاً لها وللحق وللأئمة الذين نقدهم، وذلك كإيراده ما سمّاه وفد السباع، وما سمّاه وفد الجن، لأن حديث الذي زعم فيه أن النبي ﷺ قال عنه: «هذا وافد السباع إليكم» لا وجه إطلاقاً لذكره في هذا المقام، وإنما موضعه معجزات رسول الله ﷺ إذا صح سنده، بدليل ما ذكره ابن كثير نفسه من أحاديث المعجزات النبوية في تكلّم وتكليم ما ليس من شأنه التكلّم والتكليم، كالحيوانات، وعذبات الأسواط، وأشراك النعال، وأفخاذ الرجال عقب حديث الذئب، كحديث: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبها

الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، فقال للراعي: ألا تتَّقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟ فقال الراعي: يا عجباً؟! ذئب مُقْعٍ على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ فقال الراعي: بلى، قال الذئب: محمد رسول الله ﷺ بيثرب يخبر الناس بأخبار ما قد سبق، فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ، فنُودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابي: «أخبرهم» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده،لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وتكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده».

قال ابن كثير معقِّباً: هذا الحديث مرسل من وجه شعيب بن عبادة عن عبد المطّلب بن عبدالله بن حنطب، والمرسل عند الجمهور من قبيل الضعيف، ولكن ابن كثير قال في تعقيبة أخرى: ورواه الترمذي عن سفيان ابن وكيع بن الجراح عن أبيه، عن القاسم بن الفضل بهذا السند، والقاسم ابن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث، وثقّه يحيى، وابن مهدي، ثم ذكر ابن كثير أن الإمام أحمد رواه من طريقين مختلفين، ثم قال عند الإسناد الثاني: إسناد أبي النضر عن شيوخه سياقه أشبه، وهو على شرط أهل السنن ولم يخرِّجوه. وصحة سند هذا الحديث لا تسوِّغ إخراجه في مقام وفود العرب.

ونقده لا يراده حديث الجن مع تصريحه بأنه موضوع.

أما حديث الجن فأمره أعجب وأغرب، ما كان يليق بعِلْم ابن كثير وفضله وإمامته في الحديث وعلومه، ومعرفته بأحداث السيرة النبوية، ودقته في نقد الأسانيد والمتون أن يلمّ بهذا الحديث في هذا المقام من قريب أو بعيد، لأن ابن كثير نفسه طعن في صحته فقال: وقد أورد الحافظ أبو بكر البيهقي ها هنا حديثاً غريباً، بل منكراً، أو موضوعاً، ولكن مخرجه عزيز.

فابن كثير قضى على هذا الحديث، وانتهى في حكمه عليه إلى أنه موضوع مكذوب مختلق مفترىً، ولكنه لعزّة مخرجه أحب ابن كثير أن يورده

في غير مورد متابعة للبيهقي، ثم قال ابن كثير: والعجب من البيهقي أنه قال في دلائل النبوة: باب قدوم هامة بن الهيم أو الأهيم بن لاقيس أو الأقيس ابن إبليس على النبي ﷺ وإسلامه، ومعنى هذا أن هامة بن الهيم هو ابن حفيد إبليس لعنه الله تعالى، وقد عجب النبي ﷺ من شدة إيغاله في الدهر وقربه من إبليس، فقال له: «فما بينك وبين إبليس إلا أبوان؟ فكم أتى لك من الدهر؟» فلم يحرْ جواباً صريحاً، ولكنه ذهب في متاهات الحياة وأحداثها منذ خلقها الله تعالى حتى بلغ بنفسه وهو غلام أنه شهد حادث قابيل وهابيل ابني آدم، وذكر إفساده في الأرض حتى قال له النبي ﷺ: «بئس عمل الشيخ المتوسم، والشاب المتلوم» ثم زعم أنه تائب إلى الله، كيف والله تعالى يقول: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ ولم يستثن من ذرية إبليس في عداوة المؤمنين هامة بن الهيم، ولا غيره، فأنّى تكون له توبة؟ وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير نفسه في تفسيره لا تدخل ذرية إبليس الجنّة.

قصة صرف الجن لاستماع القرآن أشبه بوفادات الوفود للإسلام.

ولو أن ابن كثير أهمل قصة هامة بن الهيم حفيد لا قيس بن إبليس، وذكر مكانها قصة الجن الذين صرفهم الله إلى رسوله ﷺ، وهو قائم يصلي بنَخْلة بعد عودته من الطائف محزوناً مهموماً، فاستمعوا القرآن فلما سمعوه استنصت بعضهم بعضاً إعجاباً بما سمعوا من آيات الله، واستطعاماً لما فيها من حكم وأحكام، وكانوا على دين التوراة، قيل إنهم من جنّ نصيبين، وقيل إنهم من جن نينوى، وقيل: غير ذلك، فلما سمعوا القرآن من النبي ﷺ، وشهدوا صلاته حتى إذا قضاها ولّوا إلى قومهم منذرين. وهذا هو الموافق لما كان عليه حال الوفود العربية ـ لكان موفّقاً في سياقته لأحاديث الوفود، وذكر هؤلاء الجن الذين وفدوا على رسول الله ﷺ بتوجيه الله لهم وبعثهم إليه أدخل في حديث وفادات الوفود، إن كان لا بد من إدخال أحاديث الجن في أحاديث الوفود، لأن قصة هؤلاء الوافدين من الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلي ببطن نَخْلة بعد عودته من الطائف ثابتة بنص القرآن، لا ينكرها مؤمن، وفيها من سِمات الوفادات ما يجعلها قريبة جداً من أحاديث الوفود التي عُقد لها في مؤلفات السيرة النبوية باب خاص، وقد أطنب ابن كثير في

تفسيره وهو يسوق قصتهم وأكثر من الروايات وأقوال العلماء المختلفة.

وقد تعلّل ابن كثير لذكره هذا الحديث الموضوع كما أورده البيهقي بعزّة مَخْرَجه، ونحن نتساءل متى كانت عزة المخرج منهجاً علمياً يبيح ذكر الأحاديث الباطلة الموضوعة التي يفتتن بها كثير من أهل العلم، فضلاً عن العامة؟ وهل مما يليق بمكانة ابن كثير أن يضع نفسه في موضع التقليد في رواية ما يعرف أنه موضوع مكذوب، لأنه عزيز المخرج؟ هذا ممّا كنا نرفع مكانة ابن كثير أن تنزل إليه، وأبواب العلم والمعارف الصحيحة لا تنقضي عجائبها، وهي مفتحة لكل طالب ليلج إليها من يريد التكثر وعزّة المخارج بعيداً عن الأباطيل والأكاذيب.

الوجه الثاني هو اختلاف الروايات في عدد الوفود رغبة في الإسلام.

ثانياً ـ فيما اختلفت فيه روايات مصادر السيرة عدد الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ للإسلام والبَيْعة، بعد أن تبين لهم أنه لا طاقة لأحد منهم بمواقفة المجتمع المسلم الذي يقوده محمد رسول الله ﷺ في ميادين المواجهة والقتال، وقد علموا أنه ﷺ أداخ بكتائبه الجهادية كبريات القبائل، دهم حشودهم مجتمعين ومتفرقين، وأجلى اليهود بعد دحرهم مع صلفهم وغرورهم بما في أيديهم من قوة المال والسلاح ووفرة المؤن، وفتح مكة عنوة، واستسلمت له قريش بعد قهرها، وإرغام أنوف طغاتها، وأرعب الروم في تبوك، واستنزل ثقيفاً من حصونها حتى وفدت إليه راغمة وفدها ليستأمن لها، حتى رضيت من رسول الله ﷺ بكل ما شرطه عليها من شروط الإسلام، فاستسلمت وأسلمت بعد تأبٍّ وشموخ لم ينفعاها بشيء.

وخلاصة ما قيل في عدد الوفود ما قاله ابن حجر في الفتح إذ قال: وقد سرد محمد بن سعد في الطبقات الوفود وتبعه الدمياطي في سيرته، وابن سيد الناس اليعمري في عيون الأثر ومغلطاي، وزين الدين العراقي في منظومته، ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين، قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني الذي نقل كلام صاحب الفتح تعقيباً على كلام ابن حجر: ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين: ولا تبلغ السبعين على المتبادر من هذه العبارة عرفاً، وهذا التعقيب من الزرقاني مما لا وجه له، لأن ابن سعد وهو

العمدة في عبارة ابن حجر في سرد الوفودأوصلهم في طبقاته التي في أيدي الناس إلى خمسة وسبعين وفداً، وبعبارة ابن حجر التي نقلها القسطلاني في مواهبه، وعقّب عليها شارحها الزرقاني محتملة للعدد الذي ذكره ابن سعد، وما زاد عليه، فتفسيرها بأنها لا تبلغ السبعين كما قال الزرقاني تقييد لها ينفي عنها ما هو محتمل فيها.

وقد ذكر ابن سعد فيما سرده تفصيلاً وتبويباً من أسماء الوفود وأحاديثها وأحداثها وافد السباع الذي بينا فيما سبق أنه - إذا صح سنده - ليس له مكان في أحاديث الوفود العربية، وإنما مكانه في أحاديث المعجزات التي أوتيها رسول الله ﷺ تشريفاً لمكانه المنيف، وتكريماً لقدره الشريف، ليزداد بها الذين آمنوا إيماناً، ويدخل من بابها للتصديق بالرسالة من لم يكن أهلاً للنظر في الإعجاز الفكري والروعة الأسلوبية، وطرائق الهداية ومنازلها في آفاق الحياة وأطوارها الاجتماعية من كل ما استأثر به القرآن العظيم في إعجازه العام المتحدّى به.

حديث وافد السباع مكانه بين المعجزات.

ومن ثَمّ فإن هذه المعجزات الكونية لم يقع بها التحدِّي العام الدائم، وإنما ذلك كان حقاً للقرآن المجيد، فهو وحده الذي وقع به التحدِّي العام، وحمله في آياته باعتباره معجزة التحدِّي الوحيدة الدائمة الخالدة.

وإيراد ابن سعد لقصة وافد السباع بين أحاديث الوفود تجاوز لمقصد الحديث عن الوفود، وإنما أُتي ابن سعد من قبل شيخه الواقدي، والكلام معروف مشهور فيه.

موقف ابن كثير أصعب من موقف ابن سعد.

وقد استهوى حديث وافد السباع العلاّمة ابن كثير - كما سبق لنا التنبيه عليه، ولعلنا نعود بتوفيق الله إلى الحديث عنه في مكانه من أحاديث الوفود - فرواه في تاريخه (البداية والنهاية) من طريق الواقدي بالسند الذي ساقه به محمد بن سعد، وكأن ابن كثير استشعر القلق في روايته هذا الحديث من طريق الواقدي، وإدخاله في أحاديث الوفود، فأراد أن يدعمه، فذكر معه احاديث من أحاديث الخوارق الإعجازية في تكلّم وتكليم الحيوانات للناس بكلام الإنس كحديث الراعي الذي أخذ الذئب شاة من غنمه، فطلبها

الراعي حتى انتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه وكلم الراعي، بيد أن ابن كثير ترك حديث الواقدي لمجرد روايته، ثم راح يعضد حديث الراعي مع الذئب بأسانيد عن الترمذي والإمام أحمد، ولكنها أحاديث تشعر ببعد وقوع أحداثها إلا عند ابتداء انفراط عقد السنن الكونية العامة التي قام عليها نظام الكون في مسيرة الحياة، وتحل محلها سنن خاصة تمهد لحياة جديدة هي حياة الدار الآخرة بقوانينها وسننها التي تغاير سنن الحياة، ويدل لذلك قول رسول الله ﷺ الذي ذكره ابن كثير عقب حديث الراعي الذي أراد ابن كثير من إيراده دعم حديث وافد السباع: «والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلِّم السباع الإنس، وتكلِّم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده».

فحديث وافد السباع ضعيف لضعف الواقـدي، والأحاديث التي ساقها ابن كثير بعده صريحة كلها في أنها من آيات الله تعالى التي تقع أحداثها قرب قيام الساعة، ودخول نظام الكون العام في هذه الحياة الدنيا في طور انفراط عقد نظامه القائم على السنن الإلهية العامة التي تدخل تحت سلطان إدراك العقل الإنساني وقواعد العلم الكوني، وأصول المعرفة التي أقام الله تعالى على أساسها بسلطان اقتداره وقهره نظام الكون العام لتسير الحياة الدنيا على مقتضاه.

فلا وجه مطلقاً لإدخال حديث السباع في إطار أحاديث الوفود، كيف والعمدة في رواية هذا الحديث هو الواقدي، وضعفه وعدم الاعتماد على روايته إذا انفرد بها أمر معروف مشهور بين أهل العلم، ويزيد من ضعف إيراد هذا الحديث بين أحاديث الوفود ما عنون به ابن سعد في طبقاته لأحاديث الوفود، إذ قال: وفادات العرب على رسول الله ﷺ، فهل كان وفود الذئب، الذي تزعم رواية الواقدي أن النبي ﷺ سمّاه وافد السباع من وفادات العرب؟

وإنما وقفنا هذا الموقف من ابن سعد، وابن كثير في هذه المناقشة لنبيِّنَ للناس أن في مؤلفات الأكابر من أهل العلم الذين أخذوا حيزاً من إطار

المعارف الإسلامية بعض ما لا يحسن أن يكون في آثارهم من هذه المعارف، ولا سيما في موارد أحداث السيرة النبوية ومساقات أحاديثها، حذراً أن يلمّ بما فيها من لم يكن هناك من شباب الإسلام وناشئي طلاب العلم، وحذراً من أن يقع عليه نظر المتلقّفين لهفوات المعارف والعلوم فيتوهمها حقائق إسلامية، يشن بها غارةً هوجاء على منهج الرسالة الفكري، ويتخذها ذريعة إلى لون من النقد المشنّع قد يمس بعض قضايا الرسالة ومنهجها في كثير من نواحيه، مما يفتح جدلاً في قضايا المنهج الفكري أمام الدعاة لنشر الدعوة، فيعوق مسيرتها في الآفاق العالمية.

دعوتنا المتكررة إلى القيام بتنقية التراث الفكري في رسالة الإسلام واجب إسلامي.

ومن هنا فإننا لا نمل التكرار، ولا نسأم الإعادة لدعوة صادقي الإخلاص من أهل العلم في التشمير للنهوض إلى العمل الجاد لتنقية التراث الإسلامي مما ألم به من (ميكروب) الأوبئة الفكرية التي شوّهت معالم الرسالة، ووقفت عقبة كؤوداً في أعصر الجمود أمام اندفاع تيار نشر الدعوة وتبليغ الرسالة أداء لحق الوراثة النبوية، ومتابعة المسيرة التي حمل لواءها حذّاق العلماء من أئمة الإسلام وسلف الأمة الراسخين في فهم أصول الرسالة وفروعها وحكم أحكامها، ودقّة نظمها الاجتماعية، وعدالة أوضاعها الاقتصادية، ونقاء سياستها التربوية، واستقامة توجيهاتها السلوكية في الحياة.

قدّمنا أن ابن هشام ذكر أن أبا عبيدة قال: إن سنة تسع من الهجرة كانت سنة الوفود، وبيّنا تأويل ذلك بالحمل على الكثير الأغلب، لثبوت قدوم وفد مزينة ووفد هوازن وغيرهما قبل سنة تسع، وهذا الوصف لا يمكن أن يشتهر بين العلماء لهذه السنة إلا إذا كان قدم فيها على رسول الله ﷺ عدد من وفود العرب للإسلام والبَيْعة يملأ أحيازها بما يجعلها تستأهل هذا الوصف حتى كان خصيصة لها بين رواة أحاديث السيرة وأحداثها.

ونحن على منهجنا في البحث لا نقصد إلى استقصاء الروايات ولا نستهدف استيعابها، لكثرتها واشتمالها على الصحيح والسقيم من الواقع والأحداث، وفي هذه الروايات الموجز المخل، وفيها المسهب الممل الذي يستغرق فراغاً من البحث دون أن يكون فيه ما يحقق هدفنا منه.

هدفنا من هذه البحوث إبراز معالم منهج الرسالة في ضوء النقد الممحص.

وقد قلنا مكرراً أن هدفنا من هذا البحث إنما هو إبراز الأحاديث التي تحمل في طياتها شيئاً من معالم منهج الرسالة الخاتمة للرسالات الإلٓهية، ليكون نبراس هداية للأجيال المتعاقبة مع مرور الحياة من المجتمع المسلم أينما كان وكيفما كان لتتأسّى تلك الأجيال بهذه المعالم، وتتخذ ما فيها من توجيه إلٓهي وإرشاد نبوي، وتطبيق سلوكي، جمع لها حصائل الفكر والعمل ما حقق للأمة الإسلامية تاريخاً في قيادة الإنسانية وبناء حضارة إيمانية لم تعرف الحياة لغير هذه الأمة مدة استقامتها على منهج رسالتها.

والذين عنوا بذكر هذه الوفادات العربية على النبي ﷺ بعد انتصاراته المدوِّية كثيرون جداً، وحسبنا أن نعلم من واقع المعرفة الإسلامية أن كل من ألف في السيرة النبوية ودوّن أحداثها وجمع أحاديثها من القدامى على طريقهم في تجميع الروايات لم يغفل أحد منهم الحديث عن هذه الوفادات بين مقل مجحف، ومكثر مستنزف، ومتخير توسط فوفق.

بيد أنها في جملتها كانت تعوزها دقّة البحث والنقد المميز بين الغث والسمين، وقيامها على دعائم البحث والتحقيق، وكانت أميل إلى النقد ومتابعة الخالف للسالف اعتماداً على كثرة الحفظ والأسانيد، وكثرة الحفظ لم تكن قط في الحياة العلمية الإسلامية من موازين البحث والتحقيق، بل ربما كانت في أكثر أحوالها أبعد عن الضبط والتمحيص.

ومن ثَمّ اختلفت مؤلفاتهم بين الإيجاز الرامز والإطناب المستطرد، وكان الإيجاز ظاهرة كتب أعلياء المحدِّثين، والمثل الحي على ذلك الصحيحان، فهما من أوجز مصادر السنة عامة، وباب الوفود خاصة، وكان الإطناب المستطرد ظاهرة كتب المغازي والطبقات، والتجميع للتكثر في الروايات.

تحقيق عدد الوفود في أشهر مؤلفات السيرة.

وقد تراوحت أعداد الوفود التي دوِّنت رواياتها مفصّلة مبوّبة بين عشرة وفود ـ وهذا ما أمكن العثور عليه عند المقلِّين، ومن هؤلاء صاحبا الصحيحين ـ وبين خمسة وسبعين وفداً، وهذا ما ذكره محمد بن سعد في طبقاته، وأكثره كان من رواية شيخه محمد بن عمر الواقدي، وذكر ابن سعد

في هذا العدد حديث وافد السباع، وقد نقدنا صنيعه في ذكر هذا الحديث بين أحاديث وفود العرب.

ثم مضى على الطريق طائفة من المؤلفين في السيرة، فتفاوتت أعدادهم للوفود، مع التقارب في العدد، فابن كثير ذكر في تاريخه (البداية والنهاية) عدد الوفود وأحاديثهم وأحداثهم، فبلغ بها الخمسين وفداً، لكنه ذكر فيهم وفدي السباع والجن، فكان في ذلك متجاوزاً مقام الوفادات العربية، لأن حديث وفد السباع ليس له مكان في مقام الوفادات العربية، وإنما مكانه في باب المعجزات والخوارق الكونية، وحديث الجن ـ على ضعفه، بل بطلانه ـ مكانه عند تفسير قول الله جل شأنه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾.

وقد تخلّف عن إطناب الواقدي على لسان تلميذه محمد بن سعد في الطبقات عصريه وقرنه في المغازي وروايات أحاديث السيرة وأحداثها محمد ابن إسحاق، فذكر في سيرته التي وصلت إلى أيدي الناس بتهذيب الراوية الناقد ابن هشام من الوفود أقل قليلاً من نصف العدد الذي ذكره محمد ابن سعد في طبقاته.

ولم يفت الإمام العلّامة شمس الدين بن القيّم ذكر الوفادات العربية في كتابه (زاد المعاد)، فذكر منها مبوباً مفصلاً مع التعليق على ما عنّ له التعليق عليه لبيان فكرة لمحها فأراد إبرازها اثنين وثلاثين وفداً، وقد وقفنا معه عند ذكره لحديث وفد بني المنتفق، وكان متكلمهم لقيط بن عامر، أو ابن صبرة، وقد جاء في هذا الحديث تحاور للقيط مع النبي ﷺ في قضايا ومسائل لم تكن من معارف ذلك العصر قبل الإسلام، لكن ابن القيم تحمّس لها في حمية تشعر قارئها بشيء من العصبية الفكرية المذهبية، وسنعرض إن شاء الله تعالى لبحث ذلك عند الكلام على حديث هذا الوفد في عرض ابن القيّم له فيما ذكره من أحاديث الوفود.

ثم جاء اليعمري فذكر في عيون الأثر أحاديث وأحداث ثلاثين وفداً، فكان قريباً في العدد من ابن القيم، وقد زاد عليهما القسطلاني في مواهبه،

قليلاً فذكر من الوفود خمسة وثلاثين وفداً، ذكرها مرقمة.

وقد ذكر الزرقاني في شرحه للمواهب القسطلانية تعليقاً فقال: وقد سردهم الشامي فزاد على مائة، فلعلّ الجماعة اقتصروا على المشهورين أو الآتين لترتيب مصالحهم.

تأويل ما نقل الزرقاني عن الشامي في عدد الوفود.

ولم نطّلع على كلام الشامي في مؤلفه، ولعل هذه الزيادة الكبيرة عند الشامي في عدد الوفود جاءت من قبل التساهل في عد قدوم بعض الأفراد الوافدين وفوداً مستقلة، نحو قدوم ضمام بن ثعلبة، بعثه قومه بنو سعد ابن بكر، وكان النبي ﷺ بعث إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فبعثوا ضماماً ليتعرّف لهم ما كتب به إليهم رسول الله ﷺ، فلم يعدّ بعض ذاكري الوفود قدوم ضمام بن ثعلبة وفداً، كما أنهم لم يعدّوا قدوم مسعود بن سعد الجذامي رسول فروة بن عمرو الجذامي وفداً، وكان فروة عاملاً للروم على من يليه من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، وكان النبي ﷺ كتب إليه يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وأهدى للنبي ﷺ بغلة وفرساً، وأثواباً وقباء مذهّباً في أشياء أخرى، فقبل النبي ﷺ هديته، وأجاز رسوله مسعود ابن سعد باثني عشرة أوقية من فضة.

ولما علم الروم بإسلام فروة أخذوه وصلبوه على ماء يقال له: عفراء بفلسطين، ثم ضربوا عنقه رضي الله عنه على هذا الماء، وقد أبان عن قوة إيمانه بقوله حين قدموه ليقتلوه:

بلّغ سراة المسلمين بأنني سَلْم لربي أعظمي ومقامي

ولم يعدّ قدوم فروة بن مسيك المرادي وفداً، قال ابن إسحاق: وقدوم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ، مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم بعد أن أوقعت همذان بقومه بني مراد في يوم الردم حتى أثخنوهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، قال له رسول الله ﷺ: «هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟» فقال فروة: من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم لا يسؤه ذلك؟ فقال له ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً» ثم استعمله ﷺ على مراد وزبيد ومذحج، وأرسل معه خالد بن سعيد ابن

العاص على الصدقة، فكان خالد بن سعيد معه حتى توفي رسول الله ﷺ.

والذين ذكروا قدوم بعض الأفراد موفدين من أقوامهم إنما ذكروهم بعنوان القدوم، لا بعنوان كونهم وفداً، لأن المنفرد ـ كما يقول الزرقاني ـ لا يعد وافداً عرفاً، وإن عدّ لغة، وبعض المؤلفين في السيرة لا يتقيد بتعبير لفظ (وافد)، وقد يعبر عن الجماعة الوافدة بلفظ (قدم) كما وقع للقسطلاني في مواهبه، فذكر وفد الأشعريين وأهل اليمن بلفظ (قدم)، فقال تحت عنوان الوفد الثامن: وقدم عليه ـ أي رسول الله ﷺ ـ الأشعريون وأهل اليمن.

وقد قدّمنا أن احتمال أن الشامي ذكر كل من قدم على رسول الله ﷺ وافداً من قومه أو رسولاً بلفظ وفد، سواء أكان فرداً أو جماعة، وهذا مما يتسامح فيه، لأنه لا يترتب عليه ما يغير المقصود.

لم نقصد بهذا التحقيق استيعاب عدد الوفود.

وقد قدمنا أننا لا نقصد إلى استقصاء الروايات واستيعابها، وسنقتصر في بحثنا على اختيار بعض الوفود ممن نلمح على رواياتهم شيئاً من معالم منهج الرسالة التي نقف عندها مستوحين ما يتنزل من سمواتها من آيات عقلانية ودروس تربوية، وتشريعات حكيمة، وأنظمة اجتماعية، وآداب إنسانية، وفضائل خلقية أريد بها أن تكون عنواناً على عموم منهج الرسالة، ومناراً لهدايتها، ونماذج من قصص من نلمح في قدومهم لوامع من المنهج الإسلامي.

* * *

قدّمنا الحديث على وفد مزينة، وعلى وفد هوازن، وعلى وفد ثقيف في مناسباتها التي اقتضت الحديث عنها، وبيّنا في حديث كل وفد منها ما اقتضاه المقام من تعليق يبرز ما فيه من معالم منهج الرسالة، كما قدمنا شيئاً عن قدمة عامر بن الطفيل في وفد قومه بني عامر، الذين شعروا أنه يضمر غدراً بالنبي ﷺ فقالوا له: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم، فأبى عليه فجوره وغروره وشراسة كفره أن يدخل فيما دخل فيه الناس من الهدى، وقال لقومه: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم توافق مع قرنه في الفجور ولـؤم الكفر أربد

فجور عامر بن الطفيل وخذلان الله تعالى له.

ابن قيس أخي الشاعر لبيد بن ربيعة لأمه على الغدر برسول الله ﷺ، ومكرا ومكر الله والله خير الماكرين، وباءا بالخيبة والخزي والخذلان، وعصم الله تعالى رسوله ﷺ من كيدهما، ولما رأى عدو الله عامر بن الطفيل ما حلّ به وبقرنه في الفجور من الفشل في مكرهما قال يتوعد رسول الله ﷺ بأكذوبة الغرور الأجوف: (والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً) ثم ولّى مستكبراً فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل» وخرج عامر وقرنه أربد حتى إذا كانا ببعض الطريق رمى الله عامراً بالطاعون، وبرزت له غدّة كغدّة البعير وهو في بيت امرأة من سلول، فقتله الله أبشع قتلة وأماته أشنع ميتة، وجعل يندب نفسه ويقول: غدّة كغدّة البكر، وموت في بيت سلولية؟ قال السهيلي: عند غير ابن إسحاق أن عامراً ـ لعنه الله ـ لما رأى فشله في مكره قال في وعيده: (لأملأنّها عليك خيلاً جُرْداً ورجالاً مُرْداً، ولأربطنّ بكل نخلة فرساً) فجعل أسيد بن حضير يضرب في رؤسهما ويقول اخرجا أيها الهجرسان، فقال له عامر: ومن أنت؟ فقال أسيد بن حضير، فقال عامر: أحضير ابن سماك؟ قال: نعم، فقال عامر: أبوك كان خيراً منك، فقال له أسيد: بل أنا خير منك ومن أبي لأن أبي كان مشركاً وأنت مشرك.

وكان وفد مزينة أكبر الوفود عدداً، وأقدمهم زمناً، ثم وفد هوازن ثم وفد ثقيف.

قدوم أول وفد لبني تميم
تحقيق أسباب قدومه وأحداثه وآثارها
في تربية المجتمع المسلم

تحقيق فيما كان من وفد بني تميم في أول قدمة لهم على رسول الله ﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى قدومهم إشارة واضحة، فذكر ما كان منهم من جهالة وحماقة أجمع المفسرون على أنهم هم المقصودون بآيتها، فقال الله تبارك وتعالى خطاباً لرسوله ﷺ ليخفف عنه شدّة ما آذوه به من سوء الأدب: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ثم أبان عن طيشهم وسفاهة جهلهم، وأنهم قوم يستحوذ عليهم النَّزَق وخفّة الأحلام، لا يعرفون الأناة خُلُقاً، ولا التحلّم تخلّقاً، فقال جل شأنه: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ فهم جُفاة لا يعرفون مواقع لقاء العظماء، الذين يجب توقيرهم عند طلب لقائهم للتحدّث إليهم والحديث معهم ومخاطباتهم.

فالمناداة بمجردها تقتضي ـ عرفاً ـ الشعور والإشعار بالتباعد والنفرة، ويصحبها جهالة المنادي مكانة المنادَى، وعدم استحضار ما يستحقه من التوقير والتعظيم فوق ما يستحقه سائر الناس من الخاصة والعامة، كما يصحبها رفع الصوت مع الصَّخَب وقلّة المبالاة، وعدم عرفان أدب الخطاب مع المنادَى.

وكون النداء من وراء الحجرات يشعر بعدم رعاية الأدب العام الذي يجب أن يسود مخاطبات الناس والتحدّث إليهم والتحدّث معهم، كما يشعر أيضاً بالجهالة الجافية، والجفوة الجاهلة التي تسدل على العقل أستاراً كثيرة من ظلمات الحماقة، والحماقة توأم الجنون، ومن ثم جاءت الآية في خاتمتها

بتسجيل هذا الوصف على أولئك الحمقى، فقالت: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ والمتأمل في هذا التعبير يستشعر من حنايا دقته صورة للإنصاف والمعدلة، لأن هؤلاء المنادين للنبي ﷺ من وراء حُجُراته لم يَخْلُ جمعهم من أفراد حصّنهم العقل بشيء من رفيع الأدب، وحياء التخاطب، فأخرجوا من إطار سفه الحماقة وسوء الأدب في التخاطب، تمييزاً لهم بما تحلّوا به من خلق أبعدهم عن مشاركة الحمقى الجفاة في وصفهم الذي دمغوا به في الكتاب العزيز.

ثم بيّن الله تعالى أن هؤلاء الحمقى قد أعمى الجهل الجافي أبصارهم وبصائرهم، فلم يدركوا أولى بدائه العقل في موقفهم الطائش، لأن العقل يقتضي حسن الأدب، ومعرفة قدر النبي ﷺ، وما ينبغي له من تعظيم وتوقير، ولا سيما أنهم ـ كما في بعض الروايات ـ جاؤوه وقت القائلة وهو ﷺ نائم ليستريح قليلاً، ثم يخرج إلى أصحابه للصلاة بهم، فقال الله لهم بأسلوب الغَيْبة إنزالاً لهم عن مرتبة شرف الخطاب: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾ ومعناه: ولو أنهم اعتصموا بالصبر، فتفادوا حماقتهم الجافية في مناداتك من وراء حجراتك، حتى آذوك بصياحهم وصخبهم جهلاً بمقامك وقدرك (لكان خيراً لهم) في موقفهم، وتحقيق ما جاؤوا يبغونه من رسول الله ﷺ من إطلاق سبيّهم والمنّ عليهم، وإفضال الله تعالى عليهم.

ثم تفضّل ربُّ العزّة جلّ شأنه ـ وهو أهل الفضل والمنّ بعد هذا الدرس التهذيبي في مكارم الأخلاق ـ ففتح لهم باب الرجاء في رحمة الله التي وسعت كلّ شيء، فقال في خاتمة هذه الآية: ﴿والله غفور﴾ لزلّات عباده، متجاوز عن هفوتهم، (رحيم) بهم، يستنقذهم بجنود إحسانه من شراك الخطيئة، ويسبغ عليهم من سحائب فضله ما يطهرهم من أدران ما اقترفوه من الإثم.

عتب متلطف وتعليم للقادرين على الإرشاد أن لا يسكتوا عن الجهر بكلمة الحق ردعاً للسفهاء.

وفي قوله تعالى: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ عتب متلطف للذين تركوا الأمر لمن لم يحسنه، بما تضمنه من إشارة إلى ما يجب على الجماعة المترابطة من التكافل في مهام أمورهم اتقاء المزالق، ولا سيما في أدب الخطاب، وأن يكون عند العقلاء ما يردع أهل السَّفَه والحمقى من وسائل التفاهم، ليردّ المحسن

على المسيء بالقول أو الفعل، أو الإشارة المفهمة، أو الإيماءة الرامزة. وقد كان في هذا الجمع كما قلنا من كان يعدّ من خاصة عقلاء العرب وحلمائهم الحكماء، وذوي رأيهم الذين تحلّ بهم المعضلات من أضراب قيس بن عاصم المنقري الذي كان يضرب بحلمه ورجاحة عقله المثل، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ في قدمته ـ كما رواه ابن سعد بإسناد حسن ـ: (إنه سيد أهل الوبر).

وفي رواية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للأحنف بن قيس ـ وهو أحد حكماء العرب وحلماء الإسلام ـ ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس ابن عاصم، رأيته أُتي برجل مكتوف، وآخر مقتول، فقيل: هذا ابن أخيك قتل ابنك، فالتفت إلى ابن أخيه فقال: يا ابن أخي، بئس ما فعلت، أثمت بربك، وقطعت رحمك، ورميت نفسك بسهمك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني وحلَّ كتاف ابن عمك، وسُقْ إلى أمه مائة ناقة دية ابنها، فإنها غريبة، وحسب القوم قيس فيهم.

وهؤلاء القوم لم يقدموا على رسول الله ﷺ ليسلموا ويبايعوا كما كان شأن سائر وفود العرب، ولكنهم قدموا لفداء سبيِّهم وذراريهم، فدخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: يا محمد، يا محمد، اخرج لنا، فمَدْحُنا زَيْن، وذمنا شَيْن، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذاك الله إذا مدح زان، وإذا ذمَّ شان، إني لم أبعث بالشعر ولم أومر بالفخر».

سبب قدوم أول وفد من تميم وتأديب قومهم على يد من ليس منهم، ثم انزلق فكان منهم.

وكان عدد القوم كثيراً يربون على السبعين، فيهم عشرة من أشرافهم وذوي رأيهم، منهم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والقعقاع ابن معبد، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، وأضرابهم.

وذكر ابن كثير عن الواقدي أن سبب قدومهم أنهم كانوا قد جهّزوا السلاح وتأهبوا لغزو خزاعة بغياً وعَدْواً، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلاً، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم حتى ولّوا مدبرين، فأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً، فلما قدم بهم المدينة أمر بهم رسول الله ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث.

تصدّي تميم لمصدقي النبي ﷺ في أموال خزاعة.

وفي رواية عن الواقدي وأيضاً عن الزهري أن سبب البعث إليهم أنهم غاروا على ناس من خزاعة لمّا بعث إليهم رسول الله ﷺ بِشْر بن أبي سفيان العدوي الكلبي، يأخذ منهم الصدقات، ونهاه عن كرائم أموالهم، وقيل إنه بعث النحّام العدويّ فجمعوا له ما طلبه، فاستكثره بنو تميم وقالوا: ما لهذا يأخذ أموالكم بالباطل؟ فشهروا السيوف في وجه خزاعة، فقال لهم الخزاعيون: نحن مسلمون، وهذا أمر ديننا، فقال التميميون: لا يصل إلى بعير منها أبداً، فهرب بشر بن أبي سفيان رسول النبي ﷺ لأخذ صدقة خزاعة ورجع إليه ﷺ، وأخبره الخبر، فوثبت خزاعة على التميميين فأخرجوهم وقالوا لهم: لولا قرابتكم ما وصلتم إلى بلادكم، ليدخلنَّ علينا بلاء من محمد ﷺ حيث تعرضتم لرسوله، تردّونه عن صدقات أموالنا؟! فخرجوا راجعين إلى بلادهم، فقال ﷺ: «من هؤلاء القوم؟» فانتدب أول الناس عيينة بن حصن، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوا جمعه ولّوا هاربين، وسبى منهم نساء وذراري، وأسر رجالاً، وعاد بهم إلى المدينة المنوّرة، فقدم فيهم عدد من بني تميم يتقدمهم بعض من رؤسائهم وأشرافهم، ودخلوا المسجد ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته حتى آذوه بصياحهم الأحمق، وطيشهم الأخرق، وخروجهم عن حدود ما يجب له ﷺ من التوقير والتعظيم، فخرج ﷺ، وأقام بلال الصلاة، وتعلّق أولئك الجفاة برسول الله ﷺ يكلِّمونه، فلما فرغ من الصلاة، قاموا فقالوا له صلوات الله عليه: يا محمد جئناك نفاخرك، فأذن لخطيبنا وشاعرنا، فقال عليه الصلاة والسلام «قد أذنت لخطيبكم «فليقل»، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فقال:

خطبة عطارد بن حاجب خطيب وفد بني تميم

كلام خطيب تميم عطارد بن حاجب بن زرارة.

الحمد لله الذي له علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق، وأكثره عدداً وأيسره عدّة.

فمن مثلنا في الناس؟! ألسنا برؤوس الناس، وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فلْيَعْدُد مثل ما عدَدْنا، وإنا لو نشأ لأكثرنا الكلام، ولكنا نخشى من

الأكثر فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا.

فقال رسول الله ﷺ لخطيبه ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري ـ وكان مفوّهاً فصيحاً عليماً بمقامات الكلام، قوّاماً بالكلمة الفاصلة ـ: «قم ياثابت فأجب الرجل في خطبته» فقام ثابت، وبين شدقيه لسان قؤول، وفي حنُايا صدره قلب عقول فقال:

خطبة ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ

إجابة خطيب رسول الله ﷺ لعطارد.

الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، وسع كرسيه علمه، لم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خيرته رسولاً، أكرمه نسباً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتاباً، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فِعالاً.

ثم كان أول الناس إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

* * *

نظر وتأمل في منهج الخطيبين.

ونظرة متأملة في الخطبتين تكشف عن الفوارق الفكرية بينهما، وهي فوارق تنبع من معين البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الخطيبان، فعطارد ابن حاجب خطيب تميم نهد في بيئة بدوية مغلقة النوافذ عن نسيم الحياة الفكرية المتحضرة، مسدودة الأبواب عن أي نظام اجتماعي مترابط، يربط الفرد بالجماعة والجماعة بالفرد، ربطاً يقوم على دعائم من العدل والحكمة، فهي بيئة محجوبة عن شمس الهداية وضوئها بركام من سحاب الجهالة، لا تعرف من مفاخر الحياة إلا المال، تتفاخر بكثرته، وتتباهى بأنواعه، وتَعَزَّز برؤيته، بيئة لا تعرف عقيدة، ولا تعتصم بدين، ولا تئل تربيتها إلى قانون أو نظام

سياسي يقيم موازين العدل بينهم، وينشر الأمن والاستقرار فيهم.

وهذه كلها أمور موضعية في بيئة قفراء مجدبة، تعيش على الغارات للنهب والسلب وسفك الدماء؛ ليأكل الذين يعيشون فيها من سائمات الإنسانية كما تأكل الإنعام، دون أن يكون لهم وراء ذلك هدف إنساني أو مطمع في خير، بيئة تفكيرها حماقة، وعلمها جهالة، ودينها ضلالة، وحلمها سفاهة، وسعيها مثبور، وأمنها مبتور، وحماها مشرع مورود، تحكمها الحماقات الهائجة والثارات المسعورة، والنفوس الموتورة ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ﴾.

يشترون الكفر بالإيمان، والضلال بالهدى، والسفاهة بالحلم، والحماقة بالعقل، والأمن بالخوف، والعزّة بالذلّة، وفي ذلك كانت مفاخرهم، وشموخ معاطسهم، وبطر أنفسهم، لا يقبلون الخير إلاّ وهم كارهون، ولا يردون موارد النور إلا وهم عن إشراقها أعشياء لا يبصرون، يحسبون نمير الحق سراباً، ينتشر في آفاق الشِّعاب والأودية، تسوقهم شياطين الغرور ومردة الفجور إلى حتوفهم وهم لا يشعرون، استحبُّوا العمى على الهدى، فكانوا في ضلالاتهم أخسر الأولين والآخرين صفقة إلا من عصم الله فاهتدى بهُدَى الله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

أما خطيب رسول الله ﷺ ومتكلم المجتمع المسلم ثابت بن قيس الأنصاري فكان في حكمته الأسلوبية، وبراعته اللسانية، وسياسته الجوابية ومعرفته بمواقع الكلمة النافذة في مقامها لتصيب المحز، وتطبق المفصل، كأنه يقرأ صحائف من نور الهداية البالغة في منازلها من النفوس الواعية.

فبدأ بحمد الله على عظمة خلقه، ونفاذ أمره، مبيِّناً أن ما فخر به أولئك الجفاة من كثرة المال ووسيع الثراء إنما هو من نعم الله وفضله الذي يستوجب شكره، والإيمان به إلٰهاً واحداً، لا ندّ له ولا شريك في ملكه وملكوته، وأنه تعالى اصطفى من خيرته رسولاً، خصّه من فضله بما لم يعطِ خلقه مثله، وأنه حمّله أمانة رسالته الخاتمة، فكان بها خيرة الله من العالمين،

وأنه دعا الناس قاطبة إلى الإيمان به رسولاً، فأقبل عليه صفوة الخلق من المهاجرين، وذوي القربى وهم أكرم الناس معادن، وأشرفهم في منازل الإنسانية أحساباً، وأمجدهم في فواضلها فعالاً، ثم قفّى على أثرهم أنصار الله وأنصار رسوله ووزراؤه، فكانوا أخلص من دعي إلى الهدى، فأجاب داعي الله وآمن، ونصر وآزر، وآوى وآثر.

ومن هؤلاء وهؤلاء أقام رسول الله ﷺ مجتمعه المسلم الذي حمل لواء الدعوة إلى الله، ورفع رايات نشر الرسالة خفّاقة في الآفاق، يدعون الناس إلى الإيمان بما جاءهم من الحق والهدى، فمن آمن فقد حصن نفسه وماله، وعصم دمه، ومن أبى عناداً وفجوراً، وأعرض كفراً وعتوّاً قاتلوه حتى يفيء إلى أمر الله، أو يطهّروا من رجسه الأرض، وكان ذلك عليهم يسيراً.

ثم ختم خطيب رسول الله ﷺ خطبته بما أرغم به الشيطان، وكبح به جماح الغرور بهضم نفسه، والاستشعار بالقصور في القيام بحق العبودية لله وحده، فقال: وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. وهذه إحدى الروايات في نص الاستغفار الذي ختم به خطبته.

الاختلاف فيما جاء في نص استغفار ثابت ابن قيس وتوجيه ذلك.

وهذا الاستغفار لنفسه رضي الله عنه ثمرة من ثمرات الإيمان والعلم بجلال الله في وحدانية ألوهيته وربوبيته، وفيه إشعار لهؤلاء الجفاة أن أول الحقوق وهو حقُّ الله على عباده بإخلاص الإيمان بجلال وحدانيته وإفراده بالعبودية له بجميع أنواعها ومظاهرها، وفي ذلك تلميح بتبكيتهم ما ارتضوه لأنفسهم من ضلال أحمق وجَفْوة خرقاء، وهذا الاستغفار الذي جاءت به هذه الرواية لهؤلاء المتسوِّرين بنداء سيد المرسلين من وراء الحجرات كان من قبيل الاستئلاف واستمالة القلوب للدخول في الإسلام، وهذا لا ينافي أن يكون من قبيل الدعاء لهم بالهداية تأدباً بأدب النبوة الرحيمة، على حدِّ قوله ﷺ في غزوة أحد وقد آذاه المشركون من قومه أبشع إيذاء: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وقد تأوّل العلماء طلب المغفرة لهم وهم ليسوا بأهلها بالهداية، فكأنه قال صلوات الله عليه: «اللّهم اهد قومي» وقد وردت

الرواية بلفظ (الهداية)، فكان حمل رواية (اغفر) على معنى (اهد) أولى في الجمع بين الروايتين من ترك إحداهما.

وأما الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فهو على ظاهره، لأن العبد لا يخلو عن هفوات وتأثمات، ويحتمل أنه دعاء لهم أن يحجب الله عليهم الإثم أو يحجبهم عن الإثم، فلا يلحقهم إبقاء على طهرهم، وصفاء إيمانهم، ونقاء إخلاصهم.

نص آخر لخطبة ثابت بن قيس نميل إلى ترجيحه.

وفي تفسير أبي حيان المسمّى البحر المحيط نص لخطبة خطيب رسول الله ﷺ ثابت بن قيس، يختلف عن النص الذي أورده ابن إسحاق ومن تابعه في روايته للقصة وأحاديثها وأحداثها، ونحن نورد هذا النص عن البحر لأبي حيان، قال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمه، أحسن الناس وجوهاً، وأعظمهم أحلاماً فأجابوه.

والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه، ووزراء رسوله، وعزّاً لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع نفسه وماله، ومن أباها قتلناه، وكان رغمه علينا هيناً، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

ونحن أميل أن هذا النص الذي لم يذكر له أبو حيان سنداً ولا مخرجاً أرجح وأقرب إلى معالم الهداية الإسلامية في أسلوبه ومعانيه.

* * *

المفاخرة بالشعر وشعر القوم لا يوثق به ويغلب عليه الانتحال والتلفيق.

ثم أذن رسول الله ﷺ لشاعر القوم، فقام الزبرقان بن بدر فأنشد ـ كما يقول محمد بن إسحاق: ـ

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا يُنْصب البِيَع

وفي رواية: وفينا تقسم الربع.

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع

وقد أنكر ابن هشام أن تكون هذه العينية من شعر الزبرقان، وكان

حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله ﷺ غائباً، فبعث إليه رسول الله ﷺ، قال حسان رضي الله عنه: جاءني رسول رسول الله ﷺ فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم، فقال ما قال أعرضت له في قولي وقلت على نحو ما قال:

إن الذوائب من فِهْر وإخوتهم ... قد بيّنوا سنة للناس تُتَّبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يتبع
قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن كان في الناس سبّاقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ
إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا

في أبيات تقرب في عدتها من أبيات القصيدة المنسوبة للزبرقان التي أنكرها ابن هشام، ولم يعلّق ابن هشام على أبيات حسّان، وهي على روي وبحر قصيدة الزبرقان ومعارضة معانيها؛ ممّا يدل على صحة نسبتها لحسان ابن ثابت رضي الله عنه أو نسبة بعضها له، وأدخل فيها من الشعر المنحول ما أدخل، وهذا ظاهر في تفاوت معانيها، وانسجام أسلوبها، وإذا صحّت النسبة إلى حسان، ولو لبعض الأبيات صحت نسبة بعض أبيات قصيدة الزبرقان له أو لغيره من قومه.

قال ابن هشام: وأخبرني أهل العلم بالشعر من بني تميم أن الزبرقان ابن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناسُ فضلنا ... إذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنّا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارمِ

وهذان البيتان اللذان نسبهما ابن هشام للزبرقان بن بدر نسبهما أبو حيّان مع شيء من التلفيق إلى الأقرع بن حابس، قال أبو حيان بعد أن أورد أبياتاً من قصيدة حسان الرائية: نصرنا رسول الله والدين عنوة، فقام الأقرع فقال: إني والله قد جئت لأمر، وقد قلت شعراً فاسمعه ـ يريد رسول الله ﷺ ـ ثم أنشد:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وأنا رؤوس الناس في كل غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم

ثم ذكر أبو حيان بيتاً ثالثاً ملفّقاً فقال:

وأنا لنا المرباع في كل معشر ... وأن ليس في أرض الحجاز كَدارمِ

فقال النبي ﷺ لحسان: «أجبه» فأجابه حسان بأبياته الميمية التي يقول فيها:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يصير وبالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خدم من بين ظئر وخادم

فقال النبي ﷺ: «لقد كنت غنياً يا أخا دارم أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد لتنوه»، فكان قوله ﷺ أشد عليهم من جميع ما قاله حسان رضي الله عنه.

ثم ذكر أبو حيّان بيتي حسان رضي الله عنه:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تُقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نِدّاً وأسلموا ... ولا تفخروا عند النبي بدارم

فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر؟ تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا الأقرع من رسول الله ﷺ وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبي ﷺ: «ما يضرك ما كان قبل هذا» ثم أعطاهم وكساهم استئلافاً لهم، ولم يكن ذلك من قبيل الجوائز.

ثم قام حسان رضي الله عنه، فقال:

نصرنا وآوينا النبي محمداً ... على أنف راضٍ من معدّ وراغم
بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تُقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نِدّاً وأسلموا ... ولا تلبسوا زيّاً كزي الأعاجم

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسّان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤتّى له!! لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من

شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا!!

ثم قال ابن إسحاق: فلما فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

* * *

بين الزبرقان وعمرو بن الأهتم والإعجاز البشري في كلام رسول الله ﷺ.

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) أن الحافظ أبا بكر البيهقي روى بسنده من طريق يعقوب بن سفيان، عن محمد بن الزبير الحنظلي، قال قدم على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم: «أخبرني عن الزبرقان، فأما هذا ـ أي قيس بن عاصم ـ فلست أسألك عنه» قال راوي الحديث: وأراه قد عرف قيساً، فقال عمرو بن الأهتم يصف الزبرقان: مطاع في أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: قد قال ما قال وهو يعلم أني أفضل مما قال، فقال عمرو بن الأهتم: والله ما علمتك إلا زمر المروءة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال، فرؤي في وجه رسول الله ﷺ، فقال عمرو بن الأهتم: يا رسول الله، قد صدقت فيهما جميعاً، أرضاني فقلت أحسن ما علمت، وأسخطني فقلت بأسوأ ما أعلم، فقال ﷺ: «إن من البيان سحراً».

قال ابن كثير: وهذا مرسل من هذا الوجه، قال البيهقي: وقد روي من وجه آخر موصولاً، ثم روى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس إلى رسول الله ﷺ: قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر، وعمروابن الأهتم التميميون، ففخر الزبرقان، فقال يا رسول الله، أنا سيد تميم، والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم، وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا أي عمرو بن الأهتم، يعلم ذلك، فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أدنيه، فقال الزبرقان: والله يا رسول الله، لقد علم مني غير ما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو بن الأهتم: أنا أحسدك؟ فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مضيّع في العشيرة، فرؤي في وجه رسول الله ﷺ عدم الرضا لاختلاف القول في

شخص واحد، وزمن واحد ومكان واحد، فقال عمرو بن الأهتم وقد عرف الإنكار لقوله في وجه رسول الله ﷺ: والله يا رسول الله، لقد صدقتُ فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت آخراً، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقتُ في الأولى والأخرى جميعاً، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان سحراً» قال ابن كثير: هذا إسناد غريب جداً.

* * *

مناقشة قول ابن إسحاق فلما فرغ القوم أسلموا وجوّزوا.

عَرْض قصة قدوم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ، وفيهم من أشرافهم جماعة مسمّون في قومهم في هذا الإطار الذي عرضته فيه روايات القصة واضح في أن سبب قدوم هذا الوفد لم يكن قطُّ مستهدفاً الدخول في الإسلام، ومبايعة رسول الله ﷺ كما كانت تستهدف ذلك سائر وفود العرب التي ضربت إليه ﷺ آباط الإبل بعد غزوة تبوك مبايعة مسلمة، سائلة عن أحكام هذا الدين القيِّم، عاملة بما علمت، حاملة رايات نشره والدعوة إليه في الآفاق.

ولم نقع على رواية من روايات القصّة تحدثت عن إسلام بني تميم في هذه القَدْمة سوى هذه الكلمة العابرة التي ختم بها ابن إسحاق عرضه لأحاديث وأحداث قدوم وفد بني تميم، الذي أطبقت الروايات على أن سبب قدومه إنما هو فداء أسراهم من النساء والذراري الذين جلبهم عيينة ابن حصن الفزاري، بعد أن هرب رجالهم، وتركوهم نهباً للسبي والأسر، إلى جانب ما كان منهم من مظاهر حماقاتهم الخرقاء واصطراخهم الصاخب الأهوج بأنهم قدموا للمفاخرة والمنافرة.

ومن هنا لم يظهر لنا وجه لإقحام ابن إسحاق قوله: فلما فرغ القوم أسلموا وجوّزهم فأحسن جوائزهم.

وهذا كلام يحوطه القلق من أكنافه في موضعه الذي اختاره له ابن إسحاق من إطار القصة وأحداثها، وهو بصورته المبترة وأسلوبه المحزم كأنما

ألقي هكذا إلقاء لتختم به قصة قدوم وفد بني تميم مضاهاةً للصورة التي ختمت قصص الوفود التي قدمت للإسلام والبّيعة، فأسلمت وبايعت، وعادوا إلى أقوامهم في مضاربهم مبشّرين ومنذرين، وهداةً معلمين، وجنداً في كتائب الإسلام مجاهدين.

وجوه استبعاد ما زعمه ابن إسحاق من إسلام وفد تميم.

والذي يجعلنا نستبعد صحة هذا القول من ابن إسحاق وغيره ممن اتبعه من المؤلفين في السيرة بعده:

أولاً ـ أن الذين ذكروا قدوم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ في مؤلفاتهم السيريّة يوشك أن يكونوا مطبقين على أن بني تميم لم يقدم وفدهم في هذه القَدْمة يريدون الإسلام والبّيعة، كما هو حال سائر وفود العرب، وإنما كان سبب قدوم وفد بني تميم فداء سبيهم وذراريهم الذين أخذتهم سريّة رسول الله ﷺ التي بعثها إليهم بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، لما بلغه ﷺ أن بني تميم جهّزوا لحرب خزاعة، أو بني العنبر، وقد جاءهم مصدّق رسول الله ﷺ بشر بن أبي سفيان، أو النحّام العدوي، ليقبض صدقاتهم، فكبر ذلك على بني تميم واستكثروه، ومنعوا مصدِّق رسول الله ﷺ أن يقبض ما أعدّته خزاعة أو بنو العنبر من صدقات أموالهم، وكان هذا من أشد ما تعرّض له المجتمع المسلم في سبيل تطبيق أركان الإسلام، فعظم ذلك على النبي ﷺ، وبعث إليهم سرّية عيينة، ولكنهم لما رأوا كتيبة المجاهدين فرّوا هاربين، فأخذ عيينة ما وجده في ديارهم من النساء والذراري ورجع به إلى النبي ﷺ، وكان من عادته الكريمة ﷺ أن لا يتعجّل بالأسرى والسبي، بل كان يستأني بهم تطلُّعاً إلى إسلام قومهم، فحبس ﷺ سبايا عيينة في دار رملة بنت الحارث وكان بيتها داراً للأسرى.

الوجه الثاني لهذا الاستبعاد.

ثانياً ـ أن القادمين على النبي ﷺ من بني تميم جاؤوا تَقْدُمهم حماقاتهم الجافية، وبأو عنجهيتهم الطائشة في صورة أزعجته ﷺ وآذته إيذاء شديداً، خرجت عن كل أدب عامٍّ في المخاطبة، فدخلوا المسجد النبوي في وقت القائلة، والنبي ﷺ نائم، وكانوا زهاء تسعين رجلاً، فيهم عدد من أشرافهم ورؤسائهم، فنادَوه ﷺ باسمه مجرداً عن سمات التوقير والتعظيم ومظاهر

الأدب في صياح صاخب من وراء حجراته: يا محمد، اخرج إلينا، فإنا جئناك نفاخرك، وقال أحد سفهائهم: إن مدحي زَيْن، وذمي شَيْنٌ، فخرج إليهم ﷺ وقال لكاذبهم: «كذبت، ذاك الله تبارك وتعالى» وأنزل الله فيهم: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون﴾.

ولم يذكروا شيئاً عن رغبتهم في الإسلام، فكيف يقال أنهم أسلموا؟ وكيف أسلموا؟ وما الذي عرفوه عن الإسلام في هذه القِدْمة؟ وما أثر إسلامهم هذا في أقوامهم بعد إذ رجعوا إليهم؟.

الوجه الثالث لاستبعاد زعم ابن إسحاق.

ثالثاً ـ إنهم حينما خرج إليهم رسول الله ﷺ استقبلوه بعنجهية شرسة، فقالوا له: جئناك لنفاخرك، فائذن لخطيبنا وشاعرنا، وهذا قول نسجت خيوطه الحماقة الجافية، وهو من أشد المجافاة للإسلام، فلو كان الإسلام هَجَس في قلوبهم لقالوا مثل ما قال الذين وفدوا على رسول الله ﷺ يريدون الهداية والإسلام.

وقد تلطَّف بهم رسول الله ﷺ، فوسع حلمه حماقتهم، وأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة ـ وهو أحد رؤسائهم ـ فقال ما قال في خطبته، دون أن يذكر فيها كلمة واحدة تدل على رغبتهم في الإسلام وهدايته، فأين كان إسلامهم الذي رمى به ابن إسحاق في روايته لقصتهم دون أية مقدمات تمهِّد له، أو إشارة تدل على وجوده في أنفسهم، سوى أنهم جاؤوا للمفاخرة ففاخروا، وطلبوا المنافرة فنافروا، وكبا بهم جواد حماقتهم كبوة رمت بهم في هاوية الاستسلام بأنهم في موقفهم الأحمق ليسوا بأهل لأن يفاخروا مجتمعاً ربّاه أكمل الكملة صلوات الله وسلامه عليه.

ولما انتهى خطيبهم من لوثة أعرابيته أمر رسول الله ﷺ خطيبه ثابت ابن قيس الأنصاري أن يقوم فيجيبه، فقام ثابت رضي الله عنه بروح مؤمنة، ولسان مهذَّب، وقلب أخلصه صفاء الإيمان، فتكلم لا يقيم وزناً لمفاخرة الجاهلية الوثنية، ولكنه كان يتكلم بلسان الهداية التي كانت وما تزال مفاخرها هي نصرة دين الله تعالى، ونصرة نبيه ﷺ، ونشر دعوته وتبليغ رسالته، والجهاد لإعلاء كلمة الله بالحجّة البيِّنة، ثم بالسيف المقيم لعوج

الأخادع عند المغرورين المستكبرين من أحلاس الشرك ومراضع الوثنية.

الوجه الرابع لاستبعاد زعم ابن إسحاق

رابعاً ـ إننا نقرأ في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ الذي أجاب به الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم هذين البيتين اللذين خاطب بهما وفد بني تميم:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم — وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نـداً وأسلموا — ولا تلبسوا زياً كزيِّ الأعاجم

وأول البيتين صريح في أنهم قدموا لحقن دمائهم وصون أموالهم خشية أن يجزيهم النبي ﷺ على سوء تصرفهم مع مصدّقه لأموال خزاعة، أو أموال بني العنبر، أو على تجهيزهم السلاح لحرب خزاعة الذين كانوا قد أعدّوا صدقاتهم ليبعثوا بها إلى رسول الله ﷺ، ليضعها في مواضعها من مقاسم الصدقات، ولم يُذكر شيء قط في هذه المفاخرة الشعرية يؤذن من قريب أو بعيد بأن هؤلاء الجفاة الحمقى قدموا على رسول الله ﷺ ليسلموا ويبايعوا، أو ليتكلموا في فداء سباياهم وذراريهم، فقد أنستهم جفوتهم الحمقاء أن يتحدّثوا في تخليص هؤلاء السبايا والذراري الذين أجهشوا لهم بالبكاء حينما رأوهم يمرّون عليهم وهم في محبسهم من دار رملة بنت الحارث الأنصارية.

ويأتي البيت الثاني صريحاً في تسجيل عدم إسلامهم، وأنهم لم يَقْدَموا كسائر وفود العرب للإسلام والبَيْعة، لأن حسَّان رضي الله عنه جبههم في هذا البيت بأنهم لم يَقْدَموا للإسلام، وإنما قدموالحقن دمائهم وأموالهم، وهذا أمر لا يتحقق لهم إلا إذا طرحوا الشرك وراء ظهورهم، واتخذوا التوحيد عقيدتهم، ودخلوا في دين الله كما دخل فيه الناس أفواجاً، ولا يتخذوا من الكفر هيئة تبعدهم عن عروبتهم، وتدخلهم في حظائر الأعاجم الذين لم يؤمنوا بالله إلهاً واحداً ويخلعوا الأنداد والشركاء.

فهذان البيتان صريحان في أن وفد بني تميم لم يَقْدَم للإسلام ولا حدّث نفسه به، فمن أين جاءت رواية ابن إسحاق التي يخبر فيها بأن القوم أسلموا، وأن النبي ﷺ جوّزهم فأحسن جوائزهم، بمجرد أن فرغت مفاخرتهم ومنافرتهم، دون أي حديث يمهِّد لهذا الإسلام؟.

الوجه الخامس لاستبعاد زعم إسلام بني تميم.

خامساً ـ إن الناظر في قصص الوافدين من قبائل العرب، متأملاً في أحاديثهم وأحداثهم، سواء كانوا أفراداً من أشراف القبائل ورؤوس البطون، بعثهم أقوامهم ليرتادوا لهم الأخبار عن انتصارات المجتمع المسلم بقيادة رسول الله ﷺ، أم كانوا جماعات من ذوي رأي القبائل وزعماء البطون أرسلهم أقوامهم ليعلموا لهم علم رسول الله ﷺ، وعلم ما جاء به من هذا الدين الجديد الذي سفّه أحلام العرب في شركهم ووثنيتهم التي توارثها الآباء عن الأجداد، والذي كشف الغطاء عن جهالتهم الحالكة، فانقادت له قبائل العرب، واعتنقت عقيدته التوحيدية، وحملت رايات الجهاد في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى العالمين، ولم تبقَ بعيدة عنه في جزيرة العرب إلا هذه الشراذم المتشتتة هنا وهناك، تراوحها الحَيْرة، متربصة، لا تتقدم ولا تتأخر حتى أتاها اليقين، فنهضت لتلحق بركب الهدى والنور، وأرسلت عرّافيها، وأهل خبرتها وحكماءها، فجاؤوها بالبيِّنات بعدما سألوا وأجيبوا وعلموا وعُلِّموا، وأسلموا وبايعوا، ونشروا بين أقوامهم صحائف الهداية، فاتّبعهم أقوامهم، وآمنوا إيمانهم وأسلموا وجوههم لله رب العالمين.

كذلك كان حال الوفود في حرصهم على فهم الإسلام، وتعلّم شرائعه وأحكامه، وآدابه، ونظمه في الحياة، وتطبيق ما عُلِّموه تطبيقاً عملياً، جعلهم نماذج حية لفضائله.

حرص الوفود على التفقه في الدين ومكارم رسول الله فيهم.

وقد كان لكثير منهم سؤالات عن أشياء كانت شائعة بينهم ابتغاء معرفة حلالها وحرامها، وكان النبي ﷺ حريصاً أشدّ الحرص على تفقيههم في الدين، وبيان أحكام ما سألوه عنه، وكان صلوات الله وسلامه عليه يدني منه من يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهاً فيه ويقول لأصحابه: «فقِّهوا إخوانكم».

وكان الوافدون ينزلون في أيام وفادتهم دار الضيافة، فيكرمهم، ويرسل لهم الطعام من بيته، ويذهب إليهم يحدثهم ويعلمهم وهو واقف بينهم يراوح بين رجليه من طول قيامه حفاوة بهم، وإشفاقاً عليهم، وعلى مَنْ وراءهم من أقوامهم ليخرجهم من ظلمات الجهالة الوثنية إلى نور الهداية

التوحيدية، ويسألهم عن حال قومهم وبلادهم، ويدعو لهم بأخصب الغـوث إذا أجدبوا، ويبتهل إلى الله تعالى أن يرفع عنهم ما ينزل بهم من بلاء وأزمات في أنفسهم وأموالهم، ويهدي إليهم ويقبل هداياهم، ويحدّثهم ويبتهل إليهم، ويسأل عمّن يعرف من شرفائهم، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق في الشدة والرخاء، وحثّهم على الاعتصام بالصبر إذا طاف بهم طائف البلاء، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوِّي بينهم، فيجيز صغيرهم بمثل ما يجيز كبيرهم، وكان خازنه بلال رضي الله عنه إذا لم يسعفه ما عنده لقلّة ما في يده أعطاهم ما سنح واعتذر لهم.

فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هُداة دعاة، مشرقة قلوبهم بنـور الإيمان، يعلمونهم مما علِّموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي ﷺ وبرّه وبِشْره، واستنارة وجهه سروراً بمَقْدَمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم وتحاببهم، ومواساة بعضهم بعضاً، ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ، ولقاء أصحابه، ويحببوا إليهم التأسّي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم.

هكذا كان دأب الوفود التي وفدت على النبي ﷺ للإسلام والبَيْعة، لم يندّ عن ذلك إلا وفد بني تميم في قَدْمته لفداء سباياهم وذراريهم، وهكذا كان موقف النبي ﷺ وموقف أصحابه من جميع الوفود التي وفدت للإسلام والبَيْعة.

فالدافع لجميع الوفود التي روى أحاديثها وأحداثها أهل السيرة النبوية من السلف والخلف خلا وفد تميم الذي قدم للمفاخرة والمنافرة، ونسي الدافع الأول لقدومه، وهو تخليص سباياه وذراريه - إنما كان هو الإسلام والبَيْعة والتشرّف برؤية النبي ﷺ، وتلقِّي أصول الإسلام وشرائعه منه ﷺ، والاقتداء بسمته وعمله، والتأسِّي بأصحابه فيما أخذوه عنه من الهُدَى ومعالم الإيمان علماً وعملاً وسلوكاً وتربية.

فمن أين جاء ابن إسحاق بإسلام بني تميم في هذه القَدْمة الذي أقحمه على القصة وختم به حديثها؟ بصورة شاردة نافرة، وأسلوب قلق لا

يرتبط بأحداث القصة، ولا بشيء من وقائعها.

ولو لم يكن من موجبات طرح قول ابن إسحق أن القوم لما فرغوا ـ أي من مفاخراتهم الجاهلية ومنافراتهم العنجهية الحمقاء ـ أسلموا وجوّزهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهم ـ! إلا ما أنزل الله تعالى في تجبيههم وتقريعهم على قبح ما صدر منهم لكان كافياً، بل فوق الكفاية، وذلك بما أنزل الله تعالى فيهم من وحيه الذي حطّهم عن معنى الإنسانية الذي خصّ الله به الإنسان تمييزاً له عن سائر مخلوقاته، وبه فضّله على كثير منها، وبه وضع في يده قيادة الحياة، وبه سخّر له معالم الكون، وأخضع له مظاهر الطبيعة حتى علم من أسرارها ما كشف له عن وجه الحقيقة الكبرى، وهي التي أرسل بها جميع الرسل لهداية الخلق وإخراجهم من ظلمات الشرك، وحوالك الوثنية إلى نور التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى وحده، ثم ختم عزّ شأنه هذه الرسالات ـ بعد أن اكتمل مناط التكليف في الإنسان باكتمال خصّيصة التمييز بين المتماثلات والتفريق بين المتشابهات التي هي سرّ الله في الإنسان ـ بهذه الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد النبي الأميّ ﷺ، التي شَرُفَ بها الوجود عامة، وأمة العرب خاصة على سائر الأمم والشعوب باستخلافها في الأرض ما دامت معتصمة بهذه الرسالة، باصطفائه حامل أمانتها من أشرف أروماتها، وكتب التوفيق والفلاح لمن اتبع سبيلها، وجعل البوار والضلال على من تنكّب طريقها.

تجبيه القرآن الحكيم لوفد بني تميم يرد دعوى ابن إسحاق في إسلامهم.

وذلك قول الله تعالى: ﴿إن الذين ينادُونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وقد أجمع المفسّرون على أن هذه الآية نزلت لتسجيل جفوة هؤلاء الحمقى، وتسجيل ما عابهم الله به وعنّفهم عليه، ووصفهم فيها بما حطّهم عن أحطّ مراتب خصّيصة الإنسان التي كان بها إنساناً، وقد ذكر المفسرون ما لعلّه مستند لإجماعهم على ما قالوا، قال القرطبي: وسئل رسول الله ﷺ فقال: «هم جفاة بني تميم، ولولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجّال لدعوتُ الله عليهم أن يهلكهم».

ومعنى هذا الحديث أن الآية ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾

نزلت في جفاة بني تميم الذين آذوا النبي ﷺ بجلافتهم وسوء أدبهم وقبح فعالهم، إذ نادوه في سفه وحماقة وهو قائلٌ في ساعة الظهيرة من وراء بيته في صياح صاخب لا يصدر عن إنسان متحلٍّ بحلية الخصيصة الإنسانية، وإنما يصدر ممن لم يكن له حظ من هذه الخصِّيصة، منحدراً من عليائها إلى مهاوي الحيوانيّة التي لم يكن لها في خلقتها من هذه الخصيصة نصيب.

هل الحديث هو القول الفصل في بطلان قول ابن إسحاق

ثم أخبر النبي ﷺ بطريق الإشارة المعبِّرة بما جاءه به الوحي أن هؤلاء الجفاة الحمقى سيُخرج الله من أصلابهم وأصلاب سلالاتهم على مرّ الدهور من يكون له موقف إسلامي كريم عند نزول جائحات الفتن التي سيكون أشدها خروج الأعور الدجّال، وهذا الموقف منهم سيكون من أشد المواقف في الجهاد ودرء جوائح الفتن عن الأمة، ومن أجل هذا الموقف أكرمهم رسول الله ﷺ وامتنع عن الدعاء عليهم دعاء يهلكهم ويستأصل شأفتهم جزاء ما اقترفوه في حماقاتهم، وهذا الموقف هو أحد مواقف أبناء وأحفاد وسلالات الطغاة الذين آذوا رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده، فأبوا إلا العناد، وركبوا متن الشيطان حتى قذفهم في نار جهنم خالدين، ولكن الله تعالى بحكمته استنبت منهم نباتاً طيباً، واستخرج من ظهورهم ذرية صالحة حملت ألوية الجهاد في سبيل الله، فكانت أعظم الفتوحات الإسلامية على أيديهم، وأحاديث الأعور الدجال صحيحة، وهو من عالم الغيب الذي يؤذن وجوده ببدء نهاية هذه الحياة، ومن هنا قلنا: إن خروجه سيكون من أشد الفتن التي سيتعرض لها الناس قبل قيام الساعة.

والمقصود أن قول ابن إسحاق ومتابعة من تابعه فيه من مؤلفي السيرة بعده: إن هذا الوفد التميمي أسلم في هذه القَدْمة، ممّا يدل عليه سياق الروايات في مطالعها وأحاديثها وأحداثها حتى نهاياتها، فهو قول مقحم ملزوز، نافر عن روايات القصّة في هذه القَدْمة، شارد عن معالمها.

كلام أبي حيان مغلق المنافذ في فهمه.

وما ورد في تفسير أبي حيّان في البحر من إسلام الأقرع بن حابس بين يدي رسول الله ﷺ بعد أن ردّ على الأقرع تنفّجه وغروره في مفاخراتهم الكاسدة، ومنافراتهم البائرة، وكان هو الذي أشعل نار هذه المفاخرة،

وأغرى قومه بتلك المنافرة، بقوله الأحمق لرسول الله ﷺ: جئناك نفاخرك، فقبل منهم ذلك رسول الله ﷺ تنزلاً يستلّ به سخائم الشيطان، بعد أن بيَّن لهم أنه لم يرسل بالشعر ولم يؤمر بالمفاخرة، ليردهم عن حماقتهم الجاهلية التي قضى عليها الإسلام بمنهاجه التربوي الخلقي الذي جعل من الأمة العربية أمة رائدة في سَمْتها وسلوكها، وهدايتها، ومكارم أخلاقها، ومحاسن آدابها، ومفاخر شمائلها، وسياستها الاجتماعية، ونظمها في الحياة من كل ما ألّمت به شريعتها: عقيدة وتعبداً، ومعاملة ونظماً ـ أمر مستغلق الفهم، لأن الروايات الثابتة أثبتت شهود الأقرع بن حابس وصاحبه عيينة بن حصن الفزاري فتح مكة مع المسلمين تحت قيادة رسول الله ﷺ، وفتح مكة كان في السنة الثامنة الهجرية، وأول قَدْمة عرفت لوفد بني تميم كانت في سنة الوفود، وهي السنة التاسعة من الهجرة، وكان الأقرع بن حابس أحد أفراد هذا الوفد، معدوداً في رؤسائه، ودخل فيهم من ليس منهم، عيينة بن حصن الفزاري، ولعله قد أدخله هذا المدخل الوبيء توافقه في سلوكه المتأرجح في أراجيح الشكوك والأوهام، والتخيّلات مع صاحبه الأقرع بن حابس التميمي، فهل كان الأقرع بن حابس دخيلاً على المسلمين في فتح مكة، ولم يكن في قلبه منه إلا أن يفوز بشيء من الغنائم؟ أو كان الأقرع مسلماً في فتح مكة صحيح الإسلام، ثم نكص على عقبيه وارتد عن الإسلام بعد الفتح الذي لم تكن فيه غنائم جاهليّة؟ وبهذا الكفر الأصيل أو الطارىء حضر مع وفد قومه بني تميم، منضماً لأشرافهم ورؤسائهم، وأنه صاحب الكلمة الحمقاء في مناداة رسول الله ﷺ من وراء حجراته إذ قال: يا محمد اخرج إلينا، فإنا جئناك نفاخرك، وكذلك كان صاحب الكلمة المتسفِّهة التي قالها معبِّراً عن جلافته وغروره وجهالته: إنّ مدحي زَيْن، وإنّ ذمِّي شيْن، فقال له رسول الله ﷺ يرد جماح كفره: «ذاك الله تعالى».

احتمالات وفروض حول الأقرع ابن حابس وإسلامه.

ولما استفرغ الأقرع كل ما عنده من غرور أجوف وحماقة فاجرة لم يجد أمام عجزه وخزيه وخذلانه إلاّ أن يستصغر ويذل، ويعترف أن خطيب رسول الله ﷺ كان أخطب من خطيبهم، وأن شاعره ﷺ كان أشعر من شاعرهم، وأن أصوات المجتمع المسلم أعلى من أصواتهم.

ثم دنا من رسول الله ﷺ وأسلم وشهد شهادة الحق، فآواه النبي ﷺ إلى كنف الإسلام، وقال له ليثبِّت إيمانه: «ما يضرك ما كان قبل هذا».

ولا ندري هل أراد سيدنا رسول الله ﷺ بقوله هذا ما كان من الأقرع من كفر جاهليّ وضلالة وثنية، وفجور في الشرك، أو أراد ﷺ ما كان من الأقرع من كفر بعد إيمان، وضلالة بعد هداية؟ وفحوى الرواية يشعر بهذا الأخير، ولم تذكر هذه الرواية التي يوشك أن يكون قد انفرد بها أبو حيّان أن أحداً من وفد بني تميم أسلم في هذه القَدْمة غير الأقرع، فهو وحده الذي سجلت الرواية إسلامه.

أما الإعطاء والكساء فكانا من مكارم أخلاق رسول الله ﷺ، فعمّ بهما أفراد الوفد كلهم تكرماً وتألفاً لقلوبهم على الإسلام، ولهذا ذكرتهم الرواية بصيغة الجمع، فقالت: ثم أعطاهم وكساهم، ولم يكن من مكارم أخلاقه ﷺ أن يخصّ بعطائه ومكارمه أحداً دون أحد ممن وفد عليه، والإسلام والكفر لا مدخل لهما في المكارم المادية وشؤون الحياة في المطعم والملبس.

ومن ثَمّ فإن هذه الرواية لا تصلح مطلقاً متشبثاً لقول ابن إسحاق بأن وفد تميم أسلم في هذه القَدْمة، ولعله كانت لبني تميم قَدْمة أخرى أو قَدْمات أخر وقع فيها إسلامهم، وجُوِّزوا كما جُوِّز الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ للإسلام والبيعة، والتفقه في الدين.

مجمل قصة وفد تميم في أول قدمة لهم كما ساقها منهج مؤلفي السيرة.

هذا وجه من أوجه يمكن بها تفسير قصة الحماقة التميمية، ويمكن أن يدخل بها قول ابن إسحاق في دائرة القبول، رغم ما سجلته عليهم جلافة وفدهم في أول قَدْمة لهم على رسول الله ﷺ ليفدُوا سباياهم وذراريهم التي أخذها منهم غِلاباً عيينة بن حصن الفزاري قرين الأقرع بن حابس التميمي، وصديقه في إطار التراث الجاهلي ومظاهره المادية.

قدم وفد تميم معتصباً بكل ما أتيح له من تراث الجاهلية الوثنية في المفاخرات والمنافرات التي جعلوها مقصدهم في قدمتهم الحمقاء، فقالوا في

ندائهم الأحمق من وراء الحجرات: جئناك لنفاخرك، فخرج إليهم ﷺ وأراد أن يكفكف من حدّة حماقتهم، ويطفىء نار غرورهم بتأدية صلاة الظهر، فتركهم وصلّى بالناس، ولكنهم كانوا لا يزالون منغمسين في حمأة الحماقة، فتلطّف بهم ﷺ وأجابهم لما طلبوه من المنافرة التي انتهت بهم إلى الخزي والخذلان، وعادوا إلى قومهم عودة الأجلاف الجفاة إلى الجفاة الأجلاف، وقلّدهم النبي ﷺ من مكارمه قلائد لا تنسى، فأعطاهم وكساهم ليتألف قلوبهم على الإيمان حتى يعودوا إليه مسلمين.

بَيْد أن القرآن الحكيم اتخذ من قصتهم ميسماً وسمهم به جزاء تفلّتهم من عواصم استقامة التفكير الإنساني، وألقى بهم في مراغاة أحطّ أنواع الحيوان، فقال بعد أن وصفهم بسوء الأدب في جملة ابتدائية، كان فيها المبتدأ اسماً موصولاً جمعهم وعمّهم، ثم الخبر مسجّلاً عليهم قاصمة الظهر فقال: (أكثرهم لا يعقلون).

والتعبير بالكثرة فن من فنون البراعة البيانية في القرآن العظيم يراد به الجميع أو ما هو أقرب إلى شمول الجميع، لتأخذ الدقّة الأسلوبية مكانها من التعبير، ويأخذ الاحتياط لإخراج من عسى أن لا يكون قد كان منهم في الحماقة، ولكنه عجز أن يدفع الحماقة بالكياسة طريقه إلى منفذ الاستثناء من العموم.

في منهج علماء الحديث ما يشعر بقدمة لبني تميم أو قدمات بعد قدمتهم الأولى كان فيها إسلامهم.

وقد يوجد في بعض أحاديث قدوم وفد بني تميم وأحداثهم عند علماء الحديث روايات قد تكشف عن بعض هذه الأوجه الأخرى للقصة؛ ممّا قد يدل على أن لبني تميم قَدْمة أخرى أو قَدْمات أُخَر غير التي انساقت إليها روايات أهل السِّير، قد تختلف قليلاً أو كثيراً مع هذه الروايات السِّيريّة في الأسلوب والحوادث.

ولا ريب أن نسق أهل الحديث في سياقاتهم لروايات أحاديث ووقائع السيرة النبوية أدق أسلوباً وأصفى منزعاً، وأقرب إلى نُضْج البحث وسواء التحقيق، لأنه منهج في البحث يقوم على تقبُّل النقد الممحِّص للأسانيد والمتون، ولا ننكر أنه قد ندَّ عن هذا المنهج الحديثي الشيء بعد الشيء،

فيلاحقه التأويل المتعسِّف لتصحيح تخريجه تغليباً لحسن الظن بالمعدِّلين من الرواة، ولا سيما إذا كان الراوي الثقة ممن كسب في تاريخه الحديثي شهرة وإعظاماً أقاماه في نظر الخالفين من الباحثين مقاماً محموداً، ولكن الله عز شأنه لم يجعل العصمة في دينه لأحد من البشر سوى الأنبياء والمرسلين.

موازنة حقيقية بين المنهج الحديثي والمنهج السيري.

وهذا المنهج الحديثي يجري في البحث على خلاف نسق السِّيريِّين الذي يسوده الاحتكام إلى العواطف الوجدانية، سلباً وإيجاباً، نفياً وإثباتاً، على معنى أنهم قد يثبتون ما لا يثبت، وينفون بحكم عواطفهم ما لا ينبغي أن ينفى بحكم واقعه من الوجود، لأن منطقهم في البحث منطق عاطفي يقوم على مبدأ التسامح في الفضائل، وهذا النسق السيري في ظل هذا المبدأ المتسامح لا يتحرج من قبول الروايات الفضفاضة التي تستجلب الإعجاب البطولي، والبراعة البطولية، ومطّ الشفاه؛ لأن موازين هذا النسق في البحث تأبى أن تخضع للتفكير المستقيم على دعائم السنن العامة في نظام الكون ومسيرة الحياة.

ولا يرى أصحاب هذا النسق حرجاً أن يكون مقياسهم في البحث قائماً في كثير من وقائعها على منهج السنن الخاصة، حتى ولو لم يتطلبها الموقف، ولا يسمح للعقل أن يجول خلالها ليكشف حقائقها، وهذا نسج من التفكير يلوي عنق الدعوة الإسلامية، ويعوق مسيرتها في تبليغ الرسالة، ويجعل موقفها من العقل موقف الخصم الذي يجادل عن الحق بغير حجة مقبولة في منهج المنطق العقلي.

استظهار أن إسلام بني تميم بدأ بعد قدمتهم الأولى الحمقاء.

على أساس هذا التصور الذي عرضنا في إطاره عرضاً مفصّلاً قصة أول قَدْمة لأول وفد من بني تميم، وعلى أساس رواة المحدثين من أئمة السنة بمناهجهم السندية والنقدية، البخاري وغيره من هؤلاء العلماء، وعلى أساس ما ذكروه في كتبهم الحديثية من أحاديث وأحداث هذه القصة.

وعلى أساس ما ذكره المفسرون في تفاسيرهم للقرآن العظيم في بيان معنى وأسباب نزول قوله عز شأنه: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ نستظهر أن هذه القَدْمة التميمية ـ التي جاءت أحاديثها

وأحداثها من طريق روايات مؤلفي السيرة النبوية، ومدوِّني وقائعها، والتي كان فيها ما كان ـ طبقاً لما روته الروايات السيرية ـ من صور الجلافة الوثنية، وجفاء الشرك المتغطرس، وفجور الكفر المتنطِّس، والحماقة المتسفِّهة، وغرور البطش المتحلل من قيود الإنسانية المتحلِّي بسوء الأدب الاجتماعي المسعور، وتهوّر التصرف الأبله في مخاطبة سيد الخلق محمد خاتم النبيين ﷺ.

والتي نزل فيها من القرآن العظيم ما سجَّل على هؤلاء الحمقى أقبح وأرذل صور الحماقة الطائشة في قوله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ والتي زاد فيها أبو حيّان في تفسيره على روايات السيريين حكاية الأقرع بن حابس، وموقفه الذي أفرده به أبو حيّان دون غيره من بقية رؤساء الوفد، مما لم نعرف له سنداً يتكىء عليه ـ كانت أول قَدْمة من بني تميم الذين كانوا في عنفوان جاهليتهم، تلتها قدمة أو قدمات بعد أن شذّبتْ فيها تميم من أشواك عنجهيتها وضريع كفرها.

وهذه القدمات أو القدمة هي التي وقع فيها إسلام وفود بني تميم، وعادوا لأقوامهم فأسلموا متتابعين بإسلامهم بعد أن نقلوا لهم الكثير من أحاديث شمائل محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، ومحاسن شِيَمه، ولطف عشرته، وسماحته، وفضائل دعوته، وسمو رسالته، وما اشتملت عليه من حكم وأحكام في عقيدتها، وشرائع تعبداتها، ونظمها الاجتماعية في مجتمعها المسلم من كل ما يحقّق بين أفراد وجماعات هذا المجتمع المسلم الذي يكتنف رسول الله ﷺ بأرفع معاني الحب الإيماني، ويحقق العدالة والإخاء والمساواة والمواساة والترافق والتراحم، حتى كانوا كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً.

سبب قدوم أول وفد من تميم على رسول الله ﷺ وغزوة عيينة بني تميم.

وكان سبب قدوم وفد بني تميم في أول قَدْمة قدمها على رسول الله ﷺ وهم متجلببون جلابيب الجاهلية الحمقاء، وقد وقع من هذا الوفد كما وقع له ما روته أحاديث السيرة من الوقائع الطائشة، والأحداث المتسفِّهة ـ هو القصد إلى افتداء سباياهم وذراريهم ورجالهم الذين أخذهم عيينة بن حصن الفزاري بعد هربهم من مواجهته وتركهم لهم وراءهم في ديارهم كما ذكره الواقدي.

وكان عيينة بن حصن في صفوف المسلمين مع النبي ﷺ، وشهد معه فتح مكة، وحُنيناً والطائف حينما بلغ النبي ﷺ أن تميًا جهزوا السلاح لمحاربة خزاعة من أجل أن يمنعوهم من توصيل صدقات من أموالهم إلى رسول الله ﷺ على يد مصدِّقه الذي بعثه إليهم ليقبض صدقاتهم، فقال ﷺ: «من لهؤلاء؟» فندب عيينة بن حصن نفسه إليهم، فانتدبه رسول الله ﷺ أميراً لسرية من خمسين رجلاً من عامة المسلمين، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري صيانة لهم عن رياسته،لئلا يقع لهم منه ما يسوؤهم، وفي رواية عند البخاري أن بني تميم تعرّضوا لمصدِّق رسول الله ﷺ فمنعوه من قبض صدقات بني العنبر، وهم رهط من بني تميم استكثاراً لها، فذهب إليهم عيينة في سريته يكمن النهار ويسير الليل حتى فاجأهم، ففرّوا هاربين من وجهه، وتركوا من تركوا من أقوامهم، فأخذهم عيينة أسرى وسبايا، وكانوا أحد عشر رجلاً، واحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً.

فلما بلغ بهم عيينة المدينة وضعوا في دار رملة بنت الحارث الأنصارية، وكانت دارها قد اتخذت محبساً للأسرى قبل التصرف في شأنهم، ورجع بنو تميم إلى ديارهم بعد أن هربوا منها، وبعد أن نجا عيينة بغنيمته فلم يجدوا فيها، فتلاوموا، وعزموا الرحيل لافتداء رجالهم ونسائهم وذراريهم، ووصلوا المدينة في نحو تسعين رجلاً يتزعمهم أشراف جاهليتهم، ودخلوا مسجد النبي ﷺ في صياح منكر وصخب أحمق، ونسوا ما كانوا قد جاؤوا إليه، وكان منهم ما كان في المسجد النبوي مع رسول الله ﷺ وأصحابه مما قصصناه تفصيلاً.

وقد جاء في بعض الروايات السيريّة أن النبي ﷺ - على رغم ما كان منهم - تلطّف بهم، وترفّق معهم متكرماً، فمنّ عليهم بإطلاق نصف أسراهم من الرجال والنساء والذراري دون فداء تألفاً لقلوبهم على الإسلام وفادى نصفهم، ولكن حماقة الغرور الجاهلي لم تقنع بهذه السماحة الرحيمة، وهذا التفضّل الكريم، فلجوّا في طغيانهم وتعالَوا في بأوهم، وأصروا على حماقتهم، واستكبروا استكباراً، وتحامقوا سفاهة، وطلبوا من رسول الله ﷺ

المفاخرة، وقال متكلمهم الأقرع بن حابس لرسول الله ﷺ: جئناك لنفاخرك، فأجابهم تنزلاً وتلطفاً بهم، ولكن الله تعالى أخزاهم فيما طلبوه من المفاخرة خزياً نكّس به رؤوسهم، وأذلَّ غرورهم، وخذلهم خذلاناً فشّ بُجْر عنادهم، وسيّح تورّم أخادعهم.

وكان الأقرع بن حابس هو المتكلم عنهم المعلن لخزيهم وخذلانهم بقوله بعد انتهاء المفاخرة: وأبي، إن هذا لَمُؤتّى له، لخطيبهُ أخطبُ من خطيبنا، وشاعره أشعرُ من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم تقول الرواية: إن الأقرع دنا من النبي ﷺ فأسلم، وشهد شهادة الحق.

والقارىء لا يخفى عليه هذه التناقضات والمواقف المنحّلة، ولا ندري كيف رضي بها الذين دوّنوها في كتبهم ومؤلفاتهم، وكيف قبلتها عقولهم، وفيهم من أهل العلم من يشار إليه في معارف الإسلام؟

وأعجب العجب ذكر عيينة بن حصن الفزاري في وفد أشراف وزعماء بني تميم وهو ليس منهم، وهو قد كان مع المسلمين في صفوفهم قبل سنة الوفود، وشهد مع المسلمين الفتح الأعظم وغزوة حنين والطائف، فكيف يتفق ذلك مع موقف عيينة في زعامته لبني تميم؟ وليس من مآثر قبائل العرب أن يرئّسوا عليهم رجلاً من غير قبيلتهم، ولا سيما في كبريات قبائلهم.

قدمة أخرى لبني تميم أخرجها البخاري ليس فيها ما في القدمة الأولى من سوء الأدب والحماقة في الجاهلية.

وقد روى البخاري رحمه الله في إيجاز موجز حديث وفد بني تميم في كتاب (بَدْءِ الخلق) من صحيحه، وفي باب البعوث والسرايا عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما فقال: أتى نفر من بني تميم النبي ﷺ، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: يا رسول الله، بشّرتنا فأعطنا، فرؤي ذلك في وجهه ـ أي رأى أصحابه رضوان الله عليهم دلائل الأسف والحزن في وجهه من سوء ما ردّوا به بشراه ﷺ مما عراه من التغير، وقد شرحت الرواية الأخرى هذه العبارة، فبينت المراد منها، فقالت: فتغيّر وجهه ﷺ، وهذا مثل قول الصحابة إذا أُتي بين يديه فعل لم يعجبه وتُكلِّم بكلام وهو يسمع فلم يرقه: (فتمعَّر وجهه ﷺ ورؤي فيه مثل الظُّلل).

وهذا التغيّر الذي بدا على وجهه الشريف إنما كان لما اعتراه من الحزن

عليهم والأسف لهم إذ فاتهم من الخير ما لا يقدِّر قدره إلا الله تعالى، لإيثارهم الدنيا قبل أن يعرفوا ما يريد أن يبشرهم به ﷺ، وبشراه لا تخرج عن خيري الدنيا والآخرة، ولكنهم بسوء أطماعهم في عَرَض الدنيا وزخارفها فاجأوا النبي ﷺ بتعجّل الفانية على الدار الباقية.

وفي هذا التعبير دلالة على شدّة ما ألمَّ به ﷺ من شدة الأسى عليهم والحزن لهم والأسف لما فاتهم من الخير لو أنهم هشّوا لبشرى رسول الله ﷺ وقبلوها بإيمان ورضا، كما قبلها الأشعريون رهط أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كما جاء في الحديث نفسه في روايتيه.

وليس في روايتي البخاري رحمه الله ما يشير من قريب أو بعيد إلى شيء مما أورده أهل السِّير في قصة وفد بني تميم، لا من ناحية سبب قدومهم، ولا من ناحية ما كان من الوافدين من التميميين من حماقة طائشة، وجلافة جاهليّة، سجّلها القرآن العظيم في آية ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ولا من ناحية تنفّجهم بطلب المفاخرة، ولا من ناحية ما زعمه ابن إسحاق في ختام كلامه عن القصّة من أن وفد بني تميم قد أسلموا بعد أن فرغوا من مفاخراتهم، وأن النبي ﷺ قد أمر لهم بجوائز وكسيّ.

الحافظ ابن حجر يقحم على رواية البخاري ما يشرحها من كلام ابن إسحاق

بيد أننا نجد ابن حجر قد أقحم أشياء من كلام ابن إسحاق فأدخلها في فتحه لشرح الجامع الصحيح، فحكى عن ابن إسحاق تسمية بعض أفراد الوفد من زعماء بني تميم، فقال: وذكر ابن إسحاق أن أشراف بني تميم قدموا على النبي ﷺ، منهم عطارد بن حاجب الدارمي، والزبرقان بن بدر السعدي، وعمروبن الأهتم المنقري، والحتّات بن يزيد المجاشعي، ونعيم بن يزيد بن قيس بن الحارث، وقيس بن عاصم المنقري.

ثم قال ابن حجر: قال ابن إسحاق: ومعهم عيينة بن حصن الفزاري ـ وكان الأقرع بن حابس وعيينة شهدا الفتح، ثم كانا مع بني تميم.

ولا ندري ما هذا؟ وكيف كان؟ وعيينة فزاري وليس تميمياً، وكان

من شهود الفتح الأعظم في صفوف المسلمين، فما الذي أتى به في وفد بني تميم قبل أن يسلموا، وما الذي دفعه إلى ما كان منه ـ طبقاً لروايات السيرة ـ ممّا لا يصدر عن مسلم؟.

إمارة سرية عيينة لبني تميم يخرجها البخاري عن ابن إسحاق

وأغرب من ذلك وأدخل في استدعاء العجب أن عيينة كان أمير السرية التي غزت بني العنبر، وهم بطن من تميم، فأوقع بهم، وسبىٰ نساءهم وذراريهم، وأسر رجالهم، فقدم رؤساء بطون تميم، كما ذكرهم ابن إسحاق بأنسابهم، وأدخل معهم عيينة الفزاري، قال ابن سعد في طبقاته: كان ذلك في المحرّم سنة تسع.

وحديث غزو عيينة لبني العنبر إحدى بطون تميم خرّجه البخاري في صحيحه عن ابن إسحاق، فقال: باب، قال ابن إسحاق: غزوة عيينة ابن حصن بن حذيفة بن بدر بني العنبر، من بني تميم، بعثه النبي ﷺ إليهم فأغار وأصاب منهم ناساً، وسبى منهم سباء.

وقد ذكر ابن حجر ـ في شرح كلام ابن إسحاق الذي رواه البخاري عنه ـ: كلام الواقدي في بيان سبب بعث عيينة إلى بني تميم، أو إلى بني العنبر منهم، فقال: إن بني تميم أغاروا على ناس من خزاعة، فبعث النبي ﷺ إليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلاً، ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً، فقدم رؤساؤهم بسبب ذلك.

تناقض بين موقف عيينة بن حصن الذي أخرجه البخاري وموقفه الذي أقحمه ابن إسحاق

فكيف يتفق مجيء عيينة الفزاري في وفد بني تميم الذي قدم المدينة لافتداء أسراهم الذين أسرهم عيينة في غزوه لهم مبعوثاً من النبي ﷺ إليهم لتعدّيهم على مصدِّق رسول الله ﷺ، وعلى أموال الزكاة، بعد شهوده فتح مكة في صفوف المسلمين، ويكون متكلم وفد تميم ولسانهم وزعيمهم في حماقتهم؟ فهل كان عيينة في فتح مكة مسلماً صحيح الإسلام ثم ارتد عن إسلامه ليكون مع بني تميم في حماقاتهم؟ أو أن عيينة كان في حضوره مع المسلمين فتح مكة بغير إسلام صحيح، وإنما أطماعه في المغانم هو الذي ساقه هذا المساق المشبوه، ولعيينة بن حصن موقف في الطائف أشبه بهذا

الموقف، حينما تعاصَتْ ثقيف على النبي ﷺ فقال قائل: ألا إن القوم مقيمون، فقال عيينة: أجل مجَدَة كرام، فقال له بعض المسلمين: قاتلك الله؟! أتمدح قوماً لأنهم تعاصوا على رسول الله ﷺ؟ فقال عيينة: أما إني لم أصحبكم لأحارب معكم ثقيفاً، ولكني صحبتكم رجاء أن يفتح محمد ـ ﷺ ـ ثقيفاً، وهم قوم مناكير، فأتبطن منهم جارية لعلها تلد لي غلاماً.

وكيف ساغ لابن حجر أن يقبل كلام ابن إسحق في ذكره عيينة بين أفراد رؤساء الوفد التميمي؟ وعيينة هو الذي أوقع بهم، وأسر رجالهم، وسبىٰ نساءهم وذراريهم؟

هذه روايات عجيبة في مساقها، مضطربة في مخارجها، متهافتة في أسلوبها، لا يصلح أن تذكر في مصادر السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثها.

غموض في روايات البخاري لأحداث قصة وفد بني تميم وما نزل فيها من الآيات القرآنية.

وقد أورد البخاري في تفسير سورة الحجرات من جامعه الصحيح قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ وأتبعه بذكر حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، من طريق ابن أبي مُلَيكة، فقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجّاج عن ابن جريج، قال: أخبرني ابن أبي مُلَيكة أن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أخبرهم أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه للنبي ﷺ: أمِّر القعقاع بن معبد ـ أي على بني تميم ـ وقال عمر رضي الله عنه: أمرِّ الأقرع ابن حابس، فقال أبو بكر ـ أي موجهاً الكلام إلى عمر ـ ما أردت إلى خلافي؟ أو قال: ما أردت إلّا خلافي، ومعنى هذه الجملة بصورتيها أن قول أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه كان تعبيراً من تعبيرين، وقع الشك من الراوي في تعيين التعبير الذي صدر من أبي بكر رضي الله عنه، هل قال لعمر: ما أردت إلا خلافي بأسلوب القصر المؤدي بـ(ما) النافية و(إلا) الاستثنائية، على معنى (إنما أردت خلافي)، أو قال: ما أردت إلى خلافي بأسلوب الاستفهام الإنكاري، المؤدي بـ(ما) الاستفهامية و(إلى) الجارة الانتهائية، فقال عمر: مبيناً أنه لم يقصد مخالفته، وإنما أشار على رسول

الله ﷺ بما أدّاه إليه اجتهاده، لمصلحة الإسلام والمسلمين. وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث بغير شك، بطريق القصر بـ(إنما) فقال: إنما أردت خلافي، أي ليس مقصودك إلاّ مخالفة قولي، وقد اعتمد ابن حجر رواية الإمام أحمد التي لا تردّد فيها، وهي رافعة للشك عند من زعمه في كلام الصديق رضي الله عنه.

قال ابن أبي مليكة في حديثه عن عبدالله بن الزبير: فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية، وفي رواية ابن جريج إلى قوله: (ولو أنهم صبروا).

التماس حكمة لصنيع البخاري في روايات القصة.

وسياق هذا الحديث يشعر أن شيئاً من الاختصار قد دخله فتداخلت جمله وألفاظه، وغمضت بعض مقاصده ومراميه، ولعل ذلك جاء من قبيل أن المحدّثين به كانوا أقرب إلى معرفة الأحداث، فحدّثوا بما يشبه عنوانات السائل ولا سيما في الإشارة إلى ما نزل من الآيات.

قال ابن حجر: وقد استُشكل ذلك، قال ابن عطية: الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جُفاة الأعراب، والظاهر أن مرجع الإشارة في كلام ابن عطية هو الإتيان من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ وهذا الإطلاق كثير في كلامهم.

ويوضح ما ذهبنا إليه ما جاء في الرواية الأخرى لحديث ابن أبي مليكة فنزل في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية، ثم أتبع البخاري ذلك بقوله: باب قوله: (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم)، ولم يذكر حديثاً في باب هذه الآية ليدلّل بذلك على أن هذه الآية داخلة مع سابقتها في سببيّة النزول.

قال ابن حجر: قلت: لا يعارض ذلك هذا الحديث، أي حديث: كاد الخيّران أن يهلكا، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة (لا تقدِّموا)، ولكن لما اتصل بها قوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾ تمسك عمر منها بخفض الصوت.

دعوى ابن حجر أن الذي نزل متعلقاً بقصة الشيخين هو قوله: (لا تقدموا) غير مسلمة.

وقول ابن حجر: فإن الذي يتعلّق بقصة الشيخين هو أول السورة (لا تقدّموا) غير مسلّم، لأن مجرد تكلم الشيخين في التأمير، وتخالفهما في الرأي لا يقتضي عتاباً، بل نهياً لا يخلو من الشّدة، لأن كلًّا منهما بين يدي النبي ﷺ كان من قبيل المشورة، واختيار أمثل الرجلين القعقاع بن معبد التميمي، أو الأقرع بن حابس التميمي لتأميره على بني تميم فهو من باب الاجتهاد لصالح المسلمين.

ولا شك أن هذا أمر مشروع، بل أمر محبّب إلى رسول الله ﷺ، وقد جاء في حديث أبي هريرة: ما رأيت أكثر مشاورة من رسول الله ﷺ، وكان من دأبه اختصاص الشيخين بمشاورتهما في كُبْريات الأحداث وعظائم المشكلات، فيأخذ برأيهما إن اجتمعا على رأي، أو برأي أحدهما إن رأى فيه رفقاً وصلاحاً للأمة، كما هو مشهور متعارف، وقصة اختصاصهما في مشاورتهما في أسرى بدر مما وقع عليه إجماع المحدِّثين وأهل السِّير، وبدهي أن ذلك لم يكن منه ﷺ إلّا فيما لم ينزل في شأنه وحي من الله تعالى، وقد ثبت عنه ﷺ أنه شاور أصحابه في غزوة تبوك في التقدّم بهم إلى ما وراء تبوك، فقال عمر رضي الله عنه: إن كنت أُمرت بالسير فسر، فقال ﷺ: «لو أمرت بالمسير لما استشرتكم فيه».

لمحات من كلام المفسرين في الآيات من أول السورة لعلّها تضع الأمور في مواضعها.

وهذه الآية التي افتتحت بها سورة الحجرات ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ لم تنزل على سبب خاص، وإنما نزلت تمهيداً وبساطاً لما بعدها من النهي عن رفع الصوت والجهر له ﷺ بالقول جهراً يغمر صوته بلفظهم، ويبهر منطقه بصخبهم، مما يخلُّ بمقام توقيره وتبجيله، ويزلزل في نفوسهم الحرص على التزام رفيع الأدب في مخاطبته ﷺ.

قال الزمخشري: ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك، ثم قال الزمخشري: وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته، لأن من أحظاه الله بهذه الأثرة، واختصه هذا الاختصاص القوي، كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال

أن يخفض بين يديه الصوت، ويخافت لديه بالكلام.

وقد أكدت ذلك آية الافتتاح، إذ قرنت التوطئة بالنهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله بالأمر بالتقوى لبيان أن التقوى إذا تخلّلت شغاف القلب كانت أعظم حاجز عن الانزلاق إلى ما يخالف منازلها من ذروة الإيمان.

قال الزمخشري في بيان قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها، وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه، فإن التقيّ حذر لا يشافه أمراً إلا عند ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه.

والشيخان: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق هما سيدا المؤمنين من أتباع المرسلين، وأعلمهم بالله، وأرعاهم لحقّ رسول الله ﷺ في التوقير والتعظيم، وألزمهم للتقوى، وكانا أحق بها وأهلها، فهما أحذر الأوّلين والآخرين من المؤمنين أن يشافها أمراً إلا بعد أن يعرفاه معرفة تكشف عن مداخله ومخارجه، ومكانه من الدين في عقيدته وآدابه وأوامره ونواهيه وأنه لا تبعة عليهما فيه.

وليس هذا من قبيل ادّعاء العصمة لهما أو لغيرهما من عامة المؤمنين وخاصتهم عن وقوع بعض هفوات الزلل والخطأ في أمر من أمور سياسة الدنيا والاعتصام بعروة الدين، لأن العصمة خاصّة من خواص النبوة لا تتحقق إلاّ بها، ولا تكون إلاّ معها.

إن مراقبة الله في الجهر والنجوى كانت شطر إيمانهما، فإذا وقعت منهما الهفوة من الزلل أو الخطأ أسرعا إلى مسارهما في مطالع ﴿إن الذين اتَّقَوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مُبْصِرون﴾.

فمفتتح السورة لا مدخل للشيخين فيه إلا كما يدخل عامة المنادين بما فيه من التشريف، ولم يكن قطُّ ممّا يخصهما أو يخص مؤمناً بعينه وشخصه، ولم يكن نزوله لمقتضٍ استدعاه كما هو شأن أسباب النزول المرتبطة في نزولها بالأشخاص والأحداث.

ولكنه نزل مفتاحاً لما جاء بعده في هذه السورة العظيمة من الأوامر والنواهي والآداب الاجتماعية التي أدّب الله بها المجتمع المسلم في سلوكه ومكارم أخلاقه حتى يكون قدوة لسائر مجتمعات الإنسانية في مستقبل حياتها، ما دام هذا المجتمع الإيماني معتصماً بعروة هذا الدين القيِّم، دين الإسلام والمؤاخاة والتراحم والمساواة، والمواساة والترافق، هذا الدين الذي ارتضاه عزّ شأنه ديناً للناس أينما كانوا من أرض الله، يقودهم بخَطْم التوحيد الخالص لله جلّ وعز إلى ذروة العبودية ويقين الإخلاص والحب لله وفي الله.

تخالف حديث ابن أبي مليكة في السند والمتن.

وحديث ابن أبي مليكة رواه البخاري رحمه الله في كتاب التفسير من الجامع الصحيح بسندين مختلفين، وساقه بعبارة متخالفة تخالفاً يكاد يكون تعارضاً.

الرواية الأولى: قال البخاري: حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمي، حدثنا نافع بن عمر ـ قال ابن حجر: في إزالة ما توهمه واهم: هو أي نافع بن عمر المذكور في سند الحديث ـ الجمحي المكي، ليس هو نافعاً مولى ابن عمر ـ وهذا توهم لإزالة وهم، ما كان يليق بمثل الحافظ ابن حجر أن يتوهمه فيشتغل بدفعه، لأنه دفع لشيء غير موجود، ولا يتوهم أن يوجد، لأن المذكور في سند الحديث نافع بن عمر، وهو لا يشتبه قط بنافع مولى ابن عمر، حامل زاملة علم عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولم نعلم أن أحداً نسب نافعاً مولى ابن عمر نسبة بنوّة حقيقية إلى من اسمه عمر، فمن أين يجيء هذا التوهم الموهوم؟ الذي تبرع بدفعه أحفظ حفاظ عصره؟.

غمزة ابن حجر للكرماني ليست من لألي العلم ولكنها من أصدافه.

ومن العجب العجيب أن ابن حجر ذكر عقب كلامه مباشرة في تصحيح ما توهمه راوي الحديث، وهو نافع بن عمر الجمحي مأخذاً على العلامة الكرماني، فغمزه فيه غمزة دامية، فقال: ونبه الكرماني هنا على شيء لا يتخيله من له أدنى إلمام بالحديث والرجال، فقال: ليس هذا الحديث ثلاثياً، لأن عبدالله بن أبي مليكة تابعي.

وهذه الغمزة أخف في تخيّلها عند الكرماني من توهم ما توهم به ابن

حجر في تخيّله في حق نافع بن عمر الجمحي راوي حديث عبدالله ابن أبي مليكة، فكان ابن حجر أحق بها، لأن هذا التوهم لا يتخيله من له أدنى إلمام بالحديث والرجال، ولعل عذر الكرماني فيما توهمه من أن الحديث ثلاثي أن ابن أبي مليكة من كبار التابعين، يقول الحافظ ابن حجر في تهذيبه حاكياً عنه أنه أدرك ثلاثين من الصحابة، ثم ذكر رواية أخرى أنه أدرك ثمانين منهم رضوان الله عليهم، فتوهمه صاحبياً لكثرة عدد من لقيه منهم، وعدد من روى عنهم، ولا سيما على رواية أنه أدرك ثمانين صحابياً، وكان ابن أبي مليكة من رجال ابن الزبير الملازمين له، وكان قاضيه ومؤذنه، ثم خفّ تخيل الكرماني أمام توهم الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى، ثم تابع البخاري الكلام بعد قوله: عن نافع بن عمر، فقال عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه وفد بني تميم ـ إلى أن قال فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية.

وقد صدّر البخاري رحمه الله تفسير سورة الحجرات بهذا الحديث مبوّباً له بقوله: باب ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية، ثم ذكر البخاري عقب ذكر الآية نص الحديث على أنه تفسير حديثي لها، كما هو نهج المحدِّثين في تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم بما يسمّى التفسير بالمأثور، وقد سبق أن ذكرنا نص الحديث كاملاً، وفيه: فارتفعت أصواتهما في ذلك ـ أي في خلافهما على تعيين من يؤمِّره رسول الله ﷺ على بني تميم، فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية.

أوفق روايات البخاري سنداً وموضوعاً في هذه القصة.

وهذه الرواية أوفق الروايات بموضوعها، وحديثها أصوب في مناسبة نزول الآية الملائمة لمقام الواقعة، وأحسنها سياقاً، لأنها عيّنت الآية النازلة، وذكر سبب نزولها، وهي من أتقن التناسب بين السبب والمسبب.

الرواية الثانية: قال البخاري رحمه الله تعالى: باب ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجّاج، عن ابن جريج: قال: أخبرني ابن أبي مليكة أن عبدالله ابن

الزبير رضي الله عنهما أخبرهم: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمرّ الأقرع بن حابس، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية.

ثم عقّب ذلك البخاري رحمه الله بقوله: باب قوله: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾.

وهذا الحديث مخالف لحديث الرواية الأولى من وجوه:

تخالف بين حديث ابن أبي مليكة هنا وحديثه في الرواية الأخرى.

أولاً - اختلافهما في السند قبل ابن أبي مُلَيكة، واتفاقهما في ابن أبي مُلَيكة، إرسالاً في الظاهر وأخذاً عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما في الواقع، إذ سند الرواية الأولى لم يُذكر فيه حجّاج بن محمد، ولم يذكر فيه ابن جريج.

ثانياً - أن الرواية الأولى صريحة في أن الآية التي نزلت هي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ وأن الرواية الثانية صريحة في أن الآية التي نزلت هي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ وهذا خلاف يباعد ما بين الروايتين في المقصود من إيرادهما.

ثالثاً - أن الرواية الثانية بينت أن سبب نزول ﴿يا أيها الذين أمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ هو تماري الشيخين في اختيار من يؤمِّره رسول الله ﷺ على بني تميم في هذه القَدْمة التي أسلم فيها من أسلم منهم، وأن أصواتهما ارتفعت بين يدي رسول الله ﷺ تأثراً من كل منهما بأحقيَّة من أشار بتأميره مستهدفاً مصلحة الإسلام والمسلمين، وقد أُنسيا مكانهما في مجلس النبي ﷺ، فارتفعت أصواتهما بما أخرجهما عن وقار المجلس، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية.

رابعاً - أن الرواية الثانية ذكرت الحديث عقب سَوْق البخاري قول الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وهذا

غموض سياق البخاري لحديث ابن أبي مليكة عقب قول الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾.

سياق يشعر بالنظر إلى الطريقة الحديثيّة بما يسمّى بالتفسير بالمأثور أن الحديث ذُكر تفسيراً للآية المذكور عقبها، مبيّناً لسبب نزولها.

وهذا بعيد جداً، بل يكاد يكون باطلاً، إذ لا تناسب مطلقاً بين آية المناداة من وراء الحجرات والحديث المذكور، لأنَّ أحداً قطُّ لم يقل أن الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا هما المنادِيَيْنِ رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ولا كانا فيمن نادوه كذلك.

وإجماع المفسِّرين قائم على أن المنادين لرسول الله ﷺ من وراء حجراته، هم أجلاف أعراب بني تميم الذين لم يكونوا قد أسلموا ـ كما ذكره ابن حجر في الفتح عن الطبري راوياً له عن مجاهد، فقال: والذي يختص بهم ـ أي بالجفاة من بني تميم ـ قوله: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾.

وما كان يليق أن يوضع هذا السياق الموهم لعظيمة العظائم في إطار قصة الشيخين في هذا الوضع الشائك، ولذلك قال ابن عطية ـ وهو أحد أئمة المفسرين ـ: الصحيح أن سبب نزول هذه الآية ـ أي آية ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾ ـ كلام جفاة الأعراب، فأولى وأوجب أن تكون آية ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ لا صلة لها من قريب أو بعيد بقصة خلاف الشيخين، بل هي من تتمة ما عيب على أجلاف تميم من سوء الأدب، والجهل بمقام توقير وتعظيم رسول الله ﷺ.

استشكال ابن حجر لا إشكال فيه.

والذي استشكله ابن حجر في هذا الموضع لا إشكال فيه، لأنه لفّق الروايتين، فجعل الآيات من أول السورة إلى آخر قوله تعالى: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾، كما هو في رواية ان جريج نازلة في قصة الشيخين، وقد استبعدنا ذلك وهو جدير بالاستبعاد وعدم القبول، وبيّنا أن الآية الأولى التي افتتحت بها السورة كانت من قبيل التوطئة والتمهيد لما يذكر بعدها.

ثم إن البخاري رحمه الله بوّب لآية المناداة من وراء الحجرات، وذكر عقبها حديث الحسن بن محمد، وهو الحديث المذكور فيه رواية ابن جريج،

وهذا الحديث لا صلة له مطلقاً بهذه الآية، ولا مناسبة بين الآية المذكورة وبين ما جاء فيه، كما بوّب البخاري رحمه الله لقول الله عز شأنه: ﴿ولو أنهم صبروا﴾ وهو من متعلّقات آية المناداة لاتفاق المفسرين على أن الضمائر في (أنهم) و(صبروا) و(لهم) و(إليهم) كلها راجعة للمنادِين رسول الله ﷺ من وراء حجراته، ولم يذكر البخاري حديثاً بعد آية المناداة من وراء الحجرات.

اعتراف ابن حجر بأن آيتي ﴿إن الذين ينادونك﴾ و ﴿ولو أنهم صبروا﴾ ذكرتا ترجمة بغير حديث.

قال ابن حجر في الفتح: هكذا في جميع الروايات، الترجمة بغير حديث، ثم قال ابن حجر: وقد أخرج الطبري والبغوي، وابن أبي عاصم في كتبهم في الصحابة من طريق موسى بن عقبة عن أبي سلمة، قال: حدثني الأقرع بن حابس التميمي أنه أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد اخرج إلينا، فنزلت الآية: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾.

ولا ندري ما الذي يقصده الحافظ ابن حجر من وراء التقاطه روايات لبعض الجمّاعين في كتب لم تُعرف بسلامتها من غير الصحيح، ولم يرفع لها البخاري رأسه، لأنها لا تتمشى مع منهجه في الثقة والصحة؟.

والموقف كان يقتضي من الحافظ ابن حجر أن يحقق هذه الروايات حتى يقف على حالها من الصحة أو غيرها، ثم يبيّن أن صحتها عند من رووها لا تُلزم البخاري بذكرها، لأنها ليست على مذهبه في الصحّة، ثم يبين حكمة صنيع البخاري في هذا الموقف المضطرب المتداخل.

التماس عذر للبخاري في تبويبه للآيات دون ذكر حديث يفسرها

ومن المعروف المتعالم أن حديث هؤلاء العلماء لم يكن جارياً على منهج الصحة البخاريّة في الجامع الصحيح، فلم يذكره الإمام البخاري عقب الآية ليكون سبباً لنزولها، ولعل البخاري وضع الترجمة ترقباً لعثوره على حديث يجري وفق مذهبه في صحة السند.

في هذا العرض لقصة وفد بني تميم نماذج تمثل منهج المتخصّصين في روايات أحاديث السيرة المطهرة وأحداثها، كما أن فيه لوناً من روايات المحدِّثين الذين أحلّهم التاريخ مقاعد الصدارة من علم الحديث وروايته وسما بهم إلى ذروة التحقيق والنقد للأسانيد.

وهذه النماذج تظهر طرائق السيريين في تدوين أحاديث السيرة المشرّفة كما أنها تظهر شيئاً من التسامح المتساهل في روايات أحاديث السيرة ووقائعها وقبول ما لا يقبله ثقاة المحدِّثين، وتظهر شيئاً من المساهلة عند أهل الصدارة من المحدّثين، وإلا فكيف سوّغ البخاري رحمه الله في فضله ودقته في نقد الرجال وهو قمة القمم في أهل الصدارة ونقد الأسانيد، وتحقيق القول في معرفة الرجال أن يروي عن ابن إسحاق، وهو صدر المتصدّرين لرواية أحاديث السيرة وقصصها، فقال في جامعه الصحيح: باب: قال ابن إسحاق: غزوة عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، بني العنبر من بني تميم، بعثه النبي ﷺ إليهم، وأصاب منهم ناساً وسبىٰ ومنهم سباء،

حكمة الإسهاب في هذا المقام هي قصد التحقيق الذي يفتح أعين عقول المفكرين.

ولم نر للبخاري رواية عن ابن إسحاق في جامعه الصحيح في كتبه وأبوابه الأخرى، والبخاري رحمه الله أعلم بالرجال وأعرف بنقدهم، وفي طليعتهم ابن إسحاق.

وإنما أطلنا النَّفس في هذا العرض، وأكثرنا فيه من الوقفات مع الرواة والحفّاظ لأن أحاديث السيرة الشريفة وأحداثها هي اللبنة الأولى في بناء التاريخ الإسلامي، الذي يجب أن يكون صورة لما ينبغي أن يقرأ ويكتب على أساسه هذا التاريخ الذي شوّهته الفتن المتعجِّلة الجائحة الماحقة، واتخذته الدويلات القائمة على أنقاض هذه الفتن والمذاهب المستوردة من وراء السهوب والرواسي سلاحها، مما يجب أن ينقّى منه هذا التاريخ المظلوم دون تهيب لنقد الأحداث والأشخاص، لأن الإسلام وتاريخه الواقعي، ونظامه الاجتماعي، وشرائعه العقائدية والتعبّدية وأوضاعه السياسية والتربوية، وآدابه الخلقية، أجلّ وأعظم وأرسخ وأثبت وأصلب، وأقوى من أن تهزه عاتيات العواصف المتربصة، لأنه دين الله العليم الحكيم، ونظامه الذي اختاره لتعيش عليه الحياة بمن فيها وما فيها، وتحيا في ظله قويّة متماسكة العناصر الأصيلة في بنائه ﴿ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فالذين تأخذهم الرِّعدة مرتجفين رعباً من نقد التراث الإسلامي لتنقيته مما دخل فيه من الغَلَس والدغل عليهم أن ينزعوا بشيء من الشجاعة النفسية ليستعيدوا قراءة هذا التراث على ضوء الحقائق القرآنية التي لم يمَسْها التأويل

المتعسِّف، ولم يسيطر عليها الاستسلام المخرف، ولم يحتضنها الجهل المحرف، وعليهم بعد تنقية هذا التراث من الأساطير والأباطيل أن يعيدوا تدوين هذا التاريخ على ضوء حياة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم الذي ربّاه على يديه تربية جعلت من أمته الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، واستخلفهم في الأرض ما كانوا قائمين بأوامر هذا الدين توحيداً خالصاً لله تعالى، وتعبداً له بما شرع، ونظاماً يقوم على دعائمه تطبيقه العملي في الأدب السلوكي، والأخلاق العملية.

فلما تفرقوا شيعاً وأحزاباً، واستعبدتهم رذائل الشهوات سلّط الله عليهم من لا يدفع عن نفسه، فملك زمام حياتهم حتى أنزلهم منازل الذلّ والهوان، ولم تستقم قناتهم حتى يعودوا كما كانوا غرباء بإسلامهم في الأرض، فتعود إليهم عزتهم واسترخاصهم للموت في سبيل الحفاظ على كرامتهم لتوهب لهم الحياة.

رواية تؤكد أن لبني تميم قَدْمات بعد قدمتهم الأولى التي استبعدنا إسلامهم فيها.

وحديث الرواية الثانية من روايتي البخاري فيه إشعار بأن رَكْب تميم المذكور قدومه في هذا الحديث كان غير الركب الأول الذي قدم لافتداء أسراهم وسباياهم وذراريهم الذين أخذهم عيينة بن حصن الفزاري، حينما بعثه النبي ﷺ على رأس سرية لتأديب بني تميم على ما كان منهم من مصادرة صدقات خزاعة أو بني العنبر أن تصل إلى رسول الله ﷺ لاستكثارهم لها.

وفي هذه القَدْمة الأولى كان ما كان من سوء الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ مخاطبة خلت من التوقير والتعظيم، وعرفان مكانته ﷺ من الله، إذ نادَوه من وراء حجراته في صياح أحمق ولفظ صاخب، فخرج ﷺ إليهم حين حانت صلاة الظهر، والناس ينتظرونه للصلاة، فوقف معهم وكلّموه في فداء أسراهم، فامتنّ عليهم بإطلاق نصف الأسرى بغير فداء، وفاداهم بالنصف الآخر ليتألف قلوبهم. ولكن أجلاف وفد تميم أبوا أن يقابلوا هذه المكرمة العظيمة إلا باللّجاج فيما زيّن لهم الشيطان ليلبسهم جلابيب الخزي والخذلان، فطلبوا مفاخرة رسول الله ﷺ، فنهنههم عن غرورهم فلم يزدجروا وأصروا واستكبروا استكباراً، فلما رأى منهم التصميم على ما طلبوه أجابهم

متلطفا بهم، وأذن لخطيبهم وشاعرهم، فقالوا ما ألقاه دنس الوثنية الجاهلية على ألسنتهم، ثم أمر ﷺ خطيبه ثابت بن قيس الأنصاري أن يرد على خطيبهم وأمر شاعره حسان بن ثابت أن يجيب شاعرهم، فألقماهم الحجر، واستحوذ عليهم الذلّ والهوان، وتسلّلوا إلى قومهم لواذاً، وعلموا أنهم لا طاقة لهم برسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، فكان ذلك أول ما هُديت تميم إلى أن تعرف الحق لله، وأن الإسلام هو دين الله الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فترحّل منهم وفد آخر لمبايعة رسول الله ﷺ والدخول في الإسلام على يديه وهدايته.

رواية لا تنافي الإسلام ولكنها تصور ما بقي من جفوة البداوة في بني تميم ولعلّها هي مراد ابن إسحاق.

وهذه هي القدمة الثانية لركب من تميم، قدموا فيها ليسلموا، وكانت لا تزال الجلافة تسيطر على بعضهم، والجفاء الجاهلي يفرض سلطانه على تصرفاتهم، فلم يكد يراهم رسول الله ﷺ حتى بادرهم بتلطفه ليؤنس مجالستهم، فقال لهم ما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما عند البخاري من طريق صفوان بن محرز المازني، قال عمران: إن نفراً من بني تميم أتوا النبي ﷺ، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: يا رسول الله، بشّرتنا فأعطِنا، فرؤي ذلك في وجهه، وفي رواية أخرى عن عمران ابن حصين عند البخاري أيضاً من طريق صفوان بن مُحْرز مع تخالف في السند، قال عمران رضي الله عنه: جاء نفر من بني تميم إلى النبي ﷺ، فقال: «يا بني تميم، أبشروا» قالوا: بشّرتنا فأعطنا، فتغيّر وجهه، وهذه الجملة مبيّنة لما جاء في الحديث الأول من التعبير بقوله: فرؤي ذلك في وجهه ﷺ.

ولما رأى الشيخان رضي الله عنهما ما عند بني تميم من العنجهية، وإيثار الدنيا، وكراهية رسول الله ﷺ لذلك منهم، وظهور آثار هذه الكراهية على وجهه ﷺ أشارا على رسول الله ﷺ بتأمير أحد أشرافهم عليهم ليأخذهم بأدب الإسلام، وأدب مخاطبة رسول الله ﷺ، فأشار الصدّيق على رسول الله ﷺ برجل، وأشار عمر برجل آخر فتماريا وارتفعت أصواتهما، فنزلت آية النهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ، فانتهيا وبالغا في الانتهاء حتى ما كانا يكلمانه ﷺ إلا كأخي السِّرار، فمدحهما الله مدحاً تقطّع دونه رقاب الأعلَيْنَ من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم﴾.

فحديثا عمران بن حصين احتمالها قوي في جانب بَدْء إسلام وفد تميم في هذه القَدْمة الثانية بدليل قولهم: بشرتنا يا رسول الله فأعطنا، لأنّ هذا النداء التنبيهي في قولهم: بشّرتنا يا رسول الله دليل ظاهري على إيمانهم برسالته ﷺ، وقولهم: فأعطِنا تعبير يمثّل ما انزوى في حنايا أنفسهم من بقايا الجفاء والحرص على طلب الدنيا، فإذا انضم إلى هذا تعجّل الشيخين رضي الله عنهما بمشورتهما في تأمير أحد أشرافهم عليهم ليملك في يديه زمام توجيههم وإرشادهم ليتفقّهوا في شرائع الإسلام وآدابه مع الأفراد والجماعات عامة، ومع رسول الله ﷺ خاصة لما أقامه عليه من المكانة الخاصّة به في التوقير والتعظيم.

ولعلّ الإسلام الذي قصده ابن إسحق في قوله: فلما فرغوا أسلموا، وجوّزهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهم ـ هو ما كان في قَدْمتهم الثانية ويراد من قوله: فلما فرغوا فراغهم بانتهاء أمرهم إلى الإسلام ومبايعة رسول الله ﷺ، للذي سمعوه ورأوه من محاسن شِيَمه، ومكارم أخلاقه ومعالي شمائله معهم ومع إخوانهم الذين سبقوهم بالقَدْمة الأولى التي كان فيها ما كان؛ مما فصّلناه فيما سبق تفصيلاً لا يبقى معه شيء من التطلّع إلى شيء.

وفد عبد القيس
حفاوة النبي ﷺ بقدومهم وإكرامهم
ثناؤه ﷺ عليهم وترحيبه بقدومهم
تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس
بيان سبب وفادة وفد عبد القيس
روايات أحاديثهم من الصحيحين وغيرهما
الأحداث والوقائع
معالم منهجية في هذه الأحداث تمثِّل نماذج في تربية المجتمع المسلم

استقدام النبي ﷺ وفد عبد القيس.

ذكر محمد بن سعد في طبقاته قال: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي ـ يقصد شيخه الواقدي ـ بسنده عن عروة بن الزبير وبما حدثه عبد الحميد ابن جعفر عن أبيه قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم، فقدم عليه عشرون رجلاً رأسهم: عبد الله ابن عوف الأشج وفيهم الجارود، ومنقذ بن حبان، وهو ابن أخت الأشج وكان قدومهم عام الفتح، فلما وصلوا إلى النبي ﷺ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، هؤلاء وفد عبد القيس، فقال ﷺ: «مرحباً بهم، نعم القوم عبد القيس».

ثناء النبي ﷺ على عبد القيس وترحيبه بوفدهم ورئيسهم الأشج.

ثم ذكر ابن سعد أن النبي ﷺ نظر إلى الأفق صبيحة ليلة قدوم الوفد وقال: «ليأتينَّ ركب من المشركين، لم يُكرهوا على الإسلام، قد أنضوا الركاب، وأفنوا الزاد، يصاحبهم علامة، اللهم اغفر لعبد القيس، هم خير أهل المشرق».

ولما دخلوا على رسول الله ﷺ وسلّموا عليه قال لهم: «أيكم عبدالله

الأشج»؟ قال الأشج: أنا يا رسول الله ـ وكان الأشج رجلاً دميًا ـ فنظر إليه ﷺ وقال: «إنه لا يُستقى في مسوك الرجال ـ جمع مسك، وهو الجلد ـ إنما يُحتاج من الرجل إلى أصغريه: لسانه وقلبه» ثم قال ﷺ للأشج: «فيك خصلتان يحبُّهما الله» وفي رواية «يحبهما الله ورسوله» فقال الأشج: وما هما؟ قال ﷺ: «الحلم والأناة» قال الأشج: أشيء حدث؟ أم جُبِلْتُ عليهما؟ قال ﷺ: «بل جُبلت عليه».

إسلام الجارود وإخلاص يقينه.

وكان في الوفد الجارود وكان نصرانياً فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم فحسن إسلامه، وقد كان له موقف في الردّة يدل على ثبات قلبه على الإسلام.

وكان عبدالله بن الأشج معنياً بمساءلة رسول الله ﷺ عن الفقه والقرآن، ومن ثَمّ فضّله رسول الله ﷺ على سائر الوفد في جائزته.

تعليق وتوضيح.

والمتأمل في كلام ابن سعد يرى أن النبي ﷺ أعلن عن ابتهاجه وسروره بقدوم وفد عبد القيس بمدحه لهم وترحيبه بهم، وذكر ﷺ أن بُشّر بقدومهم عليه بوحي من الله تعالى، فبشّر أصحابه بما أخبر به، ثم ذكر لهؤلاء القادمين نعوتاً من الفضائل تميزوا بها عن سائر الوفود، وهي نعوت تدور على محور الإخلاص في إيمانهم وإسلامهم، وعدم إرادة الدنيا والاغترار بحطامها وزخارفها، وأنهم تحمّلوا في سبيل هذا الإخلاص أشدَّ المشقات والمتاعب، فقد جدّوا المسير إلى رسول الله ﷺ حتى أهزلوا ركائبهم وأفنَوا زادهم، ليقطعوا شاسع المسافات ووعثاء البوادي والجبال والشِّعاب والأودية شوقاً إلى رسول الله ﷺ، ليسلموا على يديه، ويطالعوا إشراق نور النبوّة في وجهه الشريف.

خصائص الرجولية التي امتاز بها الأشج رأس وفد عبد القيس.

ثم خَصَّ رسول الله ﷺ بأطيب الذكر، وأحمد الثناء رئيسهم عبدالله ابن الأشج، وسمّاه صاحبهم ليشعره ويشعرهم على سمع المجتمع المسلم بأن المسلمين كيفما كانوا ما دام الإيمان برسالتهم الخالدة يعمر قلوبهم أخوة متصاحبين، ثم ذكر ﷺ أن ما تميّز به هذا الصاحب الحكيم من الفضائل الإنسانية لا يرجع إلى فراهة بدنه، وحسن سَمْتِه، وجمال منظره، فهو دميم

المنظر، غير سويِّ المظهر، وإنما كان له هذا الامتياز على سائر القوم بما حباه الله به من أخلاق حميدة ومكارم عقلية، جبله الله عليها، وفي طليعة ذلك كله (الحلم والأناة) وإلى هاتين الخصلتين يرجع جِماع حكمته ومكارمه.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ أراد بهذا الإخبار لفت نظر أصحابه الأكرمين أن يكون نظرهم إلى الرجال في تفاضلهم هو السموُّ الخلقي والفكري، لأن الرجال لا يرادون في الحياة الجادّة لضخامة أبدانهم، وطول أجسامهم ليتخذ من جلودهم أسقية وسيعة عظيمة، وإنما يرادون لِلِسان ناطق بالحكمة، وقلب مفعم بالإيمان والرحمة.

وهذه النظرة للرجال من أعظم معالم منهج رسالة الإسلام، لأن الرجال يعيشون على الأرض لإقامة موازين العدل بالحكمة النافذة، والموعظة المؤثرة، والجدل بمنطق الحق، ومجاهدة الباطل العتيد بالسيف وسائر وسائل الحرب المطهَّرة أو المؤدِّبة، ولا يكون ذلك إلا بلسان منطيق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل المتناصف، ومن وراء ذلك قلب يمدُّ هذا اللسان بجرأة تحب الموت في سبيل نصرة الحق، وشجاعة لا تتهور، ولكنها قوة أثبت من رسوخ الأطواد، لا تكره الموت ولا ترمي بنفسها بين أحضانه في رعونة المراءاة والتسميع.

تحقيق الاختلاف في توقيت وفادة وفد عبد القيس

تحقيق الخلاف بين ابن سعد وابن حجر في توقيت وفادة عبد القيس.

وقول ابن سعد في روايته: وكان قدومهم عام الفتح يفيد أن لهم قَدْمة واحدة، وأنها كانت سنة ثمان من الهجرة، وهي سنة الفتح، ولكن الحافظ ابن حجر لم يرتض هذا الرأي، وذهب في كلام مدلّل بروايات لا تنزل عن مرتبة الصحّة أو الحسن، فقال في الفتح: والذي تبيَّن لنا أنه كان لعبد القيس وفادتان:

إحداهما قبل الفتح، ولهذا قالوا للنبي ﷺ: بيننا وبينك كفّار مضر، وكان ذلك قديماً إما في سنة خمس أو قبلها، وكانت قريتهم في البحرين أول قرية أقيمت فيها الجمعة بعد المدينة، وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلاً.

وفيها سألوا النبي ﷺ عن الإيمان، وعن الأشربة، وكان فيهم الأشج، وقال له النبي ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحِلْم والأناة».

ويلاحظ على كلام ابن حجر أنه جزم في صدر كلامه بأن القَدْمة الأولى لوفد عبد القيس كانت قبل الفتح دون تردد، ثم قال بعد ذلك: وكان ذلك قديماً إما في سنة خمس أو قبلها، وقد عرفنا في كلام ابن سعد أن وفادتهم كانت في عام الفتح، والفتح كان في سنة ثمان من الهجرة، وهي فيما يظهر من كلام ابن سعد وفادة واحدة.

وقول الحافظ: وكانت قريتهم أول قرية أقيمت فيها الجمعة بعد المدينة يشعر أن إسلامهم كان قديماً لأن الجمعة أقيمت في المدينة في السنة الأولى للهجرة إثر انتهاء بناء المسجد النبوي، كما يؤيد ذلك قولهم للنبي ﷺ: بيننا وبينك كفّار مضر.

وقول ابن حجر: وفيها - أي في هذه القَدْمة الأولى لوفد عبد القيس التي قال عنها ابن حجر نفسه أنها كانت قبل الفتح - سألوا عن الإيمان وعن الأشربة غير مسلّم على إطلاقه، لأن قبلية الفتح لم يعيّن زمنها، فهي لأن تكون قبلية بعيدة، وحينئذ يقال كيف يسألون عن الإيمان، وكانوا قد آمنوا وأقاموا الجمعة في قريتهم (جُواثا) قبل أي بلد سوى المدينة المنورة؟ ثم يقال: كيف سألوا عن الأشربة، ولم تحرّم محرماتها إلا بعد نزول المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن، بل قال بعض الأئمة من السلف: إنها آخر ما نزل من وحي القرآن؟.

ثم ذكر ابن حجر: أنه كان فيهم الأشج في هذه القَدْمة، وأن النبي ﷺ قال له: «إن فيك خصلتين يحبهما الله» وهذا مما لم تختلف فيه الروايات، فهو أحرى أن يكون في القدمة الثانية لهذا الوفد، وسيأتي ذكر ابن حجر لها. ومضى ابن حجر في كلامه فقال: وروى أبو داود من طريق أم أبان بنت الوازع بن الزارع، عن جدها زارع وكان في وفد عبد القيس، قال فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبّل يد النبي ﷺ، وانتظر الأشج واسمه المنذر حتى لبس ثوبيه، فأتى النبيَّ ﷺ، فقال له ﷺ: «إن فيك خصلتين

يحبهما الله ورسوله: الحِلْم والأناة» وفي حديث هود بن عبدالله بن سعد العَصْري أنه سمع جدّه مزيدة العصري، قال: بينما النبي ﷺ يحدث أصحابه، إذ قال لهم: «سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق» وهذه الرواية محتملة أنها هي رواية أن النبي ﷺ نظر إلى الأفق صبيحة ليلة قدوم وفد عبد القيس فقال لأصحابه ما قدمناه في رواية ابن سعد دخلها الاختصار الموجز.

ثم تقول رواية مزيدة العَصْري: فقام عمر فتوجّه نحوهم، فلقي ثلاثة عشر راكباً فبشرهم بقول النبي ﷺ في مدحهم، ثم مشى معهم عمر رضي الله عنه حتى أتى النبي ﷺ، فرموا بأنفسهم عن ركائبهم فأخذوا يده فقبّلوها، وتأخر الأشج في الركائب حتى أناخها، وجمع متاعهم ثم جاء يمشي، فقال النبي ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله».

الوفادة الثانية كانت في سنة الوفود سنة تسع.

ثانيتهما ـ أي ثانية الوفادتين اللتين كانتا لوفد عبد القيس ـ كانت في سنة الوفود، وكان عددهم حينئذ أربعين رجلاً، وكان فيهم الجارود بن بشر ابن المعلّى، وكان نصرانياً، فأسلم فحسن إسلامه.

ثم قال ابن حجر: ويؤيد التعدّد ـ أي تعدد وفادة عبد القيس على النبي ﷺ ـ ما أخرجه ابن حبّان أن النبي ﷺ قال لهم: «ما لي أرى ألوانكم تغيرت؟» فإن فيه إشعاراً بأنه كان رآهم قبل التغيّر.

الاختلاف في اسم الأشج وترجيح ابن حجر أنه عبدالله ومناقشة رأيه.

وقد اختلفت أقوال العلماء في اسم الأشج، وأشهرها قول من قال: اسمه المنذر بن عائذ، وسمّاه النبي ﷺ الأشج لأثر كان في وجهه، قال النووي: هذا هو الصحيح المشهور في اسمه الذي قاله ابن عبد البر والأكثرون.

وقد ذكر هذا القسطلاني في المواهب نقلاً عن ابن حجر في الفتح، فقال: وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلاً، وقيل: أربعة عشر، قال الزرقاني: كما جزم به القرطبي والنووي، وهم المنذر بن عائذ، وهو الأشج، ومنقذ بن حبان، ومزيدة بن مالك، وعمرو بن مرحوم، والحارث بن شعيب، وعبيدة بن همام، والحارث بن جندب، وصحار بن عباس، وعقبة ابن

جروة، وقيس بن النعمان، والجهم بن قثم، وجويرية العبدي، ورستم العبدي، والزارع بن عامر، قال الزرقاني: انتهى ملخّصاً من الفتح.

فترجيح ابن حجر بإصراره على تسمية الأشج عبدالله ترجيح لغير المشهور الذي عليه الأكثرون من مترجمي الرجال، وفي طليعتهم الحافظ الثقة المتقن أبو عمرو بن عبد البر، وجزم السهيلي بأنه المنذر بن عائذ، واختار محمد بن سعد في طبقاته أن اسمه عبدالله بن عوف، ووراء ذلك أقوال.

وقول النووي: وسمّاه النبي ﷺ الأشج لأثر كان في وجهه مخالف لظاهر حديث الزارع بن عامر أحد رجال الوفد، وهو أعلم بصاحبهم، إذ جاء في حديثه عند البيهقي ما يشعر بأنه كان معروفاً في قومه بلقب الأشج، قال الزارع: فجعلنا نتبادر من رواحلنا نقبل يد رسول الله ورجله، وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه، وفي حديث عند أحمد: فأخرج الأشج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبلها.

وفي حديث مزيدة بن مالك عند البيهقي، وأبي يعلى والطبراني أن النبي ﷺ لمّا بشّر أصحابه بقدوم عبد القيس، وقال فيهم: «إنهم خير أهل المشرق» قام عمر رضي الله عنه، فتوجّه نحوهم، فلما لقيهم سألهم فقال من القوم؟ قالوا: من بني عبد القيس، قال عمر: فما أقدمكم هذه البلاد ألتجارة؟ قالوا: لا، قال عمر: أما إن النبي ﷺ قد ذكركم آنفاً فقال خيراً، ثم مشى معهم حتى أتى النبي ﷺ، فقال عمر للقوم: هذا صاحبكم الذي تريدون، فرموا بأنفسهم عن ركائبهم، فمنهم من مشى إليه، ومنهم من هرول، ومنهم من سعى، حتى أتوا النبي ﷺ فابتدروه، ولم يلبسوا إلا ثياب السّفر، فأخذوا يده فقبلوها، وتخلّف الأشج ـ وهو أصغر القوم ـ في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم وذلك بعين رسول الله ﷺ.

هذه الأحاديث كلها مشعرة بأن لقب الأشج كان معروفاً يلقب به المنذر بن عائذ، فقول من قال: إن النبي ﷺ سمّاه به لأثر كان في وجهه ينبغي تأويله ـ إذا صحّ ـ وأظهر ما يقال في تأويله أن سيدنا رسول الله ﷺ

كان يناديه بلقبه الأشج تمييزاً له بأثر ماديّ في بدنه بعد أن ميّزه بأثر معنوي خُلُقي في عقله وإشراق روحه، وأن فيه خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحِلْم والأناة، والتميز بالصفات المعنوية الخلقية التي ترجع إلى مكارم الأخلاق من أرفع الشمائل الروحية التي ينبتها صفاء المعدن النفسي، ويتعاهدها الإيمان بما يصونها ويُعلي الفضائل الإنسانية قدرها، وهذا ممّا خُص بمعرفته وقدره أهل النُّهَى من خاصة الحكماء والحلماء.

ومن ثَمّ أراد النبي ﷺ أن يشهِّره بهذا اللقب الذي يحمل في طواياه شيئاً يبعده عن مظاهر الجمال المادي والاستواء البدني، ليجمع له الفضل من أطرافه، ويصبح هذا اللقب هو الاسم الذي يعرف به ويغلب عليه ليردّ عنه حزّازة بعض النفوس التي تغرّها المظاهر، ليكون فيه للمجتمع المسلم درس منهجي تربوي، يحيا به هذا المجتمع ما بقي طموحاً إلى مكارم الأخلاق في حياته السلوكية.

بيان سبب وفادة وفد عبد القيس

ذكرت مؤلفات السيرة النبوية رواية في بيان سبب وفادة وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، ولكن هذه الرواية لُوّنت بألوان مختلفة في صياغتها، وأسلوبها وسياقها، إيجازاً وإطناباً، بالنقص والزيادة، استطراداً لما يتصل بها وإن لم يكن من صميمها.

رواية محمد بن سعد هي أصل الروايات في بيان سبب وفادة عبد القيس.

ولعلّ أقدم مؤلف ذكرها في إيجاز معبرّ هو محمد بن سعد في طبقاته، فقد جاء فيها صدر الحديث عن وفادة وفد عبد القيس، قال: أخبرني محمد ابن عمر الأسلمي ـ يقصد شيخه الواقدي ـ قال: حدثني قدامة بن موسى، عن عبد العزيز بن رمّانة، عن عروة بن الزبير، وقال ـ أي الواقدي ـ وحدثني عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قالا ـ أي عروة وجعفر ـ : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم، فقدم عليه عشرون رجلاً، رأسهم عبدالله بن عوف الأشج، وفيهم الجارود، ومنقذ بن حبّان، وهو ابن أخت الأشج وزوج ابنته، وكان قدومهم عام

الفتح، فلما تراءوا لمجلس رسول الله ﷺ قيل: يا رسول الله، هؤلاء وفد عبد القيس، قال ﷺ: «مرحباً بهم، نعم القوم عبد القيس».

هذه رواية ابن سعد، وهي الرواية المبيِّنة لسبب وفادة وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، وفيها التصريح بأن النبي ﷺ هو الذي كتب لأهل البحرين يستقدم وفد عبد القيس، وفيها أنه ﷺ عيّن في كتبه عدد رجال الوفد الذين استقدمهم إليه، وهذا التعيين خفيّ الحكمة، مستبعد أن يكون قد كان إلّا بتأويل أن يكون ﷺ كان على علم بعقلائهم وأهل الحكمة فيهم، كما يدل على ذلك سؤاله ﷺ منقذ بن حبان عن أشراف قومه، رجل، رجل، يسمِّيهم بأسمائهم، مما دعا منقذاً إلى الإسلام، قبل أن يصل إلى قومه، على ما سيأتي في كلام النووي رحمه الله تعالى.

وكان ﷺ يقصد بأهل البحرين الذين كتب إليهم كتابه قبيلة ربيعة، وهي إحدى قبيلتين عظيمتين يرجع إليهما النسب العدناني في الجزيرة العربية، وكانت ربيعة تقطن البحرين وما حولها حتى أطراف العراق ومشارف الشام، وما كان بقربها من مخاليف، وسهول، ووديان، وشعاب وجبال.

وكان يوازيها قبيلة مضر النزارية العدنانية، وكانت تتوطن الحجاز بتهائمه ونجوده وكُوَره، وقراه وبلاده، وكانت القبيلتان مضرب المثل في كثرة العدد والمنافسة المتنافرة المتغالبة، وإلى مضر تنتمي قريش جِذْم عبد مناف دَوْحة رسول الله ﷺ.

ولعله ﷺ قصد إلى أن يجمع تحت لواء الإسلام أعظم قبائل العرب، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ليكونوا عدة وقوة ماديّة وروحيّة لدعوته، وسنداً قوياً لنشر رسالته رسالة الهدى والخير في آفاق العالمين، بالحجة النيِّرة والبرهان المضيء، وليردُّوا وهم في ظلال الوحدة الإيمانية مع مجتمع الإسلام اعتداء المعتدين، ويطهِّروا مسارهم من عوائق المعوقِّين بالقوة القاهرة إن لم تنفع الحجّة الباهرة.

وعبد القيس التي قدم وفدها عليه ﷺ كانت من كبريات بطون قبيلة

ربيعة، وحاملي رايات شرفها قوة وعدداً وشجاعة وتعقلا، وينتهي نسب عبد القيس بعد أن أفضى إلى جديلة بن أسد بن نزار، وإليهم وقع كتاب رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، لأن حامل الكتاب منقذ بن حبان كان أحد رجالهم العقلاء المتحلِّين بأدب الأخلاق وفضائل المعاشرة، ولعلّه كسب ذلك من مهنته التجارية التي كان يتنقَّل بها بين البلاد والمجتمعات، فيرى ويسمع، ويأخذ ويعطي، ويختار من الأخلاق ما يقرِّبه إلى القلوب، ويفتح عقله إلى كل جديد من الأحداث والتفكير، وآية ذلك أنه لما مرّ عليه النبي ﷺ وهو قاعد على متجره نهض إليه، فحيّاه النبي ﷺ وسأله عن حاله وعن أشراف قومه، وسمّاهم بأسمائهم، فوقع الإسلام في قلب منقذ، فأسلم وقرأ من القرآن ما قدر له، وصلّى مع رسول الله ﷺ.

وقدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، يرأسهم المنذر بن عائذ، أو عبدالله بن عوف، وهو الملقَّب بالأشج لأثر شجّة كانت في وجهه، ففرح النبي ﷺ بقدومهم عليه، فمدحهم وأكرم نزلهم، وضيّفهم فأحسن ضيافتهم، وقرَّبهم إليه، وأسمعهم القرآن، وفقَّههم في الدين، ثم أجازهم فأعظم جوائزهم، وعادوا إلى قومهم دعاة إلى الله وهدايته، فكانوا من خير المسلمين.

هذا الكتاب الذي ذكره ابن سعد في طبقاته عن شيخه الواقدي في قصة موجزة لبيان سبب وفادة وفد عبد القيس هو الكتاب الذي جاء ذكره في عبارة الكرماني التي نقلها الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني.

رواية الكرماني في سبب وفادة عبد القيس مأخوذة عن رواية ابن سعد.

قال: وكان سبب وفادة عبد القيس على النبي ﷺ أن منقذ بن حبّان كان متجره إلى المدينة، فمرّ به ﷺ وهو قاعد فنهض إليه، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف قومك؟» ثم سأله عن أشرافهم، رجل رجل، بأسمائهم، فأسلم منقذ، وتعلم الفاتحة وسورة اقرأ، وكتب ﷺ لجماعة عبد القيس كتاباً أرسله مع منقذ، فلما وصل منقذ إلى قومه ومعه كتاب النبي ﷺ كتم الكتاب أياماً ـ لعله لينظر حال قومه في تقبّلهم لما جاءهم به من عند رسول الله ﷺ ـ وكان منقذ يصلّي في بيته وتراه زوجه وهو يتطهَّر، ويركع ويسجد، فقالت لأبيها

المنذر بن عائذ، وهو الأشج: إني أنكرت فعل بعلي منذ قدم من يثرب، إنه يغسل أطرافه، ثم يستقبل الكعبة فيحني ظهره مرة، ويضع جبينه على الأرض أخرى.

فالتقى الأشج بمنقذ، فتجاريا الحديث، فوقع الإسلام في قلب الأشج، ثم أخذ من منقذ كتاب رسول الله ﷺ، وذهب به إلى قومه، فقرأه عليهم، فأسلموا، وأجمعوا المسير إلى رسول الله ﷺ واعتلوا ركائبهم، وجدّوا في سيرهم حتى أنضوا ركائبهم وأهزلوها من شدة ما عنّفوا بها، وأفنوا زادهم، وطوّوا الأرض تحت أرقال ركائبهم، وقطعوا سهولها، واقتحموا جبالها، يبتغون الإسلام بين يديه ﷺ، استجابة لدعوته لهم في كتابه الذي أرسله إليهم مع أحدهم منقذ بن حبان رضي الله عنه.

وكذلك رواية النووي مرجعها إلى رواية محمد بن سعد.

وهذا الكتاب الكريم الذي كان إنسان عين قصة قدوم وفد عبد القيس على النبي ﷺ وهو عين الكتاب الذي جاء ذكره مع شرح مسلم للنووي مبيِّناً سبب وفادة وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ في قصة أشبه بالقصة التي ساقها الكرماني ونقلها عنه الزرقاني، ولعلها هي هي، لا يفصلها عنها فواصل جوهرية في الموضوع، وإنما دخلت عليها زيادات استطرادية لا تخرجها عن مقصودها.

قال النووي وهو يشرح حديث ابن عباس من طريق أبي جمرة: قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، وكان سبب قدومهم أن منقذ بن حبان أحد بني غنم بن وديعة ـ بطن من عبد القيس ـ كان متجره إلى يثرب في الجاهلية، فشخص إلى يثرب بملاحف وتمر من هَجَر بعد هجرة النبي ﷺ، فبينا منقذ بن حبان قاعد إذ مرّ به النبي ﷺ، فنهض منقذ إليه، فقال النبي ﷺ: «أمنقذ بن حبان؟ كيف جميع هيئتك وقومك» ثم سأله عن أشرافهم، رجل، رجل، يسمِّيهم بأسمائهم، فأسلم منقذ، وتعلّم الفاتحة، واقرأ باسم ربك.

ثم رحل منقذ قِبَل هَجَر، فكتب النبي ﷺ معه إلى جماعة عبد القيس كتاباً، فذهب وكتمه أياماً، ثم اطلعت عليه امرأته، وهي بنت المنذر ابن

عائذ، والمنذر هو الأشج، سمّاه رسول الله ﷺ به لأثر كان في وجهه، وكان منقذ رضي الله عنه يصلي ويقرأ، فنكرت امرأته ذلك، فذكرته لأبيها المنذر، فقال: أنكرت بعلي منذ قدم من يثرب، إنه يغسل أطرافه، ويستقبل الجهة ـ تعني القبلة ـ فيحني ظهره مرة، ويضع جبينه مرة، ذلك ديدنه منذ قدم.

فتلاقى الأشج ومنقذ، فتجاريا ذلك ـ أي أمر منقذ في طهارته وصلاته ـ فوقع الإسلام في قلب الأشج، ثم سار إلى قومه: عَصْر ومحارب بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه عليهم فوقع الإسلام في قلوبهم، وأجمعوا على السير إلى رسول الله ﷺ، وأعدُّوا لذلك عدّتهم، وعلَوا ظهور ركائبهم، وساروا حتى إذا دنَوا من المدينة قال رسول الله ﷺ لجلسائه من أصحابه: «أتاكم وفد عبد القيس، خير أهل المشرق، وفيهم الأشج العصري، غير ناكثين ولا مبدِّلين، ولا مرتابين، إذ لم يسلم إلا قوم وتروا».

ما جاء في وفد عبد القيس
من أحاديث وأحداث

أصح أحاديث الوفود أحاديث وفد عبدالقيس.

أحاديث وفادة أشراف عبد القيس على النبي ﷺ، قادمين من البحرين، على بعد الشُّقة ومخاطر الطريق، ووعثاء السفر، وقلة الزاد، وافتقاد الزاد، وافتقاد الحملان ـ أصحُّ ما روي في أحاديث الوفود، سنداً ومتناً، على اختلاف الروايات في الأسلوب والعبارة، ونسج السياق، وتفاوت في المعاني والحقائق وذكر الأحكام الشرعية والنظم الاجتماعية، لا تكثر حتى تخلّ بالسياق، ولا تقلّ حتى تفقد مزية الوحدة في الاتساق وائتلاف الأسلوب وتقارب التعبير واكتمال الأداء للمعاني والحقائق.

وقد خرّج أحاديث هذا الوفد المبارك الميمون الشيخان: البخاري ومسلم، وأبو داود، والطيالسي، والإمام أحمد، وسائر الأجلّة الثقاة في مؤلفاتهم، أخرجها البخاري في جامعه الصحيح في مواضع متعددة، تناهز العشرة، وأخرجها مسلم في موضعين: الإيمان والأشربة، وهي مما أجمع عليها أهل السير النبوية.

ونحن نسوق من هذه الروايات ما يبلّغ المقصد. أخرج البخاري في

الجامع الصحيح حديثهم تحت عنوان: باب وفد عبد القيس، بأسانيد مختلفة، تنتهي إلى ابن عباس رضي الله عنهما، من طريق أبي جَمْرة قال: حدثني إسحاق، أخبرنا أبو عامر العقدي، حدثنا قرّة، عن أبي جَمْرة، قلتُ لابن عباس: إن لي جـرّة تُنبذ لي فيها نبيذاً، فأشربه حلواً في جر، إن أكثرت منه فجالست القوم، فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح، فقال ابن عباس: قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، فقال لهم: «مرحبا بالقوم غير خزايا ولا الندامى» فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك المشركين من مُضَر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر الحرم، حَدِّثنا بجُمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو به من وراءنا.

اختيارنا روايات أحاديث وفد عبد القيس من الصحيح.

قال ﷺ: «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تُعطوا من المغانم الخمس. وأنهاكم عن أربع، ما انتبذ في الدبّاء، والنقير، والحنتم، والمزفّت» قال ابن كثير: هكذا رواه مسلم من حديث قرّة بـن خالد عن أبي جَمْرة، وله طرق في الصحيحين عن أبي جَمْرة، ثم ذكر عن الطيالسي بتحديث شعبة عن أبي جمرة.

وأخرج البخاري أيضاً تحت العنوان المتقدِّم حديث هذا الوفد بسند ينتهي إلى أبي جمرة، فقال: حدثني سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عـن أبي جَمْـرة؛ سمعـت ابـن عبـاس يقـول: قـدم وفـد عبـد القيـس على النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنّا هذا الحيّ من ربيعة، وقد حالت بيننا وبينك كفّار مُضَر، فلسنا نخلص إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأشياء نأخذ بها، وندعو إليها من وراءنا، قال: آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله» وعقد واحدة «وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا لله خمس ما غنمتم. وأنهاكم عن الدبّاء، والنقير، والحنتم، والمزفّت» ويلاحظ أن هذه الرواية لم تذكر الصوم، مخالفة في ذلك الرواية الأولى.

ثم روى البخاري حديثاً أوجز قصة وفد عبد القيس، وأطال في متعلقاتها فقال رحمه الله: حدثني يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وَهْب،

أخبرني عمرو وقال بكر بن مضر، عن عمرو بن الحارث، عن بكير: أن كريباً مولى ابن عباس حدثه أن ابن عبد الرحمن بن أزهر، والمِسْورَ بن مَخرمة، أرسلوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالوا: اقرأ عليها السلام منا جميعاً، وسَلْها عن الركعتين بعد العصر فإنّا أُخبرنا أنك تصلّينَهما، وقد بلغنا أن النبي ﷺ نهى عنهما، قال ابن عباس: وكنت أضرب مع عمر الناس عنهما.

قال كريب: فدخلتُ عليها، وبلّغتُها ما أرسلوني، فقالت: سَلْ أم سلمة، فأخبرتهم، فردّوني إلى أم سلمة رضي الله عنها بمثل ما أرسلوني إلى عائشة، فقالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنها، وإنه صلّى العصر ثم دخل عليّ وعندي نسوة من بني حَرَام من الأنصار، فصلاّهما، فأرسلت إليه الخادم فقلت: قومي إلى جنبه، فقولي: تقول أم سلمة: يا رسول الله ألم أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين؟ فإن أشار بيده، فاستأخري، ففعلت الجارية، فأشار بيده، فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: «يا بنت أبي أمية، سألت عن الركعتين بعد العصر؟ إنه أتاني أناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان».

نظرات تأملية فيما اشتمل عليه هذا الحديث من معالم منهجية في التربية السلوكية.

وإنما ذكرنا هذه الرواية، وليس فيها من قصة وفد عبد القيس إلاّ أنهم جاؤوه ﷺ بإسلام قومهم فشغلوه صلوات الله وسلامه عليه عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان اللتان رأيتني أصليهما ـ لما اشتملت عليه من نماذج وحكم منهجية، وأحكام شرعية تربوية عالية، وشمائل خلقية، وحسن التأتي في السؤال وتلقّي الجواب، وشدة الحرص على التعلّم والتعليم في مدرسة النبوّة وتنزلات الهداية، وأخذ خدم هذا البيت الأكرم بأرفع الأدب النفسي في التخاطب، والسفارة بين الأعلَيْن بالحفاظ على أدب الأسلوب في إيجاز الكلمة المعبِّرة، وحين تفهّم الخدم لما يقال لهنّ من أدب الخطاب، وملاحظة جو المخاطبة، وما عسى أن يكون في ظلاله من شغل يمنع من سرعة الإجابة، مع لطف الحركة، ولين الأسلوب، وسماحة اللفظ، وجمال القالب الذي انصبت فيه هذه المعاني السامية، والحقائق العالية، ممّا يجعل من الخادم في أول بيت أسس ليضع من نماذج الحياة المسلمة الفاضلة آية من

كتاب الإنسانية الرفيعة التي افتقد المسلمون معالمها في بيوتهم بعد غيبة شمس الهداية المشرقة بنور القرآن الحكيم، ووراء سحائب الحضارات الماديّة المسعورة التي تتخذ من جنون الغرائز الشهوية سلطاناً يحكمها بأسياط الإذلال والمهانة، وقد كان الخدم يوم كان الإسلام قيِّماً على حياة المسلمين السلوكية أبناء البيوت وبناتها، أخوة رجالها وأخوات نسائها.

ونحن ننبّه على ما جاء في هذا الحديث الشريف من حقائق الأدب النبيل عَرَضاً في قصة لم يكن المقصود منها أن ترسم منهجاً تربوياً سلوكياً لنوع من الحياة في أشرف بيت لأشرف أسرة على الأرض، يجمع في لحظة حركات هادئة وكلمات حكيمة معدودة أشعة شمس الهداية في مشكاة الحقائق الإسلامية، التي تنزلت من سماء التأسِّي لتكون منار هداية للسالكين من أجيال الإسلام والمسلمين.

النقطة التي بدأ منها خط هذه المعالم التربوية.

وقد بدأت هذه الآداب النفسية العالية من الحبر العليم ترجمان القرآن، ومِدْرَهُ الإسلام عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وكان معه فيها رجلان من أقرانه سِناً، ونبلاً، هما عبد الرحمن بن أزهر، ومِسْور بن مَخْرمة الزهريان، وثلاثتهم عنوان زهرة شباب أصحاب سيد المرسلين محمد خاتم النبيين ﷺ.

وجرى الحديث بينهم في قضايا العلم الإسلامي ومشكلاته، وكذلك كانت مجالس أهل العلم من المؤمنين يومئذ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وهدىً إلى هداهم، ومعرفة إلى معارفهم، ويعرض حديثهم لقضية من قضايا تعبّدات الشريعة، سمعوا فيها من النبي ﷺ، أو ممّن سمع منه ﷺ من ذوي الأسنان العالية في مشرق الإسلام حُكْم الشريعة في شأن القضية التي جرى حديثهم فيها، فاعتصموا به ودرجوا عليه، وإذا بهم يبلغهم أن النبي ﷺ - وهو المشرِّع الذي لا تؤخذ أحكام الشريعة إلا عن طريقه، وكل حكم شرعي أخذ عن غيره فهو ردّ على من أخذ عنه أو عمل به - عمل على غير ما كان عندهم من علم سمعوه ووقر في قلوبهم، وتكيّفت به عقولهم، وجرى عليه تعبدهم، ولكنهم أرادوا أن يكشفوا الغطاء عما عندهم من علم في توافقه على ما بلغهم عن رسول الله ﷺ فلعلّ الحكم الأول نسخ ولم يبلغهم

النسخ، أو لعل ما بلغهم عن النبي ﷺ أولاً وآخراً لم تصل إليهم تفاصيله، وقد يكون في هذه التفاصيل ما يحلُّ عقدة إشكال القضية عندهم، فلم يسعهم السكوت وهم ورثة الدعوة إلى الله، وحاملو لواء نشر الرسالة إلا بعد اليقين، وهو أقرب إليهم من ترداد أنفاسهم.

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي الخط الأول في إطار معالم هذه التربية المنهجية في رسالة الإسلام

وهـاهي تي عالمة الإسلام، وربيبة الوحي، وخزانة أسرار النبوة، المخصوصة باطِّلاعها على ما لم يمكن لغيرها أن يطَّلع عليه من شرائع هذا الدين القيم، وهدايته لمكانها من متنزل الوحي ﷺ هي صاحبة الخصائص الربّانية، السيدة الجليلة النبيلة، الصدّيقة بنت الصدِّيق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ على قيد خطوات من مجلسهم الشريف المشرّف، ليسألوها عما أشكل عليهم، حتى يأتيهم من عندها برد اليقين.

فأرسلوا إليها الأريب الأديب مولى ابن عباس، وقالوا له: اقرأ عليها السلام منا جميعاً لأنهم متساوون في منزلة بنوتهم لها، ومتكافئون في منزلة الأمومة منها، فهي أمهم جميعاً، وأم كل مؤمن منزلة وتشريفاً، والمؤمنون جميعاً أبناؤها تعزيزاً وتكريماً وتشرفاً وتوقيراً.

كريب معلم من معالم إنسانية الإسلام في تربية الموالي.

وصدع كريب بأمر سيده وصاحبيه، وذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبلّغ ما أرسل به، وكانت عائشة رضي الله عنها تعلم أن عند أم المؤمنين أم سلمة ما يؤكد ما عندها من العلم فيما سئلت عنه، فأرادت أن تجمع إلى علمها علم صاحبتها أم سلمة، وكان النبي ﷺ عندها في بيتها يصلِّي بعد العصر، فقالت لرسول علماء شباب الصحابة رضي الله عنهم: سَلْ أم سلمة.

أم سلمة رضي الله عنها كانت في حكمتها وعبقرية تفكيرها هي خديجة الثانية.

رجع كريب إلى مولاه وصاحبيه فبلَّغهم ما قالت عائشة، فلم يسكتوا، قال كريب: فردُّوني إلى أم سلمة بمثل ما أرسلوني إلى عائشة، فذهب كريب إلى أم سلمة، وبلَّغها ما أرسل به، فأجابت بما كان عندها من علم، وكان النبي ﷺ ساعتئذ في بيتها يصلِّي بعد العصر، لكنها لم تكن تعلم على وجه اليقين أن ما كان يصليه النبي ﷺ في بيتها هما ركعتي بعديّة العصر، أو صلاة أخرى، والفتوى لا تحلّ إلا بيقين من العلم، وقد أرادت أم سلمة رضي الله

عنها هذا اليقين، فقالت ـ وكريب يسمع ـ: سمعت النبي ﷺ ينهى عنها ـ أي عن الركعتين بعد العصر، وأنه صلى العصر ثم دخل عليّ وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فصلاّهما ـ أي فصلّى، فظننتُ أنه ﷺ يصلي ركعتي بعد العصر اللتين سمعته ينهى عنهما ـ وأم سلمة رضي الله عنها هي خديجة الثانية في حكمتها وعبقرية تفكيرها، وزكانة عقلها ـ فلم تتسوَّر محراب العلم، ولكنها تلبثتْ متأنية لتصل إلى اليقين وهو بين يديها، ورسول الله ﷺ عندها في بيتها، فأرسلت إليه رضي الله عنها خادمتها.

خيوط من رفيع الأدب يلتقطها القلم من معالم المنهج في بيت النبوة.

وهنا يقف القلم مذهولاً ليلتقط خيوطاً من رفيع الأدب في بيت النبوة تمثل نموذجاً من المنهج السلوكي فيما ينبغي أن تكون عليه بيوت المسلمين، سادة وخدماً من رفيع الأدب التربوي لتعرف الحياة منهج التربية المنزلية الذي جاءت به رسالة محمد ﷺ، حتى يكون ذلك المنهج صورة حية في إطار التربية الإسلامية التي تجعل من البيت المسلم المدرسة الأولى لتخريج أجيال الطفولية المسلمة منذ درجت في البيت بين أحضان هذه التربية، حتى تستقيم قناتها وهي تمشي في ركاب الزمن لتكون واقفة على أبواب الشبوبية الغضّة سوية الجسم والعقل والروح، لتصبح نماذج مؤمنة في المجتمع المسلم ساعية متحركة في فجاج الحياة المسلمة.

النبي ﷺ يصلي بعد العصر وهو في بيت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وهذه الصلاة هي إطار هذه القصة التي رسمت خيوطها في دائرته، وأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها مشغولة بكرائم من نسوة الأنصار من بني حَرَام كنّ يستضفنها، وقد أعظم الإسلام حق الضيافة في المؤانسة والملاطفة والإكرام، ومن أحق بأن يكون لذلك أعظم الأسوة من بيت النبوة، ولكن أم المؤمنين أم سلمة إذ جاءها السؤال وهي على حالها مع ضيفاتها رأت أن تسعف السائل بما لا ينقص من حق ضيفاتها ليرجع إلى من أرسله بالجواب الشافي، فأرسلت إلى النبي ﷺ ـ وهي لا تعلم إن كان قد أكمل صلاته وانصرف منها ـ الجارية بعد أن أعدّتها لهذه الرسالة العظيمة، فأقرأتها كتاب الحياة المنزلية في بيت النبوة آيات الأدب الرفيع في خطاب سيد الوجود الإنساني محمد ﷺ، فقالت لها: قومي إلى جنبه فقولي: تقول أم

سلمة: يا رسول الله ألم أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين؟ فأراك تصليهما؟ فإن أشار بيده فاستأخري، ففعلت الجارية، فأشار بيده فاستأخرت عنه.

درس من الأدب الرفيع تلقنه أم سلمة لجاريتها فتؤديه هذه الجارية أحسن أداء

وهنا يقف القلم مزهواً متعجباً، يستغرقه التأمل أمام هذا الأدب الرفيع وسمو التربية المنزلية التي لم تُعرف بما قامت عليه من تلطف وسماحة إلا في بيوت المسلمين على أنضر عهد في تاريخ الإنسانية.

أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها يرسل إليه ثلاثة من أعلياء شباب الصحابة رضي الله عنهم فضلاً وعلماً، يسألونها في حكم شرعي ردت عائشة رضي الله عنها الرأي فيه إليها، فقالت لرسول سائليها: سَلْ أم سلمة لما تعلم بما عندها من العلم في هذه القضية، وكان النبي ﷺ ساعتئذ في بيت أم سلمة يصلِّي بعد العصر وعند أم سلمة ضيفاتها من كرائم نسوة الأنصار، وفضليات عقيلات بني حرام، فلم يدعها أدب الضيافة ومكارم الأخلاق أن تذهب بنفسها إلى النبي ﷺ، لتسأله عما سئلت عنه، فأرسلت إليه ﷺ الجارية بعد أن علمتها أدب مقامها منه ﷺ لمخاطبته وإسماعه رسالة سيدتها، فقالت لها: قومي إلى جنبه ـ أي بقدر ما يسمع كلامها، فلا يتكلف استفهامها، ولا تضطر إلى أن ترفع صوتها حتى يخرج عن سياج أدب الخطاب.

وهذا الأدب الرفيع في مخاطبة النبي ﷺ هو الأدب الذي أدّب به القرآن الحكيم الأمة كلَّها في مخاطبته ﷺ بقوله عز شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾.

أدب الأسلوب ينبغي أن يتسق مع سمو المعاني.

ثم قالت أم سلمة رضي الله عنها للجارية: فقولي: ـ بعد أن تحسني مقامك إلى جنبه ليبلغ الحديث مبلغه: تقول أم سلمة يا رسول الله ـ وهنا موضع تأمل، ينم عن أرفع صور التأدّب والتأديب في لطف أسلوب المخاطبة الموسوطة، فإن أم سلمة لم تقل لجاريتها، تقول أم سلمة لك، لأن هذا الأسلوب لا يخلو عن ذروٍ من يبوسة الخطاب ونشفة في مخاطبة المتمازجين المتخالطين في الإحساس والشعور، وإنما قالت للجارية ما يرسم لها طريقة

إسماع رسول الله ﷺ ما تقصد إسماعه إليه، مع مراعاة الأدب في وداعة الروح، وخفض الصوت: تقول أم سلمة، كأنها لا توجه خطاباً إليه ﷺ بل كأنها لا توجه خطاباً إلى أحد، ولكنها تقول ليسمع منها، وهذا تصوير لنموذج من أدب الوحي الذي يتهامس به الملائكة المقرّبون في بيوت أمهات المؤمنين اللائي شرّفهن الله تعالى جميعاً، وأعزّهن وأعلى شأنهن بمكانهن من رسول الله ﷺ، فجعل بيوتهن متنزّلاً لرفع نماذج الأدب السلوكي المتحلّي به كل من استظل بأسقفها من السادة والخدم، حتى كانت البيوت الكريمة إطاراً تلمع في أكنافه أفضل الفضائل الإنسانية.

ثم قالت أم سلمة رضي الله عنها للجارية بعد أن تكون قد قامت بمراسم الأدب في قيامها إلى جانبه ﷺ طبقاً لما علمتها من ذلك: فإن أشار بيده إشارة يفهم منها أنه ﷺ ما يزال مشغولاً بصلاته فاستأخري، وهنا لمحة تعبيرية تصور أرفع منازل الأدب الأسلوبي في خطاب الأعلياء، إذ قطعت عن فعل الأمر في قولها (فاستأخري) صلته بمتعلق مّا، وهذا أشبه بما في قول أم سلمة: تقول أم سلمة، فكما لم تقل هناك: تقول لك، لم تقل هنا فاستأخري عنه، لأن ذلك لو كان قد قيل لكان إشعاراً للجارية بالتزيد في استئخارها والتباعد بموقفها، وهذا غير مقصود.

النبي ﷺ يفصل في قضية سؤال شباب علماء الصحابة.

وانصرف النبي ﷺ من صلاته، وكان قد سمع ما قالت أم سلمة، فقال ﷺ يخاطب زوجه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، ويرد على تساؤلها فيما سمعت منه من النهي، وفيما شهدته من فعله ﷺ وهو يصلّي في بيتها بعد العصر، ليوضح ما سمعت وما شهدت فيما سألت، معلناً لما يقول حتى تسمعه سماع تفقه وعلم، ويسمعه ضيفاتها الأنصاريات، لأن شرعة الأحكام الشرعية العامة هي العلانية والجهر حتى يبلّغ الشاهد الغائب، فربَّ مبلَّغ أفقه من سامع ـ «يا بنت أبي أمية، سألت عن الركعتين بعد العصر؟» وهذا القول محتمل في ظاهره لأن يريد منه ﷺ أن سؤالها كان عن الركعتين اللتين صلاّهما ﷺ في بيتها، لا بوصف كونهما سنة بعديّة العصر، ومحتمل لأن يريد ﷺ الركعتين بوصف كونهما هما الركعتين سنة بعد العصر، اللتين سمعته أم سلمة ينهى عنهما، وكان ابن عباس يضرب عليهما الناس مع

لا تعارض بين قول النبي ﷺ وفعله.

عمر، وقد أراد ﷺ أن يبين أن ما سمعته أم سلمة من النهي عن الركعتين بعد العصر باقٍ على حاله لم ينسخ، وأن الركعتين اللتين رأته يصلّيهما في بيتها هما الركعتان اللتان بعد الظهر، فقد شغل بمهمٍّ من الإسلام عنهما، حتى صلّى العصر ودخل بيته عند أم المؤمنين أم سلمة فصلاّهما، فهما اللتان رأته يصلّيهما، ولم يتعارض نهيه عن صلاة الركعتين بعد العصر وصلاته في بيت أم سلمة ركعتين بعد صلاة العصر، لأن هاتين كانتا بديلاً عنهما في وقتهما بعد الظهر، وكون النفل يُقضى أو لا يُقضى مبسوط في كتب الفقه واجتهادات أئمة الأمصار من الفقهاء، لكن النبي ﷺ كان عمله ديمة، وإذا عمل من أعمال الخير عملاً كان حريصاً على المحافظة عليه، فلا يتركه ما أمكنه فعله.

حياة شباب أعلام علماء الصحابة كانت تفتيحاً لأبواب الفكر والعلم.

وهكذا كان سؤال الثلاثة الأعلام من شباب الصحابة رضي الله عنهم باباً من أبواب العلم ونشر التشريع الإسلامي من الصحابة عن طريق ابن عباس وصاحبيه الزهريين، ثم عمَّ الأمة بالنشر العام، وكان ذلك من بركات وفد عبد القيس.

ولئن كنا أطنبنا في التعليق على هذا الحديث فلأن الموضوع الاستطرادي حقيق بما هو أكثر من ذلك، لأنَّ ما نبهنا عليه من الآداب السلوكية في التربية المنزلية أصلٌ من أصول هذا البحث الذي عقد له هذا الكتاب، لما فيه من لوامع ولوامح منهج رسالة الإسلام وتربيته المنزلية، مع أن الحديث الذي علّقنا عليه لم يكن من أمهات أحاديث وفادة وفد عبد القيس، ولكنه من أجمع جوامعها لألوان من التربية الإسلامية، وألوان من نماذج الأحداث التي جاء بها منهج الرسالة الخالدة، لتكون أسوة تتأسى بها الأجيال المتعاقبون من أبناء الإسلام.

قدوم وفد نصارى نجران

سبب وفادة وفدهم على النبي ﷺ
وورود قصتهم في القرآن والصحيحين وغيرهما

ما تضمنته هذه القصة من معالم منهج الرسالة في أحداثها ونماذجها التربوية

لمحات عن النصرانية في الجزيرة العربية.

لم يكن للديانة النصرانية في أرض العرب قبل بزوغ شمس الهداية الإسلامية حركة إيجابية حيوية باعتبارها ديانة إلهية الأصل، تتسامى بما في جذورها من مائية هذا الأصل السماوي من ميراث تتعالى به على الوثنية العربية المتهاوية في مهاوي أبطل الأباطيل.

ومن ثَمّ لم يكن للنصرانية بهذا الاعتبار ذكر في إطار الحياة العربية سوى ذكر خافت أشبه بهزاهز ذُبالة المصباح الذي أوشك زيته على النضوب.

لقد ربضت هذه النصرانية الراكدة بسلبيتها في ركنين قصيَّيْن في طرفي الجزيرة العربية، في جنوبها بنجران على حدود اليمن، وفي شمالها على مشارف الشام، وكان كل من الطائفتين النصرانية الشمالية، والنصرانية الجنوبية يخضع لسلطان نصرانية الروم، وقد اعتزلت نصرانية العرب في ركنيها القصيَّيْن الحياة واعتزلتها الحياة، وتركتها تدور حول نفسها تطحن برحاها الهواء المزجر بعواصف العصبية الدينية الخرساء في الجنوب لدى نصارى نجران، والعصبية المأجورة التي عشعشت وأفرخت في قلوب المرتزقة المقهورين بسياط الاستعباد الروماني السياسي الخادع في الشمال، لدى الغساسنة ومن انساق وراءهم من القبائل العربية في الخضوع لعبودية التبعية

المطلقة لسلطان الرومان السياسي، وكلا الطائفتين: نصارى الجنوب، ونصارى الشمال كان أصمّ أبكم عن الحق، لا يعرف هداية يدين بها ويجادل عنها، ولا يبصر نوراً يمشي به في الناس.

خداع الرومان لمتنصرة الشمال.

وجاء الإسلام وهم على حالهم، نصرانية سياسية اتخذها الرومان مَصْيدة لهؤلاء العرب المتنصِّرين بعد أن خدعوهم بكثرة العطايا حتى أدخلوهم في نصرانيتهم، ليكونوا دريئة لهم يدفعون بهم موجات الهجوم المندفع من البادية وصحاريها المتناثرة هنا وهناك طلباً لمنازل العيش ومطالب الحياة، كما يدفعون بهم شر إمارة المناذرة الذين كانوا في تبعيتهم وخضوعهم لسلطان الفرس على غرار الغساسنة في خضوعهم للرومان.

وقد بالغ الرومان في خداع هؤلاء العرب الجوعى، فأسسوا لهم إمارة غسان في الشمال ليكونوا مع سائر عرب الشمال القريبين من روم الشام همز وصل بكرسي النصرانية الأم في روما، حتى لا يشعر العرب بالأنفة القومية، والنخوة العرقية أن يحكمهم من ليس من جلدتهم، وأغدق الروم على أمراء غسان وزعمائهم فنوناً من الترف ومظاهر الفجور، ورغائب الشهوات القاتلة للمروءة والشموخ، فانخدع أمراء غسان، واتّسموا بسمات الملوك، وانخدع بخداعهم من وراءهم من متنصرة القبائل المجاورة لهم.

موقف الروم من نصرانية نجران.

ثم مدّ الروم أذرعتهم إلى جنوب الجزيرة العربية حيث سلطان الفرس يقبض على زمام اليمن بعد زوال حضارتها العربية التي أقامها الحميريون والسبائيون، فجعلوا من نجران وهي على حدود اليمن منتجعاً لنصرانيتهم، فأغدقوا على أشراف نجران وزعمائها من العرب ألواناً من المظاهر الفاتنة المغرية التي اتخذها هؤلاء الزعماء وسيلة لتطويع جماهير النجرانيين لهذه التبعية الاستعبادية، بيد أن تبعية نجران لهم لم تكن تبعية سياسية تأخذ مظهر الملك والتأمير، وإنما كانت تبعية عصبية دينية كما جاء صريحاً في كلام أبي الحارث ابن علقمة أحد متقدِّمي نصارى نجران مع أخيه بشر بن علقمة، وهو يرد عليه ويزجره في مسّه لحمى نبوة محمد ﷺ، حينما كبَتْ ناقته، ليفهم صراحة أن محمداً ـ ﷺ ـ هو النبي الذي كانوا ينتظرونه، فلما لامه أخوه بِشْر على

عدم متابعته لرسول الله ﷺ والإيمان به والتصديق برسالته كشف له عن وجه الحقيقة باعترافه أن محمداً ﷺ نبيٌّ ورسول، وهو المبشَّر به في كتبهم، وكانوا ينتظرونه.

كتاب النبي ﷺ إلى ملك غسان وموقفه من دعوة الإسلام.

وبلغتهم دعوة الإسلام ورسالته حين بلغت سادتهم الرومان، كما جاء في حديث هرقل عند البخاري وكتاب النبي ﷺ إليه يدعوه إلى الإسلام، ولكن هرقل ـ وهو القيصر ـ راوغ وضنّ بملكه، وهو عليم بالحق وصدق رسول الله ﷺ في دعوته، ولكنه لم يُقَدّر له الإيمان، كما كتب ﷺ إلى (ملك) غسان ـ الحارث بن أبي شمر، كما سماه جمهور أرباب السِّيَر، أو جبلة ابن الأيهم، كما سمّاه ابن هشام ـ يدعوه إلى الإسلام، وأرسل ﷺ بكتابه شجاع ابن وهب رضي الله عنه، وكان الغساني مشغولاً بإعداد الهدايا والتحف ليقدمها إلى سيده القيصر، فأقام شجاع ببابه أياماً لا يأذن له للدخول عليه، وقد أسلم على يدي شجاع أمري حاجب الغساني، وكان في لهفة من الشوق للقاء رسول الله ﷺ، ولكنه كان يخاف الغساني ويرهبه لسطوته وطغيانه.

ولما فرغ الغساني من شغله أذن لرسول رسول الله ﷺ في الدخول فدخل إليه، وسلمه كتاب رسول الله ﷺ، فلما قرأه رمى به وزمجر، وطغى وتجبر، وعلا واستكبر، وقال: من يسلبني ملكي، وأمر بالجموع تحشد له، وأنعل الخيل، وأخذ يتجهز بالسلاح والمؤن والرجال لمحاربة رسول الله ﷺ، وتظاهر بقوته المادية، ليرهب بتكذبه رسول رسول الله ﷺ شجاع بن وهب، ويرهب بتنفُّجه المتكذِّب المجتمع المسلم، وقال لشجاع بن وهب: أخبر صاحبك بما ترى، ونسي هذا المأفون أنه ينهض على قدمين مستعارتين، وأنه مقصوص الجناحين، مقلَّم الأظافر، مسلوب الإرادة لأنه تعبَّد نفسه وقومه لسيده القيصر، عبودية غلَّت عقله ويديه، فلا يقوى على التحرك إلا بإذن من سيده القيصر، فكتب إليه يخبره بما كان من كتاب رسول الله ﷺ إليه يدعوه إلى الإسلام، وبما كان منه في حق رسول الله ﷺ من التهوّر وسوء الرعية برمي كتابه ﷺ، وما كان منه من الأخذ في التجهز بإعداد الحشود للسير لمحاربة رسول الله ﷺ.

فكتب إليه سيده القيصر بما يخزيه، ويرده إلى مزجره من ذلة العبودية

لسلطانه، وينهنه وينكر عليه حماقته وسوء تفكيره، ويسترذل تكذباته، وغرور مزاعمه، ويصرفه عن مقصده، بقوله: لا تَسِرْ هذا المسير، والْهُ عنه، وطلب إليه أن يوافيه بإيلياء، فخنع (ملك) غسان، وخضع لأمر سيده وتبعثر تنفُّجه وبأوه، وهوى عنه غروره وتجبُّره، وتصاغر أمام أمر القيصر وذلّ، وتبدّل انتفاخ أوداجه ضموراً، وتعاليه هوناً، وتشامخه خَوَراً ورعباً، ونهوضه انكساراً مسترخياً، ويقظته تثاؤباً منيباً، واستكباره مَلَقاً ومداهنة، وها هوذا سيده القيصر يرده عن رعونته، فيعود إليه عقله ويستكين ويستسلم، ويهدي إلى رسول الله ﷺ مع رسوله مائة مثقال من الذهب.

وعاد شجاع بن وَهْب إلى رسول الله ﷺ، وأخبره خبر (ملك) غسان، فقال النبي ﷺ: «باد ملكه» ولم تنفعه شفاعة الذهب، بل صدّق الله تعالى دعوة رسوله ﷺ في إخباره بزوال ملكه كما زال ملك كسرى حين عتا واستكبر، ومزّق كتاب رسول الله ﷺ الذي دعاه فيه إلى الإسلام، فمزّق الله ملكه.

ضعف وفادة وفد غسان إلى النبي ﷺ.

ولما استقرت الأمور بعد هذا الموقف من القيصر، ووهت علاقات الغساسنة وسائر القبائل المتنصِّرة على مشارف الشام بالرومان قدم وفد غسان على رسول الله ﷺ وكانوا ثلاثة نفر، فأسلموا، وقالوا لرسول الله ﷺ: إنا لا ندري أيتبعنا قومنا أم لا، وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر، فأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز وانصرفوا إلى قومهم وكتموا إسلامهم، ولم يتبعهم أحد على الإسلام.

غزوة تبوك أفزعت متنصرة العرب وسادتهم الرومان في الشام.

ولما توجه النبي ﷺ إلى تبوك لغزو الروم، يقود جيشاً عرمرماً، كثيف الجند عظيم القوة، فزعت منه القبائل المتنصرة فزعاً شديداً انسياباً ممّا دخل على سادتهم الروم من الهلع الذي زلزل أقدامهم، وأرقص الأرض من تحتهم، وشتت شملهم، ولم يلق منهم رسول الله ﷺ والذين معه من كتائب الجهاد كيداً، بل عاد بجيشه موفور العزّة بعد أن عقد صلح الجزية مع من جاءه للمصالحة، وكتب لهم كتب الأمن والأمان ما داموا على الحفاظ لعهودهم ومواثيقهم لا يغدرون، ولا يظاهرون عدواً للمسلمين.

هذه إلمامة استطرادية دعا إليها قصداً البيان لحال النصرانية في جزيرة العرب، فكان لا بدّ من ذكر ملامح هذه النصرانية في شمال الجزيرة ليتبين حال نصارى نجران الذين عني بهم القرآن الكريم، ووفدوا على النبي ﷺ، وجادلوه في شأن عيسى عليه السلام، فنزل القرآن الكريم بما حجَّهم.

نصارى نجران
وموقفهم من الرسالة الإسلامية

موقف ملوك حمير اليهود من نصارى نجران.

نجران بلد قديم متسع الأرجاء من بلدان الجزيرة العربية الجنوبية على حدود اليمن، كانت في الزمن القديم مجموعة كبيرة من القرى تربو على المائة قرية، وهي على سبع مراحل من مكة، مسيرة يوم للراكب السريع سير العهد القديم، وهي من المدينة المنورة أبعد، وفي إحدى قراها كانت حادثة الأخدود المذكورة في سورة البروج من القرآن الكريم.

وكان اليهود الذي يستوطنون البلاد المجاورة لنجران من اليمن كثرة منظمة في ممالك وأوضاع سياسية واجتماعية ودينية، وكانت فيهم عصبية لدينهم وكراهية شديدة لغيرهم، وفي عهد الأذواء من ملوك اليمن وحكامها غلب الدين اليهودي على هؤلاء فاعتنقوه، وتعصبوا له ضدّ النصرانية التي كان المتدينون بها مؤمنين إيماناً حقاً، فاشتدت كراهية لهم، وتفاقم حقدهم عليهم، وأرادوهم أن يدخلوا في دينهم المحرف المملوء بالأباطيل، فأبى عليهم نصارى نجران فاضطهدهم الأذواء، ولا سيما ذو نواس الحميري الذي غزا نجران ليرد أهلها من النصارى عن دينهم الحق يومئذ، فاعتصموا بإيمانهم، فصبّ عليهم ذو نواس العذاب صباً، وحرَّقهم أحياء، وأنزل الله تعالى في قصتهم على نبيه محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد، إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾.

فلما أدخل اليهود التحريف والتبديل لعقيدة التوحيد، وأدخلوا عليهم

عقيدة التثليث وتبعيض الإله الحق جلّ شأنه، افتراء على الله تبارك وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقد سجّل عليهم القرآن الكريم ذلك الكفر الخبيث في قوله تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾ يعنون بالجزء عيسى عليه السلام إذ زعموا أنه ابن الله، متولد منه كما يتولد الابن من أبيه ولادة حقيقية.

نظر ومناقشة في كلام الزمخشري.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ أنه متصل بقوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفُنّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً، فوصفوه بصفات المخلوقين تعلق بغير قاطع، لأن سياق الكلام في أول السورة وإن كان قد جاء مع مشركي العرب، لكنه سيق مساق التوبيخ لهم لأنهم ضاهؤا النصارى في مقولتهم التي شرحها القرآن.

ثم قال الزمخشري: ومعنى من عباده جزءاً أن قالوا الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبَعْضاً منه، كما يكون الولد بضعة من والده، وجزءاً له بالتولد المادي الذي أدخله عليهم اليهود.

وتفسير الزمخشري ذلك بقولهم: إن الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه لا يخلو من تصور فيما يحتمله الكلام، لأنه كما يحتمله صدقه على الملائكة وقول مشركي العرب فيهم: أنهم بنات الله ـ يحتمل أن يصدق على عيسى عليه السلام وقول النصارى فيه إنه ابن الله، وولد الله، تعالى الله عن هذا الكفر السخيف، والقول بأن الملائكة بنات الله من مقولة مشركي العرب، والقول بأن عيسى عليه السلام ابن الله، وولد الله من مقولة النصارى، وأصول كفرهم.

استئناس بكلام الرازي.

قال الرازي: في المراد من قوله: (وجعلوا له من عباده جزءاً) قولان: الأول وهو المشهور، أن المراد أنهم أثبتوا له ولداً، وتقدير الكلام أن ولد الرجل جزء منه، لأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ثم

يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه.

ثم قال الرازي: والحاصل أنهم أثبتوا لله ولداً.

وهذا الكلام في تفسير (الجزء) بالولد مشعر بأن مجرى الحديث في إبطال مقولة النصارى ببنوّة عيسى عليه السلام لله بنوة توالد مادي، وهذا أقبح الكفر، وأرذل مقولات الضلال، وذكر إنكار أن الملائكة بنات الله جاء بعد آية ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ كالمقابل له، ويجب حمل هذا على مقولة النصارى ليكون الكلام إبطالاً لمقولتي الفريقين، مقولة النصارى ببنوة عيسى عليه السلام في قوله ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ ومقولة مشركي العرب في قوله: ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ تفادياً للتكرار.

كتاب النبي ﷺ
إلى أهل نجران يدعوهم إلى الإسلام

كان نصارى نجران أشد عصبية لنصرانيتهم، وأكثر اعتزالاً للحياة من نصارى غسان والقبائل التي سارت في ركابهم خضوعاً للرومان وتبعية لسلطانهم السياسي.

كتاب النبي ﷺ لأهل نجران كان سبب وفادة وفدهم إليه.

ولما كتب النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء، والأقيال، والأذواء داخل الجزيرة العربية وخارجها من قَرُب منهم ومن بَعُد يدعوهم إلى الإسلام، كان النجرانيون فيمن كتب إليهم يدعوهم إلى التصديق برسالته والإيمان بدعوته، وكانت الكتابة إليهم باعثاً لهم على قدوم وفدهم إليه ﷺ.

قال محمد بن سعد في طبقاته: وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فخرج إليهم وفدهم، أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وذوي رأيهم. وعند ابن إسحق أن عدد رجال وفدهم كان ستين رجلاً، فيهم العاقب، وهو عبد المسيح رجل من كندة، وأبو الحارث بن علقمة، رجل من ربيعة، وأخوه كرز، وفي رواية الأكثر أن أخاه اسمه بِشْر، وأنه أخوه لأمه، وابن عمه، وهؤلاء الثلاثة العاقب، وهو أميرهم، وصاحب مشورتهم والذي يصدرون

عن أمره، وأبو الحارث أسقفهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مدارستهم، والسيد، وهو صاحب رحلتهم وفي رواية أن السيد هو العاقب.

ثم قال ابن سعد: فتقدم كُرْز أخو أبي الحارث، وهو يقول:

إليــك تغــدو قـلقــاً وضينهــا معتــرضــاً في بــطنهــا جنينهــا
مخالفاً دين النصارى دينها

فقدم على النبي ﷺ، ثم قدم الوفد بعده، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق وأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» تألفاً لهم، لا إقراراً لهم على باطلهم.

ثم أتَوا النبي ﷺ فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان ذلك من أجل زيِّكم هذا، فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزي الرهبان فسلّموا عليه فرد عليهم، ودعاهم إلى الإسلام فأبَوا، وكثر الكلام والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «إن أنكرتم ما أقول لكم فهلّم أباهِلْكم» فانصرفوا على ذلك.

فغدا عبد المسيح ـ وهو العاقب في رواية ابن سعد ـ ورجلان من ذوي رأيهم على رسول الله ﷺ فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت نعطِك ونصالحْك، فصالحهم على ألفي حلّة، ألف في رجب وألف في صفر، وأوقية ذهب مع كل حلة من الحلل، وعلى عارية ثلاثين درعاً وثلاثين رمحاً وثلاثين بعيراً، وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد، ولنجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم، وبِيَعهم، لا يغيّر أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته، وأشهد رسول الله ﷺ على ذلك شهوداً من أصحابه.

ورجع وفد نجران إلى بلاده بهذه المصالحة التي قادتهم إلى الرضا بمذلّتها وهوانها عصبيتهم العمياء لنصرانيتهم المحرَّفة الكفور، ولكن أنامل

القدر كانت تجري بقلم الغيب لتخط في صحائف الهداية أسماء من أراد الله هدايتهم ودخولهم في ساحة دينه الحق، دين الإسلام، ومن ثَمّ لم يلبث العاقب والسيد إلا يسيراً بين قومهم حتى رجعا إلى النبي ﷺ فأسلما، وأكرمهما ﷺ، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري.

وأقام أهل نجران على ما كتب لهم رسول الله ﷺ في كتاب مصالحته لهم حتى قبضه الله إليه صلوات الله عليه ورحمته ورضوانه وسلامه.

تعليق وبيان

في رياض كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران.

هذه الرواية التي ساق فيها ابن سعد قصة وفادة وفد نجران إلى رسول الله ﷺ، وما وقع منهم وإليهم من الأحداث فيها جاءت هكذا موجزة إيجازاً مخلاً بكثير من التفاصيل التي أوردها جمهور المؤلفين في السيرة النبوية، وهذه القصة أو هذه القضية كانت أحرى بالبسط المحيط بأحداثها وأسبابها في مباديها ونهاياتها من طبقات ابن سعد وهي من أقدم وأرفع مراجع السيرة، لأن هذه القصة نالت من القرآن العظيم عناية فائقة، إذ نزلت فيها آيات من سورة آل عمران استغرقت قدراً عظيماً منها في حجاج تاريخي، وجدل منطقي، وضَعا أخطر قضية في الخلق والتكوين موضعها من الاقتدار الإلٰهي، تلك هي قضية خلق عيسى عليه السلام بأسلوبها الإعجازي الذي ارتفعت به إلى ذروة الإطلاق الإرادي لله جلَّ شأنه، كما نالت هذه القضية من رسول الله ﷺ قدراً من الجهد الفكري الإيماني في محادثة ومحاجّة أشراف وذوي رأي نصارى نجران، حتى أسلم من هؤلاء السادة من أسلم طواعية لقوة الحِجّاج المعتمد على المنطق القرآني العظيم، كما نالت هذه القضية الخطيرة أرفع المكارم التي عامل بها رسول الله ﷺ أهل نجران، فقد عفا ﷺ عما ألزمتهم به قوة الحق في الحِجاج الذي دار بينه وبينهم، وعفا عما ألزمتهم به المكارم الخلقية إذ طلب منهم النَّصَف في مباهلتهم فكفُّوا عنها ورهبوها، وطلبوا المصالحة على حكمه فيهم، فكان ﷺ رفيقاً بهم أشد الرفق، ولم يطلب منهم ما يؤودهم، وكتب لهم أماناً في ملَّتهم وأنفسهم وأموالهم، وكل ما يهمهم أمره.

ابن سعد طوى في إيجاز روايته نماذج من معالم منهج الرسالة.

وكثيراً من هذه الحقائق أوردها الثقاة في رواياتهم، وفي طليعة هؤلاء الثقاة صاحبا الصحيحين على اختصارهما الشديد في ذكر الأحداث، وهي حقائق تذكر أموراً من معالم منهج رسالة الإسلام تعتبر نماذج في إطار التربية الإسلامية، ومجابهة الأفكار التي تتعلق بالعقيدة وعدم التهرب منها، فهي دعائم لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة، توجب على القائمين بها من الدعاة تعمق الدراسة والبحث في كل ما يحيط العقيدة بقوة العقل، ومعرفة ظواهر الخلق والتكوين، ومعرفة أساليب الحجاج المنطقي والجدل العقلي القائم على أحسن طرق الاستهداء إلى الحق.

مآخذ على رواية البخاري ومناقضتها للقرآن الحكيم.

روى البخاري من حديث حذيفة قال: حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن صِلَة بن زفر، عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ، يريدان أن يلاعناه ـ لم يجيئا إليه ﷺ للملاعنة، وإنما جاءا في رياسة وفد قومهما استجابة لكتابه ﷺ الذي كتبه إليهم يدعوهم إلى الإسلام ـ فلم يقع لهم التوفيق بعد طول الكلام والحجاج، فعرض عليهم صلوات الله عليه المباهلة قياماً بأمر الله تعالى له في قوله تعالى: ﴿فمن حاجّك فيه (أي في خلق عيسى عليه السلام) من بعد ما جاءك من العلم فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ وهذا نص صريح في أن طلب المباهلة لم تكن في إرادتهم التي جاؤوا بها إلى النبي ﷺ، وإنما كان طلب المباهلة بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن قامت الحجّة عليهم ولزمهم مقتضاها في خلق وتكوين عيسى عليه السلام، وأنه في هذا الخَلْق والتكوين كمثل آدم الذي خلق من التراب بغير أم ولا أب، وهم مقرُّون بخلق آدم على هذه الصورة الإعجازية التي ليسُ لها مرجع إلا لاقتدار الله تعالى، ومطلق مشيئته وتصرفه في ملكه كما يشاء ويختار. ثم قال البخاري وهو يسوق تتمة حديث حذيفة: قال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا أميناً، لا تبعث معنا إلا رجلاً أميناً، فقال ﷺ: «لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها

أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام أبو عبيدة قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

رواية البيهقي أوسع الروايات وأوفاها بأحداث القصة.

وقد أورد الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران وافية بأسباب قدوم هذا الوفد على رسول الله ﷺ، مفصّلة للأحداث في سياق متسق الأسلوب والأداء، ونحن نسوق رواية هذا الإمام الحافظ لما جمعته من معالم منهج الرسالة في أحداثها وآثارها، وقد ندخل عليها ما نجده عند غير البيهقي مما يتصل بها في حقائق وقائعها، وقد اعتمد على هذه الرواية ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية.

قال البيهقي: أنبانا أبو عبدالله الحافظ، وأبو سعيد محمد بن موسى ابن الفضل، قالا: حدثنا أبو العباس، محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبّار، حدثنا يونس بن بُكَير، عن سلمة بن يسوع، عن أبيه، عن جده ـ قال يونس وكان نصرانياً فأسلم ـ أن رسول الله ﷺ كتب إلى نجران قبل أن ينزل طس سليمان ـ أي سورة النمل.

نص كتاب رسول الله إلى أهل نجران في رواية البيهقي

(باسم إله إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، من محمد رسول الله إلى أسقف نجران: سَلْم أنتم، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام».

حكمة افتتاح الكتاب إلى أهل نجران بصورة هذه التسمية والتحميد.

وإنما بدأ رسول الله ﷺ كتابه بهذه البداءة في قوله: «باسم إلَه إبراهيم وإسحق ويعقوب» ثم جرى عليها في التحميد تألّفاً لهؤلاء القوم الذين كانوا يدينون بالنصرانية في عصبية متشدِّدة، وكانوا يعظِّمون إبراهيم خليل الله وولده إسحق، وحفيده يعقوب عليهم السلام، وإظهاراً لخصيصة رسالته ﷺ في الإيمان بجميع الرسل وتعظيمهم، ولأن التسمية في الرسائل والكتب لم تنزل إلا بعد نزول سورة النمل وقصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، إذ كتب إليها بها في صدر كتابه إليها يدعوها إلى الإسلام، ولهذا جاء في هذا

الحديث أن كتبه ﷺ لأهل نجران كان قبل أن ينزل طس سليمان، وكان ﷺ قبل ذلك يكتب في كتبه ورسائله باسمك اللهم كما يدل عليه محاورة قصة معاهدة الحديبية.

فزع أسقف نجران حين قرأ كتاب رسول الله ﷺ.

فلما أتى الأسقفَّ كتابُ رسول الله ﷺ فقرأه فَظِعَ به، وذعر ذعراً شديداً، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة، وكان من همذان ـ ولم يكن أحد يُدْعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ـ كذا ضبطه الزرقاني بالخط والحروف ـ أي بالياء آخر الحروف الهجائية ـ ولا السيد، ولا العاقب، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمتَ ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمنك أن يكون هذا هو ذاك الرجل؟ ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرتُ عليك فيه برأي، وجهدت لك، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس، فتنحَّى شرحبيل فجلس ناحيته، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: عبدالله بن شرحبيل ـ وهو من ذي أصبح، من حمير ـ فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس فتنحَّى، فجلس ناحيته، وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له جبّار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبدالله، فأمره الأسقف فتنحَّى فجلس ناحيته.

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النيران في الصوامع ـ في العبارة قلق لما فيها من التكرار ـ فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورفعت النيران والمسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، ومائة ألف مقاتل، فقرأ الأسقف عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبدالله ابن

شرحبيل الأصبحي، وجبَّار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ.

وواضح أن سياق البيهقي في ذكر شرحبيل بن وداعة وصاحبيه، وما ذكر في هذا السياق من الأحداث ـ وهو قدر كبير اشتمل على أمور مهمة لم يذكر في غير دلائل البيهقي فيما نعلم ـ ومن هنا تظهر القصّة في سياق البيهقي وكأنها قصة أخرى غير التي ذكرها ابن سعد في طبقاته، ورواها البخاري في جامعه، لكنّا لم نجد أحداً من الرواة لأحداث السيرة النبوية تنبّه إلى ذلك فنبّه عليه، ليكون مجالاً للنظر.

أسماء وأحداث لم تذكر في غير رواية البيهقي ومن تابعه من الرواة.

وإلاّ فأين العاقب، والسيد، وأبو الحارث الذين وصفوا في سياق غير البيهقي بأنهم أشرف أشرافهم وأئمتهم، وأصحاب الرأي فيهم الذين لا يصدرون إلا عن رأيهم، والذين قالت فيه رواية البخاري عن حذيفة أن اثنين منهما: العاقب والسيد جاءا يلاعنان رسول الله ﷺ، ثم نكصا ورجعا راضيَيْن بالدنية في المصالحة، وعادا مع الوفد إلى قومهما، ولم يلبثا إلا قليلاً حتى أسلما وقدما على رسول الله ﷺ مسلمين، وأقاما عنده بالمدينة، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وبقيا على ذلك حتى قبض رسول الله ﷺ، فتولاّهما بعده الصدِّيق أبو بكر بالإكرام وحسن الرعاية.

إعراض النبي ﷺ عن الوفد لزخرفة زيهم.

قال البيهقي: فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُللاً يجرونها من حِبَرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتَوا رسول ﷺ، فسلَّموا عليه فلم يرد عليهم السلام، وتصدُّوا لكلامه نهاراً طويلاً فلم يكلمهم، وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وكانوا يعرفونهما فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلَّمنا عليه، فلم يردّ سلامنا، وتصدَّينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما؟ أترون أن نرجع؟ فقال عثمان وعبد الرحمن لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم، فقال

عليّ لعثمان وعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حُلَلَهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه، ففعلوا، فسلّموا فرد سلامهم، ثم قال ﷺ: «والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم».

ثم ساءلهم النبي ﷺ وساءلوه، فلم تزل به وبهم المساءلة حتى قالوا: ما تقول في عيسى، فإنا نرجع إلى قومنا، ونحن نصارى، ليسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى» فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحقُّ من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل: تعالَوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

شبهة النصارى وإبطال القرآن لها بآية واحدة من أقصر آياته.

وفي حديث ابن عباس عند ابن أبي حاتم أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال ﷺ: «من هو» قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله، فقال ﷺ: «أجل» قالوا: فهل رأيت مثل عيسى؟ أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل، فقال له: قل لهم إذا أتوك: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾.

هذه المساءلة التي دارت في الحوار بينهم وبين رسول الله ﷺ هي لبّ قصة وفد نجران، وهي التي عُني بها القرآن العظيم، فذكرها في سورة آل عمران، ولكنّها لم تذكر في الروايات الأخرى عند ابن سعد ومن تابعه ولا في الصحيحين، وهذا كثير في مسلك الذين ألّفوا في أحداث السيرة النبوية.

فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة وقال لابنيه وأمهما الزهراء: «وإذا دعوتُ فأمِّنوا».

فقال أسقفهم عندما رآهم: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من جباله لأزاله، ثم قال لأصحابه من رجال الوفد: فلا تباهلوا

فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاء بالفصل في أمر صاحبكم - أي عيسى عليه السلام - فوالله ما باهل قوم نبياً إلّا هلكوا، فإن أبيتم إلا دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا، فقالوا لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم لا نلاعنك، فقال لهم ﷺ: «فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم» فأبَوا، فقال لهم ﷺ: «فإني أنذركم» فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك فصالحهم.

شهادة أسقف نجران لقوة روحانية أغصان الدوحة النبوية وفزعه من مباهلتهم.

وفي رواية البيهقي أن شرحبيل بن وداعة قال لصاحبيه: عبد الله ابن شرحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يَرِدُوا ولم يصدُرُوا إلّا عن رأيي، وإني والله أرى أمراً ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً متقوياً فكنا أول العرب نطعن في عيبته ونرد عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنّا أدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه فلا يبقى على وجه الأرض منّا شعر ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقال شرحبيل: رأيي أن أحكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، فقال له صاحباه: أنت وذاك، فتلقّى شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال له: إني رأيت خيراً من ملاعنتك، فقال ﷺ: «وما هو؟» فقال شرحبيل: حكمك اليوم إلى الليل، وليلتك إلى الصباح، فما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ: «لعلّ وراءك أحداً يثرِّب عليك» فقال شرحبيل: سل صاحبي، فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلّا عن رأي شرحبيل، فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم، حتى إذا كانوا الغد أتوه، فكتب لهم مترفقاً بهم كتاب مصالحتهم، وقد قدّمنا نصه، وجاء في ديباجته قول رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي الأمي رسول الله لنجران أن كان عليهم حكمه في كل ثمرة، وكل صفراء وبيضاء، ورقيق فأفضل عليهم، وترك ذلك كلّه على ألفي حلة، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة».

رفق رسول الله ﷺ بأهل نجران بعد أن فوضوا إليه الحكم في مصالحتهم.

بين أسقف نجران وأخيه بشر الذي سمع الحق من الأسقف فأسرع إلى الإسلام.

فلما قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران، ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن عمه من النسب، يقال بشر بن معاوية ـ سمّاه ابن سعد ومن تبعه (كرز بن علقمة) فجعله أخاً نسيباً للأسقف، وكنّاه أبا علقمة ـ فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينما هو يقرأ وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كَبَت ببشر ناقته، فتعّس بِشْر، غير أنه لا يكني عن رسول الله ﷺ، فقال له الأسقف عند ذلك: قد والله تعّست نبياً مرسلاً، فقال له بشر: لا جرم لا أحل عنها عقداً حتى آتي رسول الله ﷺ، فضرب بشر وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه فقال له: افهم عني، إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب مخافة أن يروا أنّا أخذنا حقّه ـ أي قبلنا دعوته ـ أو رضينا بصوته، أو نخعنا لهذا الرجل بما لم تنخع به العرب، ونحن أعزهم، وأجمعهم داراً.

فقال له بشر: لا، والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبداً، فضرب بشر ناقته وهو مولِّي الأسقف ظهره يرتجز فيقول:

إليك تغدو قلقاً وضينها ... معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

حتى أتى رسول الله ﷺ، وبقي معه حتى قتل بعد ذلك.

وقصة هذا الرجز، وما ذكر في سببه مما وقع بين الأسقف وأخيه بشر، وإقرار الأسقف بنبوة رسول الله ﷺ، وتصديقه برسالته، ووقوعه في قلب أخيه بشر، وتوجهه إلى رسول الله ﷺ، وإسلامه بين يديه، وبقائه عنده حتى قتل بعد ذلك من مواضع القلق والتشويش، وتفكك الأسلوب في سياق محمد بن سعد، بيد أنها في هذه الرواية سوية السياق، منتظمة الأسلوب، متّسقة الصياغة، مستقيمة الأداء.

قصة الراهب ابن أبي شمر الزبيدي وغلبة الأقدار الإلهيّة عليه.

ودخل الوفد إلى نجران، فأتى الراهب ابن أبي شمر الزبيدي، وهو في رأس صومعته، فقالوا له: إن نبياً بعث بتهامة، وذكروا له ما كان من وفد نجران إلى رسول الله ﷺ، وأنه ﷺ عرض عليهم الملاعنة، فأبَوا، وأن بشِرْ ابن معاوية دفع إليه فأسلم.

فقال الراهب: أنزلوني وإلا ألقيت نفسي من هذه الصومعة، فأنزلوه وتجهَّز ليلحق برسول الله ﷺ، وأخذ معه هدية، وذهب إلى رسول الله ﷺ، منها هذا البرد الذي يلبسه الخلفاء وقَعْباً وعصاً، وأقام مدة عند رسول الله ﷺ، يسمع الوحي ثم رجع إلى قومه، ولم يقدَّر له الإسلام، ووعد أنه سيعود، فغلب على أمره ولم يعد حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفي بعض الروايات أن الأسقف أبا الحارث، ومعه السيد والعاقب، أتَوا رسول الله ﷺ في وجوه من أشراف قومهم، فأقاموا عنده ﷺ يسمعون ما ينزله الله عليه من الوحي، ثم عادوا إلى بلدهم، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه جوار لهم ومصالحة وتأمين على ما كان لهم من وظائف في ملتهم، وهو فيها ذكر فيه مخالف لنص كتاب المصالحة السابق، ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي للأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم، وكلِّ ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يغيَّر أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبداً ما أصلحوا ونصحوا عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين».

وعند ابن إسحاق أن وفد نجران كانوا ستين راكباً، يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ثم سرد أسماء هؤلاء الرؤساء، وذكر فيهم العاقب، واسمه عبد المسيح والسيد، واسمه الأيهم، وفي هذه التسمية مخالفة لما ذكره جمهور مؤلفي السيرة النبوية، ثم ذكر ابن إسحق أبا الحارث بن علقمة، وهؤلاء الثلاثة هم الذين يؤول إليهم أمر الوفد، فالعاقب كان أميرهم، وذا رأيهم، وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد، وكان ثمالهم وصاحب رحلهم، وأبو حارثة بن علقمة، وكان أسقفهم وخيرهم، وهو رجل من العرب من بكر بن وائل، ولكن دخل في دين النصرانية، فعظَّمته الروم وشرَّفوه، وبنَوا له الكنائس، وموَّلوه وأخدموه لما يعرفون من صلابته في دينهم.

وكان أبو حارثة يعرف أمر رسول الله ﷺ، ولكن صدَّه الشرف والجاه

عن اتباع الحق، وفي رواية يونس بن بُكَير عن شيخه ابن إسحاق أن أبا حارثة كان أسقفهم، وصاحب مدارستهم، وكانوا قد شرّفوه فيهم، وموّلوه، وأكرموه، وبسطوا له الكرامات، وبنَوا له الكنائس، لما بلغهم عنه من علمه، واجتهاده في دينهم.

ثم قالت هذه الرواية: ولّما توجه الوفد من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له، وإلى جنبه أخ يقال له كُرْز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة، فقال كرز: تعس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ - فقال أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال كرز: ولم يا أخي؟ فقال: والله إنه للنّبي الذي كنا ننتظره. فقال له كرز: وما يمنعك وأنت تعلم هذا؟ فقال أبو حارثة: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا، وموّلونا، وأخدمونا، وقد أبَوا إلا خلافه، ولو فعلتُ نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز حتى أسلم بعد ذلك.

وفي رواية يونس بن بكير هذه مخالفات للروايات التي جاء بها رواتها عن غير محمد بن إسحاق شيخ يونس بن بكير، وقد نبهنا على نحو هذا من المخالفات فلا حاجة لإعادتها.

تأمل وتنبيه

على هامش روايات قصة وفد نجران.

الذي ينظر في روايات قصة وفد نجران، وما جاء في هذه الروايات المتكاثرة من أحداث وأحاديث ومساءلات ومحاورات، وأسماء وأوصاف وشخصيات، وأسباب ومسببات، وعوامل ومراجعات، ومواقف وآراء مختلفة - نظر تأمل فاحص لا يستطيع أن يباعد بين خطرات تذهب وتجيء إلى ذهنه وأفكاره، وبين ما يراوده من هزاهز فكرية أشبه ما تكون بالشك في وحدة القصة التي تذكرها هذه الروايات مختلفة الأسباب، والأحداث التي يزعم كل راوٍ أنها هي وقائع القصة مع ما بينها من اختلاف عريض مضطرب في أسماء الأشخاص ونصوص الكتب التي يقولون أن النبي ﷺ أمر بكتابتها لأهل نجران، أماناً ومصالحة لهم على الشروط التي يذكرها الرواة مختلفة الأوضاع والنتائج.

ولو قال قائل بعد استيعابه لما يمكن له من المراجع والمصادر التي عنيت

بهذه القصة في رواياتها المختلفة أن سياق هذه القصة في أساليب الروايات المتعددة المختلفة يوحي بأنها قصص متعددة، لكل قصة أحداثها ووقائعها وأسبابها وأشخاصها؛ لما ثرّب عليه أحد بوجه من الحق القاطع الذي لا يردّ، ولكنّا لم نجد من قال بالتعدد.

وهذا الاهتزاز الفكري المتردد بين خطرات الفكر والظن الذي لم يبلغ أن يكون علماً ليس في يدنا دليل عليه إلّا تباعد ما بين سياقات الروايات واختلافها في أمور تعتبر ركائز للقصة كلها.

وقد حاولنا قدر جهدنا المستطاع أن ننظر فيما تيسّر لنا من مراجع القصة ومصادرها الأصيلة، وجمعنا من رواياتها ما ظننا أنه لم يفته شيء من مهماتها، فأثبتناه في مناسبته مع ما تضمنه من معالم منهج الرسالة.

ولم نسوّغ لقلمنا أن يهجم على ردّ رواية من روايات القصة إلّا بعد نقدها بالحجة البيّنة، لأن ردّ الروايات ولا سيما إذا كانت من تخريج أعلياء الثقاة المتشدّدين في قبول الأسانيد، ما لم تعارض رواياتهم قاطعاً أعلا منها مثل ما ذكرنا في حديث حذيفة عند البخاري: أن العاقب والسيد جاءا لملاعنة رسول الله ﷺ فإنه معارض لنص القرآن الحكيم في قوله تعالى: ﴿فمن حاجّك فيه ـ أي في خلق عيسى عليه السلام ـ من بعد ما جاءك من العلم، فقل: تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ المقتضي أن الله تعالى بعد أن أوحى إلى نبيه ﷺ بالحجّة القاطعة والقول الفصل في خلق عيسى عليه السلام أمر رسوله ﷺ أن يدعوَ رؤساء وفد نجران إلى الملاعنة إن لجوّا عناداً في باطلهم، ومنعتهم عصبيتهم للتهم من قبول الحق والدخول في الإسلام.

ولو أن باحثاً أتيح له أن يجمع بين الحديث ونص القرآن العظيم بتأويل سائغ غير متعسف لحمدنا له مسلكه، لأن مسلك الجمع بين النصوص المتعارضة الثابتة أقوم وأسدُّ في شرعة العلم والمعرفة من الجرأة على ردّ روايات الثقاة، مع اعتقادنا أنهم غير معصومين عن الأوهام والخطأ.

وفد طيء وقصة عظيمَيْهم
زيد الخيل، وعديّ بن حاتم
أحداث هذا الوفد وأحاديثه وما فيها
من معالم منهج الرسالة

ذكر السهيلي في الروض برواية أبي علي البغدادي قال: قدم وفد طيء، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد، ودخلوا وجلسوا قريباً من النبي ﷺ، حيث يسمعون صوته، فلما نظر إليهم ﷺ قال: «إني خير لكم من العزّى، ومن الجمل الأسود الذي تعبدون من دون الله، ومما حازت مناع من كل ضار غير نفاع» فقام زيد الخيل، وكان من أعظمهم خلقاً وأحسنهم وجهاً، فقال له النبي ﷺ ولا يعرفه: «الحمد لله الذي أتى بك من حَزْنك وسهلك، وسهّل قلبك للإيمان» ثم قبض على يده، فقال: «من أنت؟» قال: أنا زيد الخيل من مهلهل، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أنت زيد الخير، ما خبِّرت عن رجل قط شيئاً إلا رأيته دون ما خبرت عنه غيرك» فبايعه وحسن إسلامه.

وقال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيء، وفيهم زيد الخيل، وهو سيدهم، فلما انتهَوا إليه كلّموه، وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا، فحسن إسلامهم.

وقال رسول الله ﷺ: «ما ذُكر رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلّا رأيته دون ما يقال فيه إلّا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ الذي فيه» ثم سمّاه رسول الله ﷺ «زيد الخير» وقطع له أرضين في بلده، وكتب له بذلك كتاباً، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه، فقال رسول الله ﷺ: «إن ينج زيد من حمّى المدينة...» ـ هذا شرط محذوف الجواب، ويقدّر جوابه بما يلائم

المقام - فلما انتهى زيد إلى ماء من مياه نجد يقال له فردة أصابته الحمّى، فمات هنالك، وقال حين أحس بالموت

أَمُرْتَحِلٌ قومي المشارق غدوة ... وأترك في بيت بفردة منجد
ألا ربَّ يوم لو مرضت لعادني ... عوائد من لم يبر منهن يجهد

ولما بلغ الخبر امرأته جزعت عليه جزعاً شديداً، وعمدت إلى ما كان معه من الكتب فحرقتها بالنار دون أن تعرف ما فيها جهلاً منها وغفلة عن قدرها.

واختصر ابن سعد هذه الرواية التي ذكرها عن شيخه الواقدي عن أشياخ من طيء قالوا: قدم وفد طيء على رسول الله ﷺ، خمسة عشر رجلاً، رأسهم زيد الخيل، وهو سيدهم وسريهم، فدخلوا المدينة، ورسول الله ﷺ في المسجد، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد، ثم دخلوا فدنَوا من رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا، وجازهم ﷺ بخمس أواق فضة، كل رجل منهم، وأعطى زيد الخيل اثني عشر أوقية ونشّاً وسماه زيد الخير.

وكان في الوفد رجل، يقال له: وزر بن سدوس، أبى أن يسلم أنفة جاهلية وقال: إني أرى رجلاً يملك رقاب العرب، والله لا يملك رقبتي عربي أبداً، ثم لحق بالشام وتنصَّر.

وقد أبعد النجعة من ذكر زيد الخيل في المؤلفة، لأن هذا الوصف لم يُعرف إلا بعد غزوة حُنَين حين أعطى من غنائمها الغامرة قوماً من رؤوس قريش الطلقاء، ومن على شاكلتهم من زعماء القبائل، يتألفهم على الإسلام المئين وما فوقها وما دونها، وغزوة حنين إنما كانت في السنة الثامنة بعد فتح مكة، وقبل غزوة تبوك، وقدوم زيد الخيل على النبي ﷺ على رأس وفد قومه وإسلامه وإسلامهم كان في سنة تسع وهي سنة الوفود، وقد نقل هذا الخطأ الحافظ ابن حجر عن تلقيح ابن الجوزي في سرده أسماء المؤلفة قلوبهم.

ولعل الشبهة في عدّ زيد الخيل من المؤلفة دخلت على ابن الجوزي

وقبلها ابن حجر مما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً رضي الله عنه بعث للنبي ﷺ بذهبية في أديم، فقسمها ﷺ بين الأقرع بن حابس، وعيينة ابن حصن، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخيل، والثلاثة المذكورون في الخبر مع زيد الخيل كانوا من المؤلفة، فظن من شهد ذلك أو سمعه أن ذكر زيد معهم، وأخذه حظاً من الذهبية أنه مثلهم من المؤلفة، وزيد بمقتضى رواية وفوده على رأس وفد قومه لم يمكث عند رسول الله ﷺ إلّا ريثما أسلم وأسلم معه رجال الوفد إلا وزر بن سدوس الذي لم يقبل الإسلام، وتنصَّر بالشام، حتى رجع بوفده ومات بالطريق عند ماء فردة كما قدمناه، ولعل ذهبية عليّ رضي الله عنه وصلت النبي ﷺ قبل رحيل زيد الخيل ووفده، فشهد مجيئها في حضور من ذكر معه، فقسمها بينهم.

ومن حديث سُنَين مولى رسول الله ﷺ عند ابن عدي ـ وضعّفه ـ وعند ابن شاهين قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فأقبل زيد الخيل راكباً حتى أناخ راحلته، فقال: يا رسول الله، إني أتيتك من مسيرة تسع، أصهبت راحلتي، وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، أسألك عن خصلتين أسهرتاني، فقال له ﷺ: «ما اسمك؟» قال: أنا زيد الخيل قال ﷺ: «بل أنت زيد الخير، فاسأل» قال: أسألك عن علاقة الله تعالى فيمن يريد، وعلاقته فيمن لا يريد؟ فقال ﷺ: «كيف أصبحت؟» قال: أصبحت أحب الخير وأهله، ومن يعمل به وإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حننت إليه، فقال له النبي ﷺ: «هذه علاقته فيمن يريد، وعلاقته فيمن لا يريد ضد ذلك، ولو أرادك بالأخرى هيأك لها، ثم لم يبالِ من أي وادٍ هلكت».

وظاهر هذه الروايات أن قدوم وفد طيء مع سيدهم زيد الخيل على النبي ﷺ لم يكن إجابة لكتاب كتبه لهم يدعوهم فيه إلى الإسلام كما كان سبب وفود غيرهم من قبائل العرب، أو بعث سرية إليهم تغزوهم إذ لم يسلموا، وإنما كان قدومهم باختيارهم، حين سمعوا بوفادة وفود العرب عليه ﷺ سنة تسع ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

بيد أن أبا جعفر الطبري ذكر في تاريخه من طريق يزيد بن رومان،

فقال: وفي هذه السنة سنة تسع ـ وهي سنة الوفود ـ وجّه النبي ﷺ عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه في سرية إلى بلاد طيء في ربيع الآخر، فأغار عليهم فسبى، وأخذ سيفين كانا في بيت الصنم يقال لأحدهما (الرسوب) وللآخر (المخدم) كان الحارث بن أبي شمر الغساني نذرهما لصنم طيء، وكانت أخت عدي بن حاتم فيمن سبَى علي رضي الله عنه.

وقد عقّب الطبري على هذه الرواية فقال: أما الأخبار الواردة عن عدي عندنا بذلك فبغير بيان وقت، وبغير ما قال الواقدي في سبي عليّ أخت عديّ، وهذا من أبي جعفر غمز لهذه الرواية لم يذكر سببه.

أما حديث إسلام عديّ بن حاتم وأحداث قصته فمرويّة بروايات مختلفة المخرج والوقائع، بعضُها في الصحاح، وبعضُها من روايات أصحاب الجوامع والسنن، وبعضها من روايات السيرة.

قال السهيلي في الروض: وحديث إسلام عديّ صحيح عجيب، أخرجه الترمذي. وأخته التي ذكر إسلامها أحسب اسمها سفّانة، لأني وجدت في خبر عن امرأة حاتم، تذكر فيه من سخائه، قالت: فأخذ حاتم عدياً يعلّله من الجوع، وأخذت أنا سفّانة.... ولحاتم عقب من قبل عبدالله بن حاتم، ولا يعرف له بنت إلاّ سفانة، فهي إذاً هذه المذكورة في السيرة.

وفي صحيح البخاري من حديث عدي بن حاتم قال: أتينا عمر ابن الخطاب ـ أي في خلافته ـ في وفد، فجعل يدعو رجلاً، رجلاً، يسمِّيهم، فقال عدي ليلفت نظر عمر لمّا لم يذكره باسمه: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال عمر رضي الله عنه: بلى، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي: لا أبالي إذاً.

وقد أوجز ابن إسحاق قصة وفد طيء بزعامة سيدهم زيد الخيل، وقد أكملنا أحاديث وأحداث هذه القصة فذكرناها عند مناسبتها، ولكن ابن إسحاق أسهب وأطال في قصة عدي بن حاتم، وذكر هربه من وجه كتائب النبي ﷺ فاراً إلى الشام، وذكر سبي أخته ولم يسمِّها، وذكر ترفّق النبي ﷺ

بها، وإحسانه إليها بعد منّه عليها، وتجهيزه لها بالحملان والنفقة والكسوة، وحرصه ﷺ على أمنها وسلامتها، ومشورتها على أخيها عدي بالقدوم على رسول الله ﷺ، وإسلامه، وما وقع له مع النبي ﷺ من محاورة فتح بها رسول الله ﷺ قلبه للإيمان، فأسلم وحسن إسلامه.

وقد نقل هذه الرواية المسهبة عن ابن إسحاق أكثر أصحاب السنن، ورواها بسنده الإمام أحمد في مسنده، وقام على دعائمها حديث قصة قدوم عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ عند أهل السِّير، وهي رواية مفصّلة جامعة جاء فيها من الأحداث ما لم يجيء في غيرها من الروايات، ونحن نسوقها لما فيها من معالم منهج الرسالة، ولا سيما محاورة النبي ﷺ لعديٍّ فيما يصدّه عن الدخول في الإسلام مما يراه من حاضر المجتمع المسلم في قلّة عدده وكثرة عدوِّه، وضعفه وقوة أعدائه، وفقره وحاجته وثراء أعدائه، وكثرة المال في أيديهم وإقبال الدنيا عليهم، مع شوكة الملك والسلطان، وإنباء النبي ﷺ بتغير ذلك كله، وانتقال الثراء والأمان، وكثرة العدد، وقوة الملك والسلطان إلى المجتمع المسلم.

قال ابن إسحاق راوياً عمّن سمّاه شيبان بن سعد الطائي يقول: ما رجل كان أشدّ كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني.

أما أنا فكنت امرءاً شريفاً، وكنت نصرانياً، أسير في قومي بالمرباع، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت رسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعياً لإبلي: لا أبالك، اعدد لي من إبلي أجمالاً ذللاً، سماناً مسان فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذنِّي، ففعل، ثم أتاني ذات غداة، فقال يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها، فقالوا هذه جيوش محمد، فقلت: قرِّب لي أجمالي، فقرَّبها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الحوشية وتركت ابنة حاتم في الحاضر، وتخالفني خيل رسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم، وجعلت مع السبايا في حظيرة بباب

المسجد كانت السبايا يحبسن فيها، فمر بها رسول الله ﷺ، فقامت إليه ـ وكانت امرأة جزلة ـ فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك، قال ﷺ: «ومن وافدك» قالت: عديّ بن حاتم، قال صلوات الله عليه: «الفارُّ من الله ورسوله؟».

قالت: ثم مضى رسول الله وتركني حتى إذا كان الغد مرّ بي وقد أيست، فأشار إليّ رجل من خلفه: أن قومي فكلميه، فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك، قال ﷺ: «قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلِّغك إلى بلادك، ثم آذنيني» قالت: فسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن كلِّميه، فقيل: إنه عليّ بن أبي طالب، وأقمت حتى قدم ركب من بليّ أو من قضاعة، وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله قد قدم من قومي ركب لي فيهم ثقة وبلاغ، فكساني رسول الله وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عديّ: فوالله إني قاعد في أهلي فنظرت إلى ظعينة تصوِّب إليّ تؤمُّنا، فقال عديّ: ابنة حاتم، فإذا هي، هي، فلما وقفت عليّ انسحلت ـ أي انساقت تلوم جادة ـ تقول: القاطع، الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بنية والدك وعورته؟؟ قال عديّ: فقلت: يا أخيّة، لا تقولي إلاّ خيراً، فوالله مالي عذر، لقد صنعتُ ما ذكرتِ، ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن لم يكن الرجل نبياً فالسابق إليه له فضيلة، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن، وأنت، أنت، قلتُ: والله إن هذا للرأي، فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمتُ عليه، فقال: «من الرجل؟» قلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً، تكلمه في حاجتها، قال عدي، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى دخل بيته،

فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إليّ فقال لي: «اجلس على هذه» قلت: لا، بل أنت فاجلس عليها، قال «لا، بل أنت» فجلست، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال رسول الله ﷺ «إيه يا عدي بن حاتم، ألم تَكُ ركوسياً؟» قلت: بلى، قال ﷺ: «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قلت: بلى، قال ﷺ: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك» قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل.

ثم قال ﷺ: «لعلّه يا عدي بن حاتم، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم؟ فوالله ليوشكنّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوِّهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلا الله؟ ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت».

قال عدي: فأسلمت، وقد مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكوننَّ قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها، لا تخاف شيئاً حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكوننَّ الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.

بحث وتنبيه

والنظر المتأمل في هذا السياق المفصَّل لقصة وفادة عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وإسلامه، وما خصه من الحفاوة والإكرام، وتمييزه بأمور من التلطف فضّله بها على كثير من سروات الوفود وأشراف العرب وزعماء القبائل الوافدين عليه ﷺ للإسلام والبيعة ـ يرى ما ضمّت رسالة الهدى والخلود عليه جوانحها من معالم منهجها الذي كان رسول الله ﷺ هو القيِّم على تطبيقه عملياً في واقع الحياة، ليكون هذا التطبيق الإيجابي درساً تربوياً

لقادة هذا المجتمع المسلم في مستقبل حياته، وليكون دعامة من دعائم إعداد الدعاة إلى الله، حاملي راية الحق والعدل والتآخي الرحيم، فيما ينبغي أن يكون عليه الذين يتصدَّون لنشر دعوة هذا الدين القيِّم، دين الإسلام، وتبليغ رسالته إلى العالمين في آفاق الأرض.

وليكون أسوة حية فيما ينبغي أن يكون عليه المتصدِّرون من ولاة أمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في معرفة سياسة الناس، ومعرفة أقدار من يؤمونهم لطلب الهداية على أيديهم، لإنزال الناس منازلهم على حسب أقدارهم بين شعوبهم وأممهم، ومعرفة الفضل لأهله، لما في ذلك من استجابة القلوب لما تسمع من تراتيل الخير وترانيم الحق، لتقبل برغبة صاغية متفهمة لما تسمع.

وهكذا أقبل عدي بن حاتم ـ وهو كما وصف نفسه في جاهليته من الإعزاز في مكانته بين قومه ـ على رسول الله ﷺ ليعرف حال محمد ﷺ، ومكانه من المنزلتين اللتين ذكرتها له أخته وهو في كليهما مصيب لإحدى الحسنيين، فإن كان محمد ملكاً فلن يذل عدي في ظل ملكه، وعدي هو، هو، العزيز في قومه، وإن كان محمد نبياً فللسابق فضل على من تلبث وتربص. واغتبط عدي بتفكير أخته وهي المرأة الحازمة، وأخذ بمشورتها، وترحّل عدي مقتنعاً برأي أخته ليذهب إلى محمد ﷺ يؤم المدينة، حتى إذا بلغها صوّب إلى المسجد فدخله، ورأى رسول الله ﷺ في مجلسه في المسجد، فتيّممه، فسلم عليه ـ ولم تذكر الرواية أنه ﷺ ردّ السلام على عدي ـ ولكنه بادره بسؤاله عمن يكون، فقال: «من الرجل؟» فرد عديّ منتسباً إلى أبيه، ـ وهو رأس أكارم العرب في الجاهلية ـ فقال: أنا عدي بن حاتم، ومن هنا يبدأ درس من دروس التربية النبوية يمليه سيدنا رسول الله ﷺ على مرأى ومسمع من مجتمعه المسلم الذي يتدرج بتربيته لإعداده لقيادة الحياة الإنسانية، وبناء صرح حضارة إيمانية أساسها التحرر من عبادة المخلوقين بتوحيد الله الخالق لهذا الكون ومدبره في نظامه الفريد في وجوده، ليخرج البشرية المعذّبة من ظلمات الجهالة والاستعباد الظلوم المتجبر إلى نور العدل والتآخي والتراحم.

ولعلَّ هذا الاستفهام الذي بادر به رسول الله ﷺ عدي بن حاتم

إنما أثاره في نفسه أنه رأى على عدي سمةً فيها ملامح تدل على أنه من سروات العرب وأشرافهم وأعزتهم، الذين تضفي عليهم المكرمات مظهراً من مظاهر التعزُّز الأبيِّ الرصين، وكأنهم منائر خبت أنوارها، وينبغي أن تضاء شموعها بمكارم الأخلاق لتدخل في ساحة الإيمان، وتقود السالكين إلى منازل الهداية مؤمنين آمنين.

قال عدي: فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، وهذا من باذخ مكارم الأخلاق التي بُعث ﷺ لتثبيت دعائمها وإعلاء منائرها، لم يصنعه ﷺ إلا مع أقل القليل من بواذخ أشراف العرب، وسرواتهم، بل لم نر في رواية أنه ﷺ صنع هذه المكرمة مع أحد غير عدي بن حاتم، إذ بادر بمجرد أن سمع من عدي اسمه ونسبه القصير الباذخ حتى قام من مجلسه منطلقاً به إلى بيته ليتحفه بإكرامه وينزله منزلته، عرفاناً بشرفه وبالغ فضله في جاهليته، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية هم خيارهم في الإسلام.

وكان عديّ رضي الله عنه ما يزال وهو يمضي مع النبي ﷺ في مرحلة التعرف، ليتحقق من وصية أخته ومشورتها، وهي التي أوتيت نصيباً رفيعاً من أصالة الرأي، وقد قالت له: أسرع لتلحق به، فأمره لا يخرج - في وضعه المتوّج بانتصارات مدوية أداخت قبائل العرب، وأدارت رؤوس قادة الجاهلية وزعماء الوثنية عن كواهلها - عن أن يكون نبياً مرسلاً، فللسابق إليه فضل، وللنبوة وداعتها ورقة حاشيتها، ولطفها وتواضعها، ومسارب حسّها في حركتها إلى القلوب وهي تنسرب في مداخلها لتشذب وتهذب، وتلينّ القاسي، وترفّه الجاسي، وترقّق الغليظ، وتسهّل الجافي، وللرسالات الإلهية شمائلها الرفيعة ومسالكها في التحبب والتحبيب، لتجعل من البشرية في شتّى مواطنها، ومختلف أجيالها وتفكيرها أسرة واحدة يظلّلها الإيمان، متواسية متحابة، متساوية متآخية.

وفي ظل مرحلة التعرف وبدء أولى خطواتها (التطبيقية) بدأت أشعة شمس الهداية ترسل خيوطها إلى آفاق قلب عدي بن حاتم في رَيْث ومَهْل، فيرى - وهو يمشي مع النبي ﷺ عامداً به إلى بيته - أن امرأة ضعيفة كبيرة

تستوقف رسول الله ﷺ، فيقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، وهنا يتهاوى قناع التعالي عن قلب عديّ مائلاً إلى أحد جانبيه، ولكنه لا يسقط لتمكن غرزه في سرج الوثنية النصرانية التي كان يدين بها عديّ، ويحس عديّ بميل القناع عن قلبه، وتنسرب أشعة شمس الهداية إلى هذا القلب في خفةّ ولين، ويشعر عديّ بخيوطها تهتز على حفافي قلبه، فيقول محدّثاً نفسه، والله ما هذا أمر ملك، وعديّ رضي الله عنه كان من أعلم الناس بمظاهر الملك وقهره وجبريته وغشمه، وبوائقه وظلمه.

ثم يمضي رسول الله ﷺ في طريقه إلى بيته، وعدي يتبعه حتى دخل ﷺ البيت وتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فألقاها إلى عديّ، وقال له: «اجلس على هذه» فقال عديّ: لا، بل أنت فاجلس عليها، فقال ﷺ: «لا، بل أنت» وجلس عديّ سامعاً مطيعاً على الوسادة، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، وكانت هذه المَعْلَمة من معالم المنهج الإسلامي نموذجاً يمثل أرفع مكارم الأخلاق في عرفان فضل شرف الشرفاء، وقال عدي يحدِّث نفسه: والله ما هذا بأمر ملك!! وماذا بقي بعد هذا؟ وأسرعت سحائب الظلام فانجابت عن سماء المعرفة والعلم، وعرف عديّ أن محمداً ﷺ لم يكن ملكاً متسلطاً، يكره الناس على الإيمان برسالته واتّباعه، والإيمان بدعوته، دعوة النور، والهدى، والخير، ومكارم الأخلاق، فآمن عدي، واستنار قلبه، ولكنه كان ما يزال مع ماضيه مشدوداً بمشاعره فيما كان يعيش عليه من مظاهر التعالي في قومه.

وهنا أراد النبي ﷺ أن ينتزعه من كابوس أحلامه، ويشدّه إلى الحقيقة الكبرى في الإسلام، وهي حقيقة توحيد الخالق وإفراده بالعبودية، ولم يزل به يحاوره بواقع تاريخ الحياة وتنقلاتها، ليجتثّ بلبلة الوثنية النصرانية من جذور قلبه، وأراه من أخبار الغيب في أمور يحيا بها عدي بين قومه وهي لا تجوز له في دينه الباطل ونصرانيته الملفقة، ليكفكف من غلواء غروره بهذه النصرانية الباطلة، فقال له ﷺ: «إيه يا عديّ بن حاتم، ألم تكن ركوسياً؟» قال عدي: بلى، ومعنى هذا التساؤل النبوي بيان أن عدي بن حاتم لم يكن على

شيء من النصرانية تديناً، وإنما كان على نِحْلة ملفّقة لا تعرفها النصرانية التي يدّعيها عديّ ديناً له، وهذا كشف عن حقيقة كان يطويها عديّ في مداخل قلبه ليعيش بها في قومه ملكاً.

ثم قال النبي ﷺ: «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قال عديّ: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك» وهنا استخزى عدي، وعرف أن أمر محمد ﷺ أمر إلـهي، لا يبلغه إلاّ نبي مرسل من الله تعالى، ولذلك قال عدي: أجل والله، إنه كان على نحلة ملفّقة بين النصرانية والصابئة، ومع تلفيقها وبطلانها فإنها لا تسوِّغ له أن يسير في قومه بالمرباع، وهو أخذ ربع غنائمهم.

ثم سلك النبي ﷺ به مسلكاً سياسياً قائماً على إخبار بالغيب لا يعلمه عدي ولا غيره، وهذا الإخبار يجمع بين الإعجاز، والتوجيه، فأما الإعجاز ففي كونه إخباراً بالغيب تحقق في واقع الحياة وشاهده عـديّ وغيره من جماهير الوافدين للإسلام والبَيْعة، كما وصفه المجتمع المسلم الذي حقق أسبابه واجتنى جنيه، وأما التوجيه ففي إعداد المجتمع المسلم للجهاد في سبيل الله ،ونشر الدعوة وتبليغ الرسالة خارج الجزيرة العربية بعد أن تطهّر داخلها من رجس الوثنية وأوضار الشرك، وقد بدأ هذا التوجيه بغزوة تبوك التي كانت الخطوة الأولى في التحرك الإيجابي للجهاد خارج الجزيرة العربية للبدء في تحقيق عموم الدعوة ونشرها في الآفاق.

ولا شكّ أن هذا الإعداد للمجتمع المسلم قائم على أن يكون هذا المجتمع مستعداً متأهباً بما ينبغي أن يكون عليه المجاهدون من القوة المادية التي تؤازر القوة الروحية في نشر الدعوة والدفاع عنها، مع ما في هذا الإخبار الغيبي من إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من صدق التوكل على الله من الطموح المترفّع عن صغائر الحياة، ومع ما فيه مـن الإشارة إلى أن الأمم التي تعيش بعيداً عن حقيقة التوحيد والإيمان قد نخر السوس جذوعها، فهي دَوْحات منتشرة الأغصان، متـآكلة الجذور، لا تماسك لها بالأرض التي تقوم عليها.

فكان لابد من اجتثاث عوسج الشرك، وضريع الوثنية من أرض الإنسانية، وإلقاء بذور دوحات التوحيـد، والتحرر من ربقـة العبوديـة للمخلوقين.

وهذا المسلك السياسي الحكيم كان من قبيل المفاجأة لمشاعر عديّ ابن حاتم لتنبيه هذه المشاعر المتأرجحة في مداخل نفسه، ونفس كل زعيم من زعماء القبائل العربية التي تباطأت عن الدخول في هذا الدين، حباً في التعالي بين أقوامهم، واستدامة للثراء والجاه على حساب ما يتقاطر من عرق أولئك الأتباع وما يسفك من دمائهم في سبيل رغائب الزعماء، ليعيشوا في عنجهية الترف المهلك، ولقد كان الفقر هو سيما العرب قاطبة، يحيون في شظفه وقفاره، وبؤسه البئيس، فإذا عضّتهم المسغبة حتى أسلمتهم إلى المتربة سطا قويهم على ضعيفهم، وقادرهم على عاجزهم ليستلب منه ما في يده ليعيش دون أن يبالي بمن سواه، وهؤلاء الزعماء الذين يوجّهون الجماهير لطاعتهم تحقيقاً لشهواتهم المترفة قلة يعيش أقوامهم في ظل استبدادهم بهم عبيداً لما تقبض عليه أيديهم من فتات الحياة.

وكان عديّ بن حاتم من هذه القلّة التي عاشت في قومها عيشة الملوك المستبدين، وقد قرأ النبي ﷺ ما كان مسطوراً في صحيفة ضمير عديّ ممّا كان يكتمه في صدره، ويكنّه بين جوانحه من هلع وخوف أن يسلمه الإسلام إلى الفقر والشظف ويبس العيش، ومشقة السعي للحصول على الضروري منه، فبادره ﷺ بقوله ـ بعد أن نزع من قلبه حسك التعالي والاستكبار، وعيشه بين قومه ملكاً غير متوّج، وسيداً بالبأو والتنفّج مسوّداً تجبى إليه المرابع من غنائمهم التي يعرضون لأجلها رؤوسهم أن تتهاوى من فوق أعناقهم إرضاء لتلمُّظ شهوات زعامته: «ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم» وقد كان كذلك في نفس عديّ بن حاتم، لأن النقلة من حال الترف في مظاهر الملك المصطنع إلى حال الفقر المدقع الذي لا يكاد يجد فيه ما يسد الرمق أمرّ على النفس التي عاشت في قومها عيشة عديّ في ملكه المزور.

ثم تابع النبي ﷺ قوله بعد أن هزّ كل ذرة في كيان عديّ ليوقظه من أحلام الماضي إلى صدق الأمر المتوقّع في المستقبل القريب الذي سيشهده عدي، ويوغل في متعته حلالاً طيباً «والله ليوشكنّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه» وهذا تبشير لعدي خاصة ليسرع إلى رسوخ اليقين، وتبشير عام للمجتمع المسلم ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وإنذاراً للذين عمُوا عن أنوار الهداية ركوناً في ظلام الغرور، ليعلم الناس مؤمنهم ومشركهم أن الشدّة التي تغلّف حياة المجتمع المسلم إنما هي سحابة عرضت في أفق الابتلاء، ليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، وستنجاب عنه قريباً سُحُب العُسْرة، وتشرق في آفاقه شموس الثراء الطافح الفيّاض، فيكثر المال في أيديهم، ويعمُّ الأفراد والجماعات، وتخرج منه الصدقات وافرة غامرة فلا تجد لها آخذاً محتاجاً، ولا متكثراً لتوافر الكفاية وما فوقها.

ودخلت الطمأنينة إلى قلب عديّ بن حاتم ومعها دفء اليقين، وبرد الإيمان، وامتلأت مشاعر عدي بأنه سيجد وهو أحد أفراد المجتمع المسلم ما يعوضه عن ملكه الزائف، ومرابعه الممزوجة بدماء قومه في حياة إيمانية نظيفة طيبة، فطابت نفسه، واستحوذ عليه الرضا بالمستقبل والرضا بحياة يغمرها الإيمان ويزينها الإسلام.

ولم يقف سيدنا رسول الله ﷺ في مساءلته لعديّ بن حاتم عن الحوائل التي تحول بينه وبين الدخول في هذا الدين، ومحاورته له محاورة منتزعة الموضوع مما يجول في داخل نفس عدي عند هذا الذي هيأ عقل عديّ ووجدانه لتفهّم واقع الإسلام ومستقبله، ولكنه ـ وهو الحكيم الذي أعطاه الله قوة من الإشراق الروحاني تسامت بإشراقها فوق جميع قوى إشراق الروحانية العليا ـ رأى أن عدياً ما يزال يداخله مع نور الهداية شيء يشدّه إلى الإعظام الجاهلي للقوة المادية، والتهيّب لها في مواطنها من وثنيات الأمم عرباً أو غير عرب، وهذه القوى المستعظمة في نظره المتهيبة في ماضيه الموروث تتمثل في كثرة عدد الذين يناصبون هذا الدين بالعداوة والبغضاء، ويقفون من دعوته موقف المناهض المحارب، ولا سيما أن عدياً بحكم نصرانيته الملفّقة رأى في جموع الروم ببلاد الشام وما وراءها من أقطار

الاستعباد الروماني، وكأنهم صف يمتد حتى يبلغ روما عاصمة النصرانية المحرّفة، في جموع متكاثرة تكاثراً يسدّ عين الشمس، كما أن عدياً رأى جموع الفرس وحشودهم الضخمة وهم المنافسون للروم عدداً وعدّة.

وقد كانت الحرب بين الأمتين: الفرس والرومان سِجالاً، ولم يكن للعرب وجود ذو قيمة تتقى من أي أمة من الأمتين، بل كان الهلع والرعب من مجرد ذكر اسمي الأمتين: الروم والفرس يصمُّ آذانهم، ويُعمي أبصارهم، ويبكم ألسنتهم، فأراد النبي ﷺ أن لا يستبقي في مشاعر عدي بن حاتم شيئاً من هذا الإعظام الذي كسرت شوكته غزوة تبوك، والذي جعل قلب عدي كالأرجوحة، يهتز بين الخوف الهالع والرجاء الواجم، الخوف من هذه الكثرة الهائلة المعادية للإسلام ومجتمعه، والرجاء في قوة الإيمان التي اكتسحت الجزيرة العربية، وجاءت به بعد هربه مستسلماً إلى دوافع الهداية، فقال ﷺ له ليثبت الإيمان في قلبه حتى يرى الأمن والأمان يمدّان جناحيهما وينشران ظلالهما على جميع من تقلّه أرض الإسلام على اتساع أرجائها، وتظلّله سماء الإيمان على ترامي إطاراتها: «فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله» ومعنى هذا أنه ﷺ يخبر بأن ظلال الإسلام ستمتد، وتفتح الأقطار والبلاد، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، ويتعاظم عدد المسلمين كثرة، ويفوق عددهم عدد أعدائهم، وهم محصّنون بمكارم الأخلاق ونور الإيمان، فيشيع بينهم الأمن ونخوة الإيمان.

وقد ضرب النبي ﷺ المثل في الاستشعار بالأمن بالمرأة، لأنها المخلوق الإنساني مهيض الجناح، ضعيف المقاومة، المثير للمطامع في أنفس الذين كانوا يعيشون في الدعارة وإخافة الآمنين، حتى دخلوا في هذا الدين فأذابهم في بوتقته، وأحالهم إلى مُثُلٍ حيّة للهداية والنخوة الإيمانية، لا يخيفون أحداً ولا يعتدون على أحد، ولكنهم ينهضون لحماية الضعيف وإغاثة الملهوف، ونجدة المكروب، وإعلاء شأن المؤاخاة التكافلية بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته أينما كانوا من أرض الله.

تلك المـؤاخاة التي أقام على دعائمها رسول الله ﷺ صرح بناء هذا المجتمع، والتي أسس ﷺ على مبادئها أصول تربيته الاجتماعية التي ينبغي أن يعيش بها المجتمع المسلم في مستقبل حياته الرائدة لحياة الإنسانية.

وعلى ركائز هذا المنهج التربوي الاجتماعي ارتفع لواء المؤاخاة خفاقاً فوق قمم دنيا الإسلام، ومجتمعاته أينما كانوا، وكيفما كانوا في تفكيرهم ومعارفهم ما داموا في داخل سياج أصول الإسلام.

ومن ثَمّ يصبح كل رجل في هذا المجتمع المسلم أباً لكل طفل وطفلة، وأخاً لكل رجل وامرأة فيه، يذود عن ضعيفهم، ويحمي حوزتهم، ويغض عن محارمهم حتى يكون المجتمع المسلم أسرة واحدة على اتساع رقعة أوطانه وترامي أكنافه وأرجائه، يحس من كان في أقصى الأرض من أفراده وجماعاته بألم وشكوى من كان منهم في أطارفها الأخرى، ويشارك كل فرد من أفراده أو جماعة من جماعاته كل فرد أو جماعة نأت عنه بأوطانها فرحتهم، ولم تكن عينه قد اكتحلت بمرآه، ولكن وحدة الشعور والإحساس الوجداني كانت هي بريد الاتصال بينهم.

وإذ بلغ الإسلام هذا المستوى من البناء الاجتماعي في حياة معتنقيه ـ وهو هدفه الأصيل ـ من دعوته، وجماع معالم منهج رسالته التي أرساها النبي ﷺ، ثم خطا بها خطوات داخلية وخارجية، وضع بها ﷺ بها مجتمعه على أول نقطة في خط الحياة المستقبلة للمجتمع المسلم، وقد تابعه أصحابه الذين ربّاهم على عينه مدة عهد الشيخين: الصديق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما، حتى ضرب الشيطان ضربته التي مزق بها أديم المجتمع المسلم كل ممزق.

وفي لفحة هذا التفسّخ مضى المجتمع المسلم يقتل بعضه بعضاً في فتن جائحة أوقفت المدّ الإسلامي، ثم ردّته إلى الجاهلية الأولى، ووقف الشيطان وجنوده ومِنْ ورائهم أعداء هذا الدين وفي أيديهم معازف العصبيات القبلية والقومية والوطنية، يعزفون لهم عليها لحن تأريث العداوات الفاجرة والبغضاء الكافرة.

وليعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، حكاماً ومحكومين أن الذئاب لا تشبع من لحوم الحملان، ولن تترك الذئاب صيدها الشهي من لحوم هذه الحملان المسلمة ما دامت حظائر الحملان مهملة لا تحرسها كواسر جيوش الجهاد بزئيرها الذي يشقِّق مرائر الذئاب في أكبادها، ولا تجمعها كتائب الاستشهاد في سبيل العزة والكرامة.

ولن تشفع للحملان محالفات الصداقات، ومعاهدات المصالح المشتركة مع قطعان الذئاب الجائعة، ولن تجدي الحملان شيئاً في حمايتها والدفاع عنها الخطب الرنانة، ولا أحاديث الإذاعات الطنانة، ولا الأقلام المأجورة المسترزقة، ولا بيانات (التلفزة) المصورة، ولا احتفالات العبث المزوّرة على الدين، ولا التصريحات العاوية المكتوبة من دماء الحملان بمخالب الذئاب.

وليعلم المسلمون أن الزمن استطال بهم في تجارب التحضر المادي بعيداً عن هداية الإسلام الروحية والفكرية والعسكرية، وكانت حصيلة هذه التجارب التي لم يشهد الإسلام مؤتمراتها الخيبة والبوار، والذل والهوان وازدياد سوء الحال، ولم يبق للمسلمين من التجارب إلا تجربة العودة إلى دينهم وتاريخهم، وهداية دعوتهم إلى الله، عقيدة وتعبداً، وتفكيراً، ونظاماً اجتماعياً، وسلوكاً أخلاقياً، وأدباً تربوياً، وخوضاً في غمرات الموت في سبيل العزّة الإيمانية، فهذه العودة هي المنقذ لهم من الضلال الذي أُركسوا في مهاويه بالتقليد الأعمى والتبعية العشواء والجري وراء مظاهر الشهوات الفاجرة من خلف كثائف الستور، وجدران القصور، والله تعالى لا تخفى عليه خافية، وكيده متين، وإملاؤه فتون، وإمهاله استدراج، وأخذه قهر واقتدار.

وقد جاءت في قصة عدي بن حاتم، ومجيئه إلى رسول الله ومحاورته وإسلامه، بعد هربه من بلاده إلى الشام خوفاً من كتائب المجتمع المسلم المجاهدة التي يبتعثها رسول الله ﷺ إلى شراذم قبائل العرب وبطونهم يدعونهم إلى الإسلام ـ روايات أخرى مختلفة السياق والأحداث والأحاديث

بأسانيد مختلفة، ساق ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) كثيراً منها، بعد أن ساق رواية ابن إسحاق المتقدمة معلّقاً عليها بما يغمزها في إيرادها بغير إسناد، فقال: هكذا أورد ابن إسحاق رحمه الله هذا السياق بلا إسناد، ثم قال ابن كثير يسندها بعد غمزها: وله شواهد من وجوه أخر.

ونحن نسوق من هذه الروايات ما نرى فيه شيئاً من معالم منهج الرسالة الخالدة، وننبه على ذلك في تعليق يبرز ما لم تبرزه الروايات المتقدمة، مع ذكرنا بعض المخالفات بين الروايات.

روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى من طريق عبّاد بن حُبَيش، يحدِّث عن عدي بن حاتم قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ وأنا بعقرباء ـ وهي كورة من كور الشام ـ فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ، فصفّوا له قالت ـ أي عمة حاتم ـ يا رسول الله، بان الوافد وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمنّ عليّ منّ الله عليك، فقال ﷺ: «من وافدك» قالت: عدي بن حاتم: قال ﷺ: «الذي فرّ من الله ورسوله» قالت عمة عدي: فمنّ عليّ، فلما رجع ورجل إلى جنبه ـ ترى أنه عليّ رضي الله عنه ـ قال: سليه حُمْلاناً، فسألته فأمر لها.

قال عدي: فأتتني فقالت: لقد فعلت فعلةً ما كان أبوك يفعلها، ثم قالت إيته راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان فأصاب منه، قال عدي فأتيته، فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي ـ فذكر قربهم منه ـ فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر .

ثم قال ﷺ لعدي: «يا عدي بن حاتم ما أفرّك؟ أفرّك أن يقال لا إله إلا الله، فهل من إله إلا الله؟ ما أفرّك؟ أفرّك أن يقال الله أكبر؟ فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل؟».

قال عديّ: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالّين النصارى».

قال عدي: ثم سألوه ـ أي أصحابه ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد: فلكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل، ارتضخ امرؤ بصاع، ببعض صاع، بقبضة، ببعض قبضة» قال شعبة: وأكثر علمي أنه قال: بتمرة، بشقّ تمرة، «وإن أحدكم لاقي الله، فقائل ما أقول: ألم أجعلك سميعاً بصيراً؟ ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فماذا قدّمت؟ فينظر بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، فما يجد شيئاً، فما يتّقي النار إلا بوجهه، فاتّقوا النّار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة لينة، إني لا أخشى عليكم الفاقة، لينصرنّكم الله ـ أو ليفتحنّ عليكم ـ حتى تسير الظعينة بين الحيرة ويثرب، إن أكثر ما تخاف السرق على ظعينتها».

ثم قال ابن كثير: وقد رواه الترمذي من حديث شعبة، وعمرو بن أبي قيس كلاهما عن سماك، ثم قال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك.

هذه الرواية على إسهابها جيِّدة السياق، وقد اشتملت على أمور مفيدة لم تذكر في غيرها من روايات قصة عديّ بن حاتم، كما اشتملت على بعض المخالفات للروايات السابقة، فذكرت ما لم تذكره تلك الروايات، وأظهر هذه المخالفات أن هذه الرواية هي التي انفردت ـ في نظرنا بعد البحث بقدر المستطاع ـ بأن السبيّة من آل عديّ بن حاتم هي عمته، لا أخته، ولم تسمَّ واحدة منهما في هذا الحديث ولا في غيره، فهي رواية شاذّة أو محرّفة مغلوطة، والذي جاء عن السهيلي في حكاية ذكرها في الروض، واستنبط منها أن أخت عديّ التي ذكرتها روايات الجمهور على أنها هي السبيّة التي تعرّضت لرسول الله ﷺ تطلب منه أن يمنّ عليها، لم يكن نصاً في حديث من أحاديث قصة عديّ بن حاتم، وإنما كان استنباطاً من حكاية أدبية في سخاء حاتم، وما بلغ إليه جاءت على لسان امرأته.

ومن هذه المخالفات التي تضمنتها هذه الرواية بالنظر إلى الروايات الأخرى ما أجرى على لسانها في لومه وتعنيفه حينما وصلت إليه في أرض الشأم بما يناسب أنها عمته، ثم ترغيبها له في القدوم على رسول الله ﷺ بما وصفته من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فهو ﷺ لا يخيِّب من قدم عليه،

وذكرت له أن ناساً من أشراف العرب قدموا عليه فأصابوا من نواله.

ومن هذه المخالفات أن سائر روايات الجمهور ذكرت أن بَدْء لقاء عديّ لرسول الله ﷺ كان بالمسجد، وأنه سأله: «من الرجل؟»، فذكر عديّ اسمه ونسبه إلى أبيه، فبادر رسول الله ﷺ بالقيام والسير به إلى بيته، ولكن هذه الرواية انفردت بأن عدياً لما بلغ المدينة المنورة لم يدخل المسجد، ولكنه صوّب إلى حيث كان رسول الله ﷺ في بيت ابنته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، قال عديّ: فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي، فذكر ﷺ قربهم منه، ومن الراجح الذي لا يبعد عن اليقين أن المرأة وصبييها أو صبيها إنما هي بنته ﷺ فاطمة الزهراء وابنيها: الحسن، والحسين، أو أحدهما.

قال عديّ بعد أن رأى هذا المظهر الإنساني النبيل في مجلس سيد الخلق مع ابنته وصبييها في غير تكلف مع التواضع والمحبة، مما لا يخلو عن شيء من الدعابة الرفيعة التي كانت من سماته ﷺ مع أهله وأسرته.

وهنا يعترف بأن ما رآه من حاله ﷺ في سمو أخلاقه، ولطف معشره لم يكن فيه من مظاهر الملك وعجرفة المالكين، وضرب عديّ المثل بما رأى في ملك قيصر وكسرى من العنجهية والاستكبار في الأرض.

ومن هذه المخالفات بين هذه الرواية وروايات الجمهور اختلاف أسلوب المساءلة والمحاورة التي وقعت من النبي ﷺ مع عديّ في سبب فراره، ليفتح مغاليق قلبه للإيمان، مع الإيجاز النبوي المعجز في هذه الرواية، والإسهاب وتخالف المعاني والحقائق التي دارت حولها المساءلات والمحاورة، وهذا اختلاف أساسي، ولذلك انتهت هذه المساءلات بإسلام عديّ واستبشار النبي ﷺ بإسلامه وهدايته، وأفهمه بأن الله تعالى أنجاه من ملّة قوم أصابهم غضب الله وسخطه، كما أنجاه من ملّة الضُّلّال، فقال ﷺ يفسر ما ختمت به فاتحة الكتاب بما هو كالنموذج للمعنى، فكل من عرف الحق وتباعد عنه وناوأه فهو مغضب لله تعالى، وأظهر مثل لذلك هم اليهود، وكل من أقيمت له منائر الهداية فانحرف عنها إلى متاهات الضلال فهو ضال حيران لا يعرف الحق من الباطل، وأوضح مثل لذلك هم النصارى.

من فرائد الكلم النبوي في تربية ملكات المكارم

قال عديّ: ثم سألوه ـ أي أصحابه رضوان الله عليهم ـ عن أشياء من أمور الدين والقُرَب في صدقات المال وغيرها ليرشدوا في حياتهم، ويرضوا ربهم، فحمد ﷺ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فلكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل ـ والارتضاخ هو العطاء المقارب الذي لا يستكثر فيه إكثار القادرين، ولا يستقل فيه إقلال الذين لا يجدون إلا جهدهم ـ وهذا لون من التربية الاجتماعية المتواسية المترافقة يوجه به النبي ﷺ مجتمعه إلى روح التعاطف والتراحم، فلا يَحْقِر أحد إنفاق ما يستطيع مهما قلّ، وفي سنة النبي ﷺ أمثلة ونماذج من ذلك نرجو أن نعرض لها عند الحديث عن الشمائل النبوية.

وقد بيّن ذلك صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ليري عدياً أن تربية الإسلام الاجتماعية لا تقوم على التكاثر والتظاهر، وإنما تقوم بعد الإيمان على المؤاخاة التكافلية، فالمؤمن أخو المؤمن، يواسيه ويرتفق كل منهما بما عند الآخر، فقال ﷺ: «ارتضخ امرؤ بصاع، ببعض صاع، بقبضة، ببعض قبضة، بتمرة أو بشق تمرة، أو بكلمة لينة» تقع من قلب المؤمن موقع قطر الغيث من الصَّدْيان.

ثم ذكر ﷺ أن جميع ما أوتيه الإنسان من نعم الله وفضله مسؤول عنه يوم يلقى الله، فيسأله مقرراً له بما أفاض عليه من إحسانه، وخصَّ السمع والبصر بالذكر لأنهما منفذ الإدراك الفكري الذي تنقل إليه مظاهر الجلال الإلٰهي في الكون عن طريقهما، فهما رسولا العقل، الذي يحوّل إدراك المحسوس بهما إلى معرفة بالله تعالى ليستقر في قلب المؤمن أن المعرفة التقليدية هباء منثور، لا وزن لها في قيم الإيمان.

ثم ذكر ﷺ نعمتي المال والولد لأنهما زينة الحياة الدنيا، فعن طريقهما يتذوّق المرء حلاوة الحياة فيحسن كما أحسن الله إليه، فإذا بطر بنعمة الله في السمع والبصر والمال والولد فقد أذهب طيباته في هذه الحياة الفانية، وقدم على ربه مفلساً من الإيمان والعمل، وقد طولب بالجواب عما قدّم في حياته

من شكر هذه النعم، فينظر في ذهول وحَيْرة أمامه فلا يجد شيئاً قدّمه، وينظر من خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وسائر أقطاره وجوانبه علّه يجد شيئاً قدمه، ـ فلا يجد شيئاً يتّقي به لفح النار إلا وجهه.

ثم أبان ﷺ عـن رحمة الله في أشد ما يلقى المرء من مآزق الاحتياج فقال: «فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة لينة» ومعنى هذا أن المؤمن ينبغي له أن يقيم حياته العملية على ملكات المكارم، يتعاهد بها نفسه ويربِّيها على التزوُّد منها حتى تكون طبيعة من طباعه، يأتيها الإنسان دون تكلّف أو شعور بالمضض.

والتدرج في تربية ملكات الخير من أنجع وأيسر طرائق غرس الخير في النفوس، فإعطاء القليل بعد القليل يغري بالكثير، وتكرار العمل في سبل الخير ينضجه وييسِّره على النفس الإنسانية.

ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الله تعالى أنه يجزي على القليل كثيراً، ويجعل من هذه القليل جُنّة من عذاب الله وسخطه، والقرآن الكريم جعل مثقال الذرّة مقياس الخير والشر في ميزان العدل الإلٓهي.

ثم التفت ﷺ إلى صاحبه عدي بن حاتم وجوّ إسلامه فأراد أن يثبته، ويرسخ اليقين في قلبه بالنسبة لمستقبل المجتمع المسلم وما سيلقى من أمور الدنيا وخيراتها، وما سينال من نصر وعطاء من فضل الله، وفتح البلاد والممالك لهداية الإسلام، وأمن واستقرار، وحرية واطمئنان، تأكيداً لما مضى في محاوراته مع عدي، وضرب المثل له بالمرأة تخرج على رحَلْها وحيدة، لا تخاف أحداً إلّا الله تعالى، لا يخشى عليها إلا عبث السرق على ظعينتها، وأمثال ذلك من صغائر الأمور التي لا تخلص منها الحياة.

ومن روايات قصة عدي وقدومه على رسول الله ﷺ وإسلامه وما جرى له من أحداث ما خرّجه الإمام أحمد ـ أيضاً ـ من حديث محمد ابن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة، عن رجل، عن رجل، ومن طريق حماد، وهشام عن محمد بن أبي عبيدة، ولم يذكر عن رجل، فذهبت عن الحديث الجهالة في هذه الرواية، وحماد هو ابن زيد، وهشام بن عروة وهما ممن اتفق على توثيقهما.

قال الرجل الذي روى عنه أبو عبيدة بن حذيفة ولم يسمِّه، أو محمد ابن أبي عبيدة بن حذيفة: قلت لعدي بن حاتم: حديث بلغني عنك، أحب أن أسمعه منك، قال: نعم، لمّا بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة، فخرجت حتى وقعت ناحية الروم ـ وفي رواية: حتى قدمت على قيصر ـ فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه.

قال عدي: قلت: لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرني، وإن كان صادقاً علمت، فقدمت فأتيته، فلما قدمت قال الناس: عدي بن حاتم!! فدخلت على رسول الله ﷺ، فقال لي: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم» قالها ثلاثاً، قال عديّ: إني على دين، قال ﷺ «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال «نعم، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت بلى، قال: «هذا لا يحل لك في دينك» قلت: نعم، فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها.

ثم قال ﷺ: «أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام، تقول اتّبعه ضَعَفة الناس، ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قال عدي: لم أرها، وقد سمعت بها، قال ﷺ: «فوالذي نفسي بيده ليتمَنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتَحَنَّ كنوز كسرى بن هرمز» قال عدي: قلت: كسرى ابن هرمز؟! قال صلوات الله عليه: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى، والذي نفسي بيده لتكوننّ الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

في هذه الرواية لطيفة أسلوبية تميزها عن سائر الروايات، وفيها الحجّة لرواية الحديث بالمعنى، وأن الأسلوب قد يختلف في التعبير عن المعنى الواحد، فيكون أحد التعبيرين أحلى مذاقاً من صاحبه.

فالروايات السابقة تقول على لسان عدي بن حاتم ـ وشاهدها رواية

ابن إسحاق أنه قال: ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، وتقول الرواية: فلما سمعت برسول الله ﷺ - كرهته ولا ريب أن التعبير بكراهة خروجه ﷺ ألطف من التعبير بكراهته، لأن ما كان يتحلّى به من رفيع الشمائل خَلْقاً وخُلُقاً لا يمكن أن يتعلق بها كراهة لشخصه ﷺ، وإنما الكراهة كانت لما جاء به من رسالة الهُدَى التي كان هدفها الأعظم هو القضاء على الشرك والوثنية والظلم والطغيان المستكبر، وتثبيت عقيدة التوحيد، وإقامة موازين العدل والإخاء والمحبة، نحن لا ندافع عن جاهلية عدي بن حاتم التي لا تبالي بجفوة الأسلوب.

وفي هذه الرواية من المخالفة أن عدياً قال: فخرجت حتى وقعت ناحية الروم، أو حتى قدمت على قيصر، فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه ﷺ، لأن عدياً شعر بأن ما كان فيه من مكانة بين قومه لم يبق له وجود أمام صلف قيصر واستكباره.

قال عدي: فلما قدمت على رسول الله ﷺ رآني أصحابه قبل أن أراه وأجلس إليه في مجلسه، فقال الناس: عدي بن حاتم، فرحاً بقدومه لمكانته في جاهليته، وهذا نوع من لفت النظر مفاخراً بأنه معروف المكانة.

قال عدي ثم دخلت على رسول الله ﷺ، وجلست في مجلس مع أصحابه الذين أخذوا بمجالسهم أكنافه وحفُّوا به في إعظام وتوقير وحب، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال له: «يا عديُّ بن حاتم، أسلم تسلم» قالها ثلاثاً تبليغاً ودعوة إلى الإسلام.

وهنا تتسع دائرة المخالفة بين هذه الرواية وغيرها من الروايات، لأن في بعضها أن رسول الله ﷺ لما رآه على زيِّه وسمته بادره بقوله «من الرجل؟» فانتسب له عدي وذكر اسمه واسم أبيه، فقام رسول الله ﷺ وانطلق به إلى بيته ليخصّه بإكرامه تألفاً لقلبه على الإسلام، وبينا رسول الله ﷺ في طريقه إلى بيته يتبعه عدي رأى عدي من شمائل رسول الله ﷺ ورفيع أخلاقه ومحاسن شِيَمه وتواضعه ما رأى في وقفته مع امرأة ضعيفة كبيرة، بلغت من علو السن ما كشف عن ضعفها، استوقفته طويلاً تحدثه في شأنها.

وهنا اهتز قلب عدي وعرف أن هذه الخصلة النبيلة من التواضع والصبر الجميل، والحلم الكريم ليست من ملك كسرى، ولا قيصر في شيء، ولكنها سجية لا يملكها إلا الذين لا يبالون بمظاهر الدنيا وزينتها.

ولا شك أن هذا كله مباين لما جاء في هذه الرواية، وزاد في استفتاح قلب عدي للهداية أن النبي ﷺ لما دخل في بيته ومعه عدي ألقى إليه وسادة تكريماً له، وقال له: «اجلس على هذه» فمنع الأدب عدياً أن يجلس عليها توقيراً لرسول الله ﷺ، وقال: بل أنت اجلس عليها، وعزم النبي ﷺ الأمر وقال: «بل أنت»، فجلس عدي على الوسادة إطاعة لرسول الله ﷺ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. وهذا أيضاً زاد في اهتزاز قلب عدي وجعله يحدث نفسه بقوله: والله ما هذا بأمر ملك، ثم أخذ النبي ﷺ في محاورة عدي ليزيح عنه رهام ظلام الجاهلية الذي تبقّى في نفسه.

وبدأ رسول الله ﷺ محاورته الحكيمة المحكمة بتخليصه مما عسى أن يكون خبيئاً في مشاعره ليطهِّره من أدران الجاهلية عامة وجاهليته في ملكه الزائف، وما كان يصنعه بقومه من المظالم، وما كان يصنعه به قومه من التعبد لسلطانه، ويستنبت في أرض قلبه وعقله ومشاعره رياض الإيمان التي لا تنبت إلا في أرض طهور، فأراه أنه على نِحلة ملفَّقة من النصرانية والصابئة المجوسية، وأنه يمشي في قومه بظلم لا تجيزه نحلته الزائفة، وهذا إخبار مُعْجِز لم يسَعْ عدياً أن يصبر على فضحه، فاعترف به وعرف يقيناً أن محمداً ﷺ نبي مرسل يخبر بالغيب فيخبر به، فإذا هو في صدقه كفلق الصبح ضياء ووضوحاً، فقال مقراً بصدق ما أخبر به رسول الله ﷺ: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل.

ثم أراه ﷺ ما كان يكنُّه في نفسه من موانع تحجزه عن الدخول في الإسلام حتى انتهى به الأمر إلى ما لم يكن له منه بدّ، فأسلم، وكان يتحدث بأخبار النبي ﷺ، ويقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكوننّ، وفي رواية: لأن رسول الله ﷺ قد قالها، وهذا دليل على رسوخ إيمانه بصدق رسول الله ﷺ فيما يحدّث به ويخبر عنه.

ولنزمّ زمام القلم، ونكتفي بهذا التحقيق القليل عما يدور في النفس من الكثير، وما ذكرنا من البحث في موازنة الروايات فيه غناء لمن يريد.

* * *

وإلى هنا ـ أيضاً ـ نقف عن الاسترسال في عرض قصص الوفود، وما كان فيها من أحداث، وما وردت به في شأنها الأحاديث والآثار، فالقليل يدلُّ على الكثير، وسيجد قارىء الكتاب كثيراً من الوفود وأخبارها وقصصها وأحداثها وأحاديثها وآثارها والتعليق عليها فيما قدمنا عند مناسباتها مبسوطاً مفصلاً.

تم بعونه تعالى الجزء الرابع
من كتاب محمد رسول الله
وبه ينتهي الكتاب
والحمد لله الذي بنعمته
تتم الصالحات

خاتمة
ولمحة عن حياة المؤلف
رحمه الله

وبعد:

إلى هنا ويقف القلم عن متابعة الكتابة فيما بقي من السيرة الشريفة، ـ وما بقي إلا القليل ـ لقد أوقف القدر الإلهي الذي لا يُرد قلم المؤلف عن المضي في الكتابة، واستأثرت رحمه الله بشيخنا ولمّا يتح له أن يكتب في: حجة الوداع، ووفاة الرسول، وعن اليهود في السيرة، وكان ينوي تأخير الحديث عنهم ويجمعه في فصل واحد في نهايتها. وإن كان قد جرى ذكرهم في مواضع شتى من الكتاب.

ولكن عزاءنا وعزاء القراء أن المؤلف أتيح له أن يكتب في القسم الأعظم من سيرة سيد المرسلين ﷺ، فقد كتب وأفاض الكتابة في معالم السيرة الكبرى، وفي أبرز وقائعها وأشهر أيامها، وفصَّل فيما كتب تفصيلاً لا مزيد عليه، ونفذ إلى أعماق الأحداث فبيَّن معانيها وأسرارها، وربط كل ذلك بواقع حياة المسلمين، وترك أمامهم المجال كي ينتفعوا بما في سيرة رسولهم ﷺ.

لقد كان للمؤلف ـ رحمه الله ـ جولات واسعة وعميقة وذات شأن خطير في

السيرة والتاريخ الإسلامي، وفتح فتحاً جديداً للدارسين من بعده في هذا المجال الهام من علوم الإسلام وثقافته، وأرسى معالم مدرسة جديدة لفهم السيرة ولكتابتها سوف ينتفع بها أجيال من الباحثين والمؤلفين وإلى زمن بعيد إن شاء الله.

* * *

لست الآن في مجال الثناء على هذا الكتاب، وأترك الحكم عليه للعلماء والنقاد والقراء، لكنها نفثة قلم محب ومنصف إن شاء الله، وتوضيح للقارىء الكريم الذي قد يتساءل ويقول: وأين تتمة الكتاب؟

لمحة عن حياة المؤلف

هذا ملخص لحياة فضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون مؤلف كتاب «محمد رسول الله ﷺ» قصد به بيان علمه وفضله رحمه الله راجين من الله عزّ وجلّ أن ينفع بعلمه المسلمين وأن يجزيه عن علمه النافع خير الجزاء.

ولد مؤلف هذا الكتاب في عام ١٩٠٣ الميلادي، وتخرج في الأزهر على نظامه القديم قبل إحداث نظام الكليات، ونال شهادة العالمية النظامية في سنة ١٩٢٩. ثم التحق بقسم التخصص ونال شهادته في عام ١٩٣٥، وعين مدرّساً بمعاهد الأزهر الشريف، ثم نقل إلى كلياته حيث عمل مدرّساً بكلية اللغة العربية ثم كلية أصول الدين.

ثم عُيِّن فضيلته شيخاً لمعهد دسوق الديني، واهتم هناك بنشر مراكز تحفيظ القرآن الكريم، ثم انتقل شيخاً لمعهد أسيوط الديني من عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٤، ثم شيخاً لعلماء الإسكندرية وعميداً لمعهدها لمدة عشر سنوات.

وفي عهده بالإسكندرية برز نشاط المعهد الديني في المحاضرات الثقافية والندوات الدينية، وكان للمعهد دور ريادي في نشر الفكر الديني بالاشتراك مع الهيئات المهتمة بالنشاط الإسلامي في الإسكندرية، مثل جمعية الشبان المسلمين، وكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

وقد اشترك ـ وهو شيخ لمعهد الإسكندرية ـ في مهرجان الغزالي الذي أقيم في دمشق ببحث عنوانه «مفتاح شخصية الغزالي: هل شك حجة الإسلام؟» وقد طبع هذا البحث مستقلاً وضمن مجموعة بحوث المهرجان. وقد عرف فضيلته بغَيْرته على القرآن والإسلام، ولجأ إليه الغيورون على القرآن من أساتذة جامعة الإسكندرية للرد على رسالة في قراءات القرآن، وكانت الرسالة قد أجيزت وحصلت على الماجستير بتقدير جيد جداً، ثم ألغيت نتيجتها لما بيّنه المؤلف من انحرافها.

ثم تقلّد فضيلته عدداً من المناصب الإدارية بالمعاهد الأزهرية، فعمل مديراً للتعليم الابتدائي، ثم وكيلاً للتعليم الأزهري، وقد تميز نشاطه في تلك الفترة بالعمل على نشر مدارس تحفيظ القرآن الكريم في مصر والعالم الإسلامي، وكان من ثمار تلك الفترة المساهمة في تطوير التعليم الديني باليمن على نمط التعليم الأزهري في مصر.

وقد انتقل فضيلته بعد ذلك إلى جامعة الأزهر عميداً لكلية أصول الدين، وقد اهتم فيها بدفع النشاط العلمي وأبحاث الدراسات العليا، وكان آخر منصب تولاه في مصر، فقد تولى بعد ذلك عدة مناصب في دول إسلامية ساهم بها في دفع الدعوة الإسلامية. فقد تولى منصب مدير معهد الدراسات العليا للدعوة الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية، ثم عمل أستاذاً بالجامعات الإسلامية في الكويت والمدينة المنورة.

وقبل الدعوة للعمل أستاذاً زائراً بجامعة بني غازي، وألقى في كليات الجامعة عدة محاضرات في الفقه الإسلامي وسعة أفقه ومرونة أصوله وفي الاجتهاد والتقليد. وكان آخر منصب تولاه هو أستاذ الدراسنت العليا للحديث بجامعة الملك عبد العزيز[1] بمكة المكرمة، وقد تقاعد من هذا المنصب وتفرغ بالقاهرة لإتمام كتابه الذي بيد القارىء، وتوفي رحمه الله في ٩ نوفمبر (تشرين ثاني) من سنة ١٩٨٠ الميلادية.

---

(١) اسمها الآن «جامعة أم القرى».

وكان رحمه الله من أشدِّ المدافعين عن نظام الأزهر القديم، ومن المعارضين لما عُرف «بتطوير الأزهر»، فقد كان يرى أن أساس فعالية الأزهر هي احتفاظه باستقلاله العلمي وبنظامه العتيد الذي أخرج للعالم الإسلامي على مر التاريخ أجيالاً من حراس القرآن والسنّة ولغتهما العربية من العلماء الأزهريين.

كما كان رحمه الله مهتماً بقضايا العالم الإسلامي وزار عدداً كبيراً من دوله، كما اشترك في عدد من الوفود المهتمة بقضاياه، وحَمّلته زياراته إلى أندونيسيا التي طاف بأنحائها متعرفاً دارساً محاضراً باحثاً، واجتمع بكثير من علمائها، كما زار معظم دول العالم العربي.

وله رحمه الله أجيال من التلاميذ المنتشرين في أنحاء العالم الإسلامي من الذين تربّوا وتعلموا عليه، وشربوا منه حب الله وحب رسوله وحب العلم، وطريقته المحققة المدققة المستقلة عن طرق المستشرقين وغيرهم، والقاصدة لوجه الله ولروح البحث العلمي الدقيق المنضبط. وكانت العلاقة بينه وبين تلاميذه على مثال علاقات علماء السلف الصالح بمشايخهم وتلاميذهم، وكان إلى ذلك معروفاً بشدته على تلاميذه في جهدهم العلمي، وأنه كان لا يرضى إلاّ بالإتقان والعمل المستوفي لجوانب الجودة، وهو منهاج مشايخ الأزهر وعلمائه من الجيل القديم.

حياته العلمية ومؤلفاته:

بدأ المؤلف حياته العلمية وهو لا يزال طالباً في القسم العالي للأزهر، فعمل مصحّحاً ثم محرّراً في مجلة الأزهر ثم في جريدة الأهرام، وله فيهما وغيرهما عديد من المقالات والبحوث المتنوعة.

وقد تتلمذ على كبار أساتذة الأزهر الأجلاء، ولعله تأثر بهم في ما اشتهر به من اعتداد بالعلم واعتزاز بالنفس، كما تعلّم منهم أصالة البحث ودقة المنهج، وكان أبرز أساتذته الذين تأثر بهم مباشرة المرحوم الشيخ الخضر حسين والشيخ الجبالي.

وكان يقرض الشعر وله قصائد منشورة، كما كان مشاركاً في الحياة الأدبية في مصر فكان له مساجلات أدبية، منها: بيني وبين الأستاذ محمد فريد وجدي (الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام) وقد طبع في كتاب في وقته.

ولكن جهده العلمي وإسهامه الفكري برزا في مجال تحقيق التاريخ الإسلامي، فكان له في ذلك عدة مؤلفات هامة، من أبرزها كتاب عثمان ابن عفان الذي قوبل بحفاوة ظاهرة في المحافل العلمية، وطبع عدة طبعات، ولا يزال يعتبر من المراجع الأساسية الأصيلة في موضوعه كما يشهد بذلك الإشارة إليه والأخذ عنه في كتب عديدة، نذكر منها تحقيق كتاب العواصم من القواصم للأستاذ محب الدين الخطيب، وكتاب أضواء على التاريخ الإسلامي للأستاذ فتحي عثمان، وكتاب الفتنة الكبرى للأستاذ طه حسين.

ثم كان له كتابه القيم خالد بن الوليد والذي اعتبره الباحثون من أفضل ما كتب عن خالد. وقد علّق على هذين الكتابين وقيمها الناقدون المعروفون في المجلات والجرائد الثقافية المعروفة في وقت صدور الكتابين مثل مجلة الرسالة، وكان من أبرز من نقد كتابيه وعلّق عليهما الدكتورة بنت الشاطىء، والمرحوم الأستاذ سيد قطب، وهو الذي كتب له أيضاً مقدمة كتاب خالد ابن الوليد.

وفي هذين الكتابين أرسى دعائم منهجه الخاص في تحقيق التاريخ الإسلامي، والذي يصفه في كتاب «محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته» قائلاً:

«وعمود البحث في منهجنا هو ما أصلّنا في كتبنا ومؤلفاتنا ولا سيما التاريخية منها، أننا نقرأ ونقرأ حتى نظن أننا استوعبنا أو قاربنا، ثم نفحص ونمحص ونوازن وننقد، ونعتمد ما تثبت لدينا صحته سنداً ويدخل في وصيد القبول متناً وأصلاً، ولم يعارضه من منخول العقل والعلم ما يعلو عليه، مع إيماننا بأن للعقل حدّاً يقف عنده، ولقضايا العلم موضوعات تنتهي عندها، وهما محجوبان عن عالم الغيب، مقصران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة».

ثم كان للمؤلف بعد ذلك سلسلة من المؤلفات والرسائل نذكر من أهمها كتاب «حجة الإسلام الغزالي: المفكر الثائر»، وكتابي «القرآن العظيم: هـدايته وإعجـازه في أقوال المفسـرين، و«التصوف في الإسـلام: منابعـه وأطواره».

ثم صدر له كتاب ضخم هو «الموسوعة في سماحة الإسلام»، وقد نشأت فكرته عن بحث طلبته الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بـالأزهر من المؤلف يدور موضوعه حول سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين. ولكن المؤلف عندما نظر في موضوع البحث نظرة أولية وجده واسع المدى، لا تكفي في الإحاطة بأطرافه رسالة صغيرة، وبعد حوالي اثني عشر عاماً من بدء الاتصال حول ذلك الموضوع أراد الله لفكرة ذلك البحث الصغير أن تظهر في كتاب «الموسوعة في سماحة الإسلام» وهو كتاب كبير الحجم من جزءين طبعته دار سجل العرب.

لكن روح المؤلف كانت تهفو به دائماً ـ كما يُستشف من كتبه الأولى بالحب والشوق إلى الكتابة عن سيد الوجود محمد ﷺ، ولم تتح له فرصة البدء في هذا العمل الكبير إلّا بعد أن ترك العمل الإداري وتفرغ تمـاماً للبحث والكتابة في هذا الموضوع العظيم، فبدأ بكتاب صغير نسبياً هو كتاب «محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته»، وانتهى منه في رمضان عام ١٣٩١هـ. ومنذ ذلك الحين تفرغ تماماً لمدة عشر سنوات حتى وفاته رحمه الله في أول أيام القرن الخامس عشر الهجري ليتم هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء. وقد كان معظم العمل في هذا الكتاب بين مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث كان رحمه الله يعمل أستاذاً بجامعة الملك عبد العزيز، وكان عبء التدريس وطبيعته البحثية مما يتيح له إعطاء الكثير من الوقت لهذا العمل الذي ارتبطت به حياته.

وله رحمه الله كتب أخرى لم تطبع ومن أهمها كتاب «نفحات الإنعام في تفسير سورة الأنعام».

كما كان له حلقات تليفزيونية لفترة طويلة تناولت تفسير

سور: التوبة والروم ولقمان والسجدة.

أما المطبوع من مؤلفاته فقد أوردناه في القائمة المرفقة.

رحم الله المؤلف وجزاه خيراً عن علمه وعمله في خدمة الإسلام والمسلمين.

د. محمد بهي الدين صادق عرجون

آثار المؤلف

١ ـ كتاب خالد بن الوليد، طبع عدة مرات.
٢ ـ كتاب عثمان بن عفان، طبع عدة مرات.
٣ ـ كتاب حجة الإسلام الغزالي المفكر الثائر نفدت طبعته الأولى.
٤ ـ القرآن العظيم ـ هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين.
٥ ـ التصوف في الإسلام (منابعه وأطواره).
٦ ـ الموسوعة في سماحة الإسلام.
٧ ـ محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته.
٨ ـ حرية الفكر في الإسلام.
٩ ـ الأدب بين القديم والحديث.
١٠ ـ عظمة محمد ﷺ في رسالته.
١١ ـ الدين منبع الإصلاح الاجتماعي.
١٢ ـ من رياض القرآن.
١٣ ـ موقف الإسلام من المخترعات الحديثة.
١٤ ـ بيني وبين الأستاذ محمد فريد وجدي (الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام).
١٥ ـ رد مزاعم رسالة في قراءات القرآن.
١٦ ـ سنن الله في المجتمع من خلال القرآن.
١٧ ـ الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن.
١٨ ـ نحو منهج في تفسير القرآن.

أما ما لم يطبع فهو:

١ ـ نفحات الإنعام في تفسير سورة الأنعام.

٢ ـ تفسير سور: التوبة والروم ولقمان والسجدة. حلقات تليفزيونية.

٣ ـ النقد الأدبي عند العرب.